قصص الرحمن

في

ظلال القرآن

أحمد فائز الحمصي

مؤسسة الرسالة

قصص الرحمن

في

ظلال القرآن

الطَّبعَة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع
مؤسَّسَة الرِّسَالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

قصص الرحمن
في
ظلال القرآن

أحمد فائز الحمصي

الجزء الأول

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك على خاتم أنبيائك الذي أرسلته رحمةً للعالمين. اللَّهمَّ ابعثه المقام المحمود الذي وعدته يا أرحم الراحمين، وبعد:

إن تاريخ الإنسانية ليس هو الحوادث التي جرت عَبْر الزمان الذي عبَر، إنَّما هو تفسير هذه الحوادث، والاهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان.

ولكي يفهم الإنسان الحادثة ويُفسّرها، ويربطها بما قَبلها وما تلاها، ينبغي أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقوّمات النفس البشرية جميعها: روحية وفكرية وحيوية، ومقوّمات الحياة البشرية جميعها: معنوية ومادية. وأن يفتح روحه وفكره وحسّه للحادثة، ويستجيب لوقوعها فى مداركه، ولا يرفض شيئاً من استجاباته لها إلاَّ بعد تَحرُّج وتمحيص ونقد.

فأمّا إذا تَلَقَّاها بادىء ذي بدء وهو مُعَطِّل الروح أو الفكر أو الحسّ ـ عن عمد أو غير عمد ـ فإن هذا التعطيل المُتَعَمَّدأو غير المُتَعَمَّد، يَحرمه استجابة مُعينة للحادثة التاريخية: أي أنَّه يحرمه عنصراً من عناصر إدراكها وفهمها على الوجه الكامل. ومن ثم يجعل تفسيره لها مُخطئاً يُجانب الحقيقة أو ناقصاً مشوّهاً.

هذه الاستجابة الناقصة المشوّهة هي أول ظاهرة تتسم بها البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية؛ ذلك أن هناك عنصراً ينقص الطبيعة الغربية ـ بصفة عامة ـ لإدراك الحياة الإسلامية.. **هو عنصر الروحية الغيبية** ـ وبخاصة في العصور الحديثة بعد غَلَبة النظريات المادية، والطريقة التجريبية ـ على وَجْه أخص ـ، وكلما كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بقصص القرآن، وسلوك الأنبياء والأولياء، وحياة الفترة الأولى من قيام الإسلام وبعثةِ محمد ﷺ، كان نَقْص الاستجابة أكبر في العقلية الغربية الحديثة التي انتشرت في مناهج التربية والفكر والثقافة في ديار الإسلام.

إن الإنسان الذي يَدرس قصص الرَّحمن، وسلوك الأنبياء والأولياء، والتاريخ الإسلامي، الذي يبدأ منذ خَلَق الله آدم عليه السلام كما أنزله الله في القرآن، يجب عليه أن يعيش بعقله وروحه وحسّه في جوّ الإسلام كعقيدة وفكرة ونظام. وفي جو الحياة الإسلامية كقطعة من حياة البشرية الواقعية. وهذه الحياة في هذا الجو ضرورية جداً لِتَفْتَح نوافذ إدراكه جميعاً، لا لِفَهْم تلك الحياة فحسب، بل لإدراكها ككائن حي، وإدراك مواقع الحوادث والوقائع في جسم هذا الكائن الحي.

وإنَّه ليعزّ على الباحث في أي فترة من حياة الإنسانية أن يُدركها إدراكاً حقيقياً وداخلياً، إلاّ أن يتجاوب معها بكل ذاتيته، وأن يعيش في جَوّها بكامل مُؤثّراتها وإيحاءاتها، فليست هذه خصيصة قاصرة على الحياة الإسلامية، وإن كانت أكثر وضوحاً بالقياس إلى الحياة الإسلامية، لأنَّ

مقوّمات هذه الحياة تختلف في كثير من أنواعها وماهياتها عن مقوّمات الفترة الحاضرة وبخاصة في ثقافة وفكر وسلوك العالم الغربي الذي امتدت حضارته على سائر أنحاء العالم. وإنَّه ليصعب أن نتصور إمكان دراسة التاريخ الإسلامي والحياة الإسلامية كاملة دون إدراك كامل لِروح العقيدة الإسلامية، ولطبيعة فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان، ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة، وطريقته في الاستجابة للحياة كلها في ظل تلك العقيدة.

إنَّه لا بد من إدراك البواعث الحقيقية لتصرفات الناس في خلال هذه الحياة التاريخية الإسلامية وعلاقة هذه البواعث بالحوادث، والتطورات، ولا بد من رَبْط هذا كله بطبيعة الفكرة الإسلامية وما فيها من روح لا في شكلها الخارجي وخطواتها العملية فحسب ـ ولكن في تفسيرها للعلاقات الكونية، والعلاقات الإنسانية، والعلاقات الإجتماعية. وفي تصويرها لنظام الحكم وسياسة المال وطرق التشريع، ووسائل التنفيذ.. إلخ. وهي كلها من مقوّمات الحياة وبالتالي من مقوّمات تاريخ الحياة الإنسانية على هذه الأرض(١).

وعلى ضوء إدراك طبيعة العقيدة الإسلامية، وطريقة استجابة المسلمين لها يستطيع الدارس أن يَزِن دوافع الحياة الإسلامية في تلك الفترات التاريخية، والقِيَم الإنسانية الكامنة فيها، وأسباب النصر والهزيمة في كل خطوة، وأن يَتَصَوّر الحياة الظاهرة والباطنة لتلك الجماعات الإنسانية التي حملت دين الله منذ أرسل الله الرسل حتى نشأة الإسلام في أكمل صُوَرِه بدعوة محمد ﷺ، ومن ثم في البلاد التي انساح فيها.

إن الإسلام ـ بخلاف ما يعتقده كثير من المسلمين وبعكس ما يُصوّره أكثر المستشرقين والمؤرخين الغربيين ـ ليس حضارة عهد خاص،

---

(١) في التاريخ: سيد قطب، المسلمون، العدد الأول ص ٥٩.

ولا فن فترة من فترات التاريخ، يُمثله آثار ذلك العهد ومبانيه ويعيش في الأحجار والصور لا في واقع الحياة، وقد فَقَدَ صلاحيته للحياة وأدَّى رسالته، كالذي يتحدث عن الحضارة اليونانية والرومية أو الفن التركي والمغولي.

إنَّه دين حيّ ورسالته خالدة، إنَّه حيّ كالحياة نفسها وخالد كخلود الحقائق الطبيعية ونواميس الحياة، إنَّه تقدير العزيز العليم، وصُنع الله الذي أتقن كل شيء، وقد ظهر في شكله النهائي[٢] وطَوْره الكامل حين أعلن محمد رسول الله ﷺ يوم عرفة قول الله سبحانه: ﴿**اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ [المائدة: ٣].

اليوم.. الذي نزلت فيه هذه الآية في حجّة الوداع.. أَكْمَلَ اللّهُ هذا الدين. فما عادت فيه زيادة لمستزيد. وأتمَّ نعمته الكبرى على المؤمنين بهذا المنهج الكامل الشامل. ورضي لهم «الإسلام» ديناً، فمن لا يرتضيه منهجاً لحياته ـ إذن ـ فإنَّما يرفض ما ارتضاه الله للمؤمنين.

ويقف المؤمن أمام إكمال هذا الدين، يستعرض موكب الإيمان، وموكب الرسالات، وموكب الرسل، منذ فجر البشرية، ومنذ أول رسول ـ آدم عليه السلام ـ إلى هذه الرسالة الأخيرة. رسالة النبي الأُمي إلى البشر أجمعين.. فماذا يرى؟.. يرى هذا الموكب المتطاول المتواصل. موكب الهدى والنور. ويرى معالم الطريق، على طول الطريق. ولكنه يجد كل رسول - قبل خاتم النبيين - إنّما أُرسل لقومه. ويرى كل رسالة - قبل الرسالة الأخيرة ـ إنّما جاءت لمرحلة من الزمان.. رسالة خاصة، لمجموعة خاصة، في بيئة خاصة.. ومن ثم كانت تلك الرسالات محكومة بظروفها هذه؛ مُتكَيفة بهذه الظروف كلها تدعو إلى إلـه واحد ـ فهذا هو التوحيد ـ وكلها تدعو إلى عبودية واحدة لهذا الإلـه الواحد ـ

---

(١) منحى جديد في التاريخ الإسلامي للإمام الندوي، المسلمون، المجلد الخامس ص ١٠.

فهذا هو الدين ـ وكلها تدعو إلى التلقي عن هذا الإلـه الواحد والطاعة لهذا الإلـه الواحد ـ فهذا هو الإسلام ـ ولكن لكل منها شريعة للحياة الواقعية تُناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف . .

حتى إذا أراد الله أن يختم رسالاته إلى البشر؛ أرسل إلى الناس كافة، رسولاً خاتم النبيين برسالة «للإنسان» لا لمجموعة من الأناسي في بيئة خاصة، في زمان خاص، في ظروف خاصة. . رسالة تُخاطب «الإنسان» من وراء الظروف والبيئات والأزمنة؛ لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تَتبدَّل ولا تتحوَّر ولا ينالها التغيير **﴿فطرة الله التي فَطَر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾** [الروم: ٣٠].

وفَصَّل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة «الإنسان» من جميع أطرافها، وفي كل جوانب نشاطها؛ وتضع لها المبادىء الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحوّر بتغير الزمان والمكان وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحوَّر بتغير الزمان والمكان. . وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة «الإنسان» منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان، من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات، لكي تستمر، وتنمو، وتتطور، وتتجدَّد؛ حول هذا المحور وداخل هذا الإطار . . وقال الله سبحانه ـ للذين آمنوا: **﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم. وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾**.

فأعلن لهم إكمال العقيدة، وإكمال الشريعة معاً. . فهذا هو الدين. . ولم يعد للمؤمن أن يَتَصوّر أن بهذا الدين ـ بمعناه هذا ـ نَقْصاً يستدعي الإكمال. ولا قُصوراً يستدعي الإضافة. ولا مَحلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحوير. . وإلاَّ فما هو بمؤمن؛ وما هو بمقرّ بِصِدْق الله؛ وما هو بمرتضي ما ارتضاه الله للمؤمنين!.

إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن، هي شريعة كل زمان،

لأنها ـ بشهادة الله ـ شريعة الدين الذي جاء «للإنسان» في كل زمان وفي كل مكان؛ لا لجماعة من بني الإنسان، في جيل من الأجيال، في مكان من الأمكنة؛ كما كانت تجيء الرسل والرسالات. الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي. والمبادىء الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان؛ دون أن تخرج عليه إلاَّ أن تخرج من إطار الإيمان!.

والله الذي خَلَق «الإنسان» ويعلم من خَلَق؛ هو الذي رضي له هذا الدين؛ المحتوي على هذه الشريعة. فلا يقول: إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم، إلاَّ رجل يزعم لنفسه أنَّه أعلم من الله بحاجات الإنسان؛ وبأطوار الإنسان!

إن هذا الدين يجمع بين الكمال الذي لا انتظار بعده لدين آخر ولا حاجة معه إلى رسالة جديدة، وبين الحيوية التي لا نفاد لها والنشاط الذي لا آخر له، وبذلك استطاع أن يُساير الحياة ويُراقبها في وقت واحد ويُتابعها في صالحها واستقامتها، ويُنكر عليها في انحرافها و زيغها، فلا هو مُساير مائع ككثير من الأديان المحرّفة، ولا هو مُراقب جامد ككثير من الفلسفات النظرية، وذلك مَثَل الدين الكامل ومثل الدين الحي للإنسان الحيّ الذي يشعر بشعوره، ويعترف بحاجاته ويرشده في مشاكله، ويعارضه في اتجاهاته الفاسدة.

ولما كان الدين الإسلامي هو الدين الأخير والدين العالمي، ولما كانت الأُمة الإسلامية هي الأمة الأخيرة التي اختيرت لتبليغ الرسالة السماوية إلى أهل الأرض «إنه لا نبي بعدي ولا أُمة بعدكم» وكتب لها الخلود والإنتشار في الآفاق، كان من الطبيعي أن تمر في رحلتها الطويلة الواسعة بمراحل عصيبة ومواقف دقيقة لا عَهْد للتاريخ بها، وتُبتلى بعصور وأجيال لم تعرفها أُمة قبلها، وأن تُواجه صراعاً في ميدان العقول، والعلم، والحضارة، والإجتماع، والتشريع، لم تُواجهها أُمة في التاريخ،

ولذلك نرى أن الفترة التي منحت هذه الأمة لتوجيه الأمم والوصاية على العالم هي أكثر الفترات التاريخية تقلبات وتطورات، وأكثرها تنوعاً واختلافاً، وينشأ فيها من المشاكل والمسائل الدقيقة ما لم يخطر من أُمة على بال، ولم يحلم به جيل من الأجيال، ويُمتحن الذكاء وقوة التشريع والثبات على المبدأ والمحافظة على الروح، والصلاحية للحياة، فالأُمة التي تتغلب على هذه المشاكل كلها، وتخرج من هذه المعارك ظافرة منتصرة، هي أُمة جديرة بالحياة صالحة للقيادة، ولا يمكن لقوة سياسية أو غارة خارجية أن تقضي على كيانها، وتمحوها من الوجود[1]. كيف استطاعت الأُمة الإسلامية أن تُقاوم المؤثرات الخارجية العنيفة والتقلبات التي تكاد تنتهي؟.

كيف استطاعت هذه الأُمة أن تقاوم تغيرات الزمان والمكان؟ وقد كان بعضه يكفي للقضاء على ديانة قوية قديمة أو تحريفها على الأقل كما وقع مراراً في تاريخ الأديان؟

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «والجواب، أنها استطاعت ذلك بقوتين:

القوة الأولى، هي الحيوية الكامنة في وضع الإسلام نفسه وصلاحيته للحياة والإرشاد في كل بيئة، وفي كل محيط، وفي كل عهد من عهود التاريخ، فقد خصَّ الله محمداً ﷺ برسالة وتعاليم كاملة للإنسان صالحة لكل زمان ومكان، تستطيع أن تواجه ما يَتجدَّد من الشؤون و أطوار الحياة، وتحلّ كل ما يعتري من المشكلات والمعضلات، والدراسة العميقة الشاملة للقرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح ومصادر الإسلام كافلة للإقتناع بما أقول، ولكنه موضوع الفقه الإسلامي والنُّظم الإسلامية.

والقوة الثانية، هو أن الله قد تكفَّل بأن يمنح هذه الأُمة التي قضى

---

(١) المصدر السابق ص ١٠ ـ ١١.

ببقائها وخلودها رجالاً أحياء أقوياء في كل عصر، ينقلون هذه التعاليم الإسلامية إلى الحياة، ويُعيدون إلى هذه الأُمة الشباب والنشاط. إن هذا الدين نفسه هو من أقوى العوامل في وجود هؤلاء الأشخاص في كل عصر ومصر، لأنَّه يُثير في أتباعه ودارسيه كوامن القوة ويبث فيهم الثورة والتمرد على الأوضاع الفاسدة والمجتمع الزائغ والأخلاق المُنْحَلّة والسياسة المستبدة والحكم الجائر والترف المسرف، ويَفرض عليهم إنكار المُنكر، وكلمة حق عند سلطان جائر، ويُحرّم عليهم الاستنامة إلى الأوضاع الفاسدة، والرضا بالحياة الدنيا، وبيع الضمائر، ويَهبهم كذلك الأصول والنصوص المتينة الحكيمة التي يَحلّون في ضوئها المشاكل الطريفة والمسائل المعقدة، لذلك نرى أن هذه الأُمة لم تعدم في عصر من عصورها مُجَدِّدين في الدين، وأَئمة في العلم، وعماليق في الفكر، وأبطالاً في الجهاد، وأعلاماً في الاصلاح، لا يوجد نظيرهم ـ لا في الكمية ولا في الكيفية ـ في أُمة من الأمم، ولم يكن ذلك من المصادفات والإتفاقات ـ والمسلم لا يؤمن بالمصادفات في صُنع الله وسير الكون﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ [الرعد: ٨] ـ إنَّما هو طبيعة هذا الدين وقدرته العجيبة إحياء هذه الأُمة وصلاحيتها للبعث الجديد، وإنَّما هو لُطف الله بهذه الأُمة بل بالإنسانية، إذ لو ضاعت هذه الأُمة لضاعت أمانة السماء ولضاعت الإنسانية، وإنَّما هي حراسته الكريمة وخفارته القوية لهذا الدين الذي فَرَض عليه أن يُرافق الحياة إلى آخر مرحلة من مراحلها﴿إنَّا نحن نَزَّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩]» [(١)].

إن الإسلام كما عرضه القرآن الكريم هو دين الله الوحيد منذ أول عَهْد الإنسان بحياته في هذه الأرض، فكلما وحيثما بَعَث الله تعالى نبياً من أنبيائه، فإنَّما بَعثه بهذا الدين نفسه، وإنّ أمم الأرض هي التي ما زالت تُفسد هذا الدين وتُدخل عليه المُنكرات من عند نفسها، فما زال الله

---

(١) المصدر السابق ص ١١ ـ ١٢.

سبحانه وتعالـى يتدارك هذه المفاسد والمنكرات بالإصلاح، حتى أنزلهُ على أكمل وأَصحّ صورة على خاتم أنبيائه ﷺ، وضَمِنَ له السلامة من أي مزج أو تحريف أو تغيير إلى يوم القيامة، فهو مُحتفظ به اليوم كل الاحتفاظ في صورة القرآن الكريم، وما هو دين أُمة خاصة دون سائر أمم الأرض، بل هو دين جميع أبناء البشر قاطبة، جاءت به جميع أنبياء الله تعالـى ورسله. فكُلُّ مَن آمَن به فهو مسلم، ومن لم يُؤمن به فليس بمسلم. وهذا الدين لا يُكَذِّبُ نبياً من أنبياء الله تعالـى، ولا يَكفر بكتاب من كُتبه، ولا يَدّعي لنفسه الفَضْل المطلق على غيره. إنَّما دعواه أنَّه هو المجموع الموثوق به لتعاليم كل من جاء في هذه الدنيا إلى أُمة من الأمم من النبيـين والرسل؛ والمُهَيمن عليها. إن هذه هي دعوة الإسلام كما عرضها القرآن﴿**وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه. تنزيل من حكيم حميد**﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢].

إن القرآن الكريم هو كتاب هذه الأُمة الحي ورائدها الناصح فكلما اهتدت بهديه، واستمسكت بعهدها معه، واستَمَدَّت مَنهج حياتها منه، استعزّت به، واستعلت على جميع مناهج الأرض الجاهلية. .

أنَّى للباطل أن يدخل على هذا الكتاب. وهو صادر من الله الحق. يصدع بالحق. ويتصل بالحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض؟ أنَّى يأتيه الباطل وهو عزيز. محفوظ بِأمْر الله الذي تكفّل بحفظه فقال﴿**وإنا له لحافظون**﴾. .

والمتدبر لهذا القرآن يجد فيه ذلك الحق الذي نزل به، والذي نزل لِيُقِّره. يجده في روحه ويجده في نصّه. يجده في بساطة ويُسر. حقّاً مُطَمْئناً فِطرياً، يُخاطب أعماق الفطرة، ويَطبعها ويُؤثر فيها التأثير العجيب. فالحكمة ظاهرة في بنائه، وفي توجيهه، وفي علاجه للقلب البشري من أقصر طريق.

إن الإسلام هو نَسَبٌ عريق للإنسانية، نَسَب ضارب في شعاب

الزمان، والمسلم واحد من ذلك الموكب الكريم، الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف، وموسى وعيسى، ومحمد. .عليهم الصلاةُ والسلام. **﴿وإن هذه أُمتكم أُمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾** [المؤمنون: ٥٢].

إن القرآن الكريم يجمع أسرة النبوة في ندوة واحدة، تتلقى من ربها حديثاً واحداً، ترتبط به أرواحها وقلوبها، وتتصل به طريقها ودعوتها؛ ويحسّ المسلم الأخير أنه فرع من شجرة وارفة عميقة الجذور، وعضو من أُسرة عريقة قديمة التاريخ.

هذا الموكب الكريم، الممتد في شعاب الزمان من قديم، يواجه - كما يتجلّى في ظلال القرآن الكريم - مواقف مُتشابهة، وأزمان مُتشابهة، وتجارب مُتشابهة على تطاول العصور وكرّ الدهور، وتغيُّر المكان، وتعدُّد الأقوام. يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى، والإضطهاد والبغي، والتهديد والتشريد. . لكنه يمضي في طريقه ثابت الخطو، مُطمئن الضمير، واثقاً من نصر الله، مُتعلقاً بالرجاء فيه، مُتوقعاً في كل لحظة وَعْد الله الصادق الأكيد: **﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لَتَعُودنّ في مِلَّتنا. فأوحى إليهم ربهم لنهلكنَّ الظالمين، ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾** [إبراهيم: ١٣ - ١٤]. .

إنه وحي واحد، ورسالة واحدة، وعقيدة واحدة. وإنَّه كذلك استقبال واحد من البشرية، وتكذيب واحد، واعتراضات واحدة. .

إنه موقف واحد، وتجربة واحدة، وتهديد واحد، ويقين واحد، ووعد واحد للموكب الكريم. . وعاقبة واحدة ينتظرها المؤمنون في نهاية المطاف وهم يتلقون الاضطهاد والتهديد والوعيد. . ثم هي بعد ذلك وشيجة واحدة، وشجرة واحدة، وأسرة واحدة، وآلام واحدة، وتجارب واحدة، وهدف في نهاية الأمر واحد، وطريق واصل ممدود.

أي شعور بالأُنس، والقوة والصبر، والتصميم. توجيه هذه الحقيقة لأصحاب الدعوة إلىَ الإسلام، السالكين في طريقٍ سار فيها من قبل أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؟.

وأي شعور بالكرامة والاعتزاز والاستعلاء على مصاعب الطريق وعثراتها وأشواكها وعقباتها، وصاحب الدعوة يمضي وهو يشعر أن أسلافه في هذا الطريق هم تلك العصبة المختارة من بين البشر أجمعين؟.

إنها حقيقة هذا الدين.. ولكن أيّ آثار هائلة عميقة يُنشئها استقرار هذه الحقيقة في نفوس المؤمنين؟.

وهذا ما يَصْنَعه هذا القرآن، وهويتحدث في قَصَصه عن تلك الحقيقة الضخمة ويزرعها في القلوب.

«لقد كان الإسلام من أول عهده هدفاً لهجمات عنيفة قاسية لا تحتملها ديانة من الديانات، هجمات على قلبه و أعصابه لا تعرف الهداوة ولا الرفق ولا ترضى إلاَّ بالفناء.

إن الديانات التي فتحت في عصرها الدنيا وأخضعت الأمم والحضارات قد ذابت وتحلّلت أمام هجمات أضعف منها بكثير وفقدت شخصيتها وكيانها، ولكن الإسلام بالعكس من ذلك ردَّ هذه الهجمات كُلّها وعلى أعقابها وكَسَرها، وظَلّ محافظاً على قوته وشخصيته وعلى مزاياه وروحه.

لقد كانت الباطنيةبفروعها ومذاهبها المتنوعة خطراً على روح الإسلام النقية وعقائده الصافية الواضحة، تتهدد وضع الإسلام الحقيقي، وكذلك كانت الحروب الصليبية، ثم هجوم التتار ـ ذلك الجراد المنتشر ـ صاعقة نزلت على الإسلام والأُمة الإسلامية، وكانت جديرة بأن تَقضي على الإسلام وتُقصيه من ميدان الحياة ومصاف الأمم الحيّة، فلو كان غير الإسلام من الديانات لَلَفَظَ نَفَسَه الأخير وأصبح أُسطورة من الأساطير»،

فحين اندفعت أرتال المسلمين تحمل راية التوحيد من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، وحينما امتدّ الإسلام إلى أوربا فَزِعُ الأوربيون فزعاً شديداً، فها هي رايات التوحيد تدخل إيطاليا وترتفع فوق إسبانيا، ثم تنهض الجموع المُوحِّدة لِتَعْبرجبال البرانس لتزرع في فرنسا **لا إله إلاّ الله محمد رسول الله**.

لكن العداء اللئيم والحقد الدفين دفع الأوربيين إلى القضاء على الإسلام، فجهزوا الجيوش وانطلقوا نساءً ورجالاً وشيوخاً وملوكاً يحملون الحقد الأسود. . ولكن تصدّعت قواهم وولّوا مُدبرين إلى بلادهم مع هزيمة منكرة عَلَّمتهم أن لا قضاء على المسلمين لأنهم يحملون ديناً له القوة في قلوب المسلمين ما إن تحاربه حتى يُصدع الدنيا كلها ويُزَلْزِلها على رؤوس أعداء الله.

وهكذا فقد مُني الإسلام في سيره الطويل بمؤامرات وثورات ومقاومات داخلية وخارجية، فقد كان مراراً عرضة لتحريف الغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين، ودخلت فيه البدع والأخطار العجيبة، وتسربت إليه الوثنية عن طريق الأمم التي كانت تُسلم وعن طريق التقليد والجهل، وفَشَت فيه الأعمال والتقاليد الجاهلية، ثم امتُحن ـ منذ العهد الأموي ـ بمادية جارفة وترف فاحش، وعبادة البطون والشهوات، ثم ابتُلي ـ في العهد العباسي ـ بالإلحاد والزندقة والفلسفات العجيبة، إلى غير ذلك مما يحويه تاريخ الإسلام، وقد كانت هذه الهجمات شديدة ودقيقة حتى أصبح كثير من الناس يَشكُّون في قدرة الإسلام على مقاومة هذه الهجمات، وأصبح بعضهم يتوقع نهاية الإسلام بصفته دين من الأديان، ونهاية الأُمة الإسلامية بصفتها أُمة ذات عقيدة ورسالة.

ولكن الإسلام أبى أن يستسلم لهذه الهجمات وأن يخضع ويستكين لأعدائه﴿**ويأبى الله إلاّ أن يُتمّ نوره ولو كره الكافرون**﴾ [التوبة: ٣٢]، وأبت روح الإسلام أن تَنهزم، وأبى ضمير الأُمة أن يُصالح هذه الفتن وأن

يتفاهم مع أعداء الإسلام والمؤامرين ضده وأن يتنازل عن بعض ثروته، وقام في كل عهد، وفي كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي رجال فَضَحوا المُحَرّفين والمُؤامرين، ورفعوا اللثام عن وجه الإسلام، ونفضوا عنه غبار الجهل والضلالات، وأنكروا على البدع والخرافات والأفكار الدخيلة، ودافعوا عن السُنَّة دفاعاً قوياً، وردّوا على العقائد الباطلة، وشَنُّوا الحرب على الوثنية وأعمالها وتقاليدها، وحاربوا المادية والترف بكل قوة، ونعوا على المترفين في عصرهم، وجَهروا بالحق في وجوه السلاطين الجائرين والملوك المستبدين، ونفخوا في الإسلام روحاً جديدة، وأنشأوا في المسلمين إيماناً جديداً وثقة جديدة. وقد كان هؤلاء الأفراد نوابغ عصورهم عقلية وعلماً وخُلقاً، وكانوا أصحاب شخصية جذابة، وكفاية فائقة، وكانت عندهم لكل فتنة مُظلمة «يد بيضاء» تُبَدِّد الظلمات وتُنير السبيل.

وقد وَضَح من وجود هؤلاء المُصلحين المُجّددين للدين الإسلامي، باستمرار لا يحمل على مجرد المصادفات، أن الإسلام هو الدين الذي اختاره الله لتوجيه العالم وإرشاد الإنسانية وقضى بخلوده وبقائه، وأن مهمة الهداية والإرشاد الجليلة التي كان الأنبياء يُبْعَثُون لها في العصور الماضية قد أُلقيت على عاتق هذه الأُمة التي تَخلف خاتم النبين ﷺ في هذه المُهمة وأنه لا يخلو زمان من الأزمان من خُلفائه ودُعاته»[1].

وحينما ارتدت جيوش الصليبيين أمام جيوش التوحيد في القرون الخالية، شَعَر الأوربيون بخيبة شديدة أمام هزائم متلاحقة عَبْر حروب طويلة، لذلك فَكَّروا بكيفية القضاء على المسلمين، يَؤُزّهم على ذلك شريط مُتوهج من البغضاء والحقد، فبحثوا عن سّر هذه القوة التي تحملها قلوب المؤمنين... فالحديد والنار قوى واهنة أمام قوى الإيمان التي تعمر قلوب المسلمين.

(١) المصدر السابق ص ١٢ ـ ١٤.

لذلك عَمَد أعداء الإسلام إلى تغيير طريقتهم وذلك بالقضاء على القوة الكامنة في قلوبهم فحين يُزحزحوها من القلوب، يُصبح المسلمون أشلاءً وركاماً وخيوط عنكبوت، تندفع لترتمي كَسيحة لا تقوم ولا تتحرك. ومن أجل هذا الهدف الخبيث اندفع الغزو الثقافي والفكري والتربوي للقضاء على جذور الدين في قلوب المسلمين.

وانطلق أعداء الإسلام لتحقيق هذا الهدف بكل الوسائل والطرق في هِمّة لا تعرف الإغماض، انطلقوا في كل سبيل، في عمل خَفي لئيم، وجهد دائب في بصير صامت، فبدأ منذ ذلك الحين غزو العقل المسلم لتغيير تَصَوّره حتى لا يُفكر بمبادىء دينه في القرآن والسنّة، إنَّما يُفَكِّر بمنطق أعداء الإسلام، فكان التحويل الخطير من الإسلام إلى الجاهلية. من النور إلى الظامات، يتمّ والمسلمون غارقون في لجّة عميقة، فقد ذَكَر «أتين لامي» في مقال نشرته مجلة العالم الفرنسي: عدد إيلول ١٩٠١: «إن مقاومة الإسلام بالقوة لا تزيده إلاَّ إنتشاراً، فالواسطة الفعّالة لِهَدْمه وتقويض بنيانه، هي تربية بَنيه في المدارس المسيحية، وإلقاء بذور الشك في نفوسهم من عَهد النشأة، تفسد عقائدهم الإسلامية من حيث لا يشعرون، وإن لم يتنصَّر منهم أحدهم، فإنهم يصيرون لا مسلمين ولا مسيحيين، وأمثال هؤلاء يكونون بلا ارتياب أضرّ على الإسلام مما إذا اعتنقوا المسيحية وتظاهروا بها».

وطالت الليالي والأيام، والناس في بلاد الإسلام مُفَتَّحة عيونهم نيام، ومع مرور الزمن كان ما كان، فقد ورثنا نحن أبناء هذا العصر الأخير ميراث النبوة والأنبياء فلم نُفكِّر في الاستفادة منه أو الإنتفاع به، أو الكشف عن دُرَرِه وجواهره، ولم نُفكر في الأسلوب الذي نعرضه به على أنفسنا وعلى غيرنا عرضاً صحيحاً، يدفع إلى العناية به، ويُلفت الأنظار والنفوس عليه، ويُضاعف إفادتنا منه. ولا شك أن ذلك كان أثراً من آثار انصرافنا عن اعتبار الإسلام نظاماً إجتماعياً كاملاً، يقوم على مخاطبة

الفطرة الإنسانية واستثارة ما فيها من قوى روحية تتمثل عقائد ثابتة، وخلائق فاضلة، وأفكاراً عالية، وأعمالاً نافعة، تنظم ملكات الفرد، وحياة الأسرة، وطبقات الأُمة، وواجبات الدولة، وعوامل الاتصال والأخوة بين العالمين. .

كان ذلك أثراً مما وَقَر في صدورنا من تقديس مظاهر الحياة الغربية واعتبارها المَثَل الأعلى في مناهج الحياة، وطغيان هذه الموجة من موجات التقليد الغربي التي غَمَرَتْنا في الفكر والثقافة، وفي التربية والتعليم، وفي نظام الحكم وأساليب السياسة، وفي التشريع والقانون، وفي المنزل والشارع، والمتجر والمصنع، وفي كل أوضاعنا الحيوية والإجتماعية، حتى أصبحت شريعة الإسلام العملية، ونظامه الإجتماعي، أُموراً أثرية تاريخية، للنظر والعلم والبحث والمحاضرات، لا للعمل والتطبيق والتنفيد.

وهكذا ضاقَ فَهْم الكثير من أبناء الإسلام للإسلام حتى جعلوه قاصراً على هذه الموروثات من العقائد والآداب العامة، والمعتادات من ضروب العبادات، وحتى هذه البقية لم تسلم من الخرافة في الأولى، ومن الإبتداع في الثانية.

إن هذه الموجة الطاغية تجتاح عقولنا وحياتنا وتفكيرنا منذ ما ينوف عن قرن ونصف. . مَوجة إِثر موجة. إثر موجة، تتسرب بخطى وئيدة خَفِيّة في جوف العظام حتى باتت تجري في عروقنا مجرى الدم، وكان ما نحن عليه الآن!! فلم يسلم الإسلام نفسه من أن يُلْصَق به ما ليس منه، ويُنسب إليه ما يُنكِره أشدّ الإنكار، وهو بطبيعته التي أظهره الله بها، سَهْل، بسيط، ميسور، لا حَرَج فيه ولا غموض، وإنَّما عَقَّدته آراء الناس المُشوشَّة، ولَوَّنتها أفكارهم المُضطربة.

لقد كان الرجل من البادية يجلس بين يدي رسول الله ﷺ بضع دقائق أو ساعة من نهار فيقوم مُسلماً أفضل ما يكون المؤمنون إيماناً،

لِصَفاء فطرته، وسلامة نفسه، وسهولة الإسلام وبساطته ويُسره، وكان الإسلام حينذاك حياة قلبية تنصبُّ في النفوس، ونوراً ربانياً يُشرق على الأفئدة، وأعمالاً مخلصة يُقْصَد بِها وَجْهُ الله، و تجرداً للحق وفناء في سبيله، تعلو به دعوة الخير وتسود، فتحوَّل ذلك كله الآن إلى نظريات في الكتب، وألفاظ على الشفاه، وأعمال بحكم العادة، وتجارة باسم الحق للحصول على مغانم الدنيا. ومُحال أن تنهض على هذه القواعد دعوة أوتحيا أُمة أو تقوم دولة!

إن بلاد العالم الإسلامي تُحكم اليوم إمَّا بقوانين وَضْعية مُستعارة من القوانين الأوروبية لا صِلةَ لها بالإسلام ولا بهدى القرآن، وإمَّا أن حكامها يَدَّعون أنهم يحكِمون بالقرآن، وهم عن معاني القرآن بعيدون يحسبون أنَّه صلاة وصوم وحج، ولا يُدركون أنَّه مع ذلك علم وفهم وتربية وأخلاق وجهاد في سبيل الله ومعاملة وتحقيق العدل الإجتماعي، الذي كفله الله للناس على صورة لم يصل إليها الناس في كافة عصورهم، لذلك كانت دعواهم أن دستورهم القرآن من الدعاوى التي تضرّ بالإسلام والمسلمين أبلغ الضرر فإنها تكون مقرونة دائماً بجهلهم وفقرهم وتأخّرهم وتخلّفهم عن ركب الحياة، فاتخذ الناس من ذلك دليلاً على أن الإسلام غير صالح لهذه الحياة، وما العيب في الإسلام ولكن العيب في القائمين عليه.

وبلاد العالم الإسلامي فَشَا فيها ما لا يُمكن معه أن يُصدَّق أن المتخلفين بها مسلمون، فَأكْل أموال الناس بالباطل أصبح سجية فيهم: فلا يسأل الإنسان نفسه عن ماله أمِنْ حلال كسبه فيحمد الله أم من حرام جناه فيتوب إليه ويذكر قول الرسول ﷺ: «كل لَحم نبت من حرام فالنار أَوْلى به»، فالقمار المحرّم أصبح وسيلة من وسائل الكسب التي تتراءى للناس كأنها مشروعة لِفَرط ما أَلِفُوها. ولا يبالي الواحد أن يأكل مال أخيه، ولا سأل نفسه عن سبب استحلاله لماله. والرشوة، والاختلاس، وخيانة الأمانة، أصبحت كأنها من مقررات الحياة وأنها جزء من مرتبات

الموظفين وعمل العاملين الأمر الذي تسبب عنه تعطيل المصالح العامة والخاصة لعدم ثقة الناس بعضهم ببعض.

وظلم الأغنياء للفقراء وعدم إيفائهم حقوقهم التي أمَرَ الله، زاد غِنى الأغنياء، وفَقر الفقراء وجهلهم، وأفسد الحياة الإجتماعيه وأخلَّ بتوازنها.

والزنا والفجور، واستهتار الرجال والنساء، وانتهاك الحُرمات، وشرب الخمر، صارَ كل ذلك شيئاً عادياً يتحدث الناس بحقائقه كأنها من الأمور المباحة، وبالأكاذيب فيه كأنها من دواعي الفخر.

ولا تسأل عن الكذب والنفاق والغيبة والنميمة، وسُخْر الناس بعضهم ببعض، والتنابز بالألقاب، واتهام الناس بالباطل.. فهل نحن مسلمون؟!!!

هذه النقائص كفيلة بهدم المجتمع. نقترفها كل يوم، ولا نكلف أنفسنا أن نعرضها على كتاب الله حتى نعلم أننا أعرضنا عن هُدى الله تعالىٰ فكان جزاؤنا ضنك المعيشة[1]. والشقاء ثمرة الضلال. وما من متاع حرام، إلاَّ وله غصة تعقبه وعقابيل تتبعه. والشقاء قرين التخبط ولو كان في المرتع المُمَرّع! والحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة، ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع. إنَّه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حِماه. ضنك الحيرة والقلق والشك. ضنك الحرص والحذر: الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت. ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت..

وهكذا فإن أخطر ما نُكبنا به في وَعْثاء هذا التيه هو اضطراب ميزان الفهم والتقدير في أَنفسِ كثير من المسلمين، واختلاط الأمر عليهم كلما

(١) «هذا القرآن» للإمام حسن الهضيبي، المسلمون، المجلد الأول، العدد التاسع ص ٨٣٤ ـ ٨٣٥.

دعاهم داع إلى الإسلام الصحيح؛ وقد تعثرت من جراء ذلك محاولات كثيرة للإصلاح لقيت العَنَتْ من المسلمين قبل غير المسلمين، وقاست المرّ في الوصول إلى قلوب المسلمين وعقولهم، ولم تكن العقبة الأولى في طريقها إلاَّ الحدود العجيبة. التي قامت في أذهان كثير من الناس بين معاني الإسلام.

إن طبيعة الدعوة إلى الله - سبحانه - على مدار التاريخ البشري تستهدف الإسلام.. إسلام العباد لربّ العباد، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، بإخراجهم من سلطان العباد وحاكميتهم وشرائعهم وقِيَمِهم وتقاليدهم إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة..

إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله، وتحكيم شريعته في حياة الناس. فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين. فإن العبد الذي يتوجّه لله بالاعتقاد في أُلوهيته وحده، ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر. بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله.. ويدين في قِيَمِه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صُنع غير الله. ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء مخالفة لشرع الله وأمْره. إن هذا العبد يُزاول الشرك في أخصّ حقيقته، ويُخالف عن شهادة أنْ لا إلـه إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله في أخصّ حقيقتها.. وهذا ما يَـغفَل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميـيع.. وإننا لَنبخَس القرآن قدره. إذا نحن قرأناه وفهمناه على أنَّه حديث عن جاهليات كانت... إنَّما هو حديث عن شتى الجاهليات في كل أعصار الحياة ومواجهة للواقع المنحرف دائماً وردّه إلى صراط الله المستقيم.. وإن معظم الطواغيت اليوم في الجاهليات الحديثة لا يستطيع أن يتبجح تبجُّح

الشيوعيين الملحدين فَيَنفي وجود الله جملة، وينكر الدين علانية. إنما يلجأون إلى الأسلوب الخبيث الماكر يقولون: إنهم يحترمون الدين، ويزعمون أن ما يشرعونه للناس له أصل من هذا الدين.. إنه أُسلوب الأم وأخبث من أسلوب الشيوعيين الملحدين، إنه يخدر العاطفة الدينية الغامضة التي لا تزال تعيش في قرارات النفوس وإن لم تكن هي الإسلام، فالإسلام منهج واضح عملي واقعي، ليس هذه العاطفة المبهمة الغامضة، ويفرغ الطاقة الفطرية الدينية في قوالب جاهلية لا إسلامية وهذه أخبث الكيد وألأم الأساليب. ونحن نحتاج إلى هذا التذكير المستمر لأن جهود الشياطين في زحزحة هذا الدين عن مفهوماته الأساسية قد آتت ثمارها مع الأسف فجعلت مسألة الحاكمية والشريعة تتزحزح عن مكان العقيدة، وتنفصل في الحسّ عن أصلها الاعتقادي. ومن ثم نجد حتى الغيورين على الإسلام يتحدثون لتصحيح شعيرة تعبدية أو لاستنكار إنحلال أخلاقي، أو لمخالفة من المخالفات القانونية، ولكنهم لا يتحدثون عن أصل الحاكمية والشريعة وموقعهما من العقيدة الإسلامية، يستنكرون المنكرات الجانبية الفرعية، ولا يستنكرون المنكر الأكبر، وهو قيام الحياة في غير التوحيد. أي على غير إفراد الله سبحانه بالحاكمية...

هذه هي الحقيقة التي زُحزح مفهوم «الدين» في نفوس أهل الدين عنها زحزحة مطردة خلال قرون طويلة بشتى الأساليب الجهنمية الخبيثة.. حتى انتهى الأمر بأكثر المتحمسين لهذا الدين ـ ودَعْك من أعدائه والمستهترين الذين لا يحفلونه ـ أن تُصبح قضية الحاكمية في نفوسهم قضية مُنفصلة عن قضية العقيدة. لا تجيش لها نفوسهم، كما تجيش للعقيدة. ولا يعدون المروق منها مروقاً من الدين. كالذي يَمرق من عقيدة أو عبادة. وهذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة. إنَّما الزحزحة التي زاولتها أجهزة مدربة قروناً طويلة حتى انتهت مسألة الحاكمية إلى هذه الصورة الباهتة حتى في حسّ أشدّ

المتحمسين لهذا الدين وهي هي القضية التي احتشد لها كثير من آيات القرآن..

وهكذا أنشبت الجاهلية أظفارها في المجتمعات الإسلامية، وكان من أشدّ ما أصاب هذه المجتمعات فتكاً بالعاطفة الدينية المتبقية في حياة الناس هو نشوء الترف في المجتمعات الإسلامية، ونشأت طبقة المترفين بأخلاقهم ونفسيتهم، وكثرت الأموال وأدوات الترف، واشتدت الإغراءات المادية وفعلت فعلها في المجتمع حتى أشرف الايمانِ والعمل الصالح - وبهما تمتاز هذه الأمة عن غيرها من الأمم، وفيهما سرّ قوتها وانتصارها وهما تراث النبوة ـ على الضياع والتلف، وأصبحت هذه الأمة تتقدم بخطى واسعة إلى إنهيار في الأخلاق والروح، وخمود في العاطفة والشعور الإيماني، وضعف في صلتها بالله؛ وهذا كله نذيراً لكارثة كبرى تُضاف إلى النكبات والمآسي والمصائب التي ترزخ تحت ثقلها المجتمعات الإسلامية.. هذا نذيراً لكارثة طامّة طاغية جارفة، كارثة أُصيبت بها الأمم من قبل، وهي الإفلاس في الإيمان والروح والأخلاق والفضائل كلها، وهي خسارة لا تُعَوَّض، ولا بقاء لأمة ـ ذات رسالة وعقيدة - بعد ذلك.

وبعد، فإن كل ما في الأرض الآن يدعو المسلمين ويهيب بهم أن ينهضوا بصدق وإخلاص، وعزيمة جادة؛ وإيمان عميق، ليؤدُّوا دور الإسلام في قيادة البشرية كما أدّى المسلمون دورهم الأول..

إن الضعف ليس عذراً، ولا يُغني عن الحركة الجادة في تغيير وتبديل الأوضاع والحياة.. إن الضعف السامي كثيراً ماأثَّر في مجرى الحياة ما لم تُؤنره القوى السافلة، وقديماً أثَّر اليونان في الرومان وهم مغلوبون لهم، وأثَّر المسيحيون المستضعفون المضطهدون في الرومان الجبابرة، حتى تحولت الدولة الرومانية إلى دولة مسيحية، وأثَّر المسلمون المقهورون في التتار القاهرين حتى حوّلوهم إلى معسكرهم فصاروا من خيار أجناد الإسلام..

ولهذا المعنى يُعلن الله تعالى إرادته في الإدالة للضعف السامي من القوة الغاشمة دائماً، ويجعل ذلك سُنّة من سنن الوجود، وقانوناً من قوانين الحياة فيقول: ﴿ونُريد أن نَمُنَّ على الذين استُضْعِفُوا في الأرض ونجعلهم الوارثين﴾ [القصص: ٥]، ذلك لأن القوة الغاشمة دائماً تحمل أربابها على الطغيان والبطش، ونسيان الأوضاع التي خلق الله تعالى الحياة على معايـيرها، حتى لتحمل على نسيان يد الله، والعمى عن رؤيتها، بل تحمل على محاربتها والجرأة عليها.. وعندما يصل مدُّ الطغيان إلى غايته هذه، يمكر الله به ويديل منه ﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾ [الفتح: ٤، ٧].

أمّا الضعف السامي فيجعل المُستضعفين محل الانفعال بالحوادث وتلقيها بتذوق كامل لها، وإدراك حقيقي لآثارها. وهذا الإنفعال والتذوق والإدراك الحقيقي للأمور، هو العامل الذي يُنتج صحة الأحكام؛ ولذلك كان المستضعفون ذوو العقائد الصالحة أصح من الأقوياء المتسلطين الغاشمين رأياً، وأسلم قلوباً، وأعرف بشؤون الخلافة على الأرض، ووراثة مقاليدها؛ فعلى هذا ينبغي للمسلمين المُسْتَضْعَفِين أن ينفذوا إلى أعدائهم من ثغرات ضعفهم التي هي في الوقت نفسه مظاهر كبرياء هؤلاء الأعداء المتكبرين، وأن يحملوهم بمختلف الوسائل على رؤية ما عندهم من الحقائق والآراء الصالحة.

وأُولى هذه الوسائل أن يُمَثِّل المسلمون حقائق الإسلام ومعانيه في سلوكهم وتصرفاتهم وشرائع حياتهم، حتى يكونوا إعلاناً مُجسَّماً لما يدعون الناس إليه، فالإيمان هو كما وصفه رسول الله ﷺ: «ما وَقَر في القلب وصّدقه العمل».

إن هذا الايمان بالله، وإن هذه الصلة الحية القوية بالقرآن التي عُرفت بها هذه الأمة، وسحقت بها الأمم وأخضعت بها العالم، وإن هذه المظاهر الإيمانية التي نقرأ أمثالها الرائعة في تاريخ العهد النبوي والخلافة

الراشدة من إنابة صادقة إلى الله وثقة به وتفان في سبيله، وعزوف عن الشهوات، واستهانة بزخارف الحياة، وشوق إلى الشهادة، وحنين إلى الجنة، وخشوع في الصلاة، ولذّة في الدعاء، وعطف ومواساة، وزهد وايثار، إلى غير ذلك مما هو نتيجة الإيمان القوي العميق، إنّما كان فيض النبوة، وتأثير الشخصية النبوية التي سَعِد بَها العالم، فإذا تجردت الأمة من هذه الثروة الإيمانية التي ورثتها من رسالات الأنبياء، ومنحتها النبوة الأخيرة وشخصية الرسول العظيمة، فقد تجردت من كل شيء، وأفلست إفلاساً تاماً، ولا مطمع في إيجاد هذا الإيمان، وإعادة هذه الثروة بعدما انقطعت النبوة، أمّا تجديد هذا الإيمان وتقويته قبل أن يزول، والمحافظة على هذه الثروة والزيادة فيها قبل أن تضيع، فممكنة وميسورة، إذا قام لذلك رجال أكفاء، وجاهدوا في سبيل الله حق الجهاد.

«إن الأديان لا تعيش ولا تزدهر، ولا تعود إلى نشاطها وشبابها بعد إضمحلالها وضعفها، ولا تنسجم مع المجتمع المعاصر، ولا تتلاءم مع روح العصر إلاَّ عن طريق الرجال والنوابغ الذين يظهرون فيها حيناً بعد حين، يملكون الإيمان القوي الجديد، وسُمُوّاً روحياً لا يشاركهم فيه عامة الناس، ونزاهة ممتازة عن الأغراض، وعزوفاً عن الشهوات، وتفانياً في المبادىء والعقائد وفي سبيل الدعوة، ومُستوى عقلياً وعلمياً أرقى من الكثير، ينفخون في أمتهم روحاً جديدة، وينشئون في أتباع دينهم إيماناً جديداً وثقة جديدة، ويُلهبون نفوسهم بحماسة دينية جديدة.

إنَّ مطالبَ الحياة وتكاليفها مُتجددة، وإغراءات المادية قوية جديدة دائماً. وشجرة المادية لا تَذوي ولا يعروها الذبول، وهي خضراء لا تنقطع أثمارها. وللمادية ـ مع أنها غنية بسحرها على النفوس وإغرائها للطبائع عن الديانة والترغيب ـ في كل عصر دعاة مُتحمسون ورجال مُخلصون. فإذا أصاب الدعوة الدينية الوَهَن، وإذا أصيب أهل دين بِضعف في العقيدة، أو ضعف في الخُلق، أو ضعف في الدعوة، لم

يستطيعوا أن يقاوموا المادية الفتية، والدعوات المعارضة القوية، إن الأصنام ـ باختلاف أنواعها ـ لا تزال مُحتلة للحياة، وإن اللاَّت ومَناة ـ وهما رمزان للوثنية والهوى ـ لا تزالان في شبابهما وجدّتهما كما يقول العلامة الكبير محمد إقبال، فلا يظنن الداعي أنَّه قد انتهت مهمته، ولا يمكن مقاومة المادية الفتاة، ولا يمكن سحب اللاَّة ومَناة عن الحياة إلاَّ بالدين القوي والإيمان الجديد والدعوة المتحمسة، والعلم الراسخ والعقل الواسع.

«من الحقائق التاريخية أن تاريخ الإصلاح والتجديد متصل في الإسلام، والمستقصي لهذا التاريخ لا يرى ثغرة ولا ثلمة في جهود الإصلاح والتجديد، ولا فترة لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف ويكافح الفساد الشامل، ويرفع صوت الحق، ويتحدَّى القوى الظالمة، أو عناصر الفساد، ويفتح نوافذ جديدة في التفكير. والدارس لهذا التاريخ، والمتتبع لحوادثه وشخصياته لا يعرف عهداً قصيراً ساد الظلام فيه على العالم الإسلامي، وخَبَتْ مصابيح الإصلاح، وخفتت أصوات الحق، ومات الضمير الإسلامي، وتبلَّد الشعور، وأضرب الفكر الإسلامي عن العمل.

«إن هذه الثغرات، التي نشعر بها في دراستنا العابرة للتاريخ الإسلامي وفي نظرتنا العجلى في كتبه، مردّها إلى منهاج التأليف الذي اتخذه المؤرخون للإسلام قديماً وحديثاً ودرجت عليه الأجيال. إن النقص ـ ومعذرتي إلى المؤلفين الذين أَدين لهم في معلوماتي ومحاضراتي ويدين لهم كل مؤلف ودارس ـ في التأليف ليس في التاريخ، أو بكلمة أخرى إن المسؤلية على المؤرخين والمؤلفين لا على المُجدِّدين والمصلحين الذين ظهروا حيناً بعد حين، وحفظوا على الإسلام جدّته وشبابه، وقضوا على كثير من الفتن والبدع والمؤامرات والتحريفات حتى أصبحت مطمورة في ركام الماضي، لا يهتدي إليها أحد في هذا العصر إلاَّ بعد بحث وعناء، وكثير من أفراد هذا الجيل لم يسمعوا بأسمائها ولا يعرفون حقيقتها إلاَّ

بشق الأنفس وإجهاد العقل والعين، وقد كان بعض هذه المذاهب وبعض الحركات تتمتع بحماية البلاط وتستند إلى الملك والسلطان والمال والجاه، وقد كانت في عصرها صاحبة حَوْل وطَوْل، ولكنها طويت - بفضل جهود هؤلاء المصلحين المخلصين - في صحائف الماضي، وأصبحت موضوع علماء الآثار لا محل لها إلاَّ في المتاحف والصحائف.

إن هذا النقص في التأليف الذي صرّحت به مع الإعتذار، جعل كثيراً من الناس يعتقدون أن تاريخ الإصلاح والكفاح في الإسلام متقطع يحتوي على ثغرات واسعة وفترات طويلة، لا ترى فيها إلاَّ المندفعين مع التيار، المُستسلمين للفساد، وأقزاماً في العقل والتفكير والعلم والانتاج. لقد كان يظهر «عملاق» أو نابغة أو عبقري بعد عصر طويل، وقد تخلو قرون ومئات سنين عن عظيم يستحق أن يسمى عملاقاً أو عبقرياً أو مجدداً في العلم والدين.

إن هذه العقيدة الخاطئة التي لم تقم إلاَّ على الدراسة القاصرة المستعجلة للتاريخ وعلى منهاج التأليف الذي اتخذه مع الأسف أكثر المؤرخين، وهو تأليف التاريخ الذي يدور حول الملوك وحاشيتهم، وحول الحوادث التي لها إتصال بالسياسة والحكم، قد تنتهي ببعض الشباب المتحمسين وببعض رجال الدعوة إلى سوء الظن بالإسلام وضعف انتاجه. إنها نتيجة خَطِرة تُضعف الثقة بالإسلام، وتُضعف العاطفة والإرادة للكفاح في هذا العصر، فإن القوة الباطنة التي تدفع إلى الكفاح والعمل لَدَعْوَة لا تَنبع إلاَّ من الثقة بالماضي، وبأن هنالك رصيداً من الجهاد والاخلاص وسنداً من الكفاح والنجاح.

ولو اتسعت الدراسة وشملت المصادر المهجورة[1] وتخصص لهذا

---

(١) والذنب ليس على المؤرخين فقط، إن الذنب على من يقتصر على كتب التاريخ «الرسمي» والمصطلح، ولا يتعدى هذه الكتب إلى الكتب التي لا تحمل اسم التاريخ ولا توجد في ركن التاريخ في مكتبة ولكنها مادة واسعة للتاريخ، ومصدر قيِّم من مصادر التاريخ، هي =

الموضوع باحث واسع الفكر، صبور على المطالعة، دقيق في الملاحظة، استطاع أن ينتج تاريخاً متصلاً شاملاً للإصلاح والتجديد والتفكير الجديد في الإسلام، يدل على أن الإصلاح والكفاح مترافقان لهذه الأمة لا يختلفان عنها.

«ثم الجناية الثانية التي يرتكبها بعض المتحمسين والمؤلفين والناقدين في هذا العصر أنَّهم يُكوِّنون في ذهنهم صورة خاصة للمجدّد أو المصلح، ثم يلتمسونها في تاريخ الإسلام ومجموع صور الأعلام، فإذا لم يجدوا هذه الصورة الحبيبة في التاريخ الإسلامي أو في عصر من العصور تذمّروا وأنكروا، وكثير منهم عندهم مقاييس خاصة وهي مقاييس عصرية يقيسون بها «العظيم» أو «الداعي» أو «المصلح» أو «المفكر» في كل زمن وفي كل بيئة، فإذا لم تنطبق هذه المقاييس ـ التي هي مقاييس العصر ـ على رجل مهما كان عظيماً ومُهمّاً كان قديماً ومهما كانت خدمته للإسلام عظيمة، ومهما كان مخلصاً ومهما نجح في مهمته التي تكفّلها أو أسندت إليه، أسقطوه أو بخسوا حقه ولم يعدوه من المصلحين. وبعضهم يلتزم مقياساً واحداً، مقياس الإبداع في الأفكار

كتب الأدب وكتب الدين، والكتب التي دوّن فيها بعض العظماء اعترافاتهم وسجلوا حوادث حياتهم وتجاربهم، والكتب التي حفظ فيها بعض التلاميذ وأصحاب الشيوخ كلمات شيوخهم أو مواعظهم، أو ما دار في مجلسهم من حديث أو حوار، ومجاميع الرسائل والخطب التي تدلّ على روح أصحابها وفكرتهم، أو الكتب التي أُلفت في الحسبة، وفي انتقاد المجتمع وإنكار البدع والمنكرات..

ويجب على الدارس أن لا يقتصر على بعض النقول، وأن لا يقتضب العبارات المنقولة من كتب هذه الشخصيات العظيمة، ولا يضنّ بالألفاظ والكلمات، وأن لا يمرّ بها وبمؤلفاتها ومنتجاتها مَرّاً سريعاً في دراسته التاريخية، بل يجب أن يعيش في كتبها ومؤلفاتها وأفكارها مدة، ويتذوق أدبها وفكرتها، ويتنسم طيبها، ويحاول أن ينتقل من جوه إلى جو هؤلاء الرجال، ومن عصره إلى عصرهم، حتى يعرفهم على حقيقتهم ويصوّرهم في حقيقتهم، ويشعر القارىء أنه انتقل إلى عصرهم، وعرفهم معرفة شخصية، وعاش معهم مدة من الزمان.

مثلاً، أو فتح باب الاجتهاد مثلاً، أو الكفاح لإقامة الحكم الإسلامي أو معارضة الدولة القائمة في عصره مثلاً، فإذا لم يُحقق هذه الشريطة لم يكن رجل عصره ولم يستحق أن يدخل في صف المصلحين.

إن هذه المقايـيس وإن هذه المعايـير لها قيمة عظيمة، ولا ننكر أهميتها ومكانتها في الإصلاح، ولكن الذي أريد أن أقول: إنَّ الزمان والبيئة عوامل هامة في حياة الرجل، فلا يجوز أن ننقل رجلاً من عصره وننتقل به إلى عصرنا ونطبق عليه مقايـيس هذا العصر، ثم نحكم عليه بالفشل والإخفاق، أو الضعف والعجز، ونسلبه محاسن نفسه ونحرمه من كل مأثرة وكل عظمة، لأنه لم يُحقق شرطاً من شروطنا، ولم يكن «المَثَل الكامل» في الإصلاح المنشود والتجديد المطلوب.

إن الإسلام دين حيّ خالد، وهذه الثروة العظيمة التي انتقلت إلينا من أسلافنا ووصلت إلى أيدينا اليوم: تراث العلم الواسع، والعقيدة المحفوظة، والإيمان القوي، والسنة الخالصة، والأخلاق المستقيمة، وثروة الفقه والتشريع الزاخرة، والأدب الإسلامي الرائع، مجموعة فيها نصيب لكل من ساهم فيها بإقامة حكم على منهاج الخلافة الراشدة، ومحاربة الجاهلية والمادية، وبالدعوة إلى الله وإلى دار السلام، وإحياء ما دُرِسَ من الخصائص الإسلامية، وبث الروح الإيمانية في هذه الأمة، ولكل من أوْجَد الثقة بالدين ومصادره وتعبيراته، وردّ هجمات الفلسفات الأجنبية، ولكل من دافع عن الفكرة الإسلامية الأصيلة وعصم هذه الأمة من فتنة هدَّدت الإسلام، ولكل من حَفِظَ على هذه الأمة دينها ومصادره، وقام بتدوين جديد للحديث والفقة أو فتح باب الاجتهاد، ومنح هذه الأمة ثروة واسعة من التشريع وقانوناً منظماً للحياة والمجتمع، ولكل من حاسَبَ المجتمع في عصره وأنكر انحرافه عن مُثل الإسلام ونُظمه ودعاه إلى الإسلام الصحيح، ولمن سَلَك سبيل الإقناع العلمي في العصر الذي كثرت فيه الشكوك واضطربت العقائد وَوَضَع لعصره كلاماً جديداً، ولكل

من خَلَفَ الأنبياء في الدعوة والتذكير، والإنذار والتبشير، وحَرَّك الإيمان في النفوس، وقَام في وَجْه المادية الجارفة في عصره فَحدَّ من تأثيرها وأنقذ خلقاً كثيراً من الإندفاع والغَرق فيها، ولكل من حَفظَ هذه الأمة وقوتها السياسية من الانهيار ومن أن تكون فريسة للغارات الأجنبية، ولمن أخضع بدعوته الحكيمة الرفيقة عدواً لم تعمل فيه السيوف، ولم تُقاومه الجنود وَحَّطم العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، فَسَخَّره أصحاب الدعوة بقوتهم الروحية وإيمانهم القوي للإسلام وجعلوه من أتباع محمد عليه الصلاة والسلام، ولمن أخضعَ بأدبه القوي وشعره البليغ عقولاً لم تخضعها المباحث العلمية والفلسفات الدينية، إلى غير ذلك، ولكُلٍّ فضل، وما التاريخ إلاَّ تأدية الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل والاعتراف بالفضل، وقد قام كل واحد منهم بدوره وساهم بقسطه، القسط المطلوب منه، وكُلٌّ كان مرابطاً على ثغر من ثغور الإسلام، وكلٌّ كان سهماً مصيباً في كنانة الإسلام، ولولا هذه الجهود المخلصة، ولولا هذه الأقساط التي قد لا تُرى إلاَّ بمكبّرة التاريخ، لما وصلت إلينا هذه المجموعة التي نعتز بها ونستند إليها ونقتبس منها النور سليمة موفورة نتباهى بها على الأمم والديانات»[(١)]

إن الإسلام وإن كان مُؤَسَّساً على عقائد ثابتة وحقائق خالدة، فإنَّه زاخر بالحياة، حافل بالنشاط، له من الحيوية مَعين لا ينضب، ومادة لا تنفد، صالح لكل زمان ومكان، وعنده لكل طور جديد من أطوار الحياة ولكل جيل حديث من أجيال البشرية، ولكل عهد مستأنف من عهود التاريخ ولكل مجتمع عصري من مجتمعات البشر، مَدَد لا يقصر عن الحاجة ولا يتأخر عن الأوان. فنحن أمة الإسلام عندنا مكنون ثمين غائب

---

(١) أبو الحسن الندوي: «منحى جديد في التأريخ الإسلامي»، المسلمون، المجلد الخامس ص ٢٠ ـ ٢٥ بتصرف، وقد نشر البحث في كتاب: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» انظر ص ١١ ـ ٢٦ من المجلد الأول.

في تاريخنا وتراثنا العريق، فَلْنَتَقَصّ هذه الكنوز بعقل وهِمّة وجَدّ ويقظة و بَصَر وإدراك، وبأنَفَة من قبول الذّل والعار والمهانة.

ولنصبر على لأوَاء الطريق وَمَشَقَّتها ولا نجزع، ولنكن رابطي الجأش لا تستحوذ علينا المخاوف والرهبة. ولنستمع لنصيحة الإمام الحسن البصري رضي الله عنه: «إنَّ من يُخَوّفُك حتى تَلْقَى الأمْن، أشفق عليك مِمَّن يُؤَمِّنَك حتى تلقى الخوف».

يجب على أهل الإسلام ودعاة الإيمان وحملة القرآن ألا يغفلوا عن التاريخ، فإذا نحن أغفلناه ولم نتبين خطوطه بوضوح جَليّ، وفقه مُدرك لحركته، فكأنَّما أغفلناالحقيقة كلها،وأسقطناها إسقاطاً من عقولنا وتفكيرنا وحياتنا، وضربنا في تِيه طويل، ظُلمات بعضها فوق بعض، حتى غدا المسلمون في تخَبُّط مريج، فلاهم يُبصرون الحق، ولا هم يَتَبَيَّنون الطريق.. وصار المعروف والخير مُنكراً، وانتصب المنكر والشرّ لتراه القلوب الزائغة معروفاً، وأصبح أهل الحق مطارَدِين في بلاد الإسلام كلها، وأطبقت الظُلمة، والناس في ضلال بعيد، لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى، وهم يحثُّون الخُطى وراء كل ناعق يقودهم في سراب ضائع إلى الهلاك والبوار، يعيشون في ظلام قاتم لا يَتَلَمَّسون نوراً في ليل أسود قد طالت ساعاته، فقد تجاوزوا الحقيقة كثيراً. فهم في فساد غليظ، وخَلْط غالب، فقد أغفلوا جوهر الإسلام وطمسوه طمساً، وصار الإسلام بين ذويه أطلالاً خَرِبَة، وصوامع مُهدّمة، وأشباحاً لا روح فيها ولا حياة، ورموزاً لا تبعث على فَهْم أو تمييز..

لقد وصل المسلمون إلى حال زرية وهاوية سحيقة وذُلّ بائس.. وهل الإسلام إلاَّ العزة والكرامة والإباء؟؟.. فإذا ما انعدمت تعاليم الإسلام وانهارت قِيَم الدين في نفوس أصحابه، فهل من المستطاع إذاً أن نقول أن الإسلام مازال بخير، أو أن نقول أنه لم يبق منه غير القشور والأسماء المجردة؟! لقد طمّ الخَطْب، وطغى الهوى واستحكم على

القلوب، فإذا لم نهبّ، أهدرنا كل شيء، فكان ذلك خيانة للأمانة التي حملتها أمة خاتم الأنبياء.. رسالة السماء وتراث الأنبياء.

كان على الغافلين أن يتَنبَّهوا، وعلى الغارقين في نوم الغفلة أن يَهبُّوا، كي يُلبُّوا داعي الله﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا الله وللرسول إذا دعاكم لما يُحيـيكم**﴾[الأنفال: ٢٤].

استجيبوا لنداء الله.. استجيبوا إلى كتاب الله حتى تعلو بإيمانكم وترتفعوا إلى مستوى الأمانة.. إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة وبكل معاني الحياة..

إن الله يدعو المؤمنين إلى القرآن. إلى العقيدة التي تُحيـي القلوب والعقول، وتطلقها من الخضوع المذلّ للأسباب الظاهرة والحتميات القاهرة، ومن العبودية لغير الله والمَذَلَّة للعبيد وللشهوات سواء..

إنه يدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم وشريعتهم، والثقة بدينهم وبربهم.. يدعوهم للجهاد في سبيل الله حتى تكون كلمة الله هي العليا.

وحَسْبُنَا أن الإسلام يعتمد على خلوده، ونضارة رسالته، وتجدّد دعوته على كتاب الله ـ سبحانه ـ مُعجزة الدهر، وصوت الحق المبين. فهو باق محفوظ لا يندثر ولا يتبدّل. ولا يلتبس بالباطل ولا يمّسه التحريف، وهو يقود المسلمين إلى الحق برعاية الله وحفظه، إن كانوا يريدون الحق..

إن هذا القرآن ما مَسّ قلباً غابت عنه الحركة، إلاَّ نَبَضَ بالحياة، وتلك قُدرة قادرة، ومُعجزة ساحرة، كسائر مُعجزات الحياة، فالشأن في كتاب الله وسرّه العجيب في القلوب هو الشأن في خَلْق الله جميعاً. وهو مثل صُنع الله في كل شيء وصُنع الناس. إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات. فإذا أخذ الناس هذه الذرات فقصارى ما

يصوغونه منها لبنة أو آجرة، أو آنية أو اسطوانة، أو هيكل أو جهاز كائناً في دقته ما يكون. ولكن الله المبدع يجعل من تلك الذرات حياة. حياة نابضة خافقة. تنطوي على ذلك السرّ الإلهي المعجز.. سرّ الحياة.. ذلك السرّ الذي لا يستطيعه بشر، ولا يعرف سرّه بشر.. وهكذا القرآن.. حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاماً وأوزاناً، ويجعل منها القرآن قرآناً وفرقاناً، والفرق بين صُنع البشر وصُنع الله من هذه الحروف والكلمات، هو الفرق مابين الجَسَد الخامد والروح النابض. هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة!

وهذا القرآن هو كتاب الله، كتاب هذه الدعوة.. هو النور.. وهو الروح، وهو الدستور والمنهج، وهو الذي يستمد منه الدعاة والمصلحون والمسلمون منهج الحياة وزاد الطريق. هذا القرآن الذي إذا دخل إلى القلب الميت أحياه، وإذا لا مَسَ النفس الإنسانية الساهية الغافلة أيقظها. ولو أن عشرات ومئات الملايين من الذين يَدَّعون الإسلام تَيَقَّظَ فَهْم معنى الحياة التي يقذف بها القرآن في نفوس أتباعه، هل كانت حالهم تظل على ماهي عليه الآن من ضعف وذلّ واستكانة وتشريد واستخفاف بهذا الدين وأهله...!

لا بد أن يهبّ الدعاة والمصلحون.. يجب على هذه الشخصيات العظيمة التي اختارها الله لحمل الأمانة وتبليغ الرسالة بعد خاتم النبيين ﷺ أن تُعيد الحياة والشباب إلى الدعوة الرشيدة، وأن توجد في المسلمين الثقة بدينهم، وتنفض عنهم غبار السنين الماضية وركام المادية والإلحاد والفساد..

يجب على رجال الدعوة والإصلاح أن يعرضوا الإسلام في صورته الصادقة، ويدعوا إلى أصل الدين وحقيقته دعوة قوية، ويحاربوا المادية والترف الذي ابْتُلي به أتباع هذا الدين، ويوجدوا بإيمانهم القوي

وبروحانيتهم الصادقة وبجهادهم المتواصل روحاً جديدة في هذه الأمة وثقة جديدة بدينهم.

إن هذا القرآن يعرض قصص الأنبياء، وسلوك هؤلاء الأصفياء في الدعوة، كما يقص سيرة الأولياء، وسبيل المؤمنين، وهذا كله يكون قبساً يُضيء للسائرين دَرْبَ الحق، ونوراً يهتدى به المؤمنون في تيه الجاهلية وظلام المادية القاتم.. هذا القرآن العظيم بجملته دعوة للجماعة الإسلامية في كل زمان ومكان كي تُحقق في ذاتها حقيقة إيمانها. هذه الحقيقة التي تخلص بها النفوس لدعوة الله، فلا تَضنّ عليها بشيء، ولا تحتجز دونها شيئاً.. لا الأرواح ولا الأموال، ولا خلجات القلوب ولا ذوات الصدور.. وهي الحقيقة التي تستحيل بها النفوس رَبَّانية بينما تعيش على الأرض. موازينها هي موازين الله، والقيم التي تَعتزّ بها وتُسابق إليها هي القيم التي تَثقل في هذه الموازين. كما أنها هي الحقيقة التي تُشعر القلوب بحقيقة الله، فتَخشع لذكره، وتَرْجف وتَفرّ من كل عائق وكل جاذب يعوقها عن الفرار إليه.

لقد حاول أعداء الذين قروناً عبر قرون أن يسحقوا الإسلام ويبيدوا أهله في كل زمان وفي كل مكان منذ أن أخذت الغفلة مكاناً في بلاد الإسلام، ويأخذ التأمُّل مكانه في تفكير كل مسلم غيور وهو ينظر في واقع المسلمين، ويسمع بأسَىٰ حوادث تقتيلهم، وسفح دمائهم، وتشريدهم، هنا وهناك، ويعود التَأمُّل من جولته في هذا العالم الظالم الآثم الذي يُلاحق طيف المسلم وظلّه في كل مكان. يعود التأمُّل مُنكَّساً جناحيه، يُبلِّل الدمعُ ألوانه، حزيناً، قد تعبت روحه في متاهات الشرّ والباطل التي أطبقت على هذه الأرض.. هاهو ذا يرسم صور المأساة المؤلمة. مصائب مُنكرة قد بعثرت الفكر والعقل، فشلّت خيوطه وقطّعت خطوطه قوافل المسلمين الحيارى في عتمة هذا الظلام الأسود.

ويجلس المؤمن دامعَ القلب، مُهيّج الشَجَن، بين أَمل مُشْرق في الله

رغم كل هذه المحن والبلايا المُتثاقلة في ضباب كثيف، وحَسرة موجعة تُراوده أشباحها في ملايين المسلمين..

إن الحسرة لا تُغني، وإن تَمطَّت النفس وقالت: وما أنا حتى أحملُ رسالة الإسلام!! وهنا ينطق القلب بلغة الحق ولسان اليقين: هل من مفر؟! أين المفرّ..؟! إلى ربِّك يومئذ المستقر.. **﴿وقفوهم إنَّهم مسؤولون﴾**هل في كتاب الله آية واحدة أيها المسلم تعفيك من المسؤولية وتجعلها في عنق صاحب فضيلة أو صاحب سيادة؟! أليس هكذا بدأ الدين منذ عَرَفتْه البشرية على هذه الأرض وجاء به أنبياء الله ورسُله: نوح وهود وصالح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؟.

أليس هكذا بدأ خاتم النبيين محمد ﷺ دعوته بقلّة من الرجال والنساء، وتُؤذَى أشدّ الأذى حتى أَذِنَ الله بالفتح والنصر، وكان ما كان؟ وهو طريق كل نبي ورسول في دعوته ورسالته..

إن بذرة الإيمان التي جَهِدَ أعداء الإسلام أن يدفنوها في ظُلمات الأرض وقَبْر التراب، فهل تراها ماتَتْ وغشَّاها البلى؟.. وهل انطفأت نيران حياتها؟ مع طول بقائها في ظُلمات الأرض؟..كلا.. لقد ألقت عن كاهلها ثقل الموت، واستعادت حياتها من جديد، وتوشحت بأجمل الأبراد، وأحلى الأثواب، فقامت دعوة الإيمان هنا وهناك.

علينا أن نَتَلمَّس النور من ربّ العالمين، ونمضي على سنّة الله في الدعوة، وبين أيدينا القرآن الكريم، ميراث النبوة والأنبياء المذخور، ونسير وراء الخطوات التي رَسَمها الله في كتابه، ثم نسترشد أعْلام الإيمان، ومعالم المجاهدين الذين ضربوا أروع أمثلة عرفتها البشرية في تحقيق الإيمان في نفوسهم، وفي البذل والتضحية بأرواحهم وأموالهم، في خلوص نادر، وتَجَرُّد كامل، وانطلاق من أوهاق الأرض ومُعوّقات الطريق إلى الله..

وهذا الكتاب قد استخرجتُ فصوله من كُتب وأقوال العلماء العاملين المجاهدين، وكتاب «في ظلال القرآن» المستوحى من القرآن الكريم ومن توجيهاته الأساسية التي حولت سير تاريخ الإنسانية، وإن هذه التوجيهات باقية تنتظر لتتمثل في نفوس صفوة من الناس لتسير حيث يشاء الله.

نحن في هذا الكتاب مع أحداث سيرة الأنبياء في المجتمع الإنساني، مع كل جماعة مؤمنة نشأت على الإسلام، عَبْر الأيام، حيث سنرى كيف تُربّى وتُقوَّم، ونُعدّ للنهوض بحمل الرسالة والخلافة في الأرض، فَيُنْشئها الله إنشاءً يبدأ من بَعْثِ تصوّر جديد كامل لهذه الحياة، وإقامة حياة واقعية على أساس هذا التصور..

لقد كان أولئك المؤمنون عَبْرَ تاريخ البشرية الذين يُعِدّهم الله لهذا الدور العظيم، ناساً من الناس آمنوا بالله حقاً، واكتمل تَصوّرهم للعقيدة الربانية، وخلصت نفوسهم لها، ووصلوا إلى حقيقة وجودهم وحقيقة هذا الوجود الكبير، وأصبحوا طَرفاً من قَدَر الله في الكون، فلا يجدون في قلوبهم شيئاً إلاَّ الله، هذا هو مثل الإسلام الأعلى: علم صحيح، وعمل صادق لوجه الله لا يعرف اليأس ولا الوهن.

إنَّ هذا الدين إن لم تُترجم مبادئه وشرائعه إلى أعمال وسلوك ووقائع، فسيكون إذاً فلسفة مُجردة، وأبحاث عامة، ولن يكون ديناً أبداً بأي حال من الأحوال!.

ونَتَلَمَّس في هذا الكتاب كيف اقتضت تربية النفوس وإعدادها جهوداً ضخمة، وصُبْراً طويلاً، وعلاجاً بطيئاً، في صغار الأمور وكبارها.. كانت حركة بناء هائلة هذه التي قام بها الرسل والأنبياء. بناء النفوس التي تنهض برسالة السماء في خلافة الأرض لإقامة المجتمع الإنساني على منهج الله.

كما نشهد في هذا الكتاب صورة موحية من رعاية الله للمؤمنين،

فهو يضع هذه الجماعة المسلمة على عَينه، ويُربيها بمنهجه، ويُشعرها برعايته، ويَبني في ضميرها الشعور الحيّ بوجوده ـ سبحانه ـ معها في أخص خصائصها، وأصغر شؤونها، وأخفى طواياها، وحراسته من كيد أعدائها خفيه وظاهره؛ وأخْذَها في حِماه وكنفه، وضمّها إلى لوائه وظلّه.

هذا الكتاب عَرْض لحقيقة الدين، ومفهوم الإسلام الحنيف على المسلمين أنفسهم، عرضاً قرآنياً، عرضاً فطرياً بسيطاً، كما عرضه كتاب الله وسنّة رسوله محمد ﷺ، على النحو الذي عرفه أصحاب النبي ﷺ والتابعون لهم بإحسان، قبل تَبَلْبُل الأفكار، وتفكّك عُرى التقوى، وغَلبة الدنيا، واستبداد الأهواء بالجماعات والأفراد على السواء، ونَبْذ كتاب الله وراء الظهور، وترك العمل به، وإبعاده عن مجال الحياة والتفكير..

إن كتاب الله الهُدَى حقيقته، والهدى طبيعته، والهدى كيانه، والهدى ماهيته. ولكن لمن؟ لمن يكون هذا الكتاب هدى ونوراً ودليلاً ناصحاً مبيناً؟.

هدىً ونوراً لمن فتح مغاليق قلبهِ لتلَقّي الحقيقة، فيدخل النور ويؤدي دوره هناك. لا بد لمن يريد أن يجد الهدى في القران أن يجيء بقلب سليم.. بقلب خالص.. ثم أن يجيء إليه بقلب يخشى ويتوقى، ويحذر أن يكون على ضلالة أو تستهويه ضلالة..

وبعون الله وفضله قمتُ بترتيب الكتاب وفَهْرَسَتِهِ ليسهل على المؤمنين الوقوف على حقيقة رسالة الإسلام حتى يعلم الجميع أن مسؤولية ماآلت إليه حال المسلمين في ديار الإسلام واقعة على المسلمين جميعاً، لا يُستثنى من ذلك أحد..

إن أصحاب قضية الإسلام والمسلمين هم الذين يحملون القرآن الكريم كتاباً حيّاً يخاطب قلوبهم وعقولهم، وينهضهم إلى إحقاق حقه، وإبطال باطله، في أنفسهم وفي الناس، هم الذين يُثيرهم انتهاك حرمة من

حرمات الإسلام، بل حرماته جميعاً، كما يُثيرهم نزاع إرث أو غصب مال أو افتئات على حق خاص.

ويتضمن هذا الكتاب المواضيع التالية:

ـ **أولاً**: آدم ـ **عليه السلام وفجر البشرية**

وتضم هذه الدراسة قسمين:

القسم الأول: **المدخل** الذي يشمل ثلاثة أبواب:

١ ـ صور من ذاكرة الأيام، ومعالم في فقه التاريخ.

٢ ـ السنّة الراشدة في مفهوم النبوّة والرسالة الواحدة.

٣ ـ القصة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

القسم الثاني: **آدم عليه السلام وبنيه**، ويشمل هذا القسم الدراسات التالية:

١ ـ قصة آدم عليه السلام.

٢ ـ قصة ابني آدم.

٣ ـ قصة نوح عليه السلام.

٤ ـ قصة هود عليه السلام.

٥ ـ قصة صالح عليه السلام.

ـ **ثانياً**: **قصة إبراهيم عليه السلام وبنيه**، ويشمل هذا المجلد الدراسات التالية:

١ ـ إبراهيم عليه السلام.

٢ ـ قصة لوط عليه السلام.

٣ ـ قصة إسماعيل عليه السلام.

٤ ـ قصة يوسف عليه السلام.

٥ ـ قصة شعيب عليه السلام.

ـ **ثالثاً: قصة موسى عليه السلام وبني إسرائيل**، ويشمل هذا المجلد الدراسات التالية:

١ ـ قصة يعقوب عليه السلام، وبني إسرائيل من قَبل موسى عليه السلام.

٢ ـ قصة موسى عليه السلام، وتضم:

القسم الأول: موسى عليه السلام وفرعون.

القسم الثاني: موسى عليه السلام وبني إسرائيل.

ـ **رابعاً: قصة بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام**، وتشمل هذه الدراسة الأقسام التالية:

١ ـ سنّة الله والتمكين لبني إسرائيل في الأرض.

٢ ـ قصص الإيمان واليقين، والصبر الجميل.

٣ ـ القصة الواضحة في المسيحية الناصعة.

٤ ـ صفحات من السجل الأسود لبني إسرائيل.

٥ ـ من قصص الرحمان.

وبعد، نَسأل المولى جَلَّت قُدرته أن يَنفعنا جميعاً بالقرآن الكريم أَحسنَ انتفاع، عقيدة، وشريعة، وأخلاقاً، وسُلوكاً، وآداباً، وأَن يُعيننا على القيام بِحَمل الأَمانة وتَبليغ الرسالة، ويمدّنا بِحَوْله وقُوّته، فهو وَحده المُستعان، وله الحمد والمِنّة، ومنه الجزاء والثواب، وإليه المرجع والمآب، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلتُ وإليه أُنيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

آدم ـ عليه السلام ـ وفَجْر البَشَريّة

القسم الأول: المَدْخَل

القسم الثاني: آدم ـ عليه السلام ـ وبنيه

القسم الأول - المدخل

ـ الباب الأول: صور من ذاكرة الأيام، ومعالم في فقه التاريخ.
ـ الباب الثاني: السُّنَّة الراشدة في مَفهوم النُّبوَّة والرسالة الواحدة.
ـ سماتها وخصائصها ونظامها ـ
ـ الباب الثالث: القصة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.
ـ خصائصها وأغراضها ـ

الباب الأول

صور من ذاكرة الأيام، ومعالم في فقه التاريخ

صور من ذاكرة الأيام، ومعالم من فقه التاريخ

ميزان العقيدة :

إن الجاهلية ليست فترة من الزمان ؛ ولكنها حالة ووضع يتكرر ـ في أشكال شتى ـ على مدار الزمان. فإما أُلوهية واحدة تقابلها عبودية شاملة؛ وتتجمع فيها كل ألوان السلطة، وتتجه إليها المشاعر والأفكار، والنوايا والأعمال، والتنظيمات والأوضاع، وتتلقى منها القيم والموازين، والشرائع والقوانين، والتصورات والتوجيهات. . وإما جاهلية ـ في صورة من الصور ـ تتمثل فيها عبودية البشر للبشر أو لغيرهم من خَلق الله. . لا ضابط لها ولا حدود، لأن العقل البشري لا يصلح وحده أن يكون ضابطاً موزوناً ما لم ينضبط هو على ميزان العقيدة الصحيحة. فالعقل يتأثر بالهوى كما نشهد في كل حين؛ ويفقد قُدرته على المقاومة في وجه الضغوط المختلفة ما لم يقم إلى جانبه ذلك الضابط الموزون. ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعُوه ولا تتبعوا السُبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وإننا لنشهد ـ بعد أربعة عشر قرناً من نزول هذا القرآن بهذا البيان ـ أنه حيثما انفك رباط القلب البشري بالإلّه الواحد، تاهَ في مُنحنيات ودروب لا عداد لها، وخضع لربوبيات شتى، وفَقَد حريته وكرامته ومقاومته.

لقد كان أكثر مَن في الأرض حين نزل القرآن ـ كما هو الحال اليوم بالضبط ـ من أهل الجاهلية. . لم يكونوا يجعلون الله هو الحَكَم في أمرهم

كله، ولم يكونوا يجعلون شريعة الله التي في كتابه هي قانونهم كله. ولم يكونوا يستمدون تصوراتهم وأفكارهم، ومناهج تفكيرهم ومناهج حياتهم من هدى الله وتوجيهه.. ومن ثم كانوا ـ كما هو الحال اليوم ـ في ضلالة الجاهلية؛ لا يملكون أن يشيروا برأي ولا بقول ولا بحكم يستند على الحق ويستمد منه؛ ولا يقودون مَن يُطيعهم ويتبعهم إلا إلى الضلال.. كانوا ـ كما هم اليوم ـ يتركون العمل المستيقن ويتبعون الظن والحدس.. والظن والحدس لا ينتهيان إلا إلى الضلال.

إن كلمة الله هي الصدق ﴿**وتمت كلمة ربك صِدْقاً وعدلاً، لا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم**﴾ [الأنعام: ١١٥]..

لقد تمت كلمة الله ـ سبحانه ـ في هذا الوجود ـ صدقاً ـ فيما قال وقرر ـ وعَدْلاً ـ فيما شرع وحَكَم ـ فلم يبقَ بعد ذلك قول لقائل في عقيدة أو تصور أو أصل أو مبدأ أو قيمة أو ميزان. ولم يبقَ بعد ذلك قول لقائل في شريعة أو حكم، أو عادة أو تقليد.. ولا مُعقب لحكمه ولا مجير عليه، وهو ـ سبحانه ـ يسمع ما يقوله عباده، ويعلم ما وراءه، كما يعلم ما يَصلح لهم، وما يُصلحهم..

إن البشر يتيهون عن الحق ولا يعرفونه أبداً إلا إذا أخذوه من ذلك المصدر الوحيد المستيقن ﴿**أَفَمن يمشي مُكبًّا على وجهه أهدى؟ أم مَن يمشي على صراط مستقيم؟**﴾ [الملك: ٢٢].. والذي يمشي مكباً على وجهه إما أن يكون هو الذي يمشي على وجهه فعلاً لا على رجليه في استقامة كما خلقه الله، وإما أن يكون هو الذي يعثر في طريقه فينكبّ على وجهه، ثم ينهض ليعثر من جديد! وهذه كتلك حال بائسة تعاني المشقة والعسر والتعثر، ولا تنتهي إلى هدى ولا خير ولا وصول! وأين هي حال الذي يمشي مستقيماً سوياً في طريق لا عوج فيه ولا عثرات، وهدفه أمامه واضح مرسوم؟!

إن الحال الأولى هي حال الشقي المنكود الضال عن طريق الله،

المحروم من هداه، الذي يَصْطدم بنواميسه ومخلوقاته، لأنه يعترضها في سَيره، ويتخذ له مساراً غير مسارها، وطريقاً غير طريقها، فهو أبداً في تعثُّر، وأبداً في عناء، وأبداً في ضلال.

والحال الثانية هي حال السعيد المجدود المهتدي إلى الله، الممتَّع بهداه، الذي يسير وفق نواميسه في الطريق اللاحِب المعمور، الذي يسلكه موكب الإيمان والحمد والتمجيد. وهو موكب هذا الوجود كله بما فيه من أحياء وأشياء.

إن حياة الإيمان هي اليسر والاستقامة والقصد. وحياة الكفر هي العسر والتعثر والضلال..

فأيهما أهدى؟ وهل الأمر في حاجة إلى جواب؟ إنما هو سؤال التقرير والإيجاب!

فالجاهلية هي الجاهلية مهما كثر أتباعها الضالون: ﴿**وإن تطع أكثر مَن في الأرض يضلوك عن سبيل الله. إن يتبعون إلا الظن، وإن هم إلا يخرصون**﴾ [الأنعام: ١١٦]، ثم يقرر القرآن الكريم بأن الذي يحكم على العباد بأن هذا مهتد وهذا ضال هو الله وحده. لأن الله وحده هو الذي يعلم حقيقة العباد، وهو الذي يقرر ما هو الهدى وما هو الضلال: ﴿**إن ربك هو أعلمُ مَن يَضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾ [الأنعام: ١١٧].

فلا بد من قاعدة للحكم على عقائد الناس وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ونشاطهم وأعمالهم. لا بد من قاعدة لتقرير ما هو الحق وما هو الباطل في هذا كله ـ كي لا يكون الأمر في هذه المقومات هو أمر هَوى الناس المتقلب واصطلاحهم الذي لا يقوم على علم مستيقن.. ثم لا بد من جهة تضع الموازين لهذه المقومات، ويتلقى منها الناس حكمها على العباد والقيم سواء.

والله سبحانه يقرر أنه هو ـ وحده ـ صاحب الحق في وضع هذا

الميزان. وصاحب الحق في وزن الناس به، وتقرير مَن هو المهتدي، ومَن هو الضال.

إنه ليس هو «المجتمع» هو الذي يصدر هذه الأحكام وفق اصطلاحاته المتقلبة.. ليس المجتمع الذي تتغيَّر أشكاله ومقوماته المادية، فتتغير قيمه وأحكامه.. حيث تكون قِيَم وأخلاق للمجتمع الزراعي، وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الصناعي، وحيث تكون هناك قيم وأخلاق للمجتمع الرأسمالي البرجوازي، وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الاشتراكي أو الشيوعي.. ثم تختلف موازين الناس وموازين الأعمال وفق مصطلح هذه المجتمعات!

الإسلام لا يعرف هذا الأصل ولا يقره.. الإسلام يعين قيماً ذاتية له يقررها الله ـ سبحانه ـ وهذه القيم تثبت مع تغير «أشكال» المجتمعات.. والمجتمع الذي يخرج عليها له اسمه في المصطلح الإسلامي.. إنه مجتمع غير إسلامي.. مجتمع جاهلي.. مجتمع مُشرك بالله، لأنه يَدَع لغير الله ـ من البشر ـ أن يصطلح على غير ما قرره الله من القيم والموازين والتصورات والأخلاق، والأنظمة والأوضاع.. وهذا هو التقسيم الوحيد الذي يعرفه الإسلام للمجتمعات وللقيم والأخلاق.. إسلامي وغير إسلامي.. إسلامي وجاهلي.. بغض النظر عن الصور والأشكال!!

إن الله ـ سبحانه ـ حين خلق هذا الإنسان يَعلم فطرته وما جُبلت عليه من نوازع الخير والشر، وطبيعة الحياة على هذه الأرض، وما يختلط فيها من معاني الظلمة والنور: تكفَّل بمحض فضله ورحمته أن يمدّ يده لعباده ولا يتركهم حيارى: ﴿**فإما يأتينكم مني هُدى فمَن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ [البقرة: ٣٨]. فبعث في الناس من أنفسهم رسلاً، وأنزل عليهم كتباً ترسم للإيمان سبيله وتقيم للحياة الفاضلة موازينها: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾ [الحديد: ٢٥]. حتى إذا كان خاتم الرسل محمد ـ ﷺ ـ تنزّل عليه الوحي بالشريعة الخالدة: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنتَ تدري ما**

الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به مَن نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي لـه ما في السمـوات وما في الأرض ألا إلى الله تصيــر الأمـور﴾ [الشــورى: ٥٢ ـ ٥٣]. ولم ينتقل الرسول ـ ﷺ ـ إلى الرفيق الأعلى حتى بيَّن للناس ما نزّل إليهم وتركهم على المحجة البيضاء والطريق الواضحة، وحتى شهد الله بتمام ذلك كله: **﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإســلام دينـاً﴾** [المائدة: ٣]. وحتى أشهد الرسول ـ ﷺ ـ ربَّه وأصحابه في حجة الوداع على ذلك:

«أيها الناس: اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً... فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلَّغت، وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلُّوا أبداً، كتاب الله وسنّة نبيّه... اللهم هل بلغتْ؟ فقال الناس: اللهم نعم! فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اللهم اشهد!».

ومضى رسول الله ـ ﷺ ـ إلى عليين بعد أن بَلَّغ ما أُرسلَ به من ربه، وتركه أمانة كاملة في أعناق الذين اتبعوه؛ وقـام الخليفة الـراشد «أبـو بكر الصدّيق» يحملها ويمضي بها، وكانت سيرته في خلافته تقديسه لهذه **الأمانة ورعايته** لكل معانيها، وقد وقف على **مواطىء أقدام النبوة** لا يرى في الأرض طريقاً غير طريقها: قام والمسلمون كما يقول عروة بن الزبير كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيّهم ـ ﷺ ـ وردّة من ارتد، وأراد أبو بكر بالرغم من ذلك أن يبعث جيش أسامة بن زيد إلى الشام تنفيذاً لرغبة رسول الله ـ ﷺ ـ ووصيته، فقام أهل الرأي يقولون: «إن جيش أسامة يضمّ جلّ المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك وليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين». فلم يكن من أبي بكر إلا أن قال: «والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننتُ أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ـ ﷺ ـ، ولو لم يبقَ في القرى غيري لأنفذته». ثم هوذا رضي الله عنه وأرضاه يواجه المرتدين جميعاً كالأسد الهائج وهو يردد: «أينتقص الدين وأنا حي؟ والله

لأقاتلن مَن فَرَّق بين الصلاة والزكاة. . . والله لأقاتلنهم ما استمسك السيف بيدي. . . ».

وقد شهد التاريخ كيف كانت عاقبة صدق الخليفة الراشد وغيرته على أمانة الله كاملة: جاء في البداية والنهاية:

ش٦ «كان خروج أسامة في ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك، فساروا لا يمرّون بحيّ من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم؛ وقالوا: ما خرج هؤلاء عن قوم إلا وبهم منعة شديدة، فكفُّوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه».

الردّة الكبيرة:

لقد جاء القرآن الكريم والعرب في جاهلية، والدنيا لا تحسّ بهم، وإن أحسَّت اعتبرتهم على هامش الحياة، وهو الذي جعل لهم دورهم الأكبر في تاريخ هذه البشرية، وهو الذي واجهوا به الدنيا فعرفتهم ودانت لهم طوال الفترة التي استمسكوا فيها به، فلما أن تخلوا عنه أنكرتهم الأرض، واستصغرتهم الدنيا، وقذفت بهم في ذيل القافلة هناك، بعد أن كانوا قادة الموكب المرموقين.

ونتطلع إلى المفارقة بين أهل القرآن وحملة هَدْيه ونوره. . . بين الرعيل الأول من المؤمنين الأتقياء وبين الذين خلفوهم بأسمائهم فقط. . فإذا المفارقة صارخة، والمسافة شاسعة، والهوة عميقة، والفارق كبير بين السلف والخلف. . خلف من بعدهم خلف بعيدون عن الله. بعيدون عن منهجه وحكمه. . أضاعوا شرع الله وانتهكوا حرماته، فتركوا رسالة رسولهم وجحدوها، واتبعوا الشهوات واستغرقوا فيها. فما أشد المفارقة!!، وما أبعد الشبه بين أولئك وهؤلاء!!.

ولو قدر لأجيال المسلمين المتلاحقة أن تتلقى الإسلام كما تلقاه أبو بكر وأن تغار غيرته على حرمات الله جميعاً، لظل السراج في أيديهم يُرسل نوره، ولظلوا به على هدى مستقيم ﴿**وأن لو استقاموا على الطريقة**

لأسقيناهم ماءً غدقاً﴾ [الجن: ١٦]. . ولكن. . ولكنهم طال عليهم الأمد فَقَسَت قلوبهم وغشيتهم غواشي الشهوة والجهل والنسيان، فانطمست المعالم القدسية لدين الله في أنفسهم ورؤوسهم، وباتوا يرثون إسلامهم وراثة من الآباء والأمهات، وباتت ملايين المسلمين تولد مسلمة قضاءً وقَدَراً، وتبقى مسلمة بشهادات الميلاد، وبما يصل إليها من أمر الإسلام سليماً أو مشوهاً. . أما الإسلام في ذاته: كما أنزله الله وبلَّغهُ رسوله وجاهد في سبيله أبو بكر والمؤمنون الصادقون عبر القرون والسنين؛ فإنك لا تجده في واقع المسلمين، بل إنه ليدهشك أن تجد الكتاب والسنّة محفوظين في مكاتب المسلمين، يتغنى بهما ويتبرك بهما، ثم تراهما في العمل يؤخذ منهما ويُترك بالهوى. .

يقول العلاّمة الإسلامي الكبير أبو الحسن الندوي: «شهد التاريخ الإسلامي حوادث ردّة عديدة، أبرزها وأعنفها ردّة القبائل العربية على إثر وفاة الرسول، الردّة الكبيرة التي وَأدها أبو بكر الصديق في مهدها بإيمانه وعزمه الذي ليس له مثيل في التاريخ؛ ومنها حركة التنصُّر التي انتشرت في إسبانيا على أثر جلاء المسلمين، والتي ظهرت في بعض الأقطار التي استولت عليها الدول الغربية المسيحية، ونشط فيها القسوس و«الإرساليات»؛ ومنها قضايا شاذة، من ارتداد بعض ضعاف العقول وصغار النفوس من المسلمين عن دين الإسلام واعتناقهم البرهمية أو الآرية في الهند، ولكنها حوادث نادرة جداً، وفي الحقيقة إنّ تاريخ الإسلام لا يعرف الردّة العامة أبداً. . .

وتتسم هذه الحوادث كلها بسمتين: أولاهما المقت الشديد من المسلمين، والثانية الانفصال عن المجتمع الإسلامي، فكان كل مَن يرتدّ عن دينه يستهدف لسخط المسلمين الشديد، وينفصل عن المجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه بطبيعة الحال، وتنقطع بمجرد ارتداده بينه وبين ذوي قرابته الأواصر والأرحام، وكانت الردة انتقالاً من مجتمع إلى مجتمع ومن حياة إلى حياة، وكانت الأسرة تقاطع المرتد وتهجره وتقصيه، فلا

مصاهرة، ولا زواج، ولا إخاء، ولا توارث، وكانت حركات الردة تثير روح المقاومة في المسلمين والمقارنة بين الديانات، والدفاع عن الإسلام، وكل قطر من أقطار المسلمين ظهرت فيه حوادث الردّة تحمّس علماء المسلمين ودعاة الإسلام وحمَلَة الأقلام، واجتاحت المجتمع الإسلامي موجة عنيفة من السخط والاستنكار والقلق، وكانت هذه الحوادث المقيمةَ المقعدةَ للمسلمين، وكانت الحديث العام، والشغلَ الشاغل للعامة فضلاً عن الخاصة وأهل الغيرة الدينية. هذا ما اتسمت به حوادث الردة على ندرتها وشذوذها وعلى عدم تأثيرها في الحياة.

ولكن جرّب العالم الإسلامي في العهد الأخير ردّة اكتسحت عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه، وبذّت جميع حركات الردّة التي سبقتها في العنف وفي العموم، وفي العمق وفي القوة، ولم يخلُ منها قطر، وقلما خلت منها أسرة من أسر المسلمين. هي ردّة تلت غزو أوربا للشرق الإسلامي والغزو السياسي والثقافي، وهي أعظم ردّة ظهرت في عالم الإسلام وفي تاريخ الإسلام من عهد الرسول ـ ﷺ ـ إلى يومنا هذا.

ماذا تعني الردّة في عرف الإسلام وفي مصطلح الشريعة الإسلامية؟ هي إبدال دين بدين وعقيدة بعقيدة، وإنكار ما جاء به الرسول وتواترَ عنه وثبت بالضرورة من دين الإسلام.

وماذا كان يفعل المرتد؟ ينكر رسالة محمد ـ ﷺ ـ وينتقل إلى المسيحية أو اليهودية أو البرهمية، أو يلحد في الدين وينكر الرسالات والوحي والمعاد. هذا ما كان يعرفه العالم القديم أو المجتمع القديم من معاني الردّة، وكان كل مَن يرتدُّ عن دينه يدخل الكنيسة إذا تنصّر أو يدخل الهيكل أو معبد الأصنام إذا اعتنق البرهمية مثلاً، فيعرف ذلك المجتمع، ويصبح شامة بين الناس يُشار إليه بالبنان، ويقطع منه المسلمون الأمَلَ، ولا يكون ارتداده ـ في غالب الأحوال ـ سراً من الأسرار.

حملت أوربا إلى الشرق الفلسفات التي قامت على إنكار أُسس الدين وإنكار القوة المصرّفة لهذا العالم، القوة الواعية التي أخرجت هذا العالم من

العدم إلى الوجود وبيدها زمام الكون ﴿**ألا له الخَلْق والأمر تبارك الله ربّ العالمين**﴾ [الأعراف: ٥٤]، وعلى إنكار عالم الغيب والوحي والنبوءات وإنكار الشرائع السماوية، وإنكار القيم الروحية والخلقية: منها ما تبحث في علم الحياة والنشوء والارتقاء، ومنها ما تتصل بالأخلاق، ومنها ما تدور حول علم النفس، ومنها ما موضوعها الاقتصاد والسياسة. ومهما اختلفت هذه الفلسفات في ألوانها وأهدافها وأسسها، فإنها جميعاً تلتقي على النظرة المادية المحضة إلى الإنسان وإلى الكون، والتعليل المادي لظواهرهما وأفعالهما.

غزت هذه الفلسفات المجتمع الشرقي الإسلامي وتغلغلت في أحشائه، وكانت أعظم ديانة[1] ظهرت بعد الإسلام في التاريخ، أعظمها انتشاراً وأعمقها جذوراً **وأقواها سيطرة على العقول والقلوب، وأقبل عليها** زهرة البلاد الإسلامية وزبدتها عقلاً وثقافة، وأساغتها وهضمتها ودانت بها ـ كما يدين المسلم بالإسلام والمسيحي بالمسيحية بكل معنى الكلمة ـ فهي تستميت في سبيلها وتقدّس شعائرها وتجلّ قادتها ودعاتها، وتدعو إليها في أدبها ومؤلفاتها، وتحتقر كل مَن يعارضها من الأديان والنظم والعقليات، تؤاخي كل مَن يدين بها، فأفرادها أمة واحدة وأسرة واحدة.

وما هذه الديانة وإن أبى أصحابها أن يسمُّوها ديانة؟ إنكار لفاطر الكون العليم الخبير الذي قدَّر فهدى، وإنكار للمعاد وحشر الأجساد ووجود الجنة

---

(١) إن مدلول الدين قد هزل وانكمش حتى صار لا يعني في تصور الجماهير الجاهلية إلا الاعتقاد والشعائر.. ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم ونوح إلى محمد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين. ولقد كان يعني دائماً: الدينونة لله وحده، ورفض ما يشرعه غيره وإفراده سبحانه بالألوهية في الأرض مثل إفراده بالألوهية في السماء وتقرير ربوبيته وحده للناس: أي حاكميته وشرعه وسلطانه وأمره. إن هذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة. إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله، فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين.

انظر الباب الأول: «الدين» من كتاب «طريق الدعوة» ـ مدلول كلمة الدين، ومفهوم الدين. ص ١٥ ـ ٢٦.

والنار، والثواب والعقاب، وإنكار النبوءات والرسالات، وإنكار الشرائع السماوية والحدود الشرعية، وإنكار أن الرسول الأعظم هو الذي فرض الله طاعته على جميع الخلق وحصر الهداية والسعادة في اتباعه، وأن الإسلام هو الرسالة الأخيرة الخالدة المتكفِّلة لجميع السعادات الدنيوية والأخروية ونظام الحياة الأمثل الأفضل، وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره ولا يسعد العالم سواه، وإنكار أن الدنيا خُلِقَت للإنسان وأن الإنسان خُلق للّه.

هذه ديانة الطبقة المثقفة الممتازة التي تملك زمام الحياة في أكثر البلدان الإسلامية وإن لم تكن كلها طبقة واحدة في الإيمان بها والتحمس لها، وفيها ولا شك مؤمنون بالله مُتدينون بالإسلام ولكن سمة هذه الطبقة التي تغلب عليها مع الأسف وديانة أكثر أفرادها ورؤسائها هي الديانة المادية وفلسفة الحياة الغربية التي قامت على الإلحاد.

إنها رِدَّة، أعود فأقول، اكتسحت العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، وغزت الأُسَر والبيوتات، والجامعات والكليات والثانويات والمؤسسات، فما من أسرة مثقفة ـ إلا مَن عصم ربك ـ إلا وفيها مَن يدين بها أو يُحبُّها أو يُجلُّها، وإذا استنطقته أو خلوتَ به أو أثرته عرفت أنه لا يؤمن بالله، أو لا يؤمن بالآخرة، أو لا يؤمن بالرسول ـ ﷺ ـ أو لا يؤمن بالقرآن ككتاب معجز خالد ودستور للحياة، وأفضلهم مَن يقول أنه لا يفكر في مثل هذه المسائل ولا يهتم بها كبير اهتمام.

إنها رِدَّة ولكنها لم تُلفت المسلمين، ولم تُشغل خاطرهم، لأن صاحبها لا يدخل كنيسة أو هيكلاً ولا يعلن رِدَّته وانتقاله من دين إلى دين ولا ينتبه لها المجتمع فلا يحاسبه ولا يعاتبه ولا يفصله بل يظل يعيش فيه ويتمتع بحقوقه وقد يُسيطر عليه؛ **إنها قضية العالم الإسلامي الكبرى**، إنها مشكلة الأمة الإسلامية الكبرى، رِدَّة تنتشر وتغزو المجتمع الإسلامي ثم لا ينتبه لها أحد، ولا يفزع لها العلماء والحكماء..

إنها قضية لا تطلب حرباً ولا تطلب تهييج الرأي العام، ولا تطلب

ثورة، ولا تطلب عنفاً، بل إن العنف يَضرها ويُهيجها، والإسلام لا يعرف محاكم التفتيش، ولا يعرف الاضطهاد، إنها تطلب عزماً وتطلب حكمة وتطلب صبراً واحتمالاً، وتطلب دراسة»[١].

لقد جذبت الحضارة الغربية رجالاً ونساءً مُحْدَثين كباراً نشأوا في زماننا، رضعوا من لِبان الهوى، ارتبطت ضمائرهم وعقولهم بغير ثقافة الأمة ودين الإسلام، رجال ونساء شربوا الكأس من المستشرقين وغدت علائقهم مُمزّقة كل التمزيق بأصول الماضي، فصاروا يكتبون في آداب اللغة وعلومها، والتاريخ، وتفسير القرآن وعلوم الحديث.. كتبوا باطلاً كالباطل، وأخذت الأجيال عنهم لكي يلتحقوا بثقافة العصر الذي نعيش فيه، وبمناهجه في التفكير.. رجال ونساء لأسمائهم دويٌّ وضخامة، وفي الحقيقة هي طبل فارغ، وزقٌ منفوخ مِلْؤه هواء، ونثروا في تفكير وعقول الأجيال من أوراق المستشرقين ألفاظ مزخرفة، وكلمات متلألئة، وعناوين جذّابة مثل قولهم: «**الجديد والقديم**» و «**الأصالة والمعاصرة**» و «**التجديد والتقدّم**»، و «**الثقافة العالمية**» و «**الحضارة العالمية**» و «**التخلف والتحضر**»..

هذه وغيرها كثير جداً، نثروها من أوراق المستشرقين، «ألفاظ وكلمات لها رنين وفتنة ولكنها مليئة بكل وَهْم وإيهام، وزَهْوٍ مميت فاتك، توغل بنا في طريق المهالك، تستنزل العقل حتى يرتطم في ردغة الخبال»[٢].

لقد جاء على المسلمين زمان ـ ما نزال نعانيه ـ ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم، وعن حماية عقيدتهم، وعن حماية نظامهم، وعن حماية أرضهم، وعن حماية أعراضهم وأموالهم وأخلاقهم. وحتى عن حماية عقولهم وإدراكهم! وغيَّر عليهم أعداؤهم الغالبون كل معروف عندهم، وأحلوا مكانه

---

(١) ردة جديدة، مجلة المسلمون، المجلد السادس، العدد الخامس ٤١٣ ـ ٤١٧.

(٢) أي طينته اللزجة، محمود شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ١١٤ وعنه نقلت هذه اللمحات بتصرف.

كل منكر فيهم . . كل منكر من العقائد والتصورات، ومن القيم والموازين، ومن الأخلاق والعادات، ومن الأنظمة والقوانين. . . وزينوا لهم الانحلال والفساد والتوقح والتعري من كل خصائص «الإنسان» وردوهم إلى حياة كحياة الحيوان. . وأحياناً إلى حياة يشمئز منها الحيوان. . ووضعوا لهم ذلك الشر كله تحت عنوانات برّاقة من «التقدم» و «التطور» و «العلمانية» و «العلمية» و «الانطلاق» و «تحطيم الأغلال» و «الثورية» و «التجديد». . . إلى آخر تلك الشعارات والعناوين. . وأصبح «المسلمون» بالأسماء وحدها مسلمين. ليس لهم من هذا الدين قليل ولا كثير. وباتوا غثاءً كغثاء السيل لا يمنع ولا يدفع، ولا يصلح لشيء إلا أن يكون وقوداً للنار. . وهم وقود هزيل! . .

معاول الهدم والتوهين:

وهكذا نرى أن أعداء الأمة الإسلامية لم يكونوا يحاربونها في الميدان بالسلاح فحسب؛ ولم يكونوا يؤلبون عليها الأعداء ليحاربوها بالسلاح فحسب. . إنما كانوا يحاربونها أولاً في عقيدتها، كانوا يحاربونها بالدس والتشكيك، ونثر الشبهات وتدبير المناورات! كانوا يعمدون أولاً إلى عقيدتها الإيمانية التي منها انبثق كيانها، ومنها قام وجودها، فَيُعْمِلون فيها مَعاول الهدم والتوهين. ذلك أنهم كانوا يدركون كما يدركون اليوم تماماً ـ أن هذه الأمة لا تُؤتى إلا من هذا المدخل، ولا تهن إلا إذا وهنت عقيدتها؛ ولا تهزم إلا إذا هزمت روحها، ولا يبلغ أعداؤها منها شيئاً وهي ممسكة بعروة الإيمان، مرتكنة إلى ركنه، سائرة على نهجه، حاملة لرايته، ممثلة لحزبه، منتسبة إليه، معتزة بهذا النسب وحده.

ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة هو الذي يُلهيها عن عقيدتها الإيمانية، ويحيد بها عن منهج الله وطريقه، ويخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة.

ويعاني أكثر المسلمين في كل مكان ذروة الاضطراب الفكري، الذي

أدَّى بهم إلى جهالة أليمة، أخذت بخناق الكثرة الغالبة منهم إلى عبودية للغرب.

معركة رهيبة يعاني الإسلام فيها مؤامرة خبيثة محكمة، وجولتها الحاسمة لن تكون حاسمة إلا حين يستبين المسلمون ملامح المعركة ويميزوا أطرافها..

ولكن هناك عصابة من المضللين الخادعين أعداء الدين. يضعون للمسلمين المكبَّلة عقولهم بأغلال ثقيلة، يضعون لهم المنهج الإلّهي في كفة والتقدم والإبداع في عالم المادة في الكفة الأخرى؛ ثم يقولون لهم: اختاروا!!! اختاروا إما المنهج الإلّهي في الحياة والبقاء على التخلف والفقر والتخلي عن كل ما أبدعته يد الإنسان في عالم المادة، وإما الأخذ في طريق التقدم وتناول ثمار المعرفة الإنسانية والتخلي عن منهج الله!!! وهذا خداع لئيم خبيث. فَوَضْع المسألة ليس هكذا أبداً..

إن المنهج الإلّهي ليس عدواً للإبداع الإنساني. إنما هو منشىء لهذا الإبداع ومُوَجِّه له الوجهة الصحيحة.. ذلك كي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض. هذا المقام الذي منحه الله له، وأقدره عليه، وَوَهبه من الطاقات المكنونة ما يكافىء الواجب المفروض عليه فيه؛ وسخّر له من القوانين الكونية ما يُعينه على تحقيقه، ونسّق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع.. على أن يكون الإبداع نفسه عبادة للّه، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام، والتقيد بشرطه في عقد الخلافة؛ وهو أن يعمل ويتحرك في نطاق ما يرضي الله، فأما أولئك الذين يضعون المنهج الإلّهي في كفة، والإبداع الإنساني في عالم المادة في الكفة الأخرى.. فهم سيئو النية، شريرون، يطاردون المسلمين المتعبين الحائرين كلما تعبوا من موقف عبوديتهم الذليل للغرب المستعلي..

لقد مضى القانون الطبيعي في سُنّة من سنن الوجود، أن كل أمة تستعمل ما آتاها الله من قوى الفكر والعقل، وتمضي قدماً «في طريق البحث

والتحقيق والاكتشاف تتمتع إلى جانب رقيّها الفكري بالرقي المادي أيضاً. وكل أمة تتقاعد عن السباق في حلبة التفكير والتعمق في العلم تُصاب مع انحطاطها العقلي بالتقهقر والاضمحلال المادي كذلك. ثم إنه لما كانت الغلبة[1] نتيجة القوة والمغلوبية عاقبة الضعف، فإن الأمم الضعيفة والمتخلفة من الجهتين المعنوية والمادية كلما تهبط في دركات الضعف والفتور تكون أصلح للعبودية وأكثر استعداداً للمحكومية، وتصبح الأمم القوية بالاعتبارين المادي والمعنوي حاكمة على عقولها وأجسامها.

«لا ريب أن المسلمين يعانون اليوم هذه العبودية المضاعفة، فمن أوطانهم ما قد خيمت عليه العبودية بنوعيها جميعاً، ومنها ما يقل فيه جانب العبودية السياسية ويرجح جانب العبودية المعنوية. ومن سوء الحظ أن ليست لهم على ظهر الأرض اليوم رقعة إسلامية واحدة مستقلة تمام الاستقلال من الوجهتين السياسية والمعنوية. وأما البلاد التي قد حصلت لهم فيها الحرية والاستقلال السياسي، فسكانها ليسوا متحررين فيها من ربقة العبودية

---

(١) يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي: «إن الحكم والسيادة والغلبة نوعان: أحدهما الغلبة المعنوية والخلقية والآخر المادية والسياسية. فأما الغلبة من النوع الأول فهي أن تتقدم أُمة في قواها الفكرية والعلمية تقدُّماً يجعل سائر الأمم تؤمن بأفكارها، فتتغلب نظرياتها على الأذهان، وتستولي منازعها ومعتقداتها على المشاعر، حتى تنطبع العقليات بطابعها وتكون «الحضارة» حضارتها و«العلوم» علومها، والتحقيق ما تقوم به، والحق ما هو عندها والباطل ما تحكم هي عليه بأنه باطل. وأما الغلبة من النوع الآخر فهي أن تبلغ أمة من شدة بأسها ومنعتها ومراسها مبلغاً لا تعود سائر الأمم تستطيع معه أن تحتفظ باستقلالها السياسي إزاءها. فتستبد هذه بما تملك الأمم من وسائل الثروة ـ كلّها أو جلّها ـ وتسطو ـ أو تكاد ـ على مقاليد حكمها وأمرها.

وكذلك الهزيمة نوعان: أحدهما الهزيمة الفكرية والآخر السياسية. وقس بيان هذين على ما سبق من بيان نوعي الغلبة.

وهذان النوعان للغلبة والاستيلاء منفصل بعضهما عن بعض من حيث لا يلزم أن توجد الغلبة المعنوية حيثما كانت الغلبة السياسية، كما لا يلزم أن تكون الغلبة المادية مشفوعة بالغلبة المعنوية في كل حال» (مجلة المسلمون، المجلد الخامس: «في عبوديتنا الفكرية وأسبابها» ص ٥٦٤).

الفكرية، إذ تشهد فيها مكاتبهم ومعاهدهم وبيوتهم وأسواقهم ومجتمعاتهم، وتشهد حتى هيئتهم وبزَّتهم بأنه قد استولت عليهم حضارة الغرب، وغلبتهم أفكاره وتمكنت من نفوسهم علومه وآدابه، فهم لا يفكرون إلا بعقول غربية ولا يُبصرون إلا بأعين غربية ولا يسلكون إلا السبل التي قد مضى فيها الغرب، وقد رسخ في نفوسهم ـ شعروا به أم لم يشعروا ـ أن الحق هو ما عند أهل الغرب حق، والباطل هو ما يعدونه هم باطلاً. وأن المقياس الصحيح للحق والصدق والآداب والأخلاق والإنسانية والتهذب هو الذي قد قرره الغرب لكل ذلك. فيقيسون بهذا المقياس ما بأيديهم من العقيدة والإيمان ويختبرون ما عندهم من الأفكار والتصورات والمدنية والتهذيب والأخلاق والآداب، فكل ما طابق منها ذلك المقياس اطمأنوا إلى صدقه، وافتخروا بمجيء أمرٍ من أمورهم موافقاً للمعيار الأوربي. وأما ما لم يطابقه منها فيعتقدونه خطأً وباطلاً ـ بشعور منهم أو عدم شعور ـ ثم يرفضه المتعسف منهم علناً ويضرب به عرضَ الحائط، ويقف المقتصد منهم باخعاً نفسه عليه، أو يأتي ليعالجه مَدّاً وجزراً حتى ينطبق على المعيار الغربي بوجه من الوجوه»[1].

المسلمون بين الحرية والعبودية:

ونقف قليلاً مع الحرية الإنسانية التي لا تتمثل في الأرض لحظة واحدة إلا مع العبودية للّه وحده، بمعنى الدينونة له سبحانه، وهي التي تنشر نور التحرر والسلام في الحياة البشرية.

إن الدينونة للّه سبحانه تحرر الإنسان من الدينونة لغيره، وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وبذلك تُحقق للإنسان حريته وكرامته الحقيقية.

هذه الحرية يستحيل ضمانها في ظل أي نظام غير نظام الإسلام،

---

(١) مجلة المسلمون، المجلد الخامس، ص ٥٦٥، أبو الأعلى المودودي.

يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية في صورة من صورها الكثيرة، وفي لون من ألوانها العديدة. . سواء عبودية الاعتقاد أو عبودية الشعائر أو عبودية الشرائع، فكلها عبودية، وبعضها مثل بعض، تُخضع الرقاب لغير الله بإخضاعها للتلقي في أي شأن من شؤون الحياة لغير الله، والناس لا يملكون أن يعيشوا غير مدينين. . لا بد للناس من دينونة.

والذين لا يدينون للّه وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله في كل جانب من جوانب الحياة. . إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حدّ ولا ضابط. ومن ثُم يفقدون خاصتهم الآدمية ويَندرجون في عالم البهيمة: **﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مَثوى لهم﴾** [محمد: ١٢]، ولا يخسر الإنسان شيئاً كأن يخسر آدميته ويندرج في عالم البهيمة وهذا هو الذي يقع حتماً بمجرد التملص من الدينونة للّه وحده والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة **﴿أرأيت مَن اتخذ إلَهه هواه أفأنتَ تكون عليه وكيلاً﴾** [الفرقان: ٤٣]. . وهذه هي الجاهلية المقيتة والعبودية الهابطة. . .

ماذا تصنع الجاهلية بالناس؟ إنها تمسخ فطرتهم وأذواقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم وأفكارهم وأخلاقهم. . ماذا تصنع جاهلية الغرب في عقول المسلمين؟. . إنها تسلخهم من عبوديتهم للّه ثم تلبس أرواحهم ثوب العبودية الزاهي بألوان مختلفة. . وحيثما تلفّت المؤمن يرى صوراً صارخة من العبودية في المجتمعات التي تُنسب إلى الإسلام، يرى صوراً عميقة وقاسية. ونضرب مثلاً لهذا تلك العبودية لصانعي الموضات والأزياء مثلاً، أي سلطان لهؤلاء على قطيع كبير جداً من المسلمين؟ كل الذين يُسمّوْن متقدمين ومتحضرين. . إن الزي المفروض من آلهة الأزياء الغربية سواء في الملابس أو العربات أو المباني أو المناظر أو الحفلات. . إلخ ليمثل عبودية صارمة لا سبيل لجاهلي أو لجاهلية أن يفلت منها، أو يُفكر في الخروج عنها، ولو دان الناس في هذه الجاهلية الحضارية للّه بعض ما يدينون لصانعي الأزياء لكانوا عباداً متبتلين! فماذا تكون العبودية إن لم تكن هي

هذه؟ وماذا تكون الحاكمية والربوبية إن لم تكن هي حاكمية وربوبية صانعي الأزياء أيضاً؟ . .

ليس هذا إلا مثلاً للعبودية المذلّة للغرب . .

ماذا تصنع جاهلية الغرب بالمسلمين؟ . . إنها تعريهم من اللباس وتعريهم من التقوى والحياء، ثم تدعو هذا رُقيّاً وحضارة وتجديداً وتقدُّماً. ثم تُعيِّر الكاسيات من الحرائر العفيفات المسلمات بأنهن (رجعيات) (متخلفات) (ريفيات)، حتى وَصَل الأمر بعدد من العبيد ممن ينتسبون إلى الإسلام أن يُكرهوا زوجاتهم على التبرّج والتزين والخروج بالمظهر اللائق؛ بزي التحضر، ولباس التمدُّن وزينة الأكابر . .

إنه المسخ القبيح الشنيع في التفكير، المسخ في الروح والانتكاس عن الفطرة . .

ماذا تقول الجاهلية عن المهتدين بهدي الله؟ إنها تسميهم الضالين . . الأصوليين . . المتعصبين . . المتزمتين . . المتخلفين . . الإرهابيين . . الخ .

ماذا تقول الجاهلية اليوم للفتاة التي لا تكشف لحمها؟، وماذا تقول للفتى الذي يستقذر اللحم الرخيص؟ إنها تُسمي ترفعهما هذا ونظافتهما وتطهرهما رجعية وجموداً، وتحاول الجاهلية بكل ما تملكه من وسائل التوجيه والإعلام أن تغرق ترفعهما ونظافتهما وتطهرهما في الوحل الذي تتمرغ فيه، في المستنقع الكريه . .

إن الجاهلية هي الجاهلية فلا تتغير إلا الأشكال والظروف، إن المسلمين في مشهد بائس للعبودية، هذه العبودية التي تسلب الإنسان خصائص الإنسان، وتدعه عبداً يلهث، عبداً لما تفرضه عليه أهواء العبيد من أمثاله. هذه الجاهلية التي تجعل العري الحيواني تقدماً ورقياً، والستر الإنساني تأخراً ورجعية. وليس بعد ذلك مسخ لفطرة الإنسان وخصائص الإنسان . .

وقد أُقيمت في العالم الإسلامي أصنام من «الوطن» ومن «القوم» ومن

«الجنس» ومن «الطبقة» ومن «الإنتاج» ومن «السياحة» ومن غيرها من شتى الأصنام والأرباب. . وتُدَقّ عليها الطبول وتُنصب لها الرايات ويدعى عباد الأصنام إلى بذل النفوس والأموال لها بغير تردد. . وإلا فالتردد هو الخيانة وهو العار. .

وحين يتعارض العِرض مع متطلبات هذه الأصنام فإن العِرض هو الذي يُضَحَّى به، ويكون هذا هو الشرف الذي يُراق على جوانبه الدم، كما تقول الأبواق المنصوبة حول الأصنام ومن ورائها أولئك الأرباب الذين يُسَخِّرون هؤلاء العبيد. .

ولا عبرة عند العبيد إلا بما تشير إليه الأرباب، فمثلاً السياحة: تقول الأرباب إنها تحتاج إلى العري لأنه قمة الجمال الإنساني، ومن ثم يطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والإعلام كلها لتأصيل هذه الفكرة في شتى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة. . وتكون الدعوة المُيَسَّرة للقاء الحب والغرام مع الفتيات هو نشاط سياحي للتمتع بالجمال. .

إنها سبيل حادّ جارف للرذيلة والانحطاط الخلقي، إنها تريد إقامة مقاذر إنسانية، يمرُّ بها كل مَن يريد أن يهتك الأعراض في هذا البلد، وينشر الفاحشة والرذيلة. إنها خطة لئيمة لهجوم الذئاب المسعورة على الأعراض المصونة.

هذه صور ولمحات قليلة مما تفعله العبودية للغرب، التي وقع بها العالم الإسلامي، هذه عقيدة الطبقة المثقفة التي تملك زمام الأمور في أكثر البلدان الإسلامية، دينها المادة، وفلسفة الحياة الغربية، التي قامت على الضلال والفساد والإلحاد.

لماذا انتشرت هذه الديانة المادية في الشرق الإسلامي؟ وما السبب لهذه العبودية المطلقة للغرب؟ لماذا استطاعت الديانة المادية الغربية أن تغزو المسلمين في عقر دارهم؟ ولماذا استطاعت أن تسيطر على العقول والنفوس هذه السيطرة القوية؟

إن كل ذلك يتطلب التفكير العميق الدقيق. . . والدراسة الواسعة، وهو موضوع يحتاج التبسط فيه إلى كتاب خاص ولكنا نستطيع أن نختصره ونلم به ـ إن شاء الله ـ في البيان التالي: يقول العلاّمة المودودي: «إن الغلبة والاستيلاء المعنوي يقوم بنيانه في الحقيقة على **الاجتهاد والتحقيق العلمي**، فكل أمة تسبق غيرها إليه تتولى قيادة الدنيا وزعامة الأمم، وهي التي تستولي أفكارها على العقول. وأما الأمة التي تتخلف في هذا الطريق فلا تجد من الاتّباع والتقليد مناصاً، إذ لا يبقى في أفكارها ومعتقداتها من القوة والأصالة ما يكسبها السيطرة على الأذهان. فيجرفها تيار الأفكار القوية والمعتقدات الراسخة التي تتقدم بها الأمم المجتهدة والمحققة، وهي تعود في مجابهته كغثاء السيل لا تستطيع أن تدافعه ولا أن تثبت أمامه. فالمسلمون ما داموا يتقدمون في مضمار التحقيق والاجتهاد، بقيت جميع أمم العالم تابعة لهم وسائرة في ركابهم، وما بَرِحَ الفكر الإسلامي غالباً على أفكار النوع الإنساني بأجمعه، وكل ما اتخذه الإسلام من المقياس للخير والشر والخطأ والصحيح. تقرر مقياساً صائباً لكل تلك الصفات عند جميع أهل الأرض، سواء أشعروا به أم لم يشعروا، وما زالت الدنيا تحاول أن تطبِّق أفكارها وأعمالها على ذلك المقياس الإسلامي طوعاً أو كُرهاً»[1].

ففي القرنين الأول والثاني الهجري/ السابع والثامن الميلادي كان الإسلام قد ظهر «بدينه وثقافته، وغَلَب على رقعة ممتدة من حدود الصين إلى الهند، إلى أقصى الأندلس، إلى قلب أفريقية، وأنشأ حضارة نبيلة متماسكة كاملة، بعد أن ردّ أعداء الدين من النصارى وأخرجهم من الأرض، وحصرهم في الرقعة الشمالية التي فيها الهمج الهامج الذي كان يعيش فيما يعرف اليوم باسم «أوربة»، وظل الصراع مشتعلاً مدة خمسة قرون، بين النصرانية المحصورة في الشمال وبين الإسلام الذي يتاخمها جنوباً ولكن جيوش النصرانية لم تستطع أن تفعل شيئاً يُذكر، مع تطاول الأمر، وتدابرَ

---

(١) «في عبوديتنا الفكرية وأسبابها» مجلة المسلمون، المجلد الخامس، ص ٥٦٦.

الأمرَ قادةُ النصرانية، وهم رجال الكنيسة وملوك الإقطاع، وداخلتهم الخشية، وخافوا أن يُفضي الأمر إلى زوال النصرانية عن جنوب أوربة، كما زال بالأمس عن الأندلس، فرأوا أن يتجهوا إلى الشمال، ليُدخلوا في النصرانية هذا الهمج الهامج الذي لا دين له يجمعه ليكون بعد قليل مدداً لجيوش جرّارة تُطبق على ثغور الإسلام وعواصمه في الشام ومصر، انطلق الرهبان يجوبون شمال أوربة ليدخلوا هذا الهمج الهامج في النصرانية، ويُعدُّوهم إعداداً عظيماً لخوض المعركة العظمى بين الإسلام والنصرانية، وكان جزءاً من هذا الإعداد: تبشيع «الإسلام» في عيونهم، وأن أهل الإسلام وثنيون، وأن رسول الإسلام كان وكان... فلم يتركوا باباً من الكذب والتمويه والبشاعة إلا دخلوه، لِيُقِرُّوا في قرارة نفوس أتباعهم من الهمج الهامج، ليكون حقاً محضاً، قد نطقَ به راهب أو ناسك أو قسِّيس، فهو مُنَزَّه لا ينطق إلا بالحق، فهذا الحق إذن، هو عندهم قسيم الدين الذي آمنوا به واعتنقوه.

وجاءت سنة ١٠٩٦ م/ ٤٨٩ هـ وجُيِّشت الجيوش من هذا الهمج من النورمنديين والصقالبة والسكسون، بقيادة الرهبان وملوك الإقطاع، وبدأت «الحروب الصليبية» واكتسحت في طريقها أهل النصرانية وسفحت دماءهم بفظاظة، **وبدأت** تكتسحُ ثغور الإسلام وعواصمه الشمالية، **وتسفح الدماء المسلمة، واستمرَّت قائمة** قرنين كاملين. كانت فرصة رائعة، ولكنها انتهت بالإخفاق وباليأس من حرب السلاح في سنة ١٢٩١ م/ ٦٩٠ هـ، بعد أن تركت في أنفس المقاتلين الهَمَج بصيصاً من اليقظة والتنبُّه، باحتكاكهم المستمر بحضارة راقية كانت تفتنهم، وتبعث في نفوسهم الشك فيما كانوا قد سمعوه من رهبانهم وملوكهم، وتثير في نفوس العائدين إلى مواطنهم ضروباً مختلفة من القلق، هي على قلتها يُخشى أن تنتشر في جماهير هذه الأمم الجاهلة، فَتُضْعِف حميَّتهم ونخوتهم، وكانت حسرةً وغُصَّة في قلوب

---

(١) الثغور والعواصم هي البلاد المتاخمة لحدود العدو من النصارى وغيرهم.

الرهبان والملوك والمثقفين، وحاولوا أن يستبقوا هذه الصورة المشوَّهة عن الإسلام والمسلمين قائمة راسخة في أنفس الجماهير المتحمسة للدفاع عن نصرانيتها الجديدة، هذه واحدة.

الأمر الثاني: بَطَل عمل السلاح بالإخفاق واليأس وخمدت الحروب تقريباً بين الإسلام والصليبية نحو قرن ونصف قرن، ثم وقعت الواقعة، اكتُسِحَتْ الأرضُ المسيحية في آسيا، في شمال الشمال، ودخلت برمتها في حَوْزة الإسلام. وفي يوم الثلاثاء سنة ٨٥٧ هـ/ ٢٩ مايو - أيار - سنة ١٤٥٣ م، سقطت القسطنطينية عاصمة المسيحية، ودخلها «محمد الفاتح» بالتكبير والتهليل، وارتفع الأذان في طرف أوربة الشرقي.. إذن، فقد وقعت الواقعة!! واهتزّ العالم الأوربي كله هزة عنيفة ممزوجة بالخزي والخوف والرُّعب والغضب والحقد، ولكن قارَنَ ذلك إصرار مستميت على وضع هذا الخزي، وإماطة هذا الخوف والرعب، وإشعال نيران الغضب والحقد، بحميّة تأنف من الاستكانة لذلّ القهر الذي أحدثه «محمد الفاتح» ورجاله المسلمون الظافرون.

ومن يومئذ، بدأت أوربة تتغيَّر، لتخرج من هذا المأزق الضَّنك، وبهمة لا تفتر ولا تعرف الكلل، بدأ الرهبان وتلاميذهم معركة أخرى أقسىٰ من معارك الحرب، معركة المعرفة والعلم الذي هيّأ للمسلمين ما هيّأ من أسباب الظَفَر والغلبة. لقد علموا أن معركة السلاح لن تُغني عنهم شيئاً، وهذه أمواج المسلمين تتدفق في قلب أوربة غرباً، ويدخل الإسلام سِلْماً بلا إكراه جماهير غفيرة، كانوا بالأمس نصارى متحمسين في قتال المسلمين، الوثنيين، كما أوهمهم الرهبان، فلم يُغْنِ هذا الإيهام عنهم شيئاً.

وهذا المأزق الضنك في حياة المسيحية، له تاريخ قديم سابقٌ لا يمكن إغفاله، بل ينبغي أن يكون واضحاً لنا كل الوضوح، لأن غموضه سبب كبير من أسباب فساد حياتنا الثقافية إلى هذا اليوم، بل إلى هذه الساعة التي تقرأ فيها كلامي، فعند مجيء الإسلام، كان سلطان الكنائس المسيحية مبسوطاً على الشام ومصر وشمال إفريقية، وأرض الأندلس منذ قرون طويلة

سبقت، تَقَوَّضَ فجأة سلطان المسيحية على هذه الرقعة الواسعة المتراحبة وزال زوالاً سهلاً، وتقوّضَ أيضاً سلطانها على نفوس الجماهير الغفيرة من رعاياها، ودخلوا دخولاً سهلاً يسيراً في الإسلام طوعاً - بلا إكراه - بل أعجب من ذلك أنهم صاروا هم جُند الإسلام وحُماة ثغوره وعواصمه، وقارعوا النصرانية وحصروها في الشمال الأوربي - بل أعجب من ذلك أيضاً، أن دخلوا في العربية دخولاً غريباً وصار لسانهم لسانها - بل أعجب من ذلك أيضاً، أن خرج من أصلابهم كثرة كاثرة من العلماء الكبار الذين يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وبالعلم والسيف. وصارت دار الإسلام كلها ديار ثقافة وعلم وخُلق وحضارة تبهر الأنظار والعقول، في المشرق حيث مقر الخلافة في دمشق وبغداد، وفي المغرب حيث ديار الأندلس... وكان السؤال في ضمير المسيحية كلها يتردد: كيف حدث هذا؟! ولماذا؟!!

كان جزءاً من جواب هذا السؤال أن جاهدت الدولة البيزنطية في الشمال أن تسترد ما ضاع، وظلت أربعة قرون تحاول أن تعود فتخترق هذا العالم الإسلامي من طرفه الشمالي عند الشام، وذهبَ جُهدها هدراً، ولم يُغن عنهم السلاح شيئاً، وكل يوم يمرّ، يزداد رعايا الرهبان والملوك انبهاراً بالإسلام وخلقه وثقافته وحضارته، ولم ينجُ من هذا الانبهار لا الملوك ولا الرهبان أنفسهم. وضاق الأمر، وكاد اليأس يُخامر قلب المسيحية، لا تدري ماذا تفعل أمام تساقط رعاياها في الإسلام، أو في ثقافته وحضارته، طوعاً بلا إكراه. ما معنى هذا؟ أيكون معناه أن المسيحية على ما هي عليه غير مقنعة لجماهير الرعايا؟..

وانتبه بعض الرهبان والملوك وتبين لعقلاء الرجال في أوربة أثناء احتكاكهم بالعالم الإسلامي أثناء الحروب الصليبية التي استمرت قرنين كاملين واستولى الصليبيون خلالها على جزء من أرض الشام، وأقام بعضهم فيه إقامة دائمة، وأنشأوا ممالك وخالطوا المسلمين مخالطة طويلة، تبين لهؤلاء العقلاء منهم أن سرّ قوة الحضارة الإسلامية هو العلم، علم الدنيا

وعلمِ الآخرة، فعلم الآخرة وهو الدين، مُقْنع لجماهير البشر، فهم يدخلونه طوعاً واختياراً، وعلم الدنيا كما رأوا، هو الذي مَكَّن لهذه الحضارة الإسلامية أن تمتلك هذه القوة الهائلة المتماسكة التي شعروا أنها مستعصية على الاختراق، وهذه الأُبَّهة الهائلة، التي تعيش فيها دار الإسلام..

وبعد واقعة فتح القسطنطينية ودخول الإسلام لهذا الحصن المنيع الشامخ انساحت كتائب الرحمن في قلب أوربة، بيد أن هذه الواقعة الباطشة على عنفها وعلى سرعة ما تلاها من تدفق جيوش المسلمين منساحة في أوربة، لم تَفُتَّ في عضد الصليبيين الأوربيين، بل على العكس، زادهم الإحساس بالخزي والعار حماسة وتصميماً وتحرُّقاً وحقداً خالط كل نفس من الخاصة والعامة، وصار هَمُّهم المسلمين، هَمًّا مُؤرقاً للعالم والجاهل والصغير والكبير، والذكر والأنثى، وهام الرهبان وغير الرهبان في جنبات أوربة يحرضون رعاياهم على قتال المسلمين، بكل لسان قادر على الإثارة وعلى التبشيع، تبشيع هؤلاء المسلمين. وكلما ازداد المسلمون توغلاً في أرض «أوربة المقدسة»، ازداد الخوف، وازداد التحريض على البغضاء والحقد، ومع البغضاء المكتومة والتحريض، زاد التصميم على المقاومة. وتمضي الأيام والسنون، وتتطاول، وأوربة بأسرها لا تنام إلا على فراش من الرمضاء اللاذعة، لا يدعُ لجنبٍ ساعةً من طمأنينة، يفزِّعه شبح المسلمين، وذكرى قرون طويلة من الإخفاقِ والمهانة والعار، ولا قرار على دويِّ أصوات صارخة تهيب بهم إلى رفع هذا العار، ودَفْعه عن دينهم وعن أنفسهم وعن أوطانهم بكل سبيل. وكذلك رَسَخَتْ في العظام الحية، لا في النفوس وحدها ولا في العقول، بغضاء سارية مشتعلة للمسلمين، لا تزداد على الأيام إلا توهُّجاً وانتشاراً، ونزلت من النفوس منزلة «الدين» الراسخ في أعماق الفطرة.

وهذه البغضاء المشتعلة النافذة في غور العظام هي التي دفعت أوربة دفعاً إلى طلب المخرج من المأزق الضنك، وهي التي أيقظت الهِمَم يقظةً لا تعرف الإغماض. وباليقظة المتوهجة دار الصِّراع في جنبات أوربة بين

جميع القوى التي كانت تحكم جماهير الهمج الهامج. ومن قلب هذا الصراع خرجت طبقة إصلاح خَلَل المسيحية الشمالية، وبدأ نشر التعليم على أوسع نطاق بين جماهير أوربة بعد أن عاد رجال كثيرون منهم كانوا يطلبون العلم والمعرفة في أرض الإسلام»..

بغضاء مشتعلة ولهيب مُكَتَّم:

«وكان جهاد طويل حافل متنوع، وجهاد مرير قاس، في سبيل اليقظة العامة والتنبُّه والتجمع لإعداد أمة مسيحية قادرة على دفع رُعب «المسلمين»، عن أرض أوربة «المقدسة».

وبدأت اليقظة ذات الهدف الواحد الذي لا يغفل عنه راهب ولا عالم، ولا صغير ولا كبير، ولا عامي ولا متعلم، ولا رجل ولا امرأة. ومع اليقظة تفجَّر أعظم سيل يكتسح أُمِّية الهمج الهائج ويخرجُه من أغلال الجهالة، ويجعل هذا الهدف الواحد مستقراً في جوف العظام، مع البغضاء والحقد، مع التصميم والإرادة، ومع اليقظة والتنبُّه، وطالت الليالي والأيام، فما هو إلا قليل حتى كان ما كان...

في دار الإسلام كان المسلمون قد قضى الله قضاءه فيهم، وجرت سنّته تعالى فيهم، فقد أعجبتهم كثرتهم، وغرتهم قوتهم، وتنازعوا فيما بينهم، فضعفت عزيمتهم، وتاهوا بما أوتوا من زخرف الحياة الدنيا، وركب كثير من عامتهم محارم الله، وخالطوا معاصي قد نُهوا عنها، ونسوا حظاً من الحق الذي في أيديهم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلْفه، وتركوا محجة بيضاء لا يَضِلّ سالكها، واتبعوا السُبل فتفرقت بهم عن سبيله سبحانه، فأورثهم بذنوبهم غفلة سوف تطول بهم حتى يفتحوا أعينهم فجأة على بلاء ماحق حتى كان ما كان...

وبغتةً، كما كان اقتحام المسلمين قلب أوربة بَغْتَةً، تهاوت الحواجز التي كانت تمنع حركة اليقظة والتنبُّه في أوربة لأن تؤتى ثمارها، وخرجت أوربة من أصفاد «القرون الوسطى»، ودخلت بعد جهاد طويل مرير في

«القرون الحديثة» كما يسمونها. ومع تقوّض هذه الحواجز، ظهرت براعم الثمار الشهية، وبظهورها غضّة ناضرة، زادت الحماسة، وتعالت الهمم، ومُهِّدَ الطريق الوَعِر، ودبت النشوة في جماهير الأوربيين، وتجددت الأهداف والوسائل، وتبين الطريق اللاحب. ومنذ يومئذ بدأ الميزان يشول، فارتفعت إحدى الكفتين شيئاً ما، وانخفضت الأخرى شيئاً ما. ارتفعت كِفّة أوربة بهذه اليقظة الهائلة الشاملة التي أحدثتها الهزائم القديمة والحديثة، وانخفضت كِفّة المسلمين بهذه الغفلة الهائلة التي أحدثتها الغرور بالنصر القديم وبالنصر الحديث وفتح القسطنطينية.

وكذلك شال الميزان، وكانت فرحة محسوسة في جانب، وكانت غفلة لا تُحسّ من جانب. تاريخ طويل مضى وغاب، وتاريخ طويل سوف يأتي، ثم لا يعلم إلا الله متى يكون غيابه..

لقد كان فتح القسطنطينية ذروة صراع الغضب في أوروبة، فقد ازداد اشتعالاً وتوهُّجاً، وقودٌ من لهيب البغضاء والحقد الغائر في العظام على الإسلام، فالمسلمون كانوا شبحاً مخيفاً يندفع في قلب أوربة، يُلقيْ ظلّه على كل شيء، ويفزّع كل كائن حي أو غير حيّ بالليل والنهار، فصراعُ الغضب المُشتعل بلهيب البغضاء والحقد هو وحده الذي صنع لأوربة كل شيء إلى يومنا هذا.

صَنع كل شيء، لأنه هو الذي أَدّى بهم إلى يقظة شاملة قامت على الإصرار، وعلى المجاهدة المثابرة على تحصيل العلم وعلى إصلاح خَلَل الحياة المسيحية، ولكن لم يكن لها يومئذ من سبيل ولا مدد، إلا المدد الكائن في دار الإسلام من العلم الحيّ عند علماء المسلمين، أو العلم المسَطّر في كُتب أهل الإسلام. فلم يترددوا، وبالجهاد الخارق، وبالحماسة المتوقّدة، وبالصبر الطويل، انفكت أغلال «القرون الوسطى» بغتةً عن قلب أوربة وانبعثت نهضة «العصور الحديثة» مستمرة إلى هذا اليوم.

من يومئذ، عند بدء أول اليقظة، تحددت أهداف المسيحية الشمالية،

وتحددت وسائلها، لم يَغب عن أحد منهم قط أنهم في سبيل إعداد أنفسهم لحرب صليبية رابعة، لأنهم كانوا يومئذ يعيشون في ظل شَبَح مخيف متوغل في أرض أوربة «المقدسة» ببأس شديد وقوة لا تُردع، بل هو شبح متجول يطوف أنحاء القارة كلها، لا يَطرف فيها جفن حتى يراه ماثلاً في عينه آناء الليل وأطراف النهار، «المسلمون المسلمون»!!، وكان التُرك المسلمون، طلائع عالم إسلامي زاخر هائل مخيف، غير معروف لهم ما في جَوْفه، مسيطر على رقعة متراحبة ممتدة من الأندلس إلى أطراف تحيط بأرض روسيا، إلى جوف قارة آسية، إلى جوف قارة أفريقية وهم يعلمون الآن علماً ليس بالظن، أن السلاح، (وهو يومئذ قريب من قريب) ليس يُغني غناءً حاسماً، فقد وَعَظَتْهم التجارب، فنحُّوا أمره جانباً إلى أن يحين حينه ويُصبح قادراً وحاسماً. لم يبقَ لهم إذن، إلا سلاح العقل والعلم والتفوق واليقظة والفَهم وحسن التدبير، ثم المكر والدهاء واللين والمداهنة، وترك الاستثارة. استثارة عالم ضخم مجهول ما في جوفه، ولا قِبَل لهم بتدفق أمواجه الزاخرة، والتي كان «الترك» الظافرون طلائعها الظاهرة لهم عياناً في قلب أوربة. وهذه رعايا المسيحية أمامَ أعينهم تتساقط في الإسلام، مرة أخرى، طائعة مختارة، وتدخل بحماسة ويقين ثابت في جحافل الإسلام الطاغية! يا لها من فجيعة!! ويرتاع مع كل فجر أرباب المسيحية الأوربية، ويغلي رهبانها ورعاياهم بغضاً للإسلام، وحماسة وغضباً للمسيحية، ويرسخ الإصرار في القلوب على دفع غائلة الإسلام، وعلى التماس قهره بكل وسيلة ومن كل سبيل، وتتلهَّب أمانيُّ الاستيلاء على كنوزه الباهرة التي لا تنفد، والتي غالى في تصويرها لهم العائدون من الحروب الصليبية الثالثة (وهي الحملات السبع المعروفة باسم «الحروب الصليبية»)، وصارت أحلاماً بهيجة يحلمُ بها كل صغير وكبير، وعالم وجاهل، وراهب ورعية، بل صارت شهوة عارمة تدبّ دبيباً في كل نفس، بل صارت غريزة مستحكمة من غرائز النفس الأوربية.

كان كل مَدَد اليقظة، كما قدمتُ، مُستجلباً كله من علوم دار الإسلام،

من العلم الحيّ في علمائه، ومن العلم المسطَّر في كتبه، والسبيل إلى ذلك في الأمرين جميعاً كان **معرفة لسان العرب**. ولن أقصّ عليك التاريخ الطويل، ولكن اعلم أن لسان العرب كان له السيادة المطلقة على العالم، قروناً قبل ذلك طوالاً، وكانت المسيحية الشمالية مجاورة لهذا السلطان المطلق، ومصارعة لأهله صراعاً طويلاً تارةً، ومخالطةً لهم بالتجارة والرحلة وغيرهما زمناً طويلاً تارة أخرى، ولذلك كان هذا اللسان العربي، معروفاً معرفة جيدة لطوائف من العامة والخاصة في ديار بيزنطة من ناحية، وفي قلب أوربة نفسها لمجاورتها الأندلس، وعند بدء اليقظة في أوربة، فبالهمة والإخلاص والعقل أيضاً، كان لا بد أن يزداد عدد الذين يعرفون اللسان العربي[1] وغيره ويجيدونه زيادة وافرة، لحاجتهم يومئذ إلى أن يعتمدوا اعتماداً مباشراً على الاتصال بالعلم الحيّ في علماء الإسلام، لكي يتمكنوا من حلّ الرموز اللغوية المكتوبة المسطرة في الكتب العربية، ولا سيما كتب الرياضة والجبر والكيمياء والطب والفلك وسائر علوم الصناعة التي قَلَّ مَن يعرفها.

فكان من الأهداف والوسائل، بعثةُ أعداد كبيرة ممن تعلموا العربية وأجادوها إجادة ما، تخرج لتسيح في أرض الإسلام، وتجمع الكتب شراءً أو سرقة، وتلاقي الخاصة من العلماء، وتخالط العامة من المثقفين والدَّهماء، وتدوّن في العقول والقراطيس ما عسىٰ أن ينفعهم في فهم هذا العالم الذي استعصى على أوربة المسيحية، واستعلى قروناً طوالاً. يخرجون أفواجاً تتكاثر على الأيام، ويجوبون أرجاء هذا العالم، ويعودون لإتمام عملين عظيمين: إمداد علماء اليقظة بهذه الكنوز النفيسة من الكتب التي حازوها أو سطوا عليها، وإطلاعهم على ما وقفوا عليه فيها، باذلين كل جهد ومعونة في ترجمتها لهم، وفي تفسير رموزها بقدر ما استفادوا من العلم بها ـ وأيضاً

---

(١) لم يقتصر أمرهم على تعلم اللسان العربي، بل انطلقوا يتعلمون كل لسان كان في دار الإسلام، كالتركي والفارسي وغيرهما من لغات كانت للمسلمين منطوقة، أو في القراطيس مكتوبة.

إطلاع رُهْبان الكنيسة وملوكها على كل ما علموا من أحوال دار الإسلام، وما رأوا عياناً فيها، وما لاحظوه استبصاراً. وكان أهم ما لاحظوه أو خبروه، هذه الغفلة المطبقة على أرض الإسلام، والتي أورثهم إياها الاستنامة إلى النصر والمجد القديم، والاغترار بالنصر الحادث بفتح القسطنطينية، ثم سماحة أهل الإسلام عامَّتِهم وخاصتهم مع مَنْ دينُه يخالف دينهم، ولا سيما اليهود والنصارى، لأنهم أهل كتاب وأهل ذمة، ولأنهم ينتسبون إلى الرسولين الكريمين موسى، وعيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ ولأن دين أحدهم لا يَسْلَم له حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورُسله لا يُفرّق بين أحد من رسله ـ سبحانه ـ وأعلموا رهبانهم وملوكهم أن هذا هو الذي يَسَّر لهم أن يجوبوا في أرض الإسلام غير مروّعين، ويَسَّر لهم أن يداهنوا العلماء والعامة وينافقوهم ويوهموهُم بالمكر والمِحال أنهم طُلاَّب علم لا غير، خالصة قلوبهم لحب العلم والمعرفة، والله عليم بالسرائر. .

ومنذ يومئذ نشأت هذه الطبقة من الأوربيين الذين عُرفوا فيما بعد باسم «**المستشرقين**»، وهم أعظم وأهم طبقة تمخّضت عنها اليقظة الأوربية، لأنهم جُند المسيحية الشمالية، الذين وهبوا أنفسهم للجهاد الأكبر، ورضوا لأنفسهم أن يظلوا مغمورين في حياة بدأت تموج بالحركة والغنى والصيت الذائع، وحبسوا أنفسهم بين الجدران المختفية وراء أكداس من الكتب، مكتوبةٍ بلسانٍ غير لسان أممهم التي ينتمون إليها، وفي قلوبهم كل اللهيب الممضّ الذي في قلب أوربة، والذي أحدثته فجيعة سقوط القسطنطينية في حوزة الإسلام، ولكن لا هَمّ لهم ليلاً ولا نهاراً إلا حيازة كنوز علم دار الإسلام بكل سبيل، تتوهّج أفئدتهم ناراً أعتى من كل ما في قلوب رهبان الكنيسة، ولكنهم كانوا يملكون من القدرة الخارقة أن يخالطوا أهل الإسلام في ديارهم، وعلى وجوههم سِيماء البراءة واللين والتواضع وسلامة الطوية والبِشر. وبفضل هؤلاء المتبتلين المنقطعين عن زُخرف الحياة الجديدة وبفضلهم وحدهم وبفضل ملاحظاتهم التي جمعوها من السياحة في دار الإسلام ومن الكتب، وبذلوها لملوك المسيحية الشمالية، نشأت طبقة

الساسة الذين يُعِدُّون ما استطاعوا من عُدَّة لرد غائلة الإسلام ثم قهره في عُقْر دياره، ولتحقيق الأحلام والأشواق التي كانت تخامر قلبَ كل أوربي، أن يظفر بكنوز الدنيا المدفونة في دار الإسلام وما وراء دار الإسلام، وهم الذين عُرفوا فيما بعد باسم رجال «**الاستعمار**» = وبفضلهم وحدهم أيضاً، وبفضل ملاحظاتهم التي زوّدوا بها رُهبان الكنيسة، ثارت حمية الرهبان، ونشأت الطائفة التي نذرت نفسها للجهاد في سبيل المسيحية، وللدخول في قلب العالم الإسلامي لكي تحوِّل مَن تستطيع تحويله عن دينه إلى الملة المسيحية، وأن ينتهي الأمر إلى قهر الإسلام في عقر داره = هكذا ظنوا يومئذ = وهذه الطائفة هي التي عُرفت فيما بعد باسم «**رجال التبشير**».

فهذه ثلاثة متعاونة متآزرة متظاهرة، وجميعهم يد واحدة، لأنهم أخوة أعيان، أبوهم واحد، وأمهم واحدة، ودينهم واحد، وأهدافهم واحدة: الاستشراق والاستعمار[1] والتبشير[2].

ولنصرف الهمّ هنا إلى الاستشراق لعلاقته الحميمة بفساد حياتنا الثقافية والفكرية والاجتماعية، ولأن حاجة «التبشير» و«الاستعمار» إليه حاجة مُلِحَّة، وهي إلى اليوم حاجة دائمة، ولا يستغنيان عنه ولا عن نصائحه وإرشاداته وملاحظاته طرفة عين. . ومرة أخرى، لا تنسَ ما حييت أن هذه الثلاثة إخوة أعيان لأب واحد وأم واحدة، لا تُفرّق بين أحد منهم. .

وهكذا تهاوت في أوربة سدود الجهل، وانبثقت اليقظة، وفُتحت بعض مغاليق خزائن العلم، وانقشعت ظلمة «القرون الوسطى» ولاحت تباشير فجر جديد، واستنارت الطرق، وزحف على سلوكها كل مطيق للزحف، وبالصبر وبالجهد وبالجرأة وبالعزيمة وبنبذ التواني، صارت أوربة قوة تُمدُّها فتوح العلم الجديد. مما يزيدها بأساً وصرامة. . . ولا أقول شال

---

(١) ذاقت بلاد الإسلام طرفاً من أفاعيله تجربة ومعاشرة، وإن كان من خذلان الله لنا أنّا لم نفهمه فهماً نافذاً شاملاً على الوجه الصحيح.

(٢) انظر تفصيل شأنه في كتاب «أباطيل وأسمار» للأستاذ محمود محمد شاكر.

الميزان، بل أقول بَطَلَ عَمَلُ الميزان، وصار في الأرض عالمان: **عالم في دار الإسلام مُفتَّحة عيونهم نيام**، يتاخمُ من أوربة عالماً أيقاظاً **عيونهم لا تنام**، وقُضي الأمر الذي فيه تستفتيان! وبدأت مرحلة حاسمة في الصراع بين أوربة المسيحية، وبين دار الإسلام التي تحجُبُ عنهم من ورائها عالماً مُبْهماً مترامي الأطراف».

فجور وشراهة وغطرسة:

«وكان ما كان.. فمع اليقظة ازدادت «الأهداف» وضوحاً وجلاءً، وازدادت «الوسائل» دقة وتحديداً وشمولاً، بعد أن وَعَظت أوربة التجارب السابقة.

«الأهداف» معروفة، أكبرها شأناً هو اختراق دار الإسلام، ثم تمزيقها من قلبها، ثم الظفر بالكنوز الغالية التي كانت، ولم تزل، تراود كل قلب ينبضُ في أوربة بأحلام شرهة مسعورة إلى الغنى والثروة والمتاع، غرست بذورها في أعماق النفوس أحاديث العائدين من حملات الحروب الصليبية القديمة.

أما «الوسائل» فقد وُضِعَتْ لها قواعد راسخة تُجَنِّبهم أخطاء القرون والسنين السابقة حيث مُنِيُوا بالإخفاق. كان على رأس هذه القواعد: تنحية السلاح جانباً، بعد أن ثبتَ لهم إخفاقه في اختراق دار الإسلام، لأنه يستثير ما لا يعلمون مَغَبَّتَهُ سوء العواقب، وكفى بالتجارب الغابرة واعظاً. فمن يومئذ صارت القاعدة الراسخة في سياسة أوربة هي اجتناب استثارة هذا العالم الضخم المُبْهَم الذي كان «الترك العثمانيون» هم طلائعه المظفرة الناشبة أظافيرها في صميم المسيحية الشمالية في قلب أوربة = ثم العمل الدائب البصير الصامت الذي يُتيح لهم يوماً تقليم هذه الأظافر وخَلعها من جذورها = ثم استنفاذ قوته بالمناوشة والمطاولة والمثابرة، وبالدهاء والمكر والسياسة والصبر المتمادي، حتى يأتي عليه يوم لا يملك فيه إلا أن يستكين ويستسلم، **وليكن كل ذلك من وراء الغفلة**، وبالدّهاء والرفق تارة، وبالتنمُّر

والتكشير عن الأنياب تارة أخرى. . . وكذلك كان، وما هو كائن إلى هذه الساعة، ولله الأمر من قبل ومن بعدُ.

وفضّت المسيحية الشمالية قيود الحصار عن نفسها، وخرجت جحافلها مكتسحةً تجوب البحر والبرّ. انطلقت الأساطيل من شواطىء أوربة مزوّدة بالعدّة والعتاد والرجال الأشداء المغامرين، والعلماء والرهبان، وهدفها أن تطوّق دار الإسلام محيطة بها من شواطىء المغرب إلى شواطىء الهند، تتحسَّس مواطن الضعف في أقاليمها المتطرفة، فانقضوا على الضعيف والعاجز والغافل، وخادعوا ونافقوا، واستغفلوا وأرهبوا، واستنزفوا ونهبوا، وازدادوا شهوة وشراهة وجوعاً إلى الكنوز المخبوءة في قلب دار الإسلام، واستغفلوا وسيطروا، ولهيب في القلوب لا تُطفأ ناره.

وفجأة، وبمعونة البحارين المسلمين العرب، عثر كولمبس (١٤٥١ - ١٥٠٦ م/ ٨٥٥ - ٩١٢ هـ) على أرض الهنود الحمر «أمريكا»، وما هو إلا قليل حتى تدفّق السيل الجارف من أوربة، يجذبه بريق الذهب والغنى، وملأ المغامرون الغِلاظ القُساة الأرضَ البِكر، وزحفوا فيها واستباحوها، وسفحوا دماء الملايين سفحاً مُبيراً، غَدْراً وخِسّة، لا يردعهم رادع عن استئصال شأفتهم بقسوة وعنف، وشفى كل أوربي غليلاً كان في قلبه مُعَدّاً لدار الإسلام، واتجهت أساطيلهم إلى إفريقية تختطف آلافاً مؤلفة من الآمنين السود مسلمين وغير مسلمين، رجالاً ونساءً وصغاراً، يحملونهم في السفن إلى الأرض الجديدة البعيدة، أرض الهنود الحمر، وتهلكُ في هذه الرحلات آلاف كثيرة منهم تحت السياط، وتبقى آلاف قليلة تُلْقَى على البرّ لتكون تحت أيديهم بهائمَ مسخرة لعمارة الأرض. وظهر الفساد في البر والبحر، وبلغت أوربة مبلغاً يزيدها فجوراً وشراهة وسفكاً للدماء، وغطرسة فوق ذلك تزداد على الأيام تعالياً في نشوة عارمة، نشوة السكران الثَّمِل إلى جانبها إفاقَةً من سُكْر!

وصارت أوربة عالماً مخيفاً مرهوب الجانب، وتزداد كل يوم ثقافة وعلماً، وفهماً ويقظة، وتجربةً وخبرة في كل خير وشر، وتزداد أيضاً نفاقاً

وخبثاً ومكراً وغدراً بالآمنين حيث كانوا في أرجاء عالم كانت تحجبه عنهم دار الإسلام قروناً طويلة.

أما دار الإسلام، فَعَلى الأيام وَهَنَت قوة طليعته المسلمة الناشبة في قلب أوربة، وصارت داراً محصورة في الجنوب، بعد أن كانت حاصِرةٍ للمسيحية في الشمال. وكذلك بدأت حضارةٍ عتيقة تتضعضع قواها وتَرِثُ حبالُها، وقامت في الأرض حضارة جديدة غُذِّيت بالدم المسفوح، ومُزِجت ثقافتها بالمكر والغدر والدهاء والخبث، تَؤُزُّها نار أحقاد مكتَّمة، ثم صارت لهيباً يَؤُجُّ أجًّا = **حضارة سوف تطبّق وجه الأرض**، وهي بذلك كله حضارة إنسانية عالمية، أليس كذلك؟ ويزيدها إنسانية وعالمية أنها **جاءت مُبَشِّرة بدين جديد**، **عقيدتُه المادية المبنيّة على البغضاء والحِقد والجشع** والغدر وسَفْكِ الدماء.

ومع هذه الأساطيل الفاجرة، خرجت من مَكامِنها أعدادٌ وافرة من رجال يجيدون اللسان العربي وألسنةَ دار الإسلام الأُخَر، ومنهم رهبان وغير رهبان، وركبوا البرّ والبحر، وزحفوا زَرَافات ووُحداناً في قلب دار الإسلام: على ديار الخلافة في تركية، وعلى الشام، وعلى مصر، وعلى جوف إفريقية وممالكها المسلمة = خرجوا وفي القلوب حميّة الحقد المكتّم، وفي النفوس العزيمة المصمِّمَة، وفي العيون اليقظة، وفي العقول التنبُّه والذكاء، وعلى الوجوه البِشْرُ والطلاقة والبراءة، وفي الألسنة الحلاوة والخِلابة والمماذَقة، ولبسوا لجمهرة المسلمين كل زيّ: زيّ التاجر، وزيّ السائح، وزيّ الصديق الناصح، وزيّ العابد المسلم المتبتّل ـ وتوغلوا يستخرجون كل مخبوء كان عنهم من أحوال دار الإسلام، أحوال عامّته وخاصته، وعلمائه وجُهّاله، وحلمائه وسفهائه، وملوكه وسُوقته، وجيوشه ورعيته، **وعبادته ولهوه، وقوته وضعفه، وذكائه وغفلته، حتى تدسسوا إلى أخبار النساء في** خُدورهن، فلم يتركوا شيئاً إلا خَبروه وعَجَموه، وفَتّشوه وسَبَروه، وذاقوه واستشفوه. ومن هؤلاء، ومن خبرتهم وتجربتهم، خرجت أهم طبقة تمخضت عنها اليقظة الأوربية «طبقة المستشرقين» الكبار، وعلى علمهم

وخبرتهم وتجاربهم رَسَتْ دعائم «الاستعمار»، ورسخت قواعد «التبشير».

ينبغي أن يكون بيِّناً أن أوربة عند استواء يقظتها، أدركت إدراكاً واضحاً أن الذي بلغته قد ضمن لها التفوق الحاسم، وأنها مُقبلة على زحف شامل يخترق قلب دار الإسلام، لا بقعقعة السلاح، بل بوسائل أُخر أمضى من وَقْع السلاح، أدرك ذلك ساستها ورهبانها وعلماؤها وعامة جماهيرها المثقفة. وهذا الزحف الصامت المصمم الخفيُّ الوطء، سوف يضم ألوفاً مؤلفة من أشتات الناس، ما بين تاجر وصانع ومغامر ومُدَرِّس وسائح ومبشّر وسياسي وراهب وطالب معرفة وأفّاق وصفّاق ومتكسِّب. والنية أن تتكون من هؤلاء الأشتات جاليات كبيرة تقيم في دار الإسلام فتطول عِشرتهم أو تَقْصِر، ولكل امرىء منهم اتجاه أو هوىً أو أسلوب أو فَهم.

وقام المستشرقون ـ وفي صميم قلوبهم أحقاد مكتومة على الإسلام والمسلمين ـ بهمّة وجَلَد، فكتبوا آلافاً من المقالات، ومئات من الكتب طُبعت وانتشرت في أوربة، تناولت كتاباتهم كل شيء يخص أمم دار الإسلام في ماضيها وحاضرها. كتبوا في القرآن، وفي حديث رسول الله ـ ﷺ ـ وسيرته، وفي تفسير القرآن، وفي الفقه، وفي تفاصيل شرائع الإسلام، وفي تاريخ العرب والمسلمين، وفي الأدب، واللغة، والشعر، وفي الفنون والآثار، وفي علم البلدان (الجغرافيا)، وفي تراجم رجال الإسلام، وفي الفرق الإسلامية، وفي الفلسفة عند المسلمين، وفي علم الكلام = في كل ما ذكرتُ وما لم أذكر، كتبوا وألَّفوا وصنَّفوا، لكن لهدف واحد لا غير: هو تصوير الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب المسلمين، بصورة مُقنعة للقارىء الأوربي، وبأسلوب يدلّه على أن كاتبها قد خَبَر ودَرَس وبَذَل كل جهد في الاستقصاء، وعلى منهج علمي مألوف لكل مثقف أوربي، وأنه وَصَل إلى هذه النتيجة التي وضعها بين يديه، بعد خبرة طويلة وعَرَق وجهد وإخلاص، حتى لا يشك قارىء في صدق ما يقرؤه، وأنه هو اللباب المصفَّى من كل كدر، والمبرأ من كل زيف، وأنه الحق المبين والصراط المستقيم.

كان جوهر الصورة، المبثوث تحت المباحث كلها، هو أن هؤلاء العرب المسلمين هم في الأصل قوم بداة جُهَّال لا عِلْمَ لهم كان، جياع في صحراء مُجدبة، جاءهم رجلٌ من أنفسهم فادّعى أنه نبي مرسل، ولفَّق لهم ديناً من اليهودية والنصرانية، فصدَّقوه بجهلهم واتبعوه، ولم يلبث هؤلاء الجياع أن عاثوا بدينهم هذا في الأرض يفتحونها بسيوفهم، حتى كان ما كان، ودان لهم من غوغاء الأمم مَن دان، وقامت لهم في الأرض بعد قليل ثقافة وحضارة جُلّها مسلوب من ثقافات الأمم السالفة كالفرس والهند واليونان وغيرهم، حتى لُغَتهم كلها مسلوبة وعالةٌ على العبرية والسريانية والآرامية والفارسية والحبشية. ثم كان من تصاريف الأقدار أن يكون علماء هذه الأمة العربية من غير أبناء العرب، (الموالي)، وأن هؤلاء هم الذين جعلوا لهذه الحضارة الإسلامية كُلِّها معنىً.

هذا هو جوهر الصورة التي بثّها المستشرقون في كل كتبهم، وعن علوم أهل الإسلام وفنونهم وآثارهم وحضارتهم، وأن هذه الحضارة إنما هي إحدى حضارات «القرون الوسطى» المظلمة التي كان العالم يومئذ غارقاً فيها = يَعْنون عالمهم هم = يجري عليها حكم قرونهم الوسطى!

ونجح «الاستشراق» في تحقيق هدفه كل النجاح، واستطاع أن يُدرج الإسلام وشرائعه وثقافته وحضارته في مستنقع «القرون الوسطى» الذي طمرته «النهضة الحديثة» وَوَطَئه «عصر الإحياء والتنوير» بأقدامه وطأة المتثاقِل، وبذلك عصم العقل الأوربي المثقف من أن يزل زلة، فيرى في دين الإسلام أو في ثقافته وحضارته، ما يوجب انبهاره، فقد صوّروا وكتبوا بحديث السفاهة والبذاءة في الطعن في القرآن العظيم وفي رسول الله - ﷺ - وصحابته...

غَبَر ما غَبَر على يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة ٨٥٧ هـ/ ٢٩ مايو - أيار - سنة ١٤٥٣ بسقوط القسطنطينية حصن المسيحية الشمالية الشامخ المنيع، وعلى تَدفُّق كتائب الإسلام في قلب أوربة الغارقة في حمأة قرونها الوسطى...

غَبَر ما غَبَر على فَرحةٍ أذهلت دار الإسلام عن فجيعتها بسقوط الأندلس كله بعد أربعين سنة في قبضة المسيحية الشمالية يوم سقطت غرناطة آخر حصون الإسلام في الأندلس (٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢ م) واستأصل المسيحيون التراث الثقافي الإسلامي العظيم في الأندلس، وفي خلال مئة من السنين أُبعد المسلمون ونُفوا من بلادهم، أو أُجبروا على أن يتركوا دينهم تحت التهديد بالموت من فرديناند ملك أسبانيا وزوجته إيزابيلا. . . وغَبَر ما غَبَر على ما كان من توغل محمد الفاتح في قلب أوربة وتساقط رعاياها الرهبان في الإسلام طواعيةً واختياراً، ودخولهم بحماسة ويقين في جحافل الإسلام الزاحفة. . غَبَر ما غَبَر، ودخلت دار الإسلام في سنة لذيذة أورثتها نشوة النصر المؤزّر، ودخلت أوربة كلها في عزيمة حاسمة، لتردّ على عِرضها العار، وبَلغَ السيلُ الزُّبى، فكانت يقظة محسوسة في جانب، وغفوة لا تحسّ في جانب، وانطلقت الأساطيل الأوربية تطوّق دار الإسلام من أطرافه البعيدة. . . وشيئاً فشيئاً فَقَدت دار الخلافة في القسطنطينية هَيْبَتها وسيطرتها، وصارت لأوربة هيبة مرهوبة وسيطرة. . .

يومئذ كان قد مضى على فتح القسطنطينية قرنان، مئتا عام. . . ويومئذ آنَسَ قلبُ دار الإسلام رِكْزاً خفياً فأرهف له سمعُه. سمع نقيض أركان دار الخلافة وهي تتقوض، فتوجَّس توجُساً غامضاً لشرٍّ مستطير آتٍ لا يدري من أين؟ فهبَّ من جوف الغفوة الغامرة أشتاتٌ من رجال أيقظتهم هَدَّة هذا التقوّض، فانبعثوا يحاولون إيقاظ الجماهير المستغرقة في غَفْوتها. رجال عظامٍ أحسُّوا بالخطر المُبْهم المحدق بأمتهم، فهبُّوا بلا تواطؤ بينهم. كانوا رجالاً أيقاظاً مُفَرَّقين في جنبات أرض مترامية الأطراف، متباعدة أوطانهم، لا يجمعهم إلا هذا الذي توجَّسوه في قرارة أنفسهم مُبْهَماً من خطر مُحدق. أحسُّوا الخطر فراموا إصلاحَ الخلل الواقع في حياة دار الإسلام: «خلل العقيدة»، و«خلل علوم الدين» و«خلل علوم الحضارة». وبأناة وصبر عَمِلوا وألَّفوا وعَلَّموا تلاميذهم، وبهمّة وجدّ أرادوا أن يُدخلوا الأمة في «عصر النهضة»، نهضة دار الإسلام من الوَسَن والنوم والجهالة والغفلة عن إرث

أسلافهم العظام. من هؤلاء خمسة من الأعلام أذكرهم مجرد ذكر باختصار[1]:

١ ـ «البغدادي»، «عبد القادر بن عمر»، صاحب خزانة الأدب (١٠٣٠ ـ ١٠٩٣ هـ/ ١٦٢٠ ـ ١٦٨٣ م) في مصر.

٢ ـ «الجبرتي الكبير»، «حسن بن إبراهيم الجبرتي العقيلي» (١١١٠ ـ ١١٨٨ هـ/ ١٦٩٨ ـ ١٧٧٤ م) في مصر.

٣ ـ «ابن عبد الوهاب»، «محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي» (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ/ ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢ م) في جزيرة العرب.

٤ ـ «المرتضى الزبيدي»، «محمد بن عبد الرزاق الحسيني»، صاحب «تاج العروس» (١١٤٥ ـ ١٢٠٥ هـ/ ١٧٣٢ ـ ١٧٩٠ م) في الهند ومصر.

٥ ـ «الشوكاني»، «محمد بن علي الخَوْلاني الزَّيدي» (١١٧٣ ـ ١٢٥٠ هـ/ ١٧٦٠ ـ ١٨٣٤ م) في اليمن.

وإذا أمعنتَ النظر في هذه التواريخ، علمتَ أن «عصر النهضة» عندنا واقع بين منتصف القرن الحادي عشر الهجري إلى منتصف القرن الثاني عشر، ويقابله منتصف القرن السابع عشر الميلادي إلى أوائل القرن التاسع عشر، تذكَّر هذا ولا تَنْسه أبداً، فهو الذي يكشف لك اللثام عن التغرير، الفاضح الذي طفحت به حياتنا الثقافية والفكرية الفاسدة المهلكة.

ونتملى صورة من صور هذه النهضة الهادئة.. صورةً واضحة مضيئة.. صورة للجبرتي الكبير الذي وَلَّى وجهه شطر العلوم التي كانت تراثاً مستغلقاً على أهل زمانه، فجمع كتبها من كل مكان، وحَرص على لقاء مَن يَعْلم سِرّ ألفاظها ورموزها، وقضى في ذلك عشر سنوات (١١٤٤ ـ ١١٥٤ هـ)، حتى مَلَك ناصية الأمور كلها، في الهندسة والكيمياء والفلك

---

(١) انظر محمود شاكر، مجلة الهلال/ عددي مايو ويونيه سنة ١٩٨٢، فقد ذكر فصلاً عنهم.

والصنائع الحضارية كلها، حتى النجارة والخِراطة، والحدادة والسَّمكرة والتجليد والنقش والموازين، وصار بيته زاخراً بكل أداة في صناعة وكل آلة، وصار إماماً عالماً في أكثر الصناعات، ولجأ إليه مَهَرَة الصُناع في كل صناعة يستفيدون من علمه، ومارسَ كل ذلك بنفسه، وعَلَّم وأفاد، حتى عَلَّم خدمَه في بيته، ويقول ابنه عبد الرحمٰن الجبرتي المؤرخ[1]: «وحضر عليه طُلاب من الإفرنج وقرأوا عليه علم الهندسة، وذلك في سنة تسع وخمسين (١١٥٩ هـ/ ١٧٤٦ م) وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت وأخرجوه من القوة إلى الفعل، واستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء، وجرّ الأثقال، واستنباط المياه، وغير ذلك».

وهؤلاء «الإفرنج»، هم «المستشرقون» كما قصصت عليك من أخبارهم، ومن اتصالهم بالعلم الحيّ عند دار الإسلام، لحل رموز الكتب العربية.

العمل السريع المحكم:

«دَوّت أسماء هؤلاء الخمسة في أرجاء دار الإسلام، وأشتاتٍ غيرهم، مؤذنة بيقظة جديدة، وإحياء لعلم الأمة ولغتها وثقافتها، واستعادة لسيطرة الأمة على أسباب حضارتها الزاهرة القديمة وإرادة لبعثها بعثاً جديداً.

كما تقدم آنفاً، كان «المستشرقون» منذ نأنأة «الاستشراق» = وإلى هذا اليوم = يجوبون دار الإسلام من أطرافها إلى قلبها، يلاقون الخاصة من العلماء، ويخالطون عامة المثقفين والدّهماء، وفي قلوبهم حَميّة الحقد المكتّم، وفي النفوس العزيمة المصمِّمة، وفي العيون اليقظة، وفي العقول التنبُّه، وفي الوجوه البِشْر والبراءة، وفي الألسنة الحلاوة والتملُّق، ولبسوا لجمهرة المسلمين كل زيّ، وتوغَّلوا يستخرجون كل مخبوء، وكانت بلادهم

(١) تاريخ الجبرتي ١/٣٩٧.

يومئذ قريبة عهد بعصر النهضة وعصر اليقظة وعصر الإحياء، فهم على أتمّ معرفة بأسرار اليقظة كيف تبدأ وإلى أين تنتهي، فأدركوا إدراكاً واضحاً لا لجاجَة فيه، أن ما كان يجري في دار الإسلام منذ منتصف القرن الحادي عشر = السابع عشر الميلادي، إلى منتصف القرن الثاني عشر الهجري = الثامن عشر الميلادي، إنما هو يقظة حقيقية، ونهضة كاملة، وإحياء صحيح، منبثق كله من ينبوع صافٍ عتيق، طمست معالمه كرُّ الدهور والقرون، هو جميعه في حوزة دار الإسلام. فوجفت قلوبهم ورجفت من هَوْل ما هم مقبِلون عليه، إذا تمَّت لدار الإسلام «اليقظة» واستوت وبلغت أشدها، واستقامت خطواتها على سَنَن الطريق.

وهَبَّ المستشرقون هبَّة الفَزَع من هذه «اليقظة» فتسارعوا ينقلون كل صغيرة وكبيرة مما هو جار تحت أعينهم في دار الإسلام، ووضعوه بَيِّناً جلياً، مشفوعاً بمخاوفهم وملاحظاتهم ونُصحهم وإرشادهم، تحت أبصار ملوك المسيحية الشمالية وأمرائها ورؤسائها وقادتها وساستها ورهبانهم، وبصَّروهم بالعواقب الوخيمة المخوفة من هذه اليقظة الوليدة التي بدأت تنساح في دار الإسلام. وتناجوا بينهم نجوى طويلة، يُقَلِّبون النظر في أهدافهم ووسائلهم، وتبيّنوا الخطر الداهم الذي جاء يتهدَّدهم، إذا ما تمت هذه «اليقظة» واشتدّ عودها، واستقامت خطواتها على الطريق اللاحب.

وببديهية العقل، لم يكن لأوربة يومئذ خيار، طريق واحد لا غير، هو **العمل السريع المحكم**، واهتبال الغفلة المحيطة بهذه «اليقظة» الوليدة، ومعاجَلتها في مَهْدها قبل أن يتم تمامها ويستفحل أمرها، وتصبح قوة قادرة على الصراع والحركة والانتشار، فإن تمَّ ذلك، فما هو إلا أن تعود الحرب بين الشمال والجنوب جَذَعةً، وعندئذ لا يضمن أحد مغبّة الصراع المشتعل بين سلاحين متكافئين، وثقافتين متكاملتين. لا يضمن أحد لأي الفئتين. . .

«الاستشراق» كما تقدّم قبلُ هو عين «الاستعمار» التي بها يُبصر ويحدّق، ويده التي بها يُحسُّ ويبطش، ورِجله التي بها يمشي ويتوغّل، وعقله الذي به يُفكر ويستبين، ولولاه لظلَّ في عميائه يتخبَّط. ومَن جهِلَ هذا

فهو بِبَداءةِ العقول ومُسلَّماتها أجهل. فلما فَزِعَ «الاستشراق» فزعت معه كُلُّ المسيحية الشمالية ودولها التي كانت أساطيلها تطوّق دار الإسلام من أطرافها البعيدة، وتتوغل بسيطرتها على سواحلها، متحسِّسَةً طريقها إلى قلب هذه الدار المترامية الأطراف، بالدّهاء وبالمكر وبالخديعة، وبالتنمُّر أحياناً حين يتطلب الأمرُ التنمُّر والترويع.

كانت دول أوربة كلها في صراع مستميت فيما بينها على نهش أطراف الإسلام، واستنزاف ثرواتها وكنوزها وخيراتها بشراهة لا تشبع. وكان أكبر الصراع المتوحش على الطرف البعيد، حيث لا تستطيع طليعة الإسلام في دار الخلافة العثمانية أن تصنع لإنقاذها شيئاً ذا بال، بل هي يومئذ مشغولة أيضاً بالحفاظ على وجودها وهيبتها لا أكثر.

كانت أكبر دولتين يومئذ: إنجلترا وفرنسا، وكان السبق لإنجلترا، فأنشأت ما يسمُّونه «شركة الهند الشرقية البريطانية» وهي أول جهاز استعماري قوي وذلك في سنة (١٦٠٠ ـ ١٨٥٨ م = ١٠٠٩ ـ ١٢٧٥ هـ) وتبعتها فرنسا فأنشأت جهازها الاستعماري باسم «شركة الهند الشرقية الفرنسية» (١٦٦٤ ـ ١٧٦٩ م = ١٠٧٥ ـ ١١٨٣ هـ)، ولا يغررك لفظ «شركة»، فإنه في الحقيقة جيشٌ غازٍ مسلح، مهمته النهب والسلب. .

بدأ الصراع بين الشركتين في الهند = أي اللّصين = صراعاً مستَحِرّاً مستميتاً، وظل محتدماً حتى قضت «الشركة البريطانية» على «الشركة الفرنسية»، وطردتها من الهند كلها سنة ١٧٦١ م/ ١١٧٥ هـ فخرجت هي والإسبان وغيرهم من حَلْبة الصراع في الهند، واستأثرت إنجلترا بالصيد الغزير.

ففي ذلك الوقت جاءهم النذير، «نذير الاستشراق» للمسيحية الشمالية بالخطر المُدلهم الذي تهدِّدهم به «يقظة» دار الإسلام بقيام محمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ = ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢ م)، وظهور الجبرتي الكبير في مصر هو والزبيدي ومن قبله البغدادي وغيرهم من

أعلام اليقظة. . . كان نذير الاستشراق مروّعاً وحاسماً. إما إنجلترا صاحب «الشركة الهندية الشرقية البريطانية» فأسرع مستشرقوها إسراعاً حثيثاً إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية، وبالدهاء والمكر والدسائس في زي الناصر والمعين لتدسس إلى يقظة ابن عبد الوهاب = يقظة تنقية «الدين» مما تراكم عليه من البدع الفاسدة لعقيدة التوحيد ـ لِتَتَّخِذ عندها يداً وبهذه اليد تسيطر عليها وتحتويها. وأبعدت إنجلترا الرحلة من ناحية أخرى، تؤلِّب عليها مَن حولها لتطوّقها تطويقاً يحول بينها وبين الانتشار. وهذا هو أسلوب بريطانيا حيث حَلَّت من الأرض. وأما فرنسا التي عادت من الهند تَلْعق جراح هزائمها، فكان وَقْع النذير عليها مختلف الأثَر، مختلف الأسلوب، في قصة طويلة من تنبُّه «الاستشراق» لما يجري في دار الإسلام.

وقيّض الله لفرنسا قائداً أوربياً شديد البأس، ضرّسته الحروب في أوربة حتى أصبح اسمه مثيراً للرعب في القلوب بأنه قائد لا يُقهر، هو الصليبي «نابليون» (١٧٦٩ ـ ١٨٢١ م) = (١١٨٣ ـ ١٢٣٧ هـ)، فلما فرغ من حروبه في أوربة منصوراً نصراً مؤزّراً، أصاخَ سَمْعه لنذير «الاستشراق» ولنصحه وإرشاده، فقدّر أن الحين قد حان ليكون أول قائد أوربي استطاع بقوته التي لا تُقهر، أن يخترق قلب دار الإسلام من الشمال، وأن يُداهم «اليقظة» التي أرّقت منام «الاستشراق»، وأن يبطش بها في عُقْر دارها بطشة جبَّارٍ عاتٍ لا يُبقي على شيء.

وفي أول يولية = تموز = سنة ١٧٩٨ م = ١٧ من المحرم سنة ١٢١٣ هـ هوى نابليون هُوِيّ العُقاب على مهد «اليقظة» في الديار المصرية، هوى بجحافله وأساطيله مزوّدة بكل أداة للحرب جديدة مما تمخَّض عنه علم أوربة يومئذ، مصطحباً معه عشرات من صغار «المستشرقين» وكبارهم، وطائفة من العلماء في كل علم وفن، معهم كل غريبة مما كشف عنه العلم المستحدث. .

وكان ما كان من نار الأحقاد المتوارثة على دار الإسلام، وأترك الجبرتي المؤرخ يصف لك ما حدث في القاهرة في يوم السبت ١٠ جمادى

الأولى سنة ١٢١٣ هـ = ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ م، قال الجبرتي[1]: «بعد هجعة من الليل، دخل الإفرنج المدينة كالسَّيل، ومرُّوا في الأزقة والشوارع، لا يجدون لهم ممانع... ثم دخلوا إلى «الجامع الأزهر» وهم راكبوا الخيول، وبينهم المشاة كالوعول، وتفوَّقوا (أي قاءوا) بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته... ونهبوا ما وجدوه من المتاع..، ودَشَتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيها وتغوّطوا وبالوا وتمخطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل مَنْ صادفوه به عرُّوه، ومن ثيابه أخرجوه».

وكان ما كان بعد ذلك وقبل ذلك، من تهديم القصور والمساجد وتخريب الديار وسرقتها ونهبها، بحقد وشراسة.

قضى نابليون بحملته الصليبية التي غزت مصر، على أكبر قوة مقاتلة في دار الإسلام بعد قوة دار الخلافة، قضى على بأس المماليك المصرية وشتّتهم ومزّقهم كلّ مُمزق..

ولم ترحل الحملة الفرنسية عن مصر إلا بعد أن خرَّبوا عاصمة من أكبر عواصم دار الإسلام وأجملها، رحلت فلول جيش الفتى السفّاح «نابليون» عن بلاد واسعة عريضة تركَتْها بلقعاً تَصْفِر فيه الريح، وانكشحت عن عاصمة عتيقة تركتها خراباً. كان خراباً شاملاً، وتدميراً لمدينة زاهرة من أروع مدن العالم يومئذ، بعمارتها وفنونها، أقدم على تدميرها تدميراً كاملاً بَرْبري جاهل مُسْتَخْف في زيّ متحضر! وتركها تاريخاً يُروى في وثائق «علماء الحملة الفرنسية». ولكنهم لم يرحلوا عن القاهرة المخربة، حتى سرق «المستشرقون» المصاحبون للحملة، و«مستشرقون» آخرون من كل جنس، سرقوا كل نفيس من الكتب، وكانت القاهرة يومئذ من أغنى بلاد العالم بالكتب. ودليل السرقة قائم في جميع مكتبات أوربة.. وكان همُّهم الأكبر يومئذ هو السطو على كتب «علوم الحضارة» أولاً، ثم على كتب «التاريخ» ثم على كتب «الآداب» كلها بلا تمييز..

(١) تاريخ الجبرتي ٣/٢٦، انظر كتاب «ودخلت الخيل الأزهر» للأستاذ محمد جلال كشك.

وكانت الغاية من هذا السطو الجائح على كتب دار الإسلام في القاهرة، هي تجريد دار الإسلام في القاهرة من أسباب «اليقظة» التي جاءت الحملة الفرنسية لِوأدها في مهدها، وللقضاء عليها قبل أن تتفاقم. ووفرة هذه الكتب النفيسة في القاهرة يومئذ، هي التي يسَّرت الطريق إلى هذه «اليقظة» التي حَمَل عبء البدء بها «الجبرتي الكبير» وتلامذته، و «البغدادي» و «الزبيدي» وتلامذتهما، فكان لا بد للاستشراق وفلول الحملة الفرنسية من إتمام ما جاءت الحملة من أجله، فهو الهدف الأكبر: وأد «اليقظة» في عقر دارها. وبلا شك كانت سنوات الحملة الثلاث، وما أصاب القاهرة فيها من التدمير الشنيع وسفح الدماء، وما عَمّ أحياءها من الثورات والفتن الكبار والصغار، ثم قمعها بفجور وشراسة، كان ذلك كله حدثاً متمادياً كافياً أدّى إلى تشتيت شمل تلامذة روّاد «اليقظة» وتفرقهم في الأرض، وضياعهم في الهَرَج والمَرَج. بل أنا لا أستبعد عن هؤلاء السفّاحين العتاة، أن يكون دهاة «الاستشراق» على علم بأعيانهم وأسمائهم، منذ كان «المستشرقون» يترددون على «الجبرتي» وغيره من العلماء، لا أستبعد أن يكون وكر «الاستشراق» قد أغرى سفهاء السفاحين بتعمُّد قتل بعضهم غيلة أو جهرة، لا أستبعد، والله أعلم أي ذلك كان..

وئدت «اليقظة» أو كادت، وخربت ديارها أو كادت، واستأصلت شأو أبنائها أو كادت..

إن جهاز «الاستشراق» هو الجهاز المستكنُّ في أحشاء «جهاز الاستعمار» و «جهاز التبشير»، يربأ لهما ويهديهما الطريق، ولولاه لاستبهمت عليهما المسالك وهاما في أودية الضلال. كان هذا الجهاز الخبيث المتخفي في عباءة العلم والبحث، قد اكتسب خبرة واسعة جداً بدار الإسلام وأهلها وسكانها، منذُ انساح في قلب دار الإسلام في تركية، وهو يَدبُّ مستخفياً في أرجائها، ثم في الشام ومصر وجوف إفريقية وممالكها المسلمة، ومنذ مقامه

---

(١) يربأ: يرقُب من مكان عال ويتطلّع.

في دار الإسلام في الهند في القرن السابع عشر. كانت خبرة مُتَغَلْغِلَة بجماهير الأمة مجتمعةً، ثم بطوائفها المختلفة، ثم بأفراد رجال بأعيانهم واحداً واحداً، معروف الإسم والمكان والحركة. كانت خبرة بمواطن الضعف والقوة، وبمكامن الهوى الميَّال الذي يستجيب، والإرادة المُصَمِّمة التي تمتنع عن الاستجابة، أي كانت خبرةً مدروسةً منظمةً واضحة المعالم في ذهن «الاستشراق». ومع تطاول السنين عليه، اكتسب لنفسه أعواناً من اليهود وشُذَّاذ الآفاق من أهل دار الإسلام وغير دار الإسلام، يستأجرهم لتوسيع رُقْعة خبرته تارةً، ولبثّ أفكار مدروسة بين جماهير دار الإسلام خاصتها وعامتِها، وللتحكم في تصريف أموره وبلوغ غاياته تارة أخرى = ثم للتمكن من إشعال نار الفتنة حين يقتضي الأمر إحداثَ فِتَن تفرّق شمل الناس وتمزِّقهم وتشغلهم عن الكيد الخفي الذي يُراد بهم. كل هذا يتمّ في هدوء وصبر وتستّر، ومن وراء الغفلة، غفلة أهل دار الإسلام عن جذور قضيَّتهم، وعن حقيقة هذه الأشباح الغريبة التي تتجول في الطرقات والشوارع في كل زيّ: زيّ التاجر، وزيّ السائح، وزيّ الباحث المنقِّب، وزيّ العالم الذي لا يشغلُه شيء غير العلم، وزيّ المسلم الذي رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً، وهو يحمل في عقله وقلبه خنجراً مسموماً على الإسلام وأهله!!!

أما إنجلترا فأسرعَ مستشرقوها إسراعاً حثيثاً إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية، حيث قام «محمد بن عبد الوهاب»، وبالدهاء والمكر والدسائس جاءت في زيّ الناصر والمعين، لتدسس إلى يقظة «ابن عبد الوهاب»، لتتخذ عندها يداً، وبها تُسيطر عليها وتحتويها، ومن وراء ستار كانت تؤلب تركية وتؤلب جاراتها وتخوّفهم، لتطوّق اليقظة تطويقاً يحول بينها وبين الانتشار. . وكان ما كان من تشويه هذه اليقظة والقضاء على حركتها. .

وهكذا بات منكشفاً كل الانكشاف، أنه لولا خبرة «المستشرقين» الذين كانوا يجوبون دار الإسلام، ويقيمون فيها، فيطيلون الإقامة ثم يُمدُّون الساسة بالملاحظات، لولاه لظلّ الاستعمار في عميائه يتخبّط. . كان

«الاستشراق» هو الذي يُعبىء جيوشاً من أشتات الأوربيين على اختلاف أجناسهم، ما بين تاجر وصانع ومغامر وسائح ومبشر وسياسي وراهب وطالب معرفة وأفّاق وصفّاق ومتكسب ليزحفوا بصمت خفي، خفي الوطء، والنية أن تتكون على الزمن من هؤلاء الأشتات جاليات كبيرة تقيم في دار الإسلام، وتطاولت السنون حتى استطاع «الاستشراق» أن يكوّن في قلب دار الإسلام جاليات صغيرة متخيِّرة بفهم ودقّة من شعوب أوربا، عمادها الرجال الذين يحترفون التجارة، ويعرفون العربية وغيرها من لغات دار الإسلام، ويقيمون في دار الإسلام مُدَداً طويلة، حتى يألفوا الناسَ ويألفهم الناس، ويتقوَّض جدار التوجُّس والتخوف والشك في هذه الأشباح الغريبة التي تتجوّل في الطرقات والشوارع آمنة غير مُفزّعة ولا مروّعة. .

ومع الأيام كانت الجاليات الصغيرة قد صارت جاليات كبيرة من تُجار شعوب أوربة، وتفاقم الأمر وصار لهم اليد الطولى في التجارة حيث أُنشئت الخانات والقيساريات هنا وهناك، وتولى «الاستشراق» عملاً خبيثاً آخر، كان يُجنِّد في دار الإسلامٍ جنداً من الأرمن والأروام والمالطيين وغيرهم، ويُغَذِّيهم بالأحقاد المكتمة، وبلهيب بغضائه الغائرة في العظام، ويدربهم على الدهاء والمكر والنفاق في معاشرة أهل دار الإسلام = ويحشد معهم أيضاً طوائف من يهود أوربة ومن اليهود المقيمين في دار الإسلام.

وأخطر ما قام به المستشرقون في دار الإسلام، وأخطر المستشرقين شأناً مَن لَبِسَ منهم زيّ أهل الإسلام، وجاور في المساجد الجامعة، ولازم حضور دروس المشايخ والعلماء، وصَلّى مع أهل الإسلام وصام بصيامهم، وخالط جماهير المسلمين وطلبة العلم مسلماً لا يرتاب فيه أحد، ولا يعرف أحدٌ حقيقته أو أصل بلاده التي جاء منها، وإنما مسلم كسائر المسلمين. .

وكثير من هؤلاء «المستشرقين» مَن أقامَ في دار الإسلام إقامةً طويلةً متمادية، كالمستشرق الداهية المحنّك المتستر الخفيّ الوطء «فانتور» الذي قضى أربعين سنة يتجوّل في دار الإسلام، والتحق بعدئذ بالحملة الفرنسية،

فكان شيطان نابليون ومستشاره وخليله ونجيّه الذي لا يفارقه في الحل والترحال، وكان كما قال الجبرتي المؤرخ: «لبيباً متبحراً يعرف اللغات التركية والعربية والرومية والطلياني والفرنسي»[١].

وهكذا كان، وفي القرن التاسع عشر نَشِطَ «الاستشراق» وأعوانه وجالياته، نشط نشاطاً سريعاً خفيّ الوطْء في ميادين مختلفة في دار الإسلام، لبثِّ أفكار درسوها وأحكموها، وأرادوا أن يشيعوها بين جماهير دار الإسلام، للتحكُّم في تصريف أموره وغاياته، وللتمكّن من إشعال نيران الفتن حين يَرون ذلك مناسباً، ليفرّقوا بهذه الفتن شمل الناس ويمزِّقوهم ويشغلوهم عن الكيد الخفي الذي يُراد بهم.. وكان ما كان، ومن هذه النيران الفِتَنة التي أشعلوها فتنة النصارى في بلاد الشام سنة ١٨٦٠ م، التي هيأت كل الظروف لقدوم الجيوش الأوربية فيما بعد إلى هذه البلاد الإسلامية..

ونجح «الاستشراق» وقناصله في إغراء دار الإسلام في استانبول وفي مصر وغيرها لإرسال بعثات كبيرة من شباب الإسلام إلى أوربا لتغرف من الحضارة المتقدمة، هذا كان المظهر البرّاق، ولكن كان الاستشراق يُعد لهم كل شيء ليصنع شباب الإسلام على عينه، ثم بعد سنوات قلائل يعودوا إلى بلادهم ليتولوا المناصب والأعمال.

أي صيد سمين تلقفه «المستشرقون»، الذين كانوا يصاحبون شباب الإسلام ويُوجِّهونهم، لم يكن لهؤلاء الشباب مَخْلَص من أحابيلهم ودهائهم ومكرهم ورقّة حاشيتهم ومداهنتهم، فاستغلّوا الشباب أبرع استغلال، وصَبُّوا في آذانهم، وطرحوا في قرارة قلوبهم معانيَ وأفكاراً قد بيّتوها ودرسوها وعرفوا عواقبها وثمراتها حين تنمو في دخيلة نفس كل منهم، وهم يزيدونهم فتنةً بإشهادهم روائع المحافل التي تتألق أنوارها، وتتألّق تحت أنوارها أيضاً مفاتن النساء الكاسيات العاريات، والرجال ذوي الأبّهة يختالون في شمائل

---

(١) تاريخ الجبرتي ٦٨/٣.

الرقَّة الأوربية، فزادوهم فتنةً، وزادوا غفلتهم غفلةً، وانتزعوهم انتزاعاً مما كانوا يعيشون فيه، حتى نسوا أنفسهم، وتنكروا لماضيهم القريب وأعرضوا عنه، وسارعوا ينجون بحياتهم الجديدة من خطاطيفهم التي تلاحقهم، وعادوا إلى بلادهم بعد سنوات أثمة.. جاءوا يُخرجون بلادهم وأهلها من الظلمات إلى النور!! يا للعجب!»[١].

مسيرة الخبث والغدر والكراهية:

لقد أصاب الوهن العالم الإسلامي في القرن الثالث عشر الهجري = التاسع عشر الميلادي في الدعوة والعقيدة والعقلية والعلم، «وبدا عليه الإعياء والضعف والشيخوخة، والإسلام لا يعرف الشيخوخة والهرم، إنه جديد كالشمس، وقديم كالشمس، ولكن المسلمين هم الذين شاخوا وضعفوا: فلا سعة في العلم، ولا ابتكار في التفكير والإنتاج، ولا عبقرية في العقل، ولا حماسة في الدعوة، ولا عرضاً جميلاً مؤثراً للإسلام ومزاياه ورسالته، إلا النادر القليل.

ولا صلة بالشباب المثقف وتأثير في عقليتهم وهم أمة الغد والجيل المرتجى، ولا محاولة لإقناعهم بأن الإسلام هو دين الإنسانية والرسالة الخالدة، وأن القرآن هو الكتاب المعجز الخالد الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنفذ ذخائره ولا تبلى جِدَّته، وأن الرسول هو المعجزة الكبرى ورسول الأجيال كلها وإمام العهود كلها، وأن الشريعة الإسلامية هي الآية في التشريع وهي الصالحة المسايرة الحياة وقضاء مآربها الصالحة والإشراف عليها، وأن الإيمان والعقيدة والأخلاق والقيم الروحية هي أساس المدنية الفاضلة والمجتمع الكريم، وأن الحضارة الجديدة لا تملك إلا الوسائل والآلات، وأن تعاليم الأنبياء هي مصدر العقيدة والخُلُق والغايات ولا مطمع في المدنية الصالحة المتَّزنة إلا بالجمع بين الوسائل والغايات»[٢].

---

(١) الفصول السابقة نقلاً عن محمود شاكر، بتصرف.

(٢) المسلمون المجلد السادس ص ٤١٧.

«وبينما كان المسلمون يتقلبون في أعطاف العز والمجد والنعيم الذي ورثوه عن آبائهم، كانت الأمم الغربية تعمل وتسعى وتجتهد. . . وإذا سيل السلطة الغربية يتدفق ويمتد إلى الشرق والغرب، حتى غمر ربوع الأرض في مدة قرن واحد. ولما تنبّه هؤلاء الغافلون النيام من سُباتهم الطويل، وفتحوا أعينهم يتبينون ماذا طرأ على الدنيا في أثناء ذلك، رأوا العجب العاجب. . . رأوا تلقاءهم أوربة المسيحية مدرّعة بالقوتين ـ قوة القلم والسلاح معاً، ومستبدة بالحكم والسيادة في الأرض بالقوتين جميعاً. عند ذلك انبرت من بين المسلمين فئة حَمَلَتْ لواء «اليقظة»، وتحاول سد نفوذ الغرب ودفع تياره عن بلاد الشرق، ولكنها ما كانت من هاتين القوتين ـ القلم والسلاح ـ على شيء يُذكر، فظلّت تفشل وتنهزم في وجهها ـ كما تقدم ـ»، وقد هجمت أوربة بفلسفاتها التي تَعِبَ في تدوينها وتهذيبها كبار الفلاسفة ونوابغ العصر، وصبغوها بصبغة علمية فلسفية يُخَيَّل إلى الناظر أنها غاية ما يصل إليها التفكير الإنساني، ومنتهى الدراسات والاختبارات ونتاج العقول البشرية وعصارة التأملات، وكان فيها ما يقوم على الاختبار والمشاهدة وتُصدِّقه التجربة، وما يقوم على الافتراض والتحكم والتخيُّل والتوهم، وفيها الحق والباطل والعلم والجهل والحقائق.

وسلك السواد الأعظم من الأمة المسلمة المذهب الذي كان مذهب أهل الضعف وأبناء الهوان منذ الأزل، وذلك أنه كل ما جاءهم من قِبَل الغرب من الأفكار والمبادىء والنظريات مدعّماً ببأس الحديد ومعزَّزاً بقوة الحجاج وشواهد العلم ومزخرفاً بفاتن الألوان، أنزله ذوو العقول الفاترة والعقليات المغلوبة هؤلاء منزلة الحقائق التي يجب الإيمان بها. وأما المعتقدات الدينية والمبادىء الخلقية والقوانين المدنية العتيقة التي كانت باقية فيهم على أساس من التقاليد والآثار فحسب، فقد ذهب بها هذا التيار الجديد القوي، واستقر في سويداء قلوبهم ـ من حيث لا يشعرون ـ أن كل ما يأتي من الغرب هو الحق وهو المقياس للصحة والصواب»[1].

---

(١) المسلمون المجلد الخامس ص ٥٦٧.

وأثناء مسيرة الحقد والكراهية ضد ديار الإسلام التقت مخططات الصهيونية العالمية مع أهداف الصليبية العالمية، فقد ساهم يهود أوربة، واليهود الذين كانوا يعيشون في ديار الإسلام = الذين لم يجدوا صدراً حنوناً إلا في العالم الإسلامي المفتوح، الذي ينكر الاضطهادات الدينية والعنصرية = ساهموا في دسّ السم الملثم في عقول المسلمين، كما نشطوا في دفع كل خنجر ملتهب أصاب دار الإسلام هنا وهناك..

فالصهيونية لم تفتر لحظة واحدة في الكيد للإسلام منذ أن ظهر رسول الحق في المدينة، قاوموه في كل مكان وفي كل زمان مقاومة خفية وظاهرة.

تحرك اليهود سريعاً في دم «الاستشراق»، تحركوا يُؤجِّجون نار الغضب المشتعل بلهيب البغضاء والحقد، وعاثوا بالروح الأوربية فساداً حتى كان لهم ما كان من القيادة المالية والاقتصادية والعلمية والإعلامية، تحركوا بخطى وئيدة خفية في الجسم الأوربي، وتحركوا من خلاله ومعه في تفتيت الدولة العثمانية التي كانت تحمل لواء الخلافة الإسلامية..

ومنذ أن عُقد مؤتمر «بال» في سويسرا عام ١٨٩٧ م بزعامة الصحفي اليهودي هرتزل وبعد صدور كتاب «الدولة اليهودية» بقَلَمِه، كان قد انفتح مجال جديد للعمل في مواجهة العالم الإسلامي لشقّ الطريق إلى فلسطين لإقامة وطن قومي لليهود فيها من خلال مخطط القوى الاستعمارية التي كانت قد انطلقت منذ عام ١٧٩٨ م إلى مصر تحت اسم «الحملة الفرنسية» ثم إلى الجزائر عام ١٨٣٠ م، ثم إلى تونس عام ١٨٨١ م، ثم إلى مصر مرة أخرى من قبل أنكلترا عام ١٨٨٢ م، وفي هذه المرحلة كان الصراع قوياً بين الاستعمارين الفرنسي والإنجليزي في المنطقة التي تضم الخلافة العثمانية، ولكي تكتمل الصورة فإن هولاندة كانت قد سبقت ذلك بوقت طويل بالاستيلاء على الملايو وجاوه وما يطلق عليه الآن اسم أندنوسيا، وكانت إنجلترا قد احتلت الهند، وكانت أجزاء من الخليج قد سقطت في أيدي إسبانيا والبرتغال ثم ورثتها إنجلترا وكان هذا كله جزءاً من مخطط الاستعمار الغربي الحديث الذي تكامَلَ في نهاية الحرب العالمية الأولى بإيقاع الصراع

بين العرب والترك في المنطقة العربية (الحجاز والشام والعراق) وحلول فرنسا وإنجلترا بدلاً من الدولة العثمانية في هذه المناطق بعد معركة أدارتها إنجلترا بقيادة الصليبي المتمرس «لورنس» الذي وُصِفَ في يوم من الأيام بأنه مَلِك العرب غير المتوّج.

كان المخطط مُعَدّاً لأن تُعطى فلسطين في هذا المسرح الذي مَثَّلت عليه هذه الرواية كلها للصهيونية العالمية. وأن استيلاء إنجلترا على فلسطين عام ١٩١٨ م كان تمهيداً لأن تقع بما فيها بيت المقدس في أيدي اليهود..

ومراجعة الأحداث تُنبىء بهذا التخطيط الواسع البعيد المدى الذي بدأ منذ وقت باكر يسبق لقاء هرتزل للسلطان عبد الحميد، وهو في حقيقته صراع بين إرادتين: الإرادة الأولى هي إرادة السلطان عبد الحميد الذي تولى سدّة الخلافة في عاصمة دار الإسلام استانبول عام ١٨٦٨، والذي قاد حركة كبرى في سبيل الوحدة في مواجهة الاستعمار تحت اسم الجامعة الإسلامية لتعمل مع جميع مسلمي العالم خارج نطاق الدولة العثمانية ولتوحد كل القوى والمذاهب والأقطار.

ولا ريب كانت هذه الحركة مضادة لإرادة أخرى كانت تستهدف تمزيق الدولة العثمانية نفسها وليس لتمكينها من أن تجمع إليها أقطار المسلمين الأخرى التي في خارجها، ولذلك كان النضال عميقاً وكان الصراع شديداً فقد تكاتفت القوى الغربية كلها في سبيل السيطرة على البلاد الإسلامية وتقسيم الأمبراطورية العثمانية بعد أن عمدت إلى إنهاكها سنوات عدة بالحروب والمؤامرات، وحين باتت لقمة سائغة جاء السلطان عبد الحميد ليعقد الخناجر على مقاومة الاستعمار ولذلك كان لا بد من إزاحته، كذلك فإن الصهيونية العالمية كانت ترى أن الدولة العثمانية هي مدخلها إلى فلسطين، وكانت تُعدّ العدّة منذ وقت بعيد في بؤرة خطيرة داخل تركيا هي «سالونيك» التي كانت تتجمع فيها «الدونمة» أولئك الذين دخلوا الإسلام تقية من يهود إسبانيا الذين هاجروا بعد خروج الحكم الإسلامي منها، والذين كانوا قد أنشأوا المحافل الماسونية لإعداد خطة الانقضاض على

الدولة العثمانية، والذين استطاعوا احتواء جماعة «الاتحاد والترقي» والتغلغل فيها والسيطرة عليها، ومن ثم استطاعوا بها إقصاء السلطان عبد الحميد وإسقاط مشروعه، والقيام على الدولة لتمزيقها والقضاء عليها، ولا عجب ففي ظل حكم الاتحاديين بعد إسقاط عبد الحميد منذ عام ١٩٠٩ إلى عام ١٩١٨ هزمت الدولة في الحرب العالمية الأولى وسلمت طرابلس الغرب إلى إيطاليا وفتحت الطريق أمام اليهود إلى فلسطين.

ولنعد إلى حقيقة الصراع بين القوى الإسلامية بقيادة السلطان عبد الحميد وبين قوى الصليبية العالمية الاستعمارية والصهيونية العالمية لنعرف مدى ما حققه إسقاط عبد الحميد تمهيداً لإلغاء الخلافة الإسلامية.

لكي نعرف حقيقة الوحدة الإسلامية الجامعة التي قام بها عبد الحميد يجب أن نتصور بوضوح واقع الدولة العثمانية والعالم كله خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي وقد بلغت الدولة العثمانية أشد مراحل الضعف، وقد تجمعت الدول الغربية على وضع الخطط للقضاء عليها وتمزيقها وإذلالها. وقد كانت روسيا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا جميعاً بالإضافة إلى البابوية تشترك في رسم هذه الخطط وفي انتزاع الأجزاء الأوربية من الدولة واسترجاعها والاستعداد لتقسيم الأجزاء العربية في الدولة وهي: الشام والعراق والجزيرة العربية.

وكانت مخططات الصهيونية العالمية تركز تركيزاً شديداً على الدولة العثمانية من أجل الوصول إلى فلسطين وتحقيق حلمها في إقامة هيكل سليمان. فلما وُلِّي السلطان عبد الحميد الحكم خليفة للمسلمين وسلطاناً للدولة العثمانية واجَه الموقف على نحو يختلف عما واجهه به سلاطين آل عثمان الذين سبقوه وكانت مواجهته جادة حاسمة. كان إحساسه بالتبعة كبيراً وكان ذكاؤه وسعة فكره وإلمامه بالتيارات المختلفة بالغاً، ومن هنا فقد جرى من الأحداث في طريقها المرسوم شوطاً ثم لم يلبث أن وضع خطته المحكمة التي رأى أنها الطريق الوحيد لمواجهة الغزو الاستعماري الزاحف والذي كان قد تشكل داخل الدولة العثمانية في مؤسستين خطيرتين:

إحداهما: المحافل الماسونية في سالونيك وتركيا الفتاة التي سُميت بعد «الاتحاد والترقي» والتي ضمت مجموعة من المثقفين ثقافة غربية ومن أصحاب الولاء الفكري الغربي وخاصة الفرنسي، ومن الذين أُغروا عن طريق المستشرقين وكُتّاب الغرب بأنه لا سبيل أمام الدولة العثمانية لكي تصل إلى التحرر والقوة إلا بالتماس مناهج الغرب التماساً كاملاً، وطرح فكرها وأسلوبها ومنهجها الإسلامي القديم والتخلص منه إلى غير رجعة، غير أن هذه الجماعة لم تستطع أن تقف وحدها فالتمست العون من المحافل الماسونية ومن ثم احتوتها الحركة الصهيونية وسيطرت عليها وَوَجَّهتها الوجهة التي ارتضتها في القضاء على الدولة العثمانية. وكان السلطان عبد الحميد قد حدَّد هدفه في مواجهة النفوذ الغربي على هذا النحو: إن الوسيلة الأساسية لمواجهة النفوذ الاستعماري هو تجمع المسلمين في كل مكان تحت جناح الخلافة الإسلامية التي تحمل لواءه الدولة العثمانية الجامعة في كيانها بين العرب والترك، ومن هنا فقد كان على السلطان العثماني الذي هو خليفة المسلمين أن ينادي المسلمين في جميع أنحاء الأرض أن يقفوا معه في صف واحد في مواجهة النفوذ الغربي ومن هنا كانت صيحته المعروفة المشهورة التي هزّت الغرب كله: «يا مسلمي العالم اتحدوا».

ومن هنا بدأ الخطر الذي واجهته الدول الأوربية والاستعمار والبابوية والصهيونية العالمية في عنف، وأخذت في التماس كل وسائل التآمر والغدر في سبيل تحطيم الخطة والقضاء على القائم بها. ولكن السلطان عبد الحميد استطاع أن يصمد لذلك وقتاً طويلاً وأنه كان قد بدأ هذه الحركة عام ١٨٧٩ م على وجه التقريب، فقد ظلّ يحمل هذا اللواء في قوة في مواجهة عواصف السياسة الأوربية ثلاثين عاماً كاملة دون أن يتزلزل أو يضعف.

لم يكن السلطان عبد الحميد يملك من القوة العسكرية ما يستطيع أن يواجه به أوربة والصهيونية العالمية إلا التجمع باسم كلمة «لا إله إلا الله»، وتحت لواء الخلافة قوة عارمة خشيت بأسها أوربة وحسبت لها ألف حساب،

فقد كان المسلمون الموالون للسلطان تحت النفوذ الغربي في عديد من الأقطار التي احتلتها بريطانيا وفرنسا وخاصة قارة الهند يمثلون قوة روحية ذات أهمية خطيرة. ولقد مضى السلطان في تنفيذ مخططه في قوة وسرعة، بحيث شملت الدعوة كل الآفاق الإسلامية وذاعت في كل مكان وحملت معها عملاً إيجابياً نافعاً قوامه المدارس والمنشآت في كل صقع من البلاد الإسلامية وكان قد أنشأ مدرسة للدعاة الذين سرعان ما انبثوا في كل أطراف العالم الإسلامي إلى الهند والصين وجزائر المحيط ومصر وأفريقية وتركستان وأفغانستان وبلاد العرب، وأطراف المملكة العثمانية. كما عقد مع الأمراء في شتى هذه البقاع مراسلات وعقود وعَمَّق روابط الود والإخاء الإسلامي فيما بينهم ودولة الخلافة.

وأنهى الخلاف الذي أجَّجه الاستعمار بين السُّنة والشيعة أو بين الأتراك والفرس وقد استخدم لذلك العلاّمة الكبير جمال الدين الأفغاني، وأجرى صلحاً مع شاه فارس وصفّى أمر الخلافات القديمة كلها.

ولم يتوقف عند هذه الحركة الفكرية وحدها إنما جعلها واجهة لعمله الكبير الذي بدأه في بناء القوة الحربية والعسكرية وتقوية جيوشه وأساطيله، فقد استخدم بعثة ألمانية، ولم يلبث أن أنشأ معاهد عسكرية دخلها عدد كبير من الشبان الممتازين من شباب العرب من العراق وسورية ومصر. وقد مضت الخطة إلى غايتها المرجوة فاشتدّ عصب المسلمين بالترابط وتوحّدت فكرتهم بالعمل الجامع، وكان دعاة الفكرة الإسلامية ينشرون ثقافة جديدة قوامها مواجهة الاستعمار الغربي الزاحف والخطر الأوربي القيصري الصهيوني جميعاً، وتركزت الآمال حول السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين، وترابطت الدول الإسلامية وأهلها حول عاصمة الخلافة على نحو بلغ غاية القوة (فكانوا يذكرون اسمه في خطب الجمعة ويدينون له بالولاء والطاعة الروحية وباسم خلافته على المسلمين كافة) وجُلُّهم من رعايا دول أوربة في الهند وجزر الهند الشرقية وشمال أفريقية.

وكان من أكبر أعمال السلطان في هذا الصدد: إنشاء سكة حديد

الحجاز التي تربط بين دمشق والمدينة وكذلك فرعها الذي يربط بين الحجاز وبغداد، وقد وجَدَ هذا العمل تقديراً بالغاً من المسلمين في كل مكان وتبرّعوا له بأكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات الذهبية، فكان من أخطر المشروعات التي عَجَّلت بالقضاء على السلطان فقد كان منذراً للغرب بتغيير إسلامي كبير.

وكان من أخطر مواقف الحركة الإسلامية الواحدة التي دعا إليها وحمل لواءها عبد الحميد: هو معارضة أهداف الحركة الصهيونية في السيطرة على فلسطين ومواجهتها.

كان اليهود يرون في السلطنة العثمانية شبحاً مخيفاً خطراً على مستقبلهم، فَبَعْد أن عقد مؤتمر بال ١٨٩٧ م وكانت حركة الوحدة الإسلامية قد استحصدت، كانت وجهة نظر اليهود هي اقتحام فلسطين ولذلك فقد تركزت الخطط حول الدولة العثمانية وحول السلطان عبد الحميد في محاولة لاحتوائه ظناً منهم أنه في ظرف من الضعف وفي حالة من الاستدانة تجعله يخضع للإغراء، إغراء اليهود بالذهب، وهم من قبل أصحاب العِجْل الذهبي، وبدأت المحاولات منذ ذلك الوقت واتخذت وسائط كثيرة ووسائل متعددة منها وساطة الأمبرطور غليوم ولقاء اليهود الثلاثة «مزراحي قراصو ـ جال ـ ليون»، ولقاء هرتزل ومعه موشي ليوي حاخام اليهود في الدولة العثمانية، ولقاء السفير اليهودي غوش وهي سابقة على مقابلة اليهود الثلاثة ثم لقاء هرتزل للسلطان ولرجال قصره.

وقد عرض من خلال هذه المقابلات مشروع يرمي إلى تقديم قرض للدولة العثمانية يبلغ خمسون مليوناً من الجنيهات الذهبية، وبناء أسطول كامل للدفاع عن أراضي الدولة العلية، ومليون جنيه لخزانة السلطان الخاصة، وذلك في مقابل السماح لليهود بإنشاء مستعمرة صغيرة لهم قرب القدس ينزل بها أبناء جلدتهم.

وحتى لا نطيل والتفاصيل كلها موجودة والمراجعة ثابتة: نُنَوِّه بالرد

النهائي للسلطان عبد الحميد: بَلِّغوا الدكتور هرتزل ألَّا يبذل بعد اليوم شيئاً عن المحاولة في هذا الأمر «التوطن بفلسطين» فإني لست مُستعداً أن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب إلى الغير، فالبلاد ليست ملكي بل هي ملك شعبي الذي روى ترابها بدمائه. فليحتفظ اليهود بملايينهم من الذهب، فإن الدولة العلية لا يمكن أن تختبىء وراء حصون بُنيت بأموال أعداء الإسلام.

لست مستعداً لأن أتحمل في التاريخ وَصْمة بيع بيت المقدس لليهود وخيانة الأمانة التي كَلَّفني المسلمون بحمايتها..».

وقد أورد هرتزل في مذكراته التي طُبعت بالألمانية في تل أبيب عام ١٩٢٤ قصة هذه المحاولات وقال بعد فشل المحاولة الأخيرة: «إن السلطان عبد الحميد الشريف الفذ»... وهذا الذي أُخفي عن المسلمين والعرب منذ عام ١٩٠٩ حتى سنوات قريبة عندما ترجمت مذكرات هرتزل.

ومن هنا انطلقت الصحافة الأوربية وتابَعَتْها الصحافة العربية التي ظهرت في مصر والتي قاد حركتها خريجو الإرساليات التبشيرية، من أمثال: سليم سركيس وفارس نمر ويعقوب صروف وفرح أنطون وغيرهم الذين حملوا لواء التشهير بالسلطان ومعارضته وإشاعة الاتهامات المختلفة حول شخصيته، وتصويره بتلك الصورة الرديئة لحساب الصهيونية العالمية التي انطلقت لإشاعة روح الكراهية والانتقاص للرجل بعد موقفه الحاسم الكريم من مطالبهم، وكان أعظم ما تركز عليه هذه الحملة إثارة عوامل الفتنة بين قيادة الحركة الإسلامية وبين العناصر المختلفة في الدولة العثمانية وخارجها.

وكان أقوى مَن هاجم حركة السلطان عبد الحميد في مصر اللورد كرومر الذي حمل على فكرة الجامعة الإسلامية حملة ضارية، ودعا الدول الأوربية في تحريض ساخِر إلى التجمع للوقوف في وجه هذه الدعوة وكذلك هاجمها هانوتو الفرنسي واللورد غراي، ووصفوها بأنها «بؤرة التعصب

الديني»، وأنه ليس القصد منها إلا تحدي قوات الدول الغربية المسيحية.

وقد ظل المسلمون والعرب خلال فترة لا تقل عن خمسين عاماً يرمون السلطان عبد الحميد عن قوس واحدة؛ لأن الاستعمار والصهيونية والصحف العربية التي أصدرها تلاميذ مدارس الإرساليات وخاصة في مصر «المقطم، الأهرام، الهلال، المقتطف، مجلة سركيس» وعشرات من هذه الصحف كانت تصف عبد الحميد بالسلطان الأحمر المستبد. وقد انتقلت هذه العبارات من الصحف إلى كتب التاريخ وكتب تاريخ الأدب العربي، وما من كتاب أرّخ هذه الفترة إلا احتوى على هذه العبارات التي أصبحت مسلمات بالإضافة إلى تعبير آخر غذّاه في النفوس الاستشراق وهو «الاستعمار التركي العثماني».

كانت تلك العبارات الشديدة التي وجهها السلطان عبد الحميد إلى هرتزل عام ١٩٠٢ م إيذاناً بتلك الحملة العاتية على السلطان بعد أن تقرر إزاحته، وكانت هذه الحملات التي وُجِّهت إليه تمهيداً وإعداداً للرأي العام لهذا الغرض. ولقد جرت منذ ذلك الوقت محاولات لاغتياله وإسقاطه حتى وقع ذلك عام ١٩٠٨ م بالانقلاب الذي قام به الاتحاديون بالاشتراك مع الماسونية ممثلة في الدونمة. والدونمة هي القوة اليهودية الكامنة داخل الدولة العثمانية التي اختارت مدينة سالونيك ودخلت الإسلام بعد تاريخ طويل معروف، وهي التي أنشأت المحافل الماسونية في الدولة العثمانية لهذه الغاية، واتصلت بجماعة «الاتحاد والترقي» وحزب «تركيا الفتاة» وأفسحت له في محافلها الفرصة للعمل، وتلاقت الرغبات على التخلص من الوجه الإسلامي لتركيا ومن السلطان عبد الحميد وكان ذلك قد بدأ يأخذ طريقه بقوة منذ أعلن السلطان عبد الحميد دعوته إلى المسلمين. وكانت قوى كثيرة تشارك اليهودية العالمية في هذا الاتجاه، وقد كان السلطان عبد الحميد يعرف هذه القوى التي يواجهها في الداخل، ويعرف المؤامرة التي تُدبر لفكرته وله، وكان يعرف أبعاد المخطط كله: فئة المثقفين الغربيين الذين سيطرت عليهم أفكار الثورة الفرنسية وتتلمذوا على أيدي المستشرقين

من ناحية، وحركة الإرساليات الأجنبية في لبنان وثمارها المنبثة في مصر وسورية والبلاد الإسلامية، تحمل أحقادها على الإسلام والوحدة الإسلامية، والمحافل الماسونية في سالونيك.

وإذا كان السلطان قد عارض مدحت وحزب «تركيا الفتاة» فقد كان عالماً بأنهم واقعون تحت نفوذ الماسونية العالمية أداة الصهيونية العالمية في ذلك الوقت، وأن موقفه دون تمكين اليهود من فلسطين قد حرّض كل هذه القوى وأمدّها بإشارة الانقضاض. إن تصريحات كثيرة للسلطان عبد الحميد تكشف أنه كان عالماً بأهداف الصهيونية في هذا الوقت المبكر، ولذلك فقد كان وقوفه في وجه الاتحاديين و «تركيا الفتاة» وعمله على تحطيم مخططاتهم ليس نابعاً من كراهية لنهضة الدولة العثمانية ولكنه كان عمقاً في النظرة إلى الأهداف البعيدة لتدمير هذه القوة التي كانت تحمي آمال المسلمين داخل الدولة وخارجها.

ولقد صدقت نظرة السلطان عبد الحميد على الاتحاديين بعد أن دخلوا التجربة فعلاً وسيطروا على الحكم من عام ١٩٠٩ إلى ١٩١٨ وما قاموا به من تسليم كامل للدولة وتبعية كاملة لمخططات الاستعمار والصهيونية مما كشف أصالة عبد الحميد وبُعْد نظره، وجلال موقفه الحاسم في وجه النفوذ الاستعماري نفسه بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية، وفي نفس الوقت بمقاومة هذه التبعية التي كانت تحمل مظهراً برّاقاً هو الإصلاح على طريقة الغرب بينما كانت تحمل في أعماقها إيماناً بالفناء في الغرب كله، ولقد خُدع المسلمون والعرب بالاتحاديين، وأقاموا الأفراح وسرعان ما اكتشفوا أنهم سلّموا أنفسهم إلى فك الوحش وأنيابه. إن مقدرة عبد الحميد على فهم ما يحيط به كانت أكبر مما يظن كثيرون، ولكنه كان في موقف لا يستطيع معه أن يكاشف المسلمين بالأخطار التي تحيط به. ولقد أكّد كثير من المؤرخين والباحثين في إنصاف. أن السلطان عبد الحميد كان آخر الحصون التي دافع بها الإسلام عن وجوده العالمي، وبعد انهياره تحت مؤامرات الغرب وربيبته الصهيونية. ومن الحق أن يُقال أن الحركة التي حمَل لواءها السلطان

عبد الحميد في تجميع المسلمين تحت لواء الخلافة كانت اتجاهاً طبيعياً وأملًا يملأ كل النفوس، ولذلك فقد حققت نجاحاً كبيراً، أزعج الصليبية العالمية والصهيونية العالمية إزعاجاً شديداً مما استدعى العمل من جانبهم لإجهاضه والقضاء على حامل لواء الدعوة أصلًا كوسيلة للقضاء عليها وتدميرها»[1].

الحقد الأسود على الإسلام:

هذه هي الحقيقة التي شوّهها الاستشراق في عقول المسلمين، وجنّدوا تلاميذهم وصحف إرساليات التبشير كما تقدم.. هذه هي الحقيقة: الحقد الأسود على الإسلام وتدمير أهله، حتى يبقى مَن يبقى من المسلمين لا يستفيق على هذه الحقيقة، ويبقى مرتكساً في غفلته وظلمائه..

هذه هي الحقيقة في إيجاز شديد لما كان، وهو بيان لما نحن عليه، ولما سوف يكون.. وليكن من كل مسلم على ذكر أبداً لا ينساه.

«ولقد كان ضرورياً للباحث المتمهل المنصف أن يقف دائماً من تاريخ الدولة العثمانية في العصر الأخير موقف العدل والصدق وأن يُفرق بين عهدين: عهد السلطان عبد الحميد الذي انتهى عام ١٩٠٨ م تقريباً، وعهد حكم الاتحاديين الذي بدأ منذ ذلك الوقت وظل مستمراً حتى أسلم أمره إلى الكماليين بعد الحرب العالمية الأولى.

فهذه التفرقة واضحة وضرورية خاصة بالنسبة لنا في المشرق: ذلك أن سورية ولبنان والعراق قبل ذلك تعيش في هذا الاتجاه المعارض للخلافة والسلطان بينما كانت مصر التي سقطت عنها ولاية الدولة العثمانية وسيطر عليها الاستعمار البريطاني منذ ١٨٨٢ م تؤيد الخلافة والسلطان، ولقد كان لموقف حكومة الاتحاد التركي من أهل سورية ولبنان ومحاكمة رجالهم وتعليقهم على المشانق عام ١٩١٦ أثراً نفسياً بعيداً في نظرتهم الكلية إلى

(١) نقلاً عن أنور الجندي: السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية بتصرف.

الدولة العثمانية، والحقيقة أنها يجب أن تكون قاصرة على الاتحاديين وحدهم.

ومن هنا وجب التفريق بين مرحلة السلطان عبد الحميد التي انتهت عام ١٩٠٨، وهي فترة كان موقف الدولة العثمانية فيها للعرب والمسلمين موقفاً كريماً، وكانت الحركة الإسلامية الواحدة من أعظم الأعمال. أما الفترة التالية التي حكم فيها الذين أسقطوا السلطان فإنها تمثل أسود صفحات الحكم التركي ولاءً للصهيونية والاستعمار وضرباً للوحدة الإسلامية وإعلاء للحركة الطورانية، ومحاولة لتتريك العرب في سورية وتعليق زعمائهم على المشانق، هذه الفترة وحدها هي التي يقف فيها العرب في سورية وغيرها موقف الخصومة للترك وهي ليست من حساب الدولة الإسلامية العثمانية في الحقيقة»[1]..

وفي تلك الأثناء كان الإسلام يحتضر في أوربة الشرقية دون صريخ ولا معين. يجب أن نعترف بأن الصليبية العالمية نجحت في محو الإسلام من الأندلس بعدما غنيت مدائن الأندلس وقراه بهذا الدين ثمانية قرون طوال.

«وقد أغرى هذا النجاح بطلب المزيد، ولولا قوة الأتراك العسكرية في السنين التي تلت هذه الكارثة لتابع القوم زحفهم، وكرروا ما حدث في الأندلس بأقطار أخرى.

فلما ضعف العثمانيون وضاعت هيبتهم الحربية، قرر القوم استئناف عملهم الأول، وبلوغ أهدافهم نفسها، وإن تغيرت بعض الوسائل.

وكان لا بد ـ في نظرهم ـ من محو الإسلام من جنوب أوربة وشرقها، ثم الوثوب على مواطنه الأولى في القارتين القديمتين آسية وأفريقية، لقطع دابره.

وتم لهم ـ بالفعل ـ ما أرادوا، فمحوا الإسلام من جنوب إيطالية، ومن صقلية وكريت.

---

(١) السلطان عبد الحميد والخلافة العثمانية ص ٨٩.

وشرعت الصليبية العالمية في إتمام خطتهم، فأوعزوا إلى دول البلقان والقوقاز أن تقاتل الأتراك، وأن تدمر معالم الإسلام في كل بقعة من هذه الأرجاء، ونشبت حرب البلقان عام ١٩١٢ م بين الدولة العثمانية من ناحية ودول البلقان المؤلفة من (اليونان، وبلغاريا، والصرب، والجبل الأسود) من ناحية أخرى، خشيت الدول الأوربية أن تنتهي الحرب بانتصار الدولة العثمانية فأعلنت الدول الأوربية الكبرى قراراً حاسماً بلسان المسيو «بوانكاريه» وزير خارجية فرنسا صرّح فيه نيابة عن تلك الدول بأنه لا يسمح للمنتصر في هذه الحرب بأن يجني ثمرة انتصاره، أو يضم أي جزء من أراضي خصمه المغلوب إلى بلاده.

ولما انتهت تلك الحرب بتغلب دول البلقان على الدولة العثمانية، فتكت الجيوش البلقانية بالمسلمين نساءً وشيوخاً **وأطفالاً في وحشية هائلة**. .

إن أندلساً أخرى كانت تصنع في شرق أوربة وما تزال إتماماً للمرحلة التي أشرنا إليها آنفاً.

إن المسلمين في هاتيك البقاع يشبهون غديراً تجمعت فيه المياه، ولكنه انقطع عن ينبوعه، فهو موشك على الجفاف، مع انقطاع المدد ووقدة الجو.

غير أن أعداء الإسلام يخافون أن تمتد حياتهم لأسباب غير منظورة، فهم يستعجلون هلاكهم بالقتل والإفناء قبل أن يطول بهم الأجل!!!

ومَن يدري: ربما تجددت لهم حياة مع حبّ العقيدة وقبول التضحية؟

فليفتكوا بهم اليوم قبل الغد.

ووقعت مذابح البلقان الأولى سنة ١٩١٢ م وهَلك في أتونها الألوف المؤلفة من النساء والأطفال والشيوخ ـ كما ذكرنا ـ وصكت أسماع العالمين أنباؤها الفظيعة.

أما دول أوربة ـ الصليبية العالمية التي كانت وراءها ـ. . . فلا نقول أن

ذلك أرضاها وحسب. بل نقول أن ذلك كان بإيعاز منها وتشجيع ومباركة . . .

وأما الشرق الإسلامي فقد ضجّ بالبكاء. وترجم «شوقي» عن مشاعره الأسيفة بهذه القصيدة المشهورة:

يا أخت أندلسٍ عليكِ سلامُ!! هَوَت الخلافةُ عنك والإسلامُ!!

وبعد انتهاء حرب البلقان وهزيمة الدولة العثمانية، بدَّلت الدول الأوربية الكبرى موقفها فوراً، وأعلنت موافقتها على ضم البلاد العثمانية التي احتلتها دول البلقان إليها، وهي ولايات «الرومللي» جميعاً المؤلفة من (سلانيك، مناستر، قوصوه، يانية، شقودرة، والرومللي الشرقي).

ولم يبقَ للدولة العثمانية شيء من أراضيها الشاسعة شرقي أوربة التي كانت الكثرة الساحقة من سكانها مسلمين، بل كان عدد المسلمين فيها حينئذ نحو خمسة عشر مليوناً إلا «أدرنة» التي استرجعها الجيش العثماني قبيل إنهاء تلك الحرب.

ولما ذكَّرت الدولة العثمانية حينئذ الدول الأوربية بقرارها المذكور كان جوابها: «إن ما يأخذه الهلال من الصليب، يجب أن يعود إلى الصليب، أما ما يأخذه الصليب من الهلال فلن يعود إلى الهلال».

وعلى أثر ذلك بعثت الدولة العثمانية بأحد وزرائها، وهو «سليمان البستاني» المسيحي، لمقابلة «بوانكاريه» وتذكيره بتصريحه الوسمي في بداية الحرب.

فلما قابله واسترعى نظره إلى نتائج هذا الموقف وسوء تأثيره على عواطف مئات الملايين من المسلمين الذين تحكم فرنسا جزءاً وافراً منهم أجابه بوانكاريه: «مسيو بستاني، إنك مسيحي عاقل وإن هذه الملايين لو اجتمعت كلمتها وانتظم عقدها لحسبت أوربة حسابها، وأما في حالتها الحاضرة فليس لها أي وزن».

وقد تضطر دول الغرب تحت ضغط الوَجَل من الحروب، والرهبة من دمارها والاتعاظ بما عانت من آلام، قد تضطر للاحتكام إلى بعض المواثيق الإنسانية والخضوع لمعاهدات عالمية.

ولكن ذلك كله يُنسى إذا كان الأمر متصلاً بالمسلمين، إن منطق الحقد وحده هو الذي يعلو، ولذلك كان السلطان «عبد الحميد» رحمه الله يردد هذه الكلمة في كثير من المناسبات: «إن لدى الدول الأوربية ميزانين: أحدهما لجميع شعوب العالم يزن الأمور بالعدل والقسطاط، وأما الآخر فهو بالنسبة لنا نحن المسلمين، وهو ميزان جائر خاسر»[1].

وبعدُ، فما أن سقط السلطان عبد الحميد حتى تحول الأمر في الدولة العثمانية إلى شيء خطير، فقد فُتحت الأبواب لكل الأقطار والدعوات المعارضة للوحدة الإسلامية والخلافة الإسلامية والإسلام نفسه، وأُتيحت الفرصة لكل الغلاة وخصوم العرب والإسلام، في أن يذيعوا كل ما من شأنه أن يحقق للصهيونية العالمية والاستعمار الغربي كل مطامعهما وأهدافهما، وخرجت جماعات خريجي الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية، لتسيطر على الرأي العام عن طريق الصحافة، وتولت الحكم وزارة في الدولة العثمانية فيها ثلاثة وزراء من اليهود.

ثم انفتح الطريق إلى فلسطين وأُتيح لسماسرة بيع الأراضي العمل بحُريَّة كاملة، ونشط اليهود والدونمة والماسون من ورائهم للعمل.

وأسفرت عن نفسها: وبدأت الحركة الطورانية تشقّ طريقها في تمزيق وحدة العرب والإسلام، واندفعت «جمعية الاتحاد والترقي» إلى تتريك العناصر الداخلة ضمن الأمبراطورية العثمانية، وكان التركيز على تتريك العرب شديداً.

وكانت أولى خطوات الاتحاديين في الحكم: بناء منهج سياسي فكري

---

(١) مع الله: ص ٣٥٩ ـ ٣٦٦ بتصرف.

للدولة العثمانية، مستمد من النظرية الغربية العلمانية، وإلغاء المفاهيم الإسلامية وإحلال مفاهيم غربية خالصة بدلاً منها. . .

وهكذا فإن كل ما حدث في فترة السنوات العشر السابقة للحرب العالمية الأولى إنما كان تمهيداً لما جاء بعد ذلك في تركيا أو مصر أو سورية ولبنان وفلسطين، وذلك في ضوء التحول الخطير الناتج عن إسقاط الدولة العثمانية، وقد تحقق ذلك بالفعل، نتيجة لدخول الاتحاديين الحرب العالمية في صف الألمان، فكانت هزيمة الألمان في الحرب هزيمة لهم مما أدى إلى السيطرة على تركيا وإذلالها، وفرض نفوذ فكري سياسي غربي عليها حتى ينتهي هذا الوجود الإسلامي المرتبط بالخلافة والوحدة الإسلامية، وحتى لا تكون تركيا مرة أخرى منطلقاً للإسلام إلى أوربة، أو مصدراً للخطر، أو جرثومة لتجمع إسلامي.

نعم كانت فترات السنوات العشر للاتحاديين مقدمة لما بعد ذلك، وتمهيداً للمخطط التغريبي العنيف، الذي نفّذه مصطفى كمال أتاتورك بقوة القانون. .

الحملة الصليبية الرابعة:

لقد حققت الصليبية العالمية مآربها فسقطت الدولة العثمانية، وتمزقت وحدة العرب والترك التي هي مظهر وحدة العروبة والإسلام، ثم قام أتاتورك صنيعة أعداء الدين ـ الصليبية العالمية والصهيونية العالمية ـ قام بعمل أشد قسوة وخطراً من كل عمل في التاريخ الإسلامي، وهو «إلغاء الخلافة الإسلامية» وتحويل تركيا من دولة إسلامية تحمل لواء الجامعة الإسلامية والخلافة وقيادة الأمم الإسلامية، إلى دولة قطعت كل صلتها بالإسلام، دولة غربية خالصة تكتب من الشِّمال إلى اليمين، وتطبق القانون السويسري المسيحي.

لقد كان إسقاط الخلافة عام ١٩٢٤ من أخطر الأحداث في العالم كله وسيظل من الأعمال الكبرى ضد الإسلام، بعد أن ظلت قائمة أربعة عشر

قرناً، وكان هذا العمل من أهم المراحل التي تطلعت إليها الصليبية العالمية في مخططها الحاقد البغيض الأسود للقضاء على الإسلام وذلك بالتعاون مع الصهيونية العالمية، والخلافة الإسلامية لم تسقط بجرَّة قلم عندما ألغاها مصطفى أتاتورك عام ١٩٢٤، وإنما كان ذلك آخر خطوة في مؤامرة ضخمة واسعة النطاق امتدت سنوات طويلة، كان مخططاً أعدّته الصليبية العالمية والصهيونية العالمية، كان قد بدأ في إعداد خفي منذ أكثر من مائة عام على إلغائها، من خلال جماعة الدونمة (اليهود الذين هاجروا من الأندلس عام ١٤٩٢ م وأقاموا في سالونيك ودخلوا في الإسلام تقية) التي عملت بالاشتراك مع جماعة الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة والمحافل الماسونية، على تنفيذ هذا المخطط تحت شعار «القضاء على دولة الرجل المريض»، خاصة بعد أن حمل السلطان عبد الحميد لواء الدعوة إلى «الجامعة الإسلامية» بمعنى أن ينضوي تحت لواء الخلافة الإسلامية جميع المسلمين في العالم - وليس فقط العرب والترك.

وهكذا سقطت الخلافة بمؤامرة مشتركة بين يهود الدونمة والاتحاديين الكماليين، والقوى الاستعمارية الغربية وروسيا. .

وكان ما كان بعد ذلك للصهيونية العالمية والاستعمار الغربي الصليبي، فقد دُفعت الدولة العثمانية إلى أن تكون وقوداً في الحرب العالمية الأولى دون داع، حتى ينفصل عنها الحرمين الشريفين، وتنفصل عنها بلاد الشام والعراق، وحتى تُسَلَّم فلسطين لليهود. .

ولكن هذه الحركة كلها هنا وهناك كان يحركها الإنجليز. . وما هي إلا فترة عَلَتْها نَشْوة كاذبة حتى انطلقت الجيوش البريطانية والفرنسية والإيطالية تحتل ديار الإسلام في آسية وأفريقية تحت شعار «الاستعمار» وبذلك اكتملت الصورة واضحة للجميع، وعاد الصليبيون من جديد، وكانت «الحملة الصليبية الرابعة».

هذا كله - مما غَبَر ومما سيأتي ليس إدراكاً لثأر قديم - كما يزعم

المستعمرون ـ وإنما هو تجديد لعدوان سابق، وتكرير لمآسي سلفت، وتصميم على الإجهاز على الإسلام وأهله حتى لا تنبت له زهرة على الأرض. .

«وبدا للأعين أن شمس الإسلام غابت وآذنت بمغيب فقد وَثَبَ الاستعمار على الأمة المهيضة، واسْتَبَقَت الذئاب المتربصة نحو الغنيمة الباردة، فعادت كل دولة من دول أوربة بقطعة من أرض الإسلام، ثم أعلنت في أرجاء الدنيا أن هذه القطعة أمست لها.

وصحا المسلمون من غيبوبتهم، كما يصحو النيام في دار امتد الحريق إلى جميع غرفاتها، فهم في فزعتهم، مُقَسِّمو الجهود بين استنقاذ للمال والولد، وحصار للنار الممتدة في كل ناحية، ومحاولات للإطفاء أو للنجاة، وهول لا يعرف مداه ولا تدري عقباه»[1].

والموقف الآن بعد الحرب العالمية الأولى: كانت الصليبية العالمية والصهيونية العالمية قد توغلت بعيداً في مخطط الحقد والبغضاء بعد إلغاء الخلافة الإسلامية، وانطلقت الجيوش الصليبية المتعطشة لدماء المسلمين منساحة في قلب دار الإسلام، انطلقت في غَضَب مُتَفَجِّر، مشحونة نفوس الصليبيين ببغضاء جاهلة عاتية عنيفة مكتسحة، مُدَمِّرة سفّاحة للدماء. . .

وكان ما كان في بلاد الشام. . وكان ما كان في مصر. . وكان ما كان في العراق. . وكان ما كان في أفريقية وفي الصومال وفي نيجيريا والسودان وليبيا وتونس والمغرب والجزائر. . الخ. .

انطلقت جحافل الصليبية الأوربية تنشب أظافيرها المسمومة في دار الإسلام كله حتى تخلع الإيمان والتصميم من قلوب المسلمين. .

وأقام الاستعمار «إسرائيل» في أرض فلسطين تمهيداً لشطر الكيان الإسلامي كله، في هذا الجزء الحسّاس منه. ثم رأى في مَكْره البغيض أن

---

(١) مع الله ص ٣٥٠.

يُكاثر المسلمين في بلادهم بفئات أخرى من أهل الأرض، إن لم يَكفِ بنو جنسه لهذه المكاثرة.

جاء مثلاً إلى «عَدَن» وفيها من سكانها الأصلاء نحو سبعين ألف عربي، فاستقدم من «الهندوك» نحو ستين ألفاً قبل ما يربو على ربع قرن.

وقد مضى الاستعمار الصليبي في سياسته الماكرة في كثير من بلاد الإسلام، ليصحو أبناء البلد فيروا أنفسهم قلّة فيه. وبذلك ينخفض ميزانهم إلى الأبد.

وهذه السياسة أخذت طريقها في البحرين ودول الخليج العربي، كما جُرِّبت بنجاح في «سنغافورة» التي كانت كثرتها من المسلمين، فأصبحت الآن من الصينيين والهنود وغيرهم.

والغريب أن المسلمين في الملايو كانوا لا ينقصون عن ٩٥ ٪ فأمسوا ـ في ظل الاحتلال الإنجليزي ـ لا يزيدون عن ٦٠ ٪ . . .

ونحن نعلم أن «فرنسا» وطَّنت أكثر من مليون فرنسي ويهودي في الجزائر، كذلك كانت أغلب الدول الاستعمارية تصنع في الأقطار التي نُكبت بها.

والغرض؟

أن تتحول البقاع الحسَّاسة في البلاد الإسلامية ـ بعد هجرات متتالية ـ إلى إسرائيل أخرى . . ينحسم عرق الإسلام انحساماً لا يُؤذن بعودة.

وقبل ذلك؟

إحداث بَلْبلة فكرية وروحية شاملة بحيث تحتبس أصوات المسلمين في حُلوقهم فلا يجرؤ أحد على النداء بوحدة عاطفية، ولا خلقية[1].

وقامت خلايا الشيطان تعبث في أرواح المسلمين، قام جُند إبليس،

---

(١) انظر مع الله ص ٣٢٦.

قام خريجو الإرساليات التبشيرية، والمستشرقون المنبثُّون في صفوف المسلمين هنا وهناك، قاموا يَبثُّون السموم المهلكة، ويَنْشُرون الأحاديث المُفْزِعة، فهم يُريدون خيرَ البلاد والعباد. . فالحقيقة الصادقة تقول: «أن لا إمكان للمقام في وجه هذا السيل الغربي الذي اكتسح دار الإسلام من أقصاه إلى أقصاه. ما على هؤلاء المسلمين، العباد الضعاف، إلا الاستسلام للواقع الذي كان، ولا قرار لهم بالمقاومة. . هكذا أراد الله، ولو لم يشأ جَلَّ وعَلَا لم يكن هذا ليحدث. . لكن هذه هي إرادته ـ سبحانه ـ فَلْنَسْتَسْلِم لقَدَرِ الله أمام هذه القوى التي لا تُقاوم، ومتَى شَاء الله هو الذي يُخرجهم من أرض الإسلام. . ».

هذه المقولة السامّة هي الحق في ألفاظها، فالمشيئة مشيئة الله سبحانه، والأمر أمره، والله غالب على أمره، ولكن هذا الحق أُريد به الباطل، ولله سبحانه أسباب وسُنَن يَتِّبعها المؤمن كما بيَّن رب العالمين في القرآن الكريم. .

هذه المقولة الخبيثة حرَّكَتها عقول الشياطين وبدأت تَغزو أفكار المسلمين، كما غَزت جيوش الحقد الصليبي والصهيوني أرضهم وديارهم. .

وكان هذا الموقف من مواقف البلاء والامتحان العسيرة، فقد مَلأت جُنود الأعداء دار الإسلام في كل مدينة وقرية، وانتشرت الحَيرة، وبُهِتَ الناس من هَولٍ روَّع أفئدتهم، ومن كربٍ شمل حياتهم، فلم يَنْجُ بَلد من نيران الحقد وبطش الظُلم، فقد أطبقوا على بلاد المسلمين من كل جانب: من البرّ ومن البحر ومن الجوّ، وتوحّد المسلمون بالمأساة، فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب مسلم في الجزائر أو في مصر أو في الصومال أو في الهند أو في أي قطر إسلامي آخر، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب لهذه المحنة الطاغية وهذا السيل من الحقد الطامّ، وثقتها بالله وسلوكها في الشدة، وتصوّراتها للقيم والأسباب والنتائج:

كان الابتلاء كاملاً والامتحان دقيقاً، كنتَ تَنظر الموقف بكل سماته، وكل انفعالاته، وكل خلجاته، وكل حركاته، كنتَ تنظر فترى أثر الموقف في النفوس، الخوف والكرب والضيق، الظلم والظلام قد خَيَّم وغَشَّى كل قلب، وانقطع الأملُ في صبح يَتَنفَّس بعد ليل دامس طويل، كنتَ تنظر في تلك المرحلة ـ كما تنظر في هذا اليوم ـ فالمحنة والبلاء لا تزال، ولو اختلفت الصور والأشكال، والأساليب والحيل . .

في هذه الظروف ـ وأمثالها دوماً في كل عصر ومِصْر ـ تنطلق سُنّة الله سبحانه، فَتُخْرِج صورة الإيمان الواثق المطمئن، يَنطلق الحق في صورته المشرقة الوضيئة، في مواجهة الليل والهَول. ﴿**من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال الرسول ـ ﷺ ـ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم مَن خَذَلهم ـ أو خالفهم ـ حتى يأتي أمر الله».

برهان العقيدة:

قام علماء الإسلام في كل بَلدة وقرية يدفعون الظلم والظلام، يَبثُّون دِفْءَ الإيمان في عقيدة الناس. وسقطت الغَشاوة عن العيون، وانهار الران عن القلوب، وعَلَتْ صيحة الله أكبر، تُؤَذِّن برفع الهامات، والتنافس في طلب الشهادة في سبيل الله . .

وبدأ المؤمنون يأخذون طريق الجنة، قاموا يقارعون الاستعمار المُدَجَّج بأنواع الأسلحة، يقارعونه بما تيسَّر!! قاموا يندفعون بِشَغف وحماس مُثير، قاموا إلى الموت لينالوا الشهادة ومن ثم عِزّ الإسلام، وحماية دار الإسلام، وتطهير أرضه من دَنَس الأعداء الحاقدين.

خرج المؤمنون للتصدي لهذه الكتائب الهمجية التي تسفح الدماء سفحاً، خرجوا لا يخافون حتى من الموت، بل يَتطلَّعون إلى الموت في شَغف. خرجوا يُريدون أن يموتوا لتعلو كلمة «لا إله إلا الله محمد

رسول الله»، وانكشفتْ مُجدداً روعة السلاح الرهيب المُختزَن في معاني الإيمان والاستشهاد. . وحيثما تنقلت العيون، ترى المؤمنين الصادقين في كل مدينة من ديار الإسلام، يتسابقون إلى خط النار، ليبلوا ذلك البلاء الفذ في سبيل الله، ويتنافسون في طلب الشهادة. . ثم تنظر في صَمْتٍ لترى الأرواح الزكية الطاهرة تنظر، فيبهرك ما هو أشد من ذلك كله، ما تراه على وجوههم، في مَصارعهم، من ابتسامةٍ ترفّ بالرضا والسكينة، والسلام العميق، والحق إن كل مَن يراهم، وهم يخرجون للجهاد في ميدان الشرف، يراهم جمهرة من الدراويش البسطاء لا يصلحون لغير الصلوات الخمس وترتيل القرآن. . ولكن كانوا بحق عباد الرحمٰن استحالوا بالإيمان قوة ماردة تتحدى المعقول!!

لقد كانت نفوسهم تمور بين جنباتهم مَوْر البركان، وتُغَذِّي أرواحهم عاطفة مشبوبة تهدر في صدورهم ودمائهم، ولو أنك استرقت السمع ساعتئذ لضجَّ في أذنيك صدى الله أكبر الذي يعلو في كل شارع، وكل طريق في ديار الإسلام، وهي تخترق بصدورها أزيز الرصاص. .

وأَيْقَنَتْ شعوب الإسلام أنه لا يدفع طغيان الاستعمار الرابض على قلوب البلاد إلا بأس الإيمان، ولا يهزم حب الحياة في البغاث المستنسر، إلا حب الموت في طلاب الشهادة لله، ولا يقدر على المعتصمين بأسلحة العصر ومذاهب القرن العشرين وما يليه، يَفتنون به السُّذج، إلا المعتصمين بالمحراب، لا يخطئون في نُوره عَدُوَّ الله مهما تلبَّسَ، ويسبقهم من رهبته رُعب يغشى نفس العدو حتى ليخافهم خَوْفَه من سِباع الغاب.

هذه هي قصة الصراع مع الاستعمار الصليبي والصهيوني. . قصة الصراع في كل بلاد الإسلام. . كان العلماء هم الذين حملوا لواء الشهادة، وانطلقت وراءهم سيول المؤمنين. . وسوف تجد برهان العقيدة الذي يملأ قلوبهم، وإن جحدها وطمس معالمها، أولو البأس من الغافلين أو المارقين. .

ومضت كتائب الرحمٰن في عافية من إيمان أرهفته نية الجهاد،

ومصارع الشهداء، وغَدْر أعداء الله.. ثم العهد المبرور على مواصلة السرى لطرد الاستعمار من ديار الإسلام، مهما قَسَا الليل وبَعُدَتْ الشقة وعزّ الأوفياء. وإنه ليدهشك أن تنظر إلى برهان العقيدة حين يملأ القلوب فَتَكْبُر فلا يكون أمامها إلا «الله أكبر.. الله أكبر..»، فالمؤمن لا تراه ينطوي بعقيدته انطواء المنقطع عن الناس في صَوْمَعة، بل تراه قوياً جريئاً شُجاعاً في الحق لا يخاف إلا الله ولا يخشى لومة لائم...

واعترت الحملة الصليبية الرابعة ـ التي تَخَفَّت باسم الاستعمار ـ دهشة بالغة، وتعلَّم المستعمرون في هذه اللحظات درساً بليغاً في القتال، وانكشف لهم مجدداً ذلك السلاح الرهيب المختَزن في قلوب المؤمنين في دار الإسلام، فقرروا أن يتقربوا إلى شعوب دار الإسلام، وبدأت الأساليب الماكرة الخفية، من وعود بالاستقلال وإبرام معاهدات مضحكة مبكية.. وطالت الأيام والليالي، والاستعمار يتكىء في ذلك على المستشرقين وخريجي إرساليات التبشير، في إتمام ما جاءت جيوش الصليبية العالمية من أجله، فهو الهدف الأكبر: رِدّة المسلمين عن دينهم، والقضاء على الثقافة الإسلامية، ونزع جذور العقيدة من القلوب والعقول..

دهاء ومكر وخديعة:

بدأ «الاستشراق» يُثبت أصولاً كان قد بدأها ـ كما تقدم ـ من وقت طويل في بنيان الفكر الإنساني في البلاد الإسلامية، وانطلق تلامذته بإرشاد وتوجيه منه في إحداث ثقافة الأمة في ديار الإسلام، وأحدث بذلك صَدْعاً متفاقماً أخبث وأعتى مما قام به من الصَّدع الذي أحدثه بإزالة «الخلافة الإسلامية»، ووضع «الاستشراق» أُسس التفريغ الكامل لطلبة المدارس في ديار الإسلام كلها، أي تفريغ الطلبة من ماضيها المتدفق في دمائها والمرتبط بالإسلام، ومَهَّد إلى ملئه بماض آخر بائد في القِدَم والغموض، لم يبقَ من ثقافته شيء البتة، ليزاحم هذا الماضي الفارغ بقايا الماضي المتدفق الحيّ الذي يوشك أن يتمزّق ويختنق بالتفريغ، ويجعل أجيال طلبة المدارس في

حيرة مُدَمِّرة بين انتماءين؛ بين الانتماء إلى الثقافة الإسلامية الواضحة في كتب أسلافهم، وبين الانتماء إلى هياكل اختفت مثل الفرعونية في مصر، والفينيقية في سورية، والطورانية في تركية، الخ.. هياكل بادت، وبادت ثقافتها ولم يبقَ منها إلا أطلالاً من الحجارة، مهما بلغت في العظمة والجلال، فهي فارغة من ثقافة حية تتدفق في القلوب والعقول والألسنة. إنما هي آثار لا تُغني شيئاً، ولا تؤتي ثمرة.

وأيضاً فإن هذا التفريغ، سوف ينشىء أجيالاً من «تلاميذ المدارس» تتهتك علائقها التي تربطها بثقافتها الإسلامية اجتماعياً وثقافياً ولغوياً، حتى يتمّ تفريغها تفريغاً كاملاً من ماضيهم كله، ثم يملأ هذا الفراغ علوم وآداب وفنون لا علاقة لها بماضيهم، وإنما هي علوم الغزاة، وفنون الغزاة، وآداب الغزاة، وتاريخ الغزاة، ولغات الغزاة، ومع كل ذلك، فإن هذا القَدَر من العلوم والفنون والآداب إنما هي قشور ومقتطفات توهمُ النفوس الظامئة المفرّغة بأنها نالت شيئاً يُذكر، والحقيقة أنها نالت غذاءً تعيش به موتى في صورة أحياء لا غير[١].

وأُرسلت من أجل تثبيت قوام الثقافة والحضارة الغربية في دار الإسلام أجيال من «المبعوثين» يعودون من أوربة ليكونوا قادة التحوُّل الرفيق العميق عن الثقافة والدين الإسلامي، ويُراد منهم أن يؤسسوا قاعدة ثابتة لانطلاق التحوّل إلى غايةٍ يُراد لنا أن نبلغها على تمادي الأيام. وكان الغزاة يَقْنَعُون يومئذ من هؤلاء المبعوثين، بأن يعودوا إلى بلادهم ببضعة أفكار يرددونها ترديد الببَّغاوات، تتضمن الإعجاب المزهو ببعض مظاهر الحياة الأوربية، مقروناً بنقد بعض مظاهر الحياة في بلادهم = وبأن يكاشفوا أمتهم بأن ما أُعجبوا به هو سرّ قوة الغزاة وغلبتهم، وأن الذي عندنا هو سر ضعفنا وانهيارنا.

وكان الرأي أن تنشأ أجيالٌ متعاقبة من «تلاميذ المدارس» في بلاد

(١) انظر قصة هذا التفريغ في مقدمة كتاب «المتنبي» للأستاذ محمود محمد شاكر واسمها «لمحة من فساد حياتنا الأدبية».

الإسلام، يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بهذا التحول، عن طريق تفريغهم كاملاً من ماضيهم كُلّه، مع هَتْك أكثر العلائق التي تربطهم بهذا الماضي اجتماعياً وثقافياً ولغوياً، ومع ملء هذا الفراغ بالعلوم والآداب والفنون = ولكنْ فنونهم هم، وآدابهم هم، وتاريخهم هم، ولغاتهم هم، أعني الغزاة الصليبيين.

وانتشر هذا التحول، ولم يزل إلى يومنا هذا مستمراً على ما أرادوا! بل زاد بشاعة وعمقاً في سائر أنحاء العالم الإسلامي = بظهور دعوات مختلفة ـ كما تقدّم ـ كالدعوة الفرعونية، والفينيقية وأشباه ذلك، في الصحف والكتب المؤلفة، لأن تفريغ الأجيال من ماضيها المتدفق في دمائها والمرتبط بالإسلام، يحتاج إلى ملء بماضٍ آخر يغطي عليه، فجاءوا بماض بائد مُغْرِقٍ في القدم والغموض، ليزاحم بقايا ذلك الماضي المتدفق الحي الذي يوشك أن يتمزّق ويختنق بالتفريغ المتواصل.

وهكذا كانت هذه الحرب الصليبية الرابعة من البطش والتنكيل وسفح دماء المسلمين في كل ديار الإسلام، فاستعملت كل الوسائل لإفناء العقيدة وإطفاء نورها، استعملت أيضاً الدهاء والمكر والخديعة والسطوة. وقد قامت الثورات هنا وهناك باسم العقيدة ونور الإيمان حتى كان الجلاء عن بلاد الإسلام، وتمَّ ذلك بعد تقديم مئات الألوف من الشهداء، وقبل أن نمضِ تستوقفنا صورة رائعة للجهاد والصمود امتدت ألوانها الحمراء ما ينوف عن مئة وثلاثين عاماً.. صورة الصخرة الراسية التي تحطمت على صلابتها كل الرؤوس الكبيرة التي أرادت أن تنتزع الجزائر من إسلامها ودينها، صورة المليون شهيد.. صورة إصرار الشعب المؤمن أن يموت في سبيل الله، ويدافع عن دينه وحريته، فقد خضعت الجزائر أكثر من قرن وربع قرن من الزمن لهيمنة استعمارية صليبية أساسها الاستيطان على أوسع نطاق، فقد قام الفرنسيون خلال تلك الحقبة المتطاولة بإبادة الشعب والمجتمع الإسلامي وتدميرهما تدميراً منظماً، لقد حاول الفرنسيون أن يطبقوا على الجزائريين المسلمين عملية الإبادة التي أذابت مجتمع هنود أمريكا ابتداءً من نهاية القرن الخامس عشر الميلادي..

صورة مضيئة :

وكان ما كان من الإيمان الراسخ ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، وعَلَتْ كلمة الله أكبر ، ونالت الجزائر استقلالها عام ١٩٦٢ ، وكانت معجزة من معجزات الإسلام ، ومفخرة من مفاخر العقيدة .

كان من أروع مشاهد احتفالات استقلال الجزائر ، صلاة الجمعة الأولى في المسجد الكبير الذي حَوّله الفرنسيون إلى كاتدرائية في عهد الاحتلال ، وقد نشرت صحيفة «التايمز» اللندنية صورة لشباب الإسلام فوق قبة المسجد من الخارج وكتبت تحتها : «ينزعون الصليب من فوق قبة الكاتدرائية التي أصبحت مسجداً[١] ، وقد بُنيت لتكون مسجداً في القرن السابع عشر ! » .

وكان خطيب الجمعة هو الشيخ الجليل الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي الذي قال :

«الحمد لله ثم الحمد لله ، تعالت أسماؤه وتمت كلماته صدقاً وعدلاً ، لا مُبَدِّل لكلماته ، جعل النصر ينزل من عنده على مَن يشاء من عباده حين يبتليهم فيعلم المصلح من المفسد ، ويعلم صدق يقينهم ، وإخلاص نياتهم ، وصفاء سرائرهم وطهارة ضمائرهم .

سبحانه وتعالى جعل السيف فرقاناً بين الحق والباطل ، وأنتج من المتضادات أضداداً **فأخرج القوة من الضعف ، وولد الحرية من العبودية ، وجعل الموت طريقاً إلى الحياة ،** وما أعذب الموت إذا كان للحياة طريقاً ، وبايعه عباده المؤمنون الصادقون على الموت فباءوا بالصفقة الرابحة ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .

سبحانه تعالى جدّه ، تجلّى على بعض عباده بالغضب والسخط فأحال

---

(١) نشرت مجلة المسلمون هذه الصورة ـ نقلاً عن التايمز ـ في المجلد الثامن ـ العدد الأول ص ٥٨ مع نص خطبة الجمعة .

مساجد التوحيد بين أيديهم إلى كنائس للتثليث، وتجلّى برحمته ورضاه على آخرين فأحال فيهم كنائس التثليث إلى مساجد للتوحيد، وما ظلم الأولين ولا حابى الآخرين، ولكنها سُننه في الكون وآياته في الآفاق، يتبعها قوم فيفلحون، ويعرض عنها قوم فيخسرون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، صدق وعده ونصر عبده وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله شرع الجهاد في سبيل الله، وقاتل لإعلاء كلمة الله حتى استقام دين الحق في نصابه، وأدبر الباطل على كثرة أنصاره وأحزابه، وجعل نصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة منوطاً بالإيمان والصبر، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وكل مُتّبع لهداه داع بدعوته إلى يوم الدين.

ونستنزل من رحمات الله الصيّبة وصلواته الزاكية الطيبة لشهدائنا الأبرار ما يكون كفاء لبطولتهم في الدفاع عن شرف الحياة وحرمات الدين وعزّة الإسلام وكرامة الإنسان وحقوق الوطن.

وأستمدُّ من الله اللطف والإعانة لبقايا الموت وأسار الفناء ممن ابتلوا في هذه الثورة المباركة بالتعذيب في أبدانهم والتخريب لديارهم والتحيف لأموالهم.

وأسأله تعالى للقائمين بشؤون هذه الأمة ألفة تجمع الشمل، ووحدة تبعث القوة، ورحمة تضمد الجراح، وتعاوناً يثمر المنفعة، وإخلاصاً يهون العسير، وتوفيقاً ينير السبيل، وتسديداً يقوّم الرأي ويثبّت الأقدام، وحكمة مستمدة من تعاليم الإسلام وروحانية الشرق وأمجاد العرب، وعزيمة تقطع دابر الاستعمار من النفوس كما أن قطعت دابره من الأرض.

ونعوذ بالله ونبرأ إليه من كل داعٍ إلى الفرقة والخلاف، وكل ساعٍ يسعى إلى التفريق والتمزيق، وكل ناعقٍ ينعق بالفتنة والفساد يطوف حوالينا.

ونحيي بالعمار والثمار والغيث المدرار هذه القطعة الغالية من أرض

الإسلام التي نسميها الجزائر، والتي فيها نبتنا وعلى حبها ثبتنا، ومن نباتها غُذِّينا، وفي سبيلها أُوذينا. . .

يا أتباع محمد ـ عليه السلام ـ هذا هو اليوم الأزهر الأنور، وهذا هو اليوم الأغر المحجل، وهذا هو اليوم المشهود في تاريخكم الإسلامي بهذا الشمال، وهذا اليوم هو الغرة اللائحة في وجه ثورتكم المباركة، وهذا هو التاج المتألق في مفرقها، والصحيفة المذهبة الحواشي والطرر من كتابها.

وهذا المسجد هو حظ الإسلام من مغانم جهادكم، بل هو وديعة التاريخ في ذممكم، أضعتموها بالأمس مقهورين غير معذورين، واسترجعتموها اليوم مشكورينِ غير مكفورين، وهذه بضاعتكم رُدّت إليكم، أخذها الاستعمار منكم استلاباً، وأخذتموها منه غلاباً ـ بل هذا بيت التوحيد عاد إلى التوحيد وعاد إليه التوحيد فالتقيتم جميعاً على قدر.

إن هذه المواكب الحاشدة بكم من رجال ونساء يغمرها الفرح ويطفح على وجوهها البِشْر لَتجسيمٌ لذلك المعنى الجليل وتعبير فصيح عنه، وهو أن المسجد عاد إلى الساجدين الركع من أمة محمد، وأن كلمة لا إله إلا الله عادت إلى مستقرها منه لأن معناها دام مستقراً في نفوس المؤمنين، **فالإيمان الذي تترجم عنه كلمة لا إله إلا الله هو الذي أعاد المسجد إلى أهله وهو الذي أتى بالعجائب** وخوارق العادات في هذه الثورة. . .

يا معشر الجزائريين إذا عدّت الأيام ذوات السمات، والغرر والسيئات في تاريخ الجزائر فيكون هذا اليوم أوضحها سمة وأطولها غرة وأثبتها تحجيلاً، فاعجبوا لتصاريف الأقدار، فلقد كنا نمر على هذه الساحة مُطرقين ونشهد هذا المشهد المحزن منطوين على مضض، يصهر الجوانح، ويسيل العبرات، ونحسّ كأن الأرض تلعننا بما فرطنا في جنب ديننا وبما أضعنا بما كسبت أيدينا من ميراث أسلافنا، فلا نملك إلا الحوقلة والاسترجاع، ثم نرجع إلى مطالبات قولية، هي كل ما نملك في ذلك الوقت، ولكنها نبَّهت

الأذهان وسجلت الاغتصاب، وبذرت بذور الثورة في النفوس. . .

أيها المؤمنون: قد يبغي الوحش على الوحش فلا يكون ذلك غريباً لأن البغي مما رُكِّب في غرائزه، وقد يبغي الإنسان على الإنسان فلا يكون ذلك عجيباً لأن في الإنسان عرقاً نزّاعاً إلى الحيوانية، وشيطاناً نزّاعاً بالظلم، وطبعاً من الجبلة الأولى ميّالاً إلى الشر، ولكن العجيب الغريب معاً والمؤلم المحزن معاً أن يبغي دين عيسى روح الله وكلمته على دين محمد الذي بشّر به عيسى.

يا معشر المؤمنين إنكم لم تسترجعوا من هذا المسجد سقوفه وأبوابه وحيطانه، ولا فرحتكم باسترجاعه فرحة الصبيان ساعة ثم تنقضي، ولكنكم استرجعتم معانيه التي كان يدل عليها المسجد في الإسلام ووظائفه التي كان يؤديها من إقامة شعائر الصلوات والجُمَع والتلاوة، ودروسه العامة النافعة على اختلاف أنواعها من دينية ودنيوية، فإن المسجد كان يؤدي وظيفة المعهد والمدرسة والجامعة. . .

يا معشر الجزائريين إن الاستعمار كالشيطان الذي قال فيه نبينا ـ ﷺ ـ: «إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم ولكنه رضي أن يُطاع فيما دون ذلك»، فهو قد خَرَج من أرضكم ولكنه لم يخرج من مصالح أرضكم ولم يخرج من ألسنتكم ولم يخرج من قلوب بعضكم فلا تعاملوه إلا فيما اضطررتم إليه، وما أبيح للضرورة يُقَدَّر بقدرها. . .».

وبعدُ، لقد جَرّب أعداء الدين حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم، ووجدوا برهان العقيدة الذي يملأ قلوب المسلمين واجهوا سيلاً جارفاً من أُولي البأس الأشداء الذين فتكوا بقواتهم فتكاً مروّعاً، ففي الجزائر مثلاً قدرت المصادر الفرنسية خسائرها في الجزائر في الثورة الجزائرية من ١٩٥٤/١١/١ حتى ١٩٦٢/٣/١٩ ما يزيد عن «٩٠٥٠٠» بين قتيل وجريح ومفقود[1].

---

(١) المستند: كتاب وزير الجيوش رقم/ ٣٧٤٧٠/ تاريخ ١٩٦٨/١١/١٩، انظر كتاب الثورة الجزائرية للعماد مصطفى طلاس/ ص ٦٨٤.

الستار الخادع:

كان من ثمرة اليأس من هذا الدين، حين كان أعداؤه يواجهونه وَجْهاً لوجه. أن عَدَلت الصليبية العالمية والصهيونية العالمية عن مواجهة الإسلام بالأساليب القديمة التي لم تُؤت ثمارها المرجوة في الإجهاز على الإسلام وعلى هذه العقيدة، فَعَدلُوا إلى طرائق أخبث، وإلى حبائل أمكر، فبعد أن قسّموا عالم الإسلام إلى أقطار لتبديد قواه، لجأوا إلى إقامة أنظمة وأوضاع في المنطقة كلها تتزيا بزيّ الإسلام، وتتمسَّح في العقيدة ولا تُنكر الدين جملة.. ثم هي تحتَ هذا الستار الخادع، تنفذ جميع مخططات الصليبية العالمية والمشروعات التي أشارت بها مؤتمرات التبشير وبرتوكولات صهيون، ثم عجزت عن تنفيذها كلها في المدى الطويل..

إن هذه الأنظمة والأوضاع ترفع راية الإسلام، أو على الأقل تعلن احترامها للدين، بينما هي تحكم بغير ما أنزل الله، وتقصي شريعته عن الحياة، وتُحلّ ما حرّم الله، وتنشر تصورات وقيماً مادية عن الحياة والأخلاق تدمر التصورات والقيم الإسلامية، وشَنَّت مكراً خفياً للإجهاز على الإسلام...

«وهكذا انتشر الإلحاد والارتداد في الأوساط الإسلامية من غير أن ينتبه له الآباء والأساتذة والمربون وأهل الغيرة الإسلامية، لأن هؤلاء المرتدين والملحدين لم يقوموا في كنيسة، ولم يدخلوا في معبد، ولم يسجدوا لصنم، ولم يذبحوا لطاغوت، وكان ذلك دليل الارتداد والكفر والزندقة في العهد القديم.

وكان المارقون القدماء يخرجون من المجتمع الإسلامي وينضمُّون إلى مجتمع الديانة التي يدينون بها جديداً، ويُعلنون عقيدتهم وتحوّلهم بصراحة وشجاعة، ويحتملون كل ما يخسرونه في سبيل عقيدتهم الجديدة، ولا يلحُّون على البقاء في المجتمع القديم ليحافظوا على ما كانوا يتمتعون به من حقوق وحظوظ، أما الذي يقطع صلته عن دين الإسلام اليوم فلا يريد أن

يقطع صلته عن المجتمع الإسلامي مع أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع البشري الوحيد الذي يقوم على العقيدة، فلا يتحقق هذا المجتمع من غير عقيدة، ويلحُون على أن يعيشوا في مراكزهم متمتعين بثقة هذا المجتمع، متمتعين بالحقوق التي يخوّلها الإسلام، إن هذا وضع شاذ لم يعرفه التاريخ الإسلامي»(١).

إن هذه الأنظمة والأوضاع تُسَلِّط جميع أجهزة التربية والتعليم والتوجيه والثقافة والإعلام لتدمير المبادىء والقيم الأخلاقية الإسلامية، وسحق التصورات والاتجاهات الدينية، وتُنفذ ما نصَّت عليه مؤتمرات المبشرين وبروتوكولات الصهيونيين، من ضرورة إخراج المرأة المسلمة إلى الشارع وجعلها فتنة للمجتمع باسم التجديد والتطور والتحضر، ومصلحة العمل والسياحة والإنتاج والدخل القومي، بينما ملايين الأيدي العاملة في هذه البلاد متعطلة لا تجد الكفاف..

لقد انصب رجال لهذا السيل المدمِّر المفزع الذي اشترك في جريمته مثقفون كثيرون، في الأدب، وفي العلم، وفي التاريخ، وفي الفلسفة، وفي الاجتماع، وفي السياسة، وفي الفن كله، وكل منهم كما يقول الدكتور طه حسين «ينفث السمّ ويفسد العقول ويمسخ في نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد»، وقد زادَ الأمر، فلم يبقَ مُقتصراً على التعلم والكتابة، والتأليف والصحافة، بل دخل كل بيت دخولاً مفزعاً عن طريق الإذاعة والتلفزيون، بلا رقيب ولا حسيب!

«إن حياتنا الفكرية والثقافية والاجتماعية قد فَسدت فساداً وبيلاً، وتجددت الأساليب وتنوعت، صاغها غرباء عن ثقافة الإسلام وفكر الإسلام، صاغها ممن ضمائرهم وعقولهم مرتبطة بثقافة الغرب. صاغها غرباء عن المجتمع الإسلامي صياغة مطابقة لمناهج وفلسفة المدنية الغربية، ومنابتها، ونظراتها في كل قضية، واختلط الحابل بالنابل، قُل ذلك في الأدب

(١) الندوي: ردة جديدة، المسلمون/ المجلد السادس: ٤١٨ - ٤١٩.

والفلسفة والتاريخ والاجتماع والفن أو ما شئت، فإنه صادقٌ صدقاً لا يتخلف، فالأديب مُصَوِّر بقلم غيره، والفيلسوف مفكِّر بعقل سواه، والمؤرخ ناقد للأحداث بنظر غريب عن تاريخه، والفنان نابضٌ قلبه بنبض أجنبي عن تراث فنه..

وأما الثرثرة والاستخفاف، فَحَدِّث ولا حَرَج، فالصبي الكبير يهزأ مزهواً بعظماء الإسلام وكبار رجال الأدب واللغة والتاريخ والفلسفة وعلماء الدين.. يهزأ مزهواً بمعاوية بن أبي سفيان، وأبي حنيفة، والشافعي، وسيبويه، وفلان وفلان، ولو بُعث أحدهم من مرقده، ثم نَظَر إليه نظرةً دون أن يتكلم، لألجمه العَرَق، ولصار لسانُه مُضغةً لا تتلجلج بين فَكَّيْه، من الهيبة وحدها، لا من عظمته وعلمه الذي يستخفّ به ويهزأ.

إن الأنظمة والأوضاع التي أقامتها الصليبية العالمية والصهيونية العالمية أقامت رجالاً كثيرين في ديار الإسلام، لا يربطهم في أنفسهم بالماضي الإسلامي إلا اللسان العربي وحده، أما ضمائرهم فمرتبطة بشيء آخر، فكتبوا مقالات، ونشروا كتباً، وألقوا محاضرات في الدين الإسلامي، والتاريخ الإسلامي، والفلسفة والأدب، ونظام الأسرة، وآداب المجتمع، وفنون الأمة، على قلة معرفتهم بما يكتبون أو ينشرون، ولكنها كانت معبِّرة عن اتجاه «الاستشراق» لا غير، فكانت كُلّها «سَطْواً» مجرداً على آراء المستشرقين ومناهجهم في النظر، مبثوثاً في ثنايا كل ما يكتبون[1].

إنهم يحاولون تغيير طبيعة المجتمعات في بلاد الإسلام ـ كما يحاولون تغيير طبيعة هذا الدين ـ كوسيلة أخيرة، حتى لا يجد هذا الدين قلوباً تصلح للهداية به، فيحولون المجتمعات إلى فئات فارغة من ثقافتها الإسلامية المجيدة، مشغولة بلقمة العيش لا تجدها إلا بالكدّ والعسر والجهد، ثم تمسخ فطرة هؤلاء الناس وأذواقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم، وتُيَسِّر وسائل الانحلال الخلقي والتربوي والسلوكي وتدفع الرجال والنساء إليها

(١) نقلاً عن محمود شاكر بتصرف.

دفعاً بالعمل والتوجيه حتى لا تستمع إلى هدى، أو تفيء إلى الدين!

إن الجاهلية هيَ الجاهلية! ونظرة إلى الصحافة والأفلام ومعارض الأزياء، ومسابقات الجمال، والمراقص، والحانات وشواطىء السياحة، ونظرة إلى السعار المجنون للحم العاري، والأوضاع المثيرة، والإيحاءات المريضة، في الأدب والفن وأجهزة الإعلام إلى جانب النظام التربوي والثقافي، وما يكمن وراءه من سعار للمال، ووسائل خسيسة لجمعه وتثميره، وعمليات نصب واحتيال وابتزاز تلبس ثوب القانون... وإلى جانب التدهور الخلقي والانحلال الاجتماعي، الذي أصبح يهدد كل نفس وكل بيت في بلاد الإسلام... نظرة إلى هذا كله تكفي للحكم على المصير البائس الذي تدلف إليه المجتمعات الإسلامية في ظل هذه الجاهلية.

وبعد ذلك نرى المثقفين العبيد بعد تفريغ المجتمع الإسلامي من كل أصول ثقافته التاريخية والدينية، نرى هؤلاء العبيد يقولون: ما للدين والزي؟ ما للدين وملابس النساء؟ ما للدين والتجميل؟

كل ذلك وتزعم هذه الأنظمة والأوضاع أنها مسلمة وتحترم العقيدة، والناس يتوهمون أنهم يعيشون في مجتمع مسلم، وأنهم هم كذلك مسلمون.. أليس الطيبون منهم يصلّون ويصومون؟ أَمَا أن تكون الحاكمية للّه وحده، أو تكون للأرباب المتفرقة، فهذا ما قد خدعتهم عنه الصليبية والصهيونية والتبشير والاستعمار والاستشراق وأجهزة الإعلام الموجهة، وأَفْهَمَتْهم أنه لا علاقة له بالدين وأن المسلمين يمكن أن يكونوا مسلمين، وفي دين الله، بينما حياتهم كلها تقوم على تصورات وقيم وشرائع وقوانين ليست من هذا الدين..

إن الأمم التي عارضت حضارة الغرب وزاحمتها كانت من أنواع ثلاثة: أمم لم تكن لها حضارة مستقلة مختصة بها، وأخرى كانت لها حضارة مخصوصة ولكنها لم تكن من القوة بحيث تستطيع أن تحاول الحفاظ على خصائصها بإزاء حضارة قوية أخرى، وثالثة لم تكن حضارتها تختلف في

مبادئها كثيراً عن هذه الحضارة الطارئة، كل هذه الأمم ذابت بكل سهولة في الحضارة الغربية واصطبغت بصبغتها بدون أن يقع بين هذه وتلك كبير احتكاك.

ولكن المسلمين كانت حالهم غير حال تلك الأمم جميعاً، لأنهم حاملو حضارة مستقلة تامة، ذات دستور واضح مكتمل شامل لجميع شُعب الحياة الإنسانية من ناحيتي الفكر والعمل، تختلف اختلافاً كليًّا عن مبادىء الحضارة الغربية.

فكان ـ بطبيعة الحال ـ أن جاءت هاتان الحضارتان تتزاحمان في كل طريق وتصطدمان على كلِ موقف، ولا يزال هذا التصادم قائماً بين القوتين إلى هذا اليوم يُؤثر في كل شُعبة من شُعب حياة المسلمين العملية والاعتقادية أسوأ الآثار.

إن الفلسفة والعلوم الطبيعية اللتان نشأتا في أحضانهما المدنية الغربية، ما زال ولا يزال اتجاهها إلى الدهرية والإباحية والإلحاد وحب المادة، ووجهتها الحياة الدنيا وحدها، ولا تنظر إلى شيء وراءها، ولا تؤمن بالآخرة ولا تحسب حسابها، وترى أن حياة الإنسان على هذه الأرض هي غاية وجوده، لا غاية بعدها، ويقيم منهجه في الحياة على هذا الاعتبار، فيفصل ضمير الإنسان عن الشعور بإله يُدبِّر أمره، ويحاسبه على عمله، بعد رحلة الأرض المحدودة.

وهكذا تفترق المعايير والأهداف والغايات، وتَصَوُّر الحياة كلها بين الحضارة والثقافة المادية الغربية وبين الحضارة والثقافة الإسلامية، تفترق اختلافاً بيِّناً واضحاً.

هذه هي جذور القضية التي غفل عنها الناس وهم غرقى في مستنقع تنمو فيه أزهار الشيطان، يسمى: التقدم والتطور، ولنتدبر هذه الحقيقة في المحاولة المستمرة بكل الوسائل إلى تغيير عقول المسلمين ونفوسهم، وكان أمكرها وأدهاها ـ كما تقدم ـ إقامة أنظمة وأوضاع تتزيا بزي الإسلام وترفع

راية العقيدة، وذلك لتقوم في خبث ولؤم بحرب العقيدة، ومناهضة الدين، فكان لهم يَدٌ طويلة في إفساد عقيدة الناس، وأحدثوا صَدْعاً مبيناً في ثقافة الأمة، ودبّروا كل مكيدة بكل الوسائل لإسقاط هيبة علماء المسلمين، حتى يعزلوا جمهور الأمة عن الدين، ومَرَّت الأيام والسنون وهذا الصدع يتفاقم، حتى انتهينا إلى ما نحن عليه اليوم، وكان ذلك نصراً مؤزَّراً، نالـه أعداء الإسلام بدهائهم ومكرهم وثاقب نظرهم، نالوه من وراء غفلة المسلمين، ومن وراء الأنظمة والأوضاع التي أسندوا إليها أمور البلاد ومصائرها.

هكذا تمت الغلبة والسيطرة والتمكين لإقصاء دين الله وشريعته عن حياة المسلمين، وانتشرت تصورات وقيَم الحياة المادية الغربية، بلا مواجهة ولا قعقعة سلاح، وانفردت الحضارة والثقافة الغربية في العالم كله، بلا قرنٍ يكافئها وينازلها، وإنما هو الخضوع والاستكانة لا غير.

لم يكن التوجيه والتعليم والتربية التي انتشرت في بلاد الإسلام في المدارسْ والمعاهد والجامعات والكتب الموجَّهة، والصحف ووسائل الإعلام، نابعة من ثقافة الأمة والإسلام، بل كانت غراساً غريباً يزيدها بُعْداً وانقطاعاً عن ثقافة وحضارة الإسلام، ولا تكسبها قوة ووضوحاً، بل تكسب أبناءها تَنَكُّراً وإعراضاً واحتقاراً أيضاً لتلك الثقافة الإسلامية التي عاشت بها أمتهم، وكذلك صار أبناء الثقافة الغربية حزباً عريضاً يكبر مع الأيام، مَيْلُه وحُبُّه وإكباره للمصدر الذي صدر عنه ما تعلموه ولم يتعلموا غيره، كما هو في مخطط الاستشراق والاستعمار منذ سنوات طويلة، وطوّروه تطويراً كبيراً عن طريق الأنظمة والأوضاع التي أقاموها.

وإمعاناً في الخداع والتضليل، وإمعاناً من الصهيونية العالمية والصليبية العالمية في التخفي، فإنها تثير حروباً مصطنعة ـ باردة أو ساخنة ـ وعداوات مصطنعة في شتى الصور، بينها وبين هذه الأنظمة والأوضاع التي أقامتها، والتي تكفلها بالمساعدات المادية والأدبية، وتحرسها بالقوى الظاهرة والخفية، وتجعل أقلام مخابراتها في خدمتها وحراستها المباشرة، تثير هذه الحروب المصطنعة، والعداوات المصطنعة، لتزيد من عمق

الخدعة، ولتبعد الشبهة عن العملاء، الذين يقومون لها بما عجزت هي عن إتمامه في خلال ثلاثة قرون أو تـزيد من تـدمير القيم والأخـلاق، وسحق العقائد والتصورات وتجريد المسلمين في هذه الرقعة العريضة من مصدر قوتهم الأول. . وهو قيام حياتهم على أسـاس دينهم وشريعتهم. . وتنفيـذ المخـططات الرهيبـة التي تضمنتها بـروتوكـولات الصهيـونيين ومؤتمـرات المبشرين، في غفلة عن الرقباء والعيون، فإذا بقيت بقية ولم تجـز عليها الخدعة، ولم تستسلم للتخدير باسم الدين المزيف، وباسم الأجهزة الدينية المسخـرة لتحريف الكَلِم عن مـواضعه، ولِـوَصْف الكفر بـأنه الإسـلام، والفسق والفجور والانحلال، بأنه تطور وتقدّم وتجدّد. . إذا بقيت بقية كهذه سلطت عليها الحرب الساحقة الماحقة، وصَبّت عليها التهم الكاذبة الفاجرة وسُحِقَت سحقاً، بينما وكـالات الأنباء العـالمية وأجهـزة الإعلام العـالمية خرساء صمّاء عمياء. . ذلك بينما الطيبون السُذج من المسلمين يحسبون أنها معركة شخصية، أو طائفية، لا علاقة لها بالمعركة المشبوبة مـع هذا الدين، ويروحون يشتغلون في سذاجة بلهاء ـ مَن تأخذه الحمية للدين منهم والأخلاق ـ بالتنبيه إلى مخالفات صغيرة، وإلى منكرات صغيرة، ويحسبون أنهم أدّوا واجبهم كاملاً بهذه الصيحات الخافتة. . بينما الدين كله يُسحق سحقاً، ويُدمَّر من أساسه، وبينما سلطان الله يغتصبه المغتصبون، وبينمـا الطاغوت ـ الذي أُمروا أن يكفروا به ـ هو الذي يحكم حيـاة الناس جملةً وتفصيلاً. .

إن مَن يمشي في عين مفتوحة في هذه الرحلة الطويلة الشاقة لزحزحة المسلمين عن دينهم وتاريخهم وعقيدتهم، يرى دروباً وَعْرةً شائكةً، كلما أَوْغَل انكشفت عنه غشاوةٌ من العمى، وأحسَّ أنه قد تمَّ تفريغنا تفريغاً يكاد يكون كاملاً من ماضينا كله، من علومه وآدابه وفنونه، وتمّ أيضاً هتك العلائق بيننا وبينه، وصار ما كان في الماضي متكاملاً متماسكاً، مِزَقاً متفرقة مبعثرة تكاد تكون خالية عندنا من المعنى ومن الدلالة، ولأنه غير ممكن أن يظل الفارغ فارغاً أبداً، فقد تمَّ مِلْءُ هذا الفراغ بجـديد من العلوم والآداب لا

تمت إلى هذا الماضي بسبب، وهو يسلخ الناس من دينها وعقيدتها، وإننا لنستقبله استقبال الظامىء المحترق لقطراتٍ من الماء النَّمير المُثَلَّج.

لقد ظهر لكل ذي عين تُبصر وأذن تسمع أننا نعيش في عالم منقسم انقساماً ساخراً: عالم السيادة والعلو والاستكبار، عالم القوة والغنى، وعالم العبودية والعبيد، عالم الضعف والفقر = أو عالم السادة والعبيد..

ويكشف القرآن بوضوح كامل عما تكنه صدور أعداء الدين من الشر والعداء، وعما تنغل به قلوبهم من الحقد والحسد، وما تكنّه نفوسهم من الحقد والبغضاء والكيد للإسلام والمسلمين: **﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾** [البقرة: ٢١٧]..

إن الله سبحانه يكشف عمق الشر، وأصالة العدوان في نياتهم ومخططاتهم، يكشف الإصرار الخبيث على فتنة المسلمين عن دينهم، بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعداء الدين وعملائهم هنا وهناك..

وكان ما كان من أمر المسلمين حتى صارت فجوة عميقة جداً بينهم وبين الدين، وأقامت الأنظمة التي رسّخها أعداء الدين في ديار الإسلام، أقاموا حواجز سميكة بين قلوبنا وبين القرآن شريعة الأمة ودستورها، حتى صار يُقرأ كأنه مجرد تراتيل تعبدية مهوّمة، لا علاقة لها بواقعيات الحياة البشرية اليومية التي تواجه هذه الأمة المسماة بالمسلمين! وكانت النتيجة أن هَجَر المسلمون القرآن بعد أن تعطلت مسامعهم عن فَهْمه. وليس أدلّ من الهزء بالمسلمين، واطمئنان أعداء الدين إلى أنهم لا يفقهون من قرآنهم شيئاً حتى صاروا لهم آذان لا يسمعون بها، ليس أدل على الهزء والسخرية من أن يذيع هؤلاء الأعداء الحاقدين الماكرين على المسلمين آيات القرآن من إسرائيل ولندن وباريس وواشنطن!!!

إن اليهود الصهيونيين والنصارى الصليبيين يفركون أيديهم فرحاً بنجاح الخطة وجواز الخدعة، بعدما يئسوا من هذا الدين أن يقضوا عليه مواجهة بالسلاح، أو بالإلحاد، أو يحولوا الناس عنه باسم التبشير، فترة طويلة من

الزمان. . ولخبثهم أحياناً ولتمرسهم في الحيل الماكرة وملابسات العصر الحديث قد لا يثنون ثناءً مباشراً مكشوفاً على الباطل وأهله، بل يكتفون بتشويه الحق وأهله ليعينوا الباطل على هدمه وسحقه، ذلك أن ثناءهم المكشوف في هذا الزمان أصبح متهماً. وقد يثير الشبهات حول حلفائهم المستورين الذين يعملون لحسابهم في سحق الحركات الإسلامية في كل مكان، بل قد يبلغ بهم المكر والحذق أحياناً أن يتظاهروا بعداوة وحرب حلفائهم الذين يسحقون لهم الحق وأهله، ويتظاهروا كذلك بمعزكة كاذبة جوفاء من الكلام ليبعدوا الشبهة تماماً عن أخلص حلفائهم الذين يحققون لهم أهدافهم البعيدة. . ولكنهم لا يكفّون عن تشويه الإسلام وأهله؛ لأن حقدهم على الإسلام، وعلى كل شبح من بعيد لأي بعث إسلامي أضخم من أن يُداوروه ولو للخداع والتمويه.

حقيقة الدين:

إن الإسلام ليس عقيدة فحسب، ولا هو مجموعة من العبادات والمناسك الدينية فقط، ولكنه نظام شامل للحياة ينتظم العقائد والعبادات ومبادىء الأخلاق وقوانين المعاملات وسلوك الفرد والجماعة، وكل هذه الفروع متلاحمة يتصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً حتى تكون كُلًّا متماسكاً لا يتجزأ.

والإسلام من هذه الناحية يشبه الجسم البشري إلى حد كبير، فالجسم يتكوّن من أعضاء تؤدي وظائفها في تعاون وانسجام، وأنت إذا بترت أطراف إنسان وقطعت لسانه وسملتَ عينيه وصلمت أذنيه ثم بقرت بطنه وأخرجت كبده ورئتيه وطحاله وحطمت جمجمته وقطعت مخّه إلى أجزاء، وأبقيتَ بعد هذا كله على القلب دون أن تمسَّه بسوء فهل يمكن الزعم حينئذٍ بأن هذا المخلوق المشوَّه إنسان حيّ؟ فإذا افترضنا أنه ظلّ بعد كل هذا التمثيل البشع ينبض بالحيلة فهل يمكنك الجزم بأنه صالح للبقاء؟

هكذا الحال مع الإسلام الحنيف، فالعقائد قلبه النابض، والصورة

التي يرسمها للحياة البشرية والقيم التي يقررها للأشياء تقوم منه مقام «العقل» من الجسم، والقوانين التي وضعها لتنظيم المجتمع والاقتصاد والسياسة هي بمكانة الكبد والطحال وسائر الأعضاء الحيوية من جسم الإنسان، ثم هو يحتاج إلى أن تكون حاسة السمع والبصر لديه سليمة حادة بحيث يمكنها أن تنقل بأمانة صورة صحيحة لما تراه وتسمعه كيما يصدر النقل عليها حكماً صحيحاً صائباً، وإلى لسان صادق أمين يترجم عن الأفكار التي يزدحم بها العقل، وجوّ نظيف يتنفس فيه وغذاء صحي كامل يُمده بأسباب الحياة والبقاء.

ومما لا مشاحة فيه أن أهمية «العقيدة»، ومقامها في الإسلام مقام «القلب» كما سبق أن بيّنا، جاءت من حيث أنها تمدّ الأعضاء والأطراف بنسمة الحياة، فإذا بُترت هذه الأعضاء أو عُطِّلت عن أداء وظيفتها فكيف يمكن أن يُتاح للقلب أن يظلّ حيّاً. وعلى فَرض أنه قاوم الموت إلى حين فما تكون قيمة الحياة بالنسبة إليه؟ وما قيمته بالنسبة إليها؟

ولنبدأ الآن بتحليل حالة الإسلام في ديار الإسلام على ضوء هذه الحقائق: إن الشريعة الإسلامية والقوانين المنبثقة عنها معطلة، والقوانين التي أرساها الإسلام للأخلاق والسلوك وتنظيم المجتمعات البشرية لا يقوم منها اليوم إلا جزء ضئيل تافه ليس له في حياة الناس أَثَر، ومناهج الثقافة والتربية تصوغ أجيالنا في قوالب لا إسلامية بحيث تنشأ هذه الأجيال مبتورة الصلة بدينها بصورة جزئية أو كلية.

إن العيون ما زالت تبصر ولكن من زاوية لا يرضى عنها الإسلام، والآذان ما زالت تسمع ولكنها تعكس الصورة والصوت بصورة تتنافى مع الإسلام، والرئتان لم تعودا تستنشقان هواءً نقياً لأن الجوّ المحيط بها قد تَسمَّم، والجسم لم يعد يتناول غذاءً نقياً طاهراً بعد أن تطرَّق إلى طعامه سوس الفساد وجراثيم التعفن، والصلوات التي هي في مقام الأطراف مصابة بالشلل بعد أن فقدت صلتها بأركان الإسلام الأخرى، فهل يمكن الزعم بعد هذا بأن الصورة التي نراها اليوم هي صورة للإسلام الصحيح؟ لقد بُتر من

أوصاله الكثير، وما بقي منه أصيب بالشلل والعجز، وحتى التي ما زالت تدبّ فيها الحياة بطيئة فاترة قد عُطّلت عن وظيفتها بسبب ما لحق أخواتها من سكون وهمود.

حتى القلب الذي كان يدفع الحياة دافقة في شرايين هذا الكيان العملاق لتعود إليه بالتالي قوة وعافية، أصابته هو الآخر عَدْوى الداء، ولا ريب في ذلك، فعندما يضطرب العقل وتُبتر الأطراف ويستقر الكبد والطحال والمعدة والرئتان في غير مواضعها الطبيعية، فكيف ينتظر من القلب أن يظلّ صحيحاً معافى؟ إن قوة القلب وصلابته العجيبة هي التي جعلته يُقاوم حتى الآن عوامل الموت والاضمحلال، ليس ذلك فحسب بل أتاحت له أن يسير قُدماً جارّاً وراءه هذه الأشلاء الممزقة والأعضاء المبتورة عبر القرون الأخيرة.

هل يمكن لمثل هذا الإسلام المشوَّه أن يجتذب أحداً إليه؟ وهل لديه من القوة ما يجعله قادراً على فَرض نفسه على الحياة في الديار التي امتدّ عليها طويلاً؟ هل يستطيع هذا الإسلام وحاله كما بيَّنت أن ينقذ بقية أعضائه من غواشي الموت؟ أو أن يُنقذ نفسه من الزوال، وطوفان الكوارث يتنابه من كل جانب؟ وهكذا فإن النتيجة المتوقعة سوف لا تحقق قول الله تعالى ﴿**ورأيتَ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً**﴾ [النصر: ٢]، ذلك بأن آفة التمرد والردّة وشق عصا الطاعة على الإسلام والتنكُّر له آخذةٌ في التعاظم والازدياد، وهي على وشك أن تجتاح البقية الباقية من المسلمين أنفسهم، ولا يوجد مكان في ديار الإسلام يعمل فيه النظام الإسلامي بحيث يُتاح للناس أن يشهدوا آثاره العظيمة ونتائجه الباهرة، وأن يعترفوا بقيمته وبالفوائد التي تنجم عن تطبيقه، إنَّ الذي يرونه إن هو إلا صورة مشوَّهة للإسلام العظيم أخذت مكان الصورة الحقيقية الرائعة.

وبينما يذهب قوم في الطعن في الإسلام صراحة وعلانية يمنعُ الجبن آخرين من إعلان عصيانهم باللسان ولكنهم يطعنونه بأفعالهم طعنات أشد وأقسىٰ، وهناك فريق ثالث قد انحرفت قلوبهم عن الإسلام، ولكن لما كانت

الثورة عليه لم تتفشَّ إلى الحد الذي يشجعهم على إعلان هذا الانحراف على الناس دونما خوف من النتيجة، فقد حرصوا على المحافظة على نسبتهم إليه ولكن الغدر مُبَيَّت هنالك في قلوبهم يبذرون بذور التمرد على الشريعة بين سائر الطبقات حتى إذا آتت ثورتهم المزعومة أُكلها وكثر جُندها أسقطوا عن وجوههم القناع ورفعوا أعلامهم البغيضة. وهناك فئة أخرى ليست من الجسارة بحيث تعلن إنكارها وجحودها، ولكنها تهمس في آذان كل مَن تلقاه للاندماج في الحضارة الحديثة من أجل التقدم لأن المسلمين قد بلغوا درجة من الجمود والانحطاط تجعلهم لا هم يُفيدون الغير ولا يسمحون لهم بالاستفادة من الثمرات التي تقدمها حضارات الأمم الأخرى وثقافاتها. ثم هناك فئة أخرى ترى أن الحل السليم للمشكلة هو في «تجميد» هذا الإسلام وحصر سلطانه في محيط العبادات والعقائد ثم تطبيق نظم الحياة والإدارة التي طبّقها غير المسلمين.

وأنا لا أعلم إذا كان هؤلاء يعتقدون حقيقة بصواب أفكارهم ونظرياتهم، أم أنهم يعرفون الحقيقة ولكنهم يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس، ولكن شيئاً هاماً قد غاب عن أبصارهم على كل حال، وهو أن المسلمين إذا ما عاشوا في ظل نظام لا يقوم على أساس الإسلام الحنيف فإن معتقداتهم ستتعرض حتماً لعوامل الفساد والضلال، فلا «الإيمان» يستطيع أن يعيش طويلاً في مثل هذه الظروف المعادية له، ولا «العبادات» تستطيع أن تحتفظ بجاذبيتها وسحرها، ناهيك عن أن محيطاً كهذا قمين بألّا يسمح بتطور النزعة الإسلامية تطوراً يؤدي في النهاية إلى إقامة بنيان الحياة وكيان المجتمع على أساسها، ولنأخذ طفلاً وُلِدَ ونشأ في ظل هذا النظام الذي يقترحونه فإنه سائل نفسه لا محالة: ما لهذه المعتقدات التي لا فائدة منها، والطقوس التي لا معنى لها موصولة بحياتي؟ ولماذا يجب عليّ أن أدرس القرآن وأومن به بعد أن انقطعت صلته بواقع الحياة وفَقَد تأثيره فيها؟ لماذا يجب عليَّ أن أُومن برجل عاش منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرناً على أنه رسول من عند الله؟ وإذا لم يستطع هذا الرجل أن يحقق لي نفعاً في هذه

الحياة الدنيا فما هو الخير الذي أصيبه إذا آمنتُ به كرسول، وما هو الضرر الذي يقع عليّ إذا لم أفعل؟ وما دمت أعيش سعيداً في ظل هذا النظام (الرائع!!) فأي فرق بين أن أصلي وأصوم وبين أن أنزع عن نفسي هذه الأغلال؟ ثم كيف تستقيم هذه الأفعال مع حياة المدنية؟ ولماذا تستمر هذه النغمة النشاز في إفساد لحن الحياة التي أحياها؟...

تلك هي النتيجة الطبيعية للأجيال التي نشأت وتنشأ لعزل الدين عن الحياة، وهي نتيجة منطقية مع الأسباب التي مهدتُ لها إذا ما أصبح العزل تاماً من الناحية النظرية والعملية.

وهكذا فكما أن القلب يصبح فاقد القيمة إذا ما فُصل عن الجسد فإن العقيدة وسائر العبادات تفقد أثرها وفعاليتها كذلك عندما تعتزل الحياة. إن العقائد والعبادات هي العُمُد الشامخة التي يقوم عليها بنيان الحياة الإسلامية، وهي بدورها تتلقى القوة والعافية من سيادة المبادىء التي تحميها، وكما سبق أن بيَّنت: كلاهما كأعضاء الجسد الواحد لا يستغني أحدهما عن الآخر، وفصل أحدهما عن الآخر يعني الموت والفناء لكليهما معاً، وعلى هذا فإن الظن بإمكان انتعاش المعتقدات الإسلامية في ظل نظام لا يقوم على أساس الإسلام ظن مغلوط إلا إذا جاز أن نضع عقلاً وأطرافاً بشرية لحيوان «الغوريلا» ثم نزعم بعد ذلك أن هذا حيوان سوي الخلقة والتركيب.

وأحب أن يكون واضحاً أن الأنظمة والأوضاع الحاضرة التي أُنشئت في ديار الإسلام لا يقف تأثيرها المسموم عند شباب الجيل الجديد فحسب، ولكنه يتجاوزهم إلى هؤلاء الذين ما زالوا على قسط من التمسك بتعاليم الإسلام، والذين ظلوا على ولائهم الموروث للعقيدة الإسلامية سواء كانوا من أبناء الجيل القديم أو الجديد. إن الارتباك والتناقض الذي يسود حياة المسلمين في كل الأقطار هو بلاء عام لم ينجُ منه أحد، وكُلٌّ منا ينال قسطه من البلاء على قدر استعداده للعدوى، حتى علماؤنا وأئمتنا نالهم نصيب من هذا الطوفان الطامي. ولكن جماهير المسلمين المنتشرة في أنحاء الأرض

كلها هي أشد عناصر الأمة تعرضاً للخطر، ذلك بأنهم ـ على الرغم من إخلاصهم العجيب للإسلام فإن إسلامهم إسلام إسمي فحسب، وهم لا يعرفون الواجبات التي يفرضها عليهم هذا الإخلاص، ولا يستطيعون النجاة بأنفسهم من هذه التيارات المنافية للإسلام والتي تسدّ عليهم كل المسالك وتكاد تأخذهم من أقطارهم، ولهذه الأسباب أصبح هيناً على كل مُضلِّل هدّام أن يدسّ لهم السُّم في الدسم ويُقنعهم بأن النظريات والمفاهيم الجديدة التي تُقدّم إليهم لا تعارُض بينها وبين الإسلام البتة، وأن اعتناقها والإيمان بها هو الصواب بعينه[1].

وهكذا تُقاد جماهير المسلمين كل يوم إلى ردّة عن الإسلام وإلى عبودية لغير الله سبحانه وتعالى.

الوعد الحق:

لقد بذل أعداء هذا الدين ـ من الصهيونية العالمية والصليبية العالمية ـ رصيدهم من تجارب وسُبل عديدة ماكرة خفية هيأ لها الاستشراق طويلاً في الكيد للإسلام، وقدروا على أشياء كثيرة. قدروا على الدسّ في سنّة رسول الله ـ ﷺ ـ وعلى تاريخ الأمة المسلمة، وقدروا على تزوير الأحداث ودسّ الأشخاص في جسم المجتمع المسلم ليؤدوا الأدوار التي يعجزون عن أدائها وهم سافرون، وقدروا على تحطيم الدول والمجتمعات والأنظمة والقوانين، قدروا على إنشاء أجيالٍ من تلاميذ المدارس وشباب الأمة لا تربطهم بدينهم وثقافتهم الإسلامية وماضيهم أي رابطة، حتى صاروا هياكل لا تُغني شيئاً، ولا تؤتي للأمة الإسلامية ثمرة، قدروا على زحزحة هذا الدين عن مفهوماته الأساسية وصارت مسألة الحاكمية للّه تتزحزح عن مكان العقيدة وتنفصل في الحس عن أصلها الاعتقادي. وقدروا على تقديم عملائهم

---

(١) نقلاً عن المودودي بتصرف: داء المسلمين ودوائهم، المسلمون، المجلد الخامس ـ العدد الأول ص ٥٣.

الخونة في صورة الأبطال الأمجاد ليقوموا لهم بأعمال الهدم والتدمير في أجسام المجتمعات الإسلامية على مدار القرون، وبخاصة في العصر الحديث.

ولكنهم لم ولن يقدروا على شيء واحد ـ والظروف الظاهرية كلها مهيأة له.. لم يستطيعوا ـ بعد هذا كله ـ تبديل نصوص كتاب الله ولا تحريفها، ولم يكونوا في هذا من الزاهدين، فلقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدف لو كان يبلغ، وعلى نيل هذه الأمنية لو كانت تنال!.. لم يقدروا على إحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ، الذي لا حماية له من أهله المنتسبين إليه؛ وهم بعد أن نبذوه وراء ظهورهم أصبحوا غثاءً كغثاء السيل لا يدفع ولا يمنع؛ فدلَّ هذا مرة أخرى على ربّانية هذا الكتاب، وشهدت هذه المعجزة الباهرة بأنه حقاً تنزيل من عزيز حكيم: **﴿إنا نحن نزّلنا الذكر، وإنا له لحافظون﴾** [الحجر: ٩].. وصدق الله العظيم..

لقد كان هذا الوعد على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ مجرد وعد، أما هو اليوم ـ من وراء كل تلك الأحداث الضخام؛ ومن وراء كل تلك القرون الطوال، فهو المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب، والتي لا يماري فيها إلا عنيد جهول.

وهناك حقيقة خالدة من وراء هذا الوعد الإلهي، هي أن المسلمين لم يكونوا خلال هذا المكر المستمر الطويل على دين الله، وأهله في تلك القرون الطوال في جهل متصل عن فهم هذا الدين «الذي هو دين كل عصر وجيل، وعن فهم القرآن ومصطلحاته وتعبيراته الأساسية، لأن ذلك يُثبت أن هذا الكتاب بقي هذه المدة الطويلة لا يُفهم على حقيقته وأنه بقي مطوياً على غرّته، وانقطعت الاستفادة منه بعد نزوله بمدة قصيرة، وهذا لا شك يناقض قوله تعالى **﴿إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**، والوعد بالحفظ في موضع الامتنان يستوجب الفهم والشرح والعمل والتطبيق، فلا خير في كتاب يبقى ولا يُعمل به»[1]، وعلى مرّ الأيام بعث الله سبحانه رجالاً مُفَتَّحةً

---

(١) النبوة والأنبياء: ٤٥.

قُلوبهم، مُستنيرة بصائرهم، يَسَّرَ لهم السبيل، فقاموا بالدعوة الكاملة في وجهها الصحيح.

وعلينا أن نُدرك هذا لندرك تلك النماذج الفريدة في تاريخ العصور التي رفعت راية القرآن فهماً وعملاً، كانت هي التي تُجدِّد الأمل، وتَحرس الأمة من القنوط.. وكانوا بهذا نماذج فريدة في تاريخ البشرية.

وهذا الوعد الإلهي هو الذي صاغ تلك النماذج التي لم تنقطع قط في تاريخ الإسلام، وهذا التاريخ يحكي بتفصيل قصة تلك النماذج الكريمة، وحسن بلائها، وجهادها، وثباتها على عهدها مع الله في كل زمان وفي كل مكان.

إن الأمل في الله أكبر، والثقة في هذا الدين أعمق، وأعداء الدين يمكرون والله خير الماكرين، وهو الذي يقول: ﴿**وقد مكروا مكرهم، وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال. فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله، إن الله عزيز ذو انتقام**﴾ [إبراهيم: ٤٧].

إن هذا الوعد الحقّ هو الركيزة الثابتة في حياة المؤمنين، تضطرب الدنيا من حولهم فيثبتون هم على هذه الركيزة، وتتجاذبهم الأحداث والدوافع فيتشبثون هم بالصخرة التي لا تتزعزع، وتتهاوى من حولهم الأسناد فيستندون هم إلى القاعدة التي لا تحول ولا تزول.

إن للّه رجال لا تخلو منهم الأرض، على الحق ظاهرين، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، لا يَضرّهم مَن خَذَلهم ـ أو خَالَفهم ـ حتى يأتي أمر الله، مُرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدّهم إلى الله، وتمنعهم من السقوط، هؤلاء حملة القرآن، مصابيح النور الذين يُضيئون في الظلام للحيارى الشاردين عن الطريق...

وبعد، فلم تضع الحرب الصليبية أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة، فقد جهدت قوى الصهيونية العالمية والصليبية العالمية لإطفاء نور الحق من القلوب في غير وناة ولا هدنة في جيل من الأجيال في دار الإسلام

في كل مكان ﴿يريدون ليطفئوا نور الله﴾، وفعلوا ما فعلوا على مر الأيام والسنين ـ كما تقدم بيانه ـ، ولكن لم ولن يستطيعوا أبداً، فهم الضعاف المهازيل ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ [الصف: ٨]، ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون﴾ [التوبة: ٣٢].. وصدق وَعْد الله. أتمَّ نوره في حياة الرسول ـ ﷺ ـ فأقام الجماعة الإسلامية صورة حيَّة واقعة من المنهج الإلهي المختار، صورة ذات معالم واضحة وحدود مرسومة، تترسمها الأجيال لا نظرية في بطون الكتب، ولكن حقيقة في عالم الواقع، وأتمَّ نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتمّ عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً يحبونه، ويجاهدون في سبيله، ويرضى أحدهم أن يُلقى في النار ولا يعود إلى الكفر. فتمَّت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء، وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين. وتنبض وتنتفض قائمة ـ على الرغم من كل ما جرى على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد، وسفح غزير للدماء، وبطش شديد غليظ حقود، لأن نور الله لا يمكن أن تطفئه الأفواه، ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد، في أيدي العبيد! وإن خُيِّل للطغاة الجبارين، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالِغوا هذا الهدف البعيد!

إنه الوعد الحق من الله، الدال على سنّته التي لا تتبدل، في إتمام نوره بإظهار دينه ولو كره الكافرون... وهو وَعْد تطمئن له قلوب الذين آمنوا، فيدفعهم هذا إلى المضي في الطريق على المشقة واللأواء في الطريق؛ وعلى الكيد والحرب من الكافرين أعداء الدين الذي لا ينقطع إلى يوم الدين...

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة...»(١).

---

(١) أخرجه مسلم.

التصادم المخيف:

إن الصهيونية العالمية والصليبية العالمية يوجهون إلى الإسلام والمسلمين جهوداً لا تكلّ، وحملات لا تنقطع، ويستخدمون في تحريف الدين عن وِجْهته، وفي تمييع طبيعته، كل الوسائل وكل الأجهزة وكل التجارب..

هم يسحقون سحقاً وحشياً كل طلائع البعث الإسلامي، والحيوية الصلبة الصامدة في كل مكان على وجه الأرض عن طريق الأوضاع التي يقيمونها ويكفلونها في كل بقاع الأرض، وهم يُسلِّطون المحترِفين من علماء هذا الدين عليه يُحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه، ويُحلُّون ما حرَّم الله، ويُميعون ما شرعه، ويباركون الفجور والفاحشة، ويرفعون عليها رايات الدين وعناوينه. إنهم يريدون أن يغيروا طبيعة هذا الدين ومنهجه ليشابه أنظمة بشرية ومناهج بشرية، وهم يزحلقون المخدوعين في الحضارات المادية، المأخوذين بنظرياتها وأوضاعها، ليحاولوا زحلقة الإسلام في التشبه بهذه النظريات وهذه الأوضاع، ورفع شعاراتها، أو الاقتباس من نظرياتها وشرائعها ومناهجها. وهم يصورون الإسلام الذي يحكم الحياة حادثاً تاريخياً مضى، ولا يمكن إعادته، ويشيدون بعظمة هذا الماضي، ليخدروا مشاعر المسلمين، ثم ليقولوا لهم في ظل هذا التخدير: إن الإسلام اليوم يجب أن يعيش في نفوس أهله عقيدة وعبادة، لا شريعة ونظاماً، وحسبه وحسبهم ذلك المجد التاريخي القديم. هذا وإلا فإن على هذا الدين أن يَتَطَوَّر فيصبح محكوماً بواقع البشر، يبصم لهم على كل ما يقدمونه له من تصورات وقوانين، وهم يضعون للأوضاع التي يقيمونها في العالم الذي كان إسلامياً، نظريات تأخذ شكل العقيدة والدين، لتحلّ محل ذلك الدين القديم، وينزلون لها قرآناً يُتلى ويُدَرَّس، ليحلّ محل ذلك القرآن القديم، وهم يحاولون تغيير طبيعة المجتمعات، كما يحاولون تغيير طبيعة هذا الدين كوسيلة أخرى، **حتى لا يجد هذا الدين قلوباً تصلح للهداية به** فيحولون المجتمعات إلى فتات غارق في الأهواء والشهوات، مجتمعات تائهة،

مجتمعات في حيرة تتخبط على غير هدى. .

إن الأمة المسلمة القائمة على الحق التي تهتدي بنور الله ـ وعلى قلة العدد والعدة ـ ما تزال صامدة **لعمليات السحق الوحشية في كل مكان**. . والله غالب على أمره. .

هذا بيان تاريخي واضح وإيجاز شديد لما كان حتى الآن، وليكن منك على ذكر أبداً لا تنساه في كل مكان وزمان، فقد طالت الليالي والأيام حتى كان ما كان. .

إن الفساد لم يدخل على ثقافتنا وأخلاقنا وتربيتنا، وفهمنا لِدِيننا، دخولاً يوشك أن يطمس المعالم ويطفىء الأنوار، إلا بعد التصادم الصامت المخيف الذي حدث بيننا وبين الحضارة والثقافة الأوروبية الحاضرة.

و «الثقافة في جوهرها لفظ جامعٌ يُقصد به الدلالة على شيئين أحدهما مبني على الآخر، أي طَوْران متكاملان:

الطور الأول: أصول ثابتة مكتسبة تنغرس في نفس الإنسان منذ مولده ونشأته الأولى حتى يُشارف حدّ الإدراك البيِّن، جِماعها كل ما يتلقاه عن أبويه وأهله وعشيرته ومُعَلِّميه ومُؤَدبيه حتى يصبح قادراً على أن يستقلَّ بنفسه وبعقله، وتفاصيل ما يتلقاه الوليد حتى يترعرع أو يُراهق، تفوتُ كلَّ حَصْر بل تعجزه، وهذه الأصول ضرورة لازمة لكل حيٍ ناشىء في مجتمع ما، لكي تكون له «لغة» يُبَيِّن فيها عن نفسه و «معرفة» تتيح له قِسْطاً من التفكير يُعينه على معاشرة مَن نَشَأ بينهم من أهله وعشيرته، وهذا على شدة وضوحه عند النظرة الأولى لأنك أَلِفْتَه، لا لأنك فكرت فيه وعَمَّقت التفكير، هو في حقيقته سِرٌّ مُلَثَّم يُحَيِّر العقول إدراك دفينه، لأنه مرتبط أشد الارتباط، بل متغلغل في أعماق سِرَّين عظيمين غامضين هما: سِرُّ «النُّطق» وسِرّ «العقل» اللذان تميَّز بهما الإنسان عن سائر ما حوله من الخَلْق كله، وتحيَّرت عقول البشر في كيف جاءا؟ وكيف يعملان؟ لأن «الإنسان» لم يَشهد خَلْق نفسه حتى يستطيع أن يستدل بما شهد، لكي يصل إلى خبيء هذين السِّرين

الملثمين المسْتَغْلَقين البعيدين، وإن توهَّم أحياناً بالإلف أنهما قريبان واضحان» إنه السر الإلهي، وعجيبة من آثار القدرة الخالقة، يرونها فلا يتدبرونها وهي مشهد عجيب معروض للعيون، وهو مَثَل صغير من حياة الإنسان، تعجز عنه قوى البشرية ويعجز عنه تصورهم، وهو يقع في كل لحظة من ليل أو نهار: ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾ [النحل: ٧٨].

إنه غيب من غيب قريب، ولكنه موغل بعيد، ولكن الناس لا يعلمون كيف يتم ذلك، لأن السرّ هو سرّ الحياة المكنون، والعلم الذي يدَّعيه الإنسان ويتطاول به، علم حادث مكسوب، ومولد كل إنسان، كل عالم وكل باحث، ومخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً قريباً من قريب! وما كسبه بعد ذلك من علم هِبَةٌ من الله بالقَدَر الذي أراده الله للبشر، وجعل فيه كفاية حياتهم على هذا الكوكب، في المحيط المكشوف لهم من هذا الوجود.

«والإنسان منذ مولده قد استُودِعَ فِطْرةً باطنةً بعيدة الغور في أعماقه، تُوزِعُه، (أي تُلهمه وتُحركه)، أن يتوجَّه إلى عبادة ربٍّ يُدرك إدراكاً مبهماً أنه خالقُه وحافظُه ومُعينه، فهو لذلك سريع الاستجابة لكل ما يُلَبِّي حاجةَ هذه الفطرة الخفية الكامنة في أغواره، وكُلُّ ما يُلَبِّي هذه الحاجة، هو الذي هَدَى الله عبادَه أن يُسمُّوه «الدين»، ولا سبيل البتَّةَ إلى أن يكون شيء من ذلك واضحاً في عقل الإنسان إلا عن طريق «اللغة» لا غير، لأن «العقل» لا يستطيع أن يعمل شيئاً، فيما نعلم، إلا عن طريق «اللغة»، فالدين واللغة، منذ النشأة الأولى، متداخلان تداخلاً غير قابل للفصل[1]، ومَنْ أغفلَ هذه الحقيقة ضَلَّ الطريق وأوغل في طريق الأوهام، هذا شأن كلِّ البشر على اختلاف مِلَلِهم وألوانهم، لا تكاد تجدُ أمةً من خلق الله ليس لها «دين» بِمَعناه

---

(١) في الحياة الثقافية والأدبية الفاسدة، تروج دعوة خبيثة جاهلة لفصل «اللغة» عن «الدين»، وهذا لا شيء إلا بمفارقة دين، والدخول في دين آخر يصنعونه لأنفسهم. ولبيان معنى الدين. انظر «أباطيل وأسمار» ص ٥١٣ ـ ٥٥٢ للأستاذ محمود شاكر.

العام، كتابياً كان، أو وثنياً، أو بِدْعاً، (البِدْعُ: الدين الذي ليس له كتاب أو وَثَنٌ معبود).

ولذلك، فكل ما يتلقاه الوليد الناشىء في مجتمع ما، من طريق أبويه وأهله وعشيرته ومعلميه ومؤدِّبيه، من «لغة» و «معرفة» يمتزجُ امتزاجاً واحداً في إناء واحد، ركيزتُه أو نواتُه وخميرتُه دينُ أبويه ولغتُهما، وأبلغُهما أثراً هو «الدين»، فالوليد في نشأته يكون كُلُّ ما هو «لغة» أو «معرفة» أو «دين» مُتَقَبَّلاً في نفسه تقبُّل «الدين»، أي يتلقاهُ بالطاعة والتسليم والاعتقاد الجازم بصحته وسلامته، وهذا بَيِّنٌ جداً إذا أنتَ دقَّقْتَ النظر في الأسلوب الذي يتلقى به أطفالك عنك ما يسمعونه منك، أو من المعلم في المراحل الأولى من التعليم، ويظلُّ حال الناشىء يتدرج على ذلك، لا يكاد يتفصَّى[٢] شيء من معارفه من شيء حتى يقارب حَدّ الإدراك والاستبانة، ولكنه لا يكاد يبلغ هذا الحدَّ حتى تكون لغته ومعارفه جميعاً قد غُمست في «الدين» وصُبغت به، وعلى قدر شمولِ «الدين» لشؤون حياة الإنسان، وعلى قدر ما يُحصِّل منه الناشىء، يكون أثره بالغ العمق في لغته التي يُفكِّر بها، وفي معارفه التي ينبني عليها ما يُوجبُه عملُ العقل من التفكير والنظر والاستدلال، فهذه هي الأصول الثابتة المكتَسَبة في زمن النشأة على وجه الاختصار.

الطور الثاني: فروع منبثقة عن هذه الأصول المكتسبة بالنشأة، وهي تنبثق حين يخرج الناشىء من إسار التسخير إلى طلاقة التفكير، وإنما سمَّيت «الطور الأول»: إسارَ التسخير، لأنه طورٌ لا انفكاك لأحد من البشر منذ نشأته في مجتمعه، فإذا بَلَغ مبلغ الرجال استوتْ مداركُه، وبدأتْ معارفُه يتفصى[١] بعضها عن بعض، أو يتداخل بعضها في بعض، ويبدأ العقل عملَهُ المُسْتَبِ في الاستقلال بنفسه، ويستبدُّ بتقليب النظر والمباحثة وممارسة التفكير والتنقيب والفحص، ومعالجة التعبير عن الرأي الذي هو

(١) يتفصَّى: أي يتخلص من هذا المضيق.

نتاجُ مزاولة العقل لعمله، فعندئذ تتكوّن النواة الجديدة لما يمكن أن يُسمَّى «ثقافة».

وبَيِّنٌ أن سبيله إلى تحقيق ذلك هو «اللغة» و «المعارف» الأُوَل التي كانت في طورها الأول مصبوغةً بصبغة «الدين» لا محالة، حتى لو استعملها في الخروج على «الدين» الموروث ومناقشته رَفْضًا أو لبعض تفاصيله، هذه حالُ النَّشْإِ الصغار حتى يبلغوا منزلة الإدراك المستقلّ المفضي إلى حَيِّز الثقافة.

و «ثقافة» كل أمة وكل «لغة» هي حصيلة أبنائها المثقفين بِقَدْر مشترك من أصول وفروع، كلها مغموسٌ في «الدين» المتلقَّى عند النشأة، فهو لذلك صاحب السلطان المُطْلَق الخفيّ على اللغة وعلى النفس وعلى العقل جميعاً، سلطانٌ لا يُنكره إلا مَن لا يُبالي بالتفكُّر في المنابع الأَوَل التي تجعل الإنسان ناطقاً وعاقلاً ومبيناً عن نفسه، ومستبيناً عن غيره.

فثقافة كُلّ أمة مرآة جامعةٌ في حيِّزها المحدود كلّ ما تشعَّث وتشتَّت وتباعَدَ من ثقافة كل فرد من أبنائها على اختلاف مقاديرهم ومشاربهم ومذاهبهم ومداخلهم ومخارجهم في الحياة، وجوهرُ هذه المرآة هو «اللغة»، و «الدين» كما أسلفت، متداخلان تداخلاً غير قابل للفصل البتَّةَ.

فباطل كل البطلان أن يكون في هذه الدنيا على ما هي عليه، «ثقافة» يمكن أن تكون «ثقافة عالمية» أي ثقافة واحدة يشترك فيها البشر جميعاً، ويمتزجون على اختلاف لغاتهم ومِللهم ونِحلهم وأجناسهم وأوطانهم، فهذا تدليس كبير، وإنما يُراد بِشِيوع هذه المقولة بين الناس والأمم، هدفٌ آخر يتعلق بفرض سيطرة أمة غالبة على أمم مغلوبة، لتبقى تبعاً لها، فالثقافات متعدِّدة بتعدُّد المِلَل، ومتميّزة بتميّز المِلَل، ولكل ثقافة أسلوب في التفكير والنظر والاستدلال مُنْتَزَعٌ من «الدين» الذي تدين به لا محالة، فالثقافات المتباينة تتحاور وتتناظر وتتناقش، ولكن لا تتداخل تداخلاً يُفضي إلى الامتزاج البتَّة.

ولا بد من التنبيه لشيء مهم جداً، هو أن تفصل فصلاً حاسماً بين ما يُسمى «ثقافة» وبين ما يُسمى «علماً»، (أعني العلوم البحتة)، لأن لكل منهما طبيعة مباينةً للآخر، فالثقافة مقصورةٌ على أمة واحدة تدين بدين واحد، والعلم مُشاع بين خَلْق الله جميعاً، يشتركون فيه اشتراكاً واحداً مهما اختلفت المِلَل والعقائد.

إن بديهية الفطرة في الإنسان تقضي بأن «الأهواء» مرفوضة في كل عمل يستحق أن يوصف بأنه عَمَلٌ شريف أو عمل علمي، وظاهرٌ لك من كل ما بيَّناه في هذا الباب أن «الاستشراق» وعملاءه في ديار الإسلام، من فَرْع رأسه إلى أخمص قَدَمَيْه، غارقٌ مع رجاله الذين يديرون التوجيه والثقافة في بلاد الإسلام، غارقٌ في «الأهواء»، والحضارة الأوربية تستقبل «الأهواء» بلا نَكير ولا أَنَفة، بل هي تسوّغ استعمال رذيلة الأهواء في الدنيا وفي الناس بلا حَرَج، لأنها حضارة قائمة على المنفعة والسلب ونهب الأمم، وإخضاعها بكل وسيلة لسلطانها المتحضر!! والدلائل على ذلك لا تخفى على بصير ذي عينين تُبصران، فهي تُسوّغ ذلك في العلم وفي الثقافة وفي السياسة وفي الدين وفي كل شيء، ما دام جالباً للمنفعة أو دافعاً للمضرّة، بل تسوّغها أيضاً في **الدعوى الغربية العجيبة** التي لم يسبق لها مثيلٌ في تاريخ الأمم، دَعْوى أنها «حضارة عالمية» وفحواها أن العالم كُلَّه ينبغي أن يخضع لسلطانها وسيطرتها، ويتقبَّل برضىً غطرستها وفخورها الغني الأخَّاذ الفاتن[1]!.

حديث صادق:

لقد ظهر جلياً ـ فيما سبق بيانه ـ أن الثقافة الغربية ولدت في مهد الحضارة الماديّة، [illegible] غُذِّيت بالدم المسفوح، ومُزجت ثقافتها بالبغضاء والكره، فَتعالت حقداً، وتأجَّجت كبرياءً مَقيتاً، وينفث اللهيب الممضّ من

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص: ٤٨، ١٠٣ وما يليه.

سهامها غدراً وخِسّة. أحقاد مكتّمة تغلفها مظاهر خادعة للبراءة الكاذبة والبِشر الفاحر.

إن روح الحضارة والثقافة الغربية قد رضعت من لِبان الهوى والضلال، والأهواء هي المحرك والدافع لنبضات هذه الحضارة في كُلِّ نَفَس وحركة، والأهواء هي كالسمّ.. تسري في خفاء وتدبُّ، إلا أنها لا تدبّ ولا تأتيك إلا متبرجة في تمام زينتها، مُتَرَدِّية برداء ساحر، متجلية بجواهر المهارة والحذق، حتى يُتاح لصاحبها أن يقتنص، ويتلعب عندئذ بك وبعقلك ما شاء له التلعب، من حيث يوهمك أنه قد استوعب لك جمع «المادة» ويُهوِّل عليك تهويل السحرة بما يحشد تحت عينيك ويستكثر، مخفياً عنه بتمويهه من «المادة» ما قد يُبطل ما أراد به سِحْر عينيك واهتبال غفلتك، ثم استلحاق عقلك بعقله، إذ أنت مفتون بالزينة المتبرجة وبالحلي النفيسة فأنت هائم معه، مريداً أو غير مريد «في إثر كل قبيح وَجْهُهُ حسن» كما يقول المتنبي(١).

والأهواء هي الداء المبير، والشر المستطير، والفساد الأكبر، إن هو أَلَمَّ بأي عمل إلمامةً خَفِيَّةَ الدبيب بلَهْ الوطْء المتثاقل، أَحَالهُ إلى عَمَلٍ مُسْتَقْذَر مَنبوذ كَريه، حتى ولو جاءك هذا العمل في أحسن ثيابه، وحُلِيِّه وعطوره وأتمِّها زينةً، من دقَّة واستيعاب وتمحيص ومهارة وحِذق وذكاء، ثم يزداد بشاعة إذا كان دعاة الثقافة الغربية من سَدنة التربية والتعليم في ديار الإسلام مُلِمِّين تمام الإلمام بأسرار تاريخ الإسلام، وأسرار ثقافة الإسلام، لأنهم حينئذٍ منافقون خبيثو النفاق، وخائنون لئيمو الخيانة.

ومكرُ المستشرقين وتلاميذهم وخريجو إرساليات التبشير مكرٌ دفينٌ خبيء، يَعبثون بعقولنا حتى حَسِبَ الناسُ الشحم فيمن شحمُه ورم كما يقول

---

(١) هو من قوله يذكر أهل العشق:

ممـا أضـرَّ بـأهـل العشق أنَّهُم	هَوُوا، وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تضنى عيونهم دمعاً، وأنفسهم	في إثر كل قبيح وَجْهُهُ حَسَنُ

المتنبي معاتباً سيف الدولة الحمداني:

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمه وَرَمُ

وقال الشاعر:

يُقضى على المرء في أيام مِحْنَتِه حتى يرى حَسَناً ما ليسَ بالحَسَنِ

لقد كانت مهمة الاستشراق والتبشير والاستعمار: أن تُخرج المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمة في حياتها، لقد قبضوا من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم والثقافة والتوجيه والإعلام في ديار الإسلام، ونُشرت في تلك الربوع ثقافة الغرب المادية، وفنون وآداب وتاريخ الغرب المستعلي بحضارته غطرسةً وتكبراً وجَبَرِيَّةً، حتى صار المسلم لا يَرى في الدنيا شيئاً له قيمة إلا المادة والشهوة والهوى.

إن الهوى الذي تَمكَّن في حياة الأمة، يستكن في أغوار النفس وفي كهوفها حتى يمرق من مكمنه فيستبد بالتسلط على الفكر والعقل، ومحصوله ذلك الذي يتّبعُ هواه أنه إنسان فارغ خاوٍ مُكوَّنٌ من عظام ولحم كُسيت جلداً، لا أكثر!!!

ويلفت القرآن الكريم عن هذه الحالة التي تصل إليها النفس الإنسانية ﴿أرأيتَ مَن اتخذَ إلَهه هواه. أفأنتَ تكون وكيلاً؟﴾ [الفرقان: ٤٣]..

إنها صورةٌ ناطقةٌ ونموذج عميق لحالة نفسية بارزة، حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة، والمقاييس المعلومة، والموازين المضبوطة، وتخضع لهواها، وتحكم شهواتها وتتعبَّد ذاتها، فلا تخضع لميزان، ولا تعترف بحدّ، ولا تقتنع بمنطق، متى اعترض هواها الطاغي الذي جعلت منه إلَهاً يُعبد ويُطاع.

لقد تم في ديار الإسلام إعداد نشءٍ لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، أُخرِج المسلم من دين الإسلام طِبقاً لما أراده «الاستشراق»، لا يهتم

بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، ويصرف همّه في دنياه وفي الشهوات.. فإذا تعلّم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز فللشهوات، وفي سبيل الشهوات يجود بكل شيء..

إن رأس كل ثقافة هو الدين، بمعناه العام، والذي هو فطرة الإنسان، أي دين كان ـ أو ما كان في معنى الدين ـ وبقدر شمول هذا الدين لجميع ما يكبح جموح النفس الإنسانية ويَحْجزها عن أن تزيغ عن الفطرة السوية العادلة ـ وبقدر تغلغله إلى أغوار النفس تغلغلاً يجعل صاحبها قادراً على ضبط الأهواء الجائرة، ومريداً لهذا الضبط بقدر هذا الشمول، وهذا التغلغل في بُنيان الإنسان، تكونُ قوة العواصم التي تعصم صاحبها من كل عيب قادح.

هذه هي قصة التاريخ بإيجاز مُلمّ بالحقيقة. **قصة مليئة بالمضحكات والمبكيات، والحسرات والآهات، فاقرأ تاريخك بعين إسلامية، بصيرة لا تغفل، لا بعين غربية غريبة، تخالطها** نخوة وطنية. **هذا حديث صادق** سجلته ذاكرة التاريخ من مفكرة الأيام والسنين، قصة يُبين لك فيها التاريخ ما كان، ولتكن منك هذه القصة على ذكرٍ أبداً لا تنساه في كل زمان وفي كل مكان، فهي قصة تحكي لِمَ كان الآن ما كان.. تُفسِّر القصة حوادث الأيام في كل حين وآن.. فالحياة الثقافية والفكرية والأدبية والأخلاقية الفاسدة التي سَنَّ «المستشرقون الكبار» سُنَنَها للمسلمين، والتي نعيش فيها إلى هذا اليوم، فقد بثوا في روع الفكر والثقافة والتوجيه والتربية والسلوك والأدب والأخلاق والدين آفات، وابتلعتها الأجيال المتلاحقة دون تأمُّل في أن هذا غريب على فكر الإسلام ويناقض منهج الإسلام وشريعته وعقيدته، فترك المسلمون دينهم وفكرهم وثقافتهم وأخلاقهم وانخرطوا في حضارة زائفة، حضارة مادية، انخرطوا في وَهْم هذه الحضارة التي يَلْبَسون عليها رداءً شيطانياً فسمّوها «الحضارة العالمية» التي تُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن التخلف والجمود إلى التقدم والتطور..

وحين هبّ المسلمون من رقادهم الطويل وتلفّتوا ذات اليمين وذات

الشمال يتساءلون بينهم كيف حدث هذا للدين؟ كيف حدث هذا للإسلام الذي كانت بعثته زلزالاً قوَّض المجتمعات القديمة الواهنة، وخلق منها مجتمعات من صُنع الله، وأزاح عروشَ الأمبرطوريات الغابرة؟ . .

كيف مُسِخَ هذا الدين هذا المَسْخ في وجدان الأمة؟ وآلَ المسلمون إلى هذا المآل؟ وضاعت عِزّة الإسلام وحرماته هذا الضياع؟ . . هذه كلها أسئلة الحسرة التي تحيط بنفس المسلم الغيور على دينه وأهله المسلمين، والرسول ـ ﷺ ـ يقول: «مَن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»!!.

«يجب أن نواجه الحقيقة بوعي وفقه وشجاعة، إن العالم الإسلامي يعاني اليوم رِدّة دينية وفكرية وثقافية جارفة يجب أن تكون موضوع دراسة جميع مَن يهمهم الإسلام واهتمامَهم، إن الطبقة المثقفة في كل قطر إسلامي مضطربة في العقيدة، مُتحللة في الأخلاق، مادية في التفكير، علمانية في السياسة، وإن كثيراً من رجالها ـ إن خفتُ أن أقول أن أكثر رجالها ـ لا يؤمنون بالإسلام كعقيدة ونظام ـ والشعوب الإسلامية ـ وفيها كل خير وكل صلاح وكل استعداد وهي من أصلح الكتلِ البشرية في العالم ـ خاضعة لهذه الطبقة بحكم ثقافتها وذكائها ونفوذها وتحكّمها بمقاليد الأمور، وإذا بقي هذا الوضع تسرّب الإلحاد والفساد إلى هذه الشعوب وإلى الطبقات التي تعيش في البادية والقرى وتعمل في المصانع والمزارع، وسارت في طريق اللا دينية والزندقة. هذا ما وَقَع في أوربة، وهذا واقع في ديار الإسلام إذا جرت الأمور كما هو مرسوم في مخططات الصليبية العالمية والصهيونية العالمية، ولم تَحُل إرادة الله القاهرة.

يجب أن نعترف أن العالم الإسلامي الذي تَغَنَّينا به طويلاً، والطبقة المثقفة فيه بصفة خاصة، في حاجة شديدة إلى دعوة إسلامية جديدة، وأن هتاف الدعاة والعاملين فيه وهدفهم اليوم «إلى الإيمان من جديد» لا يكفي، إنه لا بد من تصميم حكيم قبل العمل، لا بد من تفكير هادىء عميق: كيف نردّ الطبقة المثقفة التي تحتكر الحياة وتملك الزمام إلى الإسلام من جديد؟

وكيف نبعث فيها الإيمان والثقة بالإسلام؟، وكيف نحررها من رِق الفلسفات الغربية والحضارة العصرية ونظرياتها اللا دينية؟.

إن هذه الدعوة ـ التي أعتقد أنها أفضل دعوة وأفضل جهاد في هذا العصر ـ في حاجة إلى رجال ينقطعون إليها ويكرّسون عليها علمهم ومواهبهم وكفايتهم، ولا يَطمعون في مَنصب أو جاه أو وظيفة أو حكومة، ولا يحملون لاحد حقداً أو تِرَّة، يَنفعون ولا يَنتفعون، ويُعطون ولا يَأخذون، ولا يُزاحمون طبقة في شيء تحرص عليه وتتهالك، حتى لا تكون لها حجة عليهم ولا للشيطان سبيل إليهم، شعارهم الإخلاص والتجرد عن الشهوات والأنانيات والعصبيات»[1].

والاستشراق والاستعمار لا يذَمُّ لأنه فَعَل كل ذلك في ديار الإسلام، لأنه بلا شَكّ قد أَدَّى ما عليه لبني جلدته من الصليبية العالمية والصهيونية العالمية، قد أَدَّى أحسن أداءٍ وأَتمَّه، ونَصَر أهل دينه، وأخلص لهم كل الإخلاص، وكافح في سبيل هدفه بكل سلاح أَجَادَ صقله وتقويمهُ. أما الذي هو حقيقٌ بالذمّ والمعابة، فالمسلم العاقل الذي يظن نفسه عاقلاً، والبصير منا الذي يظنٍ نفسه بصيراً، ثم لا يكاد عقلُه يُدرك شيئاً هو أَبْيَن بياناً من البَدَائِه المسلّمة، ولا يكاد بصره يرى ما هو أظهر ظهوراً من الشمس الساطعة.

فما هو في حياتنا الثقافية والتربوية والسلوكية والاجتماعية والإعلامية قد صُنِعَ وصيغ لهدف بعينه، كل ذلك أُعِدَّ ليحدث تَحوُّلًا اجتماعياً وثقافياً وسلوكياً وأخلاقياً وتربوياً وسياسياً عن الثقافة والتاريخ في الدين الإسلامي.

هذه هي جذور القضية التي غَفَل عنها الناس يومئذ، ولا تزال حياتنا الثقافية والتربوية اليوم غافلةً عنها كلَّ الغفلة، فرجال الثقافة والتربية اليوم هم كما قال المتنبي في ملوك زمانه:

---

(١) الندوي: ردّة جديدة، المسلمون، المجلد السادس ص ٤٢٠.

أرانبُ، غيرَ أنهم ملوكٌ مُفَتَّحة عُيونُهمُ نيامُ

والأرنب تنام مفتوحة العين، فربما جاء القنَّاص فوجدها كذلك، فيظنُّها مستيقظة، فإن كان على علم بحالها أخذها من قريب أَخْذاً هَيِّناً بلا مؤونة ولا تعب!!

ولنتدبر هذه الحقيقة.. قصة تربية جيل مُفَرَّغ من كل أصول ثقافة ودين أمته.. لنتدبَّر هذه الحقيقة بعقل مفتوح وبصيرة نافذة.. نتدبَّر ذلك بتدبُّر وأناة، حتى نُلِمَّ بأطراف البلاء الذي حاقَ بالأمة الإسلامية، وحتى لا ندخل تحت المعنى الذي قاله أبو عبادة البحتري:

ومن العجائب، أعينٌ مفتوحة وعقولهن تجول في الأحلامِ

أحلام «التقدُّم» و«التجديد» و«الأصالة والمعاصرة» و«الثقافة العالمية» و«النظام العالمي الجديد» و«الحضارة الإنسانية العالمية»، وأحلام أخرى كثيرة لا تنقضي!! أحلام جعلت التدهور الثقافي والتربوي والأخلاقي والاجتماعي للأمة الإسلامية مستمرة متفاقمة إلى هذه الساعة، وعلى مَرِّ الأيام تزداد المجتمعات الإسلامية تخلخلاً وتفككاً وحيرةً، ولله الأمر من قبل ومن بعد[1]..

دعوة وجهاد:

ولينظر كل مسلم غيور على دينه في جوهر هذه الحقيقة، فالحياة تطوي بساطها عن كل حيّ، وقد مضت تلك الأيام الغوابر المضيئة في حياة الإسلام، حتى كان ما كان في دار الإسلام، فأهله في حيرة زائفة، وضلالة مُضنية، وشكوك مُمَزِّقة، وصاروا على شفا جُرفٍ هارٍ من الهلاك، في خسارة وضياع في الدنيا، حتى سلكوا سبيل الخاسرين الذين خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين..

---

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا: ٤٣، ٩٤، ٩٥ وما يليه، ٢٢٤.

وبعدُ، لِنَدع من قَوْل لولا، وخير من ذلك أن نذكر واجبنا، ونعرف مسؤوليتنا، ونبذل وسعنا، ونتَّجِه إلى صناعة تاريخ جديد، تاريخ من المجد كالذي صنعه أجدادنا. . المسلمون الأولون.

نحن أمة الإسلام عندنا مكنون ثمين غائب في تاريخنا وتراثنا وثقافتنا، فلنتقَصَّ هذه الكنوز بعقل وهِمَّة وجَدٍّ ويقظة وبَصَر وإدراك وبأَنَفَة من قبول الذلّ والعار والمهانة.

ولنصبر على لأواء الطريق ومشقتها ولا نجزع، ولنكن رابطي الجأش لا تستحوذ علينا المخاوف والرهبة، ولنستمع لنصيحة الحسن البصري رضي الله عنه: «إن مَن يُخوّفك حتى تَلْقى الأمن، أشفق عليك ممن يُؤَمِّنك حتى تلقى الخوف».

يقول الأستاذ محب الدين الخطيب:

«لقد وَجَب الجهاد. . . وقد وَجَب علينا جميعاً، كلٌّ من الناحية التي هو فيها.

وقد يكون الجهاد بالسلاح آخر النواحي التي وَجَب علينا الجهاد منها، وأما أولها فهو أن نصلح ما بيننا وبين الله، وأن نصلح ما بيننا وبين أنفسنا.

إن الجهاد عبادة، وللعبادة في الإسلام مقدمات، وأقدس مقدماته ثلاث: النية، والطهارة، والنظام.

كل واحد منا أصبح الآن في جهاد، فالتاجر في حانوته ـ إذا عرف كيف يحسن النية ـ هو عند الله في جهاد،ف وله مثل أجر المجاهدين.

والموظف وراء مكتبه ـ إذا عرف كيف يحسن النية ـ هو عند الله في جهاد، وله مثل أجر المجاهدين.

والعامل في المصنع الذي يعمل فيه ـ إذا عرف كيف يحسن النية ـ هو عند الله في جهاد، وله مثل أجر المجاهدين.

والذي يدير حركة المصنع بأمواله وتدبيره ـ إذا عرف كيف يحسن النية ـ هو عند الله في جهاد، وله مثل أجر المجاهدين.

والمزارع والفلاح ـ إذا عرف كيف يحسن النية ـ هو عند الله في جهاد، وله مثل أجر المجاهدين.

«النية» أمرها عظيم في الإسلام، لأنها نجوى بين الإنسان وربه، فهي كإبرة الملاح إذا أراد أن يتوجّه بسفينته إلى جهة يقصدها لا يغالط نفسه فيتوجَّه إلى غير ما تُوجِّهه إليه إبرته المغناطيسية. وما دام الجهاد عبادة، فكما يتوجَّه المُصَلِّي نحو القبلة وهو ينوي الصلاة، فعلى المجاهد أن يتوجّه إلى مرضاة الله وهو يلتمس منه المعونة ويستنزل من عنده رغائب النصر ووسائل التوفيق.

والتماس مرضاة الله ركن «الطهارة» للمتعبد بالجهاد، والله لا يرضيه من التاجر وهو يرى بلاده في حالة جهاد مع عدو مخاتل قوي غدّار، أن يلوّث طهارة جهاده بمحاولة الغدر والختل للحصول على الكسب الحرام، وإلا فسدت نيته التي ناجى بها الله ليثيبه مثل أجر المجاهدين، وكان بما حاوله من الختل والغدر ليحصل من بني دينه على الكسب الحرام شريكاً للعدو الذي يحاربنا بختله وغدره، ويا بؤس أمة تقف موقف الجهاد من عدو مخاتل غدار ويكون في صفه تجار من أبناء هذه الأمة يحاربونها مع العدو بسلاح الغدر والختل»[1].

وكذلك حال الموظف وراء مكتبه، والعامل في المصنع، والذي يدير حركة المصنع بأمواله وتدبيره، والمزارع والفلاح في أرضه. يقول الرسول ـ ﷺ ـ: «كُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مسؤول عن رعيته. . »[2].

«والتراحم بين الناس هو استدرار لرحمة الله واستمطار للنصر من عنده.

---

(١) مجلة المسلمون العدد الأول (١٩٥٢) ص ٧٢ ـ ٧٥ «مقدمات الجهاد».

(٢) متفق عليه.

فإذا أَحْسَنا «النية» في النجوى بيننا وبين الله، وإذا «تطهَّرنا» من الأنانية والختل والغدر، وكنا أمة متعاونة متراحمة، وإذا سوّينا الصفوف وقام كل منا بالجهاد من ناحيته حيثما كان، فإن الإسلام يضمن لأبنائه أن يكونوا اليوم منصورين ظافرين، كما كانوا في الأمس منصورين ظافرين **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم﴾** [محمد: ٧](١) . .

هذه أُولى خطوات الجهاد في الدعوة إلى الإسلام في دفع الردّة والعبودية التي حَلَّت بديار الإسلام.

إن القرآن الكريم، يُحرض المؤمنين على التجرد للّه، والاتجاه إلى نصرة نهجه في الحياة . .

وكيف ينصر المؤمنون الله، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شَرَط لهم من النصر؟

إن لله في نفوسهم أن تتجرد له، وألا تشرك به شيئاً، شركاً ظاهراً أو خفياً، وألا تستبقي فيها معه أحداً ولا شيئاً، وأن يكون الله أحبَّ إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى، وأن تُحَكِّمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها، وسرها وعلانيتها، ونشاطها كله وخلجاتها . . فهذا نصر الله في ذوات النفوس.

وإن للّه شريعة ومنهاجاً للحياة، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة، ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء، فهذا نصر الله في واقع الحياة.

إن الله ـ سبحانه ـ لا يَكِل الناس إلى فلتات عابرة في تقلبهم في هذه الحياة الدنيا . . إنما إلى سُنَّة ثابتة يمضي بها قَدَره **﴿إن الله لا يُغير ما بقوم حتى يُغَيِّروا ما بأنفسهم﴾** [الرعد: ١١] . .

---

(١) مجلة المسلمون العدد الأول (١٩٥٢) ص ٧٢ - ٧٥ «مقدمات الجهاد».

إن قَدَر الله ينفذ ويجري عن طريق حركة الناس وعملهم، وقد جَعَل - سبحانه - التغيير القَدَري في حياة البشر مَبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم، وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم، فإنه لا يُغير نعمة أو بؤساً، ولا يُغير عزاً أو ذلة، ولا يُغير مكانة أو مهانة. . . إلا أن يُغَيِّر الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم، فَيُغَيِّر الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم، وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون، ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم، ويجيء لاحقاً له في الزمان بالقياس إليهم.

وإنها لحقيقة تُلقي على البشر تبعة ثقيلة عظيمة، فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنّته، أن تترتب هذه المشيئة بالبشر على تصرف هؤلاء البشر؛ وأن تنفذ فيهم سُنَّته بناءً على تعرضهم لهذه السنّة بسلوكهم.

والنص القرآني صريح في هذا لا يحتمل التأويل، فيبين فاعلية الإنسان في مصير نفسه وفي مصير الأحداث من حوله؛ فيبدو عنصراً إيجابياً في صياغة هذا المصير - بإذن الله وقَدَره الذي يجري من خلال حركته وعمله ونيته وسلوكه - وتنتفي عنه تلك السلبية الذليلة في أنه ضائع خانع مذلول، ولا يملك إلا الخضوع المطلق لما تفرضه عليه الحتميات الجبّارة.

وهكذا أصبح العالم الإسلامي - بعدما غزته أوربة سياسياً وثقافياً - يخضع لعصبيات متعددة ويؤمن بها كقضية علمية وحقيقة مقررة وواقع لا مفرّ منه، وأصبحت شعوبه تندفع اندفاعاً غريباً إلى إحياء هذه العصبيات التي أماتها الإسلام، والتغني بها وإحياء شعائرها - ولو كانت وثنية سافرة، أضف إلى ذلك ما يوجد اليوم من التهور في الحصول على المادة وإيثارها على كل مبدأ وعقيدة، وإيثار الدنيا على الآخرة، والإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى، وما تبع ذلك من التفسخ الخلقي والاستهانة بمحارم الله وشيوع الخمر والفسوق وخاصة في الطبقات «الراقية» حتى تكاد تكون هذه الطبقة نسخة واحدة وصورة واحدة في كل بلد إسلامي - إلا مَن عصم ربك، وقليل ما

هم ـ والتحرر من قيود الإسلام وفرائضه تحرراً تاماً حتى كأنها لا صلة لها بالإسلام وشريعته، وكأنها شريعة منسوخة وأسطورة خيالية.

هذا ـ مع ما قدمنا ـ تصوير العالم الإسلامي الديني والاعتقادي والفكري والاجتماعي والتربوي بالإجمال، وهي موجة «جاهلية» تكتسح العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه. والجاهلية كل وَضْع يُناقض ويُخالف الإسلام، فمَن قَبِلَ شريعة الله واستسلم لأمره في شؤون حياته كلها فهو في دين الله، ومَن نَبَذَ أوامر الله وشريعته عن شؤون حياته ـ في أي صورة من الصور ـ فهو إذن في جاهلية **﴿أفَحكم الجاهلية يبغون ومَن أحسن من الله حُكْماً لقوم يوقنون﴾** [المائدة: ٥٠].

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحَاسمة في ضمير المسلم حتى يستطيع أن يهتدي إلى الصراط المستقيم في هذه الرِّدَّة الكاسحة، وألا يتردد في تطبيقها على واقع الناس في زمانه، والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة على الأعداء والأصدقاء!

والإسلام يلحُّ على هذه التسمية «الجاهلية»، وليس في معجمه تعبير أهول وأفظع منه، فهي تجمع معاني الجهل والضلالة والبُعد عن الحقائق وأنواع الخطر والمضار في الدنيا والآخرة، وأعظم من كل ذلك فإن ذكرها يثير في النفس المقت الشديد.

لقد اكتسحت موجة جاهلية ديار الإسلام، وهي أعظم موجة واجهها العالم الإسلامي، وهي أخبث وأعتى وأشدّ ما واجهه المسلمون عبر القرون الغابرة، «وهي تفوق كل موجة معارضة عرفها التاريخ الإسلامي، سواء في قوّتها أو في شمولها أو في تأثيرها في المجتمع الإسلامي، وتمتازٍ عنها بأن المنتبهين لهذه الأخيرة قليل، والذين ينقطعون لمحاربتها، ويُجنّدون لها قواهم ومواهبهم أقلّ، فقد حدث الإلحاد وظهرت الزندقة بتأثير الفلسفة اليونانية في العهد القديم فوُجد مَن يحاربها بعقله الكبير وذكائه النادر وعلمه الغزير ودراسته الواسعة وشخصيته القوية، وظهرت الباطنية والملاحدة فوجد

مَن يحاربها بالعلم والحكمة والبرهان. وبقي الإسلام محتفظاً بنفوذه العقلي ومكانته العلمية، ترتد عنه كل موجة عاتية، وينحسر عن طوده كل فيضان وكل سيل جارف.

ليست المسألة مسألة انحطاط في الأخلاق، وضعف في العبادات، وترك للشعائر وتقليد للأجانب، وإن كانت مسائل تستحق العناية والاهتمام والجهاد، ولكن مسألة العالم الإسلامي اليوم أعظم وأضخم من كل ذلك، إنها مسألة كفر وإيمان، إنها مسألة بقاء على الإسلام، أو خلع لـه. إن المعركة قائمة بين الفلسفة الغربية اللادينية وبين الإسلام آخر الرسالات، وبين المادية والشرائع السماوية، ولعلها آخر معركة تقوم بين الدين واللادينية، وإنها تحدد مصير العالم.

إن جهاد اليوم، وإن خلافة النبوّة، وإن أعظم القربات وأفضل العبادات، أن تُقَاوَم هذه الموجة اللادينية التي تجتاح العالم الإسلامي وتغزو عقوله ومراكزه، وأن تُعاد الثقة ـ المفقودة ـ إلى نفوس الشباب والطبقة المثقفة بمبادىء الإسلام وعقائده وحقائقه ونظمه، وبالرسالة المحمدية، ويُزال القلق الفكري والاضطراب النفسي اللذان يساوران الشباب المثقف، ويقنعوا بالإسلام عقلياً وثقافياً.

لقد مضى علينا ما يزيد عن قرن ونصف وأوروبة تغتصب شبابنا وعقولنا، وتُنبت في نفوسنا الشك والإلحاد والنفاق وعدم الثقة بالحقائق الإيمانية والغيبية.. حتى فوجئنا في العصر الأخير بانهيار العالم الإسلامي في الإيمان والعقيدة، ومَلَكَ زمامَ الأمور في البلاد الإسلامية جيل لا يؤمن بمبادىء الإسلام وعقيدته ولا يتحمَّس لها ولا تربطه بالشعب المسلم المؤمن البريء إلا «القومية الإسلامية» أو المصالح السياسية، وقد تسربت هذه العقلية أو النفسية اللادينية عن طريق الأدب والتربية والثقافة والسياسة والصحافة وبقية وسائل الإعلام إلى الجماهير حتى أصبحت الشعوب

الإسلامية مهدَّدة بلا دينيـة شعبية عـامة، وكـاد الإسلام يُقصى من الحيـاة والمجتمع»[1].

يجب أن نواجه الحقيقة بوعي وصبر وتصميم، إنه الجهاد الأعظم في هذا العصر: الدعوة إلى الإسلام بفقه القرآن وشجاعة المؤمنين، دعوة يقوم بها قدوة صالحة، «فريق يتجرد عن المطامع، يُخلص الدعوة، ويَبتعد عن كل ما يوهم بأن هَمَّه الدنيا والمادة والتغلب على الحكومة، لنفسه أو عشيرته أو حزبه، يحلُّ العقد النفسية والعقلية التي أحدثتها الثقافة الغربية، أو أخطاء «رجال الدين» أو سوء التفاهم أو قلَّة الدراسة والابتعاد عن الإسلام وجَوِّه، وذلك بالمقابلات والصداقات والمحـادثات، وبـالأدب الإسلامي الصـالح المؤثر، وبالروابط الشخصية وبالنزاهة وعلوِّ الأخلاق وقوة الشخصية، والزهد في حطام الدنيا والعزوف عن الشهوات، وتمثيل أخلاق الأنبياء وخلفائهم.

إن هذه الدعوة دعوة إلى دين الله.. لا لشخص الداعي ولا قومه أو عشيرته أو حزبه، الدعوة بالحكمة، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هـذه الطريقة حسب مقتضياتها، فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه ﴿**أُدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾ [النحل: ١٢٥].

ونظرة في تاريخ هذا الدين تتجلى لك روح الدعوة، فالله تعالى ما أرسل نبياً إلى عباده وآتاه الكتـاب والشريعـة، إلا آتاه معهـمـا شيئاً سمّـاه «الحكمـة» ليُعَلِّم عبادَ الله ويَجعلهم يَتبعـونـه على بصيـرة، قـال تبـاركت أسماؤه: ﴿**فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة**﴾ [النساء: ٥٤]، وقال: ﴿**ويُعلِّمَه الكتاب والحكمة**﴾ [آل عمران: ٤٨]، وقال: ﴿**وآتيناه الحكمة**﴾

(١) أبـو الحسن الندوي: دعـوة جـديـدة، المسلمـون، المجلد السـادس ص ٥٢٠ ـ ٥٢٤، بتصرف.

[ص: ٢٠]، وقال: ﴿قد جئتكم بالحكمة﴾ [الزخرف: ٦٣]، وقال: ﴿يؤتي الحكمة مَن يشاء ومَن يُؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فما هذه الحكمة يا ترى؟ نور العلم والبصيرة ومَلَكة التدبُّر والتأمُّل في الكتاب والتفقّه في الدين ومعرفة أصوله وأسراره، فكلما جاء من الله نبي، أعطى أتباعه هذه الحكمة مع الكتاب وبها ظلُّوا قائمين على الصراط المستقيم، ثم أتى عليهم عصر من الجهل والتقليد الأعمى غابت فيه الحكمة وبقي الكتاب، فظلوا إلى مدة يسلكون الطريق الذي تركهم عليه أسلافهم وما معهم إلا الكتاب وحده، ولكن نشأ فيهم الاستعداد لقبول الضلالات إذ لم يَبْقَ لديهم ذلك الشيء الذي يفهمون به الكتاب ويميزون به الضلالة من الهدى، فبذلك أخذت أقدامهم تنحرف شيئاً فشيئاً عن الصراط المستقيم، فاتّبع بعضهم أهواء نفوسهم، واتّبع بعضهم الظن والمجازفة، واحتذى بعضهم آثار الأمم الضالة المضلّة، واتخذ بعضهم أئمة السوء والضلال أرباباً من دون الله، حتى غاب الكتاب مع الحكمة وتشوّه وجه الدين الذي جاءت به الأنبياء والرسل(١).

إن الدعوة إلى الله بالحكمة ترافقها الموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بالتشهير والتحقير، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ..

الدعوة بالحكمة والحسنى، بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح، فالدعوة في سبيل الله، لا في سبيل ذات الداعية أو حزبه أو عشيرته، ونصرة رأي وهزيمة الرأي الآخر!

---

(١) أبو الأعلى المودودي: الإسلام دين العقل والعلم، المسلمون، المجلد السادس ص ٢٤٠.

هذه الدعوة هي التي سرت في العالم في كل حين، هذا هو الفريق الذي خدم الإسلام في كل عصر، وإليه يرجع الفضل في تغيير النفوس المنحرفة فتغيرت أحوال المسلمين إلى مَجد وعزّ عظيم . .

وبفضل هذه الدعوة الحكيمة، وظهور دعاة مخلصين مجدّدين، وشخصيات مؤمنة حكيمة أسلمت للّه ربّ العالمين، وأحسنت فِقْهَ الإسلام وفِقْهَ الدعوة، سيعود الإسلام أقوى وأفضل، ويتدرج المسلمون في الصلاح والخير إلى مجد جديد.

«إن طبيعة هذه الدعوة تخالف طبيعة السياسة والجمعيات والأحزاب اليوم، وإن كانت لها قدوةٌ ففي سيرة الأنبياء وسيرة خلفائهم كالحسن البصري، وأحمد بن حنبل، وأبي حامد الغزالي، وعبد القادر الجيلي، وابن الجوزي الحنبلي، وابن تيمية، والشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي الهندي[1].

إنها فريضة لا تحتمل التأخير، ولا تأخير يوم واحد، فالعالم الإسلامي يواجه اليوم ردّة عنيفة منتشرة في أعزّ أبنائه وأقوى أجزائه، إنها ثورة على أعزّ ما يملكه من عقيدة وخُلق وقيم، ولا بقاء للعالم الإسلامي بعد ضياع هذه الثروة التي خلفها الرسول ـ ﷺ ـ وتوارثتها الأجيال وجاهد في سبيلها أبطال الإسلام»[2].

لقد قام هذا العالَم الكبير منذ أن هبط آدم ـ عليه السلام ـ ذلك الإنسان الأول، الذي تنتسب البشرية كلها إليه، قام هذا العَالَم منذ ذلك الحين على أساس العقيدة الواحدة والإيمان العميق، والصلة الروحية، ثم تكاثرت الإنسانية وتوزعت في أرجاء الأرض كلها، فكان الإيمان أوسع عالم

---

(١) الإمام الكبير والداعية الإسلامية المتوفى سنة ١٠٣٤ هـ. انظر حياته في المسلمون المجلد السادس ص ٦٢٤ وبفضل الله ودعوته ودعوة تلاميذه عادت الهند إلى الإسلام أقوى وأفضل مما كانت تترامى عليه من جاهلية برهمية.

(٢) الندوي: ردة جديدة، المسلمون، المجلد السادس ص ٤٢٠.

عـرفه التـاريخ، إذ كـان هذا الإيمـان هو الأسـاس، وهو المـوجِّه، وهـو الضابط.. ثم تنحرف البشـرية عن هـذا الإيمان شيئـاً فشيئاً.. ويتمـطى الانحراف مع مـرور الأيام، ويقـود الناس إلى التـوجُّه في تلقي الشـرائع والتقاليد والأخلاق التي تحكم حياة الناسِ من دون الله، وترتكس البشرية إلى جاهلية، وكان قَدَر الله أن يرسل رُسلاً من البشر ليخرجوا النـاس من الظلمات إلى النور، فهم مصدر الهدى في هذه الأرض، المصدر الواحد الذي يقرر الله ـ سبحانه ـ أنه هو هدى الله، والذي يجب اتباعه، وكـانت الرسالات وكانت الرسل على مدى التاريخ الإنساني الطويل.

ألا فَلْنَتَّجه بالدعوة الإسلامية إلى الحيارى التائهين؛ بإخلاص ونزاهة، وتوجُّع وشفقة، وبقوة وثقة وإيمان، وحكمة تملؤها الـرحمة، ولننـظر إلى أنفسنا كدعاة إلى الحق نقتفي طريق الأنبياء والرسل في دعوتهم، ولنستخدم جذوة الإيمان، هذا النور الإلّهي العجيب الذي يقذفه الله ـ سبحانه ـ في قلوب المؤمنين، هذه القوة الجبارة في تغيير مصيرنا ومصير العالم، ولنحتل بفضلها مكان الزعامة والقيادة في ركب الإنسانية ومصاف الأمم بعدما عشنا زمناً طويلاً في مؤخر الـركب، وفي صف العبيد والحـاشية، ولنتَّجـه بهذه الدعوة المقدسة المنصورة التي إما أن تُقبل فترفَع وتُؤَمَّن، وإما تُرفض فَتُهلك وتَقْهَر.. بهذه الـدعوة التي أوجب الله على نفسـه نصرهـا ونصر رجـالها **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويُثَبِّت أقدامكم﴾** [محمد: ٧].

أَلَا فلنتَّجه بالدعوة الإسلامية إلى النفوس الظامئة المُفَرَّغة، ولننظر إلى مهمتنا وهي حمل الدعوة وأداء الرسالة، لا إحداث الخير ولا إحداث السوء، ولا تغيير الأحوال، ولا أي شيء.. فهذا من أمر الله..

إن رجال الدعوة وطلائع البعث الإسلامي التي تواجه الجاهلية الشاملة في الأرض كلها، سَيُعانون الغربة في هذه الجاهلية والوحشة، كما سيعانون الأذى والمطاردة والسحق والتعذيب والتنكيل..

إن النفس المؤمنة لتصطدم في الحياة بشدائد تزلزل، ونوازل تزعزع،

وهي تثبت فلا تضطرب، وتثق بالله رب العالمين فلا ترتاب وتظل مستقيمة موصولة. . لذلك لا بد من دراسة «**السنّة الراشدة في مفهوم النبوة والرسالة الواحدة**»، فنرى فيها الكثير مما يُنَبِّهُ اللّهُ القلوبَ المؤمنة إلى مزالق الطريق، وأخطار الرحلة لتحزم أمرها وتحتسب وتستقيم ولا ترتاب عندما تدلهم الأفق ويَظلم الجوّ وتُناوحها عَواصف الظُلم والبَغي، ورياح الجاهلية الطاغية، فالإيمان قوة دافعة وطاقة مجمعة، فما تكاد تكون حقيقة تستقر في القلب حتى تتحرك لتعمل ولتحقق ذاتها في الواقع ولتوائم بين صورتها المضمرة وصورتها الظاهرة، كما أنها تستولي على مصادر الحركة في الكائن البشري كلها وتدفعها في الطريق. ذلك سرٌّ قوة العقيدة في النفس، وسرٌّ قوة النفس في العقيدة، سرّ تلك الخوارق التي صنعتها العقيدة في الأرض، وما تزال كل يوم تصنعها، الخوارق التي تغير وجه الحياة من يوم إلى يوم وتدفع بالفرد وتدفع بالجماعة إلى التضحية بالعمر الفاني المحدود في سبيل الحياة الأخرى والكبرى التي لا تفنى، وتقف بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان، وقوى المال، وقوى الحديد والنار، فإذا كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة في روح فرد مؤمن، وما هو الفرد الغالي المحدود الذي هزم القوى جميعاً، ولكنها القوة الكبرى الهائلة التي استمدت منها تلك الروح، والينبوع المتفجر الذي لا ينضب ولا ينحسر ولا يضعف.

إن «السنّة الراشدة في مفهوم النبوة والرسالة الواحدة» تصف تجارب الدعوة في الأرض، وترسم دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية، وتصور أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر، والهدى والضلال، والحق والباطل.

هذه التجارب تكشف صور البشرية العنيدة، الضالة، الذاهبة وراء القيادات المُضلِّلة، المستكبرة عن الحق، المعرضة عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان.

هذه التجارب تعرض صور الجهد المضني، والعناء المرهق، والصبر الجميل، والإصرار الكريم من جانب الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ لهداية

هذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة، وهم لا مصلحة لهم في القضية ولا أجر يتقاضونه من المهتدين على الهداية، ولا مكافأة ولا جُعل يحصلونه على حصول الإيمان!

ألا فَلْنَتَّجِه بهذه الدعوة ولنا أسوة حسنة في رُسل الله، وإنه لينبغي أن تمتلىء القلوب بالثقة بالله حتى تفيض، وتتوكل على الله وحده في وجه الجاهلية المتعالية، وفي وجه الطاغوت المستكبر أياً كان..

إن هذا القرآن يقصّ على الناس أكثر الذي هم فيه يختلفون، ففيه الهدى والرحمة، وبين أيدينا أخبار الأنبياء وتاريخ أبطال الإسلام منذ نزول الوحي إلى الأرض حتى الأمس القريب، ولنمضِ في الباب التالي مع «السنّة الراشدة في مفهوم النبوة والرسالة الواحدة».

الباب الثاني

السنة الراشدة في مفهوم النبوة والرسالة الواحدة

(سماتها وخصائصها ونظامها)

المحتوى	ص

السنة الراشدة في مفهوم النبوة والرسالة الواحدة

(سماتها وخصائصها ونظامها)

المقياس الثابت المطلق الوحيد:

الحياة في ظلال الإسلام نعمة وسلام؛ نعمة لا يعرفها إلا مَن ذاقها، وسلام لا يعرفه إلا قلب أَسْلَم للّه، ومن ثم هي طمأنينة وسكينة؛ طمأنينة تحفظ للنفس هدوءها وسكينتها ورباطة جأشها في مواجهة الأحداث في رحلة الحياة. . إن الرحلة طويلة وشاقة وحافلة بالأخطار، والحاجة إلى السند الذي لا يَهِن، والحبل الذي لا ينقطع، حاجة ماسة دائمة. والعروة الوثقى هي عروة الإسلام للّه والاستسلام والإحسان. .

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح، الذي يُقرأ بكل لغة، ويُدرك بكل وسيلة، ويستطيع أن يطالعه السّاذج ساكن الخيمة والكوخ، والمتحضر ساكن العمائر والقصور، كلٌ يطالعه بقدر إدراكه واستعداده، فيجد فيه زاداً من الحق، حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق، وهو قائم مفتوح في كل آن **﴿تبصرة وذكرى لكل عَبْد منيب﴾** [ق: ٨]، ولكن علم الحضارة الغربية يطمس هذه التبصرة أو يقطع تلك الوشيحة بين القلب البشري والكون الناطق المبين، لأنه في رؤوس مطموسة رانت عليها خرافة **«المنهج العلمي»**، المنهج الذي يقطع ما بين الكون والخلائق التي تعيش فيه!.

وطريقة القرآن في بناء العقيدة تتجلى في مخاطبة الفطرة البشرية، وفي تناول الدلائل الإيمانية، وفي التلطف إلى النفوس في بساطة ويُسر،

وهو يتناول أكبر الحقائق في صورها القريبة الميسورة. .

إنّ هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة، قضايا كونية كبرى؛ يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود، وينشيء بها عقيدة ضخمة شاملة وتصوّراً كاملاً لهذا الوجود، كما يجعل منها منهجاً للنظر والتفكير. وحياة للأرواح والقلوب، ويقظة في المشاعر والحواس، يقظة لظواهر هذا الوجود التي تطالع الناس صباح مساء وهم غافلون عنها، ويقظة لأنفسهم وما يجري من العجائب والخوارق فيها!

إنّه لا يَكِلُ النّاسَ إلى الحوادث الفذّة الخارقة والمعجزات الخاصّة المعدودة، كذلك لا يكلفهم أن يبحثوا عن الخوارق والمعجزات والآيات والدلائل بعيداً عن أنفسهم، ولا عن مألوف حياتهم، ولا عن الظواهر الكونيّة القريبة منهم المعروفة لهم. . إنّه لا يُبعد لهم في فلسفات مُعَقّدة، أو مشكلات عقليّة عويصة، أو تجارب علميّة لا يملكها كلّ أحد. . لكي يُنشيء في نفوسهم عقيدة، وتصوّراً للكون والحياة قائماً على هذه العقيدة.

إنّه يقفهم أمام منطق فطرتهم، حين تواجه الكون، فلا تجد مناصاً من الاعتراف بالحقيقة الكامنة فيها وفي فطرة الكون على السواء **﴿ولئن سألتهم مَن خَلَق السماوات والأرض؟ ليقولن: الله. قل: الحمد لله. بل أكثرهم لا يعلمون﴾** [لقمان: ٢٥].

وما يملك الإنسان حين يستفتي فطرته ويعود إلى ضميره أن يُنكر هذه الحقيقة الواضحة الناطقة، فهذه السماوات والأرض قائمة، مقدرة أوضاعها وأحجامها وحركاتها وأبعادها، وخواصها وصفاتها، مقدرة تقديراً يبدو فيه القصد، كما يبدو فيه التناسق، وهي قبل ذلك خلائق لا يَدّعي أحد أنه خَلَقها، ولا يَدّعي أحد أن خالقاً آخر غير الله شارك فيها، ولا يمكن أن توجد هكذا بذاتها، ثمّ لا يمكن أن تنتظم وتَتّسق وتقوم وتتناسق بدون تدبير، وبدون مدبّر، والقول بأنّها وُجِدَت وقامت تلقائياً أو فَلْتةً أو مصادفةً لا يستحقُّ احترام المناقشة، فضلاً على أنّ الفطرة من أعماقها تُنكره وتردّه.

إنّ النّاسَ أنفسهم من صنع الله ﴿نحن خلقناكم فلولا تُصدِّقون!﴾ [الواقعة: ٥٧]، وظواهر الكون حولهم من إبداع قدرته، والمعجزة كامنة في كلّ ما تُبدعه يده، وهذا القرآن قرآنه، ومن ثمّ يأخذهم إلى هذه المعجزات الكامنة فيهم والمبثوثة في الكون من حولهم، يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لهم، التي يرونها ولا يحسُّون حقيقة الإعجاز فيها؛ لأنّهم لطول ألفتهم لها غفلوا عن مواضع الإعجاز فيها، يأخذهم إليها ليفتح عيونهم عليها، فتطلع على السرّ الهائل المكنون فيها، سرّ القدرة المُبدعة، وسرّ الوحدانيّة المفردة، وسرّ النّاموس الأزلي الذي يعمل في كيانهم هم أنفسهم كما يعمل في الكون من حولهم، والذي يحمل دلائل الإيمان، وبراهين العقيدة، فيبثها في كيانهم، أو يوقظها في فطرتهم بتعبيرٍ أدق.

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أنّه يخاطب الفطرة البشريّة التي هي مصدره[1]، فهو يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادّة لبناء

---

(١) من هذه الآيات: ﴿أفرأيتُم ما تُمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون. نحن قدَّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين. على أن نُبَدِّل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون. ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكَّرون.

أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاماً فَظَلْتُم تفكَّهون. إنا لمغرمون. بل نحن محرومون.

أفرأيتم الماء الذي تشربون. أأنتم أنزلتموه من المُزْنِ أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أُجاجاً فلولا تشكرون.

أفرأيتم النار التي تورون. أأنتم أنشأتُم شجرتها أم نحن المنشئُون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين. فسبِّح باسم ربك العظيم﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٧٤]..

﴿أفَلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَت. وإلى السماء كيف رُفعت. وإلى الجبال كيف نُصبت. وإلى الأرض كيف سُطحت. فذكِّر إنما أنت مُذَكِّر..﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢١]..

﴿فَلْيَنْظُر الإنسانُ مِمَّ خُلق. خُلِقَ من ماءٍ دافق يخرج من بين الصُلْب والترائب. إنه على رجعه لقادر..﴾ [الطارق: ٥ ـ ٨]..

﴿أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماء بناها. رفع سَمْكها فسوّاها. وأغطَش ليلها وأخرج ضُحيها، والأرض بعد ذلك دَحَاها. أخرج منها ماءَها ومَرعاها. والجبال أرساها. متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣]..

أضخم عقيدة دينيّة وأوسع تصوّر كوني. . المشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان: النّسل، والزّرع، والماء، والنّار، والموت. . أيُّ إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه؟ أيُّ ساكنِ كهفٍ لم يشهد نشأة حياة جنينية، ونشأة نبتة، ومسقط ماء، وموقد نار، ولحظة وفاة!

كل هذه وأمثالها من مشاهدات البشر المألوفة وغيرها في العالم المغيب المجهول هي: ﴿**صُنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون**﴾ [النحل: ٨٨]. .

وهذا الموت الذي ينتهي إليه كلّ حي. . مَنْ أبْدَعه؟ ﴿**نحن قدّرنا بينكم الموت، وما نحن بمسبوقين**﴾ [الواقعة: ٦٠]، ما هو الموت؟ وكيف يقع؟ وأي سلطان له لا يقاوَم؟. .

إنّه قَدَر الله الذي يمضي إليه كلّ حيّ، ومن ثمّ لا يفلت منه أحد، ولا يسبقه فيفوته أحد. . وهو حلقة في سلسلة النّشأة التي لا بدّ أنْ تتكامل لعمارة الأرض والخلافة فيها، والله الذي قدّر الموت هو الذي قدّر الحياة، قدّر الموت على أن يُنشىء أمثال مَن يموتون، حتى يأتي الأجل المضروب لهذه الحياة الدنيا. .

والموت والحياة مِن خَلْق الله، وهذه الحقيقة البدهية تثير في القلب المفتوح اليقظة لما وراءها من قصد وابتلاء، فليست المسألة مصادفة بلا تدبير، وليست كذلك جزافاً بلا غاية، إنّما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسيّ على الأرض، واستحقاقهم للجزاء على العمل: ﴿**ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً**﴾ [الملك: ٢]. .

واستقرار هذه الحقيقة في الضمير يدعه أبداً يقظاً حذراً مُتلفتاً واعياً للصغيرة والكبيرة في النيّة المستترة والعمل الظاهر.

وبَعْدُ، فالمنهج الإيماني لا يُنقص شيئاً من ثمار «المنهج العلمي» في إدراك الحقائق المفردة، ولكنّه يزيد عليه ربط هذه الحقائق المفردة بعضها

ببعض، وردّها إلى الحقائق الكبرى، ووصل القلب البشري بها، أي وَصْله بنواميس الكون وحقائق الوجود، وتحويل هذه النواميس والحقائق إلى إيقاعات مؤثرة في مشاعر النّاس وحياتهم..

إنّ الله في الحقيقة التي يُصوّرها الإسلام لتستقر في القلوب لا يُطارد البشر، ولا يعنتهم، ولا يحب أن يعذّبهم، إنّما يريد لهم أن يتيقظوا لغاية وجودهم، وأن يرتفعوا إلى مستوى حقيقتهم، وأن يحققوا تكريم الله بنفخة روحه في هذا الكيان وتفضيله على كثير من خلقه.

إنّه طريق الله ربِّ العالمين، مبدع الكون، وخالق الإنسان، ومُنزّل القرآن ﴿**ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً**﴾ [النساء: ٥٩]..

ذلك خير لكم وأحسن مآلاً؛ خيرٌ في الدنيا وخيرٌ في الآخرة، وأحسن مآلاً في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة كذلك.. فلَيست المسألة أنّ اتباع المنهج الإسلامي يؤدي إلى رضاء الله وثواب الآخرة - وهو أمر هائل، عظيم - ولكنّه كذلك يحقّق خير الدنيا وحسن مآل الفرد والجماعة في هذه الحياة القريبة.

إنّ هذا المنهج معناه: أن يستمتع «الإنسان» بمزايا منهج يضعه له الله.. الله الصانع الحكيم العليم البصير الخبير. منهج بريء من جهل الإنسان، وهوى الإنسان، وضعف الإنسان، وشهوة الإنسان.. منهج لا مُحاباة فيه لفرد، ولا لطبقة، ولا لشعب، ولا لجنس، ولا لجيل من البشر على جيل.. لأنّ الله ربُّ الجميع، ولا تخالجه - سبحانه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً - شهوة المحاباة لفرد، أو طبقة، أو شعب، أو جنس، أو جيل.

ومنهج من مزاياه، أنّ صانعه هو صانع هذا الإنسان.. الذي يعلم حقيقة فطرته، والحاجات الحقيقية لهذه الفطرة، كما يعلم منحنيات نفسه ودروبها؛ ووسائل خطابها وإصلاحها، فلا يخبط - سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً - في تيه التجارب بحثاً عن منهج يوافق، ولا يكلف البشر ثمن هذه التجارب القاسية، حين يخبطون هم في التيه بلا دليل! وحسبهم أن

يُجربوا في ميدان الإبداع المادي ما يشاءون، فهو مجال فسيحٌ جدٌّ فسيح للعقل البشري، وحسبهم كذلك أن يحاول هذا العقل تطبيق ذلك المنهج، ويدرك مواضع القياس والاجتهاد فيما تتنازع فيه العقول.

ومنهج من مزاياه أنّ صانعه هو صانع هذا الكون، الذي يعيش فيه الإنسان، فهو يضمن للإنسان منهجاً تتلاءم قواعده مع نواميس الكون؛ فلا يروح يُعارك هذه النواميس، بل يروح يتعرّف إليها، ويصادقها، وينتفع بها.. والمنهج يهديه في هذا كله ويحميه.

ومنهج من مزاياه أنّه ـ في الوقت الذي يهدي فيه الإنسان ويحميه ـ يكرمه ويحترمه ويجعل لعقله مكاناً للعمل في المنهج.. مكان الاجتهاد في فهم النصوص الواردة. ثم الاجتهاد في ردّ ما لم يرد فيه نص إلى النصوص أو إلى المبادىء العامّة للدين.. ذلك إلى المجال الأصيل، الذي يحكمه العقل البشري، ويعلن فيه سيادته الكاملة: ميدان البحث العلمي في الكون؛ والإبداع المادي فيه..

إنّ لهذا الكون الذي نعيش فيه، والذي نحن قطعة منه، سُنناً أصيلة يقوم عليها، هذه السنن هي القوانين الكونيّة التي أودعها الله هذا الكون ليسير على وفقها، ويتحرّك بموجبها، ويعمل بمقتضاها.

والإنسان يكشف عن أطراف من هذه القوانين كلّما ارتقى في سلّم المعرفة، يكشف عنها ـ أو يُكشف له عنها ـ بمقدار إدراكه المحدود، المُعطى له بالقدر الذي يلزمه لنهوضه بمهمّة الخلافة في الأرض، في أَمَدٍ محدود.

ويعتمد الإنسان في معرفة هذه الأطراف من القوانين الكونيّة على وسيلتين أساسيتين ـ بالقياس إليه ـ هما الملاحظة والتجربة، وهما وسيلتان جزئيتان في طبيعتهما، وغير نهائيتين ولا مُطْلَقتين في نتائجهما، ولكنّهما تقودان أحياناً إلى أطراف من القوانين الكلية في آماد مُتطاولة من الزّمان.. ثمّ يظلّ هذا الكشف جزئياً غير نهائيٍّ ولا مطلق؛ لأنّ سرّ التناسق بين تلك

القوانين كلها، هو سرّ الناموس الذي يُنسّق بين القوانين جميعها. هذا السرّ يظلّ خافياً، لا تهتدي إليه الملاحظة الجزئيّة النسبيّة، مهما طالت الآماد.

إنّ الزّمن ليس هو العنصر النهائي في هذا المجال، إنّما هو الحدّ المقدور للإنسان ذاته، بحكم تكوينه، وبحكم دوره في الوجود، وهو دور جزئي ونسبي.

ثمّ تجيء كذلك نسبيّة الزّمن الممنوح للجنس البشري كلّه على وجه الأرض وهو بدوره جزئيٌّ ومحدود.. ومن ثمّ تبقى جميع وسائل المعرفة، وجميع النتائج التي يصل إليها البشر عن طريق هذه الوسائل، محصورة في تلك الدائرة الجزئيّة النسبيّة.

هنا يجيء دور الرّسالة. دور الطبيعة الخاصّة التي آتاها الله الاستعداد اللدُنّي لتتجاوب في أعماقها ـ بطريقة ما نزال نجهل طبيعتها وإن كنّا ندرك آثارها ـ مع ذلك النّاموس الكلي، الذي يقوم عليه الوجود..

هذه الطبيعة الخاصّة هي التي تتلقى الوحي؛ فتطيق تلقيه، لأنّها مُهيأة لاستقباله.. إنّها تتلقى الإشارة الإلهية التي يتلقاها هذا الوجود؛ لأنّها مُتصلة اتصالاً مباشراً بالنّاموس الكوني الذي يصرّف هذا الوجود.. كيف تتلقى هذه الإشارة؟ وبأيٍّ جهاز تستقبلها؟

نحن في حاجة ـ لكي نجيب ـ أن تكون لنا نحن هذه الطبيعة التي يهبها الله للمختارين من عباده! و ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾.. وهي أمر عظيم أعظم من كلّ ما يخطر على البال من عظائم الأسرار في هذا الوجود.

كلّ الرسل قد أدركوا حقيقة «التوحيد» وكلّهم بُعثوا بها، ذلك أنّ إيقاع النّاموس الواحد في كيانهم كله، هداهم إلى مصدره الواحد الذي لا يتعدد ـ لا يتعدد وإلا لتعددت النواميس وتعدد إيقاعها الذي يتلقونه ـ وكان هذا الإدراك في فجر البشريّة، قبل أن تنمو المعرفة الخارجيّة، المبنية على الملاحظة والتجربة، وقبل أن تتكشف بعض القوانين الكونيّة، التي تشير إلى

تلك الوحدة، وكلهم دعا إلى **عبادة الله الواحد**. . دعا إلى هذه الحقيقة التي تلقاها وأمر أن يبلغها. . وكان إدراكهم لها هو المنطق الفطري النّاشىء من إيقاع النّاموس الواحد في الفطرة الواصلة، كما كان نهوضهم لتبليغها هو النتيجة الطبيعيّة لإيمانهم المطلق بكونها الحقيقة؛ وبكونها صادرة إليهم من الله الواحد، الذي لا يمكن ـ وفق الإيقاع القويّ الصّادق الملزم الذي تلقته فطرتهم ـ أن يتعدد!

وهذا الإلزام المُلِح الذي تستشعره فطرة الرّسل يبدو أحياناً في كلمات الـرّسل التي يحكيهـا عنهم هـذا القـرآن، أو التي يصفهم بهـا في بعض الأحيان.

نجده مثلاً في حكاية قول نوح ـ عليه السّلام ـ لقومه: ﴿**قال: يا قوم أرأيتم إن كنت على بيِّنةٍ من ربّي، وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله. وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم، ولكني أراكم قوماً تجهلون. ويا قوم مَن ينصرني من الله إن طردتهم؟ أفلا تذكرون؟**﴾ [هود: ٢٨ ـ ٣٠]. .

ونجده في حكاية قول صالح ـ عليه السّلام ـ: ﴿**قال: يا قوم أرأيتم إن كنت على بيِّنةٍ من ربّي وآتاني منه رحمة، فمَن ينصرني من الله إن عصيته؟ فما تزيدونني غير تخسير**﴾ [هود: ٦٣]. .

ونجده في سيرة إبـراهيم ـ عليه السّـلام ـ: ﴿**وحاجَّـهُ قومـه. قال: أتحاجُّوني في الله وقد هدان؟ ولا أخاف ما تشركون بـه إلا أن يشاء ربّي شيئاً. وسع ربّي كلّ شيء علماً. أفلا تتذكرون؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً؟ فأيّ الفريقين أحقّ بالأمن إن كنتم تعلمون؟**﴾ [الأنعام: ٨٠، ٨١].

ونجده في قصّة شعيب ـ عليه السّلام ـ: ﴿**قال: يا قوم أرأيتم إن كنت على بيِّنةٍ من ربّي ورزقني منه رزقاً حسناً؟ وما أريد أن أخـالفكم إلى ما**

أنهاكم عنه، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت. وما توفيقي إلا بالله. عليه توكلت وإليه أنيب﴾ [هود: ٨٨].

ونجده في قول يعقوب ـ عليه السّلام ـ لبنيه: **﴿إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾** [يوسف: ٨٦].

وهكذا نجد في أقوال الرُّسل وأوصافهم أثر ذلك الإيقاع العميق الملح على فطرتهم، والذي تشي كلماتهم بما يجدونه منه في أعماق الضمير!

ويوماً بعد يوم تكشف للمعرفة الإنسانية الخارجية ظواهر تشير من بعيد إلى قانون الوحدة في هذا الكون الذي يُسيره الإلّه الواحد.. واطّلع العلماء من البشر على ظاهرة وحدة التكوين ووحدة الحركة في هذا الكون العريض.

وحدة التكوين ووحدة الحركة في هذا الكون هما الظاهرتـان اللتان اهتدى إليهما الإنسان.. وهما إشارتان من بعيد إلى قانون الوحدة الشامل الكبير، وقد بلغت إليهما المعرفة البشريّة بمقدار ما تطيق الملاحظة والتجربة البشريّة أن تبلغ.. أمّا الطبائع الخـاصّة المـوهوبـة، فقد أدركت القـانون الشّامل الكبير كلّه في لمحة، لأنّها تتلقى إيقاعه المباشر، وتطيق وحـدها تلقيه.

إنّهم لم يُجمّعـوا الشواهـد والظواهـر على تلك الوحـدة عن طريق التجارب العلميّة، ولكن لأنّهم وُهِبُوا جهاز استقبال كاملاً مباشراً، استقبلوا إيقاع الناموس الواحد استقبالاً داخلياً مباشـراً؛ فأدركـوا إدراكاً مبـاشراً أن الإيقاع الواحد لا بدّ مُنبعث عن ناموس واحد، صادر من مصدر واحد، وكان هذا الجهاز اللدني في تلك الطبائع الخاصّة الموهوبة أدقّ وأشمل وأكمل، لأنّه أدرك في لمسة واحدة ما وراء وحدة الإيقاع من وحدة المصدر، ووحدة الإرادة والفاعلية في هذا الوجود، فقرّر ـ في إيمان ـ **وحدة الذات الإلهية المُصرِّفة لهذا الوجود.**

وما نسوق هذا الكلام لأنّ العلم الحديث يرى أنّه قد أدرك ظاهرة أو ظاهرتين من ظواهر الوحدة الكونية، فالعلم يثبت أو ينفي في ميدانه، وكلّ ما

يصل إليه من «الحقائق» نسبيٌّ جزئيٌّ مُقيد؛ فهو لا يملك أن يصل أبداً إلى حقيقة واحدة نهائيّة مُطلقة، فضلاً على أن نظريات العلم قُلَّب، يُكَذِّبُ بعضها بعضاً، ويُعَدِّل بعضها بعضاً.

وما نذكر شيئاً عن وحدة التكوين ووحدة الحركة لنقرن إليهما صدق الاستقبال لوحدة النّاموس في حسّ الرُّسل.. كلا.. إنّما نقصد إلى أمرٍ آخر، قصدنا إلى **تحديد مصدر التلقي المعتمد لتكوين التصوّر الصّادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود**.

إنّ الكشف العلمي ربّما يكون قد اهتدى إلى بعض الظواهر الكونيّة المتعلقة بحقيقة الوحدة الكبرى.. هذه الوحدة التي لمست حسّ الرّسل من قبل في محيطها الواسع الشّامل المُباشر، والتي أدركتها الفطرة اللدنية إدراكاً كاملاً شاملاً مباشراً.

وهذه الفطرة صادقة بذاتها ـ سواء اهتدت نظريات العلم الحديث إلى بعض الظواهر أو لم تهتدِ ـ فنظريات العلم موضع بحث ومراجعة من العلم ذاته، وهي ليست ثابتة أولاً، ثُمّ إنّها ليست نهائية ولا مُطلقة أخيراً، فلا تصلح إذن أن تُقاس بها صحة الرّسالة، فالمقياس لا بدّ أن يكون ثابتاً وأن يكون مطلقاً.

ومن هنا **فالرّسالة هي المقياس الثابت** المطلق الوحيد.

الصراط المستقيم:

وينشأ عن هذه الحقيقة حقيقة أخرى ذات أهمية قصوى:

إن هذه الطبائع الخاصّة الموصولة بناموس الوجود صلةً مباشرة، هي التي تملك أن ترسم للبشريّة اتجاهها الشامل، اتجاهها الذي يتّسق مع فطرة الكون وقوانينه الثّابتة وناموسه المُطَّرد، هي التي تتلقى مباشرة وحي الله، فلا تخطىء ولا تضل، ولا تكذب ولا تكتم، ولا تحجبها عوامل الزّمان والمكان عن الحقيقة؛ لأنّها تتلقى هذه الحقيقة عن الله، الذي لا زمان عنده ولا مكان.

ولقد شاءت الإرادة العليا أن تبعث بالرّسل بين الحين والحين، لتصل البشريّة بالحقيقة المُطلقة، التي ما كانت ملاحظتهم وتجربتهم لتبلغ إلى طرف منها إلا بعد مئات القرون، وما كانت لتبلغ إليها كلها أبداً على مدار القرون، وقيمة هذا الاتصال هي استقامة خطاهم مع خطى الكون، واستقامة حركاتهم مع حركة الكون، واستقامة فطرتهم مع فطرة الكون، ومن ثم كان هنالك مصدر واحد يتلقى منه البَشَرُ التصوّرَ الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنساني. ولغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني.

ومن هذا التصوّر يمكن أن ينبثق المنهج الوحيد الصحيح القويم، الذي يتطابق مع حقيقة تصميم الكون وحقيقة حركته، وحقيقة اتجاهه، ويدخل به النّاس في السلم كافّة؛ السلم مع هذا الكون، والسلم مع فطرتهم وهي من فطرة هذا الكون، والسلم مع بعضهم البعض في سعيهم ونشاطهم ونموّهم ورقيهم المُهيأ لهم في هذه الحياة الدنيا.

مصدر واحد هو مصدر الرّسالات، وما عداه ضلال وباطل، لأنّه لا يتلقى عن ذلك المصدر الوحيد الواصل الموصول.

إنّ وسائلَ المعرفة الأخرى المتاحة للإنسان، مُعطاةٌ له بقدر، ليكشف بها بعض ظواهر الكون وبعض قوانينه وبعض طاقاته، بالقدر اللازم له في النهوض بعبء الخلافة في الأرض، وتنمية الحياة وتطويرها، وقد يصل في هذا المجال إلى آماد بعيدة جداً، ولكن هذه الآماد لا تبلغ به أبداً إلى محيط الحقيقة المطلقة التي هو في حاجة إليها ليكيِّف حياته ـ لا وفق الأحوال والظروف الطارئة المتجددة فحسب، ولكن وفق القوانين الكونيّة الثابتة المُطَّردة التي قام عليها الوجود، ووفق الغاية الكبرى للوجود الإنساني كلّه، هذه الغاية التي يراها خالق الإنسان المتعالي عن ملابسات الزّمان والمكان، ولا يراها الإنسان المحدود المتأثر بملابسات الزّمان والمكان.

إنّ الذي يضع خطّة الرّحلة للطّريق كلّه، هو الذي يدرك الطّريق كلّه.

والإنسان محجوب عن رؤية هذا الطّريق، بل هو محجوب عن اللحظة التّالية، ودونه ودونها سترٌ مُسبل لا يُباح لبشرٍ أن يطلع وراءه! فأنّى للإنسان أن يضع الخطة لقطع الطريق المجهول؟!

إنّه إمّا الخبط والضلال والشرود، وإمّا العودة إلى المنهج المُستمد من خالق الوجود؛ منهج الرّسالات، ومنهج الرسل، ومنهج الفطر الموصولة بالوجود وخالق الوجود.

«ويلحّ القرآن الكريم على أنّ الرسل والأنبياء هم الأدلّاء، على ذات الله وصفاته الحقيقية، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة التي لا يشوبها جهل ولا ضلال، ولا سوء فَهم ولا سوء تعبير، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم، لا يستقلّ بها العقل، ولا يُغني فيها الذكاء، ولا تكفي سلامة الفطرة، وحِدّة الذهن، والإغراق في القياس، والغنى في التجارب، وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة النّاصعة على لسان أهل الجنّة، وهم أهل الصّدق وأهل التجربة، وقد أعلنوا ذلك في مقام صِدق كذلك: ﴿**الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كُنّا لِنَهتدي لولا أن هدانا الله**﴾، وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم: ﴿**لقد جاءت رُسل ربنا بالحق**﴾ [الأعراف: ٤٣]، فدلَّ على أن الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة الله تعالى وعلم مرضاته وأحكامه والعمل بها، وبذلك تمكنوا من الدخول في الجنة والوصول إلى دار النعيم.

وقد ختم الله تعالى سورةً جليلة من سُور القرآن وهي سورة الصافات، ونعىٰ فيها ضلال المشركين وسوء اعتقادهم ونسبتهم إلى الله ما هو منه بريء فقال في آخر السورة: ﴿**سبحان ربّك ربّ العزّة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين**﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]، والآيات الثلاث حلقات مُتصلة بعضها ببعض، فلما نَزّه الله نفسه العلية بما يتفوّه به المشركون، ذكر المرسلين الذين جاءوا بالتنزيه والتقديس الكاملين، والوصف الصحيح البليغ، وسَلّم وأثنى عليهم لأنّهم هم أهل الفضل في تعريف الخلق بالخالق، وفي الوصف الصحيح الصّادق، وكانت بعثتهم مِنة

على الخَلق، ونعمة على الإنسانيّة، ومن مقتضيات الربوبيّة الرّحيمة الحكيمة، فختم كلّ ذلك بقوله: ﴿**والحمد لله ربّ العالمين**﴾ [الصافات: ١٨٢]..»[١].

وعلى هذا فمن الواجب أن «ننظر إلى النبوة والأنبياء من خلال القرآن، وبمنظار القرآن، ونستعرض كتاب الله لنعرف مداها وآفاقها الواسعة وأعماقها الغائرة وجذورها العميقة في الحياة الإنسانية، وسيطرتها على العقول والنفوس، والأخلاق والميول، وتأثيرها في تكوين السِّيَر وتشكيل المجتمعات، وقيادتها للمدنيّات، بل تأسيسها لحضارة خاصّة مُتميزة في كلّ شيء، متوازية للجاهلية، مقابلة لها على طول الخط..»[٢].

لقد تفرّد «الأنبياء بمعرفة ذات الله وصفاته وأحكامه ومرضاته، وبخواص العقائد والأعمال والأخلاق؛، صحيحها وسقيمها، وصالحها وفاسدها، وما تجرّ وتستتبع من سعادة وشقاء في الدنيا، وثواب وعقاب، وجنّة ونار في الآخرة، وخصّهم الله ـ بقدر ما يريد ـ بعلم ما يكون بعد هذه الحياة، وفي ذلك العَالَم من حشر ونشر، وإنعام وعذاب، ونعيم وجحيم: ﴿**عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً، إلا مَن ارتضى من رسول**﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]..

لقد وقفوا ـ صلى الله عليهم وسلم ـ على جبل النبوّة يشرفون منها ـ بقدر ما يريد الله ـ على عَالَم الغيب والشهادة، ويُخبرون بما يهجم على هذه البشرية وعلى هذه المدنيّة في المستقبل القريب والبعيد، وما يكمن لها من خَطَر وضرر، ثم يُنذرُون قومهم شفقةً وإشفاقاً وحُبّاً وإخلاصاً، فإذا نازع منازع هذا الحق الطبيعي العقلي، وهذه البداهة، وشكّ أو شكّك في مركزهم، قالوا في نصيحة وإخلاص وتألُّم وإشفاق: ﴿**قل إنما أعظكم بواحدة، أن تقوموا للّه مَثْنى وفُرادى، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنّة، إن**

---

(١) أبو الحسن الندوي: «النبوة والأنبياء» في ضوء القرآن ص ١٧ ـ ١٩.

(٢) المصدر السابق ص ٧.

هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ [سبأ: ٤٦]..»[١].

هذه دعوة الرّسل.. دعوة خالصة إلى منهج البحث عن الحق، ومعرفة الافتراء من الصدق، وتقدير الواقع الذي يُواجِـه الناس من غير زيف ولا دَخَل.

إنّها دعوة إلى القيام للّه ربِّ العالمين. بعيداً عن الهوى. بعيداً عن المصلحة. بعيداً عن ملابسات الأرض. بعيداً عن الهواتف والدوافع التي تشتجر في القلب، فتبعد به عن الله بعيداً عن التأثّر بالتيارات السائدة في البيئة والمؤثرات الشائعة في الجماعة دعوة إلى منطق الفطرة الهادىء الصافي، بعيداً عن الضجيج والخَلْط واللبس، والرؤية المضطربة والغبش الذي يحجب صفاء الحقيقة. والله ـ سبحانه ـ يصطفي مَن يشاء من عباده لحمل هذه الأمانة العظيمة:

﴿إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً، وآل إبراهيم وآل عمران، على العالمين. ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

وهذه الآية بيان مَن اصطفاهم الله من عباده واختارهم لحمل الرّسالة الواحدة بالدين الواحد منذ بدء الخليقة، ليكونوا طلائع الموكب الإيماني في شتّى مراحله المتصلة على مدار الأجيال والقرون، فيقرر أنّهم ذريّة بعضها من بعض، وليس من الضروري أن تكون ذريّة النّسب ـ وإن كان نَسَب الجميع يلتقي في آدم ونوح ـ فهي أولاً رابطة الاصطفاء والاختيار الإلهي، ونسب هذه العقيدة الموصول في ذلك الموكب الإيماني الكريم.

ويذكر القرآن الكريم الأنبياء والرّسل «تارةً بالاصطفاء والاجتباء، وطوراً بالحبّ والرّضا، وتارةً بأسمى الصفات والمواهب العقليّة والخلقيّة

(١) المصدر السابق ص ١٧.

والعلميّة(١)، كل ذلك يدلّ على أنّهم صفوة الخلق، والمَثَل الكامل للإنسانية، وهم أقوى البشر وأجدرهم بحمل رسالات الله، ودعوة الخلق إلى الله: ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾(٢) [الأنعام: ١٢٤]..

ولقد ذكرت الآية الكريمة ﴿**إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً**﴾ فَرْدَين، وذكرت ﴿**آل إبراهيم وآل عمران**﴾ أسرتين، إشارة إلى أنّ آدم بشخصه ونوحاً بشخصه هما اللذان وقع عليهما الاصطفاء، فأمّا إبراهيم وآل عمران فقد كان الاصطفاء لهما ولذريتهما كذلك ـ على القاعدة التي قرّرها القرآن عن آل إبراهيم: قاعدة أنّ وراثة النبوّة والبركة في بيته ليست وراثة دم، إنّما هي وراثة العقيدة: ﴿**وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهنّ. قال: إنّي جاعلك للنّاس إماماً. قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينالُ عهدي الظّالمين**﴾ [البقرة: ١٢٤]..

ويقول الله تعالى: ﴿**وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيمَ على قومه نرفع درجات مَن نشاء. إنّ ربك حكيم عليم. ووهبنا له إسحاق ويعقوب كُلّا**

---

(١) يقول عن إبراهيم: ﴿**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكُنّا به عالمين**﴾ [الأنبياء: ٥١]، ويقول: ﴿**واتخذ الله إبراهيم خليلاً**﴾ [النساء: ١٢٥]، ويقول: ﴿**وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم، كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين**﴾ [الصافات: ١٠٨ ـ ١١١]، ويقول: ﴿**إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب**﴾ [هود: ٧٥]..

ويقول عن إسماعيل: ﴿**وكان عند ربه مرضياً**﴾ [مريم: ٥٥].

ويقول عن موسى: ﴿**واصطنعتك لنفسي**﴾ [طه: ٤١]، ويقول: ﴿**وألقيتُ عليك محبة مني ولتُصنع على عيني**﴾ [طه: ٣٩]، ويقول: ﴿**إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي**﴾ [الأعراف: ١٤٤].

ويقول عن داوود: ﴿**واذكر عبدنا داوود ذا الأيد إنه أوّاب**﴾ [ص: ١٧].

ويقول عن سليمان: ﴿**نعم العبد إنه أوّاب**﴾ [ص: ٣٠]، وكذلك يقول عن النبي أيوب [ص: ٤٤].

ويذكر جماعة من الأنبياء المكرمين، فيتحدث عنهم في اختصاص وإيثار، وحبّ وإكرام، وينعتهم بأفضل النعوت: ﴿**واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار، واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار**﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٨].

هدينا، ونوحاً هدينا من قبل، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين. وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كُلٌّ من الصالحين، وإسماعيل واليسَعَ ويونس ولوطاً وكُلًّا فَضَلنا على العالمين. ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم. ذلك هُدى الله يهدي به مَن يشاء من عباده. ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون. أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين. أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: ٨٢ ـ ٨٩].

إنّ هذه الآيات تعرض موكب الإيمان الجليل، يقوده ذلك الرهط الكريم من الرّسل، ويعرض السّياق هذا الموكب مُمتداً موصولاً وبخاصّة منذ إبراهيم وبنيه من النبيين، ولا يراعى التسلسل التاريخي في هذا العرض ـ كما يلاحظ في مواضع أخرى ـ لأنّ المقصود هنا هو الموكب بجملته، لا تسلسله التاريخي.

وفي الآيات ذكرٌ لسبعة عشر نبيّاً رسولاً ـ غير نوح وإبراهيم ـ وإشارة إلى آخرين ﴿من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم﴾، وذِكْرُ هذا الرهط على هذا النّحو، واستعراض هذا الموكب في هذه الصورة، كله تمهيد للتقريرات التي تليه:

﴿ذلك هدى الله يهدي به مَن يشاء من عباده، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾..

وهذا تقرير لينابيع الهدى في هذه الأرض، فهدى الله للبشر يتمثل فيما جاءت به الرّسل، وينحصر المستيقن منه، والذي يجب اتباعه، في هذا المصدر الواحد، الذي يقرّر الله ـ سبحانه ـ أنّه هو هدى الله؛ وأنّه هو الذي يهدي إليه مَن يختار من عباده..

ولو أنّ هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله، وتوحيد المصدر الذي يستمدون منه هداه، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة

أو التلقي، فإنّ مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم: أي أن يذهب ضياعاً، ويهلك كما تهلك الدابة التي ترعى نبتاً مسموماً فتنتفخ ثمّ تموت.. وهذا هو الأصل اللغوي للحبوط!

﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة. فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾..

وهذا هو التقرير الثاني.. فقرّر في الأول مصدر الهدى، وقَصَرَه على هدى الله الذي جاءت به الرّسل، وقرّر في الثّاني أنّ الرُّسل الذين ذكرهم والذين أشار إليهم، هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوة، فهؤلاء الرُّسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالتوراة مع موسى، والزّبور مع داود، والإنجيل مع عيسى، وبعضهم آتاه الله الحكم كداود وسليمان ـ وكلهم أوتي السلطان على معنى أنّ ما معه من الدين هو حكم الله، وأنّ الدين الذي جاءوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور.

فما أرسل الله الرّسل إلا لِيُطاعوا، وما أنزل الكتاب إلا ليحكم بين النّاس بالقسط، كما جاء في الآيات الأخرى. وكُلُّهم أوتي الحكمة وأوتي النبوة.. وأولئك هم الذين وَكَّلَهُم الله بدينه، يحملونه إلى النّاس، ويقومون عليه، ويؤمنون به ويحفظونه.. فإذا كفر بالكتاب والحكم والنبوة مشركو العرب: **﴿هؤلاء﴾** فإنّ دين الله غنيٌّ عنهم؛ وهؤلاء الرّهط الكرام والمؤمنون بهم هم حسب هذا الدين!..

إنّها حقيقة قديمة امتدت شجرتها، وموكب موصول تماسكت حلقاته؛ **ودعوة واحدة** حملها رسولٌ بعد رسول؛ وآمن بها ويؤمن مَن يقسم الله له الهداية؛ بما يعلمه من استحقاقه للهداية!..

﴿أولئك الذين هَدَىٰ الله فبهداهم اقتده. قل: لا أسألكم عليه أجراً. إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ [الأنعام: ٩٠]..

وهو التقرير الثالث.. فهؤلاء الرّهط الكرام الذين يقودون موكب

الإيمان، هم الذين هَداهم الله، وهُداهم الذي جاءهم من الله فيه القدوة لرسول الله ـ ﷺ ـ ومَن آمن به، فهذا الهدى وحده هـو الذي يسيـر عليه، وهذا الهدى وحده هو الذي يحتكم إليه، وهذا الهدى وحده هو الذي يدعو إليه ويُبَشِّر به.

رحمة واسعة وحكمة عليمة:

إنّها سنّة الله في إرسال الرّسل جميعاً، من عهـد نوح إلى محمـد. وكلّهم رُسل أُرسلوا للتبشير والإنذار، اقتضت هذا رحمة الله بعباده، وأخذه الحجة عليهم، وإنذاره لهم قبلِ يوم الحساب.. وكلّهم جاءوا بوحي واحد، لهدف واحد؛ فالتفرقة بينهم تعنّت لا يستندُ إلى دليل.

﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وعيسى وأيـوب ويونس وهارون وسليمان، وآتينا داود زبوراً. ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسـلاً لم نقصصهم عليك، وكلّم الله مـوسى تكليماً.. رسـلاً مبشـرين ومنذرين لئلا يكـون للناس على الله حجـة بعد الـرّسل وكـان الله عزيـزاً حكيماً﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥]..

فهو إذن موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشري الموصول، ورسالة واحدة بهدي واحـد للإنـذار والتبشير.. مـوكب واحد يضمّ هـذه الصفوة المختارة من بين البشر:

نـوح. وإبراهيم. وإسمـاعيـل. وإسحـاق. ويعقـوب. والأسبـاط. وعيسى. وأيـوب. ويـونس. وهـارون. وسليمـان. وداود. ومــوسى... وغيرهم ممن قصّهم الله على نبيّه ـ ﷺ ـ في القرآن، وممن لم يقصصهم عليه..

موكب من شتى الأقوام والأجناس، وشتى البقاع والأرضين. في شتى الآونة والأزمان. لا يفرقهم نسب ولا جنس، ولا أرض ولا وطن ولا زمن ولا بيئة كلّهم آتٍ من ذلك المصدر الكريم، وكلهم يحمل ذلك النور الهادي،

وكلّهم يؤدي الإنذار والتبشير، وكلّهم يحاول أن يأخذ بزمام القافلة البشريّة إلى ذلك النور.. سواء منهم من جاء لعشيرة، أو من جاء لقوم، أو من جاء لمدينة، أو من جاء لقطر.. ثمّ من جاء للنّاس أجمعين: محمد رسول الله ـ ﷺ ـ خاتم النبيين.

كلهم تلقى الوحي من الله، فما جاء بشيء من عنده، وإذا كان الله قد كلّم موسى تكليماً فهو لونٌ من الوحي لا يعرف أحد كيف كان يتم، لأنّ القرآن ـ وهو المصدر الوحيد الصحيح الذي لا يرقى الشكّ إلى صحته ـ لم يفصل لنا في ذلك شيئاً، فلا نعلم إلا أنّه كلّمه كلاماً. ولكن ما طبيعته؟ كيف تمّ؟ بأيّ حاسّة أو قوّة كان موسى يتلقاه؟... كلّ ذلك غيبٌ من الغيب لم يحدثنا عنه القرآن، وليس وراء القرآن ـ في هذا الباب ـ إلا أساطير لا تستند إلى برهان.

أولئك الرسل ـ مَن قصّ الله على رسوله منهم ومَن لم يقصص ـ اقتضت عدالة الله ورحمته أن يبعث بهم إلى عباده يبشرونهم بما أعده الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان؛ وينذرونهم ما أعده الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب.. كل ذلك:

﴿**لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**﴾..

ولله الحجة البالغة في الأنفس والآفاق، وقد أعطى الله البشر من العقل ما يتدبّرون به دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، ولكنّه ـ سبحانه ـ رحمةً منه بعباده، وتقديراً لغلبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التي أعطاها لهم ـ أداة العقل ـ اقتضت رحمته وحكمته أن يرسل إليهم الرّسل ﴿**مبشرين ومنذرين**﴾، يذكّرونهم ويبصرونهم؛ ويحاولون استنقاذ فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات، التي تحجب عنها أو تحجبها عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق.

ونقف من هذه اللفتة ﴿**لئلا يكون للنّاس على الله حجّة بعد الرّسل**﴾ أمام حشدٍ من الإيحاءات اللطيفة العميقة ونختار منه ثلاثاً على سبيل الاختصار.

نقف منها: أولاً: أمام قيمة العقل البشري ووظيفته ودوره في أخطر قضايا «الإنسان»، قضية الإيمان بالله؛ التي تقوم عليها حياته في الأرض من جذورها؛ بكلّ مقوماتها واتجاهاتها وواقعياتها وتصرفاتها، كما يقوم عليها مآله في الآخرة وهي أكبر وأبقى.

لو كان الله ـ سبحانه ـ وهو أعلم بالإنسان وطاقاته كلّها، يعلم أنّ العقل البشري، الذي وهبه للإنسان، هو حسب هذا الإنسان في بلوغ الهدى لنفسه والمصلحة لحياته، في دنياه وآخرته، لوَكَله إلى هذا العقل وحده، يبحث عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق، ويرسم لنفسه كذلك المنهج الذي تقوم عليه حياته، فتستقيم على الحق والصواب، ولما أرسل إليه الرّسل على مدى التاريخ، ولما جعل حجته على عباده هي رسالة الرّسل إليهم، وتبليغهم عن ربّهم، ولما جعل حجّة النّاس عنده ـ سبحانه ـ هي عدم مجيء الرّسل إليهم:

﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾..

ولكن لمّا علم الله ـ سبحانه ـ أنّ العقل الذي آتاه للإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى ـ بغير توجيه من الرسالة وعونٍ وضبطٍ ـ وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الإنسانية يحقق المصلحة الصحيحة لهذه الحياة، وينجي صاحبه من سوء المآل في الدنيا والآخرة..

لمّا علم ـ سبحانه ـ هذا شاءت حكمته وشاءت رحمته أن يبعث للنّاس بالرّسل، وألا يؤاخذ النّاس إلا بعد الرّسالة والتبليغ: **﴿وما كنّا مُعذبين حتى نبعث رسولاً﴾** [الإسراء: ١٥] وهذه تكاد تكون إحدى البديهيات التي تبرز من هذا النص القرآني.. فإن لم تكن بديهية فهي إحدى المقتضيات الحتمية..

إذن.. ما هي وظيفة **هذا العقل البشري**؟ وما هو دوره في قضية الإيمان والهدى؟ وفي قضيّة منهج الحياة ونظامها؟.

إنّ دور هذا العقل أن يتلقى عن الرّسالة، ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه

عن الرّسول. ومهمّة الرّسول أن يبلغ، ويبين، ويستنقذ الفطرة الإنسانيّة مما يرين عليها من الرّكام، وينبه العقل الإنساني إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق، وأن يرسم له منهج التلقي الصحيح، ومنهج النظر الصحيح، وأن يقيم له القاعدة التي ينهض عليها منهج الحياة العملية، المؤدي إلى خير الدنيا والآخرة.

وليس دور العقل أن يكون حاكماً على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان، والقبول أو الرفض ـ بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله؛ وبعد أن يفهم المقصود بها: أي المدلولات اللغوية والاصطلاحية للنص ـ ولو كان له أن يقبلها أو يرفضها ـ بعد إدراك مدلولها، لأنّه هو لا يوافق على هذا المدلول! أو لا يريد أن يستجيب له ـ ما استحقّ العقاب من الله على الكفر بعد البيان.. فهو إذن ملزم بقبول مقررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح، ومتى فهم عقله ما المقصود بها وما المراد منها..

إن هذه الرسالة تخاطب العقل.. بمعنى أنها توقظه وتوجهه، وتقيم له منهج النظر الصحيح.. لا بمعنى أنّه هو الذي يحكم بصحتها أو بطلانها، وبقبولها أو رفضها، ومتى ثبت النصُّ كان هو الحكم، وكان على العقل البشري أن يقبله ويطيعه وينفذه، سواء كان مدلوله مألوفاً له أو غريباً عليه...

إن دور العقل ـ **في هذا الصدد** ـ هو أن يفهم ما الذي يعنيه النص، وما مدلوله الذي يعطيه حسب معاني العبارة في اللغة والاصطلاح، وعند هذا الحد ينتهي دوره..

إن المدلول الصحيح للنص لا يقبل البطلان أو الرّفض بحكم من هذا العقل، فهذا النص من عند الله، والعقل ليس إلهاً يحكم بالصحة أو البطلان، وبالقبول أو الرّفض لما جاء من عند الله.

وعند هذه النقطة الدقيقة يقع خلط كثير.. سواء ممن يريدون تأليه العقل البشري فيجعلونه هو الحكم في صحة أو بطلان المقررات الدينية

الصحيحة. . أو ممن يريدون إلغاء العقل، ونفي دوره في الإيمان والهدى. .

والطريق الوسط الصحيح هو الذي بيّناه هنا. . من أنّ الرّسالة تخاطب العقل ليدرك مقرراتها؛ وترسم له المنهج الصحيح للنظر في هذه المقررات، وفي شؤون الحياة كلها. فإذا أدرك مقرراتها ـ أي إذا فهم ماذا يعني النص ـ لم يعد أمامه إلا التصديق والطاعة والتنفيذ. . فهي لا تكلف الإنسان العمل بها سواء فهمها أم لم يفهمها، وهي كذلك لا تبيح له مناقشة مقرراتها متى أدرك هذه المقررات، وفق مفهوم نصوصها. . مناقشتها ليقبلها أو يرفضها، ليحكم بصحتها أو خطئها. . وقد علم أنها جاءته من عند الله الذي لا يقص إلا الحق، ولا يأمر إلا بالخير.

والمنهج الصحيح في التلقي عن الله، هو ألا يواجه العقل مقررات الدين الصحيحة ـ بعد أن يدرك المقصود بها ـ بمقررات له سابقة عليها، كونها لنفسه من مقولاته «المنطقية»، أو من ملاحظاته المحدودة، أو من تجاربه النّاقصة. . إنّما المنهج الصحيح أن يتلقى النصوص الصحيحة، ويُكوِّن منها مقرراته هو!

فهي أصح من مقرراته الذاتية؛ ومنهجها أقوم من منهجه الذاتي ـ قبل أن يضبط بموازين النظر الدينية الصحيحة ـ ومن ثم لا يحاكم العقل مقررات الدين ـ متى صحّ عنده أنّها من الله ـ إلى أية مقررات أخرى من صنعه الخاص!

. . إن العقل ليس إلهاً، ليحاكم بمقرراته الخاصة مقررات الله. .

إن له أن يعارض مفهوماً عقليّاً بشريّاً للنص بمفهوم عقليٍّ بشريٍّ آخر له. . هذا مجاله، ولا حرج عليه في هذا ولا حجر ما دام هنالك من الأصول الصحيحة مجال للتأول والأفهام المتعددة، وحرية النظر ـ على أصوله الصحيحة وبالضوابط التي يقررها الدين نفسه ـ مكفولة للعقول البشريّة في هذا المجال الواسع.

وليس هنالك من هيئة، ولا سلطة، ولا شخص، يملك الحجر على العقول، في إدراك المقصود بالنص الصحيح وأوجه تطبيقه ـ متى كان قابلاً لأوجه الرأي المتعددة، ومتى كان النظر في حدود الضوابط الصحيحة والمنهج الصحيح، المأخوذ من مقررات الدين ـ وهذا كذلك معنى أن هذه الرّسالة تخاطب العقل. .

إن الإسلام دين العقل. . نعم. . بمعنى أنه يخاطب العقل بقضاياه ومقرراته، ولا يقهره بخارقة مادية لا مجال له فيها إلا الإذعان. ويخاطب العقل بمعنى أنه يصحح له منهج النّظر ويدعوه إلى تدبُّر دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق، ليرفع عن الفطرة ركام الإلف والعادة والبلادة، وركام الشهوات المضلة للعقل والفطرة، ويخاطب العقل بمعنى أنّه يكل إليه فهم مدلولات النصوص التي تحمل مقرراته، ولا يفرض عليه أن يؤمن بما لا يفهم مدلوله ولا يدركه. . فإذا وصل إلى مرحلة إدراك المدلولات وفهم المقررات لم يعد أمامه إلا التسليم بها فهو مؤمن، أو عدم التسليم بها فهو كافر. . وليس هو حكماً في صحتها أو بطلانها، وليس هو مأذوناً في قبولها أو رفضها، كما يقول مَن يبتغون أن يجعلوا من هذا العقل إلهاً، يقبل من المقررات الدينية الصحيحة ما يقبل، ويرفض منها ما يرفض، ويختار منها ما يشاء، ويترك منها ما يشاء. .

فهذا هو الذي يقول الله عنه: **﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟﴾** [البقرة: ٨٥] ويرتب عليه صفة الكفر، ويرتب عليه كذلك العقاب: **﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خِزْيٌ في الحياة الدنيا ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشد العذاب. وما الله بغافلٍ عما تعملون﴾** [البقرة: ٨٥].

فإذا قرّر الله ـ سبحانه ـ حقيقة في أمر الكون، أو أمر الإنسان، أو أمر الخلائق الأخرى، أو إذا قرّر أمراً في الفرائض، أو في النواهي. . فهذا الذي قرّره الله واجب القبول والطاعة ممن يبلغ إليه، متى أدرك المدلول المراد منه. .

إذا قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿أوَ لم يرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كلّ شيء حي﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ [النور: ٤٥]، ﴿خلق الإنسان من صلصالٍ كالفخّار، وخلق الجانّ من مارجٍ من نار﴾ [الرحمٰن: ١٤، ١٥] إلى آخر ما قال ـ سبحانه ـ عن طبيعة الكون والكائنات والأحياء والأشياء.. فالحق هو ما قال وليس للعقل أن يقول ـ بعد أن يفهم مدلول النصوص والمقررات التي تنشئها ـ «إنّني لا أجد هذا في مقرراتي، أو في علمي، أو في تجاربي».. فكلّ ما يبلغه العقل في هذا مُعرض للخطأ والصواب. وما قرّره الله ـ سبحانه ـ لا يحتمل إلا الحق والصواب.

وإذا قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿يا أيّها الذيد آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الرّبا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]، ﴿وقَرْنَ في بيوتكن ولا تبرجنَ تبرُّجَ الجاهلية الأولى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يُبدين زينتهن﴾ [النور: ٣١]، إلى آخر ما قال في شأن منهج الحياة البشرية.

فالحق هو ما قال ـ سبحانه ـ وليس للعقل أن يقول: «ولكنّني أرى المصلحة في كذا وكذا» مما يخالف عن أمر الله، أو فيما لم يأذن به الله ولم يشرعه للنّاس.. فما يراه العقل مصلحة يحتمل الخطأ والصواب، وتدفع إليه الشهوات والنزوات.. وما يقرّره الله ـ سبحانه ـ لا يحتمل إلا الصحة والصلاح..

وما قرره الله ـ سبحانه ـ من العقائد والتصورات، أو من منهج الحياة ونظامها، سواء في موقف العقل إزاءه.. متى صحّ النص، وكان قطعي الدلالة؛ ولم يوقت بوقت.. فليس للعقل أن يقول: «آخذ في العقائد والشعائر التعبدية؛ ولكني أرى أن الزمن قد تغيّر في منهج الحياة ونظامها»..

فلو شاء الله أن يوقت مفعول النصوص لوقته، فما دام النص مطلقاً فإنّه يستوي زمان نزوله وآخر الزمان.. احترازاً من الجرأة على الله، ورمي علمه بالنقص والقصور ـ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ـ إنّما يكون الاجتهاد في تطبيق النص العام على الحالة الجزئية؛ لا في قبول المبدأ العام أو رفضه، تحت أي مقولة من مقولات العقل في جيل من الأجيال

وليس في شيء من هذا الذي نقرره انتقاص من قيمة العقل ودوره في الحياة البشرية.. فإنّ المدى أمامه واسع في تطبيق النصوص على الحالات المتجددة ـ بعد أن ينضبط هو بمنهج النظر وموازينه المستقاة من دين الله وتعليمه الصحيح ـ والمدى أمامه أوسع في المعرفة بطبيعة هذا الكون وطاقاته وقواه ومدخراته؛ وطبيعة الكائنات فيه والأحياء، والانتفاع بما سخّر الله من هذا الكون ومن هذه الكائنات والأحياء، وتنمية الحياة وتطويرها وترقيتها ـ في حدود منهج الله ـ لا كما تبتغي الشهوات والأهواء التي تُضلّ العقلَ وتُغطي الفطرة بالركام.

تبعة عظيمة:

إنّ مصائر البشريّة كلّها في الدّنيا وفي الآخرة سواء، منوطة بالرّسل وبأتباعهم من بعدهم، فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر، تقوم سعادة هؤلاء البشر أو شقوتهم، ويترتب ثوابهم أو عقابهم.. في الدنيا والآخرة:

﴿لئلا يكون للنّاس على الله حجّة بعد الرّسل﴾..

إنّها التبعة العظيمة المُلقاة على الرّسل ـ صلوات الله عليهم ـ ومن بعدهم على المؤمنين برسالاتهم ـ تجاه البشريّة كلّها.. وهي تبعة ثقيلة بمقدار ما هي عظيمة..

إنه أمر هائل عظيم.. ولكنه كذلك.. ومن ثم كان الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ يحسون بجسامة ما يكلفون.

وكان الله ـ سبحانه ـ يُبصّرهم بحقيقة العبء الذي ينوطه بهم.. وهذا

هو الذي يقول الله عنه لنبيه ﷺ: **﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾** [المزمل: ٥] ويعلمه كيف يتهيأ له ويستعد: **﴿يا أيّها المزمل قم الليل إلا قليلاً. نصفه أو انقص منه قليلاً. أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً.. إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾** [المزمل: ١ ـ ٥] **﴿إنّا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً. فاصبر لحكم ربّك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً. واذكر اسم ربّك بكرة وأصيلاً. ومن الليل فاسجد له وسبّحه ليلاً طويلاً﴾** [الإنسان: ٢٣ ـ ٢٦]..

وهذا هو الذي يُشعر به نبيه ـ ﷺ ـ وهو يأمره أن يقول وأن يستشعر حقيقة ما يقول:

﴿قل: إني لن يجيرني من الله أحد، ولن أجد من دونه ملتحداً.. إلا بلاغاً من الله ورسالاته﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣]، **﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً، إلا مَن ارتضى من رسول، فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً.. ليعلم أنْ قد أبلغوا رسالات ربّهم. وأحاط بما لديهم وأحصى كلّ شيء عدداً﴾** [الجن: ٢٦ ـ ٢٨].

إنّه الأمر الهائل العظيم.. أمر رقاب النّاس.. أمر حياتهم ومماتهم.. أمر سعادتهم وشقائهم.. أمر ثوابهم وعقابهم.. أمر هذه البشريّة، التي إمّا أن تبلغ إليها الرّسالة فتقبلها وتتبعها فتسعد في الدنيا والآخرة، وإمّا أن تبلغ إليها فترفضها وتنبذها فتشقى في الدنيا والآخرة، وإمّا ألا تبلغ إليها فتكون لها حجة على ربّها، وتكون تبعة شقائها في الدنيا وضلالها معلقة بعنق مَن كلف التبليغ فلم يبلغ

فأما رسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فقد أدوا الأمانة وبلّغوا الرسالة، ومضوا إلى ربّهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل.. وهم لم يبلغوها دعوة باللسان، ولكن بلغوها ـ مع هذا ـ قدوة ممثلة في العمل، وجهاداً مُضنيًا بالليل والنهار لإزالة العقبات والعوائق.. سواء كانت هذه العقبات والعوائق شبهات تُحاك، وضلالات تُزين، أو كانت قوى طاغية تصدّ

النّاس عن الدعوة وتفتنهم في الدين، كما صنع رسول الله ـ ﷺ ـ خاتم النبيين، بما أنّه المبلغ الأخير، وبما أنّ رسالته هي خاتمة الرّسالات.

وبقي الواجب الثقيل على مَن بعده.. على المؤمنين برسالته.. فهناك أجيال وراء أجيال جاءت وتجيء بعده ـ ﷺ ـ وتبليغ هذه الأجيال منوط بعده بأتباعه.

ولا بد أن نقف وقفة خاشعة أمام جلال الله وعظمته؛ ممثلة في علمه، وعدله، ورعايته، وفضله، ورحمته، وبرّه.. بهذا الكائن الإنساني الذي يجحد ويطغى..

نقف أمام عظمة العلم بهذا الكائن، وما أودعه من القوى والطاقات، وما ركّب في كينونته من استعدادات الهدى والضلال، وما رتبه على هذا العلم حين لم يكله إلى عقله وحده.. على عظمة هذه الأداة التي وهبها له، وعلى كثرة ما في الأنفس والآفاق من دلائل الهدى وموجبات الإيمان.. فلقد علم الله أن هذه الأداة العظيمة تنوشها الشهوات والنزوات، وأن الدلائل المبثوثة في تضاعيف الكون وأطواء النفس قد يحجبها الغرض والهوى، ويحجبها الجهل والقصور...

ومن ثم لم يكل إلى العقل البشري تبعة الهدى والضلال ـ إلا بعد الرّسالة والبيان ـ ولم يكل إليه بعد البيان والاهتداء وضع منهج الحياة، إنّما وكل إليه تطبيق منهج الحياة الذي يقرره له الله.. ثمّ ترك له ما وراء ذلك ـ وهو ملك عريض ـ يبدع فيه ما شاء، ويغير فيه ما شاء، ويركب فيه ما شاء، ويحلل فيه ما شاء، منتفعاً بتسخير الله لهذا الملك كله لهذا الإنسان وهو الذي يخطىء عقله ويصيب، وتعثر قدمه وتستقيم على الطريق!

ونقف أمام عظمة العدل الذي يرتب للنّاس حجّة على الله ـ سبحانه ـ لو لم يرسل إليهم الرسل مُبشرين ومنذرين، هذا مع احتشاد كتاب الكون المفتوح، وكتاب النفس المكنون بالآيات الشواهد على الخالق، ووحدانيته، وتدبيره وتقديره، وقدرته وعلمه.. ومع امتلاء الفطرة بالأشواق

والهواتف إلى الاتصال ببارئها والإذعان له، والتناسق والتجاوب والتجاذب بينها وبين دلائل وجود الخالق في الكون والنفس.. ومع هبة العقل الذي يملك أن يحصي الشواهد ويستنبط النتائج.. ولكن الله ـ سبحانه ـ بما يعلم من عوامل الضعف التي تطرأ على هذه القوى كلّها، فتعطلها، أو تفسدها، أو تطمسها، أو تدخل في حكمها الخطأ والشطط، قد أعفى النّاس من حجيّة الكون، وحجيّة الفطرة، **وحجيّة العقل، ما لم يرسل** إليهم الرّسل ليستنقذوا هذه الأجهزة كلها مما قد يرين عليها، وليضبطوا بموازين الحق الإلهي الممثل في الرّسالة هذه الأجهزة، فتصح أحكامها حين تستقيم على ضوابط المنهج الإلهي.. وعندئذٍ فقط يلزمها الإقرار والطّاعة والاتباع، أو تسقط حجّتها وتستحق العقاب.

ونقف أمام عظمة الرعاية والفضل والرّحمة والبرّ بهذا المخلوق الذي يكرمه الله ويختاره، على ما يعلم به من ضعف ونقص؛ فيكل إليه هذا الملك العريض.. خلافة الأرض.. وهو بالقياس إليه ملك عريض! وإن كان في ملك الله ذرة تمسكها يد الله فلا تضيع في ملكه الكبير!

ثم تشاء رعايته وفضله ورحمته وبرّه، ألا تدعه لما أودع في كينونته من فطرة هادية ولكنّها تطمس؛ ومن عقل هاد ولكنّه يضلّ؛ بل يتفضل عليه ربّه فيرسل إليه الرّسل تترى.. وهو يكذب ويعاند؛ ويشرد وينأى؛ فلا يأخذه ربّه بأخطائه وخطاياه؛ ولا يحبس عنه برّه وعطاياه، ولا يحرمه هداه على أيدي رسله الهُداة.. ثمّ لا يأخذه بالعقاب في الدّنيا أو في الآخرة حتّى تبلغه الرّسل؛ فيعرض ويكفر، ويموت وهو كافر لا يتوب ولا ينيب..

ومَن عجب أن يأتي على هذا الإنسان زمانٌ يزعم لنفسه أنّه استغنى عن ربّه.. استغنى عن رعايته وفضله ورحمته وبره.. استغنى عن هدايته ودينه ورسله.. استغنى بالأداة التي علم ربّه أنّها لا تغنيه ـ ما لم تقوّم بمنهج الله ـ فلم يكتب عليه عقاباً إلا بعد الرّسالة والبيان.. فيتمثل لنا الطّفل الذي يحسّ ببعض القوّة في ساقيه فيروح يبعد عنه اليد التي تسنده، ليتكفأ ويتعثر! غير أنّ الطفل في هذا المثال أرشد وأطوع للفطرة، إذ أنّه بمحاولة الاستقلال

عن اليد التي تسنده يجيب داعي الفطرة في استحثاث طاقات كامنة في كيانه، وإنماء قدرات ممكنة النماء؛ وتدريب عضلات وأعصاب تنمو وتقوى بالتدريب. .

أما إنسان اليوم الذي يبعد عنه يد الله، ويتنكب هداه، فإنّ كينونته - بكلّ ما يكمن فيها من قوى - يعلم الله أنّها لا تشتمل على قوّة مكنونة تملك الاستغناء عن يد الله وهداه، وقصارى ما في قواه أنّها ترشد وتضبط وتستقيم برسالة الله، وتضل وتختل وتضطرب إذا هي استقلت بنفسها، وتنكبت هداه!

وخطأ وضلال - إن لم يكن هو الخداع والتضليل - كلّ زعم يقول: إنّ العقول الكبيرة كانت حَرِيّةً أن تبلغَ بدون الرّسالة ما بلغته بالرّسالة. . فالعقل ينضبط - مع الرّسالة - بمنهج النظر الصحيح؛ فإذا أخطأ بعد ذلك في التطبيق كان خطؤهُ كخطأ السّاعة التي تضبط، ثمّ تغلبها عوامل الجو والمؤثرات، وطبيعة معدنها الذي يتأثر بهذه المؤثرات، لا كخطأ الساعة التي لم تضبط أصلاً، وتركت للفوضى والمصادفة وشتان شتان!

وآية أنّ ما يتمّ بالرّسالة - عن طريق العقل نفسه - لا يمكن أن يتم بغيرها؛ فلا يغني العقل البشري عنها. .

تخبُّطٌ واضطراب في تيهٍ وضلال:

إنّ تاريخ البشريّة لم يسجل أنّ عقلاً واحداً من العقول الكبيرة النّادرة اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العاديّة المتوسطة بالرّسالة. . لا في تصوّر اعتقادي؛ ولا في خلق نفسي، ولا في نظام حياة، ولا في تشريع واحد لهذا النّظام. .

إنّ عقول أفلاطون وأرسطو من العقول الكبيرة قطعاً. . **بل إنّهم ليقولون: إنّ عقل أرسطو** هو أكبر عقل عرفته البشريّة - بعيداً عن رسالة الله وهداه - فإذا نحن راجعنا تصوّره لإلّهه - كما وصفه - رأينا المسافة الهائلة التي تفصله عن تصوّر المسلم العادي لإلّهه مُهتدياً بهدي الرّسالة.

وقد وصل أخناتون ـ في مصر القديمة ـ إلى عقيدة التوحيد ـ وحتّى مع استبعاد تأثره في هذا بإشعاع عقيدة التوحيد في رسالة إبراهيم ورسالة يوسف ـ فإنّ الفجوات والأساطير التي في عقيدة أخناتون تجعل المسافة بينها وبين توحيد المسلم العادي لإلّهه بعيدة بعيدة.

وفي الخلق نجد في الفترة التي هيمن فيها الإسلام في صدر الإسلام نماذج للأوساط ممن رباهم الرّسول ـ ﷺ ـ لا تتطاول إليها أعناق الأفذاذ على مدار التاريخ ممن لم تخرجهم رسالة سماوية.

وفي المبادىء والنّظم والتشريعات لا نجد أبداً ذلك التناسق والتوازن، مع السموّ والرّفعة التي نجدها في نظام الإسلام ومبادئه وتشريعاته، ولا نجد أبداً ذلك المجتمع الذي أنشأه الإسلام يتكرر لا في زمانه ولا قبل زمانه ولا بعد زمانه في أرض أخرى، بتوازنه وتناسقه ويسر حياته وتناغمها.

إنّه ليس هو المستوى الحضاري المادي هو الذي يكون عليه الحكم، فالحضارة الماديّة تنمو بنموّ وسائلها التي ينشئها «العلم» الصاعد.. ولكن ميزان الحياة في فترة من الفترات هو التناسق والتوازن بين جميع أجزائها وأجهزتها وأوضاعها.. هو التوازن الذي يُنشىء السعادة والطمأنينة، والذي يطلق الطاقات الإنسانيّة كلّها لتعمل دون كبت ودون مغالاة في جانب من جوانبها الكثيرة.. والفترة التي عاشت بالإسلام كاملاً لم تبلغها البشريّة ـ بعيداً عن الرّسالة ـ في أيّ عصر.. والخلخلة وعدم الاتزان هما الطابع الدائم للحياة في غير ظل الإسلام، مهما التمعت بعض الجوانب، ومهما تضخمت بعض الجوانب، فإنّما تلتمع لتنطفىء جوانب أخرى، وإنما تتضخم على حساب الجوانب الأخرى.. والبشريّة معها تتأرجح وتحتار وتشقى(١).

يقول الأستاذ أبو الحسن النّدوي: «لقد ضَلَّ وتعب وجاهد في غير

---

(١) يراجع بتوسع كتاب «الإسلام ومشكلات الحضارة» فصل: «تخبط واضطراب».

جهاد مَن أراد معرفة الله تعالى، المعرفة الصحيحة وصفاته وأسمائه الحُسنى، وما بينه وبين هذا العالم من صلة، وكيف إحاطته به، وقدرته عليه، ونفوذ أحكامه فيه عن طريق الأنبياء والمرسلين، واعتمد في ذلك على عقله وعلمه وذكائه وإلمامه ببعض العلوم والصنائع، ونجاحه في بعض المحاولات العلمية، وإنتاجه الضعيف، أو العظيم الضخم في بعض مجالات علمية، وحَقَّ عليهم قوله تعالى: **﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به عِلم فَلِمَ تُحاجُون فيما ليس لكم به علم؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** [آل عمران: ٦٦].

وهذا سِرّ ضَلال الفلسفة الإغريقية الإلٓهية وأقطابها ونوابغها، فقد غرّهم ذكاؤهم وعلومهم وآدابهم وشعرهم الخصب الغني، وملاحمهم العظيمة التي نظموها، ونبوغهم في علوم الرّياضة والهندسة، والإقليدس والفلسفة الطبيعية، والنّجوم والفلكيات، فخاضوا في الإلٓهيات وفي موضوع الذات والصفات والخلق والإبداع، فجاءوا بالسخيف المرذول، وبالمتهافت المتساقط، وبالمتناقض المتضاد من الآراء والأقوال، والتحكمات والتخمينات التي صدق حجّة الإسلام الغزالي رحمه الله في وصفها بقوله: (ظلمات فوق ظلمات، لَوْ حَكَاهُ الإنسان عن منام رآه لاستدلّ على سوء مزاجه، أو لو أورد جنسه في الفقهيات التي قصارى المطلب فيها تخمينات، لقيل إنّها ترهات لا تفيد غلبات الظنون)»[1].

وقال في موضع آخر: «لست أدري كيف يقع المجنون من نفسه لمثل هذه الأوضاع، فضلاً عن العقلاء الذين يشقون الشعر بزعمهم في المعقولات؟!»[2].

وكذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه مُعلقاً على كلام الفلاسفة والحكماء: «ليتأمّل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدّعون من الحذق

(١) تهافت الفلاسفة ص ١١٥.
(٢) المصدر السابق ص ١٢٤.

والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرّسل، كيف يتكلمون في غاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين، ويجعلون الحقّ المعلوم بالضرورة مردوداً، والباطل الذي يعلم بُطلانه بالضرورة مقبولاً، بكلام فيه تلبيس وتدليس»[1].

وحقّ عليهم قول الله تعالى: ﴿**أشهدوا خلقهم؟! ستُكتب شهادتهم ويُسألون**﴾ [الزخرف: ١٩]، وقوله: ﴿**ما أشهدتهم خَلْقَ السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، وما كنتُ متخذ المضلين عضداً**﴾ [الكهف: ٥١]. .

«وقد كانت الأمم المتمدنة الراقية التي بلغت أوج المدنية والذكاء والإنتاج العلمي في عصرها في حاجة إلى هذا العلم الذي يحمله الأنبياء، وينفردون به بين الخَلْق؛ حاجة الفريق إلى قارب النجاة، وحاجة المريض المشرف على الهلاك إلى الدواء الإكسير، وكان أفرادها بالنسبة إلى هذا العلم ـ مهما علا كعبهم في العلم والمدنية ـ جهالاً أميين، وفقراء مفلسين، وكانت على خطر ـ رغم كل فتوحاتها العلمية، وازدهار المدنية ـ إذا جهلته أو رفضته. . وقد وقعت أمم مُتمدنة راقية غنية في العلوم والآداب يُضرب بها المَثَل في الذكاء والعبقرية، فريسةَ الإنكار والاستكبار، والإعجاب بنفسها، والإدلال بعلومها وصنائعها، ونظرت إلى ما جاء به نبيٌّ عصرهم بعين الازدراء والاحتقار، وزهدت فيه واستصغرته، فذهبت ضحيّة هذا الغرور وهذه السفاهة المصورة بالذكاء، وقصور النظر الملقب حينئذ ببُعْدِ النَظَر، والنقد العلمي، فذاقت وَبَال أمرها، وكان عاقبة أمرها خُسراً.

«إنّ الفرق الواضح الهائل بين علم الأنبياء، وبين علوم العلماء والحكماء، إنّما يتجلى بوضوح في قصّة لعلها معروفة، ولكن لعلَّ أحداً لم يطبقها على هذا الفرق، ولم يستخرج منها هذه الحكمة الرّائعة، وكم ضاعت أمثال حكيمة وقصص ذات مغزىً عميق:

---

(١) منهاج السنة ج ٣ بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول في الحاشية ص ٢٧٢.

يُحكى أنَّ فريقاً من التلاميذ ركبوا سفينة للنزهة في البحر أو للوصول إلى البرّ، وكان في النّفس نشاط وفي الوقت سعة، وكان الملاّح المُجدِّف الأميّ خيرَ موضوعٍ للدعابة والتنادر، وخيرَ وسيلة للتلهي وترويح النّفس، وخاطبه تلميذٌ ذكيٌّ جريء وقال: «يا عمّ: ماذا درست من العلوم؟» قال: «لا شيء يا عزيزي!» قال: «أمَا درستَ علومَ الطبيعة يا عمي؟» قال: «كلا، ولا سمعتُ بها!»، وتكلّم أحد زملائه، وقال: «ولكنّك لا بدّ درستَ عِلْمَ الأقليدس والجبر والمقابلة؟»، قال: «وهذا أغرب، وتصدقون أنّي أَوَّل مرّة أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة؟!» وتكلم ثالثٌ «شاطر» فقال: «ولكنّي متأكد بأنّك درستَ الجغرافية والتاريخ!»، فقال: «وهل هُما إسمان لبلدين أو علمان لشخصين؟»، وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة، وعَلاَ صوتهم بالقهقهة، وقالوا: «ما سنُّك يا عم؟» قال: «أنا في الأربعين من سنّي»، قالوا: «لقد ضيَّعتَ نصف عمرك يا عَمّنا»، وسكتَ الملاّحُ الأميّ على غصص ومضض، وبقي ينتظر دورهُ والزمان دَوَّار..

وهاج البحر وماج، وارتفعت الأمواج، وبدأت السفينة تضطرب، والأمواج فاغرة أفواهها لتبتلعها، واضطرب الشباب في السفينة، وكانت أول تجربتهم في البحر، وأشرفت السفينة على الغَرَق، وجاء دور الملاَّح الأُمِّي فقال في هدوءٍ ووقار: «ما هي العلوم التي درستموها يا شباب؟» وبدأ الشباب يتلون قائمة طويلة للعلوم والآداب التي درسوها، من غير أن يفطنوا لغرض الملاّح الأُمِّي الحكيم، ولما انتهوا من عدّ العلوم التي درسوها، قال في وَقَار تمزجه نشوة الانتصار: «لقد درستم يا أبنائي هذه العلوم الكثيرة، فهل درستم علم السباحة؟ وهل تعرفون إذا انقلبت هذه السفينة ـ لا قَدَّر الله ـ كيف تسبحون وتصلون إلى الساحل بسلام؟» قالوا: «لا والله يا عم، هو العلم الوحيد الذي فاتتنا دراسته والإلمام به»، هنالك ضحك الملاح وقال: «إذا كنتُ قد ضيَّعتُ نصفَ عمري فقد أتلفتُم عمركم كلّه، لأنّ هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان، إنّما كان يُنجدكم العلم الوحيد، علم السّباحة الذي تجهلونه».

هذه قصّة الأمم المُتمدنة الرّاقية التي كانت دائرة معارف، أو موسوعة في العلوم والآداب، وكانت زعيمة العالم كله، في كلّ ما أنتجه البشر وتوصّلوا إليه في العلوم والحكمة، واكتشفوا به هذا الكون الواسع والذخائر المودوعة فيه، ولكنّها جهلت العلم الوحيد الذي يوصل إلى الخالق، ويُعرف به، والذي تنال به النّجاة، وهو بَرّ السلام، والساحل المقصود هو الذي يضبط الأعمال والرغبات، ويُقهر النزوات والشهوات، ويُصلح الأخلاق ويُهذب النفوس، ويردع عن الشرّ، ويدفع إلى الخير، ويُلهم خشية الله التي لا صلاح للمجتمع ولا قوام للمدنية بغيرها، ويحمل الإنسان على التهيؤ للمصير، والاستعداد للآخرة، ويُخفف من غلواء الأنانية وحبّ الذات، والتكالب على حطام الدّنيا، ويُلهمه الاقتصاد والسداد، ويمنعه من الجهاد في غير جهاد.

وقد حكى الله قصة هذه الأمم التي غَلبَ عليها الزهُوّ والتيه، واستصغرت شأن الأنبياء المبعوثين في عصرها، فقال: **﴿فلما جاءتهم رُسلهم بالبيِّنات فرحوا بما عندهم من العلم، وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** [غافر: ٨٣]. .

«إنّ مركز النبوة والأنبياء، ووضع رسالتهم ومهمتهم بين مراكز الطوائف البشرية ورسالاتها ومهماتها. . كالروح بالنسبة إلى الجسد، وكالعقل بالنسبة إلى العمل، وكالعين بالنسبة إلى الإنسان، والدنيا بغيرهم ـ بعلومها وآدابها ومدنياتها وصنائعها ـ ظلام في ظلام في ظلام: **﴿ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومَن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾** [النور: ٤٠]. .»(١).

سنّة الله:

إنّها سنّة من سنن الله أن يرسل الرّسل، وأن ينزل الله عليهم الكتاب:

---

(١) النبوة والأنبياء: ١٩ ـ ٢٥.

﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء. قل: مَن أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ـ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ـ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم؟ قل: الله. ثم ذرهم في خوضهم يلعبون. وهذا كتاب أنزلناه مبارك مُصَدّق الذي بين يديه. . .﴾ [الأنعام: ٩١، ٩٢].

لقد كان المشركون في معرض العناد واللجاج يقولون: «إنّ الله لم يرسل رسولاً من البشر؛ ولم ينزل كتاباً يوحي به إلى بشر». بينما كان إلى جوارهم في الجزيرة أهل الكتاب من اليهود، ولم يكونوا ينكرون عليهم أنّهم أهل كتاب، ولا أنّ الله أنزل التوراة على موسى ـ عليه السلام ـ إنّما هم كانوا يقولون ذلك القول في زحمة العناد واللجاج، ليكذبوا برسالة محمد ـ ﷺ ـ لذلك يواجههم القرآن الكريم بالتنديد بقولتهم: «ما أنزل الله على بشر من شيء»، كما يواجههم بالكتاب الذي جاء به موسى من قبل:

﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ . .

وهذا القول الذي كان يقوله مشركو مكة في جاهليتهم، يقوله أمثالهم في كل زمان؛ ومنهم الذين يقولونه الآن، ممن يزعمون أنّ الأديان من صنع البشر، وأنها تطوّرت وترقت بتطوّر البشر وترقيهم، لا يفرقون في هذا بين ديانات هي من تصوّرات البشر أنفسهم، كالوثنيات كلها قديماً وحديثاً، ترتقي وتنحط بارتقاء أصحابها وانحطاطهم، ولكنّها تظلّ خارج دين الله كله، وبين ديانات جاء بها الرّسل من عند الله، وهي ثابتة على أصولها الأولى، جاء بها كلّ رسول، فتقبلتها فئة وعتت عنها فئة، ثم وقع الانحراف عنها والتحريف فيها، فعاد الناس إلى جاهليتهم في انتظار رسول جديد، بذات الدين الواحد الموصول.

وهذا القول يقوله ـ قديماً أو حديثاً ـ مَن لا يقدر الله حقّ قدره، ومَن لا يعرف كرم الله وفضله، ورحمته وعدله. .

إنهم يقولون: «**إن الله لا يرسل من البشر رسولاً ولو شاء لأنزل ملائكة!**» كما كان العرب يقولون.

أو يقولون: «إنّ خالق هذا الكون الهائل لا يمكن أن يعنى بالإنسان «الضئيل» في هذه الذرّة الفلكيّة التي اسمها الأرض! بحيث يرسل له الرّسل؛ وينزل على الرّسل الكتب لهداية هذا المخلوق الصغير في هذا الكوكب الصغير!» وذلك كما يقول بعض الفلاسفة في القديم والحديث! أو يقولون: «إنّه ليس هناك من إله ولا من وحي ولا من رسل.. إنّما هي أوهام النّاس أو خداع بعضهم لبعض باسم الدين!»، كما يقول المادّيون المُلحدون!

وكلّه جهل بقدر الله ـ سبحانه ـ فالله الكريم العظيم العادل الرّحيم، العليم الحكيم.. لا يدعُ هذا الكائن الإنساني وحده، وهو خَلَقَه، وهو يعلم سرّه وجهره، وطاقاته وقواه، ونقصه وضعفه، وحاجته إلى الموازين القسط التي يرجع إليها بتصوراته وأفكاره، وأقواله وأعماله، وأوضاعه ونظامه، ليرى إن كانت صواباً وصلاحاً، أو كانت خطأً وفساداً..

ويعلم ـ سبحانه ـ أنّ العقل الذي أعطاه له، يتعرض لضغوط كثيرة من شهواته ونزواته ومطامعه ورغباته، فضلاً على أنّه موكل بطاقات الأرض التي له عليها سلطان بسبب تسخيرها له من الله، وليس موكلاً بتصوّر الوجود تصوّراً مُطلقاً، ولا بصياغة الأسس الثابتة للحياة، فهذا مجال العقيدة التي تأتي له من الله، فتنشىء له تصوّراً سليماً للوجود والحياة.. ومن ثم لا يكله الله إلى هذا العقل وحده، ولا يكله كذلك إلى ما أودع فطرته من معرفةٍ لدنيّةٍ بربّها الحق، وشوقٍ إليه، ولياذٍ به في الشدائد..

فهذه الفطرة قد تفسد كذلك بسبب ما يقع عليها من ضغوط داخليّة وخارجيّة، وبسبب الإغواء والاستهواء الذي يقوم به شياطين الجنّ والإنس، بكلّ ما يملكون من أجهزة التوجيه والتأثير...

إنّما يَكل الله النّاسَ إلى وَحْيه ورسله وهُداه وكُتبه، ليردّ فطرتهم إلى

استقامتها وصفائها، وليردّ عقولهم إلى صحتها وسلامتها، وليجلو عنهم غاشية التضليل من داخل أنفسهم ومن خارجها.. إنّها سُنّة من سُنَن الله أن يُرسل الرّسل، فيصطفي من النّاس مَن يشاء، فيوحي إليه أن أَنْذِر النّاس.. وهل في ذلك شيء عُجاب؟!

﴿أكان للنّاس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أَنْذِر الناس، وبَشِّر الذين آمنوا أن لهم قَدَمَ صدق عند ربهم؟ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ [يونس: ٢]..

سؤال استنكاري، يستنكر هذا العجب الذي تلقى به النّاس حقيقة الوحي منذ كانت الرُّسل.

لقد كان السؤال الدائم الذي قوبل به كل رسول: «أَبَعَثَ الله بَشَراً رسولاً؟»،

ومبعث هذا السؤال هو عدم إدراك قيمة «الإنسان»، عدم إدراك النّاس أنفسهم لقيمة «الإنسان» الذي يتمثل فيهم، فهم يستكثرون على بشر أن يكون رسول الله، وأن يتصل الله به ـ عن طريق الوحي ـ فيكلفه هداية النّاس. إنّهم ينتظرون أن يرسل الله مَلَكاً أو خَلْقاً آخر أعلى رتبة من الإنسان عند الله، غير ناظرين إلى تكريم الله لهذا المخلوق، ومن تكريمه أن يكون أهلاً لحمل رسالته؛ وأن يختار من بين أفراده مَن يتصل بالله هذا الاتصال الخاص.

هذه كانت شبهة الكفار المكذبين على عهد الرسول ـ ﷺ ـ وشبهة أمثالهم في القرون الأولى.

فأمّا في هذا العصر الحديث فيقيم بعض النّاس من أنفسهم لأنفسهم شبهة أخرى لا تقلّ تهافتاً عن تلك!.. إنهم يسألون: «كيف يتمّ الاتصال بين بشرٍ ذي طبيعة مادية وبين الله المخالف لطبيعة كلّ شيء ممّا خلق. والذي ليس كمثله شيء؟!»، وهو سؤال لا يحقّ لأحد أن يسأله إلا أن يكون قد أحاط علماً بحقيقة الله ـ سبحانه ـ وطبيعة ذاته الإلّهية، كما أحاط علماً

بكلّ خصائص الإنسان التي أودعها الله إيّاه، وهو ما لا يدّعيه أحد يحترم عقله، ويعرف حدود هذا العقل، بل يعرف أنّ خصائص الإنسان القابلة للكشف ما يزال يُكشفُ منها جديدٌ بعد جديد، ولم يقف العلم بعد حتى يُقال إنّه أدرك كلّ الخصائص الإنسانية القابلة للإدراك، فضلاً على أنّه ستبقى وراء إدراك العلم والعقل دائماً آفاق من المجهول بعد آفاق.

ففي الإنسان إذن طاقات مجهولة لا يعلمها إلا الله، والله أعلمُ حيث يجعل رسالته في الإنسان ذي الطاقة التي تحمل هذه الرّسالة، وقد تكون هذه الطاقة مجهولة للنّاس، ومجهولة لصاحبها نفسه قبل الرّسالة، ولكن الله الذي نفخ في هذا الإنسان من روحه عليم بما تنطوي عليه كلّ خلية، وكلّ بنية، وكلّ مخلوق، وقادر على أن يُطَوِّع لإنسان هذا الاتصال الخاص بكيفيةٍ لا يدركها إلا مَن ذاقها وأُوتيها.

لقد عجبوا أنْ جاءهم رسولٌ منهم ﴿**بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم، فقال الكافرون: هذا شيء عجيب**...﴾ [ق: ٢]. لقد عجبوا.. وما في هذا من عجب، بل هو الأمر الطبيعي الذي تتقبّله الفطرة السليمة ببساطة وترحيب، الأمر الطبيعي أن يختار الله من النّاس واحداً منهم، يحسّ بإحساسهم، ويشعر بشعورهم، ويتكلم بلغتهم، ويشاركهم حياتهم ونشاطهم، ويدرك دوافعهم وجواذبهم، ويعرف طاقاتهم واحتمالهم، فيرسله إليهم لينذرهم ما ينتظرهم إن هم ظلّوا فيما هم فيه، ويعلمهم كيف يتجهون الاتجاه الصحيح، ويبلغهم التكاليف التي يفرضها الاتجاه الجديد، وهو معهم أول مَن يحمل هذه التكاليف.

وهكذا اقتضت حكمة الله أن يكون الرّسل من البشر، يتلقون الوحي فيدعون به النّاس: ﴿**وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نُوحي إليهم، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون. وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام، وما كانوا خالدين**﴾ [الأنبياء: ٧، ٨]..

وما كان الرّسل إلا بشراً من البشر، وما كان الرّسل من قبلُ إلا رجالاً

ذوي أجساد، وما جَعَل الله لهم أجساداً ثم جعلهم لا يأكلون الطعام، فَأَكْلُ الطعام من مقتضيات الجسديّـة، والجسديّـة من مقتضيات البشـريّة. وهم بحكم أنّهم بشر مخلوقون لم يكونوا خالدين..

هذه هي سنّة الله المطّردة فليسألوا أهل الكتاب الذين عرفوا الأنبياء من قبل، إن كانوا هم لا يعلمون.

ولقد جَهِدَ ناسٌ من المفسرين المحْدَثين في إثبات الوحي عن طريق العلم للتقريب، ونحن لا نُقِرّ هذا المنهج من أساسه، فللعلم ميدان، هو الميدان الذي يملك أدواتـه، وللعلم آفاق هي الآفـاق التي يملك أدوات كشفها ومراقبتها.

والعلم لم يَدّعِ أنّه يعرف شيئاً عن حقيقة الرّوح، فهي ليست داخلة في نطاق عمله، لأنّها ليست شيئاً قابلاً للاختبار المادي الذي يملك العلم وسائله، لذلك تجنَّب العلم الملتزم للأصول العلميّة أن يدخل في ميدان الروح. أما ما يُسَمَّى بـ «العلوم الروحانية» فهي محـاولات وراءها الـرّيب والشكوك في حقيقتها وفي أهدافها كذلك[1]..!

ولا سبيل إلى معرفة شيء يقيني في هذا الميـدان إلا ما جـاءنا من مصدر يقيني كالقرآن والحديث، وفي الحدود التي جاء فيها بلا زيادة ولا تصرّف ولا قياس، إذ أنّ الزيادة والتصرف والقياس عمليات عقلية، والعقل هنا في غير ميدانه، وليس معه أدواته، لأنه لم يُزَوَّد بأدوات العمل في هذا الميدان.

لقد مضت إرادة الله في اختيار الرُّسُلِ من البشر **﴿أكانَ للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أَنْذِر الناس وبَشِّر الذين آمنوا أنَّ لهم قَدَم صِدق عند ربهم؟..﴾** [يونس: ٢]..

فهذه خلاصة الوحي: إنذار النّاس بعاقبة المخالفة، وتبشير المؤمنين

---

(١) راجع «الروحية الحديثة: حقيقتها وأهدافها» للدكتور محمد محمد حسين.

بعقبى الطاعة، وهذا يتضمن بيان التكاليف الواجبة الاتباع، وبيان النواهي الواجبة الاجتناب، فهذا هو الإنذار والتبشير ومقتضياتهما على وجه الإجمال.

وحكمة الله واضحة في الإيحاء إلى رجل منهم، رجل يعرفهم ويعرفونه، يطمئنون إليه ويأخذون منه ويعطونه، بلا تكلّف ولا جفوة ولا تحرّج، أمّا حكمته في إرسال الرّسل فهي أوضح ـ وقد تقدّم بيانه ـ والإنسان مهيأ بطبعه للخير والشر، وعقله هو أداته للتمييز، ولكن هذا العقل في حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائماً كلما غمَّ عليه الأمر، وأحاطت به الشبهات، وجذبته التيارات والشهوات، وأثَّرت فيه المؤثرات العارضة التي تصيب البدن والأعصاب والمزاج، فتتغيّر وتتبدل تقديرات العقل أحياناً من النقيض إلى النقيض، هو في حاجة إلى ميزان مضبوط لا يتأثر بهذه المؤثرات ليعود إليه، وينزل على إرشاده، ويرجع إلى الصواب على هداه، وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعة الله.

وهذا يقتضي أن تكون لدين الله حقيقة ثابتة يرجع إليها العقل البشري بمفهوماته كلّها، فيعرضها على هذا الميزان الثابت، وهناك يعرف صحيحها من خاطئها..

والقول بأن دين الله هو دائماً «مفهوم البشر لدين الله» وأنّه من ثمّ «مُتطور في أصوله» يُعرِّض هذه القاعدة الأساسية في دين الله ـ وهي ثبات حقيقته وميزانه ـ لخطر التميع والتأرجح والدوران المستمر مع المفهومات البشريّة. بحيث لا يبقى هناك ميزان ثابت تُعرض عليه المفهومات البشرية..

والمسافة قصيرة بين هذا القول، والقول بأنّ الدين من صنع البشر.. فالنتيجة النّهائية واحدة، والمزلق خطيرٌ وخطير للغاية، والمنهج بجملته يستوجب الحذر الشديد.. منه ومن نتائجه القريبة والبعيدة..

ومع وضوح قضية الوحي على هذا النحو، فإنّ الكافرين يستقبلونها كما لو كانت أمراً عجيباً: ﴿**قال الكافرون: إن هذا لساحر مبين**﴾..

ساحر لأنّ ما ينطق به مُعجز، وأَوْلَى لهم ـ لو كانوا يتدبرون ـ أن يقولوا: نبي يُوحى إليه لأنّ ما ينطق به مُعجز. فالسِّحر لا يتضمن من الحقائق الكونيّة الكبرى ومن منهج الحياة والحركة، ومن التوجيه والتشريع ما يقوم به مجتمع راقٍ، وما يرتكز عليه نظام متفرد. .

ولقد كان يختلط عندهم الوحي بالسِّحر، لاختلاط الدين بالسِّحر في الوثنيات كلّها، ولم يكن قد وَضَح لهم ما يتضح للمسلم حين يدرك حقيقة دين الله، فينجو من هذه الوثنيات وأوهامها وأساطيرها.

لقد كان الوحي يتنزّل على الرّسل الذين كانوا من البشر، ليعيشوا حياة البشر، فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم، وسلوكهم العملي نموذجاً حَيًّا لما يدعون إليه النّاس. فالكلمة الحيّة الواقعية هي التي تُؤَثِّر وتهدي، لأن الناس يرونها مُتمثّلة في شخص مترجمة إلى حياة.

ولو كان الرّسل من غير البشر لا يأكلون الطعام، ولا يمشون في الأسواق، ولا يعاشرون النساء، ولا تعتلج في صدورهم عواطف البشر وانفعالاتهم لما كانت هناك وشيجة بينهم وبين الناس، فلا يحسُّون دوافع البشر التي تحركهم، ولا البشر يتأسُّون بهم ويقتدون.

وأيّما داعية لا يصدق فِعلُهُ قولَهُ فإنّ كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب، مهما تكن كلماته بارعة وعباراته بليغة، فالكلمة البسيطة التي يصاحبها الانفعال، ويؤيدها العمل، هي الكلمة المثمرة التي تُحرك الآخرين إلى العمل.

والذين كانوا يقترحون أن يكون الرّسول من الملائكة، كالذين يقترحون اليوم أن يكون الرّسول مُنَزَّهاً عن انفعالات البشر، كلهم يتعنتون ويغفلون عن هذه الحقيقة، وهي: أن الملائكة لا يحيون حياة البشر بحكم تكوينهم ولا يمكن أن يحيوها. . لا يمكن أن يحسُّوا بدوافع الجسد ومقتضياته، ولا بمشاعر هذا المخلوق الآدمي ذي التكوين الخاص، وأنّ الرّسول يجب أن يحسّ بهذه الدوافع والمشاعر، وأن يزاولها في حياته

الواقعية ليرسم بحياته دستور الحياة العملي لمُتَّبعيهِ من الناس.

وهناك اعتبار آخر، وهو أنّ شعور النّاس بأنّ الرّسول مَلَك لا يُثير في نفوسهم الرّغبة في تقليده في جزئيات حياته، لأنّه من جنسٍ غير جنسهم، وطبيعة غير طبيعتهم، فلا مطمع لهم في تقليد منهجه في حياته اليومية، وحياة الرّسول أسوة دافعة لغيرهم من النّاس.

وهذا وذلك فوق ما في ذلك الاقتراح من غفلة عن تكريم الله للجنس البشري كله، باختيار الرّسل منه، ليتصلوا بالملأ الأعلى ويتلقوا منه.

لذلك كله اقتضت سنّة الله الجارية اختيار الرّسل من البشر؛ وأجرت عليهم كل ما يجري على البشر من ولادة وموت، ومن عواطف وانفعالات، ومن آلام وآمال، ومن أكل للطعام ومعاشرة للنّساء.. وجعلت أكبر الرّسل وأكملهم وخاتمهم وصاحب الرّسالة الباقية فيهم، **أكمل نموذج لحياة الإنسان على الأرض**، بكل ما فيها من دوافع وتجارب وعمل وحياة.

وبَعْدُ، فهذا هو الذي يليق بكرم الله وفضله، ورحمته، وعدله، وحكمته وعلمه.. فما كان ليخلق البشر، ثم يتركهم سُدى، ثم يُحاسبهم يوم القيامة ولم يبعث فيهم رسولاً: ﴿**وما كُنا مُعذِّبين حتى نبعث رسولاً**﴾ [الإسراء: ١٥]..

فتقدير الله حقّ قدره يقتضي الاعتقاد بأنّه أرسل إلى عباده رُسلاً يستنقذون فطرتهم من الركام، ويساعدون عقولهم على الخلاص من الضغوط، والانطلاق للنظر الخالص والتدبُّر العميق، وأنه أوحى إلى هؤلاء الرّسل منهج الدعوة إلى الله، وأنزل على بعضهم كُتُباً تبقى بعدهم في قومهم إلى حين - كَكُتب موسى وداود وعيسى - أو تبقى إلى آخر الزّمان كهذا القرآن.

مهمّة الرسول وعمله:

يُبين القرآن الكريم وظيفة الرّسول وعمله وموقف النّاس منه، وموقفه

من النّاس: ﴿**وأرسلناك للناس رسولاً. وكفى بالله شهيداً. مَن يُطع الرسول فقد أطاع الله. ومَن تَولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً**﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿**ما على الرسول إلا البلاغ، والله يعلمُ ما تبدون وما تكتمون**﴾ [المائدة: ٩٩]..

إنّ وظيفة الرّسول هي أداء الرّسالة، لا إحداث الخير ولا إحداث السوء. فهذا من أمر الله.

وأمر النّاس مع الرسول - ﷺ - أنّ مَن أطاعه فقد أطاع الله، فالرّسل قد أُرسلت لِتُطاع - بإذن الله - لا لمجرد الإبلاغ والإقناع فحسب: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا لِيُطاع بإذن الله**﴾ [النساء: ٦٣]. فلا تفرقة بين الله ورسوله، ولا بين قول الله وقول رسوله، ومَن تَولّى مُعرضاً مُكَذِّباً فأمره إلى الله من ناحية حسابه وجزائه.

ولم يرسل الرسول - ﷺ - ليجبره على الهدى، ويُكرهه على الدين، وليس مُوَكَّلاً بحفظه من العصيان والضلال، فهذا ليس داخلاً في وظيفة الرّسول، ولا داخلاً في قدرة الرّسول ﴿**وما نرسل المرسلين إلا مُبَشّرين ومنذرين فمَن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كذّبوا بآياتنا يمسّهم العذاب بما كانوا يفسقون**﴾ [الأنعام: ٤٨، ٤٩]..

بهذا البيان القرآني يُصحّح تصوّر النّاس عن حقيقة ما يقع لهم.. فكلّه لا ينشأ ولا يتحقق إلا بإرادة الله وقَدَره، وما يصيبهم فهو من عند الله، لأنّه لا يُنشيء شيئاً ولا يُحدثه ولا يخلقه ويوجده إلا الله.

والرسول وظيفته الأولى والأخيرة أنّه رسول، لا يُنشيء ولا يُحدث ولا يخلق، ولا يشارك الله تعالى في خاصية الألوهية هذه: وهي الخلق والإنشاء والإحداث. وهو يبلغ ما جاء به من عند الله، فطاعته فيما يأمر به إذن هي طاعة الله، وليس هناك طريق آخر لطاعة الله غير طاعة الرّسول، والرّسول ليس مُكَلَّفاً أن يُحدث الهدى للمعرضين المتولين، ولا أن يحفظهم من الإعراض والتولي، بعد البلاغ والبيان.

إنّ النبوّة هي مقام بَشري في أُفق مرسوم محدود من الله ربّ العالمين **﴿ما كان لنبي أن يُؤتيه اللَّهُ الكتابَ والحكمَ والنبوة، ثم يقول للناس: كونوا عباداً لي من دون الله. ولكن كونوا رَبَّانيين بما كنتُم تعلِّمون الكتاب وبما كنتُم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً. أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾** [آل عمران: ٧٨ ـ ٨٠]..

إنّ النبي يوقنُ أنّه عَبْد، وأنّ الله وحده هو الربّ، الذي يتجه إليه العباد بعبوديتهم وبعبادتهم، فما يكن أن يَدّعي لنفسه صفة الألوهية التي تقتضي من الناس العبودية، فلن يقول نبيٌّ للناس **﴿كونوا عباداً لي من دون الله﴾** ولكن يقول لهم: **﴿كونوا ربانيين﴾**.. مُنتسبين إلى الربّ، عباداً له وعبيداً، وتوجهوا إليه وحده بالعبادة، وخُذوا عنه وحده منهج حياتكم، حتّى تخلصوا له وحده فتكونوا **﴿ربانيين﴾**.. كونوا **﴿ربانيين﴾** بحكم علمكم للكتاب وتدارسكم له. فهذا مقتضى العلم بالكتاب ودراسته.

والنبي لا يأمر النّاس أبداً أن يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً، فالنبيُّ لا يأمر النّاس بالكفر بعد أن يُسلموا للّه ويستسلموا لألوهيته، وقد جاء ليهديهم إلى الله لا ليضلهم، وليقودهم إلى الإسلام لا ليكفرهم!

هذا هو منطق النبوة ووظيفة الرّسول: **﴿قل إنّما أنا بَشَرٌ مثلكم يُوحَى إليّ أنّما إلَهكم إلَه واحد..﴾** [الكهف: ١١٠]..

وترسم هذه الآية أعلى أفق للبشرية ـ وهو أفق الرّسالة الكاملة الشاملة، فإذا هو قريب محدود بالقياس إلى الأفق الأعلى الذي تتقاصر دونه الأبصار، وتنحسر دونه الأنظار..

إنّه أفق الألوهية الأسمى.. فأين هنا آفاق النبوة؟، وهي ـ على كل حال ـ آفاق بشرية؟.

.. بشرٌ يتلقى من ذلك الأفق الأسمى، بشرٌ يستمدّ من ذلك المعين الذي لا ينضب، بشرٌ لا يتجاوز الهدى الذي يتلقاه من مولاه، بشرٌ يتعلَّم فَيَعْلَم فيُعَلِّم.. فمَن كان يتطلع إلى القرب من ذلك الجوار الأسنى، فلينتفع

بما يتعلم من الرّسول الذي يتلقى، وليأخذ بالوسيلة التي لا وسيلة سواها: **﴿فمَن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشرك بعبادة ربّه أحداً﴾** [الكهف: ١١٠].

هذا هو جواز المرور إلى ذلك اللقاء الأثير.

والله يحفظ دعوته من تكذيب المكذبين، وتعطيل المعوقين، ومعاجزة المعاجزين.. يحفظها كذلك من كيد الشيطان، ومن محاولته أن ينفذ إليها من خلال أُمنيات الرّسل النّابعة من طبيعتهم البشريّة، وهم معصومون من الشيطان ولكنّهم بشر تمتد نفوسهم إلى أمانيّ تتعلق بسرعة نشر دعوتهم وانتصارها، وإزالة العقبات من طريقها، فيحاول الشيطان أن ينفذ من خلال أمانيهم هذه فيحوّل الدعوة عن أصولها وعن موازينها.. فَيُبْطِل كيد الشيطان، ويصون دعوته، ويُبيّن للرّسل أصولها وموازينها، فيحكم آياته، ويُزيل كلّ شبهة في قيم الدعوة ووسائلها:

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ إلا إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أمنيته، فينسخ اللّهُ ما يُلقي الشيطان، ثم يُحكم الله آياته، والله عليم حكيم. ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد. وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم، وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ [الحج: ٥٢ - ٥٤].

إنَّ الرّسل عندما يُكَلَّفون حمل الرسالة إلى الناس، يكون أحبّ شيء إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة، وأن يُدركوا الخير الذي جاءوهم به من عند الله فيتبعوه.. ولكن العقبات في طريق الدعوات كثيرة، والرّسل بشر محدودو الأجل، وهم يحسّون هذا ويعلمونه، فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق.. يودون مثلاً لو هادنوا الناس فيما يعزّ على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتاً لعل الناس أن يَفيئوا إلى للهدى، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة!

ويَودُّون مثلاً لـو جاروهم في شيء يسيـر من رغبات نفـوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة!

ويَودُّونَ ويَودُّون، من مثل هذه الأماني والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها. . ذلك على حين يريد الله أن تمضي الدعوة على أصولها الكاملة، وفق موازينها الدقيقة، ثم مَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر.

فالكسب الحقيقي للدعوة في التقدير الإلهي الكـامل غيـر المشوب بضعف البشـر وتقديـرهم. . هـو أن تمضي على تلك الأصـول وفق تلك الموازين، ولو خسرت الأشخاص في أول الطريق.

فالاستقامة الدقيقة الصارمة على أصول الدعوة ومقـاييسها كفيـل أن يُثني هؤلاء الأشخاص أو مَن هم خير منهم إلى الدعوة في نهاية المطاف، وتبقى مُثُل الدعوة سليمةً لا تُخدش، مُستقيمةً لا عوج فيها ولا انحناء. .

ويجد الشيطان في تلك الرغبات البشرية، وفي بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات، فرصته للكيد للدعوة، وتحويلهـا عن قواعـدها، وإلقاء الشبهات حولها في النفوس. . ولكن الله يحول دون كيد الشيطان، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات، ويكلّف الرّسل أن يكشفوا للنّاس عن الحكم الفاصل، وعمّا يكون قد وقع منهم من خطأ في اجتهادهم للدعوة، كما حدث في بعض تصرفات الرّسول ـ ﷺ ـ وفي بعض اتجاهاته، مما بيّن الله فيه بياناً في القرآن. .

بذلك يبطل الله كيد الشيطان، ويحكم الله آياته، فلا تبقى هنـالك شبهة في الوجه الصواب،

وفي حياة النبي ـ ﷺ ـ وفي تاريخ الدعوة الإسلاميـة نجد أمثلة من هذا، تغنينا عن تأويل الكلام.

ويُبَيِّن القرآن الكريم وظيفة الرّسل الذين تطالبهم أقوامهم بالخوارق،

وإن هم إلا مُبلِّغين، مُبشرين ومُنْذِرين، ثم يكون من أمر الناس ما يكون، وفق ما يتخذونه لأنفسهم من مواقف يترتب عليها الجزاء الأخير:

﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمَن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كذّبوا بآياتنا يمسُّهم العذاب بما كانوا يفسقون﴾ [الأنعام: ٤٨، ٤٩]..

لقد كان هذا الدين يُعدّ البشريّة للرشد العقلي، ويُؤَهِّلها لاستخدام هذه الأداة العظيمة التي وهبها الله للإنسان استخداماً كاملاً في إدراك الحق الذي تنبثُ آياته في صفحات الوجود، وفي أطوار الحياة، وفي أسرار الخلق، والذي جاء هذا القرآن لكشفه وتجليته وتوجيه الإدراك البشري إليه..

وكان هذا كله يقتضي الانتقال بالبشريّة من عهد الخوارق الحسية؛ التي تلوي الأعناق وتجبر المنكرين على الإذعان، أمام القهر بالخارقة المادية البادية للعيان! إلى توجيه الإدراك البشري لملاحظة بدائع الصنعة الإلٓهية في الوجود كله. وهي في ذاتها خوارق معجزة.. ولكنّها خوارق دائمة يقوم عليها كيان الوجود، ويتألف منها قوامه، وإلى مخاطبة هذا الإدراك بكتاب من عند الله باهر، معجز في تعبيره ومعجز في منهجه، ومعجز في الكيان الاجتماعي العضوي الحركي الذي يرمي إلى إنشائه على غير مثال، والذي لم يلحق به من بعده أي مثال.

وقد اقتضى هذا الأمر تربية طويلة، وتوجيهاً طويلاً، حتى يألف الإدراك البشري هذا اللون من النقلة، وهذا المدى من الرّقي؛ وحتى يتجه الإنسان إلى قراءة سفر الوجود بإدراكه البشري، في ظلّ التوجيه الربّاني، والضبط القرآني، والتربية النبوية.. قراءة هذا السفر قراءة غيبية واقعية إيجابية في آنٍ واحد، بعيدة عن منهج التصورات الذهنية التجريدية التي كانت سائدة في قسم من الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحي، وعن منهج التصورات الحسية المادية التي كانت سائدة في قسم من تلك الفلسفة وفي

بعض الفلسفة الهندية والمصرية والبوذية والمجوسية كذلك، مع الخروج من الحسية الساذجة التي كانت سائدة في العقائد الجاهلية العربية!

وجانب من تلك التربية وهذا التوجيه يتمثل في بيان وظيفة الرّسول، وحقيقة دوره في الرّسالة: فالرّسول بشر، يرسله الله ليبشر وينذر، وهنا تنتهي وظيفته، وتبدأ استجابة البشر، ويمضي قدر الله ومشيئته من خلال هذه الاستجابة، وينتهي الأمر بالجزاء الإلّهي وفق هذه الاستجابة.. فمَن آمن وعمل صالحاً يتمثل فيه الإيمان، فلا خوف عليه مما سيأتي ولا هو يحزن على ما أسلف، فهناك المغفرة على ما أسلف، والثواب على ما أصلح.. ومَن كذب بآيات الله التي جاءه بها الرّسول، والتي لفته إليها في صفحات هذا الوجود، يمسّه العذاب بسبب كفره، الذي يعبّر عنه هنا بقوله: ﴿**بما كانوا يفسقون**﴾.. حيث يعبّر القرآن غالباً عن الشرك والكفر بالظلم والفسق في معظم المواضع.

تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض، وبيان محكم عن الرّسول ووظيفته وحدود عمله في هذا الدين..

تصور يفرد الله سبحانه بالألوهية وخصائصها، ويرد إلى مشيئة الله وقدره الأمر كله، ويجعل للإنسان ـ من خلال ذلك ـ حريّة اتجاهه وتبعة هذا الاتجاه، ويبين مصائر الطائعين للّه والعصاة بياناً حاسماً، وينفي كلّ الأساطير والتصوّرات الغامضة عن طبيعة الرّسول وعمله، مما كان سائداً في الجاهليات.. وبذلك ينقل البشريّة إلى عهد الرّشد العقلي، دون أن يضرب بها في تيه الفلسفات الذهنية، والجدل اللاهوتي، الذي استنفذ طاقة الإدراك البشري أجيالاً بعد أجيال!!!

إن القصص القرآني مرتبط بموضوعها الأصيل، وهو تجريد القلب لعبادة الله، وتخليصه من جميع العوائق، وَوَصْلَه بالسماء؛ بالإيمان أولاً واليقين، ثم برفع الحواجز والشواغل التي تحول دون الرفرفة والانطلاق إلى ذلك الأفق الكريم.

إنّ نعمة وجود الرّسول بين القوم، يدعوهم بلغة السماء، ويخاطبهم بكلام الله، ويصل بينهم وبين الله في ذوات نفوسهم وخواص شؤونهم.. نعمة فوق التصوّر حين نتملاها نحن الآن من بعيد.. فهذه الفترة ـ فترة الوحي وحياة الرسول ـ فترة عجيبة حقاً.. ﴿**وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم..**﴾ [الحديد: ٧]..

إنّ الله ـ جلّ جلاله ـ يخاطب هذا البشر من صنع يديه، على لسان عبده ـ ﷺ ـ وفي رحمة علويّة نديّة يقول لهم: خذوا هذا ودعوا ذاك! ها هو ذا طريقي فاسلكوه! لقد تعثرت خطاكم فهاكم حبلي، لقد أخطأتم وأثمتم فتوبوا وها هو ذا بابي مفتوح، تعالوا ولا تشردوا بعيداً، ولا تقنطوا من رحمتي التي وسعت كل شيء.

إن الله هو الذي يقول، يقول لهؤلاء المخاليق، وهم يعيشون معه، يحسون أنّه معهم حقيقة وواقعاً، أنّه يستمع إلى شكواهم في جنح الليل ويستجيب لها، وأنّه يرعاهم في كلّ خطوة ويعنى بها..

ألا إنه لأمر فوق ما يطيق الذي لم يعش هذه الفترة أن يتصور، ولكن هؤلاء المخاطبين بهذه الآيات عاشوها فعلاً.. ثم احتاجوا إلى مثل هذا العلاج ومثل هذه اللمسات، ومثل هذا التذكير.. وهو فضل من الله ورحمة فوق فضله ذاك ورحمته، يدركهما ويشعر بهما مَن لم تُقدر له الحياة في هذه الفترة العجيبة:

ورد في صحيح البخاري أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال يوماً لأصحابه: «أيّ المؤمنين أعجب إليكم؟» قالوا: «الملائكة». قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟» قالوا: «فالأنبياء». قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟» قالوا: «فنحن». قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها». وصدق رسول الله ﷺ. إنه لأمر متفاوت، وإن موحيات الإيمان وموجباته لديهم لشيء هائل، هائل، عجيب عجيب. وهو يعجب: «ما لهم لا يؤمنون؟».

ولقد مضت الرّسالات واحدة إثر واحدة، تأخذ بيد البشريّة وتمضي بها صعداً في الطريق على هدى وعلى نور، والبشريّة تشرد من هنا وتشرد من هناك، وتحيد عن النهج، وتغفل حداء الرائد، وتنحرف فترةً ريثما يُبعث إليها رائد جديد. . .

وفي كلّ مرّة تتكشف لها الحقيقة الواحدة في صور مُترقية، تناسب تجاربها المُتجددة حتّى إذا كانت الرّسالة الأخيرة كان عهد الرشد العقلي قد أشرق، فجاءت الرّسالة الأخيرة تخاطب العقل البشري بكليات الحقيقة كلها، لتتابع البشريّة خطواتها في ظلّ تلك الخطوط النهائية العريضة، وكانت خطوط الحقيقة الكبرى من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى رسالة جديدة.

وحدة العقيدة ووحدة الرسالة:

إنّ القرآن يعرض خط سير الرّسالة، وتاريخ هذه العقيدة الكاملة في مسيرة الرّكب البشري:

﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله مَن ينصره ورسله بالغيب. إنّ الله قويّ عزيز**. .﴾ [الحديد: ٢٥]. .

فالرّسالة واحدة في جوهرها، جاء بها الرّسل ومعهم البيّنات عليها، ومعظمهم جاء بالمعجزات الخوارق، وبعضهم أنزل عليه كتاب، والنص يقول: ﴿**وأنزلنا معهم الكتاب**﴾ بوصفهم وحدة، وبوصف الكتاب وحدة كذلك، إشارة إلى وحدة الرسالة في جوهرها.

﴿**والميزان**﴾. . مع الكتاب. فكلّ الرّسالات جاءت لتقرّ في الأرض وفي حياة النّاس ميزاناً ثابتاً ترجع إليه البشريّة، لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرّجال، وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة، وتصادم المصالح والمنافع، ميزاناً لا يحابي أحداً لأنّه

يزن بالحقّ الإلّهي للجميع، ولا يحيف على أحد لأن الله ربّ الجميع.

هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشريّة من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف، ومصطخب المنافسة وحبّ الذات.

فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة ﴿**ليقوم الناس بالقسط**﴾..

فبغير هذا الميزان الإلّهي الثابت في منهج الله وشريعته، لا يهتدي النّاس إلى العدل، وإن اهتدوا لم يثبت في أيديهم ميزانه، وهي تضطرب في مهب الجهالات والأهواء!

لقد جاء هذا الدين ليقيم قاعدة «أشهد أن لا إله إلا الله» التي جاء بها كلّ نبي إلى قومه على مدار التاريخ البشري ـ كما يقرر القرآن الكريم ـ وشهادة أن لا إلّه إلا الله ليس لها مدلول إلا أن تكون الحاكمية العليا للّه في حياة البشر، كما أنّ له الحاكمية العليا في نظام الكون سواء، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ المتحكم في الكون والعباد بقضائه وقدره، وهو المتحكم في حياة العباد بمنهجه وشريعته..

إنّ القضيّة الأساسية في دين الله منذ خَلَق الله الإنسان هي قضية الألوهية والعبودية، وتجلية حقيقتهما، ومقتضيات هذه الحقيقة في حياة النّاس..

إنّ هذه القضية الكبرى هي قضية القرآن كله، فهي تستحق أن يُرسِلَ الله من أجلها رُسله جميعاً، وأن ينزل بها كتبه جميعاً ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نُوحي إليه أن لا إلّه إلا أنا فاعبدون**﴾ [الأنبياء: ٢٥]..

إنّ حياة البشر في الأرض لا تستقيم إلا إذا استقامت هذه الحقيقة في اعتقادهم وتصوّرهم، واستقامت كذلك في حياتهم وواقعهم.

ها نحن أولاء في قصص الرحمٰن نلتقي بموكب الإيمان، يرفع أعلامَهُ

رُسُلُ الله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً. . ونشهد كيف يحاول هذا الرهط الكريم ـ بتوجيه الله وتعليمه ـ إنقاذ الركب البشري من الهاوية التي يقوده إليها الشيطان، وأعوانه من شياطين الإنس المستكبرين عن الحق في كلّ زمان، كما نشهد مواقف الصراع بين الهدى والضلال، وبين الحق والباطل، وبين الرّسل الكرام وشياطين الجن والإنس. . ثمّ نشهد مصارع المكذبين في نهاية كلّ مرحلة، ونجاة المؤمنين، بعد الإنذار والتذكير. .

إنّ القصص القرآني يعرض سير الرّكب البشري منذ النشأة الأولى، ويعرض موكب الإيمان وهو يحاول هداية هذا الركب، واستنقاذه كلّما ضلّ تماماً عن معالم الطريق، وقاده الشيطان كلية إلى المهلكة ليسلمه في نهايتها إلى الجحيم.

إنّ البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة مُوَحِّدة. . ثمّ تنحرف إلى جاهليّة ضالّة مشركة ـ بفعل العوامل المتشابكة المعقدة في تركيب الإنسان ذاته، وفي العوالم والعناصر التي يتعامل معها. . وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة التي كانت عليها قبل أن تضلّ وتشرك، فيهلك مَن يهلك، ويحيا مَن يحيا، والذين يَحيون هم الذين آبوا إلى الحقيقة الإيمانية الواحدة، هم الذين علموا أنّ لهم إلّهاً واحداً، واستسلموا بكليتهم إلى هذا الإله الواحد، هم الذين سمعوا قول رسولهم لهم: ﴿**يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره**﴾. .

فهي حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله، ويتعاقب بها الرّسل جميعاً على مدار التاريخ. . فكلّ رسول يجيء إنّما يقول هذه الكلمة لقومه الذين اجتالهم الشيطان عنها، فنسوها وضلوا عنها، وأشركوا مع الله آلهة أخرى ـ على اختلاف هذه الآلهة في الجاهليات المختلفة ـ وعلى أساسها تدور المعركة بين الحقّ والباطل. . وعلى أساسها يأخذ الله المكذبين بها وينجي المؤمنين. .

والقرآن يوحد الألفاظ التي عبّر بها جميع الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ مع اختلاف لغاتهم. . **يوحد حكاية ما قالوه**، ويوحد ترجمته في

نص واحد: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره﴾.. وذلك لتحقيق معنى وحدة العقيدة السماوية ـ على مدار التاريخ ـ حتى في صورتها اللفظية، لأن هذه العبارة دقيقة في التعبير عن حقيقة العقيدة، ولأن عرضها في القرآن بذاتها يصور وحدة العقيدة تصويراً حسياً.. ولهذا كلّه دلالته في تقرير المنهج القرآني عن تاريخ العقيدة..

وفي ضوء هذا التقرير يتبين مدى مفارقة مَنهج «الأديان المقارنة» مع المنهج القرآني.. يتبين أنّه لم يكن هناك تدرّج ولا «تطوّر» في مفهوم العقيدة الأساسي، الذي جاءت به الرّسل كلّها من عند الله، وأنّ الذين يتحدثون عن «تطور» المعتقدات وتدرجها، ويدمجون العقيدة الربّانية في هذا التدرج «والتطور» يقولون غير ما يقوله الله سبحانه!

فهذه العقيدة ـ كما نرى في القرآن الكريم ـ جاءت دائماً بحقيقة واحدة، وحُكيت العبارة عنها في ألفاظ بعينها:

﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره﴾..

وهذا الإلّه الذي دعا الرّسل كلّهم إليه هو «ربّ العالمين».. الذي يحاسب النّاس في يوم عظيم.. فلم يكن هنالك رسول من عند الله دعا إلى ربِّ قبيلة، أو ربِّ أُمّة، أو ربِّ جنس.. كما أنّه لم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى إلهين اثنين أو آلهة متعددة.. وكذلك لم يكن رسول من عند الله دعا إلى عبادة طوطمية، أو نجمية، أو «أرواحية» أو صنمية!

ولم يكن هناك دين من عند الله ليس فيه عالم آخر.. كما يزعم مَن يسمونهم «علماء الأديان» وهم يستعرضون الجاهليات المختلفة، ثم يزعمون أن معتقداتها كانت هي الديانات التي عرفتها البشرية في هذه الأزمان، دون غيرها،

لقد جاءت الرسل ـ رسولاً بعد رسول ـ بالتوحيد الخالص، وبربوبية ربّ العالمين، وبالحساب في يوم الدين.. ولكن الانحرافات في خط الاعتقاد، مع الجاهليّات الطّارئة بعد كلّ رسالة، بفعل العوامل المعقدة

المتشابكة في تكوين الإنسان ذاته وفي العوالم التي يتعامل معها. . هذه الانحرافات تمثلت في صور شتى من المعتقدات الجاهليّة. . هي هذه التي يدرسها «علماء الأديان» ثمّ يزعمون أنّها الخط الصاعد في تدرّج الديانات وتطوّرها.

وعلى أية حال فهذا هو قول الله ـ سبحانه ـ وهو أحقّ أن يُتّبع، وبخاصّة ممّن يكتبون عن هذا الموضوع في صدد عرض العقيدة الإسلاميّة، أو صدد الدفاع عنها، أمّا الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، فهم وما هم فيه. . والله يقصُّ الحقّ وهو خير الفاصلين. .

إنّ كلّ رسول من الرّسل ـ صلوات الله عليهم جميعاً ـ قد جاء إلى قومه، بعد انحرافهم عن التوحيد الذي تركهم عليه رسولهم الذي سبقه. .

فبنو آدم الأوائل نشأوا موحدين لربّ العالمين ـ كما كانت عقيدة آدم وزوجته ـ ثمّ انحرفوا بفعل العوامل التي أسلفنا ـ حتّى إذا جاءَ نوح ـ عليه السّلام ـ دعاهم إلى توحيد ربّ العالمين مرّة أُخرى، ثمّ جاء الطوفان فهلك المكذبون ونجا المؤمنون، وعمرت الأرض بهؤلاء الموحدين لربّ العالمين ـ كما علّمهم نوح ـ وبذراريهم، حتى إذا طال عليهم الأمد انحرفوا إلى الجاهلية كما انحرف مَن كان قبلهم. . حتّى إذا جاء هود أهلك المكذبون بالرّيح العقيم. . ثمّ تكررت القصّة. . وهكذا. .

ولقد أُرسل كلّ رسول من هؤلاء إلى قومه، فقال: **﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره﴾**. .

وقال كل رسول لقومه: **﴿إنّي لكم ناصح أمين﴾**، مُعبراً عن ثقل التبعة، وخطورة ما يعلمه من عاقبة ما هم فيه من الجاهلية في الدنيا والآخرة، ورغبته في هداية قومه، وهو منهم وهم منه **﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه لِيُبَيِّن لهم﴾** [إبراهيم: ٤]، **﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾** [التوبة: ١٢٨]. .

وفي كلّ مرّة وقف «الملأ» من علِّية القوم وكبرائهم في وجه كلمة الحق هذه ﴿**ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين. وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون**﴾ [الحجر: ١٠ ـ ١١]..

هكذا وَاجَهَ الكبراء ما جاءهم به رسلهم؛ بالتكذيب والسخرية، فهؤلاء المكذبون دائماً في عنادهم الذميم..

وعلى هذا النحو يجري هذا التكذيب في قلوبهم التي لا تتدبر ولا تحسن الاستقبال.. لأنّ هذه القلوب لا تحسن أن تتلقاه، سواء في هذا الجيل أم في الأجيال الخالية أم في الأجيال اللاحقة، فالمكذبون أمة واحدة، من طينة واحدة: ﴿**كذلك نسلكه في قلوب المجرمين.. لا يؤمنون به وقد خَلَتْ سُنّة الأولين**﴾ [الحجر: ١١ ـ ١٢]..

وليس الذي ينقصهم هو توافر دلائل الإيمان، فهم معاندون ومكابرون، مهما تأتهم من آية بَيِّنة، فهم في عنادهم ومكابرتهم سادرون؛ فقد رفضوا الاستسلام للّه ربّ العالمين، وأبوا أن تكون العبودية والدينونة للّه وحده، وهي القضية التي قامت عليها الرسالات كلها وقام عليها دين الله كله.

ويرسم القرآن الكريم نموذجاً باهراً للمكابرة المرذولة والعناد البغيض في مواجهة دعوة الرّسل إلى الله ربّ العالمين: ﴿**ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فَظلُّوا فيه يعرجون، لقالوا: إنّما سُكِّرت أبصارنا، بل نحن قوم مسحورون**﴾ [الحجر: ١٣]..

ويكفي تصورهم يصعدون في السماء من باب يُفتح لهم فيها، يصعدون بأجسامهم، ويرون الباب المفتوح أمامهم، ويحسون حركة الصعود ويرون دلائلها.. ثمّ هم بعد ذلك يكابرون فيقولون: لا.. لا.. ليست هذه حقيقة.. إنّما أحد سكَّر أبصارنا وخَدَّرها فهي لا ترى إنّما نتخيل: ﴿**إنّما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون**﴾..

سَكَّر أبصارنا مُسَكِّر وسحرنا ساحر، فكلّ ما نراه ونحسّه وما نتحركه تهيؤات مسكّر مسحور!

يكفي تصورهم على هذا النحو لتبدو المكابرة السمجة ويتجلى العناد المزري، ويتأكد أن لا جدوى من الجدل مع هؤلاء، ويثبت أن لَيْس الذي ينقصهم هو دلائل الإيمان، وليس الذي يمنعهم أنّ الملائكة لا تنزل، فصعودهم هُم أشدّ دلالة وألصق بهم من نزول الملائكة، إنّما هم قوم مكابرون، مكابرون بلا حياء وبلا تحرج وبلا مبالاة بالحق الواضح المكشوف، إنه نموذج بشري للمكابرة والاستغلاق والانطماس يرسمه التعبير، مثيراً لشعور الاشمئزاز والتحقير. .

وهذا النموذج ليس محليّاً ولا وَقْتياً، ولا هو وليد بيئة مُعينة في زمان معين. . إنّه نموذج للإنسان حين تفسد فطرته، وتستغلق بصيرته، وتتعطل في كيانه أجهزة الاستقبال والتلقي، وينقطع عن الوجود الحيّ من حوله، وعن إيقاعاته وإيحاءاته. . وهنا يصدع كلّ رسول بالحقّ في وجه هذا الطاغوت. . ثمّ ينقسم قومه إلى أُمّتين مُتفاصلتين على أساس العقيدة، وتنبتّ وشيجة القوميّة ووشيجة القرابة العائليّة، لتقوم وشيجة العقيدة وحدها، ودذا «القوم» الواحد، أُمّتان مُتفاصلتان لا قُربى بينهما ولا علاقة! وعندئذٍ يجيء الفتح. . ويفصل الله بين الأمة المُهتدية والأمة الضالة، ويأخذ المكذبين المستكبرين ويُنجي الطّائعين المستسلمين.

وما جرت سنّة الله قط بفتح ولا فصل قبل أن ينقسم القوم الواحد إلى أُمتين على أساس العقيدة، وقبل أن يجهر أصحاب العقيدة بعبوديتهم للّه وحده، وقبل أن يثبتوا في وَجه الطاغوت بإيمانهم، وقبل أن يعلنوا مفاصلتهم لقومهم. . وهذا ما يشهد به تاريخ دعوة الله على مدار التاريخ.

إنّ استعراض القرآن الكريم لقصص الرّسل إنّما هو لتقرير الكلمة الواحدة التي جاء بها الجميع، والاستقبال الواحد الذي لقوه، ومن ثمّ التميّز والمُفاصلة بين المؤمنينْ والكافرين. .

وعلى هذا الأساس بدأ القرآن بذكر نوح ـ عليه السّلام ـ الذي واجه ذراري من أولاد آدم قد طُمست قلوبهم بعد أن اجتالتهم الشياطين من

الإسلام، بدأ القرآن بذكر نوح ليُحدّد نقطة البدء، وينتهي بعيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ ليحدّد النقطة الأخيرة قبل الرّسالة. ويدلّ هذا الاستعراض على تشابه حلقاتها بين البدء والنهاية:

﴿ولقد أرسلنا نُوحاً إلى قَومه، فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلَه غيره. أفلا تتقون؟ فقال الملأ الذين كفروا من قومه: ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم، ولو شاء الله لأنزل ملائكة، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين. إن هو إلا رجل به جِنَّة، فتربصوا به حتى حين. قال ربِّ انصرني بما كذبون﴾ [المؤمنون: ٢٢ ـ ٢٦]..

﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين. فأرسلنا فيهم رسولاً أن اعبدوا الله ما لكم من إلَه غيرُه أفلا تتقون. وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذّبوا بِلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون. ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون. أيعدكم أنكم إذا مِتم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون. هيهات هيهات ما توعدون. إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين. إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين. قال ربِّ انصرني بما كذّبون. قال عمّا قليلٍ لَيُصْبِحُنّ نادمين. فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غُثاءً فَبُعْداً للقوم الظالمين.

ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين. ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون.

ثم أرسلنا رُسُلنا تترا كل ما جاء أمةً رسولُها كذّبوه فأَتْبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فَبُعداً لقوم لا يؤمنون.

ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين. إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين. فقالوا أنؤمن لبَشَرين مِثْلنا وقومُهما لنا عابدون. فكذّبوهما فكانوا من المُهلكين.

ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون. وجعلنا ابنَ مريم وأُمَّهُ آيةً وآويناهما إلى رَبوة ذات قرار ومعين.

يا أيها الرُّسُل كُلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم. وإنَّ هذه أُمَّتُكم أُمةً واحدة وأنا ربُّكم فاتقون﴾ [المؤمنون: ٣٠ - ٥٢].

هكذا في إجمال، تُلخص الآيات القرآنية تاريخ الدعوة، وتُقرّر سنّة الله الجارية، في الأمد الطويل بين نوح وهود في أول السلسلة، وموسى وعيسى في آخرها.. كل قرن يستوفي أجله ويمضي: ﴿**ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون**﴾. وكلهم يكذبون ﴿**كلما جاء أمة رسولها كذبوه**﴾. وكلما كذّب المكذبون أخذتهم سنّة الله: ﴿**فأتبعنا بعضهم بعضاً**﴾. وبقيت العبرة ماثلة في مصارعهم لمَن يعتبرون: ﴿**وجعلناهم أحاديث**﴾ تتناقلها القرون.

هكذا يُلَخِّص القرآن الكريم قصّة الرّسل والرّسالات ﴿**تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض منهم مَن كلّم الله ورفَع بعضَهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم مَن آمن ومنهم مَن كفر**﴾ [البقرة: ٢٥٣].

هذه الآية أفردت جماعة الرّسل ومَيَّزتها من بين النّاس، كما أنّها تقرّر أنّ الله فضّل بعض الرّسل على بعض، وتذكر بعض أمارات التفضيل، ثمّ تشير إلى اختلاف الذين جاءوا من بعدهم من الأجيال المتعاقبة ـ من بعد ما جاءتهم البينات ـ وإلى اقتتالهم بسبب هذا الاختلاف، كما تقرّر أنّ بعضهم آمن وبعضهم كفر، وأنّ الله قد قدر أن يقع بينهم القتال لدفع الكفر بالإيمان، ودفع الشر بالخير، وهذه الحقائق الكثيرة التي تشير إليها هذه الآية تمثل قصّة الرّسالة وتاريخها الطويل.

والتفضيل هنا قد يتعلق بالمحيط المقدر للرّسول، والذي تشمله دعوته ونشاطه، كأن يكون رسول قبيلة، أو رسول أمة، أو رسول جيل، أو رسول الأمم كافة في جميع الأجيال، كذلك يتعلّق بالمزايا التي يوهبها لشخصه أو

لأمته. كما يتعلّق بطبيعة الرّسالة ذاتها ومدى شمولها لجوانب الحياة الإنسانية والكونية.

وقد ذكرت الآية الكريمة هنا مثالين في موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وأشارت إشارة عامّة إلى مَن سواهما..

كذلك إنّ هذه الآية التي تلخص تاريخ الرسالة تشتمل على إيحاء قويّ واضح.. **﴿تلك الرسل﴾**.. لم يقل هؤلاء الرسل، إنّما استهل الحديث عنهم بهذا التعبير الخاص الذي يُوحي أنّهم جماعة خاصة، ذات طبيعة خاصة، وإن كانوا بشراً من البشر..

ولم يذكر النص هنا محمداً ـ ﷺ ـ لأنّ الخطاب موجّه إليه، كما جاء في الآية التي سبقتها في سياق سورة البقرة: **﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين. تلك الرّسل**.. الخ﴾. فالسياق سياق إخبار له عن غيره من الرسل.

وحين ننظر إلى مقامات الرّسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من أيّة ناحية نجد محمداً ـ ﷺ ـ في القمّة العليا. وسواء نظرنا إلى الأمر من ناحية شمول الرّسالة وكليتها، أو من ناحية محيطها وامتدادها، فإنّ النتيجة لا تتغير. ومن ثمّ كان هو خاتم الرّسل، وكانت رسالته خاتمة الرّسالات، ومن ثمّ انقطع الوحي بعده، وارتسمت للبشريّة في رسالته تلك الوحدة الكبرى، وأعلن المنهج الواسع الشامل الذي يسع نشاط البشريّة المقبل في إطاره، ولم تعد إلا التفصيلات والتفسيرات التي يستقل بها العقل البشريّ ـ في حدود المنهج الرباني ـ ولا تستدعي رسالة إلّهية جديدة.

وهكذا وضح بجلاء أنّ دعوة الله التي حملها نوح ـ عليه السلام ـ والرّسل بَعده حتّى وصلت إلى خاتم النبيين محمد ـ ﷺ ـ لهي دعوة واحدة من عند إلّه واحد، ذات هدف واحد، هو ردّ البشرية الضالة إلى ربها، وهدايتها إلى طريقه، وتربيتها بمنهاجه، وإن المؤمنين بكل رسالة لإخوة للمؤمنين بسائر الرسالات: كلهم أمة واحدة، تعبد إلّهاً واحداً، وإن البشرية

في جميع أجيالها صنفان اثنـان: صنف المؤمنين وهم حزب الله، وصنف المشاقين للّه وهم حزب الشيطان، بغض النظر عن تطاول الزمان وتباعـد المكان، وكلّ جيل من أجيال المؤمنين هو حلقة في تلك السلسلة الطويلة الممتدة على مدار القرون.

هذه هي الحقيقة الضخمة العظيمة الرفيعة التي يقوم عليها الإسلام، والتي تقررها هذه الآية من القرآن:

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ـ إلا الذين ظلمـوا منهم ـ وقولوا: آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم، وإلّهنا وإلّهكم واحد، ونحن له مسلمون..﴾ [العنكبوت: ٤٦].

هذه الحقيقة التي ترفع العلاقات بين البشر عن أن تكون مجرد علاقة دم أو نسب، أو جنس، أو وطن، أو تبادل أو تجارة، ترفعها عن هذا كله لتصلها بالله، ممثلة في عقيدة واحدة تذوب فيها الأجناس والألوان، وتختفي فيها القوميات والأوطان ويتلاشى فيها الزمان والمكان، ولا تبقى إلا العروة الوثقى في الخالق الديّان.

ومن ثم يَنْهَى المسلمين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى؛ لبيان حكمة مجيء الرسالة الجديدة، والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة، والإقناع بضرورة الأخذ بالصورة الأخيرة من صور دعوة الله، الموافِقة لما قبلها من الدعوات، المكملة لها وفق حكمة الله وعلمه بحاجة البشر..

﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾.. فانحرفوا عن التوحيد الذي هو قاعدة العقيدة الباقية، وأشركوا بالله وأخلّوا بمنهجه في الحياة. فهؤلاء لا جدال معهم ولا محاسنة، وهؤلاء هم الذين حاربهم الإسلام عندما قامت له دولة في المدينة.

وإنّ بعضهم ليفتري على رسول الله ـ ﷺ ـ أنّه حاسن أهل الكتاب وهو في مكة مطارد من المشركين، فلما أن صارت له قوة في المدينة حاربهم، مخالفاً كلّ ما قاله وهو في مكة! وهو افتراء ظاهر يشهد هذا النص المكي عليه.

فمجادلة أهل الكتاب بالحسنى مقصورة على مَن لم يظلم منهم، ولم ينحرف عن دين الله، وعن التوحيد الخالص الذي جاءت به جميع الرسالات:

﴿وقولوا: آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم، وإلّهنا وإلّهكم واحد، ونحن له مسلمون﴾ [العنكبوت: ٤٦]..

وإذن فلا حاجة إلى الشقاق والنزاع، والجدل والنقاش، وكلّهم يؤمنون بإلّه واحد، والمسلمون يؤمنون بما أُنزل إليهم وما أُنزل إلى مَن قبلهم، وهو في صميمه واحد، والمنهج الإلّهي متصل الحلقات.

سُنّة ماضية:

تلك سنّة الله في اختيار الرّسل إلى النّاس، ومثله سنّته في إنجائهم ومَن مَعَهم، وإهلاك المسرفين الظالمين المكذبين: **﴿ثم صدقناهم الوعد، فأنجيناهم ومَن نشاء، وأهلكنا المسرفين﴾** [الأنبياء: ٩].

فهي كذلك سنّة جارية كسنّة اختيارهم، وقد وعَدَ الله النجاة لرسله والمؤمنين معهم إيماناً حقيقياً يصدقه العمل، فصَدقهم وَعْده، وأهلك الذين كانوا يسرفون عليهم، ويتجاوزون الحدّ معهم.

ويعرض القرآن الكريم صفحات من كتاب التاريخ البشري تنطق بمآل المكذبين الذين كذّبوا الرسل، فحَقَّ عليهم وعيد الله الذي لا مفرًّ منه ولا محيد: **﴿كذّبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسّ وثمود، وعاد وفرعون وإخوان لوط، وأصحاب الأيكة، وقومُ تُبَّع. كُلٌّ كذَّب الرسل فحَقَّ وعيد..﴾** [ق: ١٢ - ١٤]..

والرسّ: البئر المطوية غير المبنية والأيكة: الشجر الملتف الكثيف. وأصحاب الأيكة هم - في الغالب - قوم شعيب. أما أصحاب الرسّ فلا بيان عنهم غير هذه الإشارة. وكذلك قوم تُبَّع. وتُبّع لقب لملوك حِمْيَر باليمن. وبقية الأقوام المشار إليهم معروفون لقارىء القرآن.

وواضح أن الغرض من هذه الإشارة السريعة ليس تفصيل أمر هـذه الأقوام. ولكنه إيقاع على القلوب بمصارع الغابرين حين كذبوا الرسل.

والذي يلفت النظر هو النص على أن كُلًّا منهم كذَّب الرسل: **﴿كُلٌّ كذَّب الرسل فحقَّ وعيد﴾**..

وهي لفتة مقصودة لتقرير وحدة العقيدة ووحدة الرسـالة، فَكُـلّ مَن كذّب برسول فقد كذّب بالرسل أجمعين، لأنه كذّب بالرسالة الواخدة التي جاء بها الرسل أجمعون.

والرسل إخوة وأمة واحدة وشجرة ضاربة الجذور في أعماق الزمان، وكل فرعٍ من تلك الشجرة تلخيص لخصائصها، وصورة منها. ومَن يمسّ منها فرعاً فقد مَسَّ الأصل وسائر الفروع.. **﴿فحق وعيدِ﴾** ونالهم ما يعرف السامعون.

وبَعْدُ، حين يعرض القرآن الكريم سلسلة الرسالات، يتوجه بالخطاب إلى أُمة الرسل؛ وكأنما هم متجمعون في صعيد واحد، في وقت واحد، فهذه الفوارق الزمانية والمكانية لا اعتبار لها أمام وحدة الحقيقة التي تربط بينهم جميعاً، ثم يتوجَّه القرآن بنداء للرسل ليمارسوا طبيعتهم البشرية التي ينكرها عليهم الغافلون: **﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾** [المؤمنون: ٥١].. فالأكل من مقتضيات البشرية عامة، أما الأكل من الطيبات خاصة فهو الذي يرفع هذه البشريـة ويُزكِّيهـا ويصلها بـالملأ الأعلى.

وليس المطلوب من الرسول أن يتجرد من بشريته. إنما المطلوب أن يرتقي بهذه البشرية إلى أُفقها الكريم الوضيء، الذي أراده الله لها، وجعل الأنبياء رُوّاداً لهذا الأُفق ومَثَلًا أعلى.

وتتلاشى آماد الزمان، وأبعاد المكان، أمام وحدة الحقيقة التي جاء بها الرسل. ووحـدة الطبيعـة التي تُميّزهم. ووحـدة الخالق الـذي أرسلهم.

ووحدة الاتجاه الذي يتجهونه أجمعين ﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون**﴾ [المؤمنون: ٥٢]..

إن هذه أمتكم أمة الأنبياء. أمة واحدة. تدين بعقيدة واحدة. وتنهج نهجاً واحداً. هو الاتجاه إلى الله. أمة واحدة في الأرض، وربٌّ واحد في السماء. لا إله غيره ولا معبود إلا إياه: ﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون**﴾ [الأنبياء: ٩٢]..

أمة واحدة وفق سنة واحدة، تشهد بالإرادة الواحدة في الأرض والسماء..

ويشير القرآن بوضوح إلى سُنّة ماضية في دعوة رسله: ﴿**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جُندنا لهم الغالبون**﴾ [الصافات: ٧٠ - ٧٢]..

والوعد واقع وكلمة الله قائمة، ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض؛ وقام بناء الإيمان، على الرغم من جميع العوائق، وعلى الرغم من تكذيب المكذبين، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين. ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار. وذهبت سطوتهم ودولتهم؛ وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل. تسيطر على قلوب الناس وعقولهم، وتُكَيف تصوراتهم وأفهامهم. وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض. وكل المحاولات التي بُذلت لمحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل، وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل. باءت بالفشل حتى في الأرض التي انبعثت منها. وحقت كلمة الله لعباده المرسلين. إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون.

هذه بصفة عامة. وهي ظاهرة ملحوظة. في جميع بقاع الأرض. في جميع العصور.

وهي كذلك متحققة في كل دعوة للّه، يخلص فيها الجند، ويتجرد لها الدعاة. إنها غالبة منصورة مهما وُضعت في سبيلها العوائق، وقامت في

طريقها العراقيل، ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار، وقوى الدعاية والافتراء، وقوى الحرب والمقاومة، وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها، ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله. والذي لا يخلف ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه. الوعد بالنصر والغلبة والتمكين.

هذا الوعد سنّة من سنن الله الكونية. سنّة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء.. ولكنها مرهونة بتقدير الله، يحققها حين يشاء. ولقد تبطىء آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة. ولكنها لا تخلف أبداً ولا تتخلف وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة، ولا يدركون تحقق السنّة في صورة جديدة إلا بعد حين!

ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله، ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى. فيكون ما يريده الله. ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون.. ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم عير قريش وأراد الله أن تفوتهم القافلة الرابحة الهينة؛ وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة. وكان ما أراده الله هو الخير لهم وللإسلام. وكان هو النصر الذي أراده الله لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام.

ولقد يُهزم جنود الله في معركة من المعارك، وتدور عليهم الدائرة، ويقسو عليهم الابتلاء؛ لأن الله يعدهم للنصر في معركة أكبر، ولأن الله يهيىء الظروف من حولهم ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع، وفي خط أطول، وفي أثر أدوم.

لقد سبقت كلمة الله، ومضت إرادته بوعده، وثَبَتَتْ سُنّته لا تتخلف ولا تحيد.

حسـرة:

وفي معرض سيرة الرسل في مسيرة حياة البشرية يظهر العناد واللجاج الأحمق. يظهر جهل العباد بِقَدْرِ الله ـ سبحانه ـ ربّ العباد، تظهر المكابرة السمجة في مواجهة الحجة البـالغة، يـظهر رُكـام الشهوات التي تَـطمس وتحجب الفطرة الإنسانية عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان. .

إنها لصورة بائسة تدعو إلى حسرة دائمة:

﴿**يا حسرة على العباد! ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يَستهزئون. أَلَم يَروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون؟ وإن كل لمّا جميع لدينا محضرون**﴾ [يس: ٣٠ ـ ٣٢]. .

والحسـرة انفعال نفسي على حـال مُؤسفـة لا يملك الإنسـان شيئـاً حيالها، سوى أن يَتحَسَّر وتألم نفسه والله سبحانه وتعـالى لا يتحسر على العباد، ولكنه يُقرر أن حالة هؤلاء العباد مما يستحق حسرة المتحسرين! فهي حال بائسة مُؤسفة تنتهي بأصحابها إلى شرّ وخيم وبلاء عظيم!

يا حسرة على العباد تُتاح لهم فرصة النجاة فَيُعْرِضون عنها، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبرونها ولا ينتفعون بها، ويَفتح الله لهم أبواب رحمته بإرسال الرسـل إليهم الحين بعد الحين، ولكنهم يتجـافون أبـواب الرحمة ويُسيئون الأدب مع الله.

ولقد كان في هلاك الأولين الذاهبين لا يرجعون، على مدار السنين وتطاول القرون. . لقد كان في هذا عظة لمَن يتدبر. ولكن العباد البائسين لا يتدبرون. وهم صائرون إلى ذات المصير. فأية حالة تدعو إلى الحسرة كهذا الحال الأسيف؟!

إن الحيوان ليرجف حين يرى مصرع أخيه أمامه، ويحاول أن يتوقاه قدر ما يستطيع. فما بال الإنسان يرى المصـارع تلو المصارع، ثم يسيـر منـدفعاً في ذات الـطريق؟ والغرور يُملي لـه ويخدعـه عن رؤية المصيـر

المطروق! وهذا الخط الطويل من مصارع القرون معروض على الأنظار ولكن العباد كأنهم عُمي لا يبصرون!

وإذا كان الهالكون الذاهبون لا يرجعون إلى خلفائهم المتأخرين، فإنهم ليسوا بمتروكين ولا مفلتين من حساب الله بعد حين..

﴿وإن كل لما جميع لدينا محضرون﴾..

ميثاق رهيب جليل:

إن الإيمان بكتب الله ورسله بدون تفرقة بين أَحَدٍ من رُسله هو المقتضى الطبيعي الذي يَنبثق من الإيمان بالله في الصورة التي يرسمها الإسلام. فالإيمان بالله يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله، وصدق كل الرسل الذين يبعثهم الله، ووحدة الأصل الذي تقوم عليه رسالتهم، وتتضمنه الكتب التي نزلت عليهم.. **﴿آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كُلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. لا نفرقُ بين أحدٍ من رسله. وقالوا سمعنا وأطعنا. غفرانك ربنا وإليك المصير﴾** [البقرة: ٢٨٥].. ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل في ضمير المسلم. فكلهم جاء من عند الله بالإسلام في صورة من صوره المناسبة لحال القوم الذين أُرسل إليهم، حتى انتهى الأمر إلى خاتم النبيين محمد - ﷺ - فجاء بالصورة الأخيرة للدين الواحد، لدعوة البشرية كلها إلى يوم القيامة.

ويقرر القرآن وحدة الجهة التي تتنزّل منها الكتب على الرسل: **﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم. نَزَّل عليك الكتابَ بالحق مُصَدِّقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾** [آل عمران: ٢، ٣]..

فالله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، هو الذي نَزَّل هذا القرآن على رسوله محمد - ﷺ - كما أنه أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى من قبل. وإذن فلا اختلاط ولا امتزاج بين الألوهية والعبودية. إنما هناك إله

واحد يُنَزِّل الكتب على المختارين من عباده. وهناك عبيد يتلقون. وهم عبيد للّه ولو كانوا أنبياء مرسلين..

ويُصور القرآن حقيقة الترابط بين موكب الرسل والرسالات، على عهد من الله وميثاق، يَنبني عليه فسوق مَن يتولى عن اتباع آخر الرسالات؛ وشذوذه عن عهد الله وناموس الكون كله على الإطلاق:

﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين: لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مُصدِّق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه. قال: أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟ قالوا: أقررنا. قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين. فمَن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون. أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً، وإليه يُرجعون؟﴾ [آل عمران: ٨٠ - ٨٢].

لقد أخذ الله - سبحانه - موثقاً رهيباً جليلاً كان هو شاهده وأشهد عليه رسله. موثقاً على كل رسول. أنه مهما آتاه من كتاب وحكمة، ثم جاء رسول بعده مصدقاً لما معه، أن يؤمن به وينصره، ويتبع دينه. وجعل هذا عهداً بينه وبين كل رسول.

والتعبير القرآني يطوي الأزمنة المتتابعة بين الرسل؛ ويجمعهم كلهم في مشهد. والله الجليل الكبير يُخاطبهم جملة: هل أقرُّوا هذا الميثاق وأخذوا عليه عهد الله الثقيل:

﴿قال: أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟﴾..

وهم يُجيبون:

﴿قالوا: أقررنا﴾..

فيشهد الجليل على هذا الميثاق ويُشهدهم عليه:

﴿قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾..

هذا المشهد الهائل الجليل، يرسمه التعبير، فَيَجف له القلب ويجب؛

وهو يتمثل المشهد بحضرة البارىء الجليل، والرسل مجتمعين..

وفي ظل هذا المشهد يبدو الموكب الكريم متصلاً متسانداً مستسلماً للتوجيه العلوي، ممثلاً للحقيقة الواحدة التي شاء الله ـ سبحانه ـ أن تقوم عليها الحياة البشرية، ولا تنحرف، ولا تتعدد، ولا تتعارض، ولا تتصادم.. إنما ينتدب لها المختار من عباد الله؛ ثم يسلمها إلى المختار بعده، ويسلم نفسه معها لأخيه اللاحق به.

فما للنبي في نفسه من شيء، وما له في هذه المهمة من أرب شخصي، ولا مجد ذاتي. إنما هو عبد مُصطفى، ومُبلِّغ مختار. والله ـ سبحانه ـ هو الذي ينقل خطى هذه الدعوة بين أجيال البشر، ويقود هذا الموكب ويصرفه كيف يشاء.

ويخلص دين الله ـ بهذا العهد وبهذا التصور ـ من العصبية الذاتية. عصبية الرسول لشخصه. وعصبيته لقومه. وعصبية أتباعه لنحلتهم. وعصبيتهم لأنفسهم. وعصبيتهم لقوميتهم.. ويخلص الأمر كله للّه في هذا الدين الواحد، الذي تتابع به وتوالى ذلك الموكب السني الكريم.

وفي ظل هذه الحقيقة يبدو الذين يتخلفون من أهل الكتاب عن الإيمان بالرسول الأخير ـ ﷺ ـ ومناصرته وتأييده، تمسكاً بدياناتهم ـ لا بحقيقتها فحقيقتها تدعوهم إلى الإيمان به ونصرته، ولكن باسمها تعصباً لأنفسهم في صورة التعصب لها! ـ مع أنَّ رُسلهم الذين حملوا إليهم هذه الديانات قد قطعوا على أنفسهم عهداً ثقيلاً غليظاً مع ربهم في مشهد مرهوب جليل..

في ظل هذه الحقيقة يبدو أولئك الذين يتخلفون فَسَقَة عن تعليم أنبيائهم. فَسَقَة عن عهد الله معهم. فَسَقَة كذلك عن نظام الكون كله المستسلم لبارئه، الخاضع لناموسه، المدبَّر بأمره ومشيئته..

إن دين الله واحد، جاءت به الرسل جميعاً، وتعاقدت عليه الرسل جميعاً. وعهد الله واحد أخذه على كل رسول. والإيمان بالدين الجديد

واتباع رسوله، ونصرة منهجه على كل منهج، هو الوفاء بهذا العهد. فمَن تولى عن الإسلام فقد تولى عن دين الله كله.

ولما كانت الأمة المسلمة ـ المسلمة حقاً لا جغرافيةً ولا تاريخاً! ـ هي الأمة المدركة لحقيقة العهد بين الله ورسله. وحقيقة دين الله الواحد ومنهجه، وحقيقة الموكب السني الكريم الذي حمل هذا المنهج وبلَّغه، فإن الله يأمر نبيه ـ ﷺ ـ أن يعلن هذه الحقيقة كلها؛ ويعلن إيمان أمته بجميع الرسالات، واحترامها لجميع الرسل، ومعرفتها بطبيعة دين الله، الذي لا يقبل الله من الناس سواه:

﴿قل: آمنا بالله، وما أنزل علينا، وما أُنزل على إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب والأسباط[1]، وما أُوتي موسى وعيسى، وما أُوتي النبيون من ربهم. لا نفرق بين أحد منهم. ونحن له مسلمون. ومَن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ [آل عمران: ٨٣].

هذا هو الإسلام في سعته وشموله لكل الرسالات قبله، وفي ولائه لكافة الرسل حملته، وفي توحيده لدين الله كله، ورجعه جميع الدعوات وجميع الرسالات إلى أصلها الواحد، والإيمان بها جملة كما أرادها الله لعباده.

إن التوحيد المطلق للّه ـ سبحانه ـ يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس..

﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله؛ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله؛ ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض؛ ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً. والذين آمنوا بالله

(١) الأسباط: هم أحفاد يعقوب ـ عليه السلام ـ وهم آباء الإثني عشر سبطاً التي يتألف منه شعب إسرائيل.

ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم؛ وكان الله غفوراً رحيماً﴾ [النساء: ١٥١ ـ ١٥٢].

لقد كان اليهود يدَّعون الإيمان بأنبيائهم؛ ويُنكرون رسالة عيسى ـ عليه السلام ـ، ورسالة محمد ﷺ؛ كما كان النصارى يقفون بإيمانهم عند عيسى ـ فضلاً عن تأليهه ـ ويُنكرون رسالة محمد ﷺ كذلك.

وكان القرآن يُنكر على هؤلاء وهؤلاء؛ ويُقرر التصور الإسلامي الشامل الكامل عن الإيمان بالله ورسوله؛ بدون تفريق بين الله ورسله؛ وبدون تفريق كذلك بين رسله جميعاً. وبهذا الشمول كان الإسلام هو «الدين» الذي لا يقبل الله من الناس غيره، لأنه هو الذي يتفق مع وحدانية الله، ومقتضيات هذه الوحدانية.

إن التوحيد المطلق للّه ـ سبحانه ـ يقتضي توحيد دينه الذي أُرسلِ به الرسل للبشر، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس.. وكل كُفر بوحدة الرسل أو وُحدة الرسالة هو كُفر بوحدانية الله في الحقيقة، وسوء تصور لمقتضيات هذه الوحدانية. فدين الله للبشر ومنهجه للناس، هو هو لا يتغير في أساسه كما أنه لا يتغير في مصدره.

إن الإيمان وحدة لا تتجزأ.. الإيمان بالله إيمان بوحدانيته ـ سبحانه ـ ووحدانيته تقتضي وحدة الدين الذي ارتضاه للناس لتقوم حياتهم كلها ـ كوحدة ـ على أساسه. ويقتضي وحدة الرسل الذين جاءوا بهذا الدين من عنده ـ لا من عند أنفسهم ولا في معزل عن إرادته ووحيه ـ ووحدة الموقف تجاههم جميعاً.. ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة. إلا بالكفر المطلق؛ وإن حَسِب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض! وكان جزاؤهم عند الله أن أعدّ لهم العذاب المهين.. أجمعين.. **﴿أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾**..

أما «المسلمون» فهم الذين يشتمل تصورهم الاعتقادي على الإيمان بالله ورسله جميعاً؛ بلا تفرقة. فَكُلّ الرسل عندهم موضع اعتقاد واحترام؛

وكل الديانات السماوية عندهم حق ـ ما لم يقع فيها التحريف فلا تكون عندئذ من دين الله، وإن بقي فيها جانب لم يُحرّف، إذ أن الدين وحدة ـ وهم يتصورون الأمر ـ كما هو في حقيقته ـ: إلهاً واحداً، ارتضى للناس ديناً واحداً؛ ووضع لحياتهم منهجاً واحداً، وأرسل رسله إلى الناس بهذا الدين الواحد وهذا المنهج الواحد.

وموكب الإيمان ـ في حسهم ـ موصول، يَقوده نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد وإخوانهم من الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ـ ونسبهم هم إلى هذا الموكب الموصول عريق؛ وهم حملة هذه الأمانة الكبرى، وهم ورثة هذا الخير الموصول على طول الطريق المبارك.. لا تفرقة ولا عزلة ولا انفصام.. وإليهم وحدهم انتهى ميراث الدين الحق. وليس وراء ما عندهم إلا الباطل والضلال.

سمات النبوة وخصائص دعوة الأنبياء:

نحن مع قافلة الهدى وحمَلَة نور الله سبحانه **﴿أولئك الذين أنْعمَ الله عليهم من النبيين من ذرية آدم، وممن حملنا مع نوح، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل، وممن هدينا واجتبينا. إذا تُتْلَى عليهم آيات الرحمٰن خَرُّوا سُجَّداً وبُكيًّا.. ﴾** [مريم: ٥٨]..

والقرآن يقف في هذا الاستعراض عند المعالم البارزة في صفحة النبوة في تاريخ البشرية «من ذرية آدم». «وممّن حَمَلْنا مع نوح». «ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل». فآدم يشمل الجميع، ونوح يشمل مَن بَعده، وإبراهيم يشمل فَرْعي النبوة الكبيرين: ويعقوب يشمل شجرة بني إسرائيل. وإسماعيل وإليه ينتسب العرب ومنهم خاتم النبيين.

نحن مع موكب الإيمان.. هذه أعلامه.. وهذه معالم طريقه.. وهو يواجه البشرية في رحلتها الطويلة على هذا الكوكب الأرضي.. يواجهها كلما التوت بها الطريق، وكلما انحرفت عن صراط الله المستقيم، وكلما

تفرقت بها السُبل ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون**﴾ [الأنعام: ١٥٣]..

إنه صراط واحد - صراط الله -، والرسل والأنبياء هم الأدلَّاء وحدهم على صراط الله المستقيم، وهذه سبيل واحدة تؤدي إلى الله.. أن يفرد الناسُ اللّهَ - سبحانه - بالربوبية، ويدينوا له وحده بالعبودية، وأن يعلموا أن الحاكمية للّه وحده، وأن يدينوا لهذه الحاكمية في حياتهم الواقعية..

هذا هو صراط الله، وهذا هو سبيله.. وليس وراءه إلا السُّبُل التي تتفرق بمَن يسلكونها عن سبيله..

ذلك هو الهدى ﴿**قل: إن الهدى هُدى الله**﴾ [البقرة: ١٢٠]..

ذلك هدى الله.. هذه هي الحقيقة الكبيرة في التاريخ البشري على هذه الأرض.. حقيقة أن هذه العقيدة هي الهدى ومَن اتبعها فقد اهتدى، ومَن أَعْرض عنها فهو الأشقى، الذي كان أصمّ وأعمى، فلم يتذكر أو يخشى، وهو في ظلمات الهَوى قد هَوى، وقد خاب مَن كذّب الرسل وأبى..

أما ﴿**أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين**﴾ ومعهم مَن هدى الله واجتبى من الصالحين من ذريتهم.. صفتهم البارزة: ﴿**إذا تُتْلَى عليهم آيات الرحمٰن خروا سجداً وبُكيًّا**﴾.. فهم أتقياء شديدو الحساسية بالله، ترتعش وجداناتهم حين تُتلى عليهم آياته، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثُر، فتفيض عيونهم بالدموع ويَخرُّونَ سُجَّداً وبُكياً..

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «ليس الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - مصدر المعرفة الصحيحة وعلم اليقين فحسب، بل هم الذين يمنحون الأجيال البشرية ثروة أخرى كذلك، يرجع إليها الفضل في صلاح البشرية كلها، وفي ازدهار المدنية كلها، وهي قوة كراهة الشر وحب الخير، والتمرد على قوى الشر ونوازعه والاندفاع إلى الخير والجهاد في سبيله، هذه القوة التي كانت العامل الأساسي الأكبر في كل ما قام به البشر من مآثر

وبطولات، ولم تزل الوسائل والمواد والمؤسسات خاضعة دائماً للإرادة الإنسانية والعزم القوي، إن الشأن كل الشأن في أن يريد الإنسان، وإن الخير كل الخير في أن يريد الإنسان الخير، وكان منبع هذا الخير دائماً تلقين الأنبياء وتعليمهم، هم الذين كانوا ـ في كل عصر من عصور بعثتهم ـ يبعثون في أمتهم وفي جيلهم طبيعة حب الخير وكراهة الشر، والانتصار للحق ومحاربة الباطل والفساد، وكانت كلما ضعفت هذه الطبيعة وتحولت الطبيعة الإنسانية إلى طبيعة بهيمية أو سبعية ـ كما نشاهد في الأمم التي قصَّ الله علينا قصتها في القرآن ـ عالجوها وحوّلوها إلى طبيعة إنسانية كريمة رقيقة، وَوُجد ـ بتعليمهم الفاضل وجهادهم المتواصل ونسيانهم أنفسهم ولذاتهم ومجازفة بأرواحهم ومُهَجُهم وشرفهم ـ في هذه الأنعام السائمة والسباع الضارية، رجالٌ تعطرت بأنفاسهم الدنيا، وتَجَمّل بهم تاريخ الإنسانية، وفاقوا الملائكة في السمو وعلو المدارك، وعاشت بهم الإنسانية، وقام العدل، وانتصف الضعيف من القوي، ورعى الذئاب الغنم، وانتشرت الرحمة، وفاضت المحبة، ونفقت سوق الشر، وقامت سوق الجنة، وهبّتْ نسائم الإيمان، وتحررت النفوس من ربقة الهوى والشهوات؛ وانجذبت القلوب إلى الخير انجذاب الحديد إلى المغناطيس.

إن المدنية لا تدين لأي طائفة من طوائف البشر كما تدين لهذه الطائفة الربانية؛ إنها تدين لها في حياتها وبقائها، وفي شرفها وكرامتها وفي اعتدالها وسدادها، فلولاهم ـ صلى الله عليهم وسلم ـ لغرقت سفينة الإنسانية بما فيها من علوم وتراث حضاري وفلسفة وحكمة، ولتحولت الأجيال البشرية إلى قطعان من السائمة أو الوحوش لا تعرف رَبًّا، ولا تعرف ديناً ولا خُلقاً، ولا تعرف رحمة ولا محبة، ولا تعرف معنى أسمى وغاية أعلى من العلف والرتع، ومن الماء والكلأ، إن كل ما يوجد في هذا العالم من المعاني الإنسانية الكريمة، والأحاسيس الرقيقة اللطيفة، والأخلاق العالية الفاضلة والعلوم الصحيحة النافعة، ومن القوة والعزم على محاربة الباطل والفساد، إنما يرجع فضله وينتهي تاريخه إلى وحي السماء، وتعليمات الأنبياء

وتبليغهم ودعوتهم وجهادهم، وإلى أصحابهم وتابعيهم بإحسان، وما زال العالم ولا يزال يأكل من رفدهم، ويمشي في ضوئهم، ويعيش في البناء المحكم الذي بَنُوه»(١).

لقد طغت مفاهيم خاطئة استولتْ على العقول والنفوس، دَسَّها أعداء الدين حول خصائص النبوة، «وقد بدأ بعض الكتّاب الإسلاميين في العصر الأخير يَخضعون في قليل أو كثير لهذه المفاهيم والظلال، ويُفسرون دعوة الأنبياء والرسل وأعمالهم بمصطلحات سياسية واجتماعية حديثة، مما يحول بين أهل العصر وبين فهم منصب النبوة على حقيقته، أو طبيعة الأنبياء وطبيعة رسالتهم التي يُكلفون بها، ومناهج عملهم، ويمنع من الاقتداء بهم والتشبّع بروحهم، ويتجه بالفكر على درب أقل ما يقال فيه أنه غير درب النبوة وشاكلتها».

«لذلك اشتدت الحاجة إلى دراسة القرآن في هذا الموضوع دراسة عميقة حُرَّة، مجردة عن التأثيرات الخارجية والثقافات الأجنبية، مجردة كذلك عن ما قد تهواه قلوبنا وتطمح إليه نفوسنا، وقد يكون مما يُستحسن ولا يُستهجن، وقد يكون شيئاً طبيعياً، ولكن لا يجوز أن يخضع القرآن وتخضع سيرة الأنبياء لكل ما يُستحسن، مجردة عن كل تقليد وعن كل تطبيق، فالعصور تتبدل ومناهج الفكر تتبدل، وقيم الأشياء ودرجاتها تتغير وتتبدل، وترتفع وتنخفض، وما حدث في عصر من نظرية أو مصطلح لا يجوز أن يُسلط على عصر سابق أو جيل سابق، فضلاً عن القرآن الذي هو كتاب سماوي خالد، فإنه لا يخضع لفلسفة فكرية أو سياسية، وعلوم الإنسان ونظرياته كثيب مهيل من رمل يتناثر وينبسط، وينضوي ويمتد، لا يصلح عليه البناء، ولا يجوز أن ينزل إليه القرآن من منزلته العالية السماوية، ومن أساسه المحكم الأبدي».

«إن أول وأهم ما يمتاز به معشر الأنبياء، أن العلم الذي ينشرونه بين

---

(١) النبوة والأنبياء: ٢٩ ـ ٣١.

الناس، والعقيدة التي يَدعون إليها، والدعوة التي يقومون بها، لا تنبع من ذكائهم، أو حَميّتهم، أو تألّمهم بالوضع المزري الذي يعيشون فيه، أو من شعورهم الدقيق الحساس، وقلبهم الرقيق الفيّاض، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة، لا شيء من ذلك، إنما مصدره الوحي والرسالة التي يُصْطَفون لها، ويُكرمون بها، فلا يُقاسون أبداً على الحكماء أو الزعماء، أو المصلحين وجميع أصناف القادة الذين جرّبتهم البشرية وتاريخ الإصلاح والكفاح الطويل، والذين هم نتيجة بيئتهم، وغرس حكمتهم، وصدى محيطهم، ورد فعل لما كان يجيش به مجتمعهم من فساد وفوضى؛ والقول الفصل في ذلك قول القرآن على لسان سيّد الرسل ـ ﷺ ـ: **﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثتُ فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون؟﴾** [يونس: ١٦]..

وقول الله تعالى: **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به مَن نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾** [الشورى: ٥٢]..

وقال: **﴿وما كنتَ ترجو أن يُلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾** [القصص: ٨٦]..

وقوله بعدما ذَكَرَ من بُعد الرسول عن البيئة التي حَدثت فيها هذه الحوادث والوقائع التي يحكيها لقومه: **﴿وما كنتَ بجانب الطور إذ نادينا، ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾** [القصص: ٤٦]..

ويقول القرآن عن طبيعة الرسالة التي يختار لها الرسل، وعن مبدئها ومصدرها: **﴿يُنَزّل الملائكة بالروح من أمره على مَن يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إلّه إلا أنا فاتقون﴾** [النحل: ٢]..

---

(١) المصدر السابق: ٣٤.

«لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية أو حوادث وقتية خارجية، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع، وشاء المجتمع، وقد قال الله تعالى عن رسوله الكريم: ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وَحيٌ يُوحى**﴾ [النجم: ٣، ٤].

ولا يستطيع أن يُحدث تغييراً أو تبديلاً أو تحويراً أو تعديلاً في رسالته وأحكام الله، وقد قال الله لرسوله: ﴿**قل: ما يكون لي أن أُبَدِّله من تلقاء نفسي، إن أتبع إلا ما يُوحى إليّ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم**﴾ [يونس: ١٥].

ونفى الله عنه المُداهنة وعَصَمَه عنها فقال: ﴿**ودُّوا لو تُدهن فَيُدهنون**﴾ [القلم: ٩]..

وقد أنذره بالعقاب الأليم المخزي إذا تَجَنَّى على الله أو قال ما لم يقله، أو زاد أو نقص شيئاً من وَحْيه وكلامه فقال: ﴿**تنزيل من رب العالمين، ولو تَقَوَّل علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين**﴾ [الحاقة: ٤٣ ـ ٤٧]..

وقد أمره بتبليغ الرسالة بنَصِّها وفَصِّها، وبرمَّتها وجملتها، فقال: ﴿**يا أيها الرسول بَلِّغ ما أُنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بَلَّغتَ رسالته، والله يعصمك من الناس، إن الله لا يهدي القوم الكافرين**﴾ [المائدة: ٦٧]..

وهذه هي السمة الفاصلة الأساسية بين الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ وبين القادة والزعماء، والذين تكون رسالتهم وكفاحهم وَحْيَ بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم، واستجابة للقلق الذي يساور المجتمع، ويساور النفوس الواعية، والذين يُلاحظون دائماً البيئة والمجتمع والظروف والأحوال، ويراعون المصلحة والسياسة، ويخضعون لها في كثير من الأحوال، فيتنازلون عن أشياء كثيرة، وقد يتساومون مع الأحزاب ويتبادلون معها

المنافع، ومبدأ كثير منهم الذي يأخذون به: «در مع الدهر كيف كان»[1]..

١ ـ الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء وفي التشريع:

«وليس معنى ذلك أن الأنبياء لا يراعون الحكمة والمصلحة مطلقاً، ولا يراعون طبائع الناس واستعدادهم ولا يتحرُّون لدعوتهم المكان الصالح والزمان الصالح، ونشاط النفوس، وإقبال القلوب، ولا يراعون التدريج والتيسير، كلا! إن كل ذلك مما تقتضيه طبيعة الدين السمحة، وحكمة الله البالغة، وفطرة الأنبياء الحكيمة، ونطقت به الآثار، وشهدت به الحوادث وزخر به التشريع وسيرة الرسول، وقد قال القرآن: **﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزّلناه تنزيلاً﴾** [الإسراء: ١٠٦]، وقال: **﴿وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة؟ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾** [الفرقان: ٣٢]، وقال: **﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾** [البقرة: ١٨٥]، وقال: **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** [الحج: ٧٨]..

وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ يأمر أصحابه بالتيسير والتبشير، وقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ لمعاذ وأُبَيّ لما بعثهما إلى اليمن: «يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، بَشِّرا ولا تُنَفِّرا»[2]، وقال لأصحابه: «إنما بُعثتم مُبشرين ولم تُبعثوا معسرين»[3].

وقد كان يُرجىء تطبيق شيء فيه مصلحة جزئية لأجل مصلحة كلية هي أعظم وأهم منها، فقال لعائشة رضي الله عنها: «لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لَبَنَيْتُه على أساس إبراهيم عليه السلام»[4].

---

(١) المصدر السابق: ٣٥ ـ ٣٧.
(٢) صحيح البخاري ج ٢ ص ٢٢.
(٣) صحيح البخاري ج ١ ص ٢٥.
(٤) صحيح البخاري ج ١ ص ٢١٥.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «كان النبي - ﷺ - يتخولنا بالموعظة في الأيام، كراهة السآمة علينا»[1].

وعن جابر بن عبد الله: «كان معاذ بن جبل يصلي مع النبي - ﷺ - ثم يرجع فيؤم قومه، فصلّى العشاء فقرأ بالبقرة، فانصرف الرجل، فكاد معاذ ينال منه، فبلغ النبي - ﷺ - فقال: «فتّان فتّان فتّان» ثلاث مرات[2].

وعن ابن مسعود قال: قال رجل يا رسول الله: إني لأتأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها، فغضب رسول الله - ﷺ - ما رأيته غضب في موعظة كان أشد غضباً منه يومئذ، ثم قال: «يا أيها الناس إن منكم مُنَفِّرين، فمَن أَمَّ منكم الناس فَلْيَتَجَوَّز، فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة»[3]، والنصوص في ذلك والشواهد أكثر من أن تُحصى[4]، وهذا كله مستفيض متواتر من سيرته - ﷺ - مفروض في سيرة الأنبياء السابقين، للحكمة التي وصفهم الله بها: ﴿**وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب**﴾ [ص: ٢٠]، و ﴿**أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة**﴾ [الأنعام: ٨٩]..

ولكن كل هذا التيسير والتدريج ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعداد النفوس، إنما هو في التعليم والتربية وفي المسائل الجزئية، ومما ليس من العقائد ومبادىء الدين في شيء، أما ما كان من العقائد والمبادىء والفرائض والنصوص، وما يفرق بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك، وكان من شعائر الإسلام وحدود الله، فالأنبياء - عليهم السلام -

---

(١) صحيح البخاري.
(٢) صحيح البخاري.
(٣) صحيح البخاري.
(٤) اقرأ الفصل النفيس: باب التيسير في حجة الله البالغة لشيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي ج ١.

على اختلاف عصورهم ـ أصلب فيه من الحديد، وأثبت عليه من الجبال، لا يعرضون تنازلاً ولا هوادة، ولا يرضون مساومة.

٢ ـ إخلاص الدين لله وإفراد العبادة لربِّ العالمين:

«والسمة الثانية هي أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم في كل زمان وفي كل بيئة هو تصحيح العقيدة في الله تعالى، وتصحيح الصلة بين العبد وربه، والدعوة إلى إخلاص الدين وإفراد العبادة لله وحده، وأنه النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده، وكانت حملتهم مركزة موجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم، المُمَثَّلة بصورة واضحة في عبادة الأوثان والأصنام، والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات، الذين كان يعتقد أهل الجاهلية: «أن الله قد خَلع عليهم لباس الشرف والتَأَلُّه، وجعلهم مُتصرفين في بعض الأمور الخاصة، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق، بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكاً، ويقلده تدبير تلك المملكة في ما عدا الأمور العظام» (١).

وكل مَن له صلة بالقرآن ـ وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة ـ يعرف اضطراراً أو بداهة أن القضاء على هذه الوثنية والإنكار عليها، ومحاربتها، وإنقاذ الناس من براثنها، كان هدف النبوة الأساسي، ومقصد بعثة الأنبياء، وأساس دعوتهم، ومنتهى أعمالهم، وغاية جهادهم. .(٢)

«وقد سمّى القرآن عبادة الأوثان: الشرك الأكبر والرجس وقول الزور، وشنّع عليهم التشنيع الأعظم، فقال: **﴿ذلك ومَن يُعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه، وأُحلّت لكم الأنعام إلا ما يُتلى عليكم، فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور، حنفاء لله غير مشركين به، ومَن يُشرك بالله**

---

(١) التعبير منقول من حجة الله البالغة للإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي.
(٢) انظر النبوة والأنبياء: ٤٠ ـ ٤٢.

فكأنما خَرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ [الحج: ٣٠، ٣١]..

«إن هذه الوثنية والشرك بمعنى التألُّه لغير الله، وغاية التذلل له والسجود والدعاء والاستغاثة والنذر والذبح له، هي الجاهلية الخالدة العالمية التي هي من أقدم أدواء البشر ومواضع ضعفه وسقطته، وهي باقية مع البشر في جميع مراحل حياته وتطوراتها، وهي التي تُثير غضب الله وغيرته، وتَحول بين العبد وتقدمه الروحي والخلقي والمدني، وتُهبطه من أعلى الدرجات إلى أسفل الدركات: **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين﴾** [التين: ٤، ٥]، تُهبطه من درجة مسجود للملائكة إلى درجة ساجد للضعيف من المخلوقات، والخسيس من الموجودات، إنها هي الجاهلية التي تخنق القوى وتقتل المواهب، وتقضي على الاعتماد على الله، والاعتداد بالنفس والثقة بها، وتُصرف الإنسان عن الالتجاء إلى الله السميع البصير، العليم القدير، الجواد الوهّاب، الغفور الودود، والاستفادة من صفاته التي لا تُحَدّ، وخزائنه التي لا تَنفد، إلى الالتجاء إلى الضعيف الفقير، العاجز الحقير، الذي لا يملك شيئاً: **﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مُسَمّى، ذلكم الله ربُّكم له الملك، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير**[1] **، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم، ويوم القيامة يكفرون بشرككم، ولا يُنبئك مثل خبير. يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد﴾** [فاطر: ١٣ ـ ١٥]..

هذه الوثنية ـ في دائرة ما بعد الطبيعة ـ بجميع أشكالها الواضحة والدقيقة، كانت موضوع جهاد الأنبياء في كل عصورهم، وفي جميع بيئاتهم ومجتمعاتهم، وهو الذي أثار غضب أهل الجاهلية فقالوا: **﴿أَجَعل الآلهة**

(١) والقطمير: غلاف النواة.

إلٰهاً واحداً، إن هذا لشيء يُراد. ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق﴾ [ص: ٥ - ٧]..

ومما لا يشك فيه عاقل دَرَسَ تاريخ العصر النبوي واطلع على أخبار صحابة الرسول - ﷺ - أن الصحابة لم يكونوا يفهمون من آيات القرآن حول دعوة النبوة إلا هذه الوثنية السافرة، وعبادة الأصنام والأوثان، وتقديس أشخاص الماضين أو الموجودين، والسجود لهم، والدعاء منهم، والذبح والنذر لهم، والحفاوة بأسمائهم، والتقرب إلى الله بعبادتهم، والاعتماد على شفاعتهم المطلقة التي لا تُرد، وطلب النفع والضر، وكشف الكربة منهم، ولا يفهمون من معنى الإله، والربّ، والعبادة، والدين، إلا هذه المفاهيم الدينية؛ وهذا هو المستفيض المتواتر من آثارهم وأخبارهم، ومناهج كلامهم لا يختلف فيه إثنان.

ولا يزال هذا هو الركن الأساسي في الدعوات الدينية وحركات الإصلاح إلى يوم القيامة، وهو تراث النبوة الخالدة وشعار جميع الدُّعاة إلى الله، وجميع المصلحين المجاهدين.. **﴿وجعلها كلمة باقية في عَقبه لعلهم يرجعون﴾** [الزخرف: ٢٨]..

أما مظاهر الجاهلية الأخرى كالطاعة لغير الله، والتحاكم إلى غير الله، وقبول التشريع غير الإلهي، وتسليم حكومة لا تقوم على النيابة عن الله، وعلى أحكامه، فكل ذلك يتبع هذه الوثنية والشرك ويأتي بعده، **ولا يجوز أن يُقَلّل** من شأن هذا الشرك الجلي المتقدم ذكره وأهميته وأن يوضع في الهامش من منهاج دعوة أو جهاد، أو يساوي بينه وبين معاني الطاعة، والحكم السياسية ويحكم عليها حكماً واحداً، أو يعتقد أنه من خصائص الجاهلية القديمة المحدودة المختلفة التي وَلَّى عصرها وانقضى دورها، فإن هذه إساءة إلى دعوة الأنبياء وجهودهم، وشك في خلود القرآن، وأنه هو الكتاب الأخير الدائم؛ وشكّ في أن منهاج النبوة هو المنهاج الصحيح الذي

ارتضاه الله تعالى، والذي كُتب له من النجاح والتوفيق والإنتاج والإثمار ما لم يكتب لأي منهاج من مناهج الإصلاح».

وصيـة...

«وإنني لأوصي دعـاة المسلمين، وأخص شباب الجـامعات الـذين سيتخرجون دعاة مصلحين وكُتّاباً ومؤلفين، وقادة مُوَجهين، وصية هي عصارة تجارب ودراسات طويلة، ولسوف يعـرفون قيمتهـا وأهميتها بعـد التجربـة الطويلة: إياكم أن تُعطي كتاباتكم وعرضكم للإسلام وحقائقه ومبادئه فكرة أن المسلمين ظلوا هذه القرون الطوال في جهل متصل عن فهم هذا الدين. الذي هو دين كل عصر وجيل، وعن فهم القرآن ومصـطلحاتـه وتعبيراتـه الأساسية، لأن ذلك يُثبت أن هذا الكتاب بقي هذه المدة الطويلة لا يُفهم على حقيقته وأنه بقي مطوياً على غرّته، وانقطعت الاستفادة بعد نزوله بمدة قصيرة، وهذا لا شك يناقض قوله تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الـذكر وإنـا له لحافظون**﴾ [الحجر: ٩]، والوعـد بالحفظ في مـوضع الامتنـان يستوجب الفهم والشرح والعمل والتطبيق، فلا خير في كتاب يبقى ولا يُعمل به، وقد قال لرسوله: ﴿**إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه**﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٩].. وهذا الأسلوب من التفكير الذي قد يتجه إليه بعض الكتّاب والمفكرين في هذا العصر يرمي هذه الأمة الخالـدة الولـود بالعقم والجدب الفكري الدائم؛ والشجرة التي بقيت أفضل مدة حياتها لا تعطي ثمارها، غير جديرة بالاعتماد والاعتناء، ولا يُرجى منها الخير.

وذلك لا شك نتيجة ما نالته لمعاني السياسة والمؤسسات السيـاسية والتنظيمات في عصرنا من الأهمية بتأثير النظم والثقافات الحديثة..

وكـل مَن يسعى لمَجْـد المسلمين ويـطمـح إلى سؤددهم وصـلاح أحوالهم، ويريد أن يسود النظام الإسلامي، ويقـوم الحكم الإسلامي في جميع أقطار المسلمين قد يقع في هذا التفريط والإفـراط ـ ولا شك أنهـا غايات سامية يجب أن يُجند لها المسلمون والدعاة والمفكرون منهم بصفة

خاصة مواهبهم وطاقاتهم وأقلامهم، ولكن يجب عليهم كذلك أن لا يُخضعوا القرآن لهذه الغاية. . والنصوص الداعية إلى هذه الغايات، الحاثّة عليها. الموجبة لها، وافرة كثيرة لا يحتاج معها إلى هذا التأويل»(١).

٣ ـ عقيدة الآخرة والاهتمام بها:

«والسمة الثالثة من سمات النبوة وملامح دعوتهم وشعائرها هو التشديد على جانب الآخرة واللَّهج بها أو الإشادة بذكرها، والتنويه بشأنها تنويهاً يجعلها من النقط الأساسية في دعوتهم، ويشعر كل مَن يعيش في أخبارهم وأحاديثهم، ويتذوق كلامهم أن الآخرة دائماً نصب أعينهم، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها وسعادتها وشقائها، فهم إلى الجنة في حَنين شديد ومن جهنم في فَزَع كبير، وهو شيء طبيعي قد مَلَك عليهم مشاعرهم واستولى على فكرهم، وحسبنا أن نقرأ ما حكاه القرآن من قول إبراهيم، وقد جاشت نفسه وفاضت عواطفه حين ذَكَر الآخرة وتَمَثَّل هولها وفَزَعها **﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين. رَبِّ هَبْ لي حُكماً وألحقني بالصالحين. واجعل لي لسان صِدْق في الآخرين. واجعلني من ورثة جنة النعيم. واغفر لأبي إنه كان من الضالين. ولا تُخزني يوم يُبعثون. يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب سليم. وأُزلفت الجنة للمتقين. وبُرزت الجحيم للغاوين﴾** [الشعراء: ٨٢ ـ ٩١]. .

وكذلك ينظر إليها يوسف العزيز وهو في أوج أُبَّهته وسيادته، له الكلمة النافذة والأمر المطاع في مصر ـ أرقى مملكة وأخصب بلاد في ذلك العصر ـ وقد أَقَرّ الله عينه من أبيه الكبير وأسرته العزيزة، وأقرّ عينهم بما رأوه من إقبال الدنيا على يوسف، وقد كان في ذلك ما يُرضي الطموح ويُزهي عالي الهمة بعيد النظر، ولكن فكرة الآخرة وحسن الختام هي التي تسيطر على يوسف، وتجعله لا يحسب لهذه العظمة حساباً كبيراً، فيقول شاكراً داعياً، راضياً

(١) النبوة والأنبياء: ٤٤ ـ ٤٦.

وَجِلاً: ﴿ربِّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السموات والأرض، أنت وَليِّي في الدنيا والآخرة، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ [يوسف: ١٠١]»(١).

إن الحياة ـ في التصور الإسلامي الذي أقام الأنبياء دعائمه في الوجدان الإنساني ـ ليست هي الفترة القصيرة التي تُمثل عمر الفرد، وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تُمثّل عمر الأمة من الناس، كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا.

إن الحياة في دعوة الأنبياء لا تنتهي في هذه الفترة المحدودة المشهودة ـ فترة الحياة الدنيا ـ إنما تمتد لتشمل الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله؛ والتي تُعدّ فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار!

إن قضية الحياة الآخرة قاعدة أساسية في الوجود الإنساني، قاعدة قامت عليها دعوة الأنبياء والرسل في كل زمان وكل بيئة ومكان.

وفي كل جزئية في دعوة الرسل منظور فيها إلى حقيقة الحياة الآخرة، وما تُنشئه في التصور من سعة وسمو وارتفاع، وما تُنشئه في الخُلق من رفعة وَتطهُّر وسماحة ومن تَشدُّد في الحق وتَحرُّج وتقوى، وما تُنشئه في النشاط الإنساني من تسديد وثقة وتصميم.

من أجل ذلك كله لا تستقيم الحياة الإسلامية بدون يقين في الآخرة. ومن أجل ذلك كله كان هذا التوكيد في رسالة الله إلى الإنسانية على حقيقة الآخرة.

لقد وَقَفَتْ البشرية في أجيالها المختلفة ورسالاتها المتوالية موقفاً معارضاً لدعوة الأنبياء، فلقد عجبوا من الرسالة ذاتها، وعجبوا ـ بصفة خاصة ـ من أمر البعث الذي حَدَّثهم عنه الرسول. وقفوا موقفاً عجباً من

---

(١) المصدر السابق: ٤٧ ـ ٤٨.

قضية الدار الآخرة، على بساطتها وضرورتها **﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم، فقال الكافرون: هذا شيء عجيب أإذا متنا وكنا تراباً؟ ذلك رجع بعيد﴾** [ق: ٢، ٣]..

فقضية البعث قاعدة أساسية في عقيدة الأنبياء ودعوتهم. قاعدة تقوم عليها العقيدة ويقوم عليها التصور الكلي لمقتضيات هذه العقيدة، ولكن البشرية التي قاومت دعوة الرسُل نظرت إلى قضية الآخرة من جانب ساذج شديد السذاجة، بعيد كل البعد عن إدراك حقيقة الحياة والموت، وعن إدراك أي طرف من حقيقة قدرة الله، فكان أعجب ما تدهُش له أن ينبئها رسول أن هناك بعثاً بعد الموت وحياة بعد الدثور.. **﴿وقال الذين كفروا أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون؟ لقد وُعِدْنا هذا نحن وآباؤنا من قبل، إن هذا إلا أساطير الأولين﴾** [النمل: ٦٧، ٦٨]..

وَفِيمَ العجب.. وهم قد خُلقوا ابتداءً؟ إنهم لا ينظرون هذه النظرة العجيبة الواقعة وعجيبة خلقهم الأول. ولو قد نظروها وتدبروها ما عجبوا أدنى عجب للخلق الجديد، ولكنهم ضالون لا يهتدون.

وإنكار الذين كفروا بالآخرة ناشيء من عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره. فحكمة الله لا تَترك الناس سُدى، يُحسن منهم مَن يُحسن ويُسيء منهم مَن يُسيء، ثم لا يلقى المحسن إحسانه، ولا يلقى المسيء جزاء إساءته..

والمسلم مطلوب منه أن يقوم على الحق ليدفع الباطل، وأن ينهض بالخير ليقضي على الشر، وأن يجعل نشاطه كله في الأرض عبادة للّه، بالتوجه في هذا النشاط كله للّه. ولا بد من جزاء على العمل. وهذا الجزاء قد لا يتم في رحلة الأرض. فيؤجَّل للحساب الختامي بعد نهاية الرحلة كلها.

فلا بد إذن من عالم آخر، ولا بد إذن من بعث للحساب في العالم الآخر.. وحين ينهار أساس الآخرة في النفس ينهار معه كل تصور لحقيقة

الوجود الإنساني على هذه الأرض، وحقيقة هذه العقيدة وتكاليفها؛ ولا تستقيم هذه النفس على طريق الله أبداً. لذلك كان «الإيمان بالآخرة وتَمَثُّل ما فيها ـ من سعادة دائمة أو شقاء دائم، وما أعدَّ الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من ثواب، وللكفار العصاة من عقاب ـ هو الحافز الحقيقي إلى دعوتهم وبذل نصحهم، وهو الذي يُقلقهم ويكدّر صفو عيشهم، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ولا يقرّ لهم قرار، وهو حافز أقوى وأعظم سلطاناً على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال؛ وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد، ويجعلون ذلك موجباً لدعوتهم وإنذارهم، وسبباً لقلقهم وإشفاقهم، فيقول القرآن عن نوح، وهو أول رسول يذكره القرآن بتفصيل **﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين. أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾** [هود: ٢٥، ٢٦]، ويقول عن هود، وقد بُعث في قوم تهيأت لهم أسباب العيش، وتوسعت لهم الدنيا وطابت لهم الحياة **﴿واتقوا الذي أَمَدَّكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين، وجنات وعيون. إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾** [الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٥]، ويقول عن شعيب وقد بُعث في قوم لاَنَ لهم العيش، وانتشر في أرضهم الخصب: **﴿إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾** (١) [هود: ٨٤].

وقد تَعَدَّت عقيدة الآخرة ـ بقوة تأثير الرسل ـ إلى أتباعهم والمؤمنين بهم، وتجلَّى لهم قصر مدى هذه الحياة وتفاهتها، وعظمة الحياة الآخرة وخلودها، وأنها الجدّ الذي يجاهد في سبيله المجاهدون، ويَسعى له العاملون، ويتنافس فيه المتنافسون، فقال مؤمن آل فرعون: **﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاعٌ وإن الآخرة هي دار القرار. مَن عمل سيئةً فلا يُجزى إلا مثلها، ومَن عَمِلَ صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة، يرزقون فيها بغير حساب﴾** [غافر: ٣٩، ٤٠]..

---

(١) في روح المعاني: «فالمراد عذاب يوم القيامة، أو عذاب الاستئصال في الدنيا».

وقال سَحَرة فرعون بعد لحظة من إيمانهم بموسى لَمَّا أوعدهم فرعون بالعذاب الأليم وما أدراكم به؟: تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، والتصليب في جذوع النخل: **﴿قالوا: لن نُؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فَطَرنا فاقضِ ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنَّا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى. إنه مَن يأتِ ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى. ومَن يأته مؤمناً قد عَمِلَ الصالحات فأولئك لهم الدرجات العُلى. جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. وذلك جزاء مَن تَزَكَّى﴾** [طه: ٧٢ - ٧٦]. .

والأنبياء يبعدون كل البعد عن أن يُطمِعوا أُمتهم في مُلك أو سيادة أو منفعة دنيوية، ويجعلونه ثمناً لإيمانهم أو مكافأة لقبول دعوتهم، بل بالعكس من ذلك، يُنكرون على حبّ العلو والاستعلاء، والاستيلاء على الناس بدافع حبّ الجاه والطموح الفردي أو القومي، وقد جاء في القرآن: **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُوًّا في الأرض ولا فساداً. والعاقبة للمتقين﴾** [القصص: ٨٣]، إنما يُطمعونهم في رحمة الله، ويُخوفونهم من عذابه، ويجعلون مناط الأمر الثواب والجزاء في الآخرة، إنما يذكرون أن هذا الإيمان والطاعة والاستغفار يجلب رحمة الله ويستدر الرزق، وينزل الأمطار ويدفع ما هم فيه من جدب وضيق، فيقول نوح: **﴿فقلتُ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً. يرسل السماء عليكم مدراراً ويُمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾** [نوح: ١٠ - ١٢]، ويقول هود: **﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، يُرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾** [هود: ٥٢]. .

وهذه طبيعة الإيمان والاستغفار وسجيتهما التي لا تتخلف عنهما، كطبائع الأشياء، وخواص الأدوية، ونواميس الفطرة.

مَبدأ ومنهاج . . .

ولم تكن دعوة الرسل إلى الآخرة، وإيثارها على الدنيا، والاستهانة

بقيمتها ومتاعها، دعوة باللسان فقط، ودعوتهم لأمتهم فقط، بل كان ذلك مبدأً ومنهاجاً لحياتهم، وكانوا من أول المؤمنين بها، السائرين عليها في حياتهم وخواصهم وعشيرتهم، وقد قال شعيب مُعبراً عن جماعته كلها: **﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾** [هود: ٨٨]، فكانوا زاهدين في الدنيا، مُقبلين على الآخرة، قد زهدوا في المناصب الكبيرة، والمراكز الخطيرة، وضَحُّوا بها في سبيل دعوتهم، وفوّتوا الفرص، وكان أكثرهم من الذين لهم مستقبل زاهر في الحياة والغد المضمون، وكانوا من «اللامعين» في المجتمع بذكائهم ونبوغهم وشرف أُسرتهم، وصِلاَتِهم بالبلاط أو الأسرة الحاكمة، وعن ذلك عَبَّر قوم صالح، إذ قالوا: **﴿يا صالح قد كنتَ فينا مرجواً﴾** [هود: ٦٢]. .

وبذلك أخذوا أهل بيتهم وأُسرتهم، وقد قيل لسيد الرسل ـ ﷺ ـ: **﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تُردن الحياة الدنيا وزينتها، فتعالين أُمتعكن وأُسرحكن سراحاً جميلًا، وإن كنتن تُردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾** [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]، وكان من تأثير صحبته أن أزواجه رضي الله عنهن كلهن آثرن الله ورسوله وآثرن الفقر والضيق مع الرسول، على الرخاء ورغد العيش مع غيره، ومعيشة النبي ـ ﷺ ـ وحياته وحياة أهل بيته معروفة في التاريخ، معروفة في السيرة النبوية، تُثير العجب، وتسحر النفوس، وتملأ القلوب عظمة ومهابة، وتنصب للدعاة والسائرين على منهاج النبوة مناراً عالياً من نور، وكان شعارهم الدائم: «اللهم لا عيشَ إلا عيش الآخرة»[1] ودعاؤها المقبول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»[1] .

عقيدة وإيمان. . .

ولم تكن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالآخرة، أو الإشادة بها «كضرورة

---

(١) صحيح البخاري.

خلقية، أو كحاجة إصلاحية»، لا يقوم بغيرها مجتمع فاضل ومدنية صالحة، فضلاً عن المجتمع الإسلامي، وهذا وإن كان يستحق التقدير والإعجاب، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم، ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً، والفرق بينهما أن الأول ـ منهج الأنبياء ـ إيمان ووجدان، وشعور وعاطفة، وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره وتفكيره وتصرفاته، والثاني اعتراف وتقرير، وقانون مرسوم، وأن الأولين يتكلمون (عن الآخرة) باندفاع والتذاذ، ويدعون إليها بحماسة وقوة، وآخرون يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية، والحاجة الاجتماعية، وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقي؛ وشتان ما بين الوجدان والعاطفة، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية»[1].

٤ ـ تشديد على الإيمان بالغيب:

«ومن سمات دعوة الأنبياء وصُحفهم، ومن ملامحها البارزة، أنها تُشَدِّد على الإيمان بالغيب[2]، وتجعله شرطاً أساسياً للهداية والانتفاع بالدين، وشعاراً للمهتدين، وعلامةً للمتقين، فقال جَلّ جلاله: **﴿ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه. هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾** [البقرة: ١ ـ ٥]، وتُطالب به في قوة وشدة، وتطلب من الذين يؤمنون بالله ويدخلون في الإسلام ـ هو دين جميع الأنبياء ـ أن يُصدّقوا بصفات الله العلية، وقدرته الواسعة، وأفعاله العجيبة التي تتحدى العقل الضعيف،

---

(١) النبوة والأنبياء: ٤٨ ـ ٥٢.

(٢) قال العلاّمة أبو السعود في تفسيره: الغيب هو ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لا يُدرك بواحد منها ابتداء بطريق البداهة، وهو قسمان: قسم لا دليل عليه، وهو الذي أريد بقوله سبحانه وتعالى **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾**، وقسم نصب عليه دليل، كالصانع وصفاته، والنبوات وما يتعلق بها من الأحكام والشرائع واليوم الآخر، وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء».

والعلم المحدود والتجارب القاصرة أحياناً، ويُصدّقوا بكل ما جاء عن الرسل، وذُكر في الكتب السماوية، مما لم يُجرِّبه البشر، ولم يُصدقه الحسّ، ولم تألفه العقول، اعتماداً على إخبار الرسل وحده، وصدقهم في ما يروونه وينسبونه إلى الله، واعتماداً على أن الله على كل شيء قدير، يخلق ما يشاء، ويفعل ما يشاء، وهو الخَلاّق المبدع، فَعَّال لما يُريد، لا يحتاج إلى الأسباب التي خلقها، ولا يتقيد بسننه التي سَنَّها، لقد خلق الأسباب، وسُنن الكون، ولكنه لا يزال خالقها ومالكها والمتصرف فيها، والحاكم عليها، وأنه لم يفلت منه زمامها، وهي لم تستقل بوجودها وإرادتها، ولم يتوقف أمره على مقدمات ووسائل، ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل: ٤٠]»[1].

إن حقيقة الغيب من «مقومات التصور الإسلامي» الأساسية، لأنها من مقومات العقيدة الإسلامية الأساسية، والإيمان بالغيب قاعدة من قواعد الإيمان الأساسية.

والإيمان بالله ـ سبحانه ـ هو إيمان بالغيب. فذات الله ـ سبحانه ـ غيب بالقياس إلى البشر؛ فإذا آمنوا به فإنما يؤمنون بغيب، يجدون آثار فعله، ولا يدركون ذاته، ولا كيفيات أفعاله ﴿وهو على كل شيء قدير﴾.. إجمالاً بلا حَدّ ولا قيد.

فالمشيئة مُطْلَقَة تمضي بغير حَدْ ولا قيد. وتتعلق بما تشاء أن تتعلق به كما تشاء. وكل قيد يتصوره العقل البشري بمنطقه هو لهذه المشيئة من أي نوع وأي لون هو تصور باطل، ناشيء من طبيعة العقل البشري المحدود! واختيار المشيئة لنواميس وسنن لهذا الوجود داخل في حقيقة انطلاقها بلا قيود وعلى حدود. فهي تختار هذه النواميس والسنن اختياراً طليقاً، وتعملها في الكون غير مقيدة بها بعد إعمالها، ولا محصورة في نطاقها. والاختيار دائم ومطرد وراء هذه السنن والنواميس..

(١) النبوة والأنبياء: ٥٣، ٥٤.

والقرآن يُولي هذه الحقيقة عناية كبيرة، فينصّ عليها في كل مناسبة بما يفيد طلاقة المشيئة من كل قيد يرد عليها حتى من عملها هي. لتبقى هذه الحقيقة واضحة، ويبقى تصورها غير مشوب. فقد وَعَد الله أهل الجنة بالخلود فيها وأهل النار كذلك. وهذا الوعد صادر من المشيئة. ولكنه أبقى المشيئة طليقة خارج نطاق هذا الوعد ذاته وهو من عملها وباختيارها. فقال عن هؤلاء وهؤلاء: **﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك..﴾** [هود: ١٠٧، ١٠٨].. وهكذا في كل موضع وردت فيه مثل هذه المناسبة. ولا مجال لمنطق العقل البشري ولا لمقرراته في هذا المجال. وعليه أن يأخذ مقرراته كلها من هذا القرآن، لا من مَعِين آخر غير القرآن!

ومن ثم يتمثل للقلب البشري من خلال هذه الآية سلطان الله المطلق في مُلكه الذي لا شريك له فيه، وهي حقيقة ضخمة تملأ الكيان البشري وتفيض..

«وقد زخرت الكتب السماوية، وزخر القرآن الكريم بعجائب صنع الله وبالمعجزات والخوارق التي لا يُصدّقها ولا يسيغها ولا يحتملها إلا الإيمان بالغيب، الإيمان بقدرة الله المطلقة، ومشيئته القاهرة والاعتماد الكامل على صحة هذه الكتب، وصدق الرسل الذين نزلت عليهم وأخبروا بها، أما الإيمان الذي لم يقم إلا على الحسّ والتجربة، والمألوف من الحوادث، ومطابقة العقل الظاهر، والعلم المدون في الكتب، فإنه إما يرفض أن يقبله ويصدّق به، أو يتعثر ويتلجلج في قبوله والتصديق به، أو يؤوله تأويلاً يتفق مع ما أَلِفَه ولذلك قال: **﴿بل ادَّارك علمهم في الآخرة، بل هم في شك منها، بل هم منها عمون﴾** [النمل: ٦٦].

وقد ذكر القرآن الفرق بين الفريقين: فريق أكرمه الله بالإيمان الكامل، وشَرَح صدره للإسلام، وفريق ضاق عقله وصدره عن كثير مما جاء من الله، وصوَّر هذا الفرق تصويراً دقيقاً فقال: **﴿فَمَن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومَن يُرد أن يُضلَّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً، كأنما يَصَّعد في**

السمـاء. كذلـك يجعل الله الـرجس على الـذين لا يؤمنـون﴾ [الأنعـام: ١٢٥]..

وقد ذكر القرآن من صفات الله تعالى وأفعاله ما لا يُقبل ولا يُصدّق إلا بالإيمان بالغيب، ومن الوقائع والحوادث وآلاء الله وأيامه، وأخبار الرسل وما أجرى على أيديهم من المعجزات، وما أظهر لهم من الآيات، ما لا يُطيقه ولا يُسيغه إلا الإيمان بالغيب، وما لا يقبـل التعليل العقلي، ولا التـطبيق بنـواميس الطبيعـة إلا بتكلُّف شديـد مضحك، وخـروج عن قوانين اللغـة العربية، وجراءة على الله، وتجنّ على اللغة وأبنـائها، ووقـاحة شـديدة، كانفلاق البحر لموسى وقومه، وانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر بضرب موسى، وارتفاع الجبل كالظلّة على طائفة من بني إسرائيل، وحياتهـا بعد موتها، ومسخ فريق منهم قردة خاسئين، وحياة المقتول الذي جُهل قاتله، بضرب جزء من البقرة المذبوحة، وتحوُّل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، ومنطق الطير الذي عَلّمه سليمان، وفهمه لحديث النمل، ومطاوعة الرياح له، وسيرها به غدوّها شهر ورواحها شهر، وانتقال عرش ملكة سبأ في طرفة عين، وقصة ذي النون، وخروجه من بطن الحوت، وولادة عيسى الخارقة للعادة، وهلاك أصحاب الفيل بحجارة من سجيل، وإسراء الرسول ـ ﷺ ـ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومنه إلى السماء[1]، إلى غير ذلك مما زخر بـه القرآن والصحف السمـاوية، ولا يقبله إلا الإيمـان بالغيب، الإيمان الذي آمن بالله الذي وسعت قدرته كل شيء»[2].

إن العقلية الإسلامية عقلية (غيبية علمية) لأن «الغيبية» هي «العلمية» بشهـادة «العلم» والواقـع.. أما التنكّـر للغيب فهو «الجهليـة» التي يتعالم أصحابها وهم بهذه الجهالة!

---

(١) كل ذلك جاء في القرآن صراحة في سور كثيرة ومواضع عديدة وقد فَصّلنا ذلك في هذا الكتاب في قصص الرحمٰن في سياق متتابع.
(٢) النبوة والأنبياء: ٥٤ ـ ٥٦.

وإن العقلية الإسلامية لتجمع بين الاعتقاد بالغيب المكنون الذي لا يعلم مفاتحه إلا الله، وبين الاعتقاد بالسنن التي لا تتبدل، والتي تُمكن معرفة الجوانب اللازمة منها لحياة الإنسان في الأرض، والتعامل معها على قواعد ثابتة.. فلا يفوت المسلم «العلم» البشري في مجاله، ولا يفوته كذلك إدراك الحقيقة الواقعة، وهي أن هناك غيباً لا يُطلع اللّهُ عليه أحداً، إلا من شاء، بالقدر الذي يشاء.

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها «الفرد» فيتجاوز مرتبة «الحيوان» الذي لا يُدرك إلا ما تُدركه حواسه، إلى مرتبة «الإنسان» الذي يُدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيّز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس ـ أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس ـ وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، والحقيقة العظمى التي تُسَيِّر هذا الوجود بمشيئتها المطلقة.

إن هناك حقيقة واحدة مستيقنة في هذا الوجود هي حقيقة الغيب. وإن هناك حتمية واحدة هي وقوع ما يقضي به الله ويجري به قدره. وَقَدَر الله غيب لا يعلمه إلا هو.. «ذلك لأن الإيمان الذي يقوم على الحس والتجربة، ويسير مع المألوف المعروف، ويتقيّد بالسنن الكونية، والنواميس الطبعية، والحوادث التاريخية، ويلجأ دائماً إلى شهادة العقل، والحواس الخمسة، وقوانين العلوم الرياضية والمحسوسات، إنما هو إيمان مُقيَّد مغلول، وإيمان محدود مشروط، لا يصلح للاعتماد، ولا يساير الأديان، ولا يتفق مع دعوة الأنبياء وما يطلبونه من تصديق مطلق، وثقة دائمة، وسرعة في الانقياد والطاعة، وتفان في الجهاد والتضحية، ولا يصلح في الحقيقة لأن يُسمَّى إيماناً، إنما هو علم وتطبيق وخضوع للمنطق، وطاعة للحواس والتجارب، ولا فضل فيه، ولا يختص بالدين؛ فكل عاقل في حياته يؤمن بتجاربه ونتائج استقرائه. وما تؤدي إليه حواسه، ويرشد إليه عقله.

وصاحب هذا الإيمان «الطبيعي» في عناء وبلاء مع الكتب السماوية، والأديان الإلهية. وفي صراع دائم مع روح الديانات ومطالبها وهو كما قال أحد العارفين(١): «رِجل خشبة لا تطاوع صاحبها في سرعة المشي، ورفع الخطا بحرية، وكثرة النقلات والاتجاهات» وهو إما يلجأ إلى التحريف أو التأويل البعيد، وإما يضطر إلى الإنكار والإلحاد، بناءً على الفجوة الواسعة بين هذا العلم الجديد، والحقائق التي جاءت بها الرسل، ونطقت بها الكتب، وبين ما آمن به من المحسوسات والماديات والأصول التي هي مبنية على استقراء محدود، فقال تعالى: **﴿بل كذَّبوا بما لم يُحيطوا بعلمه ولما يأتِهم تأويله﴾** [يونس: ٣٩].

أما المؤمن بالغيب، المؤمن بقدرة الله المطلقة وإرادته الحرة، المصدّق للرسل في كل ما جاءوا به، وما نطقوا به، وأخبروا عن الله، فهو في راحة وهدوء وانسجام ووئام مع روح هذه الديانات وأخبارها، جاهَدَ وفَكَّر مرة ثم استراح، جاهد وفَكَّر في الإيمان بالله وصدق الرسول وعصمته في ما يقول: **﴿وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يُوحى﴾** [النجم: ٣، ٤]، ثم آمن واطمأن وصدّق بكل ما جاء به الرسول، وصحّ به النقل في سهولة ويسر. كأنه كان منه على ميعاد؛ وكان له على أتمّ الاستعداد.

وقد ذكر الله هذا الفرق بين النفسيتين، نفسية المؤمن الذي أخضع عقله للصحيح من المنقول، والثابت عن الرسول، وبين نفسية الرجل الذي يحاول أن يُخضع الكتاب وما جاء به الرسل، لعقله العاجز وعلمه القاصر، ويسلط عليه التأويل البعيد فقال: **﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات، هنّ أُمّ الكتاب وأُخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به، كُلٌّ من عند ربنا وما يذكّر إلا أولو الألباب، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهَبْ لنا من لدنك رحمة إنك أنت**

(١) هو الشيخ جمال الدين الرومي صاحب المثنوي المشهور.

الوهّاب﴾ [آل عمران: ٧، ٨]. وذكر نفسية الرجل الذي تعوَّد أن لا يُؤمن، وأن لا يدين وأن لا يعيش إلا على المألوف المعروف الموافق لعقله ـ الظاهر السطحي ـ وشهواته ومصالحه فقال: **﴿ومن الناس مَن يَعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه. خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين﴾** [الحج: ١١]..

إن أدبنا الإسلامي ـ مع الأسف ـ ونظامنا التعليمي الديني، وأسلوب الدعوة، قد قصَّر تقصيراً كبيراً في الدعوة إلى الإيمان بالغيب بإيمان وحماسة، وتساهَلَ في دعمه وتغذيته والإلحاح عليه، وقد اتَّجه بعض كتابنا المعاصرين ـ مع ما لهم من فضل في عرض محاسن الإسلام وتقريبه إلى الأذهان ـ إلى صياغة عقلية جديدة للدين، يتفق معها مع العلم الحديث والعقلية الجديدة، فجنى ذلك ـ إلى حدّ ومن غير إرادة ـ على روح الإيمان بالغيب، واعتاد الشباب الإسلامي المثقف أن لا ينشط إلا للمألوف المتكرر في الحياة الطبعية، أما ما شذَّ عنه، وخرج عليه، واحتاج في تصديقه إلى إيمان أعمق وأوسع، واعتماد على صدق المُخْبِر، فإنه لا يقبله إلا على مَضض وجهد، ولا ينشط له، ولا يُرحّب به، ويرى في ذلك منافاة لما سَمِعَ وآمن به من أن الإسلام هو دين العقل ودين العلم، ولا شك أن الإسلام كذلك، ولا شك أن صحيح المنقول لا يناقض صريح المعقول، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، ولكن العقل الإنساني طبقات ومستويات، فعقل البدوي يُنكر ما زخرت به العواصم والمدن الكبيرة في عصرنا من عجائب المصنوعات، ومرافق المدنية، وعقل العامي يُنكر ما وَصَل إليه الإنسان في العصر الحديث من الاختراع والاكتشاف، ومن تسخير الطاقات النووية والأقمار الصناعية، وهكذا، ثم إن أعلى ما يتصور من العقل النابغ، له حدود يقف عندها، ورسالة يقتصر على أدائها، ولا يُكلف فوق طاقته، يعجبني في ذلك كلمة لنابغة العرب، بل لنابغة الدنيا في فلسفة التاريخ وعلوم العمران، العلاّمة ابن خلدون، قال رحمه الله: «ولا تثقن بما يزعم

لك الفكر من أنه مُقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها، والوقوف على تفصيل الوجود كله، وسَفِّه رأيه في ذلك، واعلم أن الوجود عند مدرك في بادي رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها، والأمر في نفسه بخلاف ذلك، والحق من ورائه، ألا ترى الأصمّ كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع المعقولات، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات، وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات، ولولا ما يردّهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به، لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم، ولو سُئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه مُنْكراً للمعقولات وساقطة لديه بالكلية، فإذا علمتَ هذا فلعل هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا، لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة، وخَلْق الله أكبر من خلق الناس، والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقاً من ذلك، والله من ورائهم محيط، فَاتَّهِم إدراكك ومدركاتك في الحصر، واتبع ما أَمَرَكَ الشارع به من اعتقادك وعملك، فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك، لأنه من طور فوق إدراكك، ومن نطاق أوسع من نطاق عملك، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فطمع أن يوزن به الجبال، وهذا لا يُدرك على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدّى طوره حتى يكون له أن يُحيط بالله وصفاته، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه»[1].

---

(١) مقدمة ابن خلدون، علم الكلام، ص: ٣٦٤، ٣٦٥، طبعة التقدم، النبوة والأنبياء ٥٦ ـ ٦٠.

٥ ـ البُعد عن التكلُّف والتصنُّع والاعتماد على الفطرة السليمة:

«ومن سمات النبوة وخصائص الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ البُعد عن التَصَنُّع والتكلُّف في حياتهم وسلوكهم بصفة عامة، وفي دعوتهم وكلامهم وحجتهم بصفة خاصة، وقد كان قول آخر الرسُل ـ ﷺ ـ: ﴿**قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين**﴾ [ص: ٨٦، ٨٧] تصويراً لحال جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين السابقين ـ ﷺ ـ فهم دائماً يُخاطِبون الفطرة السليمة، والعقل العام، بأسلوب فطري غير ذي عوج، لا يتوقف فَهْمه على ذكاء نادر، وعلم فائق وألمعية بارعة ودراسة واسعة للعلوم، وإحاطة بالمصطلحات العلمية، ومعرفة المنطق والفلسفة والرياضيات والفلكيات، وعلوم الطبيعة، يفهمه العوام كما يتذوقه الخواص، وينتفع به الجهلاء كما ينتفع به العلماء، كُلٌّ على قدر فهمه وطاقته».

فدعوة الرسول، الدعوة الخالصة التي لا يطلب صاحبها أجراً وهو الداعية السليم الفطرة، الذي ينطق بلسانه، لا يتكلف ولا يتصنع، ولا يأمر إلا بما يوحي منطق الفطرة القريب، «ويطابق حال الأمم التي يعيش على فطرتها وسذاجتها، كما يطابق حال الأمم المتمدنة المثقفة الثقافة العالية، ولا يسألون الأسئلة الدقيقة ولا يفترضونها، إنما كلامهم كالماء الزلال السلسال الذي يسيغه كل واحد ويحتاج إليه، وقد أجاد شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في الإشارة إلى هذه النكتة في كتابه الفريد: «حجة الله البالغة» يقول رحمه الله:

«ومن سيرتهم ـ الأنبياء ـ أن لا يُكلِّموا الناس إلا على قدر عقولهم التي خُلقوا عليها، وعلومهم التي هي حاصلة عند غيرهم بأصل الخلقة، وذلك لأن نوع الإنسان حيث ما وُجد فله في أصل الخلقة حدٌّ من الإدراك، زائد على إدراك سائر الحيوانات...، وله علوم لا يخرج إليها إلا بخرق العادة المستمرة كالنفوس القدسية من الأنبياء والأولياء، أو برياضيات شاقة تهيء نفسه لإدراك ما لم يكن عنده بحساب، أو ممارسة قواعد الحكمة والكلام وأصول الفقه ونحوها مدة طويلة.

«فالأنبياء لم يُخاطِبوا الناس إلا على منهاج إدراكهم الساذج المودوع فيهم بأصل الخلقة، ولم يلتفتوا إلى ما يكون نادر الأسباب قلما يتفق وجودها. فلذلك لم يُكلفوا الناس أن يعرفوا ربهم بالتجلِّيات والمشاهدات، ولا بالبراهين والقياسات، ولا أن يَعرفوه مُنَزَّهاً عن جميع الجهات، فإن ذلك كالمُمتَنِع، بالإضافة إلى مَن يشتغل بالرياضيات، ولم يخالط المعقوليين مدة طويلة، ولم يرشدوهم إلى طرق الاستنباط والاستدلالات، ووجوه الاستحسانات، والفرق بين الأشباه والنظائر بمقدمات دقيقة المأخذ، وسائر ما يتطاول به أصحاب الرأي على أهل الحديث».

«ومن سيرتهم أن لا يشتغلوا بما يتعلق بتهذيب النفس وسياسة الأمة، كبيان أسباب حوادث الجو من المطر والكسوف والهالة وعجائب النبات والحيوان، ومقادير سير الشمس والقمر وأسباب الحوادث اليومية وقصص الأنبياء والملوك ونحوها، اللهم إلا كلمات يسيرة أَلِفتها أسماعهم، وقَبِلَتها عقولهم يُؤتى بها في التذكير بآلاء الله والتذكير بأيام الله، على سبيل الاستطراد، بكلام إجمالي يسامح في مثله بإيراد الاستعارات وبالمجازات».

«ولهذا الأصل لما سألوا النبي - ﷺ - عن علة نقصان القمر وزيادته، أعرض الله تعالى عن ذلك إلى بيان فوائد الشهور، فقال: ﴿**يسألونك عن الأهِلَّة**[1]. **قل: هي مواقيت للناس والحج**﴾ [البقرة: ١٨٩]، وترى كثيراً

---

(١) تقول بعض الروايات: إن النبي - ﷺ - سُئِلَ عن الأهِلَّة.. ما شأنها؟ ما بال القمر يبدو هلالاً، ثم يكبر حتى يستدير بدراً، ثم يأخذ في التناقص حتى يرتد هلالاً، ثم يختفي ليظهر هلالاً من جديد؟

وتقول بعض الروايات: إنهم قالوا: يا رسول الله لِمَ خُلقت الأهلة؟ وقد يكون هذا السؤال في صيغته الأخيرة أقرب إلى طبيعة الجواب. فقال الله لنبيه - ﷺ - ﴿**قل هي مواقيت للناس والحج**﴾. مواقيت للناس في حلهم وإحرامهم، وفي صومهم وفطرهم، وفي نكاحهم وطلاقهم وعدّتهم، وفي معاملاتهم وتجاراتهم وديونهم.. وفي أمور دينهم وأمور دنياهم على سواء.

وسواء كان هذا الجواب رداً على السؤال الأول أو على السؤال في الرواية الثانية، فهو في كلتا الحالتين اتجه إلى واقع حياتهم العملي لا إلى مجرد العلم النظري؛ وحدّثهم عن =

= وظيفة الأهلّة في واقعهم وفي حياتهم. ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر وكيف تتم وهي داخلة في مدلول السؤال: ما بال القمر يبدو هلالاً . . . الخ. كذلك لم يحدثهم عن وظيفة القمر في المجموعة الشمسية أو في توازن حركة الأجرام السماوية. وهي داخلة في مضمون السؤال: لماذا خَلَق الله الأهلة؟ فما هو الإيحاء الذي ينشئه هذا الاتجاه في الإجابة؟

لقد كان القرآن بصدد إنشاء تصور خاص، ونظام خاص، ومجتمع خاص.. كان بصدد إنشاء أمة جديدة في الأرض، ذات دور خاص في قيادة البشرية، لتنشىء نموذجاً معيناً من المجتمعات غير مسبوق؛ ولتعيش حياة نموذجية خاصة غير مسبوقة؛ ولتقر قواعد هذه الحياة في الأرض؛ وتقود إليها الناس.

والإجابة «العلمية» عن هذا السؤال ربما كانت تمنح السائلين علماً نظرياً في الفلك؛ إذا هم استطاعوا، بما كان لديهم من معلومات قليلة في ذلك الحين، أن يستوعبوا هذا العلم، ولقد كان ذلك مشكوكاً فيه كل الشك، لأن العلم النظري من هذا الطراز في حاجة إلى مقدمات طويلة، كانت تعد بالقياس إلى عقلية العالم كله في ذلك الزمان معضلات.

من هنا عدل عن الإجابة التي لم تتهيأ لها البشرية، ولا تفيدها كثيراً في المهمة الأولى التي جاء القرآن من أجلها. وليس مجالها على أية حال هو القرآن. إذ القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية. ولم يجيء ليكون كتاب علم فلكي أو كيماوي أو طبي.. كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يتلمسوا مخالفاته لهذه العلوم!

إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله. إن مجاله هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية. وإن وظيفته أن يُنشىء تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه؛ وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته.. ومن بينها طاقته العقلية، التي تقوم هي بعد تنشئتها على استقامة، وإطلاق المجال لها لتعمل ـ بالبحث العلمي ـ في الحدود المتاحة للإنسان ـ وبالتجريب والتطبيق، وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج، ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال.

إن مادة القرآن ـ وكل الكتب السماوية ـ التي يعمل فيها هي الإنسان ذاته: تصوره واعتقاده ومشاعره ومفهوماته، وسلوكه وأعماله، وروابطه وعلاقاته.. أما العلوم المادية، والإبداع في عالم المادة بشتى وسائله وصنوفه، فهي موكولة إلى عقل الإنسان وتجاربه وكشوفه وفروضه ونظرياته. بما أنها أساس خلافته في الأرض، وبما أنه مهيأ لها بطبيعة تكوينه.. والقرآن يُصحح له فطرته كي لا تنحرف ولا تفسد، ويصحح له النظام الذي يعيش فيه كي يسمح له باستخدام طاقاته الموهوبة؛ ويزوده بالتصور العام لطبيعة الكون وارتباطه =

= بخالقه، وتناسق تكوينه، وطبيعة العلاقة بين أجزائه ـ وهو أي الإنسان أحد أجزائه ـ ثم يدع له أن يعمل في إدراك الجزئيات والانتفاع بها في خلافته.. ولا يعطيه تفصيلات لأن معرفة هذه التفصيلات جزء من عمله الذاتي.

وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها.. كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه!

إن القرآن كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها.. لأنه هو الإنسان ذاته الذي يكشف هذه المعلومات وينتفع بها.. والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان. والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه، بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره. كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه. وبعد أن يوجد الإنسان السليم التصور والتفكير والشعور، ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط، يتركه القرآن يبحث ويجرب، ويخطىء ويصيب، في مجال العلم والبحث والتجريب. وقد ضمن له موازين التصور والتدبر والتفكير الصحيح.

كذلك لا يجوز أن نُعَلِّق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن أحياناً عن الكون في طريقه لإنشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه، وطبيعة التناسق بين أجزائه.. لا يجوز أن نعلق هذه الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن، بفروض العقل البشري ونظرياته، ولا حتى بما يسميه «حقائق علمية» مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة في نظره.

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة. أما ما يصل إليه البحث الإنساني ـ أياً كانت الأدوات المتاحة له ـ فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة؛ وهي مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها.. فمن الخطأ المنهجي ـ بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته ـ أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية. وهي كل ما يصل إليه العلم البشري! هذا بالقياس إلى «الحقائق العلمية».. والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التي تسمى «علمية». ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات الفلكية؛ وكل النظريات الخاصة بنشأة الإنسان وأطواره؛ وكل النظريات الخاصة بنفس الإنسان وسلوكه.. وكل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها.. فهذه كلها ليست «حقائق علمية» حتى بالقياس الإنساني. وإنما هي نظريات وفروض. كل قيمتها أنها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحيوية أو النفسية أو الاجتماعية. إلى أن يظهر فرض آخر يفسر قدراً أكبر من الظواهر، أو يفسر تلك الظواهر تفسيراً أدق! ومن ثم فهي قابلة دائماً للتغيير والتعديل والنقص والإضافة؛ بل قابلة لأن تنقلب رأساً على عقب، بظهور أداة كشف =

من الناس فَسّد ذوقهم بسبب الألفة بهذه الفنون أو غيرها من الأسباب، فحملوا كلام الرسل على غير محمله والله أعلم[1].

وقال في ضمن بيان أسباب التيسير في هذا الكتاب:

«ومنها أن الشارع لم يُخاطبهم إلا على ميزان العقل المودع في أصل خلقتهم قبل أن يتعانوا دقائق الحكمة والكلام والأصول، فأثبت لنفسه جهة فقال ﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾ [طه: ٥] وقال النبي ـ ﷺ ـ لامرأة سوداء: أين الله؟ فأشارت إلى السماء، فقال: هي مؤمنة! ولم يكلفهم في معرفة استقبال القبلة وأوقات الصلاة والأعياد وحفظ مسائل الهيئة والهندسة، وأشار بقوله: «القبلة ما بين المشرق والمغرب» إذا استقبل الكعبة إلى وجه المسألة، وقال: «الحج يوم تحجون والفطر يوم تفطرون» والله أعلم»[2].

وكذلك قال قَبله حجة الإسلام الغزالي وهو يذكر فضل أسلوب القرآن على علم الكلام، والفرق بينهما، قال رحمه الله: «فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويَسْتَضِرّ به الأكثرون، بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي والرضيع، والرجل القوي، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً»[3].

وقد قال الإمام الرازي ـ كما ينقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية كثيراً في كتبه ـ «لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا

= جديدة، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة!
(انظر في ظلال القرآن المجلد الأول ص ١٨٢ ـ ١٨٤).

(١) حجة الله البالغة ج ١ ص ٨٦، طبع المنيرية ـ القاهرة.

(٢) حجة الله البالغة ج ١ ص ١١٣.

(٣) إلجام العوام عن علم الكلام: المطبعة الميمنية ص ٢٠.

ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[1].

«وقد أفضتُ في هذا الموضوع لبُعْد الطبائع والعقول في هذا العصر عن فهم طبيعة وسمات ومنهاج الأنبياء وسيرتهم في الدعوة والبيان، وفي حياتهم الخاصة وفي حياتهم مع الناس. وطغت الأساليب الصناعية والمناهج الكلامية وأساليب الدعوة والتنظيم الحديثة حتى صار الناس في غفلة بل واستهانة لطريق الأنبياء وسيرتهم والتوى عليهم فَهْم القرآن ولم يستطيعوا تذوق أسلوبه الحكيم ولجأوا إلى تأويلات وتكلفات، ولا تزال سيرة الأنبياء في الدعوة هي السيرة المثالية، ولا يزال أسلوب القرآن هو الأسلوب الفطري البليغ الحكيم الذي يُقنع العقول ويفتح القلوب في كل عصر، ويجد فيه كل جيل وكل طبقة البيان الوافي والدواء الشافي: ﴿**تنزيل من حكيم حميد**﴾..»[2].

يخاطب أعماق الفطرة، ويطبعها ويؤثر فيها التأثير العجيب.. والحكمة ظاهرة في بنائه، وفي توجيهه، وفي علاجه للقلب البشري من أقصر طريق.

دعوة الأنبياء بين الإرادة الإلٓهية والأسباب المادية:

إن الله ـ سبحانه ـ هو صاحب السلطان القادر والمشيئة الطليقة، في الخَلْق والإبداع والتغيير والتبديل، عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم ذلك الغيب المحجوب، كما يعلم هذا الكون المشهود، وأنه لا سلطان إلا سلطانه، ولا إرادة إلا إرادته، والذي لا تخفى عليه خافية من أمر العباد، ولا يندّ عنه شأن من شؤونهم، يُصرف أمور الكون الذي خَلَقَه، وأمور العباد الذين يَملك ناصية أمورهم، يُصرف ذلك كله بالحكمة والخبرة.. فَأَوْلَى

(١) كتاب النبوات لابن تيمية ص ١٤٧، ١٤٨.
(٢) النبوة والأنبياء للندوي ٦٠ ـ ٦٤.

للناس أن يستسلموا إلى توجيهه وشرعه الذي أنزله على رسله، ويَسعدوا بآثار حكمته وخبرته، ويفيئوا إلى هُداه وحده، ويخرجوا من التيه والحيرة، إلى ظلال الحكمة والخبرة، وإلى كنف الهدى والبصيرة.. فكل ما أنزله على رُسله هو هدى ورحمة للمؤمنين.. هدى يقيهم من الضلال، ويُعَيِّن الطريق، ويصلهم بالسنن الكونية الكبرى التي لا تختلف ولا تحيد، ورحمة.. يرحمهم من الشك والقلق والحيرة والتخبط بين المناهج والنظريات التي لا تثبت على حال، ويصلهم بالله يطمئنون إلى جواره ويَسكنون إلى كنفه، ويعيشون في سلام مع أنفسهم ومع الناس من حولهم، وينتهون إلى رضوان الله وثوابه الجزيل.

والمنهج القرآني منهج فريد في إعادة إنشاء النفوس، وتركيبها وفق نسق الفطرة الخالصة، حيث تجدها مُتسِقة مع الكون الذي تعيش فيه، مُتمشية مع السُّنن التي تحكم هذا الكون ـ في يسر وبساطة..

وقد جعل الله انتصار الحق سُنّة كونية كخلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار بسنّة لا تتخلف.. قد تبطيء.. تبطيء لحكمة يعلمها الله، وتتحقق بها غايات يُقدرها الله. ولكن السُنّة ماضية. وَعْد الله لا يُخلف الله وعده. ولا يتم الإيمان إلا باعتقاد صدقه وانتظار تحققه. ولوعد الله أجل لا يستقدم عنه ولا يستأخر.

«إن القارىء للقرآن ـ وهو الكتاب الوحيد الذي حفظ تاريخ الأنبياء وحوادث حياتهم وأخبار دعوتهم ـ يلاحظ باستمرار ووضوح، أن الأنبياء بُعِثُوا دائماً في بيئة مظلمة خانقة، معارضة لدعوتهم، ثائرة عليها، **وبُعثوا في ضعف شديد وفقر تام في الأسباب**، وكان كل ما يعتز به إنسان من مال ومُلك وشيع وأنصار والأسباب المادية في جانب أعدائهم وفي كَفَّتهم، وتحت تصرفهم، ولم يكن في جانب الأنبياء وكَفَّتهم إلا الإيمان الذي لا يَرقى إليه شك، والإخلاص الكامل الذي لا يشوبه طمع ولا نفاق، واعتماد على الله وابتهال إليه، واطراح على عتبة عبوديته، والعمل الصالح، والتقوى، وحسن

السيرة، والأخلاق الفاضلة، وزيادة إلى كل ذلك - زيادة لا يُستهان بقيمتها - الدعوة الإيمانية الصحيحة التي تكفَّل الله بنصرها فقال: **﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد﴾** [غافر: ٥١]، وقال: **﴿كتبَ الله لأغلبن أنا ورُسلي، إن الله قوي عزيز﴾** [المجادلة: ٢١]، وقال: **﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جُندنا لهم الغالبون﴾** [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]. . »[١].

هذه سنّة ثابتة ووعد إلهي. . هذه هي الحقيقة في كل دعوة للّه، يتجرد فيها العباد لرب العباد، ويخلص فيها المؤمنون قلوبهم للّه رب العالمين. . إنها غالبة منصورة بإذن الله ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقها. . ولكن سُنّة الله الثابتة ووعده القاطع مرهونة بتقدير العليم الخبير يُحققها حين يشاء[٢]. .

«ويبدو لقارىء القرآن أن ما حكاه الله تعالى من قصص الأنبياء والرسل وأخبار دعوتهم، وما لقيته من معارضات ومحاربات ومؤامرات، وتألّب القوم عليها، وتَنَمّرهم لها ورميهم عن قوس واحدة، والحرب الشعواء التي كانت تقع دائماً بين ضعيف فقير أعزل، وبين جماعة غنية قوية قاهرة، تملك جميع الأسباب، أو ملك مستبد طاغية، ثم النتيجة واحدة دائماً، وهي انتصار الدعوة النبوية وأصحابها، على ضعفهم وفقرهم، وهلاك الأغنياء الأقوياء والملوك الجبابرة رغم قوتهم وبطشهم، أو خضوعهم لهذه الدعوة أو قبولهم لها، يبدو لقارىء القرآن أنه شيء مقصود ليس من المصادفات - وقدرة الله المحيطة الشاملة لا تعرف المصادفات ولا تعرف البخت والاتفاق، التي هي منطق الضعفاء الجهلاء - وأنه شيء مُطّرد مستمر، وأنه دعوة إلى الإيمان بالقدرة الكاملة التي خلقت الأسباب ولا تزال تملكها وتُصرّفها كيف تشاء وتُشغلها متى تشاء، وتُعطلها متى تشاء، وأنها لم تعطل ولم تضعف بعد أن

(١) النبوة والأنبياء ٨٥ - ٨٦.

(٢) انظر طريق الدعوة في ظلال القرآن، فصل النصر، ص ٣٤٦ - ٣٦١.

خلقتها، ولم تتخلّ عنها بعد أن ملكتها مَن أرادت، وأنها ليست في الخلق والإبداع والنصر والغلبة في حاجة إلى الأسباب، إنه دعوة إلى الإيمان بقوة الحق وصلاحيته للبقاء، وبضعف الباطل وسخافته وتهيؤه للانكسار والاندحار: **﴿قل جاء الحق وما يُبدى الباطل وما يُعيد﴾** [سبأ: ٤٩]، **﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. ولكم الويل مما تصفون﴾** [الأنبياء: ١٨]، **﴿فأما الزبدُ فيذهب جفاءاً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال﴾** [الرعد: ١٧]»[1].

لقد جاء الأنبياء بالحق من ربهم. الحق القوي الذي يقذف به الله. فمَن ذا الذي يقف للحق الذي يقذف به الله؟ إن الناموس المقرر والسنّة المطردة في هذا الوجود ألا يكون هناك لهو، إنما يكون هناك جَدّ، ويكون هناك حق، فيغلب الحق الأصيل على الباطل العارض، وقد تقرر مصير الباطل فهو إلى زوال..

ولكن الباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابياً طافياً ولكنه بعدُ زبد أو خبث، ما يلبث أن يذهب مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه. والحق يظل هادئاً ساكناً. وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات، ولكنه هو الباقي. ولقد يُخيل للناس أحياناً أن واقع الحياة يخالف هذه الحقيقة التي يقررها العليم الخبير. وذلك في الفترات التي يبدو فيها الباطل مُنتفشاً كأنه غالب، ويبدو فيها الحق مُنزوياً كأنه مغلوب. وإن هي إلا فترة من الزمان، يمدُّ الله فيها ما يشاء، للفتنة والابتلاء، ثم تجري السنّة الأزلية الباقية التي قام عليها بناء الأرض والسماء، وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء.

«وهذا النمط من القصص القرآنية دعوة إلى التوكل على الله تعالى ونصره، وإن اختلف الزمان والمكان، والاعتماد على الدعوة وحسن السيرة والعمل الصالح، وإن اكْفَهَرّ الجوّ وقَسَا الزمان، وأن معجزات النصر

---

(١) النبوة والأنبياء ٨٦ ـ ٨٧.

وعجائب القدرة الإلهية تتكرر، فإذا ذكر القرآن ما أكرم الله به الرسل من النصر والفتح المبين، وقبول الدعاء والغلبة على الأعداء ذكر ما يُشجع أتباعهم والحاملين لدعوتهم على هذه التجربة، ويُطمعهم في رحمة الله، يقول بعدما ذكر ما أكرم الله به نبيّه أيوب: ﴿**رحمة من عندنا وذكرى للعابدين**﴾ [الأنبياء: ٨٤]، ويقول عن يونس: ﴿**فاستجبنا له ونجيناه من الغم، وكذلك نُنجي المؤمنين**﴾ [الأنبياء: ٨٨]، ويقول: ﴿**سلام على موسى وهارون. إنا كذلك نجزي المحسنين**﴾ [ص: ١٢٠، ١٢١]، ويقول: ﴿**سلام على ال ياسين، إنا كذلك نجزي المحسنين**﴾ [ص: ١٣٠، ١٣١]، ويقول بعدما ذكر قصة لوط: ﴿**نعمة من عندنا. كذلك نجزي مَن شكر**﴾ [القمر: ٣٥]، ولذلك لم تكن هذه القصص التي تُكوِّن جزءاً كبيراً من القرآن **فُكاهة وتسلية أو مادة معلومات تاريخية**، إنما هي موعظة وذكرى وحثّ، ودعوة وإرشاد وتوجيه وتقوية وتشجيع: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿**وكُلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين**﴾ [هود: ١٢٠]..

إن في هذه القصص لعبرة لِلَفْت القلوب إلى سُنّة الله الخالدة، وقوة الله العظيمة، وحكمته فيما يشاء..

لقد كانت هذه سُنّة الله مع جميع أنبيائه. فنوح يقول له قومه: ﴿**أنؤمن لك واتبعك الأرذلون**﴾ [الشعراء: ١١١]، ويقول مبتهلاً إلى الله مستغيثاً على ضعفه: ﴿**إني مغلوب فانتصر**﴾ [القمر: ١٠]، ولوط يقول لقومه: ﴿**لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد**﴾ [هود: ٨٠]، وشعيب يقول له قومه: ﴿**ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً. ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز**﴾ [هود: ٩١]، وفرعون يقول عن نفسه وعن موسى في صراحة ووقاحة: ﴿**ونادى فرعون في قومه قال: يا قوم: أليسَ لي**

مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تُبصرون. أم أنا خير من هذا الذي مهين ولا يكاد يبين. فلولا أُلقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣]. .

أما أُممهم التي بُعثوا إليها فقد كانت ذات الطَّول أو الحَول وذات العدّة والعتاد، وذات الزروع والضروع، وقد مرَّ قول هود ـ عليه السلام ـ لقومه: **﴿واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون. أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون﴾** [الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٤]، وقول صالح لقومه: **﴿أتتركون في ما ههنا آمنين، في جنات وعيون: وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾** [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٩]، وقول شعيب لقومه: **﴿إني أراكم بخير﴾** [هود: ٨٤]، ولكن ماذا كانت النتيجة؟. .

اقرأها مجموعة في قوله تعالى: **﴿أَلَم يَروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نُمكِّن لكم، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾** [الأنعام: ٦]. .

«أما قصة إبراهيم المكررة في القرآن فهي أعظم تحدّ لتأثير الأسباب واستقلالها، وأعظم شاهد للاستخفاف بقوتها وأصحابها، وأعظم دليل على ضعفها وعدم غنائها عن أربابها. . وكان يُسجل انتصاراً جديداً للإيمان على الشك، والروح على المادة، والتوحيد على نظام الشرك، وقد عاش طوال حياته ثائراً على ما حوله من القوة والسلطان وعبادة المادة والمعدة. والآلهة الزائفة، والقوى المخيفة. . . وكانت حياة إبراهيم دعوة إلى التوحيد النقي الخالص، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شيء، وأنه يَخلق الأشياء من عَدَم، وأنه يخلق الأسباب ويملكها، ويَفصل الأسباب عن المسببات، وينتزع عن الأشياء خواصها وطبيعتها، ويستخرج منها أضدادها ويُسخرها لما يشاء ومتى يشاء. . .

لقد كانت حياة إبراهيم، تحدياً للمادية المسرفة الشائعة في عصره

وعبادة الأسباب، واتخاذها أرباباً من دون الله، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة، وأن إرادته فوق كل شيء، أشعل الناس له النيران وقالوا: **﴿حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾**، وكان إبراهيم يؤمن بأن النار خاضعة لإرادة الله تعالى، ليس الإحراق لها طبيعة دائمة لا تنفك عنها، إنما هي طبيعة مودعة أمانة فيها، إذا أراد أطلق لها العنان، وإذا أراد أمسك الزمام، وحوّلها إلى برد وسلام؛ فخاض فيها مؤمناً مطمئناً واثقاً، وهكذا كان: **﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾** [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠]، وهكذا كانت سُنّة الله معه[١] يُخضع له الأسباب، ويخلق له ما تحار فيه الألباب..»[٢].

«وتلي قصة إبراهيم قصة موسى في تحديها الصارخ للعقل المادي الذي ينظر إلى الأسباب والحوادث كقوانين أبدية جامدة طبعية لا سلطان عليها لأحد، وقوى قاهرة تحكم ولا يُحكم عليها، وجاءت مِحنةً وبلاءً للذين ضاق تفكيرهم وكَلَّت أبصارهم عن أن تنظر إلى ما هو وراء الأسباب وإلى مَن هو فوق الأسباب».

«يولد موسى في مصر في بيئة قاتمة خانقة، قد انطبقت على بني إسرائيل كل الانطباق، وسدّت في وجوههم المنافذ والأبواب، حاضر شقي ومستقبل مظلم، قلة عدد، وفقر وسائل، وذلة نفوس، وعدو قاهر، وسخرة ظالمة، لا قوة تدافع ولا دولة تحمي، أمة مصيرها معلوم محتوم، قد خُلقت للشقاء والفناء».

وتمضي قصة موسى وحياته على عين الله، ويهلك فرعون وقومه الكبراء الأقوياء الأغنياء، ويملك بنو إسرائيل الضعفاء الفقراء، **﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمّت**

(١) انظر تفصيل قصة إبراهيم في المجلد الثاني من هذا الكتاب.
(٢) انظر مجلة المسلمون، العددان ٧، ٨ سنة ١٣٨١ هـ، ص ١٨٠، ١٨١ للأستاذ أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء ٩٠ ـ ٩٣.

كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمَّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ [الأعراف: ١٣٧]. .

«ما هي القوة التي قَهَر بها موسى أعظم قوة في عصره ومصره؟ وما سرّ انتصار بني إسرائيل على أعدائهم؟ وما سلاحهم الذي واجهوا به العدو القاهر الكاسر وأخضعوا به المحيط الحانق الثائر؟».

اقرأ قصة موسى في هذا الكتاب ـ كما وردت في القرآن ـ تر أن السلاح الذي واجه به موسى فرعون وقومه وانتصر به بنو إسرائيل وتبؤوا الإمامة والزعامة في مصر وحولها هو «الإيمان» و«الطاعة» و«الدعوة إلى الله»؛ ويتجلى هذا الإيمان وهذه الطاعة والدعوة في تضاعيف القصة ومطاويها. .».

«ولا طاعة أعظم من طاعة موسى وانقياده واستسلامه للأمر الإلهي، يُؤمر بالتوجُّه إلى أعظم ملوك عصره ـ وهو الثائر الموتور، وهو شديد البطش عظيم السلطان ـ فيقال وقد جاء يبحث عن قَبَس من النار: **﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾** [النازعات: ١٧]، ويتوجّه إلى بلاط جبَّار يدّعي الربوبية فيدعوه إلى الله الواحد القهّار، ويستمر في دعوته وجهاده، وفي وَعْظِه وإرشاده حتى يفتح الله بينه وبين قومه بالحق وهو خير الفاتحين».

«وتجلّى الإيمان في أبرز مظاهره لما رأى موسى أمامه البحر المائج ومن ورائه العدو الهائج، فلا مُتقدَّم ولا مُتأخَّر، وهو وقومه بين طبقتي الرحى، ويناديه بنو إسرائيل في جزع وفي فزع **﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾** [الشعراء: ٦١]، ولكنه ثابت الجأش، قوي الإيمان، يعرف أن الله ناصر عَبْده ومُنجز وَعْده، يقول في صرامة وثقة: **﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾** [الشعراء: ٦٢]. .

لقد كان الإيمان والطاعة والدعوة إلى الله، القوة التي وَاجَهَ بها موسى «مشاكل» عصره وقهر بها أعظم أمبراطورية على وجه الأرض، أرقاها مدنية،

وأوسعها مملكة، وأغناها أسباباً، وأعظمها جبروتاً»[1]. .

«ولا تَقِلّ قصة يوسف في الغرابة ومخالفتها للمألوف المعروف من جريان الحوادث على السنن الطبيعي. خاضعة لقانون العلة والمعلول والسبب والمسبب. فقد اجتمع له من حَسَد الإخوة وكيدهم له، والبقاء في غيابت الجب مدة من الزمان، والتقاط السيارة له، والرقّ، ما هو كفيل بالتعرض للهلاك والإذلال والهوان. ولكنه يخرج من كل هذا سليماً مُعافى، ويعيش، ويجتمع له من الوقوع في امتحان شديد، في العفة والنزاهة والوفاء والشرف، ويعتصم، مع توفر الدواعي القوية والمغريات القاهرة، والإغراء ـ من شباب وجمال وطلب وإلحاح شديد من جانب، له الفضل وله السلطان وله الاستهواء ـ والتصاق التهمة الشنيعة به، والدخول في السجن في تهمة خُلقية. . . وكان فرداً من شعب ينظر إليه المصريون باحتقار واستخفاف كبير، وكان الإسرائيلي آخر مَن يُفكَّر فيه لشرف أو حكومة في مصر، كل ذلك كفيل بإخمال ذكره، وحرمانه من كل ثقة وتكريم، ولكن عكس ذلك يقع بين سَمْع الناس وبَصَرهم، ويتربّع يوسف على أريكة مصر، ويتقلَّد مفاتيحها وزمام الأمور فيها **﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء نُصيب برحمتنا مَن نشاء، ولا نضيع أجر المحسنين﴾** [يوسف: ٥٦].

عمل وتوجيه وإرشاد:

لقد كانت هذه القصص البليغة القوية الصادقة مصدر القوة ورباطة الجأش، والأمل المُشرق الوطيد، والثقة القوية بالنجاح والفوز والفلاح والانتصار على المعارضين للدعاة والعاملين الذين يعملون على نَهْج النبوة وعلى طريق الأنبياء: **﴿وكُلًّا نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نُثَبِّتْ به فؤادك، وجاءك في هذه الحق، وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾** [هود: ٢٠]»[2].

---

(١) أبو الحسن الندوي: ثورة في التفكير، المسلمون، المجلد السادس ص ٨٣٠ ـ ٨٣٤.
(٢) انظر النبوة والأنبياء: ٩٥ ـ ١٠٠.

وهكذا كان محمد ـ ﷺ ـ نبيٌّ يرشده الوحي، يؤمن بقوة الله، ويؤمن بنصر الله فكان ﴿**داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً**﴾ [الأحزاب: ٤٦]، وإن هذا المنهج النبوي من التفكير والعمل هو الذي غيَّر مجرى التاريخ وأتى بالمعجزات وأدهش العقول، وحيَّر الألباب.

«لو كان الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ كزعيم عربي ـ يُفكر تَفكير الزعماء ويستعرض «الإمكانيات» والوسائل التي كانت تملكها قريش، ولو أنه نَظَر إلى الأمبرطوريتين العظيمتين اللتين توزعتا العالم المتمدن المعمور، الأمبرطورية الرومية والأمبرطورية الفارسية، وما تتمتعان به من حَول وطَول، وقد عرف قوتهما وسعة مملكتهما ـ وهو الفقيه الواعي ـ لما جاز له في شريعة العقل ـ أن يتوجه بدعوته إلى الإنسانية جميعاً، ويكتب إلى سيِّدي العالم المعاصر ورئيسي الامبرطوريتين الغربية والشرقية يدعوهما إلى الإسلام، ولبقي الوضع الذي كان يسود من قرون، فمتى تملك هذه الحفنة البشرية التي آمنت به القوة التي تضارع قوة الأمبرطوريتين بل تفوقهما حتى تهزمهما وتدحرهما؟ وإلى متى كان يجب عليه أن ينتظر؟ وماذا كان مصير العالم ومصير الإنسانية لو اتَّجه هذا الاتجاه وفكَّر هذا التفكير؟ لقد شقيت الإنسانية إذن شقاءً طويلاً، وتأخَّر أو توقف طلوع الصبح الصادق، ولكان للإنسانية تاريخ غير هذا التاريخ.

ولكنه ـ ﷺ ـ نبيٌّ يُؤمر فيعمل، ويتلقى التوجيه والإرشاد من السماء فَيُنفِّذ؛ ولكنه مؤمن، يؤمن بقوة الله، ويؤمن بنصره، ويؤمن بأن الضعيف مع نصره قوي، والقوي بخذلانه ضعيف، ويؤمن بقوله تعالى ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمَن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ويؤمن بقوله ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ويؤمن بمواعيد الله على النصر والإيمان والعمل الصالح والتوحيد والجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله..

ثم يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي بعد هذا العرض الإيماني: «إنني

لست ممن يدعو إلى رفض الأسباب والتوكل السلبي، ولست ممن يعيش في عالم الخيال والأحلام، ولست ممن يُنكر الحاجة إلى الاستعداد وممن لم يقرأ قوله تعالى ﴿**وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقد لمتُ العالم الإسلامي ومَن تزعَّمه من الشعوب والدول لوماً شديداً في كتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» على التقصير في الاستعداد الحربي والصناعي والتخلف عن أوربا في ذلك، واعتبرت ذلك سبباً من أسباب شقاء الإنسانية واتجاه العالم من الرشاد إلى الضلال، ومن البناء والازدهار إلى الهدم والدمار.

ولكني أُعارض هذا التفكير الذي تَسلَّط على عقلية العالم الإسلامي في العهد الأخير، وهو النظر إلى الأمم الإسلامية ـ في مختلف أنحاء العالم ـ ككتل بشرية شأنها شأن القطعان البشرية الأخرى التي لا رسالة لها في العالم، ولا دعوة لها للأمم، توزن في ميزان «الإمكانيات» والوسائل والاستعداد المادي، وتُقَوَّم بما تملكه من ثروة وذخائر، والتناسي أو الإعراض عن قوتها الكبرى «الإيمان والطاعة والدعوة إلى الله»[1].

«إن هذه القصص لم تكن مصدر القوة والعبرة للأجيال بعد الأجيال إلا بهذا الأسلوب الإيماني القوي، وإلا إذا كانت دليلاً على أن دعوة الأنبياء هي التي يُكتب لها الانتصار والازدهار، وأن الصفات والسيرة والأخلاق التي يرضاها الله هي التي يُقدر لها الفوز والفلاح، مهما عارضتها الأسباب وتألفت ضدها القوى وتداعى عليها الأعداء، ومهما ضعف أصحاب هذه الدعوة النبوية والسيرة المرضية مادياً: ﴿**قد كان لكم آية في فئتين التقتا، فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة، يرونهم مثليهم رأي العين، والله يؤيد بنصره مَن يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار**﴾ [آل عمران: ١٣]..

إن سيرة الأنبياء التي حكاها الله تعالى في كتابه، في إجمال تارة وفي تفصيل أخرى، وذكرها مراراً وتكراراً، تجمع بينها نقطة لا تختلف، وهي

(١) مجلة المسلمون، المجلد السادس، ص ٨٣٤ ـ ٨٣٦.

انتصار دعوتهم على جميع المعارضات وفوزهم على أعدائهم؛ إما بإيمان هؤلاء الأعداء وقبولهم للدعوة وإخلاصهم لها وتفانيهم في سبيلها؛ وإما بهلاكهم ودمارهم: **﴿فَقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا، والحمد لله ربّ العالمين﴾** [الأنعام: ٤٥].

وهذه منزلة هذه الدعوة عند الله، التي تتوقف عليها سعادة الإنسانية ونجاتها، يخرق الله لها أحياناً نواميس الفطرة وكثيراً من القوانين الطبيعية ويحدث ما لا يخطر على بال، أما المصالح أو القومية أو حبّ العلو والسيادة والطموح والكبرياء، والزعامات الزائفة التي لا تبني خيراً، ولا تهدم شراً، وليس للإسلام والإنسانية فيها مصلحة، وليس لها مع قوى الشر ولا مع الفساد والكفر والفسوق نزاع، إنما تسعى وتناضل لأن يكون كل هذا الفساد وكل هذه المعاصي تحت سيطرتها وإشرافها، وفي ولايتها وحضانتها، وأن يعود نفعها إليها، فلا قيمة لها عند الله، ولا تعدل عنده جناح بعوضة، ولا يبالي الله في أي واد هلكت، وأي عدو تسلط عليها، ومتى يفاجئها الموت، أو ثورة عارمة جبارة لا ترحم ولا ترثي، وأزمات ومشكلات لا أول لها ولا آخر.

إن التفكير السائد ـ مع الأسف ـ اليوم في الشعوب الإسلامية، وفي أنحاء العالم الإسلامي، والمنطق المقبول الذي خضعت له جميع الطبقات وآمنت به إيماناً راسخاً، هو أن الميزان الفاصل هو القوة المادية مع كل سيرة وخُلق، ومع كل عقيدة ومنهج للحياة، وأصبح من عقيدة العاملين ـ وحتى دعاة الدين ـ وهتافهم: «المادة قبل كل شيء»، وهذا المبدأ هو الذي تَنقضه وتُبطله سيرة الأنبياء والمرسلين، وما جرى لهم من الحوادث، وما ظهر على أيديهم من العجائب والمعجزات، وما أكرمهم الله به من النصر والفتح المبين، وما فعل بأعدائهم»[1].

---

(١) النبوة والأنبياء: ١٠٠ ـ ١٠٢.

«منذ قرون طويلة بدأنا ـ معشر المسلمين ـ ننظر إلى أنفسنا كمجموعة بشرية موزعة في العالم، منتشرة في البلاد، ذات قوميات مختلفة، ولغات متنوعة، وثقافات محلية، محاطة بظروف وأجواء خاصة، ذات طاقات و«إمكانيات» محدودة، تجمع بين فروعها المختلفة وأُسَرِها المتشتتة «وحدتان» اثنتان لا ثالثة لهما: «العقيدة» و«الخضوع للغرب والانحصار عليه في المعيشة والسياسة».

ومنذ مدة طويلة بدأنا نزن أنفسنا وقيمتنا ومكانتنا في خارطة العالم بهذه الطاقات و«الإمكانيات» وبما نملكه من الوسائل، والمواد الخام، وحاصلات البلاد، ومنتجاتها، وعدد النفوس، والقوة الحربية، فنرى كِفَّتنا راجحة في إقليم، طائشة في آخر، راجحة في حين، طائشة في حين آخر.

ومنذ مدة طويلة آمنَّا بسيادة الغرب وقيادته، وأنها أَمْر مُقرّر، وواقع ليس منه مفرّ، وآمنَّا بأنه وَضْع لا يقبل التحوّل ولا التطور، وتجدَّد المَثَل القديم وأصبح عقيدة شائعة «إذا قيل لك أن التتر انهزموا فلا تُصدّق»[١].

وأصبحنا لا نفكر في معارضة الغرب ومناقشة سيادته وجدارته للسيادة، وإذا فكَّرنا في ذلك ـ على حين غفلة من العلم والدراسة والكياسة ـ استعرضنا طاقاتنا ووسائلنا والقوة الحربية في بلادنا وسهَمنا من المخترعات الحربية والطاقات الذرية، فاستولى علينا اليأس والتشاؤم، وآمنَّا بأننا لم نُخلق إلا للخضوع والخنوع، ولنعيش على هامش الحياة، وعيالاً على الغرب، مرتبطين معقودي النواصي بقطار الغرب..

هكذا يفكر العرب، وهكذا يفكر المسلمون في باكستان، وفي أندونيسيا، وفي تركيا... هذا هو التفكير «السليم» وهذا هو المنطق

(١) كان ذلك مثلاً شائعاً في المجتمع الإسلامي في القرن السابع الهجري عند غزو التتار للعالم الإسلامي وإخضاعه من أقصاه إلى أقصاه.

«السديد» كما يُسميه الناس، وهذا هو الاستنتاج العلمي المبني على الدراسة والإيمان بقوة الأسباب وطبيعة الأشياء.

ولكن هناك فئات لا تقبل هذا التفكير، ولا تُؤمن بهذا المنطق، بل تَثور على هذا المنهج الفكري، ثورة قوية عارمة، إن لها منهجاً ـ في التفكير وفي العمل ـ مُختصاً بها، وإلى هذا المنهج يرجع الفضل في أفضل الثورات وأصلحها وأقواها في التاريخ، وفي تغير الأوضاع في العالم تغيراً مدهشاً، وفي سعادة البشرية بعد الشقاء الطويل، وصلاح المجتمع البشري بعد الفساد الشامل.

ولا أمل للأمم الضعيفة إلا في هذا المنهج، ولا مستقبل للأمم ـ التي تؤمن بالمبادىء وتحتضن الدعوات ـ إلا في هذا المنهج.

وَلِنَفْهَمْ هذا المنهج وقوته وفضله ونتائجه الباهرة للعقول، نرجع قليلاً إلى الماضي ونستوحي «الصحف الصادقة»(١)...

إن ما قصّ الله علينا من سيرة الأنبياء ومصير أعدائهم في القرآن، وما ورد فيه من أمثلة رائعة تُعارض هذا التفكير على الخط المستقيم، وتُبين لنا بوضوح أن سرّ انتصارهم، والسلاح الذي واجهوا به أعداءهم وانتصرت به جماعتهم الصغيرة المستضعفة، وتبوأت الإمامة والزعامة في العالم، هو: «الإيمان» و«الطاعة» و«الدعوة إلى الله»: **﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون﴾** [السجدة: ٢٤]، **﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قِبْلة، وأقيموا الصلاة وبشِّر المؤمنين﴾** [يونس: ٨٧]، **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويُثبت أقدامكم﴾** [سورة محمد: ٧]، **﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم، وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾** [محمد: ٣٥]..

«هذه رسالة هذه القصص الحكيمة البليغة الصادقة وهذا هو الدرس

---

(١) مجلة المسلمون، المجلد السادس ٨٢٩ ـ ٨٣١.

الحكيم الذي تُلقيه علينا حياة الأنبياء وسيرتهم الفاضلة، وهذا هو **المنهج الرشيد** الذي سار عليه الأنبياء من غير استثناء وسَجَّله عليهم القرآن، ولا أمل للأمم الضعيفة إلا في هذا المنهج، ولا مستقبل للأمم التي تؤمن بالعقيدة إلا في هذا الطريق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل»[1].

هذا هو الحق الذي لا يلابسه باطل ﴿**وعلى الله قصد السبيل**﴾ [النحل: ٩]، فثمة الطريق إلى الله الذي سار عليه رُسله. وهو طريق قاصد مستقيم لا يلتوي ولا يتجاوز الغاية. وثمة طرق أخرى لا تُوصل ولا تَهدي. فأما الطريق إلى الله فقد كتب على نفسه كَشْفَها وبيانها على لسان رُسله وعلى سيرة أنبيائه.

هذا هو السبيل القاصد. الطريق المستقيم الذي لا يلتوي كأنه يقصد قصداً إلى غايته فلا يحيد عنها. فالحق الذي يلوذ به المؤمنون يستند إلى الحق الكامن في فطرة الوجود وطبيعته، فيؤلف قوة هائلة، لا يقف لها الباطل، الذي لا جذور له في بنية الكون، وإنما هو كشجرة خبيثة اجتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار. وكالزبد يذهب جفاء، إذ لا أصالة له في بناء الكون.. كالحق.. وهذه حقيقة ضخمة، ومُؤثر كذلك عميق..

إن المؤمن الذي يشعر أن الحق الذي معه ـ هو شخصياً وفي حدود ذاته ـ إنما يتصل بالحق الكبير في كيان هذا الوجود ﴿**ذلك بأن الله هو الحق**﴾ [الحج: ٦]، فيتصل الحق الكبير الذي في الوجود بالحق المطلق في الله سبحانه..

إن المؤمن الذي يشعر بهذه الحقيقة على هذا النحو الهائل، لا يرى في الباطل ـ مهما تضخم وانتفخ وطغى وتجبّر وقَدِرَ على الأذى المقدَّر ـ إلا فقاعة طارئة على هذا الوجود، لا وجود لها ولا مَدَد، تَنفثِىء من قريب، وتذهب كأن لم تكن في هذا الوجود.

---

(١) النبوة والأنبياء: ١٠٢ ـ ١٠٤.

ولكن كيف يتوجَّه الناس بعيداً عن الحق وهو واضح بَيّن تراه العيون؟ ﴿**فذلكم الله ربُّكم الحق**﴾ [يونس: ٣٢]..

والحق واحد لا يتعدد، ومَن تَجاوزه فقد وَقَع على الباطل، وقد ضَلَّ التقدير ﴿**فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ فَأَنَّى تُصرفون**﴾ [يونس: ٣٢]..

وإنه لعجيب أن ينصرف الناس عن إدراك هذه الحقيقة ويتوجهون بعيداً بعيداً عن الحق إلى الإفك ويضلون!!!

وبعد، نقف بقلوب مفتوحة، وأرواح منشورة، ونُردد مع رسول الله ـ ﷺ ـ قوله العظيم: «اللهم لك الحمد، أنت قَيِّم السماوات والأرض ومَن فيهن، ولك الحمد، لك مُلك السماوات والأرض ومَن فيهن ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومَن فيهن، ولك الحمد أنتَ الحقّ ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، ومحمد حق، والنبيون حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفر لي ما قَدَّمتُ وما أَخَّرتُ وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله»(١).

البشرية بين الهُدى والرَدَى:

لقد خلق الله الإنسان وأودع نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر، والهدى والضلال، والحق والباطل: ﴿**وهديناه النجدين**﴾ [البلد: ١٠] ليختار أيهما شاء، «ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي النجدين. والنجد الطريق المرتفع. وقد اقتضت مشيئة الله أن تمنحه القدرة على سلوك أيهما شاء، وأن تخلقه بهذا الازدواج لحكمة الله في الخَلْق، وإعطاء كل شيء خلقه، وتيسيره لوظيفته في هذا الوجود.

(١) رواه الشيخان.

إن هذا الكائن الإنساني مزود باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال. فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر. كما أنه قادر على التوجُّه إلى الخير والشر سواء، وأن هذه القدرة كامنة في كيانه وفي صميمه في صورة استعداد.. والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتُوجهها. ولكنها لا تخلقها خَلْقاً. لأنها مخلوقة فطرة، وكائنة طبعاً، وكائنة إلهاماً، فقد جاء «الإنسان» هذه الدنيا متحلياً بفطرة عالية، مُستحقاً أن ينال الحسنى عند الله إن اختار الخير على الشر مُستعيناً بما فيه من قوة الفهم والإدراك، أو ينال العقاب إن خرج على فطرته وآثر الشرّ على الخير.

ولكن مما لا ريب فيه في الوقت نفسه أن الفطرة الإنسانية، مع انطوائها على تلك الفضيلة، لا تخلو من نقص وضعف من نواح أخرى، ومن ثم لم يترك الله تعالى أمر هداية الإنسان وضلاله في هذه الدنيا على فطرته وحدها ولم يعتبرها كافية لمجازاته يوم القيامة، بل أرسل إليه أنبياءه ورسله تباعاً لِيُبَيِّنوا له مقتضيات فطرته، ويُتمُّوا حُجة الله على خلقه **﴿رُسلاً مبشرين ومُنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾** [النساء: ١٦٥].

من أجل ذلك بعث الله تعالى هداته وأنبياءه في كل أمة من أمم الأرض، ولما أراد سبحانه وتعالى أن يُتمَّ حجته على خَلْقه ولا يُبقي عندهم أي عذر يحتجون به لبقائهم على الضلال، أرسل هؤلاء الرسل والأنبياء من البشر أنفسهم، لتتضح الأمور للبشر بالبشر أنفسهم فلا يبقى لهم مجال للحجة التي تتبادر إلى الذهن حين يُطالَبون بأن يتخذوا عِلْم غير البشر وعَملهم أُسوة لهم وحجة عليهم. وكذلك ما أرسل الله تعالى في قوم نبياً إلا من أنفسهم على قاعدة معروفة عامة لا نكاد نستثني منها إلا أمثلة قليلة جداً. وذلك أيضاً لئلا تكون الشعوبية عرقلة في سبيل إقبال الناس على الحق وقبولهم إياه.

وكذلك ما بلَّغت رُسل الله أقوامهم رسالته إلا بألسنتهم أنفسهم حتى يتجلى لهم الحق جلاءً تاماً. . وكذلك كانت اللغة التي كان يستعملها هؤلاء الرسل للدعوة والبلاغ في مُنتهى السهولة والوضوح وأقرب ما تكون لفهم الناس وأحبّ إلى قلوبهم. ثم إن هؤلاء الرسل لم يكتفوا بدعوة الناس إلى الحق مرة، بل جعلوا هذه الدعوة غاية وَقَفُوا لها حياتهم، وكانوا هم أسبق الناس إلى العمل بما يدعونهم إليه، وكان أتباعهم وأصحابهم يقتدون به اقتداءً شاملاً في مختلف مظاهر حياتهم. . »[1].

ولكن الإنسانية في تاريخها الطويل كانت وما تزال «موضوع عبث العابثين من القادة والزعماء، أو تجربة المُجَربين والمُجازفين من المُشرعين والحكماء، وقد عَبثوا بأبناء جنسهم وعقليتهم ومدنيتهم عَبَث الوليد بجانب القرطاس[2] يَطويه، وينشره، ويمدّه، ويُكوّره، ويُمزّقه إذا شاء، ويحرقه إذا شاء، وهانت عليهم الحياة الإنسانية وطاقاتها، ومَلَكاتها ومواهبها، وما أودع الله فيها من طبيعة الطاعة والتقليد والتفاني والاعتماد على القادة، فلم يَتّقوا الله فيها، ولم يُراعوا فيها حقاً ولا حرمة، ولا إلاًّ ولا ذِمّة، واتخذوها مَطيّة لشهواتهم ونزعاتهم، وقنطرة إلى سيادتهم ورياستهم وتحقيق أغراضهم. وقد جَرَّ عليها جَهْل هؤلاء القادة حيناً وعدم اعتصامهم من الخطأ والضلال، وسوء الفهم وسوء التعبير أحياناً، والشهوات التي ركبوا عليها، والنزعات والأنانية ـ الفردية والقومية ـ والعصبية الجنسية والوطنية، قد جرَّ كل ذلك على الإنسانية البائسة شقاءً طويلاً، وويلاً عظيماً، وأفقد الثقة بقيادتهم، وشككُ تشكيكاً كبيراً في إخلاصهم، وصحة معلوماتهم، وحسن قصدهم، وسعادة الإنسانية تحت قيادتهم وإشرافهم، والتاريخ الإنساني مليء بهذه المآسي والمهازل، والمضحكات المبكيات، ولا تزال شعوب كثيرة في الشرق والغرب تحت رحمة هؤلاء القادة الأغمار العابثين، يلعبون بها، ويتداولونها

---

(١) «لماذا هذه الدعوة؟» للأستاذ أمين أحسن الإصلاحي، المسلمون، المجلد الخامس، ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

كالكرة، ويُجرون عليها عمليات وتجارب جديدة كثيرة، يعترفون بخطئها وإخفاقها بعد قليل، وقد يَفضحها ويُزيح عنها الستار مَن يتسلَّم القيادة منهم ويخلفهم، وقد يُسجل عليهم ذلك التاريخ، وتشعر به الأجيال الآتية.

وشَرّ هذه التجارب المُخفقة، والنتائج الخاطئة ما كان في باب العقيدة والإيمانيات التي يتوقف عليها المصير، وتتوقف عليها السعادة في الدنيا، والنجاة في الآخرة، والتي تُشَكِّل الأخلاق الصحيحة، وتُكَوِّن المدنية الصالحة، والعبادات التي يتقرب بها الإنسان إلى ربِّه، والشرائع التي تُنظم حياته، فالعثرة في ذلك لا تُقال، والكَسْر في ذلك لا يُجْبَر، فمسَّت الحاجة إلى قادة أُمناء معصومين من الضلال والأوهام والأخطاء، مُبَرَّئين من كل طمع ومساومة، وطلب مكافأة ومقابل وربح مادي، لا تتغَلَّب عليهم الشهوات، ولا تُؤثر فيهم النزعات، لا يصدرون عن رأيهم ومعلوماتهم الناقصة، وتجاربهم القاصرة ومصالحهم الخاصة، وإذا صَدَر منهم خطأ في الاجتهاد والتقدير نبَّههم الله إلى ذلك فلم يمكثوا عليه ولم يتمادوا فيه.

ولذلك تقرأ في سورة الشعراء، أن كل نبي يُبعث على أمته يُؤكد لهم أمانته وإخلاصه، واقرؤا معي الآيات التالية:

- **﴿كذبت قوم نوح المرسلين. إذ قال لهم أخوهم نوح ألَا تتقون. إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على ربّ العالمين﴾** [الشعراء: ١٠٥ ـ ١٠٩].

- **﴿كذبت عاد المرسلين. إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون. إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على ربّ العالمين﴾** [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٢٧].

- **﴿كذَّبت ثمود المرسلين. إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني**

---

(١) مأخوذ من شعر البحتري في قوله:

إن الخطوب طوينني ونشرنني ... عبث الوليد بجانب القرطاس

لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على ربّ العالمين﴾ [الشعراء: ١٤١ ـ ١٤٥].

ـ **﴿كذبت قوم لوط المرسلين. إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون. إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على ربّ العالمين﴾** [الشعراء: ١٦٠ ـ ١٦٤].

ـ **﴿كذّب أصحاب الأيكة المرسلين. إذ قال لهم شعيب ألا تتقون. إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على ربّ العالمين﴾** [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٨٠].

هذه الوحدة التي تربط بين هؤلاء الأنبياء المبعوثين في أُمم مختلفة، وفي عصور مختلفة، ذات معنى عميق؛ وهو أن الأمانة وهي الكلمة الجامعة بين معاني الصدق وصحة التلقي من فوق، التلقي من الله العليم الحكيم، وصحة الإلقاء إلى أسفل، إلى الأمة التي يُبعث فيها النبي، **هو الركن الأساسي في مفهوم النبوة والرسالة ونظامها**، ولا أَجْمَع لهذه المعاني ولا أبلغ مِن كلمة: «الأمانة» ـ في لغة العرب، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن يوصف بها الرسول العربي ـ ﷺ ـ قبل البعثة وألهمت أهل مكة الأميين أن يُلقّبوه بالصادق الأمين.

وكذلك الإخلاص والنزاهة، والبُعد عن كل طمع، والزهد في كل منفعة شخصية، أو منفعة ترجع إلى الأسرة والعشيرة والأولاد، وقد اتفقت الفِطَر السليمة والعقول المستقيمة على حبّ هذا الداعية المخلص، الناصح الأمين، ولذلك قال صالح في أسف واستغراب: **﴿... يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحتُ لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾** [الأعراف: ٧٩]، وقال الموجّه الكريم الذي جاء من أقصى المدينة يسعى: **﴿يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا مَن لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾** [يّس: ٢٠، ٢١].

وهذا هو المعنى الذي أكّده موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون فقال:

﴿.. يا فرعون إني رسول ربّ العالمين. حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق، قد جئتكم ببيِّنة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل﴾ [الأعراف: ١٠٤، ١٠٥].

وقد كان في هذه «العصمة» والأمانة والنزاهة، التي اتصف بها الأنبياء ضمان لسلامة أتباعهم وأُمتهم في العقائد والشرائع، وأمان مما استُهدفت له الأمم والأجيال البشرية الماضية من الوقوع في المهالك، والتورط في الشبهات، والحيرة في أمر هؤلاء القادة ونتيجة أتباعهم»[1].

حقيقة العصمة:

يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة»، وهو يذكر ما يجب أن يتصف به هداة السُبل ومقيموا المِلَل ـ يعني الأنبياء ـ سلام الله عليهم، يقول رحمه الله:

«ثم لا بد له ـ لهذا العَالم ـ أن يُثبت على رؤوس الأشهاد، أنه عالم بالسنّة الراشدة، وأنه معصوم فيما يقوله من الخطأ والضلال، ومن أن يُدرك حصة من الإصلاح ويترك حصة أخرى لا بد منها، وذلك ينحصر في وجهين:

إما أن يكون راوياً عن رجل قبله انقطع عنده الكلام لكونهم مجتمعين على اعتقاد كماله وعصمته وكون الرواية محفوظة عندهم، فيمكن له أن يؤاخذهم بما اعتقدوه ويحتج عليهم ويُفحمهم أن يكون هو الذي انقطع عنده الكلام وأجمعوا عليه، وبالجملة فلا بد للناس من رجل معصوم يقع عليه الإجماع، يكون فيهم، أو تكون الرواية محفوظة عندهم، وعلمه بحالة الانقياد وتوليد هذه السنن منها ووجوه منافعها، وعلمه الآثام ووجوه مضارها لا يمكن أن يحصل بالبرهان ولا بالعقل المتصرف في المعاش ولا بالحسّ، بل هي أمور لا يكشف عن حقيقتها إلا الوجدان، فكما أن الجوع والعطش

(١) النبوة والأنبياء ص ٦٥ ـ ٦٩.

وتأثير الهواء المُسخّن أو المُبرد لا يدرك إلا بالوجدان. فكذلك معرفة ملاءمة الشيء للروح ومباينته لها لا طريق إليها إلا الذوق السليم، وكونه مأموناً عن الخطأ في نفسه إنما يكون لخلق الله علماً ضرورياً فيه بأن جميع ما أدرك وعلم حقّ مطابق للواقع بمنزلة ما يقع للمُبصر عند الإبصار، فإنه إذا أبصر شيئاً لا يحتمل عنده أن تكون عينه مؤقتة وأن يكون الإبصار على خلاف الواقع وبمنزلة العلم. بالموضوعات اللغوية، فإن العربي مثلاً لا يشك أن الماء موضوع لهذا العنصر، ولفظ الأرض لذلك، مع أنه لم يقم له على ذلك برهان، وليس بينهما ملازمة عقلية. ومع ذلك فإنه يخلق فيه علم ضروري، وإنما يحصل ذلك في الأكثر بأن يكون لنفسه ملكة جبلية، يكون بها تلقي العلم الوجداني على سنن الصواب دائماً، وأن يتتابع الوجدان ويتكرر تجربة صدق وجدانه، وعند الناس[1] إنما يكون بأن يصحح عندهم بأدلة كثيرة برهانية أو خطابية أن ما يدعو إليه حق، وأن سيرته صالحة يبعد عنها الكذب، وأن يروا منه آثار القرب كالمعجزات واستجابة الدعوات، حتى لا يَشكُّوا أن له في التدبير العالي منزلة عظيمة وأن نفسه من النفوس القدسية اللاحقة بالملائكة؛ وأن مثله حقيق بأن لا يكذب على الله، ولا يباشر المعصية، ثم بعد ذلك تحدث أمور تؤلفهم تأليفاً عظيماً، وتُصيّره عندهم أحب من أموالهم وأولادهم والماء الزلال عند العطشان، فهذا كله لا يتحقق انصباغ أمة من الأمم بالحالة المقصودة بدونه، ولذلك لم يزل المشغولون بنظائر هذه العبادات يسندون أمرهم إلى مَن يعتقدون فيه هذه الأمور، أصابوا أم أخطأوا والله أعلم»[2].

إن هذه الجماعة التي هذا شأنها في العصمة وصحة العلم، وهذه منزلتها من الأمانة والإخلاص والنزاهة، وقد أفرغها الله في قالب من الاعتدال والسداد، وربّاها فأحسن تربيتها، وأدّبها فأحسنَ تأديبها: ﴿ولتُصنع

(١) أي كونه مأموناً من الخطأ عند الناس؛ يكون إذا صح عندهم أن ما يدعو إليه حق الخ.
(٢) حجة الله البالغة «باب الحاجة إلى هداة السبل ومقيمي الملل» ج ١ ص ٨٣، ٨٤.

على عيني﴾ [طه: ٢٩]، ﴿**أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار**﴾ [ص: ٤٦، ٤٧]، وهي الجديرة الخليقة ـ بحكم العقل والذوق والمنطق ـ بالطاعة والاقتداء والتقليد والاتباع، ولذلك قال الله تعالى بعدما ذكر جماعة من أنبيائه المكرمين، وذكر ما أكرمهم به من الهداية والصلاح والفضل على العالمين، والاجتباء والكتاب والحكم والنبوة ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾ [الأنعام: ٩٠].

لقد أحاطت العناية الإلهية والقبول الرحماني بنفوس الأنبياء، والحياة التي كانوا يعيشونها، وشملت أخلاقهم وعاداتهم وسُننهم وطرق معيشتهم، واختار الله طريق حياتهم من بين طرق الحياة، وأخلاقهم من بين أخلاق الناس، وعاداتهم من بين العادات الكثيرة التي تعوّدها الناس، حتى إذا سلكوا شُعباً ووادياً وسلك الناس شُعباً ووادياً، كان شُعبهم وواديهم أحبّ إلى الله من شُعب الناس وواديهم، ونفذت فيهم وفي كل ما اختاروه وأصبح لهم شعاراً وبهم خاصاً محبة الله ورضاه، حتى أصبح تقليدهم واتباعهم واتخاذ شاراتهم وشعائرهم والتخلق بأخلاقهم، والتشبُّه بهم، أقوى الأسباب وأقرب الطرق، وأيسرها يجلب محبة الله، وصار مَن اتبعهم وتشبَّه بهم من المحبوبين، فضلاً عن أن يكون من المُحبين، لأن المُتَشَبّه بالحبيب حبيب، وبالبغيض بغيض، وأصبح ذلك أصلاً من الأصول، والقانون الذي لا يتبدل ولا يتغير على مرّ الزمان، واختلاف المكان، وأصبحت الدعوة إليه عامة وعلانية، وأعلن الله تعالى على لسان خاتم النبيين ـ ﷺ ـ: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم**﴾ [آل عمران: ٣١]. . »(١).

وهذه الآية الكريمة تمثل أكبر الخطوط العريضة الأساسية في خط سير دعوة الأنبياء، وتُقرر في كلمات قصيرة حقيقة الإيمان، وحقيقة الدين في

(١) النبوة والأنبياء: ٦٩ ـ ٧٣.

جلاء لا يحتمل الشبهات، «وبالعكس من ذلك كان الميل إلى الظالمين والكفار، وإيثار طريقتهم والسير بسيرتهم جالباً لسخط الله، والبعد عنه» قال تعالى: ﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنصرون**﴾ [هود: ١١٣]. والله سبحانه يخاطب عباده المؤمنين: لا تستندوا ولا تطمئنوا إلى الذين ظلموا. إلى الجبارين الطُغاة الظالمين، أصحاب القوة في الأرض، الذين يقهرون العباد بقوتهم ويُعبّدونهم لغير الله من العبيد. لا تركنوا إليهم فإن ركونكم إليهم يعني إقرارهم على هذا المنكر الأكبر الذي يزاولونه، ومشاركتهم إثم ذلك المنكر الكبير.

الحضارة الربّانية:

«إن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لم يدعو إلى عقيدة وشريعة فحسب، ولم يحملوا ديناً جديداً ـ هو الإسلام ـ فحسب، بل كانوا مُؤَسّسي حضارة ومدنية وعُشرة واجتماع وأسلوب من الحياة جديد خاص، جدير بأن يسمى الحضارة الربانية، ولهذه الحضارة أصول ودعائم وعلامات وشعائر، تمتاز بها عن الحضارات الأخرى، الحضارات التي تُسمى الحضارات الجاهلية، امتيازاً في الأساس وفي الروح وفي الأشكال والتفاصيل.

وكان إبراهيم الخليل الحنيف ـ ﷺ ـ إمام هذه الحضارة الحنيفية، المُؤَسَّسة على توحيد الله تعالى والإيمان به وذكره، المُؤَسَّسة على متابعة الفطرة السليمة والقلب السليم، المُؤَسَّسة على الحياء والأدب مع الله، والإنابة والرحمة، ورقّة العاطفة، وقد سرت أخلاقه في هذه المدنية ومنهج الحياة: ﴿**إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب**﴾ [هود: ٧٥] و﴿**إن إبراهيم لأوّاه حليم**﴾ [التوبة: ١١٤]، وكان إبراهيم ولا يزال مؤسس هذه الحضارة، وكان رسول الله محمد ـ ﷺ ـ وهو حفيده مُجدِّد هذه الحضارة ومُتممها، وهو الذي بعث فيها الروح وأفاض عليها الخلود، وأرسىٰ قواعدها، وشدّ بنيانها، وجعلها خالدة باقية، عالمية.

إن هذه الحضارة الربانية لا تعرف الوثنية والشرك ولا تسمح به في لون من الألوان، في أي مكان وزمان، فكان أعظم دعاء إبراهيم وأكبر هَمِّه **﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾** [إبراهيم: ٣٥]، وكان أكبر وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعاً: **﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان، واجتنبوا قول الزور. حنفاء للّه غير مشركين به﴾** [الحج: ٣١، ٣٢].

إنها لا تعرف التهالك على الشهوات، والتكالب على حطام الدنيا، والتناحر على جِيَف المادة، والتقاتل في سبيل الحكومات والمناصب، إنها دعوة لم تزل عقيدتها: **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾** [القصص: ٨٣]». القلوب مُعلّقة بتلك الدار، السامقة عُلوًّا، البعيدة الآفاق.. فلا يقوم في نفوس أهل هذه العقيدة خاطر الاستعلاء على أحد من خَلق الله، فكُلّهم عَبيد لربّ واحد، هو ربّ العالمين..

«إنها حضارة لا تعرف الفصل بين الإنسان والإنسان. والتمييز بين الألوان والأوطان. فالناسُ كلهم من آدم، وآدم من تراب. لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** [الحجرات: ١٣]».

والله ـ سبحانه ـ يهتف بالإنسانية جميعها على اختلاف أجناسها وألوانها، ليردّها إلى أصل واحد، وإلى ميزان واحد، هو الذي تقوم به الجماعة المختارة الصاعدة إلى ذلك الأفق السامق..

يا أيها الناس. يا أيها المختلفون أجناساً وألواناً، المتفرقون شعوباً وقبائل. إنكم من أصل واحد. فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بدداً.

يا أيها الناس. والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم.. من ذكر

وأنثى.. وهو يُطلعكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل. إنها ليست التناحر والخصام. إنما هي التعارف والوئام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فَتَنوُّع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات. وليس لِلَّون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله. إنما هناك ميزان واحد تَتَحدَّد به القيم، ويُعرف به فضل الناس: ﴿إن أكرمكمْ عند الله أتقاكم﴾.. والكريم حقاً هو الكريم عند الله. وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين: ﴿إن الله عليم خبير﴾..

وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان.

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس. ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع، وخَلْقهم من أصل واحد. كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله. وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت. وكلها من الجاهلية وإليها، تَتَزيَّا بشتى الأزياء، وتُسمى بشتى الأسماء. وكلها جاهلية عارية من الإسلام!

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها، ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة: راية الله.. لا راية الوطنية. ولا راية القومية. ولا راية البيت. ولا راية الجنس. فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام.

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ليس مِنَّا مَن دعا إلى عصبية وليس مِنَّا مَن

قاتل على عصبية وليس مِنّا مَن مات على عصبية»[1].

وقال ـ ﷺ ـ لمَن هتف بالأنصار ومَن هتف بالمهاجرين: «دعوها فإنها مُنتنة»[2].

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي. المجتمع الإنساني العالمي، الذي تُحاول البشرية في خيالها المُحَلّق أن تُحقق لوناً من ألوانه فتخفق، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم.. الطريق إلى الله.. ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة.. راية الله..

إن الحضارة الربانية «تُعرف في العقيدة بالتوحيد، وفي الاجتماع باحترام الإنسانية والمساواة بين أفرادها، وفي دائرة الأخلاق والمنهج بتقوى الله، والحياء والتواضع، وفي ميدان الكفاح بالسعي للآخرة والجهاد للّه، وفي ساحة الحرب بالرحمة والعاطفة الإنسانية، وفي أنواع الحكومات بترجيح جانب الهداية على جانب الجباية، والخدمة على الاستخدام، تُعرف في التاريخ بخدمة الإنسانية المخلصة، وإنقاذها من براثن الجاهلية، والدعوات الطاغية، وفي العالم بآثارها الزاهرة الزاهية وخيراتها المُنتشرة الباقية.

إنها حضارة عُجنت مع اسم الله ومراقبته، وصُبغت بصبغة الله وقامت على أساس الإيمان، فلا يمكن تجريدها عن الطابع الديني واللون الرباني والروح الإيماني[3].

وعلى هذا يدعو القرآن إلى اتباع الأنبياء والأخذ بسيرتهم، والسير على منهجهم العام في الحياة، والتَشَبُّه بهم ما أمكن فيقول: ﴿لقد كان لكم

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله.

(٣) رسالة «ملة إبراهيم وحضارة الإسلام» للأستاذ الندوي ص ١٣ ـ ١٥.

في رسول الله أُسوة حسنة لمَن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ [الأحزاب: ٢١]، ويأمر المسلمين بأن يدعوا بقولهم: **﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾** [الفاتحة: ٦، ٧]..

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾.. وَفِّقْنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل، وَوَفِّقْنا للاستقامة عليه بعد معرفته..

فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته. والتوجه إلى الله في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين. وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربّه العون فيه. فالهداية إلى الطريق المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين.. وهي في حقيقتها هداية فطرة الإنسان إلى ناموس الله الذي يُنَسِّق بين حركة الإنسان وحركة الوجود كله في الاتجاه إلى رب العالمين.

ويكشف عن طبيعة هذا الصراط المستقيم: **﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾**..

فهو طريق الذين قَسَم لهم نعمته. لا طريق الذين غَضِبَ عليهم لمعرفتهم الحق ثم حيدتهم عنه. أو الذين ضَلُّوا عن الحق فلم يهتدوا أصلاً إليه.. إنه صراط السعداء المُهتدين الواصلين..

«ولا شك أن في مقدمة هؤلاء المُنعم عليهم وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلين، وجعل الرسول ﷺ هذا الدعاء في صُلب الصلاة، وكلما كان الإنسان أتبع لِسُنَنه، وأكثر تَخَلّقاً بأخلاقه وأشبه به هَدياً ودلاً وسمتاً كان أقرب إلى الله وأعلى منزلة عنده.

والقرآن يطلب للأنبياء الإجلال المُنبعث من القلب، والتوقير، والتبجيل العميق، والحب العاطفي، ولا يكتفي بالطاعة المجردة من كل عاطفة وحبّ وإجلال، كطاعة الرعية والسوقة للملوك وكثير من قادة الجنود

وزعماء الأحزاب ولا يكتفي بدفع الضرائب وتنفيذ الأحكام فقال سبحانه: ﴿**لتؤمنوا بالله ورسوله وتُعَزِّروه**﴾ [الفتح: ٩]، وقال: ﴿**فالذين آمنوا به وعَزَّروه**﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ولذلك أمر بكل ما يحفظ لهم حرمتهم واحترامهم، ونهى عن كل ما يحطّ مكانتهم ويجرح كرامتهم، ويهون شأنهم، ويفقد مهابتهم، فقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوقَ صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون. إن الذي يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى. لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾ [الحجرات: ٢، ٣]»[١].

إنها دعوة للمؤمنين لُيوقروا النبي الذي دعاهم إلى الإيمان والهدى.. لا ترفعوا أصواتكم فوق صوته، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض، أن تحبط أعمالكم.. ليحذروا هذا المزلق الذي قد ينتهي بهم إلى هبوط أعمالهم وهم غير شاعرين ولا عالمين، ليتقوه!

وقال تعالى: ﴿**لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً**﴾ [النور: ٦٣]، فالله سبحانه وتعالى يدعو إلى ضرورة توقير الرسول - ﷺ - في كل الأحوال. فلا يُدعى باسمه: يا محمد. أو كنيته: يا أبا القاسم. كما يدعو المسلمون بعضهم بعضاً. إنما يُدعى بتشريف الله له وتكريمه: يا نبي الله. يا رسول الله..

فلا بد من امتلاء القلوب بالتوقير للأنبياء جميعاً - عليهم صلوات الله وسلامه - فهم ينابيع الهدى وأئمة التقوى وخيرة خلق الله الذين اصطفاهم وفَضَّلهم على العالمين بشرف النبوة والرسالة ﴿**لا نُفرق بين أحد من رسله**﴾.

---

(١) النبوة والأنبياء: ٧٨ - ٧٩.

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا تُخيِّروا بين الأنبياء»(١).

قال الحافظ في «الفتح»(٢): قال العلماء في نهيه ـ ﷺ ـ عن التفضيل بين الأنبياء: إنما نهى عن ذلك مَن يقوله برأيه لا مَن يقوله بدليل، أو مَن يقول بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع، أو المراد: لا تفضلوا جميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضول فضيلة، فالإمام مثلاً إذا قلنا: إنه أفضل من المؤذن لا يستلزم نقص فضيلة المؤذن بالنسبة للأذان، وقيل: النهي عن التفضيل إنما هو في حق النبوة نفسها، كقوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أَحَد من رُسله﴾ ولم يَنهَ عن تفضيل بعض الذوات على بعض، لقوله: ﴿تلك الرسل فضَّلنا بعضهم على بعض﴾.

وقال الحليمي: الأخبار الواردة في النهي عن التخيير إنما هي مجادلة أهل الكتاب، وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة، لأن المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يُؤمَن أن يُخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر، فيفضي إلى الكفر، فأما إذا كان التخيير مستنداً إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان، فلا يدخل في النهي.

«وقد جاءت النصوص الصريحة الكثيرة، تطلب حبّ الرسول وإيثاره على النفس والأهل والولد؛ فقد جاء في الصحيحين: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»، وكذلك: «ثلاث مَن كُنَّ فيه وَجَد بهن حلاوة الإيمان. مَن كان الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما» الحديث.

لأن الطاعة الكاملة المخلصة والتخلق بأخلاق الرسول، والانصباغ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٨) و (٢٤١٢) وأحمد ١/٣، ٣٣، وابن حبان بإسناد صحيح والنص له انظر الإحسان (٦٢٣٧).

(٢) الفتح ٦/٤٤٦.

بصبغته، لا يتأتى إلا بهـذا الإجلال المنبعث من أعمـاق القلب، والحب العميق الذي يملك على الإنسان مشاعره، ويستولي على قلبه.

وما ضعف العالم الإسلامي في العمل بالشريعة اليوم والتكاسل في الطاعات، والابتعاد عن كل ما يشق على النفس، وما تهاون كثير من طبقة العلماء والمثقفين الثقافة الدينية الواسعة بالسُنن وهدي الرسول إلا لضعف هذا الإجلال الذي اهتمّ به القرآن كثيراً، وضعف عاطفة الحبّ أو فقدانها؛ العاطفة التي كانت ولا تزال مصدر قوة لا نظير لها، ومردّ عجائب ومعجزات في التاريخ، وهو فراغ لا يُملأ بأكبر مقدار من العقل والعزم والنظام، وخسارة لا تُعَوَّض بشيء.

«وإن مصير الأمم التي يُبعث فيها هؤلاء الأنبياء مربوط بِاتِّباعِهم والانقياد لهم، والاجتماع تحت رايتهم، والتمسك بأهدابهم والسير في ركابهم بِعزّ عزيز وذلّ ذليل، فلا تفلح أمة مهما أُوتيت من الحَول والطَول والذكاء والوسائل. ومهما تقدَّم الزمان وتقدمت الحضارة وتنوعت الفلسفات وتغيرت الأحوال إلا باتباع هذا النبي، والحبّ له والانتصار لدعوته، رَضِيَتْ بذلك أم أَبَتْ، وكل أُمة تحاول أن تنال العزة والسؤدد والكرامة والقوة الحقيقية من غير هذا الطريق، مُعتمدة على سياستها الحكيمة، أو الانضمام إلى معسكر من المعسكرات القوية فلن يكون ذلك، وليس عاقبتها إلا الذلّ والهوان والإخفاق الذريع، والانشقاق الداخلي، والخيبة عاجلاً أو آجلاً.

والعالم الإسلامي بصفة عامة، والعالم العربي بصفة خاصة، خير شاهد على ذلك، فقد كبر على هذين العالَمَيْن في الزمن الأخير اتباع الرسول النبي الأمي - ﷺ - وثَقُل عليهما إيثار ما أَمَر به وطلبه، على ما تأمر به نفوس القادة والزعماء، واستنكفا عن الانتساب إليه والافتخار به والظهور في مظهر دينه أمام الأمم والحكومات، وآمَنَا بضرورة التَنَصُّل عن دينه وأحكامه وحضارته، وآمن أكثر أقطارهما بالقومية والوطنيةِ والاشتراكية والفلسفات الحديثة. وإلى الآن لم يقضيا وطراً ولم يهزما عدواً. وهذا هو

العالم العربي ـ ولا معذرة وعلى استعفاء ـ موزع على نفسه، لم يستطع أن يحل مشكلة فلسطين في هذه المدة الطويلة ويستعيد المقدسات، ولم يحتل المكان اللائق به في زعامة العالم الإسلامي أو قيادة العالم الإنساني، وفي كل يوم مشكلة طريفة وقضية جديدة.

وصدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ قال لأصحابه العرب في الشام، وهم كبار الصحابة وقادة الفتح الإسلامي، وقد عَيّروه ببعض صنيعه الذي لا يتفق مع رئيس حكومة كبيرة: «إنكم كنتم أذلّ الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزّ بغيره يُذلكم الله»[1].

منهج الله القويم القديم:

ومن خلال استعراض كل حلقة من حلقات الدعوة الإلهية إلى البشرية تتجلى حقيقة وحدة العقيدة وثبات أصولها، وتأصُّل جذورها. كما يتجلى ارتباطها بالكون وبإرادة الله وقدره، وأحداث الحياة الواقعة وفق قَدَر الله. وذلك من خلال دعوات الأنبياء والرسل لأقوامهم.

ولإقرار هذه الحقيقة في نفوس المسلمين قيمته في شعورهم بحقيقة دعوتهم، وحقيقة نسبهم العريق! وحقيقة موكبهم المتصل من مطلع البشرية. وحقيقة دورهم في إقرار هذه الدعوة والقيام عليها. وهي **منهج الله القويم القديم**.

وإن الإنسان ليأخذه الدهش والعجب، كما تغمره الروعة والخشوع، وهو يستعرض ذلك الجهد الموصول من الرسل ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ لهداية البشرية الضالة المعاندة، ويتدبر إرادة الله المستقرة على إرسال هؤلاء الرسل واحداً بعد واحد لهذه البشرية المُعرضة العنيدة.

وقد يعن للإنسان أن يسأل: ترى تساوي الحصيلة هذا الجهد

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٠، النبوة والأنبياء: ٨٠ ـ ٨٤.

الطويل، وتلك التضحيات النبيلة، من لدن نوح ـ عليه السلام ـ إلى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم ما كان بينهما وما تلاهما من جهود المؤمنين بدعوة الله وتضحياتهم الضخام؟

ترى هل تساوي هذا الجهد الشاق، الذي استغرق عمراً طويلاً بالغ الطول، لم يكتفِ الناس فيه بالإعراض عن الرسل ودعوتهم، بل أتبعوهم بالسخرية والاتهام. وهم يتلقون كل ذلك بالصبر والحسنى، والأدب الجميل والبيان المنير.

تلك الجهود الموصولة منذ ذلك التاريخ، من مطلع البشرية، وتلك التضحيات النبيلة التي لم تنقطع على مدار التاريخ. من رُسل يُستهزأ بهم، أو يُحرقون بالنار، أو يُنشرون بالمنشار، أو يهجرون الأهل والديار..

حتى تجيء الرسالة الأخيرة، فيجهد فيها محمد ـ ﷺ ـ ذلك الجهد المشهود المعروف، هو والمؤمنون معه. ثم تتوالى الجهود المضنية والتضحيات المذهلة من القائمين على دعوته في كل أرض وفي كل جيل؟

ترى تساوي الحصيلة كل هذه الجهود، وكل هذه التضحيات، وكل هذا الجهاد المرير الشاق؟ ثم.. ترى هذه البشرية كلها تساوي تلك **العناية الكريمة من الله**، المتجلية في استقرار إرادته سبحانه على إرسال الرسل تَتْرى بعد العناد والإعراض والإصرار والاستكبار، من هذا الخلق الهزيل الصغير المسمى بالإنسان؟!

والجواب بعد التدبر: أن نعم.. وبلا جدال..!

إن استقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض يساوي كل هذا الجهد، وكل هذا الصبر، وكل هذه المشقة، وكل هذه التضحيات النبيلة المُطّردة من الرسل وأتباعهم الصادقين في كل جيل!

ولعل استقرار هذه الحقيقة أكبر من وجود الإنسان ذاته؛ بل أكبر من الأرض وما عليها؛ بل أكبر من هذا الكون الهائل الذي لا تبلغ الأرض أن

تكون فيه هباءة ضائعة لا تكاد تحسّ أو تُرى!

وقد شاءت إرادة الله أن يخلق هذا الكائن الإنساني بخصائص معينة، تجعل استقرار هذه الحقيقة في ضميره وفي نظام حياته موكولاً إلى الجهد الإنساني ذاته، بعون الله وتوفيقه. ولسنا نعلم لِمَ خَلَق الله هذا الكائن بهذه الخصائص. وَوَكَلَه إلى إدراكه وجهده وإرادته في تحقيق حقيقة الإيمان في ذاته وفي نظام حياته، ولم يجبله على الإيمان والطاعة لا يعرف غيرهما كالملائكة، أو يمحضه للشر والمعصية لا يعرف غيرهما كإبليس.

لسنا نعلم سرّ هذا. ولكننا نؤمن بأن هنالك حكمة تتعلق بنظام الوجود كله في خلق هذا الكائن بهذه الخصائص!

وإذن فلا بد من جهد بشري لإقرار حقيقة الإيمان في عالم الإنسان. هذا الجهد اختار الله له صفوة من عباده هم الأنبياء والرسل. وثُلَّة مختارة من أتباعهم هم المؤمنون الصادقون. اختارهم لإقرار هذه الحقيقة في الأرض، لأنها تساوي كل ما يبذلون فيها من جهود مُضنية مريرة، وتضحيات شاقة نبيلة.

إن استقرار هذه الحقيقة في قلب معناه أن ينطوي هذا القلب على قَبَس من نور الله؛ وأن يكون مستودعاً لسرّ من أسراره؛ وأن يكون أداة من أدوات قَدَره النافذ في هذا الوجود.. وهذه حقيقة لا مُجرد تصوير وتقريب.. وهي حقيقة أكبر من الإنسان ذاته ومن أرضه وسمائه، ومن كل هذا الكون الكبير!

كما أن استقرار حقيقة الإيمان في حياة البشر - أو جماعة منهم - معناه اتصال هذه الحياة الأرضية بالحياة الأبدية، وارتفاعها إلى المستوى الذي يُؤهلها لهذا الاتصال. معناه اتصال الفناء بالبقاء والجزء بالكل والمحدود الناقص بالكمال المطلق... وهي حصيلة تَرْبَى على كل جهد وكل تضحية ولو تحققت على الأرض يوماً أو بعض يوم في عمر البشرية الطويل، لأن تَحَقُّقها - ولو في هذه الصورة - يرفع أمام البشرية في سائر أجيالها مشعل

النور في صورة عملية واقعية، تجاهد لتبلغ إليها طوال الأجيال!

وقد أثبت الواقع التاريخي المتكرر أن النفس البشرية لم تبلغ إلى آفاق الكمال المقدر لها بأية وسيلة كما بلغتها باستقرار حقيقة الإيمان بالله فيها. وأن الحياة البشرية لم ترتفع إلى هذه الآفاق بوسيلة أخرى كما ارتفعت بهذه الوسيلة. وأن الفترات التي استقرت فيها هذه الحقيقة في الأرض، وتَسَلَّم أهلها قيادة البشرية كانت قِمة في تاريخ الإنسان سامقة، بل كانت حلماً أكبر من الخيال، ولكنه مُتَمَثّل في واقع يحياه الناس.

وما يمكن أن ترتقي البشرية ولا أن ترتفع عن طريق فلسفة أو علم أو فن أو مذهب من المذاهب أو نظام. إلى المستوى الذي وصلت أو تصل إليه عن طريق استقرار حقيقة الإيمان بالله في نفوس الناس وحياتهم وأخلاقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم. . وهذه الحقيقة ينبثق منها **منهج حياة كامل**، سواء جاءت مُجملة كما هي في الرسالات الأولى، أو مفصّلة شاملة دقيقة كما هي في الرسالة الأخيرة.

والدليل القاطع على أن هذه العقيدة حقيقة من عند الله، هو هذا الذي أثبته الواقع التاريخي من بلوغ البشرية باستقرار حقيقة الإيمان في حياتها ما لم تبلغه قط بوسيلة أخرى من صنع البشر: لا علم، ولا فلسفة، ولا فن، ولا نظام من النظم. وأنها حين فقدت قيادة المؤمنين الحقيقيين لم ينفعها شيء من ذلك كله؛ بل انحدرت قِيَمها وموازينها وإنسانيتها، كما غرقت في الشقاء النفسي والحيرة الفكرية والأمراض العصبية، على الرغم من تَقَدّمها الحضاري في سائر الميادين، وعلى الرغم من توافر عوامل الراحة البدنية والمتاع العقلي، وأسباب السعادة المادية بجملتها. ولكنها لم تنل السعادة والطمأنينة والراحة الإنسانية أبداً. ولم يرتفع تصورها للحياة قط كما ارتفع في ظل الحقيقة الإيمانية، ولم تتوثق صلتها بالوجود قط كما توثقت في ظل هذه العقيدة، ولم تشعر بكرامة «النفس الإنسانية» قط كما شعرت بها في تلك الفترة التي استقرت فيها تلك

الحقيقة. والدراسة الواعية للتصور الإسلامي لغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني تنتهي حتماً إلى هذه النتيجة.

وهذا كله يستحق ـ بدون تردد ـ كل ما يبذله المؤمنون من جهود مُضنية، ومن تضحيات نبيلة، **لإقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض.** وإقامة قلوب تنطوي على قَبَس من نور الله، وتتصل بروح الله. وإقامة حياة إنسانية يتمثل فيها منهج الله للحياة، وترتفع فيها تصورات البشر وأخلاقهم، كما يرتفع فيها واقع حياتهم إلى ذلك المستوى الرفيع، الذي شهدته البشرية واقعاً في فترة من فترات التاريخ.

وسَتُعْرِض البشرية كما أعرضت عن دعوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم الكرام. وستذهب مع القيادات الضالة المضلة المُمعنة في الضلال. وسَتُعذِّب الدعاة إلى الحق أنواعاً مختلفة من العذاب، وتُنكل بهم ألواناً شتى من النكال. كما ألقت إبراهيم في النار، ونشرت غيره بالمنشار، وسَخِرَتْ واستهزأت بالرسل والأنبياء على مدار التاريخ. ولكن الدعوة إلى الله لا بد أن تمضي في طريقها كما أراد الله. لأن الحصيلة تستحق الجهود المضنية والتضحيات النبيلة، ولو صغرت فانحصرت في قلب واحد ينطوي على قَبَس من نور الله، ويتصل بروح الله!

إن هذا الموكب المتصل من الرسل والرسالات من عهد نوح ـ عليه السلام ـ إلى عهد محمد ـ عليه أزكى السلام ـ لينبىء عن استقرار إرادة الله على اطراد الدعوة إلى حقيقة الإيمان الكبيرة، وعلى قيمة هذه الدعوة وقيمة الحصيلة. وأقل نسبة لهذه الحصيلة هي أن تستقر حقيقة الإيمان في قلوب الدعاة أنفسهم حتى يلاقوا الموت وما هو أشد من الموت في سبيلها ولا ينكصون عنها. وبهذا يرتفعون على الأرض كلها وينطلقون من جواذبها، ويتجردون من ربقتها. وهذا وحده كسب كبير. أكبر من الجهد المرير. كسب للدعاة. وكسب للإنسانية التي تُشَرَّف بهذا الصنف منها وتُكَرَّم. وتستحق أن يُسْجِد الله الملائكة لهذا الكائن، الذي

يفسد في الأرض ويسفك الدماء. ولكنه يتهيأ - بجهده هو ومحاولته وتضحيته - لاستقبال قَبَس من نور الله. كما يتهيأ لأن ينهض - وهو الضعيف العاجز - بتحقيق قَدَرِ الله في الأرض، وتحقيق منهجه في الحياة، ويبلغ من الطلاقة والتحرر الروحي أن يُضحي بالحياة، ويحتمل من المشقة ما هو أكبر من ضياع الحياة، لينجو بعقيدته وينهض بواجبه في محاولة إقرارها في حياة الآخرين، وتحقيق السعادة لهم والتحرر والارتفاع. وحين يتحقق لروح الإنسان هذا القدر من التحرر والانطلاق، يهون الجهد، وتهون المشقة، وتهون التضحية، ويتوارى هذا كله، لتبرز تلك الحصيلة الضخمة التي ترجح الأرض والسماء في ميزان الله...

تذكيـر...

ويهتف القرآن الكريم بالناس أن ينظروا في علاقتهم بالله، وفي أنفسهم ﴿**يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد، إن يشأ يُذهبكم ويأتِ بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز**﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧]..

إن الناس في حاجة إلى تذكيرهم بهذه الحقيقة في معرض دعوتهم إلى الهدى، ومجاهدتهم ليخرجوا مما هم فيه من الظلمات إلى نور الله وهداه. في حاجة إلى تذكيرهم بأنهم هم الفقراء المحاويج إلى الله. وأن الله غني عنهم كل الغنى، وأنهم حين يُدعون إلى الإيمان بالله وعبادته وحَمْده على آلائه فإن الله غني عن عبادتهم وحمدهم(١)، وهو المحمود بذاته.

---

(١) عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي - ﷺ - فيما يروي عن رَبّه عزَّ وجل أنه قال: «... يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضَرِّي فتَضُروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رَجُل واحد منكم، ما زاد ذلكَ في مُلكي شيئاً، يا عبادي لَو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً..» رواه مسلم (٢٥٧٧)، وأحمد ٥/ ١٥٤ و ١٦٠، ١٧٧. انظر تتمة تخريج الحديث في جامع العلوم والحكم ٢/ ٣٢ - الحديث الرابع والعشرون -

إن جميع الخَلق كلهم من صنع الله، ولو كانوا على صفة أكْمل خَلْقه من البرّ =

وأنهم لا يعجزون الله ولا يعزّون عليه فهو إن شاء أن يذهب بهم ويأتي بخلق جديد من جنسهم أو من جنس آخر يخلفهم في الأرض، فإن ذلك عليه يسير..

الناس في حاجة أن يُذَكَّروا بهذه الحقيقة، لئلا يركبهم الغرور وهم يرون أن الله ـ جَلّ وعلا ـ يعني بهم، ويرسل إليهم الرسل، ويجاهد الرسل أن يردوهم عن الضلالة إلى الهدى، ويُخرجوهم من الظلمات إلى النور. ويركبهم الغرور فيظنون أنهم شيء عظيم على الله! وأن هُداهم وعبادتهم تزيد شيئاً في ملكه تعالى[1]! والله هو الغني الحميد.

= والتقوى، لم يزد ذلك ملكه شيئاً، ولا قدر جناح بعوضة، ولو كانوا على صفة أنقص خلقه من الفجور، لم ينقص ذلك من مُلكه شيئاً، فإن مُلكه ـ سبحانه ـ كامل على أي وجه كان لا يزداد ولا يكمل بالطاعات، ولا ينقُص بالمعاصي ولا يؤثر فيه شيء. (جامع العلوم والحكم ٤٧/٢).

إن جميع الخلق مُفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كله. فصاحب السلطان الحقيقي في هذا الكون هو سبحانه، وأمْر الذين يكفرون وشأنهم ضئيل كالهباءة التائهة في مُلك الله أو أقل..

وبقدر ما يقرر الإسلام كرامة الإنسان على الله؛ وتكريمه على كل ما في الأرض، وكل مَن في الكون.. بقدر ما يُقرر هَوانَه على الله حين يكفر به، ويعتو ويتجبّر، ويدّعي خصائص الألوهية بغير حق.. فهذه كفاء تلك في التصور الإسلامي، وفي حقيقة الأمر والواقع كذلك.. ﴿**وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً. ولله ما في السموات والأرض وكفى بالله وكيلاً. إن يَشأ يُذهبكم ـ أيها الناس ـ ويأتِ بآخرين وكان الله على ذلك قديراً**﴾ [النساء: ١٣١ ـ ١٣٣]..

وقال الله عز وجل حاكياً عن موسى: ﴿**وقال موسى: إن تكفروا أنتم ومَن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد**﴾ [إبراهيم: ٨]..

هذه هي خلاصة التصور الإسلامي في الرسل والرسالات: ﴿**يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم، فمَن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومَن ضَلَّ فإنما يَضلّ عليها**﴾ [يونس: ١٠٨]، ﴿**مَن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومَن ضَلَّ فإنما يَضلّ عليها. ولا تزر وازرة وزر أخرى. وما كُنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾ [الإسراء: ١٥]..

هذه هي الكلمة الأخيرة في سنّة الله الماضية.. ولكل إنسان أن يختار لنفسه.. فهذا هو الحق قد جاء من ربّ العالمين على لسان رُسله الكرام..

وإن الله سبحانه يمنح العباد من رعايته، ويفيض عليهم من رحمته، ويغمرهم بسابغ فضله ـ بإرسال رسُله إليهم، واحتمال هؤلاء الرسل ما يحتملون من إعراضهم وإيذائهم، وثباتهم على الدعوة إلى الله بعد الإعراض والإيذاء..

إن الله سبحانه إنما يعامل عباده هكذا رحمةً منه وفضلاً وكرماً ومنًّا. لأن هذه صفاته المتعلقة بذاته. لا لأن هؤلاء العباد يزيدون في ملكه شيئاً بهداهم، أو ينقصون من ملكه شيئاً بِعَماهم. ولا لأن هؤلاء العباد مخلوقات نادرة عزيزة صعبة الإعادة أو الاستبدال، فيغتفر لهم ما يقع منهم لأنهم صنف لا يُعاد ولا يُستبدل.

وإن الإنسان ليدهش ويحار في فضل الله ومَنِّه وكرمه، حين يرى هذا الإنسان الصغير الجاهل القاصر، الضعيف العاجز، ينال من عناية الله ورعايته كل هذا القدر الهائل!

والإنسان ساكن صغير من سكان هذه الأرض. والأرض تابع صغير من توابع الشمس. والشمس نجم مما لا عَدَّ له ولا حصر من النجوم. والنجوم إن هي إلا نقط صغيرة ـ على ضخامتها الهائلة ـ متناثرة في فضاء الكون الذي لا يعلم الناس حدوده. وهذا الفضاء الذي تتناثر فيه تلك النجوم كالنقط التائهة إن هو إلا بعض خلق الله!

ثم ينال الإنسان من الله كل هذه الرعاية.. يُنشئه، ويَستخلفه في الأرض، ويَهبه كل أدوات الخلافة ـ سواء في تكوينه وتركيبه أو تسخير القوى والطاقات الكونية اللازمة له في خلافته ـ ويَضلّ هذا المخلوق ويتبجّح حتى لَيُشْرِك بربه أو يُنكره. فيرسل الله إليه الرسل، رسولاً بعد رسول، ويُنَزّل على الرسل الكتب والخوارق. ويطّرد فضل الله حتى لينزل في كتابه الأخير للبشر قصصاً يُحدّث بها الناس، ويقصّ عليهم ما وقع لأسلافهم، ويُحدثهم عن ذوات أنفسهم، ويكشف لهم عما فيها من قوى وطاقات، ومن عجز وضعف، ثم إنه ـ سبحانه ـ لَيُحَدِّث عن فلان وفلان بالذات، فيقول لهذا:

أنتَ فعلتَ وأنتَ تركتَ، ويقول لذاك: هاك حلاً لمشكلتك، وهاك خلاصاً من ضيقتك!

كل ذلك، وهذا الإنسان هو الساكن الصغير من سكان هذه الأرض، التابعة الصغيرة من توابع الشمس، التائهة في هذا الوجود الكبير حتى ما تكاد تحسّ! والله ـ سبحانه ـ هو فاطر السماوات والأرض، وخالق هذا الوجود بما فيه ومَن فيه بكلمة. بمجرد تَوجُّه الإرادة. وهو قادر على أن يخلق مثله بكلمة وبمجرد توجُّه الإرادة..

والناس خُلقاء أن يُدركوا هذه الحقيقة ليدركوا مدى فضل الله ورعايته ورحمته. وليستحيوا أن يستجيبوا للفضل الخالص والرعاية المجردة والرحمة الفائضة بالإعراض والجحود والنكران.

فهي من هذه **الناحية** لمسة وجدانية موحية، إلى جانب أنها حقيقة صادقة واقعة. والقرآن يلمس بالحقائق قلوب البشر، لأن الحقيقة حين تجلى أفعل في النفس، ولأنه هو الحق وبالحق نزل. فلا يتحدث إلا بالحق، ولا يُقنع إلا بالحق، ولا يعرض إلا الحق، ولا يشير بغير الحق..

إن الذي يتنكب طريق الهدى ومنهج الله القويم، لن يضرّ الله شيئاً، إنما الإنسان هو الخاسر. فالله غني عن الناس وعن إيمانهم. ولكنه ـ رحمة منه بالعباد ـ شَرَع لهم هذا المنهج لسعادتهم هم، ولخيرهم هم. وما يتنكبه مُتنكب حتى يلاقي جزاءه من الشقوة والحيرة في ذات نفسه وفيمن حوله. وحتى يفسد النظام وتفسد الحياة ويفسد الخلق، وتعوجّ الأمور كلها، ويذوق الناس وَبَال أمرهم في تنكبهم للمنهج الوحيد الذي تستقيم في ظله الحياة، وتستقيم في ظله النفوس، وتجد الفطرة في ظله السلام مع ذاتها، والسلام مع الكون الذي تعيش فيه.

والعباد المهازيل مهما بلغوا من القوة والبطش ﴿**لن يضروا الله شيئاً**﴾ [آل عمران: ١٧٦]، والأمر في هذا لا يحتاج إلى بيان، فهؤلاء ﴿**الذين**

اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم﴾ [آل عمران: ١٧٧].

إن الذين يتنكبون طريق الله، ويسارعون في الكفر إنما يحاربون الله، وهم أضعف من أن يضروا الله شيئاً. . وهم إذن لن يضروا دعوته، مهما سارعوا في الكفر، ولجُّوا في الطغيان، وتعالوا في الجبروت، ومهما أصابوا أولياء الله بالأذى. . فماذا يكون العبيد، وكيدهم وخداعهم وأذاهم الصغير. .

والمعركة قديمة بدأت منذ فجر البشرية بين دعاة الحق وأهل الباطل **﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** [المائدة: ١١، التوبة: ٥١]. .

وقوة الله وحدها هي الغالبة **﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** [يوسف: ٢١]، وما عدا ولاية الله وقوته فهو واهن ضئيل هزيل، مهما علا واستطال، ومهما تجبَّر وطغى، ومهما مَلَك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل. . .

وهو وحده ـ سبحانه ـ العزيز القادر الحكيم المدبِّر لهذا الوجود. والعبيد المهازيل لا يعلمون أن إرادة الله ماضية وأن أمره هو الذي يكون. ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، **﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾** [البقرة: ١٠٢]. .

حقٌّ وجدّ

إن العقيدة واحدة وإن تعدَّد الرسل على مدار الزمان **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون﴾** [الأنبياء: ٢٥]. .

وقد اقتضت مشيئة الله ـ كما تقدّم ـ أن يكون الرسل كلهم من البشر: **﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم. .﴾** [يوسف: ١٠٩، النحل: ٤٣].

إن القرآن يستعرض أمة الرسل الواحدة استعراضاً يطول بعض الشيء عند عرض حلقة عن قصة إبراهيم، ونوح، وموسى، وداود، وسليمان.. ويقصر عند الإشارة إلى قصص إسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وإلياس، واليسع...

وفي الاستعراض القرآني تتجلى المعاني التي يهدف إليها في سياق عرضه في سور القرآن في صورة وقائع في حياة الرسل والدعوات.

إن هذه الرسالة حقّ وجدّ، كما أنْ هذا الكون حقّ وجدّ. فلا مجال لِلَّهْوِ في استقباله، ولا مجال لطلب الآيات الخارقة، وآيات الله في الكون وسُنن الكون كله. توحي بأنه الخالق القادر الواحد، والرسالة من لدن ذلك الخالق القادر الواحد.

لقد مضى الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ أمة واحدة، ذات كلمة واحدة، وعبادة واحدة، ووجهة واحدة، فإذا الناس من بعدهم أحزاب متنازعة لا تلتقي على منهج ولا طريق: ﴿**فتقطعوا أمرهم بينهم زُبُراً كل حزب بما لديهم فرحون. فذرهم في غمرتهم حتى حين**﴾ [المؤمنون: ٥٢، ٥٣]..

ويُخرج التعبير القرآني المبدع هذا التنازع في صورة حسيّة عنيفة. لقد تنازعوا الأمر حتى مَزَّقوه بينهم مزقاً، وقطعوه في أيديهم قطعاً. ثم مضى كل حزب بالمزقة التي خرجت في يده. مضى فرحاً لا يفكر في شيء، ولا يلتفت إلى شيء! مضى وأغلق على حسّه جميع المنافذ التي تأتيه منها أية نسمة طليقة، أو يدخل إليه منها أي شعاع مضيء! وعاش الجميع في هذه الغمرة مذهولين مشغولين بما هم فيه، مغمورين لا تنفذ إليهم نسمة مُحيية ولا شعاع منير.

ثم شاءت رحمة الله أن يُرسل خاتم النبيين محمد ـ ﷺ ـ رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى هدى الله ونوره، وكانت هذه الرسالة الأخيرة سُنّة من سنن الله أن يُرسل الرسل، وأن يُنزل عليهم الكتب. وهذا الكتاب الجديد،

الذي يُنكرون تنزيله، هو كتاب مبارك.. وصدق الله.. فإنه والله لمبارك...

﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه...﴾ [الأنعام: ٩٢]..

فهو يُصدّق ما بين يديه من الكتب التي نزلت من عند الله ـ في صورتها التي لم تُحرَّف لا فيما حَرَّفَتْه المجامع وقالت: إنه من عند الله ـ هو يُصدقها لأنها جاءت بالحق الذي جاء به في أصول العقيدة. أما الشرائع فقد جعل لكل أمة شِرعةً ومنهاجاً، في حدود العقيدة الكبرى في الله.

والذين يكتبون عن الإسلام فيقولون: إنه أول دين جاء بالعقيدة الكاملة في توحيد الله؛ أو جاء بالعقيدة الكاملة في حقيقة الرسالة والرسول؛ أو جاء بالعقيدة الكاملة في الآخرة والحساب والجزاء.. وهم يقصدون الثناء على الإسلام!..

هؤلاء لا يقرأون القرآن! ولو قرأوه لسمعوا الله تعالى يُقرر أن جميع رسله ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ جاءوا بالتوحيد المطلق الخالص الذي لا ظل فيه للشرك في صورة من صوره. وأنهم جميعاً أخبروا الناس بحقيقة الرسول، وبشريته وأنه لا يملك لهم ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا يعلم غيباً، ولا يبسط أو يقبض رزقاً.. وأنهم جميعاً أنذروا قومهم بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء.. وأن سائر حقائق العقيدة الإسلامية الأساسية جاء بها كل رسول.. وصَدَّق الكتاب الأخير ما جاءت به الكتب قبله..

إنما تلك الأقوال أَثَر من آثار الثقافة الأوربية. التي تزعم أن أصول العقيدة ـ بما فيها العقائد السماوية ـ قد تطورت وترقت، بتطور الأقوام وترقيها! وما يمكن أن يدافع عن الإسلام بهدم أصوله التي يقررها القرآن! فليحذر الكُتَّاب والقارئون هذا المزلق الخطير!!!

ويُشير القرآن إلى ميثاق الله مع النبيين عامة، والنبي ـ ﷺ ـ وأولي العزم من الرسل خاصة، في حمل أمانة هذا المنهج، والاستقامة عليه،

وتبليغه للناس، والقياس عليه في الأمم التي أُرسلوا إليها؛ وذلك حتى يكون الناس مسؤولين عن هداهم وضلالهم وإيمانهم وكفرهم، بعد انقطاع الحجة بتبليغ الرسل عليهم صلوات الله وسلامه:

﴿**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم؛ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً. ليسأل الصادقين عن صدقهم، وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً**﴾ [الأحزاب: ٧، ٨]..

إنه ميثاق واحد مُطّرد من لدن نوح - عليه السلام - إلى خاتم النبيين محمد - ﷺ - ميثاق واحد، ومنهج واحد، وأمانة واحدة يتسلّمها كل منهم حتى يُسلمها.

وقد عمم النص أولاً: ﴿**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم**﴾.. ثم خصص صاحب القرآن الكريم وصاحب الدعوة العامة إلى العالمين: ﴿ومنك﴾.. ثم عاد إلى أولي العزم من الرسل، وهم أصحاب أكبر الرسالات - قبل الرسالة الأخيرة - ﴿**ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم**﴾..

وإنه لميثاق غليظ متين ذلك الميثاق بين الله والمختارين من عباده، لِيَتَلَقُّوا وحيه، ويُبَلِّغوا عنه، ويقوموا على منهجه في أمانة واستقامة، فهو حقّ وجدّ ﴿**وسوف تُسألون**﴾ [الزخرف: ٤٤].

وهكذا يربط القرآن الكريم بين الحق في الدعوة، والحق والجد في نظام الكون. وبين عقيدة التوحيد ونواميس الوجود. وبين وُحْدة الخالق المدبر ووحدة الرسالة والعقيدة. ووحدة مصدر الحياة ونهايتها ومصيرها.

وإنها لتبعة ضخمة حملتها أُمة محمد خاتم النبيين - ﷺ - الأُمة التي اختارها الله لدينه، واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة، اختارها لحمل الأمانة وتبليغ الرسالة.. ولكن مَنْ يُسَمّون مُسلمين هُمْ مُعرضون عن الهدى. والموقف جدّ وهم لا يشعرون بالموقف وخُطورته.. لاهيةً قلوبهم عن الحق المبين، نفوسهم فارغة لا تعرف الجدّ، فلا هم يتأمَّلُون هذا الحق

في جدّ، ولا هم يتدبرون، ولا هم يتفكرون، لقد استرخوا عن حمل الأمانة، وفقدوا الشعور بقيمة هذا الحق المقدس، وانتهوا إلى حالة من التفاهة والجدب والانحلال، فلا تصلح للنهوض بعبء، ولا الاضطلاع بواجب، ولا القيام بتكليف، وتخلوا عن الأمانة.. ﴿**وسوف تُسألون**﴾.. فلا حجة لأحد، وسوف تُسألون عن هذا كله يوم القيامة.. ﴿**وقفوهم إنهم مسؤولون**﴾ [الصافات: ٢٤].

وينقل القرآن القلوب إلى ساحة الآخرة ﴿**فلنسألنّ الذين أُرسلَ إليهم ولنسألنَّ المرسلين. فَلْنَقُصَنّ عليهم بعلم. وما كنا غائبين**﴾ [الأعراف: ٦].

فهو السؤال الدقيق الوافي، يشمل المُرسل إليهم ويشمل المُرسلين.. وتعرض فيه القصة كلها على الملأ الحاشد؛ وتفصل فيه الخفايا والدقائق!.. يسأل الذين جاءهم الرسل فيعترفون. ويسأل الرسل فيجيبون. ثم يقص عليهم العليم الخبير كل شيء أحصاه الله ونسوه! يقصه عليهم ـ سبحانه ـ بعلم فقد كان حاضراً كل شيء. وما كان ـ سبحانه ـ غائباً عن كل شيء.. وهي لمسة عميقة التأثير والتذكير والتحذير!

إنه أمر عظيم ورهيب ﴿**وإذا الرسل أُقِّتت. لأي يوم أُجِّلت؟ ليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل؟ ويل يومئذ للمكذبين**﴾ [المرسلات: ١١ ـ ١٥]..

دعوة الله في الأرض طوال الأجيال.. فالرسل قد أُقِّتَتْ لهذا اليوم وضرب لها الموعد هناك، لتقديم الحساب الختامي عن ذلك الأمر العظيم الذي يرجح السماوات والأرض والجبال. للفصل في جميع القضايا المعلّقة في الحياة الأرضية، والقضاء بحكم الله فيها، وإعلان الكلمة الأخيرة التي تنتهي إليها الأجيال والقرون.

إنه لا مجال هنا للمغالطة ﴿**والوزن يومئذ الحق. فمَن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون**﴾ [الأعراف: ٨]، لا مجال للمغالطة في الوزن؛ ولا التلبيس في الحكم؛ ولا الجدل الذي يذهب بصحة الأحكام والموازين..

فمَن ثقلت موازينه في ميزان الله الذي يزن بالحق فجزاؤه الفلاح. . وأي فلاح بعد النجاة من النار، والعودة إلى الجنة، في نهاية الرحلة المديدة، وفي ختام المطاف الطويل؟

﴿ومَن خفَّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ [الأعراف: ٩].

فقد خفَّت في ميزان الله الذي لا يظلم ولا يُخطىء. وقد خسروا أنفسهم. فماذا يكسبون بعد؟ إن المرء ليحاول أن يجمع لنفسه. فإذا خسر ذات نفسه فما الذي يبقى له؟

لقد خسروا أنفسهم بكفرهم بآيات الله ورسله **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾**.

وهذا الإنذار من العزيز الجبار في مواجهة الهول والجلال الماثل في مجلس الفصل بمحضر الرسل، وهم يُقدمون الحساب الأخير في الموعد المضروب لهم. . هذا الإنذار في هذا الأوان له طعمه وله وَزْنه وله وَقْعه المُزَلْزِل الرهيب.

وبعد، هناك بقيّة خيّرة من عباد الرحمٰن، على استقامة، تُؤمن بالمنهج الإلهي، تحمل الأمانة، أقدامها في الأرض، وقلوبها مُعلَّقة بربّ العالمين، تستمد منه العون والتثبيت، والنور الذي يُضيء ظلام الطريق. .

ها هم أولاء ماضون في قوة جادّة شاعرة، ماضون مهما لاقوا ويلاقون من عنت وبطش وجبروت الطغاة الشاردين عن الصراط المستقيم. . **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألَّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون﴾** [فصلت: ٣٠، ٣١]. .

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم

يحزنون. أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤]..

ويستجيش القرآن القلوب، ويلوح للأرواح بالمتاع الحبيب.. بمتاع الصحبة في الآخرة للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين:

﴿ومَن يطع الله والرسول، فأولئك مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقاً!.﴾ [النساء: ٦٩].

إنها اللمسة التي تستجيش مشاعر كل قلب، فيه ذرة من خير؛ وفيه بذرة من صلاح وفيه أثارة من التطلع إلى مقام كريم في صحبة كريمة، في جوار الله الكريم.. وهذه الصحبة لهذا الرهط العلوي.. إنما هي من فضل الله. فما يبلغ إنسان بعمله وحده وطاعته وحدها أن ينالها.. إنما هو الفضل الواسع الغامر الفائض العميم **﴿ذلك الفضل من الله، وكفى بالله عليماً﴾**..

إن الروح لَتَرِفّ وهي تتشوق إلى هذه الصحبة في الآخرة، فهذا الأمر العظيم الجليل يُشغل القلوب والأرواح في أمل وطمأنينة..

الباب الثالث

القصة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف

(خصائصها وأغراضها)

القصة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف
(خصائصها وأغراضها)

عرف العرب القصّة منذ نشأتهم في أقدم العصور، والتراث العربي حافل بالأشكال القصصية المختلفة[1] الكثيرة، التي تدل بوضوح كامل على بروز العنصر القصصي في الأدب العربي[2].

وعلى عادة المستشرقين في نفي كل شيء علمي عن الحضارة العربية والإسلامية، أشاعوا أنّ العربية لم تُقدم ظاهرة أدبية تستحق التقدير، وأنّها عاريةٌ عن أي فضل أو قيمة، وأنّها خاويةٌ من الفن القصصي[3]..

---

(١) انظر: محمود تيمور «القصص في أدب العرب ماضيه وحاضره» ص ٢٤، ٢٥.

(٢) انظر: موسى خليل سليمان «الأدب القصصي عند العرب» ص ١٥.

(٣) وقد نشر هذا البهتان المبين: المستشرق الفرنسي «أرسنت رنان» في كتابه «تاريخ اللغات السامية» ص ٥٤٠، ط: بولاق. وكذلك أنكر المستشرق «ديبور» على العرب قدرتهم على القصّة. انظر كتابه «تاريخ الفلسفة في الإسلام» ترجمة وتعليق عبد الهادي أبو ريده ـ القاهرة ١٩٣٨. [القصص في الحديث النبوي ص ٤١].

وقد شهد على تذوق العرب للقصّة بعض المستشرقين في آرائهم المُنصفة من مثل: كارل بروكلمان الذي يقول في حديثه عن أوّلية النثر: «لم يكن الشاعر وحده هو الذي تهفو إليه الأعين عند عرب الجاهلية، بل كان القاصّ يقوم أيضاً مقاماً هاماً إلى جانب الشاعر في سَمر الليل، بين مضارب الخيام لقبائل البدو المتنقلة، وفي مجالس أهل القرى والحضر» تاريخ الأدب العربي ١/١٢٨ دار المعارف ط ثالثة، ١٩٦٢.

وقد سلك كثيرٌ من الباحثين العرب الذين ينظرون بِعَيْن المستشرقين هذا الطريق في هذا الافتراء، وكان هدف «الاستشراق» «تفريغ» التراث العربي من كيان ووجدان الأمة، ومن ثم رَمْيه بالنقائص، وأنّه عالةٌ على غيره من فكر الأمم الأخرى وحضارتهم..

لقد جاء القرآن الكريم حافلاً بألوان متعددة من القصّة، ومن المعروف البدهي أنّ القرآن قد جاء على طريقة العرب في التعبير، فقد نزل على النبيّ محمد ـ ﷺ ـ بلسان عربي مبين **﴿لسانُ الذين يُلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾** [النحل: ١٠٣]، **﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون. نحن نَقصُّ عليك أحسنَ القَصَص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾** [يوسف: ٣].

«والحديث النبويّ الشريف، وهو في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم في البيان العربي، جاء زاخراً بالنصوص القصصيّة مما تمتلىء به كتب الحديث النبويّة..»[1].

و «القصّة في القرآن ليست عملاً فنياً مُسْتقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه ـ كما هو الشأن في القصّة الفنيّة الحرّة، التي ترمي إلى أداء غرض فني مجرد ـ إنّما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق هدفه الأصيل.

والقرآن كتاب دعوة دينيّة قبل كل شيء؛ والقصّة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها، شأنها في ذلك شأن مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب، وشأن الأدلة التي يسوقها على البعث وعلى قدرة الله، وشأن الشرائع التي يُفصلها والأمثال التي يضربها... إلى آخر ما جاء في القرآن من موضوعات..»[2].

---

(١) القصص في الحديث النبوي ص ٢٠.
(٢) التصوير الفني في القرآن ص ١١٩.

إنّ القرآن لا يقصّ قصّة إلا ليواجه بها حالة. ولا يقرِّر حقيقة إلا ليُغَيّر بها باطلاً.. إنّه يتحرك حركة واقعية في وسط واقعي حي. إنّه لا يُقرر حقائقه للنظر المجرد، ولا يقصّ قصصه لمجرد المتاع الفني!

«لقد خضعت القصّة القرآنيّة في موضوعها، وفي طريقة عرضها، وإدارة حوادثها، لمقتضى الأغراض الدينيّة؛ وظهرت آثار هذا الخضوع في سمات مُعينة سنعرض لها بعد قليل، ولكن هذا الخضوع الكامل للغرض الديني، ووفاءها بهذا الغرض تمام الوفاء، لم يمنع بروز الخصائص الفنيّة في عرضها، ولا سيما خصيصة القرآن الكبرى في التعبير، وهي التصوير.. فالتعبير القرآني يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني، فيما يعرضه من الصور والمشاهد.. بل إنّه ليجعل الجمال الفني أداةً مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسّة الوجدان الدينيّة، بلغة الجمال الفنيّة، وإدراك الجمال الفنّي الرّفيع يشي بحسن الاستعداد لتلقي التأثير الديني، حين يرتفع الفن إلى هذا المستوى الرفيع، مستوى التعبير عن العقيدة، وحين تصفو النفس لتلقي رسالة الجمال التي تَبلغ في العقيدة حدَّ الكمال..»[1].

يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يُساق القصص من أجلها هي التي تُحدد مساق القصّة، والحلقة التي تُعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تُؤَدّى بها، تنسيقاً للجوّ الرّوحي والفكري والفني الذي تعرض فيه، وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتُحقق غايتها النفسيّة، وتُلقي إيقاعها المطلوب.

ويحسب أُناس أنّ هنالك تكراراً في القصص القرآني، لأنّ القصّة الواحدة قد يتكرّر عرضُها في سور شتّى، ولكنّ النّظرة الفاحصة تؤكد أنّه

---

(١) المصدر السابق.

ما من قصَّة، أو حلقة من قصّة قد تكررت في صورة واحدة، من ناحية القدر الذي يُساق، وطريقة الأداء في السِّياق، وأنّه حيثما تكرّرت حلقة كان هنالك جديد تؤديه، ينفي حقيقة التكرار[١].

ويزيغ أُناس فيزعمون أنّ هنالك خَلقاً للحوادث أو تصرفاً فيها، يقصد به إلى مجرد الفن ـ بمعنى التزويق الذي لا يتقيد بواقع ـ ولكنّ الحق الذي يلمسه كلّ مَن ينظر في هذا القرآن، وهو مستقيم الفطرة، مفتوح البصيرة، هو أنّ المناسبة الموضوعيّة هي التي تُحدِّد القدر الذي يُعرض من القصّة في كلّ موضع، كما تحدِّد طريقة العرض وخصائص الأداء.

والقرآن كتاب دعوة، ودستور نظام، ومنهج حياة، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ، وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار، بالقدر وبالطريقة التي تناسب الجوّ والسِّياق، وتحقِّق الجمال الفني الصّادق، الذي لا يعتمد على الخلق والتزويق، ولكن يعتمد على إبداع العرض، وقوّة الحق، وجمال الأداء[٢].

وقصص الأنبياء في القرآن يُمثل موكب الإيمان في طريقه الممتد الواصل الطّويل، ويعرض قصّة الدعوة إلى الله واستجابة البشرية لها جيلاً بعد جيل؛ كما يعرض طبيعة الإيمان في نفوس هذه النخبة المختارة من البشر، وطبيعة تصوّرهم للعلاقة بينهم وبين ربّهم الذي خصّهم بهذا الفضل العظيم.. وتَتَبُّع هذا الموكب الكريم في طريقه اللاحب يفيض على القلب رضىً ونوراً وشفافية؛ ويُشعره بنفاسة هذا العنصر العزيز ـ عنصر الإيمان ـ وأصالته في الوجود، كذلك يكشف عن حَقيقة التصوّر

---

(١) انظر الدراسة القيّمة التي قدّمها الأستاذ الدكتور الشيخ فضل عباس حول هذا الموضوع وأصدرها كتاباً سمّاه: القصص القرآني.

(٢) يراجع بتوسُّع فصل «القصّة في القرآن» في كتاب «التصوير الفني في القرآن».

الإيماني ويُميزه في الحسّ من سائر التصوّرات الدّخيلة..

ومن ثمّ كان القصص شطراً كبيراً من كتاب الدعوة الكريم الذي يكاد يتسرَّب إلى جميع الأغراض القرآنية، فإثبات الوحي والرّسالة، وإثبات وحدانية الله، وتوحّد الأديان في أساسها، والإنذار والتبشير، ومظاهر القدرة الإلٓهية، وعاقبة الخير والشر والصبر والجزع، والشكر والبطر.. وكثير غيرها من الأغراض الدينية، والمرامي الخلقية، قد تناولته القصّة، وكانت أداةً له وسبيلاً إليه.

فإذا نحن استعرضنا هنا أغراض القصّة القرآنية، فإنَّما نثبت أهم هذه الأغراض وأوضحها، ونترك تتبعها للبحث التفصيلي لكلّ قصة في هذا الكتاب:

١ ـ «كان من أغراض القصّة إثبات الوحي والرسالة، فمحمد ـ ﷺ ـ لم يكن كاتباً ولا قارئاً، ولا عُرف عنه أنّه يجلس إلى أحبار اليهود والنّصارى؛ ثُمّ جاءت هذه القصص في القرآن ـ وبعضها جاء في دقّةٍ وإسهابٍ كقصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى عليهم السلام، فورودها في القرآن اتخذ دليلاً على وحي يُوحى... والقرآن ينصُّ على هذا الغَرَض نصّاً في مقدمات بعض القصص أو في أعقابها.

جاء في أول سورة «يوسف»: **﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون. نحن نقصُّ عليك أحسنَ القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنتَ من قبله لمن الغافلين﴾**.

وجاء في سورة «القصص» قبل عرض قصّة موسى: **﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾**. وبعد انتهائها: **﴿وما كنتَ بجانب الغربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمرَ، وما كنتَ من الشاهدين، ولكنا أنشأنا قروناً فتطاوَلَ عليهم العُمر، وما كنتَ ثاوياً في أهل مَدْين تتلو عليهم آياتنا، ولكنا كُنَّا مرسلين. وما كنتَ بجانب الطور إذ نادينا، ولكن**

رحمةً من ربك، لِتُنْذِرَ قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾.

وجاء في سورة «آل عمران» في مبدء عَرْضه لقصّة مريم: ﴿ذلك من أنباء الغيب نُوحيه إليك، وما كنتَ لديهم إذ يُلْقون أقلامَهم أَيُّهم يكفلُ مريم، وما كنتَ لديهم إذ يختصمون﴾.

وجاء في سورة «ص» قبل عرض قصّة آدم: ﴿قُل هو نبؤ عظيم. أنتم عنه معرضون. ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون. إن يُوحى إليَّ إلا أنما أنا نذير مُبين. إذ قال ربُّك للملائكة إني خالقٌ بشراً من طين...﴾.

وجاء في سورة «هود» بعد قصّة نوح: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنتَ تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾.

٢ ـ وكان من أغراض القصّة بيان أنّ الدين كله من عند الله، من عهد نوح عليه السلام إلى عهد محمد ﷺ. وأنّ المؤمنين كلهم أُمّة واحدة، والله الواحد ربّ الجميع؛ وكثيراً ما وردت قصص عدد من الأنبياء مجتمعة في صورة واحدة، معروضة بطريقة خاصّة، لتؤيد هذه الحقيقة ولما كان هذا غَرضاً أساسياً في الدعوة، وفي بناء التصوّر الإسلامي فقد تكرَّر مجيء هذه القصص، على هذا النحو، مع اختلاف في التعبير لتثبيت هذه الحقيقة وتوكيدها في النفوس.

نضرب لذلك مثلاً ما جاء في سورة الأنبياء: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين. الذين يَخْشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون. وهذا ذِكْرٌ مباركٌ أنزلناه أفأنتم له مُنكرون؟﴾.

﴿ولقد آتينا إبراهيمَ رُشْدَه من قبلُ وكُنَّا به عالمين. إذ قال لأبيه وقومه: ما هذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكفون؟ قالوا: وجدنا آباءنا لها عابدين﴾ إلى قوله: ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين، ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين. ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ

نافلةً وكُلاًّ جعلنا صالحين، وجعلناهم أئمةً يَهدون بأمرنا، وأوحينا إليهم فِعْلَ الخيرات، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وكانوا لنا عابدين﴾.

﴿ولوطاً آتيناه حُكماً وعلماً، ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوْء فاسقين، وأدخلناه في رحمتنا، إنه من الصالحين﴾.

﴿ونوحاً إذ نادى من قبلُ، فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم..﴾.

﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث، إذ نفشت فيه غنم القوم، وكُنّا لحكمهم شاهدين...﴾.

﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضرُّ وأنت أرحمُ الراحمين، فاستجبنا له، فكشفنا ما به من ضُرٍّ، وآتيناه أهله، ومثلهم معهم، رحمةً من عندنا وذكرى للعابدين﴾.

﴿وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفل. كُلٌّ من الصابرين. وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين﴾.

﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً، فظنَّ أن لن نقدرَ عليه، فنادى في الظلمات: أن لا إلَه إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين. فاستجبنا له. ونجيناه من الغم. وكذلك نُنجي المؤمنين﴾.

﴿وزكريا إذ نادى ربه: ربِّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له، ووهبنا له يحيى، وأصلحنا له زوجَه. إنهم كانوا يسارعون في الخيرات، ويدعوننا رغباً ورَهَباً، وكانوا لنا خاشعين﴾.

﴿والتي أحصنت فَرْجها، فنفخنا فيها من رُوحنا، وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾.

﴿إن هذه أمتكم، أمةً واحدة، وأنا ربكم فاعبدون﴾ [الأنبياء:

٤٧ ـ ٩٢]. وهذا هو الغرض الأصيل، من هذا الاستعراض الطويل؛ وغيره من الأغراض الأخرى يأتي عَرَضاً وفي ثناياه..»[(١)].

٣ ـ وكان من أغراض القصّة بيان أنّ الدين كلّه موحَّد الأساس ـ فضلاً على أنّه من عند إلّه واحد ـ وتبعاً لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة كذلك، مكررة فيها العقيدة الأساسيَّة، وهي الإيمان بالله الواحد على نحو ما جاء في سوُرة «الأعراف»:

﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره.. الخ﴾.

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً. قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره... الخ﴾.

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره... الخ﴾.

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره... الخ﴾.

فهذا التوحيد لأساس العقيدة، يشترك فيه جميع الأنبياء في جميع الأديان، وترد قصصهم مجتمعةً في هذا السّياق لتأكيد ذلك الغرض الخاص.

٤ ـ وكان من أغراض القصّة بيان أنّ وسائل الأنبياء في الدعوة موحّدة، وأنّ استقبال قومهم لهم متشابه ـ فضلاً على أنّ الدين من عند إلّه واحد، وأنّه قائمٌ على أساس واحد ـ وتبعاً لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعةً أيضاً مكررة فيها طريقة الدعوة، على نحو ما جاء في سورة هود [الآية ٢٥ **﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ إلى الآية ٦٨**].

٥ ـ وكان من أغراض القصّة بيان الأصل المشترك بين دين محمد

(١) التصوير الفني في القرآن ص ١٢١ ـ ١٢٣.

ودين إبراهيم بصفة خاصة، ثم أديان بني إسرائيل بصفة عامة؛ وإبراز أن هذا الاتصال أشدّ من الاتصال العام بين جميع الأديان، فتكررت الإشارة إلى هذا في قصص إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام: **﴿إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾** [الأعلى: ١٨]، **﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وَفّى. ألاّ تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى﴾** [النجم: ٣٦ ـ ٣٨]، **﴿إن أَوْلى الناس بإبراهيمَ لَلذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا﴾** [آل عمران: ٦٨]، **﴿ملة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل﴾** [الحج: ٧٨]، **﴿وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة، وهدى وموعظةً للمتقين. . .﴾** إلى أن يقول: **﴿وأنزلنا إليكَ الكتابَ بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومُهيمناً عليه﴾** [المائدة: ٤٦ ـ ٤٨].

٦ ـ وكان من أغراض القصّة بيان أنّ الله ينصر أنبياءَهُ في النّهاية ويُهلك المكذبين، وذلك تثبيتاً لمحمد ـ ﷺ ـ وتأثيراً في نفوس مَن يدعوهم إلى الإيمان: **﴿وكُلًّا نقصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك. وجاءك في هذه الحق وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين﴾** [هود: ١٢٠]. وتبعاً لهذا الغرض كانت ترد قصص الأنبياء مجتمعة، مختومة بمصارع مَن كذّبوهم، ويتكرر بهذا عرض القصص كما جاء في سورة «العنكبوت»: **﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فَلَبِثَ فيهم ألفَ سنة ـ إلا خمسين عاماً ـ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، فأنجيناه وأصحاب السفينة، وجعلناها آية للعالمين﴾**.

﴿وإبراهيم إذ قال لقومه: اعبدوا الله واتقوه، ذلك خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون. . .﴾ إلى أن يقول: **﴿فما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا: اقتلوه أو حرّقوه. فأنجاه الله من النار. إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾**. . . الخ.

﴿ولوطاً إذ قال لقومه. إنكم لتأتون الفاحشةَ ما سبقكم بها من أحدٍ

من العالمين. .﴾ إلى أن يقول: ﴿إنا مُنزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يَفسقون، ولقد تركنا منها آيةً بينةً لقوم يعقلون﴾.

﴿وإلى مَدْيَن أخاهم شُعيباً فقال: يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر، ولا تَعْثوا في الأرض مُفسدين. فكذّبوه فأخذتهم الرجفةُ، فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾.

﴿وعاداً وثمودَ ـ وقد تبيَّن لكم من مساكنهم ـ وزَيَّن لهم الشيطان أعمالهم، فصدّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾.

﴿وقارونَ وفرعونَ وهامانَ. ولقد جاءهم موسى بالبينات، فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين﴾.

﴿فَكُلًّا أخذنا بذنبه. فمنهم مَن أرسلنا عليه حاصباً، ومنهم مَن اخذته الصيحةُ، ومنهم مَن خسفنا به الأرضَ، ومنهم مَن أغرقنا. وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾. وتلك هي النهاية الواحدة للمكذبين.

٧ ـ وكان من أغراض القصّة تصديق التبشير والتحذير، وعرض نموذج واقع من هذا التصديق، كالذي جاء في سورة الحجر:

﴿نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم. . .﴾.

فتصديقاً لهذا وذلك، جاءت القصص على النحو التالي:

﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم، إذ دخلوا عليه، فقالوا: سلاماً. قال: إنا منكم وَجِلُون. قالوا: لا تَوْجَل. إنا نبشرك بغلام عليم﴾. . . الخ وفي هذه القصة تبدو «الرحمة».

ثم: ﴿فلما جاء آل لوط المرسلون. قال إنكم قومٌ مُنكرون. . قالوا: بل جئناك بما كانوا فيه يَمترون، وآتيناك بالحق وإنا لصادقون.

فَأَسْرِ بأهلك بقطع من الليل، واتّبع أدبارهم، ولا يلتفت منكم أحدٌ، وامضوا حيث تُؤمرون. وقضينا إليه ذلك الأمرَ: أن دابرَ هؤلاء مقطوعٌ مُصبحين...﴾ وفي هذه القصّة تبدو «الرحمة» في جانب لوط، ويبدو «العذاب الأليم» في جانب قومه المهلكين.

ثُمّ: **﴿ولقد كذّبَ أصحابُ الحجر المرسلين، وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها مُعرضين، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين، فأخذتهم الصيحةُ مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾**. وفي هذه القصة يبدو «العذاب الأليم» للمكذبين.

وهكذا يصدق الأنباء، ويبدو صدقه في هذا القصص الواقع. بهذا الترتيب.

٨ ـ وكان من أغراض القصّة بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه، كقصص سليمان وداود وأيوب وإبراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويونس وموسى، فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتى، ويكون إبرازها هو الغرض الأوّل، وما سواه يأتي في هذا الموضع عرضاً.

٩ ـ وكان من أغراض القصّة، تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصّة أروع وأقوى، وأدعى إلى الحذر الشديد من كلّ هاجسة في النّفس تدعو إلى الشرّ، وإسنادها إلى هذا العدوّ الذي لا يريد بالنّاس الخير!

ولما كان هذا موضوعاً خالداً، فقد تكررت قصّة آدم في مواضع شتى.

١٠ ـ وكان للقصّة أغراض أخرى متفرقة منها:

ـ بيان قدرة الله على الخوارق: كقصّة خلق آدم. وقصّة مولد

عيسى. وقصّة إبراهيم والطير الذي آبَ إليه بعد أن جعل على كل جبل منه جزءاً، وقصّة ﴿الذي مَرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها﴾ [البقرة: ٢٥٩]. وقد أحياهُ الله بعد موته مئة عام.

ـ وبيان عاقبة الطِّية والصّلاح، وعاقبة الشرّ والإفساد، كقصّة ابني آدم، وقصّة صاحب الجنتين، وقصص بني إسرائيل بعد عصيانهم، وقصّة سد مأرب، وقصّة أصحاب الأخدود.

ـ وبيان الفارق بين الحكمة الإنسانيّة القريبة العاجلة، والحكمة الإلَهيّة البعيدة الغيبية، كقصة موسى مع ﴿عبد من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعَلّمناه من لدُنَّا علماً﴾ [الكهف: ٦٥]، إلى آخر هذه الأغراض، التي كانت تُساق لها القصص فتفي بمغزاها»[1].

إنّ طريقة القرآن العامّة في إيراد القصص لتقرير حقائق مُعينة يريد إيضاحها، وغالباً ما تكون هذه الحقائق هي موضوع السورة التي يرد فيها القصص؛ فيُساق القصص بالقدر وبالأسلوب الذي يركز هذه الحقائق ويبرزها ويحييها.. فما من شكٍّ أنّ للقصص طريقته الخاصّة في عرض الحقائق، وإدخالها إلى القلوب، في صورة حيّة، عميقة الإيقاع، بتمثيل هذه الحقائق في صورتها الواقعيّة وهي تجري في الحياة البشريّة، وهذا أوقع في النّفس من مجرد عرض الحقائق عرضاً تجريديّاً، حتى إذا انتهى القصص جاء التعقيب متضمناً وملخصاً للحقائق التي أرادها، معتمداً على وقائع القصص في تقرير الحقائق التي يُقررها.

ثُمّ نعيش مع القصّة النبويّة، نعيش مع قلب محمد ـ ﷺ ـ مكشوفة عنه الحُجب، مُزاحة عنه الأستار، يتلقّى من الملأ الأعلى ﴿وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وَحْيٌ يُوحى﴾ [النجم: ٣، ٤]، فهو ـ ﷺ ـ مُبلِّغٌ بالحقِّ عن الحق، غير واهم ولا مُفتر ولا مُبتدع. ولا ناطق عن الهوى

(١) المصدر السابق ١٢٠ ـ ١٢٨.

فيما يُبَلِّغ من الرسالة، إن هو إلا وَحْيٌ يُوحى، وهو يُبَلِّغ ما يُوحَى إليه صادقاً أميناً، اتصل قلبه بالحقيقة اتصالاً مباشراً، فهو يقصُّ ما أُوحي إليه..

وقد سلك الرّسول ـ ﷺ ـ نهج القرآن الكريم «وترسَّم خطاه في توظيف القصّة من أجل نشر الوعي وتعميق مبادىء الإسلام في النّفوس، حيث نجد الرّسول ـ ﷺ ـ يتخذ من القصّة أسلوباً مهماً من أساليب الدعوة، يُحمِّلها قِيَم الإسلام ومعانيه، ويُربِّي عليها الصحابة من رعيل الإسلام الأول، ويُوَجّههم من خلالها إلى استلهام هذا الدين عقيدةً في الفكر والتصوُّر وطريقةً في السلوك وواقع الحياة، وفوق ذلك كان الرّسول ـ ﷺ ـ يتلقى من الصحابة وغيرهم[1] بأن يقصّ عليهم الرّسول ـ ﷺ ـ فهو أيضاً باستخدامه القصّة في دعوته يستجيب لمناخ بيئي يطلب القصّة ويرغب الاستماع إليها، وهذا الإقبال عنصر حيويّ أعطى القصّة أهميّة بالغة في نظر الرّسول المعلم ـ ﷺ ـ مما جعله يستعمل القصّة في حديثه إلى المسلمين من صحابته الكرام على نطاق واسع جداً، وفي شتّى الموضوعات»[2].

«ومما يعكس اهتمام الرّسول ـ ﷺ ـ بالقصّة في تعليم الصحابة وتربيتهم، أنّه كان يُكَرِّر القصّة الواحدة أكثر من مرّة وفي أكثر من مجلس، وربَّما كان السبب في ذلك هو تجدُّد الوافدين على مجلسه ـ ﷺ ـ من المسلمين حديثاً أو من الصحابة الذين كانوا يتعاقبون في الاستماع إليه، إذ كانوا يتناوبون في التلقي عنه، حيث يذهب بعضهم

---

(١) كان المشركون يطلبون من الرسول ـ ﷺ ـ أن يقص عليهم بعض الأخبار الماضية لتعجيزه أو بيان صدق نبوته كما يُوحي لهم بذلك أهلِ الكتاب فكان ـ ﷺ ـ يقص عليهم القرآن، كما كان يفصل أحياناً بعض قصص القرآن، انظر «جامع البيان» للطبري ص ١٩١ ـ ١٩٢، مصطفى البابي الحلبي، ط الثانية، القاهرة ١٩٧٣.

(٢) القصص في الحديث النبوي ص ٦٦.

إلى الاشتغال بما يصلحُ معاشهم بينما يبقى بعض، يأخذ عن الرّسول ـ ﷺ [1] ـ وربّما كان السبب أيضاً ما كان يحرص عليه الرّسول ـ ﷺ ـ من تقرير ما تهدف إليه القصّة من غايات وما تتحدث عنه من موضوعات في نفوس المستمعين. وظاهرة تكرار القصّة الواحدة في أكثر من مناسبة، تؤكدها وتنطق بها عدّة نصوص في كُتُبْ الحديث. . » [2] . .

«وقد اشتملت أُمّهات كُتب الحديث المعتمدة، والتي أجمعت عليها الأُمّة الإِسلاميّة بالقبول، ووصفوها بالصحة والتوثيق، اشتملت على نصوص قصصيّة كثيرة جدّاً، وهي نصوص تتفاوت طولاً وقصراً. . .

وقد فَطِنَ العلماء المحدثون، ومؤلفو كتب الحديث إلى هذه النّصوص التي تتميز بشكلها القصصي، وفرقوا بينها وبين غيرها من الأحاديث الشريفة، ويرشدنا إلى هذا التنبّه والتميُّز ما نجده من ألفاظ مبثوثة في مصادر الحديث، نلاحظ أنّهم يستعملونها في الدلالة على الأحاديث ذات الطابع القصصي فقط، ومن أمثلة ذلك عند البخاري قوله: «باب قصّة الحبش وقول النبيّ ـ ﷺ ـ يا بني أرفدة» وقوله: «باب قصة غزوة بدر» وقوله: «باب قصّة عكل وعرينة». . وقوله: «باب قصة يأجوج ومأجوج» إلى غير ذلك[3]. كما نجد مثل ذلك عند الإِمام مسلم كقوله: «باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام» إلى غير

---

(١) كما كان يفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع صاحبه حيث اتفقا على أن يذهب أحدهما إلى مجلس الرسول ـ ﷺ ـ مرّة، ويذهب الآخر مرّة أخرى، ويخبر كل منهما صاحبه بما لم يحضره من حديث رسول الله ـ ﷺ ـ البخاري ١/ ٣٣ (باب التناوب في العلم).

(٢) القصص في الحديث النبوي ص ٦٨.

(٣) انظر البخاري ٤/١٦٧، ١٧٩، ٢٣٤، ٥/٩، ١٩، ٦٥، ٩٣، ١٦٤، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٦/٤٩، ٨٩.

ذلك[١]. وحين نصل إلى الترمذي في سننه نجده أكثر إطلاقاً لهذا اللفظ، وغالباً ما يقول: «وفي الحديث قصةٌ» إلى غير ذلك[٢]. ونجد أبا داود يشارك الترمذي أيضاً في كثرة استعماله للفظ «القصّة» وإطلاقها[٣] على بعض النصوص القصصية[٤]...».

وقد تناولت القصّة النبويّة موضوعات هامّة وجوانب بارزة من قِيَم الإسلام ومبادئه كانت قَبَساً من ظلال القرآن، ومَعْلَماً منيراً مما عَلَّم الرحمان الذي خلق هذا الإنسان.

ونمضي مع تفصيل قصص الرّحمٰن في ظلال القرآن نستلهم المعالم المضيئة في الطريق اللاحب، ونتعلم من هذه النماذج كيف كانت تتلقى أوامر الله عز وجل، وكيف نستقبل سنّة الله التي لا تتخلف.. فإذا طال الطريق نستوحي القوة والمدد من هذه المعالم العظيمة ونعلم أنّ هذا هو الطريق....

---

(١) ٢٢٩٩/٤ من صحيح مسلم وانظر فيه أيضاً أرقام الصفحات من كتاب القصص في الحديث النبوي ص ٧٣.

(٢) انظر القصص في الحديث النبوي ص ٧٣.

(٣) المصدر السابق ص ٧٤.

(٤) المصدر السابق.

القسم الثاني

آدم عليه السلام وبنيه

قصص الرَّحمٰن في ظلال القرآن

آدم عليه السلام وبنيه

تقديم

إنَّ قصة آدم هي القضية الأُولىٰ في حياة الإنسانية، والقضية الكبرىٰ، والقضية الأساسية، وهي قصّة البشرية، وقضية العقيدة في هذا الوجود.

إنَّها قصّة الإنسان. الإنسان بما أنَّه إنسان. الإنسان في كل زمان وفي كل مكان!

إنَّها قصّة الإنسان التي لا تتغير، لأنَّها قصّة وجوده في هذا الكون وقصّة مصيره. قصة علاقته بهذا الكون وبهؤلاء الأحياء، وقصّة علاقته بخالق هذا الكون وخالق هذه الأحياء.. وهي القضية الأساسية في الحياة، لأنَّها قضية الوجود والإنسان! إنَّ قصّة آدم تفسِّر للإنسان سرّ وجوده ووجود هذا الكون من حوله.. فهي تقول له: من هو؟ ومن أين جاء؛ وكيف جاء؛ ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب في نهاية المطاف؟ مَن الذي جاء به من العدم والمجهول؟ ومن ذا الذي يذهب به وما مصيره هناك؟ إنَّ قصّة آدم تعالج قضية العقيدة الأساسية.. قضية الألوهية والعبودية.. تعالجها بتعريف العباد بربّ العباد، فهي تطوّف القلب البشري بالآماد والآفاق البعيدة في فجر الإنسان الأوَّل.. ثمَّ تمضي تحدد مَسيره في هذه الحياة، ثمَّ ترسم مصيره الختامي في الآخرة.. إنَّها قصّة البشرية الكبرىٰ: قصة الفطرة الأولىٰ. قصّة الهدىٰ والضلال وعواملهما الأصيلة. قصة آدم مِمَّ خُلِق؟ وماذا صاحَب خلقه وتلاه؟

ولقد ذُكرت قصّة آدم في بضع سور[1] في القرآن الكريم. ولكن مساقها في كل مرة كان لأداء غرض خاص، في معرض خاص، في جوّ خاص. ومن ثمَّ اختلفت الحلقات التي تعرض منها في كل موضع، واختلفت طريقة الأداء، واختلفت الظلال، واختلف الإيقاع مع المشاركة في بعض المقدّمات والتعقيبات بقدر الاشتراك في الأهداف.

تشابهت مقدّمات القصّة في عرضها في سور متعددة، في الإشارة إلى التمكين للإنسان في الأرض وإلى استخلافه فيها. ولكنَّ السياق الذي وردت فيه القصة في كل سورة كان مختلف الوجهة والغرض..

في سورة (صٓ) التي نزلت في مكّة في عنفوان خصومة قريش للنّبيّ ﷺ حينما عجبوا أن جاءهم نذير منهم، وعجبوا أن جعل الآلهة إلـهاً واحداً.. في هذه السورة التي نزلت لتقرير قضية التوحيد، والوحي، وقضية الجزاء في الآخرة. في هذه السورة استعرض القرآن الكريم قصّة آدم دليلاً على الوحي بما دار في الملأ الأعلىٰ ذات يوم. وما تقرر يوم ذاك من الحساب على الهدىٰ والضلال في يوم الحساب. كما تضمَّنت القصّة في سورة (صٓ) لوناً من الحسد في نفس الشيطان هو الذي أرداه وطرده من رحمة الله، حينما استكثر على آدم فضل الله الذي أعطاه، كذلك تصور المعركة المستمرة بين الشيطان وأبناء آدم، والتي لا يهدأ أوارها ولا تضع أوزارها. والتي يهدف من ورائها إلى إيقاع أكبر عدد منهم في حبائله، لإيرادهم النار معه، انتقاماً من أبيهم آدم، وقد كان طرده بسببه، وهي معركة معروفة الأهداف. ولكن أبناء آدم يستسلمون لعدوّهم القديم!

وفي سورة الأعراف التي نزلت في مكّة في مواجهة الجاهلية المتعنّتة

---

(١) وهي حسب ترتيب النزول الذي رجّحه كثير من العلماء والذي اختاره صاحب الإتقان رحمه الله تعالىٰ: سورة (صٓ): ٧١ ـ ٨٥، الأعراف: ١١ ـ ٢٣، طه: ١١٥ ـ ١٢٤، الإسراء: ٦١ ـ ٦٥، الحجر: ٢٨ ـ ٤٤، الكهف: ٥٠، البقرة: ٣٠ ـ ٣٨.

المستكبرة.. في هذه السورة عالج القرآن الكريم موضوع العقيدة. عرضه في مجال التاريخ البشري.. في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنَّة والملأ الأعلىٰ، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها.. وهذه السورة الجليلة لا تعرض قصّة هذه العقيدة في التاريخ البشري، ولا تعرض رحلة البشرية منذ نشأتها الأولىٰ إلى عودتها الأخيرة.. مجرد عرض في أسلوب قصصي. إنَّما هي تعرضها في صورة معركة مع الجاهلية.. لقد كانت نقطة التركيز في قصة آدم في السياق هي الرحلة الطويلة من الجنَّة وإليها؛ وإبراز عداوة إبليس للإنسان منذ بدء الرحلة إلى نهايتها. حتى يعود الناس مرة أخرىٰ إلى ساحة العرض الأولىٰ. ففريق منهم يعودون إلى الجنَّة التي أخرج الشيطان أبويهم منها لأنَّهم عادوه وخالفوه. وفريق ينتكس إلى النار لأنَّه اتَّبع خطوات الشيطان العدو اللدود.. ومن ثمَّ عرض السياق حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره. وطلبه من الله أن ينظره إلى يوم البعث، ليغوي أبناء آدم الذي من أجله طُرِد. ثمَّ إسكان آدم وزوجه الجنَّة يأكلان من ثمرها كله إلَّا شجرة واحدة، هي رمز المحظور الذي تُبتلىٰ به الإرادة والطاعة. ثمَّ وسوسة الشيطان لهما بتوسّع وتفصيل، وأكلهما من الشجرة وظهور سوآتهما لهما، وعتاب الله لآدم وزوجه، وإهباطهم إلى الأرض جميعاً للعمل في أرض المعركة الكبرىٰ.. ثمَّ تابع السياق الرحلة كلها حتى يعود الجميع كرة أخرىٰ. وعرضهم في الساحة الكبرىٰ مع التفصيل والحوار. ثمَّ انتهىٰ فريق إلى الجنَّة وفريق إلى النَّار.

أمَّا في سورة (طٰه) المكّية التي تدور حول الدعوة والتذكرة ووظيفة الرسول، وبمناسبة حرص الرسول ﷺ على أن يردد ما يُوحىٰ إليه قبل انتهاء الوحي خشية النسيان، يعرض السياق نسيان آدم لعهد الله. وينتهي بإعلان العداوة بينه وبين إبليس، حيث تعرض قصّة آدم سريعة قصيرة، تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته، وهدايته له، وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدىً أو ضلال بعد التذكير والإنذار، وعاقبة من يتذكّرون عهد الله ومن

يعرضون عنه من ولد آدم. ويرسم هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة كأنَّما هو نهاية الرحلة التي بدأت في الملأ الأعلىٰ، ثمَّ تنتهي إلى هناك مرة أُخرىٰ. وهكذا تُحيط بالقصة مشاهد القيامة، وكأنَّما هي تكملة لما كان في أول الأمر في الملأ الأعلىٰ من قصة آدم، حيث يعود الطائعون إلى الجنَّة، ويذهب العُصاة إلى النَّار. تصديقاً لما قيل لأبيهم آدم، وهو يهبط إلى الأرض بعدما كان!

وفي **سورة الإسراء** وردت قصة آدم في سياق فتنة الناس، ولذلك كان الإسهاب فيها في واقعة حسد إبليس وعدائه لآدم وذرّيته.

لقد كفَّ الله الناس عن الرسول ﷺ وعصمه منهم. وأراه الرؤيا الصادقة في الإسراء لتكون ابتلاء للناس، ولم يتَّخذ منها خارقة كخوارق الرسالات من قبل، وخوّفهم الشجرة الملعونة في القرآن ـ شجرة الزقُّوم ـ التي رآها في أصل الجحيم، فلم يزدهم التخويف إلاَّ طغياناً. وإذن فما كانت الخوارق إلاَّ لتزيدهم طغياناً.

وفي هذا الموضع من السياق تجيء قصة إبليس مع آدم، وإذن الله لإبليس في ذرية آدم إلاَّ الصالحين من عباده فقد عصمهم من سلطانه وإغوائه.. فتكشف القصة عن أسباب الغواية الأصيلة التي تقود الناس إلى الكفر والطغيان، وتبعدهم عن تدبّر الآيات.

وفي **سورة الحجر** فإنَّ نقطة التركيز في السياق هي سر التكوين في آدم، وسر الهدىٰ والضلال، وعواملهما الأصيلة في كيان الإنسان.. ومن ثمَّ نصَّ ابتداءً على خلق الله آدم من صلصال من حمإٍ مسنون، ونَفْخَهُ فيه من روحه المشرق الكريم، وخلق الشيطان من قبل من نار السموم. ثمَّ عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس استنكافاً من السجود لبشر من صلصال من حمإٍ مسنون. وطَرْدَهُ ولَعْنَتَهُ. وطلبه الإنظار إلى يوم البعث وإجابته. وزاد أنَّ إبليس قرّر على نفسه أن ليس له سلطان على عباده المخلصين. إنَّما

سلطانه على الّذين يدينون له ولا يدينون لله، وانتهىٰ بمصير هؤلاء وهؤلاء في غير حوار ولا عرض ولا تفصيل. تبعاً لنقطة التركيز في السياق، وقد استوفيت ببيان عنصري الإنسان، وبيان مجال سلطة الشيطان.

أمّا في **سورة الكهف** فقد كان المحور الموضوعي للسورة الذي ترتبط به موضوعاتها، ويدور حوله سياقها، فهو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر. وتصحيح القيم بميزان العقيدة، وقد وردت الإشارة إلى قصة آدم وإبليس تتوسط عدة مشاهد متصلة من مشاهد القيامة. وكانت هذه الإشارة في السياق إلى ما كان من إبليس يوم أُمِرَ بالسجود لآدم فَفَسَقَ عن أمر ربِّه للتعجيب من أبناء آدم الذين يتّخذون الشياطين أولياء، وقد علموا أنَّهم لهم أعداء، وبذلك ينتهون إلى العذاب في يوم الحساب.

وقد ذكرت القصة في هذه السورة في آية واحدة، ومع كونها آية واحدة فإنَّها لا تخلو من جديد **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس كان من الجنِّ ففسق عن أمر ربِّه أفتتَّخذونه وذرِّيته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌّ بئس للظالمين بدلاً﴾** «وقد برز في هذه الآية الكريمة أنَّ إبليس من الجن : وهي الآية الأولىٰ التي يُصرَّح فيها بذلك، وإنَّ لإبليس ذرّية، وإنَّه فَسَقَ عن أمر ربِّه بعد أن لم يكن كذلك.. هذه اللقطة في الآية الكريمة كانت آخر الحديث عن قصة آدم في العهد المكي»[1].

وفي العهد المدني نجد الحديث القرآني عن قصّة آدم في سورة واحدة فحسب هي سورة البقرة التي تحدّث عمَّا أكرم الله به هذا الإنسان من خاصية العلم. وفي **سورة البقرة** كانت نقطة التركيز في السياق هي استخلاف آدم **في الأرض التي خلق الله للناس ما فيها جميعاً**.. ومن ثمّ عَرَض من القصّة أسرار هذا الاستخلاف الذي عجبت له الملائكة لما خفي عليهم سرّه.. ثمَّ عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره.

---

(١) القصص القرآني: ٥٢.

وسكنىٰ آدم وزوجه الجنَّة. وإزلال الشيطان لهما عنها وإخراجهما منها. ثمَّ الهبوط إلى الأرض للخلافة فيها، بعد تزويدهما بهذه التجربة القاسية، واستغفارهما وتوبة الله عليهما.

لقد خلق الله سبحانه هذا الكون الفسيح قبل خَلْق الإنسان ووجوده.. كان هذا الكون وعاش أحقاباً طويلة قبل أن يوجد الإنسان بأدهار وأزمان طوال. ولعلَّ الكون لم يكن يتوقع خلق شيء يسمّىٰ «الإنسان».. حتى انبثق هذا الخلق من إرادة الله فكان!

﴿وإذ قال ربُّك للملائكة: إنِّي جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة: ٣٠].

وإذ قال ربُّك للملائكة.. متىٰ قال؟ وأين قال؟ ليس لدينا نص يجيب.. وليس لنا من سبيل إلى ذلك الغيب إلَّا بنص.. وكل ما عدا ذلك ضرب في التِّيه بلا دليل.

إنِّي جاعل في الأرض خليفة.. إنَّها المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود، زمام هذه الأرض، وتُطْلَق فيها يده، وتَكِل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوىٰ وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله ـ بإذن الله ـ في المهمة الضخمة التي وَكَلَها الله إليه.

وإذن فقد وَهَبَ هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة، والاستعدادات المذخورة كفاء ما في هذه الأرض من قوىٰ وطاقات، وكنوز وخامات، ووهب من القوىٰ الخفية ما يحقق المشيئة الإلـٰهية.

وإذن فهناك وحدة أو تناسق بين النواميس التي تحكم الأرض ـ وتحكم الكون كله ـ والنواميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته، كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك؛ وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة! وإذن فهي منزلة عظيمة، منزلة هذا الإنسان، في نظام

الوجود على هذه الأرض الفسيحة . وهو التكريم الذي شاءه له خالقه الكريم .

هذا كله بعض إيحاء التعبير العلوي الجميل : ﴿**إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفة**﴾ . . حين نتملّاه اليوم بالحسّ اليقظ والبصيرة المفتوحة ، ورؤية ما تمَّ في الأرض على يد هذا الكائن المستخلف في هذا المُلك العريض !

وإذا كان الله سبحانه قد شاءت إرادته أن يكون الإنسان خليفته في هذه الأرض ، فإنَّه عزَّ وجلّ قد بَرَأَهُ وقدره على وفق ما تُؤدّىٰ به هذه الخلافة أفضل أداء .

فقد خلق هذا الإنسان وسوّاه ، وأكمل صنعته ، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه لأداء وظيفته ، فهداه إلى ما خلقه لأجله ؛ وقدَّر له ما يصلحه مدة بقائه ، وهداه إليه أيضاً . .

«وإذا كان الله سبحانه يقرن لنا في قصة تكوين الإنسان بين خلافته في هذه الأرض ، وبين الآفاق التي قدَّر له أن يتَّصل بها ، فإنَّ بين تلك الآفاق وتلك الخلافة علاقة أوجبت ذكرهما في معرض « التصميم » الذي سوّىٰ عليه الإنسان . . وإذا كان الله عزَّ شأنه قد أمدَّ الإنسان بطاقات من المواهب وآفاق من المدارك ، فإنَّ ذلك هو مقتضىٰ « التصميم » الذي تعدّدت آفاقه ، وتنوّعت جوانبه ، وأُريد به للإنسان أن يواجه كل أُفق بما يلائمه من الخصائص التي يصلح بها أمر الخلافة .

فليس في مواهب المرء شيء يزيد مثقال ذرة أو ينقص عن مقتضيات الوفاء بحقوق تلك الخلافة ؛ فإذا هو أدّىٰ الذي عليه ، ونهض بحق ما أُلقي إليه ، وتعرّض لكل أُفق بحسبه ، وأعطاه من نفسه كل حقه ، فقد أنصف نفسه ، وكان هذا ما أراد الله له من كرامة . . وإذا أرادها مأكلة وشهوة وملهاة ، أو اتصل بأُفق دون سواه ، وعطَّل بعض مواهبه دون بعض ، فقد أغلق من

نـوافـذ نفسـه، وغيَّـر خَلْق الله فيـه، وانسلخ عمَّـا أراد لـه سبحـانــه من كرامة..»(١).

وهكذا خُلق الإنسان لمهمة يؤدِّيها في هذا الكون؛ وقد نصَّ سبحانه على هذه المهمة وأوضحها بجلاء حين قال: ﴿**وإذ قال ربُّك للملائكة إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفة**﴾ فكان من مقتضىٰ حكمة الله أن يسوّي هذا الكائن على المثال الذي يتكافأ مع تلك الخلافة وتُؤدّىٰ به مطالبها.

لقد خاطب الله سبحانه الملائكة: ﴿**إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفة**﴾..

وهنا هتفت هذه المخلوقات اللطيفة المؤنسة الطائعة بكلمات أُذِنَ لها الخالق بها: ﴿**قالوا: أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفـكُ الدمـاء، ونحن نسبِّحُ بحمدك ونُقَدِّس لك؟**﴾..

ويوحي قول الملائكة هذا بصنه كان لديهم من شواهد الحال، أو من تجارب سابقة في الأرض، أو من إلهام البصيرة، ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق، أو من مقتضيات حياته على الأرض؛ وما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون أنَّه سيفسد في الأرض، وأنَّه سيسفك الدماء.. ثمَّ هم ـ بفطرة الملائكـة البريئـة التي لا تـتصور إلاَّ الخيـر المطلق، وإلاَّ السـلام الشامل ـ يرون التسبيح بحمده والتقديس لـه، هو وحـده الغايـة المطلقـة للوجـود، وهو وحـده العلّة الأُولىٰ للخلق.. وهو متحقق بـوجودهم هم، يسبحون بحمد الله ويقدّسون له، ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته!

لقـد خفيت عليهم حكمـة المشيئـة العليـا، في بنـاء هـذه الأرض وعمارتها، وفي تنمية الحياة وتنويعها، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها، على يد خليفة الله في أرضه. هذا الذي قد يفسد أحياناً، وقد يسفك الدماء أحياناً، ليتم من وراء هذا الشرّ الجزئي الظاهر خير أكبر وأشمل. خير النمو الدائم، والرقي الدائم. خير

(١) آدم: ٤٥.

الحركة الهادمة البانية. خير المحاولة التي لا تكف، والتطلّع الذي لا يقف، والتغيير والتطوير في هذا الملك الكبير. عندئذٍ جاءهم القرار من العليم بكل شيء، والخبير بمصائر الأمور: ﴿قال: إنِّي أعلم ما لا تعلمون﴾.. أجابهم الله بما اطمأنّت له قلوبهم.. إنِّي أعرف من حكمة استخلافه ما لا تدركون، فسأخلق ما أشاء، وأستخلف من أريد..

التكوين الإنساني :

حينما أراد الله سبحانه أن تعمر الأرض بهذا الجنس البشري اتّجهت إرادته إلى خلق آدم عليه السّلام[1]، ذلك الإنسان الأول أبو البشر، وأخبر الملائكة بذلك. والملائكة هم عباد الله المكرمون الذين يعيشون في الملأ الأعلىٰ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ثمَّ أمرهم إذا ما تمَّ

---

(١) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله آدم على صورته، وطوله ستُّون ذراعاً، فلمّا خلقه، قال: اذهب، فَسَلِّم علىٰ أُولـئك النَّفَر ـ وهم من الملائكة جلوس ـ فاستمع ما يحيُّونك، فإنَّها تحيَّتك وتحية ذرِّيتك، قال: فذهب، فقال: السَّلام عليكم، فزادوه: ورحمة الله. قال: فكل من يدخل الجنَّة على صورة آدم طوله ستُّون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن». [أخرجه البخاري ٣٣٢٦ و ٦٢٢٧، ومسلم ٣٨٤١، وأخرجه أحمد ٢/ ٣١٥ وابن حبّان. انظر الإحسان ٦١٦٢]..

قال أبو حاتم: فمعنىٰ الخبر بقوله ﷺ: «خلق الله آدم على صورته» إبانة فضل آدم على سائر الخلق، «والهاء» راجعة إلى آدم، والفائدة من رجوع «الهاء» إلى آدم دون إضافتها إلى الباريء جلَّ وعلا ـ جلَّ ربنا وتعالىٰ عن أن يُشبَّه بشيء من المخلوقين ـ أنَّه جلَّ وعلا جعل سبب الخلق الذي هو المتحرك النامي بذاته اجتماع الذكر والأُنثىٰ، ثمَّ زوال الماء عن قرار الذكر إلى رحم الأُنثىٰ، ثمَّ تغيَّر ذلك إلى العلقة بعد مدة، ثمَّ إلى المضغة، ثمَّ إلى الصورة، ثمَّ إلى الوقت المحدود فيه، ثمَّ الخروج من قراره، ثمَّ الرِّضاع، ثمَّ الفطام، ثمَّ المراتب الأُخر.. إلى حلول المنيَّة به. هذا وصف المتحرك النامي بذاته من خلقه، وخلق الله جلَّ وعلا آدم على صورته التي خلقه عليها وطوله ستون ذراعاً عن غير أن تكون تقدمة اجتماع الذكر والأُنثىٰ، أو زوال الماء، أو قراره، أو تغيير الماء علقة، أو مضغة، أو تجسيمه بعده، فأبانه الله بهذا فضله على سائر من ذكرنا من خلقه بأنَّه لم يكن نطفة فعلقة، ولا علقة فمضغة، ولا مضغة فرضيعاً ففطيماً، ولا فطيماً فشاباً كما كانت هذه حال غيره».

خلق آدم ونفخت فيه من روحي أن يقوموا بواجب التحية والتكريم نحوه، إظهاراً لفضل هذا الجنس وكرامته، وتقديراً لمنزلته ومكانته..

﴿إذ قال ربُّك للملائكة إنِّي خالقٌ بشراً من طين. فإذا سوَّيتُه ونفختُ فيه من روحي فَقَعُوا له ساجدين﴾ [صٓ: ٧١ ـ ٧٢] **﴿وإذ قال ربُّك للملائكة إنِّي خالقٌ بشراً من صَلْصالٍ من حمإٍ مسنون. فإذا سوَّيتُه ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلُّهم أجمعون. إلاَّ إبليس أبىٰ أن يكون مع السَّاجدين. قال: يا إبليسُ مالَكَ ألاَّ تكون مع السَّاجدين. قال: لم أكن لأَسْجُدَ لبشر خلقته من صلصال من حَمَإٍ مسنون..﴾** [الحجر: ٢٨ ـ ٣٣].

وما ندري نحن كيف قال الله أو كيف يقول للملائكة. وما ندري كذلك كيف يتلقَّىٰ الملائكة عن الله ولا ندري عن كنههم إلاَّ ما بلغنا من صفاتهم في كتاب الله. ولا حاجة بنا إلى الخوض في شيء من هذا الذي لا طائل وراء الخوض فيه. إنَّما نمضي إلى مغزىٰ القصة ودلالتها كما يقصّها القرآن.

لقد خلق الله هذا الكائن البشري من الطين. كما أنَّ سائر الأحياء في الأرض خلقت من طين. فمن الطين كل عناصرها. فيما عدا سرّ الحياة الذي لا يدري أحد من أين جاء ولا كيف جاء. ومن الطين كل عناصر ذلك الكائن البشري فيما عدا ذلك السرّ. وفيما عدا تلك النفخة العلوية التي جعلت منه إنساناً. من الطين كل عناصر جسده. فهو من أُمّه الأرض. ومن عناصرها تكوَّن. وهو يستحيل إلى تلك العناصر حينما يفارقه ذلك السرّ الإلـهي المجهول؛ وتفارقه معه آثار تلك النفخة العلوية التي حددت خط سيره في الحياة.

وأمَّا خلق الإنسان من طين ومن صلصال من حمإٍ مسنون(١) والنفخ فيه

(١) الحمأ: الطين الأسود. المسنون: المصوَّر.

من روح الله فكيف كان؟ فهو كذلك ما لا ندري كيفيته، ولا سبيل إلى تحديد هذه الكيفية بحالٍ من الأحوال.

وقد يُقال بالإحالة إلى نصوص القرآن الأُخرىٰ في هذه القضية: **﴿هو الَّذي خلقكم من طين، ثمَّ قضىٰ أجلًا، وأجلٌ مُسمًّى عنده..﴾** [الأنعام: ٢]، **﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثمَّ إذا أنتم بشر تنتشرون﴾** [الروم: ٢٠]، **﴿والله خلقكم من تراب ثمَّ من نطفة ثمَّ جعلكم أزواجاً﴾** [فاطر: ١١]، **﴿هو الَّذي خلقكم من تراب من نطفة ثمَّ من علقة..﴾** [غافر: ٦٧]، وبخاصة قوله سبحانه: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾** [المؤمنون: ١٢]، وقوله: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من ماء مهين﴾**. وقوله: **﴿وبدأ خلق الإنسان من طين. ثمَّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾** [السجدة: ٧ ـ ٨]. إنَّ أصل الإنسان وأصل الحياة كلها من طين هذه الأرض، ومن عناصره الرئيسية التي تتمثل بذاتها في تركيب الإنسان الجسدي وتركيب الأحياء أجمعين. وأنَّ هناك أطواراً بين الطين والإنسان تشير إليها كلمة « سلالة ». وإلى هنا وتنتهي دلالة النصوص، فكل زيادة تحمل عليها ضرب من التمحل ليس القرآن في حاجة إليه. وللبحث العلمي أن يمضي في طريقه بوسائله الميسرة له، فيصلُ إلى ما يصل إليه من فروض ونظريات، يحقق منها ما يجد إلى تحقيقه سبيلاً مضمونة، ويُبدِّل منها ما لا يثبت على البحث والتمحيص. غير متعارض في أيّة نتيجة يحققها مع الحقيقة الأوَّلية التي تضمّنها القرآن؛ وهو ابتداء خلق هذه السلالة من عناصر الطين ودخول الماء في تركيبهما على وجه اليقين.

فأمَّا كيف ارتقىٰ هذا الطين من طبيعته العنصرية المعروفة إلى أُفق الحياة العضوية أوَّلاً، وإلى أُفق الحياة الإنسانية أخيراً؟ فهنا السر الذي يعجز عن تعليله البشر أجمعون.. فهو لمسة الخالق.. اللمسة الإلـهية للوجود الإنساني ولكل المخلوقات.. لمسة النقلة العجيبة من عتمة الطين المظلم

إلى نور الحياة البهيج . . إنَّ الله سبحانه هوالصانع العظيم **﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾** [النمل: ٨٨].

سبحانه! يتجلّىٰ إتقان صنعته في كل شيء في هذا الوجود. فلا فلتة ولا مصادفة، ولا ثغرة ولا نقص، ولا تفاوت ولا نسيان. ويتدبر المتدبر آثار الصنعة المعجزة. . وهذا الإنسان من صنع هذا الخالق العظيم سبحانه. .

ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم، ومنطقهم، وإدراكهم، فيوجه قلوبهم إلى تدبّر المشهود المعهود لهم، وهو يقع في كل لحظة، ويمر بهم في كل برهة، حيث يولد الإنسان هنا وهناك. وعلامة الصنعة واحدة، واضحة هنا وهناك!

إنَّ دور البشر في أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يُمني رحمَ امرأة. ثمَّ ينقطع عمله وعملها. وتأخذ يد القدرة في العمل وحدها في هذا الماء المهين تعمل وحدها في خلقه وتنميته، وبناء هيكله، ونفخ الروح فيه، ومنذ اللحظة الأُولىٰ وفي كل لحظة تالية تتم المعجزة، وتقع الخارقة التي لا يصنعها إلَّا الله. والتي لا يدري البشر كنهها وطبيعتها؛ كما لا يعرفون كيف تقع. بله أن يشاركوا فيها!

وهذا القدر من التأمّل يدركه كل إنسان. وهذا يكفي لتقدير هذه المعجزة والتأثّر بها. ولكن قصّة هذه الخلية الواحدة منذ أن تُمنىٰ، إلى أن تصير خلقاً، قصة أغرب من الخيال. قصة لا يصدقها العقل لولا أنَّها تقع فعلاً، ويشهد وقوعها كل إنسان! هذه الخلية الواحدة تبدأ في الانقسام والتكاثر، فإذا هي بعد فترة ملايين الملايين من الخلايا. كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة ذات خصائص تختلف عن خصائص المجموعات الأُخرىٰ؛ لأنَّها مكلفة أن تنشيء جانباً خاصاً من المخلوق البشري! فهذه خلايا عظام. وهذه خلايا عضلات. وهذه خلايا جلد. وهذه خلايا أعصاب. . ثمَّ. . هذه خلايا لعمل عين. . وهذه خلايا لعمل لسان، وهذه

خلايا لعمل أُذن. وهذه خلايا لعمل غدد.. وهي أكثر تخصصا من المجموعات السابقة.. وكل منها تعرف مكان عملها، فلا تخطىء خلايا العين مثلاً، فتطلع في البطن أو في القدم. مع أنَّها لو أخذت أخذاً صناعياً فزرعت في البطن مثلاً صنعت هناك عيناً! ولكن هي بإلهامها لا تخطىء فتذهب إلى البطن لصنع عين هناك! ولا تذهب خلايا الأُذن إلى القدم لتصنع أُذناً هناك!. إنَّها كلها تعمل وتنشىء هذا الكيان البشري في أحسن تقويم تحت عين الخالق، حيث لا عمل للإنسان في هذا المجال.

إنَّه السر المعجز في كل شيء، وهذا ذاته السرّ المعجز الذي خلق كل شيء..

فما هؤلاء الناس؟ ما هم؟ من أين جاؤوا؟ وكيف كانوا؟ وفي أي الأطوار مرّوا؟

والإنسان ابن هذه الأرض. من ترابها نشأ، ومن ترابها تكوَّن، ومن ترابها عاش. وما في جسمه من عنصر الاَّ له نظيره في عناصر أُمَّه الأرض. اللَّهمَّ إلاَّ ذلك السرّ اللطيف الذي أودعه الله إيَّاه ونفخه فيه من روحه؛ وبه افترق عن عناصر ذلك التراب. ولكنَّه أصلاً من التراب عنصراً وهيكلاً وغذاءً. وكل عناصره المحسوسة من ذلك التراب.

ولكن أين التراب وأين الإنسان؟ أين تلك الذرات الأوَّلية الساذجة من ذلك الخلق السوي المركب، الفاعل المستجيب، المؤثر المتأثر، الذي يضع قدميه على الأرض ويرف بقلبه إلى السماء؛ ويخلق بفكره فيما وراءه المادة كلها ومنها ذلك التراب.. إنَّها نقلة ضخمة بعيدة الأغوار والآماد، تشهد بالقدرة المعجزة التي أنشأت ذلك الخلق من تراب. ويقف الفكر الواعي خاشعاً أمام آثار القدرة القادرة مرات ومرات..

وما يزال سر الحياة في الخلية الأُولىٰ خافياً لا يزعم أحد أنَّه اهتدىٰ إليه. فأمَّا سر الحياة الإنسانية العليا بما فيها من مدارك وإشراقات وطاقات

متميزة على الخلائق الحيوانية جميعاً، تفوقاً حاسماً فاصلاً منذ بدء ظهور الإنسان. فأمَّا هذا السرّ فما تزال النظريات تخبط حوله ولا تملك الآن أن تنكر تفرد الإنسان بخصائصه منذ نشأته، كما أنَّها لا تملك أن تثبت الصلة المباشرة بينه وبين أي كان قبله، ممَّا يزعم بعضها أنَّ الإنسان «تطوّر» عنه. كما أنَّها لا تملك نفي الاحتمال الآخر: وهو نشأة الأجناس منفصلة منذ البدء - وإن كان بعضها أرقىٰ من بعض - ثمَّ نشأة هذا الإنسان متفرّداً منذ البدء أيضاً. والقرآن الكريم يفسِّر لنا ذلك التفرد، هذا التفسير المجمل الواضح البسيط: ﴿**فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي..**﴾ [الحجر: ٢٩، وص: ٧٢].

فهي روح الله ﴿**ثمَّ سوَّاه ونفخ فيه من روحه**﴾ [السجدة: ٩] - تنقل هذا التكوين العضوي الوضيع إلى ذلك الأفق الإنساني الكريم، منذ بدء التكوين، وتجعله ذلك الخلق المتفرّد الذي توكل إليه الخلافة في الأرض بحكم تفرّد خصائصه منذ بدء التكوين.

كيف؟

ومتىٰ كان في نطاق هذا المخلوق الإنساني أن يدرك كيف يفعل الخالق العظيم؟

وهنا نصل إلى الأرض الصلبة التي نستوي عليها مطمئنين.. ﴿**ويسألونك عن الروح. قل: الروح من أمر ربِّي. وما أُوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً**﴾ [الإسراء: ٨٥].

وليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل. ولكن فيه توجيهاً لهذا العقل أن يعمل في حدوده وفي مجاله الذي يدركه. فلا جدوىٰ من الخبط في التيه، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه لأنَّه لا يملك وسائل إدراكه.

معنىٰ الروح :

لقد نفخ الله من روحه في هذا الكائن البشري(١)، لأنَّ إرادته اقتضت أن يكون خليفة في الأرض، وأن يتسلّم مقاليد هذا الكوكب في الحدود التي قدرها له. حدود العمارة ومقتضياتها من قوىٰ وطاقات. . ﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾ [هود: ٦١]. وقد سخّر الخالق العظيم للإنسان ما في السماوات والأرض، من قوىٰ وطاقات ممَّا يصلح له ويدخل في دائرة خلافته: ﴿**وسخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه**﴾ [الجاثية: ١٣].

إنَّ هذا المخلوق الصغير. . الإنسان. . يحظىٰ من رعاية الله - سبحانه ؛ بالقسط الوافر، الذي يتيح له أن يسخّر الخلائق الكونية الهائلة، وينتفع بها على شتّىٰ الوجوه. وذلك بالاهتداء إلى طرف من سر الناموس الإلـهي الذي يحكمها، والذي تسير وفقه ولا تعصاه ! ولولا هذا الاهتداء إلى طرف السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة أن ينتفع بشيء من قوىٰ الكون الهائلة؛ بل ما استطاع أن يعيش معها؛ وهو هذا القزم الصغير، وهي هذه المردة الجبارة من القوىٰ والطاقات والأحجام والأجرام.

وكل شيء في هذا الوجود من الله وإليه، وهو منشئه ومدبّره؛ وهو مسخّره أو مسلّطه. وهذا المخلوق الصغير. . الإنسان. . مزود من الله بالاستعداد لمعرفة طرف من النواميس الكونية. يسخر بها قوىٰ في هذا الكون وطاقات تفوق قوته وطاقته بما لا يُقاس! وكل ذلك من فضل الله عليه.

---

(١) عن أوس بن أوس ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من أفضل أيامكم يومَ الجمعة، فيه خَلَقَ الله آدم، وفيه قُبض، وفيه النفخة، وفيه الصَّعْقة، فأكثروا عليَّ من الصَّلاة فيه، فإنَّ صلاتكم معروضةَ عليَّ». قالوا: وكيف تُعرض صلاتنا عليك وقد أَرَمْتَ؟ فقال: إنَّ الله جلَّ وعلا حرَّم على الأرض أن تأكل أجسامنا».

أخرجه أحمد وابن حبان، وإسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح. انظر: تخريجه في الإحسان رقم ٩١٠.

وفي كل ذلك آيات لمن يفكر ويتدبّر؛ ويتبع بقلبه وعقله لمسات اليد الصانعة المدبّرة المصرّفة لهذه القوىٰ والطاقات.

والفكر الإنساني لا يكون صحيحاً وعميقاً وشاملاً، إلاَّ حين يتجاوز القوىٰ والطاقات التي يكشف سرّها، إلى مصدر هذه القوىٰ والطاقات؛ وإلى النواميس التي تحكمها؛ وإلى الصلة بين هذه النواميس وفطرة الإنسان التي فطرها الله. هذه الصلة التي تيسر للإنسان الاتصال بها وإدراكها. ولولاها ما اتصل ولا أدرك. ولا عرف ولا تمكن، ولا سخّر ولا انتفع بشيء من هذه القوىٰ والطاقات.. لقد نفخ الله من روحه في هذا الكائن البشري، فأودعه القدرة على الارتقاء في المعرفة. ومن يومها وهو يرتقي كلَّما اتصل بمصدر تلك النفخة، واستمدَّ من هذا المصدر في استقامة. فأمَّا حين ينحرف عن ذلك المصدر العلوي فإنَّ تيارات المعرفة في كيانه وفي حياته لا تتناسق، ولا تتَّجه الاتجاه المتكامل المتناسق المتجه إلى الأمام؛ وتصبح هذه التيارات المتعارضة خطراً على سلامة اتجاهه. إن لم تقده إلى نكسة في خصائصه الإنسانية، تهبط به في سلم الارتقاء الحقيقي. ولو تضخّمت علومه وتجاربه في جانب من جوانب الحياة. وما كان لهذا الكائن الصغير الحجم المحدود القوة، القصير الأجل، المحدود المعرفة.. ما كان له أن ينال شيئاً من هذه الكرامة لولا تلك اللطيفة الربانية الكريمة.. وإلاَّ فمن هو؟ إنَّه ذلك الخلق الصغير الضئيل الهزيل الذي يحيا على هذا الكوكب الأرضي مع ملايين الأنواع والأجناس من الأحياء. وما الكوكب الأرضي إلاَّ تابع صغير من توابع أحد النجوم. ومن هذه النجوم ملايين الملايين في ذلك الفضاء الذي لا يدري إلاَّ الله مداه.. فماذا يبلغ هذا الإنسان حتى يُسخر له ما في السموات وما في الأرض؟!

ولكنَّها تلك الهبة الإلـٰهية العظيمة **﴿ونفختُ فيه من روحي﴾** [الحجر: ٢٩]؛ على أن يكون مفهوماً أنَّ الله سبحانه إذ أسند النفخ إلى ذاته العليّة فقالت **﴿ونفختُ﴾** لا يريد أنَّ له نفخاً على مثال ما يجري منا، فهو

سبحانه ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورىٰ: ١١] فقد تفرّد الله دون خلقه جميعاً.. والفطرة تؤمن بهذا بداهة. فخالق الأشياء لا تماثله هذه الأشياء التي هي من خلقه. فليعتقد كل إنسان أنَّ النفخ حصل، وليجنب نفسه تصور الهيئة التي جرىٰ عليها، فهي من الغيب الإلـهي، فكل ما خطر ببالك فالله بخلافه.

﴿ونفخت فيه من روحي﴾.. وليس المراد بهذه النفخة الربانية هو إجراء الحياة الحيوانية في بدن آدم عيه السَّلام؛ لأنَّ الروح لم تذكر في القرآن بهذا المعنىٰ قط.. ذلك أنَّ الحياة الحيوانية أمر مشترك بين الإنسان والحيوان، فليس من جلالة الشأن ما يستحق أن تسجد له الملائكة حين يجري في بدن آدم، فهو سبحانه قد أمر الملائكة بالسجود: ﴿فإذا سوَّيته ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾.. هذا وقد ورد في الحديث الصحيح عن الشفاعة يوم القيامة قول رسول الله ﷺ: «.. فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك الملائكة، وعَلَّمك كل شيء..»[1] فلو كان الذي نفخ في آدم هو الحياة الحيوانية المشتركة بين الإنسان والحيوان لما رآها المؤمنون خصوصية ترشحه لمقام الشفاعة في يوم النشور.

والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه، وسرٌ من أسرار القدسية أودعه هذا المخلوق البشري. وعلم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق، وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشري المحدود. والإنسان لا يدبّر هذا الكون فطاقاته ليست شاملة، إنَّما وُهِبَ منها بقدر محيطه وبقدر حاجته ليقوم بالخلافة في الأرض، ويحقق فيها ما شاء الله أن يحققه، في حدود علمه القليل.

---

(١) رواه أحمد والبزار وأبو يعلىٰ وابن حبّان في صحيحه وقال: قال إسحاق ـ يعني ابن إبراهيم ـ هذا من أشرف الحديث. انظر: فصل الشفاعة في كتاب «اليوم الآخر في ظلال القرآن» ص ٢٤٥.

ولقد أبدع الإنسان في هذه الأرض ما أبدع؛ ولكنه وقف حسيراً أمام ذلك السر اللطيف ـ الروح ـ لا يدري ما هو، ولا كيف جاء، ولا كيف يذهب، ولا أين كان ولا أين يكون؛ إلَّا ما يخبر به العليم الخبير في التنزيل الكريم.

إنَّ الإنسان ليس هو هذا الهيكل المادي بلحمه ودمه وعظمه وعصبه وما تُنتج هذه الأخلاط والأجهزة من تطوّرات فيزيولوجية.. إنَّ لهذا الإنسان حقيقته الروحية ولطيفته الربّانية التي أودعها الله فيه، والتي تحمل هذا الهيكل وهو لها كالغلاف، وعنها يكون الوجدان والإرادة والإدراك، وهي العقل أحياناً والنفس أحياناً والروح أحياناً أُخرىٰ، وهي سر الإنسانية، ومناط التكليف والجزاء في الدنيا والآخرة: **﴿إنَّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾** [الإنسان: ٢].

خلقته يد القدرة هكذا من نطفة أمشاج، لا عبثاً ولا جزافاً ولا تسلية، ولكنه خُلق ليُبْتَلَىٰ ويُمتحن ويُختبر. والله سبحانه يعلم ما هو؟ وما اختباره؟ وما ثمرة اختباره؟ ولكن المراد أن يظهر ذلك على مسرح الوجود، وأن تترتب عليه آثاره المقدّرة في كيان الوجود، وأن تتبعه آثاره المقدرة، ويُجزىٰ وفق ما يظهر من نتائج ابتلائه.

ومن ثمَّ جعله سميعاً بصيراً. أي زوَّده بوسائل الإدراك، ليستطيع التلقّي والاستجابة. وليدرك الأشياء والقيم ويحكم عليها ويختار. ويجتاز الابتلاء وفق ما يختار..

وإذن فإنَّ إرادة الله في خلق الإنسان وفي امتداد هذا الجنس وتكرر أفراده بالوسيلة التي قدّرها، وهي خلقته من نطفة أمشاج.. كانت وراءها حكمة. وكان وراءها قصد. ولم تكن فلتة.. كان وراءها ابتلاء هذا الكائن واختباره. ومن ثمَّ وُهِبَ الاستعداد للتلقّي والاستجابة، والمعرفة والاختبار.. وكان كل شيء في خلقه وتزويده بالمدارك وابتلائه في الحياة.. بمقدار!

ثمَّ زوَّده إلى جانب المعرفة بالقـدرة على اختيار الـطريق، وبيَّن له الطريق الواصل. ثمَّ تركه ليختاره، أو ليضل ويشرد فيما وراءه من طرق لا تؤدِّي إلى الله: **﴿إنَّا هديناه السَّبيل: إمَّا شاكراً وإمَّا كفوراً﴾** [الإنسان: ٣].

وهكذا ندرك من الواقع الفعلي للإنسان في هذه الأرض أنَّه مُمَيَّز بسرٍّ عـظيم، في إدراكه وصفـاته، جعله سيِّـد هـذه الأرض المتصـرف فيهـا ـ بإذن الله ـ **﴿ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البرِّ والبحر، ورزقناهم من الطيِّبات، وفضَّلناهم على كثير ممَّن خلقنا تفضيلاً﴾** [الإسراء: ٧٠]. لقد كرَّم الله الإنسان على كثيـر من خلقه بهـذه الفطرة التي تجمـع بين الطين والنفخة، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان!

ويشعر الإنسان بجدِّية الأمر ودقَّته بعـد هذه اللمسـات. ويدرك أنَّـه مخلوق لغاية. وأنَّه مشدود إلى محور. وأنَّه مزوَّد بالمعرفة فمحاسب عليها. وأنَّه هنا ليُبتلىٰ ويجتاز الابتلاء. فهو في فترة امتحان يقضيها على الأرض، لا في فترة لعب ولهو وإهمال! ويخرج من هذه الآية الكريمة: **﴿ونفختُ فيه من روحي﴾** بذلك الرصيد من التأمّلات الرقيقة العميقة، كما يخرج منها مثقل الظهر بالتبعة والجدّ والوقار في تصوّر هذه الحياة.. **﴿إنِّي جاعل في الأرض خليفة﴾**، وفي الشعور بما وراءها من نتـائج الابتـلاء! وتغيّر هـذه المعرفة بوظيفته من نظرته إلى غاية وجوده، ومن شعوره بحقيقة وجوده، ومن أخذه للحياة وقيمها بوجه عام.

لقـد قال الله للمـلائكة: **﴿إنِّي خـالق بشراً من صلصـال من حمـإٍ مسنون. فإذا سوَّيتهُ ونفختُ فيه من روحي فَقَعُوا له ساجدين﴾**.

وقد كان ما قاله الله. فقولـه ـ تعالىٰ ـ إرادة. وتـوجه الإرادة ينشىء الخلق المـراد. ولا نملك أن نسـأل كيف تلبّست نفخـة الله الأزلي الباقي بالصلصال المخلوق الفاني. فالجدل على هذا النحو عبث عقلي. بل عبث

بالعقل ذاته، وخروج به عن الدائرة التي يملك فيها أسباب التصور والإدراك والحكم.

وكل ما ثار من الجدل حول هذا الموضوع وكل ما يثور إن هو إلاَّ جهل بطبيعة العقل البشري وخصائصه وحدوده، وإقحام له في غير ميدانه، ليقيس عمل الخالق إلى مدركات الإنسان، وهو سفه في إنفاق الطاقة العقلية، وخطأ في المنهج من الأساس. إنَّه يقول: كيف يتلبّس الخالد بالفاني، وكيف يتلبّس الأزلي بالحادث؟ ثم ينكر أو يثبت ويعلل! بينما العقل الإنساني ليس مدعوّاً أصلاً للفصل في الموضوع. لأنَّ الله يقول: إنَّ هذا قد كان، ولا يقول: كيف كان. فالأمر إذن ثابت ولا يملك العقل البشري أن ينفيه. وكذلك هو لا يملك أن يثبته بتفسير من عنده ـ غير التسليم بالنص ـ لأنَّه لا يملك وسائل الحكم. فهو حادث. والحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلي في ذاته، ولا على الأزلي في خلقه للحادث. وتسليم العقل ابتداء بهذه البديهية أو القضية ـ وهي أنَّ الحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلي في أيَّة صورة من صوره. يكفي ليكف العقل عن إنفاق طاقته سفهاً في غير مجاله المأمون.

طرف من ذلك السرّ العظيم :

وبعد أن خلق الله سبحانه آدم عليه السَّلام فسَوَّاه، فأكمل صنعته، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه لوظيفته، وهداه إلى ما خلقه لأجله، وألهمه غاية وجوده، **﴿وعَلَّم آدم الأسماء كلَّها﴾ . . ﴿ثمَّ عرضهم على الملائكة، فقال: أنبئوني بأسماء هٰؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا: سبحانك لا عِلْم لنا إلاَّ ما علَّمتنا. إنَّك أنت العليم الحكيم. قال: يَا آدم أنبئهم بأسمائهم. فلمَّا أنبأهم بأسمائهم، قال: أَلَم أقل لكم: إنِّي أعلمُ غيب السَّماوات والأرض، وأعلمُ ما تُبدون وما كنتم تكتمون﴾** [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

ها نحن أُولاء ـ بعين البصيرة في ومضات الاستشراف ـ نشهد ما شهده

الملائكة في الملأ الأعلى.. ها نحن أُولاء نشهد طرفاً من ذلك السرّ الإلـهي العظيم الذي أودعه الله هذا الكائن البشري، وهو يسلّمه مقاليد الخلافة. سر القدرة على الرمز بالأسماء بالمسميات. سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها - وهي ألفاظ منطوقة - رموزاً لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة. وهي قدرة ذات قيمة كبرىٰ في حياة الإنسان على الأرض. ندرك قيمتها حين نتصور الصعوبة الكبرىٰ، لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسمّيات، والمشقّة في التفاهم والتعامل، حين يحتاج كل فرد لكي يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه.. الشأن شأن نخلة فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلاّ باستحضار جسم النخلة! الشأن شأن جبل. فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلاّ بالذهاب إلى الجبل! الشأن شأن فرد من الناس فلاسبيل إلى التفاهم عليه إلاّ بتحضير هذا الفرد من الناس...

إنّها مشقّة هائلة لا تتصور معها حياة! وإنَّ الحياة ما كانت لتمضي في طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسمّيات..

والله سبحانه لمّا خلق آدم كانت الأرض حافلة بأصناف النبات والطير والدواب، ولم يأمره سبحانه بالهبوط إليها إلاّ بعد أن علّمه القدرة على معرفتها وخواصها وسرّ تذليلها والانتفاع بها، وبثّ في آدم سر الاهتداء إلى خصائص الأشياء ووسائل الاستفادة منها، وما لها من قوانين النفع والضر. قال الإمام الزمخشري في تفسيره: «أي وعلّمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية».

يقول البهي الخولي: «فآدم عليه السّلام إنّما تعلّم حقائق الأشياء، وسنن الله التي تحكمها وتضبط خيرها وشرّها، وتنظم نفعها وضرّها، وليس المراد بالتعليم أنّه سبحانه أعطاه دروساً في الكيمياء والطبيعة والفلك والطب ونحوها ممّا يضع في يده أزمة قوانين هذا الكون الأرضي؛ إنّما المراد أنّه بثّ

فيه من أسرار الفهم والاستعداد الفطري ما يكشف به تلك النواميس والسنن.

والتعليم هنا مسند إلى الله سبحانه، وحين نعود إلى معاني التعليم التي أسندها الله إلى ذاته مباشرة - أي بدون وساطة مَلَك أو وحي - نراها كلهافي القرآن الكريم دالة على ما وَهَبَ الله سبحانه من استعداد فطري للإدراك والفهم والإلهام والمعرفة. وقد يكون هذا الاستعداد الفطري عاماً شاملاً جميع أفراد النوع الإنساني كما في قوله سبحانه: ﴿**علَّم الإنسان ما لم يعلم**﴾ [العلق: ٥]، وقوله: ﴿**خلق الإنسان عَلَّمه البيان**﴾ [الرَّحمٰن: ٤]: أي أودع فيه سر النطق والتعبير عمًّا يجول في نفسه من المعاني»[1].

وهكذا يبرز مصدر التعليم.. إنَّ مصدره هو الله. منه يستمد الإنسان كل ما علم، وكل ما يعلم. وكل ما يفتح له من أسرار هذا الوجود، ومن أسرار هذه الحياة، ومن أسرار نفسه. فهو من هناك. من ذلك المصدر الواحد، الذي ليس هناك سواه.

إنَّنا نرىٰ الإنسان ينطق ويعبِّر ويبيِّن، ويتفاهم، ويتجاوب مع الآخرين.. فننسىٰ بطول الإلفة عظمة هذه الهبة، وضخامة هذه الخارقة، وهذه المنحة العجيبة، والصفة الإنسانية الكبرىٰ.. ألا إنَّ البيان، والنطق، والتعبير، لسر عجيب أودعه الله سبحانه في هذا الإنسان!» وقد يكون هذا الاستعداد الفطري هبة خاصة لفرد معين أراد سبحانه أن يميزه به، ويجعله خصوصية له...

ولقد كان يوسف عليه السَّلام ذا بصيرة ملهمة. وملكة مرنة في تأويل الأحلام، فلمَّا فسَّر لصاحبيه في السجن ما رأىٰ كل منهما من رؤيا قال: ﴿**ذلكما ممَّا علَّمني ربِّي**﴾ [يوسف: ٣٧]: أي بعض ما وَهَبَ لي من استعداد للعلم والفهم، وهو عليه السَّلام إنَّما يرجع في ذلك إلى قول الله

(١) آدم: ١٢٣.

عنه: ﴿**ولمَّا بلغ أشدَّه آتيناه حكماً وعلماً**﴾ [يوسف: ٢٢] ومن البديهي أنَّ ذلك لم يكن دروساً أُلقيت عليه؛ إنَّما هو نور قذف في فطرته جعل له هذا الاستعداد الخاص الذي عبَّر عنه في أُخريات حياته بقوله: ﴿**ربِّ قد آتيتني من الملك وعلَّمتني من تأويل الأحاديث..**﴾ [يوسف: ١٠١].

«وواضح أنَّ التعليم في حالتيه العامة والخاصة، مراد به سرّ المواهب التي جهز بها المرء ليدرك أسرار ما يتصل به، ويعلم حقائق ما حوله من الأشياء؛ فإذا فسَّرنا قوله سبحانه: ﴿**وعلَّم آدم الأسماء كلها**﴾ بما فسَّرناه به، فليس هو مذهباً لنا في الفهم، ولا رأياً نبتكره؛ إنَّما هو نهج القرآن، وعين المفهوم من كلامه سبحانه كلَّما أسند التعليم مباشرة إلى ذاته الشريفة.

على أنَّ الواقع من أحوال بني آدم في هذه الأرض يؤيد هذا الرأي؛ فقد ورثوا عن أبيهم هذا الاستعداد على مدىٰ العصور، وظلُّوا به يكشفون من أسرار هذا الكون وقوانين طبيعته ما يمكن لهم من السيطرة وتوسيع دائرة الإنتاج والعمارة..

وانفردوا بذلك فلم يشاركهم فيه حيوان ولا مَلَك.. أمَّا الحيوان فلم يكن لهم إلاَّ دابة ذلولاً مسخرة؛ وأمَّا الملائكة فلم يكن لهم من غناء في هذا المضمار إلاَّ أن قالوا: ﴿**سبحانك لا علم لنا إلاَّ ما علَّمتنا إنَّك أنت العزيز الحكيم**﴾..»[1].

فالملائكة لا حاجة لهم بهذه الخاصية، لأنَّها لا ضرورة لها في وظيفتهم. ومن ثمَّ لم توهب لهم. فلمَّا عَلَّم الله آدَمَ هذا السرّ، وعرض عليهم لم يعرفوا الأسماء. لم يعرفوا كيف يضعون الرموز اللفظية للأشياء والشخوص.. ﴿**وعَلَّم آدم الأسماء كلها، ثمَّ عرضهم على الملائكة، فقال: أنبئوني بأسماء هٰؤلاء إن كنتم صادقين**﴾..

---

(١) المصدر السّابق. ١٢٤ ـ ١٢٥.

وجهر الملائكة أمام هذا العجز بتسبيح ربهم، والاعتراف بعجزهم، والإقرار بحدود علمهم، وهو ما عَلَّمهم.. وعرف آدم.. ثمَّ كان هذا التعقيب الذي يردهم إلى إدراك حكمة العليم الحكيم: ﴿**قالوا: سبحانك لا عِلْمَ لنا إلاَّ ما علَّمتنا. إنَّك أنتَ العليم الحكيم. قال: يَا آدم أنبئهم بأسمائهم. فلمَّا أنبأهم بأسمائهم، قال: أَلَمْ أقل لكم: إنِّي أعلمُ غيب السَّماوات والأرض، وأعلمُ ما تبدون وما كنتم تكتمون**﴾ [البقرة: ٣١ - ٣٣].

ذلك هو السرّ الذي يستفتح به آدم أُفق هذا الكون الأرضي ليؤدي فيه مراسم الخلافة على ما رسم له الله سبحانه: ﴿**وعَلَّم آدم الأسماء كلها**﴾..

جلال التكريم في المشهد العظيم:

لقد خلق الله آدم في أحسن تقويم. وهو سبحانه أحسن كل شيء خَلَقَه، ولكنَّه خَصَّص الإنسان بحسن التركيب، وحسن التقويم وحسن التعديل، وحسن الصورة.. وهذا يشعر الإنعان بكرامته على الله، وبفضل الله عليه في تحسين صورته: صورته الخلقية وصورته الشعورية. فالإنسان هو أكمل الأحياء في الأرض من ناحية تكوينه الجثماني؛ كما أنَّه أرقاها من ناحية تكوينه الشعوري واستعداداته الروحية ذات الأسرار العجيبة. ومن ثمَّ وكلت إليه خلافة الأرض، وأُقيم في هذا الملك العريض بالقياس إليه!

وفي ظل العناية والرعاية الإلٰهية للإنسان وتفوّق تكوينه وتصويره. بدأت قصة البشرية بأحداثها المثيرة. بدأت بإعلان ميلاد الإنسان في احتفال مهيب، في رحاب الملأ الأعلىٰ.. يعلنه الملك العزيز الجليل؛ زيادة في الحفاوة والتكريم. وتحتشد له الملائكة - وفي زمرتهم وإن لم يكن منهم إبليس - وتشهده السَّماوات والأرض؛ وما خلق الله من شيء.. إنَّه أمر هائل عظيم في تاريخ هذا الوجود: ﴿**ولقد خلقناكم، ثمَّ صوَّرناكم، ثمَّ قلنا**

للملائكة اسجدوا لآدم. فسجدوا إلاَّ إبليس لمْ يكن من السَّاجدين. قال: ما منعك ألاَّ تسجد إذ أمرتك؟ قال: أنا خيرٌ منه، خلقتني من نار وخلقته من طين. . .﴾ [الأعراف: ١١، ١٢]. هذا هو المشهد الكـريم في التكريم لآدم عليه السَّلام. . وهو مشهد مثير. . ومشهد خطير. .

إنَّ الخلق قد يكون معناه: الإنشاء. والتصوير قد يكون معناه: إعطاء الصورة والخصائص. . وهي مرتبتان في النشأة لا مرحلتان. . فإنَّ « ثمَّ » قد لا تكون للترتيب الزمني، ولكن للترقي المعنوي. والتصوير أرقىٰ مرتبة من مجرد الوجود. فالوجود يكون للمادة الخاصة؛ ولكن التصوير ـ بمعنىٰ إعطاء الصورة الإنسانية والخصائص ـ يكون درجة أرقىٰ من درجات الوجود. فكأنَّه قال: إنَّنا لم نمنحكم مجرد الوجود ولكن جعلناه وجوداً ذا خصائص راقية. وذلك كقوله تعالىٰ: **﴿الَّذي أعطىٰ كل شيء خلقه ثمَّ هدىٰ﴾** [طه: ٥٠].

فإنَّ كل شيء أُعطي خصائصه ووظائفه وهُدي إلى أدائها عند خلقه. ولم تكن هناك فترة زمنية بين الخلق وإعطاء الخصائص والوظائف والهداية إلى أدائها. والمعنىٰ لا يختلف إذا كان معنى **﴿هدىٰ﴾**. . هداه إلى ربه. فإنّه هدي إلى ربه عند خلقه. وكذلك آدم صور وأعطي خصائصه الإنسانية عند خلقه. . **﴿وثمَّ﴾** للترقّي في الرتبة، لا للتراخي في الزمن، كما يرجح. وعلى أيَّة حال فإنَّ مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السَّلام، وفي نشأة الجنس البشري، ترجح أنَّ إعطاء هذا الكائن هذه الخصائص ونموّها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية. ولم يكن ترقّياً في « وجود » الإنسان. من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان كما تقول الداروينية.

ووجود أطوار مترقية من الحيوان تـتبع ترتيباً زمنياً ـ بدلالة الحفريات التي تعتمد عليها نظرية النشوء والارتقاء ـ هو مجرد نظرية « ظنّية » وليست « يقينية » لأنَّ تقدير أعمار الصخور ذاته في طبقات الأرض ليس إلاَّ ظناً! مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها. وليس ما يمنع من ظهـور فروض أُخرىٰ تعدلها أو تغيرها!

على أنَّه ـ على فرض العلم اليقيني بأعمار الصخور ـ ليس هناك ما يمنع من وجود « أنواع » من الحيوان في أزمان متوالية بعضها أرقىٰ من بعض؛ بفعل الظروف السائدة في الأرض، ومدىٰ ما تسمح به من وجود أنواع تلائم هذه الظروف السائدة حياتها، ثمَّ انقراض بعضها حينٍ تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة. ولكن هذا لا « يحتم » أن يكون بعضها « متطوراً » من بعض.. وحفريات دارون وما بعدها لا تستطيع أن تثبت أكثر من هذا.. لا تستطيع أن تثبت ـ في يقين مقطوع به ـ أنَّ هذا النوع تطور تطوراً عضوياً من النوع الذي قبله من الناحية الزمنية ـ وفق شهادة الطبقة الصخرية التي يوجد فيها ـ ولكنها فقط تثبت أنَّ هناك نوعاً أرقىٰ من النوع الذي قبله زمنياً.. وهذا يمكن تعليله كما قلنا.. بأنَّ الظروف السائدة في الأرض كانت تسمح بوجود هذا النوع. فلمَّا تغيرت صارت صالحة لنشأة نوع آخر فنشأ. ومساعدة على انقراض النوع الذي كان عائشاً من قبل في الظروف الأخرىٰ فانقرض.

وعندئذٍ تكون نشأة النوع الإنساني نشأة مستقلة، في الزمن الذي عَلِمَ الله أنَّ ظروف الأرض تسمح بالحياة والنموّ والترقّي لهذا النوع، وهذا ما ترجحه النصوص القرآنية في نشأة البشرية.

وتفرُّد « الإنسان » من الناحية البيولوجية والفسيولوجية والعقلية والروحية. هذا التفرّد الذي اضطرَّ الداروينيون المحدثون ـ وفيهم الملاحدة بالله كلية ـ للاعتراف به، دليل مرجح على تفرّد النشأة الإنسانية، وعدم تداخلها مع الأنواع الأخرىٰ في تطور عضوي[1]!

لقد تقدم أنَّ الله سبحانه أعلن أمام الملائكة **﴿إِنِّي جاعلٌ في الأرض**

---

(١) يراجع بتوسع فصل «حقيقة الحياة» وفصل «حقيقة الإنسان» في القسم الثاني من «خصائص التصور الإسلامي ومقوّماته».

خليفة﴾ وكلمة الخلافة كلمة ضخمة ذات إيحاءات. فأوَّل إيحاءاتها: أنَّ هذا الكائن العظيم متفرد في خَلْق الله أجمعين، كائن عظيم القدر ذو أهمية بارزة في الحياة. فهو خليفة.. الله. خليفة الخالق المبدع المسيطر على قوىٰ الكون. ولا بد للخليفة أن يكون مزوّداً بأدوات الخلافة. وإلَّا فلا معنىٰ لخلافته ولا قيمة.

ولا بد كذلك أن يكون فيه قَبَس ممَّن منحه الخلافة. وإلَّا فما هو مستحق أن يكون له خليفة. ونظرة فاحصة إلى الهندسة العامة لتركيب الإنسان، تثبت تلك الحقيقة في تفرد هذا الكائن في خلق الله أجمعين.. وهي هندسة يجتمع فيها الجمال إلى الكمال. ويتفاوت الجمال بين شكل وشكل، ولكن التصميم مُمَيَّز.. وهو في ذاته جميل وكامل الصفة، ووافٍ بكل الوظائف والخصائص التي يتفوق بها الإنسان في الأرض على سائر الأحياء..

ولا بد أن يكون دوره في الحياة أكبر وأخطر من دور غيره من الكائنات. وإلَّا فلا معنىٰ لإفراده وحده بالخلافة دون بقية الكائنات.

فهذا المخلوق تحتفل به السَّماوات والأرض. ويتولّىٰ الله سبحانه ـ بنفسه إعلان مقدمه على الملأ الأعلىٰ، والملائكة يفزعون للنبأ ويهتزّون. ويراجعون ربهم، ويطلبون مزيداً من المعرفة عن حكمة خلق الإنسان واستخلافه، وهم الذين لا يراجعونه في أمر قط.. ثمَّ يسجد الملائكة لمعجزة خلق الإنسان، وزيادة في إبراز أهميته، وتوكيداً لتفرّد هذه المعجزة بين المعجزات. وهكذا أعلن الله بذاته العليّة الجليلة ميلاد هذا الكائن الإنساني؛ في حفلٍ حافل من الأعلىٰ الأعلىٰ: **﴿ثمَّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم. فسجدوا. إلَّا إبليس لم يكن من السَّاجدين﴾ [الأعراف: ١١]**.

ويقف القلب خاشعاً يتملّىٰ نداوة هذا التكريم في هذا الاحتفال المهيب في هذا المشهد العجيب.. فماذا يبلغ هذا الإنسان لتسجد له

ملائكة الرَّحمن؛ إلاَّ بهذا السرّ اللطيف العظيم؟ **﴿ونفختُ فيه من روحي﴾** إنَّه بهذا السر كريم كريم. فإذا تخلّىٰ عنه أو انفصم منه ارتدَّ إلى أصله الزهيد.. من طين؟

إنَّ هذا المخلوق الإنساني ينسىٰ نفسه في أحيان كثيرة، لينسىٰ أنَّه كائن صغير ضعيف، يستمد القوة لا من ذاته، ولكن من اتصاله بمصدر القوة الأول. من الله. فيقطع اتصاله هذا ثم يروح ينتفخ، ويورم، ويتشامخ، ويتعالىٰ يحيك في صدره الكبر. يستمده من الشيطان الذي هلل بهذا الكبر، ثمَّ سلط على الإنسان فأتاه من قبله!

ولو أدرك الإنسان حقيقته وحقيقة هذا الوجود. ولو عرف دوره فأتقنه ولم يحاول أن يتجاوزه. ولو اطمأنَّ إلى أنَّه كائن ممَّا لا يحصىٰ عدده من كائنات مسخرة بأمر خالق الوجود، وفق تقديره الذي لا يعلمه إلَّا هو، وأنَّ دوره مقدر بحسب حقيقته في كيان هذا الوجود.. لو أدرك هذا كله لاطمأنَّ واستراح، ولتطامن كذلك وتواضع، وعاش في سلام مع نفسه ومع الكون حوله. وفي استسلام لله وإسلام.

لقد كرَّم الله الإنسان لهذه الخاصية الروحية ورقّاه ورفعه على خلقه أجمعين وقال لملائكته: **﴿فإذا سوَّيتُهُ ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾** [صٓ: ٧٢]، **﴿وإذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم﴾** [طه: ١١٦، الإسراء: ٦١، البقرة: ٣٤] إنَّه التكريم في أعلىٰ صوره، لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولكنه وُهِبَ من الأسرار ما يرفعه على الملائكة. لقد وهب سر المعرفة، كما وهب سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق.. إنَّ ازدواج طبيعته، وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة.. إنَّ هذا كله بعض أسرار تكريمه.

والملائكة خلق آخر من خلق الله لهم خصائصهم ووظائفهم؛ لا نعلم

عنهم إلَّا ما أنبأنا الله من أمرهم[1]، وقد استجاب الملائكة لأمر ربهم كما هي فطرتهم: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ [صٓ: ٧٣، الحجر: ٣٠].

لقد سجد الملائكة امتثالاً للأمر العلوي الجليل «فسجودهم في الحقيقة إنَّما هو طاعه لله عزَّ وجلّ، لا لآدم عليه السَّلام، فهم لما أُمروا بالسجود، لم يكن في ذلك غضٌ عليهم، ولا نقصٌ، فكانت طاعة العبد لربِّه سبحانه وتعالىٰ، لم يَضُرُّه ما كان هناك من الوسائط والأسباب»[2].

سجد الملائكة الكرام كلهم أجمعون..

كيف؟ أين؟ ومتىٰ؟ كل أُولئك غيب من غيب الله. ومعرفته لا تزيد في مغزىٰ القصة شيئاً. هذا المغزىٰ الذي يبرز في تقدير قيمة هذا المخلوق من الطين؛ بعدما ارتفع عن أصله بتلك النفخة من روح الله العظيم.

وفي معنىٰ السجود لآدم يقول البهيّ الخولي: «وأول ذكر للملائكة في قصتنا الكريمة أنَّهم أول من اتصل بأبي البشر عليه السَّلام إذ سجدوا له بأمر الله عزَّ وجلّ عندما نفخ فيه سبحانه من روحه.

ومن البديهي أنَّ هذا السجود لم يكن سجود عبادة ونسك، فإنَّ ذلك لا يكون لغير الله.. إنَّما هو سجود تحية وتكريم ومؤانسة، وليس ضرورياً أن يكون سجوداً وضعوا له الجباه على الأرض كما نفعل في سجودنا لله عزَّ وجلّ؛ فللسجود هيئات كثيرة تتنوع بتنوع أصناف الخلائق؛ والله سبحانه يقول في ذلك: ﴿والنَّجم والشجر يسجدان﴾ [الرَّحمٰن: ٦].. ويقول على لسان يوسف لأبيه: ﴿إنِّي رأيتُ أَحَدَ عشر كوكباً والشَّمس والقمر رأيتُهُم لي ساجدين﴾ [يوسف: ٤]، ويقول: ﴿ولله يسجد ما في السَّماوات

(١) انظر الظلال ـ الجزء السابع، ص ١٠٤١ ـ ١٠٤٤.
(٢) شرح مختصر الروضة ٣/ ١٧٨.

وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون﴾ [النحل: ٤٩]..

ومن البديهي أنَّ سجود الدواب ليس كسجود الملائكة؛ وسجودهما ليس كسجود الكواكب والشَّمس والقمر؛ وسجود هؤلاء جميعاً ليس كسجود الشجر والزرع الصغير، وهكذا.. ذلك إلى أنَّ من معاني السجود في اللغة التطامن والتواضع؛ ويقول صاحب المنير: (وسجد البعير: خفض رأسه عند ركوبه.. وكل شيء ذل فقد سجد..» فإذا كان في سجود الملائكة معنىٰ الذل، فليس هو ذلّ العبودية، ولا الذلّ المضيع للكرامة؛ إنَّما هو ذل التطامن والمودة الذي ترىٰ شيئاً منه في قوله تعالىٰ في حق الوالدين؛ **﴿واخفض لهما جناح الذلّ من الرَّحمة﴾** [الإسراء: ٢٣]، وتراه فيما يتبادله رحماء المؤمنين بينهم من انكسار الأخ لأخيه المؤمن الذي عبَّر عنه الحق تبارك وتعالىٰ بقوله: **﴿أذلَّة علىٰ المؤمنين، أعزَّةٍ على الكافرين﴾** [المائدة: ٥٣]»(١).

فسجود الملائكة فيه معنىٰ التحية، والاحترام، والمودة، وخفض الجناح، والإقرار بالفضل والتكريم، قال القرطبي في الجامع: «وقال قوم: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذي هو وضع الجبهة على الأرض، ولكنَّه مبقى على أصل اللغة، فهو من التذلّل والانقياد: أي خضعوا لآدم، وأقرّوا له بالفضل»(٢).

الشيطان بين العلو والاستكبار والكفر والفسوق والعصيان:

لقد أمر الله ـ سبحانه ـ بتكريم آدم فقال: **﴿فإذا سوَّيته ونفخت فيه من روحي فَقَعوا له ساجدين. فسَجَد الملائكة كُلُّهم أجمعون. إلَّا إبليس استكبر وكان من الكافرين. قال: يَا إبليس ما مَنَعَك أن تسجدَ لما خلقتُ**

---

(١) آدم: ٧٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج ١، ص ٢٩٣.

بيديَّ أستكبرتَ أم كنتَ من العالين . . ﴾ [صٓ: ٧٢ ـ ٧٥] .

سجد الملائكة امتثالاً لأمر الله. وشعوراً بحكمته فيما يراه ﴿. . **فسجدوا إلاَّ إبليس لم يكن من السَّاجدين**﴾ [الأعراف: ١١]، ﴿**فسجدوا إلاَّ إبليس كان من الجنِّ ففَسَقَ عن أمر ربِّه**﴾ [الكهف: ٥٠] .

لقد علا إبليس واستكبر أن يسجد لآدم. . ﴿**فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلاَّ إبليس أبىٰ أن يكون مع السَّاجدين**﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١] هنا تـتبدّىٰ خليقة الشر مجسمة: عصيان الجليل سبحانه! والاستكبار عن معرفة الفضل لأهله. والعزة بالإثم والاستغلاق عن الفهم. . ﴿**فسجدوا إلاَّ إبليس أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين**﴾ [البقرة: ٣٤] .

فهل كان إبليس من الملائكة؟

ويوحي سياق القصة في الآيات المتقدمة أنَّ إبليس لم يكن من جنس الملائكة، إنَّما كان معهم. فلو كان منهم ما عصىٰ. وصفتهم الأولىٰ ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾ [التَّحريم: ٦]، فإبليس خَلْق غير الملائكة لقوله تعالىٰ كما تقدم: ﴿**فسجـدوا إلاَّ إبليس كان من الجنِّ فَفَسق عن أمـر ربِّـه**﴾. . والجن خلق غيـر المـلائكـة لهم خصـائصهم ووظائفهم، لا نعلم عنه إلاَّ ما نبَّأنا الله من أمره[1]. والله خلق الجان من مارج من نار[2]. وهذا يجزم بأنَّه ليس من الملائكة .

وقد ورد في القرآن الكريم كما سيأتي بيانه أنَّ إبليس خلق من نار. والملائكة من نور[3]. وهم لا يعصون الله ما أمرهم. وهو أبىٰ وعصىٰ.

---

(١) انظر الظلال، الجزء الثَّامن ١٢٠٨ ـ ١٢٠٩ .

(٢) سورة الرَّحمن. الآية: ١٥ .

(٣) عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من نار، وخُلق آدم ممَّا وُصفَ لكم» [أخرجه مسلم (٢٩٩٦)، وابن حبّان بإسناد صحيح، وأحمد ١٥٣/٦ و ١٦٨، والسيوطي في الدرّ المنثور ٧/ ٦٩٥. انظر الإحسان رقم (٦١٥٥)].

فهو من غير الملائكة قطعاً. وإن كان قد أُمِرَ بالسجود لآدم في زمرة الملائكة. في ذلك الحفل العظيم الذي أعلن فيه الملك الجليل، ميلاد هذا الكائن الفريد.. وقد كان مع الملائكة وكان مأموراً بالسجود. ولم يُخص بالذكر الصريح عند الأمر إهمالاً لشأنه بسبب ما كان من عصيانه. فليس هو من الملائكة بيقين. أمّا الاستثناء الوارد في الآيات التي وردت في أَمْر الله الملائكة بالسجود ـ ﴿**وإذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس أبىٰ**﴾ [طه: ١١٦]. ﴿**فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلاَّ إبليس أبىٰ أن يكون مع السَّاجدين**﴾ [الحجر: ٣١] ـ فليس على وجهه.

والاستثناء في هذا الموضع لا يدل على أنَّه من جنس الملائكة، فكونه معهم يجيز هذا الاستثناء كما تقول: جاء بنو فلان إلاَّ أحمد. وليس منهم إنَّما هو عشيرهم وهو معهم في كل مكان أو ملابسة. وأمّا أنَّ الأمر المذكور للملائكة ﴿**وإذ قال ربُّك للملائكة**﴾.. فكيف شمل إبليس؟ فإنَّ صدور الأمر إلى إبليس يدل عليه ما بعده في سياق القصة، وقد ذكر في القرآن صريحاً ﴿**قال: ما مَنَعَكَ ألاَّ تسجد إذ أَمرْتُك؟**﴾ [الأعراف: ١٢] وقول الله هذا قاطع في أنَّ الأمر قد صَدَر له. وليس من الضروري أن يكون هذا الأمر هو أمره للملائكة. فقد يصدر إليه معهم لاجتماعه بهم في ملابسة ما. وقد يصدر إليه منفرداً ولا يذكر تهويناً لشأنه وإظهاراً للملائكة في الموقف. ولكن المقطوع به من النصوص القرآنية ومن دلالة تصرفه أنَّه ليس من الملائكة.

وعلى أيَّة حال فنحن نتعامل هنا مع مُسلَّمات غيبية لا نملك تصور ماهياتها ولا كيفياتها في غير حدود النصوص. لأنَّ العقل لا سبيل له في هذا المجال بحال من الأحوال.

وبعد.. فأمَّا الملائكة ـ وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ـ فقد سجدوا مطيعين منفّذين لأمر الله، لا يتردّدون ولا يستكبرون ولا يفكّرون في معصية لأي سبب ولأي تصور ولأي

تفكير.. هذه طبيعتهم، وهذه خصائصهم، وهذه وظيفتهم.. وإلى هنا تتمثّل كرامة هذا الكائن الإنساني على الله، كما تتمثّل الطاعة المطلقة في ذلك الخلق المسمّىٰ بالملائكة من عباد الله.

وأمَّا إبليس فقد امتنع عن تنفيذ أمر الله سبحانه ـ وعصاه. وسنعلم: ما الذي حاك في صدره، وما التصور الذي سيطر عليه فمنعه من طاعة ربه. وهو يعرف أنَّه ربه وخالقه، ومالك أمره وأمر الوجود كله؛ لا يشك في شيء من هذا كله!

وكذلك نشهد في المشهد العظيم للاحتفاء بميلاد آدم ثلاثة نماذج من خلق الله: نموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق. ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت.. وطبيعة ثالثة هي الطبيعة البشرية. وسنعلم خصائصها وصفاتها المزدوجة فيما سيجيء.

فأمَّا الطبيعة الأُولىٰ فهي خالصة لله، وقد انتهىٰ دورها في هذا الموقف بهذا التسليم المطلق. وأمَّا الطبيعتان الأُخريان فسنعرف كيف تتجهان.

الرد القبيح المتكبر المغرور:

لقد وَجَّه الله سبحانه أمره بالسجود لآدم وكان إبليس مأموراً بهذا لكنه استكبر وكان من الكافرين، فوبَّخه ربَّه: ﴿**قال: ما مَنَعَكَ أَلَّا تسجد إذ أمرتك؟ قال: أنا خيرٌ منه، خلقتني من نار، وخلقته من طين**﴾ [الأعراف: ١٢]. لقد جعل إبليس له رأياً مع النص. وجعل لنفسه حقاً في أن يحكم نفسه وفق ما يرىٰ هو من سبب وعلة مع وجود الأمر.. وحين يوجد النص القاطع والأمر الجازم ينقطع النظر، ويبطل التفكّر، وتتعين الطاعة، ويتحتّم التنفيذ.. وهذا إبليس ـ لعنه الله ـ لم يكن ينقصه أن يعلم أنَّ الله هو الخالق المالك الرازق المدبر الذي لا يقع في هذا الوجود شيء إلاَّ بإذنه وقدره.. ولكنَّه لم يطع الأمر كما صدر إليه ولم

ينفذه.. بمنطق من عند نفسه: ﴿**قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾.. إنَّه الكِبْر والحسد.. ﴿**قال: يَا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيديّ؟ أستكبرتَ؟ أم كنتَ من العالين؟ قال: أنا خيرٌ منه. خلقتني من نار، وخلقته من طين**﴾ [صَ: ٧٥، ٧٦].

ما مَنَعَكَ أن تسجد لما خلقتُ بيديّ؟ والله خالق كل شيء. فلا بد أن تكون هناك خصوصية في خلق هذا الإنسان تستحق هذا التنويه. هي خصوصية العناية الربانية بهذا الكائن وإيداعه نفخة من روح الله دلالة على هذه العناية. أستكبرت؟ عن أمري. أم كنتَ من العالين؟ الذين لا يخضعون؟

وقال إبليس ما قال: أنا خير منه..

إنَّه الحسد ينضح من هذا الرد. والغفلة أو الإغفال للعنصر الكريم الزائد على الطين في آدم، والذي يستحق هذا التكريم. وهو الرد القبيح الذي يصدر عن الطبيعة التي تجردت من الخير كله في هذا الموقف المشهود ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس قال: أأَسجدُ لمن خلقتَ طيناً؟**﴾ [الإسراء: ٦١].

إنَّه حسد إبليس لآدم يجعله يذكر الطين ويغفل نفخة الله في هذا الطين. ﴿**قال: يَا إبليس مالَكَ ألاَّ تكون مع السَّاجدين؟ قال: لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون**﴾ [الحجر: ٣٠].

وقد ذكر القرآن الكريم فيما تقدم اختلاف أصل الخلق بين الإنسان وبين إبليس الذي هو من الجن فقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون. والجان خلقناه من قبل من نار السَّموم**﴾ [الرَّحمـن. ١٤، ١٥].

ويقرر قول الله اختلاف الطبيعتين بين الصلصال ـ وهو الطين اليابس الذي يصلصل عند نقره، المتخذ من الطين الرطب الآسن ـ والنار

الموسومة بأنَّها شعواء سامة.. نار السموم.

وقد ذكر القرآن أنَّ طبيعة الإنسان قد دخل فيها عنصر جديد هو النفخة من روح الله، أمَّا طبيعة الشيطان فبقيت من نار السموم. لقد كان خلق الشيطان ـ من قبل ـ من نار السموم. فهو سابق إذن للإنسان في الخلق. هذا ما نعلمه من آيات القرآن المتقدمة. أمَّا كيف هو وكيف كان خلقه. فذلك شأن آخر. ليس لنا أن نخوض فيه. إنَّما ندرك من صفاته التأثير في عناصر الطين بحكم أنَّه من النار. والأذىٰ والمسارعة فيه بحكم أنَّها نار السموم. ثمَّ تتكشف لنا من ثنايا القصة صفة الغرور والاستكبار. وهي ليست بعيدة في التصور عن طبيعة النار! وقد ظهر هذا العلو في الرد القبيح: **﴿قال أأَسجدُ لمن خلقتَ طيناً﴾** [الإسراء: ٦١]، **﴿قال: لم أكن لأسجد لبشرٍ خلقته من صَلْصَال من حمأٍ مسنون﴾** [الحجر: ٣٣]، **﴿قال: أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾** [الأعراف: ١٢] قال الحسن البصري وابن سيرين رحمهما الله: إنَّ إبليس قد وازن بين نفسه وبين آدم فرأىٰ نفسه أشرف من آدم، فامتنع عن السجود له مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود.

ويعلق ابن كثير على ذلك فيقول: إنَّ هذا قياس فاسد، لأنَّ القياس لا يتأتّىٰ مع وجود النص وهو أَمْر الله له بالسجود لآدم. ثمَّ إنَّه قياس فاسد في ذاته إذ أنَّ الطين خير وأنفع من النَّار[1]. لأنَّ الطين فيه الرزانة والحلم

(١) يقول ابن قيِّم الجوزية في بيان خطأ إبليس في دعواه أنَّه خير من آدم عليه السَّلام، وتعليله بأنَّه من نار وآدم خلق من طين: «اعلم أنَّ هذه التي ذكرها إبليس إنَّما ذكرها على سبيل التعنُّت وإلاَّ فامتناعه عن السجود لآدم إنَّما كان عن كبر وكفر ومجرد إباء وحسد. ومع ذلك فما أبداه من الشبهة فهو داحض لأنَّه رتَّب على ذلك أنَّه خير من آدم لكونه خلق من نار وآدم خلق من طين ورتَّب على هذا أنَّه لا يحسن من الخضوع لمن دونه ومن هو خير منه. وهذا باطل من وجوه:

ـ الأوَّل: أنَّ النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب.

ـ الثَّاني: أنَّ النار طبعها الخفة والطيش والحدة. والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات. =

. . . .

= ـ الثَّالث: أنَّ التراب يتكوَّن فيه ومنه أرزاق الحيوان وأقواتهم ولباس العباد وزينتهم وآلات معايشهم ومساكنهم. والنَّار لا يكون فيها شيء من ذلك.

ـ الرَّابع: أنَّ التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه البتّة ولا عمَّا يتكون فيه ومنه. والنَّار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقاً. وقد يستغني عنها الإنسان الأيام والشهور فلا يدعوه إليها ضرورة.

ـ الخامس: أنَّ التراب فيه القوت أخرجه أضعاف أضعاف ما وضع فيه فمن بركته يؤدِّي إلى ما استودعته فيه إليك مضاعفاً ولو استودعته النار لخانتك وأكلته. ولم تبق ولم تذر.

ـ السَّادس: أنَّ النَّار لا تقوم بنفسها بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به يكون حاملاً لها. والتراب لا يفتقر إلى حامل، فالتراب أكمل منها لغناه وافتقارها.

ـ السَّابع: أنَّ النار مفتقرة إلى التراب وليس التراب مفتقراً إليها فإنَّ المحل الذي تقوم به النار لا يكون إلَّا متكوِّناً أو فيه من التراب فهي الفقيرة إلى التراب وهو الغني عنها.

ـ الثَّامن: أنَّ المادة الإبليسية هي المارج من النار وهو ضعيف تتلاعب به الأهوية فيميل معها كيف مالت ولهذا غَلبَ الهوىٰ على المخلوق منه فأسَره وقهره. ولمَّا كانت المادة الآدمية هي التراب وهو قوي لا يذهب مع الهواء أينما ذَهَبَ قَهَر هواه وأسره ورجع إلى ربه فاجتباه واصطفاه، وكان الهواء الذي مع المادة الآدمية عارضاً سريع الزوال فزال وكان الثبات والرزانة أصلياً له فعاد إليه. وكان إبليس بالعكس من ذلك، فعاد كل منهما إلى أصله وعنصره. آدم إلى أصله الطيب الشريف. واللعين إلى أصله الردى.

ـ التَّاسع: إنَّ النَّار وإن حصل منها بعض المنفعة والمتاع فالشرّ كامن لا يصدّها عنه إلَّا قسرها وحبسها، ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل. والتراب فالخير والبركة كامن فيه كلَّما أُثير وقُلِّب ظهرت بركته وخيره وثمرته. فأين أحدهما من الآخر.

ـ العاشر: إنَّ الله تعالىٰ أكثر ذكرها في كتابه وأخبر عن منافعها وخلقها وأنَّه جعلها مهاداً وفراشاً وبساطاً وقراراً أو كفات للأحياء والأموات. ودعا عباده إلى التفكر فيها والنظر في آياتها وعجائبها وما أودع فيها. ولم يذكر النار إلَّا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب إلَّا في موضع أو موضعين ذكرها فيه بأنَّها تذكرة ومتاع للمقوين. تذكرة بنار الآخرة ومتاع لبعض أفراد الناس وهم المقوون النازلون بالقرىٰ وهي الأرض الخالية إذا نزلها المسافر يمتع بالنار في منزله فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن.

ـ الحادي عشر: أنَّ الله تعالىٰ وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصاً وأخبر أنَّه بارك فيها عموماً فقال تعالىٰ: ﴿أئِنَّكم لتكفرون بالَّذي خلق الأرض في يومين﴾.. إلى أن قال: ﴿وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها﴾ [فصِّلت: ٩]. فهذه بركة عامة وأمَّا البركة الخاصة ببعضها فكقوله تعالىٰ: ﴿ونجَّينا لوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها﴾. =

والأناة والنمو، والنار فيها الطيش والخفّة والسرعة والإحراق.

ولقد كان خلق الإنسان من عناصر هذا الطين اللزج المتحول إلى صلصال، ثمَّ من النفخة العلوية التي فرقت بينه وبين سائر الأحياء؛ ومنحته خصائصه الإنسانية، التي أفردته منذ نشأته عن كل الكائنات الحيّة؛ فسلك طريقاً غير طريقها منذ الابتداء. بينما بقيت هي في مستواها الحيواني لا تتعداه!

هذه النفخة التي تصله بالملأ الأعلىٰ، وتجعله أهلاً للاتصال بالله، وللتلقّي عنه؛ ولتجاوز النطاق المادي الذي تتعامل فيه العضلات

= وأمّا النار فلم يخبر أنَّه جعل فيها بركة أصلاً بل المشهور أنَّها مذهبة للبركات ماحقة لها. فأين المبارك في نفسه المبارك فيما وضع فيه، إلى مزيل البركة وماحقها.

- الثّاني عشر: أنَّ الله تعالىٰ جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه ويُسبَّح له فيها بالغدوّ والآصال عموماً، وبيته الحرام الذي جعله قياماً للناس مباركاً وهدىً للعالمين خصوصاً فلو لم يكن في الأرض إلاّ بيته الحرام لكفاها ذلك شرفاً وفخراً على النار.
- الثّالث عشر: إنَّ الله تعالىٰ أودع الأرض من المعادن والأنهار والعيون والثمرات والحبوب والأقوات، وأصناف الحيوانات وأمتعتها والجبال والرياض والمراكب البهيّة والصور البهيجة ما لم يودع في النار شيئاً منه. فأي روضة وجدت في النار، أو جنَّة، أو معدن أو صورة، أو عين خرارة، أو نهر مطرداً أو ثمرة لذيذة.
- الرابع عشر: إنَّ غاية النار أنَّها وضعت خامدة لما في الأرض. فالنار إنَّما محل الخادم لهذه الأشياء فهي تابعة لها خادمة فقط إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمه.
- الخامس عشر: أنَّ اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته رأىٰ الصورة الطين تراباً ممتزجاً بماء فاحتقره، ولم يعلم أنَّ الطين مركب من أصلين: الماء الذي جعل الله تعالىٰ منه كل شيء حياً، والتراب الذي جعله خزانة المنافع والنعم هذا، ولم يجيء من الطين من المنافع وأنواع الأمتعة فلو تجاوز نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته لرأىٰ أنَّه خير من النار وأفضل. ثمَّ لو سلم بطريق الفرض الباطل أنَّ النار خير من الطين لم يلزم من ذلك أن يكون المخلوق منها خيراً من الطين فإنَّ القادر على كل شيء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممَّن خلقه من المادة الفاضلة فالاعتبار بكمال النهاية لا ينقص المادة فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة ولم يعبر منها إلى كمال الصورة ونهاية الخلقة والله أعلم.

والحواس، إلى النطاق التجريدي الذي تـتعامل فيه القلوب والعقول. والتي تمنحه ذلك السر الخفي الذي يسرب به وراء الزمان والمكان، ووراء طاقة العضلات والحواس، إلى ألوان من المدركات وألوان من التصورات غير محدودة في بعض الأحيان.

ذلك كله مع ثقلة الطين في طبعه، ومع خضوعه لضرورات الطين وحاجاته: من طعام وشراب ولباس وشهوات ونزوات. ومن ضعف وقصور وما ينشئه الضعف والقصور من تصورات ونزعات وحركات.. هذا مع أنَّ هذا الكائن «مركّب» منذ البدء من هذين الأُفقين اللذين لا ينفصلان فيه. طبيعته طبيعة «المركّب» لا طبيعة «المخلوط» أو «الممزوج!».

ولا بد من ملاحظة هذه الحقيقة ودقّة تصورها كلّما تحدثنا عن تركيب الإنسان من الطين ومن النفخة العلوية التي جعلت منه هذا المخلوق الفريد التكوين... إنَّه لا انفصال بين هذين الأُفقين في تكوينه، ولا تصرف لأحدهما بدون الآخر في حالة واحدة من حالاته. إنَّه لا يكون طيناً خالصاً في لحظة، ولا يكون روحاً خالصاً في لحظة؛ ولا يتصرف تصرفاً واحداً إلاَّ بحكم تركيبه الذي لا يقع فيه الانفصال!

والتوازن بين خصائص العناصر الطينية فيه والعناصر العلوية هو الأُفق الأعلىٰ الذي يطلب إليه أن يبلغه، وهو الكمال البشري المقدّر له. فليس مطلوباً منه أن يتخلّىٰ عن طبيعة أحد عنصريه ومطالبه ليكون مَلَكاً أو ليكون حيواناً. وليس واحد منهما هو الكمال المنشود للإنسان. والارتفاع الذي يخل بالتوازن المطلق نقص بالقياس إلى هذا المخلوق وخصائصه الأصيلة، والحكمة التي من أجلها خلق على هذا النحو الخاص.

والذي يحاول أن يعطل طاقاته الجسدية هو كالذي يحاول أن يعطل

طاقاته الروحية الطليقة.. كلاهما يخرج على سواء فطرته؛ ويريد من نفسه ما لم يرده الخالق له. وكلاهما يدمّر نفسه بتدمير ذلك المركب في كيانها الأصيل. وهو محاسب أمام الله على هذا التدمير.

من أجل هذا أنكر الرسول ﷺ على من أراد أن يترهبن فلا يقرب النساء، ومن أراد أن يصوم الدهر فلا يفطر، ومن أراد أن يقوم الليل فلا ينام. أنكر عليهم كما ورد في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقال: «فمن رغب عن سنّتي فليس منّي».

وقد أقام الإسلام شريعته للإنسان على أساس تكوينه ذاك؛ وأقام له عليها نظاماً بشرياً لا تدمر فيه طاقة واحدة من طاقات البشر. إنّما قصارىٰ هذا النظام أن يحقق التوازن بين هذه الطاقات، لتعمل جميعها في غير طغيان ولا ضعف؛ ولا اعتداء من إحداها على الأُخرىٰ. فكل اعتداء يقابله تعطيل. وكل طغيان يقابله تدمير. والإنسان حفيظ على خصائص فطرته ومسؤول عنها أمام الله. والنظام الذي يقيمه الإسلام للناس حفيظ على هذه الخصائص التي لم يهبها الله جزافاً للإنسان.

والذي يريد قتل النوازع الفطرية الحيوانية في الإنسان يدمّر كيانه المتفرد. ومثله الذي يريد قتل النوازع الفطرية الخاصة بالإنسان دون الحيوان من الاعتقاد في الله والإيمان بالغيب الذي هو من خصائص الإنسان.. والذي يسلب الناس عقائدهم يدمر كينونتهم البشرية، كالذي يسلب الناس طعامهم وشرابهم ومطالبهم الحيوية سواء.. كلاهما عدو « للإنسان » يجب أن يطارده كما يطارد الشيطان!

إنَّ الإنسان حيوان وزيادة.. فله مثل مطالب الحيوان، وله ما يقابل هذه الزيادة. وليست هذه المطالب دون هذه هي « المطالب الأساسية » كما يزعم أعداء الإنسان من أصحاب المذاهب المادية « العلمية ».

هذه بعض الخواطر التي تطلقها في النفس حقيقة تكوين الإنسان،

كما يقررها القرآن، نمر بها سراعاً في هذا الموقف الذي أعلن فيه إبليس ردّه القبيح عُلوّاً واستكباراً على الإنسان في أصله من طين، راجين أن نعود إليها ببعض التعقيبات في نهايتها. .

وبعد فقد صرحت طبيعة الغرور والاستكبار والعصيان في ذلك المخلوق من نار السموم ﴿**قال: يَـا إبليس مالَكَ ألّا تكون مع السَّاجدين؟ قال: لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون**﴾. وذكر إبليس الصلصال والحمأ، ولم يذكر النفخة العلوية التي تلابس هذا الطين. وتشامخ برأسه المغرور يقول: إنَّه ليس من شأنه في عظمته أن يسجد لبشر خلقه من صلصال من حمإٍ مسنون!

تبجح نكير وتصميم خبيث

هنا صدر الأمر الإلـهي العالي بطرد هذا المخلوق المتمرد القبيح: ﴿**قال: فاخرج منها فإنَّك رجيم. وإنَّ عليك لعنتي إلىٰ يوم الدِّين**﴾ [صٓ: ٧٧، ٧٨].

ولا نملك أن نحدد عائد الضمير في قوله « **منها** » فهل هي الجنَّة؟ أم هل هي رحمة الله. . هذه وذلك جائز. ولا محل للجدل الكثير. فإنَّما هو الطرد واللعنة والغضب جزاء التمرد والتجرّؤ على أمر الله الكريم. فكان الجزاء العاجل الذي تلقّاه إبليس لتوّه ﴿**قال: فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها فاخرج إنَّك من الصَّاغرين**﴾ [الأعراف: ١٣].

إنَّ علمه بالله لم ينفعه، واعتقاده بوجوده وصفاته لم ينفعه. . وكذلك كل من يتلقّىٰ أمر الله؛ ثمَّ يجعل لنفسه نظراً في هذا الأمر يترتب عليه قبوله أو رفضه؛ وحاكمية في قضية قضىٰ الله فيها من قبل؛ يرد بها

قضاء الله في هذه القضية. . إنَّه الكفر إذن مع العلم ومع الاعتقاد. فإبليس لم يكن ينقصه العلم، ولم يكن ينقصه الاعتقاد!

لقد طرد من الجنَّة، وطرد من رحمة الله، وحقَّت عليه اللعنة، وكتب عليه الصَغار ﴿قال: فاخرج منها فإنَّك رجيم وإنَّ عليك اللّعنة إلىٰ يوم الدِّين﴾ [الحجر: ٣٤، ٣٥].

وكان ما ينبغي أن يكون جزاء العصيان والشرود.

عندئذٍ تـتبدّىٰ خليقة الحقد وخليقة الشر: ﴿قال: ربِّ فأنظرني إلىٰ يوم يُبعثون﴾ [صٓ: ٧٩، الحجر: ٣٦].

لقد تحوّل الحسد إلى حقد. وإلى تصميم على الانتقام في نفس إبليس: ﴿قال: أَنظرني إلى يوم يُبعثون﴾ [الأعراف: ١٤].

والشرير المغرور العنيد لا ينسىٰ أنَّ آدم هو سبب الطرد والغضب؛ ولا يستسلم لمصيره البائس دون أن ينتقم. ثمَّ ليؤدّي وظيفته وفق طبيعة الشر التي تمخّضت فيه. فهو الإصرار المطلق على الشر، والتصميم المطلق على الغواية. . وبذلك تـتكشّف هذه الطبيعة عن خصائصها الأُولىٰ. . شرٌّ ليس عارضاً ولا وقتياً. إنَّما هو الشرُّ الأصيل العامد القاصد العنيد. . لقد طلب النظرة إلى يوم البعث، لا ليندم على خطيئته في حضرة الخالق العظيم، ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويكفِّر عن إثمه الجسيم. ولكن لينتقم من آدم وذريته جزاء ما لعنه الله وطرده. يربط لعنة الله بآدم، ولا يربطها بعصيانه لله في تبجح نكير!

وهكذا يَتَبَدّىٰ الشرّ الأصيل القاصد العنيد. . ثمَّ هو التصوير المشخص للمعاني العقلية والحركات النفسية، في مشاهد شاخصة حية: لقد سأل إبليس ربّه أن ينظره إلى يوم البعث. وهويعلم أنَّ هذا الذي يطلبه لا يقع إلاَّ بإرادة الله وقدره.

واقتضت مشيئة الله للحكمة المقدّرة في علمه أن يجيبه إلى ما

طلب، وأن يمنحه الفرصة التي أراد: **﴿قال: فإنَّك من المنظرين إلىٰ يوم الوقت المعلوم﴾** [صٓ: ٨٠، ٨١، الحجر: ٣٧، ٣٨] .

وهكذا أجابه الله إلى طلبه في الإنظار: **﴿قال: إنَّك من المنظرين﴾** [الأعراف: ١٥]، ولكن إلى **﴿يوم الوقت المعلوم﴾** وقد وردت الروايات: أنَّها يوم النفخة الأولىٰ التي يصعق فيها من في السماوات والأرض ـ إلاَّ من شاء الله ـ لا يوم يبعثون. وهنا يعلن إبليس في تبجح خبيث ـ وقد حصل على قضاء بالبقاء الطويل ـ أنَّه سيرد على تقدير الله له الغواية وإنزالها به، بسبب معصيته وتبجحه، بأن يغوي ذلك المخلوق الذي كرَّمه الله، والذي بسببه كانت مأساة إبليس ولعنه وطرده! ويجسم هذا الإغواء بقوله الذي حكاه القرآن عنه **﴿قال: فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم. ثمَّ لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾** [الأعراف: ١٦ ـ ١٧] .

إنَّه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم، يصدّ عنه كل من يهمّ باجتيازه ـ والطريق إلى الله لا يمكن أن يكون حِسّاً، فالله سبحانه جلَّ عن التحيز، فهو إذن طريق الإيمان والطاعات المؤدّي إلى رضىٰ الله ـ وأنَّه سيأتي البشر من كل جهة: **﴿من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم﴾** . للحيلولة بينهم وبين الإيمان والطاعة .

وهو مشهد حي شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر في محاولته الدائبة لإغوائهم، فلا يعرفون الله ولا يشكرونه اللَّهمَّ إلاَّ القليل الذي يفلت ويستجيب: **﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾** .

ويجيء ذكر الشكر في هذا المقام لبيان السبب في قلة الشكر؛ وكشف الدافع الخفي، من حيلولة إبليس دونه، وقعوده على الطريق إليه ليستيقظ البشر العدو الكامن الذي يدفعهم عن الهدىٰ؛ وليأخذوا حذرهم حين يعرفون من أين هذه الآفة التي لا تجعل أكثرهم شاكرين!

لقد كشف الشيطان عن هدفه الذي ينفق فيه حقده ﴿**قال: فبعزتك لأغوينَّهم أجمعين. إلاَّ عبادك منهم المخلصين**﴾ [صٓ: ٨٢، ٨٣].

وبهذا تحدد منهجه وتحدد طريقه. إنَّه يقسم بعزّة الله ليغوينَّ جميع الآدميِّين. لا يستثني إلاَّ من ليس له عليهم سلطان. لا تطوّعاً منه ولكن عجزاً عن بلوغ غايته فيهم! وبهذا يكشف عن الحاجز بينه وبين الناجين من غوايته وكيده، والعاصم الذي يحول بينهم وبينه. إنَّه عبادة الله التي تخلصهم لله. **هذا هو طوق النجاة. وحبل الحياة!**.. وكان هذا وفق إرادة الله وتقديره في الردىٰ والنجاة. وبهذا التبجح الخبيث يعرض إبليس بضعف هذا المخلوق واستعداده للغواية فيقول في تكبّر مقيت أنه مترصد لغوايتهم، وجاهدٌ في إضلالهم: ﴿**قال: أرأيتك هذا الذي كرَّمت عليَّ لئن أخَّرتني لأحتنكنَّ**[1] **ذريته إلاَّ قليلاً**﴾ [الإسراء: ٦٢].

أرأيتك هذا الذي كرَّمت علي؟ أترىٰ هذا المخلوق الذي جعلته أكرم مني عندك؟ لئن أخَّرتن إلى يوم القيامة.. فلأستولينَّ عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم **وأجعلهم في قبضة يدي أصرف أمرهم**.

ويغفل إبليس عن استعداد الإنسان للخير والهداية استعداده للشر والغواية. عن حالته التي يكون فيها متصلاً بالله فيرتفع ويسمو ويعتصم من الشر والغواية، ويغفل عن أنَّ هذه هي مزية هذا المخلوق التي ترفعه على ذوي الطبيعة المفردة التي لا تعرف إلاَّ طريقاً واحداً تسلكه بلا إرادة. **فالإرادة هي سر هذا المخلوق العجيب**.

ويحدد إبليس ساحة المعركة ﴿**قال: ربِّ بما أغويتني لأُزيِّنَّ لهم في الأرض. ولأغوينَّهم أجمعين. إلاَّ عبادك منهم المخلصين**﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

---

(١) لأحتنكنَّ ذريته: أي لأستأصلنَّهم بالإغواء.

وبذلك حدد الشيطان المكان. إنَّها الأرض **﴿لأُزيِّنَّ لهم في الأرض﴾**..

وحدَّد عدته فيها أنَّه **التزيين. تزيين القبيح وتجميله، والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه. وهكذا لا يجترح الإنسان الشرّ إلاَّ وعليه من الشيطان مسحة تزينه وتجمله، وتظهره في غير حقيقته وردائه**. فليفطن الناس إلى عدة الشيطان، وليحذروا كل **ما وجدوا في أمر تزييناً**، وكلَّما وجدوا **من نفوسهم إليه اشتهاءً**، ليحذروا فقد يكون الشيطان هناك. إلاَّ أن يتصلوا بالله ويعبدوه حق عبادته، فليس الشيطان ـ بشرطه هو ـ على عباد الله المخلصين من سبيل: **﴿ولأُغوينَّهم أجمعين إلاَّ عبادك منهم المخلصين﴾**..

والله يستخلص لنفسه من عباده من يخلص نفسه لله، ويجرّدها له وحده، ويعبده كأنَّه يراه. وهؤلاء ليس للشيطان عليهم من سلطان.

هذا الشرط الذي قرره إبليس ـ اللعين ـ قرره وهو يدرك أن لا سبيل إلى سواه، لأنَّه سنّة الله.. أن يستخلص لنفسه من يخلص له نفسه، وأن يحميه ويرعاه.. ومن ثمَّ كان الجواب: **﴿وهـٰذا صراط عليَّ مستقيم. إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان. إلاَّ من اتَّبعك من الغاوين﴾** [الحجر: ٤١، ٤٢].

هذا صراط. هذا ناموس. هذه سنَّة، وهي السنَّة التي ارتضتها الارادة قانوناً وحكماً في الهدىٰ والضلال **﴿إنَّ عبادي﴾** المخلصين لي ليس لك عليهم سلطان، ولا لك فيهم تأثير، ولا تملك أن تزين لهم لأنَّك عنهم محصور، ولأنَّهم منك في حِمىٰ، ولأنَّ مداخلك إلى نفوسهم مغلقة، وهم يعلقون أبصارهم بالله، ويدركون ناموسه بفطرتهم الواصلة إلى الله. إنَّما سلطانك على من اتَّبعك من الغاوين الضالِّين فهو استثناء مقطوع لأنَّ الغاوين ليسوا جزءاً من عباد الله المخلَصين.

إنَّ الشيطان لا يتلقّف إلاَّ الشاردين كما يتلقّف الذئب الشاردة من

القطيع. فأمَّا من يخلصون أنفسهم لله، فالله لا يتركهم للضياع. ورحمة الله أوسع ولو تخلّفوا فإنَّهم يثوبون من قريب!

لقد أُجيب إبليس إلى ملتمسه. لأنَّ مشيئة الله سبحانه ـ اقتضت أن يترك الكائن البشري يشق طريقه، بما ركب في فطرته من استعداد للخير والشر؛ وبما وهبه من عقل مرجح؛ وبما أمدَّه من التذكير والتحذير على أيدي الرسل؛ ومن الضبط والتقويم بهذا الدين. كما اقتضت أن يتلقّىٰ الهداية والغواية؛ وأن يصطرع في كيانه الخير والشر؛ وأن ينتهي إلى إحدىٰ النهايتين، فتحق عليه سنة الله وتتحقق مشيئته بالابتلاء، سواء اهتدىٰ أو ضلَّ، فعلىٰ سنَّة الله الجارية وفق مشيئته الطليقة، تحقق الهدىٰ والضلال. وتشاء إرادة الله أن يطلق لرسول الشر والغواية الزمام، يحاول محاولته مع بني الإنسان: **﴿قال: اذهب فمن تبعك منهم فإنَّ جهنَّم جزاؤكم جزاءً موفوراً﴾** [الإسراء: ٦٣]. .

لقد أعلن سبحانه إرادته. وحدَّد المنهج والطريق: **﴿قال: فالحق. والحق أقول. لأملأنَّ جهنَّم منكَ وممَّن تبعك منهم أجمعين﴾** [صۤ: ٨٥]. والله يقول الحق دائماً. ومنه هذا الوعد الصادق **﴿لأملأنَّ جهنَّم منك وممَّن تبعك منهم أجمعين﴾**. .

وهي المعركة إذن بين الشيطان وأبناء آدم، يخوضونها على علم. والعاقبة مكشوفة لهم في وعد الله الصادق الواضح المبين. وعليهم تبعة ما يختارون لأنفسهم بعد هذا البيان. وقد شاءت رحمة الله ألاَّ يدعهم جاهلين ولا غافلين. فأرسل إليهم المنذرين. فأمَّا العاقبة، عاقبة الغاوين، فهي معلنة في الساحة منذ البدء: **﴿وإنَّ جهنَّم لموعدهم أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾** [الحجر: ٤٣ ـ ٤٤].

فهؤلاء الغاوون صنوف ودرجات. والغواية ألوان وأشكال. ولكل باب منهم جزء مقسوم، بحسب ما يكونون وما يعملون.

عدّة إبليس ووسائله في الغواية والاستيلاء على القلوب والعقول:

طرد الله إبليس من رحمته، ومدَّ له في أمله، وقال له: امضِ لسبيلك الذي اخترته، وسر في طريق الشر الذي أردته. اذهب فحاول محاولتك. اذهب مأذوناً في إغواء بني آدم. فهم مزودون بالعقل والإرادة، يملكون أن يتبعوك أو يعرضوا عنك ﴿فمن تبعك منهم﴾ مُغلباً جانب الغواية في نفسه على جانب الهداية، مُعرضاً عن نداء الرَّحمٰن إلى نداء الشيطان، غافلاً عن آيات الله في الكون، وآيات الله المصاحبة للرسالات، ﴿فإنَّ جهنَّم جزاؤكم﴾ أنت وتابعوك ﴿جزاءً موفوراً﴾..

﴿واسْتَفْزِز[1] من استطعت منهم بصوتك وأَجْلِبْ[2] عليهم بِخَيْلِكَ ورَجِلِك...﴾ [الإسراء: ٦٤].

وهو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول. فهي المعركة الصاخبة، تستخدم فيها الأصوات والخيل والرجل على طريقة المعارك والمبارزات. يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة، أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبرة. فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل، وأحاطت بهم الرجال!

﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾.. وهذه الشركة تتمثل في أوهام الوثنية الجاهلية، إذ كانوا يجعلون في أموالهم نصيباً للآلهة المدّعاة ـ فهي

(١) استفزَّه: استخفه، والفز: الخفيف.
(٢) وأجلب: من الجلبة وهي الصياح.

للشيطان ـ وفي أموالهم نذوراً للآلهة أو عبيداً لها ـ فهي للشيطان ـ كعبد اللاّة وعبد مناة. وأحياناً كانوا يجعلونها للشيطان رأساً كعبد الحارث!

كما تـتمثل في كل مال يجبىٰ من حرام، أو يتصرف فيه بغير حق، أوينفق في إثم. وفي كل ولد يجيء من حرام. ففيه شركة الشيطان. والتعبير يصور في عمومه شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد وهما قوام الحياة!

وإبليس مأذون في أن يستخدم وسائله كلها. ومنها الوعود المغرية الخادعة: **﴿وَعِدْهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً﴾** كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص. والوعد بالغنىٰ من الأسباب الحرام. والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة... ولعلّ أشد الوعود إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة، وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة. فيتلطف حينئذٍ إلى تلك النفوس المتحرجة، ويزين لها الخطيئة وهو يلوح لها بسعة الرَّحمة الإلـهية وشمول العفو والمغفرة!

إنَّ الشيطان يَعِدهم الأماني البعيدة والمواعيد الكاذبة ليخرج الإنسان من النور إلىٰ الظلمات، ومن الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى العصيان ـ يعدهم ويُمنيهم ليخرجهم من دائرة الإيمان والمغفرة إلى الضلال البعيد في تلبيس دنيس خسيس.. والقرآن الكريم يصف بعض أوهام الجاهلية العربية في شركها. وأساطيرها حول اتخاذ الله بنات ـ هنَّ الملائكة ـ وحول عبادتهم للشيطان ـ وقد عبدوه كما عبدوا الملائكة وتماثيلها الأصنام ـ كما يصف بعض شعائرهم في تقطيع أو تشقيق آذان الأنعام المنذورة للآلهة! وفي تغييرهم خلق الله. والشرك بالله. وهو مخالف للفطرة التي فَطَرَ الله الناس عليها:

﴿إن يدعون من دونه إلاّ إناثاً، وإن يدعون إلاّ شيطاناً مريداً،

لعنه الله، وقال: لأتَّخذنَّ من عبادك نصيباً مفروضاً، ولأُضلَّنَّهم، ولأُمنِّينَّهم، ولآمرنَّهم فليُبتِّكنَ آذان الأنعام، ولآمـرنَّهم فليُغيِّرُنَّ خلق الله. ومن يتخـذ الشيطان وليّاً من دون الله فقد خسر خسـراناً مبينـاً. يعدهم ويمنِّيهم ومـا يعدهم الشيطان إلّا غروراً﴾ [النساء: ١١٧ ـ ١٢٠].

لقد كان العرب ـ في جاهليتهم ـ يزعمون أنَّ الملائكة بنات الله. ثمَّ يتخذون لهذه الملائكة تماثيل يسمونها أسماء الإناث: «اللات، والعزّىٰ. ومناة» وأمثالها ثمَّ يعبدون هذه الأصنام ـ بوصفها تماثيل لبنات الله ـ يتقرّبون بها إلى الله زلفىٰ.. كان هذا على الأقل في مبدأ الأمر.. ثمَّ ينسون أصل الأسطورة، ويعبدون الأصنام ذاتها.

كذلك كان بعضهم يعبد الشيطان نصاً.. قال الكلبي: كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن..

على أنَّ النص هنا أوسع مدلولاً، فهم في شركهم كله إنَّما يدعون الشيطان، ويستمدون منه: هذا الشيطان صاحب القصة مع أبيهم آدم؛ الذي لعنه الله، بسبب معصيته وعدائه للبشر. والذي بلغ من حقـده بعد طـرده ولعنته، أن يأخذ من الله ـ سبحانه ـ إذناً بأن يغوي من البشر كل من لا يلجأ إلى حمىٰ الله..

إنَّهم يدعون الشيطان ـ عدوهم القديم ـ ويستوحونه ويستمـدون منه الضلال. ذلك الشيطان الذي لعنه الله. والذي صرّح بنيته في إضلال فريق من أبناء آدم، وتمنيتهم بالأمنيات الكاذبة في طريق الغواية، من لذة كاذبة، وسعادة موهومة، ونجاة من الجزاء في نهاية المطاف! كما صرّح بنيته في أن يدفع بهم إلى أفعال قبيحة، وشعائر سخيفة، من نسج الأساطير. كتمزيق آذان بعض الأنعام، ليصبح ركوبها بعد ذلك حراماً، أو أكلها حراماً ـ دون أن يحرمها الله ـ ومن تغيـير خلق الله وفطرته بقطع بعض أجزاء الجسد أو تغـير شكلها في الحيوان أو الإنسان، كخصاء الرقيق، ووشم الجلود.. وما إليها من التغيـير والتشويه الذي حرّمه الإسلام.

وشعور الإنسان بأنَّ الشيطان ـ عدوه القديم ـ هو الذي يأمر بهذا الشرك وتوابعه من الشعائر الوثنية، يثير في نفسه ـ على الأقل ـ الحذر من الفخ الذي نصبه العدو. وقد جعل الإسلام المعركة الرئيسية بين الإنسان والشيطان. وَوجَّه قوىٰ المؤمن كلها لكفاح الشيطان والشر الذي ينشئه في الأرض؛ والوقوف تحت راية الله وحزبه، في مواجهة الشيطان وحزبه: وهي معركة دائمة لا تضع أوزارها. لأنَّ الشيطان لا يملّ هذه الحرب التي أعلنها منذ لعنه الله وطرده. والمؤمن لا يغفل عنها، ولا ينسحب منها. وهو يعلم أنَّه إمَّا أن يكون ولياً لله، وإمَّا أن يكون ولياً للشيطان، وليس هناك وسط.. **والشيطان يتمثّل في نفسه وما يبثه في النفس من شهوات ونزوات؛ ويتمثل** في أتباعه من المشركين وأهل الشر عامة. **والمسلم يكافحه في ذات نفسه**، كما يكافحه في أتباعه.. معركة واحدة متصلة طوال الحياة.

ومن يجعل الله مولاه فهو ناج غانم. ومن يجعل الشيطان مولاه فهو خاسر هالك: **﴿ومن يتَّخذ الشيطان وليّاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾**..

ويصور السياق القرآني فعل الشيطان مع أوليائه، في مثل حالة الاستهواء، **﴿يَعدهم ويُمنِّيهم، وما يعدهم الشيطان إلاَّ غروراً﴾**. إنَّها حالة استهواء معْينة هي التي تنحرف بالفطرة البشرية عن الإيمان والتوحيد، إلى الكفر والشرك. ولولا هذا الاستهواء لمضت الفطرة في طريقها، ولكان الإيمان هو هادي الفطرة وحاديها.

وإنَّها حالة استهواء معينة هي التي يُزين فيها الشيطان للإنسان سوء عمله، فيراه حسناً! **﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً..؟ فإنَّ الله يُضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾** [فاطر: ٨].

ويصور القرآن طبيعة الغواية، وحقيقة عمل الشيطان، والباب الذي يفتح فيجيء منه الشر كله؛ ويمتد منه طريق الضلال الذي لا يرجع منه

سالك متى أبعدت فيه خطاه: ﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً . . ؟﴾ .

هذا هو مفتاح الشر كله . . أن يزين الشيطان للإنسان سوء عمله فيراه حسناً. أن يعجب بنفسه وبكل ما يصدر عنها. ألَّا يفتش في عمله ليرىٰ مواضع الخطأ والنقص فيه، لأنَّه واثق من أنَّه لا يخطىء! متأكد أنَّه دائماً على صواب! معجب بكل ما يصدر منه! مفتون بكل ما يتعلق بذاته. لا يخطر على باله أن يراجع نفسه في شيء، ولا أن يحاسبها على أمر. وبطبيعة الحال لا يطيق أن يراجعه أحد في عمل يعمله أو في رأي يراه. لأنَّه حسن في عين نفسه. مزين لنفسه وحسّه. لا مجال فيه للنقد، ولا موضع فيه للنقصان! هذا هو البلاء الذي يصبّه الشيطان على الإنسان؛ وهذا هو المقود الذي يقوده منه إلى الضلال. فإلىٰ البوار!

إنَّ الذي يكتب الله له الهدىٰ والخير يضع في قلبه الحساسية والحذر والتلفّت والحساب. فلا يأمن مكر الله. ولا يأمن تقلب القلب. ولا يأمن الخطأ والزلل. ولا يأمن النقص والعجز. فهو دائم التفتيش في عمله. دائم الحساب لنفسه. دائم الحذر من الشيطان. دائم التطلّع لعون الله.

وهذا هو مفرق الطريق بين الهدىٰ والضلال، وبين الفلاح والبوار.

إنَّها حقيقة نفسية دقيقة عميقة يصورها القرآن في ألفاظ معدودة ﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾ .

إنَّه نموذج الضال الهالك البائر الصائر إلى شر مصير. ومفتاح هذا كله هو هذا التزيين. هو هذا الغرور. هو هذا الستار الذي يعمي قلبه وعينه فلا يرىٰ مخاطر الطريق. ولا يحسن عملاً لأنَّه مطمئن إلى حُسن عمله وهو سوء. ولا يصلح خطأ لأنَّه واثق أنَّه لا يخطىء! ولا يصلح فاسداً لأنَّه مستيقن أنَّه لا يفسد! ولا يقف عند حد لأنَّه يحسب أنَّ كل خطوة من خطواته إصلاح! إنَّه باب الشر. ونافذة السوء. ومفتاح الضلال الأخير.

ويدع السؤال بلا جواب . . ﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه

حسناً؟﴾. . ليشمل كل جواب. كأن يقال: أفهذا يُرجىٰ له صلاح ومتاب؟ أفهذا كمن يحاسب نفسه ويراقب الله؟ أفهذا يستوي مع المتواضعين الأتقياء؟. . إلى آخر صور الإجابة على مثل هذا السؤال. وهو أسلوب كثير التردد في القرآن.

وتجيب الآية بأحد هذه الأجوبة من بعيد: **﴿فإنَّ الله يُضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء. . .﴾**. .

وكأنَّما يقول: إنَّ مثل هذا قد كتب الله عليه الضلالة؛ مستحقاً لها بما زين له الشيطان من سوء عمله، وبما فتح عليه هذا الباب الذي لا يعود منه ضال.

فإنَّ الله يُضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء، بما تقتضيه طبيعة الضلال في ذلك وطبيعة الهدىٰ في هذا. طبيعة الضلال برؤية العمل حسناً وهو سوء. وطبيعة الهدىٰ بالتفتيش والحذر والمحاسبة والتقوىٰ. . وهو مفرق الطريق الحاسم بين الهدىٰ والضلال. ثمَّ يمضي القرآن في الموازنة بين حال الفريقين: **﴿أفمن كان على بَيِّنة من ربِّه، كمن زُيِّن له سوء عمله، واتَّبعوا أهواءهم﴾** [محمَّد: ١٤].

فهو فارق أصيل في الحالة التي عليها الفريقان، وفي المنهج والسلوك سواء. فالَّذين آمنوا على بيِّنة من ربِّهم. . رأوا الحق وعرفوه، واستيقنوا من مصدره واتصلوا بربهم فتلقوا عنه، وهم على يقين ممَّا يتلقون. غير مخدوعين. ولا مضللين. والضالون الهالكون زُيِّن لهم سوء عملهم، فرأوه حسناً وهو سيء، ولم يروا ولم يستيقنوا، **﴿واتَّبعوا أهواءهم﴾**. بلا ضابط يرجعون إليه، ولا أصل يقيسون عليه، ولا نور يكشف لهم الحق من الباطل.

أهؤلاء كهؤلاء؟ إنَّهم يختلفون حالاً ومنهجاً واتجاهاً. فلا يمكن أن يتفقوا ميزاناً ولا جزاءً ولا مصيراً!

إنَّه باب الشر يفتحه قرناء سوء من الجن والإنس على المستكبرين: **﴿وقيّضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم، وحقَّ عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس، إنَّهم كانوا خاسرين﴾** [فصِّلت: ٢٥].

هؤلاء قرناء السوء يزينون السوء لمن فسدت قلوبهم، وينتهون بهم إلى مواكب الذين كتب عليهم الخسران، وحقَّت عليهم كلمة العذاب.. وقرناء السوء يوسوسون لهم، ويزينون لهم كل ما حولهم من السوء، ويُحَسِّنون لهم أعمالهم فلا يشعرون بما فيها من قبح. وأشد ما يصيب الإنسان أن يفقد إحساسه بقبح فعله وانحرافه، وأن يرىٰ كل شيء من شخصه حسناً ومن فعله! فهذه هي المهلكة وهذا هو المنحدر الذي ينتهي دائماً بالبوار.

هذا هو مفتاح الضلال الذي يحركه الشيطان في القلوب المنتكسة فيصور لهم نفوسهم أنَّهم على صواب، وأنَّ عملهم وتدبيرهم حسن وجميل ثمَّ **﴿يَعدهم ويُمنِّيهم، وما يعدهم الشيطان إلَّا غروراً﴾**..

ويعد الشيطان الإنسان ـ بعد أن زيَّن له سوء عمله فرآه حسناً ـ يعده الكسب والسعادة في طريق المعصية، فيعدو معه في الطريق! ويمنِّيه النجاة من عاقبة ما يعمل فيطمئن في طريقه إلى المهلكة!

لقد زين لهذا الإنسان الضال هذه الحياة الدنيا، بأعراضها الزهيدة، واهتماماتها الصغيرة، زيَّن له، فوقف عندها لا يتجاوزها، ولا يمدّ ببصره إلى شيء وراءها؛ ولا يعرف قيماً أُخرىٰ غير قيمها. والذي يقف عند حدود هذه الحياة الدنيا لا يمكن أن يسمو تصوره إلى تلك الاهتمامات الرفيعة التي يحفل بها المؤمن، ويمد إليها بصره في آفاقها البعيدة.. إنَّ المؤمن قد يحتقر أعراض الحياة كلها. لا لأنَّه أصغر منها همة أو أضعف منها طاقة، ولا لأنَّه سلبي لا ينمي الحياة ولا يرقيها.. ولكن لأنَّه ينظر إليها من عل ـ مع قيامه بالخلافة فيها، وإنشائه للعمران والحضارة، وعنايته بالنماء والإكثار ـ

فينشد من حياته ما هو أكبر من هذه الأعراض وأغلىٰ. ينشد منها أن يقر في الأرض منهجاً، وأن يقود البشرية، إلى ما هو أرفع وأكمل. وأن يركز راية الله فوق هامات الأرض والناس، ليتطلّع إليها البشر في مكانها الرفيع، وليمدوا بأبصارهم وراء الواقع الزهيد المحدود، الذي يحيا له من لم يهبه الإيمان رفعة الهدف، وضخامة الاهتمام، وشمول النظرة.

﴿**يعدهم ويمنّيهم**﴾.. يعدهم الشيطان بدوامة الحياة؛ يعدهم بطول الأجل والأمل يلهي والمطامع تعز، والعمر يمضي والفرصة تضيع، يضلهم في متاهة الأمل والغرور، يلوح لهم ويشغلهم بالأطماع، ويُملي لهم فيحسبون أنَّ أجلهم ممدود وأنَّهم محصلون ما يطمعون لا يردّهم عنه رادّ، ولا يمنعهم منه مانع، وإن ليس وراءهم حسيب، وأنَّهم ناجون في النهاية بما ينالون ممَّا يطمعون.

وهكذا يفسد الشيطان مقاييس الإنسان الذي زيَّن له سو عمله، يفسد مقاييسه كلها، ويفسد في يده كل أمر من أمور هذه الدنيا، قبل أن يفسد عليه تقديره للآخرة ومصيره فيها، وينتهي من ثمَّ إلى شر مصير، فيأتيه الموت الذي يقطع كل شك، وينهي كل ريب، ويفصل في الأمر بلا مردّ، ولا يترك مجالاً لندم ولا توبة..

والشيطان ينشىء في تزيينه لهذا الإنسان كل دوافع السوء، ويزعزع اليقين في النفس الإنسانية فيما عند الله.. ﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء**﴾ [البقرة: ٢٦٧].

إنَّه الشيطان الذي يثير في القلوب ما يثير.. الشيطان يخوفكم الفقر، فيثير في نفوسكم الحرص والشح والتكالب. والشيطان يأمركم بالفحشاء ـ والفحشاء كل معصية تفحش أي تتجاوز الحد، وإن كانت قد غلبت على نوع معين من المعاصي ولكنها شاملة. وخوف الفقر كان يدعو القوم في جاهليتهم لوأد البنات وهو فاحشة؛ والحرص على جمع الثروة كان يؤدي

ببعضهم إلى أكل الربا وهو فاحشة. . على أنَّ خوف الفقر بسبب الإنفاق في سبيل الله في ذاته فاحشة.

وهناك حقيقة نلم بها قبل مغادرة هذه اللمسة الموحية في قوله تعالىٰ: **﴿الشَّيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم. يؤتي الحكمة من يشاء. . ﴾** . .

إنَّ أمام الإنسان طريقين اثنين لا ثالث لهما: طريق الله. وطريق الشيطان. أن يستمع إلى وعد الله أو أن يستمع إلى وعد الشيطان، ومن لا يسير في طريق الله ويسمع وعده فهو سائر في طريق الشيطان ومتّبع وعده. . ليس هناك إلاَّ منهج واحد هو الحق. . المنهج الذي شرعه الله. . فهو ما عداه للشيطان ومن الشيطان.

هذه الحقيقة يقررها القرآن الكريم ويكررها ويؤكدها بكل مؤكد. كي لا تبقىٰ حجة لمن يريد أن ينحرف عن منهج الله ثم يدَّعي الهدىٰ والصواب في أي باب. ليست هناك شبهة ولا غشاوة. . الله. أو الشيطان. منهج الله أو منهج الشيطان. طريق الله أو طريق الشيطان. . ولمن شاء أن يختار. . لا شبهة ولا غبش ولا غشاوة. . وإنَّما هو الهدىٰ أو الضلال. وهو الحق واحد لا يتعدد. . فماذا بعد الحق إلاَّ الضلال؟!. . **﴿وما يعدهم الشيطان إلاَّ غروراً﴾** . .

وحين يرتسم المشهد على هذا النحو، والعدو القديم يفتل الحبال، ويضع الفخ، ويستدرج الفريسة، لا تبقىٰ إلاَّ الجبلّات الموكوسة المطموسة هي التي ستظل سادرة لا تستيقظ، ولا تتلفت ولا تحاول أن تعرف إلى أي طريق تساق، وإلى أيّة هوة تُستهوىٰ!

وبعد. . فقد قال الله لإبليس: اذهب مأذوناً في إغواء من يجنحون إليك. ولكن هناك مَن لا سلطان لك عليهم، لأنَّهم مزودون بحصانة تمنعهم منك ومن خيلك ورجلك!

﴿إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان. وكفىٰ بربِّك وكيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥]..

فمتىٰ اتَّصل القلب بالله، واتجه إليه بالعبادة. متىٰ ارتبط بالعروة الوثقىٰ التي لا انفصام لها. متىٰ أيقظ في روحه النفخة العلوية فأشرقت وأنارت.. فلا سلطان حينئذٍ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله، وهذا الروح المشرق بنور الإيمان.. وكفىٰ بالله وكيلاً يعصم وينصر ويبطل كيد الشيطان.

وانطلق الشيطان ينفذ وعيده، ويستذل عبيده، ولكنه لا يجرؤ على عباد الرَّحمٰن، فما له عليهم من سلطان..

ذلك ما يُبيته الشيطان للناس من شر وأذىٰ، ثُمَّ يوجد في الناس من يتَّبعون هذا الشَّيطان، ويستمعون إليه، ويعرضون عن نداء الله وهدايته، فما أعجب أن يتولّىٰ أُناس من بني آدم إبليس وذريته وهم لهم عدو منذ ما كان بين آدم وإبليس: **﴿وإذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم فسجدوا إلَّا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه. أفتتَّخذونه وذريَّته أولياء من دوني، وهم لكم عدو، بئس للظالمين بدلاً﴾** [الكهف: ٥٠].

وهذه الإشارة إلى تلك القصة القديمة تجيء هنا للتعجيب من أبناء آدم الذين يتخدون ذرية إبليس، أولياء من دون الله بعد ذلك العداء القديم.

واتِّخاذ إبليس وذريته أولياء يتمثل في تلبية دواعي المعصية والتولّي عن دواعي الطاعة.

ولماذا يتولّون أعداءهم هؤلاء، وليس لديهم لبني آدم إلَّا الغواية والشر المستطير **﴿ومن يتَّخذ الشيطان وليّاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾**.

وبعد هذه اللمسات الموقظة التي تفعل فعلها في النفوس، وتصور حقيقة المعركة، وحقيقة الموقف، يجيء التعقيب ببيان العاقبة في نهاية المطاف: عاقبة من يستهويهم الشيطان، ويصدق عليهم ظنّه، وينفذ فيهم ما

صرّح به من نيته الشريرة.. وعاقبة من يفلتون من حبالته، لأنّهم آمنوا بالله حقاً. والمؤمنون بالله حقاً في نجاة من هذا الشيطان لأنّه ـ لعنة الله عليه ـ وهو يستأذن في إغواء الضالّين، لم يُؤذن له في المساس بعباد الله المخلصين. فهو إزاءهم ضعيف ضعيف؛ كلّما اشتدت قبضتهم على حبل الله المتين: **﴿ومن يتّخذ الشيطان وليّاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً. يعدهم ويمنّيهم، وما يعدهم الشيطان إلّا غروراً. أولئك مأواهم جهنّم، ولا يجدون عنها محيصاً. والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات سندخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبداً، وعد الله حقاً، ومن أصدق من الله قيلاً؟﴾** [النساء: ١١٩ ـ ١٢٢].

فهي جهنّم ولا محيص عنها لأولياء الشيطان.. وهي جنّات الخلد لا خروج منها لأولياء الله.. وعد الله **﴿ومن أصدق من الله قيلاً؟﴾** والصدق المطلق في قول الله هنا؛ يقابل الغرور الخادع، والأماني الكاذبة في قول الشيطان هناك! وشتان بين من يثق بوعد الله، ومن يثق بتغرير الشيطان!

ويعلن الله طرد إبليس طرداً لا معقّب عليه. طرده مذموماً مقهوراً، وإبعاده بملء جهنّم منه وممّن يتبعه من البشر ويضل معه: **﴿قال: اخرج منها مذؤوماً مدحوراً. لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنّم منكم أجمعين﴾** [الأعراف: ١٨].

ومن يتبعه من البشر قد يتبعه في معرفته بالله واعتقاده بألوهيته، ثمّ رفض حاكمية الله وقضائه، وادعاء أنّ له الحق في إعادة النظر في أوامر الله، وفي تحكيم منطقه هو في تنفيذها أو عدم تنفيذها.. كما أنّه قد يتبعه لِيُضِلّه عن الاهتداء إلى الله أصلاً.. وهذا وذاك كلاهما أتباع للشيطان؛ جزاؤه جهنّم مع الشيطان!

لقد جعل الله سبحانه ـ لإبليس وقبيله فرصة الإغواء. وجعل لآدم وذريته فرصة الاختيار تحقيقاً للابتلاء، الذي قضت مشيئته أن تأخذ به هذا

الكائن؛ وتجعله به خلقاً متفرداً في خصائصه، لا هو مَلَك ولا هو شيطان، لأنَّ له دوراً آخر في هذا الكون، ليس هو دور الملك ولا هو دور الشيطان.

وهكذا وضَّح القرآن الكريم كيف يسلك الشيطان طريقه إلى النفوس. وكيف تغلب خصائص الطين في الإنسان على خصائص النفخة. فأمَّا من يتصل بالله ويحتفظ بنفخة روحه فلا سلطان عليه للشيطان..

والآن انكشف ميدان المعركة الخالدة. المعركة بين خليقة الشر في إبليس، وخليفة الله في الأرض. المعركة الخالدة في ضمير الإنسان. المعركة التي ينتصر فيها الخير بمقدار ما يستعصم الإنسان بإرادته وعهده مع ربه، وينتصر فيها الشر بمقدار ما يستسلم الإنسان لشهوته. ويبعد عن ربه..

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، قال: خَطَّ لنا رسول الله ﷺ خطاً، فقال: «هذا سبيل الله» ثم خَطَّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثمَّ قال: «وهذه سُبل، على كل سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه» ثمَّ قرأ: **﴿وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه ولا تتَّبعوا السُّبل فتفرَّق بكم عن سبيله﴾**(١) [الأنعام: ١٥٣].

إنَّه صراط واحد ـ صراط الله ـ وسبيل واحدة تؤدِّي إلى الله.. أن يطيعوا الله سبحانه وأن يدينوا لحاكميته في حياتهم كلها.. هذا هو صراط الله، وهذا هو سبيله.. وليس وراءه إلَّا السبل التي تتفرق بمن يسلكونها عن سبيله.. يقودهم شيطان..

تذكير وتوكيد:

إنَّ قصة البشرية الكبرىٰ دلالتها واضحة على تكوين هذا الخلق المسمّىٰ بالإنسان. فهو تكوين خاص متفرد، يزيد على مجرد التركيب العضوي الحيوي، الذي يشترك فيه مع بقية الأحياء. وأيّاً كانت نشأة الحياة،

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، وإسناده حسن، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٦) و(٧).

ونشأة الأحياء؛ فإنَّ الخلق الإنساني يتفرد بخاصية أُخرىٰ هي التي ورد بها النص القرآني.. خاصية الروح الإلـهي المودع فيه.. وهي الخاصية التي تجعل من هذا الإنسان إنساناً، يتفرد بخصائصه عن كل الأحياء الأُخرىٰ. وهي قطعاً ليست مجرد الحياة. فهو يشترك في « الحياة » مع سائر الأحياء. ولكنها خاصية الروح الزائد عن مجرد الحياة.

هذه الخاصية ـ كما يلهم النص القرآني ـ لم تجيء للإنسان بعد مراحل أو أطوار من نشأته ـ كما تزعم الداروينية ـ ولكنها جاءت مصاحبة لخلقه ونشأته. فلم يجيء على هذا الكائن الإنساني زمان كان فيه مجرد حيّ من الأحياء ـ بلا روح إنساني خاص ـ ثمَّ دخلته هذه الروح، فصار بها هو هذا الإنسان!

ولقد اضطرّت الداروينية الحديثة ـ على يد جوليان هاكسلي ـ أن تعترف بشطر من هذه الحقيقة الكبيرة؛ وهي تقرر « تفرد الإنسان » من الناحية الحيوية والوظيفية. ومن ثمَّ تفرده من الناحية العقلية، وما نشأ عن ذلك كله من تفرّده من الناحية الحضارية..

ولكنها ظلّت تزعم أنَّ هذا الإنسان المتفرد متطور عن حيوان!

والتوفيق عسير بين ما انتهت إليه الداروينية الحديثة من تفرد الإنسان، وبين القاعدة التي تقوم عليها الداروينية ـ قاعدة التطور المطلق وتطور الإنسان عن الحيوان ـ ولكنَّ الداروينيين ومن والاهم لا يزالون مصرّين على ذلك الاندفاع ـ غير العلمي ـ الذي صبغوه بصبغة العلم، في دفعة الانسلاخ من كل مقررات الكنيسة! والذي شجع اليهود على نشره وتمكينه وتثبيته، وإضفاء الصبغة « العلمية » عليه لغرض في نفوسهم، ولغاية في مخططاتهم[1]!

---

(١) يراجع فصل «اليهود الثلاثة» في كتاب: « التطور والثبات في الحياة البشرية» لمؤلفه محمَّد قطب.

هذه النشأة المتفردة للإنسان، باحتوائها على هذه الخاصية المنشئة للوجود الإنساني المستقل.. خاصية النفخة من روح الله.. تجعل النظرة إلى هذا الإنسان و «مطالبه الأساسية» تختلف اختلافاً أصيلاً عن نظرة المذاهب المادية، بكل إفرازاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وكل إفرازاتها في التصورات والقيم التي ينبغي أن تسود الحياة الإنسانية.

إنَّ الزعم بأنَّ الإنسان مجرد حيوان متطور عن حيوان! هي التي جعلت الإعلان الماركسي يذكر أنَّ مطالب الإنسان هي الطعام والشراب والمسكن والجنس! فهذه فعلاً هي مطالب الحيوان الأساسية! ولا يكون الإنسان في وضع أحقر ممَّا يكون وفق هذه النظرة! ومن ثمَّ تهدر كل حقوقه المترتبة على تفرّده عن الحيوان بخصائصه الإنسانية.. تهدر حقوقه في الاعتقاد الديني. وتهدر حقوقه في حرية التفكير والرأي. وتهدر حقوقه في اختيار نوع العمل، ومكان الإقامة. وتهدر حقوقه في نقد النظام السائد وأسسه الفكرية والمذهبية. بل تهدر حقوقه في نقد تصرفات « الحزب » ومن هم أقل من الحزب من الحكام المتسلّطين في تلك الأنظمة البغيضة، التي تحشر الأناسي حشراً، وتسوقهم سوقاً، لأنَّ هؤلاء « الأناسيّ » وفق الفلسفة المادية ليسوا سوىٰ نوع من الحيوان تطور عن حيوان!.. ثمَّ يسمّىٰ ذلك النكد كله: «الاشتراكية العلمية»!

فأمَّا النظرة الإسلامية إلى « الإنسان » - وهي تقوم علىٰ أساس تفرده بخصائصه الإنسانية إلى جانب ما يشارك فيه الحيوان من التكوين العضوي - فإنَّها منذ اللحظة الأولىٰ تعتبر أنَّ مطالب الإنسان الأساسية مختلفة وزائدة عن مطالب الحيوان الأساسية. فليس الطعام والشراب والمسكن والجنس هي كل مطالبه الأساسية. وليس ما وراءها من مطالب العقل والروح مطالب ثانوية!.. إنَّ العقيدة وحرية التفكير والإرادة والاختيار هي مطالب أساسية كالطعام والشراب والمسكن والجنس.. بل هي أعلىٰ منها في الاعتبار؛ لأنَّها هي المطالب الزائدة في الإنسان على الحيوان. أي المطالب المتعلقة

بخصائصه التي تقرر إنسانيته! والتي بإهدارها تهدر آدميته!

ومن ثمَّ لا يجوز أن تهدر في النظام الإسلامي حرية الاعتقاد والتفكير والاختيار في سبيل « الإنتاج » وتوفير الطعام والشراب والمسكن والجنس للآدميين! كما لا يجوز أن تهدر القيم الأخلاقية ـ كما يقررها الله للإنسان لا كما يقررها العرف والبيئة والاقتصاد ـ في سبيل توفير تلك المطالب الحيوانية.

إنَّهما نظرتان مختلفتان من الأساس في تقييم « الإنسان » و « مطالبه الأساسية ». . ومن ثمَّ لا يمكن الجمع بينهما في نظام واحد على الإطلاق! فإمَّا الإسلام، وإمَّا المذاهب المادية بكل ما تفرزه من إفرازات نكدة. . بما فيها ما يسمونه هناك « الاشتراكية العلمية » فإن هو إلاَّ إفراز خبيث من إفرازات المادية الحقيرة المحتقرة للإنسان الذي كرّمه الله. والمعركة الخالدة بين الشيطان والإنسان في هذه الأرض ترتكز ابتداءً إلى استدراج الشيطان للإنسان بعيداً عن منهج الله؛ والتزيين له فيما عداه. استدراجه إلى الخروج من عبادة الله ـ أي الدينونة له في كل ما شرع من عقيدة وتصور، وشعيرة ونسك، وشريعة ونظام ـ فأمَّا الذين يدينون له وحده ـ أي يعبدونه وحده ـ فليس للشيطان عليهم من سلطان. . **﴿إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾**. .

ومفرق الطريق بين الاتجاه إلى الجنَّة التي وعد بها المتَّقون؛ وبين الاتجاه إلى جهنَّم التي وعد بها الغاوون، هو الدينونة لله وحده ـ التي يعبر عنها في القرآن دائماً بالعبادة ـ أو اتباع تزيين الشيطان بالخروج على هذه الدينونة.

والشيطان نفسه لم يكن ينكر وجود الله سبحانه، ولا صفاته. . أي إنَّه لم يكن يلحد في الله من ناحية العقيدة! إنَّما الذي فعله هو الخروج على الدينونة لله. . وهذا ما أورده جهنَّم هو ومن اتَّبعه من الغاوين.

إنَّ الدينونة لله وحده هي مناط الإسلام. فلا قيمة لإسلام يدين أصحابه لغير الله في حكم من الأحكام. وسواء كان هذا الحكم خاصاً بالاعتقاد والتصور. أو خاصاً بالشعائر والمناسك. أو خاصاً بالشرائع والقوانين. أو خاصاً بالقيم والموازين.. فهو سواء.. الدينونة فيه لله هي الإسلام. والدينونة فيه لغير الله هي الجاهلية الذاهبة مع الشيطان. ولا يمكن تجزئة هذه الدينونة؛ واختصاصها بالاعتقاد والشعائر دون النظام والشرائع. فالدينونة لله كلّ لا يتجزأ. وهي العبادة لله في معناها اللغوي وفي معناها الاصطلاحي على السواء.. وعليها تدور المعركة الخالدة بين الإنسان والشيطان!

بدء المعركة الخالدة :

أذاق الله إبليس بأسه وسلبه نعمته وطرده من الجنَّة هذه الطردة مذؤوماً مدحوراً.. وينظر الله سبحانه ـ بعد طرد إبليس ـ إلى آدم وزوجه فقال تبارك وتعالىٰ: ﴿يَا آدم اسكن أنتَ وزوجك الجنَّة﴾ [الأعراف: ١٩].

وهنا فقط نعرف أنَّ له زوجاً من جنسه، ولا ندري كيف جاءت. فالنصوص القرآنية لا تتحدث عن هذا الغيب بشيء. ولكنَّا نقرأ في كتاب الله ﴿خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها﴾ [النساء: ١].

وهذه النفس الواحدة ـ بلا نزاع ـ هي آدم عليه السَّلام.. وخَلْق الزوجة من بدنه وانفصالها منه سر إلٰهي وغيب لا يعلمه إلَّا الله[1]، والذي

(١) يقول البهي الخولي في هذا الموضوع: «وخلق الزوجة من بدنه وانفصالها منه أمر يطرب له العلم؛ فإنَّ صغار الطلاب في مدارسنا يعلمون من دراساتهم أنَّ «الأميبة» تتكاثر عن طريق تضخمها وانفصال جزء من جسمها ليكون من دوره «أميبة» جديدة تتكاثر بنفس الطريقة.. ومن جراثيم الأمراض ـ كمكروب الملاريا ـ ما يتكاثر بطريق الانقسام، ثمَّ هو نفسه يتحول في حال معينة إلى التكاثر بطريق التوالد الذي يحدث بين ذكر وأُنثىٰ..» [آدم ص ١٣٨ وما يليه].

يعنينا ويمكن الجزم به هو فحسب أنَّ الله خَلَقَ له زوجاً من جنسه[1]، فصارا زوجين اثنين؛ والسنة التي نعلمها عن خَلْق الله هي الزوجية: **﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلَّكم تذكَّرون﴾** [الذَّاريات: ٤٩].

وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض ـ وربما في هذا الكون: إذ إنَّ التعبير لا يخصص الأرض ـ قاعدة الزوجية في الخلق. وهي ظاهرة في الأحياء. ولكن كلمة «**شيء**» تشمل غير الأحياء أيضاً. والتعبير يقرر أنَّ الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية.. فهي سنة جارية وهي قاعدة في كل خلق الله أصيلة. وإذا سرنا مع هذه السنة فإنَّ لنا أن نرجح أن خلق حَوَّاء لم يمكث طويلاً بعد خلق آدم، وأنَّه تمَّ على نفس الطريقة التي تمَّ بها خلق آدم وصفاته **﴿خلقكم من نفس واحدة، وخلقَ منها زوجها﴾**.

إنَّ هذه الإشارة القرآنية التي تتضمن إلى أنَّه من النفس الواحدة **﴿خلق منها زوجها﴾**.. كانت كفيلة ـ لو أدركتها البشرية ـ أن توفر عليها تلك الأخطاء الأليمة، التي ترددت فيها، وهي تتصور في المرأة شتَّىٰ التصورات السخيفة، وتراها منبع الرجس والنجاسة، وأصل الشر والبلاء..

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنَّ المرأة خُلقت من ضِلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمه كسرتَهُ، وإن تركته، لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء» متَّفق عليه.
ومعنىٰ: «خلقت من ضلع» الكلام هنا على التمثيل كما هو مصرح به في رواية ثانية بالصحيحين: «المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها، وإن استَمتعت بها، استمتعت وفيها عوج»، لا أنَّ المرأة خلقت من ضلع آدم كما توهمه بعضهم، وليس في السنة الصحيحة شيء من ذلك، وإنَّما هو منقول عن الفصل الثَّاني من سفر التكوين، وتأويل قوله تعالىٰ في سورة النِّساء: **﴿يَا أَيُّها النَّاس اتَّقوا ربَّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾**، وهو كقوله تعالىٰ: **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزْواجاً لتسكنوا إليها﴾** وقوله: **﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾**، وقوله: **﴿فاطر السَّماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾**..

وهي من النفس الأولىٰ فطرة وطبعاً، خلقها لتكون له زوجاً، وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، فلا فارق في الأصل والفطرة، إنَّما الفارق في الاستعداد والوظيفة..

ولقد خبطت البشرية في هذا التيه طويلاً. جردت المرأة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها. فترة من الزمان. تحت تأثير تصور سخيف لا أصل له. فلمَّا أن أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الضفة الأخرىٰ، وأطلقت للمرأة العنان، ونسيت أنَّها إنسان خلقت لإنسان، ونفس خلقت لنفس، وشطر مكمل لشطر، وأنَّهما ليسا فردين متماثلين، إنَّما هما زوجان متكاملان. «وحين آنَ لآدم عليه السَّلام أن يزاول اختصاص بشرينه. وأن يتحول إلى أُفق غرائزه! كان أول غريزة نودي إليها «غريزة الزوج»، وذلك قوله سبحانه: ﴿**وقلنا يَا آدم اسكن أنت وزوجك الجنَّة وكلا منها رغداً**﴾ [البقرة: ٣٥].. «وعلماء النفس يتكلمون عن « الغريزة الجنسية» وعن « غريزة الوالدية»؛ ولكن ما جاء في القرآن أعمق وأصدق وأشمل « فالزوج » ضرورة فطرية أعمق ممَّا يتصوره الناظر إلى الوالدية، وشهوة الجنس: هو نظام أزلي يلتئم به شمل كل ما نرىٰ، ويصلح عليه وجوده، وتخرج به ثماره ﴿**ومن كل شيء خلقنا زوجين**﴾..

ولا يعلم أحد إلَّا هو سبحانه مدىٰ سعة تلك « الكلية » التي تضمنها قوله ﴿**كل شيء**﴾.. فنظام « الزوج » ليس دائرة ضيقة، ولا أُفقاً محصوراً مقصوراً على الإنسان والحيوان والنبات؛ بل هو سنة كونية دقيقة واسعة المدىٰ، وفطرة أزلية لا يلتئم شمل الشيء إلَّا إذا اتخذت مكانها الطبيعي في وجوده.. فهناك حنين أزلي، ونزوع فطري يتجاذب به « أزواج » النوع الواحد بعضها إلى بعض؛ فلا يسعد شوق أحدهما إلى الآخر، ولا يسكن قلقه ويكمل أمره ويخرج ثمره إلَّا أن يلتقيا على السنة التي قررها الله سبحانه لإفراد نوعهما.

« وقد خلق الله حواء لآدم، وما كان سبحانه ليخلقها له إلَّا لأن خَلْقها

تكملة لنظام وجوده، وسداداً لفراغ أصيل في جبلته، أو لتكون هي الطرف الآخر الذي يكمل به نسقه المعنوي ونسقه الحسّي جميعاً.

ولأمر ما احتفىٰ القرآن الكريم بذكر ملازمتها لـه في الجنَّة إذ قـال سبحانه: ﴿**يَا آدم اسكن أنت وزوجك الجنَّة**﴾ فهي ملازمة لا يغنيه عنها أنَّه عليه السَّلام في الجنَّة.

وأمَّا حكم الملازمة التي يعني القرآن بتقريرها بينهما في ضمير التثنية باضطراد إذ يناديهما الله سبحانه: ﴿**وكُلا منها رغداً حيث شئتما...**﴾ وإذ يناديهما: ﴿**أَلَم أنهكما عن تلكما الشَّجرة، وأقل لكما إنَّ الشيطان لكما عدوٌّ مبين؟**﴾، فإنَّا لم نقرأ أنَّ نبياً من الأنبياء توجه إليه الخطاب مع زوجه من الله سبحـانه، إذ هي مكلفـة بما خـوطب به، ولا ضـرورة لإشراكهـا معه في الخطاب لأنَّها ستتلقّاه منه؛ وليس لتلك الملاحظة التي لاحظناها من توجيه إلاَّ الاحتفاء «بالزوج» وتقرير مكانه من فطرة البشر الأول، ولزومه له في كل مراحل حياته..

«فالزوج في ذاته إن هو إلاَّ شطر سنة من سنن الله يجب أن يلتئم مع شطرها الآخر، ليكمل وجود المرء، ويسكن قلقه المتلفت الحيران؛ وهذا المعنىٰ الدقيق هو الذي يلمّ به قوله سبحانه: ﴿**.. هو الَّذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها**﴾ [الأعراف: ١٨٩]..»[١].

فهي نفس واحدة في طبيعة تكوينها، وإن اختلفت وظيفتها بين الذكر والأُنثىٰ. وإنَّما هذا الاختلاف ليسكن الزوج إلى زوجه ويستريح إليها.. وهذه هي نظرة الإسلام لحقيقة الإنسان. ووظيفة الزوجية في تكوينه، وهي نظرة كاملة وصادقة جاء بها هذا الدين منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً. يوم أن كانت الديانات المحرفة تعد المرأة أصل البلاء الإنساني[٢]، وتعتبرها

---

(١) آدم: ١٣٩ ـ ١٤١.

(٢) إنَّ بعض الروايات تذكر في تفسير قوله سبحانه في سورة الأعراف الآية: ١٨٨ ـ ١٩٠ =

لعنة ونجساً وفخاً للغواية تُحذر منه تحذيراً شديداً، ويوم أن كانت الوثنيات ولا تزال ـ تعدها من سقط المتاع أو على الأكثر خادماً أدنىٰ مرتبة من الرجل ولا حساب له في ذاته على الإطلاق.

والأصل في التقاء الزوجين هو السكن والاطمئنان والأُنس والاستقرار، ليظل السكون والأمن جو المحضن الذي تنمو فيه الفراخ الزغب، وينتج فيه المحصول البشري الثمين، ويؤهل فيه الجيل الناشىء لحمل تراث التمدن البشري والإضافة إليه..

وليس هذا السكن هو سكن العاطفة العارضة، أو الشهوة التي ألفت قضاء الوطر في هذا المهاد. وسنة الله لم تجعل هذا الالتقاء لمجرد اللذّة العابرة والنزوة العارضه. كما أنَّه لم يجعله شقاقاً ونزاعاً، وتعارضاً بين الاختصاصات والوظائف، أو تكراراً للاختصاصات والوظائف؛ كما تخبط الجاهليات في القديم والحديث سواء[1]!

«إنَّ هذا السكن هو قبل كل شيء سكن الحياة الملهمة في كيان الإنسان إلى سنة من سنن دورانها في هذا الوجود، فإذا لم تتوفر تلك السنة فهو كوكب يسير في غير فلك..

= ﴿هو الَّذي خلقكم من نفس واحدة﴾.. إلى قوله: ﴿فلمَّا آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالىٰ الله عمَّا يشركون﴾.. إنَّ بعض الروايات في التفسير تذكر هذه القصة علىٰ أنَّها قصة حقيقية وقعت لآدم وحواء.. إذ كان أبناؤهما يولدون مشوهين. فجاء إليهما الشيطان فأغرىٰ حواء أن تسمّي ما في بطنها «عبد الحارث».. والحارث اسم لإبليس. ليولد صحيحاً ويعيش؛ ففعلت وأغرت آدم معها! وظاهر ما في هذه الرواية من طابع إسرائيلي.. ذلك أنَّ التصور الإسرائيلي المسيحي ـ كما حرّفوا ديانتهم ـ هو الذي يلقي عبء الغواية على حواء، فهي أيضاً التي أغرت آدم بأكل الشجرة التي نهىٰ الله عنها.. وهذا مخالف تماماً للتصور الإسلامي الصحيح.

(١) تراجع فقرة: «المرأة وعلاقات الجنسين» في فصل: و«تخبط واضطراب» في كتاب: «الإسلام ومشكلات الحضارة»، كذلك يراجع فصل: «حقيقة الإنسان» في كتاب: «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» القسم الثاني.

ونجد في سيرة رسول الله ﷺ أنَّه كان إذا خرج إلى سفر أقرع بين زوجاته لتخرج معه إحداهنَّ؛ وما نحسب أنَّ شهوة الجنس ـ وهو يدرج إلى الستين ـ هي التي كانت تملي عليه هذا التصرّف، وإنَّما هي نفسه الصافية المشرقة التي ما كانت ترىٰ لها سكناً ولا قراراً إلاَّ في ظل سنة من سنن الله التي أعدت لها، و« الزوج » سنة من تلك السنن. . وسره مركوز في فطرة كل نفس؛ فإذا وجد ﷺ في نفسه حنيناً إلى « الزوج » في البيت، وإلى « الزوج » في السفر، وإلى « الزوج » حيثما كان فهو البشري المثالي الذي تجاوبت خصائص نفسه مع سنن الله في هذا الوجود تجاوب مسرة وإلف وركون إلى جمالها. . وإلى هذا المعنىٰ الدقيق الكريم يشير قوله ﷺ: «حُبِّب إليَّ النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصَّلاة». فهو عليه السَّلام لا يرمي إلى معايشة النساء وإصابة ما لديهنَّ من شهوة، إنَّما يرمي إلى جمال ما يذوقه في ظلالهنَّ الرقيقة من لذّة الأُنس بسنة من سنن الله. .

ولعلَّ ممَّا يشير إلى تلك الفجوة الموحشة التي لا يملؤها في كياننا إلاَّ « الزوج » وأنَّها فطرة لنا، وسنة لازمة لا نستطيع الفكاك منها ولا التعالي عليها أنَّ الله سبحانه جعل الحاجة إليها شارة من شارات الضعف الذي ألزمه خلقه وتنزَّه عنه سبحانه أن يكون كذلك، فقال جلَّ شأنه **﴿وأنَّه تعالىٰ جَدُّ ربنا ما اتَّخذ صاحبة ولا ولداً﴾** [الجن: ٣].

فالله سبحانه ـ لا تحكمه السنن إنَّما هو الذي يحكمها ويصرفها ويسيطر عليها، أمَّا نحن بني آدم فنظام سعادتنا وجمال حياتنا هو مسايرة تلك السنن والإتساق مع مقتضاها.

وليس لدينا من النصوص ما نعرف به نظام حياة هذين الزوجين الكريمين في تلك الجنَّة، ولا أي أنواع اللذائذ كانا يتساقيان، ولكن حسبنا أن نقطع بما قطع به القرآن الكريم من أنَّ نعيم الجنَّة كان مباحاً لهما، وأنَّهما مارسا فطرة « الزوج » الهنيئة في أفق الأُنس العاطفي وسكينة كل منهما إلى

صاحبه»(١). . . ويتجه الخطاب الإلـهي إلى آدم وزوجه، ليعهد إليهما ربهما بأمره في حياتهما؛ ولتبدأ تربيته لهما وإعدادهما لدورهما الأساسي، الذي خلق الله له هذا الكائن. وهو دور الخلافة في الأرض: **﴿ويَا آدم اسكن أنت وزوجك الجنَّة، فكُلا من حيث شئتما، ولا تقربا هـٰذه الشجرةَ، فتكونا من الظَّالمين﴾** [الأعراف: ١٩] لقد أُبيحت لهما كل ثمار الجنَّة.. إلَّا شجرة: **﴿وقلنا: يَا آدم اسكن أنت وزوجك الجنَّة، وكلا منها رغداً، ولا تقربا هـٰذه الشجرةَ، فتكونا من الظَّالمين﴾** [البقرة: ٣٥].

ويسكت القرآن عن تحديد «**هذه الشجرة**». لأنَّ تحديد جنسها لا يزيد شيئاً في حكمة حظرها. ممَّا يرجح أنَّ الحظر في ذاته هو المقصود. لقد أذِن الله لهما بالمتاع الحلال. أبيحت لهما كل ثمار الجنَّة.. إلَّا شجرة.. شجرة واحدة، ربما كانت ترمز للمحظور الذي لا بد منه في حياة الأرض، ووصاهما بالامتناع عن المحظور. ولا بد من محظور يتعلم منه هذا الجنس أن يقف عند حد؛ وأن يدرب المركوز في طبعه من الإرادة التي يضبط بها رغباته وشهواته؛ ويستعلي بها على هذه الرغبات والشهوات، فيظل حاكماً لها لا محكوماً بها كالحيوان، فهذه هي خاصية «الإنسان» التي يفترق بها عن الحيوان، ويتحقق بها فيه معنىٰ «الإنسان». فبغير محظور لا تنبت الإرادة، ولا يتميز الإنسان المريد من الحيوان المسوق، ولا يمتحن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد والتقيد بالشرط. فالإرادة هي مفرق الطريق. والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمة، ولو بدوا في شكل الآدميين!

﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل..﴾ وعهد الله إلى آدم هو الأكل من كل الثمار سوىٰ شجرة واحدة، تمثل المحظور ـ كما قلنا ـ الذي لا بد منه لتربية الإرادة، وتأكيد الشخصية، والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر

---

(١) آدم: ١٣٨ ـ ١٤٢.

الذي يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد؛ فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها.

وهذا هو المقياس الذي لا يُخطىء في قياس الرقي البشري. فكلَّما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلىٰ في سلم الرقي البشري. وكلَّما ضعفت أمام الرغبة وتهاوت كانت أقرب إلى البهيمية وإلى المدارج الأُولىٰ. من أجل ذلك شاءت العناية الإلـٰهية التي ترعىٰ هذا الكائن الإنساني أن تعده لخلافة الأرض باختبار إرادته، وتنبيه قوة المقاومة فيه، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التي يزينها الشيطان. وإرادته وعهده للرَّحمـٰن.

دور إبليس والتجـربـة الأولىٰ:

إنَّ الوظيفة الأُولىٰ والأخيرة للشيطان بل وظيفته التي ليس له سواها وإلى يوم الوقت المعلوم هي أن يكون عدواً للإنسان، وأن يعد كل العدة لمحاربته، وهو على قدرة من الذكاء والخبث والمهارة، فهو يعرف كيف يلبس الباطل ثوب الحق، حتى قد يستدرج هذا المخلوق إلى المنكر، وهو يظن أنَّه يفعل الخير، وهو وذريته يتخذون أساليب ماكرة خادعة.

وكانت رعاية من الله وعنايته أن يُنبه آدم إلى عدوه ويحذِّره غدره، عقب نشوزه وعصيانه، والامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربه: **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس أبىٰ. فقلنا: يَا آدم إنَّ هذا عدوٌّ لك ولزوجك، فلا يخرجنَّكما من الجنَّة فتشقىٰ، إنَّ لك ألاَّ تجوع فيها ولا تعرىٰ، وأنَّك لا تظمأ فيها ولا تضحىٰ﴾** [طه: ١١ ـ ١٩].

لقد حذَّر الله آدم كيد إبليس: **﴿فلا يخرجنَّكما من الجنَّة فتشقىٰ﴾**فالشقاء بالكد والعمل والشرود والضلال والقلق والحيرة واللهفة والانتظار والألم والفقدان. كلها تنتظر هناك خارج الجنَّة، وأنت في حمىٰ

منها كلها ما دمت في رحاب الفردوس.. **﴿إنَّ لك ألَّا تجوع فيها ولا تعرىٰ وأنَّك لا تظمأ فيها ولا تضحىٰ﴾**..

فهذا كله مضمون لك ما دمت في رحابها، والجوع والعري، يتقابلان مع الظمأ والضحوة. وهي في مجموعها تمثل متاعب الإنسان الأولىٰ في الحصول على الطعام والكساء، والشراب والظلال.

إنَّ هذا الكائن المتفرد، الذي كرَّمه الله كل هذا التكريم؛ والذي أعلن ميلاده في الملأ الأعلىٰ في ذلك الحفل المهيب، والذي أسجد له الملائكة فسجدوا، والذي أخرج بسببه إبليس من الجنَّة وطرده من الملأ الأعلىٰ..

إنَّ هذا الكائن مزدوج الطبيعة، مستعد للاتجاهين الخير والشر على السواء. وفيه نقط ضعف معينة يُقاد منها ـ ما لم يلتزم بأمر الله فيها ـ ومن هذه النقط تمكن إصابته، ويمكن الدخول إليه.. إنَّ له شهوات معينة، ومن شهواته يمكن أن يُقاد[1]. ولكن آدم كان غفلاً من التجارب. وهو يحمل الضعف البشري تجاه الرغبة في البقاء والرغبة في السلطان. ومن هذه الثغرة نفذ إليه الشيطان: **﴿فوسوس إليه الشيطان قال: يَا آدم هل أدلُّك على شجرة الخلد ومُلك لا يَبْلىٰ؟﴾** [طه: ١٢].. لقد نفذ إليه إبليس من شهواته. وهنا يبدأ دوره.. يؤدِّي دوره الذي تمحَّض له.. وراح إبليس يداعب هذه الشهوات: **﴿فوسوس لهما الشَّيطان ليُبدي لهما ما وُوري عنهما من سوآتهما؛ وقال: ما نهاكما ربُّكما عن هٰذه الشجرة إلَّا أن تكونا مَلَكين، أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إنِّي لكما لمن النَّاصحين﴾** [الأعراف: ٢٠ ـ ٢١].

ووسوسة الشيطان لا ندري نحن كيف تتم؛ لأنَّنا لا ندري كنه الشيطان حتى ندرك كيفيات أفعاله، وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه.

---

(١) راجع قصة آدم في كتاب «نهج الفن الإسلامي» تأليف محمَّد قطب.

ولكننا نعلم ـ بالخبر الصادق وهو وحده المصدر المعتمد عندنا عن هذا الغيب ـ أنَّ إغواء على الشر يقع في صورة من الصور؛ وإيحاء بارتكاب المحظور يتم في هيئة من الهيئات. وأنَّ هذا الإيحاء وذلك الإغواء يعتمدان على نقط الضعف الفطرية في الإنسان. وأنَّ هذا الضعف يمكن اتقاؤه بالإيمان والذكر؛ **حتى ما يكون للشيطان سلطان على المؤمن الذاكر**؛ وما يكون لكيده الضعيف حينئذٍ من تأثير..

وهكذا وسوس الشيطان لآدم وزوجه ليُبدي لهما ما وُوري عنهما من سوآتهما.. فهذا كان هدفه.. ﴿**فوسوس لهما الشَّيطان ليبدي لهما ما وُوري عنهما منسوآتهما**﴾.. لقد كانت لهما سوآت، ولكنَّها كانت مواراة عنهما لا يريانها ـ وهي سوآت حسية جسدية تحتاج إلى تغطية مادية، فكأنَّها عوراتهما ـ ولكنَّه لم يكشف لهما هدفه بطبيعة الحال! إنَّما جاءهما من ناحية رغائبهما العميقة: ﴿**وقال: ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلَّا أن تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين**﴾.. بذلك دَاعَبَ رغائب « الإنسان » الكامنة.. إنَّه يحب أن يكون خالداً لا يموت أو معمراً أجلاً طويلاً كالخلود! ويجب أن يكون له ملك غير محدد بالعمر القصير المحدد..

وفي قراءة: ﴿ملكين﴾ بكسر اللام. وهذه القراءة يعضدها النص الآخر في قوله تعالىٰ: ﴿**هل أدلُّك على شجرة الخلد وملك لا يبلىٰ**﴾.. وعلى هذه القراءة يكون الإغراء بالملك الخالد والعمر الخالد وهما أقوىٰ شهوتين في الإنسان بحيث يمكن أن يُقال: إنَّ الشهوة الجنسية ذاتها إن هي إلَّا وسيلة لتحقيق شهوة الخلود بالامتداد في النسل جيلاً بعد جيل ـ. وعلى قراءة ﴿ملكين﴾ بفتح اللّام يكون الإغرا بالخلاص من قيود الجسد كالملائكة مع الخلود.. ولكنَّ القراءة الأولىٰ ـ وإن لم تكن هي المشهورة ـ أكثر اتفاقاً مع النص القرآني الآخر، ومع اتجاه الكيد الشيطاني وفق شهوات الإنسان الأصيلة. «فرغبة الإنسان في « الخلود » إلى «حب الخلود» اتجاه طبيعي دائم غير منقطع ولا موقوت إلَّا بأجله.

وقد ورد في البحوث الخاصة بالغرائز عبارات: «المحافظة على النفس» و«غريزة المقاتلة»، و«غريزة الخلاص أو الهرب»، و«غريزة الاستغاثة»، و«غريزة البحث عن الطعام»؛ ولا شك أنَّها كلها معان تهدف إلى التشبث بالحياة، ومدافعة كل خطر يتهدد بقاء الإنسان: أي أنَّ ما ذهب إليه أصحاب البحوث يندرج تحت الميل الفطري إلى « الخلود » وهو الميل الذي استغلَّه الشيطان في آدم وزوجه حين وقف يزين لهما الأكل من الشجرة التي نهىٰ الله عنها..

وقد يبدو للنظرة العابرة أنَّ غريزة «حب الخلود» أصل في فطرة الإنسان من «غريزة الزوج» فهي أولىٰ أن تقدم عليها في قائمة غرائز الإنسان؛ ولكن التأمُّل الدقيق لا يلبث أن يرينا غير هذا!

إذ ما جدوىٰ حياة أو نعيم يشعر فيه المرء بالوحدة؟ أو يشعر كأنَّ جانباً من كيانه يملؤه فراغ مقفر وخلو موحش.. « فالزوج » هو تمام الوجود المعنوي للمرء.. أو هو السالب للموجب، والموجب للسالب في حياة الإنسان.. فليتم الوجود أولاً، ثمَّ لنعمل على « البقاء » والتمسك بأسبابه!

وثمَّة غريزة ثالثة تعرضها علينا قصة آدم عليه السَّلام، تلك هي « غريزة الملك » وهي القوة التي ناغاها إبليس في آدم ونبهها في نفسه لأوَّل مرة وهو يقول له **﴿هل أدلُّك على شجرة الخلد وملك لا يبلىٰ﴾**..[1]».

وهكذا فقد لمس الشيطان في نفس آدم وزوجه الموضع الحساس، فالعمر البشري محدود، والقوة البشرية محدودة، من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك العريض، ومن هاتين النافذتن يدخل عليه الشيطان، وآدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر، لأمر مقدر وحكمة مخبوءة..

ولمَّا كان اللعين يعلم أنَّ الله قد نهاهما عن هذه الشجرة؛ وأنَّ هذا

---

(١) ادم للبهي الخولي ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

النهي له ثقله في نفوسهما وقوته؛ فقد استعان على زعزعته - إلى جانب مداعبة شهواتهما - بتأمينهما من هذه الناحية، فحلف لهما بالله إنه لهما ناصح، وفي نصحه صادق: **﴿وقاسمهما: إنِّي لكما لمن النَّاصحين﴾** [الأعراف: ٢١].

لقد أقْسَم لهما بعد أن رأىٰ أنَّ آذانهما صُمَّت عن سماع نصحه، والإصاخة إلى نصيحته، أقسم لهما إنَّه من النَّاصحين، لا يقصد إلى ضررهما، ولا يريد النكاية بهما؛ ليؤكد صحة قصده، وصواب رأيه؛ ولا شك أنَّه أكثر في الوسوسة وألحَّ، وتمادىٰ في إغوائه وألحف.. ونسي آدم وزوجه تحت تأثير الشهوة الدافعة والقَسَم المخدر - أنَّه عدوهما الذي لا يمكن أن يدلهما على خير! وأنَّ الله أمرهما أمراً عليهما طاعته سواء عرفا علته أم لم يعرفاها! وأنَّه لا يكون شيء إلَّا بقدر من الله، فإذا كان لم يقدر لهما الخلود والملك الذي لا يبلىٰ فلن ينالاه!

نسيا هذا كله، واندفعا يستجيبان للإغراء! **﴿فدلَّاهما بغرور. فلمَّا ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما، فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنَّة؛ وناداهما ربُّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة، وأقل لكما إنَّ الشيطان لكما عدوٌّ مبين؟﴾**..

لقد تمَّت الخدعة وآتت ثمرتها المُرَّة. لقد أنزلهما الشيطان بهذا الغرور من طاعة الله إلى معصيته، فأنزلهما إلى مرتبة دنيا: **﴿فدلَّاهما بغرور﴾**..

ونتساءل: كيف يسمع آدم وزوجه لإغواء الشيطان، وهم يعلمان أنَّه رجيم، وأنَّ عليه اللعنة إلى يوم الدين؟

وكيف يتوقعا منه النصح الصادق بعد أن وضحت عداوته؟

وكيف يغترا بقسمه إنَّه لهما لمن النَّاصحين؟

والرد على ذلك أنَّ آدم وزوجه خُلِقا بفطرة البشر وضعف البشر، لأمر

مقدور وحكمة مخبوءة، ومن ثمَّ نسي العهد، وأقدم على المحظور: **﴿فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنَّة . . وعصىٰ آدم ربَّه فغوىٰ﴾** . .

﴿فلمَّا ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما﴾ .

لقد شعرا الآن أنَّ لهما سوآت، تكشَّفت لهما بعد أن كانت مواراة عنهما . . والظاهر أنَّها السوءات الحسية تبدَّت لهما وكانت عنهما مستورة، وأنَّها مواض العفة في حسيهما. رجح ذلك أنَّهما أخذا يستراتها بورق الجنَّة يشبطانه ليستر هذه المواضع **﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنَّة﴾** . . فراحا يجمعان من ورق الجنة يشبكانه بعضه في بعض **﴿يخصفان﴾** ويضعان هذا الورق المشبك على سوآتهما ـ ممَّا يوحي بأنَّها العورات الجسدية التي يخجل الإنسان فطرة من تعرها، ولا يتعرّىٰ ويتكشّف إلاَّ بفساد هذه الفطرة من صنع الجاهلية!

وقد يكون ذلك إيذاناً باستيقاظ الدوافع الجنسية في كيانهما. فَقَبْل يقظة هذه الدوافع لا يحسّ الإنسان بالخجل من كشف مواضع العفة ولا ينتبه إليها ولكنه ينتبه إلى العورات عند استيقاظ دوافع الجنس ويخجل من كشفها.

وربَّما كان خطر هذه الشجرة عليهما، لأنَّ ثمارها ممَّا يوقظ هذه الدوافع في الجسم تأجيلاً لها فترة من الزمان كما يشاء الله. وربما كان نسيانهما عهد الله وعصيانهما له تبعه هبوط في عزيمتهما وانقطاع عن الصلة بخالقهما فسيطرت عليهما دوافع الجسد وتنبّهت فيهما دوافع الجنس. وربما كانت الرغبة في الخلود تجسّمت في استيقاظ الدوافع الجنسية للتناسل، فهذه هي الوسيلة الميسرة للإنسان للامتداد وراء العمر الفردي المحدود.

كل هذه فروض لتفسير مصاحبة ظهور سوآتهما لهما للأكل من الشجرة. فهو لم يقل: فبدت سوآتهما. إنَّما قال: فبدت لهما سوآتهما. ممَّا

يؤذن أنَّها كانت محجوبة عنهما فظهرت لهما بدافع داخلي من إحساسهما . .

وقد جاء في موضع آخر عن إبليس: ﴿**ليُبدي لهما ما وُوري عنهما من سوآتهما**﴾ [الأعراف: ٢٠]، وجاء: ﴿**ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما**﴾ [الأعراف: ٢٧] وقد يكون اللباس الذي نزعه الشيطان ليس لباساً مادياً إنَّما هو شعور ساتر، قد يكون هو شعور البراءة والطهارة والصلة بالله.

وعلى أية حال فهي مجرد فروض كما أسلفنا لا نؤكدها ولا نرجح واحداً منها. إنَّما هي لتقرب صورة التجربة الأُولىٰ في حياة البشرية: ﴿**فأزَّلهما الشيطان عنها، فأخرجهما ممَّا كانا فيه**﴾ [البقرة: ٣٦].

ويا للتعبير المصور: « أزلَّهما » . . إنَّه لفظ صورة الحركة التي يعبر عنها. وإنَّك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنَّة، ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوي!

﴿**وناداهما ربهما ألَم أنهكما عن تلكما الشَّجرة، وأقل لكما: إنَّ الشيطان لكما عدوٌّ مبين؟**﴾ [الأعراف: ٢٢].

وسمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية وعلى إغفال النصيحة. . أمَّا كيف كان النداء وكيف سمعاه، فهو كما خاطبهما أول مرة. وكما خاطب الملائكة. وكما خاطب إبليس. كلها غيب لا ندري عنه إلاَّ أنَّه وقع. وأنَّ الله يفعل ما يشاء.

وأمام النداء العلوي يتكشَّف الجانب الآخر في طبيعة هذا الكائن المتفرد. . إنَّه ينسىٰ ويخطىء. إنَّ فيه ضعفاً يدخل منه الشيطان.

إنَّه لا يلتزم دائماً ولا يستقيم دائماً[1] . . ولكنَّه يدرك خطأه، ويعرف

---

(١) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا خَلَقَ الله آدم نفخ فيه الروح وعطس، فقال: الحمد لله، فحَمِدَ الله بإذن الله، فقال له ربُّه: يرحمك ربُّك يـا آدم، اذهب إلى أُولـئك الملائكة ـ إلى ملأ منهم جلوس ـ فسلِّم عليهم، فقال: السَّلام =

زلقه، ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة.. إنَّه يثوب ويتوب؛ ولا يلح لها الشيطان في المعصية، ولا يكون طلبه من ربِّه هو العون على المعصية!

﴿قالا: ربَّنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرين﴾ [الأعراف: ٢٣].

إنَّها خصيصة «الإنسان» التي تصله بربه، وتفتح له الأبواب إليه.. الاعتراف، والندم، **والاستغفار**، والشعور الضعف، والاستعانة به، وطلب رحمته. مع اليقين بأنَّه لا حول له ولا قوة إلَّا بعون الله ورحمته.. وإلَّا كان من الخاسرين.. **﴿فتلقَّىٰ آدم من ربِّه كلمات فتاب عليه، إنَّه هو التوَّاب الرَّحيم﴾** [البقرة: ٣٧].

ونهض آدم من عثرته بما رُكب في فطرته، وأدركته رحمة الله التي تدركه دائماً عندما يثوب إليها، ويلوذ بها **﴿ثمَّ اجتباه ربه فتاب عليه وهدىٰ﴾** [طٰه: ١٢٢] بعدما استغفر آدم وندم واعتذر.

لقد أدركت آدم وزوجه رحمة الله، بعدما عصاه، فكانت هذه هي التجربة الأُولىٰ: **﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾** [طٰه: ١١٥].

= عليكم، فقالوا: وعليكم السَّلام ورحمة الله، ثمَّ رجع إلى ربِّه، فقال: هذه تحيتُك وتحية بَنيك بينهم، وقال الله جلَّ وعلا ـ ويداه مقبوضتان ـ: اختر أيُّهما شئتَ. فقال: اخترتُ يمين ربي وكِلتا يدي ربي يمين مباركة، ثمَّ بسطهما، فإذا فيهما آدم وذريتهُ، فقال: أي ربّ، ما هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذريتك، فإذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عينيه، فإذا فيهم رجلٌ أضوؤهم ـ أو من أضوئهم ـ، ولم يكتب له إلَّا أربعين سنة. قال: يا ربِّ، ما هذا؟ قال: هذا ابنك داوود، وقد كتب الله عُمره أربعين سنة، قال: أي ربِّ، زِدْهُ في عمره، قال: ذاك الذي كُتب له، قال: فإنِّي قد جعلتُ له من عمري ستين سنة، قال: أنتَ وذاك، اسكن الجنَّة، فسكن الجنَّة ما شاء الله، ثمَّ أُهبط منها، وكان آدم يَعُدُّ لنفسه، فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد عجلتَ، قد كُتبَ لي ألف سنة، قال: بلىٰ، ولكنَّك جعلتَ لابنك داود منها ستين سنة، فجَحَدَ، فجحدتْ ذُريته، ونسي فنسيت ذريته، فيومئذٍ أُمِرَ بالكتاب والشهود» [أخرجه ابن حبّان وإسناده قوي على شرط مسلم، انظر الإحسان رقم (٦١٦٧)].

إنَّ آدم نسي ما عهد الله بـه إليه؛ وضعف أمـام الإغراء بـالخلود، فاستمع لوسوسة الشيطان. وكان هذا ابتلاء من ربه لـه قبل أن يعهـد إليه بخلافة الأرض؛ ونموذجاً من فعل إبليس يتخذ أبناء آدم منه عبرة. فلمَّا تمَّ الابتلاء تداركت آدم رحمة الله فاجتباه وهداه..

يقول البهي الخولي في خصيصة «الإنسان» التي تصله بربه: «ومن الغرائز الأصلية في الإنسان «غـريزة التـدين»... ومن مظاهـرها الـرجوع إلى الله والإنابة إليه، والنزوع إلى غوثه ورعايته سبحانه.

والفرق بين هذه الغريزة وسابقاتها أنَّ الأُوليات[1] قوىً بشرية تعمل في حقل حيوانية المرء.. أمَّا هذه فذات مجال علوي لأنَّها من خصائص الروح الذي نفخه الله سبحانه في الإنسان.. فالأوليـات ينزعن بـه إلى الأرض، وهذه تذهب به صاعـدة إلى السماء. فـإذا ما استحقت الخصـائص ذات الاتجاه المادي الحيواني أن تسمّىٰ «غرائز» فأَوْلىٰ ثمَّ أَوْلىٰ أن تسمىٰ فطرة التدين «غريزة» لأنَّ مدد الروح في الإنسان من أمر الله وهو أقـوىٰ وأدوم وآصل ممَّا سواه.

ويظهر أثر تلك الغريزة بارزاً قوياً في حالتين متميزتين:

الأولىٰ: حينما يقع أهـل الغفلة والشرود عن الله في كـرب لا تنفع الحيل والأسباب في دفعه، وتغدو به حياتهم مهدّدة بالمصير الذي يهلعون منه؛ وإلى مثل ذلك يشير قوله سبحانه: **﴿حتىٰ إذا كنتم في الفُلك وجرين بهم بريحٍ طيبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنـوا أنهم أُحيط بهم دعوا الله مخلصين لـه الدين لئن أنجيتنـا من هـٰذه لنكوننَّ من الشَّاكرين﴾** [يونس: ٢٢].

فهم حينئـذٍ يندفعـون إلى الله بدافـع الفطرة المخبـوءة التي طـالمـا

---

(١) قد تقدم ذكرها في القصة وهي: غريزة الزوج، وغريزة حب الخلود، وغريزة المُلك.

تجاهلوها، وأكثروا من إلقاء ركام الغفلة والشهوات عليها حتى خُيِّل إليهم أن ليس فيهم ما ينزع إلى السماء، فلمَّا جاءهم الموج من كل مكان، وظنُّوا أنَّهم أُحيط بهم، وعجزت الأسباب أن تمد لهم يداً بمعونة، تنحت الغفلة، وانحسر عن أذهانهم غرور الحياة الدنيا، فإذا بالفيض المحتبس ينبجس، وإذا بالقوة المطمورة تنبعث، وإذا هم بلسان الفطرة ـ لا بلسان الإرادة ـ يذكرون الله الذي نسوا، ويدعونه تضرعاً وخفية: **﴿لئن أنجيتنا من هٰذه لنكوننَّ من الشَّاكرين﴾**. وهذا الصنف من الناس لا خير فيهم غالباً؛ فإنَّهم لا يلبثون ـ إذا نجاهم الله ـ أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من الإثم والغفلة **﴿فلمَّا نجَّاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾**.

أمَّا الحالة الثَّانية: فتقع لطراز من النَّاس ألطف حساً، وأرقىٰ بصيرة، وأصفىٰ نفساً. . . تقع لهم حين لا يستطيعون دفع غريزة، ولا مقاومة ميل إلى إثم، ولا تبين رشد وسط ما تنشره الشهوة المتلمظة من ضباب في أُفق صوابه؛ فإذا قضت النفس وطرها سكن هائجه، وخمد ثائره، وانحسر ضباب الشهوة من ذهنه، وصفا أُفقه فإذا به أمام صحوة ضمير، ويقظة روح، وإشراق نفس؛ فيتبين ضعفه أمام ما كان، ويدركه الأسف، ويثور به الندم، وتضيق عليه نفسه فلا يجد ملجأ من ضميره إلاَّ أن يُقبل على الله تائباً مستغفراً؛ ولقد أثنىٰ الله سبحانه على ذلك الصنف من عباده فقال: **﴿والَّذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ ومن يغفر الذنوب إلاَّ الله ـ ولم يُصروا على ما فعلوا وهم يعلمون، أُولٰئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ونعم أجر العاملين﴾** [آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦]. وتلك الحال الأخيرة تماثل ما ذكرت القصة عن آدم عليه السَّلام، فإنَّه ما لبث بعد المعصية أن أشرقت فطرته؛ فتبيَّن شناعة ما أتىٰ، فلم يتمالك أن ضرع إلى الله من ذلّ معصيته: **﴿ربَّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين﴾**. الغرائز: لون يمد له سبيل الفتنة والمعصية، وآخر يمهد له سبيل الإنابة والمغفرة،

وذلك هو مقتضىٰ ما سُوي عليه من خصائص التراب وخصائص الروح؛ فهو متنازع بين هذين الطرفين الفطريين: ظلمة ونور.. دنس وطهر.. معصية وتوبة.. وذلك شأن النمط الأوسط من الناس؛ والله يحب التَّوابين ويحب المتطهِّرين.

وليس من قصدنا أن نفصل أحوال الناس في التقلب بين هذين الطرفين، واختلاف حظوظهم من الاستجابة لهذا النوع أو ذاك، فلذلك مبحث آخر، فلنسجل ما تنص عليه القصة من أنَّ الخطيئة بعض لوازمنا، وأنَّ الإنابة إلى الله من أسمىٰ خصائصنا؛ وألَّا ذنب مع إنابة، ولا خطيئة مع استغفار، ولا عقوبة إلَّا مع إصرار، وأنَّه سبحانه أسرع ما يكون إلى عبده بالقبول حين ينكسر إليه ضارعاً من فراش الذلة والخطيئة والمعصية: **﴿فتلقّىٰ آدم من ربِّه كلمات فتاب عليه إنَّه هو التوَّاب الرَّحيم﴾**..»[1].

والله سبحانه وتعالىٰ لا يغلق في وجه الإنسان ـ هذا المخلوق الضعيف ـ باب التوبة، ولا يلقيه منبوذاً حائراً في التيه! ولا يدعه مطروداً خائفاً من المآب.. إنَّه يطمعه في المغفرة، ويدله على الطريق، ويأخذ بيده المرتعشة، ويسند خطوته المتعثرة، وينير له الطريق، ليفيء إلى الحمىٰ الآمن، ويثوب إلى الكنف الأمين.

شيء واحد يتطلبه: ألَّا يجف قلبه، وتظلم روحه، فينسىٰ الله.. وما دام يذكر الله. ما دام في روحه ذلك المشعل الهادي. ما دام في ضميره ذلك الهاتف الحادي. ما دام في قلبه ذلك الندىٰ البليل.. فسيطلع النور في روحه من جديد، وسيؤوب إلى الحمىٰ الآمن من جديد، وستنبت البذرة الهامدة من جديد **﴿قالا ربَّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين﴾**... وطمع آدم وزوجه بيد الرحمة الحانية، وتقبل الله عذرهما

---

(١) آدم، ص: ١٤٧ ـ ١٥٠.

حين استغفروا من الخطيئة، وعادا إلى الله في عبودية واستسلام. فهم في كنف الله وفي محيط عفوه ورحمته وفضله. .

كلمة الله وقضاؤه :

لقد تمَّت التجربة الأُولىٰ. وتكشفت خصائص الإنسان الكبرىٰ. وعرفها هو وذاقها. واستعدَّ ـ بهذا التنبيه لخصائصه الكامنة ـ لمزاولة اختصاصه في الخلافة؛ وللدخول في المعركة التي لا تهدأ أبداً مع عدوه. .

لقد تمَّت اتجربة: نسي آدم عهده، وضعف أمام الغواية. وعندئذٍ حقَّت كلمة الله، وصرح قضاؤه: ﴿**وقلنا: اهبطوا. . بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين**﴾ [البقرة: ٣٦].

وكان هذا إيذاناً بانطلاق المعركة في مجالها المقدر لها. . بين الشيطان والإنسان إلى آخر الزمان ﴿**قال: اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين. قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون**﴾ [الأعراف: ٢٤، ٢٥]. .

وهبطوا جميعاً. . هبطوا إلى هذه الأرض. . ولكن أين كانوا؟ أين هي الجنَّة؟. . هذا من الغيب الذي ليس عندنا من نبأ عنه إلاَّ ما أخبرنا به مَنْ عنده مفاتح الغيب وحده. . وكل محاولة لمعرفة هذا الغيب بعد انقطاع الوحي هي محاولة فاشلة. وكل تكذيب كذلك يعتمد على مألوفات البشر اليوم و « علمهم » الظنّي هو تبجح. فهذا « العلم » يتجاوز مجاله حين يحاول الخوض في هذا الغيب بغير أداة عنده ولا وسيلة. ويتبجح حين ينفي الغيب كله، والغيب محيط به في كل جانب، والمجهول في « المادة » التي هي مجاله أكثر كثيراً من المعلومات[1].

---

(١) يراجع في ظلال القرآن الجزء السَّابع ص ١١١١ ـ ١١٢١ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاَّ هو﴾. .

لقد هبطوا جميعاً إلى الأرض. . آدم وزوجه، وإبليس وقبيله. هبطوا ليصارع بعضهم بعضاً، وليعادي بعضهم بعضاً، ولتدور المعركة بين طبيعتين وخليقتين: إحداهما ممحضة للشر، والأخرىٰ مزدوجة الاستعداد للخير والشر، وليتم الابتلاء، ويجري قدر الله بما شاء الله(١).

---

(١) روىٰ أبو هريرة عن النَّبيّ ﷺ أنَّه قال: «احتجَّ آدم وموسىٰ، فقال موسىٰ: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأغويتَ الناس، وأخرجتهم من الجنَّة، فقال آدم: أنت موسىٰ الذي اصطفاك الله بكلامه، تلومني على عمل عَمِلتُه كتبه الله عليّ قبلَ أن يخلقَ السَّماوات والأرض؟ قال: فحجَّ آدم موسىٰ». [رواه ابن حبّان في صحيحه بإسناد صحيح على شرط مسلم. رجاله ثقات رجال الشيخين غيرْ يحيى بن حبيب، فمن رجال مسلم. (انظر الإحسان ٦١٧٩)].

وعن أبي هريرة يَبْلُغ به النَّبيّ ﷺ، قال: «احتجَّ آدمُ موسىٰ، فقال موسىٰ: يَـا آدم، أنتَ أبونا خيَّبْتنا، وأخرجتنا من الجنَّة، فقال له آدم: يَـا موسىٰ، اصطفاك الله بكلامه، وخطَّ لك بيده، تلومني على أمر قد قُدِّر عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال: فحجَّ آدم موسىٰ، فحجَّ آدم موسىٰ، فحجَّ آدم موسىٰ». [رواه ابن حبّان وإسناده صحيح على شرط الشيخين. انظر الإحسان ٦١٨٠ و ٦٢١٠].

وفي سنن أبي داود ٢/٥٢٨ حيث قال موسىٰ لآدم: «ما حَمَلك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنَّة؟ فقال له آدم: ومن أنت؟! قال: أنا موسىٰ، قال: أنت نبي بني إسرائيل الذي كلَّمك الله من وراء حجاب لم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه؟ قال: نعم، قال: أمَا وجدتَ ذلك في كتاب الله قبل أن أُخْلَق؟ قال: نعم. قال: فيمَ تلومني في شيء سبقَ من الله تعالىٰ فيه القضاء قبلي؟ قال رسول الله عند ذلك: فحجَّ آدم موسىٰ، فحجَّ آدم وموسىٰ عليهما السَّلام».

قال الإمام الخطابي في «معالم السنن» ٤/٣٢٢: «قد يحسب كثير من النَّاس أنَّ معنىٰ القدر من الله والقضاء منه معنىٰ الإجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدَّره، ويتوهم أنَّ فَلْج آدم في الحجة على موسىٰ إنَّما كان من هذا الوجه، وليس الأمر في ذلك على ما يتوهَّمونه، وإنَّما معناه الإخبار عن تقدُّم علم الله سبحانه بما يكون من أفعال العباد وأكسابهم وصدورها عن تقدير منه، وخلق لها خيرها وشرها. والقدرُ اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر كما الهدم والقبض والنشر أسماء لما صدر عن فعل الهادم والقابض والناشر، يقال: قَدَرْتُ الشيء. وقدرت خفيفة وثقيلة بمعنىٰ واحد.

والقضاء في هذا معناه: الخلق، كقوله عزَّ وجلّ ﴿فقضاهنَّ سبع سماواتٍ في =

= يومين﴾، أي خلقهنَّ، وإذا كان الأمر كذلك، فقد بقي عليهم من وراء علم الله فيهم أفعالهم وأكسابهم، ومباشرتهم تلك الأمور، وملابستهم إيّاها عن قصد وتعمُّد وتقديم إرادة واختيار، فالحجَّة إنَّما تلزمهم بها، واللائمة تلحقهم عليها.

وجماع القول في هذا الباب أنَّهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأنَّ أحدهما بمنزلة الأساسي، والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رامَ هَدْم البناء ونقضه، وإنَّما كان موضع الحجَّة لآدم على موسىٰ صلوات الله عليهما أنَّ الله سبحانه إذا كان قد عَلِمَ من آدم أنَّه يتناول الشجرة، ويأكل منها، فكيف يمكنه أن يردّ علم الله فيه، وأن يبطله بعد ذلك؟

وبيان هذا في قوله سبحانه: ﴿وإذ قال ربُّك للملائكة إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفةً﴾ فأخبر قبل كون آدم أنَّه إنَّما خلقه للأرض، وأنَّه لا يتركه في الجنَّة حتى ينقله عنها إليها، وإنَّما كان تناوله الشجرة سبباً لوقوعه إلى الأرض التي خلق لها، وللكون فيها خليفةً، ووالياً على من فيها، فإنَّما أولىٰ آدم عليه السَّلام بالحجَّة على هذا المعنىٰ، ودفع لائمَة موسىٰ عن نفسه على هذا الوجه. ولذلك قال: أتلومني على أمرٍ قدَّره الله عليَّ قبل أن يخلقني؟ فإن قيل: فعلى هذا يجب أن يسقط عنه اللوم أصلاً، قيل: اللوم ساقط من قبل موسىٰ، إذ ليس لأحد أن يُعَيِّر أحداً بذنب كان منه، لأنَّ الخَلْقَ كلهم تحت العبودية أكفاء سواء، وقد روي: لا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنَّكم أرباب، وانظروا إليها كأنَّكم عبيد، ولكنَّ اللوم لازم لآدم من قِبَل الله سبحانه إذ كان قد أمره ونهاه، فخرج إلى معصيته، وباشر المنهي عنه، ولله الحجَّة البالغة سبحانه لا شريك له.

وقول موسىٰ ﷺ وإن كان منه في النفوس شبهة، وفي ظاهره متعلق لاحتجاجه بالسبب الذي قد جعل أمارة لخروجه من الجنَّة، فقول آدم في تعلقه بالسبب الذي هو بمنزلة الأصل أرجح وأقوىٰ. والفَلْجُ قد يقع مع المعارضة بالترجيح كما يقع بالبرهان الذي لا معارض له، والله أعلم.

وقال ابن عبد البرّ: هذا عندي مخصوص بآدم، لأنَّ المناظرة بينهما وقعت بعد أن تاب الله على آدم قطعاً كما قال تعالىٰ: ﴿فتلقَّىٰ آدمُ من ربِّه كلمات فتاب عليه﴾ فحسن منه أن يُنكر على موسىٰ لومه على الأكل من الشجرة، لأنَّه قد تيبَ عليه من ذلك، وإلاَّ فلا يجوز لأحد أن يقول لمن لامه على ارتكاب معصية، كما لو قتل أو زنىٰ أو سرق: هذا سبقَ في علم الله وقدره عليّ قبل أن يخلقني، فليس لك أن تلومني عليه، فإنَّ الأمَّة أجمعت على جواز لوم من وَقَعَ منه ذلك، بل على استحباب ذلك، كما أجمعوا على استحباب محمدة من واظب على الطاعة، وحكىٰ ابن وهب في كتاب «القدر» عن مالك، عن يحيى بن سعيد أنَّ ذلك كان من آدم بعد أن تيبَ عليه».

وقال الإمام ابن أبي العز في «شرحه للعقيدة الطحاوية» ١/١٣٦ عن هذا الحديث: =

لقد صدر الأمر العلوي إلى الخصمين اللدودين أن يهبطا إلى أرض المعركة الطويلة بعد الجولة الأولىٰ: **﴿قلنا اهبطا منها جميعاً، بعضكم لبعض عدو﴾** [طٰه: ١٢٣].

وتمَّت كلمة الله الأخيرة، وعهده الدائم مع آدم وذرّيته. عهد الاستخلاف في هذه الأرض، وشرط الفلاح فيها أو البوار. **﴿قلنا: اهبطوا منها جميعاً. فإمَّا يأتينَّكم مني هدىً فمن تبع هدايَ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والَّذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النَّار هم فيها خالدون﴾** [البقرة: ٣٨، ٣٩].

وانتقلت المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل، وانطلقت من عقالها ما تهدأ لحظة وما تفتر. وعرف الإنسان في فجر البشرية كيف ينتصر إذا شاء الانتصار، وكيف ينكسر إذا اختار لنفسه الخسار.

وبعد فلا بد من عودة إلى مطالع القصة. قصة البشرية الأولىٰ.

لقد قال الله تعالىٰ للملائكة: **﴿إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفة﴾**.. وإذن فآدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولىٰ. ففيم إذن كانت تلك الشجرة المحرمة؟ وفيم إذن كان بلاء آدم؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض، وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولىٰ؟

لعلَّنا نلمح أنَّ هذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة وإعداداً. كانت

= نتلقاه بالقبول والسمع والطاعة، لصحته عن رسول الله ﷺ، ولا نتلقاه بالرد والتكذيب لراويه، كما فعلت القدرية، ولا بالتأويلات الباردة، بل الصحيح أنَّ آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب، وهو كان أعلم بربه وذنبه، بل آحاد بنيه من المؤمنين لا يحتج بالقدر، فإنَّه باطل، وموسىٰ عليه السَّلام كان أعلم بأبيه وبذنبه من أن يلوم آدم عليه السَّلام على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه، واجتباه وهداه، وإنَّما وقع اللوم على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنَّة، فاحتجَّ آدم بالقدر على المصيبة، لا على الخطيئة، فإنَّ القدر يحتج به عند المصائب، لا عند المعايب.

إيقاظاً للقوىٰ المذخورة في كيانه. كانت تدريباً له على تلقّي الغواية، وتذوُّق العاقبة، وتجرُّع الندامة، ومعرفة العدو، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين.

وتبيِّن آيات القرآن الكريم أنَّ دور هذا الإنسان في الأرض هو عمارتها. فالخلافة عن الله فيها معناه الإنشاء والتعمير والتبديل والتغيير. وكلها من عمل الله، الذي أعطىٰ قبسة منه للخليفة الذي استخلفه فيها، وزوّده كذلك بالإمكانيات. والإمكانة الكبرىٰ هي المعرفة.. هي العلم.. **﴿وعَلَّم آدم...﴾**.

وهي إحدىٰ المزايا التي ينفرد بها الإنسان. ينفرد بها حتى على الملائكة. فهو يقوم بدوره في المعرفة والعلم يعجز عنه الملائكة، ويكون بمثابة «شهادة الاستحقاق» الت يمنحها الله للإنسان. فيقرّ بها الملائكة ويسجدون لله المبدع القدير.

ولكنَّ الطاقات الضخمة الممنوحة للإنسان.. ومن أبرزها طاقة المعرفة التي يسخر الله بها السَّماوات والأرض. لا تمنعه من نقطة ضعف أصيلة في كيانه هي حبه للشهوات: **﴿زُيِّن للنَّاس حبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا﴾** [آل عمران: ١٤].

إنَّ الشجرة التي نُهي عنها أصبحت شهوة بالنسبة إليه.. لقد كانت تجربة لإرادته الضابطة ـ وهي من بين الطاقات الممنوحة له ـ هل تستطيع أن تمتنع على «الشهوة» أم لا تستطيع. وفي هذه التجربة تبدو نقطة الضعف في كيان هذا الإنسان المتفرد! فهو لا يصمد في كل حالة، ولا تقوىٰ إرادته الضابطة على المقاومة: **﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾**. ولكنّه ليس ضعفاً أبدياً. ولا هي زلة لا قيام منها.

فهو يملك أن يضيق من زلته بأن يرفع وجهه إلى خالقه **﴿فتلقّىٰ آدم من ربِّه كلمات فتا عليه﴾**.

وتلك قيمة رئيسة من قيم حياته. فهو عرضة للضعف أمام الشهوات. ولكنه مزود بالقدرة على الإفاقة من هذا الضعف بالتوجّه إلى الله.

وفي صميم فطرته أن يفعل هذه وتلك: **﴿ونفس وما سوَّاها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾** [سورة الشَّمس: ٧ ـ ١٠].

ثمَّ هو مزود بالقدرة على الصـراع: **﴿قلنا: اهبـطوا بعضكم لبعض عدو﴾** وما دام هناك عداء، فهناك ولا شك صـراع وقدرة على الصـراع. والعداء مع الشيطان. مع قوىٰ الشر المتمثلة في شتّىٰ الصـور والأشكال. وزوّده خالقه بالقدرة على الصراع وأنَّها قيمة كذلك أساسية من قيم حياته، ضرورية له في أداء دوره على الأرض: **﴿ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض. ولـكنَّ الله ذو فضلٍ على العالمين﴾** [البقرة: ٢٥١]. ثمَّ إنَّ له في الأرض قسطاً من الاستقرار والمتاع: **﴿ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين﴾**..

فالاستقرار المؤقت والمتاع قيمتان رئيستان في حياة الإنسان مزود بهما كيانه، كما هو مزود من الجانب الآخر بالقدرة على الصراع وخلاصة الأمر فإنَّ الإنسان يقوم بدوره في الخلافة عن الله مـزوداً من الله الذي أخلفـه، بدستور من الهدىٰ الرباني: **﴿فإمَّا يأتينَّكم منِّي هدىً فمن تبع هـدايَ فلا خوفٌ عليه ولا هم يحزنون﴾**. وفي فطرته أن يستـطيع التـوجّه إلى الله، والاستمداد من هداه. كما أنَّ في فطرته أن يستطيع الابتعاد عن الله والكفر بآياته: **﴿والَّذين كفروا بآياتنا أُولـئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**.

إنَّ الإنسان مخلوق متفرّد. فكل تفسير يلحقه بغيره من الكائنات تفسير باطل من أساسه.

وهو مخلوق خطير الشأن في دورة الحياة. أُولىٰ آيات خطره أنَّ الله بنفسه سبحانه هو الذي يعلن نبأ مولده ـ كما تقدّم ـ ومن آيات هذا الخطر أن تسجد لخلقه الملائكة. وأن يسخر له ما في السَّماوات والأرض جميعاً. وأن يجعل الله إرادته العليا سبحانه مقضية عن طريق إرادة الإنسان ووجوده وأفعاله ﴿إنَّ الله لا يُغيِّر ما بقومٍ حتّىٰ يغيِّروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١]. . ﴿ظهر الفساد في البر وابحر بما كسبت أيدي النَّاس﴾ [الروم: ٤١]. ﴿ولولا دفعُ الله النَّاسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ [البقرة: ٢٥١].

إنَّ قصة الشجرة المحرمة، ووسوسة الشَّيطان باللذة ونسيان العهد بالمعصية، والصحوة من بعد السكرة، والندم وطلب المغفرة. . إنَّها هي هي تجربة البشرية المتجددة المكرورة!

لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته، مزوداً بهذه التجربة التي سيعرض لمثلها طويلاً، استعداداً للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيراً. .

وبعد. . مرة أُخرىٰ. . فأين كان هذا الذي كان؟ وما الجنَّة التي عاش فيها آدم وزوجه حيناً من الزمان؟ ومن هم الملائكة؟ ومن هو إبليس؟. . كيف قال الله تعالىٰ لهم؟ وكيف أجابوه؟. .

هذا وأمثاله في القرآن الكريم غيب من الغين الذي استأثر الله تعالىٰ بعلمه؛ وعلم بحكمته أن لا جدوىٰ للبشر في معرفة كنهه وطبيعته، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به، بالأداة التي وهبهم إيَّاها لخلافة الأرض، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطّلع على هذا الغيب. وبقدر ما سخَّر الله للإنسان من النواميس الكونية وعرَّفه بأسرارها، بقدر ما حجب عنه أسرار الغيب، فيما لا جدوىٰ له في معرفته.

وما يزال الإنسان مثلاً على الرغم من كل ما فُتح له من الأسرار الكونية يجعل ما وراء اللحظة الحاضرة جَهلاً مطلقاً، ولا يملك بأي أداة من أدوات

المعرفة المتاحة له أن يعرف ماذا سيحدث له بعد لحظة، وهَل النَفَس الذي خرج من فمه عائد أم هو آخر أنفاسه؟ وهذا مَثَل من الغيب المحجوب عن البشر، لأنَّه لا يدخل في مقتضيات الخلافة، بل ربَّما كان معوِّقاً لها لو كشف للإنسان عنه! وهناك ألوان من مثل هذه الأسرار المحجوبة عن الإنسان في طيِّ الغيب الذي لا يعلمه إلَّا الله. ومن ثَمَّ لم يعد للعقل البشري أن يخوض فيه، لأنَّه لا يملك الوسيلة للوصول إلى شيء من أمره. وكل جهد يبذل في هذه المحاولة هو جهد ضائع، ذاهب سدىً، بلا ثمرة ولا جدوىٰ.

وإذا كان العقل البشري لم يوهب الوسيلة للاطِّلاع على هذا الغيب المحجوب، فليس سبيله إذن أن يتبجح فَيُنْكِر. فالإنكار حكم يحتاج إلى المعرفة. والمعرفة هنا ليست من طبيعة العقل، وليست في طوق وسائله، ولا هي ضرورية له في وظيفته!

إنَّ الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر بالغ الخطورة. ولكن أضرّ منه وأخطر، التنكُّر للمجهول كله وإنكاره، واستبعاد الغيب لمجرد عدم القدرة على الإحاطة به.. إنَّها تكون نكسة إلى عالم الحيوان الذي يعيش في المحسوس وحده، ولا ينفذ من أسواره إلى الوجود الطليق.

فلندع هذا الغيب لصاحبه، وحسبنا ما يقص لنا عنه، بالقدر الذي يصلح لنا في حياتنا، ويصلح سرائرنا ومعاشنا. ولنأخذ من القصة ما نشير إليه من حقائق كونية وإنسانية، ومن تصور للوجود وارتباطاته، ومن إيحاء بطبيعة الإنسان وقيمه وموازينه.. فذلك وحده أنفع للبشرية وأهدىٰ.

إنَّ أبرز إيحاءات قصة آدم هو القيمة الكبرىٰ التي يعطيها التصور الإسلامي للإنسان ولدوره في الأرض، ولمكانه في نظام الوجود، وللقيم التي يوزن بها. ثمَّ لحقيقة ارتباطه بعهد الله، وحقيقة هذا العهد الذي قامت خلافته على أساسه.

وتتبدّىٰ تلك القيمة الكبرىٰ التّي يعطيها التصوّر الإسلامي للإنسان

في الإعلان العلوي الجليل في الملأ الأعلىٰ الكريم، إنَّه مخلوق ليكون خليفة في الأرض، كما تتبدّىٰ في أمر الملائكة بالسجود له.. وفي طرد إبليس الذي استكبر وأبىٰ، وفي رعاية الله أوّلاً وأخيراً..

ومن هذه النظرة للإنسان تنبثق جملة اعتارات ذات قيمة كبيرة في عالم التصور وفي عالم الواقع على السواء. وأول اعتبار من هذه الاعتبارات هو أنّ الإنسان سيد هذه الأرض، ومن أجله خلق كل شيء فيها فهو إذن أعز وأكرم وأغلىٰ من كل شيء مادي، ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض جميعاً. ولا يجوز إذن أن يُستعبد أو يُستذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادي.. لا يجوز أن يعتدي على أي مقوم من مقومات إنسانيته الكريمة، ولا أن تهدر أيّة قيمة من قيمه لقاء تحقيق أي كسب مادي، أو إنتاج أي شيء مادي، أو تكثير أي عنصر مادي.. فهذه الماديات كلها مخلوقة ـ أو مصنوعة ـ من أجله.. من أجل تحقيق إنسانيته. من أجل تقرير وجوده الإنساني. فلا يجوز إذن أن يكون ثمنها هو سلب قيمة من قيمه الإنسانية، أو نقص مقوم من مقومات كرامته.

والاعتبار الثّاني هو أنَّ دور الإنسان في الأرض هو الدور الأوَّل. فهو الذي يغير ويبدل في أشكالها وفي ارتباطاتها، وهو الذي يقود اتجاهاتها ورحلاتها. وليست وسائل الإنتاج ولا توزيع الإنتاج، هي التي تقود الإنسان وراءها ذليلاً سلبياً كما تصوره المذاهب المادية التي تحقر من دور الإنسان وتصغر، بقدر ما تعظم في دور الآلة وتكبر!

إنَّ النظرة القرآنية تجعل هذا الإنسان بخلافته في الأرض، عاملاً مهماً في نظام الكون، ملحوظاً في هذا النظام. فخلافته في الأرض تتعلق بارتباطات شتّىٰ مع السّماوات ومع الرياح ومع الأمطار، ومع الشموس والكواكب.. وكلها ملحوظ في تصميمها وهندستها إمكان قيام الحياة على الأرض، وإمكان قيام هذا الإنسان بالخلافة.. فأين هذا المكان الملحوظ من ذلك الدور الذليل الصغير الذي تخصصه له المذاهب المادية، ولا

تسمح له أن يتعدّاه؟! وما من شك أنَّ كلًّا من نـظرة الإسلام هـذه ونظرة المادية للإنسان تؤثر في طبيعة النـظام الذي تقيمـه هذه وتلك لـلإنسان؛ وطبيعة احترام المقومات الإنسانية أو إهدارها؛ وطبيعة تكريم هذا الإنسان أو تحقيره.. وليس ما نراه في العالم المادي من إهدار كل حريات الإنسان وحرماته ومقوماته في سبيل توفير الإنتاج المادي وتكثيره، إلَّا أثراً من آثار تلك النظرة إلى حقيقة الإنسان، وحقيقة دوره في هذه الأرض!

كذلك ينشأ عن نظرة الإسلام الرفيعـة إلى حقيقة الإنسـان ووظيفته إعلاء القيم الأدبية في وزنه وتقديره، وإعلاء قيمة الفضائل الخلقية، وتكبير قيم الإيمان والصلاح والإخلاص في حياته. فهذه هي القيم التي يقوم عليها عهد استخلافه[1]: ﴿**فإمّا يأتينَّكم مني هدىً فمن تبع هدايَ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون...**﴾.

وهذه القيم أعلىٰ وأكرم من جميع القيم المادية ـ هذا مع أنَّ مفهوم الخلافة تحقيق هذه القيم المادية، ولكن بحيث لا تصبح هي الأصل ولا تطغىٰ على تلك القيم العليا ـ ولهذا وَزْنه في تـوجيه القلب البشـري إلى الطهارة والارتفاع والنظافة في حياته. بخلاف ما توحيه المذاهب المادية من

---

(١) عن زيد بن سلّام، قال: سمعتُ أبا سلّام، قال: سمعتُ أبا أُمامة قال: إنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، أنبي كان آدم؟ قال: «نعم مُكَلَّم»، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون» أخرجه ابن حبّان، والطبراني في الكبير (٧٥٤٥) وذكره الهيثمي في المجمع» ٨/ ٢١٠ و ١/ ١٩٦ وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه الحاكم، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. انظر الإحسان رقم (٦١٩٠).

وأخرج الطبري في «تاريخ الأُمم والملوك» ١/ ١٥٠ من طريق محمَّد بن إسحاق، عن أبي ذرّ، قال: قلتُ: يَـا نبيَّ الله، أنبيّاً كان آدم؟ قال: «نعم، كان نبيّاً، كلمه الله قبلاً».

وعن أبي ذرّ ـ رضي الله عنه ـ في حديث طويل، قال: قلتُ: يـا رسول الله، أي الأنبياء كان أوَّل؟ قال: «آدم». قلت: ونبي هو؟ قال: «نعم، ونبي مكلَّم». أخرجه ابن حبّان، وأحمد ٥/ ١٧٨ و ١٧٩، والبزار (١٦٠) وغيرهم. انظر تخريجه في هامش وتعليق الحديث رقم ٦١٩٠ في الإحسان.

استهزاء بكل القيم الروحية، وإهدار لكل القيم الأدبية، في سبيل الاهتمام المجرد بالإنتاج والسلع ومطالب الطون كالحيوان(١)!

وفي التصور الإسلامي إعلاء من شأن الإرادة في الإنسان فهي مناط العهد مع الله، وهي مناط التكليف والجزاء.. إنَّه يملك الارتفاع على مقام الملائكة بحفظ عهده مع ربه عن طريق تحكيم إرادته، وعدم الخضوع لشهواته، والاستعلاء على الغواية التي توجه إليه. بينما يملك أن يشقي نفسه ويهبط من عليائه، بتغليبه الشهوة على الإرادة، والغواية على الهداية، ونسيان العهد الذي يرفعه إلى مولاه.

وفي هذا مظهر من مظاهر التكريم لا شك فيه، يضاف إلى عناصر التكريم الأخرىٰ. كما أنَّ فيه تذكيراً دائماً بمفرق الطريق بين السعادة والشقاوة، والرفعة واهبوط، ومقام الإنسان المريد ودرك الحيوان المسوق!

وفي أحداث المعركة التي تصورها القصة بين الإنسان والشيطان مذكر دائم بطبيعة المعركة. إنَّها عهد بين الله وغواية الشيطان بين الإيمان والكفر. بين الحق والباطل. بين الهدىٰ والضلال.. والإنسان هو نفسه ميدان المعركة. وهو نفسه الكاسب أو الخاسر فيها. وفي هذا إيحاء دائم له باليقظة، وتوجيه دائم له بأنَّه جندي في ميدان؛ وأنَّه هو صاحب الغنيمة أو السلب في هذا الميدان!

حقيقة الإنسان في ظلال القرآن:

لقد كُتِبَ على آدم وذريته أن يستقروا في الأرض؛ ويُمَكَّنوا فيها، ويستمتعوا بما فيها إلى حين. وكُتب عليهم أن يحيوا فيها ويموتوا؛ ثمَّ يخرجوا منها فَيُبعثوا.. ليعودوا إلى ربهم فيدخلهم جنته أو ناره، في نهاية الرحلة الكبرىٰ..

---

(١) يراجع بتوسع كتاب «الإنسان بين المادية والإسلام» لمحمَّد قطب.

وبعد.. فإنَّها ليست قصة آدم عليه السَّلام! إنَّما هو عرض لحقيقة الإنسان لتعريفه بحقيقة طبيعته ونشأته، والعوالم المحيطة به، والقدر الذي يصرف حياته، والمنهج الذي يرضاه الله له، والابتلاء الذي يصادفه، والمصير الذي ينتظره.. وكلها حقائق تشارك في تقرير «مقومات التصور الإسلامي».

إنَّ **الحقيقة الأُولىٰ** التي نستلهمها من قصة النشأة الإنسانية ـ هي كما قلنا من قبل ـ التوافق بين طبيعة الكون ونشأة الكائن الإنساني. والتقدير الإلـٰهي المحيط بالكون والإنسان؛ والذي يجعل هذه النشأة قدراً مرسوماً لا فلتة عارضة، كما يجعل التوافق بينهما هو القاعدة.

والذين لا يعرفون الله سبحانه، ولا يقدرونه حق قدره، يقيسون أقداره وأفعاله بمقاييسهم البشرية الصغيرة.

فإذا نظروا فوجدوا الكائن الإنساني مخلوقاً من مخلوقات هذه الأرض. ووجدوا هذه الأرض ذرة صغيرة كالهباءة في خضم الكون. قالوا: إنَّه ليس من « المعقول »! أن يكون وراء نشأة هذا الإنسان قصد، فوق أن يكون لهذا الإنسان شأن في نظام الكون!

وزعم بعضهم أنَّ وجوده كان فلتة، وأنَّ الكون من حوله معاد لنشأته ونشأة الحياة جملة!.. وإن هي إلَّا تخرصات منشؤها قياس أقدار الله وأفعاله بمقاييس البشر الصغيرة!

وحقاً لو كان الإنسان هو الذي له هذا الملك الهائل ما عني بهذه الأرض، ولا بمثل هذا الكائن يدب عليها! لأنَّ اهتمام الإنسان لا يتسع للعناية بكل شيء في مثل هذا الملك الهائل؛ ولا بتقدير كل شيء فيه وتدبيره، والتنسيق بين جميع الأشياء فيه.. غير أنَّ الله ـ سبحانه ـ هو الله! هو الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السَّماوات ولا في الأرض. هو صاحب هذا الملك الكبير الذي لا يقوم شيء منه إلَّا برعايته؛ كما أنَّه لم يوجد منه

شيء إلاَّ بمشيئته.. إنَّما آفة هذا الإنسان، حين ينحرف عن هدى الله ـ ويستقل بهواه ـ ولو كان يسميه علماً! ـ أن ينسىٰ أنَّه الله. ويتصوره ـ سبحانه ـ على هواه! ويقيس أقداره وأفعاله بمقاييس الإنسان الصغيرة! ثمَّ يتبجح فيملي هواه هذا على الحقيقة!

يقول سير جيمس جينز ـ كَمَثَل على التصورات البشرية الضالة الكثيرة ـ في كتاب: «الكون الغامض»: «ونحن إذ نقف على أرضنا ـ تلك الحُبَيْبَة الرملية المتناهية في الصغر ـ نحاول أن نكشف عن طبيعة الكون الذي يحيط بموطننا في الفضاء والزمن، وعن الغرض من وجوده، نحسّ في أول الأمر بما يشبه الذعر والهلع. وكيف لا يكون الكون مخيفاً مرعباً، وهذه أبعاده هائلة لا تستطيع عقولنا إدراك مداها؟ وقد مرَّت عليه أحقاب طويلة لا يمكن تصورها؟ ويتضاءل إلى جانبها تاريخ الإنسان حتّىٰ يبدو وكأنَّه لمح البصر؟.. وهو مخيف مرعب لما نشعر به من وحدة مرهوبة، وما نعلمه من ضآلة موطننا في الفضاء. ذلك الموطن الذي لا يزيد على جزء من مُليون جزء من إحدىٰ حبيبات الرمال التي في بحار العالم!.. ولكن أخوف ما يُخاف العالم من أجله: أنَّه لا يُعنىٰ ـ كما يلوح ـ بحياة مل حياتنا. وكأنَّ عواطفنا ومطامعنا وأعمالنا وفنوننا وأدياننا كلها غريبة عن نظامه وخطته. وقد يكون من الحق أن نقول: إنَّه بينه وبين حياة كحياتنا عداءً قوياً. ذلك بأنَّ الفضاء في أكثر أجزائه بارد إلى حد تتجمد فيه كل أنواع الحياة.. كما أنَّ أكثر المادة التي في الفضاء تبلغ من الحرارة حداً يجعل الحياة فيها مستحيلة؛ وأنَّ الفضاء تذرعه إشعاعات مختلفة الأنواع، لا تنفك تصدم ما فيه من أجرام فلكية؛ وقد يكون كثير من هذه الإشعاعات معادياً للحياة أو مبيداً لها.

«هذا هو الكون الذي ألقت بنا فيه الظروف. وإذا لم يكن حقاً أنَّ ظهورنا حدث بسبب غلطة وقعت فيه، فلا أقل من أن يكون نتيجة لما يصح أن يوصف بحق أنَّه مصادفة!».

وقد بينًا من قبل أنَّ افتراض عداء الكون لنشأة الحياة مع افتراض عدم وجود تقدير وتدبير من قوة مهيمنة. . ثمَّ وجود الحياة بعد ذلك فعلاً. . أمور لا يتصورها عقل عاقل! فضلاً على أن يكون عقل عالم! وإلاَّ فكيف أمكن ظهور الحياة في الكون المعادي لها مع افتراض عدم وجود مهيمنة مقدِّرة! هل الحياة أقوىٰ من الكون بحيث تظهر رغم أنفه؟! ورغم عدائه لها بطبيعة تكوينه؟! هل هذا الكائن الإنساني مثلاً ـ قبل أن ينشأ ـ أقوىٰ من هذا الكون الموجود فعلاً، ومن ثمَّ طلع هكذا في الكون، وأنف الكون راغم؟!

إنَّها تصورات لا تستحق عناء النظر! ولو أنَّ هؤلاء « العلماء » يكتفون بأن يقولوا لنا فقط ما تصل إليه وسائلهم من وصف الموجودات، دون أن يدخلوا في أمثال هذه التخرصات « الميتافيزيقية » التي لا تستند على أساس، لأدُّوا دورهم ـ ولو ناقصاً ـ في تعريف الناس بالكون من حولهم! ولكنَّهم يتجاوزون دائرة المعرفة المأمونة إلى تيه الفروض والظنون، بلا دليل إلَّا الهوىٰ الإنساني الصغير! ونحن ـ بحمد الله وبهداه ـ ننظر إلى هذا الكون الهائل فلا نشعر بالذعر والهلع الذي يقول عنه سير جيمس جينز! إنَّما نشعر بالرهبة والإجلال لبارىء هذا الكون؛ ونشعر بالعظمة والجلال المتجليين في خلقه؛ ونشعر بالطمأنينة والأنس، لهذا الكون الصديق، الذي أنشأه الله وأنشأنا فيه عن توافق وتنسيق. . وتروعنا ضخامته كما تروعنا دقته؛ ولكننا لا نفزع ولا نجزع، ولا نشعر بالضياع، ولا نتوقع الهلاك. . فإنَّ ربنا وربه الله. . ونتعامل معه في يسر ومودة وأنس وثقة؛ ونتوقع أن نجد فيه أرزاقنا وأقواتنا ومعايشنا ومتاعنا. . ونرجو أن نكون من الشاكرين: ﴿**ولقد مكَّناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش. قليلاً ما تشكرون**﴾ [الأعراف: ١٠]. .

والحقيقة الثَّانية المستلهمة من قصة النشأة الإنسانية: هي كرامة هذا الكائن الفريد في العوالم الحية، وضخامة دوره المنوط به؛ وسعة الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها؛ وتنوع العوالم التي يتعامل معها ـ في حدود

عبوديته لله وحده ـ ممَّا يتناقض تماماً مع المذاهب الحسِّية الوضعية المادية التي تهدر قيمته كعامل أساسي مؤثر في الكون، بحيث تستند الأهمية كلها للمادة وتأثيراتها الحتمية. ومع مذهب النشوء والارتقاء الذي يلحقه بعالم الحيوان ولا يكاد يحفل خصائصه الإنسانية المتميزة؛ أو مذهب التحليل النفسي الفرويدي الذي يصوره غارقاً في وحل الجنس حتى ما يتسامىٰ إلاَّ عن طريق هذا الوحل نفسه!.. إلاَّ أنَّ هذه الكرامة لهذا الكائن الفريد، لا تجعل من الإنسان «إلـهاً» كما تحاول فلسفات عهد التنوير أن تقول[1]، إنَّما هو الحق والاعتدال في التصور الإسلامي السليم.

لقد أُعلن ميلاد هذا الكائن المتفرد، الذي نرجح من مجموعة النصوص القرآنية ـ ولا نجزم ـ أنَّ نشأته كانت مستقلة ـ أعلن هذا الميلاد في حفل كوني كان شهوده الملأ الأعلىٰ. وأعلن ميلاده الجليل العظيم في هذا الملأ وفي الوجود كله.. وفي الآية في سورة البقرة أنَّه أعلن كذلك خلافته في الأرض منذ خلقه؛ وكان الابتلاء الأوَّل له في الجنَّة تمهيداً وإعداداً لهذه الخلافة. كما تعلن الآيات القرآنية في سور متعددة، أنَّ الله جعل هذا الكون ـ لا الأرض وحدها ـ عوناً له في هذه الخلافة. وسخَّر له ما في السَّماوات وما في الأرض جميعاً منه.. وكذلك تظهر ضخامة الدور الذي أعطاه بارئه له. فإنَّ عمارة كوكب وسيادته بخلافة الله فيه ـ أيّاً كان حجم هذا الكوكب ـ إنَّها لأمر عظيم!

والذي يتَّضح من القصة ومن مجموعة النصوص القرآنية أنَّه كذلك خلق متفرد لا في الأرض وحدها، ولكن في الكون كله. فالعوالم الأُخرىٰ من ملائكة وجن وما لا يعلمه إلاَّ الله من الخلق؛ لها وظائف أُخرىٰ، كما أنَّها خلقت من طبائع أُخرىٰ تناسب هذه الوظائف. وتفرد الإنسان وحده بخصائصه هذه ووظائفه. يدل على ذلك قول الله تعالىٰ: **﴿إنَّا عرضنا الأمانة**

---

(١) يراجع فصل «حقيقة الكون» في المصدر السَّابق.

علىٰ السَّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان، إنَّه كان ظلوماً جهولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢] وإذن فهو متفرد في الكون كله بخصائص.. ومنها الظلم والجهل! إلى جانب الاختيار النسبي والاستعداد للمعرفة المترقية، والإرادة الذاتية. والمقدرة على العدل والعلم، بقدر المقدرة على الظلم والجهل!.. فهذا الازدواج ذاته هو ميزته التي تفرده.

كل أُولئك يلغي تلك النظرة للإنسان القائمة على صغر حجم الكوكب الذي يعيش عليه، بالقياس إلى أحجام الكون الهائلة، فالحجم ليس هو كل شيء، وخصيصته العقل القابل للمعرفة، والارادة القابلة للاستقلال ـ في حدود العبودية لله ـ والاختيار والترجيح الذاتي.. كل أُولئك يفوق في قيمته، الحجم الذي يقيم عليه سير جيمس جينز وأمثاله نظرتهم إلى قيمة الإنسان ودوره. هذه الأهمية التي تخولها القصة ومجموع النصوص القرآنية على هذا الكائن الإنساني لا تقتصر على دوره في خلافة الأرض، بهذه الخصائص المتفردة؛ ولكن صورتها تكمل بتأمل الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها، والعوالم التي يتعامل معها.

إنَّه يتعامل تعاملاً مباشراً مع ربه الجليل سبحانه! هو الذي أنشأه بيده، وأعلن ميلاده في الملأ الأعلىٰ وفي الوجود كله بنطقه، وخوله الجنَّة يأكل منها حيث يشاء ـ إلاَّ الشجرة المحظورة ـ ثمَّ خوله خلافة الأرض بعد ذلك بأمره؛ وعلَّمه أساس المعرفة ـ كما في آية البقرة **﴿وعلَّم آدم الأسماء كلها﴾** ـ وهو ما نرجح أنَّه القدرة على الرمز باللفظ والاسم للمدلول والمسمّىٰ، وهو القاعدة التي يقوم عليها إمكان تبادل المعرفة وتعميمها في الجنس كله، وأوصاه وصيته في الجنَّة وبعدها، وأودعه الاستعدادات الخاصة التي تفرد جنسه بخصائصه، وأرسل له الرسل ـ منه ـ بهداه؛ وكتب على نفسه الرحمة أن يقيل عثرته ويقبل توبته.. إلى آخر نعمة الله على هذا الكائن المتفرد في الكون كله.

ثمَّ هو يتعامل مع الملأ الأعلىٰ . . أسجد الله لـه الملائكـة، وجعل منهم حفظة عليه، كما جعل منهم من يبلغ الرسل وحيه، وأنزلهم على الذين قالوا: ربُّنا الله ثمَّ استقامـوا يثبتونهم ويبشّـرونهم، وعلى المجاهـدين في سبيل الله ينصرونهم ويبشّرونهم كذلك، وسلطهم على الذين كفروا يقتلونهم ويستلون أرواحهم منهم في تأنيب وتعذيب. . إلى آخـر ما بين المـلائكة والإنسان من تعامل. في الدنيا وفي الآخرة كذلك.

ويتعامل مع الجن: صالحيهم وشيـاطينهم. . وقد شهـدنا تشخيص المعركة الأولىٰ بينـه وبين الشيطان. وهي معـركة ممتـدة إلى يوم الـوقت المعلوم. كما أنَّ تعامله مـع صالحي الجن مـذكور في نصـوص قرآنيـة. وتسخير الجن أحياناً له ثابت كما في قصة سليمان عليه السَّلام.

كما هو يتعامل مع هذا الكون المادي ـ وبخاصة الأرض والكواكب والنجوم القريبة منها ـ وهو الخليفة في هذه الأرض عن الله؛ المسخرة لـه قواها وطاقاتها وأرزاقها ومدخراتهـا، وعنده الاستعـداد اللدني لفتح بعض مغاليق أسرارها، والتعرف إلى بعض نواميسها التي تعينه معرفتها على أداء دوره العظيم. . ومن ثمَّ يتعامل كذلك مع جميع الأحياء فيها. . وأخيراً فإنَّه بازدواج طبيعته واستعدادتها يتحرك في مجال بعيد الآماد من نفسه ذاتها! إنَّه يعـرج إلى السَّمـاوات العلىٰ ويتجـاوز مـراتب المـلائكـة، حين يخلص عبوديته لله ويترقّىٰ فيها إلى منتهاها. كما إنَّه يهبط إلى ما دون مستوىٰ البهيمة حين يتَّخذ إلـهه هواه ويتخلّىٰ عن خصائص « إنسانيته » ويتمرّغ في الوحل الحيواني. . وبين هذين المجالين أبعاد أضخم ممَّا بين السَّماوات والأرض في عالم الحس وأبعد مدىً!

وليس هذا كله لغير الإنسان كما تلهمه هذه القصة وبقية النصـوص القرآنية الأخرىٰ. .

والحقيقة الثَّالثة: أنَّ هذا الكائن ـ على كل تفرده هذا أو بسبب تفرده

هـذا ـ ضعيف في بعض جوانب تكـوينه، حتى ليمكن قيـادتـه إلى الشـر والارتكاس إلى الدرك الأسفل، من خطام شهواته. . وفي أولها ضعفه تجاه حبِّ البقاء، وضعفه تجاه حب الملك. . وهو يكون في أشد حالات ضعفه وأدناها حين يبعد عن هدىٰ الله، ويستسلم لهواه، أو يستسلم لعدوه العنيد الذي أخذ على عاتقه إغواءه، في جهد ناصب، لا يكل ولا يدع وسيلة من الوسائل!

وقد اقتضت رحمة الله به ـ من ثَمَّ ـ ألاَّ يتركه لفطرته وحدها، ولا لعقله وحده، وأن يرسل إليه الرسل للإنذار والتذكير. وهـذه هي صخرة النجـاة بالنسبة له. . النجاة من شهواته بالتخلص من هواه والفرار إلى الله. والنجاة من عدوه الذي يخنس ويتوارىٰ عند ذكره لربه، وتذكـر رحمته وغضبـه، وثوابه وعقابه.

وهذه كلها مقويات لإرادته، حتى يستعلي على ضعفه وشهواته. . وقد كان له أول تدريب له في الجنَّة هو فرض «المحظور» عليه، لتقوية هذه الإرادة، وإبرازها في مـواجهة الإغـراء والضعف. وإذا كان قـد فشل في التجربة الأولىٰ فيما يظهر، فقد كانت هذه التجربة رصيداً له فيما سيأتي!

ومن رحمة الله به كذلك أن جعل باب التوبة مفتوحاً له في كل لحظة، فإذا نسي ثم تذكر، وإذا عثر ثمَّ نهض؛ وإذا غوىٰ ثمَّ تاب. . وجد الباب مفتوحاً له، وقبل الله توبته، وأقال عثرته. فإذا استقام على طريقه بدّل الله سيئاته حسنات، وضاعف له ما شاء. ولم يجعل خطيئته الأولىٰ لعنة مكتوبة عليه وعلى ذريته. فليست هناك خطيئة أبدية. وليست هناك خطيئة موروثة ـ ولا تزر وازرة وزر أُخرىٰ.

وهذه الحقيقة في التصور الإسلامي تنقذ كاهل البشرية من أُسطورة الخطيئة الموروثة التي تقوم عليها التصورات الكنسية في المسيحية؛ والتي يقوم عليها ركام هائل من الطقـوس والتشكيلات فـوق ما يقـوم فوقهـا من

الأساطير والخرافات.. خطيئة آدم التي تلازم البشرية كاللعنة المصلتة على الرقاب! حتى يتمثل الإله في صورة ابن الإنسان (المسيح) ويُصلب ويحتمل العذاب للتكفير عن هذه الخطيئة الموروثة؛ ومن ثمَّ يكتب (الغفران) لمن يتَّحد بالمسيح الذي كفَّر بدمه عن خطيئة آدم التي ورثتها البشرية!

إنَّ الأمر في التصور الإسلامي أيسر من هذا بكثير.. لقد نسي آدم وأخطأ.. ولقد تاب واستغفر. ولقد قَبِلَ الله توبته وغفر له.. وانتهىٰ أمر تلك الخطيئة الأولىٰ. ولم يبق منها إلَّا رصيد التجربة الذي يعين الجنس البشري في صراعه الطويل المدىٰ.

أية بساطة! وأي وضوح! وأي يسر في هذه العقيدة!

والحقيقة الرَّابعة: هي جدِّية المعركة مع الشيطان وأصالتها، واستمرارها وضراوتها..

لقد بدا من سياق القصة إصرار هذا العدو العنيد على **ملاحقة الإنسان في كل حالة**(١)، وعلى إتيانه من كل صوب وجهة، وعلى اتباعه في كل ساعة ولحظة:

﴿قال: فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم. ثمَّ لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾.

---

(١) عن أبي موسىٰ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «إذا أصبح إبليسُ، بثَّ جنوده، فيقولُ: من أضلَّ اليوم مسلماً، ألبستهُ التاج. قال: فيخرج هذا، فيقول: لم أزل به حتى طلَّق امرأته. فيقول: أوشكَ أن يتزوج، ويجيء هذا، فيقولُ: لم أَزَل به حتى عقَّ والديه، فيقول: أوشكَ أن يَبَرَّ، ويجيء هذا، فيقولُ: لم أَزَل به حتى أشركَ، فيقول: أنتَ أنتَ، ويجيء فيقول: لم أزل به حتى زنىٰ، فيقول: أنتَ أنتَ، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى قَتَل، فيقول: أنتَ أنتَ، ويلبسُهُ التاج». [أخرجه ابن حبان بإسناد صحيح، وأخرجه الحاكم، وصحَّحه ووافقه الذهبي. انظر الإحسان رقم ٦١٨٩].

لقد اختار اللعين أن يزاول هذا الكيد، وأن يُنظر لمزاولته على المدىٰ الطويل. . اختار هذا على أن يضرع إلى الله أن يغفر له خطيئتة في معصيته عياناً وقد عمع أمره مواجهة! ثمَّ بيَّن أنَّه سيقعد لهم على طريق الله لا يمكنهم من سلوكه؛ وأنَّه سيأتيهم من كل جهة يصرفهم عن هداه.

وهو إنَّما يأتيهم من ناحية نقط الضعف فيهم ومداخل الشهوة. ولا عاصم لهم منه إلَّا بالتقوّي بالإيمان والذكر والتقوّي على دفع إغوائه ووسوسته(١)، والاستعلاء على الشهوات وإخضاع الهوىٰ لهدىٰ الله.

والمعركة مع الشيطان هي المعركة الرئيسية. إنَّها المعركة مع الهوىٰ باتباع الهدىٰ. والمعركة مع الشهوات باستعلاء الإرادة. والمعركة مع الشرّ والفساد في الأرض الذي يقود الشيطان أولياءه إليه باتباع شريعة الله المصلحة للأرض. . والمعركة في الضمير والمعركة في الحياة الواقعية متصلتان لا منفصلتان. فالشيطان وراءهما جميعاً!

وأخيراً فإنَّ القصة والتعقيبات عليها تشير إلى شيء مركوز في طبع الإنسان وفطرته. وهو الحياء من التعرِّي وانكشاف سوأته:

﴿فوسوس لهما الشَّيطان، ليبدي لهما ما وُوري عنهما من سوآتهما﴾.

﴿فدلَّاهما بغرور، فلمَّا ذاقا الشَّجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنَّة﴾.

---

(١) لا قوة ولا قدرة للشيطان على ابن آدم إلَّا على الوسوسة فقط. فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رجلاً أتىٰ النَّبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنِّي لأجد في صدري الشيء، لأن أكون حُمَمَةً أحبَّ إليَّ من أن أتكلَّم به، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردَّ أ ... إلى الوسوسة» [أخرجه ابن حبّان بإسناد صحيح على شرطهما، وأحمد وأبو داود، انظر الإحسان ١٤٧ و ٦١٨٨]. . والوسوسة حديث النفس، والصوت الخفي، وبه سمي صوت الحلي وسواساً. قال تعالىٰ: **﴿ونعلم ما توسوس به نفسه﴾** [قٓ: ١٦]. .

﴿يَا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم، وريشاً، ولباس التقوىٰ ذلك خير. ذلك من آيات الله﴾.

﴿يا بني آدم لا يفتنَّنكم الشَّيطان كما أخرج أبويكم من الجنَّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾..

وكلّها توحي بأهمية هذه المسألة، وعمقها في الفطرة البشرية. فاللباس، وستر العورة، زينة للإنسان وستر لعوراته الجسدية. كما أنَّ التقوىٰ لباس وستر لعوراته النفسية.

والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوآتها الجسدية والنفسية، وتحرص على سترها ومواراتها.. والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس، وتعرية النفس من التقوىٰ، ومن الحياء من الله ومن النَّاس؛ والذين يطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والإعلام كلها لتأصيل هذه المحاولة ـ في شتّىٰ الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة ـ هم الذين يريدون سلب « الإنسان » خصائص فطرته، وخصائص « إنسانيته » التي بها صار إنساناً. وهم الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سوآته!

وهم الَّذين ينفذون المخططات الصهيونية الرهيبة لتدمير الإنسانية وإشاعة الانحلال فيها لتخضع لملك صهيون بلا مقاومة. وقد فقدت مقوماتها الإنسانية!

إنَّ العري فطرة حيوانية. ولا يميل الإنسان إليه إلاَّ وهو يرتكس إلى مرتبة أدنىٰ من مرتبة الإنسان. وإنَّ رؤية العري جمالاً هو انتكاس في الذوق البشري قطعاً. والمتخلّفون في أواسط إفريقيا عراة. والإسلام حين يدخل بحضارته إلى هذه المناطق يكون أول مظاهر الحضارة اكتساء العراة! فأمَّا في الجاهلية الحديثة « التقدمية » فهم يرتكسون إلى الوهدة التي ينتشل الإسلام المتخلفين منها، وينقلهم إلى مستوىٰ « الحضارة » بمفهومها الإسلامي الذي

يستهدف استنقاذ خصائص الإنسان وتقويتها.

والعري النفسي من الحياء والتقوىٰ - وهو ما تجتهد فيه الأصوات والأقلام وجميع أجهزة التوجيه والإعلام - هو النكسة والردة إلى الجاهلية. وليس هو التقدم والتحضر كما تريد هذه الأجهزة الشيطانية المدربة أن توسوس[1].

---

(١) حين تكون القيم «الإنسانية» والأخلاق «الإنسانية» - كما هي في ميزان الله.. هي السائدة في مجتمع، فإنَّ هذا المجتمع يكون متحضراً متقدماً.. أو بالاصطلاح الإسلامي.. ربانياً مسلماً.. والقيم «الإنسانية» والأخلاق «الإنسانية» ليست مسألة غامضة ولا مائعة؛ وليست كذلك قيماً وأخلاقاً متغيرة لا تستقر على حال - كما يزعم الذين يريدون أن يشيعوا الفوضىٰ في الموازين، فلا يبقىٰ هنالك أصل ثابت يرجع إليه في وزن ولا تقييم. إنَّها القيم والأخلاق التي تنمي في الإنسان «خصائص الإنسان» التي ينفرد بها دون الحيوان. وتُغلب فيه هذا الجانب الذي يُميزه ويجعل منه إنساناً. وليست هي القيم والأخلاق التي تنمي فيه الجوانب المشتركة بينه وبين الحيوان.. وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم ثابت، لا يقبل عملية التمييع المستمرة التي يحاولها «التطوريون»! عندئذ لا تكون هناك أخلاق زراعية وأخرىٰ صناعية. ولا أخلاق رأسمالية وأخرىٰ اشتراكية. ولا أخلاق صعلوكية وأخرىٰ برجوازية! إلاَّ تكون هناك أخلاق من صنع البيئة ومن مستوىٰ المعيشة، على اعتبار أنَّ هذه العوامل مستقلة في صنع القيم والأخلاق والاصطلاح عليها، وحتمية في نشأتها وتقريرها.. إنَّما تكون هناك فقط «قيم وأخلاق إنسانية» يصطلح عليها المسلمون في المجتمع المتحضر. و«قيم وأخلاق حيوانية» - إذا صحَّ هذا التعبير - يصطلح عليها الناس في المجتمع المتخلف.. أو بالاصطلاح الإسلامي تكون هناك قيم وأخلاق ربانية إسلامية، وقيم وأخلاق رجعية جاهلية!

إنَّ المجتمعات التي تسود فيها القيم والأخلاق والنزعات الحيوانية، لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة، مهما تبلغ من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي! إنَّ هذا المقياس لا يخطىء في قياس مدىٰ التقدم في الإنسان ذاته.

وفي المجتمعات الجاهلية الحديثة ينحسر المفهوم الأخلاقي بحيث يتخلّىٰ عن كل ماله علاقة بالتميز الإنساني عن الحيوان. ففي هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية - ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة - رذيلة أخلاقية! إنَّ المفهوم «الأخلاقي» ينحصر في المعاملات الشخصية والاقتصادية والسياسية - أحياناً في حدود مصلحة الدولة! - والكتاب والصحفيون والروائيون وكل أجهزة التوجيه والإعلام في هذه =

وقصة النشأة الإنسانية في القرآن توحي بهذه القيم والموازين الأصيلة وتبينها خير بيان.

.والحمد لله الذي هدانا إليه وأنقذنا من وسوسة الشيطان ووحل الجاهلية!!!

بني آدم وميثاق الفطرة والعقيدة :

يعرض القرآن الكريم قضية الميثاق الأكبر الذي أخذه الله على فطرة البشر في مشهد جليل رائع مهيب: **﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم - من ظهورهم - ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلىٰ شهدنا! أن تقولوا يوم القيامة: إنَّا كنَّا عن هٰذا غافلين. أو تقولوا: إنَّما أشرك آباؤنا من قبل. وكنَّا ذرية من بعدهم. أفتهلكنا بما فعل المبطلون؟ . . وكذلك نفصِّل الآيات ولعلَّهم يرجعون﴾** [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤].

إنَّها قضية الفطرة والعقيدة يعرضها السياق القرآني في صورة مشهد - على طريقة القرآن الغالبة[1] - وإنَّه لمشهد فريد . . مشهد الذرية المكنونة في عالم الغيب السحيق، المستكنة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود، تؤخذ في قبضة الخالق المربي، فيسألها: **﴿ألستُ بربكم؟﴾** . . فتعترف له - سبحانه - بالربوبية؛ وتقرّ له - سبحانه - بالعبودية؛ وتشهد له - سبحانه - بالوحدانية؛ وهي منثورة كالذر؛ مجموعة في قبضة الخالق العظيم!

= المجتمعات الجاهلية تقولها صريحة للفتيات والفتيان والزوجات والشبان: إنَّ الاتصالات الجنسية الحرة ليست رذائل أخلاقية!

مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة غير متحضرة - من وجهة النظر «الإنسانية». وبمقياس خط التقدم الإنساني. . وهي كذلك غير إسلامية. .

يراجع معنىٰ الحضارة في تفسير قوله تعالىٰ: **﴿كتاب أُنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه﴾** في ظلال القرآن - الجزء الثَّامن - ص ١٢٥٩.

(١) يراجع بتوسع كتاب «التصوير الفني في القرآن».

إنَّه مشهد كوني رائع باهر، لا تعرف اللغة له نظيراً في تصوراتها المأثورة! وإنَّه لمشهد عجيب فريد حين يتملاّه الخيال البشري جهد طاقته! وحينما يتصور تلك الخلايا التي لا تُحصىٰ، وهي تجمع وتقبض، وهي تخاطب خطاب العقلاء ـ بما ركب فيها من الخصائص المستكنة التي أودعها إياها الخالق المبدع ـ وهي تستجيب استجابة العقلاء، فتعترف وتقرّ وتشهد؛ ويؤخذ عليها الميثاق في الأصلاب!

وإنَّ الكيان البشري ليرتعش من أعماقه وهو يتملّىٰ هذا المشهد الرائع الباهر الفريد. وهو يتمثَّل الذر السابح. وفي كل خلية حياة. وفي كل خلية استعداد كامن. وفي كل خلية كائن إنساني مكتمل الصفات ينتظر الإذن له بالنماء والظهور في الصورة المكنونة له في ضمير الوجود المجهول، ويقطع على نفسه العهد والميثاق، قبل أن يبرز إلى حيِّز الوجود المعلوم!

لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر العجيب الفريد، لتلك الحقيقة الهائلة العميقة المستكنة في أعماق الفطرة الإنسانية وفي أعماق الوجود.. عرض القرآن هذا المشهد قبل قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان، حيث لم يكن إنسان يعلم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلاَّ الأوهام! ثمَّ يهتدي البشر بعد هذه القرون إلى طرف من هذه الحقائق وتلك الطبيعة. فإذا «العلم» يقرر أنَّ الناسلات، وهي خلايا الوراثة التي تحفظ سجل «الإنسان» وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا في الأصلاب.. أنَّ هذه الناسلات التي تحفظ سجل ما يزيد عن خمسة آلاف مليون من البشر، وتكمن فيها خصائصهم كلها، لا يزيد حجمها على سنتيمتر مكعب، أو ما يساوي ملء قمع من أقماع الخياطة!.. كلمة لو قيلت للناس يومذاك لاتَّهموا قائلها بالجنون والخبال! وصدق الله العظيم: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّىٰ يتبيَّن لهم أنَّه الحق﴾...

أخرج ابن جرير وغيره ـ بإسناده ـ عن ابن عباس قال: «مسح ربك

ظهر آدم، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة.. فأخذ مواثيقهم، وأشهدهم على أنفسهم: ﴿ألستُ بربِّكم؟ قالوا: بلىٰ﴾.. وروي مرفوعاً وموقوفاً على ابن عباس. وقال ابن كثير: إنَّ الموقوف أكثر وأثبت..

فأمَّا كيف كان هذا المشهد؟ وكيف أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم؟ وكيف خاطبهم: ﴿ألست بربِّكم﴾ وكيف أجابوا: ﴿بلىٰ شهدنا﴾؟.. فالجواب عليه: أنَّ كيفيات فعل الله سبحانه ـ غيب كذاته. ولا يملك الإدراك البشري أن يدرك كيفيات أفعال الله ما دام أنَّه لا يملك أن يدرك ذات الله. إذ إنَّ تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية. وكل فعل ينسب لله سبحانه مثل الذي يحكيه قوله هذا كقوله تعالىٰ: ﴿ثمَّ استوىٰ إلى السَّماء وهي دخان..﴾.. ﴿ثمَّ استوىٰ على العرش﴾.. ﴿يمحو الله ما يشاء ويُثبت﴾.. ﴿والسَّماوات مطويَّات بيمينه﴾.. ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾.. ﴿ما يكون من نجوىٰ ثلاثة إلاَّ هو رابعهم﴾.. إلى آخر ما تحكيه النصوص الصحيحة عن فعل الله سبحانه، لا مناص من التسليم بوقوعه، دون محاولة إدراك كيفيته. إذ إنَّ تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية كما قلنا.. والله ليس كمثله شيء. فلا سبيل إلى إدراك ذاته ولا إلى إدراك كيفيات أفعاله. إذ إنَّه لا سبيل إلى تشبيه فعله بفعل أي شيء، ما دام أن ليس كمثله شيء. وكل محاولة لتصور كيفيات أفعاله على مثال كيفيات أفعال خلقه، هي محاولة مضللة، لاختلاف ماهيته ـ سبحانه ـ عن ماهيات خلقه. وما يترتب على هذا من اختلاف كيفيات أفعاله عن كيفيات أفعال خلقه.. وكذلك جهل وضلَّ كل من حاولوا ـ من الفلاسفة والمتكلّمين.. وصف كيفيات أفعال الله وخلطوا خلطاً شديداً![1]

على أنَّ هناك تفسيراً لهذا النص بأنَّ هذا العهد الذي أخذه الله على

---

(١) يراجع فصل: «ألوهية وعبودية» وفصل «حقيقة الإنسان» في كتاب: «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».

ذرية بني آدم هو عهد الفطرة.. فقد أنشأهم مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده. أودع هذا فطرتهم فهي تنشأ عليه، حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواءها، ويميل بها عن فطرتها.

قال ابن كثير في التفسير: (قال قائلون من السلف والخلف: إنَّ المراد بهذا الإشهاد إنَّما هو فطرهم على التوحيد ـ كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع ـ وقد فسَّر الحسن الآية بذلك. قالوا: ولهذا قال: ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم**﴾ ولم يقل: من آدم.. ﴿**من ظهورهم**﴾.. ولم يقل من ظهره.. ﴿**ذرياتهم**﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كقوله تعالىٰ: ﴿**وهو الذي جعلكم خلفاء الأرض**﴾.. وقال: ﴿**ويجعلكم خلفاء الأرض**﴾.. وقال: ﴿**كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين**﴾.. ثمَّ قال: ﴿**وأشهدهم على أنفسهم: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلىٰ!**﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له.. حالاً.. وقالوا: والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: ﴿**قالوا: شهدنا على أنفسنا وغرَّتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنَّهم كانوا كافرين**﴾ وتارة تكون حالاً كقوله تعالىٰ: ﴿**ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر**﴾.. أي حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنَّهم قائلون ذلك.. وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿**وإنَّه على ذلك لشهيد**﴾.. كما أنَّ السؤال تارة يكون بالمقال وتارة يكون بالحال. كقوله: ﴿**وآتاكم من كل ما سألتموه**﴾.. قالوا: وممَّا يدل على أنَّ المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك. فلو كان قد وقع هذا، كما قال من قال، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده، فالجواب: أنَّ المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره. وهذا جعل حجة عليهم، فدلَّ على أنَّه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد. ولهذا قال: ﴿**أن تقولوا**﴾.. أي لئلاَّ تقولوا ﴿**يوم القيامة إنَّا كنَّا عن هٰذا**﴾

أي التوحيد.. ﴿غافلين﴾، أو تقولوا: ﴿إنَّما أشرك آباؤنا﴾.. الآية).

أمَّا الأحاديث التي أشار إليها في أول هذه الفقرة فهي:

في الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة ـ وفي رواية «على هذه الملة» ـ فأبواه يهوِّدانه وينصرانه ويمجِّسانه، كما تولد بهيمة جمعاء، هل تحسُّون فيها من جدعاء؟».

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله إنِّي خلقتُ عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم».

وقال أبو جعفر بن جرير ـ رحمه الله ـ حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، حدَّثنا ابن وهب، أخبرني السري بن يحيىٰ، أنَّ الحسن بن أبي الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتدَّ عليهم، ثمَّ قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟». فقال رجل: يَا رسول الله. أليسوا أبناءَ المشركين؟ فقال: «إنَّ خياركم أبناء المشركين! ألا إنَّها ليست نسمة تولد إلاَّ ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبيِّن عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها».. قال الحسن: لقد قال في كتابه: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾... الآية. ونحن لا نستبعد أن يكون قول الله تعالىٰ: ﴿وإذ أخذ ربُّك من بني آدم من ظهورهم ذرِّيَّتهم وأشهدهم على أنفسهم...﴾ الآيات. على وجهه لا على سبيل الحال. لأنه في تصورنا يقع كما أخبر عنه الله سبحانه. وليس هناك ما يمنع أن يقع حين يشاؤه.. ولكننا لا نستبعد هذا التأويل الذي اختاره ابن كثير، وذكره الحسن البصري واستشهد له بالآية.. والله أعلم أي ذلك كان..

وفي أي من الحالين يخلص لنا أنَّ هناك عهداً من الله على فطرة البشر

أن توحده. وأنَّ حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة؛ يخرج بها كل مولود إلى الوجود؛ فلا يميل عنها إلاَّ أن يفسد فطرته عامل خارجي عنها! عامل يستغل الاستعداد البشري للهدىٰ والضلال. وهو استعداد كذلك كامن تخرجه إلى حيِّز الوجود ملابسات وظروف(١).

إنَّ هذا الدرس القرآني يعرض قضية التوحيد من زاوية أصيلة، وزاوية عميقة. تعرض قضية التوحيد من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر؛ وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم، وذات تكوينهم؛ وهم بعد في عالم الذر!.. إنَّ الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري. فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة. أمَّا الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأُولىٰ؛ فيحتاجون إلى التذكير والتحذير..

إنَّ التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأُولىٰ. فلا حجة لهم في نقض الميثاق - حتى لو لم يبعث إليهم بالرسل يذكرونهم ويحذرونهم - ولكن رحمته وحدها اقتضت ألاَّ يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف؛ وألاَّ يكلهم كذلك إلى عقولهم التي أعطاها لهم فقد تضل؛ وأن يبعث إليهم رسلاً مبشِّرين ومنذرين لئلاَّ يكون للناس على الله حجَّة بعد الرسل!

إنَّ حقيقة التوحيد ليست مركوزة في فطرة «الإنسان» وحدهُ؛ ولكنها كذلك مركوزة في فطرة هذا الوجود من حوله - وما الفطرة البشرية إلاَّ قطاع من فطرة الوجود كله. موصولة به غير منقطعة عنه، محكومة بذات الناموس الذي يحكمه - بينما هي تتلقّىٰ كذلك أصداءه وإيقاعاته المعبِّرة عن تأثّره واعترافه بتلك الحقيقة الكونية الكبيرة.. إنَّ ناموس التوحيد الذي يحكم هذا

---

(١) يراجع فصل: «حقيقة الإنسان» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».

الوجود، واضح الأثر في شكل الكون، وتنسيقه، وتناسق أجزائه، وانتظام حركته، واطّراد قوانينه، وتصرّفه المطرد وفق هذه القوانين. . وأخيراً ـ حسب العلم القليل الذي وصل إليه البشر ـ وحدة الجوهر الذي تتألف منه ذراته، وهو الإشعاع الذي تنتهي إليه المواد جميعاً عند تحطيم ذراتها وإطلاق شحناتها. .

ويوماً بعد يوم يكشف البشر أطرافاً من ناموس الوحدة في طبيعة هذا الكون، وطبيعة قوانينه التي تحكم تصرفاته ـ في غير آلية حتمية ولكن بقدر من الله مطرد متجدد وفق مشيئة الله الطليقة ـ ولكننا نحن لا نعتمد على هذا الذي يكشف علم البشر الظني ـ الذي لا يمكن أن يكون يقينياً بحكم وسائله البشرية ـ في تقرير هذا الناموس. إنما نحن نستأنس به مجرد استئناس. واعتمادنا الأول في تقرير أيّة حقيقة كونية مطلقة، على ما قرره لنا الخالق العليم بما خلق. والقرآن الكريم لا يدع مجالاً للشك في أنَّ الناموس الذي يحكم هذا الكون هو ناموس الوحدة، الذي أنشأته المشيئة الواحدة للخالق الواحد سبحانه. كما أنَّه لا يدع مجالاً للشك في عبودية هذا الكون لربه، واعترافه بوحدانيته، وعبادته له بالكيفية التي يعلمها الله ولا نعرف عنها إلاّ ما يخبرنا به؛ وما نراه من آثارها في انتظامه ودأبه واطّراده[1].

هذا الناموس الذي يصرف الكون كله ـ بقدر الله المطرد المتجدد وفق مشيئة الله الطليقة ـ سار كذلك في كيان الإنسان ـ بوصفه من كائنات هذا الكون ـ مستقر في فطرته، لا يحتاج إلى وعي عقلي للإحساس به؛ فهو مدرك بالفطرة، مستقر في صميمها، تستشعره بذاتها، وتتصرف وفقه، ما لم يطرأ عليه الخلل والفساد، فتنحرف عن إدراكها الذاتي له، وتدع للأهواء العارضة أن تسيرها، بدلاً من أن تسير وفق قانونها الداخلي القويم.

هذا الناموس ـ بذاته ـ هو ميثاق معقود بين الفطرة وخالقها. ميثاق

(١) يراجع فصل «حقيقة الكون» في المصدر السّابق.

مودع في كيانها. مودع في كل خلية حية منذ نشأتها. وهو ميثاق أقدم من الرسل والرسالات. وفيه تشهد كل خلية بربوبية الله الواحد، ذي المشيئة الواحدة، المنشئة للناموس الواحد الذي يحكمها ويصرفها. فلا سبيل إلى الاحتجاج بعد ميثاق الفطرة وشهادتها ـ سواء أكان بلسان الحال هذا أم بلسان المقال ـ كما في بعض الآثار ـ لا سبيل إلى أن يقول أحد: إنَّه غفل عن كتاب الله الهادي إلى التوحيد، وعن رسالات الله التي دعت إلى هذا التوحيد. أو يقول: إنَّني خرجت إلى هذا الوجود، فوجدتُ آبائي قد أشركوا فلم يكن أمامي سبيل لمعرفة التوحيد. إنَّما ضل آبائي فضللتُ فهم المسؤولون وحدهم ولست بالمسؤول! ومن ثمَّ جاء هذا التعقيب على تلك الشهادة: **﴿أن تقولوا يوم القيامة إنَّا كنَّا عن هذا غافلين. أو تقولوا: إنَّما أشرك آباؤنا من قبل، وكنَّا ذرية من بعدهم. أفتهلكنا بما فعل المبطلون؟﴾**.

ولكنَّ الله ـ سبحانه ـ رحمة منه بعباده، لما يعلمه من أنَّ في استعدادهم أن يضلوا إذا أُضلُّوا، وأنَّ فطرتهم هذه تتعرض لعوامل الانحراف ـ كما قال رسول الله ﷺ بفعل شياطين الجن والإنس؛ الذين يعتمدون على ما في التكوين البشري من نقط الضعف!.. رحمة من الله بعباده قدر ألَّا يحاسبهم على عهد الفطرة هذا؛ كما أنَّه لا يحاسبهم على ما أعطاهم من عقل يميزون به، حتى يرسل إليهم الرسل، ويفصل لهم الآيات، لاستنقاذ فطرتهم من الركام والتعطل والانحراف، واستنقاذ عقلهم من ضغط الهوىٰ والضعف والشهوات[1]. ولو كان الله يعلم أنَّ الفِطَر والعقول تكفي وحدها للهدىٰ دون رسل ولا رسالات؛ ودون تذكير وتفصيل للآيات لأخذ الله عباده بها. ولكنه رحمهم بعلمه فجعل الحجة عليهم هي الرسالة: **﴿وكذلك نفصِّل الآيات ولعلَّهم يرجعون﴾**.. يرجعون إلى

---

(١) يراجع تفسير قوله تعالىٰ: **﴿رسلًا مبشِّرين ومنذرين لئلَّا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾** في الجزء السَّادس من الظلال ص ٨٠٦ ـ ٨١٢.

فطرتهم وعهدهـا مع الله؛ وإلى مـا أودعه الله كينـونتهم من قوىٰ البصيـرة والإدراك. فالرجعة إلى هذه المكنونات كفيلة بانتفاض حقيقة التوحيد في القلوب؛ وردّها إلى بارئها الوحيد، الذي فطرها على عقيدة التوحيد. ثمَّ رحمها فأرسل إليها الرسل بالآيات للتذكير والتحذير[1].

نداء رب السماء لبني آدم :

لقد هبط آدم إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها ـ وهي المهمة التي خلقه الله لها وزوّده بالكفايات والاستعدادات اللازمة لها ـ بعد أن عَلَّمه ربه كيف يتوب من الزلّة التي زلَّها، ونعلم كيف تلقّىٰ من ربه كلمات فتاب عليه بها. وكيف أخذ عليه ربه العهد والميثاق ـ هو وزوجه وبنوه ـ أن « يتبع » ما يأتيه من هدىٰ الله، ولا يتبع الشيطان وهو عدوه وعدو بنيه إلى يوم الـدين **﴿قال اهبطا منها جميعاً، بعضكم لبعض عدو﴾**. .

ومع إعلان الخصومة الذي دوت به السماوات والأرضون، وشهـده الملائكة أجمعون. شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهمُ رسله بالهدىٰ. قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم. فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرىٰ بين آدم وإبليس، أنَّه آتيهم بهدىٰ منه. فمجاز كلاً منهم بعد ذلك حسبما ضلَّ أو اهتدىٰ:

﴿فإمَّا يأتينَّكم منّي هُدًى، فمن اتَّبع هدايَ فلا يضلُّ ولا يشقىٰ﴾ [طٰه: ١٢٣].

إنَّه أمر قد قضي فيه منذ بعيد ولا رجعة فيه ولا تعديل. . فمن اتَّبع هُدىٰ الله فهو في أمان من الضلال والشقاء. وهما ينتظران خارج عتبـات الجنَّة. ولكنَّ الله يقي منهما من اتَّبع هداه.

---

(١) يراجع فصل: «ألوهية وعبودية» وفصل «حقيقة الإنسان» في كتـاب: «خصائص التصـور الإسلام ومقوماته».

والشقاء ثمرة الضلال ولو كان صاحبه غارقاً في المتاع. فهذا المتاع ذاته شقوة. شقوة في الدنيا وشقوة في الآخرة. وما من متاع حرام، إلاّ وله غصّة تعقبه وعقابيل تتبعه.

وما يضلُّ الإنسان عن هدىٰ الله إلاّ ويتخبط في القلق والحيرة والتكفّؤ والاندفاع من طرف إلى طرف لا يستقر ولا يتوازن في خطاه.

والشقاء قرين التخبط ولو كان في المرتع الممرع! ثمَّ الشقوة الكبرىٰ في دار البقاء. ومن اتَّبع هدىٰ الله فهو في نجاة من الضلال والشقاء في الأرض، وفي ذلك عوض عن الفردوس المفقود، حتى يؤوب إليه في اليوم الموعود. **﴿ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكا﴾**.

والحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة، ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع. إنَّه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه. ضنك الحيرة والقلق والشك. ضنك الحرص والحذر: الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت. ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت.

وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلاّ في رحاب الله. وما يحس راحة الثقة إلاّ وهو مستمسك بالعروة الوثقىٰ التي لا انفصام لها.. إنَّ طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولاً وعرضاً وعمقاً وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان.

﴿ومن أعرض عن ذكري﴾ وانقطع عن الاتصال بي **﴿فإنَّ له معيشةً ضنكاً﴾**.. **﴿ونحشره يوم القيامة أعمىٰ﴾**.. وذلك ضلال من نوعه ضلاله في الدنيا. وذلك جزاء على إعراضه عن الذكر في الأُولىٰ. حتى إذا سأل: **﴿ربِّ لِمَ حشرتني أعمىٰ وقد كنتُ بصيراً؟﴾** كان الجواب: **﴿كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسىٰ. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربِّه. ولعذاب الآخرة أشد وأبقىٰ﴾**!

ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه . أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفس ثراءً وذخراً. وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له فلم يبصر من آيات الله شيئاً. فلا جرم يعيش معيشة ضنكاً! ويحشر في يوم القيامة أعمى! هبوط من الجنَّة وشقاء وضلال، يقابله عودة إلى الجنّة ونجوة من الشقاء والضلال. وفسحة في الحياة يقابلها الضنك، وهداية يقابلها العمى.

وإذن فقد هبط آدم إلى الأرض مسلماً لله متّبعاً هداه. . وما من شك أنَّه عَلَّم بنيه الإسلام جيلاً بعد جيل؛ وأنَّ الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض؛ حيث لم تكن معها عقيدة أخرى. . فالجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتها وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعاً. وأنَّها انحرفت عن الإسلام بفعل الشيطان المسلَّط على بني آدم؛ وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية. تلك الثغرات التي ينفذ منها عدو الله وعدو الناس، كلَّما تراخوا عن الاستمساك بهدى الله، واتباعه وحده، وعدم اتباع غيره معه في كبيرة ولا صغيرة. .

ولقد خلق الله الإنسان ومنحه قدراً من الاختيار ـ هو مناط الابتلاء ـ وبهذا القدر يملك أن يستمسك بهدى الله وحده فلا يكون لعدوه من سلطان عليه، كما يملك أن ينحرف ـ ولو قيد شعرة ـ عن هدى الله إلى تعاليم غيره؛ فيجتاله الشيطان حتى يقذف به ـ بعد أشواط ـ إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التي انتهت إليها ذراري آدم ـ النَّبي المسلم ـ في فترات التاريخ لتلك الأجيال التي لا يعلمها إلاَّ الله.

إنَّ قصة آدم عليه السَّلام هي قصة البشرية. . تبدأ بالحديث عن التمكين للجنس البشري في الأرض. . وذلك بما أودع الله هذا الكون من خصائص وموافقات متوافقة مع الكون؛ ومن قدرة على التعرف إلى نواميسه واستخدامها؛ والانتفاع بطاقاته ومقدراته ومدخراته وأقواته: ﴿ولقد مكنَّاكم

في الأرض، وجعلنا لكم فيها معايش. قليلاً ما تشكرون﴾ [الأعراف: ١٠]. إنَّها قصة النشأة الأولىٰ، وتصوير نقطة الانطلاق التي بدأت منها البشرية رحلتها المرسومة. والقرآن الكريم يركز على هذه النقطة؛ ويعرض قصة النشأة؛ ويتخذها كذلك نقطة تعقيب للإنذار والتذكير، المستمدين ممَّا في مشاهدها وأحداثها من عظات موحية ومؤثرات عميقة.

إنَّ مشهد نقطة الانطلاق في حياة البشرية قد حدَّد مصير الرحلة كلها، ومصائر المرتحلين جميعاً.. في قصة آدم تلوح طلائع المعركة الكبرىٰ التي لا تهدأ لحظة طوال رحلة البشرية على الأرض، بين هذا العدو الجاهر بالعداوة، وبني آدم جميعاً. كما تلوح نقط الضعف في الكائن الإنساني جملة، ومنافذ الشيطان إليه منها.

ومن ثمَّ يتَّخذ القرآن من المشهد مناسبة للتعقيب الطويل، بالإنذار والتحذير.. تحذير بني آدم ممَّا جرىٰ لأبويهم من هذا العدو العنيد.. وفي ظل هذا المشهد الذي يقف فيه الشيطان وجهاً لوجه مع آدم وزوجه أبوي البشر. وفي ظل النتيجة التي انتهىٰ إليها الشوط الأول في المعركة يتوجه الله سبحانه بالخطاب لبني آدم، يذكرهم وينذرهم، ويحذرهم مصيراً لهذا المصير:

﴿يَا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً، ولباس التقوىٰ ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلَّهم يذَّكَّرون﴾..

﴿يَا بني آدم لا يفتنَّنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنَّة، ينزعُ عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما، إنَّه يراكم هو وقبيله من حيث لا تَرونهم، إنَّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ [الأعراف: ٢٦ ـ ٢٧].

﴿يَا بني آدم إمَّا يأتينَّكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتَّقىٰ وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والَّذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولـٰئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [الأعراف: ٣٥ ـ ٣٦].

ولا بد أن نلحظ أنَّ مشهد العري بعد ارتكاب المحظور، والخصف من ورق الجنَّة؛ ثمَّ هذا التعقيب بتذكير بني آدم بنعمة الله في إنزال اللباس الذي يواري سوآتهم والرياش الذي يتزينون به، وتحذيرهم من فتنة الشيطان لهم لينتزع عنهم لباسهم وريشهم كما نزعه عن أبويهم . .

لا بدَّ أن نلحظ **أنَّ ذكر هذه الحلقة من القصة والتعقيب عليها على** هذا النحو إنَّما يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي العربي المشرك. حيث كانوا تحت تأثير أساطير وتقاليد معينة يطوفون بالبيت عرايا، ويحرمون أنواعاً من الثياب، وأنواعاً من الطعام في فترة الحج. ويزعمون أنَّ هذا من شرع الله، وأنَّ الله قد حرم عليهم هذا الذي يحرمونه على أنفسهم. . .

ومن ثمَّ يجيء في **استعراض قصة البشرية**، وفي التعقيب عليها ما يناسب ويواجه هذه الحالة الواقعية في الجاهلية. . وفي كل جاهلية في الحقيقة. . أليست سمة كل جاهلية هي التعرّي والكشف وقلة الحياء من الله وقلّة التقوىٰ؟ وهذا يدلنا على سمة من سمات المنهج القرآني جديرة بالتأمل. . إنَّه حتىٰ القصص في القرآن لا يسرد إلَّا لمواجهة حالة واقعة بالفعل. ولأنَّه يواجه ـ في كل مرة ـ حالة معينة، فإنَّ الحقيقة التي تذكر منه والحلقة التي تعرض في موضع من المواضع، تعرض بقدر الحالة الواقعة التي يواجهها النص حينذاك وفي جوها.

إنَّ المنهج القرآني لا يعرض شيئاً لا تستدعيه حالة واقعة. . إنَّه لا يعرف اختزان المعلومات والأحكام ـ ولا حتى القصص ـ إلى أن يجيء وقت الحاجة الواقعة إليها.

﴿يَا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً. ولباس التَّقوىٰ، ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلَّهم يذَّكَّرون﴾.

هذه وقفة من وقفات التعقيب بعد المشهد الأول في قصة البشرية الكبرىٰ. وهي وقفة في مواجهة المعركة التي بانت طلائعها بين الشيطان

والبشرية. وقفة للتحذير من أساليب الشيطان ومداخله؛ ولكشف خطته ما كان منها وما يكون متمثلاً في صور وأشكال شتّىٰ..

والمنهج القرآني لا يعرض توجيهاً إلاَّ لمواجهة حالة قائمة؛ ولا يقص قصصاً إلاَّ لأن له موقعاً في واقع الحركة الإسلامية. إنَّه كما قلنا لا يعرض قصصاً لمجرد المتاع الفني! ولا يقرر حقيقة لمجرد عرضها النظري..

إنَّ واقعية الإسلام وجديته تجعلان توجيهاته وتقريراته، لمواجهة حالات واقعة بالفعل في مواجهة الحركة الإسلامة وقد كان واقع الجاهلية العربية هو الذي يواجهه التعقيب هنا عقب المرحلة الأُولىٰ من قصة البشرية الكبرىٰ..

كانت قريش قد ابتدعت لنفسها حقوقاً على بقية مشركي العرب الذين يفدون لحج بيت الله ـ الذي جعلوه بيتاً للأصنام وسدنتها! ـ وأقامت هذه الحقوق على تصورات اعتقادية زعمت أنَّها من دين الله؛ وصاغتها في شرائع، زعمت أنَّها من شرع الله! وذلك لتخضع لها أعناق المشركين؛ كما يصنع السدنة والكهنة والرؤساء في كل جاهلية على وجه التقريب. وكانت قريش سمت نفسها اسماً خاصاً وهو «الحُمس» وجعلوا لأنفسهم حقوقاً ليست لسائر العرب. ومن هذه الحقوق ـ فيما يختص بالطواف بالبيت ـ أنَّهم هم وحدهم لهم حق الطواف في ثيابهم. فأمَّا بقية العرب فلا تطوف في ثياب لبستها من قبل. فلا بد أن تستعير من ثياب الحمس للطواف أو تستجد ثياباً لم تلبسها من قبل وإلاَّ طافوا عرايا وفيهم النساء!

إنَّ هذا النداء يجيء في ظل المشهد الذي سبق عرضه من القصة.. مشهد العري وتكشف السوآت والخصف من ورق الجنَّة.. لقد كان هذا ثمرة للخطيئة.. والخطيئة كانت في معصية أمر الله، وتناول المحظور الذي نهىٰ عنه الله وليست هي الخطيئة التي تتحدث عنها أساطير (الكتاب المقدس!) والتي تعج بها التصورات الفنية الغربية المستقاة من تلك

الأساطير ومن إيحاءات « فرويد » المسمومة.. لم تكن هي الأكل من «شجرة المعرفة» ـ كما تقول أساطير العهد القديم. وغيرة الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ من « الإنسان » وخوفه ـ تعالىٰ عن وصفهم علوّاً كبيراً ـ من أن يأكل من شجرة الحياة فيصبح كواحد من الآلهة! كما تزعم تلك الأساطير[1]، ولم تكن كذلك هي المباشرة الجنسية كما تطوف خيالات الفن الأوربي دائماً حول مستنقع الوحل الجنسي، لتفسر به كل نشاط الحياة كما علّمهم فرويد اليهودي!..

وفي مواجهة مشهد العري الذي أعقب الخطيئة ومواجهة العري الذي كان يزاوله المشركون في الجاهلية يذكر السياق في هذا النداء نعمة الله على البشر وقد علمهم ويسّر لهم، وشرّع لهم كذلك، اللباس الذي يستر العورات المكشوفة، ثمَّ يكون زينة ـ بهذا الستر ـ وجمالاً، بدل قبح العري وشناعته ـ ولذلك يقول: ﴿أنزلنا﴾ أي: شرعنا لكم في التنزيل. واللباس قد يطلق على ما يواري السوأة وهو اللباس الداخلي. والرياش قد يطلق على ما يستر الجسم كله ويتجمل به، وهو ظاهر الثياب. كما قد يطلق الرياش على العيش الرغد والنعمة والمال.. وهي كلها معاني متداخلة ومتلازمة: **﴿يَا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً﴾**.

كذلك يذكر هنا: **﴿لباس التَّقوىٰ﴾** ويصفه بأنَّه **﴿خير﴾**.

﴿ولباس التَّقوىٰ ذلك خير. ذلك من آيات الله﴾.

قال عبد الرَّحمـٰن بن أسلم: (يتقي الله فيواري عورته، فذاك لباس التَّقوىٰ).

فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة، وبين التقوىٰ.. كلاهما لباس. هذا يستر عورات القلب ويزينه. وذاك يستر عورات الجسم ويزينه. وهما متلازمان. فمن شعور التقوىٰ لله والحياء منه

(١) يراجع فصل «تيه وركام» في القسم الأول من كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».

ينبثق الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه. ومن لا يستحي من الله ولا يتّقيه لا يهمه أن يتعرّىٰ وأن يدعو إلى العري. . العري من الحياء والتقوىٰ، والعري من اللباس وكشف السوأة!

إنَّ ستر الجسد حياءً لَيس مجرد اصطلاح وعرف بيئي ـ كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم، وفق الخطة اليهودية البشعة التي تتضمنها مقررات حكماء صهيون ـ إنّما هي فطرة خلقها الله في الإنسان؛ ثمَّ هي شريعة أنزلها الله للبشر؛ وأقدرهم على تنفيذها بما سخّر لهم في الأرض من مقدرات وأرزاق والله يذكر بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس والستر، صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم! وفي تمكينهم منه بما يسَّر لهم من الوسائل: ﴿لعلَّهم يذَّكَّرون﴾. .

ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلى حياء الناس وأخلاقهم؛ والدعوة السافرة لهم إلى العري الجسدي ـ باسم الزينة والحضارة والمودة! ـ وبين الخطة الصهيونية لتدمير إنسانيتهم، والتعجيل بانحلالهم، ليسهل تعبيدهم لملك صهيون! ثمَّ يربط بين هذا كله والخطة الموجهة للإجهاز على الجذور الباقية لهذا الدين في صورة عواطف غامضة في أعماق النفوس! فحتى هذه توجه لها معاول السحق، بتلك الحملة الفاجرة الداعية إلى العري النفسي والبدني الذي تدعو إليه أقلام وأجهزة تعمل لشياطين اليهود في كل مكان! والزينة «الإنسانية» هي زينة الستر، بينما الزينة «الحيوانية» هي زينة العري. . ولكن «الآدميين» في هذا الزمان يَرتدُّون إلى رجعية جاهلية تردهم إلى عالم البهيمة. فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها!!!

﴿يَا بني آدم لا يفتنَّنكم الشَّيطان كما أخرج أبويكم، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما، إنَّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إنَّا

جعلنا الشياطين أولياء للَّذين لا يؤمنون. وإذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها. قل: إنَّ الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون؟. . ﴾.

إنَّه النداء الثَّاني لبني آدم، في وقفة التعقيب على قصة أبويهم، وما جرىٰ لهما مع الشيطان؛ وعلى مشهد العري الذي أوقفهما فيه عدوهما، بسبب نسيانهما أمر ربهما والاستماع إلى وسوسة عدوهما.

لقد كان النداء الأوَّل تذكيراً لبني آدم بذلك المشهد الذي عاناه أبواهم، وبنعمة الله في إنزال اللباس الذي يستر العورة والرياش الذي يتجمل به. أمَّا هذا النداء الثَّاني فهو التحذير لبني آدم عامة وللمشركين الذين يواجههم الإسلام في الطليعة. أن يستسلموا للشيطان، فيما يتَّخذونه لأنفسهم من مناهج وشرائع وتقاليد، فيسلمهم إلى الفتنة ـ كما فعل مع أبويهم من قبل إذ أخرجهما من الجنَّة ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ـ فالعري والتكشف الذي يزاولونه ـ والذي هو طابع كل جاهلية قديماً وحديثاً ـ هو عمل من أعمال الفتنة الشيطانية، وتنفيذ لخطة عدوهم العنيدة في إغواء آدم وبنيه؛ وهو طرف من المعركة التي لا تهدأ بين الإنسان وعدوه. فلا يدع بنو آدم لعدوهم أن يفتنهم؛ وأن ينتصر في هذه المعركة، وأن يملأ منهم جهنم في نهاية المطاف!

وزيادة في التحذير، واستثارة للحذر، ينبئهم ربهم أنَّ الشيطان يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم. وإذن فهو أقدر على فتنتهم بوسائله الخفية؛ وهم محتاجون إلى شدة الاحتياط، وإلى مضاعفة اليقظة، وإلى دوام الحذر، كي لا يأخذهم على غرة: **﴿إنَّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾**. .

ثمَّ الإيقاع المؤثر الموحي بالتوقِّي. . إنَّ الله قدر أن يجعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون. . ويا ويل من كان عدوه وليه! إنَّه إذن يسيطر عليه

ويستهويه ويقوده حيث شاء، بلا عون ولا نصير، ولا ولاية من الله:

﴿إنَّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ . .

وإنَّها لحقيقة . . **أنَّ الشيطان** ولي الذين لا يؤمنون؛ كما أنَّ الله هو ولي المؤمنين. . وهي حقيقة رهيبة، ولها نتائجها الخطيرة. . وهي تذكر هكذا مطلقة؛ ثمَّ يواجه بها المشركون كحالة واقعة، فنرىٰ كيف تكون ولاية الشيطان؛ وكيف تفعل في تصورات الناس وحياتهم. . وهذا نموذج منها:

﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ . .

وذلك ما كان يفعله ويقول به مشركو العرب؛ وهم يزاولون فاحشة التعري في الطواف ببيت الله الحرام ـ وفيهم النساء! ـ ثمَّ يزعمون أنَّ الله أمرهم بها. فقد كان أمر آباءهم بها ففعلوها. ثمَّ هم ورثوها عن آبائهم ففعلوها! وهم ؛ على شركهم ـ لم يكونوا يتبجحون تبجح الجاهليات الحديثة التي تقول: ما للدين وشؤون الحياة؟ وتزعم أنَّها هي صاحبة الحق في اتخاذ الأوضاع والشرائع والقيم والموازين والعادات والتقاليد من دون الله!

إنَّما كانوا يفترون الفرية، ويشرعون الشريعة، ثم يقولون: الله أمرنا بها! وقد تكون هذه خطة ألأم وأخبث، لأنَّها تخدع الَّذين في قلوبهم بقية من عاطفة دينية؛ فتوهمهم أنَّ هذه الشريعة من عند الله. . ولكنها على كل حال أقل تبجحاً ممَّن يزعم أنَّ له الحق في التشريع للناس بما يراه أصلح لأحوالهم من دون الله!

والله ـ سبحانه ـ يأمر نبيه ﷺ أن يواجههم بالتكذيب لهذا الافتراء على الله، وبتقرير طبيعة شرع الله وكراهته للفاحشة، فليس من شأنه سبحانه أن يأمر بها:

﴿قل: إنَّ الله لا يأمر بالفحشاء. أتقولون على الله ما لا تعلمون؟﴾ . .

إنَّ الله لا يأمر بالفحشاء إطلاقاً ـ والفاحشة: كل ما يفحش أي يتجاوز

الحد ـ والعري من هذه الفاحشة، فالله لا يأمر به. وكيف يأمر الله بالاعتداء على حدوده؟ والمخالفة عن أمره بالستر والحياء والتقوىٰ؟ ومن الذي أعلمهم بأمر الله ذاك؟ إنَّ أوامر الله وشرائعه ليست بالادّعاء. إنَّ أوامره وشرائعه واردة في كتبه على رسله. وليس هناك مصدر آخر يعلم منه قول الله وشرعه. وليس لإنسان أن يزعم عن أمر أنَّه من شريعة الله، إلَّا أن يستند إلى كتاب الله وإلى تبليغ رسول الله. فالعلم المستيقن بكلام الله هو الذي يستند إليه من يقول في دين الله.. وإلَّا فأي فوضىٰ يمكن أن تكون إذا قدم كل إنسان هواه، وهو يزعم أنَّه دين الله!!

وبعد أن ينكر عليهم دعواهم في أنَّ الله أمرهم بهذه الفاحشة، يبيِّن لهم أنَّ أمر الله يجري في اتجاه مضاد..

لقد أمر الله بالعدل والاعتدال في الأُمور كلها لا بالفحش والتجاوز: وأمر بالاستقامة على منهج الله في العبادة والشعائر، والاستمداد ممَّا جاء في كتابه على رسوله ﷺ ولم يجعل المسألة فوضىٰ، يقول فيها كل إنسان بهواه، ثمَّ يزعم أنَّه من الله. وأمر بأن تكون الدينونة خالصة له، والعبودية كاملة؛ فلا يدين أحد لأحد لذاته ولا يخضع أحد لأمر أحد لذاته: ﴿**قل أمر ربِّي بالقسط، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد، وادعوه مخلصين له الدين**﴾.

هذا ما أمر الله به، وهو يضاد ما هم عليه. يضاد اتباعهم لآبائهم وللشرائع التي وضعها لهم عباد مثلهم، مع دعواهم أنَّ الله أمرهم بها.. ويضاد العري والتكشّف. وقد امتنَّ الله على بني آدم بأنَّه أنزل عليهم لباساً يواري سوآتهم وريشاً يتجمّلون به كذلك.. ويضاد هذا الشرك الذي يزاولونه، بازدواج مصادر التشريع لحياتهم ولعبادتهم..

الآن بعد تلك الوقفة الطويلة للتعقيب على قصة النشأة الأُولىٰ؛ ومواجهة واقع الجاهلية العربية ـ وواقع الجاهلية البشرية كلها من ورائها ـ في شأن ستر الجسم باللباس وستر الروح بالتقوىٰ، وعلاقة القضية كلها بقضية

العقيدة الكبرىٰ. . الآن يبدأ نداء جديد لبني آدم . . نداء بشأن القضية الكلية التي ربطت بها قضية اللباس في الوقفة السابقة . . قضية التلقّي والاتباع في شعائر الدين وفي شرائعه، وفي أمر الحياة كلها وأوضاعها. وذلك لتحديد الجهة التي يتلقون منها . . إنّها جهة الرسل المبلغين عن ربهم. وعلى أساس الاستجابة أو عدم الاستجابة للرسل يكون الحساب والجزاء، في نهاية الرحلة التي يعرضها السياق القرآني في هذه الجولة.

﴿يا بني آدم إمّا يأتينّكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي، وينذرونكم لقاء يومكم هٰذا: فمن اتّقىٰ وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والّذين كذّبوا بإياتنا واستكبروا عنها أولٰئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

هذا هو عهد الله لآدم وبنيه، وهذا هو شرطه في الخلافة عنه ـ سبحانه ـ في أرضه التي خلقها وقدّر فيها أقواتها، واستخلف فيها هذا الجنس، ومكّنه فيها، ليؤدّي دوره وفق هذا الشرط وذلك العهد؛ وإلاّ فإنّ عمله ردٌّ في الدنيا لا يقبله ولا يمضيه مسلم لله، وهو في الآخرة وزر جزاؤه جهنّم لا يقبل الله من أصحابه صرفاً ولا عدلاً.

﴿فمن اتّقىٰ وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. لأنّ التقوىٰ تنأىٰ بهم عن الآثام والفواحش ـ وأفحش الفواحش الشرك بالله واغتصاب سلطانه وادّعاء خصائص ألوهيته ـ وتقودهم إلى الطيّبات والطاعات، وتنتهي بهم إلى الأمن من الخوف والرضىٰ عن المصير.

﴿والّذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها، أولٰئك أصحاب النّار هم فيها خالدون﴾. . لأنّ التكذيب والاستكبار عن الاستسلام لعهد الله وشرطه يلحق المستكبرين بوليّهم إبليس في النار، حيث يحق وعد الله: **﴿لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنّم منكم أجمعين﴾**. .

على طول الطريق :

ومن ثنايا قصة آدم يتبين لنا أنَّ حياته منذ خلقه الله هي صورة تتكرر بين الحين والحين من ذريته وبنيه إلى أن تُبدل الأرض غير الأرض والسَّماوات، فالحديث عن آدم عليه السَّلام هو الحديث عن الخصائص والميزات التي خصَّ الله بها هذا الإنسان وميَّزه بها عن غيره، كما أنَّه حديثاً عن تلك الاستعدادات والغرائز التي هيَّأها الله لهذا الإنسان قبضة الطين كانت أم نفخة الروح فقد روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أنَّ النَّبيّ ﷺ قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق آدم من قبضته من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض» وفي رواية: «خلق الله آدم من أديم الأرض كلِّها، فخرجت ذريته على حسب ذلك، فمنهم الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، ومنهم بين ذلك، والسَّهل والحَزْن، والخبيث والطيب»[1].

لقد هبط آدم إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها.. هبط لتبدأ رحلة الحياة: آدم وزوجه. والشيطان وقبيله.. وانطلق الشيطان يلوي البشرية عن صراط الله المستقيم تحت ضغط الشهوات، ليقودها من خطامها، محاولاً أن يرضي حقده؛ وأن ينفذ وعيده، وأن يمضي ببني آدم من خطام هذه الشهوات إلى جهنم، فإذا بموكب الرسل الكرام يواجه البشرية بالهدى. ويلوّح لها بالنور، ويستروح بها ريح الجنَّة، ويحذرها لفحات السموم، ونزغات الشيطان الرَّجيم. عدوها القديم..

إنَّه مشهد مؤثر.. مشهد الصراع العميق، في خضمِّ الحياة، على طول الطريق..

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد ٤/٤٠٠ و ٤٠٦، وأبو داود (٤٦٩٣) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، والترمذي (٢٩٥٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه، انظر الإحسان: (٦١٦٠) و (٦١٨١).

إنَّ التاريخ البشري يمضي في تشابك معقد كل التعقيد.. إنَّ هذا الكائن المزدوج الطبيعة، المعقد التركيب.. الذي يتألف كيانه من أبعد عنصرين تؤلف بينهما قدرة الله وقدره.. عنصر الطين الذي نشأ منه، وعنصر النفخة من روح الله التي جعلت من هذا الطين إنساناً..

إنَّ هذا الكائن ليمضي في تاريخه مع عوامل متشابكة كل التشابك، ومعقدة كل التعقيد.. يمضي بطبيعته هذه يتعامل مع تلك الآفاق والعوالم التي أسلفنا في قصة آدم الحديث عنها.. يتعامل مع الحقيقة الإلٰهية: مشيئتها وقدرها، وقدرتها وجبروتها، ورحمتها وفضلها.. إلخ.. ويتعامل مع الملأ الأعلىٰ وملائكته.. ويتعامل مع إبليس وقبيله.. ويتعامل مع بعضه البعض.. يتعامل مع هذه الآفاق وهذه العوالم بطبيعته تلك، وباستعداداته المتوافقة والمتعارضة مع هذه الآفاق والعوالم..

وفي هذا الخضمّ المتشابك من العلاقات والروابط، يجري تاريخه.. ومن القوة في كيانه والضعف. ومن التقوىٰ والهدىٰ. ومن الالتقاء بعالم الغيب وعالم الشهود. ومن التعامل مع العناصر المادية في الكون والقوىٰ الروحية، ومن التعامل مع قدر الله في النهاية.. من هذا كله يتكون تاريخه.. وفي ضوء هذا التعقيد الشديد يفسر تاريخه. والذين يفسرون التاريخ الإنساني تفسيراً «اقتصادياً» أو «سياسياً». والذين يفسرونه تفسيراً «بيولوجياً». والذين يفسرونه تفسيراً «روحياً» أو «نفسياً». والذين يفسرونه تفسيراً عقلياً.. كل أولـٰئك ينظرون نظرة ساذجة إلى جانب من جوانب العوامل المتشابكة، والعوالم المتباعدة، التي يتعامل معها الإنسان؛ ويتألف من تعامله معها تاريخه.. والتفسير الإسلامي للتاريخ هو وحده الذي يلم بهذا الخضم الواسع، ويحيط به، وينظر إلى التاريخ الإنساني من خلاله[1]. لقد شهدنا مشهد النشأة البشرية.. وشهدنا هذا الكائن

(١) يراجع فصل «حقيقة الإنسان» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوّماته» القسم الثاني.

باستعداداته الأساسية.. شهدنا تكريمه في الملأ الأعلىٰ وإسجاد الملائكة له، والباريء العظيم يعلن ميلاده.. وشهدنا ضعفه بعد ذلك وكيف قاده منه عدوه.. وشهدنا مهبطه إلى الأرض وانطلاقه في التعامل مع عناصرها ونواميسها الكونية.. فهو مخلوق مزود بطاقات: من أبرزها طاقة المعرفة. وطاقة الإرادة الضابطة. وطاقة القوة الفاعلة المتضمِّنة في معنىٰ الخلافة ومقتضياتها. وطاقة الصراع. والقدرة على التوجه إلى الله وتلقّي كلماته وتتبُّع هداه.. والقدرة كذلك على الاستقرار والمتاع.

وهو مخلوق مشتمل على نقطة ضعف هي حب الشهوات. ونسيان العهد، ونسيان الهدىٰ، والكفر بآيات الله.

وهو مخلوق ذو طبيعة مزدوجة. فيه القدرة على الارتفاع إلى أقصىٰ المدىٰ، والقدرة على الهبوط إلى الحضيض.

إنَّ الحقيقة عن تكوين الإنسان ونشأته هي كلمة الله.. والإقرار بها لا يمنع أن يأخذ البحث العلمي مجراه. بل إنَّ البحث العلمي للكشف عن الحقيقة لهو الاستجابة لأمر الله للنَّاس أن يفتشوا عن الآيات في كلٍ شيء: ﴿**وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم.. أفلا تبصرون**﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١] ﴿**سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم**﴾ [فصِّلت: ٥٣].. وفي النهاية تلتقي حقيقة الدين الكلية بحقائق العلم التفصيلية ويستقيم بذلك منهج الحياة.

أبرز ما في الكيان البشري أنَّه كيان مزدوج الطبيعة. وبهذا الازدواج كائن متفرد في كل ما نعلم من مخلوقات هذا الكون التي تمثل طبيعة واحدة ذات وجهة واحدة. والإنسان وحده ـ فيما نعلم من الكائنات ـ هو الكائن المزدوج الطبيعة القادر على أكثر من اتجاه.

وهذا الازدواج هو طابع كيانه كله. وهو متغلغل في كل أعماقه. فلا يوجد عمل ولا شعور ولا فكر ولا تصرف لا تبدو فيه هذه الظاهرة الفذّة

المتميزة. الإنسان قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله.

قبضة من طين الأرض تتمثل في حقيقة الجسد: عضلاته ووشائجه وأعضائه وأحشائه، وتتمثل كذلك في مطالب الجسد وألوان نشاطه. و « **الشهوات** » كلها، أو الدوافع الفطرية، أو القوة الحيوية للإنسان، هي نشاط جثماني، أو نشاط قائم على قاعدة جسمية، بحيث تتعطل أو تزول لو أُزيل العضو الذي يقوم بها أو الغدة التي تبعث نشاطها.

ونفخة من روح الله تتمثل في الجانب الروحي للإنسان. تتمثل في الوعي والإدراك والإرادة. تتمثل في كل « القيم » والمعنويات التي يمارسها الإنسان. فالخير والبر والرحمة والتعاون والإخاء والمودة والحب والصدق والعدل والإيمان بالله والإيمان بالمثل ألعليا والعمل على تحقيقها في واقع الحياة.. كل ذلك نشاط روحي، أو نشاط قائم على قاعدة روحية. وهو مثلها ـ أمر معنوي لا تدركه الحواس ولكن تُدرَك آثاره الظاهرة في الواقع المحسوس. وهذان اللونان من النشاط البشري حقيقة واضحة مشهودة.

والحقيقة الجسدية لا تحتاج إلى توكيد. فهي ظاهرة أمامنا نراها ونلمسها، ولا نتعب في تحديد حدودها وقياس أبعادها وطاقاتها. وإن كانت العلوم التي تبحث فيها تقر بعجزها الكامل عن استكناه كنهها الحقيقي، وتكتفي بوصف مظاهرها ورسم أبعادها.

وإلاَّ فأي سر يمنح الخلية الحياة بادىء ذي بدء، فتتحول من مادة ميتة إلى خلية حيّة؟

وأي سرّ يجعل تلك الحياة الممنوحة للخلية تتخذ نشاطاً معيناً منظماً منسقاً مضبوطاً؟

وأي سرّ يجعل مجموعة من الخلايا الحية تتخصص لتكوين الأنف، أو الفم، أو العين، أو القلب، أو المخ، أو الذراع أو الساق.. إلخ. وهي كلها في الأصل متشابهة ومتماثلة؟

وأي سر يجعل تلك المجموعة التي كونت الأنف أو الفم أو العين.. تأخذ شكلاً معيناً ذا شبه معين قريب أو بعيد من الآباء والجدود؟

وأي سر يجعل العين ـ تلك المجموعة من الخلايا ـ ترىٰ، والأنف يشم، والأذن تسمع والجلد يحس والعقل يفكر؟

ومئات من الأسرار وأُلوف.. كلها مغلف بستار الغيب لا يصل «العلم» منها لغير المظاهر والسطوح!

أمَّا الحقيقة الروحية فهي خفية. نعم، ولكن أي شيء في الإنسان ليس بالخفي؟ إنَّها مجهولة الكنه، ولكن.. أيزيد جهلنا بها عن جهلنا بسرِّ الحياة في الخلية الحية، وسر النمو، وسر التخصص، وسر التشكّل، وسر قيام الأعضاء بوظائفها المعقدة الشديدة التعقيد؟

نعم إنَّها غير ظاهرة، لا نستطيع تحديد حدودها ولا قياس أبعادها. ولكنَّا نرىٰ آثارها وندركها. نراها متمثلة أحياناً في وقائع ملموسة وأحياناً في رغبات وأشواق. ومن ثمَّ لا نستطيع أن نلغي من حسابنا وجود كيان معنوي للإنسان، نسميه «الروح» اصطلاحاً، أو نسميه بأي اسم آخر. ولكنَّا نلتقي عند مفهوم معين واضح الحدود والسمات.

إنَّ كل معنىٰ من المعاني التي تعبر عن القيم العليا.. عن الحق والخير والجمال والحرية والإخاء والحب.. إلخ لهي دليل على هذا الكيان المعنوي للإنسان. وليس من الضروري أن يمارس الناس كلهم هذه المعاني في كل وقت. فيكفي أن يمارسها بعضهم في أية لحظة لتكون واقعاً بشرياً موجوداً في عالم الحقيقة. بل يكفي أن توجد في اللغة البشرية (واللغة ذاتها من المعنويات التي اختصَّ بها الإنسان) لكي يثبت وجودها الواقعي. فحين توجد في اللغة البشرية كلمة «الحب» أو «العدل» أو «الجمال» فيستوي أن تكون هذه القيم وقائع محسوسة أو صلحاً يشتاق البشر إلى تحقيقه.. يستوي هذا وذاك في إثبات النشاط المعنوي للإنسان.. فالرغبة في هذه

القيم هي ذاتها نشاط معنوي، سواء تحققت في عالم الحسّ أو لم تتحقق. كما أنَّ الرغبة في الطعام مثلاً دليل على وجود نشاط معين داخل الجسم، سواء أدَّت إلى تناول الطعام فعلاً أم لم تؤدِّ إليه»[1].

«إنَّ هذا الكيان ـ مع ازدواجه ـ ليس مكوناً من عنصرين منفصلين يعمل كل منهما في اتجاه.

إنَّه ليس جسماً وروحاً منفصلين: **﴿فإذا سوَّيته ونفخت فيه من روحي﴾**.

إنَّ هذه النفخة العلوية التي أعطت للإنسان روحه ـ وهي قَبس من روح الله ـ لم تظل عنصراً منفصلاً عن الكيان المسوّىٰ من الطين، ولم تتحيز في حيِّز معين منه. وإنَّما سرت « فيه ». فيه كله من أوله إلى آخره، وشملت كل كيانه، فأصبح كيانه جسمياً روحياً في ذات الوقت. لا ينفصل فيه عنصر عن عنصر، ولا يستقل فيه كيان عن كيان.

إنَّه لم يعد طيناً بحتاً. . ولا يمكن أن يعود كذلك.

ولا هو أيضاً روح بحت. ولا يمكن أن يكون.

فالعنصران مختلطان ممتزجان مترابطان. . يتكون منهما كيان موحد مختلط الصفات، أو مزدوج الصفات.

وتلك حقيقة كبرىٰ في الكيان البشري، تنبني عليها كل أعمال الإنسان ومشاعره وتصرفاته في الحياة»[2].

« يحسّ الإنسان بأشواق عليا، وتنطلق روحه مرفرفة خفيفة مشعة رائقة.

يحسّ برغبة في الاتصال بالله، ويتعبَّد إليه راغباً في محبته ساعياً إلى رضاه. وقد تستغرقه العبادة في لحظة فينسىٰ نفسه. ينسىٰ أنَّه على الأرض،

---

(١) دراسات في النفس الإنسانية: ص ٤٢ ـ ٤٦.
(٢) المصدر السَّابق، ص ٤٧.

وأنّه جسم ذو عضلات ووشائج وأعصاب، وذو مطالب لا يطول سكوتها عن الإلحاح، لأنّه لا يحسّ في تلك اللحظة بحدود هذا الجسم، ولا يحسّ بما يفصل بينه وبين الله.

ولكنَّ الإنسان لا يصبر على هذه اللحظات أكثر من لحظات! ثمَّ يعود إلى واقع الأرض المحدود المحسوس، بحكم الضرورات القاهرة التي تتوالى على حسّه من جوع وعطش وإفرازات ومطالب ورغبات..

ومهما حاول الإنسان أن يتسامى بروحه على الضرورة، فإلى فترة محدودة من الوقت - تطول أو تقصر - ثمَّ يعود. **ولا محيص له من أن يعود..**

وذلك أثر من آثار امتزاج الجسد بالروح، وعدم انفصاله عنها، فلا يمكن أن تنطلق انطلاقاً كاملاً وهي مرتبطة في الأرض بقبضة الطين.

فالإنسان كيان موحد، برغم ما في طبيعته هذه من ازدواج.. كيان موحد.. كل ما ينبعث عنه من نشاط فإنّما يصدر عن كيانه الموحد المتشابك المعقد التركيب! والإسلام كلمة الله إلى الأرض - هو وحده الذي تمشى مع الفطرة البشرية كما خلقها الله.

الفطرة البشرية هي قبضة الطين ونفخة الروح العلوية في ذلك الطين، وامتزاجها به وتوحدها فيه.

والإسلام هو النظام الذي يربط بين كل ألوان النشاط البشري، ويوحّد بينهما في الاتجاه. يربط بين الروح والجسد ويوحّد بينهما في كل ما يصدر عنهما من مشاعر وأفكار وأعمال.

الطعام والشراب يبيحه.. ثمَّ يجعله باسم الله.. أي يجعل له قيمة روحية مصاحبة. وبهذا يجعل الطعام والشراب مسألة إنسانية لا حيوانية. ويقضيهما الإنسان على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان. ويكون بذلك متمشياً مع الفطرة السوية التي أودعها الله في الإنسان. وحين يجعلهما

باسم الله، فهي ليست كلمة تقال.. وإنّما هي حقائق كثيرة تجعل الارتباط كاملاً فيهما بين نشاط الجسم ونشاط الروح.

فالطعام ينبغي أن يكون من حلال: ﴿**يَا أيُّها النَّاس كلوا ممَّا في الأرض حلالاً طيِّباً**﴾ [البقرة: ١٦٨]. ﴿**وكلوا ممَّا رزقكم الله حلالاً طيِّباً**﴾ [المائدة: ٨٨] وأن يذكِّيْ هو ذاته قبل تناوله بقراءة اسم الله عليه، أي بربطه بالله في الوجدان: ﴿**ولا تأكلوا ممَّا لم يُذكر اسم الله عليه. وإنّه لفسق**﴾ [الأنعام: ١٢١]. وألاَّ يسرف الإنسان فيه بلا ضابط: ﴿**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا**﴾ [الأعراف: ٣١].

وألاَّ يستأثر به وحده: ﴿**فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير**﴾ [الحج: ٢٨]»[1].

وألاَّ يجعله هَمَّه الشاغل، ولا هدفاً في ذاته، وإنَّما وسيلة لهدف: «**بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه**»[2].

وبهذا يُصبح الطعام مسألة جسمية روحية في ذات الوقت، وبتعبير آخر يصبح نشاطاً إنسانياً صادراً عن الكيان الإنساني الواحد المجتمع المترابط الذي لا ينفصل فيه كيان عن كيان.

وهكذا سائر النشاط الإنساني يصدر عن الكيان المجتمع للإنسان[3].

« والإنسان ـ بطبيعته المزدوجة ـ **قابل قبولاً طبيعياً أن يتَّخذ هذا الوضع أو ذاك**: وضع سيطرة الجسم على الكيان الممتزج، أو سيطرة الروح. أي إنَّه مشتمل ـ بصورة طبيعية على استعداد للخير واستعداد للشر: ﴿**وهديناه النَّجدين**﴾ [سورة البلد: ١٠]. ﴿**إنَّا هديناه السَّبيل إمَّا شاكراً وإمَّا كفوراً**﴾ [سورة الإنسان: ٣]. ﴿**ونفس وما سوَّاها فألهمها فجورها وتقواها.**

---

(١) انظر: المصدر السَّابق، ص ٥٢، ٥٣، ٥٦، ٦٤.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم.

(٣) انظر: «دراسات في النفس الإنسانية» ص ٦٥ ـ ٧٠.

قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها﴾ [سورة الشّمس: ٧ ـ ١٠].

بل إنَّه ـ حين يُترك وشأنه ـ أكثر ميلاً لأن يستجيب لثقلة الطين **﴿وخُلق الإنسان ضعيفاً﴾** [النِّساء: ٢٨]. **﴿ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثمَّ رددناه أسفل سافلين﴾** [سورة التِّين: ٤ ـ ٥].

ومن ذلك ينشأ الشرّ في حياة الإنسان ويملأ وجه الأرض **﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾** [سورة الرُّوم: ٤١].

« وليس هذا الشر ناشئاً من الاستجابة إلى دوافع الجسم. فهذا بذاته لا ينشىء شراً، بل ينشأ عنه الخير حين يكون في الصورة التي وصفناه قبل قليل.

إنَّ الجسم ليس شريراً بذاته، ولا منبوذاً ولا محتقراً ولا ساقطاً من الحساب. فهو لم يُخلق عبثاً.. تعالىٰ الله عن العبث وعن عدم القصد.. وإنَّما الجسم هو وعاء الطاقة الحيوية العاملة النشيطة التي تعمّر الأرض، وتستخرج كنوزها وتستغل طاقاتها، وتنشىء وتبني وتنتج، فتسمح للحياة الإنسانية بالوجود والبقاء، والامتداد والارتقاء..

والاستجابة لدوافع الجسم هي التي ينشأ عنها الوجود والحركة والعمل والإنتاج.. وكل ذلك مطلوب ومقصود، لأنَّه الأداة التي تقوم عليها خلافة الإنسان عن الله في الأرض، والتي بغيرها لا يكون لهذه الخلافة معنىٰ ولا وجود.

فليس الجسم ولا الاستجابة لدوافعه هما منبع الشر في حياة الإنسان. إنَّما الشر ينشأ من تولِّي الجسم قيادة الكيان المُجتَمِع المترابط الذي ينبغي أن تتولىٰ قياده الروح، بحكم النشأة الطبيعية التي جعلت الإنسان إنساناً، ورفعته عن الحيوان، وقد كان قميناً أن يكون حيواناً لولا تلك النفخة العلوية في قبضة الطين.

وحين يلغي الإنسان كيانه الروحي [وهو تعبير مجازي، لأنَّه لا يحدث

بغير خلل وظيفي ـ أن يصبح الإنسان جسداً خالصاً بغير روح] أي حين يجعل الجسم هو صاحب القياد، فتنطمس إشعاعة الروح المضيئة وتخبو في عتامة الطين. . فحينذاك ينشأ الشر، وحينذاك يهبط الإنسان إلى مستوىً أسوأ من مستوىٰ الحيوان ـ رغم أنَّه ما زال محتوياً على عنصر الروح!

يهبط. . لأنَّه لا يستخدم طاقات روحه:

﴿لهم قلوبٌ لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولـٰئك كالأنعام بل هم أضل. أولـٰئك هم الغافلون﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والإشارة إلى القلوب والأعين والآذان ليس مقصود بها الحواس الظاهرة بطبيعة الحال، وإنَّما المقصود ما وراءها من وعي وفهم وإدراك، والاستفادة بما يُرىٰ ويُسمع ويُحس، في اتخاذ النهج السوي واتخاذ الطريق المستقيم.

عندئذٍ يصبح الإنسان كالأنعام [أي كالحيوان] **بل أضل**.

أضلّ لأنَّ الحيوان من ناحية ليس مطالباً بالارتفاع ولا قادراً عليه. وإنَّما هو على فطرته الطبيعية حين يأتي ما يأتي من أعمال. وليس من شأنه أن يقدِّر «قيماً» لأعماله. ومن ثمَّ فهو لا يخالف عن طبيعته ولا عن الدور المقدَّر له في الحياة.

والحيوان من ناحية أُخرىٰ له غريزة تضبط أعماله وتقف بها عند الحد الملائم لفطرته، فتمنع عنه الإسراف والشطط بالنسبة للمقاييس الحيوانية وبالنسبة للقصد الذي يُقصده الخالق منه، وإن كان الحيوان ذاته يأتيه بلا وعي ولا اختيار.

أمَّا الإنسان الدي لا يستفيد بطاقات روحه ـ مع أنَّه ما زال محتوياً على عنصر الروح ـ فهو أضل. لأنَّه يخالف فطرته السوية ويهبط عنها، وفي الوقت ذاته يسرف ويشتط. لأنَّه ـ وقد عطَّل الضابط الإرادي الذي وهبه له الله

متمثلاً في نفخة الروح ـ لا يملك الضابط الغريزي الذي يضبط تصرفات الحيوان.

ويكون ذلك شراً لا شك فيه، وانحرافاً عمَّا ينبغي أن يكون عليه الإنسان.

ولكنَّه كما قلنا انحراف « طبيعي » إذا ترك الإنسان وشأنه، لأنَّه ـ وهو مشتمل على استعداد الخير واستعداد الشر ـ قمين في هذه الحالة أن ينقلب وينتكس إلى أسفل بسبب ثقلة الطين.. وعندئذٍ تصدق عليه كل التفسيرات المنحرفة التي تصور الحياة البشرية في صورة حيوانية، كالتفسير المادي للتاريخ، والتفسير الجنسي للسلوك البشري..

ولكنَّ الله لا يترك الإنسان وشأنه..! لقد خلقه.. وهو يحبه ويعطف عليه ويريد له الخير..

ولذلك يُرسل الرسل يُعرِّفونه بالمنهج الصحيح ويردونه إليه.

والرسالات إذن ذات مهمة رئيسية في حياة البشرية، وليست نافلة تستغني عنها حين تريد.

والإنسان إمَّا أن يهتدي بهذا الهدي الإلـهي، فيجعل لروحه قياد كيانه الممتزج المترابط، ويكون في وضعه الصحيح بالنسبة للفطرة، وإمَّا أن يرفض الهدىٰ، ويجعل القياد لجسمه وشهواته، فهو كالأنعام بل هو أضل. وهو منتكس بروحه إلى أسفل، غارق بكيانه في الطين.

وهذا هو التفسير « النفسي » للخير والشر في كيان الإنسان.. وهو تفسير واضح بسيط، لا يتخبط تخبط « الفلسفات » التي تشطح هنا وتشطح هناك، وتتجافىٰ المنبع الأصيل الذي ينبغي أن ترجع إليه في قياس الخير والشر في كيان الإنسان.. وهو فطرة ذلك الإنسان!»[1].

---

(١) .. دراسات في النفس الإنسانية: ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١.

إنَّ هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد، مزدوج الاتجاه، مزود باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدىٰ والضلال. فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر. كما أنَّه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء. وأنَّ هذه القدرة كامنة في كيانه، يُعبِّر عنها القرآن بالإلهام تارة ﴿ونفس ما سوَّاها فألهمها فجورها وتقواها﴾.. ويعبِّر عنها بالهداية تارة: ﴿فهديناه النَّجدين﴾.. فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد.. والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنَّما توقظ هذه الاستعدادات وتشحنها وتوجهها هنا أو هناك. ولكنها لا تخلقها خلقاً لأنَّها مخلوقة فطرة، وكائنة طبعاً، وكامنة إلهاماً.

وهنا إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان. هي التي تناط بها التبعة. فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها، وتغليبه على استعداد الشر.. فقد أفلح. ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب: ﴿قد أفلح من زكَّاها وقد خاب من دسَّاها﴾.

وهناك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه. توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو في حقل الخير وفي حقل الشر سواء. فهي حرية تقابلها تبعة، وقدرة يقابلها تكليف، ومنحة يقابلها واجب..

ورحمة من الله بالإنسان لم يدعه لاستعداد فطرته الإلهامي، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف، فأعانه بالرسالات التي تضع له الموازين الثابتة الدقيقة، وتكشف له عن موحيات الإيمان، ودلائل الهدىٰ في نفسه وفي الآفاق من حوله، وتجلو عنه غواشي الهوىٰ فيبصر الحق في صورته الصحيحة.. وبذلك يتَّضح له الطريق وضوحاً كاشفاً لا غبش فيه ولا شبهة فتتصرف القوة الواعية حينئذٍ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذي تختاره وتسير فيه.

وهذه في جملتها مشيئة الله بالإنسان. وكلّ ما يتم في دائرتها فهو محقق لمشيئة الله وقدره العام.

هذه النظرة المجملة[1] تنبثق منها جملة حقائق ذات قيمة في المنهج التربوي:

فهي أولاً ترتفع بقيمة هذا الكائن الإنساني، حين تجعله أهلاً لاحتمال تبعة اتجاهه، وتمنحه حرية الاختيار (في إطار المشيئة الإلـهية التي شاءت له هذه الحرية فيما يختار) فالحرية والتبعية يضعان هذا الكائن في مقام كريم، ويقرران له في هذا الوجود منزلة عالية تليق بالخليقة التي نفخ الله فيها من روحه وسواها بيده، وفضلها على كثير من العالمين.

وهي ثانياً تلقي على هذا الكائن تبعة مصيره، وتجعل أمره بين يديه (في إطار المشيئة الكبرىٰ كما أسلفنا) فتثير في حسِّه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوىٰ. وهو يعلم أنَّ قَدَر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه: ﴿إنَّ الله لا يُغيِّر ما بقوم حتّىٰ يُغيِّروا ما بأنفسهم﴾.. وهي تبعة ثقيلة لا يغفل صاحبها ولا يغفو!

وهي ثالثاً تشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلـهية الثابتة، ليظل على يقين أنَّ هواه لم يخدعه، ولم يضلله، كي لا يقوده الهوىٰ إلى المهلكة، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلـهه هواه. وبذلك يظل قريباً من الله، يهتدي بهديه، ويستضيء بالنور الذي أمده به في متاهات الطريق! ومن ثمَّ فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تزكية نفسه وتطهيرها، وهو يغتسل في نور الله الفائض، ويتطهر في هذا العباب الذي يتدفق حوله من ينابيع الوجود.

---

(١) يراجع بتوسع في نظرية الإسلام النفسية كتاب «الإنسان بين المادية والإسلامية» لمحمَّد قطب، وكذلك طبيعة مزدوجة، والخير والشر في النفس الإنسانية في كتاب «دراسات في النفس الإنسانية» لمحمَّد قطب أيضاً.

وبعد . . لقد شهدنا الإنسان الأول يهبط إلى هذه الأرض مؤمناً بربه؛ مستغفراً لذنبه؛ مأخوذاً عليه عهد الخلافة: أن يتبع ما يأتيه من ربه ولا يتبع الشيطان ولا الهوىٰ، مزوداً بتلك التجربة الأُولىٰ في حياته . .

ثمَّ مضىٰ به الزمن؛ وتقاذفته الأمواج في الخضم؛ وتفاعلت تلك العوامل المعقدة المتشابكة في كيانه ذاته وفي الوجود من حوله. تفاعلت في واقعه وفي ضميره. ثمَّ ها نحن أُولاء نشهد كيف صارت به هذه العوامل المعقدة المتشابكة إلى الجاهلية في فترات من تاريخه!!! إنَّه ينسىٰ . . وقد نسي . . إنَّه يضعف . . وقد ضعف . . إنَّ الشيطان يغلبه . . وقد غلبه . . ولا بد من الإنقاذ مرة أُخرىٰ!!! لقد هبط إلى هذه الأرض مهتدياً تائباً مُوحِّداً . . ولكن ها نحن أُولاء نلتقي به في أيام من رحلته ضالاً مفترياً مشركاً!!! لقد تقاذفته الأمواج في الخضم . . ولكن هناك مَعْلماً في طريقه . . هناك الرسالة ترده إلى ربِّه. فمن رحمة ربه أن لا يتركه وحده!

نموذج مُكَرَّر وسنة الله لا تتغيَّر :

إنَّ قصص الأنبياء والرسل تصوّر طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر في نفوس البشر، وتَعرض نموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للإيمان، وتَعرض نموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للكفر أيضاً . . إنَّ الذين آمنوا بكل رسول لم يكن في قلوبهم الاستكبار عن الاستسلام لله والطاعة لرسوله، ولم يعجبوا أن يختار الله واحداً منهم ليبلغهم وينذرهم. فأمَّا الذين كفروا بكل رسول فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم، فاستكبروا أن ينزلوا عن السلطان المغتصب في أيديهم لله صاحب الخلق والأمر، وأن يسمعوا لواحد منهم . . كانوا هم الملأ من الحكام والكبار والوجهاء وذوي السلطان في قومهم . . ومن هنا نعرف عقدة هذا الدين . . إنَّها عقدة الحاكمية والسلطان . . إمَّا طاعة الرَّحمٰن وإمَّا الهوىٰ وطاعة الشيطان . .

ونمضي مع القرآن مع سنة الله ورحمته بالناس، فهو سبحانه يستجيب

لهم في موقف الشدة والضيق وينجيهم الضرّ والكرب. ثمَّ إذا هم يعرضون ويكفرون:

﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله، إنَّه كان بكم رحيماً. وإذا مسَّكم الضر في البحر ضلَّ من تدعون إلاَّ إياه، فلمَّا نجاكم إلى البر أعرضتم، وكان الإنسان كفوراً﴾ [الإسراء: ٦٦، ٦٧].

والسياق يعرض هذا المشهد، مشهد الفلك في البحر، نموذجاً للحظات الشدة والحرج. لأنَّ الشعور بيد الله في الخضم أقوىٰ وأشد حساسية، ونقطة من الخشب أو المعدن تائهة في الخضم، تتقاذفها الأمواج والتيارات والناس متشبّثون بهذه النقطة على كف الرَّحمٰن.

إنَّه مشهد يحسّ به من كابده، ويحس بالقلوب الخافقة الواجفة المتعلقة بكل هزة وكل رجفة في الفلك صغيراً كان أو كبيراً حتى عابرات المحيط الجبارة التي تبدو في بعض اللحظات كالريشة في مهب الرياح على ثبج الموج الجبار! والتعبير يلمس القلوب لمسة قوية وهو يشعر الناس أنَّ يد الله تزجي لهم الفلك في البحر وتدفعه ليبتغوا من فضله **﴿إنَّه كان بكم رحيماً﴾** فالرحمة هي أظهر ما تستشعره القلوب في هذا الأوان.

ثمَّ ينتقل بهم من **الإزجاء الرخي للاضطراب العتي. حين ينسىٰ الركب في الفلك المتناوح بين الأمواج كل قوة وكل سند** وكل مجير إلاَّ الله، فيتجهون إليه وحده في لحظة الخطر لا يدعون أحداً سواه: **﴿ضلَّ من تدعون إلاَّ إيَّاه﴾**.

ولكنَّ الإنسان هو الإنسان، فما إن تنجلي الغمرة، وتحس قدماه ثبات الأرض من تحته حتىٰ ينسىٰ لحظة الشدة، فينسىٰ الله، وتتقاذفه الأهواء وتجرفه الشهوات، وتغطي على فطرته التي جلاها الخطر: **﴿فلمَّا نجاكم إلى البرِّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾** إلاَّ من اتصل قلبه بالله فأشرق واستنار.

وهنا يستجيش السياق القرآني وجدان المخاطبين بتصوير الخطر الذي

تركوه في البحر وهو يلاحقهم في البر أو وهم يعودون إليه في البحر، ليشعروا أنَّ الأمن والقرار لا يكونان إلَّا في جوار الله وحماه، لا في البحر ولا في البر، لا في الموجة الرخية والريح المواتية ولا في الملجأ الحصين والمنزل المريح:

﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً، ثمَّ لا تجدوا لكم وكيلاً؟ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أُخرىٰ، فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم، ثمَّ لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً؟﴾ [الإسراء: ٦٨، ٦٩].

إنَّ البشر في قبضة الله في كل لحظة وفي كل بقعة. إنَّهم في قبضته في البر كما هم في قبضته في البحر. فكيف يأمنون؟ **كيف يأمنون أن يخسف بهم** جانب البر بزلزال أو بركان، أو بغيرهما من الأسباب المسخرة لقدرة الله؟ أو يرسل عليهم عاصفة بركانية تقذفهم بالحمم والماء والطين والأحجار، فتهلكهم دون أن يجدوا لهم من دون الله وكيلاً يحميهم ويدفع عنهم؟.

أم كيف يأمنون أن يردهم الله إلى البحر فيرسل عليهم ريحاً قاصفة، تقصف الصواري وتحطم السفن، فيغرقهم بسبب كفرهم وإعراضهم، فلا يجدون من يطالب بعدهم بتبعة إغراقهم؟

ألا إنَّها الغفلة أن يعرض الناس عن ربهم ويكفروا **ثمَّ يأمنوا أخذه** وكيده. وهم يتجهون إليه وحده في الشدة ثم ينسونه بعد النجاة. **كأنَّها آخر شدة يمكن أن يأخذهم بها الله!**

ويرسم القرآن صورة لتقلب الأهواء البشرية التي يعبث بها الشيطان: **﴿وإذا مسَّ الناس ضُرٌّ دعوا ربهم منيبين إليه، ثمَّ إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربِّهم يُشركون، ليكفروا بما آتيناهم، فتمتَّعوا فسوف تعلمون﴾** [الروم: ٣٣، ٣٤]. إنَّها صورة للنفس البشرية التي لا تستمد من قيمة ثابتة،

ولا تسير على نهج واضح. صورة لها وهي تتأرجح بين الانفعالات الطارئة، والتصورات العارضة، والاندفاعات مع الأحداث والتيارات فعند مسّ الضرّ يذكر الناس ربهم، ويلجأون إلى القوة التي لا عاصم إلاَّ إياها، ولا نجاة إلاَّ بالإنابة إليها. حتى إذا انكشفت الغمة، وانفرجت الشدة، وأذاقهم الله رحمة منه: **﴿إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾**.. وهو الفريق الذي لا يستند إلى عقيدة صحيحة تهديه إلى نهج مستقيم. ذلك أنَّ الرخاء يرفع عنهم الاضطرار الذي ألجأهم إلى الله؛ ويُنسيهم الشدة التي ردّتهم إليه. فيقودهم هذا إلى الكفر بما آتاهم الله من الهدىٰ وما آتاهم من الرحمة، بدلاً من الشكر والاستقامة على الإنابة.

وهنا يعاجل هذا الفريق بالتهديد **﴿فتمتَّعوا فسوف تعلمون﴾**..

وهو تهديد ملفوف، هائل مخيف. وإنَّ الإنسان ليخاف من تهديد حاكم أو رئيس فكيف وهذا التهديد من فاطر هذا الكون الهائل، الذي أنشأه كله بقوله: كن! **﴿فتمتَّعوا فسوف تعلمون﴾**!

ونمضي مع القرآن لنشهد رحمة الله التي تمنح الناس الفرصة بعد الفرصة للتحرر من عبودية الهوىٰ والشيطان.. نمضي مع القرآن وهو يواجه مواقف إنسانية متشابهة، وأزمات متشابهة، وتجارب متشابهة على تطاول العصور وكرّ الدهور، وتغير المكان، وتعدد الأقوام. يواجه الضلال والعمىٰ والطغيان والهوىٰ:

﴿ولقد أرسلنا إلى أُمم من قبلك، فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلَّهم يتضرعون. فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا، ولكن قست قلوبهم، وزَيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ [الأنعام: ٤٢ ـ ٤٣].

إنَّها المواجهة بنموذج من بأس الله سبحانه. نموذج من الواقع التاريخي. نموذج يعرض ويفسر كيف يتعرض الناس لبأس الله، وكيف تكون عاقبة تعرضهم له، وكيف يمنحهم الله الفرصة بعد الفرصة، ويسوق

إليهم التنبيه بعد التنبيه؛ فإذا نسوا ما ذكروا به، ولم توجههم الشدة إلى التوجه إلى الله والتضرع له، ولم توجههم النعمة إلى الشكر والحذر من الفتنة، كانت فطرتهم قد فسدت الفساد الذي لا تصلح معه للبقاء. فحقت عليهم كلمة الله. ونزل بساحتهم الدمار الذي لا تنجو منه ديار..

ولقد عرف الواقع البشري كثيراً من هذه الأمم، التي قصَّ القرآن الكريم على الإنسانية خبر الكثير منها، قبل أن يولد «التاريخ» الذي صنعه الإنسان! فالتاريخ الذي سجله بنو الإنسان حديث المولد، صغير السن، لا يكاد يعي إلاَّ القليل من التاريخ الحقيقي للبشر على ظهر هذه الأرض!

وهذا التاريخ الذي صنعه البشر - حافل على قصره - بالأكاذيب والأغاليط؛ وبالعجز والقصور عن الإحاطة بجميع العوامل المنشئة والمحركة للتاريخ البشري؛ والتي يكمن بعضها في أغوار النفس، ويتوارى بعضها وراء ستر الغيب، ولا يبدو منها إلاَّ بعضها. وهذا البعض يخطىء البشر في جمعه، ويخطئون في تفسيره، ويخطئون أيضاً في تمييز صحيحه من زائفه - إلاَّ قليلاً - ودعوى أي بشر أنَّه أحاط بالتاريخ البشري علماً، وأنَّه يملك تفسيره تفسيراً «علمياً»، وأنَّه يجزم بحتمياته المقبلة أيضاً.. هي أكبر أكذوبة يمكن أن يدعيها بشر! ومن عجب أنَّ بعضهم يدعيها! والأشد إثارة للعجب أنَّ بعضهم يصدقها! ولو قال ذلك المدعي: إنَّه يتحدث عن (توقعات) لا عن (حتميات) لكان ذلك مستساغاً.. ولكن إذا وجد المفتري من المغفلين من يصدّقه فلماذا لا يفتري؟!

والله يقول الحق؛ ويعلم ماذا كان، ولماذا كان. ويقص على عبيده - رحمة منه وفضلاً - جانباً من أسرار سنته وقدره؛ ليأخذوا حذرهم ويتّعظوا؛ وليدركوا كذلك ما وراء الواقع التاريخي من عوامل كامنة وأسباب ظاهرة؛ يفسرون بها هذا الواقع التاريخي تفسيراً كاملاً صحيحاً. ومن وراء هذه المعرفة يمكن أن يتوقعوا ما سيكون، استناداً إلى سنة الله التي لا تتبدل.. هذه السنة التي يكشف الله لهم عنها..

وفي هذه الآيات تصوير وعرض لنموذج متكرر في أُمم شتّىٰ. . أمم جاءتهم رسلهم. فكذبوا. فأخذهم الله بالبأساء والضراء. في أموالهم وفي أنفسهم. في أحوالهم وأوضاعهم. . البأساء والضراء التي لا تبلغ أن تكون «عذاب الله» الذي تتحدث عنه آيات القرآن، وهو عذاب التدمير والاستئصال.

لقد أخذهم الله **بالبأساء والضراء ليرجعوا إلى أنفسهم**؛ وينقبوا في ضمائرهم وفي واقعهم، لعلَّهم تحت وطأة الشدة يتضرعون إلى الله، ويتذللون له، وينزلون عن عنادهم واستكبارهم، ويدعون الله أن يرفع عنهم البلاء بقلوب مخلصة، فيرفع الله عنهم البلاء، ويفتح لهم أبواب الرحمة. . ولكنهم لم يفعلوا ما كان حرياً أن يفعلوا. لم يلجأوا إلى الله، ولم يرجعوا عن عنادهم، ولم ترد إليهم الشدة وعيهم، **ولم تفتح بصيرتهم**، ولم تلين قلوبهم. وكان الشيطان من ورائهم يزيِّن لهم ما هم فيه من الضلال والعناد:

﴿ولـكن قست قلوبهم، وزيَّن لهم الشَّيطان ما كانوا يعملون﴾ . .

والقلب الذي لا ترده الشدة إلى الله **قلب تحجَّر** فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة! ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس! وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة، التي تنبه القلوب الحية للتلقّي والاستجابة. **والشدة ابتلاء من الله للعبد**؛ فمن كان حياً أيقظته، وفتحت مغاليق قلبه، وردته إلى ربّه؛ **وكانت رحمة له من الرحمة** التي كتبها الله على نفسه. . ومن كان ميتاً حسبت عليه، ولم تفده شيئاً، وإنما أسقطت عذره وحجته، وكانت عليه شقوة، وكانت موطئة للعذاب!

وهذه الأُمم التي يقص الله سبحانه ـ من أنبائها على رسوله ﷺ ومن وراءه من أُمّته. . لم تفد من الشدة شيئاً. لم تتضرع إلى الله، ولم ترجع عمَّا زيَّنه لها الشيطان من الإعراض والعناد. . وهنا يملي لها الله سبحانه ـ ويستدرجها بالرخاء:

﴿فلمَّا نسوا ماذُكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء. حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بَغْتَةً، فإذا هم مُبلسون. فَقُطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله ربِّ العالمين﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

إنَّ الرخاء ابتلاء آخر كابتلاء الشدة. وهو مرتبة أشد وأعلىٰ من مرتبة الشدة! والله يبتلي بالرخاء كما يبتلي بالشدة. يبتلي الطائعين والعُصاة سواء. بهذه وبذاك سواء.

والمؤمن يُبتلىٰ بالشدة فيصبر، ويُبتلىٰ بالرخاء فيشكر. ويكون أمره كله خيراً.. وفي الحديث: «عجباً للمؤمن إنَّ أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلاَّ للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» (رواه مسلم).

فأمَّا هذه الأُمم التي كذبت بالرسل، والتي يقص الله من أنبائها.. فإنَّهم لما نسوا ما ذُكِّروا به؛ وعلم الله ـ سبحانه ـ أنَّهم مهلكون، وابتلاهم بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا.. فأمَّا هؤلاء فقد فتح عليهم أبواب كل شيء للاستدراج بعد الابتلاء...

والتعبير القرآني: **﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾**.. يصور الأرزاق والخيرات، والمتاع، والسلطان.. متدفقة كالسيول؛ بلا حواجز ولا قيود! وهي مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ولا حتى محاولة!

إنَّه مشهد عجيب، يرسم حالة في حركة، على طريقة التصوير القرآني العجيب.

﴿حتّىٰ إذا فرحوا بما أُوتوا﴾.

وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة؛ واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها ـ بلا شكر ولا ذكر ـ وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه؛ وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هي عادة المستغرقين

في اللهو والمتاع. وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق؛ وجرَّ هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها.. عندئذٍ جاء موعد السنة التي لا تتبدل:

﴿أخذناهم بغتة، فإذا هم مبلسون﴾.

فكان أخذهم على غرة؛ وهم في سهوة وسكرة. فإذا هم حائرون منقطعوا الرجاء في النجاة عاجزون عن التفكير في أي اتجاه. وإذا هم مُهلَكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم.

﴿فقُطع دابر القوم الذين ظلموا﴾.

ودابر القوم هو آخر واحد منهم يدبرهم أي يجيء على أدبارهم فإذا قطع هذا فأوائلهم أولىٰ!

لقد أخذ الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم بهذه السنة؛ ووراء ازدهار حضارتهم ثمَّ تدميرها، **ذلك السرّ المغيب من قدَر الله**؛ وهذا القدر الظاهر من سننه، وهذا التفسير الرباني لهذا الواقع التاريخي المعروف.

ولقد كان لهذه الأُمم من الحضارة؛ وكان لها من التمكين في الأرض؛ وكان لها من الرخاء والمتاع؛ ما لا يقل - إن لم يزد في بعض نواحيه - عمَّا تتمتع به اليوم أُمم؛ مستغرقة في السلطان والرخاء والمتاع، مخدوعة بما هي فيه، خادعة لغيرها ممَّن لا يعرفون سنة الله في الشدة والرخاء..

هذه الأُمم لا تُدرك أنَّ هناك سنة، ولا تشعر أنَّ الله يستدرجها وفق هذه السنة. والذين يدورون في فلكها يبهرهم اللألأء الخاطف، ويتعاظمهم الرخاء والسلطان، ويخدعهم إملاء الله لهذه الأُمم، وهي لا تعبد الله أو لا تعرفه، وهي تتمرد على سلطانه، وهي تدعي لأنفسها خصائص ألوهية، وهي تعيث في الأرض فساداً، وهي تظلم الناس بعد اعتدائها على سلطان الله..

وإذا كان قد رفع عذاب الاستئصال[1] بعد بعثة رسول الله ﷺ فهناك ألوان من العذاب باقية. والبشرية ـ وبخاصة الأمم التي فتحت عليها أبواب كل شيء ـ تذوق منها الكثير. على الرغم من هذا النتاج الوفير، ومن هذا الرزق الغزير!

إنَّ العذاب النفسي، والشقاء الروحي، والشذوذ الجنسي، والانحلال الخلقي.. الذي تقاسي منه هذه الأمم اليوم، يكاد يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع؛ وليكاد يصبغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء[2]! ذلك إلى جانب الطلائع التي تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية، التي تباع فيها أسرار الدولة، وتقع فيها الخيانة للأمَّة، في مقابل شهوة أو شذوذ.. وهي طلائع لا تخطىء على نهاية المطاف!

وليس هذا كله إلَّا بداية الطريق.. وصدق رسول الله ﷺ الذي قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا ـ على معاصيه ـ ما يحب. فإنما هو استدراج».. ثمَّ تلا: **﴿فلمَّا نسوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتَّىٰ إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾** [رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم].

ومن يتنكب طريق الله ورسله فقد استحوذ عليه الشيطان، فهو يزين له مخالفة شرع الله.

﴿تالله لقد أرسلنا إلى أُمم من قبلك فزيَّن لهم الشيطان أعمالهم فهو وليُّهم اليومَ ولهم عذاب أليم﴾ [النحل: ٦٢].

---

(١) قال الله سبحانه عن الظَّالمين: ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا. وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [العنكبوت: ٤٠].

(٢) يراجع بتوسع فصل: «تخبط واضطراب» في كتاب: «الإسلام ومشكلات الحضارة».

ويكشف القرآن عن سلطان الله في قلوب الناس، وهم بعد في الأرض، فكثيرون يستكبرون عن الإيمان بالله. فالله قد قيض لهم ـ بما اطلع على فساد قلوبهم ـ قرناء سوء من الجن ومن الإنس، يزينون لهم السوء، وينتهون بهم إلى مواكب الذين كتب عليهم الخسران، وحقت عليهم كلمة العذاب.

﴿وقيضنا لهم قرناء فزيَّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم، وحقَّ عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس، إنَّهم كانوا خاسرين﴾ [فصِّلت: ٢٥].

فلينظروا كيف هم في قبضة الله الذي يستكبرون عن عبادته. وكيف أنَّ قلوبهم التي بين جنوبهم تقودهم إلى العذاب والخسارة وقد قيض الله وأحضر قرناء يوسوسون لهم، ويزينون لهم كل ما حولهم من السوء، ويحسنون لهم أعمالهم فلا يشعرون بما فيها من قبح. وأشد ما يصيب الإنسان أن يفقد إحساسه بقبح فعله وانحرافه، وأن يرى كل شيء من شخصه حسناً ومن فعله! فهذه هي المهلكة وهذا هو المنحدر الذي ينتهي دائماً بالبوار. وإذا هم في قطيع السوء. في الأُمم التي حقَّ عليها وعد الله من قبلهم من الجن والإنس. قطيع الخاسرين **﴿إنَّهم كانوا خاسرين﴾**.

﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾. [سورة فاطر: ٧].

«إنَّه نموذج الضال الهالك البائر الصائر إلى شر مصير. ومفتاح هذا كله هو هذا التزيين. هو هذا الغرور هو هذا الستار الذي يعمي قلبه وعينه فلا يرى مخاطر الطريق. ولا يحسن عملاً لأنَّه مطمئن إلى حسن عمله وهو سوء. ولا يصلح خطأ لأنَّه واثق أنَّه لا يخطيء! ولا يصلح فاسداً لأنَّه مستيقن أنَّه لا يفسد! ولا يقف عند حد لأنَّه يحسب أنَّ كل خطوة من خطواته إصلاح! إنَّه باب الشر. ونافذة السوء. ومفتاح الضلال الأخير..».

ويدع السؤال بلا جواب... **﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه**

حسناً؟﴾.. ليشمل كل جواب. كأن يقال: أفهذا يرجى له صلاح ومتاب؟ أفهذا كمن يحاسب نفسه ويراقب الله؟ أفهذا يستوي مع المتواضعين الأتقياء؟... إلى آخر صورة الإجابة على مثل هذا السؤال. وهو أسلوب كثير التردد في القرآن.

﴿أفمن كان على بيِّنة من ربِّه، كمن زُيِّن له سوء عمله واتَّبعوا أهواءهم؟﴾..

فهو فارق أصيل في الحالة التي عليها الفريقان، وفي المنهج والسلوك سواء. فالذين آمنوا على بيِّنة من ربِّهم.. رأوا الحق وعرفوه، واستيقنوا من مصدره واتصلوا بربهم فتلقوا عنه، وهم على يقين ممَّا يتلقون. غير مخدوعين ولا مضللين. والذين كفروا زُيِّن لهم سوء عملهم، فرأوه حسناً وهو سيِّىء، ولم يروا ولم يستيقنوا، **﴿واتَّبعوا أهواءهم﴾**. بلا ضابط يرجعون إليه، ولا أصل يقيسون عليه، ولا نور يكشف لهم الحق عن الباطل. أهؤلاء كهؤلاء؟ إنَّهم يختلفون حالاً ومنهجاً واتجاهاً. فلا يمكن أن يتَّفقوا ميزاناً ولا جزاءً ولا مصيراً!

﴿ومن يعش عن ذكر الرَّحمـٰن نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين. وإنَّهم ليصدُّونهم عن السبيل ويحسبون أنَّهم مهتدون﴾ [الزخرف: ٣٥].

والعَشَىٰ كلال البصر عن الرؤية، وغالباً ما يكون عند مواجهة الضوء الساطع الذي لا تملك العين أن تحدق فيه، أو عند دخول الظلام وكلال العين الضعيفة عن التبين خلاله. وقد يكون ذلك لمرض خاص. والمقصود هنا هو العماية والإعراض عن تذكر الرَّحمـٰن واستشعار وجوده ورقابته في الضمير.

وقد قضت مشيئة الله في خلقه الإنسان ذلك. واقتضت أنَّه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه، فيلزمه، ويصبح له قرين سوء يوسوس له، ويزين له السوء. وهذا الشرط وجوابه هنا في الآية يعبران عن

هذه المشيئة الكلية الثابتة، التي تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب، كما قضاه الله في علمه.

ووظيفة قرناء السوء من الشياطين أن يصدوا قرناءهم عن سبيل الله، بينما هؤلاء يحسبون أنَّهم مهتدون. وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرين. أن يصده عن السبيل الواحدة القاصدة؛ ثمَّ لا يدعه يفيق، أو يتبين الضلال فيثوب، إنَّما يوهمه أنَّه سائر في الطريق القاصد القويم! حتى يصطدم بالمصير الأليم.

﴿حتَّىٰ إذا جاءنا قال: يَا ليت بيني وبينك بعد المشرقين. فبئس القرين﴾!

وهكذا ننتقل في ومضة من هذه الدنيا إلى الآخرة. ويطوى شريط الحياة السادرة، ويصل العمي (الذين يعشون عن ذكر الرَّحمـٰن) إلى نهاية المطاف فجأة على غير انتظار. هنا يفيقون كما يفيق المخمور، ويفتحون أعينهم بعد العشىٰ والكلال؛ وينظر الواحد منهم إلى قرين السوء الذي زين له الضلال، وأوهمه أنَّه الهدىٰ! وقاده في طريق الهلاك، وهو يلوح له بالسلامة! ينظر إليه في حنق: **﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾**! يا ليته لم يكن بيننا لقاء. على هذا البعد السحيق! ويعقب القرآن على حكاية قول القرين الهالك للقرين بقوله: **﴿فبئس القرين﴾!**

ونسمع كلمة التيئيس الساحقة لهذا وذاك عند إسدال الستار على الجميع:

﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنَّكم في العذاب مشتركون﴾!

فالعذاب كامل لا تخففه الشركة، ولا يتقاسمه الشركاء فيهون! **﴿ومن يكن الشَّيطان له قريناً فساء قريناً﴾** [النساء: ٣٧].

حقائق ولمسات:

لقد انطلقت البشرية من نقطة البدء، ممثلة في شخصين اثنين.. آدم

وزوجه. . أبوي البشر. . وانطلق معهما الشيطان. مأذوناً من الله في غوايتهما وذراريهما ومأخوذاً عليهما عهد الله وعلى ذراريهما كذلك. ومبتلي كلاهما وذراريهما معهما بقدر من الاختيار؛ ليأخذوا عهد الله بقوة أو ليركنوا إلى الشيطان عدوهم وعدو أبويهم الذي أخرجهما من الجنَّة؛ وليسمعوا الآيات التي يحملها إليهم ذلك الرهط الكريم من الرسل على مدار التاريخ، أو يسمعوا غواية الشيطان الذي لا يني يجلب عليهم بخيله ورجله، ويأتيهم عن أيمانهم وشمائلهم!

لقد انطلقت القافلة في طريقها، وواجهها الرسل بالهدىٰ، وتحركت العقيدة مع التاريخ البشري بعد آدم وزوجه وتجربتهما الأُولىٰ. . هذا وقد كرَّم الله هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه. كرَّمه بخلقته على تلك الهيئة، بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان!

وكرَّمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته؛ والتي استأهل بها الخلافة في الأرض، يغير فيها ويُبدل، ويُنتج فيها وينشىء، ويركب فيها ويحلل، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة.

وكرَّمه بتسخير القوىٰ الكونية له في الأرض وإمداده بعون القوىٰ الكونية في الكواكب والأفلاك. .

وكرَّمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويعلن فيه الخالق جلَّ شأنه تكريم هذا الإنسان!

وكرَّمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلىٰ الباقي في الأرض. . القرآن. . **﴿ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيِّبات، وفضَّلناهم على كثير ممَّن خلقنا تفضيلاً﴾** [الإسراء: ٧٠].

والحمل في البر والبحر يتم بتسخير النواميس وجعلها موافقة لطبيعة الحياة الإنسانية وما ركب فيها من استعدادات، ولو لم تكن هذه النواميس موافقة للطبيعة البشرية لما قامت الحياة الإنسانية، وهي ضعيفة ضئيلة بالقياس إلى العوامل الطبيعية في البر والبحر. ولكنَّ الإنسان مزود بالقدرة على الحياة فيها، ومزود كذلك بالاستعدادات التي تمكنه من استخدامها. وكله من فضل الله.

والإنسان ينسىٰ ما رزقه الله من الطيِّبات بطول الأُلفة فلا يذكر الكثير من هذه الطيِّبات التي رزقها إلَّا حين يُحرمها. فعندئذٍ يعرف قيمة ما يستمتع به، ولكنَّه سرعان ما يعود فينسىٰ.. هذه الشمس. هذا الهواء. هذا الماء. هذه الصحة. هذه القدرة على الحركة. هذه الحواس. هذا العقل. هذه المطاعم والمشارب والمشاهد.. هذا الكون الطويل العريض الذي استخلف فيه، وفيه من الطيِّبات ما لا يحصيه ﴿وإن تعدُّوانعمة الله لا تُحصوها﴾ [إبراهيم: ٣٤].. فهي أكبر وأكثر من أن يحصيها فريق من البشر، أو كل البشر، وكلهم محدودون بين حدين من الزمان: بدء ونهاية. وبين حدود من العلم تابعة لحدود الزمان والمكان. ونِعَم الله مطلقة ـ فوق كثرتها ـ فلا يحيط بها إدراك إنسان..

وحين يستيقظ ضمير الإنسان، ويتطلع إلى الكون من حوله، فإذا هو مسخر له، إمَّا مباشرة، وإمَّا بموافقة ناموسه لحياة البشر وحوائجهم، ويتأمل فيما حوله فإذا هو معين له بقدرة الله، ذلول له بتسخير الله.. حين يستيقظ ضمير الإنسان فيتطلع ويتأمل ويتدبر. لا بد يرتجف ويخشع ويسجد ويشكر، ويتطلع دائماً إلى ربِّه المنعم: حين يكون في الشدة ليبدله منها يُسراً، وحين يكون في الرخاء ليحفظ عليه النعماء.

ذلك فضل الله ﴿وفضَّلناهم على كثير ممَّن خلقنا تفضيلاً﴾.. فضَّلناهم بهذا الاستخلاف في ملك الأرض الطويل العريض. وبما ركب في

فطرتهم من استعدادات تجعل المخلوق الإنساني فذّاً بين الخلائق في مُلك الله . .

ومن التكريم أن يكون الإنسان قيِّماً على نفسه، محتملاً تبعة اتجاهه وعمله. فهذه هي الصفة الأولىٰ التي بها كان الإنسان إنساناً حرية الاتجاه وفردية التبعة. وبها استخلف في دار العمل. فمن العدل أن يلقىٰ جزاء اتجاهه وثمرة عمله في دار الحساب.

لقد شهدنا انطلاقة البشرية من هناك. . من عند ربها سبحانه. . انطلقت إلى الأرض. تعمل وتسعىٰ، وتكدّ وتشقىٰ، وتصلح وتُفسد، وتعمر وتخرب، وتتنافس وتتقاتل، وتكدح الكدح الذي لا ينجو منه شقي ولا سعيد. . ﴿يَا أَيُّها الإنسان إنَّك كادح إلى ربِّك كدحاً فملاقيه﴾ [الانشقاق: ٦].

إنَّه النداء العلوي للإنسان: ﴿يَا أَيُّها الإنسان﴾. . الذي خلقه ربه بإحسان؛ والذي ميَّزه بهذه «الإنسانية» التي تفرده في هذا الكون بخصائص كان من شأنها أن يكون أعرف بربه، وأطوع لأمره من الأرض والسماء. وقد نفخ فيه من روحه، وأودعه القدرة على الاتصال به، وتلقّي قبس من نوره، والفرح باستقبال فيوضاته، والتطهّر بها أو الارتفاع إلى غير حد، حتى يبلغ الكمال المقدّر لجنسه، وآفاق هذا الكمال عالية بعيدة!

﴿يَا أَيُّها الإنسان إنَّك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾. . يَا أَيُّها الإنسان إنَّك تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحاً، تحمل عبئك، وتجهد جهدك، وتشق طريقك. . لتصل في النهاية إلى ربك. فإليه المرجع وإليه المآب. بعد الكدّ والكدح والجهاد. . يَا أَيُّها الإنسان. . إنَّك كادح حتى في متاعك. . فأنت لا تبلغه في هذه الأرض إلاَّ بجهد وكدّ. إن لم يكن جهد بدن وكدّ عمل، فهو جهد تفكير وكدّ مشاعر. الواجد والمحروم سواء. إنَّما يختلف نوع الكدح ولون العناء، وحقيقة الكدح هي المستقرة في حياة

الإنسان.. ثمَّ النهاية في آخر المطاف إلى الله سواء.

يَا أيُّها الإنسان.. إنَّك لا تجد الراحة في الأرض أبداً. إنَّما الراحة هناك. لمن يقدم لها بالطاعة والاستسلام.. التعب واحد في الأرض والكدح واحد ـ وإن اختلف لونه وطعمه ـ أمَّا العاقبة فمختلفة عندما تصل إلى ربك.. فواحد إلى عناء دونه عناء الأرض. وواحد إلى نعيم يمسح على آلام الأرض كأنَّه لم يكن كدح ولا كد..

يَا أيُّها الإنسان.. الذي امتاز بخصائص «الإنسان».. ألا فاختر لنفسك ما يليق بهذا الامتياز الذي خصَّك به الله، اختر لنفسك الراحة من الكدح عندما تلقاه.

تلك هي الحقيقة واضحة بارزة. والله يهتف بالناس: **﴿يَا أيُّها النَّاس إنَّ وعد الله حق فلا تغرَّنَّكم الحياة الدُّنيا، ولا يغرَّنكم بالله الغرور. إنَّ الشَّيطان لكم عدوٌّ فاتِّخذوه عدوّاً. إنَّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾** [فاطر: ٥، ٦]. إنَّ وعد الله حق.. إنَّه آت لا ريب فيه. إنَّه واقع لا يتخلف. إنَّه حق والحق لا بد أن يقع، والحق لا يضيع ولا يبطل ولا يتبدد ولا يحيد. ولكنَّ الحياة الدنيا تغرّ وتخدع. **﴿فلا تغرَّنَّكم الحياة الدُّنيا﴾**. ولكنَّ الشيطان يغرّ ويخدع فلا تمكِّنوه من أنفسكم **﴿ولا يغرَّنَّكم بالله الغرور﴾**.. والشَّيطان قد أعلن عداءه لكم وإصراره على عدائكم **﴿فاتَّخذوه عدوّاً﴾** لا تركنوا إليه، ولا تتَّخذوه ناصحاً لكم، ولا تتَّبعوا خطاه **﴿ولا تتَّبعوا خطوات الشَّيطان إنَّه لكم عدوٌّ مبين﴾** [البقرة: ١٦٨]، فالعدو لا يتبع خطى عدوه وهو يعقل! وهو لا يدعوكم إلى خير، ولا ينتهي بكم إلى نجاة: **﴿إنَّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾**! فهل من عاقل يجيب دعوة الداعي إلى عذاب السعير؟!

إنَّها لمسة وجدانية صادقة. فحين يستحضر الإنسان صورة المعركة الخالدة بينه وبين عدوه الشيطان، فإنَّه يتحفز بكل قواه وبكل يقظته وبغريزة

الدفاع عن النفس وحماية الذات. يتحفّز لدفع الغواية والإغراء؛ ويستيقظ لمداخل الشيطان إلى نفسه، ويتوجس من كل هاجسة، ويسرع ليعرضها على ميزان الله الذي أقامه له ليتبين، فلعلّها خدعة مستترة من عدوه القديم!

وهذه هي الحالة الوجدانية التي يريد القرآن أن ينشئها في الضمير. حالة التوخز والتحفز لدفع وسوسة الشيطان بالغواية؛ كما يتوخز الإنسان ويتحفز لكل بادرة من عدوه وكل حركة خفية! حالة التعبئة الشعورية ضد الشر ودواعيه، وضد هواتفه المستترة في النفس، وأسبابه الظاهرة للعيان. حالة الاستعداد الدائم للمعركة التي لا تهدأ لحظة ولا تضع أوزارها في هذه الأرض أبداً.

ثمَّ يدعم هذه التعبئة وهذا الحذر وهذا التوفز ببيان عاقبة الكافرين الذين لبّوا دعوة الشيطان، وحالة المؤمنين الذين طاردوه: **﴿الَّذين كفروا لهم عذاب شديد. والَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات لهم مغفرة وأجر كبير﴾**.

إنَّ تتابع الأجيال في الأرض، وذهاب جيل ومجيء جيل، ووراثة هذا لذاك، وانتهاء دولة وقيام دولة، وانطفاء شعلة واتّقاد شعلة. وهذا الدثور والظهور المتواليان على مرّ الدهور.. إنَّ التفكير في هذه الحركة الدائبة خليق أن يجد للقلب عبرة وعظة، وأن يشعر الحاضرين أنَّهم سيكونون بعد حين غابرين، يتأمل الآتون بعدهم آثارهم ويتذاكرون أخبارهم، كما هم يتأملون آثار من كانوا قبلهم ويتذاكرون أخبارهم. وجدير بأن يوقظ الغافلين إلى اليد التي تدير الأعمار، وتقلب الصولجان. وتديل الدول، وتورث الملك، وتجعل من الجيل خليفة لجيل. وكل شيء يمضي وينتهي ويزول، والله وحده هو الباقي الدائم الذي لا يزول ولا يحول.

ومن كان شأنه أن ينتهي ويمضي، فلا يخلد ولا يبقىٰ. من كان شأنه أنَّه سائح في رحلة ذات أجل، وأن يعقبه من بعده ليرىٰ ماذا ترك وماذا عمل، وأن يصير في النهاية إلى من يحاسبه على ما قال وما فعل **﴿وَقِفُوهم إنَّهم**

مسؤولون﴾ [الصَّافات: ٢٤]. . من كان هذا شأنه جدير بأن يحسن ثواءه القليل، ويترك وراءه الذكر الجميل، ويقدم بين يديه ما ينفعه في مثواه الأخير. هذه بعض الخواطر التي تساور الخاطر، حين يوضع أمامه الدثور والظهور، والطلوع والأفول، والدول الدائلة، والحياة الزائلة، والوراثة الدائبة جيلاً بعد جيل: **﴿هو الَّذي جعلكم خلائف في الأرض﴾** [فاطر: ٣٩]. .

وفي ظل هذا المشهد المؤثر المتتابع المناظر، يُذكِّر الله سبحانه بفردية التبعة، فلا يحمل أحد عن أحد شيئاً، ولا يدفع أحد عن أحد شيئاً؛ ويشير إلى ما هم فيه من إعراض وكفر وضلال، وعاقبته الخاسرة في نهاية المطاف: **﴿فمن كفر فعليه كفره. ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلَّا مقتاً. ولا يزيد الكافرين كفرهم إلَّا خساراً﴾**.

والمقت أشد البغض. ومن يمقته ربه فأي خسران ينتظره؟ وهذا المقت في ذاته خسران يفوق كل خسران؟!

ويلمس القرآن على فردية التبعة لمسة وجدانية موحية **﴿ولا تزر وازرةٌ وِزْرَ أُخرىٰ. وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يُحمل منه شيء ولو كان ذا قربىٰ﴾** [فاطر: ١٨].

إنَّها حقيقة صادقة واقعة. والقرآن يلمس بالحقائق قلوب البشر؛ لأنَّ الحقيقة حين تجلىٰ أفعل في النفس؛ ولأنَّه هو الحق وبالحق نزل. فلا يتحدث إلَّا بالحق، ولايقنع إلَّا بالحق، ولا يعرض إلَّا الحق، ولا يشير بغير الحق. .

إنَّ البشرية التي انطلقت من هناك. . من عند ربها سبحانه. . ها هي ذي تؤوب! ها هي ذي راجعة إلى ربها الذي أطلقها في هذا المجال. . ها هي ذي تحمل ما كسبت طوال الرحلة المرسومة. . من ورد وشوك. ومن غال ورخيص، ومن ثمين وزهيد، ومن خير وشر، ومن حسنات وسيئات، ها

هي ذي تعود في أصيل اليوم. . فقد انطلقت في مطلعه! . .

وحقيقة فردية التبعة والجزاء ذات أثر حاسم في الشعور الأخلاقي، وفي السلوك العملي سواء، فشعور كل فرد بأنَّه مجـزيٌّ بعمله، لا يؤاخذ بكسب غيره، ولا يتخلص هو من كسبه، عامل قوي في يقظته لمحاسبة نفسه قبل أن تُحاسب! مع التخلي عن كل أمل خادع في أن ينفعه أحد بشيء، أو أن يحمل عنه أحد شيئاً ﴿**كل نفس بما كسبت رهينة**﴾ [المدثِّر: ٣٨].

إنَّها الحقيقة المثيرة الخطيرة. يعلن القرآن تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها؛ ويدع للنفوس أن تختار طريقها ومصيرها؛ ويعلن أنَّها مأخـوذة بما تكسبه باختيارها، مرهونة بأعمالها وأوزارها. . ﴿**ولا تكسب كل نفس إلاَّ عليها، ولا تزر وازرة وزر أُخرىٰ، ثمَّ إلى ربِّكم مرجعكم فينبِّئكم بما كنتم فيه تختلفون**﴾ [الأنعام: ١٦٤].

فكل فرد يحمل هَمَّ نفسه وتبعتها، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها، يتقدّم بها أو يتأخّر، ويكرمها أويهينها. فهي رهينة بما تكسب، مقيدة بما تفعل. وقد بيَّن الله للنفوس طريقه لتسلك إليه على بصيـرة ﴿**ومن اهتدىٰ فإنَّما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنَّما يضلّ عليها ولا تزر وازرة وِزرَ أُخرىٰ**﴾ [الإسراء: ١٥].

فهي التبعة الفردية التي تربط كل إنسان بنفسه؛ إن اهتدىٰ فلها، وإن ضلَّ فعليها. وما من نفس تحمل وزر أُخرىٰ، وما من أحـد يخفف حمل أحد. إنَّما يُسأل كلٌ عن عمله، ويجزىٰ كلٌ بعمله ولا يسأل حميم حميماً. . ﴿**من عمـل صالحـاً فلنفسه ومن أسـاء فعليها ومـا ربُّك بـظلاَّمٍ للعبيد**﴾ [فصِّلت: ٤٦]!

إنَّه التأكيد على مبدأ التبعة الفردية. ولمن شاء أن يختار: ﴿**من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثمَّ إلى ربِّكم تُرجعون**﴾ [الجاثيـة: ١٥] والأمر لله في النهاية، وإليه المرجع والمآب.

إنَّ الله سبحانه غني عن خلقه أجمعين: **﴿إن تكفروا فإنَّ الله غنيٌّ عنكم. ولا يرضىٰ لعباده الكفر. وإن تشكروا يرضه لكم. ولا تزر وازرة وزرَ أخرىٰ. ثمَّ إلى ربِّكم مرجعكم فينبِّئكم بما كنتم تعملون. إنَّه عليم بذات الصدور﴾** [الزُّمر: ٧]. .

وأمام هذه الرؤية الواضحة، يقفهم أمام أنفسهم. في مفرق الطريق بين الكفر والشكر. وأمام التبعة الفردية المباشرة في اختيار الطريق. ويلوِّح لهم بنهاية الرحلة. وما ينتظرهم هناك من حساب، يتولاه الذي يخلقهم. والذي يعلم ما تكنُّ صدورهم من خفايا الصدور. . إنَّ هذه الرحلة في بطون الأمّهات هي مرحلة في الطريق الطويل. تليها مرحلة الحياة خارج البطون. ثمَّ تعقبها المرحلة الأخيرة في مرحلة الحساب والجزاء بتدبير المبدع العليم الخبير: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثمَّ جعلناه نطفة في قرار مكين. ثمَّ خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً. ثمَّ أنشأناه خلقاً آخر. فتبارك الله أحسن الخالقين. ثمَّ إنَّكم بعد ذلك لميِّتون. ثمَّ إنَّكم يوم القيامة تُبعثون﴾** [المؤمنون: ١٢ - ١٦].

والله سبحانه - غني عن العباد الضعاف المهازيل: إنَّما هي رحمته وفضله أن يشملهم بعنايته ورعايته. وهم من هم من الضعف والهزال! فإيمان العباد لا يزيد في ملكه شيئاً. وكفرهم لا ينقص منه فتيلًا. ولكنَّه لا يرضىٰ عن كفر الكافرين ولا يحبه: **﴿ولا يرضىٰ لعباده الكفر﴾**. . ويعجبه - سبحانه - شكر العباد - ويحبه لهم، ويجزيهم عليه خيراً **﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾**. وكل فرد مأخوذ بعمله، محاسب على كسبه؛ ولا يحمل أحد عبء أحد. فلكل حمله وعبؤه[1]. والمرجع في النهاية إلى الله دون سواه؛ ولا

---

(١) يراجع فصل «فردية التبعة» في كتاب «اليوم الآخر في ظلال القرآن» ص ٣٢ - ٣٩.

مهرب منه ولا ملجأ عند غيره. ولا يخفىٰ عليه من أمر العباد شيء ﴿إنَّه عليم بذات الصدور﴾..

هذه هي العاقبة. وتلك هي دلائل الحق. وهذا هو مفرق الطريق.. ولكل أن يختار. عن بيِّنة. وعن تدبر. وبعد العلم والتفكير.. والتوجيهات المكررة في القرآن ترفع تصورات الناس وتوجههم إلى ثبات السنن الإلـٰهية واطراد النواميس.. إنَّها توجيهات لإيقاظ القلوب من الغفلة التي تسدر فيها، فلا تقف. وإذا وقفت لا تحس. وإذا أحسَّت لا تعتبر.. هذا كله والشيطان متربص للإنسان..

إنَّ الإنسان بعد هذا البيان القرآني لجدير أن يرتعش فيعيش بعين مفتوحة وقلب يقظ.. ويتأمل ما كان ممَّن سبقه في هذه الرحلة البشرية وما صاروا إليه.. كل أولـٰئك خليق أن تستقر في القلب ظلال وإيحاءات ومشاعر وتقوىٰ.. والله سبحانه قد أحاط علمه بكل شيء في السَّماوات والأرض؛ وتقوم قدرته إلى جانب علمه، فلا يند عن علمه شيء، ولا يقف لقدرته شيء. ومن ثمَّ لا يعجزه شيء في السَّماوات والأرض. ولا مهرب من قدرته ولا استخفاء من علمه. ولكنه حليم كريم: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة. ولـٰكن يؤخرهم إلى أجل مسمّىٰ. فإذا جاء أجلهم فإنَّ الله كان بعباده بصيراً﴾ [فاطر: ٤٥].

ويكشف القرآن عن حلم الله ورحمته إلى جانب قوته وقدرته؛ ويؤكد أنَّ إمهال الناس عن حلم وعن رحمة، لا يؤثر في دقة الحساب وعدل الجزاء في النهاية..

إنَّ ما يرتكبه الناس من كفر لنعمة الله، ومن شر في الأرض وفساد، ومن ظلم في الأرض وطغيان. إنَّ هذا كله لفظيع شنيع ولو يؤاخذ الله الناس به، لتجاوزهم ـ لضخامته وشناعته وبشاعته ـ إلى كل حي على ظهر هـٰذه الأرض. ولأصبحت الأرض كلها غير صالحة للحياة إطلاقاً. لا لحياة البشر

فحسب، ولكن لكل حياة أُخرىٰ!

والتعبير على هذا النحو يبرز شناعة ما يكسب الناس وبشاعته وأثره المفسد المدمِّر للحياة كلها لو آخذهم الله به مؤاخذة سريعة. غير أنَّ الله حليم لا يعجل على الناس ﴿ولـٰكن يؤخرهم إلى أجلٍ مسمًّى﴾..

يؤخرهم أفراداً إلى أجلهم الفردي حتى تنقضي أعمارهم في الدنيا. ويؤخرهم جماعات إلى أجلهم في الخلافة المقدرة لهم حتى يسلموها إلى جيل آخر. ويؤخرهم جنساً إلى أجلهم المحدد لعمر هـذا العالم ومجيء الساعة الكبرىٰ. ويفسح لهم في الفرصة لعلَّهم يحسنون صنعاً.. فإذا جاء أجلهم.. وانتهىٰ وقت العمـل والكسب، وحان وقت الحسـاب والجزاء، فإنَّ الله لن يظلمهم شيئاً: فإنَّ الله كان بعباده بصيراً.. وبصره بعباده كفيل بتوفيتهم حسابهم وفق عملهم وكسبهم، لا تفوت منهم ولا عليهم كبيرة ولا صغيرة.

ووعـد الله لا يستقدم لاستعجـال البشر؛ ولا يستـأخر لـرجائهم في تأخيره: ﴿إنَّ أَجَلَ الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾ [نوح: ٤] فكل شيء عند الله بمقدار. وكل أمر مرهون بوقته المرسوم: ﴿هو الَّذي خلقكم من طين، ثمَّ قضىٰ أجلاً، وأجلٌ مسمًّى عنده، ثمَّ أنتم تمترون﴾ [الأنعام: ٢].

إنَّها لمسة الوجود الإنساني. لمسة الحياة الإنسانية.. وإلى جانبهـا لمسة أُخرىٰ متداخلة: لمسة الأجل الأول المقضىٰ للموت، والأجل الثَّاني المسمّىٰ للبعث. لمستـان متقابلتـان.. وبينهمـا مسـافـة هـائلة في الكنـه والزمن.. ومن شأن هذا كله أن ينقل إلى القلب البشري اليقين بتدبير الله، واليقين بلقائه.. فالأُمور إنَّما تقع في مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية التي تضع كل شيء في مكانه، وكل حادث في إبانه، وتمضي في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه وفق النظام المقدَّر المرسوم في إمام مبين. ويتساءل

أولـٰئك المحجوبون عن إدراك حكمة الله في الحياة **﴿ويقولـون متىٰ هـٰذا الوعد إن كنتم صادقين؟﴾** [يٓس: ٤٨]. .

أمَّا الرد على هذا السؤال المنكر فيجيء في مشهد من مشاهد القيامة يرون فيه كيف يكـون، لا متىٰ يكون. . **﴿مـا ينظرون إلاَّ صيحـةً واحدةً تأخذهم وهم يخصِّمون. فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون. ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربِّهم ينسلون. قالوا: يَـٰا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؟ هـٰذا ما وَعَدَ الرَّحمـٰن وصدق المرسلون. إن كانت إلاَّ صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾** [يٓس: ٤٩ ـ ٥٣]. .

يسأل المكذِّبون: متىٰ هذا الوعد. . فيكون الجواب مشهداً خاطفـاً سـريعاً. . صيحـة تصعق كل حي، وتنتهي بهـا الحيـاة والأحيـاء. . فهي تأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصامهم في معترك الحياة، لا يتوقعـونها ولايحسبون لها حساباً. فإذا هم منتهون. كلٌّ على حاله التي هو عليها. لا يملك أن يوصي بمن بعده. ولا يملك أن يرجع إلى أهله فيقول لهم كلمة. . وأين هم؟ إنَّهم مثله في أماكنهم منتهون!

لقـد انطلقت رحلة الحيـاة البشريـة ممثلة في آدم وزوجه. . أبـوي البشـر. . وانطلق معهمـا الشيطان. مـأذوناً من الله في غـوايتهما وغـوايـة ذراريهما. .

إنَّها رحلة الإنسان. . كل إنسان. . رحلة واحدة تبدأ من الميـلاد، وتمر بالموت، وتنتهي بالبعث والحساب. رحلة واحدة متصلة بلا توقف؛ ترسم للقلب البشري طريقه الوحيد الذي لا فكاك عنه ولا محيد؛ وهو من أول الطريق إلى آخره في قبضة الله لا يتملص ولا يتفلت، وتحت رقابته التي لا تفتر ولا تغفل. . وإنَّها لرحلة رهيبـة تملأ الحسّ روعـة ورهبة. وكيف بإنسان في قبضة الجبار، المطّلع على ذات الصدور؟ وكيف بإنسان طالبه هو الواحد الديَّان، الذي لاينسىٰ ولا يغفل ولا ينام!

إنَّها لمسة رهيبة مخيفة **﴿وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير. له ملك السَّماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور... وهو عليم بذات الصُّدور﴾** [الحديد: ٤ ـ ٦].

وهي كلمة على الحقيقة لا على الكناية والمجاز. فالله سبحانه ـ مع كل أحد، ومع كل شيء، في كل وقت، وفي كل مكان، مطلع على ما يعمل بصير بالعباد. وهي حقيقة هائلة حين يتمثلها القلب. حقيقة مذهلة في جانب، ومؤنسة من جانب. مذهلة بروعة الجلال. ومؤنسة بظلال القربى. وهي كفيلة وحدها حين يحسّها القلب البشري على حقيقتها أن ترفعه وتطهره، وتدعه مشغولاً بها عن كل أعراض الأرض؛ كما تدعه في حذر دائم وخشية دائمة، مع الحياء والتحرج من كل دنس ومن كل إسفاف.

إنَّ رقابة الله لا تدع الإنسان لحظة واحدة من المولد، إلى الممات، إلى البعث، إلى الحشر، إلى الحساب. وهي رقابة شديدة رهيبة. تطبق على هذا المخلوق الإنساني الضعيف إطباقاً كاملاً شاملاً. فهو في القبضة التي لا تغفل عنه أبداً، ولا تغفل من أمره دقيقاً ولا جليلاً، ولا تفارقه كثيراً ولا قليلاً. كل نَفَس معدود. وكل هاجسة معلومة. وكل لفظ مكتوب. وكل حركة محسوبة. والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب، كما هي مضروبة على حركة الجوارح. ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة، المطّلعة على السر والنجوى اطّلاعها على العمل والحركة، في كل وقت وفي كل حال.

لقد خلق الله الإنسان؛ فهو مكشوف الكنه والوصف والسر لخالقه العليم بمصدره ومنشئه وحاله ومصيره.

وهكذا يجد الإنسان نفسه مكشوفة لا يحجبها ستر، وكل ما فيها من وساوس خافتة وخافية معلوم لله، تمهيداً ليوم الحساب! وحين يتصور الإنسان هذه الحقيقة لا بد أن يرتعش ويحاسب. ولو استحضر القلب مدلول

هذه الحقيقة ما جرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها. بل ما جرؤ على هاجسة في الضمير لا تنال القبول. وإنّها وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان في حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لا تغفل عن المحاسبة. ورقابة الله مسلطة على الضمائر والأسرار.. فكيف؟ كيف بهذا الإنسان في هذه القبضة وتحت هذه الرقابة ينسى يوم الحساب؟!

تلك صفحة الحياة.. صفحة البداية، ووراءها في كتاب الإنسان صفحة العودة إلى الله ﴿كما بدأكم تعودون﴾.. **﴿ثمَّ رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾** [الأنعام: ٦٢].

الجزاء والحساب الختامي:

إنَّ قضية الحساب والجزاء في الدار الآخرة قاعدة أساسية في العقيدة الإسلامية؛ قاعدة تقوم عليها العقيدة، ويقوم عليها التصور الكلي لمقتضيات هذه العقيدة، قاعدة لا يقوم دين الله ـ عقيدة وتصوراً، وخلقاً وسلوكاً، وشريعة ونظاماً ـ إلاَّ عليها وبها..

وكل جزئية في شريعة الله ونظامه منظور فيها إلى حقيقة الحياة الآخرة؛ وما تنشئه في التصور من سعة وجمال وارتفاع، وما تنشئه في الخلق من رفعة وتطهر وسماحة، ومن تشدد في الحق وتحرج وتقوى، وما تنشئه في النشاط الإنساني من تسديد وثقة وتصميم.

من أجل ذلك كله لا تستقيم الحياة الإسلامية بدون يقين في الآخرة. ومن أجل ذلك كله كان هذا التوكيد في القرآن الكريم على حقيقة الآخرة. «والاعتقاد باليوم الآخر ضروري لاكتمال الشعور بأنَّ وراء الحياة حكمة، وأنَّ الخير الذي تدعو إليه الرسالات هو غاية الحياة، ومن ثمَّ لا بد أن يلقى جزاءه، فإن لم يلقه في هذه الحياة الدنيا فجزاؤه مضمون في العالم الآخر، الذي تصل فيه الحياة البشرية إلى الكمال المقدَّر لها. أمَّا الذين يزيغون عن

منهج الله وحكمته في الحياة فهؤلاء يرتكسون وينتكسون إلى درك العذاب. . وفي هذا ضمان للفطرة السليمة ألاَّ تنحرف. فإن غلبتها شهوة أو استبدَّ بها ضعف عادت تائبة، ولم تلج في العصيان. ومن ثمَّ تصلح هذه الأرض لحياة البشر، وتمضي الحياة على سنتها في طريق الخير. فالاعتقاد باليوم الآخر ليس طريقاً للثواب في الحياة الأخرىٰ فحسب ـ كما يعتقد بعض الناس ـ إنَّما هو الحافز على الخير في الحياة الدنيا. والحافز على إصلاحها وإنمائها. على أن يراعىٰ في هذا النماء أنَّه ليس هدفاً في ذاته، وإنَّما هو وسيلة لتحقيق حياة لائقة بالإنسان الذي نفخ الله فيه من روحه، وكرَّمه على كثير من خلقه، ورفعه عن درك الحيوان، لتكون أهداف الحياة أعلىٰ من ضرورات الحيوان، ولتكون دوافعه وغاياته أرفع من دوافع الحيوان وغاياته. وهكذا ترتبط الدنيا بالآخرة، والمبدأ بالمصير، والعمل بالجزاء، والتي تشعر الإنسان أنَّه ليس لقىً مهملاً، وأنَّه لم يُخلق عبثاً. ولن يترك سدى، وأنَّ العدالة المطلقة في انتظاره، ليطمئن قلبه، ويفيء إلى العمل الصالح، وإلى عدل الله ورحمته في نهاية المطاف»[1].

والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالعدالة الإلـٰهية المطلقة في الجزاء، وبأنَّ حياة الإنسان على هذه الأرض ليست سدىً ولا فوضىً بغير ميزان. وبأنَّ الخير لا يعدم جزاءه ولو بدا أنَّه في هذه الأرض لا يلقىٰ الجزاء.

«وشعور الإنسان بأنَّ خالقه محاسبه في الآخرة يغير من تصوراته ومن حوافزه ومن أهدافه، ويربط الحاسة الأخلاقية في نفسه بمصيره كله. فيزيدها قوة وفاعلية. لأنَّ هلاكه أو نجاته مرهونة بيقظة هذه الحاسة وتأثيرها في نيته وعمله. ومن ثمَّ يقوىٰ الإنسان ويسيطر على تصرفات هذا الكائن، لأنَّ الرقيب الحارس قد استيقظ ولأنَّ الحساب الختامي ينتظره هناك. ومن الناحية الأخرىٰ فهو مطمئن إلى الخير واثق من انتصاره في الحساب الختامي.

---

(١) اليوم الآخرة في ظلال القرآن، ص ١٨، ١٩.

إنَّها مسألة كبيرة هذا الإيمان: الإيمان بالآخرة. مسألة أساسية في حياة البشر. إنَّها حاجة أكبر من حاجات الطعام والشراب والكساء. وإنَّها إمَّا أن تكون فيكون « الإنسان » وإمَّا ألَّا تكون فهو حيوان من ذلك الحيوان»[١].

وهنا في قصة آدم عليه السَّلام نجد في التعقيب عليها في القرآن الكريم مشاهد طويلة من مشاهد القيامة[٢]، كثيرة التفصيل، حافلة بالمناظر المتتابعة والحوار المتنوع.

والقرآن الكريم يبادر بتصوير مشهد النهاية، نهاية المرحلة الكبرىٰ، وذلك على طريقة القرآن الغالبة في عرض الرحلة بشطريها في **دار الابتلاء وفي دار الجزاء، كأنَّما هي رحلة متصلة محدودة**. نجد ذلك وموقعه في السور تعقيباً على قصة آدم وخروجه من الجنَّة بإغواء إبليس له ولزوجه؛ وتحذير الله لأبنائه أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنَّة؛ وإخبارهم بأنَّه سيرسل إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته.. موقعه كذلك يجعله مصداقاً لما ينبىء به أولـٰئك الرسل. فإذا الَّذين أطاعوا الشيطان قد حُرموا العودة إلى الجنَّة، وفتنوا عنها كما أخرج الشيطان أبويهم منها؛ وإذا الذين خالفوا الشيطان وأطاعوا الرَّحمـٰن قد ردُّوا إلى الجنَّة ونودوا: ﴿**أن تلكم الجنَّة أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾ [الأعراف: ٤٣].. فعاد المغتربون إلى دار النعيم!!!

إنَّ الإيمان باليوم الآخر هو أحد مقتضيات الإيمان بالله وفق التصور الإسلامي، والذي يقوم على أساس أنَّ الله خلقَ الإنسان ليستخلفه في الأرض بعهد منه وشرط، يتناول كل صغيرة وكبيرة من نشاطه في هذه الأرض، وأنَّه خلقه واستخلفه ليبتليه في حياته الدنيا، ثمَّ ينال جزاءه بعد نهاية الابتلاء.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) انظر: سورة الأعراف، الآية: ٢٥ ـ ٥٣. وسورة الحجر ٤٣ ـ ٤٨.

والموت نهاية كل حي، ولا يتفرد بالبقاء إلاَّ الله ـ سبحانه ـ، وهو قَدَر الله، ومن ثمَّ لا يفلت منه أحد، وكل نفس معدودة الأنفاس، متروكة لأجل لا تعلمه ـ فهو بالنسبة لها غيب لا سبيل إلى كشفه ـ بينما هو مرسوم محدود في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر. ومَلَكُ الموت يتوفى الأنفسَ حين ينتهي الأجل **﴿قل يتوفَّاكم مَلَكُ الموت الذي وُكِّل بكم﴾** [السجدة: ١١]. . **﴿كلُّ نفس ذائقة الموت وإنَّما توفون أُجوركم يوم القيامة﴾** [آل عمران: ١٨٥].

فالموت حتم حين يأتي حتم في موعده المقدَّر. هذه هي السنة التي ليس لها استثناء، فهذه الحياة إلى انتهاء، والموت ليس نهاية المطاف إنَّما هو حلقة لها ما بعدها من حلقات النشأة المقدرة المدبرة، التي ليس شيء منها عبثاً ولا سدىً.

إنَّ الموت هو نهاية الحياة الأرضية، وبرزخ ما بين الدنيا والآخرة، **﴿ثمَّ إنَّكم بعد ذلك لميِّتون. ثمَّ إنَّكم يوم القيامة تُبعثون﴾** [المؤمنون: ١٥ ـ ١٦]، فالموت إذن طور من أطوار النشأة الإنسانية وليس نهاية الأطوار. ثمَّ هو البعث المؤذن بالطور الأخير من أطوار تلك النشأة **﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربِّهم ينسلون﴾**.

ثمَّ ينفخ في الصور فإذا هم ينتفضون من القبور. ويمضون سراعاً، وهم في دهش وذعر يتساءلون: **﴿من بَعَثنا من مرقدنا؟﴾**. ثمَّ تزول عنهم الدهشة قليلاً، فيدركون ويعرفون: **﴿هٰذا ما وَعَدَ الرَّحمٰن وصَدَق المرسلون﴾**!

إنَّه مشهد مثير، تتراءىٰ فيه صور تترك القلب وَجِلاً. إنَّها حالة لا يثبت لها قلب، ولا يقوىٰ على مواجهتها إلاَّ وهو يرتعش ويهتز.

أُمور القيامة هائلة رهيبة. قَلَّ أن يتلقاها الحسّ إلاَّ بهزة عميقة. ومن ذا الذي لا يرتعش حسّه وهو يرىٰ في المشهد الذي يرسمه القرآن حركة

الجموع البشرية من كل لون وجنس وأرض. ومن كل جيل وزمان وعصر، مبعوثين منشرين يختلطون ويضطربون في غير نظام وفي غير انتباه، تتدافع جموعهم تدافع الموج وتختلط اختلاط الموج.. **﴿وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج في بعض﴾** إنها صورة تزلزل الكيان البشري، وتهول الحس الإنساني. هناك الكل مجموعون إلى الله خاضعين طائعين **﴿إن كل من في السَّماوات والأرض إلاَّ آتي الرَّحمـٰن عبداً. لقد أحصاهم وعدَّهم عَداً. وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾** [مريم: ٩٣ ـ ٩٥].

إن كل من في السَّماوات والأرض إلاَّ عبدٌ يأتي معبوده خاضعاً طائعاً، فلا شريك لله إنَّما خالق وعبيد.. وإنَّ الكيان البشري ليرتجف وهو يتصور مدلول هذا البيان **﴿لقد أحصاهم وعدَّهم عدّاً﴾** فلا مجال لهرب أحد، ولا نسيان لأحد، فَعَيْن الله على كل فرد. وكل فرد يقوم وحيداً لا يأنس بأحد ولا يعتز بأحد، فإذا هو وحيد فريد أمام الديَّان..

ويمضي القرآن الكريم في تصوير مشهد بائس مخزي مهين للذين نسوا هذا اللقاء والعودة إلى رب السماء. مشهد للنفوس التي أبت أن ترتفع إلى الأفق الإنساني الكريم، وأخلدت إلى الأرض، وأقامت حياتها وعاشت على أساس ذلك التصور الهابط الهزيل! مشهد لهذه الخلائق التي ارتكست حتى أهلَّت نفسها لهذا البؤس الحزين: **﴿حتّى إذا جاءتهم السَّاعة بغتة قالوا: يَا حسرتنا على ما فرَّطنا فيها! وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم. ألا ساء ما يزرون!﴾** [الأنعام: ٣١].

مشهد يهزُّ القلوب هزاً. مشهد هائل رعيب لمصير مقيت كئيب.. مشهدهم كالدواب الموقرة بالأحمال **﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾**.. بل الدواب أحسن حالاً. فهي تحمل أوزاراً من الأثقال. ولكن هؤلاء يحملون أوزاراً من الآثام! والدواب تحط عنها أوزارها فتذهب لتستريح. وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى الجحيم. مشيعين بالتأثيم: **﴿ألا ساء ما يزرون!﴾**..

ها هي ذي البشرية تؤوب! ها هي ذي تعود إلى ربها بعد رحلة الحياة.. ها هي ذي تحمل ما كسبت.. وها نحن أولاء نلمحها من خلال القرآن موقورة الظهور بالأحمال ـ أيّاً كانت هذه الأحمال ـ ها هي ذي عائدة إلى ربها بما معها. تطلع في الطريق، وقد بلغ منها الجهد وأضناها المسير. حتى إذا عادت إلى نقطة المنطلق وضع كل منها حمله أمام الميزان، ووقف يرتقب في خشية ووَجَل.. إنَّ كل فرد قد عاد بحصيلته فرداً.. **﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربىٰ﴾**! وكل فرد على حدة يلاقي حسابه، ويلقىٰ جزاءه..

إنَّ كل نفس حاملة حملها، فلا تحمل نفس حمل أُخرىٰ. والتعبير القرآني يصور هذه الحقيقة على طريقة التصوير في القرآن، فتكون أعمق وأشد أثراً. يصور كل نفس مثقلة بأحمالها. وحين تثقل نفس بما تحمل ثمَّ تدعو أقرب الأقرباء ليحمل عنها شيئاً، فلن تجد من يلبي دعاءها ويرفع عنها شيئاً ممَّا يثقلها!

إنَّه مشهد القافلة كل من فيها يحمل أثقاله ويمضي في طريقه، حتى يقف أمام الميزان والوزّان! وهي في وقفتها يبدو على من فيها الجهد والإعياء. واهتمام كلٍّ بحمله وثقله وانشغاله عن البعداء والأقرباء!

والله سبحانه هو المحاسب، والمجازي، فلا يذهب عمل صالح، ولا يفلت عمل سيء **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾** [الزلزلة: ٧، ٨]، وهو سبحانه لا يوكل الحكم والجزاء إلى غيره ممَّن يميلون أو ينسون أو يهملون..

لقد عاد الناس بعد رحلة الحياة **﴿ليروا أعمالهم﴾**.. وهذه شديدة داهية.. إنَّهم عائدون إلى ربهم إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم، ليواجهوها، ويواجهوا جزاءها. ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحياناً أقسىٰ من كل جزاء. وإنَّ من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه، ويشيح

بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثّل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير. فكيف به وهو يواجه عمله على رؤوس الأشهاد، في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر؟!

وهنا و « الإنسان » مشدوه مأخوذ، وهو يلهث فزعاً ورعباً، وتفور نفسه دهشة وعجباً، واضطراباً وموراً.. إنَّها عقوبة هائلة رهيبة.. مُجرد أن يُروا أعمالهم، وأن يواجهوا بما كان منهم! ووراء الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازي عليها.. **﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفىٰ بنا حاسبين﴾** [الأنبياء: ٤٧]. والحبة من خردل تصور أصغر ما تراه العيون وأخفه في الميزان، وهي لا تترك يوم الحساب ولا تضيع.. والميزان الدقيق يشيل بها أو يميل! فلتنظر نفس ما قدمت لغد. وليصغ قلب إلى النذير. وليبادر الغافلون المعرضون قبل فوات الأوان. فإنَّهم إن نجوا من عذاب الدنيا فهناك عذاب الآخرة الذي تعد موازينه، فلا تظلم نفس شيئاً، ولا يهمل مثقال حبة من خردل: **﴿وكفىٰ بنا حاسبين﴾**..

عندئذٍ لا يحقر « الإنسان » شيئاً من عمله. خيراً كان أو شراً. ولا يقول: هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن. إنَّما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق.

إنَّ هذا الميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعد في الأرض.. إلاَّ في القلب المؤمن..

القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر.. وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنوب والمعاصي والجرائم.. ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير دونها رواسي الجبال..

إنَّها قلوب عتية في الأرض، مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب!!

ولن يستوي عند الله الإيمان والكفر، والخير والشر، والهدىٰ

والضلال؛ كما لا يستوي العمىٰ والبصر، والظلمة والنور، والظل والحرور، والحياة والموت. وهي مختلفة الطبائع من الأساس: **﴿وما يستوي الأعمىٰ والبصير. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور. وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾** [فاطر: ١٩ - ٢٢].. ولكلٍ طبيعته ولكل جزاءه في دار الحساب: **﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم. فمن أوتيَ كتابه بيمينه فأولـٰئك يقرأون كتابهم ولا يُظلمون فتيلًا. ومن كان في هـٰذه أعمىٰ فهو في الآخرة أعمىٰ وأضلُّ سبيلاً﴾** [الإسراء: ٧١، ٧٢﴾.

وهو مشهد يصور الخلائق محشورة. وكل جماعة تُنادَىٰ بعنوانها باسم المنهج الذي اتَّبعته، أو الرسول الذي اقتدت به، أو الإمام الذي ائتمَّت به في الحياة الدنيا. تُنادَىٰ ليسلم لها كتاب عملها وجزائها في الدار الآخرة.. فمن أوتي كتابه بيمينه فهو فرح بكتابه يقرؤه ويتملاه، ويوفىٰ أجره لا ينقص منه شيئاً ولو قدر الخيط الذي يتوسط النواة! ومن عمي في الدنيا عن دلائل الهدىٰ فهو في الآخرة أعمىٰ عن طريق الخير. وأشد ضلالاً وجزاؤه معروف. ولكنَّ السياق يرسمه في المشهد المزدحم الهائل، أعمىٰ ضالاً يتخبط، لا يجد من يهديه ولا ما يهتدي به، ويدعه كذلك لا يقرر في شأنه أمراً، لأنَّ مشهد العمىٰ والضلال في ذلك الموقف العصيب هو وحده جزاء مرهوب، يؤثر في القلوب!

ويرسم القرآن صورة الهول على صفحات القلوب، فكأنَّما الصورة حاضرة اللحظة. نرىٰ فيها الخزي والغيظ الخائف، والذل في الملامح:

﴿ووضع الكتاب فترىٰ المجرمين مشفقين ممَّا فيه﴾.. فهذا سجل أعمالهم يوضع أمامهم، وهم يتملَّونه ويراجعونه، فإذا هو شامل دقيق. وهم خائفون من العاقبة ضيقوا الصدور بهذا الكتاب الذي لا يترك شاردة ولا واردة، ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة: **﴿ويقولون: يَا ويلتنا. مالِ هـٰذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، إلاَّ أحصاها؟﴾** وهي قولة المحسور المغيظ الخائف المتوقع لأسوأ العواقب، وقد ضبط مكشوفاً لا يملك تفلتاً

ولا هرباً، ولا مغالطة ولا مداورة: **﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾** ولاقوا جزاءً عادلاً: **﴿ولا يظلم ربُّك أحداً﴾**.

هؤلاء المجرمون الذين وقفوا ذلك الموقف كانوا يعرفون أنَّ الشيطان عدوٌّ لهم، ولكنهم تولَّوه فقادهم إلى ذلك الموقف العصيب. فما أعجب أن يتولوا إبليس وذريته وهم لهم عدو منذ ما كان آدم وإبليس..

لقد حدد القرآن الكريم مصير رحلة البشرية في ذلك المشهد العلوي الجليل في نقطة الانطلاق:

﴿ولقد خلقناكم ثمَّ صوَّرناكم، ثمَّ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم، فسجدوا إلاَّ إبليس لم يكن من السَّاجدين. قال: ما منعك ألاَّ تسجد إذ أمرتك؟ قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. قال: فاهبط منها، فما يكون لك أن تتكبَّر فيها، فاخرج إنَّك من الصَّاغرين. قال: أنظرني إلى يوم يُبعثون. قال: إنَّك من المنظرين. قال: فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم. ثمَّ لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين. قال: اخرج منها مذؤوماً مدحوراً، لمن تبعك منهم لأملأنَّ جهنَّم منكم أجمعين.. ويَا آدم اسكن أنت وزوجك الجنَّة، فكلا من حيث شئتما، ولا تقربا هٰذه الشجرة فتكونا من الظَّالمين.. فوسوس لهما الشَّيطان ليبديَ لهما ما وُوري عنهما من سوآتهما، وقال: ما نهاكما ربُّكما عن هٰذه الشجرة إلاَّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما: إنِّي لكما لمن النَّاصحين. فدلاَّهما بغرور، فلمَّا ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنَّة، وناداهما ربُّهما: أَلَم أنهكما عن تلكما الشجرة، وأقل لكما: إنَّ الشَّيطان لكما عدوٌّ مبين؟ قالا: ربَّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين. قال: اهبطوا بعضكم لبعض عدو؛ ولكم في الأرض مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين. قال: فيها تحيون، وفيها تموتون، ومنها تُخرجون﴾ [الأعراف: ١١ ـ ٢٥].

وبهذا المشهد في نقطة الانطلاق قد تحدد مصير الرحلة كلها، ومصائر المرتحلين جميعاً.. وتلوح طلائع المعركة الكبرىٰ التي لا تهدأ لحظة طوال الرحلة، بين هذا العدو الجاهر بالعداوة، وبني آدم جميعاً.

ويجيء التذكير والإنذار فقد امتنَّ الله على بني آدم بأنَّه أرسل رسله بالهدىٰ ودين الحق. فما من أُمَّة إلَّا سبق فيها رسول **﴿وإن من أمةٍ إلَّا خلا فيها نذير﴾** [فاطر: ٢٤]، ويلوِّح لهم بالمعاد إلى الله بعد انتهاء ما هم فيه من أجل مرسوم للابتلاء؛ وبمشهدهم في العودة وهم فريقان: الفريق الذي اتبع أَمْر الله، والفريق الذي اتبع أمْر الشيطان:

﴿كما بدأكم تعودون: فريقاً هدىٰ وفريقاً حقَّ عليهم الضلالة، إنَّهم اتَّخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنَّهم مهتدون﴾ [الأعراف: ٢٩، ٣٠].

لقد بدأوا الرحلة فريقين: آدم وزوجه. والشيطان وقبيله.. ها هم أُولاء يعودون. الطائعون يعودون فريقاً مع أبيهم آدم وأُمهم حواء المسلمين المؤمنين بالله المتَّبعين لأمر الله.. والعصاة يعودون مع إبليس وقبيله، يملأ الله منهم جهنم، بولائهم لإبليس وولايته لهم. وهم يحسبون أنَّهم مهتدون.

لقد هدىٰ الله من جعل ولايته لله. وأضلَّ من جعل ولايته للشيطان.. وها هم أُولاء عائدين فريقين **﴿فريقاً هدىٰ وفريقاً حقَّ عليهم الضَّلالة﴾**.. ها هم أُولاء عائدين. في لمحة تضم طرفي الرحلة! على طريقة القرآن. التي يتعذر أن تتحقق في غير أُسلوب القرآن!

وقد كان الإنذار الأكبر والأشد والأكثر تكراراً في القرآن هو الإنذار بيوم الجمع. يوم الحشر. يوم يجمع الله ما تفرَّق من الخلائق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة، ليفرقهم من جديد فريقان: **﴿فريق في الجنَّة وفريق في السعير﴾** [الشُّورىٰ: ٧].. فلو شاء الله لخلق البشر خلقة أُخرىٰ توحد

سلوكهم، فتوحد مصيرهم، إمَّا إلى جنة وإمَّا إلى نار **﴿ولو شاء الله لجعلهم أمَّةً واحدة﴾** [الشُّورىٰ: ٨]. ولكنَّه ـ سبحانه ـ خَلَقَ هذا الإنسان لوظيفة. خلقه للخلافة في هذه الأرض. وجعل من مقتضيات هذه الخلافة، على النحو الذي أرادها، أن تكون للإنسان استعدادات خاصة بجنسه، تفرقه عن الملائكة والشياطين، وعن غيرهما من خلق الله ذوي الطبيعة المفردة الموحدة الاتجاه. استعدادات يجنح بها ومعها فريق إلى الهدىٰ والنور والعمل الصالح؛ ويجنح بها ومعها فريق إلى الضلال والظلام والعمل السيِّىء كل منهما يسلك وفق أحد الاحتمالات الممكنة في طبيعة تكوين هذا المخلوق البشري؛ وينتهي إلى النهاية المقررة لهذا السلوك: **﴿فريق في الجنَّة وفريق في السَّعير﴾**.. إنَّها رحلة الحياة يقطعها «الإنسان» في كدٍّ وجهد حتى يصل في نهاية المطاف إلى الله **﴿يَا أيُّها الإنسان إنَّك كادحٌ إلى ربِّك كدحاً فملاقيه﴾**.. فهو يلقىٰ ربه بعد الكدح والعناء **﴿فأمَّا من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً. وينقلب إلى أهله مسروراً﴾**..

هذا: فريق الجنَّة. والذي يؤتىٰ كتابه بيمينه هو المرضي السعيد، الذي آمن وأحسن، فرضي الله عنه وكتب له النجاة. وهو يحاسب حساباً يسيراً. فلا يُناقش ولا يدقق معه الحساب. والذي يصور ذلك هو الآثار الواردة عن الرسول ﷺ وفيه غناء..

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عُذِّب» قالت: قلتُ: أفليس قال الله تعالىٰ: **﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾**. قال: «ليس ذلك بالحساب، ولكن ذلك العرض. من نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب»[١].

وعنها كذلك قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته:

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

«اللَّهمَّ حاسبني حساباً يسيراً». فلمَّا انصرف قلت: يَا رسول الله: ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه. من نوقش الحساب يا عائشة يومئذٍ هلك»[(١)].

فهذا هو الحساب اليسير الذي يلقاه من يُؤتىٰ كتابه بيمينه.. ثمَّ ينجو **﴿وينقلب إلى أهله مسروراً﴾**.. من الناجين الذين سبقوه إلى الجنَّة.. وهو تعبير يفيد تجمع المتوافقين على الإيمان والصلاح من أهل الجنَّة. كل ومن أحبَّ من أهله وصحبه. ويصور رجعة الناجي من الحساب إلى مجموعته المتآلفة بعد الموقف العصيب. رجعته متهللاً فرحاً مسروراً بالنجاة واللقاء في الجنان!

وهو وضع يقابل فريق السعير. وضع المعذَّب الهالك المأخوذ بعمله السيِّىء، الذي يؤتىٰ كتابه وهو كاره: **﴿وأمَّا من أُوتيَ كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً. ويصلىٰ سعيراً﴾**..

والذي ألفناه في تعبيرات القرآن من قبل هو كتاب اليمين وكتاب الشمال. فهذه صورة جديدة: صورة إعطاء الكتاب من وراء الظهر. وليس يمتنع أن يكون الذي يعطىٰ كتابه بشماله يعطاه كذلك من وراء ظهره. فهو هيئة الكاره المكره الخزيان من المواجهة!

ونحن لا ندري حقيقة الكتاب ولا كيفية إيتائه باليمين أو بالشمال أو من وراء الظهر. إنَّما تخلص لنا حقيقة النجاة من وراء التعبير الأول؛ وحقيقة الهلاك من وراء التعبير الثَّاني. وهما الحقيقتان المقصود أن نستيقنهما. وما وراء ذلك من الأشكال إنَّما يُحيي المشهد ويعمق أثره في الحس، والله أعلم بحقيقة ما يكون كيف تكون!

---

(١) رواه الإمام أحمد ـ بإسناده عن عبد الله بن الزُّبير عن عائشة. وهو صحيح على شرط مسلم. ولم يخرجه.

فهذا التعيس الذي قضىٰ حياته في الأرض كدحاً، وقطع طريقه إلى ربِّه كدحاً ـ ولكن في المعصية والإثم والضلال ـ يعرف نهايته، ويواجه مصيره، ويدرك أنَّه العناء الطويل بلا توقف في هذه المرة ولا انتهاء. فيدعو ثبوراً، وينادي الهلاك لينقذه ممَّا هو مقدم عليه من الشقاء والعذاب، وحين يدعو الإنسان بالهلاك لينجو به، يكون في الموقف الذي ليس بعده ما يتَّقيه. حتى ليصبح الهلاك أقصىٰ أمانيه. وهذا هو المعنىٰ الذي أراده المتنبي وهو يقول:

كفىٰ بك داءً أن ترىٰ الموت شافياً وحسب المنايا أن يكنَّ أمانيا

فإنَّما هي التعاسة التي ليس بعدها تعاسة. والشقاء الذي ليس بعده شقاء!.. ﴿ويصلىٰ سعيراً﴾.. وهذا هو الذي يدعو الهلاك لينقذه منه.. وهيهات هيهات!

وأمام هذا المشهد التعيس يكرّ السياق راجعاً إلى ماضي هذا الشقي الذي انتهىٰ به إلى هذا الشقاء.. ﴿إنَّه كان في أهله مسروراً. إنَّه ظنَّ أن لن يحور﴾..

وذلك كان في الدنيا.. نعم كان.. فنحن الآن ـ مع هذا القرآن ـ في يوم الحساب وقد خلفنا الأرض وراءنا بعيداً في الزمان والمكان!

﴿إنَّه كان في أهله مسروراً﴾.. غافلاً عمَّا وراء اللحظة الحاضرة؛ لاهياً عمَّا ينتظره في الدار الآخرة. لا يحسب لها حساباً ولا يقدم لها زاداً.. ﴿إنَّه ظنَّ أن لن يحور﴾ إلى ربِّه، ولن يرجع إلى بارئه، ولو ظنَّ الرجعة في نهاية المطاف لاحتقب بعض الزاد ولادخَّر شيئاً للحساب!

إنَّه ظنَّ أن لن يحور ﴿بلىٰ إنَّ ربه كان به بصيراً﴾.. فالحقيقة أنَّ ربه كان مطّلعاً على أمره، محيطاً بحقيقته، عالماً بحركاته وخطواته، عارف أنَّه صائر إليه، وأنَّه مجازيه بما كان منه.. وكذلك كان، حين انتهىٰ به المطاف

إلى هذا المقدور في علم الله. والذي لم يكن بد أن يكون!

وصورة هذا التعيس وهو مسرور بين أهله في حياة الأرض القصيرة المشوبة بالكدح - في صورة من صور الكدح - تقابلها صورة ذلك السعيد، وهو ينقلب إلى أهله مسروراً في حياة الآخرة المديدة، الطليقة، الجميلة، السعيدة، الهنيئة، الخالية من كل شائبة من كدح أو عناء..

ويظل القرآن يتابع أفواج البشرية، فوجاً فوجاً إلى جنَّة أو إلى نار. حتى تغلق الأبواب التي فتحت لاستقبال المغتربين العائدين. فقد كانوا هناك في هذه الأرض مغتربين: **﴿كما بدأكم تعودون. فريقاً هدىٰ وفريقاً حقَّ عليه الضَّلالة، إنَّهم اتَّخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنَّهم مهتدون﴾**.

ويمضي القرآن في بيانه، ويعرض المجرمين في موقف مهين يبرز فيه التبكيت والتنكيل: **﴿وامتازوا اليوم أيُّها المجرمون. ألم أعهد إليكم - يَا بني آدم - ألاَّ تعبدوا الشَّيطان إنَّه لكم عدوٌّ مبين. وأن اعبدوني هٰذا صراط مستقيم. ولقد أضلَّ منكم جِبِلًّا كثيراً. أفلم تكونوا تعقلون؟ هٰذه جهنَّم التي كنتم توعدون. اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾** [يٓس: ٥٩ - ٦٤]..

إنَّهم يتلقون التحقير والترذيل: وامتازوا اليوم أيُّها المجرمون.. انعزلوا هكذا بعيداً عن المؤمنين!

ونداؤهم هنا **﴿يَا بني آدم﴾**.. فيه من التبكيت ما فيه. وقد أخرج الشيطان أباهم من الجنَّة ثمَّ هم يعبدونه، وهو لهم عدوٌّ مبين.. **﴿وأن اعبدوني﴾**.. **﴿هٰذا صراط مستقيم﴾**..

واصل إليَّ مؤد إلى رضاي.

فلم تحذروا عدوكم الذي أضلَّ منكم أجيالاً كثيرة.. أفلم تكونوا تعقلون؟

وفي نهاية هـذا الموقف العصيب المهين يعلن الجـزاء الأليم، في تهكم وتـأنيب **﴿هـٰذه جهنَّم التي كنتم توعـدون. اصلوها اليـوم بما كنتم تكفرون﴾**!

ولا يقف المشهد عند هـذا الموقف المؤذي ويـطويه. بـل يستطرد العـرض فإذا مشهـد جديـد عجيب **﴿اليوم نختم على أفـواههم، وتكلِّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾**..

وهكذا يخذل بعضهم بعضـاً، وتشهد عليهم جـوارحهم، وتـتفكك شخصيتهم مزقاً وآحاداً يكذب بعضها بعضاً. وتعود كل جارحة إلى ربهـا مفردة، ويثوب كل عضو إلى بارئه مستسلماً.

إنَّه مشهد عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب.

وتمضي القصة في هذا التناسق البديع والتعقيبات عليها، ومشاهـد القيامة من مبدئها إلى منتهاها. فهي قصة بدأت في المـلأ الأعلىٰ، على مشهد من الملائكة ـ يوم أن خلق الله آدم وزوجه وأسكنهما الجنَّة، فدلَّاهما الشيطان عن مرتبة الطاعة والعبودية الكاملة الخالصة، وأخرجهما من الجنَّة ـ وتنتهي كذلك في الملأ الأعلىٰ على مشهد من الملائكة.. فيتصـل البدء بالنهاية. ويضمَّان بينهما فترة الحياة الدنيا ومشهد الاحتضار في نهايتها.

والآن نأخذ في استعراض هذه المشاهد العجيبة:

الإنسان بين المأوىٰ الأليم والعذاب المقيم وبين المثوىٰ الكريم والفضل العظيم:

وأخيراً يجيء ختام هذه القصة. قصة آدم عليه السَّلام.. قصة هذه البشرية.. قصة الإنسان.. كل إنسان في كل مكان وزمان.. يجيء الختام قوياً حازماً، حاسماً.. يجيء ليقرر نهاية الرشد والإيمان ونهـاية الفسـوق والعصيان. إنَّ هذه النهاية لا مهرب من مواجهتها: **﴿فأمَّا من طغىٰ، وآثر**

الحياة الدُّنيا، فإنَّ الجحيم هي المأوىٰ﴾ [النَّازعات: ٣٧ ـ ٣٩]. . هناك تختلف المصائر والعواقب؛ وتتجلىٰ غاية التدبير والتقدير في النشأة الأولىٰ.

فأمَّا من طغىٰ. . والطغيان هنا أشمل من معناه القريب. فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدىٰ. ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت، حيث يشمل كل متجاوز للهدىٰ، وكل من آثر الحياة الدنيا، واختارها على الآخرة. فعمل لها وحدها، غير حاسب للآخرة حساباً. فاستحباب الحياة الدنيا على الآخرة يصطدم بتكاليف الإيمان، ويتعارض مع الاستقامة على الصراط. وليس الأمر كذلك حين تُستحب الآخرة، لأنَّه عندئذٍ تصلح الدنيا، ويصبح المتاع بها معتدلاً، ويراعىٰ فيه وجه الله. فلا يقع التعارض بين استحباب الآخرة ومتاع هذه الحياة.

إنَّ الذين يوجهون قلوبهم للآخرة، لا يخسرون متاع الحياة الدنيا ـ كما يقوم في الأخيلة المنحرفة ـ فصلاح الآخرة في دين الله يقتضي صلاح هذه الدنيا. والإيمان بالله يقتضي حسن الخلافة في الأرض. وحسن الخلافة في الأرض هو استعمارها والتمتع بطيِّباتها. إنَّه لا تعطيل للحياة في الإسلام انتظاراً للآخرة، ولكن تعمير للحياة بالحق والعدل والاستقامة ابتغاء رضوان الله، وتمهيداً للآخرة. . هذا هو الإسلام.

فأمَّا الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، فلا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم من الاستئثار بخيرات الأرض، ومن الكسب الحرام، ومن استغلال الناس وغشهم واستعبادهم. . لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم هذه في نور الإيمان بالله، وفي ظل الاستقامة على هداه. ومن ثمَّ يصدون عن سبيل الله. يصدون أنفسهم ويصدون الناس، ويبغونها عوجاً لا استقامة فيها ولا عدالة. وحين يفلحون في صد أنفسهم وصد غيرهم عن سبيل الله، وحين يتخلصون من استقامة سبيله وعدالتها، فعندئذٍ فقط يملكون أن يظلموا وأن يطغوا وأن يغشوا وأن يخدعوا وأن يغروا الناس بالفساد، فيتم لهم

الحصول على ما يبغونه من الاستئثار بخيرات الأرض، والكسب الحرام، والمتاع المرذول، والكبرياء في الأرض، وتعبيد الناس بلا مقاومة ولا استنكار.

إنَّ منهج الإيمان ضمانة للحياة وضمانة للأحياء من أثرة الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، واستئثارهم بخيرات هذه الحياة. واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره. فإذا أهمل حساب الآخرة أو آثر عليها الدنيا اختلّت كل الموازين في يده، واختلّت كل القيم في تقديره، واختلّت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، وعُدَّ طاغياً وباغياً ومتجاوزاً للمدىٰ.

فأمَّا هذا.. **﴿فإنَّ الجحيم هي المأوىٰ﴾**.. الجحيم المكشوفة المبرزة القريبة الحاضرة. يوم الطامّة الكبرىٰ.. **﴿وسيق الَّذين كفروا إلى جهنّم زمراً. حتّىٰ إذا جاؤوها فتحت أبوابها﴾** [الزُّمر: ٧١].. واستقبلهم خزنتها يسجلون استحقاقهم لها ويذكرونهم بأسباب مجيئهم إليها: **﴿وقال لهم خزنتها: ألَم يأتكم رُسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هـٰذا﴾**؟.. **﴿قالوا: بلىٰ، ولـٰكن حقَّت كلمة العذاب على الكافرين﴾**.

فالموقف موقف إذعان وتسليم. لا موقف مخاصمة ومجادلة. وهم مقرون مستسلمون! **﴿قيل ادخلوا أبواب جهنَّم خالدين فيها. فبئس مثوىٰ المتكبِّرين﴾**!

فإذا انتهىٰ المشهد الأول، فنحن أمام المشهد التالي: **﴿قال ادخلوا في أممٍ قد خلت من قبلكم من الجنِّ والإنس، كلَّما دخلت أمة لعنت أختها، حتى إذا ادَّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم: ربَّنا هـٰؤلاء أضلُّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال: لكل ضعف ولـٰكن لا تعلمون. وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل، فذوقوا العذاب بما**

كنتم تكسبـون﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩]. ﴿ادخلوا في أُمم قـد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار﴾.. انضموا إلى زملائكم وأوليائكم في الجن والإنس.. هنا في النار.. أَليس إبليس هو الذي عصىٰ ربـه؟ وهو الذي أخرج آدم من الجنة وزوجه؟ وهو الذي أغوىٰ من أغوىٰ من أبنائه؟ وهو الـذي أوعده الله أن يكـون هـو ومن أغـواهم في النـار؟.. فـادخلوا إذن جميعاً.. ادخلوا سابقين ولاحقين.. فكلكم أولياء.. وكلكم سواء!

ولقد كانت هذه الأُمم والجماعات والفرق في الدنيا من الولاء بحيث يتبـع آخرهـا أولها؛ ويملي متبـوعها لتـابعها.. فلننـظر اليوم كيف تكـون الأحقاد، وكيف يكون التنابز فيها: ﴿كلَّما دخلت أُمَّة لعنت أُختها﴾!

فما أبأسها نهاية تلك التي يلعن فيها الابن أباه، ويتنكُّر فيهـا الولي لمولاه!

﴿حتّىٰ إذا ادَّاركوا فيها جميعاً﴾.. وتلاحق آخرهم وأولهم، واجتمع قاصيهم بدانيهم، بدأ الخصام والجدال: ﴿قالت أُخـراهم لأُولاهم: ربَّنا هـٰؤلاء أضلُّونا، فآتهم عذاباً ضعفاً من النَّار﴾..

وهكذا تبدأ مهـزلتهم أو مأسـاتهم! ويكشـف المشهد عن الأصفيـاء والأولياء، وهم متناكرون أعداء؛ يتهم بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، ويطلب له من « ربنا » شر الجزاء.. من « ربنا » الذين كانوا يفترون عليه ويكذبون بآياته؛ وهم الذين ينيبون إليه وحده ويتوجهون إليه بالدعاء! فيكون الجواب استجابة للدعاء. ولكن أيّة استجابة؟!

﴿قال: لكل ضعـف، ولـٰكن لا تعلمون﴾ لكم ولهم جميعاً ما طلبتم من مضاعفة العذاب!

وكأنَّما شمتَ المدعو عليهم بالداعين، حين سمعوا جواب الدعاء، فإذا هم يتوجهون إليهم بالشماتة.. كلنا سواء.. في هذا الجزاء: ﴿وقالت

أولاهم لأخراهم: فما كان لكم علينا من فضل. فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾!

وبهذا ينتهي ذلك المشهد الساخر الأليم..

ومشهد آخر في هذا المأوىٰ الأليم.. مشهد بائس من أعجب مشاهد القيامة وأحفلها بالحركة والانفعال والحوار بين الضعفاء والمستكبرين. وبين الشيطان والجميع: **﴿وبرزوا لله جميعاً - فقال الضعفاء للّذين استكبروا: إنّا كنّا لكم تَبَعاً. فهل أنتم مُغنون عنّا من عذاب الله من شيء؟ قالوا: لو هدانا الله لهديناكم. سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص. وقال الشّيطان لما قضي الأمر: إنَّ الله وعدكم وَعْدَ الحق، ووعدتكم فأخلفتكم؛ وما كان لي عليكم من سلطان إلاَّ أن دعوتكم فاستجبتم لي. فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمُصْرِخِكم وما أنتم بمُصْرِخِيَّ. إنّي كفرت بما أشركتمون من قبل. إنَّ الظالمين لهم عذاب أليم﴾** [إبراهيم: ٢١، ٢٢].

وبرزوا لله جميعاً.. الطّغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين. ومعهم الشيطان.. برزوا جميعاً مكشوفين. وهم مكشوفون لله دائماً. ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنّهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب، ولا يسترهم ساتر، ولا يقيهم واق.. برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار، وبدأ الحوار: **﴿فقال الضعفاء للّذين استكبروا: إنّا كنّا لكم تبعاً. فهل أنتم مُغنون عنّا من عذاب الله من شيء؟﴾**..

والضعفاء هم الضعفاء هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه؛ وجعلوا أنفسهم تبعاً للمستكبرين والطغاة. ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله، والضعف ليس عذراً، بل هو الجريمة؛ فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله. وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعاً عن نصيبه في الحرية - التي

هي ميزته ومناط تكريمه ـ أو أن ينزل كارهاً. والقوة المادية ـ كائنة ما كانت ـ لا تملك أن تستعبد إنساناً يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الآدمية. فقصارىٰ ما تملكه القوة أن تملك الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه. أمَّا الضمير. أمَّا الروح. أمَّا العقل. فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها، إلاَّ أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال!

من ذا الذي يملك أن يجعل أُولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك؟ من ذا الذي يملك أن يجعل أُولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه؟ لا أحد. لا أحد إلاَّ أنفسهم الضعيفة. فهم ضعفاء لا لأنَّهم أقل قوة مادية من الطغاة، ولا لأنَّهم أقل جاهاً أو مالاً أو منصباً أو مقاماً.. كلا، إنَّ هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً يلحق صفة الضعف بالضعفاء. إنَّما هم ضعفاء لأنَّ الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان!

إنَّ المستضعفين كثرة، والطواغيت قلة. فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة؟ وما الذي يخضعها؟ إنَّما يخضعها ضعف الروح، وسقوط الهمّة، وقلة النخوة، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان!

إنَّ الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلاَّ برغبة هذه الجماهير. فهي دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت. فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان!

إنَّ الذل لا ينشأ إلاَّ عن قابلية للذل في نفوس الأذلاّء.. وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة!!

والقرآن الكريم يلتقط هذا المشهد لهذا الموقف الذليل البائس: **﴿وإذ يتحاجُّون في النار فيقول الضعفاء للَّذين استكبروا: إنَّا كنَّا لكم تبعاً. فهل أنتم مغنون عنَّا نصيباً من النار؟﴾** [غافر: ٤٧].

إنَّ الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا. لم يشفع لهم أنَّهم كانوا ذيولاً وإمَّعات! ولم يخفف عنهم أنَّهم كانوا غنماً تُساق! لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار.

لقد منحهم الله الكرامة. كرامة الإنسانية. وكرامة التبعة الفردية. وكرامة الاختيار والحرية. ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعاً. تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطّغاة والملأ والحاشية. لم يقولوا لهم: لا. بل لم يفكروا أن يقولوها. بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال.. ﴿إنَّا كنا لكم تَبَعاً﴾.. وما كان تنازلهم عمَّا وهبهم الله واتباعهم الكبراء شفيعاً لهم عند الله. فهم في النار. ساقهم إليها قادتهم كما كانوا يسوقونهم في الحياة. سوق الشياه!

والأذلّاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للَّذين استكبروا يسألونهم **﴿إنَّا كنَّا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾**؟..

ها هم أُولاء في بؤس وضيق وحسرة وألم يسألون كبراءهم: **﴿فهل أنتم مغنون عنَّا نصيباً من النار؟﴾**.. كما كانوا يوهمونهم في الأرض أنَّهم يقودونهم في طريق الرشاد، وأنَّهم يحمونهم من الفساد، وأنَّهم يمنعونهم من الشر والضر وكيد الأعداء!

أم لعلَّهم وقد رأوا العذاب وقد مسَّهم الألم الشديد يهمُّون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة، وتعريضهم إيَّاهم للعذاب؟

إنَّ القرآن يحكي قولهم وعليهم طابع الذلة على كل حال.

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال: **﴿قالوا: لو هدانا الله لهديناكم! سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص!﴾**.

وهو رد يبدو فيه البرم والضيق: لو هدانا الله لهديناكم.. فعلام تلومننا ونحن وإيَّاكم في مصير واحد؟ إنَّنا لم نهتد ونضللكم. ولو هدانا الله لقدناكم

إلى الهدىٰ معنا، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال! وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله. فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها، ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حساباً لقدرة القاهر الجبار. وهم إنَّما يتهربون من تبعة الضلال والإضلال برجوع الأمر لله. . والله لا يأمر بالضلال كما قال سبحانه **﴿إنَّ الله لا يأمر بالفحشاء﴾**. . ثمَّ هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفي، فيعلنونهم بأن لا جدوىٰ من الجزع كما أنَّه لا فائدة من الصبر. فقد حقَّ العذاب، ولا رادَّ له من صبر أو جزع، وفات الأوان الذي كان الجزع فيه يجدي فيرد الضالين إلى الهدىٰ؛ وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة الله. لقد انتهىٰ كل شيء، ولم يعد هنا مفر ولا محيص! ها هم أولاء الذين استكبروا وقد ضاقوا صدراً بالذين استضعفوا، يجيبونهم في ضيق وبرم وملالة، وفي إقرار بعد الاستكبار: **﴿قال الَّذين استكبروا: إنَّا كل فيها إنَّ الله قد حكم بين العباد﴾** [غافر: ٤٨].

إنَّا كلٌّ في النار. . إنَّا كلٌّ ضعاف لا نجد ناصراً ولا معيناً. إنَّا كلٌّ في هذا الكرب والضيق سواء. فما سؤالكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعاف سواء؟ لقد حكم الله بين العباد. . فلا مجال لمراجعة في الحكم، ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل. وقد قضي الأمر، وما من أحد من العباد يخفف شيئاً من حكم الله. وبعد أن أيس أهل النار، وهم في عذاب الله الأليم، وقد قضي الأمر، وحكم الله بين العباد، يتوجهون إلى رب العالمين: **﴿ربَّنا أرِنَا الذين أضلانا من الجن والإنس، نجعلهما تحت أقدامنا، ليكونا من الأسفلين﴾** [فصِّلت: ٢٩].

ونشهد في هذا السؤال حنق المخدوعين، الذين زين لهم قرناؤهم ما بين أيديهم وما خلفهم، وأغروهم بهذه المهلكة التي انتهىٰ إليها مطافهم. . إنَّه الحنق العنيف، والتحرق على الانتقام: **﴿نجعلهما تحت أقدامنا﴾**. **﴿ليكونا من الأسفلين﴾**. وذلك بعد الموادة والمخادنة والوسوسة والتزيين!

وفي ظل هذه المشاهد الحزينة الكئيبة من الحسرة. وقد قضي الأمر، وانتهىٰ الجدل، وسكت الحوار.. وهنا نرىٰ على المسرح عجباً. نرىٰ الشيطان.. هاتف الغواية، وحادي الغواة.. نراه الساعة يلبس مسوح الكهان، أو مسوح الشيطان! ويتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء، بكلام ربما كان أقسىٰ عليهم من العذاب:

﴿وقال الشيطان ـ لمَّا قضي الأمر ـ إنَّ الله وعدكم وَعْد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم. وما كان لي عليكم من سلطان إلاَّ أن دعوتكم فاستجبتم لي..﴾..

الله! الله! أمَّا إنَّ الشيطان حقاً لشيطان! وإنَّ شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين في الحوار المتقدم.

إنَّه الشيطان الذي وسوس في الصدور، وأغرىٰ بالعصيان، وزيَّن الكفر، وصدَّهم عن استماع الحق.. هو هو الذي يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة، حيث لا يملكون أن يردوها عليه ـ وقد قضي الأمر ـ هو الذي يقول الآن، وبعد فوات الأوان: **﴿إنَّ الله وعدكم وَعْد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾**!

ثمَّ يَخزهم وخزة أُخرىٰ بتعييرهم بالاستجابة له، وليس له عليهم من سلطان، سوىٰ أنَّهم تخلو عن شخصياتهم، ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عداء قديم، فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله **﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلاَّ أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾**! ثمَّ يؤنِّبهم، ويدعوهم لتأنيب أنفسهم. يؤنبهم على أن أطاعوه! **﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾**!

ثمَّ يخلي بهم، وينفض يده منهم، وهو الذي وَعَدَهم من قبل ومنَّاهم، ووسوسَ لهم فزيَّن لهم أعمالهم؛ فأمَّا الساعة فما هو بملبيهم إذا صرخوا، كما أنَّهم لن ينجدوه إذا صرخ **﴿ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيَّ﴾**.. وما بيننا من صلة ولا ولاء!

ثمَّ يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الإشراك **﴿إنِّي كفرت بما أشركتمون من قبل﴾**!

ثمَّ ينهي خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه: **﴿إنَّ الظالمين لهم عذاب أليم﴾**.

فيا للشيطان! ويا لهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه؛ ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوه!

إنَّه مشهد حزين أليم قدر ما فيه من السخرية والاستهزاء. ونكاد نلمح أولئك الذين حقَّ عليهم العذاب ألسنتهم معقودة ممَّا سمعوا من الشيطان. فقد عرفوا الحقيقة بعد أن فات الأوان. عرفوا أنَّهم كانوا عميان مطموسين كالدمىٰ واللُّعب يعبث بهم الشيطان: **﴿وقالوا: لو كنَّا نسمع أو نعقل ما كنَّا في أصحاب السعير﴾** [الملك: ١٠].

وفي هذا القول: ذلة وانكسار والاعتراف بالحمق والغفلة. فالذي يسمع أو يعقل، لا يورد نفسه هذا المورد الوبيء. ولا يجحد بمثل ما جحد به أولئك المناكيد **﴿فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾**.

والسحق البعد. وهو دعاء عليهم من الله بعد اعترافهم بذنبهم في الموقف الذي لم يؤمنوا به ويصدقوا بوقوعه. والدعاء من الله قضاء. فهم مبعدون من رحمته. لا رجاء لهم في مغفرة، ولا إقالة لهم من عذاب. وهم أصحاب السعير الملازمون له، ويا لها من صحبة! ويا له من مصير!

وهذا العذاب، عذاب السعير، في جهنم التي تشهق بأنفاسها وتفور، عذاب شديد مروع حقاً. والله لا يظلم أحداً. ونحسب ـ والله أعلم ـ أنَّ النفس التي تكفر بربها ـ وقد أودع فطرتها حقيقة الإيمان ودليله ـ هي نفس فرغت من كل خير. كما فرغت من كل صفة تجعل لها اعتباراً في الوجود، فهي كالحجر الذي توقد به جهنم. وقد انتهت إلى نكسة وارتكاس مكانها هذه النار، إلى غير نجاة منها ولا فرار!

انتكاس وارتكاس :

إن النفس التي لا تدين لله في الأرض تظل تنتكس وترتكس في كل يوم تعيشه، حتى تنتهي إلى صورة بشعة مسيخة شنيعة، صورة منكرة جهنمية نكيرة. صورة لا يماثلها شيء في هذا الكون في بشاعتها ومسخها وشناعتها. فكل شيء روحه مؤمنة، وكل شيء يسبح بحمد ربه، وكل شيء فيه هذا الخير، وفيه هذه الوشيجة التي تشده إلى محور الوجود.. ما عدا هذه النفوس الشاردة المفلتة من أواصر الوجود، الآبدة الشريرة، الجاسية الممسوخة النفور. فأي مكان في الوجود كله تنتهي إليه، وهي مبتوتة الصلة بكل شيء في الوجود؟! إنَّها تنتهي إلى جهنم المتغيظة المتلمظة، الحارقة، المهدرة لكل معنىً ولكل حق ولكل كرامة، بعد أن لم يكن لتلك النفوس معنىً ولا حق ولا كرامة!

إنَّ حصب جهنم وأهلها هم من يبغون الضلال لأنفسهم ويعرضون عن دلائل الهدىٰ وموحيات الإيمان، ويغلقون قلوبهم وسمعهم وبصرهم دونها **﴿ولقد ذرأنا لجهنَّم كثيراً من الجنِّ والإنس. لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يُبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها.. أولئك كالأنعام، بل هم أضل.. أولئك هم الغافلون﴾** [الأعراف: ١٧٩].

إنَّ هؤلاء الكثيرين من الجن والإنس مخلوقون لجهنم! وهم مهيَّأون لها! فما بالهم كذلك؟

هناك اعتباران:

الاعتبار الأول: أنَّه مكشوف لعلم الله الأزلي أنَّ هؤلاء الخلق صائرون إلى جهنم.. وهذا لا يحتاج إلى بروز العمل الذي يستحقون به جهنم إلى عالم الواقع الفعلي لهم. فعلم الله سبحانه شامل محيط غير متوقف على زمان ولا على حركة ينشأ بعدها الفعل في عالم العباد الحادث.

والاعتبار الثَّاني: أنَّ هذا العلم الأزلي ـ الذي لا يتعلق بزمان ولا

حركة في عالم العباد الحادث ـ ليس هو الذي يدفع هذه الخلائق إلى الضلال الذي تستحق به جهنم. إنما هم كما تنص الآية: **﴿لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يُبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها﴾** فهم لم يفتحوا القلوب التي أُعطوها ليفقهوا ـ ودلائل الإيمان والهدىٰ حاضرة في الوجود وفي الرسالات تدركها القلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة ـ وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية. ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة. . لقد عطلوا هذه الأجهزة التي وُهِبوها ولم يستخدموها. .

إنَّ مشيئة الله سبحانه التي يجري بها قدره في هذا الكائن الإنساني، هي أن يخلق هذا الكائن باستعداد مزدوج للهدىٰ والضلال. . وذلك مع إيداع فطرته حقيقة الربوبية الواحدة والاتجاه إليها. ومع إعطائه العقل المميز للضلال والهدىٰ، ومع إرسال الرسل بالبيِّنات لإيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل. . ولكن يبقىٰ بعد ذلك كله ذلك الاستعداد المزدوج للهدىٰ والضلال الذي خلق الإنسان به، وفق مشيئة الله التي جرىٰ بها قدره.

كذلك اقتضت هذه المشيئة أن يجري قدر الله بهداية من يجاهد للهدىٰ. وأن يجري قدر الله كذلك بإضلال من لا يستخدم ما أودعه الله من عقل وما أعطاه من أجهزة الرؤية والسمع في إدراك الآيات المبثوثة في صفحات الكون، وفي رسالات الرسل، الموحية بالهدىٰ.

وفي كل الحالات تتحقق مشيئة الله ولا يتحقق سواها، ويقع ما يقع بقدر الله لا بقوة سواه. وما كان الأمر ليكون هكذا إلاَّ أن شاء الله هكذا. وما كان شيء ليقع إلاَّ أن يوقعه قدر الله. فليس في هذا الوجود مشيئة أُخرىٰ تجري وفقها الأُمور، كما أنَّه ليس هناك قوة ءصلا قدر الله ينشىء الأحداث. . وفي إطار هذه الحقيقة الكبيرة يتحرك الإنسان بنفسه، ويقع له ما يقع من الهدىٰ. والضلال أيضاً. . **﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾** [الكهف: ٢٩].

والغافلون هم الذين استحبوا العمىٰ على الهدىٰ ﴿**لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها**﴾.. إنَّ القلب الغافل عن طاعة الله وهديه قلبٌ انتكس وارتكس. قلب لا يرىٰ ولا يتجه إلاَّ إلىٰ ذاته، وإلى ماله، وإلى أبنائه، وإلى متاعه ولذائذه وشهواته، فلم يعد فيه متَّسع لله. والقلب الذي يشتغل بهذه الشواغل، ويجعلها غاية حياته لا جَرَم يغفل عن أمر الله، فيزداد غفلة، ويُملي له الشيطان فيما هو فيه، ويُزين له سوء عمله، حتى تفلت الأيام من بين يديه، ويلقىٰ ما أعدَّ الله لأمثاله من خَلْق جهنم..

لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون: ﴿**أُولـٰئك كالأنعام، بل هم أضل، أُولـٰئك هم الغافلون**﴾..

والـذين يغفلون عمًّا حـولهم من آيات الله في الكـون وفي الحياة، والذين يغفلون عمًّا يمرّ بهم من الأحداث والغير فلا يرون فيها يـد الله.. أُولـٰئك كالأنعام بل هم أضلّ.. فللأنعام استعدادات فطريـة تهديهـا. أمَّا الجن والإنس فقد زُوِّدوا بالقلب الواعي والعين المبصرة والأُذن الملتقطة. فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا. إذا مروا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها؛ ولا تلتقط أعينهم مشاهدها ودلالاتها؛ ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإيحاءاتها.. فإنَّهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادئة.. ثمَّ هم يكونون من ذرء جهنَّم! يجري بهم قدر الله إليها وفق مشيئته حين فطرهم بـاستعداداتهم تلك، وجعـل قانـون جزائهم هذا. فكانوا ـ كما هم في علم الله القديم ـ حصب جهنَّم منذ كانوا!

هؤلاء الغافلون لم يروا في وجودهم على الأرض من غاية سوىٰ متاع وأكل: ﴿**يتمتَّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنَّار مثوىً لهم**﴾ [محمَّد: ١٢].

وهو تصوير زري، يذهب بكل سمات الإنسان ومعالمه، ويلقي ظلال الأكل الحيواني الشره، والمتاع الحيواني الغليظ. بلا تذوق، وبلا تعفف عن

جميل أو قبيح . . إنَّه المتاع الذي لا ضابط له من إرادة، ولا من اختيار، ولا حارس عليه من تقوىٰ، ولا رادع عنه من ضمير. . والحيوانية تـتحقق في المتاع والأكل، ولو كان هناك ذوق مرهف للطعوم، وحسّ مدرب في اختيار صنوف المتاع، كما يتفق هذا لكثير من الناشئين في بيوت النعمة والثراء. وليس هذا هو المقصود. إنَّما المقصود هو حساسية الإنسـان الذي يملك نفسه وإرادته، والذي له قيم خاصة للحياة؛ فهو يختار الطيب عند الله. عن إرادة لا يخضعها ضغط الشهوة، ولا يضعفها هتاف اللذة. ولا تحسب الحياة كلها مائدة طعام، وفرصة متاع؛ بلا هدف بعد ذلك ولا تقوىٰ فيما يباح وما لا يباح!

إنَّ الفارق الرئيسي بين الإِنسان والحيوان: أنَّ للإنسان إرادة وهدفاً وتصوراً خاصاً للحياة يقوم على أصولها الصحيحة، المتلقّاة من الله خالق الحياة. فإذا فقد هذا كله فَقَدَ أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه، وأهم المزايا التي من أجلها كرّمه الله. . ثمَّ هو يكون من ذرء جهنَّم **﴿كلوا وتمتَّعوا قليلاً إنَّكم مجرمون. ويل يومئذٍ للمكذِّبين﴾** [المرسلات: ٤٦ ـ ٤٧]، كلوا وتمتعوا قليلاً في هذه الدار الدنيا، لتحرموا وتُعَذَّبوا طويلاً في تلك الـدار الآخرة. .

هنـاك الشقاء والتعـاسة والمصيـر البائس لـذلـك الإنسـان الغـافـل المطموس. . هناك الويل المدخر لهذا الشقي المتعوس!

ويمضي القرآن في تقرير وتوكيد لهذا المصير الذي لن يتبدَّل: **﴿إنَّ الَّذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة حتّىٰ يلج الجمل في سم الخياط، وكذلك نجزي المجرمين. لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش، وكذلك نجزي الظالمين﴾** [الأعراف: ٤٠ ـ ٤١].

ودونك فقف بتصور مـا تشاء أمـام هذا المشهـد العجيب. . مشهد

الجمل تجاه ثقب الإبرة. فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير، فانتظر حينئذٍ ـ وحينئذٍ فقط ـ أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين، فتقبل دعاءهم أو توبتهم ـ وقد فات الأوان ـ وأن يدخلوا إلى جنات النعيم! أمَّا الآن، وإلى أن يلج الجمل في سمِّ الخياط، فهم هنا في النار، التي تداركوا فيها جميعاً وتلاحقوا؛ وتلاوموا فيها وتلاعنوا، وطلب بعضهم لبعض سوء الجزاء، ونالوا جميعاً ما طلبه الأولياء للأولياء! **﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾**.. ثمَّ إليك هيئتهم في النار: **﴿لهم من جهنَّم مهاد، ومن فوقهم غواش﴾**.. فلهم من نار جهنَّم من تحتهم فراش، يدعوه ـ للسخرية ـ مهاداً، وما هو مهد ولا لين ولا مريح ! ولهم من نار جهنَّم أغطية تغشاهم من فوقهم! **﴿وكذلك نجزي الظَّالمين﴾**.. والظَّالمون هم الغاوون.. والظَّالمون هم المجرمون. والظَّالمون هم الغافلون.. والظَّالمون هم الضالُّون.. والظَّالمون هم المشركون المكذِّبون بآيات الله، المفترون الكذب على الله.. كلها أوصاف مترادفة في تعبير القرآن.

هذه جهنَّم! ففيها الكفاية! جهنَّم التي وقودها الناس والحجارة.. جهنَّم التي يكبكب فيها الغاوون وجنود إبليس أجمعون.. جهنَّم الحطمة التي تطَّلع على الأفئدة. جهنَّم التي لا تُبقي ولا تذر. جهنَّم التي تكاد تميَّز من الغيظ.. جهنَّم عذاب الله القوي العزيز.. فأهون العذاب في جهنَّم، ما يرىٰ من ذاقه ـ والعياذ بالله ـ أنَّ أحداً أشدُّ منه عذاباً. فقد روىٰ البخاري عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إنَّ أهون أهل النار عذاباً رجلٌ في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل بالقمقم».

وفي رواية: «إنَّ أهون أهل النَّار عذاباً منْ له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرىٰ أنَّ أحداً أشد منه عذاباً، وإنَّه لأهونهم عذاباً»(١).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ.

يصور رسول الله ﷺ مشهداً مكروباً من مشاهد جهنم.. وهو مشهد رعيب حقاً، ها هو ذا المشهد حاضر مشهود.. ها هو ذا أهون أهل النار عذاباً من له نعلان من نار! يغلي دماغه من شدتها.. يغلي دماغه كما يغلي المرجل.. نار حامية! فماذا بعد هذا.. رحمتك يا رب!!!

النَّار تصل إلى كل ذرة في جسد هذا المكروب، النار تلتهم لحمه وعظامه وأعصابه.. إنَّه عذاب مروع مخيف شنيع.. إنَّه أهون أهل النار عذاباً.. وهو يتألم ويصل في حسِّه أقصىٰ درجات الألم. ما يرىٰ أنَّ أحداً أشد منه عذاباً، وإنَّه لأهونهم عذاباً.

يا مغيث! فكيف حال من وصف هيئتهم القرآن: **﴿إنَّ الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً. كلَّما نضجت جلودهم بدَّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إنَّ الله كان عزيزاً حكيماً﴾** [النِّساء: ٥٦].

إنَّ القرآن يرسم مشهداً عنيفاً مفزعاً.. السعير المتأجج. الجلود الناضجة المشوية المعذبة. كلَّما نضجت بدلت. ليعود الاحتراق من جديد.. ويعود الألم من جديد..

كيف حال من **﴿قُطِّعت لهم ثياب من نار، يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميم، يُصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، كلَّما أرادوا أن يخرجوا منها ـ من غم ـ أُعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾** [الحج: ١٩].

مشهد مريع مخيف. مشهد أُولئك المعذَّبون حين تكون النار ثيابهم، وتسيل جلودهم ولحومهم.. إنَّه مشهد عنيف صاخب، هذه ثياب من النَّار تقطع وتفصل! وهذا حميم ساخن يُصَبُّ من فوق الرؤوس، يُصهر به ما في البطون والجلود عند صَبِّه على الرؤوس. وهذه سياط من حديد أحمته النار، وهذا هو العذاب يشتد، ويتجاوز الطاقة، فيهبُّ المجرمون من الوهج والحميم والضرب الأليم يهمُّون بالخروج من الغم. وها هم أُولاء يردُّون

بعنف. ويسمعون التَّأنيب، وذوقوا عذاب الحريق. ها هي ذي جهنَّم محيطة بالكافرين **﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول: ذوقوا ما كنتم تعملون﴾** [العنكبوت: ٥٥].. إنَّه مشهد مفزع في ذاته، يصاحبه التقريع المخزي والتَّأنيب المرير.

فأنَّىٰ يستعجل من تحيط به جهنَّم وتهمّ أن تطبق عليه وهو غافل مخدوع، يصيرون إليها ويأوون. ويا سوءها من مأوىٰ خيرٌ منه التشريد **﴿أولـٰئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنَّم﴾** [الرعد: ١٨].. **﴿مأواهم جهنَّم كلَّما خبت زدناهم سعيراً﴾** [الإسراء: ٩٧]..

إنَّها حلقات عذاب رهيبة لاهثة مكروبة، فإذا انتهت الحلقة بدأ الظالمون يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولاً ورعباً وهكذا.. فالذي يعيش للدنيا قلقاً متكالباً على ما في الأرض كادحاً لهذا الشأن الصغير فهو ذلك الأشقىٰ **﴿الذي يصلىٰ النَّار الكبرىٰ، ثمَّ لا يموت فيها ولا يحيا﴾** [الأعلىٰ: ١٢].

وتكاد المشاهد في جهنَّم تنطق بالألم ونرىٰ القلق والاضطراب وعدم الاستقرار على حال: **﴿والَّذين كفروا لهم نار جهنَّم، لا يقضىٰ عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها﴾** [فاطر: ٣٦].

فلا هذه ولا تلك حتَّىٰ الرحمة بالموت لا تنال **﴿كذلك نجزي كل كفور﴾**..

نار جهنَّم الكبرىٰ بشدتها، والكبرىٰ بحدتها، والكبرىٰ بضخامتها. حيث يمتد بقاء الظالم الشقي الكفور فيها يطول. فلا هو يموت فيجد طعم الراحة، ولا هو يحيا في أمنٍ وراحة. إنَّما هو العذاب الخالد، الذي يتطلَّع صاحبه إلى الموت كما يتطلَّع إلى الأمنية الكبرىٰ عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صار أهل الجنَّه إلى الجنَّة، وأهل النَّار إلى النَّار. جيء بالموت، حتى يجعل بين الجنَّة والنَّار،

فيُذبح، ثُمَّ يناد مناد: يَا أهل الجنَّة لا موت، يَا أهل النَّار لا موت، فيزداد أهل الجنَّة فرحاً وأهل النَّار حزناً إلى حزنهم»[١].

إنَّ حديث القيامة هو حديث القرآن المتكرر[٢]، يذكِّر به وينذر ويبشِّر، وليستجيش به في الضمائر الحساسية والخشية والتقوىٰ والتوجس، كما يثير به الرجاء والارتقاب والتطلع. ومن ثمَّ يستحيي هذه الضمائر فلا تموت ولا تغفل.

ومن ثمَّ كانت هذه الإيقاعات العنيفة العميقة التي نراها في القرآن.. الإيقاعات التي يعلم الله أنَّ فطرة الإنسان تهتز لها وترتجف، فتتفتح نوافذها وتستيقظ أجهزة الاستقبال فيها، وتتحرك وتحيا، وتتأهب للتلقّي والاستجابة.. ذلك كله فضلاً على أنَّها تمثل الحقيقة **﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق. فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾** [الجاثية: ٦].

هذه هي الحقيقة **﴿فأمَّا من طغىٰ وآثر الحياة الدُّنيا فإنَّ الجحيم هي المأوىٰ﴾**..

إنه القرآن بآياته الحكيمة يلمس القلوب، ويوقظ العقول، ويخاطب الفطر بلغتها المباشرة. فمن لم يؤمن بهذه الآيات فلا رجاء في أن يؤمن بسواها؛ ومن لم توقظه هذه الإشارات الموحية فلن توقظه إلَّا زبانية جهنم **﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر﴾** [القمر: ٤٨].

إنَّ أي كلام لن يبلغ كلام الله في القرآن. وإنَّ أية حقيقة لن تبلغ حقيقة الله في الثبوت والوضوح واليقين **﴿فبأيِّ حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟﴾**..

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) انظر الفصول التالية في كتاب «اليوم الآخر في ظلال القرآن»: «صفة جهنَّم»، «أهل النار»، «أحوال الناس في جهنَّم»، «هيئة أهل النار»، «طعام أهل النار»، «شراب أهل النار»، «إغواء وتبرُّم وعذاب»، «حسرة وألم»، وذلك في الباب الخامس «عذاب النار»: ص ٢٥٣ ـ ٣٠٠.

وهنا لا يليق بمن لا يؤمن إلَّا التهديد والتنكيل: **﴿ويلٌ لكلِ أفَّاكٍ أثيم يسمع آيات الله تُتلىٰ عليه ثم يُصرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها. فبشّره بعذابٍ أليم﴾**.

والويل الهلاك. والأفاك: الكذاب المارد على الكذب. والأثيم: الكثير المقارفة للإثم. والتهديد شامل لكل من هذه صفته. وهو تهديد صادر من الله القوي القاهر الجبار، القادر على الهلاك والدمار. الصادق الوعد والوعيد والإنذار. فهو تهديد رعيب مفزع مرهوب. هذا الأفاك الأثيم. آية إفكه وعلامة إثمه، إنَّه يُصرُّ على الباطل ويستكبر على الحق ويتعالىٰ على الخضوع لأوامر الله وشرعه، ولا يتأدب بالأدب اللائق مع الله **﴿يسمع آيات الله تُتلىٰ عليه، ثم يُصرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها﴾**..

وهذه الصورة البغيضة ولو أنَّها صورة فريق من المشركين في مكة، إلَّا أنَّها تتكرر في كل جاهلية، وتتكرر اليوم وغداً. فكم في الأرض. وبين من يقال إنَّهم مسلمون، من يسمع آيات الله تُتلىٰ عليه ثمَّ يُصرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها؛ لأنَّها لا توافق هواه، ولا تسير مع مألوفه، ولا تعاونه على باطله، ولا تقره على شره، ولا تتمشّىٰ له مع اتجاه! **﴿فبشّره بعذاب أليم﴾**.. والبشارة للخير فهي هنا للسخرية. فإذا كان لا يسمع النذير، فليأته الويل المنظور، في صوت البشير! زيادة في السخرية والتحقير!

﴿وإذا علم شيئاً من آياتنا اتَّخذها هزواً﴾.. بعد أن يعلمها ويعرف مصدرها. وهذه أشد وأنكىٰ. وهي صورة كذلك مكرورة في الجاهليات الأُولىٰ والأخيرة. وكم مُن الناس. وبين من يقال إنَّهم مسلمون. مَن يستهزىء بآيات الله التي يعلمها، ويتّخذها مادة للسخرية منها وممَّن يؤمنون بها؛ ومن يريدون أن يرجعوا أمر الناس والحياة إليها.

﴿أُولـئك لهم عذاب مهين﴾.. فالمهانة هي الجزاء المناسب لمن يستهزىء بآيات الله وهو يعلمها.

وهو عذاب حاضر قريب؛ وإن كان موعده آتياً بعد حين. ولكنه في حقيقته قائم موجود: **﴿من ورائهم جهنَّم﴾**. . ولفظ «من ورائهم» مقصودة ظلاله فوق معناه. وظلاله. . أنَّهم لا يرونه لأنَّه من ورائهم ولا يتَّقونههلأنَّهم في غفلة عنه، ولا يفوتهم فهم سيقعون فيه. .

وليس شيء ممَّا عملوا أو ملكوا بنافعهم شيئاً **﴿ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتَّخذوا من دون الله أولياء﴾**، فعملهم ـ ولو صلح ـ هباء لا يقدرون على شيء منه، وهو قائم على غير أساس من إيمان. وملكهم زائل لا يصاحبهم من شيء فيه غناء. وأولياؤهم من دون الله ـ آلهة أو أعواناً وجنداً أو خلاناً ـ لا يملكون لهم نصراً ولا شفاعة **﴿ولهم عذاب عظيم﴾**. . فوق أنَّه مهين. فجرمهم في الاستهزاء بآيات الله قبيح يقتضي المهانة، جسيم يقتضي جسامة التعذيب. .

لقد تقرر أمر هؤلاء الغافلين فاستحقوا جهنم على يقين، وانتهىٰ إلى أن يكونوا حطباً لجهنَّم، تتلظّىٰ بهم وتزداد اشتعالاً، كما تتلظّىٰ النار بالحطب **﴿وأمَّا القاسطون فكانوا لجهنَّم حطباً﴾** [الجن: ١٥].

هؤلاء الجائرون. المفسدون. الظالمون. الغافلون اتبعوا خطوات الشيطان. اتبعوا طريقه المشؤوم **﴿ومن يتَّبع خطوات الشيطان فإنَّه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾** [النور: ٢١]. . اتَّبعوا خطوات عدوهم وعدو أبيهم من قديم. . ها هو ذا يقودهم الشيطان إلى جهنَّم إلى هذا الشر المستطير. فهم يتقلَّبون في العذاب الكبير. العذاب الأليم. المهين. العظيم **﴿ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه فاتَّبعوه﴾** [سبأ: ٢٠]. . صدَّق عليهم ظنه في قدرته على غوايتهم فأغواهم، وقادهم إلى شر مصير.

فيا للشيطان! ويا لهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية والضلال والجحود والكفران فأطاعوه.

ويمضي القرآن الكريم يوقظ هؤلاء الغافلين السادرين **﴿إنَّ هٰذه**

تذكرة فمن شاء اتَّخذ إلى ربِّه سبيلاً﴾ [الدهر: ٢٩] وما يزال الإنسان في الطريق والفرصة متاحة، والله سبحانه كتب على نفسه الرحمة **﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾** [المائدة: ٧٤].

ها هو ذا باب التوبة مفتوحاً، فهو سبحانه يطمع الناس الشاردين في مغفرته ورحمته، قبل فوات الأوان **﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإنَّ الله يتوب عليه﴾** [المائدة: ٣٩]، **﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه، ثمَّ يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾** [النساء: ١١٠] إنَّ التوبة التي يقبلها الله، والتي تفضَّل فكتب على نفسه قبولها هي التي تصدر من النفس، فتدل على أنَّ هذه النفس قد أُنشئت نشأة أخرى، قد هزَّها الندم من الأعماق، ورجَّها رجاً شديداً حتى استفاقت وأنابت، وهي في فسحة من العمر، وبحبوحة من الأمل، واستجدت رغبة حقيقية في التطهر، ونية حقيقية في سلوك صراط الله المستقيم..

فمن شاء أن يتَّخذ إلى ربه مآباً قبل أن تكون جهنم مرصاداً ومآباً. والعذاب ليس بالبعيد، فجهنم تنتظره وتترصد على النحو الذي رأينا. والدنيا كلها رحلة قصيرة، وعمر قريب! **﴿إنَّا أنذرناكم عذاباً قريباً. يوم ينظر المرء ما قدَّمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنتُ تراباً﴾** [النَّبأ: ٤٠].

وهو عذاب من الهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود **﴿يَا ليتني كنت تراباً﴾**.. وما يقولها إلاَّ وهو ضائق مكروب!

الحياة بين مصير ومصير:

إنَّ حياة الإيمان هي اليسر والاستقامة على منهج الله. وقلب المؤمن يستشعر يد الله عليه، ويحسُّ آلاءه في كل نَفَس وكل نبضة، ومن ثمَّ يستصغر كل عباداته، ويستقل كل طاعاته، إلى جانب آلاء الله ونعمائه. كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته، ويرقب بكل مشاعره

يد الله في كل شيء من حوله، ومن ثمَّ يستشعر بالهيبة، ويشعر بالوجل، ويشفق أن يلقىٰ الله وهو مقصر في حقه، لم يوفه حقه عبادة وطاعة. ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكراً، وهؤلاء هم الذين يسارعون في الخيرات، وهم الذين يسبقون لها فينالونها في الطليعة، بهذه اليقظة وبهذا التطلّع، وبهذا العمل، وبهذه الطاعة. لا أولـٰئك الذين يعيشون في غمرة ويحسبون لغفلتهم أنَّهم مقصودون بالنعمة، مرادون بالخير، كالصيد الغافل يُستدرج إلى مصرعه بالطعم المغري. ومثل هذا الطير في النَّاس كثير، يغمرهم الرخاء، وتشغلهم النعمة، ويطغيهم الغنىٰ، ويلهيهم الغرور، حتى يلاقوا المصير!

تلك اليقظة التي يفرضها الإسلام على قلب المسلم. والتي يستجيشها الإيمان بمجرد استقراره في القلوب، ليست أمراً فوق الطاقة، وليست تكليفاً فوق الاستطاعة. إنَّما هي الحساسية الناشئة من الشعور بالله والاتصال به. ومراقبته في السر والعلن؛ وهي في حدود الطاقة الإنسانية، حين يشرق فيها ذلك النور الوضيء ﴿**ولا نكلِّف نفساً إلَّا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يُظلمون**﴾ [المؤمنون: ٦٢]. .

لقد شرَّع الله التكاليف وفق ما يعلم من استعداد النفوس، وهو محاسبهم وفق ما يعملونه في حدود الطاقة، لا يُظلمون بتحميلهم ما لا يطيقون، ولا يبخسهم شيئاً ممَّا يعملون، وكل ما يعملونه محسوب في سجل ﴿**ينطق بالحق**﴾ ويبرزه ظاهراً غير منقوص والله خير الحاسبين.

والمؤمن يستشعر رقابة الله عليه فلا يشهد إلَّا الله، ولا يحس إلَّا إيَّاه، ولا يتذوق إلَّا معناه، ويتطهَّر وجدانه من كل دنس. . وتجد روحه طريقها إلى بارئها، ويعرف القلب مثواه. وعندئذٍ تتضاءل القيم والأشياء والأشخاص إلَّا ما يتصل منها بالله ﴿**وأمَّا من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوىٰ. فإنَّ الجنَّة هي المأوىٰ**﴾ [النَّازعات: ٤٠ ـ ٤١].

والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري قاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار. فَظَلَّ في دائرة الطاعة.

ونهي النفس عن الهوىٰ هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة. فالهوىٰ هو الدافع القوي لكل طغيحن، وكل تجاوز، وكل معصية. وهو أساس البلوىٰ، وينبوع الشر، وقلَّ أن يؤتىٰ الإنسان إلاَّ من قبل الهوىٰ. فالجهل سهل علاجه. ولكن الهوىٰ بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها.

ويحذر القرآن الكريم من الهوىٰ المتقلب. الهوىٰ الذي يجعل منه بعضهم إلـٰهاً يتعبَّده. فيضل ضلالاً لا اهتداء بعده، والعياذ بالله: ﴿**أفرأيت من اتَّخذ إلـٰهه هواه**﴾ [الجاثية: ٢٣].

والتعبير القرآني المبدع يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت، وتتبع الهوىٰ المتقلب؛ وحين تتعبد هواها وتخضع له، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها. وتقيمه الـٰهاً قاهراً لها، مستولياً عليها، تتلقىٰ إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول. يرسم هذه الصورة ويعجِّب منها في استنكار شديد: أفرأيته؟ إنَّه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجيب! وهو يستحق الضلال، فلا يتداركه الله برحمته سبحانه. فما أبقىٰ في قلبه مكاناً للهدىٰ وهو يتعبَّد هواه المريض!

لقد انطمست فيه المنافذ التي يدخل منها النور؛ والمدارك التي يتسرب منها الهدىٰ. وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعته للهوىٰ طاعة العبادة والتسليم.

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوىٰ الفيضة. وقلَّ أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوىٰ. ومن ثمَّ يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة. فالذي يتحدث هنا هو خالق هذه النفس العليم

بدائها، الخبير بدوائها وهو وحده الذي يعلم دروبها ومنحنياتها، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها، وكيف تطارد في مكامنها ومخابئها!

ولم يكلِّف الله الإنسان ألاَّ يشتجر في نفسه الهوىٰ. فهو ـ سبحانه ـ يعلم أنَّ هذا خارج عن طاقته. ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها. وأن يستعين في هذا بالخوف. الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب. وكتب له بهذا الجهاد الشاق، الجنَّة مثوىٰ ومأوىٰ: ﴿**فإنَّ الجنَّة هي المأوىٰ**﴾. . ذلك أنَّ الله يعلم ضخامة هذا الجهاد؛ وقيمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنىٰ. ﴿**ولمن خاف مقام ربِّه جنَّتان**﴾ [الرَّحمـٰن: ٤٦].

ويذكر القرآن هذا المقام والتكريم لفريق ذي مرتبة عالية. . ذلك كله جزاء من خاف مقام ربه، وعَبَده كأنَّه يراه، شاعراً أنَّ ربه يراه؛ فبلغ بذلك مرتبة الإحسان كما وصفها رسول الله ﷺ فنالوا جزاء الإحسان من عطاء الرَّحمـٰن ﴿**هل جزاء الإحسان إلاَّ الإحسان**﴾ [الرَّحمـٰن: ٤٧]. .

وفي ظل هذا الأُنس الإلـٰهي، وفي طمأنينة هذا القرب الذي يهدهد القلب الواجف بلمسات الرحمة الندية. . يأتي الإعلان القرآني: ﴿**ألا إنَّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الَّذين آمنوا وكانوا يتَّقون. لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا وفي الآخرة. لا تبديل لكلمات الله. ذلك هو الفوز العظيم**﴾ [يونس: ٦٢].

وكيف يخاف أولياء الله أو يحزنون والله معهم هكذا في كل شيء وفي كل عمل وفي كل حركة أو سكون؟ وهم أولياء الله، المؤمنون به الأتقياء المراقبون له في السر والعلن: ﴿**الَّذين آمنوا وكانوا يتَّقون**﴾.

كيف يخافون وكيف يحزنون. وهم على اتصال بالله لأنَّهم أولياءه؟ وعلام يحزنون ومِمَّ يخافون، والبشرىٰ لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة؟ إنَّه

الوعد الحق الذي لا يتبدل - لا تبديل لكلمات الله - **﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾**.

إنَّ أولياء الله الذين يتحدث عنهم السياق هم المؤمنونهحق الإيمان المتَّقون حقَ التَّقوىٰ. والإيمان ما وقر في القلب وصدَّقه العمل. والعمل هو تنفيذ ما أمر الله به واجتناب ما نهىٰ الله عنه.. هكذا يجب أن نفهم معنىٰ الولاية لله..

لقد كان المسلمون يعيشون مع القرآن فعلاً وواقعاً. عاشوا مع الله يخافون مقامه. عاشوا مع الآخرة واقعاً محسوساً.. خافوا من عذاب جهنَّم وكانوا يشعرون بالقرآن ينقل إليهم صوت النار وهي تسري وتحرق. وإنَّه لصوت يتفزع له الجلد ويقشعر. لقد كانوا يحسون الآخرة ويعيشون فيها فعلاً بمشاعرهم كأنَّهم فيها، لا كأنَّها آتية لا ريب فيها فحسب! ومن ثمَّ كانت رجفتهم المزلزلة لهذا الوعيد الأكيد. وخوفهم من هول هذا اليوم المزلزل الرعيب.

ها هم أُولاء **﴿يدعون ربَّهم خوفاً وطمعاً﴾**.. إنَّهم يتوجهون إلى الله في خشية وفي طمع يتنازعها الخوف والرجاء. الخوف من عذاب الله والرجاء في رحمته. والخوف من غضبه والطمع في رضاه. والخوف من معصيته والطمع في توفيقه.. **﴿وأمَّا من خاف مقام ربِّه ونهىٰ النَّفس عن الهوىٰ. فإنَّ الجنَّة هي المأوىٰ﴾**.

إنَّ الإنسان إنسان بهذا النهي، وبهذا الجهاد، وبهذا الارتفاع. وليس إنساناً بترك نفسه لهواها، وإطاعة جواذبه إلى دركها، بحجة أنَّ هذا مركب في طبيعته. فالذي أ.دع نفسه الاستعداد لجيشان الهوىٰ، هو الذي أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه، ونهي النفس عنه، ورفعها عن جاذبيته؛ وجعل لها الجنَّة جزاء ومأوىٰ حين ينتصر ويرتفع ويرقىٰ. وهناك حرية إنسانية تليق بتكريم الله للإنسان. تلك هي حرية الانتصار على هوىٰ النفس والانطلاق

من أسر الشهوة، والتصرف بها في توازن تثبت معه حرية الاختيار والتقدير الإنساني. وهناك حرية حيوانية، هي هزيمة الإنسان أمام هواه، وعبوديته لشهوته، وانفلات الزمام من إرادته. وهي حرية لا يهتف بها إلاَّ مخلوق مهزوم الإنسانية مستعبد يلبس عبوديته رداءً زائفاً من الحرية!

إنَّ الأوَّل هو الذي ارتفع وارتقىٰ وتهيَّأ للحياة الرفيعة الطليقة في جنَّة المأوىٰ. أمَّا الآخر فهو الذي ارتكس وانتكس وتهيَّأ للحياة في درك الجحيم حيث تهدر إنسانية، ويرتد شيئاً توقد به النَّار التي وقودها الناس ـ من هذا الصنف ـ والحجارة! وهذه وتلك هي المصير الطبيعي للإرتكاس والارتقاء في ميزان هذا الدين الذي يزن حقيقة الأشياء.. ﴿**لا يستوي أصحاب النَّار وأصحاب الجنَّة. أصحاب الجنَّة هم الفائزون**﴾ [الحشر: ٢٠].

أصحاب الجنَّة هم عباد الله الأبرار الأتقياء، الشاعرين بثقل الواجب وضخامة التكاليف، الخائفين من التقصير والقصور، مهما قدموا من القرب والطاعات فهم ﴿**يخافون يوماً كان شره مستطيراً**﴾ [الإنسان: ٧].. فهم يدركون صفة هذا اليوم الذي يتفشّىٰ شرّه ويصيب الكثيرين من المقصرين والمسيئين. فيخافون أن ينالهم من شره..

أصحاب الجنَّة هم أصحاب القلوب الرحيمة الرقيقة الرفيقة، أصحاب القلوب التي تـتَّجه في أعمالها ونيَّاتها وأنفاسها إلى الله تطلب رضاه. تـتَّقي بإخلاصها يوماً عبوساً شديد العبوس، تـتوقعه وتخشاه ﴿**إنَّا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً**﴾.. وجزاء ذلك الشعور الكريم والعبودية لرب العالمين ﴿**فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً**﴾.. ها هم أولاء قد تلقوا من الله نضرة وسروراً، لا يوماً عبوساً قمطريراً. جزاءً وفاقاً على خشيتهم وخوفهم، وعلى نداوة قلوبهم ونضرة نفوسهم. ها هم أولاء نلمحهم في الجنَّة في جلسة مريحة مطمئنة والج حولهم رخاء ناعم دافىء في غير حرّ، نديّ في غير برد ﴿**متَّكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا**

زمهريراً﴾.. فلا شمس تلهب النسائم، ولا زمهرير وهو البرد القارس! ولنا أن نقول: إنَّه عالم آخر ليست فيه شمسنا هذه ولا شموس أخرىٰ من نظائرها.. وكفىٰ!

﴿ودانيةً عليهم ظلالها. وذُلِّلت قطوفها تذليلاً﴾.. وإذا دنت الظلال ودنت القطوف فهي الراحة والاسترواح على أمتع ما يمتد إليه الخيال.. فهم في متاعهم. متَّكئين على الأرائك بين الظلال الوارفة والقطوف الدانية والجو الرائق.. يطاف عليهم بأشربة في آنية من فضة، وفي أكواب من فضة كذلك، وهي بأحجام وأشكال مقدرة تقديراً يحقق المتاع والجمال ﴿ويُطاف عليهم بآنية من فضة، وأكواب كانت قواريـر، قواريـر من فضة قـدَّروها تقديراً﴾...

هذه هي هيئة من متاع أصحاب الجنَّة، ثمَّ يرسم القرآن خطوطاً لمنظر بديع لهؤلاء الكرام عباد الرَّحمٰن، ويلقي عليه نظرة كاملة تلخص وقعه في القلب والنظر: ﴿وإذا رأيت ـ ثمَّ رأيتَ نعيماً وملكاً كبيراً﴾..

نعيماً وملكاً كبيراً. هو الـذي يعيش فيه الأبـرار المقربـون عباد الله هؤلاء، على وجه الإجمال والعموم!

ثمَّ يخصص مظهراً من مظاهر النعيم والملك الكبير؛ كأنَّه تقليل لهذا الوصف وتفسير: ﴿عـاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق. وحُلُّوا أساور من فضة وسقاهمربهم شراباً طهوراً﴾..

والسندس الحرير الرقيق، والإستبرق الحرير السميك المبطن.. وهم في هذه الزينة وهذا المتاع، يتلقونه كله من (ربهم) فهو عطاء كريم من معط كريم. وهذه تضاف إلى قيمة ذلك النعيم!

﴿لا يستوي أصحاب النَّـار وأصحاب الجنَّـة. أصحاب الجنَّـة هم الفائزون﴾.. إنَّها الرحمة أن يجد الشر جزاءه وألاَّ يتساوىٰ مع الخير في مصيره.. فإذا كـانت جهنَّم مرصـداً ومآبـاً للطاغين، لا يفلتون منهـا ولا

يتجاوزونها، فإنَّ المتَّقين ينتهون إلى مفازة ومنجاة **﴿إنَّ للمتَّقين مفازاً. حدائق وأعناباً. وكواعب أتراباً. وكأساً دهاقاً. لا يسمعون فيها لغواً ولا كِذَّاباً. . جزاء من ربك عطاءً حساباً﴾**. .

مشهد التُّقاة في النعيم، فقد انتهوا إلى مفازة، تتمثل **﴿حدائق وأعناباً﴾** ويخص الأعناب بالذكر والتعيين لأنَّها ممَّا يعرفه المخاطبون. . **﴿ وكوحعب ﴾** وهنَّ الفتيات الناهدات اللواتي استدارت ثديهنَّ **﴿ أتراباً ﴾** متوافيات السن والجمال. **﴿وكأساً دهاقاً﴾** مترعة بالشراب. وهي مناعم ظاهرها حسي، لتقريبها للتضور البشري. أمَّا حقيقة مذاقها والمتاع بها فلا يدركها أهل الأرض وهم مقيدون بمدارك الأرض وتصوراتها. . وإلى جوارها حالة يتذوقها الضمير ويدركها الشعور: **﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا كِذَّاباً﴾**. . فهي حياة مصونة من اللغو ومن التكذيب الذي يصاحبه الجدل؛ فالحقيقة مكشوفة لا مجال فيها لجدل ولا تكذيب؛ كما أنَّه لا مجال للغو الذي لا خير فيه. . وهي حالة من الرفعة والمتعة تليق بدار الخلود.

وتمضي الآيات القرآنية تصور النعيم الذي يتقلب في أعطافه أصحاب الجنة. هؤلاء العباد المخلصين **﴿أُولئك لهم رزق معلوم. فواكه وهم مكرمون. في جنَّات النعيم. على سرر متقابلين. يُطاف عليهم بكأس من معين. بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون. وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنَّهنَّ بيض مكنون﴾** [الصافات: ٤١ - ٤٩].

وهو نعيم مضاعف يجمع كل مظاهر النعيم. نعيم تستمتع به النفس ويستمتع به الحس. وتجد فيه كل نفس ما تشتهيه من ألوان النعيم.

فهم **﴿ مكرمون ﴾** في الملأ الأعلىٰ، ويا له من تكريم! ثمَّ إنَّ لهم **﴿ فواكه ﴾** وهم على **﴿سرر متقابلين﴾**. وهم يُخدمون فلا يتكلفون شيئاً من الجهد في دار الراحة والرضوان والنعيم: **﴿يُطاف عليهم بكأس من معين. بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون﴾**. . وتلك أجمل

أوصاف الشراب، التي تحقق لذة الشراب، وتنفي عقابيله. فلا خمار يصدع الرؤوس، ولا منع ولا انقطاع يذهب بلذة المتاع! ﴿وعندهم قاصرات الطرف عين﴾ حور حيِيَّات لا تمتد أبصارهنَّ إلى غير أصحابهنَّ حياءً وعفَّة، مع أنَّهنَّ ﴿عين﴾ واسعات جميلات العيون! وهنَّ كذلك مصونات مع رقة ولطف ونعومة: ﴿كأنَّهنَّ بيض مكنون﴾.. لا تبتذله الأيدي ولا العيون! وهذا ﴿جزاءً من ربك عطاءً حساباً﴾ [النَّبأ: ٣٦].

ثمَّ يتلقون الود والتكريم وهم في ذلك النعيم المقيم ﴿إنَّ هـذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً﴾ [الإنسان: ٢٢].

يتلقون هذا النطق من الملأ الأعلىٰ. وهو يعدل المناعم كلها، ويمنحها قيمة أُخرىٰ فوق قيمتها.

ويشترك الملائكة في التأهيل والتكريم في هـذا التجمع الكريم. الملائكة في حركة رائحة غادية: ﴿يدخلون عليهم من كل باب﴾..

ويدعنا السياق القرآني نرىٰ المشهد حاضراً وكأنَّما نشهده ونسمع الملائكة أطوافاً أطوافاً: ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقبىٰ الدار﴾..

فهو تجمع مهيب رائع حافل باللقاء والسلام والحركة الدائبة والإكرام.

﴿سلام عليكم بما صبرتم﴾ والصبر ألوان. وللصبر مقتضيات. صبر على تكاليف الميثاق. من عمل وجهاد ودعوة واجتهاد.. وإلخ. وصبر على النعماء والبأساء. وقلَّ من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر. وصبر على حماقات الناس وجهالاتهم وهي تضيق الصدور.. وصبر وصبر وصبر.. كله ابتغاء وجه ربهم ﴿والَّذين صبروا ابتغاء وجه ربِّهم﴾، لا تحرجاً من أن يقول الناس: جذعوا. ولا تجملاً ليقول الناس: صبروا. ولا رجاء في نفع من وراء الصبر. ولا دفعاً لضر يأتي به الجزع. ولا لهدف واحد غير ابتغاء وجه الله، والصبر على نعمته وبلواه. صبر التسليم لقضائه والاستسلام لمشيئته والرضىٰ والاقتناع.. فادَّخروا هذا عند الله ﴿وجزاهم بما صبروا

جنَّةً وحريراً﴾، وقد رحمهم فنجَّاهم من جهنَّم واستثناهم من تذوق العذاب الأليم الذي أعدَّه للظَّالمين الذين اتبعوا الشَّيطان: **﴿إنَّكم لذائقو العذاب الأليم. وما تجزون إلاَّ ما كنتم تعملون. إلاَّ عباد الله المخلصين﴾**.

هؤلاء: عباد الله المخلصين هم الذين صبروا على إغواء الشيطان وفرُّوا من كيده إلى عون الرَّحمـٰن. إنَّهم خَلْق الجنَّة خلقهم الله لها فلا سبيل للشيطان عليهم كما ذكرت الآية الكريمة في مطلع القصة على لسان إبليس: **﴿قال ربِّ بما أغويتني لأُزيِّنَّ لهم في الأرض. ولأُغوينَّهم أجمعين. إلاَّ عبادك منهم المخلصين﴾**.

ثمَّ يمضي القرآن في الحكاية المصورة؛ فإذا عباد الله المخلصون هؤلاء ـ بعدما يسّرت لهم كل ألوان المتاع ـ ينعمون بسمر هادىء، يتذاكرون فيه الماضي والحاضر ـ وذلك في مقابل التخاصم والتلاحي الذي يقع بين المجرمين في جهنَّم ـ وإذا أحدهم يستعيد ماضيه، ويقص على إخوانه طرفاً ممَّا وقع له.

﴿قال قائل منهم: إنِّي كان لي قرين. يقول: أإنَّك لمن المصدِّقين. أإذا متنا وكنَّا تراباً وعظاماً أإنَّا لمدينون؟﴾..

لقد كان صاحبه وقرينه ذاك يكذب باليوم الآخر، ويسائله في دهشة: أهو من المصدِّقين بأنَّهم مبعوثون فمحاسبون بعد إذ هم تراب وعظام؟!

وبينما هو ماضٍ في قصته يعرضه في سمره مع إخوانه، يخطر له أن يتفقد صاحبه قرينه ذاك ليعرف مصيره. وهو يعرف بطبيعة الحال أنَّه قد صار إلى الجحيم. فيتطلع ويدعو إخوانه إلى التطلع معه:

قال: **﴿هل أنتم مطلعون؟ فاطَّلع فرآه في سواء الجحيم﴾**.

عندئذٍ يتوجه إلى قرينه الذي وجده في وسط الجحيم. يتوجه إليه ليقول له: يـٰا هذا. لقد كدت توردني موارد الردىٰ بوسوستك. لولا أنَّ الله قد أنعم علي، فعصمني من الاستماع إليك: **﴿قال: تالله إن كدت لتردين.**

ولولا نعمة ربِّي لكنت من المحضرين﴾. . أي لكنت من المساقين إلى الموقف وهم كارهون.

وتثير رؤيته لقرينه في سواء الجحيم شعوره بجزالة النعمة التي نالها هو وإخوانه من عباد الله المخلصين. فيحب أن يؤكدها ويستعرضها، ويطمئن إلى دوامها، تلذذاً بها وزيادة في المتاع بها فيقول: **﴿أفما نحن بميتين إلاَّ موتتنا الأولىٰ؟ وما نحن بمعذَّبين؟ إنَّ هذا لهو الفوز العظيم﴾**.

وهنا يرد تعليق يوقظ القلوب ويوجهها إلى العمل والتسابق لمثل هذا المصير: **﴿لمثل هـٰذا﴾** النعيم الذي لا يدركه فوت، ولا يخشىٰ عليه من نفاد، ولا يعقبه موت، ولا يتهدده العذاب. **﴿لمثل هـٰذا فليعمل العاملون﴾** [الصَّافات: ٦١]. . فهذا هو الذي يستحق الاحتفال. وما عداه ينفق فيه الناس أعمارهم على الأرض زهيد زهيد حين يقاس إلى هذا الخلود. ولكي يتَّضح الفارق الهائل بين هذا النعيم الخالد الآمن الدائم الراضي؛ والمصير الآخر الذي سيق إليه الفريق الآخر أصحاب النار فإنَّ القرآن يستطرد ببيان ذلك **﴿أذلك خير نزلاً. أم شجرة الزقُّوم! إنَّا جعلناها فتنةً للظَّالمين. إنَّها شجرة تخرج في أصل الجحيم. طلعها كأنَّه رؤوس الشَّياطين. فإنَّهم لآكلون منها فمالئون منها البطون. ثمَّ إنَّ لهم عليها لشوباً من حميم. ثمَّ إنَّ مرجعهم لإلىٰ الجحيم﴾** [الصَّافات: ٦٢ ـ ٦٨].

أذلك النعيم المقيم خيرٌ منزلاً ومقاماً أم شجرة الزقُّوم؟

وما شجرة الزقُّوم؟. . **﴿إنَّها شجرة تخرج في أصل الجحيم، طلعها كأنَّه رؤوس الشَّياطين﴾**. .

والناس لا يعرفون رؤوس الشياطين كيف تكون! ولكنها مفزعة ولا شك. ومجرد تصورها يثير الفزع والرعب. فكيف إذا كانت طلعاً يأكلونه ويملأون منه البطون؟!

لقد جعل الله هذه الشجرة فتنة للظَّالمين فحين سمعوا باسمها سخروا

وقالوا: كيف تنبت شجرة في الجحيم ولا تحترق. . ولكن شجرة الزقُّوم هذه شيء آخر غير الذي كانوا يعرفون!

﴿فإنَّهم لآكلون منها فمالئون منها البطون﴾. . فإذا شاكت حلوقهم وهي كرؤوس الشياطين ـ وحرقت بطونهم ـ وهي تنبت في أصل الجحيم ولا تحترق لأنَّها من نوع الجحيم! ـ وتطلّعوا إلى برد الشراب ينقع الغلة ويطفىء اللهيب. فإنَّهم لشاربون عليها ماءً ساخناً مشوباً غير خالص: **﴿ثمَّ إنَّ لهم عليها لشوباً من حميم﴾**. .

وبعد هذه الوجبة المفزعة المحرقة المؤلمة يغادرون المائدة عائدين إلى مقرهم المقيم. . ويا له من نزل! ويا له من معاد! **﴿ثمَّ إنَّ مرجعهم لإلىٰ الجحيم﴾**. . إلى حلقات عذاب جديدة رهيبة **﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾** [النحل: ٨٨]. .

•

صور. . وصور:

إنَّ عذاب جهنَّم شديد مروّع حقاً والله لا يظلم أحداً. . إنَّهم أصحاب النار الذين ينتهون إلى ذلك السعير المهين. فقد استولىٰ عليهم الشيطان كلية فأنساهم طاعة ربهم فانتهىٰ بهم إلى هذا الخسران المبين. .

أمَّا أصحاب الجنَّة فهم الذين وصلوا قلوبهم بالله في السر والخفية **﴿ومن يطع الله ورسوله ويخشَ الله ويتقه فأولـئك هم الفائزون﴾** [النور: ٥٢]، الناجون. وَعْد الله ولن يخلف الله وعده. وهم للفوز أهل، ولديهم أسبابه من واقع حياتهم. فالطاعة لله ورسوله تقتضي السير على النهج القويم الـذي رسمه الله للبشرية عن علم وحكمة، وهو بطبيعته يؤدِّي إلى الفوز في الدنيا والآخرة. وخشية الله وتقواه هي الحارس الذي يكفل الاستقامة على النهج، وإغفال المغريات التي تهتف بهم على جانبيه، فلا ينحرفون ولا يلتفتون. إنَّهم في خشية الله وتقواه، وهذا هو طريق الفائزين: إشراق القلب بنور الله،

واتصاله به، وشعوره بهيبته. ﴿**لا يستوي أصحاب النَّار وأصحاب الجنَّة. أصحاب الجنَّة هُمُ الفائزون**﴾..

وطريق أصحاب الجنَّة غير طريق أصحاب النار.. لا يستويان طبيعة وحالاً. ولا طريقاً ولا سلوكاً. ولا وجهة ولا مصيراً. فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبداً في طريق. ولا يلتقيان أبداً في سمة. ولا يلتقيان أبداً في خطة. ولا يلتقيان أبداً في سياسة. ولا يلتقيان أبداً في صف واحد في دنيا ولا آخرة..

﴿**أصحاب الجنَّة هم الفائزون**﴾.. يثبت مصيرهم، فهم الفائـزون بولايته ورضاه وجنَّته ﴿**وسيق الَّذين اتَّقوا ربهم إلى الجنَّة زمراً. حتَّىٰ إذا جاءوها وفتحت أبوابها. وقال لهم خزنتها. سلام عليكم. طبتم. فادخلوها خالدين**﴾ [حلزُّمر: ٧٣].

فهو الاستقبال الطيب. والثناء المستحب. وبيان السبب. ﴿**طبتم**﴾ وتـطهرتم. كنتم طيبين. وجئتم طيبين. فمـا يكون فيهـا إلَّا الطيب. ومـا يدخلها إلَّا الطيِّبون. وهو الخلود في ذلك النعيم. ﴿**والَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات ـ لا نكلِّف نفساً إلَّا وسعها ـ أولـئـك أصحاب الجنَّـة هم فيها خالدون. ونزعنا مـا في صدورهم من غـلٍّ، تجري من تحتهم الأنهـار، وقالوا: الحمد لله الذي هدانا لهـٰذا ـ وما كنَّا لنهتديَ لولا أن هدانا الله ـ لقد جـاءت رُسل ربنـا بالحق. ونـودوا أن تلكُمُ الجنَّة أورثتمـوهـا بمـا كنتم تعملون**﴾ [الأعراف: ٤٢ ـ ٤٣].

هؤلاء الفائزون هم الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات قدر استطاعتهم، لا يُكَلَّفُـون إلَّا طاقتهم.. هؤلاء هم يعـودون إلى جنَّتهم! إنَّهم أصحـابهـا ـ بإذن الله وفضله ـ ورَّثها لهم ـ برحمته ـ بعملهم الصالح مع الإيمان.. جزاء ما اتَّبعوا رسل الله وعصوا الشيـطان.. وجزاء مـا أطاعـوا أمر الله العـظيم الـرحيم، وعصوا وسـوسة العـدو اللئيم القديم! ولـولا رحمة الله مـا كفىٰ

عملهم ـ في حدود طاقتهم ـ وقد قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل أحداً منكم الجنّة عمله». قالوا: ولا أنتَ يَا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلاَّ أن يتغمَّدني الله برحمة منه وفضل»[1].

وليس هناك تناقض ولا اختلاف بين الله سبحانه في هذا الشأن، وقول رسول الله ﷺ ـ وهو لا ينطق عن الهوىٰ.. وكل ما ثار من الجدل حول هذه القضية بين الفرق الإسلامية لم يقم على الفهم الصحيح لهذا الدين، إنَّما ثار عن الهوىٰ! فلقد علم الله من بني آدم ضعفهم وعجزهم وقصورهم عن أن تفي أعمالهم بحق الجنَّة. ولا بحق نعمة واحدة عليهم في الدنيا. فكتب على نفسه الرحمة؛ وقَبِلَ منهم جهد المقل القاصر الضعيف؛ وكتب لهم به الجنَّة، فضلاً منه ورحمة، فاستحقوها بعملهم ولكن بهذه الرحمة..

وبعد، فإذا أُولئك المفترون المكذِّبون المجرمون الظالمون الغافلون المفسدون الكافرون المشركون يتلاعنون في النَّار ويتخاصمون ـ كما تقدم في الفصل السابق ـ، وتغلي صدورهم بالسخائم والأحقاد، بعد أن كانوا أصفياء، أولياء.. فإنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنَّة إخوان متحابّون متصافون متوادون، يرف عليهم السلام والولاء: **﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾**..

فهم بشر وهم عاشوا بشراً. وقد يثور بينهم في الحياة الدنيا غيظ يكظمونه، وغل يغالبونه ويغلبونه. ولكن تبقىٰ في القلب منه آثار. قال القرطبي في تفسيره المسمّىٰ أحكام القرآن: (قال رسول الله ﷺ: «الغل على أبواب الجنَّة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين».. وروي عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزُّبير من الذين قال الله تعالىٰ فيهم: **﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾**..).

---

(١) أخرجه مسلم.

وإذا كان أهل النار يصطلون النار من تحتهم ومن فوقهم ـ كما تقدم ـ فأهل الجنَّة تجري من تحتهم الأنهار، فترف على الجو كله أنسام: ﴿**تجري من تحتهم الأنهار**﴾ . .

وإذا كان أهل النار في ضيق وحنق وظل من يحموم يشوي ويحرق . . فأهل الجنَّة مشغولون بما هم فيه من النعيم، ملتذّون متفكّهون. وإنّهم لفي ظلال مستطابة يستروحون نسيمها ﴿**إنَّ أصحاب الجنَّة اليوم في شغل فاكهون. هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متّكئون. لهم فيها فاكهةٌ ولهم ما يدَّعون. سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم**﴾ [يس: ٥٥ ـ ٥٨].

إنَّه النعيم المقيم، فهم على أرائك متّكئين في راحة ونعيم هم وأزواجهم. لهم فيها فاكهة ولهم كل ما يشاؤون؛ وهم ملاك محقق لهم فيها كل ما يدّعون.

وإذا كان أهل النار قد اسودَّت وجوههم. تعلوها غبرة الحزن، ويغشاها سواد الذل والانقباض والحريق في النار. . فأهل الجنَّة قد ابيضّت وجوههم. وهي وجوه مستنيرة منيرة ضاحكة مستبشرة ﴿**وجوه يومئذٍ ناعمة. لسعيها راضية: في جنّةٍ عالية. لا تسمع فيها لاغية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابيُّ مبثوثة**﴾ [الغاشية: ٨ ـ ١٦]. . هنا وجوه يبدو فيها النعيم. ويفيض منها الرضىٰ. وجوه تنعم بما تجد. وتحمد ما عملت. فوجدت عقباه خيراً، وتستمتع بهذا الشعور الروحي الرفيع. شعور الرضىٰ عن عملها حين ترىٰ رضىٰ الله عنها. وليس أروح للقلب من أن يطمئن إلى الخير ويرضىٰ عاقبته، ثمَّ يراها ممثلة في رضىٰ الله الكريم. وفي النعيم. ومن ثمَّ يقدم القرآن هذا اللون من السعادة على ما في الجنَّة من رخاء ومتاع، ثمَّ يصف الجنَّة المتاحة لهؤلاء السعداء:

﴿**في جنّةٍ عالية**﴾. . عالية في ذاتها رفيعة مجيدة. ثمَّ هي عالية

الدرجات. وعالية المقامات. وللعلو في الحس إيقاع خاص.

﴿لا تسمع فيها لاغية﴾.. ويطلق هذا التعبير جواً من السكون والهدوء والسلام والاطمئنان والود والرضىٰ والسمر بين الأحباء والأودّاء، والتنزُّه والارتفاع عن كل كلمة لاغية، لا خير فيها ولا عافية.. وهذه وحدها نعيم. وهذه وحدها سعادة. سعادة تتبين حين يستحضر الحسّ هذه الحياة الدنيا، وما فيها من لغو وجدل وصراع وزحام ولجاج وخصام وقرقعة وفرقعة. وضجة وصخب، وهرج ومرج. ثمَّ يستسلم بعد ذلك لتصور الهدوء الآمن والسلام الساكن والود الرضي والظل الندي في العبارة الموحية: **﴿لا تسمع فيها لاغية﴾** وألفاظها ذاتها تنسم الروح والندىٰ وتنزلق في نعومة ويسر، وفي إيقاع موسيقي ندي رضي! وتوحي هذه اللمسة بأنَّ حياة المؤمنين في الأرض وهم ينأون عن الجدل واللغو، هي طرف من حياة الجنَّة، يتهيَّأون بها لذلك النعيم الكريم.. **﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون... أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾** [المؤمنون: ١ ـ ١١].

والمؤمن الذي سيرث الفردوس وقد وصف القرآن ذلك النعيم الذي أعدَّه الله له: مُعرض عن لغو القول، ولغو الفعل، ولغو الاهتمام والشعور. إنَّ للقلب المؤمن ما يشغله عن اللغو واللهو والهذر. له ما يشغله من ذكر الله، وتصور جلاله وتدبر آياته في الأنفس والآفاق. وكل مشهد من مشاهد الكون يستغرق اللب، ويشغل الفكر، ويحرك الوجدان.. وله ما يشغله من تكاليف العقيدة: تكاليفها في تطهير القلب، وتزكية النفس وتنقية الضمير. وتكاليفها في السلوك، ومحاولة الثبات على المرتقىٰ العالي الذي يتطلَّبه الإيمان. وتكاليفها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصيانة حياة الجماعة من الفساد والانحراف. وتكاليفها في الجهاد لحمايتها ونصرتها وعزّتها، والسهر عليها من كيد الأعداء.. وهي تكاليف لا تنتهي، ولا يغفل عنها المؤمن، ولا يعفي نفسه منها، وهي مفروضة عليه فرض عين أو فرض

كفاية. وفيها الكفاية لاستغراق الجهد البشري والعمر البشري. والطاقة البشرية محدودة. وهي إمَّا أن تنفق في هذا الذي يصلح للحياة وينميها ويرقيها؛ وإمَّا أن تنفق في الهذر واللغو واللهو. والمؤمن محكوم بحكمهعقيدته إلى إنفاقها في البناء والتعمير والإصلاح.

ولا ينفي هذا أن يروح المؤمن عن نفسه في الحين بعد الحين. ولكن هذا شيء آخر غير الهذر واللغو والفراغ..

وهكذا يقدم الله من صفة الجنَّة صفة المؤمن في الأرض.. يقدم الله هذا المعنىٰ الرفيع الكريم الوضيء ﴿**لا تسمع فيها لاغية**﴾.. ثمَّ تجيء المناعم التي تشبع الحس والحواس تجيء في الصورة التي يملك البشر تصورها. وهي في الجنَّة مكيفة وفق ما ترتقي إليه نفوس أهل الجنَّة. ممَّا لا يعرفه إلاَّ من يذوقه!

﴿**فيها عين جارية**﴾.. والعين الجارية: الينبوع المتدفق. وهو يجمع إلى الري الجمال. جمال الحركة والتدفق والجريان. والماء الجاري يجاوب الحس بالحيوية وبالروح التي تنتفض وتنبض! وهي متعة للنظر والنفس من هذا الجانب الخفي، الذي يتسرب إلى أعماق الحس. ﴿**فيها سُرر مرفوعة**﴾.. والارتفاع يوحي بالنظافة كما يوحي بالطهارة.. ﴿**وأكواب موضوعة**﴾ مصفوفة مهيَّأة للشراب لا تحتاج إلى طلب ولا إعداد!

﴿**ونمارق مصفوفة**﴾.. والنمارق الوسائد والحشايا للإتكاء في ارتياح!

﴿**وزرابيُّ مبثوثة**﴾.. والزرابي البسط ذات الخمل «السجاجيد» مبثوثة هنا وهناك للزينة وللراحة سواء!

وبعد، فإذا كان أهل النار يشتغلون بالتنابز والخصام، فهؤلاء أهل النعيم يشتغلون بالحمد والاعتراف ﴿**وقالوا: الحمد لله الذي هدانا لهـٰذا وما**

كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ [الأعراف: ٤٣].

وإذا كان أولـئك ينادون بالتحقير والتأنيب: **﴿ادخلوا في أممٍ قد خلت من قبلكم من الجنّ والإنس في النـار﴾**.. فإنّ هؤلاء ينـادون بـالتـأهيـل والتكريم: **﴿ونودوا أن تلكُمُ الجنّة أُورثتموها بما كنتم تعملون﴾**..

وإذا كان أهل النار قد حُرموا الحُسنىٰ وحُجبوا عن ربهم: **﴿كلّا! إنَّهم عن ربِّهم يـومئـذٍ لمحجـوبـون﴾** [المـطفّفين: ١٥].. حجبت قلوبهم المعاصي والآثام، حجبتها عن الإحساس بربها في الدنيا. وطمستها حتى أظلمت وعميت في الحياة.. فالنهاية الطبيعية والجزاء الوفاق في الآخرة أن يُحـرموا النـظر إلى وجه الله الكـريم، وأن يحال بينهم وبين هـذه السعادة الكبرىٰ، التي لا تُـتاح إلّا لمن شفت روحه ورقّت وصفت واستحقّت أن تكشف الحجب بينها وبين ربها.. وهذا الحجاب عن ربهم، عذاب فوق كل عذاب، وحرمان فوق كل حرمان. ونهاية بائسة لإنسان يستمد إنسانيته من مصدر واحد هو اتصاله بروح ربه الكريم. فإذا حجب عن هذا المصدر فَقَدَ خصائصه كإنسان كريم؛ وارتكس إلى درجة يستحق معها الجحيم.. وإذا كان أهل النار قد حُجبوا عن ربهم.. فإنَّ أهل الجنّة يغمـرهم ربهم بفيض ونعمة ينسون ما هم فيه من النّعيم: **﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربِّها ناظرة﴾** [القيامة: ٢٢ - ٢٣].

إنَّ هذا النص ليشير إشـارة سريعـة إلى حالـة تعجز الكلمـات عن تصويرها؛ كما يعجز الإدراك عن تصورها بكل حقيقتهـا. ذلك حين يعـد الموعودين السعداء بحالة من السعادة لا تشبهها حالة. حتى لتـتضاءل إلى جوارها الجنّة بكل ما فيها من ألوان النعيم!

هذه الوجوه الناضرة.. نضرها أنّها إلى ربها ناظرة.

إلى ربها..؟! فأي مستوىٰ من الرفعة هذا؟ أي مستوىٰ من السعادة؟

إنَّ روح الإنسان لتستمتع أحياناً بلمحة من جمال الإبداع الإلـهي في الكون أو النفس، تراها في الليلة القمراء. أو الليل الساجي. أو الفجر الوليد. أو الظل المديد. أو البحر العباب. أو الصحراء المنسابة. أو الروض البهيج. أو الطلعة البهية. أو القلب النبيل. أو الإيمان الواثق. أو الصبر الجميل.. إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود.. فتغمرها النشوة، وتفيض بالسعادة، وترف بأجنحة من نور في عوالم مجنحة طليقة. وتتوارى عنها أشواك الحياة، وما فيها من ألم وقبح، وثقلة طين وعرامة لحم ودم، وصراع شهوات وأهواء..

فكيف؟ كيف بها وهي تنظر ـ لا إلى جمال صنع الله ـ ولكن إلى جمال ذات الله؟

ألا إنَّه مقام يحتاج أولاً إلى مَدَد من الله. ويحتاج ثانياً إلى تثبيت من الله. ليملك الإنسان نفسه، فيثبت، ويستمتع بالسعادة، التي لا يحيط بها وصف، ولا يتصور حقيقتها إدراك! ﴿**وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربِّها ناظرة**﴾.. وما لها لا تنضر وهي إلى جمال ربها تنظر؟

إنَّ الإنسان لينظر إلى شيء من صنع الله في الأرض. من طلعة بهية، أو زهرة ندية، أو جناح رفاف، أو روح نبيل، أو فعل جميل. فإذا السعادة تفيض من قلبه على ملامحه، فيبدو فيها الوضاءة والنضارة. فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكمال. مطلقاً من كل ما في الوجود من شواغل عن السعادة بالجمال؟ فما تبلغ الكينونة الإنسانية ذلك المقام، إلاَّ وقد خلصت من كل شائبة تصدها عن بلوغ ذلك المرتقىٰ الذي يعزّ على الخيال! كل شائبة لا فيما حولها فقط، ولكن فيها هي ذاتها من دواعي النقص والحاجة إلى شيء ما سوىٰ النظر إلى الله..

فأمَّا كيف تنظر؟ وبأي جارحة تنظر؟ وبأي وسيلة تنظر؟.. فذلك حديث لا يخطر على قلب، يمسُّه طائف من الفرح الذي يطلقه النص

القرآني، في القلب المؤمن، والسعادة التي يفيضها على الروح، والتشوف والتطلّع والانطلاق! فما بال أناس يحرمون أرواحهم أن تعانق هذا النور الفائض بالفرح والسعادة؟ ويشغلونها بالجدل حول مطلق، لا تدركه العقول المقيدة بمألوفات العقل ومقرراته؟!

إنَّ ارتقاء الكينونة الإنسانية وانطلاقها من قيود هذه الكينونة الأرضية المحدودة، هو فقط محط الرجاء في التقائها بالحقيقة الطليقة يومذاك. وقبل هذا الانطلاق سيعز عليها أن تتصور ـ مجرد تصور ـ كيف يكون ذلك اللقاء. وإذن فقد كان جدلاً ضائعاً ذلك الجدل الطويل المديد الذي شغل به المعتزلة أنفسهم ومعارضيهم من أهل السنة والمتكلّمين حول حقيقة النظر والرؤية من مثل ذلك المقام.

لقد كانوا يقيسون بمقاييس الأرض؛ ويتحدثون عن الإنسان المثقل بمقررات العقل في الأرض، ويتصورون الأمر بالمدارك المحدودة المجال.

إنَّ مدلول الكلمات ذاته مقيد بما تدركه عقولنا وتصوراتنا المحدودة. فإذا انطلقت وتحررت من هذه التصورات فقد تتغير طبيعة الكلمات. فالكلمات ليست سوىٰ رموز يختلف ما ترمز إليه بحسب التصورات الكامنة في مدارك الإنسان، فإذا تغيرت طاقته تغيَّر معها رصيده من التصورات، وتغيرت معها طبيعة مدلول الكلمات. ونحن نتعامل في هذه الأرض بتلك الرموز على قدر حالنا! فما لنا نخوض في أمر لا يثبت لنا منه حتى مدلول الكلمات؟!

فلنتطلع إلى فيض السعادة الغامر الهادىء، وفيض الفرح المقدس الطهور، الذي ينطلق من مجرد تصورنا لحقيقة الموقف على قدر ما نملك. ولنشغل أرواحنا بالتطلّع إلى هذا الفيض؛ فهذا التطلع ذاته نعمة. لا تفوقها إلاَّ نعمة النظر إلى وجهه الكريم..

« فما ظنك بوجوه نظرت إلى الله عزَّ وجلّ وسمعت كلامه كيف

ضاعف حسنها وجمالها، وزاد ذلك في إشراقها ونورها. . فلو رأيت وجوههم وقد أشرقت بسرور كلام مولاهم. . فأعظم به من مجلس وأعظم به من جمع. . فكن إلى ربك مشتاقاً وإليه متحبباً. . »[1].

إنَّه التقابل التام بين أصحاب الجنَّة وأصحاب النَّار. .

ثمَّ يمضي القرآن الكريم في عرض مشهد مؤثر ملؤه الجد الصارم. . لقد اطمأنَّ أصحاب الجنَّة إلى دارهم، واستيقن أصحاب النَّار من مصيرهم. وإذا الأوَّلون ينادون الآخرين، يسألونهم عمَّا وجدوه من وعد الله القديم: **﴿ونادىٰ أصحاب الجنَّة أصحاب النَّار: أن قد وجدنا ما وَعَدنا ربُّنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قالوا: نعم! فأذَّن مؤذِّنٌ بينهم: أن لعنة الله على الظَّالمين. الذين يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون﴾** [الأعراف: ٤٤ ـ ٤٥]. .

وفي هذا السؤال من السخرية المُرّة ما فيه. . إنَّ المؤمنين على ثقة من تحقق وعيد الله كثقتهم من تحقق وعده. ولكنَّهم يسألون!

ويجيء الجواب في كلمة واحدة. . نعم. . !

وعندئذٍ ينتهي الجواب، ويقطع الحوار: **﴿فأذَّن مؤذِّن بينهم: أن لعنة الله على الظَّالمين. الذين يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون﴾**. .

فيتحدد معنىٰ «الظَّالمين» المقصود. وهو مرادف لمعنىٰ «الكافرين». فهم الذين يصدُّون عن سبيل الله، ويريدون الطريق عوجاً لا استقامة فيه، وهم بالآخرة كافرون.

وفي هذا الوصف: **﴿ويبغونها عوجاً﴾**. . إيحاء بحقيقة ما يريده الذين يصدُّون عن سبيل الله. إنَّهم يريدون الطريق العوجاء؛ ولا يريدون

---

(١) «التوهم» للإمام المحاسبي، ص ٦٣.

الطريق المستقيم. يريدون العوج ولا يريدون الاستقامة. فالاستقامة لها صورة واحدة: صورة المضي على طريق الله ونهجه وشرعه. وكل ما عداه فهو أعوج؛ وهو إرادة للعوج. وهذه الإرادة تلتقي مع الكفر بالآخرة. فما يؤمن بالآخرة أحد، ويستيقن أنَّه راجع إلى ربِّه؛ ثمَّ يصد عن سبيل الله، ويحيد عن نهجه وشرعه.. وهذا هو التصور الحقيقي لطبيعة النفوس التي تتبع شرعاً غير شرع الله. التصوير الذي يجلو حقيقة هذه النفوس ويصفها الوصف الداخلي الصحيح.

ثمَّ!!! ها نحن أُولاء نسمع صوتاً آتياً من قبل النار، ملؤه الرجاء والاستجداء **﴿ونادىٰ أصحاب النَّار أصحاب الجنَّة: أن أفيضوا علينا من الماء أو ممَّا رزقكم الله﴾**!.

وها نحن أُولاء نلتفت إلى الجانب الآخر نسمع الجواب ملؤه التذكير الأليم المرير: ﴿قالوا: إنَّ الله حرَّمهما على الكافرين. الَّذين اتَّخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرَّتهم الحياة الدنيا﴾.

وهكذا تتجمع الإيقاعات المنوعة في قصة آدم على هدف واحد، هو استجاشة القلب البشري لإدراك الحق الأصيل في الوظيفة التي خلق الله العباد لها، ومنحهم وجودهم ليؤدوها **﴿إنِّي جاعل في الأرض خليفة﴾**..

إنَّ هذا القرآن حق وجدّ. كما أنَّ هذا الكون حق وجدّ. فلا مجال لِلَّهو في استقبال رسالة القرآن لأداء المهمة والوظيفة، والرسالة من لدن ذلك الخالق القادر الواحد. الذي يلفت القلوب إلى الخطر القريب المحدق، وهي عنه غافلة لاهية: **﴿اقترب للنَّاس حسابهم وهم في غفلة معرضون. ما يأتيهم من ذكر من ربِّهم محدث إلاَّ استمعوه وهم يلعبون﴾** [الأنبياء: ١-٢]..

تقرير قوي يهز الغافلين هزاً. والحساب يقترب وهم في غفلة. والحقيقة تعرض وهم معرضون عن الهدىٰ. والموقف جَدّ وهم لا يشعرون

بالموقف وخطورته. وكلَّما جاءهم الحق بأمر قابلوه باللهو والاستهتار، واستمعوه وهم هازلون يلعبون.. ﴿لاهية قلوبهم﴾.. والقلوب هي موضع التأمل والتدبر والتفكير.

إنَّها صورة للنفوس الفارغة التي لا تعرف الجد، فتلهو في أخطر المواقف، وتهزل في مواطن الجد، وتستهتر في مواطن القداسة. فالذكر الذي يأتيهم من « ربهم » فيستقبلونه لاعبين، بلا وقار ولا تقديس.

والنفس التي تفرغ من الجد والاحتفال والقداسة تنتهي إلى حالة من التفاهة والجدب والانحلال؛ فلا تصلح للنهوض بعبء، ولا الاضطلاع بواجب، ولا القيام بتكليف. وتغدو الحياة فيها عاطلة هينة رخيصة!

إنَّ روح الاستهتار التي تلهو بالمقدسات روح مريضة. والاستهتار غير الاحتمال. فالاحتمال قوة جادة شاعرة. والاستهتار فقدان للشعور واسترخاء.

وهؤلاء الذين يصفهم القرآن الكريم كانوا يواجهون ما ينزل من القرآن ليكون دستوراً للحياة، ومنهاجاً للعمل، وقانوناً للتعامل.. باللعب. ويواجهون اقتراب الحساب بالغفلة. وأمثال هؤلاء موجودون في كل زمان. فحيثما خلت الروح من الجد والاحتفال والقداسة صارت إلى هذه الصورة المريضة الشائهة التي يرسمها القرآن. والتي تحيل الحياة كلها إلى هَزل فارغ، لا هدف له ولا قوام! ثمَّ لا يتوقعون لقاء الله، ولا يدركون أن تكون هناك آخرة، ويقفون عند حدود الدنيا وارتضائها. هؤلاء يخفضون رؤوسهم وأبصارهم إلى هذه الأرض وما عليها! غافلين عن حكمة الله في خلقه. غافلين عنهآيات الله التي توقظ القلب، وترفع الحس، وتحفز إلى التطلع والكمال.

﴿أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ [يونس: ٨] وبئس المأوىٰ وبئس المصير! هؤلاءغِرَّتهم الأماني الباطلة.. وغرَّهم بالله الشيطان الذي

كان يطمعهم ويمنِّيهم.. ها هم أُولاء في مأواهم.. في جهنَّم.. في السعير المتأجج.. ها هي ذي جهنَّم محيطة بهم. ينفذ العذاب الأليم إلى المسام ويشوي الأجسام.. ها هم أُولاء في هذا الشظف والحرمان ينادون في استجداء مهين حزين.. **﴿ونادىٰ أصحاب النَّار أصحاب الجنَّة: أن أفيضوا علينا من الماء أو ممَّا رزقكم الله﴾**!.. **﴿قالوا: إنَّ الله حرَّمهما على الكافرين. الذين اتَّخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرَّتهم الحياة الدُّنيا﴾**..

ثمَّ إذا صوت البشر عامة يتوارىٰ، لينطق رب العزة والجلالة، وصاحب المُلك والحكم: **﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هٰذا. وما كانوا بآياتنا يجحدون. ولقد جئناهم بكتاب فصَّلناه على علم، هدىً ورحمةً لقوم يؤمنون. هل ينظرون تأويله؟ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل: قد جاءت رسل ربِّنا بالحق، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا، أو نردُّ فنعمل غير الذي كنَّا نعمل. قد خسروا أنفسهم، وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾** [الأعراف: ٥١ ـ ٥٣].

وهكذا تتوالىٰ إلى صفحات المشهد جيئة وذهوباً.. لمحة في الآخرة ولمحة في الدنيا. لمحة مع المعذَّبين في النَّار، المنسيين كما نسوا لقاء يومهم هذا وكما جحدوا بآيات الله، وقد جاءهم بها كتاب مفصل مبين. فَصَّله الله ـ سبحانه ـ على علم ـ فتركوه واتَّبعوا الأهواء والأوهام والظنون.. ولمحة معهم ـ وهم بعد في الدنيا ـ ينتظرون مآل هذا الكتاب وعاقبة ما جاءهم من النذير، وهم يُحَذَّرُون أن يجيئهم هذا المآل. فالمآل هو ما يرون في هذا المشهد من واقع الحال!

وهكذا ينتهي ذلك الاستعراض الكبير لمشاهد قصة البشرية؛ ويجيء التعقيب عليها متناسقاً مع الابتداء. تذكيراً بهذا اليوم ومشاهده؛ وتحذيراً من التكذيب بآيات الله ورسله، ومن انتظار تأويل هذا الكتاب فهذا هو تأويله، حيث لا فسحة لتوبة، ولا شفاعة في الشدة، ولا رجعة للعمل مرة أُخرىٰ.

نعم.. هكذا ينتهي الاستعراض. فنفيق منه كما نفيق من مشهد أخَّاذ كما نراه.

ونعود منه إلى هذه الدنيا التي فيها نحن! وقد قطعنا رحلة طويلة في الذهاب والمجيء!

«إنها قصة آدم. قصة الإنسان. قصة البشرية.. إنَّها رحلة الحياة كلها.. رحلة البشرية في نشأتها الأولىٰ، وفي هبوطها إلى الأرض وسيرها فيها، ورحلة الموت والحشر والحساب والجزاء بعدها! الرحلة الواسعة الآماد، من المنشأ إلى المعاد..

تدبُّر وتأمُّل:

إنَّ قصة آدم ـ عليه السَّلام ـ في القرآن الكريم هي زاد الطريق للإنسان في رحلته على الأرض. وهي عدة الموكب البشري في هذا الطريق..

وبعد، نتلفت الآن ـ وقد انتهىٰ سياق القصة ـ على المدىٰ المتطاول من المنشأ إلى المعاد، نتلفت، والمساحة الشاسعة، والأغوار البعيدة.. تلك التي تتراءىٰ فيها أبعاد القصة، فإذا هو شيء هائل هائل..

ألا إنَّها رحلة شاسعة الآماد، عميقة الأغوار، هائلة الأبعاد هذه التي قطعناها مع القصة.. رحلة مع ميلاد آدم ونشأة الإنسان.. ثمَّ هبوطه إلى الأرض للعمل والابتلاء.. ثمَّ عودته للحساب والجزاء.. ثمَّ مصيره الخالد إلى الجنَّة والنعيم أو إلى الجحيم والعذاب الأليم..

رحلة البشرية ترسم حقيقة النفس الإنسانية، بأغوارها وأعماقها، ودروبها ومنحنياتها، وظاهرها وخافيها، وأهوائها وشهواتها، وهداها وضلالها، وما يوسوس لها من شياطين الإنس والجن. وما يقود من خطواتها من هدىً أو ضلال..

هذه القصة تحشد على القلب البشري من الحقائق والمؤثرات والصور والمشاهد، والإيقاعات واللمسات، ما لا قِبَلَ له بمواجهته ولا التفلت منه.. تحشدها بقوة، في أسلوب القرآن، بطريقة دقيقة واضحة.

من أهم الحقائق الكبيرة التي تحشدها هذه القصة في مواجهة القلب البشري، وتضرب بها عليه حصاراً لا مهرب منه: هي أنَّ رحلته على هذه **الأرض ابتلاء ينتهي إلى الحساب والجزاء**، وأنَّه في قبضة الله: **﴿أيحسب الإنسان أن يُتركَ سُدىٰ﴾** [القيامة: ٣٦].

إنَّ هذا البيان القرآني يشتمل على لفتة عميقة إلى الحقيقة الكبيرة. تلك اللفتة إلى التقدير والتدبير في حياة الإنسان.. فلقد كانت الحياة في نظر أهل الجاهلية، قديماً وحديثاً، حركة لا علة لها ولا هدف ولا غاية.. أرحام تدفع وقبور تبلع.. وبين هاتين لهو ولعب، وزينة وتفاخر، ومتاع قريب من متاع الحيوان.. فأمَّا أن يكون هناك ناموس، وراءه هدف، ووراء الهدف حكمة، وأن يكون قدوم الإنسان إلى هذه الحياة وفق قدر يجري إلى غاية مقدرة، وأن ينتهي إلى حساب وجزاء، وأن تكون رحلته على هذه الأرض ابتلاء ينتهي إلى الحساب والجزاء.. أمَّا هذا التصور الدقيق المتناسق، والشعور بما وراءه من ألوهية قادرة مدبرة حكيمة، تفعل كل شيء بقدر، وتنهي كل شيء إلى نهاية.. أمَّا هذا فهو أبعد شيء عن تصور الناس ومداركهم في الجاهليات القديمة والحديثة..

والذي يميز الإنسان عن الحيوان، هو شعوره باتصال الزمان والأحداث والغايات. وبوجود الهدف والغاية من وجوده الإنساني، ومن الوجود كله من حوله، وارتقاؤه في سلم الإنسانية يتبع نمو شعوره هذا وسعته، ودقة تصوره لوجود الناموس، وارتباط الأحداث والأشياء بهذا الناموس، فلا يعيش عمره لحظة لحظة، ولا حادثة حادثة، بل يرتبط في تصوره الزمان والمكان والماضي والحاضر والمستقبل. ثمَّ يرتبط هذا كله

بالوجود الكبير ونواميسه. ثمَّ يرتبط هذا كله بإرادة عليا خالقة مدبرة لا تخلق الناس عبثاً ولا تتركهم سدىٰ ﴿**أفحسبتم أنَّما خلقناكم عبثاً، وأنَّكم إلينا لا ترجعون**﴾ [المؤمنون: ١١٥]. . فالله سبحانه يبصر الناس بحكمة البعث المكنونة منذ أول الخلق.

وحكمة البعث من حكمة الخلق. محسوب حسابها، ومقدر وقوعها، ومدبر غايتها. وما البعث إلَّا حلقة في سلسلة النشأة، تبلغ بها كمالها، ويتم فيه تمامها. ولا يغفل عن ذلك إلَّا المحجوبون المطموسون، الذين لا يتدبرون حكمة الله الكبرىٰ في خلق الإنسان، وهي متجلية في صفحات الكون، مبثوثة في أطواء الوجود. .

لقد اقتضت حكمة الله أن يخلق كل موجود لوظيفة، ومنحه وجوده ليؤديها ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلَّا ليعبدون**﴾ [الذَّاريات: ٥٦]. .

إنَّ هذا النص الصغير ليحتوي الحقيقة الضخمة الهائلة، حيث لا تستقيم حياة البشر بدون إدراكها واستيقانها. سواء كانت حياة فرد أم جماعة. أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها.

وإنَّه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والمرامي، تندرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة، التي تعد حجر الأساس الذي تقوم عليه الحياة.

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أنَّ هناك غاية معينة لوجود الجن والإنس تتمثل في وظيفة من قام بها وأدّاها فقد حقق غاية وجوده؛ ومن قصَّر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده؛ وأصبح بلا وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد، خاوية من معناها الأصيل، الذي تستمد منه قيمتها الأولىٰ. وقد انفلت من الناموس الذي خرج به إلى الوجود، وانتهىٰ إلى الضياع المطلق، الذي يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود، الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء.

هذه الوظيفة المعينة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود، هي العبادة لله. أو هي العبودية لله.. أن يكون هناك عبد ورب عبد يَعبد، وربٌّ يُعبَد. وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار.

ومن ثمَّ يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة، ويتبين أنَّ مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر. فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر؛ والله لا يكلفهم هذا. وهو يكلفهم ألواناً أخرىٰ من النشاط تستغرق معظم حياتهم. وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن، ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان. نعرفها من القرآن من قول الله تعالىٰ: ﴿**وإذ قال ربُّك للملائكة: إنِّي جاعل في الأرض خليفة**﴾.. فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني. وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة الأرض، والتعرف إلى قواها وطاقاتها، وذخائرها ومكنوناتها، وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها. كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلـٰهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام.

ومن ثمَّ يتجلّىٰ أنَّ معنىٰ العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني، التي هي وظيفة الإنسان الأولىٰ، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر؛ وأنَّ وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً. وأنَّ حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسيين:

الأول: هو استقرار معنىٰ العبودية لله في النفس. أي استقرار الشعور على أنَّ هناك عبداً ورباً. عبداً يعبد، ورباً يُعبد. وأن ليس وراء ذلك شيء؛ وأن ليس هناك إلاَّ هذا الوضع وهذا الاعتبار. ليس في هذا الوجود إلاَّ عابد ومعبود؛ وإلاَّ رب واحد والكل له عبيد.

والثَّاني: هو التوجُّه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في

الجوارح، وكل حركة في الحياة. التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنىً غير معنىً التعبد لله.

بهذا وذلك يتحقق معنىٰ العبادة، ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضىٰ بقدر الله.. كلها عبادة؛ وكلها تحقيق للوظيفة الأولىٰ التي خلق الله الجن والإنس لها؛ وكلها خضوع الناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه.

عندئذٍ يعيش الإنسان في هذه الأرض شاعراً أنَّه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالىٰ، جاء لينهض بها فترة، طاعة لله وعبادة له لا أرب له هو فيها، ولا غاية له من ورائها، إلاَّ الطاعة، وجزاؤها الذي يجده في نفسه من طمأنينة ورضىً عن وضعه وعمله، ومن أنس برضىٰ الله عنه، ورعايته له. ثمَّ يجده في الآخرة تكريماً ونعيماً وفضلاً عظيماً.

وعندئذٍ يكون قد فرَّ إلى الله حقاً. يكون قد فرَّ من أوهاق هذه الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملفتة. ويكون قد تحرر بهذا الفرار. تحرر حقيقة من الأوهاق والأثقال. وخلص لله، واستقرَّ في الوضع الكوني الأصيل: عبداً لله. خلقه الله لعبادته. وقام بما خلقَ له. وحقق غاية وجوده. فمن مقتضيات استقرار معنىٰ العبادة أن يقوم بالخلافة في الأرض، وينهض بتكاليفها، ويحقق أقصىٰ ثمراتها؛ وهو في الوقت ذاته نافض يديه منها؛ خالص القلب من جواذبها ومغرياتها. ذلك أنَّه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو ولا لذاتها. ولكن لتحقيق معنىٰ العبادة فيها، ثمَّ الفرار إلى الله منها! ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها. فلتكن النتائج ما تكون. فالإنسان غير معلق بهذه النتائج. إنَّما هو معلق بأداء العبادة في القيام بهذه الأعمال؛ ولأنَّ جزاءه ليس في نتائجها، إنَّما جزاؤه في العبادة التي أدّاها..

ومن ثمَّ يتغير موقف الإنسان تغيراً كاملاً تجاه الواجبات والتكاليف والأعمال. فينظر فيها كلها إلى معنىٰ العبادة الكامن فيها. ومتىٰ حقق هذا المعنى انتهت مهمته وتحققت غايته. ولتكن النتائج ما تكون بعد ذلك. فهذه النتائج ليست داخلة في واجبه ولا في حسابه، وليست من شأنه. إنَّما هو قَدَر الله ومشيئته. وهو جهده ونيته وعمله جانب من قدر الله ومشيئته. ومتى نفض الإنسان قلبه من نتائج العمل والجهد، وشعر أنَّه أخذ نصيبه، وضمن جزاءه، بمجرد تحقق معنىٰ العبادة في الباعث على العمل والجهد، فلن تبقىٰ في قلبه حينئذٍ بقية من الأطماع التي تدعو إلى التكالب والخصام على أعراض هذه الحياة. فهو من جانب يبذل أقصىٰ ما يملك من الجهد والطاقة في الخلافة والنهوض بالتكاليف. ومن جانب ينفض يده وقلبه من القلق بأعراض هذه الأرض، وثمرات هذا النشاط. فقد حقق هذه الثمرات ليحقق معنىٰ العبادة فيها لا ليحصل عليها ويحتجزها لذاته.

وإذن لا يكون حافز المؤمن للعمل وبذل الجهد في الخلافة هو الثمرة والنتيجة لأي عمل كان. بل يكون الحافز هو تحقيق معنىٰ العبادة، الذي يتحقق ببذل أقصىٰ الجهد والطاقة. ومن ثمَّ يصبح قلب الإنسان معلقاً بتحقيق معنىٰ العبادة في الجهد، طليقاً من التعلق بنتائج الجهد. . وهي مشاعر كريمة لا تنشأ إلاَّ في ظل هذا التصور الكريم.

وإذا كانت البشرية لا تدرك هذه المشاعر ولا تتذوقهح، فذلك لأنَّها لم تعش ـ كما عاش جيل المسلمين الأول ـ في ظلال هذا القرآن. ولم تستمد قواعد حياتها من ذلك الدستور العظيم.

وحين يرتفع الإنسان إلى هذا الأفق. أُفق العبادة. أو أُفق العبودية. ويستقر عليه. فإنَّ نفسه تأنف حتماً من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة. ولو كانت هذه الغاية هي نصر دعوة الله وجعل كلمته هي العليا. فالوسيلة الخسيسة من جهة تحطم معنىٰ العبادة النظيف الكريم. ومن جهة

أخرىٰ فهو لا يعني نفسه ببلوغ الغايات، إنَّما يعني نفسه بأداء الواجبات، تحقيقاً لمعنىٰ العبادة في الأداء. أمَّا الغايات فموكولة لله. يأتي بها وفق قدره الذي يريده. ولا داعي لاعتساف الوسائل والطرق للوصول إلى غاية أمْرها إلى الله، وليست داخلة في حساب المؤمن العابد لله.

ثمَّ يستمتع العبد براحة الضمير، وطمأنينة النفس، وصلاح البال، في جميع الأحوال. سواء رأىٰ ثمرة عمله أم لم يرها. تحققت كما قدرها أم على عكس ما قدرها. فهو قد أنهىٰ عمله. وضمن جزاءه، عند تحقق معنىٰ العبادة. واستراح. وما يقع بعد ذلك خارج عن حدود وظيفته.. وقد علم هو أنَّه عبد، فلم يعد يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه حدود العبد. وعلم أنَّ له رب، فلم يعد يتقحم فيما هو من شؤون الرب. واستقرت مشاعره عند هذا الحد، ورضي الله عنه، ورضي هو عن الله.

وهكذا تتجلىٰ جوانب من تلك الحقيقة الضخمة الهائلة.. وهي حقيقة كفيلة بأن تغير وجه الحياة كلها عندما تستقر في الضمير...

* * *

حقيقة دقيقة :

ولا بد من التأكيد على (حقيقة دقيقة) في القصة. هي خليقة الشر والعصيان التي تبدت في عداوة آدم وذريته. إبليس الذي صمم على الانتقام من آدم وذريته ﴿**قال: ربِّ فأنظرني إلىٰ يوم يبعثون. قال: فإنَّك من المنظرين إلىٰ يوم الوقت المعلوم**﴾. ﴿**قال: فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم**﴾ لقد جعل الله سبحانه ـ لإبليس وقبيله فرصة الإغواء. وجعل لآدم وذريته فرصة الاختيار تحقيقاً للابتلاء، الذي قضت مشيئته أن تأخذ به هذا الكائن.

إنَّ هذه الحقيقة تطوف بالقلب البشري في جولات مستمرة متعاقبة، وتوقع على أوتاره إيقاعات متلاحقة؛ وتهزه هزاً عميقاً متواصلاً لتطبع فيه

جدّية هذه الحقيقة في حياة الإنسان: **﴿إنَّه لكم عدوٌّ مبين﴾**..

وعداوة الشيطان لها صور شتّىٰ وضروب كثيرة من الإغواء والتزيين والوسوسة، فمنذ مطلع القصة تبرز هذه الحقيقة نصاً لآدم ـ عليه السَّلام ـ وزوجه: **﴿فقلنا يَـا آدم إنَّ هـٰذا عدوٌّ لك ولزوجك﴾** [طه: ١١٧].

ونصاً مميزاً للإنسان في كل زمان ومكان وللبشرية على مدىٰ الأيام: **﴿إنَّ الشَّيطان للإنسان عدو مبين﴾** [يوسف: ٥]..

﴿إنَّ الشَّيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾ [الإسراء: ٥٣].. **﴿ولا تتَّبعوا خطوات الشَّيطان إنَّه لكم عدوٌّ مبين** [البقرة: ١٦٨، ٢٠٨، **الأنعام: ١٤٢**].. **﴿إنَّ الشَّيطان لكم عدوٌّ فاتَّخذوه عدوّاً﴾** [فاطر: ٦].. **﴿ولا يصدَّنَّكم الشيطان إنَّه لكم عدوٌّ مبين﴾** [الزُّخرف: ٦٢].. إنَّ هذه الحقيقة يريد أن يطبعها القرآن في وجدان الإنسان لإيقاظ القلب واستجاشته وإثارة حساسيته، وإرهافه للمراقبة الواعية للوسوسة الخافية.

ولا بد من لفتة هنا إلى طوق النجاة من هذا العدو المبين الخبيث: **﴿قال: فبعزَّتك لأغوينَّهم أجمعين إلاَّ عبادك منهم المخلصين﴾**.. إنَّ عبحد الله لا يملك الشيطان أن يزين لهم لأنَّهم من الله في حِمىٰ، ولأنَّ مداخل الشَّيطان إلى قلوبهم موصدة **﴿وهـٰذا صراط عليَّ مستقيم. إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان. إلاَّ من اتَّبعك من الغاوين﴾**..

ثمَّ لمسة نفسية أُخرىٰ، لاستنهاض الهمم، واستجاشة العزائم، وإنارة الطريق، وتحديد القوىٰ: **﴿إنَّ كيد الشَّيطان كان ضعيفاً﴾**.. والعبد لله يطمئن بإحساسه بالصلة بربه، والأُنس بجواره، والأمن في جانبه وفي حماه. يطمئن بالشعور بالحماية من كيد الشيطان ووسوسته.

إنَّ نور الله في قلب المؤمن تتجلىٰ تحت أشعته حقائق الأشياء التي يبثها الشيطان في النفس وفي الحياة، ويبدو مفرق الطريق بين الحق والباطل محدداً.. في داخل النفس وفي واقع الحياة سواء.. حيث تجد النفس من

هذا النور ما ينير جوانبها أوّلاً؛ فترىٰ كل شيء فيها. . ترىٰ نفخات الشيطان وهمزاته ونفثاته. . تـرىٰ هذا واضحـاً. . حيث يتلاشىٰ الغبش وينكشف، وحيث تبـدو الحقيقة ويخنس الشيـطان وتذهب ريـح وسوستـه ﴿**إنَّ كيـد الشَّيطان كان ضعيفاً**﴾.

وما أجدر الإنسان، أن يلتجيء إلى حمىٰ الرَّحمـٰن من كيد الشَّيطان. ما أجدر الإنسان أن يأخذ على الشيطان طريقه ﴿**وإمَّا ينزغنَّك من الشَّيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنَّه سميع عليم**﴾. . وذكر الله عند وسوسة الشَّيطان يأخذ الطريق عليه وعلى نزغه اللئيم. والعبودية لله اعتصام به ـ سبحانه ـ، وهي ثمرة ملازمة للإيمان والتَّقوىٰ ﴿**إنَّ الَّذين اتقوْا إذا مسَّهم طائفٌ من الشَّيطان تذكَّروا فإذا هم مبصرون**﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وتكشف هذه الآية العظيمة عن إيحاءات عجيبة، وحقـائق عميقة، يتضمنها التعبير القرآني المعجز الجميل. . إنَّ اختـتام الآية بقوله: ﴿**فإذا هم مبصرون**﴾ ليضيف معاني كثيرة إلى صدر الآية. ليس لها ألفاظ تقابلها هناك. . إنَّه يفيد أنَّ مسَّ الشيطان يعمي ويطمس ويغلق البصيرة. . فلا نور الحق يـوصوص ولا هـدىٰ. . إنَّها صـورة مظلمـة يرسمهـا الشَّـيطان على الإنسان: التغشية على القلوب والأسماع والعيون والأبصار. ولكن تقوىٰ الله ومراقبته وخشيـة غضبه وعقـابه. . تلك الـوشيجة التي تصـل القلوب بالله وتـوقظهـا من الغفلة عن هـداه. . تـذكـر المتَّقين. فـإذا تـذكـروا تفتحت بصائرهم؛ وتكشَّفت الغشاوة عن عيونهم: ﴿**فإذا هم مبصرون**﴾. . إنَّ مسَّ الشيطان عمىٰ، وإنَّ تذكُّر الله إبصار. . إنَّ مسَّ الشيطان ظلمة، وإنَّ الاتجاه إلى الله نور. . إنَّ مسَّ الشَّيطان تجلوه التَّقوىٰ، فما للشيطان على المتَّقين من سلطان. .

إنَّ كيد الشيطان كـان ضعيفاً حين يكـون الاعتصام بـالله. . إنَّ كيد الشيـطان كان ضعيفـاً متىٰ صَحَّ الإيمـان، ومتى عرفت النفس حقيقـة الله

وعرفت حقيقة عبودية الكل له. فلا يبقىٰ أمامها إلاَّ أن تعتصم بالله وحده. وهو صاحب السلطان على الشيطان وعلى كل الخلائق في سائر الأكوان. وهو صاحب السلطان والقدرة وحده.. وهؤلاء الذين اعتصموا به سبحانه يدُ الله تنقل خطاهم في الطريق إليه في رحلة الحياة؛ وتقربهم إليه خطوة خطوة.. وتمسح عن قلوبهم نزغات الشيطان ﴿**فإذا هم مبصرون**﴾، فالتقوىٰ في القلب نور تجلو مسّ الشيطان ووسوسته.

إنَّ قلب المؤمن هو القلب التقي النقي، الخائف الحساس، المعتصم بالله.. ورد أنَّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سأل أُبيّ بن كعب عن التقوىٰ فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال بلىٰ! قال: فما عملت؟ قال: شمَّرت واجتهدت. قال: فذلك التقوىٰ.

فذلك التقوىٰ.. حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتوق لأشواك الطريق.. طريق الحياة.. الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المطامع والمطامح وأشواك المخحوف والهواجس، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة رجاء، والخوف الكاذب ممَّن لا يملك نفعاً ولا ضرّاً. وعشرات غيرها من الأشواك!

إنَّ حلَّذين اتقوا في رحمة من الله وفضل.. الذين صبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس. الذين دافعوا نزغات الشيطان ووسوسته بالاعتصام بالله. الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا في سيرهم في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب.. أُولئك لن يتركهم الله وحدهم ولن يضيع إيمانهم، ولن ينسىٰ جهادهم. إنَّه سيأخذ بأيديهم ﴿**ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً**﴾.. وكلمة «إليه».. تخلع على التعبير حركة مصورة. إذ ترسم المؤمنين وعناية الله ورحمته تكلؤهم في كل خطوة في طريق الحياة، وتقربهم إليه.. وهي عبارة يجد مدلولها في نفسه من يؤمن بالله على بصيرة، فيعتصم به على ثقة.. حيث يحس في كل لحظة أنَّه يهتدي؛ وتتضح أمامه الطريق؛

ويقترب فعلاً من الله كأنّما هو يخطو إليه في طريق مستقيم.

إنّه مدلول يذاق.. ولا يُعرف حتى يُذاق!

إنَّ الشيطان هو العقبة الكبرىٰ، وربما كان العقبة الشاملة التي تصدّ الإنسان عن صراط الله المستقيم، فلقد أصَرَّ الإصرار المطلق على الشر **﴿قال: فبما أغويتني لأقعُدَنَّ لهم صراطك المستقيم. ثمَّ لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾**..

إنّها إرادة الشر. إرادة العامد القاصد العنيد. إرادة العدو الخبيث الماكر لصد الإنسان عن صراط الله المستقيم، فهي وظيفته في هذه الرحلة إلى يوم يبعث الله خلقه في الوقت المعلوم. وهو يجري في ابن آدم مجرىٰ الدم. ويتّكىء جاثماً على قلب الإنسان، يوسوس إليه ليصدّه عن سبيل الله، وينفخ فيه الإثم والشرود عن الحق المبين.. يُخرج هذا المخلوق من النور إلى الظلام! فلا يرىٰ إلاَّ ما يوسوس إليه ويقوده إلى الطغيان البعيد.. وفي الظلام يقوىٰ الشيطان ويُوحي إلى الإنسان زخرف القول والعمل غروراً، فيجور على الحق، ويتجاوز الحدود التي رسمها الله للعباد، ولا يكون له ضابط من العقيدة في الله، ومن الشريعة التي يسنّها الله، فهو في ضلال وتيه وظلمات شتّىٰ منوعة.. ظلمة الهوىٰ والشهوة. وظلمة الشرود والانحراف. وظلمة الكبر والطغيان. وظلمة الضعف والذلّة. وظلمة الرياء والنفاق. وظلمة الطمع والسعر. وظلمة الشك والقلق.. وظلمات شتّىٰ لا يأخذها الحصر تتجمع كلها عند الشرود عن طريق الله، واتباع الشيطان.. وما يترك الإنسان نور الله الواحد الذي لا يتعدد. نور الحق الواحد الذي لا يتلبس. حتى يُدخله الشيطان في ظلمات من شتّىٰ الأنواع وشتّىٰ الأصناف.. وكلها ظلمات...!

والعاقبة التي يرجوها الشيطان من جراء هذا الكيد المتين للإنسان أن

ينسلخ من فطرته التي فطره الله عليها فيترك الرشد إلى الغي، ويدع الهدىٰ إلى الضلال، ويؤثر التخبط والهبوط والضآلة على الطمأنينة والسلام والرفعة والاستعلاء!

إنَّ الإيمان والاعتصام بالله نور يشرق به كيان الإنسان أول ما ينبثق في ضميره. تشرق به روحه وتصفو، وتشع من حولها نوراً ووضاءة ووضوحاً يمحي كل ظلام نسجه الشيطان بإتقان وإحكام. فيكشف حقائق الأشياء وحقائق القيم وحقائق التصورات، فيراها قلب المؤمن واضحة بغير غبش، بينة بغير لبس ولا تلبيس، مستقرة في مواضعها بغير أرجحة؛ فيأخذ منها ما يأخذ ويدع منها ما يدع في طمأنينة وثقة وقرار لا أرجحة فيه. يمضي في طريقه إلى الله هيّناً ليّناً، ولا يخبط هنا وهناك. فالطريق في فطرته مكشوف معروف.

من تأمَّل القرآن الكريم والسنَّة النبوية وَجَدَ اعتناءهما بذكر الشيطان وكيده ومحاربته، فتحذير الرب تعالىٰ لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس[1]، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره، فإنَّ شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركبته وموضع شره، ومحل طاعته. ومن الهدي النبوي الشريف في بيان حقيقة الشيطان نقتطف شيئاً ينير هذه الحقيقة:

ـ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلاَّ وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن». قالوا: وإيَّاكَ

---

(١) ذكرت النفس المذمومة في القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿إنَّ النفس لأمَّارة بالسوء﴾ [يوسف: ٥٣]، واللوامة في قوله: ﴿ولا أُقسم بالنفس اللوَّامة﴾ [القيامة: ٢] وذكرت النفس المذمومة في قوله: ﴿ونهى النفس عن الهوىٰ﴾ [النَّازعات: ٤٠].
وجاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله ﷺ: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا».

يـا رسول الله؟ قال: «وإيَّاي، إلاَّ أنَّ الله قد أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلاَّ بخير»(١).

ـ عن شريك بن طارق، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلاَّ وله شيطان» قالوا: ولك يـا رسول الله؟ قال: «ولي، إلاَّ أنَّ الله أعانني عليه فأسلم»(٢).

قال أبو حاتم: في هذا الخبر دليل على أنَّ شيطان المصطفىٰ ﷺ حتى لم يأمره إلاَّ بخير، لا أنَّه كان يَسْلَمُ منه وإن كان كافراً.

وقال الإمام النووي في «شرح مسلم» ١٧/١٥٧: « فـأسلم » برفـع الميم وفتحها، وهما روايتان مشهورتان، فمن رَفَعَ، قال: معناه: أسلمُ أنا من شره وفتنته، ومن فتح قال: إنَّ القرين أسلم من الإسلام، وصار مؤمناً، ورجَّح الخطابي الرفع، ورجَّح القاضي عياض الفتح. ونقـل البغوي عن سفيـان بن عُيينة قـوله: « فـأسلم » معناه: أسلمُ أنـا منـه، والشيـطان لا يسلم(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٤) وابن حبان بإسناد صحيح على شرط مسلم. انظر تخريجه في الإحسان برقم ٦٤١٧.

(٢) أخرجه ابن حبان بإسناد قوي، وذكره الهيثمي في المجمع ٨/٢٢٥، وقال: رواه الطبراني والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح. انظر تخريجه في الإحسان برقم (٦٤١٦).
ورویٰ مسلم وأحمد وغيرهما من حديث عائشة أنَّ رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً قالت: فغرتُ عليه. قالت: فجاء فرأىٰ ما أصنع. فقال: مالك يا عائشة أغرتِ. فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك. فقال رسول الله ﷺ: أفأخذك شيطانك؟ فقلت: يا رسول الله أوَمعي شيطان. قال: نعم ومع كل إنسان. قلتُ: ومعك يـا رسول الله. قـال: نعم. ولكن ربِّي عزَّ وجلّ أعانني عليه حتى أسلم. وفي لفظ آخر: «أعانني عليه فأسلم».

(٣) قال أبو سليمان الخـ[illegible]ي: عامة الرواة يقولـون: « فأسلم » على مـذهب الفعل المـاضي يريدون أنَّ الشيطان قد أسلم إلاَّ سُفيان ابن عُيـينة فإنَّه يقول فأسلمَ من شره. وكان يقول: الشيطان لا يسلم.
قال أبو الفرج بن الجوزي وقول ابن عُيَـيْنة حسن. وهو يظهر أثر المجاهدة لمخالفة الشيطان =

- عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ للشيطان لَمةً بابن آدم، وللمَلَك لمة، فأمَّا لمة الشيطان، فإيعاذ بالشر، وتكذيب بالحق، وأمَّا لَمةُ المَلَك، فإيعاذ بالخير، وتصديق الحق، فمن وَجَدَ ذلك، فليحمد الله، ومن وَجَدَ الأخرىٰ، فليتَعَوَّذ من الشيطان، ثمَّ قرأ ﴿الشَّيطان

= إلاَّ أنَّ حديث ابن مسعود كأنَّه يرد قول ابن عُيَيْنة وهو ما رواه أحمد بن حنبل قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلاَّ وقد وُكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة. قالوا: وإيَّاك يا رسول الله. قال: وإياي ولكن الله تعالىٰ أعانني عليه فلا يأمرني إلاَّ بحق».
قال ابن الجوزي: وظاهره إسلام الشيطان ويحتمل القول الآخر.
وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلتُ على آدم بخصلتين: كان شيطاني كافراً فأعانني الله حتى أسلم، وكنَّ أزواجي عوناً لي. وكان شيطان آدم كافراً وزوجته عوناً على خطيئته» [آكام المرجان، ص ٢٧] فهذا صريح في إسلام قرين النَّبيِّ ﷺ، وإنَّ هذا خاص بقرين النَّبيِّ ﷺ، فيكون ﷺ مختصاً بإسلام قرينه لقوله: «فُضِّلت على آدم بخصلتين» وعدَّ منهما إسلام قرينه.
قال أبو جعفر الطحاوي في «مشكل الآثار» في أثناء كلام ساقه في القرين: وكان فيما روينا عن رسول الله ﷺ في هذين الحديثين ما قد يحتمل أن يكون رسول الله ﷺ قد كان في ذلك كمن سواه من الناس، ويحتمل أن يكون كان فيه بخلافهم فتأملنا ما روي في هذا الباب من سوى هذين الحديثين هل فيه ما يدل على شيء من ذلك فوجدنا فهذا قد حدثنا قال: حدثنا عبد الله بن رجاء ثم ساق بسنده عن ابن مسعود عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلاَّ وقد وُكِل به قرينه من الجن» الحديث.. ثم ساق بسنده عن جابر قال لنا النَّبيِّ ﷺ: «لا تدخلوا على المغيبات فإنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم. قيل: ومنك يا رسول الله؟ قال: «ومني ولكنَّ الله تعالىٰ أعانني عليه فأسلم».. ثم ساق بسنده عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: فقدتُ رسول الله ﷺ ليلة وكان معي على رأسي فوجدتُ رسول الله ﷺ ساجداً راصاً عقبيه مستقبلاً أصابعه القبلة فسمعته يقول: أعوذ بالله من سخطك وبعفوك من عقوبتك وبك منك لا أبلغ كل ما فيك». فلمَّا انصرف قال: يا عائشة: أخذك شيطانك» فقالت: أما لك شيطان؟ «قال: ما من آدمي إلاَّ له شيطان» فقلتُ: وأنت يا رسول الله. قال: «وأنا ولكني دعوتُ الله تعالىٰ فأعانني عليه فأسلم». قال أبو جعفر: فعرفنا أنَّ رسول الله ﷺ قد كان في هذا المعنىٰ كسائر الناس سواء، وأنَّ الله تعالىٰ أعانه عليه بإسلامه الذي هداه له حتى صار ﷺ في السلامة منه بخلاف غيره من الناس فيمن هو معه من جنسه.

يعدكم الفقر﴾[1] الآية [البقرة: ٢٦٨].

واللَّمة: المَسّ.

وقد أمر الله سبحانه ـ بالاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذه الشدة الحاجة إلى التعوذ.

وقد جمع النَّبيّ ﷺ ـ بين الاستعاذة من النفس والشيطان في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «أنَّ أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله، عَلِّمني شيئاً أقوله إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ، قال: «قل: اللهمَّ عالِمَ الغيب والشهادة، فاطر السَّماوات والأرض، ربَّ كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلَّا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفسي وشرِّ الشيطان وشِرْكه[2]، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجرَّه إلى مسلم، قُلْهُ إذا أصبحت وإذا أمسيتَ وإذا أخذتَ مضجعك». فقد تضمن هذا الحديث الشريف الاستعاذة من الشر وأسبابه وغايته، فإنَّ الشر كله إمَّا أن يصدر من النفس، أو من الشيطان، وغايته: إمَّا أن تعود على العامل، أو على أخيه المسلم، فتضمَّن الحديث مصدري الشر الذي يصدر عنهما وغايتيه اللتين يصل إليهما.

وفي القرآن توجيه من الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لنبيه ﷺ ابتداء وللمؤمنين من بعده جميعاً، للعياذ بكنفه، واللياذ بحماه، من كل مخوف: خاف وظاهر، مجهول ومعلوم، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل.. وكأنَّما

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٨٨) في التفسير: باب ومن سورة البقرة، والطبري في التفسير ٣/٨٨ و ٨٩، والنسائي في التفسير من الكبرىٰ كما في «التحفة» ٧/١٣٩، وابن حبان في صحيحه (انظر تخريجه في الإحسان برقم ٩٩٧).

(٢) رويت بكسر الشين وسكون الراء، ورويت بفتحتين، أي من شباكه التي يتصيَّبها حزبه.
والشيطان له ركض وهمز ونفث ونفخ ووخز. قال الجوهري: الركض تحريك الرجل ومنه قوله تعالىٰ: ﴿اركض برجلك﴾ والهمز شبيه بالنفخ وهو أقل من التفل. وقد نفث الراقي ينفث وينفث. والوخز الطعن بالرمح وغيره [آكام المرجان: ١١٦].

يفتح الله ـ سبحانه ـ لهم حماه، ويبسط لهم كنفه، ويقول لهم، في مودة وعطف: تعالوا إلى هنا. تعالوا إلى الحمىٰ. تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمئنون فيه. تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف وأنَّ لكم أعداء وأنَّ حولكم مخاوف وهنا. . هنا الأمن والطمأنينة والسلام. .

ومن ثمَّ كان هذا التوجيه الإلـهي: **﴿قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وَقَب[1] ومن شرِّ النفاثات في العقد[2] ومن شرِّ حاسد إذا حسد﴾**.

﴿قل أعوذ بربِّ الناس ملك الناس إلـه النَّاس. من شر الوسواس الخنَّاس الذي يوسوس في صدور النَّاس من الجِنَّة والناس﴾.

وهذا التوجيه القرآني يشتمل على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها في الدنيا والآخرة. «فسورة الفلق تضمَّنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد وهو شر من خارج. وسورة الناس تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه فهو شر من داخل.

فالشر الأوَّل لا يدخل تحت التكليف ولا يطلب منه الكف عنه لأنَّه ليس من كسبه.

---

(١) والغاسق في اللغة الدافق، والوقب النقرة في الجبل يسيل منها الماء. والمقصود هنا ـ غالباً ـ هو الليل وما فيه. الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة. والليل حينئذٍ مخوف بذاته. فضلاً على ما يثيره من توقع للمجهول الخافي من كل شيء. من وحش مفترس. ومتلصلص فاتك يقتحم. وعدو مخادع يتمكن. وحشرة سامة تزحف. ومن وساوس وهواجس وهموم وأشجان تتسرب في الليل، وتخنق المشاعر والوجدان، ومن شيطان تساعده الظلمة على الانطلاق والإيحاء. ومن شهوة تستيقظ في الوحدة والظلام. ومن ظاهر وخاف يدب ويثب، في الغاسق إذا وقب!

(٢) والنفاثات في العقد: السواحر الساعيات بالأذىٰ عن طريق خداع الحواس، وخداع الأعصاب، والإيحاء إلى النفوس والتأثير والمشاعر. وهنَّ يعقدن العقد في نحو خيط أو منديل وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء!

والشر الثَّاني يدخل تحت التكليف ويتعلق بـه[1]»، والاستعاذة هنـا برب الناس، مَلك النَّاس، إلـه الناس. والمستعاذ منه هو: شر الوسواس الخنَّاس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنَّة والناس.

والاستعـاذة بـالـرب، الملك، الإلـه، تستحضـر من صفـات الله ـ سبحانه ـ ما به يدفع الشر عامة، وشر الوسواس الخنَّاس خاصة.

فالرب هو المربي والموجه والراعي والحامي.

والملك هو المالك الحاكم المتصرف.

والإلـه هو المستعلي المستولي المتسلط.. وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذي يتـدسس إلى الصدور.. وهي لا تعـرف كيف تدفعـه لأنَّه مستور.

والله رب كـل شيء، وملك كـل شيء، وإلـه كـل شيء. ولكن تخصيص ذكـر الناس هنـا يجعلهم يحسـون بـالقـربى في مـوقف العيـاذ والاحتماء. والله برحمة منه ـ يوجه رسوله ﷺ وأُمَّته إلى العياذ به والالتجاء إليه، مع استحضار معاني صفاته هذه، من شر خفي الدبيب، لا قِبَلَ لهم بدفعه إلاَّ بعون من الرب الملك الإلـه. فهو يأخذهم من حيث لا يشعرون، ويأتيهم منهحيث لا يحتسبون.

والوسواس فعلان من وسوس. وأصل الوسوسة: الحـركة والصـوت الخفي الذي لا يُحسّ فيُحترز منه. فالوسواس الإلقاء الخفي في النفس. ولما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس ويؤكده عند من يلقيه إليه كرر لفظها بإزاء تكرير معناها.

وأمَّا الخناس ففعال من خنس يخنس إذا توارى واختفى ومنه قول أبو هريرة: فانخنست منه. وحقيقـة اللفظ اختفاء بعـد ظهور فليست لمجـرد

(١) انظر آكام المرجان.

الاختفاء ولهذا وصف بها الكواكب(١)، فالخنوس: الاختباء والرجوع.

وقد أطلق النص الصفة أولاً: ﴿**الوسواس الخناس**﴾.. وحدد عمله: ﴿**الذي يوسوس في صدور الناس**﴾. ثمَّ حدد ماهية: ﴿**من الجنَّة والنَّاس**﴾.. وهذا الترتيب يثير في الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيقة الوسواس الخناس، بعد إطلاق صفته في أول الكلام، ولإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شره، تأهّباً لدفعه أو مراقبته!

والنفس حين تعرف ـ بعد هذا الإيقاظ ـ أنَّ الوسواس الخنَّاس يوسوس في صدور الناس خفية وسراً، وأنَّه هو ال
نة الخافية، وهو كذلك الناس الذين يتدسسون إلى الصدور تدسس الجِنَّة، ويوسوسون وسوسة الشياطين.. النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع، وقد عرفت المكمن والمدخل والطريق!

ووسوسة الجِنَّة نحن لا ندري كيف تتم ولكنَّا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة. ونعرف أنَّ المعركة بين آدم وإبليس قديمة قديمة؛ وأنَّ الشَّيطان قد أعلنها حرباً تنبثق من خليقة الشر فيه، ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان!وأنَّه قد استصدر بها من الله إذناً، فأَذِنَ فيها ـ سبحانه ـ لحكمة يراها! ولم يترك الإنسان فيها مجرداً من العدة. فقد جعل له من الإيمان جنّة، وجعل له من الذكر عدة، وجعل له من الاستعاذة سلاحاً.. فإذا أغفل الإنسان جنته وعدته وسلاحه فهو إذن وحده الملوم.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس**»(٢).

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿**فلا أُقسم بالخنَّس الجوار الكُنَّس**﴾ [التكوير: ١٥] هي الكواكب التي تخنس أي ترجع في دورتها الفلكية وتجري وتختفي: انظر آكام المرجان.
(٢) أخرجه البخاري معلّقاً.

وأمّا الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشيء الكثير. ونعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين!

رفيق السوء الذي يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يحترس، لأنّه الرفيق المأمون!

وحاشية الشر الذي توسوس لكل ذي سلطان حتى تتركه طاغية جباراً مفسداً في الأرض، مهلكاً للحرث والنسل!

والنمام الواشي الذي يزين الكلام ويزحلقه، حتى يبدو كأنّه الحق الصراح الذي لا مرية فيه.

وبائع الشهوات الذي يتدسس من منافذ الغريزة في إغراء لا تدفعه إلاّ يقظة القلب وعون الله.

وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها، ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفية التي يعرفونها أو يتحسسونها.. وهم شر من الجنّة وأخفىٰ منهم دبيباً!

والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية. ومن ثمَّ يدله الله على عدته وجنته وسلاحه في المعركة الرهيبة!

وهناك لفتة ذات مغزىٰ في وصف الوسواس بأنّه « الخناس ».. . فهذه الصفة تدل من جهته على تخفيه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس. ولكنها من جهة أُخرىٰ توحي بضعفه أمام من يستيقظ لمكره، ويحمي مداخل صدره. فهو ـ سواء كان من الجنّة أم كان من الناس ـ إذا ووجه خنس، وعاد من حيث أتىٰ، وقبع واختفىٰ. أو كما قال الرسول الكريم في تمثيله المصور الدقيق: «فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس».

وهذه اللفتة تقوي القلب على مواجهة الوسواس. فهو خناس. ضعيف أمام عدة المؤمن في المعركة.

ولكنها من ناحية أُخرىٰ ـ معركة طويلة لا تنتهي أبداً. فهو أبداً قابع

خانس، مترقب للغفلة. واليقظة مرة لا تغني عن اليقظات. والحرب سجال إلى يوم القيامة، كما صورها القرآن الكريم في مواضع شتّىٰ في القصة..

وهذا التصور لطبيعة المعركة ودوافع الشر فيها ـ سواء عن طريق الشيطان مباشرة أو عن طريق عملائه من البشر ـ من شأنه أن يشعر الإنسان أنَّه ليس مغلوباً على أمره فيها. فإنَّ ربَّه وملكه وإلـٰهه مسيطر على الخلق كله. وإذا كان قد أذِنَ لإبليس بالحرب، فهو آخذ بناصيته. وهو لم نسلطه إلَّا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلـٰههم. فأمَّا من يذكرونه فهم في نجاة من الشر ودواعيه الخفية. فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها، وإلى الحقيقة التي لا حقيقة غيرها. يستند إلى الرب الملك الإلـٰه. والشر يستند إلى وسواس خناس، يضعف عن المواجهة، ويخنس عند اللقاء، وينهزم أمام العياذ بالله.

﴿وإمَّا ينزغنَّك من الشَّيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنَّه سميع عليم﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وتأمَّل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنَّه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة شره جميعه. فإنَّ قوله: ﴿من شر الوسواس﴾ يعمّ كل شرّه، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شراً وأقواها تأثيراً وأعمّها فساداً.

والصدر هو ساحة القلب وبيته فمنه تدخل الواردات عليه فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب فهو بمنزلة الدهليز: ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر ثم تتفرق على الجنود. ومن فهم هذا فهم قوله تعالىٰ: ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحِّص ما في قلوبكم﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه إلى

القلب فهو يوسوس في الصدر ووسوسته واصلة إلى القلب ولهذا قال تعالىٰ في قصة آدم: ﴿فوسوس إليه الشَّيطان﴾ [طه: ١٢٠]. ولم يقل فيه. والله أعلم.

وقال القاضي أبو يعلىٰ: الوسواس يحتمل أن يفعل كلاماً خفياً يدركه القلب. ويمكن أن يكون هو الذي يقع عند الفكر ويكون منه حسّ وسلوك وذهول في أجزاء الإنسان.

قال ابن عقيل: فإن قال قائل: كيف الوسوسة من إبليس وكيف وصوله إلى القلب.. قل هو كلام على ما قيل تميل إليه النفوس والطبع[1]. وقد قيل

---

(١) والشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهمّ بالخير، أو يدخل عليه فهو يشتد عليه حينئذٍ ليقطعه، وقد علم عدو الله أَنَّ من اعتصم بالله عزَّ وجلّ، وأخلص له، وتوكَّل عليه، لا يقدر على إغوائه وإضلاله، فيدخل الشَّيطان على ابن آدم من باب كيده الأعظم، فإنه يجري منه مجرىٰ الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه، ويسألها عمَّا تحبه وتؤثره، فإذا عرفه استعان به على العبد، ودخل عليه من هذا الباب، وكذلك عَلَّم إخوانه وأولياءه من شياطين الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه، فإنَّه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود.

ذكر أبو الفرج ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» ص ٤٣: «قال القرشي: وسمعتُ سعيد بن سليمان يحدث عن المبارك بن فضالة عن الحسن قال: كانت شجرة تعبد من دون الله فجاء إليها رجل، فقال: لأقطعنَّ هذه الشجرة فجاء ليقطعها غضباً لله، فلقيه إبليس في صورة إنسان، فقال: ما تريد؟ قال: أُريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله، قال: إذا أنت لم تعبدها فما يضرك مَن عَبَدها؟ قال: لأقطعنَّها. فقال له الشيطان: هل لك فيما هو خير لك لا تقطعها ولك ديناران كل يوم إذا أصبحت عند وسادتك. قال: فمن أين لي ذلك؟ قال: أنا لك. فرجع. فأصبح فوجد دينارين عند وسادته ثمَّ أصبح بعد ذلك فلم يجد شيئاً، فقام غضباً ليقطعها فتمثَّل له الشيطان في صورته، وقال: ما تريد؟ قال: أُريد قطع هذه الشجرة التي تُعبد من دون الله تعالىٰ. قال: كذبت مالَكَ إلى ذلك من سبيل، فذهب ليقطعها فضربه به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله، قال: أتدري من أنا؟ أنا الشيطان جئتَ أول مرة غضباً لله فلم يكن لي عليك سبيل، فخدعتك بالدينارين فتركتها، فلمَّا جئت غضباً للدينارين سُلِّطت عليك. =

يدخل في جسد ابن آدم لأنَّه جسم لطيف ويوسوس وهو أن يحدث النفس بالأفكار الردية.

قال الزمخشري: كانت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ تقول: إنَّ الشياطين ليجتمعون على القلب كما يجتمع الذبان فإن لم يُذَبْ وقع الفساد.. **﴿وإمَّا ينزغنَّك من الشَّيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنَّه هو السميع العليم﴾** [فصِّلت: ٣٦]..

إنَّ مكائد الشَّيطان تبدأ على **صورة وسواس**.. خاطر يتسرب إلى النفس[1] رويداً رويداً حاملاً سموم الإثم والشر، فالاستعاذة بالله من

= فهذا هو السلطان الذي للشيطان على الناس، ولكن ليس له على ذلك سلطان وحجة وبرهان، وإنَّما استجاب له بمجرد دعوته إياه، لما وافقت هواه، فهو الذي أعانه على نفسه، ومكَّن عدوه من سلطانه عليه، بموافقته ومتابعته، فلمَّا نسي الله بما أعطاه الشيطان ومَنَّاه سُلِّط عليه، عقوبة له **﴿يَعدهم ويُمنِّيهم وما يعدهم الشيطان إلَّا غروراً﴾**.

فليحذر الإنسان الشيطان. فليحذر وَعْد الشيطان وما يُمَنِّي، «فوعده ما يصل إلى قلب الإنسان، نحو: سيطول عمرك. وتنال من الدنيا لذتك، وستعلو على أقرانك، والدنيا دُوَل ستكون لكَ كما كانت لغيرك، ويُطوِّل أمله، ويعده بالحسنىٰ على معاصيه، ويمنِّيه الأماني الكاذبة على اختلاف وجوهها، والفرق بين وعده وتمنيته أنَّه يَعد الباطل، ويُمنِّي المحال، والنفس المهينة التي لا قدر لها تقتدي بوعده وتمنيته، كما قال القائل:

مُنَىً إن تكن حقاً تكن أحسنَ المُنىٰ ... وإلَّا فقد عِشْنا بها زمناً رغداً

فالنفس المبطلة الخسيسة تلتذ بالأماني الباطلة والوعود الكاذبة، وتفرح بها، فالأقوال الباطلة مصدرها وَعْد الشيطان وتمنيته، فإنَّ الشيطان يمنِّي أصحابها الظفر بالحق وإدراكه، ويعدهم الوصول إليه من غير طريقه، فكل مُبطل فله نصيب من قوله: **﴿يعدهم ويُمنِّيهم، وما يعدهم الشَّيطان إلَّا غروراً﴾**. إغاثة اللهفان، ص: ١٢٦ ـ ١٢٧.

(١) إنَّ كثيراً من الناس لا يحذرون الخواطر، وهي الأفكار التي تدور في الذهن، وقد تتحول إلى قول أو عمل. مع أنَّها البداية لكل قول أو عمل. ذلك أنَّنا لو تأمَّلنا البدايات والنهايات للأقوال والأعمال لوجدنا أنَّها تبدأ في أول الأمر خواطر تجول في الذهن، حتى عندما تبدو أقوالنا وأفعالنا كأنَّما هي صادرة من ذواتنا الداخلية من وَحي اللحظة.

فلنحذر الخواطر، كما نحذر الأقوال والأعمال يقول الإمام المحاسبي: «وحاسب نفسك في كل خَطْرة، وراقب الله في كل نَفَس..».

الشَّيطان الرجيم حينئذٍ وقاية، تدفع محاولاته . .

إنَّ خالق هذا القلب البشري، الذي يعرف مداخله ومساربه، ويعرف طاقته واستعداده، ويعرف من أين يدخل الشَّيطان إليه، يحوط قلب المؤمن من نزغات الشَّيطان: ﴿فاستعذ بالله﴾. ﴿قل أعوذ بربِ الفلق من شر ما خلق﴾. . ﴿قل أعوذ بـرب النَّاس. . من شـر الوسـواس الخنَّاس الـذي يوسوس في صدور الناس من الجِنَّة والنَّاس﴾. .

= وللشيخ العلاَّمة ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالىٰ ـ كلامٌ في الخطرة والفكرة وما إليهما في غاية الدقة والنفاسة، ما أصدقه وما أحقّه؟! قال رحمه الله في كتابه «الفوائد» (ص ٣١ و ١٧٣ ـ ١٧٤) من الطبعة المنيرية المطبوعة بمصر سنة ١٣٤٤ هـ: «دافع الخطرة، فإن لم تفعلٍ صارت شهوة، فحاربْها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمَّة، فإن لم تدافعها صارت فعلاً، فإن لم تـتداركه بضدِّه صار عادةً! فيصعب عليك الانتقال عنها!! واعلم أنَّ مبدأ كل علم اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنَّها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوعَ الفعل. وكثرة تكراره تُعطي العادة، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها. فصلاحُ الخواطر بأن تكون مراقبةً لوليِّها وإلـهها، صاعدة إليه، دائرة على مرضاته ومحابّه، فإنَّه سبحانه به كل صلاح، ومن عنده كل هدى، ومن توفيقه كل رشد، ومن توليه لعبده كل حفظ. ومن تولِّي العبد وإعراضه عنه كلُّ ضلال وشقاء!. واعلم أنَّ الخطرات والوساوس تؤدي متعلّقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها التذكر فيؤديها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعَمَل، فتستحكم فتصير عادة. فردُّها من مبادئها أسهلُ من قطعها بعد قوتها وتمامها.

ومعلوم أنَّ الإنسان لم يُعْط إماتَةَ الخواطر، ولا القوة على قطعها، فإنَّها تَهْجُمُ عليه هجومَ النَّفس، إلاَّ أنَّ قوة الإيمان والعقل تُعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له، وعلى دفع أقبحها وكراهيته له ونفرته منه. وقد خلقَ الله سبحانه النَّفسَ شبيهة بالرَّحىٰ الدائرة التي لا تسكنُ ولا بد لها من شيء تطحنه. فإن وضع فيها حبّ طحنتْهُ، وإن وضع فيها ترابٌ أو حصىٰ طحنتْه!

فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحبّ الذي يوضعُ في الرّحىٰ، ولا تبقىٰ تلك الرحىٰ معطلة قط، بل لا بد لها من شيء يوضَعُ فيها، فمن النَّاس من تطحنُ رحاه حبّاً يخرج دقيقاً ينفعُ به نفسَهُ وغيره، وأكثرهم يطحن رملاً وحصىً وتبناً ونحوَ ذلك، فإذا جاء وقتُ العجن والخَبْز. تبيَّنَ له حقيقة طحينه!!».

ومعنىٰ «استعذ بالله» امتنع به واعتصم به وألجأ إليه. فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان..

وبعد، فإنَّ ذكر الله ـ كما يوجه الله بالاستعاذة بجلاله وعظمته ـ ليس مجرد الذكر والاستعاذة بالشفة واللسان. ولكنه الاستعاذة بالقلب والجنان. فالاستعاذة باسم الله إن لم يرتعش لها الوجدان، وإن لم يخفق لها القلب، وإن لم تعش به النفس.. إن لم يكن مصحوباً بالتضرع والتذلل والخشية والخوف.. لن يكون ذكراً يطرد الشيطان، واستعاذة واعتصام بالرَّحمـٰن.. بل قد يكون سوء أدب في حق الله سبحانه. إنَّما هو التوجه إلى الله بالتذلل والضراعة، وبالخشية والتقوىٰ، إنَّما هو استحضار جلال الله وعظمته، واستحضار المخافة لغضبه وعقابه، واستحضار الرجاء فيه والالتجاء إليه.. حتى يصفو الجوهر الروحي في الإنسان، ويتصل بمصدره اللدني الشفيف المنير.. هنا يخنس الشَّيطان وهذا معنىٰ حديث الرسول ﷺ: «الشَّيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس»..

فالاستعاذة وذكر الله هو تحرك اللسان مع القلب، فتنبس الشفاه مع الروح، ويتصل القلب بربه. إنَّه التذكر الدائم والاستحضار الدائم لجلال الله ـ سبحانه ـ ومراقبته في السر والعلن، وفي الصغيرة والكبيرة، وفي الحركة والسكنة، وفي العمل والنية..

وينهىٰ الله ـ سبحانه ـ الإنسان عن الغفلة حتى لا يقع في مصيدة الشيطان[1] ﴿ولا تكن من الغافلين﴾.. الغافلين عن ذكر الله.. لا بالشفة

---

(١) عقد الشيخ أبو الفرج عبد الرَّحمـٰن بن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس» باباً في «التحذير من فتن إبليس ومكايده» قال الشيخ أبو الفرج ـ رحمه الله ـ: «وينبغي أن تعلم أنَّ إبليس الذي شغله التلبيس أول ما التبس عليه الأمر فأعرض عن النص الصريح على السجود، فأخذ يفاضل بين الأُصول فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، ثمَّ أردف ذلك بالاعتراض على الملك الحكيم، فقال: ﴿أرأيتك هـٰذا الذي كرَّمت﴾ [الإسراء: ٦٢]. والمعنىٰ أخبرني لِمَ كرمته عليَّ؟ غرر ذلك الاعتراض أنَّ الذي فعلته ليس بحكمة. ثمَّ أتبع =

. . . . ن

= ذلك بالكبر فقال: ﴿أنا خير منه﴾، ثمَّ امتنع عن السجود فأهان نفسه التي أراد تعظيمها باللعنة والعقاب.

فمتىٰ سوَّل للإنسان أمراً فينبغي أن يحذر منه أشد الحذر، وليقل له حين أمره إياه بالسوء: إنَّما تريد بما تأمر به نصحي ببلوغي شهوتي، وكيف يتَّضح صواب النصح للغير لمن لا ينصح نفسه. ثمَّ كيف أثق بنصيحة عدو فانصرف فما فيّ لقولك منفذ، فلا يبقىٰ إلاَّ أنَّه يستعين بالنفس لأنَّه يحث على هواها، فليستحضر العقل إلى بيت الفكر في عواقب الذنب لعلَّ مدد توفيق يبعث ضد عزيمته فيهزم عسكر الهوىٰ والنفس.

ومن كيده للإنسان أنَّه يورده الموارد التي يخيل إليه أنَّ فيها منفعته، ثمَّ يصدره المصادر التي فيها عطبه، ويتخلّىٰ عنه ويسلمه ويقف يشمت به ويضحك منه، فيأمره بالزنا والقتل ويدل عليه ويفضحه كما فعل في الحديث التالي:

وقد روىٰ ابن الجوزي حديثاً بسنده عن وهب بن منبه ـ رضي الله عنه ـ: «أنَّ عابداً كان في بني إسرائيل ـ وكان من أعبد أهل زمانه ـ وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أُخت وكانت بكراً ليس لهم أُخت غيرها، فخرج البعث على ثلاثتهم فلم يدروا عند من يخلفون أُختهم ولا من يأمنون عليها ولا عند من يضعونها. قال: فأجمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بني إسرائيل، وكان ثقة في أنفسهم، فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده فتكون في كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غناتهم. فأبىٰ ذلك عليهم وتعوَّذ بالله منهم ومن أُختهم. قال: فلم يزالوا به حتى أطاعهم فقال: أنزلوها في بيت حذاء صومعتي. قال: فأنزلوها في ذلك البيت، ثم انطلقوا وتركوها، فمكثت في جوار ذلك العابد زماناً ينزل إليها بالطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة، ثمَّ يغلق بابه ويصعد إلى صومعته، ثمَّ يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام. قال: فتلطف له الشيطان فلم يزل يرغبه في الخير ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها فلو مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان أعظم أجراً قال: فلم يزل به حتى مشىٰ إليها بطعامها ووضعه على باب بيتها ولم يكلمها. قال: فلبث على هذه الحالة زماناً. ثمَّ جاءه إبليس فرغَّبه في الخير والأجر وحَضَّه عليه، وقال: لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم لأجرك. قال: فلم يزل به حتى مشىٰ إليها بالطعام ثمَّ وضعه في بيتها، فلبث على ذلك زماناً. ثمَّ جاءه إبليس فرغَّبه في الخير وحَضَّه عليه، فقال: لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك، فإنَّها قد استوحشت وحشة شديدة. قال: فلم يزل به حتى حدَّثها زماناً يطلع إليها من فوق صومعته، قال: ثمَّ أتاه إبليس بعد ذلك، فقال: لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها وتقعد هي على باب بيتها فتحدثك كان أُنساً لها. فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها. قال: فلبثا زماناً يتحدثان، ثمَّ جاءه إبليس =

= فرغَّبه في الخير والثواب فيما يصنع بها، وقال: لو خرجت من باب صومعتك ثمَّ جلست قريباً من باب بيتها فحدثتها كان آنسٌ لها، فلم يزل به حتى فعل. قال: فلبثا زماناً، ثمَّ جاءه إبليس فرغَّبه في الخير وفيما له عند الله سبحانه وتعالىٰ من حسن الثواب فيما يصنع بها. وقال له: لو دنوت منها وجلست عند باب بيتها فحدَّثتها ولم تخرج من بيتها ففعل، فكان ينزل من صومعته فيقف على باب بيتها فيحدثها فلبثا على ذلك حيناً، ثمَّ جاءه إبليس فقال: لو دخلت البيت معها فحدثتها ولم تتركها تُبرز وجهها لأحد كان أحسن بك. فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهارها كله فإذا مضىٰ النهار صعد إلى صومعته. قال: ثمَّ أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يُزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبَّلها. فلم يزل به إبليس يُحسنها في عينه ويُسَوِّل له حتى وَقَعَ عليها، فأحبلها، فولدت له غلاماً، فجاء إبليس فقال: أرأيتَ إن جاء إخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع؟ لا آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك. فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنَّها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها، ففعل فقال له: أتراها تكتم إخوتها ما صنعتَ بها وقتلتَ ابنها. قال: خذها واذبحها وادفنها مع ابنها. فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفرة مع ابنها، وأطبق عليهما صخرة عظيمة وسوّىٰ عليهما، وصعد إلى صومعته يتعبَّد فيها، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث حتى أقبل إخوتها من الغزو، فانظروا إليه، فأتىٰ إخوتها القبر فبكوا أُختهم وترحَّموا عليها، فأقاموا على قبرها أياماً، ثمَّ انصرفوا إلى أهاليهم. فلمَّا جَنَّ عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم جاءهم الشيطان في النوم على صورة رجل مسافر، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أُختهم فأخبره بقول العابد وموتها وترحّمه عليها، وكيف أراهم موضع قبرها فكذَّبه الشيطان. وقال: لم يصدقكم أمر أُختكم. إنَّه قد أحبلَ أُختكم وولدت منه غلاماً فذبحه وذبحها معه فَزَعاً منكم وألقاهما في حفرة احتفرها خلف باب البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله. فانطلقوا فادخلوا البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله فإنَّكم ستجدونهما كما أخبرتكم هناك جميعاً.

وأتىٰ الأوسط في منامه فقال له مثل ذلك، ثم أتىٰ أصغرهم، فقال له مثل ذلك، فلمَّا استيقظ القوم أصبحوا متعجبين ممَّا رأىٰ كل واحد منهم. فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم: لقد رأيتُ الليلة عجباً، فأخبر بعضهم بعضاً بما رأىٰ. فقال كبيرهم: هذا حلم ليس بشيء فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم. قال أصغرهم: والله لا أمضي حتى آتي إلى هذا المكان فأنظر فيه. قال: فانطلقوا جميعاً حتى أتوا البيت الذي كانت فيه أُختهم، ففتحوا الباب، وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم فوجدوا أُختهم وابنها مذبوحين في الحفرة، كما قيل لهم، فسألوا عنها العابد فصدَّق قول إبليس فيما صنع بهما، فاسْتَعْدُوا عليه ملكهم، فأُنزل من صومعته، وقُدِّم ليُصْلب، فلمَّا أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له: قد علمتَ أنّي أنا صاحبك الذي فَتَنْتُك بالمرأة حتى أحبلتها =

واللسان، ولكن بالقلب والجنان.. الذكر الذي يخفق به القلب؛ فلا يسلك صاحبه طريقاً يخجل أن يطلع عليه الله فيه؛ ويتحرك حركة يخجل أن يراه الله عليها؛ ولا يأتي صغيرة أو كبيرة إلاّ وحساب الله فيها.. فذلك هو الذكر الذي يعنيه قول الرسول ﷺ: «فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس».. وإلاّ فما هو ذكر لله ولا الاستعاذة به سبحانه إذا كان لا يصل القلب بربه، وإذا كان لا يؤدّي الطاعة والعمل والسلوك والتقوىٰ..

واذكر ربك ولا تغفل عن ذكره؛ ولا يغفل قلبك عن مراقبته، فالإنسان أحوج إلى أن يظل على اتصال بربه، ليتقوّىٰ على نزغات الشيطان: **﴿وإمَّا ينزغنَّك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله، إنَّه سميع عليم﴾**..

والإنسان أحوج المخلوقات إلى الذكر والعبادة والالتجاء إلى الله،

= وذبحتها وابنها، فإن أنت أطعتني اليوم وكفرتَ بالله الذي خلقك وصوَّرك خلَّصتك ممَّا أنت فيه. قال: فكفر العابد، فلمَّا كفر بالله تعالىٰ خَلَّىٰ الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه. قال: ففيه نزلت هذه الآية: **﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلمَّا كفر قال: إنِّي بريءٌ منك إنِّي أخاف الله رب العالمين. فكان عاقبتهما أنَّهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظَّالمين﴾** [الحشر: ١٦، ١٧].

وروى ابن كثير في تفسيره ٤/ ٣٤٠ **﴿كمثل الشيطان﴾**.. إذ سوَّل للإنسان ـ والعياذ بالله ـ الكفر، فإذا دخل فيما سوَّله تبرَّأ منه وتنصَّل وقال: **﴿إنِّي أخاف الله رب العالمين..﴾** وقد ذكر بعضهم هـهنا قصة لبعض عبّاد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المَثَل لا أنَّها المرادة وحدها بالمثَل بل هي مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها. وقد ذكر ابن كثير في تفسيره نقلاً عن ابن جرير عن علي ـ رضي الله عنه ـ قصة مشابهة في معناها لما رواه ابن الجوزي، وكذلك ذكر قصة أُخرىٰ بذات المعنىٰ عن عبد الله بن مسعود، وكذا روي عن ابن عباس وطاووس ومقاتل بن حيان نحو ذلك، واشتهر عند كثير من الناس أنَّ هذا العابد هو برصيصا فالله أعلم.

وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرت عنه هذه القصة، بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر والضلال وعصيان الله، لينصره ويقضي حاجته فإنَّه يتبرَّأ منه كما يتبرَّأ من أوليائه جملة في النار، ويقول لهم: **﴿إنِّي كفرت بما أشركتمون من قبل﴾** فأوردهم شر الموارد، وتبرَّأ منهم كل البراءة..

فطريقه شاق! وطبيعته قابلة لنزغ الشيطان! وقابلة للغفلة المردية فتستبد به نزوة أو تغلبه شهوة! وجهده محدود، وعدوه متربص كنود في الطريق الكؤود.. إنَّ ذكر الله عنصر أساسي في رحلة هذا المخلوق على الأرض. إنَّه حركة واقعية في الواقع البشري. وإنَّ مواجهة الشيطان مسألة شاقة عسيرة، ولا قِبَل للإنسان بمواجهة هذه المشقة دون عون ربه السميع العليم. فهو سبحانه السند، وهو العون في الطريق من كيد الشيطان الرجيم..

وليس أشقىٰ على وجه هذه الأرض ممَّن يحرمون حلاوة ذكر الله والاتصال به.. ليس أشقىٰ ممَّن ينطلق في رحلة حياته على الأرض يواجه عدوه بذاته الضعيفة.. ليس أشقىٰ ممَّن يعيش وهو يتتبع خطوات الشيطان.. ليس أشقىٰ في الحياة ممَّن يشق طريقه فريداً وحيداً شارداً فلاة يتخبَّطه الشيطان ويصرعه.. لا يقوم ولا يتحرك إلَّا حركة المصروع المضطرب القلق المتخبط الذي لا ينال استقراراً ولا طمأنينة ولا راحة ﴿ويريد الشَّيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾ [النساء: ٦٠]..

والشيطان مسلط على قلوب بني آدم ـ إلَّا من اعتصم بالله فهو في نجاة منه ـ وأمَّا من يركن إليه فهو لا ينفعه. فهو له عدو. إنَّما يرهقه ويُؤذيه. فهو في الضلال والقلق والحيرة التي تنوش قلب من يركن إلى عدوه، ولا يعتصم بالله منه ويستعيذ! كما هو مأمور منذ أبيه آدم وما كان بينه وبين إبليس من العداء القديم!

إنَّ الالتجاء إلى الله ومراقبته والاستعانة به سبحانه لدفع عداوة الشيطان ووسوسته لتبدو آثاره في الإنسان في التصورات والمشاعر كما تبدو في السلوك والتصرفات. وترسم هذه الحقيقة في كيان الإنسان خطاً واضحاً متميزاً. ولا تعود عداوة الشيطان للإنسان كلمة تقال باللسان.. ومن ثمَّ تلك العناية الطويلة بتقرير هذه الحقيقة.. فهي معنىٰ ضخم شامل يحتاج إلى تدبُّر وتقوىٰ وفهم وإدراك ﴿يَا أَيُّها النَّاس إنَّ وعد الله حق. فلا تغرَّنَّكم

الحياة الدُّنيا ولا يغُرَّنَّكم بالله الغرور. إنَّ الشيطان لكم عدوٌّ فاتَّخذوه عدوّاً إنَّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السَّعير﴾ [فاطر: ٥، ٦].

فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عداوته من زمن آدم وقد بذل نفسه وعمره في إفساد أحوال بني آدم. وقد أمر الله بالحذر منه واتخاذه عدواً.

وإنَّ الإنسان لينحرف عن الفطرة التي فطره الله عليها حين ينسىٰ تلك الحقيقة ويدع الرقابة ويمشي بغير رؤية فيتبع خطىٰ الشَّيطان. روىٰ الإمام أحمد من حديث عياض بن حماد أنَّ النَّبيّ ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: إنَّ ربِّي عزَّ وجلّ أمرني أن أُعلِّمكم ما جهلتم ممَّا علمني في يومي هذا كل مال نحلته عبادي حلال، وإنِّي خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنَّهم أتتهم الشياطين فأضلَّتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم وأمَرتهم أن يُشركوا بي ما لم أُنَزِّل به سلطاناً».

والشيطان **﴿إنَّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السَّعير﴾**.. إنَّه تعبير عجيب موحي، يقسر الإنسان فيه قسراً على التفات قلبه إلى تلك الحقيقة. فهو يصور حقيقة ملحوظة يراها القلب اليقظ حقاً.. فاتباع خطوات الشيطان هي الضلال. ثمَّ النهاية سوء المصير. إنَّ هذه اللمسة تشد القلوب الواعية المتفتحة المدركة لما وراء هذه الحقيقة **﴿ولا يصدَّنَّكم الشَّيطان. إنَّه لكم عدوٌّ مبين﴾** [الزُّخرف: ٦٢]..

وهكذا فالقرآن لا يفتأ يُذَكِّر البشر بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبيهم آدم، ومنذ المعركة الأولىٰ في الجنة. وأغفل الغافلين من يعلم أنَّ له عدواً يقف له بالمرصاد، عن عمد وقصد، وساق إنذار وإصرار، ثمَّ لا يأخذ حذره؛ ثمَّ يزيد فيصبح تابعاً لهذا العدو الصريح! **﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساءَ قريناً﴾** [النساء: ٣٨]..

ولقد أقام الإسلام الإنسان في هذه المعركة الدائمة بينه وبين الشيطان

طوال حياته على هذه الأرض؛ ورصد له من الغنيمة إذا هو انتصر ما لا يخطر على قلب بشر، ورصد له من الخسران إذا هو اندحر ما لا يخطر كلك على قلب بشر. وبذلك حوّل طاقة القتال فيه إلى هذه المعركة الدائبة؛ التي تجعل من الإنسان إنساناً، وتجعل له طابعه الخاص بين أنواع الخلائق المتنوعة الطبائع والطباع! والتي تجعل أكبر هدف للإنسان على الأرض أن ينتصر على عدوه الشيطان؛ فينتصر على الشر والخبث والرجس، ويثبت في الأرض قوائم الخير والنصح والطهر.

وكلّما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالىٰ كان اعتراض الشيطان له أكثر. وفي مسند الإمام أحمد من حديث سَبْرة بن أبي الفاكِه أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ الشيطان قعد لابن آدم بأطراقِهِ، فقعد له بطريق الإسام، فقال: أتسلم وتَذَرُ دينك ودين آبائك وآباء آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثمَّ قَعَدَ له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذرُ أرضكَ وسماءَكَ؟ وإنَّما مثلُ المهاجر كالفَرَس في الطِّوَلِ فعصاه فهاجر، ثمَّ قعد له بطريق الجهاد، وهو جهاد النفس والمال فقال: تُقاتل فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَح المرأة ويُقْسَم المال؟ قال: فعصاه فجاهد». وفي رواية ابن حبان في صحيحه: «فقال رسول الله ﷺ: «فمن فَعَلَ ذلك، فمات، كان حقاً على الله أن يُدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله، أن يُدخله الجنة، أو وَقَصَتْهُ دابة كان حقاً علىٰ الله أن يدخله الجنة»[1].

فالشيطان راصد للإنسان على طريق كل خير، فما من طريق إلَّا وإبليس قاعد عليه يقطعه على السالك.. فمن مكايده أنَّه يسحر العقل دائماً حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلَّا من اعتصم بالله، فيزين له فعل الخير الذي يضره حتى يُخيل إليه أنَّه من أنفع الأشياء، ويُنَفِّر من الفعل الذي هو من أنفع الأشياء له، حتى يُخيل إليه أنَّه يضره، فلا إلـه إلَّا الله. كم فَتَن بهذا

(١) انظر تخريج الحديث في الإحسان (رقم ٤٥٩٣).

السحر من إنسان، وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان؟ . .

فمن يتنكَّب طريق الله ورسوله فقد استحوذ عليه الشيطان، أفيظن الإنسان بجهله أنَّ الشيطان ناصح له، فالشيطان لا يدعو إلى هدىً، ولا يهدي إلى خير، فهو يزين مخالفة شرع الله، والرغبة عن طاعة الله ورسوله.

فكل داعية إلى معصية الله ورسوله فهو شيطان، وكل متكلم بغير طاعة الله فذلك صوت شيطان. . وكل ساع في معصية الله على قدميه هو من رِجل الشيطان، وكل راكب في معصية الله فهو من خيالة الشيطان. .

وكل من يمشي في طريق الغواية ومخالفة شرع الله وأمْره فقد استولىٰ عليه الشيطان كُلِّيةً فأنساه ذكر الله. . والقلب الذي ينسىٰ ذكر الله يفسد ويتمحض للشر **﴿أولئك حزب الشَّيطان﴾**. . الخالص للشيطان الذي يقف تحت لوائه، ويعمل باسمه، وينفذ غاياته. وهو الشر الخالص الذي ينتهي إلى الخسران الخالص: **﴿ألا إنَّ حزب الشيطان هم الخاسرون﴾** [المجادلة: ١٩].

أقدم الوصايا:

إنَّ أهم إيحاءات قصة آدم هو القيمة الكبرىٰ التي يعطيها التصور الإسلامي للمنهج الرباني الذي يرسمه الله للإنسان حتى يسير على هداه في رحلة الأرض: **﴿فإمَّا يأتينَّكم مني هدىً فمن تبع هدايَ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** [البقرة: ٣٨، ٣٩]. .

كانت هذه وصية الله تعالىٰ لآدم وزوجه حين أخرجهما من الجنة وأهبطهما إلى الأرض: **﴿قال: اهبطا منها جميعاً، بعضكم لبعض عدوٌّ﴾**. . لقد أعلنت الخصومة في الملأ الأعلىٰ بين آدم وذريته وبين إبليس وقبيله.

وشاءت رحمة الله بعباده أن يُرسل إليهم رسله بالهدىٰ. قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم. فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرىٰ بين آدم وإبليس، أنَّه آتيهم بهدىً منه، فمجاز كلاً منهم بعد ذلك حسبما ضلَّ أو اهتدىٰ.

﴿فإمَّا يأتينَّكم منِّي هدىً، فمن اتَّبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقىٰ. ومن أعرض عن ذكري فإنَّ له معيشةً ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمىٰ. قال: ربِّ لِمَ حشرتني أعمىٰ وقد كنتُ بصيراً؟ قال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسىٰ. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه، ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبقىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٧]..

كانت هذه وصية الله لأبوي البشر حين أهبطهما إلى الأرض «فهي من أقدم الوصايا لذلك كانت خليقة بأن تكون سنة كونية ـ لا يتخلف مدلولها عن أحد من خلقه تعالىٰ فن أي حال من الأحوال ـ والقرآن مليء بالسنن الكونية: أي القواعد من مثل واحد وواحد يساوي اثنين وخحسة في ستة يساوي ثلاثين، أشياء ثابتة لا تتغير ولا تتبدل. وهذه السنن الكونية ـ والله أعلم ـ وضعت لإرشاد الخلق إلى الحق؛ لأنَّ الإنسان قد يجد لنفسه عقلاً يفكر ويدبر، فيذهب به الشطط إلى الظن بأنَّه قادر على كل شيء بتفكيره وتدبيره، وأنَّه يستطيع أن يمضي في هذه الحياة بما يوحي إليه عقله من خير يحسبه شراً وشر يحسبه خيراً؛ لذلك وللحد من سلطان هذا العقل وضع الله تعالىٰ تلك السنن الكونية للإنسان العاقل ليهتدي بها ويسير على رشدها، كما وضع لسائر مخلوقاته من النواميس ما هو ثابت دائم كالشمس والقمر والكواكب والنبات والحيوان وما في السَّماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثَّرىٰ. كل ذلك لو نتأمله لوجدناه يسير على سننٍ لا تتخلف أبداً. فكذلك الإنسان وضعت له السنن الكونية فإن ائتمر بما أَمَر الله وانتهىٰ عمَّا نهىٰ كان له جزاءُ الحسنىٰ في الدنيا والآخرة.

تأمَّل الآية الكريمة: **﴿فإمَّا يأتينَّكم منِّي هدىً فمن اتَّبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقىٰ﴾**..

وهدىٰ الله تعالىٰ ما جاءت به الرسل والأنبياء، من اتبعه فقد نجا من الضلال والشقاء في الدنيا والآخرة. هذا وعد الله حق، لو اطمأنّت نفوسنا إليه، ورضينا به، وآمنّا، وعملنا بما جاء به الرسول عليه الصّلاة والسّلام القائل: «ما تركت من خير إلاّ وأمرتكم به، وما تركت من شر إلاّ ونهيتكم عنه»، لكان لنا عند الله ما وَعَد به المطيعين ولحق لنا، أن نكون له من السائلين»[1].

هذا الإنسان السائر عبر الأيام في طريق الزمان، يمضي أمسه لا يملك أن يردّه، ويحيط به يومه لا يملك أن يمسكه، ويتربّص به غده لا يدري ما يضمره.. أية قوة قوته، وأي سلطان سلطانه؟!

هذا الإنسان الموزع بين أمسه ويومه وغده، من أين جاء هو يوم جاء؟.. وليختر اليوم الذي يشاء يوم أُلقي نطفة أو يوم وُلد، وإلى أين يذهب يوم ينتهي.. يوم يموت؟ وهو يوم سيأتيه وإن أبىٰ، وسيجعله تحت التراب مهما شمخ، ولا رأي له يوم جاء ولا يوم ينتهي!

إنَّ لهذا الإنسان عمراً، يأتي ثم يذهب. لقد قضىٰ الله خالق الإنسان أن تكون للإنسان سُنة، هي قدرته أن يفعل وألاّ يفعل، وأن يستقيم وألاّ يستقيم، وجعل له من وراء ذلك إرادة يتنازعها الخير والشر، ومن بين يديه دنيا مليئة تُبتلىٰ فيها إرادته، ويصرفها هو على ما يشاء من خير أو شر، وشاءت رحمة الله أن تمسك بخطىٰ الإنسان فأرسل رُسله تحمل الهدىٰ ما يكفي للاهتداء. أمّا الرسل فهم مبشرون ومنذرون **﴿وما نرسل المرسلين إلاّ مبشرين ومنذرين﴾** [الكهف: ٥٦]، فهذه وظيفة الرسل، فالرسول بشر، يرسله الله ليبشِّر وينذر، وهنا تنتهي وظيفته، وتبدأ استجابة البشر، ويمضي قدر الله ومشيئته من خلال هذه الاستجابة، وينتهي الأمر بالجزاء الإلـهي وفق

---

(١) الإمام الهضيبي - رحمه الله - مجلة المسلمون - مجلد ١، العدد ٩، ص ١.

هذه الاستجابة: **﴿وما نرسل المرسلين إلاَّ مبشِّرين ومنذرين. فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذَّبوا بآياتنا يمسُّهُمُ العذاب بما كانوا يفسقون﴾** [الأنعام: ٤٨، ٤٩].

هذا الإنسان السائر عبر الأيام أنذره خالقه أنَّه مدعوّ بعد موته إلى حساب ما قدّم، وغيَّب عنه الموت حتى ترتبط فكرة الحساب بكل يوم من أيامه، وحتى يحذر أن يفجأه الموت وهو على غير ما يحب الله، ويدع القلب مجتهداً مستيقظاً لا ينام. فلا يدري إنسان متى يدركه أَجَلُه!

والسنة الكونية للبشرية في طريق الحياة هو ضبط النفس والامتثال للشريعة الإلـهية التي أنزلها على رُسله: **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إنَّ الله شديد العقاب﴾** [الحشر: ٧].

والمنهج الإلـهي موضوع لهذا الإنسان. موضوع ليعمل في كل بيئة، وفي كل مرحلة من مراحل النشأة الإنسانية، وفي كل حالة من حالات النفس البشرية الواحدة. وهو موضوع لهذا المخلوق الذي يعيش في هذه الأرض، آخذ في الاعتبار فطرة هذا الإنسان وطاقاته واستعداداته، وقوته وضعفه، وحالاته المتغيرة التي تعتريه.. إن ظنه لا يسوء بهذا الكائن فيحتقر دوره في الأرض، أو يهدر قيمته في صورة من صور حياته، سواء وهو فرد أو وهو عضو في جماعة. كذلك هو لا يهيم مع الخيال فيرفع هذا الكائن فوق قدره وفوق طاقته وفوق مهمته التي أنشأه الله لها يوم أنشأه.. ولا يفترض في كلتا الحالتين أنَّ مقومات فطرته سطحية تنشأ بقانون أو تكشط بجرة قلم!.. الإنسان هو هذا الكائن بعينه. بفطرته وميوله واستعداداته، يأخذ المنهج الإلـهي بيده ليرتفع به إلى أقصىٰ درجات الكمال المقدر له بحسب تكوينه ووظيفته، ويحترم ذاته وفطرته ومقوماته، وهو يقوده في طريق الكمال الصاعد إلى الله.. ومن ثمَّ فإنَّ المنهج الإلـهي موضوع للمدىٰ الطويل ـ الذي يعلمه خالق هذا الإنسان ومنزل هذا القرآن ـ ومن ثمَّ لم يكن معتسفاً ولا عجولاً في تحقيق غاياته العليا من هذا المنهج.

إنَّ المدىٰ أمامه ممتد فسيح، لا يحده عمر فرد، ولا تستحثه رغبة فان، يخشىٰ أن يعجله الموت عن تحقيق غايته البعيدة؛ كما يقع لأصحاب المذاهب الأرضية الذين يعتسفون الأمر كله في جيل واحد، ويتخطّون الفطرة المتّزنة الخطىٰ لأنّهم لا يصبرون على الخطو المتزن! وفي الطريق العسوف التي يسلكونها تقوم المجازر وتسيل الدماء، وتتحطم القيم، وتضطرب الأمور. ثم يتحطمون هم في النهاية، وتتحطم مذاهبهم المصطنعة تحت مطارق الفطرة التي لا تصمد لها المذاهب المعتسفة! فأمّا المنهج الإلـهي فيسير هيناً ليناً مع الفطرة، يدفعها من هنا، ويردعها من هناك، ويقومها حين تميل، ولكنه لا يكسرها ولا يحطمها. إنَّه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية المرسومة.. والذي لا يتم في هذه الجولة يتم في الجولة الثّانية أو الثّالثة أو العاشرة أو المئة أو الألف.. فالزمن ممتد، والغاية واضحة، والطريق إلى الهدف الكبير طويل، وكما تنبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها في التربة، وتتطاول فروعها وتتشابك.. كذلك ينبت الإسلام ويمتد في بطء وعلى هينة وفي طمأنينة. ثمَّ يكون دائماً ما يريده الله أن يكون.. والزرعة قد تسفىٰ عليها الرمال، وقد يأكل بعضها الدود، وقد يحرقها الظمأ، وقد يغرقها الري. ولكن الزارع البصير يعلم أنّها زرعة للبقاء والنماء، وأنّها ستغالب الآفات كلها على المدىٰ الطويل؛ فلا يعتسف ولا يقلق، ولا يحاول إنضاجها بغير وسائل الفطرة الهادئة المتزنة، السمحة الودود.. إنَّه المنهج الإلـهي في الوجود كله.. ﴿**ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً**﴾..

إنَّ الإقرار بالرسالة السماوية هو الذي يجعل هناك ضابطاً لما يريده الله من البشر، كي يتلقىٰ البشر في كل ما يتعلّق بالدينونة لله من مصدر واحد، هو هذا المصدر، وكي لا يقوم كل يوم طاغوت مغتر يقول للناس قولاً، ويشرع للناس شرعاً، ثمَّ يزعم أنَّه شرع الله وأمره! بينما هو يفتريه من عند نفسه!

ولقد شاءت الإرادة العليا، أن تبعث بالرسل بين الحين والحين، لتصل البشرية بالحقيقة المطلقة، التي ما كانت ملاحظتهم وتجربتهم لتبلغ إلى طرف منها إلاَّ بعد مئات القرون، وما كانت لتبلغ إليها كلها على مدار القرون. وقيمة هذا الاتصال هي استقامة خطاهم مع خطىٰ الكون، واستقامة حركاتهم مع حركة الكون. واستقامة فطرتهم مع فطرة الكون.

ومن ثمَّ كان هناك مصدر واحد يتلقىٰ منه البشر التصور الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنساني. ولغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني. ومن هذا التصور يمكن أن ينبثق المنهج الوحيد الصحيح القويم، الذي يتطابق مع حقيقة الكون وحقيقة حركته. وحقيقة اتجاهه. ويدخل به الإنسان والناس في السلم كافة. السلم مع الكون، السلم مع فطرتهم وهي من فطرة هذا الكون. والسلم مع بعضهم البعض في سعيهم ونشاطهم ونموّهم ورقيّهم المهيَّأ لهم في هذه الحياة الدنيا.

مصدر واحد هو مصدر الرسالات، وما عداه ضلال وباطل، لأنَّه لا يتلقّىٰ عن ذلك المصدر الوحيد الواصل الموصول. إنَّ وسائل المعرفة الأخرىٰ المتاحة للإنسان، معطاة له بقدر. ليكشف بها عن بعض ظواهر الكون وبعض قوانينه وبعض طاقاته. بالقدر اللازم له في النهوض بعبء الخلافة في الأرض، وتنمية الحياة وتطويرها. وقد يصل في هذا المجال إلى آماد بعيدة جداً. ولكن هذه الآماد لا تبلغ به أبداً إلى محيط الحقيقة المطلقة التي هو في حاجة إليها ليكيف حياته ـ لا وفق الأحوال والظروف الطارئة المتجددة فحسب، ولكن وفق القوانين الثابتة المطردة التي قام عليها الوجود، ووفق الغاية الكبرىٰ للوجود الإنساني كله.

هذه الغاية التي يراها خالق الإنسان المتعالي عن ملابسات الزمان والمكان. ولا يراها الإنسان المحدود المتأثر بملابسات الزمان والمكان. إنَّ الذي يضع خطة الرحلة للطريق كله. هو الذي يدرك الطريق كله. والإنسان

محجوب عن رؤية هذا الطريق. بل هو محجوب عن رؤية بعض هذا الطريق. بل هو محجوب عن اللحظة التالية. ودونه ودونها ستر مسبل لا يُباح لبشر أن يطلع وراءه! فأنّىٰ للإنسان أن يضع الخطة لقطع الطريق المجهول؟!

إنّه إمَّا الخبط والضلال والشرود. وإمَّا العودة إلى المنهج المستمد من خالق الوجود. منهج الرسالات ومنهج الرسل. ومنهج الفطرة الموصولة بالوجود وخالق الوجود. **﴿كان النَّاس أُمَّة واحدة، فَبَعث الله النَّبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾** [البقرة: ٢١٣]..

هذه هي القصة.. كان الناس أمة واحدة. على نهج واحد، وتصور واحد. وقد تكون هذه إشارة إلى حال المجموعة البشرية الأولىٰ الصغيرة من أسرة آدم وحواء وذراريهم، قبل اختلاف التصورات والعقائد. فالقرآن يقرر أنَّ الناس من أصل واحد. وهم أبناء الأسرة الأولىٰ: أسرة آدم وحواء. وقد شاء الله أن يجعل البشر جميعاً نتاج أسرة واحدة صغيرة، ليقرر مبدأ الأسرة في حياتهم، وليجعلها هي اللبنة الأولىٰ. وقد غبر عليهم عهد كانوا فيه في مستوىٰ واحد وتصور واحد واتجاه واحد في نطاق الأسرة الأولىٰ. حتى نمت وتعددت وكثر أفرادها، وتفرقوا في المكان، وتطورت معايشهم؛ وبرزت فيهم الاستعدادات المكنونة المختلفة، التي فطرهم الله عليها لحكمة يعلمها، ويعلم وراءها من خير للحياة في التنوع في الاستعدادات والطاقات والاتجاهات.

عندئذٍ اختلفت التصورات وتباينت وجهات النظر، وتعددت المناهج، وتنوعت المعتقدات.. وعندئذٍ بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.. وهنا تتبين تلك الحقيقة الكبرىٰ.. إنَّ من طبيعة الناس أن يختلفوا، لأنَّ هذا الاختلاف أصل من أصول خلقتهم؛ يحقق حكمة عليا من استخلاف هذا الكائن في الأرض..

إنَّ هذه الخلافة تحتاج إلى وظائف متنوعة، واستعدادات شتّىٰ من ألوان متعددة؛ كي تتكامل جميعها وتتناسق، وتؤدّي دورها الكلي في الخلافة والعمارة، وفق التصميم الكلي المقدر في علم الله. فلا بد إذن من تنوع في المواهب يقابل تنوع تلك الوظائف، ولا بد من اختلاف في الاستعدادات يقابل ذلك الاختلاف في الحاجات.. ﴿**ولو شاء ربك لجعل النَّاس أُمَّة واحدة. ولا يزالون مختلفين. ـ إلاَّ من رحم ربك ـ ولذلك خلقهم**﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

لو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد، وباستعداد واحد. نسخاً مكرورة لا تفاوت بينها، ولا تنويع فيها. وهذه ليست طبيعة هذه الحياة المقدرة على هذه الأرض. وليست طبيعة هذا المخلوق البشري الذي استخلفه الله في الأرض.

ولقد شاء الله أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهاته. وأن يوهب القدرة على حرية الاتجاه. وأن يختار هو طريقه، ويحمل تبعة الاختيار. ويُجازَىٰ على اختياره للهدىٰ أو للضلال.. هكذا اقتضت سنة الله وجرت مشيئته في أن يكون لهذا المخلوق أن يختار، وأن يلقىٰ جزاء منهجه الذي اختار.

شاء الله ألاَّ يكون الناس أُمة واحدة. فكان من مقتضىٰ هذا أن يكونوا مختلفين. وأن يبلغ هذا الاختلاف أن يكون في أُصول العقيدة ـ إلاَّ الذين أدركتهم رحمة الله ـ الذين اهتدوا إلى الحق ـ والحق لا يتعدد ـ فاتفقوا عليه. وهذا لا ينفي أنَّهم مختلفون مع أهل الضلال. وبعد، فالاختلاف في الاستعدادات والوظائف ينشىء بدوره اختلافاً في التصورات والاهتمامات والمناهج والطرائق.. ولكن الله يحب أن تبقىٰ هذه الاختلافات المطلوبة الواقعة داخل إطار واسع عريض يسعها جميعاً حين تصلح وتستقيم. هذا الإطار هو إطار التصور الإيماني الصحيح. الذي ينفسح حتى يضم جوانحه

على شتّىٰ الاستعدادات وشتّىٰ المواهب وشتّىٰ الطاقات؛ فلا يقتلها ولا يكبحها؛ ولكن ينظمها وينسقها ويدفعها في طريق الصلاح.

ومن ثمَّ لم يكن بد أن يكون هناك ميزان ثابت يفيء إليه المختلفون، وحكم عدل يرجع إليه المختصمون؛ وقول فصل ينتهي عنده الجدل، ويثوب الجميع منه إلى اليقين: **﴿فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾**..

ولا بد أن نقف عند قوله تعالىٰ: «بالحق».. فهو القول الفصل بأنَّ الحق هو ما جاء به الكتاب؛ وأنَّ هذا الحق قد أنزل ليكون هو الحكم العدل، والقول الفصل، فيما عداه من أقوال الناس وتصوراتهم ومناهجهم وقيمهم وموازينهم.. لا حق غيره. ولا حكم معه. ولا قول بعده. وبغير هذا الحق الواحد الذي لا يتعدد؛ وبغير تحكيمه في كل ما يختلف فيه الناس؛ وبغير الانتهاء إلى حكمه بلا مماحكة ولا اعتراض.. بغير هذا كله لا يستقيم أمر هذه الحياة؛ ولا ينتهي الناس من الخلاف والفرقة؛ ولا يقوم على الأرض السلام؛ ولا يدخل الناس في السلم بحال.

ولهذه الحقيقة قيمتها الكبرىٰ في تحديد الجهة التي يتلقّىٰ منها الناس تصوراتهم وشرائعهم؛ والتي ينتهون إليها في كل ما يشجر بينهم من خلاف في شتّىٰ صور الخلاف.. إنّها جهة واحدة لا تتعدد هي التي أنزلت هذا الكتاب بالحق؛ وهو مصدر واحد لا يتعدد هو هذا الكتاب الذي أنزله الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. **﴿فإمّا يأتينّكم منّي هدىً. فمن تبع هدايَ فلا يضلُّ ولا يشقىٰ. ومن أعرض عن ذكري فإنَّ له معيشةً ضنكاً﴾**.

وهو كتاب واحد في حقيقته فيه الهدىٰ، جاءت به الرسل جميعاً. فهو كتاب واحد في أصله، وهي ملة واحدة في عمومها، وهو تصور واحد في

قاعدته: إله واحد، وربٌّ واحد، ومعبود واحد، ومشرّع واحد لبني الإنسان..

والبشرية لم تسعد قط، ولم ترتفع إنسانيتها قط، ولم تكن في مستوىٰ الخلافة عن الله في الأرض إلاَّ في ظلال المنهج الرباني في الفترات التي فاءت فيها إلى ذلك المنهج القويم.

ومن هذا الهدىٰ في منهج الله الحق يستمد الإنسان المعرفة والطمأنينة والسكينة والارتياح لما يجري حوله، ولما يقع له. فهو يعرف من أين جاء؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب؟ وماذا واجد هناك؟... وقد علم أنَّه هنا لأمر، وأن كل ما يقع له مقدر لتمام هذا الأمر. وعلم أنَّ مزرعته الآخرة، وأنَّه مجزي على الصغيرة والكبيرة، وأنَّه لم يخلق عبثاً، ولن يترك سُدىٰ، ولن يمضي مفرداً..

وبهدىٰ الله يرتبط المؤمن بقلب مطمئن، وضمير مستريح، وروح مستبشرة أنَّه يلبس ثوب العمر بقَدَر الله الذي يصرف الوجود كله تصريف الحكيم الخبير. وأنَّ اليد التي ألبسته إياه أحكم منه وأرحم به، فلا ضرورة لاستشارته لأنَّه لم يكن ليشير كما يشير صاحب هذه اليد العليم البصير.

وأنَّه يلبسه لأداء دور معين في هذا الكون، يتأثر بكل ما فيه، ويؤثر في كل ما فيه. وأنَّ هذا الدور يتناسق مع جميع الأدوار التي يقوم بها كل كائن من الأشياء والأحياء منذ البدء حتى المصير.

وهو يعلم إذن لماذا جاء، كما يعرف أين المقر، ولا يُحار بين شتّىٰ الفكر، بل يقطع الرحلة ويؤدي الدورفي طمأنينة وفي ثقة وفي يقين. وقد يرتقي في المعرفة الإيمانية، فيقطع الرحلة ويؤدي الدور في فرح وانطلاق واستبشار، شاعراً بجمال الهبة وجلال العطية. ـ هبة العمر ـ الممنوح له من يد الكريم المنّان، الجميل اللطيف، الودود الرحيم. وهبة الدور الذي يؤدِّيه ـ كائناً ما كان من المشقة ـ لينتهي به إلى ربه في اشتياق حبيب.

﴿فإمَّا يأتينَّكم منِّي هدىً﴾ . . إنَّها رسالة السماء، شريعة الناس. أنزلها الله سبحانه على رسوله لتقيم منهج الله للحياة البشرية. المنهج الذي تقوم عليه الحياة في شتّىٰ شعبها ونشاطها، والشريعة التي تعيش الحياة في إطارها وتدور حول محورها. وتستمد منه تصورها الاعتقادي، ونظامها الاجتماعي، وآداب سلوكها الفردي والجماعي. وقد جاءت كذلك لِيُحكم بها، لا لتُعرف وتُدرس، وتتحول إلى ثقافة في الكتب والدفاتر! وقد جاءت لِتُتَّبع بكل دقة ولا يُترك شيء منها ويُستبدل به حكم آخر في صغيرة من شؤون الحياة أو كبيرة. . فإمَّا هذا وإمَّا الضلال والهوىٰ. . **﴿فمن اتَّبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقىٰ. ومن أعرض عن ذكري فإنَّ له معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمىٰ. .﴾**.

هذه هي أقدم الوصايا في نص قرآني صريح، فيتعين بذلك طريق الهدىٰ والنجاة، **﴿قد تبيَّن الرشد من الغيّ﴾**، فَهُدىٰ الله هو الرشد الذي ينبغي للإنسان أن يتوخّاه، ويحرص عليه. والكفر هو الغي والضلال، والشرود في تيه الشيطان الذي ينبغي للإنسان أن ينفر منه ويتقي أن يوصم به.

إنَّ هدىٰ الله هو الحق، والحق واحد لا يتعدد. ومن أعرض عنه فهو في ظلمات شتّىٰ وفي ضلال بعيد. والنار هي العاقبة اللائقة بأصحاب الظلمات وأهل الضلال وحزب الشيطان **﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** . . وإذا لم يتَّبعوا هدىٰ الله ونوره، فليخلدوا إذن في النار. .

ألا إنَّها الحقيقة بسيطة واضحة: فالجميع يقفون سواء أمام الله وكلهم مخاطب **﴿فمن اتَّبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقىٰ. ومن أعرض عن ذكري فإنَّ له معيشةً ضنكاً﴾** . . **﴿متاع في الدنيا. ثمَّ إلينا مرجعهم ثمَّ نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾** . .

متاع الدنيا قصير الأمد، وهو متاع مقطوع لأنَّه لا يتصل بالمتاع اللائق بالبشرية في الدار الآخرة. إنَّما يعقبه **﴿العذاب الشديد﴾** ثمرة للإعراض عن

هدىٰ الله والانحراف عن سنن الله الكونية المؤدية إلى المتاع العالي اللائق ببني الإنسان..

اللمسة الأخيرة :

واللمســة الأخيرة في هـذا التعقيب بيان رحمـة الله بضعف الإنسان ﴿**وخُلق الإنسان ضعيفاً**﴾ [النساء: ٢٨]..

إنَّ هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقلة الجسد أحياناً إلى درك الفاحشة، وتهيج به فورة اللحم والـدم فينزو نـزوة الحيوان في حمىٰ الشهوة، وتدفعه نزواته وشهواته وأطمـاعه ورغبـاته إلى المخالفة عن أمر الله في حمىٰ الاندفاع. يدرك ضعف هـذا المخلوق فلا يقسو عليه، ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه. ﴿**ومن يعمل سـوءاً أو يظلم نفسـه ثمَّ يستغفر الله يجـد الله غفـوراً رحيمـاً**﴾ [النسـاء: ١١٠]..

إنَّ القرآن الكريم يفتح باب التوبة على مصراعيه، وباب المغفرة على سعته، ويُطمع كل مذنب تائب في العفو والقبول.. إنَّه ـ سبحانه ـ موجود للمغفرة والرحمة حيثما قصده مستغفر منيب.. والذي يعمل السـوء يظلم غيره. ويظلم نفسه، وقد يظلم نفسه وحدها إذا عمل السيئة التي لا تـتعدىٰ شخصه.. وعلى أيّة حال فالغفور الرحيم يستقبل المستغفرين في كل حين؛ ويغفر لهم ويرحمهم متى جاؤوا تائبين. هكذا بلا قيد ولا شرط ولا حجاب ولا بوّاب! حيثما جاؤوا تائبين مستغفرين وجدوا الله غفوراً رحيماً.. وقـد روىٰ مسلم في صحيحــه عن أبي مـوسىٰ عبــد الله بن قيس الأشعـري ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالىٰ يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتّىٰ تطلع الشمس من مغربها»[1].

(١) وهي من أشراط الساعة وعلاماتها وآياتها ﴿يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو =

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»(١) قال القرطبي: هذا الحديث أُجري مجرى المثل الذي يُفهم منه قبول التوبة واستدامة اللطف والرحمة، وهي تنزل عن مقتضىٰ الغني القوي القاهر إلى مقتضىٰ اللطيف الرؤوف الغافر.

وعن أبي عبد الرَّحمـٰن عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله عزَّ وجلّ يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغر»(٢).

وحين تستقر هذه الحقيقة ـ رحمة الله بالإنسان ـ في قلب بشري يتم فيه تحول كامل في تصوراته ومشاعره واتجاهاته وموازينه وقيمه في هذه الحياة جميعاً.

إنَّها تصله بالله، تفتح أمامه باب الله. وتغلق في وجهه كل طريق من سُبل الشيطان. لا ضيق مع رحمة الله فهي أعطاف النعيم ومراتع الرخاء والسعادة. وسُبل الشيطان تدبُّ عليها عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة!

ومن رحمة الله أن تحس برحمة الله حين يُزحزحك الشيطان عن الصراط المستقيم! فرحمة الله تضمك وتغمرك وتفيض عليك. ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة. ورجاؤك فيها وتطلعك إليها هو الرحمة. وثقتك

= كسبت في إيمانها خيراً﴾ [الأنعام: ١٥٧]. انظر فصل «طلوع الشمس من مغربها» في كتاب «اليوم الآخر في ظلال القرآن».

(١) رواه مسلم برقم (٢٧٠٣).

(٢) أي ما لم تبلغ روحه الحلقوم، فيكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغر به المريض. قال الله تعالىٰ: ﴿وليست التوبة للَّذين يعملون السيِّئات حتَّىٰ إذا حضر أحدهم الموت قال إنِّي تبت الآن﴾ والحديث رواه الترمذي وقال: حديث حسن، وأخرجه أحمد، وابن ماجه، وصحَّحه ابن حبان، والحاكم.

بها وتوقعها هو الرحمة. والعذاب هو العذاب في احتجابك عنها أو يأسك منها أو شكك فيها: **﴿قل يَا عبادي الَّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إنَّ الله يغفر الذنوب جميعاً. إنَّه هو الغفور الرحيم﴾** [الزُّمر: ٥٣]..

إنَّها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية. كائنة ما كانت. وإنَّها الدعوة للأوبة. دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال. دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله. إنَّ الله رحيم بعباده. وهو يعلم ضعفهم وعجزهم. ويعلم العوامل المسلّطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجه. ويعلم أنَّ الشيطان يقعد لهم كل مرصد. ويأخذ عليهم كل طريق. ويجلب عليهم بخيله ورجله. وأنَّه جاد كل الجد في عمله الخبيث! ويعلم أنَّ بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واه. وأنَّه مسكين سرعان ما يسقط إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه والعروة التي تشده. وأنَّ ما ركب في كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشط به هنا أو هناك؛ ويوقعه في المعصية وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم..

يعلم الله ـ سبحانه ـ عن هذا المخلوق كل هذا فيمد له في العون؛ ويوسع له في الرحمة؛ ولا يأخذه بمعصيته حتّىٰ يهيِّىء له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطاه على الصراط. وبعد أن يلج في المعصية، ويسرف في الذنب، ويحسب أنَّه قد طُرد وانتهىٰ أمره، ولم يعد يُقبل ولا يُستقبل. في هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط التي يوسعها الشيطان في صدره، يسمع نداء الرحمة الندي اللطيف: **﴿لا تقنطوا من رحمة الله إنَّ الله يغفر الذنوب جميعاً. إنَّه هو الغفور الرحيم﴾**..

وليس بينه ـ وقد أسرف في المعصية، ولجَّ في الذنب، وأَبِقَ عن الحمىٰ، وشرد عن الطريق ـ ليس بينه وبين الرحمة الندية الرخية، وظلالها

السمحة المحيية. ليس بينه وبين هذا كله إلاَّ التوبة. التوبة وحدها. الأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع، والذي لايحتاج من يلج فيه إلى استئذان ﴿**وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثمَّ لا تنصرون**. . .﴾. . الإنابة. والإسلام. والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام. . هذا هو كل شيء. بلا طقوس ولا مراسم ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء! إنَّه حساب مباشر بين العبد والرب. وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق. من أراد الأوبة من الشاردين فليؤب. ومن أراد الإنابة من الضالين، فلينب. ومن أراد الاستسلام من العصاة فليستسلم. وليأت ﴿**يجد الله غفوراً رحيماً**﴾. . ليأت وليدخل فالباب مفتوح. والفيء والظل والندىٰ والرخاء: كله وراء الباب لا حاجب دونه ولا حسيب!

ولا بد مع هذه اللمسة الأخيرة من التذكير بفكرة الإسلام عن الخطيئة والتوبة. . إنَّ الخطيئة فردية والتوبة فردية، في تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض. . ﴿**ومن يكسب إثماً فإنَّما يكسبه على نفسه. . وكان الله عليماً حكيماً**﴾ [النساء: ١١١]. .

وهذه الآية تؤكد على تقرير فردية التبعة. وهي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي في الجزاء، والتي تثير في كل قلب شعور الخوف وشعور الطمأنينة. الخوف من عمله وكسبه. والطمأنينة من أن لا يحمل تبعة غيره. . ليست هناك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده. ليست هناك خطيئة موروثة في الإسلام، كالتي تتحدث عنها نظرية الكنيسة وتصورات الكنيسة. وليس هناك تكفير لاهوتي، كالذي تقول الكنيسة إنَّ عيسىٰ ـ عليه السَّلام ـ (ابن الله بزعمهم) قام به بصلبه، تخليصاً لبني آدم من خطيئة آدم! . .

كلا! خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة: ﴿**قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا**

وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرين﴾.. ﴿فتلقّى آدم كلمات من ربه فتاب عليه، إنَّه هو التوَّاب الرحيم﴾.. وخطيئة كل ولد من أولاد آدم خطيئته كذلك شخصية، والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة. تصور مريح صريح يحمل كل إنسان وزره، ويوحي إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط.. ﴿إنَّ الله توَّاب رحيم﴾..

عندئذٍ تنطلق كل نفس في رحلتها على الأرض حذرة ممَّا تكسب. مطمئنة إلى أنَّها لا تحاسب إلَّا على ما تكسب.. توازن عجيب، في هذا التصور الفريد. هو إحدى خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، التي تُطمئن الفطرة، وتحقق العدل الإلهي المطلق؛ المطلوب أن يحاكيه بنو الإنسان.

إنَّ القرآن الكريم لا يغلق في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة، ولا يلقيه منبوذاً حائراً في تيه الشيطان! ولا يدعه مطروداً خائفاً من المآب.. إنَّه يطمعه في المغفرة، ويدله على الطريق ﴿ألم يعلموا أنَّ الله هو يقبل التوبة عن عباده؟..﴾، ﴿وأنَّ الله هو التوَّاب الرَّحيم﴾..

ألم يعلموا أنَّ الله هو يقبل التوبة عن عباده؟..

وهو استفهام تقريري يفيد: فليعْلموا أنَّ الله هو يقبل التوبة، والله هو يتوب ويرحم عباده..

وأخيراً لا بد من بيان طبيعة التوبة وحقيقتها:

إنَّ التوبة التي يقبلها الله، والتي تفضل فكتب على نفسه قبولها هي التي تصدر من النفس، فتدل على أنَّ هذه النفس قد أنشئت نشأة أخرى فَتَابَتْ وأنابت، وهي في فسحة من العمر، وعزمت بنية صادقة في سلوك طريق جديد.. ﴿إنَّما التَّوبة على الله للَّذين يعملون السوء بجهالة ثمَّ يتوبون من قريب فأُولئك يتوب الله عليهم. وكان الله عليماً حكيماً﴾ [النساء: ١٧]..

والذين يعملون السوء بجهالة هم الذين يرتكبون الذنوب. . وهناك ما يشبه الإجماع على أنَّ الجهالة هنا معناها الضلالة عن الهدىٰ ـ طال أمدها أم قصر ـ ما دامت لا تستمر حتى تبلغ الروح الحلقوم. . والذين يتوبون من قريب: هم الذين يتوبون إلى الله قبل أن يتبين لهم الموت، ويدخلوا في سكراته، ويحسوا أنَّهم على عتباته. فهذه التوبة حينئذٍ هي توبة الندم، والانخلاع عن الخطيئة، والنية على العمل الصالح والتكفير. وهي إذن نشأة جديدة للنفس، ويقظة جديدة للضمير. ﴿**فأولٰئك يتوب الله عليهم**﴾. . ﴿**وكان الله عليماً حكيماً**﴾. يتصرف عن علم وعن حكمة. ويمنح عباده الضعاف فرصة العودة إلى الصف الطاهر، ولا يطردهم أبداً وراء الأسوار، وهم راغبون حقيقة في الحمىٰ الآمن والكنف الرحيم.

إنَّ الله ـ سبحانه ـ لا يطارد عباده الضعاف، ولا يطردهم متىٰ تابوا إليه وأنابوا. وهو ـ سبحانه ـ غني عنهم، وما تنفعه توبتهم، ولكن تنفعهم هم أنفسهم، وتصلح حياتهم وحياة المجتمع الذي يعيشون فيه. ومن ثمَّ يفسح لهم في العودة إلى الصف تائبين متطهرين. وأمَّا من أحاطت به خطيئته وقد لجَّ في الضلال يتتبع خطوات الشيطان: ﴿**وليست التوبة للَّذين يعملون السيئات حتّىٰ إذا حضر أحدهم الموت قال: إنِّي تبت الآن**﴾. .

فهذه التوبة هي توبة المضطر، لجت به الغواية. توبة الذي يتوب لأنَّه لم يعد لديه متّسعاً لارتكاب الآثام والخطايا. . وهذه لا يقبلها الله، لأنَّها لا تنشىء صلاحاً في القلب ولا صلاحاً في الحياة، ولا تدل على تبدل في الطبع ولا تغير في الاتجاه.

والتوبة إنَّما تقبل لأنَّها الباب المفتوح الذي يلجه الشاردون إلى الحمىٰ الآمن، فيستردون أنفسهم من الضلال، وتستردهم البشرية من القطيع الضال تحت راية الشيطان، ليعملوا عملاً صالحاً ـ إن قدر الله لهم امتداد العمر بعد المتاب.

﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾.. وهؤلاء قد قطعوا كل ما بينهم، وبين التوبة من وشيجة، وضيعوا كل ما بينهم وبين المغفرة من فرصة.. ﴿أولـئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾.

وهَيَّا أيها الناس. هيا قبل فوات الأوان. هيا ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت...﴾ فيترك كل شيء وراءه؛ وينظر فلا يجد أنَّه قدم شيئاً لنفسه، وهذا أحمق الحمق وأخسر الخسران، ثمَّ يرجو حينئذٍ ويتمنىٰ أن لو كان قد أُمهل ليكون من الصَّالحين! ﴿فيقول: ربِّ لولا أخَّرتني إلى أجلٍ قريب فأصَّدَّق وأكن من الصَّالحين﴾..

وأنَّىٰ له هذا؟ ﴿ولن يؤخِّر الله نفساً إذا جاء أجلها، والله خبير بما تعملون﴾ [المنافقون: ١٠، ١١]..

إنَّها لحظات الحسرة والندامة حين يواجه الإنسان الحقيقة التي يفرّ منها، فالموت حتم لا مهرب منه، وما بعده من رجعة إلى الله، وحساب على العمل حتم كذلك لا ريب فيه.. ﴿حتّىٰ إذا جاء أحدهم الموت قال: ربِّ ارجعون، لعلِّي أعمل صالحاً فيما تركت﴾.. [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].. إنَّه مشهد الاحتضار، وإعلان التوبة عند مواجهة الموت، وطلب الرجعة إلى الحياة، لتدارك ما فات، والإصلاح فيما ترك وراءه من أهل ومال.. وكأنَّما المشهد معروض اللحظة للأنظار، مشهود كالعيان! فإذا الرد على هذا الرجاء المتأخر لا يوجه إلى صاحب الرجاء، إنَّما يُعلن على رؤوس الأشهاد: ﴿كلا، إنَّها كلمة هو قائلها...﴾ كلمة لا معنىٰ لها، ولا مدلول وراءها، ولا تنبغي العناية بقائلها. إنَّها كلمة الموقف الرهيب، لا كلمة الإخلاص المنيب. كلمة تقال في لحظة الضيق، ليس لها في القلب من رصيد!

وهيا. هيا قبل فوات الأوان. هيا ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب ثمَّ لا تُنصرون﴾.. فما هنالك من نصير. هيا فالوقت غير مضمون. وقد يفصل في الأمر وتغلق الأبواب في أية لحظة من لحظات الليل والنهار. هيا

﴿واتبعوا أحسن ما أُنزل إليكم من ربكم﴾ . . وهو هذا القرآن بين أيديكم . . **﴿من قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً وأنتم لا تشعرون﴾** . .

هيا قبل أن تتحسروا على فوات الفرصة، وعلى التفريط في حق الله، وعلى السخرية بوعد الله: **﴿أن تقول نفس: يَا حسرتا على ما فرَّطتُ في جنب الله، وإن كنت لمن السَّاخرين﴾** . .

أو تقول إنَّ الله كتب عليَّ الضلال ولو كتب عليَّ الهدىٰ لاهتديت واتَّقيت: **﴿أو تقول لو أنَّ الله هداني لكنت من المتَّقين﴾** . .

وهي علالة لا أصل لها. فالفرصة ها هي ذي سانحة، ووسائل الهدىٰ ما تزال حاضرة. وباب التوبة ها هو ذا مفتوح! **﴿أو تقول حين ترىٰ العذاب: لو أنَّ لي كرة فأكون من المحسنين﴾** . .

وهي أُمنية لا تنال. فإذا انتهت الحياة فلا كرة ولا رجوع. وها أنتم أُولاء في دار العمل. وهي فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود. وستسألون عنها مع التبكيت والترذيل: **﴿بلىٰ. قد جاءتك آياتي فكذبتَ بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾** [الزُّمر: ٥٩] . .

هيا قبل أن تلقوا صفحات جهنَّم. تُنادون وتستغيثون. وفي الوقت أمامكم فسحة، قبل أن تُنادوا وتستغيثوا، ولاتَ حين مناص. ولا موضع حينذاك للغوث ولا للخلاص! **﴿والذين كفروا لهم نار جهنَّم، لا يُقضىٰ عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها. كذلك نجزي كل كفور﴾** . .

ها نحن أُولاء يطرق أسماعنا صوت غليظ محشرج مختلط الأصداء، متناوح من شتّىٰ الأرجاء. إنَّه صوت المنبوذين في جهنَّم: **﴿وهم يصطرخون فيها﴾** . . وجرس اللفظ يلقي في الحس هذه المعاني جميعاً. . فلنتبين من ذلك الصوت الغليظ ماذا يقول. إنَّه يقول: **﴿ربَّنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾** .

إنَّه الإنابة والاعتراف والندم. ولكن بعد فوات الأوان. فها نحن أُولاء نسمع الرد الحاسم يحمل التأنيب القاسي: ﴿**أوَلَم نعمِّركم ما يتذكر فيه من تذكر؟**﴾.. فلم تنتفعوابهذه الفسحة من العمر وهي كافية للتذكر لمن أراد أن يتذكر. ﴿**وجاءكم النذير**﴾.. زيادة في التنبيه والتحذير. فلم تتذكروا ولم تحذروا ﴿**فذوقوا فما للظّالمين من نصير**﴾..

هيا قبل أن تلفح وجوهكم النار حتى تكلح، وتُشوه هيئتها، ويكدر لونها.. هيا قبل أن تلقوا هذا المشهد المخزي المؤذ المهين الأليم.. ﴿**ومن خفت موازينه فأُولـئك الذين خسروا أنفسهم في جهنّم خالدون. تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون**﴾..

هيا قبل فوات الأوان. هيا قبل أن يوجه إليكم التأنيب والخزي مع العذاب الفظيع ﴿**ألم تكن آياتي تُتلىٰ عليكم فكنتم بها تكذِّبون!**﴾ وكأنّما يخيل إليهم ـ وقد سمعوا هذا السؤال ـ أنَّهم مأذونون في الكلام، مسموح لهم بالرجاء، وأنَّ الاعتراف بالذنب قد يجدي في قبول الرجاء: ﴿**قالوا: ربَّنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين.. ربَّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون**﴾.. وهو اعتراف تتجلىٰ فيه المرارة والشقوة.. ولكن كأنَّما هم قد تجاوزوا حدهم وأساؤوا أدبهم، فلم يكن مأذوناً لهم في غير الإجابة على قدر السؤال. بل لعلَّه كان سؤالاً للتبكيت لا يطلب عليه منهم جواب. فهم يُزجرون زجراً عنيفاً قاسياً: ﴿**قال: اخسأوا فيها ولا تُكلِّمون**﴾.. اخرسوا واسكتوا سكوت الأذِلاَّء المهينين، فإنَّكم لتستحقون ما أنتم فيه من العذاب والشقاء المهين..

هـذا هـو المصير الأخير في رحلة الإنسان على الأرض. مصير المتكبِّرين، مصير الذين صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه!

هيا قبل فوات الأوان ﴿**واتَّقوا يوماً تُرجعون فيه إلىٰ الله. ثمَّ تُوفىٰ كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون**﴾ [البقرة: ٢٨١].. ومن شاء بعد هـذا

فليلبِّ النداء إلى الرحمة الندية الظليلة وراء الباب المفتوح. ومن شاء فليبق في إسرافه وفي فساده وشروره حتى يأخذهم العذاب وهم لا يشعرون!

مفرق الطريق

هذه قِيَم ثَرَّة من إيحاءات قصة آدم ـ عليه السَّلام ـ. وهي ثروة من الحقائق والتصورات القويمة، وثروة من الإيحاءات والتوجيهات الكريمة، وثروة من الأسس التي يقوم عليها تصور إنساني واجتماعي، وأوضاع إنسانية واجتماعية، يحكمها المنهج الإلـهي بالخُلق والخير والفضيلة.

ومن هذه القيم نستطيع أن ندرك أهمية القصص القرآني في تركيز وترسيخ قواعد التصور الإسلامي؛ وإيضاح القيم التي يرتكز عليها. وهي القيم التي تليق بعالم صادر عن الله، مُتَّجه إلى الله، صائر إلى الله في نهاية المطاف.. عقد الاستخلاف فيه قائم على تلقّي الهدىٰ من الله، والتقيد بمنهجه في الحياة. ومفرق الطريق فيه أن يسمع الإنسان ويطيع لما يتلقّاه من الله، أو أن يسمع الإنسان ويطيع لما يمليه عليه الشيطان. وليس هناك طريق ثالث.. إمَّا الله وإمَّا الشيطان. إمَّا الهدىٰ وإمَّا الضلال. إمَّا الحق وإمَّا الباطل. إمَّا النور وإمَّا الظلمات. إمَّا اليقين والاطمئنان وإمَّا الحيرة والارتياب. إمَّا الفلاح وإمَّا الخسران.

وهذه الحقيقة التي يعبر عنها القرآن كله، بوصفها الحقيقة الأُولىٰ، التي تقوم عليها سائر التصورات، وسائر الأوضاع في عالم الإنسان.. **﴿ومن يُطع الله ورسوله ويخشَ الله ويتَّقِه فأُولـئك هم الفائزون﴾** [النور: ٥٢]..

إنَّ السمع والطاعة لهدىٰ الله بلا تردد ولا جدال ولا انحراف. السمع والطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أنَّ هدىٰ الله هو الهدىٰ والنور وما عداه الهوىٰ والظلام؛ النابعان من التسليم المطلق لله، واهب الحياة، المتصرف فيها كيف يشاء؛ ومن الاطمئنان إلى أن ما يشاؤه الله للناس خير

ممَّا يشاءونه لأنفسهم. فالله الذي خلق أعلم بمن خلق..

وهدىٰ الله منهاج حياة كامل؛ فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها، وفي كل علاقاتها وارتباطاتها، وفي كل حركاتها وسكناتها. ومن ثمَّ يتولىٰ بيان الآداب اليومية الصغيرة، كما يتولىٰ بيان التكاليف العامة الكبيرة؛ ويُنَسِّق بينها جميعاً، ويتجه بها إلى الله في النهاية.. ﴿**ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً**﴾ [الأحزاب: ٧١].

والطاعة بذاتها فوز عظيم. فهي استقامة على نهج الله. والاستقامة على نهج الله مريحة مطمئنة. والاهتداء إلى الطريق المستقيم الواضح الواصل سعادة بذاته، ولو لم يكن وراءه جزاء سواه. وليس الذي يسير في الطريق الممهود المنير وكل ما حوله من خلق الله يتجاوب معه ويتعاون كالذي يسير في الطريق المقلقل المظلم وكل ما حوله من خلق الله يعاديه ويصادمه ويؤذيه! فطاعة الله وخشيته طريق النجاة في الدنيا والآخرة. وَعْد الله لن يخلف الله وعده.

وبعد، توكيد بعد توكيد للقاعدة الأساسية في حياة الإنسان. قاعدة التلقّي من الله وحده: ﴿**فإمَّا يأتينَّكم منِّي هدىً فمن تبع هدايَ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أُولـئك أصحاب النَّار هم فيها خالدون**﴾..

التلقي من الله وحده، وإلاَّ فهو الكفر والفسوق والعصيان ﴿**أُولـئك أصحاب النّار هم فيها خالدون**﴾.

إنَّ طاعة الله هي الاتّباع لهديه ومنهجه وحده بلا شريك.. فالله وحده هو الذي يختار للناس منهج حياتهم. والله وحده هو الذي يسنّ للناس شرائعهم. والله وحده هو الذي يضع للناس موازينهم وقيمهم وأوضاع حياتهم وأنظمة مجتمعاتهم. وطاعة الله ورسوله تحمل جزاءها في ذاتها؛ وهي الفوز العظيم، قبل يوم الحساب وقبل الفوز بالنعيم. أمَّا نعيم الآخرة

فهو فضل زائد على جزاء الطاعة. فضل من كرم الله وفيضه بلا مقابل..

ويترتب على طاعة الله ورسوله فيها الجنَّة والخلود والفوز العظيم. كما يترتب على تعديها وعصيان الله ورسوله فيها النار والخلود والعذاب المهين.. ﴿**ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. وذلك الفوز العظيم.. ومن يَعصِ الله ورسوله ويتعدَّ حدوده يُدخله ناراً خالداً فيها، وله عذاب مهين**﴾ [النساء: ١٣، ١٤]..

هذا هو الأمر في حياة الإنسان في جملته وفي حقيقته.. هذه هي الحقيقة الكبيرة، التي تؤكد عليها قصة آدم والتعقيب عليها، تعرضها عرضاً صريحاً حاسماً، لا يقبل المماحكة، ولا يقبل التأويل.

وهذه هي الحقيقة التي ينبغي أن يتبينها كل إنسان في هذه الأرض في كل زمان ومكان ليرىٰ أين هو من طاعة الله باتباع هديه ومنهجه، وأين حياته من هذا المنهج والهدي الإلـٰهي..

وبعد هذا العرض تبيَّن: «أنَّ شخصية آدم في القصة نموذج «للإنسان» بكل مقوماته وخصائصه. ومن أظهر تلك المقومات والخصائص ذلك الضعف البشري الأكبر الذي يجمع كل نواحي الضعف الأُخرىٰ. الضعف أمام الرغبة في الخلود. وقد لمس إبليس موضع الضعف هذا فاستجاب له آدم واستجابت له حواء: ﴿**قال: هل أدلُّكما على شجرة الخلد ومُلك لا يبلىٰ**﴾. فالإنسان الفاني حريص على الخلود أبداً، فلمَّا لم ينله كما منَّاه الشيطان، ظل وسيظل يحاوله بمختلف الطرق. بالنسل وبالذكر وبالخيال. فإن لم ينفعه هذا كله نفعه الدين الذي يضمن له البعث مرة أُخرىٰ نوعاً من الخلود أيضاً!

أمَّا شخصية إبليس فهي شخصية الشيطان وكفىٰ...»[1].

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ١٧١.

وفي النهاية نرى أنَّ ختام القصة ينعطف على افتتاحها، فيبين طبيعة التصور الإيماني، مع السمع والطاعة:

﴿أَلَم أعهد إليكم يَا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنَّه لكم عدوٌّ مبين. وأن اعبدوني هـٰذا صراط مستقيم﴾..

﴿وقال الشَّيطان لمَّا قضي الأمر: إنَّ الله وعدكم وَعْد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم؛ وما كان لي عليكم من سلطان إلاَّ أن دعوتكم فاستجبتم لي. فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾..

﴿ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه. إلاَّ فريقاً من المؤمنين. وما كان له عليهم من سلطان إلاَّ لنعلمَ من يؤمن بالآخرة مِمَّن هو منها في شك. وربك على كل شيء حفيظ﴾..

ومن ثمَّ يتناسق البدء والختام، وتتجمع إيحاءات القصة بين صفتين: طاعة الله واتباع هداه، أو عصيانه واتباع الهوىٰ والشيطان.. والناس فريقان: الفريق الذي اتبع أمر الله والفريق الذي اتبع أمر الشيطان: **﴿كما بدأكم تعودون﴾..**

وقد بدأوا الرحلة فريقين: آدم وزوجه. والشيطان وقبيله.. وكذلك سيعودون.. الطائعون سيعودون فريقاً مع أبيهم آدم وأمهم حواء المسلمين المؤمنين المتَّبعين لأمر الله.. والعصاة سيعودون مع إبليس وقبيله، يملأ الله منهم جهنَّم، بولائهم لإبليس وولايته لهم. وهم يحسبون أنَّهم مهتدون.

لقد هدىٰ الله من جعل ولايته لله.. وأضلَّ من جعل ولايته للشيطان.. وها هم أولاء عائدين فريقين: **﴿فريقاً هدىٰ وفريقاً حقَّ عليهم الضلالة. إنَّهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنَّهم مهتدون﴾.**

ها هم أولاء عائدين، في لمحة تضم طرفي الرحلة! على طريقة القرآن، التي يتعذر أن تتحقق في غير أُسلوب القرآن! وبين الغدو

والرواح يعرض القرآن الكريم. معارك الهدىٰ والضلال. معارك الرهط الكريم من الرسل والموكب الكريم من المؤمنين، مع الملأ المستكبرين والأتباع المستخفين. ويعرض الصراع المتكرر؛ والمصائر المتشابهة. وتـتجلىٰ صحائف الإيمان في إشراقها ووضاءتها؛ وصحائف الضلال في انطماسها وعتامتها. وتعرض مصارع المكذبين بين الحين والحين. حيث تقف الآيات القرآنية عليها للتذكير والتحذير. وهذه الوقفات تجيء وفق نظام ملحوظ في سياق سور القرآن.. فبعد كل مرحلة يتوقف عندها القرآن ليقول كلمة! كلمة تعقيب للإنذار والتذكير. ثمَّ يمضي.

إنَّها قصة البشرية بجملتها في رحلتها ذهاباً وإياباً. تـتمثل فيها حركة هذه العقيدة في تاريخ البشرية، ونتائج هذه الحركة في مداها المتطاول. حتى تنتهي إلى غايتها الأخيرة في نقطة المنطلق الأولىٰ.. وهي وجهة قرآنية رائعة مؤثرة في عرض موضوع العقيدة..

قصة ابني آدم

قصة ابني آدم

﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق: إذ قرَّبا قرباناً، فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتقبَّل من الآخر قال: لأقتلنَّك. قال: إنَّما يتقبل الله من المتَّقين. لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إنِّي أخاف الله رب العالمين. إنِّي أُريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين. فطوَّعت له نفسه قتل أخيه، فقتله، فأصبح من الخاسرين. فبعث الله غراباً يبحث في الأرض، ليريه كيف يـواري سوأة أخيـه. قال: يَـا ويلتا! أعجزت أن أكون مثل هـٰذا الغراب، فأُواري سوأة أخي؟ فأصبح من النادمين. . .﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣١]. .

هذه القصة تقدم نموذجاً لطبيعة الشر والعدوان؛ ونموذجاً كذلك من العـدوان الصارخ الـذي لا مبرر لـه. كما تقـدم نموذجـاً لـطبيعـة الخيـر والسماحة؛ ونموذجاً كذلك من الطيبة والوداعة. وتقفهما وجهاً لوجه، كل منهما يتصرف وفق طبيعته. . وترسم الجريمة المنكرة التي يرتكبها الشر، والعدوان الصارخ الذي يثير الضمير؛ ويثير الشعور بالحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل، تكف النموذج الشرير المعتدي عن الاعتداء؛ وتخـوفه وتردعه بالتخويف عن الإقدام على الجريمة؛ فإذا ارتكبها ـ على الرغم من ذلك ـ وجد الجزاء العادل، المكافىء للفعلة المنكرة. كما تصون النموذج الطيب الخير وتحفظ حرمة دمه. فمثل هذه النفوس يجب أن تعيش، وأن

تُصان، وأن تأمن؛ في ظل شريعة عادلة رادعة. ولا يحدد السياق القرآني لا زمان ولا مكان ولا أسماء القصة.. وعلى الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن: «قابيل وهابيل» وأنّهما هما ابنا آدم في هذه القصة؛ وورد تفصيلات عن القضية بينهما، والنزاع على أختين لهما.. فإنّنا نؤثر أن نستبقي القصة ـ كما وردت في القرآن ـ مجملة بدون تحديد. لأنّ هذه الروايات كلها موضع شك في أنّها مأخوذة عن أهل الكتاب ـ والقصة واردة في العهد القديم محددة فيها الأسماء والزمان والمكان على النحو الذي تذكره هذه الروايات ـ والحديث الوحيد الصحيح الوارد عن هذا النبأ لم يرد فيه تفصيل. وهو من رواية ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقْتَل نفس ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنّه كان أول من سنّ القتل».

رواه الإمام أحمد في مسنده: حدّثنا أبو معاوية ووكيع قالا: حدّثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود.. وأخرجه الجماعة ـ سوى أبو داود ـ من طرق عن الأعمش.

وكل ما نستطيع أن نقوله هو أنّ الحادث وقع في فترة طفولة الإنسان، وأنّه كان أول حادث قتل عدواني متعمد، وأنّ الفاعل لم يكن يعرف طريقة دفن الجثث..

وبقاء القصة مجملة ـ كما وردت في سياقها القرآن ـ يؤدي الغرض من عرضها؛ ويؤدي الإيحاءات كاملة؛ ولا تضيف التفصيلات شيئاً إلى هذه الأهداف الأساسية.. لذلك نقف نحن عند النص العام لا نخصصه ولا نفصله..

﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قرّبا قرباناً، فتقبل من أحدهما ولم يُتقبَّل من الآخر. قال: لأقتلنّك. قال: إنّما يتقبَّل الله من المتَّقين﴾..

واتل عليهم نبأ هذين النموذجين من نماذج البشرية. اتله عليهم

بالحق. فهو حق وصدق في روايته، وهو ينبىء عن حق في الفطرة البشرية، وهو يحمل الحق في ضرورة الشريعة العادلة الرادعة.

إنَّ ابني آدم هذين في موقف لا يثور فيه خاطر الاعتداء في نفس طيبة. فهما في موقف طاعة بين يدي الله. موقف تقديم قربان، يتقربان به إلى الله.. **﴿فتقبِّل من أحدهما، ولم يُتقبَّل من الآخر﴾**..

والفعل مبني للمجهول، ليشير بناؤه هكذا إلى أنَّ أمر القبول أو عدمه موكول إلى قوة غيبية؛ وإلى كيفية غيبية.. وهذه الصياغة تفيدنا أمرين:

الأوَّل: ألاَّ نبحث نحن عن كيفية هذا التقبل ولا نخوض فيه كما خاضت كتب التفسير في روايات نرجح أنَّها مأخوذة عن أساطير «العهد القديم»..

والثَّاني: الإيحاء بأنَّ الذي قبل قربانه لا جريرة له توجب الحفيظة عليه وتبييت قتله، فالأمر لم يكن له يد فيه؛ وإنَّما تولته قوة غيبية بكيفية غيبية؛ تعلو على إدراك كليهما وعلى مشيئته.. فما كان هناك مبرر ليحنق الأخ على أخيه، وليجيش خاطر القتل في نفسه! فخاطر القتل هو أبعد ما يرد على النفس المستقيمة في هذا المجال.. مجال العبادة والتقرب، ومجال القدرة الغيبية الخفية التي لا دخل لإرادة أخيه في مجالها..

﴿قال: لأقتلنَّك﴾..

وهكذا يبدو هذا القول ـ بهذا التأكيد المنبىء عن الإصرار ـ نابياً مثيراً للاستنكار لأنَّه ينبعث من غير موجب، اللهمَّ إلاَّ ذلك الشعور الخبيث المنكر. **شعور الحسد الأعمىٰ**؛ الذي لايعمر نفساً طيبة..

وهكذا نجدنا منذ اللحظة الأُولىٰ ضد الاعتداء: بإيحاء الآية التي لم تكمل من السياق.

ولكن السياق يمضي يزيد هذا الاعتداء نكارة وبشاعة؛ بتصوير استجابة النموذج الآخر؛ ووداعته وطيبة قلبه: **﴿قال: إنَّما يتقبل الله من المتَّقين﴾**.

هكذا في براءة ترد الأمر إلى وضعه وأصله؛ وفي إيمان يدرك أسباب القبول؛ وفي توجيه رفيق للمعتدي أن يتّقي الله؛ وهداية له إلى الطريق الذي يؤدِّي إلى القبول؛ وتعريض لطيف به لا يصرح بما يخدشه أو يستثيره. . .

ثمَّ يمضي الأخ المؤمن التقي الوديع المسالم يكسر من شرة الشر الهائج في نفس أخيه الشرير:

﴿لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إنِّي أخاف الله رب العالمين﴾ . .

وهكذا يرتسم نموذج من الوداعة والسلام والتقوىٰ؛ في أشد المواقف استجاشة للضمير الإنساني؛ وحماسة للمعتدىٰ عليه ضد المعتدي؛ وإعجاباً بهد ئه واطمئنانه أمام نذر الاعتداء؛ وتقوىٰ قلبه وخوفه من رب العالمين.

ولقد كان في هـذا القول اللين مـا يفثأ الحقـد؛ ويهدىء الحسـد، ويسكن الشر، ويمسح على الأعصاب المهتاجة؛ ويرد صاحبها إلى حنـاة الأخوة، وبشاشة الإيمان، وحساسية التقوىٰ.

أجل. لقد كان في ذلك كفاية. . ولكن الأخ الصالح يضيف إليه النذير والتحذير:

﴿إنِّي أُريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النَّار، وذلك جزاء الظَّالمين﴾ . .

إذا أنتَ مددت يدك إليَّ لتقتلني، فليس من شأني ولا من طبعي أن أفعل هذه الفعلة بالنسبة لك. فهذا الخاطر ـ خاطر القتل ـ لا يدور بنفسي أصلاً، ولايتَّجه إليه فكري إطلاقاً. . خوفاً من الله رب العالمين. . لا عجزاً عن إتيانه. . وأنا تاركك تحمل إثم قتلي وتضيفه إلى إثمك الذي جعل الله لا يتقبل منك قربانك؛ فيكون إثمك مضاعفاً، وعذابك مضاعفـاً. . **﴿وذلك جزاء الظالمين﴾** . .

وبذلك صور له إشفاقه هو من جريمة القتل، ليثنيـه عمَّا تـراوده به

نفسه، وليخجله من هذا الذي تحدثه به نفسه تجاه أخ مسلم وديع تقي.

وعرض له وزر جريمة القتل لينفره منه، ويزين له الخلاص من الإثم المضاعف، بالخوف من الله رب العالمين، وبلغ من هذا وذلك أقصىٰ ما يبلغه إنسان في صرف الشر ودوافعه عن قلب إنسان. ولكن النموذج الشرير لا تكمل صورته، حتى نعلم كيف كانت استجابته:

﴿فطوَّعت له نفسه قتل أخيه، فقتله، فأصبح من الخاسرين﴾.

بعد هذا كله. بعد التذكير والعظة والمسالمة والتحذير. بعد هذا كله اندفعت النفس الشريرة، فوقعت الجريمة. وقعت وقد ذللت له نفسه كل عقبة، وطوَّعت له كل مانع.. طـوَّعت له نفسه القتل.. وقتل من؟ قتل أخيه.. وحقَّ عليه النذير: **﴿فأصبح من الخاسرين﴾**..

خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك. وخسر أخاه ففقد الناصر والرفيق.. وخسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة. وخسر آخرته فباء بإثمه الأوَّل وإثمه الأخير.

ومثلت له سوأة الجريمة في صورتها الحسية. صورة الجثة التي فارقتها الحياة وباتت لحماً يسري فيه العفن، فهي سوأة لا تطيقها النفوس..

وشاءت حكمة الله أن تقفه أمام عجزه ـ وهو الباطش القاتل الفاتك ـ عن أن يواري سوأة أخيه. عجزه عن أن يكون كالغراب في أمة الطير:

﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه. قال: يَا ويلتا! أعجزت أن أكون مثل هـٰذا الغراب فأواري سوأة أخي؟ فأصبح من النادمين﴾..

وتقول بعض الروايات: إنَّ الغراب قتل غراباً آخر، أو وجد جثة غراب أو جاء ومعه جثة غراب، فجعل يحفر في الأرض، ثمَّ واراه وأهال عليه التراب.. فقال القاتل قولته. وفعل مثلما رأىٰ الغراب يفعل..

وظاهر أنَّ القاتل لم يكن قد رأىٰ من قبل ميتاً يدفن ـ وإلاَّ لفعل ـ وقد يكون ذلك لأنَّ هذا كان أول ميت في الأرض من أبناء آدم. أو لأنَّ القاتل كان حدثاً ولم ير من يدفن ميتاً.. والاحتمالان قائمان. وظاهر كذلك أنَّ ندمه لم يكن ندم التوبة ـ وإلاَّ لقبل الله توبته ـ وإنَّما كان الندم الناشىء من عدم جدوىٰ فعلته، وما أعقبته له من تعب وعناء وقلق.

كما أنَّ دفن الغراب لأخيه الغراب، قد يكون من عادات الغربان كما يقول بعض الناس. وقد يكون حدثاً خارقاً أجراه الله.. وهذه كتلك سواء.. فالذي يودع الأحياء غرائزهم هو الذي يجري أي حدث على يد أي حي.. هذا من قدرته، وهذا من قدرته على السواء.

وهنا يلتقط السياق الآثار العميقة التي تتركها في النفس رواية النبأ بهذا التسلسل، ليجعل منها ركيزة شعورية للتشريع الذي فرض لتلافي الجريمة في نفس المجرم؛ أو للقصاص العادل إن هو أقدم عليها بعد أن يعلم آلام القصاص التي تنتظره.

﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل: أنَّه من قتل نفساً ـ بغير نفس أو فساد في الأرض ـ فكأنَّما قَتَلَ الناس جميعاً؛ ومن أحياها فكأنَّما أحيا النَّاسَ جميعاً. ولقد جاءتهم رسلنا بالبيِّنات؛ ثمَّ إنَّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾ [المائدة: ٣٢]..

من أجل ذلك.. من أجل وجود هذه النماذج في البشرية.. من أجل الاعتداء على المسالمين الوادعين الخيرين الطيبين، الذين لا يريدون شراً ولا عدواناً.. ومن أجل أنَّ الموعظة والتحذير لا يجديان في بعض الجبلات المطبوعة على الشر، وأنَّ المسالمة والموادعة لا تكفَّان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس.. من أجل ذلك جعلنا جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة، تعدل جريمة قتل الناس جميعاً؛ وجعلنا العمل على دفع القتل واستحياء نفس واحدة عملاً عظيماً يعدل إنقاذ الناس جميعاً.. وكتبنا ذلك على بني إسرائيل فيما شرعنا لهم من الشريعة.

إنَّ قتل نفس واحدة ـ في غير قصاص، وفي غير دفع فساد في الأرض ـ يعدل قتل الناس جميعاً. لأنَّ كل نفس ككل نفس؛ وحق الحياة واحد ثابت لكل نفس. فقتل نفس واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته؛ الحق الذي تشترك فيه كل النفوس. كذلك دفع القتل عن نفس، واستحياؤها بهذا الدفع ـ سواء كان بالدفاع عنها في حالة حياتها أو بالقصاص لها في حالة الاعتداء عليها لمنع وقوع القتل على نفس أُخرىٰ ـ هو استحياء للنفوس جميعاً، لأنَّه صيانة لحق الحياة الذي تشترك فيه النفوس جميعاً.

ويكثر في القرآن النهي عن هذه الجريمة المنكرة: **﴿ولا تقتلوا النَّفس التي حرَّم الله إلَّا بالحق﴾** [الأنعام: ١٥١].. فالاعتداء إنَّما يقع على حق الحياة ذاتها، وعلى النفس البشرية في عمومها. وعلى هذه القاعدة كفل الله حرمة النفس ابتداء. وهناك طمأنينة الجماعة المسلمة في دار الإِسلام وأمنها، وانطلاق كل فرد فيها ليعمل وينتج آمناً على حياته، لا يُؤذَىٰ فيها إلَّا بالحق. والحق الذي تؤخذ به النفس بَيَّنه الله في شريعته، ولم يتركه للتقدير والتأويل.

وفي ظلال هذه القصة لا بد من بيان في علاقات المسلمين بعضهم ببعض، مهما اختلفت الديار، فلا قتل ولا قتال.. **لا قتل إلَّا في حدٍّ أو قصاص**.. فإنَّه لا يوجد سبب يبلغ من ضخامته أن يفرق ما بين المسلم والمسلم من وشيجة العقيدة. ومن ثمَّ لا يقتل المسلم المسلم أبداً. وقد ربطت بينهما هذه الرابطة الوثيقة. اللَّهمَّ إلَّا أن يكون ذلك خطأً.. وللقتل الخطأ وضعت التشريعات والأحكام[1]. فأمَّا القتل العمد فلا كفارة له. لأنَّه وراء الحسبان! ووراء حدود الإِسلام!

---

(١) ﴿ومن قَتَلَ مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودِيَّة مسلَّمة إلىٰ أهله ـ إلَّا أن يصَّدَّقوا ـ فإن كان من قوم عدو لكم ـ وهو مؤمن ـ فتحرير رقبة مؤمنة. وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية =

لهذا يستبعد القرآن حالة القتل العمد **﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلاَّ خطأً﴾** [النساء: ٩٢]، فالقرآن يستبعد وقوعها، ابتداءً. فليس من شأنها أن تقع. إذ ليس في هذه الحياة الدنيا كلها ما يساوي دم مسلم يريقه مسلم عمداً. وليس في ملابسات هذه الحياة الدنيا كلها من شأنه أن يوهن من علاقة المسلم بالمسلم إلى حد أن يقتله عمداً. وهذه العلاقة التي أنشأها الإسلام بين المسلم والمسلم من المتانة والعمق والضخامة والغلاوة والإعزاز بحيث لا يفترض الإسلام أن تخدش هذا الخدش الخطير أبداً..

إنَّ وجود مسلم إلى جوار مسلم مسألة كبيرة. كبيرة جداً. ونعمة عظيمة. عظيمة جداً. ومن العسير تصور أن يقدم مسلم على إزالة هذه النعمة عن نفسه؛ والإقدام على هذه الكبيرة عن عمد وقصد..

إنَّ هذا العنصر.. المسلم.. عنصر عزيز في الأرض.. وأشد الناس شعوراً بإعزاز هذا العنصر هو المسلم نفسه.. فمن العسير أن يقدم على إعدامه بقتله.. وهذا أمر يعرفه أصحابه. يعرفونه في نفوسهم ومشاعرهم. وقد علَّمهم الله إيَّاه بهذه العقيدة. وبهذه الوشيجة. وبهذه القرابة التي تجمعهم في رسول الله ﷺ ثمَّ ترتقي فتجمعهم في الله سبحانه الذي ألَّف بين قلوبهم. ذلك التأليف الرباني العجيب.

إنَّ القتل العمد هو الكبيرة التي لا ترتكب مع إيمان؛ والتي لا تكفّر عنها دية ولا عتق رقبة؛ وإنَّما يوكل جزاؤها إلى عذاب الله:

﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنَّم خالداً فيها، وغضب الله عليه ولعنه. وأعدَّ له عذاباً عظيماً﴾ [النساء: ٩٣]..

إنَّها جريمة قتل لا لنفس فحسب ـ بغير حق ـ ولكنها كذلك جريمة

= مسلَّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة. فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين. توبة من الله. وكان الله عليماً حكيماً﴾ [النساء: ٩٢] انظر في ظلال القرآن ٧٣٥، وتفسير القرطبي وابن كثير وغير ذلك.

قتل للوشيجة العزيزة الحبيبة الكريمة العظيمة، التي أنشأها الله بين المسلم والمسلم. إنَّها تَـنَـكُّر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها.

أمَّا أهل الكتاب في دار الإسلام. أهل الذمة المعاهدين، فإنَّ عهدهم مع المؤمنين يجعل دماؤهم مصونة كدماء المسلمين.. والإسلام دين الحياة ودين السلام، فقَتْل النفس عنده كبيرة[1] تلي الشرك بالله، فالله واهب

---

(١) قال النَّبيّ ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: «وما هنَّ يَا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلَّا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولِّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي..

وقال النَّبيّ ﷺ: «إذا التقىٰ المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار»، قيل: يَا رسول الله: هذا القاتل. فما بال المقتول؟ قال: لأنَّه كان حريصاً على قتل صاحبه». رواه أحمد والشيخان.

قال الإمام أبو سليمان ـ رحمه الله ـ: هذا إنَّما يكون كذلك إذا لم يكونا يقتتلان على تأويل، إنَّما يقتتلان على عداوة بينهما وعصبية أو طلب دنيا أو رئاسة أو علو، فأمَّا من قاتل أهل البغي على الصفة التي يجب قتالهم بها، أو دَفَعَ عن نفسه أو حريمه فإنَّه لا يدخل في هذه، لأنَّه مأمور بالقتال للذبِّ عن نفسه غير قاصد به قتل صاحبه. إلَّا إن كان حريصاً على قتل صاحبه. ومن قاتل باغياً أو قاطع طريق من المسلمين فإنَّه لا يحرص على قتله، إنَّما يدفعه عن نفسه، فإن انتهىٰ صاحبه كفَّ عنه ولم يتبعه. فإنَّ الحديث لم يرد في أهل هذه الصفة. فأمَّا من خالف هذا النعت فهو الذي يدخل في هذا الحديث الذي ذكرنا. والله أعلم.

وقال رسول الله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» متفق عليه وهو من حديث «خطبة الوداع».

وقال رسول الله ﷺ: «لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً».

قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله. رواه البخاري والحاكم وقال صحيح على شرطهما. والورطات جمع ورطة: وهي المشكلة وكل أمر تعسر النجاة منه (الترغيب).

وقال ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء» رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه. وفي الحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا» رواه النسائي والبيهقي من حديث بريدة وشاهده عند مسلم والنسائي والترمذي من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً وموقوفاً. قاله المنذري ورواه البيهقي والأصبهاني وابن ماجه بإسناد حسن عن البراء بن عازب رفعه. أ هـ. =

الحياة، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلاَّ بإذنه وفي الحدود التي يرسمها: ﴿ولا تقتلوا النَّفس التي حرَّم الله إلاَّ بالحق﴾ [الإسراء: ٣٣].. وكل نفس هي حرم لا يمس، وحرام إلاَّ بالحق، وهذا الحق الذي يبيح قتل النفس محدد لا غموض فيه، وليس متروكاً للرأي ولا متأثراً بالهوىٰ. وقد جاء في الصحيحين أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يحلُّ دم امرىءٍ مسلم يشهد أن لا إلـٰه إلاَّ الله وأنَّ محمَّداً رسول الله إلاَّ بإحدىٰ ثلاث: النفس بالنفس، والـزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

فأمَّا الأُولىٰ فهي القصاص العادل الذي إن قتل نفساً فقد ضمن الحياة لنفوس ﴿ولكم في القصاص حياة﴾. حياة تكف يد الذين يهمون بالاعتداء على الأنفس والقصاص ينتظرهم فيردعهم قبل الإقدام على الفعلة النكراء. وحياة بكف يد أصحاب الدم أن تثور نفوسهم فيثأروا ولا يقفوا عند القاتل، بل يمضوا في الثأر، ويتبادلوا القتل فلا يقف هذا الفريق وذاك حتى نسيل

= وقال ﷺ: «الكبائر: الإشراك بالله وقتل النفس واليمين الغموس» رواه البخاري ومسلم والنسائي من حديث عبد الله بن عمرو. وسميت غموساً لأنَّها تغمس صاحبها في النار.

وقال ﷺ: «من قَتَلَ معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإنَّ رائحتها لتوجد من مسيرة أربعين عاماً». أخرجه البخاري والنسائي عن ابن عمرو رفعه كما ذكر الذهبي، والمنذري في الترغيب والترهيب.

فإذا كان هذا في قتل المعاهد ـ وهو الذي أعطىٰ عهداً من اليهود والنصارىٰ في دار الإسلام ـ فكيف بقتل المسلم.

وقال ﷺ: «ألا ومن قتل نفساً معاهِدَة لها ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر ذمة اللهُ ولا يرح رائحة الجنة وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة خمسين خريفاً» أخرجه الترمذي وصححه.

وقال ﷺ: «من أعان قتل مسلم بشطر كلمة لقي الله مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله تعالىٰ» رواه الإمام أحمد.

وعن معاوية ـ رضي الله عنه ـ: قال: قال رسول الله ﷺ: «كل ذنب عسىٰ الله أن يغفره إلاَّ الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً». أخرجه النسائي والحاكم، وقال صحيح الإسناد، وروىٰ أبو داود وابن حبان وصححه عن أبي الدرداء رفعه. [انظر الكبائر للإمام الذهبي: الكبيرة الثانية].

دماء ودماء. وحياة يأمن كل فرد على شخصه واطمئنانه إلى عدالة القصاص، فينطلق آمناً يعمل وينتج فإذا الأمَّة كلها في حياة.

وأمَّا الثَّانية فهي دفع للفساد القاتل في انتشار الفاحشة، وهي لون من ألوان القتل(١).

أمَّا الثَّالثة فهي دفع للفساد الروحي الذي يشيع الفوضىٰ في الجماعة، ويهدد أمنها ونظامها الذي اختاره الله لها ويسلمها إلى الفرقة القاتلة. والتارك لدينه المفارق للجماعة إنَّما يُقتل لأنَّه اختار الإسلام لم يجبر عليه، ودخل في جسم الجماعة، واطلع على أسرارها، فخروجه بعد ذلك عليها فيه تهديد لها. ولو بقي خارجها ما أكرهه أحد على الإسلام. بل لتكفل الإسلام بحمايته إن كان من أهل الكتاب وبإجارته وإبلاغه مأمنه إن كان من المشركين. وليس بعد ذلك سماحة للمخالفين في العقيدة.

---

(١) انظر تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنىٰ إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾ [الإسراء: ٣٣] انظر التفسير في ظلال القرآن: ٢٢٢٤.

قصة نوح عليه السلام

المحتوى	ص

نوح ـ عليه السَّلام

تقديم

وردت قصة نوح في مواضع متعددة من القرآن الكريم، كقصة موسىٰ وقصة إبراهيم، وقد عُرضت بأشكال مختلفة في البسط والإيجاز وفي طريقة العرض. ومن أوجز ما وردت به هذه القصة قوله تعالىٰ: **﴿إنَّا لمَّا طغىٰ الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أُذُنٌ واعية﴾** [الحاقَّة: ١٢]..

وقد ذكرت القصة في بضع عشرة سورة جاء بعضها في أثناء الحديث عن الأقوام المكذِّبين، أو عن الأنبياء المؤيَّدين بنصر الله مجملاً دون تفصيل، بينما جاء بعضها الآخر قصصاً مستقلاً فُصِّلت فيه بعض الأحداث والمشاهد.

فمن القسم الأول ما جاء في سورة النجم و (صٓ) والفرقان والذَّاريات والأنبياء والحاقة..

أمَّا السور التي تحدثت عن قصة نوح ـ عليه السَّلام ـ حديثاً مستقلاً فهي: سورة القمر والأعراف والشعراء ويونس وهود والصافَّات ونوح والمؤمنون والعنكبوت(١).

---

(١) انظر: آل عمران: ٣٣، النساء: ١٦٣، الأنعام: ٨٤، الأعراف: ٥٩ ـ ٦٣، يونس: ٧١ ـ ٧٣، الأنبياء: ٧٦ ـ ٧٧، الفرقان: ٣٧، الشعراء: ١٠٥ ـ ١٢٢، العنكبوت: ١٤ ـ =

وقصة نوح متوسطة التفصيل - نذكر منها تفصيلات رسالته ودعوته لقومه واستكبارهم عنها. وحلقة صنع السفينة وحلقة الطوفان، وغرق ابنه، ودعائه الله أن يُحييه، وعدم استجابته له، لأنَّه ليس من أهله، ولو كان ابنه: لأنَّه عمل غير صالح!

ونوح هو الأب الثَّاني للبشر، وكان بينه وبين آدم عشرة قرون، فَعَن زيد بن سَلاَّم قال: سمعتُ أبا أُمامة أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، أنبي كان آدم؟ قال: «نعم مُكَلَّم»، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون»[(١)].

وعن أبي ذر - رضي الله عنه - في حديث طويل، قال: قلتُ: يا رسول الله، أي الأنبياء كان أوَّل؟ قال: «آدم». قلت: ونبي هو؟ قال: «نعم مُكلَّم»[(٢)]. وذكر الهيثمي حديث أبي ذر هذا، وفيه: قلتُ: ثُمَّ مَن؟ قال: «نوح، وبينهما عشرة آباء»[(٣)]. وأخرج ابن سعد: أخبرنا قبيصة بن عقبة السوائي، أخبرنا سفيان بن سعيد الثوري، عن أبيه، عن عكرمة، قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام»[(٤)].

ونوح هو أول الأنبياء والرسل الذين تحملوا الأذىٰ من أقوامهم، فكان ما جرىٰ بينه وين قومه دروس نافعة هادية، ومعالم على الطريق. طريق

= ١٥، الصافَّات: ٧٥ - ٨٢، نوح: ١ - ٢٨، القمر: ٩ - ١٦، المؤمنون: ٢٣ - ٣١، المؤمن: ٥ - ٦. راجع القصص القرآني للأُستاذ الدكتور فضل عباس: ٦٦ - ٩٠.

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٥٤٥)، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٨/ ٢١٠ و ١٩٦ وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه ابن حبان في صحيحه. انظر الإحسان (رقم ٦١٩٠).

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٧٨ و ١٧٩، والبزار (١٦٠)، والطبراني في «الأوسط»، والطيالسي (٤٧٨)، وابن سعد ١/ ٣٢ من طرق عن المسعودي، عن أبي عمر الدمشقي، عن عبيد بن الخشخاش، عن أبي ذر.

(٣) المجمع: ١/ ١٩٦ - ١٩٧.

(٤) الطبقات ١/ ٤٢.

الدعاة إلى الله: ﴿إنَّا أرسلنا نوحاً إلى قومه..﴾ [نوح: ١]..

إنَّ القرآن يقرر مصدر الرسالة والعقيدة ﴿إنَّا أرسلنا..﴾.. فهذا هو المصدر الذي يتلقىٰ منه الرسل التكليف، كما يتلقون حقيقة العقيدة. وهو المصدر الذي صدر منه الوجود كله، وصدرت منه الحياة. وهو الله الذي خلق البشر وأودع فطرتهم(١) الاستعداد لأن تعرفه وتعبده، فلمَّا انحرفوا عنها وزاغوا أرسل إليهم رسله، يردونهم إليه.

ونوح ـ عليه السَّلام ـ كان أول هذه الرسل ـ بعد آدم ـ عليه السَّلام ـ. وآدم لا يذكر القرآن له رسالة بعد مجيئه إلى هذه الأرض، وممارسته لهذه الحياة؛ وقد تقدم في الحديث الشريف أنَّه كان نبياً مُكلَّماً، فكان يحمل هدىٰ الله، مُعلِّماً لأبنائه وحفدته، حتىٰ إذا طال عليهم الأمد بعد وفاته ضلُّوا عن عبادة الله الواحد، واتخذوا لهم أصناماً آلهة. اتخذوها في أول الأمر أنصاباً ترمز إلى قوىٰ قدَّسوها. قوىٰ غيبية أو مشهودة. ثمَّ نسوا الرمز وعبدوا الأصنام! وأشهرها تلك الخمسة التي ذكرها القرآن في سورة نوح.

(١) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه. رواه البخاري ومسلم، وفي رواية: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه» [انظر الإحسان رقم ١٢٨ ـ ١٣٣]. قال أبو حاتم: قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، أراد به: على الفطرة التي فطره الله عليها جلَّ وعلا يوم أخرجهم من صُلب آدم، لقوله جلَّ وعلا: ﴿فطرة الله التي فَطَرَ الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾.

قال الحافظ في «الفتح»: ٢٤٨/٣: «وأشهر الأقوال أنَّ المراد بالفطرة الإسلام. قال ابن عبد البر: وهو المعروف عند عامة السلف، وأجمع أهل العلم بالتأويل أنَّ المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾: الإسلام واحتجوا بقول أبي هريرة في حديث آخر «اقرؤوا إن شئتم ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾». وبحديث عياض بن حمار عن النَّبيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربه: «إنِّي خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم» الحديث. وقد رواه غيره، فزاد فيه: «حنفاء مسلمين». ورجحه بعض المتأخرين بقوله تعالىٰ: ﴿فطرة الله﴾ لأنَّها إضافة مدح، وقد أمر نبيه بلزومها، فعلم أنَّها الإسلام.

فأرسل الله إليهم نوحاً يردَّهم إلى التوحيد، ويُصحح لهم تصورهم عن الله وعن الحياة وعن الوجود.

يقول ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله ـ[1]: «ومن أعظم مكايد الشيطان التي كاد بها أكثر الناس، وما نجا منها إلاَّ من لم يُرد الله فتنته. ما أوحاه قديماً وحديثاً إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور. حتى آل الأمر فيها إلى أن عُبِدَ أربابها من دون الله، وعُبدت قبورهم، واتخذت أوثاناً، وبُنيت عليها الهياكل، وصُوِّرت صور أربابها فيها، ثم جُعلت تلك الصور أجساداً لها ظل، ثم جعلت أصناماً، وعُبدت مع الله تعالىٰ.

وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح، كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه حيث يقول: **﴿قال نوحُ ربِّ إنَّهم عصوني واتَّبعوا من لم يزده مالُه وولده إلاَّ خساراً. ومكروا مكراً كُبَّاراً. وقالوا: لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُنَّ وُدّاً ولا سواعاً ولا يغوثَ ويعوق ونسراً. وقد أضلُّوا كثيراً﴾** [نوح: ٢١ ـ ٢٤]. قال ابن جرير: وكان من خبر هؤلاء فيما بلغنا عن محمَّد بن قيس: أن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بني آدم. وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلمَّا ماتوا. قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صَوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم. فصَوَّروهم، فلمَّا ماتوا وجاء آخرون دَبَّ إليهم إبليس، فقال: إنَّما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسْقون المطر، فعبدوهم.

وقال البخاري عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد. أمَّا وُدّ فكانت لكلب بدومة الجندل. وأمَّا سواع فكانت لهذيل. وأمَّا يغوث فكانت لمراد، ثمَّ لبني غطيف بالجرف عند سبأ. وأمَّا يعوق فكانت لهمدان. وأمَّا نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من بني آدم. فلمَّا هلكوا أوحىٰ الشيطان إلى قومهم أن انصبوا

(١) إغاثة اللهفان: ٢٠١ ـ ٢٠٢.

مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموا بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هَلَكَ أولئك، ونُسي العلم عُبدت.

قال الشيخ ابن تيمية: «وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إمَّا في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك. فإنَّ النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين، فإنَّ الشرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر»(١).

---

(١) يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «بارك الله في ذرية آدم فكان فيها رجال كثير ونساء. وانتشرت ذرية آدم وكَثُرت. وكان الناس على دين أبيهم آدم، يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً!

وكان الناس أُمَّةً واحدة أبوهم آدم وربُّهم الله. ولكن كيف يرضى إبليس وذُريته بهذا؟

ورأى الشيطان أن يدعو الناس إلى عبادة الأصنام فيدخلوا النار ولا يدخلوا الجنَّة أبداً. وكان الشيطان يعرف أنَّ الله لا يغفر الشركَ، ويغفر كل شيء إذا أراد.

فأراد الشيطان أن يدعوهم إلى الشِّرك، فلا يدخلوا الجنَّة أبداً. ولكن كيف الطريق إلى ذلك، والناس يعبدون الله؟ إنَّه لو ذَهَبَ إلى الناس وقال لهم: اعبدوا الأصنام ولا تعبدوا الله، لشتمه الناس وضربوه.

قالوا: معاذ الله، أنُشرك بربنا؟ أنعبد الأصنام؟ إنَّك لشيطان رجيم! إنَّك لشيطان خبيث!

ولكنَّ الشيطان وَجَد باباً يدخل منه إلى رؤوس الناس.

كان رجالٌ يخافون الله، ويعبدونه ليلاً ونهاراً، ويذكرونه ذكراً كثيراً. وكانوا يحبون الله، وكان الله يُحبهم ويستجيب لهم. وكان الناس يُحبُّونهم ويُعَظِّمونَهم. وكان الشيطان يعرف ذلك جيداً. وقد مات هؤلاء وانتقلوا إلى رحمة الله!

ذَهَب الشيطان إلى الناس وذكر هؤلاء الرجال. وقال: كيف كان فيكم فلان وفلان وفلان؟

قالوا: سبحان الله! رجال الله وأولياؤه! أولـئك إذا دَعَوْا أجابهم، وإذا سألوا أعطاهم.

قال الشيطان: فكيف حزنكم عليهم؟ قالوا: شديد. قال: وكيف اشتياقكم إليهم؟ قالوا: عظيم!

قال: ولماذا لا تنظرون إليهم كل يوم؟ قالوا: وكيف السبيل إلى ذلكَ وقد ماتوا؟ قال: اعملوا لهم صوراً وانظروا إليها كل صباح.

وأعجب الناس برأي إبليس وصَوَّرا الصالحين وكانوا ينظرون إلى هذه الصور كل يوم، وإذا رأوها ذكروا أولئك الصالحين. =

فحوىٰ رسالة نوح :

الكتب المقدسة السابقة تجعل إدريس ـ عليه السَّلام ـ سابقاً لنوح. ولكن ما ورد في هذه الكتب لا يدخل في تكوين عقيدة المسلم، لشبهة التحريف والتزيد والإضافة إلى تلك الكتب.

والذي يتَّجه إليه من يقرأ قصص الأنبياء في القرآن، أنَّ نوحاً كان في فجر البشرية، وأن طول عمره الذي قضىٰ منه ألف سنة إلَّا خمسين عاماً في دعوته لقومه، ولا بد أنَّهم كانوا طوال الأعمار بهذه النسبة.. انَّ طول عمره وأعمار جيله هكذا يوحي بأنَّ البشر كانوا ما يزالون قلة لم تتكاثر بعد كما تكاثرت في الأجيال التالية. وذلك قياساً على ما نراه من سنَّة الله في الأحياء من طول العمر إذا قلَّ العدد، كأنَّ ذلك للتعويض والتعادل.. والله أعلم بذلك.. إنَّما هي نظرة في سنة الله وقياس!

وبعد تقرير مصدر الرسالة وتوكيده يذكر القرآن فحوىٰ رسالة نوح في اختصار وهي الإنذار:

﴿أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم﴾ [نوح: ١].

والحالة التي كان قوم نوح قد انتهوا إليها، من إعراض واستكبار وعناد

= وانتقلوا من الصور إلى التماثيل، وعملوا للصالحين تماثيل كثيرة، ووضعوها في بيوتهم ومساجدهم. وكانوا يعبدون الله لا يُشركون به شيئاً. وكانوا يعرفون أنَّ هذه تماثيل للصالحين. وأنَّ هذه حجارة لا تنفعهم ولا تضرهم ولكنهم كانوا يتبرّكون بها ويعظمونها، لأنَّها تماثيل الصالحين.

وكثرت هذه التماثيل فيهم، وكثر تعظيمها. وإذا مات فيهم رجل صالح عملوا له تمثالاً وسمُّوه باسمه.

ومضىٰ هؤلاء، ورأىٰ الأولاد آباءهم يتبرّكون بها ويعظّمونها تعظيماً شديداً. وكانوا يرونهم يُقبِّلون هذه التماثيل، ويلمسونها، ويدعون عندها، فزاد الأبناء على الآباء، وصاروا يسجدون لها. وصاروا يسألونها، ويذبحون لها. وهكذا صارت هذه الأصنام آلهة، وصار الناس يعبدونها كما كانوا يعبدون الله من قبل..».

وضلال ـ كما تبرز من خلال الحساب الذي قدمه نوح في النهاية لربه ـ تجعل الإنذار هو أنسب ما تلخص به رسالته، وأول ما يفتتح به الدعوة لقومه، الإنذار بعذاب أليم في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما جميعاً.

ومن مشهد التكليف ينتقل السياق القرآني إلى مشهد التبليغ، البارز فيه هو الإنذار، مع الإطماع في المغفرة على ما وقع من الخطايا والذنوب؛ وتأجيل الحساب إلى الأجل المضروب في الآخرة للحساب؛ ومع ذلك مع البيان المجمل لأصول الدعوة التي يدعوهم إليها:

﴿قال: يَا قوم إنِّي لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله، واتَّقوه، وأطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمًّى. إنَّ أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾ [نوح: ٢ ـ ٤].

﴿يَا قوم إنِّي لكم نذير مبين﴾.. مفصح عن نذارته، مبين عن حجته، لا يتمتم ولا يجمجم، ولا يتلعثم في دعوته، ولا يدع لبساً ولا غموضاً في حقيقة ما يدعو إليه، وفي حقيقة ما ينتظر المكذبين بدعوته: **﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه. إنِّي لكم نذير مبين. أن لا تعبدوا إلاَّ الله.. إنِّي أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾** [هود: ٢٥، ٢٦]..

إنَّها تكاد تكون الألفاظ ذاتها التي أُرسل بها محمَّد ﷺ والتي تضمنها الكتاب الذي أُحكمت آياته ثمَّ فُصِّلت من لدن حكيم خبير. وهذه المقاربة في ألفاظ التعبير عن المعنىٰ الرئيسي الواحد مقصودة في القرآن لتقرير وحدة الرسالة ووحدة العقيدة، حتى لتتوحد ألفاظ التعبير عن معانيها. وذلك مع تقدير أنَّ المحكي هنا هو معنىً ما قاله نوح ـ عليه السَّلام ـ لا ألفاظه. وهو الأرجح. فنحن لا ندري بأية لغة كان نوح يُعبِّر.

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه: إنِّي لكم نذير مبين﴾.. والتعبير القرآني يُحيي المشهد فكأنَّما هو واقعة حاضرة لا حكاية ماضية. وكأنَّما يقول لهم الآن ونحن نشهد ونسمع. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرىٰ أنَّه

يلخص وظيفة الرسالة كلها ويترجمها إلى حقيقة واحدة: **﴿إنّي لكم نذير مبين﴾** . . وهو أقوىٰ في تحديد هدف الرسالة وإبرازه في وجدان السامعين.

و **﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾** على سنة الله في إرسال كل رسول من قومه، وبلسانهم، تأليفاً لقلوب الذين لم تفسد فطرتهم، وتيسيراً على البشر في التفاهم والتعارف. وإن كان الذين فسدت فطرتهم يعجبون من هذه السنة، ولا يستجيبون، ويستكبرون أن يؤمنوا لبشر مثلهم، ويطلبون أن تبلغهم الملائكة! وإن هي إلاَّ تعلة. وما كانوا ليستجيبوا إلى الهدىٰ مهما جاءهم من أي طريق! ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، فخاطبهم بتلك الكلمة التي جاء بها كل رسول: **﴿فقال: يَا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره﴾** . . كلمة الحق التي لا تتبدل، يقوم عليها الوجود، ويشهد بها كل ما في الوجود **﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، فقال: يَا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره. أفلا تتَّقون؟﴾** [المؤمنون: ٢٣] . .

﴿اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره﴾ . . فهي الكلمة التي لا تتغير، وهي قاعدة هذه العقيدة التي لا توجد إلاَّ بها، وهي عماد الحياة الإنسانية الذي لا تقوم على غيره، وهي ضمان وحدة الوجهة ووحدة الهدف ووحدة الرباط. وهي الكفيل بتحرر البشر من العبودية للهوىٰ، والعبودية لأمثالهم من العبيد. وبالاستعلاء على الشهوات كلها وعلى الوعد والوعيد.

وما يدعو إليه نوح بسيط واضح مستقيم: **﴿أن اعبدوا الله، واتَّقوه وأطيعون﴾** [نوح: ٣] عبادة لله وحده بلا شريك. وتقوىٰ لله تهيمن على الشعور والسلوك. وطاعة لرسوله تجعل أمره هو المصدر الذي يستمدون منه نظام الحياة وقواعد السلوك.

وفي هذه الخطوط العريضة تتلخص الديانة السماوية على الإطلاق. ثمَّ تفترق بعد ذلك في التفصيل والتفريع. وفي مدىٰ التصور وضخامته وعمقه وسعته وشموله وتناوله للجوانب المختلفة للوجود كله، وللوجود الإنساني في التفصيل والتفريع.

وعبادة الله وحده منهج كامل للحياة، يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية؛ ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق، ولحقيقة القوىٰ والقيم في الكون وفي حياة الناس.. ومن ثمَّ ينبثق نظام للحياة البشرية قائم على ذلك التصور، فيقوم منهج للحياة خاص. منهج رباني مرجعه إلى حقيقة الصلة بين العبودية والألوهية، وإلى القيم التي يقررها الله للأحياء والأشياء.

وتقوىٰ الله.. هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس علىٰ ذلك المنهج، وعدم التلفت عنه هنا أو هناك، وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه. كما أنَّها هي مبعث الخلق الفاضل المنظور فيه إلى الله، بلا رياء ولا تظاهر ولا مماراة.

وطاعة الرسول.. هي الوسيلة للاستقامة على الطريق، وتلقّي الهدىٰ من مصدره المتصل بالمصدر الأول للخلق والهداية، وبقاء الاتصال بالسماء عن طريق محطة الاستقبال المباشرة السليمة المضمونة!

فهذه الخطوط العريضة التي دعا نوح إليها قومه في فجر البشرية هي خلاصة دعوة الله في كل جيل بعده.

والقرآن الكريم يبلور مضمون الرسالة في حقيقة واضحة ناصعة ﴿**ألَّا تعبدوا إلَّا الله**﴾..

فهذا هو قوام الرسالة وقوام الإنذار. ولماذا؟

﴿**إنِّي أخاف عليكم عذاب يوم أليم**﴾ [هود: ٢٦]..

فيتم الإبلاغ ويتم الإنذار، في هذه الكلمات القصار.

واليوم ليس أليماً. إنَّما هو مؤلم. والأليم ـ اسم مفعول أصله: مألوم ـ إنَّما هم المألومون في ذلك اليوم. ولكن التعبير يختار هذه الصيغة هنا، لتصوير اليوم ذاته بأنَّه محمل بالألم، شاعر به، فما بال مَن فيه؟ لقد قال نوح لقومه هذه القولة الواضحة، وأنذرهم عاقبة التكذيب بها في إشفاق الأخ

الناصح لإخوانه، وفي صدق الرائد الناصح لأهله: **﴿إنِّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾** [الأعراف: ٥٩]..

وهنا نرىٰ أنَّ ديانة نوح.. أقدم الديانات.. كانت فيها عقيدة الآخرة. عقيدة الحساب والجزاء في يوم عظيم، يخاف نوح على قومه ما ينتظرهم فيه من عذاب.. وهكذا تتبين مفارقة منهج الله وتقريره في شأن العقيدة. ومناهج الخابطين في الظلام «من علماء الأديان» وأتباعهم الغافلين عن منهج القرآن.

ومن خلال عرض هذه الحلقة من حلقات الدعوة الإلـٰهية على البشرية تتجلىٰ حقيقة وحدة العقيدة، وثبات أصولها، وتأصيل جذورها. كما يتجلىٰ ارتباطها بالكون وبإرادة الله وقدره، وأحداث الحياة الواقعة وفق قدر الله. وذلك من خلال دعوة نوح لقومه: **﴿قال: يَا قوم إنِّي لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله واتَّقوه وأطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجلٍ مسمًّى، إنَّ أجل الله إذا جاء لا يؤخر، لو كنتم تعلمون﴾** [نوح: ٢ ـ ٤]..

وفي حكاية قوله لهم: **﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً؟ وجعل القمر فيهنَّ نوراً وجعل الشمس سراجاً؟ والله أنبتكم من الأرض نباتاً. ثمَّ يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً، والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾** [نوح: ١٣ ـ ٢٠]..

ولإقرار هذه الحقيقة في نفوس المسلمين قيمته في شعورهم بحقيقة دعوتهم، وحقيقة نسبهم العريق! وحقيقة موكبهم المتصل من مطلع البشرية وحقيقة دورهم في إقرار هذه الدعوة والقيام عليها. وهي نهج الله القويم القديم. وقد وعد نوح قومه إذا استجابوا إلى دعوة الله رب العالمين، ما وعد به التائبين الثائبين: **﴿يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخِّركم إلى أجل مسمًّى﴾**.

وجزاء الاستجابة للدعوة إلى عبادته ـ سبحانه ـ وتقواه وطاعة رسوله

هي المغفرة والتخليص من الذنوب التي سلفت. . تأخير الحساب إلى الأجل المضروب له في علم الله. . وهو اليوم الآخر. . وعدم الأخذ في عذاب الدنيا بعذاب الاستئصال. ثمَّ بيَّن لهم أنَّ ذلك الأجل المضروب حتمي يجيء في موعده، ولا يؤخّر كما يُؤخَّر عذاب الدنيا. . وذلك لتقرير هذه الحقيقة الاعتقادية الكبرىٰ: **﴿إنَّ أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾** . .

كما أنَّ النص يحتمل أن يكون هذا تقريراً لكل أجل يضربه الله، ليقر في قلوبهم هذه الحقيقة بوجه عام بمناسبة الحديث عن الوعد بتأخير حسابهم ـ لو أطاعوا وأنابوا ـ إلى يوم الحساب.

وراح نوح ـ عليه السَّلام ـ يواصل جهوده النبيلة الخالصة الكريمة لهداية قومه، بلا مصلحة له، ولا منفعة ويحتمل في سبيل هذه الغاية ما يحتمل من إعراض واستكبار واستهزاء. . ألف سنة إلَّا خمسين عاماً. .

ونمضي مع نوح في جهاده النبيل الطويل. فنجده يأخذ بقومه إلى آيات الله في أنفسهم وفي الكون من حولهم، وهو يعجب من استهتارهم وسوء أدبهم مع الله، وينكر عليهم ذلك الاستهتار:

﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً؟ وقد خلقكم أطواراً؟﴾ . .

والأطوار التي يخاطب بها قوم نوح في ذلك الزمان لا بد أن تكون أمراً يدركونه، أو أن يكون أحد مدلولاتها ممَّا يملك أُولئك القوم في ذلك الزمان أن يدركوه، ليرجوا من وراء تذكيرهم به أن يكون له في نفوسهم وقع مؤثر، يقودهم إلى الاستجابة. والذي عليه أكثر المفسرين أنَّها الأطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل. . وهذا يمكن أن يدركه القوم إذا ذكر لهم. لأنَّ الأجنَّة التي تسقط قبل اكتمالها في الأرحام يمكن أن تعطيهم فكرة عن هذه الأطوار. وهذا أحد مدلولات هذه الآية. ويمكن أن يكون مدلولها ما يقوله علم الأجنَّة. من أنَّ الجنين في أول أمره

يشبه حيوان الخلية الواحدة؛ ثمَّ بعد فترة من الحمل يمثل الجنين شبه الحيوان المتعدد الخلايا. ثمَّ يأخذ شكل حيوان مائي. ثمَّ شكل حيوان ثديي. ثمَّ شكل المخلوق الإنساني.. وهذا أبعد عن إدراك قوم نوح. فقد كشف هذا حديثاً جداً. وقد يكون هذا هو مدلول قوله تعالىٰ في موضع آخر بعد ذكر أطوار الجنين: ﴿**ثمَّ أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾ [المؤمنون: ١٤]..

كما أنَّ هذا النص وذاك قد تكون لهما مدلولات أُخرىٰ ثمَّ تتكشف للعلم بعد.. ولا نقيدهما..

وعلى أية حال فقد وجّه نوح قومه إلى النظر في أنفسهم، وأنكر عليهم أن يكون الله خلقهم أطواراً، ثمَّ هم بعد ذلك لا يستشعرون في أنفسهم توقيراً للجليل الذي خلقهم.. وهذا أعجب وأنكر ما يقع من مخلوق!

كذلك وجههم إلى كتاب الكون المفتوح:

﴿**ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً؟ وجعل القمر فيهنَّ نوراً وجعل الشمس سراجاً؟**﴾..

والسَّماوات السبع لا يمكن حصرها في مدلول ممَّا تقول به الفروض العلمية في التعريف بالكون. فهي كلها مجرد فروض. إنَّما وجَّه نوح قومه إلى السماء وأخبرهم ـ كما علَّمه الله ـ أنَّها سبع طباق. فيهنَّ القمر نور وفيهنَّ الشمس سراج. وهم يرون القمر ويرون الشمس، ويرون ما يطلق عليه اسم السماء. وهو هذا الفضاء ذو اللون الأزرق. أما ما هو؟ فلم يكن ذلك مطلوباً منهم. ولم يجزم أحد إلى اليوم بشيء في هذا الشأن..

وهذا التوجيه يكفي لإثارة التطلع والتدبر فيما وراء هذه الخلائق الهائلة من قدرة مبدعة.. وهذا هو المقصود من ذلك التوجيه.

ثمَّ عاد نوح فوجَّه قومه إلى النظر في نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها بالموت ليقرر لهم حقيقة إخراجهم منها بالبعث: ﴿**والله أنبتكم من الأرض**

نباتاً، ثمَّ يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً﴾ والتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعبير عجيب موح. وهو يكرر في القرآن في صور شتّىٰ. كقوله تعالىٰ: **﴿والبلد الطيِّب يخرج نباته بإذن ربِّه والذي خبث لا يخرج إلاَّ نكداً﴾** [الأعراف: ٥٨]..

وهو يشير في هذا إلى نشأة الناس كنشأة النبات. كما يقرن نشأة الإنسان بنشأة النبات في مواضع متفرقة: ففي سورة الحج يجمع بينهما في آية واحدة في صدد البرهنة على حقيقة البعث فيقول:

﴿يَا أَيُّها النَّاس إن كنتم في ريب من البعث فإنَّا خلقناكم من تراب ثمَّ من نطفة ثمَّ من علقة ثمَّ من مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة، لنبيِّن لكم. ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّىٰ ثمَّ نخرجكم طفلاً، ثمَّ لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفَّىٰ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً. وترىٰ الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزَّت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾..

وفي سورة «المؤمنون» يذكر أطوار النشأة الجنينية قريباً ممَّا ذكرت في سورة الحج ويجيء بعدها:

﴿فأنشأنا لكم به جنَّات من نخيل وأعناب﴾.. وهكذا.

وهي ظاهرة تستدعي النظر ولا ريب. فهي توحي بالوحدة بين أُصول الحياة على وجه الأرض، وأنَّ نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات. من عناصرها الأولية يتكون. ومن عناصرها الأولية يتغذّىٰ وينمو، فهو نبات من نباتها. وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة. وكلاهما من نتاج الأرض، وكلاهما يرضع من هذه الأُم!

وكذلك ينشىء الإيمان في المؤمن تصوراً حقيقياً حياً لعلاقته بالأرض وبالأحياء. تصوراً فيه دقة العلم وفيه حيوية الشعور. لأنَّه قائم على الحقيقة الحية في الضمير. وهذه ميزة المعرفة القرآنية الفريدة.

والناس الذين نبتوا من الأرض يعودون إلى جوفها مرة أُخرىٰ. يعيدهم الله إليها كما أنبتهم منها. فيختلط رفاتهم بتربتها، وتندمج ذراتهم في ذراتها، كما كانوا فيها من قبل أن ينبتوا منها! ثمَّ يخرجهم الذي خلقهم أول مرة؛ وينبتهم كما أنبتهم أول مرة.. مسألة سهلة يسيرة لا تستدعي التوقف عندها لحظة، حين ينظر الإنسان إليها من هذه الزاوية التي يعرضها القرآن منها!

ونوح ـ عليه السَّلام ـ وجّه قومه إلى هذه الحقيقة لتستشعر قلوبهم يد الله وهي تنبتهم من هذه الأرض نباتاً، وهي تعيدهم فيها مرة أُخرىٰ. ثمَّ تتوقع النشأة الأخرىٰ وتحسب حسابها، وهي كائنة بهذا اليسر وبهذه البساطة. بساطة البداهة التي لا تقبل جدلاً!

وأخيراً وجّه نوح قلوب قومه إلى نعمة الله عليهم في تيسير الحياة لهم على هذه الأرض وتذليلها لسيرهم ومعاشهم وانتقالهم وطرائق حياتهم: **﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً، لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾**.

وهذه الحقيقة القريبة من مشاهدتهم وإدراكهم تواجههم مواجهة كاملة، ولا يملكون الفرار منها كما كانوا يفرون من صوت نوح وإنذاره. فهذه الأرض بالقياس إليهم مبسوطة ممهدة ـ حتى جبالها قد جعل لهم عبرها دروباً وفجاجاً، كما جعل في سهولها من باب أولىٰ. وفي سبلها ودروبها يمشون ويركبون وينتقلون؛ ويبتغون من فضل الله، ويتعايشون في يسر وتبادل للمنافع والأرزاق.

وهم كانوا يدركون هذه الحقيقة المشاهدة لهم بدون حاجة إلى دراسات علمية عويصة، يدرسون بها النواميس التي تحكم وجودهم على هذه الأرض، وتيسر لهم الحياة فيها. وكلّما زاد الإنسان علماً أدرك من هذه الحقيقة جوانب جديدة وآفاقاً بعيدة[1].

---

(١) تراجع سورة الملك عند قوله تعالىٰ: **﴿هو الَّذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾** في الظلال، مجلد ٦، ٣٦٣٧.

وهكذا يمضي نوح ـ عليه السَّلام ـ مع قومه في بيان حقيقة الألوهية لتستقر في القلوب في جولة في ملكوت المالك. تظهر فيها لكل أحد مظاهر الهيمنة المتصرفة في الملك، وللقدرة التي لا يقيدها قيد.. يوجههم إلى خلق الله، في السَّماوات والأرض..

والذي يعرف شيئاً عن طبيعة هذا الكون ونظامه ـ كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها ـ يدركه الدهش والذهول. ولكن روعة الكون لا تحتاج إلى هذا العلم. فمن نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة علىٰ التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل؛ فالقلب يتلقَّىٰ إيقاعات هذا الكون الهائل الجميل تلقياً مباشراً حين يتفتح ويستشرف. ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات تجاوب الحي مع الحي؛ قبل أن يعلم بفكره وبأرصاده شيئاً عن هذا الخلق الهائل العجيب.

ومن ثمَّ يكل الله الناس إلى النظر في هذا الكون، وإلى تملي مشاهده وعجائبه. ذلك أنَّ رُسلَ الله تخاطب الناس جميعاً، وفي كل عصر. تخاطب ساكن الغابة وساكن الصحراء. كما تخاطب ساكن المدينة ورائد البحار. تخاطب الأمي الذي لم يقرأ ولم يخط حرفاً، كما تخاطب العالم الفلكي والعالم الطبيعي والعالم النظري سواء. وكل واحد من هؤلاء يجد ما يصله بهذا الكون، وما يشير في قلبه التأمل والاستجابة والمتاع.

لقد عرض نوح حقيقة الألوهية ممثلة في خلق السَّماوات والأرض.. وخَلْق الإنسان أطواراً. وخَلْق سبع سماوات طباقاً، وجعل القمر فيهنَّ نوراً، وجعل الشمس سراجاً، ونشأة الإنسان من الأرض وعودته إليها، وإنشاء الجنَّات من نخيل وأعناب..

إنَّ قوم نوح المخاطبين بهذه البيانات الواضحة، لم يكن لديهم من المعرفة العلمية بما في السَّماوات والأرض إلاَّ القليل. ولكنَّ الحقيقة الواقعة التي أشرنا إليها، هي أنَّ بين الفطرة البشرية وبين هذا الكون الذي نعيش فيه

لغة خفية غنية! وأنَّ هذه الفطرة تسمع لهذا الكون ـ حين تـتفتح وتستيقظ ـ وتسمع منه الكثير!

المواجهة القبيحة والرد المنحرف :

لقد دعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده وإفراده بالشكر والضراعة. وترك ما هم عليه من عبادة الموروثات الباطلة. لكنَّ روح الضلال والتقليد المتسلطة على المعاندين المستكبرين من قومه أبت عليهم أن يعرفوا طريق الهداية. وتحجرت قلوبهم. فلم تصغ لدعوته. ولم تنقد لرجائه.. ﴿**كذبت قوم نوح المرسلين. إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تـتَّقون؟**﴾[الشعراء: ١٠٥ ـ ١٠٦].

هذه هي دعوة نوح التي كذبه فيها قومه ـ وهو أخوهم ـ وكان الأليق بالأُخوة أن تقود إلى المسالمة والاطمئنان والإيمان والتصديق. ولكن قومه لم يأبهوا لهذه الصلة، ولم تلن قلوبهم لدعوة أخيهم نوح إذ قال لهم: ﴿**ألا تـتَّقون؟**﴾ وتخافون عاقبة ما أنتم فيه؟ وتستشعر قلوبكم خوف الله وخشيته؟

﴿**أفلا تـتَّقون**﴾ [المؤمنون: ٢٣] وتخافون عاقبة الإنكار للحقيقة الأُولىٰ ـ حقيقة الألوهية ـ التي تقوم عليها الحقائق جميعاً؟ وتستشعرون ما في إنكارها من تجنٍّ على الحق الباهر، وما يعقب التجنِّي من استحقاق للعذاب الأليم؟

وهذا التوجيه إلى التقوىٰ مطَّرد في القرآن. فهكذا قال الله عن فرعون وقومه لموسىٰ وهو يكلفه التوجه إليهم. وهكذا قال نوح لقومه. وهكذا قال كل رسول لقومه من بعد نوح: ﴿**إنِّي لكم رسول أمين**﴾ [الشعراء: ١٠٧] لا يخون ولا يخدع ولا يغش، ولا يـزيد شيئـاً أو ينقص شيئاً ممَّـا كلفه من التبليغ.

ويعود نوح إلى تذكيرهم بتقوىٰ الله ﴿**فاتَّقوا الله وأطيعون**﴾ [الشعراء:

١٠٨] ويحددها في هـذه المرة، وينسبها إلى الله تعالىٰ، ويستجيش بها قلوبهم إلى الطاعة والتسليم.

ثمَّ يطمئنهم من ناحية الدنيا وأعراضها، فما له فيها من أرب بدعوتهم إلى الله، وما يطلب منهم أجراً جزاء هدايتهم إليه، فهو يطلب أجره من رب الناس الذي كلفه دعوة الناس: **﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجريَ إلاَّ على رب العالمين. فاتّقوا الله وأطيعون﴾** [الشعراء: ١٠٩، ١١٠]..

وهذا التنبيه على عدم طلب الأجر يبدو أنَّه كان دائماً ضرورياً للدعوة الصحيحة، تمييزاً لها ممَّا عهده الناس في الكهان ورجال الأديان من استغلال الدين لسلب أموال العباد. وقد كان الكهنة ورجال الدين المنحرفون دائماً مصدر ابتزاز للأموال بشتّىٰ الأساليب. فأمَّا دعوة الله الحقة فكان دعاتها دائماً متجردين، لا يطلبون أجراً على الهدىٰ. فأجرهم على ربِّ العالمين.

وهنا يكرر عليهم طلب التقوىٰ والطاعة، بعد اطمئنانهم من ناحية الأجر والاستغلال: **﴿فاتّقوا الله وأطيعون﴾** فكيف كان استقبال المنحرفين الضالين من قوم نوح لهذه الدعوة الخالصة الواضحة المستقيمة؟

﴿قال الملأ من قومه: إنَّا لنراك في ضلال مبين﴾! [الأعراف: ٦٠]..

كما قال مشركو العرب لمحمَّد ﷺ إنَّه صبأ، ورجع عن دين إبراهيم!

وهكذا يبلغ الضال من الضلال أن يحسب من يدعوه إلى الهدىٰ هو الضال! بل هكذا يبلغ التبجح الوقح بعدما يبلغ المسخ في الفطر!.. هكذا تنقلب الموازين، وتبطل الضوابط، ويحكم الهوىٰ؛ ما دام أن الميزان ليس هو ميزان الله الذي لا ينحرف ولا يميل.

وماذا تقول الجاهلية اليوم عن المهتدين بهدىٰ الله؟ إنَّها تسميهم الضالِّين، من يهتدي منهم ويرجع بالرضىٰ والقبول!.. أجل من يهتدي إلى المستنقع الكريه، وإلى الوحل الذي تتمرغ الجاهلية فيه!

وماذا تقول الجاهلية اليوم للفتاة التي لا تكشف عن لحمها؟ وماذا تقول للفتى الذي يستقذر اللحم الرخيص؟ إنَّها تُسمي ترفعهما هذا ونظافتهما وتطهرهما « رجعية » وتخلفاً وجموداً وريفية! وتحاول الجاهلية بكل ما تملكه من وسائل التوجيه والإعلام أن تغرق ترفعهما ونظافتهما وتطهرهما في الوحل الذي تتمرغ فيه في المستنقع الكريه! وماذا تقول الجاهلية لمن ترتفع اهتماماته عن جنون مباريات الكرة، وجنون الأفلام والسينما والتليفزيون وما إليه؛ وجنون الرقص والحفلات الفارغة والملاهي؟ إنَّها تقول عنه: «إنَّه جامد». ومغلق على نفسه، وتنقصه المرونة والثقافة! وتحاول أن تجره إلى تفاهة من ينفق فيها حياته. .

إنَّ الجاهلية هي الجاهلية. . فلا تتغير إلاَّ الأشكال والظروف. .

لقد عطَّل القوم عقولهم عن التدبر والتفكر في دعوة الرسول، وغشيهم الدنس الروحي، فاستغلقت قلوبهم، وتجمدت عقولهم، وتعطلت أجهزة الاستقبال والتلقي في الفطرة فهم في عمى الضلال يعمهون. .

وينفي نوح عن نفسه الضلال، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها، فهو لم يبتدعها من أوهامه وأهوائه. إنَّما هو رسول من رب العالمين يحمل لهم الرسالة. ومعها النصح والأمانة ويعلم من الله ما لا يعلمون. فهو يجده في نفسه، وهو موصول به، وهم عنه محجوبون:

﴿قال: يَا قوم ليس بي ضلالة، ولكني رسول من ربِّ العالمين. أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢]. .

فكأنَّما عجبوا أن يختار الله رسولاً من البشر من بينهم، يحمله رسالة إلى قومه، وأن يجد هذا الرسول في نفسه علماً عن ربه لا يجده الآخرون، الذين لم يختاروا هذا الاختيار:

﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم،

ولتتقوا، ولعلَّكم ترحمون؟﴾ [الأعراف: ٦٣].

وما من عجب في هذا الاختيار. فهذا الكائن الإنساني شأنه كله عجيب.. إنّه يتعامل مع العوالم كلها، ويتصل بربه بما ركب في طبيعته من نفخة الله فيه من روحه.. فإذا اختار الله من بينهم رسوله ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته ـ فإنّما يتلقّىٰ هذا المختار عنه، بما أودع في كيانه من إمكانية الاتصال به والتلقي عنه، بذلك السر اللطيف الذي به معنىٰ الإنسان، والذي هو مناط التكريم العلوي لهذا الكائن العجيب التكوين.

ويكشف لهم نوح عن هدف الرسالة:

﴿لينذركم، ولتتقوا، ولعلَّكم ترحمون﴾.

فهو الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوىٰ، ليظفروا في النهاية برحمة الله.. ولا شيء وراء ذلك لنوح، ولا مصلحة، ولا هدف، إلاَّ هذا الهدف السامي النبيل.

ولكن كبراء قومه من الكفار لا يناقشون دعوة الرسول، ولا يتدبرون شواهدها ولا يستطيعون التخلص من النظرة الضيقة المتعلقة بأشخاصهم وبشخص الرجل الذي يدعوهم، لا يرتفعون إلى الأفق الطليق الذي ينظرون منه إلى تلك الحقيقة الضخمة مجردة عن الأشخاص والذوات.. فإذا هم يتركون الحقيقة الكبرىٰ التي يقوم عليها الوجود. ويشهد بها كل ما في الوجود، ليتحدثوا عن شخص نوح:

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه: ما هـٰذا إلاَّ بشر مثلكم يريد أن يتفضَّل عليكم﴾ [المؤمنون: ٢٤].

من هذه الزاوية الضيقة الصغيرة نظر القوم إلى تلك الدعوة الكبيرة، فما كانوا إذن ليدركوا طبيعتها ولا ليروا حقيقتها؛ وذواتهم الصغيرة الضئيلة تحجب عنهم جوهرها، وتعمي عليهم عنصرها، وتقف حائلاً بين قلوبهم وبينها؛ فإذا القضية كلها في نظرهم قضية رجل منهم لا يفترق في شيء

عنهم، يريد أن يتفضل عليهم، وأن يجعل لنفسه منزلة فوق منزلتهم!

وهم في اندفاعهم الصغير لرد نوح عن المنزلة التي يتوهمون أنَّه يعمل لها، ويتوسل إليها بدعوىٰ الرسالة.. في اندفاعهم هذا الصغير لا يردون فضل نوح وحده، بل يردون فضل الإنسانية التي هم منها؛ ويرفضون تكريم الله لهذا الجنس؛ ويستكثرون أن يرسل الله رسولاً من البشر، إن يكن لا بد مرسلاً:

﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾..

ذلك أنَّهم لا يجدون في أرواحهم تلك النفحة العلوية التي تصل البشر بالملأ الأعلىٰ؛ وتجعل المختارين من البشرية يتلقوْن ذلك الفيض العلوي ويطيقونه، ويحملونه إلى إخوانهم من البشر، فيهدونهم إلى مصدره الوضيء.

وهم يحيلون الأمر إلى السوابق المألوفة لا إلى العقل المتدبر:

﴿ما سمعنا بهـٰذا في آبائنا الأوَّلين﴾ [المؤمنون: ٢٤]..

ومثل هذا يقع دائماً عندما يطمس التقليد على حركة الفكر وحرية القلب. فلا يتدبَّر الناس ما هو بين أيديهم من القضايا، ليهتدوا على ضوء الواقع إلى حكم مباشر عليها. إنَّما هم يبحثون في ركام الماضي عن «سابقة» يستندون إليها؛ فإن لم يجدوا هذه السابقة رفضوا القضية وطرحوها!

وعند هذه الجماعات الجاحدة الخامدة أن ما كان مرة يمكن أن يكون ثانية. فأمَّا الذي لم يكن فإنَّه لا يمكن أن يكون! وهكذا تجمد الحياة، وتقف حركتها، وتتسمر خطاها، عند جيل معين من ﴿آبائنا الأوَّلين﴾!

ويا ليتهم يدركون أنَّهم جامدون متحجرون، إنَّما هم يتهمون دعاة التحرر والانطلاق بالجنون. وهم يدعونهم إلى التدبر والتفكر، والتخلية بين قلوبهم

ودلائل الإيمان الناطقة في الوجود. فإذا هم يتلقون هذه الدعوة بالتبجح والاتهام:

﴿إن هو إلاَّ رجل به جنة، فتربصوا به حتىٰ حين﴾ [المؤمنون: ٢٥]..

أي إلى أن يأخذه الموت، ويريحكم منه، ومن دعوته، ومن إلحاحه عليكم بالقول الجديد!

ويمضي قوم نوح في الضلال البعيد، وأوغلوا في الجحود، وتمالؤا على رسول رب العالمين، وظاهر بعضهم بعضاً على الاستهزاء به وتسفيه رأيه:

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه: ما نراك إلاَّ بشراً مثلنا، وما نراك اتَّبعك إلاَّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي، وما نرىٰ لكم علينا من فضل، بل نظنُّكم كاذبين﴾ [هود: ٢٧]..

الشبهات ذاتها، والاتهامات ذاتها، والكبرياء ذاتها، والاستقبال الغبي الجاهل المتعافي!

إنَّها الشبهة التي وقرت في نفوس جهال البشر: أنَّ الجنس البشري أصغر من حمل رسالة الله، فإن تكن رسالة فليحملها ملك أو مخلوق آخر. وهي شبهة جاهلة، مصدرها عدم الثقة بهذا المخلوق الذي استخلفه الله في أرضه، وهي وظيفة خطيرة ضخمة، لا بد أن يكون الخالق قد أودع في هذا الإنسان ما يكافئها من الاستعداد والطاقة، وأودع في جنسه القدرة على أن يكون من بينه أفراد مهيَّأون لحمل الرسالة، باختيار الله لهم، وهو أعلم بما أودع في كيانهم الخاص من خصائص هذا الجنس في عمومه.

وشبهة أُخرىٰ جاهلة كذلك. هي أنَّه إذا كان الله يختار رسولاً، فلم لا يكون من بين هؤلاء الملأ الكبراء في قومهم، المتسلطين العالين؟ وهم جهل بالقيم الحقيقية لهذا المخلوق الإنساني، والتي من أجلها استحقَّ

الخلافة في الأرض بعمـومه، واستحقَّ حمـل رسالـة الله بخصوصيتـه في المختارين في صفوفه. وهذه القيم لا علاقة لها بمال أو جاه أو استطالة في الأرض، إنَّما هي في صميم النفس، واستعدادها للاتصال بالملأ الأعلىٰ، بما فيها من صفاء وتفتح وقدرة على التلقي، واحتمال للأمانة وصبر على أدائها ومقدرة على إبلاغها. . إلى آخر صفات النبوة الكريمة. . وهي صفات لا علاقة لها بمال أو جاه أو استعلاء!

ولكن الملأ من قوم نوح، كالملأ من قوم كل نبي تعميهم مكانتهم الدنيوية عن رؤية هذه الخصائص العلوية، فلا يدركون مبـرراً لاختصاص الرسل بالرسالة. وهي في زعمهم لا تكون لبشر. فإن كانت فهي لأمثالهم من الوجهاء العالين في الأرض!

﴿وما نراك إلَّا بشراً مثلنا﴾.

هذه واحدة. . أمَّا الأُخرىٰ فأدهىٰ:

﴿وما نراك اتَّبعك إلَّا الَّذين هم أراذلنا، بادي الرأي﴾!!

وهم يسمون الفقراء من الناس «أراذل». . كما ينظر الكبراء دائماً إلى الآخرين الذين لم يؤتوا المال والسلطان! وأُولئك هم أتباع الرسل السابقين غالباً؛ لأنَّهم بفطرتهم أقرب إلى الاستجابة للدعوة التي تحرر النـاس من العبودية للكبراء، وتصل القلوب بإلـه واحد قاهر عال على الأعلياء. ولأنَّ فطرتهم لم يفسدها البطر والتـرف، ولم تعوقهـا المصالـح والمظاهـر عن الاستجابة؛ ولأنَّهم لا يخافون من العقيـدة في الله أن تضيع عليهم مكـانة مسروقة لغفلة الجماهير واستعبادها للخرافات الوثنية في شتّىٰ صورها.

وأول صور الوثنية الدينونة والعبـودية والـطاعة والاتبـاع للأشخـاص الزائلة بدلاً من الاتجاه بهذا كله لله وحده دون شريك. فرسالات التوحيد هي حركات التحرير الحقيقية للبشر في كل طور وفي كل أرض. ومن ثمَّ كان يقاومها الطغاة دائماً، ويصدون عنها الجمـاهير؛ ويحـاولون تشـويهها واتهام الدعاة إليها بشرّ التهم للتشويش والتنفير.

وهكذا اطلع القوم على نوح باعتراض عجيب.. وهو اعتراض مكرور في البشرية مع كل رسول: ﴿**قالوا: أنؤمن لك واتَّبعك الأرذلون**﴾؟ [الشعراء: ١١١].

وهم يعنون بالأرذلين الفقراء - كما تقدم - وهم السابقون إلى الرسل والرسالات، وإلى الإيمان والاستسلام. لا يصدهم عن الهدىٰ كبرياء فارغة، ولا خوف على مصلحة أو وضع أو مكانه. ومن ثمَّ فهم الملبون السابقون. فأمَّا الملأ من الكبراء فتقعد بهم كبرياؤهم، وتقعد بهم مصالحهم، القائمة على الأوضاع المزيفة، المستمدة من الأوهام والأساطير، التي تلبس ثوب الدين. ثمَّ هم في النهاية يأنفون أن يسويهم التوحيد الخالص بالجماهير من الناس، حيث تسقط القيم الزائفة كلها، وترتفع قيمة واحدة. قيمة الإيمان والعمل الصالح. قيمة واحدة ترفع قوماً وتخفض آخرين.. بميزان واحد هو ميزان العقيدة والسلوك القويم.

لقد تظاهر القوم على نوح في الاستهزاء به وتسفيه رأيه.. وادّعوا أنَّ دعوته باطلة وليس أدل على ذلك من أنَّ الذين اتبعوه هم الأراذل من طغام الناس الذين ليس عندهم فكر ناضج، ولا عقل راجح. استمعوا لك فأعجبهم بادي الرأي - أي لأول وهلة - فأسرعوا وآمنوا بك دون أن يفكروا وينظروا في الحقيقة. ولو كان حقاً ما تقول لكنا نحن - طبقة الأشراف وفئة الأكابر - أول من آمن بك. واتبعناك فيه، لأننا أصحاب عقل راجح ورأي سديد. نأخذ الأمر بعد التأمل في حقيقته. لا بالنظر في ظاهره.

وبعد فقد لجَّ القوم في الجدل، وأمعنوا في المراوغة، وقالوا:

﴿**وما نراك اتَّبعك إلاَّ الذين هم أراذلنا بادي الرَّأي**﴾..

أي دون تروٍّ ولا تفكير.. وهذه تهمة كذلك توجه دائماً من الملأ العالين لجموع المؤمنين.. إنَّها لا تتروىٰ ولا تفكر في اتباع الدعوات. ومن ثمَّ فهي متهمة في اتباعها واندفاعها، ولا يليق بالكبراء أن ينهجوا نهجها، ولا

أن يسلكوا طريقها. فإذا كان الأراذل يؤمنون، فما يليق إذن بالكبراء أن يؤمنوا إيمان الأراذل، ولا أن يدعو الأراذل يؤمنون!

﴿وما نرىٰ لكم علينا من فضل﴾.

يدمجون الداعي بمن تبعوه من الأراذل! ما نرىٰ لكم علينا من فضل يجعلكم أقرب إلى الهدىٰ، أو أعرف بالصواب. فلو كان ما معكم خيراً وصواباً لاهتدينا إليه، ولم تسبقونا أنتم إليه! وهم يقيسون الأمور بذلك القياس الخاطىء الذي تحدثنا عنه. قياس الفضل بالمال، والفهم بالجاه، والمعرفة بالسلطان.. فذو المال أفضل.. وذو الجاه أفهم. وذو السلطان أعرف!!

هذه المفاهيم وتلك القيم التي تسود دائماً حين تغيب عقيدة التوحيد عن المجتمع، أو تضعف آثارها، فترتد البشرية إلى عهود الجاهلية، وإلى تقاليد الوثنية في صورة من صورها الكثيرة. وإن بدت في ثوب من الحضارة المادية قشيب[1]. وهي انتكاسة للبشرية من غير شك، لأنها تصغر من القيم التي بها صار الإنسان إنساناً، واستحقَّ الخلافة في الأرض، وتلقّىٰ الرسالة من السماء؛ وترجع به إلى قيم أقرب إلى الحيوانية العضلية الفيزيقية!

﴿بل نظنُّكم كاذبين﴾.

وهي التهمة الأخيرة يقذفون بها في وجه الرسول وأتباعه. ولكنهم على طريقة طبقتهم.. «الأرستقراطية».. يلقونها في أسلوب التحفظ اللائق «بالأرستقراط»! ﴿بل نظنُّكم!﴾ لأنَّ اليقين الجازم في القول والاتجاه من طبيعة الجماهير المندفعة ـ باديَ الرأي ـ التي يترفع عنها السادة المفكرون المتحفظون!

---

(١) في الولايات المتحدة الأميركية اليوم يقاس الرجل بدخله، ويوزن برصيده في البنك!!! وموجة الجاهلية الوثنية تطغىٰ من أميركا على العالم حتّى في الشرق الذي يزعم أنّه مسلم!!!

إنَّه النموذج المتكرر من عهد نوح، لهذه الطبقة المليئة الجيوب الفارغة القلوب، المتعاظمة المدّعية المنتفخة الأوداج والأفخاخ!!

تلطف وسماحة ومودة:

ويتلقى نوح - عليه السَّلام - الاتهام والإعراض والاستكبار، في سماحة النَّبيّ وفي استعلائه وفي ثقته بالحق الذي جاء به، واطمئنانه إلى ربه الذي أرسله؛ وفي وضوح طريقه أمامه واستقامة منهجه في شعوره. فلا يشتم كما شتموا، ولا يتهم كما اتهموا، ولا يدعي كما ادعوا، ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهراً غير حقيقته ولا على رسالته شيئاً غير طبيعتها..

﴿قال: يَـا قوم أرأيتم إن كنت على بيِّنة من ربي، وآتاني رحمة من عنده فعُمِّيت عليكم. أنُلزمكموها وأنتم لها كارهون؟﴾ [هود: ٢٨]. **﴿يَـا قوم﴾**.. في سماحة ومودة بندائهم ونسبتهم إليه، ونسبة نفسه إليهم. إنكم تعترضون فتقولون: **﴿ما نراك إلَّا بشراً مثلنا﴾**.. فما يكون رأيكم إن كنت على اتصال بربي، بيِّن في نفسي مستيقن في شعوري. وهي خاصية لم توهبوها. وإن كان الله آتاني رحمة من عنده باختياري للرسالة، أو آتاني من الخصائص ما أستحق به حمل الرسالة - وهذه رحمة ولا شك عظيمة - ما رأيكم إن كانت هذه وتلك فخفيت عليكم خفاء عماية، لأنَّكم غير متهيِّئين لإدراكها، وغير مفتوحي البصائر لرؤيتها. **﴿أنلزمكموها؟﴾**(١) إنَّه ما كان لي وما أنا بمستطيع أن ألزمكم الإذعان لها والإيمان بها **﴿وأنتم لها كارهون﴾**!

وهكذا يتلطف نوح في توجيه أنظارهم ولمس وجدانهم وإثارة

---

(١) جاء في كتاب: «التصوير الفني في القرآن» في فصل: «التناسق الفني» أنَّ اللفظ في القرآن قد يرسم بجرسه صورة كاملة. ومن أمثلته أنك تتلو حكاية قول نوح: «.. أنلزمكموها» فتحس أنَّ هذه الكلمة تصور جو الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر في النطق وشد بعضها إلى بعض، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون، ويشدون إليه وهم نافرون! وهكذا يبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية وأرفع من الفصاحة اللفظية.

حساسيتهم لإدراك القيم الخفية عليهم، والخصائص التي يغفلون عنها في أمر الرسالة والاختيار لها: ويبصرهم بأنَّ الأمر ليس موكولاً إلى الظواهر السطحية التي يقيسون بها. وفي الوقت ذاته يقرر لهم المبدأ العظيم القويم. مبدأ الاختيار في العقيدة، والاقتناع بالنظر والتدبر، لا بالقهر والسلطان والاستعلاء!

﴿ويَا قوم لا أسألكم عليه مالاً، إن أجري إلاَّ على الله، وما أنا بطارد الذين آمنوا، إنَّهم ملاقو ربهم ولكنِّي أراكم قوماً تجهلون﴾ [هود: ٢٩]. .

يا قوم إنَّ الذين تدعونهم أراذل قد دعوتهم فآمنوا، وليس لي عند الناس إلاَّ أن يؤمنوا. إنَّني لا أطلب مالاً على الدعوة، حتى أكون حفياً بالأثرياء غير حفي بالفقراء؛ فالناس كلهم عندي سواء. . ومن يستغن عن مال الناس يتساوى عنده الفقراء والأغنياء.

﴿إن أجري إلاَّ على الله﴾ . .

عليه وحده دون سواه.

﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ . .

ونفهم من هذا الرد أنَّهم طلبوا أو لوَّحوا له بطردهم من حوله، حتى يفكروا هم في الإيمان به، لأنَّهم يستنكفون أن يلتقوا عنده بالأراذل، أو أن يكونوا وإيَّاهم على طريق واحد! ـ لست بطاردهم، فهذا لا يكون مني. لقد آمنوا وأمرهم بعد ذلك إلى الله لا لي:

﴿إنَّهم ملاقو ربِّهم﴾ . . ﴿ولكنِّي أراكم قوماً تجهلون﴾.

تجهلون القيم الحقيقية التي يقدر بها الناس في ميزان الله. . وتجهلون أن مرد الناس كلهم إلى الله.

﴿ويَا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم. أفلا تذكَّرون؟﴾ [هود: ٣٠].

فهناك الله. رب الفقراء والأغنياء. رب الضعفاء والأقوياء. هناك الله

يقوِّم الناس بقيم أُخرىٰ. ويزنهم بميزان واحد. هو الإيمان. فهؤلاء المؤمنون في حماية الله ورعايته.

ومن يعصمني من الله إن أنا أخللت بموازينه، وبغيت على المؤمنين من عباده ـ وهم أكرم عليه ـ وأقررت القيم الأرضية الزائفة التي أرسلني الله لأُعدِّلها لا لأتبعها؟

﴿أفلا تذكَّرون؟﴾ . .

وقد أنساكم ما أنتم فيه ميزان الفطرة السليمة القويمة؟

ثمَّ يجيبهم نوح الجواب الذي يقرر القيم الثابتة؛ ويحدد اختصاص الرسول، ويدع أمر الناس وحسابهم لله على ما يعملون. **﴿قال: وما علمي بما كانوا يعملون؟ إن حسابهم إلاَّ على ربِّي لو تشعرون. وما أنا بطارد المؤمنين. إن أنا إلاَّ نذير مبين﴾** [الشعراء: ١١٢ ـ ١١٥]. والكبراء يقولون دائماً على الفقراء: إنَّ عاداتهم وأخلاقهم لا ترضي العلية، ولا تطاق في وساط الطبقة الراقية ذات الحس المرهف والذوق اللطيف! فنوح يقول لهم: إنَّه لا يطلب إلى الناس شيئاً سوىٰ الإيمان. وقد آمنوا. فأمَّا عملهم قبله فموكول إلى الله، وهو الذي يزنه ويقدره. ويجزيهم على الحسنات والسيئات. وتقدير الله هو الصحيح **﴿لو تشعرون﴾** بالقيم الحقة التي ترجح في ميزان الله. وما وظيفتي إلاَّ الإنذار والإفصاح:

﴿إن أنا إلاَّ نذير مبين﴾.

ثمَّ يقدم لهم شخصه ورسالته مجردين عن كل زخرف وكل طلاء وكل قيمة من تلك القيم العرضية الزائفة. يقدمها لهم في معرض التذكير، ليقرر لهم القيم الحقيقية، ويزدري أمامهم القيم الظاهرية، بتخليه عنها، وتجرده منها. فمن شاء الرسالة كما هي، بقيمها، بدون زخرف، بدون ادّعاء، فليتقدم إليها مجردة خالصة لله:

﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ [هود: ٣٠].

فأدعي الثراء أو القدرة على الإثراء..

﴿ولا أعلم الغيب﴾..

فأدّعي قدرة ليست للبشر أو صلة بالله غير صلة الرسالة..

﴿ولا أقول: إنّي ملك﴾..

فأدَّعي صفة أعلىٰ من صفة الإنسانية في ظنكم لأرتفع في أعينكم، وأفضل نفسي بذاتي عليكم..

﴿ولا أقول للّذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً﴾..

إرضاء لكبريائكم، أو مسايرة لتقديركم الأرضي وقيمكم العرضية.

﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾..

فليس لي إلاَّ ظاهرهم، وظاهرهم يدعو إلى التكريم، وإلى الرجاء في أن يؤتيهم الله خيراً..

﴿إنّي إذن لمن الظَّالمين﴾ [هود: ٣١]..

إن ادَّعيت أية دعوىٰ من هذه الدعاوي. الظالمين للحق وقد جئت أبلغه، والظالمين لنفسي فأعرضها لغضب الله؛ والظالمين للناس فأنزلهم غير ما أنزلهم الله.

وهكذا ينفي نوح ـ عليه السَّلام ـ عن نفسه وعن رسالته كل قيمة زائفة وكل هالة مصطنعة يتطلبها الملأ من قومه في الرسول والرسالة. ويتقدم إليهم بها مجردة إلَّا من حقيقتها العظيمة التي لا تحتاج إلى مزيد مس تلك الأغراض السطحية. ويردهم في نصاعة الحق وقوته، مع سماحة القول ووده إلى الحقيقة المجردة ليواجهوها، ويتخذوا لأنفسهم خطة على هداها. بلا ملق ولا زيف ولا محاولة استرضاء على حساب الرسالة وحقيقتها البسيطة. فيعطي أصحاب الدعوة في أجيالها جميعاً، نموذجاً للداعية، ودرساً في مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد، دون استرضاء لتصوراتهم، ودون ممالأة لهم، مع المودة التي لا تنحني معها الرؤوس!

التحدِّي الأخير :

وعند هذا الحد كان الملأ من قوم نوح قد يئسوا من مناهضة الحجة بالحجة؛ فإذا هم ـ على عادة طبقتهم ـ قد أخذتهم العزة بالإثم، واستكبروا أن تغلبهم الحجة، وأن يذعنوا للبرهان العقلي والفطري. وإذا هم يتركون الجدل إلى التحدي:

﴿قالوا: يَا نوح قد جادلتنا، فأكثرت جدالنا، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصَّادقين﴾ [هود: ٣٢].

إنَّه العجز يلبس ثوب القدرة، والضعف يرتدي رداء القوة، والخوف من غلبة الحق يأخذ شكل الاستهانة والتحدِّي: **﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾**.

وأنزل بنا العذاب الأليم الذي أنذرتنا به فلسنا نصدقك، ولسنا نبالي وعيدك.

أمَّا نوح فلا يخرجه هذا التكذيب والتحدي عن سمت النَّبي الكريم، ولا يقعده عن بيان الحق لهم، وإرشادهم إلى الحقيقة التي غفلوا عنها وجهلوها في طلبهم منه أن يأتيهم بما أوعدهم، وردهم إلى هذه الحقيقة وهي أنَّه ليس سوىٰ رسول، وليس عليه إلاَّ البلاغ، أمَّا العذاب فمن أمر الله، وهو الذي يدبر الأمر كله، ويقدر المصلحة في تعجيل العذاب أو تأجيله، وسنته هي التي تنفذ.. وما يملك هو أن يردها أو يحولها.. إنَّه رسول. وعليه أن يكشف عن الحق حتى اللحظة الأخيرة، فلا يقعده عن إبلاغه وبيانه أنَّ القوم يكذبونه ويتحدونه: **﴿قال: إنَّما يأتيكم به الله إن شاء، وما أنتم بمعجزين. ولا ينفعكم نصحي ـ إن أردت أن أنصح لكم ـ إن كان الله يريد أن يغويكم، هو ربكم وإليه ترجعون﴾** [هود: ٣٣، ٣٤]..

فإذا كانت سنة الله تقتضي أن تهلكوا بغوايتكم، فإنَّ هذه السنة ستمضي فيكم، مهما بذلت لكم من النصح. لا لأنَّ الله سيصدكم عن

الانتفاع بهذا النصح، ولكن لأنَّ تصرفكم بأنفسكم يجعل سنة الله تقتضي أن تضلوا، وما أنتم بمعجزين لله عن أن ينالكم ما يقدر لكم، فأنتم دائماً في قبضته، وهو المدبر والمقدر لأمركم كله ولا مفر لكم من لقائه وحسابه وجزائه.

﴿هو ربُّكم وإليه ترجعون﴾.

فلمَّا أن واجههم نوح ـ عليه السَّلام ـ بحجته الواضحة ومنطقه المستقيم؛ وعجزوا عن المضي في الجدل بالحجة والبرهان، لجأوا إلى ما يلجأ إليه الطغيان كلما أعوزته الحجة، وخذله البرهان. لجأوا إلى التهديد بالقوة المادية الغليظة التي يعتمد عليها الطغاة في كل زمان ومكان، عندما تعوزهم الحجة، ويعجزهم البرهان:

﴿قالوا: لئن لم تنته يَا نوح لتكونَنَّ من المرجومين﴾ [الشعراء: ١١٦].

وأسفر الطغيان عن وجهه الكالح، وكشف الضلال عن وسيلته الغليظة، وعرف نوح أنَّ القلوب الجاسية لن تلين، لقد أسرفوا في الجهل، وتوغلوا في الحماقة والضلال.. هنا توجَّه النَّبيّ الصابر المؤمن والثقة تملأ قلبه بخالقه ومرسله.. توجَّه إلى القوم المتعالين يتحداهم، ويعتز بالحق المستمد مباشرة من ربه، ولم يحفل بكيدهم ومكرهم وتهديدهم.. قام يردّ الأمر إلى الله سبحانه ـ والتوكل عليه وحده، وهو صاحب الأمر والتدبير، لقد تحداهم في ثقة وفي طمأنينة وفي يقين:

﴿واتلُ عليهم نبأ نوح، إذ قال لقومه: يَا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلىٰ الله توكَّلت، فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثمَّ لا يكن أمركم عليكم غمة، ثمَّ اقضوا إليَّ ولا تنظرون. فإن تولَّيتم فما سألتكم من أجر، إن أجري إلاَّ على الله، وأُمرت أن أكون من المسلمين. فكذَّبوه فنجَّيناه ومن معه في الفلك، وجعلناهم خلائف، وأغرقنا الذين كذَّبوا بآياتنا، فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين﴾ [يونس: ٧١ ـ ٧٣]..

إنَّها الحلقة الأخيرة من دعوة نوح: حلقة التحدي الأخير، بعد الإنذار الطويل والتذكير الطويل والتكذيب الطويل. والهدف من تلك الحقيقة هو إبراز التحدي والاستعانة بالله وحده، ونجاة الرسول ومن معه وهم قلة، وهلاك المكذِّبين له وهم كثرة وقوة.

ويقول نوح: إن كان الأمر قد بلغ منكم مبلغ الضيق. فلم تعودوا تتحملون بقائي فيكم ودعوتي لكم؛ وتذكيري لكم بآيات الله. فأنتم وما تريدون. وأنا ماض في طريقي لا أعتمد إلاَّ على الله. عليه وحده فهو حسبي دون النصراء والأولياء.

﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾.

وتدبَّروا مصادر أمركم وموارده، وخذوا أُهبتكم متضامنين:

﴿ولا يكن أمركم عليكم غمَّة﴾..

بل ليكن الموقف واضحاً في نفوسكم، وما تعتزمونه مقرراً لا لبس فيه ولا غموض، ولا تردد فيه ولا رجعة.

﴿ثمَّ اقضوا إليَّ﴾..

فنفذوا ما اعتزمتم بشأني وما دبرتم، بعد الروية ووزن الأُمور كلها والتصميم الذي لا تردد فيه..

﴿ولا تُنظرون﴾..

ولا تمهلوني للأُهبة والاستعداد، فكل استعدادي، هو اعتمادي على الله وحده دون سواه.

إنَّه التحدي الصريح المثير، الذي لا يقوله القائل إلاَّ وهو مالىء يديه من قوته، وواثق كل الوثوق من عدته، حتى ليغري خصومه بنفسه، ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه! فما كان وراء نوح من القوة والعدة؟

وماذا كان معه من قوىٰ الأرض جميعاً؟

كان معه الإيمان . . القوة التي تتصاغر أمامها القوىٰ، وتتضاءل أمامها الكثرة، ويعجز أمامها التدبير. وكان وراءه الله الذي لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان!

إنَّه الإيمان بالله وحده ذلك الذي يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرىٰ المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه فليس هذا التحدي غروراً، وليس كذلك تهوراً، وليس انتحاراً. إنَّما هو تحدي القوة الحقيقية الكبرىٰ للقوىٰ الهزيلة الفانية التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان.

وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أُسوة حسنة في رسل الله . . وإنَّه لينبغي لهم أن تمتلىء قلوبهم بالثقة حتى تفيض. وإنَّ لهم أن يتوكلوا على الله وحده في وجه الطاغوت أيّاً كان!

والله سبحانه يقص قصة عبده نوح وهو يتحدّىٰ قوىٰ الطاغوت في زمانه هذا التحدي الواضح الصريح.

﴿فإن تولَّيتم فما سألتكم من أجر. إن أجري إلاَّ على الله. وأُمرت أن أكون من المسلمين﴾.

فإن أعرضتم عني وابتعدتم، فأنتم وشأنكم، فما كنت أسألكم أجراً على الهداية، فينقص أجري بتوليكم: **﴿إن أجري إلاَّ على الله﴾** . .

ولن يزحزحني هذا عن عقيدتي، فقد أُمرت أن أُسلم نفسي كلها لله:

﴿وأُمرت أن أكون من المسلمين﴾ . .

وأنا عندما أُمرت به . . من المسلمين . .

التوجه إلى العلي الكبير وتقديم الحساب الأخير:

كان نوح ـ عليه السَّلام ـ من أُولي العزم من الرسل، رزقه الله الصبر وطول الأناة ووسَّع له في حلمه. فقد مكث في قومه يدعوهم ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً، ثابتاً صامداً أمام سخرياتهم، صابراً على إساءاتهم، تتوق

نفسه كل حين إلى بارقة أمل فيهم، ويرجو أن تلوح منهم بوادر الإيمان، ولكن الشقوة غلبت عليهم، فما ازدادوا على الأيام إلَّا طغياناً وكفراً. وأصبحوا في عمىً عمَّا ينظرون، وفي صُمٍّ عمَّا يسمعون.

لقد وجدت دعوة نوح قلوباً أشد قسوة من الحجارة.. ها هم أولاء يتوعَّدوه إن لم ينته عن دعوة رب العالمين: ﴿**قالوا: لئن لم تنته يَا نوح لتكونَنَّ من المرجومين**﴾ [الشعراء: ١١٦].. هنا توجه نوح إلى الولي الحميد، والناصر الفريد، الذي لا ملجأ سواه للمؤمنين ﴿**قال: ربِّ إنَّ قومي كذَّبون. فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجِّني ومن معي من المؤمنين**﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨].. وهكذا حين لم يجد نوح ـ عليه السَّلام ـ منفذاً إلى تلك القلوب الجامدة المتحجرة ولم يجد موئلاً من السخرية والأذىٰ، توجَّه إلى ربه وحده، يشكو إليه ما لقيه من تكذيب ويطلب منه النصر بسبب هذا التكذيب.. وربُّه يعلم أنَّ قومه كذَّبوه. ولكنَّه البث والشكوىٰ إلى الناصر المعين، وطلب النصفة، ورد الأمر إلى صاحب الأمر ليضع الحد الأخير للبغي والتكذيب.. ﴿**قال: ربِّ انصرني بما كذَّبون**﴾..

وراح نوح يقدم حسابه لربه، يشكو ما تحمل من إعراض واستكبراء واستهزاء.. ألف سنة إلَّا خمسين عاماً.. وعدد المستجيبين له لا يكاد يزيد؛ ودرجة الإعراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد!

لقد عاد في نهاية المطاف يقدم حسابه لربه الذي كلَّفه هذا الواجب النبيل وذلك الجهد الثقيل! عاد يصف ما صنع وما لاقىٰ.. وربُّه يعلم. وهو يعرف أنَّ ربه يعلم. ولكنَّها شكوىٰ القلب المتعب في نهاية المطاف، إلى الجهة الوحيدة التي يشكو إليها الأنبياء والرسل والمؤمنون حقيقة الإيمان.. إلى الله..

﴿**قال: ربِّ إنِّي دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعائي إلَّا فراراً، وإنِّي كلَّما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا**

ثيابهم، وأصرّوا، واستكبروا استكباراً. ثمَّ إنِّي دعـوتهم جهاراً، ثمَّ إنِّي أعلنتُ لهم وأسررتُ لهم إسراراً﴾ [نوح: ٥ ـ ٩]. .

هذا ما صنع نوح وهذا ما قال؛ عاد يعرض على ربه وهو يقدم حسابه الأخير في نهاية الأمد الطويل(١). وهو يصور الجهد الدائب الذي لا ينقطع: ﴿إنِّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾. .

ولا يمل ولا يفتر ولا ييئس أمام الإعراض والإصرار: ﴿فلم يزدهم دعائي إلَّا فراراً﴾. . فراراً من الداعي إلى الله. مصـدر الوجـود والحياة، ومصدر النعم والآلاء، ومصدر الهـدىٰ والنور. وهـو لا يطلب أجـراً على السماع ولا ضريبة على الاهتداء! الفرار ممَّن يدعـوهم إلى الله ليغفر لهم ويخلصهم من جريرة الإثم والمعصية والضلال!

فـإذا لم يستطيعـوا الفرار، لأنَّ الـداعي واجههم مـواجهـة، وتحيَّن الفرصة ليصل إلى أسماعهم بدعوته، كرهوا أن يصل صوته إلى أسماعهم. وكرهوا أن تقع أنظارهم، وأصرُّوا على الضلال، واستكبروا على الاستجابة لصوت الحق والهدىٰ: ﴿وإنِّي كلَّما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم وأصـرُّوا واستكبروا استكبـاراً﴾. . وهي صورة لإصرار الداعية على الدعوة وتحيُّن كل فرصة ليبلغهم إياها؛ وإصرارهم هم على الضلال. تبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة. تبرز في وضع

---

(١) عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدعىٰ نوح يوم القيامة، فيقول: لبَّيْك وسَعْديك يا ربِّ، فيقول: هل بلَّغتَ؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول لأُمَّته هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقال: من يَشهد لك، فيقول: محمَّد ﷺ وأُمَّتـه». قال ﷺ: فيشهدون أنَّه قد بلَّغ، ويكون الرسول عليهم شهيداً، فذلك قوله: ﴿وكذلك جعلناكم أُمَّةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]. .
والوسط: العدل.
[رواه ابن حبان، وإسناده صحيح على شرط الشيخين. انظر تخريجه في الإحسان (برقم ٧٢١٦)].

الأصابع في الآذان، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب. والتعبير يرسم بكلماته صورة العناد الطفولي الكامل، وهو يقول: إنَّهم **﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾** وآذانهم لا تسع أصابعهم كاملة، إنَّما هم يسدونها بأطراف الأصابع. ولكنهم يسدونها في عنف بالغ، كأنَّما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم ضماناً لعدم تسرب الصوت إليها بتاتاً! وهي صورة غليظة للإصرار والعناد، وكما أنَّها صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار!

ومع الدأب على الدعوة، وتحيُّن كل فرصة، والإصرار على المواجهة.. اتَّبع نوح ـ عليه السَّلام ـ كل الأساليب فجهر بالدعوة تارة، ثمَّ زاوج بين الإعلان والإسرار تارة: **﴿ثمَّ إنِّي دعوتهم جهاراً، ثمَّ إنِّي أعلنتُ لهم وأسررت لهم إسراراً﴾**.. وفي أثناء ذلك كله أطمعهم في خير الدنيا والآخرة. أطمعهم في الغفران إذا استغفروا ربهم فهو ـ سبحانه ـ غفار للذنوب: **﴿فقلت: استغفروا ربكم إنَّه كان غفَّاراً﴾**..

وأطمعهم في الرزق الوفير الميسور من أسبابه التي يعرفونها ويرجونها وهي المطر الغزير، الذي تنبت به الزروع، وتسيل به الأنهار، كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التي يحبونها ـ وهي البنين ـ والأموال التي يطلبونها ويعزونها:

﴿يرسل السَّماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنَّات ويجعل لكم أنهاراً﴾ [نوح: ١١، ١٢]..

وقد ربط بين الاستغفار وهذه الأرزاق. وفي القرآن مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدىٰ الله، وبين تيسير الأرزاق، وعموم الرخاء.. جاء في سورة الأعراف:

﴿ولو أنَّ أهل القرىٰ آمنوا واتَّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولـكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾..

وجاء في المائدة: **﴿ولو أنَّ أهل الكتاب آمنوا واتَّقوا لكفَّرنا عنهم**

سيِّئاتهم ولأدخلناهم جنَّات النعيم. ولو أنَّهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربِّهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم..﴾..

وجاء في سورة هود: ﴿**ألَّا تعبدوا إلَّا الله إنَّني لكم منه نذير وبشير، وأن استغفروا ربكم ثمَّ توبوا إليه يمتِّعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمًّى ويؤت كل ذي فضل فضله..**﴾..

وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة، قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله، ومن سنة الحياة، كما أنَّ الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون. والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد. وما من أُمَّة قام فيها شرع الله، واتجهت اتجاهاً حقيقياً لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبىء عن خشية الله.. ما من أُمَّةٍ اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته، فحققت العدل والأمن للناس جميعاً، إلَّا فاضت فيها الخيرات، ومكَّن الله لها في الأرض واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء.

ولقد نشهد في بعض الفترات أُمماً لا تتَّقي الله ولا تقيم شريعته؛ وهي مع هذا ـ موسع عليها في الرزق، ممكن لها في الأرض.. ولكن هذا إنَّما هو الابتلاء: ﴿**ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة**﴾ [الأنبياء: ٣٥] ثمَّ هو بعد ذلك رخاء مؤوف، تأكله آفات الاختلال الاجتماعي والانحدار الأخلاقي، أو الظلم والبغي وإهدار كرامة الإنسان. يهبط تصور الحياة إلى الدرك الأسفل فيقوم كله على الدولار!!

وبعد الإنذار والإطماع والوعد بالمال والبنين والرخاء.. بعد هذا كله كان العصيان ﴿**قال نوح: ربِّ إنَّهم عصوني واتَّبعوا من لم يزده ماله وولده إلَّا خساراً**﴾.. [نوح: ٢١] وكان السير وراء القيادات الضالة المضللة، التي تخدع الأتباع بما تملك من المال والأولاد، ومظاهر الجاه والسلطان. ممَّن ﴿**لم يزده ماله وولده إلَّا خساراً**﴾ فقد أغراهم المال والولد بالضلال

والإضلال، فلم يكن وراءهما إلاَّ الشقاء والخسران. هؤلاء القادة لم يكتفوا بالضلال.. ﴿**ومكروا مكراً كباراً**﴾ [نوح: ٢٢] مكراً متناهياً في الكبر. مكروا لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب الناس. ومكروا لتزيين الكفر والضلال والجاهلية التي تخبط فيها القوم. وكان من مكرهم تحريض الناس على الاستمساك بالأصنام التي يسمونها آلهة: ﴿**وقالوا: لا تذرن آلهتكم**﴾.. بهذه الإضافة: ﴿**آلهتكم**﴾ لإثارة النخوة الكاذبة والحمية الآثمة في قلوبهم. وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأناً فخصُّوها بالذكر ليهيج ذكرها في قلوب العامة المضللين الحمية والاعتزاز.. ﴿**ولا تذرنَّ وداً، ولا سواعاً، ولا يغوث، ويعوق، ونسراً**﴾ [نوح: ٢٣] وهي أكبر آلهتهم التي ظلَّت تعبد في الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية.

وهكذا تلك القيادات الضالة المضللة تقيم أصناماً، تختلف أسماؤها وأشكالها، وفق النعرة السائدة في كل جاهلية؛ وتجمع حواليها الأتباع، وتهيج في قلوبهم الحمية لهذه الأصنام، كي توجههم من هذا الخطام إلى حيث تشاء، وتبقيهم على الضلال الذي يكفل لها الطاعة والانقياد: ﴿**وقد أضلُّوا كثيراً**﴾ ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام.. أصنام الأحجار.. وأصنام الأشخاص. وأصنام الأفكار.. سواء!! للصدّ عن دعوة الله، وتوجيه القلوب بعيداً عن الدُّعاة، بالمكر الكبّار، والكيد والإصرار!

هنا انبعث من قلب النَّبيّ الكريم نوح ـ عليه السَّلام ـ ذلك الدعاء على الظالمين الضالين المضلِّين، الماكرين الكائدين:

﴿**ولا تزد الظَّالمين إلاَّ ضلالاً**﴾ [نوح: ٢٤]..

ذلك الدعاء المنبعث من قلب جاهد طويلاً، وعانىٰ كثيراً، وانتهىٰ ـ بعد كل وسيلة ـ إلى اقتناع بأن لا خير في القلوب الظالمة الباغية العاتية؛ وعلم أنَّها لا تستحق الهدىٰ ولا تستأهل النجاة.

هكذا سلك نوح ـ أو حاول أن يسلك ـ إلى آذان قومه وقلوبهم

وعقولهم بشتّىٰ الأساليب، ومتنوع الوسائل في دأب طويل، وفي صبر جميل، وفي جهد نبيل، ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً. ثمَّ عاد إلى ربه الذي أرسله إليهم، يقدم حسابه، ويبث شكواه، في هذا البيان المفصل، وفي هذه اللهجة المؤثرة. ومن هذا البيان الدقيق نطّلع على تلك الصورة النبيلة من الصبر والجهد والمشقة، وهي حلقة واحدة في سلسلة الرسالة السماوية لهذه البشرية الضالّة العصية! فماذا كان بعد كل هذا البيان؟

﴿قال نوح: ربِّ إنَّهم عصوني، واتَّبعوا من لم يزده ماله وولده إلاَّ خساراً. ومكروا مكراً كباراً. وقالوا: لا تـذرنَّ آلهتكم، و ءآنَّ ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً. وقد أضلُّوا كثيراً. ولا تزد الظَّالمين إلاَّ ضلالاً﴾ [نوح: ٢١ ـ ٢٤]..

ربِّ إنَّهم عصوني! بعد كل هذا الجهاد، وبعد كل هذا العناء. وبعد كل هذا التوجيه. وبعد كل هذا التنوير..

ثمَّ يكمل القرآن دعاء نوح الأخير؛ وابتهاله إلى ربه في نهاية المطاف:

﴿وقال نوح: ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً. إنَّك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلاَّ فاجراً كفاراً. ربِّ اغفر لي ولوالدي، ولمن دخل بيتي مؤمناً، وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلاَّ تباراً﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٨]..

فقد ألهم قلب نوح أنَّ الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشرّ العارم الخالص الذي انتهىٰ إليه القوم في زمانه. وأحياناً لا يصلح أي علاج آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين، لأنَّ وجودهم يجمد الدعوة إلى الله نهائياً، ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين. وهي الحقيقة التي عبَّر عنها نوح، وهو يطلب الإجهاز على أُولئك الظالمين إجهازاً كاملاً لا يبقىٰ منهم دياراً ـ أي صاحب ديار ـ فقال: **﴿إنَّك إن تذرهم يضلُّوا عبادك﴾**..

ولفظة ﴿عبادك﴾ توحي بأنَّهم المؤمنون. فهي تجيء في السياق القرآني في مثل هذا الموضع بهذا المعنىٰ. وذلك بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة، أو بفتنة قلوبهم بما ترىٰ من سلطان الظَّالمين وتركهم من الله في عافية! ثمَّ إنَّهم يوجدون بيئة وجواً يولد فيها الكفار، وتوحي بالكفر من الناشئة الصغار، بما يطبعهم به الوسط الذي ينشئه الظالمون، فلا توجد فرصة لترىٰ الناشئة النور، من خلال ما تغمرهم به البيئة الضالّة التي صنعوها. وهي الحقيقة التي أشار إليها قول النَّبيِّ الكريم نوح ـ عليه السَّلام ـ، وحكاها عنه القرآن: ﴿ولا يلدوا إلَّا فاجراً كفاراً﴾.. فهم يطلقون في جو الجماعة أباطيل وأضاليل، وينشئون عادات وأوضاعاً ونظماً وتقاليد، ينشأ معها المواليد فجاراً كفاراً، كما قال نوح..

من أجل هذا دعا نوح ـ عليه السَّلام ـ دعوته الماحقة الساحقة. ومن أجل هذا استجاب الله دعوته، فغسل وجه الأرض من ذلك الشر؛ وجرف العوائير التي لا تجرفها إلَّا قوة الجبار القدير.

وإلى جانب الدعوة الساحقة الماحقة التي جعلها خاتمة دعائه وهو يقول: ﴿ولا تزد الظَّالمين إلَّا تباراً﴾ ـ أي هلاكاً ودماراً ـ إلى جانب هذا كان الابتهال الخاشع الودود:

﴿رب اغفر لي ولوالدي، ولمن دخل بيتي مؤمناً، وللمؤمنين والمؤمنات..﴾..

ودعاء نوح النبي لربه أن يغفر له.. هو الأدب النبوي الكريم في حضرة الله العلي العظيم.. أدب العبد في حضرة الرب. العبد الذي لا ينسىٰ أنَّه بشر، وأنَّه يخطىء، وأنَّه يقصر، مهما يطع ويعبد، وأنَّه لا يدخل الجنَّة بعمله إلَّا أن يتغمَّده الله بفضله، كما قال أخوه النَّبيِّ الكريم محمَّد ﷺ وهذا هو الاستغفار الذي دعا قومه العصاة الخاطئين إليه، فاستكبروا عليه.. وهذا هو النَّبي يستغفر بعد كل هذا الجهد وكل هذا العناء. يستغفر وهو يقدم لربه سجل الحساب!

ودعاؤه لوالديه . . هو بر النبوة بالوالدين المؤمنين ـ كما نفهم من هذا الدعاء ـ ولو لم يكونا مؤمنين لروجع فيهما كما روجع في شأن ولده الكافر الذي أغرق مع المغرقين (كما سيأتي).

ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمناً . . هو بر المؤمن بالمؤمن؛ وحب الخير لأخيه كما يحبه لنفسه، وتخصيص الذي يدخل بيته مؤمناً، لأنَّ هذه كانت علامة النجاة، وحصر المؤمنين الذين سيصحبهم معه في السفينة.

ودعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات . . هو بر المؤمن بالمؤمنين كافة في كل زمان ومكان. وشعوره بآصرة القربىٰ على مدار الزمن واختلاف السكن. وهو السر العجيب في هذه العقيدة التي تربط بين أصحابها برباط الحب الوثيق، والشوق العميق، على تباعد الزمان والمكان. السر الذي أودعه الله هذه العقيدة، وأودعه هذه القلوب المربوطة برباط العقيدة . .

وفي مقابل هذا الحب للمؤمنين، كان الكره للظالمين.
﴿ولا تزد الظالمين إلاَّ تباراً﴾ . .

تدبير وتقدير :

لقد عرضت قصة نوح تلك الصورة الوضيئة لجهاد هذا النبي الكريم ـ عليه السَّلام ـ وتلك الصورة المطموسة لإصرار المعاندين الظالمين . . وقد تركت هذه وتلك في القلب حباً لهذا الروح الكريم وإعجاباً بهـذا الجهاد النبيل، وزاداً للسير في هذا الطريق، أيّاً كانت المشاق والمتاعب. وأيّاً كانت التضحيات والآلام. فهو الطريق الوحيد الذي ينتهي بالبشرية إلى أقصىٰ الكمال المقدر لها في هذه الأرض. حين ينتهي بها إلى الله، العلي الأعلىٰ، الجليل العظيم . . **﴿كذَّبت قبلهم قوم نوح، فكذَّبوا عبدنا وقالوا: مجنون وازدجر . . فدعا ربه أنِّي مغلوب فانتصر﴾** [القمر: ٩، ١٠] لقد كـذَّبوا بالرسل وبالآيات . . كذَّبوا نوحاً وقالوا: مجنون . . كما قالت قريش ظالمة عن محمَّد ﷺ وهددوه بالرجم، وآذوه بالسخرية، وطالبوه أن يكف عنهم

ونهروه بعنف: ﴿وازدجر﴾.. بدلاً من أن ينزجروا هم ويرعووا!

عندئذٍ عاد نوح إلى ربه الذي أرسله ـ كما تقدم ـ، عاد إلى ربه الذي كلَّفه مهمة التبليغ. عاد لينهي إليه ما انتهىٰ إليه أمره مع قومه، وما انتهىٰ إليه جهده وعمله، وما انتهت إليه طاقته ووسعه، ويدع له الأمر بعد أن لم يعد لديه طاقة لم يبذلها، وبعد أن لم تبق له حيلة ولا حول:

﴿فدعا ربه: أنِّي مغلوب فانتصر﴾..

انتهت طاقتي. انتهىٰ جهدي. انتهت قوتي، وغُلبتُ على أمري.. انتصر أنت يا ربي. انتصر لدعوتك. انتصر لحقك. انتصر لمنهجك. انتصر أنت فالأمر أمرك، والدعوة دعوتك. وقد انتهىٰ دوري!

وسمع الله لنبيه دعاءه الحزين.. ومن ثَمَّ يعرض القرآن مشهد نوح يتلقىٰ وحي ربه وأمره: ﴿وأُوحي إلىٰ نوح أنَّه لن يؤمن من قومك إلاَّ من قد آمن﴾ [هود: ٣٦]..

فقد انتهىٰ الإنذار، وانتهت الدعوة، وانتهىٰ الجدل!

فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت، أمَّا البقية فليس فيها استعداد ولا اتجاه. هكذا أوحىٰ الله إلى نوح، وهو أعلم بعباده، وأعلم بالممكن والممتنع، فلم يبق مجال للمضي في دعوة لا تفيد. ولا عليك ممَّا كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب وتحدٍّ واستهزاء: ﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾..

أي لا تحسّ بالبؤس والقلق، ولا تحفل ولا تهتم بهذا الذي كان منهم، لا على نفسك فما هم بضاريك بشيء، ولا عليهم فإنَّهم لا خير فيهم.

دع أمرهم فقد انتهىٰ.

وعندما يتجمد الأحياء على هذا النحو، وتهم الحياة بالحركة إلى الأمام، في طريق الكمال المرسوم، فتجدهم عقبة في الطريق.. عندئذٍ إمَّا أن تتحطم هذه المتحجرات؛ وإمَّا أن تدعها الحياة في مكانها وتمضي..

والأمر الأول هو الذي حدث لقوم نوح. وذلك أنّهم كانوا في فجر البشرية وفي أول الطريق؛ فشاءت إرادة الله أن تطيح بهم من الطريق.

وقد مضت سنة الله في تطهير الطريق من العقبات المتحجرة لتمضي الحياة في طريقها المرسوم. ولما كانت البشرية قد أسنت على عهد نوح، وجمدت كالشجرة الناشئة تعوقها الآفة عن النمو فتيبس وتعجز وهي رقيقة العود.. كان العلاج هو الطوفان، الذي يجتثُّ كل شيء، ويجرف كل شيء. ويغسل التربة، لتعاد بذرة الحياة السليمة من جديد، فتنشأ على نظافة، فتمتد وتكبر حتى حين:

﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ [المؤمنون: ٢٧] والفلك وسيلة للنجاة من الطوفان، ولحفظ بذور الحياة السليمة كما يعاد بذرها من جديد. وقد شاء الله أن يصنع نوح الفلك بيده، لأنّه لا بد للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل، وبذل آخر ما في طوقه، ليستحق المدد من ربه. فالمدد لا يأتي للقاعدين المستريحين المسترخين، الذين ينتظرون ولا يزيدون شيئاً على الانتظار!

﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ [هود: ٣٧]..
برعايتنا وتعليمنا.

ونوح قدر الله له أن يكون أبا البشر الثّاني؛ فدفع به إلى الأخذ بالأسباب؛ مع رعاية الله له، وتعليمه صناعة الفلك، ليتم أمر الله، وتتحقق مشيئته عن هذا الطريق.

وجعل الله له علامة للبدء بعملية التطهير الشاملة لوجه الأرض المؤوف: ﴿حتّىٰ إذا جاء أمرنا وفار التنُّور﴾ [هود: ٤٠]، وانبجس منه الماء، فتلك هي العلامة ليسارع نوح، ليحمل في السفينة بذور الحياة:

﴿فاسلك فيها من كل زوجين اثنين﴾.. من أنواع الحيوان والطيور والنبات المعروفة لنوح في ذلك الزمان، الميسرة كذلك لينمي الإنسان

﴿وأهلك إلاَّ من سبق القول منهم﴾ وهم الذين كفروا وكذَّبوا، فاستحقُّوا كلمة الله السابقة، وسنته النافذة، وهي الهلاك للمكذِّبين بآيات الله.

وصدر الأمر الأخير لنوح ألاَّ يجادل في أمر واحد، ولا يحاول إنقاذ أحد ـ ولو كان أقرب الأقربين إليه ـ ممَّن سبق عليهم القول.

﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنَّهم مغرقون﴾ [هود: ٣٧].

فسنة الله لا تحابي، ولا تنحرف عن طريقها الواحد المستقيم، من أجل خاطر ولي ولا قريب!

﴿ولا تخاطبني في الَّذين ظلموا، إنَّهم مغرقون﴾ [المؤمنون: ٢٧]..

فقد تقرر مصيرهم وانتهىٰ الأمر فيهم. فلا تخاطبني فيهم.. لا دعاء بهدايتهم، ولا دعاء عليهم ـ وقد ورد في موضع آخر أنَّه حين يئس منهم دعا عليهم، والمفهوم أنَّ اليأس كان بعد هذا الوحي ـ فمتىٰ انتهىٰ القضاء امتنع الدعاء..

ثمَّ يعرض مشهد نوح يصنع الفلك، وقد اعتزل القوم وترك دعوتهم وجدالهم:

﴿ويصنع الفلك وكلَّما مرَّ عليه ملأٌ من قومه سخروا منه: قال: إن تسخروا منا فإنَّا نسخر منكم كما تسخرون. فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلُّ عليه عذاب مقيم﴾ [هود: ٣٨، ٣٩]..

والتعبير بالمضارع. فعل الحاضر.. هو الذي يعطي المشهد حيويته وجدَّته. فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير. يصنع الفلك. ونرىٰ الجماعات من قومه المتكبِّرين يمرون به فيسخرون. يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم: إنَّه رسول ويدعوهم، ويجادلهم فيطيل جدالهم، ثمَّ إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً.. إنَّهم يسخرون لأنَّهم لا يرون إلاَّ ظاهر الأمر، ولا يعلمون ما وراءه من وحي وأمر. شأنهم دائماً في إدراك الظواهر والعجز عن إدراك ما وراءها من حكمة وتقدير. فأمَّا نوح فهو واثق عارف وهو

يخبرهم في اعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء أنَّه يبادلهم سخرية بسخرية.

نسخر منكم لأنَّكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله وما ينتظركم من مصير:

﴿**فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلُّ عليه عذاب مقيم**﴾..

أنحن أم أنتم. يوم ينكشف المستور، عن المحذور!

ثمَّ مشهد التعبئة عندما حلَّت اللحظة المرتقبة:

﴿**حتّىٰ إذا جاء أمرنا وفار التنُّور، قلنا: احمل فيها من كل زوجين اثنين، وأهلك ـ إلاَّ من سبق عليه القول ـ ومن آمن، وما آمن معه إلاَّ قليل..**﴾ [هود: ٤٠]..

وتتفرق الأقوال حول فوران التنور[1]، ويذهب الخيال ببعضها بعيداً، وتبدو رائحة الإسرائيليات فيها وفي قصة الطوفان كلها واضحة. أمَّا نحن فلا نضرب في متاهة بغير دليل، في هذا الغيب الذي لا نعلم منه إلاَّ ما يقدمه لنا النص القرآني، وفي حدود مدلوله بلا زيادة.

وأقصىٰ ما نملك أن نقوله: إنَّ فوران التنور ـ والتنور الموقد ـ قد يكون بعين فارت فيه، أو بفوارة بركانية. وأنَّ هذا الفوران، ربَّما كان علامة من الله لنوح، أو كان مصاحباً مجرد مصاحبة لمجيء الأمر، وبدءاً لنفاذ هذا الأمر بفوران الأرض بالماء وسح الوابل من السماء.

لما حدث هذا ﴿**قلنا: احمل فيها من كل زوجين اثنين..**﴾ كأنَّ نظام العملية كان يقتضي أن يؤمر نوح بمراحلها واحدة واحدة في حينها. فقد أمر أولاً بصنع الفلك فصنعه، ولم يذكر السياق أنَّه أطلع نوحاً على الغرض من صنعه. ﴿**حتّىٰ إذا جاء أمرنا وفار التنُّور**﴾.. أمر بالمرحلة التالية..

---

(١) التنُّور: الموقد أو الفرن.

﴿قلنا: احمل فيها من كل زوجين اثنين، وأهلك إلاَّ من سبق عليه القول ومن آمن﴾ . .

ومرة أُخرىٰ تـتفرق الأقوال حول **﴿من كل زوجين اثنين﴾** وتشيع في الجو رائحة الإسرائيليات قوية.

أمَّا نحن فلا ندع الخيال يلعب بنا ويشتط حول النص: **﴿احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾** . . ممَّا يملك نـوح أن يمسك وأن يستصحب من الأحياء. وما وراء ذلك خبط عشواء. .

﴿وأهلك ـ إلاَّ من سبق عليه القول ـ﴾ .

أي من استحقَّ عذاب الله حسب سنته.

﴿ومن آمن﴾ .

من غير أهلك.

﴿وما آمن معه إلاَّ قليل﴾ . .

﴿وقال: اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها﴾ [هود: ٤١]. .

وهـذا تعبير عن تسليمهـا للمشيئة في جـريانهـا ورسوهـا، فهي في رعاية الله وحماه. . وماذا يملك البشر من أمر الفلك في اللجة الطاغية بله الطوفان؟!

وقد نفذ نوح الأمر وحشر من حشر وما حشر.

ويمضي القرآن في تعليم نوح ـ عليه السَّلام ـ كيف يشكر نعمة ربه، وكيف يحمد فضله، وكيف يستهديه طريقه: **﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك، فقل: الحمد لله الذي نجَّانا من القوم الظالمين. وقل: ربِّ أنزلني منزلاً مباركاً، وأنت خير المنزلين﴾** [المؤمنون: ٢٨، ٢٩]. .

فهكذا يحمد الله، وهكذا يتوجـه إليه، وهكـذا يوصف ـ سبحـانه ـ بصفاته، ويعترف له بآياته. وهكذا يتأدب في حقه العبـاد، وفي طليعتهم النبيون، ليكونوا أُسوة للآخرين.

المشهد الهائل المرهوب :

وهكذا دعا نوح ربه ﴿**أنِّي مغلوب فانتصر**﴾ [القمر: ١٠]. . انتصر فأنت ربّ العالمين، والأمر أمرك وأنا عبدك وكل شيء بيدك. . انتصر فالدعوة دعوتك وأنا رسولك. وقد انتهىٰ دوري!

وما تكاد هذه الكلمة تُقال؛ وما يكاد الرسول يسلم الأمر لصاحبه الجليل القهار، حتى تشير اليد القاهرة إلى عجلة الكون الهائلة الساحقة. . فتدور دورتها المدوية المجلجلة: ﴿**ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيوناً فالتقىٰ الماء على أمر قد قدر**﴾ [القمر: ١١، ١٢]. .

وهي حركة كونية ضخمة غامرة تصورها ألفاظ وعبارات مختارة. تبدأ بإسناد الفعل إلى الله مباشرة: ﴿**ففتحنا**﴾ فيحسّ القارىء يد الجبار تفتح ﴿**أبواب السماء**﴾. . بهذا اللفظ وبهذا الجمع ﴿**بماء منهمر**﴾. . . غزير متوال.

وبالقوة ذاتها وبالحركة نفسها: ﴿**وفجّرنا الأرض عيوناً**﴾. . وهو تعبير يرسم مشهد التفجر وكأنَّه ينبثق من الأرض كلها، وكأنَّما الأرض كلها قد استحالت عيوناً.

والتقىٰ الماء المنهمر من السماء بالماء المتفجر من الأرض. . ﴿**علىٰ أمر قد قدر**﴾ التقيا على أمر مقدر، فهما على اتفاق لتنفيذ هذا الأمر المقدر. طائعان محققان للقدر.

ثمَّ يأتي المشهد الهائل المرهوب. . حتى إذا صار طوفاناً يطم ويعم، ويغمر وجه الأرض، ويطوي الدنس الذي يغشىٰ هذا الوجه. وقد يئس الرسول من تطهيره، وغُلب على أمره في علاجه. امتدت اليد القوية الرحيمة إلى الرسول الذي دعا دعوته، فتحرك لها الكون كله. امتدت له هذه اليد بالنجاة وبالتكريم: ﴿**وحملناه على ذات ألواح ودُسر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر**﴾ [القمر: ١٣، ١٤]. .

وظاهر من العبارة تفخيم السفينة وتعظيم أمرها. فهي ذات ألواح ودسر[1]. توصف ولا تذكر لفخامتها وقيمتها. وهي تجري في رعاية الله بملاحظة أعينه. **﴿جزاء لمن كان كفر﴾**. وجحد وازدجر. وهو جزاء يمسح بالرعاية على الجفاء، وبالتكريم على الاستهزاء. ويصور مدىٰ القوة التي يملك رصيدها من يُغلب في سبيل الله. ومن يبذل طاقته، ثمَّ يعود إليه يسلم له أمره وأمر الدعوة ويدع له أن ينتصر!

إنَّ قوىٰ الكون الهائلة كلها في خدمته وفي نصرته. والله من ورائها بجبروته وقدرته. ويرسم القرآن مشهد الطوفان والسفينة الجارية، مشيراً بهذا إلى مصرع قوم نوح حين كذبوا. وممتناً على البشر بنجاة أُصولهم التي انبثقوا منها، ثمَّ لم يشكروا ولم يعتبروا بتلك الآية الكبرىٰ: **﴿إِنَّا لمَّا طغىٰ الماء حملناكم في الجارية، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أُذُنٌ واعية﴾** [الحاقة: ١٢]..

ومشهد طغيان الماء ومشهد الجارية على الماء الطاغي يلمس القلوب الخامدة والآذان البليدة، التي تكذب بعد كل ما سبق من النذر وكل ما سبق من المصائر، وكل ما سبق من العظات، وكل ما سبق من آلاء الله ونعمه على أُصول هؤلاء الغافلين!

وفي مشهد الطوفان المروّع المرعب المرهوب، يعرض القرآن الكريم لوحة مصورة شاخصة تعبّر عن المعنىٰ الذهني، والحالة النفسية، كل ذلك في المشهد المنظور، يرسم الطبيعة البشرية فيمنحها الحياة الشاخصة، فإذا المعنىٰ الذهني حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة معبّرة مجسّمة مرئية. ها هي ذي السفينة التي تحمل الناجين **﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونادىٰ نوح ابنه ـ وكان في معزل ـ يَا بنيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾**.. [هود: ٤٢]..

---

(١) الدسر: المسامير.

إنَّ الهول هنا هولان. هول في الطبيعة الصامتة، وهـول في النفس البشرية يلتقيان:

وفي هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة يبصر نوح، فـإذا أحد أبنـائه في معزل عنهم وليس معهم، وتـتنبه في كيانه الأبوة الملهوفة. فهذا الابن لم يؤمن، وإنَّه ليعلم أنَّه مغرق مع المغرقين. ولكن ها هوذا الموج يـطغي، فيغلب الإنسان في نفس نوح المؤمنة الزكية، ويروح في لهفة وضراعة ينادي ابنه جاهراً: ﴿**يَا بنيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين**﴾..

راح نوح يهتف بالولد الشارد.. ولكن البنوة العاقة لا تحفل بالأبوة الملهوفة. وهذه الضراعة اللاهفة ـ والفتوة المغـرورة لا تقدر مـدىٰ الهول الشامل.

﴿**قال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء**﴾ [هود: ٤٣]..

إنَّها الفتوة العاتية، فهي لا ترىٰ الخلاص إلاَّ في فتوتها الخاصة..

ثمَّ ها هي ذي الأبوّة الملهوفة ترسل النداء الأخير: ﴿**قال: لا عاصم اليوم من أمر الله إلاَّ من رحم**﴾.

ها هي ذي الأبوّة المدركة لحقيقة الهول وحقيقة الأمر تبعث الكلمات الرشيدة: لا جبال ولا مخابىء ولا حام ولا «واق» إلاَّ من رحم الله..

وفي لحظة تـتغير صفحة المشهد. فها هو ذا الموج الغامر يبتلع كل شيء: ﴿**وحال بينهما الموج فكان من المغرقين**﴾ [هود: ٤٣] وفي ومضة تـتغير لوحة الموقف؛ فها هي ذي الموجة العاتية تنهي كل شيء..

وإنَّنا بعد آلاف السنين، لنمسـك أنفاسنـا ـ ونحن نتـابع السيـاق ـ والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد. وهي تجري بهم في موج كـالجبال، ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء، وابنه الفتىٰ المغرور، يأبىٰ إجابة الدعاء، والموجة القوية العاتية تلقىٰ رهبتها في القلوب، فهي الموجة

الغامرة التي تحسم الموقف في سرعة خاطفة راجفة وينتهي كل شيء، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب!

وإنَّ الهول هنا ليقاس بمداه في النفس الحية - بين الوالد والمولود - كما يقاس بمداه في الطبيعة، والموج يطغىٰ على الذرىٰ بعد الوديان. وإنَّهما لمتكافئان، في الطبيعة الصامتة، وفي نفس الإنسان. وتلك سمة بارزة في تصوير القرآن. وهول الطوفان يصور في الطبيعة، وإلى جانبها يصور والد وولده: ذلك ناج في السفينة ملهوف على فلذة كبده. وهذا يجرفه الطوفان حيث ﴿**لا عاصم من أمر الله إلاَّ من رحم**﴾ وإنَّ الهول هنا ليكاد يكون أعظم من الهول في الطبيعة ﴿**وهي تجري بهم في موج كالجبال**﴾ فما كان الموج في المشهد إلَّا إطاراً للهول النفسي الذي يفرق بين الابن وأبيه، ويفصم الصلة التي لا تفصمها الأهوال.

وتهدأ العاصفة، ويخيم السكون، ويقضىٰ الأمر، ويتمشّىٰ الاستقرار كذلك في الألفاظ وفي إيقاعها في النفس والأُذن: ﴿**وقيل: يَا أرض ابلعي ماءك، ويَا سماء أقلعي، وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجوديِّ، وقيل بعداً للقوم الظالمين**﴾ [هود: ٤٤]..

ويوجه الخطاب إلى الأرض وإلى السماء بصيغة العاقل، فتستجيب كلتاهما للأمر الفاصل فتبلع الأرض، وتكف السماء.

﴿**وغيض الماء**﴾.

ابتلعته الأرض في جوفها وغار من سطحها.

﴿**وقضي الأمر واستوت على الجودي**﴾..

ونفذ القضاء، ورست رسو استقرار على جبل الجودي..

﴿**وقيل: بُعداً للقوم الظالمين**﴾..

وهي جملة مختصرة حاسمة معبرة عن جوها أعمق تعبير.. ﴿**قيل**﴾ على صيغة المجهول فلا يذكر من قال، من قبيل لف موضوعهم ومواراته.

بُعداً لهم من الحياة فقد ذهبوا، وبُعداً لهم من رحمة الله فقد لعنوا، وبُعداً لهم من الذاكرة فقد انتهوا. . وما عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكرىٰ!

والآن وقد هدأت العاصفة، وسكن الهول، واستوت على الجودي. الآن تستيقظ في نفس نوح لهفة الوالد المفجوع: **﴿ونادىٰ نوح ربَّه، فقال: ربِّ إنَّ ابني من أهلي، وإنَّ وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين﴾** [هود: ٤٥].

ربِّ إنَّ ابني من أهلي، وقد وعدتني بنجاة أهلي، وإنَّ وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين. فلا تقضي إلَّا عن حكمة وتدبير. . قالها يستنجز ربه وعده في نجاة أهله، ويستنجزه حكمته في الوعد والقضاء. .

وجاءه الرد بالحقيقة التي غفل عنها. فالأهل ـ عند الله وفي دينه وميزانه ـ ليسوا قرابة الدم، إنَّما هم قرابة العقيدة. وهذا الولد لم يكن مؤمناً، فليس إذن من أهله وهو النَّبي المؤمن. . جاءه الرد هكذا في قوة وتقرير وتوكيد؛ وفيما يشبه التقريع والتأنيب والتهديد:

﴿قال: يَـا نوحِ إنَّه ليس من أهلك، إنَّه عمل غير صالح، فلا تسألني ما ليس لك به علم إنِّي أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ [هود: ٤٦].

إنَّها الحقيقة الكبيرة في هذا الدين. حقيقة العروة التي ترجع إليها الخيوط جميعاً. عروة العقيدة التي تربط بين الفرد والفرد ما لا يربطه النسب والقرابة:

﴿إنَّه ليس من أهلك. إنَّه عمل غير صالح﴾ . .

فهو مُنبتٌّ منك وأنت منبت منه، ولو كان ابنك من صلبك، فالعروة الأولىٰ مقطوعة، فلا رابطة بعد ذلك ولا وشيجة. ولأنَّ نوحاً دعا دعاءَ من يستنجز وعداً لا يراه قد تحقق. . كان الرد عليه يحمل رائحة التأنيب والتهديد. . إنِّي أعظك أن تكون من الجاهلين بحقيقة الوشائج والروابط، أو

حقيقة وعد الله وتأويله، فوعد الله قد أُوِّل وتحقق، ونجا أهلك الذين هم أهلك على التحقيق.

ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن يخشىٰ أن يكون قد زلَّ في حقِّ ربه، فيلجأ إليه، يعوذ به، ويطلب غفرانه ورحمته: **﴿قال: ربِّ إنِّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، وإلاَّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾** [هود: ٤٧]..

وأدركت رحمة الله نوحاً، تُطمئن قلبه، وتباركه هو والصالح من نسله، فأمَّا الآخرون فيمسهم عذاب أليم: **﴿قيل: يا نوح اهبط بسلام منَّا، وبركات عليك وعلى أُممٍ ممَّن معك. وأُمم سنمتعهم ثم يمسُّهم منَّا عذاب أليم﴾** [هود: ٤٨] وكانت خاتمة المطاف: النجاة والبشرىٰ له ولمن يؤمن من ذريته؛ والوعيد والتهديد لمن يريدون منهم متاع الحياة الدنيا ثم يمسّهم العذاب الأليم.

لقد بلغت فطرة قوم نوح حداً معيناً من الفساد، لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر، ولا ينفع معها الإنذار ولا التذكير: **﴿فكذَّبوه، فأنجيناه والذين معه في الفلك، وأغرقنا الذين كذَّبوا بآياتنا، إنَّهم كانوا قوماً عمين﴾** [الأعراف: ٦٤].. ولقد رأينا من عماهم عن الهدىٰ والنصح المخلص والنذير. فبعماهم هذا كذبوا.. وبعماهم لاقوا هذا المصير! وقد استجاب الله لنبيه الذي يتهدده الطغيان بالرجم، لأنَّه يدعو الناس إلى تقوىٰ الله وطاعة رسوله، لا يطلب على ذلك أجراً ولا يبتغي جاهاً ولا مالاً: **﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون. ثمَّ أغرقنا بعد الباقين﴾**.

هكذا في إجمال سريع. يصور النهاية الأخيرة للمعركة بين الإيمان والطغيان في فجر البشرية.. هكذا في إشارة سريعة: **﴿ونوحاً: إذ نادىٰ من قبل فاستجبنا له، فنجَّيناه وأهله من الكرب العظيم. ونصرناه من القوم الذين كذَّبوا بآياتنا إنَّهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين﴾** [الأنبياء: ٧٦]..

وهي إشارة لا تفصيل فيها. لإثبات استجابة الله لنوح ـ عليه السَّلام ـ حين ناداه ﴿من قبل﴾. ولقد أنجاه الله وأهله كذلك. إلاَّ امرأته. وأهلك قومه بالطوفان وهو ﴿الكرب العظيم﴾..

وفي قصة نوح يبيِّن الله العاقبة، ويقرر عنايته ـ سبحانه ـ بعباده المخلصين: ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون. ونجَّيناه وأهله من الكرب العظيم. وجعلنا ذريته هم الباقين. وتركنا عليه في الآخرين، سلام على نوح في العالمين. إنَّا كذلك نجزي المحسنين: إنَّه من عبادنا المؤمنين. ثمَّ أغرقنا الآخرين﴾ [الصافَّات: ٧٥]..

ويتضمَّن هذا البيان توجُّه نوح بالنداء إلى ربه، وإجابة دعوته إجابة كاملة وافية. إجابتها من خير مجيب. الله سبحانه. ﴿فلنعم المجيبون﴾.. ويتضمن نجاته هو وأهله من الكرب العظيم. كرب الطوفان الذي لم ينج منه إلاَّ من أراد له الله النجاة وقدر له الحياة.. ويتضمن قدر الله بأن يجعل من ذرية نوح عُمَّاراً لهذه الأرض وخلفاء. وأن يبقىٰ ذكره في الأجيال الآتية إلى آخر الزمان: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾.. وتعلن في الخافقين سلام الله على نوح. جزاء إحسانه: ﴿سلام على نوح في العالمين، إنَّا كذلك نجزي المحسنين﴾.. وأي جزاء بعد سلام الله. والذكر الباقي مدىٰ الحياة!

أمَّا مظهر الإحسان وسبب الجزاء فهو الإيمان ﴿إنَّه من عبادنا المؤمنين﴾.. وهذه هي عاقبة المؤمنين.. فأمَّا غير المؤمنين من قوم نوح فقد كتب الله عليهم الهلاك والفناء: ﴿ثمَّ أغرقنا الآخرين﴾..

ومضت سنة الله منذ فجر البشرية البعيد: ﴿ولقد أرسلنا فيهم منذِرين: فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين. إلاَّ عباد الله المخلصين﴾ [الصافَّات: ٧٤]..

صورة من صور البشرية المستكبرة عن الحق:

إنَّ قصة نوح ـ عليه السَّلام ـ مع قومه؛ تصف تجربة من تجارب

الدعوة في الأرض؛ وتمثل دورة من دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية، وشوطاً من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر والهدىٰ والضلال، والحق والباطل.

هذه التجربة تكشف عن صورة من صور البشرية العنيدة، الضالة، الذاهبة وراء القيادات المضللة، المستكبرة عن الحق، المعرضة عن دلائل الهدىٰ وموحيات الإيمان، المعروضة أمامها في الأنفس والآفاق، المرقومة في كتاب الكون المفتوح، وكتاب النفس المكنون.

وهي في الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلـٰهية تتجلىٰ في رعاية الله لهذا الكائن الإنساني، وعنايته بأن يهتدي. تتجلىٰ هذه العناية في إرسال الرسل تترىٰ إلى هذه البشرية العنيدة الضالة الذاهبة وراء القيادات المضللة المستكبرة عن الحق والهدىٰ.

ثمَّ هي بعد هذا وذلك تعرض صورة من صور الجهد المضني، والعناء المرهق، والصبر الجميل، والإصرار الكريم من جانب الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ لهداية هذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة. وهم لا مصلحة لهم في القضية ولا أجر يتقاضونه من المهتدين على الهداية، ولا مكافأة ولا جُعل يحصلونه على حصول الإيمان! كالمكافأة أو النفقة التي تتقاضاها المدارس والجامعات والمعاهد والمعلمون، في زماننا وفي كل زمان في صورة نفقات للتعليم!

هذه الصورة التي يعرضها نوح ـ عليه السَّلام ـ على ربه؛ وهو يقدم له حسابه الأخير بعد ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً قضاها في هذا الجهد المضني، والعناء المرهق، مع قومه المعاندين، الذاهبين وراء قيادة ضالة مضللة ذات سلطان ومال وعزوة.

وهي حصيلة مريرة. ولكن الرسالة هي الرسالة!

هذه التجربة المريرة تعرض على رسول الله ﷺ وهو الذي انتهت إليه

أمانة دعوة الله في الأرض كلها في آخر الزمان، واضطلع بأكبر عبء كلفه رسول. . يرىٰ فيها صورة الكفاح النبيل الطويل لأخ له من قبل، لإقرار حقيقة الإيمان في الأرض. ويطلع منها على عناد البشرية أمام دعوة الحق؛ وفساد القيادة الضالة وغلبتها على القيادة الراشدة. ثمَّ إرادة الله في إرسال الرسل تترىٰ بعد هذا العناد والضلال منذ فجر البشرية على يدي جدها نوح ـ عليه السَّلام ـ.

وتعرض على الجماعة المسلمة في مكة، وعلى الأُمَّة المسلمة بعامة، وهي الوارثة لدعوة الله في الأرض، وللمنهج الإلـٰهي المنبثق من هذه الدعوة، القائمة عليه في وسط الجاهلية المشركة يومذاك، وفي وسط كل جاهلية تالية. . ترىٰ فيها صورة الكفاح والإصرار والثبات هذا المدىٰ الطويل من أبي البشرية الثَّاني. كما ترىٰ فيها عناية الله بالقلة المؤمنة، وإنجاءها من الهلاك الشامل في ذلك الحين.

وتعرض على المشركين ليروا فيها مصير أسلافهم المكذبين؛ ويدركوا نعمة الله عليهم في إرساله إليهم رسولاً رحيماً بهم، لا يدعو عليهم بالهلاك الشامل؛ وذلك لما قدره الله من الرحمة بهم وإمهالهم إلى حين. فلم يصبهم من نبيهم دعوة كدعوة نوح، بعدما استنفد كل الوسائل، وأُلهم الدعاء على القوم بما أُلهم:

﴿ولا تزد الظالمين إلاَّ ضلالاً﴾. .

﴿وقال نوح: ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً. إنَّك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلاَّ فاجراً كفّاراً﴾[نوح: ٢٦، ٢٧]. .

فماذا كان؟

﴿فكذَّبوه. فنجَّيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف. وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ [يونس: ٧٣]. .

هكذا باختصار. نجاته هو ومن معه في الفلك ـ وهم المؤمنون.

واستخلافهم في الأرض على قلتهم. وإغراق المكذبين على قوتهم وكثرتهم:

﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾..

لينظر من ينظر ﴿عاقبة المنذرين﴾ المكذبين وليتَّعظ من يتَّعظ بعاقبة المؤمنين الناجين.

ويذكر السياق القرآني ويعلن نجاة نوح ومن معه، لأنَّ نوحاً والقلة المؤمنة كانوا يواجهون خطر التحدي للكثرة الكافرة. فلم تكن النتيجة مجرد هلاك الكثرة، بل كان قبلها نجاة القلة من جميع الأخطار؛ واستخلافها في الأرض؛ تعيد تعميرها وتجديد الحياة فيها، وتأدية الدور الرئيسي فترة من الزمان.

هذه سنة الله في الأرض. وهذا وعد الله لأوليائه فيها.. فإذا طال الطريق على العصبة المؤمنة مرة، فيجب أن تعلم أنَّ هذا هو الطريق، وأن تستيقن أنَّ العاقبة والاستخلاف للمؤمنين، وألاَّ تستعجل وعد الله حتى يجيء وهي ماضية في الطريق.. والله لا يخدع أولياءه ـ سبحانه ـ ولا يعجز عن نصرهم بقوته، ولا يسلمهم كذلك لأعدائه.. ولكنه يعلمهم ويدربهم ويزودهم ـ في الابتلاء ـ بزاد الطريق(1).

وهذه سنة الله في الأرض. والقرآن يقرر مصير كل معركة تالية في تاريخ البشرية الطويل: ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون. ثمَّ أغرقنا بعد الباقين﴾ [الشعراء: ١١٩ ـ ١٢٠] ﴿فكيف كان عذابي ونذر؟﴾ [القمر: ١٤]..

ولقد كان كما صوره القرآن. كان عذاباً مدمراً جباراً. وكان نذيراً صادقاً بهذا العذاب..

---

(١) يراجع فصل «هذا هو الطريق» في كتاب «معالم في الطريق».

وهذا هو القرآن حاضراً، سهل التناول، ميسر الإدراك، فيه جاذبية ليقرأ ويتدبر. فيه جاذبية الصدق والبساطة، وموافقة الفطرة، واستجاشة الطبع، لا تنفد عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد. وكلَّما تدبره القلب عاد منه بزاد جديد. وكلَّما صحبته النفس زادت له أُلفة وبه أُنساً:

﴿**ولقد يسَّرنا القرآن للذكر، فهل من مدَّكر؟**﴾ [القمر: ١٧]..

يقف القرآن عند القلب البشري يدعوه دعوة هادئة إلى التذكر والتدبر، بعد أن يعرض عليه حلقة من العذاب الأليم الذي حلَّ بالمكذبين.

ونمضي مع القرآن وهو يعرض ما صار إليه الظالمون الخاطئون في الدنيا والآخرة جميعاً!

فأمر الآخرة كأمر الدنيا حاضر بالقياس إلى علم الله، وبالقياس إلى الوقوع الثابت الذي لا تغيير فيه: ﴿**ممَّا خطيئاتهم أُغرقوا فأُدخلوا ناراً. فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً**﴾ [نوح: ٢٥]..

فبخطيئاتهم وذنوبهم ومعصياتهم أُغرقوا فأُدخلوا ناراً. والتعقيب بالفاء مقصود هنا، لأنَّ إدخالهم النار موصول بإغراقهم، والفاصل الزمني القصير كأنَّه غير موجود، لأنَّه في موازين الله لا يحسب شيئاً. فالترتيب مع التعقيب كائن بين إغراقهم في الأرض وإدخالهم النار يوم القيامة. وقد يكون هو عذاب القبر في الفترة القصيرة بين الدنيا والآخرة.. ﴿**فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً**﴾..

لا بنون ولا مال ولا سلطان ولا أولياء من الآلهة المدَّعاة!

وهكذا ينتهي أمر هؤلاء العصاة العتاة، ويطوىٰ ذكرهم من الحياة.. إنَّه الإجهاز السريع على الفساد والكفر، حتى ليعبر السياق القرآني المسافة بين الإغراق والإحراق في حرف الفاء! على طريقة القرآن في إيقاعاته التعبيرية والتصويرية المبدعة.

تلك هي نهاية القصة: ﴿**كذبت قوم نوح المرسلين**﴾ [الشعراء: ١٠٥]..

وقوم نوح لم يكذبوا إلَّا نوحاً. ولكنه يذكر أنَّهم كذبـوا المرسلين. فالرسالة في أصلها واحدة، وهي دعوة إلى توحيد الله، وإخلاص العبودية له. فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين أجمعين، فهذه دعوتهم أجمعين. والقرآن يؤكد هذا المعنىٰ ويقرره في مواضع كثيرة، بصيغ متعددة، لأنَّه كلية من كليات العقيدة الإسلامية، تحتضن بها الدعـوات جميعاً؛ وتقسم بهـا البشـرية كلهـا إلى صفين: صف المؤمنين وصف الكافـرين، على مـدار الرسالات ومدار القرون. وينظر المسلم فإذا الأُمَّة المؤمنة لكـل دين وكل عقيدة من عند الله هي أُمَّته، منذ فجـر التاريـخ إلى مشرق الإسـلام دين التوحيد الأخير. وإذا الصف الآخر هم الكفار في كل ملة وفي كل دين. وإذا المؤمن يؤمن بالرسل جميعاً، ويحترم الرسل جميعاً، لأنَّهم جميعـاً حملة رسالة واحدة هي رسالة التوحيد.

إنَّ البشرية لا تنقسم في تقدير المسلم إلى أجناس وألوان وأوطان. إنَّما تنقسم إلى أهل الحق وأهل الباطـل. وهو مـع أهل الحق ضـد أهل الباطل. في كل زمان وفي كل مكان. وهكذا يتوحد الميزان في يد المسلم على مدار التاريخ كله؛ وترتفع القيم في شعوره عن عصبية الجنس واللون واللغة والوطن، والقرابات الحاضرة أو الموغلة في بطن التـاريخ. تـرتفع فتصبح قيمة واحدة. هي قيمة الإيمـان يحاسب بهـا الجميع، ويقـوِّم بها الجميع.

إنَّ القرآن الكريم يعرض في صفحاته مشاهد التنكيل والتعذيب الذي أصاب بالفعل أجيال المكذبين، ويعرض مصارع القوم التي سلكت طريق الغواية والشيطان ليكون هذا دعوة للتفكر والتدبر: **﴿كذَّبت قبلهم قوم نوح، فكذَّبوا عبدنا، وقالوا: مجنون وازدجر: فدعا ربـه أنِّي مغلوب فانتصـر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجَّرنا الأرض عيوناً فالتقىٰ الماء على أمر قد قدر﴾** [القمر: ٩ ـ ١٢]..

﴿وقوم نوح من قبل إنَّهم كانوا قوماً فاسقين﴾ [الذَّاريات: ٤٦] وهي

إشارة سريعة تلمس القصة لمسة واحدة بدون إيضاح. كأنَّما ليقال. واذكر قوم نوح. وقد وردت « قومَ » منصوبة وبدون لفظ « في » بتقدير كلمة « اذكر » قبلها. وهي آية تاريخية معروفة.

ثمَّ يعقب القرآن على القصة كلها، وما تتضمنه خطواتها من دلائل القدرة والحكمة: **﴿إنَّ في ذلك لآيات، وإن كنَّا لمبتلين﴾** [المؤمنون: ٣٠]..

والابتلاء ألوان. ابتلاء للصبر. وابتلاء للشكر. وابتلاء للأجر. وابتلاء للتوجيه. وابتلاء للتأديب. وابتلاء للتمحيص. وابتلاء للتقويم.. وفي قصة نوح ألوان من الابتلاء له ولقومه ولأبنائه القادمين.

الحقيقة الواضحة الحاسمة :

ومن ثمَّ يجيء التعقيب:

﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هـٰذا، فاصبر إنَّ العاقبة للمتَّقين﴾ [هود: ٤٩]..

فيحقق هذا التعقيب من أهداف القصص القرآني:

- حقيقة الوحي التي ينكرها المشركون. فهذا القصص غيب من الغيب، ما كان يعلمه النبي، وما كان معلوماً لقومه، ولا متداولاً في محيطه. إنَّما هو الوحي من لدن حكيم خبير.
- وحقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبي البشر الثَّاني. فهي هي. والتعبير عنها يكاد يكون هو التعبير.
- وحقيقة تكرار الاعتراضات والاتهامات من المكذبين على الرغم من الآيات والعبر والبيِّنات التي لا تمنع جيلاً أن يرددها وقد بدت باطلة في جيل.

- وحقيقة تحقق البشرىٰ والوعيد، كما يبشر النبي وينذر، وهذا شاهد من التاريخ.

- وحقيقة السنن الجارية التي لا تتخلف ولا تحابي ولا تحيد: ﴿**والعاقبة للمتَّقين**﴾.. فهم الناجون وهم المستخلفون.

- وحقيقة الرابطة التي تربط بين فرد وفرد وبين جيل وجيل.. إنَّها العقيدة الواحدة التي تربط المؤمنين كلهم في إلـه واحد ورب واحد يلتقون في الدينونة له بلا منازع ولا شريك.

وبعد.. أكان الطوفان عاماً في الأرض؟ أم إنَّه كان في تخوم الأرض التي بعث فيها نوح؟ وأين كانت هذه الأرض؟ وأين تخومها في العالم القديم وفي العالم الحديث؟ أسئلة لا جواب عليها إلَّا الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً؛ وإلَّا الإسرائيليات التي لا تستند إلى دليل صحيح. وليس لها بعد ذلك قيمة في تحقيق أهداف القصص القرآن في كثير ولا قليل.

ولكن هذا لا يمنع من القول بأنَّ ظاهر النصوص القرآنية يلهم أنَّ قوم نوح كانوا هم مجموع البشرية في ذلك الزمان. وأنَّ الأرض التي يسكنونها كانت هي الأرض المعمورة في ذلك الحين. وأنَّ الطوفان قد عمَّ هذه الرقعة، وقضىٰ على جميع الخلائق التي تقطنها ـ فيما عدا ركب السفينة الناجين.

وهذا حسبنا في إدراك طبيعة ذلك الحادث الكوني الذي جاءنا خبره من المصدر الوحيد الوثيق عن ذلك العهد السحيق، الذي لا يعرف « التاريخ » عنه شيئاً. وإلَّا فيومها أين كان « التاريخ »؟!

إنَّ التاريخ مولود حدثٌ لم يسجل من أحداث البشرية إلَّا القليل! وكل ما سجله قابل للخطأ والصواب، والصدق والكذب، والتجريح والتعديل! وما ينبغي قط أن يستفتىٰ ذات يوم في شأن جاءنا به الخبر الصادق. ومجرد

استفتائه في مثل هذا الشأن قلب للأوضاع، وانتكاسة لا تصيب عقلاً قد استقرت فيه حقيقة هذا الدين!

ولقد حفلت أساطير شتّىٰ الشعوب وذكرياتها الغامضة بذكر طوفان أصاب أرضها في تاريخ قديم مجهول، بسبب معصية ذلك الجيل الذي شهد ذلك الحادث الكبير.. وأساطير بني إسرائيل المدونة فيما يسمونه «العهد القديم» تحوي كذلك ذكرىٰ طوفان نوح.. ولكن هذا كله شيء لا ينبغي أن يذكر في معرض الحديث القرآني عن الطوفان؛ ولا ينبغي أن يخلط الخبر الصادق الوثيق بمثل هذه الروايات الغامضة وهذه الأساطير المجهولة المصدر والأسانيد. وإن كان لوجود هذه الأخبار الغامضة عن الطوفان عند شعوب شتّىٰ دلالته في أنَّ الطوفان قد كان في أرض هذه الأقوام؛ أو على الأقل قد رحلت ذكرياته مع ذراري الناجين حين تفرقوا في الأرض بعد ذلك وعمروا الأرض من جديد..

وينبغي أن نذكر أنَّ ما يسمىٰ «بالكتاب المقدس» ـ سواء في ذلك «العهد القديم» المحتوي على كتب اليهود أو «العهد الجديد» المحتوي على أناجيل النصارىٰ ـ ليس هو الذي نزل من عند الله. فالتوراة التي أنزلها الله على موسىٰ قد حرفت نسخها الأصلية على يد البابليين عند سبي اليهود. ولم تُعَد كتابتها إلاَّ بعد قرون عديدة ـ قبيل ميلاد المسيح بنحو خمسة قرون ـ وقد كتبها عزرا ـ وقد يكون هو عزيز ـ وجمع فيها بقايا من التوراة. أمَّا سائرها فهو مجرد تأليف! وكذلك الأناجيل فهي جميعاً لا تحوي إلاَّ ما حفظته ذاكرة تلامذة المسيح وتلامذتهم بعد نحو قرن من وفاة المسيح ـ عليه السَّلام ـ ثم خلطت به حكايات كثيرة وأساطير!.. ومن ثمَّ لا يجوز أن يطلب عند تلك الكتب جميعها يقين في أمر من الأمور!

ونخلص من هذه القضية العرضية إلى عبرة هذا الحادث الكوني العظيم.. وهي ـ في الحقيقة ـ عبر شتّىٰ؛ لا عبرة واحدة. وسنحاول أن نلم بشيء منها:

إنَّ قوم نوح ـ وهم ذرية آدم بعد أجيال لا يعلم عددها إلَّا الله ـ قد صاروا إلى هذه الجاهلية. ولنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتها وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعاً. وإنَّها انحرفت عن الإسلام إليها بفعل الشيطان المسلط على بني آدم؛ وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية. تلك الثغرات التي ينفذ منها عدو الله وعدو الناس، كلما تراخوا عن الاستمساك بهدىٰ الله، واتباعه وحده، وعدم اتباع غيره معه في كبيرة ولا صغيرة.

وهذه الحقيقة.. حقيقة أنَّ أول عقيدة عرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده.. تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم «علماء الأديان المقارنة» وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة. سبقته أطوار شتّىٰ من التعدد والتثنية للآلهة. ومن تأليه القوىٰ الطبيعية وتأليه الأرواح، وتأليه الشموس والكواكب.. إلى آخر ما تخبط فيه هذه «البحوث» التي تقوم ابتداء على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة؛ يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلٰهي والرسالات من عند الله وإثبات أنَّ الأديان من صنع البشر؛ وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان!

وينزلق بعض من يكتبون عن الإسلام ـ مدافعين؛ فيتابعون تلك النظريات التي يقررها الباحثون في تاريخ الأديان ـ وفق ذلك المنهج الموجه! ـ من حيث لا يشعرون! وبينما هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطمون أصل الاعتقاد الإسلامي الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم. حين يقرر أنَّ آدم ـ عليه السَّلام ـ هبط إلى الأرض بعقيدة الإسلام. وأنَّ نوحاً ـ عليه السَّلام ـ واجه ذراري آدم الذين اجتالهم الشيطان عن الإسلام إلى الجاهلية الوثنية بذلك الإسلام نفسه.. القائم على التوحيد المطلق.. وأنَّ الدورة تجددت بعد نوح فخرج الناس من الإسلام إلى

الجاهلية؛ وأنَّ الرسل جميعاً أرسلوا بعد ذلك بالإسلام.. القائم على التوحيد المطلق.. وأنه لم يكن قط تطور في العقيدة السماوية في أصل الاعتقاد - إنَّما كان الترقي والتركيب والتوسع في الشرائع المصاحبة للعقيدة الواحدة - وأنَّ ملاحظة ذلك التطور في العقائد الجاهلية لا يدل على أنَّ الناس صاروا إلى التوحيد بناءً على تطور في أصل العقيدة. إنَّما يدل على أنَّ عقيدة التوحيد على يد كل رسول كانت تترك رواسب في الأجيال التالية - حتى بعد انحراف الأجيال عنها - ترقىٰ عقائدهم الجاهلية ذاتها: حتى تصير أقرب إلى أصل التوحيد الرباني.

أمَّا عقيدة التوحيد في أصلها فهي أقدم في تاريخ البشرية من العقائد الوثنية جميعاً! وقد وجدت هكذا كاملة منذ وجدت، لأنَّها ليست نابعة من أفكار البشر ومعلوماتهم المترقية؛ إنَّما هي آتية لهم من عند الله سبحانه. فهي حق منذ اللحظة الأولىٰ، وهي كاملة منذ اللحظة الأولىٰ.

هذا ما يقرره القرآن الكريم؛ ويقوم عليه التصور الإسلامي. فلا مجال - إذن - لباحث مسلم - وبخاصة إذا كان يدافع عن الإسلام! - أن يعدل عن هذا الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم إلى شيء ممَّا تخبط فيه نظريات علم الأديان المقارنة. تلك النظريات النابعة من منهج موجه كما أسلفنا!

والذي لا شك فيه أنَّ الله - سبحانه - يقرر في كتابه الكريم تقريراً واضحاً جازماً أنَّ آدم وهو أول البشر عرف حقيقة التوحيد كاملة، وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والتثنية، وعرف الدينونة لله وحده. وأنَّه عرّف بنيه بهذه العقيدة، فكانت هناك أجيال في أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلَّا الإسلام ديناً، وإلَّا التوحيد عقيدة.. وأنَّه لمَّا طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد.. ربما إلى التثنية وربما إلى التعدد.. ودانت لشتىٰ الأرباب الزائفة.. حتى جاءها نوح -

عليه السَّلام ـ بالتوحيد من جديد. وإنَّ الذين بقوا على الجاهلية أغرقهم الطوفان جميعاً؛ ولم ينج إلاَّ المسلمون الموحدون الذين يعرفون «نزاهة التوحيد» وينكرون التعدد والتثنية وسائر الأرباب والعبادات الجاهلية!

ولنا أن نجزم أنَّ أجيالاً من ذراري هؤلاء الناجين عاشت كذلك بالإسلام القائم على التوحيد المطلق. قبل أن يطول عليهم الأمد، ويعودوا إلى الانحراف عن التوحيد من جديد.. وأنَّه هكذا كان شأن كل رسول:

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاَّ نوحي إليه أنَّه لا إله إلاَّ أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٢٥]..

والذي لا شكَّ فيه أنَّ هذا شيء، والذي يقرره علماء الأديان المقارنة شيء آخر. وبينهما تقابل تام في منهج النظر وفي النتائج التي ينتهي إليها.. وآراء الباحثين في تاريخ الأديان ليست سوىٰ نظريات يعارض بعضها بعضاً، فهي ليست الكلمة النهاية حتى في مباحث البشر الفانين!

وما من شك أنَّه حين يقرر الله ـ سبحانه ـ أمراً يبينه في كتابه الكريم هذا البيان القاطع، ويقرر غيره أمراً آخر مغايراً له تمام المغايرة، فإنَّ قول الله يكون أولىٰ بالاتباع. وبخاصة ممَّن يدافعون عن الإسلام؛ ويكتبون ما يكتبون بقصد دفع الشبهات عنه وعن أصل الدين جملة.. وأنَّ هذا الدين لا يخدم بنقض قاعدته الاعتقادية في أنَّ الدين جاء وحياً من عند الله، ولم يبتدعه البشر من عند أنفسهم، وأنَّه جاء بالتوحيد منذ أقدم العصور ولم يجيء بغير التوحيد في أيَّة فترة من فترات التاريخ، ولا في أية رسالة. كما أنَّه لا يخدم بترك تقريراته إلى تقريرات علماء الأديان المقارنة وبخاصة حين يعلم أنَّ هؤلاء إنَّما يعملون وفق منهج موجه لتدمير القاعدة الأساسية لدين الله كله؛ وهي أنَّه وحي من الله، وليس من وحي الفكر البشري المترقي المتطور! وليس وقفاً على ترقي العقل البشري في العلم المادي والخبرة التجريبية!

إنَّ هـذا البيان المختصـر يكشف لنا عن مـدىٰ الخـطورة في تلقي مفهوماتنا الإسلامية ـ فيّ أي جانب من جوانبها ـ عن مصدر غير إسلامي. كما يكشف لنا عن مدىٰ تغلغل مناهج الفكر الغربية ومقرراتهـا في أذهان الذين يعيشون على هـذه المناهـج والمقررات ويستقـون منها. حتى وهم يتصدون لرد الافتراءات عن الإسلام من أعدائه.. ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾ [الإسراء: ٩]..

الحقيقة الكبيرة والقاعدة الأصلية في العقيدة:

ونقف وقفة أُخرىٰ مع قصة نوح.. نقف مع نوح وابنه الذي ليس من أهله!

إنَّها وقفة على مَعْلم واضح بارز في طبيعة هذه العقيدة وفي خطهـا الحركي أيضاً.. وقفة على مفرق الطريق تكشف معالم الطريق..

إنَّ الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فـريدة تـتميز بها طبيعة هذا الدين، وتـتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم.

إنَّ هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب؛ وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القـوم والعشيرة، وليست وشيجـة اللون واللغة، وليست وشيجة الجنس والعنصر، وليست وشيجة الحرفة والطبقة..

إنَّ هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد؛ كما قال الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لعبده نوح ـ عليه السَّلام ـ وهويقول: ﴿**ربِّ إنَّ ابني من أهلي**﴾.. ﴿**يَـا نوح إنَّه ليس من أهلك**﴾ ثمَّ بين له لماذا يكون ابنه.. ليس من أهله.. ﴿**إنَّه عمل غير صالح**﴾.. إنَّ وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح: ﴿**فلا تسألني ما ليس لك به علم**﴾ فأنت تحسب أنَّه من أهلك، ولكن هذا الحسبان خاطىء. أمَّا المعلوم المستيقن فهو أنَّه ليس من أهلك، ولو كان هو ابنك من صلبك!

وهذا هو المَعْلَم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة.. إنَّ الجاهلية تجعل الرابطة آناً هي الدم والنسب؛ وآناً هي الأرض والوطن، وآناً هي القوم والعشيرة، وآناً هي اللون واللغة، وآناً هي الجنس والعنصر، وآناً هي الحرفة والطبقة! تجعلها آناً هي المصالح المشتركة، أو التاريخ المشترك، أو المصير المشترك.. وكلها تصورات جاهلية ـ على تفرقها أو تجمعها ـ تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي!

والمنهج الرباني القويم ـ ممثلاً في هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم وفي توجيهات الرسول ﷺ وهي من هذا القرآن وعلى نسقه واتجاهه ـ قد أخذ الأمَّة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير.. والمَعْلَم الواضح البارز في مفرق الطريق..

وهذا المثل الذي يضربه من نوح وابنه فيما يكون بين الوالد والولد، ضرب أمثاله لشتّىٰ الوشائج والروابط الجاهلية الأخرىٰ، ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التي يعتبرها.

ـ ضرب لها المثل فيما يكون بين الولد والوالد وذلك فيما كان بين إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وأبيه وقومه كذلك:

﴿واذكر في الكتاب إبراهيم، إنَّه كان صدِّيقاً نبيّاً. إذ قال لأبيه: يَا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً؟ يَا أبت إنِّي قد جاءني من العلم ما لم يأتك، فاتبعني أهدك صراطاً سوياً. يَا أبت لا تعبد الشَّيطان، إنَّ الشيطان كان للرَّحمٰن عصيّاً. يَا أبت إنِّي أخاف أن يمسَّك عذاب من الرَّحمٰن فتكون للشَّيطان وليّاً.. قال: أراغب أنت عن آلهتي يَا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرجمنَّك! واهجرني مليّاً. قال: سلام عليك سأستغفر لك ربي، إنَّه كان بي حفيّاً، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي، عسىٰ ألاَّ أكون بدعاء ربِّي شقيّاً. فلمَّا اعتزلهم وما يعبدون من

دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبيّاً؛ ووهبنا لهم من رحمتنا، وجعلنا لهم لسان صدق عليّاً﴾ [مريم: ٤١ - ٥٠]:.

- وضرب لها المثل فيما كان بين إبراهيم وذريته كما علمه الله سبحانه ولقّنه، وهو يعطيه عهده وميثاقه. ويبشره ببقاء ذكره وامتداد الرسالة في عقبه:

﴿وإذ ابتلىٰ إبراهيم ربُّه بكلمات، فأتمَّهنَّ قال: إنِّي جاعلك للناس إماماً، قال: ومن ذرِّيَّتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين. . .﴾.

﴿وإذ قال إبراهيم: ربِّ اجعل هٰذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات - من آمن منهم بالله واليوم الآخر. قال: ومن كفر فأُمتِّعه قليلاً ثم أضطرُّه إلىٰ عذاب النَّار وبئس المصير﴾ [البقرة: ١٢٤ - ١٢٦]. .

- وضرب لها المثل فيما يكون بين الزوج وزوجه، وذلك فيما كان بين نوح وامرأته، ولوط وامرأته. وفي الجانب الآخر ما كان بين امرأة فرعون وفرعون:

﴿ضرب الله مثلاً للَّذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا تحت عَبدين من عبادنا صالحين، فخانتاهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً، وقيل: ادخلا النَّار مع الدَّاخلين﴾. .

﴿وضرب الله مثلاً للَّذين آمنوا امرأة فرعون، إذ قالت: ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنَّة، ونجني من فرعون وعمله، ونجِّني من القوم الظالمين﴾. . [التحريم: ١٠ - ١١]. .

- وضربَ لها المثل فيما يكون بين المؤمنين وأهلهم وقومهم ووطنهم وأرضهم وديارهم وأموالهم، ومصالحهم وماضيهم ومصيرهم. وذلك فيما كان بين إبراهيم والمؤمنين به مع قومهم. وما كان من الفتية أصحاب الكهف مع أهلهم وقومهم ودورهم وأرضهم. . .

﴿قد كانت لكم أُسوة حسنة في إبراهيم والَّذين معه، إذ قالوا

لقومهم: إنَّا برآء منكم وممَّا تعبدون من دون الله، كفرنابكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتّىٰ تؤمنوا بالله وحده...﴾ [الممتحنة: ٤]..

﴿أم حسبت أنَّ أصحاب الكهف والرَّقيم كانوا من آياتنا عجباً؟ إذ أوىٰ الفتية إلى الكهف فقالوا: ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيِّىء لنا من أمرنا رشداً، فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً. ثمَّ بعثناهم لنعلم أيُّ الحزبين أحصىٰ لما لبثوا أمداً. نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق، إنَّهم فتيةٌ آمنوا بربِّهم وزدناهم هدىٰ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا: ربنا رب السَّماوات والأرض لن ندعوَ من دونه إلـٰهاً لقد قلنا إذن شططاً. هـٰؤلاء قومنا اتَّخدوا من دونه آلهةً. لولا يأتون عليهم بسلطان بيِّن! فمن أظلم ممَّن افترىٰ على الله كذباً؟ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون ـ إلاَّ الله ـ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته، ويهيِّىء لكم من أمركم مرفقاً﴾ [الكهف: ٩ ـ ١٦]..

وبهذه الأمثلة التي ضربها للأُمَّة المسلمة من سيرة الرهط الكريم من الأنبياء والمؤمنين. الذين سبقوها في موكب الإيمان الضارب في شعاب الزمان، وضحت معالم الطريق لهذه الأُمَّة؛ وقام هذا المَعْلَم البارز أمامها عن حقيقة الوشيجة التي يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم، ولا يقوم على سواها. وطالبها ربها بالاستقامة على الطريق في حسم ووضوح يتمثلان في مواقف كثيرة، وفي توجيهات من القرآن كثيرة.. هذه نماذج منها..

ـ ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ـ ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ـ أُولـٰئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بروح منه، ويدخلهم جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنه، أُولـٰئك حزب الله، ألا إنَّ حزب الله هم المفلحون﴾ [المجادلة: ٢٢]..

- ﴿يَا أَيُّها الَّذين آمنوا لا تتَّخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة، وقد كفروا بما جاءكم من الحق، يخرجون الرسول وإيَّاكم أن تؤمنوا بالله ربكم، إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومن يفعله منكم فقد ضلَّ سواء السبيل﴾ [الممتحنة: ١]..

- ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم، يوم القيامة يفصل بينكم، والله بما تعملون بصير. قد كانت لكم أُسوة حسنة في إبراهيم والذين معه.. إلخ﴾ [الممتحنة: ٣، ٤]..

- ﴿يَا أَيُّها الَّذين آمنوا لا تتَّخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبُّوا الكفر على الإيمان، ومن يتولَّهم منكم فأُولئك هم الظَّالمون﴾ [التَّوبة: ٢٣]..

- ﴿يَا أَيُّها الَّذين آمنوا لا تتَّخذوا اليهود والنَّصارىٰ أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولَّهم منكم فإنَّه منهم، إنَّ الله لا يهدي القوم الظَّالمين﴾ [المائدة: ٥١]..

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصيلة الحاسمة في علاقات المجتمع الإسلامي؛ وفي طبيعة بنائه وتكوينه العضوي الذي يتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديماً وحديثاً إلى آخر الزمان. ولم يعد هناك مجال للجمع بين: «الإسلام» وبين إقامة المجتمع على أيّة قاعدة أُخرىٰ غير القاعدة التي اختارها الله للأُمَّة المختارة. والذين يدعون صفة الإسلام، ثمَّ يقيمون مجتمعاتهم على قاعدة أو أكثر من تلك العلاقات الجاهلية التي أحلَّ الإسلام محلها قاعدة العقيدة، إمَّا أنَّهم لا يعرفون الإسلام؛ وإمَّا أنَّهم يرفضونه. والإسلام في كلتا الحالتين لا يعترف لهم بتلك الصفة التي يدّعونها لأنفسهم وهم لا يطبقونها، بل يختارون غيرها من مقومات الجاهلية فعلاً!

لقد قسم الإسلام الناس إلى أُمَّتين اثنتين على مدار التاريخ البشري.. أُمَّة المسلمين من أتباع الرسل ـ كل في زمانه حتى يأتي الرسول الأخير إلى الناس كافة ـ وأُمَّة غير المسلمين من عبدة الطواغيت والأصنام في شتّى الصور والأشكال على مدار القرون.

وعندما أراد الله أن يُعرف المسلمين بأُمَّتهم التي تجمعهم على مدار القرون، عرفها لهم في صورة أتباع الرسل ـ كل في زمانه ـ وقال لهم في نهاية استعراض أجيال هذه الأُمَّة: **﴿إنَّ هذه أُمَّتكم أُمَّةً واحدة وأنا ربُكم فاعبدون﴾**.. ولم يقل للعرب إنَّ أُمَّتكم هي الأُمَّة العربية في جاهليتها وإسلامها سواء! ولا قال لليهود: إنَّ أُمَّتكم هي بنو إسرائيل والعبرانيون في جاهليتهم وإسلامهم سواء! ولا قال لسلمان الفارسي: إنَّ أُمَّتك هي فارس! ولا لصهيب الرومي: إنَّ أُمَّتك هي الرومان! ولا لبلال الحبشي: إنَّ أُمَّتك هي الحبشة! إنَّما قال للمسلمين من العرب والفرس والروم والحبش: إنَّ أُمَّتكم هي المسلمون الذين أسلموا حقاً على أيام موسى وهارون، وإبراهيم، ولوط، ونوح، وداود وسليمان، وأيوب، وإسماعيل وإدريس وذي الكفل وذي النون، وزكريا ويحيى، ومريم.. كما جاء في سورة الأنبياء (آيات: ٤٨ ـ ٩١).

هذه هي أُمَّة «المسلمين» في تعريف الله ـ سبحانه ـ: فمن شاء له طريقاً غير طريق الله فليسلكه. ولكن ليقل: إنَّه ليس من المسلمين! أمَّا نحن الذين أسلمنا لله، فلا نعرف لنا أُمَّة إلَّا الأُمَّة التي عرفها لنا الله. والله يقضي الحق وهو خير الفاصلين..

الوقفة الأخيرة:

ثمَّ نقف الوقفة الأخيرة مع قصة نوح لنرى قيمة الحفنة المسلمة في ميزان الله سبحانه:

إنَّ حفنة من المسلمين من أتباع نوح ـ عليه السَّلام ـ، تذكر بعض

الروايات أنّهم اثنا عشر، هم كانوا حصيلة دعوة نوح في ألف سنة إلاّ خمسين عاماً كما يقرر المصدر الوحيد المستيقن الصحيح في هذا الشأن.

إنّ هذه الحفنة ـ وهي ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل ـ قد استحقت أن يُغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون؛ وأن يجري لها ذلك الطوفان الذي يغمر كل شيء وكل حي في المعمور وقتها من الأرض! وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هي وارثة الأرض بعد ذلك، وبذرة العمران فيها والاستخلاف من جديد(١)..

.. وهذا أمر خطير.

إنّ طلائع البعث الإسلامي التي تواجه الجاهلية الشاملة في الأرض كلها؛ والتي تعاني الغربة في هذه الجاهلية والوحشة؛ كما تعاني الأذىٰ والمطاردة والتعذيب والتنكيل.. إنّ هذه الطلائع ينبغي أن تقف طويلاً أمام هذا الأمر الخطير، وأمام دلالته التي تستحق التدبر والتفكير!

إنّ وجود البذرة المسلمة في الأرض شيء عظيم في ميزان الله تعالىٰ.. شيء يستحق منه سبحانه أن يدمر الجاهلية وأرضها وعمرانها ومنشآتها وقواها ومدّخراتها جميعاً؛ كما يستحق منه سبحانه أن يكلأ هذه البذرة ويرعاها حتى تسلم وتنجو وترث الأرض وتعمرها من جديد!

لقد كان نوح ـ عليه السَّلام ـ يصنع الفلك بأعين الله ووحيه، كما قال تعالىٰ: ﴿**واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنّهم مغرقون**﴾ [هود: ٣٧]..

وعندما لجأ نوح إلى ربه والقوم يطاردونه ويزجرونه ويفترون عليه كما قال تعالىٰ في سورة القمر:

---

(١) يراجع فصل «نشأة المجتمع المسلم وخصائصه» من كتاب «معالم في الطريق».

﴿كذَّبت قبلهم قوم نوح فكذَّبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أنِّي مغلوب فانتصر﴾. . .

عندما لجأ نوح إلى ربه يعلن أنَّه ﴿مغلوب﴾ ويدعو ربه أن « ينتصر » هو وقد غُلب رسوله. . عندئذٍ أطلق الله القوىٰ الكونية الهائلة في خدمة عبده المغلوب:

﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجَّرنا الأرض عيوناً فالتقىٰ الماء على أمر قد قدر﴾.

وبينما كانت تلك القوىٰ الهائلة تزاول عملها على هذا المستوىٰ الكوني الرائع المرهوب. . كان الله ـ سبحانه ـ بذاته العلية ـ مع عبده المغلوب:

﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجري بأعيننا. . جزاءً لمن كان كفر. .﴾.

هذه هي الصورة الهائلة التي يجب أن تقف طلائع البعث الإسلامي في كل زمان وفي كل مكان أمامها حين تطاردها الجاهلية؛ وحين « تغلبها » الجاهلية!

إنَّها تستحق أن يُسخر الله لها القوىٰ الكونية الهائلة. . وليس من الضروري أن تكون هي الطوفان. فما الطوفان إلاَّ صورة من صور تلك القوىٰ! **﴿وما يعلم جنود ربك إلاَّ هو﴾**. .

هذه حال صاحب الحق حين ينكره الناس وينكرون دعوته ويجاهرونه بالخصومة الباطلة. . فليس له حينئذٍ إلاَّ «أعين الله»: تضع له أسباب نجاته ونجاة أصحابه، وتجري هذه الأسباب بأمر الله إلى المذخور من واسع رحمته وفضله، وتفيض عليه من السكينة والرضا ما يصبر به على الأذىٰ والجحود.

ثلاث آيات في سفينة نوح: **﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾** [هود: ٣٧]. . **﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾** [المؤمنون: ٢٧]. .

﴿تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كفر﴾ [القمر: ١٤]...

وتعلن هذه الآيات أنَّ السفينة صنعت بأعين الله، ثمَّ جرت بأعين الله ﴿جزاءً لمن كان كُفِر﴾!

فأية سلوىٰ لكل من كُفِرَ أروح من هذه السلوىٰ، وأي مدد من الأمل والقوة لكل حجة حقَّت أعزّ من هذا المدد؟!

هذه لفتة قرآنية إلى دعاة الحق: هذه عدتكم: أن تستقبلوا كل يوم من أيامكم مُسَبِّحين، وأن تراكم أعين الله الراعية في جوف الليل قائمين ساجدين، وأن يستعلن في سرائركم ذكر الآخرة، حتى يغلب فيها صائح الحق فلا تميزوا الناس في دنياكم إلاَّ بما يميزهم في أخراهم، يوم لا تظلم نفس شيئاً!

هذه هي الصورة الوضيئة التي يجب أن تقف عليها العصبة المسلمة، حين تستعلي الجاهلية، وتغلبها وتطاردها، حيناً من الأيام.. وإنَّه ليس عليها إلاَّ أن تثبت وتستمر في طريقها؛ وإلاَّ أن تعرف مصدر قوتها وتلجأ إليه؛ وإلاَّ أن تصبر حتى يأتي الله بأمره، وإلاَّ أن تثق أنَّ وليها القدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. وأنَّه لن يترك أولياءه إلى أعدائه، إلاَّ فترة الإعداد والابتلاء؛ وأنَّها متى اجتازت هذه الفترة فإنَّ الله سيصنع لها وسيصنع بها في الأرض ما يشاء.

.. وهذه هي عبرة الحادث الكوني العظيم..

إنَّه لا ينبغي لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام أن يظن أنَّ الله تاركه للجاهلية وهو يدعو إلى إفراد الله سبحانه بالربوبية.. كما أنَّه لا ينبغي له أن يقيس قوته الذاتية إلى قوىٰ الجاهلية فيظن أنَّ الله تاركه لهذه القوىٰ وهو عبده الذي يستنصر به حين يغلب فيدعوه: ﴿أنِّي مغلوب فانتصر﴾..

إنَّ القوىٰ في حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة.. إنَّ الجاهلية تملك قواها.. ولكنَّ الداعي إلى الله يستند إلى قوة الله. والله يملك أن يسخر له

بعض القوىٰ الكونية ـ حينما يشاء وكيفما يشاء ـ وأيسر هذه القوىٰ يدمر على الجاهلية من حيث لا تحتسب!

وقد تطول فترة الابتلاء لأمر يريده الله . . ولقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلَّا خمسين عاماً؛ قبل أن يأتي الأجل الذي قدَّره الله. ولم تكن حصيلة هذه الفترة الطويلة إلَّا اثني عشر مسلماً . . ولكن هذه الحفنة من البشر كانت في ميزان الله تساوي تسخير القوىٰ الهائلة، والتدمير على البشرية الضالّة جميعاً، وتوريث الأرض لتلك الحفنة الطيبة تعمرها من جديد، وتستخلف فيها . .

إنَّ عصر الخوارق لم يمض! فالخوارق تتم في كل لحظة ـ وفق مشيئة الله الطليقة ـ ولكن الله يستبدل بأنماط من الخوارق أنماطاً أُخرىٰ، تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها. وقد تدق بعض الخوارق على بعض العقول فلا تدركها؛ ولكن الموصولين بالله يرون يد الله دائماً، ويلابسون آثارها المبدعة.

والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلَّا أن يؤدوا واجبهم كاملاً، بكل ما في طاقتهم من جهد؛ ثمَّ يَدَعوا الأُمور لله في طمأنينة وثقة. وعندما يُغلبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين وأن يجأروا إليه كما جأر عبده الصالح نوح: ﴿فدعا ربه أنِّي مغلوب، فانتصر﴾. . ثمَّ ينتظروا فرج الله القريب. وانتظار الفرج من الله عبادة؛ فهم على هذا الانتظار مأجورون.

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلَّا خمسين عاماً، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون. فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾ [العنكبوت: ١٤] . .

والراجح أنَّ فترة رسالته التي دعا فيها قومه كانت ألف سنة إلَّا خمسين عاماً. وقد سبقتها فترة قبل الرسالة غير محددة، وأعقبتها فترة كذلك بعد

النجاة من الطوفان غير محددة. وهو عمر طويل مديد، يبدو لنا غير طبيعي ولا مألوف في أعمار الأفراد. ولكننا نتلقاه من أصدق مصدر في هذا الوجود ـ وهذا وحده برهان صدقه ـ فإذا أردنا له تفسيرا فإنّنا نستطيع أن نقول: إنَّ عدد البشرية يومذاك كان قليلاً ومحدوداً، فليس ببعيد أن يعوض الله هذه الأجيال عن كثرة العدد طول العمر، لعمارة الأرض وامتداد الحياة. حتى إذا تكاثر الناس وعمرت الأرض لم يعد هناك داعٍ لطول الأعمار. وهذه الظاهرة ملحوظة في أعمار كثير من الأحياء. فكلَّما قلَّ العدد وقلَّ النسل طالت الأعمار، كما في النسور وبعض الزواحف كالسلحفاة. حتى ليبلغ عمر بعضها مئات الأعوام. بينما الذباب الذي يتوالد بالملايين لا تعيش الواحدة منه أكثر من أسبوعين. والشاعر يعبر عن هذه الظاهرة بقوله:

بغاث الطير أكثرها فراخاً ... وأُم الصقر مقلاة نزور[1]

ومن ثَمَّ يطول عمر الصقر. وتقل أعمار بغاث الطير. ولله الحكمة البالغة. وكل شيء عنده بمقدار.

ولم تثمر ألف سنة ـ إلاَّ خمسين عاماً ـ غير العدد القليل الذين آمنوا لنوح. وجرف الطوفان الكثرة العظمىٰ وهم ظالمون بكفرهم وجحودهم وإعراضهم عن الدعوة المديدة، ونجا العدد القليل من المؤمنين، وهم أصحاب السفينة. ومضت قصة الطوفان والسفينة «آية للعالمين» تحدثهم عن عاقبة الكفر والظلم على مدار القرون.

---

(١) بغاث الطير: ضعافه. ومقلاة نزور، أي مقلة في الفراخ.

قصة هود عليه السلام

المحتوى	ص

هود عليه السَّلام

تقديم

مضىٰ قوم نوح في التاريخ، الأكثرون المكذبون طواهم الطوفان وطواهم التاريخ؛ واستبعدوا من الحياة ومن رحمة الله سواء، والناجون استُخلفوا في الأرض تحقيقاً لسنّة الله ووعده: ﴿**والعاقبة للمتَّقين**﴾.

ولقد كان وعد الله لنوح: ﴿**يَا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أُمم ممَّن معك وأُمم سنمتعهم ثمَّ يمسهم منا عذاب أليم**﴾ [هود: ٤٨]..

فلمَّا دارت عجلة الزمان ومضت خطوات التاريخ جاء وعد الله. وإذا عاد من نسل نوح الذين تفرقوا في البلاد ممَّن حقت عليهم كلمة الله: ﴿**وأُمم سنمتعهم ثمَّ يمسهم منا عذاب أليم**﴾..

لقد عادت الجاهلية مرة أُخرىٰ كما عادت من قبل بعد أجيال لا يعلمها إلَّا الله من المسلمين من ذرية آدم.. فلا بد أنَّ أجيالاً من ذرية آدم بعد استخلافه في الأرض قد ولدت مسلمة وعاشت بالإسلام الذي كان عليه أبواهم. حتى اجتالتهم الشياطين عن دينهم، وانحرفت بهم الجاهلية التي واجهها نوح ـ عليه السَّلام ـ ثمَّ جاء نوح فنجا معه من نجا من المسلمين، وأهلك الباقون ولم يعد على الأرض من الكافرين دياراً ـ كما دعا نوح ربه. ولا بد أنَّ أجيالاً كثيرة من ذرية نوح عاشت بالإسلام بعده.. حتى اجتالتهم

الشياطين مرة أخرىٰ فانحرفوا كذلك إلى الجاهلية. وكانت عاد وكانت ثمود بعدها من أمم الجاهلية..

فأمّا عاد فكانت قبيلة تسكن الأحقاف[1]، وهي جبال رملية في جنوب الجزيرة العربية قرب حضرموت من ناحية اليمن. وقد كانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة في جنوب الجزيرة..

وقد جاؤوا بعد قوم نوح، وكانـوا ممَّن زاغت قلوبهم بعد فتـرة من الطوفان الذي طهَّر وجه الأرض من العصاة. وبلغت القبيلة في زمانها أقصىٰ القـوة والمنعـة والـرزق والمتـاع. ولكن هؤلاء كـانـوا ممَّن حقَّت عليهم كلمة الله، بما عتوا عن أمر الله، واختاروا الوثنية على التوحيد، والدينـونة للعبيد على الدينونة لله، وكذبوا الرسل شرَّ تكذيب **﴿وإلىٰ عاد أخاهم هوداً قال: يَـا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره. إن أنتم إلاَّ مفترون﴾** [هود: ٥]..

وكان هود من عاد. فهو أخوهم. واحد منهم، تجمعه ـ كانت ـ آصرة القربىٰ العامـة بين أفراد القبيلة الـواحدة. وتبـرز هذه الآصـرة في السياق القرآني، لأنَّ من شأنها أن تقوم الثقة والتعاطف والتناصح بين الأخ وإخوته، وليبدو موقف القوم من أخيهم ونبيهم شاذاً ومستقبحاً! ثمَّ لتقوم المفاصلة في النهاية بين القوم وأخيهم على أساس افتراق العقيدة. ويبـرز بذلـك معنىٰ انقطاع الوشائج كلها حين تنقطع وشيجة العقيدة. لتـتفرد هذه الوشيجة وتبرز في علاقات المجتمع الإسلامي، ثمَّ لكي تـتبين طبيعة هذا الـدين وخطه الحركي. فالدعوة به تبدأ والرسول وقومه من أمة واحدة تجمع بينه وبينها أواصـر القربىٰ والـدم والنسب والعشيـرة والأرض.. ثمَّ تنتهي بـالافتـراق وتكوين أُمَّتين مختلفتين من القوم الواحد. أُمَّـة مسلمة وأُمَّـة مشركـة.. وبينهما فُرقة ومفاصلة.. وعلى أساس هذه المفـاصلة يتم وعد الله بنصـر

(١) الأحقاف: جمع حقف. وهو الكثيب المرتفع من الرمال.

المؤمنين وإهلاك المشركين. ولا يجيء وعد الله بهذا ولا يتحقق إلاَّ بعد أن تتم المفاصلة، وتتم المفارقة، وتتميز الصفوف، وينخلع النبي والمؤمنون معه من قومهم، ومن سابق روابطهم ووشائجهم معهم، ويخلعوا ولاءهم لقومهم، ويعطوا ولاءهم كله لله ربهم ولقيادتهم المسلمة التي دعتهم إلى الله وإلى الدينونة له وحده وخلع الدينونة للعباد.. وعندئذٍ فقط - لا قبله - يتنزل عليهم نصر الله.

والله - سبحانه - يوجه نبيه ﷺ أن يذكر أخا عاد وإنذاره لقومه بالأحقاف. يذكره ليتأسّىٰ بأخ له من الرسل لقي مثل ما يلقىٰ من إعراض قومه وهو أخوهم. ويذكره ليذكر المشركين في مكةَ بمصير الغابرين من زملائهم وأمثالهم، على مقربة منهم ومن حولهم: ﴿**واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف - وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه - ألاَّ تعبدوا إلاَّ الله. إنِّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**﴾ [الأحقاف: ٢١]..

وأخو عاد هو هود - عليه السَّلام - يذكره القرآن هنا بصفته. صفة الأُخوّة لقومه. ليصور صلة الود بينه وبينهم، وصلة القرابة التي كانت كفيلة بأن تعطفهم إلى دعوته، وتحسن ظنهم بها وبه. وهي ذات الصلة بين محمَّد ﷺ وقومه الذين يقفون منه موقف الملاماة والخصومة.

وقد أنذر أخو عاد قومه، ولم يكن أول نذير لقومه. فقد سبقته الرسل إلى أقوامهم.. ﴿**وقد خلت النُّذر من بين يديه ومن خلفه**﴾..

قريباً منه وبعيداً عنه في الزمان وفي المكان. فالنذارة متصلة، وسلسلة الرسالة ممتدة. والأمر ليس بدعاً ولا غريباً. فهو معهود مألوف.

وقد وردت هذه القصة في سور عدّة في القرآن الكريم(١)، ووردت

---

(١) سورة الفجر: ٦ - ٨، سورة القمر: ١٨ - ٢٢، سورة الأعراف: ٦٥ - ٧٢، سورة الشعراء: ١٢٣ - ١٣٥، سورة هود: ٤٩ - ٦٠، سورة فصِّلت: ١٢ - ١٦، الأحقاف: ٢١ - ٢٦، الذَّاريات: ٤٠ - ٤٥، المؤمنون: ٣١ - ٤١، الحاقَّة: ٣ - ٨، سورة النَّجم: ٥٠، سورة (قٓ): آية/١٣، سورة الفرقان: ٣٨، سورة العنكبوت: ٣٨.

الإشارة مبكرة في بعض السور الأولىٰ. . نرىٰ ذلك في سورة النجم و (ق) والفرقان والعنكبوت، ففي سورة النجم ﴿**وأنَّه أهلك عاداً الأولىٰ وثموداً فما أبقىٰ**﴾. وسورة (ق) ﴿**وعاد وفرعون وإخوان لوط**﴾، وفي سورة الفرقان: ﴿**وعاداً وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ وقروناً بين ذلك كثيراً**﴾، وفي سورة العنكبوت: ﴿**وعاداً وثمودَ وقد تبيَّن لكم من مساكنهم وزَيَّن لهم الشيطان أعمالهم فصدَّهم عن السَّبيل وكانوا مستبصرين**﴾.

وأول سورة أشارت إلى هذه القصة سورة الفجر حيث جاء فيها قول الله تعالىٰ: ﴿**ألَم تَرَ كيف فَعَل ربك بعادٍ إرمَ ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد**﴾.

ثمَّ وردت هذه القصة مفصلة في الأعراف وفي هود. كما وردت في سورة « المؤمنون » بدون ذكر اسم هود وعاد. وفي تفصيل خاص في سورة « الأحقاف »، وعرضت في سورة « الشعراء » مختصرة بين طرفيها: طرف دعوة هود لقومه، وطرف العاقبة التي انتهىٰ إليها المكذبون منهم.

رسالة واحدة وحوار :

وقبيلة عاد من القبائل العربية الذين بادوا وانقرضوا. ومن أجل ذلك كان الأساس الأول والأخير في معرفة أحوالهم هو القرآن، وهو الكتاب الوحيد الذي تعرض لأخبارهم دون سائر الكتب السماوية. لقد أرسل الله هوداً إلى عاد كما أرسل نوحاً إلى قومه في القصة السابقة.

﴿**قال يَـا قوم**﴾. . بهذا التودد، والتذكير بالأواصر التي تجمعهم، لعلَّ ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم إليه فيما يقول. فالرائد لا يكذب أهله، والناصح لا يغشّ قومه.

﴿**وإلى عاد أخاهم هوداً، قال: يَـا قوم اعبدوا الله مـا لكم من إلـٰهٍ غيره، أفلا تـتَّقون؟. . .**﴾ [الأعراف: ٦٥]. .

إنَّهـا نفس الرسـالة، ونفس الحـوار، ونفس العاقبـة. . إنَّها السنـة الماضية، والناموس الجاري، والقانون الواحد. .

إنَّ قوم عاد هؤلاء من ذراري نوح والذين نجوا معه في السفينة، وقيل: كان عددهم اثنا عشر. . وما من شك أنَّ أبناء هؤلاء المؤمنين الناجين في السفينة كانوا على دين نوح ـ عليه السَّلام ـ وهو الإسلام ـ كانوا يعبدون الله وحده، ما لهم من إلـه غيره، وكانوا يعتقدون أنَّه رب العالمين، فهكذا قال لهم نوح: ﴿**ولـكنِّي رسول مِّن رب العالمين**﴾. . فلمَّا طال عليهم الأمد، وتفـرقـوا في الأرض، ولعب معهم الشيـطان لعبـة الغـوايـة، وقـادهـم من شهواتهم ـ وفي أولها شهـوة الملك وشهوات المتـاع ـ وفق الهوىٰ لا وفق شريعة الله، عاد قوم هود يستنكرون أن يدعوهم نبيهم إلى عبادة الله وحده من جديد: ﴿**قال: يَـا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره. أفلا تـتَّقون؟**﴾. .

القولة التي قالها نوح من قبله، والتي كذب بها قومه، فأصـابهم ما أصابهم، واستخلف الله عاداً من بعدهم. وكانوا يسكنون بالأحقاف، وهي الكثبان المرتفعة على حدود اليمن ما بين اليمامة وحضرموت ـ وقد ساروا في الطريق الذي سار فيه من قبل قوم نوح، فلم يتذكروا ولم يتدبروا ما حلَّ بمن ساروا في هذا الطريق، لذلك يضيف هود في خـطابه لهم قـوله: ﴿**أفـلا تـتَّقون؟**﴾ استنكاراً لقلة خوفهم من الله ومن ذلك المصير المرهوب.

ها هو ذا هود ـ عليه السَّلام ـ يدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده:

﴿**قال: يَـا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره**﴾. .

القولة الواحدة التي جاء بها كل رسول وكانوا قد انحرفوا ـ كما أسلفنا ـ عن عبادة الله الواحد التي هبط بها المؤمنون مع نوح من السفينة. ولعلَّ أول خطوة في هذا الانحراف كانت هي تعظيم ذكرىٰ الفئة المؤمنة القليلة التي حُملت في السفينة مع نوح! ثمَّ تطور هـذا التعظيم جيـلاً بعد جيـل فإذا أرواحهم المقدسة تـتمثل في أشجار وأحجار نافعة؛ ثمَّ تـتطور هذه الأشياء،

فإذا هي معبودات، وإذا وراءها كهنة وسدنة يعبّدون الناس للعباد منهم باسم هذه المعبودات المدّعاة ـ في صورة من صور الجاهلية الكثيرة.

ذلك أنَّ الانحراف خطوة واحدة عن نهج التوحيد المطلق. الذي لا يتجه بشعور التقديس لغير الله وحده ولا يدين بالعبودية إلاَّ لله وحده. الانحراف خطوة واحدة لا بد أن تتبعه مع الزمن خطوات وانحرافات لا يعلم مداها إلاَّ الله.

على أية حال لقد كان قوم هود مشركين لا يدينون لله وحده بالعبودية، فإذا هو يدعوهم تلك الدعوة التي جاء بها كل رسول: **﴿إن أنتم إلاَّ مفترون﴾**..

مفترون فيما تعبدونه من دون الله، وفيما تدعونه من شركاء لله.

ـ نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفي كل رسالة.. دعوة توحيد العبادة والعبودية لله، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول: ﴿قال: يٰا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره﴾..

ولقد أوضحنا «العبادة» لله وحده بأنَّها «الدينونة الشاملة» لله وحده. في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة. ذلك إنَّ هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي.. فإنَّ «عَبَد» معناها: دان وخضع وذلل. وطريق معبد مذلل ممهد. وعبَّده جعله عبداً أي خاضعاً مذللاً.

ولم يكن العربي الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية. بل إنَّه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية! إنَّما كان يفهم منه عندما يخاطب به أنَّ المطلوب منه هو الدينونة لله وحده في أمره كله؛ وخلع الدينونة لغير الله من عنقه في كل أمره.

ولقد فسَّر رسول الله ﷺ «العبادة» نصاً بأنَّها هي «الاتِّباع» وليست

هي الشعائر التعبدية. وهو يقول لعدي بن حاتم عن اليهود والنصارىٰ واتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً:

«بلىٰ. إنَّهم أحلُّوا لهم الحرام وحرَّموا عليهم الحلال. فاتبعوهم. فذلك عبادتهم إياهم».. .

وقد أطلقت لفظة « العبادة » على «الشعائر التعبدية» باعتبارها صورة من صور الدينونة لله في شأن من الشؤون.. صورة لا تستغرق مدلول « العبادة » بل إنَّها تجيء بالتبعية لا بالأصالة! فلمَّا بهت مدلول « الدين » ومدلول « العبادة » في نفوس الناس صاروا يفهمون أنَّ عبادة غير الله التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقديم الشعائر التعبدية لغير الله، كتقديمها للأصنام والأوثان مثلاً! وأنَّه متى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح مسلماً.

وهذا وَهْمٌ باطل، وانحسار وانكماش، بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ « العبادة » التي يدخل بها المسلم في الإسلام أو يخرج منه ـ وهذا المدلول هو الدينونة الكاملة لله في كل شأن ورفض الدينونة لغير الله في كل شأن. وهو المدلول الذي تفيده اللفظة في أصل اللغة؛ والذي نصَّ عليه رسول الله ﷺ نصاً وهو يفسر قوله تعالىٰ: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾ [التوبة: ٣١]..

وليس بعد تفسير رسول الله ﷺ لمصطلح من المصطلحات قول لقائل(١).

ونجد في قصة هود كما يعرضها القرآن لمحة تحدد موضوع القضية ومحور المعركة التي كانت بين هود وقومه؛ وبين الإسلام الذي جاء به

---

(١) يراجع البحث القيم الذي كتبه الأُستاذ: أبو الأعلىٰ المودودي بعنوان «المصطلحات الأربعة في القرآن.. الإلـه. الرب. الدين. العبادة».

والجاهلية التي كانوا عليها؛ وتحدد ما الذي كان يعنيه وهو يقول لهم: ﴿يَا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره﴾. إنَّه لم يكن يعني: يَا قوم لا تتقدموا بالشعائر التعبدية لغير الله! كما يتصور الذين انحسر مدلول «العبادة» في مفهوماتهم، وانزوىٰ داخل إطار الشعائر التعبدية! إنَّما كان يعني الدينونة لله وحده في منهج الحياة كلها؛ ونبذ الدينونة والطاعة لأحد من الطواغيت في شؤون الحياة كلها.

والفعلة التي من أجلها استحق قوم هود الهلاك واللعنة في الدنيا والآخرة لم تكن هي مجرد تقديم الشعائر التعبدية لغير الله.. فهذه صورة واحدة من صور الشرك الكثيرة التي جاء هود ليخرجهم منها إلى عبادة الله وحده ـ أي الدينونة له وحده ـ إنَّما كانت الفعلة النكراء التي استحقوا من أجلها ذلك الجزاء هي: جحودهم بآيات ربهم، وعصيان رسله، واتباع أمر الجبارين من عبيده: ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم، وعصوا رسله، واتَّبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ [هود: ٥٩]. كما يقول عنهم أصدق القائلين الله رب العالمين..

لقد دعا هود قومه إلى السبيل الرشيد والفكر السليم في حجة واضحة تبدد ظلمات الشك والحيرة..

﴿كذبت عاد المرسلين. إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتَّقون؟ إنِّي لكم رسول أمين. فاتَّقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر، إن أجري إلَّا على ربِّ العالمين﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٢٧]..

فهي الكلمة الواحدة يقولها كل رسول: دعوة إلى تقوىٰ الله وطاعة رسوله. وإعلان للزهد فيما لدىٰ القوم من عرض الحياة، ويرجع عن قيم الأرض الزائلة، وتطلع إلى ما عند الله من أجر كريم.

ثمَّ يزيد ما هو خاص بحال القوم وتصرفاتهم، فينكر عليهم الترف في البنيان لمجرد التباهي بالمقدرة، والإعلان عن الثراء، والتكاثر والاستطالة

في البناء؛ كما ينكر غرورهم بما يقدرون عليه من أمر هذه الدنيا، وما يسخرونه فيها من القوىٰ، وغفلتهم عن تقوىٰ الله ورقابته:

﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتَّخذون مصانع لعلَّكم تخلدون؟﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٢٩]..

والريع المرتفع من الأرض. والظاهر أنَّهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنياناً يبدو للناظر من بعد كأنَّه علامة. وأنَّ القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة. ومن ثمَّ سماه عبثاً. ولو كان لهداية المارة، ومعرفة الاتجاه ما قال لهم: ﴿تعبثون﴾.. فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد، وتنفق البراعة، وينفق المال فيما هو ضروري ونافع، لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة.

ويبدو كذلك من قوله: ﴿وتتَّخذون مصانع لعلَّكم تخلدون﴾ أنَّ عاداً كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغاً يذكر؛ حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور، وتشييد العلامات على المرتفعات؛ وحتى ليجول في خاطر القوم أنَّ هذه المصانع وما ينشؤونه بوساطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت، ووقايتهم من مؤثرات الجو ومن غارات الأعداء. ويمضي هود في استنكار ما عليه قومه:

﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ [الشعراء: ١٣٠]..

فهم عتاة غلاظ، يتجبرون حين يبطشون؛ ولا يتحرجون من القسوة في البطش. شأن المتجبرين المعتزين بالقوة المادية التي يملكون.

وهنا يردهم إلى تقوىٰ الله وطاعة رسوله، ليُنَهْنِه من هذه الغلظة الباطشة المتجبرة:

﴿فاتَّقوا الله وأطيعون﴾ [الشعراء: ١٣١]..

ويذكرهم نعمة الله عليهم بما يستمتعون به ويتطاولون ويتجبرون. وكان الأجدر بهم أن يتذكروا فيشكروا، ويخشوا أن يسلبهم ما أعطاهم، وأن

يعاقبهم على ما أسرفوا في العبث والبطش والبطر الذميم!

﴿واتَّقوا الذي أمدَّكم بما تعلمون. أمدَّكم بأنعام وبنين.. وجنَّاتٍ وعيون. إنِّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ [الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٥]..

وهكذا يذكرهم بالمنعم والنعمة على وجه الإجمال أولاً: **﴿أمدَّكم بما تعلمون﴾**. وهو حاضر بين أيديهم، يعلمونه ويعرفونه ويعيشون فيه، ثم يفصل بعض التفصيل: **﴿أمدكم بأنعام وبنين، وجنَّات وعيون﴾** وهي النعم المعهودة في ذلك العهد؛ وهي نعمة في كل عهد.. ثمَّ يخوفهم عذاب يوم عظيم. في صورة الإشفاق عليهم من ذلك العذاب. فهو أخوهم، وهو واحد منهم، وهو حريص ألَّا يحل بهم عذاب ذلك اليوم الذي لا شك فيه.

أنذرهم ـ ما أنذر به كل رسول قومه ـ: **﴿ألَّا تعبدوا إلَّا الله. إنِّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾** [الأحقاف: ٢١].. وعبادة الله وحده عقيدة في الضمير ومنهج في الحياة؛ والمخالفة عنها تنتهي إلى العذاب العظيم في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما على السواء. والإشارة إلى اليوم **﴿عذاب يوم عظيم﴾**.. تعني حين تطلق يوم القيامة وهو أشد وأعظم.

سُنَّة الله ومشيئته الطليقة:

ويبادر هود ليوضح لقومه أنَّها دعوة خالصة ونصيحة ممحضة، فليس له من ورائها هدف. وما يطلب على النصح والهداية أجراً. إنَّما أجره على الله الذي خلقه فهو به كفيل:

﴿ويَا قوم لا أسألكم عليه أجراً. إن أجري إلَّا على اللهِ الذي فطرني أفلا تعقلون؟﴾ [هود: ٥١]..

ممَّا يشعر أنَّ قوله: **﴿لا أسألكم عليه أجراً﴾** كان بناءً على اتهام له أو تلميح بأنَّه يبتغي أجراً أو كسب مال من وراء الدعوة التي يدعوها. وكان التعقيب: **﴿أفلا تعقلون؟﴾** للتعجيب من أمرهم وهم يتصورون أنَّ رسولاً

من عند الله يطلب رزقاً من البشر، والله الذي أرسله هو الرزاق الذي يقوِّت هؤلاء الفقراء!

ثمَّ يوجههم إلى الاستغفار والتوبة، ويعدهم هود ويحذرهم ما وعد محمَّد وحذَّر بعد ذلك بآلاف السنين:

﴿ويَا قوم استغفروا ربَّكم ثمَّ توبوا إليه، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويزدكم قوة إلى قوتكم. ولا تتولوا مجرمين﴾ [هود: ٥٢].. استغفروا ربكم ممَّا أنتم فيه، وتوبوا إليه فابدأوا طريقاً جديداً يحقق النية ويترجمها إلى عمل يصدق النية..

﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾..

وكانوا في حاجة إلى المطر يسقون به زروعهم ودوابهم في الصحراء، ويحتفظون به بالخصب الناشىء من هطول الأمطار في تلك البقاع.

﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾.

هذه القوة التي عُرفتم بها..

﴿ولا تتولوا مجرمين﴾..

مرتكبين لجريمة التولي والتكذيب.

وننظر في هذا الوعد. وهو يتعلق بإدرار المطر ومضاعفة القوة. وهي أُمور تجري فيها سنة الله وفق قوانين ثابتة في نظام هذا الوجود، من صنع الله ومشيئته بطبيعة الحال. فما علاقة الاستغفار بها وما علاقة التوبة؟

فأمَّا زيادة القوة فالأمر فيها قريب ميسور، بل واقع مشهود، فإنَّ نظافة القلب والعمل الصالح في الأرض يزيدان التائبين العاملين قوة. يزيدانهم صحة في الجسم بالاعتدال والاقتصار على الطيِّبات من الرزق وراحة الضمير وهدوء الأعصاب والاطمئنان إلى الله والثقة برحمته في كل آن؛ ويزيدانهم صحة في المجتمع بسيادة شريعة الله الصالحة التي تطلق الناس أحراراً كراماً لا يدينون لغير الله على قدم المساواة بينهم أمام قهار واحد تعنو

له الجباه. . كما تطلقان طاقات الناس ليعملوا وينتجوا ويؤدُّوا تكاليف الخلافة في الأرض، غير مشغولين ولا مسخرين بمراسم التأليه لـلأرباب الأرضية وإطلاق البخور حولها ودقّ الطبول، والنفخ فيها ليل نهار لتملأ فراغ الإلـه الحق في فطرة البشر!

ولقد تـتوافر القوة لمن لا يحكِّمـون شريعـة الله في قلوبهم ولا في مجتمعهم، ولكنها قوة إلى حين. حتى تنتهي الأمور إلى نهايتها الطبيعية وفق سنة الله، وتـتحطم هذه القوة التي لم تستند إلى أساس ركين. إنَّما استندت إلى جانب واحد من السنن الكونية كالعمل والنظام ووفرة الإنتـاج. وهذه وحدها لا تدوم. لأنَّ فساد الحياة الشعورية والاجتماعية يقضي عليها بعد حين.

فأمَّا إرسال المطر. مدراراً. فالظاهر للبشر أنَّه يجري وفق سنن طبيعية ثابتة في النظام الكوني. ولكن جريان السنن الطبيعية لا يمنع أن يكون المطر محيـياً في كل مكان وزمان، ومدمراً في مكان وزمان؛ وأن يكون من قَدَر الله أن تكون الحياة مع المطر لقوم، وأن يكون الدمار معه لقوم، وأن ينفذ الله تبشيره بالخير ووعيده بالشر عن طريق توجيه العوامل الطبيعية؛ فهو خالق هذه العوامل، وجاعل الأسباب لتحقيق سنته على كل حال. ثم تبقىٰ وراء ذلك مشيئة الله الطليقة التي تصرف الأسباب والظواهر بغير ما اعتاد الناس من ظواهر النواميس وذلك لتحقيق قدر الله كيفما شاء. حيث شاء. بالحق الذي يحكم كل شيء في السَّماوات والأرض غير مقيد بما عهده الناس في الغالب.

ـ ونقف أمام الحقيقة التي كشف عنها هود لقومه وهـو يقول لهم: **﴿ويَـا قوم استغفروا ربَّكم ثمَّ توبوا إليه يرسل السَّماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم، ولا تـتولَّواهمجرمين﴾**. . وهي ذات الحقيقة التي ذكرت في مطلع سورة هود بصدد دعوة رسول الله ﷺ لقومه وذلك في قوله تعالىٰ:

﴿وأن استغفروا ربَّكم ثمَّ توبوا إليه يمتِّعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمًّى، ويؤت كل ذي فضل فضله، وإن تولَّوا فإنِّي أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ [هود: ٣]. .

إنَّها حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية، وحقيقة اتصال طبيعة الكون ونواميسه الكلية بالحق الذي يحتويه هذا الدين. . وهي حقيقة في حاجة إلى جلاء وتثبيت؛ وبخاصة في نفوس الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا؛ والذين لم تصقل أرواحهم وتشف حتى ترىٰ هذه العلاقة أو على الأقل تستشعرها. .

إنَّ الحق الذي نزل به هذا الدين غير منفصل عن الحق المتمثل في ألوهية الله ـ سبحانه ـ والحق الذي خلقت به السَّماوات والأرض، المتجلي في طبيعة هذا الكون ونواميسه الأزلية. .

والقرآن الكريم كثيراً ما يربط بين الحق المتمثل في ألوهية الله ـ سبحانه ـ والحق الذي قامت به السَّماوات والأرض؛ والحق المتمثل في الدينونة لله وحده. . والحق المتمثل في دينونة الناس لله يوم الحساب بصفة خاصة، والحق في الجزاء على الخير والشر في الدنيا والآخرة. . وذلك في مثل هذه النصوص:

﴿وما خلقنا السَّماء والأرض وما بينهما لاعبين. لو أردنا أن نتَّخذ لهواً لاتَّخذناه من لدنَّا. . إن كنَّا فاعلين. . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ولكم الويل ممَّا تصفون، وله من في السَّماوات والأرض، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون. أم اتَّخذوا آلهةً من الأرض هم يُنشرون؟ لو كان فيهما آلهة إلاَّ الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عمَّا يصفون. لا يسأل عمَّا يفعل وهم يُسألون. أم اتَّخذوا من دونه آلهة؟ قل: هاتوا برهانكم. هذا ذكر من معي وذكر من قبلي، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون. وما أرسلنا

من قبلك من رسول إلاَّ نوحي أنَّه لا إلـه إلاَّ أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء: ١٦ - ٢٥].

﴿يَا أَيُّها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنَّا خلقناكم من تراب، ثمَّ من نطفة، ثمَّ من علقة، ثمَّ من مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة، لنبين لكم، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمىٰ، ثمَّ نخرجكم طفلاً، ثمَّ لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفَّىٰ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم ـ من بعد علم ـ شيئاً، وترىٰ الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج. ذلك بأنَّ الله هو الحق، وأنَّه يحيي الموتىٰ، وأنَّه على كل شيء قدير، وأنَّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور﴾ [الحج: ٥ ـ ٧].

﴿وليعلم الذين أُوتوا العلم أنَّه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم، وإنَّ الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم. ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتَّىٰ تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم. الملك يومئذٍ لله يحكم بينهم، فالذين آمنوا وعملوا الصَّالحات في جنات النعيم. والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا فأولـئك لهم عذاب مهين. والذين هاجروا في سبيل الله ثمَّ قُتلوا أو ماتوا ليرزقنَّهم الله رزقاً حسناً، وإنَّ الله لهو خير الرَّازقين. ليدخلنَّهم مدخلاً يرضونه، وإنَّ الله لعليم حليم. ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثمَّ بغي عليه لينصرنَّه الله، إنَّ الله لعفوٌّ غفور. ذلك بأنَّ الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وأنَّ الله سميع بصير. ذلك بأنَّ الله هو الحق، وأنَّ ما يدعون من دونه هو الباطل، وأنَّ الله هو العلي الكبير. ألم تر أنَّ الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة؟ إنَّ الله لطيف خبير. لـه ما في السَّماوات وما في الأرض، وإنَّ الله لهو الغني الحميد. ألم تر أنَّ الله سخَّر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلاَّ بإذنه، إنَّ الله بالناس لرؤوف رحيم. وهو الذي أحياكم ثمَّ يميتكم ثمَّ يحييكم، إنَّ الإنسان لكفور. لكل

أُمَّة جعلنا منسكاً هم ناسكوه، فلا ينازعنَّك في الأمر، وادع إلى ربك، إنَّك لعلىٰ هدىً مستقيم. .﴾ [الحج: ٥٤ ـ ٦٧]. .

وهكذا نجد في هذه النصوص وأمثالها في القرآن الكريم العلاقة الواضحة بين كون الله سبحانه هو الحق، وبين خلقه لهذا الكون وتدبيره بنواميسه ومشيئته بالحق، وبين الظواهر الكونية التي تتم بالحق. وبين تنزيل هذا الكتاب بالحق، وبين الحكم بين الناس في الدنيا والآخرة بالحق. .

فكله حق واحد موصول ينشأ عنه جريان قدر الله بما يشاء، وتسليط القوىٰ الكونية بالخير والشر على من يشاء؛ وفق ما يكون من الناس من الخير والشر في دار الابتلاء. ومن هنا كان ذلك الربط بين الاستغفار والتوبة، وبين المتاع الحسن وإرسال السماء مدراراً. . فكل أولئك موصول بمصدر واحد هو الحق المتمثل في ذات الله سبحانه وفي قضائه وقدره، وفي تدبيره وتصريفه، وفي حسابه وجزائه، في الخير وفي الشر سواء. .

ومن هذا الارتباط يتجلّىٰ أنَّ القيم الإيمانية ليست منفصلة عن القيم العملية في حياة الناس. فكلتاهما تؤثر في هذه الحياة. سواء عن طريق قدر الله الغيبي المتعلق بعالم الأسباب من وراء علم البشر وسعيهم. أو عن طريق الآثار العملية المشهودة التي يمكن للبشر رؤيتها وضبطها كذلك. وهي الآثار التي ينشئها في حياتهم الإيمان أو عدم الإيمان، من النتائج المحسوسة المدركة.

الشُبهة المتكررة والرد القبيح:

فماذا كان جواب قوم هود على رسولهم وعلى التوجيه إلى الله والإنذار بعذابه؟

﴿إنِّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ [الشعراء: ١٣٥، الأحقاف: ٢١]. وقد **﴿جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألَّا تعبدوا إلَّا الله.**

قالوا: لو شاء ربنا لأنزل ملائكة. فإنَّا بما أُرسلتم به كافرون﴾ [فصِّلت: ١٤]..

﴿قالوا: لو شاء ربنا لأنزل ملائكة. فإنَّا بما أُرسلتم به كافرون﴾..

وهي الشبهة المتكررة التي وُوجه بها كل رسول. وما كان لرسول يخاطب البشر أن يكون إلاَّ من البشر. يعرفهم ويعرفونه. ويجدون فيه قدوة واقعية، ويعاني هو ما يعانونه. ولكن عاداً وثموداً أعلنوا كفرهم برسلهم، لأنَّهم بشر لا ملائكة كما كانوا يقترحون!

لقد كبر على الملأ الكبراء من قوم هود أن يدعوهم واحد من قومهم إلى الهدىٰ، وأن يستنكر منهم قلة التقوىٰ؛ ورأوا فيه سفاهة وحماقة، وتجاوزاً للحد، وسوء تقدير للمقام! فانطلقوا يتهمون نبيهم بالسفاهة وبالكذب جميعاً من غير تحرج ولا حياء:

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه: إنَّا لنراك في سفاهة، وإنَّا لنظنك من الكاذبين﴾ [الأعراف: ٦٦]..

هكذا جزافاً بلا تروٍّ ولا تدبُّر ولا دليل!

﴿قال: يَا قوم ليس بي سفاهة، ولكني رسول من رب العالمين. أُبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ [الأعراف: ٦٧ ـ ٦٨]..

لقد نفىٰ عن نفسه السفاهة في بساطة وصدق ـ كما نفىٰ عن نفسه الضلالة ـ وقد كشف لهم ـ كما كشف نوح من قبل ـ عن مصدر رسالته وهدفها؛ وعن نصحه لهم فيها وأمانته في تبليغها. وقال لهم ذلك كله في مودة الناصح وفي صدق الأمين ولا بد أن يكون القوم قد عجبوا ـ كما عجب قوم نوح من قبل ـ من هذا الاختيار، ومن تلك الرسالة، فإذا هو يكرر لهم ما قاله نوح من قبل، كأنما كلاهما روح واحدة في شخصين:

﴿أوَعَجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم؟﴾ [الأعراف: ٦٩]..

ثمَّ يزيد عليه ما يمليه واقعهم.. واقع استخلافهم في الأرض من بعد قوم نوح، وإعطائهم قوة في الأجسام وضخامة بحكم نشأتهم الجبلية، وإعطائهم كذلك السلطان والسيطرة:

﴿واذكروا إذ جعلكم من بعد قوم نوح، وزادكم في الخلق بسطة. فاذكروا آلاء الله لعلَّكم تفلحون﴾ [الأعراف: ٦٩]..

فلقد كان من حق هذا الاستخلاف، وهذه القوة والبسطة، أن تستوجب شكر النعمة، والحذر من البطر، واتقاء مصير الغابرين. وهم لم يأخذوا على الله عهداً: أن تتوقف سنته التي لا تتبدل، والتي تجري وفق الناموس المرسوم، بقدر معلوم. وذكر النعم يوحي بشكرها؛ وشكر النعمة تتبعه المحافظة على أسبابها؛ ومن ثمَّ يكون الفلاح في الدنيا والآخرة. ولكن الفطرة حين تنحرف لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر.. وهكذا أخذت الملأ العزة بالإثم، واختصروا الجدل، واستعجلوا العذاب استعجال من يستثقل النصح، ويهزأ بالإنذار:

﴿قالوا: أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا؟..﴾ [الأعراف: ٧٠]..

لكأنَّما كان يدعوهم إلى أمر منكر لا يطيقون الاستماع إليه، ولا يصبرون على النظر فيه..

إنَّه مشهد بائس لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول. هذا الاستعباد الذي يسلب الإنسان خصائص الإنسان الأصيلة: حرية التدبر والنظر، وحرية التفكير والاعتقاد. ويدعه عبداً للعادة والتقليد، وعبداً للعرف والمألوف، وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد من أمثاله، ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور.

﴿قالوا: أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا؟ فأتنا بما تعدنا إن كنتَ من الصَّادقين﴾ [الأحقاف: ٢٢]..

سوء الظن وعدم الفهم، والتحدي للنذير، واستعجال العذاب الذي ينذرهم به، والاستهزاء والتكذيب. وإصرار على الباطل واعتزاز!

فأمَّا هود النبي فيتلقىٰ هذا كله في أدب النبي، وفي تجرده من كل ادّعاء، وفي الوقوف عند حده لا يتعداه:

﴿قال: إنَّما العلم عند الله. وأُبلغكم ما أُرسلت به. ولـٰكنِّي أراكم قوماً تجهلون﴾ [الأحقاف: ٢٣]..

إنَّما أُنذركم بالعذاب كما كلفت أن أُنذركم. ولست أعلم متى يحين موعده، ولا كيف يكون شكله. فعلم ذلك عند الله. وإنَّما أنا مبلغ عن الله. لا أدَّعي علماً ولا قدرة مع الله **﴿ولـٰكنِّي أراكم قوماً تجهلون﴾** وتحمقون. وأيَّة حماقة وأي جهل أشد من استقبال النذير الناصح والأخ القريب بمثل هذا التحدي والتكذيب؟

ولكنَّ هـٰذه التذكـرة وهذا التخـويف، لا يصـلان إلى تلك القلوب الجاسية الفظّة الغليظة. فإذا الإصرار والعناد والاستهتار:

﴿قالوا: سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعـظين﴾ [الشعراء: ١٣٦]..

فما يعنينا أن تعظ أو ألَّا تكون أصلاً من الواعظين! وهـو تعبير فيـه استهانة واستهتار وجفوة. يتبعه ما يشي بالجمود والتحجـر والاعتماد على التقليد!

﴿إن هـٰذا إلَّا خلق الأوَّلين.. وما نحن بمعذبين﴾ [الشعراء: ١٣٧، ١٣٨]..

فحجتهم فيما هم عليه، وفيما يستنكره عليهم هود، أنَّه خُلق الأولين ونهجهم. وهم يسيرون على نهج الأولين! ثمَّ إنَّهم لينفون احتمال العذاب على خُلق الأولين! **﴿وما نحن بمعذبين﴾**..

تلك دعوة هود ـ ويبدو أنَّها لم تكن مصحوبة بمعجزة خارقة. ربما لأنَّ

الطوفان كان قريباً منهم، وكان في ذاكرة القوم وعلى لسانهم، وقد ذكرهم به ـ كما تقدم ـ فأمّا قومه فظنّوا به الظنون.

﴿قالوا يَـا هود ما جئتنا ببَيِّنة، وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك، وما نحن لك بمؤمنين. إن نقول إلاَّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ [هود: ٥٣، ٥٤]..

إلى هذا الحد بلغ الانحراف في نفوسهم، إلى حد أن يظنوا أنَّ هوداً يهذي، لأنَّ أحد آلهتهم المفتراة قد مسَّه بسوء، فأصيب بالهذيان!

﴿يَـا هود ما جئتنا ببينة﴾..

والتوحيد لا يحتاج إلى بيِّنة، إنَّما يحتاج إلى التوجيه والتذكير، وإلى استجاشة منطق الفطرة، واستنباء الضمير.

﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾.

أي لمجرد أنَّك تقول بلا بينة ولا دليل!

﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾..

أي مستجيبين لك ومصدِّقين.. وما نعلل دعوتك إلاَّ بأنَّك تهذي وقد أصابك أحد آلهتنا بسوء!

التبرُّؤ والتحدِّي والمفاصلة :

وهنا لم يبق لهود إلاَّ التحدي. وإلاَّ التوجه إلى الله وحده والاعتماد عليه. وإلاَّ الوعيد والإنذار الأخير للمكذبين. وإلاَّ المفاصلة بينه وبين قومه ونفض يده من أمرهم إن أصروا على التكذيب:

﴿قال إنِّي أُشهد الله، واشهدوا أنِّي بريءٌ ممَّـا تشركـون من دونه، فكيـدوني جميعاً ثمَّ لا تُنـظرون. إنِّي تـوكَّلت على الله ربِّي وربكم..﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]..

إنَّها انتفاضة التبرُّؤ من القوم ـ وقد كان منهم وكان أخاهم ـ وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقاً. وانتفاضة المفاصلة

بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة وقد انبَتَّت بينهما وشيجة العقيدة.

وهو يشهد الله ربه على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم. ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوههم؛ كي لا تبقىٰ في أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم!

وذلك كله مع عزة الإيمان واستعلائه. ومع ثقة الإيمان واطمئنانه!

وإنَّ الإنسان ليدهش لرجل فرد يواجه قوماً غلاظاً شداداً حمقىٰ. يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أنَّ هذه المعبودات الزائفة تمس رجلاً فيهذي؛ ويروا في الدعوة إلى الله الواحد هذياناً من أثر المس! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة، فيسفه عقيدتهم ويقرعهم عليها ويؤنبهم؛ ثمَّ يُهيج ضراوتهم بالتحدي. لا يطلب مهلة ليستعدّ استعدادهم، ولا يدعهم يتريثون فيفثأ غضبهم.

إنَّ الإنسان ليدهش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد. ولكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل والأسباب.. إنه الإيمان. والثقة. والاطمئنان.. الإيمان بالله، والثقة بوعده، والاطمئنان إلى نصره.. الإيمان الذي يخالط القلب فإذا وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة. لأنَّها ملء يديه، وملء قلبه الذي بين جنبيه، وليست وعداً للمستقبل في ضمير الغيب، إنَّما هي حاضر واقع تتملاَّه العين والقلب.

﴿قال: إنِّي أُشهد الله واشهدوا أنِّي بريءٌ ممَّا تشركون من دونه﴾..

إنِّي أُشهد الله على براءتي ممَّا تشركون من دونه. واشهدوا أنتم شهادة تبرئتي وتكون حجة عليكم: أنَّني عالنتكم بالبراءة ممَّا تشركون من دون الله. ثمَّ تجمعوا أنتم وهذه الآلهة التي تزعمون أنَّ أحدها مسَّني بسوء. تجمعوا أنتم وهي ـ جميعاً ـ ثمَّ كيدوني بلا ريث ولا تمهل، فما أُباليكم جميعاً، ولا أخشاكم شيئاً:

﴿إنّي توكلت على الله ربي وربكم﴾ [هود: ٥٦]. .

ومهما أنكرتم وكذبتم. فهذه الحقيقة قائمة. حقيقة ربوبية الله لي ولكم. فالله الواحد هو ربي وربكم، لأنّه رب الجميع بلا تعدد ولا مشاركة. .

﴿ما من دابة إلاَّ هو آخذٌ بناصيتها﴾. .

وهي صورة محسوسة للقهر والقدرة تصور القدرة آخذة بناصية كل دابة على هذه الأرض، بما فيها الدواب من الناس. والناصية أعلى الجبهة. فهو القهر والغلبة والهيمنة، في صورة حسية تناسب الموقف، وتناسب غلظة القوم وشدتهم، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم، وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم. . وإلى جانبها تقرير استقامة السنة الإلـهية في اتجاهها الذي لا يحيد:

﴿إنَّ ربِّي على صراط مستقيم﴾. .

فهي القوة والاستقامة والتصميم.

وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سرّ ذلك الاستعلاء وسرّ ذلك التحدي. . إنَّها ترسم صورة الحقيقة التي يجدها نبي الله هود ـ عليه السَّلام ـ في نفسه من ربه. . إنَّه يجد هذه الحقيقة واضحة. . إنَّ ربه ورب الخلائق قوي قاهر: ﴿ما من دابة إلاَّ هو آخذ بناصيتها﴾. . وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلاَّ دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها ويقهرها بقوته قهراً. فما خوفه من هذه الدواب وما احتفاله بها؛ وهي لا تسلط عليه ـ إن سلطت ـ إلاَّ بإذن ربه؟ وما بقاؤه فيها وقد اختلف طريقها عن طريقه؟

إنَّ هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة في نفسه، لا تدع في قلبه مجالاً للشك في عاقبة أمره؛ ولا مجالاً للتردد عن المضي في طريقه.

إنَّها حقيقة الألوهية كما تتجلىٰ في قلوب الصفوة المؤمنة أبداً. .

وعند هذا الحد من التحدي بقوة الله، وإبراز هذه القوة في صورتها

القاهرة الحاسمة، يأخذ هود في الإنذار والوعيد:

﴿فإن تولّوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم﴾ [هود: ٥٧]..

فأدّيت واجبي لله، ونفضت يدي من أمركم لتواجهوا قوة الله سبحانه:

﴿ويستخلف ربّي قوماً غيركم﴾..

يليقون بتلقي دعوته ويستقيمون على هدايته بعد إهلاككم ببغيكم وظلمكم وانحرافكم.

﴿ولا تضرُّونه شيئاً﴾..

فما لكم به من قوة، وذهابكم لا يترك في كونه فراغاً ولا نقصاً..

﴿إنَّ ربِّي على كل شيء حفيظ﴾ [هود: ٥٧]..

يحفظ دينه وأولياءه وسننه من الأذىٰ والضياع، ويقوم عليكم فلا تفلتون ولا تعجزونه هرباً!

وكانت هي الكلمة الفاصلة. وانتهىٰ الجدل والكلام. ليحق الوعيد والإنذار..

- ونقف أمام تلك المواجهة الأخيرة من هود لقومه؛ وأمام تلك المفاصلة التي قذف بها في وجوههم في حسم كامل، وفي تحدٍّ سافر، وفي استعلاء بالحق الذي معه، وثقة في ربه الذي يجد حقيقته في نفسه بينة:

﴿قال: إنِّي أُشهد الله، واشهدوا إنِّي بريءٌ ممَّا تشركون من دونه، فكيدوني جميعاً ثمَّ لا تنظرون: إنِّي توكَّلت على الله ربِّي وربكم، ما من دابة إلَّا هو آخذ بناصيتها، إنَّ ربِّي على صراط مستقيم. فإن تولَّوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، ويستخلف ربِّي قوماً غيركم ولا تضرُّونه شيئاً، إنَّ ربِّي على كل شيء حفيظ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٧]..

إنَّ أصحاب الدعوة إلى الله في كل مكان وفي كل زمان في حاجة إلى أن يقفوا طويلاً أمام هذا المشهد الباهر.. رجل واحد، لم يؤمن معه إلَّا قليل، يواجه أعتىٰ أهل الأرض وأغنىٰ أهل الأرض وأكثر أهل الأرض حضارة

مادية في زمانهم، كما جاء عنهم في قول الله تعالىٰ فيهم حكاية عمَّا واجههم به أخوهم هود في سورة الشعراء:

﴿كذبت عاد المرسلين. إذ قال لهم أخوهم هود: ألا تتَّقون؟﴾..

فهؤلاء العتاة الجبارون الذين يبطشون بلا رحمة؛ والذين أبطرتهم النعمة؛ والذين يقيمون المصانع يرجون من ورائها الامتداد والخلود!.. هؤلاء هم الذين واجههم هود ـ عليه السَّلام ـ هذه المواجهة. في شجاعة المؤمن واستعلائه وثقته واطمئنانه؛ وفاصلهم هذه المفاصلة الحاسمة الكاملة ـ وهم قومه ـ وتحداهم أن يكيدوه بلا إمهال. وأن يفعلوا ما في وسعهم فلا يباليهم بحال!

لقد وقف هود ـ عليه السَّلام ـ هذه الوقفة الباهرة، بعدما بذل لقومه من النصح ما يملك؛ وبعد أن تودد إليهم وهو يدعوهم غاية التودد.. ثمَّ تبيَّن له عنادهم وإصرارهم على محادّة الله وعلى الاستهتار بالوعيد والجرأة على الله..

لقد وقف هود ـ عليه السَّلام ـ هذه الوقفة الباهرة لأنَّه يجد حقيقة ربه في نفسه، فيوقن أنَّ أُولئك الجبارين العتاة المتمتعين المتبطرين إنَّما هم من الدواب! وهو مستيقن أنَّه ما من دابة إلَّا وربه آخذ بناصيتها؛ ففيم يحفل إذن هؤلاء الدواب؟! وأنَّ ربه هو الذي استخلفهم في الأرض، وأعطاهم ما أعطاهم من نعمة ومال وقوة وبنين وقدرة على التصنيع والتعدين! للابتلاء لا لمطلق العطاء. وأنَّ ربه يملك أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم إذا شاء، ولا يضرونه شيئاً، ولا يردون له قضاء.. ففيم إذن يهوله شيء ممَّا هم فيه، وربه هو الذي يعطي ويسلب حيث شاء كيف شاء؟..

إنَّ أصحاب الدعوة إلى الله لا بد أن يجدوا حقيقة ربهم في نفوسهم على هذا النحو حتى يملكوا أن يقفوا بإيمانهم في استعلاء أمام قوىٰ الجاهلية الطاغية من حولهم.. أمام القوة المادية. وقوة الصناعة. وقوة

المال. وقوة العلم البشري. وقوة الأنظمة والأجهزة والتجارب والخبرات.. وهم مستيقنون أنَّ ربهم آخذ بناصية كل دابة؛ وأنَّ الناس ـ كل الناس ـ إن هم إلَّا دواب من الدواب!

وذات يوم لا بد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة؛ فإذا القوم الواحد أُمَّتان مختلفتان.. أُمَّة تدين لله وحده وترفض الدينونة لسواه. وأُمَّة تتَّخذ من دون الله أرباباً، وتحادّ الله!

ويوم تتم هذه المفاصلة يتحقق وعد الله بالنصر لأوليائه، والتدمير على أعدائه ـ في صورة من الصور التي قد تخطر وقد لا تخطر على البال ـ ففي تاريخ الرسل والدعوة إلى الله على مدار التاريخ! لم يفصل الله بين أوليائه وأعدائه إلَّا بعد أن فاصل أولياؤه أعداءه على أساس العقيدة فاختاروا الله وحده.. وكانوا هم حزب الله الذين لا يعتمدون على غيره والذين لا يجدون لهم ناصراً سواه.

واستعجل القوم العذاب فراراً من مواجهة الحق، بل فراراً من تدبر تفاهة الباطل الذي هم له عبيد؛ وقالوا لنبيهم الناصح الأمين:

﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصَّادقين﴾ [الأعراف: ٧٠]..

ومن ثمَّ كان الجواب حاسماً وسريعاً في رد الرسول:

﴿قال: قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب..﴾ [الأعراف: ٧١]..

لقد أبلغهم العاقبة التي أنبأه بها ربه، والتي قد حقت عليهم فلم يعد عنها محيص.. إنَّه العذاب الذي لا دافع له، وغضب الله المصاحب له.. ثمَّ جعل بعد هذا التعجيل لهم بالعذاب الذي استعجلوه؛ يكشف لهم عن سخافة معتقداتهم وتصوراتهم:

﴿أتجادلونني في أسماء سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما نزَّل الله بها من سلطان؟﴾ [الأعراف: ٧١]..

إنَّ ما تعبدون مع الله ليس شيئاً ذا حقيقة! إنَّها مجرد أسماء أطلقتموها أنتم وآباؤكم، من عند أنفسكم، لم يشرّعها الله ولم يأذن بها، فما لها إذن من سلطان ولا لكم عليها من برهان.

والتعبير المتكرر في القرآن: ﴿**ما نزل الله بها من سلطان**﴾.. هو تعبير موح عن حقيقة أصيلة.. إنَّ كل كلمة أو شرع أو عرف أو تصور لم ينزله الله، خفيف الوزن، قليل الأثر، سريع الزوال.. إنَّ الفطرة تتلقّى هذا كله في استخفاف، فإذا جاءت الكلمة من الله ثقلت واستقرت ونفذت إلى الأعماق، بما فيها من سلطان الله الذي يودعها إياه.

وكم من كلمات برّاقة، وكم من مذاهب ونظريات، وكم من تصورات مزوقة، وكم من أوضاع حشدت لها كل قوىٰ التزيين والتمكين.. ولكنها تتذاوب أمام كلمة من الله، فيها من سلطانه ـ سبحانه ـ سلطان!

وفي ثقة المطمئن، وقوة المتمكن، يواجه هود قومه بالتحدي:

﴿**فانتظروا، إنِّي معكم من المنتظرين**﴾ [الأعراف: ٧١]..

إنَّ هذه الثقة هي مناط القوة التي يستشعرها صاحب الدعوة إلى الله.. إنَّه على يقين من هزال الباطل وضعفه وخفة وزنه مهما انتفش ومهما استطال. كما أنَّه على يقين من سلطان الحق الذي معه وقوته بما فيه من سلطان الله.

وبعد هذا الجدل الطويل بين هود وقومه، يمضي القرآن إلى النهاية المقصودة رداً على التحدي والاستعجال.

﴿**فلمَّا رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا: هـٰذا عارض ممطرنا. بل هو ما استعجلتم به: ريح فيها عذاب أليم، تدمر كل شيء بأمر ربها، فأصبحوا لا يرىٰ إلَّا مساكنهم. كذلك نجزي القوم المجرمين**﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥]..

وتقول الروايات: إنَّه أصاب القوم حرّ شديد، واحتبس عنهم المطر، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف. ثمَّ ساق الله إليهم سحابة، ففرحوا بها فرحاً شديداً، وخرجوا يستقبلونها في الأودية، وهم يحسبون فيها الماء:

﴿قالوا: هـٰذا عارض ممطرنا﴾.. لقد توقعوا الري والحياة، فإذا بها تحمل الهلاك والدمار والعذاب الذي استعجلوا به وطلبوه.. وجاءهم الرد بلسان الواقع: **﴿بل هو ما استعجلتم به: ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها﴾**.. وهي الريح الصرصر العاتية كما جاء في صفتها: **﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلاَّ جعلته كالرميم﴾** [الذَّاريات: ٤٢]..

لقد أذِنَ الله للظلم أن يتداعىٰ ركنه ويزول فكان الانتقام العادل من الله القوي القادر وتلك سنة الله في خلقه:

﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة. فأمَّا ثمود فأُهلكوا بالطاغية. وأمَّا عاد فأُهلكوا بريح صرصر عاتية. سخَّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً. فترىٰ القوم فيها صرعىٰ كأنَّهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترىٰ لهم من باقية؟﴾ [الحاقَّة: ٤ ـ ٨]..

ويفصل القرآن في أمر نكبة عاد ويطيل، فقد استمرَّت وقعتها سبع ليال وثمانية أيام حسوماً. والريح كانت شديدة قاسية باردة واللفظ ذاته فيه صرصرة الريح. وزاد شدتها بوصفها «عاتية».. لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكيّ في القرآن، وقد كانوا يسكنون الأحقاف في جنوب الجزيرة بين اليمن وحضرموت. وكانوا أشداء بطّاشين جبارين.

هذه الريح الصرصر العاتية: **﴿سخَّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾** [الحاقَّة: ٧]..

والحسوم: القاطعة المستمرة في القطع. والتعبير يرسم مشهد العاصفة المزمجرة المدمرة المستمرة في هذه الفترة الطويلة..

ونمضي مع القرآن الكريم في خوف وهلع وهو يصف العذاب

الوصف الخاطف الرعيب: ﴿إنَّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنَّهم أعجاز نخل منقعر﴾ [القمر: ١٩، ٢٠]. .

والريح الصرصر: الباردة العنيفة. وجرس اللفظ يصور نوع الريح.

والنحس: الشؤم. وأي نحس يصيب قوماً أشد ممَّا أصاب عاد. والريح تنزعهم وتجذبهم وتحطمهم. فتدعهم كأنَّهم أعجاز نخل مهشمة مقلوعة من قعورها؟!

والمشهد مفزع مخيف، وعاصف عنيف. والريح التي أرسلت على عاد «هي من جند الله» وهي قوة من قوىٰ هذا الكون، من خلق الله، تسير وفق الناموس الكوني الذي اختاره؛ وهو يسلطها على من يشاء، بينما هي ماضية في طريقها مع ذلك الناموس، بلا تعارض بين خط سيرها الكوني، وأدائها لما تؤمر به وفق مشيئة الله. صاحب الأمر وصاحب الناموس.

الحقيقة الكونية :

والريح كغيرها من القوىٰ الكونية مسخرة بأمر ربها، ماضية تؤدي ما قدَّره لها في نطاق الناموس المرسوم لها وللوجود كله. ومثلها قوة البشر المسخرة لما يريده الله بها. المسخر لها من قوىٰ الكون ما أراد الله تسخيره لها. وحين يتحرك البشر فإنَّما يؤدون دورهم في هذا الوجود، ليتم ما أراده الله بهم وفق ما يريد. وحرية إرادتهم في الحركة والاختيار جزء من الناموس الكلي ينتهي إلى التناسق الكوني العام. وكل شي مقدر تقديراً لا يناله نقص ولا اضطراب.

والريح قوة دائبة العمل، وفق النظام الكوني الذي قدَّره الله، وهو يسلطها حين يسلطها للتدمير وهي ماضية في طريقها الكوني، تعمل وفق الناموس المرسوم. فلا حاجة لخرق النواميس الكونية ـ كما يعترض المعترضون واهمين ـ فصاحب الناموس المرسوم هو صاحب القدر المعلوم.

وكل حادث وكل حركة، وكل اتجاه، وكل شخص، وكـل شيء محسوب حسابه، داخل في تصميم الناموس.

ونمضي في معرض الآيات في تاريخ المرسلين:

﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شيء أتـت عليه إلاَّ جعلته كالرميم﴾ [الذَّاريات: ٤١، ٤٢]..

وسمِّيت الريح التي أُرسلت على عاد عقيماً لأنَّها لم تكن تحمل ماء ولا حياة كما توقعوا. إنَّما تحمل الموت والدمار. وتـترك كل شيء تأتي عليه كالميت الذي رمَّ وتحول إلى فتات!

والريح قوة من قوىٰ هذا الكون. وجند من جند الله(1). وما يعلم جنود ربك إلاَّ هو. يرسلها ـ في إطار مشيئته وناموسه ـ في صورة ما من صورها، في الوقت المقدر، على من يريد، بالهلاك والدمار، أو بالحيا والحياة ـ ولا مكان في مثل هذه المواضع للاعتراض السطحي الساذج، بالقول بأنَّ الريح تجري وفق نظام كوني؛ وتهب هنا أو هناك تبعاً لعـوامل طبيعيـة. فالـذي يجريها وفق ذلك النظام وتبع هذه العوامل هو الذي يسلطها على من يشاء عندما يشاء وفق تدبيره وتقديره. وهو قادر على أن يسلطها كما يريد في إطار النظام الذي قدره والعوامل التي جعلها. ولا مخالفة ولا شبهة ولا اعتراض **﴿إنَّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنَّهم أعجاز نخل منقعر﴾** [القمر: ١٩، ٢٠]..

والنص القرآني يصور الريح حيَّـة مدركـة مأمـورة بالتـدمير.. وهي

---

(1) عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «نُصرتُ بالصَّبا، وأُهلكت عادُ بالدَّبور». أخرجه البخاري (٤١٠٥) وابن حبان في صحيحه انظر تخريجه في الإحسان رقم (٦٤٢١).

الصَّبا: هي الريح الشرقية، والدَّبور: الريح الغربيـة. قال الحـافظ في الفتح ٥٢١/٢: الصَّبا: يقال لها: القَبول: بفتح القاف لأنها تقابل باب الكعبة، إذ مهبها من مشرق الشمس، وضدها الدَّبور، وهي التي أُهلكت بها قوم عاد، ومن لطيف المناسبة كون القبول نصرت أهل القبول، وكون الدبور أهلكت أهل الإدبار، وأن الدَّبور أشد من الصَبا.

الحقيقة الكونية التي يحفل القرآن بإشعارها للنفوس. فهذا الوجود حي. وكل قوة من قواه واعية. وكلها تدرك عن ربها وتتوجه لما تكلف به من لدنه. والإنسان أحد هذه القوىٰ. وحين يؤمن حق الإيمان، ويفتح قلبه للمعرفة الواصلة، يستطيع أن يعي عن القوىٰ الكونية من حوله. وأن يتجاوب معها، وأن تتجاوب معه، تجاوب الأحياء المدركة، بغير الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس من الحياة والإدراك[1]. ففي كل شيء روح وحياة، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق. والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأستار، تدركها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار.

وقد أدَّت الريح ما أُمرت به. فدمرت كل شيء ﴿**فأصبحوا لا يُرىٰ إلَّا مساكنهم**﴾ [الأحقاف: ٢٥]..

ويعرض القرآن المشهد المفجع الموجع بعد الريح العاصفة المهلِكة القاضية.. يعرض المشهد بعدها شاخصاً: ﴿**فترىٰ القوم فيها صرعىٰ كأنَّهم أعجاز نخل خاوية**﴾ [الحاقَّة: ٧]..

---

(١) عن أبي حميد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «... وهذا أُحد جبل يحبنا ونحبه» رواه مسلم (١٣٩٢). وفي رواية عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «إن أُحداً جبل يحبنا ونحبه» رواه مسلم (١٣٩٣) وفي رواية عن أنس قال: نظر رسول الله ﷺ إلى أُحد فقال: «إن أُحد جبل يحبنا ونحبه».

وعن سهل بن سعد أن أُحداً ارتجَّ وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فقال النبيّ ﷺ: «اثْبُت أُحد، فما عليه إلا نَبيٌّ وصِدِّيقٌ وشهيدان».

إسناده صحيح على شرط البخاري. رجاله رجال الصحيح غير علي ابن المديني، فمن رجال البخاري، وعلقه البخاري في «التاريخ الكبير» ٤/٧٨، وأخرجه أحمد في «المسند» ٥/٣٣١، وفي فضائل الصحابة (٢٤٧)، وأبو يعلى ١/٣٥١، والبيهقي في «دلائل النبوة» ٦/٣٥١، والبغوي (٣٩٠٢)، وذكره الحافظ في «الفتح» من رواية أبو يعلى وصححه، وأورده الهيثمي في «المجمع» ٩/٥٥، وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، وابن حبان، انظر الإحسان (رقم ٦٤٩٢).

فترىٰ.. فالمنظر معروض تراه، والتعبير يلح به على الحسّ حتى يتملّاه!.. ﴿صرعىٰ﴾.. مصروعين مجدلين متناثرين ﴿كأنّهم أعجاز نخل﴾ بأصولها وجذوعها ﴿خاوية﴾ فارغة تآكلت أجوافها فارتمت ساقطة على الأرض هامدة!

إنّه مشهد حاضر شاخص. مشهد ساكن كئيب بعد العاصفة المزمجرة المدمرة ﴿فهل ترىٰ لهم من باقية؟﴾.. لا! فليس لهم من باقية!!! فقد تناثرت أشلاؤهم، ثمّ طواها الفناء والهلاك ﴿فأصبحوا لا يُرىٰ إلاّ مساكنهم﴾..

أمّا هم وأمّا أنعامهم وأمّا أشياؤهم وأمّا متاعهم فلم يعد شيء منه يُرىٰ. إنّما هي المساكن قائمة خاوية موحشة، لا ديار فيها ولا نافخ نار.. ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾.. سنة جارية وَقَدَر مُطّرد.. ﴿فكذّبوه فأهلكناهم﴾.. وفي كلمتين اثنتين ينتهي الأمر؛ ويطوىٰ قوم عاد الجبارون؛ وتطوىٰ مصانعهم الذين يتخذون؛ ويطوىٰ ما كانوا فيه من نعيم من أنعام وبنين وجنّات وعيون!

أمّا هود ﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا، وقطعنا دابر الذين كذّبوا بآياتنا، وما كانوا مؤمنين﴾ [الأعراف: ٧٢].. وهكذا لما جاء أمر الله بتحقيق الوعيد، وإهلاك قوم هود، نجّى هوداً والذين آمنوا معه: ﴿ولمّا جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا. ونجّيناهم من عذاب غليظ﴾ [هود: ٥٨]..

نجّينا هوداً ومن معه برحمة مباشرة منا، خلصتهم من العذاب العام النازل بالقوم، واستثنتهم من أن يصبهم بسوء. وكانت نجاتهم من عذاب غليظ حلّ بالمكذّبين. فهو المحق الكامل الذي لا يتخلف منه أحد، وهو ما عبر عنه بقطع الدابر ﴿وقطعنا دابر الّذين كذبوا بآياتنا﴾ [الأعراف: ٧٢].. والدابر هو آخر واحد في الركب يتبع أدبار القوم!

ووصف العذاب بأنَّه غليظ بهذا التصوير المجسم، يتناسق مع الجو، ومع القوم الغلاظ العتاة.

العُجب المرذول :

وبعد. فالقرآن الكريم يعرض مصرع عاد، عندما كذبوا بالنذير: **﴿ألَم ترَ كيف فَعل ربُّك بعاد، إرَمَ ذات العماد، التي لم يُخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب؟ إنَّ ربك لبالمرصاد﴾** [الفجر: ٦، ١٤]..

وصيغة الاستفهام في مثل هذا السياق أشد إثارة لليقظة والالتفات. والخطاب للنَّبيِّ ﷺ ابتداء ثمَّ هو لكل من تتأتىٰ منه الرؤية أو التبصر في مصارع أولـئك الأقوام، وكلها ممَّا كان المخاطبون بالقرآن أول مرة يعرفونه، وممَّا تشهد به الآثار والقصص الباقية في الأجيال المتعاقبة، وإضافة الفعل إلى « ربك » فيها للمؤمن طمأنينة وأنس وراحة. وبخاصة أولئك الذين كانوا في مكة يعانون طغيان الطغاة، وعسف الجبارين من المشركين، الواقفين للدعوة وأهلها بالمرصاد.

وقد جمع الله في هذه الآيات القصار مصارع أقوىٰ الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم.. مصرع: «عاد إرم» وهي عاد الأولىٰ. وقيل: إنَّها من العرب العاربة أو البادية. وكان مسكنهم الأحقاف وهي كثبان الرمال. في جنوبي الجزيرة بين حضرموت واليمن.

وكانوا بدواً ذوي خيام تقوم على عماد. وقد وصفوا في القرآن بالقوة والبطش، فقد كانت قبيلة عاد هي أقوىٰ قبيلة في وقتها وأميزها: **﴿التي لم يُخلق مثلها في البلاد﴾** في ذلك الأوان..

﴿فأمَّا عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق. وقالوا: من أشدّ منا قوة؟﴾ [فصِّلت: ١٥]..

إنَّ الحق أن يخضع العباد لله، وألَّا يستكبروا في الأرض، وهم من هم بالقياس إلى عظمة خلق الله. فكل استكبار في الأرض فهو بغير الحق. استكبروا واغتروا: «**وقالوا: من أشد منا قوة؟**». .

وهو الشعور الكاذب الذي يحسه الطغاة. الشعور بأنَّه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم. وينسون: ﴿**أوَلَم يروا أنَّ الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة؟**﴾. .

إنَّها بديهية أولية. . إنَّ الذي خلقهم من الأصل أشد منهم قوة. لأنَّه هو الذي مكَّن لهم في هذا القدر المحدود من القوة. ولكنَّ الطغاة لا يذكرون:

﴿**وكانوا بآياتنا يجحدون**﴾. .

وبينما هم في هذا المشهد يعرضون عضلاتهم! ويتباهون بقوتهم. إذا المشهد التالي في الآية التالية هو المصرع المناسب لهذا العجب المرذول:

﴿**فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات. لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا**﴾ [فصِّلت: ١٦]. .

إنَّها العاصفة الهوجاء المجتاحة الباردة في أيام نحس عليهم. وإنَّه الخزي في الحياة الدنيا. الخزي اللائق بالمستكبرين المتباهين المختالين على العباد. .

ذلك في الدنيا. . وليسوا بمتروكين في الآخرة:

﴿**ولعذاب الآخرة أخزىٰ. وهم لا ينصرون**﴾ [فصِّلت: ١٦]. .

لقد أخبر القرآن عن تكذيب عاد ﴿**كذَّبت عاد، فكيف كان عذابي ونُذر؟ .**﴾ [القمر: ١٨]. .

ويسأل سؤال التعجيب والتهويل: ﴿**فكيف كان عذابي ونُذر؟**﴾. .

كيف كان بعد تكذيب عاد؟ والمشهد هو الجواب. . مشهد التعذيب العنيف، والمصرع الرهيب المخيف. . وهكذا طويت صفحة أُخرىٰ من

صحائف المكذبين. وتحقق النذير مرة أُخرىٰ بعد إذ لم ينفع التـذكير.. ﴿فكذَّبوه فأهلكناهم﴾.. ﴿إنَّ في ذلك لآية﴾ [الشعراء: ١٣٩]..

وكم من أُمَّة بعد عاد ظلَّت تفكر على هذا النحو، وتغتر هذا الغرور، وتبعد عن الله كلَّما تقدمت في الحضارة، تحسب أنَّ الإنسان قد أصبح في غنية عن الله! فقد أُوتوا المال والقوة. وراحوا يشعرون أنَّ المال والقوة هما القيمة العليا في الحياة. القيمة التي تهون أمامها جميع القيم والأقدار: أقدار البشر. وأقدار المعاني. وأقدار الحقائق. وأنَّهم وقد ملكوا هذه القيمة فقد ملكوا كل شيء وقالوا: ﴿من أشد منَّا قوة﴾؟!

كما راحوا يحسبون أنَّ هذه القيمة التي ملكوها إلـٰه قادر على كـل شيء، لا يعجز عن فعل شيء! حتى دفع الموت وتخليـد الحياة. ودفـع قضاء الله وحسابه وجزائه إن كان هناك في نظرهم حساب وجزاء!

ومن ثمَّ انطلقوا في هَوَس بهذه القوة يستعرضون أشكالها؛ وتنطلق في كيانهم نفخة فاجرة، تـدفعهم إلى الاستهانـة بكل شيء فهم ينتجـون من أسبـاب الدمـار لغيرهم، والـوقايـة لأنفسهم، مـا يحسبـون واقيـاً لهم مٍن أعدائهم.. ثمَّ يصبحون ويمسون فإذا العذاب يصبُّ عليهم من فوقهم ومن تحتهم عن أي طريق.. ﴿إنَّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإنَّ ربَّك لهو العزيز الرَّحيم﴾ [الشعراء: ١٣٩، ١٤٠]..

لعنة وطرد وهلاك:

والآن وقد هلكت عاد. يُشار إلى مصرعها إشارة البعد، ويسجل عليها ما اقترفت من ذنب، وتُشَيَّع باللعنة والطرد، في تقرير وتكرار وتوكيد.

﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد. وأُتبعوا في هـٰذه الدنيا لعنة ويوم القيامة، ألا إنَّ عاداً كفروا ربهم. ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ [هود: ٥٩، ٦٠]..

﴿وتلك عاد﴾ . . بهذا البعد. وكان قد ذكرهم منذ لحظة في السياق، وكان مصرعهم معروضاً على الأنظار. ولكنهم انتهوا وبعدوا عن الأنظار والأفكار . .

﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله﴾ . .

وهم عصوا رسولاً واحداً. ولكن أليست هي رسالة واحدة جاء بها الرسل جميعاً؟ فمن لم يسلم لرسول بها فقد عصىٰ الرسل جميعاً. ولا ننسىٰ أنَّ هذا الجمع في الآيات وفي الرسل مقصود من ناحية أسلوبية أخرىٰ لتضخيم جريمتهم وإبراز شناعتها. فهم جحدوا آيات، وهم عصوا رسلاً. فما أضخم الذنب وما أشنع الجريمة!

﴿واتَّبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ . .

أمر كل متسلط عليهم، معاند لا يسلم بحق، وهم مسؤولون أن يتحرروا من سلطان المتسلطين، ويفكروا بأنفسهم لأنفسهم، ولا يكونوا ذيولاً فيهدروا آدميتهم.

وهكذا يتبين أنَّ القضية بين هود وعاد كانت قضية ربوبية الله وحده لهم والدينونة لله وحده من دون العباد . . كانت هي قضية الحاكمية والاتباع . . كانت هي قضية: من الرب الذي يدينون له ويتبعون أمره؟ يتجلىٰ هذا في قول الله تعالىٰ:

﴿تلك عاد جحكوا بآيات ربهم وعصوا رسله، واتَّبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ . .

فهي المعصية لأمر الرسل والاتباع لأمر الجبارين! والإسلام هو طاعة أمر الرسل ـ لأنَّه أمر الله ـ ومعصية أمر الجبارين. وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام وبين الكفر والإيمان . . في كل رسالة وعلى يد كل رسول.

وهكذا يتبين أنَّ دعوة التوحيد تصر أول ما تصر على التحرر من

الدينونة لغير الله؛ والتمرد على سلطان الأرباب الطغاة؛ وتعد إلغاء الشخصية والتنازل عن الحرية، واتباع الجبارين المتكبرين جريمة شرك وكفر يستحق عليها الخانعون الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة. .

لقد خلق الله النَّاس ليكونوا أحراراً لا يدينون بالعبودية لأحد من خلقه، ولا ينزلون عن حريتهم هذه لطاغية ولا جبار. فهذا مناط تكريمهم. فإن لم يصونوه فلا كرامة لهم عند الله ولا نجاة.

وما يمكن لجماعة من البشر أن تدَّعي الكرامة، وتدَّعي الإنسانية، وهي تدين لغير الله من عباده. والذين يقبلون الدينونة لربوبية العبيد وحاكميتهم ليسوا بمعذورين أن يكونوا على أمرهم مغلوبين. فهم كثرة والمتجبرون قلة. ولو أرادوا التحرر لضحوا في سبيله بعض ما يضحونه مرغمين للأرباب المتسلطين من ضرائب الذل في النفس والعرض والمال.

لقد هلكت عاد لأنَّهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد. . هلكوا مشيعين باللعنة في الدنيا وفي الآخرة:

﴿وأُتبعوا في هـٰذه الدنيا لعنة ويوم القيامة﴾. .

ثمَّ لا يتركهم قبل أن يسجل عليهم حالهم وسبب ما أصابهم في إعلان عام وتنبيه عال:

﴿ألا إنَّ عاداً كفروا ربهم﴾. .

ثمَّ يدعو عليهم بالطرد والبعد البعيد:

﴿ألا بُعداً لعاد قوم هود﴾. .

بهذا التحديد والإيضاح والتوكيد. كأنَّما يحدد عنوانهم للعنة المرسلة عليهم حتى تقصدهم قصداً.

ونقف وقفات قصيرة أمام ما تلهمه قصة هود مع قومه.

إنَّ استعراض خط سير دعوة الرسل إنَّما يجيء في القرآن الكريم لرسم معالم الطريق في خط الحركة بهذه العقيدة على مدار القرون. . ليس

فقط في ماضيها التاريخي، ولكن في مستقبلها إلى آخر الزمان. وليس فقط للجماعة المسلمة الأولى التي تلقت هذا القرآن أول مرة. وتحركت به في وجه الجاهلية يومذاك؛ ولكن كذلك لكل جماعة مسلمة تواجه به الجاهلية إلى آخر الزمان.. وهذا ما يجعل هذا القرآن كتاب الدعوة الإسلامية الخالد، ودليلها في الحركة في كل حين.

لقد وقف قوم عاد من رسولهم وأخيهم ـ عليه السَّلام ـ موقف المشركين من رسولهم وأخيهم محمَّد ﷺ واعترضوا اعتراضاتهم، وأجابهم نبيهم بما يليق به من أدب النبوة في حدود بشريته وحدود وظيفته. ثمَّ أخذهم ما أخذهم من العذاب المدمر، حين لم يسمعوا النذير. فلم تغن عنهم قوتهم ـ وكانوا أقوى ـ ولم يغن عنهم ثراؤهم وكانوا ـ أغنى ـ ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم ـ وكانوا أذكياء ـ ولم تغن عنهم آلهتهم التي اتخذوهم تقرباً ـ بزعمهم ـ إلى الله. **﴿فترى القوم صَرْعى كأنَّهم أعجاز نخل خاوية﴾**.. **﴿فهل ترى لهم من باقية؟﴾**..

وعلى مشهد الدمار والخراب يلتفت إلى أمثالهم الحاضرين، يلمس قلوبهم بما يرتعش منه القلوب:

﴿ولقد مكنَّاهم فيما إن مكنَّاكم فيه. وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة. فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء. إذ كانوا يجحدون بآيات الله. وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ [الأحقاف: ٢٦]..

هؤلاء الذين دمَّرتهم الريح المأمورة بالتدمير. مكنَّاهم فيما لم نمكنكم فيه.. إجمالاً.. من القوة والمال والعلم والمتاع. وآتيناهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ـ والقرآن يعبر عن قوة الإدراك مرة بالقلب ومرة بالفؤاد ومرة باللب ومرة بالعقل. وكلها تعني الإدراك في صورة من صوره ـ ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم في شيء. إذ إنَّهم عطلوها وحجبوها **﴿إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾**..

والجحود بآيات الله يطمس الحواس والقلوب، ويفقدها الحساسية والإشراق والنور والإدراك. **﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾**.. من العذاب والبلاء..

والعبرة التي يفيدها كل ذي سمع وبصر وقلب، ألَّا يغتر ذو قوة بقوته، ولا ذو مال بماله، ولا ذو علم بعلمه. فهذه قوة من قوىٰ الكون تسلط على أصحاب القوة والمال والعلم والمتاع، فتدمر كل شيء، وتتركهم **﴿لا يُرىٰ إلَّا مساكنهم﴾** حين يأخذهم الله بسنته التي يأخذ بها المجرمين.

﴿إنَّ في ذلك لذكرىٰ لمن كان له قلب، أو ألقىٰ السمع وهو شهيد﴾ [ق: ٣٧]..

وفي مصارع الغابرين ذكرىٰ. ذكرىٰ لمن كان له قلب. فمن لا تذكره هذه اللمسة فهو الذي مات قلبه أو لم يرزق قلباً على الإطلاق! لا بل إنَّه ليكفي للذكرىٰ والاعتبار أن يكون هناك سمعٌ يلقىٰ إلى القصة بإنصات ووعي، فتفعل القصة فعلها في النفوس.. وإنَّه للحق. فالنفس البشرية شديدة الحساسية بمصارع الغابرين، وأقل يقظة فيها وأقل تفتح كافيان لاستجاشة الذكريات والتصورات الموحية في مثل هذه المواقف المؤثرة المثيرة.

لقد كان القرآن يتابع أحداث الدعوة إلى الله، ويقودها في الوقت ذاته، وكان هو السلاح البتار الذي يدمر كيد الكائدين، ويزلزل قلوب الأعداء، ويثبت أرواح المؤمنين. وإنَّا لنرىٰ في عناية الله ـ سبحانه ـ بالرد على الكافرين المشركين المفسدين.. الردّ عليهم بعد العناد والتبجح والوقاحة والإفساد العريض.. **﴿فكذَّبوه فأهلكناهم﴾** [الشعراء: ١٣٩]..

ثمَّ المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها خيوط من اليأس والضعف والمذلة أمام العتاة الغلاظ الجبارين، وإشعارهم بأنَّ الله يرىٰ ما يقع لهم، ويكرهه، ويعاقب عليه.. وفي هذا كفاية لرفع أرواح

المؤمنين واستعلائها على كيد الكائدين وظلم المفسدين وعتو المتكبرين.

هذا هو حديث الرَّحمـٰن في قصص القرآن عن عاد الذين غرتهم قوتهم، والقوة قد تغرّ كثيراً من الناس فتعميهم وتصمهم عن الحق.. وسنة الله التي جرت واستقرت في هذه الحياة أن يقصم كل أولئك الخارجين عن الحقّ أيّاً كانت قوتهم وهويتهم ﴿**سُنَّة الله في الذين خلوا من قبل. ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً**﴾ [الأحزاب: ٦٢]..

فهو أمر يمضي وفق سنة الله التي لا تتبدل.. وأمر الله قدراً مقدوراً. فهو نافذ مفعول، لا يقف في وجهه شيء ولا أحد. وهو مقدر بحكمة وخبرة ووزن..

وفي هذه القصة آية أخرىٰ في عاد في معرض الآيات في تاريخ المرسلين.. لقد علوا واستكبروا وعتوا وتباهوا بشدتهم وقوة بطشهم. فأصبح البطش طبيعتهم، والتجبر دينهم فلم تزداد قلوبهم من إنذار الرسول إلَّا قسوة وغلظة.. فهم أبعد ما يكونون عن أن يتأثروا بنصح ناصح، أو برقة واعظ، لقد أعمتهم القوة وزادتهم غطرسة وقسوة.. ﴿**وقالوا: من أشد منا قوة**﴾..

فماذا كان؟

إنَّها سنة الله ﴿**فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً**﴾ [فاطر: ٤٣]..

وهؤلاء المتكبرون في كل زمان ومكان ماذا ينتظرون؟! إنَّهم لا ينتظرون إلَّا أن يحل بهم ما حلَّ بالمكذبين من قبلهم، وهو معروف لهم، وإلَّا أن تمضي سنة الله الثابتة في طريقها الذي لا يحيد.. فالأمور لا تمضي في الناس جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً؛ فهناك نواميس ثابتة تتحقق، لا تتبدل ولا تتحول، والقرآن يقرر هذه الحقيقة، ويعلمها للناس، كي لا ينظروا الأحداث فرادىٰ، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة، محصورين في فترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود بالمكان.

فليطمئن المؤمنون فالله سبحانه ـ معهم يسمع ويرىٰ. . يسمع تكذيب المتكبرين. . ويرىٰ بطش المتجبرين. . إنه يرىٰ كل شيء وبيده كل شيء. . يرىٰ. . وللرؤية ما بعدها! ﴿**ألم يعلم بأنَّ الله يرىٰ**﴾ [العلق: ١٤]. .

ولا بد من **وَقْفة مُطْمَئِنة** أمام شخصية هود ـ عليه السَّلام ـ هذا النبيّ الكريم الذي كان يواجه قوماً وصفهم القرآن في سورة الفجر ﴿**ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد، إرَمَ ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد**﴾. . كان هود يواجه قوماً قد ملأت الغطرسة قلوبهم بما وُهبوا من القوة والشدة حتى قالوا: ﴿**من أشدُّ منا قوة؟**﴾. . كان هود يواجه قوماً متعالين متفاخرين لا يردعهم رادع فأصبح البطش طبيعتهم، والتجبر دينهم فلا تزداد قلوبهم إلاَّ كبرياءً وقسوة.

كانت شخصية هود نموذج الرجل القوي الحازم الحكيم، فقد أنذر وبَشَّر وسلك مع قومه سبيل الرشد، وسُبل الحكمة لتشذيب هذه القسوة المتغطرسة المتعجرفة فها هو ذا يقول لهم: ﴿**استغفروا ربكم ثمَّ توبوا إليه يُرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوةً إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين**﴾، فهو كما نرىٰ قد لامَس كبرياءهم بلطف ورحمة فهم الأقوياء الأشداء. . آمِنوا بربكم ﴿**يزدكم قوة إلى قوتكم**﴾. .

ثمَّ سلك هود طريقاً قاصداً إلى قلوبهم، فضرب لهم المَثَل بما أصاب مَن قبلهم، فذكَّرهم بقوم نوح وما وقع منهم من عناد ومكابرة، وإصرار على الزيغ والضلال، وكيف دَمَّر عليهم حياتهم وأغرقهم وطهَّر الأرض من بغيهم وتجبرهمواستكبارهم. .

ولكنَّ العتاة المغرورين بالقوة المستبدين، المتجبرين، قابلوا الحكمة والتلطف بالسخرية والاستهزاء والتعالي فقالوا: ﴿**إنَّا لنراك في سفاهة**﴾. . ونرىٰ الحكمة الحازمة في قوله ببساطة: ﴿**يَا قوم ليس بي سفاهة، ولكنِّي**

رسول من رب العالمين﴾..

ولكنَّ القوم قد ركبوا متن الشطط، وجاوزوا كل حد معقول فهم يتعجلون نقمة الله وعذابه ﴿**فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصَّادقين**﴾، وهو تحدٍّ يكشف عمَّا تنطوي عليه نفوسهم من جهل واستهتار وعنت وطغيان.

هنا نرى هود يتحداهم.. يَقدم يُقابلهم بالقوة والمخاشنة، تدفعه ثقته بربه.. ها هو ذا فرد يقابل القوم الغلاظ الشداد.. ها هو ذا يقتحم عليهم قوتهم التي تحصنوا بها.. فما يتريث الآن ولا يني، وإنَّما يمضي منفعلاً بالحق الذي يرتكن إليه ﴿**فكيدوني جميعاً ولا تُنظرون**﴾..

لا تمهلوني، فلا أُبالي بقوتكم وجمعكم، ولا أخاف بطشكم، فكيدوني كيداً، أو أجمعوا بي بطشاً.. ها هو ذا يستعلي بربه: ﴿**إنِّي توكلت على الله ربي وربكم**﴾.. وربي قوي قاهر أنتم في قبضته ﴿**ما من دابة إلَّا هو آخذ بناصيتها**﴾..

إنَّ قصة هود وَقْفَة مُطَمْئِنَة ومعلم شامخ يعلو في الوجدان الإنساني فوق موجات الظلم والبطش الذي يمارسه الطغاة على العصبة المسلمة في كل زمان ومكان.. إنَّها مَعْلم يلامس بأمواجه القلوب المؤمنة فتنبض بالإيمان والثقة بالرَّحمن وهي تواجه الطغيان المتجبر والقوى الغاشمة بشدتها وبطشها.. ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حَسْبه، إنَّ الله بالغ أمره**﴾..

فالتوكل على الله توكل على قدرة القادر. وقوة القاهر. الفعال لما يريد. البالغ ما يشاء.. والنص عام. والمقصود به هو إنشاء التصور الإيماني الصحيح في القلب، بالنسبة لإرادة الله وقدره ﴿**قد جَعَلَ الله لكل شيء قدراً**﴾ فكل شيء مقدر بمقداره، وبزمانه، ومكانه، وبملابساته، وبنتائجه وأسبابه. وليس شيء مصادفة، وليس شيء جزافاً. في هذا الكون كله، وفي نفس الإنسان وحياته.. وهي حقيقة ضخمة يقوم عليها جانب كبير من التصور الإيماني.

قصة صالح ـ عليه السَّلام

المحتوى	ص

صالح عليه السَّلام

تقديم

ورثت ثمودُ عاداً كما ورثت عاد أُمَّة نوح. وكانت ثمودُ على أثر عاد..

﴿وإلىٰ ثمود أخاهم صالحاً قال: يَـا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره.. واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعـد عاد وبـوَّأكم في الأرض تـتَّخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [الأعراف: ٧٣، ٧٤]..

وثمود كانت القبيلة التي خلفت عاداً في القوة والتمكين في جـزيرة العرب.. كانت عاد في الجنوب. وكانت ثمود في الشمال. وكذبت ثمود بالنُّذر كما كذبت عاد، غير معتبرة بمصرعهـا المشهور المعلوم في أنحـاء الجزيرة.. **﴿كذَّبت ثمود بالنذر. فقالوا: أبشراً منا واحداً نتبعهُ؟ إنَّا إذاً لفي ضلال وسُعُر. أأُلقي الذكر عليه من بيننا؟ بل هو كذاب أشر. سيعلمون غداً من الكـذاب الأشر. إنَّـا مرسلو النـاقة فتنـة لهم فارتقبهم واصـطبر..﴾** [القمر: ٢٣ ـ ٢٧]..

وكانت ثمود تسكن مدائن الحِجْر في شمالي الجزيرة العربية بين تبوك والمدينة. وبلغت في زمانها أقصىٰ القـوة والمنعة والـرزق والمتاع، وقـد قطعت الصخر وشيدته قصوراً، كما نحتـت في الجبال ملاجىء ومغارات.. واشتهر قوم صالح ـ ثمود ـ أنَّهم أصحاب الحِجْر، والحِجر معروفة معروضة

بين الحجاز والشام إلى وادي القرىٰ[1] وهي ظاهرة إلى اليوم. فقد نحتوها في الصخر في ذلك الزمان البعيد، ممَّا يدل على القوة والأيد والحضارة. وقد خلفوا عاداً في الشدة والقوة والتمكين في الأرض، . فخلفوهم فيها، وعمروها أكثر ممَّا عمروها، ونحتوا من الجبال بيوتاً، ليأْمَنوا مصائب الدهر، ونوائب الحدثان، وكانوا يتقلبون في ترف من العيش، وبحبوحة من الرزق والنعمة، وفاقوا الأقدمين في العقل والصناعة. وقد فتح الله على ثمودَ بركات من السماء والأرض، فقد فتح عليهم أبواب كل شيء. .

ولكن كل ذلك لم يحمل ثمود على الشكر وعبادة الله، وكان هؤلاء ممَّن حقت عليهم كلمة الله، بما عتوا عن أمر الله، واختاروا الوثنية على التوحيد، والدينونة للعبيد على الدينونة لله.

وبعث الله إليهم رسولاً منهم لينذرهم ويردهم إلى سواء الصراط المستقيم، ولكنهم كذبوا رسول رب العالمين شَرَّ تكذيب **﴿ولقد كذَّب أصحاب الحِجْر المرسلين﴾** [الحجر: ٨٠]. .

وهم لم يكذبوا سوىٰ رسولهم صالح. ولكن صالحاً ليس إلَّا ممثلاً للرسل أجمعين؛ فلمَّا كذَّبه قومه قيل: إنَّهم كذبوا المرسلين. توحيداً للرسالة والرسل وللمكذبين. في كل أعصار التاريخ، وفي كل جوانب الأرض، على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام. . . **﴿كذَّبت**

---

(١) لم يعين القرآن الكريم موضع منازل ثمود، وإنَّما يظهر من آية: **﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾** أنَّ مواضعهم كانت في مناطق جبلية أو في هضاب ذات صخور.
وقد ذكر بعض المفسرين كالزمخشري في الكشاف، والطبري في تفسيره، في تفسير هذه الآية أنَّهم كانوا يقطنون صخور الجبال ويتخذون منها بيوتاً، وإنَّ [الواد] هو وادي القرىٰ، فتكون مواضع ثمود في هذه الأماكن.
وقد عين أكثر الرواة [الحِجْر] على أنَّها ديار ثمود وهي قرية بوادي القرىٰ. وقد زارها بعض الجغرافيين وعلماء البلدان والسياح وذكروا أنَّ بها بئراً تسمى بئر ثمود.
(انظر تاريخ الطبري ج ١ ص ١١٨، وتاريخ الأنبياء ص ٨٧ ـ ٨٨).

ثمود المرسلين، إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتَّقون؟ إنِّي لكم رسول أمين، فاتَّقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلَّا على ربِّ العالمين. أتتركون في ما هـٰهنا آمنين. في جنات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم. وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين فاتَّقوا الله وأطيعون. ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون في الأرض ولا يُصلحون﴾ [ثمود: ١٤١ - ١٥٢]...

إنَّها ذات الدعوة بألفاظها يدعوها كل رسول. ويوحد القرآن عن قصد حكاية العبارة التي يلقيها كل رسول على قومه للدلالة على وحدة الرسالة جوهراً ومنهجاً، في أصلها الواحد الذي تقوم عليه، وهو الإيمان بالله وتقواه، وطاعة الرسول الآتي من عند الله.

ويذكرهم أخوهم صالح بما هم فيه من نعمة ويخوفهم سلب هذه النعمة، كما يخوفهم ما بعد المتاع من حساب على ما كان من تصرفهم فيه:

﴿أتتركون فيما هـٰهنا آمنين في جنَّات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم. وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين؟﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٤٩].

وإنَّهم ليعيشون بين هذا المتاع الذي يصوره لهم أخوهم صالح. ولكنهم يعيشون في غفلة عنه لا يفكرون فيمن وهبهم إياه، ولا يتدبرون منشأه ومأتاه، ولا يشكرون المنعم الذي أعطاهم هذا النعيم. فيأخذ رسولهم في تصوير هذا المتاع لهم ليتدبروه ويعرفوا قيمته، ويخافوا زواله.

وفيما قاله لهم لمسات توقظ القلوب الغافية، وتنبه فيها الحرص والخوف: **﴿أتتركون فيما هـٰهنا آمنين؟﴾**..

أتظنون أنَّكم متركون لهذا الذي أنتم فيه من دعة ورخاء ومتعة ونعمة.. وسائر ما يتضمَّنه هذا الإجمال من تفخيم وتضخيم.. أتتركون في هذا كله آمنين لا يروعكم فوت، ولا يزعجكم سلب، ولا يفزعكم تغيير؟

أتتركون في هذا كله من جنات وعيون، وزروع متنوعات، ونخل

جيدة الطلع، سهلة الهضم حتى كأنَّ جناها مهضوم لا يحتاج إلى جهد في البطون! وتـتركون في البيوت تنحتونها في الصخور بمهارة وبراعة، وفي أناقة وفراهة؟

وبعد أن يلمس قلوبهم هذه اللمسات الموقظة يناديهم إلى التقوىٰ، وإلى الطاعة، وإلى مخالفة الملأ الجائرين عن الحق والقصد، الميالين إلى الفساد والشر.

﴿فاتَّقوا الله وأطيعون. ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ [الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥٢].

ولكن هؤلاء كانوا من الذين طغوا في البلاد.. وليس وراء الطغيان إلَّا الفساد. فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء. كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة. ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المعمر الباني، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال.

إنَّه يجعل الطاغية أسير هواه، لأنَّه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد؛ ويتخذ له مكاناً في الأرض غير مكان العبد المستخلف؛ وكذلك قال فرعون.. **﴿أنا ربكم الأعلىٰ﴾** عندما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتطاول به إلى هذا الادّعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد.

ثمَّ هـو يجعل الجمـاهير أرقـاء أذلاء، معهالسخط الـدفين والحقـد الكظيم، فتـتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية، وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية.

والنفس التي تستذل تأسن وتـتعفن، وتصبح مرتعاً لديدان الشهوات الهابطة والغـرائز المـريضة. وميـداناً لـلانحرافـات مع انـطماس البصيـرة والإدراك. وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع، وهو فساد أي فساد..

ثمَّ هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة، لأنَّها خطر على الطغاة والطغيان. فلا بد من تزيـيف للقيم، وتزوير في الموازين، وتحريف للتصورات كي تقبل صورة البغي البشعة، وتراها مقبولة مستساغة. . وهو فساد أي فساد. .

وهكـذا مضىٰ رسول الله إلى ثمـود ـ صالـح عليـه السَّـلام ـ مبشـراً ومنذراً، ومرغباً ومحذراً. ولكنهم تمادوا في الضلال وعتـوا عن أمر ربهم وبيَّتوا الشر لصالح، وأضمروا له ولأهله القتل؛ ولكن الله أحبط مكرهم. وردَّ إليهم كَيـدهم، وأنزل بـالكافـرين عقابـه، فأخـذتهم الصاعقـة بـظلمهم، فأصبحوا في ديارهم جاثمين. . لم يمنعهم من الله مانع. . لم يمنعهم ما شادوا من قصور شامخة؛ وما جمعوا من أموال وافرة، وغرسوا من جنات واسعة، ونحتوا من بيوت آمنة. وآتاهم العذاب فـإذا هم صرعىٰ، جثثهم هامدة، وديارهم خاوية.

وقد أشارت الآيات القرآنية مبكرة إلى ثمود، وذلك لما ذكرناه في قصة هود من قبل، لذلك نجد أكثر السور التي حدثتنا عن عاد تحدثنا عن ثمود. ومن هنا نجد أنَّ أول سورة ذكرت فيها ثمود هي سورة الفجر التي ذكرت فيها عاد ـ كما قلنا من قبل ـ، ومن هنا كانت الإشارة إلى ثمود كالإشارة إلى عاد تـتحدث عن جوانب القوة ومواطن الشدة وشدة البأس **﴿ألم تَرَ كيف فعل ربُّك بعاد إرَمَ ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾** [الفجر: ٦ ـ ٩]. .

ثمَّ نجد إشارات في بعض الآيات كما جاء في سورة النجم و (صٓ) والفرقان، فآية النجم: **﴿وأنَّه أهلك عاداً الأولىٰ وثمودَ فما أبقىٰ﴾** وآيـة (صٓ): **﴿كذَّبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولـٰئك الأحزاب، إن كُلٌ إلاَّ كذَّب الرسل فحقَّ عقاب﴾** وآية الفرقان: **﴿وعاداً وثمودَ وأصحاب الرسِّ وقروناً بين ذلك كثيراً﴾** وفي سورة فصِّلت بعد أن تحدثت عن عاد وما حَلَّ بهم، حدّثتنا عن ثمود: **﴿وأمَّا**

ثمود فهديناهم فاستحبُّوا العمىٰ على الهدىٰ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجَّينا الذين آمنوا وكانوا يتَّقون﴾ . .

وأمَّا في سورة الذَّاريات بعد الحديث عن عاد حدّثتنا عن ثمود: ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتّىٰ حين، فَعَتَوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين﴾ .

وأمَّا سورة الحاقَّة فلقد جاء فيها: ﴿كذَّبت ثمود وعاد بالقارعة فأمَّا ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ . .

ولعلَّ السورة الوحيدة التي انفردت فيها الإشارة إلى ثمود دون عاد هي سورة الإسراء جاءت تتحدث حسب موضوعها وهو أنَّ الآيات التي يؤيد الله بها الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ لا تجدي الذين جاءت من أجلهم، لأنَّهم يكذبون بها فيحل عليهم العذاب، وها هم أهل مكة ما زادتهم آية الإسراء إلَّا إعراضاً، ولا عجب فمن قبلهم ثمود كذلك قال تعالىٰ: ﴿وما مَنَعَنا أن نُرسلَ بالآيات إلَّا أن كذَّب بالأوَّلون وآتينا ثمود الناقة مُبصرة فظلموا بها وما نُرسل بالآيات إلَّا تخويفاً﴾ [الإسراء: ٥٩] . .

أمَّا السور التي تتحدث بشيء من التفصيل عن قصة صالح ـ عليه السَّلام ـ فهي: الشمس والقمر والأعراف والشعراء والنمل وهود والحجر وكثير من السور التي تحدثت عن هود كما سبق بيانه.

أمَّا الشمس: فلقد خصَّت بالحديث عن ثمود دون عاد. وهذه أول سورة أشارت إلى ثمود وحدها وبشيء من التفصيل، ثمَّ جاءت سورة القمر وبعد أن حدَّثتنا عن عاد حدَّثتنا عن ثمود، ثمَّ جاءت سورة الأعراف، وهي أول سورة يذكر فيها اسم صالح ـ عليه السَّلام ـ وقد أضافت إلى موضوع القصة قضايا عقيدية واجتماعية. ثمَّ جاءت سورة الشعراء وبعدها سورة النمل، ثمَّ جاءت سورة هود وسورة الحجر وسورة العنكبوت[1].

---

(١) انظر: سورة الفجر ٦ ـ ٩، النجم: ٥٠، سورة (صَ): ١٢ ـ ١٤، الفرقان: ٣٨، فصِّلت: =

صفحة أُخرىٰ ورواية واحدة :

وهذه صفحة أُخرىٰ من صحائف قصة البشرية؛ وهي تمضي في خضم التاريخ. وها هي ذي نكسة أُخرىٰ إلى الجاهلية، ومشهد من مشاهد اللقاء بين الحق والباطل، ومصرع جديد من مصارع المكذبين..

﴿وإلىٰ ثمود أخاهم صالحاً. قال: يَـا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره﴾ [هود: ٦١]..

ذات الكلمة الواحدة التي بها بدأ هذا الخلق وإليها يعود. وذات المنهج الواحد في الاعتقاد والاتجاه والمواجهة والتبليغ. **﴿وإلىٰ ثمود أخاهم صالحاً..﴾** إنَّها الكلمة التي لا تتغير: **﴿قال: يَـا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره﴾**.

إنَّ صالحاً يناديهم: **﴿يَـا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره.. هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها..﴾** [هود: ٦١].. فهو يناديهم بما في نشأتهم ووجودهم في الأرض من دليل فطري منطقي لا يملكون له رداً.. وهم ما كانوا يزعمون أنَّهم هم أنشأوا أنفسهم، ولا أنَّهم هم كفلوا لأنفسهم البقاء، ولا أعطوا أنفسهم هذه الأرزاق التي يستمتعون بها في الأرض..

وظاهر أنَّهم لم يكونوا يجحدون أنَّ الله ـ سبحانه ـ هو الذي أنشأهم من الأرض، وهو الذي أقدرهم على عمارتها. ولكنهم ما كانوا يُتبعون هذا الاعتراف بألوهية الله ـ سبحانه ـ وإنشائه لهم واستخلافهم في الأرض، بما ينبغي أن يتبعه من الدينونة لله وحده بلا شريك، واتباع أمره وحده بلا

= ١٧ ـ ١٨، الذَّاريات: ٤٣ ـ ٤٥، الحاقَّة: ٤، ٥، الإسراء: ٥٩، الشَّمس: ١١ ـ ١٥، القمر: ٢٣ ـ ٣٢، الأعراف: ٧٣ ـ ٧٩، الشعراء: ١٤١ ـ ١٥٩، النمل: ٤٥ ـ ٥٣، سورة هود: ٦١ ـ ٦٨، سورة الحجر: ٨٠ ـ ٨٤، سورة العنكبوت: ٣٨، راجع القصص القرآني ص ١٠٨ ـ ١٢١.

منازع.. وهو ما يدعوهم إليه صالح بقوله: **﴿يَا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾**..

لقد كانت القضية هي ذاتها.. قضية الربوبية لا قضية الألوهية. قضية الدينونة والحاكمية قضية الاتِّباع والطاعة.. إنَّها القضية الدائمة التي تدور عليها معركة الإسلام مع الجاهلية!

﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله، فإذا هم فريقان يختصمون﴾ [النمل: ٤٥]..

يلخص رسالة صالح ـ عليه السَّلام ـ في حقيقة واحدة: **﴿أن اعبدوا الله﴾**.. فهذه هي القاعدة التي ترتكز عليها رسالة السماء إلى الأرض في كل جيل، ومع كل رسول. ومع أنَّ كل ما حول البشر في هذا الكون، وكل ما يكمن فيهم أنفسهم يهتف بهم إلى الإيمان بهذه الحقيقة، فقد أمضت البشرية أجيالاً وأزماناً لا يعلمها إلَّا الله، وهي تقف أمام هذه الحقيقة البسيطة وقفة الإنكار والجحود، أو وقفة الهزء والتكذيب. وما تزال إلى اليوم تزوغ عن هذه الحقيقة الخالدة، وتجنح إلى شتّىٰ السبل التي تتفرق بها عن سبيل الله الواحد المستقيم.

إنَّها الكلمة التي لا تتغير: **﴿قال: يَا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾**.

وإنَّه كذلك المنهج الذي لا يتبدل: **﴿فاستغفروه ثمَّ توبوا إليه﴾** [هود: ٦١]..

ثمَّ هو التعريف بحقيقة الألوهية كما يجدها في نفسه الرسول: **﴿إنَّ ربِّي قريب مجيب﴾**.

وقد ذكَّرهم صالح بنشأتهم من الأرض. نشأة جنسهم، ونشأة أفرادهم من غذاء الأرض أو من عناصرها التي تتألف منها عناصر تكوينهم الجسدي. ومع أنَّهم من هذه الأرض. من عناصرها. فقد استخلفهم الله

فيها ليعمروها. استخلفهم بجنسهم واستخلفهم بأشخاصهم بعد الذاهبين من قبلهم.

ثمَّ هم بعد ذلك يعركون معه آلهة أُخرىٰ.

﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها. فاستغفروه ثمَّ توبوا إليه﴾.

واطمئنوا إلى استجابته وقبوله:

﴿إنَّ ربِّي قريب مجيب﴾..

والإضافة في «ربي» ولفظ «قريب» ولفظ «مجيب» واجتماعها وتجاورها.. ترسم صورة لحقيقة الألوهية كما تتجلىٰ في قلب من قلوب الصفوة المختارة، وتخلع على الجو أنساً واتصالاً ومودة، تنتقل من قلب النَّبيّ الصالح إلى قلوب مستمعيه لو كانت لهم قلوب!

ومرة أُخرىٰ نجد حقيقة الألوهية كما تتجلىٰ في قلب من قلوب الصفوة المختارة. قلوب الرسل الكرام. نجدها في قولة صالح التي يحكيها عنه القرآن:

﴿قال: يَا قوم أرأيتم إن كنت على بيِّنة من ربِّي، وآتاني منه رحمة، فمن ينصرني من الله إن عصيته؟ فما تزيدونني غير تخسير﴾ [هود: ٣] وذلك بعد أن يصف لهم ربه كما يجده في قلبه: **﴿إنَّ ربي قريب مجيب﴾**..

وما تتجلّىٰ حقيقة الألوهية قط في كمالها وجلالها وروائها وجمالها كما تتجلّىٰ في قلوب تلك الصفوة المختارة من عباده. فهذه القلوب هي المعرض الصافي الرائق الذي تتجلىٰ فيه هذه الحقيقة على هذا النحو الفريد العجيب(١)!

---

(١) يراجع فصل «حقيقة الألوهية» في كتاب: «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» القسم الثاني.

ثمَّ نقف من القصة أمام الجاهلية التي ترىٰ في الرشد ضلالاً؛ وفي الحق عجيبة لا تكاد تـتصورها! فصالح الذي كان مرجواً في قومه، لصلاحه ولرجاحة عقله وخلقه، يقف منه قومه موقف اليـائس منه، المفجـوع فيه! لماذا؟ لأنَّه دعاهم إلى الدينونة لله وحده. على غير ما ورثوا عن آبائهم من الدينونة لغيره!

إنَّ القلب البشري حين ينحرف شعرة واحدة عن العقيدة الصحيحة، لا يقف عند حد في ضلاله وشروده. حتى إنَّ الحق البسيط الفطري المنطقي ليبدو عنده عجيبـة العجائب التي يعجـز عن تصورهـا؛ بينما هـو يستسيغ الانحراف الذي لا يستند إلى منطق فطري أو منطق عقلي على الإطلاق!

ولكن قلوب القوم كانت قد بلغت من الفساد والاستغلاق والانطماس درجة لا تستشعر معها جمال تلك الصورة ولا جلالها، ولا تحس بشاشة هذا القول الرفيق، ولا وضاءة هذا الجـو الطليق.. وإذا بهم يفـاجأون، حتى ليظنون بأخيهم صالح الظنون!

﴿قالوا: يَـا صالح قد كنتَ فينا مرجواً قبل هـٰذا! أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ وإنَّنا لفي شكٍّ ممَّا تدعونا إليه مريب﴾.. [هود: ٦٢] لقد كان لنا رجاء فيك. كنت مرجواً فينا لعلمـك أو لعقلك أو لصدقـك أو لحسن تدبيرك، أو لهذا جميعه. ولكن هذا الرجاء قد خاب..

﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾..

إنَّها للقاصمة! فكل شيء يا صالح إلا هذا! وما كنا لنتوقع أن تقولها! فيا لخيبة الرجاء فيك! ثم إنَّنا لفي شك ممَّا تدعونا إليه. شك يجعلنا نرتاب فيك وفيما تقول..

وهكذا يعجب القوم ممَّا لا عجب فيه؛ بل يستنكرون ما هو واجب وحق، ويدهشون لأن يدعوهم أخوهم صالح إلى عبادة الله وحده. لماذا؟ لا لحجة ولا لبرهان ولا لتفكير. ولكن لأنَّ آباءهم يعبدون هذه الآلهة!

وهكذا يبلغ التحجر بالناس أن يعجبوا من الحق البين. **وأن يعللوا العقائد بفعل الآباء!**

وهكذا يتبين مرة وثانية وثالثة أنَّ عقيدة التوحيد في صميمها دعوة للتحرر الشامل الكامل الصحيح. **ودعوة إلى إطلاق العقل البشري من عقال التقليد**، ومن أوهاق الوهم والخرافة التي لا تستند إلى دليل. وتذكرنا قولة ثمود لصالح:

﴿قد كنتَ فينا مرجواً قبل هـٰذا﴾.

تذكرنا بما كان لقريش من ثقة بصدق محمَّد ﷺ وأمانته. فلمَّا أن دعاهم إلى ربوبية الله وحده تنكروا له كما تنكر قوم صالح. وقالوا ساحر. وقالوا: مفتر ونسوا شهادتهم له وثقتهم فيه! إنَّها طبيعة واحدة، ورواية واحدة تتكرر على مدىٰ العصور والدهور..

الكبرياء الجوفاء:

ثمَّ ردَّ قوم صالح بكبرياء متعالية **﴿فقالوا: أبشراً منا واحداً نتبعه؟ إنَّا إذاً لفي ضلال وسُعُر﴾** [القمر: ٢٤]..

وهي الشبهة المكرورة التي تحيك في صدور المكذبين جيلاً بعد جيل.. كما أنَّها هي الكبرياء الجوفاء التي لا تنظر إلى حقيقة الدعوة، إنَّما تنظر إلى شخص الداعية: **﴿أبشراً منا واحداً نتبعه؟﴾**!

وماذا في أن يختار الله واحداً من عباده.. والله أعلم حيث يجعل رسالته.. فيلقي عليه الذكر - أي الوحي وما يحمله من توجيهات للتذكر والتدبر - ماذا في هذا الاختيار لعبد من عباده يعلم منه تهيؤه واستعداده. وهو خالق الخلق. وهو منزل الذكر؟

﴿قالوا: إنَّما أنت من المسحرين. ما أنت إلاَّ بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصَّادقين﴾ [الشعراء: ١٥٣، ١٥٤]..

إنَّما أنت ممَّن سُحرت عقولهم فهم يهرفون بما لا يعـرفون! كـأنَّما الدعوة إلى الله لا يدعوها إلَّا مجنون!

﴿ما أنت إلَّا بشر مثلنا﴾.

وتلك هي الشبهة التي ظلت تخايل البشرية كلما جاءها رسول. فقد كان تصور البشرية القاصر للرسول عجيباً دائماً، وما كانت تدرك حكمة الله في أن يكون الرسول بشراً، وما كانت تـدرك كذلـك تكريم هـذا الجنس البشري باختيار الرسل منه ليكونوا رواد البشرية المتصلين بمصـدر الهدىٰ والنور.

وكانت البشرية تـتصور الرسول خلقاً آخر غير البشر. أو هكذا ينبغي أن يكـون؛ ما دام يـأتي إليها بخبـر السماء، وخبـر الغيب، وخبر العـالم المحجوب عن البشر.. ذلك أنَّها ما كانت تدرك سر هذا الإنسان الـذي كرَّمه الله به، وهو أنَّه موهوب القدرة على الاتصال بالملأ الأعلى وهو على هذه الأرض مقيم. يأكل وينام ويتزوج ويمشي في الأسواق. ويعـالج مـا يعالجه سائر البشر من المشاعر والنوازع، وهو متصل بذلك السر العظيم.

إنَّها شبهة واهية لا تقوم إلَّا في النفوس المنحرفة. النفوس التي لا تريد أن تنظر في الدعوى لترىٰ مقدار ما فيها من الحق والصدق، ولكن إلى الداعية فتستكبر عن اتباع فرد من البشر، مخافة أن يكون في اتباعها له إيثار وله تعظيم. وهي تستكبر عن الإذعان والتسليم.

ومن ثمَّ يقولون لأنفسهـم: ﴿أبشراً منا واحداً نتبعه؟ إنَّا إذن لفي ضلال وسُعر﴾.. أي لو وقع منا هذا الأمر المستنكـر! وأعجب شيء أن يصفوا أنفسهم بالضلال لو اتبعوا الهدىٰ! وأن يحسبوا أنفسهم في سُعر - لا في سعير واحد - إذا هم فاؤوا إلى ظلال الإيمان!

ومن ثَـمَّ يتهمون رسولهم الذي اختاره الله ليقـودهم في طريق الحق والقصد. يتهمونه بالكذب والطمع ﴿بل هو كذاب أشر﴾.. كذاب لم يُلق

عليه الذكر. أشر: شديد الطمع في اختصاص نفسه بالمكانة! وهو الاتهام الذي يواجه به كل داعية. اتهامه بأنَّه يتخذ الدعوة ستاراً لتحقيق مآرب ومصالح. وهي دعوة المطموسين الذين لا يدركون دوافع النفوس ومحركات القلوب.

وبينما يجري السياق على أُسلوب الحكاية لقصة غبرت في التاريخ.. يلتفت فجأة وكأنَّما الأمر حاضر. والأحداث جارية. فيتحدث عمَّا سيكون. ويهدد بهذا الذي سيكون:

﴿**سيعلمون غداً من الكذَّاب الأشر**﴾ [القمر: ٢٦].

وهذه إحدىٰ طرق العرض القرآنية للقصص. وهي طريقة تنفخ روح الحياة الواقعية في القصة، وتحيلها من حكاية تحكىٰ، إلى واقع تعرض على الأنظار، يترقب النظارة أحداثها الآن، ويرتقبونها في مقبل الزمان!

سيكشف لهم الغد عن الحقيقة. ولن يكونوا بمنجاة من وقع هذه الحقيقة. فستكشف عن البلاء المدمر للكذاب الأشر!

ويقول صالح كما قال جده نوح:

﴿**قال: يَا قوم أرأيتم إن كنت على بيِّنة من ربِّي وآتاني منه رحمة، فمن ينصرني من الله إن عصيته؟ فما تزيدونني غير تخسير**﴾ [هود: ٦٣]..

يَا قوم: ماذا ترون إن كنت أجد في نفسي حقيقة ربي واضحة بينة، تجعلني على يقين من أنَّ هذا هو الطريق؟ وآتاني منه رحمة فاختارني لرسالته وأمدني بالخصائص التي تؤهلني لها. فمن ينصرني من الله إن أنا عصيته فقصَّرت في إبلاضكم دعوته، احتفاظاً برجائكم فيّ؟ أفنافعي هذا الرجاء وناصري من الله؟ كلا:

﴿**فمن ينصرني من الله إن عصيته؟ فما تزيدونني غير تخسير**﴾..
ما تزيدونني إلاَّ خسارة على خسارة.. غضب الله وحرماني شرف

الرسالة وخزي الدنيا وعذاب الآخرة. وهي خسارة بعد خسارة. ولا شيء إلاَّ التخسير! والتثقيل والتشديد!

ويحكي القرآن خلاصة موقف قوم صالح ـ ثمود ـ بعد دعوته إياهم، وجهده معهم بأنَّهم أصبحوا فريقين يختصمون. فريقاً يستجيب له، وفريقاً يخالف عنه. وكان الفريق المعارض هو الكثرة.. **﴿ولقد أرسلنا إلىٰ ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون﴾** [النمل: ٤٥].

وقد استعجل المكذبون المعرضون عذاب الله الذي أنذرهم به صالح، بدلاً من أن يطلبوا هدىٰ الله ورحمته ـ شأنهم في هذا شأن مشركي قريش مع الرسول الكريم ـ فأنكر عليهم صالح أن يستعجلوا بالعذاب ولايطلبوا الهداية، وحاول أن يوجههم إلى الاستغفار لعلَّ الله يدركهم برحمته:

﴿قال: يَا قوم لِمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة؟ لولا تستغفرون الله لعلَّكم ترحمون﴾ [النمل: ٤٦]..

ولقد كان يبلغ من فساد القلوب أن يقول المكذبون: **﴿اللَّهمَّ إن كان هـٰذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾** [الأنفال: ٣٢].. بدلاً من أن يقولوا: اللَّهمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إلى الإيمان به والتصديق!

وكذلك كان قوم صالح يقولون. ولا يستجيبون لتوجيه رسولهم إلى طريق الرحمة والتوبة والاستغفار. ويعتذرون عن ضيقهم به وبالذين آمنوا معه بأنَّهم يرونهم شؤماً عليهم، ويتوقعون الشر من ورائهم:

﴿قالوا: اطَّيرنا بك وبمن معك﴾ [النمل: ٤٧]..

والتطير. التشاؤم مأخوذ من عادة الأقوام الجاهلة التي تجري وراء الخرافات والأوهام، لأنَّها لا تخرج منها إلى نصاعة الإيمان. فقد كان الواحد منهم إذا همَّ بأمر لجأ إلى طائر فزجره أي أشار إليه مطارداً. فإن مرَّ

سانحاً عن يمينه إلى يساره استبشر ومضى في الأمر. وإن مرَّ بارحاً عن يساره إلى يمينه تشاءم وتوقع الضرّ!

وما تدري الطير الغيب، وما تنبىء حركـاتها التلقـائية عن شيء من المجهول. ولكن النفس البشرية لا تستطيع أن تعيش بلا مجهول مغيب تكل إليه ما لا تعرفه وما لا تقدر عليه. فإذا لم تكل المجهول المغيب إلى الإيمان بعلام الغيوب وكلته إلى مثل هذه الأوهام والخرافات التي **لا تقف عند حد، ولا تخضع لعقل، ولا تنتهي إلى اطمئنان ويقين.**

وحتى هذه اللحظة ترى الذين يهربون من الإيمان بالله، ويستنكفون أن يكلوا الغيب إليه، لأنَّهم ـ بزعمهم ـ قد انتهوا إلى حد من العلم لا يليق معه أن يركنوا إلى خرافة الدين! ـ هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا بدينه ولا بغيبه. . نراهم يعلقون أهمية ضخمة على رقم ١٣، وعلى مرور قط أسود يقطع الطريقهأمامهم، وعلى إشعال أكثر من لفافتين بعود ثقاب واحد. . إلى آخر هذه الخرافات السـاذجة. ذلـك أنَّهم يعانـدون حقيقة الفـطرة. وهي جوعتها إلى الإيمان، وعدم استغنائها عنـه، وركونهـا إليه تفسيـر كثير من حقائق هذا الكون التي لم يصل إليها علم الإنسان؛ وبعضها لن يصل إليه في يوم من الأيام، لأنَّه أكبر من الطاقة البشرية، ولأنَّه خارج عن اختصاص الإنسان، زائد على مطالب خلافته في هذه الأرض، التي زود على قدرها بالمواهب والطاقات!

فلمَّا قال قوم صالح قولتهم الجاهلة الساذجة، الضالة في تيه الوهم والخرافة، ردهم صالح إلى نور اليقين، وإلى حقيقته الواضحة، البعيدة عن الضباب والظلام:

﴿قال: طائركم عند الله﴾ . .

حظكم ومستقبلكم ومصيركم عند الله. والله قد سنَّ سنناً وأمر الناس بأمور، وبيَّن لهم الطريق المستنير. فمن اتبع سنة الله، وسار على هداه،

فهناك الخير، بدون حاجة إلى زجر الطير. ومن انحرف عن السنة، وحاد عن السواء، فهناك الشر، بدون حاجة إلى التشاؤم والتطير.

﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ [النمل: ٤٧].

تفتنون بنعمة الله، وتختبرون بما يقع لكم من خير ومن شر. فاليقظة وتدبر السنن، وتتبع الحوادث والشعور بما وراءها من فتنة وابتلاء هو الكفيل بتحقيق الخير في النهاية. لا التشاؤم والتطير ببعض خلق الله من الطير ومن الناس سواء.

وهكذا ترد العقيدة الصحيحة الناس إلى الوضوح والاستقامة في تقدير الأمور. وترد قلوبهم إلى اليقظة والتدبر فيما يقع لهم أو حولهم. وتشعرهم أنَّ يد الله وراء هذا كله، **وأن ليس شيء ممَّا يقع عبثاً أو مصادفة**..

وبذلك ترتفع قيمة الحياة وقيمة الناس. وبذلك يقضي الإنسان رحلته على هذا الكوكب غير مقطوع الصلة بالكون كله من حوله، وبخالق الكون ومدبره، وبالنواميس التي تدبر هذا الكون وتحفظه بأمر الخالق المدبر الحكيم.

القلوب الجاسية والمعجزة الخارقة :

ولكن هذا المنطق المستقيم إنَّما تستجيب له القلوب التي لم تفسد، ولم تنحرف الانحراف الذي لا رجعة منه.. وهذه اللمسات وهذه النداءات لا تصل إلى تلك القلوب الجاسية الجافية، التي لا تصغي ولا تلين..

وكانت البشرية جيلاً بعد جيل تطلب خارقة معجزة من الرسول تدل على أنَّه حقاً مرسل من الله: ﴿فأتِ بآية إن كنتَ من الصادقين﴾ [الشعراء: ١٥٤].

وهكذا طلبت ثمود تلك الخارقة، فاستجاب الله لعبده صالح، وأعطاه هذه الخارقة في صورة ناقة؛ لا نخوض في وصفها كما خاض المفسرون

القدامىٰ، لأنَّه ليس لدينا سند صحيح نعتمد عليه في هذا الوصف. فنكتفي بأنَّها كانت خارقة كما طلبت ثمود. وكانت تلك المعجزة التي صاحبت دعوة صالح، حين طلبها قومه للتصديق.. فها هو ذا يقول لهم: **﴿قد جئتكم ببضينة من ربكم، هـٰذه ناقة الله لكم آية﴾** [الأعراف: ٧٣]..

ولا يذكر القرآن صفة لهذه الناقة التي أشار إليها صالح لتكون آية لهم وعلامة. ولكن في إضافتها لله: **﴿هـٰذه ناقة الله﴾** وفي تخصيصها لهم: **﴿لكم آية﴾** ما يشير إلى أنَّها كانت ذات صفات خاصة مميزة، يعلمون بها أنَّها آية لهم من الله. **﴿ويَا قوم هـٰذه ناقة الله لكم آية، فذروها تأكل في أرض الله، ولا تمسُّوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾** [هود: ٦٤]. إنَّها ناقة الله وفيها آية منه.. وهكذا نستلهم من السياق القرآني أنَّها كانت غير عادية، أو أنَّها أخرجت لهم إخراجاً غير عادي. ممَّا يجعلها بينة من ربهم، وممَّا يجعل نسبتها إلى الله ذات معنىٰ، ويجعلها آية على صدق نبوته.. ولا نزيد على هذا شيئاً ممَّا لم يرد ذكره من أمرها في هذا المصدر المستيقن ـ وفيما جاء في هذه الإشارة كفاية عن كل تفصيل آخر ـ. ونكتفي بهذا دون الخوض في ذلك الخضم من الأساطير والإسرائيليات التي تفرقت بها أقوال المفسرين حول ناقة صالح فيما مضىٰ وفيما سيجيء!

لقد كانت آية صالح الناقة. ولكن الآيات في هـذا الكون كثيـر.. **﴿وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين﴾** [الحجر: ٨١] والآيـات في هذه الأنفس كثير. وكلها معروضة للأنظار والأفكار. وليست الخارقة التي جاءهم بها صالح هي وحدها الآية التي آتاهم الله. وقد أعرضوا عن آيات الله كلها، ولم يفتحوا لها عيناً ولا قلباً، ولم يستشعرها فيهم عقل ولا ضمير. ونمضي مع نصوص القرآن حول ناقة صالح الذي **﴿قال: هـٰذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معروم. ولا تمسوها بسوء، فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾** [الشعراء: ١٥٥، ١٥٦]..

لقد جاءهم بالناقة، على شرط أن يكون الماء الذي يستقون منه يوماً

للناقة ويوماً لهم، لا يجورون عليها في يومها، ولا تجور عليهم في يومهم، ولا يختلط شرابها بشرابهم، كما لا يختلط يومها بيومهم. ولقد حذرهم أن ينالوها بسوء على الإطلاق. وإلاَّ أخذهم عذاب يوم عظيم.

وكانت الناقة امتحاناً وفتنة للقوم: **﴿إنَّا مرسلو الناقة فتنة لهم. فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أنَّ الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر﴾** [القمر: ٢٧ ـ ٢٨]..

ويقف القارىء يترقب ما سيقع، عندما يرسل الله الناقة فتنة لهم، وامتحاناً مميزاً لحقيقتهم. ويقف الرسول ـ رسولهم عليه السَّلام ـ مرتقباً ما سيقع، مؤتمراً بأمر ربه في الاصطبار عليهم حتى تقع الفتنة ويتم الامتحان. ومعه التعليمات.. أنَّ الماء في القبيلة قسمة بينهم وبين الناقة ـ ولا بد أنَّها كانت ناقة خاصة ذات خصائص معينة تجعلها آية وعلامة ـ فيوم لها ويوم لهم ـ تحضر يومها ويحضرون يومهم. وتنال شربها وينالون شربهم.

إنَّها ناقة الله، فذروها تأكل في أرض الله، وإلاَّ فهو النذير بسوء المصير..

وبعد عرض الآية والإنذار بالعاقبة، يأخذ صالح في النصح لقومه بالتدبر والتذكر، والنظر في مصائر الغابرين، والشكر على نعمة الاستخلاف بعد هؤلاء الغابرين:

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد، وبوَّأكم في الأرض، تتَّخذون من سهولها قصوراً، وتنحتون الجبال بيوتاً. فاذكروا آلاء الله، ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [الأعراف: ٧٤]..

ونلمح من تذكير صالح لهم، أثر النعمة والتمكين في الأرض لثمود، كما نلمح طبيعة المكان الذي كانوا يعيشون فيه. فهو سهل وجبل، وقد كانوا يتخذون في السهل القصور، وينحتون في الجبال البيوت. فهي حضارة عمرانية واضحة المعالم في هذا النص القصير. وصالح يذكرهم

استخلاف الله لهم من بعد عاد، وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها، ولكن يبدو أنّهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية في التاريخ لحضارة عاد، وأنّ سلطانهم امتدّ خارج الحجر. وبذلك صاروا خلفاء ممكنين في الأرض، محكمين فيها. وهو ينهاهم عن الانطلاق في الأرض بالفساد، اغتراراً بالقوة والتمكين، وأمامهم العبرة ماثلة في عاد الغابرين!

وقد آمنت طائفة من قوم صالح، واستكبرت طائفة. والملأ هم آخر من يؤمن بدعوة تُجردهم من السلطان في الأرض، وترده إلى إلـه واحد هو رب العالمين! ولا بد أن يحاولوا فتنة المؤمنين الذين خلعوا ربقة الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده، وتحرروا بذلك من العبودية للعبيد!

وهكذا نرىٰ الملأ المستكبرين من قوم صالح يتجهون إلى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد:

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ـ لمن آمن منهم ـ: أتعلمون أنَّ صالحاً مرسل من ربه؟﴾ [الأعراف: ٧٥].

وواضح أنَّه سؤال للتهديد والتخويف، ولاستنكار إيمانهم به، وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه. ولكنَّ الضعاف لم يعودوا ضعافاً! لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم، والثقة في نفوسهم، والاطمئنان في منطقهم.. إنّهم على يقين من أمرهم، فماذا يجدي التهديد والتخويف؟ وماذا تجدي السخرية والاستنكار.. من الملأ المستكبرين؟

﴿قالوا: إنَّا بما أُرسل به مؤمنون﴾..

ومن ثمَّ يعلن الملأ من موقفهم في صراحة تحمل طابع التهديد:

﴿قالوا: إنَّا بالَّذي آمنتم به كافرون﴾ [الأعراف: ٧٦]..

على الرغم من البيِّنة التي جاءهم بها صالح. والتي لا تدع ريبة لمستريب.. إنّه ليست البيِّنة هي التي تنقص الملأ للتصديق.. إنَّه السلطان المهدد بالدينونة للرب الواحد.. إنّها عقدة الحاكمية والسلطان، إنّها شهوة

الملك العميقة في الإنسان! إنَّه الشيطان الذي يقود الضالِّين من هذا الخطام!

وبعد.. فماذا فعلت الآية الخارقة بالقوم المتعنتين؟

إنَّها لم تسكب الإيمان في القلوب الجافة؛ ولم تطلع النور في الأرواح المظلمة. على الرغم من قهرها لهم وتحديهم بها.. وكان من قوم صالح، من كبرائهم، تسعة نفر لم يبق في قلوبهم موضع للصلاح والإصلاح. فراحوا يأتمرون به، ويدبرون له ولأهله في الظلام..

﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يُصلحون. قالوا: تقاسموا بالله لنبيتنَّه وأهله، ثمَّ لنقولنَّ لوليه: ما شهدنا مهلك أهله. وإنَّا لصادقون﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩]..

هؤلاء الرهط التسعة الذين تمحضت قلوبهم وأعمالهم للفساد والإفساد، لم يعد بها متسع للصلاح والإصلاح، فضاقت نفوسهم بدعوة صالح وحجته، وبيتوا فيما بينهم أمراً.

ومن العجب أن يتداعوا إلى القسَم بالله مع هذا الشر المنكر الذي يبيتونه، وهو قتل صالح وأهله بياتاً، وهو لا يدعوهم إلَّا لعبادة الله!

وإنَّه لمن العجب كذلك أن يقولوا: **﴿تقاسموا بالله لنبيتنَّه وأهله ثم لنقولنَّ لوليه: ما شهدنا مهلك أهله﴾** ولا حضرنا مقتله.. **﴿وإنَّا لصادقون﴾**.. فقد قتلوهم في الظلام فلم يشهدوا هلاكهم أي لم يروه بسبب الظلام!

وهو احتيال سطحي وحيلة ساذجة.. ولكنهم يطمئنون أنفسهم بها، ويبررون كذبهم، الذي اعتزموه للتخلص من أولياء دم صالح وأهله.

نعم من العجب أن يحرص مثل هؤلاء على أن يكونوا صادقين! ولكن النفس الإنسانية مليئة بالانحرافات والالتواءات، وبخاصة حين لا تهتدي

بنور الإيمان، الذي يرسم لها الطريق المستقيم.

وهكذا تحالف هؤلاء النفر المفسدون المنحرفون أن يَتَسلَّلوا إلى نبيهم صالح في جنح الظلام، ويباغتوه وأهله نيام، فيوقعوا به في غفلة من الناس، كما أجمعوا أمرهم بينهم على أن يكون التخلص من صالح سراً لا يذيعونه، ظناً منهم أن قتل صالح وأهله سيريحهم من عنائه لهم وسيعصمهم من العذاب الذي كان يتهددهم به. لكنَّ الله القوي العزيز حمىٰ صالحاً من كيد أعدائه، فأحبط مكرهم وردَّ إليهم كيدهم، وعكس عليهم أمرهم **﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون﴾** [النمل: ٥٠]..

فساد عريض وعذاب قريب:

وبلغ الفساد في القوم شوطاً بعيداً، وتمادوا في طغيانهم، وتعالوا على رسول رب العالمين، ولم يحفظوا عهدهم في شأن ناقة الله التي أرسلها ربهم آية، وحذرهم صالح أن تمتد إليها يد بسوء **﴿ولا تمسُّوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾**.. ها هم أُولاء لم يوفوا بشرطهم في آية الله. وأتبعوا القول بالعمل، فاعتدوا على ناقة الله التي جاءتهم آية من عنده على صدق نبيه في دعواه؛ والتي حذرهم نبيهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم.

لقد حذرهم صالح عذاباً عاجلاً.. يدل على هذه المعاجلة فاء الترتب في العبارة. ولفظ قريب.. **﴿فيأخذكم عذاب قريب﴾** [هود: ٦٤] يأخذكم أخذاً. وهي حركة أشد من المس أو الوقوع.

﴿فنادوا صاحبهم فتعاطىٰ فعقر﴾ [القمر: ٢٩]..

وصاحبهم هو أحد الرهط المفسدين في المدينة الذين تقدم ذكرهم: **﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾**.. وهو الذي قال الله عنه **﴿إذ انبعث أشقاها﴾** [الشمس: ١٢]..

وقيل: إنَّه تعاطىٰ الخمر فسكر ليصير جريئاً عليهالفعلة التي هو مقدم عليها. وهي عقر الناقة التي أرسلها الله آية لهم؛ وحذرهم رسولهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم العذاب.. ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطىٰ فعقر﴾. وتمَّت الفتنة ووقع البلاء. وهكذا يعرض القرآن الكريم نموذجاً من نماذج الخيبة التي ينتهي إليها من يدسي نفسه فيحجبها عن الهدىٰ ويدنسها ممثلاً هذا النموذج فيما أصاب ثمود من غضب ونكال وهلاك:

﴿كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله: ناقة الله وسُقياها. فكذبوه فعقروها فَدَمْدَمَ عليهم ربهم بذنبهم فسوَّاها ولا يخاف عُقباها﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٥]..

ويذكر القرآن أنَّ ثمود بسبب من طغيانها كذبت نبيها. فكان الطغيان وحده هو سبب التكذيب. وتمثل هذا الطغيان في انبعاث أشقاها. وهو الذي عقر الناقة. وهو أشدها شقاءً، وأكثرها تعاسة بما ارتكب من الإثم وقد حذرهم رسول الله قبل الإقدام على هذه الفعلة فقال لهم: احذروا أن تمسوا ناقة الله أو أن تمسوا الماء الذي جعل لها يوماً، ولهم يوماً كما اشترط عليهم عندما طلبوا منه آية فجعل الله هذه الناقة آية.. فكذبوا النذير فعقروا الناقة.

والذي عقر الناقة هو هذا الأشقىٰ. ولكنهم جميعاً حملوا التبعة، وعُدوا أنَّهم عقروها **﴿فعقروها﴾**.

والعقر: النحر. ودلَّ عقرهم للناقة، أي ضربهم لها بالسيف في قوائمها وقتلها على هذا النحو. دلَّ على فساد قلوبهم واستهتارهم.. والذين عقروها منهم هم الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون. ولقد حذَّرهم صالح وأنذرهم فلم يخشوا النذير.. والذي تولىٰ القيام بهذه الجريمة ذلك الشقي التعيس **﴿إذ انبعث أشقاها﴾**.. وعُدُّوا أنَّهم عقروها، لأنَّهم لم يضربوا على يده، بل استحسنوا فعلته. ومن ثمَّ كتب خطيئتها على الجميع، وكان الجميع مؤاخذين بهذا الإثم العظيم. وهذا مبدأ من مبادىء الإسلام

الرئيسية في التكافل في التبعة الاجتماعية في الحياة الدنيا. لا يتعارض مع التبعة الفردية في الجزاء الأخروي حيث لا تزر وازرة وزر أخرىٰ. على أنه من الوزر إهمال التناصح والتكافل والحض على البر والأخذ على يد البغي والشر.

ولقد ندم القوم على الفعلة، ولكن بعد فوات الأوان وتصديق النذير. . ﴿فعقروها فأصبحوا نادمين﴾ [الشعراء: ١٥٧]. . أمَّا الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون فقد عَلوا وعتوا وتحدوا واستهتروا بالنذير **﴿فعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم؛ وقالوا: يَا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنتَ من المرسلين﴾** [الأعراف: ٧٧]. .

إنَّ التبجح الذي يصاحب المعصية. ويعبر عن عصيانهم بقوله **﴿عتوا﴾** لإبراز سمة التبجح فيها، وليصور الشعور النفسي المصاحب لها. والذي يعبِّر عنه كذلك ذلك التحدي باستعجال العذاب والاستهتار بالنذير. .

ثمَّ يتابع السياق القرآني عجلة العذاب. فهو يعبر هنا بفاء التعقيب في كل الخطوات: **﴿فعقروها. فقال: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾**[1] [هود: ٦٥]. .

---

(١) يذكر الرواة أنَّ الله قد حقق هذا الإنذار الذي وجهه إليهم صالح ـ عليه السَّلام ـ، فلم تمض ثلاثة أيام حتى حَلَّ بهم الهلاك والدمار.

يقول ابن كثير: وأصبحت ثمود في اليوم الأول وهو يوم الخميس فإذا وجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح ـ عليه السَّلام ـ. فلمَّا أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضىٰ يوم الأجل. ثمَّ أصبحوا في اليوم الثَّاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة، فلمَّا أمسوا نادوا ألا قد مضىٰ يومان من الأجل ثمَّ أصبحوا في اليوم الثالث وهو يوم السبت ووجوههم مسودة، فلمَّا أمسوا نادوا: ألا قد مضىٰ الأجل.

فلمَّا كان صبيحة يوم الأحد تأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحلّ بهم من العذاب والنكال والنقمة. فلمَّا أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقت الحقائق، فأصبحوا في ديارهم جاثمين جثثاً لا أرواح فيها ولا حراك بها. وفي ذلك يقول الله

فهي آخر ما بقي لكم من متاع هذه الدنيا ومن أيام هذه الحياة: **﴿وذلك وعد غير مكذوب﴾** فهو وعد صادق لن يحيد..

﴿وفي ثمود إذ قيل لهم: تمتعوا حتّىٰ حين. فعتوا عن أمر ربهم، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين﴾ [الذّاريات: ٤٣ - ٤٥]..

والإشارة في قوله: **﴿إذ قيل لهم تمتعوا حتّىٰ حين﴾**.. قد تعني إمهالهم ثلاثة أيام بعد قتل الناقة.. وقد تعني ما قدر لهم من المتاع منذ الرسالة إلى أن قتلوا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، فحقَّ عليهم الهلاك.. **﴿فعقروها فأصبحوا نادمين. فأخذهم العذاب﴾**.. فالعذاب لم يتأخر.. فقد تحركت يد القدرة لتبطش البطشة الكبرىٰ: **﴿فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوَّاها﴾** [الشمس: ١٤]..

والدمدمة الغضب وما يتبعه من تنكيل. واللفظ ذاته.. **﴿دَمْدَم﴾** يوحي بما وراءه، ويصور معناه بجرسه، ويكاد يرسم مشهداً مروعاً مخيفاً! وقد سوّىٰ الله أرضهم عاليها بسافلها، وهو المشهد الذي يرتسم بعد الدمار العنيف الشديد..

﴿فكيف كان عذابي ونُذر﴾؟ [القمر: ٣٠] وهو سؤال التعجيب والتهويل.. **﴿إنَّا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾** [القمر: ٣١]..

ولا يفصل القرآن هذه الصيحة. وإن كانت في موضع آخر توصف بأنَّها صاعقة: **﴿فإن أعرضوا فقل: أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾** [فصِّلت: ١٣].. وقد تكون كلمة صاعقة وصفاً للصيحة. فهي صيحة

سبحانه: **﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنَّا دمَّرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إنَّ في ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتَّقون﴾**..

صاعقة وقد تكون تعبيراً عن حقيقتها. فتكون الصيحة والصاعقة شيئاً واحداً. وقد تكون الصيحة هي صوت الصاعقة. أو تكون الصاعقة أثراً من آثار الصيحة التي لا ندري من صاحيها.. ﴿**فإن أعرضوا فقل أنذرتكم مثل صاعقة عاد وثمود**﴾.. ﴿**وأمَّا ثمود فهديناهم فاستحبوا العمىٰ على الهدىٰ**﴾ [فصِّلت: ١٧]..

ويظهر أنَّ هذه إشارة إلى اهتدائهم بعد آية الناقة. ثمَّ ردتهم وكفرهم بعد ذلك: وإيثارهم العمىٰ على الهدىٰ. والضلال بعد الهدىٰ عمىٰ أشد العمىٰ!

وعلى أية حال فقد أرسلت على القوم صيحة واحدة، ففعلت بهم ما فعلت، ممَّا جعلهم ﴿**كهشيم المحتظر**﴾.. والمحتظر صانع الحظيرة، وهو يصنعها من أعواد جافة. فهم صاروا كالأعواد الجافة حين تيبس وتتحطم وتصبح هشيماً. أو أنَّ المحتظر يجمع لماشيته هشيماً تأكله من الأعواد الجافة والعشب الناشف. وقد صار القوم كهذا الهشيم بعد الصيحة الواحدة!

﴿**فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون**﴾ [فصِّلت: ١٧]..

والهوان أنسب عاقبة، فليس هو العذاب فحسب. وليس هو الهلاك فحسب، ولكنه كذلك الهوان جزاء على العمىٰ بعد الإيمان.

إنَّه الإنذار بهذا المصرع المخيف. ويتكشف لهم سلطان الله الذي لا ترده قوة ولا يعصم منه حصن، ولا يبقي على مستكبر مريد.. ﴿**فلمَّا جاء أمرنا نجَّينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذٍ..**﴾ [هود: ٦٦]..

وهكذا.. فلمَّا جاء موعد تحقيق الأمر - وهو الإنذار أو الإهلاك - نجَّينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا.. خاصة ومباشرة.. نجَّيناه من الموت ومن خزي ذلك اليوم، فقد كانت ميتة ثمود ميتة مخزية، وكان

مشهدهم جاثمين في دورهم بعد الصاعقة المدوية التي تركتهم موتىٰ على هيئتهم مشهداً مخزياً ﴿إنَّ ربَّك هو القوي العزيز﴾..

ولننظر كيف كان عاقبة التكذيب.. ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة. فأمَّا ثمود فأُهلكوا بالطاغية﴾ [الحاقَّة: ٤، ٥].. وقد وصف الصيحة دون لفظها.. ﴿بالطاغية﴾.. لأنَّ هذا الوصف يفيض بالهول.

وفي آية واحدة تطوي ثمود طياً، وتغمرهم غمراً، وتعصف بهم عصفاً. وتطغىٰ عليهم فلا تبقي لهم ظلًا!

لقد كانت وقعة ثمود خاطفة.. صيحة واحدة.. صاعقة.. طاغية.. ﴿فأخذتهم الرجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ [الأعراف: ٧٨]..

والرجفة والجثوم، جزاء مقابل للعتوّ والتنجح. فالرجفة يصاحبها الفزع، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك. وما أجدر العاتي أن يرتجف، وما أجدر المعتدي أن يعجز. جزاءً وفاقاً في المصير. وفي التعبير عن هذا المصير بالتصوير. ويدعهم السياق على هيئتهم.. ﴿جاثمين﴾.. ليرسم لنا مشهد صالح الذي كذبوه وتحدوه:

﴿فتولَّىٰ عنهم، وقال: يَـا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحتُ لكم، ولـكن لا تحبُّون الناصحين﴾ [الأعراف: ٧٩]..

إنَّه الإشهاد على أمانة التبليغ والنصح؛ والبراءة من المصير الذي جلبوه لأنفسهم بالعتوّ والتكذيب فصاروا ﴿كهشيم المحتظر﴾..

وهو مشهد مفجع مفزع. يُعرض رداً على التعالي والتكبر. فإذا المتعالون المتكبرون هشيم. وهشيم مهين. كهشيم المحتظر!

وهكذا تطوىٰ صفحة أُخرىٰ من صحائف المكذبين. ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين.. فلمَّا أكثروا في الأرض الفساد، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد ﴿فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب. إنَّ ربك لبالمرصاد﴾ [الفجر: ١٣، ١٤]. فربُّك راصد لهم ومسجل لأعمالهم. فلمَّا

أن كثر الفساد وزاد صبَّ عليهم سوط عذاب، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط، وبفيضه وغمره حين يذكر الصبّ. حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد.

ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمان وفي أي مكان. ومن قوله تعالىٰ: ﴿**إنَّ ربَّك لبالمرصاد**﴾ تفيض طمأنينة خاصة. فربُّك هناك راصد لا يفوته شيء. مراقب لا يندُّ عنه شيء، فليطمئن بال المؤمن، ولينم ملء جفونه. فإنَّ ربك هناك!.. بالمرصاد.. للطغيان والشر والفساد!

فهو ـ سبحانه ـ القادر القوي العزيز ﴿**إنَّ ربك هو القوي العزيز**﴾.. ﴿**فدمدم عليهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها**﴾.

﴿**ولا يخاف عقباها**﴾.. سبحانه وتعالىٰ.. ومن ذا يخاف؟ وماذا يخاف؟ وأنَّىٰ يخاف؟ إنَّما يراد من هذا التعبير لازمه المفهوم منه. فالذي لا يخاف عاقبة ما يفعل، يبلغ غاية البطش حين يبطش. وكذلك بطش الله كان: ﴿**إنَّ بطش ربك لشديد**﴾. فهو إيقاع يُراد إيحاؤه وظله في النفوس. فالله يأخذ العتاة أخذاً ولا يعز عليه أمر، ولا يهون من يتولاه ويرعاه.

تدبير وتدمير:

لقد طغىٰ قوم صالح ـ ثمود ـ وتكبَّروا وعَلوا ومكروا بنبيهم وبالمؤمنين، ودبروا للفساد والإفساد.

كذلك دبروا. وكذلك مكروا.. ولكن الله كان بالمرصاد يراهم ولا يرونه، ويعلم تدبيرهم ويطلع على مكرهم وهم لا يشعرون: ﴿**ومكروا مكراً، ومكرنا مكراً. وهم لا يشعرون**﴾ [النمل: ٥٠]..

وأي مكر من مكر؟ وأين تدبير من تدبير؟ وأين قوة من قوة؟

وكذا يخطىء الجبارون وينخدعون بما يملكون من قوة ومن حيلة، ويغفلون عن العين التي ترىٰ ولا تغفل، والقوة التي تملك الأمر كله وتباغتهم من حيث لا يشعرون:

﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم. أنَّا دمَّرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾ [النمل: ٥١، ٥٢].. ومن لمحة إلى لمحة إذا التدمير والهلاك، وإذا الدور الخاوية والبيوت الخالية. وقد كانوا يدبرون ويمكرون، ويحسبون أنَّهم قادرون على تحقيق ما يمكرون.

وهذه السرعة في عرض هذه الصفحة بعد هذه مقصودة في السياق. لتظهر المباغتة الحاسمة القاضية. مباغتة القدرة التي لا تُغلب للمخدوعين بقوتهم؛ ومباغتة التدبير الذي لا يخيب للماكرين المستعزين بمكرهم.

﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين، فأخذتهم الصيحة مصبحين، فما أغنىٰ عنهم ما كانوا يكسبون﴾ [الحجر: ٨٢، ٨٤]. وهذه اللمحة الخاطفة من الأمن في البيوت الحصينة في صلب الجبال، إلى الصيحة التي تأخذهم فلا تبقي لهم ممَّا جمعوا وممَّا كسبوا وممَّا بنوا وممَّا نحتوا شيئاً يغني عنهم ويدفع الهلاك الخاطف..

هذه اللمحة تلمس القلب البشري لمسة عنيفة. فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر ممَّا يأمن قوم بيوتهم منحوتة في صلب الصخور. وما يبلغ الاطمئنان بالناس في وقت أشد من اطمئنانهم في وقت الصباح المشرق الوديع.. وها هم أولاء قوم صالح تأخذهم الصيحة مصبحين وهم في ديارهم الحصينة آمنون. فإذ كل شيء ذاهب، وإذا كل وقاية ضائعة، وإذا كل حصين موهون.. فما شيء من هذا كله بواقيهم من الصيحة. وهي فرقعة ريح أو صاعقة، تلحقهم فتهلكهم في جوف الصخر المتين.

إنَّها سنة الله محققة في أخذ المكذبين عند انقضاء الأجل المعلوم.

وأمام هذا المشهد العنيف المخيف، يرد الله سبحانه القلوب إلى

القرآن ليتذكروا ويتدبروا. وهو ميسر للتذكر والتدبر: ﴿**ولقد يسَّرنا القرآن للذكر. فهل من مدَّكر؟**﴾ [القمر: ٣٢]..

ويسدل الستار على الهشيم المهين. وفي العين منه مشهد. وفي القلب منه أثر. والقرآن يدعو من يذكر ويتفكر: ﴿**إنَّ في ذلك لآية لقوم يعلمون**﴾ [النمل: ٥٢].

ثمَّ يجيء التعقيب: ﴿**إنَّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإنَّ ربك لهو العزيز الرحيم**﴾ [الشعراء: ١٥٨، ١٥٩]..

ثمَّ يعرض السياق مشهدهم. معجّباً منهم، ومن سرعة زوالهم:

﴿**كأن لم يغنوا فيها**﴾ [هود: ٦٨]..

كأن لم يقيموا ويتمتعوا.. وإنَّه لمشهد مؤثر، وإنَّها للمسة مثيرة، والمشهد معروض، وما بين الحياة والموت ـ بعد أن يكون ـ إلَّا لمحة كومضة العين، وإذا الحياة كلها شريط سريع. كأن لم يغنوا فيها..

ثمَّ الخاتمة التي يعلنها القرآن: تسجيل الذنب، وتشييع اللعنة، وانطواء الصفحة من الواقع ومن الذكرىٰ:

﴿**ألا إنَّ ثمود كفروا ربهم. ألا بُعداً لثمود!**﴾ [هود: ٦٨]..

ومرة أُخرىٰ نجدنا أمام حلقة من حلقات الرسالة على مدار التاريخ.. الدعوة هي الدعوة. وحقيقة الإسلام فيها هي حقيقته.. عبادة الله وحده بلا شريك، والدينونة لله وحده بلا منازع.. ومرة أُخرىٰ نجد الجاهلية التي تعقب الإسلام، ونجد الشرك الذي يعقب التوحيد ـ فثمود كعاد هم من ذراري المسلمين الذين نجوا في السفينة مع نوح ـ ولكنهم انحرفوا فصاروا إلى الجاهلية، حتى جاءهم صالح ليردهم إلى الإسلام من جديد.

ثمَّ نجد أنَّ القوم يواجهون الآية الخارقة التي طلبوها، لا بالإيمان والتصديق، ولكن بالجحود وعقر الناقة!

ولقد كان مشركو العرب يطلبون من رسول الله ﷺ خارقة كالخوارق

السابقة كي يؤمنوا. فها هم أُولاء قوم صالح قد جاءتهم الخارقة التي طلبوا. فما أغنت معهم شيئاً!

إنَّ الإيمان لا يحتاج إلى الخوارق. إنَّه دعوة بسيطة تتدبرها القلوب والعقول. ولكن الجاهلية هي التي تطمس على القلوب والعقول!!!

وكم لله سبحانه من آيات تملأ الآفاق، وتنطق بعظيم قدرته **﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمَّرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إنَّ في ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتَّقون﴾** [النمل: ٥٠ ـ ٥٣]..

إنَّها جولة في مصارع الغابرين.. جولة تهزّ القلوب المستكبرة برؤية مصارع المستكبرين **﴿.. فقل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود[1]. إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألاَّ تعبدوا إلاَّ الله..﴾** [فصِّلت: ١٣ ـ ١٤]..

وقد مَرَّ النَّبيّ ﷺ بدور ثمود المدمَّرة مع صحابته في غزوة تبوك، فقد قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: مررنا مع رسول الله ﷺ بالحِجْر، فقال لنا رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلاَّ أن تكونوا

---

(١) انظر قصة هذا الإنذار في تفسير ابن كثير (س رة فصِّلت، الآية: ١٣)، وتفسير القرطبي وفي ظلال القرآن ٥/٣١١٦ وبقية كتب التفسير.
وقد روى البغوي في تفسيره حديثاً بسنده عن محمَّد بن فضيل بن الأجلح ـ وهو ابن عبد الله الكندي الكوفي (قال ابن كثير: وقد ضعف بعض الشيء) عن الذيال بن حرملة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه حين سمع عتبة بن ربيعة سورة فصِّلت من رسول الله ﷺ حين تلاها عليه النَّبيّ إلى قوله: **﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾** فأمسك عتبة على فيه. وناشده الرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، واحتبس عنهم... إلخ...

باكين، حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، ثمَّ رحل فأسرع حتى خَلَّفها»[1].

قال الإمام الخطابي فيما نقله عنه الإمام البغوي في «شرح السنة»[2]: «معناه أنَّ الداخل في دار قوم أُهلكوا بخسف وعذاب إذا لم يكن باكياً، إمَّا شفقة عليهم، وإمَّا خوفاً من حلول مثلها به، كان قاسي القلب، قليل الخشوع، فلا يأمن إذا كان هكذا أن يصيبه ما أصابهم».

إنَّ بأس الله لشديد.. ﴿**أفأمنوا مكر الله؟ فلا يأمن مكر الله إلاَّ القوم الخاسرون**﴾ [الأعراف: ٩٩]..

إنَّ القرآن الكريم ليلمس الوجدان الإنساني بقوة، ويثير حذره وانتباهه.. ﴿**أفأمنوا مكر الله؟**﴾ وتدبيره الخفي المغيب على البشر. ليتَّقوه ويحذروه، قبل أن تفجأهم غارة الله التي لا تملك لها البشرية دافع أو مانع. فالعذاب واقع حتماً، لا يملك دفعه أحد أبداً، وأمر الله ـ سبحانه ـ حاسم قاطع، داهم قاصم، ليس منه واق ولا عاصم، فالموقف جدّ، والحساب يقترب، والمعرضون عن آيات الله في غفلة عن الهدىٰ، لاهية قلوبهم، يغدون في حياة عاطلة هينة رخيصة!

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٠) (٣٩)، والبخاري (٣٣٨٠) (٣٣٨١) (٤٤١٩)، وأحمد ٩٦/٢، وابن حبان [انظر الإحسان ٦١٩٩].
وفي رواية: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذَّبين إلاَّ أن تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم» [انظر الإحسان رقم ٦٢٠٠]..
وعن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ نزل عام تبوك بالحِجْر عند بيوت ثمود، فاستقىٰ الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فنصبوا القدور، وعجنوا الدقيق، فقال رسول الله ﷺ: «اكفؤوا القدور، واعلفوا العجين الإبلَ». ثمَّ ارتحل، حتى نزل في الموضع الذي كانت تشرب منه الناقة، وقال: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم الذين عُذِّبوا، فيصيبكم مثلُ ما أصابهم». [أخرجه أحمد ١١٧/٢، وذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ١٠/٥، من رواية أحمد، وصححه على شرط الشيخين، وابن حبان. انظر الإحسان رقم ٦٢٠٣]..
(٢) شرح السنة ٣٦٢/١٤.

فهرس الموضوعات

(قصة نوح - عليه السلام)

(قصة هود - عليه السلام)

(قصة صالح - عليه السلام)

قصص الرحمن في ظلال القرآن

أحمد فايز الحمصي

مؤسسة الرسالة

قَصَصُ الرَّحْمٰنِ

فِي

ظِلَالِ القُرْآنِ

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع
مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٢٤٣ ٦٠٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقيا: بيوشران

قصص الرحمن في ظلال القرآن

أحمد فائز الحمصي

الجزء الثاني

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

قصــة ابراهيــم عليــه السلام وبنيِه

- القسم الأول: إبراهيم عليه السلام
- القسم الثاني: قصة لوط عليه السلام
- القسم الثالث: قصة إسماعيل عليه السلام
- القسم الرابع: قصة يوسف عليه السلام
- القسم الخامس: قصة شُعيب عليه السلام

قصة إبراهيم عليه السلام

المحتوى	ص
الحلقة الأولى	٩
تقديم	
- الرحلة الشائقة في فطرة إبراهيم الصادقة	١٥
- برّ وودّ ورحمة	٢٣
- مَثَل وَتَجربة	٣٠
- تجربة وعَقيدة وتربية	٣٥
- آية للناس	٤١
- الشوق الروحي	٤٦
- دعوة إبراهيم إلى العقيدة المستقيمة الناصعة	٥٠
- عَزْم وحسم	٥٨
- المحاكمة والكيد الضعيف	٦٤
الحلقة الثانية	٧١
- الهجرة إلى الله	٧١
- حقيقة الإيمان، وجمال الطاعة، وعظمة التسليم	٧٥
- بشرى ورحمة واطمئنان	٨٢
- المقام العظيم وإمام الصراط المستقيم	٩٢
- حجج واهية ودعاوى ساقطة	١٠٥

إبراهيم عليه السَّلام

الحلقة الأُولىٰ:

ذكر القرآن قصة إبراهيم في سور متعددة.. وهي درس بطوله لحمة واحدة، يتناول موضوعاً متصل الفقرات.. إنَّه يعالج الموضوع الأساسي في القرآن ـ وهو بناء العقيدة على قاعدة من التعريف الشامل بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، وما بينهما من ارتباطات ـ. يعالجه في أسلوب القصص والتعقيب عليه.

وقصة إبراهيم لا تُعرض من أولها منذ الحلقة الأُولىٰ، حلقة ميلاد إبراهيم؛ ولكن تُعرض منها حلقات شتّىٰ: حلقة إيمانه، ومحاورته لأبيه وقومه، وتحطيم الأصنام، واعتزاله أباه وقومه. وهبة إسماعيل وإسحاق له، ورؤياه أنَّه يذبح ابنه وافتداؤه. وبناء الكعبة، والتأذين في الناس للحج. وطلبه من ربه برهاناً على إحياء الموتىٰ، لا ليؤمن فقد آمن، ولكن ليطمئن قلبه، حيث أمره الله أن يأخذ أربعة من الطير، فيضمهنَّ إليه، ثمَّ يجعل على كل جبل منهنَّ جزءاً، ثمَّ يدعوهنَّ فيأتين إليه سعياً.. إلخ.

وفي هذه القصة تحقيق لأغراض دينية تناولتها في عرض شيق ورائع منها: إثبات الوحي والرسالة، وإثبات وحدانية الله، وتوحد الأديان في ملة إبراهيم ملة التوحيد، ومظاهر القدرة الإلـٰهية، والشكر، وبيان أنَّ الله ينصر أنبياءه ورسله في النهاية.. كما تتجلّىٰ في القصة الرحمة التي يبديها القرآن

في بيان نعمة الله على إبراهيم وآل بيته ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنَّه حميد مجيد﴾ [هود: ٧٣]. .

وفي القصة تأكيد على قدرة الله على الخوارق ومشيئته الطليقة. . ﴿يَا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٩]. . ثمَّ مشهد الطير الذي آب إلى إبراهيم بعد أن جعل على كل جبل منه جزءاً. .

إلى آخر الأغراض الدينية، التي سيقت القصة العظيمة لتفي بمغزاها. وقد عرضت بالقدر الذي يكفي لأداء هذه الأغراض، ومن الحلقة التي تتفق لأداء الغرض والعبرة. . وأخذت القصة مكانها في سلسلة القصص القرآني. . .

وقد وردت حلقات من قصة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ في البقرة، والأنعام، وهود، وإبراهيم، والحجر، ومريم، والأنبياء، والحج. . وكانت في كل سورة مناسبة لسياقها العام. وعرض منها ما يتفق مع موضوع السورة وجوّها وظلها.

عرضت في سورة البقرة حلقة بنائه للبيت هو وإسماعيل، ودعائه أن يجعل الله البلد الحرام آمناً، وإعلانه أنَّ وراثة البيت ووراثة بانيه إنَّما هي للمسلمين، الذين يتبعون ملته، لا لمن يدَّعون بالنسب وراثته. وكان هذا بصدد مخالفات بني إسرائيل، وطردهم ولعنهم، وتوريث دين إبراهيم وبيته للمسلمين. .

وعرضت كذلك حلقة محاجته للملك الكافر في صفة الله الذي يحيي ويميت، والذي يأتي بالشمس من المشرق، وتحدِّيه للملك أن يأتي بها من المغرب. فبهت الذي كفر.

كما عرضت حلقة طلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتىٰ، وأمره بذبح أربعة من الطير، وتوزيع أشلائهنَّ على الجبال، ثمَّ إحياؤها بين يديه، فجاءت تسعىٰ إليه.

وهذا وذلك في معرض الحديث في السورة، عن آيات الله وقدرته على الإماتة والإحياء.

وعرضت في الأنعام حلقة بحثه عن ربه، واهتدائه إليه، بعد تأمل في النجوم والقمر والشمس، وتتبع مشاهد الكون. وكان ذلك في السورة التي تدور حول العقيدة، وآيات الله في الكون، ودلالتها على الصانع المبدع الذي لا شريك له.

وعرضت في سورة هود حلقة تبشيره بإسحاق، وكان ذلك في سياق قصة لوط، ومرور الملائكة المكلفين تدمير قريته في طريقهم بإبراهيم. وفيها تبدو رعاية الله للمختارين من عباده وتدمير الفاسقين.

وعرضت في سورة إبراهيم حلقة دعائه بجوار البيت المحرم لمن أسكنه من ذريته بواد غير زرع؛ وحمده على أن وهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق؛ وطلبه إلى ربه أن يجعله مقيم الصلاة هو وذريته، وأن يقبل دعاءه، ويغفر له ولوالديه يوم يقوم الحساب..

وكان سياق السورة كله هو عرض أُمَّة الرسل، برسالة واحدة، هي التوحيد؛ وعرض المكذبين بأُمَّة الرسل صفاً واحداً كذلك؛ وكأنّما الرسالة شجرة ظليلة في هجير الكفر وصحراء الجحود!

وعرضت في سورة الحجر الحلقة التي عرضت في سورة هود مع شيء من التفصيل، في ذكر رحمة الله بعباده المؤمنين، وعذابه للعُصاة المذنبين.

وعرضت في سورة مريم حلقة دعوته في رفق لأبيه، وغلظة أبيه عليه، واعتزاله لأبيه وقومه، وهبة إسماعيل وإسحاق له. وذلك في السورة التي تعرض رعاية الله للمصطفين من عباده. وجوّها كله تظلله الرحمة والود واللين.

وعرضت في سورة الأنبياء حلقة دعوته لأبيه وقومه، وزرايته على

أصنامهم. وتحطيم هذه الأصنام، وإلقائه في النار التي كانت برداً وسلاماً عليه بأمر الله، ونجاته هو وابن أخيه لوط إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين. وذلك في صدد استعراض أُمَّة الرسل، ورعاية الله لهذه الأُمَّة واتجاهها إلى عبادة الله الواحد الذي ليس له شريك.

ووردت في سورة الحج إشارة إلى أمر بتطهير البيت للطائفين والعاكفين..

وفي سورة الصافَّات تجيء قصة إبراهيم بعد قصة نوح: **﴿وإنَّ من شيعته لإبراهيم..﴾**..

هذا هو افتتاح القصة، والمشهد الأول فيها. . نقلة من نوح إلى إبراهيم.. وبينهما صلة العقيدة والدعوة والطريق. فهو من شيعة نوح على تباعد الزمان بين الرسولين والرسالتين؛ ولكنَّه المنهج الإلـهي الواحد، الذي يلتقيان عنده ويرتبطان به ويشتركان فيه.. **﴿وإنَّ من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربّه بقلب سليم﴾** [الصافَّات: ٨٣، ٨٤]..

ويبرز السياق القرآني من صفة إبراهيم سلامة القلب وصحة العقيدة وخلوص الضمير.. **﴿إذ جاء ربه بقلب سليم﴾**..

وهي صورة الاستسلام الخالص تتمثل في مجيئه لربه. وصورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة تتمثل في سلامة قلبه. والتعبير بالسلامة تعبير موحٍ مصور لمدلوله، وهو في الوقت ذاته بسيط قريب المعنىٰ واضح المفهوم. ومع أنَّه يتضمن صفات كثيرة من البراءة والنقاوة، والإخلاص والاستقامة.. إلاَّ أنَّه يبدو بسيطاً غير معقد، ويؤدي معناه بأوسع ما تؤديه هذه الصفات كلها مجتمعات! وتلك إحدىٰ بدائع التعبير القرآني الفريد!

وبسلامة القلب كان دعاء إبراهيم أن يلقىٰ الله في اليوم الرهيب العظيم: **﴿ولا تُخزني يوم يبعثون، يوم لا يَنفع مال ولا بنون، إلاَّ من أتىٰ الله بقلب سليم﴾** [الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩]..

وُلِدَ إبراهيم وترعرع في بابل في دولة لها حضارة واسعة، ارتقت معرفتها حتى تعرفت على شيء من علم النجوم والكواكب. وكان أهل بابل في عيش رغيد ونعيم مقيم، وفي رفاهية وترف، لكن عقائدهم قد زاغت فكان يشوبها الجهل والانحراف، وقد ورثوا عن آبائهم الخرافة والوثنية والكفر والفساد، فقدسوا الأصنام وجعلوها أرباباً يعبدونها من دون الله . .

في وسط هذه البيئة المترفة الفاسدة نشأ إبراهيم، لكنه ظلَّ على فطرته الطاهرة النقية، وجبلته النبيلة. فلم تدنس عقيدته شوائب الشرك، ولم يختلط فكره السليم بشيء من الباطل الذي يغوص فيه قومه . .

﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزَرَ: أتَّتخذ أصناماً آلهةً؟ إنِّي أراكَ وقومك في ضلال مبين﴾ [الأنعام: ٧٤] . .

إنَّها الفطرة تنطق على لسان إبراهيم. إنَّه لم يهتد بعد بوعيه وإدراكه ـ إلى إلـهه ـ ولكن فطرته السليمة تُنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها قومه آلهة ـ وقوم إبراهيم من الكلدانيين بالعراق كانوا يعبدون الأصنام كما كانوا يعبدون الكواكب والنجوم ـ فالإلـه الذي يُعبد، والذي يتوجه إليه العباد في السراء والضراء، والذي خلق الناس والأحياء . .

هذا الإلـه في فطرة إبراهيم لا يمكن أن يكون صنماً من حجر، أو وثناً من خشب. . وإذا لم تكن هـذه الأصنام هي التي تخلق وترزق وتسمع وتستجيب ـ وهذا ظاهر من حالها للعيان ـ فما هي بالتي تستحق أن تعبد؛ وما هي بالتي تتخذ آلهة حتى على سبيل أن تتخذ واسطة بين الإلـه الحق والعباد!

وإذن فهو الضلال البين تحسه فطرة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ للوهلة الأُولىٰ. وهي النموذج الكامل للفطرة التي فطر الله الناس عليها. . ثمَّ هي النموذج الكامل للفطرة وهي تواجه الضلال البين، فتنكره وتستنكره، وتجهر بكلمة الحق وتصدع، حينما يكون الأمر هو أمر العقيدة: **﴿أتتَّخذ أصناماً**

آلهة؟ إنِّي أراك وقومك في ضلال مبين﴾ . .

كلمة يقولها إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لأبيه. وهو الأوَّاه الحليم الرضي الخلق السمح اللين، كما ترِد أوصافه في القرآن الكريم. ولكنها العقيدة هنا. والعقيدة فوق روابط الأبوة والبنوة، وفوق مشاعر الحلم والسماحة. وإبراهيم هو القدوة التي أمر الله المسلمين من بنيه أن يتأسوا بها. والقصة تُعرض لتكون أسوة ومثالاً . .

ثمَّ آتاه الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ الرشد، وهداه إلى الحق، فعرف أنَّ للكون رباً واحداً هو المهيمن عليه، وهو القاهر فوق عباده. . **﴿ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَه من قبل، وكُنَّا به عالمين﴾** [الأنبياء: ٥١]. .

تبدأ قصة إبراهيم فتىً قد أنار الله قلبه بالحق فأشرقت روحه بالحقيقة وأضاءت فطرته بالبيِّنة الواضحة. . ها هو ذا الفتىٰ يُقلِّب وجهه في الكون في سكون الليل، وقد ارتسمت لعينيه لوحة الخالق المبدع في السماء الطويلة العريضة. . كان إبراهيم يتملّىٰ هذا الوجود المشهود. . يتملّىٰ هذا الكتاب الإلـٰهي المنظور. . يسأل نفسه كيف يعيش الناس في المستنقع الجاهلي الآسن من تعفن في العقيدة، ومن سخف في التصور وهم يعبدون أصنام لا تضرّ ولا تنفع. . كان ينظر إليهم من عُلو الحقيقة إلى جاهليتهم الفاسدة التي تموج حياتهم فيها.

لقد كان الفتى يعجب من عقائد قومه الهزيلة. . يعجب في أعماق كيانه. . ما بال الناس؟ ما بالهم يرتكسون في الحمأة الوبيئة من الجاهلية المنتكسة؟!

لقد عاش الفتىٰ إبراهيم بقلب سليم ونور وضيء، يتحسس هذا الكون. . ينظر إلى آثار هذا الخالق المبدع. . ينظر بعين الحق إلى الحق فإذا هو هادىء النفس، مطمئن السريرة، قرير العين. . لقد رأىٰ يد الله في كل أمر في هذا الوجود، فعاش في كنف الله ورعايته، وعرف أنَّ الله هو

الحق المبين وأنَّ ما دونه هو الباطل والضلال والضياع. .

نظر إلى الكون بفطرته الناصعة الطاهرة فرأىٰ قدرة الله في كل شيء حياة نابضة خافقة، تنطوي على ذلك السرّ الإلـٰهي المعجز. . رأىٰ دلالة اليقين كامنة في كل ذرة في هذا الوجود، فهي تنطق وتُسَبِّح بحمد خالقها العظيم. . وأمام هذا التصور الشامل لرؤية الفتىٰ، فقد اهتزت في كيانه جميع الصور الواهنة والانطباعات الهامدة لعقيدة قومه الضالين المنحرفين، فهم في جاهليتهم يفرقون وفي غيِّهم وسدرهم يعمهون، وقد انطمست فطرتهم وعميت قلوبهم عن رؤية الحقيقة الصارخة في هذا الوجود. .

وبدأت رحلة إبراهيم في دعوة قومه يَطرق قلوبهم بطرقات متوالية. طَرقات عنيفة قوية عالية. وهزّات. . هزات لفطرتهم الفارقة في انحراف عميق! وفساد ثقيل! كانوا سكارىٰ مخمورين ثقل حسهم الترف، فهم في سامر الحياة راقصين في ضجة وتصدية ومكاء!

ومع الطَرقات على القلوب، كانت البينات القوية تهزُّ المخمورين السادرين هزّاً عنيفاً. . وهم ما يكادون يفتحون أعينهم وينظرون إلى الحقيقة. . حتى يعودوا إلى الانحراف والفساد في إصرار وعناد. .

الرحلة الشائقة في فطرة إبراهيم الصادقة :

وقد استحقَّ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ بسلامة قلبه، وصفاء فطرته، وخلوصها للحق أن يكشف الله لبصيرته عن الأسرار الكامنة في الكون، والدلائل الموحية بالهدىٰ في الوجود:

﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السَّماوات والأرض، وليكون من الموقنين﴾ [الأنعام: ٧٥]. .

بمثل هذه الفطرة السليمة، وهذه البصيرة المفتوحة؛ وعلى هذا النحو من الخلوص للحق، ومن إنكار الباطل في قوة. . نُري إبراهيم حقيقة هذا

الملك.. ملك السَّماوات والأرض.. ونطلعه على الأسرار المكنـونة في صميم الكون، ونكشف له عن الآيات المبثوثة في صحائف الوجود، ونصل بين قلبه وفطرته وموحيات الإيمان ودلائل الهدىٰ في هذا الكون العجيب. لينتقل من درجة الإنكار على عبادة الآلهة الزائفة، إلى درجة اليقين الواعي بالإلـه الحق..

وهذا هو طريق الفطرة البديهي العميق.. وعي لا يطمسه الركـام. وبصر يلحظ ما في الكون من عجائب صنع الله. وتدبر يتبع المشاهد حتى تنطق له بسرّها المكنون.. وهداية من الله جزاء على الجهاد فيه..

وكذلك سار إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وفي هـذا الطريق وجـد الله.. وجده في إدراكه ووعيه، بعد أن كان يجده فحسب في فطرته وضميره.. ووجد حقيقة الألوهية في الوعي والإدراك مطابقة لما استكنَّ منها في الفطرة والضمير.

فلنتابع الرحلة الشائقة مع فطرة إبراهيم الصادقة.. إنَّها رحلة هائلة وإن كانت تبدو هينة ميسرة! رحلة من نقطة الإيمان الفطري إلى نقطة الإيمان الواعي! الإيمان الذي يقوم عليه التكليف بالفرائض والشرائـع؛ والذي لا يكل الله ـ سبحانه ـ جمهرة الناس فيه إلى عقولهم وحدها، فيبينه لهم في رسالات الرسل، ويجعل الرسالة ـ لا الفطرة ولا العقل البشري ـ هي حجته عليهم، وهي مناط الحساب والجزاء، عدلاً منـه ورحمة، وخبـرة بحقيقة الإنسان وعلماً..

فـأمَّا إبـراهيم ـ عليه السَّـلام ـ فهو إبـراهيم! خليل الـرَّحمـٰن وأبـو المسلمين..

﴿فلمَّا جنَّ عليه الليل رأىٰ كوكباً. قال: هـٰذا ربِّي، فلمَّا أفل قال: لا أحبُّ الآفلين﴾ [الأنعام: ٧٦]..

إنَّها صورة لنفس إبراهيم، وقد ساورها الشك ـ بل الإنكار الجازم ـ لما يعبده أبوه وقومه من الأصنام.

وقد باتت قضية العقيدة هي تشغل باله، وتزحم عالمه.. صورة يزيدها التعبير شخوصاً بقوله: ﴿فلمَّا جنَّ عليه الليل﴾.. كأنَّما الليل يحتويه وحده، وكأنَّما يعزله عن الناس حوله، ليعيش مع نفسه وخواطره وتأملاته، ومع همّه الجديد الذي يشغل باله ويزحم خاطره: **﴿فلمَّا جنَّ عليه الليل رأىٰ كوكباً، قال: هـٰذا ربِّي﴾**..

وكان قومه يعبدون الكواكب والنجوم ـ كما أسلفنا ـ فلمَّا أن يئس من أن يكون إلـٰهه الحق ـ الذي يجده في فطرته في صورة غير مدركة ولا واعية ـ صنماً من تلك الأصنام، فلعلَّه رجا أن يجده في شيء ممَّا يتوجه إليه قومه بالعبادة!

وما كانت هذه أول مرة يعرف فيها إبراهيم أنَّ قومه يتجهون بالعبادة إلى الكواكب والنجوم. وما كانت هذه أول مرة يرىٰ فيها إبراهيم كوكباً.. ولكن الكوكب ـ الليلة ـ ينطق له بما لم ينطق من قبل، ويوحي إلى خاطره بما يتفق مع الهم الذي يشغل باله، ويزحم عليه عالمه:

﴿قال: هـٰذا ربِّي﴾.. فهو بنوره وارتفاعه أقرب ـ من الأصنام ـ إلى أن يكون ربّاً!.. ولكن لا! إنَّه يكذب ظنه:

﴿فلمَّا أفل قال: لا أُحبُّ الآفلين﴾..

إنَّه يغيب.. يغيب عن هذه الخلائق. فمن ذا يرعاها إذن ومن ذا يدبر أمرها.. إذا كان الرب يغيب؟! لا، إنَّه ليس رباً، فالرب لا يغيب! إنَّه منطق الفطرة البديهي القريب.. لا يستثير القضايا المنطقية والفروض الجدلية، إنَّما ينطلق مباشرة في يسر وجزم. لأنَّ الكينونة البشرية كلها تنطق به في يقين عميق..

﴿لا أُحبُّ الآفلين﴾..

فالصلة بين الفطرة وإلـٰهها هي صلة الحب، والآصرة هي آصرة

القلب.. وفطرة إبراهيم «لا تحب» الآفلين، ولا تـتخذ منهم إلـهاً. إنَّ الإلـه الذي تحبه الفطرة.. لا يغيب..!

﴿فلمَّا رأىٰ القمر بازغاً قال: هـٰذا ربِّي. فلمَّا أفل قال: لئن لم يهدني ربِّي لأكوننَّ من القوم الضالِّين﴾ [الأنعام: ٧٧]..

إنَّ التجربة تـتكرر. وكأنَّ إبراهيم لم ير القمر قط؛ ولم يعرف أنَّ أهله وقومه يعبدونه! فهو الليلة في نظره جديد:

﴿قال: هـٰذا ربِّي﴾..

بنوره الذي ينسكب في الوجود؛ وتفرده في السماء بنوره الحبيب.. ولكنه يغيب!.. والرب ـ كما يعرفه إبراهيم بفطرته وقلبه ـ لا يغيب! هنا يحسّ إبراهيم أنَّه في حاجة إلى العون من ربه الحق الذي يجده في ضميره وفطرته. ربه الذي يحبه، ولكنه بعد لم يجده في إدراكه ووعيه.. ويحس أنَّه ضال مضيع إن لم يدركه ربه بهدايته. إن لم يمد إليه يده. ويكشف له عن طريقه:

﴿قال: لئن لم يهدني ربِّي لأكوننَّ من القوم الضالِّين﴾..

﴿فلمَّا رأىٰ الشمس بازغةً قال: هـٰذا ربِّي. هـٰذا أكبر. فلمَّا أفلت قال: يَـا قوم إنِّي بريءٌ ممَّا تشركون..﴾ [الأنعام: ٧٨]..

إنَّهـا التجربـة الثَّالثـة مع أضخم الأجـرام المنظورة وأشـدها ضـوءاً وحرارة.. الشمس.. والشمس تطلع كل يوم وتغيب. ولكنها اليوم تبـدو لعيني إبراهيم كأنَّها خلق جديد. إنَّه اليوم يرىٰ الأشياء بكيانه المتطلع إلى إلـه يطمئن به ويطمئن إليه، ويستقر على قرار ثـابت بعد الحيـرة المقلقة والجهد الطويل: **﴿قال: هـٰذا ربِّي. هـٰذا أكبر﴾**..

ولكنَّها كذلك تغيب..

هنا يقع التماس، وتنطلق الشرارة، ويتم الاتصال بين الفطرة الصادقة والله الحق، ويغمر النور القلب ويفيض على الكون الظاهـر وعلى العقل

والوعي.. هنا يجد إبراهيم إلـهه.. يجده في وعيه وإدراكه كما هو في فطرته وضميره.. هنا يقع التطابق بين الإحساس الفطري المكنون والتصور العقلي الواضح..

وهنا يجد إبراهيم إلـهه. ولكنه لا يجده في كوكب يلمع، ولا في قمر يطلع، ولا في شمس تسطع.. ولا يجده فيما تبصر العين، ولا فيما يحسه الحس.. إنه يجده في قلبه وفطرته، وفي عقله ووعيه، وفي الوجود كله من حوله.. إنّه يجده خالقاً لكل ما تراه العين، ويحسه الحس، وتدركه العقول.

وعندئذٍ يجد في نفسه المفاصلة الكاملة بينه وبين قومه في كل ما يعبدون من آلهة زائفة؛ ويبرأ في حسم لا مواربة فيه من وجهتهم ومنهجهم وما هم عليه من الشرك ـ وهم لم يكونوا يجحدون الله البتّة، ولكنهم كانوا يشركون هذه الأرباب الزائفة ـ وإبراهيم يتجه إلى الله وحده بلا شريك:

﴿قال: يَا قوم إنِّي بريءٌ ممَّا تشركون. إنِّي وجهت وجهي للذي فطر السَّماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩]..

فهو الاتجاه إلى فاطر السَّماوات والأرض. الاتجاه الحنيف الذي لا ينحرف إلى الشرك. وهي الكلمة الفاصلة، واليقين الجازم، والاتجاه الأخير.. فلا تردد بعد ذلك ولا حيرة فيما تجلّىٰ للعقل من تصور مطابق للحقيقة التي في الضمير..

ومرة أُخرىٰ نشهد ذلك المشهد الرائع الباهر.. مشهد العقيدة وقد استعلنت في النفس، واستولت على القلب، بعدما وضحت وضوحها الكامل وانجلىٰ عنها الغبش.. نشهدها وقد ملأت الكيان الإنساني، فلم يعد وراءها شيء. وقد سكبت فيه الطمأنينة الواثقة بربه الذي وجده في قلبه وعقله وفي الوجود من حوله.. وهو مشهد يتجلّىٰ بكل روعته وبهائه في الآيات التالية في السياق القرآني.

لقد انتهىٰ إبراهيم إلى رؤيـة الله ـ سبحانـه ـ في ضميره وعقله وفي الوجود من حوله. وقد اطمأنَّ قلبه واستراح باله. وقد أحسَّ بيد الله تأخذ بيده وتقود خطاه في الطريق..

والآن يجيء قومه ليجادلوه فيما انتهىٰ إليه من يقين؛ وفيما انشرح له صدره من توحيد؛ وليخوفوه آلهتهم التي تنكَّر لها أن تنزل به سوءاً.. وهو يواجههم في يقينه الجازم؛ وفي إيمانه الراسخ، وفي رؤيته الباطنة والظاهرة لـربه الحق الـذي هداه: **﴿وحـاجه قـومه، قـال: أتحاجُّـونِّي في الله وقد هدان؟..﴾** [الأنعام: ٨٠]..

إنَّ الفطرة حين تنحرف تضـل؛ ثمَّ تـتمادىٰ في ضـلالها، وتـتسـع الزاوية ويبعد الخط عن نقطة الابتـداء، حتى ليصعب عليها أن تثـوب.. وهؤلاء قوم إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ يعبدون أصناماً وكواكب ونجـوماً. فـلا يتفكرون ولا يتدبرون هذه الرحلة الهائلة التي تمَّت في نفس إبراهيم. ولم يكن هذا داعياً لهم لمجرد التفكر والتدبر. بل جاءوا يجادلونه ويحاجُّونه. وهم على هذا الوهن الظاهر في تصوراتهم وفي ضلال مبين.

ولكن إبراهيم المؤمن الذي وجد الله في قلبه وعقله وفي الوجود كله من حوله، يواجههم مستنكراً في طمأنينة ويقين: **﴿قال: أتحاجُّوني في الله وقد هدان؟﴾**..

أتجادلونني في الله وقد وجدته يأخذ بيدي، ويفتح بصيرتي، ويهديني إليه، ويعرفني به.. لقد أخذ بيدي وقادني فهو موجود ـ وهذا هو في نفسي دليل الوجود ـ لقد رأيته في ضميري وفي وعيي، كما رأيته في الكون من حولي. فما جدالكم في أمر أنا أجده في نفسي ولا أطلب عليه الدليـل. فهدايته لي إليه هي الدليل؟!

﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾..

وكيف يخاف ومن وجد الله؟ وماذا يخاف ومن ذا يخاف؟ وكل قوة ـ

غير قوة الله ـ هزيلة وكل سلطان ـ غير سلطان الله ـ لا يُخاف؟!

ولكن إبراهيم في عمق إيمانه، واستسلام وجدانه، لا يريد أن يجزم بشيء إلاَّ مرتكناً إلى مشيئة الله الطليقة، وإلى علم الله الشامل: **﴿إلاَّ أن يشاء ربِّي شيئاً. وسع ربِّي كل شيء علماً﴾.. ﴿أفلا تتذكَّرون﴾** [الأنعام: ٨٠]..

فهو يكل إلى مشيئة الله حمايته ورعايته؛ ويعلن أنَّه لا يخاف من آلهتهم شيئاً، لأنَّه يركن إلى حماية الله ورعايته. ويعلم أنَّه لا يصيبه إلاَّ ما شاءه الله، ووسعه علمه الذي يسع كل شيء..

﴿وكيف أخاف ما أشركتم، ولا تخافون أنَّكم أشركتم بالله ما لم ينزِّل به عليكم سلطاناً؟ فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون؟﴾ [الأنعام: ٨١]..

إنَّه منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود. إنَّه إن كان أحد قميناً بالخوف فليس هو إبراهيم ـ وليس هو المؤمن الذي يضع يده في يد الله ويمضي في الطريق ـ وكيف يخاف آلهة عاجزة ـ كائنة ما كانت هذه الآلهة، والتي تتبدىٰ أحياناً في صورة جبارين في الأرض بطاشين؛ وهم أمام قدرة الله مهزولون مضعوفون! ـ كيف يخاف إبراهيم هذه الآلهة الزائفة العاجزة، ولا يخافون هم أنَّهم أشركوا بالله ما لم يجعل له سلطاناً ولا قوة من الأشياء والأحياء؟

وأي الفريقين أحق بالأمن؟ الذي يؤمن به ويكفر بالشركاء؟ أم الذي يشرك بالله ما لا سلطان له ولا قوة؟ أي الفريقين أحق بالأمن، لو كان لهم شيء من العلم والفهم؟!

هنا ينزل الجواب من الملأ الأعلىٰ؛ ويقضي الله بحكمه في هذه القضية:

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، أُولـئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ [الأنعام: ٨٢]..

الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله، لا يخلطون بهذا الإيمان شركاً في عبادة ولا طاعة ولا اتجاه. هؤلاء لهم الأمن، وهؤلاء هم المهتدون. .

﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إنَّ ربك حكيم عليم﴾ [الأنعام: ٨٣]. .

ولقد كانت هـذه هي الحجة التي ألهمهـا الله إبراهيم ليـدحض بها حجتهم التي جاءوا بها يجادلونه. ولقد كشف لهم عن وهن ما هم عليه من تصـورهم أنَّ هذه الآلهـة تملك أن تسيء إليه. . وواضـح أنَّهم ما كـانوا يجحدون وجود الله؛ ولا أنَّه هو صاحب القوة والسلطان في الكون، ولكنهم كانوا يشركون به هذه الآلهة. فلمَّا واجههم إبراهيم، بأن من كان يخلص نفسه لله لا يخاف من دونه، فأمَّا من يشرك بالله فهو أحق بالمخافة. . لما واجههم بهذه الحجة التي آتاها له وألهمه إيَّاها، سقطت حجتهم، وعلت حجته، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة. . وهكذا يرفع الله من يشاء درجات. متصرفاً في هذا بحكمته وعلمه: **﴿إنَّ ربَّك حكيم عليم﴾**. .

إنَّـه مشهد رائـع بـاهـر هـذا الـذي يـرسمـه القـرآن عن إبـراهيم ـ عليه السَّـلام ـ. . مشهـد الفطرة ـ وهي ـ للوهلة الأولىٰ ـ تنكـر تصـورات الجاهلية في الأصنام وتستنكرهـا. وهي تنطلق بعـد إذ نفضت عنها هـذه الخـرافة في شـوق عميق دافق تبحث عن إلـهها الحق، الـذي تجده في ضميرها، ولكنهـا لا تـتبينه في وعيهـا وإدراكها. وهي تـتعلق في لهفتهـا المكنونة بكل ما يلوح أنَّه يمكن أن يكون هو هذا الإلـه! حتى إذا اختبرته وجدته زائفاً، ولم تجد فيه المطابقة لما هو مكنون فيهـا من حقيقة الإلـه وصفته. . ثمَّ وهي تجد الحقيقـة تشرق فيهـا وتـتجلىٰ لها. وهي تنـطلق بالفرحة الكبرىٰ، والامتلاء الجياش، بهذه الحقيقة، وهي تعلن في جيشان اللقيا عن يقينها الذي وجدته من مطابقة الحقيقة التي انتهت إليها بوعيهـا للحقيقة التي كانت كامنة من قبل فيها! . .

إنَّه مشهد رائع باهر هذا الذي يتجلّىٰ في قلب إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ

والسياق يعرض التجربة الكبرىٰ التي اجتازها في هذه الآيات القصار . .

إنَّها قصة الفطرة مع الحق والباطل . وقصة العقيدة كذلك يصدع بها المؤمن ولا يخشىٰ فيها لومة لائم ؛ ولا يجامل على حسابها أباً ولا أسرة ولا عشيرة ولا قوماً . . كما وقف إبراهيم من أبيه وقومه هذه الوقفة الصلبة الصريحة . . .

برّ وودّ ورحمة :

كان لإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ الحظ الأوفىٰ ، والنصيب الأوفر في القرآن الكريم ، ولم يكن ذكره في كتاب الله تعالىٰ كذكر الأنبياء السابقين ؛ فكان النبي يُذكر من جانب واحد ، وهو ما يكون بينه وبين قومه ، ولكن إبراهيم ذُكر في كتاب الله من جوانب متعددة ، ومناقبه أجلُّ من أن تُعد ، ولا عجب أن تَرِدَ الإشارات مبكرة عنه في أوائل السور القرآنية التي نزلت في مكة ، فهذه إشارات نجدها في سورة الأعلىٰ وفي سورة النجم ، وفي سورة (صٓ) ففي سورة الأعلىٰ : **﴿إنَّ هـٰذا لفي الصحف الأولىٰ صحف إبراهيم وموسىٰ﴾** ولكنَّ سورة النجم تزيد على ذلك **﴿أم لم يُنبأ بما في صحف موسىٰ وإبراهيم الذي وفّىٰ﴾** وفي هذه السورة نقرأ صفة لإبراهيم قد امتلأت بالخير العميم **﴿وإبراهيم الذي وفّىٰ﴾**(١) ، ثمَّ تأتي سورة (صٓ) وهي التي تحدثت عن بعض الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ فنجد فيها إشارات لإبراهيم وبنيه **﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ـ إنَّا أخلصناهم بخالصة ذكرىٰ الدار وإنَّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار واذكر إسماعيل واليَسَع وذا الكفل وكُلٌّ من الأخيار﴾** . . وهنا نقرأ من الصفات

---

(١) « وفّىٰ » مبالغة في الوفاء ، أو بمعنىٰ وفر وأتم ، وإطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفيه من ذلك تبليغه الرسالة واستقلاله بأعباء النبوّة ، والصبر على ذبح ولده وعلى نار نمرود ، وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه ، وإنَّه كان يخرج كل يوم يتمشّىٰ فرسخاً يرتاد ضيفاً فإن وافقه أكرمه ، وإلَّا نوىٰ الصوم . . . » الكشاف ، ج ٤ ، ص ٤٢٧ .

لإبراهيم أوسع، فهم أولو الأيدي والأبصار وهم المصطفون الأخيار(١).

لقد حمل إبراهيم دعوة التوحيد وواجَهَ بها أباه وقومه، وكان يضع أيديهم على هذه الحقيقة الكبرىٰ، ويتدرج بهم في مسالك الحجة ووسائل الإقناع، واتخذ من المنطق السليم والحكمة معواناً له لبلوغ غايته المرجوة في دعوته.. وما كاد ـ عليه السَّلام ـ يعود من تلك النزهة الروحية في ملكوت السَّماوات والأرض، وقد امتلأ قلبه يقيناً وعلت نفسه بهجة وحبوراً، فمضىٰ إلى أبيه آزر يدعوه إلى الله مالك الملك. يدعوه في لطف وأدب ورحمة.. يدعوه بِرِقَّة الولد وبِرّه بأبيه، وحرصه كل الحرص على أن لا يصيب أباه سوء.. يدعوه إلى هذه العقيدة الراسخة الواضحة التي تتفاعل مع العقل والقلب.. يدعوه في تدرج حكيم كريم..

تَدرَّج إبراهيم مع أبيه في نداءات تمتلىء عطفاً وحناناً، ورحمة وأماناً.. فهو لم يبدأ الدعوة مع أبيه بتسفيه معبوداته، أو تحقير آلهته، لئلاَّ ينفر منه، أو يُصِمَّ آذانه عنه، أو يرميه بالعقوق والجحود، بل رتَّب الكلام على أحسن اتِّساق، وخاطبه بالقول اللين، والأدب الجميل، وابتدأ حديثه معه بذكر بنوّته؛ ليستثير عطفه ويمسَّ شَغَاف قلبه.. خاطبه في أحبّ لفظ وأحياه..

ونمضي مع القرآن الكريم في أدب وخشوع لنسمع حديث الأحاسيس، حديث الأعماق، الحديث الذي يأخذ باللبِّ ويأسر القلب:

﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنَّه كان صدِّيقاً نبيّاً﴾ [مريم: ٤١]..

يصف الله إبراهيم بأنَّه كان صدِّيقاً نبيّاً. ولفظة صدِّيق تحتمل معنىٰ أنَّه كثير الصدق وأنَّه كثير التصديق. وكلتاهما تناسب شخصية إبراهيم.

---

(١) القصص القرآني: ١٣٠.

﴿إذ قال لأبيه: يَا أبتِ لمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً؟﴾ [مريم: ٤٢]..

بهذا اللطف في الخطاب يتوجه إبراهيم إلى أبيه، يحاول أن يهديه إلى الخير الذي هداه الله إليه، وعلّمه إياه؛ وهو يتحبب إليه فيخاطبه: **﴿يا أبتِ﴾** ويسأله **﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً؟﴾**..

والأصل في العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلى من هو أعلىٰ من الإنسان وأعلم وأقوىٰ. وأن يرفعها إلى مقام أسمىٰ من مقام الإنسان وأسنىٰ. فكيف يتوجه بها إذن إلى ما هو دون الإنسان، بل إلى ما هو في مرتبة أدنىٰ من مرتبة الحيوان، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضراً ولا نفعاً. إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام كما هو حال قريش الذين يواجههم الإسلام.

هذه هي اللمسة الأُولىٰ التي يبدأ بها إبراهيم دعوته لأبيه. ثمَّ يتبعها بأنَّه لا يقول هذا من نفسه، إنَّما هو العلم الذي جاءه من الله فهداه. ولو أنَّه أصغر من أبيه سناً وأقل تجربة، ولكن المدد العلوي جعله يفقه ويعرف الحق؛ فهو ينصح أباه الذي لم يتلقَ هذا العلم، ليتبعه في الطريق الذي هُدي إليه:

﴿يَا أبتِ إنِّي قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾ [مريم: ٤٣]..

فليست هناك غضاضة في أن يتبع الوالد ولده، إذا كان الولد على اتصال بمصدر أعلىٰ. فإنَّما يتبع ذلك المصدر، ويسير في الطريق إلى الهدىٰ. وبعد هذا الكشف عمَّا في عبادة الأصنام من نكارة، وبيان المصدر الذي يستمد منه إبراهيم ويعتمد عليه في دعوة أبيه.. يبين له أنَّ طريقه هو طريق الشيطان، وهو يريد أن يهديه إلى طريق الرَّحمٰن، فهو يخشىٰ أن يغضب الله عليه فيقضي عليه أن يكون من أتباع الشيطان: **﴿يَا أبتِ لا تعبد**

الشَّيطان. إنَّ الشيطان كان للرَّحمـٰن عصيّاً. يَـا أبتِ إنِّي أخاف أن يمسَّك عذاب من الرَّحمـٰن فتكون للشَّيطان وليّاً﴾ [مريم: ٤٤، ٤٥].. والشَّيطان هو الذي يغري بعبادة الأصنام من دون الله، فالـذي يعبدهـا كأنَّمـا يتعبد الشيطان والشيطان عاص للرَّحمـٰن.

وإبراهيم يُحذر أباه أن يغضب الله عليه فيعاقبه فيجعله وليّاً للشيطان وتابعاً. فهداية الله لعبده إلى الطاعة نعمة، وقضاؤه عليه أن يكون من أولياء الشيـطان نقمة.. نقمـة تقوده إلى عـذاب أشد وخسـارة أفدح يـوم يقـوم الحساب.

ولكن هذه الدعوة اللطيفة بأحب الألفاظ وأرقها لا تصل إلى القلب المشرك الجاسي، فإذا أبو إبـراهيم يقابله بـالاستنكار والتهـديد والـوعيد: ﴿قال: أراغب أنت عن آلهتي يَـا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرجمنَّك. واهجرني مليّاً﴾ [مريم: ٤٦]..

أراغب أنت عن آلهتي يَـا إبراهيم، وكاره لعبـادتها ومُعـرض عنها؟ أوَبَلغ بك الأمر إلى هذا الحد من الجراءة؟ فهذا إنذار لك بالموت الفظيع إن أنت أصررت على هذا الموقف الشنيع: ﴿لئن لم تنته لأرجمنَّك﴾! فاغرب عن وجهي وابعـد عني طويـلاً. استبقاء لحيـاتك إن كنت تـريد النجـاة: ﴿واهجرني مليّاً﴾..

بهذه الجهالة تلقىٰ الرجل الدعوة إلى الهدىٰ. وبهـذه القسوة قـابل القول المؤدب المهذب. وذلك شأن الإيمان مع الكفر؛ وشأن القلب الذي هذبه الإيمان والقلب الذي أفسده الكفر.

ولم يغضب إبراهيم الحليم. ولم يفقده بره وعطفه وأدبه مع أبيه: ﴿قال: سلام عليك. سأستغفر لك ربِّي إنَّه كان بي حفيّاً. وأعتزلكم وما تدعـون من دون الله، وأدعو ربِّي عسىٰ ألاَّ أكـون بدعـاء ربِّي شقيّاً﴾ [مريم: ٤٧، ٤٨]..

سلام عليك. . فلا جدال ولا أذىٰ ولا رد للتهديد والوعيد. . سأدعو الله أن يغفر لك فلا يعاقبك بالاستمرار في الضلال وتولي الشيطان، بل يرحمك فيرزقك الهدىٰ. وقد عودني ربي أن يكرمني فيجيب دعائي.

وإذا كان وجودي إلى جوارك ودعوتي لك إلى الإيمان تؤذيك فسأعتزلكم، وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة. وأدعو ربي وحده، راجياً ـ بسبب دعائي لله ـ ألَّا يجعلني شقيّاً.

فالذي يرجوه إبراهيم هو مجرد تجنيبه الشقاوة. . وذلك من الأدب والتحرج الذي يستشعره. فهو لا يرىٰ لنفسه فضلاً. ولا يتطلع إلى أكثر من تجنيبه الشقاوة!

ثمَّ نتملّىٰ إبراهيم الأوّاه المنيب وهو في دعاءٍ رخي مديد، يتوجه به إلى ربه في إيمان وخشوع:

﴿ربِّ هب لي حكماً وألحقني بالصالحين، واجعل لي لسان صدق في الآخرين. واجعلني من ورثة جنة النعيم. . ﴾ [الشعراء: ٨٣ ـ ٨٥]. .

والدعاء كله ليس فيه طلب لعرض من أعراض هذه الأرض؛ ولا حتى صحة البدن. إنَّه دعاء يتجه إلى آفاق أعلىٰ؛ تحركه مشاعر أصفىٰ. ودعاء القلب الذي عرف الله فأصبح يحتقر ما عداه. والذي ذاق فهو يطلب المزيد؛ والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد. **﴿ربِّ هب لي حكماً﴾**. . أعطني الحكمة التي أعرف بها القيم الصحيحة والقيم الزائفة، فأبقىٰ على الدرب يصلني بما هو أبقىٰ.

﴿وألحقني بالصَّالحين﴾. . يقولها إبراهيم النبي الكريم الأوّاه الحليم. فيا للتواضع! ويا للتحرج! ويا للإشفاق من التقصير! ويا للخوف من تقلب القلوب! ويا للحرص على مجرد اللحاق بالصالحين! بتوفيق من ربه إلى العمل الصالح الذي يلحقه بالصالحين!

﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾. . دعوة تدفعه إليها الرغبة

في الامتداد، لا بالنسب ولكن بالعقيدة؛ فهو يطلب إلى ربِّه أن يجعل له فيمن يأتون أخيراً لسان صدق يدعوهم إلى الحق، ويردهم إلى الحنيفية السمحاء دين إبراهيم. ولعلَّها هي دعوته كما سيأتي في قصة بناء البيت الحرام هو وابنه إسماعيل ثمَّ يقول:

﴿ربَّنا واجعلنا مسلمين لك. ومن ذرِّيتنا أُمَّة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا، وتب علينا، إنَّك أنت التوَّاب الرَّحيم. ربَّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكِّيهم، إنَّك أنت العزيز الحكيم﴾ [البقرة: ١٢٨ ـ ١٢٩]..

وقد استجاب الله له، وحقق دعوته، وجعل له لسان صدق في الآخرين، وبعث فيهم رسولاً منهم[1] يتلو عليهم آياته ويعلِّمهم الكتاب والحكمة ويزكِّيهم.. وكانت الاستجابة بعد آلاف من السنين. وهي في عرف الناس أمد طويل، وهي عند الله أجل معلوم، تقتضي حكمته أن تتحقق الدعوة المستجابة فيه.

﴿واجعلني من ورثة جنَّة النعيم﴾ [الشعراء: ٨٥].. وقد دعا ربه ـ من قبل ـ أن يلحقه بالصالحين، بتوفيقه إلى العمل الصالح، الذي يسلكه في صفوفهم. وجنة النعيم يرثها عباد الله الصالحون.

﴿واغفر لأبي إنَّه كان من الضالين﴾ [الشعراء: ٨٦].. ذلك على الرغم ممَّا لقيه إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ من أبيه من غليظ القول وبالغ التهديد. ولكنَّه كان قد وعده أن يستغفر له، فوفىٰ بوعده. وقد بيَّن القرآن

---

(١) يقول النبيّ ﷺ: «إنّي عبد الله في أم الكتاب وخاتم النبيين، وإنَّ آدم لمجندل في طينته، وسأنبِّئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسىٰ، ورؤيا أُمي التي رأت أنَّه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام وكذلك ترىٰ أُمهات النبيِّين ـ صلوات الله عليهم ـ». أخرجه أحمد في المسند ٤/١٢٧، ١٢٨ و ٥/٢٦٢.

فيما بعد أنّه لا يجوز الاستغفار للمشركين ولو كانوا أُولي قربىٰ؛ وقرر أنَّ إبراهيم استغفر لأبيه بناءً على موعدة وعدها إيَّاه ﴿فلمَّا تبيَّن له أنّه عدوٌّ لله تبرَّأ منه﴾ [التوبة: ١١٤] وعرف أنَّ القرابة ليست قرابة النسب، إنَّما هي قرابة العقيدة.. وهذه إحدىٰ مقومات التربية الإسلامية الصحيحة.

فالرابطة الأُولىٰ هي رابطة العقيدة في الله، ولا تقوم صلة بين فردين من بني البشر إلَّا على أساسها. فإذا قطعت هذه الصلة انبَتَّت سائر الوشائج؛ وكانت البعدىٰ التي لا تبقىٰ معها صلة ولا وشيجة.

﴿ولا تخزني يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلَّا من أتىٰ الله بقلب سليم﴾ [الشعراء: ٨٧، ٨٨]..

ونستشف من قولة إبراهيم - عليه السَّلام -: ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾[1] مدى شعوره بهول اليوم الآخر؛ ومدى حيائه من ربه، وخشيته من الخزي أمامه، وخوفه من تقصيره. وهو النَّبي الكريم. كما نستشف من قوله: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلَّا من أتىٰ الله بقلب سليم﴾. مدىٰ إدراكه لحقيقة ذلك اليوم. وإدراكه كذلك لحقيقة القيم. فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلَّا قيمة الإخلاص. إخلاص القلب كله لله، وتجرده من كل شائبة، ومن كل مرض، ومن كل غرض. وصفائه من الشهوات

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ليأخذنَّ رجلٌ بيد أبيه يوم القيامة يُريد أن يُدخله الجنة، فينادَىٰ: إنَّ الجنة لا يدخلها مشرك، إنَّ الله قد حرَّم الجنة على كل مشرك، فيقول: أي ربِّ، أي ربِّ.. أبي، قال: فيتحول في صورة قبيحة، وريح مُنتنة، فيتركه».
قال أبو سعيد: كان أصحاب محمَّد ﷺ يرون أنَّه إبراهيم، ولم يزدهم رسول الله ﷺ على ذلك. رواه ابن حبان بإسناد صحيح على شرط البخاري، انظر الإحسان (رقم ٢٥٣)، وورد التصريح بأنَّ الرجل الذي يأخذ بيد أبيه هو إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام في حديث أبي هريرة عند البخاري برقم (٣٣٥٠) في أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالىٰ: ﴿واتَّخذ الله إبراهيم خليلاً﴾، و (٤٧٦٨) و (٤٧٦٩) في التفسير، باب: ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾..

والانحرافات. وخلوه من التعلق بغير الله. فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزناً ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾؛ لا ينفع شيء من هـذه القيم الزائلة الباطلة، التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض، وهي لا تزن شيئاً في الميزان الأخير!

مَثَل وتجربة :

﴿ألم تر إلى الَّذي حاجَّ إبراهيم في ربِّـه أن آتاه الله الملك؟..﴾ [البقرة: ٢٥٨]..

ويحكي القرآن حواراً بين إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وملك في أيامه يجادله في الله. لا يذكر السياق اسمه، لأنَّ ذكر اسمه لا يزيد من العبرة التي تمثلها الآية شيئاً.

وهـذا الحوار يُعـرض على النَّبيِّ ﷺ وعلى الجماعـة المسلمـة في أسلوب التعجيب من هذا المجادل، الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه؛ وكـأنَّما مشهد الحوار يعاد عرضه من ثنايا التعبير القرآني العجيب..

إنَّ هذا الملك الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه لم يكن منكراً لوجود الله أصلاً إنَّما كان منكراً لوحدانيته في الألوهية والربوبية ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجري فيه وحده، كمـا كان بعض المنحـرفين في الجاهليـة يعترفـون بوجود الله ولكنهم يجعلون له أنداداً ينسبون إليها فاعلية وعملاً في حياتهم! وكذلك كان منكراً أنَّ الحاكمية لله وحده، فلا حكم إلاَّ حكمه في شؤون الأرض وشريعة المجتمع.

إنَّ هذا الملك المنكر المتعنِّت[1] إنَّما ينكر ويتعنَّت للسبب الذي كان

---

(١) وقد ورد في الروايات أنَّ هذا الملك الطاغية كان يسمى نمرود. يقول ابن الأثير: «إنَّ النمرود قال لإبراهيم: أرأيت إلهك الذي تعبده وتدعو لعبادته ما هـو؟ قال: ربِّي الـذي يُحيي ويُميت، قال النمرود: أنا أُحيي وأُميت، قال إبراهيم: وكيف ذلك؟ قال: آخذ رجلين قد =

ينبغي من أجله أن يؤمن ويشكر. هذا السبب هو ﴿أن آتاه الله الملك﴾. وجعل في يده السلطان!

لقد كان ينبغي أن يشكر ويعترف، لولا أنَّ المُلك يُطغي ويبطر من لا يقدرون نعمة الله، ولا يدركون مصدر الإنعام. ومن ثمَّ يضعون الكفر في موضع الشكر؛ ويضلون بالسبب الذي كان ينبغي أن يكونوا به مهتدين! فهم حاكمون لأنَّ الله حكَّمهم، وهو لم يخوّلهم استعباد الناس بقسرهم على شرائع من عندهم. فهم كالناس عبيد لله، يتلقون مثلهم الشريعة من الله، ولا يستقلون دونه بحكم ولا تشريع فهم خلفاء لا أصلاء!

ومن ثمَّ يعجب الله من أمره وهو يعرضه على نبيه:

﴿ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك؟﴾..

ألم تر؟ إنَّه تعبير التشنيع والتفظيع؛ وإنَّ الإنكار والاستنكار لينطلقان من بنائه اللفظي وبنائه المعنوي سواء. فالفعلة منكرة حقاً: أن يأتي الحِجاج والجدال بسبب النعمة والعطاء! وأن يدعي عبد لنفسه ما هو من اختصاص الرب، وأن يستقل حاكم بحكم الناس بهواه دون أن يستمد قانونه من الله.

﴿قال إبراهيم: ربِّي الذي يحيي ويميت﴾.

والإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرورتان في كل لحظة، المعروضتان لحس الإنسان وعقله. وهما ـ في الوقت نفسه ـ السر الذي يحير، والذي يلجىء الإدراك البشري إلجاءً إلى مصدر آخر غير بشري.. وإلى أمر آخر غير أمر المخاليق.

ولا بد من الالتجاء إلى الألوهية القادرة على الإنشاء والإفناء لحل هذا اللغز الذي يعجز عنه كل الأحياء.

= استوجبا القتل فأقتل أحدهما فأكون قد أمتّه، وأعفو عن الآخر فأكون قد أحْيَيته، قال إبراهيم: إنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت عند ذلك النمرود».

إنَّنا لا نعرف شيئاً عن حقيقة الحياة وحقيقة الموت حتى اللحظة الحاضرة. ولكننا ندرك مظاهرهما في الأحياء والأموات. ونحن ملزمون أن نكل مصدر الحياة والموت إلى قوة ليست من جنس القوىٰ التي نعرفها على الإطلاق.. قوة الله..

ومن ثمَّ عرَّف إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ربه بالصفة التي لا يمكن أن يشاركه فيها أحد، ولا يمكن أن يزعمها أحد، قال وهذا الملك يسأله عمَّن يدين له بالربوبية ويراه مصدر الحكم والتشريع غيره.. قال: **﴿ربِّي الذي يحيي ويُميت﴾** فهو من ثمَّ الذي يحكم ويشرع.

وما كان إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وهو رسول موهوب تلك الموهبة اللدنية التي أشرنا إليها ـ ليعني من الإحياء والإماتة إلاَّ إنشاء هاتين الحقيقتين إنشاءً. فذلك عمل الرب المتفرد الذي لا يشاركه فيه أحد من خلقه.

ولكن الذي حاجَّ إبراهيم في ربه رأىٰ في كونه حاكماً لقومه وقادراً على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت مظهراً من مظاهر الربوبية. فقال لإبراهيم: أنا سيد هؤلاء القوم وأنا المتصرف في شأنهم، فأنا إذن الرب الذي يجب عليك أن تخضع له، وتسلم بحاكميته: **﴿قال: أنا أُحيي وأُميت﴾**!

عند ذلك لم يرد إبراهيم ـ عليه السَّلام ؛ أن يسترسل في جدل حول معنىٰ الإحياء والإماتة مع رجل يماري ويداور في تلك الحقيقة الهائلة. حقيقة منح الحياة وسلبها.

هذا السر الذي لم تدرك منه البشرية حتى اليوم شيئاً..

وعندئذٍ عدل عن هذه السنة الكونية الخفية، إلى سنة ظاهرة مرئية؛ وعدل عن طريقة العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الإلـٰهية في قوله: **﴿ربِّي الذي يُحيي ويُميت﴾**.. إلى طريقة التحدي، وطلب سنة الله لمن

ينكر ويتعنت ويجادل في الله، ليريه أنَّ الرب ليس حاكم قوم في ركن من الأرض، إنَّما هو مصرف هذا الكون كله. ومن ربوبيته هذه للكون يتعين أن يكون هو رب الناس المشرع لهم:

﴿قال: إنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾..

وهي حقيقة كونية مكرورة كذلك؛ تطالع الأنظار والمدارك كل يوم؛ ولا تتخلف مرة ولا تتأخر. وهي شاهد يخاطب الفطرة ـ حتى ولو لم يعرف الإنسان شيئاً عن تركيب هذا الكون، ولم يتعلم شيئاً من حقائق الفلك ونظرياته ـ والرسالات تخاطب فطرة الكائن البشري في أية مرحلة من مراحل نموه العقلي والثقافي والاجتماعي، لتأخذ بيده من الموضع الذي هو فيه. ومن ثمَّ كان هذا التحدي الذي يخاطب الفطرة كما يتحدث بلسان الواقع الذي لا يقبل الجدل:

﴿فَبُهت الذي كفر﴾..

فالتحدي قائم، والأمر ظاهر، ولا سبيل إلى سوء الفهم، أو الجدال والمراء.. وكان التسليم أولىٰ والإيمان أجدر. ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذي كفر، فيبهت ويبلس ويتحير. ولا يهديه الله إلى الحق لأنَّه لم يتلمس الهداية، ولم يرغب في الحق؛ ولم يلتزم القصد والعدل:

﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [البقرة: ٢٥٨]..

ويمضي هذا الجدل الذي عرضه الله على نبيه ﷺ وعلى الجماعة المسلمة. مثلاً للضلال والعناد؛ وتجربة يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد في مواجهة المنكرين؛ وفي ترويض النفوس على تعنت المنكرين.

إنَّ تلك الحقائق تؤلف قاعدة التصور الإيماني الناصع: **﴿ربِّي الذي يُحيي ويميت﴾.. ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب!﴾**..

حقيقة في الأنفس وحقيقة في الآفاق. حقيقتان كونيتان هائلتان؛

وهما ـ مع ذلك ـ مكرورتان معروضتان للبصائر والأبصار آناء الليل وأطراف النهار. لا تحتاجان إلى علم غزير، ولا إلى تفكير طويل.

فالله أرحم بعباده أن يكلهم في مسألة الإيمان به والاهتداء إليه، إلى العلم الذي قد يتأخر وقد يتعثر، وإلى التفكير الذي قد لا يتهيأ للبدائيين. إنَّما يكلهم في هذا الأمر الحيوي الذي لا تستغني عنه فطرتهم، ولا تستقيم بدونه حياتهم، ولا ينتظم مع فقدانه مجتمعهم.. ولا يعرف الناس بدونه من أين يتلقون شريعتهم وقيمهم وآدابهم.. يكلهم في هذا الأمر إلى مجرد التقاء الفطرة بالحقائق الكونية المعروضة على الجميع، والتي تفرض نفسها فرضاً على الفطرة، فلا يحيد الإنسان عن إيحائها الملجىء إلَّا بعسر ومشقة ومحاولة ومحال وتعنُّت وعناد!

والشأن في مسألة الاعتقاد هو الشأن في كل أمر حيوي تتوقف عليه حياة الكائن البشري. فالكائن الحي يبحث عن الطعام والشراب والهواء ـ كما يبحث عن التناسل والتكاثر ـ بحثاً فطرياً، ولا يترك الأمر في هذه الحيويات حتى يكمل التفكير وينضج، أو حتى ينمو العلم ويغزر.. وإلَّا تعرضت حياة الكائن الحي إلى الدمار والبوار.. والإيمان حيوي للإنسان حيوية الطعام والشراب والهواء سواء بسواء.. ومن ثمَّ يكله الله فيه إلى تلاقي الفطرة بآياته المبثوثة في صفحات الكون كله في الأنفس والآفاق.

تجربة وعقيدة وتربية

إن القرآن الكريم هو كتاب الأمة المسلمة. هو روحها وباعثها. ومنه تستمد التصور والشعور كما تستمد دستورها ومنهجها وكل ما يتعلق في حياتها واستمرارها. وفيه يعرض الله ـ سبحانه ـ من تجارب الجماعات السابقة والأمم الغابرة حتى نستحضر في أنفسنا أن القرآن هوكتاب هذه الأمة الحي؛ ورائدها الناصح؛ وأنَّه هو مدرستها التي تلقت فيها دروس حياتها.

ومن ثم جاء القصص في القرآن بهذه الوفرة، وبهذا التنوع، وبهذا الإيحاء.

﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفُ حذرَ الموتِ فقال لهم الله: موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾[سورة البقرة: ٢٤٣].

هذا الدرس يعرض تجربة من تجارب الأمم؛ يضمها إلى ذخيرة هذه الأمة، ويعد بها الجماعة المسلمة لما هي معرضة له في حياتها من المواقف؛ بسبب قيامها بدور الكبير، بوصفها وارثة العقيدة الإيمانية، ووارثة التجارب في هذا الحقل الخصيب.

تجربة لا يذكر القرآن أصحابها؛ ويعرضها في اختصار كامل، ولكنه واف فهي تجربة جماعة**﴿خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت﴾**..

فلم ينفعهم الخروج والفرار والحذر؛ وأدركهم قَدَر الله الذي خرجوا حذراً منه.. فقال لهم الله: ﴿**موتوا**﴾.. ﴿**ثم أحياهم**﴾.. لم ينفعهم الجهد في اتقاء الموت، ولم يبذلوا جهداً في استرجاع الحياة. وإنَّما هو قدر الله في الحالين.

لا أحب أن نذهب في تيه التأويلات، عن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.. من هم؟ وفي أي أرض كانوا؟ وفي أي زمان خرجوا؟... فلو كان الله يريد بياناً عنهم لَبيَّن، كما يجيء القصص المحدد في القرآن. إنَّما هذه عبرة وعظة يراد مغزاها، ولا تراد أحداثها وأماكنها وأزمانها. وتحديد الأماكن والأزمان لا يزيد هنا شيئاً على عبرة القصة ومغزاها..

إنَّما يراد هنا تصحيح التصور عن الموت والحياة، وأسبابها الظاهرة، وحقيقتهما المضمرة؛ ورد الأمر فيهما إلى القدرة المدبرة. والاطمئنان إلى قدر الله فيهما. والمضي في حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع، فالمقدر كائن، والموت والحياة بيد الله في نهاية المطاف.

يراد أن يقال: إن الحذرمن الموت لا يجدي؛ وإن الفزع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمدان أجلاً، ولا يردان قضاء؛ وإن الله هو واهب الحياة، وهو آخذ الحياة؛ وإنَّه متفضل في الحالتين: حين يهب، وحين يسترد؛ والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خَلْف الهبة وخَلْف الاسترداد. وإن مصلحة الناس متحققة في هذا وذاك؛ وإن فضل الله عليهم متحقق في الأخذ والمنح سواء: ﴿**إن الله لذو فضل على الناس. ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾.

إن تجمع هؤلاء القوم﴿**وهم ألوف**﴾وخروجهم من ديارهم﴿**حذر الموت**﴾.. لا يكون إلا فيحالة هلع وجزع، سواء كان هذا الخروج خوفاً من عدو مهاجم، أو من وباء حائم.. إن هذا كله لم يغن عنهم من الموت شيئاً.

﴿فقال لهم الله.. موتوا﴾.

كيف قال لهم؟ كيف ماتوا؟ هل ماتوا بسبب مما هربوا منه وفزعوا؟ هل ماتوا بسبب آخر من حيث لم يحتسبوا؟ كل ذلك لم يرد عنه تفصيل، لأنَّه ليس موضع العبرة. إنَّما موضع العبرة أن الفزع والجزع والخروج والحذر، لم تُغير مصيرهم، ولم تدفع عنهم الموت، ولم ترد عنهم قضاء الله. وكان الثبات والصبر والتجمل أولى لو رجعوا لله.

﴿ثم أحياهم﴾.

كيف؟ هل بعثهم من موت ورد عليهم الحياة؛ هل خلف من ذريتهم خلف تتمثل فيه الحياة القوية فلا يجزع ولا يهلع هلع الآباء؟.. ذلك كذلك لم يرد عنه تفصيل. فلا ضرورة لأن نذهب وراءه في التأويل، لئلا نتيه في أساطير لا سند لها كما جاء في بعض التفاسير.. إنَّما الإيحاء الذي يتلقاه القلب من هذا النص أن الله وهبهم الحياة من غير جهد منهم في حين أن جهدهم لم يردّ الموت عنهم.

إن الهلع لا يرد قضاء؛ وإن الفزع لا يحفظ حياة؛ وإن الحياة بيد الله هبة منه بلا جهد من الأحياء.. إذن فلا نامت أعين الجبناء!

وندرك طرفاً من هدف تلك الحادثة ومغزاها في السياق القرآني الذي يتلو ذكرها **﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾** ندرك طرفاً من حكمة الله في سوق هذه التجربة للجماعة المسلمة في جيلها الأول وفي أجيالها جميعاً.. ألا يقعدن بكم حب الحياة، وحذر الموت، عن الجهاد في سبيل الله. فالموت والحياة بيد الله. قاتلوا في سبيل الله لا في سبيل غاية أخرى. وتحت راية الله لا تحت راية أخرى.. وهكذا تُصحح هذه القصة القرآنية التصور عن حقيقة الحياة والموت، والأجَل والقَدَر، وعلاقة هذا كله بالجهاد في سبيل الله، الذي يجزع له كثير من الناس الجزع الكبير، ويخشوه هذه الخشية الشديدة.

فالموت حتم في موعده المقدر. ولا علاقة له بالحرب والسلم. ولا علاقة له بحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد أو قلة حصانته. ولا يؤخره عنهم تكليف القتال إذن، ولا هذا التكليف والتعرض للناس في الجهاد يعجله عن موعده.

هذا أمر وذاك أمر؛ ولا علاقة بينهما.. إنَّما العلاقة هناك بين الموت والأجل. بين الموعد الذي قدره الله وحلول ذلك الموعد.. وليست هناك علاقة أخرى.. ولا معنى إذن للتقاعس والقعود عن الجهاد في سبيل الله. ولا معنى إذن لخشية الناس في قتال أو في غير قتال!.

وبهذه اللمسة الموحية يعالج المنهج القرآني كل ما يهجس في الخاطر عن هذا الأمر، وكل ما ينشئه التصور المضطرب من خوف ومن ذعر..

وبذلك التصور تستريح القلوب، وتستقر الضمائر على حقيقة السنن الجارية في الكون، وعلى حقيقة قَدَر الله في الأمور، وعلى حقيقية حكمة الله من وراء التقدير والتدبير، فالأجل مكتوب، والموت مقدور لا يؤجله قعود، ولا يقدمه خروج، ولا يمنحه حرص ولا حذر ولا تدبير..

إن قَدَر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر، يدفعها في الطريق المرسوم، وينتهي بها إلى النهاية المحتومة. والموت قَدَر لا مفرّ من لقائه في موعده، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر. ولا ينفع الفرار في دَفع القدر عن فار. فإذا فرّ إنسان خوفاً من الموت فإنه ملاقي حتفه المكتوب، في موعده القريب. وكل موعد في الدنيا قريب. ولا عاصم من الله ولا من يحول دون نفاذ مشيئته. سوءاً أراد بالناس سواءً أم أراد بهم رحمة، ولا مولى لهم ولا نصير من دون الله يحميهم، ويمنعهم من قَدَر الله.

إن المؤمن مُدرك لسنن الله، مُتعَرِّف إلى مشيئة الله، مُطمئن إلى قَدَر الله. إنه يعلم أنه لن يُصيبه إلاَّ ما كتبَ الله له. وأن ما أصابه لم يكن

ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. ومن ثم لا يتلقى الضرّاء بالجزع، ولا يتلقى السرّاء بالزهو، إنَّما هو مستسلم لَقدر الله ومشيئته..

إنه ليس معنى هذا ألا يأخذ الإنسان حذره وحيطته، وكل ما يدخل في طوقه من استعداد وأهبة ووقاية.. فقد أمَر الله سبحانه وتعالى بأَخْذ الحذرِ﴿يا أيها الذين آمنو خذوا حذركم﴾[النساء: ٧١]، كما أمَر تباركت أسماؤه المؤمنين بالاحتياط في صلاة الخوف[1]، كما أمَر باستكمال العدة والأهبة﴿وأَعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة﴾[الأنفال: ٦٠].. ولكن كل هذا شيء، وتعليق الموت والأجل به شيء آخر..

إن أَخْذ الحذر واستكمال العدة أمْر يجب أن يُطاع، وله حكمته الظاهرة والخفية، ووراءه تدبير الله.. وإن التصور الصحيح لحقيقةالعلاقة بين الموت والأجلالمضروب ـ رغم كل استعداد واحتياط ـ أمْر آخر يجب أن يُطاع؛ وله حكمته الظاهرة والخفية، ووراءه تدبير الله..

ولا يفوتنا بعد تقرير تلك الإيحاءات الإيمانية التربوية الكريمة التي تضمنتها هذه القصة.. أن نلمّ بذلك الجمال الفني في الأداء: ﴿أَلَم تَرَ إلى الذين خرجوا من ديارهم وهو ألوفٌ حَذَر الموت؟﴾.. إنَّه في التعبير استعراضاً لهذه الألوف ولهذه الصفوف استعراضاً ترسمه هاتان الكلمتان: ﴿أَلَم تَرَ﴾.. وأي تعبير آخر ما كان ليرسم أمام المخيلة هذا الاستعراض كما رسمته هاتان الكلمتان العاديتان في وضعهما المختار.

ومن مشهد الألوف المؤلَّفَة، الحَذِرة من الموت، المتلفتة من الذعر.. إلى مشهد الموت المُطْبق في لحظة؛ ومن خلال

---

(١) قال تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مُبيناً. وإذا كنت فيهم فأقمتُ لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم... وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾ [البقرة: ١٠١، ١٠٢].

كلمة﴿موتوا﴾. . كل هذا الحَذَر، وكل هذا التجمع، وكل هذه المحاولة. . كلها ذهبت هباءً في كلمة واحدة: ﴿موتوا﴾. . ليلقي ذلك في الحسّ عَبَثْ المحاولة، وضلالة المنهج؛ كما يُلقي صرامة القضاء، وسرعة الفصل عند الله.

﴿ثم أحياهم﴾. . هكذا بلا تفصيل للوسيلة. . إنها القدرة المالكة زمام الموت وزمام الحياة. المتصرفة في شؤون العباد، لا تُردّ لها إرادة، ولا يكون إلاَّ ما تشاء. . وهذا التعبير يلقي الظل المناسب على مشهد الموت ومشهد الحياة. وكذلك يبدو التناسق العجيب في تصوير المشاهد، إلى جوار التناسق العجيب في إحياء المعاني وجمال الأداء. .

آية للناس

وفي سياق الحديث عن سرّ الموت والحياة في القرآن الكريم تجيء القصة الأخرى:

﴿أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال: أنَّى يحي هذه الله بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام ثم بَعَثَه. قال: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم! قال: بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه؛ وانظر إلى حِمارك ـ ولنجعلك آية للناس ـ وانظر إلى العظام كيف نُنشزها ثم نكسوها لحماً﴾[البقرة: ٢٥٨] من هو «الذي مرّ على قرية»؟ ما هذه القرية التي مرّ عليها وهي خاوية على عروشها؟.

إن القرآن لم يفصح عنهما شيئاً، ولوشاء لأفصح، ولو كانت حكمة النص لا تتحقق إلاَّ بهذا الإفصاح ما أهمله في القرآن. فلنقف نحن ـ على طريقتنا في قصص الرَّحمن ـ عند تلك الظلال.

إن المشهد ليرتسم للحسّ قوياً واضحاً موحياً. مشهد الموت والبلى والخواء.. يرتسم بالوصف: **﴿وهي خاوية على عروشها﴾**.. محطمة على قواعدها. ويرتسم من خلال مشاعر الرجل الذي مرّ على القرية. هذه المشاعر التي ينضح بها تعبير: **﴿ أنَّى يُحيـي هذه الله بعد موتها؟﴾**.. إن القائل ليعرف أن الله هناك. ولكن مشهد البلى والخواء ووقعه العنيف في حسّه جعله يحار: كيف يُحي هذه الله بعد موتها؟ وهذا أقصى ما يبلغه

مشهد من العنف والعمق في الإيحاء.. وهكذا يلقي التعبير القرآني ظلاله وإيحاءاته، فيرسم المشهد كأنَّما هو اللحظة شاخص تجاه الأبصار والمشاعر.

﴿أنَّى يحيـي هذه الله بعد موتها؟﴾.. كيف تدب الحياة في هذا الموات؟.

﴿فأماته الله مئة عام. ثم بَعَثَه﴾..

لم يقل له كيف. إنَّما أراه في عالم الواقع كيف! فالمشاعر والتأثرات تكون أحياناً من العنف والعمق بحيث لا تعالج بالبرهان العقلي، ولا حتى بالمنطق الوجداني؛ ولا تعالج كذلك بالواقع العام الذي يراه العيان.. إنَّما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة، التي يمتلىء بها الحسّ، ويطمئن بها القلب، دون كلام!

﴿قال: كم لبثت؟ قال: لبثتُ يوماً أو بعض يوم!﴾..

وما يدريه كم لبث والإحساس بالزمن لا يكون إلاَّ مع الحياة والوعي؟ على أن الحسّ الإنساني ليس هو المقياس الدقيق للحقيقة؛ فهو يخدع ويضل؛ فيرى الزمن الطويل المديد قصيراً لملابسة طارئة؛ كما يرى اللحظة الصغيرة دهراً طويلاً لملابسة طارئة كذلك!.

﴿قال: بل لبثت مئة عام﴾..

وتبعاً لطبيعة التجربة، وكونها تجربة حسية واقعية، نتصور أنَّه لا بد كانت هناك آثار محسوسة تصور فعل مئة عام.. هذه الآثار المحسوسة لم تكن في طعام الرجل ولا شرابه، فلم يكونا آسنين متعفنين: **﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾**..

وإذن فلا بد أن هذه الآثار المحسوسة كانت متمثلة في شخصه أو في حماره:

﴿وانظر إلى حمارك ـ ولنجعلك آية للناس ـ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً﴾ . .

أية عظام؟ عظامه هو؟ لو كان الأمر كذلك ـ كما يقول بعض المفسرين إن عظامه هي التي تعرت من اللحم ـ لَلَفَتَ هذا نظره عندما استيقظ، وَوَخَز حسّه كذلك، ولما كانت إجابته: **﴿لبثتُ يوماً أو بعض يوم﴾** .

لذلك نرجح أن الحمار هو الذي تعرت عظامه وتفسخت. ثم كانت الآية هي ضم هذه العظام بعضها إلى بعض وكسوتها باللحم وردها إلى الحياة، على مرأى من صاحبه الذي لم يمسّه البلى، ولم يُصب طعامه ولا شرابه التعفن. ليكون هذا التباين في المصائر والجميع في مكان واحد، معرضون لمؤثرات جوية وبيئية واحدة، آية أخرى على القدرة التي لا يعجزها شيء. والتي تتصرف مطلقة من كل قيد؛ وليدرك الرجل كيف يحي هذه الله بعد موتها! أما كيف وقعت الخارقة؟ فكما تقع كل خارقة! كما وقعت خارقة الحياة الأولى. الخارقة التي ننسى كثيراً أنها وقعت، وأننا لا ندري كيف وقعت! ولا ندري كذلك كيف جاءت إلاَّ أنها جاءت من عند الله بالطريق التي أرادها الله.

وهذا «دارون» أكبر علماء الحياة يظل ينزل في نظريته بالحياة درجة درجة، ويتعمق أغوارها قاعاً قاعاً، حتى يردها إلى الخلية الأولى. . ثم يقف بها هناك. إنَّه يجهل مصدر الحياة في هذه الخلية الأولى. ولكنه لا يُريد أن يُسَلِّم بما ينبغي أن يُسَلم به الإِدراك البشري، والذي يلح على المنطق الفطري إلحاحاً شديداً. وهو أنه لا بد من واهب الحياة لهذه الخلية الأولى. لا يريد أن يُسلم لأسباب ليست علمية وإنَّما هي تاريخية في صراعه مع الكنيسة! فإذا به يقول: «إنَّ تفسير شؤون الحياة بوجود خالق يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت!» . .

أي وضع ميكانيكي! إنَّ الميكانيكية هي أبعد شيء عن هذا الأمر الذي يفرض على الإدراك فرضاً أن يبحث عن مصدر لهذا السرّ القائم تجاه الأبصار والبصائر! وإنَّه ـ هو نفسه ـ ليجفل من ضغط المنطق الفطري، الذي يلجيء الإدراك البشري إلجاء إلى الاعتراف بما وراء الخلية الأولى، فيرجع كل شيء إلى «السبب الأول»! ولا يقول: ما هو هذا السبب الأول؟ ما هو هذا السبب الذي يملك إيجاد الحياة أول مرة، ثم يملك ـ حسب نظريته هو وهي محل نظر طويل ـ توجيه الخلية الأولى في طريقها الذي افترض هو أنها سارت فيه صوراً، دون أي طريق آخر غير الذي كان! إنَّه الهروب والمراء والمحال[1]!!!.

ونعود إلى خارقة القرية لنسأل: وما الذي يفسر أن ينال البلى شيئاً ويترك شيئاً في مكان واحد وفي ظروف واحدة؟ إن خارقة خلق الحياة أول مرة أو خارقة رجعها كذلك لا تفسر هذا الاختلاف في مصائر أشياء ذات ظروف واحدة.

إن الذي يفسر هذه الظاهرة هو طلاقة المشيئة.. طلاقتها من التقيد بما نحسبه نحن قانوناً كلياً لازماً ملزماً لا سبيل إلى مخالفته أو الاستثناء منه! وحسباننا هذا خطأ بالقياس إلى المشيئة المطلقة: خطأ منشؤه أننا نفرض تقديراتنا نحن ومقرراتنا العقلية أو «العلمية!» على الله سبحانه! وهو خطأ يتمثل في أخطاء كثيرة:

فأولاً: ما لنا نحن نحاكم القدرة المطلقة إلى قانون نحن قائلوه؟ قانون مستمد من تجاربنا المحدودة الوسائل، ومن تفسيرنا لهذه التجارب ونحن محدودو الإدراك؟.

وثانياً: فَهَبْه قانوناً من قوانين الكون أدركناه. فمن الذي قال لنا: إنَّه قانون نهائي كلي مطلق، وأن ليس وراءه قانون سواه.

---

(١) يراجع بتوسيع فصل «فرويد» في كتاب الإنسان بين المادية والإسلام».

وثالثاً: هَبْه كان قانوناً نهائياً مطلقاً. فالمشيئة الطليقة تنشىء القانون ولكنها ليست مقيدة به.. إنَّما هو الإختيار في كل حال. وكذلك تمضي هذه التجربة، فتضاف إلى رصيد أصحاب الدعوة الجدد، وإلى رصيد التصور الإيماني الصحيح. وتقرر ـ إلى جانب حقيقة الموت والحياة وردهما إلى الله ـ حقيقية أخرى هي التي أشرنا إليها قريباً. حقيقة طلاقة المشيئة، التي يعني القرآن عناية فائقة بتقريرها في ضمائر المؤمنين به، لتتعلق بالله مباشرة، من وراء الأسباب الظاهرة، والمقدمات المنظورة. فالله فعال لما يريد. وهكذا قال الرجل الذي مرت به التجربة:

﴿فلما تبين له، قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾..

والحياة والموت حادثان يقعان في كل لحظة، وليس إلاَّ الله يملك الموت والحياة، فالبشر ـ أرقى الخلائق ـ أعجز من بثّ الحياة في خلية واحدة، وأعجز كذلك من سلب الحياة سلباً حقيقياً عن حيٍّ من الأحياء.. فالذي يهب الحياة هو الذي يعرف سرّها، ويملك أن يهبها ويستردها. والبشر قد يكونون سبباً وأداة لإزهاق الحياة، ولكنهم هم ليسوا الذين يجردون الحيّ من حياته على وَجْه الحقيقة. إنَّما الله هو الذي يُحيي ويميت وحده دون سواه، فيخلق الحياة ويخلق الموت، ويُقدر الحياة بكل حي، ويُقدر له الموت، فلا يكون إلاَّ قدره الذي قضاه. والحياة ما تزال سراً في طبيعتها، لا يملك أحد أن يقول: من أين جاءت، ولا كيف جاءت. فضلاً عن أنَّ أحداً لا يدري ما هي على وجه الحقيقة، والقرآن يقول: إنَّ الله هو الذي يحيي ويميت.. الذي يعطي الحياة للأحياء. وما يملك أحد أن ينكر هذا ولا أن يثبت غيره، الموت كالحياة سرّ مغلق، لا يعرف أحد طبيعته، ولا يملك أحد أن يحدثه. لأن احداً غير واهب الحياة لا يملك سلبها**﴿وما كان لنفس أن تموت إلاَّ بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾**.

إنَّ هذه القصة تناولت موضوعاً من مواضيع العقيدة: سرّ الحياة

والموت، وحقيقة الحياة والموت. وهي تؤلف جانباً من جوانب التصور الإسلامي، تمثل جانباً من جوانب الجهد الطويل المتجلي في القرآن الكريم لإنشاء التصور الصحيح لحقائق هذا الوجود في ضمير المسلم وفي إدراكه. الأمر الذي لا بد منه للإقبال على الحياة بعد ذلك إقبالاً بصيراً، منبثقاً من الرؤية الصحيحة الواضحة، وقائماً على اليقين الثابت المطمئن. فنظام الحياة ومنهج السلوك وقواعد الأخلاق والآداب.. ليست بمعزل عن التصور الاعتقادي؛ بل هي قائمة عليه، مستمدة منه. وما يمكن أن تثبت وتستقيم ويكون لها ميزان مستقر إلاَّ أن ترتبط بالعقيدة، وبالتصور الشامل لحقيقة هذا الوجود وارتباطاته بخالقه الذي وهبه الوجود.

الشوق الروحي :

ويمضي القرآن في التعريف ببديع صنع الله الذي خلق كل شيء فقدَّره تقديراً، ويكشف للخلق أثر عظمة الخالق فتطمئن القلوب وتسكن الأرواح وهي تسبح بأحدية الخالق العظيم..

وبعدَ أن كشف الله لإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ملكوت السَّماوات والأرض، ليحاج قومه، وليكون من الموقنين.. ها هو ذا إبراهيم يتطلع بإيمان وشوق عميق لرؤية سر الصنعة الإلـهية المعجز الباهر العجيب:

﴿وإذ قال إبراهيم: رَبِّ أرني كيف تُحيـي الموتىٰ. قال: أَوَلَم تؤمن؟ قال: بلىٰ! ولـكن ليطمئنَّ قلبي﴾ [البقرة: ٢٦٠]..

إنَّه التشوق إلى ملابسة سر الصنعة الإلـهية. هذا السر الذي يتجلّىٰ في إتقان صنعة الله سبحانه في كل شيء في هذا الوجود! وحين يجيء هذا التشوق من إبراهيم الأوَّاه الحليم، المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل.. حين يجيء هذا التشوق من إبراهيم فإنَّه يكشف عمَّا يختلج أحياناً من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلـهية في قلوب أقرب المقربين! إنَّه كشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره؛ وليس طلباً

للبرهان أو تقوية للإيمان . . إنَّما هو أمر آخر، له مذاق آخر . . إنَّه أمر الشوق الروحي!! ملابسة السر الإلـهي، في أثناء وقوعه العملي.

وقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «نحن أحق بالشكِّ من إبراهيم، إذ قال: ﴿ربِّ أرني كيف تحيي الموتىٰ قال: أوَلَم تؤمن؟ قال: بلىٰ! ولـٰكن ليطمئنَّ قلبي﴾[1] . .

قال أبو حاتم: قوله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» لم يُرد به إحياء الموتىٰ، إنَّما أراد به في استجابة الدعاء له وذلك أنَّ إبراهيم ﷺ قال: ربِّ أرني كيف تُحيي الموتىٰ، ولم يتيقن أنَّه يُستجاب له فيه، يريد: في دعائه وسؤاله عمَّا سأل، فقال ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» به في الدعاء، ربما يُستجاب لنا وربما لا يُستجاب، ومحصول هذا الكلام أنَّه لفظةُ إخبار مرادُها التعليم للمخاطب له.

ويقول الإمام المزني تلميذ الشافعي: لم يشك النَّبيّ ولا إبراهيم صلوات الله عليهما في أنَّ الله قادر على أن يُحيي الموتىٰ، وإنَّما شكا أن يجيبهما إلى ما سألاه[2].

وقال أبو سليمان الخطابي فيما نقله عن البغوي في «شرح السنة»[3]: ليس في قوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» اعتراف بالشك على نفسه، ولا على إبراهيم، لكن فيه نفي الشكِّ عنهما، يقول: إذا لم أشك أنا ولم أرتب في قدرة الله عزَّ وجلَّ على إحياء الموتىٰ، فإبراهيم أَوْلىٰ بأن لا يشك

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢) و(٤٥٣٧) ومسلم (١٥١) و(٢٣٨)، وابن حبان في صحيحه، انظر الإحسان (رقم ٦٢٠٨).

(٢) نقله البغوي في «شرح السنة» ١/١١٥، والبيهقي في «الأسماء والصفات»: ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨.

(٣) شرح السنة ١/١١٦ ـ ١١٧.

ولا يرتاب، وقال ذلك على سبيل التواضع، والهضم من النفس.

وفيه الإعلام أنَّ المسألة من قبل إبراهيم لم تعرض من جهة شك، لكن من قبل زيادة العلم، فإنَّ العيان يُفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال. وقوله ﴿ليطمئن قلبي﴾ أي بيقين النظر[1].

ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب ولو كان هو إيمان إبراهيم الخليل، الذي يقول لربه، ويقول له ربه. وليس وراء هذا إيمان، ولا برهان للإيمان. ولكنه أراد أن يرىٰ يد القدرة وهي تعمل، ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها، ويتنفس في جوها، ويعيش معها.. وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان. وقد كشفت التجربة والحوار الذي حكي فيها عن تعدد المذاقات الإيمانية في القلب الذي يتشوق إلى هذه المذاقات ويتطلع. لقد كان ينشد اطمئنان الأنس إلى رؤية يد الله تعمل، واطمئنان التذوق للسر المحجب وهو يجلىٰ ويتكشف.

ولقد كان الله يعلم إيمان عبده وخليله. ولكنه سؤال الكشف والبيان، والتعريف بهذا الشوق وإعلانه، والتلطف من السيد الكريم الودود الرحيم، مع عبده الأوَّاه الحليم المنيب!

ولقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع في قلب إبراهيم، ومنحه التجربة الذاتية المباشرة:

﴿قال: فخذ أربعة من الطير فصرهنَّ إليك؛ ثمَّ اجعل على كل جبل

---

(١) وحكي عن سعيد بن جبير أنَّه قال: ﴿ولكن ليطمئنَّ قلبي﴾ أي بالخلّة، يقول: إنِّي أعلم أنك اتخذتني خليلاً، ومثله عن ابن المبارك.

ويُحكىٰ عن ابن المبارك في قوله: ﴿ولكن ليطمئنَّ قلبي﴾ أي ليرىٰ من أدعوه إليك منزلتي ومكاني منك، فيجيبوني إلى طاعتك.

منهنَّ جزءاً، ثمَّ ادعهنَّ يأتينك سعياً واعلم أنَّ الله عزيز حكيم﴾ [البقرة: ٢٦٠]. .

لقد أمره أن يختار أربعة من الطير، فيقربهنَّ منه ويميلهنَّ إليه، حتى يتأكد من شياتهنَّ ومميزاتهنَّ التي لا يخطىء معها معرفتهنَّ. وأن يذبحهنَّ ويمزق أجسادهنَّ، ويفرق أجزاءهنَّ على الجبال المحيطة. ثمَّ يدعوهنَّ فتتجمع أجزاؤهنَّ مرة أُخرىٰ، وترتد إليهنَّ الحياة، ويعدن إليه ساعيات. . وقد كان طبعاً. .

ورأىٰ إبراهيم السر الإلـهي يقع بين يديه. وهو السر الذي يقع في كل لحظة. ولا يرىٰ الناس إلاَّ آثاره بعد تمامه. إنَّه سر هبة الحياة. الحياة التي جاءت أول مرة بعد أن لم تكن؛ والتي تنشأ مرات لا حصر لها في كل حي جديد. رأىٰ إبراهيم هذا السر يقع بين يديه. . طيور فارقتها الحياة، وتفرقت مزقها في أماكن متباعدة. تدب فيها الحياة مرة أُخرىٰ، وتعود إليه سعياً!

كيف؟ هذا هو السر الذي يعلو على التكوين البشري إدراكه. إنَّه قد يراه كما رآه إبراهيم. وقد يصدق به كما يصدق به كل مؤمن. ولكنه لا يدرك طبيعته ولا يعرف طريقته. إنَّه من أمر الله. والناس لا يحيطون بشيء من علمه إلاَّ بما شاء. وهو لم يشأ أن يحيطوا بهذا الطرف من علمه، لأنَّه أكبر منهم، وطبيعته غير طبيعتهم. ولا حاجة لهم به في خلافتهم.

إنَّه الشأن الخاص للخالق. الذي لا تتطاول إليه أعناق المخلوقين. فإذا تطاولت لم تجد إلاَّ الستر المسدل على السر المحجوب. وضاعت الجهود سدىٰ، جهود من لا يترك الغيب المحجوب لعلاَّم الغيوب!

إنَّ القرآن الكريم يستعرض في هذه الآيات دلائل القدرة في بيان حقيقة الحياة والموت. . فالحياة ونشوئها معجزة، تتجدد. . وسرها اللطيف ما يزال غيباً يحار العقل البشري في تصور كنهه. . وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر. . والموت سر آخر يعجز العقل البشري عن تصور كنهه، وهو يتم

في لحظة خاطفة، والمسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة عريضة ضخمة.. وفيه مجال فسيح للتأمّل والتدبر.. وإعادة الحياة بعد الموت - وهي غيب من الغيب - سر خفي من أمر الله رآه إبراهيم يقع في بساطة ووضوح.. وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر..

إنَّها المعجزة التي لا يدري سرها أحد؛ فضلاً على أن يملك صنعها أحد! معجزة الحياة نشأة وحركة. سر مكنون، لا يعلم حقيقته إلَّا الله؛ ولا يعلم مصدره إلَّا الله.. وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها، وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها.. تقف أمام السرّ المغيب كما وقف الإنسان الأول، تدرك الوظيفة والمظهر، وتجهل المصدر والجوهر. والمعجزة تقع في كل لحظة!!!

دعوة إبراهيم إلى العقيدة المستقيمة الناصعة :

قام إبراهيم يدعو قومه إلى العقيدة الصادقة القوية، عقيدة التوحيد. قام يخلصهم من وهدة الشرك، وحمأة الضلال، وتأليه الأوثان، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده، وقد أُعطي الرشد والحجة القوية الدامغة التي يرد بها أباطيل قومه.. ﴿**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل، وكنَّا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه: ما هٰذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون**﴾ [الأنبياء: ٥١ - ٥٢]..

ونمضي في حلقة الرسالة إلى قومه، وحواره معهم حول العقيدة، وإنكار الآلهة المدّعاة، والاتجاه بالعبادة إلى الله سبحانه فالحلقة المعروضة هنا هي حلقة الرسالة. وهي مقسمة إلى مشاهد متتابعة، بينها فجوات صغيرة. وهي تبدأ بالإشارة إلى سبق هداية إبراهيم إلى الرشد. ويعني به الهداية إلى التوحيد. فهذا هو الرشد الأكبر الذي تنصرف إليه لفظة «الرشد» في هذا المقام.

آتيناه رشده، وكنا عالمين بحاله وباستعداده لحمل الأمانة التي يحملها المرسلون.

﴿إذ قال لأبيه وقومه: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟﴾..

فكانت قولته هذه دليل رشده.. سمّىٰ تلك الأحجار والخشب باسمها: «هذه التماثيل» ولم يقل: إنَّها آلهة، واستنكر أن يعكفوا عليها بالعبادة. وكلمة «عاكفون» تفيد الانكباب الدائم المستمر. وهم لا يقضون وقتهم كله في عبادتها. ولكنهم يتعلقون بها. فهو عكوف معنوي لازمني. وهو يستخف هذا التعلق ويبشعه بتصويرهم منكبين أبداً على هذه التماثيل!

وبالقلب السليم، استنكر ما عليه قومه واستبشعه. استنكار الحس السليم لكل ما تنبو عنه الفطرة الصادقة من تصور ومن سلوك: **﴿إذ قال لأبيه وقومه: ماذا تعبدون؟ أإفكاً آلهة دون الله تريدون؟ فما ظنكم برب العالمين؟﴾** [الصافّات: ٨٥ ـ ٨٧]..

وهو يراهم يعبدون أصناماً وأوثاناً. فيهتف بهم هتاف الفطرة السليمة في استنكار شديد **﴿ماذا تعبدون؟﴾** ماذا؟ فإنَّ ما تعبدون ليس من شأنه أن يُعبد، ولا أن يكون له عابدون! وما يعبده الإنسان في شبهة من حق. إنَّما هو الإفك المحض. والافتراء الذي لا شبهة فيه. فهل أنتم تقصدون إلى الإفك قصداً وإلى الافتراء عمداً: **﴿أإفكاً آلهة دون الله تريدون؟﴾**.

وما هو تصوركم لله؟ وهل يهبط وينحرف إلى هذا المستوىٰ الذي تنكره الفطرة لأول وهلة: **﴿فما ظنكم برب العالمين؟﴾**.. وهي كلمة يبدو فيها استنكار الفطرة السليمة البريئة، وهي تطلع على الأمر البَيِّن الذي يصدم الحس والعقل والضمير.

ويؤمر الرسول ﷺ أن يتلو قصة إبراهيم على المشركين. ذلك أنَّهم يزعمون أنَّهم ورثة إبراهيم، وأنَّهم على دينه القديم، وهم يُشركون بالله، ويقيمون الأصنام لعبادته في بيته الحرام، الذي بناه إبراهيم خالصاً لله..

فاتل عليهم نبأ إبراهيم ليتبينوا منه حقيقة ما يزعمون.

﴿واتـل عليهم نبأ إبـراهيم، إذ قال لأبيـه وقومـه: مـا تعبـدون؟﴾ [الشعراء: ٦٩، ٧٠]..

اتل عليهم نبأ إبراهيم الذين يزعمون أنَّهم ورثته، وأنَّهم يتَّبعون ديانته. اتله عليهم وهو يستنكر ما كان يعبده أبوه وقومه من أصنام كهذه الأصنام التي يعبدها المشركون في مكة؛ وهو يخالف أباه وقومه في شركهم، ويُنكر عليهم ما هم عليه من ضلال، ويسألهم في عجب واستنكار: **﴿ما تعبدون؟﴾**..

﴿قالوا: نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين﴾ [الشعراء: ٧١]..

وهم كانوا يسمون أصنامهم آلهة: فحكاية قولهم: إنَّها أصنام. تنبىء بأنَّهم لم يكونوا يملكون إنكار أنَّها أصنام منحوتة من الحجر، وأنَّهم مع ذلك يعكفون لها، ويدأبون على عبادتها. وهذه نهاية السخف. ولكنَّ العقيدة متى زاغت لم يفطن أصحابها إلى ما تنحط إليه عبادتهم وتصوراتهم ومقولاتهم!

ويأخذ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ يوقظ قلوبهم الغافية، وينبـه عقولهـم المتبلدة، إلى هذا السخف الذي يزاولونه دون وعي ولا تفكير: **﴿قال: هل يسمعونكم إذ تدعون؟ أو ينفعونكم أو يضرون؟﴾** [الشعراء: ٧٢، ٧٣]..

فأقل ما يتوفر لإلـه يُعبد أن يكون له سمع كعابده الذي يتوجه إليـه بالعبادة والابتهـال! وهذه الأصنـام لا تسمع عبـادها وهم يتـوجهون إليهـا بالعبادة، ويدعونها للنفع والضر. فإن كانت صماء لا تسمع فهل هي تملك النفع والضر؟ لا هذا ولا ذاك يمكن أن يدعوه! ولم يجب القوم بشيء عن هذا فهم لا يشكون في أنَّ إبراهيم إنَّما يتهكم ويستنكر؛ وهم لا يملكون حجة لدفع ما يقول. فإذا تكلموا كان عن التحجر الذي يصيب المقلدين بلا وعي ولا تفكير:

﴿قالوا: بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ [الشعراء: ٧٤]..

إنَّ هذه الأصنام لا تسمع ولا تضر ولا تنفع. ولكنا وجدنا آباءنا يعكفون عليها، فعكفنا عليها وعبدناها!

وهو جواب مخجل. ولكنَّ المشركين لم يخجلوا أن يقولوه، كما لم يخجل المشركون في مكة أن يفعلوه. فقد كان فعل الآباء لأمر كفيلاً باعتباره دون بحث؛ بل لقد كان من العوائق دون الإسلام أن يرجع المشركون عن دين آبائهم، فيخلُّوا باعتبار أولئك الآباء، ويقروا أنَّهم كانوا على ضلال. وهذا ما لا يجوز في حق الذاهبين!

وهكذا تقوم مثل هذه الاعتبارات الجوفاء في وجه الحق، فيؤثرونها على الحق، في فترات التحجر العقلي والنفسي والانحراف التي تصيب الناس، فيحتاجون معها إلى هزة قوية تردهم إلى التحرر والانطلاق والتفكير.

لقد كان جوابهم وحجتهم أن ﴿**قالوا: وجدنا آباءنا لها عابدين**﴾ [الأنبياء: ٥٣]..

وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة، في مقابل حرية الإيمان، وانطلاقه للنظر والتدبر، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمها الحقيقية لا التقليدية. فالإيمان بالله طلاقة وتحرر من القداسات الوهمية التقليدية، والوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل:

﴿**قال: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين**﴾ [الأنبياء: ٥٤]..

وما كانت عبادة الآباء لتكسب هذه التماثيل قيمة ليست لها، ولا لتخلع عليها قداسة لا تستحقها. فالقيم لا تنبع من تقليد الآباء وتقديسهم، إنَّما تنبع من التقويم المتحرر الطليق.

وعندما واجههم إبراهيم بهذه الطلاقة في التقدير، وبهذه الصراحة في الحكم، راحوا يسألون:

﴿**قالوا: أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين؟**﴾ [الأنبياء: ٥٥]..

وهو سؤال المزعزع العقيدة، الذي لا يطمئن، إلى ما هو عليه، لأنَّه لم يتدبره ولم يتحقق منه. ولكنه كذلك معطل الفكر والروح بتأثير الوهم والتقليد. فهو لا يدري أي الأقوال حق. والعبادة تقوم على اليقين لا على الوهم المزعزع الذي لا يستند إلى دليل! وهذا هو التيه الذي يخبط فيه من لا يدينون بعقيدة التوحيد الناصعة الواضحة المستقيمة في العقل والضمير.

فأمَّا إبراهيم فهو مستيقن واثق عارف بربه، متمثل له في خاطره وفكره، يقولها كلمة المؤمن المطمئن لإيمانه:

﴿قال: بل ربُّكم ربُّ السَّماوات والأرض الذي فطرهنَّ، وأنا على ذلكم من الشَّاهدين﴾ [الأنبياء: ٥٦]..

فهو رب واحد. رب الناس ورب السَّماوات والأرض. ربوبيته ناشئة عن كونه الخالق. فهما صفتان لا تنفكان: **﴿بل ربكم رب السَّماوات والأرض الذي فطرهنَّ﴾**..

فهذه هي العقيدة المستقيمة الناصعة، لا كما يعتقد المشركون أنَّ الآلهة أرباب، في الوقت الذي يقرّون أنَّها لا تخلق، وأنَّ الخالق هو الله. ثمَّ هم يعبدون تلك الآلهة لتي لا تخلق شيئاً وهم يعلمون!

إنَّه واثق وثوق الذي يشهد على واقع لا شك فيه: **﴿وأنا على ذلكم من الشَّاهدين﴾**.. وإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لم يشهد خلق السَّماوات والأرض، ولم يشهد خلق نفسه ولا قومه.. ولكن الأمر من الوضوح والثبوت إلى حد أن يشهد المؤمنون عليه واثقين..

إنَّ كل ما في الكون لينطق بوحدة الخالق المدبر. وإن كل ما في كيان الإنسان ليهتف به إلى الإقرار بوحدانية الخالق المدبر، وبوحدة الناموس الذي يدبر الكون ويصرفه.

وفي قصة إبراهيم مع قومه يتبدّى سوء الجزاء وطغيان الضلال. فقد

حاول هُداهم ما استطاع، وجادلهم بالحجة والمنطق. . **﴿وإبراهيم إذ قال لقومه: اعبدوا الله واتَّقوه. . ﴾** [العنكبوت: ١٦]. .

لقد دعاهم دعوة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض، وهي مرتبة في عرضها ترتيباً دقيقاً يحسن أن يتملاه أصحاب الدعوات. . لقد بدأ ببيان حقيقة الدعوة التي يدعوهم إليها: **﴿اعبدوا الله واتَّقوه﴾**. .

ثمَّ ثنىٰ بتحبيب هذه الحقيقة إليهم، وما تتضمنه من الخير لهم، لو كانوا يعلمون أين يكون الخير:

﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾. .

وفي هذا التعقيب ما يحفزهم إلى نفي الجهل عنهم، واختيار الخير لأنفسهم. وهو في الوقت ذاته حقيقة عميقة لا مجرد تهييج خطابي!

وفي الخطوة الثالثة بَيَّن لهم فساد ما هم عليه من العقيدة من عدة وجوه: أولها أنَّهم يعبدون من دون الله أوثاناً ـ والوثن: التمثال من الخشب ـ وهي عبادة سخيفة وبخاصة إذا كانوا يعدلون بها عن عبادة الله. .

وثانيها: أنَّهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهان أو دليل، وإنَّما يخلقون إفكاً وينشئون باطلاً، ويخلقونه خلقاً بلا سابقة أو مقدمة، وينشئونه إنشاءً من عند أنفسهم بلا أصل ولا قاعدة. .

وثالثها: أنَّ هذه الأوثان لا تقدم لهم نفعاً، ولا ترزقهم شيئاً: **﴿إنَّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً﴾** [العنكبوت: ١٧]. .

وفي الخطوة الرابعة يوجههم إلى الله ليطلبوا منه الرزق. الأمر الذي يهمهم ويمس حاجتهم:

﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾. .

والرزق مشغلة النفوس، وبخاصة تلك التي لم يستغرقها الإيمان.

ولكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد استثارة للميول الكامنة في النفوس.

وفي النهاية يهتف بهم إلى واهب الأرزاق المتفضل بالنعم، ليعبدوه ويشكروه: ﴿**واعبدوه واشكروا له**﴾..

وأخيراً يكشف لهم أنَّه لا مفر من الله، فمن الخير أن يثوبوا إليه.مؤمنين عابدين شاكرين: ﴿**إليه ترجعون**﴾ [العنكبوت: ١٧].. فإن كذبوا ـ بعد ذلك كله ـ فما أهون ذلك! فلن يضر الله شيئاً، ولن يخسر رسوله شيئاً. فقد كذب الكثيرون من قبل، وما على الرسول إلاَّ واجب التبليغ:

﴿**وإن تكذبوا فقد كذب أُمم من قبلكم، وما على الرسول إلاَّ البلاغ المبين**﴾ [العنكبوت: ١٨]..

وهكذا يأخذهم خطوة خطوة، ويدخل إلى قلوبهم من مداخلها، ويوقع على أوتارها في دقة عميقة، وهذه الخطوات تعد نموذجاً لطريقة الدعوة جديراً بأن يتملاه أصحاب كل دعوة، لينسجوا على منواله في مخاطبة النفوس والقلوب.

وأمام ذلك التحجر لم يجد إبراهيم ـ على حلمه وأناته ـ إلاَّ أن يهزهم بعنف، ويعلن عداوته للأصنام، وللعقيدة الفاسدة التي تسمح بعبادتها لمثل تلك الاعتبارات!

﴿**قال: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون؟ فإنَّهم عدو لي إلاَّ رب العالمين**﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧﴾..

وهكذا لم يمنعه أنَّ أباه وأنَّ قومه يعبدون ما يعبدون، أن يفارقهم بعقيدته، وأن يجاهر بعدائه لآلهتهم وعقيدتهم، هم وآباؤهم ـ وهم آباؤه ـ الأقدمون!

وكذلك يُعلِّم القرآن المؤمنين أنَّ لا مجاملة في العقيدة لوالد ولا

لقوم، وأنَّ الرابطة الأُولىٰ هي رابطة العقيدة، وأنَّ القيمة الأُولىٰ هي قيمة الإيمان. وأنَّ ما عداه تبع له يكون حيث يكون.

واستثنىٰ إبراهيم «رب العالمين» من عدائه لما يعبدون وآباؤهم الأقدمون: ﴿فإنَّهم عدو لي إلاَّ رب العالمين﴾..

فقد يكون من آبائهم الأقدمين من عَبَد الله، قبل أن تفسد عقيدة القوم وتنحرف؛ وقد يكون من عبد الله ولكن أشرك معه آلهة أُخرىٰ مدَّعاة. فهو الاحتياط إذن في القول، والدقة الواعية في التعبير، الجديران بإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ في مجال التحدث عن العقيدة وموضوعها الدقيق.

ثمَّ يأخذ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ في صفة ربه. رب العالمين. وصلته به في كل حال وفي كل حين. فنحس القربىٰ الوثيقة، والصلة النديـة. والشعور بيد الله في كل حركة ونأمة، وفي كل حاجة وغاية.

﴿الذي خلقني فهو يهدين..﴾ [الشعراء: ٧٨]..

ونستشعر من صفة إبراهيم لربه، واسترساله في تصوير صلته به، أنَّه يعيش بكيانه كله مع ربه. وأنَّه يتطلع إليه في ثقة، ويتوجه إليه في حب؛ وأنَّه يصفه كأنَّه يراه، ويحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه.. والنغمة الرخية في حكاية قوله في القرآن تساعد على إشاعة هذا الجو وإلقاء هذا الظل، بالإيقاع العذب الرخي اللين المديد..

الذي خلقني.. الذي أنشأني من حيث يعلم ولا أعلم؛ فهو أعلم بماهيتي وتكويني، ووظائفي ومشاعري، وحالي ومآلي: ﴿فهو يهدين﴾ إليه، وإلى طريقي الذي أسلكه، وإلى نهجي الذي أسير عليه. وكأنَّما يحس إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أنَّه عجينة طيِّعة في يد الصانع المبدع، يصوغها كيف شاء، على أي صورة أراد. إنَّه الاستسلام المطلق في طمأنينة وراحة وثقة ويقين.

﴿والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين﴾ [الشعراء: ٧٩ - ٨٠].. فهي الكفالة المباشرة الحانية الراعية، الرفيقة الودود، يحس بها إبراهيم في الصحة والمرض. ويتأدب بأدب النبوة الرفيع، فلا ينسب مرضه إلى ربه - وهو يعلم أنَّه بمشيئة ربه يمرض ويصح - إنَّما يذكر ربه في مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه.. ويشفيه.. ولا يذكره في مقام الابتلاء حين يبتليه.

﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾.. فهو الإيمان بأنَّ الله هو الذي يقضي الموت، وهو الإيمان بالبعث والنشور في استسلام ورضىً عميق.

﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ [الشعراء: ٨٢].. فأقصىٰ ما يطمع فيه إبراهيم - عليه السَّلام - النبيّ الرسول، الذي يعرف ربه هذه المعرفة، ويشعر بربه هذا الشعور، ويحس في قرارة نفسه هذه القربىٰ.. أقصىٰ ما يطمع فيه أن يغفر له ربه خطيئته يوم الدين. فهو لا يبرىء نفسه، وهو يخشىٰ أن تكون له خطيئة، وهو لا يعتمد على عمله، ولا يرىٰ أنَّه يستحق بعمله شيئاً، إلَّا أنَّه يطمع في فضل ربه، ويرجو في رحمته، وهذا وحده هو الذي يطمعه في العفو والمغفرة.

إنَّه شعور التقوىٰ، وشعور الأدب، وشعور التحرج؛ وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظيمة عظيمة، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل ضئيل.

وهكذا يجمع إبراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة: توحيد الله ربِّ العالمين. والإقرار بتصريفه للبشر في أدق شؤون حياتهم على الأرض. والبعث والحساب بعد الموت وفضل الله وتقصير العبد. وهي العناصر التي ينكرها قومه، وينكرها المشركون.

عزم وحسم :

لقد كشف إبراهيم - عليه السَّلام - زيف عبادة قومه وانحرافهم، كشف

سخف وضلال القوم بالبراهين الناصعة والبينـات الواضحـة الكاشفـة عن الحق، حتى ليوقنه ويبصره كل من له قلب وعينان، وأسقط ما في أيديهم من حجة، واستيقنت أنفسهم الحق الذي يقوله ويدعو إليه إبراهيم أنَّ الله هو رب العـالمين، رب السَّماوات والأرض الـذي فطرهنَّ، المـالك الـرازق بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير..

لقـد استيقنت نفوسهم الحق المبين الـذي لا شبهة فيـه.. إنَّهم لا يريدون الإيمان، ولا يطلبون البرهان فهم يردُّون جحوداً ومكابـرة، فقالـوا وجدنا آباءنا قائمين على عبادة هذه الأوثان، وسؤالها وتقديسها والتمرغ على أعتابها، وتقديم القرابين لها.. هكذا أعلنوا في عبارة واهنة وكلمة واهية. لقد ساروا على الخط الذي درج عليه أسلافهم من الباطل. واعترفوا أنَّ ما هم عليه إن هو إلَّا تقليد وكفىٰ! فما أقبح ما اعترفوا به، وما أوهن ما نطقوا به!!!

ورأىٰ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أنَّه لما كان المنطق السليم لا يثمر ثمرتَه مع النفوس السقيمة والقلوب الصلدة المظلمة، أن يلجأ إلى طريقة عملية يفضح بها بهتان هذه العبادة وفسادهـا. فدبَّـر المكيدة المحكمـة لآلهتهم الصمَّاء الخرساء حتى يلمسوا بأيديهم ضعفها وذلَّتها، وحتى يروا أنَّها فعلاً لا تملك دفع الأذىٰ عن نفسها، ولا تلحق بهم ضـراً إذا تركـوا عبادتهـا، أو تكسبهم خيراً إذا عكفوا عليها وأخلصوا لها.

وها هو ذا إبراهيم يعلن لمن كان يواجههم من قومه بالحوار حول هذه الأصنام أنَّه قد اعتزم في شأن آلهتهم أمراً لا رجعـة فيه: **﴿وتـالله لأكيدنَّ أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾** [الأنبياء: ٥٧]..

ويترك ما اعتزمه من الكيد للأصنام مبهماً لا يفصح عنه.. ولا يذكر القرآن كيف ردُّوا عليه. ولعلَّهم كانوا مطمئنين إلى أنَّه لن يستطيع لآلهتهم كيداً. فتركوه!

ويمضي سياق القصة مباشرة في المشهد التالي إلى عزيمته التي قررها في نفسه تجاه هذا الإفك المكشوف:

﴿فنظر نظرة في النجوم. فقال: إنِّي سقيم. فتولوا عنه مدبرين. فراغ إلى آلهتهم فقال: ألا تأكلون؟ ما لكم لا تنطقون؟ فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾ [الصافَّات: ٨٨ - ٩٣]..

ويُروىٰ أنَّه كان للقوم عيد - ربما كان هو عيد النيروز - يخرجون فيه إلى الحدائق والخلوات، بعد أن يضعوا الثمار في بيت العبادة بين يدي آلهتهم لتباركها. ثمَّ يعودون بعد الفسحة والمرح فيأخذون طعامهم المبارك!

وأنَّ إبراهيم - عليه السَّلام - بعد أن يئس من استجابتهم له؛ وأيقن بانحراف فطرتهم الانحراف الذي لا صلاح له، اعتزم أمراً. وانتظر هذا اليوم الذي يبعدون فيه عن المعابد والأصنام لينفذ ما اعتزم. وكان الضيق بما فيه من انحراف قد بلغ منه أقصاه وأتعب قلبه وقواه، فلمَّا دُعي إلى مغادرة المعبد، قَلَّب نظره في السماء، وقال: **﴿إنِّي سقيم﴾**.. لا طاقة لي بالخروج إلى المتنزهات والخلوات. فإنَّما يخرج إليها طلاب اللذة والمتاع، أخلياء القلوب من الهم والضيق - وقلب إبراهيم لم يكن في راحة ونفسه لم تكن في استرواح. قال ذلك معبراً عن ضيقه وتعبه. وأفصح عنه ليتركوه وشأنه. ولم يكن هذا كذباً منه. إنَّما كان له أصل في واقع حياته في ذلك اليوم. وإنَّ الضيق ليمرض ويسقم ذويه!

يقول العلامة الشيخ الدكتور فضل حسن عباس عن يقظة إبراهيم - عليه السَّلام - ورجاحة عقله، وبُعد تفكيره، وحسن تخلصه، وشدة حرصه على دينه، وشدة قوته في محاربة الباطل «فلقد أراد أن يُشاغل قومه حتى لا يسير معهم إلى حيث يريدون فيحملهم على تركه لينفذ أمراً عزم عليه، لذلك نظر نظرة في علم النجوم وقد كانوا يعولون على هذا العلم، فأخبرهم أنَّ به سقماً يمنعه من أن يشاركهم مسيرتهم، ولا يظنَّنَّ ظان أنَّ ذلك كذب من

إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ، وإنَّما ذلك من باب التعريض والتعدية؛ فهو سقيم لعدم إيمانهم وتصديقهم بالحق وعبادتهم الباطلة، وهذا شأن الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ، بل هو شأن الدُّعاة والمصلحين، وقد حدثنا القرآن الكريم عما كان يختلج في نفس النبي ﷺ من ألم، وما يشعر به من حسرة حتى لقد كان ربه تبارك وتعالىٰ يهوِّن عليه ذلك ويسليه في كثير من آياته فيقول له: ﴿**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**﴾ كما يقول له: ﴿**لعلَّك باخع نفسك ألاَّ يكونوا مؤمنين**﴾ وفي آية أخرىٰ: ﴿**فلعلَّك تارك بعض ما يُوحىٰ إليك وضائق به صدرك**﴾ والآيات كثيرة، تلك التي جاءت تبدد الألم الذي كان يساور النَّبي ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ من عدم إيمان قومه به، وكذلك إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ؛ فهو سقيم حقاً..»[1]. وكان القوم معجلين ليذهبوا مع عاداتهم وتقاليدهم ومراسم حياتهم في ذلك العيد، فلم يتلبثوا ليفصحوا عن أمر إبراهيم، وما به من سقم، بل تولوا عنه مدبرين مشغولين بما هم فيه. وكانت هذه هي الفرصة التي يريد.

وذهب الناس وبقي إبراهيم في بيت الأصنام.. وأسرع إلى آلهتهم المدَّعاة. وأمامها أطايب الطعام وبواكير الثمار. فقال في تهكم: ﴿**ألا تأكلون؟**﴾.. ولم تُجبه الأصنام بطبيعة الحال. فاستطرد في تهكمه وعليه طابع الغيظ والسخرية: ألا تتكلمون؟ ألا تسمعون؟ ﴿**ما لكم لا تنطقون**﴾..

وهي حالة نفسية معهودة، أن يوجه الإنسان كلامه إلى ما يعلم حقيقته، ويستيقن أنَّه لا يسمع ولا ينطق! إنَّما هو الضيق بما وراء الآلهة المزعومة من القوم وتصورهم السخيف!..

وسكتت الأصنام وما نطقت فلم تجبه الآلهة المدَّعاة مرة أُخرىٰ!! وهنا فراغ شحنة الغيظ المكتوم حركة وقولاً: ﴿**فراح عليهم ضرباً باليمين**﴾

(١) القصص القرآني: ١٤٨ ـ ١٤٩.

[الصافَّات: ٩٣]. . وبكل قوة شدة يأخذ بتحطيم هذه الأصنام فكسَّرها، وتـرك إبراهيم الصنم الأكبـر ﴿**فجعلهم جُـذاذاً إلاَّ كبيـراً لهم لعلَّهم إليـه يرجعون**﴾ [الأنبياء: ٥٨]. .

وهكذا شفىٰ إبراهيم نفسه من السقم والهم والضيق. . . ! وغادر بيت الأصنام بعد أن تركها مبعثرة محطمة. . انصرف عنها وهو مـرتاح البـال. مطمئن القلب لعمله الذي استأصل به جذور الشرك، وطمس معالم الشر، فقـد تحولت الآلهـة المعبـودة إلى حـطام من قـطع صغيـرة من الحجـارة والأخشاب المهشمة. . إلاَّ كبير الأصنام فقـد تركـه إبراهيم ﴿**لعلَّهم إليـه يرجعون**﴾ فيسألونه كيف وقعت الواقعة. ونزلت هذه النازلة الماحقـة وهو حاضر فلم يدفع عن صغار الآلهة! ولعلَّهم حينئذٍ يراجعون القضية كلها، فيرجعون إلى صـوابهم، ويدركـون منه مـا في عبادة الأصنـام من سخف وتهافت. وينتهي هذا المشهد فيليه مشهد جديد. وقد عاد القوم فـاطّلعوا على جذاذ الآلهة!

ولمَّا رجع القوم من عيدهم، ودخلوا إلى معبدهم. وشاهدوا ما حَلَّ بمعبوداتهم فَذُهِلُوا وفزعوا، فوجئوا بآلهتهم أنقاضاً متفرقة، وأشلاء ممزقة. .

لقد عادوا ليروا الآلهة جذاذاً إلاَّ ذلك الكبير! ولكنهم لم يرجعوا إليه يسألونه ولا إلىٰ أنفسهم يسألونها: إن كانت هذه آلهة فكيف وَقَعَ لها ما وقع دون أن تدفع عن أنفسها شيئاً. وهذا كبيرها كيف لم يدفع عنها؟

لم يسألوا أنفسهم هذا السؤال، لأنَّ الخرافة قد عطلت عقولهم عن التفكير، ولأنَّ التقليد قد غَلَّ أفكارهم عن التأمُّل والتدبر. فإذا هم يدعون هذا السؤال الطبيعي لينقموا على من حَطَّم آلهتهم، وصنع بها هذا الصنيع ﴿**قالوا: من فَعَل هـٰذا بآلهتنا إنَّه لمن الظَّالمين**﴾ [الأنبياء: ٥٩]. .

مَن الذي عَدا على آلهتنا فأوردها موارد الهلكة؟ وتساءل القوم عمَّن

قَوي على الآلهة فَدمرهَا. . إنَّه لمن الظالمين وإنَّه لا بد أن يلقى جزاء فعله وعاقبة مكره. .

عندئذٍ تذكر الذين سمعوا إبراهيم يُنكر على أبيه ومن معه عبادة هذه التماثيل، ويتوعدهم أن يكيد لآلهتهم بعد انصرافهم عنها!

﴿قالوا: سمعنا فتىً يذكرهم يُقال له إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٠]. .

ويبدو من هذا أنَّ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ كان شاباً صغير السن، حين آتاه الله رشده، فاستنكر عبادة الأصنام وحطمها هذا التحطيم.

ولكن أكان قد أُوحي إليه بالرسالة في ذلك الحين؟ أم هو إلهام هداه الله إلى الحق قبل الرسالة. فدعا إليه أباه، واستنكر على قومه ما هم فيه؟ ولعلَّ هذا هو الأرجح. .

وهناك احتمال أن يكون قولهم: ﴿سمعنا فتىً﴾ يُقصد به إلى تصغير شأنه بدليل تجهيلهم لأمره في قولهم: ﴿يقال له إبراهيم﴾! للتقليل من أهميته، وإفادة أنَّه مجهول لا خَطَر له؟ قد يكون. ولكننا نرجح أنَّه كان فتىً حديث السن في ذلك الحين.

لقد عرفوا من المجترىء على آلهتهم، المتطاول على مقام معبوداتهم. فاعتزموا أن ينزلوا به أشد العقاب، وثار القوم في غضب وكيد ﴿فأقبلوا إليه يزفون﴾ [الصافَّات: ٩٤]. . أقبلوا إليه يسرعون الخُطىٰ ويحدثون حوله زفيفاً. . وهم جمع كثير غاضب هائج، وهو فرد واحد، ولكنه فرد مؤمن. فرد يعرف طريقه. فرد واضح التصور لإلٰهه. عقيدته معروفة له محدودة. يدركها في نفسه، ويراها في الكون من حوله. فهو أقوىٰ من هذه الكثرة الهائجة المائجة، المدخولة العقيدة، المضطربة التصور. .

وقصد القوم التشهير بإبراهيم، وإعلان فعلته على رؤوس الأشهاد ﴿قالوا: فأتوا به على أعين الناس لعلَّهم يشهدون﴾ [الأنبياء: ٦١]. .

وسمع الناس النداء فتقاطرت وفودهم. وتكاثرت جموعهم. وفي نفوس القوم رغبة متأججة لمشاهدة القصاص من ذلك الفتىٰ الذي حطّم آلهتهم المدَّعاة، وشذَّ عن التقاليد الفاسدة والعادات الموروثة.

ولا شك أنَّ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لم يكن أقل منهم رغبة في عقد هذا المشهد على أعين الناس. فهي أُمنية الداعية الواثق بربه أن يحتشد هذا الجمع الغفير. ليقيم حجة الله عليهم جميعاً على بطلان ما ورثوا من عقائد زائفة، وليؤكد لهم فساد ما هم عليه من خرافة وتقليد.

المحاكمة والكيد الضعيف:

وجاؤوا به على أعين الناس ليشهدوا مصيره وعاقبته. وابتدأت المحاكمة، ﴿قالوا: أأنتَ فعلتَ هـٰذا بآلهتنا يَـٰا إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٢]. .

فهم ما يزالون يصرون على أنَّها آلهة وهي جذاذ مهشمة. فأمَّا إبراهيم فهو يتهكم بهم ويسخر منهم، وهو فرد وحده وهم كثير. ذلك أنَّه ينظر بعقله المفتوح وقلبه الواصل فلا يملك إلاَّ أن يهزأ بهم ويسخر، وأن يجيبهم إجابة تناسب هذا المستوىٰ العقلي الدون في هدوء وبساطة لا يبالي كثرتهم وهياجهم وزفيفهم:

﴿قال: بل فعله كبيرهم هـٰذا. فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ [الأنبياء: ٦٣]. .

والتهكم واضح في هذا الجواب الساخر. فلا داعي لتسمية هذه كذبة من إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ والبحث عن تعليلها بشتَّىٰ العلل التي اختلف عليها المفسرون. فالأمر أيسر من هذا بكثير! إنَّما أراد أن يقول لهم: إنَّ هذه التماثيل لا تدري من حطمها إن كنت أنا أم هذا الصنم الكبير الذي لا يملك مثلها حراكاً. فهي جماد لا إدراك له أصلاً. وأنتم كذلك مثلها مسلوبو الإدراك لا تميزون بين الجائز والمستحيل. فلا تعرفون إن كنت أنا الذي

حطمتها أم إن هذا التمثال هو الذي حطمها: **﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾**!

ويبدو أنَّ هذا التهكم الساخر قد هزَّهم هزاً، وردهم إلى شيء من التدبر والتفكر: **﴿فرجعوا إلى أنفسهم، فقالوا: إنَّكم أنتم الظالمون﴾** [الأنبياء: ٦٤].. وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما في موقفهم من سخف، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم. وأن تتفتح بصيرتهم لأول مرة فيتدبروا ذلك السخف الذي يأخذون به أنفسهم، وذلك الظلم الذي هم فيه سادرون.

ولكنهم لم تكن إلَّا ومضة واحدة أعقبها الظلام، وإلَّا خفقة واحدة عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود:

﴿ثمَّ نُكسوا على رؤوسهم. لقد علمت ما هٰؤلاء ينطقون﴾ [الأنبياء: ٦٥]..

وحقاً لقد كانت الأُولىٰ رجعة إلى النفوس، وكانت الثانية نكسة على الرؤوس؛ كما يقول التعبير القرآني المصور العجيب.. كانت الأُولىٰ حركة في النفس للنظر والتدبر. أمَّا الثانية فكانت انقلاباً على الرأس فلا عقل ولا تفكير. وإلَّا فإنَّ قولهم هذا الأخير هو الحجة عليهم. وأية حجة لإبراهيم أقوىٰ من أنَّ هؤلاء لا ينطقون؟!

ثمَّ يواجههم إبراهيم بالحق الفطري البسيط: **﴿قال: أتعبدون ما تنحتون؟ والله خلقكم وما تعملون؟﴾** [الصافات: ٩٥، ٩٦]..

إنَّه منطق الفطرة يصرخ في وجههم **﴿أتعبدون ما تنحتون؟﴾**.. والمعبود الحق ينبغي أن يكون هو الصانع لا المصنوع **﴿والله خلقكم وما تعملون﴾**. فهو الصانع الوحيد الذي يستحق أن يكون المعبود.

ومع وضوح هذا المنطق وبساطته، إلَّا أنَّ القوم في غفلتهم وفي اندفاعهم لم يستمعوا له ـ ومتى استمع الباطل إلى صوت الحق البسيط؟ ـ،

ومن ثمَّ يجبههم بعنف وضيق على غير عادته وهو الصبور الحليم. لأنَّ السخف هنا يجاوز صبر الحليم: **﴿قال: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم؟ أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾**؟ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧]..

وهي قولة يظهر فيها ضيق الصدر، وغيظ النفس، والعجب من السخف الذي يتجاوز كل مألوف. عند ذلك أخذتهم العزة بالإثم كما تأخذ الطغاة دائماً حين يفقدون الحجة ويعوزهم الدليل، فيلجأون إلى القوة الغاشمة والعذاب الغليظ: **﴿قالوا: ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم﴾** [الصافات: ٩٧]..

إنَّه منطق الحديد والنار الذي لا يعرف الطغاة منطقاً سواه؛ عندما تعوزهم الحجة وقد سُدَّ عليهم السبيل إلى دليل: **﴿قالوا: حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾** [الأنبياء: ٦٨]..

وهكذا اندفع أصحاب الأمر والنهي فيهم يزاولون طغيانهم في صورته الغليظة، لجأوا إلى القوة والبطش، وكذلك أهل الباطل في كل زمان حينما يعجزون عن مجابهة الحجج، وحينما يدركون أنَّهم في عماية ولجج، فإنَّهم يعمدون إلى النكاية المادية ومحاولة التصفية الجسدية، ذلك ما تحدّثنا عنه قصص الرَّحمـٰن وشواهد التاريخ قديماً وحديثاً، بل ذلك ما يشهد به الواقع حينما لا يجد الحق عنه أي مدافع، كذلك قوم إبراهيم، فما وجدوا غير البطش الشديد. فتواصوا ببنيان يبنونه، وكيد لإبراهيم يريدونه، فليسعروا ذلك البنيان بالنار حتى تصير جحيماً، فليلقوا فيها إبراهيم.. **﴿قالوا: حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾**..

فيا لها من آلهة ينصرها عبادها، وهي لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضرّاً؛ ولا تحاول لها ولا لعبادها نصراً!

﴿قالوا: حرِّقوه﴾ ولكن كلمة أُخرىٰ قد قيلت.. فأبطلت كل قول،

وأحبطت كل كيد. ذلك أنَّها الكلمة العليا التي لا تُرد: ﴿قلنا﴾ : ﴿يَا نار كوني برداً وَسلاماً على إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٩]. .

ها هو ذا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ في وسط النار المتأججة. . وبقدرة العلي القدير تذهب عن النار فاعليتها وحدتها. وتخمد منها حرارتها، فيحفظ الله نبيه إبراهيم من فعلها، وينقذه من لظاها وسعيرها، ويجعلها برداً وسلاماً. . فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم.

كيف؟

ولماذا نسأل عن هذه وحدها. و« كوني » هذه هي الكلمة التي تكون بها أكوان، وتنشأ بها عوالم، وتخلق بها نواميس: ﴿إنَّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون﴾ [يس: ٨٢]. .

فلا نسأل: كيف لم تحرق النار إبراهيم، والمشهود المعروف أنَّ النار تحرق الأجسام الحية؟ فالذي قال للنار: كوني حارقة. هو الذي قال لها: كوني برداً وسلاماً. وهي الكلمة الواحدة التي تنشىء مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول. مألوفاً للبشر أو غير مألوف. إنَّ الذين يقيسون أعمال الله ـ سبحانه ـ إلى أعمال البشر هم الذين يسألون: كيف كان هذا؟ وكيف أمكن أن يكون؟ فأمَّا الذين يدركون اختلاف الطبيعتين، واختلاف الأداتين، فإنَّهم لا يسألون أصلاً، ولا يحاولون أن يخلقوا تعليلاً علمياً أو غير علمي. فالمسألة ليست في هذا الميدان أصلاً. ليست في ميدان التعليل والتحليل بموازين البشر ومقاييس البشر. وكل منهج في تصور مثل هذه المعجزات غير منهج الإحالة إلى القدرة المطلقة هو منهج فاسد من أساسه، لأنَّ أعمال الله غير خاضعة لمقاييس البشر وعلمهم القليل المحدود.

إنَّ علينا فقط أن نؤمن بأنَّ هذا قد كان، لأنَّ صانعه يملك أن يكون. أمَّا كيف صنع بالنار فإذا هي برد وسلام؟ وكيف صنع بإبراهيم فلا تحرقه النار. فذلك ما سكت عنه النص القرآني لأنَّه لا سبيل إلى إدراكه بعقل

البشر المحدود. وليس لنا سوى النص القرآني من دليل.

وما كان تحويل النار برداً وسلاماً على إبراهيم إلاَّ مثلاً تقع نظائره في صور شتّى. ولكنها قد لا تهز المشاعر كما يهزها هذا المثل السافر الجاهر. فكم من ضيقات وكربات تحيط بالأشخاص والجماعات من شأنها أن تكون القاصمة القاضية، وإن هي إلاَّ لفتة صغيرة، فإذا هي تحيي ولا تميت، وتنعش ولا تخمد، وتعود بالخير وهي الشرّ المستطير.

إنَّ **﴿يَا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾** لتتكرر في حياة الأشخاص والجماعات والأمم؛ وفي حياة الأفكار والعقائد والدعوات. وإن هي إلاَّ رمز للكلمة التي تبطل كل قول، وتحبط كل كيد، لأنَّها الكلمة العليا التي لا ترد!

﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾ [الأنبياء: ٧٠]..

وقد روي أنَّ الملك المعاصر لإبراهيم كان يلقب «بالنمرود» وهو ملك الآراميين بالعراق. وأنَّه قد أُهلك هو والملأ من قومه بعذاب من عند الله. تختلف الروايات في تفصيلاته، وليس لنا عليها من دليل. المهم أنَّ الله قد أنجى إبراهيم من الكيد الذي أُريد به، وباء الكائدون له بخسارة ما بعدها خسارة **﴿فجعلناهم الأخسرين﴾** هكذا على وجه الإطلاق دون تحديد!

وهكذا كما بطلت حجة القوم الكافرين من قبل فلم يستطيعوا أن يقابلوا إبراهيم بمنطق.. أبطل الله كيدهم الذي أرادوه كذلك **﴿فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا: اقتلوه أو حرِّقوه. فأنجاه الله من النار. إنَّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾** [العنكبوت: ٢٤]..

وقد كشف القرآن عن هذا الجواب الغريب العجيب الذي يحمل تبجح الكفر والطغيان، بما يملك من قوة وسلطان..

لقد كان رد القوم على دعوة التوحيد ومنطق الفطرة الفريد: اقتلوه أو

حرِّقوه. . جواباً على تلك الدعوة الواضحة البسيطة المرتبة التي خاطب بها إبراهيم قلوبهم وعقولهم على النحو الذي بينًا. .

وإذ إنَّ الطغيان أسفر عن وجهه الكالح؛ ولم يكن إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ يملك له دفعاً، ولا يستطيع منه وقاية. وهو فرد أعزل لا حول له ولا طول. . فهنا تتدخل القدرة سافرة كذلك. تتدخل بالمعجزة الخارقة لمألوف البشر فأنجاه الله من النار. . وكانت نجاته من النار على النحو الخارق ـ كما تقدَّم ـ الذي تمَّت به آية لمن تهيأ قلبه للإيمان. ولكن القوم لم يؤمنوا على الرغم من هذه الآية الخارقة، فدلَّ هذا على أنَّ الخوارق لا تهدي القلوب، إنَّما هو الاستعداد للهدىٰ والإيمان: **﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون﴾**. .

الآية الأُولىٰ هي تلك النجاة من النار. والآية الثَّانية هي عجز الطغيان عن إيذاء رجل واحد يريد الله له النجاة. . والآية الثالثة هي أنَّ الخارقة لا تهدي القلوب الجاحدة. ذلك لمن يريد أن يتدبر تاريخ الدعوات، وتصريف القلوب، وعوامل الهدى والضلال. ثمَّ يمضي القرآن في توكيد وحسم أخير: **﴿فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين﴾** [الصافَّات: ٩٨]. .

إنَّه يعرض العاقبة التي تُحقِّق وعد الله لعباده المخلصين ووعيده لأعدائه المكذبين. . **﴿فجعلناهم الأسفلين﴾** وأين يذهب كيد العباد إذا كان الله يريد؟ وماذا يملك أُولئك الضعاف المهازيل ـ من الطغاة والمتجبرين وأصحاب السلطان وأعوانهم من الكبراء ـ إذا كانت رعاية الله تحوط عباده المخلصين؟. .

ويمضي القرآن الكريم في القصة بعد نجاة إبراهيم من النار. . **﴿فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا: اقتلوه أو حرِّقوه. فأنجاه الله من النار. إنَّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون. . . وقال: إنَّما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا، ثمَّ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم**

بعضاً، ومأواكم النار، وما لكم من ناصرين﴾ [العنكبوت: ٢٤، ٢٥]. .

لقد يئس إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ من إيمان القوم الذين لم تلن قلوبهم للمعجزة الواضحة. فإذا هو يجبههم بحقيقة أمرهم، قبل أن يعتزلهم جميعاً: **﴿وقال: إنَّما اتَّخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا. .﴾** . .

إنَّه يقول لهم: إنَّكم اتخذتم الأوثان من دون الله، لا اعتقاداً واقتناعاً بأحقية هذه العبادة؛ إنَّما يجامل بعضكم بعضاً. ويوافق بعضكم بعضاً، على هذه العبادة؛ ولا يريد الصاحب أن يترك عبادة صاحبه ـ حين ظهر الحق له ـ استبقاء لما بينكم من مودة على حساب الحق والعقيدة! وإنَّ هذا ليقع في الجماعات التي لا تأخذ العقيدة مأخذ الجدّ، فيسترضي الصاحب صاحبه على حساب العقيدة؛ ويرى أمرها أهون من أن يُخالف عليه صديقه! وهي الجدّ كل الجدّ، الجد الذي لا يقبل تهاوناً ولا استرخاءً ولا استرضاءً.

ثمَّ يكشف لهم عن صفحتهم في الآخرة، فإذا المودة التي يخشون أن يمسوها بالخلاف على العقيدة، والتي يبقون على عبادة الأوثان محافظة عليها. . إذا هي يوم القيامة عداء ولعن وانفصام:

﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ . .

يوم يتنكر التابعون للمتبوعين، ويكفر الأولياء بالأولياء، ويتهم كل فريق صاحبه أنَّه أضله، ويلعن كل غوي صاحبه الذي أغواه!

ثمَّ لا يجدي ذلك الكفر والتلاعن شيئاً، ولا يدفع عن أحد عذاباً:

﴿ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾ . .

النار التي أرادوا أن يحرقوه بها، فنصره الله منها ونجاه. فأمَّا هم فلا نصرة لهم ولا نجاة!

النار التي أرادوا أن يعذبوه بها، فجعلها الله برداً وسلاماً عليه. فأمَّا هم

فسيلاقون النار التي وقودها الناس والحجارة. . النار التي يقيمون عليها فهم فيها خالدون في عذاب أليم. . النار التي هي طعامهم وشرابهم. . شراباً حميماً ساخناً يقطع أمعاءهم ويحرق كيانهم، يشوي الحلوق والبطون. . هؤلاء يقذفون في النار يتكدسون فيها وهي تتلمظ وتتحرق وتحرقهم. . النار التي يواجهون لا يملكون دفعها أبداً، فهم في أمر داهم قاصم، ليس منه واق ولا عاصم. . النار التي جعلها الله للطاغين مآباً، لابثين فيها أحقاباً لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلَّا حميماً وغسّاقاً جزاءً وفاقاً. . النار التي خُلقت ووجدت تنتظرهم وتترقبهم فإليها يَنتهون. . النار للإقامة الطويلة المتجددة أحقاباً بعد أحقاب. . نار الله الموقدة التي تطَّلع على الأفئدة. إنَّها عليهم مؤصدة في عَمَدٍ ممددة. . النار تحرق تلك الأفئدة المنكوسة المطموسة التي خربها العمىٰ والهوىٰ. . النار جزاء للرؤوس التي انحنت للأوثان بعد نداء العقيدة بأوضح بيان. . النار مغلقة عليهم، لا ينقذهم منها أحد، ولا يسأل عنهم فيها أحد. . **﴿ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾**. .

الحلقة الثانية:

الهجرة إلى الله :

ثمَّ تجيء الحلقة الثانية من قصة إبراهيم. . لقد انتهىٰ أمره مع أبيه وقومه. لقد أرادوا به الهلاك في النار التي أسموها الجحيم، وأراد الله أن يكونوا هم الأسفلين؛ ونجّاه من كيدهم أجمعين.

عندئذٍ استدبر مرحلة من حياته ليستقبل مرحلة؛ وطوىٰ صفحة لينشر صفحة:

﴿وقال: إنِّي ذاهب إلىٰ ربِّي سيهدين﴾ [الصافَّات: ٩٩]. .

هكذا. . إنِّيَ ذاهب إلى ربِّي. . إنَّها الهجرة. . وهي هجرة نفسية قبل

أن تكون هجرة مكانية. هجرة يترك وراءه فيها كل شيء من ماضي حياته. يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه وكل ما يربطه بهذه الأرض، وبهؤلاء الناس. ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل. ويهاجر إلى ربه متخففاً من كل شيء، طارحاً وراءه كل شيء، مسلماً نفسه لربه لا يستبقي منها شيئاً. موقن أنَّ ربه سيهديه، وسيرعىٰ خطاه، وينقلها في الطريق المستقيم.

إنَّها الهجرة الكاملة من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، ومن أواصر شتىٰ إلى آصرة واحدة لا يزحمها في النفس شيء. إنَّه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين.

لقد ذهب إبراهيم إلى الله حقاً، وقد خلص قلبه من أوهاق الأرض وتعلق بالسماء، ترف أشواقه حولها، يتطلع إلى خالقه في علاه، بلا عائق يحول بين قلبه وبين الانطلاق إلى ربه ﴿إنِّي ذاهب إلىٰ ربِّي سيهدين﴾..

هاجر إلى الله وهو مطمئن باليقين الذي يُحيي القلب فيرىٰ ويدرك.. لقد بَيَّنَ هذا النبي المصطفىٰ المختار المقصود من خلافة الأرض وتعميرها. بيَّن ذلك سلوكاً، فكان قدوة وإماماً كما عَلَّمه الله، لقد أوضح بسيرته الشريفة أنَّ المقصود ليس هو إهمال الأرض وأسبابها، إنَّما المقصود هو ألاَّ يُعلِّق نفسه بها، وألا يغفل عن الله في عمارتها. ليعمل في الأرض وهو يتطلع إلى السماء، وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنَّ الله وراءها، فالأمر كله بيد الله رب العالمين يعطي ويهب، ويأخذ ويدع، متى يشاء وحين يشاء.. كلمته قادرة وحكمه نافذ قاهر، وما وَعَدَ الله لا بد أن يكون..

لقد انطلق إبراهيم من إسار الأسباب الظاهرة في الأرض، وكان يرف بأجنحة من هذه الأسباب إلى ملكوت الله، يرىٰ في الأسباب آيات تنطق وتدل على خالق الأسباب، فعاش موصولاً قلبه بالله.. قدماه ثابتتان على الأرض وروحه موصولة برب السماء.

لقد ذهب إبراهيم إلى ربه متجرداً من كل ما يثقل روحه ويقيدها،

موحداً لله، مسلماً للذي خلق كل شيء وحده لا شريك له. له الحكم وإليه المرجع والمآب.

هاجر إبراهيم وفي النفس معنى العبودية لله واقعاً وشعوراً. وقد استقرَّ في كيانه أنَّ هناك في هذا الوجود عبداً ورباً. عبداً يَعبد. ورباً يُعبد. وأن ليس وراء ذلك شيء؛ وأن ليس هناك إلَّا هذا الوضع وهذا الاعتبار، ليس في هذا الكون إلَّا عابد ومعبود؛ وإلَّا رب واحد والكل له عبيد.

ذهب إبراهيم إلى ربه وتوجَّه إليه بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة، توجه بكل شيء إلى الله خالصاً، تجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله..

بهذا وذاك بلغ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ما بلغ من إكرام ومكانة عند الله في الأرض وفي السماء.. لقد صبر على الشدائد ورضي بِقَدَر الله فكانت حياته كلها طاعة لله وعبادة له، لا أرب له فيها، ولا غاية له من ورائها، إلَّا الطاعة والاستسلام **﴿إذ قال له ربه أسلم. قال: أسلمتُ لله رب العالمين﴾** [البقرة: ١٣١]..

لقد وجد إبراهم الطمأنينة والرضىٰ في نفسه وروحه، وجد أُنساً برضىٰ الله عنه، ورعايته له ولذريته، ثمَّ يجد في هذا الإسلام لله، في الآخرة، تكريماً ونعيماً وفضلاً عظيماً.

إنَّ مدلول قول إبراهيم **﴿إنِّي ذاهب إلى ربِّي سيهدين﴾** لمدلول عظيم. يتجلىٰ في قوله كل معاني العبودية والاستسلام، والثقة المطلقة واليقين الجازم بالله.. فقد جاهد طويلاً ليصل إلى الله ويتصل به، احتمل في جهاده ما احتمل، فلم ينكص ولم ييأس، صبر على فتنة النفس ورغائبها، وعلى فتنة أبيه وتهديده، وعلى فتنة الناس عبدة الأوثان، الذين واجههم بالكلمة المطمئنة الهادئة ثمَّ بالحسم والعزم الشديد.. سار في دعوته في طريق شاق طويل وغريب، في بيئة منتكسة العقل ومرتكسة

التفكير. حتى ألقوه في النار فنجاه الله برحمة منه ورضوان.

ذهب إبراهيم إلى الله صدقاً. . ذهب مهاجراً من أوهاق الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملفتة. فقد اعتزل أباه وقومه وعبادتهم وآلهتهم، وهجر أهله ودياره. . تحرر من الأوهاق الأرضية والأثقال النفسية، وخلص لله فكان عبداً له، جاء إلى ربه بقلب منيب سليم، فقام بما خُلق له، وحقق غاية وجوده، ونهض بأمر رب العالمين يدعو إليه برضىٰ واستسلام.

وهو مع هذا لم يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه وآماله حدود العبد. فهو يعلم أنَّ الله ربه، فلم يتقحم فيما هو من شؤون الرب، واستقرت مشاعره عند هذا الحد، ورضي الله عنه، ورضي هو عن الله.

وهكذا تتجلىٰ جوانب من تلك الحقيقة الضخمة الهائلة التي تقررها آية واحدة: ﴿**إنِّي ذاهب إلىٰ ربِّي سيهدين**﴾. . وهي حقيقة كفيلة أن تغير وجه الحياة كلها عندما تستقر في الضمير. .

وهكذا لمَّا ضاقت الحياة بإبراهيم مع هؤلاء الوثنيين الجاحدين اعتزلهم وما يعبدون من دون الله، فرَّ بدينه متنقلاً من مكان إلى مكان، فرحل من العراق إلى الشام، ومعه زوجه سارة، وابن أخيه لوط. يقول سبحانه وتعالىٰ عن ذلك: ﴿**فآمن له لوط. وقال: إنِّي مهاجر إلى ربِّي إنَّه هو العزيز الحكيم**﴾ [العنكبوت: ٢٦]. .

لقد انتهت دعوة إبراهيم لقومه، والمعجزة التي لا شك فيها. انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط. ابن أخيه فيما تذكر بعض الروايات. وهاجر معه من أور الكلدانيين في العراق إلى ما وراء الأردن حيث استقرَّ بهما المقام. . ﴿**ونجَّيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين**﴾ [الأنبياء: ٧١]. .

وهي أرض الشام التي هاجر إليها هو وابن أخيه لوط. فكانت مهبط

الـوحي فتـرة طـويلة، ومبعث الـرسـل من نسـل إبـراهيم. وفيهـا الأرض المقدسة. وثالث الحرمين. وفيها بركة الخصب والرزق، إلى جانب بركة الوحي والنبوة جيلاً بعد جيل.

وكان إبراهيم حتى هذه اللحظة ـ حين اعتزل أباه وقومه ـ وحيداً لا عقب له؛ وهو يترك وراءه أواصر القربىٰ والأهل، والصحبة والمعرفة. وكل مألوف له في ماضي حياته، وكل ما يشده إلى الأرض التي نشأ فيها، والتي انحسم ما بينه وبين أهلها الذين ألقوه في الجحيم! فاتجه إلى ربه الـذي أعلن أنه ذاهب إليه. اتجه إليه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح: **﴿ربِّ هب لي من الصالحين﴾** [الصافَّات: ١٠٠]..

حقيقة الإيمان. وجمال الطاعة. وعظمة التسليم:

لقد ترك إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وطناً وأهلاً وقوماً. فعوَّضه الله الأرض المباركة وطناً خيراً من وطنه وعوَّضه أهلاً خيراً من أهله. وعوَّض من ذريته أُمة عظيمة العدد قوماً خيراً من قومه. وجعل من نسله أئمَّة يهدون الناس بـأمر الله، وأوحىٰ إليهم أن يفعلوا الخيـرات على اختلافهـا، وأن يقيمـوا الصلاة، ويؤتوا الزكاة. وكانوا طائعين لله عابـدين.. فَنِعْمَ العوض، ونعم الجزاء، ونعمت الخاتمـة التي قسمها الله لإبـراهيم. لقد ابتـلاه بالضـراء فصبر، فكانت الخاتمة الكريمة اللائقة بصبره الجميل..

وهكذا اعتزل إبراهيم أهله وقومه الوثنيـين وخرج فارّاً بدينه إلى ربه يسأله الهدىٰ والذرية المسلمة وقد عاش ـ عليه السَّلام ـ مدة طويلة دون أن يرزقه بولد من زوجته سارة، وكانت سارة حزينة من أجـل ذلك، فـوهبت لزوجها إبراهيم جاريتها هاجر فتزوجها.. وها هـوذا إبراهيم العبـد الأوَّاه المنيب يسأل ربه الذرية الصالحة:

﴿ربِّ هب لي من الصالحين﴾ [الصافَّات: ١٠٠]..

واستجاب الله دعاء عبده الصالح المتجرد، الذي ترك وراءه كل شيء، وجاء إليه بقلب سليم..

﴿فبشَّرناه بغلام حليم﴾ [الصافَّات: ١٠١]..

هو إسماعيل - كما يرجح سياق السيرة وسورة الصافَّات وسنرىٰ آثار حلمه الذي وصفه ربه وهو غلام. ولنا أن نتصور فرحة إبراهيم الوحيد المفرد المهاجر المقطوع من أهله وقرابته. لنا أن نتصور فرحته بهذا الغلام، الذي يصفه ربه بأنَّه حليم.

والآن آن أن نطلع على الموقف العظيم الكريم الفريد في حياة إبراهيم. بل في حياة البشر أجمعين. وآن أن نقف من سياق القصة في القرآن أمام المَثَل الموحي الذي يعرضه الله للأُمَّة المسلمة من حياة أبيها إبراهيم..

﴿فلمَّا بلغ معه السعي. قال: يَا بنيَّ إنِّي أرىٰ في المنام أنِّي أذبحك، فانظر ماذا ترىٰ. قال: يَا أبتِ افعل ما تؤمر: ستجدني إن شاء الله من الصَّابرين﴾ [الصافَّات: ١٠٢]..

يا لله! ويا لروعة الإيمان والطاعة والتسليم..

هذا إبراهيم الشيخ. المقطوع من الأهل والقرابة. المهاجر من الأرض والوطن. ها هو يرزق في كبرته وهرمه بغلام. طالما تطلع إليه. فلمَّا جاءه جاء غلاماً ممتازاً يشهد له ربه بأنَّه حليم. وها هو ذا ما يكاد يأنس به، وصباه ينفتح، ويبلغ معه السعي، ويرافقه في الحياة.. ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد، حتى يرىٰ في منامه أنَّه يذبحه. ويدرك أنَّها إشارة من ربه بالتضحية. فماذا؟

إنَّه لا يتردد، ولا يخالجه إلَّا شعور الطاعة، ولا يخطر إلَّا خاطر التسليم.. نعم إنَّها مجرد إشارة.. مجرد إشارة.. وليست وحياً صريحاً، ولا أمراً مباشراً. ولكنها إشارة من ربه.. وهذا يكفي.. هذا يكفي ليلبي

ويستجيب. ودون أن يعترض. ودون أن يسأل ربه. . لماذا يا ربي أذبح ابني الوحيد؟!

ولكنـه لا يلبي في انزعـاج، ولا يستسلم في جزع، ولا يـطيع في اضطراب. . كلا إنَّما هو القبول والرضىٰ والطمأنينة والهدوء. يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب:

﴿**قال: يَـا بنيَّ إنِّي أرىٰ في المنام أنِّي أذبحك. فانظر ماذا ترىٰ**﴾. .

فهي كلمات المالِك لأعصابه، المطمئن للأمر الذي يواجهه، الواثق بأنَّه يؤدي واجبه. وهي في الوقت ذاته كلمات المؤمن، الذي لا يهوله الأمر فيؤديه، في اندفـاع وعجلة ليخلص منه وينتهي، ويستـريح من ثقله على أعصابه!

والأمر شاق ـ ما في ذلك شك ـ فهو لا يطلب إليه أن يـرسل بـابنه الوحيد إلى معركة. ولا يطلب إليه أن يكلفه أمراً تنتهي بـه حياتـه. . إنَّما يطلب إليه أن يتولىٰ هو بيده. يتولىٰ ماذا؟ يتولىٰ ذبحه. . وهو ـ مع هذا ـ يتلقىٰ الأمر هذا التلقي، ويعرض على ابنه هذا العرض؛ ويطلب إليه أن يتروّىٰ في أمره، وأن يرىٰ فيه رأيه!

إنَّه لا يأخذ ابنه على حين غرة لينفذ إشارة ربه. وينتهي. إنَّما يعرض الأمر عليه كالذي يعرض المألوف من الأمر. فالأمر في حسه هكذا. ربـه يريد. فليكن ما يريد. على العين والرأس. وابنه ينبغي أن يعرف. وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلاماً، لا قهراً واضطراراً. لينال هو أجر الطاعة، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم! إنَّه يحب لابنه أن يتذوق لـذة التطوع التي ذاقها؛ وأن ينال الخير الذي يراه هو أبقىٰ من الحياة وأقنىٰ. .

فماذا يكون من أمر الغلام، الذي يعرض عليه الذبح، تصديقاً لرؤيا رآها أبوه؟

إنَّه يرتقي إلى الأُفق الذي ارتقىٰ إليه من قبل أبوه:

﴿قال: يَـا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ـ إن شاء الله من الصَّابرين﴾..

إنَّه يتلقىٰ الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب، ولكن في رضىٰ كذلك وفي يقين..

﴿يَـا أبت﴾.. في مودة وقربىٰ. فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده. بل لا يفقده أدبه ومودته.

﴿افعل ما تؤمر﴾.. فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبيه. يحس أنَّ الرؤيا إشارة. وأنَّ الإشارة أمر. وأنَّها تكفي لكي يلبي وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب.

ثمَّ هو الأدب مع الله، ومعرفة حدود قدرتـه وطاقتـه في الاحتمال؛ والاستعانة بربه على ضعفه ونسبة الفضل إليه في إعـانته على التضحيـة، ومساعدته على الطاعة:

﴿ستجدني إن شاء الله من الصَّابرين﴾..

ولم يأخذها بطولة.. ولم يأخذها شجاعة. ولم يأخذها اندفاعاً إلى الخطر دون مبالاة. ولم يظهر لشخصه ظلاً ولا حجماً ولا وزناً.. إنَّما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه، وأصبره على ما يراد به..

يا للأدب مع الله! ويا لروعة الإيمان. ويا لنبل الطاعة.. ويا لعظمة التسليم!

ويخـطو المشهد خـطوة أُخرىٰ وراء الحـوار والكلام.. يخـطو إلى التنفيذ:

﴿فلمَّا أسلما وتلَّه للجبين﴾ [الصَّافات: ١٠٣]..

ومرة أُخرىٰ يرتفع نبل الطاعة.. وعظمة الإيمان.. وطمأنينة الرضىٰ وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان..

إنَّ الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعداداً. وإنَّ الغلام يستسلم

فلا يتحرك اقتناعاً. وقد وصل الأمر إلى أن يكون عياناً. لقد أسلما. . فهذا هو الإسلام. هذا هو الإسلام في حقيقته. ثقة وطاعة وطمأنينة ورضىٰ وتسليم. . وتنفيذ. . وكلاهما لا يجد في نفسه إلاَّ هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم. .

إنَّها ليست الشجاعة والجراءَة. وليس الاندفاع والحماسة. لقد يندفع المجاهد في الميدان، يَقتل ويُقتل. ولقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنَّه قد لا يعود. ولكن هذا كله شيء والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر. . ليس هنا دم فائر، ولا حماسة دافعة ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص!

إنَّما هو الاستسلام الواعي المتعقل القاصد المريد، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون. لا بل هنا الرضىٰ الهادىء المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل!

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أدّيا. كانا قد أسلما. كانا قد حقّقا الأمر والتكليف. . ولم يكن باقياً إلاَّ أن يذبح إسماعيل، ويسيل دمه، وتزهق روحه. . وهذا أمر لا يعني شيئاً في ميزان الله، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما. .

كان الابتلاء قد تمَّ. والامتحان قد وقع، ونتائجه قد ظهرت. وغاياته قد تحققت. ولم يعد إلاَّ الألم البدني. وإلاَّ الدم المسفوح. والجسد الذبيح. والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء. ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء. ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا، وقد حققوا التكليف، وقد جازوا الامتحان بنجاح.

وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما. فاعتبرهما قد أدَّيا وحقَّقا وصدقا:

﴿**ونـاديناه أن يَـا إبـراهيم قد صـدقت الرؤيـا. إنَّا كـذلـك نجـزي المحسنين. إنَّ هـذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم**﴾ [الصافَّات: ١٠٤ - ١٠٧]..

قد صدقت الرؤيا وحققتها فعلاً. فالله لا يريد إلاَّ الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقىٰ في النفس ما تكنّه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه، ولـو كان هـو الابن فلذة الكبد. ولـو كـانت هي النفس والحيـاة. وأنت - يا إبراهيم - قد فعلت. جدت بكل شيء، وبأعز شيء. وجدت به في رضىٰ وفي هدوء وفي طمأنينة وفي يقين. فلم يبق إلاَّ اللحم والدم. وهذا ينوب عنه ذبح. أي ذبح من دم ولحم! ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدّت. يفديها بذبح عظيم. قيل: إنَّه كبش وجده إبراهيم مهيَّأ بفعل ربه وإرادته ليذبحه بدلاً من إسماعيل! وقيل له: ﴿**إنَّا كذلك نجزي المحسنين**﴾..

نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء. ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوىٰ الوفاء. ونجزيهم بإقدارهم وإصبـارهم على الأداء. ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء!

ومضت بـذلك سنـة النحر في الأضحىٰ[1]، ذكـرىٰ لهذا الحـادث

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما عمِل آدميّ من عملٍ يوم النحر أحبُّ إلى الله من إهراقِ الدَّم، وإنَّه لَتأتي يومَ القيامة في قَرْنِه بقُرونها وأشْعارها وأظلافها، وإنَّ الـدَّم لَيقعُ مِنَ الله بمَكـان قبل أن يَقَـع من الأرض، فطِيبُـوا بها نَفْسـاً» رواه ابن مـاجـة، والترمذي، وقال: حديث حسن غريب، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.
عن زيد بن أرقم قال: قال أصحابُ رسول الله ﷺ: يا رَسولَ الله ما هذه الأضاحي؟ قال: سُنَّةُ أبيكم إبراهيم - صلوات الله عليه وسلامه -. قالوا: فما لنا يا رسولَ الله؟ قال: بكل شَعْرَة من الصوف حسنة. قالوا: فالصوفُ قال: بكل شَعْرة من الصوف حسنة». رواه الترمـذي وابن ماجة والحاكم وقال: صحيح الإسناد.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ في يوم أضحىٰ: «ما عَمِل آدمي في هذا اليوم أفضل من دَم يُهراق إلاَّ أن يكون رَحماً تُوصل». رواه الطبراني في الكبير. =

العظيم الذي يرتفع منارة لحقيقة الإيمان. وجمال الطاعة. وعظمة التسليم. والذي ترجع إليه الأمَّة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم، الذي تتبع ملته، والذي ترث نسبه وعقيدته. ولتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها أو تقوم عليها، ولتعرف أنَّها الاستسلام لقدر الله في طاعة راضية واثقة ملبية لا تسأل ربها لماذا؟ ولا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه. ولا تستبقي لنفسها في نفسها شيئاً، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلاَّ كما يطلب هو إليها أن تقدم!

ثمَّ لتعرف أنَّ ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء؛ ولا أن يؤذيها بالبلاء،

= وروى عن علي رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يَا أيّها النَّاسُ ضحُّوا، واحتسبوا بدمائها، فإنَّ الدم وإن وَقَعَ في الأرض، فإنَّه يقعُ في حرز الله عزَّ وجلّ». رواه الطبراني في الأوسط.
وروي عن الحسين بن عليّ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من ضَحّىٰ طَيِّبَةً نَفْسه محتسباً لأضحيته كانت له حجاباً من النار» رواه الطبراني في الكبير.
وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ما أُنفِقَت الوَرِق في شيء أحبُّ إلى الله من نَحْرٍ يُنْحَر في يوم عيد». رواه الطبراني في الكبير والأصبهاني.
وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا فاطمة قُومي إلى أضحِيَتك فاشهديها، فإنَّ لكِ بأوَّل قطرة تقطُر من دمها أن يُغفر لَكِ ما سَلَف من ذُنوبك، قالت: يا رسول الله ألَنا خاصّةً أهل البيت، أو لنا وللمسلمين؟ قال: بل لنا وللمسلمين». رواه البزار، وأبو الشيخ بن حبان في كتاب الضحايا وغيره، وفي إسناده: عطية بن قيس وُثِّق وفيه كلام. ورواه أبو القاسم الأصبهاني عن علي ولفظه: «أنَّ رسول الله ﷺ قال: يا فاطمة قومي فاشهدي أضحيتك، فإنَّ لك بأول قطرة تَقْطُر من دمها مغفرةً لكل ذنب، أَمَا إنَّه يُجاء بلحمها ودَمِها تُوضع في ميزانك سَبعين ضعفاً. قال أبو سعيد: يا رسول الله هذا لآل محمَّد خاصة، فإنَّهم أَهْلٌ لما خُصُّوا به من الخير، أو للمسلمين عامة؟ قال: لآلِ محمَّد خاصة، وللمسلمين عامة». قال المنذري: وقد حسَّن بعض مشايخنا حديث عليٍّ هذا، والله أعلم.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن وَجدَ سَعَةً لان يُضَحِّي فلم يُضَحِّ: فلا يحضر مُصلَّانا». رواه الحاكم مرفوعاً هكذا، وصححه، وموقوفاً ولعلَّه أشبه.
والمعنىٰ: الذي يجد مالاً يشتري به أضحيته ويبخل فلا يقرب المصلّىٰ الذي يجتمع به المسلمون لصلاة العيد، لأنَّه ناقص الثواب، شحيح في طلب زيادة الأجر. وفيه الترغيب في الأضحية، والحث على فعلها.

إنَّما يريد أن تأتيه طائعة ملبية وافية مؤدية مستسلمة لا تقدم بين يديه، ولا تـتألىٰ عليه، فإذا عرف منها الصدق في هذا أعفاها من التضحيات والآلام. واحتسبها لها وفاء وأداء. وقبل منها وفدّاها. وأكرمها كما أكرم أباها..

﴿**وتركنا عليه في الآخرين**﴾ [الصافَّات: ١٠٨]..

فهو مذكور على توالي الأجيال والقرون. وهو أُمَّة. وهو أبو الأنبياء. وهو أبو هذه الأُمَّة المسلمة. وهي وارثة ملته. وقد كتب الله لها وعليها قيادة البشرية على ملة إبراهيم. فجعلها الله له عقباً ونسباً إلى يوم الدين.

﴿**سلام على إبراهيم**﴾ [الصافَّات: ١٠٩]..

سلام عليه من ربه. سلام يسجل في كتابه الباقي. ويرقم في طوايا الوجود الكبير.

﴿**كذلك نجزي المحسنين**﴾.. كذلك نجزيهم بالبلاء.. والـوفاء. والذكر. والسلام. والتكريم..

﴿**إنَّه من عبادنا المؤمنين**﴾ [الصافَّات: ١١١].. وهذا جزاء الإيمان. وتلك حقيقته فيما كشف عنه البلاء المبين.

بشرىٰ ورحمة واطمئنان :

ثمَّ يتجلىٰ الله سبحانه على عبده إبراهيم بفضله مرة أُخرىٰ ونعمتـه فيهب له إسحاق في شيخوخته. ويباركه ويبارك إسحاق. ويجعل إسحاق نبياً من الصالحين: ﴿**وبشَّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين. وباركنا عليه وعلى إسحاق**﴾ [الصافَّات: ١١٢، ١١٣]..

وكان إبراهيم ـ كما تقدم بيانه ـ قد هاجر من أرض الكلدانيـين مسقط رأسه في العراق، وعَبَر الأُردن، وسكن في أرض كنعان في البادية يتابع نشر الدعوة إلى الله، ويقوم بأداء رسالته.. ثمَّ جاءته البشرىٰ والرحمة: ﴿**ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرىٰ قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ..**﴾ [هود: ٦٩]..

لقد ظنَّ إبراهيم أنهم ضيوف: ﴿**ونبِّئهم عن ضيف إبراهيم. إذ دخلوا عليه فقالوا: سلاماً..**﴾ [الحجر: ٥١].. ﴿**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين؟! إذ دخلوا عليه، فقالوا: سلاماً. قال: سلام قوم مُنْكَرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين..**﴾ [الذَّاريات: ٢٤ ـ ٢٦]..

ويبدأ الحديث عن إبراهيم بالسؤال: ﴿**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين**﴾.. تنويهاً بهذا الحديث، وتهيئة للأذهان. مع وصف ضيف إبراهيم بالمكرمين؛ إمَّا لأنَّهم كذلك عند الله، وإمَّا إشارة إلى إكرام إبراهيم لهم كما ورد في القصة.

وعلى عادة البدو في إكرام الأضياف راح إبراهيم يحضر لهم الطعام وقد ظنهم ضيوفاً ـ كما قلنا ـ، ويبدو كرم إبراهيم وسخاؤه وإرخاصه للمال واضحاً. فما يكاد ضيفه يدخلون عليه ويقولون: سلاماً. ويرد عليهم السَّلام، وهو ينكرهم ولا يعرفهم. ما كاد يتلقىٰ السَّلام ويرده حتى يذهبُ إلى أهله ـ أي زوجه ـ مسارعاً ليهيِّىء لهم الطعام. ﴿**فما لبث أن جاء بعجل حنيذ**﴾ [هود: ٦٩].. أي سمين مشوي على حجارة الرضف المحماة.. ها هو ذا إبراهيم يجيء به طعاماً وفيراً يكفي عشرات: ﴿**فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين**﴾.. وهم كانوا ثلاثة فيما يُقال.. تكفيهم كتف من هذا العجل السمين!

﴿**فلمَّا رأىٰ أيديهم لا تصل إليه**﴾ أي لا تمتد إليه ﴿**نكرهم وأوجس منهم خيفة**﴾ [هود: ٧٠].. فالذي لا يأكل الطعام يريب، ويشعر بأنَّه ينوي خيانة أو غدراً بحسب تقاليد أهل البدو.. وأهل الريف عندما يتحرجون من خيانة الطعام، أي من خيانة من أكلوا معه طعاماً! فإذا امتنعوا عن طعام أحد فمعنىٰ هذا أنَّهم ينوون به شراً، أو أنَّهم لا يثقون في نياته لهم..

﴿**فقرَّبه إليهم. قال: ألا تأكلون**﴾؟ [الذَّاريات: ٢٧].. وجاء هذا السؤال بعد أن رأىٰ أيديهم لا تصل إليه، ولا يبدو عليهم أنَّهم سيأكلون

طعامه، فالملائكة لا يأكلون طعام أهل الأرض.. ﴿**فأوجس منهم خيفة**﴾ [الذَّاريات: ٢٨].. إمَّا لأنَّ الطارىء الذي لا يأكل طعام مضيفه يُنبىء عن نية شر وخيانة. وإمَّا لأنَّه لمح أنَّ فيهم شيئاً غريباً! ﴿**قال إنَّا منكم وجلون**﴾ [الحجر: ٥٢]..

عندئذٍ كشفوا له عن حقيقتهم ومهمتهم: قالوا: ﴿**إنَّا أُرسلنا إلى قوم لوط**﴾.. ﴿**قالوا: لا تخف إنَّا أُرسلنا إلى قوم لوط**﴾ [هود: ٧٠].. وإبراهيم يدرك ما وراء إرسال الملائكة إلى قوم لوط! ولكن حدث في هذه اللحظة ما غيَّر مجرىٰ الحديث:

﴿**وامرأته قائمة فضحكت**﴾.. وربما كان ضحكها ابتهاجاً بهلاك القوم الملوثين..

﴿**فبشَّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب**﴾ [هود: ٧١]..

وهكذا كشف رُسل الله عن حقيقتهم ثمَّ طمأنوه وبشَّروه: ﴿**قالوا: لا تخف وبشَّروه بغلام عليم**﴾ [الذَّاريات: ٢٨]. وهي البشارة بإسحاق من زوجه العقيم..

إنَّها بشرىٰ الحق:

﴿**ونبِّئهم عن ضيف إبراهيم. إذ دخلوا عليه فقالوا: سلاماً. قال: إنَّا منكم وجلون. قالوا: لا توجل إنَّا نبشِّرك بغلام عليم. قال: أبشَّرتموني على أن مسَّنيَ الكبر؟ فبِمَ تُبشِّرون؟ قالوا: بشَّرناك بالحق فلا تكن من القَّانطين. قال: ومن يقنط من رحمة ربِّه إلاَّ الضالُّون؟**﴾ [الحجر: ٥١ ـ ٥٦]..

لقد عجَّل الملائكة لإبراهيم البشرىٰ.. وقد استبعد ـ عليه السَّلام ـ في أول الأمر أن يرزق بولد (وزوجته كذلك عقيم) فردته الملائكة إلى اليقين:

﴿.. **قالوا: بشَّرناك بالحق فلا تكن من القانطين**﴾..

أي من اليائسين. فآب إبراهيم سريعاً، ونفىٰ عن نفسه القنوط من رحمة الله:

﴿قال: ومن يقنط من رحمة ربه إلاَّ الضالُّون؟﴾..

وبرزت كلمة الرحمة في حكاية قول إبراهيم، وبرزت معها الحقيقة الكلية: أنَّه لا يقنط من رحمة ربه إلاَّ الضالون. الضالون عن طريق الله، الذين لا يستروحون روحه، ولا يحسون رحمته، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته. فأمَّا القلب الندي بالإيمان، المتصل بالرَّحمٰن، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد، ومهما ادلهمَّت حوله الخطوب، ومهما غام الجو وتلبَّد، وغاب وجه الأمل في ظلام الحاضر وثقل هذا الواقع الظاهر.. فإنَّ رحمة الله قريب من قلوب المؤمنين المهتدين. وقدرة الله تنشىء الأسباب كما تنشىء النتائج، وتغير الواقع كما تغير الموعود.

وهنا اطمأنَّ إبراهيم إلى الملائكة، وثابت نفسه واطمأنَّت للبشرىٰ.

هذا ما كان من أثر البشرىٰ العجيبة المدهشة على إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ.

أمَّا زوجته سارة وقد سمعت الخبر: **﴿فبشَّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾** [هود: ٧١]. وكانت عقيماً لم تلد وقد أصبحت عجوزاً.. ففاجأتها البشرىٰ بإسحاق. وهي بشرىٰ مضاعفة بأن سيكون لإسحاق عقب من بعده هو يعقوب.

والمرأة ـ وبخاصة العقيم ـ يهتز كيانها كله لمثل هذه البشرىٰ **﴿فأقبلت امرأته في صرّة فصكَّت وجهها. وقالت عجوز عقيم﴾** [الذَّاريات: ٢٩].. وقد سمعت البشرىٰ، فبغتت وفوجئت، فندت منها صيحة الدهش، وعلى عادة النساء ضربت خديها بكفيها. وقالت: عجوز عقيم. تُنبىء عن دهشتها لهذه البشرىٰ وهي عجوز. وقد كانت من الأصل عقيماً.

لقد هزَّتها المفاجأة وأربكتها **﴿قالت: يَا ويلتا! أألد وأنا عجوز وهـٰذا**

بعلي شيخاً؟ إنَّ هذا لشيء عجيب﴾ [هود: ٧٢]. .

لقد أخذتها المفاجأة العنيفة التي لم تكن تتوقعها أبداً، فنسيت أنَّ البشرىٰ تحملها الملائكة. . **﴿إنَّ هـٰذا لشيء عجيب﴾**. . وهو عجيب حقاً. فالمرأة ينقطع طمثها عادة في سن معينة فلا تحمل ولكن لا شيء بالقياس إلى قدرة الله عجيب:.

﴿قالوا: أتعجبين من أمر الله؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت. إنَّه حميد مجيد﴾ [هود: ٧٣]. .

ولا عجب من أمر الله. فالعادة حين تجري بأمر لا يكون معنىٰ هذا أنَّها سنة لا تتبدل. وعندما يشاء الله لحكمة يريدها ـ وهي هنا رحمته بأهل هذا البيت وبركاته الموعودة للمؤمنين فيه ـ يقع ما يخالف العادة، مع وقوعه وفق السنة الإلـٰهية التي لا نعلم حدودها، ولا نحكم عليها بما تجري به العادة في أمد هو على كل حال محدود، ونحن لا نستقرىء جميع الحوادث في الوجود.

والَّذين يقيدون مشيئة الله بما يعرفونه هم من نواميسه لا يعرفون حقيقة الألوهية كما يقررها الله سبحانه في كتابه ـ وقوله الفصل وليس للعقل البشري قول في ذلك القول ـ وحتى الذين يقيدون مشيئة الله بما يقرر الله ـ سبحانه ـ أنَّه ناموسه، لا يدركون حقيقة الألوهية كذلك! فمشيئة الله ـ سبحانه ـ طليقة وراء ما قرره الله ـ سبحانه ـ من نواميس. ولا تتقيد هذه المشيئة بالنواميس.

نعم إنَّ الله ـ سبحانه ـ يجري هذا الكون وفق النواميس التي قدَّرها له. . ولكن هذا شيء والقول بتقيد إرادته بهذه النواميس بعد وجودها شيء آخر!

إنَّ الناموس يجري وينفذ بقدر من الله في كل مرة ينفذ فيها. فهو لا يجري ولا ينفذ آلياً. فإذا قدر الله في مرة أن يجري الناموس بصورة أُخرىٰ غير التي جرىٰ بها في مرات سابقة كان ما قدَّره الله ولم يقف الناموس في

وجه هذا القدر الجديد. . ذلك أنَّ الناموس الذي تندرج تحته كل النواميس هو طلاقة المشيئة بلا قيد على الإطلاق، وتحقق الناموس في كل مرة يتحقق فيها بقدر خاص طليق.

لقد ردّها الملائكة المرسلون إلى الحقيقة الأُولىٰ. حقيقة القدرة التي لا يُقيدها شيء، والتي تُدبر كل أمر بحكمة وعلم: **﴿قالوا: كذلك قال ربك، إنَّه هو الحكيم العليم﴾** [الذَّاريات: ٣٠]. .

وكل شيء يكون إذا قيل له: كن. وقد قال الله. فماذا بعد قوله؟

إنَّ الألفة والعادة تقيدان الإدراك البشري، وتحدَّان من تصوراته. فيدهش إذ يرىٰ ما يخالف المألوف له؛ ويعجب كيف يكون؛ وقد يتبجح فينكر أن يكون! والمشيئة المطلقة ماضية في طريقها لا تتقيد بمألوف البشر الصغير المحدود؛ تبدع ما تشاء، بغير ما حدود أو قيود!

وإلى هنا كان إبراهيم وزوجه قد اطمأنَّا إلى رُسل الله، وسكن قلبهما بالبشرىٰ التي حملوها إليهما.

وبعد. . نقف بخشوع وتَبَتُّل أمام قَدَر الله ورحمته. . رحمة الله التي غمرت عبده إبراهيم الحليم الأوَّاه المنيب. . الذي اعتزل أباه وأهله ووطنه وما يعبدون من دون الله. . فهَجَر دياره وقومه فاراً من الخضوع لعبادة الأوثان وعبادة العباد إلى الاستسلام لرب العباد.

هجر كل شيء حنيفاً مسلماً لله رب العالمين. فلم يتركه ربه وحيداً. بل وَهَبَ له ذرية وعوَّضه خيراً:

﴿فلمَّا اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب. وكلًّا جعلنا نبيًّا. ووهبنا لهم من رحمتنا، وجعلنا لهم لسان صدق عليًّا﴾ [مريم: ٤٩، ٥٠]. .

وإسحاق بن إبراهيم، رزقه من سارة ـ وكانت قبله عقيماً، كما تقدَّم ـ

ويعقوب هو ابن إسحاق: ولكنه يحسب ولداً لإبراهيم لأنَّ إسحاق رُزِقَه في حياة جَدِّه، فنشأ في بيته وحجره، وكان كأنَّه ولده المباشر؛ وتعلَّم ديانته ولقَّنها بنيه. وكان نبياً كأبيه.

﴿ووهبنا لهم من رحمتنا﴾.. إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونسلهم.. والرحمة تُذكر هنا لأنَّها السمة البارزة في حياة إبراهيم، وهي هبة الله التي تعوض إبراهيم عن أهله ودياره، وتُؤنسه في وحدته واعتزاله.

﴿وجعلنا لهم لسان صدق علياً﴾.. فكانوا صادقين في دعوتهم. مسموعي الكلمة في قومهم. يُؤخذ قولهم بالطاعة والتبجيل..

لقد عَوَّض الله إبراهيم عن وطنه وعن قومه وعن أهله ـ وطناً وأهلاً وقوماً ـ عَوَّضه عن هذا كله ذرية تمضي فيها رسالة الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فكل الأنبياء وكل الدعوات بعده كانت في ذريته[1]. وهو عوض ضخم في الدنيا وفي الآخرة:

---

(١) يعرض القرآن الكريم موكب الإيمان الجليل من ذرية إبراهيم من النبيين: **﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب ـ كُلًّا هدينا ـ ونوحاً هدينا من قبل ـ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسىٰ وهارون.. وكذلك نجزي المحسنين.. وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ والياس.. كل من الصالحين. وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً.. وكُلًّا فضَّلنا على العالمين.. ومن آبائهم وذرِّياتهم وإخوانهم.. واجتبيناهم وهديناهم إلىٰ صراط مستقيم.. ذلك هدىٰ الله يهدي به من يشاء من عباده﴾** [الأنعام: ٨٥ ـ ٨٨]. هذا الرهط من الرسل يعرضه السياق القرآني رحمة، ولا يراعي التسلسل التاريخي في هذا العرض، لأنَّ المقصود هنا الموكب بجملته من ذرية أبي الأنبياء عليه السَّلام، لا تسلسله التاريخي..

لقد أكرم الله نبيه إبراهم فجعل من ذريته الأنبياء: إسحاق ويعقوب.. ثمَّ ذكر أربعة عشر نبياً في مجموعات ثلاث كما تقدم في الآيات السابقة. يقول صاحب المنار رحمه الله عن سر الجمع بين هذه الفئات الثلاث. قال الشيخ رشيد رضا: «فالقسم الأول: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسىٰ وهارون، والمعنىٰ الجامع بين هؤلاء أنَّ الله تعالىٰ آتاهم الملك والأمارة والحكم والسيادة مع النبوة والرسالة، وقد قدَّم ذكر داود وسليمان لأنَّهما كانا مَلكين غنيين مُنعمين وذكر بعدهما أيوب ويوسف، وكان الأول أميراً غنياً عظيماً محسناً، والثاني وزيراً عظيماً حاكماً متصرفاً، ولكن كُلًّا منهما قد أُبتُلي بالضرّاء، فصبر كما ابتلي بالسراء =

﴿**ووهبنا له إسحاق ويعقوب. وجعلنا في ذريته النبوَّة والكتاب. وآتيناه أجره في الدنيا وإنَّه في الآخرة لمن الصَّالحين**﴾ [العنكبوت: ٢٧]. .

وهو فيض من العطاء جزيل، يتجلّىٰ فيه رضوان الله سبحانه على الرجل الذي يتمثل فيه الخلوص لله بكليته، والذي أجمع الطغيان على حرقه بالنار، فكان كل شيء من حوله برداً وسلاماً، وعطفاً وإنعاماً. جزاءً وفاقاً.

وهكذا تتجلىٰ رحمة الله بعبده إبراهيم وتعويضه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة. . تتلاحق من بعده، تنسل أمة كبيرة فيها الأنبياء وفيها الصالحون ولكن وراثة هذه الذرية لإبراهيم وبنيه من الأنبياء ليست

= فشكر، وأمَّا موسىٰ وهارون فكانا حاكمين ولكنهما لم يكونا مَلكين، فكل زوجين من هؤلاء الأزواج الثلاثة تمتاز بفرية، والترتيب بين الأزواج على طرق التدلي في نعم الدنيا، وقد يكون على طريق الترقي في الدين؛ فداود وسليمان كانا أكثر تمتعاً بنعم الدنيا، ودونهما أيوب ويوسف، ودونهما موسىٰ وهارون، والظاهر أنَّ موسىٰ وهارون أفضل في هداية الدين وأعباء النبوة من أيوب ويوسف، وإنَّ هذين أفضل من داود وسليمان بجمعهما بين الشكر في السراء والصبر في الضراء ـ والله أعلم ـ وقد قال تعالىٰ بعد ذكر هؤلاء: ﴿**وكذلك نجزي المحسنين**﴾ أي بالجمع بين نعم الدنيا ورياستها وهداية الدين وإرشاد الخلق وهذا كما قال الله تعالىٰ عن أحدهم وهو يوسف: ﴿**ولمَّا بلغ أشدَّه آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين**﴾. . [كذلك قال الله عن موسىٰ: ﴿**فلمَّا بلغ أشدَّه واستوىٰ آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين**﴾. . فهو جزاء خاص بعضه مُعجل في الدنيا، أي ومثل هذا الجزاء في جنسه يجزي الله بعض المحسنين بحسب إحسانه في الدنيا قبل الآخرة ومنهم من يُرجيء الله جزاءه إلى الآخرة.

والقسم الثَّاني: زكريا ويحيىٰ وعيسىٰ والياس وهؤلاء قد امتازوا ـ عليهم السَّلام ـ بشدة الزهد في الدنيا والإعراض عن لذاتها والرغبة عن زينتها وَجَاهها وسلطانها ولذلك خصَّهم هنا بوصف الصالحين، وهو أليق بهم عند مقابلتهم بغيرهم وإن كان كل نبي صالحاً ومحسناً على الإطلاق.

والقسم الثَّالث: إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً، وأخَّر ذكرهم لعدم الخصوصية؛ إذ لم يكن لهم من ملك الدنيا، أو سلطانها ما كان للقسم الأول ولا يد من المبالغة في الإعراض عن الدنيا ما كان للقسم الثَّاني، وقد قفىٰ على ذكرهم بالتفضيل على العالمين الذي جعله الله تعالىٰ لكل نبي على عالمي زمانه». [تفسير المنار، جـ ٧، ص ٥٨٧]. .

وراثة الدم والنسب! إنَّما هي وراثة الملة والمنهج: فمن اتَّبع فهو محسن. ومن انحرف فهو ظالم لا ينفعه نسب قريب أو بعيد فهو ـ سبحانه ـ يقرر هذه الحقيقة في حكايته عن إبراهيم: **﴿وبشَّرناه بإسحاق نبياً من الصَّالحين. وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾** . . **﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾** [الصافَّات: ١١٢، ١١٣] . .

لقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصَّلاة واتَّبعوا الشهوات ينحرفون عن الصراط الذي سنَّه لهم أبوهم إبراهيم. . هم هؤلاء المشركون. .

﴿ذلك هدىٰ الله يهدي به من يشاء من عباده، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ [الأنعام: ٨٨] . .

وبعد. . فقد قرر القرآن ينبوع الهدىٰ في هذه الأرض، ملّة إبراهيم، كلمة التوحيد التي جعلها الله في ذريته من الأنبياء والصالحين. . **﴿إنَّ إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين. شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلىٰ صراط مستقيم، وآتيناه في الدنيا حسنة وإنَّه في الآخرة لمن الصالحين﴾** [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٢] . .

والقرآن الكريم يرسم إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ نموذجاً للهداية والطاعة والشكر والإنابة لله. ويقول عنه هنا: إنَّه كان أمة. واللفظ يحتمل أن يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة. ويحتمل أنَّه كان إماماً يُقتدىٰ به في الخير. وورد في التفسير المأثور هذا المعنىٰ وذاك. وهما قريبان فالإمام الذي يهدي إلى الخير هو قائد أمة وله أجره وأجر من عمل بهدايته فكأنَّه أُمَّة من الناس في خيره وثوابه لا فرد واحد.

﴿قانتاً لله﴾ طائعاً خاشعاً عابداً **﴿حنيفاً﴾** متجهاً إلى الحق مائلاً إليه **﴿ولم يك من المشركين﴾** فلا يتعلق به ولا يتمسح فيه المشركون!

﴿شاكراً لأنعمه﴾ بالقول والعمل. لا كهؤلاء المشركين الذين يجحدون نعمة الله قولاً، ويكفرونها عملاً، ويشركون في رزقه لهم ما يدعون

من الشركاء، ويُحرمون نعمة الله عليهم اتباعاً للأوهام والأهواء.

﴿اجتباه﴾ اختاره ﴿وهداه إلىٰ صراط مستقيم﴾ هو صراط التوحيد الخالص القويم.

ذلك شأن إبراهيم الذي يتعلق به اليهود ويتمسح به المشركون.

﴿ثمَّ أوحينا إليك أن اتَّبع ملَّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ فكان ذلك وصل ما انقطع من عقيدة التوحيد، ويؤكدها النص من جديد على أنَّ إبراهيم ﴿ما كان من المشركين﴾ [النحل: ١٢٣]..

ذلك بيان المشتبهات في العلاقة بين عقيدة التوحيد التي جاء بها إبراهيم من قبل، وكملت في الدين الأخير، والعقائد المنحرفة التي يتمسك بها المشركون واليهود. وهو بعض ما جاء هذا الكتاب لتبيانه.

إنَّ وراثة إبراهيم ليست وراثة الدم والنسب إنَّما هي وراثة العقيدة والتوحيد، وقصته ـ عليه السَّلام ـ تكشف عمَّا في عقيدة الشرك من نكارة وكذب وضلال كذلك.. وإبراهيم الذي ينتسب إليه العرب. ويقول المشركون: إنَّهم سدنة البيت الذي بناه هو وإسماعيل.. وإبراهيم الذي يدَّعي اليهود أنَّهم من ذريته وهم على انحرافهم وضلالهم.. هؤلاء وأولئك فسقوا وأشركوا ﴿ذلك هدىٰ الله يهدي به من يشاء من عباده، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾..

فَهُدىٰ الله الذي جاء به إبراهيم وذريته من الأنبياء هو الهدىٰ الذي يجب اتباعه، وهو المصدر الواحد، الذي يقرر الله ـ سبحانه ـ أنَّه هو هدىٰ الله.. ولو أنَّ هؤلاء العباد من ذرية إبراهيم حادوا عن توحيد الله، وتوحيد المصدر الذي يستمدون منه هداه، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقي، فإنَّ مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم: أي يذهب ضياعاً، ويهلك كما تهلك الدابة التي ترعىٰ نبتاً مسموماً فتنتفخ ثمَّ تموت.. وهذا هو الأصل اللغوي للحبط!

المقام العظيم وإمام الصراط المستقيم :

ويمضي القرآن الكريم في الحديث عن إبراهيم، فقد اختبره الله تبارك وتعالىٰ، وابتلاه، بأوامر ونواه فأقام بحقهنَّ وأتمَّهنَّ فاستحق أن يكون إماماً للهدىٰ والرشاد:

﴿وإذ ابتلىٰ إبراهيم ربه بكلمات فأتمَّهنَّ. قال: إنِّي جاعلك للناس إماماً. قال: ومن ذرِّيتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين﴾ [البقرة: ١٢٤]. .

يذكر البيان القرآني ما كان من ابتلاء الله لإبراهيم بكلمات من الأوامر والتكاليف، فأتمهنَّ وفاءً وقضاءً. . وقد شهد الله لإبراهيم بالوفاء بالتزاماته على النحو الذي يرضىٰ الله عنه فيستحق شهادته الجليلة **﴿وإبراهيم الذي وفّىٰ﴾** [النجم: ٣٧]. . وهو مقام عظيم ذلك المقام الذي بلغه إبراهيم. مقام الوفاء والتوفية بشهادة الله عزَّ وجلّ. والإنسان بضعفه ومصوره لا يوفي ولا يستقيم!

عندئذٍ استحقَّ إبراهيم تلك البشرىٰ. أو تلك الثقة: **﴿قال: إنِّي جاعلك للناس إماماً﴾**. .

إماماً يتخذونه قدوة، ويقودهم إلى الله، ويقدمهم إلى الخير[1]،

---

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ـ فقال: يا خير البرية. فقال رسول الله ﷺ: «ذاك إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ». أخرجه مسلم.
يقول الإمام النووي في «شرح مسلم» ٢/ ١٢١: «قال العلماء إنَّما قال ﷺ هذا تواضعاً واحتراماً لإبراهيم ﷺ لِخلَّته وأبوَّته، وإلاَّ فنبينا ﷺ أفضل كما قال ﷺ «أنا سيد ولد آدم» ولم يقصد به الافتخار ولا التطاول على مَن تَقَدَّمه بل قاله بياناً لما أُمر ببيانه وتبليغه ولهذا قال ﷺ: «ولا فَخْر» لِيَنفي ما قد يتطرق إلى بعض الأفهام السخيفة. وقيل يُحتمل أنَّه ﷺ قال: «إبراهيم خير البرية» قبل أن يعلم أنَّه سيد ولد آدم، فإن قيل التأويل المذكور ضعيف لأنَّ هذا خبر فلا يدخله خلف ولا نسخ، فالجواب أنَّه لا يمتنع أنَّه أراد أفضل البرية الموجودين في عصره، وأطلق العبارة الموهومة للعموم لأنَّه أبلغ في التواضع، وقد جزم صاحب التحرير بمعنى هذا فقال: المراد أفضل برية عصره، وأجاب القاضي بأنَّه وإن كان =

ويكون لهم تبعاً، وتكون له فيهم قيادة. عندئذٍ تدرك إبراهيم فطرة البشر: الرغبة في الامتداد عن طريق الذراري والأحفاد. وذلك الشعور الفطري العميق، الذي أودعه الله فطرة البشر لتنمو الحياة وتمضي في طريقها المرسوم، ويكمل اللاحق ما بدأه السابق، وتتعاون الأجيال كلها وتتساوق.. ذلك الشعور الذي يحاول بعضهم تحطيمه أو تعويقه وتكبيله، وهو مركوز في أصل الفطرة لتحقيق تلك الغاية البعيدة المدىٰ. وعلى أساسه يقرر الإسلام شريعة الميراث، تلبية لتلك الفطرة، وتنشيطاً لها لتعمل، ولتبذل أقصىٰ ما في طوقها من جهد. وما المحاولات التي تبذل لتحطيم هذه القاعدة إلاَّ محاولة لتحطيم الفطرة البشرية في أساسها؛ وإلاَّ تكلُّف وقصر نظر واعتساف في معالجة بعض عيوب الأوضاع الاجتماعية المنحرفة.

وكل علاج يصادم الفطرة لا يفلح ولا يصلح ولا يبقىٰ. وهناك غيره من العلاج الذي يصلح الانحراف ولا يحطم الفطرة. ولكنه يحتاج إلى هدىٰ وإيمان، وإلى خبرة بالنفس البشرية أعمق، وفكرة عن تكوينها أدق، وإلى نظرة خالية من الأحقاد الوبيلة التي تنزع إلى التحطيم والتنكيل، أكثر ممَّا ترمي إلى البناء والإصلاح:

﴿قال: ومن ذرِّيَّتي؟﴾..

وجاءه الرد من ربه الذي ابتلاه واصطفاه، يقرر القاعدة الكبرىٰ التي أسلفنا..

إنَّ الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور، وبالصلاح والإيمان، وليست وراثة أصلاب وأنساب. فالقربىٰ ليست وشيجة لحم ودم، إنما هي وشيجة دين وعقيدة. ودعوىٰ القرابة والدم والجنس والقوم إن هي إلاَّ دعوىٰ الجاهلية، التي تصطدم اصطداماً أساسياً بالتصور الإيماني الصحيح:

= خبراً فهو ممَّا يدخله النسخ من الأخبار لأنَّ الفضائل يمنحها الله تعالىٰ لمن يشاء فأخبر بفضيلة إبراهيم إلى أن عَلِم تفضيل نفسه فأخبر به».

﴿قال: لا ينال عهدي الظالمين﴾ . .

والظلم أنواع وألوان: ظلم النفس بالشرك، وظلم الناس بالبغي . . والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة . . وكل معنىً من معاني الإمامة والقيادة.

فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها. ومن ظلم - أيّ لون من الظلم - فقد جرَّد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها؛ بكل معنىً من معانيها.

وهذا الذي قيل لإبراهيم - عليه السَّلام - وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض قاطع في تنحية اليهود عن القيادة والإمامة بما ظلموا، وبما فسقوا، وبما عتوا عن أمر الله، وبما انحرفوا عن عقيدة جدهم إبراهيم . .

وهذا الذي قيل لإبراهيم - عليه السَّلام - وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض قاطع كذلك في تنحية من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم. بما ظلموا، وبما فسقوا وبما بعدوا عن طريق الله، وبما نبذوا من شريعته وراء ظهورهم . . ودعواهم الإسلام، وهم يُنحون شريعة الله ومنهجه عن الحياة، دعوىٰ كاذبة لا تقوم على أساس من عهد الله.

إنَّ التصور الإسلامي يقطع الوشائج والصلات التي لا تقوم على أساس العقيدة والعمل. ولا يعترف بقربىٰ ولا رحم إذا انبتَّت وشيجة العقيدة والعمل ويسقط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصل بعروة العقيدة العمل . . وهو يفصل بين جيل من الأُمَّة الواحدة وجيل إذا خالف أحد الجيلين الآخر في عقيدته، بل يفصل بين الوالد والولد، والزوج والزوج إذا انقطع بينهما حبل العقيدة. فعرب الشرك شيء وعرب الإسلام شيء آخر. ولا صلة بينهما ولا قربىٰ ولا وشيجة. والذين آمنوا من أهل الكتاب شيء، والذين انحرفوا عن دين إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ شيء آخر، ولا صلة بينهما ولا قربىٰ ولا وشيجة.

إنَّ الأُسرة ليست آباء وأبناء وأحفاداً. . إنَّما هي هؤلاء حين تجمعهم عقيدة واحدة. وإنَّ الأُمَّة ليست مجموعة أجيال متـتابعة من جنس معين. . إنَّما هي مجموعة من المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم. . وهذا التصور الإيمـاني، الذي ينبثق من خـلال هذا البيـان الربـاني، في كتاب الله الكريم.

ويتحدث القرآن الكريم عن البيت في مكة، وكيف أنَّ الله جعله مثابة للناس وأمناً يرجعون إليه، ويأمنون عنده، وخصَّه بآيات فليتَّخذوا من مقام إبراهيم مصلّىٰ.

﴿وإذ جعلنا البيت مثابـة للناس وأمنـاً، واتَّخذوا من مقـام إبراهيم مُصلّىٰ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهِّرا بيتيَ للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود﴾ [البقرة: ١٢٥]. .

هذا البيت الحرام الذي قام سدنته من قريش فَرَوَّعوا المؤمنين وآذوهم وفتنوهم عن دينهم حتى هاجروا من جواره. . لقد أراده الله مثابة يثوب إليها الناس جميعاً، فلا يروعهم أحد، بل يأمنون فيه على أرواحهم وأموالهم. فهو ذاته أمن وطمأنينة وسلام.

ولقد أُمروا أن يتَّخذوا من مقام إبراهيم مصلّىٰ ـ ومقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله وهذا ما نختاره في تفسيره ـ فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو الأمر الطبيعي، الذي لا يثير اعتراضاً. وهو أَوْلىٰ قبلة يتوجه إليها المسلمون، ورثة إبراهيم بالإيمان والتوحيد الصحيح، بما أنَّه بيت الله، لا بيت أحد من الناس.

وقد عهد الله ـ صاحب البيت ـ إلى عبدين من عبـاده صالحين، أن يقوما بتطهيره وإعداده للطائفين والعاكفين والـرُّكَّع السجـود ـ أي للحجاج الوافدين عليه، وأهله العاكفين فيه، والذين يصلون فيه ويركعون ويسجدون فحتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت ملكاً لهما، فيورث بالنسب عنهما،

إنَّما كانا سادنين له بأمر ربهما، لإعداده لقصاده وعباده من المؤمنين.

وتمضي عجلة التاريخ، فيظللنا عهد إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أبو الأنبياء. وهو النموذج الكامل للإنسان الذاكر الشاكر:

﴿**وإذ قال إبراهيم: ربِّ اجعل هـٰذا البلد آمناً، واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام..**﴾ [إبراهيم: ٣٥]..

إنَّ السياق يصور إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ إلى جوار بيت الله الذي بناه في البلد الذي آل إلى قريش، فإذا بها تكفر فيه بالله، مرتكنة إلى البيت الذي بناه بانيه لعبادة الله! فيصوره في هذا المشهد الضارع الخاشع الذاكر الشاكر، ليرد الجاحدين إلى الاعتراف، ويرد الكافرين إلى الشكر، ويرد الغافلين إلى الذكر، ويرد الشاردين من أبنائه إلى مسيرة أبيهم لعلَّهم يقتدون بها ويهتدون.

ويبدأ إبراهيم دعاءه: ﴿**ربِّ اجعل هـٰذا البلد آمناً**﴾..

فنعمة الأمن نعمة ماسة بالإنسان، عظيمة الوقع في حسه، متعلقة بحرصه على نفسه. والسياق يذكرها هنا ليذكر بها سكان ذلك البلد، الذين يستطيلون بالنعمة ولا يشكرونها وقد استجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم فجعل البلد آمناً، ولكنهم هم سلكوا غير طريق إبراهيم، فكفروا النعمة، وجعلوا لله أنداداً، وصدوا عن سبيل الله. ولقد كانت دعوة أبيهم التالية لدعوة الأمن: ﴿**واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام**﴾..

ويبدو في دعوة إبراهيم الثَّانية تسليم إبراهيم المطلق إلى ربه، والتجاؤه إليه في أخص مشاعر قلبه. فهو يدعوه أن يجنبه عبادة الأصنام هو وبنيه، يستعينه بهذا الدعاء ويستهديه. ثمَّ ليبرز أنَّ هـذه نعمة أُخرىٰ من نعم الله.

وإنَّها لنعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده. فيخرج من التيه والحيرة والضلال والشرود، إلى

المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء. ويخرج من الدينونة المذلة لشتّى الأرباب، إلى الدينونة الكريمة العزيزة لرب العباد.. إنّها لنعمة يدعو إبراهيم ربه ليحفظها عليه. فيجنبه هو وبنيه أن يعبد الأصنام.

يدعو إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصنام من الناس في جيله وفي الأجيال التي قبله؛ ومن فتنوا بها ومن افتتنوا وهم خلق كثير: **﴿ربِّ إنّهنّ أضللن كثيراً من النّاس﴾**..

ثمَّ يتابع الدعاء.. فأمَّا من تبع طريقي فلم يفتتن بها فهو مني، ينتسب إليّ ويلتقي معي في الآصرة الكبرىٰ، آصرة العقيدة: **﴿فمن تبعني فإنّه منّي﴾**..

وأمّا من عصاني منهم فأفوض أمره إليك: **﴿ومن عصاني فإنّك غفور رحيم﴾** [إبراهيم: ٣٦]..

وفي هذا تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأوّاه الحليم؛ فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه، ولا يستعجل لهم العذاب، بل لا يذكر العذاب، إنّما يكلهم إلى غفران الله ورحمته. ويلقي على الجو ظلال المغفرة والرحمة؛ وتحت هذا الظل يتوارىٰ ظل المعصية، فلا يكشف عنه إبراهيم الرحيم الحليم!

ها هو ذا إبراهيم ـ عليه السّلام ـ يقف بخشوع يدعو بقلب مفعم الإيمان بربه، ممتلئاً بالثقة واليقين بقدرة خالقه.. يدعو ربه الكريم الذي يجيب الدعاء، السميع العليم:

﴿وإذ قال إبراهيم: ربِّ اجعل هـٰذا بلداً آمناً، وارزق أهله من الثّمرات.. من آمن منهم بالله واليوم الآخر.. قال: ومن كفر فأمتّعه قليلاً، ثم أضطرُّه إلىٰ عذاب النّار، وبئس المصير﴾ [البقرة: ١٢٦]..

ومرة أُخرىٰ يؤكد دعاء إبراهيم صفة الأمن للبيت. ومرة أُخرىٰ يؤكّد معنىٰ الوراثة للفضل والخير.

إنَّ إبراهيم قد أفاد من عظة ربه له في الأُولىٰ. لقد وعىٰ منذ أن قال له ربه: ﴿لا ينال عهدي الظَّالمين﴾..

وعىٰ هذا الدرس.. فهو هنا، في دعائه أن يرزق الله أهل هذا البلد من الثمرات، يحترس ويستثني ويحدد من يعني:

﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾..

إنَّه إبراهيم الأوَّاه الحليم القانت المستقيم، يتأدب بالأدب الذي علَّمه ربه، فيراعيه في طلبه ودعائه.. وعندئذٍ يجيئه ردُّ ربه مكملاً ومبيناً عن الشطر الآخر الذي سكت عنه. شطر الذين لا يؤمنون، ومصيرهم الأليم:

﴿قال: ومن كفر فأُمتِّعه قليلاً، ثم أضطرُّه إلىٰ عذاب النَّار، وبئس المصير﴾..

ثمَّ يرسم مشهد تنفيذ إبراهيم وإسماعيل للأمر الذي تلقَّياه من ربهما بإعداد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود.. يرسمه مشهوداً كما لو كانت الأعين تراهما اللحظة وتسمعها في آن:

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل: ربنا تقبل منا إنَّك أنت السميع العليم..﴾ [البقرة: ١٢٧]..

إنَّ التعبير يبدأ بصيغة الخبر.. حكاية تحكىٰ:

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾..

وبينما نحن في انتظار بقية الخبر، إذا بالسياق يكشف لنا عنهما، ويرينا إياهما، كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال. إنَّهما أمامنا حاضران، نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان..

فنغمة الدعاء، وموسيقىٰ الدعاء، وجو الدعاء.. كلها حاضرة كأنَّها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة.. وتلك إحدىٰ خصائص التعبير القرآني الجميل. رد المشهد الغائب الذاهب، حاضراً يُسمع ويُرىٰ، ويتحرك

ويشخص، وتفيض منه الحياة. . إنَّهـا خصيصته «التصـوير الفني» بمعنـاه الصادق، اللائق بالكتاب الخالد.

وماذا في ثنايا الدعاء؟ إنَّه أدب النبوة، وإيمان النبوة، وشعور النبوة بقيمة العقيدة في هذا الوجود. وهو الأدب والإيمان والشعور الـذي يريـد القرآن أن يعلمه لـورثة الأنبيـاء، وأن يعمقه في قلوبهم ومشـاعرهم بهـذا الإيحاء:

﴿ربَّنا تقبل منا. إنَّك أنت السميع العليم﴾ . .

إنَّه طلب القبول. . هذه هي الغاية. . فهو عمل خالص لله. الاتجاه به في قنـوت وخشـوع إلى الله. والغـايـة المـرتجـاة من ورائـه هي الـرضىٰ والقبول. . والرجاء في قبوله متعلق بأنَّ الله سميع للدعاء. عليم بما وراءه من النية والشعور.

﴿ربَّنـا واجعلنا مسلمَين لـك، ومن ذريتنا أُمَّـة مسلمة لـك. وأرنا مناسكنا وتب علينا إنَّك أنت التوَّاب الرَّحيم﴾ [البقرة: ١٢٨]. .

إنَّه رجاء العون من ربهما في الهـداية إلى الإسـلام؛ والشعور بـأنَّ قلبيهما بين أصبعين من أصابع الرَّحمـٰن؛ وأنَّ الهدىٰ هداه، وأنَّه لا حول ولا قوة إلَّا بالله، فهما يتجهان ويرغبان، والله المستعان.

ثمَّ هـو طابـع الأُمَّة المسلمـة. . التضـامن. . تضـامن الأجيـال في العقيدة: **﴿ومن ذرِّيَّتنا أُمَّةً مسلمة لك﴾** . .

وهي دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن. إنَّ أمر العقيدة هو شغله الشـاغـل، وهــو همّـه الأول. وشعــور إبــراهيم وإسمــاعيــل ـ عليهما السَّلام ـ بقيمة النعمة التي أسبغها الله عليهما. . نعمـة الإيمان. . تدفعهما إلى الحرص عليها في عقبهمـا، وإلى دعاء الله ربهمـا ألَّا يحرم ذريتهما هذا الإنعام الذي لا يكافئه إنعام. .

لقد دعوا ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات ولم ينسيا أن يدعواه ليرزقهم من الإيمان؛ وأن يريهم جميعاً مناسكهم، ويبيِّن لهم عباداتهم، وأن يتوب عليهم. بما أنَّه هو التوَّاب الرَّحيم.

ويمضي إبراهيم في دعائه يذكر إسكانه لبعض أبنائه بهذا الوادي المجدب المقفر المجاور للبيت المحرم، ويذكر الوظيفة التي أسكنهم في هذا القفر الجدب ليقوموا بها:

﴿ربَّنا إنِّي أسكنت من ذرِّيَّتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرَّم﴾ . . لماذا؟ **﴿ربَّنا ليقيموا الصَّلاة﴾** . .

فهذا هو الذي من أجله أسكنهم هناك، وهذا هو الذي من أجله يحتملون الجدب والحرمان.

﴿فاجعل أفئدة من النَّاس تهوي إليهم﴾ . .

وفي التعبير رقة ورفرفة، تصور القلوب رفافة مجنحة، وهي التي تهوي إلى ذلك البيت وأهله في ذلك الوادي الجديب. إنَّه تعبير نديّ يندِّي الجدب برقة القلوب . .

﴿وارزقهم من الثَّمرات﴾ . .

عن طريق تلك القلوب التي ترف عليهم من كل فج . . لماذا؟

أليأكلوا ويطعموا ويستمتعوا؟ نعم! ولكن لينشأ عن ذلك ما يرجوه إبراهيم الشكور: **﴿لعلَّهم يشكرون﴾** [إبراهيم: ٣٧] . .

وهكذا يبرز السياق هدف السكنى بجوار البيت الحرام . . إنَّه إقامة الصلاة على أصولها كاملة لله. ويبرز هدف الدعاء برفرفة القلوب وهويّها إلى أهل البيت ورزقهم من ثمرات الأرض . . إنَّه شكر الله المنعم الوهاب.

وفي ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة واضحة في موقف قريش جيرة

البيت المحرم . . فلا صلاة قائمة لله، ولا شكر بعد استجابة الدعاء، وهويّ القلوب والثمرات!

ويعقب إبراهيم على دعاء الله لذريته الساكنة بجوار بيته المحرم لتقيم الصلاة وتشكر الله . . يعقب على الدعاء بتسجيله لعلم الله الذي يطلع على ما في قلوبهم من توجه وشكز ودعاء. فليس القصد هو المظاهرات والأدعية والتصدية والمكاء. إنَّما هو توجه القلب إلى الله الذي يعلم السر والجهر ولا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء:

﴿ربَّنا إنَّك تعلم ما نخفي وما نعلن: وما يخفىٰ على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ [إبراهيم: ٣٨] . .

ويذكر إبراهيم نعمة الله عليه من قبل؛ فيلهج لسانه بالحمد والشكر شأن العبد الصالح يذكر فيشكر.

﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق، إنَّ ربِّي لسميع الدعاء﴾ [إبراهيم: ٣٩] . .

وهبة الذرية على الكبر أوقع في النفس. فالذرية امتداد. وما أجل الإنعام به عند شعور الفرد بقرب النهاية، وحاجته النفسية الفطرية إلى الامتداد. وإنَّ إبراهيم ليحمد الله، ويطمع في رحمته: **﴿إنَّ ربِّي لسميع الدعاء﴾** . .

ويعقب على الشكر بدعاء الله أن يجعله مديماً للشكر. الشكر بالعبادة والطاعة فيعلن بهذا تصميمه على العبادة وخوفه أن يعوقه عنها عائق، أو يصرفه عنها صارف، ويستعين الله على إنفاذ عزيمته وقبول دعائه:

﴿ربِّ اجعلني مقيم الصَّلاة. ومن ذرِّيَّتي. ربَّنا وتقبل دعاء﴾ [إبراهيم: ٤٠] . .

ثمَّ يمضي إبراهيم بدعائه ألاَّ يترك ذريته بلا هداية في أجيالهم البعيدة:

﴿ربَّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة ويزكِّيهم. إنَّك أنت العزيز الحكيم﴾ [البقرة: ١٢٩]..

وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل هي بعثة هذا الرسول الكريم بعد قرون وقرون. بعثة رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل[1]، يتلو عليهم آيات الله، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة ويطهِّرهم من الأرجاس والأدناس.

إنَّ الدعوة المستجابة تستجاب، ولكنها تتحقق في أوانها الذي يُقدِّره الله بحكمته. غير أنَّ الناس يستعجلون! وغير الواصلين يملّون ويقنطون!

وفي ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة مرة أُخرىٰ في موقف جيرة البيت من قريش. وهذا إبراهيم يجعل عون الله له على إقامة الصَّلاة رجاء يرجوه، ويدعو الله ليوفقه إليه. وهم ينأون عنها ويعرضون، ويكذبون الرسول الذي يذكرهم بما كان إبراهيم يدعو الله أن يعينه عليه هو وبنيه من بعده!

ويختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعاً، يوم يقوم الحساب، فلا ينفع إنساناً إلاَّ عمله؛ ثمَّ مغفرة الله في تقصيره: ﴿ربَّنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ [إبراهيم: ٤١]..

وينتهي المشهد الطويل: مشهد الدعاء الخاشع الضارع. ومشهد تعداد النعم والشكر عليها.. في إيقاعٍ موسيقي متموج رخي.. ينتهي بعد أن يخلع على الموقف كله ظلاً وديعاً، تهفو القلوب معه إلى جوار الله، وتذكر القلوب فيه نعم الله. ويرتسم إبراهيم أبو الأنبياء نموذجاً للعبد الصالح

---

(١) لقد اصطفىٰ الله جلّ وعلا نبيه محمَّد ﷺ من بين ولد إسماعيل ـ صلوات الله عليه..
عن واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله اصطفىٰ كِنَانَة من وَلَد إسماعيل، واصطفىٰ من كِنَانة قريشاً، واصطفىٰ من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». أخرجه مسلم وابن حبان. انظر تخريجه في الإحسان (رقم ٦٣٣٤) و (٦٤٧٥).

الذاكر الشاكر، كما ينبغي أن يكون عباد الله، الذين وجّه الحديث إليهم قبيل هذا الدعاء . .

ولا يفوتنا أن نلمح تكرار إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ في كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع المنيب لكلمة: « ربَّنا » أو « ربِّ ». فإنَّ لهجان لسانه يذكر ربوبية الله له ولبنيه من بعده ذات مغزىً . .

إنَّه لا يذكر الله ـ سبحانه ـ بصفة الألوهية، إنَّما يذكره بصفة الربوبية. فالألوهية قلَّما كانت موضع جدال في معظم الجاهليات ـ وبخاصة في الجاهلية العربية ـ إنَّما الذي كان دائماً موضع جدل هو قضية الربوبية. قضية الدينونة في واقع الحياة الأرضية. وهي القضية العملية الواقعية المؤثرة في حياة الإنسان. والتي هي مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية وبين التوحيد والشرك في عالم الواقع . . فإمَّا أن يدين الناس لله فيكون ربهم وإمَّا أن يدينوا لغير الله فيكون غير ربهم . . وهذا هو مفرق الطريق بين التوحيد والشرك وبين الإسلام والجاهلية في واقع الحياة. والقرآن وهو يعرض على مشركي العرب دعاء أبيهم إبراهيم والتركيز فيه على قضية الربوبية كان يلفتهم إلى ما هم فيه من مخالفة واضحة لمدلول هذا الدعاء!

وحين يستيقظ ضمير الإنسان، ويتطلع إلى الكون من حوله، فإذا هو مسخر له، إمَّا مباشرة، وإمَّا بموافقة ناموسه لحياة البشر وحوائجهم؛ ويتأمل فيما حوله فإذا هو صديق له برحمة الله، معين بقدرة الله، ذلول له بتسخير الله . . حين يستيقظ ضمير الإنسان فيتطلع ويتأمل ويتدبر. لا بد يرتجف ويخشع ويسجد ويشكر. ويتطلع دائماً إلى ربه المنعم، حين يكون في الشدة ليبدله منها يسراً، وحين يكون في الرخاء ليحفظ عليه النعماء.

وإبراهيم الذي يظلل سمته ظلال النعمة وما يتعلق بها من شكران أو كفران . . نراه العبد الخاشع، يظلله الشكر، وتشيع فيه الضراعة، ويتجاوب فيه الدعاء في نغمة رخية متموجة، ذاهبة في السماء.

وبعد فإنَّ لهذا الدعاء دلالته ووزنه فيما كان يشجر بين اليهود والجماعة المسلمة من نزاع عنيف متعدد الأطراف.

إنَّ إبراهيم وإسماعيل اللذين عهد الله إليهما برفع قواعد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والمصلِّين، وهما أصل سادني البيت من قريش.. إنَّهما يقولان باللسان الصريح: **﴿ربَّنا واجعلنا مسلمين لك﴾**.. **﴿ومن ذرِّيَّتنا أمة مسلمة لك﴾** [البقرة: ١٢٨].. كما يقولان باللسان الصريح: **﴿ربَّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة ويزكِّيهم﴾**..

وهما بهذا وذاك يقرران وراثة الأُمَّة المسلمة لإمامة إبراهيم، ووراثتها للبيت الحرام سواء. وإذن فهو بيتها الذي تَتَّجه إليه، وهي أَولىٰ به من المشركين. وهو أولىٰ بها من قبلة اليهود والنصارىٰ!

وإذن فمن كان يربط ديانته بإبراهيم من اليهود والنصارىٰ، ويدعي دعاواه العريضة في الهدىٰ والجنة بسبب تلك الوراثة، ومن كان يربط نسبه بإسماعيل من قريش.. فليسمع:

إنَّ إبراهيم حين طلب الوراثة لبنيه والإمامة، قال له ربه: **﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾**.. ولمَّا أن دعا هو لأهل البلد بالرزق والبركة خصَّ بدعوته **﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾**..

وحين قام هو وإسماعيل بأمر ربهما في بناء البيت وتطهيره كانت دعوتهما: أن يكونا مسلمين لله، وأن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة، وأن يبعث في أهل بيته رسولاً منهم.. فاستجاب الله لهما، وأرسل من أهل البيت محمَّد بن عبد الله، وحقق على يديه الأُمَّة المسلمة القائمة بأمر الله الوارثة لدين الله.

حجج واهية ودعاوىٰ ساقطة :

وقصة إبراهيم تؤدِّي دوراً هاماً فيما شجر بين اليهود والجماعة المسلمة في المدينة من نزاع حاد متشعب الأطراف.

إنَّ أهل الكتاب ليرجعون بأُصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق ـ عليهما السَّلام ـ ويعتزّون بنسبتهم إليه، وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة، وعهده معه ومع ذريته من بعده. ومن ثمَّ يحتكرون لأنفسهم الهدىٰ والقوامة على الدين، كما يحتكرون لأنفسهم الجنة أيّاً كان ما يعملون!

وإنَّ قريشاً لترجع بأُصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل ـ عليهما السَّلام ـ وتعتز بنسبتها إليه، وتستمد منها القوامة على البيت، وعمارة المسجد الحرام؛ وتستمد كذلك سلطانها الديني على العرب، وفضلها وشرفها ومكانتها.

والقرآن يسير بنا في قصة إبراهيم خطوة خطوة، منذ أن ابتلاه ربه واختبره فاستحق اختياره واصطفاءه، وتنصيبه للناس إماماً. . إلى أن نشأت الأُمَّة المسلمة المؤمنة برسالة محمَّد ﷺ استجابة من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام؛ فاستحقَّت وراثة هذه الأمانة دون ذرية إبراهيم جميعاً، بذلك السبب الوحيد الذي تقوم عليه وراثة العقيدة. . سبب الإيمان بالرسالة، وحسن القيام عليها، والاستقامة على تصورها الصحيح.

وفي ثنايا العرض التاريخي في القرآن يبرز: أنَّ الإسلام ـ بمعنىٰ إسلام الوجه لله وحده ـ كان هو الرسالة الأُولىٰ، وكان هو الرسالة الأخيرة. . هكذا اعتقد إبراهيم، وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسىٰ وعيسىٰ. . ثمَّ آلت أخيراً إلى ورثة إبراهيم من المسلمين. . فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها، ووريث عهودها وبشاراتها. ومن فسق عنها، ورغب

بنفسه عن ملة إبراهيم، فقد فسق عن عهد الله، وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته.

عندئذٍ تسقط كل دعاوىٰ اليهود والنصارىٰ في اصطفائهم واجتبائهم، لمجرد أنَّهم أبناء إبراهيم وحفدته، وهم ورثته وخلفاؤه! لقد سقطت عنهم الوراثة منذ ما انحرفوا عن هذه العقيدة.. وعندئذٍ تسقط كذلك كل دعاوىٰ قريش في الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعمارته، لأنَّهم قد فقدوا حقهم في وراثة باني هذا البيت ورافع قواعده بانحرافهم عن عقيدته.. ثمَّ تسقط كل دعاوىٰ اليهود فيما يختص بالقبلة التي ينبغي أن يتجه إليها المسلمون. فالكعبة هي قبلتهم وقبلة أبيهم إبراهيم..

لقد كان اليهود يُبدئون ويعيدون في مسألة تحويل القبلة إلى الكعبة، بعد أن صلّىٰ رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس حتى الشهر السادس عشر أو السابع عشر من الهجرة..

إنَّ اتخاذ الكعبة قبلة للمسلمين هو الأصل وهو الأَوْلىٰ، وأنَّ اتخاذ بيت المقدس هذه الفترة كان لحكمة معينة بيَّنها الله في حينها.. مع هذا فقد ظل اليهود يبدئون في هذا الموضوع ويعيدون، ابتغاء البلبلة والتشكيك واللبس الحق الصريح ـ على مثال ما يصنع اليوم أعداء هذا الدين بكل موضوع من موضوعات هذا الدين! وهنا يرد الله عليهم كيدهم ببيان جديد. **﴿قل: صدق الله، فاتَّبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين. إنَّ أول بيت وضع للناس للذي ببكَّة مباركاً وهدىً للعالمين. فيه آيات بيِّنات. مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً. ولله على النَّاس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾** [آل عمران: ٩٥ ـ ٩٧]..

ولعلَّ الإشارة هنا في قوله: **﴿قل صدق الله﴾**.. تعني ما سبق تقريره في هذا الأمر، من أنَّ هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون مثابة للناس وأمناً، وليكون للمؤمنين بدينه قبلة ومصلىٰ: ومن ثمَّ يجيء الأمر باتباع

إبراهيم في ملته. وهي التوحيد الخالص المبرأ من الشرك في كل صوره.

واليهود كانوا يزعمون أنَّهم هم ورثة إبراهيم. فها هو ذا القرآن يدلهم على حقيقة دين إبراهيم، وأنه الميل عن كل شرك. ويؤكد هذه الحقيقة مرتين: مرة بأنَّه كان حنيفاً. ومرة بأنَّه ما كان من المشركين. فما بالهم هم مشركين!!

ثمَّ يقرر أنَّ الاتجاه للكعبة هو الأصل. فهو أول بيت وضع في الأرض للعبادة وخصص لها مذ أمر الله إبراهيم أن يرفع قواعده، وأن يخصصه للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود. وجعله مباركاً. وجعله هدىً للعالمين، يجدون عنده الهدىٰ بدين الله ملة إبراهيم. وفيه علامات بيِّنة على أنَّه مقام إبراهيم.. (ويقال: إنَّ المقصود هو الحجر الأثري الذي كان إبراهيم - عليه السَّلام - يقف عليه أثناء البناء، وكان ملصقاً بالكعبة فأخَّره عنها الخليفة الراشد عمر رضي الله عنه حتى لا يشوش الذين يطوفون به على المصلين عنده. وقد أمر المسلمون أن يتخذوه مصلىٰ بقوله تعالىٰ: ﴿**واتَّخذوا من مقام إبراهيم مصلّىٰ**﴾ [البقرة: ١٢٥]..

فهذا هو البيت الذي اختاره الله للمسلمين قبلة.. هو بيت الله الذي جعل له هذه الكرامة. وهو أول بيت أُقيم في الأرض للعبادة. وهو بيت أبيهم إبراهيم، وفيه شواهد على بناء إبراهيم له. والإسلام هو ملَّة إبراهيم. فبيته هو أَولىٰ بيت بأن يتجه إليه المسلمون. وهو مثابة الأمان في الأرض. وفيه هدى للناس، بما أنَّه مثابة هذا الدين.

ثَمَّ يقرر أنَّ الله فرض على الناس أن يحجوا إلى هذا البيت ما تيسَّر لهم ذلك: ﴿**ولله على النَّاس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً**﴾.

ويواجه القرآن الذين ينازعون الأُمَّة المسلمة الإمامة؛ وينازعون الرسول ﷺ النبوّة والرسالة؛ ويجادلون في حقيقة دين الله الأصيلة الصحيحة:

﴿ومن يرغب عن ملَّة إبراهيم إلاَّ من سفه نفسه؟ ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنَّه في الآخرة لمن الصالحين، ووصَّىٰ بها إبراهيم بنيه ويعقوب: يَا بنيَّ إنَّ الله اصطفىٰ لكم الدين فلا تموتنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢]..

هذه هي ملة إبراهيم.. الإسلام الخالص الصريح.. لا يرغب عنها وينصرف إلاَّ ظالم لنفسه، سفيه عليها، مستهتر بها.. إبراهيم الذي اصطفاه ربه في الدنيا إماماً، وشهد له في الآخرة بالصلاح.. اصطفاه **﴿إذ قال له ربُّه أسلم﴾**.. فلم يتلكَّأ، ولم يرتب، ولم ينحرف، واستجاب فور تلقي الأمر. **﴿قال: أسلمت لرب العالمين﴾**..

هذه هي ملة إبراهيم.. الإسلام الخالص الصريح.. ولم يكتف إبراهيم بنفسه إنَّما تركها في عقبه، وجعلها وصيته في ذريته، ووصىٰ بها إبراهيم بنيه كما وصَّىٰ بها يعقوب بنيه. ويعقوب هو إسرائيل الذي ينتسبون إليه، ثمَّ لا يلبون وصيته، ووصية جده، وجدهم إبراهيم!

ولقد ذكَّر كل من إبراهيم ويعقوب بنيه بنعمة الله عليهم في اختياره الدين لهم:

﴿يَا بنيَّ إنَّ الله اصطفىٰ لكم الدين﴾..

فهو من اختيار الله. فلا اختيار لهم بعده ولا اتجاه. وأقل ما توجبه رعاية الله لهم، وفضل الله عليهم، هو الشكر على نعمة اختياره واصطفائه، والحرص على ما اختاره لهم، والاجتهاد في ألاَّ يتركوا هذه الأرض إلاَّ وهذه الأمانة محفوظة فيهم: **﴿فلا تموتنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون﴾**..

وها هي ذي الفرصة سانحة، فقد جاءهم الرسول الذي يدعوهم إلى الإسلام، وهو ثمرة الدعوة التي دعاها أبوه إبراهيم..

في ظل هذا البيان التاريخي الحاسم، لقصة العهد مع إبراهيم: وقصة البيت الحرام كعبة المسلمين؛ ولحقيقة الوراثة وحقيقة الدين؛ يناقش

ادعاءات أهل الكتاب المعاصرين، ويعرض لحججهم وجدلهم ومحالهم، فيبدو هذا كله ضعيفاً شاحباً، كما يبدو فيه العنت، والادّعاء بلا دليل: كذلك تبدو العقيدة الإسلامية عقيدة طبيعية شاملة لا ينحرف عنها إلّا المتعنتون:

﴿وقالوا: كونوا هوداً أو نصارىٰ تهتدوا. قل: بل ملَّة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين. قولوا: آمنَّا بالله، وما أُنزل إلينا، وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أُوتي موسىٰ وعيسىٰ، وما أُوتي النبيُّون من ربِّهم، لا نفرِّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنَّما هم في شقاق فسيكفيكهم الله، وهو السميع العليم﴾ [البقرة: ١٣٥ - ١٣٧]. .

وإنَّما كان قول اليهود: كونوا يهوداً تهتدوا؛ وكان قول النصارىٰ: كونوا نصارىٰ تهتدوا. فجمع الله قوليهم ليوجه نبيه ﷺ أن يواجههم جميعاً بكلمة واحدة:

﴿قل: بل ملَّة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين﴾ . .

قل: بل نرجع جميعاً، نحن وأنتم إلى ملة إبراهيم، أبينا وأبيكم، وأصل ملة الإسلام، وصاحب العهد مع ربه عليه. . **﴿وما كان من المشركين﴾** . . بينما أنتم تشركون. .

ثمَّ يدعو المسلمين لإعلان الوحدة الكبرىٰ للدين، من لدن إبراهيم أبي الأنبياء إلى عيسىٰ بن مريم، إلى الإسلام الأخير. . ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد:

﴿قولوا: آمنَّا بالله، وما أُنزل إلينا، وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل. . .﴾ . .

تلك الوحدة الكبرىٰ بين الرسالات جميعاً، وبين الرسل جميعاً، هي قاعدة التصور الإسلامي وهي التي تجعل من الأُمَّة المسلمة، الأُمَّة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الأرض، الموصولة بهذا الأصل

العريق، السائرة في الدرب على هدىً ونور. والتي تجعل من النظام الإسلامي النظام العالمي الذي يملك الجميع الحياة في ظله دون تعصب ولا اضطهاد. والتي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً مفتوحاً للناس جميعاً في مودة وسلام.

لقد كان الحديث عن المسجد الحرام: بنائه وعمارته، وما أحاط بهما من ملابسات؛ والجدل مع أهل الكتاب والمشركين حول إبراهيم وبنيه ودينه وقبلته، وعهده ووصيته.. كان هذا الحديث خير تمهيد للحديث عن تحويل قبلة المسلمين من المسجد الأقصىٰ إلى المسجد الحرام بعد هذه الفترة. فتحويل قبلة المسلمين إلى المسجد الحرام الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، ودعوا ذلك الدعاء الطويل.. يبدو في هذا السياق هو الاتجاه الطبيعي المنطقي مع وراثة المسلمين لدين إبراهيم وعهده مع ربه فهو الاتجاه الحسي المتساوق مع الاتجاه الشعوري، الذي ينشئه ذلك التاريخ.

لقد عهد الله إلى إبراهيم أن يكون من المسلمين؛ وعهد إبراهيم بهذا الإسلام إلى بنيه من بعده، ولقد علم إبراهيم أنَّ وراثة عهد الله وفضله لا تكون للظالمين.

ولقد عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل بإقامة قواعد البيت الحرام.. فهو تراث لهما، يرثه من يرثون عهد الله إليهما.. والأُمَّة المسلمة هي الوارثة لعهد الله مع إبراهيم وإسماعيل ولفضل الله عليهما؛ فطبيعي إذن ومنطقي أن ترث بيت الله في مكة، وأن تتخذ منه قبلة.

فإذا اتجه المسلمون فترة من الزمان إلى المسجد الأقصىٰ، الذي يتجه إليه اليهود والنصارىٰ، فقد كان هذا التوجه لحكمة خاصة هي التي أشار إليها القرآن(١).. وقد شاء أن يعهد بالوراثة إلى الأُمَّة المسلمة، وقد أبىٰ أهل

---

(١) راجع سورة البقرة، الآيات: ١٤١ ـ ١٥٠.

الكتـاب أن يفيئوا إلى دين إبـراهيم ـ وهو الإسـلام ـ فيشـاركـوا في هـذه الوراثة . .

وحين شاء الله تحويل القبلة في أوانه . . . تحويلها إلى بيت الله الأول الذي بناه إبراهيم. لتتميز للمسلمين كل خصائص الوراثة. حسياً وشعورياً، وراثة الدين، ووراثة القبلة، ووراثة الفضل من الله جميعاً.

ويمضي القرآن الكريم في مواجهة أهل الكتاب ـ اليهود والنصارىٰ ـ بسخف موقفهم وهم يحاجون في إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ فيزعم اليهود أنَّه كان يهودياً، ويزعم النصارىٰ أنَّه كان نصرانياً. على حين أنَّ إبراهيم سابق لليهودية والنصرانية، سابق للتوارة والإنجيل. والحجاج فيه على هذا النحو مراء لا يستند إلى دليل . . ويقرر مـا كان عليـه إبراهيـم . . لقـد كان على الإسلام . . دين الله القويم. وأولياؤه هم الذين يسيـرون على نهجه. والله ولي المؤمنين أجمعين . . ومن ثمَّ تسقط ادّعاءات هؤلاء وهؤلاء، ويتبين خط الإسلام الواصل بين رسل الله والمؤمنين بهم على توالي القرون . .

﴿يَـٰٓا أهـل الكتاب لِمَ تحـاجُّون في إبـراهيم، ومـا أُنـزلت التـوراة والإنجيل إلاَّ من بعده؟ أفلا تعقلون؟﴾ [آل عمران: ٦٥] . .

قال محمَّد بن إسحاق: حدَّثني محمَّد بن أبي ـ مولىٰ زيد بن ثابت ـ حدَّثني سعيد بن جبير ـ أو عكرمة ـ عن ابن عباس رضي الله عنهمـا قال: اجتمعت نصارىٰ نجران وأحبار يهود عنـد رسول الله ﷺ فتنـازعوا عنـده. فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلاَّ يهودياً. وقالت النصارىٰ: ما كان إبراهيم إلاَّ نصـرانيـاً. فـأنـزل الله تعـالىٰ: **﴿يَـٰٓا أهـل الكتـاب لِمَ تحـاجُّـون في إبراهيم﴾** . . الآية.

وسواء كانت هذه هي مناسبة نزول الآية أو لم تكن، فظاهر من نصها أنَّها نزلت رداً على ادعاءات لأهل الكتاب، وحجاج مـع النبي ﷺ أو مع

بعضهم البعض في حضرة الرسول ﷺ والهدف من هذه الادّعاءات هو احتكار عهد الله مع إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أن يجعل في بيته النبوة؛ واحتكار الهداية والفضل كذلك.

ثمَّ ـ وهذا هو الأهم ـ هو تكذيب دعوى النبي ﷺ أنَّه على دين إبراهيم، وأنَّ المسلمين هم ورثة الحنيفية الأولىٰ؛ وتشكيك المسلمين في هذه الحقيقة، أو بث الريبة في نفوس بعضهم على الأقل..

ومن ثمَّ يندد الله بهم هذا التنديد؛ ويكشف مراءهم الذي لا يستند إلى دليل. فإبراهيم سابق على التوراة وسابق على الإنجيل. فكيف إذن يكون يهودياً؟ أو كيف إذن يكون نصرانياً؟ إنَّها دعوىٰ مخالفة للعقل، تبدو مخالفتها بمجرد النظرة الأُولىٰ إلى التاريخ.

ثمَّ يمضي في التنديد بهم، وإسقاط قيمة ما يدلون به من حِجج، وكشف تعنتهم وقلة اعتمادهم على منهج منطقي سليم في الجدل والحوار: **﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم، فلم تحاجُّون فيما ليس لكم به علم؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون؟﴾** [آل عمران: ٦٦].. وقد جادلوا في أمر عيسىٰ ـ عليه السَّلام ـ، كما يبدو أنَّهم جادلوا في بعض الأحكام التشريعية حين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم، ثمَّ تولوا وهم معرضون.. وكان هذا وذاك في دائرة ما يعلمون من الأمر. أمَّا أن يجادلوا فيما هو سابق على وجودهم، ووجود كتبهم ودياناتهم.. فهو الأمر الذي لا سند له ولو كان سنداً شكلياً. فهو الجدل إذن لذات الجدل. وهو المراء الذي لا يسير على منهج، وهو الغرض إذن والهوىٰ.. ومن كان هذا حاله فهو غير جدير بالثقة فيما يقول. بل غير جدير بالاستماع أصلاً لما يقول! حتى إذا انتهىٰ السياق من إسقاط قيمة جدلهم من أساسه، ونزع الثقة منهم وممَّا يقولون، عاد يقرر الحقيقة التي يعلمها الله. فهو ـ سبحانه ـ الذي يعلم حقيقة هذا التاريخ البعيد؛ وهو الذي يعلم كذلك حقيقة الدين الذي نزله على عبده إبراهيم.

وقوله الفصل الذي لا يبقىٰ معه لقائل قول؛ إلَّا أن يجادل ويماري بلا سلطان ولا دليل:

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً. ولـكن كان حنيفاً مسلماً. وما كان من المشركين﴾ [آل عمران: ٦٧]. .

فيؤكد ما قرره من قبل ضمناً من أن إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ما كان يهودياً ولا نصرانياً. وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلَّا من بعده. ويقرر أنَّه كان مائلاً عن كل ملة إلَّا الإسلام. فقد كان مسلماً. . مسلماً بالمعنىٰ الشامل للإسلام الذي مرَّ تفصيله وبيانه. .

﴿وما كان من المشركين﴾. .

وهذه الحقيقة متضمنة في قوله قبلها **﴿ولـكن كان حنيفاً مسلماً﴾**. . ولكن إبرازها هنا يشير إلى عدة من لطائف الإشارة والتعبير:

ـ يشير أولاً إلى أنَّ اليهود والنصارىٰ ـ الذين انتهىٰ أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة ـ مشركون. . ومن ثمَّ لا يمكن أن يكون إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً. ولكن حنيفاً مسلماً!

ـ ويشير إلى أنَّ الإسلام شيء والشرك شيء آخر. فلا يلتقيان. الإسلام هو التوحيد المطلق بكل خصائصه، وكل مقتضياته ومن ثمَّ لا يلتقي مع لون من ألوان الشرك أصلاً.

ـ ويشير ثالثاً إلى إبطال دعوىٰ المشركين من قريش كذلك أنَّهم على دين إبراهيم، وسدنة بيته في مكة. . فهو حنيف مسلم، وهم مشركون **﴿وما كان من المشركين﴾**!

وما دام أنَّ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، فليس لأي من اليهود أو النصارىٰ ـ أو المشركين أيضاً ـ أن يدَّعي وراثته، ولا الولاية على دينه، وهم بعيدون عن عقيدته.

والعقيدة هي الوشيجة الأولىٰ التي يتلاقىٰ عليها الناس في الإسلام. حين لا يلتقون على نسب ولا أرومة ولا جنس ولا أرض. إذا انبتت تلك الوشيجة التي يتجمع عليها أهل الإيمان. فالإنسان في نظر الإسلام إنسان بروحه. بالنفخة التي جعلت منه إنساناً. ومن ثمَّ فهو يتلاقىٰ على العقيدة أخص خصائص الروح فيه. ولا يلتقي على مثل ما تلتقي عليه البهائم من الأرض والجنس والكلأ والمرعىٰ والحدّ والسياج!

والولاية بين فرد وفرد، وبين مجموعة ومجموعة، وبين جيل من الناس وجيل، لا ترتكن إلى وشيجة أخرىٰ سوىٰ وشيجة العقيدة، يتلاقىٰ فيها المؤمن والمؤمن. والجماعة المسلمة والجماعة المسلمة. والجيل المسلم والأجيال المسلمة من وراء حدود الزمان والمكان، ومن وراء فواصل الدم والنسب، والقوم والجنس، ويتجمعون أولياء ـ بالعقيدة وحدها ـ والله من ورائهم ولي الجميع:

﴿إنَّ أولىٰ الناس بإبراهيم للَّذين اتَّبعوه، وهذا النَّبي، والَّذين آمنوا. والله ولي المؤمنين﴾ [آل عمران: ٦٨]..

فالَّذين اتَّبعوا إبراهيم ـ في حياته ـ وساروا على منهجه، واحتكموا إلى سنته هم أولياؤه. ثمَّ هذا النبي الذي يلتقي معه في الإسلام بشهادة الله أصدق الشاهدين. ثمَّ الذين آمنوا بهذا النَّبيّ ﷺ فالتقوا مع إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ في المنهج والطريق.

﴿والله ولي المؤمنين﴾..

فهم حزبه الذين ينتمون إليه، ويستظلون برايته، ويتولونه ولا يتولون أحداً غيره. وهم أسرة واحدة. وأُمَّة واحدة. من وراء الأجيال والقرون، ومن وراء المكان والأوطان؛ ومن وراء القوميات والأجناس، ومن وراء الأرومات والبيوت!

وهذه الصورة هي أرقىٰ صورة للتجمع الإنساني تليق بالكائن

الإنساني. وتميزه من القطيع! كما أنَّها هي الصـورة الوحيـدة التي تسمح بالتجمع بلا قيود. لأنَّ القيد الواحد فيها اختياري يمكن لكل من يشاء أن يفكَّه عن نفسه بإرادته الذاتية. فهو عقيدة يختارها بنفسه فينتهي الأمر.. على حين لا يملك الفرد أن يغير جنسه ـ إن كانت رابطة التجمع هي الجنس ـ ولا يملك أن يغير قومه ـ إن كانت رابطة التجمع هي القوم ـ ولا يملك أن يغير لونه ـ إن كانت رابطة التجمع هي اللون ـ ولا يملك بيسر أن يغير لغته ـ إن كانت رابطة التجمع هي اللغة ـ ولا يملك بيسر أن يغير طبقته ـ إن كانت رابطة التجمع هي الطبقة ـ بل قد لا يستـطيع أن يغيـرها أصـلاً إن كانت الطبقات وراثة كما في الهند مثلاً. ومن ثَمَّ تبقىٰ الحواجز قائمة أبداً دون التجمع الإنساني، ما لم ترد إلى رابطة الفكرة والعقيدة والتصور.. الأمر المتروك للاقتناع الفردي، والذي يملك الفرد بذاته، بدون تغيير أصله أو لونه أو لغته أو طبقته أن يختاره، وأن ينضم إلى الصف على أساسه.

وذلك فوق ما فيه من تكريم للإنسان، يجعل رابـطة تجمعه مسـألة تـتعلق بأكرم عناصره، المميزة له من القطيع!

والبشرية إمَّا أن تعيش ـ كما يريدها الإسلام ـ أناسيّ تـتجمع على زاد الروح وسمة القلب وعلامة الشعور.. وإمَّا أن تعيش قطعانـاً خلف سياج الحدود الأرضية، أو حدود الجنس واللون.. وكلها حدود ممَّا يقام للماشية في المرعىٰ كي لا يختلط قطيع بقطيع!!!

أُمَّة التوحيد وقافلة الإيمان :

إنَّ دعوة التوحيد هي دعوة إبراهيم: **﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه: إنَّني براء ممَّا تعبدون، إلَّا الذي فطرني فإنَّه سيهدين. وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلَّهم يرجعون﴾** [الزُّخرف: ٢٦ ـ ٢٨]..

هذه الدعوة هي التي واجَه بها أباه وقومه مخالفاً بها عقيدتهم الباطلة،

غير منساق وراء عبادتهم الموروثة، ولا مستمسك بها لمجرد أنَّه وجد أباه وقومه عليها؛ بل لم يجاملهم في إعلان تبرُّئه المطلق منها في لفظ واضح صريح، يحكيه القرآن الكريم بقوله: **﴿إنَّني براء ممَّا تعبدون، إلاَّ الَّذي فطرني فإنَّه سيهدين﴾**. .

ويبدو من حديث إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وتَبَرُّئه ممَّا يعبدون إلاَّ الذي فطره أنَّهم لم يكونوا يكفرون ويجحدون وجود الله أصلاً؛ إنَّما كانوا يشركون به ويعبدون معه سواه، فتبرَّأ من كل ما يعبدون، واستثنىٰ الله؛ ووصفه بصفته التي تستحق العبادة ابتداء، وهو أنَّه فطره وأنشأه، فهو الحقيق بالعبادة بحكم أنَّه الموجد. وقرر يقينه بهداية ربه له، بحكم أنَّه هو الذي فطره؛ فقد فطره ليهديه؛ وهو أعلم كيف يهديه.

قال إبراهيم هذه الكلمة التي تقوم بها الحياة. كلمة التوحيد التي يشهد بها الوجود. قالها:

﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلَّهم يرجعون﴾. .

ولقد كان لإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أكبر قسط في إقرار هذه الكلمة في الأرض، وإبلاغها إلى الأجيال من بعده، عن طريق ذريته وعقبه. ولقد قام بها من بنيه رسل، كان منهم ثلاثة من أُولي العزم: موسىٰ وعيسىٰ ومحمَّد ـ خاتم الرسل ـ عليهم صلوات الله وسلامه. واليوم بعد عشرات القرون يقوم في الأرض أكثر من ألف مليون، من أتباع الديانات الكبرىٰ يدينون بكلمة التوحيد لأبيهم إبراهيم، الذي جعل هذه الكلمة باقية في عقبه، يضل منهم عنها من يضل، ولكنها هي باقية لا تضيع، ثابتة لا تتزعزع، واضحة لا يتلبس بها الباطل **﴿لعلَّهم يرجعون﴾**. . يرجعون إلى الذي فطرهم فيعرفوه ويعبدوه. ويرجعون إلى الحق الواحد فيدركوه ويلزموه.

ولقد عرفت البشرية كلمة التوحيد قبل إبراهيم. ولكن هذه الكلمة لم تستقر في الأرض إلاَّ من بعد إبراهيم. عرفتها على لسان نوح وهود وصالح

وإدريس، وغيرهم من الرسل الذين لم يتصل لهم عقب يقوم على هذه الكلمة، ويعيش بها، ولها. فلمَّا عرفتها على لسان إبراهيم ظلَّت متصلة في أعقابه؛ وقام عليها من بعده رسل متصلون لا ينقطعون، حتى إذا كان ابنه الأخير من نسل إسماعيل، وأشبه أبنائه به[1]: محمَّد ﷺ ـ خاتم الرسل ـ، وقائل كلمة التوحيد في صورتها الأخيرة الكاملة الشاملة، التي تجعل الحياة كلها تدور حول هذه الكلمة، وتجعل لها أثراً في كل نشاط للإنسان وكل تصور.

فهذه هي قصة التوحيد منذ أبيهم إبراهيم الذي ينتسبون إليه؛ وهذه هي كلمة التوحيد التي جعلها إبراهيم باقية في عقبه، هذه هي تأتي إلى هذا الجيل على لسان واحد من عقب إبراهيم فكيف يستقبلها من ينتسبون إلى إبراهيم، وملة إبراهيم؟

لقد بَعُدَ بهم العهد؛ ومتعهم الله جيلاً بعد جيل، حتى طال عليهم العمر، ونسوا ملة إبراهيم، وأصبحت كلمة التوحيد فيهم غريبة منكرة، واستقبلوا صاحبها أسوأ استقبال وقاسوا الرسالة السماوية بالمقاييس الأرضية فاختلَّ في أيديهم كل ميزان.

إنَّ الجولة في قصة إبراهيم تصل المسلمين بأول هذه الأُمة الواحدة: أُمَّة التوحيد. وهذه القافلة الواحدة: قافلة الإيمان. فإذا هي ممتدة في

---

(١) عن جابر عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «عرض عليَّ الأنبياء، فإذا موسىٰ ـ عليه السَّلام ـ رجل ضربٌ من الرجال كأنَّه من رجال شنوءة، فرأيت عيسىٰ ابن مريم ـ عليه السَّلام ـ، فإذا أقرب من رأيت به شَبَهاً عروة بن مسعود. ورأيت إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ فإذا أقرب من رأيت به شَبَهاً صاحبكم ـ يعني نفسه ـ...». أخرجه مسلم (٢٣٦٦) و(١٤٧) وابن حبان في صحيحه. انظر تخريجه في الإحسان (رقم ٦٢٣٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة أُسري بي... ورأيت إبراهيم وأنا أشبهُ وَلَده به...».

رواه ابن حبان بإسناد صحيح. انظر الإحسان رقم (٥١).

الزمان، متميزة بالإيمان، متبرئة من كل وشيجة تنافي وشيجة العقيدة. . إنَّها الأُمَّة الممتدة منذ إبراهيم. أبيهم الأول وصاحب الحنيفية الأُولىٰ. وفيه أُسوة لا في العقيدة وحدها، بل كذلك في السيرة، وفي التجارب التي عاناها مع عاطفة القرابة ووشائجها؛ ثمَّ خلص منها هو ومن آمن معه، وتجرد لعقيدته وحدها:

﴿قد كانت لكم أُسوة حسنة في إبراهيم والذين معه﴾ [الممتحنة: ٤]. .

وينظر المسلم فإذا له نسب عريق، وماض طويل، وأُسوة ممتدة على آماد الزمان. وإذا هو راجع إلى إبراهيم، لا في عقيدته فحسب، بل في تجاربه التي عاناها كذلك. فيشعر أنَّ له رصيداً من التجارب أكبر من رصيده الشخصي وأكبر من رصيد جيله الذي يعيش فيه.

إنَّ هذه القافلة الممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله، الواقفين تحت راية الله، قد مرت بمثل ما يمرّ به، وقد انتهت في تجربتها إلى قرار اتخذته. فليس الأمر جديداً ولا مبتدعاً ولا تكليفاً يشق على المؤمنين. . ثمَّ إنَّ له لأُمَّة طويلة عريضة يلتقي معها في العقيدة ويرجع إليها، إذا انبتَّت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته. فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال. . الشجرة التي غرسها أول المسلمين. . إبراهيم. .

مرَّ إبراهيم والذين معه بالتجربة التي يعانيها المسلمون المهاجرون. وفيهم أُسوة حسنة: ﴿إذ قالوا لقومهم: إنَّا بُرآءُ منكم وممَّا تعبدون من دون الله، كفرنا بكم، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتّىٰ تؤمنوا بالله وحده إلَّا قول إبراهيم لأبيه لأَستغفرنَّ لك﴾ [الممتحنة: ٤]. .

فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم. وهو الكفر والإيمان بالله. وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده. وهي

المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان. وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها المؤمن في أي جيل. وفي قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين.

ولقد كان بعض المسلمين يجد في استغفار إبراهيم لأبيه ـ وهو مشرك ـ ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوي قرباهم من المشركين. فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم في قوله لأبيه: **﴿لأستغفرنَّ لك﴾**..

فلقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك. قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقعه: **﴿فلمَّا تبيَّن له أنَّه عدو لله تبرَّأ منه﴾** كما جاء في فصل سابق في سياق القصة(١).

ويثبت هنا أنَّ إبراهيم فوَّض الأمر كله لله، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال:

﴿وما أملك لك من الله من شيء. ربَّنا عليك توكَّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ [الممتحنة: ٤]..

وهذا التسليم المطلق لله، هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم يبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين. كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه، وإبراز ما في ثناياه من ملامح وسمات وتوجيهات على طريقة القرآن الكريم.

ويستطرد لهذا في إثبات بقية دعاء إبراهيم ونجواه لمولاه: **﴿ربَّنا لا تجعلنا فتنة للَّذين كفروا﴾**..

فلا تسلِّطهم علينا. فيكون في ذلك فتنة لهم، إذ يقولون: لو كان

---

(١) انظر فصل «برّ وود ورحمة» في قصة إبراهيم في هذا الكتاب.

الإيمان يحمي أهله ما سلطنا عليهم وقهرناهم! وهي الشبهة التي كثيراً ما تحيك في الصدور، حين يتمكن الباطل من الحق، ويتسلط الطغاة على أهل الإيمان ـ لحكمة يعلمها الله ـ في فترة من الفترات. والمؤمن يصبر للابتلاء، ولكن هذا لا يمنعه أن يدعو الله ألاَّ يصيبه البلاء الذي يجعله فتنة وشبهة تحيك في الصدور.

وبقية الدعاء: ﴿**واغفر لنا**﴾..

يقولها إبراهيم خليل الرَّحمٰن. إدراكاً منه لمستوىٰ العبادة التي يستحقها منه ربه، وعجزه ببشريته عن بلوغ المستوىٰ الذي يكافىء به نِعَم الله وآلاءه، ويمجد جلاله وكبرياءه فيطلب المغفرة من ربه، ليكون في شعوره وفي طلبه أسوة لمن معه ولمن يأتي بعده.

ويختم دعاءه وإنابته واستغفاره يصف ربه بصفته المناسبة لهذا الدعاء: ﴿**ربَّنا إنَّك أنت العزيز الحكيم**﴾ [الممتحنة: ٥]..

العزيز: القادر على الفعل، الحكيم: فيما يمضي من تدبير.

وفي نهاية هذا العرض لموقف إبراهيم والذين معه، وفي استسلام إبراهيم وإنابته يعود فيقرر الأسوة ويكررها، مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين:

﴿**لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. ومن يتولَّ فإنَّ الله هو الغني الحميد**﴾ [الممتحنة: ٦]..

فالأسوة في إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. هؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التي عاناها هذا الرهط الكريم، ويجدون فيها أسوة تتبع، وسابقة تهدي. فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أسوة.. وهو تلميح موح للحاضرين من المؤمنين.

فأمَّا من يريد أن يتولىٰ عن هذا المنهج. من يريد أن يحيد عن طريق

القافلة. من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق. فما بالله من حاجة إليه ـ سبحانه ـ ﴿فإنَّ الله هو الغنيُّ الحميد﴾..

وتنتهي الجولة وقد عاد المؤمنون أدراجهم إلى أوائل تاريخهم المديد، ورجعوا بذكرياتهم إلى نشأتهم في الأرض؛ وعرفوا تجاربهم المذخورة لهم في الأجيال المتطاولة، ورأوا القرار الذي انتهىٰ إليه من مروا بهذه التجربة؛ ووجدوها طريقاً معبدة من قبل ليسوا هم أول السالكين فيها.

والقرآن الكريم يؤكد هذا التصور ويكرره ليتصل ركب المؤمنين، فلا يشعر بالغربة أو الوحشة سالك ـ ولو كان وحده في جيل! ولا يجد مشقة في تكليف نهض به السالكون معه في الطريق!

إنَّ دين الله منهج عريق أصيل في ماضي البشرية، موصول الماضي بالحاضر: ﴿ملَّة أبيكم إبراهيم﴾ وهو منبع التوحيد الذي اتصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ فلم تنقطع من الأرض، ولم تفصل بينها فجوات مضيعة لمعالم العقيدة كالفجوات التي كانت بين الرسالات قبل إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ.

وقد سمّىٰ الله هذه الأُمَّة الموحدة بالمسلمين سماها كذلك من قبل وسمّاها كذلك في القرآن: ﴿هو سمَّاكم المسلمين من قبل وفي هٰذا﴾ [الحج: ٧٨]..

والإسلام إسلام الوجه والقلب لله وحده بلا شريك. فكانت الأُمَّة المسلمة ذات منهج واحد على تتابع الأجيال والرسل والرسالات. حتى انتهىٰ بها المطاف إلى أُمَّة محمَّد ﷺ وحتى سلمت إليها الأمانة، وعهد إليها بالوصاية على البشرية. فاتصل ماضيها بحاضرها بمستقبلها كما أرادها الله: ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾.. فالرسول ﷺ يشهد على هذه الأُمَّة، ويحدد نهجها واتجاهها، ويقرر صوابها وخطأها. وهي تشهد على الناس بمثل هذا. فهي القوّامة على البشرية بعد

نبيها؛ وهي الوصية على الناس بموازين شريعتها، وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة. ولن تكون كذلك إلاّ وهي أمينة على منهجها العريق المتصل الوشائج، المختار من الله.

ولقد ظلّت هذه الأُمّة وصية على البشرية طالما استمسكت بذلك المنهج الإلٰهي وطبّقته في حياتها الواقعية. حتى إذا انحرفت عنه، وتخلّت عن تكاليفه، ردّها الله عن مكان القيادة إلى مكان التابع في ذيل القافلة. وما تزال. ولن تزال حتى تعود إلى هذا الأمر الذي اجتباها له الله.

هذا الأمر يقتضي الاحتشاد والاستعداد.. ومن ثمّ يأمرها القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله: **﴿فأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة واعتصموا بالله. هو مولاكم. فنعم المولىٰ ونعم المصير﴾** [الحج: ٧٨]..

فالصلاة صلة الفرد الضعيف الفاني بمصدر القوة والزاد. والزكاة صلة الجماعة بعضها ببعض والتأمين من الحاجة والفساد. والاعتصام بالله العروة الوثقىٰ التي لا تنفصم بين المعبود والعباد.

بهذه العدة تملك الأُمّة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصاية على البشرية التي اجتباها لها الله. وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات المادية التي تعارف الناس على أنّها مصادر القوة في الأرض. والقرآن الكريم لا يغفل من شأنها، بل يدعو إلى إعدادها. ولكن مع حشد القوىٰ والطاقات والزاد الذي لا ينفد، والذي لا يملكه إلاّ المؤمنون بالله. فيوجهون به الحياة إلى الخير والصلاح والاستعلاء.

إنّ قيمة المنهج الإلٰهي للبشرية أنّه يمضي بها قدماً إلى الكمال المقدر لها في هذه الأرض، ولا يكتفي بأن يقودها للذائذ والمتاع وحدهما كما تقاد الأنعام.

وإنّ القيم الإنسانية العليا لتعتمد على كفاية الحياة المادية، ولكنها لا

تقف عند هذه المدارج الأُولىٰ. وكذلك يريدها الإسلام في كنف الوصاية الرشيدة، المستقيمة على منهج الله في ظل الله.

معالم في رحلة الإيمان والتوحيد:

لقد كانت مسيرة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ متعددة الجوانب، تحمل العِبَر والعظات الحكيمة الرشيدة.. كانت مَعْلَماً وسلوكاً، ونبراساً وَضَّاءً في حياة الدعاة إلى الله تعالىٰ. يقول الأُستاذ الشيخ أبو الحسن الندوي: «وقصة إبراهيم في القرآن أعظم تحدٍّ لتأثير الأسباب واستقلالها، وأعظم شاهد للاستخفاف بقوتها وأصحابها، وأعظم دليل على ضعفها وعدم غنائها عن أربابها، وكان إبراهيم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ مأموراً بالاستخفاف بهذه الأسباب وأربابها المدلين بها، المقدسين لها، العاكفين على عبادتها والاعتماد عليها، وكأنَّه ـ وهو رسول التوحيد وإمام الموحدين في عصره ـ كانت لذته وشفاء نفسه وغذاء روحه وقرّة عينه في الاستهزاء بهذه الأسباب، وعدم الاحتفال بها، والتغلب عليها بنصر الله، وإبطال خواصها وطبائعها المودعة فيها، وكأنَّه كان يلتزم في كل خطوة من خطوات رحلته الإيمانية التوحيدية الطويلة الموفقة، أن يدوسها بقدمه، ويسخر منها بعزمه ويسجل انتصاراً جديداً للإيمان على الشك، والروح على المادة، والتوحيد على نظام الشرك، وقد عاش طول حياته ثائراً على ما حوله من القوة والسلطان وعبادة المادة والمعدة والآلهة الزائفة، والقوىٰ المخيفة.

والسر في ذلك أنَّ العالم في عصر إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ كان خاضعاً للأسباب خضوعاً شديداً، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً، حتى أصبحوا يعتقدون أنَّها مؤثرة مستقلة قائمة بذاتها، وحتى أصبحت أرباباً من دون الله، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والاعتماد عليها وثنية أُخرىٰ، غير الوثنية التي أُغرقوا فيها، وغلوا في عبادة الأصنام والأوثان، وكانت حياة إبراهيم ثورة على الوثنيتين، ودعوة إلى التوحيد النقي الخالص، وتحقيقاً

لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شيء، وأنَّه يخلق الأشياء من عدم، وأنَّه يخلق الأسباب ويملكها، ويفصل الأسباب عن المسببات، وينتزع عن الأشياء خواصها وطبيعتها، ويستخرج منها أضدادها ويسخرها لما يشاء ومتى يشاء.

أشعل الناس له النيران وقالوا: ﴿**حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين**﴾ وكان إبراهيم يؤمن بأنَّ النار خاضعة لإرادة الله تعالىٰ، ليس الإحراق لها طبيعة دائمة لا تنفك عنها، إنَّما هي طبيعة مودعة أمانة فيها، إذا أراد أطلق لها العنان، وإذا أراد أمسك الزمام، وحوَّلها إلى برد وسلام؛ فخاض فيها مؤمناً مطمئناً واثقاً، وهكذا كان: ﴿**قلنا يَا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين**﴾ [الأنبياء: ٦٩]..

واعتقد الناس أنَّه لا حياة إلَّا بالخصب والميرة والماء الغزير، فكانوا يرتادون لأُسرهم وأبنائهم، ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضي مخصبة تكثر فيها المياه، ويتوفر فيها الخصب، وتسهل فيها التجارة والصناعات، وقد ثار إبراهيم على هذه العادة المتبعة، والعرف الشائع والاعتماد على الأسباب، فاختار لأُسرته الصغيرة ـ المكونة من أُم وابن ـ وادياً غير ذي زرع، لا زراعة فيه ولا تجارة، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية ومواضع الرخاء والثراء، ودعا الله تعالىٰ أن يوسع لهم الرزق، ويعطف إليهم القلوب، ويُجبي إليهم الثمرات، من غير سبب وطريق معروف فقال: ﴿**ربنا إنِّي أسكنتُ من ذرِّيَّتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربَّنا ليقيموا الصَّلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثَّمرات لعلَّهم يشكرون**﴾ [إبراهيم: ٣٧]..

وأجاب الله دعاءه، فضمن له الرزق والأمن، جعل بلدهم محطاً للخيرات والثمرات: ﴿**أوَلَم نمكِّن لهم حرماً آمناً يُجبىٰ إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنَّا ولـكنَّ أكثرهم لا يعلمون**﴾ [القصص: ٥٧]، ﴿**فليعبدوا ربَّ**

هٰذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ [قريش: ٣، ٤]. .

تركهم في أرض لا أثر فيها لماء يروي الغلة، ويبلّ الحلقوم، فإذا بماء يفور من الرمال، ويفيض من غير انقطاع، يشربه الناس في سخاء ويحملونه إلى بلادهم، ويترك أهله في بلد قفر لا أنيس فيه، فإذا به يصبح مكاناً يؤمّه الناس من كل صوب، ويأتون إليه من كل فج عميق.

وهكذا كانت حياة إبراهيم عليه السَّلام؛ تحدياً للمادية المسرفة الشائعة في عصره وعبادة الأسباب، واتخاذها أرباباً من دون الله، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة، وأنَّ إرادته فوق كل شيء؛ وهكذا كانت سنة الله معه يُخضع له الأسباب، ويخلق له ما تحار فيه الألباب»[1].

هذه قصة إبراهيم. . من القرآن الكريم تتناول موضوعاً واحداً متصل الفقرات، يحدث فيها عن قضية واحدة. قضية واحدة لا تتغير. ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر. ذلك أنَّ الأُسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة، في فقرة فريدة عجيبة. .

لقد كانت القصة تعالج القضية الأُولىٰ، والقضية الكبرىٰ، والقضية الأساسية في الإسلام، «قضية العقيدة» ممثلة في قاعدتها الرئيسية. . الألوهية والعبودية، وما بينهما من علاقة.

لقد كانت تخاطب بهذه القضية الفطرة الإنسانية. الإنسان بما أنَّه إنسان. . وفي هذا المجال يستوي الإنسان الكلداني في ذلك الزمان الذي كان يخاطبه إبراهيم والإنسان في كل زمان وفي كل مكان! إنَّه طريق الفطرة البديهي العميق:

﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السَّماوات والأرض وليكون من

---

(١) كتاب «النبوة والأنبياء»، ص ٩٠ ـ ٩٣، وقد نشرها سابقاً في مجلة «المسلمون»، العددان ٧، ٨ سنة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

الموقنين. فلمَّا جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال: هـٰذا ربِّي فلمَّا أفل قال: لا أحبُّ الآفلين. فلمَّا رأى القمر بازغاً قال: هـٰذا ربِّي فلمَّا أفل قال: لئن لم يهدني ربي لأكوننَّ من القوم الضالين. فلمَّا رأى الشمس بازغة قال: هـٰذا ربِّي هـٰذا أكبر فلمَّا أفلت قال: يَا قوم إنِّي بريءٌ ممَّا تشركون. إنِّي وجَّهتُ وجهي للذي فطر السَّماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين. وحاجَّهُ قومه قال: أتحاجُّونِّي في الله وقد هدان ولا أخاف ما تُشركون به إلَّا أن يشاء ربِّي شيئاً وسع ربِّي كلَّ شيءٍ علماً أفلا تتذكَّرون؟﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٨٠]. .

إنَّها قضية « الإنسان » التي لا تتغير، لأنَّها قضية وجوده في هذا الكون وقضية مصيره. قضية علاقته بهـذا الكون وبهؤلاء الأحياء، وقضية علاقته بخالق هذا الكون وخالق هذه الأحياء. . وهي قضية لا تتغير، لأنَّها قضية الوجود والإنسان!

لقد كان القرآن يفسر للإنسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله. . كان يقول له: من هو؟ ومن أين جاء، وإلى أين يذهب في نهاية المطاف؟. . وكان يقول له: ما هذا الوجود الذي يحسّه ويراه، والذي يحسّ أنَّ وراءه غيباً يستشرفه ولا يراه؟ من أنشأ هذا الوجود المليء بالأسرار؟ من ذا يدبره ومن ذا يحوره؟ ومن ذا يجدد فيه ويغير على النحو الذي يراه؟. .

وكان يقول له كذلك: كيف يتعامل مع خالق هذا الكون، ومع الكون أيضاً، وكيف يتعامل العباد مع خالق العباد.

وكانت هذه هي القضية الكبرىٰ التي يقوم عليها وجود « الإنسان » وستظل هي القضية الكبرىٰ التي يقوم عليها وجوده، على توالي الأزمان. .

وأصحاب الدعوة إلى دين الله، خليقون أن يقفوا طويلاً أمام قصة أبي الأنبياء التي هي صورة لتقرير هـذه العقيدة. . فهو القدوة المباركة والأسوة الحسنة:

﴿قد كانت لكم أُسوة حسنة في إبراهيم والَّذين معه إذ قالوا لقومهم: إنَّا برآء منكم وممَّا تعبدون من دون الله، كفرنا بكم، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتَّىٰ تؤمنوا بالله وحده﴾ [الممتحنة: ٤]..

﴿لقد كان لكم فيهم أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. ومن يتولَّ فإنَّ الله هو الغنيُّ الحميد﴾.. ﴿ومن يرغب عن ملَّة إبراهيم إلَّا من سَفِهَ نَفْسَهُ ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنَّه في الآخرة لمن الصَّالحين. إذ قال له رَبُّه أسلم قال أسلمتُ لربِّ العالمين. ووصَّىٰ بها إبراهيمُ بَنِيهِ ويعقوب إنَّ الله اصطفىٰ لكُمُ الدين فلا تموتُنَّ إلَّا وأنتم مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]..

والقصة بطولها كله لتقرير: «لا إلـه إلَّا الله» في القلوب والعقول.. فكل حياة الإنسان تنبثق من هذا الأصل الكبير..

لقد كان إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ الصورة الإنسانية لاستقرار عقيدة: «لا إلـه إلَّا الله».. استقرارها في الأعماق الوجدانية الغائرة البعيدة.. الصورة الإنسانية للاستسلام المطلق الراضي لهذه العقيدة، لا تعترض على شيء ممَّا يصدر إليها من الله؛ ولا تتلكأ في تنفيذه بمجرد تلقيها له[1]..

لقد كانت حياة إبراهيم فتنة إثر فتنة، ومحنة تتلوها محنة.. ها هو ذا

---

(١) أمره الله بالاختتان وقد قطع في الشيخوخة دهراً طويلاً فامتثل أمر ربه.. عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «اختَتَنَ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وهو ابن ثمانين سنة بالقَدُوم». أخرجه مسلم (٢٣٧٠)، والبخاري (٣٣٥٦). انظر الإحسان رقم (٦٢٠٤).
قال النووي في «شرح مسلم» ١٥/١٢٣: رواةُ مسلم متفقون على تخفيف القدوم. ووقع في روايات البخاري الخلاف في تشديده وتخفيفه، قالوا: وآلة النجار يقال لها: قدوم بالتخفيف لا غير، وأمَّا القدوم مكان بالشام، ففيه التشديد والتخفيف، فمن رواه بالتشديد أراد القرية، ومن رواه بالتخفيف يحتمل القرية والآلة، والأكثرون على التخفيف، وعلى إرادة الآلة.
وقال النووي: «وهذا الذي وقع وهو ابن ثمانين سنة هو الصحيح، ووقع في «الموطأ»: وهو ابن مئة وعشرين سنة موقوفاً على أبي هريرة، وهو متأول أو مردود».

شيخ هرم، جالد الأيام، وعرك الدهر، وأحنتهُ السنون؛ قد كان طول حياته يأمَلُ الولد، حتى إذ بلغ من الكبر عتياً، رزقه الله بغلام وحيد قرَّت به عينه، وأشرقت له نفسه، ثمَّ أُمِرَ بأن يُسكنه بوادٍ غير ذي زرع، ويتركه وأُمَّه في مكان قفر، ليس به بشر ولا شجر، وامتثل لأمر الله، وتركهما هناك ثقة بالله، وإيماناً به، وإطاعة لأمره.. ثمَّ جعل الله لهما سبيلاً من رحمته.. وبعد سنين حين كَبُر الغلام وأطاق السعي والعمل رأىٰ أبوه إبراهيم أنَّ الله يأمره بذبحه: ﴿يَـا بنيَّ إنِّي أرىٰ في المنام أنِّي أذبحك فانظر ماذا ترىٰ﴾ فأجابه إسماعيل في بِرٍّ وإيمان وصبر جميل: ﴿يَـا أبَتِ افعل ما تُؤمر ستجدني إن شاء الله من الصَّابرين﴾..

وامتثل إبراهيم مسلِّماً لأمر ربه: ﴿فلمَّا أسلما وتلَّه للجبين. وناديناه أن يَـا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا إنَّا كذلك نجزي المحسنين. إنَّ هـٰذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم﴾ [الصافَّات: ١٠٣ ـ ١٠٧]..

هـٰذه القصة تعالج قضية العقيدة الأساسية.. قضية الألوهية والعبودية.. تعالجها بتعريف العباد برب العباد.. من هو؟ ما مصدر هذا الوجود؟ ماذا وراءه من أسرار؟ من هم العباد؟ من ذا الذي جاء بهم إلى هذا الوجود؟ من أنشأهم؟ من يطعمهم؟ من يكفلهم؟ من يرزقهم؟ وماذا بعد الابتلاء والوفاة من مصير وحساب وجزاء؟؟؟

﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتَّقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إنَّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً. فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾ [العنكبوت: ١٦، ١٧]..

﴿قال: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنَّهم عدوٌّ لي إلَّا رب العالمين. الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضتُ فهو يشفين. والذي يميتني ثمَّ يُحيين. والذي أطمع أن يغفر

لي خطيئتي يوم الدين﴾ [الشعراء: ٧٧ ـ ٨٢]. .

هكذا تطوّف القصة بالقلب البشري فهي تُعرف الناس بربهم الحق؛ لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق. تعبيد ضمائرهم وأرواحهم، وتعبيد سعيهم وحركتهم، وتعبيد شعائرهم وحياتهم، وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد. . سلطان الله الذي لا سلطان لغيره في الأرض ولا في السماء. .

ويكاد اتجاه القصة كله يمضي إلى هذا الهدف المحدد. . من أولها إلى آخرها. . فالله هو الخالق الذي فطر السّماوات والأرض. . والله هو الرازق. والله هو المالك. والله هو صاحب القدرة والقهر والسلطان. قدرته مطلقة وإرادته فوق كل شيء.

إنَّ قصة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ترسم نموذجاً كاملاً لعقيدة التوحيد بصورة فريدة. . إنّها في كل فقرة وفي كل موقف، وفي كل مشهد، تمثل «الروعة الباهرة». . الروعة التي تُبده النفس، وتُشده الحس، وتبهر النَّفَس أيضاً، وهو يلاحق مشاهدها وإيقاعاتها وصورها وموحياتها مبهوراً!

نعم! هذه حقيقة! حقيقة يجدها المؤمن في نفسه وحسّه وهو يتابع مشاهدها الخالدة العجيبة. . إنَّ الروعة فيها تبلغ فعلاً حدّ البهر. حتى لا يملك القلب أن يتابعها إلَّا مبهوراً مبدوهاً!

﴿. . . قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا: يَا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين. . ﴾ [إبراهيم: ٦٨ ـ ٧٠]. .

الإعجاز الرائع:

والقصة في كل صورة من صورها المتلاحقة تمثل لحمة واحدة، تبلغ حد « الروعة الباهرة » التي وصفنا ـ مع تناسق منهج العرض في شتّى

المشاهد ـ وتأخذ على النفس أقطارها بالروعة الباهرة، وبالحيوية الدافقة، وبالإيقاع التصويري والتعبيري والموسيقي وبالتجمع والاحتشاد ومواجهة النفس من كل درب ومن كل نافذة!

إنَّ سياق القصة يعرض المشاهد والمواقف منوعة؛ ولكنها تلتقي في ظاهرة واحدة.. إنَّه في كل مشهد أو موقف كأنَّما يأخذ بالسامع ليقفه أمام المشهد يتملاه، وأمام الموقف يتدبره.. يقفه أمامه بحركة تكاد الألفاظ تُجسّمها! كما أنَّ المشاهد والمواقف ذاتها فيها ناس موقوفون، يراهم السامع في وقفتهم، والسياق يقفه هو الآخر ليشاهدهم ويتملاهم!

فها هي ذي فقرة من القصة يحيلها العرض الرائع إلى تمثيلية. فتذكر فقط من الألفاظ ما يُنبه إلى ابتداء العرض، ثمَّ يدع القصة تتحدث عن نفسها بوساطة رجالها.. فالمشهد الذي عرضه القرآن من قصة إبراهيم، وهو يبني الكعبة مع ابنه إسماعيل، وكأنَّما نحن نشهدهما يبنيان ويدعوان الآن، لا قبل اليوم بأجيال وأزمان.

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعدَ من البيت وإسماعيل. ربَّنا تقبل منا، إنَّك أنتَ السميع العليم. ربَّنا واجعلنا مُسلمَين لك، ومن ذرِّيَّتنا أُمَّةً مسلمةً لك، وأرنا مناسكنا وتُبْ علينا، إنَّك أنت التوَّاب الرَّحيم. ربَّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة، ويزكِّيهم. إنَّك أنت العزيز الحكيم﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩]..

لقد انتهىٰ الدعاء، وانتهىٰ المشهد، وسدل الستار.

هنا حركة عجيبة في الانتقال من الخبر إلى الدعاء، هي التي أحيت المشهد وَرَدَّته حاضراً. فالخبر: **﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾**.. كان كأنَّما هو الإشارة برفع الستار ليظهر المشهد: البيت، وإبراهيم وإسماعيل، يدعوان هذا الدعاء الطويل.

وكم في الانتقال هنا من الحكاية إلى الدعاء من إعجاز فني بارز، يزيد

وضوحاً لو فرضت استمرار الحكايـة، ورأيت كم كانت الصـورة تنقص لو قيل: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان: ربنا.. إلخ، إنَّها في هذه الصورة حكاية، وفي الصورة القرآنية حياة. وهذا هو الفارق الكبير.

إنَّ الحياة في النص لتثب متحركة حاضرة. وسر الحركة كله في حذف لفظة واحدة.. وذلك هو الإعجاز.

إنَّ قوله تعالىٰ: **﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾** هذه إشارة البدء.

أمَّا ما يلي فمتروك لإبراهيم وإسماعيل: **﴿ربَّنـا تقبَّل منَّـا إنَّك أنت السميع العليم..﴾**.. إلى نهاية المشهد الطويل[1]..

إنَّ هذا العرض القرآني الرائع يجعل ورود القصة إلى النفس أيسر، ووقعها في الوجدان أعمق.

ولهذا نظائره في قصة إبراهيم، وفي كثير من قصص القرآن الكريم.

وبعد.. هذه قصة سيدنا إبراهيم ترد في حوالي العشرين موضعاً في كتاب الله، ثمَّ يكون آخر موضع ترد فيه هو «سورة الحج» (السـورة ١٠٣ حسب ترتيب النزول)، فتعرض منها الفقرة التاليـة: **﴿وإذ بوَّأنـا لإبراهيم مكان البيت أن لا تُشرك بي شيئاً؛ وطَهِّر بيتي للطائفين والقائمين والرُّكَّع السجود، وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كُلِّ فجٍّ عميق﴾** [الحج: ٢٦، ٢٧]..

فهنا ـ من الوجهة الدينية ـ ربط بين شعائر الحج في الإسلام وشعائره في دين إبراهيم: وذلك غرض مقصود؛ وقد ورد في ختام السورة نفسها آخر ذكر لإبراهيم في قوله: **﴿ملَّة أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبل﴾**..

ولكن لننظر من الوجهة الفنية البحتة. أكان هناك مشهد تختم به

قصة إبراهيم، أليق من مشهده يُؤذن في الناس للحج؛ وهو باني البيت، ومودع طفله إسماعيل هناك قبل البناء؟ إنَّه أليق ختام فني بلا جدال، ولو لم يكن الغرض الديني هو الذي اقتضاه[1].

لقد حرص إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ على أن يستمر بنيان الإسلام عالياً وضَّاءً، فقد وضع لبنة في هذا البنيان، لبنة مميَّزة باهرة. . فالمشاهد والمواقف التي صورها القرآن الكريم عن حياته ـ عليه السَّلام ـ ترسم صورة واضحة لـ ﴿ملة إبراهيم﴾ ترسم عقيدة صلبة. تصور ضآلة كل شيء أمام الإيمان، التضحية بكل غال ونفيس في سبيل العقيدة، هذا فضلاً عمَّا سجَّله القرآن له من حمد وشكر للنعمة وجزاء الشاكرين عند الله عظيم. . ﴿سلام على إبراهيم إنَّا كذلك نجزي المحسنين إنَّه من عبادنا المؤمنين﴾ ﴿وآتيناه أجره في الدنيا وإنَّه في الآخرة لمن الصالحين﴾. .

هذا وقصة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ تحتاج إلى مؤلف كبير لن يكون كثيراً على خبر هذا الإنسان العظيم الذي وصفه ربه: ﴿إنَّ إبراهيم كان أُمَّةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين﴾. .

وقد رسم القرآن في القصة شخصيته ـ عليه السَّلام ـ، إنَّه نموذج الهدوء والتسامح والحلم:

﴿إنَّ إبراهيم لحليم أوَّاه منيب﴾.

فها هو ذا في صباه يخلو إلى تأملاته، ويبحث عن إلـهه:

﴿فلمَّا جنَّ عليه الليلُ رأىٰ كوكباً، قال: هـٰذا ربِّي. فلمَّا أفل، قال: لا أُحبُّ الآفلين. فلمَّا رأىٰ القمر بازغاً، قال: هـٰذا ربِّي. فلمَّا أفل، قال: لئن لم يهدني ربِّي لأكوننَّ من القوم الضالِّين. فلمَّا رأىٰ الشَّمس بازغةً قال: هـٰذا ربِّي، هـٰذا أكبر، فلمَّا أفلتْ، قال: يـٰا قوم إنِّي بريءٌ من

---

(١) التصوير الفني، ص ١٤٤.

المشركين. إنِّي وجَّهت وجهي للذي فطر السَّماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين. وحاجَّه قومه قال: أتحاجُّونِّي في الله وقد هدان؟ ولا أخاف ما تُشركون به إلاَّ أن يشاء ربِّي شيئاً، وسع ربِّي كل شيءٍ علماً. أفلا تتذكَّرون؟﴾..

وما يكاد يبلغ هذا الأُفق السامي من الإيمان والمعرفة واليقين، حتى نراه يسعىٰ حُبّاً وحناناً وبرّاً في أن يهدي أباه إلى ربّه الرَّحمن رب العالمين، ها هو ذا إبراهيم الشاب في ودّ يتلطف إلى أبيه في أحبّ لفظ وأحياه:

﴿يَا أبتِ لِمَ تعبد ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا يُغني عنك شيئاً؟ يَا أَبَتِ إنِّي قد جاءني من العلم ما لم يأتِكَ، فاتَّبعني أهدِكَ صراطاً سوياً. يَا أَبتِ لا تعبد الشَّيطان، إنَّ الشيطان كان للرَّحمٰن عصِيّاً. يَا أَبَتِ إنِّي أخاف أن يمسك عذاب من الرَّحمٰن، فتكون للشَّيطان وليّاً﴾..

ولكنَّ أباه ينكر قوله ويغلظ له في القول، ويهدِّده تهديداً: ﴿قال: أراغب أنتَ عن آلهتي يَا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرجمنَّك. واهجرني مليّاً﴾..

فلا يُخرجه هذا العنف عن أدبه الجمّ، ولا عن طبيعته الودود؛ ولا يجعله ينفض يديه من أبيه. ﴿قال: سلام عليك. سأستغفر لك ربِّي، إنَّه كان بي حفيّاً؛ وأعتزلكم وما تدَّعون من دون الله وأدعو ربِّي، عسىٰ ألاَّ أكون بدعاء ربِّي شقيّاً﴾..

ثمَّ ها هو ذا يحطم أصنامهم ـ ولعلَّه العمل الوحيد العنيف الذي يقوم به ـ ولكن إنَّما تدفعه إلى هذا رحمة أكبر. عسىٰ أن يُؤمن قومه إذا رأوا آلهتهم جُذاذاً، وعلموا أنَّها لا تدفع عن نفسها الأذىٰ. ولقد كادوا يؤمنون فعلاً.. ﴿فرجعوا إلى أنفسهم، فقالوا: إنَّكم أنتم الظالمون﴾..

ولكنَّهم عادوا فَهَمُّوا بإحراقه، وحينئذٍ ﴿قلنا: يَا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾..

ولقد اعتزلهم عهداً طويلاً مع النفر الذي آمن معه، ومنهم ابن أخيه لوط.

وفي كبرته وهرمه يرزقه الله بإسماعيل؛ ولكن يقع له ما يحتم عليه أن يبعد ابنه وأُمه عنه (والقرآن لا يتعرض لهذا الذي وقع) فيغلبه الطبع الرضيُّ على الحنو الأبوي؛ ويدركه إيمانه بربه، فيدعهما بجوار بيته. وهناك ينادي ذلك النداء الخاشع المنيب:

﴿ربَّنا إنِّي أسكنتُ من ذرِّيَّتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرَّم. ربَّنا ليقيموا الصَّلاة، فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثَّمرات لعلَّهم يشكرون﴾ . .

ثمَّ ما يكاد هذا الطفل يشبّ، ويصبح فتىً، حتى يرىٰ في المنام أنَّه يذبحه؛ فيغلبه الإيمان الديني العميق، على الحب الأبوي العميق، ويهم بإطاعة الإشارة، لولا أن يرفق به ربه، فيفديه بذبح عظيم.

وهكذا تتكشف الوقائع في القصة والمحاورات عن شخصية مميزة الملامح واضحة السمات: **﴿إنَّ إبراهيم لحليم أوَّاهٌ منيب﴾** . . إنَّها الصفات الودودة الرحيمة التي صَفَتْ ورقَّت، وارتقت . .

والحليم الذي يحتمل أسباب الغضب فيصبر ويتأنّىٰ ولا يثور. والأوّاه الذي يتضرّع في الدعاء من التقوىٰ. والمنيب الذي يعود سريعاً إلى ربه. . وحكمة الله واضحة في أن يختار إبراهيم بهذه العاطفة والشخصية الإنسانية المتميزة. . فتبقىٰ ملَّته، ويبقىٰ ذكره الذي رفعه ربه، وتبقىٰ الصلة بإبراهيم. . الصلة بذريته. . الصلة مع خاتم الأنبياء النَّبيّ محمَّد ﷺ الذي كان أَوْلىٰ الناس بإبراهيم **﴿إنَّ أَوْلىٰ الناس بإبراهيم للَّذين اتَّبعوه وهـٰذا النَّبي﴾** . .

وكان ﷺ يصلِّي على نفسه مقترناً بأبيه إبراهيم في التشهد في الصلاة، وشرع ذلك لأُمته، حيث أمرهم، وعلَّمهم أنواعاً من صيغ هذا

التكرمة[1] والرحمة التي مَنَّ الله بها، ومنها:

«اللَّهمَّ صلِّ على محمَّد[2]، وعلى أهل بيته، وعلى أزواجه وذريته، كما صلَّيت على آل إبراهيم، إنَّك حميد مجيد، وبارك[3] على محمَّد، وعلى آل بيته، وعلى أزواجه، وذريته، كما باركتَ على آل إبراهيم، إنَّك حميد مجيد». .

وهذا كان يدعو به نفسه ﷺ[4].

ـ «اللَّهمَّ صلِّ على محمَّد، وعلى آل محمَّد، كما صلَّيت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنَّك حميد مجيد، وبارك على محمَّد، وعلى آل محمَّد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنَّك حميد مجيد»[5].

---

(١) انظر «صفة صلاة النَّبي ﷺ» للشيخ الأُستاذ ناصر الدين الألباني، الطبعة السادسة، ص ١٧٧ ـ ١٨١.

(٢) أولىٰ ما قيل في معنىٰ الصَّلاة على النَّبي ﷺ قول أبي العالية: «صلاة الله على نبيه: ثناؤه عليه وتعظيمه. وصلاة الملائكة وغيرهم عليه: طلب ذلك له من الله تعالىٰ، والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة». ذكره الحافظ في «الفتح»، ورد القول المشهور أنَّ صلاة الرب الرحمة. وفصَّل ذلك ابن القيم في «جلاء الأفهام» بما لا مزيد عليه فراجعه.

(٣) من البركة وهي النماء والزيادة، والتبريك، الدعاء بذلك. فهذا الدعاء يتضمَّن إعطاءه ﷺ من الخير ما أعطاه لآل إبراهيم وإدامته وثبوته له ومضاعفته له وزيادته.

(٤) رواه أحمد والطحاوي بسند صحيح.

(٥) رواه البخاري ومسلم والحميدي وابن منده وقال: «هذا حديث مجمع على صحته».

يقول الشيخ ناصر الدين الألباني: «من الملحوظ أنَّ أكثر هذه الأنواع من صيغ الصَّلاة عليه ﷺ ليس فيه ذكر إبراهيم نفسه مستقلاً عن آله، وإنَّما فيها «كما صليت على آل إبراهيم» والسبب في ذلك أنَّ آل الرجل في اللغة العربية يتناول الرجل كما يتناول غيره ممَّن يؤوله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إنَّ الله اصطفىٰ آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ وقوله: ﴿إلاَّ آل لوط نجَّيناهم بسحر﴾ وكذلك لفظ أهل البيت كقوله تعالىٰ: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ فإنَّ إبراهيم داخل فيهم.

قال «شيخ الإسلام»: «ولهذا جاء في أكثر الألفاظ: «كما صليت على آل إبراهيم» و «كما باركت على آل إبراهيم» وجاء في بعضها «إبراهيم» نفسه لأنَّه هو الأصل في الصلاة =

. . . .

= والزكاة، وسائر أهل بيته إنَّما يحصل لهم ذلك تبعاً، وجاء في بعضها ذكر هذا وهذا تنبيهاً على هذين».

إذا علمت ذلك فقد اشتهر التساؤل بين العلماء عن وجه التشبيه في قوله: «كما صلَّيت» إلخ لأنَّ المقرر أنَّ المُشَبَّه دون المشبه به، والواقع هنا عكسه إذ أنَّ محمَّداً ﷺ أفضل من إبراهيم، وقضية كونه أفضل، أن تكون الصلاة المطلوبة أفضل من كل صلاة حصلت أو تحصل. وأجاب العلماء عن ذلك بأجوبة كثيرة تراها في «الفتح» و«الجلاء» وقد بلغت نحو عشرة أقوال بعضها أشد ضعفاً من بعض، إلاَّ قولاً واحداً فإنَّه قوي واستحسنه شيخ الإسلام وابن القيم وهو قول من قال: «إنَّ آل إبراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس في آل محمَّد مثلهم، فإذا طلب للنَّبيِّ ﷺ ولآله من الصَّلاة عليه مثل ما لإبراهيم وآله وفيهم الأنبياء، حصل لآل محمَّد من ذلك ما يليق بهم، فإنَّهم لا يبلغون مراتب الأنبياء وتبقىٰ الزيادة التي للأنبياء وفيهم إبراهيم لمحمَّد ﷺ، فيحصل له من المزية ما لا يحصل لغيره».

قال ابن القيِّم: «وهذا أحسن من كل ما تقدم، وأحسن منه أن يُقال: محمَّد ﷺ هو من آل إبراهيم، بل هو خير آل إبراهيم كما روىٰ علي بن طلحة عن ابن عبَّاس رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿إنَّ الله اصطفىٰ آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ قال ابن عباس: «محمَّد من آل إبراهيم» وهذا نص، إذا دخل غيره من الأنبياء الذين هم من ذرية إبراهيم في آله، فدخول رسول الله ﷺ أَوْلىٰ، فيقول قولنا: «كما صلَّيت على إبراهيم» متناولاً للصَّلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم، ثمَّ قد أمرنا الله تعالىٰ أن نصلي عليه وعلى آله خصوصاً بقدر ما صلَّينا عليه مع سائر آل إبراهيم عموماً وهو فيهم، ويحصل لآله من ذلك ما يليق بهم ويبقىٰ الباقي كله له ﷺ قال: ولا ريب أنَّ الصلاة الحاصلة لآل إبراهيم ورسول الله ﷺ معهم، أكمل من الصلاة الحاصلة له دونهم، فيطلب له من الصلاة هذا الأمر العظيم الذي هو أفضل ممَّا لإبراهيم قطعاً، ويظهر حينئذٍ فائدة التشبيه وجريه على أصله، وأنَّ المطلوب له من الصلاة بهذا اللفظ أعظم من المطلوب له بغيره، فإنَّه إذا كان المطلوب بالدعاء إنَّما هو مثل المشبه به وله أوفر نصيب منه، صار له من المشبه المطلوب أكثر ممَّا لإبراهيم وغيره، وانضاف إلى ذلك ممَّا له من المشبه له من الحصة التي لم تحصل لغيره، فظهر بهذا من فضله وشرفه ما على إبراهيم وعلى كل من آله وفيهم النبيون ما هو اللائق به، وصارت هذه الصلاة دالة على هذا التفضيل وتابعة له، وهي من موجباته ومقتضياته، فصلَّىٰ الله عليه وعلى آله وسلَّم تسليماً كثيراً، وجزاه عنَّا أفضل ما جزىٰ نبياً عن أمته، اللَّهمَّ صلِّ على محمَّد وعلى آل محمَّد، كما صلَّيت على إبراهيم إنَّك حميد مجيد، وبارك على محمَّد وعلى آل محمَّد كما باركت على إبراهيم إنَّك حميد مجيد».

إبراهيم وأبوه يوم القيامة

إنَّ التكذيب بيوم الدين هو رأس البلايا، ومن ثم تختل جميع الموازين، وتضطرب جميع القيم، فالذي يُكَذِّب بالآخرة لا يحسب حساب التقدير الأخير الخطير، يوم يقوم الناس لرَّب العالمين. .

تلك الحقيقة يكشف الرسول ﷺ، ببيانه المهيب عن الغَبَش الذي يحيكه الشيطان حولها، حتى نرى الحقيقة جلية واضحة:

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يَلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وَجْه آزر قَتَرة وغَبَرة، فيقول له إبراهيم: أَلَم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يارِبّ إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يُبعثون، فأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد: فيقول الله تعالى: إنِّي حرمت الجنة على الكافرين، ثم يُقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بِذِيخ مُتَلَطِّخ، فيؤخذ بقوائمه فَيُلْقَى في النار».

إنَّ الغافلين المطموسين لا يدركون حكمة الله في الحياة الكبرى، ودقة التدبير في أطوارها للوصول إلى غايتها البعيدة، هذه الغاية التي لا تتحقق بكمالها في هذه الأرض. فالخير لا يلقى جزاءه الكامل في الدنيا، والشرّ كذلك. إنّما يستكمل هذا الجزاء هناك، حيث يصل المؤمنون الصالحون إلى قمة الحياة المثلى، التي لا خَوف فيها ولا نَصَب، ولا تحُول فيها ولا زوال ـ إلاَّ أن يشاء الله ـ، ويصل المرتكسون المنتكسون

إلى درك الحياة السفلية التي تُهدد فيها آدميتهم، ويرتدون إلى مسخ شنيع ملتطخ، «فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار».

ترسم القصة النبوية مشهداً من مشاهد القيامة، المشهد متعدد المناظر، متفرد في طريقة العرض والحوار.. وفي هذا المقام يتطلب استخدام الألفاظ الموحية بالبشاعة والتقزز.. ذلك أن القصة بصدد عرض صورة لذلك الكافر «آزر» الذي ضَربَ صفحاً عن دعوة ابنه إبراهيم، وهو يلحّ عليه في أن يستجيب لنداء الحق والانضواء تحت لواء الإيمان، ولكنه أَبَى[1].

فَقَتَرة وَغبَرة، وذَيخ ومُلتطخ، كلها ألفاظ تشيع في النفس إحساساً بالتنفير من هذا البائس الخاسر الذي يستتبعه تنفير من موقفه في الحياة من رفض الإيمان والاستجابة للدعوة..

هناك في ذلك اليوم تُقطع أواصر الرحم والنسب، ويحول بين المولود والوالد، وتقَفَ كل نفس فيه وحيدة فريدة ـ مجردة من كل عون ومن كل سَنَد ـ رهينة لما كسبت.. فلا يجزي أحد عن أحد، ولا ينفع أحد إلاَّ عمله وكسبه..

نحن أمام مشهد حيوي حافل، يصوره الرسول ـ ﷺ ـ في كلمات، ولكنها معبّرة أدقّ ما يكون التعبير عن هذا الموقف الرهيب الذي وقع فيه آزر، إنَّه مشهد في غاية الإثارة، تبرزه الألفاظ بصورة مزرية كريهة.

فما بال آزر؟ إنَّه الهول ليأخذ بحسّه، وإن الرعب ليذهب بنفسه.. ها هو ذا آزر يلقى إبنه إبراهيم يوم القيامة.[2]..

---

(١) انظر فصل «برّ وودّ ورحمة» في قصة إبراهيم عليه السلام.

(٢) روى البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حُفاةً عراةً غُرْلاً ثم قرأ ﴿كما بدأنا أول خلق نُعيده وَعْداً علينا إنَّا كنا فاعلين﴾ فأوّل من يكسا إبراهيم..»

صورة ترسمها الكلمات بأدق تعبير عن أعماق النفس الإنسانية في ذلك الموقف المروّع: «على وَجْه آزر قَتَرَة وغَبَرة». .

ويبرز من المشهد صورة آزر في هذا الموقف العسير . . صورة للهفة الطاغية، والفزَع المذهل، والرغبة الجامحة في الإفلات من المصير المنتظر . .

إن الحقيقة وقد تجلّت للُقلب المطموس المنكوس، فتأجَّجت نَفْسُه، واضطربت في عذاب سميك غليظ . . إن ظل العذاب ليتراءى على وجه آزر، وقد عَلَته الحسرة والضيق والحزن، في لون يُحقق الجو العام ليوم القيامة، هاهو ذا تعلوه سحابه من الكآبة . . ها هو ذا في المشهد في أنين خافت مُرعب، تتزلزل الأرض من رهبته . . ها هو ذا يتذكر صورة عمله في الدنيا . . وأنَّى له الذِّكرى؟ لقد طويت الحياة الدنيا في غمضة عين من مبدئها إلى منتهاها . . ها هو ذا آزر في كبريائه في الدنيا يقول لإبنه إبراهيم حين دعاه إلى عبادة الله: **﴿أراغبٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيم. لئن لم تنته لأرجُمَنَّك واهجرني ملياً﴾**[مريم: ٤٦].

إن القصة تدعو للوقوف والتأمل . . وقفة تأمُّل في نفس آزر يوم القيامة، مشهد تعرضه القصة، ثابت الألوان، ناطق بالحقيقة الثابتة الخالدة . . مشهد ثابت تتحول عنه العين ولا يتحول هو عن العين . . إنَّها الحسْرة والندامة . . يوم تَشْتَدُّ الحسْرة وتطغى الندامة: **﴿يا حسْرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين﴾**[الزمر: ٥٦].

إنها خطوات الشيطان الذي اتبعها هذا الأبعد الشقي، فقاده إلى هذا المصير البائس، فَتُصَوِّره القصة «وعلى وجه آزر قُتَرة وغَبَرة»[١] . . كأن

---

(١) القَتَرة: ما يغشىْ الوجه من الكرب.
والغَبَرة: ما يعلوه من الغبار.
وأحدهما حسّي والآخر معنوي. وقيل: القَتَرة: شدة الغبرة بحيث يَسْوَدّ الوجه، =

الضباب والقتام الأسود أصاب وجهه، ليس لوناً ولا صبغة، وإنَّما هو تصوير للعذاب المعنوي للمجرم الكافر وهو يواجه هذا اليوم الثقيل بضلاله وجحوده وكبريائه..

وهكذا تعرض القصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ في موقف يحمل العبرة والدرس والتوجيه، حتى يستفيد المسلمون منه في واقع حياتهم، فالقربى من الرسول لا تُغني عن المستكبر عن آيات الله، من ربّ العالمين شيئاً، والرسول ـ ﷺ ـ يعرض ذلك في مشهد مثير بين خليل الرحمن إبراهيم، وبين أبيه آزر يوم القيامة، وهو موقف أكثر دلالة، وأعمق أثراً من مئات التوجيهات والتحذيرات الوعظية المباشرة..

تلك من صور القيامة، ومن هذه الصور الرهيبة المزلزلة، الحوار فيها، بين إبراهيم ﷺ وأبيه آزر، نحسّ أنَّه واقع في الحاضر المشهود، تستعرضه العين، ويتحلاه الخيال في تأمُّل عميق حزين، ونتتبع حركة الصورة المعروضة في ذلك المشهد الرهيب، فتلامس النفس، وتُؤثر في الوجدان..

نقف أمام المشهد فنرى آزر في صورته الكئيبة، وهو في غمّ وكمد، في حواره مع إبنه إبراهيم.. «فيقول له إبراهيم: أَلَم أقل لك لا تعصيني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك..».

وينبعث الخيال الإنساني متأملاً في أعماق آزر وهو يتذكر ويستحضر قول إبراهيم له في الدنيا: **﴿يا أبتِ إنِّي قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً. يا أبتِ لا تعبدا الشيطان. إن الشيطان كان للرحمن عصياً. يا أبتِ إنّي أخاف أن يمسّك عذابٌ من الرحمن فتكون للشيطان ولياً﴾**[مريم: ٤٣ ـ ٤٥].

= وقيل القَتَرة: سواد الدخان فاستعير هنا، والذي يظهر أن الغبرة الغبار من التراب، والقترة: السواد الكائن عن الكآبة «فتح الباري ٨/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦».

ونعود إلى المشهد اللاهث المكروب فنرى القلق والإضطراب وعدم الاستقرار، ونسمع صوت آزر، حزين محشرج مختلط بالعبرات والأنّات، نسمع آزر وهو يقول لابراهيم: «فاليوم لا أعصيك».

إنها كلمات ترسم صوراً مبطنة للهول، مغمورة بالكرب، موشاة بالفَزَع. . لقد قال وهو يرى الحقيقة، فتهاوت كبرياء الظالم الجاحد لرّبه، وقال ذلك في انكسار مهين. . قال في هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة، والإنهيار مع التطلع إلى أية بارقة للخلاص!

إنَّه تعبير عن الشدّة والكرب حين يلاقي المجرم مصيره. . هذا المجرم المتكبر المتبجج. . وبصره خاشعاً والذلة مرهقة، هما المقابلان للهامة الشامخة والكبرياء المنفوخة. . إنَّه موقف مرهق ذليل يشي بالكرب والعجز جزاء ما كان عليه من إعراض واستكبار.

وتبرز المناجاة على ساحة القصة في دعاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ بخصوص أبيه، فإبراهيم يدعو رَبّه: «يا ربَّ إنّك وَعَدْتَني أن لا تُخزيني يوم يُبعثون. فأي خزي أخزى من أبي الأبعد»[1].

فيقول الله تعالـى: إنّي حرمت الجنة على الكافرين». .

ها هوذا آزر يَسمع ما يُـيئس ويُقنط من كل بارقة أمل، أوكل حديث خادع من النفس، يسمع كلام ربّ العالمين، وهو القول الفصل «إني حرمت الجنة على الكافرين».

وهنا فجوة في القصة. . فيأخذ الخيال فسحته في تصور ذلك المشهد. . إنَّه موقف يُزلزل الكيان الإنساني، فَتَطير النفس شُعاعاً، بعدما أطبق عليها الحق بكلمة الحق، إنها أُمنية طائرة مُستحيلة. . فلا فَوْت من

(١) قال ابن حجر: وصف إبراهيم نفسه بالأبعد عن طريق الفَرَضى إذ لم تُقبل شفاعته في أبيه، وقيل: الأبعد: صفة أبيه، أي أنه شديد البعد من رحمة الله، لأنَّ الفاسق بعيد منها، فالكافر أبعد، وقيل: الأبعد: بمعنى البعيد، والمراد الهالك. «فتح الباري».

العذاب ولا مناص.. فالعلي الأعلى الجبار هو الذي يتولى الحكم والفصل، فالخزي اليوم والسوء على الكافرين، وقد﴿**حقت كلمة العذاب على الكافرين**﴾[الزمر: ٧١]..

ها نحن أولاء نسمع الرد الحاسم «إنّي حرمت الجنة على الكافرين»، فالعذاب ينتظر الكافر، فلا مراجعة في الحكم، ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل. وقد قُضي الأمر، وما من أحد من العباد يُخفف شيئاً من حكم الله﴿**فما تَنْفَعهم شفاعة الشافعين**﴾[المدثر: ٤٨].. فقد قَضَى الله تبارك وتعالى، وحقَّ القول، وتقرَّر المصير، الذي يليق بالمجرم، فما تنفعه شفاعة، فقد انتهى إلى شرّ كبير فبئس المصير.. «ثم يُقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ[1] مُتَلَطِّخ، فيؤخذ بقوائمه فَيُلْقَى في النار».. وفي رواية البخاري في باب﴿**ولا تخزني يوم يُبعثون**﴾،عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه، فيقولُ يا ربّ إنك وعدتني أن لا تحزني يوم يُبعثون. فيقول الله: إني حرمتُ الجنة على الكافرين».

وفي رواية ابن طهمان «فَيُؤْخَذ منه فيقول: يا إبراهيم أين أبوك؟ قال: أنتَ آخذته مني. قال: انظر أسفل فينظر فإذا هو ذيخ يتمَّرغ في نَتَنِه».

(١) في تاج العروس للزبيدي «ذيخ»: الذيخ بالكسر: الذئب الجريء بلسان خولان وهم قبيلة باليمن، والذريح: الفرس الحصان بكسر الحاء المهملة.

وفي حديث علي رضي الله عنه: (كان الأشعث ذا ذيخ) وهو الكِبَر، حكاه الهروي في الغريبين...

وفي حديث القيامة: (وينظر الخليل - عليه السلام - إلى أبيه فإذا هو بذيخ متلطخ) وهو ذكر الضباع الكثير الشعر.

وفي حديث خزيرة: (والذيخ محرنجماً) أي أن السَّنة [القحط] تركت ذكر الضباع مجتمعاً منقبضاً من شدة الجدب. والذيخ: ذكر الضباع.. والضبعان: ذكر الضباع والأنثى الضَبع.

وفي حديث أبي سعيد «فيتحَّول في صورة قبيحة وريح مُنْتِنة في صورة ضبعان» زاد ابن المنذر: «فإذا رآه كذا تبرأ منه. قال: لست أبي».

و« الذيخ: بكسرالذال المعجمة بعدها تحتانية ساكنة ثم خاء معجمه: ذَكَر الضباع، وقيل: لا يقال له: ذيخ إلاَّ إذا كان كثير الشعر. والضبعان لغة في الضبع.

وقوله مُتَلْطِّخ: قال بعض الشُرَّاح أي في رجيع أو دم أو طين، وفي رواية «بذيخ أمدر» أي متلطخ بالمَدر، وقد عينت الرواية الأخرى: «فيتمرّغ في نَتَنه».

وفي غريب الحديث للخطابي[1]: «وقال أبو سليمان في حديث النبي ﷺ في قصة إبراهيم وشفاعته يوم القيامة لأبيه: قال: «فيمسخه الله ضِبْعَاناً أَمْجَر، ثم يُدخل في النار»، وفي رواية أخرى: «فيحوّله الله ذيخاً»...

قال العلامة ابن حَجَر في تحويل آزر إلى حيوان كريه فَيُلقى في النار: قيلَ الحكمة في مسخه لتنفر نفس إبراهيم منه، ولئلا يبقى في النار على صورته الآدمية فيكون فيه غضاضة على إبراهيم، وقيل الحكمة في مسخه ضبعاً، أن الضبع من أحمق الحيوان، وآزر كان من أحمق البشر لأنَّه بعد أن ظهر له من ولده من الآيات البيِّنات أَصرَّ على الكفر حتى مات. واقتصر في مسخه على هذا الحيوان لأنه وسط في التشويه بالنسبة إلى ما دونه كالكلب والخنزير وإلى ما فوقه كالأسد مثلاً، ولإنَّ إبراهيم بالغ في الخضوع له وخفض الجناح، فَأبى واستكبر وأصرَّ على الكفر فعومل بصفة الذل يوم القيامة، ولأنَّ للضبع عُوجاً فأُشيرَ إلى أن آزر لم

(١) غريب الحديث للخطابي، تحقيق الغرباوي: ١/٥٥٦ وفيه أيضاً: الأمجر: العظيم البطن المهزول الجسم. ورواه أبو عبيد (ضبعاناً أمرر) قال والأمرر العظيم البطن المنتفخ الجنبين قال: ويقال الأمرر الذي ترّب جنباه من المرر.

يستقم فيؤمن، بل استمرّ على عوجه في الدين[1].

إنَّه مشهد كريب في ذلك اليوم العصيب حين ينظر إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى أبيه «فإذا هو بذيخ مُتَلَطِّخ، فيؤخذ بقوائمه، فيُلْقَى في النار». .

ونقف قليلاً. يقودنا الخيال إلى صورة صاخَّة في مَشهد مُفزع، لا يَثبت على توَهُّمِه قلب إلاَّ وهو يرتعش ويهتز، وهو يشاهد نهاية هذا الأثيم الذي قادته كبرياء الضلال إلى رَوْع إبراهيم وزَجْره حين دعاه إلى الله﴿**يا إبراهيم لئن لم تَنْتَهِ لأرجمنك واهجرني ملياً**﴾. .

أمر هائل رهيب هذا المتعالي يُمسخ مسخاً ويُلقَى في النار، وذلك جزاء الكفر والضلال. أُلقي في النار كما تُلقى الحجارة. دون اعتبار ولا عناية. وما أفظعها ناراً وما أشدها عذاباً. وفي جانب من جوانب المشهد. يمتد البصر بعين الخيال إلى جهنم تستقبله في تَغَيُّظ وزفير، وفي تأنيب وتزديل. ومن هول ذلك تدمع العيون وترجف القلوب من هذا المصير الأليم. .

عرض مفزع مرعب مخيف. هذا المتعالي على ربّه وعلى الرسول الخليل. هذا هو الأمر العالي يصدر بعد أن مَسَخه مسخاً شنيعاً، يصدر الأمر إلى الزبانية ليأخذوه في عنف وتحقير «فيؤخذ بقوائمه». . تحقير يليق بمقامه في الدنيا، وأخذته ملائكة العذاب أَخْذاً مهيناً، وشدوه في إهانة وجفوة «فيُلقَى في النار». .

---

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٨/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

قصة لوط عليه السلام

المحتوى	ص

لوط عليه السَّلام

انتهت دعوة إبراهيم لقومه الوثنيين بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط. ولوط هو ذو القرابة القريبة لإبراهيم - عليه السَّلام -، وهو من المقرَّبين إليه كذلك، فهو ابن أخيه أو ابن عمه كما قيل، آمن به وهاجر معه من أور الكلدانيين في العراق، إلى ما وراء الأردن حيث استقرَّ بهما المقام: ﴿**فآمن له لوط، وقال: إنِّي مهاجر إلىٰ ربِّي، إنَّه هو العزيز الحكيم**﴾ [العنكبوت: ٢٦]. . ونقف أمام قولة لوط: ﴿**إنِّي مهاجر إلىٰ ربِّي**﴾. . لنرىٰ فِيمَ هاجر. إنَّه لم يهاجر للنجاة. ولم يهاجر إلى أرض أو كسب أو تجارة. إنَّما هاجر إلى ربه. هاجر متقرباً له ملتجئاً إلى حماه. هاجر إليه بقلبه وعقيدته قبل أن يهاجر بلحمه ودمه. هاجر إليه ليُخلص له عبادته ويُخلص له قلبه ويخلص له كيانه في مهجره، بعيداً عن موطن الكفر والضلال. بعد أن لم يبق رجاء في أن يفيء القوم إلى الهدىٰ والإيمان بحال. . ﴿**ونجَّيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين**﴾ [الأنبياء: ٧١]. . وقصة لوط[1] مكانها التاريخي مع

---

(١) وقد وردت الإشارة إلى القصة في بضع عشر سورة.

ونجد في القرآن الكريم إشارات مبكرة من حيث النزول تتحدث عن قوم لوط وما حَلَّ بهم وذلك في الإشارات الكثيرة عن الأمم السالفة التي ذكرها القرآن.

ففي سورة النَّجم: ﴿**والمؤتفكة أهوىٰ فغشَّاها ما غشَّىٰ فبأيِّ آلاء ربِّك تتمارَىٰ**﴾ [آية: ٥٤]. . وهذه الإشارة تتحدث عن قوم لوط دون أن تذكرهم باسمهم، فهم يُعرفون بهذا الاسم، فقد غشيهم وقراهم من عذاب شديد قلبها رأساً على عقب. . =

. . . .

= وفي سورة (ق) جاءت الإشارة إلى قوم لوط مع أمم هالكة: ﴿كذّبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرَّسِّ وثمود، وعاد وفرعون وإخوان لوط، وأصحاب الأيكة وقوم تُبّع كُلٌّ كذّب الرسل فحقّ وعيد﴾ [الآيات: ١٢ ـ ٢٤]. .
ثمّ تأتي سورة القمر، ولعلّها السورة الأولىٰ التي تتحدث عن قوم لوط وتكذيبهم لنبيهم وبالنُّذر التي جاءتهم، كما تتحدث السورة عمّا حَلَّ بهم من عذاب، وعمّا أنعم الله به على آل لوط: ﴿كذّبت قوم لوط بالنُّذر، إنّا أرسلنا عليهم حاصباً إلاّ آل لوط نَجّيناهم بسحر. نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر. ولقد صبّحهم بُكرة عذاب مستقر. فذوقوا عذابي ونُذر، ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكر﴾ [الآيات: ٣٣ ـ ٤٠]. .
ثمّ تأتي سورة الأعراف وفيها بعض البيان، فهي تبين أخبار الأنبياء: نوح وهود وصالح متتابعة، ثمّ يأتي الحديث عن لوط ـ عليه السّلام ـ: [الآيات: ٨٠ ـ ٨٤]. .
ثمّ في سورة الفرقان ورد خبر قوم لوط في معرض التذكير ﴿ولقد أتوا على القرية التي أُمطرت مَطَر السُّوء، أفلم يكونوا يرونها، بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ [الآية: ٤٠]. .
ثمّ تأتي سورة الشعراء وفيها الحديث عن القصة من مطلعها إلى نهايتها: [الآيات: ١٦٠ ـ ١٧٥]. .
أمّا في سورة النمل فهي في الآيات: [٥٤ ـ ٥٨]. .
ثمّ جاءت سورة هود وهي أوّل سورة تُذكر فيها قصة لوط عقب قصة إبراهيم ـ عليهما السّلام ـ، ففي السُّوَر السّابقة ذكرت وحدها دون قصة إبراهيم، اللّهمّ إلاّ في سورة الشعراء حيث ذكرتا معاً إلاّ أنّه فصل بينهما بعدة قصص: [الذّاريات: ٧٦ ـ ٨٣]. .
ثمّ جاءت سورة الحجر، وتذكر فيها قصة لوط عقب قصة إبراهيم ـ عليهما السّلام ـ [الآيات: ٥٧ ـ ٧٧]. .
ثمّ تأتي سورة الصّافات التي تشير إلى ما أُصيب به قوم لوط وتُذكّر العرب الذين يمرون بديارهم ﴿وإنّ لوطاً لمن المرسلين. إذ نجّيناه وأهله أجمعين. إلاّ عجوزاً في الغابرين. ثمّ دمّرنا الآخرين. وإنّكم لتمرّون عليهم مصبحين. وباللّيل أفلا تعقلون﴾ [الآيات: ١٣٣ ـ ١٣٨]. .
أمّا في سورة الذّاريات التي جاءت بعد ذلك فإنّ الحديث فيها عن قوم لوط جاء في ثنايا حديث إبراهيم حينما جاءه الرسل من الملائكة: ﴿قال: فما خطبكم أيّها المرسلون. قالوا: إنّا أُرسلنا إلىٰ قوم مجرمين. لنرسل عليهم حجارة من طين﴾ [الآيات: ٣١ ـ ٣٣]. .
وفي سورة الأنبياء جاءت فيها إشارة موجزة مع موضوع سورة الأنبياء ﴿ولوطاً آتيناه حُكماً وعلماً ونجّيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنّهم كانوا قوم سَوْء فاسقين. وأدخلناه في =

قصة إبراهيم فقد صَحِبَ عمه من العراق إلى الشام مهاجراً إلى ربه، فنزلا بوادي الأردن، ثمَّ عاش لوط وحده في إحدىٰ القبائل على ضفاف البحر الميت أو بحيرة لوط كما سميت فيما بعد. وكانت تسكن مدينة سدوم وعمورية وصار لوط منهم بالصهر والمعيشة.

انحراف وشذوذ:

ثمَّ حَدث أن فشا في القوم شذوذ عجيب، يذكر القرآن أنّه يقع لأول مرة في تاريخ البشرية. ذلك هو الميل الجنسي المنحرف إلى الذكور بدلاً من الإناث اللاتي خلقهنَّ الله للرجال، لتتكون من الجنسين وحدات طبيعية منتجة تكفل امتداد الحياة بالنسل وفق الفطرة المطّردة في جميع الأحياء، إذ خلقها الله أزواجاً: ذكراناً وإناثاً. فلم يقع الشذوذ والانحراف إلى الجنس المماثل قبل قوم لوط هؤلاء:

﴿ولوطاً إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين..﴾ [الأعراف: ٨٠]..

وتكشف لنا قصة لوط عن لون خاص من انحراف الفطرة، وعن قضية أُخرىٰ هي غير قضية الألوهية والتوحيد التي كانت مدار القصص السابق. ولكنها في الواقع ليست بعيدة عن قضية الألوهية والتوحيد..

إنَّ الاعتقاد في الله الواحد يقود الإسلام لسُننه وشرعه. وقد شاءت سُنة الله أن يخلق البشر ذكراً وأُنثىٰ، وأن يجعلهما شقّين للنفس الواحدة تتكامل بهما، وأن يتم الامتداد في هذا الجنس عن طريق النسل؛ وأن يكون

= رحمتنا إنّه من الصالحين﴾ [الآيات: ٧٤، ٧٥]..
أمّا في سورة الحاقّة فكان الحديث موجزاً ومندرجاً في ذكر بعض السالفين المكذّبين ﴿وجاء فرعون ومن قَبْله والمؤتفكات بالخاطئة. فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾ [الآيات: ٩، ١٠]..
ثمَّ جاءت سورة العنكبوت في [الآيات: ١٨ ـ ٣٤]..

النسل من التقاء ذكر وأنثى. . ومن ثمَّ ركَّبهما وفق هذه السنة صالحين للالتقاء، صالحين للنسل عن طريق هذا الالتقاء، مُجَهَّزين عضوياً ونفسياً لهذا الالتقاء. . وجعل اللذة التي ينالانها عندئذٍ عميقة، والرغبة في إتيانها أصيلة، وذلك لضمان أن يتلاقيا فيحققا مشيئة الله في امتداد الحياة، ثم لتكون هذه الرغبة الأصيلة وتلك اللذة العميقة دافعاً في مقابل المتاعب التي يلقيانها بعد ذلك في الذرية. من حَمْل وَوَضع ورضاعة. ومن نفقة وتربية وكفالة. . ثمَّ لتكون كذلك ضماناً لبقائهما ملتصقين في أسرة، تكفل الأطفال الناشئين، التي تطول فترة حضانتهم أكثر من أطفال الحيوان، ويحتاجون إلى رعاية أطول من الجيل القديم!

هذه هي سنة الله التي يتصل إدراكها والعمل بمقتضاها بالاعتقاد في الله وحكمته ولطف تدبيره وتقديره. ومن ثمَّ يكون الانحراف عنها متصلاً بالانحراف عن العقيدة، وعن منهج الله للحياة.

ويبدو انحراف الفطرة واضحاً في قصة قوم لوط، حتى إنَّ لوطاً ليجبههم بأنَّهم بدع دون خلق الله فيها، وأنَّهم في هذا الانحراف الشنيع غير مسبوقين:

﴿ولوطاً إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين؟ إنَّكم لتأتون الرجال ـ شهوة ـ من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١]. .

والإسراف الذي يدمغهم به لوط هو الإسراف في تجاوز منهج الله المُمَثَّل في الفطرة السوية. والإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياها لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة، فإذا هم يُريقونها ويبعثرونها في غير موضع الإخصاب. فهي مجرد «شهوة» شاذة. لأنَّ الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية.

فإذا وجدت نفس لذتها في نقيض هذه السُنة، فهو الشذوذ إذن

والانحراف والفساد الفطري، قبل أن يكون فساد الأخلاق.. ولا فرق في الحقيقة. فالأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الفطرية، بلا انحراف ولا فساد.

إنَّ التكوين العضوي للأُنثىٰ ـ كالتكوين النفسي ـ هو الذي يحقق لذة الفطرة الصادقة للذكر في هذا الالتقاء، الذي لا يقصد به مجرد « الشهوة ». إنَّما هي اللذة المصاحبة له رحمة من الله ونعمة، إذ يجعل القيام بتحقيق سنته ومشيئته في امتداد الحياة، مصحوباً بلذة تعادل مشقة التكليف!

فأمَّا التكوين العضوي للذكر ـ بالنسبة للذكر ـ فلا يمكن أن يحقق لذة للفطرة السليمة؛ بل إنَّ شعور الاستقذار ليسبق، فيمنع مجرد الاتجاه عند الفطرة السليمة.

وطبيعة التصور الاعتقادي، ونظام الحياة الذي يقوم عليه، ذو أثر حاسم في هذا الشأن..

فهذه هي الجاهلية الحديثة في أُوروبا وفي أمريكا ينتشر فيها هذا الانحراف الجنسي الشاذ انتشاراً ذريعاً. بغير ما مبرر إلَّا الانحراف عن الاعتقاد الصحيح، وعن منهج الحياة الذي يقوم عليه.

وقد كانت هناك دعوىٰ عريضة من الأجهزة التي يوجهها اليهود في الأرض لتدمير الحياة الإنسانية لغير اليهود، بإشاعة الانحلال العقيدي والأخلاقي.. كانت هناك دعوىٰ عريضة من هذه الأجهزة الموجهة بأنَّ احتجاب المرأة هو الذي ينشر هذه الفاحشة الشاذة في المجتمعات!

ولكن شهادة الواقع تخرق العيون. ففي أُوروبا وأمريكا لم يبق ضابط واحد للاختلاط الجنسي الكامل بين كل ذكر وكل أُنثىٰ ـ كما في عالم البهائم! ـ وهذه الفاحشة الشاذة يرتفع معدلها بارتفاع الاختلاط ولا ينقص!

ولا يقتصر على الشذوذ بين الرجال؛ بل يتعداه إلى الشذوذ بين النساء.. ومن لا تخرق عينيه هذه الشهادة فليقرأ:

« السلوك الجنسي عند الرجال» و «السلوك الجنسي عند النساء» في تقرير « كنزي » الأمريكي . .

ولكنَّ هذه الأجهزة الموجهة ما تزال تردد هذه الأكذوبة، وتسندها إلى حجاب المرأة. لتؤدِّي ما تريده بروتوكولات صهيون، ووصايا مؤتمرات المبشِّرين[1]!

لقد كان قوم لوط يقترفون السيئات، ويأتون المنكر ويمارسون أفظع الفواحش، وأقبح الأعمال التي لم يأتها أحد من قبلهم إذ كانت أعمالاً تنفر منها الفِطرة البشرية، وتجردوا من كل عِفة وانسلخوا عن كل فضيلة فهم لا يتعففون عن معصية، وكانوا من أفجر الناس وأقبحهم سيرة، وأخبثهم سريرة: يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويتربصون لكل سارٍ، لا يَردّهم عن ذلك دين، ولا يصدهم حياء. . وابتدعوا فاحشة لم يُسبقوا إلى اجترامها، وتعاطوا محرماً ما كان يدور بخلد أحدٍ اقترافه، فكانوا يأتوا الذكران من العالمين، ويذَرون ما خلق الله من النساء فلا يقربوهنَّ:

﴿كذَّبت قوم لوط المرسلين: إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتَّقون. أنِّي لكم رسول أمين. فاتَّقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلاَّ على رب العالمين﴾ [الشعراء: ١٦٠ ـ ١٦٤]. .

لقد بدأ لوط مع قومه بما بدأ به نوح وهود وصالح. يستنكر استهتارهم، ويستجيش في قلوبهم وجدان التقوىٰ ويدعوهم إلى الإيمان والطاعة، ويُطَمْئِنَهم إلى أنَّه لن يفجعهم في شيء من أموالهم مقابل الهدىٰ. ثمَّ يواجههم باستنكار خطيئتهم الشاذة التي عُرفوا بها في التاريخ: ﴿أتأتون الذكران من العالمين؟ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم؟ بل أنتم قوم عادون﴾ [الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦]. .

---

(١) يراجع كتاب «هل نحن مسلمون» وكتاب «التطور والثبات في حياة البشرية» لمحمَّد قطب.

والخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط هي الشذوذ الجنسي بإتيان الذكور، وترك النساء. وهو انحراف في الفطرة شنيع. فقد برأ الله الذكر والأنثىٰ، وفطر الله كلاً منهما على الميل إلى صاحبه لتحقيق حكمته ومشيئته في امتداد الحياة عن طريق النسل، الذي يتم باجتماع الذكر والأنثىٰ. فكان هذا الميل طرفاً من الناموس الكوني العام، الذي يجعل كل من في الكون في حالة تناسق وتعاون على إنفاذ المشيئة المدبِّرة لهذا الوجود. فأمَّا إتيان الذكور فلا يرمي إلى هدف، ولا يحقق غاية، ولا يتمشَّىٰ مع فطرة هذا الكون وقانونه. وعجيب أن يجد فيه أحد لذة.

واللذة التي يجدها الذكر والأنثىٰ في التقائهما إن هي إلاَّ وسيلة الفطرة لتحقيق المشيئة. فالانحراف عن ناموس الكون واضح في فعل قوم لوط. ومن ثمَّ لم يكن بد أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا، لخروجهم من ركب الحياة، ومن موكب الفطرة، ولتعريهم من حكمة وجودهم، وهي امتداد الحياة بهم عن طريق التزاوج والتوالد.

وظاهرة الشذوذ الجنسي هي ظاهرة غريبة في تاريخ الجماعات البشرية. فقد يشذ أفراد لأسباب مرضية نفسية أو لملابسات وقتية، فيميل الذكور لإتيان الذكور، وأكثر ما يكون هذا في معسكرات الجنود حيث لا يوجد النساء، أو في السجون التي يقيم فيها المسجونون فترات طويلة معرضين لضغط الميل الجنسي، محرومين من الاتصال بالنساء.

أمَّا أن يشيع هذا الشذوذ فيصبح هو القاعدة في بلد بأسره، مع وجود النساء وتَيَسُّر الزواج، فهذا هو الحادث الغريب حقاً في تاريخ الجماعات البشرية!

لقد جعل الله من الفطرة ميل الجنس إلى الجنس الآخر، لأنَّه جعل الحياة كلها تقوم على قاعدة التزاوج. فقال:

﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها ممَّا تنبت الأرض، ومن أنفسهم وممَّا لا يعلمون﴾ [يٓس: ٣٦]. .

فجعل الأحياء كلها أزواجاً سواء نبات الأرض والأنفس وما لا يعلمه الناس في شتّىٰ المخلوقات.

والتزاوج يبدو أصيلاً في بناء الكون كله ـ فضلاً على الأحياء ـ فالذرة ذاتها مؤلفة من كهارب والكترونات. أي من كهربائية إيجابية وأُخرىٰ سلبية. وهي وحدة الكائنات المكرورة فيها جميعاً كما يبدو حتى الآن.

وعلى أية حال فالحقيقة المضمونة أنَّ الأحياء كلها تقوم على قاعدة التزاوج. حتى التي لا يوجد لها من جنسها ذكر وأُنثىٰ تجتمع خلايا التذكير والتأنيث في آحادها، وتتكاثر بهذا الاجتماع.

ولمَّا كان التزاوج هو قاعدة الحياة في ناموس الخلق، فقد جعل الله التجاذب بين الزوجين هو الفطرة، التي لا تحتاج إلى تعليم، ولا تتوقف على تفكير. وذلك كي تسير الحياة في طريقها بدافع الفطرة الأُصيل. والأحياء يجدون لذتهم في تحقيق مطالب الفطرة. والقدرة المدبرة تحقق ما تشاؤه من وراء لذتهم المودعة في كيانهم بلا وعي منهم ولا توجيه من غيرهم.

وقد جعل الله تركيب أعضاء الأُنثىٰ وأعضاء الذكر، وميول هذا وتلك بحيث تحقق اللذة الفطرية من اجتماعهما. ولم يجعل هذا في أعضاء الذكرين وميولهما.

ومن ثمَّ يكون عجيباً أن تنحرف الفطرة انحرافاً جماعياً كما حدث في قوم لوط، بدون ضرورة دافعة إلى عكس اتجاه الفطرة المستقيم.

وهكذا واجه لوط قومه بالاستنكار والعجب بما يفعلون!

﴿ولوطاً إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون؟ أئنَّكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء؟ بل أنتم قوم تجهلون﴾ [النمل: ٥٤، ٥٥]. .

عَجِبَ في عبارته الأُولىٰ من إتيانهم هذه الفاحشة، وهم يُبصرون الحياة في جميع أنواعها وأجناسها تجري على نسق الفطرة، وهم وحدهم الشواذ في وسط الحياة والأحياء.. وصَرَّح في عبارته الثانية بطبيعة تلك الفاحشة. ومجرد الكشف عنها يكفي لإبراز شذوذها وغرابتها لمألوف البشرية، ولمألوف الفطرة جميعاً.

لقد دعاهم لوط أن يستقيموا على الجادة والصواب، وأن يتركوا الفساد والضلال، ليستقيم حالهم حتى لا يُهلكهم الله بعذاب أليم..

﴿ولوطاً إذ قال لقومه: إنَّكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين. أئِنَّكم لتأتون الرجال، وتقطعون السبيل، وتأتون في ناديكم المنكر..﴾ [العنكبوت: ٢٨]..

ومن خطاب لوط لقومه يظهر أنَّ الفساد قد استشرىٰ فيهم بكل ألوانه. فهم يأتون الفاحشة الشاذة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين:

ـ يأتون الرجال. وهي فاحشة شاذة قذرة تدل على انحراف الفطرة وفسادها من أعماقها. فالفطرة قد تفسد بتجاوز حد الاعتدال والطهارة مع المرأة، فتكون هذه جريمة فاحشة، ولكنها داخلة في نطاق الفطرة ومنطقها.

فأمَّا ذلك الشذوذ الآخر فهو انخلاع من فطرة الأحياء جميعاً. وفساد في التركيب النفسي والتركيب العضوي سواء. فقد جعل الله لذة المباشرة الجنسية بين الزوجين متناسقة مع خط الحياة الأكبر، وامتداده بالنسل الذي ينشأ عن هذه المباشرة. وجهز كيان كل من الزوجين بالاستعداد للالتذاذ بهذه المباشرة، نفسياً وعضوياً، وفقاً لذلك التناسق. فأمَّا المباشرة الشاذة فلا هدف لها، ولم يجهز الله الفطرة بالتذاذها لانعدام الهدف منها. فإذا وجد فيها أحد لذة فمعنىٰ هذا أنَّه انسلخ نهائياً من خط الفطرة، وعاد مسخاً لا يرتبط بخط الحياة!

ـ ويقطعون السبيل، فينهبون المال، ويروعون المارة، ويعتدون على

الرجال بالفاحشة كرهاً. وهي خطوة أبعد في الفاحشة الأُولىٰ، إلى جانب السلب والنهب والإفساد في الأرض..

ـ ويأتون في ناديهم المنكر. يأتونه جهاراً وفي شكل جماعي متفق عليه. لا يخجل بعضهم من بعض. وهي درجة أبعد في الفحش، وفساد الفطرة، والتبجح بالرذيلة إلى حد لا يُرجىٰ معه صلاح!

سفاهة وحمق:

لقد تمادىٰ القوم في ضلالهم، حتى فشت فيهم المنكرات، وكثرت الموبقات، وأُشربت قلوبُهم حبُّ الفاحشة، واستحبوا الضلالة على الهدىٰ، وآثروا الغواية على الرشد، واستحوذ عليهم الشيطان فزيَّن لهم ما يعملون وما يفسدون.. ولوط ـ عليه السَّلام ـ يسفِّه فعلهم وهم في جهلهم يعمهون ﴿**أئنَّكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون**﴾ [النَّمل: ٥٥]..

فهو قد دمغهم بالجهل بمعنييه: الجهل بمنعىٰ فقدان العلم. والجهل بمعنىٰ السفه والحمق. وكلا المعنيين متحقق في هذا الانحراف البغيض. فالذي لا يعرف منطق الفطرة يجهل كل شيء، ولا يعلم شيئاً أصلاً. والذي يميل هذا الميل عن الفطرة سفيه أحمق معتد على جميع الحقوق!

فلمَّا دعاهم لوط إلى ترك هذا الشذوذ، واستنكر ما هم فيه من ترك ما خَلَقَ لهم ربهم من أزواجهم، والعدوان على الفطرة وتجاوز الحكمة المكنونة فيها.. تبين أنَّهم غير مستعدين للعودة إلى ركب الحياة وإلى سنة الفطرة: ﴿**قالوا: لئن لم تنته يَا لوط لتكوننَّ من المخرجين**﴾ [الشعراء: ١٦٧]..

وقد كان فيهم غريباً. وَفَدَ عليهم مع عمه إبراهيم حين اعتزل أباه وقومه، وترك وطنه وأرضه، وعبر الأردن مع إبراهيم والقلة التي آمنت معه.

ثمَّ عاش مع هؤلاء القوم حتى أرسله الله إليهم، ليردَّهم على ما هم فيه، فإذا بهم يُهددونه بالإخراج من بينهم، إذا لم ينته عن دعوتهم إلى سواء الفطرة القويم.

وهكذا كان جواب قوم لوط على هذا الاستنكار للانحراف، وهذا التوجيه إلى وحي الفطرة السليمة.. كان جوابهم في اختصار أن همُّوا بإخراج لوط ومن سمع دعوته وهم أهل بيته ـ إلَّا امرأته ـ بحجة أنَّهم أُناس يتطهَّرون!

﴿فما كان جواب قومه إلَّا أن قالوا: أَخرِجوا آل لوط من قريتكم إنَّهم أُناس يتطهَّرون﴾ [النَّمل: ٥٦]..

وقولهم هذا قد يكون تهكّماً بالتطهر من هذا الرجس القذر. وقد يكون إنكاراً عليه أن يسمى هذا تطهراً، فهم من انحراف الفطرة بحيث لا يستشعرون ما في ميلهم المنحرف من قذارة. وقد يكون ضيقاً بالطُّهر والتطهر إذا كان يكلفهم الإقلاع عن ذلك الشذوذ!!

لقد تجلَّىٰ لنا الانحراف مرة أُخرىٰ في جوابهم لنبيهم: **﴿وما كان جواب قومه إلَّا أن قالوا: أخرِجوهم من قريتكم، إنَّهم أُناس يتطهَّرون﴾** [الأعراف: ٨٢]..

يا عجباً! أومن يتطهَّر يُخرج من القرية إخراجاً، ليبقىٰ فيها الملوثون المدنسون؟!

ولكن لماذا العجب؟ وماذا تصنع الجاهلية الحديثة؟ أليست تُطارد الذين يتطهرون، فلا ينغمسون في الوحل الذي تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية ـ وتسميه تقدمية وتحطيماً للأغلال عن المرأة وغير المرأة ـ أليست تطاردهم في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك؛ ولا تطيق أن تراهم يتطهرون؛ لأنَّها لا تتَّسع ولا ترحب إلَّا بالملوثين الدنسين القذرين؟! إنَّه منطق الجاهلية في كل حين!!

عندئذٍ لم يبق إلاَّ أن يُعالنهم بكراهة ما هم عليه من شذوذ، في تقزز واستبشاع: **﴿قال: إنّي لعملكم من القالين﴾** [الشعراء: ١٦٨]. والقلىٰ: الكره البالغ. يقذف به لوط في وجوههم في اشمئزاز. ثمَّ يتوجه إلى ربه بالدعاء أن ينجيه من هذا البلاء هو وأهله: **﴿ربِّ نجِّني وأهلي ممَّا يعملون﴾**. .

وهو لا يعمل عملهم، ولكنه يحسّ بفطرته الصادقة أنَّه عمل مُردٍ مُهلك. وهو فيهم. فهو يتوجه إلى ربه أن يُنجيه وأهله ممَّا سيأخذ به قومه من التدمير. .

لقد أبرزت الآيات القرآنية هَمَّ قوم لوط بإخراجه لأنَّه أنكر عليهم الفاحشة الشاذة التي كانوا يأتونها عن إجماع واتفاق وتعارف وعلانية. فاحشة الشذوذ الجنسي بإتيان الرجال، وترك النساء، على غير الفطرة التي فَطَر الله عليها. بل عامة الأحياء. .

وفي قصة لوط يتبدّىٰ تبجح الرذيلة واستعلانها، وسفورها بلا حياء ولا تحرُّج، وانحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف والشذوذ؛ مع الاستهتار بالنذير: **﴿فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا: ائتنا بعذاب الله إن كنتَ من الصادقين﴾** [العنكبوت: ٢٩]. .

على أية حال لقد همُّوا همَّهم، واندفعوا في الضلالة والغواية، في طريق الشرّ والشهوات، وتمادوا في فجورهم، وأمعنوا في المراوغة والتبجح، واستخفوا بالعذاب الذي خوّفهم منه نبيهم، وتلقوا من الرسول عِظاته ونصائحه بالتهكُّم والاستكبار وأعلنوا تحديهم له أن يأتيهم بالعذاب إن كان ثمة عذاب. سيحلّ بهم، وأن يُنزل عليهم ما يريد من العقاب إن كان صادقاً في وعيده: **﴿فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا: ائتنا بعذاب الله إن كنتَ من الصَّادقين﴾**.

فهو التبجح في وجه الإنذار، والتحدي المصحوب بالتكذيب، والشرود الذي لا تنتظر منه أوبة.

لقد دعاهم لوط إلى الله، وأمرهم في أول الأمر ونهاهم بالحسنىٰ؛ ولكنهم أصرُّوا على ما هم فيه، فخوّفهم عذاب الله، وجَبَهَهُم بشناعة جرائمهم الكبرىٰ، فتمادوا في التحدي الهابط والتبجح السافر الشنيع.. عندئذٍ استيقن لوط أنَّهم لن يُذعنوا إلى الحق المبين، وأنَّه لا سبيل إلى هدايتهم، ولا جدوىٰ في الاستمرار في دعوتهم، ولا خير يُرجىٰ منهم. وقد أعذر إليهم رسولهم فلم يبق إلاَّ أن يتوجه إلى ربه طالباً نصره الأخير: **﴿قال: ربِّ انصرني على القوم المفسدين﴾** [العنكبوت: ٣٠]..

لقد توجه إلى الله سائلاً أن ينصره على هؤلاء المفسدين، طالباً أن ينزل عليهم ما يستحقونه من العقاب، وما هم جديرون به من العذاب وذلك حتى يستأصل داءهم فلا ينتشر، ويقضي على فسادهم القبيح الشنيع.. وهنا يُسدل الستار على دعاء لوط، ليرفع عن الاستجابة. وفي الطريق يلمّ الملائكة المكلفون بالتنفيذ بإبراهيم يُبشرونه بولد صالح من زوجه التي كانت من قبل عقيماً:

﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين؟ إذ دخلوا عليه، فقالوا: سلاماً. قال: سلام قوم منكرون﴾ [الذّاريات: ٢٤ ـ ٢٥].. **﴿قال: فما خطبكم أيُّها المرسلون﴾** [الذّاريات: ٣١]..

وبعد بشرىٰ الملائكة راح إبراهيم يسأل وقد عرف حقيقة ضيفه عن شأنهم الذي أُرسلوا فيه: **﴿قالوا: إنَّا أُرسلنا إلى قوم مجرمين﴾** [الذّاريات: ٣٢].. **﴿إنَّا أُرسلنا إلى قوم لوط﴾** [هود: ٧٠]..

لقد كان مرور الملائكة بإبراهيم كان للبشرىٰ. ثمَّ أخبروه بمهمتهم الأولىٰ وهي إهلاك قوم لوط **﴿إنَّا أُرسلنا إلىٰ قومٍ مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين، مُسومة عند ربك للمسرفين﴾** [الذّاريات: ٣٢ ـ ٣٤]..

وإبراهيم يُدرك ما وراء إرسال الملائكة إلى قوم لوط!

ولوط هوابن أخيه ـ المهاجر معه من مسقط رأسه والساكن قريباً منه ـ وإرسال الملائكة إلى قوم لوط هو ما ينتظرهم من هلاك واستئصال. وطبيعة إبراهيم الرحيمة الودود لا تجعله يطيق هلاك القوم واستئصالهم جميعاً: **﴿فلمَّا ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرىٰ يجادلنا في قوم لوط. إنَّ إبراهيم لحليم أوَّاه منيب﴾** [هود: ٧٤، ٧٥]..

وأدركت إبراهيم رقته ورأفته، فراح يُذَكِّر الملائكة أنَّ في هذه القرية لوطاً؛ وهو صالح وليس بظالم! **﴿قال: إنَّ فيها لوطاً﴾** [العنكبوت: ٣٢].

وأجابه الرسل بما يُطمئنه، ويكشف له عن معرفتهم بمهمتهم وأنَّهم أَوْلىٰ بهذه المعرفة!

﴿قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجِّينَّه وأهله إلَّا امرأته كانت من الغابرين﴾ [العنكبوت: ٣٢]..

وقد كان هواها مع القوم، تقرّ جرائمهم وانحرافهم، وهو أمر عجيب.

ولكنَّ إبراهيم الأوَّاه الحليم المنيب.. دعته هذه الصفات كلها أن يجادل الملائكة في مصير قوم لوط وإن كنا لا نعلم كيف كان هذا الجدل لأنَّ النص القرآني لم يُفصِّله، فجاءه الرد بأنَّ أمر الله فيهم قد قُضي وأنَّه لم يعد للجدال مجال:

﴿يَا إبراهيم أعرض عن هٰذا، إنَّه قد جاء أمر ربك، وأنَّهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ [هود: ٧٦].

وهكذا فقد علم إبراهيم سبب مجيء الملائكة وغايته **﴿قال: فما خطبكم أيُّها المرسلون؟ قالوا: إنَّا أُرسلنا إلى قوم مجرمين. إلَّا آل لوط إنَّا لمنجُّوهم أجمعين، إلَّا امرأته قدرنا إنَّها لمن الغابرين﴾**[1] [الحجر: ٥٧ ـ ٦٠]..

(١) أي إنَّها باقية مع القوم تَلقىٰ مصيرهم. وأصله من الغَبرة وهي بقية اللّبن في الضرع.

وهكذا أخبره الملائكة بالنبأ كلّه. ذلك أنّه يصدق رحمة الله بلوط وأهله، وعذابه لامرأته وقومه. وينتهي بذلك دورهم مع إبراهيم، ويمضون لعملهم مع قوم لوط..

يوم عصيب:

وينتقل سياق القصة إلى مشهد ثالث. مشهد لوط. وقد جاء إليه الملائكة في هيئة فِتْية صِباح مِلاح؛ وهو يعلم شَنْشَنة قومه، وما ينتظر ضيوفه هؤلاء منهم من سوء لا يملك له دفعاً.

﴿ولمَّا جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً، وقال هـٰذا يوم عصيب!﴾ [هود: ٧٧]..

لقد كان يعرف قومه. ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشذوذ عجيبين. إذ كانوا يتركون النساء إلى الرجال، مخالفين الفطرة التي تهتدي إلى حكمة خلق الأحياء جميعاً أزواجاً، كي تمتد الحياة بالنسل ما شاء لها الله. والتي تجد اللذة الحقيقية في تلبية نداء الحكمة الأزلية، لا عن تفكير وتدبير، ولكن عن اهتداء واستقامة.

والبشرية تعرف حالات مرضية فردية شاذة، ولكن ظاهرة قوم لوط عجيبة. وهي تشير إلى أنَّ المرض النفسي يعدي كالمرض الجسدي. وأنَّه يمكن أن يروج مرض نفسي كهذا نتيجة لاختلال المقاييس في بيئة من البيئات، وانتشار المثل السيء، عن طريق إيحاء البيئة المريضة. على الرغم من مصادمته للفطرة، التي يحكمها الناموس الذي يحكم الحياة. الناموس الذي يقتضي أن تجد لذتها فيما يلبي حاجة الحياة لا فيما يصادمها ويعدمها. والشذوذ الجنسي يصادم الحياة ويعدمها، لأنَّه يذهب ببذور الحياة في تربة خبيثة لم تُعَدّ لاستقبالها وإحيائها. بدلاً من الذهاب بها إلى التربة المُستَعدَّة لتلقيها وإنمائها. ومن أجل هذا تنفر الفطرة السليمة نفوراً فطرياً لا أخلاقياً ـ فحسب ـ من عمل قوم لوط. لأنَّ هذه الفطرة محكومة بقانون الله في الحياة.

الذي يجعل اللذة الطبيعية السليمة فيما يساعد على إنماء الحياة لا فيما يصدمها ويعطلها.

ولقد نجد أحياناً لذة في الموت - في سبيل غاية أسمىٰ من الحياة الدنيا - ولكنها ليست لذة حسية إنَّما هي معنوية اعتبارية. على أنَّ هذه ليست مصادمة للحياة، إنَّما هي إنماء لها وارتفاع بها من طريق آخر. وليست في شيء من ذلك العمل الشاذ الذي يعدم الحياة وخلاياها.

سِيءَ لوط بأضيافه وهو يعلم ما ينتظرهم من قومه..

﴿فلمَّا جاء آل لوط المرسلون، قال: إنَّكم قوم منكرون﴾ [الحجر: ٦١، ٦٢]..

قالها لوط ضيِّق النفس بهم، وهو يعرف قومه، ويعرف ماذا سيحاولون بأضيافه هؤلاء، وهو بين قومه غريب، وهم فَجَرة فاحشون..

إنَّكم قوم مُنكرون أن تجيئوا إلى هذه القرية وأهلها مشهورون بما يفعلون مع أمثالكم حين يجيئون!

سِيءَ لوط بأضيافه. وهو يعلم السوء والفحشاء في قومه، ويدرك الفضيحة التي ستناله في أضيافه:

﴿وقال: هـٰذا يوم عصيب﴾!

وبدأ اليوم العصيب! **﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾** [هود: ٧٧]..

أي يسرعون في حالة تشبه الحمىٰ.

﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ [هود: ٧٧]..

وكان هذا ما ساء الرجل بضيوفه، وما ضيق بهم ذرعه، وما دعاه إلى توقع يوم عصيب!

لقد تسامع القوم بأنَّ في بيت لوط شباناً صباح الوجوه ففرحوا بأنَّ هناك صَيْداً:

﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون﴾ [الحجر: ٦٧]..

والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدىٰ الشناعة والبشاعة الذي وصل إليه القوم في الدنس والفجور في الفاحشة الشاذة المريضة. يكشف عن هذا المدىٰ في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة، يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية.

هذه العلانية الفاضحة في طلب هذا المنكر ـ فوق المنكر ذاته ـ شيء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه لولا أنَّه وقع. فقد يشذ فرد مريض فيتوارىٰ بشذوذه، ويتخفىٰ بمرضه، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة في الخفاء وهو يخجل أن يطلع عليه الناس.

وإنَّ الفطرة السليمة لتتخفىٰ بهذه اللذة حين تكون طبيعية. بل حين تكون شرعية. وبعض أنواع الحيوان يتخفىٰ بها كذلك.. بينما أُولئك القوم المنحوسون يُجاهرون بها، ويتجمهرون لتحصيلها، ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها! إنَّها حالة من الارتكاس معدومة النظير.

ورأىٰ لوط ما يشبه الحمىٰ في أجساد قومه المندفعين إلى داره، يُهَدِّدونه في ضيفه وكرامته.. وقف مكروباً يحاول أن يُدافع عن ضيفه وعن شرفه. وَقَفَ يستثير النخوة الآدمية فيهم ويستجيش وجدان التقوىٰ لله. وإنَّه ليعلم أنَّهم لا يتقون الله، ويعلم أنَّ هذه النفوس المُرتكسة المطموسة لم تعد فيها نخوة ولا شعور إنساني يُستجاش. ولكنه في كربه وشدّته يحاول ما يستطيع: **﴿قال: إنَّ هـٰؤلاء ضيفي فلا تفضحون، واتَّقوا الله ولا تخزون﴾** [الحجر: ٦٨، ٦٩].. وبدلاً من أن يثير هذا في نفوسهم رواسب المروءة والحياء، إذا هم يَتَبَجَّحون فَيؤنِّبون فيؤنبون لوطاً على استضافة أحد من الرجال. كأنَّما هو الجاني الذي هيَّأ لهم أسباب الجريمة ودفعهم إليها وهم لا يملكون لها دفاعاً!

﴿قالوا: أوَلَمْ ننهك عن العالمين﴾؟ [الحجر: ٧٠]..

وحاول أن يوقظ فيهم الفطرة السليمة ويُوجِّههم إلى الجنس الآخر

الذي خَلَقَه الله للرجال، ومضىٰ في محاولته يُلَوّح لهم باتجاه الحياة السليم إلى الإناث اللواتي جعلهنَّ الله لتلبية هذا الدافع العميق في نظام الحياة، ليكون النسل الذي تمتد به الحياة وجعل تلبية هذا الدافع معهنَّ موضع اللذة السليمة المريحة للجنسين معاً ـ في الحالات الطبيعية ـ ليكون هذا ضماناً لامتداد الحياة، بدافع عن الرغبة الشخصية العميقة، وعنده منهنَّ في داره بناته، فهنَّ حاضرات، حاضرات اللحظة! إذا شاء الرجال المحمومون تمَّ الزواج على الفور، **وسكنت الفورة المحمومة والشهوة المجنونة!**

﴿قال: يَـا قوم هـٰؤلاء بناتي هنَّ أطهر لكم﴾ [هود: ٧٨]. .

أطهـر بكـل معـاني الـطهـر. النفسي والحسي. فهنَّ يلبين الفـطرة النظيفة، ويثرن مشاعر كذلك نظيفة. نظافة فطرية ونظافة أخلاقية ودينية. ثمَّ هنَّ أطهر حسياً. حيث أعدت القدرة الخالقة للحياة الناشئة مكمناً كذلك طاهراً نظيفاً.

وهكذا مضىٰ لوط في محاولته: **﴿قال: هـٰؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾** [الحجر: ٧١]. .

ولوط النبي لا يعرض بناته على هؤلاء الفجار ليأخذوهنَّ سفاحاً. إنَّما هو يلوح بالطريق الطبيعي الذي ترضـاه الفطرة السليمـة، لِيُنَبه فيهم هـذه الفطرة. وهو يعلم أنَّهم إن ثابوا إليها فلن يطلبوا النساء سفاحاً. فهو مجرد هتاف للفطرة السليمة في نفوسهم لعلَّها تستيقظ على هذا العرض الذي هم عنه معرضون.

ويمضي لـوط يستثير كـوامن الخيـر في نفـوسهم المنكـوسـة **﴿فاتَّقوا الله﴾**. . قالها يلمس نفوسهم من هذا الجانب بعد أن لمسهـا من ناحية الفطرة. . **﴿ولا تخزون في ضيفي﴾**. . قالها يلمس نخونهم وتقاليد البـدو في إكرام الضيف إطـلاقاً. . **﴿أليس منكم رجـل رشيد؟﴾** [هـود: ٧٨]. .

فالقضية قضية رُشْد وسفه إلى جوار أنَّها قضية فطرة ودين ومروءة.. ولكن هذا كله لم يلمس الفطرة المنحرفة المريضة، ولا القلوب الميتة الآسنة، ولا العقول المريضة المأفونة. وظلت الفورة المريضة الشاذة في اندفاعها المحموم:

﴿قالوا: لقد علمتَ ما لك في بناتك من حق. وإنَّك لتعلم ما نريد!﴾ [هود: ٧٩]..

لقد علمتَ لو أردنا بناتك لتزوجناهنَّ. فهذا حقنا.. ﴿وإنَّك لتعلم ما نريد﴾.. وهي إشارة خبيثة إلى العمل الخبيث.. وبينما هذا المشهد معروض. القوم في سعارهم المريض يستبشرون ويتلمظون. ولوط يُدافعهم ويستثير نخوتهم، ويستجيش وجدانهم، ويحرك دواعي الفطرة السليمة فيهم، وهم في سعارهم مندفعون.

بينما المشهد البشع معروض على هذا النحو المثير يلتفت القرآن خطاباً لمن يشهد ذلك المشهد، على طريقة العرب في كلامهم بالقسم: ﴿لعمرك إنَّهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ [الحجر: ٧٢]..

لتصوير حالتهم الأصيلة الدائمة التي لا يُرجىٰ معها أن يفيقوا ولا أن يسمعوا هواتف النخوة والتقوىٰ والفطرة السليمة..

الركن الشديد:

لقد ضاق صدر النبي لوط ـ عليه السَّلام ـ وبلغ الضيق مُنتهاه، وساءه حضور الضيوف الصِباح المِلاح في هذا الظرف العصيب خوفاً من شذوذ قومه العجيب.. ﴿ولمَّا أن جاءت رُسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ [العنكبوت: ٣٣].. وأُسقط في يد لوط بعد أن رأىٰ تصميم القوم وهم في فورتهم مندفعون، وأحسَّ ضعفه وهو غريب بين القوم، نازح إليهم من بعيد، لا عشيرة له تحميه، وليس له من قوة في هذا اليوم العصيب؛

وانفرجت شفتاه عن كلمة حزينة أليمة: ﴿**قال: لو أنَّ لي بكم قوة أو آوي إلىٰ ركن شديد!**﴾ [هود: ٨٠]..

قالها وهو يوجه كلامه إلى هؤلاء الفتية ـ الذين جاء الملائكة في صورتهم ـ وهم صغار صباح الوجوه؛ ولكنهم ـ في نظره ـ ليسوا بأهل بأس ولا قوة. فالتفت إليهم يَتَمَنَّىٰ أن لو كانوا أهل قوة فيجد بهم قوة. أو لو كان له ركن شديد يحتمي به من ذلك التهديد!

وغاب عن لوط في كُربته وشدّته أنَّه يأوي إلى ركن شديد. ركن الله الذي لا يتخلّىٰ عن أوليائه. كما قال رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآية: «رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد»[1]!

وعندما ضاقت واستحكمت حلقاتها، وبلغ الكرب أشدّه.. كَشَفَ الرسل للوط عن الركن الشديد الذي يأوي إليه: ﴿**قالوا: يَا لوط، إنَّا رُسل ربك، لن يصلوا إليك**﴾ [هود: ٨١].. ﴿**قالوا: بل جئناك بما كانوا فيه يمترون، وآتيناك بالحق وإنَّا لصادقون**﴾ [الحجر: ٦٣، ٦٤]..

وهكذا يعجل السياق إخبارهم للوط بأنَّهم الملائكة، جاءوه بما كان قومه يَمترون فيه من أَخْذِهم بذنوبهم وإهلاكهم جزاء ما يرتكبون، تصديقاً لِوَعْدِ الله، وتوكيداً لوقوع العذاب حين ينزل الملائكة بلا إبطاء..

وهذه التوكيدات كلها تُصوّر لنا جَزَع لوط وكربه. وهو في حيرة بين واجبه لضيفه وضعفه عن حمايتهم في وجه قومه. فجاءه التوكيد بعد التوكيد، لإدخال الطمأنينة عليه قبل إلقاء التعليمات إليه..

لقد كشف الرسل عن حقيقتهم، وهم يُخبرونه بمهمتهم في هذا

---

(١) ترحَّم عليه النَّبي ﷺ لسهوه في الوقت الذي ضاق صدره، واشتدَّ جزعه بما دهمه من قومه حتى قال: أو آوي إلى ركن شديد، وقد كان يأوي إلى أشد الأيمان من الله تعالىٰ. انظر البغوي في «شرح السنة» ١/١١٦ ـ ١١٧. وانظر البخاري (٣٣٧٢) و(٤٥٣٧)، ومسلم (١٥١) و(٢٣٨)، والإحسان (٦٢٠٨).

الكرب وذلك الضيق. . ﴿وقالوا: لا تخف ولا تحزن. إنَّا منجُوك وأهلك إلَّا امرأتك كانت من الغابرين﴾ [العنكبوت: ٣٣]. .

لقد آن أوان هلاك القوم المفسدين، وجاء وقت البطش الشديد. . إنَّه آتيهم عذاب غير مردود وما هو منهم ببعيد. . فقد انتهى وقت الإنذار: ﴿ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنُّذُر. ولقد راودوه عن ضيفه فَطَمَسْنا أعينهم، فذوقوا عذابي ونُذُر. .﴾ [القمر: ٣٦ - ٤٠]. .

وطالما أنذر لوط قومه عاقبة المنكر الشاذ الذي كانوا يأتونه، فتماروا بالنُّذر، وشكُّوا فيها وارتابوا، وتبادلوا الشك والارتياب فيما بينهم وتداولوه، وجادلوا نبيهم فيه. وبلغ منهم الفجور والاستهتار أن يُراودوه هو نفسه عن ضيفه - من الملائكة - وقد حسبوهم غلماناً صِباحاً فهاجَ سعارهم الشاذ الملوث القذر! وساوروا لوطاً يريدون الاعتداء المنكر على ضيوفه، غير مُحتشمين ولا مُستحيين، ولا مُتحرجين من انتهاك حرمة نبيهم الذي حَذَّرهم وأنذرهم عاقبة هذا الشذوذ القذر المريض.

عندئذٍ تدخلت يد القدرة، وتحرك الملائكة لأداء ما كُلِّفوه وجاءوا من أجله، وكشفوا للوط عن ركن الله العظيم الذي يأوي إليه حَمَلَة دعوة الله، فأنباوه نبأهم، و﴿قالوا: يَا لوط، إنَّا رُسل ربك، لن يصلوا إليك﴾ [هود: ٨١]. .

تدخلت القدرة التي هي بالمرصاد للظالمين والمفسدين، فالله راصد لهم ومُسَجِّل لأعمالهم. فلمَّا أن كثر الفساد، وغاب كل ذي حكمة ورشاد: ﴿فطمسنا أعينهم﴾ [القمر: ٣٧]. . فلم يعودوا يرون شيئاً ولا أحداً؛ ولم يعودوا يقدرون على مساورة لوط ولا الإمساك بضيفه!

وبعد. . ألقت الملائكة التعليمات إلى لوط، لينجوا مع أهل بيته الطاهرين، إلَّا امرأته فإنَّها كانت من القوم الفاسدين: ﴿فأسْرِ بأهلك بقطعٍ من الليل، ولا يلتفت منكم أحد إلَّا امرأتك. إنَّه مصيبها ما أصابهم، إنَّ

موعدهم الصبح. أليس الصبح بقريب؟﴾ [هود: ٨١]..

وقد كان الأمر للوط أن يسير بقومه في الليل قبل الصبح: ﴿فأسْر بأهلك بقطع من الليل. واتَّبع أدبارهم، ولا يلتفت منكم أحد، وامضوا حيث تُؤمرون﴾ [الحجر: ٦٥]..

والسُّرىٰ: سير الليل، والقطع من الليل: جزؤه وبعضه. ولا يلتفت منكم أحد. أي لا يتخلف ولا يعوق. لأنَّ الصبح موعدهم مع الهلاك. فكل من بقي في المدينة فهو هالك مع الهالكين.

وهكذا كان الأمر أن يسير لوط بالمؤمنين في الليل قبل الصبح، وأن يكون هو في مؤخرتهم يتفقدهم ولا يدع أحداً منهم يَتَخلَّف أو يتلكأ أو يتلفت إلى الديار على عادة المهاجرين الذين يتنازعهم الشوق إلى ما خلفوا من ديارهم فيتلفتون ويتلكأون. وكان الموعد هو الصبح ﴿إنَّ موعدهم الصبح﴾ والصبح قريب: ﴿أليس الصبح بقريب؟﴾ [هود: ٨١].. سؤال لإنعاش نفس لوط بعدما ذاق. لتقريب الموعد وتأكيده. فهو قريب. مع مطلعْ الصباح. ثمَّ يفعل الله بالقوم ـ بقوته ـ ما لم تكن قوة لوط التي تمنَّاها فاعلة!

﴿وقضينا إليه ذلك الأمر: أنَّ دابر هٰؤلاء مقطوع مصبحين﴾ [الحجر: ٦٦].. ﴿إنَّا منزلون علىٰ أهل هـٰذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾ [العنكبوت: ٣٤].. وأطلعناه على ذلك الأمر الخطير: أنَّ آخر هؤلاء القوم ـ وهو دابرهم ـ مقطوع في الصباح. وإذا انقطع آخرهم فقد انقطع أوّلهم. فلا بد من الحرص واليقظة كي لا يتخلف أحد ولا يتلفت، فَيُصيبه ما يُصيب أهل المدينة المُتَخَلِّفين. لقد هَمَّ القوم هَمَّهم، وحزموا أمرهم. وأراد الله غير ما كانوا يريدون.. وكان طمس العيون في المساء.. في انتظار الصباح الذي قَدَّره الله لأخذهم جميعاً.

ثُمَّ تكون الخاتمة. وتحق عليهم كلمة الله: ﴿ما نُنزل الملائكة إلاَّ بالحق وما كانوا إذا مُنظَرين﴾ [الحجر: ٨]..

العذاب المفزع والهلاك المروّع :

ويعرض القرآن خاتمة القوم في المشهد الأخير. . مشهد الدمار المُروّع، اللائق بقوم لوط: ﴿**فأخذتهم الصَّيحةُ مُشرقين، فجعلنا عَالِيَها سافلها وأمطرنا عليهم حِجَارة من سِجِّيل**﴾ [الحجر: ٧٣، ٧٤]. .

وإذا نحن أمام مشهد الدمار والخراب والخسف والهلاك المناسب لتلك الطبائع المقلوبة ﴿**فلمَّا جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسوَّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد**﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]. . فلمَّا جاء موعد تنفيذ الأمر ﴿**جعلنا عاليها سافلها**﴾. . وهي صورة للتدمير الكامل الذي يقلب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها. وهذا القلب وجعل عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان. بل أحط من الحيوان. فالحيوان واقف ملتزم عند حدود فطرة الحيوان. .

﴿**وأمطرنا عليها حجارة من سجيل**﴾. . حجارة ملوثة بالطين. . وهي كذلك مناسبة وعلى قدر المقام ﴿**منضود**﴾. . متراكم بعضه يلاحق بعضاً.

هذه الحجارة. . ﴿**مسوَّمة عند ربك**﴾. . كما تسوم الماشية أي تُربّى وتطلق بكثرة. فكأنَّما هذه الحجارة مُربّاة! ومطلقة لتنمو وتتكاثر! لوقت الحاجة. . وهو تصوير عجيب يلقي ظله في الحسّ، ولا يفصح عنه التفسير، كما يفصح عنه هذا الظل الذي يُلقيه. . ﴿**وما هي من الظالمين ببعيد**﴾. . فهي قريبة وتحت الطلب، وعند الحاجة تطلب فتصيب[1]! لقد استجاب الله دعاء نبيه لوط: ﴿**فنجَّيناه وأهله أجمعين. إلاَّ عجوزاً في الغابرين**﴾ [الشعراء: ١٧٠، ١٧١]. . هذه العجوز هي امرأته. وقد كانت عجوز سوء تقرّ القوم على فعلتهم المنكرة، وتعينهم عليها!

---

(١) من معاني مسوّمة: مُعَلَّمة ذات علامة خاصة. والتعبير التصويري يجعل المعنى الذي اخترناه لها أقرب إلى التصوير.

﴿ثمَّ دمَّرنا الآخرين. وأمطرنا عليهم مطراً، فساء مطر المنذرين﴾ [الشعراء: ١٧٢ - ١٧٣]..

ونلمح في اختيار هلاك قوم لوط بالمطر، وهو الماء المُحيي المنبت أنَّه مماثل لاستخدامهم ماء الحياة - ماء النطف - في غير ما جُعل لهم وهو أن يكون مادة حياة وخصب. والله أعلم بقوله ومراده، وأعلم بِسُنَنه وتدبيره، وإن هو إلاَّ رأي نراه في هذا التدبير.

وهكذا تُعرض خاتمة القوم في مشهد مهين حزين مروع: **﴿فأنجيناه وأهله إلاَّ امرأته كانت من الغابرين - وأمطرنا عليهم مطراً، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾** [الأعراف: ٨٣، ٨٤]..

إنَّها النجاة لمن تَهَدَّدَهُم العصاة. كما أنَّها هي الفصل بين القوم على أساس العقيدة والمنهج. فامرأته - وهي ألصق الناس به - لم تنج من الهلاك لأنَّ صلتها كانت بالغابرين المهلكين من قومه في المنهج والاعتقاد.

ويتحدث القرآن عن مصير امرأة لوط في الآخرة. في حديثه عن نساء كافرات في بيوت أنبياء: **﴿ضرب الله مثلاً للَّذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين، فخانتاهما فلم يُغنيا عنهما من الله شيئاً، وقيل: ادخلا النَّار مع الدَّاخلين﴾** [التحريم: ١٠]..

والمأثور في تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط، أنَّها كانت خيانة في الدعوة، وليست خيانة الفاحشة. امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين من قومه، وامرأة لوط كانت تَدلُّ القوم على ضيوفه وهي تعلم شأنهم مع ضيوفه! وبعد.. فقد أتىٰ أَمْرُ الله الذي استخفَّ به القوم المنحرفون، أتىٰ رُسل الله بالعذاب للقوم المجرمين: **﴿لنرسل عليهم حجارة من طين مسوَّمة عند ربك للمسرفين﴾** [الذَّاريات: ٣٣].

وقد خسف بقرىٰ لوط بظاهرة تشبه ظاهرة الزلازل والبراكين وتصاحبها أحياناً ظاهرة الخسف وتناثر أحجار ملوثة بالطين وهبوط مدن بكاملها تسيح

في الأرض. ويُقال: إنَّ بحيرة لوط الحالية وجدت بعد هذا الحادث، بعد انقلاب عمورة وسدوم في باطن الأرض، وهبوط مكانها وامتلائه بالماء. ويظن أنَّ قرىٰ لوط ثاوية تحت البحر الميت (بحيرة لوط) في الأُردن.

وبعض علماء طبقات الأرض يؤكدون أنَّ البحر الميت يغمر مدناً كانت آهلة بالسكان. وقد كشف بعض علماء الآثار بقايا حصن بجوار البحر، وبجواره المذبح الذي تقدم عليه القرابين.

إنَّ الآيات القرآنية المتقدمة تصور هذه النازلة المُرعبة التي أصابت قوم لوط هي ـ كما قلنا ـ أشبه شيء ببعض الظواهر البركانية التي تخسف فيها الأرض فتبتلع ما فوقها ويصاحب هذا حمم وحجارة ووحل(١). . وعند

---

(١) ولا نقول هذا الكلام لنقول: إنَّه كان بركان من تلك البراكين، ثار في ذلك الوقت، فوقع ما وقع. إنَّنا لا ننفي هذا فقد يكون هو الذي وقع فعلاً. ولكننا لا نجزم به كذلك ولا نُقيد قَدَر الله بظاهرة واحدة مألوفة. .

والعذاب الذي أنزله الله على قوم لوط ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين، مسوَّمة عند ربك للمسرفين﴾. . وهذه الحجارة الطينية المُعَلَّمة أو المُعدة المجهزة عند الله للمسرفين المتجاوزين الحق ـ وقوم لوط كانوا مسرفين في تجاوزهم للفطرة والحق والدين ـ لا يمتنع أن تكون حجارة بركان ثائر يقذف بالحمم الطيني من جوف الأرض. فهي ﴿عند ربك﴾ بهذا الاعتبار مسلطة ـ وفق إرادته ونواميسه ـ على من يريد من المسرفين. مقدرة بزمانها ومكانها وفق علمه وتدبيره القديم. وأن يتولىٰ إرسالها ـ وفق إرادته ونواميسه ـ ملائكته.

وهل ندري نحن حقيقة ملائكته؟ وهل ندري حقيقة علاقتهم بهذا الكون ومَن فيه وما فيه؟ وهل ندري حقيقة القوىٰ الكونية التي نسميها من عندنا أسماء بحسب ظواهرها التي تتكشف لنا بين الحين والحين؟

وما لنا نعترض على خبر الله لنا، ونحن ما تزال كل ذخيرتنا من المعرفة فروض ونظريات وتأويلات لظواهر تلك القوى. أمّا حقيقتها فهي عنا بعيدة؟! فلتكن حجارة بركانية أو لتكن حجارة أُخرىٰ فهذه كتلك في يد الله، ومن صُنعه، وسرّها غيب عنده يكشفه حين يشاء!

وقوام القول في هذه القضية وأمثالها أنَّه جائز أن يكون في تقدير الله وقوع انفجار بركاني في موعده في هذا الموعد ليحقق قدر الله في قوم لوط كما قَدَر في علمه القديم.

وهذا التوقيت والتوافق شأن من شؤون ألوهيته سبحانه وربوبيته للكون وتصريفه لكل ما يجري فيه متناسقاً مع قَدَره بكل شيء وبكل حي فيه. =

ربك للظالمين كثير!!! ولكننا لا نُعلل ما وقع لهم بأنَّه كان زلزالاً أو بركاناً عابراً ممَّا يقع في كل حين.. فالمنهج الإيماني الذي نحرص عليه في هذا الكتاب يبعد كل البعد عن هذه المحاولة!

إنَّنا نعلم علم اليقين أنَّ الظواهر الكونية تجري وفق ناموس الله الذي أودعه هذا الكون. ولكن كل ظاهرة وكل حدث في هذا الكون لا يقع بأية حتمية إنَّما يقع وفق قَدَر خاص به. بلا تعارض بين ثبات الناموس وجريان المشيئة بقدر خاص لكل حدث.

كذلك نحن نعلم علم اليقين أنَّ الله سبحانه يجري في حالات معينة أقداراً معينة بأحداث معينة لوجهة معينة. وليس من الضروري أن يكون ذلك الذي دَمَّر قرىٰ لوط زلزال أو بركان عادي؛ فقد يريد الله أن ينزل بهم ما يشاء، وقتما يشاء، فيكون ما يشاء، وفق ما يشاء.. وهذا هو المنهج الإيماني في تفسير معجزات الرسل أجمعين.

وبعد، نقف أمام قَدَر الله بخشوع وخوف وذهول.. نقف أمام مشهد مصرع الغابرين بعدما جاءهم النذير فكذَّبوه: ﴿**كذَّبت قوم لوط بالنُّذر**﴾ [القمر: ٣٣]..

والمقصود من عرض لوحة الدمار والهلاك هي العبرة من عاقبة التكذيب، والأخذ الأليم الشديد. ويصف ما نزل بهم من النكال: ﴿**إنَّا أرسلنا عليهم حاصباً إلاَّ آل لوط نجَّيناهم بسَحَر نعمة من عندنا كذلك نجزي من شَكر..**﴾ [القمر: ٣٤، ٣٥].. والحاصب: الريح تحمل الحجارة،

= وجائز كذلك أن تكون هذه الظاهرة وقعت بقدر خاص تعلقت به مشيئة الله سبحانه لإهلاك قوم لوط على هذه الصورة التي تمَّ بها في ذلك الحين. وفَهم علاقة مشيئة الله بالكون على النحو الذي بيَّناه قريباً في التعليق على حادثة امرأة إبراهيم، العجوز العقيم، لا يبقي مجالاً لمشكلة تقوم في التصور الإنساني لمثل هذه الظواهر والأمور.
يراجع فصل «التوازن» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» القسم الأول.

ولفظة الحاصب ذات جرس كأنَّه وَقْع الحجارة، وفيه شدّة وعنف تُناسب جوّ المشهد. وقد أ·ركت رحمة الله المؤمنين ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾.. لإنجائهم وحمايتهم.. ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ [الذّاريات: ٣٦].. هُم بيت النَّبي لوط، ولم ينج إلَّا آل لوط ـ إلَّا امرأته كانت من المهلَكين ـ نعمة من عند الله جزاء إيمانهم وشكرهم.. ﴿كذلك نجزي من شكر﴾.. فَنُنَجِّيه ونُنْعم عليه في وسط المهالك والمخاوف.

وأصبح القوم المفسدون على العذاب: ﴿ولقد صبّحهم بكرة عذاب مستقر﴾ [القمر: ٣٨].. وهو الحاصب الذي طَهَّر من تلك اللوثة ومن ذلك الفساد..

ويستحضر القرآن الكريم المشهد كأنَّه اللحظة واقع. وينادَىٰ المعذَّبون وهم يُعانون العذاب: ﴿فذوقوا عذابي ونُذُر﴾ [القمر: ٣٩]..

وهنا يعدل عن أُسلوب الحكاية إلى أُسلوب الخطاب والمواجهة، فإذا العذاب الفظيع المؤذ الأليم، معَه التأنيب والخزي والتحقير الذي يصاحبه، فهم يُعذَّبون عذاباً عنيفاً قاسياً أذلّاء مهينين، وقد استحقوا ما هم فيه من العذاب الأليم والشقاء المهين..

إنَّ مشهد الهلاك المروّع الذي ترسمه الآيات القرآنية هو آية عميقة التأثير في القلب البشري، يشترك في تصويره اللفظ والعبارة، والمعنىٰ والمدلول، والصور والظلال.. مشهد إيقاعاته قذائف وصواعق، وصُوَره وظلاله سياطاً لاذعة لا تمهل لحظة واحدة.. ﴿وتركنا فيها آية للَّذين يخافون العذاب الأليم﴾ [الذَّاريات: ٣٧].. فالَّذين يخافون هم الذين يرون الآية ويُدركونها وينتفعون بها. أمَّا الآخرون فمطموسون لا يرون آيات الله. لا في الأرض ولا في أنفسهم ولا في أحداث التاريخ!

إنَّ الله ـ سبحانه ـ محيط بالظالمين والفاسقين ﴿ولا تحسبنَّ الله غافلاً

عمّا يعمل الظالمون﴾. . إنَّما يُؤخرهم ليوم عصيب حين يصبّ عذابه صبّاً **﴿والمؤتفكة أهوىٰ. فغشّاها ما غشّىٰ. فبأيِّ آلاء ربِّك تتمارىٰ؟﴾** [النَّجم: ٥٤]. .

والمؤتفكة هي أُمة لوط: من الإفك والبهتان والضلال. . وقد أهواها في الهاوية وخسف بها **﴿فغشّاها ما غشّىٰ﴾**. . بهذا التجهيل والتضخيم والتهويل، الذي تتراءىٰ من خلاله صور الدمار والخسف والتنكيل، الذي يشمل كل شيء ويغشاه فلا يبين! لقد أصاب القرية وأهلها المفسدين العذاب الأليم. نزل عليهم فغشي كل شيء. . والله لا يدع الظالم يفلت، ولا يدع المستهتر اللّاهي ينجو. فالظالم المفسد يستحق الانتقام **﴿إنَّ الله عزيز ذو انتقام﴾**، وهو بالقياس إلى الله تعالىٰ يعني تعذيبهم جزاء ظُلمهم وجزاء فسادهم، تحقيقاً لعدل الله في الجزاء.

وقرىٰ لوط تقع في طريق مطروق بين الحجاز والشام يمرّ عليها الناس، وفيها عظات لمن يَتَفَرّس ويتأمل، ويجد العبرة في مصارع الغابرين.

وما تزال آثار التدمير باقية تُحدِّث عن آيات الله لمن يعقلها ويتدبرها من القرون: **﴿ولقد تركنا منها آية بيِّنة لقوم يعقلون﴾** [العنكبوت: ٣٥]. .

لقد قصَّ القرآن نبأ قرىٰ لوط. وقوله الفصل في الموضوع. . وكان مصيرهم هو المصير الطبيعي لهذه الشجرة الخبيثة التي فسدت وأنتنت، فلم تعد صالحة للإثمار ولا للحياة. ولم تعد تصلح إلَّا للاجتثاث والتحطيم. . وقد أُمطروا مطراً مهلكاً مع ما صاحبه من عواصف وزلازل وخسف. . ترىٰ كان هذا المطر المفرق، والماء الدافق، لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذي كانوا فيه، والوحل الذي عاشوا فيه وماتوا فيه؟!

على أيَّة حال لقد طَويت صفحة أُخرىٰ من صحائف المكذبين المجرمين! . . **﴿إنَّ في ذلك لآية. وما كان أكثرهم مؤمنين. وإنَّ ربَّك لهو العزيز الرَّحيم﴾** [الشعراء: ١٧٥]. .

إنَّ الآيـات لا تنفع إلَّا القلوب المؤمنـة المُتفتحة المُستعـدة للتلقي والتدبُّر واليقين: ﴿**إنَّ في ذلك لآيات للمُتوسِّمين. وإنَّها لبسبيل مقيم**[1]. **إنَّ في ذلك لآية للمؤمنين**﴾ [الحجر: ٧٥ ـ ٧٧]..

وهكذا صَدَق النذير، وكان نزول الملائكة إيذاناً بعذاب الله الذي لا يُردّ ولا يُمهِل ولا يَحيد. ﴿**فغشَّاها ما غَشَّىٰ. فبأيِّ آلاء ربِّك تتمارىٰ؟**﴾ [النَّجم: ٥٤، ٥٥]..

فلقد كانت إذن تلك المصارع آلاء الله وأفضالاً، أَلَمْ يهلك الشر؟ أَلَمْ يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق؟ أَلَم يترك فيها آيات لمن يَتَدبَّر ويَعي؟ أليست هذه كلها آلاء الله. فبأيِّ آلاء ربك تتمارىٰ! الخطاب لكل أحد ولكل قلب، ولكل من يتدبر صنع الله فيرىٰ النعمة حتى في البلوىٰ!

وبعد.. إنَّ قصة لوط من القصص القصيرة لأنَّها تُعْرض عند حلقة الرسالة وحدها، فتتضمن الرسالة والحوار بين لوط وقومه، وتكذيب هؤلاء القوم. ثمَّ إهلاكهم جميعاً: ﴿**وإنَّ لوطاً لمن المرسلين. إذ نجَّيناه وأهله أجمعين. إلَّا عجوزاً في الغابرين. ثمَّ دمَّرنا الآخرين. وإنَّكم لَتَمرُّون عليهم مُصبحين. وبالليل أفلا تعقلون؟**﴾ [الصَّافات: ١٣٣ ـ ١٣٨]..

وهذه لمحة تشير إلى رسالة لوط ونجاته مع أهله إلَّا امرأته. وتدمير المكذبين الضالين. وتنتهي بلمسة لقلوب العرب الذين يمرون على دار قوم لوط في الصباح والمساء ولا تستيقظ قلوبهم ولا تستمع لحديث الديار الخاوية. ولا تخاف عاقبة كعاقبتها الحزينة!

أمَّا لوط المؤمن الذي هاجر مع عَمّه من مسقط رأسه في أُور الكلدانيين، النبي الصالح، فقد وَهَبه الله سبحانه الحكمة والعلم..

---

(١) طريق باق لم يندثر.

﴿ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً. ونجَّيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث، إنَّهم كانوا قوم سوء فاسقين. وأدخلناه في رحمتنا إنَّه من الصَّالحين﴾ [الأنبياء: ٧٤، ٧٥]. .

وتكشف القصة عن شخصية لوط ـ عليه السَّلام ـ في صبره وحكمته في محاولاته إقناع قومه المفسدين الشاذين، حتى إذا أعيته الحِيَل كُلها، وسدَّت دونه الطرق والمنافذ، وأوصدت أمامه السُّبل وأبواب الرجاء، وأخذ منه الكرب كل مأخذ، واشتدَّ به الأمر إلى درجة لا يقوىٰ على احتمالها أشد الرجال صلابة وصبراً وإيماناً. . وعندئذٍ اهتزَّ كيانه، وانتفض وصاح **﴿قال: لو أنَّ لي بكم قوة أو آوي إلىٰ ركن شديد﴾** [هود: ٨٠]. .

لقد تمنّىٰ أن تكون له عشيرة أو قوة ليُجابه أُولئك الذين تجردوا من إنسانيتهم، أو يأوي إلى ركن شديد يستعين به على صلافة قومه الشاذين السادرين في غيِّهم.

وسلام الله على لوط في العالمين. فقد كان يأوي إلى ركن الله الشديد الذي جعل قرية الفساد عاليها سافلها وأصبح القوم(١) حديثاً وعبرة للمفسدين والظالمين. . ونجَّاه ربه مع أهله المؤمنين، وأحاطه بعنايته وحفظه **﴿وأدخلناه في رحمتنا إنَّه من الصَّالحين﴾**. .

وكأنَّما الرحمة مأوىٰ وملاذ يُدخل الله فيه من يشاء، فإذا هو آمن ناعم مرحوم.

---

(١) إنَّ جريمة قوم لوط جريمة بشعة، وتَصرُّف خبيث، وعمل مشين، وخروج على سنة الله في خلقه. وقد فرض الإسلام على مرتكبيه أقصىٰ وأقسىٰ العقوبات، وجعل نهايته الدمار والوبال، كما وقع لقوم لوط. وقد ورد عن النَّبيِّ ﷺ قوله: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» أخرجه الخمسة إلاَّ النسائي. كما روىٰ الإمام أحمد أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط» رددها ثلاثاً. .

قصة إسماعيل عليه السلام

المحتوى	ص

إسماعيل عليه السَّلام

ذكر القرآن الكريم قصة إسماعيل مع أبيه إبراهيم ـ عليهما السَّلام ـ. وقد تقدم أن إبراهيم هاجر من مسقط رأسه في بلاد كلدان بالعراق إلى بلاد الشام، واستقرَّ فيما بعد في فلسطين ومعه زوجه سارة وخادمتها هاجر.

كانت سارة عقيماً لا تلد، وكان يحزنها أن ترى بعلها الوفي يتطلع إلى هذه النعمة، وقد أصبحت هي على حال لا يُرجىٰ فيه الولد، فهي عجوز عقيم. وأشارت على زوجها أن يدخل بجاريتها هاجر، وهي الوفية الكريمة، الأصيلة المؤمنة، المطيعة الأمينة، عَلَّها تنجب ولداً تشرق به حياتهما.

وشاءت إرادة الله ـ سبحانه ـ أن يهب لإبراهيم غلاماً، فوضعت هاجرُ إسماعيل الذي أضاءت بقدومه الفرحة في القلوب بسمو الابتسامة الندية في الأرواح، وأزهر قلبُ إبراهيم حُبّاً وشُكراً، وتحركت العواطف الحبيسة، وتمددت المشاعر الأصيلة إلى رعاية هذا الولد الحبيب، وانطلق الوجدان الإنساني في فطرة إبراهيم البشرية للمشاركة في ضم الوليد العزيز إلى حنايا الصدر الرحيب، خاصة أنَّ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لم يذق طعم هذه النعمة الإلهية في حياته بعد أن كبرت سنة ووَهَن عظمه وضعفت قدرته..

ولكنَّ الله تعالىٰ أراد أن يمتحن إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وقد **﴿واتَّخذ الله إبراهيم خليلاً﴾** [النساء: ١٢٥]..

لقد أراد الله أن يمتحن هذا العبد الأوّاه المنيب بذريته التي طال انتظار السنين الهرمة بقدومها، والذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان، وهي قريبة من نفس الإنسان، والنفس شديدة الحساسية بها. فلَمْسُها أقوى وأعمق من أي شيء في حياة الإنسان، فهي استمرار وجوده وحياته.

لقد ابتلىٰ إبراهيمَ ربُّه فأمره أن يذهب بابنه إسماعيل وأُمه بعيداً هناك، بعيداً جداً في الصحراء، حيث لا أُنس فيها ولا حياة.. ألا إنَّها لشاقَّة على النفس الإنسانية، ألَا وإنَّها لكبيرة. ولكنها هي ذاك الخلّة، ذلك المقام الرفيع العظيم.

لقد صنع الله عَبْدَه إبراهيم على عينه، واصطفاه لنفسه الجليلة، وكان هذا الابتلاء رحمة لعبده المصطفىٰ المختار، لقد أودع فطرته السليمة هذه الطاقة العالية من التجرد، وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها ومتاعها.. لذة الشعور بالاتصال، ولذة الرجاء في رضوان الله، ولذة الاستعلاء على مقتضيات الأرض، والخلاص من ثقلة اللحم والدم، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء. أُفق اليقين بأمر الله والاستسلام له بحب ورضىٰ وسعادة.

إنَّها لمسة لمشاعر إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ، وصفحة مضيئة من واقع هذا الخليل الجليل.

لم يكن في قلب إبراهيم شيء إلَّا الله فهو الذي وَهَبَ الولد وهو الذي أمر أن يخرج بابنه حيث يشاء.

الاستسلام لأمر الله :

خرج إبراهيم من بيته وبلدته متوجهاً حيث الأَمْـرُ الإلهي.. خرج يصحب ابنه وأمّه هاجر.. ونسير مع الهدي الراشد في تقصّي أخبار هذه الحكمة الإلهية لحركة إبراهيم:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء إبراهيم ﷺ بأُم إسماعيل وبابْنها إسماعيل وهي تُرضعه حتى وضعها عند البيت[١] عند دوحة[٢] فوقَ زَمْزَم في أعلىٰ المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحدٌ وليس بها ماء، فوضعهما هناك، ووَضع عندهما جِراباً فيه تمر، وسِقَاء فيه ماء، ثمَّ قَفّىٰ[٣] إبراهيم منطلقاً، فتبعته أُم إسماعيل فقالت: يَـا إبـراهيم أين تذهب وتتـرُكنا بهـذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعلَ لا يلتفت إليها، قالت لـه: آلله أَمَرك بهـذا؟ قال: نعم. قـالت: إذاً لا يُضَيِّعُنا، ثمَّ رجعت، فانطلق إبراهيم ﷺ، حتى إذا كان عند الثَّنية[٤] حيث لا يَرَوْنه، استقبلَ بوجهه البيتَ، ثمَّ دعا بهؤلاء الدَّعوات، فرفع يديه فقال: ﴿**ربَّنا إنِّي أسكنتُ من ذريَّتي بواد غير ذي زرع**﴾ حتى بلغ: ﴿**يشكرون**﴾[٥].

وجعلت أُم إسماعيل تُرضِع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفِذَ ما في السِّقاء، عَطِشَتْ، وعطش ابْنُها، وجعلت تنظر إليه يتلوّىٰ ـ أو قال: يتلبَّطُ[٦] ـ فانطلقت كَراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصَّفا أقربَ جَبَلٍ في الأرض يليها، فقامت عليه، ثمَّ استقبلت الوادي تنظُر هل ترىٰ أحداً؟ فلم تَـرَ أحداً. فهبـطت من الصَّفا حتى إذا بلغت الـوادي، رَفَعَتْ طَـرَفَ دِرْعها، ثمَّ سَعَت سعي الإنسان المجهود[٧] حتى جاوزتِ الوادي، ثمَّ أَتَـتِ المَرْوَة، فقامت عليها، فنظرت هل ترىٰ أحداً؟ فلم تَرَ أحداً، ففعلت ذلك سَبع مرات. قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النَّبيّ ﷺ: «فذلكَ سَعْيُ

---

(١) عند البيت، أي: الكعبة.
(٢) الدوحة: الشجرة الكبيرة.
(٣) قفّىٰ: أي: وَلّىٰ.
(٤) وذلك عند الحجون.
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.
(٦) أي: يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض.
(٧) المجهود، أي: الذي أصابه الجهد.

الناس بينهما». فلمَّا أشرفت على المروة سمعتْ صوتاً، فقالت: صَهْ ـ تريد نَفْسها ـ ثمَّ تسمَّعت، فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غواث[1]، فإذا هي بالمَلَك عند موضع زَمْزَم، فَبحث بِعَقِبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء. فجعلت تُحَوِّضه[2] وتقول بيدها هكذا، وجعلت تَغْرُف الماءَ في سقائها وهو يفورُ بعدما تغرف، وفي رواية: بقدر ما تغرف. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: قال النَّبيّ ﷺ: «رَحِمَ الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء، لكانت زمزم عَيْناً معيناً»[3].

وفي رواية: «إنَّ إبراهيم خرج بإسماعيل وأم إسماعيل، معهم شَنَّة[4] فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشربُ من الشنة، فيدرُّ لبَنُها على صبيِّها حتى قَدِمَ مكة، فوضعها تحت دوحة، ثمَّ رَجعَ إبراهيمُ إلى أهله، فاتَّبعته أم إسماعيل حتى لمَّا بلغوا كداء، نادته من ورائه: يا إبراهيمُ إلى من تتركُنا؟ قال: إلى الله، قالت: رضيتُ بالله، فرجعتْ وجعلت تشربُ من الشَّنَّة، ويَدرُّ لبنُها على صَبيِّها حتى لما فَني الماء قالت: لو ذهبتُ، فنظرتُ لعلِّي أحِسُّ أحداً، قال: فذهبتْ فصعدت الصفا، فنظرت ونظرت هل تحسُّ أحداً، فلم تُحسَّ أحداً، فلمَّا بلغت الوادي، سَعَتْ، وأتتِ المروة، وفعلت ذلك أشواطاً، ثمَّ قالت: لو ذهبتُ فنظرتُ ما فعل الصبيُّ، فذهبت ونظرت، فإذا هو على حاله كأنَّه ينشغُ[5] للموت، فلم تُقرَّها نفسُها. فقالت: لو ذهبتُ فنظرتُ لعلِّي

---

(١) قال ابن الأثير في «النهاية»: الغواث بالفتح، كالغياث بالكسر، من الإغاثة، وقد غاثه يُغيثه. وقد روي بالضم والكسر، وهما أكثر ما يجيء في الأصوات.

(٢) تحوضه: بالحاء والضاد وتشديد الواو، أي تجعله مثل الحوض.

(٣) معيناً: بفتح الميم، أي: ظاهراً جارياً على وجه الأرض. قال المحدث الجليل الشيخ شعيب الأرناؤوط: وهذا القدر صرح ابن عباس برفعه عن النَّبيّ ﷺ، وفيه إشعار بأنَّ جميع الحديث مرفوع.

(٤) بالشين والنون المشددة، أي: السِّقاء.

(٥) ينشغ: أي: يشهق.

أُحسُّ أحداً، فذهبت فصعدت الصفا، فنظرت ونظرت، فلم تُحس أحداً حتى أتمَّت سبعاً، ثم قالت: لو ذهبتُ، فنظرتُ ما فَعَل، فإذا هي بصوت، فقالت: أَغِثْ إن كان عندك خير، فإذا جبريل ﷺ فقال بعقبه هكذا، وغَمزَ بعقبه على الأرض، فانبثق[1] الماء فَدَهِشَتْ أُم إسماعيل فجعلت تحفن[2]».

قال: فشربت، وأرضعت ولدها، فقال لها الملَك: لا تخافوا الضيعة[3] فإنَّ هٰهنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإنَّ الله لا يُضَيِّعُ أهله، وكان البيتُ مرْتَفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول، فتأخُذُ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرَّت بهم رُفْقَةٌ من جُرْهم، أو أهل بيتٍ من جُرهم مقبلين من طريق كَدَاء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً[4] فقالوا: إنَّ هذا الطائر ليدور على ماء، لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَرِيّاً[5] أو جريَّيْن، فإذا هم بالماء، فرجعوا، فأخبروهم، فأقبلوا: وأُم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النَّبيّ ﷺ: «فألفىٰ[6] ذلك أُم إسماعيل، وهي تحبُّ الأُنس، فنزلوا، فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كانوا بها أهل أبيات، وشبَّ الغلام[7] وتعلَّم

(١) أي: انْفَجَر.
(٢) في رواية تحفر، ومرت الرواية: «وتحوضه».
(٣) لا تخافوا الضَّيعة: أي الهلاك.
(٤) بالعين والفاء، أي يحوم حول الما ويتردد ولا يمضي عنه.
(٥) الجريُّ: الرسول.
(٦) ألفىٰ: معناه: وَجد.
(٧) أي: كبر إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ.

العربية منهم[١] وأنفسَهُم[٢] وأعجبهم حين شبَّ، فلمَّا أدرك[٣] زوَّجوه امرأةً منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يُطالِعَ تَرِكَته[٤] فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا ـ وفي رواية: يصيد لنا ـ ثمَّ سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: **نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه**، قال: فإذا جاء زوجك، اقرئي عليه السَّلام، وقولي له يُغَيِّر عَتَبَة بابه، فلمَّا جاء إسماعيل كأنَّه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك، فأخبرتُه، فسألني: كيف عَيْشُنا، فأخبرته أنَّا في جَهد وشدّة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم أمَرني أن أقرأ عليك السَّلام ويقول: غَيِّر عتبةَ بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أُفارِقَك، الحقي بأهلك. فطلَّقها، وتزوَّج منهم أُخرىٰ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثمَّ أتاهم بَعْدُ، فلم يجده، فَدَخَلَ على امرأته، فسأل عنه. قالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وَسَعَة وأثْنَت على الله تعالىٰ، فقال: ما طعامُكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللَّهمَّ بارك لهم في اللحم والماء، قال النَّبيّ ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذٍ حبٌّ ولو كان لهم دعا لهم فيه» قال: فهما لا يخلو[٥] عليهما أحدٌ بغير مكة إلاَّ لم يوافقاه.

---

(١) قال العلاَّمة أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ: وهذا صريح في الدلالة التاريخية على أنَّ العربية أقدم من إبراهيم وإسماعيل، ولعلَّها أقدم من السريانية، والتي هي يقيناً أقدم من العبرية التي هي لغة أبناء إسرائيل الذي هو يعقوب حفيد إبراهيم، بل لعلَّ العربية الأُولىٰ هي أُم هذه اللغات التى تسمىٰ السامية كلها، خلافاً لمن جَهِل ذلك. فهل كل لفظة عربية توافق حرفاً من تلك اللغات معربة عنها.

(٢) أنفسَهم: بفتح الفاء: من النفاسة، أي: كثرت رغبتهم فيه.

(٣) والإدراك: البلوغ.

(٤) أي: يتفقد مَن تركهم.

(٥) لا يخلو، أي: لا يخلط بهما غيرهما.

وفي رواية فجاء فقال: أينَ إسماعيل؟ فقالت امرأتُه: ذَهَبَ يصيد، فقالت امرأته: ألا تنزلُ، فنطعَمَ ونَشربَ؟ قال: وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم، وشرابنا الماء. قال: اللَّهمَّ بارك فهم في طعامهم وشرابهم ـ؛ فقال أبو القاسم ﷺ: «بركةُ دعوة إبراهيم ﷺ» قال: فإذا جاء زوجك، فأقرئي عليه السَّلام وَمُرِيه يُثَبِّت عتبة بابه، فلمَّا جاء إسماعيل، قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حَسَنُ الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك، فأخبرتُه، فسألني كيف عَيْشُنا، فأخبرتُه أنَّا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم يقرأ عليك السلام، ويأمُرُكَ أن تُثبِّت عتبة بابك. قال: ذاكَ أبي، وأنتِ العتبةُ أمرني أن أُمسِكَك، ثمَّ لبثَ عنهم ما شاء الله، ثمَّ جاء بعد ذلكَ وإسماعيل يَبْري[1] نَبْلاً له تحت دَوْحَةٍ قريباً من زمزم، فلمَّا رآه، قام إليه، فصَنَعَ كما يصنعُ الوالدُ بالولد، والولد بالوالد[2] قال: يا إسماعيل إنَّ الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أَمَرَكَ ربّك. قال: وتُعينني؟، قال: وأُعِينُك، قال: فإنَّ الله أمرني أن أبني بيتاً هٰهنا، وأشار إلى أكمةٍ مرتفعة على ما حولها. فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيلُ يُناوله الحجارة وهما يقولان: ربَّنا تقبَّل منَّا إنك أنت السميع العليم»[3].

تعرض القصة عروضاً شيقة، ومشاهد رائعة من الماضي التاريخي، وتبين مجريات القصة أنَّها تسير وفق طريقة معينة، في الكيفية التي تُبنىٰ فيها الحوادث، وتُركب المواقف، فهي تبرز الصورة التي تريد، واختيار المكان المناسب الذي نسجت خيوط القصة فيه، ومن أجله، وكيف يتطور الحدث، والمجرىٰ الذي ينمو فيه.

(١) يبري نبلاً: أي سهماً قبل أن يُركب فيه نصله وريشه.
(٢) أي: من المعانقة والمصافحة وغير ذلك.
(٣) رواه البخاري بهذه الروايات كلها: ٢٨٣/٦، ٢٩٠، انظر: رياض الصالحين ١٨٦٧.

ونجد القصة تسير في سياقها في حركة مشوِّقة وتأنٍّ رائع، ويقف السرد فيها عند كل جزء يصفه، ويفصِّل الحديث عنه، ويصور ظروف الحَدَث وملابساته، وذلك لأنَّ تلك الأحداث مقصودة لذاتها في سياق العرض، والوقوف عندها له قيمته في التأثير على المتلقي، لما فيها من جوانب تعليمية وتربوية وتوجيهية.

وتقف القصة مواقف لتصور ما وراء الحَدَث من دوافع ومؤثرات تجعله يسير وفق نظام خاص، وطريقة مرسومة بواقعية رائعة التأثير من أجل تحقيق أهداف القصة المنشودة في عرض الفكرة بهذا الأسلوب القصصي، يُشوِّق المتلقي، ويُؤثر عليه.

وقد حظيت هذه القصة في التعريف بشخصية النَّبيّ إبراهيم ﷺ، وابنه النبي إسماعيل عليه السَّلام، وما يصدر عنهما من مواقف إنسانية ونبوية، وهذا يعطي أهمية للموقف نفسه، والرأي الذي تتبناه الشخصية أكثر تَقَبُّلاً وإقبالاً على ما يصدر منها من آراء وما تلتزمه من مواقف.. كما يجعله أيضاً أكثر إيماناً بها، واستعداداً للإقرار بما نجم عنها من سلوك أو قول: فثمَّة هدف وراء القصة عميق المعاني والأثر، هو بيان سلوك النبي المختار الذي اصطفاه الله وربَّاه، فالقصة تتعرض للنبي إبراهيم، والنبي إسماعيل، في بعض مواقفهم الإنسانية، التي يظهرون فيها أناساً من البشر، في عواطفهم وانفعالاتهم، وطبائعهم، وترسم بصدق وواقعية، عاطفة الأبوّة والبنوة، فهي تصور إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السَّلام ـ حين التقيا لأول مرة ذلك اللقاء بإيجاز موحٍ معبِّر:

«.. ثمَّ جاء [إبراهيم] بعد ذلك، وإسماعيل يَبْري نَبْلاً له تحت دَوْحةٍ قريباً من زمزم، فلمَّا رآه، قام إليه، فَصَنع كما يصنعُ الوالدُ بالولد، والولد بالوالد..».

ومن عروض القصة الرائعة تعرض موقفاً نسائياً متميزاً، نقرأ فيه فصولاً

رائعة عن المرأة، فهي ليست ضعفاً دائماً، وهنا تثبت أنَّ المرأة قادرة على أن تتحمل مسؤوليتها، وأن تثبت وجودها في مواقف حالكة معتمة في أصعب الظروف، وأن تتمسك بالإيمان بالله، والثقة في وعده وإرادته، مهما كانت الأحوال، وما تحمله من الشقاء والأهوال، حتى ولو كان هذا الثمن. هو حياتها..

ها هي ذي أم إسماعيل يتركها إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ مع طفل صغير لا حول له ولا طول، في واد غير ذي زرع ولا حياة، وليس في المكان أحد، ولا حتى ماء.. وفي إيمان عميق تستسلم الأمُّ للأمر في غير ما جزع ولا خوف، ثقة في الله واطمئناناً إليه.. ها هي ذي تتبع إبراهيم حين وَلّى منطلقاً «فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجَعَل لا يلتفت إليها، قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يُضيِّعنا»..

وفي مَشهد مُوح آخر، ها هي ذي حين عَطِشَ رَضيعها ولا ماء، ها هي ذي تسعىٰ في حيوية ونشاط يعجز عن بعضه الرجال، تبحث عن الماء في أرجاء الوادي، وفي ظروف جبلية صعبة دون أن تملّ تكرار هذا السعي..

وفي مشهد جديد حين نزل الجرهميون عندها بعد موافقتها، كانت تقبل ذلك من مركز قوة، فهي تسمح لهم بالنزول قرب زمزم، وتملي عليهم في الوقت نفسه شروطها، بألّا يكون لهم حق التصرف في الماء حتى لا يستبدوا.. ها هي ذي قائمة عند الماء حين أقبلت جماعة من جرهم «فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم....»..

وفي القصة نجد شخصيات جماعية « الناس »: «جماعة من جرهم».. وهذه الجماعة ذات وجود حركي في القصة، دفع بها إلى حركة

أخرىٰ، زادت في نموها وسيرها إلى الأمام في دفع التيار الروائي، فقد أوجد الموقف الجديد. حيث بدأت الحياة تباشر نشاطها في زخم وقوة بعد قفر طويل. وقد فجَّر ذلك الإيمان بالله والثقة بربوبيته سبحانه.

وفي مشاهد جديدة في خط سير القصة تصور الأحداث واقعية إنسانية في كثير من النساء التي تنوء في حمل أثقال الحياة، ويبرق في عينها لمعاناً زاهياً لمتاعها. .

وحين سأل إبراهيم زوجة ابنه إسماعيل عن عيشهم وهيئتهم «فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه. . ».

كما تعرض القصة لوناً حبيباً مشرقاً لطبيعة المرأة الملحوظ فيها: شكر النعمة، والصبر على المحنة فحين عاد إبراهيم ثانية إلى بيت إسماعيل بعد أن تزوج مرة أُخرىٰ يسأل عن ابنه. قال إبراهيم: «كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم. فقالت: نحن بخير وسَعَة وأثنت على الله تعالىٰ. . » وهناك شخصيات ظهرت في القصة كان لها دور تكميلي للحدث، فالطائر العاكف هو الذي دلَّ الجرهميين على الماء[1].

يعد الحوار في القصة مظهراً بارزاً ومهماً في بناء الشخصية، حيث نشهد هذه الشخصية، وهي تتحدث في حوار مع الآخرين معبرة عن نفسها، وعن أفكارها.

والحوار في القصة النبوية يُضفي نوعاً من الحيوية والإثارة، كما أنَّه يبعد الرتابة المملة أثناء عملية سرد القصة. وقد استطاعت القصة أن تشد المستمع إليها، وتحمله على المتابعة المستمرة بكل أحاسيسه، حيث يجد المستمع أو القارىء في الحوار تشويقاً ومتعة لا حدَّ لهما، ويثير في النفس الإنسانية مختلف العواطف والانفعالات.

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ١٨٦، ١٩٠، ٢٢٨، ٢٧٢، ٢٥٣.

والحوار في القصة يلبي الحاجة النفسية التي تبعثها الأحداث، في حب المعرفة النابعة من حبّ لاستطلاع معنى الحوار وأبعاده، وما يترتب على الحوار من مواقف، وما يستجد من أمور.

ومن هنا نلاحظ أنَّ الحوار ينتشر في نصوص القصة، وبصورة إيجابية، ذات أثر واضح في تدعيم بنية القصة، وخدمة الجانب الفني.

الملاحظ في الحوار أنَّه يأتي في سياق القصة في صورة طبيعية، أي أنَّه يبرز إلى الوجود في ساحة القصة من خلال الموقف وبدافع منه فهو لا يقحم على السياق، ولا يفرض عليه فرضاً، كما نجد ذلك واضحاً:

«.. وماتت أُم إسماعيل، فجاء إبراهيم، بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل».

هذا هو الموقف «عدم وجود الابن» وهنا لا بد من السؤال عنه، وأوْلى من يُسأل عنه زوجته فهي أعلم الناس به، وهكذا نشأ الحوار بين إبراهيم - عليه السَّلام - وزوجة إسماعيل:

- فسأل امرأته عنه.

فقالت: خرج يبتغي لنا.

ثمَّ سألها عن عيشهم وهيئتهم.

فقالت: نحن بشرّ، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه.

قال: فإذا جاء زوجك فأقرئي عليه السَّلام، وقولي له: «يغير عتبة بابه».

وبعد هذا الحوار بقليل حين جاء إسماعيل، نشأ بينه وبين زوجته حوار، وهو حوار دفع إليه الموقف نفسه:

«فلمَّا جاء إسماعيل كأنَّه آنس شيئاً» ومن الطبيعي أن يسأل ويستفسر:

«فقال: هل جاءكم من أحد؟

قالت: نعم، جاءنا شيخ، كذا وكذا: فسألنا عنك فأخبرته أنَّا في جهد وشدة.

قال: فهل أوصاك بشيء؟

قالت: أمرني أن أقرأ عليك السَّلام، ويقول: غيِّر عتبة بابك.

قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أُفارقك. إلحقي بأهلك..»[1].

والحوار في هذه القصة قصير، لا يستمر طويلاً بحيث يستغرقْ وقتاً مديداً، يمضيه المتحاوران في حديثهما، فلا يلبث بعد عدة فقرات أن يتوقف عند نقطة معينة، وهو أيضاً سريع بمعنىً أنَّ المتحاورين لا يطنبان أثناء الحوار، بل يكتفي كل منهما بجملة أو جملتين، ولكنه مع قصره وسرعته دال ومعبِّر عن الموقف، وعن الغرض الذي من أجله سيق أصلاً، فهو يحقق الغاية التي أنشىء من أجلها، بحيث يأتي ردّ المحاور على محاوره في الحدود، التي يقتضيها السؤال، أو جملة الحوار الناشئة من الطرف الآخر، إنَّها تأتي مؤدية للمراد من غير ما اضطراب أو قصور يخلّ بصورة الحوار، ومن غير ما حشو يفسد الحوار، ويذهب بصورته الحيوية الممتعة، كما هي الحال حين يطنب المحاور، ويسترسل في كلام لا آخر له، هو من الفضول والحشو الذي لا طائل فيه.. والحوار في القصة النبوية لا يعرض علينا في مظهر مسرحي، بحيث يتم التحاور بين الأشخاص بالصورة المباشرة، التي لا نشعر معها بوجود الراوي، ولكنه يعرض بصورة يكون فيها الحوار مضمناً في السرد، فهو ذو علاقة وثيقة بالسرد، بحيث نحسّ بحضور الراوي يحكي لنا في أثناء سرده للقصة مقولات المتحاورين، وينقلها لنا مسبوقة بلفظ «قال» أو «قالت» وهذه هي الطريقة التي يصور بها الحوار في قصص القرآن الكريم أيضاً[2].

---

(١) البخاري ٤/١٧٣ ـ ١٧٥.

(٢) انظر «القصص القرآني منطوقه ومفهومه»، عبد الكريم الخطيب ص ١٢٣، وانظر أيضاً: الفن القصصي في القرآن الكريم، لخلف الله ص ٣٠٣.

وممّا يلاحظ في حوار هذه القصة أنَّه بين اثنين، وله الدور البارز في بناء القصة، والذي يتضح من خلال الوظائف التي يؤديها في البناء الروائي للقصة:

١ ـ المساعدة في رسم الشخصية، فهو يجعل الشخصية أكثر حضوراً، وتجسيماً من خلال حضورها في الحوار، ويجعلها كاملة الوضوح أمام القارىء أو السامع، الذي يحسّ بها من خلال حديثها وكلامها، والدور الحقيقي هنا للحوار، وهو ما يحمله من ترجمة لمشاعر الشخصية وعواطفها وأحاسيسها المختلفة، التي تبوح بها من خلال الكلمات الواردة على لسانها.

٢ ـ تطوير الحدث، والسعي به نحو حلقات جديدة، ودفعه لبعث مواقف جديدة في خط سير القصة إلى أن تصل إلى النهاية المقصودة.

٣ ـ المساعدة على تصوير مواقف معينة في القصة، كما يصور ما تنطوي عليه النفسية الإنسانية.

٤ ـ التخفيف من رتابة السرد، وهذه وظيفة حيوية، وهذا يبعد عن القارىء الشعور بالملل والسآمة، التي ربما نشأت من خلال السرد المتواصل، ويجعله يتابع القصة بارتياح وشوق.

٥ ـ كشف ما ترمي إليه القصة من أغراض، والتركيز عليها.

٦ ـ كما أنَّ الحوار يضفي على القصة نوعاً من الواقعية الحية في نظر السامع أو القارىء، إذ يحسّ أنَّه أمام أحياء يمارسون وجودهم فعلاً من خلال ما يقرؤه، أو يسمعه من أحاديثهم، ومحاوراتهم التي تردد على مسامعه في ثنايا القصة، وخلال مواقفها المتعددة[١].

(١) انظر حسين القباني في «فن كتابة القصة» ص ٩٥، والشاروني في «القصة القصيرة نظرياً وتطبيقياً» ص ٦٥. وانظر القصص في الحديث النبوي: ٣١٠، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٢٤.

وفي القصة يبرز عنصر المناجاة في صورة دعاء. نرىٰ ذلك في دعاء إبراهيم وإسماعيل، وهما يرفعان القواعد من البيت العتيق، فإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ قائم يبني، وإسماعيل ـ عليه السَّلام ـ يناوله الحجر وهما يقولان: **﴿ربَّنا تقبَّل منا إنَّك أنت السميع العليم﴾**.

فالمناجاة هنا دعاء إلى الله ـ سبحانه ـ يأتي في صورة مفعمة بالمعاني الدينية، والعواطف الروحية المتدفقة، ممَّا يضفي على سياق القصة نوعاً من الحيوية المشرقة لا تنتهي آثارها في النفس الإنسانية[1].

ثقة ورضىٰ وتسليم:

وقد تقدم في قصة إبراهيم ابتلاء الله لإبراهيم وولده حين رأىٰ في المنام أنَّه يذبحه[2] **﴿فبشَّرناه بغلام حليم. فلمَّا بلغ معه السعي. قال: يَا بنيَّ إنِّي أرىٰ في المنام أنِّي أذبحك، فانظر ماذا ترىٰ. قال: يَا أَبَتِ افعل ما تؤمر: ستجدني إن شاء الله من الصَّابرين. فلمَّا أسلما وتلَّه للجبين. وناديناه أن يَا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا. إنَّا كذلك نجزي المحسنين. إنَّ هٰذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم﴾**..

لقد عرف الله من إبراهيم وابنه صدقهما، وحسن إسلامها، ثقة ورضىٰ وتسليم.. فقد تحدثت قصة الذبح عن حالة نفسية من الإيمان واليقين.. شعوراً صادقاً وواقعاً مسلماً بالرضا الذي غمر النفس والروح والجسد.

وأثار اليهود من الجدل حول شخصية الذبيح ما أثاروا. وإن هي إلَّا سنة اليهود في ذلك. فادّعوا أنَّه نبي الله إسحاق وأنكروا أن يكون نبي الله إسماعيل. يقول الإمام ابن قيِّم الجوزية في بيانه الحكيم في الكشف عن

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ٢٢٨.

(٢) انظر تفصيل ذلك في قصة إبراهيم «فصل حقيقة الإيمان وجمال الطاعة وعظمة التسليم».

هذه الحقيقة الجلية: «وإسماعيل: هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومَن بعدهم.

وأمَّا القول بأنَّه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه يقول: هذا القول إنَّما هو متلقىٰ عن أهل الكتاب، مع أنَّه باطل بنص كتابهم، فإنَّ فيه: إنَّ الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره، وفي لفظ وحيده، ولا يشكُّ أهل الكتاب مع المسلمين أنَّ إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غرَّ أصحاب هذا القول أنَّ في التوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنَّها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك، ولكنَّ اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأرجو أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم أو يحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبىٰ الله إلَّا أن يجعل فضله لأهله. وكيف يسوغ أن يُقال: إنَّ الذبيح إسحاق، والله تعالىٰ قد بشَّر أُم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالىٰ عن الملائكة: إنَّهم قالوا لإبراهيم لمَّا أتوه بالبشرىٰ: **﴿لا تخفْ إنَّا أُرسلنا إلى قوم لوط. وامرأته قائمة فضحكت فبشَّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوبَ﴾**(1) [هود: ٧٠، ٧١] فمحال أن يُبشرها بأنَّه يكون لها ولد، ثمَّ يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب ـ عليه السَّلام ـ داخل في البشارة، فَتَنَاوُلُ البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد، وهذا ظاهر الكلام وسياقُه.

---

(١) اختلف القراء في «يعقوب»، فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم «يعقوب» بالرفع، وقرأ ابن عامر وحمزة، وحفص عن عاصم «يعقوب» بالنصب، قال الزجاج: وفي رفع يعقوب وجهان، أحدهما: على الابتداء المؤخر؛ معناه التقديم، والمعنىٰ: ويعقوب يحدث لها من وراء إسحاق، والثاني: وثبت لها من وراء إسحاق يعقوب، ومَن نَصَبه، حمله على المعنىٰ، والمعنىٰ: وهبنا لها إسحاق، ووهبنا لها يعقوب». [زاد المسير: ١٣٢/٤]. .

فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان « يعقوب » مجروراً عطفاً على إسحاق، فكانت القراءة ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ أي: ويعقوب من وراء إسحاق. قيل: لا يمنعُ الرفعُ أن يكون يعقـوبُ مبشراً بـه، لأنَّ البشارةَ قولٌ مخصوص، وهي أولُ خبر سارٍّ صادق. وقوله تعالىٰ: ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ جملة متضمنة لهذه القيود، فتكون بشارة، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية. ولمَّا كانت البشارة قـولاً، كان مـوضع هـذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول، كأنَّ المعنىٰ: وقلنا لها: من وراء إسحاق يعقوب، والقائل إذا قال: بشَّرتُ فلاناً بقدوم أخيه وثقله في أثره، لم يعقل منه إلَّا بشارته بالأمرين جميعاً. هذا ممَّا لا يستريبُ ذو فهم فيه البتة، ثمَّ يُضعف الجَرَّ أمرٌ آخر، وهو ضعف قولك: مررتُ بزيد وَمِنْ بعده عمرو، ولأنَّ العاطف يقوم مقام حرف الجرِّ، فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور. ويدل عليه أيضاً أنَّ الله سبحانه ـ لمَّا ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة « الصافات » قال: ﴿فلمَّا أسلمـا وتَلَّه للجبين، ونـاديناه أن يَـا إبـراهيمُ. قد صَـدَّقتَ الرؤيـا إنَّا كـذلك نجـزي المحسنين. إنَّ هـٰذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. إنَّـه من عبادنـا المؤمنين﴾ [الصَّافات: ١٠٣ ـ ١١١]. ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿وبشَّرناه بإسحاق نبياً من الصَّالحين﴾ [الصافَّات: ١١٢].. فهذه بشارة من الله تعالىٰ له شكراً على صبره على ما أُمِرَ به، وهذا ظاهر جداً في أنَّ المبشَّر به غير الأول، بل هو كالنص فيه. فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته، أي: لمَّا صبَرَ الأب على ما أُمِرَ به. وأسلم الولد لأمر الله، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوَّة.

قيل: البشارة وقعت على المجموع: على ذاته ووجوده، وأن يكون نبياً، ولهذا نصب « نبياً » على الحال المقدَّر، أي مقدراً نبوته، فلا يمكن إخراجُ البشارة أن تقع على الأصل، ثمَّ تخص بالحال التابعة الجارية مجرىٰ

الفَضْلَةِ، هذا محال من الكلام، بل إذا وقعت البشارةُ على نبوته، فوقوعها على وجوده أولىٰ وأحرىٰ.

وأيضاً فلا ريب أنَّ الذبيح كان بمكة، ولذلك جُعلت القرابين يومَ النَّحر بها، كما جُعِلَ السعيُ بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمِّه، وإقامةً لذكر الله؛ ومعلوم أنَّ إسماعيل وأمه هما اللَّذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانهُ بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النَّحر بمكة من تمام حجِّ البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً، ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومَن تَلَقَّىٰ عنهم، لكانت القرابين والنَّحر بالشام، لا بمكة.

وأيضاً فإنَّ الله ـ سبحانه ـ سمّىٰ الذبيح حليماً. لأنَّه لا أحلم ممَّن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه. ولما ذكر إسحاق سمَّاه عليماً، فقال تعالىٰ: **﴿هل أتاك حديثُ ضيفِ إبراهيمَ المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً. قال سلامٌ قومٌ منكرون﴾** [الذَّاريات: ٢٤، ٢٥] إلى أن قال: **﴿قالوا لا تخف وبشَّروه بغلام عليم﴾** [الذَّاريات: ٢٨] وهذا إسحاق بلا ريب، لأنَّه من امرأته، وهي المبشَّرة به، وأمَّا إسماعيل، فمن السُّرِّيَّة. وأيضاً فإنَّهما بُشِّرا به على الكِبَر واليأس من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل، فإنَّه وُلِدَ قبل ذلك.

وأيضاً فإنَّ الله سبحانه أجرىٰ العادة البشرية أنَّ بكر الأولاد أحبُّ إلى الوالدين ممَّن بعده، وإبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لمَّا سَأَلَ ربَّه الولد، ووهبه له، تعلقت شُعْبَةٌ من قلبه بمحبته، والله تعالىٰ قد اتخذه خليلاً، والخُلة منصبٌ يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يُشارك بينه وبين غيره فيها، فلمَّا أخذ الولدُ شعبةً من قلب الوالد، جاءت غَيْرةُ الخُلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلمَّا أقدم على ذبحه، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد، خَلَصَتِ الخلة حينئذٍ من شوائب المشاركة، فلم

يبق في الذَّبح مصلحة، إذ كانت المصلحةُ إنَّما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حَصَلَ المقصود، فنُسِخَ الأمر، وفُدي الذبيح، وصدَّق الخليل الرؤيا، وحصل مراد الرب.

ومعلوم أنَّ هذا الامتحان والاختبار إنَّما حَصَل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه، وهذا في غاية الظهور.

وأيضاً فإنَّ سارة امرأة الخليل ﷺ غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنَّها كانت جارية، فلمَّا ولدت إسماعيل وأحبَّه أبوه، اشتدَّت غيرة «سارة»، فأمر الله سبحانه أن يُبْعد عنها «هاجر» وابنها، ويسكنها في أرض مكَّة لتبرد عن «سارة» حرارةُ الغيرة، وهذا من رحمته تعالىٰ ورأفته، فكيف يأمره ـ سبحانه ـ بعد هذا أن يذبح ابنها، ويدع ابن الجارية بحاله، هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية، بل حكمتُه البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السُّرِّية، فحينئذٍ يرقُّ قلب السيدة عليها وعلى ولدها، وتتبدل قسوة الغيرة رحمة، ويظهر لها بركةُ هذه الجارية وولدها، وأنَّ الله لا يضيع بيتاً هذه وابنها منهم، وليُريَ عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأنَّ عاقبة صبر «هاجر» وابنها على البُعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد آلت إلى ما آلت إليه، من جعل آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالىٰ فيمن يُريد رفعه من خلقه أن يمنَّ عليه بعد استضعافه وذلِّه وانكساره. قال تعالىٰ: **﴿ونريدُ أن نَمُنَّ على الَّذين استضعِفُوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾** [القصص: ٥]. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[1].

---

(١) زاد المعاد: ١/٧١ ـ ٧٥. فصل في نَسَبه ﷺ.

وهكذا يذكر القرآن الكريم الفرع الآخر من ذرية إبراهيم. يذكر إسماعيل أبا العرب:

﴿واذكر في الكتاب إسماعيل، إنَّه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً. وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان عند ربه مرضياً﴾ [سورة مريم: ٥٤، ٥٥]..

وينوِّه من صفات إسماعيل بأنَّه كان صادق الوعد. وصدق الوعد صفة كل نبي وكل صالح، فلا بد أنَّ هذه الصفة كانت بارزة في إسماعيل بدرجة تستدعي إبرازها والتنويه بها بشكل خاص.

وهو رسول فلا بد أن كانت له دعوة في العرب الأوائل وهو جدّهم الكبير. وقد كان في العرب موحدون أفراد قبيل الرسالة المحمَّدية، فالأرجح أنَّهم بقية الموحدين من أتباع إسماعيل.

ويذكر السياق من أركان العقيدة التين جاء بها الصلاة والزكاة وكان يأمر بهما أهله.. ثمَّ يثبت له أنَّه كان عند ربه مرضياً.. والرضىٰ سمة من سمات القرآن وهي شبيهة بسمة الرحمة، وبينهما قرابة!

وهذه الصفة.. الرضا.. من الله هي أعلىٰ وأندىٰ من كل وصف..

= يقول ابن كثير حول ادّعاء اليهود أنَّ الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل:
«وإنَّما حملهم على هذا حسد العرب، فإنَّ إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز، الذين منهم رسول الله ﷺ. وإسحاق والد يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ الذي ينتسبون إليه؛ فأرادوا أن يَجرُّوا هذا الشرف إليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه، وهم قوم بُهت، ولم يُقرُّوا بأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.
ولا نحاول أن نرد على هؤلاء المبطلين بما جاء في القرآن الكريم، لأنَّهم لا يؤمنون به، وإنَّما نرد عليهم بما جاء في سفر التكوين من أسفار التوراة وهو الذي تُرجم من العبرية إلى اليونانية سنة ٢٨٠ ق.م (أي قبل الهجرة النبوية بتسعة قرون).
وفي هذا السفر ذكر لإسماعيل وإبراهيم ـ عليهما السَّلام ـ، وتفصيل لقصة الذبيح، إلى غيرة ذلك من كل ما يتعلق بسيرة هذين النبيين الكريمين.

وهو إنعام مَنَّ الله عليه يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق.

كما أشار القرآن الكريم إلى إسماعيل في سورة الأنبياء: **﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين. وأدخلناهم في رحمتنا إنَّهم من الصالحين﴾**.

ويشير السياق إلى عنصر الصبر في قصص هؤلاء الرسل. وإسماعيل صَبَرَ على ابتلاء ربه له بالذبح فاستسلم لله وقال: **﴿يَا أبتِ افعل ما تُؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾**..

ويشهد الله لنبيه إسماعيل أنَّه من الأخيار: **﴿واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفلِ وكلّ من الأخيار﴾** [ص: ٤٨]..

وإنّ لنا من سيرة إسماعيل ـ عليه السَّلام ـ لعبرة، فهي تعلمنا أثر الإيمان والصبر الجميل والبرّ الكريم والاستسلام الطائع لرحمة الله.. برٌّ عظيم، وتوفيق من الله أعظم، وإيمان وثيق، ونفس راضية بما أراد الله وقدَّر، فها هو ذا إسماعل يقول لأبيه بعد أن أخبره بأنَّه رأى في المنام أنَّه يذبحه: **﴿يَا أبَتِ افعل ما تُؤمر ستجدني إن شاء الله من الصَّابرين﴾**..

ثمَّ كانت رحمة الله ورضوانه مستقراً ومقاماً.. رحمة الله الحانية التي تدرك المؤمن فتشرق نفسه بالإيمان..

قصة يوسف عليه السلام

المحتوى	ص

يوسف عليه السَّلام

إنَّ هذا القرآن الذي يقصّ أحسن القصص هو كتـاب الله الذي لا يدخله شكٌ ولا تحوم حوله ريبة ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتَّقين**﴾ [البقرة: ٢]. .

ما أشد حاجة المسلمين لمـطالعة قَصَص القـرآن. . زاداً لقلوبهم، وغذاءً لأرواحهم، وترسيخاً لعقيدتهم، وشدة في المطالبة بحقهم.

من أول مبادىء المُسلم فَهم رسالة الإسلام، وإيمانه بدعوته ومعرفته بها، وإحاطته بجميع أطـرافها حتى تمتلك عليـه جميع مشـاعره، فيحيـا لنشرها، ويعمل لتطبيق تعاليمها وسيادة نظمها في العالم.

والقرآن هو رسالة الإسلام لا يزال نابضاً حيّاً، كل آية فيه طاقة تُشرف منها على عالم رَحب من الكفاح والبلاء.

وفي ظلال القرآن يتعلم المؤمن أنَّه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء، ولا لِلَّفْتة العارضة: ﴿**إنَّا كل شيء خلقناه بقدر**﴾ [القمر: ٤٩]. . ﴿**وخلق كل شيء فقدَّره تقديراً**﴾ [الفرقان: ٢]. . وكل أمر لحكمة. ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تـتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة: ﴿**فعسىٰ أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيـه خيراً كثيـراً**﴾ [النساء: ١٩]. . ﴿**وعسىٰ أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسىٰ أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ [البقرة: ٢١٦]. .

والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتْبعها آثارها وقد لا تتبعها، والمقدمات التي يراها الناس حَتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها. ذلك أنَّه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشىء الآثار والنتائج، وإنَّما هي الإرادة الطليقة التي تنشىء الآثار والنتائج كما تنشىء الأسباب والمقدمات سواء: ﴿لا تدري لعلَّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً﴾ [الطلاق: ١].. ﴿وما تشاءون إلاَّ أن يشاء الله﴾ [الإنسان: ٣٠]..

والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنَّه مأمور بالأخذ بها، والله هو الذي يقدِّر آثارها ونتائجها.. والاطمئنان إلى رحمة الله وعَدله وإلى حكمته وعلمه هو وحده الملاذ الأمين.

وقد نزلت سورة يوسف بعد سورة هود، في تلك الفترة الحَرِجة في تاريخ الدعوة وفي حياة الرسول ﷺ والعصبة المسلمة معه في مكة. وهي من أحرج الفترات وأشدها في تاريخ الدعوة بمكة. فقد سبقها موت أبي طالب عم النَّبيّ ﷺ وموت زوجه خديجة؛ وجرأة المشركين على ما لم يكونوا ليجرؤوا عليه في حياة أبي طالب ـ وخاصة بعد حادث الإسراء وغرابته، واستهزاء المشركين به، وارتداد بعض من كان أسلموا قبله ـ مع وحشة رسول الله ﷺ ـ بعد خديجة رضي الله عنها في الوقت الذي تجرأت فيه قريش عليه وعلى دعوته، وبلغت الحرب المُعلنة عليه وعلى دعوته أقسىٰ وأقصىٰ مداها، وتجمدت حركة الدعوة حتى ما كاد يدخل في الإسلام أحد من مكة.. وذلك قبيل أن يفتح الله على رسوله وعلى القِلّة المسلمة معه بيعة العقبة الأُولىٰ والثانية التي جعل الله فيهما لرسول الله ﷺ وللعصبة المسلمة معه وللدعوة الإسلامية فَرَجاً ومخرجاً بالهجرة إلى المدينة..

أَمَل وأُنس وتَطمين:

وسورة يوسف كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكي واضحاً في موضوعها وفي جوها وفي ظلالها وفي إيحاءاتها. بل إنَّ عليها طابع هذه

الفترة الحَرِجة الموحشة بصفة خاصة. . ففي الوقت الذي كان رسول الله ﷺ يعاني من الوحشة والغربة والانقطاع في جاهلية قريش ـ منذ عام الحزن ـ وتُعاني معه الجماعة المسلمة هذه الشدة، كان الله ـ سبحانه ـ يقصُّ على نبيِّه الكريم قصة أخ له كريم ـ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ـ وهو يعاني صنوفاً من المِحَن والابتلاءات: محنة كيد الإخوة. ومحنة الجبّ والخوف والترويع فيه. ومحنة الرقّ وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه، ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله. ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة، وقبلها ابتلاء الإغراء والشهوة والفتنة! ومحنة السجن بعد رَغَد العيش وطراوته في قصر العزيز. ثمَّ محنة الرخاء والسلطان المطلق في يديه، وهو يتحكم في أقوات الناس وفي رقابهم، وفي يده لقمة الخبز التي تقوتهم! ومحنة المشاعر البشرية وهو يلقىٰ بعد ذلك إخوته الذين ألقوه في الجب وكانوا السبب الظاهر لهذه المِحن والابتلاءات كلها. .

هذه المحن والابتلاءات التي صبر عليها يوسف ـ عليه السَّلام ـ وزاول دعوته إلى الإسلام من خلالها، وخرج منها كلها متجرداً خالصاً، آخر تَوجّهاته، وآخر اهتماماته، في لحظة الانتصار على المحن جميعاً؛ وفي لحظة لقاء أبويه ولَمّ شمله، وفي لحظة تأويل رؤياه وتَحقّقها كما رآها: ﴿**إذ قال يوسف لأبيه: يَا أَبتِ إنِّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين**﴾ [يوسف: ٤]. . آخر توجّهاته وآخر اهتماماته في هذه اللحظة هي التوجه المُخلص المتجرد المنيب إلى ربه، منخلعاً من هذا كله بكليته كما يصوره القرآن الكريم:

﴿فلمَّا دخلوا على يوسف آوىٰ إليه أبويه، وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين. ورفع أبويه على العرش، وخرُّوا له سُجَّداً. وقال: يَا أَبَتِ هٰذا تأويل رؤياي من قَبل قد جعلها ربِّي حقاً، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني

وبين إخوتي، إنَّ ربِّي لطيف لما يشاء، إنَّه هو العليم الحكيم.. ربِّ قد آتيتني من الملك، وعلَّمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السَّماوات والأرض. أنت وليِّي في الدنيا والآخرة، توفَّني مسلماً، وألحقني بالصَّالحين﴾ [يوسف: ٩٩ ـ ١٠١]..

وهكذا كانت طلبته الأخيرة.. بعد ذلك كله وهو في غمرة السلطان والرخاء ولَمّة الشمل.. أن يتوفاه ربه مسلماً، وأن يُلحقه بالصالحين.. وذلك بعد الابتلاء والمحنة، والصبر الطويل والانتصار الكبير..

فلا عجب أن تكون سورة يوسف. بما احتوته من قصة ذلك النبي الكريم، ومن التعقيبات عليها بعد ذلك، تسلية وتسرية، وتطميناً كذلك وتثبيتاً للمُطارَدين المُغتَربين المُوحَشين!

لا بل إنَّ الخاطر ليذهب إلى الإحساس بالإيحاء البعيد بالإخراج من مكة إلى دار أخرىٰ يكون فيها النصر والتمكين؛ مهما بدا أنَّ الخروج كان إكراهاً تحت التهديد! كما أُخرج يوسف من حضن أبيه، ليواجه هذه الابتلاءات كلها. ثمَّ لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين:

﴿وكذلك مكنَّا ليوسف في الأرض. ولنعلِّمه من تأويل الأحاديث، والله غالب على أمره، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٢١]..

ولقد كان ذلك وهو يضع أقدامه في مصر في قصر العزيز.. حتى وهو ما يزال فتى يباع بيع الرقيق..!

وما يذهب بي الخاطر[1] إليه اللحظة يجعلني أتذوق مذاقاً خاصاً ـ أُشير إليه ولا أملك التعبير عنه! ـ ذلك التعقيب الذي أعقب القصة:

﴿وما أرسلنا من قبلك إلاَّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القرىٰ، أفلم

(١) سيد قطب ـ في ظلال القرآن ـ المجلد ٤، ص ١٩٥٠.

يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، ولدار الآخرة خير للَّذين اتقوا أفلا تعقلون؟ حتّىٰ إذا استيأس الرسل وظنُّوا أنَّهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا فنُجِّي من نشاء، ولا يُردُّ بأسنا عن القوم المجرمين. لقد كان في قَصَصِهم عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثاً يفترىٰ، ولـٰكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل كل شيء، وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون﴾ [يوسف: ١٠٩ ـ ١١١]. .

إنَّه الإيحاء بمجرى سنة الله عندما يستيئس الرسل ـ كما استيأس يوسف في محنته الطويلة ـ والتلميح بالمخرج المكروه الذي يليه الفَرَج المرغوب! الإيحاء والتلميح اللذان تدركهما القلوب المؤمنة، وهي في مثل هذه الفترة تعيش، وفي جوّها تتَنَفَّس، فتتذوق وتستشرف، وتلمح الإيحاء والتلميح من بعيد. .

التقديم الطبيعي للقصة :

تتقدم قصة يوسف ـ عليه السَّلام ـ مقدمة طبيعية لها دلالاتها وإيحاءاتها:

﴿آلر. تلك آيات الكتاب المبين. إنَّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلَّكم تعقلون. نحن نقصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هـٰذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ [يوسف: ١ ـ ٣]. .

فالتقديم لهذه القصة بهذه الآيات يبدو هو التقديم الطبيعي المصاحب لنزول القصة. .

وهذه الأحرف المُقطّعة. . ألف. لام. را. . وتقرير أنَّها آيات الكتاب المبين. ثمَّ تقرير أنَّ الله أنزل هذا الكتاب قرآناً عربياً. . هو من جو القرآن المكي، ومواجهة المشركين في مكة بعربية القرآن الذين كانوا يَدَّعون أنَّ أعجمياً يُعلّمه لرسول الله ﷺ! وتقرير أنَّه وحي من الله كان النَّبيّ ﷺ من الغافلين عن اتجاهه وموضوعاته.

ألف. لام. را.. هذه الأحرف وما من جنسها وهي قريبة للناس متداولة بينهم. هي هي بعينها تلك الآيات البعيدة المتسامية على الطاقة البشرية. آيات الكتاب المبين.. ولقد نزَّله الله كتاباً عربياً مؤلفاً من هذه الأحرف العربية المعروفة: ﴿لعلَّكم تعقلون﴾.. وتدركون أنَّ الذي يصنع من هذه الكلمات العادية هذا الكتاب المُعجز لا يمكن أن يكون بَشَراً، فلا بد عَقلاً أن يكون القرآن وَحْياً. والعقل هنًا مدعو لتدبر هذه الظاهرة ودلالتها القاهرة.

وبإيحائنا هذا القرآن إليك قَصَصْنا عليك هذا القَصَص - وهو أحسن القصص - وهو جزء من القرآن الموحىٰ به.. وقد كنت أحد الأُميِّين في قومك، الذين لا يتوجهون إلى هذا النحو من الموضوعات التي جاء بها القرآن، ومنها هذا القصص الكامل الدقيق. إنَّه أحسن القصص انتقاءاً واختياراً، وإنَّه أحسن القصص نَظماً وترتيباً وتفصيلاً، وإنَّه أحسن القصص شهادة صدق وبرهان حق، وإنَّه أحسن القصص حكماً وأحكاماً، وإنَّه أحسن القصص علماً وتعليماً وتوجيهاً...

* * *

هذه المقدمة إشارة البدء إلى القصة..

الحلقة الأولى:

يوسف الصَّبي :

ثمَّ يرفع الستار عن المشهد الأوَّل في الحلقة الأُولىٰ، لنرىٰ يوسف الصبي يقصُّ رؤياه على أبيه:

﴿إذ قال يوسف لأبيه: يَـا أَبَتِ إنِّي رأيت أحد عشر كوكباً والشَّمس والقمر. رأيتهم لي ساجدين﴾ [يوسف: ٤]..

كان يوسف صبياً أو غلاماً؛ وهذه الرؤيا كما وَصَفها لأبيه من رُؤىٰ الصبية والغلمان؛ وأقرب ما يراه غلام ـ حين تكون رؤياه صبيانية أو صدىٰ لما يحلم به ـ أن يرىٰ هذه الكواكب والشمس والقمر في حجره أو بين يديه يطولها. ولكن يوسف رآها ساجدة له، مُتمثلة في صورة العقلاء الذين يحنون رؤوسهم بالسجود تعظيماً. والسياق يروي عنه في صيغة الإيضاح المُؤكدة:

﴿إذ قال يوسف لأبيه: يَا أَبَتِ إنِّي رأيت أحد عشر كوكباً والشَّمس والقمر﴾..

ثمَّ يعيد لفظ رأىٰ: **﴿رأيتهم لي ساجدين﴾**..

لهذا أدرك أبوه يعقوب بحسه وبصيرته أنَّ وراء هذه الرؤيا شأناً عظيماً لهذا الغلام. هذه الرؤيا بِشَارة بِعِلْم ونُبُوّة. ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك. ولا تظهر بوادره إلاَّ بعد حلقتين منها. أمَّا تمامه فلا يظهر إلاَّ في نهاية القصة بعد انكشاف الغيب المحجوب. ولهذا نَصَحه بألاَّ يقص رؤياه على إخوته، خشية أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم الصغير ـ غير الشقيق ـ فيجد الشيطان من هذا ثغرة في نفوسهم، فتمتلىء نفوسهم بالحقد، فيُدبّروا له أمراً يسوؤه.

﴿قال: يَا بُنيَّ لا تَقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً﴾.. ثمَّ علَّل هذا بقوله: **﴿إنَّ الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين﴾** [يوسف: ٥].. ومن ثمَّ فهو يوغر صدور الناس بعضهم على بعض، ويزين لهم الخطيئة والشر.

ويعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وقد أحسَّ من رؤيا ابنه يوسف أن سيكون له شأن، يتجه خاطره إلى أنَّ هذا الشأن في وادي الدين والصلاح والمعرفة؛ بحكم جو النبوة الذي يعيش فيه، وما يعلمه من أنَّ جده إبراهيم مبارك من الله هو وأهل بيته المؤمنون. فتوقع أن يكون يوسف هو الذي يختار

من أبنائه من نسل إبراهيم لتحل عليه البركة وتتمثل فيه السلسلة المباركة في بيت إبراهيم. فقال له:

﴿وكذلك يجتبيك ربك، ويعلِّمك من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب، كما أتمَّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إنَّ ربَّك عليم حكيم﴾ [يوسف: ٦]..

واتجاه فكر يعقوب إلى أنَّ رؤيا يوسف تشير إلى اختيار الله له، وإتمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتمَّها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق (والجد يقال له أب).. هذا طبيعي. ولكن الذي يستوقف النظر قوله: **﴿ويُعلِّمك من تأويل الأحاديث﴾**..

والتأويل هو معرفة المآل. فما الأحاديث؟. أقصَدَ يعقوب أنَّ الله سيختار يوسف ويعلِّمه ويهبه من صدق الحسّ ونفاذ البصيرة ما يدرك به من الأحاديث مآلها الذي تنتهي إليه، منذ أوائلها، وهو إلهام من الله لذوي البصائر المدركة النافذة، وجاء التعقيب: **﴿إنَّ ربَّك حكيم عليم﴾**..

مناسباً لهذا في جو الحكمة والتعليم؟ أم قصد بالأحاديث الرؤىٰ والأحلام كما وقع بالفعل في حياة يوسف فيما بعد؟

كلاهما جائز، وكلاهما يتمشَّىٰ مع الجو المحيط بيوسف ويعقوب..

وبهذه المناسبة نذكر كلمة عن الرؤىٰ والأحلام وهي موضوع هذه القصة.

إنَّنا ملزمون بالاعتقاد بأنَّ بعض الرؤىٰ تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد. ملزمون بهذا **أوَّلاً** من ناحية ما وَرَدَ في هذه القصة من وقوع مصداق رؤيا يوسف، ورؤيا صاحبيه في السجن، ورؤيا الملك في مصر.

وثانياً من ناحية ما نراه في حياتنا الشخصية من تحقق رؤىٰ تنبؤية في حالات متكررة بشكل يصعب نفي وجوده.. لأنَّه موجود بالفعل!.. والسبب

الأوَّل يكفي. . ولكننا ذكرنا السبب الثَّاني لأنَّه حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها إلَّا بتعنت. .

فما هي طبيعة الرؤيا؟

تقول مدرسة التحليل النفسي: إنَّها صور من الرغبات المكبوتة تتنفس بها الأحلام في غياب الوعي.

وهذا يمثل جانباً من الأحلام. ولكنه لا يمثلها كلها. (وفرويد) ذاته ـ على تحكمه غير العلمي وتَمَحّله في نظريته يقرر أنَّ هناك أحلاماً تنبؤية، فما طبيعة هذه الأحلام التنبؤية؟

وقبل كل شيء نقرر أنَّ معرفة طبيعتها أو عدم معرفته لا علاقة له بإثبات وجودها وصدق بعضها. إنَّما نحن نحاول فقط أن ندرك بعض خصائص هذا المخلوق البشري العجيب، وبعض سنن الله في هذا الوجود.

ونحن نتصور طبيعة هذه الرؤىٰ على هذا النحو. . إنَّ حواجز الزمان والمكان هي التي تحول بين هذا المخلوق البشري وبين رؤية ما نسميه الماضي أو المستقبل، أو الحاضر المحجوب. وأنَّ ما نسميه ماضياً أو مستقبلاً إنَّما يحجبه عنا عامل الزمان، كما يحجب الحاضر البعيد عنا عامل المكان. وأنَّ حاسةً ما في الإنسان لا نعرف كنهها تستيقظ أو تقوىٰ في بعض الأحيان، فتتغلب على حاجز الزمان وترىٰ ما وراءه في صورة مُبهمة، ليست عِلماً ولكنها استشفاف، كالذي يقع في اليقظة لبعض الناس، وفي الرؤىٰ لبعضهم، فيتغلب على حاجز المكان أو حاجز الزمان، أو هما معاً في بعض الأحيان. وإن كنَّا في نفس الوقت لا نعلم شيئاً عن حقيقة الزمان. كما أنَّ حقيقة المكان ذاتها ـ وهي ما يسمَّىٰ بالمادة ـ ليست معلومة لنا على وجه التحقيق: ﴿وما أُوتيتم من العلم إلَّا قليلاً﴾! [الإسراء: ٨٥]. .

على أيَّة حال لقد رأىٰ يوسف رؤياه هذه، وسنرىٰ فيما بعد ما يكون تأويل الرؤيا. .

حسد وحقد :

ويسدل السياق الستار على مشهد يوسف ويعقوب هنا ليرفعه على مشهد آخر: مشهد إخوة يوسف يتآمرون مع حركة تنبيه لأهمية ما سيكون:

﴿لقد كان في يوسف وإخوته آياتٍ للسائلين. إذ قالوا: ليوسف وأخوه أحبُّ إلىٰ أبينا منا ونحن عصبة. إنَّ أبانا لفي ضلالٍ مبين. اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين. قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبِّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾ [يوسف: ٧ - ١٠].

لقد كان في قصة يوسف وإخوته آيات وأمارات على حقائق كثيرة لمن يُنقّب عن الآيات ويسأل ويهتم. وهذا الافتتاح كفيل بتحريك الانتباه والاهتمام. لذلك نشبهه بحركة رفع الستار عمَّا يدور وراءه من أحداث وحركات. فنحن نرىٰ وراءه مباشرة مشهد إخوة يوسف يُدبّرون ليوسف ما يُدَبّرون.

ترىٰ حَدَّثهم يوسف عن رؤياه كما يقول كتاب «العهد القديم»؟

إنَّ السياق هنا يفيد أن لا. فهم يتحدثون عن إيثار يعقوب ليوسف وأخيه عليهم. أخيه الشقيق. ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاء ذكرها على ألسنتهم، ولكانت أدعىٰ إلى أن تلهج ألسنتهم بالحقد عليه. فما خافه يعقوب على يوسف لو قصَّ رؤياه على إخوته قد تمَّ عن طريق آخر، وهو حقدهم عليه لإيثار أبيهم له(١). ولم يكن بدّ أن يتم لأنه حلقة في سلسلة

---

(١) يقول العلاّمة الشيخ الدكتور فضل عباس: وهنا لا بد أن نقف نستوحي من الآيات درساً تربوياً يتعلق بشؤون الأسرة ترشد إليه الآيات الكريمة.
إنَّ إخوة يوسف فعلوا ذلك لما رأوه من معاملة أبيهم وتفضيله يوسف عليهم، وهي من القضايا التي تغرس في الأسرة البغض والكراهية وتقطيع الأواصر، وما نظن إلاّ أنَّ الآيات الكريمة كانت تهدف لتقرير هذه الحقيقة، وهي تعليم الآباء أن لا يُشعروا الأبناء بتفضيل أحد على =

الرواية الكبرىٰ المرسومة، لتصل بيوسف إلى النهاية المرسومة، والتي تُمهد لها ظروف حياته، وواقع أسرته، ومجيئه لأبيه على كبرة. وأصغر الأبناء هم أحب الأبناء، وبخاصة حين يكون الوالد في سن الكبر. كما كان الحال مع يوسف وأخيه، وإخوته من امهات.

﴿إذ قالوا: ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة﴾.. أي ونحن مجموعة قوية تدفع وتنفع..

﴿إنَّ أبانا لفي ضلال مبين﴾.. إذ يُؤثر غلاماً وصبياً صَغيرين على مجموعة الرجال النافعين الدافعين!

ثمَّ يغلي الحقد ويدخل الشيطان، فيختل تقديرهم للوقائع، وتتضخم في حِسّهم أشياء صغيرة، وتهون أحداث ضخام. تهون الفعلة الشنعاء المُتَمثّلة في إزهاق روح. روح غلام بريء لا يملك دفعاً عن نفسه، وهو لهم أخ. وهم أبناء نبي ـ وإن لم يكونوا هم أنبياء ـ يهون هذا. وتضخم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب. حتى توازي القتل. أكبر جرائم الأرض قاطبة بعد الشرك بالله:

﴿اقتلوا يوسف. أو اطرحوه أرضاً﴾.. وهما قريب من قريب. فَطَرْحه في أرض نائية مقطوعة مُفض في الغالب إلى الموت.. ولماذا؟

﴿يخلُ لكم وجه أبيكم﴾.. فلا يحجبه يوسف. وهم يريدون قلبه. كأنَّه حين لا يراه في وجهه يصبح قلبه خالياً من حبه، ويتوجه بهذا الحب إلى

= أحد، ونجد سيدنا رسول الله ﷺ يؤكد على هذه القضية في أحاديثه وأحكامه فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «أنَّ أباه وَهَبه بستاناً وأنَّ أمّه أعجبها أن يشهد النَّبي ﷺ على ذلك فأخذه أبوه وقال: يا رسول الله: إنِّي نحلتُ ابني هذا بستاناً وإنَّ أمّه أعجبها أن تشهدك على ذلك. ويقول الرسول الكريم: ألكَ غيره؟ قال: نعم. قال: أأعطيتهم كلهم مثل ما أعطيته؟ قال: لا. فيقول النبي الكريم: أرجعه ـ أي أرجع ما أعطيته له ـ فإني لا أشهد على جُور. ثم يقول ﷺ: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم». [القصص القرآني ٣٩٧ ـ ٣٩٨]..

الآخرين! والجريمة؟ الجريمة تتوبون عنها وتُصلحون ما أفسدتم بارتكابها: ﴿وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾!.. هكذا ينزغ الشيطان، وهكذا يُسوّل للنفوس عندما تغضب وتفقد زمامها، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث. وهكذا لمَّا غلا في صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم: اقتلوا.. والتوبة بعد ذلك تُصلح ما فات!

وليست التوبة هكذا.. إنَّما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً غير ذاكر؛ حتى إذا تذكر ندم، وجاشت نفسه بالتوبة. أمَّا التوبة الجاهزة! التي تُعَد سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة، فليست بالتوبة، إنَّما هي تبرير لارتكاب الجريمة يُزينه الشيطان! ولكنَّ ضميراً واحداً فيهم، يرتعش لِهَول ما هُم مُقدمون عليه. فيقترح حلاً يريحهم من يوسف، ويُخلي لهم وَجْه أبيهم، ولكنه لا يقتل يوسف، ولا يُلقيه في أرض مهجورة يَغلب فيها الهلاك.. إنَّما يلقيه في الجب على طريق القوافل، حيث يرجح أن تعثر عليه إحدىٰ القوافل فتنقذه وتذهب به بعيداً:

﴿قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف، وألقوه في غيابة الجبِّ، يلتقطه بعض السيَّارة إن كنتم فاعلين﴾..

ونحس من قوله **﴿إن كنتم فاعلين﴾**.. روح التشكيك والتثبيط.. كأنَّه يُشكّكهم في أنَّهم مصرّون على إيقاع الأذىٰ بيوسف. وهو أسلوب من أساليب التثبيط عن الفعل، واضح فيه عدم الارتياح للتنفيذ. ولكن هذا كان أقل ما يشفي حقدهم؛ ولم يكونوا على استعداد للتراجع فيما اعتزموه.. نفهم هذا من المشهد التالي في السياق..

* * *

خداع ومكر:

فها هم أُولاء عند أبيهم، يُراودونه في اصطحاب يوسف معهم منذ

الغداة. وها هم أولاء يخادعون أباهم ويمكرون به وبيوسف. فلنشهد ولنستمع لما يدور:

﴿قالوا: يَـا أبانا مَالَكَ لا تأمنَّا علىٰ يوسف؟ وإنَّا له لناصحون، أرسله معنا غداً يرتعْ ويلعبْ، وإنَّا له لحافظون. قال: إنِّي ليحزنني أن تذهبوا به، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. قالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنَّا إذاً لخاسرون﴾ [يوسف: ١١ ـ ١٤]..

والتعبير يرسم بكلماته وعباراته كل ما بذلوه ليتدسسوا به إلى قلب الوالد المتعلق بولده الصغير الحبيب، الذي يتوسم فيه أن يكون الوارث لبركات أبيه إبراهيم.. **﴿يَـا أبانا﴾**.. بهذا اللفظ الموحي المذكر بما بينه وبينهم من آصرة.. **﴿مَالَكَ لا تأمنَّا على يوسف؟﴾**..

سؤال فيه عتب وفيه استنكار خفي، وفيه استجاشة لنفي مدلوله من أبيهم، والتسليم لهم بعكسه وهو تسليمهم يوسف. فهو كان يستبقي يوسف معه ولا يرسله مع إخوته إلى المراعي والجهات الخلوية التي يرتادونها لأنَّه يحبه ويخشىٰ عليه ألَّا يحتمل الجو والجهد الذي يحتملونه وهم كبار، لا لأنَّه لا يأمنهم عليه. فبمبادرتهم له بأنَّه لا يأتمنهم على أخيهم وهو أبوهم، مقصود بها استجاشته لنفي هذا الخاطر؛ ومن ثَمَّ يفقد إصراره على احتجاز يوسف. فهي مبادرة ماكرة منهم خبيثة!

﴿مَالَكَ لا تأمنَّا علىٰ يوسف؟ وإنَّا له لناصحون﴾..

قلوبنا له صافية لا يخالطها سوء ـ وكاد المريب أن يقول خذوني ـ فذكر النصح هنا وهو الصفاء والإخلاص يشي بما كانوا يحاولون إخفاءه من الدغل المريب..

﴿أرسله معنا غداً يرتعْ ويلعبْ وإنَّا له لحافظون﴾..

زيادة في التوكيد، وتصويراً لما ينتظره يوسف من النشاط والمَسرّة والرياضة، ممَّا ينشط والده لإرساله معهم كما يريدون.

ورداً على العتاب الاستنكاري الأول جعل يعقوب ينفي ـ بطريق غير مباشر ـ أنَّه لا يأمنهم عليه، ويُعلل احتجازه معه بقلّة صبره على فراقه وخوفه عليه من الذئاب: **﴿قال: إنِّي ليحـزنني أن تذهبـوا به، وأخـاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾**. .

﴿إنِّي ليحزنني أن تذهبوا به﴾. .

إنَّني لا أُطيق فراقه. . ولا بد أنَّ هذه هاجت أحقادهم وضاعفتها. أن يبلغ حُبّه له درجة الحزن لفراقه ولو لبعض يوم، وهو ذاهب كما قالوا لـه للنشاط والمسرة.

﴿وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾. .

ولا بد أنَّهم وجدوا فيها عذراً كانوا يبحثون عنه، أو كان الحقد الهائج أعماهم فلم يفكروا ماذا يقولون لأبيهم بعد فعلتهم المنكـرة، حتى لقّنهم أبوهم هذا الجواب! واختاروا أسلوباً من الأساليب المؤثرة لنفي هذا الخاطر عنه:

﴿قالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصبة، إنَّا إذاً لخاسرون﴾. .

لئن غلبنا الذئب عليه ونحن جماعة قوية هكذا فلا خير فينا لأنفسنا وإنَّنا لخاسرون كل شيء، فلا نصلح لشيء أبداً! وهكـذا استسلم الوالـد الحريص لهذا التوكيد ولذلك الإحراج. . ليتحقق قدر الله وتـتم القصة كما تقتضي مشيئته!

* * *

المؤامرة النكراء ـ المحنة الأُولىٰ:

والآن لقد ذهبوا به، وها هم أُولاء يُنفـذون المؤامرة النكـراء. والله سبحانه يلقي في روع الغلام أنَّها محنة وتنتهي، وأنَّه سيعيش وسيذكّر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنَّه هو: **﴿فلمَّـا ذهبوا بـه وأجمعوا أن**

يجعلوه في غيابة الجبِّ. وأوحينا إليه لتنبئنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ [يوسف: ١٥].

فقد استقرَّ أمرهم جميعاً على أن يجعلوه في غيابة الجب، حيث يغيب فيه عنهم. وفي لحظة الضيق والشدة التي كان يواجه فيها هذا الفَزَع، والموت منه قريب، ولا منقذ له ولا مغيث. وهو وحده صغير وهم عشرة أشداء، في هذه اللحظة اليائسة يُلقي الله في رَوعه أنَّه ناجٍ، وأنَّه سيعيش حتى يواجه إخوته بهذا الموقف الشنيع، وهم لا يشعرون بأنَّ الذي يُواجههم هو يوسف الذي تركوه في غيابة الجب وهو صغير.

* * *

مواجهة الوالد المفجوع:

وندع يوسف في محنته في غيابة الجبِّ، يؤنسه ولا شك ما ألقىٰ الله في روعه ويطمئنه، حتى يأذن الله بالفَرَج. ندعه لنشهد إخوته بعد الجريمة يواجهون الوالد المفجوع:

﴿وجاءوا أباهم عشاءً يبكون، قالوا: يَا أبانا إنَّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب. وما أنت بمؤمن لنا ولو كنَّا صادقين. وجاءوا على قميصه بدم كَذِب. قال: بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون﴾ [يوسف: ١٦ ـ ١٨]..

لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذبة، فلو كانوا أهدأ أعصاباً ما فعلوها منذ المرة الأولىٰ التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم! ولكنهم كانوا مُعَجّلين لا يَصبرون، يخشون ألاَّ تواتيهم الفرصة مرة أُخرىٰ. كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلاً على التسرُّع، وقد كان أبوهم يُحذرهم منها أمس، وهم ينفونها، ويكادون يتهكّمون بها. فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتركوا يوسف للذئب الذي حذّرهم

أبوهم منه أمس! ويمثل هذا التسرع جاؤوا على قميصه بدم كذب لطَّخوه به في غير إتقان، فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنَّه كذب . .

فعلوا هذا . . ﴿وجاءوا أباهم عشاءً يبكون قالوا: يَـا أَبَانا إنَّا ذهبنـا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب﴾ . .

ويحسون أنَّها مكشوفة، ويكاد المريب أن يقول خذوني، فيقولون: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنَّا صادقين﴾ . .

أي وما أنت بمُطمئن لما نقوله، ولو كان هو الصدق، لأنَّك تشك فينا ولا تطمئن لما نقول.

وأدرك يعقوب من دلائل الحال، ومن نداء قلبه، أنَّ يوسف لم يأكله الذئب، وأنَّهم دبَّروا له مكيدة ما. وأنَّهم يُلَفِّقون له قصة لم تقع، ويصفون له حالاً لم تكن، فواجَهَهم بأنَّ نفوسهم قد حَسَّنت لهم أمراً مُنكراً وذلَّلته ويسرت لهم ارتكابه؛ وأنَّه سيصبر متحملاً متجملاً لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو، مستعيناً بالله على كل ما يُلَفِّقونه من حِيَل وأكاذيب:

﴿قال: بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً. فصبر جميل. والله المستعان على ما تصفون﴾ . .



يوسف في الجب :

ثمَّ لنعد سريعاً إلى يوسف في الجبّ، لنرىٰ المشهد الأخير في هذه الحلقة الأولىٰ من حلقات القصة:

﴿وجاءت سيارة، فأرسلوا واردهم، فأدلىٰ دلوه قال: يَـا بشـرىٰ. هـٰذا غلام. وأسرُّوه بضاعة، والله عليم بما يعملون. وشَروه بثمن بخس دراهم معدودة، وكانوا فيه من الزَّاهدين﴾ [يوسف: ١٩ ـ ٢٠] . .

لقد كان الجب على طريق القوافل، التي تبحث عن الماء في مَظانِّه،

في الآبار وفي مثل هذا الجب الذي ينزل فيه ماء المطر ويبقىٰ فترة، ويكون في بعض الأحيان جافاً كذلك: ﴿وجاءت سيارة﴾.. أي قافلة سميت سيارة من السير الطويل كالكشافة والجوالة والقناصة..

﴿فأرسلوا واردهم﴾.. أي من يَرد لهم الماء ويكون خبيراً بمواقعه..

﴿فأدلىٰ دلوه﴾.. لينظر الماء أو ليملأ الدلو ـ ويحذف السياق حركة يوسف في التعلق بالدلو احتفاظاً بالمفاجأة القصصية للقارىء والسامع ـ:

﴿قال: يَٰا بشرىٰ! هٰذا غلام!﴾.. ومرة أُخرىٰ يحذف السياق كل ما حدث بعد هذا وقيل، وحال يوسف، وكيف ابتهج للنجاة، ليتحدث عن مصيره مع القافلة:

﴿وأسرُّوه بضاعة﴾.. أي اعتبروه بضاعة سرية وعزموا على بيعه رقيقاً، ولما لم يكن رقيقاً فقد أسروه لِيخفوه عن الأنظار.. ثمَّ باعوه بثمن قليل:

﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾.. وكانوا يتعاملون في القليل من الدراهم بالعدّ، وفي الكثير منها بالوزن..

﴿وكانوا فيه من الزَّاهدين﴾،، لأنَّهم يريدون التخلص من تهمة استرقاقه وبيعه..

وكانت هذه نهاية المحنة الأُولىٰ في حياة النَّبي الكريم..

* * *

الحلقة الثانية:

يوسف في مصر:

الحلقة الثَّانية من حلقات القصة، وقد وصل يوسف إلى مصر، وبِيعَ بَيْعَ الرقيق؛ ولكن الذي اشتراه توسم فيه الخير ـ والخير يُتوسَّم في الوجوه

الصِباح، وبخاصة حين تصاحبها السجايا المِلاح - فإذا هو يوصي به امرأته خيراً، وهنا يبدأ أول خيط في تحقيق الرؤيا. ولكنَّ محنة أُخرىٰ من نوع آخر كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشدّه، وقد أُوتي حكماً وعلماً يستقبل بهما هذه المحنة الجارفة التي لا يقف لها إلاَّ من رَحِمَ الله. إنَّها محنة التَعرُّض للغواية في جوّ القصور، وفي جو ما يسمونه «الطبقة الراقية» وما يغشاها من استهتار وفجور.. ويخرج يوسف منها سليماً معافاً في خُلقه وفي دينه، ولكن بعد أن يُخالط المحنة ويَصلاها..

﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته: أكرمي مثواه، عسىٰ أن ينفعنا أو نتَّخذه ولداً. وكـذلك مكنّـا ليوسف في الأرض. ولِنعَلِّمـه من تأويـل الأحاديث، والله غالب على أمره، ولٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٢١]..

إنَّ السياق لا يكشف لنا حتى الآن عمَّن اشتراه، وسنعلم بعد شوط في القصة إنَّه عزيز مصر (قيل: إنَّه كبير وزرائها) ولكنا نعلم منـذ اللحظة أنَّ يوسف قد وصل إلى مكان آمن، وأنَّ المحنة قد انتهت بسلام، وأنَّه مُقبل بعد هذا على خير: **﴿أكرمي مثواه﴾**..

والمثـوىٰ مكان الثـويّ والمبيت والإقامـة، والمقصود بـإكرام مثـواه إكرامه، ولكنَّ التعبير أعمق، لأنَّه لا يجعل الإكرام لشخصه فحسب، ولكن لمكان إقامته.. وهي مبالغة في الإكرام. في مقابل مثواه في الجبّ وما حوله من مخاوف وآلام!

ويكشف الرجل لامرأته عمَّا يتوسمه في الغلام من خير وما يتطلع إليه فيه من أَمَل: **﴿عسىٰ أن ينفعنا أو نتَّخذه ولداً﴾**..

ولعلَّهما لم يكن لهما أولاد كما تذكر بعض الروايات.. ومن ثمَّ تطلع الرجل أن يتَّخذاه ولداً إذا صدقت فراسته، وتحققت مخايل نجابته وطيبته مع وسامته..

وهنا يقف السياق لِيُنَبِّه إلى أنَّ هذا التدبير من الله، وبه وبمثله قَدَّر ليوسف التمكين في الأرض ـ وها قد بدأت بشائره بتمكين يوسف في قلب الرجل وبيته ـ ويشير إلى أنَّه ماض في الطريق ليعلِّمه الله من تأويل الأحاديث على الوجهين اللذين ذكرناهما من قبل ـ.

ويعقب السياق على هذا الابتداء في تمكين يوسف بما يدل عليه من أنَّ قُدرة الله غالبة، لا تقف في طريقها قوة، وأنَّه مالك أمره ومسيطر عليه فلا يخيب ولا يتوقف ولا يضل:

﴿وكذلك مكنَّا ليوسف في الأرض، ولنعلِّمه من تأويل الأحاديث. والله غالب على أمره﴾..

وها هو ذا يوسف أراد له إخوته أَمْراً، وأراد له الله أَمْراً، ولمَّا كان الله غالباً على أَمْره ومسيطراً فقد نفذ أَمْرُه، أمَّا إخوة يوسف فلا يملكون أمرهم فأفلت من أيديهم وخرج على ما أرادوا:

﴿ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون﴾.. لا يعلمون أنَّ سنة الله ماضية وأنَّ أمره هو الذي يكون..

ويمضي السياق ليقرر أنَّ ما شاء الله ليوسف، وقال عنه: **﴿ولنعلِّمه من تأويل الأحاديث﴾**.. قد تحقق حين بلغ أشدَّه:

﴿ولمَّا بلغ أشدَّه آتيناه حكماً وعلماً. وكذلك نجزي المحسنين﴾..

فقد أُوتي صحة الحكم على الأُمور، وأُوتي عِلْماً بمصائر الأحاديث أو بتأويل الرؤيا، أو بما هو أَعَمّ، من العلم بالحياة وأحوالها، فاللفظ عام ويشمل الكثير. وكان ذلك جزاء إحسانه. إحسانه في الاعتقاد وإحسانه في السلوك: **﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾..**

* * *

المحنة الثّانية ـ فتنة شديدة وعنيفة :

وعندئذٍ تجيئه **المحنة الثَّانية** في حياته، وهي أشد وأعمق من المحنة الأولىٰ. تجيئــه وقـد أُوتي صحــة الحكم وأُوتي العلم ـ رحمـة من الله ـ ليواجهها وينجو منها جزاء إحسانه الذي سجله الله له في قرآنه.

والآن نشهد ذلك المشهد العاصف الخطير المثير كما يرسمه التعبير:

﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه، وغلَّقت الأبواب وقالت: هيت لـك! قال: معـاذ الله. إنَّه ربِّي أحسن مثـواي. إنَّه لا يفلح الـظالمـون﴾ [يوسف: ٢٣]..

إنَّ السياق لم يذكر كم كانت سِنّها وكم كانت سنّه؛ فلننظر في هذا الأمر من باب التقدير.

لقد كان يوسف غلاماً عندما التقطته السيارة وباعته في مصر. أي إنَّه كان حوالي الرابعة عشرة تنقص ولا تزيد. فهذه هي السنّ التي يطلق فيها لفظ الغلام، وبعدها يسمىٰ فتىً فشاباً فرجلًا.. وهي السن التي يجوز فيها أن يقول يعقوب: **﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾**.. وفي هذا الوقت كانت هي زوجة، وكانت وزوجهـا لم يُرزقـا أولاداً كما يبـدو من قولـه: **﴿أو نتخذه ولداً﴾**.. فهذا الخاطر.. خاطر التبني.. لا يرد على النفس عادة إلَّا حين لا يكون هناك وَلَد؛ ويكون هناك يأس أو شبه يأس من الولد. فلا بد أن تكون قد مضت على زواجهما فترة، يعلمان فيها أنَّ لا وَلَد لهما. وعلى كل حال فالمتوقع عن رئيس وزراء مصر ألَّا تقل سنّه عن أربعين سنة، وأن تكون سن زوجه حينئذٍ حوالىٰ الثلاثين.

ونتوقع كذلك أن تكون سنها أربعين سنـة عندمـا يكون يـوسف في الخامسة والعشرين أو حواليها. وهي السن التي نرجح أنَّ الحادثـة وقعت فيها.. نرجحه لأنَّ تصرف المرأة في الحادثة وما بعدها يشير إلى أنَّها كانت

مُكتملة جريئة، مالكة لكيدها، متهالكة كذلك على فتاها. ونُرجّحه من كلمة النسوة فيما بعد.. ﴿امرأة العزيز تُراود فتاها عن نفسه﴾ [يوسف: ٣٠].. وإن كانت كلمة فتىً تقال بمعنىً عبد، ولكنها لا تقال إلاَّ ولها حقيقة من مدلولها من سن يوسف. وهو ما ترجحه شواهد الحال.

نبحث هذا البحث، لنصل منه إلى نتيجة معينة. لنقول: إنَّ التجربة التي مرَّ بها يوسف ـ أو المحنة ـ لم تكن فقط في مواجهة المراودة في هذا المشهد الذي يُصوّره السياق. إنّما كانت في حياة يوسف فترة مراهقته كلها في جو هذا القصر، مع هذه المرأة بين سن الثلاثين وسن الأربعين، مع جو القصور، وجو البيئة التي يصورها قول الزوج أمام الحالة التي وَجَد فيها امرأته مع يوسف:

﴿يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك! إنَّك كنت من الخاطئين﴾ [يوسف: ٢٩].. وكفىٰ..!

والتي يتحدث فيها النسوة عن امرأة العزيز، فيكون جوابها عليهنَّ، مأدبة يخرج عليهنَّ يوسف فيها، فيفتتنَّ به، ويُصرحن، فتصرح المرأة:

﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليُسجنَنَّ وليكوناً من الصَّاغرين﴾ [يوسف: ٣٢]..

فهذه البيئة التي تسمح بهذا وذلك بيئة خاصة. هي بيئة الطبقة المترفة دائماً. ويوسف كان فيها مَولىً وتربّىٰ فيها في سن الفتنة.. فهذه هي المحنة الطويلة التي مرَّ بها يوسف، وصمد لها، ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة..

ولِسّنه وسنّ المرأة التي يعيش معها تحت سقف واحد كل هذه المدة قيمة في تقدير مدىٰ الفتنة وخطورة المحنة والصمود لها هذا الأمد الطويل. أمّا هذه المرة فلو كانت وحدها وكانت مفاجأة بلا تمهيد من إغراء طويل، لما

كان عسيراً أن يصمد لها يوسف، وبخاصة أنّه هو مطلوب فيها لا طالب، وتهالُك المرأة قد يَصدّ من نفس الرجل وهي كانت مُتهالكة.

والآن نواجه النصوص:

﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه، وغلّقت الأبواب، وقالت: هيت لك﴾..

وإذن فقد كانت المراودة في هذه المرة مكشوفة، وكانت الدعوة فيها سافرة إلى الفعل الأخير.. وحركة تغليق الأبواب لا تكون إلاَّ في اللحظة الأخيرة، وقد وصلت المرأة إلى اللحظة الحاسمة التي تهتاج فيها دفعة الجسد الغليظة، ونداء الجسد الأخير:

﴿وقالت: هيت لك!﴾..

هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة. إنّما تكون هي الدعوة الأخيرة. وقد لا تكون أبداً إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً. والفتىٰ يعيش معها وقوته وفتوته تتكامل، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتنضج، فلا بد كانت هناك إغراءات شتّىٰ خفيفة لطيفة، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة.

﴿قال: معاذ الله.. إنّه ربِّي أحسن مثواي. إنّه لا يفلح الظّالمون﴾..

أعيذ نفسي بالله أن أفعل.. إنّه ربِّيْ أكرمني بأن نجّاني من الجبِّ وجعل في هذه الدار مثواي الطيب الآمن.

﴿إنّه لا يفلح الظالمون﴾.. الذين يتجاوزون حدود الله، فيرتكبون ما تدعينني اللحظة إليه..

والنص هنا صريح وقاطع في أنَّ رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التأبّي، المصحوب بتذكر نعمة الله عليه، وبتذكر حدوده، وجزاء من يتجاوزون هذه الحدود. فلم تكن هناك استجابة في أول الموقف

لما دَعَتْه إليه دعوة غليظة جاهرة بعد تغليق الأبواب، وبعد الهتاف باللفظ الصريح الذي يتجمل القرآن في حكايته وروايته: ﴿وقالت: هيت لك﴾..

﴿ولقد همَّت به وهمَّ بها لولا أن رأىٰ برهان ربِّه﴾! [يوسف: ٢٤]..

لقد حصر جميع المفسرين القدامىٰ والمحدثين نظرهم في تلك الواقعة الأخيرة. فأمَّا الذين ساروا وراء الإسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يُصوِّرون فيها يوسف هائج الغريزة مُندفعاً شبقاً، والله يُدافعه ببراهين كثيرة فلا يندفع! صَوَّرت له هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضّاً على أصبعه بفمه! وصورت له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن - أي نعم من القرآن! تنهىٰ عن مثل هذا المنكر، وهو لا يرعوي! حتى أرسل الله جبريل يقول له: أدرك عبدي، فجاء فَضَربه في صدره.. إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي سار وراءها بعض الرواة وهي واضحة التلفيق والاختراع!

وأمَّا جمهور المفسرين فسار على أنَّها همَّت به هَمّ الفعل، وهمَّ بها هَمّ النفس، ثمَّ تجلّىٰ له برهان ربه فترك.

وأنكر المرحوم الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار على الجمهور هذا الرأي. وقال: إنَّها إنَّما همَّت بضربه نتيجة إبائه وإهانته لها وهي السيدة الآمرة، وهمَّ هو برد الاعتداء؛ ولكنَّه آثر الهَرب فلحقت به وقدَّت قميصه من دُبر.. وتفسير الهمّ بأنَّه هَمّ الضرب وردّ الضرب مسألة لا دليل عليها في العبارة، فهي مجرد رأي لمحاولة البُعد بيوسف عن هَمّ الفعل أو هَمّ الميل إليه في تلك الواقعة. وفيه تَكَلُّف وإبعاد عن مدلول النص.

أمَّا الذي خطر لي[1] وأنا أُراجع النصوص هنا، وأُراجع الظروف التي عاش فيها يوسف، في داخل القصر مع هذه المرأة الناضجة فترة من الزمن طويلة، وقبل أن يُؤتىٰ الحكم والعلم وبعدما أُوتيهما..

---

(١) انظر سيد قطب في ظلال القرآن، الجزء الثاني عشر، ص ١٩٨٢.

الذي خطر لي أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿ولقد همَّت به وهمَّ بها لولا أن رأىٰ برهان ربه﴾.. هو نهاية موقف طويل من الإغراء، بعدما أبىٰ يوسف في أوَّل الأمر واستعصمٰ. وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف؛ ثمَّ الاعتصام بالله في النهاية والنجاة.. ولكن السياق القرآني لم يُفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة؛ لأنَّ المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة، وفي محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك. فذكر طَرَفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً.

هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص، ونتصور الظروف. وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية. وما كان يوسف سوىٰ بَشَر. نعم إنَّه بشر مختار. ومن ثمَّ لم يتجاوز هَمّه الميل النفسي في لحظة من اللحظات. فلمَّا أن رأىٰ برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه، بعد لحظة الضعف الطارئة، عاد إلى الاعتصام والتأبّي[1]: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء

---

(١) قال الزمخشري في الكشاف: «فإن قلت: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه همّ بالمعصية وقَصْد إليها؟

قلت: المراد أنَّ نفسه مالت إلى المخالطة، ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلاً يشبه الهمّ به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم، وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم. ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همّاً لشدته لما كان صاحبه مَمدوحاً عند الله بالامتناع، لأنَّ استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عِظم الابتلاء وشدته، ولو كان همّه كَهَمِّها عن عزيمة لما مدحه الله بأنَّه من عباده المخلصين..». انتهىٰ. وهو تعليل صحيح في جملته بغض النظر عن الإشارة الاعتزالية في قول الزمخشري: «ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم». فهو إشارة منه إلى مذهب المعتزلة في أنَّ البرهان عقلي. والبرهان الذي أخذه الله على المكلفين هو ما قرره في =

والفحشاء[1]، إنَّه من عبادنا المخلَصين﴾ [يوسف: ٢٤]..

= شريعته.. ولكن هذا خلاف مذهبي تاريخي لا شأن لنا به. فهو بجملته غريب على التصور الإسلامي!

(١) يقول ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله ـ:
«ليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من فاحشة الزنا، ولها خاصية في تبعيد القلب من الله، فإنَّها من أعظم الخبائث، فإذا انصبغ القلب بها بَعُدَ ممَّن هو طيب، لا يصعد إليه إلاَّ طيب، وكلما ازداد خُبثاً ازداد من الله بُعداً، ولهذا قال المسيح ـ عليه السَّلام ـ فيما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد «لا يكون البطالون من الحكماء، ولا يَلِج الزناة ملكوت السماء»..
ولمَّا كانت هذه حال الزنا كان قريباً للشرك في كتاب الله تعالىٰ. قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿الزَّاني لا ينكح إلاَّ زانية أو مُشركة، والزانية لا ينكحها إلاَّ زان أو مشرك وحُرِّم ذلك علىٰ المؤمنين﴾ [النور، آية: ٣]..
فالزنا تفسد القلب، وتُضعف توحيده جداً، ولهذا كان أحظىٰ الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاء، فكلَّما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة فيه أكثر، وكلَّما كان أعظم إخلاصاً كان منها أبعد، كما قال تعالىٰ عن يوسف الصدِّيق ـ عليه السَّلام ـ:
﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنَّه من عبادنا المخلصين﴾..
فإنَّ عشق الصور المحرَّمة نوع تعبُّد لها، بل هو أعلىٰ من أنواع التعبُّد، ولاسيَّما إذا استولىٰ على القلب، وتمكَّن منه صار تَـتَيُّماً، والتـتيُّم التعبد، فيصير العاشق عابداً لمعشوقه، وكثيراً ما يغلب حبه وذِكْره والشوق إليه، والسعي في مرضاته، وإيثار محابّه على حب الله وذكره، والسعي في مرضاته، بل كثيراً ما يذهب ذلك من قلب العـاشق بالكليـة، ويصير متعلقـاً بمعشوقه من الصور، كما هو مشاهد، فيصير المعشوق، إلـٰهه من دون الله عزَّ وجلَّ، يقدِّم رضاه وحبه على رضىٰ الله وحبه، ويتقرَّب إليه ما لا يتقرَّب إلى الله، ويُنفقُ في مرضاته ما لا يُنفقه في مرضاة الله، ويتجنَّب من سخطه ما لا يتجنَّب من سخط الله تعالىٰ، فيصير آثر عنده من ربه: حُبّاً، وخضوعاً، وذلاًّ، وسمعاً، وطاعة.
ولهذا كان العشق والشرك متلازمين، وإنَّما حكىٰ الله ـ سبحانه ـ العشق عن امرأة العزيز. وكانت إذ ذاك مشركة، فكلَّما قوي شرك العبد بُليَ بعشق الصور، وكلَّما قوي توحيده صُرف ذلك عنه. والزنا كمال لذتها إنَّما يكون مع العشق، ولا يخلو صاحبها منه، وإنَّما لِتنقُّله من محل إلى محل لا يبقىٰ عشقه مقصوراً على محل واحد بل ينقسم على سهام كثيرة، لكل نصيب من تألُّهه وتعبُّده».. [إغاثة اللهفان ١/ ٧٩ ـ ٨٠]..
يقول الله تعالىٰ ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه ﴿ولا تقربوا الزنىٰ إنَّه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ [الإسراء، آية: ٣٢].. =

﴿واستبقا الباب﴾. . فهو قد آثر التخلص بعد أن استفاق. . وهي عَدَت خلفه لتمسك به، وهي ما تزال في هياجها الحيواني. .

﴿وقدَّت قميصه من دُبُر﴾. . نتيجة جذبها له لتردّه عن الباب. .

وتقع المفاجأة: ﴿وألفيا سيدها لدىٰ الباب﴾ [يوسف: ٢٥]. .

وهنا تتبدىٰ المرأة المكتملة، فتجد الجواب حاضراً على السؤال الذي يهتف به المنظر المُريب. إنَّها تَتّهم الفتىٰ: ﴿قالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً؟﴾. .

ولكنها امرأة تعشق، فهي تخشىٰ عليه، فتشير بالعقاب المأمون. . ﴿إلَّا أن يُسجن أو عذاب أليم﴾ [يوسف: ٢٥]. .

ويجهر يوسف بالحقيقة في وجه الاتهام الباطل: ﴿قال: هي راودتني عن نفسي﴾! [يوسف: ٢٦]. .

وهنا يذكر السياق أنَّ أحد أهلها حسم بشهادته في هذا النزاع:

﴿وشهد شاهد من أهلها: إن كان قميصه قُدَّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُر فكذبت وهو من الصَّادقين﴾ [يوسف: ٢٦ ـ ٢٧]. . فأين ومتىٰ أدلىٰ هذا الشاهد بشهادته هذه؟ هل كان مع زوجها (سيدها بتعبير أهل مصر) وشهد الواقعة؟ أم إنَّ زوجها استدعاه وعرض عليه الأمر، كما يقع في مثل هذه الأحوال أن يستدعي الرجل كبيراً من أُسرة المرأة ويُطلعه على ما رأىٰ، وبخاصة تلك الطبقة الباردة الدّم المائعة القيم!

= ذكر ابن كثير في تفسيره ٣/٣٨ فيما رواه عن ابن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحلّ له». .

والقرآن يحذر من مجرد مقاربة الزنا. وهي مبالغة في التحرز. لأنَّ الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة، فالتحرز من المقاربة أضمن. فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان.

هذا وذلك جائز. وهو لا يغير من الأمر شيئاً. وقد سمي قوله هذا شهادة، لأنه لما سئل رأيه في الموقف والنزاع المعروض من الجانبين ـ ولكل منها ومن يوسف قول ـ سُميت فتواه هذه شهادة، لأنها تساعد على تحقيق النزاع والوصول إلى الحق فيه.. فإن كان قميصه قُدَّ من قُبل فذلك إذن من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها فهي صادقة وهو كاذب. وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُر فهو إذن من أثر تَمَلُّصه منها وتعقبها هي له حتى الباب، وهي كاذبة وهو صادق..

وقَدَّم الفرض الأول لأنَّه إن صحَّ يقتضي صدقها وكذبه، فهي السيدة وهذا فتىٰ، فمن باب اللياقة أن يُذكر الفَرَض الأول! والأمر لا يخرج عن أن يكون قرينة. ﴿فلمَّا رأىٰ قميصه قُدَّ من دُبُر﴾ [يوسف: ٢٨]..

تبيَّن له حسب الشهادة المبنية على منطق الواقع أنَّها هي التي راودت، وهي التي دبرت الاتهام.. وهنا تبدو صورة من «الطبقة الراقية» في الجاهلية قبل آلاف السنين وكأنَّها هي هي اليوم شاخصة. رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية؛ وميل إلى كتمانها عن المجتمع، وهذا هو المهم كله:

﴿قال: إنَّه من كيدكنَّ إنَّ كيدكنَّ عظيم. يوسف أعرض عن هـٰذا، واستغفري لذنبك إنَّك كنت من الخاطئين﴾ [يوسف: ٢٨، ٢٩]..

هكذا. إنَّه من كيدكنَّ إنَّ كيدكنَّ عظيم.. فهي اللباقة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق. والتلطف في مجابهة السيدة بنسبة الأمر إلى الجنس كله، فيما يشبه الثناء. فإنَّه لا يسوء المرأة أن يقال لها: إنَّ كيدكنَّ عظيم! فهو دلالة في حسِّها على أنَّها أُنثىٰ كاملة مستوفية لمقدرة الأُنثىٰ على الكيد العظيم!

والتفاتة إلى يوسف البريء: ﴿يوسف أعرض عن هـٰذا﴾.. فأهمله ولا تُعِرْه اهتماماً ولا تتحدث به.. وهذا هو المهم.. محافظة على الظواهر!

وَعِظَة إلى المرأة التي راودت فتاها عن نفسه، وضُبطت مُتَلَبسة بمساورته وتمزيق قميصه: **﴿واستغفري لذنبك. إنَّك كنت من الخاطئين﴾**.

إنَّها الطبقة الأرستقراطية، من رجال الحاشية، في كل جاهلية. قريب من قريب.

ويسدل الستار على المشهد وما فيه.. وقد صور السياق تلك اللحظة بكل ملابساتها وانفعالاتها ولكن دون أن ينشىء منها معرضاً للنزوة الحيوانية الجاهرة، ولا مستنقعاً للوحل الجنسي المقبوح!

* * *

حديث النساء:

ولم يحل السيد بين المرأة وفتاها. ومضت الأمور في طريقها. فهكذا تمضي الأمور في القصور!

ولكن للقصور جدراناً، وفيها خدم وحشم. وما يجري في القصور لا يمكن أن يظل مستوراً. وبخاصة في الوسط الأرستقراطي، الذي ليس لنسائه من همّ إلاَّ الحديث عمَّا يجري في محيطهنَّ.. وإلاَّ تَداوُل هذه الفضائح ولوكها على الألسن في المجالس والسهرات والزيارات.

ويلغط نساء المدينة بالقصة ـ كعادة النساء في كل زمان ومكان ـ وإنَّها لقصة تجد لديهنَّ اهتماماً ورواجاً:

﴿وقال نسوة في المدينة: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنَّا لنراها في ضلال مبين﴾ [يوسف: ٣٠]..

وهو كلام أشبه بما تقوله النسوة في كل بيئة جاهلية عن مثل هذه الشؤون. ولأوَّل مرة يُعرف أنَّ المرأة هي امرأة العزيز، وأنَّ الرجل الذي اشتراه من مصر هو عزيز مصر ـ أي كبير وزرائها ـ ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر في المدينة: **﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن**

نفسه﴾.. ثمَّ بيان لحالها معه: ﴿قد شغفها حباً﴾.. فهي مفتونة به، بلغ حبه شغاف قلبها ومزقه، وشغاف القلب غشاؤه الرقيق.. ﴿إنَّا لنراها في ضلال مبين﴾.. وهي السيدة الكبيرة زوجة الكبير، تفتتن بفتاها العبراني المُشترَىٰ. أم لعلَّهنَّ يتحدَّثن عن اشتهارها بهذه الفتنة وانكشافها وظهور أمرها، وهو وحده المُنْتَقَد في عرف هذه الأوساط لا الفِعلة في ذاتها لو ظلت وراء الأستار؟!

* * *

إغراء وتهديد:

وهنا كذلك يقع ما لا يمكن وقوعه إلاَّ في مثل هذه الأوساط. ويكشف السياق عن مشهد من صُنع تلك المرأة الجريئة، التي تعرف كيف تواجه نساء طبقتها بمكر كَمَكْرهنَّ وكيد من كيدهنَّ:

﴿فلمَّا سمعت بمكرهنَّ أرسلت إليهنَّ، وأعتدت لهنَّ مُتَّكأً، وآتت كل واحدة منهنَّ سكيناً، وقالت: اخرج عليهنَّ. فلمَّا رأينه أكبرنه وقطَّعن أيديهنَّ..﴾ [يوسف: ٣١]..

لقد أقامت لهنَّ مأدبة في قصرها. وندرك من هذا أنَّهنَّ كنَّ من نساء الطبقة الراقية. فهنَّ اللواتي يُدعَين إلى المآدب في القصور. وهنَّ اللواتي يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر. ويبدو أنَّهنَّ كنَّ يأكلن وهنَّ مُتَّكئات علي الوسائد والحشايا على عادة الشرق في ذلك الزمان. فأعدَّت لهنَّ هذا المُتَّكأ. وآتت كل واحدة منهنَّ سِكيناً تستعملها في الطعام - ويؤخذ من هذا أنَّ الحضارة المادية في مصر كانت قد بلغت شأواً بعيداً، وأنَّ الترف في القصور كان عظيماً. فإنَّ استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية.. وبينما هنَّ مُنشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة، فاجَأتهنَّ بيوسف: **﴿فلمَّا رأينه أكبرنه﴾**.. بُهِتْنَ لِطَلْعته، ودُهشن. **﴿وقطَّعن أيديهنَّ﴾**.. وجَرَحْن أيديهنَّ بالسكاكين

للدهشة المفاجئة.. ﴿وقلن حاشىٰ لله!﴾..

وهي كلمة تنزيه تقال في هذا الموضع تعبيراً عن الدهشة بصنع الله.. ﴿ما هـٰذا بشراً إن هـٰذا إلاَّ ملك كريم﴾[1]..

وهذه التعبيرات دليل ـ كما قلنا في تقديم السورة ـ على تَسَرُّب شيء من ديانات التوحيد في ذلك الزمان.

ورأت المرأة أنَّها انتصرت على نساء طبقتها، وأنَّهنَّ لقين من طلعة يوسف الدهش والإعجاب والذهول. فقالت قولة المرأة المنتصرة، التي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها، والتي تفخر عليهنَّ بأن هذا في متناول يدها، وإن كان قد استعصىٰ قياده مرة فهي تملك هذا القياد مرة أخرىٰ: ﴿قالت: فذلكنَّ الذي لُمتنَّني فيه﴾.. فَأَرَتْهن جماله الظاهر.

فانظرن ماذا لقيتنَّ منه من البهر والدهش والإعجاب! ثمَّ قالت: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ [يوسف: ٣٢]..

فأخبرت عن جماله الباطن بِعفّته، فأخبرتهن بجمال باطنه، وأَرَتْهن جمال ظاهره[2].

إنَّهنَّ لنساء، وإنَّها لامرأة، وإنَّها لتعرف كيف تُفحم النساء!

---

(١) في ليلة المعراج حيث أخذ الرسول ﷺ ومعه جبريل في التنقل من سماء إلى سماء قال: «... ثمَّ عُرج بي إلى السماء الثَّالثة فاستفتح جبريل... فَفُتِحَ لنا فإذا أنا بيوسف ﷺ إذا هو قد أُعْطِي شطر الحُسْنِ فرحَّب، ودعا لي بخير...» رواه مسلم عن أنس بن مالك.
وقد أتعب الرواة والمفسرون أنفسهم في وصف حُسن يوسف الذي بَهَرَ النسوة وبَهر امرأة العزيز. وتصوّر بعضهم أوصافاً أقرب ما تكون إلى أوصاف النساء. وما بمثل هذه الأوصاف تُبهر النساء! وإنَّ للرجولة لجمالها الخاص في اكتمال الملامح الرجولية. وإن كان هناك احتمال آخر وهو أنَّ نساء تلك الطبقة كثيراً ما تنحرف فطرتهنَّ فتعجبهنَّ في الرجل ملامح وتقاطيع ممَّا يُحسب جميلاً في النساء. ويغفلن عن غيرها ممَّا يوجد في الرجل من سمات الرجال!

(٢) انظر إغاثة اللهفان لابن القيِّم ١/ ص ٧٣.

ولقد بهرني مثلكنَّ فراودته عن نفسه فطلب الاعتصام ـ تريد أن تقول: إنَّه عانىٰ في الاعتصام والتحرز من دعوتها وفتنتها! ـ ثمَّ تُظهر سيطرتها عليه أمامهنَّ في تَبجُّح المرأة من ذلك الوسط، لا ترىٰ بأساً من الجهر بنزواتها الأنثوية جاهرة مكشوفة في معرض النساء: ﴿ولئن لم يفعل ما آمره ليُسجَنَنَّ وليكوناً من الصاغرين﴾! [يوسف: ٣٢]. . فهو الإصرار والتبجُّح والتهديد والإغراء الجديد في ظل التهديد.

ويسمع يوسف هذا القول في مجتمع النساء المبهورات، المُبديات لمفاتنهنَّ في مثل هذه المناسبات. ونفهم من السياق أنَّهنَّ كنَّ نساء مفتونات فاتنات في مواجهته وفي التعليق على هذا القول من ربة الدار؛ فإذا هو يناجي ربه:

﴿قال: ربِّ السجن أحبُّ إليَّ ممَّا يدعونني إليه﴾ [يوسف: ٣٣]. . ولم يقل: ما تدعوني إليه. فهنَّ جميعاً كنَّ مشتركات في الدعوة. سواء بالقول أم بالحركات واللفتات. . وإذا هو يستنجد ربّه أن يصرف عنه محاولاتهنَّ لإيقاعه في حبائلهنَّ، خيفة أن يضعف في لحظة أمام الإغراء الدائم، فيقع فيما يخشاه على نفسه. ويدعو الله أن ينقذه منه:

﴿وإلَّا تصرف عنِّي كيدهنَّ أصبُ إليهنَّ وأكن من الجاهلين﴾ [يوسف: ٣٣]. .

وهي دعوة الإنسان العارف ببشريته الذي لا يغترّ بعصمته؛ فيريد مزيداً من عناية الله وحياطته، يعاونه على ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء.

﴿فاستجاب له ربه فَصَرف عنه كيدهنَّ، إنَّه هو السميع العليم﴾ [يوسف: ٣٤]. .

وهذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس في نفوسهنَّ من استجابته لهنَّ، بعد هذه التجربة؛ أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتى لا يحسّ في نفسه أثراً منه. أو بهما جميعاً. ﴿إنَّه هو السميع العليم﴾ الذي يسمع ويعلم، يسمع

الكيد ويسمع الدعاء، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء.

وهكذا اجتاز يوسف محنته الثَّانية، بلطف الله ورعايته. **وانتهت بهذه النجاة الحلقة الثَّانية** من قصته المثيرة.

* * *

الحلقة الثالثة: المحنة الثالثة:

يوسف في السجن. دعوة وموعظة وتوحيد :

ثمَّ ها هي **الحلقة الثالثة والمحنة الثالثة** من مِحن الشدة في حياة يوسف؛ فكل مابعدها رخاء، وابتلاء لصبره على الرخاء، بعد ابتلاء صبره على الشدة. والمحنة في هذه الحلقة هي محنة السجن بعد ظهور البراءة. والسجن للبريء المظلوم أقسىٰ، وإن كان في طمأنينة القلب بالبراءة تعزية وسلوىٰ. وفي فترة المحنة هذه تـتجلىٰ نعمة الله على يوسف، بما وَهَبه من علم لَـدنّي بتعبير الـرؤيا وبعض الغيب القـريب الذي تبـدو أوائله فيعرف تأويله. ثمَّ تـتجلّىٰ نعمة الله عليه أخيراً بإعلان براءته الكاملة إعلاناً رسمياً بحضرة الملك، وظهور مواهبه التي تُؤهله لما هو مكنون له في عالم الغيب من مكانة مرموقة وثقة مطلقة وسلطان عظيم.

﴿ثمَّ بدا لهم من بعد ما رأَوُا الآيات ليَسجُنُنَّه حتّىٰ حين﴾ [يوسف: ٣٥]. . فلن يسكت اللغط وفي المدينة نسوة. .

وهكـذا جـوّ القصـور، وجـوّ الحكم المـطلق، وجـوّ الأوسـاط الأرستقراطية، وجوّ الجاهلية! فبعد أن رأوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف. وبعد أن بلغ التَبجُّح بامرأة العزيز أن تقيم للنسوة حفل استقبال تعرض عليهنَّ فتاها الذي شغفها حبا، ثمَّ تعلن لهنَّ أنَّها به مفتونة حقاً، ويفتـتنَّ هنَّ به ويُغرينه بما يلجأ إلى ربـه ليغيثه منهنَّ وينقـذه، والمرأة تعلن في مجتمـع النساء ـ دون حياء ـ أنَّـه إمَّا أن يفعـل ما يُؤمـر به، وإمَّـا أن يلقىٰ السجن

والصَغار، فيختار السجن على ما يُؤمر بـه!. وبعد هـذا كله، بدا لهم أن يَسجنوه إلى حين!

ولعلَّ المرأة كانت قد يئست من محاولاتها بعد التهديد؛ ولعلَّ الأمر كذلك قد زاد انتشاراً في طبقات الشعب الأُخرىٰ.. وهنا لا بد أن تحفظ سمعة «البيوتات»! وإذا عجز رجال البيوتات عن صيانة بيوتهنَّ ونسائهنَّ، فإنَّهم ليسوا بعاجزين عن سجن فتىٰ بريء كل جريمته أنَّه لم يَستجب، وأنَّ امرأة من «الوسط الراقي!» قد فُتنت بـه، وشهرت بحبـه، ولاكت الألسن حديثها في الأوساط الشعبية!

﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ [يوسف: ٣٦].. سنعرف من بعد أنَّهما من خَدَم الملك الخواص..

ويختصر السياق ما كان من أمـر يوسف في السجن، ومـا ظهر من صلاحه وإحسانه، فَوَجَّه إليه الأنظار، وجعله موضع ثقة المساجين، وفيهم الكثيرون ممَّن ساقهم سوء الطالع مثله للعمل في القصر أو الحاشية، فغضب عليهم في نزوة عارضة، فأُلقي بهم في السجن.. يختصر السياق هذا كله ليعرض مشهد يوسف في السجن وإلى جواره فَتَيان أَنِسا إليه، فهما يَقُصّان عليه رُؤيا رَأَيَاها. ويطلبان إليه تعبيرها، لما يتوسمانه فيه من الطيبة والصلاح وإحسان العبادة والذكر والسلوك:

﴿قال أحدهما: إنِّي أراني أعصر خمـراً؛ وقال الآخـر: إنِّي أراني أحمـل فوق رأسي خُبـزاً تأكـل الطيـر منه. نبِّئنـا بتـأويله، إنَّـا نـراك من المُحسنين﴾ [يوسف: ٣٦]..

وينتهز يوسف هذه الفرصـة ليبث بين السجناء عقيـدته الصحيحـة؛ فَكَوْنه سجيناً لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفـاسدة والأوضـاع الفاسـدة، القائمة على إعطاء حق الربوبية للحكام الأرضيـين، وجعلهم بالخضوع لهم أرباباً يزاولون خصائص الربوبية، ويُصبحون فراعين!

ويبدأ يوسف مع صاحبي السجن من موضوعهما الذي يشغل بالهما، فَيُطَمْئِنُهُما ابتداء إلى أنّه سيؤول لهم الرؤىٰ، لأنَّ ربه علمه علماً لَدُنياً خاصاً، جزاءً على تجرده لعبادته وحده، وتخلصه من عبادة الشركاء. هو وآباؤه من قبله. . وبذلك يكسب ثقتهما منذ اللحظة الأولىٰ على تأويل رؤياهما، كما يكسب ثقتهما كذلك لدينه:

﴿قال: لا يأتيكما طعام ترزقانه إلاَّ نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ذلكما ممَّا علمني ربي. إنِّي تركت مِلّة قوم لا يؤمنون بالله، وهم بالآخرة هم كافرون. واتَّبعت ملَّة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء. ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون﴾ [يوسف: ٣٧، ٣٨]. .

ويبدو في طريقة تناول يوسف للحديث لطف مدخله إلى النفوس، وكياسته وتنقّله في الحديث في رفق لطيف. . وهي سمة هذه الشخصية البارزة في القصة بطولها. . فهو بهذا التوكيد الموحي بالثقة بأنَّ الرجل على علم لدني، يرىٰ به مقبل الرزق وينبِّيء بما يرىٰ. . وهذا ـ فوق دلالته على هبة الله لعبده الصالح يوسف ـ وهي كذلك بطبيعة الفترة وشيوع النبوءات فيها والرؤىٰ ـ وقوله: **﴿ذلكما ممَّا علَّمني ربِّي﴾** تجيء في اللحظة المناسبة من الناحية النفسية ليدخل بها إلى قلبيهما بدعوته إلى ربِّه؛ وليعلل بها هذا العلم اللَّدني الذي سيؤول لهما رؤياهما عن طريقه. **﴿إنِّي تركت ملَّة قوم لا يؤمنون بالله، وهم بالآخرة هم كافرون﴾**. .

مشيراً بهذا إلى القوم الذين رُبِّي فيهم، وهم بيت العزيز وحاشية الملك والملأ من القوم والشعب الذي يتبعهم. والفَتَيان على دين القوم، ولكنه لا يُواجههما بشخصيتهما، إنَّما يواجه القوم عامة كي لا يُحرجهما ولا يُنفرهما ـ وهي كياسة وحكمة ولطافة حسّ وحسن مدخل.

وذكر الآخرة هنا في قول يوسف يقرر ـ كما قلنا من قبل ـ أنَّ الإيمان

بالآخرة كان عنصراً من عناصر العقيدة على لسان الرسل جميعاً، منذ فجر البشرية الأول، ولم يكن الأمر كما يزعم علماء الأديان المقارنة أن تصور الآخرة جاء إلى العقيدة ـ بجملتها ـ متأخراً.. لقد جاء إلى العقائد الوثنية الجاهلية متأخراً فعلاً، ولكنه كان عنصراً أصيلاً في الرسالات السماوية الصحيحة..

ثمَّ يمضي يوسف بعد بيان معالم مِلّة الكفر ليبيِّن معالم مِلّة الإيمان التي يتبعها هو وآباؤه:

﴿واتَّبعت ملة آبائي: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء﴾ فهي ملة التوحيد الخالص الذي لا يشرك بالله شيئاً قط.. والهداية إلى التوحيد فضل من الله على المهتدين، وهو فضل في متناول الناس جميعاً لو اتجهوا إليه وأرادوه. ففي فطرتهم أصوله وهواتفه، وفي الوجود من حولهم موحياته ودلائله، وفي رسالات الرسل بيانه وتقريره ولكنَّ الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرونه:

﴿ذلك من فضل الله علينا وعلى النَّاس، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يشكرون﴾..

مدخل لطيف.. وخطوة خطوة في حَذَر ولين.. ثمَّ يتوغل في قلبيهما أكثر وأكثر، ويفصح عن عقيدته ودعوته إفصاحاً كاملاً، ويكشف عن فساد اعتقادهما واعتقاد قومهما، وفساد ذلك الواقع النَكِد الذي يعيشون فيه بعد ذلك التمهيد الطويل:

﴿يَا صاحبي السجن، أأرباب مُتفرقون خير؟ أم الله الواحد القهار؟ ما تعبدون من دونه إلاَّ أسماء سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن الحُكم إلاَّ لله. أَمَر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه. ذلك الدّين القيِّم. ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٣٩ ـ ٤٠]..

لقد رسم يوسف ـ عليه السَّلام ـ بهذه الكلمات القليلة الناصعة

الحاسمة المنيرة، كل معالم هذا الدين، وكل مقومات هذه العقيدة. كما هزَّ بها كل قوائم الشرك والطاغوت هزاً شديداً عنيفاً. .

﴿يَا صاحبي السجن﴾. . إنَّه يتَّخذ منهما صاحبين، ويتحبب إليهما هذه الصفة المُؤنسة، ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة وجسم العقيدة. وهو لا يدعوهما إليها دعوة مباشرة، إنَّما يعرضها قضية موضوعية:

﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهَّار؟﴾. .

وهو سؤال يهجم على الفطرة في أعماقها ويهزها هزاً شديداً. . إنَّ الفطرة تعرف لها إلـهاً واحداً ففيم إذن تعدد الأرباب؟. .

إنَّ الذي يستحق أن يكون رباً يُعبد ويُطاع أمره ويُتَّبع شرعه هو الله الواحد القهار. ومتىٰ تَوحَّد الإلـه وتقرر سلطانه القاهر في الوجود فيجب تبعاً لذلك أن يَتَوحَّد الربّ وسلطانه القاهر في حياة الناس.

وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أنَّ الله واحد، وأنَّه هو القاهر، ثمَّ يدينوا لغيره ويخضعوا لأمره، ويتخذوا بذلك من دون الله رباً. . إنَّ الربّ لا بد أن يكون إلـهاً يملك أَمْر هـذا الكون ويُسيِّره. ولا ينبغي أن يكون العاجز عن تسيير أمر هذا الكون كله ربّاً للناس يُقهرهم بحكمه، وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره!

والله الواحد القهار خير أن يَدين العباد لربوبيته من أن يَدينوا للأرباب المُتفرقة الأهواء الجاهلة القاصرة العمياء عن رؤية ما وراء المنظور القريب ـ كالشأن في كـل الأرباب إلاَّ الله ـ ومـا شقيت البشريـة قط شقاءهـا بتعدّد الأرباب وتفرقهم، وتـوزع العباد بين أهـوائهم وتنازعهم. . فهـذه الأرباب الأرضيـة التي تغتصب سلطان الله وربوبيتـه؛ أو يعطيهـا الجاهليـون هـذا السلطان تحت تأثير الوَهْم والخرافـة والأُسطورة، أو تحت تـأثير القهـر أو الخداع أو الدعاية! هذه الأرباب الأرضية لا تملك لحظة أن تَـتَخلَّص من

أهوائها، ومن حرصها على ذواتها وبقائها، ومن الرغبة المُلحّة في استبقاء سلطانها وتقويته، وفي تدمير كل القوىٰ والطاقات في تمجيدها والطّبل حولها والزّمر والنّفخ فيها كي لا تَذبل ولا تَنفثىء نفختها الخادعة! والله الواحد القهار في غنىٰ عن العالمين؛ فهو سبحانه لا يريد منهم إلاّ التقوىٰ والصلاح والعمل والعمارة ـ وفق منهجه ـ فيعدّ لهم هذا كله عبادة.. وحتىٰ الشعائر التي يفرضها عليهم إنّما يريد بها إصلاح قلوبهم ومشاعرهم، لإصلاح حياتهم وواقعهم.. وإلاّ فما أغناه ـ سبحانه ـ عن عباده أجمعين! ﴿**يَا أيُّها النـاس أنتم الفقـراء إلىٰ الله، والله هـو الغنيُّ الحميـد**﴾.. فَفَـرْق بين الدينونة لله الواحد القهار والدينونة للأرباب المتفرقة بعيد!

ثمّ يخطو يوسف ـ عليه السّلام ـ خطوة أُخرىٰ في تفنيد عقائد الجاهلية وأوهامها الواهية:

﴿**ما تعبدون من دونه إلاّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان**﴾..

إنّ هذه الأرباب ـ سواء كانت من البشر أم من غير البشر من الأرواح والشياطين والملائكة والقوىٰ الكونية المسخرة بأمر الله ـ ليست من الربوبية في شيء، وليس لها من حقيقة الربوبية شيء. فالـربوبيـة لا تكون إلاّ لله الواحد القهار؛ الذي يَخلق ويَقهر كل العباد..

ولكنّ البشر في الجاهليات المتعددة الأشكال والأوضاع يسمون من عند أنفسهم أسماء، ويخلعون عليها صفات، ويعطونها خصائص؛ وفي أول هذه الخصائص خاصية الحكم والسلطان.. والله لم يجعل لها سلطاناً ولم ينزل بها من سلطان..

وهنا يضرب يوسف ـ عليه السّلام ـ ضربته الأخيرة الحاسمة فيبين: لمن ينبغي أن يكون السلطان! لمن ينبغي أن يكون له الحكم! لمن ينبغي أن تكون له الطاعة.. أو بمعنىٰ آخر لمن ينبغي أن تكون « العبادة »!

﴿إن الحكم إلاَّ لله. . أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاه. ذلك الدين القيِّم. ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون﴾. .

إن الحكم لا يكون إلاَّ لله. فهو مقصور عليه ـ سبحانه ـ بحكم ألوهيته. إذ الحاكمية من خصائص الألوهية. من ادَّعىٰ الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أُولىٰ خصائص ألوهيته؛ سواء ادّعىٰ هذا الحق فرد، أو طبقة، أو حزب، أو هيئة، أو أُمة، أو الناس جميعاً في صورة منظمة عالمية. ومن نازع الله سبحانه أُولىٰ خصائص ألوهيته فقد كَفَر بالله كفراً بواحاً، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة، حتى بحكم هذا النص وحده! وادّعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدّعي من دائرة الدين القيِّم، وتجعله منازعاً لله في أولىٰ خصائص ألوهيته ـ سبحانه ـ فليس من الضروري أن يقول: ما علمت لكم من إلـه غيري؛ أو يقول: أنا ربُّكم الأعلىٰ، كما قالها فرعون جهرة. ولكنه يدَّعي هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن يُنَحِّي شريعة الله عن الحاكمية؛ ويستمد القوانين من مصدر آخر. وبمجرد أن يقرر أنَّ الجهة التي تملك الحاكمية، أي التي تكون هي مصدر السلطات، جهة أُخرىٰ غير الله ـ سبحانه ـ. ولو كان هو مجموع الأُمة أو مجموع البشرية.

والأُمَّة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله؛ ولكنَّها ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطي القانون شرعيته. إنَّما مصدر الحاكمية هو الله. وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يخلطون بين مزاولة السلطة وبين مصدر السلطة، فالناس بجملتهم لا يملكون حق الحاكمية إنَّما يملكه الله وحده. والناس إنَّما يزاولون تطبيق ما شرَّعه الله بسلطانه، أمَّا ما لم يشرِّعه الله فلا سلطان له ولا شرعية، وما أنزل الله به من سلطان. .

ويوسف ـ عليه السَّلام ـ يعلِّل القول بأنَّ الحكم لله وحده. فيقول:

﴿أمر ألَّا تعبدوا إلَّا إيَّاه﴾ . .

ولا نفهم هذا التعليل كما كان يفهمه الرجل العربي إلَّا حين ندرك معنىٰ « العبادة » التي يخصّ بها الله وحده . .

إنَّ معنىٰ عَبَدَ في اللغة : دان ، وخضع ، وذلّ . . ولم يكن معناه في الاصطلاح الإسلامي في أول الأمر أداء الشعائر . . إنَّما كان هو معناه اللغوي نفسه . . فعندما نزل هذا النص أول مرة لم يكن شيء من الشعائر قد فُرض حتى ينطلق اللفظ إليه . إنَّما كان المقصود هو معناه اللغوي الذي صار هو معناه الاصطلاحي . كان المقصود به هو الدينونة لله وحده ، والخضوع له وحده . واتِّباع أمره وحده . سواء تعلّق هذا الأمر بشعيرة تعبدية ، أو تعلق بتوجيه أخلاقي ، أو تعلق بشريعة قانونية . فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خصَّ الله ـ سبحانه ـ بها نفسه ؛ ولم يجعلها لأحد من خلقه . .

وحين نفهم معنىٰ العبادة على هذا النحو نفهم لماذا جعل يوسف ـ عليه السَّلام ـ اختصاص الله بالعبادة تعليلاً لاختصاصه بالحكم . فالعبادة ـ أي الدينونة ـ لا تقوم ! إذا كان الحكم لغيره . . وسواء في هذا حكمه القَدَري القهري في حياة الناس وفي نظام الوجود ، وحكمه الشرعي الإرادي في حياة الناس خاصة . فكله حكم تتحقق به الدينونة .

ومرة أُخرىٰ نجد أنَّ منازعة الله الحكم تُخرج المنازِع من دين الله ـ حكماً معلوماً من الدين بالضرورة ـ لأنَّها تُخرجه من عبادة الله وحده . . وهذا هو الشرك الذي يُخرج أصحابه من دين الله قطعاً . وكذلك الذين يقرُّون المُنازع على ادّعائه ، ويدينون له بالطاعة وقلوبهم غير منكرة لاغتصابه سلطان الله وخصائصه . . فكلهم سواء في ميزان الله .

ويقرر يوسف ـ عليه السَّلام ـ أنَّ اختصاص الله ـ سبحانه ـ بالحكم ـ تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة ـ هو وحده الدين القيِّم : ﴿ذلك الدين القيِّم﴾ . .

وهو تعبير يفيد القَصْر. فلا دين قَيِّماً سوىٰ هذا الدين، الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم، تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة.. ﴿**ولـٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون**﴾.. وكونهم «لا يعلمون» لا يجعلهم على دين الله القيِّم. فالذي لا يعلم شيئاً لا يملك الاعتقاد فيه ولا تحقيقه.. فإذا وجد ناس لا يعلمون حقيقة الدين، لم يعد من الممكن عقلاً وواقعاً وصفهم بأنّهم على هذا الدين! ولم يقم جهلهم عذراً لهم يُسبغ عليهم صفة الإسلام. ذلك أنَّ الجهل مانع للصفة ابتداء. فاعتقاد شيء فرع من العلم به.. وهذا منطق العقل والواقع.. بل منطق البداهة الواضح..

لقد رسم يوسف ـ عليه السَّلام ـ بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة كل معالم هذا الدين، وكل مقومات هذه العقيدة؛ كما هزَّ بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزاً شديداً..

إنَّ الطاغوت لا يقوم في الأرض إلاَّ مُدَّعياً أخصّ خصائص الألوهية، وهي الربوبية. أي حق تعبيد الناس لأمره وشرعه، ودينونتهم لِفكره وقانونه. وهو إذ يزاول هذا في عالم الواقع يَدّعيه ـ ولو لم يقله بلسانه ـ فالعمل دليل أقوىٰ من القول.

وإنَّ الطاغوت لا يقوم إلاَّ في غيبة الدين القيِّم والعقيدة الخالصة عن قلوب الناس. فما يمكن أن يقوم وقد استقرَّ في اعتقاد الناس فعلاً أنَّ الحكم لله وحده، لأنَّ العبادة لا تكون إلاَّ لله وحده، والخضوع للحكم عبادة. بل هي أصلاً مدلول العبادة.

وإلى هنا يبلغ يوسف أقصىٰ الغاية من الدرس الذي ألقاه، مرتبطاً في مطلعه بالأمر الذي يشغل بال صاحبيه في السجن. ومن ثمَّ فهو يُؤَوِّل لهما الرؤية في نهاية الدرس، ليزدهما ثقة في قوله كله وتعلقاً به:

﴿**يَا صاحبي السجن، أمَّا أحدكما فيسقي ربه خمراً، وأمَّا الآخر فَيُصْلَب فتأكل الطير من رأسه**﴾ [يوسف: ٤١].. ولم يعين مَن هو صاحب

البشرىٰ ومن هو صاحب المصير السيء تلطفاً وتحرجاً من المواجهة بالشر والسوء. ولكنه أكّد لهما الأمر واثقاً من العلم الذي وهبه الله له:

﴿قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ [يوسف: ٤١].. وانتهىٰ فهو كائن كما قضاه الله.

وأحب يوسف السجين البريء، الذي أَمَر الملك بسجنه دون تحرٍّ ودون بحث، إلاّ ما نقله إليه بعض حاشيته من وشاية لعلّهم صَوَّروا له فيها حادث امرأة العزيز وحادث النسوة تصويراً مقلوباً، كما يقع عادة في مثل هذه الأوساط.. أحبَّ يوسف أن يبلغ أمره إلى الملك ليفحص عن الأمر:

﴿وقال للّذي ظنَّ أنَّه ناجٍ منهما: اذكرني عند ربك﴾ [يوسف: ٤٢]..

اذكر حالي ووضعي وحقيقتي عند سيدك وحاكمك الذي تدين بشرعه وتخضع لحكمه، فهو بهذا ربّك.

فالرب هو السيد والحاكم والقاهر والمُشَرِّع.. وفي هذا توكيد لمعنىٰ الربوبية في المصطلح الإسلامي. وممَّا يلاحظ أنَّ ملوك الرعاة لم يكونوا يدّعون الربوبية قولاً كالفراعنة، ولم يكونوا ينتسبون إلى الإله أو الآلهة كالفراعنة. ولم يكن لهم من مظاهر الربوبية إلاّ الحاكمية وهي نص في معنىٰ الربوبية..

وهنا يُسقط السياق أنَّ التأويل قد تحقق، وأنَّ الأمر قد قُضي على ما أَوَّله يوسف. ويترك هنا فجوة، نعرف منها أنَّ هذا كله قد كان. ولكن الذي ظنَّ يوسف أنَّه ناج فنجا فعلاً لم يُنفذ الوصية، ذلك أنَّه نسي الدرس الذي لقنه له يوسف، ونسي ذِكْر ربه في زحمة حياة القصر ومُلهياتها وقد عاد إليها، فنسي يوسف وأَمْره كله.. ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾.. ﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾ [يوسف: ٤٢].. والضمير الأخير في لبث عائد على يوسف. وقد شاء ربه أن يعلمه كيف يقطع الأسباب كلها ويستمسك بسببه

وحده، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عَبد ولا سبب يرتبط بعبد. وكان هذا من اصطفائه وإكرامه.

إنَّ عباد الله المُخْلَصين ينبغي أن يخلصوا له ـ سبحانه ـ، وأن يدعوا له وحده قيادهم، ويدعوا له ـ سبحانه ـ تنقيل خطاهم. وحين يعجزون بضعفهم البشري في أول الأمر عن اختيار هذا السلوك، يتفضل الله ـ سبحانه ـ فيقهرهم عليه حتى يعرفوه ويتذوقوه ويلتزموه بعد ذلك طاعة ورضىً وحباً وشوقاً.. فيتمّ عليهم فضله بهذا كله.

* * *

رؤيا الملك:

والآن نحن في مجلس الملك، وقد رأىٰ رُؤيا أَهَمَّته، فهو يطلب تأويلها من رجال الحاشية ومن الكهنة والمتصلين بالغيبيات:

﴿وقال الملك: إنِّي أرىٰ سبع بقرات سمان يأكلهنَّ سبع عجاف[1]، وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات. يَا أيُّها الملأ أفتوني في رؤياي، إن كنتم للرؤيا تعبرون[2]. قالوا: أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ [يوسف: ٤٣ ـ ٤٤]..

طلب الملك تأويل رؤياه. فعجز الملأ من حاشيته ومن الكهنة عن تأويلها، أو أَحسُّوا أنَّها تشير إلى سوء لم يريدوا أن يُواجهوا به الملك على طريقة رجال الحاشية في إظهار كل ما يُسرّ الحكام وإخفاء ما يُزعجهم. وصرف الحديث عنه! فقالوا: إنَّها «أضغاث أحلام» أي أخلاط أحلام مضطربة وليست رؤيا كاملة تحتمل التأويل **﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾**.. إذا كانت أضغاثاً مختلطة لا تشير إلى شيء!

---

(١) من العجف وهو ظهور العظام من الهزال.

(٢) تعبرون: أي تصلون إلى نهايتها وتذكرون مآلها.

والآن لقد مرّت بنا رؤىٰ ثلاث: رؤية يوسف، ورؤيا صاحبي السجن، ورؤيا الملك. وطلب تأويلها في كل مرة، والاهتمام بها يعطينا صورة من جو العصر كله في مصر وخارج مصر ـ كما أسلفنا ـ وأنّ الهبة اللّدنية التي وُهِبَها يوسف كانت من روح العصر وَجَوّه، على ما نعهد في معجزات الأنبياء، فهل كانت هذه هي معجزة يوسف؟ ولكن هذا بحث ليس مكانه هذا الكتاب. فنكمل حديث رؤيا الملك الآن!

هنا تذكّر أحد صاحبيه في السجن، الذي نجا منهما وأنساه الشيطان ذِكْر ربه، وذكر يوسف في دوامة القصر والحاشية والعصر والخمر والشراب.
هنا تذكر الرجل الذي أوَّلَ له رؤياه ورؤيا صاحبه، فتحقق التأويل:

﴿وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أُمَّة[1]: أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون﴾! [يوسف: ٤٥]..

* * *

فتوىٰ وتأويل الرؤيا :

أنا أُنبئكم بتأويله فأرسلون.. ويسدل الستار هنا، ليرفع في السجن على يوسف وصاحبه هذا يستفتيه:

﴿يوسف ـ أيُّها الصدِّيق ـ أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهنَّ سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر، وأُخَرَ يابسات، لعلّي أرجع إلىٰ النَّاس لعلَّهم يعلمون﴾ [يوسف: ٤٦]..

والساقي يُلَقّب يوسف بالصدِّيق، أي الصادق الكثير الصدق. وهذا ما جَرَّبه في شأنه من قبل..

---

(١) بعد أُمة من السنين أو الأوقات: أي مجموعة. والمقصود عدد من السنين هي بضع سنين ما بين ثلاث وتسع.

ونقل ألفاظ الملك التي قالها كاملة، لأنَّه يطلب تأويلها، فكان دقيقاً في نقلها، وأثبتها السياق مرة أُخرىٰ لِيُبَيِّن هذه الدقة أولاً، وليجيء تأويلها ملاصقاً في السياق لذكرها.

ولكن كلام يوسف هنا ليس هو التأويل المباشر المُجرَّد، إنَّما هو التأويل والنُصح بمواجهة عواقبه. وهذا أكمل:

﴿قال: تزرعون سبع سنين دأباً﴾.. أي.. متوالية متتابعة. وهي السنوات السبع المخصبة المرموز لها بالبقرات السمان.

﴿فما حصدتم فذروه في سنبله﴾.. أي فاتركوه في سنابله لأنَّ هذا يحفظه من السوس والمؤثرات الجوية.

﴿إلاَّ قليلاً ممَّا تأكلون﴾ [يوسف: ٤٧].. فجردوه من سنابله، واحتفظوا بالبقية للسنوات الأُخرىٰ المجدبة المرموز لها بالبقرات العجاف.

﴿ثمَّ يأتي من بعد ذلك سبع شداد﴾.. لا زرع فيهنَّ.. ﴿يأكلن ما قدَّمتم لهنَّ﴾.. وكأنَّ هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها كل ما يُقَدَّم لها لشدة نَهمها وجوعها!

﴿إلاَّ قليلاً ممَّا تحصنون﴾ [يوسف: ٤٨].. أي إلاَّ قليلاً ممَّا تحفظونه وتصونونه من التهامها!

﴿ثمَّ يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾ [يوسف: ٤٩]..

أي ثمَّ تنقضي هذه السنوات الشداد العجاف المُجدبة، التي تأتي على ما خزنتم وادَّخرتم من سنوات الخصب. تنقضي ويعقبها عام رخاء، يُغاث الناس فيه بالزرع والماء، وتنمو كرومهم فيعصرونها خمراً، وسمسمهم وخسّهم وزيتونهم فيعصرونه زيتاً.

وهنا نلحظ أنَّ هذا العام الرخاء لا يقابله رمز في رؤيا الملك؛ فهو إذن

من العلم اللُّدني الذي عَلَّمه الله يوسف. فَبَشَّر به الساقي لِيُبَشِّر الملك والناس، بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخيّ رغيد.

الحلقة الرَّابعة:

إعلان براءة يوسف وظهور الحق:

وهنا كذلك ينتقل السياق إلى المشهد التالي. تاركاً فجوة بين المشهدين يكمل التصوير ما تمَّ فيها من حركة. ويرفع الستار مرة أُخرىٰ على مَجلس الملك. ويحذف السياق ما نقله الساقي من تأويل الرؤيا، وما تحدث به عن يوسف الذي أوَّلها. وعن سجنه وأسبابه والحال التي هو فيها.. كل أولئك يحذفه السياق من المشهد، لنسمع نتيجته من رغبة الملك في رؤيا يوسف، وأمره أن يأتوه به: ﴿**وقال الملك: ائتوني به**﴾ [يوسف: ٥٠]..

ومرة ثالثة في المشهد يحذف السياق جزئيات تفصيلية في تنفيذ الأمر. ولكنا نجد يوسف يرد على رسول الملك الذي لا نعرف: إن كان هو الساقي الذي جاءه أول مرة. أو رسولاً تنفيذياً مُكلفاً بمثل هذا الشأن.. نجد يوسف السجين الذي طال عليه السجن لا يستعجل الخروج[1] حتى تُحقّق قضيته،

---

(١) عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «... لو لبثتُ في السجن ما لبث يوسف لأجبتُ الداعي». [أخرجه البخاري ومسلم وابن حبان. انظر تخريجه في الإحسان رقم ٦٢٠٨]..
قال أبو سليمان الخطابي فيما نقله عنه البغوي في «شرح السنة» ١/١١٦ ـ ١١٧: «وصف [النبيُّ] يوسفَ بالأناة والصبر حيث لم يبادر إلى الخروج حين جاءه رسول الملك فِعْلَ المذنب يُعفىٰ عنه مع طول لبثه في السجن، بل قال: ﴿**ارجع إلىٰ ربِّك فَاسْأَلْهُ ما بال النسوة اللاتي قطَّعن أيديهنَّ**﴾ [يوسف: ٥٠]..
أراد أن يقيم عليهم الحجة في حبسهم إيَّاه ظلماً، وقال النَّبيّ ﷺ ذلك على سبيل التواضع، لأنَّه كان في الأمر منه مبادرة وعجلة لو كان مكان يوسف، والتواضع لا يُصغر كبيراً، ولا يضع رفيعاً، ولا يبطل لذي حق حقاً، ولكنه يوجب لصاحبه فضلاً، ويكسبه جلالاً وقدراً».
وعن أبي هريرة قال: قيلَ: يا رسولَ الله: مَن أكرمُ الناس؟ قال: «أتقاهم». قالوا: ليس عن =

ويتبين الحق واضحاً في موقفه، وتُعلن براءته ـ على الأشهاد ـ من الوشايات والدسائس والغمز في الظلام.. لقد ربَّاه ربه وأَدَّبه، ولقد سكبت هذه التربية وهذا الأدب في قلبه السكينة والثقة والطمأنينة. فلم يعد مُعَجّلاً ولا عَجولاً!

إنَّ أثر التربية الربانية شديد الوضوح في الفارق بين الموقفين: الموقف الذي يقول يوسف فيه للفَتَىٰ: اذكرني عند ربك، والموقف الذي يقول له فيه: ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاَّتي قطَّعن أيديهنَّ، والفارق بين الموقفين بعيد..

وهنا يظهر الرجل الحصيف. لقد دخل السجن ظُلماً، وإنَّ حوله لَلَغْطاً، وإنَّه لن يأمن إذا خرج أن يُردّ إلى السجن كما دخل إليه أول مرة فهو ينتهز الفرصة المناسبة للحصول على الضمان والبراءة:

﴿قال: ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاَّتي قطَّعن أيديهنَّ؟ إنَّ ربِّي بكيدهنَّ عليم﴾ [يوسف: ٥٠]..

لقد ردَّ يوسف أَمْر الملك باستدعائه حتى يستوثق الملك من أَمْره، وحتى يتحقّق من شأن النسوة اللاَّتي قطَّعن أيديهنَّ.. بهذا القيد.. تذكيراً بالواقعة وملابساتها وكيد بعضهنَّ لبعض فيها، وكيدهنَّ له بعدها.. وحتى يكون هذا التحقق في غيبته لتظهر الحقيقة خالصة، دون أن يتدخل هو في

= هذا نسألك. قال: «فيوسف نبي الله بن نبي الله ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني. خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقُهُوا». [أخرجه البخاري ومسلم]..

قال النووي في «شرح مسلم»: قال العلماء: وأصل الكرم كثرة الخير. وقد جمع يوسف ﷺ مكارم الأخلاق مع شرف النبوة مع شرف النَّسب وكونه نبياً ابن ثلاثة أنبياء متناسلين أحدهم خليل الله ﷺ. وانضمَّ إليه شرف علم الرؤيا وتمكّنه فيه ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة، وحياطته للرعية وعموم نفعه إياهم وشفقته عليهم وإنقاذهم من تلك السنين والله أعلم»..

مناقشتها. كل أولئك لأنَّه واثق من نفسه، واثق من براءته، مطمئن إلى أنَّ الحق لا يخفىٰ طويلاً، ولا يخذل طويلاً.

ولقد حكىٰ القرآن عن يوسف استعمال كلمة « ربّ » بمدلولها الكامل، بالقياس إليه وبالقياس إلى رسول الملك إليه. فالملك ربّ هذا الرسول لأنَّه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه. والله ربّ يوسف لأنَّه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه.

ورجع الرسول فأخبر الملك وأحضر الملك النسوة يستجوبهنَّ - والسياق يحذف هذا لنعلمه ممَّا يليه -:

﴿قال: ما خطبكنَّ إذ راودتُنَّ يوسف عن نفسه؟﴾ [يوسف: ٥١]. . والخطب: الأمر الجَلَل والمصاب. فكأنَّ الملك كان قد استقصىٰ فَعَلِمَ أمرهنَّ قبل أن يُواجههنَّ، وهو المعتاد في مثل هذه الأحوال، ليكون الملك على بيِّنة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه. فهو يُواجههنَّ مُقرِّراً الاتهام، ومشيراً إلى أمر لهنَّ جَلَل أو شأن لهنَّ خطير:

﴿ما خطبكنَّ إذ راودتنَّ يوسف عن نفسه؟﴾. .

ومن هذا نعلم شيئاً ممَّا دار في حفل الاستقبال في بيت الوزير، ما قالته النسوة ليوسف وما لمَّحن به وأشرن إليه، من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة. ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى في ذلك العهد الموغل في التاريخ. فالجاهلية دائماً هي الجاهلية. إنَّه حيثما كان الترف، وكانت القصور والحاشية، كان التحلل والتميع والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الأرستقراطية!

وفي مثل هذه المواجهة بالاتهام في حضرة الملك، يبدو أنَّه لم يكن هنالك مجال للإنكار:

﴿قلن: حاشَ لله! ما علمنا عليه من سوء﴾! وهي الحقيقة التي

يصعب إنكارها. ولو من مثل هؤلاء النسوة. فقد كان أمر يـوسف إذن من النصاعة والوضوح بحيث لا يقوم فيه جدال. وهنا تـتقـدم المرأة المحبـة ليوسف، التي يئست منه، ولكنها لا تستطيع أن تخلص من تعلقها بـه. . تـتقدم لتقول كل شيء في صراحة:

﴿قالت امرأة العزيز: الآن حَصْحَص الحق. أنا راودته عن نفسه. وإنَّه لمن الصَّادقين﴾ [يوسف: ٥١]. . الآن حصحص الحق وظهر ظهوراً واضحاً لا يحتمل الخفـاء: ﴿أنا راودتـه عن نفسه وإنَّـه لمن الصادقين﴾ [يوسف: ٥١]. .

وزادت ما يكشف عن أنَّ قلبها لم يخل من إيثاره ورجاء تقديره والتفاته بعد كل هذا الأمد؛ وما يَشي كذلك بأنَّ عقيدة يوسف قد أخذت طريقها إلى قلبها فآمن:

﴿ذلك ليعلم أنِّي لم أخنه بالغيب، وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ [يوسف: ٥٢]. .

وهذا الاعتراف وما بعده يصوره السياق هنا بألفاظ موحية، تشي بما وراءها من انفعالات ومشاعر. كما يشي الستار الرقيق بما وراءه في ترفُّع وتجمل في التعبير:

﴿أنا راودته عن نفسه، وإنَّه لمن الصَّادقين﴾. .

شهادة كاملة بنظافته وبراءته وصِدْقه. لا تُبالي المرأة ما وراءها ممَّا يلمّ بها هي ويلحق بأردانها. فهل هو الحق وحده الذي يدفعهـا لهذا الإقـرار الصريح في حضرة المَلك والملأ؟ يشي السياق بحافز آخر، هو حرصهـا على أن يحترمها الرجل المؤمن الذي لم يعبأ بفتنتها الجسدية. أن يحترمها تقديراً لإيمانها ولصدقها وأمانتها في حقه عند غيبته:

﴿ذلك ليعلم أنِّي لم أخنه بالغيب﴾. .

والظاهر أنها قد أسنَّت.. إذ يُرجح أنَّها فعلت فعلتها وهي في الأربعين أو فوقها، فهي فعلة امرأة مكتملة في نهاية المرحلة؛ فإذا أضفنا إلى سنها «بضع سنين» كانت في الخمسين أو قرب الخمسين.. فلا ضير حينئذٍ من كشف الماضي الدفين..

ثمَّ تمضي في هذه المحاولة والعودة إلى الفضيلة التي يُحبها يوسف ويقدرها:

﴿وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين﴾..

وتمضي خطوة أُخرىٰ في هذه المشاعر الطيبة:

﴿وما أُبرِّيءُ نفسي، إنَّ النفس لأمَّارة بالسوء إلاَّ ما رحم ربِّي، إنَّ ربِّي غفور رحيم﴾ [يوسف: ٥٣]..

إنَّها امرأة أَحَبَّت. امرأة تكبر الرجل الذي تعلقت به في جاهليتها وإسلامها، فهي لا تملك إلاَّ أن تظل مُعلّقة بكلمة منه، أو خاطرة ارتياح تحسّ أنَّها صدرت عنه!

وهكذا يتجلى العنصر الإنساني في القصة، التي لم تسق لمجرد الفن، إنَّما سيقت للعبرة والعظة. وسيقت لتعالج قضية العقيدة والدعوة. ويرسم التعبير الفني فيها خفقات المشاعر وانتفاضات الوجدان رسماً رشيقاً رفيقاً شفيفاً. في واقعة كاملة تتناسق فيها جميع المُؤثِّرات وجميع الواقعيات في مثل هذه النفوس، في ظل بيئتها ومؤثرات هذه البيئة كذلك.

وإلى هنا تنتهي محنة السجن ومحنة الاتهام، وتسير الحياة بيوسف رخاء، الاختبار فيها بالنعمة لا بالشدة.. حيث تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياة الشخصية الأساسية في القصة ـ شخصية يوسف ـ عليه السَّلام ـ ومع امتداد هذه الشخصية واستقامتها على المقوّمات الأساسية لها، فإنَّنا نجد في هذه المرحلة الجديدة ملامح جديدة تبرز ـ هي امتداد طبيعي واقعي لنشأة

الشخصية وللمرحلة السابقة من حياتها ولكنها مع ذلك ذات طابع مُمَيّز. . نجد شخصية يوسف ـ عليه السَّلام ـ وقد استقامت مع نشأتها والأحداث التي مرَّت بها، والابتلاءات التي اجتازتها، في ظل التربية الربانية للعبد الصالح، الذي يُعدّ ليمكن له في الأرض، وليقوم بالدعوة إلى دين الله وهو مُمَكَّن له في الأرض، وهو قابض على مقاليد الأمور في مركز التموين في الشرق الأوسط! وأول ملامح هذه المرحلة هذا الاعتزاز بالله، والاطمئنان إليه، والثقة به، والتجرد له، والتعري، من كل قيم الأرض، والتحرر من كل أوهاقها، واستصغار شأن القوىٰ المتحكمة فيها، وهوان تلك القيم وهذه القوىٰ في النفس الموصولة الأسباب بالله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ!

تبدو هذه الظاهرة الواضحة في موقف يوسف، ورسول الملك يجيء إليه في سجنه يبلغه رغبة الملك في أن يراه. . فلا يَخفّ يوسف ـ عليه السَّلام ـ لطلب الملك؛ ولا يتلهف على مغادرة سجنه الظالم المظلم إلى رحاب الملك الذي يرغب في لقائه؛ ولا تَستَخِفّه الفرحة بالخروج من هذا الضيق. ولا تتجلّىٰ هذه الظاهرة ـ وما وراءها من التغيرات العميقة في الموازين والقيم والمشاعر في نفس يوسف الصدِّيق، إلّا حين نعود القهقرىٰ بضع سنين، لنجد يوسف يوصي ساقي الملك ـ وهو يظن أنَّه ناج ـ أن يَذكره عند ربه.

إنَّه الإيمان هو الإيمان، ولكن هذه هي الطمأنينة. الطمأنينة التي تنسكب في القلب وهو يلابس قَدَر الله في جريانه. . وهو يرىٰ كيف يتحقق هذا القَدَر أمام عينيه فعلاً. . الطمأنينة التي كان يطلبها جدّه إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ، وهو يقول لربه:

﴿ربِّ أرني كيف تحيي الموتىٰ﴾ فيسأله ربه ـ وربه يعلم ـ: **﴿أوَلَم تؤمن؟﴾** فيقول وربه يعلم حقيقة ما يشعر وما يقول ـ: **﴿بلىٰ! ولكن ليطمئنَّ قلبي﴾** [البقرة: ٢٦٠]. .

إنَّها هي هي الطمأنينة التي تسكبها التربية الربانية في قلوب الصفوة المختارة، بالابتلاء والمعاناة، والرؤيا والمشاهدة، والمعرفة والتذوق. . ثمَّ الثقة والسكينة. . وهذه هي الظاهرة الواضحة في كل مواقف يوسف من بعد، حتى يكون الموقف الأخير في نجائه مع ربه، مُنخلعاً من كل شيء تهفو له النفوس في هذه الأرض.

نمضي مع قصة يوسف، في حلقة جديدة من حلقاتها ـ الحلقة الرابعة ـ فقد رأينا آخر فقرة في المشهد السابق. مشهد الملك يستجوب النسوة اللَّاتي قطَّعن أيديهنَّ ـ كما رغب إليه يوسف أن يفعل ـ تمحيصاً لتلك المكايد التي أدخلته السجن. وإعلاناً لبراءته على الملأ، قبل أن يبدأ مرحلة جديدة في حياته؛ وهو يبدؤها واثقاً مطمئناً، في نفسه سكينة وفي قلبه طمأنينة وقد أحسَّ أنَّها ستكون مرحلة ظهور في حياة الدولة، وفي حياة الدعوة كذلك. فيحسن أن يبدأها وكل ما حوله واضح، ولا شيء من غبار الماضي يلاحقه وهو بريء. .

ومع أنَّه قد تجمل فلم يذكر عن امرأة العزيز شيئاً، ولم يُشِر إليها على وجه التخصيص، إنَّما رَغِبَ إلى الملك أن يفحص عن أمر النسوة اللَّاتي قطَّعن أيديهنَّ، فإنَّ امرأة العزيز تقدمت لتعلن الحقيقة كاملة: **﴿الآن حصحص الحق. أنا راودته عن نفسه، وإنَّه لمن الصادقين﴾** [يوسف: ٥١]. . وقد بدت المرأة مؤمنة مُتحرجة كما تقدم. . ثمَّ تعلن ما يدل على إيمانها بالله ـ ولعلَّ ذلك كان اتباعاً ليوسف ـ **﴿إنَّ ربِّي غفور رحيم﴾** [يوسف: ٥٢]. .

وبذلك يسدل الستار على ماضي الآلام في حياة يوسف الصدِّيق. وتبدأ مرحلة الرخاء والعز والتمكين. .



تمكين وتكريم :

لقد تبيَّنت للملك براءة يوسف، وتبيَّن له معها عِلْمه في تفسير الرؤيا، وحكمته في طلب تمحيص أَمْر النسوة، كذلك تبينت له كرامته وإباؤه، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن، ولا يتهافت على لقاء الملك. وأي ملك؟ ملك مصر! ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المُتّهم في سمعته، المسجون ظلماً، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بَدَنه؛ ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يُمثله قبل أن يطلب الحظوة عند الملك. .

كل أُولئك أَوْقَع في نفس الملك احترام هذا الرجل وحبه:

﴿وقال الملك: ائتوني به أستخلصه لنفسي﴾ [يوسف: ٥٤]. .

فهو لا يأتي من السجنِ لِيُطلق سراحه؛ ولا ليرىٰ هـذا الذي يُفَسّـر الرؤىٰ؛ ولا ليسمعه كلمة «الرضاء الملكي السامي!» فيطير بها فرحاً. . كلا! إنَّما يطلبه ليستخلصه لنفسه، ويجعله بمكان المستشار والنَّجي والصديق. .

فيا ليت رِجالاً يُمرّغون كرامتهم على أقدام الحكام ـ وهم أبرياء مُطْلَقُوا السراح ـ فيضعوا النّير في أعناقهم بأيديهم؛ ويتهافتوا على نظرة رضىٰ وكلمة ثناء، وعلى حظوة الأتباع لا مكانة الأصفياء. . يا ليت رجالاً من هؤلاء يقرأون هذا القرآن، ويقرأون قصة يوسف، ليعرفوا أنَّ الكرامة والإباء والاعتزاز تدرّ من الربح ـ حتى المادي ـ أضعاف ما يدرّه التمرغ والتزلف والانحناء!

﴿وقال الملك: ائتوني به أستخلصه لنفسي﴾. .

ويحذف السياق جزئية تنفيذ الأمر لنجد يوسف مع الملك. . ﴿فلمّا كلمه قال: إنَّك اليوم لدينا مكين أمين﴾ [يوسف: ٥٤]. .

فلمّا كلّمه تحقق له صدق ما توسّمه. فإذا هو يُطمئنه على أنَّه عند

الملك ذو مكانة وفي أمان. فليس هو الفتىٰ العبراني الموسوم بالعبودية.. إنَّما هو مَكين. وليس هو المُتَّهم المُهَدّد بالسجن. إنَّما هـو أمين. وتلك المكانة وهذا الأمان لدىٰ الملك وفي حِماه. فماذا قال يوسف؟

إنَّه لم يسجد شكراً كما يسجد رجال الحاشية المُتَملّقون للطواغيت. ولم يقل له: عِشتَ يا مولاي وأنا عبدك الخاضع أو خادمك الأمين، كما يقول المُتَملِّقون للطواغيت! كلا إنَّما طالب بما يعتقد أنَّه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة القادمة التي أوَّل بها رؤيا الملك، خيراً ممَّا ينهض بها أحد في البلاد، وبما يعتقد سيصون به أرواحاً من المـوت وبلاداً من الخراب، ومُجتمعاً من الفتنة ـ فتنة الجوع ـ فكان قوياً في إدراكه لحاجـة الموقف إلى خِبرته وكفايته وأمانته، قوته في الاحتفاظ بكرامته وإبائه:

﴿قال: اجعلني على خزائن الأرض. إنِّي حفيظ عليم﴾ [يـوسف: ٥٥]..

والأزمـة القادمـة وسني الرخـاء التي تسبقها في حـاجـة إلى الحفظ والصيـانة والقـدرة على إدارة الأمور بـالدقّـة وضبط الزراعـة والمحاصيـل وصيانتها. وفي حـاجة إلى الخبـرة وحسن التصرف والعلم بكـافة فـروعه الضرورية لتلك المهمة في سنوات الخصب وفي سني الجدب على السواء. ومن ثمَّ ذكر يوسف من صفاته ما تحتاج إليه المهمة التي يرىٰ أنَّه أقدر عليها، وأنَّ وراءهـا خيراً كبيـراً لشعب مصـر وللشعـوب المجـاورة: **﴿إنِّي حفيظ عليم﴾**..

ولم يكن يوسف يطلب لشخصه وهو يرىٰ إقبال الملك عليه فيطلب أن يجعله على خـزائن الأرض.. إنَّما كـان حصيفاً في اختيـار اللحظة التي يُستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة؛ وليكون مسؤولاً عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تُجاوره طوال سبع سنوات، لا زَرع فيه ولا ضرع. فليس هذا غَنَماً يطلبه يوسف

لنفسه. فإنَّ التَكَفُّل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد إنَّه غنيمة. إنَّما هي تبعة يهرب منها الرجال، لأنَّها قد تُكلِّفهم رؤوسهم، والجوع كافر، وقد تُمزّق الجماهير الجائعة أجسادهم في لحظات الكفر والجنون.

شُبهة... وبيان:

وهنا تعرض شُبهة... أليس في قول يوسف ـ عليه السَّلام ـ: ﴿اجعلني علىٰ خزائن الأرض، إنِّي حفيظ عليم﴾.. أمران محظوران في النظام الإسلامي:

أولهما: طلب التولية، وهو محظور بنص قول الرسول ﷺ: «إنَّا والله لا نُولّي هذا العمل أحداً سأله (أو حرص عليه)».. متفق عليه.

وثانيهما: تزكية النفس، وهي محظورة بقوله تعالىٰ: ﴿فلا تُزَكُّوا أنفسكم﴾ [النجم: ٣٢]..

ولا نريد أن نجيب بأنَّ هذه القواعد إنَّما تقررت في النظام الإسلامي الذي تقرر على عهد محمَّد رسول الله ﷺ وأنَّها لم تكن مُقررة على أيام يوسف ـ عليه السَّلام ـ والمسائل التنظيمية في هذا الدين ليست مُوحَّدة كأصول العقيدة، الثابتة في كل رسالة وعلى يد كل رسول..

لا نريد أن نجيب بهذا، وإن كان له وَجْه، لأنَّنا نرىٰ أنَّ الأمر في هذه المسألة أبعد أعماقاً، وأوسع آفاقاً من أن يرتكن إلى هذا الوجه؛ وأنَّه إنَّما يرتكن إلى اعتبارات أُخرىٰ لا بد من إدراكها، لإدراك منهج الاستدلال من الأصول والنصوص، ولإعطاء أصول الفقه وأحكامه تلك الطبيعة الحركية الأصيلة في كيانها، والتي خمدت وجمدت في عقول الفقهاء وفي عقلية الفقه كلها في قرون الخمود والركود!

إنَّ الفقه الإسلامي لم ينشأ في فراغ، كما أنَّه لا يعيش ولا يُفهم في

فراغ! . . لقد نشأ الفقه الإسلامي في مجتمع مسلم، ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع في مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية. كذلك لم يكن الفقه الإسلامي هو الذي أنشأ المجتمع المسلم؛ إنَّما كان المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الإسلامية هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي . .

وهاتان الحقيقتان التاريخيتان الواقعيتان عظيمتا الدلالة؛ كما أنَّهما ضروريتان لفهم طبيعة الفقه الإسلامي. وإدراك الطبيعة الحركية للأحكام الفقهية الإسلامية.

والذين يأخذون اليوم تلك النصوص والأحكام المدونة، دون إدراك لهاتين الحقيقتين؛ ودون مراجعة للظروف والملابسات التي نزلت فيها تلك النصوص ونشأت فيها تلك الأحكام، ودون استحضار لطبيعة الجوّ والبيئة والحالة التي كانت تلك النصوص تُلَبّيها وتُوجهها؛ وكانت تلك الأحكام تُصاغ فيها وتحكمها وتعيش فيها . . الذين يفعلون ذلك؛ ويُحاولون تطبيق هذه الأحكام كأنَّها نَشأت في فراغ؛ وكأنَّها اليوم يمكن أن تعيش في فراغ . . هؤلاء ليسوا « فقهاء »! وليس لهم « فقه » بطبيعة الفقه! وبطبيعة هذا الدين أصلاً!

إنَّ «فقه الحركة» يختلف اختلافاً أساسياً عن «فقه الأوراق» مع استمداده أصلاً وقيامه على النصوص التي يقوم عليها ويستمد منها «فقه الأوراق»!

إنَّ فقه الحركة يأخذ في اعتباره « الواقع » الذي نزلت فيه النصوص، وصيغت فيه الأحكام. ويرىٰ أنَّ ذلك الواقع يؤلف مع النصوص والأحكام مركباً لا تنفصل عناصره. فإذا انفصلت عناصر هذا المُركّب فَقَد طبيعته، واختلَّ تركيبه!

ومن ثمَّ فليس هنالك حكم فقهي واحد مستقل بذاته، يعيش في

فراغ، لا تتمثل فيه عناصرَ الموقف والجو والبيئة والملابسات التي نشأ نشأته الأولىٰ فيها. . إنَّه لم ينشأ في فراغ ومن ثمَّ لا يستطيع أن يعيش في فراغ!

ونأخذ مثالاً لهذا التقرير العام هذا الحكم الإسلامي بعدم تزكية النفس وعدم ترشيحها للمناصب. وهو المأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿فلا تزكُّوا أنفسكم﴾. . ومن قول رسول الله ﷺ: «إنَّا والله لا نُوَلِّي هذا العمل أحداً سأله». .

لقد نشأ هذا الحكم ـ كما نزلت تلك النصوص ـ في مجتمع مسلم؛ ليطبق في هذا المجتمع؛ وليعيش في هذا الوسط؛ وليلبّي حاجة ذلك المجتمع. وفق نشأته التاريخية، ووفق تركيبه العضوي، ووفق واقعه الذاتي. فهو من ثمَّ حكم إسلامي جاء ليطبق في مجتمع إسلامي. .

وقد نشأ في وسط واقعي ولم ينشأ في فراغٍ مثالي. وهو من ثمَّ لا يطبق ولا يصلح ولا يُنشىء آثاره الصحيحة إلاَّ إذا طُبق في مجتمع إسلامي. . إسلامي في نشأته، وفي تركيبه العضوي، وفي التزامه بشريعة الإسلام كاملة. . وكل مجتمع لا تتوافر فيه هذه المقوّمات كلها يعتبر «فراغاً» بالقياس إلى ذلك الحكم، لا يملك أن يعيش فيه، ولا يُصلحه له، ولا يصلح كذلك!. .

ومثلِ هذا الحكم كل أحكام النظام الإسلامي. وإن كنَّا في هذا المقام لا نفصل إلاَّ هذا الحكم بمناسبة ذلك السياق القرآني. .

ونريد أن نفهم لماذا لا يُزكي الناس أنفسهم في المجتمع المسلم، ولا يُرشحون أنفسهم للوظائف، ولا يقومون لأشخاصهم بدعاية ما كي يختاروا لمجلس الشورىٰ أو للإمامة أو للإمارة. .

إنَّ الناس في المجتمع المسلم لا يحتاجون لشيء من هذا لإبراز أفضليتهم وأحقّيتهم. كما أنَّ المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يُغري أحداً بالتزاحم عليه ـ اللَّهمَّ إلاَّ ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب

وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان الله تعالىٰ ـ ومن ثمَّ لا يسأل المناصب والوظائف إلاَّ المُتَهافتون عليها لحاجة في نفوسهم. وهؤلاء يجب أن يُمنعوها!

ولكن هذه الحقيقة لا تُفهم إلاَّ بمراجعة النشأة الطبيعية للمجتمع المسلم، وإدراك طبيعة تكوينه العضوي أيضاً. .

إنَّ الحركة هي العنصر المكوّن لذلك المجتمع. فالمجتمع المسلم وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية. .

أوَّلاً: تجيء العقيدة من مصدرها الإلـهي متمثلة في تبليغ الرسول وعمله ـ على عهد النبوات ـ أو متمثلة في دعوة الداعية بما جاء من عند الله وما بَلَّغه رسوله ـ على مدار الزمان بعد ذلك ـ فيستجيب للدعوة ناس؛ يتعرضون للأذىٰ والفتنة من الجاهلية الحاكمة السائدة في أرض الدعوة. فمنهم من يُفتَن ويَرتدّ، ومنهم من يُصدّق ما عاهد الله عليه فيقضي نَحبه شهيداً. ومنهم مَن ينتظر حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق. .

هؤلاء يفتح الله عليهم، ويجعل منهم ستاراً لقَدَره، ويُمكِّن لهم في الأرض تحقيقاً لوعده بنصر من ينصره، والتمكين في الأرض له، ليقيم مَملكة الله في الأرض ـ أي لينفذ حكم الله في الأرض ـ ليس له من هذا النصر والتمكين شيء؛ إنَّما هو نصر لدين الله، وتمكين لربوبية الله في العباد. وهؤلاء لا يقفون بهذا الدين عند حدود أرض معينة، ولا عند حدود جنس معين؛ ولا عند حدود قوم أو لون أو لغة أو مقوّم واحد من تلك المقوّمات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة! إنَّما ينطلقون بهذه العقيدة الربانية ليحرروا «الإنسان». . كل الإنسان: في «الأرض». . كل الأرض. . من العبودية لغير الله؛ وليرفعوه عن العبودية للطواغيت أيّاً كانت هذه الطواغيت(١).

---

(١) يراجع فصل «الجهاد في سبيل الله» في كتاب: «معالم في الطريق» وفي كتاب «طريق الدعوة في ظلال القرآن» ـ الجزء الأوَّل ـ.

وفي أثناء الحركة بهذا الدين ـ وقد لاحظنا أنّها لا تـتوقف عند إقامة الدولة المسلمة في بقعة من الأرض، ولا تقف عند حدود أرض أو جنس أو قوم ـ تـتميز أقدار الناس، وتـتحـدد مقامـاتهم في المجتمع، ويقـوم هذا التحديد وذلك التميز على موازين، وقيم إيمانية، الجميع يتعارفون عليها، من البـلاء في الجهـاد، والتقـوىٰ والصـلاح والعبـادة والأخـلاق والقـدرة والكفاءة. . وكلها قِيَم يحكم عليهـا الواقـع، وتُبرزهـا الحركـة، ويعرفهـا المجتمع ويَعرف المُتّسمين بهـا. . ومن ثمّ لا يحتاج أصحـابها أن يـزكّوا أنفسهم، ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورىٰ والتوجيه على أساس هذه التزكية. .

وفي المجتمع المسلم الذي نشأ هذه النشأة، وقام تركيبه العضـوي على أساس التميز في أثناء الحركة بتلك القيم الإيمانية ـ كما حـدث في المجتمع المسلم من تميز السابقين من المهاجرين ثمّ الأنصار. وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل ـ ثمّ ظلّ يتميز الناس فيه بحسن البلاء في الإسلام. . في هـذا المجتمع لا يبخس النـاس بعضهم بعضاً، ولا ينكر النـاس فضائـل المُتميزين ـ مهمـا غلب الضعف البشري أصحابه أحياناً فغلبتهم الأطماع ـ وعندئذٍ تنتفي الحاجة ـ من جانب آخر ـ إلى أن يزكّي المتميزون أنفسهم ويطلبوا الإمارة أو مراكز الشورىٰ والتوجيه على أساس هذه التزكية.

ولقد يُخيل للناس الآن أنّ هذه خاصية مُتفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته التاريخية! ولكنهم ينسون أنّ أي مجتمع مسلم لن يـوجد إلاّ بمثل هذه النشأة. . لن يوجد اليوم أو غداً، إلاّ أن تقوم دعوة لإدخال الناس في هذا الدين من جديد، وإخراجهم من الجاهلية التي صاروا إليها. . وهذه نقطة البدء. . ثمّ تعقبها الفتنة والابتلاء ـ كما حدث أوّل مرة ـ فـأمّا نـاس فَيُفْتَنون ويَرتدُّون! وأمّا ناس فيصدقون ما عاهدوا الله عليه فيقضون نحبهم ويموتون شهداء. وأمّا ناس فيصبرون ويُصابرون ويُصرُّون على الإسلام،

ويكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما يكره أحدهم أن يُلقىٰ في النار؛ حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق، ويُمكّن لهم في الأرض ـ كما مكّن للمسلمين أول مرة ـ فيقوم في أرض من أرض الله نظام إسلامي.. ويومئذٍ تكون الحركة من نقطة البدء إلى قيام النظام الإسلامي قد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية، وفق الموازين والقيم الإيمانية.. ويومئذٍ لن يحتاج هؤلاء إلى ترشيح أنفسهم وتزكيتها، لأنَّ مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويُزكيهم ويُرشحهم!

ولقد يقال بعد هذا: ولكن هذا يكون في المرحلة الأُولىٰ. فإذا استقرَّ المجتمع بعد ذلك؟ وهذا سؤال مَن لا يعرف طبيعة هذا الدين!

إنَّ هذا الدين يتحرك دائماً ولا يكفّ عن الحركة.. يتحرك لتحرير « الإنسان ». كل الإنسان.. في « الأرض ».. كل الأرض.. من العبودية لغير الله؛ وليرفعه عن العبودية للطواغيت، بلا حدود من الأرض أو الجنس أو القوم أو أي مُقوّم من المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة!

وإذن فستظل الحركة ـ التي هي طبيعة هذا الدين الأصيلة ـ تُميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب؛ ولا تقف أبداً ليركد هذا المجتمع ويأسن ـ إلاَّ أن ينحرف عن الإسلام ـ وسيظل الحكم الفقهي ـ الخاص بتحريم تزكية النفس وطلب العمل على أساس هذه التزكية ـ قائماً وعاملاً في محيطه الملائم.. ذات المحيط الذي نشأ أول مرة وعمل فيه.

ثمَّ يقال: ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضا؛ ويصبح الأكفاء الموهوبون في حاجة إلى الإعلان عن أنفسهم وتزكيتها وطلب العمل على أساس هذه التزكية!

وهذا القول كذلك وَهْم ناشىء من التأثر بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة..

إنَّ المجتمع المسلم يكون أهل كل مَحلّة فيه مُتعارفين متواصلين

متكافلين - كما هي طبيعة التربية والتكوين والتوجيه، والالتزام في المجتمع المسلم - ومن ثمَّ يكون أهل كل محلّة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم؛ موزونةً هذه الكفايات والمواهب بموازين وقيم إيمانية، فلا يعزّ عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوىٰ والكفاية. . سواء لمجلس الشورىٰ أو للشؤون المحلية. أمَّا الإمارات العامة فيختار لها الإمام - الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد - أو أهل الشورىٰ - له. . يختار لها من بين مجموعة الرجال المختارين الذين مَيَّزَتهم الحركة. والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم، والجهاد ماض إلى يوم القيامة.

إنَّ الذين يفكرون في النظام الإسلامي اليوم وتشكيلاته - أو يكتبون - يدخلون في متاهة! ذلك أنَّهم يُحاولون تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية المدونة في فراغ! يحاولون تطبيقها في هذا المجتمع الجاهلي القائم، بتركيبه العضوي الحاضر!

وهذا المجتمع الجاهلي الحاضر - يُعتبر بالقياس إلى طبيعة النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية - فراغاً لا يمكن أن يقوم فيه هذا النظام ولا أن تُطَبَّق فيه هذه الأحكام. . إنَّ تركيبه العضوي مناقض تماماً للتركيب العضوي للمجتمع المسلم. فالمجتمع المسلم - كما قلنا - يقوم تركيبه العضوي على أساس ترتيب الشخصيات والفئات كما تُرتبها الحركة لإقرار هذا النظام في عالم الواقع، ولمجاهدة الجاهلية لإخراج الناس منها إلى الإسلام. مع تحمل ضغوط الجاهلية وما تُوجهه من فتنة وإيذاء وحرب على هذه الحركة، والصبر على الابتلاء وحسن البلاء من نقطة البدء إلى نقطة الفصل في نهاية المطاف.

أمَّا المجتمع الجاهلي الحاضر فهو مجتمع راكد، قائم على قيم لا علاقة لها بالإسلام، ولا بالقيم الإيمانية. . وهو - من ثمَّ - يُعدّ بالقياس إلى النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية فراغاً لا يعيش فيه هذا النظام ولا تقوم فيه هذه الأحكام!

هؤلاء الكاتبون الباحثون عن حلّ لتطبيق قواعد النظام وتشكيلاته وأحكامه الفقهية يحيرهم ـ أول ما يُحيرهم ـ طريقة اختيار أهل الحل والعقد ـ أو أهل الشورىٰ ـ من غير ترشيح من أنفسهم ولا تزكية! كيف يُمكن هذا في مثل هذه المجتمعات التي نعيش فيها والناس لا يعرف بعضهم بعضاً ولا يَزنون كذلك بموازين الكفاية والنزاهة والأمانة! كذلك تُحيرهم طريقة اختيار الإمام؟ أيكون الاختيار من عامة الشعب أم يكون من ترشيح أهل الحلّ والعقد؟ وإذا كان الإمام سيختار أهل الحل والعقد ـ متابعة لعدم تزكيتهم لأنفسهم أو ترشيحها ـ فكيف يعودون هم فيختارون الإمام؟ ألا يؤثر هذا في ميزانهم؟ ثمَّ إذا كانوا هم الذين سيعودون فيرشحون الإمام؟ ألا تكون لهم ولاية عليه وهو الإمام الأعظم؟ ثمَّ ألا يجعله هذا يختار أشخاصاً يضمن ولاءهم له، ويكون هذا هو العنصر الأول في اعتباره؟. .

وأسئلة أُخرىٰ كثيرة لا يجدون لها جواباً في هذه المتاهة!

نحن نعرف نقطة البدء في هذه المتاهة. . إنَّها هي افتراض أنَّ هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه مجتمع مسلم؛ وأنَّ قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية سَيُجاء بها لِتُطَبّق على هذا المجتمع الجاهلي بتركيبه العضوي الحاضر، وبقيمه وأخلاقه الحاضرة!

هذه نقطة البدء في المتاهة. . ومتى بدأ منها الباحث فإنَّه يبدأ في فراغ، ويوغل في هذا الفراغ، حتى يبعد في التيه، وحتى يأخذه الدوار!

إنَّ هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم، ومن ثمَّ لن يطبق فيه النظام الإسلامي ولن تطبق فيه الأحكام الفقهية الخاصة بهذا النظام. . لن تطبق لاستحالة هذا التطبيق الناشئة من أنَّ قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية لا يمكن أن تتحرك في فراغ؛ لأنَّها بطبيعتها لم تنشأ في فراغ، ولم تتحرك في فراغ كذلك!

إنَّ المجتمع الإسلامي ينشأ بتركيب عضوي آخر غير التركيب

العضـوي للمجتمع الجـاهلي . . ينشأ من مجمـوعات وأشخـاص وفئـات جاهدت ـ في وجه الجاهلية ـ لإنشائه ؛ وتحدّدت أقدارها وتميزت مقاماتها في ثنايا تلك الحركة.

إنَّه مجتمع جديد. . ومجتمع وليد. . ومجتمع متحرك دائماً في طريقه لتحرير « الإنسان »، . . كل الإنسان. . في « الأرض ». . كل الأرض من العبودية لغير الله، ولرفع هذا الإنسان عن ذلّة العبودية للطواغيت. . أياً كانت هذه الطواغيت. .

ومثل قضية التـزكية وطلب الإمـارة، واختيار الإمـام، واختيار أهـل الشورىٰ. . وما إليها. . قضايا كثيرة تُثار، ويطرقها الباحثون في الإسلام. . في الفراغ. . في هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه. . بتركيبه العضوي المختلف تماماً عن التركيب العضوي للمجتمع المسلم. . وبِقيمه وموازينه واعتباراته وأخلاقه ومشاعره وتصـوراته المختلفـة تمامـاً عن قيم المجتمع المسلم وموازينه واعتباراته وأخلاقه ومشاعره وتصوراته. .

أعمال البنوك وأساسها الربوي. . شركات التأمين وقاعدتها الربوية. . تحديد النسل وما أدري ماذا؟! إلى آخر هـذه « المشكلات » التي يشغـل « الباحثون » بها أنفسهم أو يجيبون فيها عن استفتاءات تُوجَّه إليهم. .

إنَّهم جميعاً ـ مع الأسف ـ يبدأون من نقطة البدء في المتاهة! يبدأون من افتراض أنَّ قواعد النظام الإسلامي وأحكامه سَيُجاء بها لتطبق على هذه المجتمعات الجاهلية الحاضـرة بتركيبهـا العضوي الحـاضر؛ فتنتقـل هذه المجتمعات إذن ـ متى طبقت عليها أحكام الإسلام ـ إلى الإسـلام! وهي تصورات مُضحكة لولا أنَّها مُحزنة!

الحقيقة إنَّ الفقه الإسلامي بكل أحكامه ليس هو الذي أنشأ المجتمع المسلم. إنَّما المجتمع المسلم بحركته ـ في مواجهة الجاهلية ابتداء ـ ثمَّ بحركته في مواجهة حاجة الحياة ثانياً، هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي مستمداً

من أُصول الشريعة الكلية . . والعكس لا يمكن أن يكون أصلاً!

إنَّ الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ، ولا يعيش في فراغ كذلك. . لا ينشأ في الأدمغة والأوراق؛ إنَّما ينشأ في واقع الحياة. وليست أية حياة. . إنَّما هي حياة المجتمع المسلم على وجه التحديد. . ومن ثمَّ لا بد أن يوجد المجتمع المسلم أولاً بتركيبه العضوي الطبيعي؛ فيكون هو الوسط الـذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي ويُطبق. . وعندئذٍ تختلف الأُمور جداً. .

وساعتها قد يحتاج ذلك المجتمع الخاص ـ بعد نشأته في مـواجهة الجاهلية وتحركه في مواجهة الحياة ـ إلى البنوك وشركات التأمين وتحديد النسل. . إلخ وقد لا يحتاج! ذلك أنَّنا لا نملك سلفاً أن نُقدر أصل حاجته، ولا حجمها، ولا شكلها، حتى نشرّع لها سلفاً! كما أنَّ ما لدينا من أحكام هذا الدين لا يُطابق حاجات المجتمعات الجاهلية ولا يُلبيها. . ذلك أنَّ هذا الدين لا يعترف ابتداء بشرعية وجود هذه المجتمعات الجاهلية ولا يرضىٰ ببقائها. ومن ثمَّ فهو لا يعني نفسه بالاعتراف بحاجاتها الناشئة من جاهليتها ولا بتلبيتها كذلك!

إنَّ المحنة الحقيقية لهؤلاء الباحثين أنَّهم يتصورون أنَّ هـذا الواقـع الجاهلي هو الأصل، الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه! ولكنَّ الأمر غير ذلك تماماً . . إنَّ دين الله هو الأصل الذي يجب على البشرية! أن تُطابق نفسها عليه؛ وأن تحوّر من واقعهـا الجاهلي وتُغيّـر حتى تَـتِمّ هذه المطابقة. . ولكن هذا التحوّر وهـذا التغيّر لا يَتمّـان عادة إلاَّ عن طـريق واحد. . هو التحرك ـ في وجه الجـاهلية ـ لتحقيق أُلـوهية الله في الأرض وربـوبيته وَحْـده للعباد، وتحـرير النـاس من العبوديـة للطاغوت، بتحكيم شريعة الله وحدها في حياتهم. .

وهذه الحركة لا بد أن تواجه الفتنة والأذىٰ والابتلاء. فيفتن من يفتن ويرتدّ من يرتدّ، ويصدق الله من يصدقه فيقضي نحبه ويستشهد، ويصبر من

يصبر ويمضي في حركته حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق، وحتى يُمكّن الله له في الأرض، وعندئذٍ فقط يقوم النظام الإسلامي، وقد انطبع المتحركون لتحقيقه بطابعه، وتميزوا بقيمه. . وعندئذٍ تكون لحياتهم مطالب وحاجات تختلف في طبيعتها وفي طرق تلبيتها عن حاجات المجتمعات الجاهلية ومطالبها وطرق تلبيتها. .

وعلى ضوء واقع المجتمع المسلم يومذاك تستنبط الأحكام؛ وينشأ فقه إسلامي حي متحرك - لا في فراغ - ولكن في وسط واقعي محدد المطالب والحاجات والمشكلات. . ومن ذا الذي يدرينا اليوم مثلاً أن يكون الناس في مجتمع مسلم تُجبىٰ فيه الزكاة وتُنفق في مصارفها، ويقوم فيه التراحم والتكافل بين أهل كل محلة، ثمَّ بين كل أفراد الأمَّة، وتقوم حياة الناس فيه على غير السّرف والترف والمخيلة والتكاثر. . إلى آخر مقومات الحياة الإسلامية. . من يدرينا أنَّ مجتمعاً كهذا سيكون في حاجة إلى شركات تأمين أصلاً؟! وعنده كل التأمينات والضمانات مع تلك الملابسات والقيم والتصورات؟! وإذا احتاج إلى نوع من التأمين فمن يدرينا أنَّه سيكون هو هذا النوع المعروف في المجتمع الجاهلي، المنبثق من حاجات هذا المجتمع الجاهلي وملابساته وقيمه وتصوراته؟! وكذلك من يدرينا أنَّ المجتمع المسلم المتحرك المجاهد سيكون في حاجة إلى تحديد النسل مثلاً؟ . . وهكذا. .

وإذا كنا لا نملك افتراض أصل حاجات المجتمع حين يكون مسلماً ولا حجم هذه الحاجات أو شكلها، بسبب اختلاف تركيبه العضوي عن تركيب المجتمع الجاهلي، واختلاف تصوراته ومشاعره وقيمه وموازينه. . فما هذا الضنىٰ في محاولة تحوير وتطوير وتغيير الأحكام المدونة لكي تطابق حاجات هي في ضمير الغيب، شأنها شأن وجود المجتمع المسلم ذاته!

إنَّ نقطة البدء في المتاهة - كما قلنا - هي افتراض أنَّ هذه المجتمعات

القائمة هي المجتمعات الإسلامية؛ وأنَّه سيجاء بأحكام الفقه الإسلامي من الأوراق لتطبق عليها، وهي بهذا التركيب العضوي ذاته، وبالتصورات والمشاعر والقيم والموازين ذاتها.

كما أنَّ أصل المحنة هو الشعور بأنَّ واقع هذه المجتمعات الجاهلية وتركيبها الحاضر هو الأصل الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه. وأن يحور ويطور ويغير في أحكامه ليلاحق حاجات هذه المجتمعات ومشكلاتها.. حاجاتها ومشكلاتها المنبثقة أصلاً من مخالفتها للإسلام ومن خروج حياتها جملة من إطاره!

ونحسب أنَّه قد آن للإسلام أن يستعلي في نفوس دعاته، فلا يجعلوه مجرد خادم للأوضاع الجاهلية، والمجتمعات الجاهلية، والحاجات الجاهلية. وأن يقولوا للناس ـ وللذين يستفتونهم بوجه خاص ـ تعالوا أنتم أولاً إلى الإسلام، وأعلنوا خضوعكم سلفاً لأحكامه.. أو بعبارة أخرىٰ.. تعالوا أنتم أولاً فادخلوا في دين الله، وأعلنوا عبوديتكم لله وحده، واشهدوا أن لا إله إلاَّ الله بمدلولها الذي لا يقوم الإيمان والإسلام إلاَّ به. وهو إفراد الله بألوهيته في الأرض كإفراده بالألوهية في السماء؛ وتقرير ربوبيته ـ أي حاكميته وسلطانه ـ وحده في حياة الناس بجملتها، وتنحية ربوبية العباد للعباد، بتنحية حاكمية العباد للعباد، وتشريع العباد للعباد.

وحين يستجيب الناس ـ أو الجماعة منهم ـ لهذا القول، فإنَّ المجتمع المسلم يكون قد بدأ أولىٰ خطواته في الوجود. وهذا المجتمع يكون حينئذٍ هو الوسط الواقعي الحي الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي الحي وينمو، لمواجهة حاجات ذلك المجتمع المستسلم لشريعة الله فعلاً..

فأمَّا قبل قيام هذا المجتمع فالعمل في حقل الفقه والأحكام التنظيمية هو مجرد خداع للنفس، باستنبات البذور في الهواء، ولن ينبت الفقه الإسلامي في الفراغ، كما أنَّه لن تنبت البذور في الهواء.

إنَّ العمل في الحقل « الفكري » للفقه الإسلامي عمل مريح! لأنَّه لا خَطَر فيه! ولكنه ليس عملاً للإسلام؛ ولا هو من منهج هذا الدين ولا من طبيعته! وخير للذين ينشدون الراحة والسلامة أن يشتغلوا بالأدب وبالفن أو بالتجارة! أمَّا الاشتغال بالفقه الآن على ذلك النحو بوصفه عملاً للإسلام في هذه الفترة فأحسب ـ والله أعلم ـ أنَّه مضيعة للعمر وللأجر أيضاً!

إنَّ دين الله يأبىٰ أن يكون مجرد مطية ذلول، ومجرد خادم مطيع، لتلبية هذا المجتمع الجاهلي الآبق منه، المتنكر له، الشارد عنه.. الذي يَسخر منه الحين بعد الحين باستفتائه في مشكلاته وحاجاته؛ وهو غير خاضع لشريعته وسلطانه..

إنَّ فقه هذا الدين وأحكامه لا تنشأ في فراغ، ولا تعمل في فراغ.. وإنَّ المجتمع المسلم الخاضع لسلطان الله ابتداء هو الذي صنع هذا الفقه وليس الفقه هو الذي صنع ذلك المجتمع.. ولن تنعكس الآية أبداً.

إنَّ خطوات النشأة الإسلامية ومراحلها هي دائماً واحدة؛ والانتقال من الجاهلية إلى الإسلام لن يكون يوماً ما سهلاً ولا يسيراً. ولن يبدأ أبداً من صياغة الأحكام الفقهية في الفراغ، لتكون مُعَدّة جاهزة يوم يقوم المجتمع الإسلامي والنظام الإسلام ولن يكون وجود هذه الأحكام المفصلة على « الجاهز » والناشئة في الفراغ هي نقطة البدء في التحول من الجاهلية إلى الإسلام. وليس الذي ينقص هذه المجتمعات الجاهلية لكي تتحول إلى الإسلام هو الأحكام الفقهية « الجاهزة »! وليست الصعوبة في ذلك التحول ناشئة عن قصور أحكام الفقه الإسلامي الحاضرة عن ملاحقة حاجات المجتمعات المتطورة.. إلى آخر ما يُخادع به بعضهم، وينخدع به بعضهم الآخر!

كلا! إنَّ الذي يحول دون تحول هذه المجتمعات الجاهلية إلى النظام الإسلامي هو وجود الطواغيت التي تأبىٰ أن تكون الحاكمية لله، فتأبىٰ أن

تكون الربوبية في حياة البشر والألوهية في الأرض لله وحده. وتخرج بذلك من الإسلام خروجاً كاملاً. يعد الحكم عليه من المعلوم من الدين بالضرورة. . ثمَّ هو بعد ذلك وجود جماهير من البشر تعبد أولئك الطواغيت من دون الله. . أي تدين لها وتخضع وتتبع ـ فتجعلها أرباباً متفرقة معبودة مطاعة. وتخرج هذه الجماهير بهذه العبادة من التوحيد إلى الشرك. . فهذا هو أخص مدلولات الشرك في نظر الإسلام. . وبهذا وذلك تقوم الجاهلية نظاماً في الأرض؛ وتعتمد على ركائز من ضلال التصور بقدر ما تعتمد على ركائز من القوة المادية. . وصياغة أحكام الفقه لا تواجه هذه الجاهلية ـ إذن ـ بوسائل مكافئة. إنَّما الذي يواجهها دعوة إلى الدخول في الإسلام مرة أخرىٰ؛ وحركة تواجه الجاهلية بكل ركائزها؛ ثمَّ يكون ما يكون من شأن كل دعوة للإسلام في وجه الجاهلية. ثمَّ يحكم الله بين من يسلمون وبين قومهم بالحق. . وعندئذٍ فقط يجيء دور أحكام الفقه، التي تنشأ نشأة طبيعية في هذا الوسط الواقعي الحي، وتواجه حاجات الحياة الواقعية المتجددة في هذا المجتمع الوليد، وفق حجم هذه الحاجات يومئذٍ وشكلها وملابساتها، وهي أمور كلها في ضمير الغيب ـ كما أسلفنا ـ ولا يمكن التكهن بها سلفاً، ولا يمكن الاشتغال بها من اليوم على سبيل الجدّ المناسب لطبيعة هذا الدين!

إنَّ هذا لا يعني ـ بحال ـ أنَّ الأحكام الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة ليست قائمة الآن فعلاً من الوجهة الشرعية. ولكنّه يعني فقط أنَّ المجتمع الذي شرعت هذه الأحكام له، والذي لا تطبق هذه الأحكام إلاَّ فيه ـ بل الذي لا تعيش هذه الأحكام إلاَّ به ـ ليس قائماً الآن فعلاً. ومن ثمَّ يصبح وجودها الفعلي مُعلقاً بقيام ذلك المجتمع. . ويبقىٰ الالتزام بها قائماً في عنق كل من يسلم من ذلك المجتمع الجاهلي ويتحرك في وجه الجاهلية لإقامة النظام الإسلامي، ويتعرض لما يتعرض له من يتحرك بهذا الدين في وجه الجاهلية وطواغيتها المتألهة، وجماهيرها الخاضعة للطواغيت الراضية بالشرك في الربوبية.

إنَّ إدراك طبيعة النشأة الإسلامية على هذا النحو لا يتغير، كلَّما قامت الجاهلية وقامت في وجهها محاولة إسلامية.. هو نقطة البدء في العمل الحقيقي البنَّاء لإعادة هذا الدين إلى الوجود الفعلي، بعد أن انقطع هذا الوجود منذ أن حلَّت شرائع البشر محل شريعة الله في خلال القرنين الأخيرين؛ وخَلا وجه الأرض من الوجود الحقيقي للإسلام؛ وإن بقيت المآذن والمساجد، والأدعية والشعائر؛ تُخدر مشاعر الباقين على الولاء العاطفي الغامض لهذا الدين؛ وتوهّمهم أنَّه لا يزال بخير؛ وهو يُمحىٰ من الوجود محواً!

إنَّ المجتمع المسلم وُجِدَ قبل أن توجد الشعائر، وقبل أن توجد المساجد.. وجد من يوم أن قيل للناس: اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره، فَعَبدوه. ولم تكن عبادتهم له ممثلة في الشعائر، فالشعائر لم تكن بعد قد فرضت.. إنَّما كانت عبادتهم له ممثلة في الدينونة له وحده ـ من ناحية المبدأ فلم تكن بعد قد نزَّلت شرائع! ـ وحين أصبح لهؤلاء الذين قرروا الدينونة لله وحده سلطان مادي في الأرض تنزلت الشرائع؛ وحين واجهوا الحاجات الحقيقية لحياتهم هم استنبطت بقية أحكام الفقه، إلى جانب ما ورد بنصه في الكتاب والسنَّة..

وهذا هو الطريق وحده؛ وليس هناك طريق آخر..

وليت هنالك طريقاً سهلاً عن طريق تحوّل الجماهير بجملتها إلى الإسلام منذ أول وهلة في الدعوة باللسان، وببيان أحكام الإسلام! ولكن هذه إنَّما هي « الأمانيّ » فالجماهير لا تتحول أبداً من الجاهلية وعبادة الطواغيت، إلى الإسلام وعبادة الله وحده إلَّا عن ذلك الطريق الطويل البطيء الذي سارت فيه دعوة الإسلام في كل مرة.. والذي يبدؤه فرد، ثمَّ تتبعه طليعة، ثمَّ تتحرك هذه الطليعة في وجه الجاهلية لتعاني ما تعاني حتى يحكم الله بينها وبين قومها بالحق ويمكِّن لها في الأرض.. ثمَّ.. يدخل الناس في دين الله أفواجاً.. ودين الله هو منهجه وشرعه ونظامه الذي

لا يرضىٰ من الناس ديناً غيره: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ [آل عمران: ٨٥]. .

ولعلَّ هذا البيان أن يكشف لنا عن حقيقة الحكم في موقف يوسف ـ عليه السَّلام ـ.

إنَّه لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية. كما أنَّه كان يرىٰ أنَّ الظروف تُمَكِّن له من أن يكون حاكماً مطاعاً لا خادماً في وضع جاهلي.

وكان الأمر كما توقع فَتَمكَّن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره في مصر في أيام حكمه. وقد توارىٰ العزيز وتوارىٰ الملك تماماً. .

* * *

ثمَّ نعود بعد هذا الاستطراد إلى صلب القصة وإلى صلب السياق. إنَّ السياق لا يثبت أنَّ الملك وافق. فكأنَّما يقول: إنَّ الطلب تضمن الموافقة! زيادة في تكريم يوسف، وإظهار مكانته عند الملك. فيكفي أن يقول ليجاب، بل ليكون قوله هو الجواب. . ومن ثمَّ يحذف ردّ الملك، ويدع القارىء يفهم أنَّه أصبح في المكان الذي طلبه.

ويؤيد هذا الذي نقوله تعقيب السياق:

﴿وكذلك مكنَّا ليوسف في الأرض يتبوَّأ منها حيث يشاء نُصيب برحمتنا من نشاء. ولا نضيع أجر المحسنين. . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتَّقون﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧]. .

فعلىٰ هذا النحو من إظهار براءة يوسف، ومن إعجاب الملك به، ومن الاستجابة له فيما طلب. . على هذا النحو مكنَّا ليوسف في الأرض، وثبتنا قَدميه، وجعلنا له فيها مكاناً ملحوظاً. والأرض هي مصر. أو هي هذه الأرض كلها باعتبار أنَّ مصر يومذاك أعظم ممالكها: ﴿يتبوَّأ منها حيث

يشاء﴾.. يتّخذ منها المنزل الذي يريد، والمكان الذي يريد، والمكانة التي يريد. في مقابل الجبّ وما فيه من مخاوف، والسجن وما فيه من قيود.

﴿**نُصيب برحمتنا من نشاء**﴾ فنبدله من العسر يسراً، ومن الضيق فَرجاً، ومن الخوف أمناً، ومن القيد حرية، ومن الهوان على الناس عِزّاً ومقاماً علياً.

﴿**ولا نضيع أجر المحسنين**﴾ الذين يُحسنون الإيمان بالله، والتوكل عليه، والاتجاه إليه، ويُحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس.. هذا في الدنيا.. ﴿**ولأجر الآخرة خير للّذين آمنوا وكانوا يتّقون**﴾..

فلا ينقص منه المتاع في الدنيا وإن كان خيراً من متاع الدنيا، متى آمن الإنسان واتّقىٰ. فاطمأنّ بإيمانه إلى ربه، وراقبه بتقواه في سره وجهره. وهكذا عوَّض الله يوسف عن المحنة، تلك المكانة في الأرض، وهذه البشرى في الآخرة جزاءً وفاقاً على الإيمان والصبر والإحسان.

الحلقة الخامسة:

وجاء إخوة يوسف :

ودارت عجلة الزمن، وطوىٰ السياق دوراتها بما كان فيها طوال سنوات الرخاء، فلم يذكر كيف كان الخصب، وكيف زَرَع الناس. وكيف أدار يوسف جهاز الدولة. وكيف نَظَم ودبَّر وادَّخر. كأنَّ هذه كلها أُمور مُقررة بقوله: ﴿**إنّي حفيظ عليم**﴾ [يوسف: ٥٥]..

وكذلك لم يذكر مقدم سني الجدب، وكيف تلقاها الناس، وكيف ضاعت الأرزاق.. لأنَّ هذا كله ملحوظ في رؤيا الملك وتأويلها: ﴿**ثمَّ يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدَّمتم لهنَّ إلاَّ قليلاً ممَّا تُحصنون**﴾ [يوسف: ٤٨]..

كذلك لم يبرز السياق الملك ولا أحداً من رجاله بعد ذلك في السورة

كلها. كأنَّ الأمر كله قد صار ليوسف. الذي اضطلع بالعبء في الأزمة الخانقة الرهيبة. وأبرز يوسف وحده على مسرح الحوادث، وسَلَّط عليه كل الأضواء. وهذه حقيقة واقعية استخدمها السياق استخداماً فنياً كاملاً في الأداء. أمَّا فعل الجدب فقد أبرزه السياق في مشهد إخوة يوسف، يجيئون من البَدو من أرض كنعان البعيدة يبحثون عن الطعام في مصر. ومن ذلك نُدرك اتساع دائرة المجاعة، كما ندرك كيف وقفت مصر ـ بتدبير يوسف ـ منها، وكيف صارت محط أنظار جيرانها ومخزن الطعام في المنطقة كلها. وفي الوقت ذاته تمضي قصة يوسف وإخوته وهي سمة فنية تُحقق هدفاً دينياً في السياق.

﴿وجاء إخوة يوسف، فدخلوا عليه، فعرفهم وهم لهُ منكرون. ولمَّا جهَّزهم بجهازهم قال: ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم، ألا تَرَون أنِّي أُوفي الكيل وأنا خير المنزلين؟ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون. قالوا: سنراود عنه أباه وإنَّا لفاعلون. وقال لفتيانه: اجعلوا بضاعتهم في رحالهم، لعلَّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلىٰ أهلهم لعلَّهم يرجعون﴾ [يوسف: ٥٨ ـ ٦٢]. .

ويدل تصرف يوسف في سني الخصب والجدب على مهارة واضحة في الإدارة والاقتصاد، فقد أشرف على المالية والتموين خمس عشرة سنة، لا على تموين مصر وحدها. بل على تموين البلاد القريبة المجاورة، التي أجدبت كذلك، وجاءت مصر تستجدي الخبز والحياة سبع سنين. .

« وتمر الأيام وتبدأ السنون صعوبة وقحطاً وشدة، وتكون مصر مقصد البلاد المجاورة، ويجيء إخوة يوسف، ما أعظم حكم الله!! سبحانك ربنا!! تختار ما اخترتَ لنا لا نستبدل به غيره. . يجيء إخوة يوسف، وتلك لحظة من اللحظات الفريدة في حياة يوسف ـ عليه السَّلام ـ»[1].

---

(١) القصص القرآني: ٤٠٥.

لقد اجتاح الجدب والمجاعة أرض أرض كنعان وما حولها. فاتَّجه إخوة يوسف ـ فيمن يتجهون إلى مصر. وقد تسامع الناس بما فيها من فائض الغلة منذ السنوات السمان.. ودخلوا على أخيهم وهو في علياء المجد وذروة السلطان، وفي مظهر لم يروه من قبل ولم يسمعوا بمثله، فهم قد عاشوا حياتهم في البادية يسيمون أنعامهم ويرعون أغنامهم، ولم يروا من مظاهر المدنية والحضارة شيئاً، وهٰذا المظهر العجيب الذي يرون يوسف فيه، والذي يتجاوز الحقيقة إلى الخيال في تقديرهم، يجعل الدهشة تحجب عنهم صورة أخيهم فيرونه ولا يدركون من أمره شيئاً. ولا يتذكرون ملامحه وسماته التي طالما رأوها وملأوا منها أبصارهم ومداركهم، ومن أجل ذلك فإنَّهم لم يعرفوه[1].

﴿وجاء إخوة يوسف، فدخلوا عليه، فعرفهم وهم له منكرون﴾..

ها نحن أولاء نشهدهم يدخلون على يوسف، وهم لا يعلمون. إنَّه يعرفهم فهم هم لم يتغيروا كثيراً.. إنَّها البداية التي كان يترقَّبها، يعرفهم ولكنه يتمالك نفسه، ويستطيع رغم كل ما يتفاعل فيها أن يُخفي الأمر، وهو موقف لا يَستطيعُه كثير من الناس، يا للحصافة والحكمة!! ويا لأصحاب النهىٰ وأولي الألباب!![2]

أمَّا يوسف فإنَّ خيالهم لا يتصور قط أنَّه ذاك! وأين الغلام العبراني الصغير الذي ألقوه في الجبِّ منذ عشرين عاماً أو تزيد[3] من عزيز مصر شبه المتوج في سنّه وزيّه وحَرسه ومهابته وخدمه وحشمه وهيله وهيلمانه؟

ومن ناحية أُخرىٰ فإنَّهم لم يكونوا يتوقعون أن يلتقوا به يوماً من الأيام،

---

(١) تاريخ الأنبياء: ١٤٩.

(٢) القصص القرآني: ٤٠٥.

(٣) وهو المتوقع بعد سنوات الإقامة في بيت العزيز وبضع سنين في السجن وسبع سنوات رخاء وبعض سني الجدب حتى جاؤوا.

ذلك بأنَّه ـ في نظرهم ـ قد انتهىٰ أمره، وانقطع خبره. وألقىٰ به الزمن في زوايا النسيان، ومن هنا صعبت عليهم معرفته . .

ولم يكشف لهم يوسف عن نفسه، فلا بد من دروس يتلقونها: **﴿فدخلوا عليه وهم له مُنكرون﴾** . .

وقد طوىٰ القرآن بعض الأحداث التي لا تتعلق بها العبرة، ولكن الذي يُفهم من السياق أنَّه سألهم وقد رآهم كثراً فَعَرَّفوه أنَّهم إخوة، ولعلَّه أبدىٰ استغرابه لذلك أنتم عشرة إخوة؟

وندرك من السياق أنَّه أنزلهم منزلاً طيباً، آواهم وأكرم وِفادتهم، ثمَّ أخذ في إعداد الدرس الأول:

﴿ولمَّا جهزهم بجهازهم قال: ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم﴾ . .

فنفهم من هذا أنَّه تركهم يأنسون إليه، واستدرجهم حتى ذكروا له مَنْ هم على وجه التفصيل، وأنَّ لهم أخاً أصغر من أبيهم لم يحضر معهم لأنَّ أباه يحبه ولا يطيق فراقه. فلمَّا جهزهم بحاجات الرحلة قال لهم إنَّه يريد أن يرىٰ أخاهم هذا . .

وقد رأيتم أنَّني أوفي الكيل للمشترين. فسأُوفيكم نصيبكم حين يجيء معكم؛ ورأيتم أنَّني أُكرِم النزلاء فلا خوف عليه بل سيلقىٰ مني الإكرام المعهود **﴿ألا ترون أنِّي أُوفي الكيل وأنا خير المنزلين؟﴾** . .

إنِّي سأُجهزكم بجهازكم، وأثقل بالطعام أحمالكم، على أن تعودوا ومعكم أخوكم الذي خلفتموه عند أبيكم، ليكون شهيداً عليكم، مُصدقاً لأقوالكم، وسأُضاعف إكرامكم، وأزيدكم حمل بعير غلاتكم؛ هذا هو شرطي، وذلك هو عهدي **﴿فإن لم تأتوني به فلا كَيلَ لكم عندي ولا تقربون﴾**.

ولما كانوا يعلمون كيف يضنّ أبوهم بأخيهم الأصغر ـ وبخاصة بعد

ذهاب يوسف ـ فقد أظهروا أنَّ الأمر ليس ميسوراً، وإنَّما في طريقه عقبات من ممانعة أبيهم. قالوا: أيُّها العزيز؛ ما نظن أنَّ أبانا يأذن لسفره، أو يصبُر على فراقه؛ ولكننا سنراوده عنه، ونتلطف إليه، وإنَّا لفاعلون: **﴿قالوا: سنراود عنه أباه وإنَّا لفاعلون﴾**..

إنَّهم سيحاولون إقناعه، مع توكيد عزمهم ـ على الرغم من هذه العقبات ـ على إحضاره معهم حين يعودون **﴿سنراود عنه أباه وإنَّا لفاعلون﴾**..

ولفظ «نراود» يصوِّر الجهد الذي يعلمون أنَّهم باذلوه..

أمَّا يوسف فقد أمر غلمانه أن يدسُّوا البضاعة التي حضر بها إخوته ليستبدلوا بها القمح والعلف. وقد تكون خليطاً من نقد ومن غَلاَّت صحراوية أخرىٰ من غلات الشجر الصحراوي، ومن الجلود والشعر وسواها ممَّا كان يستخدم في التبادل في الأسواق.. أَمَر غلمانه بدسِّها في رحالهم ـ والرحل متاع المسافر ـ لعلَّهم يعرفون حين يرجعون أنَّها بضاعتهم التي جاؤوا بها.

﴿وقال لفتيانه: اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلَّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلَّهم يرجعون﴾.

* * *

بين يعقوب وأبنائه :

وندع يوسف في مصر. لنشهد يعقوب وبَنيه في أرض كنعان. دون كلمة واحدة عن الطريق وما فيه:

﴿فلمَّا رجعوا إلى أبيهم قالوا: يَا أَبَانا مُنع منا الكيل، فأرسل معنا أخانا نكتل، وإنَّا له لحافظون﴾ [يوسف: ٦٣]..

ويبدو أنَّهم في دخلتهم على أبيهم، وقبل أن يفكّوا متاعهم، عاجلوه بأنَّ الكيل قد تقرر مَنعه عنهم ما لم يأتوا عزيز مصر بأخيهم الصغير. فهم

يطلبون إليه أن يُرسل معهم أخاهم الصغير ليكتالوا له ولهم وهم يَعدون بحفظه. . ولا بد أنَّ هذا الوعد قد أثار كوامن يعقوب. فهو ذاته وَعْدهم له في يوسف! فإذا هو يجهر بما أثاره الوعد من شجونه:

﴿قال: هل آمنكم عليه إلَّا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾! [يوسف: ٦٤]. .

فخلوني من وعودكم وخلوني من حفظكم. .

لقد تسربت المخاوف إلى نفس يعقوب وقال لهم: لا ينبغي لي أن آمنكم عليه بعد ما جربتكم مع أخيه يوسف وما وقع منكم من إهمال شنيع أدّىٰ إلى ضياعه. . فإذا أنا طلبت الحفظ لولدي والرحمة بي. . ﴿فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾! [يوسف: ٦٤]. .

وبعد الاستقرار من المشوار، والراحة من السفر فتحوا أوعيتهم لِيُخرجوا ما فيها من غلال فإذا هم يَجدون فيها بضاعتهم التي ذهبوا يشترون بها، ولم يجدوا في رحالهم غلالاً!

إنَّ يوسف لم يُعطهم قمحاً، إنَّما وضع لهم بضاعتهم في رحالهم. فلمَّا عادوا: يا أبانا مُنِعَ مِنّا الكيل، وفتحوا رحالهم فوجدوا بضاعتهم. وكان ذلك ليضطرهم إلى العودة بأخيهم، وكان هذا بعض الدرس الذي عليهم أن يأخذوه.

على أية حال لقد اتخذوا من ردّ بضاعتهم إليهم دليلاً على أنَّهم غير باغين فيما يطلبون من استصحاب أخيهم ولا ظالمين:

﴿قالوا: يَـٰأبانا ما نبغي. هـٰذه بضاعتنا ردَّت إلينا﴾ [يوسف: ٦٥]. .

ثمَّ أخذوا يُحرجونه بالتلويح له بمصلحة أهلهم في الحصول على الطعام: ﴿ونمير أهلنا﴾. . والميرة الزاد، ويؤكدون له عزمهم على حفظ

أخيهم. . ﴿ونحفظ أخانا﴾. . ويرغبونه بزيادة الكيل لأخيهم: ﴿ونزداد كيل بعير﴾ وهو ميسور لهم حين يرافقهم ﴿وذلك كيل يسير﴾ [يوسف: ٦٥]. .

ويبدو من قولهم: ﴿ونزداد كيل بعير﴾ أنَّ يوسف ـ عليه السَّلام ـ كان يُعطي كل واحد وسق بعير ـ وهو قدر معروف ـ ولم يكن يبع كل مشتر ما يريد. وكان ذلك من الحكمة في سنوات الجدب، كي يظل هناك قوت للجميع. .

ولا شك أنَّ يعقوب ـ عليه السَّلام ـ حينما وَضَحَ له أنَّ أبناءه لن يُكال لهم حتى يأخذوا أخاهم معهم. ونظراً إلى الظروف العصيبة التي تحيط بهم من القحط والجدب الذي يهددهم بالفناء، لم يجد بُدّاً من التسليم بما طلبه أبناؤه على ما فيه من آلام نفسية مضنية.

واستسلم الرجل على كُره؛ ولكنَّه جعل لتسليم ابنه الباقي شرطاً:

﴿قال: لن أُرسله معكم حتّىٰ تُؤتون موثقاً من الله: لتأتنَّني به إلاَّ أن يُحاط بكم﴾ [يوسف: ٦٦]. .

أي لتقسمنَّ لي بالله قسماً يربطكم، أن تردُّوا عليَّ ولدي، إلاَّ إذا غُلبتم على أمركم غَلباً لا حيلة لكم فيه ولا تجدي مدافعتكم عنه: ﴿إلاَّ أن يُحاط بكم﴾. . وهو كناية عن أخذ المسالك كلها عليهم. . إلاَّ أن يحاط بهم قدرٌ لم يكن في الحُسبان، أو يَفْجأهم مكروه من الحدثان، وأخذوا على أنفسهم الميثاق. فأقسموا: ﴿فلمَّا أتوه موثقهم قال: الله على ما نقول وكيل﴾ [يوسف: ٦٦]. .

وصية يعقوب:

وبعد هذا الموثق جعل الرجل يوصيهم بما خَطَر له في رحلتهم القادمة ومعهم الصغير العزيز:

﴿وقال: يَا بنيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة.

وما أُغني عنكم من الله شيئاً. إن الحكم إلاَّ لله، عليه توكَّلت وعليه فليتوكَّل المتوكلون﴾ [يوسف: ٦٧]. .

وكانت وصية يعقوب لبنيه حين أزمعوا السفر إلى مصر وصية رائعة تجمع بين حنان الأُبوّة وحكمة النبوّة. . فقد حملته عاطفة الأُبوّة على أن يطلب منهم ألاَّ يدخلوا مصر من باب واحد حتى لا يُلفتوا الأنظار إليهم، فتتجه إليهم سهام الحقد والحسد. . أو حتى لا يُثير اجتماعهم هذا تساؤلات ذوي الفضول وأصحاب الأغراض الدنيا، فيدبروا لهم المكائد، ويضعوا في طريقهم العقبات والعراقيل. . ولكن حكمة النبوة جعلته يستدرك لما قال، ويلفت أنظار بَنيه إلى حكمة الله فيما تجري به الأقدار، وأنَّ الحَذَر لا يغني عن الإنسان فتيلاً إذا أراد الله به سوءاً ومكروهاً، وإنَّما ينبغي أن يتخذ الإنسان حيطته فيما يعرض له ثمَّ يدع مصيره في النهاية إلى حكمة واجب الوجود المهيمن على كل موجود(١).

ونقف هنا أمام قول يعقوب ـ عليه السَّلام ـ: ﴿إن الحكم إلاَّ لله﴾. .

وواضح من سياق القول أنَّه يعني هنا حكم الله القَدَري القهري الذي لا مفرَّ منه ولا فكاك. وقضاءه الإلـهي الذي يجري به قَدَره فلا يملك الناس فيه لأنفسهم شيئاً. وهذا هو الإيمان بالقدر خيره وشره.

وحكم الله القـدري يمضي في النـاس على غيـر إرادة منهم ولا اختيار. . وإلى جانبه حكم الله الذي يُنفذه الناس عن رضىً منهم واختيار. وهو الحكم الشرعي المُتمثل في الأوامر والنواهي. . وهذا كذلك لا يكون إلاَّ لله. شأنه شأن حكمه القدري، باختلاف واحد: هو أنَّ الناس يُنفذونه مختارين أو لا ينفذونه. فيترتب على هذا أو ذاك نتائجه وعواقبه في حياتهم الدنيا وفي جزائهم في الآخرة. ولكنَّ الناس لا يكونوا مسلمين حتى يختاروا حكم الله هذا وينفذونه فعلاً راضين.

---

(١) تاريخ الأنبياء: ١٤٥.

وسار الركب، ونفذوا وصية أبيهم:

﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم، ما كان يغني عنهم من الله من شيء - إلَّا حاجة في نفس يعقوب قضاها - وإنَّه لذو علم لما علَّمناه، ولـٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٦٨]..

فيمَ كانت الوصية؟ لِمَ قال أبوهم: لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة؟

تضرب الروايات والتفاسير في هذا وتبدىء وتعيد، بلا ضرورة، بل ضد ما يقتضيه السياق القرآني الحكيم. فلو كان السياق يحب أن يكشف عن السبب لقال. ولكنه قال فقط - إلَّا حاجة في نفس يعقوب قضاها - فينبغي أن يقف المفسرون عندما أراده السياق، احتفاظاً بالجو الذي أراده. والجو يوحي بأنَّه كان يخشىٰ شيئاً عليهم، ويرىٰ في دخولهم من أبواب متفرقة اتّقاءً لهذا الشيء مع تسليمه بأنَّه لا يغني عنهم من الله من شيء. فالحكم كله إليه، والاعتماد كله عليه. إنَّما هو خاطر شعر به، وحاجة في نفسه قضاها بالوصية، وهو على علم بأنَّ إرادة الله نافذة. فقد علَّمه الله هذا فتعلَّم **﴿ولـٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾**..

ثمَّ ليكن هذا الشيء الذي كان يخشاه هو العين الحاسدة، أو هي غيرة الملك من كثرتهم وفتوتهم. أو هو تتبع قطاع الطريق لهم. أو كائناً ما كان فهو لا يزيد شيئاً في الموضوع. سوىٰ أن يجد الرواة والمفسرون باباً للخروج من الجو القرآني المؤثر إلى قال وقيل، ممَّا يذهب بالجو القرآني كله في كثرة الأحايين!

فَلْنَطْوِ نحن الوصية والرحلة كما طواها السياق، لنلتقي بإخوة يوسف في المشهد التالي بعد الوصول.

* * *

مشهد مثير :

﴿ولمَّا دخلوا على يوسف آوىٰ إليه أخاه. قال: إنِّي أنا أخوك، فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾ [يوسف: ٦٩]..

ونجد السياق هنا يعجل بضم يوسف لأخيه في المأوىٰ، وإطلاعه على أنَّه أخوه؛ ودعوته لأن يترك من خاطره ذكرىٰ ما فعله إخوته به من قبل، وهي ذكرىٰ لا بد كان يبتئس لها الصغير كلما عَلِمها من البيت الذي كان يعيش فيه. فما كان يمكن أن تكون مكتومة عنه في وَسَطه في أرض كنعان. يعجل السياق بهذا، بينما الطبيعي والمفهوم أنَّه هذا لم يحدث فور دخولهم على يوسف. ولكن بعد أن اختلىٰ يوسف بأخيه. ولكن هذا ولا شك كان أول خاطر ساور يوسف عند دخولهم عليه، وعند رؤيته لأخيه، بعد الفراق الطويل.

ومن ثمَّ جعله السياق أول عمل لأنَّه كان أول خاطر. وهذه من دقائق التعبير في هذا الكتاب العجيب!

ويطوي السياق كذلك فترة الضيافة، وما دار فيها بين يوسف وإخوته ـ ليعرض **مشهد الرحيل الأخير**. فنطلع على تدبير يوسف ليحتفظ بأخيه، ريثما يتلقىٰ إخوته درساً أو دروساً ضرورية لهم. وضرورية للناس في كل زمان ومكان:

﴿فلمَّا جهَّزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه؛ ثمَّ أذَّن مؤذن: أيَّتها العير إنَّكم لسارقون﴾ [يوسف: ٧٠]..

وهو مشهد مثير، حافل بالحركات والانفعالات والمفاجآت، كأشد ما تكون المشاهد حيوية وحركة وانفعالاً، غير أنَّ هذا صورة من الواقع يعرضها التعبير القرآني هذا العرض الحي الأخّاذ.

فمن وراء الستار يدسّ يوسف كأس الملك ـ وهي عادة من الذهب ـ وقيل: إنَّها كانت تستخدم للشراب، ويستخدم قعرها الداخل المُجوف من

الناحية الأُخرىٰ في كيل القمح، لندرته وعزته في تلك المجاعة. يدسها في الرُّحل المخصص لأخيه، تنفيذاً لتدبير خاص ألهمه الله لـه وسَنعلمه بعـد قليل.

ثمَّ ينادي مناد بصوت مرتفع، في صيغة إعلان عام وهم مُنصرفون:

﴿أيَّتها العير إنَّكم لسارقون﴾ . .

ويرتاع إخوة يوسف لهذا النداء الـذي يتهمهم بالسـرقة ـ وهم أبنـاء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ فيعودون أدراجهم يتبينون الأمر المريب:

﴿قالوا ـ وأقبلوا عليهم ـ ماذا تفقدون؟﴾ [يوسف: ٧١] . .

قال الغلمان الذين يتولون تجهيز الرِحَال، أو الحُراس ومنهم هذا الذي أذاع بالإعلان:

﴿قالوا: نفقد صواع الملك﴾ [يوسف: ٧٢] . .

وأعلن المؤذن أنَّ هناك مكافأة لمن يحضره متطوعاً. وهي مكافأة ثمينة في هذه الظروف: **﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾** من القمح العزيز **﴿وأنا به زعيم﴾** . . أي كفيل. ولكنَّ القوم مُستيقنون من براءتهم، فهم لم يسرقوا، وما جاؤوا ليسرقوا وليجترحوا هذا الفساد الذي يخلخل الثقة والعلاقات في المجتمعات، فهم يُقسمون واثقين:

﴿قالوا: تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ . . فقد علمتم من حالنا ومظهرنا ونَسَبنا أنَّنا لا نجترح هذا.

﴿وما كنَّا سارقين﴾ [يوسف: ٧٣] . . أصلاً فما يقـع منا مثـل هذا الفعل الشنيع.

قال الغلمان أو الحراس: **﴿فما جزاؤه إن كنتم كاذبين؟﴾** [يوسف: ٧٤] . .

وهنا ينكشف طرق التدبير الذي ألهمه الله يوسف. فقد كان المتبع في

دين يعقوب: أن يُؤخذ السارق رهينة أو أسيراً أو رقيقاً في مقابل ما يسرق. ولما كان إخوة يوسف مُوقنين بالبراءة، فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنَّه سارق. ذلك ليتم تدبير الله ليوسف وأخيه:

﴿قالوا: جزاؤه من وُجِدَ في رَحله فهو جزاؤه. كذلك نجزي الظَّالمين﴾ [يوسف: ٧٥].. وهذه هي شريعتنا نحكمها في السارق. والسارق من الظالمين.

كل هذا الحوار كان على منظر ومسمع من يوسف. فأمر بالتفتيش. وأرشدته حصافته إلى أن يبدأ بِرحالهم قبل رَحل أخيه، كي لا يثير شبهة في نتيجة التفتيش:

﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه. ثمَّ استخرجها من وعاء أخيه﴾ [يوسف: ٧٦]..

ويدعنا السياق نتصور الدهشة بالمفاجأة العنيفة لأبناء يعقوب الموقنين ببراءتهم الحالفين، المُتَحَدِّين.. فلا يذكر شيئاً عن هذا، بل يتركه يتملّاه الخيال على الصورة التي تكمل رسم المشهد بانفعالاته.. بينما يأخذ في التعقيب ببعض مرامي القصة، ريثما يَضيق النظارة وأبناء يعقوب ممَّا هم فيه:

﴿كذلك كدنا ليوسف﴾.. أي كذلك دبَّرنا له هذا التدبير الدقيق.. **﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾** [يوسف: ٧٦]..

فلو حكّم شريعة الملك ما تمكن من أخذ أخيه، إنَّما كان يعاقب السارق على سرقته، دون أن يستولي على أخيه كما استولىٰ عليه بتحكيم إخوته لدينهم هم. وهذا هو تدبير الله الذي ألهم يوسف أسبابه. وهو كيد الله له.

والكيد يطلق على التدبير في الخفاء للخير أو للشر سواء. وإن كان

الشر قد غَلَب عليه. وظاهر الأمر هنا أنَّه شر يحلّ بأخيه وهو شر يحل بإخوته لإحراجهم أمام أبيه. وهو سوء - ولو مؤقتاً - لأبيه. فلهذا اختار تسميته كيداً على إجمال اللفظ وبالإلماع إلى ظاهره. وهو من دقائق التعبير.

﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ . . **﴿إلَّا أن يشاء الله﴾** . . فيدبّر مثل هذا التدبير الذي رأيناه.

ويتضمن التعقيب الإشارة إلى ما ناله يوسف من رفعة: **﴿نرفع درجات من نشاء﴾** . . وإلى ما ناله من علم، مع التنبيه إلى أنَّ علم الله هو الأعلىٰ: **﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾** [يوسف: ٧٦] . . وهو احتراس لطيف دقيق.

ولا بد أن نقف أمام التعبير القرآني الدقيق العميق: **﴿كذلك كدنا ليوسف. . ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك. .﴾** [يوسف: ٧٦] . .

إنَّ هذا النص يحدد مدلول كلمة « الدين » - في هذا الموضع - تحديداً دقيقاً. . إنَّه يعني: نظام المَلك وشرعه. . فإنَّ نظام الملك وشرعه ما كان يجعل عقوبة السارق هو أَخْذه في جزاء سرقته. إنَّما هذا كان نظام يعقوب وشريعة دينه. وقد ارتضىٰ إخوة يوسف تحكيم نظامهم هم وشريعتهم، فَطَبَّقها يوسف عليهم عندما وَجَد صواع الملك في رحل أخيه. . وعبر القرآن الكريم عن النظام والشريعة بأنَّها « الدين ».

هذا المدلول القرآني الواضح هو الذي يغيب في جاهلية القرن العشرين عن الناس جميعاً. سواء منهم من يدّعون أنفسهم مسلمين وغيرهم من الجاهليين!

إنَّهم يقصرون مدلول « الدين » على الاعتقاد والشعائر. . ويعدون كل من يعتقد في وحدانية الله وصدق رسوله ويؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره؛ ويؤدي الشعائر المكتوبة. . داخلاً في «دين الله» مهما تكن دينونته بالطاعة والخضوع وإقراره بالحاكمية لغير الله من الأرباب

المتفرقة في الأرض.. بينما النص القرآني هنا يحدد مدلول «دين الملك» بأنَّه نظام الملك وشريعته. وكذلك «دين الله» فهو نظامه وشريعته.

إنَّ مدلول «دين الله» قد هزل وانكمش حتى صار لا يعني في تصور الجماهير الجاهلية إلاَّ الاعتقاد والشعائر.. ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم ونوح إلى محمَّد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

لقد كان يعني دائماً: الدينونة لله وحده، بالتزام ما شرّعه، ورفض ما يشرعه غيره. وإفراده ـ سبحانه ـ بالألوهية في الأرض مثل إفراده بالألوهية في السماء؛ وتقرير ربوبيته وحده للناس: أي حاكميته وشرعه وسلطانه وأمره.

وكان مفرق الطريق دائماً بين من هم في دين « الله » ومن هم في «دين الملك» أنَّ الأولين يدينون لنظام الله وشرعه وحده، وأنَّ الآخرين يدينون لنظام الملك وشرعه. أو يُشركون فيدينون لله في الاعتقاد والشعائر، ويدينون لغير الله في النظام والشرائع!

وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة، ومن بديهيات العقيدة الإسلامية تماماً.

وبعض المترفقين بالناس اليوم يتلمسون لهم عذراً في أنَّهم يجهلون مدلول كلمة «دين الله» وهم من ثمَّ لا يصرون ولا يحاولون تحكيم شريعة الله وحدها بوصفها هي « الدين ». وأنَّ جَهلهم هذا بمدلول الدين يعفيهم من أن يكونوا جاهليين مشركين!

وأنا لا أتصور كيف أنَّ جهل الناس ابتداء بحقيقة هذا الدين يجعلهم في دائرة هذا الدين!

إنَّ الاعتقاد بحقيقة فرع عن معرفتها. فإذا جهل الناس حقيقة عقيدة فكيف يكونون معتنقين لها؟ وكيف يحسبون من أهلها وهم لا يعرفون ابتداء مدلولها؟ إنَّ هذا الجهل قد يعفيهم من حساب الآخرة، أو يُخفف عنهم العذاب فيها؛ ويُلقي بتبعاتهم وأوزارهم على كاهل من لا يُعلمونهم حقيقة

هذا الدين وهم يعرفونها. . ولكن هذه مسألة غيبية متروك أمرها لله، والجدل في الجزاء الأخروي لأهل الجاهلية عامة ليس وراءه كبير طائل. وليس هو الذي يعنينا نحن البشر الذي ندعو إلى الإسلام في الأرض!

إنَّ الذي يعنينا هو تقرير حقيقة الدين الذي فيه الناس اليوم. . إنَّه ليس دين الله قطعاً. فدين الله هو نظامه وشرعه وفق النصوص القرآنية الصريحة. فمن كان في نظام الله وشرعه فهو في «دين الله». ومن كان في نظام الملك وشرعه فهو في «دين الملك» ولا جدال في هذا.

والذين يجهلون مدلول الدين لايمكن أن يكونوا معتقدين بهذا الدين. لأنَّ الجهل هنا وارد على أصل حقيقة الدين الأساسية. والجاهل بحقيقة هذا الدين الأساسية لا يمكن عقلاً وواقعاً أن يكون مُعتقداً به. إذ الاعتقاد فرع عن الإدراك والمعرفة. . وهذه بديهية. . وخير لنا من أن ندافع عن الناس - وهم في غير دين الله - ونتلمس لهم المعاذير، ونحاول أن نكون أرحم بهم من الله الذي يقرر مدلول دينه وحدوده!. . خير لنا من هذا كله أن نشرع في تعريف الناس حقيقة مدلول «دين الله» ليدخلوا فيه. . أو يرفضوه. .

هذا خير لنا وللناس أيضاً. . خير لنا لأنَّه يعفينا من تبعة ضلال هؤلاء الجاهلين بهذا الدين، الذي ينشأ عن جهلهم به عدم اعتناقه في الحقيقة. . وخير للناس لأنَّ مواجهتهم بحقيقة ما هم عليه - وأنَّهم في دين الملك لا في دين الله - قد تهزهم هزة تُخرجهم من الجاهلية إلى الإسلام، ومن دين الملك إلى دين الله!

كذلك فعل الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - وكذلك ينبغي أن يفعل الدعاة إلى الله في مواجهة الجاهلية في كل زمان ومكان. .

ثمَّ نعود إلى إخوة يوسف بعد هذا التعقيب القصير. نعود إليهم وقد حرك الحرج الذي يلاقونه كوامن حقدهم على أخي يوسف، وعلى يوسف من قبله، فإذا هم يَتنصلون من نَقيصة السرقة، ويُنفونها عنهم، ويُلقونها على

هذا الفرع من أبناء يعقوب: **﴿قالوا: إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل﴾** [يوسف: ٧٧].. إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل.. وتنطلق الروايات والتفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا في تعلات وحكايات وأساطير. كأنَّهم لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم في يوسف؛ وكأنَّهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعاً للتهمة التي تُحرجهم، وتبرؤاً من يوسف وأخيه السارق، وإرواءً لحقدهم القديم على يوسف وأخيه!

لقد قذفوا بها يوسف وأخاه! **﴿فأسرَّها يوسف في نفسه ولم يُبدها لهم﴾** [يوسف: ٧٧]..

أسرَّ هذه الفعلة وحفظها في نفسه، ولم يُبدِ تأثُّره منها. وهو يعلم براءته وبراءة أخيه. إنَّما قال لهم:

﴿أنتم شر مكاناً﴾.. يعني أنَّكم بهذا القذف شر مكاناً عند الله من المقذوف ـ وهي حقيقة لا شتمة.

﴿والله أعلم بما تصفون﴾ [يوسف: ٧٧].. وبحقيقة ما تقولون. وأراد بذلك قطع الجَدَل في الاتهام الذي أطلقوه، ولا دخل له بالموضوع!..

وعندئذٍ عادوا إلى الموقف المُحرج الذي وقعوا فيه. عادوا إلى المَوثق الذي أخذه عليهم أبوهم: **﴿لتأتنَّني به إلاَّ أن يُحاط بكم﴾**. فراحوا يسترحمون يوسف باسم والد الفتىٰ، الشيخ الكبير، ويعرضون أن يأخذ بَدَله واحداً منهم إن لم يكن مُطْلِقَه لخاطر أبيه، ويستعينون في رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبرّه لعلَّه يلين:

﴿قالوا: يَا أيُّها العزيز. إنَّ له أباً شيخاً كبيراً، فخذ أحدنا مكانه، إنَّا نراك من المحسنين﴾ [يوسف: ٧٨]..

ولكن يوسف كان يريد أن يلقي عليهم درساً. وكان يريد أن يشوقهم

إلى المفاجأة التي يعدّها لهم ولوالده وللجميع! ليكون وقعها أعمق وأشد أثراً في النفوس:

﴿قال: معاذ الله أن نأخذ إلاَّ من وجدنا متاعنا عنده. إنَّا إذاً لظالمون﴾ [يوسف: ٧٩]..

ولم يقل معاذ الله أن نأخذ بريئاً بجريرة سارق. لأنَّه يعلم أنَّ أخاه ليس بسارق. فَعبَّر أدق تعبير يحكيه السياق هنا باللغة العربية بدقة[1]: ﴿معاذ الله أن نأخذ إلاَّ من وَجدنا متاعنا عنده﴾ وهي الحقيقة الواقعة دون زيادة في اللفظ تحقق الاتهام أو تنفيه..

﴿إنَّا إذاً لظالمون﴾.. وما نريد أن نكون ظالمين..

وكانت هي الكلمة الأخيرة في الموقف. وعرفوا أن لا جَدوىٰ بعدها من الرجاء، فانسحبوا يفكرون في موقفهم المُحرج، أمام أبيهم حين يرجعون.

* * *

حرج وحيرة:

يئس إخوة يوسف من محاولة تخليص أخيهم الصغير، فانصرفوا من عنده، وعقدوا مجلساً يتشاورون فيه. وهم هنا في هذا المشهد يتناجون. والسياق لا يذكر أقوالهم جميعاً. إنَّما يثبت آخرها الذي يكشف عمَّا انتهوا إليه:

﴿فلمَّا استيأسوا منه خلصوا نجيّاً. قال كبيرهم: ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قَبلُ ما فرَّطتم في يوسف؟ فلن أبرح الأرض

---

(١) كان يوسف يتكلم العبرية لغة أهله واللغة المصرية القديمة لغة وسطه. والمفهوم أنَّه كان يخاطبهم بالمصرية فيعرفونها أو تُتَرجم لهم.

حتّىٰ يأذن لي أبي، أو يحكم الله لي، وهو خير الحاكمين. ارجعوا إلى أبيكم فقولوا: يَـا أبانا إنَّ ابنك سرق، وما شهدنا إلاَّ بما علمنا، وما كنَّا للغيب حـافظين. واسـأل القريـة التي كنَّـا فيهـا والعيـر التي أقبلنـا فيهـا، وإنَّـا لصادقون﴾[1] [يوسف: ٨٠ ـ ٨٢]. .

إنَّه كبيرهم ليذكّرهم بالموثق المأخوذ عليهم، كما يذكّرهم بتفريطهم في يوسف من قبل. ويقرن هذه إلى تلك، ثمَّ يرتب عليهما قراره الجازم: ألاَّ يبرح مصر، وألاَّ يواجه أباه، إلاَّ أن يأذن له أبوه، أو يقضي الله له بحكم، فيخضع له وينصاع.

أمَّا هُم فقد طلب إليهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه صراحة بأنَّ ابنه سرق، فَأُخِذَ بما سرق. ذلك ما علموه شهدوا به. أما إن كان بريئاً، وكان هناك أمر وراء هذا الظاهر لا يعلمونه، فهم غير موكلين بالغيب. كما أنَّهم لم يكونوا يتوقعون أن يحدث ما حدث، فذلك كان غيباً بالنسبة إليهم، وما هم

---

(١) ويعلق صاحب كتاب القصص القرآني على هذا الموقف فيقول: «إنَّ كلمة الحق لها قوة، فانظر إلى موقفهم هنا وقد جاؤوا إلى أبيهم بالصدق كله. وإلى موقفهم من قبل مع يوسف وقد جاؤوا إلى أبيهم بالكذب كله. إنَّهم هنا يجدون لكلمة الحق مساغاً في أفواههم، وقوة على ألسنتهم فيقيمون عليها الأدلة القريبة والبعيدة، ثمَّ لا يكتفون بهذا، بل يجزمون بصدقهم ويؤكدونه بقولهم: ﴿وإنَّا لصادقون﴾. .
أمَّا هناك في موقفهم من يوسف فإنَّهم قد حملوا إلى أبيهم شاهد الزور بأيديهم: قميصاً ملطخاً بدم كذب، ودموعاً متلصعة تتخذ من الليل ستاراً يستر زيفها، ثمَّ كلمات مستخذية تمشي على استحياء في رعشة واضطراب: ﴿يَا أبانا إنَّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ [يوسف: ١٧]. .
إنَّهم هنا يتهمون أنفسهم ويحكمون على ما يقولون بأنَّه لا يقع موقع التصديق من أبيهم.
فما أبعد المدىٰ بين قولهم هنا ـ في المرة الثانية ـ ﴿وإنَّا لصادقون﴾. . وقولهم هناك ـ في المرة الأولىٰ ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنَّا صادقين﴾. .
إنَّه بُعد ما بين الحق والباطل، والصدق والكذب» انظر القصص القرآني للأستاذ عبد الكريم الخطيب ص ٤٧٥.

بحافظين للغيب. وإن كان في شك من قولهم فليسأل أهل القرية ـ وهي عاصمة مصر ـ والقرية اسم للمدينة الكبيرة ـ وليسأل القافلة التي كانوا فيها، فهم لم يكونوا وحدهم، فالقوافل الكثيرة كانت ترد مصر لتمتار الغلة في السنين العجاف. .



النبأ الفظيع . . والثقة بالله :

ويطوي السياق الطريق بهم، حتى يقفهم في مشهد أمام أبيهم المفجوع، وقد أفضوا إليه بالنبأ الفظيع. فلا نسمع إلَّا رده قصيراً سريعاً، شجياً وجيعاً. ولكن وراءه أملاً لم ينقطع في الله أن يرد عليه ولديه، أو أولاده الثلاثة بما فيهم كبيرهم الذي أقسم ألَّا يبرح حتى يحكم الله له. وإنَّه لأمل عجيب في ذلك القلب الوجيع:

﴿قال: بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل، عسىٰ الله أن يأتيني بهم جميعاً إنَّه هو العليم الحكيم﴾ [يوسف: ٨٣]. .

﴿بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾. . كلمته ذاتها يوم فَقَدَ يوسف. ولكنه في هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه فيرد ابنه الآخر المتخلف هناك. . **﴿إنَّه هو العليم الحكيم﴾**. . الذي يعلم حاله، ويعلم ما وراء هذه الأحداث والامتحانات، ويأتي بكل أمر في وقته المناسب، عندما تتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج.

هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ؟ إنَّه الرجاء في الله، والاتصال الوثيق به، والشعور بوجوده ورحمته. ذلك الشعور الذي يتجلَّىٰ في قلوب الصفوة المختارة، فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذي تلمسه الأيدي وتراه الأبصار.

﴿وتولىٰ عنهم وقال: يَا أسفا علىٰ يوسف! وابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ [يوسف: ٨٤]. .

وهي صورة مؤثرة للوالد المفجوع يحس أنَّه مُنفرد بهمّه، وحيد بمصابه، لا تشاركه هذه القلوب التي حوله ولا تجاوبه، فينفرد في معزل، يندب فجيعته في ولده الحبيب. يوسف. الذي لم يَنسه. ولم تهوّن من مصيبته السنون، والذي تُذكره به نكبته الجديدة في أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل: ﴿يَا أسفا علىٰ يوسف﴾!. .

ويكظم الرجل حزنه ويتجلّد فَيُؤثِّر هذا الكظم في أعصابه حتى تبيض عيناه حزناً وكمداً:

﴿وابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾. .

ويبلغ الحقد بقلوب بَنيه ألاَّ يرحموا ما به، وأن يلسع قلوبهم حنينه ليوسف وحزنه عليه ذلك الحزن الكامد الكظيم، فلا يُسرون عنه، ولا يُعزونه، ولا يُعللونه بالرجاء، بل يريدون ليطمسوا في قلبه الشعاع الأخير:

﴿قالوا: تالله تفتأ تذكر يوسف حتّىٰ تكون حرضاً أو تكون من الهالكين﴾ [يوسف: ٨٥]. . وهي كلمة حانقة مستنكرة. تالله تظل تذكر يوسف، ويهدّك الحزن عليه، حتى تذوب حزناً أو تهلك أسىٰ بلا جدوىٰ. فيوسف ميؤوس منه قد ذهب ولن يعود!

ويردّ عليهم الرجل بأن يتركوه لربه، فهو لا يشكو لأحد من خلقه، وهو على صلة بربه غير صلتهم، ويعلم من حقيقته ما لا يعلمون:

﴿قال: إنَّما أشكو بثِّي[1] وحزني إلىٰ الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [يوسف: ٨٦]. .

وفي هذه الكلمات يتجلّىٰ الشعور بحقيقة الألوهية في هذا القلب

(١) همّي ومصيبتي.

الموصول؛ كما تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر، ولألائها الباهر.

إنَّ هذا الواقع الميؤوس من يوسف، وهذا المدى الطويل الذي يقطع الرجاء من حياته فضلاً على عودته إلى أبيه، واستنكار بنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمد الطويل في وجه هذا الواقع الثقيل.. إنَّ هذا كله لا يؤثر شيئاً في شعور الرجل الصالح بربه. فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلم هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة بذلك الواقع الصغير المنظور!

وهذه قيمة الإيمان بالله، ومعرفته ـ سبحانه ـ هذا اللون من المعرفة. معرفة التجلي والشهود وملابسة قدرته وقدره، وملامسة رحمته ورعايته، وإدراك شأن الألوهية مع العبيد الصالحين.

إنَّ هذه الكلمات: ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ تجلو هذه الحقيقة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها. وتعرض مذاقاً يعرفه من ذاق مثله، فيدرك ماذا تعني هذه الكلمات في نفس العبد الصالح يعقوب..

والقلب الذي ذاق هذا المذاق لا تبلغ الشدائد منه ـ مهما بلغت ـ إلاَّ أن يتعمق اللمس والمشاهدة والمذاق!

ولا نملك أن نزيد. ولكننا نحمد الله على فضله في هذا، وندع ما بيننا وبينه له يعلمه ـ سبحانه ـ ويراه..

ثمَّ يوجههم يعقوب إلى تلمس يوسف وأخيه؛ وألاَّ ييأسوا من رحمة الله، في العثور عليهما، فإنَّ رحمة الله واسعة وفَرَجه دائماً منظور:

﴿يَا بنيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه، ولا تيأسوا من روح الله. إنَّه لا ييأس من روح الله إلاَّ القوم الكافرون﴾ [يوسف: ٨٧]..

فيا للقلب الموصول!!!

اذهبوا، ، تحسَّسوا بحواسكم، في لطف وبصر وصبر على البحث. ودون يأس من الله وفَرَجه ورحمته. وكلمة «روح» أدق دلالة وأكثر شفافية.

ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من روْح الله الندي:

﴿إنّه لا ييأس من روْح الله إلاّ القوم الكافرون﴾..

فأمّا المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله، الندية أرواحهم بروْحه، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخية، فإنّهم لا ييأسون من روْح الله ولو أحاط بهم الكرب، واشتدّ بهم الضيق. وإنّ المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه، وفي أنس من صلته بربه، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه، وهو في مضايق الشدة ومخانق الكروب..

يقول الأُستاذ أبو الحسن الندوي:

«إنّ قصة يعقوب ـ عليه السّلام ـ تدل دلالة واضحة على أنّ صاحب العقيدة والإيمان القوي والمعرفة الصحيحة بالله يستنتج من الحوادث عكس ما يستنتجه أصحاب النظر المادي القاصر وضعاف العقيدة والعقول، ويستمد منها الإيمان الجديد والثقة الجديدة، ويتنبأ بالفرج القريب، ويستبشر بالنصر المبين..

إنّ قصة سيدنا يعقوب التي حكاها الله تعالىٰ في سورة يوسف، يتجلّىٰ فيها أنّ يعقوب كلما تكررت الحوادث ازداد إيماناً ويقيناً بأنّ هناك يداً خفية، وحكمة غيبية، وتوجيهاً وتربية، وأنّ الله لا يجمع عليه رزيتين ولا يفجعه في حبيبين، وإذا تتبعنا الآيات، وما نقل عن يعقوب ـ عليه السّلام ـ، وجدنا أنّه كان عند الحادثة الثانية أعظم ثقة بحياة يوسف، وأقوىٰ أملاً في عودته، بل أيقن أنّه سيقرّ عيناً بعودة يوسف وأخيه بنيامين مع إخوتهما الذين بقوا في مصر.

انظر إلى قوله لما أخبره أبناؤه بأنّ يوسف أكله الذئب قال:

﴿بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما

تصفون﴾ [يوسف: ١٨].. وانظر إلى قوله لما تكررت الحادثة وبقي بنيامين في مصر وقالوا له: ﴿يَا أبانا إنَّ ابنك سرق، وما شهدنا إلاَّ بما علمنا وما كنَّا للغيب حافظين﴾ [يوسف: ٨١].. وكان يعلم أنَّ القانون المصري يقتضي بقاءه في مصر ﴿جزاؤه من وُجِدَ في رحله﴾ ومعنىٰ ذلك أن يقطع أمله منه ويفقده كما فقد يوسف بالأمس، ولكنه لما سمع هذا النبأ قوي فيه الإيمان، وانتعش الأمل وأيقن أنَّ الفرج قريب وأن قد حان ميعاد عودتهما، وهذا هو الوجدان الإيماني الذي لا يحتاج إلى دليل ﴿بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسىٰ الله أن يأتيني بهم جميعاً إنَّه هو العليم الحكيم﴾ [يوسف: ٨٣]..

انظر الفرق بين قوله الأول وقوله الثاني، وتأمل في كلمة «عسىٰ»، ولم يقتصر على هذا بل قال في الآية التي بعدها: ﴿وأعلمُ من الله ما لا تعلمون﴾..

ولم يقتصر على هذا بل حفَّزهم إلى البحث عن يوسف وحثَّهم على أن لا ييأسوا من رحمة الله: ﴿يَا بنيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله، إنَّه لا ييأس من روح الله إلاَّ القوم الكافرون﴾ [يوسف: ٨٧]..

إنَّه المنطق الإيماني الذي يختلف عن المنطق العقلي كل الاختلاف، وهو الإيمان العميق الذي لا تزيده الحوادث والنكبات والضربات والإخفاق بعد الإخفاق إلاَّ صلابة ومتانة وقوة.

ويعتقد كثير من الناس أنَّ المحن توهن العزم وتضعف العقيدة، لأنَّ الإنسان مفطور على حب السلامة والعافية والسهولة، فإذا رأىٰ طريقاً محفوفة بالأشواك عدل عنها إلى طريق مأمون، وإذا واجه الإخفاق أو أُصيب بالنكبات غيَّر الاتجاه واقتنع بأنَّه أخطأ الطريق أو ضلَّ عن سواء السبيل، فأخذ في طريق آخر.

هذا صحيح بالنسبة إلى عامة الناس، وهو منطبق على الطبقة التي تجعل النجاح والانتصار العاجل والفائدة المادية الحاضرة مقياساً لصحة العقيدة وصواب العمل، وعن هذه الطبقة حدَّث القرآن فقال: **﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خيرٌ اطمأنَّ به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين﴾** [الحج: ١١]..

ذلك المخلوق الضعيف العقيدة، يتمسك بعقيدته ما ناله الخير منها، فإذا أُوذي فيها تزعزع وحاد عنها.

والتعبير القرآني يصوره في عبادته لله «على حرف» غير متمكن من العقيدة، ولا متثبت في العبادة، يصوره في حركة جسدية متأرجحة قابلة للسقوط عند الرفعة الأولىٰ. ومن ثمَّ ينقلب على وجهه عند مسّ الفتنة، ووقفته المتأرجحة تمهد من قبل لهذا الانقلاب! ولكن هناك طرازاً آخر من أصحاب العقيدة والإيمان، لا يزيدهم الإخفاق إلَّا نشاطاً وحماسة، ولا تزيدهم المحن والنكبات إلَّا إيماناً بمبدئهم، بل تولد فيهم هذه المحن إيماناً جديداً وثقة جديدة، فإذا تكررت وتوالت شعروا بأنَّ إيمانهم قد رجح في ميزان الله، وأنَّ هذه المحن إعلان عن عظمة الله وقوته، وأنَّهم قد بلغوا مبلغ الذين يستحقون أن يُخاطَبوا بقوله تعالىٰ: **﴿أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنَّا وهم لا يفتنون، ولقد فتنَّا الذين من قبلهم فليعلمنَّ الله الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين﴾** [العنكبوت: ٢، ٣].. وقوله تعالىٰ: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾** [آل عمران: ١٤٢].. إلى غير ذلك من الآيات.

وإذا تكررت هذه المحن واشتدت الأزمات وتوالت الخطوب آمنوا بأنَّ هناك يداً خفية وراء الستار تتصرف، وأنَّها ليست مصادفات اتفاقية، بل هي إرادة إلٰهية وحكمة ربانية **﴿ليمحِّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾** [آل

عمران: ١٤١]. . وأيقنوا بأنَّ الفرج قريب والعاقبة للمتقين، فوطَّنوا نفوسهم على الصبر والثبات: **﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾** [آل عمران: ١٤٦] هذا هو الموقف الكريم اللائق بأصحاب العقيدة والإيمان والاقتناع بالمبدأ، فكلَّما اشتدت الأزمة وقتم الجو وطالت المحنة، فليعلم أصحاب العقيدة وليعلم المرابطون أنَّ الفرج قريب، وأنَّ النصر يعظم بقدر عظم المحنة وطولها وبقدر شدة الأزمة وطول أيام البلاء»[1].

الحلقة السادسة:

مفاجأة عجيبة :

وكان طبيعياً أن يستجيب أبناء يعقوب إلى رغبة أبيهم، وأن يفكروا في الرجوع إلى مصر في محاولة أخيرة لاسترجاع أخيهم الصغير. أمَّا يوسف فلم يفكروا في البحث عنه لأنَّه في نظرهم قد أصبح في حكم المفقودين؛ وهيهات هيهات أن يعرفوا عنه خبراً فضلاً عن أن يعثروا عليه أو يصلوا إليه.

ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة، وقد أضَرَّت بهم المجاعة، ونفذت منهم النقود، وجاؤوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشترون بها الزاد، ويدخلون على يوسف ولكن بحال غير التي كانوا عليها من قبل. . يدخلون وفي حديثهم انكسار لم يُعهد في أحاديثهم في ما سبق، وشكوى من المجاعة تدلّ على ما فعلت بهم الأيام:

﴿فلمَّا دخلوا عليه قالوا: يَا أيُّها العزيز مَسَّنا وأهلنا الضرُّ، وجئنا ببضاعة مُزجاة، فأوف لنا الكيل وتصدَّق علينا، إنَّ الله يجزي المتصدِّقين﴾ [يوسف: ٨٨]. .

قالوا: أيُّها العزيز: ها قد أعادتنا الأيام إليك. وللأيام تقلبات، وللدهر

(١) مدرسة المحنة: مجلة المسلمون، المجلد الخامس، ص ٩٥٠.

نكبات! جئناك والحال رقيق، والعيش نكد. إنَّ للأيام دورة.. لقد مسَّنا البلاء وعمَّنا الحزن. نقف موقف الضراعة والاستكانة بين يديك. وقد جئناك ببضاعة رديئة لا يقلبها إلَّا محسن كريم.. فأَحسن إلينا، وتصدّق علينا، وآمنن بتَسريح أخينا، فإنَّك بذلك تكون قد خَفَّفت عن أبيه لواعج وأشجاناً!

وإذا كان الله قد بلغ بقصة يوسف أسمىٰ ما يطمح إليه المثل الأعلىٰ؛ من الإيمان والتسليم بالقضاء والصبر على البلاء والشدة، فقد آذن يوسف أن يعلن لإخوته عن نفسه، ويكشف لهم عن حاله. وذلك عندما بلغ الأمر بهم إلى هذا الحدّ من الاسترحام والضيق والانكسار.

ولم تبقَ في نفس يوسف قدرة على المضي في تمثيل دور العزيز، والتخفي عنهم بحقيقة شخصيته. فقد انتهت الدروس، وحان وقت المفاجأة الكبرىٰ التي لا تخطر لهم على بال، فإذا هو يترفق في الإفضاء بالحقيقة إليهم، فيعود بهم إلى الماضي البعيد الذي يعرفونه وَحْدهم، ولم يطلع عليه أحد إلَّا الله:

﴿قال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾؟!!! [يوسف: ٨٩].

ما أعظم هذا الأُسلوب وألطفه!! فيه الحكمة وعنده العلم.. وكان الأُخوة يعلمون أنَّ هذا السِّرَّ لا يعلمه إلَّا يوسف ونحن. ورنَّ في آذانهم صوتٌ لعلَّهم يذكرون شيئاً من نبراته. ولاحت لهم ملامح وَجْه لعلَّهم لم يلتفتوا إليها وهم يرونها في سمت عزيز مصر وأُبّهته وشياته. والْتَمع في نفوسهم خاطر من بعيد:

﴿قالوا: أئنَّك لأنت يوسف﴾؟ [يوسف: ٩٠].. أئنَّك لأنت؟! فالآن تدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير في ذلك الرجل الكبير..

﴿قال: أنا يوسف. وهـٰذا أخي. قد مَنَّ الله علينا. إنَّه من يتَّق ويصبر فإنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [يوسف: ٩٠]..

وقد وقع هذا الإعلان في نفوسهم موقعاً عجيباً، إذ لم يخطر ببالهم أن يكون هذا العزيز الذي تبدأ الأمور منه وتنتهي إليه هو أخاهم يوسف، الذي ألقوه في غيابت الجب، وظنُّوا أنَّه قد استقرَّ في غيابت النسيان.

مفاجأة! مفاجأة عجيبة يعلنها لهم يوسف ويُذكِّرهم في إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه في دَفعة الجهالة.. ولا يزيد.. سوىٰ أن يذكر منّة الله عليه وعلى أخيه، مُعللاً هذه المنة بالتقوىٰ والصبر وعدل الله في الجزاء.

ونقف مع القرآن الكريم في دهشة السرّ المكشوف، وتبرز ألوان متداخلة متناسقة، يظهر لون شديد في قوة عرض وإحياء المفاجأة، وكأنَّها حادث يقع، ومشهد يجري أمامنا الآن، وفي هذه اللحظة، لا قصة تُروىٰ ولا حادثاً قد مضىٰ، فترتعش الأفئدة لهذه المفاجأة وتذرف لها العيون.

ويبرز لون آخر يبدو في رسم الشخصيات في المشهد الصعب، ينطلق بجواره لون يبدو في تَخَيُّل العواطف والانفعالات.. فهؤلاء إخوة يوسف تتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف، ويُجلِّلهم الخزي والخجل وهم يواجهون مُحسناً إليهم وقد أساؤوا. حليماً بهم وقد جَهِلوا. كريماً معهم وقد وقفوا منه موقفاً غير كريم. فامتقعت ألوانهم، واضطربت مشاعرهم، واهتزت نفوسهم هلعاً وخوفاً:

﴿قالوا: تالله لقد آثرك الله علينا، وإن كنّا لخاطئين﴾ [يوسف: ٩١]..

اعتراف بالخطيئة، وإقرار بالذنب، وتقرير لما يرونه من إيثار الله له عليهم بالمكانة والحلم والتقوىٰ. يقابله يوسف بالصفح والعفو. وهو أكرم من أن يُطيل خوفهم، وأوسع صدراً من أن يكافئهم بزلَّتهم، وأنهىٰ الموقف

المخجل بشيمة الرجل الكريم فما لامَهم على فعلتهم.

وينجح يوسف في الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل في الابتلاء بالشدة. إنَّه كان من المحسنين..

﴿قال: لا تثريب عليكم اليوم. يغفر الله لكم، وهو أرحم الرَّاحمين﴾ [يوسف: ٩٢]..

لا مؤاخذة ولا تأنيب اليوم. فقد انتهىٰ الأمر من نفسي ولم تعد له جذور. والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم الراحمين.. ثمَّ يحول الحديث إلى شأن آخر. شأن أبيه الذي ابيضَّت عيناه من الحزن. فهو مُعجّل إلى تبشيره. معجّل إلى لقائه. معجّل إلى كشف ما عَلِق بقلبه من حزن، وما ألمَّ بجسمه من ضنىٰ وما أصاب بصره من كلال:

﴿اذهبوا بقميصي هٰذا، فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً؛ وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ [يوسف: ٩٣]..

كيف عرف يوسف أنَّ رائحته سترد على أبيه بصره الكليل؟ ذلك ممَّا علمه الله. والمفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة.. وما لها لا تكون خارقة ويوسف نبي رسول ويعقوب نبي رسول؟

وتبدأ مرحلة جديدة لبني إسرائيل في مصر بعد قدوم يعقوب وأهله **﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾**..

* * *

أمل ويقين:

ومنذ اللحظة نحن أمام مفاجأة في القصة بعد مفاجأة، حتى تنتهي مشاهدها المثيرة بتأويل رؤيا الصبي الصغير:

﴿ولمَّا فصلت العير قال أبوهم: إنِّي لأجد ريح يوسف. لولا أن تُفنِّدون﴾! [يوسف: ٩٤]..

ريح يوسف! كل شيء إلاَّ هذا. فما يخطر على بال أحد أنَّ يوسف بَعْدُ في الأحياء بعد هذا الأمد الطويل. وأنَّ له ريحاً يشمّها هـذا الشيخ الكليل!

إنِّي لأجـد ريح يـوسف. لولا أن تقـولوا شيـخ خَـرِف: **﴿لـولا أن تفنِّدون﴾** لَصدَّقتم معي ما أجده من ريح الغائب البعيد.

كيف وجَدَ يعقوب ريح يوسف منذ أنْ فصلت العير. ومن أين فصلت؟

يقول بعض المفسرين: إنَّها منذ فصلت من مصر، وأنَّه شمَّ رائحة القميص من هـذا المدىٰ البعيـد. ولكن هذا لا دلالـة عليه، فـربما كـان المقصود لما فصلت العير عند مفارق الطُرق في أرض كنعان، واتجهت إلى محلة يعقوب على مدىٰ محدود.

ونحن بهذا لا ننكر أنَّ خارقة من الخوارق يمكن أن تقع لنبي كيعقوب من ناحية نبي كيوسف. كل ما هنالك أنَّنا نحب أن نقف عند حدود مدلول النص القرآني أو رواية ذات سند صحيح. وفي هذا لم ترد رواية ذات سند صحيح. ودلالة النص لا تعطي هذا المدىٰ الذي يريده المفسرون! ولكنَّ المحيطين بيعقوب لم يكن لهم ما له عند ربه، فلم يجدوا ما وجد من رائحة يوسف: **﴿قالوا: تالله. إنَّك لفي ضلالك القديم﴾**.. في ضلالك بيوسف، وضلالك بانتظاره وقد ذهب مذهب الذي لا يعود.

ولكنَّ المفاجأة البعيدة تقع، وتـتبعها مفاجأة أُخرىٰ:

﴿فلمَّا أن جاءه البشير ألقاه على وجهه، فارتـدَّ بصيراً﴾ [يـوسف: ٩٦]..

مفاجأة القميص. وهو دليل على يوسف وقرب لقياه. ومفاجأة ارتداد البصر بعدما ابيضَّت عيناه.. وهنا يذكر يعقوب حقيقة ما يُعلِّمه من ربه. تلك التي حدثهم بها من قبل فلم يفهموه:

﴿قال: ألم أقل لكم: إنِّي أعلم من الله ما لا تعلمون؟﴾ [يوسف: ٩٦].. **﴿قالوا: يَا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنَّا كنا خاطئين﴾** [يوسف: ٩٧]..

ونلمح هنا أنَّ في قلب يعقوب شيئاً من بنيه، وأنَّه لم يصفُ لهم بعد، وإن كان يَعدهم باستغفار الله لهم بعد أن يصفو ويسكن ويستريح: **﴿قال: سوف أستغفر لكم ربِّي إنَّه هو الغفور الرحيم﴾** [يوسف: ٩٨]..

وحكاية عبارته بكلمة «سوف» لا تخلو من إشارة إلى قلب إنساني مكلوم..



الحلقة السابعة:

المشهد المثير والنهائي:

ويمضي السياق في مفاجآت القصة. فيطوي الزمان والمكان. لنلتقي في المشهد النهائي المُؤَثِّر المثير:

﴿فلمَّا دخلوا علىٰ يوسف آوىٰ إليه أبويه. وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين..﴾ [يوسف: ٩٩]..

ويا له من مشهد! بعد كرّ الأعوام وانقضاء الأيام. وبعد اليأس والقنوط. وبعد الألم والضيق. وبعد الامتحان والابتلاء. وبعد الشوق المضني والحزن الكامد واللهف الظامىء الشديد.

يا له من مشهد حافل بالانفعال والخفقات والفرح والدموع.

ويا له من مشهد خِتامي موصول بمطلع القصة: ذلك في ضمير الغيب وهذا في واقع الحياة. ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه:

﴿فلمَّا دخلوا علىٰ يوسف آوىٰ إليه أبويه. وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾..

ويذكر رؤياه ويرىٰ تأويلها بين يديه في سجود إخوته له ـ وقد رفع أبويه على السرير الذي يجلس عليه ـ كما رأىٰ الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين:

﴿ورفع أبويه على العرش، وخرُّوا له سجداً، وقال: يَا أبت هـٰذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربِّي حقاً﴾..

ثمَّ يذكر نعمة الله عليه: **﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نَزَغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾** [يوسف: ١٠٠]..

ويذكر لطف الله في تدبيره لتحقيق مشيئته: **﴿إنَّ ربِّي لطيف لما يشاء﴾**.. يحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها: **﴿إنَّه هو العليم الحكيم﴾** [يوسف: ١٠٠].. ذات التعبير الذي قاله يعقوب وهو يقص عليه رؤياه في مطلع القصة:

﴿إنَّ ربَّك عليم حكيم﴾ [يوسف: ٦].. ليتوافق البدء والختام حتى في العبارات..

* * *

وقبل أن يسدل الستار على المشهد الأخير المثير، نشهد يوسف ينزع نفسه من اللقاء والعناق والفرحة والابتهاج والجاه والسلطان، والرغد والأمان... ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر! كل دعوته ـ وهو في أبّهة السلطان، وفي فرحة تحقيق الأحلام ـ أن يتوفاه ربه مسلماً وأن يلحقه بالصالحين:

﴿ربِّ قد آتيتني من الملك، وعلَّمتني من تأويل الأحاديث. فاطر السَّماوات والأرض أنت وليِّي في الدنيا والآخرة. توفَّني مسلماً وألحقني بالصَّالحين﴾ [يوسف: ١٠١]..

ربِّ قد آتيتني من الملك سلطانه ومكانه وجاهه وماله. فذلك من نعمة الدنيا.

وعلَّمتني من تأويل الأحاديث.. بإدراك مآلاتها وتعبير رُؤاها. فذلك من نعمة العلم.

نعمتك يا ربِّي أذكرها وأُعددها..

﴿فاطر السَّماوات والأرض﴾.. بكلمتك خلقتها وبيدك أَمْرها، ولك القدرة عليها وعلى أهلها..

﴿أنت وليِّـي في الدنيا والآخرة﴾.. فأنت الناصر والمعين..

ربِّ تلك نعمتك. وهذه قدرتك.

ربِّ إنِّي لا أسألك سلطاناً ولا صحة ولا مالاً. ربِّ إنِّي أسألك ما هو أبقىٰ وأغنىٰ:

﴿توفَّني مسلماً وألحقني بالصَّالحين﴾..

وهكذا يتوارى الجاه والسلطان، وتتوارى فرحة اللقاء واجتماع الأهل ولمّة الأخوان. ويبدو المشهد الأخير مشهد عبد فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه، وأن يلحقه بالصالحين بين يديه.

إنَّه النجاح المطلق في الامتحان الأخير..

اللفتات واللمسات الموحية:

انتهت قصة يوسف لتبدأ التعقيبات عليها. تلك التعقيبات التي أشرنا إليها في أثناء الحديث عن القصة. وتبدأ معها اللفتات المتنوعة واللمسات المتعددة، والجولات الموحية في صفحة الكون وفي أغوار النفس، وفي آثار الغابرين، وفي الغيب المجهول وراء الحاضر المعلوم. فنأخذ في استعراضها حسب ترتيبها في السياق القرآني. وهو ترتيب ذو هدف معلوم.

ـ إنَّ التعقيب الأول والمباشر يواجه تكذيب قريش بالوحي إلى رسول الله ﷺ بتقرير مأخوذ من هذا القَصص الذي لم يكن رسول الله ﷺ حاضراً وقائعه.

وتلك القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمَّد ﷺ ثمَّ بُعث إليهم. وفيها أسرار لم يعلمها إلاَّ الذين لامَسوها من أشخاص القصة، وقد غَبرت بهم القرون. وقد سبق في تقديم القصة قول الله تعالىٰ لنبيه:

﴿نحن نقصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ [يوسف: ٣].

فها هو ذا يعقب على القصة بعد تمامها، ويعطف ختامها على مطلعها:

﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ [يوسف: ١٠٢]..

والتقديم والتعقيب على هذا النحو يؤلفان مُؤثراً مُوحِياً من المؤثرات الكثيرة في سياق القصة، لتقرير الحقيقة التي يعرضانها، وتوكيدها في مواجهة الاعتراض والتكذيب.

ذلك القَصَص الذي مضىٰ في السياق من الغيب الذي لا تعلمه؛ ولكننا نوحيه إليك وآية وحيه أنَّه كان غيباً بالقياس إليك. وما كنت معهم إذ اجتمعوا واتفق رأيهم، وهم يمكرون ذلك المكر الذي تحدثت عنه القصة في مواضعه. وهم يمكرون بيوسف، وهم يمكرون بأبيهم، وهم يُدبرون أمرهم بعد أَخْذ أخيه وقد خلصوا نجياً وهو من المكر بمعنىٰ التدبير. وكذلك ما كان هنالك من مكر بيوسف من ناحية النسوة ومن ناحية رجال الحاشية وهم يودعونه السجن.. كل أُولئك مكر ما كنتَ حاضره لتحكي عنه إنَّما هو **الوحي الذي سيقت السورة لِتُثبته من بين ما تُثبت من قضايا هذه العقيدة**

وهذا الدين، وهي متناثرة في مشاهد القصة الكثيرة.

- ومن ثمَّ يَعقب ذلك التسرية عن قلب رسول الله ﷺ وتهـوين أمر المكذِّبين على نفسه. وبيان مدىٰ عنادهم وإصرارهم وعَمَاهم عن الآيات المبثوثة في كتاب الكون.

لقد كان من مقتضىٰ ثبوت الوحي، وإيماء القَصص، واللفتات واللمسات التي تحرك القلوب، أن يؤمن الناس بهذا القرآن، وهم يشهدون الرسول ﷺ ويعرفون أحواله، ثمَّ يسمعون منه ما يسمعون. ولكنَّ أكثر الناس لا يؤمنون. وهم يمرون كذلك على الآيات المبثوثة في صفحة الوجود فلا ينتبهون إليها، ولا يُدركون مدلولها، كالذي يلوي صفحة وجهه فلا يرىٰ ما يواجهه. فما الذي ينتظرونه وعذاب الله قد يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون.

﴿وما أكثر الناس - ولو حرصت - بمؤمنين. وما تسألهم عليه من أجر، إن هو إلاَّ ذكر للعالمين. وكأيٍّ من آية في السَّماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون. وما يؤمن أكثرهم بالله إلاَّ وهم مشركون. أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتةً وهم لا يشعرون﴾ [يوسف: ١٠٣ - ١٠٧]..

ولقد كان الرسول ﷺ حريصاً على إيمان قومه، رغبة في إيصال الخير الذي جاء به إليهم، ورحمة لهم ممَّا ينتظر المشركين من نكد الدنيا وعذاب الآخرة. ولكنَّ الله العليم بقلوب البشر، الخبير بطبائعهم وأحوالهم، ينهي إليه أنَّ حِرْصَه على إيمانهم لن يسوق الكثرة المشركة إلى الإيمان، لأنَّهم - كما قال في هذه الآيات - يمرون على الآيات الكثيرة معرضين. فهذا الإعراض لا يؤهلهم للإيمان، ولا يجعلهم ينتفعون بدلائله المبثوثة في الآفاق.

وإنَّك لغني عن إيمانهم فما تطلب منهم أجراً على الهداية؛ وإنَّ شأنهم في الإعراض عنها لعجيب، وهي تُبذل لهم بلا أجر ولا مقابل:

﴿وما تسألهم عليه من أجر، إن هو إلاّ ذكر للعالمين﴾. .

تُذكرهم بآيات الله، وتُوجِّه إليها أبصارهم وبصائرهم، وهي مبذولة للعالمين، لا احتكار فيها لأمة ولا جنس ولا قبيلة، ولا ثمن لها يَعجز عنه أحد، فيمتاز الأغنياء على الفقراء، ولا شرط لها يعجز عنه أحد فيمتاز القادرون على العاجزين. إنّما هي ذكرىٰ للعالمين. ومائدة عامة شاملة معروضة لمن يريد. .

﴿وكأيِّن من آية في السَّماوات والأرض يمرُّون عليها وهم عنها معرضون﴾. .

والآيات الدالة على الله ووحدانيته وقدرته كثيرة مبثوثة في تضاعيف الكون، معروضة للأبصار والبصائر. في السماوات وفي الأرض. يمرون عليها صباح مساء، آناء الليل وأطراف النهار. وهي ناطقة تكاد تدعو الناس إليها. بارزة تواجه العيون والمشاعر. موحية تخايل القُلوب والعقول. ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون إيقاعها العميق.

وإنَّ لحظة تأمل في مطلع الشمس ومغيبها. لحظة تأمل في الظل الممدود ينقص بلطف أو يزيد. لحظة تأمل في الخضم الزاخر، والعين الفوارة، والنبع الروي. لحظة تأمل في النبتة النامية، والبرعم الناعم، والزهرة المتفتحة، والحصيد الهشيم. لحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء، والسمك السابح في الماء، والدود السارب والنمل الدائب، وسائر الحشود والأمم من الحيوان والحشرات والهوام. . لحظة تأمل في صبح أو مساء، في هدأة الليل أو في زحمة النهار. . لحظة واحدة يتسمع فيها القلب البشري إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب.

إنَّ لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب، والتأثر المستجيب. ولكنهم **﴿يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾**. . لذلك لا يؤمن الأكثرون!

توحيد وتنزيه :

وحتى الـذين يؤمنون، كثيـر منهم يتدسس الشـرك ـ في صـورة من صوره ـ إلى قلوبهم. فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمـة تنفي عن القلب أولاً بأول كل خالجة شيطانية، وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض في كل حركة وكل تصرف، لتكون كلها لله، خالصة له دون سواه.

والإيمان الخالص يحتـاج إلى حسم كامـل في قضية السلطان على القلب وعلى التصرف والسلوك فلا تبقىٰ في القلب دينونة إلاَّ لله ـ سبحانه ـ، ولا تبقىٰ في الحياة عبودية إلاَّ للمولىٰ الواحد الذي لا رادَّ لما يريد:

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلاَّ وهم مشركون﴾..

وهي إيقاع مُؤَثِّر بقدر ما تحمل من حقائق عميقة عن طبيعة الناس حين لا يدينون بدين الله الصحيح. فهذا هو التصوير العميق لكثير من النفوس التي يختلط فيها الإيمان بالشرك، لأنَّها لـم تحسم في قضية التوحيد **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلاَّ وهم مشركون﴾..**

مشركون قيمة من قيم هذه الأرض في تقريرهم للأحداث والأشيـاء والأشخاص. مشركون سبباً من الأسباب مع قـدرة الله في النفع أو الضـر سواء. مشركون في الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو مُوجِّه لا يستمد من شـرع الله دون سواه. مشـركون في رجـاء يتعلق بغيـر الله من عبـاده على الإطلاق. مشركون في تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس. مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضر ولكن لغير الله. مشركون في عبادة يُلْحظ فيها وَجْه مع وجه الله.. لذلك يقول رسـول الله ﷺ: «الشرك فيكم أخفىٰ من دبيب النمل»(١).

---

(١) رواه الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي ـ بإسناده ـ عن معقل بن يسار. قال: شهدت النَّبيّ ﷺ أو قال: حدَّثني أبو بكر الصدِّيق عن رسول الله ﷺ.

وفي الأحاديث النبوية الشريفة نماذج من هذا الشرك الخفي :

روى الترمذي ـ وحسّنه ـ من رواية ابن عمر: «من حَلَف بغير الله فقد أشرك» . .

وروى أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرقى والتمائم شرك» .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من عَلَّق تميمة فقد أشرك» .

وعن أبي هريرة بإسناده ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه» .

ورویٰ الإمام أحمد عن أبي سعيد ابن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد: من كان أشرك في عَمل عَمِلَه لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإنَّ الله أغنى الشركاء عن الشرك» .

وروى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن محمود بن لبيد أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء. يقول الله تعالىٰ يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء»؟ .

فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان.

وهناك الشرك الواضح الظاهر، وهو الدينونة لغير الله في شأن من شؤون الحياة. الدينونة في شَرع يتحاكم إليه ـ وهو نص في الشرك لا يُجادَل عليه ـ والدينونة في تقليد من التقاليد كاتخاذ أعياد ومواسم يُشرّعها الناس ولم

يشرعها الله. والدينونة في زيّ من الأزياء يخالف ما أمر الله به من الستر ويكشف أو يحدد العورات التي نصت شريعة الله أن تستر. . والأمر في مثل هذه الشؤون يتجاوز منطقة الإثم والذنب بالمخالفة حين يكون طاعة وخضوعاً ودينونة لعرف اجتماعي سائد من صنع العبيد، وتركاً للأمر الواضح الصادر من رب العبيد. . إنَّه عندئذٍ لا يكون ذنباً، ولكنه يكون شِرطاً. لأنه يدل على الدينونة لغير الله فيما يخالف أمر الله. . وهو من هذه الناحية أمر خطير. .

ومن ثمَّ يقول الله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلاَّ وهم مشركون﴾. .

فتنطبق على من كان يواجههم رسول الله في الجزيرة، وتشمل غيرهم على تتابع الزمان وتغير المكان.

وبعد فما الذي ينتظره أُولئك المعرضون عن آيات الله المعروضة في صفحات الوجود، بعد إعراضهم عن آيات القرآن التي لا يسألون عليها أجراً؟

ماذا ينتظرون؟

﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله، أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون؟﴾. .

وهي لمسة قوية لمشاعرهم، لإيقاظهم من غفلتهم، وليحذروا عاقبة هذه الغفلة. فإنَّ عذاب الله الذي لا يعلم موعده أحد، قد يغشاهم اللحظة بغاشية تلفّهم وتشملهم، وربما تكون الساعة على الأبواب فيطرقهم اليوم الرهيب المخيف بغتة وهم لا يشعرون. .

إنَّ الغيب موصد الأبواب، لا تمتد إليه عين ولا أُذن، ولا يدري أحد ماذا سيكون اللحظة، فكيف يأمن الغافلون؟

وإذا كانت آيات هذا القرآن الذي يحمل دليل الرسالة، وكانت الآيات التي يحفل بها الكون معروضة للأنظار. . إذا كانت هذه وتلك يمرون عليها

وهم عنها معرضون، ويشركون بالله شركاً ظاهراً أو خفياً وهم الأكثرون. فالرسول ﷺ ماضٍ في طريقه ومن اهتدىٰ بهديه، لا ينحرفون ولا يتأثرون بالمنحرفين..

ـ وهنا يجيء الإيقاع الكبير العميق المؤثر الموحي، بتوجيه الرسول ﷺ إلى تحديد طريقه وإفرادها عن كل طريق، والمفاصلة على أساسها الواضح الفريد:

﴿قل هٰذه سبيلي أدعو إلىٰ الله على بصيرة أنا ومن اتَّبعني، وسبحان الله، وما أنا من المشركين﴾ [يوسف: ١٠٨]..

﴿قل: هٰذه سبيلي﴾.. واحدة مستقيمة، لا عِوَج فيها ولا شك ولا شبهة.. **﴿أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتَّبعني﴾** فنحن على هدىٰ من الله ونور. نعرف طريقنا جيداً، ونسير فيها على بَصَر وإدراك ومعرفة، لا نخبط، ولا نتحسس، ولا نحدس. فهو اليقين البصير المستنير. نُنَزِّه الله ـ سبحانه ـ عمَّا يليق بألوهيته، وننفصل وننعزل ونتميز عن الذين يشركون به: **﴿وما أنا من المشركين﴾**.. لا ظاهر الشرك ولا خافيه. هذه طريقي فمن شاء فليتابع، ومن لم يشأ فأنا سائر في طريقي المستقيم.

وأصحاب الدعوة إلى الله لا بد لهم من هذا التَمَيُّز، لا بد لهم أن يُعلنوا أنَّهم أُمَّة وحدهم، يفترقون عمَّن لا يعتقد عقيدتهم، ولا يسلك مسلكهم، ولا يدين لقيادتهم، ويتميزون ولا يختلطون!

ولا يكفي أن يدعوا أصحاب هذا الدين إلى دينهم، وهم مُتَميِّعون في المجتمع الجاهلي. فهذه الدعوة لا تُؤدي شيئاً ذا قيمة إنَّه لا بد لهم منذ اليوم الأول أن يُعلنوا أنَّهم شيء آخر غير الجاهلية؛ وأن يتميزوا بتجمع خاص آصرته العقيدة المتميزة، وعنوانه القيادة الإسلامية.. لا بد أن يُميزوا أنفسهم من المجتمع الجاهلي وأن يُميزوا قيادتهم من قيادة المجتمع الجاهلي أيضاً!

إنَّ اندماغهم وتَميّعهم في المجتمع الجاهلي، وبقاءهم في ظل القيادة

الجاهلية، يذهب بكل السلطان الذي تحمله عقيدتهم، وبكل الأثر الذي يمكن أن تنشئه دعوتهم، وبكل الجاذبية التي يمكن أن تكون للدعوة الجديدة.

وهذه الحقيقة لم يكن مجالها فقط هو الدعوة النبوية في أوساط المشركين.. إنَّ مجالها هو مجال هذه الدعوة كلَّما عادت الجاهلية فغلبت على حياة الناس.. وجاهلية القرن العشرين لا تختلف في مقوماتها الأصيلة، وفي ملامحها المميزة عن كل جاهلية أُخرىٰ واجهتها الدعوة الإسلامية على مدار التاريخ!

والذين يظنون أنَّهم يصلون إلى شيء عن طريق التميع في المجتمع الجاهلي والأوضاع الجاهلية، والتدسس الناعم من خلال تلك المجتمعات ومن خلال هذه الأوضاع بالدعوة إلى الإسلام.. هؤلاء لا يدركون طبيعة هذه العقيدة ولا كيف ينبغي أن تطرق القلوب!..

إنَّ أصحاب المذاهب الإلحادية أنفسهم يكشفون عن عنوانهم وواجهتهم ووجهتهم! أفلا يعلن أصحاب الدعوة إلى الإسلام عن عنوانهم الخاص؟ وطريقهم الخاص؟ وسبيلهم التي تفترق تماماً عن سبيل الجاهلية؟

عبرة ومصير :

ثمَّ لفتة إلى سُنة الله في رسالاته، وإلى بعض آيات الله في الأرض من مصائر السابقين..

إنَّ محمَّداً ليس بِدعاً من الرسل، ورسالته ليست بدعاً من الرسالات. وهذه عواقب الذين كذَّبوا من قبل، آيات معروضة في الأرض..

﴿**وما أرسلنا من قبلك إلاَّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القرىٰ. أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم..**﴾ [يوسف: ١٠٩]..

إنَّ النـظر في آثار الغـابرين يهـز القلوب. حتى قلوب المُتجبرين. ولحظات الاسترجاع الخيالي لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم؛ وتصـورهم أحياء يروحـون في هذه الأمكنـة ويجيئون، يخـافون ويـرجون، يـطمعون ويتطلّعون. . ثمَّ إذا هم ساكنون، لا حس ولا حركة. آثارهم خاوية، طواهم الفناء وانطوت معهم مشاعرهم وعوالمهم وأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم، ودنياهم الماثلة للعيان والمستكنّة في الضمائر والمشاعر. .

إنَّ هذه التأملات لتهز القلب البشري هزاً مهما يكن جاسياً غافـلاً قاسياً. ومن ثمَّ يأخذ القرآن بيد القوم ليوقفهم على مصارع الغابـرين بين الحين والحين:

﴿وما أرسلنا من قبلك إلاَّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القرىٰ﴾ . .

لم يكونوا ملائكة ولا خَلقاً آخر. إنَّمـا كانـوا بشراً مثلك من أهـل الحاضرة، لا من أهل البادية، ليكونوا أرقّ حاشية وألين جانباً. . وأصبر على احتمال تكاليف الدعوة والهداية، فرسالتك ماضية على سُنة الله في إرسال رجال من البشر نوحي إليهم. .

﴿أفلم يسيـروا في الأرض فينـظروا كيف كـان عـاقبــة الـذين من قبلهم؟﴾ . . فيدركوا أنَّ مصيرهم كمصيرهم؛ وأنَّ سنة الله الواضحة الآثار في آثار الغابرين ستنالهم؛ وأنَّ عاقبتهم في هذه الأرض إلى ذهاب:

﴿ولدار الآخرة خير للَّذين اتقوا﴾. خير من هذه الدار التي ليس فيها قرار.

﴿أفلا تعقلون؟﴾ [يوسف: ١٠٩]. . فَتَدبّروا سُنن الله في الغابرين؟ أفلا تعقلون فتؤثروا المتاع الباقي على المتاع القصير؟

صورة رهيبة:

ثمَّ يُصوّر ساعات الحرج القـاسية في حيـاة الرسـل، قبيل اللحـظة

الحاسمة التي يتحقق فيها وعد الله، وتمضي فيها سنَّته التي لا تتخلف ولا تحيد:

﴿حتّىٰ إذا استيأس الرسل، وظنُّوا أنَّهم قد كُذِبوا، جاءهم نصرنا، فنجِّي من نشاء، ولا يردُّ بأسنا عن القوم المجرمين﴾ [يوسف: ١١٠]..

إنَّها صورة رهيبة، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل، وهم يواجهون الكفر والعمىٰ والإصرار والجحود. وتمر الأيام وهم يَدعون فلا يستجيب لهم إلَّا قليل، وتكرّ الأعوام والباطل في قوته، وكثرة أهله، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة.

إنَّها ساعات حرجة، والباطل ينتفش ويطغىٰ ويبطش ويغدر. والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض. فتهجس في خواطرهم الهواجس.. تراهم كُذِبوا؟ ترىٰ نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟

وما يقف الرسول هذا الموقف إلَّا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يُطيقه بشر. وما قرأت هذه الآية والآية الأُخرىٰ:

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمَّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسَّتهم البأساء والضراء وزُلزلوا حتّىٰ يقول الرسول والذين آمنوا معه؟...﴾ [البقرة: ٢١٤].. ما قرأت[١] هذه الآية أو تلك إلَّا وشعرت بقشعريرة من تصور الهول الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ، ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس، والكرب المزلزل الذي يرجّ نفس الرسول هذه الرجّة، وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات، وما يحسّ به من أَلَم لا يُطاق.

في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب، ويأخذ فيها الضيق

---

(١) في ظلال القرآن، ص ٢٠٣٦.

بمخانق الرسل، ولا تبقىٰ ذرة من الطاقة المدخرة.. في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً:

﴿جاءهم نصرنا، فنجِّي من نشاء، ولا يُردُّ بأسنا عن القوم المجرمين﴾ [يوسف: ١١٠]..

تلك سنة الله في الدعوات. لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة. ثمَّ يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون. ويحل بأس الله بالمجرمين، مُدمراً ماحقاً لا يقفون له، ولا يصده عنهم ولي ولا نصير. ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً. فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعيٌّ بدعوة لا تكلفه شيئاً. أو تكلفه القليل. ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً. فإنَّما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج، ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعياء. والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة، لذلك يشفقون أن يدَّعوها، فإذا ادَّعوها عجزوا عن حملها وطرحوها، وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلَّا الواثقون الصادقون؛ الذين لا يتخلون عن دعوة الله، ولو ظنوا أنَّ النصر لا يجيئهم في هذه الحياة!

إنَّ الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل، إمَّا أن تربح ربحاً معيناً محدداً في هذه الأرض، وإمَّا أن يتخلىٰ عنها أصحابها إلى تجارة أُخرىٰ أقرب ربحاً وأيسر حصيلة!

والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية ـ والمجتمعات الجاهلية هي التي تدين لغير الله بالطاعة والاتباع في أي زمان ومكان ـ يجب أن يُوَطِّن نفسه على أنَّه لا يقوم برحلة مريحة، ولا يقوم بتجارة

مادية قريبة الأجل! إنَّما ينبغي له أن يستيقن أنَّه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود! ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله، باستثارة شهواتها وتهديدها بأنَّ أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات! . .

ويجب أن يستيقنوا أنَّ الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف، وأنَّ الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثير التكاليف أيضاً. وأنَّه من ثمَّ لا تنضم إليها ـ في أول الأمر ـ الجماهير المُستَضعفة، إنَّما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله، والتي تُؤْثِر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا. وأنَّ عدد هذه الصفوة يكون دائماً قليلاً جداً. ولكنَّ الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق، بعد جهاد يطول أو يقصر. وعندئذٍ فقط تدخل الجماهير في دين الله أفواجاً.

الطبيعة الحركية للقصة وأثرها في التربية الإسلامية :

وتبقىٰ وراء ذلك كله عبرة القصة وقيمتها في مجال الحركة الإسلامية؛ وإيحاءاتها المتوافية مع حاجات الحركة في بعض مراحلها. ومع حاجاتها الثابتة التي لا تتعلق بمرحلة خاصة منها. إلى جانب الحقائق الكبرىٰ التي تتقرر من خلال سياق القصة والتعقيبات عليها. .

ونكتفي بلمحات سريعة من هذا كله:

ـ لقد أشرنا إلى مناسبة قصة يوسف بجملتها للفترة الحرجة التي كانت تمر بها الحركة الإسلامية في مكة عند نزول السورة، وللشدة التي كان رسول الله ﷺ والقلة المؤمنة معه يتعرضون لها، وذلك بما تحمل القصة من عرض لابتلاءات أخ كريم للنَّبي الكريم؛ ثمَّ بما تحمله بعد ذلك من استفزاز من الأرض ثمَّ تمكين.

وهذا الذي سبق أن قررناه يُصوّر لوناً من إيحاءات القصة المتوافية مع حاجات الحركة الإسلامية في تلك الفترة؛ ويقرب معنىٰ «الطبيعة الحركية» لهذا القرآن وهو يزود الدعوة، ويدفع الحركة، ويوجه الجماعة المسلمة توجيهاً واقعياً إيجابياً محدد الهدف مرسوم الطريق.

ـ كذلك أشرنا في ثنايا تحليل القصة إلى الصورة الواضحة الكاملة الدقيقة الشاملة للإسلام، كما عرضها يوسف ـ عليه السَّلام ـ. وهي صورة تستحق الوقوف أمامها طويلاً..

إنَّها تقرر ابتداء وحدة العقيدة الإسلامية التي جاء بها الرسل جميعاً، واستيفاء مقوماتها الأساسية في كل رسالة؛ وقيامها على التوحيد الكامل لله ـ سبحانه ـ، وعلى تقرير ربوبيته للبشر وحده، ودينونة البشر له وحده.. كما تقرر تضَمُّن تلك العقيدة الواحدة للإيمان بالدار الآخرة بصورة واضحة. وهذا التقرير يقطع الطريق على مزاعم ما يسمونه «علم الأديان المقارن» من أنَّ البشرية لم تعرف التوحيد ولا الآخرة إلَّا أخيراً جداً، بعد أن اجتازت عقائد التعدد والتثنية بأشكالها وصورها المختلفة؛ وأنَّها ترقَّت في معرفة العقيدة كما ترقَّت في معرفة العلوم والصناعات.. هذه المزاعم التي تتجه إلى تقرير أنَّ الأديان من صُنع البشر شأنها شأن العلوم والصناعات[1]. كذلك هي تقرر طبيعة ديانة التوحيد التي جاء بها الرسل جميعاً.. إنَّه ليس توحيد الألوهية فحسب. ولكنه كذلك توحيد الربوبية.. وتقرير أنَّ الحكم لله وحده في أمر الناس كله؛ وأنَّ هذا التقرير ناشىء من أمر الله ـ سبحانه ـ بألَّا يُعبد إلَّا إياه. والتعبير القرآني الدقيق في هذه القضية يحدد مدلول «العبادة» تحديداً دقيقاً. فهي الحكم من جانب الله والدينونة من جانب البشر.. وهذا وحده هو «الدين القيِّم» فلا دين إذن لله ما لم تكن دينونة الناس لله وحده،

---

(١) يراجع عن هذه القضية: في ظلال القرآن، الجزء الثاني عشر، ص ١٨٧٨ ـ ١٨٨٢.

وما لم يكن الحكم لله وحده. ولا عبادة لله إذن إذا دان الناس لغير الله في شأن واحد من شؤون الحياة.

فتوحيد الألوهية يقتضي توحيد الربوبية. والربوبية تتمثل في أن يكون الحكم لله.. أو أن تكون العبادة لله. فهما مترادفان أو متلازمان.. والعبادة التي يعتبر بها الناس مسلمين أو غير مسلمين هي الدينونة والخضوع والاتباع لحكم الله دون سواه.

وهذا التقرير القرآني بصورته هذه الجازمة ينهي كل جدل في اعتبار الناس في أي زمان وفي أي مكان مسلمين أو غير مسلمين، في الدين القيّم أم في غير هذا الدين.. فهذا الاعتبار يعد من المعلوم من الدين بالضرورة.. من دان لغير الله وحكّم في أي أمر من أمور حياته غير الله، فليس من المسلمين وليس في هذا الدين.

ومن أفْرد الله ـ سبحانه ـ بالحاكمية ورفض الدينونة لغيره من خلائقه فهو من المسلمين وفي هذا الدين..

وكل ما وراء ذلك تمحُّل لا يحاوله إلاَّ المهزومون أمام الواقع الثقيل في بيئة من البيئات وفي قرن من القرون.. ودين الله واضح. وهذا النص وحده كاف في جعل هذا الحكم من المعلوم من الدين بالضرورة. من جادل فيه فقد جادل في هذا الدين!

ـ ومن الإيحاءات الواردة في ثنايا القصة صورة الإيمان المتجرد الخالص الموصول كما تتجلىٰ في قَلْبيْ عَبدين صالحين من عباد الله المختارين: يعقوب ويوسف: فأمَّا يوسف فقد أشرنا من قبل إلى موقفه الأخير متجرداً من كل شيء، نافضاً عنه كل شيء، مُتجهاً إلى ربه، مبتهلاً إليه في انكسار وخشوع يناجيه:

﴿ربِّ قد آتيتني من الملك، وعلَّمتني من تأويل الأحاديث، فاطر

السَّماوات والأرض، أنت وليِّـي في الدنيا والآخرة، توفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ [يوسف: ١٠١]. .

ولكن هذا الموقف الأخير لم يكن هو كل شيء في هذا الجانب؛ فهو على مدار القصة يقف هذا الموقف، موصولاً بربه، يحسّه ـ سبحانه ـ قريباً منه مستجيباً له:

في موقف الإغراء والفتنة والغواية يهتف:

﴿معاذ الله! إنَّه ربِّي أحسن مثواي. إنَّه لا يفلح الظالمون﴾ [يوسف: ٢٣]. .

وفي الموقف الآخر وهـو يخشىٰ على نفسه الضعف والميـل يهتف كذلك:

﴿ربِّ، السجن أحبُّ إليَّ ممَّا يدعونني إليه، وإلَّا تصرف عنِّي كيدهنَّ أصبُ إليهنَّ وأكن من الجاهلين﴾ [يوسف: ٣٣]. .

وفي موقف تعريف نفسه لإخوته، يبيِّن فضل الله عليه ويشكر نعمته ويذكرها:

﴿قالوا: أئنَّك لأنت يوسف؟ قال: أنا يوسف، وهـٰذا أخي قد منَّ الله علينـا، إنَّه من يتَّق ويصبـر فإنَّ الله لا يضيـع أجر المحسنين﴾ [يـوسف: ٩٠]. .

وكلها مواقف تحمل إيحاءات يتجاوز مداها حاجة الحركة الإسلامية في مكة، إلى حاجة الحركة الإسلامية في كل فترة وفي كل مكان.

وأمَّا يعقوب ففي قلبه تـتجلىٰ حقيقة ربه باهرة عميقة لطيفة مأنوسة في كل موقف وفي كل مناسبة؛ وكلَّما اشتدَّ البلاء شفت تلك الحقيقة في قلبه ورفت بمقدار ما تعمقت وبرزت.

فمنذ البدء يوسف يقص عليه رؤياه يذكر ربه ويشكر نعمته:

﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلِّمك من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته

عليك كما أتمَّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إنَّ ربك عليم حكيم﴾ [يوسف: ٦]..

وفي مواجهة الصدمة الأُولىٰ في يوسف يتجه إلى ربه مستعيناً به:

﴿قال: بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون﴾ [يوسف: ١٨]..

وفي مواجهته لعاطفته الأبوية الخائفة على أبنائه، وهو يُوصيهم ألاَّ يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة، لا ينسىٰ أنَّ هذا التدبير لا يُغني عنهم من الله شيئاً، وأنَّ الحكم النافذ هو حكم الله وحده، وإنَّما هي حاجة في النفس لا تغني من الله وقَدَره:

﴿وقال: يَـا بنيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة، وما أُغني عنكم من الله من شيء، إن الحكم إلاَّ لله، عليه توكَّلت، وعليه فليتوكَّل المتوكلون﴾ [يوسف: ٦٧]..

وفي مواجهة الصدمة الثانية في كبرته وهرمه وضعفه وحزنه، لم يتسرب اليأس من رحمة ربه لحظة واحدة إلى قلبه:

﴿قال: بل سولت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل، عسىٰ الله أن يأتيني بهم جميعاً؛ إنَّه هو العليم الحكيم﴾ [يوسف: ٨٣]..

ثمَّ يبلغ تجلي الحقيقة في قلب يعقوب درجة البهاء والصفاء، وبنوه يُؤنبونه على حزنه على يوسف وبكائه له حتى تبيض عيناه من الحزن؛ فيواجههم بأنَّه يجد حقيقة ربه في قلبه كما لا يجدونها، ويعلم من شأن ربه ما لا يعلمون؛ فمن هنا اتجاهه إليه وحده وشكواه له وبثه؛ ورجاؤه في رحمته ورَوْحه:

﴿وتولىٰ عنهم وقال: يَـا أسفا علىٰ يوسف! وابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم. قالوا: تالله تفتأ تذكر يوسف حتّىٰ تكون حرضاً أو تكون من

الهالكين! قال: إنَّما أشكو بثِّي وحزني إلىٰ الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون. . يَا بنيَّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه، ولا تَيْأسوا من رَوْح الله، إنَّه لا يَيْأسُ من روْح الله إلاَّ القوم الكافرون﴾ [يوسف: ٨٤ - ٨٧]. .

ولقد ذكّرهم بما يَعْلَمه من شأن ربه وما يجده من حقيقته في قلبه، وهم يُجادلونه في ريح يوسف، وقد صدّق الله فيه ظنه:

﴿ولمَّا فصلت العير قال أبوهم: إنِّي لأجد ريح يوسف، لولا أن تُفنِّدون. قالوا: تالله إنَّك لفي ضلالك القديم. فلمَّا أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيراً، قال: ألم أقل لكم: إنِّي أعلم من الله ما لا تعلمون؟﴾ [يوسف: ٩٤ - ٩٦]. .

إنَّها الصورة الباهرة لتجلي حقيقة الألوهية في قلب من قلوب الصفوة المختارة. وهي تحمل الإيماء المناسب لفترة الشدة في حياة الجماعة المسلمة في مكة؛ كما أنَّها تحمل الإيحاء الدائم بالحقيقة الإيمانية الكبيرة، لكل قلب يعمل في حقل الدعوة والحركة بالإسلام على مدار الزمان أيضاً.

سُنَّة الله وقَدَره:

إنَّ قصة يوسف منهج في التربية عجيب. . فالابتلاء والمحن ثقيلة على النفس الإنسانية. ولكن ماذا يعلم الناس من أمر العواقب؟ وماذا يعلم الناس ممَّا وراء الستر المُسدَل؟

إنَّ الإنسان لا يدري أين يكون الخير وأين يكون الشر. . والمتأمل في حوادث الزمن وتجارب الأيام، يرىٰ أنَّ النِعَم قد تكون سبيلاً إلى الشرور والنِقَم، وأنَّ المصائب والمتاعب قد تكون مفتاحاً للخير والنجاح. . وكما قال الشاعر الحكيم:

قد ينعم الله بالبلوىٰ وإن عظمت ويبتلي الله بعض الناس بالنعم

ولقد كانت أيام المحنة في حياة يوسف ـ عليه السَّلام ـ أساساً لما حباه الله بعد ذلك من النعمة والفضل، ومفتاحاً لما أحرزه من خير ونجاح، ومَجْد وسلطان.. ليس ليوسف فحسب، وإنَّما لبني إسرائيل كما ورد في قوله: ﴿.. **وأتوني بأهلكم أجمعين**﴾ [يوسف: ٩٣].. فقد بدأ عهد جديد فيه العزّ والتمكين.

وكل إنسان في تجاربه الخاصة ـ يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم. وَلَذَّات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم. وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته، ثمَّ تبيَّن له بعد فترة أنَّه كان إنقاذاً من الله أن فوّت عليه هذا المطلوب في حينه. وكم من محنة تجرّعها الإنسان لاهثاً يكاد يتقطَّع لفظاعتها. ثمَّ ينظر بعد فترة فإذا هي تنشىء له في حياته من الخير ما لم يُنشئه الرخاء الطويل.

إنَّ الإنسان لا يعلم. والله وحده يعلم. فماذا على الإنسان لو يرضىٰ ويستسلم؟

إنَّ هذا هو المنهج التربوي الذي يأخذ به القرآن النفس البشرية. لتؤمن وتستسلم في أمر الغيب المخبوء، بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي المكشوف..

إنَّ الصبر والتقوىٰ هما زاد المؤمن في الطريق إلى الله ﴿**إنَّه من يتَّق ويصبر فإنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾.. تلك هي قول يوسف ـ عليه السَّلام ـ. وهي القاعدة التي ينبغي أن نعضّ عليها بالنواجذ.

هذا هو الطريق: إيمان وجهاد.. ومحنة وابتلاء.. وصبر وثبات وتَوَجُّه إلى الله.

إنَّها سنة الله وقدره.. لا بد من بلاء، ولا بد من أذىٰ في الأموال والأنفس.. ﴿**لتبلونَّ في أموالكم وأنفسكم، ولتسمعنَّ من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً. وإن تصبروا وتتَّقوا فإنَّ**

ذلك من عزم الأُمور﴾ [آل عمران: ١٨٦]. . ﴿ولنبلونّكم حتّىٰ نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ [محمَّد: ٣١]. .

إنَّه وَعْد من الله بالابتلاء. . الابتلاء بالسراء والضراء، وبالنعماء والبأساء، وبالسعة والضيق، والفرج والكرب. . كلها تكشف عمًّا هو مخبوء من معادن النفوس، وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها. .

ومع هذا فإنَّ العبد المؤمن يرجو ألَّا يتعرض لبلاء الله وامتحانه. ويتطلع إلى عافيته ورحمته. فإن أصابه بلاء الله بعد هذا صبر له، وهو مدرك لما وراءه من حكمة، واستسلم لمشيئة الله واثقاً من حكمته، متطلعاً إلى رحمته وعافيته بعد الابتلاء. وهي صورة وضيئة للروح المؤمنة، اللطيفة، الشفيفة الحساسية المتصلة بالله في البلاء والشدة، تثبت وتتقي، تتجه إلى ربها، في غير تلجلج ولا انحراف. . هذه الروح التي تؤمن بقدر الله ورحمته وهي في معترك الشدة والبلاء. . هي التي تحمل القلوب اليقظة المستنيرة بنور القرآن وتوجيهاته.

يقول العلَّامة الأُستاذ أبو الحسن الندوي:

«ولا تَقِلّ قصة يوسف عن قصة إبراهيم في الغرابة ومخالفتها للمألوف المعروف من جريان الحوادث على السنن الطبيعي. خاضعة لقانون العلة والمعلول والسبب والمسبب.

فقد اجتمع له من حَسَد الإخوة وكيدهم له، والبقاء في غيابت الجب مدة من الزمان، والتقاط السيارة له، والرقّ، ما هو كفيل بالتعرض للهلاك والإذلال والهوان. ولكنه يخرج من كل هذا سليماً معافَىٰ، ويعيش، ويجتمع له من الوقوع في امتحان شديد، في العفة والنزاهة والوفاء والشرف، ويعتصم، مع توفر الدواعي القوية والمغريات القاهرة، والإغراء ـ من شباب وجمال وطَلَب وإلحاح شديد من جانب، له الفضل وله السلطان وله الاستهواء ـ والتصاق التهمة الشنيعة به، والدخول في السجن في تهمة

خلقية، وفي عصر لم يكن السجن فيه إلاَّ رمزاً للجريمة، ولم يكن إلاَّ مكان الأشقياء ومن سوء القالة والأحدوثة في البلد.

وقد كان زيادة على ذلك غريباً عن مصر لا يتصل فيها بجنسية ووطنية، وكان فرداً من شعب ينظر إليه المصريون باحتقار واستخفاف كبير، وكان الإسرائيلي آخر من يُفكر فيه لشرف أو حكومة في مصر، كل ذلك كفيل بإخمال ذكره، وإضعاف شأنه وإساءة شهرته، وحرمانه من كل ثقة وتكريم، وبُعده عن كل مركز محترم ومكان مرموق في المجتمع المصري، فضلاً عن إمارة وسيادة، وفضلاً عن تقليد منصب جليل، لا يَحظىٰ به إلاَّ السيد الكريم، الحفيظ العليم، وفضلاً عن أن يكون سيّد مصر المطاع يأمر ويَنهىٰ ويُرجىٰ ويُخشىٰ، ولكن عكس ذلك يقع بين سَمْع الناس وبصرهم، ويتربّع يوسف ـ عليه السَّلام ـ على أريكة مصر، ويتقلد مفاتيحها وزمام الأمور فيها.. **﴿وكذلك مكَّنَّا ليوسف في الأرض يتبوَّأ منها حيث يشاء، ولا نضيع أجر المحسنين﴾** [يوسف: ٥٦]..

لقد كان هناك مماثلة بين قصة يوسف ومحمَّد ﷺ.. إنَّ آخر الرسل ﷺ، ومن آمَن به ووضع يده في يده من أفراد قريش كانوا يواجهون مثل هذه الأجواء القاتمة، ومثل هذه المشكلات: قلة عدد، وضعف شأن، وفَقْد أسباب، وخذلان من العشيرة، ومحاربة شديدة من القوم، ومقاطعة وتطويق، وإحصار وتضييق، وصدّ عن سبيل الله، وتعذيب شديد للمهتدين الذين كانوا يسمونهم «الصابئين» و«السفهاء»، وتآمر على قتل الرسول، ذعر دائم، وخوف قائم، ولا بيان أبلغ من بيان القرآن، ولا تصوير أدق وأصدق من تصويره **﴿واذكروا إذ أنتم قليل مُستضعفون في الأرض، تخافون أن يتخطَّفكم الناس﴾** [الأنفال: ٢٦]..

في هذه الأجواء القاتمة التي لا تُثير أملاً، ولا تُبشِّر بمستقبل، ولا يُرىٰ فيها وميض من النور، قَصَّ على رسوله ﷺ قصة يوسف، وسيرته ﷺ من

أشبه السير به، وقصته مع قبيلته قريش كقصة يوسف مع إخوته؛ حَسَد ومحاربة في البداية، واعتراف وإجلال وندم في النهاية، وإبعاد وإقصاء ونكران وجفاء في الأول، وخضوع والتجاء واستعطاف واستجداء في الآخر، وغيابت الجب في محنة يوسف. وغار ثور في رحلة محمَّد ﷺ، وسجن في قصة سيدنا يوسف. وشُعب أبي طالب في قصة سيدنا محمَّد، وتقرير وإعلان من أعداء كل منهما: ﴿**تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنَّا لخاطئين**﴾ [يوسف: ٩١].. والجواب الرفيق الكريم من كلا السيدين الرفيقين الكريمين: ﴿**لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الرَّاحمين**﴾(١) [يوسف: ٩٢]..

وقد بدأ القرآن هذه القصة العظيمة بقوله: ﴿**نحن نقصُّ عليك أحسن القَصَص بما أوحينا إليك هـٰذا القرآن...**﴾ [يوسف: ٣].. وختمها بقوله: ﴿**لقد كان في قَصَصهم عبرة لأُولي الألباب**﴾ [يوسف: ١١١]..

وهكذا نزلت هذه السورة في جو مكة الثقيل، ليبشر رسول الله ﷺ بمستقبله العظيم المشرق الزاهر، فكأنَّ قصة يوسف قصته، ولم تزل الكناية ـ في الجو المعادي الرهيب ـ أبلغ من التصريح دائماً»(٢).

---

(١) روى القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٢٥٨/٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ أخذ بعُضَادَتي الباب يوم فتح مكة، وقد لاذَ الناسُ بالبيت فقال: «الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» ثم قال: «ما تظنون يا معشر قريش» قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قَدَرت؛ قال: «وأنا أقول كما قال أخي يوسف ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ فقال عمر رضي الله عنه: ففِضْتُ عرقاً من الحياء من قول رسول الله ﷺ، ذلك أنِّي قد كنت قلت لهم حين دخلنا مكة: اليوم ننتقم منكم ونفعل، فلمَّا قال رسول الله ﷺ ما قال استحييتُ من قولي.

(٢) كتاب «النبوة» ص ٩٥.

النموذج الكامل لمنهج الإسلام :

سورة يوسف ذات طابع متفرد في احتوائها على قصة يوسف كاملة. فالقصص القرآني ـ غير قصة يوسف ـ يرد حلقات، تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهها وَجَوّها. وحتى القصص الذي ورد كاملاً في سورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب وَرَد مختصراً مُجملاً. أمَّا قصة يوسف فوردت بتمامها وبطولها في سورة واحدة. وهو طابع متفرد في السور القرآنية جميعاً. هذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة؛ ويؤديها أداءً كاملاً . . ذلك أنَّها تبدأ برؤيا يوسف، وتنتهي بتأويلها . . بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات في سورة وتكون بقيتها في سورة أخرىٰ.

وهذا الطابع كفل لها الأداء الكامل من جميع الوجوه؛ فوق تحقيقه للهدف الأصيل الذي من أجله سيقت القصة، والتعقيبات التي تلتها.

ـ إنَّ قصة يوسف تُمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، بقدر ما تُمثل النموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي والعقيدي والتربوي والحركي أيضاً . . ومع أنَّ المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي أدائه، إلاَّ أنَّ قصة يوسف تبدو وكأنَّها المَعرض المُتَخَصّص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء!

ـ إنَّ القصة تعرض شخصية يوسف ـ عليه السَّلام ـ وهي الشخصية الرئيسية في القصة ـ عرضاً كاملاً في كل مجالات حياتها، بكل جوانب هذه الحياة، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات. وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسية في القصة؛ وهي ابتلاءات مُتنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها . . ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء. وابتلاءات الفتنة بالشهوة، والفتنة بالسلطان. وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر تجاه شتّىٰ المواقف وشتّىٰ

الشخصيات.. ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقياً خالصاً متجرداً في وقفته الأخيرة، متجهاً إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع كما أسلفنا.

وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسية في القصة تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز. وفي مساحات متناسبة من رقعة العرض، وعلى أبعاد متفاوتة من مركز الرؤية، وفي أوضاع خاصة من الأضواء والظلال.. وتتعامل القصة مع النفس البشرية في واقعيتها المتكاملة. متمثلة في نماذج متنوعة:

نموذج يعقوب الوالد المُحب الملهوف والنبي المطمئن الموصول..

ونموذج إخوة يوسف وهواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة، ومواجهة آثار الجريمة، والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة، متميزاً فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات في كل مراحل القصة ومواقفها..

ونموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها واندفاعاتها الأُنثوية، كما تصنعها وتُوجّهها البيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك. إلى جانب طابعها الشخصي الخاص الواضح في تصرفها وضوح انطباعات البيئة..

ونموذج النسوة من طبقة العلّية في مصر الجاهلية! والأضواء التي تُلقيها على البيئة، ومنطقها كما يتجلىٰ في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها، وفي إغرائهنَّ كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهنَّ جميعاً. وما وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها، كما يتجلّىٰ في سجن يوسف بصفة خاصة.

ونموذج «العزيز» وعليه ظلال طبقته، وبيئته في مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه!..

ونموذج « الملك » في خَطْفَة يتوارىٰ بعدها كما توارىٰ العزيز في منطقة الظلال بعيداً عن منطقة الأضواء في مجال العرض المتناسق. .

وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة في هذا الحَشد من الشخصيات والبيئات، وهذا الحشد من المواقف والمشاهد، وهذا الحشد من الحركات والمشاعر. .

ومع استيفاء القصة لكل ملامح « الواقعية » السليمة المتكاملة وخصائصها في كل شخصية وفي كل موقف وفي كل خالجة. . فإنّها تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، ذلك الأداء الصادق، الرائع بصدقه العميق وواقعيته السليمة. . المنهج الذي لا يهمل خلجة بشرية واقعية واحدة، وفي الوقت ذاته لا يُنشيء مستنقعاً من الوَحْل يُسميه « الواقعية » كالمستنقع الذي أنشأته « الواقعية » الغربية الجاهلية!

وقد ألمَّت القصة بألوان من الضعف البشري؛ بما فيها لحظة الضعف الجنسي، ودون أن تزوِّر ـ أي تزوير ـ في تصوير النفس البشرية بواقعيتها الكاملة في هذه المواقف، ودون أن تغفل أي لمحة حقيقية من لمحات النفس أو الموقف، فإنّها لم تُسرف قط لتنشىء ذلك المستنقع المُقَزِّز للفطرة السليمة، ذلك الذي يسمونه في جاهلية القرن العشرين « الواقعية » أو يسمونه أخيراً « الطبيعية! »، وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعي الكامل مع تنوع الشخصيات وتنوع المواقف:

ـ إخوة يوسف. . والأحقاد الصغيرة في قلوبهم تكبر وتتضخم حتى تحجب عن ضمائرهم هول الجريمة وبشاعتها ونكارتها وضخامتها! ثم تُزين لهم « المُحلّل الشرعي! » الذي يخرجون به من تلك الجريمة. . ملاحَظاً في هذا واقعيتهم في بيئتهم الدينية ـ وهم أولاد نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ وانطباعات هذه البيئة في تفكيرهم ومشاعرهم وتقاليدهم، وحاجتهم النفسية ـ من ثمَّ ـ إلى مبرر للجريمة، وإلى

طريقة للتحلّل من نكارتها وبشاعتها.

﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين. إذ قالوا: ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا - ونحن عصبة - إنَّ أبانا لفي ضلال مبين! اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم، وتكونوا من بعده قوماً صالحين! قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب، يلتقطه بعض السيارة - إن كنتم فاعلين! - قالوا: يا أبانا، ما لَكَ لا تأمنّا على يوسف؛ وإنّا له لناصحون. أرسله معنا غداً يرتعْ ويلعبْ، وإنّا له لحافظون! قال: إنّي ليحزنني أن تذهبوا به، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. قالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنّا إذاً لخاسرون. فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبِّ، وأوحينا إليه لتنبئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون. وجاؤوا أباهُم عشاءً يبكون، قالوا: يَا أبانا، إنّا ذهبنا نستبق، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنّا صادقين. وجاؤوا على قميصه بدم كذب، قال: بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون﴾ [يوسف: ٧ - ١٨]..

ونحن نجدهم - هُم هُم - في كل مواقف القصة بعد ذلك - كما نجد موقف أحدهم الخاص من أول القصة إلى آخرها - فما إن يذهبوا بأخي يوسف بعدما طلبه منهم وهم لايعرفونه يحسبون أنّه عزيز مصر الذي قدموا من بلادهم - كنعان - ليشتروا منه القمح في سنوات الجدب العجاف، حيث يُدبر الله ليوسف أن يأخذ أخاه منهم بحجة أنّه وجد صواع الملك في رحله.. ما إن يروا هذا التدبير - وهم لا يعلمون ما وراءه - حتى ينفجر حقدهم القديم على يوسف:

﴿قالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل! فأسرّها يوسف في نفسه ولم يُبدها لهم. قال: أنتم شر مكاناً، والله أعلم بما تصفون﴾ [يوسف: ٧٧]..

كذلك نجدهم ـ هم هم ـ بعد مواجهة أبيهم بالفجيعة الثانية في شيخوخته الحزينة، فما إن يروا تجدد حزنه على يوسف حتى ينفجر حقدهم القديم، دون مراعاة لشيخوخة أبيهم ونكبته الأليمة:

﴿وتولىٰ عنهم. وقال: يَا أسفا علىٰ يوسف! وابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم. قالوا: تالله تفتأ تذكر يوسف حتّىٰ تكون حرضاً أو تكون من الهالكين!﴾ [يوسف: ٨٤ ـ ٨٥]. .

ومثلها عندما أرسل يوسف قميصه إلى أبيه في النهاية ـ بعد ما كَشَف لهم عن شخصيته ـ فلمَّا رأوا أباهم يستنشق عبير يوسف، غاظهم هذا الاتصال الباطني الدال على عمق ما بينه وبين يوسف، فلم يَملكوا أنفسهم أن يبكتوه ويؤنبوه:

﴿ولمَّا فصلت العير قال أبوهم: إنِّي لأجد ريح يوسف، لولا أن تُفنِّدون! قالوا: تالله إنَّك لفي ضلالك القديم!﴾ [يوسف: ٩٤، ٩٥]. .

ـ **وامرأة العزيز**. . في صُرَع الشهوة التي تعمي عن كل شيء في اندفاعها الهائج الكاسح، فلا تحفل حياء أنثوياً ولا كبرياء ذاتياً، كما لا تحفل مركزاً اجتماعياً ولا فضيحة عائلية. . والتي تستخدم ـ مع ذلك ـ كل مكر الأنثىٰ وكيدها، سواء في تبرئة نفسها أو حماية مَن تهوىٰ من جرائر التهمة التي ألصقتها به، وتحديد عقوبة لا تُودي بحياته! أو ردّ الكيد للنسوة من ثغرة الضعف الغريزي الشهوي الذي تعرفه فيهنَّ من معرفتها لنفسها! أو التبجُّح بشهوانيتها أمام انكشاف ضعف عزيمتها وكبريائها أمام مَن تهوىٰ، ووقوف نسوتها معها على أرض واحدة، حيث تبدو فيها الأنثىٰ مُتجردة من كل تجمل المرأة وحيائها، الأنثىٰ التي لا تحسّ في إرواء هواتفها الأنثوية أمراً يُعاب أصلاً!

ومع صدق التصوير والتعبير عن هذا النموذج البشري الخاص بكل واقعيته، وعن هذه اللحظة الخاصة بكل طبيعتها، فإنَّ الأداء القرآني الذي

ينبغي أن يكون هو النموذج الأعلىٰ للأداء الفني الإسلامي ـ لم يتخلَّ عن طابعه النظيف مرة واحدة ـ حتى وهو يُصور لحظة التعرّي النفسي والجسدي الكامل بكل اندفاعها وحيوانيتها ـ لينشىء ذلك المستنقع الكريه الذي يتمرغ في وَحْلِه كُتَّاب «القصة الواقعية» وكُتَّاب «القصة الطبيعية» في هذه الجاهلية النكدة بحجة الكمال الفني في الأداء!

﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته: أكرمي مثواه عسىٰ أن ينفعنا أو نتخذه ولداً. وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض، ولنعلّمه من تأويل الأحاديث، والله غالب على أمره ولٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون. ولمَّا بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً، وكذلك نجزي المحسنين. وراودته التي هو في بيتها عن نفسه، وغلَّقت الأبواب وقالت: هيت لك! قال: معاذ الله! إنَّه ربِّي أحسن مثواي، إنَّه لا يفلح الظالمون، ولقد همَّت به وهمَّ بها، لولا أن رأىٰ برهان ربه. كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، إنَّه من عبادنا المُخلصين. واستبقا الباب، وقدَّت قميصه من دُبُر، وألفيا سيدها لدىٰ الباب، قالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلاَّ أن يُسجن أو عذاب أليم؟! قال: هي راودتني عن نفسي، وشهد شاهد من أهلها: إن كان قميصه قُدَّ من قُبُلٍ فصدقت وهو من الكاذبين. وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُرٍ فكذبت وهو من الصَّادقين. فلمَّا رأىٰ قميصه قُدَّ من دُبُرٍ قال: إنَّه من كيدكنَّ، إنَّ كيدكنَّ عظيم! يوسف أعرض عن هٰذا واستغفري لذنبك إنَّك كنت من الخاطئين!..

وقال نسوةٌ في المدينة: امرأة العزيز تُراود فتاها عن نفسه! قد شغفها حباً!! إنَّا لنراها في ضلال مبين! فلمَّا سمعت بمكرهنَّ أرسلت إليهنَّ، وأعتدت لهنَّ مُتَّكأً، وآتت كل واحدة منهنَّ سكيناً، وقالت: اخرج عليهنَّ! فلمَّا رأينه أكبرنه، وقطَّعن أيديهنَّ، وقلن: حاشىٰ لله! ما هٰذا بشراً إن هٰذا إلاَّ ملك كريم. قالت: فذلكنَّ الذي لُمتنَّني فيه! ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنَّنَّ وليكوناً من الصاغرين. قال:

ربِّ، السجن أحبُّ إليَّ ممَّا يدعونني إليه، وإلَّا تصرف عني كيدهنَّ أصْبُ إليهنَّ وأكن من الجاهلين. فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهنَّ، إنَّه هو السميع العليم﴾ [يوسف: ٢١ ـ ٣٤]..

وكذلك حين نلتقي بها مرة أُخرىٰ بعدما دخل يوسف السجن بسبب كيدها وكيد النسوة، وبقي هناك حتى رأىٰ الملك رؤياه، وتذكّر الفتىٰ الذي كان سجيناً معه أنَّ يوسف هو وحده الذي يعرف تأويل الرؤيا، فطلب الملك أن يأتوه به، فأبىٰ حتى يُحقق قضيته، ويُبرىء ساحته، فاستدعاها الملك مع النسوة. وإذا بها ما تزال المرأة المُحِبّة، مع التغير الطبيعي الواقعي الذي يحدثه الزمن والعمر والأحداث والظروف؛ ومع تَسرُّب الإيمان الذي تعرفه من يوسف من خلال تلك المشاعر والمؤثرات جميعاً:

﴿وقال الملك: ائتوني به. فلمَّا جاءه الرسول قال: ارجع إلى ربِّك فاسأله: ما بال النسوة اللَّاتي قطَّعن أيديهنَّ؟ إنَّ ربي بكيدهنَّ عليم. قال: ما خطبكنَّ إذ راودتنَّ يوسف عن نفسه؟ قلن: حاشىٰ لله! ما علمنا عليه من سوء. قالت امرأة العزيز: الآن حَصْحَص الحق، أنا راودته عن نفسه، وإنَّه لمن الصادقين. ذلك ليعلم أنِّي لم أخنه بالغيب، وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين. وما أُبرِّىءُ نفسي، إنَّ النفس لأمَّارة بالسوء إلَّا ما رَحِمَ ربي، إنَّ ربِّي غفور رحيم﴾ [يوسف: ٥٠ ـ ٥٣]..

ـ ويوسف.. العبد الصالح ـ الإنسان ـ لم يزوّر الأداء القرآني في شخصيته الإنسانية لمحة واحدة؛ وهو يواجه الفتنة بكل بشريته ـ مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه ـ، وبشريتُه مع نشأته وتربيته ودينه تُمثّل بمجموعها واقعيته بكل جوانبها.. لقد ضعف حين همَّت به حتى هَمَّ بها؛ ولكن الخيط الآخر شَدَّه وأنقذه من السقوط فعلاً. ولقد شعر بضعفه إزاء كيد النسوة ومنطق البيئة، وجوّ القصور، ونسوة القصور أيضاً! ولكنه تمسّك بالعروة الوثقىٰ.. ليست هنالك لمحة واحدة مزوّرة في واقعيته الشخصية

وطبيعتها؛ وليس هنالك رائحة من مُستنقعات الجاهلية وَوَحْلِها الفني! ذلك أنَّ هذا هو الواقع السليم بكل جوانبه. .

ـ والعزيز. . وشخصيته بطبيعتها الخاصة، وبطبيعة سَمت الإمارة؛ ثمَّ بضعف النَخوة، وغَلَبة الرياء الاجتماعي وستر الظواهر وإنقاذها! وفيه تتمثل كل خصائص بيئته:

﴿فلمَّا رأىٰ قميصَه قُدَّ من دُبُر، قال: إنَّه من كيدكنَّ، إنَّ كيدكنَّ عظيم. يوسف أعرض عن هٰذا، واستغفري لذنبك، إنَّك كنت من الخاطئين!﴾ [يوسف: ٢٨ ـ ٢٩]. .

ـ والنسوة. . نسوة هذا المجتمع بكل ملامحه. . اللَّغطِ بسيرة امرأة العزيز وفَتاها الذي راودته عن نفسه، بعدما شغفها حباً! والاستنكار الذي تبدو فيه غيرة النسوة من امرأة العزيز أكثر ممَّا يبدو فيه استنكار الفعلة! ثمَّ وَهلتهنَّ أمام طلعة يوسف. ثمَّ إقرارهنَّ الأُنثوي العميق بموقف المرأة التي كنَّ يَلْغَطْن بقصتها ويستنكرن موقفها، وإحساس هٰذه المرأة بهٰذا الإقرار الذي يُشجعها على الاعتراف الكامل، وهي آمنة في ظل استسلامهنَّ لأُنوثتهنَّ، كما تصنعها بيئتهنَّ الخاصة وتوجّهها. ثمَّ ميلهنَّ كلهنَّ على يوسف بالإغراء والإغواء، رغم ما أنطقتهنَّ به الوهلة الأُولىٰ من نظافته وطهارته البادية من قولهنَّ: **﴿حاشىٰ لله! ما هٰذا بشراً. إن هٰذا إلَّا ملك كريم﴾** [يوسف: ٣١]. .

نأخذ ذلك من قولة يوسف ـ عليه السَّلام ـ: **﴿قال: ربِّي السجن أحبُّ إليَّ ممَّا يدعونني إليه، وإلَّا تَصرف عني كيدهنَّ أَصبُ إليهنَّ وأكن من الجاهلين﴾** [يوسف: ٣٣]. .

فلم تعد امرأة العزيز وحدها تُراوده؛ ولكن عادت نسوة تلك الطبقة بجملتها تُطارده!

ـ والبيئة. . التي تتجلىٰ سماتها من خلال ذلك كله. ثمَّ من خلال ذلك

التصرف في أَمْر يوسف، على الرغم ممَّا بدا من براءته. ذلك التصرّف المقصود به مواراة الفضيحة، ودفن معالمها؛ ولا يهمّ أن يذهب بريء كيوسف ضحيتها: **﴿ثمَّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجنُنّه حتّىٰ حين﴾** [يوسف: ٣٥]. .

ـ فإذا تابعنا شخصية يوسف ـ عليه السَّلام ـ فإنَّنا لا نفتقد في موقف واحد ملامح هذه الشخصية، المنبثقة من مقوماتها الذاتية البيئية الواقعية، المتمثلة في كونه «العبد الصالح ـ الإنسان ـ بكل بشريته، مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه». . فهو في السجن وظلماته ـ مع الظلم وظلماته! ـ لا يغفل عن الدعوة لدينه، في كياسة وتلطف ـ مع الحزم والفصل ـ وفي إدراك لطبيعة البيئة ومداخل النفوس فيها. . كما أنه لا يغفل عن حسن تمثيله بشخصه وأدبه وسلوكه لدينه هذا الذي يدعو إليه في سجنه:

﴿ودخل معه السجن فتيان. قال أحدهما: إنِّي أراني أعصر خمراً، وقال الآخر: إنِّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه. نبِّئنا بتأويله، إنَّا نراك من المحسنين. قال: لا يأتيكما طعام تُرزقانه إلَّا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ذلكما ممَّا علَّمني ربِّي، إنِّي تركتُ ملَّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون. واتَّبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ما كان لنا أن نُشرك بالله من شيء، ذلك من فضل الله علينا وعلىٰ الناس، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يشكرون. يَا صاحبي السجن، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟ ما تعبدون من دونه إلَّا أسماء سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلَّا لله، أمر ألَّا تعبدوا إلَّا إياه، ذلك الدين القيِّم، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون. يَا صاحبي السجن، أمَّا أحدكما فيسقي ربه خمراً، وأمَّا الآخر فَيُصْلَب فتأكل الطير من رأسه، قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ [يوسف: ٣٦ ـ ٤١]. .

وهو مع هذا كله ـ بَشر، فيه ضعف البشر. فهو يتطلب الخلاص من

سجنه، بمحاولة إيصال خَبره إلى الملك، لعلَّه يكشف المؤامرة الظالمة التي جاءت به إلى السجن المُظلم. وإن كان الله ـ سبحانه ـ شاء أن يعلمه أن يقطع الرجاء إلَّا منه وحده:

﴿وقال للذي ظنَّ أنَّه ناج منهما: اذكرني عند ربك. فأنساه الشيطان ذكر ربه. فلبث في السجن بضع سنين..﴾ [يوسف: ٤٢]..

ثمَّ تطالعنا ملامح هذه الشخصية كذلك بعد بضع سنين، وقد رأى الملك رؤياه، فَحَار في تأويلها الكهنة والسدنة؛ حتى تذكر صاحب السجن يوسف ـ بعدما تمَّت التربية الربانية للعبد الصالح، فاطمأنَّ إلى قَدَر الله به واطمأنَّ إلى مصيره ـ حتى إذا ما طلب الملك ـ بعد تأويله لرؤياه ـ أن يأتوه به، أجاب في هدوء المطمئن الواثق؛ وتَمَنَّع عن مغادرة سجنه إلَّا بعد تحقيق تهمته وتبرئة سمعته:

﴿وقال الذي نجا منهما وادَّكر بعد أُمَّة: أنا أُنبِّئكم بتأويله فأرسلون. يوسف أيُّها الصدِّيق، أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهنَّ سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، لعلِّي أرجع إلى الناس لعلَّهم يعلمون. قال: تزرعون سبع سنين دأباً، فما حصدتم فذروه في سنبله، إلَّا قليلاً ممَّا تأكلون. ثمَّ يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون.. وقال الملك: ائتوني به.. فلمَّا جاءه الرسول: قال: ارجع إلى ربِّك فاسأله ما بال النسوة اللَّاتي قطَّعن أيديهنَّ؟ إنَّ ربِّي بكيدهنَّ عليم. قال: ما خطبكنَّ إذ راودتنَّ يوسف عن نفسه؟ قلن: حاشَى لله! ما علمنا عليه من سوء. قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق، أنا راودته عن نفسه، وإنَّه لمن الصادقين. ذلك ليعلم أنِّي لم أخنه بالغيب، وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين. وما أُبرِّىء نفسي، إنَّ النفس لأمَّارة بالسوء، إلَّا ما رحم ربي، إنَّ ربِّي غفور رحيم.. وقال الملك: ائتوني به أستخلصه لنفسي، فلمَّا كلَّمه قال: إنَّك اليوم لدينا مكين أمين. قال: اجعلني على خزائن الأرض إنِّي حفيظ عليم﴾ [يوسف: ٤٥ ـ ٥٥]..

ومنذ هذه اللحظة التي تجلت فيها شخصية يوسف مكتملة ناضجة واعية، مطمئنة ساكنة واثقة، نجد هذه الشخصية تتفرد على مسرح الأحداث، وتتوارىٰ تماماً شخصيات الملك والعزيز والنسوة والبيئة. ويمهد السياق القرآني لهذا التحول في القصة وفي الواقع بقوله:

﴿وكذلك مكنَّا ليوسف في الأرض يتبوَّأ منها حيث يشاء، نصيب برحمتنا من نشاء. ولا نضيع أجر المحسنين، ولأجر الآخرة خير للَّذين آمنوا وكانوا يتَّقون﴾ [يوسف: ٥٦ ـ ٥٧]..

ومنذ هذه اللحظة نجد هذه الشخصية تواجه ألواناً أُخرىٰ من الابتلاءات، تختلف في طبيعتها عن الألوان الأُولىٰ؛ وتواجهها بذلك الاكتمال الناضج الواعي، وبتلك الطمأنينة الساكنة الواثقة.

ـ نجد يوسف وهو يواجه ـ للمرة الأُولىٰ ـ إخوته بعدما فعلوا به تلك الفعلة القديمة، وهو في الموقف الأعلىٰ بالقياس إليهم والأقوىٰ.. ولكننا نجد سمة الضبط واضحة في انفعالاته وتصرفاته:

﴿وجاء أخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون. ولمَّا جهَّزهم بجهازهم قال: ائتوني بأخ لكم من أبيكم، ألا ترون أنِّي أُوفي الكيل وأنا خير المنزلين؟ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون. قالوا: سنراود عنه أباه وإنَّا لفاعلون. وقال لفتيانه: اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلَّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلىٰ أهلهم لعلَّهم يرجعون﴾ [يوسف: ٥٨ ـ ٦٢]..

ـ ونجده وهو يدبر ـ بتدبير الله له ـ كيف يأخذ أخاه. فنلمح الشخصية الناضجة الواعية الحكيمة المطمئنة، الضابطة الصابرة:

﴿ولمَّا دخلوا علىٰ يوسف آوىٰ إليه أخاه: قال: إنِّي أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون. فلمَّا جهَّزهم بجهازهم جعل السقاية في رَحل أخيه، ثمَّ أذَّن مُؤذِّن: أيَّتهاالعير إنَّكم لسارقون. قالوا ـ وأقبلوا عليهم ـ ماذا

تفقدون؟ قالوا: نفقد صواع الملك، ولمن جاء به حمل بعير، وأنا به زعيم. قالوا: تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض، وما كنا سارقين. قالوا: فما جزاؤه إن كنتم كاذبين؟ قالوا: جزاؤه من وُجِدَ في رَحله فهو جزاؤه، كذلك نجزي الظالمين. فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، ثمَّ استخرجها من وعاء أخيه. . كذلك كدنا ليوسف، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك، إلاَّ أن يشاء الله، نرفع درجات من نشاء، وفوق كل ذي علم عليم. قالوا: إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل! فأسرَّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم، قال: أنتم شرٌّ مكاناً، والله أعلم بما تصفون. قالوا: يَا أَيُّها العزيز إنَّ له أباً شيخاً كبيراً فَخُذ أحدنا مكانه، إنَّا نراك من المُحسنين. قال: معاذ الله أن نأخذ إلاَّ من وجدنا متاعنا عنده، إنَّا إذاً لظالمون﴾ [يوسف: ٦٩ - ٧٩]. .

- ثمَّ نلتقي به وقد استوفت المحنة بيعقوب أَجلها، وقَدَّر الله أن تنقضي الابتلاءات التي نزلت به وببيته، وحن يوسف إلى أبويه وأهله، ورقَّ لإخوته والضرّ باد بهم، فكشف لهم عن نفسه، في عتاب رقيق، وفي عفو كريم، يجيء في أوانه، وكل الملابسات توحي به، وتتوقعه من هذه الشخصية بسماتها تلك:

﴿فلمَّا دخلوا عليه قالوا: يَا أَيُّها العزيز مسَّنا وأهلنا الضر، وجئنا ببضاعة مُزجاة. فأوفِ لنا الكيل وتصدَّق علينا، إنَّ الله يجزي المتصدِّقين. قال: هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟ قالوا: أئنَّك لأنت يوسف؟ قال: أنا يوسف، وهٰذا أخي، قد مَنَّ الله علينا، إنَّه من يتَّق ويصبر فإنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين. قالوا: تالله لقد آثرك الله علينا، وإن كنَّا لخاطئين. قال: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين. اذهبوا بقميصي هٰذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً، وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ [يوسف: ٨٨ - ٩٣]. .

- وفي النهاية يجيء ذلك الموقف الجليل الرائع. . موقف اللقاء

الجامع ويوسف في أوج سلطانه وأوج تأويل رؤياه وتحقق أحلامه.. وإذا به ينسلخ من هذا كله وينتحي جانباً ينفرد بربه، ويناجيه خالصاً له، وذلك كله مطروح وراءه:

﴿ربِّ قد آتيتني من الملك، وعلَّمتني من تأويلِ الأحاديث. فاطر السَّماوات والأرض. أنت وليِّي في الدنيا والآخرة. توفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ [يوسف: ١٠١]..

إنَّها شخصية موحدة متكاملة، بكل واقعيتها الممثلة لمقوِّماتها الواقعية في نشأتها وبيئتها.

- **ويعقوب**.. الوالد المحب الملهوف، والنبي المطمئن الموصول، وهو يواجه بالاستبشار والخوف معاً تلك الرؤيا الواعدة التي رآها يوسف؛ وهو يرىٰ فيها بشائر مستقبل مرموق، بينما هو يتوجس خيفة من الشيطان وفعله في نفوس بَنيه. فتتجلىٰ شخصيته بواقعيتها الكاملة في كل جوانبها:

﴿إذ قال يوسف لأبيه: يَا أبت إنِّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين. قال: يَا بنيَّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً. إنَّ الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين. وكذلك يجتبيك ربك ويعلِّمك من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمَّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إنَّ ربَّك عليم حكيم﴾ [يوسف: ٤ - ٦]..

ثمَّ نجد هذه الشخصية كذلك بكل واقعيتها البشرية النبوية، وبنوه يراودونه عن يوسف ثم وهم يفاجئونه بالفجيعة:

﴿قالوا: يَا أبانا ما لَكَ لا تأمنَّا علىٰ يوسف وإنَّا له لناصحون. أرسله معنا غداً يرتع ويلعب، وإنَّا له لحافظون. قال: إنِّي ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. قالوا: لئن أكله الذئب. ونحن عصبة إنَّا إذاً لخاسرون. فلمَّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب،

وأوحينا إليه لتنبِّئنَّهم بأمرهم هـذا وهم لا يشعرون. وجاؤوا أبـاهم عشاءً يبكون، قالوا: يَـا أبانا إنَّا ذهبنـا نستبق وتركنـا يوسف عنـد متاعنـا فأكله الذئب، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنـا صادقين. وجـاؤوا على قميصه بـدم كذب، قال: بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً؛ فصبر جميـل، والله المستعان على ما تصفون﴾ [يوسف: ١١ ـ ١٨]..

ثمَّ نلتقي بهذه الشخصية ـ بكل واقعيتها تلك ـ وبنـوه يراودونـه مرة أخرىٰ على السَلوة الباقية له.. أخي يوسف.. وقد طلبه منهم عزيز مصر ـ يوسف ـ الذي لايعرفونه! في مقابل أن يعطيهم كيلاً يقتاتون به في السنوات العجاف!

﴿فلمَّا رجعوا إلىٰ أبيهم قالوا: يَـا أبانا مُنع منا الكيل، فأرسل معنا أخانا نكتل وإنَّا له لحافظون: قال: هل آمنكم عليه إلاَّ كما أمنتكم على أخيه من قبل؟ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين. ولمَّا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردَّت إليهم، قالوا: يَـا أبانا ما نبغي، هـٰذه بضاعتنا ردَّت إلينا، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا، ونزداد كيل بعير، ذلك كيـل يسير. قـال: لن أرسله معكم حتّىٰ تؤتون موثقاً من الله: لتأتنَّني به إلاَّ أن يُحاط بكم. فلمَّا أتوه موثقهم قال: الله على ما نقول وكيل.. وقال: يَـا بنيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة، وما أُغني عنكم من الله من شيء، إن الحكم إلاَّ لله، عليه توكَّلت، وعليه فليتوكَّل المتوكلون. ولمَّـا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يُغني عنهم من الله من شيء، إلاَّ حاجة في نفس يعقوب قضاها، وإنَّه لذو علم لما علَّمناه، ولـٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٦٣ ـ ٦٨]..

ثمَّ نلتقي به في فجيعته الثانية.. والداً ملهوفاً ونبياً موصولاً.. ذلك بعد أن دبَّر الله ليوسف كيف يأخذ أخاه. فيتخلف أحد أبناء يعقوب ـ صاحب الشخصية الخاصة فيهم، متوافياً مع سماته التي صاحبت مواقفه كلها في

القصة، مُشفقاً أن يقابل أباه بعد الموثق الذي آتاه إياه، إلاَّ أن يأذن له أبوه أو يحكم له الله ـ:

﴿فلمَّا استيأسوا منه خلصوا نجيّاً، قال كبيرهم: ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله، ومن قبل ما فرطتم في يوسف؟ فلن أبـرح الأرض حتّىٰ يأذن لي أبي، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين. ارجعوا إلى أبيكم فقولوا: يَـا أبانا إنَّ ابنك سرق! وما شهدنا إلاَّ بما علمنا، وما كنّـا للغيب حافظين. واسأل القرية التي كنّا فيها والعير التي أقبلنا فيها، وإنّـا لصادقون. قال: بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل، عسىٰ الله أن يأتيني بهم جميعاً إنَّه هو العليم الحكيم. وتولّىٰ عنهم وقال: يَـا أسفا علىٰ يوسف! وابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم. قالوا: تالله تفتأ تذكر يوسف حتّىٰ تكون حرضاً أو تكون من الهـالكين! قال: إنَّمـا أشكو بثّي وحـزني إلىٰ الله وأعلم من الله ما لا تعلمون. يـا بنيَّ اذهبوا فتحسَّسـوا من يوسف وأخيـه، ولا تيأسـوا من روْح الله. إنّـه لا ييـأس من روْح الله إلاَّ القـوم الكافرون﴾ [يوسف: ٨٠ ـ ٨٧]..

وفي آخر مواقف المحنة الطويلة للشيخ المبتلىٰ نجد ذات الملامح وذات الواقعية. وهم يشمّ ريح يوسف في قميصه، ويواجه غيظ بنيه وتبكيتهم فلا يشك في صدق ظنه بربه.

﴿ولمَّا فصلت العير قال أبوهم: إنِّي لأجـد ريح يـوسف، لولا أن تُفنِّدون. قالوا: تالله إنَّك لفي ضلالك القديم. فلمَّا أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيراً. قال: ألم أقل لكم: إنِّي أعلم من الله ما لا تعلمون؟ قالوا: يَـا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كنا خاطئين. قال: سوف أستغفر لكم ربي، إنَّه هو الغفور الرحيم﴾ [يوسف: ٩٤ ـ ٩٨]..

إنَّها الشخصية المُوحّدة الخصـائص والملامـح، الواقعيـة المشاعـر

والتصرفات، المُمَثِّلة لكل واقعية ذَاتِها وظروفها وبيئتها بلا تزوير ولا نقص ولا تحريف!.

والواقعية الصادقة الأمينة النظيفة السليمة في الوقت نفسه، لا تقف عند واقعية الشخصيات الإنسانية التي تحفل بها القصة في هذا المجال الواسع، على هذا المستوىٰ الرائع. ولكنها تتجلىٰ كذلك في واقعية الأحداث والسرد والعرض وصدقها وطبيعتها في مكانها وزمانها، وفي بيئتها وملابساتها.. فكل حركة وكل خالجة وكل كلمة تجيء في أوانها؛ وتجيء في الصورة المتوقعة لها؛ وتجيء في مكانها من مسرح العرض؛ متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهمتها ودورها وطبيعة جريان الحياة بها.. الأمر الملحوظ في الشخصيات أيضاً كما قررنا من قبل هذا!

حتى لحظات الجنس في القصة ومواقفه أخذت مساحتها كاملة ـ في حدود المنهج النظيف اللائق «بالإنسان» في غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقعية البشرية في شمولها وصدقها وتكاملها ـ ولكن استيفاء تلك اللحظات لمساحتها المتناسقة مع بقية الأحداث والمواقف لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هي كل واقعية الكائن البشري؛ وكما لو كانت هي محور حياته كلها، وهي كل أهداف حياته التي تستغرقها! كما تحاول الجاهلية أن تُفهمنا أنَّ هذا وحده هو الفن الصادق!

إنَّ الجاهلية إنَّما تمسخ الكائن البشري باسم الصدق الفني! وهي تقف أمام لحظة الجنس كما لو كانت هي كل وجهة الحياة البشرية بجملتها! فتنشيء منها مستنقعاً واسعاً عميقاً، مُزيناً في الوقت ذاته بالأزهار الشيطانية!

وهي لا تفعل هذا لأنَّ هذا هو الواقع، ولا لأنَّها هي مخلصة في تصوير هذا الواقع! إنَّما تفعله لأنَّ «بروتوكولات صهيون» تريد هذا! تريد تجريد «الإنسان» إلَّا من حيوانيته حتى لا يوصم اليهود وحدهم بأنَّهم هم الذين يتجردون من كل القيم غير المادية! وتريد أن تغرق البشرية كلها في

وَحْل المستنقع كي تنحصر فيه كل اهتماماتها، وتستغرق فيه كل طاقاتها؛ فهذه هي أضمن سبيل لتدمير البشرية حتى تجثو على ركبتيها خاضعة لملك صهيون المرتقب الملعون! ثمَّ تـتخذ من الفن وسيلة إلى هذا الشرّ كله، إلى جانب ما تـتخذه من نشر المذاهب « العلمية! » المؤدية إلى ذات الهدف. تارة باسم « الداروينية » وتارة باسم « الفرويدية » وتارة باسم « الماركسية » أو « الاشتراكية العلميـة ». . وكلها سـواء في تحقيق المخططات الصهيـونية الرهيبة!

في ظلال الفترة التاريخية :

والقصة بعد ذلك تـتجاوز الشخصيات والأحداث لترسم ظلال الفترة التاريخية التي تجري فيها أحداث القصة، وتـتحرك فيها شخصياتها الكثيرة، وتسجل سماتها العامة، فترسم مسرح الأحداث بـأبعاده العـالمية في تلك الفتـرة التاريخيـة. . ونكتفي ببعض اللمحـات والسهـام التي تـرسم تلك الأبعاد:

ـ إنَّ مصـر في هذه الفتـرة لم يكن يحكمهـا الفـراعنـة من الأُسَـر المصرية؛ إنَّما كان يحكمهـا « الرعـاة » الذين عـاش إبراهيم وإسمـاعيل وإسحاق ويعقوب قريباً منهم، فعرفوا شيئاً عن دين الله منهم. نأخذ هذا من ذكر القرآن للملك بلقب « الملك » في حين يُسمىٰ الملك الذي جاء على عهد موسىٰ ـ عليه السَّلام ـ من بعد بلقبه المعروف « فرعـون ». ومن هذا يتحدد زمن وجود يوسف ـ عليه السَّلام ـ في مصر. فهو كان مـا بين عهد الأُسرة الثالثة عشرة والأُسرة السابعة عشر؛ وهي أُسر « الرعاة » الذين سماهم المصريون « الهكسوس »! كراهية لهم؛ إذ يقال: إنَّ معنىٰ الكلمة في اللغة المصرية القديمة: « الخنازير » أو « رعاة الخنازير »! وهي فترة تستغرق نحو قرن ونصف قرن.

ـ إنَّ رسالة يوسف ـ عليه السَّلام ـ كانت في هذه الفترة. وهو كان قد

بدأ الدعوة إلى الإسلام . . ديانة التوحيد الخالص . . وهو في السجن؛ وقرر أنّها دين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ وقررها في صورة واضحة كاملة دقيقة شاملة، فيما حكاه القرآن الكريم من قوله:

﴿إنّي تركت ملّة قوم لا يؤمنون بالله، وهم بالآخرة هم كافرون. واتّبعت ملّة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء، ذلك من فضل الله علينا وعلى النّاس، ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون. يَا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟ ما تعبدون من دونه إلاّ أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلاّ لله، أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إياه، ذلك الدين القيِّم، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٣٧ - ٤٠] . .

وهي صورة للإسلام واضحة كاملة ودقيقة شاملة - كما جاء به رُسل الله جميعاً - من ناحية أصول العقيدة. تحتوي، الإيمان بالله، والإيمان بالآخرة، وتوحيد الله وعدم الشرك به أصلاً، ومعرفة الله - سبحانه - بصفاته . . الواحد، القهار . والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلاً؛ ومن ثمَّ نفي الأرباب التي تتحكم في رقاب العباد، وإعلان السلطان والحكم لله وحده، ما دام أنَّ الله أمر ألاّ يعبد الناس غيره. ومزاولة السلطان والحكم والربوبية هي تعبيد للناس مخالف للأمر بعبادة الله وحده. وتحديد معنى « العبادة » بأنّهاالخضوع للسلطان والحكم والإذعان للربوبية، وتعريف الدين القيِّم بأنّه إفراد الله - سبحانه - بالعبادة - أي إفراده بالحكم - فهما مترادفان أو متلازمان: **﴿إن الحكم إلاّ لله أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إياه. ذلك الدين القيِّم﴾** . .

وهذه أوضح صورة للإسلام وأكملها وأدقها وأشملها.

وواضح أنَّ يوسف - عليه السَّلام - عندما سيطر على مقاليد الأمور في مصر، استمرَّ في دعوته للإسلام على هذا النحو الواضح الكامل الدقيق الشامل . . ولا بد أنَّ الإسلام انتشر في مصر على يديه - وهو يقبض على

أقوات الناس وأزوادهم لا على مجرد مقاليد الحكم بينهم ـ وانتشر كذلك في البقاع المجاورة ممَّن كانت وفودها تجيء لِتَقْتَات ممَّا تمَّ ادّخاره بحكمته وتدبيره ـ وقد رأينا إخوة يوسف يجيئون من أرض كنعان المجاورة في الأردن ضمن غيرهم من القوافل ليمتاروا من مصر ويتزودوا، ممَّا يصور حالة الجدب التي حلَّت بالمنطقة كلها في هذه الفترة. والقصة تشير إلى آثار باهتة للعقيدة الإسلامية التي عرف الرعاة شيئاً عنها في أول القصة، كما تشير إلى انتشار هذه العقيدة ووضوحها بعد دعوة يوسف بها.

والإشارة الأولىٰ وردت في حكاية قول النسوة حين طلع عليهنَّ يوسف:

﴿فلمَّا رأينه أكبرنه، وقلن: حاشَىٰ لله! ما هـٰذا بشراً. إن هـٰذا إلاَّ مَلك كريم﴾ [يوسف: ٣١]..

ووردت في قول العزيز لامرأته: **﴿يوسف أعرض عن هـٰذا واستغفري لذنبك؛ إنَّك كنت من الخاطئين﴾** [يوسف: ٢٩]..

أمَّا الإشارة الثانية الواضحة فقد جاءت على لسان امرأة العزيز التي يتجلى أنَّها آمنت بعقيدة يوسف وأسلمت في النهاية، فيما حكاه عنها السياق القرآني:

﴿قالت امرأة العزيز: الآن حَصحص الحق، أنا راودته عن نفسه، وإنَّه لمن الصادقين، ذلك ليعلمَ أنِّي لم أخنه بالغيب، وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين. وما أُبرِّىءُ نفسي. إنَّ النفس لأمَّارة بالسوء إلاَّ ما رحم ربِّي، إنَّ ربي غفور رحيم﴾ [يوسف: ٥١ ـ ٥٣]..

وإذا اتَّضح أنَّ ديانة التوحيد ـ على هذا المستوىٰ ـ كانت قد عُرفت قبل تولي يوسف مقاليد الحكم في مصر؛ فلا بد أن تكون قد انتشرت بعد ذلك واستقرت على نطاق واسع في أثناء تَولِّيه الحكم، ثم من بعد ذلك في عهد أُسر الرعاة. فلمَّا استردَّ الفراعنة زمام الأمور في الأسرة الثامنة عشرة

أخذوا يقاومون ديانة التوحيد مُمَثَّلة في ذرية يعقوب التي تكاثرت في مصر، لإعادة الوثنية التي تقوم عليها الفرعونية! . .

وهذا يكشف لنا سبباً أصيلاً من أسباب اضطهاد الفراعنة بعد ذلك لبني إسرائيل ـ أي يعقوب ـ إلى جانب السبب السياسي، وهو أنَّهم جاؤوا واستوطنوا وحكموا واستقروا في عهد ملوك الرعاة الوافدين.

فلمَّا طرد المصريون ملوك الرعاة طاردوا حلفاءهم من بني إسرائيل أيضاً. . وإن كان اختلاف العقيدتين ينبغي أن يكون هو التفسير الأقوىٰ لذلك الاضطهاد الفظيع. ذلك أنَّ انتشار عقيدة التوحيد الصحيحة يُحطِّم القاعدة التي يقوم عليها ملك الفراعين! فهو العدو الأصيل للطواغيت وحكم الطواغيت وربوبية الطواغيت!

ولقد وردت إشارة إلى هذا الذي نُقرره في حكاية القرآن الكريم لقول مؤمن آل فرعون في سورة غافر؛ في دفاعه الإسلامي المجيد عن موسىٰ ـ عليه السَّلام ـ في وجه فرعون وملئه عندما همَّ بقتل موسىٰ، ليقتل معه الخطر الذي يتهدد ملكه كله من عقيدة التوحيد التي جاء بها موسىٰ:

﴿وقال فرعون: ذروني أقتل موسىٰ وليدع ربه، إنِّي أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد. وقال موسىٰ: إنِّي عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب. وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله؟ وقد جاءكم بالبيِّنات من ربكم، وإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم، إنَّ الله لا يهدي من هو مسرف كذاب. يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض. فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا؟ قال فرعون: ما أُريكم إلاَّ ما أرىٰ. وما أهديكم إلاَّ سبيل الرشاد. وقال الذي آمن: يَا قوم إنِّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب. مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، وما الله يريد ظلماً للعباد، ويَا قوم إنِّي أخاف عليكم يوم التناد. يوم

تُولّون مدبرين ما لكم من الله من عاصم، ومن يضلل الله فما له من هاد.. ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك ممّا جاءكم به، حتىٰ إذا هلك قلتم: لن يبعث الله من بعده رسولاً، كذلك يُضل الله من هو مسرف مرتاب. الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم. كَبُرَ مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا! كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار... إلخ﴾ [غافر: ٢٦ ـ ٣٥]..

فقد كان الصراع الحقيقي بين عقيدة التوحيد التي تُفَرّد الله ـ سبحانه ـ بالربوبية، فتفرده بالعبادة ـ أي بالدينونة والخضوع والاتباع لحاكميته وحده ـ وبين الفرعونية التي تقوم على أساس العقيدة الوثنية، ولا تقوم إلّا بها.

ولعلّ التوحيد الناقص المشوه الذي عرف به «أخناتون» لم يكن إلّا أثراً من الآثار المضطربة التي بقيت من التوحيد الذي نشره يوسف ـ عليه السّلام ـ في مصر كما أسلفنا؛ وبخاصة إذا صَحَّ ما يقال في التاريخ من أنّ أم أخناتون كانت آسيوية ولم تكن فرعونية!

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى اللمحات الدالة على طبيعة الفترة التاريخية التي وقعت فيها أحداث القصة وتحركت فيها أشخاصها. فنجدها تتجاوز حدود الرقعة المصرية، وتسجل طابع العصر كله. فواضح تماماً انطباع هذه الفترة الزمنية بالرؤىٰ والتنبؤات التي لا تقتصر على أرض واحدة، ولا على قوم بأعيانهم.. ونحن نرىٰ هذه الظاهرة واضحة في رؤيا يوسف وتعبيرها وتأويلها في النهاية. وفي رؤيا الفَتَيَيْن صاحبي السجن. وفي رؤيا الملك في النهاية.. وكلها تتلقىٰ بالاهتمام سواء ممّن يرونها أو ممّن يسمعونها ممّا يشي بطابع العصر كله!



وعلى وجه الإجمال فإنّ القصة غنية بالعناصر الفنية. غنية كذلك بالعنصر الإنساني، حافلة بالانفعال والحركة. وطريقة الأداء تبرز هذه

العناصر إبرازاً قوياً. فضلاً على خصائص التعبير القرآنية الموحية المؤثرة، ذات الإيقاع الموسيقي المناسب لكل جو من الأجواء التي يصورها السياق.

في القصة يتجلّىٰ عنصر الحب الأبوي في صور ودرجات منوعة واضحة الخطوط والظلال: في حب يعقوب ليوسف وأخيه وحبه لبقية أبنائه. وفي استجاباته الشعورية للأحداث حول يوسف من أول القصة إلى آخرها.

وعنصر الغيرة والتحاسد بين الإخوة من أُمهات مختلفات، بحسب، ما يرون من تنوع صور الحب الأبوي.

وعنصر التفاوت في الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد في نفوس الإخوة؛ فبعضهم يقودهم هذا الشعور إلى إضمار جريمة القتل، وبعضهم يشير فقط بطرح يوسف في الجب تلتقطه بعض السيارة نفوراً من الجريمة..

وعنصر المكر والخداع في صور شتّىٰ. من مكر إخوة يوسف به، إلى مكر امرأة العزيز بيوسف وبزوجها وبالنسوة.

وعنصر الشهوة ونزواتها والاستجابة لها بالاندفاع أو بالإحجام. وبالإعجاب والتمني، والاعتصام والتأبّي.

وعنصر الندم في بعض ألوانه، والعفو في أوانه. والفرح بتجمع المتفارقين..

وذلك إلى بعض صور المجتمع الجاهلي في طبقة العلّية من الملأ: في البيت والسجن والسوق والديوان ـ في مصر يومذاك. والمجتمع العبراني، وما يسود العصر من الرؤىٰ والتنبؤات.

والقصة كما تقدم تبدأ بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه، فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم، وينصحه بألاّ يقصها على إخوته كي لا يثير حسدهم فيغريهم الشيطان به فيكيدون له.. ثمَّ تسير القصة بعد ذلك، وكأنّما هي تأويل للرؤيا ولِمَا توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا في

النهاية أنهىٰ السياق ازللقصة، ولم يسر فيها كما سار كُتّاب «العهد القديم» بعد هذا الختام الفني الدقيق، الوافي بالغرض الديني كل الوفاء.

وما يسمّىٰ بالعقدة الفنية في القصة واضح في قصة يوسف. فهي تبدأ بالرؤيا كما سبق، ويظل تأويلها مجهولاً، يتكشف قليلاً قليلاً، حتى تجيء الخاتمة فتحل العقدة حلاً طبيعياً لا تعمُّل ولا اصطناع!

والقصة مقسمة إلى حلقات. كل حلقة تحتوي جملة مشاهد. والسياق يترك فجوات بين المشهد والمشهد يملؤها تَخَيُّل القارىء وتصوّره، ويكمل ما حذف من حركات وأقوال، مع ما في هذا من تشويق ومتاع..

وحسبنا هذا القدر من التحليل الفني لقصة يوسف، وتمثيلها للمنهج القرآني الإسلامي في الأداء. وفي هذا القدر ما يكشف عن مدىٰ الإمكانيات التي يعرضها هذا المنهج للمحاولات البشرية في الأدب الإسلامي، لتمكينه من الأداء الفني الكامل والواقعية الصادقة السليمة، دون أن يسف أو يحتاج إلى التخلي عن النظافة اللائقة بفن يقدم لـ « الإنسان »[1]!

من لطائف التناسق القرآني في قصة يوسف :

وبعد، فلعلَّ من المناسب في الحديث عن قصة يوسف، التي هي نموذج كامل للأداء الفني الصادق الجميل، أن نُلِمّ بشيء من لطائف التناسق في الأداء القرآني فيها، وأن نقف عند نماذج من هذه اللطائف تُمثل سائرها:

- في سورة يوسف ـ كما في السور القرآنية الأُخرىٰ ـ تتكرر تعبيرات معينة، تؤلف جزءاً من جوّ السورة وشخصيتها الخاصة.

وهنا في القصة يرد ذكر العلم كثيراً، وما يقابله من الجهل وقلة العلم في مواضع شتّىٰ:

(١) للاستزادة من البحث يراجع كتاب: «منهج الفن الإسلامي» لمحمّد قطب. نشر دار الشروق.

﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلِّمك من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب، كما أتمَّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق. إنَّ ربك عليم حكيم﴾ [يوسف: ٦]..

﴿وكذلك مكنَّا ليوسف في الأرض، ولنعلِّمه من تأويل الأحاديث. والله غالب على أمره ولٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٢١]..

﴿ولمَّا بلغ أشدَّه آتيناه حكماً وعلماً. وكذلك نجزي المحسنين﴾ [يوسف: ٢٢]..

﴿فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهنَّ؛ إنَّه هو السميع العليم﴾ [يوسف: ٣٤]..

﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه، إلاَّ نبَّأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما. ذلكما ممَّا علَّمني ربِّي﴾ [يوسف: ٣٧]..

﴿إن الحكم إلاَّ لله أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاه، ذلك الدين القيِّم، ولٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٤٠]..

﴿قالوا: أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ [يوسف: ٤٤]..

﴿يوسف أيُّها الصدِّيق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهنَّ سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات، لعلِّي أرجع إلىٰ الناس لعلَّهم يعلمون﴾ [يوسف: ٤٦]..

﴿وقال الملك: ائتوني به، فلمَّا جاءه الرسول قال: ارجع إلىٰ ربك فاسأله: ما بال النسوة اللاَّتي قطَّعن أيديهنَّ؟ إنَّ ربِّي بكيدهنَّ عليم﴾ [يوسف: ٥٠]..

﴿ذلك ليعلم أنِّي لم أخنه بالغيب وأنَّ الله لايهدي كيد الخائنين﴾ [يوسف: ٥٢]..

﴿قال: اجعلني على خزائن الأرض؛ إنِّي حفيظ عليم﴾ [يـوسف: ٥٥]..

﴿.. وإنَّه لذو علم لمـا علَّمناه، ولـٰكنَّ أكثـر الناس لا يعلمـون﴾ [يوسف: ٦٨]..

﴿قالوا: تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنَّا سارقين﴾ [يوسف: ٧٣]..

﴿كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلاَّ أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم﴾ [يوسف: ٧٦]..

﴿قال: أنتم شرٌّ مكاناً، والله أعلم بما تصفون﴾ [يوسف: ٧٧]..

﴿فلمَّا استيئسوا منه خلصوا نجيّاً قال كبيرهم: ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله..﴾ [يوسف: ٨٠]..

﴿وما شهدنا إلاَّ بما علمنا وما كنَّا للغيب حافظين﴾ [يوسف: ٨١]..

﴿عسىٰ الله أن يأتيني بهم جميعاً، إنَّه هو العليم الحكيم﴾ [يوسف: ٨٣]..

﴿قال: إنَّما أشكو بثِّي وحزني إلى الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [يوسف: ٨٦]..

﴿قال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾ [يوسف: ٨٩]..

﴿قال: ألم أقل لكم: إنِّي أعلم من الله ما لا تعلمون؟﴾ [يوسف: ٩٦]..

﴿ربِّ قـد آتيتني من الملك وعلَّمتني من تـأويـل الأحـاديث...﴾ [يوسف: ١٠١]..

وهي ظاهرة بارزة تلفت النظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفه في هذا الكتاب الكريم.

ـ وفي القصة تعريف بخصائص الألوهية، وفي مقدمتها «الحكم» وهو يرد مرة على لسان يوسف ـ عليه السَّلام ـ بمعنىٰ الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم وطاعتهم الإرادية، ويأتي مرة على لسان يعقوب ـ عليه السَّلام ـ بمعنىٰ الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم لله في صورتها القهرية القَدَرية، فيتكامل المعنيان في تقرير مدلول الحكم وحقيقة الألوهية على هذا النحو لا يجيء عفواً ولا مصادفة:

يقول يوسف في معرض تفنيد ربوبية الحكام في مصر ومخالفتها لوحدانية الألوهية: ﴿ **يَا صاحبي السجن، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟ ما تعبدون من دونه إلاَّ أسماء سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن الحكم إلاَّ لله، أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه، ذلك الدين القيِّم**﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠]..

ويقول يعقوب في معرض تقرير أنَّ قدر الله نافذ وأنَّ قضاءه ماض: ﴿**يَا بنيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة، وما أُغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلاَّ لله، عليه توكَّلت، وعليه فليتوكل المتوكلون**﴾ [يوسف: ٦٧]..

وهذا التكامل في مدلول الحكم يشير إلى أنَّ الدين لا يستقيم إلاَّ أن تكون الدينونة الإرادية لله في الحكم، كالدينونة القهرية له ـ سبحانه ـ في القَدَر. فكلاهما من العقيدة؛ وليست الدينونة في القَدَر القاهر وحدها هي الداخلة في نطاق الاعتقاد، بل الدينونة الإرادية في الشريعة هي كذلك في نطاق الاعتقاد.

ـ ومن لطائف التناسق أن يذكر يوسف الحصيف الكيس اللطيف

المدخل، صفة الله المناسبة.. «اللطيف». في الموقف الذي يتجلّىٰ فيه لطف الله في التصريف:

﴿ورفع أبويه على العرش، وخرُّوا له سجّداً. وقال: يَا أبتِ هٰذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربِّي حقاً. وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي.. إنَّ ربِّي لطيف لما يشاء.. إنَّه هو العليم الحكيم﴾ [يوسف: ١٠٠]..

- ومن لطائف التناسق ما سبق أن أشرنا إليه من التطابق في السورة بين تقديم القَصص، والتعقيب المباشر عليه، والتعقيب الختامي الطويل.. وكل هذه التعقيبات تَتَّجه إلى قضايا واحدة، وتتلاقىٰ عليها بين البدء والختام.

وحسبنا في ما تقدَّم عن القصة هذه اللمسات التي التقينا بها في السياق القرآني.



الإيقاع الأخير:

لقد بلغت قصة يوسف من الروعة والعبرة مكاناً قَصيّاً، وذلك لِمَا تضمَّنته من أنواع العواطف البشرية الخيِّرة والشريرة، الواقعية والمثالية، من الحسد والمكر، والتآمر والإجرام، والعطف الأبوي، والحذر والحزن، والحنين والشوق، وفورة الغريزة الجنسية والترفع المثالي والإباء، ولما فيها من العقد القصصية المتعاقبة، فلا تنحل عقدة حتى تتعقَّد أخرىٰ، ولما فيها من تنوع المشاهد والبيئات، وأعظم من ذلك كله تصوير حركة القَدَر والإيمان العميق بنصرة الله للحق ولو طال أمد الباطل، وفي ذلك التفاؤل العميق بقضاء الله الذي يتجلّىٰ في نفسية يعقوب رغم مظاهر الحزن الشديد حين جاء بنوه مُنْصَرفهم من مصر يعتذرون عن إبقائهم العزيز لأخيهم.

وفي القصة ألوان من الشدائد. في الجب وفي بيت العزيز وفي

السجن. وألوان من الاستيئاس من نصرة الناس. . «إنَّك لتحس في القصة بيد القَدَر الإلـهي تُحرك الحوادث، ولترىٰ فيها الإنسان يريد ويقدر ومن فوقه عناية إلـهية غالبة تُبلِّغ هذا الإنسان ما تريد لا ما يريد، وتصل بالأمور إلى عـواقبها ونهـاياتهـا المرسـومة المقـدرة. وهي سورة مكيـة تدعـو إلى الله وتوحيده، بل إنَّها لتصل ما بين عقل الإنسان وقلبه وحقيقة الوجود الكبرىٰ التي هي الله الخالق القادر المنعم الرحيم.

إنَّ الله تعالىٰ يقصُّ فيها حياة الإنسان أحسن القَصَص، إنَّها قطعة من الحياة بعروقها النابضة ومشاعرها المتأججة، ونوازع الخير والشر فيها، إنَّنا نرىٰ فيها أنفسنا، ولكن نرىٰ مـع ذلك يـد القُدرة ونحسّ أثـرها فينـا وفي أعمالنا. إنَّنا نراها تخطّ في الحوادث مصيرنا، وتبلغ بنا الغايات المُقدَّرة. إنَّها تفتح أمامنا أفق القَدَر لنجعل إرادتنا من إرادة الله منفذة لقضائه منسجمة مع غايات قَدَره التي هي الخير المَحض، فنجمع بذلك بين الطاعة والإرادة والعمل والتفاؤل بالمستقبل، ذلك هو السبب الـذي يجعل لسـورة يوسف هوىً خاصاً في نفوسنا، وإنَّها ليست من نوع الخيال المصنوع، ولا القصص الذي تُقَلِّد فيه الحقيقة، بل إنَّها الحقيقة نفسها ﴿ما كان حديثاً يُفترىٰ ولـٰكن تصديق الذي بين يديه. . ﴾ [يوسف: ١١١]. . تلك هي طريقتها وذلك هو سبيلها إذ تأخذ بعقولنا وقلوبنا نحو الله. .

إنَّ جميع السور المكية تدعو إلى الله وتوحيده، ولكن هذه السـورة على الخصوص تكشف لنا النقـاب عن سرِّ القـدرة والقَدَر، وعن العنـاية الإلـٰهية التي تخفىٰ إلاَّ علىٰ مَن آتاه الله حسّاً مرهفاً وإيماناً عميقاً من وراء حوادث الكون وأسبابها الظاهرة وعواطف الإنسان ومقـرراته وتصميمـاته. وذلك ما أبصره وأحسَّ به يعقوب ـ عليه السَّلام ـ من أول القصة فانكشفت له الحقيقة الكبرىٰ فَصَبَر وآمَنَ وتَرقَّب لُطْف الأقدار وصنيع العناية. .

وقصة يوسف التي هي موضوع السورة وقوامها فقد استغرقتها كلهـا

وهي تزيد على مئة آية، عدا نحو عشر آيات في آخرها تضمَّنت عبرتها ومَرْماها. .

لقد احتوت القصة أزمات وعقداً كثيرة متنوعة وكان الله دوماً هو الذي يفرّج الكرب ويحلّ العقدة ويُخرج يوسف بعنايته من الأزمة. . وقد كان الله بلطفه وعنايته يُخرجه من المِحَن والأزمات كلها ظافراً منتصراً حتى كانت الخاتمة إذ غدا مُجتَمِعَ الشمل مُتَبَوِّئاً أعلىٰ المناصب، شاعراً بمنّة الله عليه، شاكراً لأنعمه، وذلك ما عبَّر عنه بقوله:

﴿يَا أَبتِ هٰذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربِّي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البَدْوِ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إنَّ ربِّي لطيف لما يشاء إنَّه هو العليم الحكيم. ربِّ قد آتيتني من تأويل الأحاديث فاطِر السَّماوات والأرض أنت وليِّي في الدنيا والآخرة توفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ [يوسف: ١٠٠ ـ ١٠١]. .

واحتوت القصة ضروباً شتّىٰ من عناصر الحياة البشرية وأنواع العواطف الطيبة والخبيثة:

من تحاسد الإخوة ونيّة الإجرام، إلى عاطفة الأب الشفوق وحَذَره. ومن الصبر على المصائب، والوقوع تحت تأثير إغراء الغريزة والشهوة، إلى الانتصار في الصراع بين قوة الغريزة ورَدْع الضمير والثبات على الإيمان والشكر على النعم.

أمَّا فلسفة القصة العميقة فتتجلىٰ في الإيمان العميق بالله الذي ينصر الحق على الباطل ولو طال أمده، والثقة بهذا الانتصار، ومواجهة أزمات الحياة المختلفة بصبر وثبات وإيمان، والتفاؤل حتى في الشدة، وترقُّب الفرج من الله في الأزمات، والإيمان أنَّ نية الخير والعزم عليه لا يُولد في النهاية إلَّا خيراً، فلا يأس ولا قنوط في الحياة، والإيمان:

صبر وجهاد وثقة وتفاؤل :

وتتمثل هذه الفلسفة المؤمنة المتفائلة المناضلة في كثير من مناسبات القصة، كقول يعقوب إلى أولاده: التفتيش والبحث عن أخويهم ﴿يَا بنيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من رَوْح الله إنَّه لا ييأس من رَوْح الله إلَّا القوم الكافرون﴾ [يوسف: ٨٧]، وقول يوسف لإخوته بعد أن كشف لهم عن نفسه: ﴿قد مَنَّ الله علينا إنَّه من يتَّق ويصبر فإنَّ الله لا يُضيع أجر المحسنين﴾ [يوسف: ٩٠][1]..»..

لقد كانت العاقبة خيراً للذين اتقوا ـ كما هو وَعْد الصادق الذي لا يخيب ، فالقصة نموذج من قَصص المرسلين. فيها عِبرة لمن يَعقل، وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل، على غير صلة بين محمَّد ﷺ وهذه الكتب. فما كان يمكن أن يكون ما جاء به حديثاً مُفترىٰ. فالأكاذيب لا يُصدِّق بعضها بعضاً، ولا تحقق هداية، ولا يستروح فيها القلب المؤمن الرَوْح والرحمة.

والسورة تختتم بإيقاع عظيم يحمل عبرة القَصَص القرآني كله، في هذه القصة وفي سواها. يَحملها للنَّبيّ ﷺ والقلة المؤمنة معه، ومعها التثبيت والتسرية والبُشْرىٰ؛ ويحملها للمشركين المعاندين، ومعها التذكير والعظة والنذير. كما أنَّ فيها للجميع تقريراً لصدق الوحي وصدق الرسول؛ وتقريراً لحقيقة الوحي وحقيقة الرسالة، مع تخليص هذه الحقيقة من الأوهام والأساطير:

﴿لقد كان في قَصَصهم عبرة لأُولي الألباب، ما كان حديثاً يُفترىٰ، ولـٰكن تصديقَ الذي بين يديه، وتفصيل كل شيء، وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون﴾ [يوسف: ١١١]..

إنَّه الإيقاع الأخير والإيقاع الكبير.

---

(١) محمَّد المبارك: مجلة المسلمون ـ المجلد الخامس ـ ص ٢٤٩.

وهكذا يتوافق المطلع والختام في سورة يوسف، كما توافق المطلع والختام في القصة. وتجيء التعقيبات في أول القصة وآخرها، وبين ثناياها، متناسقة مع موضوع القصة، وطريقة أدائها، وعباراتها كذلك. فَتُحَقّق الهدف الديني كاملاً، وتُحقّق السمات الفنية كاملة، مع صدق الرواية، ومطابقة الواقع في الموضوع.

وقد بدأت القصة وانتهت في سورة واحدة، لأنَّ طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء. فهي رؤيا تتحقق رويداً رويداً، ويوماً بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة. فلا تتم العبرة بها ـ كما لا يتم التنسيق الفني فيها ـ إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها. وإفراد حلقة واحدة منها في موضع لا يحقق شيئاً من هذا كله كما يحققه إفراد بعض الحلقات في قصص الرسل الآخرين. كحلقة قصة سليمان مع بلقيس. أو حلقة قصة مولد مريم. أو حلقة قصة نوح والطوفان. . إلخ فهذه الحلقات تفي بالغرض منها كاملاً في مواضعها. أمّا قصة يوسف فتقتضي أن تُتلىٰ كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها، من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم.

﴿نحن نقصُّ عليك أحسن القصصَ بما أوحينا إليك هٰذا القرآن وإن كنتَ من قبله لمن الغافلين﴾ [يوسف: ٣]. .

قصة شعيب عليه السلام

شعيب عليه السَّلام

ونقلب صفحة أُخرىٰ من صحائف الأُمم الغابرة. وها هي ذي صفحة من صحائف الأقوام المكذِّبة المنحرفة في تلك الحقبة من التاريخ.. صفحة مَدين. أصحاب الأيكة وأخيهم شعيب:

﴿وإلىٰ مدين أخاهم شعيباً، قال: يَا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤].. **﴿كذَّب أصحاب الأيكة المرسلين.. إذ قال لهم شعيب ألا تتَّقون. إنِّي لكم رسول أمين. فاتَّقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر. إن أجري إلَّا على رب العالمين﴾** [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٨٠]..

وأصحاب الأيكة هم ـ غالباً ـ أهل مدين. والأيكة الشجر الكثيف الملتف. ويبدو أنَّ مدين كانت تجاور هذه الغيضة الوريفة من الأشجار.

وقد ذكر القرآن أهل مدين في مواضع.. وأصحاب الأيكة في مواضع أُخرىٰ. وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة.

ويشير القرآن الكريم إلى ظلمهم وإلى مصرعهم تصديقاً لنبأ العذاب، ولإهلاك القرىٰ بعد انقضاء الأجل المعلوم: **﴿وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين، فانتقمنا منهم. وإنَّهما لبإمام مبين﴾** [الحجر: ٧٨، ٧٩]..

ومدين والأيكة التي تجاورها كانتا بالقرب من قرىٰ لوط. والإشارة

الواردة هنا. . ﴿وإنَّهما لبإمام مبين﴾ قد تعني مدين والأيكة، فهما في طريق واضح غير مندثر، وقد تعني قرىٰ لوط وقرية شعيب، جمعهما لأنهما في طريق واحد بين الحجاز والشام.

ووقوع القرىٰ الداثرة على الطريق المطروق أدعىٰ إلى العبرة، فهي شاهد حاضر يراه الرائح والغادي. والحياة تجري من حولها وهي داثرة كأن لم تكن يوماً عامرة. والحياة لا تحفلها وهي ماضية في الطريق!

وقصة شعيب مكانها التاريخي قبل قصة موسىٰ. يتحدث عنها القرآن في مساق العبرة كبقية القصص. قيل إنَّ شعيباً ـ عليه السَّلام ـ، هو أحد الأنبياء من العرب، كهود، وصالح ـ عليهم السَّلام ـ، ويقال إنَّه كان خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه. ولقد ذُكرت قصة شعيب في أكثر من موضع، وإن كانت أقل ذكراً من قصص بعض الأنبياء، وكل شيء بقدر، ولم تكن مساكن قوم شعيب بعيدة، كما لم يكن خبرهم غريباً عن الذي بُعث فيهم الرسول ﷺ.

وإنَّنا لنجد بعض الإشارات المبكرة تحدثنا عنهم، وهي تنظمهم في سلك المكذبين المعاقَبين، نجد ذلك مثلاً في سورة (قٓ) وسورة (صٓ) وقد مرت الآيات من قبل.

إلَّا أنَّ أول سورة حدثتنا بالتفصيل عن شعيب ـ عليه السَّلام ـ كانت سورة الأعراف فذكرت قصة شعيب معطوفة على ما قبلها من القصص، ثمَّ تأتي سورة الشعراء وتذكر لنا أصحاب الأيكة بدل أصحاب مدين، ثم فصَّلت سورة هود الحديث عن شعيب بعد الحديث عن نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط ـ عليهم السَّلام ـ، ثمَّ تأتي سورة العنكبوت بعد ذلك، وهي آخر سورة تذكر فيها قصة شعيب، وقد جاءت القصة فيها مجملة موجزة[1].

---

(١) القصص القرآني: ٢٠٩، انظر: سورة (قٓ): ١٤، سورة (صٓ): ١٣، سورة الحجر: =

كان قوم شعيب ـ أهل مدين، كغيرهم من الأقوام الضالة ـ قد نشأوا على حياة الانحراف والفساد في العقيدة والسلوك والأخلاق والمعاملات. كانوا يشركون بالله غيره، كما كانت أمم الأنبياء في كل عصر، وكانوا زيادة ـ إلى ذلك ـ ينقصون المكيال والميزان، فقد اعتادوا أن يستوفوا لأنفسهم الكيل والميزان إذا اكتالوا على الناس واشتروا منهم فإذا كالوهم ـ للناس ـ أو وزنوا لهم مالوا إلى نقص الميزان. وبخسوهم حقوقهم. وطففوا الكيل والميزان. وكانوا يتعرضون للقوافل فيتوعّدونها ويخيفونها ويعيثون في الأرض فساداً، شأن الكبراء المتعالين الذين لا يرجون حساباً ولايخشون عذاباً.

بعث الله فيهم شعيباً رسولاً، وآزره بالمعجزات، وأيّده بالبيِّنات فدعاهم إلى عبادة الله وتوحيده، ونهاهم عمّا كانوا يرتكبون من المنكرات والآثام فآمن به بعضهم وكفر الأكثرون منهم.

وهذا دور من أدوار الرسالة الواحدة بالعقيدة الخالدة، ينهض به شعيب في قومه أهل مدين. . ومع الدعوة إلى عقيدة التوحيد قضية أخرىٰ، هي قضية الأمانة والعدالة في التعامل بين الناس، وهي وثيقة الصلة بالعقيدة في الله، والدينونة له وحده، واتباع شرعه وأمره. وإن كان أهل مدين قد تلقوها بدهشة بالغة، ولم يدركوا العلاقة بين المعاملات المالية والصلاة المعبرة عن الدينونة لله!

﴿وإلىٰ مدين أخاهم شعيباً. قال: يَـا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره. . .﴾. .

إنَّ الدينونة لله وحده قاعدة العقيدة الأُولىٰ ﴿وإلىٰ مدين أخاهم شعيباً، فقال: يَـا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر، ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [العنكبوت: ٣٦]. .

= ٧٨ ـ ٧٩، الأعراف: ٨٥ ـ ٩٣، الشعراء: ١٧٦ ـ ١٩١، هود: ٨٤ ـ ٩٥، العنكبوت: ٣٦ ـ ٣٧.

وهي إشارة تبين وحدة الدعوة، ولباب العقيدة.. وعبادة الله الواحد هي قاعدة العقيدة، وقاعدة الدعوة التي لا تغيير فيها ولا تبديل. قاعدة الحياة الأولىٰ وقاعدة الشريعة الأولىٰ. وقاعدة المعاملات الأولىٰ. القاعدة التي لا تقوم بغيرها عقيدة ولا عبادة ولا معاملة.. **﴿وإلىٰ مدين أخاهم شعيباً، قال: يَا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـٰه غيره﴾**..

يبدأ شعيب ـ عليه السَّلام ـ بدعوتهم إلى عبادة الله وحده وإفراده ـ سبحانه ـ بالألوهية، وإلى الدينونة له وحده وإفراده من ثمَّ بالسلطان في أمر الحياة كله.

يبدأ شعيب ـ عليه السَّلام ـ في دعوتهم من هذه القاعدة التي يعلم أنَّه منها تنبثق كل مناهج الحياة وكل أوضاعها؛ كما أنَّ منها تنبثق قواعد السلوك والخلق والتعامل. ولا تستقيم كلها إلَّا إذا استقامت هذه القاعدة.

ويستصحب في دعوتهم إلى الدينونة لله وحده، وإقامة حياتهم على منهجه المستقيم، وترك الإفساد في الأرض بالهوىٰ بعدما أصلحها الله بالشريعة.. يستصحب في دعوتهم إلى هذا كله بعض المأثرات الموحية.. يذكرهم نعمة الله عليهم: **﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثَّركم﴾** [الأعراف: ٨٦]..

ويخوفهم عاقبة المفسدين من قبلهم: **﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾** [الأعراف: ٨٦]..

إنَّ الدينونة لله هي القاعدة التي تقوم عليها الرسالات.. ثمَّ تبدأ بعدها بعض التفصيلات: **﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان، إنِّي أراكم بخير، وإنِّي أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾** [هود: ٨٤]..

وعبادة الله الواحد هي قاعدة الدين. ورجاء اليوم الآخر كفيل بتحويلهم عمَّا كانوا يرجونه في هذه الحياة الدنيا من الكسب المادي الحرام بالتطفيف في الكيل والميزان، وغصب المارين بطريقهم للتجارة، وبخس

الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض، والاستطالة على الخلق ﴿وإلىٰ مدين أخاهم شعيباً، فقال: يَـا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر، ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [العنكبوت: ٣٦]..

التشريع الإلـهي والتصور الأخلاقي:

والقضية هنا قضية الأمانة والعدالة ـ بعد قضية العقيدة والدينونة ـ أو هي قضية الشريعة والمعاملات التي تنبثق من قاعدة العقيدة والدينونة.

وقد ذكرنا أنَّ أهل مدين ـ وبلادهم تقع في الطريق من الحجاز إلى الشام ـ كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويبخسون الناس أشيـاءهم، أي ينقصون قيمة أشيائهم في المعاملات. وهي رذيلة تمس نظافة القلب واليد، كما تمس المروءة والشرف. كما كـانوا بحكم مـوقع بـلادهم يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة الآيبة بين شمال الجزيـرة وجنوبهـا، ويتحكموا في طرق القوافل ويفرضوا ما يشاءون من المعاملات الجائرة التي وصفها الله في القرآن الكريم.

ومن ثمَّ تبدو علاقة عقيدة التوحيد والدينونة لله وحده بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء، ومكافحة السرقة الخفية س اء قام بها الأفراد أم قامت بها الدول. فهي بذلك ضمانة لحياة إنسانية أفضـل، وضمانه للعدل والسلام في الأرض بين الناس. وهي الضمانة الوحيدة التي تستند إلى الخوف من الله وطلب رضاه، فتستند إلى أصل ثابت، لا يتأرجح مع المصالح والأهواء.

إنَّ المعاملات والأخلاق لا بد أن تستنـد إلى أصل ثـابت لا يتعلق بعوامل متقلبة.. هذه هي نظرة الإسلام. وهي تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التي ترتكن إلى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم!

فلا يكون المتحكم في أخلاق الناس وقواعد تعاملهم من الناحية الأخلاقية هو كونهم يعيشون على الزراعة أو يعيشون على الرعي أو يعيشون على الصناعة. .

إنَّ هذه العوامل المتغيرة تفقد تأثيرها في التصور الأخلاقي وفي قواعد المعاملات الأخلاقية، حين يصبح مصدر التشريع للحياة كلها هو شريعة الله، وحين تصبح قاعدة الأخلاق هي إرضاء الله وانتظار ثوابه وتوقي عقابه، وكل ما يهرف به أصحاب المذاهب الوضعية من تبعية الأخلاق للعلاقات الاقتصادية وللطور الاجتماعي للأمة يصبح لغواً في ظل النظرة الأخلاقية الإسلامية[1]!

﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان. إنِّي أراكم بخير﴾ [هود: ٨٤]. .

فقد رزقكم الله رزقاً حسناً، فلستم في حاجة إلى هذه الدناءة لتزيدوا غنىٰ، ولن يفقركم أو يضركم أن لا تنقصوا المكيال والميزان. . بل إنَّ هذا الخير ليهدده ما أنتم عليه من غش في المعاملة، أو غصب في الأخذ والعطاء.

﴿وإنِّي أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ [هود: ٨٤]. .

إمَّا في الآخرة عند الله. وإمَّا في هذه الأرض حين يؤتي هذا الغش والغصب ثمارهما المُرَّة في حالة المجتمع وفي حركة التجارة. وحين يذوق الناس بعضهم بأس بعض، في كل حركة من الحركات اليومية وفي كل تعامل وفي كل احتكاك.

ومرة أُخرىٰ يكرر شعيب نصحه في صورة إيجابية بعد صورة النهي السلبية:

---

(١) يراجع بتوسع كتاب «نظرية الإسلام الخلقية» لأبي الأعلىٰ المودودي. وفصل «نظام أخلاقي» في كتاب: «نحو مجتمع إسلامي» لسيد قطب.

﴿ويَا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ [هود: ٨٥]. .

وإيفاء الكيل والميزان أقوىٰ من عدم نقصهما، لأنَّه أقرب إلى جانب الزيادة.

وللعبارات ظل في الحس. وظل الإيفاء غير ظل عدم النقص، فهو أكثر سماحة[1] ووفاء.

وهكذا بدأ شعيب دعوته بما بدأ به كل رسول من أصل العقيدة، والتعفف عن الأجر: **﴿إذ قال لهم شعيب ألا تتَّقون. إنِّي لكم رسول أمين. فاتَّقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلَّا على رب العالمين﴾** [الشعراء: ١٧٧ ـ ١٨٠]. .

ثمَّ أخذ يواجه قومه بما هو من خاصة شأنهم: **﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾** [الشعراء: ١٨١ ـ ١٨٣]. .

وقد كان شأنهم ـ كما تقدّم ـ أن يطففوا في الميزان والمكيال، وأن يأخذوا بالقسر والغصب زائداً عن حقهم، ويعطوا أقل من حق الناس، ويشتروا بثمن بخس ويبيعوا بثمن مرتفع. ويبدو أنَّهم كانوا في ممر قوافل التجارة، فكانوا يتحكمون فيها. وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط في هذا كله، لأنَّ العقيدة الصحيحة يتبعها حسن المعاملة. ولا تستطيع أن تغضي عن الحق والعدل في معاملات الناس. .

ها هو ذا شعيب ـ عليه السَّلام ـ يبلغ رسالة ربه **﴿قال: يَا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره قد جاءتكم بيِّنة من ربكم﴾** [الأعراف: ٨٥]. . ولا يذكر القرآن نوع هذه البيِّنة ـ كما ذكرها في قصة صالح ـ ولا

---

(١) عن جابر، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله امرءاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى» رواه البخاري ٤/٢٦٠، وأخرجه الترمذي (١٣٢٠). والسَّمح: السهل. وإذا اقتضى: أي طلب حقه بسهولة.

نعرف لها تحديداً من مواضع القصة. ولكن النص يشير إلى أنَّه كانت هناك بيِّنة جاءهم بها، تثبت دعواه أنَّه مرسل من عند الله. ويرتب على هذه البيِّنة ما يأمرهم به نبيهم من توفية الكيل والميزان، والنهي عن الإفساد في الأرض، والكف عن قطع الطريق على الناس، وعن فتنة المؤمنين عن دينهم الذي ارتضوه: ﴿**فأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين. ولا تقعدوا بكل صراط توعدون، وتصدون عن سبيل الله من آمن به، وتبغونها عوجاً.** .﴾ [الأعراف: ٨٥ ـ ٨٦]. .

وندرك من هذا النهي أنَّ قوم شعيب، كانوا قوماً مشركين لا يعبدون الله وحده، إنَّما يشركون معه عباده في سلطانه، وأنَّهم ما كانوا يرجعون في معاملاتهم إلى شرع الله العادل؛ إنَّما كانوا يتخذون لأنفسهم من عند أنفسهم قواعد للتعامل ـ ولعلَّ شركهم إنَّما كان في هذه الخصلة ـ وأنَّهم ـ لذلك ـ كانوا سيِّئي المعاملة في البيع والشراء؛ كما كانوا مفسدين في الأرض، يقطعون الطريق على سواهم. ظلمة يفتنون الذين يهتدون ويؤمنون عن دينهم، ويصدون عن سبيل الله المستقيم، ويكرهون الاستقامة التي في سبيل الله، ويريدون أن تكون الطريق عوجاء منحرفة، لا تمضي على استقامتها كما هي في منهج الله.

﴿**ولا تبخسوا الناس أشياءهم**﴾ [الشعراء: ١٨٣، هود: ٨٥]. .

وهذا أعم من المكيلات والموزونات. فهو يشمل حسن تقويم أشياء الناس من كل نوع. تقويمها كيلاً أو وزناً أو سعراً أو تقديراً. وتقويمها مادياً أو معنوياً. وقد تدخل في ذلك الأعمال والصفات. لأنَّ كلمة « شيء » تطلق أحياناً ويراد بها غير المحسوسات.

وبخس الناس أشياءهم ـ فوق أنَّه ظلم ـ يشيع في نفوس الناس مشاعر سيئة من الألم أو الحقد، أو اليأس من العدل والخير وحسن التقدير. . وكلها

مشاعر تفسد جو الحياة والتعامل والروابط الاجتماعية والنفوس والضمائر، ولا تبقي على شيء صالح في الحياة.

﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [الشعراء: ١٨٣، هود: ٨٥]..

والعثو هو الإفساد، فلا تفسدوا متعمدين الإفساد، قاصدين إلى تحقيقه. ثمَّ يوقظ وجدانهم إلى خير أبقىٰ من ذلك الكسب الدنس الذي يحصلون عليه بنقص المكيال وبخس الناس أشياءهم في التقدير:

﴿بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ [هود: ٨٦]..

فما عند الله أبقىٰ وأفضل.. وقد دعاهم في أول حديثه إلى عبادة الله وحده ـ أي الدينونة له بلا شريك ـ فهو يذكرهم بها هنا، مع ذكر الخير الباقي لهم عند الله إن آمنوا كما دعاهم، واتبعوا نصيحته في المعاملات. وهي فرع من ذلك الإيمان. ثمَّ يخلِّي بينهم وبين الله الذي دعاهم إليه، ويبيِّن لهم أنَّه هو لا يملك لهم شيئاً، كما أنَّه ليس موكلاً بحفظهم من الشر والعذاب. وليس موكلاً كذلك بحفظهم من الضلال ولا مسؤولاً عنهم إن هم ضلوا، إنَّما عليه البلاغ وقد أداه: ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ [هود: ٨٦]..

ومثل هذا الأُسلوب يشعر المخاطبين بخطورة الأمر، وبثقل التبعة، ويقفهم وجهاً لوجه أمام العاقبة بلا وسيط ولا حفيظ.

ثمَّ استجاش شعيب مشاعر التقوىٰ في نفوسهم، وهو يذكرهم بخالقهم الواحد. خالق الأجيال كلها والسابقين جميعاً ﴿واتَّقوا الذي خلقكم والجبلة الأوَّلين﴾ [الشعراء: ١٨٤]..

الردّ الساخر والتبجح السافر:

فما كان منهم إلاَّ أن يطلقوا على رسول الله الاتهام بأنَّه مسحور، فهو يخلط ويهذي بما يقول: ﴿قالوا: إنَّما أنت من المسحرين﴾ [الشعراء: ١٨٥]..

وإلَّا أن يستنكروا رسالته. فهو بشر مثلهم، وما هكـذا في زعمهم ـ يكون الرسول. ويرمونه بالكذب فيما يقول: ﴿**وما أنت إلَّا بشر مثلنا. وإن نظنك لمن الكاذبين**﴾ [الشعراء: ١٨٦]. .

لقد كان هذا ردّ القوم على دعوة رسولهم شعيب ـ عليه السَّلام ـ الذي أمـرهم أن يعبدوا الله وحـده فليس لهم من إلـه غيره، وحثّهم على هـذا الإيمان، فقد جاءتهم المعجزة الدالة على صدقه.

وبعد أمرهم بالتوحيد نجد شعيباً ـ عليه السَّلام ـ يدعوهم إلى النظافة في علاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية، فكان أول ما أمرهم به بعد التوحيد هو إيفاء الكيل، وإيفاء الوزن بكل قسط وعدل، ثمَّ ينهاهم بعد ذلك عن أن يبخسوا الناس حقوقهم، وهي خصلة لا تقل عن سابقتها سوءاً، ثمَّ ينهاهم بعـد ذلك أن يـظهروا في الأرض الفسـاد، وبعد هـذه الخصال الأربـع: الشرك بالله، والتطفيف، وبخس الحق، والإفساد في الأرض، نهاهم عن خصلة خامسة خطرة لا تقل خطراً عن سابقاتها، فإذا كانت الخصال السابقة تـتعلق بالأمور المادية، فإنَّ هذه تـتصل بجانب آخر من جوانب الحياة، وهو الجانب الفكري والروحي. فلقد كانوا لا يدعون أي ثغرة، أو أي طريق إلَّا ويقعدون به لإغواء الناس، يوعدونهم، ويخوفونهم، ويصدونهم عن الحق، وهم يشككون فيه.

ووقف قـوم شعيب من تلك الدعـوة الكـريمـة الهـادفـة إلى الخيـر والإصـلاح، موقف السخـريـة والاستهـزاء والتهكم والازدراء، واستخفـوا برسولهم وعبادته، فقد كان القوم قد عتوا ومردوا على الانحـراف والفساد وسوء الاستغلال:

﴿**قالوا: يَـا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟! إنَّك لأنت الحليم الرشيد!**﴾ [هود: ٨٧].

وهو ردّ واضح التهكم، بيِّن السخرية في كل مقطع من مقاطعه. وإن

كانت سخرية الجاهل المطموس، والمعاند بلا معرفة ولا فقه.

فهم لا يدركون ـ أو لا يريدون أن يدركوا ـ أنَّ الصلاة هي من مقتضيات العقيدة، ومن صور العبودية والدينونة. وأنَّ العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله، ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم، كما أنَّها لا تقوم إلَّا بتنفيذ شرائع الله في التجارة وفي تداول الأموال وفي كل شأن من شؤون الحياة والتعامل. فهي لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة.

وقبل أن نمضي طويلاً في تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط الشعائر بالعقيدة. وارتباطهما معاً بالمعاملات.. قبل أن نمضي طويلاً في تسفيه هذا التصور من أهل مدين قبل أُلوف السنين، يحسن أن نذكر أنَّ الناس اليوم لا يفترقون في تصورهم ولا في إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب. وأنَّ الجاهلية التي نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكىٰ ولا أكثر إدراكاً من الجاهلية الأُولىٰ! وأنَّ الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله اليوم البشرية بجملتها ـ نما فيها أُولئك الذين يقولون: إنَّهم يهود أو نصارى أو مسلمون ـ فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر. والشريعة والتعامل. فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله، ووفق أمر غيره.. وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله..

وإن كان لا يفوتنا أنَّ اليهود وحدهم اليوم هم الذين يتمسكون بأن تكون أوضاعهم ومعاملاتهم وفق ما يزعمونه عقيدتهم وشريعتهم ـ وذلك بغض النظر عمَّا في هذه العقيدة من انحراف، وما في هذه الشريعة من تحريف ـ فلقد قامت أزمة في «الكنيست» مجلس تشريعهم في إسرائيل بسبب أنَّ باخرة إسرائيلية تقدم ـ لركابها من غير اليهود ـ أطعمة غير شرعية. وأرغمت الشركة والسفينة على تقديم الطعام الشرعي وحده ـ مهما تعرضت للخسارة ـ فأين من يدعون أنفسهم «مسلمين!» من هذا الاستمساك بالدين؟!!

إنَّ بيننا اليوم ـ ممَّن يقولون: إنَّهم مسلمون! ـ من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية. وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم. يتساءلون أولاً في استنكار: وما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ ما للإسلام والعري في الشواطىء؟ ما للإسلام وزي المرأة في الطريق؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل؟ ما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله « المتحضرون »؟!

فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين: **﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا؟﴾**..

وهم يتساءلون ثانياً. بل ينكرون بشدة وعنف، أن يدخل الدين في الاقتصاد؛ وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد.. فما للدين والمعاملات الربوية؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي؟ لا بل إنَّهم يتبجحون بأنَّ الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده. وينكرون على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية ـ النظرية الأخلاقية مثلاً ـ ويعدونها تخليطاً من أيام زمان!

فلا يذهبنَّ بنا الترفع كثيراً على أهل مدين في تلك الجاهلية الأُولىٰ. ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة، ولكنها تدَّعي العلم والمعرفة والحضارة، وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في الله، والسلوك الشخصي في الحياة، والمعاملات المادية في السوق.. تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود!!!

وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب، ثمَّ تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض. فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد. والشرك ألوان. منه هذا اللون الذي نعيش

به الآن. وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان وفي كل مكان!

ويسخر أهل مدين من شعيب ـ كما يتوقح بالسخرية اليوم ناس على دعاة التوحيد الحق ـ فيقولون:

﴿إنَّك لأنت الحليم الرشيد!﴾ [هود: ٨٧]..

وهم يعنون عكس معناها. فالحلم والرشد عندهم أن يعبكوا ما يعبد آباؤهم بلا تفكير، وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق! وكذلك هو عند المثقفين المتحضرين اليوم الذين يعيبون على المتعصبين الرجعيين!!!

ويتلطف شعيب تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذي معه؛ ويعرض عن تلك السخرية لا يباليها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم.. يتلطف في إشعارهم أنَّه على بينة من ربه كما يجده في ضميره وقلبه؛ وأنَّه على ثقة ممَّا يقول لأنَّه أوتي من العلم ما لم يؤتوا، وأنَّه إذ يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجها لأنَّه مثلهم ذو مال وذو معاملات؛ فهو لا يبغي كسباً شخصياً من وراء دعوته لهم؛ فلن ينهاهم عن شيء ثمَّ يفعله هو لتخلو له السوق! إنَّما هي دعوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس. وليس فيما يدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهمون: ﴿قال: يَا قوم...﴾ [هود: ٨٨]..

في تودد وتقرب، وتذكير بالأواصر القريبة.

﴿أرأيتم إن كنت على بيِّنة من ربِّي﴾ [هود: ٨٨]..

أجد حقيقته في نفسي وأستيقن أنَّه يوحي إلي ويأمرني بما أُبلغكم إياه. وعن هذه البينة الواضحة في نفسي، أصدر واثقاً مستيقناً.

﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ [هود: ٨٨]..

ومنه الثروة التى أتعامل مع الناس مثلكم فيها.

﴿وما أُريد أن أُخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ [هود: ٨٨]. .

فأنهاكم ثمَّ أذهب من خلفكم فأفعل ما نهيتكم عنه لأُحقق لنفسي نفعاً به!

﴿إن أُريد إلاَّ الإصلاح ما استطعت﴾ [هود: ٨٨]. .

الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وعلى كل جماعة فيه؛ وإن خيل إلى بعضهم أنَّ اتباع العقيدة والخُلُق يفوت بعض الكسب الشخصي، ويضيع بعض الفرص. فإنَّما يفوت الكسب الخبيث ويضيع الفرص القذرة؛ ويعوض عنهما كسباً طيباً ورزقاً حلالاً، ومجتمعاً متضامناً متعاوناً لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام!

﴿وما توفيقي إلاَّ بالله﴾ [هود: ٨٨]. .

فهو القادر على إنجاح مسعاي في الإصلاح بما يعلم من نيتي، وبما يجزي على جهدي.

﴿عليه توكَّلت وإليه أُنيب﴾ [هود: ٨٨]. عليه وحده لا أعتمدهعلى غيره.

وإليه وحده أرجع فيما يحزبني من الأُمور، وإليه وحده أتوجه بنيتي وعملي ومسعاي.

ثمَّ يأخذ بهم في واد آخر من التذكير، فيطل بهم على مصارع قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط:

فقد يفعل هذا في مثل تلك القلوب الجاسية ما لم يفعله التوجيه العقلي اللين الذي يحتاج إلى رشد وتفكير:

﴿ويَا قوم لا يجرمنَّكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح. وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ [هود: ٨٩].

لا يحملنَّكم الخلاف معي والعناد في مواجهتي على أن تلجوا في

التكذيب والمخالفة، خشية أن يصيبكم ما أصاب الأقوام قبلكم. وهؤلاء قوم لوط قريب منكم في المكان. وقريب كذلك في الزمان. فمدين كانت بين الحجاز والشام.

ثمَّ يفتح لهم ـ وهم في مواجهة العذاب والهلاك ـ باب المغفرة والتوبة، ويطمعهم في رحمة الله والقرب منه بأرق الألفاظ وأحناها: ﴿**واستغفروا ربكم ثمَّ توبوا إليه، إنَّ ربي رحيم ودود**﴾ [هود: ٩٠]. .

وهكذا يطوف بهم في مجالات العظة والتذكر والخوف والطمع، لعلَّ قلوبهم تتفتح وتخشع وتلين.

ولكنَّ القوم كانوا قد بلغوا من فساد القلوب، ومن سوء تقدير القيم في الحياة، وسوء التصور لدوافع العمل والسلوك، ما كشف عنه تبجحهم من قبل بالسخرية والتكذيب:

﴿**قالوا: يَـا شعيب ما نفقه كثيراً ممَّا تقول**﴾ [هود: ٩١]. .

فهم ضيِّقو الصدور بالحق الواضح، لا يريدون أن يدركوه. وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة: ﴿**وإنَّا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك**﴾ [هود: ٩١]. .

فلا وزن عندهم للحقيقة القوية التي يحملها ويواجههم بها. . ففي حسابهم عصبية العشيرة، لا عصبية الاعتقاد، وصلة الدم لا صلة القلب. ثمَّ هم يغفلون عن غيرة الله على أوليائه فلا يضعونها في الحساب.

﴿**وما أنت علينا بعزيز**﴾ [هود: ٩١]. .

لا عزة التقدير والكرامة ولا عزة الغلب والقهر. ولكننا نحسب حساب الأهل والعشيرة!

وحين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة والقيم الرفيعة والمثل العالية؛ فإنَّها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا؛ فلا ترىٰ حرمة يومئذٍ

لدعوة كريمة، ولا لحقيقة كبيرة؛ ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلاَّ أن تكون له عصبة تؤويه؛ وإلاَّ أن تكون معه قوة مادية تحميه. أمَّا حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية.

وعندئذٍ تأخذ شعيباً الغيرة على جلال ربه ووقاره؛ فيتنصل من الاعتزاز برهطه وقومه؛ ويجابههم بسوء التقدير لحقيقة القوىٰ القائمة في هذا الوجود، وبسوء الأدب مع الله المحيط بما يعملون. ويلقي كلمته الفاصلة الأخيرة. ويفاصل قومه على أساس العقيدة، ويخلي بينهم وبين الله، وينذرهم العذاب الذي ينتظر أمثالهم، ويدعهم لمصيرهم الذي يختارون:

﴿قال: يَـا قوم: أرهطي أعزُّ عليكم من الله؟﴾ [هود: ٩٢]..

أجماعة من البشر مهما يكونوا من القوة والمنعة فهم ناس، وهم ضعاف، وهم عباد من عباد الله.. أهؤلاء أعزُّ عليكم من الله؟.. أهؤلاء أشد قوة ورهبة في نفوسكم من الله؟

﴿واتَّخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ [هود: ٩٢]..

وهي صورة حسية للترك والإعراض، تزيد في شناعة فعلتهم، وهم يتركون الله ويعرضون عنه، وهم من خلقه، وهو رازقهم وممتعهم بالخير الذي هم فيه. فهو البطر وجحود النعمة وقلة الحياء إلى جانب الكفر والتكذيب وسوء التقدير.

﴿إنَّ ربِّي بما تعملون محيط﴾ [هود: ٩٢]..

والإحاطة أقصىٰ الصور الحسية للعلم بالشيء والقدرة عليه.

قوة الحق ورسوخ العقيدة:

إنَّها غضبة العبد المؤمن لربه أن يستباح جلاله ـ سبحانه ـ ووقاره. الغضبة التي لا يقوم إلى جوارها شيء من الاعتزاز بنسبه ورهطه وعشيرته وقومه..

إنَّ شعيباً لم ينتفخ ولم ينتفش أن يجد القوم يرهبون رهطه، فلا تمتد إليه أيديهم بالبطش الذي يريدونه! ولم يسترح ولم يطمئن إلى أن يكون رهطه هم الذين يحمونه ويمنعونه من قومه ـ الذين افترق طريقهم عن طريقه ـ وهذا هو الإيمان في حقيقته.. إنَّ المؤمن لا يعتز إلاَّ بربه، ولا يرضىٰ أن تكون له عصبة تخشىٰ ولا يُخشىٰ ربه! فعصبية المسلم ليست لرهطه وقومه، إنَّما هي لربه ودينه. وهذا هو مفرق الطريق في الحقيقة بين التصور الإسلامي والتصور الجاهلي في كل أزمانه وبيئاته!

كذلك يريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشيء من العدل وسعة الصدر؛ فلا يفتنوا المؤمنين الذين هداهم الله إليه عن دينهم، ولا يقعدوا لهم بكل صراط، ولا يأخذوا عليهم كل سبيل، مهددين لهم موعدين. وأن ينتظروا حكم الله بين الفريقين. إن كانوا هم لا يريدون أن يكونوا مؤمنين:

﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أُرسلت به وطائفة لم يؤمنوا، فاصبروا حتّىٰ يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين﴾ [الأعراف: ٨٧].. لقد دعاهم إلى أعدل خطة. ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة.. نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذىٰ، وترك كلٍّ وما اعتنق من دين، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت.. إنَّ وجود جماعة مسلمة في الأرض، لا تدين إلاَّ لله، ولا تعترف بسلطان إلاَّ سلطانه، ولا تحكم في حياتها شرعاً إلاَّ شرعه، ولا تتبع في حياتها منهجاً إلاَّ منهجه.. إنَّ وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت ـ حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي موعده.

إنَّ الطاغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة ـ حتى لو آثرت هي ألاَّ تخوض معه المعركة ـ إنَّ وجود الحق في ذاته يزعج الباطل.

وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل.. إنَّها سنة الله لا بد أن تجري.. **﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه: لنخرجنَّك يَـا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لتعودنَّ في ملَّتنـا﴾** [الأعراف: ٨٨].. هكذا في تبجح سافر، وفي إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش!

إلا أنَّ قوة العقيدة لا تـتلعثم ولا تـتزعزع أمام التهديد والوعيد..

لقد وقف شعيب ـ عليه السَّلام ـ عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة.. نقطة المسالمة والتعايش ـ على أن يترك لمن شاء أن يدخل في العقيدة، وأن يدين للسلطان الذي يشاء: في انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين ـ وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة، تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت.. وإلَّا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه.. فلمَّا أن تلقىٰ الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة في ملتهم، صدع شعيب بالحق، مستمسكاً بملته، كارهاً أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها، واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله:

﴿قال: أَوَلَوْ كنَّا كارهين؟ قد افترينا على ا كذباً إن عدنا في ملَّتكم بعد إذ نجَّانا الله منها..﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]..

وفي هذه الكلمات القلائل تـتجلىٰ طبيعة الإيمان، ومذاقه في نفوس أهله، كما تـتجلىٰ طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه.. كذلك نشهد اي قلب الرسول ذلك المشهد الرائع.. مشهد الحقيقة الإلـهية في ذلك القلب وكيف تـتجلىٰ فيه:

﴿قال: أَوَلَوْ كنَّا كارهين؟﴾..

يستنكر تلك القولة الفاجـرة: **﴿لنخرجنَّـك يَـا شعيب والذين آمنـوا معك من قريتنا أو لتعودنَّ في ملَّتنا﴾**...

يقول لهم: أتجبرونا على ما نكره من ملَّتكم التي نجَّانا الله منها؟!

﴿قد افترينا على الله كذباً إنَّ عدنا في ملَّتكم بعد إذ نجَّانا الله منها﴾ [الأعراف: ٨٩]. .

إنَّ الذي يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية، التي لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده، والتي يتخذ الناس فيها أرباباً من دون الله يقرون لهم بسلطان الله. . إنَّ الذي يعود إلى هذه الملة ـ بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق، وهداه إلى الحق، وأنقذه من العبودية للعبيد ـ إنَّما يؤدي شهادة كاذبة على الله ودينه بشهادة مؤداها أنَّه لم يجد في ملة الله خيراً فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت! أو مؤداها ـ على الأقل ـ أنَّ لملة الطاغوت حقاً في الوجود، وشرعية في السلطان؛ وأنَّ وجودها لا يتنافىٰ مع الإيمان بالله. فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله. .

وهي شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدىٰ، ولم يرفع راية الإسلام. شهادة الاعتراف براية الطغيان. ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله في الحياة!

وكذلك يستنكر شعيب ـ عليه السَّلام ـ ما يتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلى الملّة التي أنجاهم الله منها: **﴿وما يكون لنا أن نعود فيها﴾** [الأعراف: ٨٩]. .

وما من شأننا أصلاً، وما ينبغي لنا قطعاً أن نعود فيها. . يقولها وأمامه التهديد الذي يزاوله الطاغوت في كل أرض مع الجماعة المسلمة، التي تعلن خروجها عن سلطانه، ودينونتها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه.

إنَّ تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده ـ مهما عظمت وشقَّت ـ أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت! إنَّ تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة ـ مهما لاحَ فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق! ـ إنَّها تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته. فهذه « الإنسانية » لا توجد، والإنسان عبد للإنسان ـ

وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان! . . وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به، ورضاه أو غضبه عليه؟! وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوىٰ إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان؟!

على أنَّ الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة. . إنَّه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس ـ في حكم الطواغيت ـ أموالهم التي لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج. كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات. فوق ما يتحكم في أرواحهم وفي حياتهم ذاتها، فيذبحهم على مذبح هواه، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه! ثمَّ يكلفهم أعراضهم في النهاية. . حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت، سواء في صورة الغصب المباشر ـ كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ ـ أو في صورة تنشئتهنَّ على تصورات ومفاهيم تجعلهنَّ نهباً مباحاً للشهوات تحت أي شعار! وتمهد لمهنَّ الدعارة والفجور تحت أي ستار. .

والذي يتصور أنَّه ينحو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه في حكم الطواغيت من دون الله. إنَّما يعيش في وَهْم، أو يفقد الإحساس بالواقع!

إنَّ عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال. . ومهما تكن تكاليف العبودية لله، فهي أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة. فضلاً على وزنها في ميزان الله. .

يقول السيد أبو الأعلى المودودي في كتاب «الأُسس الأخلاقية للحركة الإسلامية»:

«. . . وكل من له بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية، لا يخفىٰ عليه أنَّ

المسألة ـ التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها ـ إنَّما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها. وذلك كما تشاهد في القطار أنَّه لا يجري إلاَّ إلى الجهة التي يوجهه إليها سائقه، وأنَّه لا بد للركاب أن يسافروا ـ طوعاً أو كرهاً ـ إلى تلك الجهة نفسها. فكذلك لا يجري قطار المدنية الإنسانية إلاَّ إلى جهة يوجهه إليها مَن بأيديهم زمام أمر تلك المدنية. ومن الظاهر البيِّن أنَّ الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبىٰ السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طراً، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر، وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإنسانية، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمالهم، وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها، وإليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية، وإنشاء النظام الجماعي، وتحديد القيم الخلقية. فإذا كان هؤلاء الزعماء والقواد ممَّن يؤمنون بالله ويرجون حسابه. . فلا بد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح، وأن يعود الخبثاء الأشرار إلى كنف الدين ويُصلحوا شؤونهم. وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غرامها، وأقل ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات أنَّها لا تربو. إن لم تمحق وتنقرض آثارها.

وأمَّا إذا كانت هذه السلطة ـ سلطة الزعامة والقيادة والإمامة ـ بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله، واتَّبعوا الشهوات، وانغمسوا في الفجور والطغيان، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضِّه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء، ويدب دبيب الفساد والفوضىٰ في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمَّتها، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها. . . ».

. . . «والظاهر أنَّ أول ما يطالب به دين الله عباده، أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد، حتى لا يبقىٰ في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالىٰ. ثم يتطلَّب منهم ألاَّ يكون لحياتهم

قانون إلَّا ما أنزله الله تعالىٰ، وجاء به الرسول الأُمِّي الكريم ﷺ ثمَّ إنَّ الإسلام يطالبهم أن ينعدم من الأرض الفساد، وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غَضَبَ الله وسخطه.

وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال، ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره إلَّا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم، يذكرون الله قابعين في زواياهم، منقطعين عن الدنيا وشؤونها، مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات!

ومن هنا يظهر ما للإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجْعلها من غايات الدين وأُسسه. والحق أنَّ الإنسان لا يمكنه أن يبلغ رضىٰ الله تعالىٰ بأي عمل من أعماله إذا تناسىٰ هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها.. ألم تروا ما جاء في الكتاب والسنة من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة، حتى إنَّ الإنسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة ـ ولو قيد شعرة ـ وإن صام وصلّىٰ وزعم أنَّه مسلم. وهل لذلك من سبب سوىٰ أنَّ غرض الدين الحقيقي وهدفه إنَّما هو إقامة نظام الحق، والإمامة الراشدة، وتوطيد دعائمه في الأرض. وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية، والذي يضعضع القوة الجماعية ويفتت في عضدها، ـ يجني على الإسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالإقرار بكلمة التوحيد.. ثمَّ انظروا إلى ما كسب « الجهاد » من المنزلة العالية والمكانة الرفيعة في الدين، حتى إنَّ القرآن ليحكم « بالنفاق » على الذين ينكلون ويثَّاقلون إلى الأرض: ذلك أنَّ « الجهاد » هو السعي المتواصل والكفاح المستمر في سبيل إقامة نظام الحق، ليس غير. وهذا الجهاد هو الذي يجعله القرآن ميزاناً يوزن به إيمان الرجل وإخلاصه للدين. وبعبارة أُخرىٰ أنَّه من كان يؤمن بالله ورسوله لا يمكنه أن يرضىٰ بتسلط النظام الباطل، أو يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل إقامة نظام الحق.. فكل من يبدو في أعماله شيء من

الضعف والاستكانة في هذا الباب، فاعلم أنَّه مدخول في إيمانه، مرتاب في أمره، فكيف ينفعه عمل من أعماله بعد ذلك؟». . .

. . . «إنَّ إقامة الإمامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الإسلام. فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق، لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام، ولا تبرأ ذمَّته من ذلك فحسب، بل يلزمه بمقتضىٰ ذلك الإيمان أن يستنفد جميع قواه ومساعيه في انتزاع زمام الأمر من أيدي الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممَّن يتَّقون الله، ويرجون حسابه، ويقوم في الأرض ذلك النظام الحق المرضيّ عند الله الذي به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها»[1].

إنَّ الإسلام حين يدعو الناس إلى انتزاع السلطان من أيدي غاصبيه من البشر وردّه كله لله، إنَّما يدعوهم لإنقاذ إنسانيتهم وتحرير رقابهم من العبودية للعبيد؛ كما يدعوهم إلى إنقاذ أرواحهم وأموالهم من هوىٰ الطواغيت وشهواتهم.. إنَّه يكلفهم أعباء المعركة مع الطاغوت ـ تحت رايته ـ بكل ما فيها من تضحيات؛ ولكنه ينقذهم من تضحيات أكبر وأطول، كما أنَّها أذل وأحقر! إنَّه يدعوهم للكرامة، وللسلامة، في آن:

لذلك قالها شعيب ـ عليه السَّلام ـ مدوية حاسمة:

﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملَّتكم بعد إذ نجَّانا الله منها، وما يكون لنا أن نعود فيها﴾ [الأعراف: ٨٩]..

ولكن شعيباً بقدر ما يرفع رأسه، وبقدر ما يرفع صوته، في مواجهة طواغيت البشر الذين استكبروا من قومه.. بقدر ما يخفض هامته، ويسلم

---

(١) مقتطفات من كتاب «الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية» للسيد أبي الأعلىٰ المودودي رحمه الله، أمير الجماعة الإسلامية في باكستان.

وجهه في مواجهة ربه الجليل، الذي وسع كل شيء علماً. فهو في مواجهة ربه، لا يتألىٰ عليه ولا يجزم بشيء أمام قدره، ويدع له قياده وزمامه، ويعلن خضوعه واستسلامه:

﴿إلاَّ أن يشاء ربنا، وسع ربنا كل شيء علماً﴾ [الأعراف: ٨٩]..

إنَّه يفوض الأمر لله ربه، في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه.. إنَّه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت، من العودة في ملتهم؛ ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة؛ ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته.. ولكنه لا يجزم بشيء عن مشيئة الله به وبهم.. فالأمر موكول إلى هذه المشيئة، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون، وربهم وسع كل شي علماً. فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم.

إنَّه أدب ولي الله مع الله، الأدب الذي يلتزم به، ثم لا يتألىٰ بعد ذلك على مشيئته وقدره. ولا يتأبّىٰ على شيء يريده به ويقدره عليه. وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم و عيدهم، ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق:

﴿على الله توكلنا. ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق. وأنت خير الفاتحين﴾ [الأعراف: ٨٩]..

وهنا نشهد ذلك المشهد الباهر: مشهد تجلي حقيقة «الألوهية» في نفس ولي الله ونبيه..

إنَّه يعرف مصدر القوة، وملجأ الأمان، ويعلم أنَّ ربه هو الذي يفصل بالحق بين الإيمان والطغيان. ويتوكل على ربه وحده في خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه، والتي ليس منها مفر. إلاَّ بفتح من ربه ونصر.

عندئذٍ يتوجه الملأ الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم

ويهددونهم. ليفتنوهم عن دينهم:

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه: لئن اتَّبعتم شعيباً إنَّكم إذاً لخاسرون﴾ [الأعراف: ٩٠]..

إنَّها ملامح المعركة التي تتكرر ولا تتغير.. إنَّ الطواغيت يتوجهون إلى الداعية أولاً ليكف عن الدعوة. فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه، واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته، ولم يرهبه التخويف بالذي يملكه الطغاة من الوسائل.. تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد، ثمَّ بالبطش والإرهاب، ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم ـ وبخاصة تلك التي عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل ـ ولكنهم يستطيعون البطش بالمصرِّين على الإيمان، الذين أخلصوا الدينونة لله فأخلصوا له السلطان.

بين الإيمان والطغيان :

وبعد.. فقد دعا شعيب قومه بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، وتلطف في كلامه، وآثر استمالتهم باللين، ولكنَّ القوم اندفعوا في غيِّهم، وتوجهوا إلى الذين آمنوا معه يريدون إغوائهم، توجهوا إليهم منذرين محذِّرين بأنَّهم إن اتبعوا شعيباً فسيكونون من الأخسرين، سيخسرون المال والجاه وغيرهما من الحقوق..

ثمَّ أدرك النبي الصابر أن لا سبيل لهداية القلوب القاسية الفظَّة الجاسية.. ها هو ذا شعيب ـ عليه السَّلام ـ يثور لدينه، ويقوم غضبه لله. والتنصل من الاعتزاز أو الاحتماء بسواه.. ومن هذا الموقف ينبعث التحدي الواثق الذي يوجهه شعيب إلى قومه وتقوم تلك المفاصلة بينه وبينهم ـ بعد أن كان واحداً منهم ـ ويفترق الطريقان فلا يلتقيان: **﴿ويَا قوم اعملوا على مكانتكم إنِّي عامل﴾**.. وامضوا في طريقكم وخطتكم، فقد نفضت يديَّ منكم.. وإنِّي عامل على طريقتي ومنهجي.

﴿سوف تعلمون من يأتيه عـذاب يُخزيـه ومن هو كـاذب﴾ [هود: ٩٣]. .

أنا أم أنتم؟

﴿وارتقبوا إنِّي معكم رقيب﴾ [هود: ٩٣]. .

للعاقبة التي تنتظرني وتنتظركم. . وفي هذا التهديد ما يـوحي بثقته بالمصير. كما يوحي بالمفاصلة وافتراق الطريق. .

ورغم هـذا البيان الجـازم الحاسم، إلَّا أنَّ القـوم يمعنون في الغي ويـزدادون عتوّاً وعلوّاً واستكبـاراً؛ وتمادوا في ظلم النـاس، والقسـوة في معاملتهم، وأصرُّوا على عنـادهم وشركهم وفسـادهم العريض، بـل إنَّهم تحدُّوا رسولهم بما يخوفهم به من العذاب إن كان صادقاً فيما يدَّعيه؛ وأن يسقط عليهم رجوماً من السماء، أو يحطمها عليهم ويسقطها قطعاً: ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنتَ من الصادقين﴾ [الشعراء: ١٨٧]. .

وهو تحدي المستهتر الهازىء المستهين! وهو شبيه بتحدي المشركين للرسول الكريم.

ومن سنة الله الجارية أن يتمحض الحق والباطل، ويقفان وجهاً لوجه في مفاصلة كاملة تجري سنة الله التي لا تـتخلف. . وهكذا كان. .

﴿قال ربِّي أعلم بما تعملون﴾. .

،ويسـدل الستار هنـا على هذه الكلمـة الأخيرة الفـاصلة، وعلى هـذا الافتراق والمفاصلة، ليرفع هناك على مصرع القوم ﴿. . فكذَّبوه فأخذهم عذاب يوم الظلّة. إنَّه كان عذاب يوم عظيم﴾ [الشعراء: ١٨٩]. .

لقد جرت سنـة الله التي لا تـتخلف، ولن تجد لسنـة الله تبديـلاً، فجازاهم الله على بغيهم وظلمهم بالوبال والنكال، وكان ذلك العذاب نتيجة حتمية لما وقع منهم من ضلال وعناد، واستهتار وإفساد، وظلم للعباد. كما

كان جزاءً وفاقاً لتحديهم رسول الله بأن ينزل عليهم ما توعدهم به من العذاب.

قيل: أخذهم حرٌّ خانق شديد يكتم الأنفاس ويثقل الصدور، فلم يروي ظمأهم شيء، ولم يقيهم منزل ولا ظل ففروا هاربين من ديارهم إلى البرية يلتمسون النجاة ممَّا أصابهم. ثمَّ تراءت لهم سحابة، فاستظلُّوا بها، واجتمعوا تحتها لتحميهم من قيظ الحر؛ فوجدوا لها برداً، وما كاد عددهم يتكامل تحت ظلها حتى رمتهم السحابة بشرر من نار ولهب، ثمَّ إذا هي الصاعقة المجلجلة المدوية تفزعهم وتدمرهم تدميراً.

وكان ذلك «يوم الظلة» فالظلة كانت سمة اليوم المعلوم!

وهكذا انتهى أمرهم إلى تكذيب رسولهم، وأخذهم بالهلاك والتدمير، على سنة الله في أخذ المكذبين.. فأخذتهم الرجفة التي زلزلت عليهم بلادهم ورجتها بعد الصيحة المدوية التي أسقطت قلوبهم وتركتهم مصعوقين، حيث كانوا في دارهم لا يتحركون.. فأصبحوا فيها جاثمين. جزاء بما كانوا يروعون الناس وهم يخرجون عليهم مغيرين صائحين! لقد أهلك الله الملأ الذين استكبروا من قوم شعيب.

ها هو ذا الستار الختامي يرفع على مصرعهم، وعلى مشهدهم جاثمين في ديارهم، أخذتهم الصاعقة التي أخذت قوم صالح، فكان مصيرهم كمصيرهم، خلت منهم الدور، كأن لم يكن لهم فيها دور، وكأن لم يعمروها حيناً من الدهر. مضوا مثلهم مشيعين باللعنة، طويت صفحتهم في الوجود وصفحتهم في القلوب: **﴿ولمَّا جاء أمرنا نجَّينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا، وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يَغْنَوْا فيها. ألا بُعْداً لمدين كما بعدت ثمود﴾** [هود: ٩٤، ٩٥]..

وهكذا جاء أمْر الله وحَقَّ بالقوم عذاب يوم عظيم **﴿فأخذتهم الرجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾** [الأعراف: ٩١].. جاثمين على ركبهم

خامدين، كأن لم يقيموا فيها بالأمس. . الرجفة والجثوم، جزاء التهديد والاستطالة، وبسط الأيدي بالأذىٰ والفتنة.

ويرد القرآن على قولتهم: **﴿لئن اتَّبعتم شعيباً إنَّكم إذاً لخاسرون﴾** [الأعراف: ٩٠]. . وهي التي قالوها مهددين متوعِّدين للمؤمنين بالخسارة! فيقرر ـ في تهكم واضح ـ أنَّ الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيباً، إنَّما كان من نصيب قوم آخرين **﴿الذين كذَّبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها. الذين كذَّبوا شعيباً هم الخاسرين﴾** [الأعراف: ٩٢]. .

ففي ومضة ها نحن أُولاء نراهم في دارهم جاثمين. لا حياة ولا حراك. كأن لم يعمروا هذه الدار، وكأن لم يكن لهم فيها آثار! ويطوي صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال، والمفارقة والانفصال، من رسولهم الذي كان أخاهم، ثمَّ افترق طريقه عن طريقهم، فافترق مصيره عن مصيرهم، حتى لم يعد يأسىٰ على مصيرهم الأليم، وعلى ضيعتهم في الغابرين:

﴿فتولىٰ عنهم، وقال: يَا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحتُ لكم، فكيف آسىٰ على قوم كافرين؟﴾ [الأعراف: ٩٣]. .

إنَّه من مِلَّة وهم من ملة. فهو أُمة وهم أُمة. أمَّا صلة الأنساب والأقوام، فلا اعتبار لها في هذا الدين، ولا وزن لها في ميزان الله. فالوشيجة الباقية هي وشيجة هذا الدين، والارتباط بين الناس إنَّما يكون في حبل الله المتين. .

وطويت صفحة أُخرىٰ من الصفحات السود، حقّ فيها الوعيد على من كذَّبوا بالوعيد **﴿كذَّبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسِّ وثمود، وعاد وفرعون وإخوان لوط، وأصحاب الأيكة، وقوم تُبَّع. كلٌ كذَّب الرسل فحقَّ وعيد﴾** [قَ: ١٢ ـ ١٤]. .

والرس: البئر: المطوية غير المبنية. والأيكة: الشجر الملتف

الكثيف. وأصحاب الأيكة هم ـ في الغالب ـ قوم شعيب. أمَّا أصحاب الرسّ فلا بيان عنهم غير هذه الإشارة. وكذلك قوم تُبَّع. وتُبَّع لقب لملوك حمير باليمن. وبقية الأقوام المشار إليهم معروفون لقارىء القرآن.

ثمَّ يجيء التعقيب: ﴿إنَّ في ذلك لآية، وما كان أكثرهم مؤمنين. وإنَّ ربك لهو العزيز الرَّحيم﴾ [الشعراء: ١٩٠، ١٩١]..

وتلتمس العبرة من خلال قصة شعيب.. العبرة التي تلتمس دوماً من قصص الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه. فهي ترسم صورة واضحة لثمرة الصبر والإيمان. وكيف ينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون: ﴿ولمَّا جاء أمرنا نجَّينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ [هود: ٩٤]..

كذلك تؤكد على عاقبة الظلم والطغيان: ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ [الأعراف: ٩٢]..

يقول الشيخ الدكتور فضل عباس عن دعوة شعيب ـ عليه السَّلام ـ: (... والقضية التي كان يعالجها في قومه مع قضية التوحيد من أكثر القضايا عُسراً وصعوبة؛ إنَّها قضية المال الذي طُبعت النفوس على حبه). لذلك نجد أنَّ هذه القضية قد أخذت مساحة غير قليلة من دعوته؛ ومن هنا اشتدَّ إنكارهم عليه، ونيلهم منه فهم لا يفقهون ما يقول، كيف وقد أراد أن يقيدهم في التصرف بهذه الأموال حسب قواعد رشيدة، ومبادىء سديدة؛ لذلك لم يحل بينهم وبين رجمه ـ في زعمهم ـ إلاَّ رهطه وجماعته.

والحق أنَّ قضية المال من أشق وأشد القضايا التي تحتاج معالجتها إلى حكمة ولطف؛ لذا إن لم تكن النفوس قد أضاءت جوانبها العقيدة الصحيحة، فمن الصعب بل من المحال أن تكون هناك استجابة لأصوات المصلحين مهما ارتفعت..

... إنَّ أصحاب الباطل يعز عليهم أن يجدوا من يجادلهم في

باطلهم. وكذلك كان قوم شعيب؛ لذلك عملوا جاهدين على أن يردوا شعيباً، ومن آمن معه إلى ملتهم تارة نالوعيد ﴿لنخرجنَّك يَا شعيب، والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لتعودنَّ في ملَّتنا﴾ [الأعراف: ٨٨]، وتارة بالإغراء: ﴿لئن اتَّبعتم شعيباً إنَّكم إذن لخاسرون﴾ [الأعراف: ٩٠].. ستخسرون الكثير من مال، وجاه، ومنصب، وعز وفخر. ولكن شعيباً ـ عليه السَّلام ـ، وأمام هذه الوسائل المختلفة يحث من آمن معه على الصبر حتى يحكم الله بين الفريقين، ويحكم الله بينهم، ويُنجي شعيباً والذين آمنوا معه..»[1]..

وهكذا طويت صفحة من صحائف المكذِّبين المفسدين. فَبُعداً للقوم الظَّالمين.. ﴿كأن لم يغنوا فيها ألا بُعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾ [هود: ٩٥]..

(١) القصص القرآني: ٢٢٠ ـ ٢٢١.

فهرس الموضوعات

(قصة ابراهيم -عليه السلام)

(قصة لوط - عليه السلام)

(قصة اسماعيل-عليه السلام)

(قصة يوسف - عليه السلام)

(قصة شعيب - عليه السلام)

قصص الرحمن

في

ظلال القرآن

أحمد فائز الحمصي

مؤسسة الرسالة

قصص الرحمن

في

ظلال القرآن

الطَّبعَة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع
مؤسَّسَة الرِّسَالة بَيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٢٤٣ ٦٠٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

قصص الرحمن

في

ظلال القرآن

أحمد فائز الحمصي

الجزء الثالث

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة موسى ـ عليه السلام ـ وبني إسرائيل

الباب الأول: قصة يَعقوب عليه السلام، وقصة بني إسرائيل من قَبْل موسى عليه السلام.

الباب الثاني: قصة موسى عليه السلام.

القسم الأول: موسى وفرعون.

القسم الثاني: موسى وبني إسرائيل.

الباب الأول

قصة إسرائيل ـ يعقوب عليه السَّلام ـ وبني إسرائيل من قبل موسى عليه السلام

إسرائيل ـ يعقوب عليه السَّلام ـ

حين اعتزل إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أباه وقومه، وعبادتهم وآلهتهم، وهجر أهله ودياره، لم يتركه الله وحيداً. بل وَهَبَ له ذرية، وعوَّضه خيراً.

﴿فلمَّا اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكُلًّا جعلنا نبيّاً. ووهبنا لهم من رحمتنا، وجعلنا لهم لسان صدق عليّاً﴾ [مريم: ٤٩]. . **﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلًّا هدينا﴾** [الأنعام: ٨٤].

وإسحاق هو ابن إبراهيم، رَزَقه الله من سارة ـ وكانت قبله عقيماً ـ كما تقدم ـ، ويعقوب هو ابن إسحاق؛ ولكنَّه يُحسب ولداً لإبراهيم لأنَّ إسحاق رُزِقَه في حياة جَدّه، فنشأ في بيته وحُجره، وكان كأنَّه ولده المباشر، وتعلم ديانته، ولَقَّنها بنيه. وكان نَبياً كأبيه.

﴿ووهبنا لهم من رحمتنا﴾ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونسلهم. . والرحمة تُذكر لأنَّها هبة الله التي تُعوِّض إبراهيم عن أهله ودياره، وتُؤنسه في وحدته واعتزاله.

وكانوا صادقين في دعوتهم، مسموعي الكلمة في قومهم. يُؤخذ قولهم بالطاعة وبالتبجيل **﴿وجعلنا لهم لسان صدق عليّاً﴾**. .

كان يعقوب ـ عليه السَّلام ـ رحمةً وبشرىٰ من الله لإبراهيمَ ـ عليه السَّلام ـ الشيخَ الكبيرَ الطاعنَ في السن، وزَوْجَه العقيمَ التي لم

تعقب، ولم يكن بَعْدُ قد وَهَبهما الله إسحاق، فعجَّل ـ سبحانه وتعالىٰ ـ البشرىٰ بحفيدهما يعقوب بن إسحاق:

﴿ولقد جاءت رُسُلُنا إبراهيم بالبشرىٰ، قالوا: سلاماً. قال: سلام... وامرأته قائمةٌ فضحكت فبشَّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ [هود: ٦٩، ٧١].. **﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين﴾** [الأنبياء: ٧٢].

وقد ذكر الله يعقوب مع المختارين من عباده الذين اصطفاهم وآتاهم النبوة، ذكره مع أبويه إبراهيم وإسحاق.

﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أُولي الأيدي والأبصار. إنَّا أخلصناهم بخالصة ذكرىٰ الدار. وإنَّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ [صٓ: ٤٥]..

ويصف الله سبحانه وتعالىٰ: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، بأنَّهم **﴿أُولي الأيدي والأبصار﴾**.. كناية عن العمل الصالح بالأيدي والنظر الصائب أو الفكر السديد بالأبصار. وكأنَّ من لا يعمل صالحاً لا يَدَ له، ومن لا يفكر تفكيراً سليماً لا عَقْلَ له أو لا نَظَرَ له!

كما يذكر من صفتهم التكريمية أنَّ الله أخلصهم بصفة خاصة ليذكروا الدار الآخرة، ويتجردوا من كل شيء سواها:

﴿إنَّا أخلصناهم بخالصة ذكرىٰ الدار﴾.. فهذه ميزتهم ورفعتهم. وهذه جعلتهم عند الله مختارين أخياراً: **﴿وإنَّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾**..

وقد وردت قصة يعقوب مع قصة ابنه يوسف ـ عليهما السَّلام ـ، فكان الوالد المحب الملهوف، والنبي المُطمئن الموصول، وقد التقينا بهذه الشخصية النبوية العظيمة في حلقات مُعبِّرة عن صدق ظَنّه بالله رب العالمين، وثقته المتينة بقَدَر الله وقدرته وحكمته..

فقد امتاز بمعرفة واضحة بذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته، وأحكامه ومرضاته، وبجَوهر العقيدة، وقاعدة العمل، لقد وقف على قمة الحقيقة ـ يُشرف منها ـ بقَدَر ما يريد الله ـ على عالم الغيب والشهادة.. فهو يقول:

﴿**وأعلم من الله ما لا تعلمون**﴾ [يوسف: ٨٦]، وذكر القرآن عنه ﴿**وإنَّه لذو علم لما عَلَّمناه ولـٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون**﴾ [يوسف: ٦٨]..

لقد أكَّد القرآن الكريم أنَّ الأنبياء هم الأدِلاَّء على ذات الله وصفاته الحقيقية. لقد عرف يعقوبُ الحقَّ الذي لا يشوبه جَهل ولا ضلال، ولا سوء فَهم ولا سوء تعبير. ﴿**وأعلم من الله ما لا تعلمون**﴾..

إنَّه العلم الذي يعرف به الإنسانُ خالقَه؛ فاطِرَ هذا الكون، ومدبِّرَ هذا الوجود، وصفاته العَليَّة الجَليلة، والصلة بين العبد وربِّه، وموقف الإنسان في هذا العالم من كل المعالم والعوالم ﴿**وإن من شيء إلاَّ يُسبِّح بحمده ولـٰكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾ [الإسراء: ٤٤]، وموقفه من ربه ـ تبارك وتعالىٰ ـ، ما يرضيه وما يسخطه..

هذه سمة فاضلة لسيدنا يعقوب ـ عليه السَّلام ـ، هـذه الخاصية الفاضلة تكمن في شعوره الدقيق الحساس، المتصل بخالق الناس، وقلبه الرقيق الفَيَّاض بالحكمة الإلـٰهية والثبات على أمر الله..

ومن أهم ملامح عقيدة يعقوب التي أُشْرِبَها في قلبه، تشديده على الإيمان بالغيب، فكان التسليم شِعاره، وكان اليقين علامته..

لقد آمن بمعرفة، وعلم ويقين، فكان أُنموذجاً للتصديق بصفات الله العلية، وقدرته الفاعلة، وأفعاله العجيبة، فكان صورة إنسانية للتصديق المُطْلَق، والثقة المطمئنة بأفعال الله.. ها هو ذا يقول لأولاده بعد سنوات طويلة من غياب يوسف عنهم، وقد أخبروه بمصرعه حين أكله الذئب كما زعموا:

﴿يَا بنيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من رَوْح الله. إنَّه لا يَيأس من رَوْح الله إلاَّ القوم الكافرون﴾ [يوسف: ٨٧]. .

كذلك نراه حين أتاه البشير من يوسف، وألقىٰ قميصه على وجهه، انشرحت أساريره بهذا العبق الغائب، كأنَّه كان منه على ميعاد مُنْتَظَر:

﴿فلمَّا أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيراً قال: ألَم أقل لكم إنِّي أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [يوسف: ٩٦]. .

وتُصوِّر هاتان الآيتان يعقوب ـ عليه السَّلام ـ في عمق إيمانه، واستسلام قلبه ووجدانه. . تُصوِّر حقيقة الثقة بالله ومشيئته ورعايته وحمايته. . إنَّه شعور المؤمن الواثق المُدرك لسنة الله في الوجود في الابتلاء والبلاء. . لقد آمن واطمأنَّ قلبه، وأخلص لله نفسه، ولم يلبس إيمانه بظلم. .

إنَّها عقيدة الفطرة السليمة، والبصيرة المفتوحة. . إيمان لا يطمسه ركام المِحَن والخطوب، ويقين ثابت راسخ لا تهزّه ريح الحياة. . والقصة تعرض يعقوب ـ عليه السَّلام ـ ليكون أُسوة ومثالاً. .

هذا الشعور الواثق المتيقن بِرَوْح الله، يصوره القرآن العظيم في حسّ هذا النبي الكريم. . كيف كانت جدية الحق في نفسه. . كيف كان يتلقىٰ المحنة، وهو يعلم أنَّه مُبتلىً من الخبير العليم. .

إنَّ القصة تعكس صورة الوجدان الراسخ والإيمان العميق. . ترسم يعقوب في مشاهد مختلفة. . ترسمه بصورة واحدة. . صورة الوجدان المطمئن. . فها هو ذا يقول في يقين صادق يلامس قلبه:

﴿اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من رَوْح الله. إنَّه لا ييأس من رَوْح الله إلاَّ القوم الكافرون﴾ . .

إنَّه مشهد النفس المطمئنة التي حملت دين إبراهيم، وكانت ستاراً

لِقَدَر الله، ومُنْفِذاً لمشيئته في واقع الحياة. .

إنَّ الإيمان الصادق لا يزيده البلاء والمِحَن والخطوب إلاَّ يقيناً بما وَعَدَ الله، فالمحنة مهما ثقلت، والموقف مهما كان رهيباً قاتماً، فهناك قلوب يعمرها الحق، فما تزيدهم المحنة إلاَّ إيماناً وتسليماً، وما يزيدهم الموقف القاتم إلاَّ رسوخاً ويقيناً. .

هـذه طبيعة الإيمـان في عبـاد الله المخلصين، وهـذه سنـة الله في الوجود، يحقق صورتها الصادقة نبي الله يعقوب، فقد علم من سنة الله أنَّ الشدة والمحنة إذا بلغت غـايتها فـإنَّه سيتبعهـا اليسر، ولن تجـد لسنة الله تبديلاً. .

هذا هو الموقف الكريم الذي يدعو القرآن إليـه في قصة يعقـوب ـ عليه السَّلام ـ. هذا هو الدرس الذي يتلقاه أصحاب العقيدة والإيمان من قَصص الرَّحمـٰن. قصة وحياة نبي جليل تربّىٰ في حُجر جَدّه إبراهيم ﷺ، ونشأ متعبداً لله ـ سبحانه ـ على مِلّة إبراهيم، وحمل الوصية والأمانة بهـذه المِلّة الحنيفة السمحة.

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاَّ من سَفِهَ نفسه؟ ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنَّه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم قال: أسلمت لرب العالمين. ووصّىٰ بها إبراهيم بَنيه ويعقوب: يَـا بنيَّ إنَّ الله اصـطفىٰ لكم الدين فلا تموتنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢]. .

ملة إبراهيم هي الإسلام الخالص الصريح. .

تلك كانت وصية إبراهيم لبنيه، ووصية يعقوب لبنيه. . الوصية التي كررها يعقوب في آخر لحظة من لحظات حياته، والتي كانت شُغله الشاغل الذي لم يصرفه عنه الموت وسكراته، فلتسمعها البشرية كلها، وليسمعها بنو إسرائيل بقلوب مفتوحة:

﴿أم كنتم شهداء إذ حَضَرَ يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه: ما تعبدون من

بعدي؟ قالوا: نعبد إلـهك وإلـه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحـاق إلـهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٣]. .

إنَّ هذا المشهد بين يعقوب وبَنيه في لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة، قوي الإيحاء، عميق التأثير. . مَيِّت يحتضر. فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار؟ ما هو الشاغل الذي يعني خاطره وهو في سكرات الموت؟ ما هو الأمر الجَلَلْ الذي يريد أن يطمئن إليه ويستوثق منه؟ ما هي التركة التي يريد أن يُخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم في مَحضر، يسجل فيه كل التفصيلات؟. .

إنَّها العقيدة. . هي التركة. . وهي الذخر. وهي القضيـة الكبرىٰ، وهي الشغل الشاغل، وهي الأمر الجَلَل، الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته: **﴿ما تعبدون من بَعْدي؟﴾**. .

ومن أهم معالم سيرة يعقوب ـ عليه السَّلام ـ، هو التعليم والتربية، فقد كان صَلب العقيدة، ثابتاً على المحن والخطوب، عاش لدينه ودعوته، وكان هدفه ـ كسائر الأنبياء ـ هو تصحيح العقيدة في الله تعالىٰ، وتصحيح الصلة بين العبـد وربه، والـدعوة إلى إخـلاص الدين، وإفـراد العبادة لله وحده، وأنَّه الأحد ـ سبحانه ـ، المستحق للعبادة والتوجُّه والدعاء والالتجاء، وكانت هِمَّة يعقوب موجَّهة إلى العقيدة الناصعة والعبودية لله وحـده: **﴿ما تعبدون من بعدي؟﴾**. .

إنَّ محاربة الشرك بكل صوره وألوانه ومراتبه كانت هَـدَف يعقوب، هَدَف النبوّة الأساسي، وأساس دعوة الأنبياء، منها يبدأون وإليها ينتهون. . **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاَّ نوحي إليه أنَّه لا إلـه إلاَّ أنا فاعبدون﴾** [الأنبياء: ٢٥]. .

لقـد أشار القـرآن الكريم إلى وصيـة يعقـوب لتكـون عَلَمـاً لبنيـه: بني إسرائيل على مر الزمان والأيام، فقد وضع لبني إسـرائيل هـذا الجيل

البشري في تاريخه الطويل أُسس الحق ودعائم التوحيد: ﴿**ما تعبدون من بعدي؟**﴾.. هكذا قال لبنيه حين حضره الموت..

هذا هو الأمر الذي جمعتكم من أجله. وهذه هي القضية التي أردتُ الاطمئنان عليها. وهذه هي الأمانة والذخر والتراث..

﴿**قالوا: نعبد إلـهك وإلـه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلـهاً واحداً ونحن له مسلمون**﴾..

إنَّهم يعرفون دينهم ويذكرونه. إنَّهم يتسلمون التراث ويصونونه. إنَّهم يُطَمْئِنُون الوالد المُحتضر ويُريحونه.. وكذلك ظلت وصية إبراهيم لبنيه مرعية في أبناء يعقوب. وكذلك هم ينصون نصاً صريحاً على أنهم « مسلمون »!

إنَّ هذه الوصية جديرة بالتأمل. فليس الإلـه الذي يُعبد هو إلـه إسرائيل إنَّما هو رب العالمين ﴿**نعبد إلـهك وإلـه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلـهاً واحداً ونحن له مسلمون**﴾..

هذه هي مِلّة إبراهيم ويعقوب: ﴿**يَا بني إنَّ الله اصطفىٰ لكم الدين فلا تموتنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون**﴾..

ها هم أُولاء أولاد يعقوب ـ بني إسرائيل ـ يقولون بنص واضح لا لبس فيه ولا غموض: يعبدون إلـهاً واحداً هو إلـه إسرائيل وإلـه آبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴿**إلـهاً واحداً ونحن له مسلمون**﴾..

إنَّه الإسلام.. هو ملة إبراهيم ويعقوب.. والإسلام هو دين بني إسرائيل حين قالوا عن عبادتهم: نعبد إلـهاً واحداً ونحن له مسلمون.. صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع.. الإسلام هو الاستسلام المطلق للقوامة الإلـهية، والتلقي منه وحده والتحاكم إليه فيما شرّع.. الإسلام: الطاعة والاتباع. الإسلام: تحكيم الله في أُمور العباد، وقيام الحياة البشرية

على الدينونة لله وحده في كل شؤون الحياة: في الاعتقاد والتصور، وفي الشعائر والمناسك، وفي الأخلاق والسلوك، والقيم والموازين، وفي كل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء: **﴿نعبد.. إلـٰهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾**..

ونقف أمام شخصية يعقوب ـ عليه السَّلام ـ، إنَّه نموذج الإيمان المستسلم الواثق الحليم، لقد صوّرها القرآن الكريم شاخصة لتكون مَثَلاً وقدوة لبنيه بني إسرائيل، فلا فَلَاح عند الله إلاَّ باتباع منهج الإسلام الذي دعا إليه إبراهيم وإسرائيل والنبيون من بعد **﴿ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممَّن هدينا واجتبينا﴾** [مريم: ٥٨].. لقد حفظ القرآن تاريخ الأنبياء الذين قَصَّ خَبَرهم، فكان يعقوب مثلاً للاستسلام، الواثق بقَدَر الله وأفعاله، ومثلاً للإخلاص الذي لا يشوبه طمع، ولا يرقىٰ إليه شك، ومثلاً للاعتماد والتوكل على الله والالتجاء إليه: **﴿إنَّما أشكو بثِّي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾** [يوسف: ٨١]..

لقد أدرك يعقوب بإيمانه ويقينه أنَّ الرجعة لله وحده في كل الأمور، فكان مثلاً يُقْتَدىٰ، وهو الوثيق الصلة بربه الموصول الروح بالوحي والإلهام..

إنَّ القاعدة التي يبني عليها الإسلام العقيدة في القلوب وهي تواجه الأحداث والخطوب.. القاعدة الراسخة: الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد، وتتوارىٰ الأوهام وهي شتّىٰ، ويخلو القلب إلى الله وحده، لا يجد سنداً إلاَّ سنده. وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات، وتتفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مدّ البصر.. لا شيء إلاَّ الله.. لا قوة إلاَّ قوته.. لا حول إلاَّ حوله.. لا إرادة إلاَّ إرادته.. لا ملجأ إلاَّ إليه.. وعندئذٍ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح.

فالخلق والأمر لله.. كل شيء بإرادته ومشيئته.. كلنا لله.. كل ما

فينا.. كل كياننا وذاتيتنا.. لله.. وإليه المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير.. التسليم.. التسليم المطلق، فأولى مراتب الإيمان.. الاعتقاد واليقين بأنَّ الحَوْل والقوة والحركة كلها لله، وأن لا حَول ولا قوة إلاَّ بالله.

هذه الحقيقة الضخمة هي التي عني القرآن بتقريرها في نفوس المؤمنين حتى تستقر في كل نفس، وتعمر كل قلب، وتختلط بالدم وتجري في العروق، لقد كان يعقوب ـ عليه السَّلام ـ مَثَلاً لهذه الحقيقة، وصورة مُلَوَّنَةَ المشاعر لها، رَسَمها القرآن شخصية إنسانية، وقد استقرَّت هذه الحقيقة في حياته كلها، لا يجول غيرها في حسّ ولا خيال..

إنَّ المؤمن يتصل قلبه مباشرة بالقوة الفاعلة في هذا الوجود، فيتوكل على الله وحده في أموره كلها، فهو سبحانه يُحدث النتائج، ويُحقق المصاير، ويدبر الأمر بحكمته، ومن ثمَّ يتقبَّل ما يجيء به قَدَر الله في اطمئنان أيّاً كان.. إنَّه التوازن العجيب الذي لا يعرفه القلب البشري إلاَّ في الإسلام.

إنَّ قصة يعقوب تُنشىء التصور الإيماني الصحيح في القلب بالنسبة لإرادة الله، ﴿**وإنَّه لذو علم لما علَّمناه**﴾ [يوسف: ٦٨].. لقد عَلِمَ بإيمان ويقين أنَّه ﴿**قد جعل الله لكل شيء قَدْراً**﴾ [الطلاق: ٣].. فكل شيء مقدَّر بمقداره، وبزمانه ومكانه، وبملابساته، وبنتائجه وأسبابه. ليس شيء مصادفة. وليس شيء جزافاً في حياة الناس، وفي هذا الوجود كله، فكل شيء معقود بإرادة الله وأمره وقدَره وعلمه..

ها هو ذا يعقوب ـ عليه السَّلام ـ يقول لبنيه بعد أن أخذ موثقاً من الله عليهم أن يعودوا بأخيهم في رحلتهم إلى مصر بعد أن مُنع منهم الكيل:

﴿**وقال يَا بنيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أُغني من الله من شيء إن الحكم إلاَّ لله عليه توكَّلت وعليه فليتوكَّل المتوكِّلون**﴾ [يوسف: ٦٧]..

إن الحكم إلاَّ لله عليه توكَّلت وعليه فليتوكَّل المتوكّلون. . إنَّها كلمة المطمئن، المؤمن بأنَّ الله وحده هو المتصرف، المؤمن الذي يحسّ بـأنَّ يَدَ الله ـ سبحانه ـ تقود خطاه، فالحكم لله وحده. . هذا هو قلب موصول بالله لا يُخطىء الشعور بـوجوده ـ سبحـانه ـ وألـوهيته القـاهرة المسيـطرة على الأحداث والمصائر.

هذه الحقيقة التي يرسمها القرآن بعبارات واضحة. . فالمؤمن لا يرجو سوىٰ الله، ولا يقصد إلاَّ إياه، ولا يلوذ إلاَّ بجنابه، ولا يرغب إلاَّ إليه، ويعلم أنَّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. . وأنَّه المتصرف في المُلك. لا شريك له ﴿**إن الحكم إلاَّ لله**﴾ ولا معقِّب لحكمه، ومن ثَمَّ كان التوكُّل عليه هـو جِماع الإيمان. .

ذاك هو نبي الله إسرائيل ـ يعقوب ـ عليـه السَّلام ـ، الـذي تَشَرَّفت الأرض بدعوته ويقينه، وتَشَرّف المؤمنون بالانتساب إليه، فقد أكرمه الله أن جعل ذُريته أئمة الهدىٰ والتقىٰ ﴿**ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكمة والنبوة**﴾ [غافر: ٥٣]. .

لقد اصطفىٰ الله ـ سبحانه ـ بني إسرائيل، وجعلهم مُلوكاً، وآتاهم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين، فقد اتَّبعُوا سُبل السلام، واقتفوا خطوات أبيهم النبي الإمام، منذ ما يزيد على ستة آلاف عـام ﴿. . **ومن ذرية إبـراهيم وإسرائيل إذا تُـتلىٰ عليهم آيات الرَّحمـٰن خرُّوا سُجّداً وبُكِيّاً**﴾. . [مريم: ٥٨]. .

وهكذا يطوي يعقوب حياته، فقد صَدَقَ الله قولاً وفعلاً، كان مستسلماً لمشيئة ربّه وقَدَره، ثمَّ حمل بنو إسرائيل هذا الميراث الإيماني العظيم إلى العالمين. . ومَكَّن الله لبني إسرائيل في الأرض. . بدأ هذا الفضل الإلـٰهي في حياتهم منذ يوسف ـ عليه السَّلام ـ كما تَقَدَّم، وعاش بنو إسرائيـل في عَين الله ورعايته ورحمته، عاشوا في عِزّ وكرامة ورعـاية، فقـد حققوا في

حياتهم منهج الله المُمَثّل فيما أُنزل عليهم من التعاليم الإلهية، كما أنزلها الله، فصلحت حياتهم، وفاضت عليهم البركات والأرزاق، وبوَّأهم الله مبوَّأ صدق فرفع ذكرهم ومجَّد اسمهم ونَسَبهم.. وبعد ذلك طال عليهم الأمد، واستولت عليهم الدنيا، وغرَّهم بالله الغرور، وقست قلوبهم، وزاغوا، وانحرفوا، وضلُّوا، وفسقوا، وظلموا.. فماذا كان..؟

إنَّ سُنّة الله لا تُحابي أحداً. ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ولن تجد لسنة الله تحويلاً.. **﴿وإذ ابتلىٰ إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمَّهنَّ. قال: إنِّي جاعلك للنَّاس إماماً. قال: ومِنْ ذرِّيَّتي.. قال: لا ينالُ عهدي الظالمين﴾** [البقرة: ١٢٤]..

لقد سأل إبراهيم ربه عن الإمامة في ذريته.. وجاءه القول الفصل من الله رب العالمين: **﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾**..

إنَّ الإمامة في ذريتك لمن يستحقونها بالعمل والشعور، وبالصلاح والإيمان، وليست وراثة أصلاب وأنساب، فالقربىٰ ليست وشيجة لحم ودم، إنَّما هي وشيجة دين وعقيدة. ودعوىٰ القرابة والدم والجنس والقوم إن هي إلَّا دعوىٰ الجاهلية التي تصطدم اصطداماً أساسياً بالتصور الإيماني الصحيح.

فالإمامة ممنوعة على الظالمين، ممنوعة على المُنحرفين، ممنوعة على الفاسقين، ممنوعة على الضالين.. فَمَنْ ظَلَم ـ أي لون من الظلم ـ، ومن انحرف عن دين الله وبدَّل، ومن فَسَقَ عن منهج الله وشريعته، ومَن ضلَّ عن الحق والتوىٰ، فقد جرَّدَ نفسه من حق الإمامة، وأسقط حقه فيها، بكل معنىٰ من معانيها: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة. وكل معنىٰ من معاني الإمامة والقيادة..

وهذا الذي قاله الله سبحانه لإبراهيم ـ عليه السَّلام.. وهذا الذي أراد

يعقوب التأكيد عليه في وَصيته عندما حضرته الوفاة فقال لبنيه: **﴿ما تعبدون من بعدي؟﴾**..

لقد آتىٰ الله بني إسرائيل من نِعمته ما لم يُؤت أحداً من العالمين، ورزقهم من فضله فجعلهم سادة الدنيا وملوكها، فقد مكَّن لهم في الأرض، وجعلهم خلائف فيها.. وهذا كله إنَّما أعطاه الله لهم ابتلاءً منه وامتحاناً، لينظر أيشكرون أم يكفرون؟ ولكنَّهم كفروا نعمة الله ولم يشكروا فضله، وطغوا وبغوا بما أُعطوا، وغيَّرتهم النعمة والقوة فصاروا ظَلَمة فَجَرة..

والله سبحانه قد وَضَعَ سنته في عباده يمضي بها قَدَره **﴿ذلك بأنَّ الله لم يكُ مُغَيِّراً نعمةً أنعمها على قوم حتَّىٰ يُغَيِّروا ما بأنفسهم. وأنَّ الله سميع عليم﴾** [الأنفال: ٥٣]..

إنَّها سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.. عَدْل الله في معاملة العباد، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إيّاها إلاَّ بعد أن يغيروا نواياهم، ويُبدِّلوا سلوكهم، ويقلبوا أوضاعهم، ويستحقوا أن يُغَيَّر ما بهم ممَّا أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يُقدروها ولم يشكروها **﴿ومن يُبدِّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإنَّ الله شديد العقاب﴾** [البقرة: ٢١١]..

ها هم أُولاء بني إسرائيل الذين وُهِبوا نعمة الله من الإيمان، والعِزّ بِسلطان الله، كانوا ملوكاً، سرير الدنيا يُحركونه بفضل الله وأمره.. فإذا هم يتركون هذا كله، ودانوا لِسُلْطان شهواتهم وأهوائهم، ونبذوا شرع الله ومنهجه من حياتهم.. ها هم أُولاء يهوون من تلك العلياء التي رفعهم الله، فهم في ظُلمٍ وعُتوّ وانحراف، تراكمت على قلوبهم الأوزار الكبار ففسدت أفئدتهم، وجرىٰ في عروقهم الظُّلم والفسوق والعصيان، فَخَوت أرواحهم، وطُمست قلوبهم، ففقدت النور.. **﴿فَخَلَفَ من بعدهم خَلْف أضاعوا الصَّلاة واتَّبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً﴾** [مريم: ٥٩]..

عاشوا للدنيا في بَذَخ وترف، فانطفأت شعلة الحق في وجدانهم،

وآثروا الهوىٰ على الإيمان، والظلمات على النور. . لقد امتلأت مِصر ببني إسرائيل فإذا هم كثيرٌ عَددهم، ولكنهم غُثاء كغثاء السيل، يلهثون وراء المال والهوىٰ، يَفرَقون من الموت، قلوبهم تائهة، وعقولهم مضطربة. .

لقد اشتروا الدنيا بالآخرة، والضلال بالهدىٰ، والعذاب بالمغفرة، فجفَّت قلوبهم وقَسَتْ، وضاعت الدمعةُ الخائفة الراجفة الذاكرة من العيوْن، وضاع الإخلاص، وكانت سنة الله لا مَناص **﴿ومن يُبدِّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإنَّ الله شديد العقاب﴾** . . **﴿ذلك بأنَّ الله لم يَكُ مُغيِّراً نعمةً أنعمَها على قوم حتّىٰ يُغيِّروا ما بأنفسهم﴾** . .

وكان مصداق ذلك في حال بني إسرائيل، منذ أن بدّلوا نعمة الله، ونجد مصداقه دائماً فيما ينتظر المُبدّلين للنعمة المُتَبطّرين عليها في كل زمان.

لقد حقَّ على بني إسرائيل العذاب وشديد العقاب. . ها هي ذي أُمَّة بني إسرائيل وقد قُضي الأمر، فأصبح الملوك عبيداً أذلّاء، والأحرار رقيقاً ضعفاء، وأُمطروا ذُلّاً مهيناً وعذاباً أليماً. .

لقد هوىٰ بنو إسرائيل من عزِّ الطاعة والاستقامة إلى ذُلِّ العصيان والانحراف، انتكسوا إلى أسفل سافلين، انحرفوا وحادوا عن نهج الله وشرعه. . ها هم أُولاء يَهْوون إلى الدرك الأدنىٰ، فأصبحوا مُسْتَضْعَفين مُطارَدين، أذلّاء، وفرعون مصر **﴿يُذَبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم﴾** [القصص: ٤]. .

لقد كانوا سادة. . ملوكاً أعزّة، رفعهم الله إلى المقام الأسنىٰ حين تمسكوا بدين الله ـ دين أبيهم إسرائيل ـ **﴿ما تعبدون من بعدي؟﴾** . . قالوا: **﴿نعبد. . إلـهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾** . .

ثمَّ ماذا بعد أن زاغوا وانحرفوا وفسقوا؟. . ها هم أُولاء يرتكسون إلى

الدَرَك الأسفل، وقد تفلّتوا من حَبل الله المتين، فانطفأ النور الذي كان يملأ الصدور، وأضاعوا الإخلاص، فكانت سنة الله لا مناص..

ها هي ذي أُمّة بني إسرائيل قبل موسىٰ ـ عليه السَّلام ـ المنكودة الطالع تُعاني العقاب الشديد، وتَجد الشقوة النكدة على يد فرعون وملئه، يُطاردها الظالمون، فلا طمأنينة لحياتهم ولا سلام، يَتَخبَّطون في ظُلم وظلام..

إنَّه حال عجيب يصيب من يُبَدِّل نعمة الله كفراً، وذلك جزاء كفران النعمة.. فَضَيَّق عليهم حياتهم، وغلبت عليهم الشقوة، وصاروا أذلاء مهينين بعد أن كانوا أُمة هي وَجْه الحياة والرخاء..

هذه بعض ملامح تلك الحقبة التي عاشتها أُمَّة بني إسرائيل قبل ميلاد موسىٰ ـ عليه السَّلام ـ، عاشوا في ذلّ وهَوان وضياع.. عاشوا في الخسران المبين بعد العزّ المكين.. لقد كانوا أئمَّة الهدىٰ فجعلهم الله ملوكاً، ثمَّ بدَّلوا نعمة الله، وألقوا راية الحق، فإذا هم ذَيل مُسْتَضْعَف مَهين.. فهم أبداً من ضياع وخسران إلى عذاب وحرمان..

هـذه سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلاً: **﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فَلَها﴾** [الإسراء: ٧]..

والقرآن يسأل بني إسرائيل الذين كانوا يواجهون رسول الإسلام محمَّد ﷺ: **﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت؟﴾**.. فهذا هو الذي كان، يَشهد به الله، ويُقرره، ويَقطع به كل حجة لهم في التمويه والتضليل؛ ويقطع به كل صلة حقيقية بينهم وبين أبيهم إسرائيل!

وفي ضوء هذا التقرير يظهر الفارق الحاسم بين تلك الأُمَّة التي خَلَت حيث قال بنو إسرائيل: نعبد إلـهاً واحداً ونحن له مسلمون.. والجيل الذي كانت تُواجهه الدعوة، وكل جيل ينسلخ من آيات الله، والإسلام لرب

العالمين.. حيث لا مجال لصلة، ولا مجال لوراثة، ولا مجال لنسب بين السابقين واللاحقين:

﴿تلك أُمَّةٌ قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، ولا تُسألون عمَّا كانوا يعملون﴾..

فلكلٍّ حساب؛ ولكل طريق، ولكل عنوان؛ ولكل صفة.. أُولئك أُمَّة مؤمنة من المؤمنين فلا علاقة لها بأعقابها من الفاسقين..

إنَّ هذه الأعقاب ليست امتداداً لتلك الأسلاف. هؤلاء حزب وأُولئك حزب. لهؤلاء راية ولأُولئك راية.. والتصور الإيماني في هذا غير التصور الجاهلي.. فالتصور الجاهلي لا يُفرق بين جيل من الأمة وجيل، لأنَّ الصلة هي صلة الجنس والنسب.. أمَّا التصور الإيماني فيفرق بين جيل مؤمن وجيل فاسق؛ فليسا أُمَّة واحدة، وليس بينهما صلة ولا قرابة.. إنَّهما أُمَّتان مختلفتان في ميزان الله، فهما مُختلفتان في ميزان المؤمنين..

إنَّ الأمَّة في التصور الإيماني هي الجماعة التي تنتسب إلى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض؛ وليست هي الجماعة التي تنتسب إلى جنس واحد أو أرض واحدة.. وهذا هو التصور اللائق بالإنسان، الذي يستمد إنسانيته من نفخة الروح العلوية، لا من التصاقات الطين الأرضية!

الباب الثاني

قصة موسى عليه السلام

١ - القسم الأول: موسى وفرعون.
٢ - القسم الثاني: موسى وبني إسرائيل.

القسم الأول

موســى وفـرعـون

المحتـوى	ص

قصة موسى – عليه السلام –

وردت هذه القصة في حوالي الثلاثين موضعاً في كتاب الله. إذ أنها أشد القصص ذكراً في القرآن الكريم، وكانت تُعرض بالقدر الذي يكفي لأداء الغَرض في السياق القرآني، ومن الحَلقة التي تتفق معه، فَمَرَّة تُعرض القصة من أولها، ومَرة من وَسطها، ومرة من آخرها، وتارة يكتفي ببعض حلقاتها، وتارة تتوسط بين هذا وذاك، حسبما تكون العبرة في هذا الجزء أو ذاك.

وقد قصَّ الله على رسوله ﷺ قصة موسى مع فرعون وملَئه، القصة التي قَصَّها في سورة القَصَصْ بعد قصة يوسف في جو مكة الثقيل الذي يُعادي الدعوة الإسلامية وقد تألَّب الأعداء ليَسُدُّوا مداخل النور الإلهي في القلوب.

وهي قصة فوز موسى وسلامته من فرعون وكيده. فرعون الذي علا في الأرض واستشرى بَغْيَه وفَساده فيها، وجعل الناس طبقات وطوائف غير متساوية، واستضعف إحداها ـ بني إسرائيل ـ فاعتزم إبادتها بذبح ذكورها واستحياء نسائها[1]..

وكان فرعون يُبْغِضُ بني إسرائيل بُغْضاً شديداً، وكان هذا الملك

(١) إبقاءهم على قيد الحياة وجعلهم خدماً مستذلين.

لا يَرى أن بني إسرائيل من أولاد الأنبياء وأنَّهم من بيت يوسُفَ ملك مصر الكريم.

بل كان لا يرى أنهم بَشرٌ يستحقون الرحمة والإنصاف والمساواة مع المصريين، وكان يرى أن قومه «القِبْط» من نوع وأن بني إسرائيل من نوع آخر.

القِبْطُ من نوع المُلوك خُلِقُوا لِيَحكُموا. وبنو إسرائيل من نوع العبيد خُلِقُوا لِيَخْدِمُوا. وكان فرعون يُعامِلُ بني إسرائيل معاملة الدوابّ يستخدمها الإنسانُ ولا يُعطيها إلا قُوتَ يومها.

لقد تمادى فرعون في غَيّه، وعَلَا في الأرض، وأنزل الخَسْفَ ببني إسرائيل، إذ عاشوا في ظلالِهِ عِيشَة البلاء يضطربون ويرزحون في نكد من العيش وسوء الحال.

و «فرعون» كلمة عرفها التاريخ في مصر، ولَقَب كان يطلقه المصريون على حُكامهم، فيقولون: «فرعون» مصر، كما يقال: «قيصر» الروم، و «كسرى» الفرس.

وقد اكتفى القرآن باللقب وحده، فلم يذكر اسم فرعون الذي كان يحكمها على عهد موسى، وذَكَر صفاته وأعماله التي استحقّ بها لعنة الله، وبقيت بذلك كلمة فرعون عنواناً مجرداً لا يهمّ فيه اسم شخص بذاته، وإنما المهم فيه هذه الصفات والأعمال التي يَعرف بها أهل القرآن فرعونَ في كل زمان ومكان!.

فإن قيلَ: فلماذا ذُكر موسى باسمه ولم يُذكر اسم فرعون؟ فقد يُجاب على ذلك بأن موسى رجلٌ اختاره الله وأرسله، ورُسل الله نماذج صنعها هو للناس، فصفاتهم وأعمالهم من خصائصهم وحدهم والناس لهم فيها تَبَع، ثم هم في تاريخ البشرية الطويلة معدودون قليلون، أما فرعون موسى، فهو حاكم فَرَض نفسه على المصريين وأمثاله كثيرون يتكررون.

وقد نجد من خلال ذلك جواباً على السؤال القديم: لماذا ذُكرت قصة موسى وفرعون في كثير من سور القرآن؟.

وقد تخلّل آيات القصة كثير من المواعظ ومواضع العبرة مما يمكن أن يسوّغ القول أن القصة قد أُريد بها الموعظة وإيراد المُماثلة في رسالة النبي محمد ﷺ ـ ورسالة موسى عليه السلام ـ وفي ظروفهما. وهذا واضح أكثر في الآيات التي تعقب القصة.

ومن مواضع العبرة، التنديد بفرعون لجعله الناس طبقات متفاوتة، واضطهاده الضُعفاء منهم، والبُشرى للمستضعفين بغناية الله ونصره وتمكينه. ففي هذا من جهة بشرى للمسلمين الذين استضعفهم الكفار في مكة وآذوهم وبغوا عليهم، وتثبيت لهم، وإنذار للكفار بعاقبة مماثلة لعاقبة فرعون وجنوده.

فهي قصة تَشَرُّف موسى بالرسالة العظمى والنبوة الكريمة وهلاك العدو ونجاة بني إسرائيل، وهي قصة كقصة يوسف مع زيادة أنها مقرونة بنجاة بني إسرائيل وفوزهم وسيادتهم.

الحلقة الأولى:

القسم الأول
موسى وفرعون

ولادة موسى وطفولته:

كانت ولادة موسى ـ عليه السلام ـ في مصر حيث كان بنو إسرائيل في يعظم محنة مَرّت عليهم، حيث كان فرعون يُبالغ في إلحاق الأذى والنكال بهم، فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم.

وما كان لمولود في بني إسرائيل أن يعيش في مملكة فرعون، وذُبح ألوف من الأطفال أمام آبائهم وأمهاتهم. وكان اليوم الذي يُولد فيه مولود في بني إسرائيل يوماً عسيراً مؤلماً. وكان يوم حزن وبكاء، ويوم تعزية ورثاء..

وقد افتتح الله هذه القصة بمقدمة مُجلجلة عظيمة، كانت جديرة بأن تخلع قلوب الأعداء من قريش وتملأها هيبة وإشفاقاً من مُستقبل هذه الجماعة المؤمنة الصغيرة الضعيفة، التي كانت قريش لا تحسب لها حساباً، وكانت تريد أن تلتهمها التهاماً، فقال الله تعالى:

﴿طَسَمَ، تلك آيات الكتاب المبين. نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون. إن فرعونَ عَلاَ في الأرض وجعل أهلها شِيَعاً، يستضعف طائفة منهم، يُذَبِّح أبناءهم ويَستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين. ونريد أن نَمنَّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونُمكّن لهم في الأرض، ونُري فرعون وهامان

وجنودهما منهم ما كان يحذرون﴾ [القصص: ١ ـ ٦].

وسورة القصص أكثر السور حديثاً عن طفولة موسى فهي تَعرضها منذ أول حلقة في القصة ـ حلقة ميلاده ـ ولا تبدأ مثل هذا البدء في أية سورة أخرى من السور الكثيرة التي وردت فيها.

ذلك أن **الحلقة الأولى** من قصة موسى، والظروف القاسية التن وُلِدَ فيها؛ وتَجرّدَه في طفولته من كل قوة ومن كل حيلة؛ وضُعْف قومه واستذلالهم في يد فرعون.. ذلك كله هو الذي يؤدي هدف سورة القصص الرئيسي؛ ويبرز يَد القُوة سافرة مُتحدية تعمل وحدها بدون ستار من البشر؛ وتضرب الظُلم والطُغيان والبغي ضربة مباشرة عندما يعجز عن ضربها البشر؛ وتنصر المُستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة؛ وتُمَكِّن للمعذبين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية. وهو المعنى الذي كانت القلة المُسلمة المُستضعفة في مكة في حاجة إلى تقريره وتثبيته؛ وكانت الكثرة المشركة الباغية الطاغية في حاجة إلى مَعرفته واستيقانه.

ولقد كانت قصة موسى ـ عليه السلام ـ تبدأ غالباً في السور الأخرى من حلقة الرسالة ـ لا من حلقة الميلاد ـ حيث يقف الإيمان القوي في وجه الطغيان الباغي؛ ثم ينتصر الإيمان وينخذل الطغيان في النهاية. فأما في سورة القصص فليس هذا المعنى هو المقصود؛ إنما المقصود **أن الشرّ حين يتمحض يحمل سبب هلاكه في ذاته**؛ والبغي حين يتمرَّد لا يحتاج إلى من يدفعه من البشر؛ بل تتدخل يد القدرة وتأخذ بيد المُستضعفين المُعتَدَى عليهم، فتنقذهم وتستنقذ عناصر الخير فيهم، وتربيهم، وتجعلهم أئمة، وتجعلهم الوارثين.

إن هذه الحلقة من قصة موسى تُؤدي هذا الغَرَض وتبرزه.. وفي عرضها أداة تربية للنفوس، ووسيلة تقرير لمعان وحقائق ومبادىء. وهي تتناسق في هذا مع حلقات قصة موسى كلها الذي تُعرض فيه، وتتعاون في

بناء القلوب، وبناء الحقائق التي تعمر هذه القلوب.

إن حلقة مولد موسى ـ عليه السلام ـ وما أحاط بهذا المولد من ظروف قاسية في ظاهرها، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته تكشف عن تَحدّي القدرة السافرة للطغيان الباغي. وفيها يَتجَلّى عجز قوة فرعون وحيلته وحَذَره عن دفع القَدَر المحتوم والقضاء النافذ: **﴿ونُرِيَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾**.

وقبل أن يبدأ السياق القرآني القصة يرسم الجو الذي تدور فيه الأحداث، والظرف الذي يجري فيه القَصص، ويكشف عن الغاية المخبوءة وراء الأحداث، والتي من أجلها يسوق هذا القصص..

﴿إن فرعون عَلاَ في الأرض وجعل أهلها شِيَعاً يستضعف طائفة منهم، يُذبِّح أبناءهم، ويَستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين. ونريد أن نَمُنّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين. ونُمكِّن لهم في الأرض، ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾.

وهكذا يرسم المسرح الذي تجري فيه الحوادث، وتنكشف اليد التي تُجريها. وتَنكشف معها الغاية التي تتوخاها. وانكشاف هذه اليد، وبروزها سافرة بلا ستار منذ اللحظة الأولى مقصود في سياق القصة كلها، يَتَمشّىٰ مع أبرز هدف لها. ومن ثم تبدأ القصة هذا البدء. وذلك من بدائع الأداء في هذا الكتاب العجيب.

ولا يُعْرف على وجه التحديد من هو الفرعون الذي تجري حوادث القصة في عهده، فالتحديد التاريخي ليس هدفاً من أهداف القصة القرآنية؛ ولا يزيد في دلالتها شيئاً. ويكفي أن نعلم أن هذا كان بعد زمان **يوسف ـ عليه السلام ـ الذي استقدم أباه وإخوته. وأبوه يعقوب هو «إسرائيل» وهؤلاء كانوا ذريته. وقد تكاثروا في مصر وأصبحوا شعباً كبيراً.**

فلما كان ذلك الفرعون الطاغية ﴿عَلاَ في الأرض﴾ وتَكَبّر وتَجَبَّر، وجعل أهل مصر شِيَعاً، كل طائفة في شأن من شؤونه. ووقع أشد الاضطهاد والبغي على بني إسرائيل، لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه؛ فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب؛ ومهما يكن قد وقع في عقيدتهم من فساد وانحراف، فقد بقي لها أصل الاعتقاد بإلّه واحد؛ وإنكار ألوهية فرعون والوثنية الفرعونية جميعاً.

وكذلك أحسّ الطاغية أن هناك خطراً على عرشه ومُلكه من وجود هذه الطائفة في مصر؛ ولم يكن يستطيع أن يطردهم منها وهم جماعة كبيرة أصبحت تعد مئات الألوف، فقد يصبحون إلباً عليه مع جيرانه الذين كانت تقوم بينهم وبين الفراعنة الحروب، فابتكر عندئذ طريقة جهنمية خبيثة للقضاء على الخطر الذي يتوقعه من هذه الطائفة التي لا تَعبده ولا تَعتقد بألوهيته، تلك هي تسخيرهم في الشاقّ الخطر من الأعمال، واستذلالهم وتعذيبهم بشتى أنواع العذاب. وبعد ذلك كله تَذبيح الذكور من أطفالهم عند ولادتهم، واستبقاء الإناث كي لا يتكاثر عدد الرجال فيهم. وبذلك يُضعف قوتهم بنقص عدد الذكور وزيادة عدد الإناث، فوق ما يَصبّه عليهم من نكال وعذاب.

وروي أنه وَكَّل بالحوامل من نسائهم قوابل مُولدات يُخبرنه بمواليد بني إسرائيل، ليبادر بذبح الذكور[1]، فور ولادتهم حسب خطَّته الجهنمية الخبيثة، التي لا تَستشعر رحمة بأطفال أبرياء لا ذنب لهم ولا خطيئة.

هذه هي الظروف التي تجري فيها قصة موسى ـ عليه السلام ـ عند ولادته، كما وردت في سورة القصص:

---

(١) تذكر الروايات أن كاهناً قبطياً قال لفرعون: «يُولد مولود في بني إسرائيل يذهب مُلكك على يده».

﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ [القصص: ٤]. .

ولكن الله يريد غير ما يريد فرعون؛ ويُقدّر غير ما يُقدر الطاغية. والطغاة البغاة تَخدعهم قوتهم وسطوتهم وحيلتهم، فينسون إرادة الله وتقديره؛ ويحسبون أنهم يختارون لأنفسهم ما يُحبون، ويختارون لأعدائهم ما يشاءون. ويظنون أنهم على هذا وذاك قادرون.

والله يعلن هنا إرادته هو، ويكشف عن تقديره هو؛ ويتحدى فرعون وهامان وجنودهما، بأن احتياطهم وحَذَرهم لن يُجديهم فتيلاً:

﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين، ونُمكن لهم في الأرض، ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ [القصص: ٥، ٦].

فهؤلاء المستضعفون الذين يتصرف الطاغية في شأنهم كما يريد له هواه البشع النكير، فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويسومهم سوء العذاب والنكال. وهو مع ذلك يَحذرهم ويَخافهم على نفسه ومُلكه، فيبثّ عليهم العيون والأرصاد، ويتعقب نسلهم من الذكور فيسلمهم إلى الشفّار الجزّار!.

هؤلاء المُستَضْعَفون يريد الله أن يَمنّ عليهم بِهباته من غير تحديد؛ وأن يجعلهم أئمة وقادة لا عبيداً ولا تابعين؛ وأن يُورثهم الأرض المباركة (التي أعطاهم إياها عندما استحقوها بعد ذلك بالإيمان والصلاح) وأن يُمكّن لهم فيها فيجعلهم أقوياء راسخي الأقدام مطمئنين. وأن يُحقق ما يَحذره فرعون وهامان وجنودهما، وما يتخذون الحيطة دونه، وهم لا يشعرون!.

هكذا يعلن حلسياق قبل أن يأخذ في عرض القصة ذاتها. يعلن واقع الحال، وما هو مُقدَّر في المآل. ليقف القوتين وجهاً لوجه: قوة فرعون

المنتفشة المنتفخة التي تبدو للناس قادرة على الكثير. وقوة الله الحقيقية الهائلة التي تتهاوى دونها القوى الظاهرية الهزيلة التي تُرهب الناس!.

ويرسم بهذا الإعلان مسرح القصة قبل أن يبدأ في عرضها. والقلوب مُعلّقة بأحداثها ومجرياتها، وما ستنتهي إليه، وكيف تصل إلى تلك النهاية التي أعلنها قبل البدء في عرضها.

ومن ثم تَنبض القصة بالحياة؛ وكأنها تُعرض لأول مرة، على أنها رواية معروضة الفصول، لا حكاية غبرت في التاريخ. هذه ميزة طريقة الأداء القرآنية بوجه عام.

ثم تبدأ القصة. ويبدأ التحدّي وتنكشف يد القدرة تعمل سافرة بلا ستار. وأراد الله أن يقعَ ما كان فرعونُ يخافُه ويحذَرُه.

لقد وُلِدَ موسى في ظل تلك الأوضاع القاسية التي رَسَمها قبل البدء في القصة؛ وُلِدَ والخطر مُحدق به، والموت يَتَلَفَّت عليه، والشَفرةُ مُشرَّعة على عُنقه، تَهمّ أن تَحتزَّ رأسه..

وها هي ذي أُمه حائرة به، خائفة عليه، تخشى أن يصل نَبؤه إلى الجلاَّدين، وترجف أن تتناول عُنقه السكين. ها هي ذي بطفلها الصغير في قلب المخافة، عاجزة عن حمايته، عاجزة عن إخفائه، عاجزة عن حجز صَوته الفطري أن يَنمّ عليه؛ عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة.. ها هي ذي وحدها ضعيفة عاجزة مسكينة.

هنا تتدخل يد القدرة، فَتَتَّصل بالأمّ الوَجلة القَلقة المذعورة، وتُلقي في روعها كيف تعمل، وتُوحي إليها بالتصرف:

﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليَمّ، ولا تخافي ولا تحزني﴾ [القصص: ٧]..

يا الله! يا للقدرة! يا أُمّ موسى أَرضعيه. فإذا خفتِ عليه وهو في

حضنك. وهو في رعايتك. إذا خفتِ عليه وفي فَمه ثديك، وهو تَحت عينيك. إذا خِفت عليه ﴿فألقيه في اليم﴾!!.

﴿ولا تخافي ولا تحزني﴾ إنه هنا.. في اليمّ.. في رعاية اليد التي لا أَمْن إلا في جوارها، اليد التي لا خَوف معها. اليد التي لا تقرب المخاوف من حِماها. اليد التي تجعل النار برداً وسلاماً، وتجعل البحر مَلجأً ومناماً. اليد التي لا يَجرؤ فرعون الطاغية الجبار ولا جبابرة الأرض جميعاً أن يدنو من حماها الآمِن العزيز الجناب.

﴿إنا رادُّوه إليك﴾.. فلا خوف على حياته ولا حُزن على بُعْده.. ﴿وجاعلوه من المرسلين﴾ [القصص: ٧]. وتلك بشارة الغد، وَوَعد الله أصدق القائلين.

وحين بشَّر الله موسى بالرسالة قال له مذكراً:

﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى إذ أوحينا إلى أُمك ما يوحى. أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم. فَلْيُلْقه اليمّ بالساحل..﴾ [طه: ٣٧ ـ ٣٩].

لقد صُنع موسى على عين الله منذ زمان، وآدرِّبَ على المشاق وهو طفل رضيع، ورافقته العناية وسهرت عليه وهو صغير ضعيف. وكان تحت سلطان فرعون وفي مُتناوله وهو مُجرد من كل عدّة ومن كل قوة فلم تمتد إليه يد فرعون..

لقد مننا عليك إذ أوحينا إلى أُمك ما يوحى وألهمناها ما يلهم في مثل حالها.. ذلك الإلهام:

﴿أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليمّ بالساحل﴾.

حركات كلها عنف وكلها خشونة. قذف في التابوت بالطفل. وقذف في اليم بالتابوت. وإلقاء للتابوت على الساحل.. ثم ماذا؟.

هذا هو المشهد الأول في القصة. مشهد الأم الحائرة الخائفة القَلقة الملهوفة تتلقَّى الإيحاء المُطَمْئِنّ المثبِّت المريح.

وينزل هذا الإيحاء على القلب الواجف المحرور بَرداً وسلاماً. ولا يذكر السياق كيف تلقَّته أُم موسى، ولا كيف نفَّذته. إنما يسدل الستار عليها.

وانطلق الماء بموسى يرفعه الموج ويخفضه أخرى. أين يذهب التابوت المقذوف فيه بالطفل المقذوف في اليم المُلْقَى به على الساحل. مَنْ يَتَسلَّمه؟ ﴿**عدو لي وعدو له**﴾ [طه: ٣٨].

ويُرْفَع الستار فإذا نحن أمام المشهد الثاني: ﴿**فالتقطه آل فرعون**﴾ [القصص: ٨].

أهذا هو الآمن؟ أهذا هو الوعد؟ أهذه هي البشارة؟.

وهل كانت المسكينة تخشى عليه إلا من آل فرعون؟ وهل كانت ترتجف إلا أن ينكشف أمره لآل فرعون؟ وهل كانت تخاف إلا أن يقع في أيدي آل فرعون؟.

نعم! ولكنها القدرة تَتحدّى. تَتحدَّى بطريقة سافرة مكشوفة. تتحدَّى فرعون وهامان وجنودهما. إنهم ليتَتَبَّعون الذُكور من مواليد قوم موسى خوفاً على مُلكهم وعرشهم وذواتهم. ويبثّون العيون والأرصاد على قوم موسى كي لا يفلت منهم طفل ذكر. فها هي ذي القدرة تلقي في أيديهم بلا بحث ولا كدّ بطفل ذكر. وأي طفل؟ إنه الطفل الذي على يديه هلاكهم أجمعين!.

ها هي ذي تُلقيه في أيديهم مُجرداً من كل قوة ومن كل حيلة، عاجزاً عن أن يدفع عن نفسه أو حتى يستنجد! ها هي ذي تقتحم به على فرعون حصنه وهو الطاغية السفّاح المتجبر، ولا تُتعبه في البحث عنه في بيوت بني إسرائيل، وفي أحضان نسائهم الوالدات!.

وفي زحمة هذه المخاوف كلها. وبعد تلك الصدمات كلها. ماذا؟ ما الذي حدث للطفل الضعيف المجرد من كل قوة؟ ما الذي جرى للتابوت الصغير المجرد من كل وقاية؟:

﴿وألقيتُ عليك محبة مني ولتُصْنَع على عيني﴾!!! [طه: ٣٩].

يا للقدرة القادرة التي تجعل من المحبة الهينة اللينة درعاً تتكسر عليها الضربات وتَتَحطَّم عليه الأمواج. وتعجز قوى الشرّ والطغيان كلها أن تمسّ حاملها بسوء؛ ولو كان طفلاً رضيعاً لا يصول ولا يجول بل لا يملك أن يقول...

إنها مقابلة عجيبة في تصوير المشهد. مقابلة بين القوى الجبارة الطاغية التي تتربَّص بالطفل الصغير، والخشونة القاسية فيما يحيط به من ملابسات وظروف.. والرحمة اللينة اللطيفة تحرسه من المخاوف، وتَقيه من الشدائد وتَلُفّه من الخشونة، مُمثلة في المحبة لا في صيال أو نزال: **﴿ولتصنع على عيني﴾**.. وما من شرح يمكن أن يضيف شيئاً إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذي يُلقيه التعبير القرآني العجيب: **﴿ولتصنع على عيني﴾**.

كيف يصف لسان بشري، خلقاً يُصنع على عين الله؟ إن قصارى أي بشري أن يتأمله ويَتَملاّه.. إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية. فكيف بمن يُصنع على عين الله؟ إنه بسبب من هذا أطاق موسى أن يَتَلَقّى ذلك العنصر العلوي الذي تَلَقّاه. ولتُصنع على عيني. تحت عين فرعون ـ عدوك وعدوي ـ وفي متناول يده بلا حارس ولا مانع ولا مُدافع. ولكن عَينه لا تمتد إليك بالشرّ لأني ألقيتُ عليك محبة مني. ويده لا تنالك بالضرّ وأنت تُصنع على عيني.

لقد أرادت القدرة الإلّهية أن يربي فرعونُ طفلاً يذهبُ مُلكه على يده **﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عَدواً وحزناً﴾** [القصص: ٨].

يا حسرة.. مسكين فرعون! لقد أخطأ في شأن موسى. وقد أخطأ معه وزيره هامان وجنوده.

وها هي القدرة تُعلن عن مقصدها سافرة متحدية: **﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾**.

ليكون لهم عدواً يتحدَّاهم وحزناً يدخل الهمّ على قلوبهم:

﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ [القصص: ٨].

ولكن كيف؟ كيف وها هو ذا بين أيديهم، مُجرداً من كل قوة، مجرداً من كل حيلة؟ لندع السياق يجيب:

﴿وقالت امرأة فرعون: قُرّة عَين لي ولك، لا تقتلوه، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً؛ وهم لا يشعرون﴾ [القصص: ٩].

لقد اقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته، بعدما اقتحمت به عليه حصنه. لقد حَمَتْه بالمحبة. ذلك الستار الرقيق الشفيف. لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال. حَمَتْه بالحبّ الحاني في قلب امرأة. وتحدَّت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذَرَه.. وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف! **﴿قُرة عين لي ولك﴾**..

وهو الذي تدفع به يد القدرة إليهم ليكون لهم ـ فيما عدا المرأة ـ عدواً وحزناً! **﴿لا تقتلوه﴾**..

وهو الذي على يده مصرع فرعون وجنده!.

﴿عسىٰ أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾...

وهو الذي تخبىء لهم الأقدار من ورائه ما حذروا منه طويلاً!.

﴿وهم لا يشعرون﴾.. فيا للقدرة القادرة التي تتحداهم وتسخر منهم وهم لا يشعرون!.

وينتهي المشهد الثاني ويسدل الستار عليه إلى حين.. ذلك شأن موسى. فما بال أُمّه الوالِهة وقلبها الملهوف؟.

﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً. إن كادت لَتُبدي به. لولا أن رَبَطْنا على قلبها لتكون من المؤمنين. وقالت لأُخته: قُصِّيه﴾ [القصص: ١٠، ١١].

لقد سمعت الإيحاء، وألقت بِطفلها إلى الماء. ولكن أين هو يا ترى وماذا فعلت به الأمواج؟ ولعلها سألت نفسها: كيف؟ كيف أمنت على فلذة كبدي أن أقذف بها في اليمّ؟ كيف فعلت ما لم تفعله من قبل أمّ؟ كيف طلبت له السلامة في هذه المخافة؟ وكيف استسلمتُ لذلك الهاتف الغريب؟.

الله أكبر! مَن يُرضع الطفلَ في الصندوق؟ وكيف يَتَنفَّس الطفل في الصندوق؟!.

كل ذلك فَكَّرتْ الأم الحنون فاستولى عليها الحزن والألم والضيق.. ماذا حدث له وهو بَعْدُ رضيع ضعيف؟!.

والتعبير القرآني يُصور لنا فؤاد الأم المسكينة صورة حية: **﴿فارغاً﴾**.. لا عَقل فيه ولا وَعي ولا قُدرة على نَظَر أو تصريف!.

﴿إن كادت لَتُبدي به﴾.. وتُذيع أمرها في الناس، وتَهتف كالمجنونة: أنا أَضَعْتُه، أنا أَضعتُ طفلي. أنا ألقيتُ به في اليمّ إتباعاً لهاتف غريب!.

﴿لولا أن رَبَطْنا على قلبها﴾.. وشددنا عليه وثَبّتْناها، وأمسكنا بها من الهيام والشرود.

﴿لتكون من المؤمنين﴾.. المؤمنين بوعد الله، الصابرين على ابتلائه، السائرين على هداه.

ولم تسكت أم موسى عن البحث والمحاولة! **﴿وقالت لأخته: قُصِّيه﴾** . . اتبعي أَثَره، واعرفي خَبَره، إن كان حياً، أو أَكَلَتْه دوابّ البحر أو وحوش البر. . أو أين مقرّه ومرساه؟.

وذهبت أُخته تقصّ أَثَره في حَذَر وخفية، وتَتَلمَّس خَبره في الطُرق والأسواق. فإذا بها تعرف أين ساقته القُدرة التي ترعاه؛ وتبصر به عن بُعد في أيدي خَدَم فرعون يبحثون له عن ثدي للرضاع:

﴿فبصرت به عن جُنب وهم لا يشعرون. وحَرَّمنا عليه المراضع من قبل. فقالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون؟﴾ [القصص: ١١، ١٢].

إن القدرة التي ترعاه تُدبّر أمره، وتَكيد به لفرعون وآله؛ فتجعلهم يلتقطونه، وتجعلهم يُحبونه، وتجعلهم يَبحثون له عن ظئر تُرضعه، وتُحرّم عليه المراضع، لتَدَعهم يحتارون به، وهو يرفض الثديّ كلما عُرضت عليه، وهم يخشون عليه الموت أو الذبول! حتى تُبصر به أخته من بعيد، فتعرفه وتتيح لها القدرة فرصة لهفتهم على مرضع، فتقول لهم: **﴿هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾**؟ فيتلقفون كلماتها، وهم يَستبشرون، يَودُّون لو تَصْدق فينجو الطفل العزيز المحبوب!.

ويُذكِّر الله موسى بفضله وهو يُبلِّغه التكليف والرسالة، يُذكره بالقدرة التي حَفِظَتْه من عَدوّه وأعادته إلى أُمه. . إني لم أُحطك في قصر فرعون، بالرعاية والحماية وأَدَع أُمك في بيتها للقلق والخوف. بل جَمَعْتُك بها وجَمَعْتُها بك:

﴿إذ تمشي أختك فتقول: هل أدلكم على من يكفله؟ فرجعناك إلى أُمك كي تقرّ عينها ولا تحزن﴾ [طه: ٤٠].

وكان ذلك من تدبير الله. إذ جعل الطفل لا يَقبل ثدي المرضعات.

وفرعون وزَوْجه وقد تَبَنَّيا الطفل الذي ألقاه اليم بالساحل يبحثان له عن مُرضع. فيتسامع الناس وتروحُ أختُ موسى بإيحاء من أُمها تقول لهم: هل أدلكم على من يَكفله؟ وتَجيء لهم بأُمِّه فيلقم ثديها.

وهكذا يتم تدبير الله للطفل وأمه التي سمعت الإلهام فَقَذَفتْ بفلذة كبدها في التابوت، وقذفت بالتابوت في اليمّ، فألقاه اليمّ بالساحل. ليأخذه عدوّ لله وله، فيكون الأمن بإلقائه بين هذه المخاوف، وتكون النجاة من فرعون الذي كان يذبح أطفال بني إسرائيل. بإلقائه بين يدي فرعون بلا حارس ولا معين!.

وينتهي المشهد الرابع؛ فنجدنا أمام المشهد الخامس والأخير من هذه الحلقة. وقد عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة. مُعافى في بَدَنه، مرموقاً في مكانته، يحميه فرعون، وتَرعاه امرأته، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير. وقد صاغت يد القدرة الحلقة الأولى من تدبيرها العجيب:

﴿فَرَدَدْناه إلى أُمه، كي تقرّ عينها ولا تَحزن، ولتعلم أن وَعْد الله حقّ ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [القصص: ١٣].

ويسكت سياق القصة بعد هذا عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى ـ عليه السلام ـ والحلقة التالية التي تمثل شبابه واكتماله. فلا نعلم ماذا كان بعد ردّه إلى أمه لترضعه. ولا كيف تربى في قصر فرعون. ولا كيف كانت صلته بأُمّه بعد فترة الرضاعة. ولا كيف كان مكانه في القصر أو خارجه بعد أن شبّ وكبر إلى أن تقع الأحداث التالية في الحلقة الثانية. ولا كيف كانت عقيدته، وهو الذي يصنع على عين الله، ويُعدّ لوظيفته، في وسط عباد فرعون وكهنته..

إن قصة موسى وفرعون.. تعرض قوة الحكم والسلطان. قوة فرعون الطاغية المُتجبر اليَقِظ الحَذِر؛ وفي مُواجهتها موسى طفلاً رضيعاً لا حَول له ولا قوة، ولا ملجأ له ولا وقاية. وقد عَلا فرعون في الأرض، واتخذ أهلها

شيعاً، واستضعف بني إسرائيل، يُذَبِّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، وهو على حَذَر منهم، وهو قابض على أعناقهم. ولكن قوة فرعون وجبروته، وحَذَره ويقظته، لا تُغني عنه شيئاً، بل لا تُمكن له من موسى الطفل الصغير، المجرد من كل قوة وحيلة، وهو في حراسة القوة الحقيقية الوحيدة ترعاه عين العناية، وتدفع عنه السوء، وتعمي عنه العيون، وتتحدّى به فرعون وجنده تحدياً سافراً، فتدفع به إلى حجره، وتدخل به عليه عرينه، بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه، مكفوف الأذى عنه، يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه! :

﴿تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾ [القصص: ٢، ٣].

فإلى القوم المؤمنين يُوجّه هذا الكتاب، يُربِّيهم به ويُنشئهم ويرسم لهم المنهاج، ويشق لهم الطريق.. فالقصص المتلو في القرآن الكريم، مقصود به أولئك المؤمنين، وهم به ينتفعون.

شباب موسى وفتوته:

نشأ موسى ـ عليه السلام ـ في قصر فرعون وبين مظاهر الترف ومباهج المُلك والسلطان.. نشأ كما ينشأ أبناء الملوك. وهكذا زالت من قلب موسى مهابَةُ الملوك والأغنياء.

ولم يَخفَ على موسى أنه دخيل على أهل فرعون، وأنه يرجع في أصله الحقيقي إلى يعقوب ـ عليه السلام ـ، وأنه من ذلك الشعب الإسرائيلي الذي يُعاني العسف والعذاب من فرعون وآل فرعون. فاتجه إلى بني إسرائيل بقلبه وروحه..

رأى موسى بعَيْنيه كيف يَشقى بنو إسرائيل لينعم فرعون وأهله.. وكيف يجوع بنو إسرائيل لتشبَع دوابّ فرعون.. وكيف يُعاملون بني إسرائيل

معاملة الدَّواب. . وكيف يستخدمونهم ويسومونهم سوء العذاب.

كان موسى يرى ذلك فيسكت. ولكن يغيظه ذلك. وكيف لا يغِيظُه إهانة قومه وأسرته. وهم أبناء الأنبياء الصالحين الكرام. .

يسكت سياق القصة في القرآن الكريم عن نشأة موسى الأولى. ويبدأ مرحلة شبابه مباشرة حين بَلَغَ أَشدّه واستوى، فقد آتاه الله الحكمة والعلم، وجزاه جزاء المحسنين: **﴿ولما بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً. وكذلك نجزي المحسنين﴾** [القصص: ١٤]. .

وبلوغ الأشد اكتمال القوى الجسمية. والاستواء اكتمال النضوج العضوي والعقلي. وهو يكون عادة حوالي سن الثلاثين. فهل ظلّ موسى في قصر فرعون، ربيباً ومُتبنًّى لفرعون وزَوْجه حتى بلغ هذه السن؟ أم أنه افترق عنهما، واعتزل القصر، ولم تَسترح نفسه للحياة في ظل تلك الأوضاع الآسنة التي لا تستريح لها نفسٌ مُصفاة مُجتباة كنفس موسى ـ عليه السلام ـ؟ وبخاصة أن أُمه لا بدّ أن تكون قد عرّفته مَن هو ومَن قومه وما ديانته. وهو يرى كيف يُسام قومه الخسف البشع والظلم الشنيع، والبغي اللئيم؛ وهو يرى أبشع صورة للفساد الشائع الأثيم.

ليس لدينا من دليل. ولكن سياق الحوادث بعد هذا يُلهم شيئاً من هذا كما سيجيء؛ والتعقيب على إتيانه الحكمة والعلم: **﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾** يَشي كذلك بأنه أحسن فأحسن الله إليه بالحكمة والعلم:

﴿ودخل المدينة على حين غَفْلَة من أهلها، فوجد فيها رجلين يقتتلان: هذا من شِيعته وهذا من عَدوّه. فاستغاثه الذي من شِيعته على الذي من عدوّه؛ فوَكَزَه موسى فقضى عليه﴾ [القصص: ١٥]. .

ودخل المدينة. . والمفهوم أنها العاصمة وقتئذ. . فمن أي مكان جاء فَدَخَلَها؟ وهل كان من القصر في عين شمس؟ أم أنه كان قد اعتزل القصر

والعاصمة، ثم دخل إليها على حين غفلة من أهلها، في وقت الظهيرة مثلاً حين تغفو العيون؟.

لقد دخل المدينة على كل حال ﴿فوجد فيها رَجُلَين يقتتلان﴾.. وقد كان أحدهما قبطياً ـ يقال إنه من حاشية فرعون، ويقال: إنه طباخ القصر. والآخر إسرائيلي. وكانا يقتتلان. فاستغاث الإسرائيلي بموسى مُستنجداً به على عدوهما القبطي: فكيف وقع هذا؟ كيف استغاث الإسرائيلي بموسى ربيب فرعون على رجلٍ من رجال فرعون؟ إن هذا لا يقع إذا كان موسى لا يزال في القصر، مُتَبنّى، أو من الحاشية. إنما يقع إذا كان الإسرائيلي على ثقة من أن موسى لم يعد متصلاً بالقصر، وأنه قد عرف أنه من بني إسرائيل. وأنه ناقم على المَلك والحاشية، مُنتصر لقومه المضطهدين. وهذا هو الأنسب لمن في مقام موسى ـ عليه السلام ـ فإنه بعيد الاحتمال أن تُطيق نفسه البقاء في مُستنقع الشر والفساد..

﴿فَوَكَزَه موسى فَقَضَى عليه﴾.. والوَكْز الضرب بجمع اليد. والمفهوم من التعبير أنها وَكْزة واحدة كان فيها حَتْف القبطي. مما يشي بقوة موسى وفتوته، ويصور كذلك انفعاله وغضبه؛ ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به.

ولكن يبدو من حلسياق أنه لم يكن يقصد قتل القبطي، ولم يعمد إلى القضاء عليه. فما كاد يراه جثة هامدة بين يديه حتى استرجع ونَدِمَ على فعلته، وعَزاها إلى الشيطان وغوايته؛ فقد كانت من الغَضَب، والغضب شيطان، أو نَفْخ من الشيطان:

﴿قال: هذا من عَملِ الشيطان. إنه عَدوّ مُضلّ مبين﴾ [القصص: ١٥].

ثم استطرد في فَزَع مما دفعه إليه الغضب، يعترف بظلمه لنفسه أن حَمَلها هذا الوزر، ويتوجه إلى ربه، طالباً مغفرته وعفوه:

﴿قال: ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾.. واستجاب الله إلى ضراعته، وحساسيته، واستغفاره: **﴿فغفر له. إنه هو الغفور الرحيم﴾** [القصص: ١٦].

وكأنّما أحس موسى بقلبه المرهف وحسّه المُتَوفِّز في حرارة توجهه إلى ربه، أن ربَّه غَفَر له. والقلب المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء، فور الدعاء، حين يصل إرهافه وحساسيته إلى ذلك المستوى؛ وحين تصل حرارة توجهه إلى هذا الحد..

وارتعش وجدان موسى ـ عليه السلام ـ وهو يستشعر الاستجابة من ربه، فإذا هو يقطع على نفسه عهداً، يعده من الوفاء بشكر النعمة التي أنعمها عليه ربه: **﴿قال: ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾** [القصص: ١٧]..

فهو عهد مُطلق ألّا يقف في صفّ المجرمين ظَهيراً ومُعيناً. وهو براءة من الجريمة وأهلها في كل صُورة من صورها. حتى ولو كانت اندفاعاً تحت تأثير الغَيظ، ومرارة الظُّلم والبغي.

ذلك بحق نعمة الله عليه في قبول دعائه؛ ثم نعمته في القوة والحكمة والعلم التي آتاه الله من قبل.

وهذه الارتعاشة العنيفة، وقبلها الاندفاع العنيف، تُصور لنا شخصية موسى ـ عليه السلام ـ شَخصية انفعالية، حارّة الوجدان، قوية الاندفاع. وسنلتقي بهذه السمة البارزة في هذه الشخصية في مواضع كثيرة.

بل نحن نلتقي بها في المشهد الثاني في هذه الحلقة مباشرة:

﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقَّب؛ فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه، قال له موسى: إنك لغوي مبين..﴾ [القصص: ١٨]..

لقد انتهت المعركة الأولى بالقضاء على القبطي، ونَدَم موسى على

فعلته، وتوجّهه إلى ربه، واستغفاره إياه، ومغفرته له، وعَهْده على نفسه ألا يكون ظهيراً للمجرمين.

ومرّ يوم وأصبح في المدينة خائفاً من انكشاف أمره، يترقَّب الافتضاح والأذى. ولفظ: **﴿يترقب﴾** يُصوّر هَيئة القَلَق الذي يَتَلفَّت ويتوجّس، ويتوقّع الشرّ في كل لحظة.. وهي سمة الشخصية الانفعالية تبدو في هذا الموقف كذلك، والتعبير يُجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ، كما أنه يُضخمها بِكَلِمَتَي: **﴿في المدينة﴾** فالمدينة عادة موطن الأمن والطمأنينة، فإذا كان خائفاً يترقب في المدينة، فأعظم الخوف ما كان في مأمن ومستقر!.

وحالة موسى هذه تُلهم أنه لم يكن في هذا الوقت من رجال القصر. وإلا فما أرخص أن يُزهق أحد رجال القصر نفساً في عهود الظلم والطغيان! وما كان ليخشى شيئاً فضلاً على أن يُصبح **﴿خائفاً يَترقَّب﴾** لو أنه كان ما يزال في مكانه من قلب فرعون وقصره.

وبينما هو في هذا القلق والتوجس إذا هو يطلع: **﴿فإذا الذي استنصَرَه بالأمس يَستصرخه﴾**!.

إنه صاحبه الإسرائيلي الذي طلب بالأمس نصرته على القبطي. إنه هو مُشتبكاً مع قبطي آخر؛ وهو يستصرخ موسى لينصره؛ ولعله يريد منه أن يقضي على عدوهما المشترك بوَكْزة أخرى!.

ولكن صورة قتيل الأمس كانت ما تزال تُخايل لموسى. وإلى جوارها ندَمه واستغفاره وعهده مع ربّه. ثم هذا التوجُّس الذي يتوقَّع معه في كل لحظة أن يلحقه الأذى. فإذا هو ينفعل على هذا الذي يستصرخه، ويصفه بالغواية والضلال: **﴿قال له موسى: إنك لغوي مبين﴾**..

غويّ بعراكه هذا الذي لا يَنتهي واشتباكاته التي لا تُثمر إلا أن تُثير الثائرة على بني إسرائيل. وهم عن **الثورة الكاملة عاجزون، وعن الحركة المُثمرة ضُعفاء. فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التي تضرّ ولا تفيد.**

ولكن الذي حدث أن موسى ـ بعد ذلك ـ انفعلت نفسه بالغيظ من القبطي، فاندفع يريد أن يقضي عليه كما قضى على الأول بالأمس! ولهذا الاندفاع دلالته على تلك السمة الانفعالية التي أشرنا إليها، ولكن له دلالته من جانب آخر على مدى امتلاء نفس موسى ـ عليه السلام ـ بالغيظ من الظُلم، والنَقْمة على البغي، والضيق بالأذى الواقع على بني إسرائيل، والتَوفُز لردّ العدوان الطاغي، الطويل الأمد، الذي يحتفر في القلب البشري مسارب من الغيظ وأخاديد.

﴿فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عَدوّ لهما، قال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قَتَلْتَ نفساً بالأمس؟ إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض، وما تُريد أن تكون من المُصلحين﴾ القصص: ١٩]. .

وإنه ليقع حينما يشتد الظُلم، ويفسد المجتمع، وتختل الموازين، ويُخيم الظلام، أن تَضيق النفس الطيبة بالظُلم الذي يشكل الأوضاع والقوانين والعُرف؛ ويفسد الفطرة العامة حتى ليرى الناس الظُلم فلا يثورون عليه، ويَرون البغي فلا تَجيش نفوسهم لِدَفْعه؛ بل يقع أن يصل فساد الفطرة إلى حد إنكار الناس على المظلوم أن يَدفع عن نفسه ويُقاوم؛ ويسمون من يدفع عن نفسه أو غيره **﴿جباراً في الأرض﴾** كما قال القبطي لموسى. ذلك أنهم أَلِفُوا رؤية الطغيان يبطش وهم لا يتحركون، حتى وُهِمُوا أن هذا هو الأصل، وأن هذا هو الفضل، وأن هذا هو الأدب، وأن هذا هو الخُلق! وأن هذا هو الصلاح! فإذا رأوا مظلوماً يدفع الظُلم عن نفسه، فيحطم السياج الذي أقامه الطغيان لحماية الأوضاع التي يقوم عليها. . إذا رأوا مظلوماً يَهبّ لتحطيم ذلك السياج المُصطنع الباطل وَلْوَلُوا ودُهشوا، وسمَّوا هذا المظلوم الذي يدفع الظلم سفاكاً أو جباراً، وَصبُّوا عليه لَومهم ونَقمتهم. ولم ينل الظالم الطاغي من نقمتهم ولَومهم إلا القليل! ولم يجدوا للمظلوم عُذراً ـ حتى على فَرْض تَهوّره ـ من ضيقه بالظلم الثقيل!.

ولقد طال الظُّلم ببني إسرائيل، فضاقت به نفس موسى ـ عليه السلام ـ حتى رأيناه يندفع في المرة الأولى ويندم، ثم يندفع في المرة الثانية لما ندم عليه حتى ليكاد يفعله، ويهمّ أن يبطش بالذي هو عدوّ له ولقومه.

لذلك لم يَتَخَلَّ الله عنه، بل رعاه، واستجاب له، فالله العليم بالنفوس يعلم أن للطاقة البشرية حداً في الاحتمال. وأن الظُّلم حين يشتد، وتُغلق أبواب النصفة، يندفع المُضطهد إلى الهجوم والاقتحام. فلم يُهوِّل في وصف الفَعلة التي فعلها موسى، كما تُهوِّل الجماعات البشرية التي مَسَخَ الظُّلم فطرتها بإزاء مثل هذا العمل الفطري مهما تجاوز الحدود تحت الضغط والكظم والضيق.

وهذه هي العبرة التي تُستَشَف من طريقة التعبير القرآنية عن الحادثتين وما تلاهما، فهو لا يُبرر الفعلة ولكنه كذلك لا يُضخمها. ولعل وصفها بأنها ظلم للنفس إنما نشأ من اندفاع موسى بدافع العصبية القومية. وهو المختار ليكون رسول الله، المصنوع على عين الله.. أو لعله كان لأنه استعجل الاشتباك بصنائع الطغيان؛ والله يريد أن يكون الخلاص الشامل بالطريقة التي قضاها، حيث لا تجدي تلك **الاشتباكات الفردية الجانبية في تغيير الأوضاع. كما كَفّ الله المسلمين في مكة عن الاشتباك حتى جاء الأوان.**

ظهــور الســر:

ويبدو أن رائحة فاحَتْ عن قتيل الأمس، وأن شُبهات تطايرت حول موسى. لما عُرف عن كراهيته من قبل لطغيان فرعون وملئه، إلى جانب ما يكون قد باح به صاحبه الإسرائيلي سرّاً بين قومه، ثم تَفَشَّى بعد ذلك خارج بني إسرائيل.

نُرجح هذا لأن قَتْل موسى لأحد رجال فرعون في معركة بينه وبين إسرائيلي في مثل هذه الظروف يُعد حدثاً مريحاً لنفوس بني إسرائيل، يَشفي

بعض غيظهم، فيشيع عادة وتتناقله الألسنة في همس وفَرَح وتَشَفّ، حتى يفشو ويتطاير هنا وهناك، وبخاصة إذا عُرف عن موسى من قبل نفرته من البغي، وانتصاره للمظلومين.

فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطي الثاني واجهه هذا بالتهمة، لأنها عندئذ تجسمت له حَقيقة، وهو يراه يَهمّ أن يَبطش به، وقال له تلك المقالة: **﴿أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟﴾**.

أما بقية عبارته: **﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾**.. فتُلْهِم أن موسى كان قد اتخذ له في الحياة مسلكاً يُعرف به أنه رجل صالح مُصلح، لا يُحب البغي والتجبر. فهذا القبطي يُذَكِّره بهذا ويُورِّي به؛ ويتهمه بأنه يُخالف عما عُرف عنه. يريد أن يكون جباراً لا مُصلحاً، يقتل الناس بدلاً من إصلاح ذات البين، وتهدئة ثائرة الشرّ. وطريقة خطابه له وموضوع خطابه، كلاهما يُلهم أن موسى لم يكن إذ ذاك محسوباً من رجال فرعون. وإلا ما جرؤ المصري على خطابه بهذه اللهجة، ولما كان هذا موضوع خطابه.

ولقد قال بعض المفسرين: إن هذا القول كان من الإسرائيلي لا من القبطي، لأنه لما قال له موسى: **﴿إنك لغوي مبين﴾**، ثم تقدم نحوه وهو غاضب ليبطش بالذي هو عدو لهما، حَسِبَ الإسرائيلي أنه غاضب عليه هو، وأنه يتقدم ليبطش به هو، فقال مقالته، وأذاع بالسر الذي يعرفه وحده.. وإنما حملهم على هذا القول أن ذلك السرّ كان مجهولاً عند المصريين.

ولكن الأقرب أن يكون القبطي هو الذي قال ما قال. وقد عَلَّلنا شيوع ذلك السرّ. وأنها قد تكون فراسة أو حدساً من المصري بمساعدة الظروف المحيطة بالموضوع.

والظاهر أن موسى لم يَقدم بعد إذ ذكَّره الرجل بفعلة الأمس، وأن الرجل أفلت ليُنْهِي إلى الملأ من قوم فرعون أن موسى هو صاحبها.

فهنا فجوة في السياق بعد المشهد السابق. ثم إذا مشهد جديد. رجل يجيء إلى موسى من أقصى المدينة، يُحذّره ائتمار الملأ من قوم فرعون به، ويَنْصَح بالهرب من المدينة إبقاء على حياته:

﴿وجاء رجل من أقصىٰ المدينة يسعىٰ. قال: يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك. فاخرج إني لك من الناصحين﴾ [القصص: ٢٠].

إنها يد القدرة تسفر في اللحظة المطلوبة، لِتَتِّم مشيئتها!.

لقد عرف الملأ من قوم فرعون، وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليها أنها فعلة موسى. وما من شك أنهم أحسُّوا فيها بِشَبَح الخَطَر. فهي فعلة طابعها الثورة والتمرُّد، والانتصار لبني إسرائيل. وإذن فهي ظاهرة خطيرة تستحق التآمر. ولو كانت جريمة قتل عادية ما استحقت أن يشتغل بها فرعون والملأ والكبراء. فانتدبت يَدُ القدرة واحداً من الملأ. **الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه**، والذي جاء ذكره في سورة (غافر) انتدبته ليسعى إلى موسى **﴿من أقصى المدينة﴾** في جدّ واهتمام ومسارعة، لِيُبَلِّغه قبل أن يَبْلغه رجال الملك: **﴿إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، فاخرج إني لك من الناصحين﴾.. ﴿فخرج منها خائفاً يترقب. قال: ربّ نجّني من القوم الظالمين﴾** [القصص: ٢١]..

ومرة أخرى نلمح السمة الواضحة في الشخصية الانفعالية. التَوَفُّز والتَلَفُّت. ونلمح معها، التَوجُّه المباشر بالطلب إلى الله، والتطلّع إلى حمايته ورعايته، والالتجاء إلى حماه في المخافة، وترقُّب الأمن عنده والنجاة: **﴿ربّ نجّني من القوم الظالمين﴾** [القصص: ٢١].

من مصر إلى مَدْين:

ثم يتبعه السياق خارجاً من المدينة، خائفاً يترقَّب، وحيداً فريداً، غير مُزوّد إلا بالاعتماد على مولاه؛ والتوجه إليه طالباً عونه وهداه:

﴿ولما تَوَجَّه تلقاء مَدْيَن قال: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ [القصص: ٢٢].

ونلمح شخصية موسى ـ عليه السلام ـ فريداً وحيداً مطارداً في الطرق الصحراوية في اتجاه مَدْيَن في جنوبي الشام وشمالي الحجاز. مسافات شاسعة، وأبعاد مترامية، لا زاد ولا استعداد، فقد خرج من المدينة خائفاً يترقَّب، وخرج مُنزعجاً بنذارة الرجل الناصح، لم يَتَلبَّث، ولم يَتزوَّد، ولم يتخذ دليلاً. ونلمح إلى جانب هذا نفسه متوجهة إلى ربه، مستسلمة له، متطلعة إلى هداه: **﴿عسىٰ ربي أن يهديني سواء السبيل﴾**..

ومرة أخرى نجد موسى ـ عليه السلام ـ في قلب المخافة، بعد فترة من الأمن. بل من الرفاهية والطراءة والنعمى. ونجده وحيداً مجرداً من قوى الأرض الظاهرة جميعاً، يُطارده فرعون وجنده، ويَبحثون عنه في كل مكان، لينالوا منه اليوم ما لم ينالوه منه طفلاً. ولكن اليد التي رَعَتْه وحَمَتْه هناك ترعاه وتحميه هنا، ولا تُسلِّمه لأعدائه أبداً. فها هو ذا يقطع الطريق الطويل، ويصل إلى حيث لا تمتد إليه اليد الباطشة بالسوء:

﴿ولما ورد ماء مَدْيَن، وجد عليه أُمَّة من الناس يَسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان..﴾ [القصص: ٢٣].

لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين. وصل إليه وهو مجهود مكدود. وإذا هو يَطَّلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة، السليمة الفطرة، كنفس موسى ـ عليه السلام ـ، وَجَدَ الرعاة الرجالَ يوردون أنعامهم لتشرب من الماء؛ ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء. والأَوْلى عند ذوي المروءة والفطرة السليمة، أن تسقي المرأتان وتصدرا بأغنامهما أولاً، وأن يفسح لهما الرجال ويُعينوهما.

ولم يقعد موسى الهارب المُطارد، المسافر المكدود، ليستريح، وهو يشهد هذا المنظر المُنكَر المُخالِف للمعروف. بل تقدم للمرأتين يسألهما عن

أمرهما الغريب: ﴿قال: ما خَطْبكما؟. . قالتا: لا نسقي حتى يُصدر الرّعاء وأبونا شيخ كبير﴾ [القصص: ٢٣].

فأطلعناه على سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورود. إنه الضعف، فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال. وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال! وثارت نخوة موسى ـ عليه السلام ـ وفطرته السليمة. فتقدّم لإقرار الأمر في نصابه. تقدم ليسقي للمرأتين أولاً، كما ينبغي أن يفعل الرجال ذوو الشهامة. وهو غريب في أرض لا يعرفها، ولا سَنَد له فيها ولا ظهير. وهو مكدود قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد. وهو مُطارَد، من خَلْفه أعداء لا يرحمون. ولكن هذا كُلّه لا يقعد به عن تلبية دواعي المروءة والنجدة والمعروف، وإقرار الحق الطبيعي الذي تعرفه النفوس: ﴿فسقى لهما﴾ [القصص: ٢٤]. .

مما يشهد بنبل هذه النفس التي صُنعت على عين الله. كما يَشي بقوته التي تُرهب حتى وهو في إعياء السفر الطويل. ولعلها قوة نفسه التي أوقعت في قلوب الرعاة رهبته أكثر من قوة جسمه. فإنما يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب:

﴿ثم تولى إلى الظلّ﴾. .

مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قَيظ وحرّ، وأن السفرة كانت في ذلك القيظ والحر.

﴿فقال: ربّ إني لما أنزلت إليّ من خيرٍ فقير﴾ [القصص: ٢٤]. .

إنه يأوي إلى الظلّ الماديّ البليل بجسمه، ويأوي إلى الظل العريض المَمْدود. ظلّ الله الكريم المنّان. بروحه وقلبه: ﴿ربِّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾. ربّ إني في الهاجرة. ربّ إني فقير، ربّ إني وحيد. ربّ إني ضعيف. ربّ إني إلى فَضلك ومَنّك وكَرمك فقير محووج.

ونسمع من خلال التعبير رفرفة هذا القلب والتجاءه إلى الحمى الآمن، والركن الركين، والظل الظليل. نسمع المناجاة القريبة والهَمس المُوحي، والانعطاف الرفيق، والاتصال العميق: **﴿ربِّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾**...

الرحمة والفَرَج:

وما نكاد نستغرق مع موسى ـ عليه السلام ـ في مشهد المناجاة حتى يُعَجِّل السياق بمشهد الفَرَج، مُعقباً في التعبير بالفاء، كأنما السماء تُسارع فتستجيب للقلب الضارع الغريب:

﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء. قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجْرَ ما سقيتَ لنا﴾ [القصص: ٢٥]..

يا فَرَج الله: ويا لِقُربه ويا لَندَاه! إنها دعوة الشيخ الكبير استجابة من السماء لدعوة موسى الفقير. دعوة للإيواء والكرامة والجزاء على الإحسان. دعوة تحملها: **﴿إحداهما﴾** وقد جاءته **﴿تمشي على استحياء﴾** مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال. **﴿على استحياء﴾** في غير ما تبذُّل ولا تَبَرُّج ولا تبجُّح ولا إغواء. جاءته لتنهي إليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدلّه، يحكيه القرآن بقوله: **﴿إن أبي يدعوك ليجزيك أجْرَ ما سقيت لنا﴾**. فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح؛ لا التلجلج والتعثُّر والربكة. وذلك كذلك من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة. فالفتاة القويمة تستحيي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم، ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب. الاضطراب الذي يُطمِع ويُغري ويُهيج؛ إنما تتحدث في وضوح بالقَدْر المطلوب، ولا تزيد.

وينهي السياق هذا المشهد فلا يزيد عليه، ولا يفسح المجال لغير الدعوة من الفتاة، والاستجابة من موسى. ثم إذا مَشْهد اللقاء بينه وبين

الشيخ الكبير. الذي لم ينصّ على اسمه. وقيل: إنه ابن أخي شعيب النبي المعروف. وإن اسمه يثرون:

﴿فلما جاءه وقَصَّ عليه القَصَص، قال: لا تخف. نجوتَ من القوم الظالمين﴾ [القصص: ٢٥]..

فقد كان موسى في حاجة إلى الأمن؛ كما كان في حاجة إلى الطعام والشراب. ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد. ومن ثم أبرز السياق في مشهد اللقاء قول الشيخ الوقور: **﴿لا تخف﴾** فجعلها أول لفظ يُعقِّب به على قَصَصه ليلقي في قلبه الطمأنينة، ويُشعره بالأمان. ثم بيّن وعَلَّل: **﴿نجوتَ من القوم الظالمين﴾** فلا سُلطان لهم على مَدْيَن، ولا يَصلون لمن فيها بأذى ولا ضرار.

الزواج بين البَساطة والصَّراحة:

ثم نسمع في المشهد صوت الأنوثة المستقيمة السليمة: **﴿قالت إحداهما: يا أبت استأجره. إن خَيْرَ من استأجرت القويّ الأمين﴾** [القصص: ٢٦]..

إنها وأختها تُعانيان من رَعْي الغنم، ومن مزاحمة الرجال على الماء، ومن الاحتكاك الذي لا بدّ منه للمرأة التي تُزاول أعمال الرجال. وهي تَتَأذّى وأختها من هذا كله؛ وتريد أن تكون امرأة تأوي إلى بيت؛ امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغرباء في المرعى والمسقى. والمرأة العفيفة الروح، النظيفة القلب، السليمة الفطرة، لا تستريح لمزاحمة الرجال، ولا للتبذُّل الناشىء من هذه المزاحمة.

وها هو ذا شاب غريب طريد وهو في الوقت ذاته قوي أمين. رأت من قوته ما يهابه الرعاء فيفسحون له الطريق ويسقي لهما. وهو غريب. والغريب ضعيف مهما اشتد. ورأت من أمانته ما يجعله عفّ اللسان والنظر حين

توجهت لدعوته. فهي تشير على أبيها باستئجاره ليكفيها وأختها مؤنة العمل والاحتكاك والتَبَذُّل. وهو قوي على العمل، أمين على المال. فالأمين على العِـرض هكـذا أمين على مـا سـواه. وهي لا تتلعثم في هـذه الإشـارة ولا تضطرب، ولا تخشى سوء الـظن والتهمة. فهي بـريئة النفس، نـظيفة الحس؛ ومن ثم لا تخشى شيئـاً، ولا تُـتَمْتِم ولا تُجَمْجِم وهي تَعـرض اقتراحها على أبيها.

ولا حاجة لكل ما رواه المفسرون من دلائل قوة موسى: كرفع الحجر الذي يغطي البئر وكان لا يرفعه - فيما قالوا - إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقـل. فالبئـر لم يكن مغطى، إنمـا كان الـرعـاء يسقـون فنحـاهم وسقى للمرأتين، أو سقى لهما مع الرعاء.

ولا حاجة كذلك لما رووه عن دلائل أمانته من قـوله للفتـاة: امشي خلفي ودلِّيني على الطريق خوف أن يراها. أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها.. فهذا كله تَكَلُّف لا داعي له، ودفع لريبة لا وجود لها.. وموسى - عليه السلام - عفيف النظر، نظيف الحس، وهي كذلك، والعفة والأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة. فالعفّة تنضح في التصرف العادي البسيط بلا تكلف ولا اصطناع!.

واستجاب الشيخ لاقتراح ابنته. ولعله أحسّ من نفس الفتـاة ونفس موسى ثقة مُتبادلة، وميلاً فطرياً سليماً، صالحاً لبناء أسرة. والقوة والأمانة حين تجتمعان في رجل لا شك تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة التي لم تفسد ولم تُلَوَّث ولم تنحرف عن فطرة الله. فجمع الرجل بين الغايتين وهو يعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيهِ في مقابل أن يخدمه ويرعى ماشيته ثماني سنين. فإن زاد إلى عشر فهو تَفَضُّل منه لا يُلزَم به:

﴿قال: إني أُريدُ أَنْ أُنكِحَك إحدى ابنتي هاتين، على أن تأجـرني ثمان حجج. فـإن أتممت عشراً فمن عنـدك. وما أُريـد أن أشقّ عليك.

سَتَجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ [القصص: ٢٧].

وهكذا في بساطة وصراحة عَرَض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد ـ ولعله كان يشعر كما أسلفنا ـ أنها مُحدّدة، وهي التي وَقَع التجاوب والثقة بين قلبها وقلب الفتى. عَرَضها في غير تَحَرُّج ولا التواء. فهو يعرض نكاحاً لا يخجل منه. يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس في هذا ما يُخجل، ولا ما يدعو إلى التحرُّج والتردّد والإيماء من بعيد، والتصنّع والتكلُّف مما يُشاهد في البيئة التي تنحرف عن سواء الفطرة، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة، تمنع الوالد أو ولي الأمر من التقدم لمن يرتضي خُلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته؛ وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدم، أو لا يليق أن يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة! ومن مفارقات مثل هذه البيئة المنحرفة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون ويختلطون ويتكشفون بعضهم لبعض في غير ما خطبة ولا نيّة نكاح. فأما حين تُعرض الخطبة أو يُذكر النكاح، فيهبط الخَجَل المُصطنع، وتقوم الحوائل المتكلفة وتمتنع المصارحة والبساطة والإبانة!.

ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ بل كانت النساء تعرض نفسها على النبي ـ ﷺ ـ أو من يرغب في تزويجهن منهم. كان يتم هذا في صراحة ونظافة وأدب جميل، لا تُخدش معه كرامة ولا حياء.

عَرَض عمر ـ رضي الله عنه ـ ابنته حفصة على أبي بكر، فسكت وعلى عثمان فاعتذر، فلما أخبر النبي ـ ﷺ ـ بهذا طَيَّبَ خاطره، وقال: «عسى أن يجعل الله لها نصيباً فيمن هو خير منهما». ثم تَزَوَّجها ـ ﷺ ـ.

وعرضت امرأة نفسها على رسول الله ـ ﷺ ـ فاعتذر لها. فألقت إليه ولاية أمرها يُزوّجها ممن يشاء. فَزوَّجها رجلاً لا يملك إلا سورتين من القرآن، علَّمَها إياهما فكان هذا صداقها.

وبمثل هذه البساطة والوضاءة سار المجتمع الإسلامي يبني بيوته ويقيم كيانه. في غير ما تلعثم ولا جمجمة ولا تَصَنُّع ولا التواء.

وهكذا صَنَع الشيخ الكبير - صاحب موسى - فَعَرَض على موسى ذلك العرض واعداً إياه ألا يشق عليه ولا يتعبه في العمل؛ راجياً بمشيئة الله أن يجده موسى من الصالحين في معاملته ووفائه. وهو أدب جميل في التحدث عن النفس وفي جانب الله. فهو لا يُزكِّي نفسه، ولا يجزم بأنه من الصالحين. ولكن يرجو أن يكون كذلك، ويكل الأمر في هذا لمشيئة الله.

وقَبِلَ موسى العرض وأمضى العقد؛ في وضوح كذلك ودقة، وأَشْهَد الله:

﴿قال: ذلك بيني وبينك. أيما الأجلين قضيتُ فلا عدوان عليّ. والله على ما نقول وكيل﴾ [القصص: ٢٨].

إن مواضع العقد وشروط التعاقد لا مجال للغموض فيها، ولا اللعثمة، ولا الحياء. ومن ثم يُقرّ موسى العَرض، ويُبرم العقد، على ما عَرَض الشيخ من الشروط. ثم يُقرر هذا ويوضحه: **﴿أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ﴾**.. سواء قضيتُ ثماني سنوات أو أتممتُ عشراً، فلا عدوان في تكاليف العمل، ولا عدوان في تحتيم العشر؛ فالزيادة على الثمانية اختيار.. **﴿والله على ما نقول وكيل﴾**. فهو الشهيد الموكل بالعدل بين المتعاقدين. وكفى بالله وكيلاً.

بَيَّنَ موسى - عليه السلام - هذا البيان تمشياً مع استقامة فطرته، ووضوح شخصيته، وتوفية بواجب المتعاقدين في الدقة والوضوح والبيان. وهو ينوي أن يُوفِّي بأفضل الأجلين كما فَعَل. فقد روي أن رسول الله - ﷺ - أخبر أنه: «قضى أكثرهما وأطيبهما». أخرجه البخاري.

وهكذا اطمأن بموسى ـ عليه السلام ـ المقام في بيت حميه؛ وقد أَمِنَ من فرعون وكيده. ولحكمة مُقَدَّرة في علم الله كان هذا الذي كان. . فلندع الآن هـذه الحلقة تمضي في طـريقها حتى تنقضي. فقـد سكت السيـاق القرآني فيها عند هذا الحد وأسدل الستار. .

الحلقة الثانية :

تدبير الله سبحانه

وتمضي السنوات العشر التي تعاقد عليها موسى ـ عليه السلام ـ لا يُذكر عنها شيء في القرآن. ثم تعرض **الحلقة الثانية** بعدما قضى موسى الأجل وسار بأهله، عائداً من مَدْيَن إلى مصر، يسلك إليها الطريق الذي سلكه منذ عشر سنوات وحيداً طريداً. ولكن جَوّ العودة غير جوّ الرحلة الأولى . . إنه عائد ليَلقى في الطريق ما لم يخطر له على بال. ليناديه ربّه ويُكلِّمه، ويُكلفه النهوض بالمهمة التي من أجلها وقاه ورعاه، وعلّمه وربّاه. مُهمة الرسالة إلى فرعون وملئه. ليطلق له بني إسرائيل يعبدون ربهم لا يشركون به أحداً، ويرثون الأرض التي وعدهم ليمكِّن لهم فيها؛ ثم ليكون لفرعون وهامان وجنودهما عدواً وحزناً، ولتكون نهايتهم على يديه كما وعد الله حقاً:

﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً، قال لأهله: امكثوا، إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بِخَبَر أو جَذْوَة من النار لعلكم تَصطلون﴾ [القصص: ٢٩]. .

وقبل أن نستعرض هذا في هذه الحلقة نقف قليلاً أمام **تدبير الله** لموسى ـ عليه السلام ـ في هذه السنوات العشر، وفي هذه الرحلة ذهاباً وجيئةً، في هذا الطريق.

لقد نقلت يَد القدرة خُطى موسى ـ عليه السلام ـ خطوة خطوة. منذ أن كـان رضيعاً في المهـد حتى هذه الحلقـة. أُلقت به في اليمّ ليلتقـطه آل فرعون. وألقت عليه المحبة في قلب امرأته لينشأ في كنف عدوه. ودخلت به المدينة على حين غفلة من أهلها ليقتل منهم نفساً. وأرسلت إليه بالرجل المؤمن من آل فرعون لِيُحَذِّره ويَنصحه بالخروج منها. وصَاحَبَتْه في الطريق الصحراوي من مصر إلى مدين وهو وحيد مطارد على غير زاد ولا استعداد. وجَمَعَتْه بالشيخ الكبير ليأجره هذه السنوات العشر. ثم ليعود بعدها فيتلقى التكليف.. وهذا خط طويل من الرعاية والتوجيه، ومن التلقي والتجريب، قبل النداء وقبـل التكليف.. تجربـة الرعـاية والحب والتـدليل. وتجـربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس، وتجربة الندم والتحرج والاستغفار. وتجربة الخوف والمطاردة والفزع. وتجربة الغربة والوحدة والجوع. وتجربة الخدمة ورعي الغنم بعد حياة القصور. وما يتخلل هذه التجارب الضخمة من شتى التجارب الصغيرة، والمشـاعر المتبـاينة، والخـوالج والخـواطر، والإدراك والمعـرفـة.. إلى جـانب مـا آتـاه الله حين بلغ أشـده من العلم والحكمة.

إن الرسالـة تكليف ضخم شاق مُتعـدد الجوانب والتَبعـات؛ يحتاج صاحبه إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوُّق في واقـع الحيـاة العملي، إلى جـانب هبـة الله اللدنيـة، ووحيـه وتـوجيهـه للقلب والضمير.

ورسالة موسى بالذات قد تكون أضخم تكليف تَلَقَّاه بَشَر ـ عدا رسالة محمد ـ ﷺ ـ فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المُتجبّر، أعتى ملوك الأرض في زمانه، وأقدمهم عرشاً، وأثبتهم ملكاً، وأعرقهم حضارة، وأشدهم تعبداً للخلق واستعلاء في الأرض.

وهو مرسل لاستنقاذ قوم قد شَـربوا من كؤوس الـذلّ حتى استمرأوا

مذاقه، فَمَرَدوا عليه واستكانوا دهراً طويلاً. والذلّ يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفن؛ ويذهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع ومن الاشمئزاز من العَفَن والنَـتَن والرجس والدنس. فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير.

وهو مُرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة؛ انحرفوا عنها، وفسدت صورتها في قلوبهم. فلا هي قلوب خامة تَـتَقبَّل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة؛ ولا هي باقية على عقيدتها القديمة. ومعالجة مثل هذه القلوب شاقة عسيرة. والالتواءات فيها والرواسب والانحرافات تزيد المهمة مشقة وعسراً.

وهو في اختصار مرسل لإعادة بناء أُمة، بل لإنشائها من الأساس. فلأول مرة يُصبح بنو إسرائيل شَعباً مستقلاً، له حياة خاصة، تحكمها رسالة. وإنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير.

ولعله لهذا المعنى كانت عناية القرآن الكريم بهذه القصة، فهي نموذج كامل لبناء أمة على أساس دعوة، وما يعترض هذا العمل من عقبات خارجية وداخلية. وما يعتوره من انحرافات وانطباعات وتجارب وعراقيل.

فأما **تجربة السنوات العشر** فقد جاءت لتفصل بين حياة القصور التي نشأ فيها موسى ـ عليه السلام ـ وحياة الجهد الشاقّ في الدعوة وتكاليفها العسيرة.

إن لحياة القصور جواً خاصاً، وتقاليد خاصة، وظلالاً خاصة تُلقيها على النفس وتَـطْبَعها بها مهما تكن هذه النفس من المعرفة والإدراك والشفافية. والرسالة مُعاناة لجماهير من الناس فيهم الغني والفقير، والواجد والمحروم، وفيهم النظيف والوسخ، والمهذب والخَشِن؛ وفيهم الطَيِّب والخبيث والخَيِّر والشِرّير. وفيهم القوي والضعيف، والصابر والجزوع.. وفيهم وفيهم.. وللفقراء عادات خاصة في أكلهم وشربهم ولبسهم ومشيهم، وطريقة فَهمهم للأمور، وطريقة تصورهم للحياة، وطريقة حديثهم وحركتهم، وطريقة تعبيرهم عن مشاعرهم..

وهذه العادات تثقل على نفوس المُنعمين ومشاعر الذين تربُّوا في القصور؛ ولا يكادون يطيقون رؤيتها فضلاً على معاناتها وعلاجها، مهما تكن قلوب هؤلاء الفقراء عامرة بالخير مُستعدّة للصلاح، لأن مظهرهم وطبيعة عاداتهم لا تفسح لهم في قلوب أهل القصور!.

وللرسالة تكاليفها من المشقة والتجرد والشَظَف أحياناً.. وقلوب أهل القصور - مهما تكن - مُستعدّة للتضحية بما اعتادته من السَّعَة والدَعة والمُتعة - لا تصبر طويلاً على الخشونة والحرمان والمشقة عند معاناتها في واقع الحياة.

فشاءت القدرة التي تنقل خطى موسى - عليه السلام - أن تخفض مما اعتادته نفسه من تلك الحياة؛ وأن تزجّ به في مُجتمع الرعاة، وأن تجعله يستشعر النعمة في أن يكون راعي غنم يجد القوت والمأوى، بعد الخوف والمطاردة والمشقة والجوع. وأن ينزع من حِسّه روح الاشمئزاز من الفقر والفقراء، وروح التأفُّف من عاداتهم وأخلاقهم وخشونتهم وسذاجتهم؛ وروح الاستعلاء على جهلهم وفقرهم ورثاثة هَيئتهم ومجموعة عاداتهم وتقاليدهم. وأن تُلقي به في خضم الحياة كبيراً بعدما ألقت به في خضم الأمواج صغيراً، لِيُمَرّن على تكاليف دعوته قبل أن يتلقاها..

فلما أن استكملت نفس موسى - عليه السلام - تجاربها، وأكملت مرانتها ودربتها، بهذه التجربة الأخيرة في دار الغربة، قادت يد القدْرة خُطاه مرة أخرى عائدة به إلى مهبط رأسه، ومَقرّ أهله وقومه، ومجال رسالته وعمله، سالكة به الطريق التي سلكها أول مرة وحيداً طريداً خائفاً يَتَلفَّت. فما هذه الجيئة والذهوب في ذات الطريق؟.

إنها التدريب والمرانة والخبرة حتى بشعاب الطريق. الطريق الذي سيقود فيه موسى خُطى قومه بِأَمْر ربّه، كي يستكمل صفات الرائد وخبرته، حتى لا يعتمد على غيره ولو في ريادة الطريق. فقومه كانوا في حاجة إلى

رائد يقودهم في الصغيرة والكبيرة، بعد أن أفسدهم الذل والقسوة والتسخير؛ حتى فَقَدُوا القدرة على التدبير والتفكير.

وهكذا ندرك كيف صُنِعَ موسى على عَين الله، وكيف أُعدَّته القدرة لتلقي التكليف. فلنتبع خطى موسى تَنقلها يَد القدرة الكبرى، في طريقه إلى هذا التكليف.

من مدين إلى مصـر:

﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطُّور ناراً. قال لأهله: امكثوا إني آنست ناراً، لعلي آتيكم منها بِخَبَر أو جَذْوَة من النار لعلكم تصطلون﴾ [القصص: ٢٩].

ها هو ذا موسى ـ عليه السلام ـ في الطريق بين مَدْين ومصر إلى جانب الطور. ها هو ذا عائد بأهله بعد أن قضى فترة التعـاقد بينـه وبين الرجـل الصالح في مَدْين، وقد خَطَر له أن يُفارق مَدْين وأن يستقل بنفسه وبزوجه، ويعود إلى البلد الذي نشأ فيه، والذي فيه قومه بنو إسرائيل يعيشون تحت سياط فرعون وقهره.

ترى أيّ خاطر راود موسى، فعاد به إلى مصر، بعد انقضاء الأَجَل، وقد خرج منها خائفاً يـَترقَّب؟.

لماذا عاد. وقد خرج من مصر طريداً وأنساه الخطر الذي ينتظره بها، وقد قَتَل فيها نفساً.. قتل قبطياً حين رآه يقتتل مع إسرائيلي؟ وهناك فرعون الذي يتآمر مع الملأ من قومه ليقتلوه؟.

لماذا عاد. وقد غادر مصر هارباً وبنو إسرائيل فيها يُسامون العذاب ألواناً؟ حيث وَجَدَ الأَمن والطمأنينة في مَدْين إلى جوار الرجل الصالح صهره الذي آواه وزوَّجه إحدى ابنتيه؟.

إنها اليد التي تنقل خطاه، لعلها قادمة هذه المرة بالميل الفطري إلى

الأهل والعشيرة، وإلى الوطن والبيئة، وأنْسَتْه الخطر الذي خرج هارباً منه وحيداً طريداً. ليؤدي المهمة التي خُلق لها ورُعي منذ اللحظة الأولى.

إنها جاذبية الوطن والأهل تتخذها القدرة ستاراً لما تُهيئه لموسى من أدوار.. وهكذا نحن في هذه الحياة نتحرك. تُحركنا أشواق وهواتف، ومطامح ومطامع، وآلام وآمال.. وإن هي إلا الأسباب الظاهرة للغاية المُضمرة، والستار الذي تراه العيون لليد التي لا تراها الأنظار ولا تدركها الأبصار. يد المدبِّر المهيمن العزيز القهار..

وعلى أية حال ها هو ذا عائد، ومعه أهله، والوقت ليل، والجو ظلمة، وقد أضاع الطريق، والليلة شاتية، كما يبدو من أُنسه بالنار التي شاهدها، ليأتي منها بخبر أو جذوة..

وهكذا عاد موسى **﴿وهل أتاك حديث موسى. إذ رأى ناراً فقال لأهله: امكثوا إنّي آنست ناراً، لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى﴾** [طه: ٩ - ١١].

وهل أتاك حديث موسى؟ وما يتجلّى فيه من رعاية الله وهُداه لمن اصطفاه؟.. لقد ضلّ طريقه في الصحراء. ضلّ طريقه والليل مظلم والمتاهة واسعة. نعرف هذا من قوله لأهله: **﴿امكثوا إني آنستُ ناراً لعلي آتيكم منها بِقَبَس أو أَجدُ على النار هدى﴾**.. فأهل البادية يُوقدون النار عادة على مُرتفع من الأرض، ليراها السَّاري في الصحراء، فتكشف له عن الطريق، أو يَجد عندها القِرَى والضيافة ومن يَهديه إلى الطريق.

لقد رأى ما رأى **﴿إذ قال موسى لأهله: إني آنستُ ناراً. سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون﴾** [النمل: ٧].

فقد رآها على بُعد، فَشَعر لها بالطمأنينة والأُنس. وتوقَّع أن يَجد عندها خَبَر الطريق، أو أن يَقبس منها ما يَستدفىء به أهله في قَرّ الليل في الصحراء.. هذا هو المشهد الأول في هذه الحلقة.

فأما المشهد الثاني فهو:

المفاجأة الكبرى واللحظة العظمى:

لقد ذهب يطلب قَبَساً من النار، ويطلب هادياً في السرى.. ها هو ذا يقصد إلى النار التي آنسها، وهو لا يطمع إلا في نار يصطلي بها وتتدفأ بها زوجه.. ولكنه وَجَد المفاجأة الكبرى. إنها النار التي تُدفىء لا الأجسام ولكن الأرواح. النار التي تَهدي لا في السرى ولكن في الرحلة الكبرى: **﴿فلما أتاها نُوديَ من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة﴾** [القصص: ٣٠].

ها هو ذا في شاطىء الوادي إلى جِوار جبل الطور، الوادي إلى يمينه (الأيمن لموسى إذ ذاك)، **﴿في البقعة المباركة﴾** المباركة، منذ هذه اللحظة.. ثم هذا الكون كله تتجاوب جنباته بالنداء العلوي الآتي لموسى **﴿من الشجرة﴾** ولعلها كانت الوحيدة في هذا المكان: **﴿أن يا موسى إني أنا الله ربّ العالمين﴾** [القصص: ٣٠]..

ها هو ذا موسى ـ عليه السلام ـ وقد مضى إلى النار التي آنسها، ينشد خبراً، فإذا هو يتلقى النداء الأسمى:

﴿فلما جاءها نُوديَ أن بُورك من في النار ومن حولها. وسبحان الله ربّ العالمين. يا موسى إنّه أنا الله العزيز الحكيم﴾ [النمل: ٨، ٩].

إنه النداء الذي يتجاوب به الكون كله، وتتصل به العوالم والأفلاك؛ ويخشع له الوجود كله وترتعش له الضمائر والأرواح. النداء الذي تتصل فيه السماء بالأرض؛ وتَتَلَقّى الذرة الصغيرة دعوة خالقها الكبير، ويرتفع فيه الإنسان الفاني الضعيف إلى مقام المناجاة بفضل من الله.

﴿فلما جاءها نودي﴾.. بهذا البناء للمجهول ـ وهو معلوم ـ ولكنه التوقير والإجلال والتعظيم للمنادي العظيم.

﴿نودي أن بورك من في النار ومَنْ حولها﴾ . .

فمن ذا كان في النار؟ ومن ذا كان حولها؟ إنها على الأرجح لم تكن ناراً من هذه النار التي نوقدها. إنما كانت ناراً مصدرها الملأ الأعلى. ناراً أوقدتها الأرواح الطاهرة من ملائكة الله للهداية الكبرى. وتراءت كالنار وهذه الأرواح الطاهرة فيها. ومن ثم كان النداء: **﴿أن بورك من في النار﴾** إيذاناً بِفَيْض من البركة العلوية على مَن في النار من الملائكة ومَن حولها. . وفيمن حولها موسى. .

إن القلب ليجفُ، وإن الكيان ليرتجف. وهو يتصور ـ مجرد تصور ـ ذلك المشهد. . موسى فريد في تلك الفلاة. والليل دامس، والظلام شامل، والصمت مُخيم. وهو ذاهب يلتمس النار التي آنسها من جانب الطور. ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء: **﴿إني أنا ربُك فاخلع نعليك. إنك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتُك. .﴾. . ﴿فاستمع لما يُوحى﴾** [طه: ١٢، ١٣].

إن تلك الذرة الصغيرة الضعيفة المحدودة تُواجه الجلال الذي لا تُدركه الأبصار. الجلال الذي تتضاءل في ظِلّه الأرض والسموات. ويَتلقَّى. يَتَلقَّى ذلك النداء العلوي بالكيان البشري. . فكيف؟ كيف لولا لطف الله؟.

إنها لحظة ترتفع فيها البشرية كُلّها وتَكبر مُمَثَّلة في موسى ـ عليه السلام ـ فبحسب الكيان البشري أن يطيق التلقي من ذلك الفيض لحظة. وبحسب البشرية أن يكون فيها الاستعداد لمثل هذا الاتصال على نحو من الأنحاء. . كيف؟ لا ندري كيف! فالعقل البشري ليس هنا لِيُدرك ويَحكم، إنما قصاراه أن يقف مبهوتاً يشهد ويُؤمن!.

وقد بيَّن الله سبحانه فضل موسى بندائه من جانب الطور الأيمن وتقريبه إلى الله لدرجة الكلام. الكلام القريب في صورة مناجاة: **﴿واذكر**

في الكتاب موسى إنه كان مُخْلَصاً وكان رسولاً نبياً. وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً. .﴾ [مريم: ٥١، ٥٢].

لقد تلقى موسى النداء المباشر. تلقاه وحيداً في ذلك الوادي العميق، في ذلك الليل الساكن. تلقَّاه يتجاوب به الكون كله، وتمتلىء به السماوات والأرضون. تلقاه لا ندري كيف وبأية جارحة وعن أي طريق. تلقاه ملء الكون من حوله، وملء كيانه كله.

﴿فلما أتاها نودي يا موسى: إني أنا ربك. .﴾ نودي. . بهذا البناء للمجهول. فما يمكن تحديد مصدر النداء ولا اتجاهه. ولا تعيين صورته ولا كيفيته. ولا كيف سَمِعَه موسى أو تَلَقَّاه. . نُودِي بطريقة ما فَتَلَقَّى بطريقة ما. فذلك من أمر الله الذي نُؤمن بوقوعه، ولا نَسأل عن كيفيته، لأن كيفيته وراء مَدارك البشر وتصورات الإنسان.

نحن لا ندري كيف كان هذا الكلام، وكيف أدركه موسى. . أكان صوتاً تسمعه الأُذن أم يتلقَّاه الكيان الإنساني كله. تلَقَّاه وأطاق تَلقِّيه لأنه صُنع على عين الله حتى تَهيَّأ لهذه اللحظة الكبرى. ولا نعلم كيف أعدّ الله كيان موسى البشري لتلقي كلام الله الأزلي. . إنما نُؤمن أنه كان. وهو على الله هَيِّن أن يصل مخلوقه به بطريقة من الطرق، وهو بَشَر على بشريته، وكلام الله عُلويّ على عُلْوِيَّته. ومن قبل كان الإنسان إنساناً بنفخة من روح الله.

وسَجَّل ضمير الوجود ذلك النداء العلوي، وشَهِدَ الكون كله هذه المنحة العليا؛ وبوركت البقعة التي تجلَّى عليها ذو الجلال. ومضت هذه البقعة مباركة مُقدَّسة بتجلي ذي الجلال، وإذنه لها بالبركة الكبرى؛ وتميَّز الوادي الذي كَرَّم بهذا التجلي، ووقف موسى ـ عليه السلام ـ في أكرم موقف يلقاه إنسان. . **﴿وكلَّم الله موسى تكليماً﴾** [النساء: ١٦٤]. إنه الأمر الهائل العظيم. . وهو غيب من الغيب لا يعلمه إلا عالم الغيب.

وسَجَّل الوجود كله بقية النداء والنجاء: ﴿**يا موسى إني أنا ربُّك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طُوَى**[1]﴾ [طه: ١٢].

.. إنك في الحضرة العلوية فَتَجَرَّد بقدَمَيك. وفي الوادي الذي تتجلَّى عليه الطلعة المُقدَّسة، فلا تَطَأْه بنعليك..

ويُنزه الله ذاته العلية، ويُعلن ربوبيته للعالمين، ويكشف لعبده أن الذي يناديه هو الله العزيز الحكيم: ﴿**وسبحان الله رب العالمين. يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم**﴾ [النمل: ٩].

وارتفعت البشرية كلها في شخص موسى ـ عليه السلام ـ إلى ذلك الأفق الوضيء الكريم. وَوَجَد موسى الخبر عند النار التي آنسها، ولكنه كان الخبر الهائل العظيم؛ ووجد القَبَس الدافىء، ولكنه كان القَبَس الذي يهدي إلى الصراط المستقيم.

التكليف والرسالة:

وكان النداء للاصطفاء، ووراء الاصطفاء التكليف بحمل الرسالة إلى أكبر الطغاة في الأرض في ذلك الحين..

﴿**وأنا اخترتك**﴾.. فيا للتكريم! يا للتكريم أن يكون الله بذاته هو الذي يختار. يختار عبداً من العبيد هو فرد من جموع الجموع.. تعيش على كوكب من الكواكب هو ذرة في مجموعة. المجموعة هي ذرة في الكون الكبير الذي قال له الله: كُن.. فكان! ولكنها رعاية الرحمن لهذا الإنسان! وبعد إعلانه بالتكريم والاختيار، والاستعداد والتهيؤ بخلع نعليه، يجيء التنبيه للتلقي: ﴿**فاستمع لما يُوحى**﴾ [طه: ١٣].

ويُلخّص ما يوحى في ثلاثة أمور مترابطة: الاعتقاد بالوحدانية،

---

(١) قيل: إنها اسم الوادي، وقيل: إنها وَصْف له.

والتوجُّه بالعبادة، والإيمان بالساعة وهي أُسس رسالة الله الواحدة:

﴿إنني أنا الله لا إلَه إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري. إن الساعة آتية أكاد أُخفيها لِتُجْزَى كل نفس بما تسعى. فلا يَصدنَّك عنها من لا يُؤمن بها واتَّبع هواه فَتَرْدَى﴾ [طه: ١٤ ـ ١٦].

فأما الألوهية الواحدة فهي قوام العقيدة. والله في ندائه لموسى ـ عليه السلام ـ يؤكدها بكل المؤكدات:

بالإثبات المؤكد **﴿إنني أنا الله﴾** وبالقصر المستفاد من النفي والاستثناء: **﴿لا إلَه إلاّ أنا﴾** الأولى لإثبات الألوهية لله، والثانية لنفيها عن سواه.. وعلى الألوهية تترتب العبادة؛ والعبادة تشمل التوجُّه لله في كل نشاط الحياة؛ ولكنه يخصّ بالذكر منها الصلاة: **﴿وأقم الصلاة لذكري﴾** لأن الصلاة أكمل صورة من صور العبادة، وأكمل وسيلة من وسائل الذكر، لأنها تتمحض لهذه الغاية، وتتجرد من كل الملابسات الأخرى؛ وتتهيأ فيها النفس لهذا الغَرَض وحده، وتَتَجمَّع للاتصال بالله.

فأما الساعة فهي الموعد المُرتقب للجزاء الكامل العادل، الذي تَتَوجَّه إليه النفوس فتحسب حسابه، وتسير في الطريق وهي تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق.. والله سبحانه يُؤكِّد مَجيئها: **﴿إن الساعة آتية﴾** وأنه يَكاد يُخفيها. فَعِلْمُ الناس بها قليل لا يتجاوز ما يُطلعهم عليه من أمرها بقدر ما يُحقق حكمته من معرفتهم ومن جهلهم.

والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر وفي تكوينهم النفسي. فلا بدّ من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه. ولو كان كل شيء مكشوفاً لهم ـ وهم بهذه الفطرة ـ لوَقَفَ نشاطهم وأَسِنَتْ حياتهم، فوراء المجهول يَجْرون. فيحذرون ويأملون، ويُجرّبون ويَتَعلّمون. ويَكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم؛ ويرون آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق؛ ويُبدعون في الأرض بما شاء لهم الله أن يبدعوا..

وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد، يحفظهم من الشرود، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة، فهم من موعدها على حَذَر دائم وعلى استعداد دائم. ذلك لمن صَحَّت فطرته واستقام. فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل، فيسقط ومصيره إلى الردى:

﴿فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾..

ذلك أن إتباع الهوى هو الذي يُنشىء التكذيب بالساعة. فالفطرة السليمة تُؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الإنسانية كمالها، ولا يتم فيها العدل تمامه؛ وأنه لا بُدّ من حياة أخرى يتحقق فيها الكمال المُقَدَّر للإنسان، والعدل المطلق في الجزاء على الأعمال. فحكمة الله لا تترك الناس سُدى، يُحسن منهم من يُحسن ويُسيء منهم من يُسيء؛ ثم لا يلقى المحسن جزاء إحسانه، ولا يلقى المسيء جزاء إساءته. وقد أخبر الله على لسان رُسله: إنه يستبقي الجزاء كله أو بعضه للآخرة. فكل من يُدرك حكمة الله في خَلْقه يُدرك أن الآخرة حتمية لتحقيق وعد الله وخبره..

هذه هي الوهلة الأولى للنداء العلوي الذي تجاوبت به جنبات الوجود؛ وأنهى الله سبحانه إلى عبده المختار قواعد التوحيد. ولا بد أن موسى قد نَسي نفسه ونسي ما جاء من أجله، ليتبع ذلك الصوت العلوي الذي ناداه؛ وليسمع التوجيه القدسي الذي يتلقاه. وبينما هو مُستغرق فيما هو فيه، ليس في كيانه ذرة واحدة تَتلَفت إلى سواه، إذا هو يتلقى سؤالاً لا يحتاج منه إلى جواب:

﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ [طه: ١٧] إنها عَصاه. ولكن أين هو من عصاه؟ إنما يتذكر فيجيب:

﴿قال: هي عصاي، أَتَوَكَّأُ عليها وأهشّ بها على غَنَمي ولي فيها مآرب أخرى﴾ [طه: ١٨]..

والسؤال لم يكن عن وظيفة العصا في يده. إنما كان عَمَّا في يمينه.

ولكنه أدرك أن ليس عن ماهيتها يسأل، فهي واضحة، إنما عن وظيفتها معه فأجاب . .

ذلك أقصى ما يعرفه موسى عن تلك العصا: أن يتوكأ عليها وأن يضرب بها أوراق الشجر لتتساقط فتأكلها الغنم ـ وقد كان يرعى الغنم للشيخ الصالح في مَدْين ـ. وقيل: إنه ساق معه في عودته قطيعاً منها كان من نصيبه. وأن يستخدمها في أغراض أخرى من هذا القبيل أَجْمَلَها ولم يُعدِّدها لأن ما ذكره نموذج منها.

ولكن ها هي ذي القدرة القادرة تصنع بتلك العصا في يده ما لم يخطر له على بال، تمهيداً لتكليفه بالمهمة الكبرى:

﴿قال: ألقها يا موسى. فألقاها. فإذا هي حيّة تسعى. قال: خُذها ولا تَخَف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ [طه: ١٩ ـ ٢٠].

وألقى موسى عصاه كما أُمر إطاعة لمولاه؛ ولكن ماذا؟ إنها لم تعد عصاه التي صاحبَها طويلاً، والتي يعرفها معرفة اليقين. إنها حَيَّة تدبّ في سُرعة، وتتحرك في خِفّة.

لقد وقعت المعجزة التي تقع في كل لحظة، ولكن الناس لا ينتبهون إليها. وقعت معجزة الحياة. فإذا العصا حية تسعى. وكم من ملايين الذرات المَيّتة أو الجامدة كالعصا تَتَحوّل في كل لحظة إلى خلية حيّة؛ ولكنها لا تُبهر الإنسان كما يُبهره أن تتحول عصا موسى حية تسعى! ذلك أن الإنسان أسيرَ حواسه، وأسير تجاربه، فلا يبعد كثيراً في تصوراته عما تُدركه حواسه. وانقلاب العصا حية تسعى ظاهرة حسّية تصدم حسّه فينتبه لها بشدّة. أما الظواهر الخفية لمعجزة الحياة الأولى، ومعجزات الحياة التي تدب في كل لحظة فهي خَفيَّة قَلَّما يلتفت إليها. وبخاصة أن الألفة تفقدها جدّتها في حسّه، فيمر عليها غافلاً أو ناسياً.

وقعت المعجزة، فإذا هي تدبّ وتسعى، وتتحرك حركة سريعة كحركة

ذلك النوع الصغير من الحيات «الجان»، وهي حية كبرى تتلوى كصغار الحيات ﴿**فلما رآها تهتز كأنها جانٌّ وَلَّى مُدْبِراً ولم يُعَقِّب**﴾ [القصص: ٣١]، [النحل: ١٠].

إنها المفاجأة التي لم يستعد لها؛ مع الطبيعة الانفعالية، التي تأخذها الوهلة الأولى.. فقد أدركت موسى ـ عليه السلام ـ طبيعته الانفعالية، وأخذته هزّة المفاجأة التي لم تخطر له ببال ﴿**ولَّى مُدبراً ولم يُعَقِّب**﴾.. جرى بعيداً عن الحية دون أن يُفكر في الرجوع والعودة إليها ليتبين ماذا بها؛ وليتأمّل هذه العجيبة الضخمة. وهذه هي سمة الانفعاليين البارزة تَتجلَّى في موعدها! وهي حركة تبدو فيها المفاجأة العنيفة في مثل تلك الطبيعة الشديدة الانفعال.

ثم يستمع إلى ربه الأعلى: ﴿**يا موسى أقبل ولا تَخَف إنك من الآمنين**﴾ [القصص: ٣١].

إن الخوف والأمن يتعاقبان سريعاً على هذه النفس، ويتعاورانها في مراحل حياتها. إنه جو هذه الحياة من بدئها إلى نهايتها؛ وإن هذا الانفعال الدائم لمقصود في تلك النفس، مُقدّر في هذه الحياة، لأنه الصفحة المقابلة لتبلُّد بني إسرائيل، ومرودهم على الاستكانة ذلك الأمد الطويل. وهو تدبير القدرة وتقديرها العميق الدقيق.

﴿**أقْبِل ولا تَخَف إنك من الآمنين**﴾.. وكيف لا يأمن من تنقل يد القدرة خُطاه، ومن ترعاه عين الله؟.

لقد نودي موسى بالنداء العلوي المُطَمْئِن، وأعلن له عن طبيعة التكليف الذي سيلقاه: ﴿**يا موسى لا تخف إني لا يخاف لديّ المرسلون**﴾ [النمل: ١٠]..

لا تخف. فأنت مُكلَّف بالرسالة. والرسل لا يخافون في حضرة ربِّهم وهم يتلقون التكليف.

﴿إلا من ظَلَم ثم بَـدَّلَ حسناً بعـد سـوء. فـإني غفـور رحيم﴾ [النحل: ١١]..

إنما يخاف الذين ظلموا. ذلك إلا أن يُبدِّلوا حسناً بعد سوء، ويَدَعُوا الظُّلم إلى العدل، ويَدَعُوا الشرك إلى الإيمان، ويدعوا الشَّر إلى الخيرَ. فإن رحمتي واسعة وغفراني عظيم.

وبعد هذا النداء العلوي الذي ألقى إلى عبده التكليف.. وأمام موسى المعجزة التي وقعت فَدُهش لها، وخاف وولَّى مُدبراً.. تعلَّق قلبه وهَفَت روحه إلى النداء: **﴿خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾** [طه: ٢١] ونردها عصا..

عاد موسى وقد سَكتَ خوفُه وهَدَأ روعُه واطمأنت نفسه والتقط الحية، فـإذا هي تعود سيـرتها الأولى! عصـا!.. ووقعت المعجـزة في صـورتهـا الأخرى. صورة سَلْب الحياة من الحيّ، فإذا هو جامد ميت، كما كان قبل أن تُدركه المعجزة الأولى..

والآن وقد اطمأنَّ موسى وقَرّ، يُجهِّزه ربه بالمعجزة الثانية، قبـل أن يكشف له عن جهة الرسالة ووجهة التكليف. وصَدَر الأمر العلوي مرة أخرى إلى عبده موسى: **﴿اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء..﴾** [القصص: ٣٢].

كان هذا، وأطاع موسى الأمر، وأدخل يـده في فَتحة ثـوبه ـ وهي جيبه ـ عند صدره ثم أخرجها. فإذا هي المفاجأة الثانية في اللحظة الواحدة. فخرجت بيضاء مُشرقة لامعة مُشعّة، من غير مَرَض، وقد عهدها أدماء تضرب إلى السُّمرة.

ويُعبّر القرآن الكـريم عن هذا في سـورة طه: **﴿واضمم يـدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى﴾** [طه: ٢٢]..

والسياق يختار للإبط والذراع صورة الجناح لما فيه من رفرفة وطلاقة وخفّة في هذا الموقف المُجَنَّح الطليق من ربقة الأرض وثقلة الجسم لتخرج يده التي وضعها تحت إبطه بيضاء لا عن مرض أو آفة، ولكن عن معجزة. إنها إشارة إلى إشراق الحق ووضوح الآية ونصاعة الدليل.

وأدركت موسى طبيعته. فإذا هو يرتجف من رهبة الموقف وخوارقه المُتتابعة. ومرّة أخرى تُدركه الرعاية الحانية بتوجيه يردّه إلى السكينة. ذلك أن يضمّ يده على قلبه، فَتُخْفِض من دقاته، وتُطامن من خَفَقاته:

﴿واضمم إليك إلى جناحك من الرهب﴾ [القصص: ٣٢].. وكأنما يده جناح يقبضه على صدره، كما يطمئن الطائر فيطبق جناحه. والرفرفة أشبه بالخفقان، والقبض أشبه بالاطمئنان. والتعبير يرسم هذه الصورة على طريقة القرآن.

لقد جعل الله يُعدّ موسى ـ عليه السلام ـ ويُجهّزه ويُقوّيه. فمعجزة اليد البيضاء **﴿آية أخرى﴾** مع آية العصا. **﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾** [طه: ٢٣]. فتشهد وقوعها بنفسك تحت بَصَرك وحسّك.

والآن وقد تَلَقّى موسى ما تَلَقّى، وقد شاهد كذلك ما شاهد، وقد رأى الآيتين الخارقتين، وقد ارتجف لهما ثم اطمأن.. الآن يعرف ما وراء الآيات، والآن يتلقى التكليف الذي كان يُعدُّ من طفولته الباكرة ليتلقاه.. **﴿فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه. إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾** [القصص: ٣٢]..

لقد رأيتَ من آياتنا الكبرى فتطمئن للنهوض بالتبعة الكبرى: **﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾** [طه: ٢٤].

لم يكن يعلم موسى أنه مُنتدب لهذه المهمة الضخمة.. وإنه ليعرف مَن هو فرعون: فقد رُبِّي في قصره. وشَهِدَ طُغيانه وجبروته. وشاهد ما يصبّه على قومه من عذاب ونكال..

ووعده ربّه أن يُؤيده بتسع آيات من هذا النوع الذي شاهد منه اثنتين؛ وهو يكشف له عن وجهته التي من أجلها دعاه وجهَّزه ورعاه!:

﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه. إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ [النحل: ١٢]..

لقد بادر السياق بحكاية أمر التكليف الإلهي لموسى.. إذن فهي الرسالة إلى فرعون وملئه. وإذن فهو الوعد الذي تَلَقَّتْهُ أُمّ موسى وهو طفل رضيع: **﴿إنا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾** [القصص: ٧].. الوعد اليقين الذي انقضت عليه السنون. وَعْد الله لا يُخلف الله وَعْده وهو أصدق القائلين.

﴿وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين. قوم فرعون. ألا يتقون؟﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ١١].

وهنا يبدأ بإعلان صفة القوم: **﴿القوم الظالمين﴾** فقد ظلموا أنفسهم بالكفر والضلال، وظلموا بني إسرائيل بما كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ويعذبونهم بالسخرة والنكال.. لذلك يقدم صفتهم ثم يُعَيِّنهم **﴿قوم فرعون﴾**، ثم يعجب موسى من أمرهم ويعجب كل إنسان: **﴿ألا يتقون؟﴾** ألا يخشون ربهم؟ ألا يخافون مغبة ظلمهم؟ ألا يرجعون عن غيهم؟ ألا إن أمرهم لعجيب يستحق التعجيب! وكذلك كل من كان على شاكلتهم.

﴿هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طُوىً اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ [النازعات: ١٥ ـ ١٧]..

والطغيان أمر لا ينبغي أن يكون ولا أن يبقى. إنه أَمْر كَريه، مُفسد للأرض، مُخالف لما يُحبه الله، مُؤدّ إلى ما يَكره.. فمن أجل مَنْعه ينتدب الله عبداً من عباده المختارين. ينتدبه بنفسه سبحانه. ليحاول وقف هذا الشرّ، ومَنْع هذا الفساد، وَوَقْف هذا الطغيان.

إنه أمر كريه شديد الكراهية حتى ليخاطب الله بذاته عبداً من عباده ليذهب إلى الطاغية، فيحاول ردّه عما هو فيه، والإعذار إليه قبل أن يأخذه الله تعالى نَكَال الآخرة والأولى!.

فضل من الله ورحمة:

ها هو ذا موسى في مشهد النداء والتكليف.. مشهد رهيب جليل. وهو مشهد كذلك عجيب. ونداء الله بذاته ـ سبحانه ـ لعبد من عباده أمر هائل. أهول ما تملك الألفاظ البشرية أن تُعبِّر. وهي سرّ من أسرار الألوهية العظيمة، كما هي سرّ من أسرار التكوين الإنساني التي أودعها الله هذا الكائن، وهَيَّأه بها لتلقي ذلك النداء. وهذا أقصى ما نملك أن نقوله في هذا المقام الذي لا يملك الإدراك البشري أن يُحيط منه بشيء؛ فيقف على إطاره، حتى يكشف الله له عنه فيتذوَّقه بشعوره.

ها هو ذا موسى يتلقى التكليف الإلهي. لقد أمره ربّه بتبليغ رسالته إلى فرعون.. وهو اللحظة في حضرة ربّه. يغمره الرَوْح والانشراح والإشراق والنور في هذه المناجاة الرائعة.. ها هو ذا موسى في حضرة الله الذي لا إله إلا هو، يحسّ الرضى والتكريم والحفاوة. فَلْيَسْأله كل ما يُطمئنه على مواجهة هذه المهمة العسيرة؛ ويكفل له الاستقامة على طريق الرسالة:

﴿قال: ربِّ اشرح لي صدري. ويَسِّر لي أمري. واحلل عُقدة من لساني يَفقهوا قولي. واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي. آشدد به أزري، وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً. إنك كنتَ بنا بصيراً﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٥].

وقد دعا ربه في أول الأمر دعاءً شاملاً بِشَرْح الصدر وتيسير الأمر. ثم أخذ يُحدِّد ويُفصِّل بعض ما يُعينه على أمره ويُيَسِّر له تَمامه.

لقد طلب إلى ربه أن يشرح له صدره.. وانشراح الصدر يُحَوِّل مشقة

التكليف إلى متعة، ويحيل عناءه لذة؛ ويجعله دافعاً للحياة لا عِبئاً يثقل خطى الحياة.

وطلب إلى ربه أن يُيَسِّر له أمره.. وتيسر الله لعباده هو ضمان النجاح. وإلا فماذا يملك الإنسان بدون هذا التيسير؟ ماذا يملك وقواه محدودة وعلمه قاصر والطريق طويل وشائك ومجهول؟!.

وطلب إلى ربه أن يحلّ عُقدة لسانه فيفقهوا قوله. وقد روي أنه كان بلسانه حَبْسة والأرجح أن هذا هو الذي عناه. ويؤيده قوله تعالى: ﴿**وأخي هارون هو أفصح مني لساناً، فأرسله معي ردءاً، يُصَدّقني، إني أخاف أن يُكذبون**﴾ [القصص: ٣٤].

ولم يكن أمر فرعون وملئه جديداً على موسى ـ عليه السلام ـ فهو يعرفه، ويعرف ظُلم فرعون وعُتوّه وجبروته، ويُدرك أنها مُهمة ضخمة وتكليف عظيم. ومن ثم يشكو إلى ربّه ما به من ضعف وقصور لا ليتنصّل أو يعتذر عن التكليف، ولكن ليطلب العون والمساعدة في هذا التكليف العسير:

﴿**قال: ربّ إني أخاف أن يُكذبون. ويَضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون**﴾ [الشعراء: ١١ - ١٤].

والظاهر من حكاية قوله ـ عليه السلام ـ أن خوفه ليس من مُجرد التكذيب، ولكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يُبَيِّن، وأن يُناقش هذا التكذيب ويُفَنّده. إذ كانت بلسانه حبسة. ومن شأن هذه الحبسة أن تُنشىء حالة من ضيق الصدر، تنشأ من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام. وتزداد كلما زاد الانفعال فيزداد الصدر ضيقاً.. وهكذا.. وهي حالة معروفة. فمن هنا خشي موسى أن تقع له هذه الحالة وهو في موقف المواجهة بالرسالة لظالم جبّار كفرعون. فشكا إلى ربه

ضعفه وما يخشاه على تبليغ رسالته، ويُشركه معه في الرسالة اتقاء للتقصير في أداء التكليف، لا نكوصاً ولا اعتذاراً عن التكليف؛ فإذا أدركت موسى حَبسة أو ضيق نهض هارون بالجدل والمُحاجّة والبيان.

ولقد دعا موسى ربه ليَحلّ هذه العقدة من لسانه، ولكنه زيادة في الاحتياط للنهوض طلب معه أخاه وزيراً ومعيناً.. طلب أن يُعينه الله بمعين من أهله. هارون أخيه فهو يعلم عنه فصاحة اللسان وثبات الجنان وهدوء الأعصاب، وكان موسى ـ عليه السلام ـ انفعالياً حادّ الطبع سريع الانفعال. فطلب إلى ربه أن يُؤيده بأخيه يشدّ أزره ويُقوّيه ويتروّى معه في الأمر الجليل الذي هو مقدم عليه. وهارون أفصح لساناً فهو أقدر على المنافحة عن الدعوة. وهو ردء له ومعين، يُقوّي دعواه، ويَخلفه إن قتلوه..

هنا يتذكر موسى أنه قَتَل نفساً، وأنه خرج من بينهم طريداً، وأنهم تآمروا على قتله فهرب منهم بعيداً. وهو في حضرة ربه. وربه يُكرمه بلقائه، ويكرمه بنجائه، ويُكرمه بآياته، ويكرمه برعايته، فما له لا يحتاط لدعوته خيفة أن يُقتل فتنقطع رسالته:

﴿قال: ربّ إني قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلونِ﴾ [القصص: ٣٣].. يقولها لا ليعتذر، ولا ليتقاعس، ولا لينكص؛ ولكن ليحتاط للدعوة، ويطمئن إلى مُضيّها في طريقها، لو لقي ما يخاف. وهو الحرص اللائق بموسى القوي الأمين: **﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً، فأرسله معي ردءاً يُصدقني، إني أخاف أن يكذبونِ﴾** [القصص: ٣٤].. فهارون يخلفه إن قتلوه.

وكذلك الشأن في قوله: **﴿ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون﴾** [الشعراء: ١٤].. فإن ذكره هنا ليس للخوف من المواجهة، والتخلي عن التكليف. ولكن له علاقة بالإرسال إلى هارون. حتى إذا قتلوه قام هارون من بعده بالرسالة، وأتمّ الواجب كما أمره ربه دون تعويق. فهو الاحتياط للدعوة

لا للداعية. الاحتياط من أن يَحتبس لسانه في الأولى وهو في موقف المنافحة عن رسالة ربه وبيانها، فتبدو الدعوة ضعيفة قاصرة.

والاحتياط من أن يقتلوه في الثانية فتتوقف دعوة ربه التي كُلِّف أَداءها وهو على إبلاغها واطرادها حريص. وهذا هو الذي يليق بموسى ـ عليه السلام ـ الذي صنعه الله على عينه، واصطنعه لنفسه.

لقد طلب موسى العون من ربه لحمل هذه الأمانة.. كل أُولئك لا ليواجه المهمة مباشرة ولكن ليتخذ ذلك كله مساعداً له ولأخيه على التسبيح الكثير والذكر الكثير والتلقي الكثير من السميع البصير. ﴿**إنك كنتَ بنا بصيراً**﴾ [طه: ٣٥].. تعرف حالنا وتطلع على ضعفنا وقصورنا وتعلم حاجتنا إلى العون والتدبير.

لقد أطال موسى سُؤله، وبَسَط حاجته، وكَشَف عن ضُعفه، وطلب العون والتيسير والاتصال الكثير.. وقف طويلاً يسأل الله من فضله. وربّه يسمع له. وهو ضعيف في حضرته. ناداه وناجاه. فها هو ذا الكريم المنّان لا يُخجل ضيفه، ولا يرد سائله، ولا يُبطىء عليه بالإجابة الكاملة: ﴿**قال: قد أُوتيتَ سُؤلك يا موسى**﴾ [طه: ٣٦].. هكذا مرة واحدة، في كلمة واحدة. فيها إجمال يُغني عن التفصيل. وفيها إنجاز لا وَعْد ولا تأجيل.. كل ما سَأَلْتَهُ أُعطيتَه. أُعطيته فعلاً. لا تُعطاه ولا سَتُعطاه؟ وفيها مع الإنجاز عطف وتكريم وإيناس بندائه باسمه: «يا موسى» وأي تكريم أكبر من أن يَذكر الكبير المتعال اسم عَبد من العباد؟.

ويتلقى موسى الاستجابة والتطمين: ﴿**قال: سنشدّ عضدك بأخيك، ونجعل لكما سُلطاناً فلا يصلون إليكما. بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون**﴾ [القصص: ٣٥]..

لقد استجاب ربّه رجاءه؛ وشدّ عضده بأخيه.

ويذكر القرآن الكريم رحمة الله بموسى في مساعدته بإرسال أخيه هارون معه: **﴿ووهبنا له من رحمتنا هارون نبياً﴾** [مريم: ٥٣].

وزاده على ما رجاه البشارة والتطمين: **﴿ونجعل لكما سُلطاناً﴾**.. فهما لن يذهبا مُجرَّدين إلى فرعون الجبار. إنما يذهبان إليه مُزودين بسلطان لا يقف له في الأرض سلطان؛ ولا تنالهما معه كفّ طاغية ولا جبّار: **﴿فلا يصلون إليكما﴾**.. وحولكما من سلطان الله سياج، ولكما منه حصن وملاذ.

ولا تقف البشارة عند هذا الحد. ولكنها الغَلَبة للحق. الغلبة لآيات الله التي يجبهان بها الطغاة. فإذا هي وحدها السلاح والقوة، وأداة النصر والغلبة: **﴿بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾**.

فالقدرة تتجلى سافرة على مسرح الحوادث؛ وتؤدي دورها مكشوفاً بلا ستار من قوى الأرض، لتكون الغَلَبةِ بغير الأسباب التي تعارف عليها الناس، في دنيا الناس، وليقوم في النفوس ميزان جديد للقوى والقيم. إيمان وثقة بالله، وما بعد ذلك فعلى الله.

إنه فضل من الله.. ومنه التكريم والعطف والإيناس. وقد طال التجلي؛ وطال النجاء؛ وأجيب السُؤل وقُضيت الحاجة.. ولكن فضل الله لا خازن له، ورحمة الله لا مُمسك لها. فهو يغمر عبده بمزيد من فضله وفيض من رضاه، فيستبقيه في حضرته، ويمدّ في نجائه وهو يُذكّره بسابق نعمته، ليزيده اطمئناناً وأنساً بموصول رحمته وقديم رعايته. وكل لحظة تمرّ وهو في هذا المقام الوضيء هي متاع ونعمى وزاد ورصيد.

لقد تفضّل المنعم على عبده، فأطال له النجاء، وبَسَط له في القول، وأوسع له في السؤال والجواب..

إنه الود الحبيب الجليل الذي يُنَسّم على روح موسى ـ عليه السلام ـ من ربه الودود الرحيم. إنه العطف والفضل الكبير.. إنه حادث عظيم.

عظيم جداً. عظيم إلى غير حد. ومهما حاولنا أن نحيط بعظمته، فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا!.

وهكذا تلقى موسى الرسالة. هذه الأمانة الثقيلة في خشوع وابتهال.. وأسبغ عليه ربُّه ذو الفضل الواسع، والرحمة السابغة، الكريم الودود المنان، بفيضٍ من عطائه ورحمته ومحبته.

ها هو ذا موسى ـ عليه السلام ـ يُتابع رحلته إلى مصر يحمل رسالة الله إلى فرعون وقد تزوَّد بمدد الله وعونه من ربه العلي الأعلى في الوادي المقدس، في البقعة المباركة، حيث أشرق عليه النور الإلهي، وهبطت عليه الرحمة، وأنزلت عليه السكينة، فهو يمضي على هدى ربه وتوجيهاته مع الشعور بالثقة والاطمئنان للرحمة، والاسترواح للرعاية.

لقاء موسى وهارون والتكليف بالرسالة:

إن موسى ـ عليه السلام ـ ذاهب لمواجهة أقوى ملك في الأرض وأطغى جبار. إنه ذاهب لخوض معركة الإيمان مع الطغيان. إنه ذاهب إلى خضم من الأحداث والمشكلات مع فرعون أول الأمر؛ ثم مع قومه بني إسرائيل وقد أذلّهم الاستعباد الطويل وأفسد فطرتهم، وأضعف استعدادهم للمهمة التي هم مُنتدبون لها بعد الخلاص. فَربّه يُطلعه على أنه لن يذهب غفلاً من التهيؤ والاستعداد. وأنه لم يُرسَل إلا بعد التهيئة والإعداد. فَيَدُ القدرة كانت تسنده، وعين القدرة كانت ترعاه في كل خُطاه. فلا عليه اليوم من فرعون، وقد بَلَغ أشدّه. وربّه معه. قد اصطنعه لنفسه، واستخلصه واصطفاه.

﴿ولقد مَنَنَّا عليك مرة أخرى. إذ أَوحينا إلى أُمك ما يُوحى. أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم. فَلْيُلْقِهِ اليمّ بالساحل، يأخذه عدو لي وعدو له. وألقيتُ عليك محبة مني، ولتصنع على عيني..﴾ [طه: ٣٧ ـ ٣٩]..

فالمنّة قديمة مُمتدة مُطّردة، سائرة في طريقها معك منذ زمـان. فلا انقطاع لها إذن بعد التكليف الآن.

وإلى هنا كان الخطاب لموسى ـ عليه السلام ـ وكان المشهد هو مشهد المناجاة في الفلاة. وقد أجاب الله موسى إلى ما سأل، وطَمْأَنه مما يخاف. والقرآن يختصر مـرحلة الإرسال إلى هـارون، ومرحلة وصـول موسى إلى مصر. ويطوي السياق المسافـات والأبعاد والأزمـان؛ ويبرز **مشهـد موسى وهارون مُجْتَمِعَين** يَتَلقَّيان أَمر ربّهما الكريم، في نفس اللحظة التي يُطمئن الله فيها موسى، وينفي مخاوفه نفياً شديداً، في لفظة تستخدم أصلاً للردع وهي كلمة «كلا»!:

﴿قال: كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مُستَمِعون. فأتيا فرعون فقولا: إنَّا رسول ربّ العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾ [الشعراء: ١٥ ـ ١٧]..

كلا. لن يضيق صدرك ويُحبَس لسانك، وكلا لن يقتلوك. فأبْعِد هذا كله عن بالك بشدة. واذهب أنت وأخوك.

﴿فاذهبا بآياتنا﴾ وقد شهد موسى منها العصا واليد البيضاء.. **﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تَنِيا في ذكري. اذهبا إلى فرعون إنه طغى. فقولا له قولاً لَيناً لعلَّه يتذكر أو يخشى﴾** [طه: ٤٢ ـ ٤٤]..

اذهب أنت وأخوك مزودين بآياتي ولا تنيـا في ذكري فهـو عدتكمـا وسلاحكما وسندكما الذي تأويان منه إلى ركن شديد.. اذهبا إلى فرعون. وقد حَفظتك من شرّه من قبل. وأنت طفل وقد قُذفت في التابوت في اليم، فألقاه اليم بالساحل، فلم تضرّك هذه الخشونة، ولم تُؤذك هذه المخاوف. فالآن أنت مُعَدّ مُهيّأ، ومعك أخوك. فلا عليك وقد نجوت مما هو أشدّ، في ظروف أسوأ وأعنف..

ثم يُعلّمـه الله كيف يُخاطب الطاغية بـأحبّ أسلوب وأشد جـاذبية للقلوب، لعله ينتهي، ويتقي غَضَبَ الله وأَخْذِه:

﴿**فقل: هل لك إلى أن تزكّى**﴾؟ [النازعات: ١٨]. . هل لك إلى أن تتطهر من رجس الطغيان ودنس العصيان؟ هل لك إلى طريق الصلاة والبركة؟ ﴿**وأهديك إلى ربك فتخشى**﴾ [النازعات: ١٩]. . هل لك أن أعرفك طريق ربّك؟ فإذا عرفته وَقَعَتْ في قلبك خشيتُه.

فما يطغى الإنسان ويعصي إلا حين يذهب عن ربه بعيداً، وإلا حين يضل طريقه فيقسو قلبه ويفسد، فيكون منه الطغيان والتمرد!.

اذهبا إلى فرعون فقد طغى وتجبّر وعَتا ﴿**فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى**﴾ فالقول اللّيِّن لا يُثير العزة بالإثم؛ ولا يُهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة. ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان.

اذهبا إليه غير يائسين من هدايته، راجين أن يتذكر ويخشى. فالداعية الذي ييأس من اهتداء أحد بدعوته لا يُبلّغها بحرارة، ولا يثبت عليها في وجه الجحود والإنكار.

وإن الله ليعلم ما يكون من فرعون. ولكن الأخذ بالأسباب في الدعوات وغيرها لا بدّ منه. والله يُحاسب الناس على ما يقع منهم بعد أن يقع في عالمهم. وهو عَالِم بأنه سيكون. فَعِلْمه تعالى بمستقبل الحوادث كعلمه بالحاضر منها والماضي في درجة سواء.

ها هما ذان هارون مع موسى يتلقيان التكليف. . وإذا هما معاً يكشفان لربهما عن خوفهما من مواجهة فرعون، ومن التسرع في أذاه، ومن طغيانه إذا دَعَوَاه: ﴿**قالا: ربنا إننا نخاف أن يَفرط علينا أو أن يطغى. .**﴾ [طه: ٤٥]. .

وهارون لم يكن مع موسى قطعاً في موقف المناجاة الطويل في الوادي المقدس. ولقد اجتمع موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ إذن بعد انصراف موسى من موقف المناجاة بجانب الطور. والسياق القرآني يطوي الزمان

والمكان، ويترك فجوات بين مشاهد القصص، تُعلم من السياق ليصل مباشرة إلى المواقف الحيّة الموحية ذات الأثر في سير القصص وفي وجدان الناس. وأوحى الله إلى هارون بمشاركة أخيه في دعوة فرعون ثم ها هما ذان يتوجهان إلى ربهما بمخاوفهما: ﴿**قالا: ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى**﴾..

والفرط هو التسرع بالأذى للوهلة الأولى، والطغيان أشمل من التسرع وأشمل من الأذى. وفرعون الجبار يومئذ يتحرج من أحدهما أو كليهما.

هنا يجيئهما الرد الحاسم الذي لا خوف بعده، ولا خشية معه: ﴿**قال: لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى**﴾ [طه: ٤٦]..

إنني معكما.. إنه القوي الجبار الكبير المتعال. إنه الله القاهر فوق عباده. إنه موجد الأكوان والحيوان والأفراد والأشياء بقوله: كن. ولا زيادة.. إنه معهما.. وكان هذا الإجمال يكفي. ولكنه يزيدهما طمأنينة، ولمسا بالحس للمعونة: ﴿**أسمع وأرى..**﴾ فما يكون فرعون وما يملك وما يصنع حين يفرط أو يطغى؟ والله معهما يسمع ويرى؟ وللسمع والرؤية ما بعدهما!.

اذهبا ﴿**إنا معكم مستمعون**﴾ [الشعراء: ١٥]، فأية قوة؟ وأي سلطان؟ وأي حماية ورعاية وأمان؟ والله معهما ومع كل إنسان في كل لحظة وفي كل مكان. ولكن الصحبة المقصودة هنا هي صحبة النصر والتأييد. فهو يرسمها في صورة الاستماع، الذي هو أشد درجات الحضور والانتباه. وهذا كناية عن دقة الرعاية وحضور المعونة. وذلك على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير.

اذهبا ﴿**فأتيا فرعون**﴾ فأخبراه بمهمتكما في غير عذر ولا تلجلج ﴿**فقولا: إنا رسول رب العالمين**﴾ [الشعراء: ١٦]..

ومع الطمأنينة الهداية إلى صورة الدعوة وطريق الجدال: ﴿**فأتياه**

فقولا: إنا رسولا ربك. فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تُعذبهم. قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى. إنا قد أُوحي إلينا أن العذاب على من كذَّب وتولى﴾ [طه: ٤٧، ٤٨].

وهما اثنان ولكنهما يذهبان في مهمة واحدة برسالة واحدة. فهما رسول ربِّ العالمين. في وجه فرعون الذي يدّعي الألوهية، ويقول لقومه: **﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾** [القصص: ٣٨].. فهي المواجهة القوية الصريحة بحقيقة التوحيد منذ اللحظة الأولى، بلا تدرج فيها ولا حذر. فهي حقيقة واحدة لا تحتمل التدرج والمداراة.

إنه البدء بإيضاح قاعدة رسالتهما: **﴿إنا رسولا ربك﴾** ليشعر منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلهاً هو ربّه. وهو رب الناس. رب العالمين. فليس هو إلهاً خاصاً بموسى وهارون أو ببني إسرائيل، كما كان سائداً في خرافات الوثنية يومذاك أن لكل قوم إلهاً أو آلهة، ولكل قَبيل إلهاً أو آلهة. أو كما كان سائداً في بعض الصور من أن فرعون مصر إله يُعبد فيها لأنه من نسل الآلهة..

ثم إيضاح لموضوع الرسالة:

﴿إنا رسول رب العالمين. أن أرْسِل معنا بني إسرائيل﴾ [الشعراء: ١٦، ١٧].. **وواضح من هذا ومن أمثاله في قصة موسى ـ عليه السلام ـ في القرآن، أنه لم يكن رسولاً إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته. إنما كان رسولاً إليهم ليطلب إطلاق بني إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون. وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل ـ وهو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام ـ فَبَهتَ هذا الدين في نفوسهم، وفسدت عقائدهم فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون ويُعيد تربيتهم على دين التوحيد..**

ففي هذه الحدود كانت رسالة موسى وهارون إلى فرعون: **﴿فَأَرْسِل**

معنا بني إسرائيل ولا تُعذِّبهم﴾ [طه: ٤٧]. .

الرسالة لاستنقاذ بني إسرائيل، والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد، وإلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يسكنوها «إلى أن يُفسدوا فيها، فيدمِّرهم تدميراً».

ثم استشهاد على صدقهما في الرسالة: **﴿قد جئناك بآية من ربك﴾** تدل على صدقنا في مجيئنا إليك بأمر ربك، في هذه المهمة التي حددناها.

ثم ترغيب واستمالة **﴿والسلام على من اتَّبع الهدى﴾**. . فلعله منهم يتلقى السلام ويتبع الهدى.

ثم تهديد وتحذير غير مباشرين كي لا يثيرا كبرياءه وطغيانه: **﴿إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذَّب وتولى﴾** [طه: ٤٨]. . فلعلَّه لا يكون ممن كذَّب وتولى!.

هكذا ألقى الله الطمأنينة على موسى وهارون. وهكذا رسم لهما الطريق. ودبَّر لهما الأمر. ليمضيا آمِنَيْن عَارِضَيْن هَادِيَيْن. . كان هذا في مشهد التكليف. .

وينتهي هذا المشهد الرائع الجليل. ويسدل الستار هنا ليرفعه على مشهد المواجهة والتبليغ.

الحلقة الثالثة :

لقاء الحق والباطل

المواجهة والتبليغ :

ويطوي السياق القرآني للقصة الزمان والمكان. ويرفع الستار. . فإذا موسى وهارون أمام الطاغية في حوار وجدال. . في مواجهة فرعون بآيات الله البيّنات. وإذا الحوار بين الهدى والضلال.

لقد أتيا فرعون ـ والسياق لا يذكر كيف وصلا إليه ـ أتياه وربهما معهما يسمع ويرى. فأية قوة وأي سلطان هو الذي يتكلم به موسى وهارون، كائناً فرعون وما كان؛ ولقد أتيا ليبلغاه ما أمرهما ربهما بتبليغه: **﴿إنا رسولا ربك. فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾** [طه: ٤٧].

هاهوذا موسى ـ عليه السلام ـ يواجه فرعون وملأه بأنه رسول من رب العالمين: **﴿وقال موسى: يا فرعون إني رسول من رب العالمين. حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق. فأرسل معي بني إسرائيل﴾** [الأعراف: ١٠٤، ١٠٥]. .

فهذه النصوص القرآنية في القصة تُثبت حقيقة الدين الذي جاء به موسى ـ عليه السلام ـ؛ وحقيقة التصور الاعتقادي الذي تنشئه هذه الحقيقة. . وهو التصور الصحيح الذي جاء به الإسلام؛ وتَضَمَّنه دين الله في جميع الرسالات. كما أنها تُثبت زيف النظريات والتكهنات التي يدلي بها

الباحثون في تاريخ الأديان من الغربيين ومن يأخذ بمنهجهم وتقريراتهم ممن يكتبون عن تطور العقيدة!.

كذلك تكشف مواجهة موسى لفرعون وملئه عن حقيقة المعركة بين دين الله كله وبين الجاهلية كلها. وتبين كيف ينظر الطاغوت إلى هذا الدين؛ وكيف يحسّ فيه الخطر على وجوده؛ كما تبين كيف يدرك المؤمنون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت!.

إنه بمجرد أن قال موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون: **﴿يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾**.. تَبَيَّن مدلول هذه الدعوة إلى «ربّ العالمين».. إنه ردّ السلطان كله إلى الله بردّ عبودية العالمين كلها إلى ربّ العالمين!.

وبناء على هذا المدلول طلب موسى إطلاق سراح بني إسرائيل. فإنه إذا كان الله ربّ العالمين، فما يكون لعبد من عبيده ـ وهو فرعون المتجبر الطاغي ؛ أن يُعَبّدهم لنفسه، فهم ليسوا عبيداً إلا لربّ العالمين.

إن ردّ الربوبية كلها لله سبحانه معناه ردّ الحاكمية كلها له. فالحاكمية هي مظهر ربوبية الله للناس ـ وهم من العَالمين ـ وهي تتجلّى في العالمين كذلك بخضوعهم لله وحده. فلا يكون الناس معترفين بربوبية الله لهم إلا إذا خضعوا له وحده، وإلا إذا خلصت عبوديتهم لهذه الربوبية.. أو بتعبير آخر لهذه الحاكمية.. وإلا فقد أنكروا ربوبية الله لهم متى خضعوا لحاكمية أحد غيره. لا يحكمهم بشرعه.

فما الذي كان بين موسى وفرعون وملئه؟.

هنا يبدأ المشهد الأول بينهما: **﴿وقال موسى: يا فرعون إني رسول من رب العالمين..﴾**.

إنه مشهد اللقاء الأول بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر،..

مشهد اللقاء الأول بين الدعوة إلى «رب العـالمين» وبين الطاغـوت الذي يَدّعي ويزاول الربوبية من دون ربّ العالمين!.

ف ﴿يا فرعون﴾.. لم يقل له: يا مولاي! كما يقول الذين لا يعرفون من هو المولى الحق! ولكن ناداه بلقبه في أدب واعتزاز. ناداه ليقرر له حقيقة أمره، كما يقرر له أضخم حقائق الوجود: ﴿إني رسول من ربّ العالمين﴾..

لقد جاء موسى ـ عليه السلام ـ بهذه الحقيقة التي جاء بها كل رسول قبله. حقيقة ربوبية الله الواحد للعالمين جميعاً.. أُلوهية واحدة وعبودية شاملة.. لا كما يقول الخابطون في الظلام من «علماء الأديان» ومن يتبعهم في زعمهم عن «تطور العقيدة» إطلاقاً، وبدون استثناء لما جاء به الرسل من ربهم أجمعين!..

إن العقيدة التي جاء بها الرسل جميعاً عقيدة واحدة ثابتة؛ تقرر أُلوهية واحدة للعوالم جميعها. ولا تتطور من الآلهة المتعددة، إلى التثنية، إلى الوحدانية في نهاية المطاف.. فأما جاهليات البشر ـ حين ينحرفون عن العقيدة الربانية ـ فلا حدّ لتخبّطها بين الطوطم والأرواح والآلهة المتعددة والعبادات الشمسية والتثنية والتوحيد المشوب برواسب الوثنية.. وسائر أنواع العقائد الجاهلية.. ولا يجوز الخلط بين العقائد السماوية التي جاءت كلها بالتوحيد الصحيح، الذي يُقرر إلهاً واحداً للعالمين؛ وتلك التخبطات المُنحرفة عن دين الله الصحيح.

ولقد واجه موسى ـ عليه السلام ـ فرعون وملأه بهذه الحقيقة الواحدة، التي واجه بها كل نبي ـ قبله أو بعده ـ عقائد الجاهلية الفاسِدة.. واجهه بها وهو يعلم أنها تعني الثورة على فرعون وملئه ودولته ونظام حكمه..

إن ربوبية الله للعالمين تعني ـ أول ما تعني ـ إبطال شرعية كل حُكم يزاول السلطان على الناس بغير شريعة الله وأَمْره؛ وتَنحية كل طاغوت عن

تعبيد الناس له ـ من دون الله ـ بإخضاعهم لشرعه هو وأمره. . واجَهه بهذه الحقيقة الهائلة بوصفه رسولاً من رب العالمين. مُلزماً ومأخوذاً بقول الحق على ربه الذي أرسله. . ﴿حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق﴾ . .

فما كان الرسول الذي يعلم حقيقة الله، ليقول عليه إلا الحق، وهو يعلم قدره؛ ويجد حقيقته ـ سبحانه ـ في نفسه.

﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾ . . تدلكم على صدق قولي: إني رسول من ربّ العالمين.

وباسم تلك الحقيقة الكبيرة. . حقيقة الربوبية الشاملة للعالمين. طلب موسى من فرعون أن يُطلق معه بني إسرائيل. .

إن بني إسرائيل عبيد لله وحده، فما ينبغي أن يُعَبّدهم فرعون لنفسه! إن الإنسان لا يخدم سيدين، ولا يعبد إلهين. فمن كان عبداً لله، فما يمكن أن يكون عبداً لسواه. وإذ كان فرعون إنما يُعَبّد بني إسرائيل لهواه، فقد أعلن له موسى أن ربّ العالمين هو الله. وإعلان هذه الحقيقة ينهي شرعية ما يزاوله فرعون من تعبيد بني إسرائيل!.

إن إعلان ربوبية الله للعالمين هي بذاتها إعلان تحرير الإنسان. تحريره من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله. تحريره من شرع البشر، ومن هوى البشر، ومن تقاليد البشر، ومن حكم البشر.

وإعلان ربوبية الله للعالمين لا يجتمع مع خضوع أحد من العالمين لغير الله؛ ولا يجتمع مع حاكمية أحد بشريعة من عنده للناس. . والذين يظنون أنهم مسلمون بينما هم خاضعون لشريعة من صُنع البشر ـ أي لربوبية غير ربوبية الله ـ واهمون إذا ظنوا لحظة واحدة أنهم مسلمون!.

إنهم لا يكونون في دين الله لحظة واحدة وحاكمهم غير الله، وقانونهم غير شريعة الله. إنما هم في دين حاكمهم ذاك. في دين المَلك لا في دين الله!.

وعلى هذه الحقيقة أُمر موسى ـ عليه السلام ـ أن يبني طلبه من فرعون إطلاق بني إسرائيل:

﴿يا فرعون إني رسول من ربّ العالمين﴾.. ﴿فأرسل معي بني إسرائيل﴾...

مقدمة ونتيجة.. تتلازمان ولا تفترقان.

ولم تغب على فرعون وملئه دلالة هذا الإعلان. إعلان ربوبية الله للعالمين.. لم يغب عنهم أن هذا الإعلان يحمل في طياته هدم مُلك فرعون. وقَلْب نظام حكمه، وإنكار شرعيته، وكشف عدوانه وطغيانه..

ويَعجب فرعون وهو يرى موسى يُواجهه بهذه الدعوى الضخمة: **﴿إنا رسول ربّ العالمين﴾**. ويطلب إليه ذلك الطلب الضخم! **﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾**. فإن آخر عهده بموسى أنه كان ربيباً في قصره منذ أن التقطوا تابوته. وأنه هرب بعد قتله للقبطي الذي وَجَدَهُ يَتعارك مع الإسرائيلي. وقيل: إن هذا القبطي كان من حاشية فرعون. فما أبعد المسافة بين آخر عهد فرعون بموسى إذن وهذه الدعوى الضخمة التي يُواجهه بها بعد عشر سنين! ومن ثم بدأ فرعون مُتهكماً مُستهزئاً مُستعجباً:

﴿قال: ألم نُرَبِّك فينا وليداً، ولبثتَ فينا من عُمرك سنين؟ وفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ وأنت من الكافرين﴾ [الشعراء: ١٨، ١٩]..

فهل هذا جزاء التربية والكرامة التي لقيتها عندنا وأنت وليد؟ أن تأتي اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة؟ ولِتَخْرج على المَلك الذي نشأت في بيته، وتدعو إلى إله غيره؟!.

وما بالك ـ وقد لبثت فينا من عمرك سنين ـ لم تتحدث بشيء عن هذه الدعوى التي تدّعيها اليوم؛ ولم تُخطرنا بمقدمات هذا الأمر العظيم؟!.

ويُذكّره بحادث مقتل القبطي في تهويل وتجسيم: **﴿وفعلتَ فعلتك**

التي فعلت﴾. . فعلتك البشعة الشنيعة التي لا يليق الحديث عنها بالألفاظ المفتوحة! فعلتها﴿وأنت من الكافرين﴾ بربّ العالمين الذي تقول به اليوم، فإنك لم تكن وقتها تتحدث عن ربّ العالمين!.

وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه رداً قاتلاً لا يملك موسى ـ عليه السلام ـ معه جواباً، ولا يستطيع مقاومة. وبخاصة حكاية القَتْل، وما يمكن أن يعقبها من قَصَاص، يتهدَّده به من وراء الكلمات!.

ولكن موسى وقد استجاب الله دعاءه فأزال حَبسة لسانه ـ انطلق ـ يجيب:

﴿قال: فَعَلْتُها إذن وأنا من الضالّين. ففررتُ منكم لما خِفتكم، فوهَبَ لي ربي حُكماً وجعلني من المرسلين. وتلك نِعمةٌ تمنّها عليّ أن عبَّدت بني إسرائيل﴾ [الشعراء: ٢٠ ـ ٢٢]. .

فعلتُ تلك الفعلة وأنا بعد جاهل، أندفع اندفاع العصبية لقومي، لا اندفاع العقيدة التي عرفتُها اليوم بما أعطاني ربي من الحكمة.

﴿ففررتُ منكم لما خفتكم﴾ على نفسي. فَقَسَمَ الله لي الخير، وَوَهَب لي الحكمة **﴿وجعلني من المرسلين﴾** فلست بِدعاً من الأمر، إنما أنا واحد من الرعيل «من المرسلين»[1].

لم يُجيبه تهكماً بتهكم. ولكن بالحق: **﴿وتلك نعمة تمنّها عليَّ أن عَبَّدت بني إسرائيل﴾**. . فما كانت تربيتي في بيتك وليداً إلا من جراء

---

(١) يلاحظ من ناحية التنسيق في التعبير أن حرف الفاصلة في سورة الشعراء التي منها هذه الآية هو الميم أو النون وقبلها مد. فقوله: من المرسلين. يتمشى موسيقياً مع الإيقاع السائد في السورة. بعكس ما لو قيل: وجعلني رسولاً. ولكنه مع هذا يؤدي معنى مقصوداً. وهو أنه واحد من كثيرين وأن الأمر ليس بفذ ولا عجيب. وهكذا يجتمع التناسق الفني والديني في التعبير.

استعبادك لبني إسرائيل، وقَتْلَكَ أبناءهم، مما اضطر أُمي أن تلقيني في التابوت، فتقذفُ بالتابوت في الماء، فتلتقطوني، فأُربَّى في بيتك، لا في بيت أبويّ. فهل هذا هو ما تَمنّه عليّ، وهل هذا هو فَضلك العظيم؟!.

عندئذ عَدَل فرعون عن هذه المسألة، وراح يسأله عن صميم دعواه. ولكن في تجاهل وهزء وسوء أدب في حق الله الكريم:

﴿قال فرعون: وما ربّ العالمين؟﴾ [الشعراء: ٢٣]..

إنه ـ قبّحه الله ـ يسأل: أي شيء يكون رب العالمين الذي تقول: إنك من عنده رسول؟ وهو سؤال المتنكر للقول من أساسه، المتهكم على القول والقائل، المستغرب للمسألة كلها حتى ليراها غير ممكنة التصور، غير قابلة لأن تكون موضوع حديث!.

فيجيبه موسى ـ عليه السلام ـ بالصفة المشتملة على ربوبيته ـ تعالى ـ للكون المنظور كله وما فيه:

﴿قال: ربّ السماوات والأرض وما بينهما. إن كنتم موقنين﴾ [الشعراء: ٢٤]..

وهو جواب يكافىء ذلك التجاهل ويغطيه.. إنه رب هذا الكون الهائل الذي لا يبلغ إليه سلطانك ـ يافرعون ـ ولا علمك. وقصارى ما ادعاه فرعون أنه إله هذا الشعب وهذا الجزء من وادي النيل. وهو مُلك صغير ضئيل، كالذرة أو الهباءة في ملكوت السموات والأرض وما بينهما. وكذلك كان جواب موسى ـ عليه السلام ـ يحمل استصغار ما يدّعيه فرعون مع بطلانه، وتوجيه نَظَره إلى هذا الكون الهائل، والتفكير فيمن يكون ربّه.. فهو ربّ العالمين!.. ثم عَقَّب على هذا التوجيه بما حكايته(١).. **﴿إن كنتم**

(١) لم يكن موسى يتكلم العربية. فقد كان يخاطب فرعون باللغة المصرية طبعاً. ولكن القرآن يحكي قوله.

موقنين﴾ فهذا وحده هو الذي يُحسن اليقين به والتصديق.

لقد فَزِعَ فرعون لهذه المفاجأة، ولكنه كَظَم غيظه.. واستمر الحوار والجدال: **﴿قال: فمن ربُكما يا موسى؟! قال: ربنا الذي أعطى كل شيء خَلْقَهُ ثم هدى﴾** [طه: ٤٩، ٥٠]..

إنه لا يريد أن يعترف بأن ربَّ موسى وهارون هو ربّه، كما قالا له: **﴿إنا رسولا ربك﴾** فهو يسأل موجهاً الكلام إلى موسى لما بَدا له أنه هو صاحب الدعوى: **﴿فمن ربكما يا موسى؟﴾** من ربكما الذي تتكلمان باسمه وتطلبان إطلاق بني إسرائيل؟.

فأما موسى ـ عليه السلام ـ فيردّ بالصفة المُبدعة المنشئة المدبرة من صفات الله تعالى:

﴿قال: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾.. فيرد بالصفة المبدعة المنشئة المدبرة من صفات الله تعالى:

﴿قال: ربنا الذي أعطى كل شيء خَلْقَهُ ثم هدى﴾.. ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها وفطره عليها. ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خَلَقه لها، وأمدّه بما يناسب هذه الوظيفة ويُعينه عليها.

وثم هنا ليست للتراخي الزمني. فكل شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي خُلق لها، وليس هناك افتراق زمني بين خَلْق المخلوق وخلق وظيفته. إنما هو التراخي في الرتبة بين خلق الشيء واهتدائه إلى وظيفته؛ فهداية كل شيء إلى وظيفته مرتبة أعلى من خَلْقه غفلاً..

وهذا الوصف الذي يحكيه القرآن الكريم عن موسى ـ عليه السلام ـ يُلَخّص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود: هبة الوجود لكل موجود.. وهبة خَلْقه على الصورة التي خُلِقَ بها. وهبة هدايته للوظيفة التي

خُلِقَ لها. . وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته ـ في حدود ما يطيق ـ في جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة في كل كائن صغير أو كبير. من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان.

وهذا الوجود الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا، والخلائق والأحياء؛ وكل ذرة فيه تنبض، وكلية خلية فيه تحيا، وكل حي فيه يتحرك، وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى. . وكلها تعمل منفردة ومجتمعة داخل إطار النواميس المودعة في فطرتها وتكوينها بلا تعارض ولا خلل ولا فتور في لحظة من اللحظات!.

وكل كائن بمفرده كون وحده وعالم بذاته، تعمل في داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التي فُطرت عليها، داخل حدود الناموس العام، في توافق وانتظام.

وكل كائن بمفرده ـ ودعك من الكون الكبير ـ يقف علم الإنسان وجهده قاصراً محدوداً في دراسة خواصه ووظائفه وأمراضه وعلاجه. دراستها مجرد دراسة لا خَلْقها ولا هدايتها إلى وظائفها، فذلك خارج كلية عن طوق الإنسان. وهو خَلْق من خلق الله. . وَهَبَه وجوده، على الهيئة التي وُجِد بها؟ للوظيفة التي خُلق لها، كأي شيء من هاتِه الأشياء!.

إلا أنه للإله الواحد. . ربنا الذي أعطى كل شيء خَلْقه ثم هدى. .

وقام فرعون بسؤال آخر: **﴿قال: فما بال القرون الأولى؟﴾** [طه: ٥١]. .

ما شأن القرون التي مضت من الناس؟ أين ذهبت؟ ومن كان رَبّها؟ وما يكون شأنها وقد هلكت لا تعرف إلهها هذا؟.

﴿قال: عِلْمها عند ربي في كتاب لا يضلّ ربي ولا ينسى﴾ [طه: ٥٢]..

بهذا أحال موسى ذلك الغيب البعيد في الزمان، الخافي عن العيان، إلى ربه الذي لا يفوت عِلْمه شيء ولا ينسى شيئاً. فهو الذي يعلم شأن تلك القرون كله. في ماضيها وفي مستقبلها. والغيب لله والتصرف في شأن البشر لله.

ثم يستطرد فيعرض على فرعون آثار تدبير الله في الكون وآلائه على بني الإنسان. فيختار بعض هذه الآثار المحيطة بفرعون، المشهود له في مصر ذات التربة الخصبة والماء الموفور والزروع والأنعام:

﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً، وسلك لكم فيها سبلاً، وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتّى. كلوا وارعوا أنعامكم. إن في ذلك لآياتٍ لأولي النُهى﴾ [طه: ٥٣، ٥٤]..

والأرض كلها مَهد للبشر في كل مكان وزمان. مهد كمهد الطفل. وما البشر إلا أطفال هذه الأرض. يضمهم حضنها ويغذوهم دُرّها! وهي مُمهدة لهم كذلك للسير والحرث والزرع والحياة. جعلها الخالق المدبر كذلك يوم أعطى كل شيء خَلْقه. فأعطى هذه الأرض خَلْقها على الهيئة التي خُلقت بها صالحة للحياة التي قدرها فيها؛ وأعطى البشر خَلْقهم كذلك على الهيئة التي خَلَقهم بها صالحين للحياة في هذه الأرض التي مَهَّدها لهم وجعلها مهدهم.. المعنيان متقاربان متصلان.

والخالق المدبر الذي جعل الأرض مهداً، شقّ للبشر فيها طرقاً وأنزل من السماء ماء. ومن ماء المطر تتكون الأنهار وتفيض ـ ومنها نهر النيل القريب من فرعون ـ فيخرج النبات أزواجاً من أجناس كثيرة. ومصر أظهر نموذج لإخراج النبات لطعام الإنسان ورعي الحيوان.

وقد شاء الخالق المدبر أن يكون النبات أزواجاً كسائر الأحياء. وهي

ظاهرة مطردة في الأحياء كلها. والنبات في الغالب يحمل خلايا التذكير، وخلايا التأنيث في النبتة الواحدة وأحياناً اللقاح في نبتة ذكر منفردة كما هو الحال في الفصائل الحيوانية. وبذلك يتم التناسق في نواميس الحياة ويطرد في كل الفصائل والأنواع. . ﴿إن في ذلك لآيات لأولي النُهى﴾ . . وما من عقل مستقيم يتأمل هذا النظام العجيب ثم لا يطلع فيه على آيات تدل على الخالق المدبر الذي أعطى كل شيء خَلْقه ثم هدى.

ويكمل السياق حكاية قول موسى بقول مباشر من الله جَلّ وعلا:

﴿منها خلقناكم وفيها نُعيدكم ومنها نُخرجكم تارة أخرى﴾ [طه: ٥٥]. .

من هذه الأرض التي جعلناها لكم مهداً وسلكنا لكم فيها سُبلاً وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به أزواجاً من نبات شتى، للأكل والمرعى. . من هذه الأرض خلقناكم، وفي هذه الأرض نعيدكم، ومنها نخرجكم بعد موتكم.

والإنسان مخلوق من مادة هذه الأرض. عناصر جسمه كلها من عناصرها إجمالاً. ومن زرعها يأكل، ومن مائها يشرب، ومن هوائها يتنفس. وهو ابنها وهي له مهد. وإليها يعود جثة تطويها الأرض، ورفاتاً يختلط بترابها، وغازاً يختلط بهوائها. ومنها يُبعث إلى الحياة الأخرى، كما خُلق في النشأة الأولى.

وللتذكير بالأرض هنا مناسبة في مشهد الحوار مع فرعون الطاغية المتكبر، الذي يتسامى إلى مقام الربوبية، وهو من هذه الأرض وإليها! وهو شيء من الأشياء التي خَلَقها الله في الأرض وهداها إلى وظيفتها. . ربّ العالمين **﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾** [الشعراء: ٢٤]. .

والتفت فرعون إلى مَنْ حوله، يعجبهم من هذا القول، أو لعله يصرفهم عن التأثُّر به، على طريقة الجبارين الذين يخشون تسرب كلمات

الحق البسيطة الصريحة إلى القلوب: ﴿**قال لمن حوله: ألا تستمعون؟**﴾ [الشعراء: ٢٥]. .

ألا تستمعون إلى هذا القول العجيب الغريب، الذي لا عَهْد لنا به، ولا قاله أحد نعرفه!.

ولم يلبث موسى أن هجم عليه وعليهم بصفة أخرى من صفات رب العالمين: ﴿**قال: ربكم وربّ آبائكم الأولين**﴾ [الشعراء: ٢٦]. .

وهذه أشد مساساً بفرعون ودعواه وأوضاعه، فهو يُجبهه بأن ربّ العالمين هو ربه، فما هو إلا واحد من عبيده. لا إله كما يدّعي بين قومه! وهو ربّ قومه، فليس فرعون ربّهم كما يزعم عليهم! وهو ربّ آبائهم الأولين. فالوراثة التي تقوم عليها ألوهية فرعون دَعوى باطلة. فما كان من قبل إلا الله رباً للعالمين!.

وإنها للقاصمة لفرعون. فما يُطيق عليها سكوتاً والملأ حوله يستمعون. ومن ثم يرمي قائلها في تهكّم بالجنون:

﴿**قال: إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون**﴾ [الشعراء: ٢٧]. .

إن رسولكم الذي أُرسل إليكم. . يريد أن يَتَهكّم على مسألة الرسالة في ذاتها، فيبعد القلوب عن تصديقها بهذا التهكّم، لا أنه يريد الإقرار بها والاعتراف بإمكانها. ويتّهم موسى ـ عليه السلام ـ بالجنون، ليذهب أثر مقالته التي تطعن وضع فرعون السياسي والديني في الصميم. وتردّ الناس إلى الله ربّهم وربّ آبائهم الأولين.

ولكن هذا التهكم وهذا القذف لا يَفتّ في عضد موسى، فيمضي في طريقه يصدع بكلمة الحق التي تُزلزل الطغاة والمتجبرين:

﴿**قال: ربّ المشرق والمغرب وما بينهما. إن كنتم تعقلون**﴾ [الشعراء: ٢٨]. .

والمشرق والمغرب مشهدان معروضان للأنظار كل يوم؛ ولكن القلوب لا تنتبه إليهما لكثرة تكرارهما، وشدة ألفتهما. واللفظ يدل على الشروق والغروب. كما يدل على مكاني الشروق والغروب. وهذان الحدثان العظيمان لا يجرؤ فرعون ولا غيره من المُتجبرين أن يدَّعي تصريفهما. فمن يُصرفهما إذن ومن يُنشئهما بهذا الاطّراد الذي لا يَتَخلَّف مرة ولا يُبطىء عن أجله المرسوم؟.

إن هذا التوجيه يهزّ القلوب البليدة هزّاً، ويُوقظ العقول الغافية إيقاظاً. وموسى ـ عليه السلام ـ يُثير مشاعرهم، ويدعوهم إلى التدبير والتفكير: ﴿**إن كنتم تعقلون**﴾.

تهديد غليظ والمعجزة المُزَلْزِلَة:

والطغيان لا يخشى شيئاً كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب؛ ولا يكره أحداً كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة؛ ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يَهزُّون الضمائر الغافية. ومن ثم تَرى فرعون يَهيج على موسى ويثور، عندما يمس بقوله هذا أوتار القلوب. فينهي الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح، الذي يعتمد عليه الطغاة عندما يسقط في أيديهم وتخذلهم البراهين:

﴿**قال: لئن اتخذت إلَهاً غيري لأجعلنك من المسجونين**﴾ [الشعراء: ٢٩]..

هذه هي الحجة وهذا هو الدليل: التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين. فليس السجن عليه ببعيد. وما هو بالإجراء الجديد! وهذا هو دليل العجز، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع. وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد!.

غير أن التهديد لم يُفقد موسى رباطة جأشه. وكيف وهو رسول الله؟

والله معه ومع أخيه؟ فإذا هو يفتح الصفحة التي أراد فرعون أن يُغلقها ويستريح. يفتحها بقول جديد، وبرهان جديد: **﴿قال: أَوَ لَوْ جِئْتك بشيء مبين؟﴾** [الشعراء: ٣٠]..

وحتى لو جئتك ببرهان واضح على صدق رسالتي فإنك تجعلني من المسجونين؟ وفي هذا إحراج لفرعون أمام الملأ الذين استمعوا لما سبق من قول موسى، ولو رفض الإصغاء إلى برهانه المبين لَدَلّ على خوفه من حجته، وهو يدعي أنه مجنون. ومن ثم وَجَد نفسه مُضطراً أن يطلب منه الدليل:

﴿قال: فأت به إن كنت من الصادقين﴾ [الشعراء: ٣١]..

إن كنت من الصادقين في دعواك؛ أو إن كنت من الصادقين في أن لديك شيئاً مبيناً. فهو ما يزال يُشَكِّك في موسى، خيفة أن تترك حُجته في نفوس القوم شيئاً.

وقد كان أمام فرعون ومَلَئِه أن يُظهروا موسى بمظهر الكاذب الذي يَزعم أنه رسول من رب العالمين بلا بَيِّنة ولا دليل:

﴿قال: إن كنتَ جئتَ بآية فأتِ بها إن كنتَ من الصادقين﴾ [الأعراف: ١٠٦]..

ذلك أنه إذا اتضح أن هذا الداعية إلى ربوبية رب العالمين كاذب في دعواه؛ سقطت دعوته، وهان أمره؛ ولم يعد لهذه الدعوة الخطيرة من خطر ـ وصاحبها دعيّ لا بَيِّنة عنده ولا دليل!.

هنا كشف موسى عن معجزتيه الماديتَين، وقد أخرهما حتى بلغ التحدّي من فرعون أقصاه:

﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين. ونَزَع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨]..

والتعبير يدل على أن العصا تحولت فعلاً إلى ثُعبان تدبّ فيه الحياة، وأن يده حين نزعها كانت بيضاء فعلاً. يدل على هذا بقوله: **﴿فإذا هي﴾** فلم يكن الأمر تخييلاً، كما هو الحال في السحر الذي لا يُغير طبائع الأشياء، إنما يُخَيِّل للحواس بغير الحقيقة.

ومعجزة الحياة التي تدب من حيث لا يعلم البشر، معجزة تقع في كل لحظة، ولكن الناس لا يلقون لها بالاً، لطول الألفة والتكرار، أو لأنهم لا يشهدون التحول على سبيل التحدي فأما في مثل هذا المشهد. وموسى ـ عليه السلام ـ يلقي في وجه فرعون بهاتين الخارقتين فالأمر يُزَلْزِل ويُرهب.

ها هو ذا موسى يجيب: **﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾** [الشعراء: ٣٢، ٣٣]..

إنها المفاجأة!! إن العصا تنقلب ثعباناً لا شك في ثعبانيته.. **﴿مبين﴾** وكما قيل في آية أخرى: **﴿فإذا هي حَية تسعى﴾** [طه: ٢٠].. ثم إن يده السمراء ـ وقد كان موسى عليه السلام «آدم» أي مائلاً إلى السمرة ـ يُخرجها من جيبه فإذا هي بيضاء من غير سوء، بيضاء ليست عن مرض، ولكنها المعجزة، فإذا أعادها إلى جيبه عادت سمراء!.

هذه هي البَيِّنة والآية على الدعوى التي جاء بها موسى.. إني رسول من رب العالمين.

ولكن هل يستسلم فرعون وملؤه لهذه الدعوى الخطيرة؟ هل يستسلمون لربوبية رب العالمين؟ وعلام إذن يقوم عرش فرعون وتاجه وملكه وحكمه؟ وعلام يقوم الملأ من قومه ومراكزهم التي هي من عطاء فرعون ورسمه وحكمه؟.

علام يقوم هذا كله إن كان الله هو «رب العالمين»؟.

إنه إن كان الله هو «رب العالمين» فلا حكم إلا لشريعة الله، ولا طاعة

إلا لأمر الله . . فأين يذهب شرع فرعون وأمره إذن، وهو لا يقوم على شريعة الله ولا يـرتكن إلى أمره؟ . . إن النـاس لا يكون لهم «ربّ» آخـر يُعبِّدَهم لحكمه وشرعه وأمره، إن كان الله هو ربّهم . . إنما يخضع النـاس لشرع فرعون وأمره حين يكون ربهم هو فرعون. فالحاكم ـ بأمره وشرعه ـ هو رب الناس. وهم في دينه أياً كان!.

وقد أحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها، فأسرع يقاومها ويدفعها، وهو يحس ضعف موقفه، ويكاد يتملق القوم من حوله، ويُهيج مخاوفهم من موسى وقومه، ليغطي على وَقْع المعجزة المُزَلْزِلة:

﴿قال للملأ حوله: إن هـذا لساحـر عليم، يريـد أن يُخرجكم من أرضكم بسحره، فماذا تأمرون؟﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥]. .

وفي قولة فرعون هذه يبدو إقراره بعظمة المعجزة وإن كـان يسميها سحراً؛ فهو يصف صاحبها بأنه ساحر «عليم».

ويبدو ذُعره من تَأَثُّر القوم بها فهو يُغريهم به: **﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾** ويبدو تضعضعه وتهاويه وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلهاً، فيطلب أمرهم ومشورتهم: **﴿فماذا تأمرون؟﴾** ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون!.

وتلك شَنشنة الطغاة حينما يحسّون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم. عندئذ يَلينـون في القول بعـد التجبُّر. ويلجـأون إلى الشعوب وقـد كانـوا يدوسونها بالأقدام. ويتظاهـرون بالشـورى في الأمر وهم كـانوا يستبـدون بـالهوى. ذلـك إلى أن يتجاوزوا منـطقة الخـطر، ثم إذا هم هم جبابـرة مستبدون ظالمون!.

وأشار عليه الملأ؛ وقد خَدَعَتْهم مكيدتـه، وهم شركـاء فرعـون في باطله، وأصحاب المصلحة في بقاء الأوضاع التي تجعلهم حاشية مقربـة

ذات نفوذ وسلطان؛ وقد خافوا أن يغلبهم موسى وبنو إسرائيل على أرضهم لو اتبعتهم الجماهير، حين ترى مُعجِزَتَي موسى وتسمع إلى ما يقول.. أشاروا عليه أن يَلْقَى سِحره بسحر مثله، بعد التهيئة والاستعداد: ﴿**قالوا: أَرْجه وأخاه. وابعث في المدائن حاشرين، يأتوك بكل سحار عليم**﴾ [الشعراء: ٣٦، ٣٧]..

أي أَمْهله وأخاه إلى أَجَل؛ وابعث رُسلك إلى مدائن مصر الكبرى، يجمعون السَحَرة المَهَرة، لإقامة مباراة للسحر بينهم وبينه.

كلا! إن الطاغوت لا يستسلم هكذا من قريب، ولا يسلم ببطلان حكمه وعدم شرعية سلطانه بمثل هذه السهولة!.

وفرعون وملؤه لا يُخطئون فَهْم مدلول هذه الحقيقة الهائلة التي يُعلنها موسى. بل إنهم ليعلنونها صريحة. ولكن مع تحويل الأنظار عن دلالتها الخطيرة، باتهام موسى بأنه ساحر عليم:

﴿**قال الملأ من قوم فرعون: إن هذا لساحر عليم. يريد أن يُخرِجَكم من أرضكم. فماذا تأمرون؟**﴾ [الأعراف: ١٠٩، ١١٠]..

إنهم يُصرّحون بالنتيجة الهائلة التي تتقرر من إعلان تلك الحقيقة. إنها الخروج من الأرض.. إنها ذهاب السلطان.. إنها إبطال شرعية الحكم.. أو.. محاولة قلب نظام الحكم!.. بالتعبير العصري الحديث!.

إن الأرض لله. والعباد لله. فإذا رُدَّت الحاكمية في أرض الله، فقد خرج منها الطغاة، الحاكمون بغير شرع الله! أو خرج منها الأرباب المتألهون الذين يُزاولون خصائص الألوهية بتعبيد الناس لشريعتهم وأَمْرهم. وخرج منها الملأ الذين يُولّيهم الأرباب المناصب والوظائف الكبرى، فَيُعبِّدون الناس لهذه الأرباب!.

ولقد أدرك فرعون وملئه خطر الدعوة إلى «ربّ العالمين». وأحسوا أن

توحيد الربوبية معناه سلب سلطان فرعون ـ وسلطانهم المستمد منه ـ فَعَبَّروا عن هذا الخطر بأن موسى يريد أن يُخرجهم من أرضهم: ﴿**قال الملأ من قوم فرعون: إنَّ هـذا لساحـر عليم. يُريـد أن يُخرجكم من أرضكم. فمـاذا تأمرون؟**﴾ [الأعراف: ١٠٩، ١١٠]. . ﴿**وقال الملأ من قوم فرعون: أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك؟**﴾ [الأعراف: ١٢٧]. .

وما أرادوا إلا أن هذه الدعوة إلى ربّ العالمين لا تحمل إلا مدلولاً واحـداً هو انتـزاع السلطان من يَد العبيـد ـ الطواغيت ـ وردّه إلى صـاحبه ـ سبحانه ـ وهذا معناه ـ من وجهة نظرهم ـ الإفساد في الأرض! أو كما يقال اليوم في قِوانين الجاهلية لمثل هذه الدعوة بذاتها: إنها محاولة لقلب نظام الحكم! ومن وجهة نظر طواغيت الجاهليـة التي تغتصب سلطان الله ـ أي تغتصب ربوبيته وتزاول اختصاصاتها ولو لم تقل هذا باللسان ـ يكون هذا «قلباً» لنظام الحكم. لأن نظام الحكم في الجاهليات يقوم على ربوبية عَبْد من العبيد لبقية العبيـد. . بينما الـدعوة إلى ربّ العـالمين تعني أن تكون الربوبية على العبيد لخالق العبيد!.

﴿**ولقد أريناه آياتنا كلها فكذَّب وأبَى**﴾ [طه: ٥٦]. .

أريناه الآيات الكونية التي وَجَّهَـهُ إليها مـوسى ـ عليه السـلام ـ فيما حوله، وآيتي العصا واليد يجملهمـا هنا لأنهمـا بعض آيات الله، ومـا في الكون منها أكبر وأبقى. لذلك لا يفصل السياق هنا عرض هاتين الآيتين على فرعون، فهذا مفهوم ضمناً، إنما يُفصل ردّه على الآيات كلها فنفهم أنه يُشير إليهما:

﴿**قال: أجِئْتَنا لِتُخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى؟ فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نُخلفه نحن ولا أنت، مكاناً سُوَى. قال: موعدكم يوم الزينة وأن يُحشَر الناس ضُحى**﴾ [طه: ٥٧ ـ ٥٩]. .

وهكذا لم يمض فرعون في الجَدَل، لأن حجّة موسى ـ عليه السلام ـ

فيه واضحة وسلطانه فيه قوي، وهو يستمد حجته من آيات الله في الكون، ومن آياته الخاصة معه.. إنما لجأ إلى اتهام موسى بالسحر الذي يجعل العصا حية تسعى، ويُحيل اليد بيضاء من غير سوء. وقد كان السحر أقرب خاطر إلى فرعون لأنه مُنتشر في ذلك الوقت في مصر؛ وهاتان الآيتان أقرب في طبيعتهما إلى المعروف من السحر.. وهو تخييل لا حقيقة، وخداع للبصر والحواس، قد يصل إلى خداع الإحساس، فينشىء فيه آثاراً محسوسة كآثار الحقيقة. كما يشاهد من رؤية الإنسان لأشياء لا وجود لها، أو في صورة غير صورتها. وما يشاهد من تَأَثُّر المسحور أحياناً تَأَثُّرات عصبية وجسدية كما لو كان الأَثَر الواقع عليه حقيقة.. وليس من هذا النوع آيتا موسى. إنما هما من صُنع القدرة المبدعة المحوّلة للأشياء حقاً. تحويلاً وقتياً أو دائماً.

﴿قال: أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى؟﴾..

ويظهر أن استعباد بني إسرائيل كان إجراءً سياسياً خوفاً من تكاثرهم وغلبتهم. وفي سبيل المُلك والحكم لا يتحرّج الطُّغاة من ارتكاب أشد الجرائم وحشية وأشنعها بربرية وأبعدها عن كل معاني الإنسانية وعن الخُلق والشَرف والضمير.. ومن ثم كان فرعون يستأصل بني إسرائيل ويذلّهم بقتل المواليد. واستبقاء الإناث؛ وتسخير الكبار في الشاقّ المُهلك من الأعمال.. فلما قال له موسى وهارون: أرسل معنا بني إسرائيل ولا تُعَذّبهم. قال: **﴿أجئتنا لتُخرِجَنا من أرضنا بسحرك يا موسى؟﴾** لأن إطلاق بني إسرائيل تمهيد للاستيلاء على الحكم والأرض. وإذا كان موسى يطلب إطلاق بني إسرائيل لهذا الغَرَض، وكل ما يُقدّمه هو عمل من أعمال السحر، فما أسهل الرد عليه: **﴿فلنأتينك بسحر مثله﴾**.. وهكذا يفهم الطغاة أن دعوى أصحاب العقائد إنما تخفي وراءها هدفاً من أهداف هذه الأرض؛ وأنها ليست سوى ستار للمُلك والحكم.. ثم هم يرون مع أصحاب الدعوات آيات، إما خارقة كآيات موسى، وإما مؤثرة في الناس تأخذ طريقها

إلى قلوبهم وإن لم تكن من الخوارق. فإذا الطغاة يقابلونها بما يُماثلها ظاهرياً. . سحر نأتي بسحر مثله! كلام نأتي بكلام من نوعه! صلاح نتظاهر بالصلاح! عمل طيب نُرائي بعمل طيب! ولا يدركون أن للعقائد رصيداً من الإيمان، ورصيداً من عون الله؛ فهي تَغْلِب بهذا وبذاك، لا بالظواهر والأشكال!.

ويجمل القرآن في سورة المؤمنين قصة موسى في الرسالة والتكذيب: **﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين، إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين. فقالوا: أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون؟ فكذبوهما فكانوا من المُهلَكِين﴾** [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٨]. .

ويبرز في هذا الاستعراض الاعتراض على بشرية الرسل: **﴿فقالوا: أنؤمن لبشرين مثلنا﴾** ويزيد عليه تلك الملابسة الخاصة بوضع بني إسرائيل في مصر: **﴿وقومهما لنا عابدون﴾** مُسخّرون خاضعون. وهي أدعى ـ في اعتبار فرعون وملئه ـ إلى الاستهانة بموسى وهارون.

فأما آيات الله التي معهما، وسلطانه الذي بأيديهما، فكل هذا لا إيقاع له في مثل تلك القلوب المطموسة، المستغرقة في ملابسات هذه الأرض، وأوضاعها الباطلة، وقِيَمها الرخيصة.

وهكذا أدرك فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة. . وكذلك يُدركها الطواغيت في كل مرة. . لقد قال الرجل العربي ـ بفطرته وسليقته ـ حين سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله: «هذا أَمْرٌ تكرهه الملوك!». وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته: «إذن تُحاربك العرب والعجم». .

لقد كان هذا العربي وذاك يفهم مدلولات لغته. كان يفهم أَنَّ شهادة أن لا إله إلا الله ثورة على الحاكمين بغير شرع الله عرباً كانوا أم عجماً! كانت لشهادة أن لا إله إلا الله جدّيتها في حسّ هؤلاء العرب، لأنهم كانوا

يفهمون مدلول لغتهم جيداً. فما كان أحد منهم يفهم أنه يمكن أن تجتمع في قلب واحد، ولا في أرض واحدة، شهادة أن لا إله إلا الله، مع الحكم بغير شرع الله! فيكون هناك آلهة مع الله! ما كان أحد منهم يفهم شهادة أن لا إله إلا الله كما يفهمها اليوم من يَدعون أنفسهم «مسلمين» ذلك الفَهْم الباهت التافه الهزيل!.

وهكذا قال الملأ من قوم فرعون، يتشاورون مع فرعون: ﴿**إن هذا لساحر عليم. يريد أن يخرجكم من أرضكم. فماذا تأمرون؟**﴾ [الأعراف: ١٠٩ - ١١٠]..

واستقرّ رأيهم على أمر: ﴿**قالوا: أرجه وأخاه، وأرسل في المدائن حاشرين، يأتوك بكل ساحر عليم**﴾ [الأعراف: ١١ - ١١٢]، ﴿**يأتوك بكل سحّار عليم**﴾ [الشعراء: ٣٧]..

وكانت أرض مصر تموج بالكهنة في شتى المعابد. وكان الكهنة هم الذين يزاولون أعمال السحر. ففي الوثنيات كلها تقريباً يقترن الدين بالسحر؛ ويزاول السحر كهنة الديانات وسدنة الآلهة! وهذه الظاهرة هي التي يلتقطها «علماء الأديان!» فيتحدث بعضهم عن السحر كمرحلة من مراحل تطور العقيدة! ويقول الملحدون منهم: إن الدين سَيَبْطُل كما بَطل السحر! وإن العلم سينهي عَهْد الدّين كما أنهى عهد السحر!.. إلى آخر هذا الخبط الذي يسمونه: «العلم»!.

وقد استقر رأي الملأ من قوم فرعون، على أن يُرجىء فرعون موسى إلى موعد. وأن يرسل في أنحاء البلاد مَن يَجمع له كبار السحرة. ذلك ليواجهوا «سحر موسى» بزعمهم - بسحر مثله -.

وعلى كل ما عُرف من طغيان فرعون، فقد كان في تصرفه هذا أقل طغياناً من طواغيت كثيرة في القرن العشرين؛ في مواجهة دعوة الدعاة إلى ربوبية ربّ العالمين! وتهديد السلطان الباطل بهذه الدعوة الخطيرة!.

وقد طلب فرعون إلى موسى تحديد موعد للمباراة مع السحرة. . وتَرَكَ له اختيار ذلك الموعد: للتحدّي ـ **﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً﴾** وشدّد عليه في عدم إخلاف الموعد زيادة في التحدي: **﴿لا نُخلفه نحن ولا أنت﴾**. وأن يكون الموعد في مكان مفتوح مكشوف: **﴿مكاناً سُوَى﴾** مبالغة في التحدي!.

وقَبِلَ موسى ـ عليه السلام ـ تحدّي فرعون له؛ واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة، يأخذ فيه الناس في مصر زينتهم، ويتجمعون في الميادين والأمكنة المكشوفة؛ **﴿قال: موعدكم يوم الزينة﴾** وطلب أن يجمع الناس ضُحَى، ليكون المكان مكشوفاً والوقت ضاحياً. **﴿وأن يُحشر الناس ضحى﴾** [طه: ٥٨، ٥٩]. .

فقابل التحدي بمثله وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعاً في يوم العيد. لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت. ولا في الظهيرة فقد يعوقهم الحرّ، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤية. . !!.

وانتهى المشهد الأول من مشاهد اللقاء بين الإيمان والطغيان لِلِّقاء المُنْتَظَر في الميدان. .

وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد المباراة. .

إلى الميدان:

لقد تعلق فرعون وملؤه بحكاية السحر، وأرادوا ـ في أغلب الظن ـ أن يُفرّقوا الجماهير بها، بأن يعقدوا حلقة للسّحرة يتحدُّون بها موسى وما معه من آيات تشبه السحر في ظاهرها، ليخرجوا منها في النهاية بأن موسى ليس إلا ساحراً ماهراً. وبذلك ينتهي الخَطَر الذي يخشونه على مُعتقداتهم الموروثة، وعلى سلطانهم في الأرض، وهو الأساس. . ونُرجّح أن هذه

كانت الدوافع الحقيقية لمهرجان السحرة، بعدما أفصح القوم عن شعورهم بالخطر الحقيقي الذي يتوقعونه: **﴿وقال فرعون: ائتوني بكل ساحر عليم﴾** [يونس: ٧٩].

وجَهِدَ فرعون ومَلَئِه في جَمْع السحرة من المدائن..

وفي يوم الزينة ترى الناس يخرجون من بيوتهم ضُحَىً! ويمشون إلى الميدان أفواجاً.. ولا تسمع في المَطرِيّة[1] إلا حديث السِّحر وأسماء السَّحرة.. وجاء السَّحرة من كل حَدب وصَوْب وأقبلوا بِخُيَلائِهم وفَخْرِهم يحملون العصيّ والحبال.

ويُرفع الستار على مشهد السَّحرة يُحشَدون، والناس يُجمعون للمباراة، وتُبثّ فيهم الحماسة للسَّحرة ومن خلفهم من أصحاب السلطان؛ وتهيأ أرض المباراة بين الحق والباطل، أو بين الإيمان والطغيان.

﴿فَجُمِعَ السحرة لميقات يوم معلوم. وقيل للناس: هل أنتم مجتمعون، لعلنا نَتَّبِع السحرة إن كانوا هم الغالبين؟﴾ [الشعراء: ٣٨ - ٤٠]..

وتظهر من التعبير حركة الإهاجة والتحميس للجماهير: **﴿هل أنتم مُجْتَمعون، لَعَلَّنا نتبع السحرة؟﴾** هل لكم في التجمُّع وعدم التخلُّف عن الموعد، ليترقب فوز السحرة وغلبتهم على موسى الإسرائيلي! والجماهير دائماً تَتجمَّع لمثل هذه الأمور، دون أن تفطن إلى أن حُكامها الطغاة يَلْهون بها ويَعبثون، ويُشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات، لِيَلْهوها عما تُعاني من ظُلم وكَبْت وبُؤس. وهكذا تَجمَّع المصريون ليشهدوا المباراة بين السحرة وموسى - عليه السلام -!.

ثم يجيء مشهد السحرة بحضرة فرعون قبل المباراة، يَطْمَئِنُّون على

---

(١) قصبة مصر أيام الفراعنة.

الأَجْر والمكافأة إن كانوا هم الغالبين؛ ويتلقون من فرعون الوعد بالأجر الجزيل والقُربى من عرشه الكريم! : ﴿**فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: أَئِنَّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين؟ قال: نعم، وإنكم إذن لمن المقربين**﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢].

وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة مأجورة يَستعين بها فرعون الطاغية؛ تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره؛ ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة. وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة دائماً في كل مكان وفي كل زمان.

وها هم أولاء يستوثقون من الجزاء على تعبهم ولعبهم وبراعتهم في الخداع. وها هو ذا فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر. يعدهم أن يكونوا من المُقربين إليه. وهو بزعمه المَلك والإله!.

ويكشف القرآن على المشهد ويُصَوّره كأنه واقع منظور، لا حكاية تُروى!.

﴿**وجاء السحرة فرعون، قالوا: إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين؟ قال: نعم، وإنكم لمن المقربين**﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤]..

إنهم مُحترفون.. يحترفون السحر كما يحترفون الكهانة! والأجر هو هَدَف الاحتراف في هذا وذاك! وخدمة السلطان الباطل والطاغوت الغالب هي وظيفة المُحترفين من رجال الدين! وكلما انحرفت الأوضاع عن إخلاص العبودية لله، وإفراده ـ سبحانه ـ بالحاكمية؛ وقام سلطان الطاغوت مقام شريعة الله، احتاج الطاغوت إلى هؤلاء المحترفين، وكافأهم على الاحتراف، وتبادل وإياهم الصفقة: هم يُقرُّون سلطانه باسم الدين! وهو يُعطيهم المال ويَجعلهم من المُقربين!.

ولقد أكد لهم فرعون أنهم مأجورون على حرفتهم، وَوَعَدَهم مع الأجر

القُربى منه، زيادة في الإغراء، وتشجيعاً على بذل غاية الجهد.. وهو وهم لا يعلمون أن الموقف ليس موقف الاحتراف والبراعة والتضليل؛ إنما هو موقف المُعجزة والرسالة والاتصال بالقوة القاهرة، التي لا يقف لها الساحرون ولا المُتَجَبِّرون!.

﴿فتولَّى فرعون فَجَمع كيده ثم أتى﴾ [طه: ٦٠].

ويجمل السياق في هذا التعبير كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه، وما دار بينه وبين السَّحرة من تشجيع وتحميس وَوَعْد بالمكافأة، وما فكّر فيه وما دبَّر هو ومستشاروه.. يُجمله في جملة: **﴿فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى﴾**.. وتُصوّر تلك الآية الواحدة القصيرة ثلاث حركات متواليات: ذهاب فرعون، وجَمْع كَيده، والإتيان به.

ورأى موسى ـ عليه السلام ـ قبل الدخول في المباراة أن يبذل لهم النصيحة، وأن يُحذِّرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله، لعلهم يثوبون إلى الهدى، ويدَعُون التحدّي بالسِّحر، والسِّحر افتراء:

﴿قال لهم موسى: ويلكم! لا تفتروا على الله كذباً فَيُسْحِتَكم[1] بعذاب، وقد خاب من افترى﴾ [طه: ٦١]..

والكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتَنفذ فيها. ويبدو أن هذا الذي كان؛ فقد تَأَثَّر بعض السحرة بالكلمة المُخْلِصة، فَتَلَجْلَجَ في الأمر؛ وأخذ المُصِرُّون على المباراة يُجادلونهم هَمساً خيفة أن يسمعهم موسى: **﴿فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى﴾** [طه: ٦٢]..

وجعل بعضهم يُحمّس بعضاً، وراحوا يُهَيّجون في المُتَرَدِّدين الخوف من موسى وهارون، اللذين يريدان الاستيلاء على مصر وتغيير عقائد أهلها،

---

(١) يهلككم ويستأصلكم.

مما يوجب مواجهتهما يداً واحدة بلا تردد ولا نزاع. واليوم هو يوم المعركة الفاصلة والذي يغلب فيها الفالح الناجح:

﴿قالوا: إنْ هذان لساحران يُريدان أن يُخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المُثلى. فأَجْمِعُوا كَيدكم ثم أتوا صفاً. وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ [طه: ٦٣ - ٦٤]..

وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة الصادرة عن عقيدة، كالقذيفة في معسكر المُبطلين وصفوفهم، فَتُزَعْزِع اعتقادهم في أنفسهم وفي قدرتهم، وفي ما هم عليه من عقيدة وفكرة. وتحتاج إلى مثل هذا التحميس والتشجيع. وموسى وأخوه رجلان اثنان، والسَّحرة كثيرون، ووراءهم فرعون ومُلكه وجُنده وجَبَروته وماله.. ولكن موسى وهارون كان معهما ربّهما يَسمع ويَرى..

ولعل هذا هو الذي يفسر لنا تصرف فرعون الطاغية المتجبر، وموقف السحرة ومَنْ ورائهم فرعون. فمن هو موسى ومن هو هارون من أول الأمر حتى يتحدَّاهما فرعون ويقبل تحديهما؛ ويجمع كَيده ثم يأتي، ويُحشر السحرة ويُجمع الناس؛ ويجلس هو والملأ من قومه ليشهدوا المباراة؟.

وكيف قَبِلَ فرعون أن يُجادله موسى ويُطاوله؟ وموسى فَرْد من بني إسرائيل المُستعبدين المُستذلِّين تحت قهره؟.. إنها الهيبة التي ألقاها الله على موسى وهارون وهو معهما يسمع ويرى..

وهي كذلك التي جعلت جملة واحدة توقع الارتباك في صفوف السحرة المُدَرَّبين، فتحوجهم إلى التناجي سراً؛ وإلى تجسيم الخطر، واستثارة الهمم، والدعوة إلى التجمع والترابط والثبات.

بين الحق والباطل:

ثم إذا مشهد المباراة الكبرى.. ويبدأ المشهد عادياً. إلا أنه يَشي منذ

البدء باطمئنان موسى إلى الحقّ الذي معه؛ وقلّة اكتراثه لجموع السحرة المحشودين من المدائن، المستعدين لعَرض أقصى ما يملكون من براعة، ووراءهم فرعون وملؤه، وحولهم تلك الجماهير المُضلَّلَة المخدوعة. .

ها هم أولاء السحرة وقد اطمأنوا على الأجر، واشرأبت أعناقهم إلى القُربى من فرعون، واستعدوا للحلبة. . ثم ها هم أولاء يتوجهون إلى موسى ـ عليه السلام ـ بالتحدّي. . ثم يكون من أَمرهم ما قَسَم الله لهم من الخير الذي لم يكونوا يَحتسبون، ومن الأجر الذي لم يكونوا يتوقعون **﴿قالوا يا موسى، إما أن تُلقي وإما نكون نحن الملقين. . قال: ألقوا﴾** [الأعراف: ١١٥، ١١٦]. .

ها هم أولاء السحرة وقد أَقدموا. . وهي دعوة الميدان إلى النزال. يبدو فيها التماسك وإظهار النصفة والتحدي:

﴿قالوا: يا موسى إما أن تُلقي وإما أن نكون أول من ألقى﴾ [طه: ٦٥]. .

فَقَبِلَ التحدي، وترك لهم فرصة البدء، واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة. .

إنه الاطمئنان في قلب موسى في تركهم إياهم يبدأون: **﴿قال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون﴾** [الشعراء: ٤٣]. .

وفي التعبير ذاته ما يشي بالاستهانة **﴿أَلقوا ما أنتم مُلقون﴾**. . بلا مبالاة ولا تحديد ولا اهتمام.

وهكذا تتجلى ثقة موسى ـ عليه السلام ـ واستهانته بالتحدي **﴿قال: ألقوا﴾** [الأعراف: ١١٦]. . فهذه الكلمة الواحدة تبدو فيها قلة المبالاة وتُلقي ظل الثقة الكامنة وراءها في نفس موسى على طريقة القرآن في إلقاء الظلال، بالكلمة المفردة في كثير من الأحايين. .

وحشد السحرة أقصى مهارتهم وأعظم كيدهم وبدأوا الجولة باسم فرعون وعزّته: **﴿فألقوا حبالهم وعصيّهم، وقالوا: بعزّة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾** [الشعراء: ٤٤]..

وبينما نحن في ظل الاستهانة وعدم المبالاة.. وإذا بالسياق القرآني يُفاجئنا بما فُوجىء به موسى ـ عليه السلام ـ. ماذا حدث؟ إنه لَسِحْر عظيم فيما يبدو إذا بنا أمام مظهر السحر البارع الذي يُرهب ويُخيف: **﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾** [الأعراف: ١١٦]..

وحسبنا أن يُقرر القرآن أنه سحر عظيم، لِنُدرك أي سحر كان. وحسبنا أن نعلم أنهم سحروا **﴿أعين الناس﴾** وأثاروا الرهبة في قلوبهم: **﴿واسترهبوهم﴾** لنتصور أي سحر كان. ولفظ «استرهب» ذاته لفظ مُصوّر. فهم استجاشوا إحساس الرهبة في الناس وقسروهم عليه قسراً.

وحركة مفاجئة ماجت بها الساحة حتى موسى: **﴿فإذا حبالهم وعصيّهم يُخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفةً موسى﴾** [طه: ٦٦، ٦٧]..

والتعبير يشي بعظمة ذلك السحر حتى ليوجس في نفسه خيفة موسى. وحسبنا أن نعلم من هذا النص القرآني أنه قد أضمر في نفسه خوفاً لنتصور حقيقة ما كان، ومعه ربه يسمع ويرى. وهو لا يوجس في نفسه خيفة إلا لأمر جَلَلْ يُنسيه لحظة أنه الأقوى، حتى يُذكِّره ربه بأن معه القوة الكبرى، فيبقى في ظل الطمأنينة والثبات للحق:

﴿قلنا: لا تخف، إنك أنت الأعلى. وألقِ ما في يمينك تَلْقَف ما صنعوا. إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يُفلح الساحر حيث أتى﴾ [طه: ٦٧، ٦٨]..

لا تخف إنك أنت الأعلى. فمعك الحق ومعهم الباطل. معك

العقيدة ومعهم الحرفة. معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة. أنت متصل بالقوة الكبرى وهم يخدمون مخلوقاً بشرياً فانياً مهما يكن طاغية جباراً.

لا تخف ﴿وألقِ ما في يَمينك﴾ بهذا التنكير للتضخيم ﴿تلقف ما صنعوا﴾. فهو سحر من تدبير ساحر وعمله. والساحر لا يُفلح أنَّى ذهب وفي أي طريق سار، لأنه يتبع تخييلاً ويصنع تخييلاً؛ ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية. شأنه شأن كل مُبطل أمام القائم على الحق المعتمد على الصدق. وقد يبدو باطله ضخماً فخماً، مخيفاً لمن يغفل عن قوة الحق الكامنة الهائلة التي لا تتبختر ولا تتطاول ولا تتظاهر؛ ولكنها تدفع الباطل في النهاية، فإذا هو زاهق وتلقفه فتطويه، فإذا هو يتوارى.

لقد خُيل لموسى أنها حَيَّات على الأرض تسعى، ولكنه وَهْم تَسلَّل إلى خَلَجات نفسه. حَذَراً وخَوفاً أن يُؤْخَذَ الناس بهذا الظاهر المُمَوَّه، والباطل المُشوَّه، فينصرفوا عن دعوته مُدبرين؛ بكثرة هذه الأجرام وعظمها.. وثَبَّته الله وربَطَ على قلبه:

﴿قال موسى: ما جئتم به السحر، إن الله سَيُبطله، إن الله لا يصلح عَمَل المُفسدين، ويُحقّ الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ [يونس: ٨١، ٨٢].

وفي قولة موسى: ﴿ما جئتم به السحر﴾.. ردّ على تهمة السحر التي وُجِّهت إليه. فالسحر هو هذا الذي يصنعه هؤلاء، لأنه ليس أكثر من تخييل وسحر للأنظار لا هَدَف له إلا اللعب بالعقول، ولا تصحبه دعوة، ولا تقوم عليه حركة. فهذا هو السحر لا آيات الله التي جاءهم بها حقاً من عند الله..

وفي قوله: ﴿وإن الله سيبطله﴾.

تتجلى ثقة المؤمن الواثق بربه، المُطمئن إلى أن ربّه لا يرضى أن ينجح السحر وهو عمل غير صالح:

﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾.. الذين يُضلّلون الناس بالسحر، أو الملأ الذين جاءوا بالسحرة بنيّة الفساد والإبقاء على الضلال.

﴿ويُحقّ الله الحق بكلماته﴾.. كلماته التكوينية ﴿كن فيكون﴾.. وهي تعبير عن تَوجُّه المشيئة. أو كلماته التي هي آياته وبيناته.

﴿ولو كَرِهَ المجرمون﴾.. فإن كراهتهم لا تُعطل مشيئة الله، ولا تَقِف دون آياته.

وقد كان.. وبَطَلَ السِّحر وعَلاَ الحق..

ها هي ذي مفاجأة أخرى تُطالع فرعون وملأه، وتُطالع السَّحرة الكهنة، وتُطالع جماهير الناس في الساحة الكبرى التي شهدت ذلك السحر العظيم:

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألْقِ عصاك، فإذا هي تَلْقَفْ ما يَأفكون. فَوَقَع الحقّ وبَطَل ما كانوا يعملون. فَغُلِبُوا هنالك، وانقلبوا صاغرين﴾ [الأعراف: ١١٧ ـ ١١٩]..

إنه الباطل ينتفش، ويسحر العيون، ويسترهب القلوب، ويُخيل إلى الكثيرين أنه غالب، وأنه جارف، وأنه محيق! وما هو إلا أن يُواجه الحق الهادىء الواثق حتى ينفثىء كالفقاعة، وينكمش كالقنفذ، وينطفىء كشعلة الهشيم! وإذا الحق راجح الوزن، ثابت القواعد، عميق الجذور..

والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال، وهو يصدر الحقّ واقعاً ذا ثقل: ﴿فوقع الحق﴾.. وثبت، واستقر.. وذهب ما عداه فلم يعد له وجود: ﴿وبَطَلَ ما كانوا يعملون﴾.. وغلب الباطل والمبطلون وذلُّوا وصَغروا وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يُبهر العيون: ﴿فَغُلِبوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾..

المفاجأة الكبرى المذهلة:

وألقى موسى.. ووقعت المفاجأة الكبرى. والسياق يُصوّر ضخامة المفاجأة بِوَقْعها في نفوس السحرة الذين جاءوا للمباراة فهم أحرص الناس على الفوز فيها، والذين كانوا منذ لحظة يُحمِّس بعضهم بعضاً ويدفع بعضهم بعضاً. والذين بلغت بهم البراعة في فَنّهم إلى حدّ أن يُوجس في نفسه خيفة موسى.

ويُخيل إليه ـ وهو الرسول ـ أن حبَالهم وعصيّهم حيات تسعى! ﴿**قلنا: لا تخف! إنك أنت الأعلى، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا. إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى**﴾ [طه: ٦٨، ٦٩]..

وينتهي سياق القصة مسارعاً إلى عاقبة المباراة بين الحق والباطل.. ﴿**فألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف ما يأفكون**﴾ [الشعراء: ٤٥]..

ووقعت المفاجأة المذهلة التي لم يكن يتوقعها كبار السحرة؛ فلقد بذلوا غاية الجهد في فَنّهم الذي عاشوا به وأتقنوه؛ وجاءوا بأقصى ما يملك السحرة أن يصنعوه. وهم جَمع كثير. محشود من كل مكان. وموسى وَحْده، وليس معه إلا عَصَاه. ثم إذا هي تلقف ما يأفكون؛ واللَّقف أسرع حركة للأكل. وعَهْدهم بالسحر أن يكون تَخييلاً، ولكن هذه العصا تَلْقَف حِبالهم وعصيّهم حقاً. فلا تُبقي لها أثراً. ولو كان ما جاء به موسى سحراً، لبقيت حبالهم وعصيهم بعد أن خُيل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعتها. ولكنهم ينظرون فلا يجدونها فعلاً!.

عندئذ لا يملكون أنفسهم من الإذعان للحق الواضح الذي لا يَقبل جَدَلاً. وهم أعرف الناس بأنه الحق..

ولكن المفاجأة لم تُخْتَتَم بعد، والمشهد ما يزال يحمل مفاجأة أخرى.. مفاجأة كبرى..

﴿وأُلقي السحرة ساجدين. قالوا: آمنا بربّ العالمين، ربّ موسى وهارون﴾ [الأعراف: ١٢٠ ـ ١٢٢]. .

إنها صولة الحق في الضمائر. ونور الحق في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب المُهيَّأة لتلقي الحق والنور واليقين. .

إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فَنّهم، ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه. وهم أعرف الناس بالذي جاء به موسى إن كان من السحر والبَشَر، أم من القدرة التي وراء مقدور البَشَر والسحر. والعالم في فَنّه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له، لأنه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة، ممن لا يعرفون في هذا الفن إلا القشور. . ومن هنا تحول السَّحرة من التحدّي السافر إلى التسليم المُطْلَق، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين. .

والسياق يُصوّر ببراعة وَقْع المفاجأة في نفوسهم في صورة تَحَوّل كامل في مشاعرهم ووجدانهم، لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه؛ ولا يكفي النطق للإفضاء به:

﴿فأُلقي السحرة سجداً. قالوا آمنا بربّ هارون وموسى﴾ [طه: ٧٠]. . **﴿فَأُلقي السحرة ساجدين. قالوا آمنا بربّ العالمين. ربّ موسى وهارون﴾** [الشعراء: ٤٦ ـ ٤٨]. .

إنها اللمسة تُصادف العَصَب الحسَّاس فَيَنْتَفِض الجسم كله. وتصادف «الزِرّ» فينبعث النور ويُشرق الظلام. إنها لَمسة الإيمان للقلب البشري تُحوّله في لحظة من الكفر إلى الإيمان.

وهم قد كانوا منذ لحظة مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم، ولم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضية. ولكن الحق الذي مسّ قلوبهم قد حولهم تحويلاً. لقد كانت هَزَّة رجَّتهم رجّاً، وخَضَّتهم خضّاً؛

ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم، فأزالت عنها ركام الضلال، وجعلتها صافية حية خاشعة للحق، عامرة بالإيمان، في لحظات قصار. فإذا هم يجدون طأنفسهم مُلقين سُجداً، بغير إرادة منهم، تتحرك ألسنتهم، فتنطلق بكلمة الإيمان، في نصاعة وبيان: **﴿آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون﴾**.

وإن القلب البشري لعجيب غاية العجب، فإن لمسة واحدة تُصادف مكانها لِتُبَدّله تبديلاً. وصدق رسول الله ـ ﷺ : «ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن. إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه» ـ أخرجه الشيخان ـ.

وهكذا انقلب السحرة المأجورون، مؤمنين من خيار المؤمنين. على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملئه. لا يُفكّرون فيما يعقب جَهرهم بالإيمان في وَجْه الطاغية من عواقب ونتائج، ولا يَعنيهم ماذا يفعل أو ماذا يقول.

ولا بُد أن كان لهذا الانقلاب المفاجىء وَقْع الصاعقة على فرعون وملئه. فالجماهير حاشدة. وقد عبأهم عُملاء فرعون وهم يحشدونهم لشهود المباراة. عَبَّأوهم بأكذوبة أن موسى الإسرائيلي، ساحر يريد أن يُخرجهم من أرضهم بسحره، ويريد أن يجعل الحكم لقومه؛ وأن السحرة سيغلبونه ويفحمونه..

ثم ها هم أولاء يَرون السحرة يُلقون ما يُلقون باسم فرعون وعزّته. ثم يُغلبون حتى ليَقرُّون بالغلب؛ ويعترفون بصدق موسى في رسالته من عند الله، ويؤمنون بربّ العالمين الذي أرسله، ويَخلعون عنهم عبادة فرعون، وهم كانوا منذ لحظة جنوده الذين جاءوا لخدمته، وانتظروا أجره، واستفتحوا بعزته!.

وإنه لانقلاب يتهدد عرش فرعون، إذ يتهدد الأسطورة الدينية التي يقوم عليها هذا العرش. أسطورة الألوهية، أو بنوته للآلهة ـ كما كان شائعاً

في بعض العصور ـ وهؤلاء هم السحرة. والسحر كان حرفة مقدسة لا يزاولها إلاَّ كهنة المعابد في طول البلاد وعرضها..

ها هم أولاء يؤمنون برب العالمين، رب موسى وهارون، والجماهير تسير وراء الكهنة في مُعتقداتهم التي يُلهونهم بها. فماذا يبقى لعرش فرعون من سند إلا القوة؟ والقوة وحدها بدون عقيدة لا تُقيم عرشاً ولا تَحمي حُكماً.

إن لنا أن نقدر ذِعْر فرعون لهذه المفاجأة، وذعر الملأ من حوله، إذا نحن تصورنا هذه الحقيقة؛ وهي إيمان السحرة الكهنة هذا الإيمان الصريح الواضح القاهر الذي لا يملكون معه إلا أن يلقوا سجداً مُعترفين مُنيبين.

عندئذ جنّ جنون فرعون، فلجأ إلى التهديد البغيض بالعذاب والنكال. بعد أن حاول أن يَتَّهم السحرة بالتآمر عليه وعلى الشعب مع موسى!:

﴿قال: آمنتم له قبل أن آذن لكم! إنه لكبيركم الذي عَلَّمكم السحر. فلسوف تعلمون. لأقطّعن أيديكم وأرجلكم من خلاف. ولأصلبنكم أجمعين﴾ [الشعراء: ٤٩]..

﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾.. إنها الجريمة الكبرى في الاستسلام له قبل إذنه. على طريقة المناورات التي يُدبّرها صاحبها وهو مالك لإرادته، عارف بهدفه، مُقدّر لعاقبته. ولم يشعر قلبه بتلك اللمسة التي مست قلوبهم.

ومتى كان للطغاة قلوب تشعر بمثل هذه اللمسات الوضيئة؟.

إن الطواغيت المُتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر؛ ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان؛ ولا كيف تَلمسها حرارة اليقين. فهم لِطُول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب

القلوب ـ وهي بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ـ . . ومن ثم فوجىء فرعون بهذا الإيمان المفاجىء الذي لم يُدرِك دبيبه في القلوب ولم يُتابع خُطاه في النفوس؛ ولم يفطن إلى مداخله في شعاب الضمائر. . ثم هَزَّته المفاجأة الخطيرة التي تُزلزل العرش من تحته: مفاجأة استسلام السحرة ـ وهم من كَهَنة المعابد ـ لربِّ العالمين. ربّ موسى وهارون. بعد أن كانوا مجموعين لإبطال دعوة موسى وهارون إلى ربّ العالمين! والعرش والسلطان هما كل شيء في حياة الطواغيت. . وكل جريمة يمكن أن يرتكبوها بلا تَحَرّج في سبيل المحافظة على الطاغوت.

﴿قال فرعون: آمنتم به قبل أن آذن لكم! إن هذا لَمَكْر مَكَرْتموه في المدينة لِتُخْرجوا منها أهلها. فسوف تعلمون. .﴾ [الأعراف: ١٢٣]. .

هكذا. . **﴿آمنتم به قبل أن آذن لكم!﴾**. . كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق ـ وهم أنفسهم لا سلطان لهم عليها ـ أو يستأذنوه في أن تَرتعش وجداناتهم ـ وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئاً ـ أو يستأذنوه في أن تُشرق أرواحهم ـ وهم أنفسهم لا يمسكون مداخلها. أو كأنما كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو ينبت من الأعماق. أو أن يُطمسوا الإيمان وهو يَترقرق من الأغوار. أو أن يَحجبوا النور وهو ينبعث من شعاب اليقين!.

ولكنه الطاغوت جاهل غبي مطموس؛ وهو في الوقت ذاته مُتَعَجْرِف مُتكبّر مغرور!.

أَنَّى للطغاة أن يُدركوا هذا السر اللطيف؟ أَنَّى لهم أن يدركوا كيف تَتَقَلَّب القلوب؟ وهم قد نَسوا لطول ما طَغوا وبَغوا، ورأوا الأتباع ينقادون لإشارة منهم، نسوا أن الله هو مُقلّب القلوب؛ وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتُشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان: **﴿قال: آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾**. . قولة الطاغية الذي لا يُدرك أنهم هم أنفسهم لا يملكون ـ وقد

لمس الإيمان قلوبهم ـ أن يدفعوه عنها، والقلب بيد الخالق المالك يُقلّبه كيف يشاء.

وكان فرعون يعتقد أنه مَلِكُ العقول كما أنه مَلِكُ الأجسام.. وأن له سلطاناً على القلوب كما أن له سلطاناً على الألسنة. وليس لأحد أن يعتقد شيئاً أو يؤمن بشيء إلا بإذنه فقال كلمته تلك في عتوٍّ وكِبْر وجبروت: **﴿آمنتم له قبل أن آذنَ لكم﴾**.. ثم سارع في اتهامهم لتبرير ذلك الانقلاب الخطير:

﴿إنه لكبيركم الذي عَلَّمكم السحر﴾.. فذلك سرّ الاستسلام في نَظَره، لا أنّه الإيمان الذي دَبَّ في قُلوبهم من حيث لا يحتسبون. ولا أنها يد الرحمن تكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال.

﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ وهي تهمة عجيبة لا تفسير لها إلا أن بعض هؤلاء السحرة ـ وهم من الكهنة ـ كانوا يتولّون تربية موسى في قصر فرعون أيام أن تَبنّاه، أو كان يختلف إليهم في المعابد. فارتكن فرعون هذه الصلة البعيدة، وقَلَبَ الأمر فبدلاً من أن يقول: إنه لتلميذكم قال: إنه لكبيركم. ليزيد الأمر ضخامة وتهويلاً في أعين الجماهير!.

ثم إنه الفَزَع على العرش المُهدَّد والسلطان المهزوز: **﴿إن هذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾**..

انتصار العقيدة على الحياة:

والمسألة واضحة المعالم.. إنها دعوة موسى إلى «ربّ العالمين».. هي التي تُزعج وتُخيف.. إنه لا بقاء ولا قرار لحكم الطواغيت مع الدعوة إلى رب العالمين.

وهم إنما يقوم مُلكهم على تَنحية رُبوبية الله للبشر بتنحية شريعته. وإقامة أنفسهم أرباباً من دون الله يُشرّعون للناس ما يشاءون، ويُعبّدون الناس لِمَا يُشَرّعون!.

إنهما منهجان لا يجتمعان . . أو هما دينان لا يجتمعان . . أو هما رَبَّان لا يجتمعان . . وفرعون كان يعرف وَمَلَؤه كانوا يعرفون . . ولقد فَزِعوا للدعوة من موسى وهارون إلى ربّ العالمين . فَأَوْلَى أن يَفزعوا الآن وقد أُلقي السحرة ساجدين . قالوا : آمنا بربِّ العالمين . ربِّ موسى وهارون! والسحرة من كهنة الديانة الوثنية التي تُؤلِّه فرعون، وتُمكِّنه من رقاب الناس باسم الدين! .

لقد جُنَّ جنون فرعون . . وقام وقَعَدَ، وبرَقَ ورَعَد . وَقَع ما لم يكن يرجوه! إنه أراد أن يهزم موسى بالسحرة، فأصبح السحرة مع موسى جُند ربِّ العالمين . . لقد ارتدت سِهامه عليه، فَغَلَتْ مراجلُ الحقد في صدره، وقد احتدم غيظه، فانقلب على أولئك السحرة مُهدداً متوعداً . .

ها هو ذا فرعون مُزمجراً غاضباً في هذا اليوم العقيم في حياته . يقول للسحرة الذين بَهَرهم الحق فآمنوا بربِّ العالمين ؛ وخَلَعُوا ربقة العبودية له بهذا الإعلان : إنهم يمكرون لإخراج أهل المدينة من مدينتهم . وهَدَّدهم بأبشع العذاب والنَّكال : ﴿**قال فرعون : آمنتُم به قبل أن آذنَ لكم! إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأُقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ثم لأُصلبنَّكم أجمعين**﴾ [الأعراف : ١٢٣، ١٢٤] . .

وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعُّد الوحشي الفظيع . . التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة، ويُسلِّطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح . .

وحين يُهدِّدهم فرعون بالعذاب الرعيب : فإنهم يتجهون إلى ربهم، ويُعلنون أنهم عائدون إليه في حياتهم ومماتهم وبَعثهم وفي أمرهم كله :

﴿**قالوا : إنا إلى ربنا مُنقلبون . وما تنقم منا إلا أَنْ آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين**﴾ [الأعراف : ١٢٥، ١٢٦] . .

كان هؤلاء السحرة الذين آمنوا برب العالمين؛ وأسلموا لله وحده؛ وأعلنوا الخروج من العبودية الزائفة للطاغوت المُغتصب للربوبية واختصاصاتها.. كانوا يعلمون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت. إنها المعركة على العقيدة. لأن هذه العقيدة تُهدّد سلطان الطواغيت بمجرد إعلان أصحابها أن عبوديتهم خالصة لرب العالمين. بل بمجرد إعلان أن الله ربّ العالمين! ومن ثم قالوا لفرعون رداً على اتهامه لهم بأن هذا مَكْر مَكَروه في المدينة ليخرجوا منها أهلها ـ وهو مرادف للاتهام في الجاهليات الحديثة لكل من يُعلن ربوبية الله للعالمين بمعناها الجاد بأنه يعمل على قلب نظام الحكم! ـ: ﴿**وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا**﴾.. ثم لجأوا إلى ربهم الذين آمنوا به فتَمرَّدوا على العبودية لغيره قائلين: ﴿**ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين**﴾.. فكان هذا فرقاناً جعله الله في قلوبهم حين استقرت حقيقة الإسلام لله فيها.

إنه التعذيب والتنكيل.. وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق، الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان.. وعدّة الباطل في وجه الحق الصريح.. ﴿**فلسوف تعلمون. لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خِلاف، ولأصلبنكم أجمعين**﴾ [الشعرا: ٤٩]..

إنها الحماقة التي يرتكبها كل طاغية، حينما يحسّ بالخَطَر على عرشه أو شخصه، يرتكبها في عُنف وغلظة وبشاعة، بلا تَحرُّج من قلب أو ضمير.. ﴿**فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنّكم في جذوع النخل**﴾ [طه: ٧١]..

ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة. قوة الوحوش في الغابة. القوة التي تُمزِّق الأحشاء والأوصال، ولا تُفَرِّق بين إنسان يَقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب: ﴿**ولتعلمن أيُنا أشدّ عذاباً وأبقى**﴾ [طه: ٧١]..

إنها لكلمة فرعون الطاغية المتجبِّر الذي يملك تنفيذ ما يقـول. فما تكون كلمة الفئة المؤمنة التي رأت النور!.

إن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان، تستعلي على قوة الأرض، وتستهين ببأس الطغاة، وتنتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم. إنها لا تقف لتسأل: ماذا ستأخذ وماذا ستَدع؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفـع؟ ماذا ستخسـر وماذا ستكسب؟ ومـاذا ستلقى في الـطريق من صعاب وأشـواك وتضحيـات؟ لأن الأفق المشـرق الوضيء أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق: **﴿قالوا: إنا إلى ربنا منقلبون﴾** [الأعراف: ١٢٥]..

إنها كلمة القلب الذي وَجَد الله فلم يعـد يحفل مـا يفقد بعـد هذا الوجدان. القلب الذي اتصل بالله فذاق طعم العزّة فلم يَعد يحفل الطغيان. القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهمه من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير:

﴿قالوا: لا ضَير. إنا إلى ربنا منقلبون. إنا نطمع أن يغفر لنـا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين﴾ [الشعراء: ٥٠، ٥١]..

لا ضير. لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف[1]. لا ضير في التصليب والعذاب. لا ضير في الموت والاستشهاد. لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون.. وليكن في هذه الأرض ما يكون: فالمطمع الذي نتعلق به ونرجوه **﴿أن يغفر لنا ربنا خطايانا﴾**.. جزاء **﴿أن كنا أول المؤمنين﴾**.. وأن كنا نحن السابقين..

يـا الله! يا لـروعة الإيمـان إذ يُشرق في الضمـائر. وإذ يفيض على الأرواح. وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس. وإذ يرتفع بسلالة الـطين إلى

---

(١) اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، واليد اليسرى مع الرجل اليُمنى.

أعلى عليين. وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد.

لقد أشرق نور الحق في قلوب هؤلاء المؤمنين، فلم يزدهم التهديد والوعيد إلا إيماناً على إيمانهم..

لقد فات الأوان. فاللمسة الإيمانية قد وَصَلَتْ الذرة الصغيرة بمصدرها الهائل. وكانت قد تَفَتَّحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تُبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عَرَض زائل. ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه:

﴿قالوا: لن نُؤثرك على ما جاءنا من البيِّنات والذي فَطَرنا، فاقضِ ما أنت قاض. إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ [طه: ٧٢]..

إنه الإيمان الذي لا يَفْزع ولا يَتزَعزع. كما أنه لا يَخضع أو يَخنع. الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها ويستيقن من الرجعة إلى ربّه فيطمئن إلى جواره.. والذي يُدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت.. وأنها معركة العقيدة في الصميم.. لا يُداهن ولا يُناور.. ولا يرجو الصَّفح والعفو من عدو لن يقبل منه إلا تَرك العقيدة، لأنه إنما يُحاربه ويُطارده على العقيدة: **﴿وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا﴾**..

والذي يعرف أين يتجه في المعركة، وإلى من يتجه؛ لا يطلب من خصمه السلامة والعافية، إنما يطلب من ربّه الصبر على الفتنة والوفاة على الإسلام: **﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾** [الأعراف: ١٢٦]..

ويقف الطغيان عاجزاً أمام الإيمان، وأمام الوعي، وأمام الاطمئنان.. يقف الطغيان عاجزاً أمام القلوب التي خُيِّلَ إليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب! ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام. فإذا هي مُستعصية عليه، لأنها من أمر الله، لا يملك أمرها إلا الله. وماذا يملك الطغيان إذا رغبت القلوب في جوار الله؟ وماذا يملك

الجبروت إذا اعتصمت القلوب بالله؟ وماذا يملك السلطان إذا رغبت القلوب عما يملك السلطان! .

إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية. هذا الذي كان بين فرعون ومَلَئِه، والمؤمنين من السحرة. . السابقين. .

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية. بانتصار العقيدة على الحياة. وانتصار العزيمة على الألم. وانتصار «الإنسان» على «الشيطان»! .

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية. بإعلان ميلاد الحرية الحقيقيه. فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة.

والاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح. ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب فقد وُلِدَت الحرية الحقيقية في هذه القلوب.

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية. بإعلان إفلاس المادية! فهذه القلّة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز، وتمنى بالقرب من السلطان. . هي ذاتها التي تستعلي على فرعون؛ وتستهين بالتهديد والوعيد، وتُقبل صابرة مُحتسبة على التنكيل والتصليب. . وما تغير في حياتها شيء، ولا تغَيَّر حولها شيء ـ في عالم المادة ـ إنما وقعت اللمسة الخفية التي تسلك الكوكب المفرد في الدورة الكبرى. وتجمع الذرة التائهة إلى المحور الثابت، وتصل الفَرد الفاني بقوّة الأزل والأبد. . وقعت اللمسة التي تُحوّل الإبرة، فيلتقط القلب إيقاعات القدرة، ويَتَسمَّع الضمير أصداء الهداية، وتَتَلقَّى البصيرة إشراقات النور. . وقعت اللمسة التي لا تنتظر أي تغيير في الواقع المادي؛ ولكنها هي تُغير الواقع المادي؛ وترفع «الإنسان» في عوالم الواقع إلى الآفاق التي لم يكن يطمح إليها الخيال! .

إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتُعدّ

القُربى منه مَغْنماً يتسابق إليه المتسابقون. فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه:

﴿قالوا: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا..﴾ فهي علينا أعزّ وأغلى وهو جَلَّ شأنه أكبر وأعلى: **﴿فاقضِ ما أنت قاض﴾** ودونك وما تملكه لنا في الأرض. **﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾**. فسلطانك مُقيد بها، وما لَكَ من سلطان علينا في غيرها. وما أقصر الحياة الدنيا، وما أهون الحياة الدنيا. وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله، ويأمل في الحياة الخالدة أبداً. **﴿إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر﴾** [طه: ٧٣].. مما كنت تُكلفنا به فلا نملك لك عصياناً؛ فلعل بإيماننا بربنا يغفر لنا خطايانا. **﴿والله خير وأبقى﴾** خير قسمة وجواراً، وأبقى مغنماً وجزاءً. إن كنت تُهدِّدنا بمن هو أشد وأبقى.. وأُلْهِمَ السحرةُ الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المُعَلِّم المُستعلي:

﴿إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنَّم لا يموت فيها ولا يحيا. ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى. جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ [طه: ٧٤، ٧٥]..

فإذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى. فها هي ذي صورة لمن يأتي ربه مجرماً هي أشد عذاباً وأدوم **﴿فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا﴾** فلا هو ميت فيستريح، ولا هو حي فيتمتع. إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة.. وفي الجانب الآخر الدرجات العلى.. جنات للإقامة ندية بما يجري تحت غرفاتها من أنهار **﴿وذلك جزاء من تزكى﴾** وتَطَهَّر من الآثام.

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر، وواجهته بكلمة الإيمان القوية. وباستعلاء الإيمان الواثق. وبتحذير الإيمان النَّاصع. وبرجاء الإيمان العميق.

ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلاناً لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض، وعلى الطمع، في المثوبة والخوف من السلطان. وما يملك القلب البشري أن يَجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان.

ويذهب التهديد.. ويتلاشى الوعيد.. ويمضي الإيمان في طريقه. لا يَتَلَفَّت، ولا يَتَردَّد، ولا يحيد!.

ويسدل السياق القرآني الستار على المشهد عند هذا الحد ولا يزيد.. إن روعة الموقف تبلغ ذروتها؛ وتنتهي إلى غايتها. وعندئذ يتلاقى الجمال الفني في العرض؛ مع الهدف النفسي للقصة، على طريقة القرآن في مخاطبة الوجدان الإيماني بلغة الجمال الفني، في تناسق لا يبلغه إلا القرآن.

هنا يسدل السياق الستار على هذه الروعة الغامرة. لا يزيد شيئاً. ليبقى للمشهد جَلاَله الباهر وإيقاعه العميق. وهو يُربّي به النفوس في مكة وهي تُواجه الأذى والكرب والضيق ويُربّي به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب.

وينبغي أن نقف وقفة قصيرة أمام هذا المشهد الباهر الأخاذ...

ــ نقف ابتداء أمام إدراك فرعون وملئه أن إيمان السحرة برب العالمين، رب موسى وهارون، يُمثل خطراً على نظام ملكهم وحكمهم؛ لِتعَارُض القاعدة التي يقوم عليها هذا الإيمان، مع القاعدة التي يقوم عليها ذلك السلطان.. وقد عرضنا لهذا الأمر من قبل.. ونريد أن نقرر هذه الحقيقة ونؤكدها.. إنه لا يجتمع في قلب واحد، ولا في بلد واحد، ولا في نظام حكم واحد، أن يكون الله رب العالمين، وأن يكون السلطان في حياة الناس لعبد من العبيد، يباشر بتشريع من عنده وقوانين.. فهذا دين وذلك دين..

ــ ونقف بعد ذلك أمام إدراك السحرة ـ بعد أن أشرق نور الإيمان في قلوبهم، وجعل لهم فرقاناً في تصورهم ـ أن المعركة بينهم وبين فرعون وملئه هي معركة العقيدة؛ وأنه لا ينقم منهم إلا إيمانهم بربِّ العالمين. فهذا الإيمان على هذا النحو يُهدد عرش فرعون ومُلكه وسُلطانه؛ ويُهدد مراكز الملأ من قومه وسلطانهم المستمد من سلطان فرعون.. أو بتعبير آخر مرادف: من ربوبية فرعون، ويُهدِّد القيم التي يقوم عليها المجتمع الوثني كله.. وهذا الإدراك لطبيعة المعركة ضروري لكل من يَتَصدَّى للدعوة إلى ربوبية الله وحده. فهو وحده الذي أهّلَ هؤلاء المؤمنين للاستهانة بما يلقونه في سبيله..

ــ إنهم يُقدمون على الموت مُستهينين ليقينهم بأنهم هم المؤمنون بربِّ العالمين، وأن عدوّهم على دين غير دينهم؛ لأنه بمزاولته للسلطان وتعبيد الناس لأمره يُنكر ربوبية رب العالمين. فهو إذن من الكافرين.. وما يمكن أن يمضي المؤمنون في طريق الدعوة إلى رب العالمين ـ على ما ينتظرهم فيها من التعذيب والتنكيل ـ إلا بمثل هذا اليقين بِشقّيه: أنهم هم المؤمنون، وأن أعداءهم هم الكافرون، وأنهم إنما يُحاربونهم على الدين، ولا ينقمون منهم إلا الدين.

ــ ونقف بعد ذلك أمام الروعة الباهرة لانتصار العقيدة على الحياة. وانتصار العزيمة على الألم. وانتصار «الإنسان» على «الشيطان». وهو مشهد بالغ الروعة.. نعترف أننا نعجز عن القول فيه. فندعه كما صَوَّره النص القرآني الكريم!.

التآمر والوعيد:

لا يذكر القرآن ما الذي كان بعد مواجهة الإيمان للطغيان في موقف السحرة مع فرعون. ولا كيف تَصرَّف معهم بعدما اعتصموا بإيمانهم

مُستقبلين التهديد والوعيد بقلب المؤمن المتعلق بربه، المستهين بحياة الأرض كلها وما فيها ومَن فيها. .

ويسدل الستار. . حيث ندرك من الموقف المضطرب المُزَلْزِل لعرش الطاغية أَنّ فرعون قد مضى يُنفّذ عزمه الوحشي. .

ها هو ذا يَشتطّ غضباً، وقد مضى في غلوائه وكبريائه. يُنفِّذ وعيده بالمؤمنين في ذلك اليوم العبوس، فَقَطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصَلَبهم في جذوع النخل، فأصبحوا سَحَرة كَفَرَة، وأمسوا شُهداء بَرَرَة. .

ويرفع السياق القرآني الستار عن مشهد آخر في هذه القصة. . إنه مشهد التآمر والتناجي بالإثم والتحريض. . بعد الهزيمة والخذلان في معركة الإيمان والطغيان. مشهد الملأ من قوم فرعون يَكبر عليهم أن يذهب موسى ناجياً والذين آمنوا معه ـ وما آمن له إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ـ كما ذكر القرآن ـ فإذا الملأ يَتناجون بالشرّ والإثم، وهم يُهيِّجون فرعون على موسى ومن معه؛ ويُخوفونه عاقبة التهاون في أمرهم؛ من ضياع الهيبة والسلطان؛ باستشراء العقيدة الجديدة، في ربوبية الله للعالمين، فإذا هو هائج مائج، مُهدِّد مُتوعّد، مُستعزّ بالقوة الغاشمة التي بين يديه، وبالسلطان المادي الذي يرتكن إليه!.

﴿وقال الملأ من قوم فرعون: أَتَذَر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويَذَرك وآلهتك؟ قال: سَنُقَتِّل أبناءهم، ونستحي نساءهم، وإنا فوقهم قاهرون﴾ [الأعراف: ١٢٧]. .

إن فرعون لم يكن يدّعي الألوهية بمعنى أنه هو خالق هذا الكون ومُدبره؛ أو أن له سلطاناً في عالم الأسباب الكونية. إنما كان يدعي الألوهية على شعبه المستذلّ! بمعنى أنه هو حاكم هذا الشعب بشريعته وقانونه؛ وأنه بإرادته وأمره تمضي الشؤون وتُقْضَىٰ الأمور. وهذا ما يدّعيه كل حاكم يحكم بشريعته وقانونه، وتمضي الشؤون وتُقْضَىٰ الأمور بإرادته وأمره ـ وهذه هي

الربوبية بمعناها اللغوي والواقعي - كذلك لم يكن الناس في مصر يعبدون فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له - فقد كانت لهم آلهتهم وكان لفرعون آلهته التي يعبدها كذلك، كما هو ظاهر من قول الملأ له: ﴿**ويذَرَك وآلهتك**﴾ وكما يُثبت المعروف من تاريخ مصر الفرعونية. إنما هم كانوا يعبدونه بمعنى أنهم خاضعون لما يريده بهم، لا يعصون له أمراً، ولا ينقضون له شرعاً. . وهذا هو المعنى اللغوي والواقعي والاصطلاحي للعبادة. . فأيما ناس تلقّوا التشريع من بَشَر وأطاعوه فقد عَبَدوه، وذلك هو تفسير رسول الله - ﷺ - لقوله تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله**﴾ الآية [التوبة: ٣١]. . عندما سمعها منه عديّ بن حاتم - وكان نصرانياً جاء لِيُسْلِم - فقال: يا رسول الله ما عبدوهم. فقال له رسول الله - ﷺ -: «بلى إنهم أحلُّوا لهم الحرام وحَرَّموا عليهم الحلال؛ فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم». . (أخرجه الترمذي).

أما قول فرعون لقومه: ﴿**ما علمتُ لكم من إله غيري**﴾ [القصص: ٣٨]. . فيفسره قوله الذي حكاه القرآن عنه: ﴿**أليس لي مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، أفلا تبصرون؟ أم أنا خير من هذا الذي هو مَهين. ولا يكاد يبين؟ فلولا أُلْقِيَ عليه أَسْوِرَة من ذَهَب أو جاء معه الملائكة مُقترنين؟**﴾ [الزخرف: ٥١ - ٥٣]. . وظاهر أنه كان يوازن بين ما هو فيه من مُلك ومن أَسْوِرَة الذهب التي يُحلَّى بها الملوك، وبين ما فيه موسى من تجرّد من السلطان والزينة!.

وما قصد بقوله: ﴿**ما علمت لكم من إله غيري**﴾ إلا أنه هو الحاكم المسيطر الذي يُسيرهم كما يشاء؛ والذي يتبعون كلمته بلا معارض! والحاكمية على هذا النحو ألوهية كما يفيد المدلول اللغوي! وهي في الواقع ألوهية. فالإله هو الذي يشرع للناس وينفذ حكمه فيهم! سواء قالها أم لم يقلها[1]! وعلى ضوء هذا البيان نملك أن نفهم مدلول قوم ملأ فرعون:

---

(١) يراجع بتوسع كتاب «المصطلحات الأربعة» للشيخ السيد أبي الأعلى المودودي.

﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا فيٰ الأرض، ويذرك وآلهتك؟﴾.

فالإفساد في الأرض ـ من وجهة نظرهم ـ هو الدعوة إلى ربوبية الله وحده؛ حيث يترتب عليها تلقائياً بطلان شرعية حكم فرعون ونظامه كله. إذ أن هذا النظام قائم على أساس حاكمية فرعون بأمره ـ أو بتعبير مرادف على أساس ربوبية فرعون لقومه ـ وإذن فهو ـ بزعمهم ـ الإفساد في الأرض، بقلب نظام الحكم، وتغيير الأوضاع القائمة على ربوبية البشر للبشر، وإنشاء وضع آخر مخالف تماماً لهذه الأوضاع، الربوبية فيه لله لا للبشر.. ومن ثم قرنوا الإفساد في الأرض بترك موسى وقومه لفرعون ولآلهته التي يعبدها هو وقومه..

ولقد كان فرعون إنما يستمد هيبته وسلطانه من الديانة التي تُعبد فيها هذه الآلهة.. بزعم أنه الابن الحبيب لهذه الآلهة! وهي بُنوّة ليست حسية! فلقد كان الناس يعرفون جيداً أن الفرعون مولود من أب وأم بَشَريّين. إنما كانت بُنوة رمزية يستمد منها سلطانه وحاكميته. فإذا عَبَدَ موسى وقومه ربّ العالمين، وتركوا هذه الآلهة التي يعبدها المصريون، فمعنى هذا هو تحطيم الأساس الذي يستمد منه فرعون سلطانه الروحي على شعبه المُسْتَخَفّ؛ الذي إنما يُطيعه لأنه هو كذلك فاسق عن دين الله الصحيح.. وذلك كما يقول الله سبحانه: **﴿استَخَفّ قومه فأطاعوه... إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾** [الزخرف: ٥٤]. فهذا هو التفسير الصحيح للتاريخ.. وما كان فرعون بقادر على أن يستخف قومه فيطيعوه، لو لم يكونوا فاسقين عن دين الله.. فالمؤمن بالله لا يَستخفه الطاغوت، ولا يمكن أن يُطيع له أمراً، وهو يعلم أن هذا الأمر ليس من شَرع الله.. ومن هنا كان يجيء التهديد لنظام حكم فرعون كله بدعوة موسى ـ عليه السلام ـ إلى «ربّ العالمين» وإيمان السَّحرة بهذا الدين، وإيمان طائفة من قوم موسى كذلك وعبادتهم لربّ العالمين..

ومن هنا يجيء التهديد لكل وَضْع يقوم على ربوبية البشر للبشر من

الدعوة إلى ربوبية الله وحده. . أو من شهادة أن لا إله إلا الله. . حين تُؤخذ بمدلولها الجَدّي الذي كان الناس يدخلون بـه في الإسلام. لا بمـدلولهـا الباهت الهزيل الذي صار لها في هذه الأيام!.

ومن هنا كذلك استثارت هذه الكلمات فـرعون، وأشعـرته بـالخطر الحقيقي على نظامه كله فانطلق يعلن عزمه الوحشي البشع:

﴿قـال: سَنُقَتّل أبنـاءهم ونستحيـي نساءهم وإنـا فوقهم قـاهرون﴾ [الأعراف: ١٢٧]. .

﴿فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا: اقتلوا أبناء الـذين آمنوا معـه واستحيوا نساءهم﴾ [غافر: ٢٥].

إنه منطق الطغيان الغليظ، كلما أعوزته الحجة، وخَـذَله البـرهان، وخاف أن يستعلي الحق، بما فيه من قوة وفصاحة ووضوح، وهو يخاطب الفطرة فتصغي له وتستجيب. كما استجاب السحرة الذين جيء بهم لِيَغْلِبوا موسى وما معه، فانقلبوا أوّل المؤمنين بالحق في مواجهة فرعون الجبار.

فأما فرعون وهامان وقارون فقالـوا: **﴿اقتلوا أبناء الـذين آمنوا معـه واستحيوا نساءهم﴾**.

ولقد كان فرعون ـ في أيام مولد موسى ـ قد أصدر مثل هذا الأمر. وهناك أحد احتمالين فيما حدث بعد ذلك الأمر الأول. .

ــ الاحتمال الأول أن فرعون الذي أصدر ذلك الأمر كان قـد مات وخلفه ابنه أو ولي عهده، ولم يكن الأمر مُنَفَّذاً في العهد الجديد، حتى جاء موسى وَوَاجه الفرعون الجديد، الذي كان يعرفه وهو ولي للعهد، ويعرف تربيته في القصر، ويعرف الأمـر الأول بتذبيـح الذكـور وترك الإنـاث من بني إسرائيل. فحاشيته تشير إلى هذا الأمر، وتُوحي بتخصيصه بمن آمنوا

بموسى، سواء كانوا من السحرة أو من بني إسرائيل القلائل الذين استجابوا له على خوف من فرعون وملئه. .

ـ والاحتمال الثاني: أنه كان فرعون الأول الذي تَبَنَّى موسى، ما يزال على عرشه. وقد تراخى تنفيذ الأمر الأول بعد فترة أو وقف العمل به بعد زوال حدّته. وكان بنو إسرائيل قد عانوا من قبل ـ في إبان مولد موسى ـ مثل هذا التنكيل الوحشي من فرعون وملئه كما يقول الله تعالى:

﴿إن فرعون عَلاَ في الأرض، وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم، يُذبح أبناءهم ويَستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ [القصص: ٤].

فالحاشية تشير بتجديد هذا التعذيب الفظيع القاسي، وتخص به الذين آمنوا مع موسى وحدهم للإرهاب والتخويف. .

إنه الطغيان في كل مكان وزمان لا فرق بين وسائله اليوم ووسائله قبل عشرات القرون والأعوام. . !.

فأما فرعون فكان له فيما يبدو رأي آخر، أو اقتراح إضافي في أثناء التآمر. ذلك أن يتخلص من موسى نَفْسه فيستريح!.

﴿وقال فرعون: ذروني أقتل موسى، وليدع ربّه، إني أخاف أن يُبَدّل دينكم، أو أن يُظهر في الأرض الفساد﴾ [غافر: ٢٦].

ويبدو من قوله: **﴿ذروني أقتل موسى﴾**. . أن رأيه هذا كان يجد مُمانعة ومعارضة ـ من ناحية الرأي ـ كأن يقال مثلاً: إن قَتْل موسى لا يُنهي الإشكال. فقد يوحي هذا للجماهير بتقديسه واعتباره شهيداً، والحماسة الشعورية له وللدين الذي جاء به، وبخاصة بعد إيمان السحرة في مشهد شعبي جامع، وإعلانهم سبب إيمانهم، وهم الذين جيء بهم لِيُبْطِلُوا عمله ويناوئوه. وقد يكون بعض مستشاري الملك أحسّ في نفسه رهبة أن ينتقم

إله موسى له، ويبطش لهم. وليس هذا ببعيد، فقد كان الوثنيون يعتقدون بتعدد الآلهة، ويتصورون بسهولة أن يكون لموسى إله ينتقم له ممن يعتدون عليه! ويكون قول فرعون: ﴿**وليدع ربه**﴾.. رداً على هذا التلويح! وإن كان لا يبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون، كان تَبَجُّحاً واستهتاراً، لَقِيَ جزاءه في نهاية المطاف كما سيجيء.

ولعله من الطريف أن نقف أمام حجة فرعون في قتل موسى: ﴿**إني أخاف أن يُبدّل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد**﴾..

فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضالّ الوثني، عن موسى رسول الله ـ عليه السلام ـ: ﴿**إني أخاف أن يُبدّل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد**﴾؟!!.

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مُفسد عن كل داعية مُصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الصالح في وَجْه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادىء؟.

إنه منطق واحد، يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان. والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين.

ويدع السياق القرآني فرعون وملأه يتآمرون ويمكرون.. والله خير الماكرين.

إيمان كريم ونصيحة حكيم:

انتشر خَبَرُ عَزْم الطاغية العُتُلِّ الجبار حول قَتْل موسى، والتهديد بالعذاب المريع لمن آمن بدعوة ربِّ العالمين...

فأما موسى ـ عليه السلام ـ فالتجأ إلى الركن الركين والحصن

الحصين، ولاَذَ بالجناب الذي يحمي اللائذين، ويُجير المستجيرين:

﴿وقال موسى: إني عذتُ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ [غافر: ٢٧].

قالها. واطمأن. وسلَّم أمره إلى المُستعلي على كل مُتَكَبِّر، القاهر لكل مُتجبِّر، القادر على حماية العائذين به من المستكبرين. وأشار إلى وحدانية الله ربّه وربّهم لم ينسها أو يتركها أمام التهديد والوعيد. كما أشار إلى عدم الإيمان بيوم الحساب. فما يتكبّر مُتكبّر وهو يُؤمن بيوم الحساب، وهو يتصوّر موقفه يومئذ خاسراً خاشعاً خاضعاً ذليلاً، مجرداً من كل قوة، ما له من حميم ولا شفيع يطاع.

هنا انتُدِبَ رجل من آل فرعون، وَقَع الحق في قلبه، ولكنه كَتَم إيمانه. انتُدب يَدفع عن موسى، ويحتال لدفع القوم عنه، ويسلك في خطابه لفرعون وملئه مسالك شتّى، ويتدسّس إلى قلوبهم بالنصيحة ويُثير حساسيتها بالتخويف والإقناع:

﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟..﴾ [غافر: ٢٨]..

إنها جولة ضخمة هذه التي جالَها الرجل المؤمن مع المتآمرين من فرعون وملئه. وإنه منطق الفطرة المؤمنة في حَذَر ومَهارة وقُوة كذلك.

إنه يبدأ بتفظيع ما هم مُقدمون عليه: **﴿أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله﴾**.. فهل هذه الكلمة البريئة المتعلقة باعتقاد قلب، واقتناع نفس، تستحق القتل، ويُردّ عليها بإزهاق روح؟ إنها في هذه الصورة فعلة منكرة بشعة ظاهرة القبح والبشاعة. ثم يخطو بهم خطوة أخرى. فالذي يقول هذه الكلمة البريئة: **﴿ربي الله﴾**.. يقولها ومعه حجته، وفي يده برهانه: **﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾**.. يشير إلى تلك الآيات التي عرضها موسى

ـ عليه السلام ـ ورأوها، وهم ـ فيما بينهم وبعيداً عن الجماهير ـ يصعب أن يُماروا فيها!.

ثم يفرض لهم أسوأ الفروض؛ ويقف معهم موقف المُنْصِف أمام القضية؛ تمشياً مع أقصى فَرَض يُمكن أن يَتّخذوه: **﴿وإن يك كاذباً فعليه كَذِبه﴾**.. وهو يحمل تبعة عمله، ويَلْقى جزاءه، ويحتمل جريرته. وليس هذا بمسوغ لهم أن يقتلوه على أية حال!.

وهناك الاحتمال الآخر، وهو أن يكون صادقاً. فيحسن الاحتياط لهذا الاحتمال، وعدم التعرض لنتائجه: **﴿وإن يكُ صادقاً يُصبكم بعض الذي يعدِكم﴾**.. وإصابتهم ببعض الذي يعدهم هو كذلك أقل احتمال في القضية، فهو لا يطلب إليهم أكثر منه. وهذا منتهى الإنصاف في الجدل والإفحام.

ثم يُهدّدهم من طَرف خَفي، وهو يقول كلاماً ينطبق على موسى كما ينطبق عليهم: **﴿إن الله لا يهدي من هو مُسرف كذّاب﴾** [غافر: ٢٨].. فإذا كان موسى فإن الله لا يَهديه ولا يوفقه، فدعوه له يُلاقي منه جزاءه. واحذروا أن تكونوا أنتم الذين تكذبون على موسى وربّه وتُسرفون، فيصيبكم هذا المآل.

وحين يصل بهم إلى فعل الله بمن هو مسرف كذاب، يهجم عليهم مُخوّفاً بعقاب الله، مُحذّراً من بأسه الذي لا يُنجيهم منه ما هم فيه من مُلك وسُلطان، مُذكِّراً إياهم بهذه النعمة التي تستحق الشكران لا الكفران: **﴿يا قوم لكم المُلك اليوم ظاهرين في الأرض. فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا؟﴾** [غافر: ٢٩]..

إن الرجل يشعر بما يشعر به القلب المؤمن، من أن بأس الله أقرب ما يكون لأصحاب الملك والسلطان في الأرض؛ فهم أحق الناس بأن يحذروه، وأجدر الناس بأن يحسّوه ويتقوه، وأن يبيتوا منه على وَجَل، فهو

يتربص بهم في كل لحظة من لحظات الليل والنهار. ومن ثم يُذكرهم بما هم فيه من المُلك والساطان، وهو يُشير إلى هذا المعنى المستقرّ في حسّه البصير. ثم يُجمل نفسه فيهم وهو يُذكِّرهم ببأس الله: **﴿فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا؟﴾** ليشعرهم أن أمرهم يهمّه، فهو واحد منهم، يَنتظر مصيره معهم؛ وهو إذن ناصح لهم مشفق عليهم، لعل هذا أن يجعلهم ينظرون إلى تحذيره باهتمام، ويأخذونه مأخذ البراءة والإخلاص. وهو يُحاول أن يُشعرهم أن بأس الله إن جاء فلا ناصر منه ولا مجير عليه، وأنهم إزاءه ضعاف ضعاف.

هنا يأخذ فرعون ما يأخذ كل طاغية تُوجَّه إليه النصيحة. تَأخذه العزّة بالإثم. ويرى في النُصح الخالص افتياتاً على سلطانه، ونَقصاً من نفوذه، ومشاركة له في النفوذ والسلطان: **﴿قال فرعون: ما أُريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾** [غافر: ٢٩]..

إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صواباً، وأعتقده نافعاً. وإنه لهو الصواب والرشد بلا شك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟! وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأياً؟! وإلا فَلِمَ كانوا طغاة؟!.

ولكن الرجل المؤمن يجد من إيمانه غير هذا؛ ويجد أن عليه واجباً يُحذِّر ويَنصح ويُبدي من الرأي ما يراه. ويرى من الواجب عليه أن يقف إلى جوار الحق الذي يعتقده كائناً ما كان رأي الطغاة. ثم هو يطرق قلوبهم بإيقاع آخر لعلها تُحسّ وتستيقظ وترتعش وتلين، يطرق قلوبهم بلغتها على مصارع الأحزاب قبلهم. وهي شاهدة ببأس الله في أخذ المكذبين والطغاة:

﴿وقال الذي آمن: يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب. مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم. وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ [غافر: ٣٠، ٣١].

ولكل حِزب كان يوم. ولكن الرجل المؤمن يجمعها في يوم واحد: ﴿مثل يوم الأحزاب﴾ فهو اليوم الذي يتجلى فيه بأس الله. وهو يوم واحد في طبيعته على تَفرّق الأحزاب.. ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ إنما يأخذهم بذنوبهم، ويصلح من حولهم ومن بعدهم بأخذهم بأيام الله.

ثم يَطرق على قلوبهم طرقة أخرى، وهو يُذكّرهم بيوم آخر من أيام الله. يوم القيامة. يوم التنادي:

﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد. يوم تُولّون مدبرين ما لكم من الله من عاصم. ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣]..

وفي ذلك اليوم ينادي الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف. وينادي أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار. وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة.. فالتنادي واقع في صور شتى. وتَسميته «يوم التناد» تُلقي عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك، وتصوّر يوم زحام وخصام. وتتفق كذلك مع قول الرجل المؤمن: ﴿يوم تُولّون مُدبرين ما لكم من الله من عاصم﴾.. وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنم، أو محاولتهم الفرار. ولا عاصم يومئذ ولاتَ حين فرار. وصورة الفزع والفرار هي أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبرين في الأرض، أصحاب الجاه والسلطان!.

﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾.. ولعل فيها إشارة خفية إلى قولة فرعون: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾.. وتلميحاً بأن الهدى هدى الله. وأن من أضلّه فلا هادي له. والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال.

وأخيراً يُذكّرهم بموقفهم من يوسف، ومن ذريته كان موسى ـ عليهما السلام ـ وكيف وقفوا موقف الشك من رسالته وما جاءهم به من الآيات، فلا يُكرروا الموقف من موسى، وهو يُصَدّق ما جاءهم به يوسف، فكانوا منه في

شك وارتياب. ويكذب ما جزموا به من أن الله لن يبعث من بعده رسولاً، وها هو ذا موسى يجيء على فترة من يوسف ويكذب هذا المقال:

﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات، فما زلتم في شك مما جاءكم به، حتى إذا هلك قلتم: لن يبعث الله من بعده رسولاً. كذلك يُضلّ الله من هو مسرف مرتاب. الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم. كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا. كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ [غافر: ٣٤، ٣٥]..

وهذه هي المرة الوحيدة في القرآن التي يُشار فيها إلى رسالة يوسف ـ عليه السلام ـ للقوم في مصر. وقد عرفنا من سورة يوسف، أنه كان قد وصل إلى أن يكون على خزائن الأرض، المتصرف فيها. وأنه أصبح «عزيز مصر» وهو لقب قد يكون لكبير وزراء مصر. وفي السورة كذلك ما قد يؤخذ منه أنه جلس على عرش مصر ـ وإن لم يكن ذلك مؤكداً ـ وذلك قوله:

﴿ورفع أبويه على العرش وخَرُّوا له سجداً وقال: يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً﴾ [يوسف: ١٠٠]..

وقد يكون العرش الذي رفع عليه أبويه شيئاً آخر غير عرش المملكة المصرية الفرعونية. وعلى أية حال فقد وصل يوسف إلى مكان الحكم والسلطان. ومن ثم نملك أن نتصور الحالة التي يشير إليها الرجل المؤمن. حالة شكهم فيما جاءهم به يوسف من قبل، مع مصانعة يوسف صاحب السلطان وعدم الجهر بتكذيبه وهو في هذا المكان! **﴿حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً﴾**.. وكأنما استراحوا لموته، فراحوا يظهرون ارتياحهم في هذه الصورة، ورغبتهم عما جاءهم به من التوحيد الخالص، الذي يبدو مما تكلم به في سجنه مع صاحبي السجن: **﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾** [يوسف: ٣٩].. فزعموا أن لن يجيئهم من بعده رسول، لأن هذه كانت رغبتهم. وكثيراً ما يرغب المرء في شيء ثم يصدق تحققه، لأن تحققه يلبي هذه الرغبة!.

والرجل المؤمن يشتد هنا وهو يشير إلى هذا الارتياب والإسراف في التكذيب فيقول: **﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾** . . فينذرهم بإضلال الله الذي ينتظر كل مسرف مرتاب في عقيدته وقد جاءته معها البينات.

ثم يشتد في مواجهتهم بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل في آيات الله بغير حجة ولا برهان. وهم يفعلون هذا في أبشع صورة. ويُندِّد بالتكبر والتجبر، ويُنذر بطمس الله لقلوب المتكبرين المتجبرين!.

﴿الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كَبُر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا. كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ . .

والتعبير على لسان الرجل المُؤمن: المقت للمجادلين في آيات الله بغير برهان، والإضلال للمتكبرين المتجبرين حتى ما يبقى في قلوبهم موضع للهدى، ولا منفذ للإدراك.

وعلى الرغم من هذه الجولة الضخمة التي أَخَذَ الرجل المؤمن قلوبهم بها؛ فقد ظل فرعون في ضلاله، مُصراً على التنكر للحق. ولكنه تظاهر بأنه آخذ في التحقق من دعوى موسى. ويبدو أن منطق الرجل المؤمن وحجته كانت من شدة الوقع بحيث لم يستطع فرعون ومَن معه تجاهلها.

فاتخذ فرعون لنفسه مهرباً جديداً: **﴿وقال فرعون: يا هامان ابنِ لي صَرْحاً لعلي أبلغ الأسباب. أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى. وإني لأظنه كاذباً. وكذلك زُين لفرعون سوء عمله، وصُدّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تَباب﴾** [غافر: ٣٦، ٣٧]. .

يا هامان ابنِ لي بناءً عالياً لعلي أبلغ به أسباب السموات، لأنظر وأبحث عن إله موسى هناك **﴿وإني لأظنه كاذباً﴾** . . هكذا يُموه فرعون الطاغية ويُحاور ويُداور، كي لا يواجه الحق جهرة؛ ولا يعترف بدعوة

الوحدانية التي تهز عرشه، وتهدد الأساطير التي قام عليها ملكه.

هكذا كان ردّ فرعون على هذا الأدب، وهذه النصيحة ادِّعاءً وتطاولاً، ولعباً ومداورة، وتهكماً وسخرية: **﴿وقال فرعون: يا أيها المـلأ ما علمت لكم من إلّه غيري. فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى، وإني لأظنه من الكاذبين﴾** [القصص: ٣٨].

يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري.. كلمة فاجرة كافرة، يتلقاها الملأ بالإقرار والتسليم. ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التي كانت سائدة في مصر من نسب الملوك للآلهة. ثم على القهر، الذي لا يدع لرأس أن يُفكر، ولا للسان أن يُعبّر. وهم يرونه بشراً مثلهم يحيا ويموت، ولكنه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب!.

ثم يتظاهر بالجد في معرفة الحقيقة، والبحث عن إله موسى، وهو يلهو ويسخر: **﴿فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى﴾**.. في السماء كما يقول! وبلهجة التهكم ذاتها يتظاهر بأنه شاك في صدق مـوسى، ولكنه مـع هذا الشـك يبحث وينقب ليصل إلى الحقيقة: **﴿وإني لأظنه من الكاذبين﴾**!.

وبعيد عن الاحتمال أن يكون هذا فَهْم فرعون وإدراكـه. وبعيد أن يكون جاداً في البحث عن إله موسى على هذا النحو المادي الساذج، وقد بلغ فراعنة مصر من الثقافة حداً يبعد معه هذا التصور. إنما هو الاستهتار والسخرية من جهة. والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة أخرى.

وربما كانت هذه خطة للتراجع أمام مطارق المنطق المؤمن في حديث الرجل المؤمن!.

وكـل هذه الفـروض تدل على إصـراره على ضلالـه، وتبجّحه في جحوده: **﴿وكذلك زين لفرعون سوء عمله، وصد عن السبيل﴾**.. وهـو

مستحق لأن يصد عن السبيل، بهذا المراء الذي يميل عن الاستقامة وينحرف عن السبيل.

ويعقب السياق على هذا المكر والكيد بأنه صائر إلى الخيبة والدمار: **﴿وما كيد فرعون إلا في تباب﴾**..

وأمام هذه المراوغة، وهذا الاستهتار، وهذا الإصرار ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مُدوّية صريحة، بعدما دعا القوم إلى إتباعه في الطريق إلى الله، وهو طريق الرشاد. وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة، وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية؛ وحذّرهم عذاب الآخرة؛ وبيّن لهم ما في عقيدة الشرك من زيف ومن بطلان: **﴿وقال الذي آمن: يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد. يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع، وإن الآخرة هي دار القرار..﴾** [غافر: ٣٨، ٣٩].

إنها الحقائق التي تقررت في القرآن الكريم، وها هو ذا الرجل المؤمن يُقررها في مواجهة فرعون ومَلَئِه. إنه يقول في مواجهة فرعون: **﴿يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد﴾**..

وقد كان فرعون منذ لحظات يقول: **﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾** فهو التحدي الصريح الواضح بكلمة الحق لا يخشى فيها سلطان فرعون الجبار، ولا ملأه المتآمرين معه من أمثال هامان وقارون. وزيري فرعون فيما يقال.

ويكشف لهم عن حقيقة الحياة الدنيا: **﴿إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾**.. متاع زائل لا ثبات له ولا دوام. **﴿وإن الآخرة هي دار القرار﴾**.. فهي الأصل وإليها النظر والاعتبار.

ويقرر لهم قاعدة الحساب والجزاء في دار القرار: **﴿مَن عمل سيئة فلا يُجْزَىٰ إلا مثلها. ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فأولئك**

يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ [غافر: ٤٠]. .

فقد اقتضى فضل الله أن تُضاعف الحسنات ولا تُضاعف السيئات، رحمة من الله بعباده، وتقديراً لضعفهم، وللجواذب والموانع لهم في طريق الخير والاستقامة، فَضَاعَفَ لهم الحسنات، وجعلها كَفارة للسيئات. فإذا هم وصلوا إلى الجنة بعد الحساب، رزقهم الله فيها بغير حساب.

ويستنكر الرجل المؤمن أن يدعوهم إلى النجاة فيدعونه إلى النار، فيهتف بهم في استنكار: **﴿ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار؟﴾** [غافر: ٤١].

وهم لم يدعوه إلى النار. إنما دعوه إلى الشرك. وما الفرق بين الدعوة إلى الشرك والدعوة إلى النار؟ إنها قريب من قريب. فهو يُبدّل الدعوة بالدعوة في تعبيره في الآية التالية: **﴿تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم. وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾** [غافر: ٤٢].

وشتان بين دعوة ودعوة. إن دعوته لهم واضحة مستقيمة. إنه يدعوهم إلى العزيز الغفار. يدعوهم إلى إله واحد تشهد آثاره في الوجود بوحدانيته، وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره. يدعوهم إليه ليغفر لهم وهو القادر على أن يغفر، الذي تفضل بالغفران: **﴿العزيز الغفار﴾**. . فإلى أي شيء يدعونه؟ يدعونه للكفر بالله. عن طريق إشراك ما لا علم له به من مُدَّعَيات وأوهام وألغاز!.

ويقرر من غير شك ولا ريب أن هؤلاء الشركاء ليس لهم من الأمر شيء، وليس لهم شأن لا في دنيا ولا في آخرة، وأن المَرَدّ لله وحده، وأن المسرفين المتجاوزين للحد في الادعاء سيكونون أهل النار:

﴿لا جَرَم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة. وأن مردنا إلى الله. وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾ [غافر: ٤٣]. .

وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية في العقيدة؟ وقد جَهَر بها الرجل في مواجهة فرعون ومَلَئه بلا تردّد ولا تلعثم، بعدما كان يكتم إيمانه، فأعلن عنه هذا الإعلان؟ لا يبقى إلا أن يُفوّض أمره إلى الله، وقد قال كلمته وأراح ضميره، مهدداً إياهم بأنهم سيذكرون كلمته هذه في موقف لا تنفع فيه الذكرى. والأمر كله إلى الله: **﴿فستذكرون ما أقول لكم، وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد﴾** [غافر: ٤٤].. وينتهي الجدل والحوار. وقد سجل مؤمن آل فرعون كلمته الحق خالدة في ضمير الزمان.

ويسجل القرآن «لقطة» بعد هذا الموقف الأخير. وبعد الحياة: **﴿فوَقاه الله سيئات ما مَكَروا، وحاق بآل فرعونِ سوء العذاب..﴾** [غافر: ٤٥]..

لقد طُويت الدنيا، وعرضت أول صفحة بعدها. فإذا الرجل المؤمن الذي قال كلمة الحق ومضى، وقد وَقاه الله سيئات مكر فرعون وملئه، فلم يُصبه من آثارها شيء في الدنيا، ولا فيما بعدها أيضاً. بينما حاق بآل فرعون سوء العذاب.

ويسدل الستار على مشهد التآمر والوعيد.. حيث ندرك منه أن فرعون قد مضى يُنَفِّذ الوعيد البغيض.

الأُبَّهة الزائفة والبريق الخادع:

استمر موسى ـ عليه السلام ـ في دَعْوَتِه لا يُثنيه وعيد، ولا يُخيفه تهديد، مضى في نشر دعوته، يدعو فرعون إلى الإيمان بربّه.. ربّ العالمين. خالق الأرض والسموات، وأن يُطلق معه بني إسرائيل. ولكن الطاغية الجَهول كان ولوعاً بغوايته مُستمسكاً بتكبّره وعناده. لم يفده الحق الذي ظَهَر. فلم يُغير من نفسه شيئاً، ولم يُخفف من غروره وكبريائه، بل زاده عناداً وطغياناً، فأخذ يُباهي بِمُلكه العظيم وقُصوره الشامخة، ويتفاخر

بمـا يتقلَّب فيه من نِعَمْ. وبمن يَتحكّم فيهم من بَشَـر. ومضى يُعلن أنـه صاحب هذا المُلك الواسع. . وأنه مُتصرف فيه كما يشاء. . فلا ينبغي لأحد أن يَتَعالى عليه برأي أو أمر. ثم أخذ يُوازن بين ما هو فيه من نعيم، وبين موسى النبيّ الأمين.

ها هي الجماهير التي أَلِفت الذلّة وارتضت عيش الهوان والاستعباد جَمَعَها فرعون ليُبهرها بالقوة، ويُثبتها على الكُفر والمذلة.

ولكن الجماهير قد تُؤخذ بالخوارق المُعجزة، وقد يَجد الحق سبيلاً إلى قلوبها المخدوعة. وهنا يبرز فرعون في جاهه وسلطانه، وفي زُخـرفه وزينته، يخلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحي، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهود الطغيان، المخدوعة بالأُبّهة والبَريق:

﴿ونادى فرعون في قومه قال: يا قوم أليس لي مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ أفلا تبصرون؟. .﴾ [الزخرف: ٥١]. .

إن مُلك مصر وهذه الأنهار التي تجري من تحت فرعون، أمر قريب مشهود للجماهيـر، يُبهرهـا وتَستخفها الإشـارة إليه. فـأما مُلك السمـوات والأرض وما بينهما ـ ومصر لا تساوي هباءة فيه ـ فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسّه، وتعقد الموازنة بينه وبين مُلك مصر الصغير الزهيد!.

والجماهير المُسْتَعبـدة يُغريهـا البريق الخـادع القريب من عيـونها؛ ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تَدبّر ذلك الملك الكوني العريض البعيد!.

ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القـريب! **﴿أم أنـا خيـر من هـذا الـذي هـو مَهين ولا يكـاد يُبين؟﴾** [الزخرف: ٥٢]. .

وهو يعني بالمهانة أن موسى ليس مَلِكاً ولا أميراً ولا صَاحب سطوة ومال مشهود. أم لعلَّه يشير بهذا إلى أنه من ذلك الشعب المُسْتَعبد المهين.

شَعب إسرائيل. أما قوله: ﴿ولا يكاد يَبين﴾ فهو استغلال لما كان معروفاً عن موسى قبل خروجه من مصر من حَبْسة اللسان. وإلا فقد استجاب الله سؤاله حين دعاه: ﴿رب اشرح لي صدراً ويَسِّر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ [طه: ٢٥ ـ ٢٨].. وحُلّت عُقدة لسانه فعلاً، وعاد يَبين.

وعند الجماهير الساذجة الغافلة لا بد أن يكون فرعون الذي له مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته، خيراً من موسى ـ عليه السلام ـ ومعه كلمة الحق ومقام النبوة ودعوة النجاة من العذاب الأليم!.

﴿فلولا أُلقي عليه أسورة من ذهب؟﴾ [الزخرف: ٥٣]..

هكذا. من ذلك العَرَض التافه الرخيص! أَسورة من ذهب تصدّق رسالة رسول! أُسورة من ذهب تساوي أكثر من الآيات المعجزة التي أيَّدَ الله بها رسوله الكريم! أم لَعلّه كان يقصد من إلقاء أسورة الذهب تتويجه بالملك، إذ كانت هذه عادتهم، فيكون الرسول ذا مُلك وذا سلطان؟.

﴿أو جاء معه الملائكة مُقترنين﴾ [الزخرف: ٥٣]..

وهو اعتراض آخر له بريق خادع كذلك من جانب آخر، تُؤخذ به الجماهير، وترى أن اعتراضه وجيه! وهو اعتراض مكروه، وَوُجِّه به أكثر من رسول!.

﴿فاستخفَّ قومه فأطاعوه، إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ [الزخرف: ٥٤]..

واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه؛ فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سُبل المعرفة، ويَحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها؛ ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المُصطَنَعة. ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين!.

ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله، ولا يَزنون بميزان الإيمان.

فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح. ومن هنا يُعلِّل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول: **﴿فاستخفَّ قومه فأطاعوه. إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾**..

مضى فرعون في عُتوّه وبُهتانه، وذهب به الهَوى والغرور واعتداده بنفسه مذهباً بعيداً.. فقد استخفّ قومه، استخف عقولهم، فلعب بها، يتصرف كيف يشاء، فهو المحتكر لضمائر الناس وتفكيرهم، واستعمل سلطانه الرهيب على شعبه المستضعف فهو الذي يُناديه: **﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾** [القصص: ٣٨].. بل إنه أسرف على نفسه وعلى الناس، فتجاوز كل الحدود، وطغى وبغى وقال: **﴿أنا ربكم الأعلى﴾** [النازعات: ٢٤]..

يعرض سياق القصة قولة الطاغية الكافرة.. الكلمة الوقحة المتطاولة، المليئة بالغرور والجهالة..

قالها الطاغية مخدوعاً بغفلة جماهيره، وإذعانها وانقيادها. فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذِلّتها وطاعتها وانقيادها.

وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطاناً. إنما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب! وتَمدّ له أعناقها فيَجرّ! وتحني له رؤوسها فيستعلي! وتتنازل له عن حقها في العزّة والكرامة فيطغى!.

والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة وخائفة من جهة أخرى. وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوَهْم. فالطاغية ـ وهو فرد ـ لا يمكن أن يكون

أقوى من الألوف والملايين، لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعِزّتها وحريتها.

وكل فرد هو كفء للطاغية من ناحية القوة ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئاً!.

وما يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبداً. وما يمكن أن يطغى فرد في أمة رشيدة أبداً. وما يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها وتؤمن به وتأبى أن تَتَعَبَّد لواحد من خلقه لا يملك لها ضَرّاً ولا رشداً!.

فأما فرعون فوجد في قومه من الغفلة ومن الذلة ومن خواء القلب من الإيمان، ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الفاجرة: **﴿أنا ربكم الأعلى﴾**.. وما كان ليقولها أبداً لو وَجَد أمة واعية كريمة مؤمنة، تعرف أنه عَبْدٌ ضعيف لا يقدر على شيء.. وإن يسلبه الذباب شيئاً لا يستنقذ من الذباب شيئاً!.

بين موسى وقومه:

لقد تمادى فرعون في غيّه وعناده، ولجَّ في غلوائه وكبريائه، وراح يُذيق قوم موسى صنوف العذاب، وألوان الأذى.. ففي كل يوم محنة جديدة! وفي كل يوم بلية نازلة.

وكَبُر العذاب، وتعدّدت صنوف الظلم وألوان الأذى، فضجُّوا لاجئين إلى موسى، ليحميهم من طغيان الكافر الجبار، ولينقذهم مما لا يزالون يجدونه من التنكيل والتقتيل والتعسف الصارخ.

ويرفع السياق الستار على مشهد لقاء موسى مع قومه.

ويتحدث القرآن عن مشهد النبي ـ عليه السلام ـ مع قومه، يُحدّثهم بقلب النبي ولغته، ومعرفته بحقيقة ربّه؛ وبسُنَّته وقَدَره، فيُوصيهم باحتمال الفتنة، والصبر على البلية، والاستعانة بالله عليها. ويُعَرِّفهم بحقيقة الواقع

الكوني. فالأرض لله يورثها من يشاء من عباده. والعاقبة لمن يتقون الله ولا يخشون أحداً سواه.. فإذا شكوا إليه أن هذا العذاب الذي يحلّ بهم قد حَلّ بهم من قبل أن يأتيهم، وهو يحل بهم كذلك بعدما جاءهم، حيث لا تبدو له نهاية، ولا يلوح له آخر! أعلن لهم رجاءه في ربه أن يُهلك عدوّهم، ويَستخلفهم في الأرض لِيَبْتَليهم في أمانة الخلافة:

﴿قال موسى لقومه: استعينوا بالله واصبروا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين..﴾ [الأعراف: ١٢٨]..

إنها رؤية «النبي» لحقيقة الألوهية وإشراقها في قلبه. ولحقيقة الواقع الكوني والقوى التي تعمل فيه. ولحقيقة السُّنة الإلهية وما يرجوه منها الصابرون.

إنه ليس لأصحاب الدعوة إلى ربّ العالمين إلا ملاذ واحد، وهو الملاذ الحصين الأمين، وإلا وَليّ وهو الولي القوي المتين. وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولي بالنصرة في الوقت الذي يُقدّره بحكمته وعلمه. وألا يعجلوا، فهم لا يَطَّلِعون الغيب، ولا يَعلمون الخير..

وإن الأرض لله. وما فرعون وقومه إلا نُزلاء فيها. والله يورثها من يشاء من عباده ـ وفق سُنَّته وحكمته ـ فلا ينظر الداعون إلى رب العالمين، إلى شيء من ظواهر الأمور التي تُخَيِّل للناظرين أن الطاغوت مكين في الأرض غير مُزحزح عنها.. فصاحب الأرض ومالكها هو الذي يُقرّر متى يطردهم منها!.

وإن العاقبة للمتقين.. طال الزمن أم قصر.. فلا يُخالج قلوب الداعين إلى ربّ العالمين قَلَقٌ على المصير. ولا يُخايل لهم تَقَلّب الذين كفروا في البلاد، فيحسبونهم باقين..

إنها رؤية «النبي» لحقائق الوجود الكبير..

ولكن إسرائيل هي إسرائيل! **﴿قالوا: أُوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾** [الأعراف: ١٢٩]..

إنها كلمات ذات ظلّ! وإنها لَتَشِي بما وراءها من تَبرُّم! أُوذينا قبل مجيئك وما تَغَيَّر شيء بمجيئك. وطال هذا الأذى حتى ما تبدو له نهاية! لم تَنْتَهِ آلامنا ومتاعبنا النفسية.

لم تَنفعنا شيئاً! لم تُغن عنا شيئاً.. ولكن موسى لم يَجزع ولم ييأس!.

ويمضي النبي الكريم على نهجه. يُذَكِّرهم بالله، ويُعلِّق رجاءهم به، ويُلوِّح لهم بالأمل في هلاك عدوهم، واستخلافهم في الأرض. مع التحذير في فتنة الاستخلاف.. **﴿قال: عسى ربكم أن يهلك عدوكم، ويستخلفكم في الأرض، فينظر كيف تعملون﴾** [الأعراف: ١٢٩]..

إنه ينظر بقلب النبي فيرى سُنة الله، تجري وفق وَعْدَه، للصابرين، وللجاحدين! ويرى من خلال سُنّة الله هلاك الطاغوت وأهله، واستخلاف الصابرين المُستعينين بالله وحده. فيدفع قومه دفعاً إلى الطريق لتجري بهم سنة الله إلى ما يريد.

وهو يُعلمهم ـ منذ البدء ـ أن استخلاف الله لهم إنما هو ابتلاء لهم. ليس أنهم أبناء الله وأحباؤه ـ كما زعموا ـ فلا يُعذّبهم بذنوبهم! وليس جزافاً بلا غاية. وليس خلوداً بلا توقيت. إنه استخلاف للامتحان: **﴿فَيَنْظُر كيف تعملون﴾**.. وهو ـ سبحانه ـ يعلم ماذا سيكون قبل أن يكون. ولكنها سنة الله وعدله ألا يُحاسب البشر حتى يقع منهم في العيان، ما هو مكشوف من الغيب لعلمه القديم.

واستجاب المؤمنون لنداء الله.. ها هو ذا موسى ومن آمن معه.. وهم قليل من شباب القوم لا من شيوخهم!..

وهذا إحدى عِبَر القصة المقصودة ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، على خَوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم. وإن فرعون لعال في الأرض. وإنه لمن المسرفين﴾ [يونس: ٨٣]. .

ويفيد هذا النص أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم لموسى من بني إسرائيل كانوا هم الفتيان الصغار، لا مجموعة الشعب الإسرائيلي. وأن هؤلاء الفتيان كان يُخشى من فتنتهم وردّهم عن اتباع موسى، خوفاً من فرعون وتأثير كبار قومهم ذوي المصالح عند أصحاب السلطان، والأذلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة وبخاصة من إسرائيل. وقد كان فرعون ذا سلطة ضخمة وجبروت، كما كان مُسرفاً في الطغيان، لا يقف عند حد، ولا يتحرّج من إجراء قاسّ.

﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئه أن يفتنهم﴾ . .

يقول العلامة الأستاذ الدكتور فضل عباس[١]: «وفي الآية درسان على قَدْر كبير من الأهمية، فهما بحق قضيتان حَرِيّتان بالوقوف والتأمُّل:

أما أولاً: فإنه لم يؤمن لموسى إلا ذرية من قومه، والذرية ـ بالطبع ـ تشير إلى أن الذين آمنوا كانوا من عنصر الشباب وهي إشارة ذات مغزى، فالشباب هم العنصر الفعال في حياة الدعوات وتاريخها.

وأما ثانياً: فإن عدم الإيمان لم يكن خوفاً من فرعون فحسب، وإنما كان خوفاً من مَلَئِهم أي ملأ هذه الذرية من بني إسرائيل. إن كثيراً من المستضعفين الذين استمرأوا الذل يقفون مع العتاة الطغاة في وجه الحق مع أنهم يعلمون أن في هذا الحق دفعاً لكابوس الظلم عنهم، ولكنهم يُداهنون مع ذلك، بل يكونون أشدّ من الطغاة أنفسهم، وهكذا كان الملأ من

(١) القصص القرآني: ٢٥٥.

بني إسرائيل يَحولون بين ذرياتهم وبين الإيمان لموسى مع أن فرعون هو الذي عَلاَ في الأرض وكان من المسرفين. كان يسومهم سوء العذاب فما يَجني هؤلاء المُستضعفون من وقوفهم معه؟ ولكنها التبعية الذليلة التي لن تُحلّهم إلا دار البوار، ويلتفت موسى ـ عليه السلام ـ إلى هؤلاء الذين آمنوا به وهم بين نارين وخوفين، فرعون من جهة، ومَلَئِهم من جهة أخرى» يُعَرّفهم بربهم الحق القوي المتين..

وهنا لا بد من إيمان يرجح المخاوف، ويُطَمْئِن القلوب، ويُثَبّتها على الحق الذي تنحاز إليه:

﴿وقال موسى: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ [يونس: ٨٤]..

فالتوكل على الله دلالة الإيمان ومقتضاه. وعنصر القوة الذي يضاف إلى رصيد القلة الضعيفة أمام الجبروت الطاغي فإذا هي أقوى وأثبت. وقد ذكر لهم موسى الإيمان والإسلام. وجعل التوكل على الله مقتضى هذا وذاك.. مقتضى الاعتقاد في الله، ومقتضى إسلام النفس له خالصة والعمل بما يريد..

واستجاب المؤمنون لهتاف الإيمان على لسان نبيهم: **﴿فقالوا: على الله توكلنا﴾**..

ومن ثم توجهوا إلى الله بالدعاء: **﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾** [يونس: ٨٥]..

والدعاء بألا يجعلهم الله فتنة للقوم الظالمين مقصود به ألا يُمَكِّن القوم الظالمين منهم، فيظن القوم أن تَمَكّنهم من المؤمنين بالله دليل على أن عقيدتهم هم أصح ولذلك انتصروا وهُزم المؤمنون! ويكون هذا استدراجاً لهم من الله وفتنة ليلجوا في ضلالهم. فالمؤمنون يدعون الله أن يعصمهم من

تَسَلُّط الظالمين عليهم ولو لاستدراج الظالمين. والآية الثانية أصرح في النتيجة المطلوبة:

﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ [يونس: ٨٦]..

ودعاؤهم الله ألّا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين، وأن ينجيهم برحمته من القوم الكافرين، لا ينافي الاتكال على الله والتقوِّي به. بل هو أدلّ على التوجه بالاتكال والاعتماد إلى الله. والمؤمن لا يتمنى البلاء، ولكن يثبت عند اللقاء.

وعقب هذا التميز، وفي فترة الانتظار بعد الجولة الأولى، وإيمان من آمن بموسى، أوحى الله إليه وإلى هارون أن يتخذ لبني إسرائيل بيوتاً خاصة بهم، وذلك لِفَرْزهم وتنظيمهم استعداداً للرحيل من مصر في الوقت المختار؛ وكَلَّفهم تطهير بيوتهم، وتزكية نفوسهم، والاستبشار بنصر الله:

﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءآ لقومكما بمصر بيوتاً، واجعلوا بيوتكم قِبلة، وأقيموا الصلاة، وبشر المؤمنين﴾ [يونس: ٨٧]..

وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التبعئة النظامية. وهما معاً ضروريتان للأفراد والجماعات، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات. ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تُنبىء بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئاً كثيراً في ساعة الشدة.

وهذه التجربة التي يعرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لهما فيها أسوة، ليست خاصة ببني إسرائيل، فهي تجربة إيمانية خالصة.

وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي، وقد عَمَّت الفتنة وتجبَّر الطاغوت، وفَسَد الناس، وأَنْتَنَتْ البيئة ـ وكذلك كان الحال على عهد فرعون في هذه الفترة ـ وهنا يرشدهم الله إلى أمور:

ـ اعتزال الجاهلية بِنَتَنِها وفَسادها وشَرّها ـ ما أمكن في ذلك ـ وتَجمّع العصبة المؤمنة الخيّرة النَّظيفة على نفسها، لتطهرها وتزكيها، وتدربها وتنظمها، حتى يأتي وعد الله لها.

ـ اعتزال معابد الجاهلية واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد. تحسّ فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي؛ وتُزاول فيها عبادتها لربها على نَهج صحيح، وتُزاول بالعبادة ذاتها نوعاً من التنظيم في جو العبادة الطَهور.

اللمسة الموقظة والآيات البيّنات:

لقد مضى فرعون وملؤه إذن في جَبَروتهم؛ ونَفَّذ فرعون وعيده وتهديده، فَقَتَل الرجال واستحيا النساء.. ولقد مضى موسى وقومه يحتملون العذاب، ويرجون فَرَج الله، ويصبرون على الابتلاء.. وعندئذ.. عندما تمحّض الموقف: إيمان يقابله الكفر. وطغيان يقابله الصبر. وقوة أرضية تتحدّى الله.. عندئذ أخذت القوة الكبرى تتدخل سافرة بين المُتَجَبِّرين والصابرين:

﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يَذَّكَّرون﴾ [الأعراف: ١٣٠]..

إنها إشارة التحذير الأولى.. الجَدب ونقص الثمرات.. و«السنين» تُطلق في اللغة على سني الجدب والشدّة والقحط. وهي في أرض مصر، المُخصبة المُثمرة المِعطاء، تبدو ظاهرة تلفت النظر، وتهزّ القلوب، وتُثير القلق، وتدعو إلى اليقظة والتفكر؛ لولا أن الطاغوت والذين يستخفّهم الطاغوت ـ بفسقهم عن دين الله ـ فيطيعونه، لا يريدون أن يَتَدَبَّروا ولا أن يَتَفكّروا، ولا يريدون أن يروا يد الله في جدب الأرض ونقص الثمرات؛ ولا يريدونَ أن يَتَذَكّروا سُنن الله وَوَعْده وَوَعيده؛ ولا يريدون أن يعترفوا بأن هناك علاقة وثيقة بين القيم الإيمانية وواقعيات الحياة العملية.. لأن هذه العلاقة من عالم الغيب.. وهم أغلظ حساً وأجهل قلباً من أن يروا وراء الواقع

المحسوس ـ الذي تراه البهائم وتُحسّه ولا ترى غيره ولا تُحسّه ـ شيئاً! وإذا رأوا شيئاً من عالم الغيب لم يَتَفَطّنوا إلى سُنّة الله الجارية وفق المشيئة الطليقة، وإنما نسبوه إلى المصادفات العابرة، التي لا علاقة لها بنواميس الوجود الدائرة[1].

وكذلك لم يَنتبه آل فرعون إلى اللمسة الموقظة الدالّة على رحمة الله بعباده ـ حتى وهم يكفرون ويَفجرون. كانت الوثنية وخرافاتها قد أفسدت فطرتهم؛ وقطعت ما بينهم وبين إدراك النواميس الدقيقة الصحيحة التي تُصرّف هذا الكون، كما تُصرّف حياة الناس؛ والتي لا يراها ولا يُدركها على حقيقتها إلا المؤمنون بالله إيماناً صحيحاً. الذين يُدركون أن هذا الوجود لم يُخلق سُدى، ولا يَمضي عبثاً، إنما تحكمه قوانين صارمة صادقة..

وهذه هي «العقلية العلمية» الحقيقية. وهي عقلية لا تُنكر «غيب الله» لأنها لا تعارض بين «العلمية» الحقيقية، و«الغيبية»؛ ولا تُنكر العلاقة بين القيم الإيمانية وواقعيات الحياة، لأن وراءها الله الفَعّال لما يريد؛ الذي يريد من عباده الإيمان وهو يريد منهم الخلافة في الأرض، والذي يَسنّ لهم من شريعته ما يتناسق مع القوانين الكونية ليقع التناسق بين حركة قلوبهم وحركتهم في الأرض..

لم يَنتبه آل فرعون إلى العلاقة بين كفرهم وفسقهم عن دين الله، وبَغْيهم وظُلمهم لعباد الله.. وبين أخذهم بالجدب ونقص الثمرات.. في

---

(١) عندما نقصت الغلات في روسيا الشيوعية وفي المعسكر الشيوعي كله في أواخر الخمسينات من القرن العشرين.. لم يجد خروشوف رئيس روسيا إلا أن يقول: إن «الطبيعة» تعاكسنا! وهو الرجل الذي يدعي «الاشتراكية العلمية»! وينكر الغيبية! إنه العمى عن رؤية يد الله القاهرة.. وإلا فما هي هذه «الطبيعة» التي لها إرادة «تعاكس» بها البشر؟.

وفي مطلع التسعينات من القرن العشرين انهارت الشيوعية في الاتحاد السوفييتي وانهار هذا البنيان الذي أنشأه الوهم المُؤيّد بالحديد والنار..

مصر التي تفيض بالخصب والعطاء، **ولا تنقص غلتها عن إعالة أهلها إلا لفسوق أهلها وأخذهم بالابتلاء لعلهم يتذكرون!**.

لقد أراد الله تنبيه فرعون ومَلَئِه، وقد طغوا، وأسرفوا في الغفلة والعناد فأخذهم بسنين من الجوع والقحط وضيق العيش.. فنقصت ثمراتهم، وقلّت زروعهم.. أصابهم الله بهذه المِحَن لعلهم يتذكرون..

ومصر بلاد الخصب والنماء الخضراء.. بلاد الخيرات والبركات.. بلاد الأثمار والحبوب..

ومصر قد أنجدت بلاداً بعيدة أيام المجاعة في عهد يوسف ـ عليه السلام ـ.. أنجدت أهل الشام وأهل كنعان..

والنيلُ وفروعه هو الذي يروي أرض مصر ويسقي زروعهم وهو منبع السعادة والخير لأهلها..

وكان فرعون وملئه يظنون أن النيل هو مفتاح الرزق وأن مصر غنية بالنيل عن المطر وعن كل شيء.. فها هو ذا الطاغية يقول: **﴿قال: يا قوم أليس لي مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ أفلا تبصرون﴾** [الزخرف: ٥١]..

إنه عَمى الطغيان.. والطاغية المُتَجَبِّر مُعطِّل الحواس، مُغلق المشاعر. مطموس الضمير..

فالله وحده عنده مفاتيح الرزق، وهو يَبسط الرزق لمن يشاء ويَقدر.. وأن النيل يجري بأمره ويفيض بأمره..

فهو سبحانه الذي شَقّ الأنهار وأجراها **﴿أمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً﴾** [النمل: ٦١].. **﴿وهو الذي مدَّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً﴾** [الرعد: ٣].. **﴿وسخَّر لكم الفُلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار﴾** [إبراهيم: ٣٢]..

فالأمر لله الخالق المسخِّر.. أمَر النيل ففاضَ ماؤه وذهب في الأرض.. ونَقَصَت حبوبُهم وكانت مجاعة بعد مجاعة.

لقد عَمِيَت عليهم الآيات البَيِّنات.. وأراد الله لهم الهُدى فاستحبوا العمى على الهدى.. إنه العناد والإصرار الذي يقعد بهم عن النظر والتدبر.

لم ينتبهوا لهذه الظاهرة التي شاءت رحمة الله بعباده أن تُبرزها لأعينهم. ولكنهم كانوا إذا أصابتهم الحسنة والرخاء حسبوها حقاً طبيعياً لهم! وإذا أصابتهم السَّيئة والجدب نسبوا هذا إلى شُؤم موسى ومن معه عليهم.

﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا: لنا هذه! وإن تُصبهم سيئة يَطَّيَروا بموسى ومن معه﴾ [الأعراف: ١٣١]..

وحين تنحرف الفطرة عن الإيمان بالله، فإنها لا ترى يده ـ سبحانه ـ في تصريف هذا الوجود؛ ولا ترى قَدَره الذي تنشأ به الأشياء والأحداث. وعندئذ تفقد إدراكها وحساسيتها بالنواميس الكونية الثابتة النافذة. فَتُفَسِّر الحوادث تفسيرات مُنفصلة منعزلة. لا صلة بينها ولا قاعدة ولا ترابط؛ وتهيم مع الخرافة في دروب ملتوية متفرقة؛ لا تلتقي عند قاعدة، ولا تجتمع وفق نظام ـ وذلك كالذي قاله خروشوف صاحب الاشتراكية «العلمية»! عن معاكسة «الطبيعة!» لهم في تعليل نقص الثمرات والغلاّت! وكما يقول الذين يمضون مع هذه «العلمية» المُدَّعاة في تعليل مثل هذه الأحداث.. وهم يُنكرون قَدَر الله.. وفيهم من يَدّعي بعد استنكار غيب الله وقَدَر الله أنه «مُسلم» وهو ينكر أصول الإيمان بالله!.

وهكذا مضى فرعون وآله يُعلِّلون الأحداث الحسنة التي تُصيبهم هي من حُسن حَظِّهم وهم يستحقونها. والسيئة التي تُصيبهم هي بشؤم موسى ومن معه عليهم، ومن تحت رأسهم! وأصل «التَطَيّر» في لغة العرب ما كان الجاهليون في وثنيتهم وشركهم وبُعدهم عن إدراك سنن الله وقدره

يزاولونه.. فقد كان الرجل منهم إذا أراد أمراً، جاء إلى عش طائر فَهَيَّجه عنه، فإذا طار عن يمينه ـ وهو السانح ـ استبشر بذلك ومضى في الأمر الذي يُريده. وإذا طار الطائر عن شماله ـ وهو البارح ـ تشاءم به ورجع عما عَزَمَ عليه! فأبطل الإسلام هذا التفكير الخرافي؛ وأحل محله التفكير «العلمي» ـ العلمي الصحيح ـ وأرجع الأمور إلى سُنن الله الثابتة في الوجود؛ وإلى قَدَر الله الذي يحقق هذه السنن في كل مرة تتحقق فيها، وأقام الأمور على أسس «علمية» يُحسب فيها نية الإنسان وعمله وحركته وجهده؛ وتوضع في موضعها الصحيح، في إطار المشيئة الإلهية الطليقة، وقدره النافذ المحيط: ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله، ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ [الأعراف: ١٣١]..

إن ما يقع لهم مصدره كله واحد.. إنه من أمر الله.. ومن هذا المصدر تُصيبهم الحسنة للابتلاء.. وتُصيبهم السيئة للابتلاء: ﴿**ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة وإلينا ترجعون**﴾ [الأنبياء: ٣٥].. ويصيبهم النكال للجزاء.. ولكن أكثرهم لا يعلمون.. كالذين يُنكرون غيب الله وقَدَره في هذه الأيام باسم «العقلية العلمية»! وكالذين ينسبون إلى الطبيعة المعاكسة باسم «الاشتراكية العلمية» كذلك!!! وكلهم جُهّال.. وكلهم لا يَعلمون!.

ويمضي آل فرعون في عُتوّهم، تأخذهم العزّة بالإثم؛ ويزيدهم الابتلاء شماساً وعناداً:

﴿**وقالوا: مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين**﴾ [الأعراف: ١٣٢]..

فهو الجموح الذي لا تُروِّضه تَذْكرة؛ ولا يَردّه برهان؛ ولا يريد أن ينظر ولا أن يَتَدبَّر، لأنه يعلن الإصرار على التكذيب قبل أن يواجه البرهان ـ قطعاً للطريق على البرهان! ـ وهي حالة نفسية تُصيب المُتَجَبّرين حين يدفعهم الحق؛ وتَجْبههم البَيّنة، ويُطاردهم الدليل.. بينما هواهم ومصلحتهم ومُلكهم وسلطانهم.. كله في جانب آخر غير جانب الحق والبينة والدليل!.

عندئذ تتدخل القوة الكبرى سافِرَة بوسائلها الجبارة: **﴿فأرسلنا عليهم الطُّوفان، والجـراد، والقُمّل، والضَّفـادع والدمّ.. آيـات مفصلات..﴾** [الأعراف: ١٣٣]..

لـلإنذار والابتـلاء.. آيات مُفصـلات.. واضحة الـدلالة، مُتَّسقـة الخطوات، تتبع الواحدة منها الأخرى، وتصدق اللاحقة منها السابقة.

ولقد جمع السياق هنا تلك الآيات المُفَصّلة، التي جاءتهم مفرقة. واحدة واحدة. وهم في كل مرة يطلبون إلى موسى تحت ضغط البلية أن يدعو لهم ربّه لينقذهم منها؛ ويَعِدُونه أن يرسلوا معه بني إسرائيل إذا أنجاهم منها، وإذا رفع عنهم هذا «الرجز»، أي العذاب، الذي لا قِبَل لهم بدفعه:

﴿ولما وقع عليهم الرجز قالوا: يا موسى ادع لنـا ربك ـ بمـا عَهِدَ عندك ـ لئن كشفت عَنَّا الرجز لنؤمنن لك، ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ [الأعراف: ١٣٤]..

وفي كل مرة ينقضون عهدهم، ويعودون إلى ما كانوا فيـه قبل رَفْـع العذاب عنهم وفق قَدَر الله في تأجيلهم إلى أجلهم المقدور لهم:

﴿فلما كشفنا عنهم الرجز ـ إلى أجل هم بالغوه ـ إذا هم ينكثون﴾ [الأعراف: ١٣٥]..

جمع السياق الآيات كلها، كأنما جاءتهم مرة واحدة.. وكأنما وقع النكث منهم مرة واحدة. ذلك أن التجارب كلها كانت واحدة، وكانت نهايتها واحدة كذلك. وهي طريقة من طرق العرض القرآني للقصص يجمع فيها البدايات لِتَماثُلها؛ ويجمع فيه النهايات لِتَماثُلها كذلك.. ذلك أن القلب المغلق المطموس يتَلَقّى التجارب المُنوّعة وكأنها واحدة؛ لا يفيد منها شيئاً، ولا يجد فيها عبرة..

فأما كيف وقعت هذه الآيات، فليس لنا وراء النص القرآني شيء، ولم نجد في الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ عنها شيئاً. ونحن

نقف عند حدود النص القرآني في مثل هذه المواضع. لا سبيل لنا إلى شيء منها إلا من طريق الكتاب أو السنة الصحيحة. وذلك تَحَرُّزاً من الإسرائيليات والأقوال والروايات التي لا أصل لها؛ والتي تَسرَّبت ـ مع الأسف ـ إلى التفاسير القديمة كلها، حتى ما ينجو منها تفسير واحد من هذه التفاسير، وحتى أن تفسير الإمام ابن جرير الطبري ـ على نفاسة قيمته ـ وتفسير ابن كثير كذلك ـ على عظيم قدره ـ لم ينجوا من هذه الظاهرة الخطيرة. .

وقد وردت روايات شَتَّى في شأن هذه الآيات عن ابن عباس، وعن سعيد بن جبير، وعن قتادة، وعن ابن إسحاق. . رواها أبو جعفر ابن جرير الطبري في تاريخه وفي تفسيره. وهذه واحدة منها:

«حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا يعقوب القمي، عن جعفر بن المغيرة، عن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل، فأَبَى عليه، فأرسل الله عليهم الطوفان ـ وهو المطر ـ فصبَّ عليهم منه شيئاً، فخافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل! فدعا ربه، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم يُنْبِتْه قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ. فقالوا: هذا ما كنا نتمنى! فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يُبقي الزرع. فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل! فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل! فداسوا[1] وأحرزوا في البيوت، فقالوا: قد أحرزنا! فأرسل الله عليهم القمل ـ وهو السوس الذي يخرج منه ـ فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة[2]. فقالوا:

---

(١) داسوا: درسوا.

(٢) الجريب والقفيز، مكيالان للحبوب، والجريب أربعة أقفزة.

يـا موسى، ادع لنـا ربك يكشف عنـا القمل، فنؤمن لـك ونـرسـل معـك بني إسرائيل! فدعا ربه فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فبينا هو جالس عند فرعون، إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا؟! فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟! فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، ويهم أن يتكلم فَتثِب الضفادع في فِيه. فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنـا هذه الضفـادع، فنؤمن لك ونرسل معـك بني إسرائيـل! فكشف عنهم فلم يؤمنوا. فـأرسل الله عليهم الدمّ، فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار، أو ما كان في أوعيتهم، وجدوه دماً عبيطاً[1]. فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ٱبتلينا بالدم، وليس لنا شراب! فقال: إنه قد سحركم! فقالوا: من أين سحرنا، ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً؟ فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل! فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل».

والله أعلم أي ذلك كان.. والصورة التي جاءت بها هذه الآيات لا يُؤثّر اختلافها في طبيعة هذه الآيات. فالله ـ سبحانه ـ أرسلها بقَـدَره، في وقت معين، ابتلاء لقوم مُعَيَّنين؛ وفق سُنته في أَخْذ المُكذبين بالضراء لعلهم يتضرعون.

ولقـد كان قـوم فرعـون على وثنيتهم وجاهليتهم؛ وعلى استخفـاف فرعون بهم لفسقهم، يلجأون إلى موسى ـ عليه السلام ـ ليدعو ربه بما عَهِدَ عنده، ليكشف عنهم البلاء.. وإن كانت السلطات الحاكمة بعد ذلك تنكث ولا تستجيب.. لأنها تقوم على ربوبية فرعون للبشر؛ وتفزع من ربوبية الله لهم. إذ أن ذلك معناه هَدْمِ نظام الحكم الذي يقوم على حاكمية فرعون لا حاكمية الله!.. أما أهل الجاهلية الحـديثة فـإن الله يُسلّط الآفات على

(١) عبيطاً: طرياً.

زروعهم؛ فلا يُريدون أن يرجعوا إلى الله ألبتة! وإذا أحسّ أصحاب الزروع من الفلاحين بيد الله في هـذه الآفات، ـ وهـو الشعور الفـطري حتى في النفوس الكافرة في ساعات الخطر والشدة! ـ واتجهوا إلى الله بالدعاء أن يكشف عنهم البلاء، قال لهم أصحاب «العلمية!» الكاذبة: هـذا الاتجاه خرافة «غيبية!» وتَنَدَّروا عليهم وسخِروا منهم! لِيَردّوهم إلى كُفر أشد وأشنع من كفر الوثنيين!.

نعمـة ورحمـة:

إن نعمة وجود الرسول والنبي موسى ـ عليه السلام ـ يدعوهم إلى الله، ويُخاطبهم بكلامه.. نعمة فوق التصور.. ما لهم لا يؤمنون؟.

يا حسرة عليهم تُتاح لهم فُرص النجاة، وآيات الله البيّنات عليهم تَتْرى وهم مستكبرون!!.

والله يعلم حقيقة فرعون وملئه قبل الابتلاء؛ ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، فيحاسبهم. وقد شاءت رحمة الله ألّا يأخذ فرعون وقومه على ظُلمهم وطغيانهم وكفرهم.. إنما أرسل لهم رسولاً ليوقظ أفئدتهم ومعه الآيات والمعجزات الباهـرات **﴿وما كنـا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾** [الإسراء: ١٥].. وهي رحمة من الله إلى فرعون وملئه أن يعذر إلى العباد قبل أن يأخذه أَخْذَ عزيز مقتدر.

﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون، وجاءهم رسول كريم: أن أدُّوا إليّ عباد الله، إني لكم رسول أمين﴾ [الدخان: ١٧، ١٨]..

إنها لمسة قوية لإيقاظ القلوب إلى أن إرسال الرسول لقومه قد يكون فتنـة وابتلاء. والإمـلاء للمكذبين بين فتـرة من الزمـان، وهم يستكبـرون على الله، ويُؤذون رسول الله والمؤمنين معه قد يكون كذلك فتنة وابتلاء. وأن

إغضاب الرسول واستنفاذ حلمه على أذاهم ورجائه في هدايتهم قد يكون وراءه الأخذ الأليم والبطش الشديد.

﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بيّنات قالوا: ما هذا إلا سِحر مُفترَى، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ [القصص: ٣٦]..

وكأنما هي ذات القولة التي يقولها المشركون لمحمد ـ ﷺ ـ في مكة يومذاك: **﴿ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾**.. فهي المُماراة في الحق الواضح الذي لا يمكن دفعه. المماراة المكرورة حيثما واجَه الحق الباطل فأعيا الباطل الجواب. إنهم يدَّعون أنه سحر، ولا يجدون لهم حجة إلا أنه جديد عليهم، لم يسمعوا به في آبائهم الأولين!.

وهم لا يناقشون بحجة، ولا يَدْلون ببرهان، إنما يُلْقون بهذا القول الغامض الذي لا يحقّ حقاً ولا يبطل باطلاً ولا يدفع دعوى.

فأما موسى ـ عليه السلام ـ فيحيل الأمر بينه وبينهم إلى الله. فما أَدْلُوا بحجة ليناقشها، ولا طلبوا دليلاً فيعطيهم، إنما هم يمارون كما يماري أصحاب الباطل في كل مكان وفي كل زمان، فالاختصار أولى والإعراض أكرم، وترك الأمر بينه وبينهم إلى الله:

﴿وقال موسى: ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون﴾ [القصص: ٣٧]...

وهو ردّ مؤدب مهذب، يُلمِّح فيه ولا يُصرح. وفي الوقت ذاته ناصع واضح، مليء بالثقة والطمأنينة إلى عاقبة المواجهة بين الحق والباطل. فَرَبّه أعلم بصدقه وهُداه، وعاقبة الدار مكفولة لمن جاء بالهدى، والظالمون في النهاية لا يُفلحون. سُنّة الله التي لا تتبدل. وإن بَدَتْ ظواهر الأمور أحياناً في غير هذا الاتجاه. سنة الله يواجه بها موسى قومه ويواجه بها كل نبي قومه.

﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ [الدخان: ١٧] . . وابتليناهم بالنعمة والسلطان، والتمكين في الأرض، والإملاء في الرخاء، وأسباب الثراء والاستعلاء.

﴿وجاءهم رسول كريم﴾ [الدخان: ١٧] . . وكان هذا طرفاً من الابتلاء، ينكشف به نوع استجابتهم للرسول الكريم، الذي لا يطلب منهم شيئاً لنفسه؛ إنما يدعوهم إلى الله، ويطلب إليهم أن يؤدوا كل شيء لله، وإلا يستبقوا شيئاً من ذوات أنفسهم يضنون به على الله:

﴿أن أدُّوا إليّ عباد الله إني لكم رسول أمين. وألا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين. وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون. وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ [الدخان: ١٨ ـ ٢١] . .

إنها كلمات قصيرة تلك التي جاءهم بها رسولهم الكريم موسى ـ عليه السلام ـ:

إنه يطلب إليهم الاستجابة الكلية. والأداء الكامل. والاستسلام المطلق[1]. الاستسلام المطلق لله. الذين هم عباده. وما ينبغي للعباد أن يَعلوا على الله. فهي دعوة الله يحملها إليهم الرسول، ومعه البرهان على أنه رسول الله إليهم. البرهان القوي والسلطان المبين، الذي تذعن له القلوب. وهو يتحصن بربه ويعوذ به أن يسطو عليه وأن يرجموه. فإن استعصوا على الإيمان فهو يُفاصلهم ويعتزلهم ويطلب إليهم أن يفاصلوه ويعتزلوه. وذلك منتهى النصفة والعدل والمسالمة. ولكن الطغيان قلما يقبل النصفة، فهو يَرهب من وجود الحق طليقاً . .

لقد أرسل الله موسى بالآيات مزوّداً بقوة من الله وسلطان، إلى فرعون

(١) هناك تفسير آخر لقوله تعالى: **﴿أن أدوا إليّ عباد الله﴾** أي: أعطوني بني إسرائيل عباد الله. وأدوهم إليّ ولا تحجزون للسخرة والعذاب. وذلك كقوله: **﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾**.

ذي السلطان وكبراء قومه: **﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه﴾** [الزخرف: ٤٦]. .

وتلقى فرعون وملئه آيات الله ورسوله بالعناد والإصرار والاستكبار: **﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين. فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا: إن هذا لسحر مبين﴾** [يونس: ٧٥، ٧٦]. .

ويشير القرآن إلى ما أَخَذَ الله به فرعون وملئه من الابتلاءات المفصَّلة في سور عديدة: **﴿في تسع آيات إلى فرعون وقومه. إنهم كانوا قوماً فاسقين. فلما جاءتهم آياتنا مُبصرة قالوا: هذا سحر مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظُلماً وعُلُوّاً. فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾** [النمل: ١٢ - ١٤]. .

هذه الآيات الكثيرة العدد، الكاشفة عن الحق، حتى ليبصره كل من له عينان. ويصف هذه الآيات نفسها بأنها مبصرة، فهي تُبَصِّر الناس وتقودهم إلى الهدى. ومع هذا فقد قالوا عنها: إنها سحر مبين!.

﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا: إن هذا لسحر مبين﴾ [يونس: ٧٦]. . بهذا التحديد. . **﴿من عندنا﴾**. . ليصور شناعة الجريمة فيما قالوه عن هذا الحق الصادر من عند الله. .

بهذا التوكيد المتبجح الذي لا يستند مع هذا إلى دليل. . **﴿إن هذا لسحر مبين﴾**. . كأنهما جملة واحدة يتعارف عليها المكذِّبون في جميع العصور! فهكذا قال مشركو قريش، كما حُكي عنهم في القرآن، على تباعد الزمان والمكان، وعلى بُعد ما بين معجزة موسى ومعجزة القرآن!.

﴿قال موسى: أتقولون للحق لما جاءكم. أسحر هذا؟ ولا يفلح الساحرون﴾ [يونس: ٧٧]. .

وقد حذف من استنكار موسى الأول ما دلّ عليه الثاني. فكأنه قال لهم: أتقولون للحق لما جاءكم: هذا سحر؟ أسحر هذا؟.

وفي السؤال الأول استنكار لوصف الحق بالسحر، وفي السؤال الثاني تعجيب من أن يقول أحد عن هذا إنه سحر. فالسحر لا يستهدف هداية الناس، ولا يتضمن عقيدة، وليس له فكرة معينة عن الألوهية وعلاقة الخلق بالخالق؛ ولا يتضمن منهاجاً تنظيمياً للحياة. فما يختلط السحر بهذا ولا يلتبس. وما كان الساحرون ليؤدوا عملاً يستهدف مثل هذه الأغراض، ويحقق مثل هذا الاتجاه؛ وما كانوا ليفلحوا.

لقد قالوا عن آيات الله المبصرة إنها سحر مبين. قالوا ذلك لا عن اقتناع ولا عن شبهة. إنما قالوه: ﴿ظُلماً وعُلواً﴾ وقد استيقنت نفوسهم أنها الحق الذي لا شبهة فيه: ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾. قالوا جحوداً ومكابرة، لأنهم لا يريدون الإيمان، ولا يطلبون البرهان. استعلاء على الحق وظلماً له ولأنفسهم بهذا الاستعلاء الذميم.

وكذلك كان كبراء قريش يستقبلون القرآن، ويستيقنون أنه الحق، ولكنهم يجحدونه، ويجحدون دعوة النبي - ﷺ - إياهم إلى الله الواحد. ذلك أنهم كانوا يريدون الإبقاء على ديانتهم وعقائدهم، لما وراءها من أوضاع تسندهم، ومغانم تتوافد عليهم. وهي تقوم على تلك العقائد الباطلة، التي يُحسّون خَطَر الدعوة الإسلامية عليها، ويحسونها تتزلزل تحت أقدامهم، وترتج في ضمائرهم. ومطارق الحق المبين تدفع الباطل الواهي المريب!.

وكذلك الحق لا يجحده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه. بل لأنهم يعرفونه! يجحدونه وقد استيقنته نفوسهم، لأنهم يحسُّون الخطر فيه على وجودهم، أو الخطر على أوضاعهم، أو الخطر على مصالحهم ومغانمهم. فيقفون في وجهه مكابرين، وهو واضح مبين.

وهكذا لم تكن الآيات التي ظهرت على يدي موسى ـ عليه السلام ـ مدعاة إيمان، وهي تأخذهم متتابعة. كل آية أكبر من أختها: **﴿وما نُريهم من آية إلا هي أكبر من أختها، وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون﴾** [الزخرف: ٤٨] مما يصدق قول الله تعالى في مواضع كثيرة، وفحواه أن الخوارق لا تهدي قلباً لم يتأهل للهدى، وأن الرسول لا يُسمع الصُمّ ولا يهدي العُمي!.

والعجب هنا فيما يحكيه القرآن عن فرعون وملئهم: **﴿وقالوا: يا أيها الساحر ادعُ لنا ربك بما عَهِدَ عندك إننا لمهتدون﴾** [الزخرف: ٤٩]..

فهم أمام البلاء، وهم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم البلاء. ومع ذلك يقولون له: **﴿يا أيها الساحر﴾** ويقولون كذلك: **﴿ادع لنا ربك بما عَهِدَ عندك﴾** وهو يقول لهم: إنه رسول **﴿ربِّ العالمين﴾** لا ربّه هو وحده على جهة الاختصاص! ولكن لا الخوارق ولا كلام الرسول مسّ قلوبهم، ولا خالطتها بشاشة الإيمان على الرغم من قولهم: **﴿إننا لمهتدون﴾**، **﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾** [الزخرف: ٥٠]..

إن حلقة قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون، يبدو فيها اعتزاز فرعون بالقيم الزائفة، وهوانها على الله، وهوان فرعون الذي اعتزَّ بها، ونهايته التي تنتظر المعتزّين بمثل ما اعتزّ به..

لقد كان الله ـ سبحانه ـ يُمهلهم رحمة بهم، ويُؤخر عنهم الهلاك، ولكنه لن يُهملهم..

ويكشف الملأ عن حقيقة الدوافع التي تصدّهم عن التسليم بآيات الله:

﴿قالوا: أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا، وتكون لكما الكبرياء في الأرض؟ وما نحن لكما بمؤمنين﴾ [يونس: ٧٨]..

وإذن فهو الخوف من تحطيم مُعتقداتهم الموروثة، التي يقوم عليها نظامهم السياسي والاقتصادي. وهو الخوف على السلطان في الأرض، هذا السلطان الذي يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة.

إنها العلّة القديمة الجديدة، التي تدفع بالطغاة إلى مقاومة الدعوات، وانتحال شتى المعاذير، ورمي الدعاة بأشنع التهم، والفجور في مقاومة الدعوات والدعاة.. إنها هي «الكبرياء في الأرض» وما تقوم عليه من معتقدات باطلة يحرص المتجبرون على بقائها مُتحَجّرة في قلوب الجماهير، بكل ما فيها من زيف، وبكل ما فيها من فساد، وبكل ما فيها من أوهام وخرافات. لأن تفتح القلوب للعقيدة الصحيحة، واستنارة العقول بالنور الجديد، خَطَر على القيم الموروثة، وخطر على مكانة الطغاة ورهبتهم في قلوب الجماهير، وخطر على القواعد التي تقوم عليها هذه الرهبة وتستند. إنها الخوف على السلطان القائم على الأوهام والأصنام! وعلى تعبيد الناس لأرباب من دون الله..

ودعوة الإسلام ـ على أيدي الرسل جميعاً ـ إنما تستهدف تقرير ربوبية الله وحده للعالمين؛ وتنحية الأرباب الزائفة التي تغتصب حقوق الألوهية وخصائصها، وتزاولها في حياة الناس. وما كانت هذه الأرباب المُستَخِفّة للجماهير لتدع كلمة الحق والهدى تصل إلى هذه الجماهير. ما كانت لتدع الإعلان العام الذي يحمله الإسلام بربوبية الله وحده للعالمين وتحرير رقاب البشر من العبودية للعباد..

ما كانت لتدع هذا الإعلان العام يصل إلى الجماهير؛ وهي تعلم أنه إعلان بالثورة على ربوبيتهم، والانقلاب على سلطانهم، والانقضاض على مُلكهم، والانطلاق إلى فضاء الحرية الكريمة اللائقة بالإنسان!.

إنها هي هي العلة القديمة الجديدة كلما قام مَنْ يدعو إلى الله ربّ العالمين!.

وما كان رجال من أذكياء قريش مثلاً ليخطئوا إدراك ما في رسالة محمد ـ ﷺ ـ من صدق وسمو، وما في عقيدة الشرك من تهافت وفساد. ولكنهم كانوا يخشون على مكانتهم الموروثة، القائمة على ما في تلك العقيدة من خرافات وتقاليد. كما خشي الملأ من قوم فرعون على سلطانهم في الأرض، فقالوا مُتَبَجِّحين: **﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾** . . **﴿وقالوا: مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾** [الأعراف: ١٣٢]. .

إن كثرة الخوارق لا تُنشىء الإيمان في القلوب الجاحدة. وها هو ذا موسى قد أُوتي تسع آيات بَيِّنات ثم كذَّب بها فرعون وملؤه: **﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بيِّنات، فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم، فقال له فرعون: إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾** [الإسراء: ١٠١]. .

والآيات التسع المشار إليها هنا هي: اليد البيضاء والعصا وما أخذ الله به فرعون وقومه من السِّنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم. . **﴿فَاسْأَل بني إسرائيل إذ جاءهم﴾** فهم شهداء على ما كان بين موسى وفرعون:

﴿فقال له فرعون: إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾. . فكلمة الحق وتوحيد الله والدعوة إلى ترك الظلم والطغيان والإيذاء لا تصدر في عرف الطاغية إلا من مسحور لا يدري ما يقول!.

فما يستطيع الطغاة من أمثال فرعون أن يتصوروا هذه المعاني؛ ولا أن يرفع أحد رأسه ليتحدّث عنها وهو يملك لقواه العقلية!.

لقد لجَّ فرعون في عتوٍّ ونُفور. . ها هو ذا الطاغية في هَيئة مُتَبجِّحة بين مَلئه. . وهم بَعد هذه الآيات البيِّنات عاتون مُعرضون وُقحاء!.

فأما موسى فهو قويّ بالحق الذي أُرسل به مشرقاً منيراً؛ مُطمئنّ إلى نصرة الله له وأَخْذه للطغاة:

﴿قال: لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربّ السماوات والأرض. بصائر. وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾ [الإسراء: ١٠٢]..

هالكاً مُدمَّراً، جزاء تكذيبك بآيات الله وأنت تعلم أن لا أحد غيره يملك هذه الخوارق. وإنها لواضحة مكشوفة مُنيرة للبصائر، حتى لكأنها البصائر تكشِف الحقائق وتجلوها.

وعندئذ يلجأ الطاغية إلى قُوته المادية، فهو يَخشى أن يظل الحق طليقاً، يحاول أن يصل إلى الناس في سلام وهدوء. ومن ثُم يُحارب الحق بالبطش ولا يُسالمه أبداً. فمعنى المسالمة أن يزحف الحق، ويستولي في كل يوم على النفوس والقلوب. ومن ثم يبطش الباطل ويَرجم ولا يَعتزل الحق ولا يَدعه يَسلم أو يَستريح!.

لقد عزم فرعون أن يُزيلهم من الأرض ويبيدهم، ﴿فأراد أن يستفزّهم من الأرض﴾ [الإسراء: ١٠٣] فكذلك يفكر الطغاة في الرد على كلمة الحق..

دعاء.. وإجابة:

أحسَّ موسى ـ عليه السلام ـ أن القوم لن يُؤمنوا له ولن يَستجيبوا لدعوته؛ ولن يُسالموه أو يعتزلوه.. لقد عَظُم شأنهم في نَظَر أنفسهم، فاستكبروا وطغوا طُغياناً كبيراً. لقد تضخَّم شعورهم بأنفسهم حتى شَغَلهم عن تقدير القيم الحقيقية وَوَزْنها وزناً صحيحاً. لقد عادوا ما يحسون إلا أنفسهم وقد كَبُرت في أعينهم وتضخَّمت وعَظُمت، حتى قال فرعون تلك الكلمة النكراء: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤]..

واتَّجه موسى النبي الكريم إلى ربه، وقد يَئِسَ من فرعون ومَلئه أن يكون فيهم خير، وأن تكون قد بَقيت فيهم بَقيَّة، وأن يُرجى لهم صلاح. اتَّجه إليه يَدعو على فرعون ومَلَئه، الذين يملكون المال والزينة، تَضعف

إزاءهما قُلوب الكثيرين، فتنتهي إلى التهاوي أمام الجاه والمال، وإلى الضلال. . اتّجه موسى إلى ربه يدعوه أن يُدَمّر هذه الأموال، وأن يشدّ على قلوب أهلها فلا يؤمنوا إلا حيث لا ينفعهم إيمان. فاستجاب الله الدعاء:

﴿وقال موسى: ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا. ربنا ليضلوا عن سبيلك. ربنا اطمس على أموالهم، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال: قد أجيبت دعوتكما، فاستقيما، ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]. .

﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا﴾ [يونس: ٨٨]. .

ينشأ عنها إضلال الناس عن سبيلك، إمَّا بالإغراء الذي يُحدثه مظهر النعمة في نفوس الآخرين. وإما بالقوة التي يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم. ووجود النعمة في أيدي المفسدين لا شك يزعزع كثيراً من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار، وأنها كذلك ليست شيئاً ذا قيمة إلى جانب فضل الله في الدنيا والآخرة.

وموسى يتحدث هنا عن الواقع المشهود في عامة الناس. ويطلب لوقف هذا الإضلال، ولتجريد القوة الباغية من وسائل البغي والإغراء، أن يطمس الله على هذه الأموال بتدميرها والذهاب بها، بحيث لا ينتفع بها أصحابها. أما دعاؤه بأن يشدّ الله على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فهو دعاء من يَئِسَ من صلاح هذه القلوب، ومن أن يكون لها توبة أو إنابة.

دعاء بأن يزيدها الله قسوة واستغلاقاً حتى يأتيهم العذاب، وعندئذ لن يُقبل منهم الإيمان؛ لأن الإيمان عند حلول العذاب لا يُقبل، ولا يدل على توبة حقيقية باختيار الإنسان.

﴿قال: قد أُجيبت دعوتكما﴾.. كتبت لها الإجابة وقُضي الأمر.

﴿فاستقيما﴾.. في طريقكما وعلى هداكما حتى يأتي الأَجَل:

﴿ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون﴾.. فيخبطوا على غير علم، ويترددوا في الخطط والتدبيرات، ويَقْلقوا على المصير، ولا يعرفوا إن كانوا يسيرون في الطريق الهادي أم هم ضلوا السبيل.

لقد انتهت مرحلة الابتلاء والإنذار والتبصير، وعَلِمَ الله أن القوم لا يُؤمنون؛ وعَمَّت الفتنة فأطاعت الجماهير فرعون الطاغية المتباهي في خيلاء، وعَشَت عن الآيات البيِّنات والنور. وبَدا أن إجرامهم أصيلاً عميقاً لا أَمَلَ في تَخلِّيهم عنه.. ها هو ذا موسى مستغيثاً: **﴿فدعا ربَّه أن هؤلاء قومٌ مجرمون﴾** [الدخان: ٢٢]..

وماذا يملك الرسول إلا أن يعود إلى ربه بالحصيلة التي جَنَتْها يداه؟ وإلا أن ينفض أمره بين يديه، ويدع له التصرف بما يريد؟.

وتحققت كلمة الله وتحقق النذير.. وتَلَقَّى موسى الإجابة إقراراً من ربه لما دَفَعَ به القوم.. حقاً إنهم مجرمون.. **﴿فَأَسْرِ بعبادي ليلاً إنكم مُتَّبعون. واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون﴾** [الدخان: ٢٤]..

والسرى لا يكون إلا ليلاً، فالنص عليه يعيد تصوير المشهد، مشهد السرى بعباد الله ـ وهم بنو إسرائيل ـ ثم الإيحاء بجوّ الخفية، لأن سراهم كان خفية عن عون فرعون ومن وراء علمه.

الحلقة الرابعة:

عاقبة الطغيان وانتصار الإيمان

انتصار الحق وخروج بني إسرائيل من مصر:

﴿وأوحينا إلى موسى أن أَسْرِ بعبادي إنكم مُتَّبعون.. فأرسل فرعون في المدائن حاشرين. إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٥٤]..

لقد أوحى الله إلى موسى إذن أن يَسري بعباده، وأن يرحل بهم ليلاً، بعد تدبير وتنظيم. ونبَّأه أن فرعون سيتبعهم بجنده؛ وأَمَره أن يقود قومه إلى ساحل البحر (وهو في الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات).

وعَلِمَ فرعون بخروج بني إسرائيل خلسة، فأمر بما يسمى «التعبئة العامة» وأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له الجنود، ليدرك موسى وقومه؛ ويفسد عليهم تدبيرهم، وهو لا يعلم أنه تدبير صاحب التدبير!.

وانطلق عملاء فرعون يجمعون الجند.. ولكن هذا الجمع قد يشي بإنزعاج فرعون، وبقوة موسى ومن معه وعظم خطرهم، حتى ليحتاج الملك الإله ـ بزعمه! ـ إلى التعبئة العامة. ولا بد إذن من التهوين من شأن المؤمنين: **﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾**!.

ففيم إذن ذلك الاهتمام بأمرهم، والاحتشاد لهم، وهم شرذمة قليلون!.

﴿وإنهم لنا لغائظون﴾ [الشعراء: ٥٥].. فهم يأتون من الأفعال والأقوال ما يغيظ ويُغضب ويُثير!.

وإذن فلهم شأن وخَطَر على كل حال! فليقل العملاء: إن هذا لا يهم فنحن لهم بالمرصاد:

﴿وإنا لجميع حاذرون﴾ [الشعراء: ٥٦].. مستيقظون لمكائدهم، محتاطون لأمرهم، ممسكون بزمام الأمور!.

إنها حيرة الباطل المتجبر دائماً في مواجهة أصحاب العقيدة المؤمنين!.

لقد أسرى موسى بعباد الله، بوحي من الله وتدبير. فأتبعهم جنود فرعون في الصباح بمكر من فرعون وبَطَر. ثم ها هو ذا المشهد يقترب من نهايته. والمعركة تصل إلى ذروتها.. ويرفع القرآن الستار على المشهد المثير: **﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أَسْرِ بعبادي. فاضرب لهم طريقاً في البحر يَبَساً، لا تخاف دركاً ولا تخشى. فأتبعهم فرعون بجنوده..﴾** [طه: ٧٧، ٧٨]..

وقبل أن يعرض المشهد الأخير، يعجل السياق بالعاقبة الأخيرة من إخراج فرعون وملئه مما كانوا فيه من متاع. ووراثة بني إسرائيل المستضعفين:

﴿فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك، وأورثناها بني إسرائيل﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩]..

لقد خرجوا يتبعون خطا موسى وقومه ويَقْفون أَثَرهم. فكانت خرجتهم هذه هي الأخيرة. وكانت إخراجاً لهم من كل ما هم فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم؛ فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم! لذلك يذكر هذا المصير الأخير عقب خروجهم يَقْفُون أثرَ المؤمنين. تعجيلاً بالجزاء على الظلم والبطر والبغي الوخيم.

﴿وأورثناها بني إسرائيل﴾ [الشعرا: ٥٩]. .

ولا يُعرف أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة؛ وورثوا مُلك مصر وكنوز فرعون. لذلك يقول المفسرون: إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه. فهي وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم.

وبعد هذا الاعتراض يجيء المشهد الحاسم الأخير: **﴿فأتبعوهم مشرقين. فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى: إنا لمدركون. .﴾** [الشعراء: ٦٠، ٦١]. .

وتبرز في المشهد صورة الخوف الهائج. ها هم أولاء موسى وقومه أمام البحر ليس معهم سفن ولا هم يملكون خوضه وما هم بِمُسَلَّحين. وقد قاربهم فرعون بجنوده شاكي السلاح يطلبونهم ولا يرحمون!.

وقالت دلائل الحال كلها: أن لا مفرّ والبحر أمامهم والعدو خلفهم: **﴿قال أصحاب موسى: إنا لمدركون﴾**. .

وبلغ الكرب مداه، وإن هي إلا دقائق تمر ثم يهجم الموت ولا مناص ولا معين!.

ولكن موسى الذي تلقى الوحي من ربه، لا يشك لحظة وملء قلبه الثقة بربه، واليقين بعونه، والتأكد من النجاة، وإن كان لا يدري كيف تكون. فهي لا بد كائنة والله هو الذي يوجهه ويرعاه.

﴿قال: كلا إن معي ربي سيهدين﴾ [الشعرا: ٦٢]. .

كلا. في شدة وتوكيد. كلا لن نكون مُدْرَكين. كلا لن نكون هالكين. كلا لن نكون مفتونين. كلا لن نكون ضائعين **﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾**. بهذا الجزم والتأكيد واليقين.

وفي اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون:

﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر﴾ [الشعراء: ٦٣]. . ولا يتمهل السياق ليقول إنه ضرب بعصاه البحر. فهذا مفهوم. إنما يعجل بالنتيجة:

﴿فانفلق. فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ [الشعراء: ٦٣]. . ووقعت المعجزة، وتحقق الذي يقول عنه الناس: مستحيل. لأنهم يقيسون سنة الله على المألوف المكرور. والله الذي خلق السنن قادر على أن يجريها وفق مشيئته عندما يريد.

وقعت المعجزة وانكشف بين فرقي الماء طريق. ووقف الماء على جانبي الطريق كالطود العظيم. واقتحم بنو إسرائيل. . .

ووقف فرعون مع جنوده مبغوتاً مشدوهاً بذلك المشهد الخارق، وذلك الحادث العجيب.

ولا بد أن يكون قد وقف مبهوتاً فأطال الوقوف ـ وهو يرى موسى وقومه يعبرون الخضم في طريق مكشوف ـ قبل أن يأمر جنوده بالاقتحام وراءهم في ذلك الطريق العجيب.

وقد أَمَرَ الله موسى ـ عليه السلام ـ أن يمرّ هو وقومه وأن يَدع البحر وراءه ساكناً على هيئته التي مرَّ هو وقومه فيها، لإغراء فرعون وجنده بإتباعهم، ليتم قَدَر الله لهم كما أراده: **﴿واترك البحر رهواً[1] إنهم جندٌ مُغْرَقون﴾** [الدخان: ٢٤]. .

---

(١) الرهو: الساكن. وقد أراد موسى ـ عليه السلام ـ أن يضرب بعصاه البرّ فيعود بحراً كما كان ولكن الله أوحى إليه اترك البحر ساكناً. .

فهكذا ينفذ قَدَر الله من خلال الأسباب الظاهرة. والأسباب ذاتها طرف من هذا القَدَر المحتوم.

ويرفع القرآن الكريم الستار على مشهد مُثير وحلقة من القصة مُعبِّرة..

إنه مشهد انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود، بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة. فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر؛ وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف؛ وانتصار الإيمان في قلوبهم على الرغب والرهب، والتهديد والوعيد. فالآن ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال، والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود. والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول. فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير؛ وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن..

إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية. فأما إذا ظل الإيمان مَظْهراً لم يتجسم في القلب، والحق شعاراً لا ينبع من الضمير، فإن الطغيان والباطل قد يَغلبان، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان.. يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب؛ فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان.. وهذا هو الذي كان في موقف موسى ـ عليه السلام ـ من السحر والسحرة. وفي موقف السحرة من فرعون وملئه. ومن ثم انتصر الحق في الأرض كما يعرضه هذا المشهد في القرآن:

﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً، لا تخاف دَرَكاً ولا تخشى. فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ما غشيهم..﴾ [طه: ٧٧ ـ ٧٨]..

وإن هو إلا الإيحاء لموسى فيضرب لبني إسرائيل طريقاً في البحر يَبَساً

بدون تفصيل ولا تطويل ـ فنعرضه نحن كذلك كما جاء ـ مُطمئناً إلى أن عناية الله ترعاهم فلا يخاف أن يُدركه فرعون وجنوده، ولا يخشى من البحر الذي اتخذ له طريقاً يابساً فيه! ويد القدرة التي أجرت الماء وفق الناموس الذي أرادته قادرة على أن تكشفه بعض الوقت عن طريق يابس فيه!.

﴿فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾.. هكذا يُجمل السياق كذلك ما غشي فرعون وقومه، ولا يُفصله، ليبقى وَقْعه في النفس شاملاً مهولاً، لا يحدده التفصيل، وقادَ فرعون قومه إلى الضلال في الحياة كما قادهم إلى الضلال والبحر. وكلاهما ضلال يؤدي إلى البوار **﴿وأضلَّ فرعون قومه وما هدى﴾** [طه: ٧٩]..

وتتجلى رعاية الله لعباده المؤمنين كاملة حاسمة.. **﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾** [يونس: ٩٠].. بقيادتنا وهدايتنا ورعايتنا. ولهذا الإسناد في هذا الموضع دلالته..

﴿فأتبعهم فرعون وجنوده﴾.. لا اهتداءً وإيماناً، ولا دفاعاً مشروعاً. ولكن: **﴿بَغْياً وعدواً﴾** [يونس: ٩٠].. وتجاوزاً للحد وطغياناً..

وتمَّ تدبير الله.. فخرج بنو إسرائيل من الشاطىء الآخر، بينما كان فرعون وجنوده بين فَرقي الماء. وقد قَرَّبهم الله لمصيرهم المحتوم.. **﴿وأزلفنا ثَمَّ الآخرين. وأنجينا موسى ومَن معه أجمعين﴾**.. **﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾**!!! [الشعراء: ٦٤ ـ ٦٦]..

ويرفع الستار على مشهد البحر: مشهد فرعون وآله، يأخذهم الله بعاقبة الظلم والطغيان؛ ويحقق وعد موسى لقومه، ورجاءه في ربه، ويصدق النذير، وتساق القصة كلها لتصديقه.

وتجيء الخاتمة ـ وفق سنة الله في أخذ المكذبين بعد الابتلاء بالضرّاء والسرّاء ـ. وتقع الواقعة. ويدمر الله على فرعون ومَلَئه ـ بعد إذ أمهلهم

وأَجَّلَهم إلى أجل هم بالغوه ـ ويحقق وعده للمستضعفين الصابرين، بعد إهلاك الطغاة المتجبرين:

﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم، بأنهم كذبوا بآياتنا، وكانوا عنها غافلين. وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها، ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ [الأعراف: ١٣٦، ١٣٧].

ضربة واحدة، فإذا هم هالكون. ومن التعالي والتطاول والاستكبار، إلى الهويّ في الأعماق والأغوار، جزاءً وفاقاً **﴿بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾** [الأعراف: ١٣٦].. فيربط بين التكذيب بالآيات والغفَلة عنها، وبين هذا المصير المقدور..

ويقرر أن الأحداث لا تجري مصادفة، ولا تمضي فلتات عابرة، كما يظن الغافلون.. **﴿فأغرقناه ومَن معه جميعاً. وقلنا من بعده لبني إسرائيل: اسكنوا الأرض. فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾** [الإسراء: ١٠٣، ١٠٤]..

إيمـــان عقيـــم:

إن الله ـ سبحانه ـ يَرى ويَحسب ويُحاسب ويُجازي، وفق ميزان دقيق لا يُخطى ولا يَظلم ولا يأخذ بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء.. فأما الإنسان فتخطىء موازينه وتضلّ تقديراته، ولا يرى إلا الظواهر، ما لم يتصل بالله..

لقد علا فرعون واستكبر وعَمي عن آيات الله البيِّنات، وبَنى الأوتاد الشاهقات وقال: **﴿أنا ربكم الأعلى﴾**.. عندئذ حَقّت على الطاغية كلمة الله، وجرت سُنّته بإهلاك الظالمين وتوريث المستضعفين الصابرين..

وهكذا كانت عاقبة التكذيب بالآيات. وهكذا أورث الله الأرض للذين

كانوا يُستضعفون، موكولين فيها إلى أعمالهم وسلوكهم. .

ثم يكلهم وأعداءهم إلى جزاء الآخرة، **﴿فإذا جاء وَعْد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾**. .

حقاً إنه لمشهد مهيب! مشهد التنفيذ من المنتقم الجبَّار الفَعَّال لما يُريد. . **﴿فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعَدْواً، حتى إذا أدركه الغرق قال: آمنتُ أن لا إلّه إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. آلآنَ وقد عصيتَ وكنتَ من المفسدين﴾** [يونس: ٩٠، ٩١]. .

إنه الموقف الحاسم والمشهد الأخير في قصة التحدي والتكذيب. . والسياق يعرض هذه الخاتمة. . بيان رعاية الله وحمايته لأوليائه، وإنزال العذاب والهلاك بأعدائه، الذين يغفلون عن آياته الكونية وآياته مع رسله حتى تأخذهم الآية التي لا ينفع بعدها ندم ولا توبة. . وهو مصداق قوله تعالى في سورة يونس من وعيد للمكذبين:

﴿ولكل أمة رسول، فإذا جاء رسولهم قُضي بينهم بالقسط وهم لا يُظلمون. ويقولون: متى هذا الوعد إن كتم صادقين؟ قل: لا أملكُ لنفسِي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله. لكل أُمة أَجَل، فإذا جاء أَجَلهم فلا يَستأخرون ساعةً ولا يستقدمون. قل: أرَأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً، ماذا يستعجل منه المجرمون؟ أثم إذا ما وقع آمنتُم به؟ آلآنَ وقد كنتم به تَستعجلون؟﴾ [يونس: ٤٧ ـ ٥١]. .

فهنا يأتي القصص ليصدق ذلك الوعيد. . **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب، وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً، فقلنا: اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا، فدمرناهم تدميراً﴾** [الفرقان: ٣٥، ٣٦]. .

إنها قصة فرعون في مَثَل مُختصر سريع يرسم مصائر المكذبين. . فهذا موسى ومعه أخوه هارون وزيراً ومعيناً. يُؤمر بمواجهة القوم: **﴿الذين**

كذبوا بآياتنا﴾. . ذلك أن فرعون وملأه كانوا مكذبين بـآيات ـ حتى قبـل إرسال موسى وهارون إليهم ـ فآيات الله قائمة دائمة، والرُسل إنما يُذَكِّرون بها الغافلين. . ثم يرسم مصيرهم في عنف وإجمال: **﴿فدمرناهم تدميراً﴾**.

والله ـ سبحانه ـ يتحدث عن نفسه في مقام الانتقام والتدمير؛ إظهاراً لغضبه ولجبروته في هذا المقام. فيقول: **﴿فلما آسفونا﴾** أي أغضبونا أشد الغضب. . **﴿انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين﴾** [الزخرف: ٥٥]. . يعني فرعون وملأه وجنده. . الذين أغرقهم الله وجعلهم سلفاً يتبعه كـل خَالِف ظـالم، **﴿ومثَلاً لـلآخرين﴾** الـذين يجيئون بعـدهم، ويعـرفـون قصتهم، فيعتبرون. .

وينقلنا مشهد الغرق إلى صورة مُذهلة مخيفة يُسجلها ربّ العالمين: **﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾**. . وعاين الموت، ولم يملك نجاة. . في وَمْضة من البَغي والعَدْوِ والاستكبار. . إلى الغَرَق **﴿قال: آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾** [يونس: ٩٠]. .

لقد سقطت عن فرعون الباغي العادي المتجبر الطاغي. . كل أَرْدِيَته التي تنفخ فيه فَتُظْهره لقومه ولنفسه قوة هائلة مخيفة، ولقد تضاءل وتصاغر واستخذى. فهو لا يكتفي بأن يعلن إيمانـه بأن لا إلـه إلا الذي آمنت بـه بنو إسرائيل. فيزيد في استسلام. . **﴿وأنا من المسلمين﴾**. . المسلِّمين!.

﴿آلآنَ وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين﴾؟! آلآنَ حيث لا اختيار ولا فرار؟ آلآن وقد سبق العصيان والاستكبار، والتطاول الوقـح والطغيـان البشع؟!.

آلآنَ؟! فهذا إيمان عقيم في لحظة نَحِسة! وأَوْبَة المضطر، لجت به الكبرياء، وأحاط به الظلم والفساد. توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه مُتسع لارتكاب الآثام والتكذيب بالآيات البيِّنات، ولا فسحة لمقارفة الخطيئة بالعلو والاستكبار. وهذه التوبة لا يقبلها الله، لأنها لا تُنشىء صلاحاً في القلب ولا

صلاحاً في الحياة، ولا تدلّ على تبدّل في الطبع ولا تَغَيُّر في الاتجاه..

إن التوبة التي يقبلها ربّ العالمين، والتي تفضَّل فكَتَبَ على نفسه قبولها هي التي تصدر من النفس، فتدل على أن هذه النفس قد أُنشئت نشأة أخرى. قد هزّها الندم من الأعماق، ورجَّها رجاً شديداً حتى استفاقت فثابت وأنابت، وهي في فسحة من العمر، وبحبوحة من الأمل، واستحدثت رغبة حقيقية في التطهر، ونيّة صادقة في سلوك نهج جديد، وتعديل أساسي في الشخصية والكينونة والوجهة والطريق..

الذين يتوبون من قريب هم الذين يثوبون إلى الله قبل أن يتبيَّن لهم الموت، ويدخلوا في سكراته، ويحسُّوا أنهم على عتباته. فالتوبة المقبولة هي توبة النَدَم، والانخلاع من الخطيئة والاستعلاء والكبرياء، والنية على العمل الصالح والتكفير.. فهي إذن نشأة جديدة في النفس، ويقظة جديدة للضمير. فأولئك يتوب عليهم..

آلآنَ وقد حقَّت كلمة الحق بالعذاب ومضت سُنّة الله بأن يكون عذاب الاستئصال والتدمير حتماً إذا جاءت الخارقة ثم لم يُؤمن المكذبون؟!.

إنها سُنَّة الله في المكـذبين **﴿وحاق بهم ما كانـوا به يستهـزئون﴾** [هـود: ٨].. فلما عـاينوا بـأس الله، سقط عنهم القناع، وأدركـوا مـدى الغرور، واعترفوا بما كانوا ينكرون، وأقروا بوحدانية الله. ولكن الأوان كان قد فات:

﴿فلما رأوا بأسنا قالوا: آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا..﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]..

ذلك أن سنة الله قد جرت على أن لا تُقبل التوبة بعد ظهور بأس الله: فهي توبة الفَزَع لا توبة الإيمان:

﴿سُنة الله التي قد خلت في عباده﴾ وسنة الله ثابتة لا تضـطرب ولا

تختلف ولا تحيد عن الطريق ﴿وخسر هنالك الكافرون﴾ [غافر: ٨٥] آلآنَ؟!.

﴿فاليوم نُنجِّيك ببدنك﴾ لا تأكله الأسماك ولا يذهب مُنكراً مع التيار لا يُعرف للناس. ذلك ليُدرك من ورائك الجماهير كيف كان مصيرك:

﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ [يونس: ٩٢].. يتعظون بها ويعتبرون، ويرون عاقبة التصدّي لقوة الله ووعيده بالتكذيب: ﴿ولقد جاء آل فرعون النُّذر. كذّبوا بآياتنا كلها، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾ [القمر: ٤١، ٤٢]..

الحقيقة في طَرفيها: مجيء النُّذر لآل فرعون وتكذيبهم بالآيات التي جاءهم بها رسولهم. وأَخْذهم بعد ذلك أَخْذَ عزيز مقتدر. والإشارة إلى العزّة والاقتدار تُلقي ظلّ الشدّة في الأخذِ؛ وفيها تَعريض بعزّة فرعون واقتداره على البغي والظلم. فقد ضاعت العزة الباطلة، وسقط الاقتدار الموهوم. وأَخَذَه الله ـ هو وآله ـ أَخْذَ عزيز حقاً مُقتدر صِدْقاً. أَخَذَهم أَخْذاً شديداً يُناسب ما كانوا عليه من ظُلم وبَطش وجَبروت، فلقد عَلَوا علواً كبيراً ﴿فَأَخَذهم أَخْذَةً رابية﴾ [الحاقة: ١٠].. والرابية العالية الغامرة الطامرة.. مصير في تعبير يلقي الهول والحسم الرعيب.. ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ [يونس: ٩٢].. أَجَلْ، لقد غَرِق فرعون وأُزهقت روحه، ولكن أمواج البحر بأَمْر الله قَذَفَت به إلى الشاطىء جسداً هامداً.. وتكون المعجزة ننجيك ببدنك هيكلاً لا حِراك فيها. ليرى مَن بقي من أنصارك وأعوانك مصير المكذبين، ولتكون للقرون من بعدك آية فما أكثر الآيات وما أعظمها!.

لقد نَبَذَ البحر هذا الجسد المحطَّم، وذلك السلطان المهدَّم.. وانْهارَ صَرْح الطاغية المستعلي المتكبر ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾ [القصص: ٤٠].. هكذا في جزم وحسم. أَخْذٌ شديد ونَبْذٌ في اليم.. نبذ كما تحذف الحصاة أو كما يُرْمَىٰ بالحجر. اليم الذي أُلقي في مثله موسى

الطفل الرضيع، فكان مأمناً وملجأً، وهو ذاته الذي يُنبذ فيه فرعون الجبار وجنوده فإذا هو مخافَة ومَهلكة. فالأمن إنما يكون في جناب الله، والمخافة إنما تكون في البُعد عن ذلك الجناب.

ولا نزال نتملى مشهد البحر وقد تلاطمت أمواجه واشتد عبابه.. نقف في سكون ورهبة وقد أطبقت مياه البحر الغاضب على المُلك والسلطان الجائر الخاسر.. وإذا بموجة عالية مُزمجرة مرعبة ترمي جسداً لا حراك فيه.. إنه مشهد انتقام الجبار تعرضه الآيات القرآنية لوحات ناطقة وصور متحركة تستجيش الوجدان وتوقظ الإيمان، حتى لا يقع الإنسان في مصيدة الشيطان..

المشهد المروِّع الهائل القاصم الحاسم.. بدأ هوناً؛ ولكن العاصفة كانت تتمشى فيه شيئاً فشيئاً، فإذا كان قبيل إسدال الستار دَمْدَمت العاصفة، فدمرت كل شيء، وعصفت بكل شيء، وخَلاَ وجه الأرض من الطاغية وذيول الطاغية، وعلمنا أن بني إسرائيل قد صبروا فلقوا جزاء صبرهم الحُسنى. وأن فرعون وآله فَجَروا فلقوا جزاء فجورهم الدمار، وصدق وَعْد الله ووعيده، وجرت سُنة الله في أخذ المكذبين بالهلاك بعد أخذهم بالضرّاء والسَّراء.. فحَقَّت كلمة الله وتحقَّق النذير.

ويمضي سياق القصة بعد حكاية مشهد الغرق.. يمضي إلى التعقيب عليه، تعقيباً يشي بهوان فرعون الطاغية المتعالي ومَلَئِه الممالىء له على الظلم والطغيان. هوانه وهوانهم على الله، وعلى هذا الوجود الذي كان يشمخ فيه بأنفه، فيطأطىء له الملأ المفتونون به، وهو أضأل وأزهد من أن يحسّ به الوجود، وهو يُسْلَب النعمة فلا يمنعها من الزوال، ولا يرثي له أحد على سوء المآل:

﴿كم تركوا من جَنَّاتٍ وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨].

ويبدأ المشهد بصور النعيم الذي كانوا فيه يرفلون. . جنات. وعيون. وزروع. ومكان مرموق، ينالون فيه الاحترام والتكريم. ونعمة يلتذونها ويطعمونها ويعيشون فيها مسرورين محبورين.

ثم يُنزع هذا كله منهم أو يُنزعون منه. ويرثه قوم آخرون ـ وفي موضع آخر قال: ﴿**كذلك وأورثناها بني إسرائيل**﴾ ـ وبنو إسرائيل لم يرثوا مُلك فرعون بالذات. ولكنهم ورثوا ملكاً مثله في الأرض الأخرى. فالمقصود إذن هو نوع المُلك والنعمة. الذي زال عن فرعون وملئه، وورثه بنو إسرائيل!.

ثم ماذا؟ ثم ذهب هؤلاء الطغاة الذين كانوا ملء الأعين والنفوس في هذه الأرض: ذهبوا فلم يَأْسَ على ذهابهم أحد، ولم تشعر بهم سماء ولا أرض؛ ولم يُنظَروا أو يُؤجلوا عندما حل الميعاد: ﴿**فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين**﴾ [الدخان: ٢٩]. .

وهو تعبير يلقي ظلال الهوان، كما يلقي ظلال الجفاء. . فهؤلاء الطغاة المتعالون لم يشعر بهم أحد في أرض ولا سماء. ولم يأسف عليهم أحد في أرض ولا سماء. وذهبوا ذهاب النمال، وهم كانوا جبارين في الأرض يطأون الناس بالنعال! وذهبوا غير مأسوف عليهم فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم عنه، وهو مؤمن بربه، وهم به كافرون! وهم أرواح خبيثة شريرة منبوذة من هذا الوجود وهي تعيش فيه!.

ولو أحسّ الجبارون في الأرض ما في هذه الكلمات من إيحاء لأدركوا هوانهم على الله وعلى هذا الوجود كله. ولأدركوا أنهم يعيشون في الكون منبوذين منه، مقطوعين عنه، لا تربطهم به آصرة، وقد قطعت آصرة الإيمان.

إنه لا يتولى عن إتباع الرسول إلا ظالم. ولا يتولى عن الإيمان بآيات الله إلا فاسق. ولا يتولى عن دين الله إلا شاذ. شاذ منبوذ في هذا الوجود الكبير. ناشز في وسط الكون الطائع المستسلم المستجيب. . ﴿**وله أَسْلَمَ**

من في السماوات والأرض طَوْعاً وكرهاً وإليه يُرجعون﴾ [آل عمران: ٨٣]..

إنها صورة شاملة عميقة للإسلام والاستسلام. صورة كونية تأخذ بالمشاعر، وترتجف لها الضمائر.. صورة الناموس القاهر الحاكم، الذي يردّ الأشياء والأحياء إلى سنن واحدة وشرعة واحدة، ومصير واحد **﴿وإليه يُرجعون﴾** [آل عمران: ٨٣]..

فلا مناص لهم في نهاية المطاف من الرجوع إلى الحاكم المسيطر المدبّر الجليل..

ألَا إنه الاضطراب والتخبُّط الذي يُصاب به الطغاة **﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾** [الحشر: ١٩].. وهي حالة عجيبة. ولكنها حقيقة.. فالذي يَنسى الله يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشدّه إلى أفق أعلى. يتخبّطه الشيطان.. أولئك هم الفاسقون.. المنحرفون.

نسوا الله.. مالك الملك، المهيمن على الكون، القابض على ناصيته، المتصرف فيه.. **﴿وهو على كل شيء قدير﴾**.. فلا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء، ولا يحول دون إرادته شيء، ولا يحدّ مشيئته شيء، يفعل ما يريد، وهو قادر على ما يريده غالب على أمره، لا تتعلق بإرادته حدود ولا قيود **﴿فتعالى الله الملك الحق، لا إله إلا هو ربّ العرش الكريم﴾** [المؤمنون: ١١٦]..

لقد حاول فرعون الطاغية أن يرفض الاستسلام لآيات الله ومشيئته.. ولكن ناموس الله وقَدَره أخضعه كُرهاً..

أين فرعون وأمثاله من الطغاة.. في عَجَلة الكون الهائل من السماء والأرض فقد خاطبهم الخالق: **﴿ائتيا طوعاً أو كرهاً. قالتا أتينا طائعين﴾** [فصلت: ١١]..

هذا الإنسان.. هذا المخلوق. وهو هَباءة في عجلة الوجود العظيم. فهو يطغى حين يحاول أن يتفلّت وينحرف عن إرادة الله.. فيبتليه الله بالسّراء والضرّاء لعله يهتدي ويعود.. فإذا عمي قلبه وانطفأت رؤيته ولجَّ في طغيانه حقّت عليه كلمة الله. فتُحطِّمُه القدرة الإلهية وتسحقه وتدمره تدميراً.. **﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنظرين﴾** [الدخان: ٢٩]..

مات فرعون غرقاً. مات الطاغية الجبار. مات بعيداً عن عَرْشه بعيداً عن قصره، بعيداً عن سلطانه، لا صديق يُواسيه، ولا عين تَبكيه.. إنما هو منبوذ ممقوت. أمواج البحر ترميه. العيون تراه. والقلوب ترميه بِشذَر وتزدريه.

وكانت جثته آيةً للناظرين وعِبْرَةً للمُتَعَبِّدين.. لقد خلَّف مِصرَ وراءه ولم يجد في أرضها الواسعة ذراعاً لمدفن يُواريه وهو الذي قال لقومه: **﴿يا قوم أَليس لي مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تُبصرون؟﴾** [الزخرف: ٥١]..

لقد قال الطاغية مقالته هذه وهو آمن في قصره، مُطمئن إلى مكانه وجبروته، طمأنينة الغافل عن قُدرة الله وقَدره..

أَلاَ إنه الغرور الخادع فيما كان فيه من مظاهر المكانة والسلطان، والنعمة والوجدان.. إنه الباب الذي يفتحه الشيطان فيجيء الشرُّ كله فلا يرى الطاغية فيه موضع للنقصان! فهو ربٌّ وليس إنسان. وهذا هو البلاء الذي يصبّه الشيطان، وهذا هو المقود الذي يقوده منه إلى الضلال. فإلى البوار والخسران!.

إنه باب الشر. ونافذة السوء. ومفتاح الضلال إلى الطغيان والفساد.

هذا هو الغرور الذي يُصيب الآلهة المزيفة والأرباب الكاذبة. ويدفعها إلى الضلال الهالك البائر الصائر إلى شرّ مصير...

﴿فلا يغررك تقلّبهم في البلاد﴾ [غافر: ٤].. فمهما تَقَلَّبوا،

وتحركوا، ومَلَكوا، واستمتعوا فهم إلى اندحار وهلاك وبوار..

ها هو ذا الطاغية فرعون الذي لجأ إلى منطق الطغيان الغليظ، ومَوّه على الجماهير بالباطل ليغلب به الحق.. ثم ها هي ذي القدرة الباطشة، تأخذه أَخْذاً أليماً، يستحقّ التعجيب والاستعراض ﴿**فكيف كان عقاب؟**﴾ [الرعد: ٣٢]..

لقد كان عقاباً مُدمراً قاضياً عنيفاً شديداً.. لا يزال آيةً على صفحات الأيام، تنطق به الأحاديث والأقلام..

لا بد من بَصَر ينظر وبَصيرة تَتَدبَّر.. أَلا إنها لآية تُوقظ القلوب الخامدة الساهية.. إنها تلمس عالم النوايا المضمرة، وتهزّ الخفايا المستِترة.. فلتفعل هذه القصة فعلها في النفوس، وقد رأت عاقبة تلك الشخوص، في ذلك اليوم القمطرير العبوس.. ﴿**فاقصص القصَصَ لعلهم يتكفرون**﴾ [الأعراف: ١٧٦]..

عِبْـرَة ونَظَـر:

وهكذا يسدل الستار على مشهد الهلاك والدمار في جانب؛ وعلى مشهد النجاة والاستخلاف والعمار في الجانب الآخر. وإذا فرعون الطاغية المتجبر وقومه أثراً بعد عَين، وإذا كل ما كانوا يصنعون للحياة، وما كانوا يقيمون من عمائر فخمة قائمة على عُمد وأركان، وما كانوا يعرشون من كروم وثمار.. إذا هذا كله حُطام، في وَمضة عَين، أو في بضع كلمات قصار! ﴿**وأورثنا القوم الذين كانوا يُستَضعُفُون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه، وما كانوا يعرشون**[1]﴾ [الأعراف: ١٣٧]..

---

(١) أي يبنون، وقد يُراد بها ما كانوا يعرشون من الحدائق وأكثر ما يكون في إقامة كروم العنب على عرائش.

مَثَل يضربه الله للقلة المؤمنة في مكة، المطارَدة من الشرك وأهله؛ ورؤيا في الأفق لكل عصبة مسلمة تلقى من مثل فرعون وطاغوته، ما لَقيه الذين كانوا يُستضعفون في الأرض، فأورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها المباركة ـ بما صبروا ـ لينظر كيف يعملون!.

ومَضت عاقبة فرعون آية في الزمان، تتحدث عنها القرون.. **﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾** [الأعراف: ١٠٣]..

هذه العاقبة لعلها توقظ الغافلين من الجاحدين بالحق المكابرين فيه.. توقظهم قبل أن يأخذهم الله ما أخذ المفسدين..

لقد بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجبروت الحكم والسلطان.. **﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾** [القصص: ٣٩].. فلما توهموا عدم الرجعة إلى الله استكبروا في الأرض بغير الحق، وكذبوا بالآيات والنُّذر..

ونقف قليلاً لنتملَّى هذا الدرس في قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون وملئه. من حلقة مواجهتهم بربوبية الله للعالمين، إلى حلقة إغراقهم أجمعين. وما بين هذه وتلك من المباراة مع السحرة. وغلبة الحق على الباطل. وإيمان السحرة بربِّ العالمين رب موسى وهارون. وتوعُّد فرعون لهم بالعذاب والتقتيل. واستِعلان الحق في نفوسهم على هذا التوعُّد وانتصار العقيدة في قلوبهم على حب الحياة. ثم ما تلا ذلك من التنكيل ببني إسرائيل. وأخْذ الله لفرعون وملئه بالسنين ونقص من الثمرات، وما أرسله عليهم من الآفات فأخذهم بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. وهم يستغيثون بموسى في كل مرة أن يدعو ربه ليرفع عنهم العذاب. حتى إذا رفع عنهم عادوا لما كانوا فيه؛ وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا مهما جاءهم من الآيات..

لقد واجهوا هذا كله بالعناد والمراوغة والإصرار في النهاية على ما هم فيه. حتى حقَّت عليهم كلمة الله في النهاية وأهلكهم ربُّهم فأغرقوا في اليم جزاء تكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عن حكمة ابتلائه ـ وفق السنة الجارية في أَخْذ المكذبين بالضرّاء والسرّاء قبل أَخْذهم بالدمار والهلاك ـ ثم إعطاء الخلافة في الأرض لقوم موسى جزاءً على صَبْرهم واجتيازهم ابتلاء الشدة.. لتعقبها فتنة الرخاء..

من خلال عرض هذا كله يتبين مدى إصرار الطاغوت على الباطل في وجه الحق. ومدى مقاومته للدعوة إلى «رب العالمين».. ذلك أنه يعلم علم اليقين أن هذه الدعوة بذاتها هي حرب عليه، بإنكار شرعية قيامه من أساسه!.

وما يمكن أن يسمح الطاغوت بإعلان لا إله إلا الله. أو أن الله هو رب العالمين. إلا حين تفقد هذه الكلمات مدلولها الحقيقي، وتصبح مجرد كلمات لا مدلول لها.. وهي في مثل هذه الحالة لا تُؤذيه! لأنها لا تعنيه! فأما حين تأخذ عصبة من الناس هذه الكلمات جَدّاً بمدلولها الحقيقي، فإن الطاغوت الذي يزاول الربوبية ـ بمزاولته للحاكمية بغير شرع الله، وتعبيد الناس له بهذه الحاكمية وعدم إرسالهم لله ـ لا يطيق هذه العصبة. كما لم يطق فرعون دعوة موسى إلى رب العالمين، وإعلان السحرة أنهم آمنوا بربّ العالمين. وكما ظلّ هو والملأ من قومه مُصرِّين على ردّ هذه الدعوة، والآيات تتوالى عليهم، والنكبات كذلك تتوالى عليهم من الجرب والآفات والجوع والبلاء.. ولكن هذا كله كان عندهم أيسر وأهون من التسليم بربوبية لله للعالمين. لما تحويه من مدلول صريح بعزلهم هم عن مزاولة هذا السلطان المغتصَب، الذي يُعَبِّدون به الناس لغير رب العالمين!.

كذلك يتجلى من خلال العرض خطوات قَدَر الله بالمكذبين.. من أَخْذهم بالبأساء والضراء. ثم أخذهم بالرخاء والسراء. ثم أَخْذَهم أَخْذَ عزيز

مقتدر في نهاية المطاف! والتمكين للمؤمنين الذي كانوا يُستضعفون **﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾** [القصص: ٤٠]..

.. لقد ظَلُم فرعون وملئه بآيات الله ورسالته ـ أي كفروا وجحدوا ـ والتعبير القرآني يُكثر من ذكر كلمة «الظلم» وكلمة «الفسق» في موضع كلمة «الكفر» أو كلمة «الشرك».. وهذه في القصة من تلك المواضع التي يكثر ورودها في التعبير القرآني. ذلك أن الشرك أو الكفر هو أقبح الظلم، كما أنه هو أشنع الفسق..

كذّب فرعون وملأه بآيات الله فحلَّ بهم الهلاك جميعاً **﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مُليم﴾** [الذاريات: ٤٠].. أي مستحقاً لِلَّوم على ما كان منه من طغيان ومن تكذيب. وواضح في التعبير فِعْل الله المباشر في أَخْذه وقومه، وفي نَبْذهم في اليمّ، وهو الإيقاع المقصود لإبراز آية الله في موسى **﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾** [النازعات: ٢٦].. فهي عاقبة مشهودة معروضة للعالمين.

وفيها عبرة للمعتبرين، ونذير للمكذبين. وفيها يَدُ القدرة تعصف بالطغاة والمتجبرين في مثل لمح البصر.

وكانت النهاية.. تتدخل يد الله تدخلاً مباشراً سافراً فألقت فرعون في اليمّ هو وجنوده فكان من المغرقين.. ولم تكن هنالك قوة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة.. لقد تدخلت يد القدرة سافرة فوضعت حداً للبغي والفساد، حينما عَجِزَ الناس عن الوقوف للبغي والفساد. تَدخُل يد القدرة بلا ستار من البشر. تضرب ضربتها الحاسمة..

طال بنا النَظَر في خوف شديد للمشهد المروّع الذي أَخَذَ الله به فرعون وجنوده.. ونقف أمام العبرة التي يتركها المشهد ونتسمع لإيقاعه في القلوب..

لقد تَولَّت يَد القدرة إدارة المعركة بين الإيمان والطُّغيان فلم يتكلَّف أَصحاب الإيمان فيها شيئاً سوى اِتِّباع الوحي والسَرى ليلاً. ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين في عالم الواقع.. موسى وقومه ضعاف مُجردون من القوة، وفرعون وجنده يملكون القوة كلها.

فلا سبيل إلى خَوض معركة مادية أصلاً. هنا تولت يَد القدرة إدارة المعركة. ولكن بعد أن اكتملت حقيقة الإيمان في نفوس الذين لا يملكون قوة سواها. بعد أن استعلن الإيمان في وَجْه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه؛ لا يرهب وعيده ولا يرغب في شيء مما في يده..

يقول الطغيان: **﴿فَلأُقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾** [طه: ٧١].. فيقول الإيمان: **﴿فاقضِ ما أنت قاض. إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾** [طه: ٧٢].. عندما بلغت المعركة بين الإيمان والطغيان في عالم القلب إلى هذا الحد تولَّت يَد القدرة راية الحق لترفعها عالية، وتُنَكِّس راية الباطل بلا جهد من أهل الإيمان.

وعبرة أخرى..

إنه حين كان بنو إسرائيل يُؤدُّون ضريبة الذلّ لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة. فهم لم يكونوا يُؤدّون هذه الضريبة إلا ذُلًّا واستكانة وخوفاً. فأما حين استعلن الإيمان، في قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدّوا لاحتمال التعذيب. وهم مرفوعو الرؤوس يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج، ودون اتقاء للتعذيب. فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة. وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب..

هذه هي العبرة التي تبرزها آيات القرآن الكريم ليستيقنها أصحاب الدعوات، ويعرفوا متى يرتقبون النصر من عند الله وهم مُجردون من عدّة الأرض، والطغاة يملكون المال والجند والسلاح.

ومقاطع القصة هي مشاهد حيّة، تموج بالحركة وبالحوار، وتزخر بالانفعالات والسمات، وتتخلّلها التوجيهات إلى مواضع العبرة في السياق، وتكشف عن طبيعة المعركة بين الدعوة إلى «رب العالمين» وبين الطواغيت المُتَسلّطة على عباد الله، المُدَّعية للربوبية من دون الله، كما تتجلى روعة العقيدة حين تستعلن، فلا تخشى سلطان الطواغيت، ولا تحفل التهديد والوعد الشديد. .

لقد دلّت هذه القصة على أنه حين يتمحض الشرّ ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزاً والصلاح حسيراً، ويخشى من الفتنة بالبأس. عندئذ تتدخل يد القدرة سافرة متحدية، بلا ستار من الخلق، ولا سبب من قوى الأرض، لتضع حد للشر والفساد.

﴿فاليوم نُنجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾ [يونس: ٩٢]. . مضت آية في أحاديث الأيام وحركة الزمان حتى يومنا هذا. . فهل آمَنَ بها الكثيرون؟ .

﴿إن في ذلك لآية. وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ [الشعراء: ٦٧ - ٦٨]. . فالآيات الخارقة لا تستتبع الإيمان حتماً. وإن خَضَع لها الناس قسراً. إنما الإيمان هدي في القلوب. . **﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾** [يونس: ٩٢]. .

لا يُوجِّهون إليها قلوبهم وعقولهم، ولا يتدبرونها في الآفاق وفي أنفسهم. . فهم لم يفتحوا القلوب التي أعطوها ليفقهوا. . لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون. . **﴿أولئك كالأنعام، بل هم أضل﴾** [الأعراف: ١٧٩]. .

والذين يغفلون عما يمر بهم من الأحداث والغير فلا يرون فيها يَد الله. . أولئك كالأنعام. بل هم أضلّ. .

والناس زُوِّدوا بالقلب الواعي والعين المبصرة والأذن الملتقطة. فإذا

لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا. إذا مروا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغايتها؛ ولا تلتقط أعينهم مشاهدها ودلالاتها؛ ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإيحاءاتها.. فإنهم يكونون أضلّ من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادية.. ثم هم يكونون من ذَرء جهنم! يجري بهم قَدَر الله إليها. فكانوا حَصَب جهنم بهذه الغفلة المُنتكسة الهابطة..

هؤلاء الذين عن آيات الله غافلون **﴿أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾** [يونس: ٨]..

وبئس المأوى وبئس المصير!.

صور ومشاهد:

إن المعاني والأغراض الذي يرسمها مشهد الهلاك والتدمير تُخاطب الحسّ والوجدان، وتصل إلى النفس من منافذ شتى: من الحواس بالتخييل، ومن الحس عن طريق الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء..

والمشهد يرسمه القرآن بصور متحركة، تموج وتضطرب.. مشهد مفزع مرعب مكروب مرهوب.. هذا الطاغية في غمرات الموت وسكراته..

إنها صفحة الاحتضار في لوحة شاخصة.. والموت أشدّ ما يحاول المخلوق البشري أن يَروغ منه، أو يُبعد شبحه عن خاطره. ولكن أنَّى له ذلك. والموت طالب لا يَملّ الطَلَب، ولا يُبطىء الخطى، ولا يُخلف الميعاد..

﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾ [قٓ: ١٩].. ويلفت النظر في التعبير ذكر كلمة الحق.. وهي تُوحي بأن النفس البشرية ترى الحق كاملاً وهي في سكرات الموت. تراه بلا حجاب، وتُدرك منه ما كانت تجهل

وما كانت تجحد، ولكن بعد فوات الأوان، حين لا تَنفعُ رؤية، ولا يُجدي إدراك، ولا تُقبل توبة، ولا يُحسب إيمان.

ويبرز مشهد هلاك فرعون. وهو يعاني من ضيقِ وكربِ غمراتِ الموت.. تبرز صورة قاتمة حزينة يملؤها ظلّ مكروب مرعوب مذهول.. وقد بسطت الملائكة إليه أيديهم بالعذاب، وهم يطلبون روحه للخروج..

إنه مَشهد مُذهل مخيف يرسمه القرآن بكل تفصيلاته تبرز فيه الحركات الظاهرة والانفعالات المُضمرة وتلتقي فيه الصورة الحسّية بالصورة النفسية بروعة مُؤثّرة في الكيان الإنساني: **﴿حتى إذا أَدْرَكَه الغرق قال: آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾** [يونس: ٩٠]..

إنه مشهد مكتمل السمات والحركات.. مشهد الخشوع والخنوع والذلّة.. وتبرز في المشهد صورة الهَول النفسي يُظلّلها كَمَد في اللون والحركة. فالمشهد يُعبر بالصورة المُحسّة المُتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية لفرعون وهو يُعاني ما يُعاني! وقد عَرَف ما عَرف! ورأى ما رَأى! **﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾**..

هذه الصورة الحزينة الكئيبة التي يرسمها المشهد يمنحها القرآن الحياة الشاخصة والحركة.. ها هو ذا فرعون في لحظات الحياة الأخيرة ترسمه الكلمات في هَيئة وحركة، واضطراب نفسي أليم عاجز.. صورة الفَزَع والرهبة من المصير المحتوم والاستسلام الذي لا مفرّ منه.. يُجلّلها ظلّ كئيب ساهم.

إنها الفطرة الإنسانية أمام الهول والكرب.. إنه مشهد واضح حاسم ومُؤثّر.. الهول والكرب الذي ترتعد له الفرائص..

والخوف الشديد المُرعب الذي يُزلزل الكيان والوجدان.. في هذا

المشهد المهين تبرز صورة فرعون المكروب في لحظة الضيق العميق.. وحيثما نَظَر فرعون وهو في هذه اللحظات لم يجد في نفسه إلا الله وحده لا شريك له..

يدعوه مُتضرعاً، ويناجيه مُستغيثاً، ويرجوه متوسلاً.. لقد سَقَط كل شيء.. هذه حقيقة الألوهية، يلتجيء الإنسان إلى إلهه الحق في ساعة الشدة..

ها هو ذا فرعون لما رأى الجَدّ بحدّته زالت سَكْرته وصَحَتْ فطرته.. والفطرة تتعرى حينئذ من الركام فتواجه الحقيقة الكامنة في أعماقها.. حقيقة الألوهية الواحدة.. وَتَتّجه إلى الله الحق بلا شريك، لأنها تُدرك وقتئذ سخافة فكرة الشرك، وتدرك انعدام الشريك!.

وتبقى الملامح النفسية الأخرى يصورها المشهد القرآني.. ها هو ذا فرعون في هذا الموقف العصيب وقد سقط عنه غطاء الغفلة. يرى الحق لا يحجبه حجاب. الموقف الذي لم يَحسب حسابه، والنهاية التي لم يكن يَتَوقَّعها..

فهو يُواجه الحق بذاته مجردة، ومفردة كذلك. ولقد ندَّ عنه كل شيء، وتفرّق عنه كل أحد.. جنوده غَرقى! وما عاد يقدر على شيء مما مَلّكه الله.. ترك كل شيء من مال وزينة، ونساء وأولاد ومتاع، وجاه وسلطان.. لا يقدر على شيء قليل أو كثير! يرسمه المشهد في وَهْلة وذُهول وقد أيقن بالخسارة والوبال..

ها هي ذي ملائكة العذاب تطلب روحه للخروج.. هذه لحظة لم يَحسب حسابها، ولم يُقَدّم لها زادها، وأحسَّ بالخسران الخالص، فاهتزَّ هزَّة الخوف والوَجَل والرعب، وأدرك وأحسَّ الحقيقة فنادى مرتعشاً، وقال: **﴿آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾**..

ها هو ذا فرعون يستغيث فلا يُغاث، وقد تخلى عنه الاستكبار وأدركته الذلّة. تخلى عن الشقاق والتكذيب ولجأ إلى الاستعطاف ولكن بعد فوات الأوان ﴿ولاتَ حين مناص﴾ [صٓ: ٣].

إيمانٌ لا مَعنى له، ولا مَدلول وراءه، ولا تَنبغي العناية به أو بقائله.. إنها كلمة الموقف الرهيب لا كلمة الإخلاص المنيب. كلمة تُقال في لحظة الضيق والعُسر الخانق، ليس لها في القلب من رصيد..

إن غَبرة الحزن والحَسرة تُجَلِّل صورة فرعون وهو في غمرات الموت وسكراته في مشهد الاحتضار والغرق.. ويعلن الإيمان عند مواجهة الملائكة: **﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم: أخرجوا أنفسكم اليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق، وكنتم عن آياته تستكبرون﴾** [الأنعام: ٩٣]..

وجزاء الاستكبار العذاب المهين، وجزاء الكذب على الله هذا التأنيب الفاضح.. وكله مما يُضفي على المشهد ظلالاً مكروبة، تأخذ بالخناق من الهول والكآبة والضيق!.

ها هو ذا فرعون بين يدي الموت وقد تجرّع المَرارة والشقوة فتكدّر لونُه، ورَجَف قلبه، وتَزلزل كيانه.. إذا هو أمام الحقيقة!.

قد خَسِر كل شيء. وخَسِرَ نَفْسه التي بين جَنْبيه، فكأنما لم يكن له وجود.. إنها صورة تُلقي ظلال الرهبة والندم في الموقف الرعيب الشديد..

ها هو ذا فرعون بين يدي الملائكة تُنزع روحه.. **﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وذوقوا عذاب الحريق. ذلك بما قدمت أيديكم، وأن الله ليس بظَلَّام للعبيد. كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله، فأخذهم الله بذنوبهم، إن الله قوي شديد العقاب﴾** [الأنفال: ٥٠ ـ ٥٢]..

خطاب من الله موجهاً لكل من يَرى. . والتعبير يرسم صورة مُنكرة للذين كفروا، والملائكة تستلّ أرواحهم في مشهد مَهين، يضيف المهانة والخزي، إلى العذاب والموت.

إنه مشهد الاحتضار، يرسمه النص القرآني كأنه حاضر، وكأنه يخرج من ثنايا الألفاظ ويتحرك كما تخرج ملامح الصورة من خلال لمسات الريشة!.

ويرتسم في المشهد صورة الطاغية في مواجهة الحقيقة القاسية المريرة، التي لا دافع لها ولا رادّ، ويرتسم معها الجَزَع والحيرة. . وتَلَوِّي المكروب من السكرات المُذهلة والنزع الشديد. . وبَطلت كل حيلة، وعجزت كل وسيلة، وتبين الطريق الواحد الذي يُساق إليه كل حي في نهاية المطاف ﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾. .

ها هو ذا فرعون يجد الله أمامه! يغشاه سواد الذلّ والانقباض. . المفاجأة المُرعبة التي تُقطّع الأوصال، وتورث الخَبَال. . الله الذي كَفَر به وجَحَده، وخاصَمَه وعاداه. . أين المفر؟!.

لا ملجأ ولا وقاية، ولا مفرّ من قَهر الله وأَخْذه، والرجعة إليه، والمُستقر عنده، ولا مستقرّ غيره. والبُعد عن الله في الدنيا ينتهي للرجعة إليه، فلا ملجأ منه إلا إليه. والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لا محالة. فلا مَهرب ولا فكاك!.

﴿قل: إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم. ثم تُردون إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ [الجمعة: ٨]. .

فلا جدوى في الفرار من الموت، فهو حَتْم لا مهرب منه، وما بعده من رجعة إلى الله، وحساب على العمل حتم كذلك لا ريب فيه. .

ويُخيّم الجلال والعَظَمة على الموقف. . ويتحرك البحر بأمر الله في

صَخَب شديد، وتَنْبذ الأمواج جثة الكبرياء الكاذب.. وتطرح بَدَن الاستعلاء الكافر.. **﴿فاليوم نُنَجيك بِبَدَنك لتكون لمن خلفك آية﴾** [يونس: ٩٢]..

نقف أمام هذا المشهد وقد خيَّم عليه صمت جليل، ويغمر الموقف رهبة وخشوع.. هذه جثة ذلك الإله الكاذب الموهوم **﴿وقال فرعون: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾** [القصص: ٣٨]..

لقد خَرِس وسكت ذلك الهيكل المُتعالي.. وأُلقي حطاماً على الساحل بارزاً تراه العيون.. هذه نهاية التَقَلُّب في الأرض، والاستعلاء بغير الحق، والتَجَبُّر والتَكَبُّر والثراء والمتاع والسلطان..

إنه لمشهد يهزّ القلب البشري هزّاً عنيفاً.. ويلقي ظلاله على النفس، ويسكب إيحاءاته في القلب، ظلاله الرعيبة المكروبة، وإيحاءاته العنيفة المرهوبة!.

ألا إنها لَعِبْرة بالغة سَطَّرتها القُدرة القادِرَة على صفحة الزمان الغابرة، وجَبهة الأيام السالفة.. عبرة وسلفاً لكل خلف ظالم **﴿ومثلاً للآخرين﴾** [الزخرف: ٥٦].. الذين يجيئون بعدهم ويعرفون قصتهم، فَيَعْتبرون!..

ويسدل الستار على المشهد النهائي في المأساة. مأساة البغي والفساد والتحدي والعصيان..

تلك صفحة العذاب في الحياة الدنيا، ووراءها في جزاء الله صفحات أخرى أشد وأبقى **﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب. النار يُعرضون عليها غدواً وعشياً، ويوم تقوم الساعة أَدْخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾** [غافر: ٤٥، ٤٦:]..

لقد طويت حياة فرعون وقومه وعرضت أول صفحة بعدها وقد حاق بآل فرعون سوء العذاب.. والنص يُلهم أن عرضَهم على النار غُدُّواً وعشياً، هو في الفترة من بعد الموت إلى قيام الساعة. وقد يكون هذا هو عذاب

القبر. إذ أنه يقول بعد هذا: ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾.. فهو إذن عذاب قبل يوم القيامة. وهذا عذاب سيء. عَرْض على النار في الصباح وفي المساء. إما للتعذيب برؤيتها وتَوَقُّع لذعها وحرّها ـ وهو عذاب شديد ـ وإما لمزاولتها فعلاً. فكثيراً ما يُستعمل لفظ العرض للمسّ والمزاولة. وهذه أدهى وأقسى..

وفي حديث طويل روته السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ـ ﷺ قال: «.. وإذا كان الرجل السوء أُجلس في قبره فزعاً مشعوفاً[١]، فيقال له: فما كنتَ تقول؟ فيقول: سمعتُ الناسَ يقولون قولاً فقلتُ كما قالوا، فيُفرج له فُرجة إلى الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: انظر إلى ما صَرَف الله عنك، ثُم يُفرج له فُرجة قِبَل النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً، ويُقال: هذا مَقعدك منها، على الشكّ كنتَ، وعليه متّ، وعليه تُبعث إن شاء الله، ثم يُعذّب»[٢].

وفي حديث آخر سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ رسول الله ـ ﷺ ـ عن عذاب القبر فقال: «نعم، عذاب القبر حق»، قالت: فما رأيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ بَعْدُ صلّى صلاة إلا تعوّذ من عذاب القبر[٣].

وعن هانىء مولى عثمان بن عفان، قال: كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ إذا وقف على قبر يبكي حتى يبلّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي؟ فقال: إني سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بَعْده أيسر منه، وإن لم ينج فما بعده أشد»، قال: وسمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما رأيت منظراً قطّ إلا والقبر أفظع منه»[٤].

---

(١) الشعف: هو الفزع حتى يذهب بالقلب.
(٢) الحديث رواه أحمد بإسناد صحيح.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) أخرجه الترمذي وإسناده حسن.

وعن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه[1] ـ قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر، ولما يُلحد، فجلس رسول الله ـ ﷺ ـ، وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير وبيده عود ينكث به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر ـ مرتين أو ثلاثاً ـ»، ثم قال: «. . . وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة سود الوجوه معهم المُسوح، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيءُ مَلك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة! اخرجي إلى سَخَط من الله وغضب، فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن جيفة وُجِدَت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الريح الخبيثة، فيقولون: فلان ابن فلان ـ بأقبح أسمائه التي كان يُسمى بها في الدنيا ـ حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فَيُستفتح له فلا يُفتح له، ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: **﴿لا تُفَتَّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يَلج الجمل في سَمّ الخياط﴾** [الأعراف: ٤٠]. . فيقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: اكتبوا كتابه في سجِّين في الأرض السفلى، ثم تُطرح روحه طرحاً ثم قرأ: **﴿ومن يُشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾** [الحج: ٣١]. . فتعادُ روحه في جسده، ويأتيه مَلَكان فيقولان له: مَن رَبّك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، قال: فيقولان له، ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، قال: فيقولان: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم، فيقول: هاه هاه لا أدري، . فينادي مناد من السماء: أن كَذَب فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرّها وسمومها، ويُضيَّق عليه قبره حتى تختلف

---

(١) رواه أحمد بإسناد رواته محتج بهم في الصحيح. قال الحافظ: هذا الحديث حديث حسن، رواته محتج بهم في الصحيح.

فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، مُنتن الريح، فيقول: أبشر بالـذي يسؤوك، هذا يومك الذي كنتَ تُوعد، فيقول: من أنت؟ فوجهـك القبيح يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: ربِّ لا تقم الساعة».

وفي رواية له بمعناه، وزاد: «فيأتيه آتٍ قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بهوان من الله وعذاب مقيم، فيقول: بشَّرك بالله بالشرّ، مَن أنت، فيقول: أنا عملك الخبيث، كنتَ بطيئاً عن طـاعة الله، سريعاً في معصيته، فجزاك الله شراً، ثم يُقَيض له أعمى أصم أبكم في يده مزربة لو ضُربَ بها جبل كان تراباً، فَيُضْرب ضربةً فيصير تراباً ثم يعيده الله كما كان، فيضرب ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين، قال البراء: ثم يُفتح له باب من النار، ويُمَهد له من فرش النار».

﴿النار يُعرضـون عليها غـدواً وعشياً﴾. . فـرعون وقـومه في النـار والعذاب. . ما هم من أهل الدنيا، ولا هم من أهل الآخرة. إنما هم في عذاب مريع في ذلك البرزخ بَيْن بَيْن ﴿ومن وراءهم برزخ إلى يوم يُبعثون﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. .

ويُسدَل الستار على المشهد الفاجع. . عَرض على النار في الصباح والمساء. . يُسدل الستار على العذاب الطويل، وفي العَين دَمعة ساخنة، وفي القلب لوعة محرقة، وفي النفس أنين حزين. .

ويجتاز سياق القصة الحياة الدنيا، ويقف بفرعون وجنوده في مشهد عجيب. . يَدعون إلى النار، ويقودون إليها الأتباع والأنصار ﴿وجعلناهم أئمة يَدْعون إلى النار﴾ [القصص: ٤١]. . فَيا بئساها دعوة! ويا بئساها إمـامة! ﴿ويوم القيامة لا يُنصرون﴾. .

فهي الهـزيمة في الـدنيا، وهي الهـزيمة في الآخـرة، جـزاء البغي والاستطالة. وليست الهزيمة وحـدها، إنمـا هي اللعنة في هـذه الأرض،

والتقبيح في يوم القيامة: ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ [القصص: ٤٢]. .

ولفظة «المقبوحين» ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع، وجو التقزّز والاشمئزاز. ذلك في مقابل الاستعلاء والاستكبار في الأرض، وفتنة الناس بالمظهر والجاه، والتطاول على الله وعلى عباد الله.

لقد قاد فرعون قومه إلى الضلال في الحياة والغرق في البحر. . قادهم إلى الخسران والهلاك في الدنيا، وأوردهم النار والعذاب المقيم في الآخرة ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه﴾ [هود: ٩٧]. . ﴿وأضلّ فرعون قومه وما هدى﴾ [طه: ٧٩]. .

ها هم أولاء يتبعون أمر فرعون، ويعصون أمر الله. على ما في أمر فرعون من حماقة وجهل وشطط: ﴿فاتبعوا أمر فرعون. وما أمر فرعون برشيد﴾ [هود: ٩٧]. .

ولما كانوا تبعاً لفرعون في هذا الأمر، يَمشون خلفه، ويتبعون خطواته الضالة بلا تَدَبُّر ولا تفكر، ودون أن يكون لهم رأي، مستهينين بأنفسهم، مُتَخلّين عن تكريم الله لهم بالإرادة والعقل وحرية الاتجاه واختيار الطريق. . لما كانوا كذلك فإن السياق يقرر أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعاً: ﴿يقدم قومه يوم القيامة﴾ [هود: ٩٨]. .

وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضي ووعداً عن المستقبل، إذا المشهد ينقلب، وإذا المستقبل ماض قد وقع، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النار وانتهى:

﴿فأوردهم النار﴾!! أوردهم كما يورد الراعي قطيع الغنم. أَلَم يكونوا قطيعاً يسير بدون تفكير؟ أَلَم يتنازلوا عن أخصّ خصائص الآدمية وهي حرية الإرادة والاختيار؟ فأوردهم النار. ويا بئساه من وِرْد لا يروي غلة،

ولا يشفي صدى، إنما يشوي البطون والقلوب:

﴿**وبئس الورد المورود**﴾ [هود: ٩٨]..

وإذا ذلك كله. قيادة فرعون لهم، وإيرادهم موردهم.. إذا ذلك كله حكاية تروى، ويُعلَّق عليها: ﴿**وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة**﴾ [هود: ٩٩]..

ويُسخر منها ويُتهكم عليها: ﴿**بئس الرفد المرفود**﴾ [هود: ٩٩].. وهكذا تتسق الصورة: يَؤُمهم في الدنيا إلى الضلال، ويؤمهم في الآخرة إلى النار. فهذه النار هي الرفد والعطاء والمنّة التي رَفَد بها فرعون قومه!! أَلَم يَعِد السحرة عطاءً جزيلاً ورفداً مرفوداً.. فها هو ذا رفده لمن اتبعه.. النار. وبئس الورد المورود. وبئس الرفد المرفود!.

وذلك من بدائع التعبير والتصوير في هذا القرآن العجيب..

موْقف مكروب:

ويلتقط السياق القرآني موقفاً في النار! وهم يتحاجّون فيها: ﴿**فيقول الضعفاء للذين استكبروا: إنا كُنا لكم تبعاً. فهل أنتم مُغنون عنا نصيباً من النار**﴾ [غافر: ٤٧]..

إن الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا. لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولاً وإمّعات! ولم يُخفف عنهم أنهم كانوا غنماً تُساق! لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار!.

لقد منحهم الله الكرامة. كرامة الإنسانية. وكرامة التبعة الفردية. وكرامة الاختيار والحرية. ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعاً. تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملأ والحاشية. لم يقولوا لهم: لا. بل لم يُفكروا أن يقولوها. بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال.. ﴿**إنا كنا لكم تبعاً**﴾.. وما كان تنازلهم عما وهبهم الله واتباعهم

الكبراء ليكون شفيعاً لهم عند الله. فهم في النار. ساقهم إليها قادتهم كما كانوا يسوقونهم في الحياة. سوق الشياة! ثم ها هم أولاء يسألون كبراءهم: ﴿فهل أنتم مُغنون عنا نصيباً من النار﴾؟.. كما كانوا يوهمونهم في الأرض أنهم يقودونهم في طريق الرشاد، وأنهم يحمونهم من الفساد، وأنهم يمنعونهم من الشرّ والضرّ وكيد الأعداء!.

فأما الذين استكبروا فيضيقون صدراً بالذين استُضعفوا، ويُجيبونهم في ضيق وبرم وملالة. وفي إقرار بعد الاستكبار:

﴿قال الذين استكبروا: إنا كُلٌّ فيها إن الله قد حَكَمَ بين العباد﴾ [غافر: ٤٨]..

﴿إنّا كُلٌّ فيها﴾.. إنا كلٌّ ضعاف لا نجد ناصراً ولا معيناً. إنا كل في هذا الكرب والضيق سواء. فما سؤالكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعاف سواء؟.

﴿إن الله قد حَكَمَ بين العباد﴾.. فلا مجال لمراجعة في الحكم، ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل. وقد قُضي الأمر، وما من أحد من العباد يُخَفّف شيئاً من حكم الله.

وحين أدرك هؤلاء وهؤلاء أن لا ملجأ إلى الله إلا إليه، اتَّجه هؤلاء وهؤلاء لخزنة جهنم في ذلّة تعمّ الجميع، وفي ضراعة تسوّي هؤلاء بهؤلاء:

﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم: ادعوا ربكم يُخفف عنا يوماً من العذاب﴾ [غافر: ٤٩]..

إنهم يستشفعون حُراس جهنم، لِيَدْعوا ربهم. في رجاء يكشف عن شدة البلاء.. يوماً. يوماً فقط. يوماً يلتقطون فيه أنفاسهم ويستريحون. فيوم واحد يستحق الشفاعة واللهفة والدعاء.

ولكن خَزَنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة

الملهوفة. فهم يعرفون الأصول. ويعرفون سُنة الله، ويعرفون أن الأوان قد فات. وهم لهذا يزيدون المعذّبين عذاباً بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب:

﴿قالوا: أو لم تك تأتيكم رُسلكم بالبينات؟.. قالوا: بلى﴾ [غافر: ٥٠]..

وفي السؤال وفي جوابه ما يغني عن كل حوار. وعندئذ نَفَض الخزنة أيديهم منهم، وأسلموهم إلى اليأس مع السخرية والاستهتار: **﴿قالوا: فادعوا﴾**.. إن كان الدعاء يُغيّر من حالكم شيئاً، فتولوا أنتم الدعاء.

وتعقب الآية على هذا الدعاء: **﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾** [غافر: ٥٠]..

لا يبلغ. ولا يصل. ولا ينتهي إلى جواب. إنما هو الإهمال والازدراء للكبراء والضعفاء سواء.

إنها حلقات عذاب رهيبة لاهثة مكروبة. تنتظر فرعون وقومه **﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾** [غافر: ٤٦]..

ويل لهم من ذلك اليوم العظيم، وقد أعدَّ الله لهم أشد العذاب **﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون﴾** [غافر: ٧١]..

إنها الإهانة والتحقير في العذاب. لا مُجرّد العذاب.. بهذه المهانة كما تُسحب الأنعام والوحوش! وعلام التكريم؟ وقد خلعوا عن أنفسهم شارة التكريم؟!.

وبعد السحب والجرّ في هذا العذاب وفي هذه المهانة، ينتهي بهم المطاف إلى ماء حار وإلى نار: **﴿في الحميم ثم في النار يُسجرون﴾** [غافر: ٧٢]..

أي يُربطون ويُحبسون، على طريقة سجر الكلاب. أي يملأ لهم

المكان ماءً حاراً وناراً موقدة. وإلى هذا ينتهون.

وبينما هم في هذا العذاب المهين يُوجَّه إليهم التبكيت والترذيل والإحراج والإعنات: **﴿ثم قيل لهم: أين ما كنتم تُشركون من دون الله؟﴾** [غافر: ٧٣، ٧٤]..

فيجيبون إجابة المخدوع الذي انكشفت له خدعته. وهو يائس حسير: **﴿قالوا: ضلُّوا عنا. بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً﴾** [غافر: ٧٤]..

غابوا عنا فلم نعد نعرف لهم طريقاً، وما عادوا يعرفون لنا طريقاً. بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً. فقد كانت كلها أوهاماً وأضاليل! وعلى إثر الجواب البائس اليائس يجيء التعقيب العام: **﴿كذلك يضلُّ الله الكافرين﴾** [غافر: ٧٤]..

ثم يوجه إليهم التأنيب في هذا الموقف العصيب وهم يُعانون العذاب المذهل والفزع والهلع: **﴿ذلك بما كنتُم تفرحون في الأرض بغير الحق، وبما كنتم تمرحون. ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾** [غافر: ٧٥، ٧٦]..

يا مغيث! وأين إذن كان السحب في السلاسل والأغلال، وكان الماء الحار والنار؟ يبدو أنها كانت مُقدمة للدخول في جهنم للخلود.. **﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾**.. فعَن الكِبر والعلو نشأت هذه المهانة.. وجزاء على الكبر والعلو كان هذا التحقير!.

إنه مشهد الذلّ والمهانة والعذاب الرعيب.. إنه مشهد مؤثر. مشهد مُذلّ مرعب مخيف **﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يُفسدون﴾** [النحل: ٨٨]..

إنه العذاب الدائم. عذاب الخلود **﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون، لا يُفتَرّ عنهم وهم فيه مُبلسون﴾** [الزخرف: ٧٤، ٧٥].

عذاب مستمر وفي زيادة. . وفي ألم شديد عصيب، لا يُفترَّ لحظة، ولا يبرد هنيهة. ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص، ولا كُوَّة من رجاء بعيد. فهم يائسون قانطون. ثم تناوح في الجو صيحة من بعيد. صيحة تحمل كل معاني اليأس والكرب والضيق **﴿ونادوا يا مالك ليقضي علينا ربك﴾** [الزخرف: ٧٧]. . إنها صيحة متناوحة من بُعد سحيق. من هناك من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم. إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين، إنهم لا يصيحون في طلب النجاة ولا في طلب الغيث.

فهم مُبلسون يائسون. إنما يصيحون في طلب الهلاك. الهلاك السريع الذي يُريح. وحسب المنايا أن يَكُنَّ أمانيا، وإن هذا النداء ليلقي ظلاً كثيفاً للكرب والضيق، وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوساً أطار صوابها العذاب، وأجساماً تجاوز الألم بها حدّ الطاقة، فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة **﴿يا مالك ليقضي علينا ربك﴾**. . .

والجواب يجيء في تيئيس وتخذيل، وبلا رعاية ولا اهتمام. **﴿قال: إنكم ماكثون﴾** [الزخرف: ٧٧]. . فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء، إنكم ماكثون، **﴿إنه من يأت ربه مجرماً فإن لهم جهنم لا يموت فيها ولا يحيا﴾** [طه: ٣٤]. . فلا هو ميت فيستريح، ولا هو حيّ فيتمتع إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة. فهم متروكون في جهنم لا يخرجون ولا يُطلب إليهم اعتذار ولا عتاب **﴿فاليوم لا يخرجون منها ولا يستعتبون﴾** [الجاثية: ٣٥]. . **﴿والذين كفروا لهم نار جهنم، لا يُقضى عليهم فيموتوا، ولا يُخَفَّف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور﴾** [فاطر: ٣٦]. .

إنه عذاب الجبار القهار القوي المتين **﴿فيومئذ لا يُعذِّب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد﴾**. .

إنه الله العزيز القادر. الذي يُعذِّب يومئذ عذابه الفذّ الذي لا يملك

مثله أحد. والذي يوثق وثاقهُ الفذ الذي لا يوثق مثله أحد. إنه عذاب متفرد بلا شبيه من عذاب البشر ووثاقهم. أو من عذاب الخَلْق جميعاً ووثاقهم. وذلك مقابل ما أسلفوا من طغيان وفساد كبير.. إنه جزاء تلك الكبرياء المنكرة للسلطان الضائع حين قال فرعون للسحرة الذين آمنوا وخروا سُجَّداً لرب العالمين ﴿**ولتعلمن أيُّنا أشد عذاباً وأبقى**﴾ [طه: ٧١]..

. لقد عذَّبوا الناس في الأرض وربطوهم بالقيود والأغلال.. فها هو ذا ربّ العالمين يُعذِّب ويوثق من كانوا يُعذِّبون الناس ويوثقونهم. ولكن شتان بين عذاب وعذاب، ووثاق ووثاق.. وهان ما يملكه الخَلْق من هذا الأمر، وجَلَّ ما يفعله صاحب الخلق والأمر. فليكن عذاب الطغاة للناس ووثاقهم ما يكون. فسيعذَّبون ويوثقون، عذاباً ووثاقاً وراء التصورات والظنون!.

هذا العذاب يعرضه القرآن في صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة الرعيبة.. ﴿**ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب**﴾ [غافر: ٤٦].. أشد العذاب!!.

يا لله. يا مغيث. ها هم أولاء الذين كفروا ﴿**إن الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم ناراً، كلما نضجت جلودهم بَدَّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب. إن الله كان عزيزاً حكيماً**﴾ [النساء: ٥٦]..

إنه مشهد لا يكاد ينتهي. مشهد شاخص متكرر. يشخص له الخيال، ولا ينصرف عنه! إنه الهول. وللهول جاذبية آسرة قاهرة! والسياق يرسم ذلك المشهد ويكرره بلفظ واحد.. ﴿**كلما**﴾.. ويرسمه كذلك عنيفاً مفزعاً بشطر جملة.. ﴿**كلما نضجت جلودهم**﴾.. ويرسمه عجيباً خارقاً للمألوف بتكملة الجملة.. ﴿**بدلناهم جلوداً غيرها**﴾.. ويجمل الهول الرعيب المفزع العنيف كله في جملة شرطية واحدة لا تزيد!.

ذلك جزاء الكفر ـ وقد تهيأت أسباب الإيمان بالآيات البينات ـ وهو

مقصود. وهو جزاء وفاق ﴿**ليذوقوا العذاب**﴾ ذلك، أن الله قادر على الجزاء حكيم في توقيعه ﴿**إن الله كان عزيزاً حكيماً**﴾..

وبعد الجولة المروعة لمشاهد العذاب المخيفة التي تنتظر الطغاة. فرعون وملأه. ومن ساروا على نَهجهم من الكافرين ﴿**جزاء وفاقاً**﴾ [النبأ: ٢٦].. يوافق ما أسلفوا وما قدّموا، فمن العدل والرحمة أن يجد الشرّ جزاءه وألا يتساوى مع الخير في مصيره ﴿**أفنجعل المسلمين كالمجرمين؟**﴾ [القلم: ٣٥]..

إن الله ـ سبحانه ـ في غِنى عن عذاب العباد. فَمَا به ـ سبحانه ـ من نَقمة ذاتية عليهم يصبّ عليهم من أجلها العذاب. وما به ـ سبحانه ـ من حاجة لإظهار سلطانه وقوته عن هذا الطريق. وما به ـ سبحانه ـ من رغبة ذاتية في عذاب الناس، كما تحفل أساطير الوثنية كلها بمثل هذه التصورات.. وإنما هو صلاح العباد بالإيمان والشكر لله. وهو الذي يشكر صالح العمل ويعلم خبايا النفوس: ﴿**ما يفعل الله بعذابكم ـ إن شكرتم وآمنتم؟ ـ وكان الله شاكراً عليماً**﴾ [النساء: ١٤٧]..

إنها اللمسة العجيبة، الموحية المؤثرة العميقة، اللفتة الرائعة إلى استغناء الله ـ سبحانه ـ عن تعذيب العباد. فهو لا يطلب منهم إلا أن يُؤمنوا ويَشكروا. وهو ـ سبحانه ـ غني عن إيمانهم وشكرهم. ولكن ذلك إنما هو لصلاح حالهم، وارتقاء مستواهم، حتى يتأهَّلُوا لحياة الآخرة، ومستوى النعيم في الجنة. فإذا هم ارتكسوا وانتكسوا فإنما يُؤَهِلُون أنفسهم لمستوى العذاب في الجحيم ﴿**ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس. لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها. أولئك كالأنعام، بل هم أضل.. أولئك هم الغافلون**﴾ [الأعراف: ١٧٩].. ﴿**والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم**﴾ [المائدة: ٨٦]..

هؤلاء خَلق جهنم! وهم مُهيَّأون لها. الـذين يغفلون عن آيات الله وما يجري من الأحداث ويمر بهم والغير فلا يـرون فيها يـد الله.. هؤلاء حَصب جهنم بما كفروا وفسقوا وكانوا من الظالمين. فهم وقود النار ﴿**وقودها الناس والحجارة**[1]﴾ [التحريم: ٦]..

نعم! ما يفعل الله بعذاب الخلق إن شكروا وآمنوا؟ إن عذابه لجزاء على الجحود والكفران؛ وتهديد لعله يقود إلى الشكر والإيمان.. إنها ليست شهوة التعذيب، ولا رغبة التنكيل؛ ولا التـذاذ الآلام، ولا إظهار البطش والسلطان.. تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً.. فمن اتقى بالشكر والإيمان؛ فله الغفران والرضوان.

﴿**إن تكفروا فإن الله غني عنكم. ولا يرضى لعباده الكُفر. وإن تشكروا يرضه لكم. ولا تزر وازرة وزر أخرى، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون. إنه عليم بذات الصدور**﴾ [الزمر: ٧]..

والله ـ سبحانه ـ غني عن العباد الضعاف المهازيل. إنما هي رحمته وفضله أن يشملهم بعنايته ورعايته. وهُم مَنْ هُم من الضعف والهزال!.

﴿**إن تكفروا فإن الله غني عنكم**﴾.. فإيمانكم لا يزيد في ملكه شيئاً.

---

(١) هؤلاء الناس وقود النار. نار فظيعة متسعرة.. الناس فيها كالحجارة سواء. في مهانة الحجارة. وفي رخص الحجارة، وفي قذف الحجارة، دون اعتبار ولا عناية. وما أفظعها ناراً هذه التي توقد بالحجارة! وما أشده عذاباً هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة!.

قال عبد الله بن أبي الهذيل من سادات التابعين في وعظه القصصي: «أن موسى ـ عليه السلام ـ سألَ ربّه: يا ربِّ خلقتَ خلقاً وهم عبادك ثم تحرقهم بالنار!.

فقال الله: يا موسى، اذهب فازرع زرعاً، قال: قد فعلت، قال: فاحصده، قال: قد فعلت، قال: فاجعله في كدوسة، قال: قد فعلت، قال: فلا تدع منه شيء إلا رفعته، قال: قد فعلت، قال: فلعلَّك قد تركتَ منه شيئاً، قال: لا! إلا ما لا خير فيه، قال: فمثل أولئك أُدخل من عبادي النار».

وكفركم لا ينقص منه فتيلاً[1] . . ولكنه لا يرضى عن كفر الكافرين ولا يحبه **﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾** . .

---

(١) عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إني حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجَعلتُه بينكُم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كُلُّكم ضالٌ إلى من هَدَيتُه فاستهدوني أهدِكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمتُه، فاستطعموني أُطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوتُه، فاستكسوني أكسُكم، يا عبادي إنكم تُخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفرُ الذُّنوبَ جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني، ولن تبلُغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم وإنْسَكُم وجِنَّكم كانوا على أتقى قلب رَجُلٍ واحد منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً، يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أفجرِ قلبِ رَجُلٍ واحدٍ منكم، ما نَقَص ذلك من مُلكي شيئاً، يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيتُ كل إنسان مسألته، ما نَقَص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البحر. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم، ثم أوفِّيكم إياها، فمن وَجَد خيراً، فليحمد الله، ومن وَجَد غير ذلك، فلا يلومَنَّ إلا نفسه» رواه مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجة وعبد الرزاق والخطيب في تاريخه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في «الأسماء والصفات».

قال الإمام أحمد عن هذا الحديث: هو أشرف حديث لأهل الشام. ورواه الإمام النووي في آخر كتاب الأذكار بإسناده. وقال: ورجال إسناده مني إلى أبي ذر ـ رضي الله عنهم ـ كلهم دمشقيون، ودخل أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ دمشق، فاجتمع في هذا الحديث جُمل من الفوائد منها ما اشتمل عليه من البيان لقواعد عظيمة في أصول الدين وفروعه والآداب، ولطائف القلوب وغيرها ولله الحمد.

قال الإمام الحافظ ابن رجب: «إن العباد لا يقدرون أن يُوصِلوا إلى الله نفعاً ولا ضراً، فإن الله تعالى في نفسه غنيٌّ حميد، لا حاجةَ له بطاعات العباد، ولا يعود نفعُها إليه، وإنما هم ينتفعون بها، ولا يتضرَّر بمعاصيهم، وإنما هم يتضرَّرون بها، قال الله تعالى: **﴿ولا يَحزنك الذين يُسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾** [آل عمران: ١٧٦]، وقال: **﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً﴾** [آل عمران: ١٤٤]، وقال: **﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾** [النساء: ١٣١]، وقال حاكياً عن موسى: **﴿وقال موسى: إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾** [إبراهيم: ٨]. .

إن مُلك الله لا يزيد بطاعة الخلق، ولو كانوا كلُّهم بَررة أتقياء، قلوبهم على قلب =

﴿وإن تشكروه يرضه لكم﴾.. ويُعجبه منكم، ويحبه لكم، ويجزيكم عليه خيراً. وكل فرد مأخوذ بعمله، محاسب على كسبه؛ ولا يحمل أحد عبء أحد. فلكل حمله وعبؤه.. والمرجع في النهاية إلى الله دون سواه؛ ولا مهرب منه ولا ملجأ عند غيره. ولا يخفى عليه من أمركم شيء..

هذه هي العاقبة. وهذا هو مفرق الطريق.. ولِكُلّ أن يَختار. عن بيّنة. وعن تَدَبُّر. وبعد العلم والتفكير..

امــرأة فرعــون:

لقد طويت صفحة من ليالي الظلم والطغيان، وتناثرت غيوم الكفر والشرك والعصيان. وأشرقت شمس الحق وضّاءة تحمل العظة والبيان.. ودارت دورة الأيامِ وتقلبات الزمان.. ومضت قصة فرعون وقد خلَّفت العِبَر والعَبرات.. في كل مشهد مَعْلم بارز وآيات بَيِّنات. يقف أمامها الناس في فِكر ونَظَر وتأمُّلات..

في القصة نرى موسى الرسول الكريم يقف أمام فرعون يدعوه إلى الحق وإلى صراط مستقيم فيستكبر الطاغية، ويُحاول صَرْف الناس عن دراسة الفكرة بحيلة من التَرف والغنى ويُنادي هامان وزير السوء: **﴿يا هامان ابنِ لي صَرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأَطَّلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً﴾** [غافر: ٣٦]..

= أتقى رجل منهم، ولا يَنقُصُ مُلكه بمعصية العاصين، ولو كان الجنُّ والإنس كلهم عصاة فَجَرة قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم، فإنه ـ سبحانه ـ الغني بذاته عمَّن سواه، وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله، فَمُلكُه مُلك كامل لا نَقص فيه بوجه من الوجوه على أيّ وجه كان. لا يزداد ولا يكمل بالطاعات، ولا يَنقُص بالمعاصي ولا يؤثر فيه شيء..»..

وهكذا وَجَد موسى نفسه أمام حركـة بارعـة من فرعـون وهامـان. . وشاهَدَ الناس حجارة تُجْمَع وصرحاً عالياً يُقام.

ومن المنتظر جداً أن يكون حديثهم حـول الصَّرح وصعـود فرعـون والنتائج المتوقعة وما يستطيع موسى أن يردّ به ويُدافع عن دعوة الله.

وشَغل فرعون قومه بقصة الصّرح وراح يفتك بالأبرياء ويصلب الكهنة المؤمنين على جذوع النخل. . وتتابعت النكبات على الأمـة العزلاء حين اشتغل حكامها بمحاربـة الدعـوة إلى رب العالمين فـظهرت الأوبئـة التي أرسلها الله من الجراد والقُمَّل والضفادع والدم ونقص الثمرات. . كل هذا والصّرح يَرتفع وتُنفق فيه الأموال بدلاً من إنفاقها في صالح الناس. ونادى بنو إسرائيل نبيَّهم موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿**أُوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا**﴾ فكان ردُّ النبي: ﴿**عسىٰ ربكم أن يُهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون**﴾ [الأعراف: ١٢٩]. .

وفي هذه الموجة العاتية من الظلم والإرهاب كانت تعيش امرأة أقرب ما تكون إلى فرعون لأنها زوجته. أبعد ما تكون عنه لأنها مؤمنة!.

ولقد قامت هذه المرأة المؤمنة المخلصة بدور خطيـر في القصة. . فهي التي استقبلت موسى حين كان وليداً. .

استقبلته بروحها الزكية، استقبلته بالحبّ الحاني في قلب طاهر رقيق شفيف. وقالت لفرعـون الطاغيـة ـ الذي سلَّط الـذَّبح والقتـل على ذكور بني إسـرائيل ـ: ﴿**قُـرّة عَين لي ولك لا تقتلوه عسىٰ أن ينفعنـا أو نتخـذه ولداً. .**﴾ [القصص: ٩]. .

لقد ضَمَّته إلى صدرها وليداً، وربّته في حُجرها اِبناً، ثم آمنت به نبياً ورسولاً، وأسلمت لله ربّ العالمين. .

ها هي ذي ترى الإيمان يُمتَحن أمامها فلا تملك دفـع الضرّ وتمـدّ

عينيها فلا ترى إلا الفساد الشامل، فيضيق من حولها الفضاء العريض. ويضيق القصر الفسيح فلا ترى فيه إلا قيداً يَحول بينها وبين الحياة الطاهرة: هل إلى المستضعفين؟! وهم أضعف من أن يَحموا أنفسهم فتجرّ عليهم غضباً جديداً يصبّه فرعون.

والمأثور عن امرأة فرعون أنها كانت مؤمنة عابدة في قصره ـ ولعلها كانت آسيوية من بقايا المؤمنين بدين سماوي قبل موسى ـ وقد أحسَّت المرأة غربتها في هذه الأرض والمؤمنون في كل عصر غرباء.. وقلّبت وجهها وروحها إلى ربّ السماء.

ها هي ذي امرأة فرعون، لم يصدّها طوفان الكفر الذي تعيش فيه.. في قصر فرعون.. عن طلب النجاة وحدها.. ورفعت عينيها إلى السماوات العُلى حيث الخلود. وإلى الجوار الذي لا يغلب. وتَطَلَّعت إلى الأفق الأعلى وتمنَّت على ربّها أن تهجر بيت الظلم على ما فيه من فخامة وعظمة زائلة. وفَضَّلَت جوار النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين فناجت ربها من قلب مخلص: **﴿ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾** [التحريم: ١١]..

يقول الإمام ابن القيِّم في تعليقه على هذه الآية: «إنها طلبت الجار قبل الدار» حين قالت ربِّ ابن لي عندك بيتاً ولم تقل ربّ ابن لي بيتاً عندك..

لقد تَبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتاً في الجنة. وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه. وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به: **﴿ونجني من فرعون وأهله﴾**.. وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم: **﴿ونجني من القوم الظالمين﴾**..

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مَثَل للاستعلاء على عَرَض الحياة الدنيا في أزهى صوره. فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ. في قصر

فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي.. ولكنها استعلت على هذا بالإيمان. ولم تُعرض عن هذا العَرَض فحسب، بل اعتبرته شرّاً ودَنَساً وبَلاءً تستعيذ بالله منه، وتتفلّت من عقابيله، وتطلب النجاة منه!.

وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية.. وهذا فضل آخر عظيم. فالمرأة أشد شعوراً وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته.

وما من شك أن ضغط المجتمع وتقاليده على حسّ المرأة أضعاف ضغطه على حسّ الرجل!. ولكن هذه المرأة.. وحدها.. في وسط ضغط المجتمع، وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية، والمقام الملوكي. في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء.. وحدها.. في خضم هذا الكفر الطاغي!.

وهي نموذج عال في التجرد لله من كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر، وكل هذه المعوقات، وكل هذه الهواتف. ومن ثم استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد. الذي تتردد كلماته في جنبات الكون وهي تَـتَنَزَّل من الملأ الأعلى:

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون، إذ قالت: ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة، ونجني من فرعون وعمله، ونجني من القوم الظالمين. ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا، وصدّقت بكلمات ربه وكتبه. وكانت من القانتين﴾ [التحريم: ١١، ١٢]..

وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التي جعلتها قرينة مريم في الذِّكر. وهما الاثنتان نموذجان للمرأة المُتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة يضربهما الله للمؤمنات في كل جيل إلى قيام الساعة..

وتسير قصة فرعون فنرى أمر الطاغية ينتهي إلى الغَرَق ولا يعصمه

جنده ولا قوته ويقول له الله : ﴿**فاليوم نُنجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية**﴾ [يونس: ٩٢]. . ثم إلى المصير المشؤوم المهين. . ﴿**النار يُعرضون عليها غدواً وعشياً، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب**﴾ [غافر: ٤٦]. .

بينما يقول عن زوجته الطاهرة: ﴿**وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون**﴾ [التحريم: ١١]. .

ونعود فنسأل أين الصَّرح الذي اشترك فيه فرعون وهامان ومَن تبعهما من عصبة السوء؟.

بل أين المجد الكاذب الذي قام على محاربة الحق؟ لنستمع إلى القرآن وهو يقول: ﴿**ودَمَّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون**﴾ [الأعراف: ١٣٧]. .

ووسط الصورة التي رسمها الذهن للتدمير نستطيع أن نتلمس كلمة طيبة تتصاعد من امرأة فرعون تدعو ربها أن يَبني لها عنده بيتاً. . لقد وَصَلَتْ قلبها بالله في السرّ والخفية، وبالغيب الذي لا تطلع عليه العيون. . إن إيمانها الكبير، وإدراكها البصير هو الذي أَهَّلَها لهذا الجزاء العظيم. ولقد بقيت هذه المؤمنة آية في عالم الجهاد وبقي بيتها في عالم الجزاء. .

وهذه هي القاعدة الأساسية في بناء الدعوات في أن يزول صرح الظلم والطغيان ويبقى بيت امرأته في الجنة. .

وتسير القصة في رحلة مديدة. . وتنتهي هنالك في الآخرة يوم القيامة: ﴿**ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب**﴾ [غافر: ٤٦]. .

ها هو ذا فرعون في مشهد كئيب في عذاب رعيب. . وينتهي الموقف بتقرير أشد العذاب ومضاعفته ﴿**الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون**﴾ [النحل: ٨٨]. . ثم يجيء التأنيب

الميئس من كل رجاء في تغيير أو تخفيف: **﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾** [النبأ: ٣٠]..

إنه العذاب المروّع الهائل. وهو عذاب مُملّ لا يؤدي إلى موت ولا يبقى على حياة **﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيا﴾** [الأعلى: ١٣]..

وهي صورة محسوسة من جانب، تلقي ظلاً غير محسوس من الجانب الآخر. فأما الصورة فهي هذه النار المخيفة المحرقة، والمعذبون فيها لا يجدون الموت ولا يذوقون الحياة. وأما الظلّ فهو الحالة النفسية لهذا المجرم الذي لا يموت فيستريح، ولا يحيا فيستمتع؛ ولكنه يبقى هكذا إلى أمد معلوم.. **﴿إنكم ماكثون﴾** [الزخرف: ٧٧]..

وفي مقابل السعير المتأجج. وفي مقابل الجلود الناضجة المشوية المعذّبة.. كلما نضجت بُدّلَت. ليعود الاحتراق من جديد. ويعود الألم من جديد. في مقابل هذا المشهد المكروب الملهوف لفرعون وملئه.. نجد امرأة فرعون في بيتها في جَنَّات نَدّية.. ها هي ذي تتقلب في عَطف ولُطف إلهي، في روحانية وتكريم. ويغمر بيتها ونفسها الرضا والتعاطف والوداد..

فرعون في عذاب مقيم.. **﴿إن المجرمين في ضلال وسُعر. يوم يُسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سَقَر﴾** [القمر: ٤٧ ـ ٤٨]..

إنَّها صورة للعذاب هائلة مزلزلة.. صورة للعذاب مادية ونفسية، وصورة للنار حسية ومعنوية، والهول هنا كامن في الصمت الرهيب، والخشوع المهيب.. إنه العذاب الشديد. أدهى وأَمَرّ من كل عذاب. فالمجرمون في ضلال وسُعر. في ضلال يُعذِّب العقول والنفوس، وفي سُعر يكوي الجلود والأبدان. يَلْقون العذاب الشديد، ويَلْقون فيها تحقيراً وهواناً ويُعانون حيرةً وضلالاً..

في وسط هذا الهول المروع. وفي مقابله.. ها هي ذي امرأة فرعون

عند الله في بيتها هادئة ناعمة مطمئنة مكرّمة. . الجو كله يُسر وراحة ونعيم. تَعيش في جناب الله في جناته في دار المقامة. .

إنَّهما لصورتان متقابلتان: صورة الأمن والراحة. . صورة الجنة. . صورة امرأة فرعون في بيتها العلوي في الجو الحالم الراضي في سلام وأمن وسرور. . فهي في نعيم لطيف، قوامه الودّ السامي مع الله الذي كانت معه في الدنيا. . وهو في ذاته نعيم لا يُماثله نعيم. . ونسمع من بيتها في الجنة نغمة الشكر والدعاء والسرور: ﴿ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة. .﴾ [التحريم: ١١].

وفي صورة مقابلة. . مشهد رهيب ومنظر عجيب. . صورة جهنم. . صورة فرعون في هيئة مَهينة يجتمع فيها التحقير المعنوي إلى التعذيب النفسي ﴿الذين يُحشرون على وجوههم إلى جهنم﴾ [الفرقان: ٣٤]. . فصورته مع قومه وهم يُسحبون في النار ووجوههم مكبوبة فيها، صورة حِسّية بَشعة، . وهي كذلك تُوحي بالمهانة والزراية. . ثم إلى سَموم وحميم في جهنم. . فالهواء شواظ ساخن يَنفذ إلى المسام ويَشويها، والماء مُتَناه في الحرارة. . يتقلبون في ظلال الدخان اللافح الخانق. ظلّ. . لا ظليل ولا يُغْني من اللَّهب. .

وهذا العذاب، عذاب السعير، في جهنَّم التي تشهق بأنفاسها وهي تفور، عذاب شديد مروّع حقاً. والله لا يَظلم أحداً. ونحسب ـ والله أعلم ـ أن النفس التي تكفر بربها ـ وقد أودع فطرتها حقيقة الإيمان ودليله ـ هي نفس فرغت من كل خير. وقد انتهت إلى نكسة وارتكاس مكانها هذه النار، إلى غير نجاة منها ولا فرار. .

والنفس التي تكفر بالله في الأرض تظل تنتكس وترتكس في كل يوم تعيشه، حتى تنتهي إلى صورة بشعة مسيخة شنيعة، صورة مُنكرة جهنّمية نكيرة. صورة لا يُماثلها شيء في هذا الكون في بشاعتها ومَسخها

وشناعتها.. إنها تنتهي إلى جهنم المتغيظة المتلمظة، الحارقة، المُهْدِرة لكل معنى ولكل كرامة؛ بعد أن لم يعد لتلك النفوس معنى ولا كرامة..

إنهم في جهنم ماكثون.. في عذاب مقيم **﴿ومأواهم جهنم﴾**.. هذه هي النهاية، لا تَبرد ولا تَفتر **﴿كلما خبت زدناهم سعيراً﴾** [الإسراء: ٩٧]..

وفي المقابل صفحة المؤمنين الذين قَدِمُوا على ربهم بقلب سليم. بقلبٍ خالص. بقلب يخشى ويتوقّى، اتجهوا لله وحده، بقلوب تسجد لله حقاً، وتتصل به على مدار الليل والنهار.. فهم هناك في نعيم مقيم في جنات وعيون **﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾**.. هذا الرضا من الله هو أعلى وأندى من كل نعيم.. هذا الرضا في نفوسهم عن ربهم. الرضا عن قَدَره فيهم. الرضا عن إنعامه عليهم. الرضا بهذه الصِلَة بينه وبينهم. الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق..

إنهما صورتان متقابلتان: صورة الكفر والطغيان والفسوق والعصيان.. فرعون وملئه **﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾** [غافر: ٤٦]..

وصورة الإيمان الصادق والصلة بالله الدائمة.. والمَثَل الخالد.. امرأة فرعون **﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله، ونجني من القوم الظالمين﴾** [التحريم: ١١]..

إن عَرْض صورة فرعون وملئه. هذه الصورة المروعة لكفيل بإثارة الخوف والإشفاق، والتفكير مرة ومرة قبل العصيان والإباق!.

ويُسدل الستار على العذاب المقيم لفرعون وقومه. كما يُسدل الستار في الصورة المقابلة على النعيم الخالد لامرأة فرعون..

يُسدَل الستار.. وفي العين منه صُور، وفي الحسّ منه أثر، وعلى الجو كله وجوم صامت مرهوب.

إن هذا الحشد من الصور والظلال في هـذه القصة لتستجيش كـل خالجة في كيان الإنسان للتأمل والتـدبُّر والتـأثُّر ﴿**إن في ذلـك لعبرة لمن يخشى**﴾ [النازعات: ٢٦]. .

فالذي يعرف ربه ويخشاه هو الذي يُدرك ما في حادث فـرعون من العبرة لسواه. أما الذي لا يعرف قلبه التقوى فَبَيْنَه وبين العبرة حاجز، وبينه وبين العظة حجاب. حتى يصطدم بالعاقبة اصطداماً. وحتى يأخذه الله نَكالَ الآخرة والأولى.

إن في ذلـك لآيـة لمن عَلَوا في الأرض. لعلهم حين يتملّون هـذه المشاهد أن يُطامنوا من كبـريائهم وأن يـرجعوا عن شِقـاقهم. وأن يتمثَّلُوا أنفسهم في موقف فرعون في مشهد الخـزي والمهانـة والعذاب الأليم. . ينادون ويَستغيثون. . في الوقت أمامهم فسحة، قبل أن يُنـادوا ويستغيثوا، ولاتَ حين مناص، ولا موضع حينذاك للغوث ولا للخَلاص!.

وكلٌّ مُيسَّر لنهج، وكلٌّ مُيسَّر لعاقبة. والعبرة لمن يخشى. . ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى، بصائر للناس، وهدى ورحمة، لعلهم يتذكرون**﴾ [القصص: ٤٣]. .

هذا نصيب موسى. وهو نصيب عظيم. وهـذه عاقبـة موسى. وهي عاقبة كريمة. . كتاب من الله يُبصِّر الناس كأنه بصائرهم التي بها يهتدون، ﴿**وهدى ورحمة**﴾. . ﴿**لعلهم يتذكرون**﴾ يتذكرون كيف تتدخل يد القدرة بين الـطغـاة والمستضعفين، فتختم للطغـاة بـالهـلاك والتـدميـر، وتختم للمظلومين بالخير والتمكين.

وهكذا تنتهي قصة موسى وفرعون. شاهدة بأن الأمن لا يكون إلا في جانب الله. وأن المخافة لا تكون إلا في البُعد عن الله. ذلك إلى تَـدَخُّل القدرة سافرة متحدية للطغيان والطغاة، حين تصبـح القوة فتنـة يعجز عن

صَدّها الهداة. وهي المعاني التي كانت الجماعة المسلمة الصغيرة المُستضعفة في مكة في حاجة إلى الاطمئنان إليها. وكان المشركون المُستكبرون في حاجة إلى تدبّرها. وهي المعاني المُتجدِّدة الدائمة حيثما كانت دعوة إلى الهدى، وحيثما كان طغيان يقف في وجه الهدى.

فقصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون تلتقي بحلقة مشابهة لها من قصة العرب في مواجهة رسولهم الكريم. فَتُثَبِّتْ الرسول محمد ـ ﷺ ـ والمؤمنين معه؛ وتُحذِّر المشركين المعترضين، وتُنذرهم مصيراً كمصير الأولين.. ﴿فجعلناهم سَلَفاً ومَثَلاً للآخرين﴾ [الزخرف: ٥٦].. وتُصبح القصة بهذا أداة للتربية في المنهج الإلهي الحكيم.

وهكذا يجيء القصص في القرآن عبرة لمن يعقل. ومادة تربية وتوعية للنفوس، وتقرير لحقائق وسُنَن في الوجود ﴿لعلهم يتذكرون﴾.

تلك النهاية والعاقبة.. نهاية من يُسلم وجهه إلى الله وهو مُحسن. وهذه نهاية من يكفر ويطغى ويتعالى ويَخْدعه متاع الحياة. وهو في قبضة الله لا يفلت وهو مأخوذ بعمله.. والعاقبة بعد ذلك مروّعة فظيعة ﴿ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ [لقمان: ٢٤].. ووصف العذاب بالغلظ يُجَسِّمه ـ على طريقة القرآن ـ والتعبير يُلقي ظل الهول الذي يحاول الكافر ألاَّ يواجهه، مع العَجز عن دَفعه، أو التلكؤ دونه! فأين هذا ممن يُسلم وجهه إلى الله ويستمسك بالعروة الوثقى، ويصير إلى ربه في النهاية هادىء النفس مطمئن الضمير، فَرِح بما أعدّه الله من نعيم مقيم؟.

ماشطة ابنة فرعون ،

الإيمان نعمة. نعمة لا يعرفها إلا مَن ذاقها. نعمة ترفع العمر وتُباركه. نعمة تتجه بالروح إلى الخالق الواحد في خشوع وأنس.. نعمة تأخذ بالنفس إلى مسارب الهدوء والاطمئنان.. نعمة تربط على القلب فيرى يَدَ الله في كل حادث وفي كل أمر..

والقلب المؤمن يُدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال. قيمة الرؤية الواضحة بعد الغَبَش. قيمة الطمأنينة للحق بعد الأرجحة، قيمة التحرر من العبودية للعبيد بالعبودية لله وحده. قيمة الاهتمامات الكبيرة بعد اللهو بالاهتمامات الصغيرة الحقيرة.. ويُدرك أن الله مَنَحه بالإيمان كل هذا الزاد.. ومن ثم يشفق من العودة إلى الضلال، كما يشفق السائر في الدرب المستقيم المنير أن يعود إلى التَخَبُّط في المنعرجات المظلمة، وكما يشفق من ذاق نداوة الظلال أن يعود إلى الهجير القائظ والشواظ!.

وفي بشاشة الإيمان حلاوة لا يُدركها إلا من ذاق جفاف الشرك والإلحاد وشقاوتهما المريرة. وفي طمأنينة الإيمان حلاوة لا يُدركها إلا من ذاق شقوة الشرود والضلال!.

قد أعطى الإسلام المرأة مكانها إلى جانب الرجل فيما هما فيه من العلاقة بالله، ومن تكاليف العقيدة في العبادة والجهاد والسلوك القويم في

الحيـاة. . الرجـال والنساء سـواء في الجهـاد في سبيـل العقيـدة وإعـلاء كلمة الله. .

والقصة النبوية تعرض مواقف نسائية نبيلة. . امرأة. . أم. . تُسجِّل موقفاً خالداً تنتصر فيه العقيدة على الحياة. . امرأة فاحَ من إيمانها عـطراً شذياً. انتشر رائحة طيبة خالـدة، فَيَـتَـنَسَّم برائحتهـا المسلمون، فَتُحَـرِّك دوافع الإيمان قوة تَـنْتَصِب، وتَصَلُّباً بالعقيدة في القلوب التي عرفت ربها. .

وتُثبت القصة أن المرأة ليست ضُعفاً دائماً، فهي قادرة على أن تَتحَمَّل مسؤوليتها، وأن تُثبت وجودها في أصعب الظروف، وأن تقف راسخة في أحلك المحن، وأن تتمسك بمبادئها مهما كلفها ذلك من ثمن، حتى ولو كان هذا الثمن باهظاً جداً.

امرأة وَقَفتْ بعزم وتصميم، وصلابة ويقين لتقول كلمة «الإيمان» التي تَعتقدها، تقـولها في شجـاعة، وتَحَـدّ في وجه الـظلم والطغيـان لا تُبالي بالموت. وتعذيب الطغاة العتاة!.

ولنقرأ البيان النبوي يقص علينا من خَبرها:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «مررتُ ليلةَ أُسرِيَ بي برائحة طيبة، فقلت: يا جبريل! ما هـذه الرائحـة الطيبـة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها، قال: قلتُ: وما شأنها؟ قال: بينما هي تَمْشُط ابنةَ فرعون ذات يوم، فوقـع المُشْطُ من يَدهـا، فقالت: بسم الله، فقالت ابنةُ فـرعون: أَبي؟ قـالت: لا، ولكن ربِّي وربُّك وربّ أبيك، قالت: أُخبره بذلك؟ قالت: نعم، فَأَخْبَرَته، فَدَعاها، فقال لها: أَلَكِ من ربٍّ غيري؟ قالت: ربِّي وربُّك الذي في السماء ـ وفي رواية ـ: قالت: نعم، ربّي وربك الله، فأمر بِبَقَرَةٍ[1] من نحاس، فأُحْميتْ، ثم أمر بها أن

---

(١) في رواية ابن حِبان: «نقرة». قال ابن الأثير: قِدْر يُسخَّن فيه الماء وغيره.

تُلقى هي وأولادها فيها، قالت له: إنَّ لي إليكَ حاجةً، قال: وما حاجتك؟ قالت: أحبُّ أن تَجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا، قال: ذلك لكِ لما لَكِ علينا من الحق، قال: فأمر بأولادها فأُلقوا بين يديها واحداً واحداً، إلى أن انتهى ذلك إلى صبيّ لها مُرضع، وكأنها تقاعست من أَجله، فقال: يا أُمتاه فإنك على الحق. يا أمة اقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت»[1].

تُعد هذه القصة من الحالات النادرة في القصص النبوي في بنائها الأدبي والفني، فهي نموذج مما يُسمَّى بالبناء الدائري[1]، وهو أن تُسرد القصة من نقطة متأخرة في أحداث القصة، بحيث تبدأ من النهاية، ثم تعود إلى الوراء من أجل عرض تفاصيل القصة إلى أن تصل إلى النهاية التي ابتدأ منها مرة أخرى.

إن هذا الأسلوب في بناء هذه القصة هو عظيم الدلالة، ففيه تَشويق السامع أو القارىء لمعرفة الأحداث التي أدت إلى هذه النهاية، وكذلك بيان أهميته ومكانة مثل هذه النهاية العظيمة الخالدة. فالقصة تبدأ بتمهيد يتضمن نهاية القصة من استشهاد الماشطة ودفنها مع أولادها، وانتشار الرائحة الطيبة

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه بإسناد قوي، وأخرجه أحمد ٣١٠/١، والبيهقي ٣٨٩/٢، وأخرجه البزار (٥٤)، وأورده ابن كثير في تفسيره من رواية البيهقي. وقال: إسناده لا بأس به، والطبراني في الكبير (١٢٢٧٩/١١، ١٢٢٨٠)، المسند (شاكر) ٢٩٥/٤، وإسناده صحيح، والحديث في مجمع الزوائد (١٥/١)، انظر الإحسان (٢٩٠٣ و ٢٩٠٤).

قال ابن عباس: أربعة تكلموا وهم صغار: ابن ماشطة ابنة فرعون، وصبيٌّ جريج، وعيسى بن مريم، والرابع لا أحفظه. (وهذا الأخير هو ابن المرأة في قصة أصحاب الأخدود).

انظر محمد رشيد ثابت، البنية القصصية ومدلولها الاجتماعي في حديث عيسى بن هشام ص ٤١، الدار العربية للكتاب. مطبعة شركة فنون الرسم والنشر ـ تونس ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م. وانظر القصص في الحديث النبوي للدكتور محمد بن حسن الزبر ص ١٥٩.

في الملأ الأعلى تخليداً سامياً لهذا الموقف الجليـل السامي من الله ربِّ العالمين الذي آمنت به المرأة الشهيدة، وهي نهاية الأحداث في القصة، وبعد هذا التمهيد يبدأ عرض أحداث القصة، إلى أن تصل مرة أخرى إلى النهاية الجليلة المؤثرة.

لقد حرص الـرسول ـ ﷺ ـ على أن يُضمِّن القصـة كثيراً من القِيَم الإسـلامية، وهي قيم ذات جـوانب متعـددة. والقـاعـدة التي تقـوم القيم الإسلامية، هي قضية الثبات على العقيدة والاستمساك بها، وعدم التنازل عن مبادئها، مهما كَلَّف صاحبهـا ذلك من متـاعب، ومهما اعتـرضته من صعاب ربما أدَّت بـه إلى التضحية بحيـاته، وهي أغلى شيء يملكـه في وجـوده، في سبيل أن يبقى وفيـاً لعقيدتـه، مخلصاً صـادقـاً في إيمـانـه، لا ينحرف ولا يحيد، وهذه القضية ذات أهميـة بالغـة، وهي ذات حيويـة خاصة بالنسبة لما كان يواجهه المسلمون من مشكلات في إزاء استمساكهم بدينهم، وثباتهم عليه، وبخاصة في الأيام الأولى من ظهور المسلمين في مجتمع مكة، ومن هنا حرص الرسول ـ ﷺ ـ على أن يعالج هذه القضية بعرض قصة تتناول هذه الناحية من مواقف أصحاب الدعوات والمبادىء، وهم يواجهون ظروفاً مشابهة تماماً، أو قريبة مما يواجهه المسلمون في مكة في بداية عهد الإسلام، فكانت هذه القضية محور الموضوع في القصة، فقد آثرت ماشطة ابنة فرعون أن تموت بأبشع وأقسى صور الموت على أن ترجع عن دينها(١)..

.. «بينما هي تَمْشُط ابنة فرعون ذات يوم، فوقع المُشْطُ من يدها، فقالت: بسم الله، فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا، ولكن ربّي وربُّك وربّ أبيك، قالت: أُخبره بذلك؟ قالت: نعم». وفي رواية: «قالت: أقول له؟ قالت: قولي!».

---

(١) القصص الديني في الحديث النبوي ص ٣٩٠.

«قولي!!» إنها كلمة العقيدة.. بهذه الصورة الناصعة الرائعة: صورة التوكل على الله وحده وعدم المبالاة بمقالة ابنة فرعون وتخويفها لها.. إنها الصورة الرفيعة لتلك الحقيقة الكبيرة، في تلك النفس الكبيرة. النفس التي لا تعرف إلا الله ربّاً لها ولفرعون وللخلق جميعاً، لقد رضيت به رباً وكفى، فزادها الله إيماناً في ساعة الشدة، فها هي ذي تقول لابنة فرعون في مواجهة تخويفها لها بأبيها الطاغية: «قولي!!».. نعم.. قولي! ودونك وما يَملكه فرعون وملئه. ولتكن العاقبة ما تكون.. وامتلأت نفسها بالعزم والتصميم، ولتواجه بإيمانها مصدر الخوف والرعب، تواجه الطاغية بقوته وهيبته. ففيم تخاف وفيم تخشى؟! وربّ العالمين وحده القوي القاهر القادر، الذي ينبغي أن يُخاف، وفرعون وطغاة الأرض إن هم إلا عبيد من خَلْق الله وهم أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه، ويستند إلى قوته..

إن القوة الوحيدة التي تُخشى وتُخاف هي القوة التي تملك النفع والضر. هي قوة الله. وهي القوة التي يخشاها المؤمنون بالله وهم حين يخشونها أقوى الأقوياء..

إن القصة تتناول حقيقة التوحيد من جانب عظيم الأهمية في لمسة جليلة واضحة.. إنه تصوير حقيقة القلب المؤمن وموقفه بإزاء قوى الأرض واعتداده بالقوة الوحيدة، واعتماده عليها دون مبالاة بسواها من القوى الضئيلة الهزيلة.

«قولي!!» هذه الكلمة تُصوّر منطق الإيمان الصحيح، في بساطته وقوته، ووضوحه وعمقه، كما هو في قلب هذه الشهيدة الخالدة وكما ينبغي أن تكون في قلب كل مؤمن برسالة الله، وكل قائم بدعوته: **﴿فلا تخافوهم. وخافون إن كنتم مؤمنين﴾**...

وتمضي القصة في حلقاتها فها هي ذي ابنة فرعون وقد أخبرت أباها خَبَر هذه المؤمنة في قصر الظلم والكفر والطغيان.. «فأخبرته، فدَعَاها،

فقال لها: أَلَكِ من ربٍّ غيري؟ قالت: ربّي وربُّك الذي في السماء ـ وفي رواية ـ: قالت: نعم، ربي وربُّك الله..».

إن كلماتها تلقي ظلال الإيمان والطمأنينة بقَدَر الله والراحة والثقة. استقام تفكيرها واطمأن قلبها على ما هي قادمة عليه، وارتاحت مشاعرها وأعصابها، ورضيت بما تدفع هنا في الدنيا لتأخذ هناك حيث القرار والبقاء والخلود..

أَلَا إنه الأفق المشرق الوضيء لنور العقيدة حين تستعلي على كل شيء.. لم تفكر فيم تدفع ولِمَ تدفع، ولِمَ كان هذا وكان ذاك؟ إنه الابتلاء. وفي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين والمؤمنات أكرم ما في النفس البشرية من طاقات. فليس أكرم في النفس من أن يعزّ عليها الحق الذي تؤمن به حتى تُقَدِّم نفسها وأولادها قرباناً لما هو أثمن وأغلى! لقد علم الله من هذه النفس المؤمنة أنَّها خُيِّرت فاختارت وأنها لا تندفع بلا وعي ولكنها تُقدِّر وتختار. ولأنها تَتطلَّع إلى وجه الله ورضاه..

هذه المرأة التي صبرت على الشظف والذلّ الفرعوني انتفض فيها الإيمان شاخصاً واثقاً من عَون الرحمن وَوَعْده..

إن الإيمان هبة ضخمة لا يعدلها في هذا الوجود شيء؛ والحياة رخيصة رخيصة، حين يوضع الإيمان في كفة، ويوضع في الكفة الأخرى كل ما عداه..

ها هي ذي ماشطة ابنة فرعون تقف قوية بإيمانها أمام أعتى وأقوى طغاة الأرض تقول له بعزة الله: «ربي وربُّك الله»..

إنها كلمة الثقة واليقين. فمن ذا يخيفها، وماذا يخيفها؟ إذا كان الله معها.. فليفعل ما يشاء.. وإرادة الله هي النافذة، ومشيئته هي الغالبة.. ودونك وما تملكه في الأرض.. إنك إن تهدِّد بالعذاب والموت إنما تقضي

هذه الحياة الدنيا، وما لَكَ من سلطان علينا في غيرها. . وما أقصر الحياة الدنيا، وما أهون الحياة الدنيا. وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله، ويأمل في الحياة الخالـدة. . وأن العدالـة المطلقـة في انتظاره.

هنا استشاط الطاغية غضباً وقد امتـلأ كيانـه حقداً «فـأمر بِبَقْـرَةٍ من نحاس، فأُحميت، ثم أَمَرَ بها أن تُلقىٰ هي وأولادها فيها، قالت له: إن لي إليكَ حاجة، قال: وما حاجتـك؟ قالت: أحبّ أن تجمـع عظامي وعـظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا، قال: ذلك لَكِ لما لَكِ علينا من الحق. . ».

إنه موقف رهيب! ومشهد جليل عظيم! تُصوِّره الكلمات فإذا هو مشهد حيّ يكشف عن خطوط النفس المؤمنة المُتوهّجة باليقين. . إنه يكشف عن حقيقة الإيمان في الأعماق الإنسانية. . هذه المرأة لم يَعُدْ لَهـا من نفسها وعلائقها الأرضية منها من شيء. . لم تستبق بقية لا تبذلها في سبيل الله ربّ العالمين. لم يعد لها في أعماقها خيار في أن تبذل أو تمسك. . كلا. . فهي لا تتلفت، ولا تتخيَّر، ولا تُفكر ولا تناقش ولا تجادل. . ها هي ذي قادمـة على الله بثقة وإيمان تقول لفرعون: «إن لي إليكَ حاجة، قال: وما حاجتك؟ قالت: أُحبُّ أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا»!!!.

عَوْنَك اللهم! لقد باعت نفسها وأولادها لله. . انتهى الأمر، وأمضت العَقْد. . لا رجعة فيه ولا خيار. . إنها الجنة التي تنظر إليها فهي قادمة على طريقها. . ها هي ذي سائرة. لم تتخاذل، ولم تتراجع. ولـم تخاف. . ولم ترجوه العفو والصَّفح. . لقد كانت تستيقن أن المـوت كأس يشـربها كـل حي. . فلتشربها في مَجْد وعرس إيماني كبير يشهده ربّ العالمين. . وصَغر عندها الابتلاء والأذى، ومضت في عزيمتها وإيمانها إلى الأمل المنشود. . في صبر متين. . وفي عزم أكيد. .

لقـد شاء الله أن أراح قلبهـا المؤمن على صدر الحقيقـة الثابتـة. .

فازدادت طمأنينة وراحة فأحبَّت لقاءَ الله واشتقات لما أعدّه الله لها من الرحمة والرضوان والأمن والأمان في جوار الرحمٰن. .

ويكفي أن نَتصَفَّح هذه الصورة الوضيئة الرائعة، لنعرف أي نور كان يملأ قلبها. وأي تَصَوُّر كان يملأ كيانها وهي في الأرض! ذلك أن العقيدة أمر عظيم، لا هَوادة فيه ولا ترخُّص، وثمن الاحتفاظ به فادح، ولكنها ترجحه في نفسها المؤمنة. .

والقصة تقدم صورة رائعة للمرأة، ذات المبدأ الراسخ المتين، الذي لا تهزّه عاديات الحياة كلها، حين تقف في صلابة الحق وقد انعقد في نسيج قلبها، وسرى في عروقها مندفعاً لا يوقفه أي شيء. . فهي تقف بعزّة الإيمان غير مُبالية بما أعدّه فرعون. . لا تُبالي قوله وفعله، وإنذاره ووعيده. فإذا شئتَ فامض في تهديدك فإنا ماضون على طريق الله. . وافعل ما أنت فاعل. . ولو أحميت هذا القِدر النحاسي وَوهَّجته بالنار فلن يُخيفنا العذاب الذي تُهدّدنا به. .

«فأمر بأولادها فأُلقوا بين يديها واحداً واحداً، إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مرضع، وكأنَّها تقاعست من أجله، فقال: يا أمتاه فإنك على الحق. يا أمة اقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت».

يا لعظمة الصبر والاحتمال والإيمان والتسليم. . الصبر الطويل الصعب. . ثم هو التسليم والرضى والقبول والقدوم على الله!.

إن النهوض بواجب الدعوة في مواجهة الطواغيت أمر شاق. . ولكنه أمر عظيم. . إنه الإسلام لله الذي تتوارى معه الذات. . إنها درجة عظيمة. . وهي في حاجة إلى الصبر، والتسليم لقدر الله. .

وترسم الكلمات النبوية صورة الإيمان الواثق المطمئن؛ وصورة المرأة

المؤمنة المشرقة الوضيئة، في مواجهة الهول، وفي لقاء العذاب الشديد.. لقد كان العذاب الذي امتُحنت فيه هذه الشهيدة الصابرة من الضخامة ما يُروّع، وكان الكرب الذي واجهته من الشدة ما يُفْزع.. وهي امرأة من البشر. وللبشر طاقة. لا يُكلّف الله ما فوقها. وعلى الرغم من ثقتها بالله، فإن الهول اشتدّ وَقْعه عليها حين انتهى العذاب إلى صبي لها مرضع، وكأنها تقاعست من أجله...

وهنا وقعت المعجزة الإلهية حين ثَقُل الكرب على القلب.. «فقال: يا أمتاه فإنك على الحق. يا أمة اقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة..».. ولنا أن نتصور أية طاقة يطلقها كلام الصبي في روح أمِّه؛ وأي نور يقذفه فيتلألأ في كيانها الرضى بالله والثقة به والمضي في الثبات على الحق.. إنه يضاعف المقدرة في الأم الشهيدة، بما يبعثه من إحساس بالاطمئنان، ويزيدها قوة بالعزم والإصرار..

إنها صورة مُشرّفة للمرأة بعامة، تعلقها على هام الزمن، هذه المرأة الشجاعة، ذات المبدأ والعقيدة، فهي برغم الضغوط العنيفة التي واجهتها وهي تُشاهد فلذات أكبادها يُرمَىٰ الواحد تلو الآخر في النار، وبرغم ذلك لا تنكص ولا تتراجع عن رأيها في أن فرعون ليس رَبّاً، وإنما هو عبد من عبيد الله، وفي سبيل ذلك تقتحم الجحيم انتصاراً للعقيدة والمبدأ هاتفة بلسان حالها: نموت وتحيا العقيدة!.

إنه شرف رفيع مجيد يحق لكل امرأة من بنات حواء أن تفاخر به ما شاءت، وشاء لها الفخر[1]!!.

وثمة ملاحظة جديرة بالإشارة والبيان، ونحن بصدد الحديث عن هذه الشخصية، وهي أن الرسول ـ ﷺ ـ يختار مواقف لهذه الشخصية، تتفق مع

---

(١) القصص النبوي: ص ٢٧٣.

أحوال المسلمين الذين يواجهون مواقف مماثلة.. وهم يتبعون الرسول ـ ﷺ ـ ويستجيبون لدعوة الإسلام، فيشهدون تجارب مماثلة لتجاربهم في عنفها وقسوتها وشدتها، تواجهها هذه الشخصية التي تضرب أروع الأمثلة في الثبات أمام المحن والشدائد التي تواجه المؤمنة أو المؤمن وهو يستمسك بدينه وعقيدته لا يبغي بها بدلاً مهما كلَّفه ذلك من تضحيات جسام، ومن هنا تكون الشخصية ليست بمعزل عن القراء أو السامعين، بل هناك ارتباط قوي بها، نابع من الإحساس بقيمتها، لأنها تمرّ بتجارب ومواقف، يمكن أن تحدث لنا، أو يحدث لنا ما يشبهها، أو يقرب منها[1].

نقف أمام هذه الحقيقة المشرقة الخالدة التي تقدمها القصة. هذه الشهيدة وأولادها هي في حياة عند الله.. لم تمت إلا في صورة ما يظهر للناس ولكنها عند الله ترزق وفي الأحياء.. ﴿**ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أموات. بل أحياء ولكن لا تشعرون**﴾ [البقرة: ١٥٤].. ﴿**ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله..**﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠]..

ها هي ذي عند ربها يتعهدها وقد صعدت إليه. في حياة مستمرة لم تنقطع إلا فيما يرى أهل الأرض المحجوبون.. يزيدها ربها صفاءً وإشراقاً وإكراماً. وهي في ظلال الله ورعايته.. هذه رائحتها الزكية تفوح على أهل السماء كما أخبر النبي ﷺ في مطلع القصة: «مررتُ ليلة أُسري بي برائحة طيبة، فقلت: يا جبريل! ما هذه الرائحة الطيبة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون..».

لقد سجلت القصة انتصاراً رائعاً للحق، ذلك الانتصار الخالد الذي

---

(١) انظر د. شكري عياد، البطل في الأدب والأساطير ص ١٧ وسواها، دار المعرفة، القاهرة، ط. الثانية ١٩٧١ م. وانظر القصص النبوي.

يتمثل في الثبات على المبدأ، وعدم الرضوخ إلى رغبة الباطل وأهوائه، برغم ما يملكه من وسائل الإرهاب والعنف.

إنها تسجل أروع انتصار يحققه الإنسان؛ انتصار على الألم والضعف، ولذّة الحياة وحبّها.. تسجله امرأة بمشهد وصورة وحركة حيّة تنبعث منها الحياة في أعماق النفوس إلى يوم القيامة.

لقد قالت كلمتها لفرعون: «ربي وربك الله» وأعلنت ربوبية الله.. عقيدة في الضمير، ومنهجاً للحياة. فله العبادة، وإليه الاتجاه. ومنه الخشية وعليه الاعتماد.. ولا سلطان إلا لشريعته، ولا اهتداء إلا بهداه.

«ربي وربك الله» ليست كلمة تُقال. تلفظها الشفاه، ولا عقيدة سلبية بعيدة عن واقعيات الحياة.. وبهذا يدل أن الكلمات الاعتقادية في الدين ليست مجرد ألفاظ تقال باللسان ولكنها منهج كامل للحياة..

لقد دفعت هذه المرأة روحها في سبيل إعلان هذه الحقيقة، كما سبق للسحرة الذين سجدوا لله ربّ العالمين. رب موسى وهارون أن قُطِّعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وصُلبوا على جذوع النخل.

إن القصة تصور لوحة الإنسانية بأدقّ مشاعرها.. فهذه أم.. فهي المُعَلّم.. وهي التي تَلِد الرجال وتُربّيهم.. هي التي تُرسخ في قلوبهم معنى الجهاد.. فهي امرأة وإن تعتريها العواطف التي تتأرجح خوفاً على أولادها ولكنها تسجل موقف رائع.. فهي مدرسة للإيمان تُعَلّم أبناءها في البشرية درس العقيدة ومعنى الشهادة وطعم الآخرة الذي يتذوقه الكبار..

وشخصية المرأة في هذه القصة[1]، ذات وظيفة، إنها تبرز على

---

(١) في القصة شخصيتان رئيستان: هما الماشطة، وفرعون، وأشخاص ثانوية تبدو في «ابنة فرعون» و «أولاد الماشطة» ورضيعها. ونجد شخصية المرأة ظاهرة في القصة، ومستمرة في العرض حتى النهاية، ولها الدور البارز في القصة التي نَسجت صلابة العقيدة بصورة معبّرة جداً. =

مساحة القصة مُحقّقة هدفاً معيناً، وهو جانب التضحية والفداء في سبيل الله.
فإلى جانب الوظيفة الفنية للشخصية هناك وظيفة موضوعية لا تقل أهمية ولا أثراً في تحقيق بنائية متكاملة لكيان القصة النبوية شكلاً ومضموناً، ذلك أن الشخصية تُستخدم في القصة كوعاء للمعاني والأفكار التي تسعى القصة إلى تصويرها وتجسيدها أمام السامع أو القارىء، وهذا الاستخدام الإيجابي يُثري ولا شك قضية التعبير عن القيم المعنوية في القصة بما تُمثله هذه القيم من جوانب الإنسان المختلفة، كما أن هذه الشخصية بما تحمله من قيم معنوية تُمثل أيضاً نموذج بشري من خلال ما تمارسه من سلوك[1]..

لقد رسمت القصة ذلك النموذج الرائع في تاريخ العصور، وعلينا أن ندرك أنها كانت امرأة من البشر، لم تتخلَ عن طبيعة البشر، بما فيها من قوة وضعف. كانت امرأة من نساء العالمين تفزع وتخاف، وتضيق بالشدة، وتُزَلْزَل للخطر الذي يتجاوز الطاقة. ولكنها كانت ـ مع هذا ـ مرتبطة بالعروة الوثقى التي تشدّها إلى الله.. ذلك هو الإيمان.. هذا السرّ العجيب.. هذا النور الإلهي الذي يُرقق القلب ويُطهره ويرتفع به إلى آفاق النور العلوية، ويدفع النفس إلى الاستعلاء والشفافية والإشراق.. ومن ثم يبقى هذا المخلوق في واقعيته الإنسانية الكاملة..

بهذا النور. وهذا الضياء. وهذا الإيمان يرتفع الكيان البشري الغليظ

= وشخصية فرعون كانت المحور المحرك لمجرى القصة، والدافع لها في طريق النمو. فهو الذي يبطش، وهو الربُّ المُصطنع، وهو الذي قام بإعدام المرأة وأولادها في صورة عنيفة ووحشية.

أما بقية أشخاص القصة فكانت أدوارهم ثانوية، بحيث تنتهي شخصياتهم بنهاية الدور الذي يقومون به، فهي عناصر مُساعدة في تحقيق نمو القصة، وتعضيد شخصيات القصة الرئيسة، وتحقيق مسارها نحو النمو والاكتمال. (انظر القصص في الحديث النبوي ص ٢٨٩).

(١) القصص في الحديث النبوي ص ٢٩٥.

الثقيل، فيشرق بالنور وهو يتطلع إلى الأفق الوضيء، ويستشرق النور الكبير في ملكوت السماوات، فيغمر الإنسان الفيض الشامل من الإشراق والنور. .

فالإيمان هو الذي وضع هذه المرأة الشهيدة في الذروة السامقة الوضّاءة في لوحة القَدَر، وقد فاحَ عَبيرها واتصل ذكرها في الأرض والسماء. .

ونقف أمام هذا الإيمان نتدبره بقلوبنا ونتملاه في كياننا. .

إنه يحدد التصور الإلهي الواضح للقيم؛ ويرسم الطريق الشعوري للإحساس بالدنيا والآخرة. فهو يحسم في القلب المؤمن كل أرجحة وكل لجلجة بين قيم الدنيا وقيم الآخرة؛ بين الاتجاه إلى الأرض والاتجاه إلى السماء. ويُخلص هذا القلب من كل وشيجة غريبة وزينة أرضية تحول بينه وبين التجرد لله والخلوص له وحده دون سواه.

هذا من جانب، ومن الجانب الآخر تُصوِّر لنا هذه القصة أن الشهيد الذي يدفع أغلى ما يملك هو إنسان من البشر، لم يتجرد من بشريته ومشاعره وسماته الإنسانية. مع تلك العظمة البالغة التي ارتفع إليها؛ ومع كل هذا الخلوص لله والتجرد مما عداه. فالمشاعِر الإنسانية والعواطف البشرية في المرأة الشهيدة لم تمت في تلك النفس المطمئنة. ولكنها ارتفعت. وصفت من الأوشاب. ثم بقيت لها طبيعته البشرية التي تؤهلها للخلود بجوار الرحمن. وقد ارتفعت إلى أقصى درجات الكمال المقدّر للإنسان. .

هذا النموذج الإيماني لا ينقطع في جيل ولا في قبيل. فهو موجود دائماً. . فهو نور من نور الله. . **﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم. والله مُتمّ نوره ولو كره الكافرون﴾** [الصف: ٨]. .

وصَدَق وعد الله. . أتمّ نوره في حياة الرسول ﷺ فأقام الجماعة

الإسلامية صورة حيَّة واقعة من المنهج الإلهي المختار. . وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتمَّ عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً يُحبونه، ويُجاهدون في سبيله، ويرضى أحدهم أن يُلْقَى في النار ولا يعود إلى الكفر. فَتَمَّت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء. وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين. وتنبض وتنتفض قائمة ـ على الرغم ـ من كل ما جُرِّدَ على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد. لأن نور الله لا يمكن أن تُطفئه الأفواه، ولا أن تُطمسه كذلك النار والحديد، في أيدي العبيد! وإن خُيل للطغاة الجبارين، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالِغُوا هذا الهدف البعيد!.

هذا النموذج الرائع للمرأة، والشخصية التي تبرز في هذه الوظيفة الموضوعية تظهر بوضوح في هدف القصة النبوية بشكل كبير، بحيث يلمسها كل من يطالع القصة أو يستمع إليها، فهي تهدف إلى ترسيخ وتعميق الإيمان في القلوب، وكانت رسالته تنبض بالحياة ترسم في القلوب المؤمنة التي تَلْقَىٰ الأذى والعذاب، صورة رائعة لثبات الحق إذا جَلى، وقوة للعزم إذا اكتوى فيما يكابده المؤمن من البطش والتنكيل ويَلْقى.

فالقصة النبوية تُوظف بصورة إيجابية تُحمَّل بالمعاني والأفكار والقيم الإسلامية التي يُراد نشرها بين الناس، وتعميقها في نفوسهم. . وتأكيدها في سلوكهم في واقع الحياة. . وطبعها في تصوراتهم التي تقود أعمالهم وجهادهم على طريق الجنة والخلود. .

والقصة تكشف عن ناحية مهمة، فهي قصة مُلتزمة وهادفة، والالتزام سمة أساسية في المنهج الإسلامي، والقصة النبوية تنقل ذلك المضمون، فهي تُعمق جذور العقيدة في القلوب، وهي صورة من صور الالتزام في المضمون.

والطغيان والجبروت هو الذي يقف دوماً في وجه الحق حين يَسفر

وينبلج، ويطارد المؤمنين في كل مكان وفي كل زمان، وقد رسمت القصة الماشطة ذلك النموذج الإنساني الذي حقق في واقعه انتصار العقيدة، وقد سجلت ذلك الموقف، موقف الشهادة الذي يحقق فيه الإنسان سموه ورفعته، موقف الإيمان الصلب بالعقيدة والثبات عليها والتضحية في سبيل الله[1].

إنه لربح ضخم هائل أن يُعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة.. إنها لأربح تجارة ﴿**يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم. ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم..**﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٢].

إنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة ـ حتى حين يفقد هذه الحياة كلها ـ ثم يُعوَّض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم.. وحقاً.. ﴿**ذلك الفوز العظيم**﴾..

ميزان الإيمان والعقيدة:

إن الطريق الأمثل في فَهْم القرآن وتفسيره، وفي التصور الإسلامي وتكوينه.. أن ينفض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة، وأن يَبني مقرراته كلها حسبما يُصوِّر القرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح. ومن ثم لا يُحاكم القرآن لغير القرآن.. ولا ينفي شيئاً يُثبته القرآن ولا يُؤَوله! ولا يُثبت شيئاً ينفيه القرآن أو يُبطله.

والمنهج القرآني يؤكد دوماً على الكلية الكبرى للعقيدة: ﴿**تبارك**

(١) القصص في الحديث النبوي ص ٤٦٠.

الذي بيده الملك﴾.. فهو المالك لهذا الكون العريض، المهيمن عليه، القابض على ناصيته، المتصرف فيه.. وهي حقيقة. حين تستقر في الضمير تحدد له الوجهة والمصير، وتَخَلِّيه من التوجه أو الاعتماد أو الطلب من غير المالك المهيمن المتصرف في هذا الملك بلا شريك؛ كما تخليه من العبودية والعبادة لغير المالك الواحد، والسيد الفريد!.. **﴿وهو على كل شيء قدير﴾** [الملك: ١].. فلا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء، ولا يحول دون إرادته شيء، ولا يحدّ مشيئته شيء، يفعل ما يريد، وهو قادر على ما يريده غالب على أمره؛ لا تتعلق بإرادته حدود ولا قيود.. وهي حقيقة حين تستقر في الضمير تُطلق تَصَوّره لمشيئة الله وفعله من كل قيد يَرِد عليه من مألوف الحس أو مألوف العقل أو مألوف الخيال! فقدرة الله وراء كل ما يخطر للبشر على أي حال.. والقيود التي ترد على تصور البشر بحكم تكوينها المحدود تجعلهم أَسْرَىٰ لما يألفون في تقدير ما يتوقعون من تغيير وتبديل فيما وراء اللحظة الحاضرة والواقع المحدود. فهذه الحقيقة تُطلق حِسّهم من هذا الإسار. فيتوقعون من قدرة الله كل شيء بلا حدود. ويَكِلون لقدرة الله كل شيء بلا قيود. وينطلقون من أَسْر اللحظة الحاضرة والواقع المحدود..

إن الإيمان بهذه الحقيقة. وهي من خصائص الألوهية الفاعلة المؤثرة، المحيطة بكل شيء، المهيمنة على كل شيء.. هو قاعدة العقيدة في القلوب، فيهزّها هزاً، ويأخذها أَخْذاً، وهو يجول بها في مسيرة الحق في مواجهة الظلم والطغيان فلا تجد إلا الله، ولا ترى إلا الله، ولا تحس بغير الله، ولا مرجع إلا إليه، ولا مُتوجه إلا لوجهه الكريم. فمشيئته المطلقة تمضي بغير حد ولا قيد. وتعلق بما تشاء أن تتعلق به كما تشاء. وكل قيد يتصوره العقل البشري بمنطقه هو لهذه المشيئة من أي نوع ومن أي لون هو تصور باطل، ناشيء من طبيعة العقل البشري المحدود..

والقرآن يولي هذه الحقيقة عناية كبيرة، فينص عليها في كل مناسبة بما

يفيد طلاقة المشيئة من كل قيد يرد عليها حتى من عملها هي. لتبقى هذه الحقيقة واضحة، ويبقى تصورها غير مشوب. فقد وَعَد الله المؤمنين بالنصر والتأييد والتمكين.. **﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا..﴾** [غافر: ٥١].. **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾** [محمد: ٧].. **﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾** [آل عمران: ١٦٠].

هذا الوعد صادر من المشيئة. وهي طليقة في إرادتها.. ولا مجال لمنطق العقل البشري ولا لمقرراته في هذا المجال. وعليه أن يأخذ مقرراته كلها من هذا القرآن، لا من مَعين آخر غير القرآن..

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم «النبوة والأنبياء».. عن هذه الحقيقة المضيئة في التاريخ كله.. مشيراً إلى المنهج القرآني وقوته وفضله ونتائجه الباهرة للعقول..

«يولد موسى في مصر في بيئة قاتمة خانقة قد انطبقت على بني إسرائيل كل الانطباق، وسدّت في وجوههم المنافذ والأبواب: حاضر شقي، ومستقبل مظلم؛ قلة عدد، وفقر وسائل، وذِلّه نفوس؛ عدو قاهر، وسخرة ظالمة؛ لا قوة تدافع، ولا دولة تحمي؛ أمة مصيرها معلوم محتوم، قد خُلقت للشقاء والفناء.

ويولد موسى، وولادته وحياته كلها تحدٍّ لفلسفة الأسباب ومنطق الأشياء: أراد فرعون أن لا يولد، فَوُلِد، وأراد أن لا يعيش فعاش؛ يعيش في صندوق خشبي مسدود، في ماء النيل الفائض، وينشأ في حضانة العدو، ورعاية القاتل..».

في هذا الجو المُلَبّد المكفهر، بدأ موسى ـ عليه السلام ـ كفاحه!.

بدأه ثائراً على الطغيان، غاضباً لقومه المعذّبين، ودفعته ثورته

وغضبه، على ما آتاه الله من علم وحكمة، إلى نجدة رجل من قومه، استغاثه في معركة، فأغاثه وقَتَل عدوه.

وندم موسى على ذلك واستغفر ربه، فغفر له، وأصبح خائفاً يترقب، ثم جاءه خبر المؤامرة عليه: ﴿**فخرج منها خائفاً يترقب، قال: ربِّ نجني من القوم الظالمين**﴾ [القصص: ٢١]..

واستجاب الله دعاءه ونجّاه، فتوجه تلقاء مدين، ومنها سار مع أهله تجاه الجانب الأيمن من الطور ثم اتجه إلى البقعة المباركة حيث نودي: ﴿**يا موسى إني أنا الله رب العالمين**﴾ [القصص: ٣٠].. وأُلْقِيَت عليه أمانة السماء وأَمَره ربُّه بالتوجه إلى فرعون..

صَدَع موسى بما أُمر، وسار إلى المعركة وهو على بيِّنة من طريقه وما يعترضه فيه.. كان يعلم أنه مقبل على قوم ظالمين فهو يخاف أن يُكذِّبوه، وأنه بينه وبينهم ثأر الفرعوني الذي قتله فهو يخشى أن يقتلوه، وأن صدره يضيق ولسانه يثقل وقد يمنعهم ذلك أن يفهموه؛ فكان جواب ربِّه على هذه الثالثة أن أَرْسَلَ معه أخاه هارون، فهو أفصح منه لساناً وأقوى حجة، وكان جوابه على الأول والثانية: كلا، ثم خاطب الاثنين معاً: ﴿**فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون**﴾ [الشعراء: ١٥]؛ وكانت طليعة المعركة هذه الوحدة التامة بين موسى وهارون والتي يقررها القرآن بهذا الأسلوب الرائع: ﴿**إنّا رسول رب العالمين**﴾ [الشعراء: ١٦]..

ودخل موسى على فرعون، فدعاه إلى الله، وطالبه أن يرفع يده عن قومه بني إسرائيل.. ولكن فرعون أبى واستكبر ورفض دعوة الحق، وجمع سحرته وتحدى موسى بما أتوه من سحر عظيم، فاستقبل موسى ذلك بإيمان راسخ بالحق الذي جاء به، وما أسرع ما قال في قوة ـ بعد أن أوجسَ في نفسه خيفة بادي الرأي ـ: ﴿**ما جئتم به السحر، إن الله سيبطله، إن الله**

لا يصلح عمل المفسدين. ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ [يونس: ٨١، ٨٢]. .

قال ذلك ثم ألقى عصاه **﴿فإذا هي تلقف ما يأفكون. فوقع الحق وبَطَل ما كانوا يعملون. فَغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين. وأُلقي السحرة ساجدين. قالوا: آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون﴾** [الأعراف: ١١٧ - ١٢٢]. .

فاستشاط فرعون غضباً، وأخذته العزة بالإثم، وعمد إلى القتل والتنكيل، فما كان من موسى إلا أن قال لقومه: **﴿استعينوا بالله واصبروا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾** [الأعراف: ١٢٨]. ولكن قومه تململوا تحت هذا العذاب الأليم، والبلاء الذي لا يرون له نهاية **﴿قالوا: أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾** [الأعراف: ١٢٩]، فلم يجبهم موسى بأكثر من قوله: **﴿عسى ربكم أن يُهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾** [الأعراف: ١٢٩]. .

وجدير بقارىء القرآن أن يتأمل هذا الجواب من موسى لقومه[1]، فإن فيه حقيقتين كبيرتين تميزان كفاح أهل الحق وتحددان طبيعة هذا الكفاح، فإن في قوله: **﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾** [الأعراف: ١٢٩] تجرداً واضحاً لله، تجرداً حتى من التشبث بالنصر العاجل في معركة قامت من أجله: **﴿وما النصر إلا من عند الله﴾** [آل عمران: ١٢٦، الأنفال: ١٠]. . وذلك لا يعني مثقال ذرة من الشك في أن العاقبة للحق مهما بغى أعداؤه، فموسى الذي قال: **﴿عسى﴾**، هو الذي قال الله له يوم أرسله وأخاه إلى فرعون: **﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾** [القصص: ٣٥]. وإنما هو التفويض المطلق لله، بعد أن بذل في سبيله ما يستطيع، وجهر بالحق كما أراد.

---

(١) انظر «المسلمون» المجلد السابع ص ٧٣٤.

إن هذه الحقيقة الصريحة في كلام موسى ـ عليه السلام ـ هي التي تُجنِّب المكافحين في سبيل الله دائماً خطل الرأي الذي يُزينه استعجال النصر، وعوامل التململ ومرارة اليأس حين يبطىء النصر عنهم، وهي التي تجعلهم في الحالين أنقياء أعزاء لا يُطغيهم نصر ولا تذلهم هزيمة.

والحقيقة الثانية من كلام موسى ـ عليه السلام ـ، هي في قوله: **﴿ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾**. ووصف النصر بأنه «استخلاف» تأكيد ثانٍ للحقيقة الأولى، فإن المستَخلِف هو الله، والمنتصر هو الذي يستخلفه سبحانه، وذلك يعني، مرة أخرى، أن زمام النصر بيد الله وحده، لأنه هو الذي يستخلف من ينصره؛ ولكن القرآن لم يترك هذا الاستخلاف مطلقاً، بل ربطه بالعمل في الآية ذاتها، وأعلن أنه رقيب على ذلك ناظر إليه: **﴿فينظر كيف تعملون﴾**.

فحقيقة النصر هي دائماً بمقدار العمل الذي يعمله المُنْتَصِر بعد النصر، ويترتب على ذلك أن طريقه إلى النصر يعتمد على أمرين: على عمله الذي يُرشحه له، وعلى ما يعلم الله من نيته وعزمه وقدرته حين يأذن له به، ويترتب على ذلك أيضاً: أن كل غَلبة لا ترتبط بالعمل الذي يرضاه الله ليست في ميزان السماء نصراً يبالي به المؤمنون، بل قد يَعقد الناس لأصحاب هذا النوع من الغلبة ألوية النصر وهم عند الله ملعونون. وقد يتركهم الله يمدون مظاهر غلبتهم ويعتدون ويبطشون، ويكون ذلك منه استدراجاً لهم إلى عاقبة أنكى وهزيمة أعم، ويكون وراءه إعداد لجنده أوفى وتهيئة لنصر مُرجأ، وفي ذلك يقول الله عز وجل: **﴿فلما نسوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فَرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون، فَقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾** [الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥].

وهذا الذي كان مع فرعون، فإنه استطاع رغم الحق الذي مع موسى،

ورغم الحجة الواضحة التي تجلَّت في إيمان السحرة على أعين الناس جميعاً، أن يُشيع جواً من الإرهاب في مصر، بما ارتكب من المظالم، وبما سفك من الدماء، وسكت المصريون جميعاً فلم يعد أحد منهم ينطق بحق، وخرج أرباب المصالح من جُحورِهم يتلمسون الزُلفى عند فرعون، ويُزينون له ما هو فيه.

وبلغ من طغيان فرعون واضطهاده للناس، وخوف الناس منه، أن أَمَر موسى أتباعه بالتربّص والتخفي، وبأن يلزموا بيوتهم ويؤدوا صلواتهم فيها.. وظل الأمر كذلك، حتى جَأَرَ موسى إلى الله بالدعاء: **﴿ربنا إنك آتيتَ فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك. ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال: قد أُجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون﴾** [يونس: ٨٨، ٨٩]..

ولكن هذه الدعوة المُجابة لم يظهر أثرها إلا بعد مدة.. ونحن في غنى عن تحديد المدة ما دام القرآن قد سكتَ عنه، وحسبنا أن نفهم أن تَأَخُّر الفرج لا يعني عدم الإجابة، وأن الإجابة لا تعني أن يصرف أمور الناس وفق ما يريدون، ولو كانوا أحبَّ خلقه إليه، ولكن وفق ما يُريده هو لهم، وفي المواقيت التي تقتضيها سُنَنه، فإنه أرحم بهم وأعرف بما يُصلحهم!.

وكان مطلع الإجابة أن أَذِنَ الله لموسى وقومه بالرحيل، فخرجوا من مصر جميعاً، فأهاج ذلك فرعون وأثار حنقه، وكَبُر عليه أن لا يستسلم هؤلاء لِظُلمه وطغيانه، وأن يعمدوا إلى الهجرة نجاة بأنفسهم من الهول الذي يعيش فيه المصريون، أو لعله خشي أن يكون من وراء خروجهم كرَّة عليه يعدّون عدتها، أو يكون من ذلك إثارة لحفيظة المصريين على ظلمه، والطاغية يعيش دائماً في وَساوس مما اقترفت يداه تجعله يخاف من ظلّه؛ فاستنفر جيشه بكل عَدَده وعُدَده، وخرج في جمع هائل يتقدمه هو وجلّادوه

وحاشيته، وأدركوا موسى وقومه عند ساحل البحر ساعة الشروق، والتفت أصحاب موسى فرأوا هذا الهول يتبعهم، ثم التفتوا فلم يروا إلا البحر بأمواجه المرتطمة أمامهم، فظنوا أنه الهلاك لا ريب، إلا موسى الذي أشرق يقينه إشراقة الحق فلم يَرَ غير وجه الله في كل ما حوله.

وقَصَّ القرآن قصة هذه الساعة الرائعة من تاريخ البشرية.. وحدثت المعجزة بعد أن انقطعت أسباب البشر، واقتحم موسى وأصحابه البحر، ثم جاء فرعون وقومه على أثرهم بعد أن استكبروا أن يرجعوا من الساحل، ولم يكفهم جلال وَجْه المعجزة فدفعهم العمَى إلى غمرتها الفاتكة: ﴿**وأزلفنا ثَمّ الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين. إن في ذلك لآية. وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم**﴾ [الشعراء: ٦٤ ـ ٦٨]..

ويشاء الله أن يجمع هذا المشهد الأخير في قصة فرعون، إلى العبرة الخالدة في تنكيل الله بكل طاغية، العبرة الأخرى: وهي أن الطغاة لا يردّهم إلى الحق إلا بأس شديد، ولا يَرتدّون عادة إلا حين يفلت الأمر من أيديهم..

هذه قصة المعركة بين موسى وفرعون.. فليس مع موسى إلا ذرية خائفة من بطش فرعون وحاشيته، وَعَدُوّه فرعون عالٍ في الأرض لا يتطاول عليه أحد، مُسرف في طغيانه لا يقف عند حدّ: ﴿**فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم، وإن فرعون لعال في الأرض، وإنه لمن المسرفين**﴾ [يونس: ٨٣]..

فالقرآن يقرر أنها معركة غير متكافئة القوى في موازين المادة ومظاهر الأشياء.. وقد بدأت المعركة في ظل هذا الطغيان المتعالي المستقر، واستعمل لها فرعون أسلحة من كل نوع بسلطان البطش الرهيب على الشعب المستضعف.. ودعا فرعون أعوانه وجنوده ليعلن فيهم أن موسى

وقـومه عصـابة ضئيلة تُـزعج الأمن وتُثيـر الإرهاب وتُهـدّد حياة النـاس. . واستعمل كل ما دفعه إليه طغيانه من أساليب المكر والقهر والتنكيل!.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي عن القصة أنها كلهـا تحدٍّ لفلسفـة الأسباب، ومنطق الأشياء. . فبعد أن قَتَل موسى رجلاً من عَدُوّه وخرج من مصر خائفاً: «ويَجِدُّ به الطَلَب القوي الساهر فيفلت وينجو ويأوي إلى ظلّ شجرة كئيباً غريباً فيجد الضيافة الكريمة والزواج الحبيب، ويرجع بأهله فيلفّه الليل المظلم والطريق الموحش، وتتمخض زوجه فيطلب لها ناراً تصطلي، فيجد نوراً يُسعد به بنو إسرائيل ويهتدي به العالم، يطلب النجدة والمـدد لامرأة واحدة فيجد النجدة والمدد للإنسانية كلها، ويُكْرَم بالنبوة والرسالة. .

ويدخل على فـرعون في أُبَّهتـه وسلطانه، وفي ملئـه وأعوانـه، وهو المطلوب بالأمس قد تحققت عليه الجناية، وتوجهت إليه الـدعوى، وفي لسانه حُبسة وفي موقفه ضعف، فيقهر فرعون وملأه بدعوته وإيمانه، وحجته وبيانه. .

ويلجأ فرعون إلى سحرة مصر ليقهر بِفَنّهم معجزة موسى التي ظَنَّها فَنّاً وسحراً، فإذا السحرة خاضعون خاشعون، يقولون: **﴿آمنا بـربّ العالمين ربّ موسى وهارون﴾** [الشعراء: ٤٧ ـ ٤٨]. .

ويُؤمر بالخروج ببني إسرائيل والإسراء في الليل من أرض الظلم إلى أرض النجاة، ويتبعه فرعون بجنوده، ويصبح موسى والبحر أمامه والعدو من ورائه، ويخوض البحر فينفلق كل فِرق كالطّود العظيم، ويَعبُر موسى وقومه، ويتبعهم فرعون بجنوده فيلتهمهم البحر الهائج.

وهكذا يَهلك فرعون وقومـه الأغنياء الأقـوياء، ويملك بنـو إسرائيـل الضعفاء الفقراء، **﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشـارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما**

صبروا. ودمَّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ [الأعراف: ١٣٧]..

ما هي القوة التي قَهَر بها موسى أعظم قوة في عصره ومصره؟ وما سرّ انتصار بني إسرائيل على أعدائهم؟ وما كان سلاحهم الذي واجهوا به العدو القاهر الكاسر وأخضعوا به المحيط الحانق الثائر؟.

لقد كان السلاح الذي واجّه به موسى فرعون وقومه وانتصر به بنو إسرائيل وتبوّأوا الإمامة والزعامة في مصر وحولها هو «الإيمان» و «الطاعة» و «الدعوة إلى الله»، ويتجلى هذا الإيمان وهذه الطاعة والدعوة في تضاعيف القصة ومطاويها، وقد تجلّى هذا الإيمان النبوي في دعوة فرعون وقومه، وبه تغلَّب موسى على حِجاج فرعون ودَهائِه، هو يريد أن يُشغله عن موضوعه ويثير عليه الملأ، وهو ثابت على دعوته، ثابت في إيمانه لا يتزعزع ولا يتزلزل، ولا يتحول ولا يتغير، **﴿قال فرعون: وما ربُّ العالمين، قال: ربّ السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، قال لمن حوله: ألا تستمعون، قال: ربكم وربّ آبائكم الأولين، قال: إن رسولكم لمجنون، قال: ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾** [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨]..

ويسأله فرعون عن الأجيال التي مضت، وهو موضوع شائك وسؤال مُحرج، ولكن موسى يتغلب على دقة الموقف بإيمانه الراسخ وحكمته النبوية، فيقول: **﴿عِلْمُها عند ربي في كتاب لا يضلّ ربي ولا ينسى﴾** [طه: ٥٢]..

ويفيض في الحديث عن الإله الواحد ـ الذي يفرّ منه فرعون ـ فيقول: **﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سُبلاً وأنزلَ من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾** [طه: ٥٣]..

وتجلّى هذا الإيمان في أبرز مظاهره لما رأى موسى أمامه البحر ومن

ورائه العدو الهائج، فلا مُتَقَدَّم ولا مُتأخَّر، وهو وقومه بين طبقتي الرحى، ويناديه بنو إسرائيل في جزع وفي فزع: ﴿إنا لَمُدْرَكون﴾ [الشعراء: ٦١]. . ولكنه ثابت الجأش، قوي الإيمان، يعرف أن الله ناصر عَبْده ومُنجز وَعْده، يقول في صرامة وثقة: ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾ [الشعراء: ٦٢]. .

ويعيش بنو إسرائيل في مصر حياة ذُلٍّ وشقاء، وبؤس وفقر، يعانون أفظع أنواع الظلم والاضطهاد؛ وأقسى أساليب الحكم والاستبداد، ولا يُؤمرون ـ وهم في أشد الحاجة ـ باللجوء إلى الأسباب المادية بل يُؤمرون بالإنابة إلى الله وتقوية الإيمان وتحسين الصلة بالله ليستحقوا نصره، ويُوجِدوا في أنفسهم صلاحية الوراثة والخلافة في الأرض ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوَّءا بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قِبلة وأقيموا الصلاة وبَشِّر المؤمنين﴾ [يونس: ٨٧]. .

ولا طاعة أعظم من طاعة موسى وانقياده واستسلامه للأمر الإلهي، يُؤمر بالتوجه إلى أعظم ملوك عصره ـ وهو الثائر الموتور، وهو شديد البطش عظيم السلطان ـ فيقال وقد جاء يبحث عن قَبَس من النار ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ [طه: ٢٤]. .

ويتوجّه إلى بلاط جبَّار يدَّعي الربوبية فيدعوه إلى الله الواحد القهار، ويستمر في دعوته وجهاده، وفي وَعْظه وإرشاده، حتى يفتح الله بينه وبين قومه بالحق وهو خير الفاتحين.

لقد كان الإيمان والطاعة والدعوة إلى الله، القوة التي واجَه بها موسى «مشاكل عصره» وقَهَر بها أعظم امبراطورية على وجه الأرض، أرقاها مدنية وأوسعها مملكة، وأغناها أسباباً، وأعظمها جبروتاً.

لو كان موسى ـ كزعيم لبني إسرائيل ـ يُفَكِّر تفكير الزعماء السياسيين ويستعرض «الإمكانيات» والوسائل التي يملكها قومه، ويَزِن كل شيء في

ميزان الواقع والحكمة العملية، ولو نَظَرَ ـ وهو الذي نَشأ في البلاط الملكي ـ إلى العَدَد والعُدّة والمنعة والجنود والبنود والثروة والذخائر التي كان يملكها فرعون، وقارَن بين قومه وقوم فرعون، لما جاز له ـ في شريعة العقل ـ أن يواجه فرعون بما يسوؤه، ولتَحَتَّم عليه أن يقنع بنصيبه ونصيب قومه، ويرضى بالوضع السائد، فلا إيمان، ولا صلاح، ولا عدل، ولا أخلاق، ولا تقوى، ولا إنسانية.

قصة موسى في تَحدِّيها الصارخ للعقل المادي الذي ينظر إلى الأسباب والحوادث كقوانين أبدية جامدة طبيعته لا سلطان عليها لأحد، وقوى قاهرة تحكم ولا يُحكم عليها، جاءت محنةً وبلاءً للذين ضاق تفكيرهم وكلَّت أبصارهم عن أن تنظر إلى ما وراء الأسباب وإلى مَن هو فوق الأسباب . .

ولكنه نبيٌّ يرشده الوحي، ولكنه مؤمن، يؤمن بقوة الله ويؤمن بنصر الله، ولكنه داعية يفكر تفكير الدعاة، وإنَّ هذا **المنهج من التفكير والعمل هو الذي غيَّر مجرى التاريخ**، وأتى بالمعجزات وأدهش العقول، وحيَّر الألباب . .

وهكذا كان النبي الأعظم محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ وصحابته الكرام الذين غُذُّوا بمعاني القرآن . . ولو كان الرسول ـ ﷺ ـ يفكر تفكير الزعماء ويستعرض «الإمكانيات» والوسائل التي كانت تملكها قريش، ولو أنه نَظَر إلى الامبراطوريتين العظيمتين اللَّتين توزعتا العالم المتمدن المعمور، الإمبراطورية الرومية والإمبراطورية الفارسية، وما تتمتعان به من حَول وطَول، وقد عرف قوتهما وسعة مملكتهما ـ وهو الفقيه الواعي ـ لما جاز له ـ في شريعة العقل ـ أن يتوجَّه بدعوته إلى الإنسانية جميعاً، ويكتب إلى سَيِّدي العالم المعاصر ورئيسي الإمبراطوريتين الغربية والشرقية، يدعوهما إلى الإسلام، ولبقي الوضع الذي كان يسود من قرون، فمتى تملك هذه

الحفنة البشرية التي آمنت به القوة التي تُضارع قوة الإمبراطوريتين بل تفوقهما حتى تهزمهما وتدحرهما؟ وإلى متى كان يجب عليه أن ينتظر؟ وماذا كان مصير العالم ومصير الإنسانية لو اتَّجهَ هذا الاتجاه وفكَّر هذا التفكير؟ لقد شقيت الإنسانية إذن شقاءً طويلًا، وتأخر أو تَوقَّف طلوع الصبح الصادق، ولكان للإنسانية تاريخ غير هذا التاريخ!.

ولكنه - ﷺ - نبيٌّ يؤمر فيعمل، ويتلقى التوجيه والإرشاد من السماء فينفِّذ؛ ولكنه مؤمن، يؤمن بقوة الله ويؤمن بنصره، ويؤمن بأن الضعيف مع نصره قوي، والقوي بخذلانه ضعيف، ويؤمن بقوله تعالى: **﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم. وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** [آل عمران: ١٦٠]، ويؤمن بقوله: **﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾** [البقرة: ٢٤٩]، ويؤمن بمواعيد الله على النصر والإيمان والعمل الصالح والتوحيد والجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته..

«إنني لست ممن يدعو إلى رفض الأسباب والتوكل السلبي، ولستُ ممن يعيش في عالم الخيال والأحلام، ولست ممن ينكر الحاجة إلى الاستعداد وممن يقرأ قوله تعالى: **﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة﴾** [الأنفال: ٦٠]..

فالاستعداد بما في الطوق فريضة تُصاحب فريضة الجهاد؛ والنص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها.

فهي حدود الطاقة إلى أقصاها.. بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها. والمسلمون مُكَلَّفون أن يكونوا أقوياء، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين في الأرض؛ ولتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله.

ولكني أُعارض هذا التفكير الذي تسلَّط على عقلية العالم الإسلامي

في العهد الأخير، وهو النظر إلى الأمم الإسلامية ـ في مختلف أنحاء العالم ـ كَكُتلٍ بشرية شأنها شأن القطعان البشرية الأخرى، التي لا رسالة لها في العالم، ولا دعوة لها للأمم، تُوزَن في ميزان «الإمكانيات» والوسائل والاستعداد المادي، وتقوَّم بما تملكه من ثروة وذخائر، والتناسي أو الإعراض عن قوتها الكبرى «الإيمان والطاعة والدعوة إلى الله»[1].

لقد نشأنا في زمن وقد ترامت العصور بيننا وبين آبائنا المجاهدين فَبَعُدَ مَنْطق الجهاد عن واقع حياتنا وأصبحنا نربط الحوادث ربطاً مادياً لا يمت إلى النهج القرآني بصلة..

لقد كان الصحابة الكرام الذين رَبَّاهم الإسلام في مدرسة القرآن قد امتلأت قلوبهم يقيناً بِوَعْد الله وقَدَر الله.. وغداة غزوة أحد دعاهم الله إلى الخروج كَرّة أخرى للجهاد في سبيله. غداة المعركة المريرة وهم مُثخَنون بالجراح. وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس في المعركة. وهم لم ينسوا بعد هول الدعكة، ومرارة الهزيمة، وشدة الكرب. وقد فقدوا من أعزائهم من فَقَدوا، فَقَلَّ عددهم، فوق ما هم مُثْخَنون بالجراح!.

ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ دعاهم. ودعاهم وَحدهم. ولم يأذن لأحد تخلَّف عن الغزوة أن يخرج معهم ـ ليقويهم ويُكثر عددهم كما يمكن أن يُقال! ـ فاستجابوا.. استجابوا لدعوة الرسول ـ ﷺ ـ وهي دعوة الله: **﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً. وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل﴾** [آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٣].

---

(١) النبوة والأنبياء ص ٩٣ وما يليه. وانظر المسلمون «ثورة في التفكير» المجلد السادس ص ٨٣٢ وما يليه.

استجابوا لله والرسول ﴿من بعد ما أصابهم القرح﴾، ونزل بهم الضرّ، وأثختنهم الجراح . .

لقد شاء رسول الله ـ ﷺ ـ أن يُشعر الدنيا كلها بحقيقة الإيمان . . حقيقة أن هناك عقيدة هي كل شيء في نفوس أصحابها. ليس لهم من أَرَب في الدنيا غيرها، وليس لهم من غاية في حياتهم سواها. عقيدة يعيشون لها وحدها، فلا يبقى لهم في أنفسهم شيء بعدها، ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية في أنفسهم لا يبذلونها لها، ولا يُقدّمونها فداها . .

تلك النفوس الكبيرة. النفوس التي لا تعرف إلا الله وكيلاً، وترضى به وحده وتكتفي، وتزداد إيماناً به في ساعة الشدة . . إنه العزم والمضي في الجهاد. مع التوكل والاستسلام لقَدَر الله، ولا مجال للتردّد والتأرجح . . فهم ينظرون إلى ما وراء الأسباب. وإلى من هو فوق الأسباب . . وإلا فهو الشلل والسلبية والتأرجح الذي لا ينتهي . .

فَهُم في عَزم ومضاء. وتَوكُّل على الله . . وهذه الخلّة التي ينبغي أن يحرص عليها المؤمنون. بل هي التي تُميز المؤمنين ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ [آل عمران: ١٥٩] . .

بهذا يسجل الله لهم في كتابه الخالد، وفي كلامه الذي تتجاوب به جوانب الكون كله، صورتهم هذه، وموقفهم هذا، وهي صورة رفيعة، وهو موقف كريم: ﴿الذين قال لهم الناس: إن الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ . .

إنهم لم يقولوا: نحن قلة ضعيفة في كثرة باغية؛ فلنصبر على الذل، ولنرضَى بالهوان، ولنُحامل الشرّ، ولنتّق الطغيان . . حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً . . فالمؤمن يوقن ﴿إن الله لا يُغير ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١]. وأن أَمْر الله إنما يتم بعباده الذين يُنفذون أمره، وأن السماء

لا تُمطر على الناس عزّاً ولا نصراً؛ إنما هم يَصلون قلوبهم بجبَّار السماء فتهون عليهم قوى الأرض، وتهون معها حياة الأرض. وعندئذ ينقلبون بنعمة من الله وفضل لم يَمسسهم سوء. وعندئذ يُمكِّن الله لهم في الأرض، لأنهم صَدَعوا بكلمة الله، ولم يخشوا غير الله.

إنها دبلوماسية الأقزام التي يُزاولها الناس في هذه الأيام، في ميدان الصراع مع الشرّ والعدوان وأعداء الدين، الصراع ضد الطغيان وضدّ الشر كله وهو ألوان.

إنهم يسترون الضعف دائماً بستار «العقل» ويسترون الهزيمة بستار «المناورة» ويسترون حبّ السلامة دائماً بستار «المصلحة العامة»!.

إنها لكبيرة كبيرة. فالإسلام الذي يقول ربه لرسوله: **﴿فاصدع بما تؤمر﴾** [الحجر: ٩٤]، ويُيئسه من رضى مُخالفيه مهما جامَلَ وحاسَن، لأنهم لن يرضوا عنه إلا إذا تَرك دينه جملة وعقيدته: **﴿ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملّتهم﴾** [البقرة: ١٢٠].

إن أعداء الدين يعرفون قوة الله حين يستند إليها المؤمنون. فقد ذكرت كتب السيرة عن غزوة بدر: أن خفاف بن إيماء بن رحضة الغفاري ـ أو أبوه أيماء بن رحضة الغفاري ـ بعث إلى قريش، حين مروا به، ابناً لهم بجزائر أهداها لهم؛ وقال لهم: إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فَعَلْنا. قال: فأرسلوا إليه مع ابنه: أن وصلتك رحم! قد قضيتَ الذي عليك. فلعمري لئن كنا إنما نُقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم. ولئن كنا إنما نقاتل الله ـ كما يزعم محمد ـ فما لأحد بالله من طاقة.

هذا هو تصور أعداء الدين للحقيقة الإلهية.. فهم يبذلون كل غال ورخيص لنزع عقيدة الجهاد، وطمس الإيمان، وتغييب التوكل على الله من قلوب المسلمين..

إن الذين نُداورهم أمهر منا في المداورة، والذين نحسب أنفسنا

نخدعهم، أكثر منا يقظة وأشد خداعاً. فلم يبق إلا ذلك الطريق الواضح الصريح النظيف: أن نقول كلمة الحق الذي نُريد، وأن ندعها تقرع الأسماع، وأن نؤمن بالله الذي يقول: ﴿**ولينصرن الله من ينصره**﴾ [الحج: ٤٠].

إن الإسلام لا يعيش في الظلام، فهو نور يعيش في النور. وإن الإسلام لا يُخادع ولا يُداور، فهو كلمة الحق التي تكره المداورة والخداع. وإن الإسلام حقيقة واقعة تعيش في الأرض، لا سرّ ولا مؤامرة تتوارى عن الأنظار.

والتوكل على الله، وردّ الأمر إليه في النهاية؛ هو خط التوازن الأخير في التصور الإسلامي وفي الحياة الإسلامية. وهو التعامل مع الحقيقة الكبيرة: حقيقة أن مردّ الأمر كله لله، وأن الله فعّال لما يريد.. لا قوة إلا قوة الله، ولا قدرة إلا قدرته، ولا مشيئة إلا مشيئته. وعنها تصدر الأشياء والأحداث.. ولكن هذه الحقيقة الكبيرة لا تعفي المسلمين من إتباع المنهج، وطاعة التوجيه، والنهوض بالتكاليف، وبذل الجهد، وإعداد العدة، والتوكل بعد هذا كله على الله.

فالتوكل على الله هو بيّنة الإيمان ودلالته. وعنصر القوة المتين الذي يُضاف إلى رصيد القلة المُستضعفة أمام الطاغوت المستعلي، والجبروت المتكبر العالي فإذا هي أقوى وأشد وأثبت.. هذا ما يُعلمه القرآن للأمة المسلمة من قصة موسى وقومه الذين واجهوا بإيمانهم ذلك الطوفان الضخم من الظلم والتنكيل والطغيان المسرف الذي لا يقف عند حد.. ﴿**وقال موسى: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين. فقالوا على الله توكلنا، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين**﴾ [يونس: ٨٤ ـ ٨٦]..

لقد عملت الآيات القرآنية عملها في تربية الجماعة المسلمة، حتى

أتت بالعجب العجاب، وحتى أنشأت جيلاً من الناس يتمثل فيهم الإيمان والطاعة والدعوة إلى الله. تتصل قلوبهم مباشرة بالقوة الفاعلة في هذا الوجود. يتوكلون على الله وحده في إحداث النتائج، وتحقيق المصائر، وتدبير الأمر بحكمته، وتقبُّل ما يجيء به قَدَر الله في اطمئنان أيًّا كان..

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يُعلمها للجماعة المسلمة، وهي تواجه الكفر والطغيان والفساد في كل زمان ومكان..

وبعد، فقد أورد البخاري عن ابن عباس، أن رسول الله - ﷺ - حين قَدِمَ المدينة المنورة وَجَد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم: ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ فقالوا: هذا يوم ظَهَر فيه موسى على فرعون! فقال الرسول لأصحابه: «أنتم أحقُّ بموسى منهم فصوموه!».

نعم لقد كان ظهور موسى - عليه السلام - وتدمير الطغيان الفرعوني ميراثاً أسمى للمسلمين ومَعْلماً وضّاءً للإسلام. كان يوماً مشهوداً في تاريخ البشرية. كان فرقاناً بين الحق والباطل.. وإنه لفرقان ندرك اليوم ضرورته؛ حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع في نفوس من يُسمون أنفسهم مسلمين!.

فمن بديهيات الإيمان الأولى أن يوقن القلب الإنساني أن الله سبحانه مالك الملك وهو على كل شيء قدير..

وفي هذا اليوم مَثَل من قُدرته تعالى على كل شيء.. مَثَل لا يُجادل فيه مجادل، ولا يماري فيه ممار.. مَثَل من الواقع المشهود، الذي لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة الله. وأن الله على كلِّ شيء قدير.

فإذا كان أصحاب رسول الله - ﷺ - أحقّ بموسى وبالاحتفال بيوم انتصاره على فرعون، فإن حَمَلة رسالة الإسلام والمجاهدين في سبيله في كل عصر جديرون أن يتأمّلوا هذه القصة الخالدة التي ذُكرت فيما يزيد عن

ثلاثين موضعاً في كتاب الله، وأن يُردِّدوا كلما غَشيتهم موجة من ظلم ظالم أو طغيان طاغية، قول الله سبحانه: **﴿إن فرعونَ عَلا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يُذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾** [القصص: ٤]..

وأن يطالعهم الأمل المشرق دائماً من خلال قوله تعالى: **﴿ونُريد أن نمنّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكِّن لهم في الأرض، ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾**..

والعصبة المسلمة في كل مكان وفي كل زمان مَدْعُوة أن تزن بميزان الإيمان والعقيدة؛ وأن تدرك ببصيرة المؤمن وقلبه، وأن ترى بنور الله وهداه، وألا تتعاظمها قوى الطاغوت الظاهرة، وألا تَستهين بقوتها وَوَزْنها فإنها مع الله. **﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾** [الأنفال: ٤٩]..

هذا ما تُدركه القلوب المؤمنة وتطمئن إليه؛ وما هو محجوب عن القلوب الخاوية فلا تحسب حسابه! وهذا ما يرجح الكفة، ويقرر النتيجة، ويفصل في القضية في نهاية المطاف في كل زمان وفي كل مكان.

قصة موسى عليه السلام

القسم الثاني

موسى وبني إسرائيل

موسى وبني إسرائيل

المحتوى	ص

القسم الثاني

صَبر مرير وجُهد مُضاعَف:

ويمضي سياق القصة قُدماً مع رحلة بني إسرائيل مع موسى ـ عليه السلام ـ، بعد خروجهم من مصر ناجين. فلنتابع حياة بني إسرائيل في فصل آخر.. في غداة النصر والتأييد والتمكين.. ها هم أولاء في الصفحة المقابلة في مشهد النجاة والتكريم والاختيار..

﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المُهين من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين. ولقد اخترناهم على علم على العالمين. وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾ [القصص: ٣١ ـ ٣٤]..

ويذكر هنا نجاة بني إسرائيل من العذاب «المهين» في مقابل الهوان الذي انتهى إليه المُتجبرون المُتَعالون المُسرفون في التَجَبّر والتعالي: **﴿من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين﴾**..

ثم يذكر اختيار الله لبني إسرائيل ـ على عِلْم ـ بحقيقتهم كلها، خيرها وشرها، اختيارهم على العالمين في زمانهم بطبيعة الحال، لما يعلمه الله من أنهم أفضل أهل زمانهم وأحقّهم بالاختيار والاستخلاف؛ على ما قصَّه عنهم بعد ذلك من تلكؤ ومن انحراف والتواء. مما يشير إلى أن اختيار الله ونَصْره قد يكون لأفضل أهل زمانهم؛ ولو لم يكونوا قد بلغوا مستوى الإيمان

العالي، إذا كانت فيهم قيادة تتجه بهم إلى الله على هدى وعلى بصيرة واستقامة.

ويعرض القرآن الكريم إرادة الله في استخلاف المُستضعفين **﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صَبَروا ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾** [الأعراف: ١٣٧]..

إن هذا الاستخلاف لم يتركه القرآن الكريم مطلقاً، بل رَبَطه بالعمل **﴿ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾** [الأعراف: ١٢٩].. **﴿وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾** [الدخان: ٣٣]..

فتعرضوا للاختبار بهذه الآيات، التي آتاهم الله إياها للابتلاء. حتى إذا تَمّ امتحانهم، وانقضت فترة استخلافهم، أخذهم الله بانحرافهم والتوائهم، وبنتيجة اختبارهم وابتلائهم، فَضَربَهم بمن يُشرّدهم في الأرض، وكَتب عليهم الذلّة والمسكنة، وتوعَّدهم أن يعودوا إلى النكال والتشريد كلما بغوا في الأرض إلى يوم الدين.

وهكذا وفي حلقة أخرى تمضي قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع قومه بني إسرائيل بعد إذ أنجاهم الله من عدوّهم؛ وأغرق فرعون وملأه؛ ودمَّر ما كانوا يصنعون وما كانوا يعرشون.. إن موسى ـ عليه السلام ـ لا يواجه اليوم طاغوت فرعون ومَلَئِه، فقد انتهت المعركة مع الطاغوت..

ولكنه يواجه معركة أخرى ـ لعلها أشد وأقسى وأطول أمداً ـ إنه **يواجه المعركة مع «النفس البشرية!»** يُواجهها مع رواسب الجاهلية في هذه النفس؛ ويواجهها مع رواسب الذل الذي أفسد طبيعة بني إسرائيل؛ وملأها بالالتواء من ناحية؛ وبالقسوة من ناحية؛ وبالجبن من ناحية؛ وبالضعف عن حمل التبعات من ناحية. وتركها مُهَلْهَلة بين هذه النزعات جميعاً.. فليس أفْسَد للنفس البشرية من الذل والخضوع للطغيان طويلاً؛ عاشوا في ظلّ

الإرهاب؛ وفي ظل الوثنية الفرعونية كذلك. عاشوا يَقتل فرعون أبناءهم ويستحيي نساءهم. فإذا فَتَر هذا النوع البشع من الإرهاب الوحشي، عاشوا حياة الذلّ والسخرة والمطاردة على كل حال.

وفسدت نفوسهم، وفسدت طبيعتهم؛ والتوت فطرتهم؛ وانحرفت تصوراتهم؛ **وامتلأت نفوسهم بالجبن والذل من جانب، وبالحقد والقسوة من الجانب الآخر**.. وهما جانبان تتلازمان في النفس البشرية حيثما تعرضت طويلاً للإرهاب والطُغيان..

لقد كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ينظر بنور الله، فيرى حقيقة تركيب النفس البشرية وطبيعتها؛ وهو يقول لِعُمَّاله على الأمصار موصياً لهم بالناس: «ولا تضربوا أبشارهم فَتُذِلُّوهم»..

كان يعلم أن ضرب البشرة يذلّ الناس. وكان الإسلام في قلبه يريد منه أَلَّا يذلّ الناس في حكومة الإسلام وفي مملكة الله. فالناس في مملكة الله أعزاء، ويجب أن يكونوا أعزاء؛ وألَّا يضربهم الحكام فَيُذِلُّوهم، لأنهم ليسوا عبيداً للحكام.. إنما هم عبيد لله أعزاء على غير الله..

ولقد ضربت أبشار بني إسرائيل في طاغوت الفرعونية حتى ذلُّوا. بل كان ضرب الأبشار هو أَخفّ ما يتعرضون له من الأذى في فترات الرخاء!.

ولقد ضُربت أبشار المصريين كذلك حتى ذَلّوا هم الآخرون واستخَفَّهم فرعون! ضُربت أبشارهم في عهود الطاغوت الفرعوني؛ ثم ضُربت أبشارهم في عهود الطاغوت الروماني.. ولم يستنقذهم من هذا الذلّ إلا الإسلام، يوم جاءهم بالحرية فأطلقهم من العبودية للبشر بالعبودية لربّ البشر..

فلما أن ضرب ابن عمرو بن العاص ـ فاتح مصر وحاكمها المسلم ـ ظَهْر ابن قبطي من أهل مِصر ـ لعل سياط الرومان كانت آثارها على ظهره

ما تزال ـ غَضِبَ القبطي لِسَوط واحد يُصيب ابنه ـ من ابن فاتح مصر وحاكمها ـ وسافر شهراً على ظهر ناقة، ليشكو إلى عمر بن الخطاب ـ الخليفة المُسلم ـ هذا السوط الواحد الذي نال ابنه ـ وكان هو يَصبر على السياط منذ سنوات قلائل في عهد الرومان ـ وكانت هذه هي معجزة البعث الإسلامي لنفوس الأقباط في مصر، وللنفوس في كل مكان ـ حتى لمن لم يَعتنقوا الإسلام ـ كانت هذه هي معجزة هذا البعث الذي يستنقذ الأرواح من ركام آلاف السنين من الذلّ القديم، فَتَنْتَفض هكذا انتفاضة الكرامة التي أطلقها الإسلام في أرواحهم؛ وما كان غير الإسلام ليطلقها في مثل هذه الأرواح.

عملية استصلاح نفوس بني إسرائيل من ذلّ الطاغوت الفرعوني هي التي سيواجهها موسى ـ عليه السلام ـ في هذه الحلقة ـ بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر وتجاوُزه بهم البحر ـ وسنرى من خلال القصص القرآني هذه النفوس، وهي تُواجه الحرية بكل رواسب الذلّ؛ وتواجه الرسالة بكل رواسب الجاهلية؛ وتواجه موسى ـ عليه السلام ـ بكل الالتواءات والانحرافات والانحلالات والجَهالات التي ترسبت فيها على الزمن الطويل!.

وسنرى متاعب موسى ـ عليه السلام ـ في المحاولة الضخمة التي يُحاولها؛ وثقلة الجبلّات التي أَخْلَدت إلى الأرض طويلاً، حتى ما تريد أن تنهض من الوَحل الذي تَمرَّغت فيه طويلاً، وقد حَسِبَتْه الأمر العادي الذي ليس غيره!.

وسنرى من خلال متاعب موسى ـ عليه السلام ـ متاعب كل صاحب دعوة، يواجه نفوساً طال عليها الأَمَد، وهي تستمرىء حياة الذلّ تحت قهر الطاغوت ـ وبخاصة إذا كانت هذه النفوس قد عرفت العقيدة التي يدعوها إليها، ثم طال عليها الأمد، فبهتت صورتها، وعادت شكلاً لا روح فيه!.

إن جهد صاحب الدعوة ـ في مثل هذه الحال ـ لهو جهد مضاعف. ومن ثم يجب أن يكون صبره مضاعفاً كذلك.. يجب أن يصبر على الالتواءات والانحرافات، وثقلة الطبائع وتفاهة الاهتمامات؛ ويجب أن يصبر على الانتكاس الذي يُفاجئه في هذه النفوس بعد كل مرحلة، والاندفاع إلى الجاهلية عند أول بادرة!.

ولعل هذا جانب من حكمة الله في عرض قصة بني إسرائيل على الأمة المسلمة، في هذه الصورة المُفَصّلة المُكرّرة. لنرى فيها هذه التجربة. كما قلنا من قبل. ولعل فيها زاداً لأصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل.

ويعرض القرآن مشهداً مثيراً ـ مشهد بني إسرائيل بعد تجاوز البحر ـ ونحن فيه وجهاً لوجه أمام طبيعة القوم المنحرفة المستعصية على التقويم؛ بما ترسَّب فيها من ذلك التاريخ القديم.. إن العهد لم يطل بهم منذ أن كانوا يُسامون الخَسف في ظل الوثنية الجاهلية عند فرعون وملئه؛ ومنذ أن أنقذهم نبيهم وزعيمهم موسى ـ عليه السلام ـ باسم الله الواحد ـ ربّ العالمين ـ الذي أهلك عدوهم؛ وشق لهم البحر؛ وأنجاهم من العذاب الوحشي الفظيع الذي كانوا يُسامون.. إنهم خارجون للتّو واللحظة من مصر وَوَثَنِيّتَها؛ ولكن ها هم أولاء ما إن يُجاوزوا البحر حتى تقع أبصارهم على قوم وَثنيين، عاكفين على أصنام لهم، مُستغرقين في طقوسهم الوثنية؛ وإذا هم يطلبون إلى موسى ـ رسول ربّ العالمين ـ الذي أخرجهم من مصر باسم الإسلام والتوحيد، أن يتخذ لهم وَثَناً يعبدونه من جديد!.

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم. قالوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ [الأعراف: ١٣٨]..

إنها العَدوى تُصيب الأرواح كما تصيب الأجسام! ولكنها لا تصيبها حتى يكون لديها الاستعداد والتهيؤ والقابلية. وطبيعة بني إسرائيل ـ كما عرضها القرآن الكريم عرضاً صادقاً دقيقاً أميناً في شتى المناسبات ـ طبيعة

مُخَلْخَلة العزيمة، ضعيفة الروح، ما تكاد تهتدي حتى تضل، وما تكاد ترتفع حتى تنحط، وما تكاد تمضي في الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس... ذلك إلى غلظ في الكبد، وتَصَلُّب عن الحق، وقَساوة في الحس والشعور! وها هم أولاء على طبيعتهم تلك، ها هم أولاء ما يكادون يمرون بقوم يعكفون على أصنام لهم حتى ينسوا تعليم أكثر من عشرين عاماً منذ أن جاءهم موسى ـ عليه السلام ـ بالتوحيد ـ فقد ذكرت بعض الروايات أنه أمضى في مصر ثلاثة وعشرين عاماً منذ أن واجه فرعون وملأه برسالته إلى يوم المخروج من مصر مجتازاً ببني إسرائيل البحر ـ بل حتى ينسوا معجزة اللحظة التي أنقذتهم من فرعون وملئه وأهلكت هؤلاء أجمعين! وهؤلاء كانوا وثنيين، وباسم هذه الوثنية استذلوهم ـ حتى إن الملأ من قوم فرعون ليهيجونه على موسى ومن معه بقولهم: ﴿**أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك**﴾ [الأعراف: ١٢٧].. ينسون هذا كله ليطلبوا إلى نَبِيِّهم: رسول رب العالمين أن يتخذ لهم بنفسه.. آلهة! ولو أنهم هم اتخذوا لهم آلهة لكان الأمر أقل غرابة من أن يطلبوا إلى رسول ربّ العالمين أن يتخذ لهم آلهة... ولكنها هي إسرائيل!..

ويغضب موسى ـ عليه السلام ـ غضبة رسول رب العالمين، لرب العالمين ـ يغضب لربه سبحانه ـ ويغار على ألوهيته أن يُشرك بها قومه! فيقول قولته التي تليق بهذا الطلب العجيب: ﴿**قال: إنكم قوم تَجهلون**﴾ [الأعراف: ١٣٨]..

ولم يقل تجهلون ماذا؟ ليكون في إطلاق اللفظ ما يعني الجهل الكامل الشامل.. الجهل من الجهالة ضد المعرفة، والجهل من الحماقة ضد العقل! فما ينبعث مثل هذا القول إلا من الجهالة والحمق إلى أبعد الحدود! ثم ليشير إلى أن الانحراف عن التوحيد إلى الشرك إنما ينشأ من الجهل والحماقة؛ وأن العلم والتعقل يقود كلاهما إلى الله الواحد؛ وأنه ما من علم ولا عقل يقود إلى غير هذا الطريق..

إن العلم والعقل يُواجهان هذا الكـون بنواميسـه التي تشهد بـوجود الخالق المدبر؛ وبوحدانية هذا الخالق المدبر. فعنصر التقدير والتدبير بارز في هذه النواميس، وطابع الوحدة ظاهر كذلك فيها وفي آثارها التي يكشفها النظر والتدبر ـ وفق المنهج الصحيح ـ وما يغفل عن ذلك كله، أو يعرض عن ذلك كله، إلا الحمقى والجهال. ولو ادعوا «العلم» كما يدعيه الكثيرون!.

ويمضي موسى ـ عليه السلام ـ يكشف لقومه عن سوء المغبة فيما يطلبون، بالكشف عن سوء عُقبى القوم الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم، فأرادوا أن يقلدوهم: ﴿**إن هؤلاء مُتَبَّر ما هم فيه، وباطل ما كانوا يعلمون**﴾ [الأعراف: ١٣٩]..

إن ما هم فيه من شرك، وعكوف على الآلهة، وحياة تقوم على هذا الشرك، وتتعدد فيها الأرباب، ومن يقوم وراء الأرباب من السدنة والكهنة، ومن حكام يستمدون سلطانهم من هذا الخليط.. إلى آخر ما يتبع الانحراف عن الألوهية الواحدة من فساد في التصورات وفساد في الحياة.. إن هذا كله باطل، ينتظره ما ينتظر كل باطل من الهلاك والدمار في نهاية المطاف!.

ثم ترتفع نَغمة الغيرة في كلمات موسى ـ عليه السلام ـ على ربه والغضب له ـ سبحانه ـ والتَعَجُّب من نسيان قومه لنعمة الله عليهم ـ وهي حاضرة ظاهرة ـ: ﴿**قال: أغير الله أبغيكم إلَهاً وهو فَضَّلكم على العالمين؟**﴾ [الأعراف: ١٤٠]..

والتفضيل على العالمين ـ في زمانهم يتجلّى في اختيارهم لرسالة التوحيد من بين المشركين. وليس وراء ذلك فضل ولا مِنّة. فهذا ما لا يعدله فضل ولا مِنّة. كما أنه اختارهم ليورثهم الأرض المقدسة ـ التي كانت إذ ذاك في أَيْدٍ مشركة ـ فكيف بعد هذا كله يطلبون إلى نبيهم أن يطلب لهم إلهاً غير الله، وهم في نعمته وفضله يَتَقلَّبون؟!.

وعلى طريقة القرآن الكريم في وَصْل ما يحكيه عن أولياء الله بما

يحكيه عن الله ـ سبحانه ـ يستطرد السياق بخطاب من الله تعالى موصول بكلام موسى ـ عليه السلام ـ مُوجَّه كذلك لقومه:

﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يُقتِّلون أبناءكم ويَستحيون نساءكم. وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ [الأعراف: ١٤١]..

وفي مثل هذا الوصل في القرآن الكريم، بين كلام الله ـ سبحانه ـ وما يحكيه من كلام أوليائه، تكريم أي تكريم لهؤلاء الأولياء لا ريب فيه!.

وهذه المِنّة التي يمتنها الله على بني إسرائيل ـ في هذا الموضع ـ كانت حاضرة في أذهانهم وأعصابهم. ولقد كانت هذه المِنّة وحدها كفيلة بأن تُذكر وتُشكر.. والله سبحانه وتعالى يُوجّه قلوبهم لما في ذلك الابتلاء من عبرة.. ابتلاء العذاب وابتلاء النجاة. الابتلاء بالشدة والابتلاء بالرخاء.. **﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾**..

فما كان شيء من ذلك كله جزافاً بلا تقدير. ولكنه الابتلاء للموعظة وللتذكير. وللتمحيص والتدريب. وللإعذار قبل الأخذ الشديد. إن لم يفلح الابتلاء في استصلاح القلوب!.

الموقف الفريد:

ويرفع القرآن الستار على مشهد المناجاة الثانية إلى جانب الطور الأيمن..

لقد واعد الله موسى ـ عليه السلام ـ على الجَبل ميعاداً ضَربَه به ليلقاه بعد أربعين يوماً، لِتَلَقِّي التكاليف: تكاليف النصر بعد الهزيمة. وللنصر تكاليفه، وللعقيدة تكاليفها، ولا بد من تَهيُّؤ نفسي واستعداد للتلقي..

ويصور القرآن اللوحة الرائعة من هذا المشهد الجليل.. الاستعداد للقاء الله. مشهد تَهَيُّؤ موسى ـ عليه السلام ـ للقاء ربّه العظيم، واستعداده

للموقف الهائل بين يديه في هذه الحياة الدنيا؛ ووصيته لأخيه هارون ـ عليه السلام ـ قبل ذهابه لهذا اللقاء العظيم:

﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة، وأتممناها بعشر، فَتمَّ ميقات ربه أربعين ليلة.. وقال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي، وأَصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ [الأعراف: ١٤٢]..

لقد انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى التي أُرسل لها، انتهت مرحلة تخليص بني إسرائيل من حياة الذلّ والهوان والنكال والتعذيب بين فرعون وملئه، وإنقاذهم من أرض الذل والقهر إلى الصحراء الطليقة، في طريقهم إلى الأرض المقدسة.. ولكن القوم لم يكونوا بعد على استعداد لهذه المهمة الكبرى.. مهمة الخلافة في الأرض بدين الله..

ولقد رأينا كيف اشرأبت نفوسهم إلى الوثنية والشرك بمجرد أن رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم؛ وتَخَلْخَلَت عقيدة التوحيد التي جاءهم بها موسى ـ عليه السلام ـ ولم يمضِ إلا القليل! فلم يكن بدّ من رسالة مُفصَّلة لتربية هؤلاء القوم، وإعدادهم لما هم مُقبلونَ عليه من الأمر العظيم..

ومن أجل هذه الرسالة المُفَصَّلة كانت مواعدة الله لعبده موسى ليلقاه ويتَلَقَّى عنه. وكانت هذه المواعدة إعداداً لموسى لنفسه، كي يتهيأ في هذه الليالي للموقف الهائل العظيم، ويستعدّ لتلقيه.

وكانت فترة الإعداد ثلاثين ليلة، أُضيفت إليها عشر، فبلغت عِدَّتها أربعين ليلة، يُروِّض موسى فيها نفسه على اللقاء الموعود؛ وينعزل فيها عن شواغل الأرض ليَستغرق في هواتف السماء؛ ويعتكف فيها عن الخلق ليستغرق فيها في الخالق الجليل؛ وتصفو روحه وتشفّ وتستضيء؛ وتَتَقَوّى عزيمته على مواجهة الموقف المُرتقب وحَمل الرسالة الموعودة..

وألقى موسى إلى أخيه هارون ـ قبل مغادرته لقومه واعتزاله واعتكافه ـ بوصيته تلك:

﴿وقال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾..

ذلك وموسى يعلم أن هارون نبي مرسل من ربه معه. ولكن المسلم للمسلم ناصح. والنصيحة حقّ وواجب للمسلم على المسلم.. ثم إن موسى يُقدّر ثقل التبعة، وهو يعرف طبيعة قومه بني إسرائيل!.. وقد تلقى هارون النصيحة. لم تَثقل على نفسه! فالنصيحة إنما تَثقل على نفوس الأشرار لأنها تُقَيّدهم بما يريدون أن ينطلقوا منه؛ وتَثقل على نفوس المُتَكَبّرين الصغار، الذين يحسون في النصيحة تنقصاً لأقدارهم!.. إن الصغير هو الذي يبعد عنه يدك التي تمتد لتسانده؛ ليظهر أنه كبير!!.

فأما قصة الليالي الثلاثين وإتمامها بالعشر الليالي فقال عنها ابن كثير في التفسير: «فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة؛ قال المفسرون: فصامها ـ عليه السلام ـ وطواها، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل العشرة أربعين».

ثم يأتي السياق القرآني. المشهد الفذّ الذي اختصّ الله به نبيه موسى ـ عليه السلام ـ مشهد الخطاب المباشر بين الجليل ـ سبحانه ـ وعَبْد من عباده. المشهد الذي تتصل فيه الذرّة المحدودة الفانية بالوجود الأزلي الأبدي بلا وساطة؛ ويطيق الكائن البشري أن يَتَلَقّى عن الخالق الأبدي، وهو بعد على هذه الأرض.. ولا ندري نحن كيف.. لا ندري كيف كان كلام الله ـ سبحانه ـ لِعَبْده موسى. ولا ندري بأية حاسّة أو جارحة أو أداة تَلَقّى موسى كلمات الله. فتصوير هذا على وجه الحقيقة مُتَعَذِّر علينا نحن البشر. المحكومين في تصوراتنا بنصيبنا المحدود من الطاقة المدركة، وبرصيدنا المحدود من التجارب الواقعة. ولكننا نملك بالسرّ اللطيف المُستمد من روح الله الذي في كياننا أن نستروح وأن نستشرف هذا الأفق السامق الوضيء. ثم نقف عند هذا الاستشراف لا نحاول أن نُفسده بسؤالنا

عن الكَيفية، نريد أن نَـتَصوَّرها بإدراكنا القريب المحدود! :

﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكَلَّمه ربُّه، قال: ربِّ أرني أنظر إليك﴾ [الأعراف: ١٤٣]. .

إننا لفي حاجة إلى استحضار ذلك الموقف الفريد في خيالنا وأعصابنا وفي كياننا كله. . في حاجة إلى استحضاره لنستشرف ونحاول الاقتراب من تَصَوّره؛ ولنشعر بشيء من مشاعر موسى ـ عليه السلام ـ فيه. .

إنها الوهلة المذهلة وموسى يتلقى كلمات ربه؛ وروحه تَـتَشَوَّف وتستشرف وتشتاق إلى ما يُشَوِّق! فينسى مَن هو، وينسى ما هو، ويطلب ما لا يكون لبشر في هذه الأرض، وما لا يُطيقه بشر في هذه الأرض. . يطلب الرؤية الكبرى وهو مدفوع في زحمة الشوق ودفعة الرجاء ولهفة الحب ورغبة الشهود. . حتى تُنَبِّهه الكلمة الحاسمة الجازمة: **﴿قال: لن تراني﴾**. .

ثم يترفق به الربّ العظيم الجليل، فيعلمه لماذا لن يراه. . إنه لا يُطيق. . **﴿ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾**. .

والجبل أَمْكَن وأثبت. والجبل مع تمكنه وثباته أقل تأثُّراً واستجابة من الكيان البشري. . ومع ذلك فماذا؟ **﴿فلما تَجلَّى ربُّه للجبل جعله دكاً﴾**. . فكيف كان هذا التجلي؟ نحن لا نملك أن نصفه، ولا نملك أن نُدركه. ولا نملك أن نستشرفه إلا بتلك اللطيفة التي تصلنا بالله، حين تشف أرواحنا وتصفو، وتتجه بكليتها إلى مصدرها. فأما الألفاظ المجردة فلا تملك أن تنقل شيئاً. . لذلك لا نحاول بالألفاظ أن نُصوِّر هذا التجلي. . ونحن أميل إلى اطراح كل الروايات التي وردتِ في تفسيره؛ وليس منها رواية عن المعصوم ـ ﷺ ـ والقرآن الكريم لم يقل عن ذلك شيئاً.

﴿فلما تجلَّى ربُّه للجبل جْعله دكاً﴾. . وقد ساخت نتوءاته فبدا مُسوّىً

بالأرض مدكوكاً. . وأدركت موسى رهبة الموقف وسَرَت في كيانه البشري الضعيف: ﴿وخرّ موسى صعقاً﴾. . مغشياً عليه، غائباً عن وعيه.

﴿فلما أفاق﴾. . وثاب إلى نفسه، وأدرك مدى طاقته، واستشعر أنه تجاوز المدى في سؤاله: ﴿قال: سبحانك!﴾. . تَنَزَّهْتَ وتَعاليتَ عن أن تُرى بالأبصار وتُدرَك. . ﴿تبتُ إليك﴾. . عن تجاوزي للمدى في سؤالك! ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ [الأعراف: ١٤٣]. .

والرسل دائماً هم أول المؤمنين بعظمة ربهم وجلاله، وبما يُنزله عليهم من كلماته. . وربهم يأمرهم أن يُعلنوا هذا، والقرآن الكريم يحكي عنهم هذا الإعلان في مواضع منه شتى.

وأدركت موسى رحمة الله مرة أخرى؛ فإذا هو يَتَلَقّى منه البشرى. . بشرى الاصطفاء، مع التوجيه له بالرسالة إلى قومه بعد الخلاص. . وكانت رسالته إلى فرعون وملئه من أجل هذا الخلاص:

﴿قال: يا موسى، إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ [الأعراف: ١٤٤]. .

ونفهم من قول الله سبحانه لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي﴾. . أن المقصود بالناس الذين اصطفاه عليهم هم أهل زمانه ـ فالرسل كانوا قبل موسى وبعده ـ فهو الاصطفاء على جيل من الناس بحكم هذه القرينة.

أما الكلام فهو الذي تَفَرَّد به موسى ـ عليه السلام ـ أما أَمْر الله تعالى لموسى بأَخْذ ما آتاه، والشكر على الاصطفاء والعطاء، فهو أمر التعليم والتوجيه لما ينبغي أن تُقابل به نعمة الله.

والرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ قدوة للناس؛ وللناس فيهم أسوة؛ وعلى الناس أن يأخذوا ما آتاهم الله بالقبول والشكر استزادة من

النعمة؛ وإصلاحاً للقلب؛ وتحرزاً من البطر؛ واتصالاً بالله..

ثم يُبين السياق ماذا كان مضمون الرسالة، وكيف أُوتيها موسى: **﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾** [الأعراف: ١٤٥]..

وتختلف الروايات والمفسرون في شأن هذه الألواح؛ ويصفها بعضهم أوصافاً مُفَصّلة ـ نحسب أنها منقولة عن الإسرائيليات التي تسربت إلى التفسير ـ ولا نجد في هذا كله شيئاً عن رسول الله ـ ﷺ ـ فنكتفي بالوقوف عند النص القرآني الصادق لا نتعداه.

وما تزيد تلك الأوصاف شيئاً أو تنقص من حقيقة هذه الألواح. أما ما هي وكيف كُتبت فلا يعنينا هذا في شيء بما أنه لم يرد عنها من النصوص الصحيحة شيء. والمهم هو ما في هذه الألواح. إن فيها من كل شيء يختص بموضوع الرسالة وغايتها من بيان الله وشريعته والتوجيهات المطلوبة لإصلاح حال هذه الأمة وطبيعتها التي أفسدها الذل وطول الأمد سواء!.

﴿فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ [الأعراف: ١٤٥]..

والأمر الإلهي الجليل لموسى ـ عليه السلام ـ أن يأخذ الألواح بقوة وعزم، وأن يأمر قومه أن يأخذوا بما فيها من التكاليف الشاقة بوصفه الأحسن لهم والأصلح لحالهم.. هذا الأمر على هذا النحو فضلاً على أنه يشي بضرورة هذا الأسلوب في أخذ هذه الطبيعة الإسرائيلية، التي أفسدها الذل وطول الأمد، بالعزم والجد، لتحمل تكاليف الرسالة والخلافة، فإنه ـ كذلك ـ يوحي بالمنهج الواجب في أخذ كل أمة لكل عقيدة تأتيها.

إن العقيدة أمر هائل عند الله ـ سبحانه ـ وأمر هائل في حساب هذا الكون، وقَدَر الله الذي يُصرّفه، وأمر هائل في تاريخ «الإنسان» وحياته في هذه الأرض وفي الدار الآخرة كذلك.. والمنهج الذي تُشرعه العقيدة في

وحدانية الله ـ سبحانه ـ وعبودية البشر لربوبيته وحده، منهج يغير أسلوب الحياة البشرية بجملتها، ويقيم هـذه الحياة على أسلوب آخر غير الذي تجري عليه في الجاهلية، حيث تقوم ربوبية غير ربوبية الله ـ سبحانه ـ، ذات منهج للحياة كلها غير منهج الله الذي ينبثق من تلك العقيدة. .

وأَمْر له هذه الخطورة عند الله، وفي حساب الكون، وفي طبيعة الحياة وفي تاريخ «الإنسان». . يجب أن يُؤخذ بقوة، وأن تكون له جدّيته في النفس، وصراحته وحَسْمه. ولا ينبغي أن يُؤخذ في رَخاوة، ولا في تميع، ولا في ترخُص، ذلك أنه أمر هائل في ذاته، فضلاً على أن تكاليفه باهظة لا يصبر عليها مَن طبيعته الرخاوة والتميّع والترخُّص، أو من يأخذ الأمر بمثل هذه المشاعر. .

وليس معنى هـذا ـ بطبيعة الحال ـ هو التَشَدُّد والتَعَنُّت والتعقيد والتَقَبُّض! فهذا ليس من طبيعة دين الله. . ولكن معناه الجدّ والهمة والحسم والصراحة. وهي صفات أخرى ومشاعر أخرى غير مشاعر التشدد والتعنت والتعقيد والتقبض!.

ولقد كانت طبيعة بني إسرائيل ـ بصفة خاصة ـ بعدما أفسدها طول الذلّ والعبودية في مصر، تحتاج إلى هذا التوجيه. لذلك نلحظ أن كل الأوامر لبني إسرائيل كانت مصحوبة بمثل هذا التشديد وهذا التوكيد، تربية لهذه الطبيعة الرخوة الملتوية المنحرفة الخاوية، على الاستقامة والجد والوضوح والصراحة. .

ومثل طبيعة بني إسرائيل كل طبيعة تعرضت لمثل ما تعرضوا له من طول العبودية والذل، والخضوع للإرهاب والتَعَبُّد للطواغيت، فبدت عليها أعراض الالتواء والاحتيال، والأخذ بالأسهل تَجَنُّباً للمشقة. . كما هو الملحوظ في واقع كثير من الجماعات البشرية التي نطالعها في زماننا هذا،

والتي تهرب من العقيدة لتهرب من تكاليفها، وتسير مع القطيع، لأن السير مع القطيع لا يكلفها شيئاً!.

وفي مقابل أَخْذ هذا الأمر بقوة يَعد اللّهُ موسى وقومه أن يُمَكّن لهم في الأرض، ويورثهم دار الفاسقين عن دينه: **﴿سأريكم دار الفاسقين﴾** [الأعراف: ١٤٥]..

والأقرب أنها إشارة إلى الأرض المقدسة التي كانت ـ في ذلك الزمان ـ في قبضة الوثنيين، وأنها بشارة لهم بدخولها.. وإن كان بنو إسرائيل لم يدخلوها في عهد موسى ـ عليه السلام ـ لأن تربيتهم لم تكن قد استكملت، وطبيعتهم تلك لم تكن قد قُوّمت، فوقفوا أمام الأرض المقدسة يقولون لنبيهم: **﴿يا موسى إن فيها قوماً جبارين. وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾** [المائدة: ٢٢]..

ثم ألح عليهم الرجلان المؤمنان فيهم اللذان يخافان الله، في الدخول والاقتحام! أجابوا موسى بتوقح الجبان ـ كالدابة التي ترفس سائقها! ـ: **﴿قالوا: يا موسى! إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون!﴾** [المائدة: ٢٤].. مما يُصوّر تلك الطبيعة الخائرة المُفَكَّكة الملتوية التي كانت تُعالجها العقيدة والشريعة التي جاء بها موسى ـ عليه السلام ـ، وأمر هذا الأمر الإلهي الجليل أن يأخذها بقوة، وأن يأمر قومه بحمل تكاليفها الشاقة..

وفي نهاية المشهد والتكليم يجيء بيان لعاقبة الذين يَتكَبَّرون في الأرض بغير الحق، ويعرضون عن آيات الله وتوجيهاته، يتضمن تصويراً دقيقاً لطبيعة هذا الصنف من الناس، في نصاعة وجمال التصوير القرآني الفريد لأنماط الطبائع ونماذج النفوس:

﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير حق، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها..﴾ [الأعراف: ١٤٦]..

إن الله تعالى يعلن عن مشيئته في شأن أولئك الذين يتكبرون في الأرض.. إنه سيصرفهم عن آياته فلا ينتفعون بها ولا يستجيبون لها.. آياته في كتاب الكون المنظور، وآياته في كُتبه المنزلة على رسله.. ذلك بسبب أنهم كذبوا بآياته سبحانه وكانوا عنها غافلين.

وإن هذا النموذج من الناس ليرتسم من خلال الكلمات القرآنية، كأنما نراه بسماته وحركاته! ﴿**الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق**﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وما يتكبر عبد من عبيد الله في أرضه بالحق أبداً. فالكبرياء صفة لله وحده. لا يقبل فيها شريكاً. وحيثما تَكَبَّر إنسان في الأرض كان ذلك تكبراً بغير الحق! وشرّ التكبر ادعاء حق الربوبية في الأرض على عباد الله، ومزاولة هذا الحق بالتشريع لهم من دون الله؛ وتعبيدهم لهذا التشريع الباطل، ومن هذا التكبر تنشأ سائر ألوان التكبر. فهو أساس الشر كله ومنه ينبعث. ومن ثم تجيء بقية الملامح:

﴿**وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلاً**﴾ [الأعراف: ١٤٦]..

فهي جِبلّة تجنح عن سبيل الرشد حيثما رأته، وتجنح إلى سبيل الغي حيثما لاح؛ كأنما بآلية في تركيبها لا تتخلف! وهذه هي السمة التي يرسمها التعبير، ويطبع بهذا هذا النموذج المُتَكَبّر، التي قضت مشيئة الله أن يُجازيه على التكذيب بآيات الله والغفلة عنها بصرفه عن هذه الآيات أبداً!.

وإن الإنسان ليصادف هذا الصنف من الخلق بوصفه هذا وسمته وملامحه، فيرى كأنما يتجنب الرشد ويتبع الغي دون جهد منه، ودون تفكير ولا تدبير! فهو يعمى عن طريق الرشد ويتجنبه، وينشرح لطريق الغي ويتبعه! وهو في الوقت ذاته مصروف عن آيات الله لا يراها ولا يتدبرها ولا تلتقط أجهزته إيحاءاتها وإيقاعاتها!.

وسبحان الله! فمن خلال اللمسات السريعة في العبارة القرآنية العجيبة ينتفض هذا النموذج من الخلق شاخصاً بـارزاً حتى ليكاد القـارىء يصيح لتوّه: نعم. نعم. أعرف هذا الصنف من الخلق.. إنه فلان!!! وإنه للمعنيّ الموصوف بهذه الكلمات!!!.

وما يظلم الله هذا الصنف من الخَلق بهذا الجزاء المُرْدِي المؤدي إلى الهلاك في الدنيا والآخرة.. إنما هو الجزاء الحق لمن يُكَذّب بـآيات الله ويغفل عنها، ويتكبر في الأرض بغير الحق، ويتجنب سبيل الرشـد حيثما رآه، ويهرع إلى سبيل الغي حيثما لاح له! فإنما بعمله جوزي؛ وبسلوكه أُورِدَ مـوارد الهلاك ﴿**ذلـك بأنهم كـذبوا بـآياتنـا وكـانـوا عنهـا غـافلين**﴾ [الأعراف: ١٤٦]..

﴿**والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم. هل يجزون إلا ما كانوا يعملون**﴾ [الأعراف: ١٤٧]..

وحُبوط الأعمال مأخوذ من قولهم: حبطت النـاقة.. إذا رعت نبـاتاً ساماً، فانتفخ بطنها ثم نفقت.. وهو وصف ملحوظ فيه طبيعة الباطل الذي يصدر من المكذبين بآيات الله ولقاء الآخرة. فهو ينتفخ حتى يظنه الناس من عظمة وقوة! ثم ينفق كما تنفق الناقة التي رعت ذلك النبات السام!.

وإنه لجزاء كذلك حق أن تَحبط وتَهلك أعمال الذين كذبوا بآيات الله ولقاء الآخرة.. ولكن كيف تحبط هذه الأعمال؟.

من ناحية الاعتقاد.. نحن نؤمن بصدق وعيد الله لا محالة؛ أياً كانت الظواهر التي تخالف هذه العاقبة المحتومة. فحيثما كَذَّب أحد بآيـات الله ولقائه في الآخرة حبط عمله وبطل، وهلك في النهاية وذهب كأن لم يكن..

ومن ناحية النظر.. نحن نجد السبب واضحاً في حياة البشر.. إن الذي يكذب بآيات الله المبثوثة في صفحات هذا الكون المنشور، أو آياته

المصاحبة للرسالات، أو التي يحملها الرسل؛ ويكذب تبعاً لهذا بلقاء الله في اليوم الآخر. .

إن هذا الكائن المسيخ روح ضالة شاردة عن طبيعة هذا الكون المؤمن المسلم ونواميسه. . لا تربطه بهذا الكون رابطة. وهو منقطع عن دوافع الحركة الصادقة الموصولة بغاية الوجود واتجاهه. وكل عمل يصدر عن مثل هذا المسخ المقطوع هو عمل حابط ضائع، ولو بدا أنه قائم وناجح. لأنه لا ينبعث عن البواعث الأصيلة العميقة في بُنية هذا الوجود؛ ولا يَتّجه إلى الغاية الكبيرة التي يتجه إليها الكون كله. شأنه شأن الجَدول الذي ينقطع عن النبع الأول؛ فمآله إلى الجفاف والضياع في يوم قريب أو بعيد!.

والذين لا يرون العلاقة الوثيقة بين تلك القيم الإيمانية وحركة التاريخ الإنساني؛ والذين يغفلون عن قَدَر الله الذي يجري بعاقبة الذين يتنكرون لهذه القيم. . هؤلاء إنما هم الغافلون الذين أعلن الله ـ سبحانه ـ عن مشيئته في أمرهم، بصرفهم عن رؤية آياته، وتدبُّر سُننه. . وقَدَر الله يَتَرَبَّص بهم وهم عنه غافلون. .

والذين يخدعهم ما يرونه في الأمد القصير المحدود، من فلاح بعض الذين يغفلون عن تلك القيم الإيمانية ونجاحهم، إنما يخدعهم الانتفاخ الذي يصيب الدابة وقد رعت النبت السام؛ فيحسبونه شحماً وسمنة وعافية وصحة. . والهلاك يترصدها بعد الانتفاخ والحبوط! والأمم التي خلت شاهد واقع. ولكن الذين سكنوا مساكنهم من بعدهم، لا يأخذون منهم عبرة، ولا يرون سنة الله التي تعمل ولا تتخلف؛ وقدر الله الذي يجري ولا يتوقف. . والله من ورائهم محيط. .

ارتكاس وانتكاس:

وبينما كان موسى ـ عليه السلام ـ في حضرة ربه، في ذلك الموقف

الفريد، الذي تستشرفه البصائر وتقصر عنه الأبصار؛ وتدركه الأرواح وتحار فيه الأفكار.. كان قوم موسى من بعده يرتكسون وينتكسون، ويتخذون لهم عِجْلاً جَسَداً له خوار ـ لا حياة فيه ـ يعبدونه من دون الله!.

فحين صعد موسى إلى الجبل، ترك قومه في أسفله، وترك عليهم هارون نائباً عنه..

لقد غلب الشوق على موسى إلى مناجاة ربه، والوقوف بين يديه، وقد ذاق حلاوتها من قبل، فهو إليها مشتاق عجول. ووقف في حضرة مولاه، وهو لا يعلم ما وراءه، ولا ما أحدث القوم بعده؛ حين تركهم في أسفل الجبل.

وهنا يُنبئه ربه بما كان خلفه.. فلنشهد المشهد ولنسمع الحوار: **﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى؟ قال: هم أولاء على أثري، وعجلتُ إليك ربِّ لترضى. قال: فإنا قد فَتَنَّا قومك من بعدك وأضلهم السامري﴾** [طه: ٨٣ ـ ٨٥]..

وهكذا فوجىء موسى.. إنه عجلان إلى ربه، بعدما تهيأ واستعد أربعين يوماً ليلقاه، ويتلقى منه التوجيه الذي يقيم عليه حياة بني إسرائيل الجديدة. وقد استخلصهم من الذل والاستعباد، ليصوغ منهم أمة ذات رسالة، وذات تكاليف.

كذلك يفاجئنا سياق القصة بنقلة بعيدة.. نقلة هائلة من الجو العلوي السامق المشرق بسبحاته وأشواقه وابتهالاته وكلماته إلى الجو الهابط المتردي بانحرافاته وخرافاته وارتكاساته وانتكاساته: **﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عِجلاً جسداً له خوار﴾** [الأعراف: ١٤٨].

إنه الاستعباد الطويل والذل الطويل في ظل الفرعونية الوثنية الذي كان قد أفسد طبيعة القوم وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف والصبر عليها، والوفاء بالعهد والثبات عليه؛ وترك في كيانهم النفسي خَلْخَلة واستعداداً

للانقياد والتقليد المريح . . فما يكاد موسى يتركهم في رعاية هارون ويَبعد عنهم قليلاً حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتنهار أمام أول اختبار. . ولم يكن بد من اختبارات متوالية وابتلاءات متكررة لإعادة بنائهم النفسي. وكان أول ابتلاؤهم بالعجل الذي صنعه لهم السامري: ﴿**قال: فإنا قد فَتَنَّا قومك من بعدك، وأضلهم السامري**﴾ [طه: ٨٥]. . ولم يكن لدى موسى علم بهذا الابتلاء، حتى لقي ربه، وتلقى الألواح وفي نسختها هدى، وبها الدستور التشريعي لبناء بني إسرائيل بناءً يصلح للمهمة التي هم منتدبون لها.

إنها طبيعة إسرائيل التي ما تكاد تستقيم خطوة حتى تلتوي عن الطريق؛ والتي ما تكاد ترتفع عن مدى الرؤية الحسية في التصور والاعتقاد؛ والتي يسهل انتكاسها كلما فَتَر عنها التوجيه والتسديد.

لقد راوَدُوا نَبيِّهم من قبل أن يجعل لهم إلهاً يعكفون عليه بمجرد رؤيتهم لقوم وثنيين يعكفون على أصنام لهم! فَصَدّهم نبيهم عن ذلك الخاطر ورَدّهم ردًّا شديداً. فلما خَلوا إلى أنفسهم، ورأوا عجلاً جسداً من الذهب ـ لا حياة فيه كما تُفيد كلمة جسد ـ صنعه لهم السامري ـ رجل من السامرة كما في تفصيل قصته في سورة طه ـ واستطاع أن يجعله بهيئة بحيث يُخرج صوتاً كصوت خوار الثيران. . لما رأوا ذلك العجل الجَسَد طاروا إليه، وتهافتوا عليه حين قال لهم السامري: ﴿**هذا إلهكم وإله موسى**﴾ [طه: ٨٨]. . الذي خرج موسى لميقاته معه، فنسي موسى موعده معه ـ ربما لزيادة الليالي العشر الأخيرة في الميقات التي لم يكن القوم يعلمونها، فلما زاد عن الثلاثين ولم يرجع قال لهم السامري: لقد نسي موسى موعده مع إلهه فهذا إلهه! ـ ولم يتذكروا وصية نَبيِّهم من قبل بعبادة ربهم الذي لا تراه الأبصار ـ رب العالمين ـ ولم يتدبروا حقيقة هذا العِجل الذي صنعه لهم واحد منهم! وإنها لصورة زرية للبشرية تلك التي كان يُمثلها القوم. صورة يعجب منها القرآن الكريم؛ وهو يعرضها على المشركين في مكة وهم يعبدون الأصنام!.

﴿ألم يـروا أنـه لا يُكلِّمهم ولا يهـديهم سبيـلًا؟ اتخـذوه وكـانــوا ظالمين!﴾ [الأعراف: ١٤٨]. .

وهل أظلم ممن يعبد خلقاً من صنع أيدي البشر. والله خلقهم ومـا يصنعون؟!.

وكان فيهم هارون ـ عليه السلام ـ فلم يملك لهم رَدًّا عن هذا الضلال السخيف. وكان فيهم بعض عقلائهم فلم يملكوا زمام الجمـاهير الضـالة المتدافعة على العجل الجسد ـ وبخاصة أنـه من الذهب معبـود إسرائيـل الأصيل!.

وأخيراً هدأت الهيجة، وانكشفت الحقيقة، وتبيَّن السخف، ووضح الضلال، وجاءت نوبة الندم والإقرار:

﴿ولما سُقِطَ في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا، قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ [الأعراف: ١٤٩]. .

يقال: سقط في يده إذا عدم الحيلة في دفع ما هو بصدده من أمر. ولما رأى بنو إسرائيل أنهم صاروا ـ بهذه النكسة ـ إلى موقف لا يملكون دَفْعه فقد وقع منهم وانتهى! قالوا قولتهم هذه: **﴿لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾**. .

وهذه القولـة تدل على أنـه كان فيهم ـ إلى ذلـك الحين ـ بقية من استعـداد صالـح. فلم تكن قلوبهم قـد قست كمـا قست من بعـد ـ فهي كالحجارة أو أشد قسوة كما يصفهم من هو أعلم بهم! ـ فلما أن تبين لهم ضلالهم ندموا وعرفوا أنه لا يُنقذهم من عاقبة ما أتوا إلا أن تُدركهم رحمة ربهم ومغفـرته. . وهـذه علامـة طيبة على بقيـة من استعـداد في الفـطرة للصلاح. .

كل ذلك وموسى ـ عليه السلام ـ بين يدي ربه، في مناجاة وكلام، لا يدري ما أحدث القوم بعده. . إلا حين أنبأه ربُّه. .

وينهي سياق القصة موقف المناجاة ويطويه، ليصور انفعال موسى ـ عليه السلام ـ مما علم من أمر الفتنة، ومسارعته بالعودة، وفي نفسه حزن وغضب، على القوم الذين أنقذهم الله على يديه من الاستعباد والذل في ظل الوثنية، ومَنَّ عليهم بالرزق الميسَّر والرعاية الرحيمة في الصحراء؛ وذَكَّرهم منذ قليل بآلائه، وحذَّرهم الضلال وعواقبه. ثم ها هم أولاء يَتَّبعون أول ناعق إلى الوثنية، وإلى عبادة العجل!.

لقد عاد موسى غضبان أسِفاً يُوبِّخ قومه ويُؤنِّب أخاه. فلا بد أنه كان يعلم شناعة الفعلة التي أقدموا عليها:

﴿فرجع موسى إلى قومه غَضْبان أسفاً. قال: يا قوم: ألَم يعدكم ربكم وعداً حسناً؟ أفَطَال عليكم العهد؟ أم أردتم أن يحلَّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي؛ قالوا: ما أخلفنا موعدك بملكنا، ولكنا حُمِّلنا أوزاراً من زينة القوم، فكذلك ألقى السامري..﴾ [طه: ٨٦، ٨٧]..

لقد عاد موسى إلى قومه غضبان أشد الغضب. يبدو انفعال الغضب في قوله وفعله.. **﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً. قال: بئسما خلفتموني من بعدي! أعجلتم أمر ربكم؟ وألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه..﴾** [الأعراف: ١٥٠].. ويبدو هيجان الغضب في فعله إذ يأخذ برأس أخيه يجرّه إليه ويُعنّفه **﴿وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه!﴾**..

وحقّ لموسى ـ عليه السلام ـ أن يغضب فالمفاجأة قاسية. والنقلة بعيدة: **﴿بئسما خلفتموني من بعدي﴾**..

تركتكم على الهدى فخلفتموني بالضلال، وتركتكم على عبادة الله فخلفتموني بعبادة عجل جسد له خوار!.

﴿أعجلتم أمر ربكم؟﴾.. أي استعجلتم قضاءه وعقابه! أو ربما كان يعني: استعجلتم موعده وميقاته!.

﴿وألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه﴾.. وهي حركة تدل على شدة الانفعال.. فهذه الألواح هي التي كانت تحمل كلمات ربه. وهو لا يلقيها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه.. وكذلك أخذه برأس أخيه يجرّه إليه. وأخوه هو هارون العبد الصالح الطيب!.

موسى - عليه السلام - في مواجهة الفتنة والزيغ والضلال:

هذه هي الفتنة يكشف السياق عنها في مواجهة موسى بقومه؛ وقد أخَّر كشفها عن موقف المناجاة، واحتفظ بتفصيلاتها لتظهر في مشهد التحقيق الذي يقوم به موسى..

لقد رجع موسى ليجد قومه عاكفين على عجل من الذهب له خوار يقولون: هذا إلهكم وإله موسى. وقد نسي موسى فذهب يطلب ربه على الجبل وربه هنا حاضر! فراح موسى يسألهم في حزن وغضب: **﴿يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً؟﴾** [طه: ٨٦].. وقد وعدهم الله بالنصر ودخول الأرض المقدسة في ظل التوحيد؛ ولم يمض على هذا الوعد وإنجاز مقدماته طويل وقت. ويُؤنبهم في استنكار: **﴿أفطال عليكم العهد؟ أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم؟﴾** فعملكم هذا عمل من يريد أن يحلّ عليه غضب من الله كأنما يَتَعمَّد ذلك تعمداً، ويقصد إليه قصداً!.. أفطال عليكم العهد؟ أم تعمدتم حلول الغضب **﴿فأخلفتم موعدي﴾** [طه: ٨٦].. وقد تواعدنا على أن تبقوا على عهدي حتى أعود إليكم، لا تُغَيِّرون في عقيدتكم ولا منهجكم بغير أمري؟.

عندئذ يعتذرون بذلك العذر العجيب، الذي يكشف عن أثر الاستعباد الطويل، والتخلخل النفسي والسخف العقلي: **﴿قالوا: ما أخلفنا موعدك بملكنا﴾** فلقد كان الأمر أكبر من طاقتنا! **﴿ولكنا حُمِّلنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها﴾** [طه: ٨٧].. وقد حملوا معهم أكداساً من حلي المصريات

كانت عارية عند نسائهم فحملنها معهن. فهم يشيرون إلى هذه الأحمال. ويقولون: لقد قذفناها تخلصاً منها لأنها حرام. فأخذها السامري فصاغ منها عِجلاً ـ والسامري رجل من «سامراء» كان يرافقهم أو أنه واحد منهم يحمل هذا اللقب ـ، وجعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتاً كصوت الخوار، ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد ـ ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذي لا حياة فيه ـ فما كادوا يرون عِجلاً من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم من أرض الذل، وعكفوا على عجل الذهب؛ وفي بلاهة فكر وبلادة روح قالوا: ﴿**هذا إلٰهكم وإلٰه موسى**﴾ [طه: ٨٨].. راح يبحث عنه على الجبل، وهو هنا معنا. وقد نسي موسى الطريق إلى ربه وضل عنه! وهي قولة تُضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم الذي أنقذهم تحت عين الله وسمعه، وبتوجيهه وإرشاده. اتّهامهم له بأنه غير موصول بربه، حتى ليضل الطريق إليه، فلا هو يهتدي ولا ربه يهديه!.

ذلك فضلاً على وضوح الخدعة: ﴿**أفلا يَرون ألا يرجع إليهم قولاً، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً؟**﴾ [طه: ٨٩].. والمقصود أنه حتى لم يكن عجلاً حياً يسمع قولهم ويستجيب له على عادة العجول البقرية! فهو في درجة أقل من درجة الحيوانية. وهو بطبيعة الحال لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً في أبسط صورة. فهو لا ينطح ولا يرفس ولا يدير طاحونة ولا ساقية!.

وغير ذلك كله لقد نصح لهم هارون، وهو نبيهم كذلك، والنائب عن نبيهم المنقذ. ونبَّههم إلى أن هذا ابتلاء. قال: ﴿**يا قوم إنما فُتنتم به وإن ربكم الرحمن**﴾ [طه: ٩٠].. ونصحهم بإتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى، وهو عائد إليهم بعد ميعاده مع ربه على الجبل.. ولكنهم بدلاً من الاستجابة له التووا وتملصوا من نصحه، ومن عهدهم لنبيهم بطاعته، وقالوا: ﴿**لن نَبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى**﴾ [طه: ٩١].

رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً، فسمع منهم حجتهم التي تكشف

عن مدى ما أصاب نفوسهم من تخلخل، وأصاب تفكيرهم من فساد.

فالتفت إلى أخيه وهو في فورة الغضب، يأخذ بشعر رأسه وبلحيته في انفعال وثورة: ﴿**قال: يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن؟ أفعصيت أمري؟**﴾ [طه: ٩٢، ٩٣].

يُؤَنِّبه على تَركهم يعبدون العجل، دون أن يُبطل عبادته، اتباعاً لأمر موسى ـ عليه السلام ـ بألا يُحدث أمراً بعده، ولا يسمح بإحداث أمر، ويستنكر عليه عدم تنفيذه، فهل كان ذلك عصياناً لأمره؟.

وقد قرر سياق القصة القرآني ما كان من موقف هارون. فهو يُطلع أخاه عليه؛ محاولاً أن يُهدّيء من غضبه، باستجاشة عاطفة الرحم: ﴿**قال: يا ابنَ أُمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي. إني خشيت أن تقول: فرّقت من بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي**﴾ [طه: ٩٤]..

ها هو ذاهارون ـ عليه السلام ـ يستجيش في نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة، لِيُسَكِّن من غَضَبه، ويكشف له عن طبيعة موقفه، وأنه لم يُقَصِّر في نُصح القوم ومحاولته هدايتهم: ﴿**قال: ابن أُمّ، إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني!**﴾ [الأعراف: ١٥٠]..

وهنا نُدرك كيف كان القوم في هياجهم واندفاعهم إلى العجل الذهب؛ حتى لهمّوا بهارون إذ حاول ردّهم عن التردّي والانتكاس: ﴿**ابن أم**﴾.. بهذا النداء الرقيق وبهذه الوشيجة الرحيمة.

﴿**إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني**﴾ بهذا البيان المُصَوِّر لحقيقة موقفه.

﴿**فلا تُشمت بي الأعداء**﴾ [الأعراف: ١٥٠].. وهذه أخرى يستجيش بها هارون وجدان الأخوة الناصرة المعينة حين يكون هناك الأعداء الذين يشمتون!.

﴿**ولا تجعلني مع القوم الظالمين**﴾ [الأعراف: ١٥٠].. القوم الذين ضلّوا وكفروا بربهم الحق؛ فأنا لم أضلّ ولم أكفر معهم، وأنا بريء منهم!.

وهكذا نجد هارون أهدأ أعصاباً وأملك لانفعاله من موسى، فهو يلمس في مشاعره. ويجيء له من ناحية الرحم وهي أشد حساسية، ويُبين له موقفه، ويعرض له وجهة نَظَره في صورة الطاعة لأمره حسب تقديره؛ وأنه خشي إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعاً، بعضها مع العجل، وبعضها مع نصيحة هارون. وقد أمره بأن يُحافظ على بني إسرائيل ولا يُحدث فيهم أمراً. فهي كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى..

عندئذ تهدأ ثائرة موسى أمام هذه الوداعة وأمام هذا البيان. تهدأ ثائرة موسى من موقف أخيه.. وعندئذ يتوجه إلى ربه، يطلب المغفرة له ولأخيه، ويطلب الرحمة من أرحم الراحمين: ﴿**قال: ربِّ اغفر لي ولأخي، وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين**﴾ [الأعراف: ١٥١]..

وبعد ذلك يتجه موسى بغضبه وانفعاله إلى السامري صاحب الفتنة من أساسها. إنما لم يتوجه إليه منذ البدء، لأن القوم هم المسؤولون ألا يَتَّبعوا كل ناعق، وهارون هو المسؤول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هَمُّوا بذلك وهو قائدهم المُؤْتَمن عليهم. فأما السامريّ فذنبه يجيء متأخراً لأنه لم يفتنهم بالقوة، ولم يضرب على عقولهم، إنما أغواهم فغووا، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول ونُصح نبيهم الثاني. فالتبعة عليهم أولاً وعلى راعيهم بعد ذلك. ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيراً.

اتجه موسى إلى السامري!.

﴿**قال: فما خطبك يا سامري؟**﴾ [طه: ٩٥].. أي ما شأنك وما قصّتك. وهذه الصيغة تشير إلى جسامة الأمر، وعِظَم الفعلة.

﴿**قال: بَصُرْتُ بما لم يبصروا به، فقبضت قبضة من أثَر الرسول**

فنبذتها. وكذلك سولت لي نفسي﴾ [طه: ٩٦]. .

وتتكاثر الروايات حول قول السامريّ هذا. فما هو الذي بَصُر به؟ ومن هو الرسول الذي قَبَض قبضة من أثره فنبذها؟ وما علاقة هذا بعجل الذهب الذي صنعه؟ وما أثر هذه القبضة فيه؟.

والذي يتردد كثيراً في هذه الروايات أنه رأى جبريل ـ عليه السلام ـ وهو في صورته التي ينزل بها إلى الأرض؛ فقبض قبضة من تحت قدمه، أو من تحت حافر فرسه، فألقاها على عجل الذهب، فكان له هذا الخوار. أو أنها هي التي أحالت كوم الذهب عجلاً له خوار. .

والقرآن لا يُقرر هنا حقيقة ما حدث، إنما هو يحكي قول السامري مُجرد حكاية. . ونحن نميل إلى اعتبار هذا عذراً من السامريّ وتَمَلُّصاً من تَبِعة ما حدث. وأنه هو صنع العجل من الذهب الذي قذفه بنو إسرائيل من زينة المصريين التي أخذوها معهم، وأنه صنعه بطريقة تجعل الريح تُصَوّت في فراغه فَتُحدث صوتاً كالخوار. ثم قال حكاية أَثَر الرسول يُبرّر بها موقفه، ويرجع الأمر إلى فطنته إلى أثر الرسول!.

وعلى أية حال فقد أَعْلَمَهُ موسى ـ عليه السلام ـ بالطرد من جماعة بني إسرائيل. مدة حياته. وَوَكل أمره بعد ذلك إلى الله. وواجهه بعنف في أمر إلهه الذي صنعه بيده. ليرى قومه بالدليل المادي أنه ليس إلهاً، فهو لا يحمي صانعه، ولا يدفع عن نفسه:

﴿قال: فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول: لا مساس. وإن لك موعداً لن تُخْلَفه. وانظر إلى إلهك الذي ظَلْتَ عليه عاكفاً، لنُحَرقَنَّه ثم لننسفنه في اليم نسفاً﴾ [طه: ٩٧]. .

اذهب مطروداً لا يمسّك أحد لا بسوء ولا بخير ولا تمس أحداً ـ وكانت هذه هي إحدى العقوبات في ديانة موسى ـ عقوبة العزل، وإعلان

دنس المدنس فلا يقربه أحد ولا يقرب أحداً.

أما الموعد الآخر فهو موعد العقوبة والجزاء عند الله.. وفي حنق وعنف أمر أن يهوي على عجل الذهب، فَيُحْرَق ويُنْسَف ويُلقىٰ في الماء. والعنف إحدى سمات موسى ـ عليه السلام ـ وهو هنا غضبة لله ولدين الله، حيث يستحب العنف وتحسن الشدة. وعلى مشهد الإلـه المزيف يُحرق ويُنسف، يعلن موسى ـ عليه السلام ـ حقيقة العقيدة.

﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو. وسع كل شيء علماً﴾ [طه: ٩٨]..

وهنا يجيء الحكم الفاصل ممن يملكه سبحانه! ويتصل كلام الله سبحانه بما يحكيه القرآن الكريم من كلام عبده موسى على النَسَق الذي يتكرر في السياق القرآني: **﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غَضَب من ربهم وذلّة في الحياة الدنيا. وكذلك نجزي المفترين. والذين عملوا السيئات، ثم تابوا من بعدها وآمنوا، إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾** [الأعراف: ١٥٢، ١٥٣]..

إنه حُكم وَوَعْد.. إن القوم الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلّة في الحياة الدنيا.. ذلك مع قيام القاعدة الدائمة: إن الذين يعملون السيئات ثم يتوبون يغفر الله لهم برحمته.. وإذن فقد عَلِمَ الله أن الذين اتخذوا العجل لن يتوبوا تَوْبةً موصولة؛ وأنهم سيرتكبون ما يُخرجهم من تلك القاعدة.. وهكذا كان. فقد ظل بنو إسرائيل يرتكبون الخطيئة بعد الخطيئة؛ ويُسامحهم الله المرة بعد المَرّة، حتى انتهوا إلى الغَضَب الدائم واللعنة الأخيرة: **﴿وكذلك نجزي المفترين﴾**..

كُلُّ المفترين إلى يوم الدين.. فهو جزاء مُتكرر كلما تكررت جريمة

الافتراء على الله، من بني إسرائيل، ومن غير بني إسرائيل..

وَوَعْد الله صادق لا محالة. وقد كتب على الذين اتخذوا العجل الغضب والذلة.. وكان آخر ما كتب الله عليهم أن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يَسومهم سوء العذاب. فإذا بدا في فترة من فترات التاريخ أنهم يطغون في الأرض؛ ويستعلون بنفوذهم على الأمميين - أو كما يقولون عنهم في التلمود: «الجوييم»! - وأنهم يملكون سلطان المال، وسلطان أجهزة الإعلام؛ وأنهم يقيمون الأوضاع الحاكمة التي تُنفذ لهم ما يريدون؛ وأنهم يَستذلُّون بعض عباد الله ويطردونهم من أرضهم وديارهم في وحشية؛ والدول الضالة تُساندهم وتُؤيدهم.. إلى آخر ما نراه في هذا الزمان.. فليس هذا بناقض لوعيد الله لهم، ولا لما كتبه عليهم..

فهم بصفاتهم هذه وأفعالهم يختزنون النقمة في قلوب البشر؛ ويُهيئون الرصيد الذي يُدمِّرهم من السخط والغضب.. إنما هم يستطيلون على الناس في فلسطين مثلاً لأن الناس لم يَعد لهم دين! ولم يعودوا مسلمين!.. إنهم يتفرقون ويتجمعون تحت رايات قومية جنسية؛ ولا يتجمعون تحت راية العقيدة الإسلامية! وهم من ثم يخيبون ويفشلون؛ وتأكلهم إسرائيل!.

غير أن هذه حال لن تدوم! إنها فترة الغيبوبة عن السلاح الوحيد، والمنهج الوحيد، والراية الوحيدة، التي غلبوا بها ألف عام، والتي بها يَغلبون، وبغيرها يُغلَبون! إنها فترة الغيبوبة بحكم السموم التي بَثّتها اليهودية والصليبية في كيان الأمة «الإسلامية»! والتي تحرسها بالأوضاع التي تقيمها في هذه الأرض «الإسلامية».. ولكن هذا كله لن يدوم.. ستجيء الصحوة من هذه الغيبوبة.. وسَيَفِيء أخلاف المسلمين إلى سلاح أسلافهم المسلمين.. ومن يدري فقد تصحو البشرية كلها يوماً على طغيان اليهود! لِتُحَقّق وَعيد الله لهم، وتَردّهم إلى الذلّة التي كَتَبها الله عليهم.. فإن لم تصحُ البشرية فَسَيَصْحوا أخلاف المسلمين.. هذا عندنا يقين..

تأديب عنيف وكَفَّارة صارمة :

إنَّ قصة اتخاذ بني إسرائيل للعجل، وعبادته في غيبة موسى ـ عليه السلام ـ عندما ذهب إلى ميعاد ربه هي هبوط إلى الشرك والوَثنية . . والشرك ظلم عظيم . . ويصف موسى ـ عليه السلام ـ موقف قومه بانحدارهم إلى عبادة العجل بعد غيبة نبيهم الذي أنقذهم باسم الله، من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب. يصف حقيقة موقفهم في هذه العبادة بالظلم : **﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾** [البقرة: ٥١] . .

ومن أظلم ممن يترك عبادة الله ووصية نبيّه ليعبد عجلاً جسداً، وقد أنقذه الله ممن كانوا يُقدّسون العجول! .

ومع هذا فقد عفا الله عنهم، وأتى نبيهم الكتاب ـ وهو التوراة ـ فيه فرقان بين الحق والباطل، عسى أن يهتدوا إلى الحق البيّن بعد الضلال . . **﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾** [البقرة: ٥٣] . .

ولم يكن بدّ من التطهير القاسي؛ فهذه الطبيعة المُنهارة الخاوية لا تُقوّمها إلا كفّارة صارمة، وتأديب عنيف. عنيف في طريقته وفي حقيقته :

﴿وإذ قال موسى لقومه: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم. ذلكم خير لكم عند بارئكم﴾ [البقرة: ٥٤] . .

اقتلوا أنفسكم. ليقتل الطائع منكم العاصي. لِيُطَهْره ويُطَهّر نفسه . . هكذا وردت الروايات عن تلك الكَفَّارة العنيفة . . وإنه لتكليف مُرهق شاق، أن يقتل الأخ أخاه، فكأنما يقتل نفسه برضاه. ولكنه كذلك كان تربية لتلك الطبيعة المنهارة الخوّارة، التي لا تتماسك عن شرّ، ولا تتناهى عن نكر. ولو تناهوا عن المنكر في غيبة نبيهم ما عَبَدوا العجل. وإذ لم يتناهوا بالكلام

فليتناهوا بالحسام؛ وليؤدوا الضريبة الفادحة الثقيلة التي تنفعهم وتُربّيهم!.

وهنا تُدركهم رحمة الله بعد التَطَهُّر: **﴿فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾** [البقرة: ٥٤]..

وكانت هذه وقفة للتعقيب على مصير الذين اتخذوا العجل وافتروا على الله، تتوسط المشهد ثم يمضي السياق يكمل المشهد:

﴿ولما سكت عن موسى الغضبُ أخذ الألواح، وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ [الأعراف: ١٥٤]..

والتعبير القرآني يشخص الغضب، فكأنما هو حي، وكأنما هو مُسلَّط على موسى، يدفعه ويحركه.. حتى إذا «سكت» عنه، وتركه لشأنه! عاد موسى إلى نفسه، فأخذ الألواح التي كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه.. ثم يُقرر السياق مرة أخرى أن في هذه الألواح هُدى، وأن فيها رحمة، لمن يَخشون ربهم ويرهبونه؛ فَتَتَفتَّح قلوبهم للهدى وينالون به الرحمة.. والهدى ذاته رحمة. فليس أشقى من القلب الضال، الذي لا يجد النور. وليس أشقى من الروح الشارد الحائر الذي لا يجد الهدى ولا يجد اليقين.. ورهبة الله وخشيته هي التي تفتح القلوب للهدى؛ وتوقظها من الغفلة، وتُهيئها للاستجابة والاستقامة.. إن الله خالق هذه القلوب هو الذي يقرر هذه الحقيقة، ومن أعلم بالقلوب من رب القلوب؟.

التعنت والمعاجزة:

ويمضي السياق بالقصة، فإذا نحن أمام مشهد جديد.. مشهد موسى وسبعين من قومه مختارين للقاء ربه:

﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا. فلما أخذتهم الرجفة قال: ربِّ لو شِئْتَ أهلكتهم من قبل وإياي أتُهلكنا بما فعل السفهاء منا؟﴾ [الأعراف: ١٥٥]..

وتختلف الروايات في سبب هذا الميقات. وربما كان لإعلان التوبة، وطلب المغفرة لبني إسرائيل مما وقعوا فيه من الكفر والخطيئة ـ وقد تبين في السياق أن التكفير الذي فرض على بني إسرائيل هو: أن يقتلوا أنفسهم، فيقتل المطيع منهم من عصى، وقد فعلوا حتى أَذِنَ لهم بالكف عن ذلك، وقَبِلَ كفارتهم ـ وهؤلاء السبعون كانوا من شيوخهم ومن خيرتهم، أو كانوا هم خلاصتهم التي تُمثلهم، فصيغة العبارة: **﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً.. لميقاتنا﴾**.. تجعلهم بدلاً من القوم جميعاً في الاختيار..

ومع هذا فما الذي كان من هؤلاء المختارين؟ لقد أخذتهم الرجفة فَصُعقوا. ذلك أنهم كما ورد في سورة البقرة[1] طلبوا إلى موسى أن يَروا الله جهرة، لِيُصَدّقوه فيما جاءهم به من الفرائض في الألواح.. وهي شاهدة بطبيعة بني إسرائيل، التي تشمل خيارهم وشرارهم، ولا يتفاوتون فيها إلا بمقدار. وأعجب شيء أن يقولوها وهم في مقام التوبة والاستغفار!.

ولكن إسرائيل هي إسرائيل! هي كثافة حسّ، ومادية فكر، واحتجاباً عن مسارب الغيب.. فإذا هم يطلبون أن يروا الله جهرة، والذي طلب هذا هم السبعون المختارون منهم، الذين اختارهم موسى لميقات ربه ويرفضون الإيمان لموسى إلا أن يَروا الله عياناً.

والقرآن يواجه بني إسرائيل في عصر محمد ـ ﷺ ـ بهذا التجديف الذي صدر من آبائهم، لينكشف تعنتهم القديم الذي يُشابه تعنتهم الجديد مع الرسول الكريم، وطلبهم الخوارق منه، وتحريضهم بعض المؤمنين على طلب الخوارق للتَثَبُّت من صدقه:

﴿وإذ قلتم: يا موسى لن نُؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾ [البقرة: ٥٥]..

---

(١) والظاهر من سياق القصة أن حادثة سورة الأعراف هي هي ما ورد في سورة البقرة. وليست حادثة أخرى في تاريخ بني إسرائيل مع موسى.

إن الحسّ المادي الغليظ هو وحده طريقهم إلى المعرفة.. أم لعله التَعَنُّت والمعاجزة..

والآيات الكثيرة، والنعم الإلهية، والعفو والمغفرة.. كلها لا تُغير من تلك الطبيعة الجاسية، التي لا تؤمن إلا بالمحسوس، والتي تظل مع ذلك تُجادل وتُماحل ولا تستجيب إلا تحت وقع العذاب والتنكيل، مما يوحي بأن فترة الإذلال التي قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفساداً عميقاً. وليس أشد إفساداً للفطرة من الذلّ الذي يُنشئه الطغيان الطويل، والذي يُحطّم فضائل النفس البشرية، ويُحلّل مقوّماتها، ويغرس فيها المعروف من طِباعِ العبيد: استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمرداً حين يرفع عنها السوط، وتبطُراً حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة.. وهكذا كانت إسرائيل، وهكذا هي في كل حين..

ومن ثم يجدفون هذا التجديف. ويتعنتون هذا التعنت: **﴿وإذ قلتم يا موسى لن نُؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾**..

ومن ثم يأخذهم الله جزاء ذلك التجديف، وهم على الجبل في الميقات المعلوم: **﴿فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾**..

ومرة أخرى، تُدركهم رحمة الله، وتُوهَب لهم فرصة الحياة عسىٰ أن يذكروا ويشكروا، ويذكرهم هنا مواجهة بهذه النعمة:

﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ [البقرة: ٥٦]..

فأما موسى ـ عليه السلام ـ فقد توجّه إلى ربه، يتوسّل إليه، ويطلب المغفرة والرحمة، ويعلن الخضوع والاعتراف بالقدرة:

﴿فلما أخذتهم الرجفة قال: ربِّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾ [الأعراف: ١٥٥]..

فهو التسليم المطلق للقدرة المطلقة من قبل ومن بعد، يقدمه موسى

بين يدي دعائه لربه أن يكشف عن القوم غَضَبه؛ وأن يردّ عنهم فِتْنَته، وألا يُهلكهم بفعلة السفهاء منهم: ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟﴾ [الأعراف: ١٥٥]..

وقد جاء الرجاء بصيغة الاستفهام. زيادة في طلب استبعاد الهلاك.. أي: ربّ إنه لمُستبعد على رحمتك أن تهلكنا بما فعل السفهاء منا.

﴿إن هي إلا فتنتك تُضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ [الأعراف: ١٥٥]..

يعلن موسى ـ عليه السلام ـ إدراكه لطبيعة ما يقع؛ ومعرفته أنها الفتنة والابتلاء؛ فما هو بغافل عن مشيئة ربّه وفِعْله كالغافلين!.

وهذا هو الشأن في كل فتنة: أن يهدي الله بها من يدركون طبيعتها ويأخذونها على أنها ابتلاء من ربهم وامتحان يجتازونه صاحين عارفين. وأن يضلّ بها من لا يُدركون هذه الحقيقة ومن يَمرون بها غافلين، ويخرجون منها ضالين.. وموسى ـ عليه السلام ـ يقرر هذا الأصل تمهيداً لطلب العون من الله على اجتياز الابتلاء:

﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ [الأعراف: ١٥٥].. فامنحنا عونك ومددك لاجتياز فتنتك، ونَيل مغفرتك ورحمتك..

﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة، وإنّا هُدنا إليك﴾ [الأعراف: ١٥٦].. رجعنا إليك، والتجأنا إلى حماك، وطلبنا نصرتك.

وهكذا قَدَّم موسى ـ عليه السلام ـ لطلب المغفرة والرحمة؛ بالتسليم لله والاعتراف بحكمة ابتلائه، وختمه بإعلان الرجعة إلى الله والالتجاء إلى رحابه. فكان دعاؤه نموذجاً لأدب العبد الصالح في حقّ الرب الكريم؛ ونموذجاً لأدب الدعاء في البدء والختام.

ثم يجيئه الجواب: **﴿قال: عذابي أُصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء﴾** [الأعراف: ١٥٦]..

تقريراً لطلاقة المشيئة، التي تضع الناموس اختياراً، وتُجريه اختياراً: وإن كانت لا تُجريه إلا بالعدل والحق على سبيل الاختيار أيضاً، لأن العدل صفة من صفاته تعالى لا تتخلف في كل ما تجري به مشيئته، لأنه هكذا أراد.. فالعذاب يُصيب به من يستحق عنده العذاب.. وبذلك تجري مشيئته.. أما رحمته فقد وَسِعَتْ كل شيء؛ وهي تَنال من يستحقها عنده كذلك.. وبذلك تجري مشيئته، ولا تجري مشيئته ـ سبحانه ـ بالعذاب أو بالرحمة جزافاً أو مصادفة. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

نبـأ عظيـم:

وبعد تقرير القاعدة يُطلع الله نبيه موسى **على طَرف من الغَيب المقبل، إذ يُطلعه على نبأ المِلّة الأخيرة**، التي سيكتب الله لها رحمته التي وسعت كل شيء.. بهذا التعبير الذي يجعل رحمة الله أوسع من ذلك الكون الهائل الذي خَلَقه، والذي لا يُدرك البشر مداه.. فيا لها من رحمة لا يُدْرِك مداها إلا الله!.

﴿فسأكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل؛ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويُحلّ لهم الطيبات، ويُحرّم عليهم الخبائث، ويَضَع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. فالذين آمنوا به وعَزَّروه ونَصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ [الأعراف: ١٥٧]..

وإنه لنبأ عظيم، يشهد بأن بني إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمي، على يدي نبيهم موسى ونبيهم عيسى ـ عليهما السلام ـ منذ أمد

بعيد. جاءهم الخبر اليقين ببعثه، وبصفاته، وبمنهج رسالته، وبخصائص مِلّته. فهو «النبي الأمي»، وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهو يُحلّ لهم الطيبات، ويُحرّم عليهم الخبائث، وهو يضع عمن يُؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي عَلِمَ الله أنها سَتُفرض عليهم بسبب معصيتهم، فيرفعها عنهم النبي الأمي حين يؤمنون به. وأتباع هذا النبي يَتّقون ربهم، ويُخرجون زكاة أموالهم، ويُؤمنون بآيات الله.. وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأمي، ويُعظّمونه ويُوقّرونه، وينصرونه ويُؤيدونه، ويتبعون النور الهادي الذي معه ﴿**أولئك هم المفلحون**﴾..

وبذلك البلاغ المُبَكّر لبني إسرائيل ـ على يَد نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ كشف الله ـ سبحانه ـ عن مُستقبل دينه، وعن حامل رايته، وعن طريق أتباعه، وعن مُستقر رحمته.. فلم يبق عذر لأتباع الديانات السابقة، بعد ذلك البلاغ المُبَكّر بالخبر اليقين.

وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى ـ عليه السلام ـ وهو والسبعون المختارون من قومه في ميقات ربه ـ يكشف كذلك عن مدى جريمة بني إسرائيل في استقبالهم لهذا النبي الأمي وللدين الذي جاء به. وفيه التخفيف عنهم والتيسير، إلى جانب ما فيه من البشارة بالفلاح للمؤمنين!.

إنها الجريمة عن علم وعن بينة! والجريمة التي لم يألوا فيها جهداً. فقد سَجّل التاريخ أن بني إسرائيل كانوا هم أَلَأم خَلْق وَقَف لهذا النبي وللدين الذي جاء به.. اليهود أولاً والصليبيون أخيراً.. وأن الحرب التي شَنّوها على هذا النبي ودينه وأهل دينه كانت حرباً خبيثة ماكرة لئيمة قاسية؛ وأنهم أصروا عليها ودأبوا؛ وما يزالون يصرون ويدأبون!.

والذي يراجع ـ فقط ـ ما حكاه القرآن الكريم من حرب أهل الكتاب للإسلام والمسلمين يطلع على المدى الواسع المتطاول الذي أداروا فيه

المعركة مع هذا الدين في عناد لئيم!.

والذي يراجع التاريخ بعد ذلك ـ منذ اليوم الذي استعلن فيه الإسلام بالمدينة، وقامت له دولة ـ إلى اللحظة الحاضرة، يدرك كذلك مدى الإصرار العنيد على الوقوف لهذا الدين وإرادة مَحوه من الوجود!.

ولقد استخدمت الصهيونية والصليبية في العصر الحديث من ألوان الحرب والكيد والمكر أضعاف ما استخدمته طوال القرون الماضية.. وهي في هذه الفترة بالذات تعالج إزالة هذا الدين بجملته؛ وتحسب أنها تدخل معه في المعركة الأخيرة الفاصلة.. لذلك تستخدم جميع الأساليب التي جربتها في القرون الماضية كلها ـ بالإضافة إلى ما استحدثته منها ـ جملة واحدة!.

وذلك في الوقت الذي يقوم ممن ينتسبون إلى الإسلام ناس يدعون في غرارة ساذجة إلى التعاون بين أهل الإسلام وأهل بقية الأديان للوقوف في وجه تيار المادية والإلحاد! أهل بقية الأديان الذين يذبحون من يَنتسبون إلى الإسلام في كل مكان؛ ويَشنُّون عليهم حرباً تتسم بكل بشاعة الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش في الأندلس ـ سواء عن طريق أجهزتهم المباشرة في المستعمرات في آسيا وإفريقية أو عن طريق الأوضاع التي يقيمونها ويسندونها في البلاد (المستقلة) لتحلّ محل الإسلام عقائد ومذاهب علمانية!.

تُنكر «الغيبية» لأنها «علمية»! و«تطوّر» الأخلاق لتسبح هي أخلاق البهائم التي ينزو بعضها على بعض في «حرية!»، و«تُطَوّر» كذلك الفقه الإسلامي، وتقيم له مؤتمرات المستشرقين لتطويره. كما يحل الربا والاختلاط الجنسي وسائر المحرمات الإسلامية!!.

إنها المعركة الوحشية الضارية يخوضها أهل الكتاب مع هذا الدين،

الذين بُشِّروا به وبِنَبيِّه منذ ذلك الأمد البعيد. ولكنهم تلقوه هذا التلقي اللئيم الخبيث العنيد!.

ثم تمضي القصة في سياقها بعد الرجفة التي أخذت رجالات بني إسرائيل.. وقد ذكر عنهم القرآن أن الله أحياهم بعد الرجفة، فعادوا إلى قومهم مؤمنين.

ويقرر القرآن الكريم **حقيقةً عن قوم موسى**.. أنهم لم يكونوا جميعاً ضالين: **﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾** [الأعراف: ١٥٩]..

هكذا كانوا على عهد موسى؛ وهكذا كانت منهم طائفة تهدي بالحق وتحكم بالعدل من بعد موسى.. ومن هؤلاء من استقبلوا رسالة النبي الأمي في آخر الزمان بالقبول والاستسلام، لما يعرفونه عنها في التوراة التي كانت بين أيديهم على مبعث رسول الله - ﷺ - **وفي أوّلهم الصحابي الجليل: عبد الله بن سلام - رضي الله عنه -**. الذي كان يُواجه يهود زمانه بما عندهم في التوراة عن النبي الأمي، وما عندهم كذلك من شرائع تصدقها شرائع الإسلام.

الميثاق الغليظ:

ثم يمضي سياق القصة في استعراض نفوس بني إسرائيل، وتعنتهم وتقلبّهم، ويُصوّر جبلّتهم وغلظ حسّهم فلا يُسلمون إلا تحت الشدة القاهرة والضغط الثقيل.. فهم هم في كل جيل وقبيل لا يُفلح معهم إلا القهر والخوف:

﴿وآتينا موسى سُلطاناً مبيناً. ورَفعنا فوقهم الطور بميثاقهم. وقلنا لهم: ادخلوا الباب سُجَّداً. وقلنا لهم لا تعدوا في السبت. وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ [النساء: ١٥٣، ١٥٤]..

والسلطان الذي آتاه الله موسى هو - في الغالب - الشريعة التي تضمنتها الألواح، فشريعة الله سلطان من الله؛ وكل شريعة غير شريعة الله ما أنزل الله بها من سلطان؛ وما جعل فيها من سطوة على القلوب. لذلك تستهين القلوب بالشرائع والقوانين التي يسنّها البشر لأنفسهم، ولا تنفذها إلا تحت عين الرقيب وسيف الجلاد. فأما شريعة الله فالقلوب تخضع لها وتخنع؛ ولها في النفس مهابة وخشية..

ولكن اليهود الذين لا تستشعر قلوبهم الإيمان أَبَوْ الاستسلام لما في الألواح.. وهنا جاءهم القهر المادي الذي يناسب طبيعته الغليظة. ويذكر القرآن كيف كان الله قد أَخَذَ على بني إسرائيل الميثاق:

﴿وإذ نَتَقْنَا الجبل فوقهم كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم. خذوا ما آتيناكم بقوة، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ [الأعراف: ١٧١]..

إنه ميثاق لا يُنسى.. فقد أُخذ في ظرف لا يُنسى! أُخذ وقد نَتَقَ الله الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة، وظنوا أنه واقع بهم! ولقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق، فأعطوه في ظل خارقة هائلة إذ نظروا فرأوا الصخرة مُعلَّقة فوق رؤوسهم؛ تُهدِّدهم بالوقوع عليهم؛ إذا هم لم يستسلموا ولم يتعهدوا بأخذ ما أعطاهم الله من العهد؛ وما كتب عليهم من التكاليف في الألواح.. عندئذ فقط استسلموا؛ وأخذوا العهد؛ وأعطوا الميثاق في ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس.

ولقد أُمروا في ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية، وأن يستمسكوا به في شدة وصرامة، وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يتراجعوا في ميثاقهم الوثيق. وأن يظلوا ذاكرين لما فيه، لعل قلوبهم تخشع وتتقي. وتظل موصولة بالله لا تنساه!.

لقد أعطوا الميثاق في ظل خارقة هائلة.. ميثاقاً غليظاً.. مؤكداً وثيقاً.. **﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾**.. يذكره - بهذه الصفة - ليتناسق

المشهد مع غلظ الصخر المرفوع فوقهم، وغلظ القلب الذي في صدورهم، ثم يُعطي إلى ـ جانب التناسق ـ معنى الجسامة والوثاقة والمتانة على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير، وبالتخييل الحسي والتجسيم...

﴿وإذا أخذنا ميثاقكم، ورفعنا فوقكم الطور: خذوا ما آتيناكم بقوة، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون. ثم توليتم من بعد ذلك، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ [البقر: ٦٣، ٦٤]..

هنا يبرز للخيال مشهد شاخص لبني إسرائيل في ظل الجبل المعلَّق فوقهم.. والموقف مُؤَثِّر يجمع بين التناسق النفسي والتعبيري بين قوة رَفْع الجبل فوق رؤوسهم وقوة أَخْذ العهد، وأَمَرهم أن يأخذوا ما فيه بقوة. وأن يعزموا فيه عزيمة. فأَمْر العقيدة لا رخاوة فيه ولا تميع، ولا يقبل أنصاف الحلول ولا الهزل ولا الرخاوة.. إنه عهد الله مع المؤمنين.. وهو جدّ وحق، فلا سبيل فيه لغير الجد والحق.. وله تكاليف شاقة، نعم! ولكن هذه هي طبيعته. إنه أمر عظيم. أعظم من كل ما في هذا الوجود. فلا بد أن تُقبل عليه النفس إقبال الجادّ القاصد العارف بتكاليفه، المُتَجَمِّع الهَمّ والعزيمة المُصَمِّم على هذه التكاليف.

ولا بد أن يدرك صاحب هذا الأمر أنه إنما يُودِّع حياة الدعة والرخاء والرخاوة، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ وقد نودي للتكليف: «مضى عهد النوم يا خديجة».. وكما قال له ربه: **﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾** [المزمل: ٥].. وكما قال لبني إسرائيل:

﴿خذوا ما آتيناكم بقوة. واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ [البقرة: ٦٣]..

ولا بد مع أخذ العهد بقوة وجد واستجماع نفس وتصميم.. لا بد مع هذا من تَذَكُّر ما فيه، واستشعار حقيقته، والتَكَيُّف بهذه الحقيقة، كي لا يكون الأمر كله مجرد حماسة وحمية وقوة. فَعَهْد الله منهج حياة، منهج

يستقر في القلب تصوراً وشعوراً، ويستقر في الحياة وَضْعاً ونظاماً، ويستقر في السلوك أدباً وخلقاً، وينتهي إلى التقوى والحساسية برقابة الله وخشية المصير.

ولكن هيهات! لقد أدركت إسرائيل نحيزتها، وغلبت عليها جِبلّتها: **﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾** . .

ثم أدركتها رحمة الله مرة أخرى وشملها فضله العظيم، فأنقذها من الخسار المبين:

﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ . .

إنه ميثاق الله مع بني إسرائيل . . هذا الميثاق العظيم لا ينقطع بغيبة الرسول والنبي . وقد أمروا أن يأخذوه بقوة وأن يذكروا ما فيه:

﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل، وبعثنا منهم اثنىٰ عَشر نقيباً . . ﴾ [المائدة: ١٢] . .

لقد كان ميثاق الله مع بني إسرائيل ميثاقاً بين طرفين؛ متضمناً شرطاً وجزاء. والنص القرآني يثبت نص الميثاق وشرطه وجزاءه، بعد ذكر عقد الميثاق وملابسات عقده كما سيأتي.

لقد كان عقداً مع نقباء بني إسرائيل الإثني عشر، الذين يُمَثّلون فروع بيت يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ وهم ذرية الأسباط ـ أحفاد يعقوب ـ وعدتهم اثنا عشر سبطاً . . وكان هذا نصه:

﴿وقال الله: إني معكم. لئن أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وآمنتم برسلي، وعَزَّرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً . . لأكفرن عنكم سيئاتكم، ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار. فمن كفر بعد ذلك منكم، فقد ضلّ سواء السبيل﴾ [المائدة: ١٢] . .

. . **﴿إني معكم﴾** . . وهو وعد عظيم. فمن كان الله معه، فلا شيء

إذن ضده. ومهما يكن ضده من شيء فهو هباء لا وجود ـ في الحقيقة ـ له ولا أثر. ومن كان الله معه فلن يضل طريقه، فإن معية الله ـ سبحانه ـ تهديه ـ كما أنها تكفيه. ومن كان الله معه فلن يقلق ولن يشقى، فإن قربه من الله يطمئنه ويسعده.

وعلى الجملة فمن كان الله معه فقد ضمن، وقد وصل، وما له زيادة يستزيدها على هذا المقام الكريم.

ولكن الله ـ سبحانه ـ لم يجعل مَعيّته لهم جزافاً ولا محاباة؛ ولا كرامة شخصية منقطعة عن أسبابها وشروطها عنده.. إنما هو عقد.. فيه شرط وجزاء.

شرطه: إقامة الصلاة.. لا مجرد أداء الصلاة.. إقامتها على أصولها التي تجعل منها صلة حقيقية بين العبد والرب؛ وعنصراً تهذيبياً وتربوياً وفق المنهج الرباني القويم؛ وناهياً عن الفحشاء والمنكر حياء من الوقوف بين يدي الله بحصيلة من الفحشاء والمنكر!.

وإيتاء الزكاة.. اعترافاً بنعمة الله في الرزق؛ وملكيته ابتداء للمال؛ وطاعة له في التصرف في هذا المال وفق شرطه ـ وهو المالك والناس في المال وكلاء ـ وتحقيقاً للتكافل الاجتماعي الذي على أساسه تقوم حياة المجتمع المؤمن، وإقامة لأسس الحياة الاقتصادية على المنهج الذي يكفل ألا يكون المال دولة بين الأغنياء، وألا يكون تكدس المال في أيد قليلة سبباً في الكساد العام بعجز الكثرة عن الشراء والاستهلاك مما ينتهي إلى وقف دولاب الإنتاج أو تبطئه؛ كما يفضي إلى الترف في جانب والشظف في جانب، وإلى الفساد والاختلال في المجتمع بشتى ألوانه..

كل هذا الشرّ الذي تحول دونه الزكاة؛ ويحول دونه منهج الله في توزيع المال؛ وفي دورة الاقتصاد..

والإيمان برسل الله.. كلهم دون تفرقة بينهم. فكلهم جاء من عند الله؛ وكلهم جاء بدين الله. وعدم الإيمان بواحد منهم كُفر بهم جميعاً، وكُفر بالله الذي بعث بهم جميعاً..

وليس هو مجرد الإيمان السلبي، إنما هو العمل الإيجابي في نصرة هؤلاء الرسل، وشد أزرهم فيما ندبهم الله له، وفيما وقفوا حياتهم كلها لأدائه..

فالإيمان بدين الله من مقتضاه أن ينهض المؤمن لينصر ما آمن به، وليقيمه في الأرض، وليحققه في حياة الناس. فدين الله ليس مجرد تصور اعتقادي، ولا مجرد شعائر تعبدية. إنما هو منهج واقعي للحياة. ونظام محدد يصرف شؤون هذه الحياة. والمنهج والنظام في حاجة إلى نصرة، وتعزير، وإلى جهد وجهاد لتحقيقه ولحمايته بعد تحقيقه.. وإلا فما وَفى المؤمن بالميثاق.

وبعد الزكاة إنفاق عام.. يقول عنه الله ـ سبحانه ـ إنه قرض لله.. والله هو المالك، وهو الواهب.. ولكنه ـ فضلاً منه ومِنّة ـ يسمي ما يُنفقه الموهوب له ـ متى أنفقه لله ـ قرضاً لله..

لقد تضمن ذلك الميثاق القواعد الثابتة لدين الله. هذه القواعد التي جاء بها الإسلام أيضاً، فَتَنكَّروا لها وأنكروها...

﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله، وبالوالدين إحساناً، وذي القربى واليتامى والمساكين؛ وقولوا للناس حُسناً، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة.. ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾ [البقرة: ٨٣]..

لقد تضمن ميثاق الله معهم: ألا يعبدوا إلا الله.. القاعدة الأولى للتوحيد المطلق. وتضمن الإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى

والمساكين. وتضمن خطاب الناس بالحسنى، وفي أولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. كذلك تضمن فريضة الصلاة وفريضة الزكاة. وهذه في مجموعها هي قواعد الإسلام وتكاليفه..

ومن ثم تتقرر حقيقتان:

الأولى: هي وحدة الدين، وتصديق هذا الدين الأخير لما قبله في أصوله.

والثانية: هي مقدار التعنت في موقف اليهود من هذا الدين، وهو يدعوهم لمثل ما عاهدوا الله عليه، وأعطوا عليه الميثاق..

ذلك كان الشرط. فأما الجزاء فكان:

تكفير السيئات.. والإنسان الذي لا يَنِي يُخطىء، ولا يَنِي يَندفع إلى السيئة مهما جاء بالحسنة.. تكفير السيئات بالنسبة إليه جزاء ضخم ورحمة من الله واسعة، وتدارك لضعفه وعجزه وتقصيره..

وجنة تجري من تحتها الأنهار.. وهي فضل خالص من الله، لا يبلغه الإنسان بعمله، إنما يبلغه بفضل من الله، حين يبذل الجهد، فيما يملك وفيما يطيق..

وكان هناك شرط جزائي في الميثاق: ﴿**فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل**﴾..

فلا هدى له بعد ذلك، ولا أوبة له من الضلال. بعد إذ تبين له الهدى، وتحدد معه العقد، ووضح له الطريق، وتأكد له الجزاء..

ذلك كان ميثاق الله مع نقباء بني إسرائيل.. عمن وراءهم. وقد ارتضوه جميعاً، فصار ميثاقاً مع كل فرد فيهم، وميثاقاً مع الأمة المؤلفة منهم.. فماذا كان من بني إسرائيل!.

كان في هذا الميثاق أن يدخلوا بيت المقدس سُجَّداً. وأن يُعظِّموا السَبت الذي طلبوا أن يكون لهم عيداً. .

ولكن ماذا كان؟ إنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم؛ وغياب القهر لهم، تملَّصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه، وكفروا بآيات الله، وفسقوا وجحدوا، وظلموا وانتكسوا. . ﴿**وما ظلمونا ولكن أنفسهم يظلمون**﴾. . وإن كانت عاقبة ذلك عليهم، فما ظلموا إلا أنفسهم!.

انحراف ومعصية وجحود:

والآن فلننظر كيف سارت خطوات بني إسرائيل المنحرفة: ﴿**وإذ قيل لهم: اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا: حِطّة، وادخلوا الباب سُجَّداً، نغفر لكم خطيئاتكم، سنزيد المحسنين**﴾ [الأعراف: ١٦١]. .

لقد عفا الله عنهم بعد اتخاذهم العجل، وعفا عنهم بعد الرجفة على الجبل. ولقد أنعم عليهم بكل تلك النعم. . وأخذ عليهم الميثاق. . ثم ها هم أولاء تلتوي بهم طبيعتهم عن استقامة الطريق! ها هم أولاء يعصون الأمر ويُبَدِّلون القول!.

ويواجههم القرآن بما كان منهم من انحراف ومعصية وجحود: ﴿**وإذ قلنا: ادخلوا هذه القرية، فكلوا منها حيث شئتم رغداً، وادخلوا الباب سُجَّداً، وقولوا: حِطّة. نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين. فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء، بما كانوا يفسقون**﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩]. .

تذكر بعض الروايات أن القرية المقصودة هنا هي بيت المقدس، التي أمر الله بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر أن يدخلوها، ويُخرجوا منها العمالقة الذين كانوا يسكنونها. . ولكن القرآن لم يعين اسمها ـ لأنه لا يزيد

في مغـزى القصة شيئاً ـ ونقف عند بيـان القرآن الكـريم. . ها هم أولاء يُؤمرون بدخول قرية بعينها ـ أي مدينة كبيرة ـ، وتُباح لهم خيراتها جميعاً، على أن يقولوا دعاء بعينه وهم يدخلونها؛ وعلى أن يدخلوا بابهـا سجداً، إعلان الخضوع لله في ساعة النصر، والاستعلاء، فلقد نصرهم الله فدخلوا القرية المعينة. . على أن يدخلوها في هيئة خشوع وخضوع، وذلـك كما دخل رسول الله ـ ﷺ ـ مكة في عام الفتح ساجـداً على ظهر دابتـه ـ وفي مقابل طاعة الأمر، وَعَدهم أن يغفر لهم خطاياهم، وأن يزيد المحسنين من فضله ونعمته. فخالفوا عن هذا كله كعادة يهود. .

فبدلاً من أن يدخلوها سُجَّداً كما أمرهم الله، علامة على التـواضع والخشوع، ويقولوا: حِطّة. . أي حطّ عنا ذنوبنا واغفر لنا. . فإذا فريق منهم يُبدلون صيغة الدعاء التي أُمروا بها، وقالوا قولاً آخر. . ويُبدلون الهيئة التي كُلِّفوا أن يدخلوا عليها. . لماذا؟ تلبية للانحراف الذي يلوي نفوسهم عن الاستقامة: **﴿فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾**. .

ويخص الذين ظلموا بالذكر. إما لأنهم كانوا فريقاً منهم هو الذي بدَّل وظلم. وإما لتقرير وصف الظلم لهم جميعاً، إذا كان قد وقع منهم جميعاً. .

عندئذ يرسل الله عليهم من السماء عذاباً. . السماء التي تنزل عليهم منها المَنّ والسَّلْوى وظللهم فيها الغمام!. .

﴿فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون﴾. . وهكذا كان ظلم فريق منهم ـ أي كفرهم ـ ظلماً لأنفسهم بما أصابهم من عذاب الله. .

ولا يفصل القرآن نوع العذاب الـذي أصابهم في هـذه المرة. لأن غرض القصة يتم بدون تعيينه. فالغرض هو بيان عاقبة المعصية عن أمر الله، وتحقيق النذر، ووقوع الجزاء العادل الذي لا يفلت منه العصاة. . **﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾** [البقرة: ٥٩]. .

والرجز: العذاب. والفسوق: المخالفة والخروج.. وكانت هذه واحدة من أفاعيل بني إسرائيل!.

اللجاجة والتعنت:

ونتابع قصة بني إسرائيل.. والقرآن حين يعرض القصة يشير إلى مواقف منها ومشاهد باختصار أو بتطويل مناسب... لقد وردت القصة في سور كثيرة.. ففي السور المكية كانت هناك تُذكر ـ مع غيرها ـ لتثبيت القلة المؤمنة في مكة بعرض تجارب الدعوة وموكب الإيمان الواصل منذ أول الخليقة.. موكب الأنبياء والرسل، وتوجيه الجماعة المسلمة بما يناسب ظروفها في مكة.. وأما في السور المدنية فالقصد هو ما أسلفنا من كشف حقيقة نوايا اليهود ووسائلهم وتحذير الجماعة المسلمة منها، وتحذيرها كذلك من الوقوع في مثل ما وقعت فيه قبلها يهود.

وسورة البقرة من أوائل ما نزل من السور في المدينة وتتضمن كشف حقيقة اليهود وأفاعيلهم فيما تتضمن من بيان المنهج الرباني. منهج التصور والعبادة، ومنهج السلوك والمعاملة. وسميت السورة بالبقرة تأكيداً على أهمية قصتها..

وقصة البقرة.. تجيء مُفصلة وفي صورة حكاية، وهي ترسم سِمَة اللجاجة والتعنت والتلكُّؤ في الاستجابة، وتحمل المعاذير، التي تتسم بها إسرائيل:

﴿**وإذ قال موسى لقومه: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة. قالوا: أتتخذنا هزواً؟ قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين.**.﴾ [البقرة: ٦٧]..

وفي هذه القصة القصيرة ـ التي يعرضها القرآن الكريم في سورة البقرة ـ مجال للنظر في جوانب شتى.. جانب دلالتها على طبيعة بني إسرائيل وجِبلّتهم الموروثة. وجانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة

البعث، وطبيعة الموت والحياة. ثم جانب الأداء الفني في عرض القصة بدءاً ونهاية واتساقاً مع السياق. .

إن السمات الرئيسية لطبيعة إسرائيل تبدو واضحة في قصة البقرة هذه: انقطاع الصلة بين قلوبهم، وذلك النبع الشفيف الرقراق: نبع الإيمان بالغيب، والثقة بالله، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل. ثم التلكؤ في الاستجابة للتكاليف، وتَلَمُّس الحجج والمعاذير، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان!.

لقد قال لهم نبيهم: **﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾**. . وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفي للاستجابة والتنفيذ. فَنَبِيّهم هو زعيمهم الذي أنقذهم من العذاب المهين، برحمة من الله ورعاية وتعليم؛ وهو يُنبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه، إنما هو أَمْر الله، الذي يسير بهم على هداه. . فماذا كان الجواب؟.

لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب، واتهاماً لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم! كأنما يجوز لإنسان يعرف الله ـ فضلاً على أن يكون رسول الله ـ أن يتخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس: **﴿قالوا: أتتخذنا هزواً؟﴾**.

وكان ردّ موسى على هذه السفاهة أن يستعيذ بالله؛ وأن يردّهم برفق، وعن طريق التعريض والتلميح، إلى جادة الأدب الواجب في جانب الخالق جلّ عُلاه، وأن يُبين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بجاهل بقَدَر الله، لا يعرف ذلك الأدب ولا يتوخاه: **﴿قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾**. .

وكان في هذا التوجيه كفاية ليثوبوا إلى أنفسهم، ويرجعوا إلى ربهم، ويُنَفِّذوا أَمْر نبيهم. . ولكنها إسرائيل!.

نعم. لقد كان في وسعهم ـ وهم في سعة من الأمر ـ أن يمدوا أيديهم

إلى أية بَقَرة فيذبحوها، فإذا هم مطيعون لأمر الله، مُنَفِّذون لإشارة رسوله. ولكن طبيعة التلكؤ تُدركهم، فإذا هم يسألون: ﴿**قالوا: ادع لنا ربك يُبين لنا ما هي؟**﴾ [البقرة: ٦٨]..

والسؤال بهذه الصيغة يشي بأنهم ما يزالون في شكهم أن يكون موسى هازئاً فيما أنهى إليهم!.

فَهُم أولاً: يقولون: ﴿**ادع لنا ربك**﴾.. فكأنما هو ربّه وحده لا ربّهم كذلك! وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى وربّه!.

وهم ثانياً: يطلبون منه أن يدعو ربه ليبين لهم: ﴿**ما هي؟**﴾ والسؤال عن الماهية في هذا المقام ـ وإن كان المقصود الصِّفَة ـ إنكار واستهزاء.. ما هي؟ إنها بقرة. وقد قال لهم هذا من أول الأمر بلا تحديد لصفة ولا سِمة.. بَقرة وكفى!.

هنا كذلك يردهم موسى إلى الجادة، بأن يسلك في الإجابة طريقاً غير طريق السؤال. إنه لا يجبههم بانحرافهم في صيغة السؤال كي لا يدخل معهم في جَدَل شكلي.. إنما يُجيبهم كما ينبغي أن يجيب المعلم المربي من يَبتليه الله بهم من السفهاء المنحرفين.. يُجيبهم عن صفة البقرة: ﴿**قال: إنها بقرة لا فَارض ولا بِكر، عَوان بين ذلك**﴾..

إنها بقرة لا هي عجوز ولا هي شابة، وسط بين هذا وذاك. ثم يعقب على هذا البيان المجمل بنصيحة آمرة جازمة:

﴿**فافعلوا ما تؤمرون**﴾ [البقرة: ٦٨]..

ولقد كان في هذا كفاية لمن يريد الكفاية؛ وكان حسبهم وقد ردَّهم نبيهم إلى الجادة مرتين، ولَمّح لهم بالأدب الواجب في السؤال وفي التلقي. أن يعمدوا إلى أية بقرة من أبقارهم، لا عجوز ولا صغيرة، متوسطة السن، فيَخلِّصوا بها ذمتهم، ويُنفِّذوا بذبحها أَمْر ربهم، ويعفوا أنفسهم من مشقة

التعقيد والتضييق. . ولكن إسرائيل هي إسرائيل!.

لقد راحوا يسألون: ﴿**قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها؟**﴾ [البقرة: ٦٩]. .

هكذا مرة أخرى: ﴿**ادع لنا ربك!**﴾. . ولم يكن بد ـ وقد شققوا الموضوع وطلبوا التفصيل ـ أن يأتيهم الجواب بالتفصيل:

﴿**قال: إنه يقول، إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين**﴾ [البقرة: ٦٩]. .

وهكذا ضَيَّقوا على أنفسهم دائرة الاختيار ـ وكانوا من الأمر في سعة ـ فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا لا عن بقرة. . مجرد بقرة. . بل عن بقرة متوسطة السن، لا عجوز ولا صغيرة، وهي بعد هذا صفراء فاقع لونها؛ وهي بعد هذا وذلك ليست هزيلة ولا شوهاء: ﴿**تسرّ الناظرين**﴾. .

وسرور الناظرين لا يتم إلا أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع في تلك البقرة المطلوبة؛ فهذا هو الشائع في طباع الناس: أن يعجبوا بالحيوية والاستواء ويُسَرُّوا، وأن ينفروا من الهزال والتشويه ويَشمئزوا.

ولقد كان فيما تلكأوا كفاية، ولكنهم يمضون في طريقهم، يُعقِّدون الأمور، ويُشددون على أنفسهم، فَيُشدِّد الله عليهم. لقد عادوا مرة أخرى يسألون عن الماهية:

﴿**قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون**﴾ [البقرة: ٧٠]. .

ويعتذرون عن هذا السؤال وعن ذلك التلكؤ بأن الأمر مُشكِل. . وكأنما استشعروا لجاجتهم هذه المرة. فهم يقولون: ﴿**وإنا إن شاء الله لمهتدون**﴾. . ولم يكن بد كذلك أن يزيد الأمر عليهم مشقة وتعقيداً، وأن

تزيد دائرة الاختيار المتاحة لهم حصراً وضيقاً، بإضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة، كانوا في سعة منها وفي غِنى عنها:

﴿قال: إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تُثير الأرض ولا تسقي الحرث، مُسلّمة لاشية فيها﴾ [البقرة: ٧١]. .

وهكذا لم تعد بقرة متوسطة العمر. صفراء فاقع لونها فارهة فحسب. بل لم يعد بد أن تكون ـ مع هذا ـ بقرة غير مُذلَّلة ولا مُدَرَّبة على حرث الأرض أو سقي الزرع؛ وأن تكون كذلك خالصة اللون لا تشوبها علامة.

هنا فقط. . . وبعد أن تَعقَّد الأمر، وتضاعفت الشروط، وضاق مجال الاختيار:

﴿قالوا: الآن جئت بالحق﴾. .

الآن! كأنما كان كل ما مضى ليس حقاً. أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة! **﴿فَذَبحوها وما كادوا يفعلون!!﴾** [البقرة: ٧١].

عندئذ ـ وبعد تنفيذ الأمر والنهوض بالتكليف ـ كشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف:

﴿وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها، والله مخرج ما كنتم تكتمون، فقلنا: اضربوه ببعضها. كذلك يُحيي الله الموتى، ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣]. .

وهنا نصل إلى الجانب الثاني من جوانب القصة. جانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة. وهنا يتغير السياق من الحكاية إلى الخطاب والمواجهة:

لقد كشف الله لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة. . لقد كانوا قد قتلوا نفساً منهم؛ ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه.

ولم يكن هناك شاهد، فأراد الله أن يُظهر الحق على لسان القتيل ذاته؛ وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه، وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة الذبيح.. وهكذا كان، فعادت إليه الحياة، ليخبر بنفسه عن قاتله، وليجلو الريب والشكوك التي أحاطت بمقتله؛ وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين.

ولكن. فيم كانت هذه الوسيلة، والله قادر على أن يحيي الموتى بلا وسيلة، ثم ما مناسبة البقرة المذبوحة مع القتيل المبعوث؟.

إن البقر يُذبح قرباناً كما كانت عادة بني إسرائيل.. وبضعة من جسد ذبيح ترد بها الحياة إلى جسد قتيل. وما في هذه البضعة حياة ولا قدرة على الإحياء.. إنما هي مجرد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله، التي لا يعرف البشر كيف تعمل. فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كنهها ولا طريقتها في العمل و: ﴿**كذلك يحيي الله الموتى**﴾.. كذلك بمثل هذا الذي ترونه واقعاً ولا تدرون كيف وقع؛ وبمثل هذا اليسر الذي لا مشقة فيه ولا عسر.

إن المسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة هائلة تدير الرؤوس. ولكنها في حساب القدرة الإلهية أمر يسير.. كيف؟..

هذا ما لا أحد يدريه. وما لا يمكن لأحد إدراكه.. إن إدراك الماهية والكيفية هنا سر من أسرار الألوهية، لا سبيل إليه في عالم الفانين! وإن يكن في طوق العقل البشري إدراك دلالته والاتعاظ بها: ﴿**ويريكم آياته لعلكم تعقلون**﴾..

ونجيء إلى جمال الأداء وتناسقه مع السياق..

هذه قصة قصيرة نَبدؤها، فإذا نحن أمام مجهول لا نعرف ما وراءه. نحن لا نعرف في مبدأ عرض القصة لماذا يأمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا

بقرة، كما أن بني إسرائيل إذ ذاك لم يعرفوا، وفي هذا اختبار لمدى الطاعة والاستجابة والتسليم.

وتعقيباً على هذا المشهد الأخير من القصة، الذي كان من شأنه أن يستجيش في قلوب بني إسرائيل الحساسية والخشية والتقوى؛ وتعقيباً كذلك على كل ما سلف من المشاهد والأحداث والعِبَر والعِظات، تجيء هذه الخاتمة المخالفة لكل ما كان يتوقع ويرتقب:

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك، فهي كالحجارة أو أشد قسوة. وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء. وإن منها لما يهبط من خشية الله. وما الله بغافل عما تعملون﴾ [البقرة: ٧٤]..

والحجارة التي يقيس قلوبهم إليها، فإذا قلوبهم منها أجدب وأقسى.. هي حجارة لهم بها سابق عهد. فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عيناً، ورأوا الجبل يندكّ حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقاً! ولكن قلوبهم لا تلين ولا تندى، ولا تنبض بخشية ولا تقوى.. قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة.. ومن ثم هذا التهديد: **﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾**.

إن القلوب حين تقسو تفسد وتتحجر، فهي قلوب تشي بجفاف الإيمان، وقد نضبت فيها عروق اليقين، وهلكت فيها بذور الخير، فهي تنضح بالشرّ والالتواء والانحراف.. وهي تنبض بالهوى وتفيض بالفساد..

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك، فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾..

وتصور هذه الآية حقيقة القلوب حين تقسو، فينعدم فيها الصلاح، وقد انقطعت عن نور الحق فانتكست وارتكست وأظلمت وغارت في ضلال مبين **﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾** [الزمر: ٢٢]..

فالقلوب القاسية تتلقى آيات الله وهداه كما تتلقى الصخرة القاسية

الماء، فلا حياة فيها ولا نداوة! فحين يقسو القلب يغلظ ويجف ويموت، وتحيط به عتمة سوداء، ويغطيه ظلام كثيف، وبرنّة عتاب يحذر الله - سبحانه - المؤمنين هذا المآل النكد الهابط الذي هوى في ظلامه ووقع في فساده اليهود: ﴿أَلَم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله[1] وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب مِن قبلُ فَطَالَ عليهم الأمدُ فَقَسَتْ قلوبهم[2] وكثير منهم فاسقون﴾ [الحديد: ١٦].

---

(١) عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذِكْرِ الله تعالى قسوة للقلب! وإن أبعد الناس من الله القلبُ القاسي» رواه الترمذي (٢٤١٣) عن إبراهيم بن عبد الله بن الحارث بن حاطب، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر وحسّنه. قال ابن حبان: إبراهيم بن عبد الله، مستقيم الحديث، وباقي رجاله ثقات.

(٢) أخرج مسلم في كتاب الإيمان (١٤٤) عن حذيفة بن اليمان قال: كنا عند عُمر فقال: أيكم سمع رسول الله - ﷺ - يذكر الفِتَن؟ فقال قوم: نحن سمعناه، فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تلك تُكفرها الصلاة والصيام والصدقة. ولكن أيكم سمع النبي - ﷺ - يذكر الفتن التي تموج موج البحر؟ قال: حذيفة. فأسكت القوم. فقلت: أنا. قال: أنتَ، لله أبوك! قال حذيفة: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «تُعرض الفتنُ على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشْرِبَها نُكتَ فيه نكتةٌ سوداء. وأي قلب أنكرها نكتَ فيه نكتةٌ بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصَّفا. فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامت السماوات والأرض. والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً. إلا ما أُشرب من هواه».

قال حذيفة: وحدَّثته أن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يُكسر. قال عمر: أكسراً، لا أبالَكَ! فلو أنه فُتِحَ لعله كان يُعاد. قلتُ: لا. بل يُكسر. وحدثته؛ أن ذلك الباب رجلٌ يُقْتل أو يموت. حديثاً ليس بالأغاليط. قال أبو خالد: فقلتُ لسعد: يا أبا مالك! ما أسود مُرْبادّاً؟ قال: شدة البياض في سواد. قال: قلت: ما الكوز مجخياً؟ قال: منكوساً.

وقوله: (التي تموج موج البحر) أي تضطرب ويدفع بعضها بعضاً وشبهها بموج البحر لشدة عظمها وكثرة شيوعها.

وقوله: (فأسكت القوم) أي صمتوا. قال الأصمعي: سكت، صمت. وأسكت، أطرق. وإنما سكت القوم لأنهم لم يكونوا يحفظون هذا النوع من الفتنة. وإنما حفظوا النوع الأول.

=

تلويح بما كان من أهل الكتاب من قسوة في القلوب، وفسق في الأعمال، وتحذير من هذا المآل الذي انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد. .

إنها جولة مع بني إسرائيل في تاريخهم الحافل بالكفر والتكذيب، والالتواء واللجاجة، والكيد والدس، والقسوة والجدب، والتمرد والفسوق. .

لقد كانت حملة ضرورية أولاً وقبل كل شيء لتحطيم دعاوى يهود، وكشف كيدها، وبيان حقيقتها وحقيقة دوافعها في الدس للإسلام والمسلمين. . كما كانت ضرورية لتفتيح عيون المسلمين وقلوبهم لهذه

= وقوله: (لله أبوك) كلمة مدح تعتاد العرب الثناء بها.

وقوله: (تُعرض الفتن) أي تلصق بعرض القلوب أي جانبتها كما يُلصق الحصير بجنب النائم ويؤثر فيه شدة التصاقها به.

وقوله: (عوداً عوداً) قال النووي: هذا الحرفان مما اختلف في ضبطه على ثلاثة أوجه: أظهرها وأشهرها عوداً عوداً، والثاني: عَوداً عَوداً، والثالث: عَوذاً عوَذاً.

وقوله: (فأي قلب أشربها) أي دخلت فيه دخولاً تاماً وألزمها وحلت منه محل الشراب. ومنه قوله تعالى: ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي حب العجل. ومنه قولهم ثوب مشرب بحمرة أي خالطته الحمرة مخالطة لا انفكاك لها.

وقوله: (نكت فيه نكتةٌ) أي نَقط نقطةٌ. قال ابن دريد وغيره كل نقطة في شيء بخلاف لونه فهو نكت.

وقوله: (أنكرها) أي ردها.

وقوله: (مثل الصفا) قال القاضي عياض: ليس تشبيهاً بالصفا بياناً لبياضه لكن صفة أخرى لشدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل، وإن الفتن لم تلصق به ولم تؤثر فيه كالصفا وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء.

وقوله (مُجخياً) معناه مائلاً كذا قال الهروي وغيره، وفسره الراوي كما تقدم بقوله منكوساً وهو قريب من معنى المائل قال القاضي عياض: قال لي ابن سرّاج ليس قوله كالكوز مجخياً تشبيهاً لما تقدم من سواد، بل هو وصف آخر من أوصافه بأنه قُلِبَ ونُكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة ومثله بالكوز المجخي وبيّنه بقوله لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.

الدسائس والمكايد التي تُوَجّه إلى مجتمعهم الجديد، وإلى الأصول التي يقوم عليها؛ كما توجه إلى وحدة الصف المسلم لخلخلته وإشاعة الفتنة فيه.

ومن جانب آخر كانت ضرورية لتحذير المسلمين من مزالق الطريق التي عثرت فيها أقدام الأمة المستَخْلَفة قبلهم، فَحُرِمَت مقام الخلافة، وسلبت شرف القيام على أمانة الله في الأرض، ومنهجه لقيادة البشر. وقد تَخلَّلَت هذه الحملة توجيهات ظاهرة وخفية للمسلمين لتحذيرهم من تلك المزالق.

وما كان أحوج الجماعة المسلمة في المدينة إلى هذه وتلك. وما أحوج الأمة المسلمة في كل وقت إلى تَمَلّي هذه التوجيهات، وإلى دراسة هذا القرآن بالعين المفتوحة والحس البصير، لتتلقى منه تعليمات القيادة الإلهية العلوية في معاركها التي تخوضها مع أعدائها التقليديين؛ ولتعرف منها كيف ترد على الكيد العميق الخبيث الذي يوجهونه إليها دائبين، بأخفى الوسائل، وأمكر الطرق.

وما يملك قلب لم يهتد بنور الإيمان، ولم يتلق التوجيه من تلك القيادة المطلعة على السر والعلن والباطن والظاهر، أن يدرك المسالك والدروب الخفية الخبيثة التي يتدسس فيها ذلك الكيد الخبيث المريب..

النعمة بين الكفر والشكر:

لقد حبا الله بني إسرائيل بالخير، وأفاض عليهم النعمة، وآثرهم بالبركات. وقد نجّاهم من آل فرعون بعد أن ساموهم العذاب دهراً، فجعلهم بعد ذلك أحراراً، بعد أن كانوا عبيداً أذلّاء.. وفي ظلال النصر والنجاة يتوجه الخطاب إلى الناجين بالتذكير والتحذير، كي لا ينسوا ولا يبطروا؛ ولا يتجرّدوا من السلاح الوحيد الذي كان لهم في المعركة فضمنوا به النصر والنجاح:

﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوّكم، وواعدناكم جانب الطور الأيمن، ونزَّلنا عليكم المنَّ والسلوى. كلوا من طيبات ما رزقناكم..﴾ [طه: ٨٠، ٨١]..

ويمضي القرآن يعدد آلاء الله عليهم، وكيف استقبلوا هذه الآلاء، وكيف جحدوا وكفروا وحادوا عن الطريق. وفي مقدمة هذه النعم كانت نجاتهم من آل فرعون ومن العذاب الأليم.. يستحضر أمام خيالهم مشهد نجاتهم كأنه حاضر:

﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم. وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠]..

إنه يعيد على خيالهم ويستحيي في مشاعرهم صورة الكرب الذي كانوا فيه.. يخاطب بني إسرائيل بهذه النعم إلى قيام الساعة ـ باعتبار أنهم أبناء هذا الأصل البعيد ـ ويرسم أمامهم مشهد النجاة كما رسم أمامهم مشاهد العذاب.

يقول لهم: واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون حالة ما كانوا يديمون عذابكم، (من سام الماشية أي جعلها سائمة ترعى دائماً) وكأن العذاب كان هو العذاب الدائم الذي يطعمونهم إياه!! ثم يذكر لوناً من هذا العذاب. هو تذبيح الذكور واستحياء الإناث. كيف يضعف ساعد بني إسرائيل وتثقل تبعاتهم.

وقبل أن يعرض مشهد النجاة يعقب بأن ذلك التعذيب كان فيه بلاء من ربهم عظيم. ليلقي في حسّهم ـ وحسّ كل من يصادف شدة ـ أن إصابة العباد بالشدة هي امتحان وبلاء، واختبار وفتنة. وأن الذي يستيقظ لهذه الحقيقة يفيد من الشدة، ويعتبر بالبلاء، ويكسب من ورائهما حين يستيقظ.

والألم لا يذهب ضياعاً! إذا أدرك صاحبه أنه يمرّ بفترة امتحان لها ما بعدها إن أحسن الانتفاع بها. والألم يهون على النفس حين تعيش بهذا التصور وحين تدخر ما في التجربة المؤلمة من زاد للدنيا بالخبرة والمعرفة والصبر والاحتمال، ومن زاد للآخرة باحتسابها عند الله، وبالتضرّع لله وبانتظار الفَرَج من عنده وعدم اليأس من رحمته.. ومن ثم هذا التعقيب الموحي: **﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾**..

فإذا فرغ من التعقيب جاء بمشهد النجاة بعد مشاهد العذاب.. **﴿وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾**..

لقد جازوا منطقة الخطر، وانطلقوا ناجين ناحية الطور. وتركوا وراءهم فرعون وجنده غرقى، وإنجاؤهم من عدوهم واقع قريب يذكرونه اللحظة فلم يمض عليه كثير. ولكنه إعلان التسجيل. والتذكير بالنعمة المشهودة ليعرفوها ويشكروها.

ومواعدتهم جانب الطور الأيمن يشار إليها هنا على أنها أَمْر وقع؛ وكانت مواعدة لموسى ـ عليه السلام ـ بعد خروجهم من مصر، أن يأتي إلى الطور بعد أربعين ليلة يتهيأ فيها للقاء ربّه. ليسمع ما يُوحى إليه في الألواح من أمور العقيدة والشريعة، المُنَظِّمة لهذا الشعب الذي كتب له دوراً يؤديه في الأرض المقدسة بعد الخروج من مصر.

وَلَم تزل نِعَم الله تتوالى على بني إسرائيل بعد معجزة العبور من البحر.. لم تزل تتوالى عليهم تلك النعم، كلما قسا عليهم الجو، أو مسَّهم اللّغوب أو عضّهم الجوع، فتنزل على قلوبهم برداً وسلاماً، وتعيد إلى نفوسهم السكينة والطمأنينة.

ولم تكن هذه النعم التي أفاضها الله على بني إسرائيل نتيجة لأسباب عادية، أو مقدمات طبيعية، ولكنها كانت معجزات عجيبة، أيَّدَ الله بها نبيَّه

موسى ـ عليه السلام ـ، وآيات ربانية كرَّمه الله بها وأغدقها على قومه. .

ويُذكرهم القرآن برعاية الله لهم في الصحراء الجرداء. . **﴿وظللنا عليهم الغمام﴾**. . فحينما اشتدَّ عليهم الحر، ولم يجدوا في صحراء سيناء أشجاراً يتفيأون ظلالها، أو أكناناً تقيهم لفح الهجير، جأروا بالشكوى إلى موسى، فدعا موسى ربه، فساق إليهم الغمام. .

وتذكر الروايات أن الله ساق لهم الغمام يظللهم من الهاجرة. . والصحراء بغير مطر ولا سُحب، جحيم يفور بالنار، ويقذف بالشواظ. وهي بالمطر والسحاب رضية ندية تصحّ فيها الأجسام والأرواح. .

﴿وظللنا عليكم الغمام، وأنزلنا عليكم المنَّ والسلوى. كلوا من طيبات ما رزقناكم. وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [البقرة: ٥٧]. .

وتنزيل المَنْ. وهو مادة حلوة. وتذكر الروايات كذلك أن الله سخَّره لهم يجدونه على الأشجار يتجمع على أوراقها حلواً كالعسل، وسخّر لهم «السلوى» وهو طائر السّماني يساق إليهم في الصحراء يجدونه بوفرة قريب المنال والمتناول، سهل التناول، كان نعمة من الله ومظهراً لعنايته في الصحراء الجرداء. وهو يتولاهم حتى في طعامهم اليومي فييسره لهم من أقرب الموارد.

وهو ـ سبحانه ـ يُذكرهم بهذه النعم. . **﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه. .﴾**. . يُذكرهم ليأكلوا من الطيبات التي يَسَّرها لهم ويحذرهم من الطغيان فيها. بالبطنة والانصراف إلى لذائذ البطون والغفلة عن الواجب الذي هم خارجون له، والتكليف الذي يعدهم ربهم لتلقيه. ويسميه طغياناً وهم قريبو العهد بالطغيان، ذاقوا منه ما ذاقوا، ورأوا من نهايته ما رأوا. . **﴿ولا تطغوا فيه فيحلّ عليكم غضبي. ومن يَحلل عليه غضبي فقد هوَى﴾** [طه: ٨١]. .

ولقد هوى فرعون منذ قليل. هوى عن عرشه وهوى في المـاء.. والهويّ إلى أسفل يقابل الطغيان والتعالي. والتعبير ينسق هذه المقابلات في اللفظ والظلّ على طريقة التناسق القرآنية الملحوظة.

هذا هو التحذير والإنذار للقوم المقدمين على المهمة التي من أجلها خرجوا؛ كي لا تبطرهم النعمة، ولا يترفوا فيها فيسترخـوا.. وإلى جانب التحذير والإنذار يفتح باب التوبة لمن يُخطىء ويرجع: **﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾** [طه: ٨٢]..

والتوبة ليست كلمة تُقال، إنما هي عزيمة في القلب، يتحقق مدلولها بـالإيمان والعمـل الصالـح. ويتجلّى أثرهـا في السلوك العملي في عالم الواقع. فإذا وقعت التوبة وصحَّ الإيمان، وصَدّقه العمل فهنا يأخذ الإنسان في الطريق، على هدى من الإيمان، وعلى ضمانـة من العمل الصـالح. فالاهتداء هنا ثمرة ونتيجة للمحاولة والعمل..

وكما يَسَّر الله لبني إسرائيل الطعام في الصحراء والظل في الهاجرة، كذلك أفاض عليهم الري بخارقة من الخوارق الكثيرة التي أجراها الله على يدي نبيّه موسى ـ عليه السلام ـ والقرآن يذكرهم بنعمة الله عليهم في هذا المقام، وكيف كان مسلكهم بعد الإفضال والإنعام:

﴿وإذ استسقى مـوسى لِقَـوْمـه، فقلنـا: اضـرب بعصـاك الحَجـر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً. قد عَلِمَ كل أُناسٍ مشربهم. كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [البقرة: ٦٠]..

وهكـذا يتحدث القـرآن الكريم عن رعـاية الله التي مـا زالت تُظَلِّل بني إسرائيل ـ بعد أن كفروا فعبـدوا العجل، ثم كفَّـروا عن الخطيئـة كما أمرهم الله، فتاب عليهم. وبعد أن طلبوا رؤية الله جهرة، فأخذتهم الرجفة، ثم استجاب الله لدعاء موسى فأحياهم.. تتجلى هذه الرعاية في تنظيمهم حسب فروعهم في اثنتي عشرة أمة ـ أي جماعة كبيرة ـ ترجع كل جماعة منها

إلى حفيد من حفداء جدّهم يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ وقد كانوا محتفظين بأنسابهم على الطريقة القبلية: **﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً﴾** [الأعراف: ١٦٠]..

لقد طلب موسى لقومه السُّقيا. طلبها من ربه فاستجاب له. وأمره أن يضرب حجراً معيناً بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعدّة أسباط بني إسرائيل، وكانوا يرجعون ـ كما قلنا ـ إلى اثنتي عشرة سبطاً بعدة أحفاد يعقوب ـ عليه السلام ـ الذي ينتسبون إليه. وأحفاد يعقوب هم المعرفون باسم الأسباط، والذين يرد ذكرهم مكرراً في القرآن، وهم رؤوس قبائل بني إسرائيل. وكانوا ما يزالون يتبعون النظام القبلي، الذي تنسب القبيلة إلى رأسها الكبير.

ويبدو في تنظيمهم تخصيص عين تشرب منها كل جماعة وتَعيينها لهم، فلا يعتدي بعضهم على بعض:

﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه. أن اضرب بعصاك الحجر، فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً. قد علم كل أناس مشربهم﴾ [الأعراف: ١٦٠]..

وقيل لهم على سبيل الإباحة والإنعام والتحذير من الاعتداء والإفساد:

﴿كلوا واشربوا من رزق الله، ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [البقرة: ٦٠]..

لقد كانت رعاية الله لبني إسرائيل نعمة عظيمة فوق نعمة.. تبدو في تظليل الغمام لهم من شمس هذه الصحراء المحرقة، وإنزال المن والسلوى، وتفجير العيون لهم من الصخر بضربة من عصا موسى..

والرعاية واضحة في هذا كله، ولكن هذه الجِبلّة ما تزال بعد عَصِيّة على الهدى والاستقامة كما يبدو..

كذلك تبدو في إباحة كل هذه الطيبات لهم، حيث لم يكن قد حُرِّم عليهم بعد شيء بسبب عصيانهم **﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم..﴾** [الأعراف: ١٦٠]..

إن هذه النِعَم لتملأ القلب بفيض غامر من الشعور برعاية الله، حيثما توجَّه، وحيثما تلفَّت.. وإنها لجديرة بالشكر الدائم.. فتؤوب القلوب الشاردة وتستريح الأرواح المتعبة.

إن نظرة إلى نعمة واحدة بقلب مفتوح كافية لتهزّ الوجدان الإنساني وتَنفض عنه كل حاجز وران تبعده عن الخشوع الصامت لله رب العالمين، وأن تطبع الحسّ البشري بحبّ الله وطاعته بقلوب ملأتها السكينة الجَلِيلَة.

ولو استعرضت الإنسانية فيوض نعمة واحدة لَمَلأْتها الخشية لله رب العالمين **﴿وإن تَعدّوا نِعمة الله لا تُحصوها﴾** [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، فَضلاً على أن تشكروها. وأكثر النعم لا يدريها الإنسان لأنه يَأْلفها فلا يشعر بها إلا حين يفتقدها.. وهذا تركيب جسده ووظائفه متى يشعر بما فيه من إنعام إلا حين يُدركه المرض فيحسّ بالاختلال..

إن الاستقامة على منهج الله وطاعته هو أكمل البرّ، وهو المظهر العملي للشكر، وهو حديث القلب الصامت النافع الرائع..

وفي ظلال آيات الله ونعَمه تابع موسى مهمته بأمر الله وتوجيهه **﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا: أن أُخرج قومك من الظلمات إلى النور وذَكِّرهم بأيام الله﴾** [إبراهيم: ٥]..

وكل الأيام أيام الله. ولكن المقصود هنا أن يُذكّرهم بالأيام التي يبدو فيها للبشر أو لجماعة منهم أمر بارز أو خارق بالنعمة أو بالنقمة، كما سيجيء في حكاية تذكير موسى لقومه. وقد ذَكَّرهم بأيام لهم، وأيام لأقوام نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم. فهذه هي الأيام.

﴿إن في ذلك لآيات لكل صبَّار شكور﴾ [إبراهيم: ٥]..

ففي هذه الأيام ما هو بؤسىٰ فهو آية للصبر، وفيها ما هو نعمىٰ فهو آية للشكر. والصبَّار الشكور هو الذي يدرك هذه الآيات، ويدرك ما وراءها، ويجد فيها عبرة له وعظة؛ كما يجد فيها تسرية وتذكيراً.

وراح موسى يؤدي رسالته، ويُذكِّر قومه: **﴿وإذ قال موسى لقومه: اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، ويذبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم﴾** [إبراهيم: ٦]..

إنه يذكرهم بنعمة الله عليهم. نعمة النجاة من سوء العذاب الذي كانوا يلقونه من آل فرعون، لا يفتر عنهم ولا ينقطع. فإنجاء الله لهم من هذه الحال نعمة تُذكر. وتُذكر لِتُشْكَر.. **﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾**.

بلاء بالعذاب أولاً، لامتحان الصبر والتماسك والمقاومة والعزم على الخلاص والعمل له. فليس الصبر هو احتمال الذلّ والعذاب وكفى. ولكن الصبر هو احتمال العذاب بلا تَضَعْضُع ولا هزيمة روحية، واستمرار العزم على الخلاص، والاستعداد للوقوف في وجه الظلم والطغيان. وإلا فما هو صبر مشكور ذلك الاستسلام للذل والهوان.

وبلاء بالنجاة من فرعون ثانياً لامتحان الشكر، والاعتراف بنعمة الله، والاستقامة على الهدى في مقابل النجاة..

ويمضي موسى في البيان لقومه. بعدما ذكَّرهم بأيامه. ووَجَّههم إلى الغاية من العذاب والنجاة. وهي الصبر للعذاب والشكر للنجاة..

ومضت آلاء الله ونِعَمه تَتْرى على بني إسرائيل.. فقد ساق لهم ـ كما تقدّم ـ الغَمام ظلاً ظليلاً في الصحراء المحرقة، وأنزل عليهم المَنّ والسلوى طعاماً سهلاً طيباً، وفجَّر لهم من الحجر ماءً سلسبيلاً هنيئاً مريئاً.. لقد

مضت نعمة الله على بني إسرائيل بلا جهد من القوم ولا مشقة.. نعمة تسوقها الرحمة والقدرة الإلهية فتلقي على القوم ظل الرعاية والنعمة من هذا الفيض المدرار.

ويمضي موسى ـ عليه السلام ـ ليبين لهم ما رتّبه الله جزاء على الشكر والكفران: **﴿وإذ تأذَّن ربكم: لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾** [إبراهيم: ٧]..

إن الإنسان في حياته يَتَقَلَّب في الابتلاء.. يُبتلى بالشدّة، ويُبتلى بالرخاء والنعمة.. والابتلاء بالشدة قد يَستحثّ المقاومة ويُجنّد الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها. أما الرخاء بالنعمة فيرخي الأعصاب وَيُنيمها ويفقدها القدرة على اليقظة إلا من عصم الله واستمسك بهديه. فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أمر عظيم.. حتى تشكر المنْعِم فتحافظ على النعمة وتزيدها.

إن التوسعة بالنعمة والإكرام بفيضها هو الابتلاء، تمهيداً للجزاء.. الابتلاء ليظهر الإنسان الشكر على النعمة أو البطر والطغيان. إنه سبحانه يُعطي ليبتلي. غير أن الإنسان ـ حين يخلو قلبه من الإيمان ـ لا يُدرك حكمة الفيض بالنعمة والعطاء ولا حقيقة النعمة في ميزان الله.. فإذا عمّر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ما هنالك، وتيقظ لما وراء الابتلاء من الجزاء.

نمضي مع موسى ـ عليه السلام ـ وهو يوجّه قومه ويُربّيهم: **﴿وإذ تأذَّن ربكم: لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾**..

ونقف نحن أمام هذه الحقيقة الكبيرة: حقيقة زيادة النعمة بالشكر، والعذاب الشديد على الكفر.

نقف نحن أمام هذه الحقيقة تطمئن إليها قلوبنا أوَّل وهلة لأنها وَعْد من الله صادق. فلا بد أن يتحقق على أية حال.. فإذا أَرَدْنا أن نرى مِصْداقها

في الحياة، ونبحث عن أسبابه المدركة لنا، فإننا لا نبعد كثيراً في تلمس الأسباب.

إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية. فالخير يُشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة..

هذه واحدة.. والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته، تراقبه في التصرف بهذه النعمة. بلا بَطَر، وبلا استعلاء على الخلق، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشرّ والدنس والفساد.

وهذه وتلك مما يُزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما يُنمّيها ويُبارك فيها؛ ويُرضي الناس عنها وعن صاحبها، فيكونون له عوناً؛ ويُصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات في أمان. إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة. وإن كان وَعْد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن، أدرك الأسباب أو لم يُدركها، فهو حقّ واقع لأنه وَعْد الله.

والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها. أو بإنكار أن الله واهبها، ونسبتها إلى العلم والخبرة والكدّ الشخصي والسعي! كأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله! وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والكِبَر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد.. وكله كفر بنعمة الله.. والعذاب الشديد قد يتضمن مَحق النعمة. عَيناً بذهابها. أو سحق آثارها في الشعور. فكم من نعمة تكون بذاتها نقمة يشقى بها صاحبها ويحسد الخالين! وقد يكون عذاباً مُؤَجلاً إلى أجله في الدنيا أو في الآخرة كما يشاء الله. ولكنه واقع لأن الكفر بنعمة الله لا يمضي بلا جزاء.

ذلك الشكر لا تعود على الله عائدته. وهذا الكفر لا يرجع على الله أثره. فالله غني بذاته محمود بذاته، لا بحمد الناس وشكرهم على عطاياه.

﴿وقال موسى: إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ [إبراهيم: ٨]. .

إنما هو صلاح الحياة يتحقق بالشكر، ونفوس الناس تزكو بالاتجاه إلى الله، وتستقيم بشكر الخير، وتطمئن إلى الاتصال بالمنعم، فلا تَخْشَى نفاد النعمة وذهابها، ولا تذهب حسرات وراء ما ينفق أو يضيع منها. فالمنعم موجود، والنعمة بشكره تزكو وتزيد.

ويستمر موسى في بيانه وتذكيره لقومه. ولكنه يتوارى عن المشهد لتبرز المعركة الكبرى بين أمة الأنبياء والجاهليات المكذِّبة بالرسل والرسالات. وذلك من بدائع الأداء في القرآن، لإحياء المشاهد، ونقلها من حكاية تُروى إلى مشهد يُنظر ويُسمع، وتتحرك فيه الشخوص، وتتجلى فيه السمات والانفعالات. .

والآن إلى الساحة الكبرى التي يتلاشى فيها الزمان والمكان: **﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم، قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله؟ جاءتهم رسلهم بالبينات، فردوا أيديهم في أفواههم، وقالوا: إنا كفرنا بما أُرسلتم به، وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾** [إبراهيم: ٩]. .

هذا التذكير من قول موسى. ولكن السياق منذ الآن يجعل موسى يتوارى ليستمر في عرض قصة الرسل والرسالات في جميع أزمانها. قصة الرسل والرسالات وحقيقتها في مواجهة الجاهلية، وعاقبة المكذبين بها على اختلاف الزمان والمكان. . وكأن موسى «راوية» يبدأ بالإشارة إلى أحداث الرواية الكبرى. ثم يدع أبطالها يتحدثون بعد ذلك ويتصرفون. . وهي طريقة من طُرق العرض للقصة في القرآن، تُحوّل القصة المَحْكِيّة إلى رواية حَيّة كما أسلفنا. وهنا نشهد الرسل الكرام في موكب الإيمان، يواجهون البشرية متجمعة في جاهليتها. حيث تتوارى الفواصل بين أجيالها وأقوامها.

وتبرز الحقائق الكبرى مجردة عن الزمان والمكان، كما هي في حقيقة الوجود خلف حواجز الزمان والمكان:

﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم: قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله؟﴾.

فهم كثير إذن، وهناك غير من جاء ذكرهم في القرآن. ما بين ثمود وقوم موسى. والسياق هنا لا يعني بتفصيل أمرهم، فهناك وُحدة في دعوة الرسل ووحدة فيما قوبلت به:

﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾.. الواضحات التي لا يلتبس أمرها على الإدراك السليم.

﴿فَرَدُّوا أيديهم في أفواههم، وقالوا: إنا كفرنا بما أُرسلتم به؛ وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾..

رَدُّوا أيديهم في أفواههم كما يفعل من يريد تمويج الصوت ليسمع عن بعد؛ بتحريك كفه أمام فمه وهو يرفع صوته ذهاباً وإياباً فيتموج الصوت ويُسمع. يرسم السياق هذه الحركة التي تدل على جهرهم بالتكذيب والشك، وإفحاشهم في هذا الجهر، وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق، إمعاناً منهم في الجهر بالكفر..

وبعد عرض مشهد الرسل الكرام في موكب الإيمان نمضي قُدماً في رحلة بني إسرائيل وقد أكرمهم الله بنعمه وآلائه من فيض المنعم الوهَّاب..

والآن فلننظر كيف تَلقَّى بنو إسرائيل رعاية الله لهم؛ وكيف سارت خطواتهم الملتوية على طول الطريق.. **﴿وما ظلمونا، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾** [البقرة: ٥٧]..

ها هم أولاء في الصحراء بجدبها وصخورها، والسماء بشواظها ورجومها. فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء، وأما السماء فأنزل لهم

منها المَنّ والسلوى: عسلاً وطيراً.. ولكن البنية النفسية المُفَكَّكة، والجِبلَّة الهابطة المتداعية، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أُخرجوا من مصر، ومن أجلها ضَربوا في الصحراء..

لقد أخرجهم الله على يدي نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ من الذل والهوان ليُورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضَعة.. وللحرية ثمن، وللعزة تكاليف، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية. ولكنهم لا يريدون أن يُؤدوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية. حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة. حتى بأن يُغيروا مألوف طعامهم وشرابهم، وأن يُكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة، في طريقهم إلى العزة والحرية والكرامة.

إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التي أَلِفُوها في مصر. يريدون العَدس والثُوم والبَصل والقثاء.. وما إليها وهذا ما يُذَكّرهم القرآن به. وهم يَدْعون دَوْماً دعاواهم العريضة:

﴿وإذ قلتم: يا موسى لن نصبر على طعام واحد، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها..﴾.

ولقد تلقى موسى ـ عليه السلام ـ طلبهم بالاستنكار: **﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟﴾** [البقرة: ٦١]..

أتريدون الدنية وقد أراد الله لكم العلية؟.

﴿اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم﴾ [البقرة: ٦١]..

إما بمعنى أن ما يطلبونه هين زهيد، لا يستحق الدعاء، فهو موفور في أي مصر من الأمصار، فاهبطوا أية مدينة فإنكم واجدوه فيها.

وإما بمعنى عودوا إذن إلى مصر التي أُخرجتم منها.. عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة. إلى حياتكم الخانعة الذليلة.. حيث تجدون

العدس والبصَل والثوم والقثاء! ودعوا الأمور الكبار التي ندبتم لها.. ويكون هذا من موسى ـ عليه السلام ـ تأنيباً لهم وتوبيخاً..

ونُرجّح هذا التأويل الذي استبعده بعض المفسدين، نرجحه بسبب ما أعقبه في السياق من قوله تعالى: **﴿وضُربت عليهم الذلّة والمَسكنة وباءوا بغضب من الله﴾** [البقرة: ٦١]..

فإن ضرب الذلة والمسكنة عليهم، وعودتهم بغضب الله، لم يكن ـ من الناحية التاريخية ـ في هذه المرحلة من تاريخهم؛ إنما كان فيما بعد، بعد وقوع ما ذكرته الآية في ختامها:

﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ [البقرة: ٦١]..

وقد وقع هذا منهم متأخراً بعد عهد موسى بأجيال. إنما عجل السياق بذكر الذلّة والمسكنة والغضب هنا لمناسبته لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء! فناسب أن يكون قول موسى لهم: **﴿اهبطوا مصراً﴾** هو تذكير لهم بالذلّ في مصر، وبالنجاة منه، ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التي ألفوها في دار الذل والهوان!.

ويلتفت سياق القصة لفتة عجيبة. فيخاطب النبي ـ ﷺ ـ يُكلفه أن يسأل بني إسرائيل ـ وهم نموذج التلكؤ في الاستجابة لنداء الإيمان ـ: كم آتاهم الله من آية بَيِّنة ثم لم يستجيبوا! وكيف بدّلوا نعمة الله، على مختلف ألوانها من بعد ما جاءتهم:

﴿سَلْ بني إسرائيل: كم آتيناهم من آية بَيِّنة، ومن يُبدِّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾ [البقرة: ٢١١]..

وهنا تحذير من موقف بني إسرائيل! موقف التلكؤ دون الاستجابة؛ وموقف النشوز والفسوق، وموقف التعنت وسؤال الخوارق ثم الاستمرار في

العناد والجحود.. وهذه هي مزالق الطريق التي يُحذِّر الله الجماعة المسلمة منها، كي تنجو من عاقبة بني إسرائيل المنكودة.

﴿سَلْ بني إسرائيل: كم آتيناهم من آية بيِّنة﴾ [البقرة: ٢١١]..

والسؤال هنا قد لا يكون مقصوراً على حقيقته. إنما هو أسلوب من أساليب البيان، للتذكرة بكثرة الآيات التي آتاها الله بني إسرائيل، والخوارق التي أجراها لهم.. إما بسؤال منهم وتعنت، وإما ابتداء من عند الله لحكمة حاضرة.. ثم ما كان منهم - على الرغم من كثرة الخوارق - من تردد وتلكؤ وتعنت ونكوص عن الاستسلام الخالص لقيادة الله وشريعته الذي يظلل كنف الإيمان.

ثم يجيء التعقيب عاماً: **﴿ومن يُبدل نعمة الله من بَعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾**..

ونعمة الله المشار إليها هنا هي نعمة إسلام النفس لله رب العالمين. أو نعمة الإيمان. فهما مترادفتان. والتحذير من تبديلها يجد مصداقه أولاً في حال بني إسرائيل، وحرمانهم من السلم والأمان والطمأنينة والاستقرار، منذ أن بدَّلوا نعمة الله، وأبوا الطاعة الراضية، والاستسلام لتوجيه الله. وكانوا دائماً في موقف الشاك المتردد، الذي يظل يطلب الدليل من الخارقة في كل خطوة وكل حركة؛ ثم لا يؤمن بالمعجزة، ولا يطمئن لنور الله وهداه، والتهديد بشدة عقاب الله مصداقه أولاً في حال بني إسرائيل، ويجد مصداقه أخيراً فيما ينتظر المُبدِّلين للنعمة المُتَبَطِّرين عليها في كل زمان.

وما بدلت البشرية هذه النعمة إلا أصابها العقاب الشديد في حياتها على الأرض قبل عقاب الآخرة. وها هي ذي البشرية المنكودة الطالع في أنحاء الأرض كلها تعاني العقاب الشديد، وتجد الشقوة النكدة، وتعاني القلق والحيرة؛ ويأكل بعضها بعضاً؛ ويأكل الفرد منها نفسه وأعصابه، ويطاردها وتطارده بالأشباح المطلقة، وبالخواء القاتل الذي يحاول

المتحضرون أن يملأوه تارة بالمسكرات والمخدرات، وتارة بالحركات الحائرة التي يُخيل إليك معها أنهم هاربون تطاردهم الأشباح!.

ونظرة إلى صورهم في الأوضاع العجيبة المتكلفة التي يظهرون بها: من مائِلة برأسها، إلى كاشفة عن صدرها، إلى رافعة ذيلها، إلى مُبتدعة قبعة غريبة على هيئة حيوان! إلى واضع رباط عنق رسم عليه تيتل أو خيل! إلى لابس قميص تَربَّعت عليه صورة ثعلب أو دبّ!.

ونظرة إلى رقصاتهم المجنونة، وأغانيهم المحمومة، وأوضاعهم المتكلفة وأزيائهم الصارخة في بعض الحفلات والمناسبات؛ ومحاولة لفت النظر بالشذوذ الصارخ، أو ترضية المزاج بالتميز الفاضح..

ونظرة إلى التنقل السريع المحموم بين الأهواء والأزواج والصداقات والأزياء بين فصل وفصل، لا بين الصباح والمساء!.

كل أولئك يكشف عن الحيرة القاتلة التي لا طمأنينة فيها فلا سلام. ويكشف عن حالة الملل الجاثم التي يفرون منها، وعن حالة «الهروب» من أنفسهم الخاوية وأرواحهم الموحشة، كالذي تطارده الجِنَّة والأشباح.

وإن هو إلا عقاب الله، لمن يحيد عن منهجه، ولا يستمع لدعوته، ويُبدِّل نعمته.. **﴿ومن يُبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾**..

وإن الإيمان الواثق لنعمة الله على عباده، لا يُبدلها مُبدّل حتى يحيق به ذلك العقاب.. والعياذ بالله..

ولقد آتى الله بني إسرائيل من نعمته، ورزقهم من فضله، وآتاهم ما لم يؤت أحداً قبلهم وفضَّلهم على العالمين.. وهذا كله إنما يعطيه الله للناس ابتلاءً منه وامتحاناً، لينظر أيشكرون أم يكفرون؟.

والقرآن يستحضر أمام خيال بني إسرائيل مشهد النعم التي ظَلَّت

تتوالى عليهم من نجاتهم من العذاب المسلَّط عليهم، وإغراقِ عدوهم، إلى تظليل الغمام إلى المن والسلوى إلى تفجير الصخر بالماء.. ثم يُذَكِّرهم بما كان منهم من انحرافات متوالية، ما يكاد يردّهم عن واحدة منها حتى يعودوا إلى أخرى، وما يكاد يعفو عنهم من معصية حتى يقعوا في خطيئة، وما يكادون ينجون من عَثرة حتى يقعوا في حفرة.. فقد كفروا بالنعمة ولم يشكروا، وطغوا وبغوا بما أُعطوا.. ونفوسهم هي هي في التوائها وعنادها وإصرارها على الالتواء والعناد، كما أنها هي هي في ضعفها عن حمل التكاليف، ونكولها عن الأمانة، ونكثها للعهد، ونقضها للمواثيق مع ربها ونبيها..

إنه حال عجيب. حال بني إسرائيل الذين وُهِبُوا نعمة الله.. فإذا هم قد بدّلوا النعمة كفراً وفسوقاً.. وعندئذ حقت عليهم سُنّة الله **﴿ذلك بأن الله لم يك مُغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** [الأنفال: ٥٣].. وعندئذ غيَّر الله النعمة وأخذهم بشديد العقاب..

لقد ظلموا وجحدوا. وكانت عاقبة ذلك عليهم، فما ظلموا إلا أنفسهم.. **﴿وما ظلمونا ولكن أنفسهم يظلمون﴾** [البقرة: ٥٧]..

قصة موسى والخضر

وقف الإنسان منذ بدء الخليقة أمام ستر الغيب المحجوب، لا ينفذ إليه علمه، ولا يعرف مما وراء الستر المسدل، إلا بقدر ما يكشف له منه عَلاَّم الغيوب. وكـان الخير في هـذا الذي أراده الله، فلو علم الله أن في كَشف هذا الستر المسبل خيراً لكشفه للإنسان المتطلع الشديد التطلع إلى ما وراءه!.

لقـد شاءت حكمـة الله في خَلقه أن حُجَب عنهم الغيب، واختص ـ سبحانه ـ بعلم الغيب **﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب. ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورُسله. وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾** [آل عمران: ١٧٩]..

فهو سبحانه ما كان من شأنه أن يُطلع البشر على الغيب، الذي استأثر به، فهم ليسوا مُهيئين بطبيعتهم التي فَطَرهم عليها للاطلاع على الغيب، وجهازهم البشري الذي أعطاه الله لهم ليس «مُصَمَّماً» على أساس استقبال هذا الغيب إلا بمقدار، وهو مُصَمم هكذا بحكمة. مصمم لأداء وظيفة هذه الخلافة في الأرض. وهي لا تحتاج للاطلاع على الغيب. ولو فُتح الجهاز الإنساني على الغيب لتحطم. لأنه ليس مُعَداً لاستقباله إلا بالمقدار الذي يصل روحه بخالقه، ويصل كيانه بكيان هذا الكون. وأبسط ما يقع له حين يعلم مصائره كلها، ألاَّ يُحرك يَداً ولا رِجلاً في عمارة الأرض، أو يَظلّ قلقاً

مشغولاً بهذه المصائر، بحيث لا تبقى فيه بقية لعمارة الأرض!.

من أجل ذلك لم يكن من شأن الله ـ سبحانه ـ، ولا مقتضى حكمته، ولا من مجرى سنته أن يُطلع الناس على الغيب فهو **﴿عالم الغيب والشهادة﴾** [الأنعام: ٧٣]..

لقد منح الله هذا الإنسان من المواهب والاستعدادات والقوى والطاقات ما يُحقق به الخلافة في الأرض، وما ينهض به بهذا التكليف الضخم.. ولا زيادة.. وانكشاف ستر الغيب له ليس مما يُعينه في هذه المهمة. بل إن انطباق أهدابه دونه لما يثير تطلعه إلى المعرفة، فينقب ويبحث ويعمل لعمارة هذه الأرض، ويُحقق وَعْد الله بخلافة هذا المخلوق الإنساني فيها. وإنه لمن رحمة الله بالناس أن يجهلوا ما وراء اللحظة الحاضرة ليؤملوا ويعملوا وينتجوا وينسئوا ويُخَلِّفوا ما وراءهم ما بدؤوه يُتِمُّه الخلف حتى يأتيهم ما خبيء لهم خلف الستار الرهيب.

وأمام هذه الحقيقة المتجلية البسيطة المريحة، يتجه الله ـ سبحانه ـ إلى الذين آمنوا ليحققوا في ذواتهم مدلول الإيمان ومقتضاه **﴿وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾**..

وليس لأحد من خلقه أن يسأله: لماذا شاء هذا؟ ما دام أن أحداً من خلقه ليس إلهاً! وليس لديه العلم بالغيب، ولا إمكان العلم.. فهو سبحانه **﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾** [الأنبياء: ٢٣]..

ومتى كان المسيطر على الوجود كله يُسأَل؛ ومن ذا الذي يسأله؛ وهو القاهر فوق عباده، وإرادته طليقة لا يحدها قيد من إرادة أخرى، ولا حتى من الناموس الذي ترتضيه هي وتتخذه حاكماً لنظام الوجود؟.

وإن الخلق ليستبد بهم الغرور أحياناً فيسألون سؤال المنكر المُتَعجِّب: ولماذا صَنَع الله كذا. وما الحكمة في فهذا الصنيع؟ وكأنما

يريدون ليقولوا: إنهم لا يجدون الحكمة في ذلك الصنيع!.

وهم يتجاوزون في هذا حدود الأدب الواجب في حق المعبود، كما يتجاوزون حدود الإدراك الإنساني القاصر الذي لا يعرف العلل والأسباب والغايات وهو محصور في حَيِّزه المحدود..

إن الذي يعلم كل شيء، ويدبر كل شيء، ويسيطر على كل شيء، هو الذي يُقدر ويُدبّر ويحكم، فهو ـ سبحانه ـ العليم بكل شيء، المحيط بكل شيء، ويرسم القرآن الكريم صورة فريدة لهذا العلم:

﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقه إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس، إلا في كتاب مبين﴾ [الأنعام: ٥٩]..

إنه المشهد الشامل الواسع العميق الرائع.. المشهد الذي يتكشف هكذا بجملته لعلم الله وحده؛ المشرف على كل شيء، المحيط بكل شيء، الحافظ لكل شيء، الذي تتعلق مشيئته وقَدَره بكل شيء.. الصغير كالكبير، والحقير كالجليل، والمخبوء كالظاهر، والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب..

وقصة موسى والخضر هي من قصص القرآن الكريم الرائعة، فهي مَعرض لحكمة الله وعلمه وتدبيره الخفي اللطيف. فهي «قصة هذه الحياة وقصة هذا الكون الذي نعيش فيه. إنها قصة تثبت في صورة عملية واضحة رائعة أن وراء المعلومات والمكشوفات في هذا العالم وفي هذه الحياة مجهولات كثيرة، وإن ما يجهله الإنسان ـ وأعظم إنسان في عصره ـ أكثر مما يعلمه، وإنه دائماً يبني حكمه على ما يشاهد ويشعر، ولذلك يُخطىء كثيراً ويتعثر كثيراً، وإنه لو انكشفت له حقائق الحياة وبواطن الأمور وعواقبها لتغيَّر حكمه كثيراً ونقض ما أبرم، وتثبت أنه لا ثقة بأحكامه وأقضيته وميوله

وانطباعاته، وأن لا إحاطة بهذا الكون الواسع، ولا يصح الإسراع في الحكم والإلحاح على سوانح الآراء، فإن الحياة غامضة ملتوية، وأن الكون واسع فسيح، وكثيراً ما يختلف الباطن عن الظاهر والآخر عن الأول، وأن في هذه الحياة ألغازاً لم يستطع الإنسان ـ على ذكائه وعلمه وحرصه ـ أن يحلّها، وأن في هذا الكون عُقداً وغوامض لم يستطع العلم البشري مهما اتسع وارتفع أن يكشفها، وأن حياتنا اليومية مليئة بالأخطاء الفاحشة، والأحكام السريعة، والخطوات المتهورة، والآراء المُرتجلة، وأنه لو أُسندت إليه إدارة هذا العالم الفسيح ومُنحَ الحرية التامة والتصرف المطلق لأفسد العالم وأهلك الحرث والنسل، لأن نظره قاصر وعلمه محدود وقد خُلق من عَجَل وفُطر على السرعة وقلة الصبر»[1].

لقد اختار الله ـ سبحانه ـ لتقرير وتأكيد هذه الحقيقة العظيمة ـ التي هي أساس الأديان والإيمان بالغيب ـ أعظم شخصية في عصره، أوتي علماً كثيراً وخيراً عميماً هو موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أحد أُولي العزم من الرسل، والذي اختصَّه الله واصطفاه وقرّبه نجياً **﴿وكلّم الله موسى تكليماً﴾** [النساء: ١٦٤]..

عن أُبي بن كعب، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «قام موسى في بني إسرائيل خطيباً، فقيلَ له: أيُّ الناس أعلم؟ قال: أنا، قال: فعتبَ الله عليه، إذ لم يَرُدّ العلم إليه، فقال: عَبْدٌ لي بِمَجْمَعِ البحرين هو أعلمُ منك. قال: أي ربِّ، فكيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً، فتجعله في مِكْتَل[2]، فحيثما ما فقدتَ الحوتَ، فهو ثَمَّ. قال: فأخذ الحوتَ، فجعله في المِكْتَل، فدفعه إلى فتاه، فانطلقا حتى أتيا الصخرة، فرَقَد موسى، فاضطربَ الحوت في المِكْتَل، فخرج، فوقع في البحر، فأمسك الله عليه جَرْيَةَ الماء فصار مثل

---

(١) أبو الحسن الندوي ـ تأملات في سورة الكهف ـ «المسلمون» المجلد السادس: ٢٢٨.
(٢) المكتل: هو القفة والزنبيل، يَسع خمسة عشر صاعاً.

الطاق[1]، فكان البحر للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً فانطلقا يمشيان.

فلما كان من الغد وجد موسى النَّصب..»[2].

---

(١) الطاق: عقد البناء، وجمعه طيقان وأطواق، وهو الأزج، وما عقد أعلاه من البناء، وبقي ما تحته خالياً (النووي في شرح مسلم ١٣٨/٥).

(٢) وفي تتمة حديث أبي: «فلما كان من الغد، وجد موسى النَّصب فقال: ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾. قال: ولم يجد النَّصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله جلَّ وعلا، فقال له فتاه: ﴿أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ قال: ﴿ذلك ما كنا نبغ فارتدّا على آثارهما قصصاً﴾، فجعلا يَقُصَّان آثارهما حتى أتيا الصخرة، فإذا رجل مُسَجًّى بثوب، فسلَّم، فقال: وأنَّى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: يا موسى، إني على عِلم من علم الله، عَلَّمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علَّمكه لا أعلمه. قال: إني أريد أن أتبعك على أن تُعلمني مما عُلمتَ رُشْداً، ﴿قال: إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تُحط به خُبراً. قال: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. قال: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدِثَ لك منه ذكراً﴾.

قال: فانطلقا يمشيان على الساحل، فمرت به سفينة، فعرفوا الخَضِر، فحملوه بغير نول. قال: فلم يفجأ موسى إلا وهو يُنْزِل لوحاً من ألواح السفينة، فقال له موسى: ما صنعتَ؟ قوم حملوك بغير نَوْل عمدتَ إلى سفينتهم، فخرقتها ﴿لتغرق أهلها، لقد جئتَ شيئاً إمراً. قال: أَلَمْ أقل إنك لن تستطيع معي صبراً. قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ قال: فكانت الأولى من موسى نسياناً. قال: وجاء عصفور، فوقع على حُرف السفينة، فَنَقر بمنقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما نقص عِلمي وعِلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر.

قال: ومروا على غِلمان يلعبون، فقال الخضر لغلام منهم بيده هكذا، فاقتلع رأسه، فقال له موسى: ﴿أقتلتَ نفساً... [إلى قوله سبحانه]: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغتَ من لدني عُذراً﴾.

قال: فأتيا ﴿أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن يَنْقَضَّ﴾ فقال الخضر بيده هكذا، فأقامه، فقال له موسى: استطعمناهم، فأبوا أن يطعمونا، واستضفناهم فأبوا أن يضيفونا، عمدتَ إلى حائطهم، فأقمتَهُ! ﴿لو شئت لاتَّخذتَ عليه أجراً. قال: هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «وَدِدْنا أن موسى كان صَبَر حتى يقص علينا من أمرهم».

وكان ابن عباس يقرأ: «وأما الغلام كان كافراً وكان أبواه مؤمنين، ويقرأ: وكان أمامهم =

﴿وإذ قال موسى لفتاه: لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حُقباً. فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً. فلما جاوزا قال لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. قال: أرأيتَ إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره وأتخذ سبيله في البحر عجباً. قال: ذلك ما كنّا نبغ فارتدّا على آثارهما قصصاً. فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلَّمناه من لدُنّا علماً. قال له موسى: هل أتبعك على أن تُعَلِّمن مما عُلِّمت رُشداً..﴾ [الكهف: ٦٠ ـ ٦٦]..

هذه الحلقة من سيرة موسى ـ عليه السلام ـ لا تُذكر في القرآن كله إلا في موضعها في سورة الكهف.

والقرآن لا يحدد المكان الذي وقعت فيه إلا بأنه «مَجمع البحرين» ولا يحدد التاريخ الذي وقعت فيه من حياة موسى، هل كان ذلك وهو في مصر قبل خروجه ببني إسرائيل أم بعد خروجه منها؟ ومتى بعد الخروج: قبل أن يذهب بهم إلى الأرض المقدسة، أم بعدما ذهب بهم إليها فوقعوا حيالها لا يدخلون لأن فيها قوماً جبارين؟ أم بعد ذهابهم في التيه، مُفرقين مُبددين؟ كذلك لا يذكر القرآن شيئاً عن العبد الصالح الذي لقيه موسى من هو؟ ما اسمه؟ **هل هو نبي أو رسول**[1]؟.

= مَلك يأخذ كل سفينة غصباً». أخرجه البخاري ومسلم، ورواه ابن حبان في صحيحه، وإسناده صحيح على شرط مسلم والنص لابن حبان. انظر الإحسان ٦٢٢٠ و ١٠٢.

(١) وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أنه «الخَضِر». وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنما سُمِّي الخَضِر خَضِراً، لأنه جَلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتزُّ تحته خضراء». والفَروة: أرض بيضاء ليس فيها نبات. (أخرجه أحمد ٢/٣١٢ و ٣١٨، والترمذي ٣١٥١، وابن حبان في صحيحه، وإسناده صحيح على شرط مسلم. انظر الإحسان ٦٢٢٢).

وقد اختلف أهل العلم: هل كان الخَضِر نبياً ولياً، والذي تدعمه الأدلة أنه كان نبياً. وقد قال الثعالبي: هو نبي في سائر الأقوال. انظر الفائدة الشافية حول الخضر في الإحسان ١٤/١٠٩.

وهناك روايات كثيرة عن ابن عباس[1] وغيره في هذه القصة. ونحن نقف عند نصوص القصة في القرآن. ونعتقد أن لعرضها في القرآن على النحو الذي عرضت به، دون تحديد للمكان والزمان والأسماء، حكمة خاصة. فنقف نحن عند النص القرآني نتملاه..

﴿وإذ قال موسى لفتاه: لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً﴾..

والأرجح ـ والله أعلم ـ أنه مجمع البحرين: بحر الروم وبحر القلزم، أي البحر الأبيض والبحر الأحمر. ومجمعهما مكان التقائهما في منطقة البحيرات المُرّة وبحيرة التمساح. أو أنه مجمع خليجي العقبة والسويس في البحر الأحمر. فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر. وعلى أي فقد تركها القرآن مجملة فنكتفي بهذه الإشارة[2].

ونفهم من سياق القصة فيما بعد ـ أنه كان لموسى ـ عليه السلام ـ هَدف من رحلته هذه التي اعتزمها، وأنه كان يقصد من ورائها أمراً، فهو يعلن تصميمه على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة، ومهما يكن الزمن الذي ينفقه في الوصول. وهو يعبر عن هذا التصميم بما حكاه القرآن

---

(١) عن ابن عباس، أنه تمارى هو والحُرّ بن قيس بن حِصْن الفزاري في صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو الخَضِر. فمرَّ بهما أُبَيّ بن كعب، فدعاه ابن عباس، فقال: يا أبا الطفيل! هلُمَّ إلينا، فإني قد تماريتُ أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل موسى السبيل إلى لُقيِّه، فهل سمعتَ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول فيه شيئاً؟ فقال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل، فقال له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟....» وكان من شأن القصة ما تقدم. انظر الإحسان (رقم ١٠٢)، وانظر ما أورده البخاري عند الكلام عن هذه القصة في القرآن..

(٢) ورد أن قتادة وغير واحد قال: هما بحر فارس مما يلي المشرق وبحر الروم مما يلي المغرب. وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة ـ يعني في أقصى بلاد المغرب ـ. ونحن نستبعد القولين..

من قوله: ﴿أو أمضي حقباً﴾ والحقب قيل: عام، وقيل: ثمانون عاماً. على أية حال فهو تعبير عن التصميم، لا عن المدة على وجه التحديد.

﴿فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سَرَباً. فلما جاوزا قال لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. قال: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره وأتخذ سبيله في البحر عجباً..﴾.

والأرجح كذلك أن هذا الحوت كان مشوياً، وأن إحياءه واتخاذه سبيله في البحر سرباً كان آية من آيات الله لموسى، يعرف بهما موعده، بدليل عجب فتاه من اتخاذه سبيله في البحر، ولو كان يعني أنه سقط منه فغاص في البحر ما كان في هذا عجب. ويرجح هذا الوجه أن الرحلة كلها مفاجآت غيبية. فهذه إحداها.

وأدرك موسى أنه جاوز الموعد الذي حدده ربه للقاء عبده الصالح. وأنه هنالك عند الصخرة ثم عاد على أثره هو وفتاه فوجداه:

﴿قال: ذلك ما كنا نبغ. فارتدا على آثارهما قصصاً. فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾..

ويبدو أن ذلك اللقاء كان سرّ موسى وحده مع ربه. فلم يطلع عليه فتاه، ومن ثم ينفرد موسى والعبد الصالح في المشاهد التالية للقصة:

﴿قال له موسى: هل أتبعك على أن تعلمن مما عُلِّمْتَ رُشداً؟﴾..

بهذا الأدب اللائق بنبي، يستفهم ولا يجزم، ويطلب العلم الراشد من العبد الصالح العالم.

ولكن علم الرجل ليس هو العلم البشري الواضح الأسباب القريب النتائج، إنما هو جانب من العلم اللّدني بالغيب أطلعه الله عليه بالقدر الذي أراده، للحكمة التي أرادها. ومن ثم فلا طاقة لموسى بالصبر على الرجل

وتصرفاته ولو كان نبياً رسولاً. لأن هذه التصرفات حسب ظاهرها قد تصطدم بالمنطق العقلي، وبالأحكام الظاهرة، ولا بد من إدراك ما وراءها من الحكمة المُغَيَّبة؛ وإلا بقيت عجيبة تثير الاستنكار. لذلك يخشى العبد الصالح الذي أُوتي العلم اللَّدني على موسى ألَّا يَصبر على صحبته وتصرفاته:

﴿قال: إنك لن تستطيع معي صبراً. وكيف تصبر على ما لم تحط به خيراً؟﴾ [الكهف: ٦٧]..

ويعزم موسى على الصبر والطاعة، ويستعين بالله، ويُقدِّم مشيئته: **﴿قال: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾** [الكهف: ٦٩]..

فيزيد الرجل توكيداً وبياناً، ويذكر له شرط صحبته قبل بدء الرحلة، وهو أن يصبر فلا يَسأل ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له عن سرها:

﴿قال: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكراً﴾ [الكهف: ٧٠]..

مفاجـآت غيبيـة:

ويرضى موسى.. وإذا نحن أمام المشهد الأول لهما: **﴿فانطلقا حتى إذا ركبا السفينة خرقها﴾** [الكهف: ٧١]..

سفينة تحملهما وتحمل معهما ركاباً، وهم في وسط اللجّة؛ ثم يجيء هذا العبد الصالح فيخرق السفينة!.

إن ظاهر الأمر هنا أن هذه الفعلة تُعرِّض السفينة وركابها لخطر الغرق وتؤدي بهم إلى هذا الشر، فلماذا يقدم الرجل على هذا الشر؟.

لقد نسي موسى ما قاله هو وما قاله صاحبه، أمام هذا التصرف

العجيب الـذي لا مُبرر لـه في نظر المنـطق العقلي! والإنسان قـد يتصور المعنى الكلي المجرد، ولكنه عندما يصطدم بالتطبيق العملي لهذا المعنى والنموذج الواقعي منه يستشعر له وقعاً غير التصور النظري.

فالتجربة العملية ذات طعم آخر غير التصور المجرد. وها هو ذا موسى الذي نُبِّه من قبل إلى أنه لا يستطيع صبراً على ما لم يُحط به خبراً، **فاعتزم الصبر واستعان بـالمشيئة** وبَـذَل الوعـد وقَبِلَ الشـرط، ها هـو ذا يصطدم بالتجربة العملية لتصرفات هذا الرجل فيندفع مُستنكراً.

نعم إن طبيعة موسى طبيعة انفعالية اندفاعية، كما يظهر من تصرفاته في كل أدوار حياته.. منذ أن وَكَز الرجـل المصري الـذي رآه يقتتل مـع الإسرائيلي فقتله في اندفاعة من اندفاعاته. ثم أناب إلى ربه مستغفراً معتذراً حتى إذا كان اليوم الثاني ورأى الإسرائيلي يَقْتَتِل مع مصري آخر، همَّ بالآخر مرة أخرى!.

نعم إن طبيعة موسى هي هذه الطبيعة. ومن ثم لم يصبر على فعلة الرجل ولم يستطع الوفاء بوعده الذي قطعه أمام غرابتهـا. ولكن الطبيعـة البشرية كلها تلتقي في أنها تجد للتجربة العملية وَقْعاً وطعماً غيـر التصور النظري. ولا تدرك الأمور حق إدراكها إلا إذا ذاقتها وجربتها.

ومن هنا اندفع موسى مُستنكراً: ﴿**قال: أخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمراً**﴾ [الكهف: ٧١]..

وفي صبر ولطف يُذكّره العبد الصالح بما كان قد قاله منذ البدايـة: ﴿**قال: ألم أقل: إنك لن تستطيع معي صبراً؟**﴾ [الكهف: ٧٢]..

ويعتذر موسى بنسيانه، ويطلب إلى الرجل أن يقبل عُذره ولا يرهقه بالمراجعة والتذكير: ﴿**قال: لا تؤاخذني بما نسيتُ ولا تـرهقني من أمري عسراً**﴾ [الكهف: ٧٣]..

ويقبل الرجل اعتذاره، فنجدنا أمام المشهد الثاني: **﴿فانطلقا. حتى إذا لقيا غلاماً فقتله..﴾** [الكهف: ٧٤]..

وإذا كانت الأولى خَرْق سفينة واحتمال غَرَق مَن فيها؛ فهذه قتل نفس. قَتْل عَمْد لا مُجرد احتمال. وهي فظيعة كبيرة لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تَذَكُّره لِوَعْده: **﴿قال: أَقَتَلْتَ نفساً زكية بغير نفس؟ لقد جئت شيئاً نُكراً﴾** [الكهف: ٧٤]..

فليس ناسياً في هذه المرة ولا غافلاً، ولكنه قاصد. قاصد أن ينكر هذا النكر الذي لا يصبر على وقوعه ولا يتأول له أسباباً؛ والغلام في نظره بريء. لم يرتكب ما يوجب القتل، بل لم يبلغ الحلم حتى يكون مؤاخَذاً على ما يصدر منه.

ومرة أخرى يردّه العبد الصالح إلى شرطه الذي شرط ووعده الذي وعد، ويذكره بما قال له أول مرة. والتجربة تصدقه بعد التجربة:

﴿قال: ألم أقل لك: إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ [الكهف: ٧٥]..

وفي هذه المرة يعين أنه قال له: **﴿ألم أقل لك﴾**؟ لك أنت على التعيين والتحديد. فلم تقتنع وطلبتَ الصحبة وقبلت الشرط.

ويعود موسى إلى نفسه، ويجد أنه خالف عن وعده مرتين، ونسي ما تعهد به بعد التذكير والتفكير. فيندفع ويقطع على نفسه الطريق، ويجعلها آخر فرصة أمامه: **﴿قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني[1]. قد بلغتَ من لدني عذراً﴾** [الكهف: ٧٦]..

---

(١) عن أُبيّ بن كعب، قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا ذكر أحداً من الأنبياء بدأ بنفسه، وإنه قال ذات يوم: «رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لو صَبَر مع صاحبه لرأى العَجَب الأعاجيب، ولكنه قال: **﴿إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني﴾**..

وينطلق السياق فإذا نحن أمام المشهد الثالث:

﴿فانطلقا. حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يُضَيِّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه﴾ [الكهف: ٧٧].

إنهما جائعان، وهما في قرية أهلها بخلاء، لا يُطعمون جائعاً، ولا يستضيفون ضيفاً. ثم يجد أن جداراً مائلاً يهم أن ينقض.

والتعبير يخلع على الجدار حياة وإرادة كالأحياء فيقول: **﴿يريد أن ينقض﴾** فإذا الرجل الغريب يشغل نفسه بإقامة الجدار دون مقابل!!!.

وهنا يشعر موسى بالتناقض في الموقف. ما الذي يدفع هذا الرجل أن يجهد نفسه ويقيم جداراً يهم بالانقضاض في قرية لم يقدم لهما أهلها الطعام وهما جائعان، وقد أبوا أن يستضيفوهما؟ أفلا أقل من أن يطلب عليه أجراً يأكلان منه؟ **﴿قال: لو شئت لاتخذت عليه أجراً!﴾** [الكهف: ٧٧].

وكانت هي الفاصلة. فلم يعد لموسى من عذر، ولم يعد للصحبة بينه وبين الرجل مجال:

﴿قال: هذا فراق بيني وبينك. سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ [الكهف: ٧٨].

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي عن قصة موسى هذه: «وتبدأ رحلته مع الرجل الذي آتاه الله من عنده رحمة وعَلَّمه من لدنه علماً فيصطدم علمه وفهمه بالحقيقة الراهنة، ويتعارض حكمه ورأيه واتجاهه ـ وهو الاتجاه الذي يقرره الظاهر ـ مع واقع الأمر الذي يجهله، ثلاث مرات: إن الخضر يخرق السفينة التي حملتهما وأركبهما صاحبها من غير نولٍ، ولكن الخضر يكافىء يده بضدها ويتسبب ـ على ما كان يظهر لموسى ـ في غرق ركابها الوادعين، ويقتل غلاماً زكياً لم يسيء إليهما ولم يسيء أبواه، وبالعكس من ذلك، يقيم جداراً يريد أن ينقض من غير أجرة يتقاضاها وذلك في قرية لم يضيِّفهما

أهلها ولم يعرفوا حقهما. هذه كلها تصرفات غريبة من الخضر تثير في موسى الاستغراب والدهشة وتحمله على الإنكار والسؤال مرة بعد مرة، فقد كان من حق السفينة التي حملتهما أن يحتفظ بها ويحرص عليها وقد كان من حق صاحب السفينة الذي أسدى إليهما المعروف أن ينصح له ويعرف له الفضل، وقد كان من حق الغلام الزكي الوسيم أن يُحب ويُحرس، وقد كان من حق القرية التي تَنَكَّرت لهما وجَفَتْهما وقسى عليهما أهلها وشَحُّوا بفضول طعامهم وأزوادهم أن لا يُحسن إليهم ولا يُحرَص على أموالهم، ولكن الخضر يعاكس المعقول، المعروف المنتظر، ويتخذ في جميع هذه القضايا الثلاث موقفاً لا يقره العقل ولا يؤيده المنطق ولا يسيغه الذوق ولا يملك موسى نفسه ـ وهو المؤمن الغيور والنبي المرسل ـ أمام هذه التصرفات الغريبة، فينسى وعده ويسرع إلى الإنكار والتساؤل، ويقول: **﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾**. . ».

وانتهت هذه الرحلة العجيبة. . **﴿قال: هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾**. .

ما أعجب الحقائق إذا ظهرت:

وإلى هنا كان موسى ـ ونحن الذين نتابع سياق القرآن ـ أمام مفاجآت متوالية لا نعلم لها سراً. وموقفنا منها كموقف موسى. بل نحن لا نعرف من هو هذا الذي يتصرف تلك التصرفات العجيبة، فلم يُنبئنا القرآن باسمه، تكملة للجو الغامض الذي يحيط بنا. وما قيمة اسمه؟ إنما يراد به أن يمثل الحكمة الإلهية العليا، التي لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة. فعدم ذكر اسمه يتفق مع الشخصية المعنوية التي يُمثلها. وإن القوى الغيبية لتتحكم في القصة منذ نشأتها.

فها هو ذا موسى يريد أن يلقى هذا الرجل الموعود. فيمضي في طريقه؛ ولكن فتاه ينسى غداءهما عند الصخرة، وكأنما نسيه ليعودا. فيجد هذا الرجل هناك. وكان لقاؤه يفوتهما لو سارا في وجهتهما، ولو لم تردهما الأقدار إلى الصخرة كرة أخرى.. كل الجو غامض مجهول، وكذلك اسم الرجل الغامض المجهول في سياق القرآن.

ثم يأخذ السر في التجلي: **﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر، فأردت أن أعيبها؛ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً﴾** [الكهف: ٧٩]..

فبهذا العيب نجت السفينة من أن يأخذها ذلك الملك الظالم غصباً. وكان الضرر الصغير الذي أصابها اتقاء للضرر الكبير الذي يكنه الغيب لها لو بقيت على سلامتها.

﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً. فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً﴾ [الكهف: ٨٠، ٨١]..

فهذا الغلام الذي لا يبدو في حاضره ومظهره أنه يستحق القتل، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح، فإذا هو في طبيعته كافر طاغٍ، تكمن في نفسه بذور الكفر والطغيان، وتزيد على الزمن بروزاً وتحققاً.. فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه، وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه في طريقه. فأراد الله ووجه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام الذي يحمل طبيعة كافرة طاغية، وأن يبدلهما الله خلفاً خيراً منه، وأرحم بوالديه.

ولو كان الأمر موكولاً إلى العلم البشري الظاهر، لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام، ولما كان له عليه من سلطان، وهو لم يرتكب بعد ما يستحق

عليه القتل شرعاً. وليس لغير الله ولمن يطلعه من عباده على شيء من غيبه أن يحكم على الطبيعة المغيبة لفرد من الناس. ولا أن يرتب على هذا العلم حكماً غير حكم الظاهر الذي تأخذ به الشريعة. ولكنه أمر الله القائم على علمه بالغيب البعيد.

﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما، وكان أبوهما صالحاً، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما، رحمة من ربك وما فعلته عن أمري. . ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ [الكهف: ٨٢]. .

فهذا الجدار الذي أتعب الرجل نفسه في إقامته، ولم يطلب عليه أجراً من أهل القرية ـ وهما جائعان وأهل القرية لا يضيفونهما ـ كان يخبىء تحته كنزاً، ويغيب وراءه مالاً لغلامين يتيمين ضعيفين في المدينة. ولو ترك الجدار ينقض لظهر من تحته الكنز فلم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه. . ولما كان أبوهما صالحاً فقد نفعهما الله بصلاحه في طفولتهما وضعفهما، فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما، ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «ويُؤَجّل الخضر الإجابة عن أسئلة موسى وإقناعه، ويمضي في خطته بتؤدة وأناة حتى تنتهي هذه الرحلة إلى غايتها المقدرة فيكشف القناع عن هذه القضايا الثلاث التي كانت موضع دهشة واستغراب من موسى ـ ومن كل من يقرأ هذه القصة في القرآن ـ مرة واحدة فيتجلى أن الخضر كان مصيباً محسناً حكيماً في تصرفاته الثلاثة، وأنه لم يكن مسيئاً في موضع إحسان ولا محسناً في موضع إساءة، وقد أحسن إلى صاحب السفينة بخرقها إذ حفظها من الاغتصاب، فقد كان وراءها ملك يأخذ كل سفينة ـ صالحة سليمة ـ غصباً، فكافأه بذلك على إحسانه ومعروفه، وقد أحسن إلى أبوي الغلام بقتله إذ كان هذا الغلام فتنة لهما، كان يخشى أن يرهقهما طغياناً وكفراً، فرأى أن بكاء ساعة أفضل من بكاء

طول الحياة وبعد الحياة، ورأى أن الغلام عنه عَوض، ولا عوض عن الدين والعافية. وقد أصلح الجدار وأقامه لأنه كان ليتيمين من أبوين صالحين وكان تحته كنز لو تهدم وانقضَّ هذا الجدار لانكشف هذا الكنز الدفين واختطفه السُّرَّاق والناهبون، وبقي الغلامان من غير مال ولا رصيد، وهكذا ظهر أن صلاح العمل ينفع في الحياة وبعد الممات وأن الله لم يرد أن يضيع أولاد الرجل الصالح فكيف يضيع الرجل الصالح، **﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾** [هود: ١١٥]. . **﴿فاستجاب لهم ربهم إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾** [آل عمران: ١٩٥]. . وإن البذور الصالحة تظهر نتيجتها كما أن البذور الفاسدة تظهر نتيجتها. .

ما أعجب الحقائق إذا ظهرت! وما أبعد الشقة بين الصورة والحقيقة، والظاهر والباطن، وما أعقد هذه الحياة، وما أغمض هذا الكون، وما أكثر ألغاز الحياة، وما أجرأ الإنسان في ادعائه أنه أحاط بكل شيء علماً، ووصل إلى الحقيقة في كل قضية! ما أبعد الخضر عن الصواب وسبيل الرشاد في أوائل الأمور؛ وما أقربه إليه وما أرشده في عواقب الأمور!.

لقد تحقق أن هذه الحياة لا تزال تطلع بكل جديد وتهجم بكل غريب، وتحقق أن العلم البشري لم ينته إلى الحد الأخير، وفوق كل ذي علم عليم. . »[1].

وتمضي هذه الرحلة الغيبية إلى غايتها: **﴿رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويلُ ما لم تسطع عليه صبراً﴾** [الكهف: ٨٢]. .

ثم ينفض الرجل يده من الأمر. فهي رحمة الله التي اقتضت هذا التصرف. وهو أمر الله لا أمره. فقد أطلعه على الغيب في هذه المسألة وفيما

---

(١) مجلة المسلمون، المجلد السادس: ٢٣٠ ـ ٢٣١.

قبلها، وَوَجَّهه إلى التصرف فيها وفق ما أطلعه عليه من غيبه ﴿**رحمة من ربك وما فعلته عن أمري**﴾..

فالآن ينكشف الستر عن حكمة ذلك التصرف، كما انكشف عن غيب الله الذي لا يطلع عليه أحداً إلا من ارتضى.

وفي دهشة السر المكشوف والستر المرفوع يختفي الرجل من السياق كما بدا. لقد مضى في المجهول كما خرج من المجهول. فالقصة تمثل الحكمة الكبرى. وهذه الحكمة لا تكشِف عن نفسها إلا بمقدار. ثم تبقى مغيبة في علم الله وراء الأستار.

تسير الحوادث في القصة وفق ترتيب خاص بحيث يكون كل حَدَث في مكانه، كما أنه يوجد في الوقت المناسب، وينمو ويكتمل ويتوقف حسب ميزان دقيق.

نجد أن موسى وصاحبه يدركهما النوم عند الصخرة، مما ترتب عليه خروج الحوت من مكتلهم، وهم لا يشعرون، وسقوطه في البحر، وهو أمر له ما بعده في بنية القصة، حيث نجدهم بعد أن سارا يوماً وليلة يدركهم التعب ويحسون بالجوع وحاجتهم إلى الطعام، فيقول موسى: ﴿**آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَباً**﴾ [الكهف: ٦٢].. وهنا يتذكر صاحب موسى أنه نسي الحوت عند الصخرة، وكان لا بد أن يحصل ذلك ليتأتى منهم الرجوع إلى المكان؛ ليلتقيا فيه بالرجل الذي علّمه الله من لدنه، وليبدأ موسى معه رحلة يتعلم فيها منه مما عَلّمه الله.

وتعرض القصة النبي في موقف يحمل العبرة والدرس، ذلك الموقف الذي عاتب الله فيه موسى حين ادّعى العلم[١]، فليس هذا الموقف سوى درس تعليمي وتربوي، كما تعرض جانب من شخصية موسى ـ عليه السلام ـ من حدة الطبع وسرعة الانفعال.. فنرى موسى ـ عليه السلام ـ

متعجلاً، سريع الغضب، لا يطيق صبراً على ما يرى من أفعال مثيرة يقوم بها الخضر طوال الرحلة.

ونجد في القصة إبراز مركز الشخصية وموضعها، فيوصف الخضر بما يحدد مكانته في العلم «إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك».

ونرى في القصة شخصية حيوانية وهو الحوت له صلة بالحدث في اجتماع الشخصيتان الرئيستان بالقصة موسى والخضر، وأما بقية الشخصيات من «بني إسرائيل» و«يوشع بن نون» و«أصحاب السفينة» و«الغلام» و«أهل القرية» وكذلك «الحوت» و«العصفور» فكلها شخصيات ثانوية ذات أدوار محدودة.

وتعرض القصة أحداثاً غير مألوفة، بحيث تبدو في نظر السامع أو القارىء غريبة، من خرقه للسفينة، وقتله للغلام، وإقامته للجدار الذي يريد أن ينقض، وكانت هذه الأحداث مثار عجب موسى واستغرابه، ولذلك كان يستنكر على الخضر في كل مرة.

ويبرز الحوار في القصة حيث تحتوي على خمسة مقاطع حوارية، تشكل العنصر المهم والجانب الحيوي في بناء القصة، وهو يأتي في سياق العرض في صورة طبيعية، ويساعد في رسم الشخصية، ويجعلها كاملة الوضوح بما تحمل من مشاعر وعواطف وأحاسيس، فهو يعكس نفسية موسى ـ عليه السلام ـ وما تنطوي عليه من مزاج حاد وسرعة في الغضب والانفعال.

كذلك يسعى الحوار إلى تطوير الحدث ودفعه إلى مواقف جديدة في خط سير القصة إلى أن تصل إلى النهاية، وذلك بعد أن يعمق الحَدَث في نفس المتلقي، ويرسم المواقف وما تنطوي عليه النفس الإنسانية من تأثر وانفعال.

وترشد القصة أن الله هو الواسع العليم، العليم الخبير، وأنه فوق كل

ذي علم عليم. . والله هو الذي يدبر الأمر بحكمته، وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر، الواقفون وراء الأستار، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار[١]. .

وأمر الغيب كله لله، فللّه وحده علم هذا الغيب. لا يطلع على شيء منه إلا من شاء، بالقدر الذي يشاء، في الوقت الذي يشاء. . لذلك لا يملك العباد لأنفسهم نفعاً ولا ضراً. . فقد يفعلون الأمر يريدون به جلب الخير لأنفسهم، ولكن عاقبته تكون هي الضرّ لهم. وقد يفعلون الأمر يريدون به رفع الضر عنهم، ولكن عاقبته هي الضر: **﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾** [البقرة: ٢١٦]. .

والشاعر الذي يقول:

أَلَا من يريني غايتي قبل مذهبي! ومن أين والغايات بعد المذاهب[٢]

إنما يمثل موقف البشرية أمام الغيب المجهول. ومهما يعلم الإنسان ومهما يتعلم، فإن موقفه أمام باب الغيب الموصد، وأمام ستر الغيب المسدل، سيظل يُذكّره ببشريته المحجوبة أمام عالم الغيب المحجوب. . ذلك أن حقيقة الغيب من «مقومات التصور الإسلامي»[٣] الأساسية، لأنها من مقومات العقيدة الإسلامية الأساسية، ومن قواعد «الإيمان» الرئيسية.

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي: «إننا نعلم بالنظر في الكون والتفكر في نظامه المنسجم أنه من اللازم أن يكون الموجد لمعمل هذا الكون الكبير والمدبر لشؤونه المتعددة، وجوداً بالغاً الكمال في العلم

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ٢٥٦، ٢٨٩، ٢٩٤، ٢٩٩، ٣١١، ٣١٤.

(٢) من قصيدة لابن الرومي.

(٣) يراجع ما جاء في الجزء السابع عند تفسير قوله تعالى: **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾** في ظلال القرآن ص١١١٣ ـ ١١٢١، كما يراجع بتوسع كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» بقسميه.

والحكمة والخبرة، ومن المستحيل ألبتة أن يكون غافلاً عن رغباتنا وأماني نفوسنا مَنْ قد أوجدها فينا، أو جاهلاً بأحاسيسنا وخيالاتنا مَنْ قد أودعنا إياها، أو أنه لا يعلم كيفية أَلَم الطفل وَوَجع والديه بموته مَنْ قد خَلَقه وألقى حبه في قلوب والديه، ولكنه إذا شاء، على علمه بكل هذا ـ ومن أوسع منه علماً ـ أن يبتلي والديه بموته، وإذا رضي أن يبتلي أحاسيسنا على علمه بها، وإذا أبى أن يحقق آمالنا وأمانينا على عدم غفلة عنها، فلنعلم أن كل ما قد فعل، كان ممن لا مندوحة عنه ولا كان في علمه شيء أفضل منه بحقنا، وأنه لو كان لاختاره بدلاً منه، لأنه العليم الحكيم، ولا يجوز أن يُظَنَّ أن يفضل شيئاً لا مصلحة فيه على شيء فيه المصلحة.

ولا مراء أننا لا نعرف ما في أفعاله من الأسرار والحكم لأن نظرنا لا يحيط بالكون كله، ومن المتعذر علينا أن نعلم أي شيء هو اللازم المناسب ولأي الأوقات.

أما إذا اعتقدنا على الوجه الإجمالي اعتقاداً صحيحاً بحكمة الله عز وجل وعلمه وخبرته بكل شيء، فسنعلم علم اليقين عند نزول كل آفة أن حكمة الله هي التي لا بد أن تكون مقتضية لنزولها بنا، وتكون هذه الآفة هي المناسبة لأحوالنا في علمه، فإذن لا بد أن نستسلم لمشيئته ونرضى بمرضاته.

وحقيقة أخرى نعلمها بالتفكر هي أن الله الذي يُسيِّر نظام الكون ويدبر شؤونه، نصب عينه الخير الكلي دائماً، وأن كل ما قد نراه شراً من أفعاله، لا يجوز أن يقال إنه شر إلا باعتبار نسبته إلى الأفراد والآحاد وما هو في حقيقة الأمر إلا للخير الكلي، وأن وقوعه وسيلة لازمة لحصول الخير الكلي، وأنه لو لم يكن لازماً وأمكن حصول الخير الكلي بدونه، لما كان له وجود في أفعال الله العليم الخبير ولاختار لأفعاله نظاماً غير النظام الحاضر.

ونعلم كذلك عندما نمعن النظر في الكون ونظامه، على كل ما فينا من

مكامن الضعف والعجز، أن هذا الكون ما كان ليصلح له نظام أحسن من نظامه الحاضر، وأنه ليس في الإمكان أن يُقتَرح له نظام آخر لا يكون فيه أثر لنوع من الشرور الجزئية ولا النسبية، بل الحق أن النظام الحاضر للكون إذا انعدمت فيه الشرور، فلا بد أن يكون انعدامها شراً أكبر من شر وجودها لأنه سيحول دون ظهور كثير من الخيرات لأجل خير جزئي واحد.

تأمَّل ـ على سبيل المثال ـ الموت، وهو الذي يفرّ منه الإنسان ويخافه أكثر من كل شيء آخر، كم من أفراد البشر يتيسر عليهم سلوك طريق الحياة بموت واحد منهم؟.

ولا معنى لأن يُعَمَّر أحد إلى الأبد إلا أن يُضيق باب الحياة على عدد كبير منهم. وإذا كانت حياته إلى الأبد خيراً فإنما هي كذلك لذاته فقط لا للخير الكلي. وعلى العكس من ذلك أن موته إن كان شراً لذاته فهو الوسيلة المحتومة الوحيدة لحصول كثير من الخير الجزئي. أما بالنسبة للخير الكلي، فلا يقع أي نقص بموت هذا الفرد لأنه لا يُحدث شيئاً من الاختلال في نظام الكون.

ولك أن تعرف بالقياس على هذا المثال أن كل ما يحل بالأفراد من المصائب والنكبات والآفات، هو شر من ناحية ووسيلة لحصول الخير من ناحية أخرى، ولا بد للخير الكلي من وقوعه. فأحياناً ندرك بقليل من التأمل جهة كونه وسيلة للخير، ويثبت لنا أحياناً أخرى بالتجربة أن شيئاً كنا نحسبه شراً كان في الحقيقة سبباً للخير. فالذي يجب علينا، إذا لم ندرك جهة الخير في شرّ ما، أن نؤمن، على الوجه الإجمالي، بأن الله لا يفعل إلا خيراً وأنه لا خير لنا إلا في أن نستسلم لِقَدَره المقدور سواء أدركنا السر في فعله أو لم ندركه»[1].

فرحمة الله هي التي تتصرف بمقدور الإنسان **﴿رَحمةً من ربّك وما**

---

(١) قصور النظر الإنساني: مجلة المسلمون ـ المجلد السادس: ٣٠ ـ ٣٢.

فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تَسطِع عليه صبراً﴾ [الكهف: ٨٢]. .

إن وراء الغيب حكمة، فعندما تحيط الكروب بالنفس وتشق عليها الأمور يفتح الله نافذة للمؤمن ليطلّ منها على حقيقة الأمر. نافذة تهب منها ريح رخية ﴿عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [البقرة: ٢١٦]. . إنه مَن يدري فلعل وراء المكروه خيراً. ووراء المحبوب شراً.

إن العليم بالغايات البعيدة، المُطلع على العواقب المستورة، هو الذي يعلم وحده. حيث لا يعلم الناس شيئاً من الحقيقة. . إن هذه النافذة الربانية تَسكب في النفس المؤمنة حقيقة السلام والاستسلام فتتيقن أن الخِيرة فيما اختاره الله.

وبعد فإن قصة موسى والخضر «وما تشتمل عليه من روح ومغزى، تَتَحدّى التفكير المادي الذي يُلح على أن الحياة هي التي فهمها الإنسان، وعلى أن هذا الكون هو الذي أحاط به علماً، وأن ليست الحقيقة إلا ما تتراءى للعيون، وأن الظواهر هي التي يصح عليها الحكم، وأن الإنسان يستحق أن تُسند إليه إدارة هذا العالم، ويخوَّل حق التشريع، فقد اكتمل عقلاً وعلماً ودراسة، وبلغ إلى أغوار الحقيقة وأعماق العلم وحقائق الكون.

لقد قامت الفلسفات المادية على هذا الأساس، وقد قامت الحضارة العصرية على هذا التفكير والعقيدة، وقصة موسى والخضر تنقض هذا الأساس وتهدم هذا البناء وتنتهي القصة بقول الخضر لموسى: ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ [الكهف: ٨٢]. . والتأويل في اصطلاح القرآن هو الحقيقة[1]، وهكذا يتعجل الإنسان ويُنكر ويُخطىء حتى تتجلى له الحقيقة، ويأتي التأويل»[2].

---

(١) راجع تفسير سورة الاخلاص لابن يتيمة.

(٢) الندوي ـ المسلمون، المجلد السادس: ٢٣٢.

على أننا قبل أن نغادر هذه التأمُّلات الموحية من القصة القرآنية، ينبغي أن نقول كلمة عن طبيعة «الغيب» في العقيدة الإسلامية، وفي التصور الإسلامي، وفي العقلية الإسلامية.

إن القرآن الكريم ـ وهو المصدر الأساسي للعقيدة الإسلامية التي تُنشىء التصور الإسلامي والعقلية الإسلامية ـ يقرر أن هناك عالَماً للغيب وعالَماً للشهادة. فليس كل ما يحيط بالإنسان غيباً، وليس كل ما يتعامل معه من قوى الكون مجهولاً..

إن هنالك سُنناً ثابتة لهذا الكون؛ يملك «الإنسان» أن يعرف منها القَدَر اللازم له، حسب طاقته وحسب حاجته، للقيام بالخلافة في هذه الأرض. وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية؛ وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة، وتعمير الأرض، وترقية الحياة، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها..

وإلى جانب هذه السنن الثابتة ـ في عمومها ـ مشيئة الله الطليقة؛ لا تقيدها هذه السنن وإن كانت من عملها. وهناك قَدَر الله الذي يُنفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها. فهي ليست آلية بحتة، فالقَدَر هو المسيطر على كل حركة فيها؛ وإن جرت وفق السنة التي أودعها الله إياها. وهذا القَدَر الذي يُنفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها «غيب»، لا يعلمه أحد علم يقين؛ وأقصى ما يصل إليه الناس هو الظنون و«الاحتمالات».. وهذا ما يعترف به العلم البشري أيضاً.

وإن ملايين الملايين من العمليات لتتم في كيان الإنسان في اللحظة الواحدة؛ وكلها «غيب» بالقياس إليه، وهي تجري في كيانه! ومثلها ملايين ملايين العمليات التي تتم في الكون من حوله؛ وهو لا يعلمها!.

وإن الغيب ليحيط بماضيه وماضي الكون. وحاضره وحاضر الكون.

ومستقبله ومستقبل الكون.. وذلك مع وجود السنن الثابتة، التي يعرف بعضها، وينتفع بها انتفاعاً علمياً منظماً في النهوض بعبء الخلافة.

وإن «الإنسان» ليجيء إلى هذا العالم على غير رغبة منه ولا علم بموعد قدومه! وإنه ليذهب عن هذا العالم على غير رغبة منه ولا علم بموعد رحيله! وكذلك كل شيء حي.. ومهما تعلم ومهما عرف، فإن هذا لن يُغيِّر من هذا الواقع شيئاً!.

إن العقلية الإسلامية عقلية «غيبية علمية»، لأن «الغيبية» هي «العلمية» بشهادة «العلم» والواقع.. أما التنكر للغيب فهو «الجهلية» التي يتعالم أصحابها وهم بهذه الجهالة!.

وإن العقيدة الإسلامية لتجمع بين الاعتقاد بالغيب المكنون الذي لا يعلم مفاتحه إلا الله؛ وبين الاعتقاد بالسنن التي لا تتبدل، والتي تمكن معرفة الجوانب اللازمة منها لحياة الإنسان في الأرض، والتعامل معها على قواعد ثابتة.. فلا يفوت المسلم «العلم» البشري في مجاله، ولا يفوته كذلك إدراك الحقيقة الواقعة، وهي أن هنالك غيباً لا يُطلع الله عليه أحداً، إلا من شاء، بالقدر الذي يشاء.

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها «الفرد» فيتجاوز مرتبة «الحيوان» الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة «الإنسان» الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس ـ أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس ـ وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود؛ وفي إحساسه بالكون، وما وراء الكون من قدرة وتدبير. كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض. فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته؛ ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه؛

ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وَعْيه في عمره القصير المحدود، وأن وراء الكون.. ظاهره وخافيه.. حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده.. حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار، ولا تحيط بها العقول.

لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة. ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان ـ كجماعة الماديين في كل زمان ـ يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى.. إلى عالم البهيمة، الذي لا وجود فيه لغير المحسوس! ويسمون هذا «تقدمية»! وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها. فجعل صفتهم المميزة هي صفة: **﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾** [البقرة: ٣].. والحمد لله على نعمائه؛ والنكسة للمنتكسين والمرتكسين.

والذين يتحدثون عن «الغيبية» و« العلمية» يتحدثون كذلك عن «الحتمية التاريخية» كأن كل المستقبل مستيقن! و«العلم» في هذا الزمان يقول: إن هناك «احتمالات» وليست هناك «حتميات»!.

ولقد كان ماركس من المتنبئين «بالحتميات»! ولكن أين نبوءات ماركس اليوم!.

لقد تنبأ بحتمية قيام الشيوعية في انجلترا، نتيجة بلوغها قمة الرقي الصناعي ومن ثم قمة الرأسمالية في جانب والفقر العمالي في جانب آخر.. فإذا الشيوعية تقوم في أكثر الشعوب تخلفاً صناعياً.. في روسيا والصين وما إليها.. ولا تقوم قط في البلاد الصناعية الراقية!.

ولقد تنبأ لينين وبعده ستالين بحتمية الحرب بين العالم الرأسمالي والعالم الشيوعي.. وها هي ذي الشيوعية قد سقطت في ما كان يسمى الاتحاد السوفيتي وتناثرت أشلاؤه ذلاً، كما تنكست أعلام الشيوعية وأنظمتها

من أوربا الشرقية، وانطلقت روسيا تلهث جائعة مستجدية مساعدات الغرب الرأسمالي!.

ولا نمضي طويلاً مع هذه «الحتميات» التنبؤية! فهي لا تستحق جدية المناقشة أو بالأَوْلَى النظر إليها!.

إن هناك حقيقة واحدة مستيقنة هي حقيقة الغيب، وكل ما عداها احتمالات.. وإن هنالك حتمية واحدة هي وقوع ما يقضي به الله ويجري به قدره. وقدر الله غيب لا يعلمه إلا هو. وإن هنالك ـ مع هذا وذلك ـ سنناً للكون ثابتة، يملك الإنسان أن يتعرف إليها، ويستعين بها في خلافة الأرض، مع ترك الباب مفتوحاً لقدر الله النافذ، وغيب الله المجهول.. وهذا قوام الأمر كله.. **﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾** [الإسراء: ٩].

على أبواب أرض الميعاد:

لا يزال القرآن في استعراض مواقف بني إسرائيل من ميثاقهم وعهدهم مع الله، واستعراض ما حلَّ بهم من العقاب نتيجة نقضهم لهذا الميثاق؛ لتكون هذه ـ من جانب ـ تذكرة للجماعة المسلمة ماثلة من بطون التاريخ، ومن واقع بني إسرائيل قبلهم، وليكشف الله ـ من جانب ـ عن سنته التي لا تتخلف ولا تحابي أحداً. ومن الجانب الثالث ليكشف عن حقيقة اليهود وحقيقة موقفهم؛ وذلك لإبطال كيدهم في الصف المسلم، وإحباط مناوراتهم ومؤامراتهم؛ التي يلبسونها ثوب التمسُّك بدينهم؛ وهم في الحقيقة قد نقضوا هذا الدين من قبل؛ ونقضوا ما عاهدوا الله عليه..

ويتحدث القرآن عن موقف بني إسرائيل مع رسولهم ومنقذهم موسى ـ عليه السلام ـ على أبواب الأرض المقدسة التي وعدهم الله؛ وموقفهم كذلك من ميثاق ربهم معهم؛ وكيف نقضوه؛ وكيف كان جزاؤهم على نقض الميثاق الوثيق.

إنها حلقة من قصة بني إسرائيل التي فصلها القرآن أوسع تفصيل.. ذلك لحكمة متشعبة الجوانب..

من جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها. فقد كانوا حرباً على الجماعة المسلمة منذ اليوم الأول. هم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين في المدينة؛ وأمدوهم بوسائل الكيد للعقيدة وللمسلمين معاً. وهم الذين حرضوا المشركين وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة. وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد في الصف المسلم؛ كما تولوا بَثّ الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة. وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم في الحرب المعلنة الصريحة. فلم يكن بدّ من كشفهم للجماعة المسلمة، لتعرف من هم أعداؤها. ما طبيعتهم؟ وما تاريخهم؟ وما وسائلهم؟ وما حقيقة المعركة التي تخوضها معهم؟.

ولقد علم الله أنهم هم سيكونون أعداء هذه الأمة في تاريخها كله؛ كما كانوا أعداء هدى الله في ماضيهم كله. فعرض لهذه الأمة أَمْرهم كله مكشوفاً؛ ووسائلهم كلها مكشوفة. ومن جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير. وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة من التاريخ طويلة؛ ووقعت الانحرافات في عقيدتهم؛ ووقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم؛ ووقع في حياتهم آثار هذا النقض وهذا الانحراف، كما وقع في أخلاقهم وتقاليدهم.. فاقتضى هذا أن تلمّ الأمة المسلمة - وهي وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها - بتاريخ القوم، وتقلبات هذا التاريخ؛ وتعرف مزالق الطريق، وعواقبها ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم، لتضم هذه التجربة في حقل العقيدة والحياة - إلى حصيلة تجاربها؛ وتنتفع بهذا الرصيد وتنفع على مدار القرون. ولتتقي - بصفة خاصة - مزالق الطريق، ومداخل الشيطان، وبوادر الانحراف، على هدى التجارب الأولى.

ومن جوانب هذه الحكمة أن تجربة بني إسرائيل ذات صحائف شتى في المدى الطويل. وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها؛ وتنحرف أجيال منها؛ وأن الأمة المسلمة التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة، ستصادفها فترات تمثل فيها فترات من حياة بني إسرائيل؛ فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجددي الدعوة في أجيالها الكثيرة، نماذج من العقابيل التي تلم بالأمم؛ يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته. ذلك أن أشد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هي القلوب التي عرفت ثم انحرفت!.

فالقلوب الغفل الخامة أقرب إلى الاستجابة، لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزّها، وينفض عنها الركام، لِجدّته عليها، وانبهارها بهذا الجديد الذي يطرق فطرتها لأول مرة. فأما القلوب التي نوديت من قبل، فالنداء الثاني لا تكون له جِدّته، ولا تكون له هزّته؛ ولا يقع فيها الإحساس بضخامته وجديته، ومن ثم تحتاج إلى الجهد المضاعف، وإلى الصبر الطويل!.

وجوانب شتى لحكمة الله في تفصيل قصة بني إسرائيل، وعرضها مُفصّلة على الأمة المسلمة وارثة العقيدة والدين؛ القَوَّامة على البشر أجمعين. جوانب شتى لا نملك هنا المضي معها أكثر من هذه الإشارات السريعة... لنعود إلى سياق القصة:

﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم. إذ جعل فيكم أنبياء، وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يُؤت أحداً من العالمين. يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾ [المائدة: ٢٠، ٢١]..

وإننا لنلمح في كلمات موسى ـ عليه السلام ـ إشفاقه من تَردُّد القوم

ونكوصهم على الأعقاب. فلقد جربهم من قبل في «مواطن كثيرة» في خط سير الرحلة الطويل.

جَرّبهم **وقد أخرجهم من أرض مصر**؛ وحررهم من الذل والهوان، باسم الله وبسلطان الله الذي فَرَق لهم البحر، وأغرق لهم فرعون وجنده. فإذا هم يمرون على قوم يعكفون على أصنام لهم، فيقولون: **﴿يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾** [الأعراف: ١٣٨]..

وما يكاد يغيب عنهم في ميقاته مع ربه **حتى يتخذ السامري** من الحلي التي سرقوها معهم من نساء المصريين عجلاً ذهباً له خوار، ثم إذا هم عاكفون عليه يقولون: إنه إله موسى الذي ذهب لميقاته!.

وجَرَّبهم وقد فَجَّر لهم من الصخر ينابيع في جوف الصحراء، وأنزل عليهم المَنّ والسلوى طعاماً سائغاً، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا من أطعمة مصر ـ أرض الذل بالنسبة لهم ـ فيطلبون بقلها وقثاءها وفومها وعدسها وبصلها، ولا يصبرون عما أَلِفوا من طعام وحياة في سبيل العزة والخلاص، والهدف الأسمى، الذي يسوقهم موسى إليه وهم يتسكعون!.

وجَرَّبهم في قصة البقرة التي أُمروا بذبحها فتلكأوا وتسكعوا في الطاعة والتنفيذ.. **﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾** [البقرة: ٧١]..

وجَرَّبهم وقد عاد من ميقات ربه ومعه الألواح وفيها ميثاق الله عليهم وعهده. فأبوا أن يُعطوا الميثاق وأن يمضوا العهد مع ربهم ـ بعد كل هذه الآلاء وكل هذه المغفرة للخطايا ـ ولم يعطوا الميثاق حتى وجدوا الجبل منتوقاً فوق رؤوسهم **﴿وظنوا أنه واقع بهم﴾** [الأعراف: ١٧١].

لقد جربهم في مواطن كثيرة طوال الطريق الطويل.. ثم ها هو ذا معهم **على أبواب الأرض المقدسة**. أرض الميعاد التي من أجلها خرجوا. الأرض التي وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكاً، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها ليظلوا في رعاية الله وقيادته..

لقد جربهم فَحقّ له أن يشفق، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة، فيحشد فيها ألمع الذكريات، وأكبر البُشريات، وأضخم المشجعات وأشد التحذيرات:

﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم. إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً، وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين. يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾..

نعمة الله. ووعده الواقع من أن يجعل فيهم أنبياء ويجعلهم ملوكاً. وإيتاءه لهم بهذا وذلك ما لم يؤت أحداً من العالمين حتى ذلك التاريخ.

والأرض المقدسة التي هم مقدمون عليها مكتوبة لهم بوعد الله. فهي إذن يقين.. وقد رأوا من قبل كيف صدقهم الله وعده. وهذا وعده الذي هم عليه قادمون.. والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين..

ولكن إسرائيل هي إسرائيل!!! الجبن. والتَمَحُّل. والنكوص على الأعقاب. ونقض الميثاق:

﴿قالوا: يا موسى إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾ [المائدة: ٢٢]..

إن جِبِلّة يهود لتبدو هنا على حقيقتها، مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجمل. ذلك أنهم أمام الخطر؛ فلا بقية إذن من تجمل؛ ولا محاولة إذن للتشجع، ولا مجال كذلك للتمحل. إن الخطر ماثل قريب؛ ومن ثم لا يعصمهم منه حتى وَعْد الله لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض، وأن الله قد كتبها لهم - فهم يُريدونه نَصراً رخيصاً، لا ثمن له، ولا جهد فيه. نصراً مريحاً يتنزل عليهم تَنَزُّل المن والسلوى!.

﴿إن فيها قوماً جبارين.. وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها.. فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾..

ولكن تكاليف النصر ليست هكذا كما تريدها يهود! وهي فارغة القلوب من الإيمان!.

﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما: ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ [المائدة: ٢٣]..

هنا تبرز قيمة الإيمان بالله، والخوف منه.. فهذان رجلان من الذين يخافون الله، ينشىء لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين! ويرزقهما شجاعة في وجه الخطر الموهوم! وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان في ساعة الشدة؛ وقيمة الخوف من الله في مواطن الخوف من الناس. فالله سبحانه لا يجمع في قلب واحد بين مخافتين: مخافته ـ جل جلاله ـ ومخافة الناس.. والذي يخاف الله لا يخاف أحداً بعده؛ ولا يخاف شيئاً سواه..

﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾..

قاعدة في علم القلوب وفي علم الحروب.. أَقْدِمُوا واقتحموا. فمتى دخلتم على القوم في عقر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم؛ وشعروا بالهزيمة في أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم..

﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾..

فعلى الله ـ وحده ـ يتوكل المؤمن. وهذه هي خاصية الإيمان وعلامته؛ وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه..

ولكن لمن يقولان هذا الكلام؟ لبني إسرائيل؟!.

﴿قالوا: يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها. فاذهب أنت وربك فقاتلا. إنا ها هنا قاعدون﴾ [المائدة: ٢٤]..

وهكذا يُحْرَج الجبناء فيتوقحون؛ ويفزعون من الخطر فيرفسون بأرجلهم كالحمر ولا يقدمون! والجبن والتوقح ليسا متناقضين ولا متباعدين؛ بل إنهما لصنوان في كثير من الأحيان.. يدفع الجبان إلى الواجب فيجبن، فَيُحْرَج بأنه ناكل عن الواجب، فيسبّ هذا الواجب؛ ويتوقح على دعوته التي تكلفه ما لا يريد! ﴿**فاذهب أنت وربك فقاتلا. إنا ها هنا قاعدون**﴾..

هكذا في وقاحة العاجز، الذي لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مَدّ اللسان! أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان!.

﴿**فاذهب أنت وربك**﴾! فليس بربهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال!.

﴿**إنا ها هنا قاعدون**﴾.. لا نُريد ملكاً، ولا نُريد عزاً، ولا نريد أرض الميعاد.. ودونها لقاء الجبارين!.

هذه هي **نهاية المطاف بموسى ـ عليه السلام ـ**. نهاية الجهد الجهيد. والسفر الطويل. واحتمال الرذالات والانحرافات والالتواءات من بني إسرائيل!.

نعم ها هي ذي نهاية المطاف.. نكوصاً عن الأرض المقدسة، وهو معهم على أبوابها. ونكولاً عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق.. فماذا يصنع؟ وبمن يستجير؟ ﴿**قال: رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي. فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين**﴾ [المائدة: ٢٥]..

دعوة فيها الألم. وفيها الالتجاء. وفيها الاستسلام. وفيها ـ بعد ذلك ـ المفاصلة والحسم والتصميم!.

وإنه ليعلم أن ربه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه.. ولكن موسى في ضعف الإنسان المخذول. وفي إيمان النبي الكليم. وفي عزم المؤمن المستقيم، لا يجد متوجهاً إلا لله. يشكو له بثّه ونجواه، ويطلب إليه الفرقة

الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين، فما يربطه بهم شيء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق.. ما يَربطه بهم نسب. وما يربطه بهم تاريخ. وما يربطه بهم جهد سابق، إنما تربطه بهم هذه الدعوة إلى الله، وهذا الميثاق مع الله. وقد فَصَلُوه. فانْبَتَّ ما بينه وبينهم إلى الأعماق. وما عاد يربطه بهم رباط.. إنه مستقيم على عهد الله وهم فاسقون.. إنـه مستمسك بميثـاق الله وهم ناكصون..

هذا هو أدب النبي. وهذه هي خطة المؤمن. وهذه هي الآصرة التي يجتمع عليها أو يتفرق المؤمنون.. لا جنس. لا نسب. لا قـوم. لا لغة. لا تاريخ. لا وشجية من كل وشائج الأرض؛ إذا انقطعت وشيجة العقيدة؛ وإذا اختلف المنهج والطريق..

واستجاب الله لنبيه. وقضى بالجزاء العـادل على الفاسقين ﴿**قـال: فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض. فـلا تأسَ على القـوم الفاسقين**﴾ [المائدة: ٢٦]..

وهكذا أسلمهم الله ـ وهم على أبواب الأرض المقدسة ـ للتيه؛ وحرَّم عليهم الأرض التي كتبها لهم..

والأرجح أنه حَرّمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة؛ وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل. جيل يعتبر بالدرس، وينشأ في خشـونة الصحراء وحريتها صلب العود.. جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الـذل والاستعباد والطغيان في مصر، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل! والـذل والاستعباد والطغيان يفسد فطرة الأفراد كما يفسد فطرة الشعوب.

ويتركهم السياق هنا ـ في التيه ـ لا يزيد على ذلـك.. وهو مـوقف تجتمـع فيه العبـرة النفسية إلى الجمـال الفني، على طـريقـة القـرآن في التعبير..

هـا هي ذي إسرائيـل هي إسرائيـل! نقضت الميثـاق، ونسيت الله، ولجَّت في المعصية، حتى استحقت غضب الله ولَعْنَتَه. وحقَّ عليها القول، بعدما اختارها الله على العالمين في زمانها، وأفاء عليها من عطايـاه. فلم تشكـر النعمة، ولم تـرع العهد، ولم تـذكر الميثـاق.. وما ربُّـك بـظلاَّم للعبيد..

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس - مما قصَّه الله عليهم من القصص - فحين واجهوا الشدة وهم قلة أمام نفير قريش في غزوة بدر، قالـوا لنبيِّهم - ﷺ - إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيِّهم: ﴿**فـاذهب أنت وربّـك فقاتـلا**﴾ لكن نقول: اذهب أنت وربـك فقاتـلا فإننـا معكما مقاتلون..

وكانت هذه بعض آثار المنهج القرآني في التربية بالقصص العامة؛ وبعض جوانب حكمة الله في تفصيل قصة بني إسرائيل..

وقصة موسى آخر ذكر يرد لها في القرآن الكريم حسب ترتيب النزول يرد في سورة المائدة، والحلقة التي تعرض فيها هي حلقة التيـه. فهؤلاء بنو إسرائيل قد أغدق الله عليهم نعمته، وأملى لهم في رحمته؛ ثم ها هم أولاء في النهاية لا يحافظون على النعمة، ولا يدخلون الأرض المقدسة، وقد جَهِدَ موسى ما جَهِدَ لِرَدِّهم، فيكون تأديبهم على هذا المَطَال، تركهم في التيه لا مُرشد لهم ولا معين، حتى يأتي الأجل المعلوم.

ذلك غَرَض ديني بحت. ولكن تُرى كان هناك ختام فني أجمل من مشهد التيه، في نهاية ذلك الجهد الجهيـد، وبعد ذلـك التردد الشـديد؟ ﴿**أربعين سنة يتيهون في الأرض**﴾..

إنه مشهد التيه هو المشهد الأنسب، لو كانت القصة مطلقة من جميع القيود.

لقد كانت قصة موسى، قصة أمة، تعددت جوانبها، وكثرت معانيها، وتنوعت أهدافها ومقاصدها، إنها قصة مصوَّرة في تاريخ بني إسرائيل، لتكون مرآة للمسلمين حتى لا يقعوا في تلك المزالق، ويتبعوا خطوات الشيطان، ويرتدوا على أدبارهم، وتلاحقهم سُنَّة الله فيكونوا من الأخسرين..

ها هو ذا موسى ـ عليه السلام ـ وقد خَبَر الناس، يسأل النبي محمد ـ ﷺ ـ في رحلة المعراج بعد أن فَرَض الله على أمة محمد خمسين صلاة في اليوم والليلة.. قال موسى ـ عليه السلام ـ: «بِمَ أُمِرْتَ؟ قال: أُمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أُمَّتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني قد جَرَّبتُ الناسَ قبلكَ، وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك، فَسَلْهُ التخفيف لأُمَّتك، فرجعتُ، فوضعَ عني عشراً، فرجعت إلى موسى، فقال مثْلَهُ، فرجعتُ، فوضعَ عني عشراً، فرجعتُ إلى موسى، فقال مثْلَه، فوضع عني عشراً، فرجعتُ إلى موسى، فقال مثله... فرجعتُ، فأمرتُ بعشر صلوات كل يوم، فرجعتُ إلى موسى، فقال مِثْلَه، فرجعتُ، فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ قال: أُمرتُ بخمس صلوات كل يوم. قال: إن أُمَّتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جرَّبتُ الناسَ قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك، فَسَلْهُ التخفيف لأُمَّتك، قال: قلت: سألتُ ربي حتى استحييتُ، ولكني أرضى وأُسَلِّم..» قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «فلما جاوزتُ، ناداني منادٍ: أمضيتُ فريضتي، وخففتُ عن عبادي»[1]..

---

(١) أخرجه ابن حبان بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والبخاري ٣٢٠٧، ٣٣٩٣، ٣٤٣٠، ٣٨٨٧. انظر تخريجه في الإحسان (رقم ٤٨).

وقد ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ في حديث المعراج المذكور: «.. ثم صَعد بي حتى أتى =

لقد كانت قصة موسى مناراً للإنسانية وهي ترزح تحت أثقال الجاهلية، فغدت كل حلقة من حلقاتها مادة تربية ومنهج سلوك، وتقريراً لحقيقة، وسنة من سنن الوجود ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى، بصائر للناس، وهدى ورحمة، لعلهم يتذكرون**﴾ [القصص: ٤٣]. .

﴿**وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر، وما كنت من الشاهدين. ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر. وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا؛ ولكنا كنا مرسلين. وما كنت بجانب الطور إذ نادينا؛ ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون**﴾ [القصص: ٤٤ ـ ٤٦]. .

والغربي هو الجانب الغربي للطور الذي جعله الله ميقاتاً مع موسى ـ عليه السلام ـ بعد أَجَلٍ محدد. . ثلاثين ليلة، أتمَّها بعشر. فكانت أربعين ليلة. وفي هذا الميقات قُضي الأمر لموسى في الألواح، لتكون شريعته في بني إسرائيل. وما كان رسول الله ـ ﷺ ـ شاهداً لهذا الميقات، حتى يعلم نبأه المُفَصَّل، كما ورد في القرآن الكريم. وإن بينه وبين هذا الحادث لقروناً من الناس ـ أي أجيالاً متطاولة: ﴿**ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر**﴾

= السماء الخامسة، فاستفتحَ، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن مَعك؟ قال: محمد ـ ﷺ ـ قيل: وقد أرسل إليه؟ قيل: نعم، قيل: مرحباً به. فَنِعْمَ المجيء جاء. فَفُتِحَ. فلما خلصتُ إذا هارون. قال: هذا هارون. فسلِّم عليه، فسلمتُ عليه، فردّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة، فاستفتحَ. قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد ـ ﷺ ـ قيل: أوقد أُرسلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففُتحَ. فلما خلصتُ إذا موسى. قال: هذا موسى، فسلِّم عليه، فسلمتُ عليه، فردّ السلام. ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. فلما تجاوزتُ بكى. قيل: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعثَ بعدي يدخل الجنة من أمته أكثرُ ممن يدخلها من أمتي. . ».

فتلك دلالة على أن الذي نَبَّأه به هو العليم الخبير، الذي يوحي إليه بالقرآن الكريم.

ولقد تحدث القرآن كذلك بأنباء مَدْين، ومقام موسى ـ عليه السلام ـ بها وتلاها رسول الله ـ ﷺ ـ وما كان مقيماً في أهل مدين، يتلقى عنهم أخبار هذه الفترة بمثل ذلك التفصيل الذي جاءت فيه: ﴿ولكنا كنا مرسلين﴾ بهذا القرآن وما فيه من أنباء السابقين.

كذلك صوّر القرآن موقف المناداة والمناجاة من جانب الطور بدقة وعمق: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ وما سمع رسول الله ـ ﷺ ـ النداء، وما سجل في وقتها تفصيلاته. ولكن رحمة الله بقومه هؤلاء، أن قَصَّ عليه تلك الأنباء الدالة على صدقه ـ ﷺ ـ فيما يدعوهم إليه، لينذر هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله ـ فقد كانت الرسالات في بني إسرائيل من حولهم، ولم يرسل إليهم رسول منذ أمد طويل، منذ أبيهم إسماعيل: ﴿لعلهم يتذكرون﴾..

لقد أكرم الله موسى وهارون باختيارهما للنبوة. هذه المنحة الربانية التي تصطفي من تشاء:

﴿ولقد مننا على موسى وهارون. ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم. ونصرناهم فكانوا هم الغالبين. وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم. وتركنا عليهما في الآخرين. سلام على موسى وهارون إنا كذلك نجزي المحسنين. إنهما من عبادنا المؤمنين﴾ [الصافات: ١١٤ ـ ١٢٢]..

وهذه الآيات تعني بإبراز مِنَّة الله عليهما باختيارهما واصطفائهما، وبإعطائهما الكتاب الواضح المستبين. وهدايتهما إلى الصراط المستقيم. صراط الله الذي يهدي إليه المؤمنين وبإبقاء ذكرهما في الأجيال الآتية

والقرون الأخيرة. وتنتهي هذه الآيات بالسلام من الله على موسى وهارون وتقرير نوع الجزاء الذي يلقاه المحسنون، وقيمة الإيمان الذي يكرم من أجله المؤمنون.

إن هذه القصة تحمل نوراً وضياءً وذكراً للمتقين إلى يوم الدين **﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقانَ وضياءً وذكراً للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون﴾** [الأنبياء: ٤٨، ٤٩]..

موسى ـ عليه السلام ـ:

وبعد، لا بد من الوقوف بخشوع وهيبة وتأمُّل أمام شخصية موسى ـ عليه السلام ـ، فالقصة وِجْهَتها هي الدعوة الدينية، وتبرز من خلال الأحداث هذه الشخصية التي صَنَعها الله على عينه، «ولئن كان حديداً في مزاجه شديداً في طبعه فذلك ما خصَّه الله به، فالمواقف التي سَيُجابهها ـ عليه السلام ـ بحاجة إلى هذه الشخصية **﴿ألاَ يعلم مَنْ خَلَق وهو اللطيف الخبير﴾** وقد شَبَّه الرسول ـ ﷺ ـ صاحبيه أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، شَبَّه أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ بإبراهيم وعيسى ـ عليهما السلام ـ، وذلك لما كان يُعرف من رقّته ولينه ـ رضي الله عنه ـ، أما إبراهيم فقد قال: **﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً، واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام. ربِّ إنهن أضللن كثيراً من الناس، فمن تبعني فإنه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾**. وأما عيسى ـ عليه السلام ـ فقد قال: **﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾**.

وشَبَّه عمر ـ رضي الله عنه ـ بنوح وموسى ـ عليهما السلام ـ وذلك لشدّته وحدّته. أما نوح فقد قال: **﴿ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً﴾**، وأما موسى فقد قال: **﴿ربنا إنك آتيتَ فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد**

على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾»[1].

فشخصية موسى ـ عليه السلام ـ هي نموذج القائد الشديد المندفع العصبي المزاج. «فها هو ذا قد رُبي في قصر فرعون، وتحت سمعه وبصره، وأصبح فتىً قوياً **﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، فوجدَ فيها رجلين يقتتلان: هذا من شيعته وهذا من عدوه، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، فوكَزَهُ موسى، فقضى عليه﴾**. وهنا يبدو الانفعال العصبي واضحاً.

وسرعان ما تذهب هذه الدفعة العصبية، فيثوب إلى نفسه شأن العصبيين: **﴿قال: هذا من عمل الشيطان. إنه عدوّ مضِلّ مبين. قال: ربِّ إني ظلمتُ نفسي، فاغفر لي. فغفر له إنه هو الغفور الرحيم. قال: ربِّ بما أنعمتَ عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾**.

﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقّب﴾ وهو تعبير مُصوّر لهيئة معروفة: هيئة المُتَفَزّع المُتَلَفّت المتوقع للشر في كل حركة. وتلك سمة العصبيين أيضاً.

ومع هذا، ومع أنه قد وَعَد بأنه لن يكون ظهيراً للمجرمين. فلننظر ما يصنع. إنه ينظر **﴿فإذا الذي استنصرهُ بالأمس يستصرخه﴾** مرة أخرى على رجل آخر، **﴿قال له موسى: إنك لغوي مبين﴾** ولكنه يهمّ بالرجل الآخر كما هَمَّ بالأمس، وينسيه الاندفاع استغفاره وندمه وخوفه وترقبه، لولا أن يُذكره من يهمّ به بفعلته، فيتذكّر ويخشى: **﴿فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوٌّ لهما. قال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلتَ نفساً بالأمس؟ إن تريد إلا أن تكون جبّاراً في الأرض، وما تريد أن تكون من المصلحين﴾**، وحينئذ ينصح له بالرحيل رجلٌ جاء من أقصى المدينة يسعى، فيرحل عنها كما علمنا.

---

(١) القصص القرآني: ٣٤١، ٣٤٢.

فلندعه هنا لنلتقي به في فترة ثانية من حياته بعد عشر سنوات، فلعله قد هدأ وصار رجلاً هادىء الطبع حليم النفس.

كلا! فها هو ذا يُنادَى من جانب الطور الأيمن: أن ألقِ عصاكَ فألقاها، فإذا هي حية تسعى، وما يكاد يراها حتى يَثب جرياً، لا يُعَقِّب ولا يلوي. إنه الفتى العصبي نفسه ولو أنه قد صار رجلاً؛ فغيره كان يخاف؟ نعم، ولكن لعله كان يبتعد منها، ويقف ليتأمَّل هذه العجيبة الكبرى.

ثم لندعه فترة أخرى، لنرى ماذا يصنع الزمن في أعصابه.

لقد انتصر على السحرة، وقد استخلص بني إسرائيل، وعَبَر بهم البحر، ثم ذَهَب إلى ميعاد ربِّه على الطور. وإنه لنبي. ولكن ها هو ذا يسأل ربه سؤالاً عجيباً: **﴿قال: ربِّ أرني أنظر إليك﴾**.. **﴿قال: لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني﴾** ثم حدث ما لا تحتمله أية أعصاب إنسانية: **﴿فلما تجلَّى ربه للجبل جعلهُ دكاً وخرَّ موسى صعقاً؛ فلما أفاق قال: سبحانك! تبتُ إليك وأنا أول المؤمنين﴾**.. عودة العصبي في سرعة واندفاع.

ثم ها هو ذا يعود، فيجد قومه قد اتخذوا لهم عجلاً إلهاً، وفي يديه الألواح التي أوحاها الله إليه، فما يتريث وما يني **﴿وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه﴾** وإنه ليمضي منفعلاً يشدّ رأس أخيه ولحيته ولا يسمع له قولاً: **﴿قال: يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي. إني خشيتُ أن تقولَ: فرقتَ بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾**. وحين يعلم أن «السامري» هو الذي فَعل الفعلة، يلتفت إليه مغضباً، ويسأله مستنكراً. حتى إذا علم سرّ العجل: **﴿قال: فاذهب. فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس؛ وإن لك موعداً لن تُخلفه؛ وانظر إلى إلهك الذي ظَلْتَ عليه عاكفاً، لنحرّقنّه ثم لننسفنّه في اليمّ نسفاً﴾**.. هكذا في حنق ظاهر وحركة متوترة.

فلندعه سنوات أخرى.

لقد ذهب قومه في التيه ونحسب قد صار كهلاً حينما افترق عنهم، ولقي الرجل الذي طلب إليه أن يصحبه لِيُعَلِّمه مما آتاه اللهعلماً. ونحن نعلم أنه لم يستطع أن يصبر حتى يُنبئه بسرّ ما يصنع مرة ومرة ومرة.. فافترقا..!.

تلك شخصية موحدة بارزة، ونموذج إنساني واضح في كل مرحلة من مراحل القصة جميعاً»(١).

أذى وصبـــر:

يذكر الله ـ سبحانه ـ رسالة موسى في سورة الصف ليقـرر أن قومـه الذين أُرسلَ إليهم آذوه وانحرفوا عن رسالته فضلوا، ولم يعودوا أمناء على دين الله في الأرض: **﴿وإذ قال موسى لقومه: يا قوم لم تُؤذونني وقد تعلمون أني رسـول الله إليكم؟ فلما زاغـوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القـوم الفاسقين﴾** [الصف: ٥]..

إذن فقد انتهت قوامة قوم موسى على دين الله، فلم يعودوا أمناء عليه، مذ زاغوا فأزاغ الله قلوبهم، ومذ ضلوا فـأضلهم الله والله لا يهدي القـوم الفاسقين.

وإيذاء بني إسرائيل لموسى ـ وهو منقذهم من فرعون وملئه، ورسولهم وقـائدهم ومُعَلِّمهم ـ إيـذاء متطاول متعـدد الألوان ـ، وجهـاده في تقـويم اعوجاجهم جهاد مضن عسير شاق. ويذكر القرآن في قصص بني إسرائيل صوراً شتى من ذلك الإيذاء ومن هذا العناء.

كانوا يتسخطون على موسى وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم، ويتعرض لبطشه وجبروته وهم آمنون بِذِلّتهم له! فكانوا يقولون له لائمين مُتبـرمين: **﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾** [الأعراف: ١٢٩].. كـأنهم

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ١٦٤ ـ ١٦٦.

لا يرون في رسالته خيراً، أو كأنما يُحملونه تبعة هذا الأذى الأخير!.

وما كاد يُنقذهم من ذل فرعون باسم الله الواحد الذي أنقذهم من فرعون وأغرقه وهم ينظرون.. حتى مالوا إلى عبادة فرعون وقومه.. **﴿فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا: يا موسى اجعل لنا إلّهاً كما لهم آلهة﴾** [الأعراف: ١٣٨].. وما كاد يذهب لميقات ربه على الجبل ليتلقى الألواح، حتى أضلهم السامري: **﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى فنسي!﴾** [طه: ٨٩]..

ثم جعلوا يتسخطون على طعامهم في الصحراء: المَنّ والسلوى. فقالوا: **﴿يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾** [البقرة: ٦١]..

وفي حادث البقرة التي كُلِّفوا ذبحها ظلوا يماحكون ويتعللون ويسيئون الأدب مع نبيهم وربهم وهم يقولون: **﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾**.. **﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها﴾**.. **﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا﴾**.. **﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾** [البقرة: ٦٩ - ٧٢]..

ثم طلبوا يوم عطلة مقدساً فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه.

وأمام الأرض المقدسة التي بشرهم الله بدخولها وقفوا متخاذلين يُصَعّرون خَدّهم في الوقت ذاته لموسى: **﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾**.. فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع تَبَجَّحوا وكفروا: **﴿قالوا: يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾** [المائدة: ٢٥]..

ذلك إلى إعنات موسى بالأسئلة والاقتراحات والعصيان والتمرد، والاتهام الشخصي بالباطل كما جاء في بعض الأحاديث.

وتذكر الآية هنا قول موسى لهم في عتاب ومودة: **﴿يا قوم لم تُؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم؟﴾** [الصف: ٥].

وهم كانوا يعلمون عن يقين.. إنما هي لهجة العتاب والتذكير..

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعدما بُذلت لهم كل أسباب الاستقامة، فزادهم الله زيغاً، وأزاغ قلوبهم فلم تعد صالحة للهدى. وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبداً: **﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾**.

وبهذا انتهت قوامتهم على دين الله، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر، وهم على هذا الزيغ والضلال..

وبعد إجلاء بني قريظة وسائر اليهود من قَبل - في أيام خاتم النبيين محمد ﷺ - لم يعد في المدينة من هو ظَاهر بالكفر. فقد أصبح أهلها كلهم مسلمين، إما صادقين في إسلامهم وإما منافقين. وكان المنافقون هم الذين يروجون الشائعات، وينشرون الأكاذيب، وقد انطلقت ألسنة كثيرة من المنافقين ومرضى القلوب، انطلقت تغمز وتلمز، وتؤول وتعترض، وتهمس وتوسوس، وكان بعض المؤمنين يقع في حبائلهم، ويسايرهم في بعض ما يروجون. فجاء القرآن يحذرهم إيذاء النبي - ﷺ - كما آذى بنو إسرائيل نبيهم موسى - عليه السلام - ويوجههم إلى تسديد القول، وعدم إلقائه على عواهنه، بغير ضبط ولا دقة؛ ويحببهم في طاعة الله ورسوله وما وراءها من فوز عظيم:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا. وكان عند الله وجيهاً. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً، يصلح لكم أعمالكم. ويغفر لكم ذنوبكم. ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ [الأحزاب: ٦٩ - ٧١]..

ولم يحدد القرآن نوع الإيذاء لموسى، ولكن وردت روايات تُعَيِّنه. ونحن لا نرى بنا من حاجة للخوض في الذي أجمله القرآن. فإنما أراد الله

تحذير الذين آمنوا من كل ما يؤذي النبي ـ ﷺ ـ وقد ضرب بني إسرائيل مثلاً للالتواء والانحراف في مواضع من القرآن كثيرة. فيكفي أن يشير إلى إيذائهم لنبيهم، وتحذير المسلمين من متابعتهم فيه، لينفر حسّ كل مؤمن من أن يكون كهؤلاء المنحرفين الملتوين الذين يضربهم القرآن مثلاً صارخاً للانحراف والالتواء.

وقد برأ الله موسى مما رماه به قومه: **﴿وكان عند الله وجيهاً﴾** ذا وجاهة وذا مكانة. والله مبرىء رسله من كل ما يُرْمَون به كذباً وبهتاناً.

وتتعرض القصة النبوية للأنبياء في بعض مواقفهم الإنسانية، التي يظهرون فيها أناساً من البشر، في عواطفهم وانفعالاتهم، وطبائعهم، كما نجد في قصة «الذين آذوا موسى» تصويراً حياً لطبيعة الحياء والستر، التي جُبِلَ موسى كليم الله عليها وأنه «كان رجلاً حيّياً ستّيراً ما يرى من جلده شيء، استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقال: ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما آفة، وإن الله عز وجل أراد أن يُبرِّئه مما قالوا، وأن موسى ـ عليه السلام ـ، خلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه فطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن الناس خلقاً، وأبرأه مما كانوا يقولون، قال: وقام الحجر، فأخذ ثوبه ولبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر عصاه ثلاثاً، أو أربعاً، فذلك قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾**[1] [الأحزاب: ٦٩].».

---

(١) سنن الترمذي ٥/٣٦١ ـ ٣٦٢، وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح» ورواه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ، ورواه البخاري عند تفسير آية الأحزاب: ٦٩، وفي أحاديث الأنبياء انظر تفسير ابن كثير ٣/٥٢٠.

ويقول الله تعالى عن موسى ـ عليه السلام ـ أنه قال لقومه: **﴿لِمَ تُؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾** [الصف: ٥].. وفي هذا تسلية لرسول الله ـ ﷺ ـ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم وأَمْر له بالصبر، ولهذا قال النبي ـ ﷺ ـ: «رحمة الله على موسى. لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[١]. وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ـ ﷺ ـ أو يُوصِلُوا إليه أذى كما قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾**..

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث سليمان بن مهران، ورواه الإمام أحمد وأبو داود.

قصة قارون

المحتوى	ص

قصة قارون

لقد مضت قصة موسى وفرعون، وقد عرضت فيها قوة السلطان والحكم، وكيف باءت بالبوار مع البغي والظلم، والكفران بالله، والبعد عن هداه. والآن تجيء قصة قارون لتعرض سلطان المال والعلم؛ وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر، والاستكبار على الخلق، وجحود نعمة الخالق. وتُقرر حقيقة القيم، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح؛ مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو في الأرض ولا فساد. وقد أشار القرآن الكريم إلى دعوة موسى إلى قارون مع فرعون وهامان: **﴿وقارونَ وفرعونَ وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين﴾** [العنكبوت: ٣٩].

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين، إلى فرعون وهامان وقارون، فقالوا ساحر كذاب﴾ [غافر: ٢٣].

هذا هو موقف اللقاء الأول. موسى ومعه آيات الله، ومعه الهيبة المستمدة من الحق الذي بيده. وفرعون وهامان وقارون. ومعهم باطلهم الزائف وقوتهم الظاهرة ومركزهم الذي يخافون عليه من مواجهة الحق ذي السلطان.. عندئذ لجأوا إلى الجدال بالباطل ليدحضوا به الحق: **﴿فقالوا: ساحر كذاب﴾**..

وقارون كان من قوم موسى فبغى عليهم بثروته وعلمه، ولم يستمع نصح الناصحين بالإحسان والاعتدال والتواضع وعدم البغي والفساد، فلم يعصمه الثراء والقوة والدهاء. لم تعصمه من أَخْذ الله، ولم تجعله ناجياً ولا مفلتاً من عذاب الله، بل أدركه وأَخَذَه كما سيجيء..

وقصة قارون من القصص القصيرة التي جاءت تعرض سلوك المترفين، سلوكَ مَن تَمَلّكه الغرور فطغى كل الطغيان، وقد ذُكرت القصة في سورة القصص[1]، ووردت الإشارة إلى قارون في سورتي العنكبوت وغافر.

ولا يحدد القرآن زمان القصة ولا مكانها؛ إنما يكتفي بأن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم. فهل وقعت القصة وبنو إسرائيل وموسى في مصر قبل الخروج؟ أم وقعت بعد الخروج في حياة موسى؟ هناك روايات تقول: إنه كان ابن عم لموسى ـ عليه السلام ـ وأن الحادث وقع في زمان موسى. ويزيد بعضها فيذكر أن قارون آذى موسى، ودبَّر له مكيدة ليلصق به تهمة الفاحشة بامرأة معينة في مقابل رشوة من المال، فبرّأ الله موسى وأذن له في قارون، فخسفت به الأرض..

ولسنا في حاجة إلى كل هذه الروايات، ولا إلى تحديد الزمان والمكان. فالقصة كما وردت في القرآن كافية لأداء الغرض منها، ولتقرير القيم والقواعد التي جاءت لتقريرها. ولو كان تحديد زمانها ومكانها وملابساتها يزيد في دلالتها شيئاً ما ترك تحديدها. فلنستعرضها إذن في صورتها القرآنية، بعيدة عن تلك الروايات التي لا طائل وراءها..

﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم؛ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة. إذ قال له قومه: لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا،

(١) القصص: ٧٦ ـ ٨٣.

وأحْسِن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض. إن الله لا يحب المفسدين. قال: إنما أوتيته على علم عندي﴾ [القصص ٧٦ ـ ٧٨]. .

هكذا تبدأ القصة فتعين اسم طاغيتها «قارون» وتحدد قومه «قوم موسى» وتقرر مسلكه مع قومه، وهو مسلك البغي «فبغى عليهم» وتشير إلى سبب هذا البغي وهو الثراء: **﴿وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾**. .

ثم تمضي بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبتها في النفوس.

لقد كان قارون من قوم موسى. فآتاه الله مالاً كثيراً، يصور كثرته بأنه كنوز ـ والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول ـ وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيي المجموعة من أقوياء الرجال. . من أجل هذا بغى قارون على قومه. ولا يذكر فيم البغي، ليدعه مجهلاً يشمل شتى الصور. فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم ـ كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان ـ. وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال. حق الفقراء في أموال الأغنياء، كي لا يكون دُوَلَة بين الأغنياء وحدهم ومن حولهم محاويج إلى شيء منه، فتفسد القلوب، وتفسد الحياة. وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب.

لقد تكبر قارون وعَلاَ بعد أن أنعم الله عليه بالثراء والثروة. وكثيرون أولئك الذين لم يشكروا النِعَم فتزيدهم طغياناً، ويبغوا ويتكبروا، من حيث كان ينبغي أن يشكروا.

وتُبرز القصة صورة الإنسان الطاغي الذي نسي نشأته ومصيره وأبطره الغنى، وحاول قوم قارون وذَووه وكأنهم لا يزالون يظنون به خيراً، حاولوا إرشاده وإصلاح أمره.

وعلى أية حال فقد وَجَد من قومه من يحاول ردّه عن البغي، ورجعه إلى النهج القويم، الذي يرضاه الله في التصرف بهذا الثراء، وهو نهج لا يحرم الأثرياء ثراءهم، ولا يحرمهم المتاع المعتدل بما وهبهم الله من مال، ولكنه يفرض عليهم القصد والاعتدال؛ وقبل ذلك يفرض عليهم مراقبة الله الذي أنعم عليهم، ومراعاة الآخرة وما فيها من حساب:

﴿إذ قال له قومه: لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأَحْسِن كما أَحْسَنَ الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض. إن الله لا يحب المفسدين﴾..

وفي هذا القول جماع ما في المنهج الإلهي القويم من قيم وخصائص تفرّده بين سائر مناهج الحياة.

﴿لا تفرح﴾.. فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال، والاحتفال بالثراء، والتعلق بالكنوز، والابتهاج بالملك والاستحواذ.. لا تفرح فَرَح البطر الذي يُنسي المنعم بالمال، وينسي نعمته، وما يجب لها من الحمد والشكران. لا تفرح فرح الذي يستخفه المال، فيشغل به قلبه، ويطير به لبّه، ويتطاول به على العباد..

والمال منذ الأزل، زينة الدنيا وبهجتها، مَن استحوذ عليه طغى وتكبَّر، واغترّ وتجبّر، فهو يجمعه جمعاً جشعاً، ويُحبُّه حباً كثيراً طاغياً، لا يستبقي في نفسه أريحية ولا مكرمة مع المحتاجين إلى الإكرام والطعام، وظن هذا الجموع للمال أن أحداً لن يقدر عليه، وخُيِّل إليه أن الناس جميعاً من طينة غير طينته، أو أنهم ما خُلقوا إلا مُسَخرين له، فإذا تكلَّم طأطأوا رؤوسهم عند سماع صوته، وإذا أشار كانوا عند إشارته، وإذا نادى استبقوا لتلبية ندائه..

إن حبّ المال الذي يُطغي، والتكالب على جمعه بكافة الطرق،

تورث القلوب كزازة وقساوة، وهو سمة الجاهليات في كل زمـان ومكان! حتى الآن!.

ولن يكون قارون بدعاً في الحيـاة، وإنما كغيـره من الناس، يسيـر سيرتَهم ويترسَّم طريقهم، فبغى على قومه، وفرض سلطانه عليهم وَسَامَهم بطشه وجبروته.

لا تفرح.. فرح غرور واستئثار وبطر واستكبار.. المال ظل زائل، ووديعة مستردة. لا تفرح بما أوتيتَ؛ ولا تغتر به، فمهما تقلبتَ، وتحركت، وملكت، واستمتعت، فأنت إلى اندحار وهلاك وبوار، ولن يفيدك المـال والجاه والسلطان، فهو متاع قليل.. ينتهي ويذهب.

وهكذا حاول القوم إرشاد قارون وإصلاح أمـره حين رأوه سادراً في طغيانه وبَغيه، لا هَمَّ له إلا أن يستكثر من المال في زُهُو وعُجب وغرور. فقالوا: **﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾**..

إن الله لا يحب الفرحين.. فهم يردونه بذلك إلى الله، الذي لا يحب الفرحين المأخوذين بالمال، المتباهين، المتطاولين بسلطانه على الناس.

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تَنْسَ نصيبك من الدنيا﴾.. وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم.

المنهج الذي يُعلّق قلب واجد المال بالآخرة. ولا يحرمه أن يـأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة. بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفاً، كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها.

لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس، وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها، فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض. ذلـك على أن تكون وُجهتهم في هـذا المتاع هي الآخـرة، فلا ينحرفون عن طريقها، ولا يُشْغَلون بالمتاع عن تكاليفها. والمتاع في هذه

الحالة لون من ألوان الشكر للمُنْعِم، وتقبُّل لعطاياه، وانتفاع بها. فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسنى.

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة، التي لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة.

﴿وَأَحْسِن كما أَحْسَنَ الله إليك﴾.. فهذا المال هبة من الله وإحسان. فليقابل بالإحسان فيه. إحسان التقبُّل وإحسان التصرُّف، والإحسان به إلى الخلق، وإحسان الشعور بالنعمة، وإحسان الشكران.

﴿ولا تبغِ الفساد في الأرض﴾.. الفساد بالبغي والظلم. والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة. والفساد بملء صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء. والفساد بإنفاق المال في غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال. والفساد بالترف والإسراف والتَّبْذير.

والترف يُفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسدّ المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر بالحق وتستجيب. ومن هنا يحارب الإسلام الترف؛ ويقيم نظمه الاجتماعية على أساس لا يسمح للمترفين بالوجود في الجماعة المسلمة، لأنهم كالغصن يفسد ما حوله، حتى لينخر فيه السوس، ويَسبح فيه الدود!.

والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة، حتى تترهل نفوسهم وتَأْسن، وتَرْتَع في الفسق والمجانة، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغُ في الأعراض والحُرمات، وهم إذا لم يجدوا من يَضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها. ومن

ثم تَـتَحلَّل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتُطوى صفحتها.

﴿ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾..

إن الله لا يحب المفسدين.. كما أنه لا يحب الفرحين.

الردّة الفاجرة المغرورة:

كذلك قال قوم قارون له: فكان ردّه جملة واحدة تحمل شتى معاني الفساد والإفساد:

﴿قال: إنما أُوتيته على علم عندي﴾!.

إنما أُوتيت هذا المال استحقاقاً على علمي الذي طَوّع لي جمعه وتحصيله. فما لكم تُملون عليَّ طريقة خاصة في التصرف فيه، وتتحكمون في ملكيتي الخاصة، وأنا إنما حَصَّلتُ هذا المال بجهدي الخاص، واستحققته بعلمي الخاص؟.

لقد انحرفت فطرته بتأثير الأهواء. وقال عن النعمة والرزق والفضل: إنما أُوتيته على علم عندي.. قالها قارون، وقالها كل مخدوع بعلم أو صنعة أو حيلة يُعلِّل بها ما اتفق له من مال أو سلطان. غافلاً عن مصدر النعمة، وواهب العلم والقدرة، ومُسَبّب الأسباب، ومُقَدّر الأرزاق.

إن المال نعمة، ولكنه فتنة للاختبار والامتحان. ليتبين إن كان سيشكر أم سيكفر؛ وإن كان سيصلح بها أم سيفسد؛ وإن كان سيعرف الطريق أم يجنح إلى الضلال.

ولكن الإنسان يطغى أن رآه استغنى، ويشمخ قارون بكبرياء ويتعالى، فيخرج عن طور الحق وقد تَملّكه الشيطان فيعلن أن ما أُوتيه إنما كان بسبب عِلمه وخبرته ومهارته وقدرته وفنونه: ﴿قال إنما أُوتيته على علم عندي﴾!.

إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال ويعميه الثراء ويفسده الترف. وهو نموذج مكرر في البشرية. فكم من الناس يظن أن علمه وكدّه هما وحدهما سبب غناه. ومن ثم فهو غير مسؤول عما يُنفق وما يُمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حساباً، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه!.

والإسلام يعترف بالملكية الفردية، ويقدر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي يشرعها، ولا يهون من شأن الجهد الفردي أو يُلغيه. ولكنه في الوقت ذاته يفرض منهجاً مُعَيّناً للتصرف في الملكية الفردية ـ كما يفرض منهجاً لتحصيلها وتنميتها ـ وهو منهج متوازن متعادل، لا يحرم الفرد ثمرة جهده، ولا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف ولا في إمساكه حتى التقتير، ويفرض للجماعة حقوقها في هذا المال، ورقابتها على طرق تحصيله، وطرق تنميته. وطرق إنفاقه والاستمتاع به. وهو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات.

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه، ولم يشعر بنعمة ربه، ولم يخضع لمنهجه القويم. وأعرض عن هذا كله في استكبار لئيم وفي بَطَر ذميم.

وأنَّى للطاغية أن تتفتّح آذانه للنصيحة تُلقىٰ إليه، ومَن للمستكبر ينال من نفسه ويمسّ شغاف قلبه!.

إن قارون قد أُشرب قلبه حبّ المال، وزاده الغنى عُلوًّا واستكباراً. فليس لمثل هذا الكلام سبيلٌ إلى نفسه، فَمَن هؤلاء الذين يُشيرون عليه فيأتمر، وتتطاول أعناقهم إلى نُصحه فينتصح! إنهم لا شك قد استباحوا رحمَاه وتدخَّلوا فيما لا يعنيهم من أمره؛ بل إن هذا من أموره الخاصة!.

لذلك كان جافياً متعالياً في ردّه. فهو أكثر مالاً وأَعزّ نفراً، وأعظم سلطاناً وأرفع مقاماً، وأغزر علماً، وأعلا جاهاً. إذ قال: لست بحاجة إلى

نُصح ناصح ولا إلى إشارة راشد، فأنا أرجحكم عقلاً وأَسَدُّكم رأياً؛ وما أوتيتُ هذا المال الطويل والثراء العريض؛ إلا لأني به أجدر وأحق، فأنا خير منكم مقاماً، وأكثر عرفاناً. .

هكذا يرسم القرآن الكريم هذا النموذج الإنساني المتعالي بمَالِه وثرائه، المتكبِّر بعلمه وسلطانه. . يُصوّره من زوايا النفس الإنسانية، ومن ملابسات حياته المُنتفخة. . الإنسان في قوته وماله، مُغْتَرّ غافل، وهو في تخليط هابط مَقيت في القيم والموازين. .

قارون نموذج إنساني مُكَرّر يجتمع فيه العلو والغرور، ويظن نفسه أريباً عالماً حصيفاً، وحشو جلده تغفيل، ولكنه في عترسة وتبجح ذميم. .

وهكذا لم يسمع قارون نداء قومه، مختالاً بماله، فخوراً بسلطانه، يَتَمطَّى في اختياله، ويتعاجب من نصيحة قومه تعاجباً ثقيلاً كريهاً، وقد نسي أن ما به من نعمة هي من الله. أعرض عن هذا كله. وتكبَّر واستكبر، وتعالى وتَجَبَّر. **﴿قال: إنما أوتيته على علم عندي﴾**!.

ومن ثم جاءه التهديد قبل إتمام الآية، رداً على قولته الفاجرة المغرورة:

﴿أوَ لَم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوةً وأكثرُ جمعاً؟ ولا يُسْأَل عن ذنوبهم المجرمون﴾ [القصص: ٧٨]. .

فإذا كان ذا قوة ومال، فقد أهلك الله من قبله أجيالاً كانت أشد منه قوة وأكثر مالاً. وكان عليه أن يعلم هذا، فهذا هو العلم المُنجي. فليعلم. وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم. فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد! **﴿ولا يُسْأل عن ذنوبهم المجرمون﴾**. .

والقرآن ـ رحمة بالعباد ـ يكشف لهم عن السرّ، وينبههم إلى الخطر،

ويحذرهم الفتنة. فلا حجة لهم ولا عذر بعد هذا البيان. وهو يلمس قلوبهم بعرض مصارع الغابرين قبلهم. مصارعهم بمثل هذه الكلمة الضالة التي يقولها قائلهم: ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ [الزمر: ٤٩]..

هي ذاتها هذه الكلمة الضالة قالها قارون. قالها الذين من قبلهم، فانتهت بهم إلى السوء والوبال. ولم يغن عنهم علمهم ولا مالهم ولا قوتهم شيئاً. وهؤلاء سيصيبهم ما أصاب الغابرين. فسنة الله لا تتبدل وما هم بمعجزين.. فالله لا يعجزه خلقه الضعاف المهازيل!.

﴿ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ [القصص: ٧٨]..

زينة وفتنة:

ذلك كان المشهد الأول من مشاهد القصة، يتجلى فيها البغي والتطاول، والإعراض عن النصح، والتعالي على العظة، والإصرار على الفساد، والاغترار بالمال، والبطر الذي يقعد بالنفس عن الشكران.

ثم يجيء المشهد الثاني حين يخرج قارون بزينته على قومه، فتطير لها قلوب فريق منهم، وتتهاوى لها نفوسهم، ويتمنّون لأنفسهم مثل ما أُوتي قارون، ويحسّون أنه أوتي حظاً عظيماً يتشهاه المحرومون. ذلك على حين يستيقظ الإيمان في قلوب فريق منهم فيعتزون به على فتنة المال وزينة قارون. ويُذَكِّرون إخوانهم المبهورين المأخوذين، في ثقة وفي يقين:

﴿فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا: يا ليت لنا مثلما أُوتي قارون. إنه لذو حَظٍّ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم: ويلكم! ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠]..

وهكذا وقفت طائفة منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهاوي المتهافت، ووقفت طائفة أخرى تستعلي على هذا كله بقيمة

الإيمان، والرجاء فيما عند الله، والاعتزاز بثواب الله. والتقت قيمة المال وقيمة الإيمان في الميزان:

﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا: يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون. إنه لذو حظ عظيم﴾..

وفي كل زمان ومكان تستهوي زينة الأرض بعض القلوب، وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا، ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها؛ فلا يسألون بأي ثمن اشترى صاحب الزينة زينته؟ ولا بأي الوسائل نال ما نال من عَرَض الحياة؟ من مال أو منصب أو جاه. ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوى، كما يتهافت الذباب على الحلوى ويتهاوى! ويسيل لعابهم على ما في أيدي المحظوظين من متاع، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذي أَدُّوه، ولا إلى الطريق الدَنس الذي خاضوه، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التي اتخذوها.

والحياة الدنيا متاع ولهو ومَشغلة، ولكنها حين تقاس بمقاييسها هي وتوزن بموازينها تبدو في العين وفي الحسّ ِأمراً عظيماً هائلاً. ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئاً زهيداً تافهاً. وهي تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة من جدّ تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة!.

والحياة الدنيا: لعب. ولهو. وزينة. وتفاخر. وتكاثر... هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جدّ حافل واهتمام شاغل.. وهي مهلة محدودة وهي ابتلاء واستحقاق للجزاء.

والحياة الدنيا متاع. ولكنه ليس متاع الحقيقة، ولا متاع الصحو واليقظة.. إنها متاع الغرور. المتاع الذي يخدع الإنسان فيحسبه متاعاً. أو المتاع الذي يُنشىء الغرور والخداع! فهي متاع يُلهي، أو شغل يُنسي. أو شيطان يوسوس في الصدور. والشياطين كثير. الغرور بالمال شيطان. والغرور بالعلم شيطان. والغرور بالعمر شيطان. والغرور بالقوة شيطان.

والغرور بالسلطان شيطان. ودفعة الهوى شيطان. ونزوة الشهوة شيطان. . .

فأما المتاع الحق. المتاع الذي يستحق الجهد في تحصيله. . فهو ذاك. . هو الفوز بالجنة بعد الزحزحة عن النار. وتقوى الله وتَصَوُّر الآخرة هما العاصم من كل غرور.

إن الحقيقة الجلية الواضحة إذا لامست القلب البشري لمسة قوية، تدفع الإنسان للإدراك أنه مُستخلف في مُلك ومال وسلطان أُزيل من مالكيه الأوائل وأُجلي عنه أهله الذين سبق لهم أن مُكّنوا فيه، وأنه هو بدوره زائل عن هذا المُلك والمال والسلطان.

إن الحياة الدنيا أيام يقضيها الإنسان على هذه الأرض، مُمْتَحناً بما يكون منه، مُبْتَلى بهذا المُلك والمال والسلطان، محاسَباً على ما يكسب ويعمل بعد بقاء فيه قليل. .

إن هذا التصور الذي يُنشئه الإسلام في القلب البشري. . فوق أنه يرى الحقيقة فلا تخدعه عنها الخدع يظل يُثير فيه يقظة وحساسية وتقوى، هو صمام الأمن للمجتمع الذي يعيش فيه.

إن شعور الإنسان أنه مُبْتَلى ومُمتحن بأيامه التي يقضيها على الأرض، وبكل شيء يملكه، وبكل متاع يُتاح له، يمنحه مناعة ضد الاغترار والانخداع والغفلة، ويعطيه وقاية من الانبهار بزينة الدنيا والاستغراق في متاعها ومن التكالب على هذا المتاع الذي هو مسؤول عنه ومُمتحن فيه، وإن شعوره بالرقابة الإلهية التي تحيط به ليجعله شديد التوقي، شديد الحذر، شديد الرغبة في الإحسان وفي النجاة أيضاً من هذا الامتحان!.

إن الذين يكتب الله لهم الهدى والخير يضع في قلوبهم الحساسية والحذَر، فهم المتصلون بالله ولهم ميزان آخر يُقَيِّم الحياة، وفي نفوسهم قِيَم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع. وهم أعلى نفساً، وأكبر قلباً من أن

يتهاووا ويتصاغروا أمام قِيَم الأرض جميعاً. ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد. وهؤلاء هم ﴿**الذين أوتوا العلم**﴾ العلم الصحيح الذي يُقَوِّمُون به الحياة حق التقويم:

﴿**وقال الذين أوتوا العلم: ويلكم! ثواب الله خير لمن آمَن وعمل صالحاً، ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون**﴾..

ثواب الله خير من هذه الزينة، وما عند الله خير مما عند قارون. والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يُلَقَّاها إلا الصابرون.. الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم. الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها. الصابرون على الحرمان مما يتشهاه الكثيرون. وعندما يعلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة. درجة الاستعلاء على كل ما في الأرض، والتطلع إلى ثواب الله في رضى وثقة واطمئنان.

وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها، وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى، تتدخل يد القدرة لتضع حداً للفتنة، وترحم الناس الضعاف من إغرائها، وتُحطِّم الغرور والكبرياء تحطيماً. ويجيء المشهد الثالث حاسماً فاصلاً:

﴿**فَخَسَفْنا به وبداره الأرض، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان من المنتصرين**﴾ [القصص: ٨١]..

هكذا في جملة قصيرة، وفي لمحة خاطفة: ﴿**فخسفنا به وبداره الأرض**﴾ فابتلعته وابتلعت داره، وهَوَى في بطن الأرض التي عَلاَ فيها واستطال فوقها جزاء وفاقاً. وذهب ضعيفاً عاجزاً، لا ينصره أحد، ولا ينتصر بجاه أو مال.

ويصور القرآن الكريم هذا المشهد العنيف الصاخب، مشهد حافل بالحركة، يتسق في هَوْله مع غرض القرآن. فالصورة المعروضة للخسف بهذا المتعالي المُتَكَبِّر مع داره وكنوزه وزينته، تقول: إن هذا الذي تعجبون

به، وتغترون به، وهذا الذي تستطيلون أَمَده، إنما هـو في حقيقته قصيـر زائل، فالإنسان في يد القدرة القادرة تطويه في غمضة، هكذا في ومضـة ابتلعته الأرض في مكان سحيق، فاختفى هو وثروته وسلطانه ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾.. ولِمَ هذه السرعة الخاطفة؟ لئـلا يتوهم أحـد أن لمن يَـتَكَبَّر ويَـتَعالى ويشمخ مَنْبَتاً، أو وجوداً، أو قراراً، أو امتداداً، مهما يبلغ من الثروة والكنوز والقوة والجاه والسلطان؛ إنما يأتي في ومضة من المجهول، ليذهب في ومضة إلى المجهول!!!.

﴿فخسفنـا به وبـداره الأرض﴾ إنه تصـوير حَيّ شـاخص. المشهد يتحـرك وهو يُلقي ظـلالاً بعيدة. ظـلالاً فيها رهبـة وفيها هَـول. ووراءها إيحاءات وإيماءات وإيقاعات!.

فخسفنا به.. وهي حركة عنيفة هائلة مُروِّعة حيّة في الوقت ذاتـه. ووراءها الإيحاء بقدرة الله العظيمة وعجز المخلوق البشري أمامها وضعفه.. كما أن وراءها الإيماء إلى جدّية هذا الأمر التي لا تحتمل تسامحاً ولا مجاملة لأحد كائناً من كان. ووراءها بعد هذا كله إيقاع الرهبة والهول والخشوع!.

إن الله ـ سبحانه ـ في عُلاه ينتقم من كل مَن عَلَا وتجبر وتكبَّر. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قال الله عز وجل: العِزُّ إزاري، والكِبْرياء رِدائي، فَمَنْ ينازعني عذَّبْته»(١).

إن قارون وأمثاله من المتكبرين والمترفين المفسدين يستحقون الانتقام في الدنيا والآخرة، العذاب الذي يصبّه الله عليهم صَبّاً، فلا يَدعهم يفلتون من عـذابه. وهـو الجبار المتكبـر الذي يتـوعد هؤلاء الضعـاف المساكين بالعذاب الرعيب!.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنـه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قـال: «بينما

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٠)، وأخرجه أبو داود (٤٠٩٠) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

رَجُلٌ يمشي في حُلَّةٍ[1] تُعْجِبُه نَفْسُه، مُرَجِّلٌ رأسه[2]، يَخْتَال في مِشْيته، إذْ خَسَفَ الله به، فهو يَتَجَلْجَلُ[3] في الأرضِ إلى يوم القيامة»[4].

وعن سلمة بن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يـزال الـرجـلُ يـذهب بنفسـه حتى يُكْتَبُ في الجبـارين، فيصيبـه ما أصابهم»[5]. وقوله: «يَذْهَبُ بنفسه»: أي يرتفع ويَتَكبَّر.

﴿فخسفنـا به وبـداره الأرض﴾ وهكذا يـرسم القرآن مشهـد قارون المروّع، مشهد يهزّ القلوب هزاً ويخلعها خلعاً. مشهد الهول المفزع الذي يُلقي في النفـوس الخوف الـرعيب.. لقد هـوى في بطن الأرض وذهب يتجلجل فيها يغوص في العذاب..

وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس؛ وردَّتهم الضربة القـاضية إلى الله؛ وكشفت عن قلوبهم قنـاع الغفلة والضلال. وكـان هذا المشهد الأخير:

﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقـولون: وَي! كـأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر. لولا أن مَنَّ الله علينا لخَسَف بنا. وَي! كأنه لا يُفلح الكافرون﴾ [القصص: ٨٢]..

وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس، ولم يُؤتهم ما آتى قارون. وهم يرون المصير المذلّ المخزي البائس الذي انتهى إليه بين يوم وليلة. وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رضى الله. فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقُهُ لأسباب أخرى غير الرضى والغضب.

---

(١) الحلة: بضم الحاء المهملة: ثوب له ظهارة وبطانة.

(٢) مُرجِّلٌ رأسه: أي ممشطة.

(٣) يتجلجل: بالجيمين، أي يغوص وينزل.

(٤) البخاري ١٠/٢١١، ٢٢٢، ومسلم (٢٠٨٨).

(٥) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف. إنما هو الابتلاء الذي يعقبه البلاء. وعلموا أن الكافرين لا يفلحون. وقارون لم يجهر بكلمة الكفر ولكن اغتراره بالمال، ونسبته إلى ما عنده من العلم جعلهم يُسلكونه في عداد الكافرين، ويرون في نوع هلاكه أنه هلاك الكافرين.

ويسدل الستار على هذا المشهد. وقد انتصرت القلوب المؤمنة بتدخل القدرة السافرة، وقد رجحت قيمة الإيمان في كفة الميزان.. ثم يأخذ في التعقيب في أنسب أوان:

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً. والعاقبة للمتقين﴾ [القصص: ٨٣]..

تلك الآخرة التي تحدث عنها الذين أُوتوا العلم. العلم الحق الذي يقوّم الأشياء قيمتها الحقيقية. تلك الدار الآخرة العالية الرتبة البعيدة الآفاق **﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾** [الإسراء: ٢١]..

فمن شاء التفاوت الحق، ومن شاء التفاضل الضخم، فهو هناك في الآخرة. هناك في الرقعة الفسيحة، والآماد المتطاولة التي لا يعلم حدودها إلا الله. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون لا في متاع الدنيا القليل الهزيل.. **﴿ولدار الآخرة خير﴾** من هذه الدار الدنيا **﴿ولنعم دار المتقين﴾** [النحل: ٣٠]..

إن القرآن الكريم يضع أمام الإنسان الميزان الدقيق للقيم كلها. فإذا الحياة الدنيا بأرزاقها ومتاعها لهو ولعب حين تُقاس بالحياة في الدار الآخرة.

فهذه الحياة الدنيا في عمومها ليست إلا لهواً ولعباً حين لا يُنظر فيها إلى الآخرة. حين تكون هي الغاية العليا للناس. حين يصبح المتاع فيها هو الغاية من الحياة. فأما الحياة الآخرة فهي الحياة الفائضة بالحيوية.

إن إيثار الحياة الدنيا هـو أساس كـل بلوى. فعن هذا الإيثـار ينشأ الانحراف ثم الفساد والضلال، لأنها تقتضيهم أن يحسبوا حساب الآخـرة ويُؤثروها. وهم يريدون الدنيا ويُؤثرونها . .

وتسميتها «الدنيا» لا تجيء مصادفة. فهي الواطية الهابطة ـ إلى جانب أنها الدانية: العاجلة . . والآخرة خير وأبقى . . خير في نوعها، وأبقى في أمدها.

وفي ظل هذه الحقيقة يبدو إيثار الدنيا على الآخرة حماقة وسوء تقدير. لا يقدم عليها عاقل بصير.

والقرآن لا يعني بهذا أن يحضّ على الزهد في متـاع الحياة الـدنيا والفرار منه وإلقائه بعيداً. إن هذا ليس روح الإسلام ولا اتجاهه. إنما يعني مراعاة الآخرة في هذا المتاع، والوقـوف فيه عنـد حدود الله. كمـا يقصد الاستعلاء عليه فلا تصبح النفس أسيرة له، يُكلِّفها ما يُكلِّفها فلا تتأبَّى عليه! والمسألة مسألة قِيَم يزنها بميزانها الصحيح. فهذه قيمة الدنيـا وهذه قيمـة الآخرة كما ينبغي أن يستشعرها المؤمن؛ ثم يسير في متاع الحياة الدنيا على ضوئها، مالكاً لحريته معتدلاً في نظرته: الدنيا لهو ولعب، والآخـرة حياة مليئة بالحياة.

والغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل، وتؤرجح في أكفهم ميـزان القيم، فلا يملكـون تصور الحيـاة وأحداثهـا وقيمها تصـوراً صحيحاً، ويظل علمهم بها ظاهراً سطحياً ناقصاً، لأن حساب الآخرة في ضمير الإنسان يُغَير نظرته لكل ما يقع في هذه الأرض. فحياته على الأرض إن هي إلا مرحلة قصيرة من رحلته الطويلة في الكـون. ونصيبه في هـذه الأرض إن هو إلا قدر زهيـد من نصيبه الضخم في الـوجود. والأحـداث والأحـوال التي تتم في هذه الأرض إن هي إلا فصـل صغير من الـروايـة الكبيرة. ولا ينبغي أن يبني الإنسان حكمه على مرحلة قصيرة من الرحلة

الطويلة، وقدر زهيد من النصيب الضخم، وفصل صغير من الرواية الكبيرة!.

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾.. فلا يقوم في نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم لأنفسهم، ولا يهجس في قلوبهم الاعتزاز بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها. إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله، ومنهجه في الحياة. أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حساباً. ولا يبغون فيها كذلك فساداً. أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة. تلك الدار العالية السامية.

﴿والعاقبة للمتقين﴾ الذين يخشون الله ويراقبونه ويتحرجون من غضبه ويبتغون رضاه.

والتقوى شعور في الضمير، وحالة في الوجدان، تنبثق منها اتجاهات وأعمال، وتتوحد بها المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة، وتصل الإنسان بالله في سره وجهره. وتشف معها الروح فتقلّ الحجب بينها وبين الكُلِّيّ الذي يشمل عالمي الغيب والشهادة، ويلتقي فيه المعلوم والمجهول. ومتى شفت الروح وانزاحت الحُجب بين الظاهر والباطن، فإن الإيمان بالغيب عندئذ يكون هو الثمرة الطبيعية لإزالة الحجب الساترة، واتصال الروح بالغيب والاطمئنان إليه، ثم اليقين بالآخرة بلا تردد ولا تأرجح. وهناك المآل وهناك الرجاء، وهناك المثوى وهناك المأوى.. **﴿والعاقبة للمتقين﴾**..

وفي تلك الدار الآخرة يقع الجزاء كما كتب الله على نفسه. الحسنة بأضعافها وبما هو خير منها. والسيئة بمثلها رحمةً بضعف الخلق وتيسيراً:

﴿من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها. ومن جاء بالسيئة فلا يُجزىٰ الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾ [القصص: ٨٤]..

ويجمع الله ـ سبحانه ـ بين فرعون وهامان وقارون ومن سبقهم من الكفار في العذاب: ﴿. . **وقارون وفرعون وهامان، ولقد جاءهم موسى بالبيِّنات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين. فَكُلًّا أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً، ومنهم من أخذته الصيحةُ، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا. وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ [العنكبوت: ٣٩]. .

وقارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وعَلا وتكبَّر بثروته وماله وعلمه. وفرعون كان طاغية غشوماً، بغى وطغى، وعَلاَ في الأرض، وظلم ظلماً كثيراً، وعتى عتواً غليظاً. وهامان كان وزيره المدبر لمكائده، المُعين له على ظلمه وبطشه.

قد بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجبروت الحكم والسلطان؛ ولقد بغى قارون عليهم واستطال بجبروت العلم والمال. وكانت النهاية واحدة، هذا خُسف به وبداره، وذلك أخذه اليمّ هو وجنوده. ولم تكن هناك قوة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة، إنما تدخلت يد القدرة سافِرة فوضعت حداً للبغي والفساد، حينما عجز الناس عن الوقوف للبغي والفساد.

ودلت هذه وتلك على أنه حين يتمحض الشر ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزاً والصلاح حسيراً، ويخشى من الفتنة بالبأس والفتنة بالمال. عندئذ تتدخل يد القدرة سافرة متحدية، بلا ستار من الخلق، ولا سبب من قوى الأرض، لتضع الحد الرادع للشر والفساد.

القيم الظاهرة الجوفاء:

إن قارون وفرعون وهامان ومَن سَلَك طريقهم على توالي الزمان واختلاف المكان هم في فئة واحدة: فئة الطغيان والبغي والفساد، وفئة العلو والاستكبار والتجبّر.

لقد عرضت قصة موسى وفرعون قوة الحكم والسلطان. قوة فرعون الطاغية المتجبر.

وعرضت قصة قارون مع قومه ـ قوم موسى ـ قيمة المال، ومعها قيمة العلم. المال الذي يستخف القوم وقد خرج عليهم قارون في زينته، وهم يعلمون أنه أوتي من المال ما إن مفاتحه لتعيي العصبة من الرجال الأقوياء. والعلم الذي يعتز به قارون، ويحسب أنه بسببه وعن طريقه أُوتي ذلك المال. ولكن الذين أوتوا العلم الصحيح من قومه لا تستخفهم خزائنه، ولا تُستخفهم زينته؛ بل يتطلعون إلى ثواب الله، ويعلمون أنه خير وأبقى. ثم تتدخل يد الله فتخسف به وبداره الأرض، لا يُغني عنه ماله ولا يُغني عنه علمه؛ وتتدخل تدخلاً مباشراً سافراً كما تدخلت في أمر فرعون، فألقته في اليمّ هو وجنوده فكان من المغرقين.

ومن هذه الجولة في قصة البغي والطغيان. قصة قارون في ضمير الزمان، نرى طرفاً من سنة الله الجارية، التي لا تتخلف مرة ولا تحيد.

وهي دعوة إلى التأمُّل في مصائر الغابرين؛ وهم ناس من الناس، وخَلْق من خَلْق الله، تكشف مصائرهم الماضية عن مصائر خلفائهم الآتية. فسنة الله هي سنة الله في الجميع. وسنة الله حق ثابت يقوم عليه مبدأ الوجود، بلا محاباة لجيل من الناس، ولا هوى يتقلب فتتقلب معه العواقب. حاشا لله رب العالمين!.

وقصة قارون، قصة معادة، وموقف مكرور، على مدار الدهور. إنه موقف كل مُترف أمام الحق. والترف يغلظ القلوب، ويفقدها الحساسية، ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى الحق ولا تستمع لصوته، وتستكبر على الهدى، وتصرّ على الباطل، ولا تتفتح للنور.

والمترفون تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل، ويُغِرّهم ما هم فيه

من ثراء وقوة، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله؛ ويخالون أنه آية الرضى عنهم، أو أنهم في مكان أعلى من الحساب والجزاء **﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً، وما نحن بمعذَّبين﴾** [سبأ: ٣٥]..

إن الإنسان تُخطىء موازينه وتضل تقديراته، ولا يرى إلا الظواهر، ما لم يتصل بميزان الله: **﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه، فيقول: ربِّ أكرمنِ. وأما إذا ما ابتلاه فقَدَر عليه رزقَه فيقول: ربِّ أهاننِ﴾** [الفجر: ١٥، ١٦]..

فهذا هو تصور الإنسان لما يبتليه الله به من أحوال، ومن بَسْطٍ وقَبْض يَبتليه بالنعمة والإكرام. بالمال أو المقام. فلا يدرك أنه الابتلاء، تمهيداً للجزاء. إنما يحسب هذا الرزق وهذه المكانة دليلاً على استحقاقه عند الله للإكرام، وعلامة على اصطفاء الله له واختياره. فيعتبر البلاء جزاء والامتحان نتيجة! ويقيس الكرامة عند الله بعَرَض هذه الحياة! ويبتليه بالتضييق عليه في الرزق، فيحسب الابتلاء جزاء كذلك، ويحسب الاختبار عقوبة، ويرى في ضيق الرزق مهانة عند الله، فلو لم يُرد مهانته ما ضيّق عليه رزقه..

وهو في كلتا الحالتين مخطىء في التصور ومخطىء في التقدير. فَبَسْط الرزق أو قَبْضه ابتلاء من الله لعبده. ليظهر منه الشكر على النعمة أو البطر. ويظهر منه الصبر على المحنة أو الضجر. والجزاء على ما يظهر منه بعد.

وليس ما أُعطي من عرض الدنيا أو مُنع هو الجزاء.. وقيمة العبد عند الله لا تتعلق بما عنده من عَرَض الدنيا. ورضى الله أو سخطه لا يستدل عليه بالمنح والمنع في هذه الأرض. فهو يعطي الصالح والطالح، ويمنع الصالح والطالح. ولكن ما وراء هذا وذلك هو الذي عليه المعول. إنه يعطي ليبتلي ويمنع ليبتلي. والمعول عليه هو نتيجة الابتلاء!.

لقد وضع القرآن للناس ميزان القيم كما هي عند الله، فهو يُبين لهم

أن بَسْط الرزق وقبضه، ليست له علاقة بالقيم الثابتة الأصيلة، ولا يدل على رضى ولا غضب من الله، ولا يمنع بذاته عذاباً ولا يدفع إلى عذاب. إنما هو أمر منفصل عن الحساب والجزاء، وعن الرضى والغضب، يتبع قانوناً آخر من سنن الله: ﴿**قل: إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ [سبأ: ٣٦]..

وهذه المسألة. مسألة بسط الرزق وقبضه؛ وتملك وسائل المتاع والزينة أو الحرمان منها، مسألة يحيك منها شيء في صدور كثيرة. ذلك حين تتفتح الدنيا أحياناً على أهل الشر والباطل والفساد، ويُحرم من أعراضها أحياناً أهل الخير والحق والصلاح؛ فيحسب بعض الناس أن الله ما كان ليغدق على أحد إلا وهو عنده ذو مقام؛ أو يشك بعض الناس في قيمة الخير والحق والصلاح، وهم يرونها محوطة بالحرمان!.

ويَفصل القرآن بين أعراض الحياة الدنيا والقيم التي ينظر الله إليها. ويقرر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. وأن هذه المسألة، ورضاه وغضبه مسألة أخرى ولا علاقة بينهما. وقد يغدق الله الرزق على من هو عليه غاضب كما يغدقه على مَن هو عليه راض. وقد يُضَيق الله على أهل الشر كما يضيق على أهل الخير. ولكن العلل والغايات لا تكون واحدة في جميع هذه الحالات.

قد يغدق الله على أهل الشر استدراجاً لهم ليزدادوا سوءاً وبطراً وإفساداً، ويتضاعف رصيدهم من الإثم والجريمة، ثم يأخذهم في الدنيا أو في الآخرة ـ وفق حكمته وتقديره ـ بهذا الرصيد الأثيم! وقد يحرمهم فيزدادوا شراً وفسوقاً وجريمة، وجزعاً وضيقاً وبأساً من رحمة الله، وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الشر والضلال.

ولقد يغدق الله على أهل الخير، ليمكنهم من أعمال صالحة كثيرة ما كانوا بالغيها لو لم يبسط لهم في الرزق، وليشكروا نعمة الله عليهم بالقلب

واللسان والفعل الجميل، ويذخروا بهذا كله رصيداً من الحسنات يستحقونه عند الله بصلاحهم وبما يعلمه من الخير في قلوبهم. وقد يحرمهم فيبلو صبرهم على الحرمان، وثقتهم بربهم، ورجاءهم فيه، واطمئنانهم إلى قدره، ورضاهم بربهم وحده، وهو خير وأبقى؛ وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الخير والرضوان.

وأياً ما كانت أسباب بَسْط الرزق وقبضه من عمل الناس، ومن حكمة الله، فهي مسألة منفصلة عن أن تكون دليلاً بذاتها على أن المال والرزق والمتاع قيم تقدم أو تُؤخر عند الله. ولكنها تتوقف على تصرف المبسوط لهم في الرزق أو المُضَيق عليهم فيه. فمن وهَبَه الله مالاً ومتاعاً فأحسن فيهما التصرف فقد يضاعف له الله في الثواب جزاء ما أحسن في نعمة الله.

غير أن الإنسان ـ حين يخلو قلبه من الإيمان ـ لا يدرك حكمة المنع والعطاء. ولا حقيقة القيم في ميزان الله.. فإذا عمر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ما هنالك. وخفت في ميزانه الأعراض الزهيدة، وتيقظ لما وراء الابتلاء من الجزاء، فعمل له في البسط والقبض سواء.. واطمأن إلى قَدَر الله في الحالين؛ وعرف قدره في ميزان الله بغير هذه القيم الظاهرة الجوفاء!.

وقد كان القرآن يخاطب أُناساً في مكة ـ يوجد أمثالهم في كل جاهلية تفقد اتصالها بعالم أرفع من الأرض وأوسع ـ أناساً ذلك ظنهم بربهم في البسط والقبض. وذلك تقديرهم لقيم الناس في الأرض. ذلك أن المال والجاه عندهم كل شيء. وليس وراءهما مقياس! ومن ثم كان تكالبهم على المال عظيماً، وحبّهم له حباً طاغياً، مما يورثهم شراهة وطمعاً. كما يورثهم حرصاً وشحاً.. ومن ثم يكشف لهم عن ذوات صدورهم في هذا المجال، ويقرر أن هذا الشره والشح هما علة خطئهم في إدراك معنى الابتلاء من وراء البسط والقبض في الأرزاق:

﴿كلا. بل لا تكرمون اليتيم، ولا تحاضُّون على طعام المسكين. وتأكلون التراث أكلاً لَماً، وتحبون المال حباً جمّاً﴾ [الفجر: ١٧ - ٢٠]..

كلا! ليس الأمر كما يقول الإنسان الخاوي من الإيمان. ليس بسط الرزق دليلاً على الكرامة عند الله. وليس تضييق الرزق دليلاً على المهانة والإهمال. إنما الأمر أنكم لا تنهضون بحق العطاء، ولا توفون بحق المال..

.. إنكم لا تدركون معنى الابتلاء. فلا تحاولون النجاح فيه، بإكرام اليتيم والتواصي على إطعام المسكين، بل أنتم - على العكس - تأكلون الميراث أكلاً شرهاً جشعاً؛ وتحبون المال حباً كثيراً طاغياً، لا يستبقي في نفوسكم مكرمة أو خير.

إن المادية والتفكير المادي حين يطغي على حياة الناس وشعورهم وتفكيرهم يكاد يُعطِّل فيهم شعور الرحمة والبر والتسامح والوئام والأخوة الإنسانية، وحتى يكاد يُميت في الإنسان الضمير والإيمان الذي يمكن أن يمدّ صاحبه بنوازع الخير والبر والحق والإحسان والإنصاف.

إن المادية تجعل وَجْه الحياة كالحاً، فهي تغتال الرحمة من القلوب فتفسد الحياة وتصبح جحيماً لا يُطاق؛ لأن ميزانها الوحيد هو المادة وما تُنتجه من قسوة وتناحر وأنانية وجشع وضعف شعور واستغراق في الشهوات، وتحلّه من روابط البرّ والآداب الكريمة والعواطف الإنسانية، وتبيحه من الوسائل، في سبيل تحقيق نزوات النفوس ومطامعها ورغباتها التي تمليها تلك الصبغة، ولأن التوازن قد انفقد تقريباً بين الروح والمادة، والقلب والعقل، والعاطفة والعلم.

حين ينشأ الترف في المجتمع، وتنشأ طبقة المترفين بأخلاقهم ونفسيتهم، وتكثر الأموال وأدوات الترف، تشتد الإغراءات المادية وتفعل فعلها في المجتمع حتى يشرف الإيمان والعمل الصالح على الضياع

والتلف، وتتقدم الأمة بخطى واسعة إلى انهيار في الأخلاق والروح، ولا بقاء لأمة بعد ذلك في الصلة بالله، وهذا دوماً نذيراً لعذاب الله الشديد، نذيراً لكارثة كبرى، كارثة أصيبت بها الأمم من قبل، وهي الإفلاس في الإيمان والروح والأخلاق، ولا بقاء لأمة بعد ذلك: **﴿وإذا أردنا أن نُهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمرناها تدميراً﴾** [الإسراء: ١٦]. .

والآية تقرر سُنَّة الله هذه. فإذا قَدَّر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك، فكثر فيها المترفون، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها، فعمَّ فيها الفسق، فتحللت وترهلت، فحقت عليها سنة الله، وأصابها الدمار والهلاك. وهي المسؤولة عما يحلّ بها لأنها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين. فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك، وما سلَّط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك وعذاب الله.

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف، وسنناً لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحقق كلمته. والله لا يأمر بالفسق، لأن الله لا يأمر بالفحشاء. لكن وجود المترفين في ذاته، دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها، وسارت في طريق الانحلال، وأن قَدَر الله سيصيبها جزاءً وفاقاً، وهي التي تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة.

فالإرادة هنا ليست إرادة للتوجيه القهري الذي ينشىء السبب، ولكنها ترتب النتيجة على السبب. الأمر الذي لا مفرّ منه لأن السُّنة جرت به. والأمر ليس أمراً توجيهياً إلى الفسق، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين وهي الفسق.

وهنا تبرز تبعة الجماعة في ترك النظم الفاسدة تنشىء آثارها التي لا مفرّ منها. وعدم الضرب على أيدي المترفين فيها كي لا يفسقوا فيها فيحق عليها القول فيدمرها تدميراً.

هذه السُّنة قد مضت في الأولين، قرناً بعد قرن، كلما فشت الذنوب في أمة انتهت بها إلى ذلك المصير، والله هو الخبير بذنوب عباده البصير.

أما نُزل المترفين يوم الدين، مصير الطغاة المفسدين ﴿**وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال؟ في سَموم وحميم. وظلٍّ من يحموم. لا بارد ولا كريم. إنهم كانوا قبل ذلك مترفين**..﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٤٥]..

لقد كانوا في الدنيا في دعة وراحة، لكنهم هناك في سموم وحميم.. الهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسام ويشوي الأجسام. والماء مُتَنَاه في الحرارة لا يُبرد ولا يُروي. وهناك ظل! ولكنه «ظل من يحموم».. ظل الدخان اللافح الخانق.. إنه ظل للسخرية والتهكم. ظل ساخن لا رُوح فيه ولا برد؛ وهو كذلك كزّ لا يمنح وُرّاده راحة ولا إنعاشاً!..

لقد خلقت جهنم ووجدت وكانت مرصاداً للطاغين المفسدين تنتظرهم وتترقبهم وينتهون إليها.. هذا الشظف كله جزاء وفاق: ﴿**إنهم كانوا قبل ذلك مترفين**﴾.. وما آلَم الشظف للمترفين!.

وبعدُ، لقد أخذ الله قارون بعدما علا في الأرض بزينته وماله وكنوزه، وتكبَّر وتجبّر، بعدما فتن الناس وآذاهم طويلاً، بعدما قال كلمته الضالة: ﴿**إنما أوتيته على علم عندي**﴾ فانتهت به إلى السوء والوبال. ولم يُغن عنه علمه ولا ماله ولا سلطانه شيئاً.

إن الترف يورث الكِبَر والعلو والإعراض عن الحق. الترف يغلق القلوب عن سماع النصيحة والإرشاد، الترف يطمس العقول دون التدبر. ومن ثم لا يكون إلا الهلاك والخسف والتدمير لهذه الجبلة التي لا تريد أن

تفتح عينها لترى، أو تفتح قلبها لتحس، أو تفتح عقلها لتستبين.

هذا هو مصير قارون ﴿**فخسفنا به وبداره الأرض**﴾، وهذا هو مصير ذلك الصنف من خلق الله يعرضه القرآن على الناس لعلهم يتبينون عاقبة الطريق الذي يسلكون..

قصة صاحب الجنتين

المحتوى	ص

قصة صاحب الجنتين

ثم تجيء قصة الرجلين والجنتين تُضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية. وهي القصة الأكثر وقوعاً في الحياة اليومية والحياة العادية. وتتمثل في كل مكان وزمان وحين. .

وقصة الجنتين تُصور كيف يعتز المؤمن بإيمانه في وجه المال والجاه والزينة. وكيف يجبه صاحبها المنتفش المنتفخ، يجبهه بالحق، ويؤنبه على نسيان الله: **﴿قال له صاحبه وهو يحاوره: أكفرتَ بالذي خلقكَ من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً؟﴾** . .

وهي ترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزّة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله. وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة. ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه.

وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربّه، يرى النعمة دليلاً على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره.

وتبدأ القصة بمشهد الجنتين في ازدهار وفخامة: **﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب، وحففناهما بنخل، وجعلنا بينهما**

زرعاً. كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً، وفجّرنا خلالهما نَهَراً. وكان له ثمر﴾..

إنها قصة رجل غمرته النعمة، وتوفرت له أسباب الهناء والرخاء، له جنتان من أعناب ـ الثمر الكريم الحبيب ـ، فهما جنتان مثمرتان من الكروم، محفوفتان بسياج من النخيل ـ الثمر الكريم الحبيب ـ تتوسطهما الزروع، ويتفجر بينهما نهر.. إنه المنظر البهيج والحيوية الدافقة والمتاع والمال: ﴿**كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً**﴾..

ويختار التعبير كلمة ﴿**تظلم**﴾ في معنى تنقص وتمنع، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر، وازدهى وتكبر.

وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلىء نفسه بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحسّ بالزهو، وينتفش كالديك، ويختال كالطاووس ويتعالى على صاحبه الفقير: ﴿**فقال لصاحبه ـ وهو يحاوره ـ أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً**﴾..

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين، وملء نفسه البطر، وملء جنبه الغرور؛ وقد نسي الله، ونسي أن يشكره على ما أعطاه؛ فأنساه الله نفسه.. وهي حالة عجيبة. ولكنها حقيقة.. فالذي ينسى الله يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشدّه إلى أفق أعلى، وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التي ترعى. وفي هذا نسيان لإنسانيته. وهذه الحقيقة تضاف إليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى، وهي نسيان هذا المخلوق لنفسه فلا يدخر لها زاداً للحياة الطويلة الباقية، ولا ينظر فيما قدّم لها في الغداة من رصيد.. أولئك هم الفاسقون.. المنحرفون الخارجون عن الفطرة وعن الحق المبين..

لقد ظنّ هذا الرجل أن هذه الجنان المثمرة لن تبيدَ أبداً، أنكر قيام الساعة أصلاً. وهَبْها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا فلا بد أن يكون جنابه ملحوظاً في الآخرة!

﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه. قال: ما أظن أن تبيد هذه أبداً، وما

أظن الساعة قائمة. ولئن رددت إلى ربي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً!﴾..

إنه الغرور الذي يُخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء، أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ!

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي عن الطبيعة المادية وقصر نظرها: «هناك تثور الطبيعة المادية في هذا الرجل السري الثري ـ نفس الطبيعة التي تثور في أصحاب الحكومات والولايات، وأصحاب رؤوس الأموال والعقارات، وأصحاب الزعامة والوزارات، وأصحاب الصناعات والاختراعات، وأصحاب البوارج والمدمرات ـ تثور هذه الطبيعة التي لا يقهرها الإيمان، ولا تضبطها المعرفة الصحيحة والتربية الصالحة، فينسب سعادته وجدّه إلى علمه ولباقته وجهوده وذكائه كما فعل قارون من قبل فقال: ﴿**إنما أوتيته على علم عندي**﴾..

ويفاخر صديقاً له لا يعادله في هذه السعادة فيقول في صراحة بل وقاحة: ﴿**أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً**﴾.

ويدخل في مركز رخائه وثرائه ومركز نفوذه وسلطانه جاهلاً لنفسه، جاهلاً بربه، جاهلاً بالأسباب الخفية والإرادة الإلٓهية التي تحكم من فوق سبع سماوات، وتحول بين الإنسان وملكه وبين الإنسان وقلبه، ظالماً لنفسه ظلماً علمياً وعملياً، وخلقياً وعقلياً، فتنطق هذه الطبيعة المادية العمياء على لسان صاحبها الجاهل فيعلن خلوده وخلود جنتيه، ويجحد بالبعث، ويعلن سعادته الدائمة ـ في الدنيا والآخرة، إن كانت آخرة ـ في صلَف وخُرْق.. ويعتقد أنه من الرجال المجدودين السعداء الذين لا يخونهم الحظ ولا يعثر بهم الجَدّ، ويكونون في كل مكان وزمان في أوج السعادة والسيادة ﴿**ولئن رُدِدْتُ إلى ربي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً**﴾. ويعتقد أمثال هذا أن لا حاجة إلى الإيمان والعمل

الصالح والكدح، إنما هي سعادتهم الفطرية التي تهيىء لهم أسباب الهناء والرخاء في كل وقت»[1].

فأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر، ولا جنة عنده ولا ثمر.. فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى. معتز بعقيدته وإيمانه. معتز بالله الذي تعنو له الجباه؛ فهو يجبه صاحبه المتبطر المغرور مُنكراً عليه بطره وكبره، يذكره بمنشئه المهين من ماء وطين، ويوجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم. وينذره عاقبة البطر والكبر. ويرجو عند ربه ما هو خير من الجنة والثمار:

﴿قال له صاحبه ـ وهو يحاوره ـ أكفرتَ بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوَّاك رجلاً؟ لكنا هو الله ربي، ولا أشرك بربي أحداً. ولولا إذ دخلتَ جنتك قلت: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. إن ترنِ أنا أقلَّ منك مالاً وولداً. فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك، ويرسل عليها حسباناً[2] من السماء فتصبح صعيداً زلقاً[3]، أو يصبح ماؤها غوراً[4] فلن تستطيع له طلباً﴾..

وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة، فلا تبالي المال والنفر، ولا تداري الغنى والبطر، ولا تتلعثم في الحق، ولا تجامل فيه الأصحاب.

وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم، وهو يطمع في فضل الله. وأن نقمة الله جبَّارة وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين.

«لقد كان هذا المؤمن قد فتح الله بصيرته للحق والإيمان وسعد بمعرفة الله وصفاته وأفعاله وأنه هو المصرّف لهذا الكون، والخالق للأسباب والمغيِّر

---

(١) تأملات في سورة الكهف، المسلمون، المجلد السادس، ص: ١٢٠ ـ ١٢١.
(٢) سيل مدمر يقتل أشجارها ويهلكها.
(٣) سطحاً أجرد تزل فيه القدم.
(٤) غائراً وهو ضد النابع.

للشؤون، فعارضه في مقالته وتفكيره المادي، ونبَّهه إلى أصله وحقيقته وبدايته، وهي الحقيقة القاسية التي يتناساها المجدودون المُخدعون ويفرون من تذكرها ﴿**قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرتَ بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً**﴾ وما أشق سماعه على المتكبرين الجبارين! وذكر له أنه سائر في اتجاه معارض، وهو الاتجاه الإيماني ﴿**لكن هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً**﴾.

ثم ذكَّره بالحقيقة الأساسية التي يدور حولها نظام الحياة، وهو أنه ليس الشأن في الأسباب، إنما الشأن في خالق الأسباب ومالكها، وكل ما يراه السري الثري من أسباب السعادة والهناء ويغتبط بها ليس من صنع الأسباب وليس من كسب يده أو ذكائه، إنما هو صنع الله الذي أتقن كل شيء، ويلفته ـ في حكمة ورفق ـ إلى الاعتراف بصنع الله وقدرته وإسداء كلمة الشكر والحمد ﴿**ولولا إذ دخلتَ جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله**﴾.

ما شاء الله لا قوة إلا بالله:

و ﴿**ما شاء الله لا قوة إلا بالله**﴾ هي روح الكون والحياة، ومفتاح القصة، يقول الأستاذ الندوي: «وقد أوصى الله تعالى نبيه ـ وكل قارىء للقرآن قبل آيات من تقديم القصة بتفويض الأمر والقوة إلى الله تعالى في المستقبل وفي ما ينويه ويريده في المستقبل، وأن يشترط كل إرادة وعزم بمشيئة الله تعالى فقال: ﴿**ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله. واذكر ربك إذا نسيتَ وقل عسى أن يهدينِ ربي لأقربَ من هذا رشداً**﴾.

وكيف يخضع للأسباب وعبادتها والمادة وأصحابها ويؤمن بالنفس وإرادتها مَن ينسب الفضل في كل ما حصل والفضل في كل ما ينوي إلى الله وحده ويقول: ﴿**ما شاء الله لا قوة إلا بالله**﴾ ويستثني في كل ما يقصده ويعد به فيقول: إن شاء الله. وهاتان ـ ما شاء الله، وإن شاء الله ـ كلمتان خفيفتان على اللسان يكثر النطق بهما من غير شعور وتعقل، ولكنهما كلمتان ثقيلتان عميقتان مليئتان بالمعاني حاسمتان للمادية الرعناء والاعتماد على النفس والإرادة.

وقد امتازت الحضارة المادية بشدة الاعتماد على وسائلها وقواها وطاقاتها فتعلن حكوماتها بتحقق مشاريعها[1] العمرانية والاقتصادية حتى ما يتوقف منها على موافقة الطبيعة واعتدال المواسم والفصول ـ في المدة المحددة من غير استثناء وشك، وتعلن أنها ستنجح كذا وكذا في كذا وكذا من الأعوام، وتصبح بلادها كافلة لنفسها مستغنية عن الخارج، وتسخر منها الإرادة الإلهية فتصاب بنقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبالمجاعات بعد المجاعات والمفاجآت التي لم تكن في الحساب، وتتخلف عنها الأمطار في حين أو مكان، وتصاب بالفيضان والسيل العرم في حين أو مكان آخر، فيخطىء التقدير وتخفق المشاريع.

ليست كلمة «إن شاء الله» والوصية بالتكلم بها محدودة في الأعمال الفردية التافهة أو الحوادث اليومية «البسيطة» من مقابلات وزيارات ومواعيد شخصية وأسفار، بل هي الشاملة للأعمال الاجتماعية الكبيرة والعزائم والمشاريع العظيمة التي تؤثر في حياة الأمة ومصيرها، فيجب أن يكون كل ذلك ـ مع السعي والجد والجهاد والأخذ بالتدابير اللازمة الذي حثّ عليه القرآن والسنّة، وجرى عليه النبي وأصحابه في حياتهم ـ خاضعاً للإيمان بأن الإرادة الإلهية هي القاضية الحاكمة، وهي الفاصلة الحاسمة، وليس الفرد هو المخاطب الوحيد بقوله **﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾** بل المجتمعات والحكومات والمنظمات كلها المعنية المكلفة بها، وهي روح المجتمع الإسلامي الذي يتغلغل فيه الإيمان، وروح الحضارة التي تقوم على أساس الإيمان بالغيب، وهي الفارقة بين الحضارة المادية والحضارة الإيمانية.

ويُنبِّهه صديقه المؤمن إلى أن هذا الاختلاف في الحظوظ والجدود وأن هذا التوزيع ليس أبدياً لا يزول ولا يحول، وأن زمام الأسباب والتصرف في

---

(١) لا يعني ذلك طبعاً ألا توضع المشروعات وتتسع الدراسات القائمة على وسائل العلم في الإنتاج، وإنما المهم ألا يطغينا مظاهر القوة والعلم فنغفل عن جلال الله الذي خلق الأسباب ومسبباتها.

العالم لم يفلت من يد خالق الكون، فلا يزال يملكه، فالشقي قد يسعد، والسعيد قد يشقى، والغني ربما يفقر، والفقير ربما يغنى، فلا غرابة إذا انقلبت الأوضاع **﴿إن ترنِ أنا أقل منك مالاً وولداً فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً، أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً﴾**.

وهكذا كان! فطاف على الجنتين طائف من الله، وأصبح كل ذلك صعيداً جُرزاً»[1].

وينقلنا سياق القصة من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار. ومن هيئة البطر، والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار. فلقد كان ما توقعه الرجل المؤمن.. هناك أفاق الرجل السكران **﴿وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفّيه على ما أنفق فيها، وهي خاوية على عروشها، ويقول: يا ليتني لم أُشرك بربي أحداً﴾**..

وهو مشهد شاخص كامل: الثمر كله مُدمَّر كأنما أُخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء. والجنة خاوية على عروشها مهشّمة محطمة. وصاحبها يقلِّب كفَّيه أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب. وهو نادم على إشراكه بالله، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته. ومع أنه لم يصرِّح بكلمة الشرك، إلى أن اعتزازه بقيمة أخرى غير قيمة الإيمان كان شرطاً يُنكره الآن، ويندم عليه ويستعيذ منه بعد فوات الأوان. يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي:

«إن صاحب الجنتين لم يكن مشركاً بالله كعامة المشركين، فليس في القرآن ما ينص على ذلك أو يشير إليه، بل بالعكس يُشعِر أسلوب القرآن بأنه كان يعرف الله ويؤمن به فقد قال: **﴿ولئن رُدِدتُ إلى ربي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً﴾**.

---

(١) تأملات في سورة الكهف، المجلد السادس من مجلة المسلمون، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

فما كان شركه الذي تأسَّف عليه وقرع عليه من الندم: ﴿يا ليتني لم أُشرك بربي أحداً﴾؟

الظاهر الذي لا خفاء فيه أنه كان أشرك بالله الأسبابَ، فاعتقدَها المصرفة المؤثرة التي يرجع إليها الفضل في رخائه وثرائه وازدهار ماله واعتمد عليها ونسي الله وكفر بتأثيره وتصرفه.

وهذا هو الشرك الذي اتجهت إليه الحضارة العصرية المادية، فقد اتخذت الأسباب الطبيعية والمادية والفنية وأصحاب الاختصاص فيها الذين نسميهم «الأخصائيين Specialists» أرباباً وأولياء من دون الله، ووضع الرجل العصري حياته تحت تصرفهم، واعتقد أن بيدهم الحياة والموت، والسعادة والشقاء. لقد فقدت الوثنية وفقدت الأصنام القديمة كثيراً من سلطانها ونفوذها بتأثير الإسلام أولاً وبتأثير الحضارة المادية والفلسفات المادية ثانياً، وأصبحت عبادة الأسباب والماديات والقوى الكونية وعبادة الطبيعة والاعتماد الكلي على أصحاب الاختصاص واتخاذهم أرباباً من دون الله وثنية هذا العصر والشرك السائد الذي ينافس الإيمان والعبودية، وهي الوثنية التي تتحداها هذه القصة وتحاربها وتنعى عليها»(١).

إن هذه القصة ترسم الجانب الأصيل للتوحيد والإشراك.. ترسم نموذجين واضحين.. نموذج الرجل الذي تعميه الثروة وتبطره النعمة.. ونموذج المؤمن الذي يرى أثر المُنعم الخالق في نعمه، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

كما أن هذه القصة بناء أخلاقي عقيدي دقيق نظيف لضمير المسلم وشخصيته التي تليق بمَن يقوم أميناً على منهج الله في الأرض، وهي حلقة من حلقات التربية والتوجيه، وهي تفتح القلوب والعيون على الحقيقة. فالله سبحانه يتفرد بالولاية والقدرة: فلا قوة إلا قوته، ولا نصر إلا نصره. وثوابه

---

(١) المصدر السابق: ١٢٤ ـ ١٢٥.

هو خير الثواب، وما يبقى عنده للمرء من خير فهو ما يتبقى: **﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله، وما كان منتصراً. هنالك الولاية لله الحق، هو خير ثواباً وخير عقباً﴾**..

في ميزان الله:

ويسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها، وموقف صاحبها يُقلِّب كفيه أسفاً وندماً، وجلال الله يظلل الموقف، حيث تتوارى قدرة الإنسان..

هذه القصة درس كبير.. كله تقرير للقيم في ميزان العقيدة. إن القيم الحقيقية ليست هي المال، وليست هي الجاه، وليست هي السلطان. كذلك ليست هي اللذائذ والمتاع في هذه الحياة.. إن هذه كلها قيم زائفة وقيم زائلة. والإسلام لا يحرم الطيب منها؛ ولكنه لا يجعل منها غاية لحياة الإنسان. فمَن شاء أن يتمتع بها فليتمتع، ولكن ليذكر الله الذي أنعم بها. وليشكره على النعمة بالعمل الصالح، فالباقيات الصالحات خير وأبقى.

وهكذا نجد محور القصة هو تصحيح العقيدة. وتصحيح منهج الفكر والنظر. وتصحيح القيم بميزان العقيدة.

لقد جاء الإسلام ليسوي بين الرؤوس أمام الله. فلا تفاضل بينها بمال ولا نسب ولا جاه. فهذه قيم زائفة، وقيم زائلة. إنما التفاضل بمكانها عند الله. ومكانها عند الله يوزن بقدر اتجاهها إليه وتجردها له. وما عدا هذا فهو الهوى والسفه والبطلان، فبعد أن ضرب الله للفريقين مثلاً رجلين: أحدهما يعتز بما أوتي من مال وعزة ومتاع. والآخر يعتز بالإيمان الخالص، ويرجو عند ربه ما هو خير..

نرى السياق القرآني يُعقب بمَثَل يضرب للحياة الدنيا كلها، فإذا هي قصيرة زائلة كالهشيم تذروه الرياح..

لقد عقب القرآن الكريم على القصة فضرب مثلاً للحياة الدنيا وسرعة زوالها بعد ازدهارها:

﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض، فأصبح هشيماً تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ . .

وأمام مشهد الرجلين والجنتين يضرب الله مثلاً للحياة الدنيا كلها. فإذا هي كتلك الجنة المضروبة مثلاً قصيرة قصيرة، لا بقاء لها ولا قرار.

إن مشهد الحياة الدنيا يعرض قصيراً خاطفاً ليلقي في النفس ظل الفناء والزوال. فالماء ينزل من السماء فلا يجري ولا يسيل ولكن يختلط بـه نبات الأرض. والنبات لا ينمو ولا ينضج، ولكنه يصبح هشيماً تذروه الرياح. ثلاث جمل قصار، ينتهي شريط الحياة.

ولقد استخدم النسق اللفظي في تقصير عرض المشاهد. بالتعقيب الذي تدل عليه الفاء:

﴿ماء أنزلناه من السماء﴾ فـ ﴿اختلط بـه نبات الأرض﴾ فـ ﴿أصبح هشيماً تذروه الرياح﴾ فما أقصرها حياة! وما أهونها حياة!

وبعد أن يلقي مشهد الحياة الذاهبة ظله في النفس يقرر السياق بميزان العقيدة قيم الحياة التي يتعبدها الناس في الأرض، والقيم السامية التي تستحق الاهتمام، يعقب عليه ببيان للقيم الزائلة والقيم الباقية:

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً، وخير أملاً﴾ . .

المال والبنون زينة الحياة، والإسلام لا ينهى عن المتاع بالزينة في حدود الطيبات. ولكنه يعطيهما القيمة التي تستحقها الزينة في ميزان الخلود ولا يزيد.

إنهما زينة ولكنهما ليسا قيمة. فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يُقدروا على أساسهما في الحياة. إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات.

وإذا كان أمل الناس عادة يتعلق بالأموال والبنين فإن الباقيات الصالحات خير ثواباً وخير أملاً. عندما تتعلق بها القلوب، ويناط بها الرجاء، ويرتقب المؤمنون نتاجها وثمارها يوم الجزاء.

وهكذا يتناسق إيحاء قصة الجنتين. مع ظل المثل المضروب للحياة الدنيا. مع هذا التقرير الأخير للقيم في الحياة وما بعد الحياة..

وتشترك كلها في تصحيح القيم بميزان العقيدة، وتنتهي من ذلك كله بتقرير الحقيقة الباقية الخالدة.

والحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي وتوزن بموازينها تبدو في العين وفي الحسّ أمراً عظيماً هائلاً. ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئاً زهيداً تافهاً. لعب. ولهو. وزينة. وتفاخر. وتكاثر.. هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جدّ حافل واهتمام شاغل..

فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن، شأن يستحق أن يحسب حسابه، ويُنظر إليه، ويستعد له.. فهي لا تنتهي إلى حطام وفناء.. إنها حساب وجزاء.. ودوام.. يستحق الاهتمام! فلتتعلق القلوب بالقيم الحقة، بالباقيات الصالحات فهي ﴿**خير عند ربك ثواباً، وخير أملاً**﴾.

إن متاع الحياة الدنيا متاع الغرور، يستمد قوامه من الغرور الخادع، كما أنه يلهي وينسي فينتهي بأهله إلى غرور خادع. وهي حقيقة حين يتعمق القلب في طلب الحقيقة. حقيقة لا يقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض، ولا إهمال عمارتها وخلافتها التي ناطها بهذا الكائن البشري[1]. إنما يقصد بها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية، والاستعلاء على غرور المتاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض. هذا الاستعلاء الذي كان المخاطبون بهذا القرآن في حاجة إليه ليحققوا إيمانهم. والذي يحتاج إليه كل مؤمن بعقيدة،

(١) يراجع تفسير قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ في سورة الذاريات، في ظلال القرآن ٦/٣٣٨٦ ـ ٣٣٨٩.

ليحقق عقيدته، ولو اقتضى تحقيقها أن يضحي بهذه الحياة الدنيا جميعاً.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي[1] في التعليق على قصة صاحب الجنتين والتعقيب القرآني عليها: «يمثل القرآن هذه الحياة الدنيا بالزرع الذي لا يلبث أن يكون هشيماً **﴿واضرب لهم مثلَ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلطَ به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾**.

وهذا هو تصوير القرآن لهذه الحياة القصيرة الفانية في مواضع كثيرة، ففي سورة يونس: **﴿إنما مثلُ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرُفها وازَّيَّنت وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغنَ بالأمسِ كذلك نُفصِّل الآيات لقوم يتفكرون﴾**.

وهكذا يصوِّر القرآن الحياة التي يؤمن بخلودها الماديون، ويعكف على عبادتها «النفعيون» و«الأبيقوريون» ويزيِّف مكاييلها وموازينها التي يعتمد عليها قصارِ النظر وعُبَّاد الأسباب والمظاهر ويمجِّدونها ويعقدون بها الآمال الكثيرة، ويفضِّل عليها المكاييل الإيمانية **﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربِّك ثواباً وخيرٌ أملاً﴾**.

وهنا نقف وقفة قصيرة ونتساءل: ما هي نظرة القرآن إلى الحياة الدنيا؟ ويحسن بنا أن نستعرض القرآن في هذا الموضوع، ونستوحيه فقد اضطربت عقول المسلمين ونظراتهم، وأقوال الباحثين واتجاهاتهم في هذه الحياة وقيمتها ومنزلتها.

إن القرآن يقرر ـ بكل وضوح وقوة وصراحة ـ قِصَر هذه الحياة الدنيا وتفاهتها وتضاؤلها في جنب الآخرة، فيقول مثلاً **﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾** [براءة: ٣٨] ويقول: **﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحَيَوان لو كانوا يعلمون﴾** [العنكبوت: ٦٤] ويقول:

---

(١) تأملات في سورة الكهف، مجلة المسلمون، المجلد السادس، ص: ٢٢٠ ـ ٢٢٣.

﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غَيْثٍ أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ [الحديد: ٢٠].

ويقرر كذلك في وضوح وقوة أنها قنطرة إلى الآخرة وفرصة للعمل: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ [الكهف: ٧] ويقول. ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾ [الملك: ٢].

ويقرر أن الآخرة هي خير وأبقى فيقول: ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو، ولَلدار الآخرة خيرٌ للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ [الأنعام: ٣٢] ويقول: ﴿وما أُوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتُها وما عند الله خيرٌ وأبقى أفلا تعقلون﴾ [القصص: ٦١].

إذن هو يذم ويشنع مَن يؤثر الدنيا ـ هذه الفانية العارضة السقيمة الناقصة ـ على الآخرة ـ الباقية الخالدة الواسعة الصافية من الأكدار الخالية من الأخطار ـ فيقول: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءَنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ [يونس: ٧ ـ ٨] ويقول: ﴿مَن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحَبطَ ما صنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون﴾ [هود: ١٦] ويقول: ﴿وويل للكافرين من عذاب شديد، الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد﴾ [إبراهيم: ٣] ويقول: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [الروم: ٧] ويقول: ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّن تولَّى عن ذكرنا ولم يُرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمَن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بمَن اهتدى﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠] ويقول: ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذَرون

وراءهم يوماً ثقيلاً﴾ [الإنسان: ٢٧] ويقول: ﴿فأما مَن طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩].

ويمدح مَن يجمع بين الدنيا والآخرة مع إيثار جانب الآخرة على جانب الدنيا ومعرفة قيمتها وفضلها والحرص عليها فيقول: ﴿فمن الناس مَن يقول: ربنا آتنا في الدنيا حَسَنةً وما له في الآخرة من خلاق، ومنهم مَن يقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ [البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠١] ويقول على لسان نبي الله موسى: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هُدنا إليك﴾ [الأعراف: ١٥٦] ويمدح خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيقول: ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ [النحل: ١٢٢].

وهنا تتعارض الأديان السماوية وتعاليم النبوّة أو مدرسة النبوّة ـ إن صحّ هذا التعبير ـ مع الفلسفات المادية والتفكير المادي الذي يلحّ على أن هذه الحياة هي كل شيء وهي المنتهى، ويبالغ في تمجيدها وتقديسها، والاحتفاء بها والحرص على ترفيهها وتحسينها وتزيينها».

مرآة الحق:

«وقد تجلَّت هذه النفسية القرآنية أو النظرة القرآنية إلى الحياة في كلام النبي ـ ﷺ ـ وكثيراً ما كان يقول: «اللهم لا عيشَ إلا عيشَ الآخرة»(١) وكان دعاؤه ـ ﷺ ـ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً ـ وفي رواية: كفافاً»(٢).

وعن المستورد بن شداد قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بِمَ يرجع»(٣)،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق.
(٢) رواه مسلم في كتاب الزهد.
(٣) رواه مسلم.

وقد كانت حياته الطيبة مرآة صادقة لهذه العقيدة والنفسية، فعن ابن مسعود أن رسول الله ـ ﷺ ـ نام على حصير وقد أثّر في جسده، فقال ابن مسعود: يا رسول الله لو أمرتنا أن نبسط لك ونعمل فقال: «ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها»(١).

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الإيلاء: «فدخلت على رسول الله ـ ﷺ ـ فإذا هو مضطجع على رمال(٢) حصير ليس بينه وبينه فراش قد أثر الرمال بجنبه متكئاً على وسادة من أدم حشوها ليف فسلمتُ عليه.. [إلى أن قال] فرفعتُ بصري في بيته فوالله ما رأيتُ فيه شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاثة(٣) فقلتُ يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك فإن فارساً والروم قد وُسّعَ لهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، فجلس النبي ـ ﷺ ـ وكان متكئاً فقال: «أوفي هذا يا ابن الخطاب، إن أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا»(٤).

وقد انصبغ كل مَن تلقى التربية في هذه المدرسة أو تخرّج فيها أو كان تلميذاً من تلاميذها بهذه الصبغة وسيطرت عليه فكرة الآخرة وجرت منه مجرى الروح والدم، وتغلغلت في أحشائه فأصبح لا يذهل عن الآخرة ولا يبغي بها بدلاً ولا يُؤْثِر عليها شيئاً، ويكفيك إذا أردت أن تتمثل هذه الروح المسيطرة على تلاميذ هذه المدرسة أن تقرأ وصف علي بن أبي طالب، وهي صورة ناطقة للطراز الإنساني الذي تخرّج في هذه المدرسة ونشأ في أحضان الرسول ـ ﷺ ـ.

عن أبي صالح قال: قال معاوية بن أبي سفيان لضرار بن ضمرة: صف لي علياً. فقال: أوَ تعفيني. قال: بل صفه، قال: أوَ تعفيني. قال: لا أعفيك، قال: أما إذاً فإنه والله كان بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً،

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة.

(٢) المراد به النسج.

(٣) جمع إهاب وهو الجلد.

(٤) البخاري ج ٢، كتاب النكاح.

ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وينطق بالحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غَزير الدمعة طويل الفكرة، يقلّب كفه ويخاطب نفسه، ويعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة ولا نبتديه لعظمه، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد الله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، وكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا أبي تعرضت أم لي تشوقت؟ هيهات! غرِّي غيري. قد بتتُّكِ ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، آه من قلة الزاد وبُعْد السفر ووحشة الطريق(١).

وإليك مثال ثان، وهو خطبة رجل من أصحاب النبي - ﷺ - يلقيها أميراً على عاصمة كبيرة من عواصم الدولة الإسلامية الكبرى: «عن خالد بن عمير العدوي قال: خطبنا عتبة بن غزوان - وكان أميراً على البصرة - فحَمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال: أمَّا بعد. فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولَّت حذّاء(٢) ولم يبقَ منها إلا صبابة (٣) كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم فإنه قد ذُكر لنا أن الحجر يُلقى من شفة جهنم فيهوي سبعين عاماً لا يدرك لها مقراً، والله لتملأنَّ، أفعجبتم؟ وقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتينّ عليها يوم كظيظ من الزحام، ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله - ﷺ - ما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى قرحت أشداقنا فالتقطت بُردة فشققتها بيني

---

(١) صفوة الصفوة لابن الجوزي.
(٢) أي مسرعة الانقطاع.
(٣) البقية اليسيرة من الشراب تبقى في أسفل الإناء.

وبين سعيد بن مالك فاتَّزرت بنصفها واتَّزر سعيد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً، وأنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت حتى تكون آخر عاقبتها ملكاً فستُخبرون الأمراء بعدنا».

ولا تستطيع العقليات والدعوات التي لم تتشبع بروح الإيمان ولم تتلقَ التوجيه والتربية من مدرسة الرسول - ﷺ - مباشرة أن تهضم هذه الفكرة أو العقيدة أو الاتجاه ولا تسيغه، ولا تزال في صراع منها أو في حرج من ذلك، وتحاول الفرار منه أو تعليله بأنه كان في عصر خاص وفي بيئة خاصة وبظروف وأسباب خاصة، ولكن الذي لا غموض فيه أن القرآن وسيرة الرسول والحديث النبوي ممتلىء بهذه الروح، وأن هذا هو المزاج الإسلامي أو النفسية الإسلامية التي تتكون تحت تأثير التربية الإسلامية النبوية، وكلما استطاع القرآن وكلما استطاعت السيرة النبوية أن تعمل عملها بحرية وتنشىء جيلاً خاصاً يُخلق في الإسلام خلقاً جديداً ولم تساوره العوامل الأجنبية، كان ذلك مزاجه أو طبيعته أو نفسيته: زهدٌ في الدنيا وزخارفها وفضولها، وقناعة بالقدر الكافي، واهتمام بالآخرة وما ينفع فيها، وحنين إلى لقاء الرب، وإيثار ما عند الله على ما في هذه الحياة، واستقبال للموت على الإيمان في سبيل الله. وقد تفيض على شفة هذا الطراز المؤمن كلمة السابقين من أصحاب الرسول - ﷺ -: «غداً ألاقي الأحبة محمداً وحزبه»[1].

وقد تعني بعض الدعوات الإسلامية بعقيدة الإيمان بالآخرة وتشرحها شرحاً جميلاً وتذكر - في توسع وبلاغة - حكمتها وتأثيرها في الحياة وأهميتها في النظام الخلقي، ولكن القارىء الذكي يلاحظ أنه إيمان بالآخرة كضرورة خلقية وكحاجة إصلاحية لا يقوم بغيرها مجتمع فاضل ومدنية صالحة، فضلاً عن المجتمع الإسلامي، وهذا وإن كان يستحق التقدير والإعجاب ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً، والفرق بينهما أن

(١) من قول سيدنا بلال الحبشي رضي الله عنه - الغزالي في إحياء علوم الدين عن أبي الدنيا.

الأول ـ منهج الأنبياء ـ إيمان ووجدان وشعور وعاطفة وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره وتفكيره وتصرفاته، والثاني اعتراف وتقرير وقانون مرسوم، وأن الأولين يتكلمون عن «الآخرة» باندفاع والتذاذ ويدعون إليها بحماسة وقوة. والآخرون يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية أو الحاجة الاجتماعية وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقي، وشتّان ما بين الوجدان والعاطفة، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية.

ولكن هذا الإيمان العميق القوي بالآخرة وإيثارها على الدنيا والزهد في زخارف الحياة وفضول المعيشة لم يحمل أصحابه على الاعتزال عن قيادة العالم وتوجيه الإنسانية، والعيش في عزلة عن الحياة، ولم يحملهم على رفض أسباب المعيشة والقعود عن الكفاح للحق والخير، ولم يكن عاملاً من عوامل الضعف والاستسلام ـ كما شوهد ذلك في بعض القرون المتأخرة ـ بل كان عاملاً من عوامل القوة والإقدام والتمرد على قوى الشرّ، ومن أعظم أسباب الشجاعة والقوة والانتصار، وقد كان أشجع الناس وأنشطهم في الكفاح الحق وأعظمهم نصيباً في الجهاد والفتح الإسلامي، أزهدهم في هذه الحياة الدنيا وأحرصهم على الآخرة، وأقواهم إيماناً بها وأعظمهم شوقاً إلى لقاء الربّ والشهادة في سبيل الله، وهذه طبيعة هذه العقيدة، فإنها تبعث في صاحبها الشجاعة، والنجدة والإقدام والاستهانة بالحياة والتغلب على الشهوات، ولا شك أنها أعظم قوة معنوية عرفها الإنسان في جميع العصور، ولا شك أن الإسلام يدين لهذه العقيدة في انتشاره وانتصاره وفتوحه.

إذن ليست هذه العقيدة «الإيمان بالآخرة» وهذه النظرة القرآنية إلى هذه الحياة الدنيا في شيء من «الرهبانية» الممقوتة التي ينكر عليها القرآن ويكفر بها الإسلام والتي ظهرت في العالم الإسلامي بعد ضعف التعاليم الإسلامية وبُعد القرون المشهود لها بالخير وبتأثير النزعات العجمية والفلسفات «الأجنبية» المسيحية والبرهمية. إنها عقيدة تقوم على إيثار الآخرة على الدنيا من غير تخريب لها وإنكار لقيمتها الصحيحة، وعلى الكفاح في سبيل الآخرة وفي سبيل الحق والخير والتغلب على الشهوات الفانية في سبيل البقاء والخلود وابتغاء رضوان

الله، ولا شك أن المسلمين لم يضعفوا إلا بضعف هذه العقيدة، وأن الجيل الحاضر منهم ـ الذي أصبح فريسة أهوائه وشهواته ـ في حاجة ملحة إلى تجديد هذه العقيدة وإثارتها في كثير من الناس وإعادتها من جديد في كثير منهم. وأن المسلمين لا يستقيم ميزانهم ولا يكمل إيمانهم حتى ينظروا إلى هذه الحياة بمنظار القرآن وهو الذي يأباه التفكير المادي وتعارضه الفلسفات المادية التي تعبد الحياة عبادة وتهيم بشهواتها ولذّاتها وتقتصر على ترفيهها وتوسيعها وتكفر بما وراءها.

وقد تكفلت هذه القصة ـ قصة أصحاب الجنتين ـ الرد على هذا التفكير وعلى هذه العقيدة وزعمائها وألَحَّت على تصوير هذه الحياة الدنيا التصوير الصحيح المطابق وإن لم يُرضِ كثيراً من الناس..»[1].

(١) أبو الحسن الندوي، تأملات في سورة الكهف، مجلة المسلمون، المجلد السادس ص: ٢٢٣ ـ ٢٢٨.

قصة الابتلاء والجزاء

المحتوى	ص

قصة الابتلاء والجزاء

ثم نمضي مع رسول الله - ﷺ - في بيان حكيم، وهتاف رضي ندي إلى الطاعة، والالتجاء إلى الله، وابتغاء رضاه..

نمضي مع قصة الشكر وتذكر النعمة، والإحساس بفضل المنعم، واتقاء عذابه، واليقظة لابتلائه، وإدراك حكمته في الابتلاء والإملاء..

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع النبي - ﷺ - يقول: «إن ثلاثة في بني إسرائيلَ: أبرصَ وأقرعِ وأعمى، فأراد الله أن يَبْتَليهم فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرصَ، فقال: أيُّ شيء أحبُّ إليك؟ قال: لونٌ حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قذرني الناس[1]. قال: فمسحه، فذهبَ عنه الذي قذره، وأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً.

قال: فأي المال أحبُّ إليك؟ قال: الإبل. قال: وأعطي ناقةً عُشَرَاء[2]، فقال: باركَ الله لك فيها.

قال: وأتى الأقرع فقال: أيُّ شيء أحبُّ إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا الذي قد قَذِرَني الناس، قال: فمسَحُه فذهبَ عنه، وأُعطيَ

---

(١) من صحيح مسلم.

(٢) بضم العين المهملة وفتح الشين المعجمة مع المد: هي الحامل التي أتى على حملها عشرة أشهر من يوم طرقها الفحل.

شعراً حسناً. قال: فأيُّ المالِ أحبُّ إليك؟ قال: البقر، قال: فأعطيَ بقرةً حاملاً، قال: باركَ الله لك فيها..

قال: وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: أن يَرُدَّ الله إليَّ بصري، فأُبْصِرَ به الناس، فمسحه فردَّ الله إليه بصره. قال: فأيَّ المال أحبُّ إليك؟ قال: الغنم، قال: فأعطيَ شاةً والداً، وأنتجَ[1] هذان، وَوَلَّد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا واد من الغنم.

قال: ثم أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين وابنُ سبيل انقطعت بي الحِبالُ[2] في سفري، فلا بلاغَ بي اليوم إلا بالله ثم بكَ، أسألك بالذي أعطاك اللونَ الحسن، والجلدَ الحسن والمالَ، بعيراً أتبلَّغُ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال: كأني أعرفُك، ألم تكن أبْرصَ يَقْذَرُكَ الناسُ، فقيراً فأعطاك الله المال؟ فقال: إنما ورثتُ هذا المالَ كابراً عن كابر[3]، فقالَ: إن كنتَ كاذباً، فصيَّرك الله إلى ما كنتَ.

قال: ثم أتى الأقرعَ في صورته، فقال له مِثْلُ ما قال لهذا، فردَّ عليه مثل ما ردَّ هذا، فقال: إن كنتَ كاذباً، فصيَّرك الله إلى ما كنتَ فيه.

وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبالُ في سفري! فقال: قد كنتُ أعمى فردّ الله عليَّ بصري، فخُذ ما شئتَ، فوالله لا أَجْهَدُكَ اليوم شيئاً أخذته لله، فقال: أَمْسِكْ مالَكَ،

---

(١) قال النووي في «شرح مسلم» ٨/٩٨: هكذا الرواية «فأنتج» رباعي وهي لغة قليلة الاستعمال، والمشهور «نتج» ثلاثي، وممن حكى اللغتين الأخفش. انظر الفتح ٦/٥٠٢، والعيني في «العمدة» ١٦/٤٨ والإحسان ٢/١٤ (هامش رقم ٢).

(٢) الحبال: الأسباب.

(٣) قال العيني: المعنى: ورثت هذا المال عن آبائي وأجدادي حال كون كل واحد منهم كابراً عن كابر، أي كبير أورث عن كبير. أي ورثته من أجدادي الذين ورثوه من آبائهم كبيراً عن كبير في العز والشرف والثروة (شرح النووي: ١٨/٩٩).

فإنما ابتليتُم، فقد رُضيَ عنكَ، وسُخط على صاحبيك»[1].

إنها قصة موحية بما تثيره في القلب من تفكير عميق، ونظرة فاحصة إلى الوراء للتأمُّل في آلاء الله ونعَمه، ثم نظرة إلى الأمام مع الرجاء من الرحمن الرحيم أن يديم هذه النِعَم ويبارك فيها، فهو الواهب، وهو الآخذ، وهو على كل شيء قدير.

إنها إيحاءات كثيرة تنبض بها كلمات القصة، وصور حية متحركة للأشخاص على مسرح الحياة، ومن ثم تتجه القصة بالإنسان إلى تأمُّل يد القدرة الواحدة التي يتحرك المخلوق بإرادتها، وتُحذِّر بإيحاء رفيق وعميق إلى الغرور الذي يصيب هذا الإنسان حين ينعم عليه الله سبحانه، حتى لينسى نفسه فيطغى!

ويشعر الإنسان بجدية الأمر ودقته.. ويدرك أن النعمة التي وهبها رب العالمين إنما هي لغاية وأنه محاسب عليها. وأنه مُبتلى، فالأمر جدٌّ ليس فيه لعبٌ ولهو وإهمال.

وفي القصة مقدمة وجيزة، تمهد للقصة، بما تقدمه من وصف مميز للشخصيات: «أبرص، وأقرع، وأعمى».

وكما تقرر وصفهم، تقرر عددهم فهم «ثلاثة» وتتضمن تحديد تاريخهم وهم في بني إسرائيل، وأن هؤلاء الثلاثة خضعوا لتجربة الابتلاء والامتحان بإرادة الله تعالى.

والمقدمة في صورتها هذه نجدها تحفل بعناصر تشويقية تثير اهتمام السامع، وتشدّه للاهتمام بمتابعة القصة، والحرص على معرفة نتيجة الابتلاء، وتبدو هذه العناصر في:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٤) في أحاديث الأنبياء، و(٦٦٥٣) في الأيمان والنذور، ومسلم (٢٩٦٤) (١٠) في الزهد والرقائق، وابن حبان والنص له، والزيادات من صحيح مسلم. انظر تخريجه في الإحسان رقم (٣١٤).

١ ـ «إن ثلاثة في بني إسرائيل» فهذه الكلمات تثير الاهتمام والانتباه، لأنها بداية قصة عن بني إسرائيل، وهم قوم كثيراً ما قصَّ القرآن الكريم عنهم، ونقل عن تصرفاتهم الأحداث العجيبة التي تثير الاهتمام والتطلع..

٢ ـ الوصف المميز لشخصيات القصة بأوصاف مثيرة: «أبرص، وأقرع، وأعمى»..

٣ ـ تقرير «أن الله أراد أن يبتليهم»، وهذا التقرير الإلٰهي يثير النفوس التشوق إلى متابعة معرفة هذا الابتلاء والنتيجة التي انتهت إليها هذه التجربة والامتحان[١].

والقصة تصور الشرّ في صورة جحود للنعمة، ونكران الفضل، كما نجد ذلك واضحاً في قصة «الأبرص والأقرع» فقد غيَّر الله حالهما من المرض إلى الصحة، ومن الفقر إلى الغنى، فقد أعطاهما الله على يَد المَلَك الذي بعثه الله إليهما إبلاً وبقراً، حتى كان لهذا واد من الإبل، وللآخر واد من البقر، وبعد مدة جاء المَلَك إلى كل واحد في صورته وهيئته التي كان عليها قبل أن تتغيَّر حاله، يطلب من كل منهما معروفاً، فقد «أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين تقطَّعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم، إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيراً أتبلَّغ عليه في سفري فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك. ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله، فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنتَ كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنتَ..».

وأتى الأقرع فقال له مثل ذلك، فردَّ عليه مثل ردِّ صاحبه، هذا الردّ الطافح بمعاني الغرور، المفحم بالجحود والنكران في أقصى صوره[٢]..

وقد رسمت القصة أيضاً النموذج الإنساني الذي حقق في واقعه الجانب

(١) القصص النبوي: ص ٩٦.
(٢) المصدر السابق: ٢٦٧.

القوي الخيِّر الفاضل، حيث تسجل الأحداث موقف الخير في شخصية الأعمى في شكره لنعمة الله عليه، واستعداده للعطاء والبذل، وشعوره الدائم بفضل الله ونعمته[1].

وفي القصة نجد صورة للشخصية النامية، التي تعطينا من خلال نموها جوانب متعددة للشخصية من جراء حركة الحدث ونموه، وهي تعرض لنا أكثر من جانب للشخصيات التي تعرض لها «الأبرص والأقرع والأعمى» فهي قد كشفت في هذه الشخصيات عن جانبين مهمين من خلال نمو حركة الأحداث وتطورها، فعكست من خلال ذلك تلك الجوانب في الشخصية..

ففي الفصل الأول من القصة صوَّرت جانباً مشتركاً بين الشخصيات وهو جانب الشعور الإنساني بالنقص، والإحساس بالمرارة النفسية بسبب الواقع الذي تعانيه الشخصيات، وهو واقع المرض والفقر، فكل واحد من الثلاثة لديه شعور بالأسى لما هو فيه من مأساة.. يتمنى أن ينجو منها..

وفي الفصل الثاني تطالعنا القصة بجوانب جديدة لهذه الشخصيات بعد أن تغيرت حالها، وأصبحت تعيش واقعاً آخر، مفعماً بالصحة والثراء، حيث يتكشف لنا في شخصيتي «الأبرص والأقرع» جانب مشترك بينهما أيضاً هو جانب الجحود والنكران والمكابرة، فحين أتاهما «المَلَك» في صورتهما التي كانا عليها من المرض والفقر يطلب منهما معروفاً أعرضا عنه، وحين ذكَّرهما بحالتهما السابقة، وبإنعام الله عليهما أنكرا ذلك في صلف وغرور، وزعما في بجاحة، أنهما قد ورثا هذا المال كابراً عن كابر..

ولكن شخصية الأعمى تكشف عن جانب جديد آخر، يختلف عن صاحبيه الجاحدين، ذلك هو جانب الاعتراف بالنعمة، والشكر عليها، وهو شديد الشعور بفضل الله ورحمته، إلى حدّ أنه ما يزال يتذكر حاله السابقة من العمى والفقر، وهو لا يجد غضاضة في أن يُصرِّح بذلك لهذا الفقير الذي جاءه

---

(١) المصدر السابق.

يطلب العون، فها هو يقول له: «قد كنتُ أعمى فردّ الله بصري، وفقيراً فقد أغناني، فخذ ما شئتَ فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله»(١).

كما نجد في القصة لوناً من تصوير الشخصية، حيث تعرض لنا الشخصية الجاحدة المكابرة المتبجحة يمثلها كل من «الأبرص والأقرع» اللذين كانا يشعران بالألم والضيق لما هما عليه من حال الفقر الشديد، وفيهما العاهة المنفرة.

وبعد أن يُبدِّل الله حالهما إلى حال أحسن، وابتلوا للكشف عن مدى استجابتهم للخير والشكر بعرض حالتهم السابقة عن طريق رجل مسكين يصور حالة الفقر والمرض الذي كانا فيه، ويسألهم بعض شيء مما لديهم من مال موفور ونعمة مبسوطة، ولكنهما يشيحان عنه متعللين بكثرة الحقوق والواجبات، وحين يذكرهم بحالتهم السابقة ينكرون في بجاحة، ويدَّعون أنهما ورثا هذه الأموال كابراً عن كابر(٢)..

وفي مقابل هذه الشخصية الجاحدة نجد شخصية «الأعمى» العبد الشاكر، الشاعر بنعمة الله وفضله عليه، الرحيم بهذا المسكين السائل؛ حيث أنه يعترف فعلاً بما كان عليه من حال الفقر والعمى وأن الله أنعم عليه بما هو فيه.

والأعمى صورة للإنسان الشاكر النعمة، المقر بفضل الله وآلائه عليه، حين ردَّ عليه بصره، وأعطاه أموالاً كثيرة، فلما جاءه المَلَك ليختبره في صورة رجل مسكين فقير، أعمى، لم يجحد ولم يكابر كما فعل صاحباه وإنما قال: «... فخذ ما شئتَ، فوالله لا أجهدك اليوم شيئاً أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك»(٣).

---

(١) القصص النبوي: ٢٨٦.
(٢) القصص النبوي: ١٧٧.
(٣) المصدر السابق: ٢٦٣.

وقد كان الجانب الاجتماعي للشخصية في القصة أكثر الجوانب حظاً في ملامح الشخصيات التي تعبر عنها، نجد فيها محاولة للفت النظر إلى مركز الشخصية وموضعها من الناحية الاجتماعية، فهو يرسم ملامحها في أعماق النفس وهي في موضع وضيع، يحدد مكانتها في النفس والمجتمع.

ومع تطور الحدث نرى الجانب الاجتماعي وقد تغير فأصبح رفيعاً عظيماً، ومن ثم ترسم القصة الملامح في الموضع الجديد في أعماق النفس، وتحدد مكانتها في النفس والمجتمع.

ويأتي بعد الجانب الاجتماعي، البعد الجسمي، ورسم الشخصية في مظهرها وشكلها الخارجي، وتنص القصة على أشكال الشخصيات الخارجية بأنهم: «ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى» حتى نستطيع أن نتصور هيئات هؤلاء الثلاثة الخارجية، وما هم عليه من عاهات، لندرك بصورة أعمق موطن العبرة في هذا الامتحان وذلك الابتلاء الذين هم مقبلون عليه.. وحين تغيرت الحال، نجد القصة تنص مرة أخرى على هيئاتهم الجديدة فتقول عن الأبرص بأنه «أعطي لوناً حسناً، وجلداً حسناً» والأقرع «أعطي شعراً حسناً» والأعمى «رد الله عليه بصره..»(١).

ومن شخصيات القصة البارزة، شخصية المَلَك، وله وجود واضح على مسرح الأحداث بصورة إيجابية، وقد ظهر بالصورة البشرية، فقد نزل إلى الأرض في مهمة إلهية لاختبار بعض الناس في الدنيا بنوع من الابتلاء يكشف مدى صلاحهم من فسادهم. فالله سبحانه حين أراد أن يبتلي «الأبرص والأقرع والأعمى» بعثَ إليهم مَلَكاً، أَدَّى مهمته معهم خير أداء(٢).

ويبرز دور الحوار في بناء القصة فهو يساعد في رسم الشخصيات، فهو يجعل الشخصية أكثر حضوراً وتجسيماً من خلال حضورها في الحوار، كما يجعلها

---

(١) المصدر السابق: ٢٩٧، ٢٩٩.
(٢) القصص النبوي: ٢٧٧.

كاملة الوضوح، فهو يرسم أعماق النفس الإنسانية من حيث الحديث والكلام، فالحوار في القصة ترجمة لمشاعر الشخصية وعواطفها، وأحاسيسها المختلفة، التي تبوح بها من خلال الكلمات الواردة على لسانها، وفي حوار المَلَك مع الأقرع والأبرص حين سألهما عن أحب شيء إليهما، حيث طلبا إزالة ما بهما من عاهة، قال الأبرص: «لون حسن، وجلد حسن، قد قذرني الناس». وقال الأقرع: «شعر حسن، ويذهب عني هذا قد قذرني الناس».

وقد كشف الحوار عما تنطوي عليه نفساهما من شعور بالنقص، الذي يسببُ ازدراء الناس لهما، ونفورهم منهما.

وبعد أن زال ما بهما من أذى وعاهة، وقد زادهما الله بسطة من المال والمتاع، يكشف حوارهما مع المَلَك عما تنطوي عليه نفساهما من عواطف الجحود والنكرانِ[1].

بين الكفر والإيمان:

ومن الملاحظ في تشييد بناء القصة أن الهدف الذي ترمي إليه يتدخل في توجيه مسارها، ودفعه إلى النمو، حين يحرص على الاستفادة من الشخصيات وتوظيفها، بحيث يدفعها إلى الحركة الدائمة بوضعها أمام موقف جديد، تصنعه القصة أساساً لهذا الغرض، مما يجعل الشخصية تتخذ سلوكاً معيناً.

فالثلاثة «الأبرص والأقرع والأعمى» تضعهم القصة أمام مواقف جديدة لم تكن في حسبانهم، حين جاء الملك إليهم بعد ذهاب ما بهم من سوء، وتوافر ما يحبون من مال لهم، فقد جاء الملك إلى كلٍ واحد منهم في صورته السابقة، وما كان عليه من فقرٍ وضيق يطلب منه معروفاً ومعونة، فإذا بالأبرص والأقرع يتخذان موقفاً متشابهاً، بينما نجد الأعمى يسلك سلوكاً مغايراً مع هذا السائل المحتاج[2].

---

(١) المصدر السابق: ٣١٩.

(٢) القصص النبوي: ١٦٤.

وهكذا نجد أن القصة قد نهضت في سلوك الطريق التربوي عن طريق العبرة المستقاة من قصص الماضين، وخاصة في أخبار بني إسرائيل. فقد كشفت عن تجربة إنسانية واقعية ذات دلالات مؤثرة، ومقاصد تربوية هادفة، وما حصل للجاحِدَيْن الأبرص والأقرع من نكسة وخسران، وما كان للأعمى الشاكر من خير ونعمة دائمة[1].

لقد كانت الشخصية الإنسانية في القصة، تنقل لنا بأمانة ودقّة، واقع الإنسانية الكبير في إطاره الصحيح، الذي يجمع ذلك الواقع وجوانبه المختلفة بخيره وشرّه. نجد الأبرص والأقرع يمثلان جانب الجحود والنكران، والكفر السافر للنعمة التي أسبغها الله عليهما: صحة بعد مرض، وغنى بعد فقر، ولكنهما يكفران ولا يشكران، وهو واقع موجود في نفس الإنسان الذي لم يلتزم بمنهج الإيمان[2]: ﴿قُتل الإنسان ما أكفره﴾ [عبس: ١٧]. إنه لأمر يدعو إلى العجب من أمر هذا الإنسان الذي لا يذكر أصله ونشأته، ولا يرى عناية الله به، ولا يؤدي ما عليه لخالقه وكافله ومحاسبه..

﴿قُتل الإنسان!﴾.. فإنه ليستحق القتل على عجيب تصرفه.. فهي صيغة تفظيع وتقبيح وتشنيع لأمره. وإفادة أنه يرتكب ما يستوجب القتل لشناعته وبشاعته..

﴿ما أكفره!﴾.. ما أشد كفره وجحوده ونكرانه لمقتضيات نشأته وخلقته. ولو رعى هذه المقتضيات لشكر خالقه، ولتواضع في دنياه، ولذكر آخرته..

وإلا فعلام يتكبر ويستغني ويُعرض؟

لقد كان من مقتضيات الحقيقة: أن الله الذي خلق الإنسان وأنعم عليه.. فيذكر المخلوق هذا، ويشكر خالقه.. ولكن ﴿وقليل من عبادي

---

(١) المصدر السابق: ٤٥٥.

(٢) المصدر السابق: ٤٦٩.

الشكور﴾ [سبأ: ١٣].. والذي يحدث هو الانحراف عن الحق **﴿كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى. إن إلى ربك الرجعى﴾** [العلق: ٦ - ٧].

إن الذي أعطاه فأغناه هو الله. كما أنه هو الذي خلقه وأكرمه. ولكن الإنسان في عمومه - لا يُستثنى إلا مَن يعصمه إيمانه - لا يشكر حين يُعطى فيستغني؛ ولا يعرف مصدر النعمة التي أغنته، وهو المصدر الذي أعطاه خَلْقه، وأعطاه عافيته وقدرته.. ثم أعطاه رزقه.. ثم هو يطغى ويفجر، ويبغي ويتكبر، من حيث كان ينبغي أن يعرف ثم يشكر..

وتُبرز القصة صورة الإنسان الطاغي الذي نسي نشأته وأبطره الغنى.. ترسمه في شخصية الأبرص والأقرع.. الشخصية الطاغية المتكبرة المتعالية.. الشخصية التي تنكرت لفضل الله فأدركها الشح والبخل، وتولت عن الوفاء بالشكر للمنعم الواهب.

لقد قدمت القصة الصورة الواقعية للنفس الإنسانية، التي شاركت فيها المقومات الحيوية في إقامة الصورة، وأبرز هذه المقومات الوصف، الذي قام عليه نسيج القصة، وتشكيلها البنائي بشكل عام. إنه الوسيلة الحيوية في نقل صورة الحدث، وفي تشخيصه.. وكان «الأبرص والأقرع والأعمى» نماذج صورتها القصة، بشخوص حيَّة، في مشاهد مرئية وعواطف ملموسة.

والوصف في القصة فوق ما يقوم به من تحديد الصور وملء إطارها بما يمنحها التكامل في الشكل، والنمو في الحركة هي فوق ذلك ذات أغراض أخرى في التأثير. فقد قدّمت القصة في مطلعها لوحة تحكي قصة بؤس للأقرع والأبرص والأعمى، وقد مسَّهم السوء، وملأ حياتهم. لوحة ترسم هذه الشخصيات في إطار مؤثر مضيء.. ثم نجد الأبرص والأقرع في صورة توحي بالرغد العميم، الذي به ينعمون، وهم عن ربهم ساهون.. ثم تحكي القصة عن المَلَك بعد أن سألهما معروفاً، وذكَّرهما بما كانا عليه فقال لكل واحد منهما: «إن كنتَ كاذباً فَصَيَّرك الله إلى ما كنت..».

وبعد هذه الكلمات يقف الخيال متأملاً ذلك الوصف في لوحة البؤس

الأولى. . وبجو مثير عجيب ينشأ تقابل مثير بين صورتين: زوال النعمة والرفاه والرخاء، والعودة إلى جحر الفاقة والعاهة والبؤس العبوس.

ما أقسى البؤس والشدة بعد الرفاه والعزة، وما أشد على النفس حزناً وكمداً: الانتقال من سعة الحياة إلى ضيقها الخانق، وما أذلّ على الروح من التحول من رغد العيش وسلطانه إلى جور الفقر وطغيانه.

وشتان بين هذه الحياة وتلك الحياة. . كذلك شتان بين موقف الجحود والنكران والكفر بالنعمة، وبين الاعتراف بفضل الله المنعم، والشكر على آلائه.

وبعد. . فقد رسمت القصة البؤس والحرمان في بدايتها، يصور ذلك «الأبرص والأقرع والأعمى»، ينبعث من كلٍ منهم نغمٌ حزين يحكي قصته التي ترسم الفقر المذلّ، تحملُه العاهة الموحشة المُنفِّرة.

كما ترسم القصة صورة الإنسان في لحظات الشدة الضيقة، فلا يرى إلا في باب الله مخرجاً، وإلا في رحمته ملجأً وملاذاً، فيضرع شاكياً داعياً، لئن عافاه الله ليكوننَّ من الشاكرين. .

ها هو ذا الإنسان المُبتَلَى وقد قذره الناس، يتمنى في عمق حزين دفين، أن يُذْهِبَ الله عنه الذي به من المرض، وأن يُعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً. . وحَقَّق الله أُمنيته، وزاده من فضله بالغنى الواسع بعد الفقرالوضيع. . وإن هو إلا الابتلاء بالرخاء. . فتكثر النعم وينتشر رَغد العيش. . وتمضي السنون، والأبرص والأقرع في ظلال النعمة يرفلون ويتنقلون، وفي عيون السعادة والبهجة يرقدون. . وإذا بالمَلَك يسألهم حاجةً ويُذَكِّرهم فلا يذكرون. . صُمٌّ بُكمٌ عُميٌّ عن الحق المبين. . ألاَ إنهم في غيِّهم وغرورهم يعمهون!

لقد رسمت القصة مشهدين متباعدين:

«الأبرص والأقرع» في مشهد تنبعث في أرجائه صورة الإنسان الكنود

الجحود. صورة يمثلها كثير من الناس في أيام الرخاء والهناء. وهو نموذج أصيل، لا يخطئه الإنسان في كل مجتمع، وفي كل جيل، والله سبحانه يقول: **﴿وقليل من عبادي الشكور﴾** [سبأ: ١٣]، **﴿ولا تجدُ أكثرهم شاكرين﴾** [الأعراف: ١٧]..

و«الأعمى» في مشهد الأوّاه المنيب. تنبعث من أعماق نفسه نبضات العبودية للّه الأحد الصمد.. صورة يمثلها ذلك الإنسان الذي يرى في نعمة الله يَد المنعم في كل شيء، فيطوي ظلّه البشري في جنب الله خاشعاً، معترفاً بالفضل لرب العالمين في كل حين. وهو نموذج أصيل لأفراد مكرورين، لا يخطئه الإنسان في كل مجتمع، وفي كل جيل.

إنهما موقفان متقابلان. لكنهما لا يلتقيان.. الكفر والإيمان.. إنها الصورة الإنسانية الحيّة مشحونة بالحركة من خلال التعبيرات الكثيرة التي تنتشر في إطار القصة وأعماقها.

إنها قصة الحياة. ترسمها نماذج شخصية واقعة، تتخطى الزمان والمكان، وتتجاوز القرون والأجيال. فهي حكمة الله الذي خلق الإنسان وهداه السبيل **﴿إما شاكراً وإما كفوراً﴾** [الإنسان: ٣].

وفي الختام تصور القصة عاقبة الكفر بالنعمة حتى تتم الموازنة، وتتم العبرة، فقد سُلبت النعمة وجاءهم بأس الله وعذابه. إنها **﴿سُنة الله التي قد خَلَتْ في عباده﴾** [غافر: ٨٥].

وسنّة الله لا تضطرب ولا تختلف ولا تحيد عن الطريق: **﴿فهل ينظرون إلا سُنَّةَ الأولين فلن تجدَ لسنَّة الله تبديلاً ولن تجدَ لسنَّة الله تحويلاً﴾** [فاطر: ٤٣].

إنها تذكرة، فمَن شاء فليؤمن ويشكر ربه، الذي يزيده من نعمه وآلائه **﴿وإذ تأذَّن ربُكم لئن شكرتم لأزيدَنَّكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾** [إبراهيم: ٧].. **﴿ما يفعل الله بعذابكم ـ إن شكرتم وآمنتم ؟ ـ وكان الله شاكراً عليماً﴾** [النساء: ١٤٧].

إنها اللمسة العجيبة الموحية المؤثرة العميقة.. لتشعر قلوب البشر أن الله في غنى عن عذاب العباد. فما به ـ سبحانه ـ من نقمة ذاتية عليهم يصبّ عليهم من أجلها العذاب. وما به ـ سبحانه ـ من حاجة لإظهار سلطانه وقوته عن هذا الطريق.

وما به ـ سبحانه ـ من رغبة ذاتية في عذاب الناس. كما تحفل أساطير الوثنية كلها بمثل هذه التصورات. وإنما هو صلاح العباد بالإيمان والشكر.. مع تحبيبهم في الإيمان والشكر للّه. وهو الذي يشكر صالح العمل ويعلم خبايا النفوس ﴿**ما يفعل الله بعذابكم...**﴾.

نعم! ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم؟ إن عذابه لجزاء على الجحود والنكران، وتهديد لعله يقود إلى الشكر والإيمان.. إنها ليست شهوة التعذيب، ولا رغبة التنكيل، ولا التذاذ الآلام، ولا إظهار البطش والسلطان.. تعالى الله عن ذلك كله عُلوًّا كبيراً.. فمتى اتقيتم بالشكر والإيمان، فهناك الغفران والرضوان. وهناك شكر الله ـ سبحانه ـ لعبده. وعلمه ـ سبحانه ـ بعبده..

وشكر الله ـ سبحانه ـ للعبد، يلمس القلب لمسة رفيقة عميقة.. إنه معلوم أن الشكر من الله ـ سبحانه ـ معناه الرضى، ومعناه ما يلازم الرضى من الثواب.. ولكن التعبير بأن الله ـ سبحانه ـ شاكر ـ تعبير عميق الإيحاء!

وإذا كان الخالق المنشيء، المنعم المتفضل، الغني عن العالمين.. يشكر لعباده صلاحهم وإيمانهم وشكرهم وامتنانهم.. وهو غني عنهم وعن إيمانهم وعن شكرهم وامتنانهم.. إذا كان الخالق المنشيء، المنعم المتفضل، الغني عن العالمين يشكر.. فماذا ينبغي للعباد المخلوقين المحدثين؛ المغمورين بنعمة الله.. تجاه الخالق الرازق المنعم المتفضل الكريم؟!

ألا إنها اللمسة الرفيقة العميقة التي ينتفض لها القلب ويخجل ويستجيب.

ألا إنها الإشارة المنيرة إلى معالم الطريق.. الطريق إلى الله الواهب

المنعم، الشاكر العليم.. ﴿**ومَن شكر فإنما يشكر لنفسه ومَن كفر فإن الله غني حميد**﴾ [النمل: ٤٠]..

إن قصة الابتلاء والجزاء عميقة الإيحاء، يرسم النص الشريف صورة صادقة للنموذج الإنساني في مرآتين واضحتي المعالم. وهي صورة كاملة! وكل جملة تكاد تكون لمسة ريشة، ترسم الملامح والسمات، وتشخص المشاعر والانفعالات. وما يكاد الإنسان يُتم قراءتها حتى تبدو له تلك الوجوه وتلك الشخصيات كأنما يراها، حتى لتكاد تخطر نابضة حية!

قصة لقمان عليه السلام

قصة لقمان عليه السلام

يعرض القرآن قصة لقمان في نسق جديد. نسق الحكاية والتوجيه غير المباشر. ويعالج قضية الشكر للّه وحده، وتنـزيهه عن الشرك كله، وقضيـة الآخرة والعمل والجزاء في خلال الحكاية.

ولم تُذكر القصة سوى مرة واحدة في كتاب الله تعالى، وذلك في السورة التي خَصَّهُ الله بها وهي سورة لقمان، فنقرأ قول الله تعالى: **﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر للّه؛ ومَن يشكر فإنما يشكر لنفسه، ومَن كفر فإن الله غني حميد﴾**..

ولقمان الذي اختاره القرآن ليعرض بلسانه قضية التوحيد وقضية الآخرة تختلف في حقيقته الروايات: فمن قائل: إنه كان نبياً، ومن قائل: إنه كان عبداً صالحاً من غير نبوة ـ والأكثرون على هذا القول الثاني ـ ثم يُقال: إنه كان عبداً حبشياً، ويقال: إنه كان نوبياً. كما قيل: إنه كان في بني إسرائيل قاضياً من قضاتهم..

الحكمـة:

وأياً مَن كان لقمان فقد قُرر أنه رجل آتاه الله الحكمة. والحكمة هبة ثمينة، فمَن أُوتيها فقد أُوتي خيراً كثيراً: **﴿يُؤتي الحكمة مَن يشاء، ومَن يُؤتَ الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً﴾** [البقرة: ٢٦٩].

الحكمة: هي توخي القصد والاعتدال في الأمور كلها، وإدراك العلل والغايات، ووضع الأمور في نصابها في تبصُّر ورؤية وإدراك **﴿ومَن يُؤتَ الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً﴾** . .

أُوتي القصد والاعتدال فلا يفحش ولا يتعدى الحدود؛ وأُوتي إدراك العلل والغايات فلا يضلّ في تقدير الأمور؛ وأُوتي البصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال. . وذلك خير كثير متنوع الألوان. . وهو صاحب العقل والفؤاد. الذي يتذكر فلا ينسى، ويتنبه فلا يغفل، ويعتبر فلا يلج في الضلال. . الذي يرى موحيات الهدى ودلائله، وينتفع بها فلا يعيش لاهياً غافلاً.

هذه الحكمة يؤتيها الله مَن يشاء من عباده، فهي معقودة بمشيئة الله سبحانه، هذه هي القاعدة الأساسية في التصور الإسلامي: ردّ كل شيء إلى المشيئة المطلقة المختارة **﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر للّه﴾**: الحكمة التي مضمونها ومقتضاها الشكر للّه: **﴿. . أن اشكر للّه﴾** . .

وهذا توجيه قرآني ضمني إلى شكر الله اقتداء بذلك الرجل الحكيم المختار الذي يعرض قصته وقوله.

والشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة، وتمجيده بصفاته، ثم عبادته وحده؛ وهو الواحد الذي تشهد بوحدانيته آثاره في صنعته. ويتبعه استخدام هذه الحواس والطاقات في تذوق الحياة والمتاع بها، بحس العابد للّه في كل نشاط وكل متاع.

ويجول القلب مع آلاء الله ونعمه. . وإذا بهذه النعم توقظ الوجدان إلى دلائل الإيمان. ولو تدبّر الإنسان خلقه وهيئته، وما زُوِّدَ به من الحواس والجوارح، وما وهبه الله من الطاقات والمدارك لوجد الله، ولاهتدى إليه بهذه الخوارق الدالة على أنه الخالق الواحد. فما أحد غير الله بقادر على إبداع هذه الخلقة المعجزة في الصغير منها وفي الكبير.

هذا السمع وحده وكيف يعمل؟ كيف يلتقط الأصوات ويكيفها؟ وهذا

البصر وحده وكيف يبصر وكيف يلتقط الأضواء والأشكال؟ وهذا الفؤاد ما هو؟ وكيف يدرك؟ وكيف يقدر الأشياء والأشكال، والمعاني والقيم والمشاعر والمدركات؟

إن مجرد معرفة طبيعة هذه الحواس والقوى وطريقة عملها، يعد كشفاً معجزاً في عالم البشر. فكيف بخلقها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذي يعيش فيه الإنسان، ذلك التناسق الملحوظ الذي لو اختلّت نسبة واحدة من نسبه في طبيعة الكون أو طبيعة الإنسان لفَقَد الاتصال، فما استطاعت أُذُن أن تلتقط صوتاً. ولكن القدرة المدبرة نسّقت بين طبيعة الإنسان وطبيعة الكون الذي يعيش فيه، فتم هذا الاتصال.

إن هذا المخلوق الصغير. . الإنسان. يحظى من رعاية الله ـ سبحانه ـ بالقسط الوافر، الذي يتيح له أن يُسخر الخلائق الكونية الهائلة، وينتفع بها على شتى الوجوه. وذلك بالاهتداء إلى طرف من سر الناموس الإلهي الذي يحكمها، والذي تسير وفقه ولا تعصاه!

ولولا هذا الاهتداء إلى طرف السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة أن ينتفع بشيء من قوى الكون الهائلة؛ بل ما استطاع أن يعيش معها؛ وهو هذا القزم الصغير، وهي هذه المردة الجبابرة من القوى والطاقات والأحجام والأجرام.

سخّر الله للإنسان كل ما في السموات والأرض، ليبتغي من فضل الله، وليتجه إليه بالشكر على الفضل والإنعام. وهو يوجِّه قلبه بهذا القرآن إلى الوفاء بهذا الحق، وإلى الارتباط بذلك الأفق. الارتباط بالله سبحانه.

إن الشكر للّه عبادة تلحّ على العقل البشري، وتثبت ذاتها بتوكيد يصعب ردّه، فالإنسان قد وُجِدَ ـ وهو أرفع وأعلم وأقدر ما يُعلم من الخلائق ـ وهو لم يوجد نفسه فلا بد أن يكون مَن هو أرفع وأعلم وأقدر منه أوجده. . ولا مفر من الاعتراف بخالق هذا الإنسان. الذي خلقه فقدّره، ثم السبيل يسّره.

وما قابل الإنسان آلاء الله عليه.. هذه الهبات الضخمة التي أُعطيها لينهض بتلك الأمانة الكبرى، فإنه لم يشكر **﴿قليلًا ما تشكرون﴾**..

وهو أمر يثير الخجل والحياء عند التذكير به، كما يذكر القرآن الناسَ في هذا المجال، ويذكر كل جاحد وكافر، لا يشكر نعمة الله عليه، وهو لا يوفيها حقها لو عاش للشكر دون سواه!

ولو استعرض الإنسان ألواناً من النعمة التي تحيط به، فلن تُحصى: **﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾** فضلاً على أن تشكروها. وأكثر النعم لا يدريها الإنسان، لأنه يألفها فلا يشعر بها إلا حين يفتقدها.. وهذا تركيب جسده ووظائفه متى يشعر بما فيه من إنعام إلا حين يدركه المرض فيحسّ بالاختلال؟

ونعود إلى لقمان الحكيم. ذلك العبد الشاعر بنعْمة ربه، المستعظم المستكثر لهذه النعمة التي تغمره. يهفو قلبه لينهض بواجب الشكر **﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر للّه﴾**..

وكما قلنا: هذا توجيه قرآني ضمني إلى شكر الله اقتداء بذلك الرجل الحكيم.. وإلى جوار هذا التوجيه الضمني توجيه آخر، فشكر الله إنما هو رصيد مذخور للشاكر ينفعه هو، والله غني عنه.

فالله محمود بذاته ولو لم يحمده أحد من خلقه: **﴿ومَن يشكر فإنما يشكر لنفسه. ومَن كَفر فإن الله غني حميد﴾**..

وإذن فأحمق الحمقى هو مَن يخالف عن الحكمة؛ ولا يدخِّر لنفسه مثل هذا الرصيد.. والله غني عن الشاكرين، ومَن شكر فإنما يشكر لنفسه، فينال من الله زيادة النعمة، وحسن المعونة على اجتياز البلاء في الدنيا، وحسن الثواب والجزاء في الآخرة. ومَن كفر فإن الله غني عن الشكر. كريم يعطي عن كرم لا عن ارتقاب للشكر على العطاء.

قصة التوحيد:

ثم تجيء قصة التوحيد في صورة مَوعظة من لقمان الحكيم لابنه:

﴿وإذ قال لقمان لابنه ـ وهو يعظه ـ يا بني لا تشرك بالله. إن الشرك لظلم عظيم﴾..

وإنها لعظة غير متهمة؛ فما يريد الوالد لولده إلا الخير؛ وما يكون الوالد لولده إلا ناصحاً. وهذا لقمان الحكيم ينهى ابنه عن الشرك؛ ويعلل هذا النهي بأن الشرك ظلم عظيم. ويؤكد هذه الحقيقة مرتين. مرة بتقديم النهي وفصل علته. ومرة بإنَّ واللام.. وهذه هي الحقيقة التي يعرضها محمد ـ ﷺ ـ على قومه، فيجادلونه فيها؛ ويشكون في غرضه من وراء عرضها؛ ويخشون أن يكون وراءها انتزاع السلطان منهم والتفضل عليهم!

فما القول ولقمان الحكيم يعرضها على ابنه ويأمره بها؟ والنصيحة من الوالد لولده مبرأة من كل شبهة، بعيدة من كل مظنة؟

ألا إنها الحقيقة القديمة التي تجري على لسان كل مَن آتاه الله الحكمة من الناس؛ يراد بها الخير المحض، ولا يراد بها سواه.. وهذا هو المؤثر النفسي المقصود.

﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾.. إذ يفقد الإنسان القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها.. قاعدة التوحيد.. ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه، فتتخطفه الأهواء، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح. وهو لا يمسك بالعروة الوثقى، ولا يستقر على القاعدة الثابتة، التي تربطه بهذا الوجود.

إن العبودية للّه وحده هي العاصم من العبودية للعباد.. وما يرتفع الإنسان إلى أعلى مقام مقدَّر له، إلا حين يعتصم من العبودية لهواه كما يعتصم من العبودية لسواه.

ومَن يشرك بالله يقع في عبودية العبيد من أمثاله، يصرّفون حياته وفق هواهم، ووفق ما يبدو لهم من نظريات واتجاهات قصيرة النظر، مشوبة بحب

الاستعلاء، كما هي مشوبة بالجهل والنقص والهوى. لذلك ينهى الله ـ سبحانه ـ عن الشرك..

ينهى عن الشرك والتحذير من عاقبته الذميمة، فهو ظلم عظيم، وانقطاع ما بين الله والعباد، فالمشركون مقطوعو الصلة بالله رب العالمين. وما تشرك النفس بالله إلا وهي تتخبط في ظلام شديد، ولا تنتهي إلى هدى ولا خير.

والمشرك هو ذلك الشقي المنكود الضال عن طريق الله، المحروم من هداه، فهو أبداً في تعثُّر، وأبداً في عناء، وأبداً في ضلال، وأبداً في بوار، وأبداً في ظلم عظيم..

توصية وحَنان:

وفي ظل نصيحة الأب لابنه يعرض للعلاقة بين الوالدين والأولاد في أسلوب رقيق؛ ويصور هذه العلاقة صورة موحية فيها انعطاف ورقة. ومع هذا فإن رابطة العقيدة مقدمة على تلك العلاقة الوثيقة:

﴿ووصينا الإنسان بوالديه، حملته أمّه وهناً على وهن، وفصاله في عامين، أن اشكر لي ولوالديك، إليّ المصير..﴾.

وتوصية الولد بالوالدين تتكرر في القرآن الكريم، وفي وصايا رسول الله ـ ﷺ ـ ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلاً. ومعظمها في حالة الوأد ـ وهي حالة خاصة في ظروف خاصة ـ ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه. فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشىء لضمان امتداد الحياة، كما يريدها الله، وإن الوالدين لَيَبْذلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال، في غير تأفف ولا شكوى؛ بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلان! بل في نشاط وفرح وسرور كأنهما هما اللذان يأخذان! فالفطرة وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاة! فأما الوليد فهو في حاجة إلى الوصية المكررة ليلتفت إلى الجيل المضحي المدبر

المولّي الذاهب في أدبار الحياة، بعدما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة!

وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوّض الوالدين بعض ما بذلاه، ولو وقف عمره عليهما. وهذه الصورة الموحية:

﴿**حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين**﴾ ترسم ظلال هذا البذل النبيل.

والأم بطبيعة الحال تحتمل النصيب الأوفر؛ وتجود به في انعطاف أشد وأعمق وأحنى وأرفق..

روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده ـ بإسناده ـ عن بريدة عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل النبي ـ ﷺ ـ هل أديت حقها؟ قال: «لا. ولا بزفرة واحدة». هكذا.. ولا بزفرة.. في حمل أو في وضع، وهي تحمله وهناً على وهن.

فالقرآن الكريم والحديث النبوي يصوران تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدم بها الأمومة والتي لا يجزيها أبداً إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله في الوالدين ﴿**حملته أمه وهناً على وَهن**﴾..

وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال.. لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد، ويلهث بالأنفاس! إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه، ثم ليتصوَّر الولد صورة أمه وهي في الوضع وطلقه وآلامه!

ثم رعاية الوالدين للطفولة الضعيفة حتى يصل الطفل إلى سن الفتوة وضلاعة التكوين. وهو قبل ذلك ضعيف ضعيف.

وفي معرض الإنعام والإحسان كان التوجيه الإلهي والنبوي يتكرر للإحسان إلى الوالدين في صور موحية، وعبارات ندية، يستجيش وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله - ﷺ - «أي الأعمال أحبّ إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها. قلتُ: ثم أي؟ قال: برُّ(١) الوالدين. قلتُ: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أقبلَ رجلٌ إلى رسول الله - ﷺ - فقال: «أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله. قال: فهل من والديك أحدٌ حيّ؟ قال: نعم. بل كلاهما حيّ. قال: فتبتغي الأجر من الله؟ قال: نعم. قال: فارجع إلى والديك، فأحسن صحبتهما»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قال: «رَغم أنفُ(٤) رجل ثم رغمَ أنف رجلٍ ثم رغمَ أنف رجل» قيل: مَن يا رسول الله؟ قال: «مَن أدركَ أبويه عند الكِبَر أحدهُما أو كليهما فلم يدخل الجنة»(٥).

---

(١) طاعتهما.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) قال أهل اللغة معناه: ذلّ. وقيل: كره وخزي. وهو بفتح الغين وكسرها. وهو الرغم، بضم الراء وفتحها وكسرها. وأصله لصق أنفه بالرغام وهو تراب مختلط برمل. وقيل: الرغم: كل ما أصاب الأنف مما يؤذيه. وفيه الحث على بر الوالدين وعظم ثوابه. ومعناه: أن برهما عند كبرهما وضعفهما بالخدمة أو النفقة أو غير ذلك سبب لدخول الجنة. فمَن قصَّر في ذلك فاته دخول الجنة وأرغم الله أنفه «شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/١٠٩».

(٥) رواه مسلم عن أسير بن جابر، «قال: كان عمر بن الخطاب، إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس فقال: أنتَ أُوَيس بن عامر؟ قال: نعم. قال: من مُراد ثم من قَرَن؟ قال: نعم. قال: فكان بك بَرَص، فبرأتَ منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم. قال: أَلَكَ والدة؟ قال: نعم. قال: سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن من مُراد ثم من قرن، كان به بَرَص فبرأ منه إلا مَوْضع درهم، له والدة، هو بها برٌّ، لو أقسمَ على الله لأبرَّهُ، فإن استطعتَ أن يستغفر لك فافعل» فاستغفر لي. قال: فاستغفر له».

[سير أعلام النبلاء ٤/١٩، وتهذيب السير ١/ رقم ٣٨٦].

وروى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن خيرَ التابعين رجلٌ يقال له أُويس وله والدة وكان به بياض فَمُرُوه فليستغفر لكم» [انظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/٩٤-٩٦].

وفي ظلال تلك الصورة الحانية يوجّه إلى شكر الله المنعم الأول، وشكر الوالدين المنعمين التاليين، ويرتب الواجبات، فيجيء شكر الله أولاً ويتلوه شكر الوالدين. . ﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾. . ويربط بهذه الحقيقة حقيقة الآخرة: ﴿إليّ المصير﴾ حيث ينفع رصيد الشكر المذكور.

ولكن رابطة الوالدين بالوليد ـ على كل هذا الانعطاف وكل هذه الكرامة ـ إنما تأتي في ترتيبها بعد وشيجة العقيدة. فبقية الوصية للإنسان في علاقته بوالديه: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾. . فإلى هنا ويسقط واجب الطاعة، وتعلو وشيجة العقيدة على كل وشيجة. فمهما بذل الوالدان من جهد ومن جهاد ومن مغالبة ومن إقناع ليغرياه بأن يشرك بالله ما يجهل ألوهيته ـ وكل ما عدا الله لا ألوهية له فتعلم! ـ فهو مأمور بعدم الطاعة من الله صاحب الحق في الطاعة.

ولكن الاختلاف في العقيدة، والأمر بعدم الطاعة في خلافها، لا يسقط حق الوالدين في المعاملة الطيبة والصحبة الكريمة: ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ فهي رحلة قصيرة على الأرض لا تؤثر في الحقيقة الأصيلة: ﴿واتبع سبيل مَن أناب إليّ﴾ من المؤمنين ﴿ثم إليّ مرجعكم﴾ بعد رحلة الأرض المحدودة ﴿فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ ولكل جزاء ما عمل من كفران أو شكران، ومن شرك أو توحيد.

روي أن هذه الآية في سورة لقمان نزلت هي وآية العنكبوت المشابهة وآية الأحقاف كذلك في سعد بن أبي وقاص وأمه[1].

والقصة في «صحيح مسلم» من حديث سعد بن أبي وقاص[2].

---

(١) رواه الطبراني في كتاب العشرة ـ بإسناده ـ عن داود بن أبي هند.

(٢) سعد بن أبي وقاص. الأمير أبو إسحاق القرشي الزهري المكي، أحد العشرة، وأحد السابقين الأولين، شهد بدراً والحديبية، وأحد الستة أهل الشورى. وأبيه أبي وقاص اسمه: مالك بن أُهيب، فيقال لسعد أيضاً سعد بن مالك. ومن مناقب سعد أن فتح العراق كان على يديه توفي سنة ٥٥ هـ. [انظر سير أعلام النبلاء ٩٢/١، وتهذيب السير ١/ رقم ٥].

عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آياتٌ من القرآن. قال: حلفت أُم سَعد أن لا تُكَلِّمه أبداً حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب. قالت: زعمتَ أنَّ الله وصّاك بوالديك وأنا أُمُّك وأنا آمرُك بهذا قال: مَكَثَتْ ثلاثاً حتى غُشي عليها من الجَهْد فقام ابنٌ لها يُقال له عُمارة فسقاها فجعلَتْ تدعو على سعد فأنزل الله عزَّ وجلَّ في القرآن هذه الآية **﴿ووصينا الإنسان بوالديه حُسناً وإن جاهداكَ على أن تشركَ بي..﴾** وفيها: **﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾**»[1].

عن أبي عثمان «أن سعداً قال: نزلت هذه الآية فيَّ **﴿وإن جاهداك على أن تُشرك ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾**.

قال: كُنتُ بَرًّا بأُمي، فلما أسلمتُ، قالت: يا سعد! ما هذا الدين الذي قد أحدثتَ؟ لتدعَنَّ دينك هذا، أو لا آكل، ولا أشرب حتى أموت، فَتُعَيَّر بي، فيقال: يا قاتل أمه، قلتُ: لا تفعلي يا أمَّه، إني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثتْ يوماً لا تأكل ولا تشرب وليلة، وأصبحت وقد جُهِدَت، فلما رأيتُ ذلك، قلت: يا أُمَّه! تعلمين والله لو كان لك مئة نفس، فخرجت نفساً نفساً، ما تركتُ ديني، إن شئتِ فكلي أو لا تأكلي، فلما رأت ذلك، أكلتْ»[2].

أما مدلول الآية فهو عام في كل حالة مماثلة، وهو يرتب الوشائج والروابط كما يرتب الواجبات والتكاليف. فتجيء الرابطة في الله هي الوشيجة الأولى، ويجيء التكليف بحق الله هو الواجب الأول.

والقرآن الكريم يقرر هذه القاعدة[3] ويؤكدها في كل مناسبة وفي صور شتى لتستقر في وجدان المؤمن واضحة حاسمة لا شبهة فيها ولا غموض.

---

(١) انظر شرح النووي في صحيح مسلم ١٥/١٨٤ ـ ١٨٥.
(٢) سير أعلام النبلاء ١/٩٢، وتهذيب السير ١/ ص ١٥ ـ ١٦ رقم ٥.
(٣) انظر فصل «رابطة العقيدة» في كتاب طريق الدعوة في ظلال القرآن، ص ٧٣ ـ ٧٨.

قضية الآخرة:

وبعد الاستطراد المعترض في سياق وصية لقمان لابنه، تجيء الفقرة التالية في الوصية، لتقرر قضية الآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل.

إن الناس لم يُخلقوا عبثاً، ولن يُتركوا سُدى. والذي قدَّر حياتهم ذلك التقدير العظيم، ونسَّق حياتهم ذلك التنسيق العجيب، لا يمكن أن يدعهم يعيشون سدى ويموتون هملاً! ويصلحون في الأرض أو يفسدون ثم يذهبون في التراب ضياعاً! ويهتدون في الحياة أو يضلُّون ثم يلقون مصيراً واحداً. ويعدلون في الأرض أو يظلمون ثم يذهب العدل والظلم جميعاً!

إن هنالك يوماً للحكم والفرقان والفصل في كل ما كان، وهو اليوم المرسوم الموعود الموقوت بأجل عند الله معلوم محدود. وفي هذا اليوم يتلاقى البشر جميعاً. . ويتلاقى الناس وأعمالهم التي قدموا في الحياة الدنيا، وتلتقي الخلائق كلها بربها في ساعة الحساب في يوم الحساب، وهو يوم التلاقي بكل معاني التلاقي. . ثم هو اليوم الذي يبرزون فيه بلا ساتر ولا واق ولا تزييف ولا خداع. . والله لا يخفى عليه من خلقه شيء، في كل وقت وفي كل حال. . هناك تجزى كل نفس بما كسبت، في ذلك اليوم، يوم الجزاء الحق، يوم العدل. . لا ظلم اليوم. اليوم يوم القضاء الفصل، بلا إمهال ولا إبطاء. . والله وحده هو الذي يقضي في هذا اليوم قضاءه الحق، وهو - سبحانه - لا يخفى عليه شيء، حتى لفتة العين الخائنة، وسر الصدر المستور، فهو كله مكشوف لعلم الله. الذي يقضي بالحق عن علم وعن خبرة، وعن سمع وعن رؤية. فلا يظلم أحداً ولا ينسى شيئاً.

هنالك في ذلك اليوم يصدر الناس أشتاتاً. . ليُروا أعمالهم. . إن الناس ذاهبون إلى حيث تُعرض عليهم أعمالهم، ليواجهوها، ويواجهوا جزاءها. ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحياناً أقسى من كل جزاء. وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير. فكيف به وهو يواجه بعمله على رؤوس

الأشهاد، في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر؟!

إنها عقوبة هائلة رهيبة.. مجرد أن يُروا أعمالهم، وأن يواجهوا بما كان منهم!

ووراء رؤيتها الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازي عليها.

عندئذ لا يحقر «الإنسان» شيئاً من عمله. خيراً كان أو شراً. ولا يقول: هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن. إنما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل!

إن حقيقة الآخرة لا تعرض في هذه القصة هكذا مجردة، إنما تعرض في المجال الكوني الفسيح، وفي صورة مؤثرة يرتعش لها الوجدان، وهو يطالع علم الله الشامل الهائل الدقيق اللطيف:

﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل، فتكن في صخرة، أو في السموات، أو في الأرض، يأتِ بها الله. إن الله لطيف خبير﴾..

وما يبلغ تعبير مجرد عن دقة علم الله وشموله، وعن قدرة الله سبحانه، وعن دقة الحساب وعدالة الميزان ما يبلغه هذا التعبير المصور. وهذا فضل طريقة القرآن المعجزة الجميلة الأداء، العميقة الإيقاع[1]..

حبة من خردل. صغيرة ضائعة لا وزن لها ولا قيمة. **﴿فتكن في صخرة﴾**.. صلبة محشورة فيها لا تظهر ولا يتوصل إليها. **﴿أو في السموات﴾**.. في ذلك الكيان الهائل الشاسع الذي يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة أو ذرة تائهة. **﴿أو في الأرض﴾** ضائعة في ثراها وحصاها لا تبين. **﴿يأتِ بها الله﴾**.. فعلمه يلاحقها، وقدرته لا تفلتها. **﴿إن الله لطيف خبير﴾**.. تعقيب يناسب المشهد الخفي اللطيف.

---

(١) يراجع فصل «طريقة القرآن» في كتاب «التصوير الفني في القرآن».

ويظل الخيال يلاحق تلك الحبة من الخردل في مكامنها تلك العميقة الوسيعة؛ ويتملى علم الله الذي يتابعها. حتى يخشع القلب وينيب، إلى اللطيف الخبير بخفايا الغيوب. وتستقر من وراء ذلك تلك الحقيقة التي يريد القرآن إقرارها في القلب. بهذا الأسلوب العجيب.

عِدّة المؤمن:

ويمضي السياق في حكاية قول لقمان لإبنه وهو يعظه. فإذا هو يتابع معه خطوات العقيدة بعد استقرارها في الضمير.. بعد الإيمان بالله لا شريك له؛ واليقين بالآخرة لا ريب فيها؛ والثقة بعدالة الجزاء لا يفلت منه مثقال حبة من خردل.. فأما الخطوة التالية فهي التوجه إلى الله بالصلاة، والتوجه إلى الناس بالدعوة إلى الله، والصبر على تكاليف الدعوة ومتاعبها التي لا بد أن تكون:

﴿يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وَانْهَ عن المنكر، واصبر على ما أصابك. إن ذلك من عزم الأمور﴾..

وهذا هو طريق العقيدة المرسوم.. توحيد للّه، وشعور برقابته، وتطلع إلى ما عنده، وثقة في عدله، وخشية من عقابه. ثم انتقال الناس إلى دعوة الناس وإصلاح حالهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، والتزود قبل ذلك كله للمعركة مع الشر، بالزاد الأصيل. زاد العبادة للّه والتوجه إليه بالصلاة. وهي الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني والقوة الباقية.

إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير. إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة. إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود.. ومن هنا كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا كان في الشدة قال: «أَرِحْنا بها يا بلال». ويكثر من الصلاة إذا حَزَبَه أمر ليكثر من اللقاء بربه.

﴿يا بني أقم الصلاة﴾.. وإقام الصلاة[1] هي الاتجاه بالعبادة للّه

---

(١) يقول الإمام ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ١/١٤٥: «وأما إقام الصلاة، فقد وردت =

وحده، الاتجاه إلى القوة المطلقة بغير حدود. والذين يقيمون الصلاة يحنون جباههم للّه لا للعبيد؛ والقلب الذي يسجد للّه حقاً، ويتصل به على مدار الليل والنهار، يستشعر أنه موصول السبب بواجب الوجود، ويجد لحياته غاية

= أحاديث متعددة تدلُّ على أن مَن تركها، فقد خرج من الإسلام، ففي «صحيح مسلم» عن جابر، عن النبي - ﷺ - قال: «بين الرجل وبين الشرك والكفر تركُ الصلاة» [صحيح مسلم رقم ٨٢، انظر تمام تخريجه في صحيح ابن حبان (١٤٥٣)]، ورُوي مثله من حديث بُريدة [انظر البخاري ٤٥١٤]، وثوبان وأنس وغيرهم.

وخرّج محمد بن نصر المروزي من حديث عُبادة بن الصامت، عن النبي - ﷺ - قال: «لا تترك الصلاةَ متعمداً، فمَن تركها متعمداً، فقد خرج من الملة» [هو في «تعظيم قدر الصلاة» (٩٢٠)، ورواه اللالكائي في «أصول الاعتقاد» (١٥٢٢)، وإسناده ضعيف، وله شاهد من حديث أميمة عند المروزي (٩١٢)، وعن أم أيمن عند أحمد ٤٢١/٦، والمروزي (٩١٣).

وفي حديث معاذ، عن النبي - ﷺ -: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة» فجعل الصلاة كعمود الفسطاط الذي لا يقوم الفسطاط ولا يثبت إلا به، ولو سقط العمود، لسقط الفسطاط، ولم يثبت بدونه.

وقال عمر: لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة، وقال سعد وعلي بن أبي طالب: مَن تركها، فقد كفر.

وقال عبد الله بن شقيق: كان أصحاب رسول الله - ﷺ - لا يَرَون من الأعمال شيئاً تركه كفر غير الصلاة.

وقال أيوب السختياني: ترك الصلاة كفر، لا يُختلَف فيه.

وذهب إلى هذا القول جماعة من السلف والخلف، وهو قول ابن المبارك وأحمد وإسحاق، وحكى إسحاق عليه إجماع أهل العلم!

وقال محمد بن نصر المروزي: هو قول جمهور أهل الحديث.

وذهب طائفة منهم إلى أن مَن ترك شيئاً من أركان الإسلام عمداً أنه كافر بذلك، ورُوي ذلك عن سعيد بن جبير ونافع والحكم، وهو رواية عن أحمد اختارها طائفة من أصحابه وهو قول ابن حبيب من المالكية.

وقد استدل أحمد وإسحاق على كفر تارك الصلاة بكفر إبليسَ بترك السجود، وترك السجود للّه أعظم.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال: «إذا قرأ ابنُ آدم السَّجدة فسجدَ، اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويلي أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسُّجود، فسجد، فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيت فلي النار» [انظر تمام تخريجه في الإحسان (٢٧٥٩)].

أعـلى من أن تستغرق في الأرض وحـاجات الأرض، ويحسّ أنـه أقوى من المخاليق لأنه موصول بخالق المخاليق. . وهذا كله مصدر قوة للضمير، كما أنه مصدر تحرج وتقوى، وعامل هام من عوامل تربية الشخصية، وجعلها ربانية التصور، ربانية الشعور، ربانية السلوك.

إن إقـامة الصـلاة هو انقـطاع عن غبش الحياة اليـومية وسفـاسفها، والاتصال بالله وتلقي فيضه ونوره. وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعـري رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله - ﷺ - في حـديث تـربـوي طويل[1]: «. . . والصلاة نور. .» نورٌ مطلق يفيض على قلب المؤمن، تُشرق بها روحه، وتستنير بصيرته. ولهذا كانت قُرَّة عين المتقين، كما كان النبي - ﷺ - يقول: «جُعلت قُرَّة عيني في الصلاة»[2].

والصـلاة نور للمؤمنـين في قبورهم، ولا سيـما صلاة الليـل كما قـال أبو الدرداء: «صلُّوا ركعتين في ظُلَم الليل لظلمة القبور»[3].

وهي في الآخرة نور للمتقين في ظلمات القيامة، وعلى الصراط، فـإن الأنوار تُقْسَم لهم على حسب أعمالهم. وفي «المسند» و«صحيح ابن حبان» عن عبـد الله بن عمرو عن النبي - ﷺ - أنـه ذكر الصـلاة، فقال: «مَن حـافظ عليها، كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومَن لم يحافظ عليها، لم يكن له نور ولا نجاة ولا برهان»[4].

ويتابع لقمان نصيحته لابنه: ﴿**وَأْمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر**﴾. .

---

(١) وهذا نصه: «الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله، والحمد لله، تملآن أو تملأ ما بينَ السماوات والأرض، والصلاة نور والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجةٌ لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائعٌ نَفْسَه، فمعتقها أو موبقها» [انظر تخريجه في جامع العلوم والحكم رقم ٢٣].

(٢) خرّجه أحمد والنسائي وصححه الحاكم ٢/١٦٠ انظر تخريجه في جامع العلوم ٢/٢١.

(٣) انظر جامع العلوم والحكم ٢/٢٢.

(٤) رواه أحمد ٢/١٦٩، وصححه ابن حبان (١٤٦٧).

إن طبيعـة المؤمن هي طبيعة الأمـة المؤمنة. طبيعـة الـوحـدة وطبيعـة التكافل، وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن في تحقيق الخير ودفع الشر ﴿وَأْمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر﴾..

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو إعلاء لكلمة الله في الأرض، وتحقيق شرعه والخير الذي أَمَر به، ودفع الشر بكل ألوانه.

إنها الصورة الوضيئة للمؤمن، الذي آمن إيماناً صادقاً عميقاً، وكاملاً شاملاً..

إن على المسلم في كل حين، وفي كل زمان ومكان واجب. وضعه الله سبحانه على كاهله في الأرض. واجب ثقيل لتحقيق كلمة الله وإعلاء دينه، واجب يحتمه الإيمان، وتُحتمه غاية وجود الإنسان على هذه الأرض وهي القيامُ بحق الخلافة.

إنه النهوض بتكاليف الإيمان، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب، وبكل ما في طريقها من أشواك.. إنه التعرض للشرّ والتحريض على الخير وصيانة المجتمع من عوامل الفساد.. وكل هذا متعب شاق، ولكنه كذلك ضروري لإقامة المجتمع الصالح وصيانته؛ ولتحقيق الصورة التي يحب الله أن تكون عليها الحياة.

وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة تقرر هـذا الواجب(١). وفي السنّـة

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ولتكن منكم أُمة يَدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتَنْهون عن المنكر﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿خُذِ العَفو وَأْمُر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف ويَنْهون عن المنكر﴾ [التوبة: ٧١]، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داودَ وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن مُنكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر﴾ [الكهف: ٢٩]، =

كذلك طائفة صالحة من أوامر الرسول ـ ﷺ ـ وتوجيهاته نقتطف بعضها:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «مَن رأى منكم مُنكراً فَلْيُغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم، فلم يَنتهوا، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم.. ثم جلس ـ وكان متكئاً ـ فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً»(٢) أي تعطفوهم وتردوهم.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم»(٣).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جدير بالاهتمام والتطبيق لأن فيه مصلحة المجتمع والأمة ونجاتها، وفي إهماله الخطر العظيم والفساد الكبير، فتختفي الفضائل ومكارم الأخلاق، وتظهر الرذائل وقبائح الأعمال. وهو من أهم المهمات وأفضل القربات والعبادات. وهو التناصح والتوجيه إلى الخير، والتواصي بالحق والصَّبر عليه، والتحذير من النكر والشر والفساد وكل ما

= وقال تعالى: ﴿فاصدع بما تُؤمر﴾ [الحجر: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿أنجينا الذين يَنْهون عن السُّوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون﴾ [الأعراف: ١٦٥] والآيات في الباب كثيرة معلومة.

(١) أخرجه مسلم (٤٩) وأخرجه أبو داود (١١٤٠) و(٤٣٤٠)، والترمذي (٢١٧٣)، والنسائي ١١١/٨، وابن ماجه (٤٠١٣).

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

(٣) رواه الترمذي (٢١٧٠) وقال حديث حسن، وله شاهد من حديث ابن عمر عند الطبراني في «الأوسط» وآخر عن أبي هريرة عند الطبراني في «الأوسط» أيضاً، انظر «مجمع الزوائد» ٢٦٦/٧.

يخالف ويُغضب الله عز وجل ويباعد من رحمته.

وأصل المعروف: توحيد الله عز وجل والإخلاص له ومنه ينبع كل معروف وخير وفضيلة وخُلق كريم.

وأصل المنكر: الشرك بالله وعبادة غيره ومنه تظهر كل ألوان الشر والفساد والأخلاق الذميمة الهابطة.

والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يتحرى الرفق والعبارات المناسبة، والألفاظ الطيبة **﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن﴾** [النحل: ١٢٥].

والدعوة بالحكمة، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها. فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه.

وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير حكمة، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية. فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

ويختار المؤمن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أطيب الكلام وأرفعه، وبالجدل بالتي هي أحسن. بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح. حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو التعالي في النصح والغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق والخير. فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تسير عليه في حياتها وتدافع عنه، إلا بالرفق، وبالعبارات الهادئة الرصينة، والألفاظ الطيبة الرقيقة. والقول اللين الرحيم.

والكلمة الفظّة، والعبارة الغليظة، والأسلوب الخشن يُبعد القلوب عن

الحق. فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعوة بالرفق والكلام الطيب، حتى لو جادلوه في شيء خفي عليهم، أو كابروا فيه، يجادلهم بالتي هي أحسن. فالمقام مقام تعليم ودعوة وإيضاح للحق، لأن هذا أقرب إلى الخير، قال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: «ينبغي للآمر والناهي أن يكون رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، عدلاً فيما يأمر به، عدلاً فيما ينهى عنه، عالماً بما يأمر به، عالماً بما ينهى عنه». فيجب تحري الرفق مع العلم والحلم والبصيرة، لا يأمر ولا ينهى إلا عن علم، لا عن جهل. ويكون مع ذلك رفيقاً عاملاً بما يدعو إليه، تاركاً ما ينهى عنه، حتى يُقتدى به.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له حواريون وأصحاب، يأخذون بسنّته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف[1] يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمَن جاهَدَهم بيده فهو مؤمن، ومَن جاهَدَهم بلسانه فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[2].

وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أنه قال: «يقول الله عز وجل: مُروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، قبل أن تدعوني فلا أستجيب لكم، وقبل أن تسألوني فلا أعطيكم، وقبل أن تستنصروني فلا أنصركم»[3].

---

(١) خُلوف: بضم الخاء، جمع خَلْف، يقول أهل اللغة: خَلَفَ كذا إذا جاء بعده. لكنها بالفتح (خَلَف) وهو الخالف بخير، وبالإمكان (خَلْف): وهو الخالف بشرّ. قال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

(٢) أخرجه مسلم [(٨٠)، (٥٠)] كتاب الإيمان، باب (٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٣٨٨/٥، ٣٩٠، ٣٩١. قال الألباني في صحيح الجامع (٦٩٤٧): حديث حسن. =

وكل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية تقرر أصالة هذه السمة في المجتمع المسلم، وضروراتها لهذا المجتمع أيضاً، وهي تحتوي مادة توجيه وتربية منهجية ضخمة[1].

ونمضي مع لقمان الحكيم في موعظته البليغة لإبنه: ﴿.. **واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور**﴾..

لا بد من العون والزاد على تكاليف الدور العظيم الذي أُنيط بالمؤمن، لحمل رسالة الله وتحقيق منهجه في الحياة على هذه الأرض.

لذلك كان الصبر في التوجيه التربوي هو القاعدة الصلبة في بناء صرح الإيمان في القلب الإنساني.. الصبر هو زاد الطريق الطويل. الطريق الشاق الحافل بالعقبات والإيذاء والابتلاء.. الصبر على أشياء كثيرة في ما يصيب الداعية إلى الله، من التواء النفوس وعنادها، وانحراف القلوب وإعراضها. ومن الأذى تمتد به الألسنة وتمتد به الأيدي. ومن الابتلاء في المال والابتلاء في النفس عند الاقتضاء ﴿**واصبر على ما أصابك..**﴾.

= وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «مثل القائم في حدود الله، والواقع فيها كَمَثَل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذي في أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على مَنْ فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ مَنْ فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» رواه البخاري ٥/٩٤ و٢١٦، ٢١٧.

«القائم في حدود الله تعالى» معناه: المنكر لها، القائم في دفعها وإزالتها، والمراد: بالحدود: ما نهى الله عنه. «استهموا»: اقترعوا.

عن أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية حذيفة رضي الله عنها، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنه يُستعمل عليكم أُمراء فتعرفون وتُنكرون فمَن كره فقد برىء، ومَن أنكر فقد سَلِمَ، ولكن مَن رضي وتابع» قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة» [رواه مسلم (١٨٥٤)] وفيه «ما صلوا» بدل «ما أقاموا فيكم الصلاة» واللفظ في النص هو عند مسلم (١٨٥٥) من حديث عوف بن مالك.

(١) إلى جانب النصوص القرآنية والأحاديث النبوية نحن غافلون عن قيمته وعن حقيقته. يراجع بتوسع كتاب «قبسات من الرسول» فصل «قبل أن تدعو فلا أجيب».

الصبر على مشقة ما يصادف السالك في طريق الإيمان لا تصوره حقيقة الكلمات. الكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة. إنما يدرك هذا المدلول مَن عانى مشقات الطريق وتذوقها، انفعالات وتجارب ومرارات، فَيَجِبْ أن لا ينفذ صبر المؤمنين، فإنه ضياء القلوب في ظلمات الدروب المعتمة الملتوية. قال رسول الله ـ ﷺ ـ في بيانه الشريف: «.. والصبر ضياء..»(١)، والضياء هو النور الذي يزيح الظلام، فهو كضياء الشمس(٢) التي تبدِّد عتمة الليل المبهم المظلم.

ولما كان الصبر شاقاً على النفوس، يحتاج إلى مجاهدة النفس وحبسها، وكفّها عمّا تهواه، كان ضِياءً، فإن معنى الصبر في اللغة: الحبسُ، ومنه قَتْلُ الصبر: وهو أن يُحبس الرجل حتى يُقتل.

وقد مدح الله تعالى الصبر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة وأَمَر به(٣)،

---

(١) وقد تقدم الحديث في هذا الفصل. انظر جامع العلوم والحكم، الحديث رقم ٢٣.

(٢) قال الله سبحانه: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً﴾ [يونس: ٥].

(٣) قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] أي اصبروا على الطاعات والمصائب وعن المعاصي، وصابروا الكفار، أي غالبوهم، فلا يكونوا أشد صبراً منكم. وقال تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين﴾ [البقرة: ١٥٥]. وقال تعالى: ﴿إنما يُوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠] وقال تعالى: ﴿ولَمَن صَبَرَ وغَفَر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ [الشورى: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾ [محمد: ٣١] والآيات في الأمر بالصبر وبيان فضله كثيرة معروفة.

وعن أبي سعيد سعد بن مالك بن سِنَان الخدري رضي الله عنهما قال: «.. ومَن يَسْتَعْفِف يُعِفُّهُ الله، ومَن يَسْتَغنِ يُغْنِه الله، ومَن يَتَصبَّر يُصَبِّره الله. وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصَّبر» [متفق عليه].

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمْرَه كلَّه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صَبَر فكان خيراً له» [رواه مسلم].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كأني أنظرُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يحكي نبياً من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، ضَرَبَه قومُه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه، =

وجعل أكثر الخيرات مضافاً إلى الصبر، وأثنى على فاعله، وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه، وهو توجيه من الله ـ سبحانه ـ إلى عباده المؤمنين، فهو زاد الدعوة في طريقها الشاق الطويل، وهو الصفة التي لا يستطيع المسلم حمل عقيدته والقيام بتكاليفها إلا بها، وهي تحتاج إلى الصبر في كل خطوة من خطواتها.

والدعوة إلى الصبر والتوجيه إليه صاحبت كل دعوة وتكررت لكل رسول ولكل مؤمن يتبع الرسول، وهي ضرورية لثقل العبء ومشقة الطريق. الصبر على شهوات النفس، والصبر على الإسلام الخالص[1]، إسلام القلب والوجه

= يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» [متفق عليه].

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما يصيب المسلم من نَصَب ولا وَصَب ولا هَمٍّ ولا حَزَن ولا أذى ولا غمٍّ، حتى الشوكة يُشاكُها إلا كفَّر الله بها من خطاياه» [متفق عليه] والوَصَب: المرض.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا أراد الله بعبده خيراً عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة».

وقال النبي ـ ﷺ ـ: «إنَّ عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء، وإنَّ الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهُم، فمَن رضيَ فله الرِّضى، ومَن سَخِطَ فله السُّخط» [رواه الترمذي برقم ٢٣٩٨] وقال: حديث حسن، وفي الباب عن عبد الله بن مغفل عند الطبراني والحاكم، وعن عمار بن ياسر عند الطبراني، وعن أبي هريرة عند ابن عدي، فالحديث صحيح بهذه الشواهد.

(١) قال الله عز وجل: ﴿قل: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ [التوبة: ٥١]، وقال: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾ [الحديد: ٢٢].

وخرّج الإمام أحمد من حديث أبي الدرداء عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن لكلِّ شيء حقيقة، وما بلغ عبدٌ حقيقةَ الإيمان حتى يعلمَ أن ما أصابه لم يكن ليخطئَهُ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه» [رواه أحمد ٦/٤٤١، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٧/١٩٧] وقال: رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات، ورواه الطبراني في «الأوسط».

وإن مدار هذه الوصية ﴿واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾ هو عماد الإيمان ورسالة الإسلام، فإن العبد إذا علم أنه لن يُصيبه إلا ما كتبَ الله له من خير وشرٍّ، ونفع وضر، وأن اجتهاد الخلق كلِّهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة، علم حينئذ أن الله وحده هو الضارُّ النافع، المعطي المانع، فأوجبَ ذلك للعبدِ توحيد ربِّه عز وجل، وإفرادَه بالطاعة، وحفظ حدوده، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلبَ المنافع ودفع المضار.

وقوله ـ ﷺ ـ: «واعلم أنَّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً» يعني أن ما أصاب العبد من المصائب المؤلمة المكتوبة عليه إذا صَبَرَ عليها، كان له في الصبر خيرٌ كثير. =

ومغالبة للهوى والشهوة والاستقامة على الدّين وهو عسير على النفوس. . **﴿إن ذلك من عزم الأمور﴾**. . وعزم الأمور: قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم.

سمة المؤمن:

ويستطرد لقمان في وصيته التي يحكيها القرآن هنا إلى أدب الداعية إلى الله. فالدعوة إلى الخير لا تجيز التعالي على الناس؛ والتطاول عليهم باسم قيادتهم إلى الخير. ومن باب أَوْلَى التعالي والتطاول بغير دعوة إلى الخير أقبح وأرذل:

﴿ولا تصعر خَدَّك للناس، ولا تَمش في الأرض مرحاً. إن الله لا يحبُّ كلَّ مختال فخور، واقصد في مشيك، واغضض من صوتك. إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾. .

والصَّعر داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها. والأسلوب القرآني يختار هذا التعبير للتنفيذ من الحركة المشابهة للصَّعر. حركة الكبر والازورار، وإمالة الخد للناس في تعالٍ واستكبار!

إذن فمعنى **﴿ولا تُصَعِّر خَدَّك للناس﴾** أي: لا تميله وتُعرضُ به عن الناس تكبُّراً عليهم.

و «المَرَح» التبختُر. والمشي في الأرض مرحاً هو المشي في تخايل ونفخة وقلة مبالاة للناس. وهي حركة كريهة يمقتها الله ويمقتها الخلق.

= والصبر واجب على المؤمن حتم، وفي الصبر على المكروه خير عميم وجزاء عظيم، فإن الله أَمَر به، وَوَعَد عليه جزيل الأجر **﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾**. .

ولنعلم أن الصبر: كفُّ النفس وحبسُها عن التسخط مع وجود الألم، وتمني زوال ذلك، وكفّ الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع.

يقول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «الصَّبر معوَّلُ المؤمن» [رواه أبو نعيم في «الحلية» ٥/٣٤٢] انظر جامع العلوم ١/٤٥٩ رقم ١٩.

وهو تعبير عن شعور مريض بالذات، يتنفَّس في مشيته الخيلاء: ﴿**إن الله لا يحب كل مختال فخور**﴾..

إن هذه الأوامر والنواهي مرتبطة بعقيدة التوحيد، فهو ـ سبحانه ـ ينهى عن الكِبْر الفارغ والخيلاء الكاذبة: ﴿**ولا تمش في الأرض مرحاً. إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً**﴾ [الإسراء: ٣٧]..

والإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو سلطان، أو قوة أو جمال. ولو تذكر أنه ما به من نعمة فمن الله، وأنه ضعيف أمام حول الله، لطامَنَ من كبريائه، وخَفَّف من خيلائه، ومشى على الأرض هوناً لا تيهاً ولا مرحاً.

والقرآن يجبه المتطاول المختال المرح بضعفه وعجزه وضآلته: ﴿**إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً**﴾.

فالإنسان بجسمه ضئيل هزيل، لا يبلغ شيئاً من الأجسام الضخمة التي خلقها الله. إنما هو قوي بقوة الله، عزيز بعزة الله، كريم بروحه الذي نفخه الله فيه، ليتصل به ويراقبه ولا ينساه.

ذلك التطامن والتواضع الذي يدعو إليه القرآن بترذيل المرح والخيلاء، أدب مع الله، وأدب مع الناس. أدب نفسي وأدب اجتماعي. وما يترك هذا الأدب إلى الخيلاء والعُجب إلا فارغ صغير القلب صغير الاهتمامات، يكرهه الله لبطره ونسيان نعمته، ويكرهه الناس لانتفاشه وتعاليه.

وفي الحديث: «مَن تواضع للّه رفعه. فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير. ومَن استكبر وَضَعه الله، فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير. حتى لهو أبغض إليهم من الكلب والخنزير»[(١)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا

(١) رواه ابن كثير في التفسير: آية: ﴿**ولا تمش في الأرض مرحاً...**﴾..

يدخل الجنَّةَ مَنْ كان في قلبه مِثقالُ ذَرَّة من كِبْر» فقال رجل: إن الرجل يُحبُّ أن يكون ثوبُه حسناً، ونعلهُ حسنةً؟ قال: إن الله جميل يحبُّ الجمال(١). الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغمط الناس»(٢).

بطرُ الحقِّ: دَفْعُه وردُّه على قائله، وغَمْطُ الناس: احتقارهم.

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أكل عند رسول الله ـ ﷺ ـ بشماله، فقال: «كُلْ بيمينك». قال: لا أستطيع! قال: «لا اسْتَطَعتَ» ما مَنَعَهُ إلا الكِبْر. قال: فما رفعها إلى فيه»(٣).

وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «أَلا أُخْبِرِكم بأهل النار؟: كُلُّ عُتُلٍّ جوّاظ مُسْتَكْبِر»(٤).

«العُتُلُّ»: الغليظ الجافي. و«الجوّاظ» بفتح الجيم وتشديد الواو وبالظاء المعجمة: وهو الجموع المنُوع، وقيل: الضخم المُختال في مِشْيته، وقيل: القصيرُ البطين.

وعن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه، عنِ النبي ـ ﷺ ـ قال: «احتجَّتِ الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبَّارون والمتكبِّرون، وقالت الجنة: فيَّ ضُعفاء الناس ومساكينهُم. فقضى الله بينهما: إنك الجنةُ رحمتي، أرحمُ بك من أشاء، وإنك النار عذابي، أُعذِّبُ بك من أشاء، وَلِكلَيْكما عليَّ مِلؤها»(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا ينظرُ الله يومَ القيامة إلى مَنْ جرَّ إزاره بطراً»(٦).

---

(١) أي: فليس ذلك من الكبر.
(٢) رواه مسلم (٩١)، وأخرجه أبو داود (٤٠٩١)، والترمذي (١٩٩٩).
(٣) رواه مسلم (٢٠٢١).
(٤) البخاري ٨/٥٠٧، ٥٠٨ و١٠/٤٠٨، ومسلم (٢٨٥٣).
(٥) رواه مسلم (٢٨٤٧).
(٦) البخاري ١٠/٢١٩، ٢٢٠، ومسلم (٢٠٨٧) وأخرجه مالك في «الموطأ» ٢/٩١٤.

وعنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قال الله عز وجل: العزُّ إزاري، والكبرياء ردائي، فمَن يُنازعني عذَّبته»(١).

وعنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «بينما رَجُلٌ يمشي في حُلَّةٍ تُعجبُه نَفْسُه، مُرَجِّلٌ رأسه، يختالُ في مِشْيته، إذ خَسَفَ الله به، فهو يَتَجَلْجَلُ في الأرض إلى يوم القيامة»(٢).

«الحُلّة» بضم الحاء المهملة: ثوب له ظهارة وبطانة. «مُرَجِّلٌ رأسه»: أي مُمَشِّطُهُ. «يتجلجل» بالجيمين: أي يغوص وينزل.

وعنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثة لا يُكلِّمُهُم الله يوم القيامة، ولا يُزكيهم، ولا ينظُر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخٌ زان، ومَلِكٌ كذّاب، وعائل (٣) مستكبر» (٤).

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يزالُ الرجُل يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حتى يُكْتَبُ في الجبارين، فيصيبُه ما أصابهم»(٥). «يذهب بنفسه» أي: يرتفعُ ويتكبّر.

فالكِبْر والعُجب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل. وهما من ذميم الفِعال والصفات التي نهى الله ورسوله عنهما ﴿**كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً**﴾ [الفرقان: ٣٩].

ومع النهي عن مشية الخيلاء والمرح، بيانٌ في وصية لقمان الحكيم للمِشْية المعتدلة القاصدة ﴿**واقصد في مشيك**﴾..

والقصد هنا من الاقتصاد وعدم الإسراف. وعدم إضاعة الطاقة في

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠) وأخرجه أبو داود (٤٠٩٠).
(٢) البخاري ١٠/٢٢١، ٢٢٢، ومسلم (٢٠٨٨).
(٣) العائل: الفقير.
(٤) رواه مسلم (١٠٧).
(٥) رواه الترمذي (٢٠٠١) وقال: حديث حسن.

التبختُر والتثني والاختيال. ومن القصد كذلك. لأن المِشْية القاصدة إلى هدف لا تتلكأ. ولا تتخايل ولا تتبختر، إنما تمضي لقصدها في بساطة وانطلاق.

ويصف الله عباده في القرآن الكريم ـ عباد الرحمٰن ـ بسماتهم وصفاتهم المميزة ومقومات نفوسهم وسلوكهم وحياتهم:

﴿وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ [الفرقان: ٦٣]. .

ها هي ذي السمة الأولى من سمات عباد الرحمٰن: أنهم يمشون على الأرض مشية سهلة لينة، ليس فيها تكلُّف ولا تصنُّع، وليس فيها خيلاء ولا تنفج، ولا تصعير خَدّ ولا تخلُّع أو ترهل. فالمشية ككل حركة تعبر عن الشخصية، وعما يستكن فيها من مشاعر. والنفس السوية المطمئنة الجادة القاصدة، تخلع صفاتها هذه على مشية صاحبها، فيمشي مشية سوية مطمئنة جادة قاصدة. فيها وقار وسكينة، وفيها جدّ وقوة. وليس معنى هذا أنهم يمشون متماوتين منكسي الرؤوس، متداعي الأركان، متهاوي البنيان؛ كما يفهم بعض الناس ممن يريدون إظهار التقوى والصلاح! وهذا رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا مشى تكفأ تكفياً، وكان أسرع الناس مشية، وأحسنها وأسكنها، قال أبو هريرة: ما رأيتُ شيئاً أحسنَ من رسول الله ـ ﷺ ـ كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول الله ـ ﷺ ـ كأنما الأرض تُطوى له ـ وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا مشى تكفأ تكفياً كأنما ينحطّ من صبب.

وقال مرة إذا تقلَّع ـ قلت: والتقلع الارتفاع من الأرض بجملته كحال المنحط من الصَّبب، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة[1].

---

(١) عن زاد المعاد في هدى خير العباد لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية.

ونمضي مع لقمان في وصيته لابنه: ﴿**واغضض من صوتك**﴾..

والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته. وما يزعق أو يغلظ في الخطاب إلا سيىء الأدب، أو شاكٌّ في قيمة قوله، أو قيمة شخصه، يحاول إخفاء هذا الشك بالحدّة والغلظة والزعاق!

والأسلوب القرآني يرذل هذا الفعل ويقبحه في صورة منفّرة محتقرة بشعة حين يعقب عليه بقوله: ﴿**إن أنكر الأصوات لصوتُ الحمير**﴾.. فيرتسم مشهد مضحك يدعو إلى الهزء والسخرية، مع النفور والبشاعة. ولا يكاد ذو حسّ يتصور هذا المشهد المضحك من وراء التعبير المبدع، ثم يحاول.. شيئاً من صوت هذا الحمير..!

وبعد.. فقصة لقمان الحكيم مليئة حافلة. موضوعاتها كثيرة منوعة، والأوتار التي توقع عليها متعددة مؤثرة، والظلال التي تلونها عميقة الخطوط في الوجدان الإنساني.

وهي كسائر القصص القرآنية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى: الألوهية: ونبذ الشرك المقيت والظلم العظيم، والبعث: في تعبير كبير عن دقة الحساب وعدالة الميزان. كل ذلك في إطار علم الله الواسع وشموله.. كذلك تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسة. تلم بالإحسان إلى الوالدين في صورة موحية معبّرة.. ثم تضيف إلى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة والعبادة والسلوك.

إنها دعوة حكيمة ووصية خالدة. نداء حبيب من أب لابنه، واستجاشة للقلب الإنساني، وهي أدب رفيع، وصورة من الأدب الإلهي.. دعوة إلى الآداب النفسية في المشاعر والأعماق الوجدانية. دعوة إلى السلوك القاصد النبيل.

لقد كانت وصية جليلة ضخمة تثير في النفس والذهن خواطر عميقة

ومعاني كبيرة، وتشمل قواعد التربية والتهذيب لمجتمع رفيع كريم نظيف. .

كل ذلك عرضه القرآن في قصة لقمان في نسق وأداء وتعبير عجيب، حافل بالإشارات الموحية، والوقفات العميقة الدلالة، والإيضاح القوي التأثير في استعراض عالي النسق في ظل بيان منير.

مشهد مفزع ـ مسخ وانحراف

يرسم القرآن الكريم من خلال تعبيره عن التحلل من العهد، والنكوص عن آيات الله والانسلاخ منها، نموذجاً إنسانياً، رَسَمه شاخصاً من خلال اللمسات، وينتفض مخلوقاً حياً خالد السمات! رسمه صورة لنموذج أصيل، لا يُخطئه الإنسان في كل مجتمع وجيل: **﴿واتل عليهم نبأ الذين آتيناه آياتنا فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين﴾** [الأعراف: ١٧٥]..

لقد رسمت الآيات القرآنية نموذجاً شخصياً واقعاً، والمعجزة الفنية في التصوير، جعلت هذا النموذج يتخطى الزمان والمكان، ويتجاوز القرون والأجيال.. صورة للانحراف عن سواء الفطرة، ونقض لعهد الله المأخوذ عليها، ونكوص عن آيات الله بعد رؤيتها والعلم بها.. ذلك الذي آتاه الله آياته، فكانت في متناول نَظَره وفكره؛ ولكنه انسلخ منها، وتَعرَّى عنها ولصق بالأرض، واتبع الهوى؛ فلم يستمسك بالميثاق الأول، ولا بالآيات الهادية؛ فاستولى عليه الشيطان؛ وأمسى مطروداً من حِمَى الله، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار..

ولكن البيان القرآني المعجز لا يصوغ المَثَل هذه الصياغة! إنما يُصوّره في مشهد حي متحرك، عنيف الحركة، شاخص السمات، بارز

الملامح، واضح الانفعالات؛ يحمل كل إيقاعات الحياة الواقعة، إلى جانب إيقاعات العبارة الموحية:

﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب.. إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث..﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]..

إنه مشهد من المشاهد العجيبة، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات.. إنسان يؤتيه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع.. ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً. ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه، فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه.. أوَ لَيست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان؟...

ها هو ذا ينسلخ من آيات الله؛ ويتجرد من الغطاء الواقي، والدرع الحامي؛ وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى؛ ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم؛ فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق، ولا يحميه منه حام، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه.. ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بائس نكد.. إذا نحن بهذا المخلوق، لاصِقاً بالأرض، ملوثاً بالطين. ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب، يَلْهَث إن طُورد ويلهث إن لم يطارد.. كل هذه المشاهد المتحركة تتابع وتتوالى؛ والخيال شاخص يتتبعها في انفعال وانبهار وتأثر. فإذا انتهى إلى المشهد الأخير منها.. مشهد اللهاث الذي لا ينقطع.. سمع التعليق المرهوب الموحي، على المشهد كله:

﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون. ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ [الأعراف: ١٧٦، ١٧٧]..

ذلك مَثَلهم! فلقد كانت آيات الهدى وموحيات الإيمان متلبسة بفطرتهم وكيانهم وبالوجود كله من حولهم. ثم إذا هم ينسلخون منها انسلاخاً. ثم إذا هم أمساخ شائهو الكيان، هابطون عن مكان «الإنسان» إلى مكان الحيوان.. مكان الكلب الذي يتمرغ في الطين.. وكان لهم جناح يرفون به إلى عليين، وكانوا من فطرتهم الأولى في أحسن تقويم، فإذا هم ينحطون منها إلى أسفل سافلين!.

﴿ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون!﴾..

وهل أسوأ من هذا المثل مثلاً؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى؟ وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى؟ وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا؟ من يُعريها من الغطاء الواقي والدرع الحامي، ويدعها غرضاً للشيطان يلزمها ويركبها، ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض، الحائر القلق، اللاهث لهاث الكلب أبداً!!!.

وبعد.. فهل هو نَبأ يُتلى؟ أم أنه مَثَل يُضرب في صورة النبأ لأنه يقع كثيراً. فهو من هذا الجانب خبر يروى؟.

تذكر بعض الروايات أنه نبأ رجل كان صالحاً في فلسطين ـ قبل دخول بني إسرائيل ـ وتروي بالتفصيل الطويل قصة انحرافه وانهياره؛ على نحو لا يأمن الذي تَمَرّس بالإسرائيليات الكثيرة المدسوسة في كتب التفاسير، أن يكون واحدة منها؛ ولا يطمئن على الأقل لكل تفصيلاته التي وَرَد فيها؛ ثم إن في هذه الروايات من الاختلاف والاضطراب ما يدعو إلى زيادة الحذر.. فقد رُوي أن الرجل من بني إسرائيل (بلعام بن باعوراء)، وروي أنه كان من أهل فلسطين الجبابرة. وروي أنه كان من العرب (أمية بن الصلت). وروي أنه كان من المعاصرين لبعثة الرسول ـ ﷺ ـ (أبو عامر الفاسق)، وروي أنه كان معاصراً لموسى ـ عليه السلام ـ، وروي أنه كان بعده على عهد يوشع بن نون الذي حارب الجبارين ببني إسرائيل بعد تيه الأربعين سنة على

إثر رفض بني إسرائيل الدخول، وقولهم لموسى ـ عليه السلام ـ ما حكاه القرآن الكريم: ﴿**فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون**﴾..

كذلك روي في تفسير الآيات التي أُعطيها أنه كان (اسم الله العظيم) الذي يدعو به فيجاب؛ كما روي أنه كتاب مُنزل وأنه كان نبياً.. ثم اختلفت تفصيلات النبأ بعد ذلك اختلافات شتى..

لذلك رأينا ألا ندخل في شيء من هذا كله. بما أنه ليس في النص القرآني منه شيء. ولم يرد من المرفوع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ عنه شيء. وأن نأخذ من النبأ ما وراءه. فهو بمثل حال الذين يكذبون بآيات الله بعد أن تبين لهم فيعرفوها ثم لا يستقيموا عليها.. وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر؛ وما أكثر الذين يُعطون علم دين الله، ثم لا يهتدون به، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه. واتباع الهوى به.. هواهم وهوى المُتَسلطين الذين يملكون لهم ـ في وَهْمِهم ـ عرض الحياة الدنيا.

وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها. ويُعلن غيرها. ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعاً!.

فماذا يكون هذا إلا أن يكون مصداقاً لنبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلَخَ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين؟.

وماذا يكون هذا إلا أن يكون المسخ الذي يحكيه الله ـ سبحانه ـ عن صاحب النبأ: ﴿**ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه. فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث!**﴾.. ولو شاء الله لرفعه بما آتاه من العلم بآياته. ولكنه ـ سبحانه ـ لم يشأ، لأن ذلك الذي

عَلِمَ الآيات أَخْلَد إلى الأرض، واتبع هواه، ولم يتبع الآيات. .

إنه مَثَل لكل من آتاه الله من علم الله؛ فلم ينتفع بهذا العلم؛ ولم يستقم على طريق الإيمان. وانسلخ من نعمة الله. ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان. ولينتهي إلى المسخ في مرتبة الحيوان!.

ثم ما هذا اللهاث الذي لا ينقطع؟.

إنه ـ في حسنا كما توحيه إيقاعات النبأ وتصوير مشاهده في القرآن ـ ذلك اللهاث وراء أعراض هذه الحياة الدنيا التي من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها. ذلك اللهاث القلق الذي لا يطمئن أبداً. والذي لا يتركه صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه؛ فهو منطلق فيه أبداً!.

والحياة البشرية ما تَنِي تطلع علينا بهذا المثل في كل مكان وفي كل زمان وفي كل بيئة. . حتى إنه لتمر فترات كثيرة، وما تكاد العين تقع على عالم إلا وهذا مَثَله. فيما عدا الندرة النادرة مِمَّن عَصَم الله، ممن لا ينسلخون من آيات الله، ولا يخلدون إلى الأرض؛ ولا يتبعون الهوى، ولا يستذلّهم الشيطن؛ ولا يلهثون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان!. . فهو مَثَل لا ينقطع وروده ووجوده، وما هو بمحصور في قصة وقعت، في جيل من الزمان!.

وقد أمر رسوله ـ ﷺ ـ أن يتلوه على قومه الذين كانت تتنزل عليهم آيات الله، كي لا ينسلخوا منها وقد أوتوها. ثم ليبقى من بعده ومن بعدهم يُتلى، ليحذر الذين يعلمون من علم الله شيئاً أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة؛ وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذي لا ينقطع أبداً، وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذي لا يظلمه عدو لعدو. فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية النكدة!.

ولقد رأينا من هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ في زماننا هذا من كان كأنما

يحرص على ظلم نفسه؛ أو كمن يعض بالنواجذ على مكان له في قعر جهنم يخشى أن ينازعه إياه أحد من المتسابقين معه في الحلبة! فهو ما يني يقدم كل صباح ما يثبت به مكانه هذا في جهنم! وما يني يلهث وراء هذا المطمع لهاثاً لا ينقطع حتى يفارق هذه الحياة الدنيا!.

اللهم اعصمنا، وثبت أقدامنا، وأفرغ علينا صبراً، وتوفنا مسلمين..

مسـخ وانتكـاس

ومرة أخرى يواجه القرآن الكريم بني إسرائيل بمظهر من مظاهر النكث والنكسة، والتحلل من العهد والعجز عن الاستمساك به، والضعف عن احتمال تكاليفه، والضعف أمام الهوى أو النفع القريب:

﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر، إذ يعدون في السبت، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم. كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ [الأعراف: ١٦٣]. .

ومرة أخرى يقع القوم في المعصية والخطيئة.. وهم في هذه المرة لا يخالفون الأمر جهرة ولكنهم يحتالون على النصوص ليفلتوا منها! ويأتيهم الابتلاء فلا يصبرون عليه، لأن الصبر على الابتلاء يحتاج إلى طبيعة متماسكة في تملك الارتفاع من الأهواء والأطماع.. **﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر..﴾**.

يدرك سياق القصة هنا عن أسلوب الحكاية عن ماضي بني إسرائيل، إلى أسلوب المواجهة لذراريهم التي كانت تواجه رسول الله - ﷺ - في المدينة..

يأمر الله - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يسأل اليهود عن هذه الواقعة المعلومة في تاريخ أسلافهم. وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة متصلة

الأجيال؛ ويذكرهم بعصيانهم القديم، وما جره على فريق منهم من المسخ في الدنيا؛ وما جره عليهم جميعاً من كتابة الذل عليهم والغضب أبداً.. اللهم إلا الذين يتبعون الرسول النبي، فيرفع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

ولا يذكر اسم القرية التي كانت حاضرة البحر؛ فهي معروفة للمخاطبين! فأما الواقعة ذاتها فقد كان أبطالها جماعة من بني إسرائيل يسكنون مدينة ساحلية.. وكان بنو إسرائيل قد طلبوا أن يجعل لهم يوم راحة يتخذونه عيداً للعبادة؛ ولا يشتغلون فيه بشؤون المعاش، فجعل لهم السبت.. ثم كان الابتلاء ليربيهم ويعلمهم كيف تقوى إرادتهم على المغريات والأطماع؛ وكيف ينهضون بعهودهم حين تصطدم بهذه المغريات والأطماع.. وكان ذلك ضرورياً لبني إسرائيل التي تخلخلت شخصياتهم وطباعهم بسبب الذل الذي عاشوا فيه طويلاً؛ ولا بد من تحرير الإرادة بعد الذل والعبودية، لتعتاد الصمود والثبات. فضلاً على أن هذا ضروري لكل من يحملون دعوة الله؛ ويُؤهلون لأمانة الخلافة في الأرض..

وقد كان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وُجِّه من قبل إلى آدم وحواء.. فلم يصمدا له واستمعا لإغراء الشيطان بشجرة الخلد ومُلك لا يبلى! ثم ظل هو الاختبار الذي لا بد أن تجتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله لها بأمانة الاستخلاف في الأرض.. إنما يختلف شكل الابتلاء، ولا تتغير فحواه!.

وقد فَصّل القرآن حكاية اعتدائهم في السبت.. ﴿**ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت..**﴾ [البقرة: ٦٥]..

نعم فقد طلبوا أن يكون لهم يوم راحة مقدس، فجعل الله لهم يوم السبت راحة مقدساً لا يعملون فيه للمعاش. ثم ابتلاهم بعد ذلك بالحيتان تكثر يوم السبت، وتختفي في غيره!.

ولم يصمد فريق من بني إسرائيل ـ في هذه المرة ـ للابتلاء الذي كتبه الله عليهم بسبب ما تكرر قبل ذلك من فسوقهم وانحرافهم. .

لقد جعلت الحيتان في يوم السبت تتراءى لهم على الساحل، قريبة المأخذ، وسهلة الصيد. فتفوتهم وتفلت من أيديهم بسبب حرمة السبت التي قطعوها على أنفسهم! فإذا مضى السبت، وجاءتهم أيام الحلّ. لم يجدوا الحيتان قريبة ظاهرة، كما كانوا يجدونها يوم الحرام! وكان ابتلاء لم تصمد له يهود! وكيف تصمد وتدع هذا الصيد القريب يضيع؟ أتتركه وفاءً بعهد الله واستمساكاً بميثاق؟ إنَّ هذا ليس من طبع يهود!.

ومن ثم اعتدوا في السبت. اعتدوا على طريقتهم الملتوية. . راحوا يحوطون على الحيتان في يوم السبت، ويقطعونها عن البحر بحاجز، ولا يصيدونها! حتى إذا انقضى اليوم تقدموا وانتشلوا السمك المحجوز!. . وهذا ما أمر رسول الله ـ ﷺ ـ أن يذكرهم به، ويذكرهم ماذا فعلوا وماذا لاقوا. .

فأما كيف وقع لهم هذا، وكيف جعلت الأسماك تحاورهم هذه المحاورة، وتداورهم هذه المداورة. . فهي الخارقة التي تقع بإذن الله عندما يشاء الله. . والذين لا يعلمون ينكرون أن تجري مشيئة الله بغير ما يسمونه هم «قوانين الطبيعة»! والأمر في التصور الإسلامي ـ وفي الواقع ـ ليس على هذا النحو. .

إن الله ـ سبحانه ـ هو الذي خلق الكون، وأودعه القوانين التي يسير عليها بمشيئته الطليقة. ولكن هذه المشيئة لم تعد حبيسة هذه القوانين لا تملك أن تجري إلا بها. . لقد ظلت طليقة بعد هذه القوانين كما كانت طليقة. . وهذا ما يغفل عنه الذين لا يعلمون. . وإذا كانت حكمة الله ورحمته بعباده المخاليق قد اقتضت ثبات هذه القوانين؛ فإنه لم يكن معنى هذا تقييد هذه المشيئة وانحباسها داخل هذه القوانين. . فحيثما اقتضت

الحكمة جريان أمر من الأمور مخالفاً لهذه القوانين الثابتة جرت المشيئة طليقة بهذا الأمر. . ثم إن جريان هذه القوانين الثابتة في كل مرة تجري فيها إنما يقع بقدر من الله خاص بهذه الأمور. فهي لا تجري جرياناً آلياً لا تَدَخُّل لِقَدَر الله فيه. . وهذا مع ثباتها في طريقها ما لم يشأ الله أن تجري بغير ذلك. . وعلى أساس أن كل ما يقع ـ سواء من جريان القوانين الثابتة أو جريان غيرها ـ إنما يقع بقَدَر من الله خاص، فإنه تستوي الخارقة والقانون الثابت في جريانه بهذا القَدَر. . ولا آلية في نظام الكون في مرة واحدة ـ كما يظن الذين لا يعلمون! ولقد بدأوا يدركون هذا في ربع القرن الأخير[1]!.

على أية حال، لقد وقع ذلك لأهل القرية التي كانت حاضرة البحر من بني إسرائيل. . فإذا جماعة منهم تهيج مطامعهم أمام هذا الإغراء، فتتهاوى عزائمهم، وينسون عهدهم مع ربهم وميثاقهم، فيحتالون الحيل ـ على طريقة اليهود ـ للصيد في يوم السبت!.

وما أكثر الحيل عندما يلتوي القلب، وتقل التقوى، ويصبح التعامل مع مجرد النصوص، ويراد التفلت من ظاهر النصوص!. .

إن القانون لا تحرسه نصوصه، ولا يحميه حراسه. إنما تحرسه القلوب التقية التي تستقر تقوى الله فيها وخشيته، فتحرس هي القانون وتحميه. وما من قانون تمكن حمايته أن يحتال الناس عليه! ما من قوة تحرسه القوة المادية والحراسة الظاهرية! ولن تستطيع الدولة ـ كان ما كان الإرهاب فيها ـ أن تضع على رأس كل فرد حارساً يلاحقه لتنفيذ القانون وصيانته؛ ما لم تكن خشية الله في قلوب الناس، ومراقبتهم له في السر والعلن. . .

---

(١) يراجع ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ في ظلال القرآن ص ١١١٣ ـ ١١٢١.

من أجل ذلك تفشل الأنظمة والأوضاع التي لا تقوم على حراسة القلوب التقية. وتفشل النظريات والمذاهب التي يضعها البشر للبشر ولا سلطان فيها من الله. . ومن أجل ذلك تعجز الأجهزة البشرية التي تقيمها الدول لحراسة القوانين وتنفيذها. وتعجز الملاحقة والمراقبة التي تتابع الأمور من سطوحها!.

وهكذا راح فريق من سكان القرية التي كانت حاضرة البحر يحتالون على السبت، الذي حرم عليهم الصيد فيه. . وروي أنهم كانوا يقيمون الحواجيز على السمك ويحوّطون عليه في يوم السبت؛ حتى إذا جاء الأحد سارعوا إليه فجمعوه؛ وقالوا: إنهم لم يصطادوه في السبت، فقد كان في الماء ـ وراء الحواجيز ـ غير مصيد!.

وراح فريق منهم آخر يرى ما يفعلون من الاحتيال على الله! فيحذر الفريق العاصي مغبة احتياله! ويُنكر عليه ما يزاوله من الاحتيال! بينما مضى فريق ثالث يقول للآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر: ما فائدة ما تزاولونه مع هؤلاء العصاة، وهم لا يرجعون عما هم آخذون فيه؟ وقد كتب الله عليهم الهلاك والعذاب؟ ﴿**وإذ قالت أمة منهم: لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً؟**﴾ [الأعراف: ١٦٤].

فلم تعد هناك جدوى من الوعظ لهم، ولم تعد هناك جدوى لتحذيرهم. . بعدما كتب الله عليهم الهلاك أو العذاب الشديد؛ بما اقترفوه من انتهاك لحرمات الله. .

﴿**قالوا: معذرة إلى ربكم، ولعلهم يتقون**﴾ [الأعراف: ١٦٤]. .

فهو واجب لله نؤديه: واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتخويف من انتهاك الحرمات، لنبلغ إلى الله عذرنا، ويعلم أن قد أدينا واجبنا. ثم لعل النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية فيثير فيها وجدان التقوى.

وهكذا انقسم سكان الحاضرة إلى ثلاث فرق.. أو ثلاث أمم.. فالأمة في التعريف الإسلامي هي مجموعة الناس التي تدين بعقيدة واحدة وتصور واحد وتدين لقيادة واحدة، وليست كما هي في المفهوم الجاهلي القديم أو الحديث، مجموعة الناس التي تسكن في إقليم واحد من الأرض وتحكمها دولة واحدة! فهذا مفهوم لا يعرفه الإسلام، إنما هي من مصطلحات الجاهلية القديمة أو الحديثة[1]!.

وقد انقسم سكان القرية الواحدة إلى ثلاث أمم: أمة عاصية محتالة. وأمة تقف في وجه المعصية والاحتيال وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة. وأمة تدع المنكر وأهله، وتقف موقف الإنكار السلبي ولا تدفعه بعمل إيجابي.. وهي طرائق متعددة من التصور والحركة، تجعل الفرق الثلاث أمماً ثلاثاً!.

فلما لم يجد النصح، ولم تنفع العظة، وسَدَر السادرون في غيهم، حقَّت كلمة الله، وتحققت نُذُره. فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء في نجوة من السوء. وإذا الأمة العاصية يحل بها العذاب الشديد الذي سيأتي بيانه. فأما الفرقة الثالثة ـ أو الأمة الثالثة ـ فقد سكت النص عنها.. ربما تهويناً لشأنها ـ وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب ـ إذ أنها قعدت عن الإنكار الإيجابي، ووقفت عند حدود الإنكار السلبي. فاستحقت الإهمال وإن لم تستحق العذاب:

﴿فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء، وأخذنا الذين

---

(١) ترد كلمة «أمة» بمعنى الجماعة من الناس إطلاقاً كقوله تعالى: **﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾**، وترد بمعنى القيادة والإمامة كقوله تعالى: **﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً﴾**، وهي هنا تتضمن معنى أنه كان فريقاً وحده.. وإن كان هذا لا يؤثر في المدلول الاصطلاحي الإسلامي للفظ أمة وهو الجماعة من الناس ذات العقيدة الواحدة والتصور الواحد.

ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون. فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم: كونوا قردة خاسئين﴾ [الأعراف: ١٦٥، ١٦٦]..

لقد كان العذاب البئيس ـ أي الشديد ـ الذي حل بالعصاة المحتالين، جزاء إمعانهم في المعصية ـ التي يعتبرها النص هي الكفر، الذي يُعبَّر عنه بالظلم مرة وبالفسق مرة كما هو الغالب في التعبير القرآني عن الكفر والشرك بالظلم والفسق؛ وهو تعبير يختلف عن المصطلح الفقهي المتأخر عن هذه الألفاظ إذ أن مدلولها القرآني ليس هو المدلول الذي جعل يشيع في التعبير الفقهي المتأخر ـ كان ذلك العذاب البئيس هو المسخ عن الصورة الآدمية إلى الصورة القردية!.

لقد تنازلوا هم عن آدميتهم، حين تنازلوا عن أخص خصائصها ـ وهو الإرادة التي تسيطر على الرغبة ـ وانتكسوا إلى عالم «الحيوان» حين تخلوا عن خصائص «الإنسان». فقيل لهم أن يكونوا حيث أرادوا لأنفسهم من الانتكاس والهوان!.

أم كيف صاروا قردة؟ وكيف حدث لهم بعد أن صاروا قردة؟ هل انقرضوا كما ينقرض كل ممسوخ يخرج عن جنسه؟ أم تناسلوا وهم قردة؟.. إلى آخر هذه المسائل التي تتعدد فيها روايات التفسير.. فهذا كله مسكوت عنه في القرآن الكريم، وليس وراءه عن رسول الله ـ ﷺ ـ شيء.. فلا حاجة بنا نحن إلى الخوض فيه.

لقد جرت كلمة الله التي يجري بها الخلق والتكوين ابتداء، كما يجري بها التحوير والتغيير.. كلمة «كن». **﴿قلنا لهم: كونوا قردة خاسئين﴾**.. فكانوا قردة مهينين. كما جرى القول الذي لا رادّ له؛ ولا يعجز قائله عن شيء سبحانه!.

إنه العهد والميثاق مع الله!! ولكنهم نقضوا الميثاق وتحللوا واحتالوا.. هؤلاء هم الذين فسقوا حتى بلغ بهم الظلم والفسوق ألا يصير

حالهم إلى الإيمان. . لقد لَجُّوا في الفسوق والظلم والعدوان **﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت، فقلنا لهم: كونوا قردة خاسئين، فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾** [البقرة: ٦٥، ٦٦]. .

هؤلاء فسدت فطرتهم، وباتوا بذلك شرّ الدواب والبهائم عند الله. . لقد حق عليهم جزاء النكول عن عهدهم مع الله، والنكوص عن مقام الإنسان ذي الإرادة. فانتكسوا بهذا إلى عالم الحيوان والبهيمة، الحيوان الذي لا إرادة له، والبهيمة التي لا ترتفع على دعوة البطون! انتكسوا بمجرد تَخَلِّيهم عن الخصيصة الأولى التي تجعل من الإنسان إنساناً. خصيصة الإرادة المستعلية المستمسكة بعهد الله والتقيد بميثاقه. . وانطلقوا تسوقهم أهواؤهم وقد تملصوا من ميثاق الله بحيلة شيطانية وهم يظنون في أنفسهم الذكاء والدهاء والقدرة على التلاعب بميثاق الله ونصوصه. . في طبيعتهم آفة، وفي قلوبهم زيغ وعلة. . كيف يُخادعون الله ويحتالون على ميثاقه وأمره. . إنهم من الانتكاس والارتكاس والغفلة المتردّية بحيث لا يخدعون إلا أنفسهم! إن الله بخداعهم عليم، يخدعون أنفسهم حين يظنون أنهم على العهد والميثاق مع الله وهم يفسقون ويكفرون بأوامره. . كل هذا انتهى بهم إلى شر مصير ينتهي بالإنسانية: **﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾**. .

وليس من الضروري أن يستحيلوا قردة بأجسامهم، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم، وانطباعات الشعور والتفكير تعكس على الوجوه والملامح سمات تؤثر في السِّحنة وتُلقي ظِلّها العميق!.

ومضت هذه الحادثة عبرة رادعة للمخالفين في زمانها وفيما يليه، وموعظة نافعة للمؤمنين في جميع العصور:

﴿فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾. .

قال الإمام ابن القيم: «وقد أخبر الله تعالى عن أهل السبت من اليهود بِمَسْخهم قردة لما احتالوا على إباحة ما حرّمه الله تعالى عليهم من الصيد بأن

نصبوا الشباك يوم الجمعة، فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد.

قال بعض الأئمة: ففي هـذا زجر عـظيم لمن يتعاطى الحيـل على المناهي الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقه، وهو غير فقيه، إذ الفقيه مَن يخشى الله تعالى بحفظ حدوده وتعظيم حرماته والوقوف عندها، ليس المتحيل على إباحة محارمه وإسقاط فرائضه.

ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيباً لموسى ـ عليه السلام ـ وكفراً بالتوراة، وإنما هو استحلال تأويل واحتيال، ظاهره ظاهر الاتقاء، وباطنـه باطن الاعتداء، ولهذا والله أعلم مُسخوا قردة، لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شَبَه منه، وهو مخالف له في الحدّ والحقيقة. فلما مُسخ أولئك المعتدون على دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته، مسخهم الله تعالى قردة، يشبهونهم في بعض ظواهرهم دون الحقيقـة جزاء وفـاقاً، يـوضحه ما يلي:

إنَّ بني إسرائيل كانوا قد أكلوا الربا وأموال الناس بالباطل كما قَصَّه الله تعالى في كتابه[1]، وذلك أعظم من أكل الصيد الحرام في يوم بِعَينه، ولذلك كان الربا والظلم حرام في شريعتنا، والصيد يوم السبت غير محرّم فيها. ثم إن أَكَلَةَ الربا وأموال الناس بالباطل لم يُعاقبوا بالمسخ كما عوقب به مُستحِلُّوا الحرام بالحيلة، وإن كانوا عوقبوا بجنس آخر كعقوبات أمثالهم من العصاة. فيشبه والله أعلم أن هؤلاء لما كانـوا أعظم جـرماً إذ هم بمنـزلة المنافقين ولا يعترفون بالذنب، بل قـد فسدت عقيـدتهم وأعمالهم كـانت عقوبتهم أغلظ من عقوبة غيرهم؛ فإن من أَكَلَ الربا والصيد الحرام عالماً بأنه

(١) قال تعالى في سورة النساء آية ١٦٠، ١٦١: ﴿فَبِظُلم من الذين هادوا حرَّمنا عليهم طيبات أُحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما﴾.

حرام فقد اقترن بمعصيته اعترافه بالتحريم، وهو إيمان بالله تعالى وآياته. ويترتب على ذلك من خشية الله تعالى ورجاء مغفرته وإمكان التوبة ما قد يُفضي به إلى خير ورحمة.

ومن أَكَلهُ مُستحلاً له بنوع احتيال تأوَّل فيه، فهو مصرٌّ على الحرام، وقد اقترن به اعتقاده الفاسد في حل الحرام، وذلك قد يُفضي به إلى شر طويل».

لقد احتال اليهود على إباحة ما حرّمه الله تعالى فقد أصابهم الزيغ في قلوبهم، فانتخرت وتوهنت عقيدتهم وانهارت أمام بريق الشّهوة ومغرياتها، لقد أغلقوا نوافذ الإيمان في أفئدتهم، فإذا هي صلدة مظلمة جامدة عنيدة، تروغ روغان الثعلب حول صيد طري . .

إنهم يُخادعون الله سبحانه وما يخدعون إلا أنفسهم. . والمخادعة: هي الاحتيال والمراوغة بإظهار الخير مع إبطان خلافه: ليحصل مقصود المخادع. وهذا موافق لاشتقاق اللفظ في اللغة: فإنهم يقولون: طريق خيدع، إذا كان مخالفاً للقصد لا يُشعر به ولا يُفطن له، ويقال للسراب الخيدع، لأنه يغرّ من يراه، وضبّ خَدِع، أي مراوغ. كما قالوا: أخدع من ضبّ. ومنه: الحرب خدعة، وسوق مخادعة، أي متلونة، وأصله: الإخفاء والستر. ومنه سميت الخزانة مخدعاً[1].

إنها يهود في عتامة قلوبها وارتكاسها. تتلوى في الحسّ، وتروغ من الحقيقة. إنهم انتكسوا وجَبُنوا أن يواجهوا الفعل الحرام بالظاهر. فهم يواجهون تمسكهم بنصوص ميثاقهم مع الله بالألفاظ، بينما هم يَلْوون قلوبهم بالكفر والظلم والفسوق.

وهم بفعلتهم تلك يظنون في أنفسهم الذكاء والدهاء، والقدرة على

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٣٥٥.

التملص من الوقوع في الحرام، والانسلاخ من نصوص العهد والميثاق، فهم يخادعون الله في احتيالهم هذا أو يحاولون: ﴿أَوَ لا يعلمون أن الله يعلم ما تخفي صدورهم وما يعلنون﴾، فهم يتظاهرون بالامتثال لأوامر الله، ولكن حقيقة الأمر هم في غفلة بحيث لا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون! فالله سبحانه عليم بالتوائهم اللئيم وخداعهم الماكر.

فما أبأس من يستهزىء بنصوص العهد مع الله، فهو سبحانه يمدّ لهم، فهم في مكرهم وطغيانهم يعمهون.. يخبطون في خداع أنفسهم، ثم يد المنتقم الجبار تمسخهم في صورة زرية تهويناً من شأنهم، ووعيداً لكل النفوس الممسوخة الهزيلة التافهة التي تحتال لإباحة ما حرمه الله تعالى.

جرم عظيم وفعل قبيح:

وقد جاء ذكر المسخ في عدة أحاديث نبوية:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكبتْ اليهود، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحِيَل»[1].

وهو نص في تحريم استحلال محارم الله تعالى بالحيل، وإنما ذكر ـ ﷺ ـ أدنى الحيل تنبيهاً على أن مثل هذا المُحرَّم العظيم الذي قد توعَّد الله تعالى عليه بمحاربة من لم يَنْتَهِ عنه.

وعن جابر بن عبد الله: أنه سمع النبي ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله حرَّم بَيْع الخمر والميتة، والخنزير، والأصنام، فقيلَ: يا رسول الله! أرأيتَ شحوم الميتة فإنها يُطلى بها السُّفن، ويُدهن بها الجلود، ويَستصِح بها الناس؟ فقال: لا، هو حرام». ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ عند ذلك: «قاتلَ الله

(١) رواه أبو عبد الله بن بطة: حدثنا أحمد بن محمد بن سلام، حدثنا الحسن بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، قال ابن القيم: وهذا إسناد صحيح يصحح مثله الترمذي (إغاثة اللهفان ١/٣٦٣).

اليهود، إن الله لما حرَّم عليهم شحومها جَملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه»[١].

فمن احتيال اليهود: أن الله سبحانه لما حرّم عليهم الشحوم، تأوّلوا أن المراد نفس إدخاله الفم، وأن الشحم هو الجامد دون المذاب، فجملوه فباعوه وأكلوا ثمنه، وقالوا: ما أكلنا الشحم، ولم ينظروا في أن الله تعالى إذا حرَّم الانتفاع بشيء فلا فرق بين الانتفاع بعينه أو بِبَدَله. إذ البَدَل يسدّ مسدّه. فلا فرق بين حال جامده وَوَدْكه، فلو كان ثمنه حلالاً لم يكن في تحريمه كثير أمر.

قال ابن عباس: بلغ عمر ـ رضي الله عنه ـ أن فلاناً باع خمراً. فقال: قاتلَ الله فلاناً، أَلَمْ يعلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «قاتل الله اليهود، حُرمت عليهم الشحوم فجملوها[٢] فباعوها»[٣].

قال الخطابي: في هذا الحديث بطلان كل حيلة يحتال بها المتوصل إلى المحرم، وأنه لا يتغير حكمه بتغير هيئاته وتبديل اسمه، وقد مثلت حيلة أصحاب الشحوم بمن قيل له: لا تقرب مال اليتيم، فباعه وأخذ ثمنه وأكله وقال: لم آكل نفس مال اليتيم. أو اشترى شيئاً في ذمته ونقده، وقال: هذا قد ملكتُه وصار عوضه ديناً في ذمتي، فإنما أكلتُ ما هو ملكي ظاهراً وباطناً.

وقال ابن القيم: فمن أسهل الحيل على من أراد فعله: أن يعطيه مثلاً ألفاً إلا درهماً باسم القرض، ويبيعه خرقة تساوي درهماً بخمس مئة[٤].

وقد جاء ذكر المسخ في عدة أحاديث نبوية:

روى البخاري في صحيحه في حديث أبي مالك الأشعري أنه سمع

---

(١) رواه البخاري وأصله متفق عليه، انظر جامع العلوم والحكم ٢/٤٤٥.

(٢) قال الخطابي: (جملوها) معناه: أذابوها حتى تصير ودكاً فيزول عنها اسم الشحم يقال: جملت الشحم، وأجملته، وأجلته، واجتملته. والجميل: الشحم المذاب.

(٣) متفق عليه.

(٤) إغاثة اللهفان ١/٣٦٣.

النبي ﷺ يقول: «لَيَكُونَنَّ من أمتي أقوام يَسْتَحِلُّون الحِر[1] والحرير والخمر والمعازف، ولينزلنّ أقوامٌ إلى جَنْب عَلَم، يروح عليهم بسَارحة لهم يأتيهم لحاجة فيقولوا ارجع إلينا غداً، فيُبَيِّتُهم الله تعالى ويَضَعُ العَلَم، ويمسخ آخرين قِرَدة وخنازير إلى يوم القيامة».

قال أبو هريرة: لا تقوم الساعة حتى يمشي الرجلان إلى الأمر يعملانه، فيمسخ أحدهما قرداً أو خنزيراً. فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمضي إلى شأنه ذلك حتى يقضي شهوته، وحتى يمشي الرجلان إلى الأمر يعملانه، فيخسف بأحدهما، فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمضي لشأنه ذلك، حتى يقضي شهوته منه.

وقال مالك بن دينار: بلغني أن ريحاً تكون في آخر الزمان، وظلم، فيفزع الناس إلى علمائهم، فيجدونهم قد مَسَخهم الله.

فالمسخ على صورة القردة والخنازير واقع في هذه الأمة ولا بُدّ وهو في طائفتين:

علماء السوء الكاذبين على الله ورسوله، الذين قلبوا دين الله تعالى وشرعه فقَلَبَ الله تعالى صُوَرهم كما قلبوا دينهم.

والمجاهرين المُتَهتِّكين بالفسق والمحارم. ومن لم يُمسخ منهم في الدنيا مُسخ في قبره أو يوم القيامة.

وبكل حال فالمسخ لأجل الاستحلال بالاحتيال قد جاء في أحاديث كثيرة.

قال الشيخ ابن تيمية: «وإنما ذلك إذا استحلوا هذه المحرمات بالتأويلات الفاسدة. فإنهم لو استحلوها مع اعتقاد أن الرسول حرّمها كانوا

(١) الحِر، بكسر الحاء المهملة: الفَرْج، والمعنى: يَسْتَحِلُّون الزِّنا.

كفاراً ولم يكونوا من أمته. ولو كانوا معترفين بأنها حرام لأوشك أن لا يعاقبوا بالمسخ، كسائر الذين يفعلون هذه المعاصي، مع اعترافهم بأنها معصية، ولما قيل فيهم: يستحلون. فإن المستحلّ للشيء هو الذي يفعله معتقداً حلّه. فيشبه استحلالهم للخمر، يعني أنهم يسمونها بغير اسمها، كما جاء في الحديث. فيشربون الأنبذة المحرمة، ولا يسمونها خمراً. واستحلالهم المعازف باعتقادهم أن آلات اللهو مجرد سمع صوت فيه لذة. وهذا لا يحرم كأصوات الطيور، واستحلال الحرير وسائر أنواعه باعتقادهم أنه حلال في بعض الصور كحال الجَرَب وحال الحكة. فيقيسون عليه سائر الأحوال ويقولون: لا فرق بين حال وحال».

وهذه التأويلات ونحوها واقعة في الطوائف الثلاثة الذين قال فيهم عبد الله بن المبارك رحمه الله:

وهل أفسدَ الدِّين إلا الملو ... كُ وأحبارُ سوءٍ ورهبانها[1]؟

ومعلوم أنها لا تغني عن أصحابها من الله شيئاً بعد أن بلَّغ الرسول وبيَّن تحريم هذه الأشياء بياناً قاطعاً للعذر مقيماً للحجة. والحديث الذي رواه أبو داود بإسناد صحيح من حديث عبد الرحمن بن غنم عن أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ليشربنّ ناسٌ من أمتي الخمر، يسمونها بغير اسمها، يُعزف على رؤوسهم بالمعازف والقينات، يَخسف الله تعالى بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير».

ولولا أن الله سبحانه رَحِمَ هذه الأمة بأن نَبيها نبَّههم على ما لُعِنَت به اليهود، وكان السابقون منها فقهاء أتقياء، علموا مقصود الشارع، فاستقرت الشريعة بتحريم المحرمات: من الميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها وإن

(١) وقد ذكر قبل هذا البيت:

رأيتُ الذنوبَ تُميت القلو ... ب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلو ... ب وخير لنفسك عصيانها

تبدلت صورها، وبتحريم أثمانها، لطرَّق الشيطان لأهل الحيل ما طرق لهم في الأثمان ونحوها. إذ البابان باب واحد على ما لا يخفى.

إن باب الحيل المحرمة مداره على تسمية الشيء بغير اسمه، على تغيير صورته مع بقاء حقيقته، فمداره على تغيير الاسم مع بقاء المسمى، وتغيير الصورة مع بقاء الحقيقة. والمفسدة العظيمة التي اشتمل عليها الربا لا تزول بتغيير اسمه من الربا إلى المعاملة، ولا بتغيير صورته من صورة إلى صورة، والحقيقة معلومة متفق عليها بينهما قبل العقد يعلمها من قلوبهما عالم السرائر. فقد اتفقا على حقيقة الربا الصريح قبل العقد، ثم غير اسمه إلى المعاملة، وصورته إلى التبايع الذي لا قصد لهما فيه ألبتة، وإنما هو حيلة ومكر ومخادعة لله تعالى ولرسوله ـ ﷺ ـ.

وأيُّ فرق بين هذا وبين ما فعلته اليهود من استحلال ما حرّم الله عليهم من الشحوم بتغيير اسمه وصورته؟ فإنهم أذَابوه حتى صار ودكاً وباعوه وأكلوا ثمنه. وقالوا: إنما أكلنا الثمن، لا المثمن، فلم نأكل شحماً.

وكذلك من استحل الخمر باسم النبيذ كما في حديث أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «ليشربنّ ناس من أمتي الخمر، يسمونها بغير اسمها، يُعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات، يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير».

وإنما أتى هؤلاء من حيث استحلوا المحرمات بما ظنوه من انتفاء الاسم، ولم يلتفتوا إلى وجود المعنى المحرم وثبوته، وهذا بعينه هو شبهة اليهود في استحلال بيع الشحم بعد جمله، واستحلال أخذ الحيتان يوم الأحد بما أوقعوها به يوم السبت في الحفائر والشباك من فعلهم يوم الجمعة، وقالوا: ليس هذا صيد يوم السبت، ولا استباحة لنفس الشحم. بل الذي يستحل الشراب المسكر، زاعماً أنه ليس خمراً مع علمه أن معناه معنى الخمر ومقصوده مقصوده وعمله أفسد تأويلاً. فإن الخمر اسم لكل شراب

مسكر كما دلَّت عليه النصوص الصحيحة الصريحة، وقد جاء هذا الحديث عن النبي - ﷺ - من وجوه أخرى.

منها: ما رواه النسائي عنه - ﷺ -: «يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها» وإسناده صحيح.

ومنها: ما رواه ابن ماجة عن عبادة بن الصامت يرفعه «يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها» ورواه الإمام أحمد، ولفظه: «ليستحلنّ طائفة من أمتي الخمر».

ومنها: ما رواه ابن ماجة أيضاً من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تذهب الليالي والأيام حتى تشرب طائفة من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها».

فهؤلاء إنما شربوا الخمر استحلالاً لما ظنوا أن المحرم مجرد ما وقع عليه اللفظ، وأن ذلك اللفظ لا يتناول ما استحلوه. وكذلك شبهتهم في استحلال الحرير والمعازف، فإن الحرير أُبيح للنساء وأُبيح للضرورة، وفي الحرب. وقد قال تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾ [الأعراف: ٣٢]..

والمعازف قد أُبيح بعضها في العرس ونحوه، وأبيح الحداء، وأبيح بعض أنواع الغناء. وهذه الشبهة أقوى بكثير من شُبَه أصحاب الحيل. فإذا كان من عقوبة هؤلاء: أن يمسخ بعضهم قردة وخنازير، فما الظن بعقوبة مَنْ جُرمهم أعظم، وفعلهم أقبح؟.

فالقوم الذين يُخسف بهم ويُمسخون، إنما فُعل ذلك بهم من جهة التأويل الفاسد الذي استحلوا به المحارم بطريق الحيلة، وأعرضوا عن مقصود الشارع وحكمته في تحريم هذه الأشياء. ولذلك مُسخوا قردة وخنازير، كما مُسخ أصحاب السبت بما تأوّلوا التأويل الفاسد الذي استحلوا

به المحارم، وخسف ببعضهم كما خُسف بقارون، لأن في الخمر والحرير والمعازف من الكِبَر والخيلاء ما في الزينة التي خرج فيها قارون على قومه، فلما مسخوا دين الله مسخهم الله، ولما تكبّروا عن الحق أذلَّهم الله تعالى، فلما جمعوا بين الأمرين جمع الله لهم بين هاتين العقوبتين، وما هي من الظالمين ببعيد. وقد جاء ذكر المسخ والخسف في عدة أحاديث تقدم ذكر بعضها.

والله ـ سبحانه ـ إنما حرّم هذه المحرمات وغيرها لما اشتملت عليه من المفاسد المضرّة بالدنيا والدين، ولم يحرمها لأجل أسمائها وصورها. ومعلوم أن تلك المفاسد تابعة لحقائقها، لا تزول بتبدل أسمائها وتغير صورتها، ولو زالت تلك المفاسد بتغير الصورة والأسماء لما لَعَن الله ـ سبحانه ـ اليهود على تغيير صورة الشحم واسمه بإذابته حتى استحدث اسم الودك وصورته ثم أكلوا ثمنه، وقالوا: لم نأكله. وكذلك تغيير صورة الصيد يوم السبت بالصيد يوم الأحد.

فتغيير صور المحرمات وأسمائها مع بقاء مقاصدها وحقائقها زيادة في المفسدة التي حُرمت لأجلها، مع تضمنه لمخادعة الله تعالى ورسوله، ونسبة المكر والخداع والغش والنفاق إلى شرعه ودينه، وأنه يحرم الشيء لمفسدة ويبيحه لأعظم منها.

ولهذا قال أيوب السختياني: يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان، لو أتوا الأمر على وجهه كان أهون.

عن الشعبي عن مسروق قال: قال عبد الله: ليس من عام إلا والذي شرٌّ منه، لا أقول أميرٌ خير من أمير، ولا عام أخصب من عام، ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم، ثم يُحدث قوم يقيسون الأمر برأيهم، فينهدم الإسلام وينثلم.

وقال أحمد في رواية إسماعيل بن سعيد: لا يجوز شيء من الحيل.

وفي رواية صالح ابنه: الحيل لا نراها.

وقال في رواية أبي الحرث: هذه الحيل التي وضعها هؤلاء، احتالوا في الشيء الذي قيل لهم: إنه حرام. فاحتالوا فيه حتى أحلُّوه، وقد قال ـ ﷺ ـ: «لعن الله اليهود، حُرمت عليهم الشحوم، فأذابوها وأكلوا أثمانها» فإنما أذابوها حتى أزالوا عنها اسم الشحوم[1].

ومن تأمَّلَ الشريعة ورُزق فيها فقه نفس رآها قد أبطلت على أصحاب الحيل مقاصدهم، وقابلتهم بنقيضها، وسدّت عليهم الطرق التي فتحوها لِلْتَحْيُل الباطل. فمن ذلك: أن الشارع منعَ المُتَحَيل على الميراث بقتل مورثه ميراثه، ونقله إلى غيره دونه لما احتال عليه بالباطل.

ومن ذلك: بطلان وصية الموصى له بمال إذا قَتَل الموصَى. ونظائر ذلك كثيرة، فالمحتال بالباطل معامل بنقيض قصده شرعاً وقدراً. ولهذا عاقب الله ـ سبحانه ـ وتعالى من احتال على إسقاط نصيب المساكين وقت الجداد بحرمانهم الثمرة كلها[2]، وعاقب من احتال على الصيد المحرّم بأن مسخهم قردة وخنازير.

وأصل هذا: أن الله ـ سبحانه ـ جعل عقوبات أصحاب الجرائم بضدّ ما قصدوا له بتلك الجرائم، فجعل عقوبة الكاذب إهدار كلامه وردّه عليه.

وجعل عقوبة الغالّ في الغنيمة لما قصد تكثير ماله بالغلول: حرمان سهمه، وإحراق متاعه.

---

(١) وذُكر للإمام أحمد: أن امرأة كانت تريد أن تفارق زوجها، فيأبى عليها، فقال لها بعض أرباب الحيل: لو ارتددت عن الإسلام بِنْتِ منه، ففعلت، فغضب أحمد رحمه الله وقال: من أفتى بهذا أو علّمه أو رضي به فهو كافر. (انظر إغاثة اللهفان ١/٣٧٢).

(٢) انظر قصة أصحاب الجنة في هذا الكتاب في قوله تعالى في سورة القلم: ﴿**إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة..**﴾.

وجعل عقوبة من اصطاد في الحَرَم أو الإحرام: تحريم أكل ما صاده، وتغريمه نظيره.

وجعل عقوبة من استكبر عن عبوديته وطاعته: أن صيّره عبداً لأهل عبوديته وطاعته.

وجعل عقوبة من التذّ بدنه كله وروحه بالوطء الحرام: إيلام بدنه وروحه بالجلد والرجم فيصل الألم إلى حيث وصلت اللذة.

وهذا باب واسع جداً عظيم النفع[1]، فمن تدبَّره يجده متضمناً لمعاقبة الرب ـ سبحانه ـ من خرج عن طاعته، بأن يعكس عليه مقصوده شرعاً وقَدَراً، دنيا وأخرى، وقد اطردت سنته الكونية ـ سبحانه ـ في عباده، بأن من مكر بالباطل مُكِرَ به، ومن احتال احتيل عليه، ومن خادع غيره خُدع. قال الله تعالى: ﴿إن المنافقين يُخادعون اللَّهَ وهو خادعهم﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السَّيء إلا بأهله﴾ [فاطر: ٤٣].. واحتجّ ابن عباس وبعده أيوب السختياني، وغيره من السلف: بأن الحيل مخادعة لله تعالى. قال ابن عباس: ومن يُخادع الله يخدعه.

ولا ريب أن من تدبَّر القرآن والسنة، ومقاصد الشارع جزم بتحريم الحيل وبطلانها، فإن القرآن دلّ على أن المقاصد والنيات معتبرة في التصرف والعادات، كما هي معتبرة في القربات والعبادات، فيجعل الفعل حلالاً أو حراماً، وصحيحاً أو فاسداً، وصحيحاً من وجه، فاسداً من وجه، كما أن القصد والنية في العبادات تجعلها كذلك.

إن القلوب المؤمنة تعرف أن الله ـ سبحانه ـ لا يُخدع، وهو يعلم السرّ وأخفى، وهي تدرك أن الذي يحاول أن يخدع الله لا بد أن تكون نفسه

(١) انظر إغاثة اللهفان المجلد الأول ص ٣٧٢ ـ ٣٩٠ وكتاب «إعلام الموقعين» لابن القيم ج ١١٩/٣ باب سد الذرائع.

منخوبة وقلبه مريض، وهو في غفلة كبيرة. . والله ـ سبحانه ـ ترك أصحاب السبت في فعلتهم المنكرة وكانوا في غيِّهم يعمهون. . تركهم يمضون في طريق الاحتيال والخداع الذي زُين لهم حتى حَلُّوا في غضب الله فمسخهم قردة وخنازير ﴿**ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى**﴾ [طه: ٨١].

النبوءة الصادقة والوعد المفعول

إن قصص بني إسرائيل هو أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم ، لأسباب عدة، ذكرنا بعضها ـ فيما سبق ـ ونضيف هنا في هذه النبوءة الصادقة . . هو أن الله ـ سبحانه ـ علم أن أجيالاً من هذه الأمة المسلمة سَتَمُرّ بأدوار كالتي مرّ فيها بنو إسرائيل، وتقف من دينها وعقيدتها مواقف شبيهة بمواقف بني إسرائيل؛ فعرض عليها مزالق الطريق، مصورة في تاريخ بني إسرائيل، لتكون لها عظة وعبرة، ولترى صورتها في هذه المرآة المرفوعة لها بيد الله ـ سبحانه ـ قبل الوقوع في تلك المزالق أو اللجاج فيها على مدار الطريق! .

ونمضي في حلقة هامة من تاريخ بني إسرائيل:

﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً؛ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً . .﴾ [الإسراء: ٣].

وهذه الحلقة من سيرة بني إسرائيل لا تذكر في القرآن إلا في سورة الإسراء. وهي تتضمن نهاية بني إسرائيل التي صاروا إليها؛ ودالت دولتهم بها.

ويبدأ الحديث في هذه الحلقة بذكر كتاب موسى ـ التوراة ـ وما اشتمل

عليه من إنذار لبني إسرائيل وتذكير لهم بجدهم الأكبر ـ نوح ـ العبد الشكور، وآبائهم الأولين الذين حملوا معه في السفينة، ولم يحمل معه إلا المؤمنون..

وقد نص على القصد الأول من إيتاء موسى الكتاب: **﴿هدى لبني إسرائيل ألاَّ تَتَّخِذُوا من دوني وكيلاً﴾**..

فلا يعتمدوا إلا على الله وحده، ولا يتجهوا إلا إلى الله وحده. فهذا هو الهدى، وهذا هو الإيمان. فما آمن ولا اهتدى من اتخذ من دون الله وكيلاً.

ولقد خاطبهم باسم آبائهم الذين حملهم مع نوح، وهم خلاصة البشرية على عهد الرسول الأول في الأرض. خاطبهم بهذا النَسَب ليذكرهم باستخلاص الله لآبائهم الأولين، مع نوح العبد الشكور، وليردّهم إلى هذا النَسَب المؤمن العريق.

ووصف نوحاً بالعبودية لهذا المعنى ولمعنى آخر، هو تنسيق صفة الرسل المختارين وإبرازها.

في ذلك الكتاب الذي آتاه الله لموسى ليكون هدى لبني إسرائيل، أخبرهم بما قضاه عليهم من تدميرهم بسبب إفسادهم في الأرض. وتكرار هذا التدمير مرتين لتكرر أسبابه من أفعالهم. وأنذرهم بمثله كلما عادوا إلى الإفساد في الأرض، تصديقاً لسنة الله الجارية التي لا تتخلف:

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن عُلُوّاً كبيراً﴾ [الإسراء: ٤]..

وهذا القضاء إخبار من الله تعالى لهم بما سيكون منهم، حسب ما وقع في علمه الإلهي من مآلهم؛ لا أنه قضاء قهري عليهم، تنشأ عنه أفعالهم. فالله ـ سبحانه ـ لا يقضي بالإفساد على أحد: **﴿قل: إن الله لا يأمر**

بـالفحشاء﴾ إنمـا يعلم الله ما سيكـون علمه بمـا هو كـائن. فما سيكـون ـ بالقياس إلى علم الله ـ كائن، وإن كان بالقياس إلى علم البشر لم يكن بعد، ولم يكشف عنه الستار.

ولقـد قضى الله لبني إسرائيـل في الكتاب الـذي آتاه لموسى أنهم سَيُفســدون في الأرض مـرتين، وأنهم سَيَعْلُون في الأرض المقـدسـة ويسيطرون. وكلما ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للإفساد سَلَّط عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ويدمرهم تدميراً:

﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً﴾ [الإسراء: ٥]..

فهذه هي الأولى: يعلون في الأرض المقدسة، ويصبح لهم فيها قوة وسلطان، فيفسـدون فيها. فيبعث الله عليهم عبـاداً من عبـاده أُولي بـأس شـديد، وأُولي بَـطش وقوة، يستبيحـون الديـار، ويروحـون فيها ويغـدون بـاستهتار، ويَـطَأُون ما فيهـا ومن فيها بـلا تَهَيُّب **﴿وكان وعـداً مفعـولاً﴾** لا يخلف ولا يكذب..

حتى إذا ذاق بنو إسرائيل ويلات الغلب والقهر والذلّ، فرجعوا إلى ربهم، وأصلحـوا أحـوالهم وأفـادوا من البـلاء المُسَلّط عليهم. وحتى إذا استعلى الفاتحون وغرّتهم قوتهم، فطغوا هم الآخرون وأفسدوا في الأرض أدال الله للمغلوبين من الغالبين، ومكن للمستضعفين من المستكبرين: **﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بـأموال وبنين وجعلنـاكم أكثر نفيـراً﴾** [الإسراء: ٦].

ثم تتكرر القصة من جديد!.

وقبل أن يُتِمّ السياق بقية النبوءة الصادقة والوعد المفعول يقرر قاعدة العمل والجزاء:

﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أَسَأْتُم فلَها﴾ [الإسراء: ٧]..

القاعدة التي لا تتغير في الدنيا وفي الآخرة؛ والتي تجعل عمل الإنسان كله له، بكل ثماره ونتائجه. وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل، منه تنتج، وبه تتكيف؛ وتجعل الإنسان مسؤولاً عن نفسه، إن شاء أحسن إليها، وإن شاء أساء، لا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء. فإذا تقررت القاعدة مضى السياق يُكمل النبوءة الصادقة:

﴿فإذا جاء وَعْد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما عَلَوا تتبيراً﴾ [الإسراء: ٧]..

ويحذف السياق ما يقع من بني إسرائيل بعد الكرة من إفساد في الأرض، اكتفاء بذكره من قبل: **﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾** ويُثبت ما يُسلطه عليهم في المرة الآخرة: **﴿فإذا جاء وَعْد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم﴾**.. بما يرتكبونه معهم من نَكال يملأ النفوس بالإساءة حتى تفيض على الوجوه، أو بما يجبهون به وجوههم من مساءة وإذلال. ويستبيحون المقدسات ويستهينون المقدسات ويستهينون بها: **﴿وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة﴾** ويدمرون ما يغلبون عليه من مال وديار **﴿وليتبروا ما علوا تتبيراً﴾**.. وهي صورة للدمار الشامل الكامل الذي يطغى على كل شيء والذي لا يبقى على شيء.

ولقد صدقت النبوءة ووقع الوعد، فَسَلَّط الله على بني إسرائيل من قَهَرهُم أول مرة، ثم سلط عليهم من شَرَّدهم في الأرض، ودمَّر مملكتهم فيها تدميراً[1].

---

(١) قال عبد الله بن أبي الهذيل من كبار التابعين في وعظه القصصي: «لما سُلِّط بخت نصر على بني إسرائيل، جيء بسبي فجلسوا حلقاً حلقاً، فمرَّ بهم نبي لهم، فلما رأوه بكوا وضجُّوا إليه وصاحوا، قال: فسمع ذلك فسأَلَ ما لَهم؟ قالوا: مرَّ بهم نبيّ لهم، قال: ائتوني به، =

ولا ينص القرآن على جنسية هؤلاء الذين سلطهم على بني إسرائيل، لأن النص لا يزيد في العبرة شيئاً. والعبرة هي المطلوبة هنا. وبيان سنة الله في الخلق هو المقصود.

ويعقب السياق على النبوءة الصادقة والوعد المفعول، بأن هذا الدمار قد يكون طريقاً للرحمة: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾.. إن أخذتم منه عبرة.

فأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية: ﴿وإن عُدتم عُدنا﴾ [الإسراء: ٨]..

ولقد عادوا إلى الإفساد فَسَلَّط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها. ثم عادوا إلى الإفساد فَسَلَّط عليهم عباداً آخرين(١)، حتى كان

= فأتوه به، فقال له: ما الذي سَلَّطني على قومك؟ قال: عظم خطيئتك، وظلم قومي أنفسهم!».

ولعمرو الحق، هذان ركيزتا الطغيان دائماً، ظلم الظالم وتفريط المظلوم!! (انظر المسلمون، المجلد الخامس، ص ١٠٢٦).

(١) لقد قضى الله في علمه أنه ليسلطن على بني إسرائيل إلى يوم القيامة من يذيقهم أشد العذاب، عقاباً لهم، والله سبحانه يقول: ﴿وإذ تأذَّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ [الأعراف: ١٦٧]..

ومما يلفت النظر في هذه الآية ما ذكرته من أن العذاب والاضطهاد سيلازمان بني إسرائيل إلى يوم القيامة، فالفترة التي اضطُهِدوا فيها قبل الإسلام والأخبار عنها يُمكن أن يُقال فيها بأنها للتحذير من أفعالهم، ولكن الجزم بأن هذا الاضطهاد سيلازمهم إلى يوم القيامة مما هو واقع في التاريخ واستمر زمناً طويلاً بعد مجيء الإسلام لهو من الغيب الذي يُخبر عنه الله في القرآن الكريم..

ومن أهم حلقات الاضطهاد والعذاب التي أصابت بني إسرائيل قبل الإسلام:

ـ قام الملك الآشوري بختنصر بتخريب أورشليم، وقاد أكثر أهلها أسرى وكان ذلك عام ٥٨٧ ق.م.

ـ وقعت يهوذا ثانية تحت حكم ملوك سورية السلوقيين فأثقلوا كواهل اليهود بالضرائب واضطهدوهم من أجل دينهم. =

ـ استولى الزعيم الروماني «بومبه» على مملكة يهوذا وجعلها إقليماً رومانياً. وفي سنة ٧٠ م ثار اليهود على الرومان فاحتل الرومان أورشليم، وأمر ملكهم «تيتوس» بإحراق معبد اليهود وذبح معظم أهل أورشليم، وبيع من بقي منهم، لم يمض غير قليل حتى عُمّرت أورشليم بالسكان ثانياً، ولكن ثورة أخرى قام بها اليهود جعلت الإمبراطور الروماني «أدريان» سنة ١٣٥ م يأمر بهدم أورشليم من أساسها، وذبح ٥٠٠,٠٠٠ من اليهود، وبيع من بقي، وتشردوا في أرجاء المملكة الرومانية.

وبعد الإسلام جرت على اليهود حلقات متتابعة من الاضطهاد.. فحين جاء الإسلام تآمر عليه اليهود فقاتلهم محمد ـ ﷺ ـ فأجلى البعض عن ديارهم وقتل البعض.

ثم في نهاية الجزء الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي توالت الاضطهادات على الشعب اليهودي من دول أوروبا، جاء في كتاب «الفكر اليهودي» عن اضطهادات اليهود في إسبانيا والبرتغال (يرجع اضطهاد العنصر اليهودي إلى فجر العهد الذي تسلمت فيه المسيحية إدارة الشؤون المدنية إذ ظلت كراهية اليهود لعدة قرون رمزاً من رموز الصلاح والتقوى عند المسيحيين لقد هاجمتهم جميع الأمم المسيحية فأشبعتهم امتهاناً واحتقاراً.. فلم يجدوا ملجأ إلا الأندلس حيث أحاطهم أمراء الإسلام بعطف خاص. لكن عندما احتل النصارى الأندلس انهدم هذا الملاذ الوحيد... إذ تقرر إخراج اليهود منها، ففي سنة ١٣٩٠ هـ ألقى واعظ معروف يدعى هرناندو مارتينيز خطبة مثيرة هاج لسماعها الكاثوليك بإشبيلية فهاجموا حي اليهود وقتلوا منهم ٤٠٠٠ نفس... وفي العام التالي وقعت حوادث مماثلة في بلنسيا وقرطبة.. وطليطلة وبرشلونة جَلّها بتحريض الواعظ ذاته، وأخيراً وقعت حرب الأندلس التي كانت تعتبر حرباً صليبية.. فأذكت حمية الدين عند المسيحيين... وقد بذل رجال الكنيسة كل جهودهم في سبيل طرد العنصر اليهودي... ففي أقل من ثلاثة شهور أُرغم جميع اليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية على مغادرة البلاد الإسبانية وإلاّ حكم عليهم بالإعدام، وقد وقع كثير منهم في يد القرصان الذين انتشروا حول الشواطىء فجردوهم من أموالهم واتخذوهم عبيداً أرقاء، هذا ما عدا الذين ماتوا جوعاً أو أصيبوا بالطاعون فأهلكهم...

ثم لجأ ثمانون ألفاً إلى البرتغال ارتكاناً على وَعْد ملكها لكن القساوسة الإسبانيين أثاروا الرأي العام في تلك البلاد وعمدوا إلى إقناع ملك البرتغال بعدم إيوائهم فأصدر أمراً يقضي بإبعاد جميع اليهود البالغين، أما الأولاد الذين لا تتجاوز سنهم أربعة عشر عاماً فقد انتُزعوا من أحضان أمهاتهم لكي يُربّوا وينشأوا على مبادىء الدين المسيحي. [تاريخ مذهب ناكري الوحي في أوربا فصل ٦ ص ٢١٥ وقد أورد هذا النص كتاب «الفكر اليهودي» تأليف ج. هـ. هرتس الحاخام الأكبر للإمبراطورية البريطانية ترجمة الدكتور ألفريد بلوز].

. . . .

= لم يقتصر طرد اليهود من إسبانيا والبرتغال فقط بل طردوا وشُردوا من جميع دول أوروبا وفيما يلي لائحة بحوادث الطرد:

في انكلترا: طرد الملك إدوارد اليهود سنة ١٢٩٠ م.

وفي فرنسا: طردهم الملك فيليب الجميل سنة ١٣٠٦ م وسمح لعدد ضئيل منهم بالعودة ولكنهم طُردوا مجدداً سنة ١٣٩٤ م.

وفي المجر: طردوا سنة ١٣٦٠ م، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا فيما بعد. وفي سنة ١٥٨٤ م طردوا مجدداً.

وفي بلجيكا: طردوا عام ١٣٧٠ م.

وفي تشيكوسلوفاكيا: شردوا من براغ سنة ١٣٨٠ م. وكثيرون عادوا فاستوطنوها سنة ١٥٠٢ م، وفي سنة ١٧٤٤ م، طردتهم الإمبراطورة ماريا تيرزا.

وفي النمسا: طُردوا سنة ١٤٢٠ م على يد الملك البريخت الخامس.

وفي هولندا: طُردوا من أوتريخت عام ١٤٤٤ م.

وفي إيطاليا: طُردوا من مملكة نابولي وسردينيا سنة ١٥٤٠ م.

وفي ألمانيا: نُفوا من بافاريا سنة ١٥٥١ م. ثم كثر اضطهادهم على يد النازيين في الحرب العالمية الثانية وأزهقت فيها أرواح مئات الألوف منهم.

وفي روسيا: طُردوا سنة ١٥١٠ م. ثم عادوا تدريجياً إليها متعرضين لأنواع شتى من الاضطهادات وأبرزها الاضطهاد الذي حَصَل في أوكرانيا طيلة عام ١٩١٩ م. جاء في كتاب «الفكر اليهودي» في شأن هذا الاضطهاد: (لقد ذُبح أكثر من مائة ألف يهودي ـ رجالاً ونساءً وأطفالاً ـ وأهرقت دماؤهم في الشوارع، ارتكب تلك الأعمال جنود غير نظاميين تحت امرة القائدين دنكدين وتبلورا، وقد أسكرتهم حمرة الدماء فابتكروا وسائل تعذيب شيطانية). [نقلاً عن التقرير الذي وضعته لجنة إغاثة منكوبي مذابح كييف تحت إشراف الصليب الأحمر الروسي].

ـ ومن أسباب اضطهاد اليهود: هو عدم اندماجهم مع الشعوب التي عاشوا معها، وعدم إخلاصهم ووفائهم للذين استضافوهم ولسلوكهم الشائن معهم، وذلك لما يظنونه من أنهم شعب يمتاز على الشعوب التي يعيشون بينها، وأنه يحق لهم اغتصاب حقوق الغير، ولعل تعاليم التلمود ـ أحد كتبهم المقدسة ـ تركت أثراً كبيراً في تكييف سلوكهم.

فمن تعاليم التلمود: «أن أملاك غير اليهود تُعتبر كالمال المتروك الذي يحق لليهودي أن يتملكه». وأن «الله قد منح اليهود السلطة على مقتنيات وحياة كل الشعوب» [فصل بابابثرا وفي سفر حيكريم (ج ٣، ف ٢٥) نقلاً عن مجلة المشرق ١٨ / ٧٧٠].

«كما يسمو الإنسان على الحيوان كذلك يسمو اليهودي على باقي أهل الأرض ذوي =

العصر الحديث فسلط عليهم «هتلر». . ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة «إسرائيل» التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات. وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، تصديقاً لِوَعْد الله القاطع، وفاقاً لسنته التي لا تتخلف. . وإن غداً لناظره قريب[1]!.

ويختم السياق بمصير الكافرين في الآخرة لما بينه وبين مصير المفسدين من مُشاكَلة:

﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ [الإسراء: ٨]. . تحصرهم فلا يفلت منهم أحد، وتتّسع لهم فلا يندّ عنها أحد.

وهذه حلقة من سيرة بني إسرائيل، وكتابهم الذي آتاه الله لموسى ليهتدوا به فلم يَهتدوا؛ بل ضَلُّوا فَهَلَكُوا. .

= الطبيعة البهيمية» [سفر سنهادرين].

«وإن الله تعالى أمرنا باستعمال الربا ضد الغوييم (غير اليهود) وحرّم علينا إقراضهم المال بدون تقاضي فوائد عليه، فلا يجوز إذن الامتناع عن إقراضهم بدون فوائد بل يجب علينا إرهاقهم كذلك» [سفر بابا مزيا عن كتاب الصهيونية تأليف ميشال كفوري]. (نقلاً عن اليهود في القرآن للعلامة عفيف طبارة ص ٨٨ ـ ٩٢).

(١) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود [فيقتلهم المسلمون]، حتى يختبىء اليهود من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، تعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود».

وفي رواية أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر ووراءه اليهودي: يا مسلم، هذا يهودي ورائي، فاقتله». أخرج مسلم الأولى، والثانية البخاري.

رحلة بني إسرائيل مع خطوات التاريخ

ويتحدث القرآن عن مآل بني إسرائيل بلمحة سريعة تستغرق ما حدث في أجيال:

﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق، ورزقناهم من الطيبات، فما اختلفوا حتى جاءهم العلم.. إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ [يونس: ٩٣]..

والمبوأ: مكان الإقامة الأمين. وإضافته إلى الصدق تزيده أماناً وثباتاً واستقراراً كثبات الصدق الذي لا يضطرب ولا يتزعزع اضطراب الكذب وتزعزع الافتراء.

وتمضي خطوات القصة مع خطوات التاريخ، من بعد موسى وخلفائه، مع الأجيال التالية في بني إسرائيل إلى الجيل الذي كان يواجه الرسول - ﷺ - والجماعة المسلمة في المدينة..

ولقد طاب المقام فترة لبني إسرائيل بعد تجارب طويلة، وتمتعوا بطيبات من الرزق حلال، حتى فسقوا عن أمر الله فَحُرِّمت عليهم. واختلفوا بعد وفاق. اختلافهم في دينهم ودنياهم، لا عن جَهل ولكن بعد أن جاءهم العلم، وبسبب هذا العلم واستخدامه في التأويلات الباطلة..

﴿وقَطَّعناهم في الأرض أمماً. منهم الصالحون ومنهم دون ذلك

وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ [الأعراف: ١٦٨]..

وفي هذا السياق تكملة لقصة بني إسرائيل من بعد موسى.. ذلك حين تَفَرّق اليهود في الأرض؛ جماعات مختلفة المذاهب والتصورات، مختلفة المشارب والمسالك. فكان منهم الصالحون وكان منهم من هم دون الصلاح. وظلت العناية الإلهية تواليهم بالابتلاءات. تارة بالنعماء وتارة بالبأساء، لعلهم يرجعون إلى ربهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويستقيمون على طريقهم:

﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾..

والمتابعة بالابتلاء رحمة من الله بالعباد، وتذكير دائم لهم، ووقاية من النسيان المُؤَدِّي إلى الاغترار والبوار..

﴿فَخَلفَ من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى، ويقولون: سيغفر لنا. وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ [الأعراف: ١٦٩]..

وصفة هذا الخَلف الذي جاء بعد ذلك السلف من قوم موسى: أنهم ورثوا الكتاب ودرسوه.. ولكنهم لم يتكيفوا به ولم تتأثر به قلوبهم ولا سلوكهم.. شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تُدرس وعلم يُحفظ.. وكلما رأوا عَرَضاً من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا عليه، ثم تأوَّلوا وقالوا: **﴿سَيُغفر لنا﴾**.. وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا جديد تهافتوا عليه من جديد!.

ويسأل سؤال استنكار: **﴿ألم يُؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألَّا يقولوا على الله إلا الحق؟ ودرسوا ما فيه؟﴾** [الأعراف: ١٦٩]..

ألم يُؤخذ عليهم ميثاق الله في الكتاب أَلَّا يتأولوا ولا يحتالوا على النصوص، وألا يُخبروا عن الله إلا بالحق.. فما بالهم يقولون: **﴿سيُغفر لنا﴾**.. ويتهافتون على أعراض الحياة الدنيا؟ ويُبررون لأنفسهم هذا بالتَقَوُّل

على الله وتأكيد غفرانه لهم، وهم يعلمون أن الله إنما يَغفر لمن يتوبون حقاً؛ ويُقلعون عن المعصية فعلاً؛ وليس هذا حالهم، فهم يعودون كلما رأوا عَرَضاً من أعراض الحياة الدنيا! وهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا ما فيه!.

بلى! ولكن الدراسة لا تُجدي ما لم تُخالط القلوب. وكم من دارسين للدّين وقلوبهم عنه بعيد. إنما يدرسونه ليتأوَّلوا ويحتالوا، ويُحرّفوا الكلم عن مواضعه، ويجدوا المخارج للفتاوى المُغرضة التي تنيلهم عرض الحياة الدنيا.. وهل آفة الدين إلا الذين يدرسونه دراسة، ولا يأخذونه عقيدة، ولا يتقون الله ولا يرهبونه؟!.

﴿**والدار الآخرة خير للذين يتقون. أفلا تعقلون؟**﴾ [الأعراف: ١٦٩]..

نعم! إنها الدار الآخرة! إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة، وهو وحده الذي يعصم من فتنة العَرَض الأدنى القريب في هذه الدنيا.. نعم! إنها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها؛ ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها.. وإلا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة المُلِحّة في حيازة كل عَرَض يلوح لها من أعراض هذه الأرض؟ وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفّها عن البغي؟ وما الذي يُهدىء فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع؟ وما الذي يُطَمْئِنها في صراع الحياة على النصيب الذي لا يضيع بفوات الحياة الدنيا؟ وما الذي يُثَبِّتها في المعركة بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وأعراض الأرض تفرّ من بين يديها وتنأى؟ والشر يتَبَجَّح والباطل يطغى؟.

لا شيء يُثَبِّت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى؛ إلا اليقين في الآخرة، وأنها خير للذين يتقون، ويعفون، ويَترفَّعون، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع

والأعاصير والفتن، ويمضون في الطريق لا يتلفتون.. مطمئنين واثقين، ملء قلوبهم اليقين[1]..

ولأن قضية الآخرة، وقضية التقوى قضيتان أساسيتان في العقيدة وفي الحياة، يحيل السياق القرآني المخاطبين الذين يتهافتون على عَرَض هذا الأدنى.. عَرَض الحياة الدنيا.. إلى العقل: ﴿**والدار الآخرة خير للذين يتقون.. أفلا تعقلون؟**﴾...

ولو كان العقل هو الذي يحكم لا الهوى.. ولو كان العلم الحق لا الجهالة التي تسمى العلم هو الذي يقضي.. لكانت الدار الآخرة خيراً من عَرَض هذا الأدنى. ولكانت التقوى زاداً للدين والدنيا جميعاً: ﴿**والذين يُمَسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة، إنا لا نضيع أجر المصلحين**﴾ [الأعراف: ١٧٠]..

وهو تعريض بالذين أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه؛ ثم هم لا يتمسكون بالكتاب الذي درسوه، ولا يعملون به، ولا يحكمونه في تصوراتهم وحركاتهم؛ ولا في سلوكهم وحياتهم.. غير أن الآية تبقى ـ من وراء ذلك التعريض ـ مطلقة، تعطي مدلولها كاملاً، لكل جيل ولكل حالة.

إن الصيغة اللفظية: «يُمَسِّكون».. تصور مدلولاً يكاد يحس ويرى.. إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجدّ وصرامة.. الصورة التي يحب الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه.. في غير تعنت ولا تَنَطّع ولا تزمُّت..

فالجد والقوة والصرامة شيء والتعنت والتنطع والتزمت شيء آخر.. إن الجد والقوة والصرامة لا تُنافي اليسر ولكنها تنافي التميع! ولا تنافي سعة الأفق ولكنها تنافي الاستهتار! ولا تنافي مراعاة الواقع ولكنها تنافي أن يكون

---

(١) يراجع كتاب «اليوم الآخر في ظلال القرآن».

«الـواقع» هـو الحكم في شريعـة الله! فهو الـذي يجب أن يظل محكـوماً بشريعة الله!.

والتمسك بالكتاب في جد وقوة وصرامة، وإقامة الصلاة ـ أي شعائر العبادة ـ هما طرفا المنهج الرباني لصلاح الحياة.. والتمسك بالكتاب في هذه العبارة مقروناً إلى الشعائر يعني مـدلولاً معينـاً. إذ يعني تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح هذه الحياة، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس. فهما طرفان للمنهج الذي تصلح بـه الحياة والنفـوس، ولا تصلح بسـواه.. والإشارة إلى الإصـلاح في الآية: **﴿إنـا لا نضيـع أجـر المصلحين﴾**..

يشير إلى هذه الحقيقة.. حقيقة أن الاستمساك الجاد بالكتاب عملاً، وإقـامة الشعـائر عبـادة هما أداة الإصـلاح الذي لا يُضيـع الله أجـره على المصلحين. وما تفسد الحياة كلها إلا بترك طرفي هذا المنهج الرباني.. ترك الاستمساك الجاد بالكتاب وتحكيمه في حياة الناس؛ وترك العبادة التي تصلح القلوب فتطبق الشرائـع دون احتيال.على النصـوص، كالـذي كان يصنعه أهل الكتاب؛ وكالذي يصنعه أهل كل كتاب، حين تفتر القلوب عن العبادة فتفتر عن تقوى الله..

إنه منهج متكامل، يُقيم الحكم على أساس الكتاب، ويقيم القلب على أساس العبادة.. ومن ثم تتوافى القلوب مع الكتاب، فَتَصْلُح القلوب، وتَصلح الحياة.

إنَّه مَنهج الله، لا يعدل عنه ولا يستبدل به منهجاً آخر، إلا الذين كُتبت عليهم الشقوة وحق عليه العذاب!.

كانت القيادة ـ قبل الإسلام ـ لبني إسرائيل. كانوا هم أصحاب عقيدة السماء التي اختارها الله لتلك الفترة من التاريخ. ولا بُـدّ للبشر من قيـادة مُستمَدّة من السماء. فالأرض قيادتها هوى أو جهل أو قصور. والله خالق

البشر هو وحده الذي يشرع لهم شريعته مُبرأة من الهوى فكلهم عباده، مبرَّأة من الجهل والقصور فهو الذي خلقهم وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين﴾ [الجاثية: ١٦]..

فكان فيهم التوراة شريعة الله. وكان فيهم الحكم لإقامة الشريعة. وكان فيهم. النبوة بعد رسالة موسى وكتابه للقيام على الشريعة والكتاب. وكثر فيهم الأنبياء وتتابعوا فترة طويلة نسبياً في التاريخ.

﴿ورزقناهم من الطيبات﴾.. فكانت مملكتهم ونبواتهم في الأرض المقدسة، الطيبة، الكثيرة الخيرات بين النيل والفرات.

﴿وفَضَّلناهم على العالمين﴾.. وكان تفضيلهم على أهل زمانهم بطبيعة الحال؛ وكان مظهر هذا التفضيل الأول اختيارهم للقيادة بشريعة الله؛ وإيتاءهم الكتاب والحكم والنبوة: **﴿وآتيناهم بَيِّنات من الأمر﴾** [الجاثية: ١٧]..

فكان ما أُوتوه من الشريعة بياناً حاسماً فاصلاً، لا غموض فيه ولا لبس ولا عوج ولا انحراف.. **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلِفَ فيه﴾** [فصلت: ٤٥]..

ولم يكن هناك ما يدعو إلى الاختلاف في كتاب الله، في هذا الشرع البيِّن كما وقع منهم؛ وما كان هذا من غموض في الأمر ولا كان عن جهل منهم بالصحيح من الحكم: **﴿فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾** [الجاثية: ١٧].. إنما كان ذلك عن تحاسد بينهم، ونزاع وظلم، مع معرفة الحق والصواب: **﴿بَغياً بينهم﴾** [الجاثية: ١٧]..

ثم يُحدث القرآن عما قدر الله لهم من التعادي والتباغض فيما بينهم؛

ومن إبطال كيدهم وهو في أشد سعيره تلهباً؛ ومن عودتهم بالخيبة فيما يشنونه من حرب على الجماعة المسلمة: ﴿**وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله**﴾ [المائدة: ٦٤]..

وما تزال طوائف اليهود متعادية. وإن بدا في هذه الفترة أن اليهودية العالمية تتساند؛ وتوقد نار الحرب على البلاد الإسلامية وتفلح! ولكن ينبغي ألا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان ولا إلى مظهر لا يشتمل على الحقيقة كاملة. ففي خلال ألف وثلاث مئة عام.. بل من قبل الإسلام.. واليهود في شحناء وفي ذلّ كذلك وتَشَرُّد. ومصيرهم إلى مثل ما كانوا فيه. مهما تقم حولهم الأسناد.

ولكن مفتاح الموقف كله في وجود العصبة المؤمنة، التي يتحقق لها وعد الله.. فأين هي العصبة المؤمنة اليوم، التي تتلقى وَعْد الله، وتقف ستاراً لقَدَر الله، ويُحقق الله بها في الأرض ما يشاء؟.

ويوم تفيء الأمة المسلمة إلى الإسلام: تؤمن به على حقيقته؛ وتقيم حياتها كلها على منهجه وشريعته.. يومئذ يحق وَعْد الله على شر خلق الله.. واليهود يعرفون هذا، ومن ثم يُسلطون كل ما في جعبتهم من شر وكيد؛ ويصبون كل ما في أيديهم من بطش وفتك، على طلائع البعث الإسلامي في كل شبر من الأرض، ويضربون - لا بأيديهم - ولكن بأيدي عملائهم - ضربات وحشية منكرة؛ لا ترعى في العصبة المؤمنة إلاً ولا ذِمّة.. ولكن الله غالب على أمره. وَوَعْد الله لا بد أن يتحقق:

﴿**وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله**﴾..

إن هذا الشر والفساد الذي تُمثله يهود، لا بد أن يبعث الله عليه من يُوقفه ويحطمه؛ فالله لا يحب الفساد في الأرض؛ وما لا يحبه الله لا بد أن يبعث عليه من عباده من يُزيله ويعفي عليه: ﴿**ويسعون في الأرض فساداً،**

والله لا يحب المفسدين﴾ [المائدة: ٦٤]. .

ويمضي القرآن يصف حال أهل الكتاب؛ ويبين ما في هذه الحال من نقائص؛ ويقرر القيم الصحيحة التي يقوم عليها الإسلام دين المسلمين. ويبدأ فيعرض نموذجين من نماذج أهل الكتاب في التعامل والتعاقد:

﴿ومن أهل الكتاب مَن إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، ومنهم مَن إن تأمنه بدينار لا يُؤَدِّه إليك إلا ما دمت عليه قائماً. ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ [آل عمران: ٧٥]. .

إنها خطة الإنصاف والحق وعدم البخس والغبن يجري عليها القرآن الكريم في وصف حال أهل الكتاب الذين كانوا يواجهون الجماعة المسلمة حينذاك؛ والتي لعلها حال أهل الكتاب في جميع الأجيال. ذلك أن خصومة أهل الكتاب للإسلام والمسلمين، ودسّهم وكيدهم وتدبيرهم الماكر اللئيم، وإرادتهم الشر بالجماعة المسلمة وبهذا الدين. .

كل ذلك لا يجعل القرآن يبخس المُحسنين منهم حقهم، حتى في معرض الجَدَل والمواجهة. فهو هنا يقرر أن من أهل الكتاب ناساً أمناء، لا يأكلون الحقوق مهما كانت ضخمة مغرية: **﴿ومن أهل الكتاب مَن إن تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾**. .

ولكن منهم كذلك الخَونة الطامعين المُماطلين، الذين لا يردون حقاً - وإن صغر - إلا بالمطالبة والإلحاح والملازمة. ثم هم يُفَلْسِفُون هذا الخُلق الذميم، بالكذب على الله عن علم وقصد:

﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً. ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل. ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾. .

وهذه بالذات صفة يهود. فهم الذين يقولون هذا القول؛ ويجعلون للأخلاق مقاييس متعددة. فالأمانة بين اليهودي واليهودي. أما غير اليهود ويسمونهم الأميين وكانوا يعنون بهم العرب (وهم في الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود) فلا حرج على اليهودي في أكل أموالهم، وغشهم وخداعهم، والتدليس عليهم، واستغلالهم بلا تحرج من وسيلة خسيسة ولا فعل ذميم!.

ومن العجب أن يزعموا أن إلههم ودينهم يأمرهم بهذا. وهم يعلمون أن هذا كذب. وأن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يبيح لجماعة من الناس أن يأكلوا أموال جماعة من الناس سحتاً وبهتاناً، وألا يرعوا معهم عهداً ولا ذمة، وأن ينالوا منهم بلا تحرج ولا تذمم.

ولكنها يهود! يهود التي اتخذت من عداوة البشرية والحقد عليها ديوناً وديناً: ﴿**ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون**﴾..

والكذب جريمة فاحشة لا يقدم عليها مؤمن ﴿**إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله**﴾ [النحل: ١٠٥]، وهي سمة الكفار: ﴿**ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب**﴾ [المائدة: ١٠٣].

ها هم أولاء يهود قد بدّلوا كتاب الله وانحرفوا، وكذبوا على الله، واعتدوا على شريعته بهذا الافتراء الذي كان منهجهم في رحلة حياتهم كلها.

والقرآن الكريم يكشف مؤامرات يهود الخفية، ويفشي ما تُخفي صدورهم المنخورة المنكودة، ويفضح ما كانوا عليه من الكفر بآيات الله والكذب عليه.. ﴿**ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون**﴾ [آل عمران: ٧٨].. هؤلاء الذين غَضِبَ الله عليهم لمعرفتهم الحق ثم حيدتهم عنه..

ومن عجب أن ينعق الناعقون منهم ويدّعون أنهم شعب الله المختار،

وأنهم أَحبَّاء الله وأولياءه. . وهم الذين يفترون على الله الكذب، ويكفرون بشريعته في عدم تحكيمها في حياتهم، وينقضون عهد الله وميثاقه. . إنه الكفر والظلم والفسوق والاعتداء والعصيان. . هذه هي المؤهلات لغضب الله، وللهزيمة والذلة والمسكنة. .

وهذه هي المؤهلات التي تتوافر اليوم في البقايا الشاردة في الأرض من ذراري المسلمين. الذين يسمون أنفسهم ـ بغير حق ـ مسلمين!.

هذه هي المؤهلات التي يتقدمون بها إلى ربهم اليوم، فينالون عليها كل ما كتبه الله على اليهود من الهزيمة والذلة والمسكنة. فإذا قال أحد منهم: لِمَا نُغْلَب في الأرض ونحن مسلمون؟ فلينظر قبل أن يقولها: ما هو الإسلام، ومن هم المسلمون؟! ثم يقول!.

وإنصافاً للقلة الخيرة من أهل الكتاب، يعود القرآن عليهم بالاستثناء، فيقرر أن أهل الكتاب ليسوا كلهم سواء. فهناك المؤمنون. يصور حالهم مع ربهم، فإذا هي حال المؤمنين الصادقين. ويقرر جزاءهم عنده فإذا هو جزاء الصالحين:

﴿ليسوا سواء. من أهل الكتاب أمة قائمة. يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات. وأولئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يكفروه، والله عليم بالمتقين﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥]. .

وهي صورة وَضيئة للمؤمنين من أهل الكتاب. فقد آمنوا إيماناً صادقاً عميقاً، وكاملاً شاملاً، وانضموا للصف المسلم، وقاموا على حراسة هذا الدين. . آمنوا بالله واليوم الآخر. . وقد نهضوا بتكاليف الإيمان، وحققوا سمة الأمة المسلمة التي انضموا إليها ـ خير أُمة أخرجت للناس ـ فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر. . وقد رغبت نفوسهم في الخير جملة، فجعلوه الهدف الذي يُسابقون فيه، فَسَارَعُوا في الخيرات، ومن ثم هذه الشهادة

العلوية لهم أنهم من الصالحين. وهذا الوعد الصادق لهم أنهم لن يُبخسوا حقاً، ولن يُكفروا أجراً. مع الإشارة إلى أن الله ـ سبحانه ـ علم أنهم من المتقين..

وهكذا لم يترك السياق القرآني الموقف مع اليهود، حتى يُنصف القليل المؤمن منهم؛ ويُقرر حسن جزائهم، وهو يَضمهم إلى موكب الإيمان العريق، ويشهد لهم بالعلم والإيمان. ويقرر أن الذي هداهم إلى التصديق بالدين كله: ما أنزل إلى الرسول ـ ﷺ ـ وما أُنزل من قبله، هو الرسوخ في العلم وهو الإيمان: **﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك. والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة، والمؤمنون بالله واليوم الآخر، أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾** [النساء: ١٦٢]..

فالعلم الراسخ، والإيمان المنير، كلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالدين كله. كلاهما يقود إلى توحيد الدين الذي جاء من عند الله الواحد.

وذِكْر العلم الراسخ بوصفه طريقاً إلى المعرفة الصحيحة كالإيمان الذي يفتح القلب للنور، لفتة من اللفتات القرآنية التي تصور واقع الحال التي كانت يومذاك، كما تصور واقع النفس البشرية في كل حين. فالعلم السطحي كالكفر الجاحد، هما اللذان يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة..

ونحن نشهد هذا في كل زمان. فالذين يتعمقون في العلم، ويأخذون منه بنصيب حقيقي، يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية، أو على الأقل أمام علامات استفهام كونية كثيرة، لا يجيب عليها إلا الاعتقاد بأن لهذا الكون إلهاً واحداً مسيطراً مدبراً متصرفاً، وذا إرادة واحدة، وضعت ذلك الناموس الواحد.. وكذلك الذين تتشوق قلوبهم للهدى ـ المؤمنون ـ يفتح الله عليهم، وتتصل أرواحهم بالهدى.. أما الذين يتناوشون المعلومات

ويحسبون أنفسهم علماء، فهم الذين تَحُول قشور العلم بينهم وبين إدراك دلائل الإيمان ـ أو لا تبرز لهم ـ بسبب علمهم الناقص السطحي ـ علامات الاستفهام. وشأنهم شأن مَن لا تهفو قلوبهم للهدى ولا تشتاق.. وكلاهما هو الذي لا يجد في نفسه حاجة للبحث عن طمأنينة الإيمان، أو يجعل التَدَيُّن عصبية جاهلية فيفرق بين الأديان الصحيحة التي جاءت من عند دَيَّان واحد، على أيدي موكب واحد متصل من الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد ورد في التفسير المأثور أن هذه الإشارة القرآنية تعني ـ أول من تعني ـ أولئك النفر من اليهود، الذين استجابوا للرسول ـ ﷺ ـ ولكن النص ينطبق على كل من يهتدي منهم لهذا الدين، يقوده العلم الراسخ أو الإيمان البصير..

ويمضي القرآن الكريم في الكشف عن طبيعة بني إسرائيل وهو يعرض صفحات من تاريخهم.. فهي الجبلة التي تسارع في الظلم والاعتداء.. هم هم لا يتورعون عن الإثم والفسوق والعصيان.. هم هم في العدوان على شَرْع الله والافتراء عليه.. إنها جُملة تفضحهم وتكشف خباياهم، وترسم حركاتهم كأنها منظورة من خلال التعبير **﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان، وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون﴾** [المائدة: ٦٢]..

والمسارعة مفاعلة تُصوّر القوم كأنما يتسابقون تسابقاً في الإثم والعدوان، وأكل الحرام. وهي صورة ترسم للتبشيع والتشنيع، ولكنها تُصوّر حالة من حالات النفوس والجماعات حين يَستشري فيها الفساد؛ وتسقط القيم؛ ويسيطر الشر..

وإن الإنسان لينظر إلى المجتمعات التي انتهت إلى مثل هذه الحال، فيرى كأنما كُلٌّ مَن فيها يتسابقون إلى الشرّ. إلى الإثم والعدوان، قَويّهم

وضعيفهم سواء. . فالإثم والعدوان ـ في المجتمعات الهابطة الفاسدة ـ لا يقتصران على الأقوياء؛ بل يرتكبهما كذلك الضعفاء. .

فحتى هؤلاء ينساقون في تيار الإثم. وحتى هؤلاء يملكون الاعتداء؛ إنهم لا يملكون الاعتداء على الأقوياء طبعاً. ولكنهم يعتدي بعضهم على بعض. ويعتدون على حرمات الله. لأنها هي التي تكون في المجتمعات الفاسدة الحِمَى المستباح الذي لا حارس له من حاكم ولا محكوم؛ فالإثم والعدوان طابع المجتمع حين يفسد؛ والمسارعة فيهما عمل هذه المجتمعات!.

وكذلك كان مجتمع يهود في تلك الأيام. . وكذلك أكلهم للحرام. . فَأَكْلُ الحرام كذلك سمة يهود في كل آن! ﴿**لبئس ما كانوا يعملون**﴾!.

ويشير السياق إلى سمة أخرى من سمات المجتمعات الفاسدة؛ وهو يستنكر سكوت الربَّانيين القائمين على الشريعة، والأحبار القائمين على أمر العلم الديني. . سكوتهم على مسارعة القوم في الإثم والعدوان وأكل السحت؛ وعدم نَهيهم عن هذا الشرّ الذي يتسابقون فيه:

﴿**لولا ينهاهم الربَّانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السّحت! لبئس ما كانوا يصنعون!**﴾ [المائدة: ٦٣]. .

فهذه السمة ـ سمة سكوت القائمين على أمر الشريعة والعلم الديني عما يقع في المجتمع من إثم وعدوان ـ هي سمة المجتمعات التي فسدت وآذنت بالانهيار. . وبنو إسرائيل ﴿**كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه**﴾ [المائدة: ٧٩]. . كما حكى عنهم القرآن الكريم. .

إن سمة المجتمع الخَيِّر الفاضل الحي القوي المتماسك أن يسود فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . أن يوجد فيه من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ وأن يوجد فيه من يستمع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر؛ وأن يكون عُرْف المجتمع من القوة بحيث لا يجرؤ المنحرفون فيه على التَنَكُّر لهذا الأمر والنهي، ولا على إيذاء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر.

والقرآن هنا ينحي باللائمة على الربَّانيين والأحبار، الساكتين على المسارعة في الإثم والعدوان وأكل السحت؛ الذين لا يقومون بحق ما استحفظوا عليه من كتاب الله.

وإنه لصوت النذير لكل أهل دين. فصلاح المجتمع أو فساده رَهْنٌ بقيام الحَفَظة على الشريعة والعلم فيه بواجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ والأمر يقتضي «سلطة» تأمر وتنهى(١)، والأمر والنهي أمْرٌ غير الدعوة. فالدعوة بيان، والأمر والنهي سُلطان. وكذلك ينبغي أن يحصل الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر على السلطان الذي يجعل لِأَمْرِهم ونَهْيِهم قيمته في المجتمع؛ فلا يكون مطلق كلام!.

اللَّعنة الأبدية:

وهكذا تفرقت كلمة بني إسرائيل واعتقاداتهم وعباداتهم، وفسدت فطرتهم، وانتكست نفوسهم، والتوت أرواحهم، وقست قلوبهم، وتمادوا في طغيانهم، ولجوا في كفرهم وعنادهم حتى سلكوا في ظلمهم طريق الهلاك والاستئصال.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلف فيه. ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم. وإنهم لفي شك منه مريب﴾ [هود: ١١٠]..

تفرقوا واختلفوا وضلوا عن سواء السبيل، ولكن كلمة سبقت من الله أن يكون حسابهم الكامل يوم القيامة:

---

(١) يراجع «في ظلال القرآن» ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم﴾ . .

ولحكمة ما سبقت هذه الكلمة، ولم يحلّ عذاب الاستئصال بهم، لأن لهم كتاباً، والذين لهم كتاب من أتباع الرسل كلهم مُؤجلون إلى يوم القيامة، لأن الكتاب دَليل هداية باق، تستطيع الأجيال أن تتدبره كالجيل الذي أُنزل فيه. والأمر ليس كذلك في الخوارق المادية التي لا يَشهدها إلا جيل، فإما أن يُؤمن بها وإما أن لا يُؤمن فيأخذه العذاب. . والتوراة والإنجيل كتابان متكاملان يظلان معروضين للأجيال حتى يجيء الكتاب الأخير، مُصدّقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل، فَيُصبح هو الكتاب الأخير للناس جميعاً يُدعى إليه الناس جميعاً، ويُحاسَب على أساسه الناس جميعاً، بما فيهم أهل التوراة وأهل الإنجيل: **﴿وإنهم﴾** . . أي قوم موسى . . **﴿لفي شك منه مريب﴾** . . من كتاب موسى، لأنه لم يُكتَب إلا بعد أجيال، وتفرقت فيه الروايات واضطربت، فلا يقين فيه لِمُتّبِعيه.

وإذا كان العذاب قد أُجِّل . . فإن الكُلّ سيوفَّون أعمالهم خيرها وشرها. سَيُوفيهم بها العليم الخبير بها ولن تضيع:

﴿وإن كلاً لما لَيُوفينّهم ربك أعمالهم. إنه بما يعملون خبير﴾ [هود: ١١١] . . وفي التعبير توكيدات منوعة حتى لا يشك أحد في الجزاء والوفاء من جراء الإنظار والتأجيل. وحتى لا يشك أحد في أن ما عليه القوم هو الباطل الذي لا شك في بطلانه، وأنه الشرك الذي زاوله من قبل كل المشركين . .

ولقد كان لهذه التوكيدات ما يقتضيها من واقع الحركة في تلك الفترة. فقد وَقف المشركون وَقْفتهم العنيدة منها ومن رسول الله - ﷺ - والقلة المؤمنة معه، وتجمدت الدعوة على وجه التقريب. بينما عذاب الله الموعود مُؤَجَّل لم يقع بعد. والأذى ينزل بالعصبة المؤمنة ويمضي أعداؤها ناجين! إنها فترة تَهتزّ فيها بعض القلوب. وحتى القلوب الثابتة تناولها الوحشة،

وتحتاج إلى مثل هذه التسرية وإلى مثل هذا التثبيت.

وتثبيت القلوب المؤمنة لا يكون بشيء كما يكون بتوكيد أن أعداءها هم أعداء الله؛ وأنهم على الباطل الذي لا شك فيه!.

كذلك لا يكون تثبيت القلوب المؤمنة بشيء كما يكون بجلاء حكمة الله في إمهال الظالمين، وإرجاء الطغاة إلى يوم معلوم، ينالون فيه جزاءهم ولا يفلتون!.

وهكذا نلمح مقتضيات الحركة بهذه العقيدة في النصوص القرآنية، ونرى كيف يخوض القرآن المعركة بالجماعة المسلمة، وكيف يكشف لها معالم الطريق!.

ثم كانت اللعنة الأبدية على بني إسرائيل - إلا الذين يؤمنون بالنبي الأمي ويتبعونه - بما انتهى إليه أمرهم بعد فترة من المعصية التي لا تنتهي، وصدرت المشيئة الإلهية بالحكم الذي لا راد له ولا مُعقب عليه:

﴿وإذ تأذَّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب. إن ربك لسريع العقاب، وإنه لغفور رحيم﴾ [الأعراف: ١٦٧]..

فهو إذْنُ الأبد الذي تحقق منذ صدوره؛ فبعث الله على اليهود في فترات الزمان من يسومهم سوء العذاب. والذي سيظل نافذاً في عمومه، فيبعث الله عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب. وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا في الأرض وبغوا، جاءتهم الضربة ممن يُسلّطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة، الناكثة العاصية، التي لا تخرج من معصية إلا لتقع في معصية؛ ولا تثوب من انحراف حتى تجنح إلى انحراف..

ولقد يبدو أحياناً أن اللعنة قد توقفت، وأن يهود قد عَزَّت واستطالت!

وإن هي إلا فترة عارضة من فترات التاريخ . . ولا يدري إلا الله من ذا الذي سَيُسَلِّط عليهم في الجولة التالية، وما بعدها إلى يوم القيامة.

لقد تأذَّن الله بهذا الأمر الدائم إلى يوم القيامة ـ كما أخبر الله نبيه في قرآنه ـ مُعقباً على هذا الأمر بتقرير صفة الله سبحانه في العذاب والرحمة:

﴿إن ربك لسريع العقاب، وإنه لغفور رحيم﴾ . .

فهو بسرعة عقابه يأخذ الذين حَقَّت عليهم كلمته بالعذاب ـ كما أخذ القرية التي كانت حاضرة البحر ـ وهو بمغفرته ورحمته يقبل التوبة ممن يثوب من بني إسرائيل، ممن يتبعون الرسول النبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم، في التوراة والإنجيل . . فليس عذابه ـ سبحانه ـ عن نقمة ولا إحنة. إنما هو الجزاء العادل لمن يستحقونه، ووراءه المغفرة والرحمة . .

وبعد هذا البيان الواضح عن مسيرة بني إسرائيل منذ أن أتاهم الله التوراة على يدي موسى ـ عليه السلام ـ هدى ورحمة . . فقد نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واشتروا الضلالة بالهدى عن قصد وعلم وانتكاس. ووصف الله حالهم وتصرفاتهم وسوء أدبهم مع ربهم، وحرفوا كلامه وأوَّلوا أحكامه وشريعته، ومن ثم وقاحتهم الشنيعة في قتل أنبيائهم . .

وهكذا كشف القرآن عن طبيعة القوم الفاسقين. وقد زاغت قلوبهم، وانطمست عقولهم، وجَفَّت أرواحهم، فأصبحت أفئدتهم كالحجارة الصلدة التي لا تنبض فيها حياة، ولا يتنفس فيها إيمان، قاسية جافة جامدة خاوية فارغة . .

وبذلك انتهت قيادتهم في الأرض، وبَطُل استخلافهم، وأَمْرُهم بعد ذلك إلى الله يوم القيامة: **﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾** [يونس: ٩٣] . .

ثم كتب الله الخلافة في الأرض لرسالة جديدة ورسول جديد، يردّ إلى

شريعة الله استقامتها، وإلى قيادة السماء نصاعتها، ويُحكِّم شـريعة الله لا أهواء البشر في هذه القيادة:

﴿**ثم جعلناك على شريعة من الأمر، فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون**﴾ [الجاثية: ١٨]..

وهكذا يتمحض الأمر. فإما شريعة الله. وإما أهواء الذين لا يعلمون. وليس هنـالك من فَـرَض ثالث، ولا طـريق وسط بين الشريعـة المستقيمة والأهواء المتقلبة، وما يترك أحد شريعة الله إلا ليُحَكِّم الأهواء فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون!.

فهرس الموضوعات

(موسـى - عليه السلام وبني اسرائيـل)

الباب الأول:

الباب الثاني:

(قصة موسى - عليه السلام)

(قصـة قارون)

(قصة صاحب الجنتين)

(قصة الابتلاء والجزاء)

(قصة لقمان – عليه السلام)

قصص الرحمن

في ظلال القرآن

أحمد فائز الحمصي

مؤسسة الرسالة


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

قصص الرحمن

في

ظلال القرآن

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

مؤسسة الرسالة
للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

قصص الرحمن في ظلال القرآن

أحمد فائز الحمصي



الجزء الرابع

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام

- القسم الأول: سُنّة الله والتمكين لبني إسرائيل في الأرض
- القسم الثاني: قَصص الإيمان واليقين، والصبر الجميل
- القسم الثالث: القصة الواضحة في المسيحية الناصعة
- القسم الرابع: صفحات من السجل الأسود لبني إسرائيل
- القسم الخامس: من قَصص الرحمان

القسم الأول

سنة الله والتمكين لبني إسرائيل في الأرض

﴿وجعلنا منهم أئمّة يهدون بأمْرِنا لما صَبَروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾.
[السجدة: ٢٤].

المحتوى ص


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

قصة طالوت وجالوت

المحتوى	ص

قصة طالوت وجالوت

تجربة في حياة بني إسرائيل:

إن هذا القرآن ينبغي أن يُقرأ وأن يُتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعي. وينبغي أن يتدبر على أنه توجيهات حَيّة، تتنزل اليوم، لتعالج مسائل اليوم، ولتنير الطريق إلى المستقبل. لا على أنه مجرد كلام جميل يرتل؛ أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود!

ويتحدث القرآن عن تجربة في حياة بني إسرائيل من بعد موسى.. بعدما ضاع مُلكهم، ونُهبت مقدساتهم، وذلّوا لأعدائهم، وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدْي ربهم، وتعاليم نبيهم.. ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة؛ واستيقظت في قلوبهم العقيدة؛ واشتاقوا القتال في سبيل الله:

﴿ألم ترَ إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ [البقرة: ٢٤٦]..

ألم ترَ؟ كأنها حادث واقع ومشهد منظور.. لقد اجتمع الملأ من بني إسرائيل، من كبرائهم وأهل الرأي فيهم - إلى نبي لهم. ولم يرد في السياق ذكر اسمه، لأنه ليس المقصود بالقصة، وذِكْره هنا لا يزيد شيئاً في إيحاء القصة، وقد كان لبني إسرائيل كثرة من الأنبياء يتتابعون في تاريخهم الطويل..

لقد اجتمعوا إلى نبي لهم، وطلبوا إليه أن يُعين لهم ملكاً يقاتلون تحت

إمرته «في سبيل الله». . وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال، وأنه «في سبيل الله» يشي بانتفاضة العقيدة في قلوبهم، ويقظة الإيمان في نفوسهم، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل؛ ووضوح الطريق أمامهم للجهاد في سبيل الله.

وهذا الوضوح وهذا الحسم هو نصف الطريق إلى النصر. فلا بد للمؤمن أن يتضح في حِسّه أنه على الحق، وأن عدوه على الباطل؛ ولا بد أن يتجرد في حِسّه الهدف. . في سبيل الله. . فلا يُغَشّيه الغَبَش الذي لا يدري معه إلى أين يسير.

وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم، وثبات نيتهم، وتصميمهم على النهوضِ بالتبعة الثقيلة، وجدّهم فيما يعرضون عليه من الأمر: ﴿**قال: هل عسيتم إن كُتب عليكم الكتاب ألا تقاتلوا!**﴾ [البقرة: ٢٤٦]. .

ألا يُنْتَظَر أن تَنكلوا عن القتال إن فُرِضَ عليكم؟ فأنتم الآن في سَعة من الأمر. فأما إذا استجبت لكم، فتقرر القتال عليكم فتلك فريضة إذن مكتوبة، ولا سبيل بعدها إلى النكول عنها. .

إنها الكلمة اللائقة بنبي، والتأكد اللائق بنبي. فما يجوز أن تكون كلمات الأنبياء وأوامرهم موضع تردد أو عَبَث أو تراخ.

وهنا ارتفعت درجة الحماسة والفورة؛ وذكر الملأ أن هناك من الأسباب الحافزة للقتال في سبيل الله ما يجعل القتال هو الأمر المتعين الذي لا تردّد فيه: ﴿**قالوا: وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا؟**﴾ [البقرة: ٢٤٦]. .

ونجد أن الأمر واضح في حِسّهم، مقرر في نفوسهم. . إن أعداءهم أعداء الله ولدين الله. وقد أخرجوهم من ديارهم وسبوا أبناءهم. فقِتالهم واجب؛ والطريق الواحدة التي أمامهم هي القتال؛ ولا ضرورة إلى المراجعة في هذه العزيمة أو الجدال.

ولكن هذه الحماسة الفائرة في ساعة الرخاء لم تدم. ويُعجِّل السياق بكشف الصفحة التالية:

﴿فلما كُتب عليهم القتال تَولّوا إلا قليلاً منهم﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وهنا نطلع على سمة خاصة من سمات إسرائيل في نقض العهد، والنكث بالوعد، والتفلت من الطاعة، والنكوص عن التكليف، وتفرق الكلمة، والتولي عن الحق البين.. ولكن هذه كذلك سمة كل جماعة لا تنضج تربيتها؛ فهي سمة بشرية عامة لا تغير منها إلا التربية الإيمانية العالية الطويلة الأمد العميقة التأثير. وهي ـ من ثم ـ سمة ينبغي للقيادة أن تكون منها على حذر، وأن تحسب حسابها في الطريق الوعر، كي لا تُفاجأ بها، فيتعاظمها الأمر! فهي مُتَوقَّعَة من الجماعات البشرية التي لم تخلص من الأوشاب، ولم تصهر ولم تطهر من هذه العقابيل.

والتعقيب على هذا التولّي: ﴿والله عليم بالظالمين﴾ [البقرة: ٢٤٦]..

وهو يشي بالاستنكار؛ وَوَصْم الكثرة التي تولَّت عن هذه الفريضة ـ بعد طلبها ـ وقبل أن تواجه الجهاد مواجهة عملية.. وَصَمَهَا بالظلم. فهي ظالمة لنفسها، وظالمة لِنَبِيِّها، وظالمة للحق الذي خَذَلَتْه وهي تعرف أنه الحق، ثم تتخلى عنه للمبطلين!

إن الذي يعرف أنه على الحق، وأن عدوه على الباطل ـ كما عرف الملأ من بني إسرائيل ـ وهم يطلبون أن يبعث لهم نبيهم ملكاً ليقاتلوا «في سبيل الله».. ثم يتولى بعد ذلك عن الجهاد ولا ينهض بتبعة الحق الذي عرفه في وجه الباطل الذي عرفه.. إنما هو من الظالمين المجزيين بظلمهم.. ﴿والله عليم بالظالمين﴾..

﴿وقال لهم نبيهم: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً. قالوا: أَنَّى يكون له المُلك علينا ونحن أحق بالمُلك منه، ولم يُؤتَ سعة من المال؟﴾ [البقرة: ٢٤٧]..

وفي هذه اللجاجة تتكشف سمة من سمات إسرائيل التي وردت الإشارات إليها كثيرة في القرآن. . لقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه. ولقد قالوا: إنهم يريدون أن يقاتلوا «في سبيل الله». فها هم أولاء ينفضون رؤوسهم، ويلوون أعناقهم، ويجادلون في اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم؛ ويستنكرون أن يكون طالوت ـ الذي بعثه الله لهم ـ ملكاً عليهم. لماذا؟ لأنهم أحق بالمُلك منه بالوراثة. فلم يكن من نسل الملوك فيهم! ولأنه لم يؤتَ سعة من المال تُبرّر التغاضي عن أحقية الوراثة!. . وكل هذا غبش في التصور، كما أنه من سمات بني إسرائيل المعروفة. .

ولقد كشف لهم نبيهم عن أَحَقِّيَتِه الذاتية، وعن حكمة الله في اختياره:

﴿قال: إن الله اصطفاه عليكم، وزاده بسطة في العلم والجسم. والله يُؤتي مُلكه مَن يشاء. والله واسع عليم﴾ [البقرة: ٢٤٧].

إنه رجل قد اختاره الله. . فهذه واحدة. . وزاده بسطة في العلم والجسم. . وهذه أخرى. . والله **﴿يؤتي ملكه مَن يشاء﴾**. . فهو مُلكه، وهو صاحب التصرف فيه، وهو يختار من عباده مَن يشاء. . وليس لفضله خازن وليس لعطائه حد. وهو الذي يعلم الخير، ويعلم كيف توضع الأمور في مواضعها. .

وهي أمور من شأنها أن تُصحح التصور المشوش، وأن تجلو عنه الغَبَش. . ولكن طبيعة إسرائيل ـ ونبيها يعرفها ـ لا تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها. وهم مقبلون على معركة. ولا بد لهم من خارقة ظاهرة تهزّ قلوبهم، وتردها إلى الثقة واليقين:

﴿وقال لهم نبيهم: إن آية مُلكه أن يأتيكم التابوت، فيه سَكينة من ربكم، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة. إن في ذلك لآية لكم أن كنتم مؤمنين﴾ [البقرة: ٢٤٨]. .

وكان أعداؤهم الذين شرّدوهم من الأرض المقدسة ـ التي غلبوا عليها

على يد نبيهم يوشع بعد فترة التيه ووفاة موسى ـ عليه السلام ـ قد سَلَبوا منهم مقدساتهم مُمَثَّلَة في التابوت الذي يحفظون فيه مُخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون.

وقيل: كانت فيه نسخة الألواح التي أعطاها الله لموسى على الطور.. فجعل لهم نبيهم علامة من الله، أن تقع خارقة يشهدونها، فيأتيهم التابوت بما فيه «تحمله الملائكة» فتفيض على قلوبهم السكينة.. وقال لهم: إن هذه الآية تكفي دلالة على صدق اختيار الله لطالوت، إن كنتم حقاً مؤمنين..

ويبدو من السياق أن هذه الخارقة قد وقعت، فانتهى القوم منها إلى اليقين.

ثم أعد طالوت جيشه ممن لم يَتولّوا عن فريضة الجهاد، ولم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم من أول الطريق.. والسياق القرآني على طريقته في سياقة القصص يترك هنا فجوة بين المشهدين. فيعرض المشهد التالي مباشرة وطالوت خارج بالجنود:

﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال: إن الله مُبتليكم بنَهَر. فمَن شرب منه فليس مني، ومَن لم يطعمه فإنه مني ـ إلا مَن اغترف غرفة بيده..﴾ [البقرة: ٢٤٩]..

هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل.. إنه مُقدم على معركة، ومعه جيش من أُمة مغلوبة، عرفت الهزيمة والذلّ في تاريخها مرة بعد مرة. وهو يواجه جيش أمة غالبة فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة. هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة. الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلي على الضرورات والحاجات، وتُؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء..

فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه، وصموده وصبره: صموده أولاً للرغبات والشهوات، وصبره ثانياً على الحرمان والمتاعب. واختار هذه

التجربة وهم كما تقول الروايات عُطَاش. ليعلم مَن يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه، ويُؤثر العافية.. وصحّت فراسته: ﴿فشربوا منه إلا قليلاً منهم﴾(١) [البقرة: ٢٤٩].

شربوا وارتووا. فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم مَن يريد غُرفَة بيده، تَبلّ الظمأ ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلف! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم. انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم. وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف، لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة. والجيوش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الجازمة، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق.

ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفي؛ ولا بد من التجربة العملية، ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل دخولها.

ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذي لم يهزّه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى.. بل مضى في طريقه.

وهنا تكون التجربة قد غربلت جيش طالوت ـ إلى حد ـ ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد: **﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾** [البقرة: ٢٤٩]..

لقد صاروا قلّة. وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته: بقيادة جالوت. إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم. ولكنهم هنا أمام الواقع الذي يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته.

---

(١) عقد البخاري فصلاً عن عدد المسلمين في غزوة بدر قال: حدثنا عمر بن خالد حدثنا زهير حدثنا أبو إسحاق قال سمعت البراء رضي الله عنه يقول: حدثني أصحاب محمد ـ ﷺ ـ ممن شهد بدراً أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جازوا النهر بضعة عشر وثلاثمائة.
قال البراء: «لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن» انظر فتح الباري ٧/ ٢٩٠ ـ ٢٩١ ـ ٢٩٢، ط السلفية، مصر.

الإرادة المُسْتَعلية:

إنها التجربة الحاسمة. تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور. وهذا لا يصمد لها إلا مَن اكتمل إيمانهم، فـاتصلت بالله قلوبهم؛ وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم، غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم!

وهنا برزت الفئة المؤمنة. الفئة القليلة المختارة. والفئـة ذات الموازين الربانية:

﴿**قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. والله مع الصابرين**﴾ [البقرة: ٢٤٩]..

هكذا.. ﴿**كم من فئةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة**﴾.. بهذا التكثير. فهذه هي **القاعدة** في حسّ الذين يوقنون أنهم ملاقو الله.

القاعدة: أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار. ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القِوَى؛ ولأنها تُمثل القوة الغالبة. قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين.

وهم يَكِلُون هذا النصر للّه: ﴿**بإذن الله**﴾.. ويُعلِّلونه بِعلّته الحقيقية: ﴿**والله مع الصابرين**﴾.. فيدلّون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل..

ونمضي مع القصة. فإذا الفئة القليلة الـواثقة بلقـاء الله، التي تستمد صبرها من اليقين بهذا اللقاء، وتستمد قوتها كلها من إذن الله، وتستمد يقينها كله من الثقة في الله، وأنه مع الصابـرين.. إذا هذه الفئـة القليلة الواثقـة الصابرة، الثابتة، التي لم تُزلزلها كثرة العدو وقوته، مع ضعفها وقلتها.. إذا هذه الفئة هي التي تُقرر مصير المعركة. بعد أن تجدد عهدها مع الله، وتتجه بقلوبها إليه، وتطلب النصر منه وحده، وهي تواجه الهول الرعيب:

﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا: ربنا أفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين. فهزموهم بإذن الله، وقتل داود جالوت، وآتاه الله الملك والحكمة، وعلّمه مما يشاء﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١]..

هكذا.. ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾.. وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضاً من الله يُفرغه عليهم فيغمرهم، وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة واحتمالاً للهول والمشقة. ﴿وثبت أقدامنا﴾.. فهي في يده ـ سبحانه ـ يثبتها فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد. ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾.. فقد وضح الموقف.. إيمان تجاه كفر. وحق إزاء باطل. ودعوة إلى الله لينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه الكافرين. فلا تلجلج في الضمير، ولا غبش في التصور، ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق.

وكانت النتيجة هي التي تَرَقَّبوها واستيقنوها: ﴿فهزموهم بإذن الله﴾ ويؤكد النص هذه الحقيقة: ﴿بإذن الله﴾.. ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علماً. وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون، ولطبيعة القوة التي تُجريه..

إن المؤمنين ستار القدرة؛ يفعل الله بهم ما يريد، وينفذ بهم ما يختار.. بإذنه.. ليس لهم من الأمر شيء، ولا حول لهم ولا قوة؛ ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته، فيكون منهم ما يريده بإذنه..

وهي حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين.. إنه عَبْد الله. اختاره الله لدوره. وهذه منّة من الله وفضل. وهو يؤدي هذا الدور المختار، ويحقق قَدَر الله النافذ. ثم يُكرمه الله ـ بعد كرامة الاختيار ـ بفضل الثواب.. ولولا فضل الله ما فعل، ولولا فضل الله ما أُثيب.. ثم إنه مستيقن من نُبل الغاية وطهارة القصد ونظافة الطريق.. فليس له في شيء من هذا كله أرب ذاتي، إنما هو مُنفذ لمشيئة الله الخَيّرة قائم بما يريد. استحق هذا كله بالنية الطيبة والعزم على الطاعة والتوجه إلى الله في خلوص.

ويُبرز السياق دور داود: **﴿وقَتَل داود جالوت﴾** . .

وداود كان فتى صغيراً من بني إسرائيل. وجالوت كان ملكاً قوياً وقائداً مخوفاً. . ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بظواهرها، إنما تجري بحقائقها. وحقائقها يعلمها هو. ومقاديرها في يده وحده. فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم، ويَفوا الله بعهدهم. ثم يكون ما يريده الله بالشكل الذي يريده.

وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يَقتلهم. . وكانت هناك حكمة أخرى مُغَيبة يريدها الله. فلقد قدر أن يكون داود هو الذي يتسلم المُلك بعد طالوت، ويرثه ابنه سليمان، فيكون عهده **هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل**؛ جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود: **﴿وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء﴾** . .

وكان داود ملكاً نبياً، وعلّمه الله صناعة الزرد وعدة الحرب مما يفصله القرآن فيما سيأتي. .

أما في هذا الموضع فإن السياق يتجه إلى هدف آخر من وراء القصة جميعاً. . وحين ينتهي إلى هذه الخاتمة، ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية. . حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى. . إنها ليست المغانم والأسلاب، وليست الأمجاد والهالات. . إنما هو الصلاح في الأرض، وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر: **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض. ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾** [البقرة: ٢٥١] . .

وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا في الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاخب الموار.

وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس، في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات.. ومن ورائها جميعاً تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعاً، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق، إلى الخير والصلاح والنماء، في نهاية المطاف..

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض. ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة، لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبداً يقظة عاملة، مُستَنبِطَة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة..

وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء.. يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة. تعرف الحق الذي بيّنه الله لها. وتعرف طريقها إليه واضحاً. وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض. وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل، وإلا أن تحتمل في سبيله ما تحتمل في الأرض طاعة للّه وابتغاء لرضاه..

وهنا يُمضي الله أمره، ويُنفذ قدره، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا؛ ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية، التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمه. وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة.

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تَغلب في النهاية وتنتصر. ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض، وتمكين الصلاح في الحياة. إنها تنتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار.

ومن خلال هذه التجربة ـ كما عرضها القرآن الكريم ـ تبرز جملة حقائق، تحمل إيحاءات قوية للجماعة المسلمة في كل جيل، فضلاً على ما كانت تحمله للجماعة المسلمة في ذلك الحين.

والعبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي أن هذه الانتفاضة ـ انتفاضة العقيدة ـ على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلي القوم عنها فوجاً بعد فوج في مراحل الطريق ـ على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جداً. . فقد كان فيها النصر والعز والتمكين، بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين. ولقد جاءت لهم بمُلك داود، ثم مُلك سليمان ـ وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بني إسرائيل في الأرض، وهي عهدهم الذهبي الذي يتحدثون عنه؛ والذي لم يبلغوه من قبل في عهد النبوة الكبرى. . وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركام؛ وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت!

وفي خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية؛ كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين:

من ذلك. . أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها. فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة. . فقد تقدّم الملأ من بني إسرائيل ـ من ذوي الرأي والمكانة فيهم ـ إلى نبيهم في ذلك الزمان، يطلبون إليه أن يختار لهم ملكاً يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم. . فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال، وقال لهم: ﴿**هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا!**﴾ استنكروا عليه هذا القول، وارتفعت حماستهم إلى الذروة وهم يقولون له: ﴿**وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا؟**﴾. .

ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها، وتهاوت على مراحل الطريق كما تذكر القصة. . ومع أن لبني إسرائيل طابعاً خاصاً في النكول عن العهد، والنكوص عن الوعد، والتفرق في منتصف الطريق. . إلا أن هذه الظاهرة هي ظاهرة بشرية على كل حال، في الجماعات التي لم تبلغ

تربيتها الإيمانية مبلغاً عالياً من التدريب.. وهي خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة في أي جيل.. فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بني إسرائيل.

ومن ذلك أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الغائر في نفوس الجماعات ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول.. فإن كثرة بني إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كُتب عليهم القتال استجابة لطلبهم ولم تبقَ إلا قلة مستمسكة بعهدها مع نبيها. وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت بعد الحَجاج والجدال حول جدارته بالملك والقيادة، ووقوع علامة الله باختياره لهم، ورجعة تابوتهم وفيه مُخَلّفات أنبيائهم تحمله الملائكة...!

ومع هذا فقط سقطت كثرة هؤلاء الجنود في المرحلة الأولى. وضعفوا أمام الامتحان الأول الذي أقامه لهم قائدهم.. وهذا القليل الذي ثبت أمام هذا الامتحان لم يثبت كذلك إلى النهاية.

فأمام الهول الحي، أمام كثرة الأعداء وقوتهم، تهاوت العزائم وزلزلت القلوب: **﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾**.. وأمام هذا التخاذل ثبتت الفئة القليلة المختارة.. اعتصمت بالله ووثقت، وقالت: **﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾**.. وهذه هي التي رجحت الكفة، وتلقت النصر، واستحقت العز والتمكين.

وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة.. وكلها واضحة في قيادة طالوت. تبرز منها خبرته بالنفوس؛ وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة، وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه..

ثم ـ وهذا هو الأهم ـ عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة؛ ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة. فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص، ووعد الله الصادق للمؤمنين.

والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير المعركة.. أن القلب الذي يتصل

بالله تتغير موازينه وتصوراته؛ لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود. فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر، كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها ما يراه الآخرون الذين قالوا: ﴿**لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده**﴾.. ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف. إنما حكمت حكماً آخر، فقالت: ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين**﴾.. ثم اتجهت لربها تدعوه وهي تحس أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين، إنما هو في يد الله وحده. فطلبت منه النصر، ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه..

وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقاً، وعندما يتحقق في القلب الإيمان الصحيح. وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون!

ولا نستوعب الإيحاءات التي تتضمنها القصة. فالنصوص القرآنية ـ كما عَلَّمتنا التجربة ـ تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن؛ وبقدر حاجته الظاهرة فيه. ويبقى لها رصيدها المذخور تتفتح به على القلوب، في شتى المواقف، على قدر مقسوم..

وفي النهاية يجيء التعقيب الأخير على القصة: ﴿**تلك آيات الله نتلوها عليك، وإنك لمن المرسلين**﴾ [البقرة: ٢٥٢]..

تلك الآيات العالية المقام البعيدة الغايات «نتلوها عليك».. الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي يتلوها وهو أمر هائل عظيم حين يتدبر الإنسان حقيقته العميقة الرهيبة.. تحمل معها الحق. ويتلوها مَن يملك حق تلاوتها وتنزيلها، وجعلها دستوراً للعباد. وليس هذا الحق لغير الله سبحانه.. ومن ثم نتلو عليك هذه الآية؛ ونزودك بتجارب البشرية كلها في جميع أعصارها، وتجارب الموكب الإيماني كله في جميع مراحله، ونورثك ميراث المرسلين أجمعين..

قصة داود عليه السلام

المحتوى	ص

قصة داود ـ عليه السلام ـ

ومن القصص التي ذُكرت أكثر من مرة في القرآن الكـريم قصة داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ ولا نجد في هذه القصة ما وجدناه فيما تحدثنا عنه مما كان بين الأنبياء وبين أقوامهم، ولكننا نجد فيها عِبَراً أُخرى لها أكثر من مغزىً كما سيتبين من سياق القصة.

وقد مضى في الفصل السابق بدء قصة داود، وظهوره في جيش طالوت، في بني إسرائيل ـ من بعد موسى ـ إذ قالوا لنبي لهم: ابعث لنا مَلِكاً نقاتل في سبيل الله. فاختار لهم طالوت ملكاً، ولقي بهم عدوهم الجبار جالوت وجنوده، وقتلَ داودُ جالوتَ . .

يظهر داود وهو في مُقتبل الشباب . . بحلقة صراعه لجالوت، وهو فارس ضخم مشهور، فيَغلب عليه داود، لأن الله ينصره ويؤيّده. ومن هنا تبدأ قصته . .

والقصة تنال شيئاً من التفصيل، لا يبلغ تفصيل قصة سليمان، ولكنه يتناول حلقات كثيرة منها، وكان من آثار خضوع القصة في القرآن للغرض الديني أن تُعرض بالقَدَر الذي يكفي لأداء هذا الغَرَض، ومن الحلقة التي تتفق معه، حسبما تكن العبرة. ذلك أن الهدف التاريخي لم يكن من بين أهداف القصة الأساسية كالهدف القصصي سواء، فسارت القصة وهدفها هو الهدف الديني الذي أُنزلت من أجله . .

يقول الدكتور فضل عباس عن قصة داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ:

«ونلحظ هنا ملحظاً مهماً لا بد من التنبيه عليه، وهو أن هذا القصص لم ينزل مُبَكِّراً ـ كما وجدنا في القصص السابق ـ وذلك لأنه ليس من ذلك النوع الذي يتعلق تعلقاً مباشراً بالدعوة فيحمل التهديد ويظهر من خلال آياته تهديد المشركين المعارضين، والطمأنينة للمؤمنين، وتثبيت قلب النبي ـ ﷺ ـ هذا أولاً.

وأما ثانياً: فإن السور التي ذُكرت فيه مثل هذا القصص لم تكن من الكثرة ـ كما رأينا في النوع الأول ـ وينتج عن هذين أمر ثالث، وهو أننا لم نرَ الحديث في هذه القصص يبدأ بالإشارات الموجزة المُعَبِّرة ـ كما رأينا من قبل ـ لأنه لا داعي لها.. فالحديث عن داود وسليمان ذُكر في هذه السور الأربع: (صّ) والنمل وسبأ والأنبياء... ولا يظنن ظآنّ أن هذين النبيين الكريمين لم يُذكرا إلا في هذه السور، فقد ذُكرت أسماؤهما في سور كثيرة مع رهط من الأنبياء الآخرين، كسورة البقرة والنساء والأنعام، ولكن الذي نقصده بأن هذه السور الأربع هي التي ذُكر فيها أخبارهما ـ عليهما السلام ـ»[1].

وهكذا تبدأ قصة داود وهو مجاهد في جيش طالوت، وقد ارتفعت راية النصر على يديه بعد قَتْله جالوت، وكان إذ ذاك فتى، وتمَّ له الظَّفر؛ فالتقتْ على محبته القلوب، وتأكدت له أواصر الإخلاص، وأصبح بين عَشية وضحاها حديث بني إسرائيل، يَكنُّون له في نفوسهم محبة وإجلالاً، ويُغْضُون عيونهم في حضرته مهابة وإعظاماً. ومنذ ذلك الحين ارتفع نجمه يتنقَّل من ظَفَر إلى ظَفَر، ويَجيئه النصر يَتبعه النصر، حتى ولي المُلك أخيراً، وأصبح ذا سلطان. ولكنه كان أوّاباً رجّاعاً إلى ربه بالطاعة والعبادة والذكر والاستغفار..

المَلِك الطائع العابد:

ويخاطب الله سبحانه نبيه محمد ـ ﷺ ـ بعد ذكر ما لاقاه النبي من

---

(١) القصص القرآني: ٣٥٣.

المشركين: ﴿اصبر على ما يقولون. واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوّاب﴾ [صٓ: ١٧]..

يُذكر داود هنا بأنه ذو القوة. وبأنه أَوَّاب.. يرجع إلى ربه طائعاً تائباً ذاكراً. وهو القوي ذو الأيدِ والسلطان..

وقال ـ ﷺ ـ: «إن داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يَفِرُّ إذا لاقى»(١).

ويُبين الله تبارك وتعالى ما خصّ به داود من قوة، ومن نِعَم.. فَمَع النبوة والمُلك آتاه الله من فضله قلباً ذاكراً وصوتاً رخيماً، يرجع به تراتيله التي يمجّد فيها ربّه. وبلغ من قوة استغراقه في الذكر، ومن حسن حَظّه في الترتيل، أن تزول الحواجز بين كيانه وكيان هذا الكون. وتتصل حقيقته بحقيقة الجبال والطير في صلتها كلها ببارئها، وتمجيدها له وعبادتها. فإذا الجبال تُسبّح معه، وإذا الطير مجموعة عليه، تُسبِّح معه لمولاها ومَولاه: ﴿إنا سخرنا الجبال معه يُسَبِّحن بالعشي والإشراق. والطير محشورة كلٌّ له أوّاب﴾ [صٓ: ١٨، ١٩]..

---

(١) وهو الشطر الأخير من الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو، قال: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «أَلَمْ أُخْبَر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟ إذا فعلتَ ذلك، هجمت لك العَيْن، ونَفَهَتْ لك النفسُ، لا صام مَن صام الأبد، صوم ثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر، إن داود كان يصوم يوماً، ويُفطر يوماً، ولا يفرّ إذا لاقى» رواه ابن حبان بإسناده صحيح، وأخرجه البخاري ومسلم (انظر الإحسان ٦٢٢٦، ٣٥٧١).

وفي حديث آخر قال ـ ﷺ ـ: «لا صوم فَوقَ صوم داود، شَطْر الدهر صيام يوم وإفطار يوم» أخرجه البخاري ومسلم (انظر الإحسان رقم ٣٦٤٠) وورد في الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال:

«أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود. كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه. وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً. ولا يفرّ إذا لاقى وأنه كان أوّاب».

ومن خلال هذه الأوصاف للروحِ العالية لداود ـ عليه السلام ـ يجب أن نفسر كل ما ذكره القرآن من فضل الله عليه: فقد سخر معه الجبال تُسبّح عند إشراق الشمس وآخر النهار، والطير تُسبّح بتسبيحه تقف في الهواء إذا سمعت داود يقرأ الزبور وتُسبّح معه..

وقد عُرف داود ـ عليه السلام ـ بمزاميره. وهي تسابيح كان يُرَتّلها بصوته الحنون، فتتجاوب أصداؤها حوله، وترجع معه الجبال والطير. . ﴿**وسخرنا مع داود الجبال. يُسبحن والطير. وكنا فاعلين**﴾ [الأنبياء: ٧٩]. .

لقد وهب الله عبده داود هذه الخاصة، وسخّر الجبال معه يُسبحن بالعشي والإشراق. وحشر عليه الطير ترجع مع ترانيمه تسبيحاً للّه ﴿**يا جبال أوِّبي معه والطير**﴾ [سبأ: ١٠]. .

ولقد يقف الناس مدهوشين أمام هذا النبأ. . الجبال الجامدة تُسبِّح مع داود بالعَشي والإشراق، حينما يخلو إلى ربه، يُرتّل ترانيمه في تمجيده وذكره. والطير تتجمع على نَغَماته لتسمع له وترجع معه أناشيده. . لقد يقف الناس مَدهُوشين للنبأ، إذ يُخالف مألوفهم، ويخالف ما اعتادوا أن يُحسوه من العزلة بين جنس الإنسان، وجنس الطير، وجنس الجبال!

ولكن فِيمَ الدهش؟ وفيمَ العجب؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة. وراء تميز الأجناس والأشكال والصفات والسمات. . حقيقة واحدة يجتمعون فيها بباريء الوجود كله: أحيائه وأشيائه جميعاً. وحين تصل صلة الإنسان بربه إلى درجة الخلوص والإشراق والصفاء، فإن تلك الحواجز تنزاح؛ وتنساح الحقيقة المجردة لكل منهم. فتتصل من وراء حواجز الجنس والشكل والصفة والسمة التي تُميّزهم وتَعزلهم في مألوف الحياة!

وحينما يتصل قلب عبد بربه فإنه يحسّ الاتصال بالوجود كله؛ وينبض قلب الوجود معه؛ وتَنْزَاح العوائق والحواجز الناشئة عن الشعور بالفوارق والفواصل التي تُميز الأنواع والأجناس، وتقيم بينها الحدود والحواجز، وعندئذ تتلاقى ضمائرها وحقائقها في ضمير الكون وحقيقته. وفي لحظات الإشراق تحس الروح باندماجها في الكل، واحتوائها على الكل. . عندئذ لا تحسّ بأن هنالك ما هو خارج عن ذاتها؛ ولا بأنها هي متميزة عما حولها. فكل ما حولها مندمج فيها وهي مندمجة فيه.

ومن النص القرآني نتصوّر داود وهو يُرَتّل مَزاميره، فَيَسْهو عن نفسه

المُنفصلة المتميزة المُتَحَيِّزة. وتهيم روحه في ظلال الله في هذا الكون ومجاليه ومخلوقاته الجوامد منها والأحياء. فيحسّ ترجيعها، ويتجاوب معها كما تتجاوب معه. وإذا الكون كله فرقة مُرتِّلة عازفة مُسبِّحة بجلال الله وحمده. ﴿وإن من شيء إلا يُسبِح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ [الإسراء: ٤٤].. إنما يفقهه مَن يَتجرد من الحواجز والفواصل، وينطلق مع أرواح الكائنات، المتجهة كلها إلى الله.

﴿وسَخَّرنا مع داود الجبال يُسَبِّحن والطير﴾.. ﴿وكنا فاعلين﴾ فما هنالك من شيء يعزّ على القدرة أو يتأبّى حين تريد. يستوي أن يكون مألوفاً للناس أو غير مألوف.

وتذكر الروايات أن داود ـ عليه السلام ـ أُوتي صوتاً جميلاً خارقاً في الجمال؛ كان يرتل به مزاميره، وهي تسابيح دينية، وَرَد منها في كتاب «العهد القديم» ما الله أعلم بصحته.

وفي الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته. ثم قال ـ ﷺ ـ: «لقد أُوتي هذا مِزماراً من مزامير آل داود».

والآيات المتقدمة تُصَوّر من فَضل الله على داود ـ عليه السلام ـ أنه قد بلغ من الشفافية والتَجَرُّد في تسابيحه أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات؛ فاتصلت حقيقتها بحقيقته، في تسبيح بارئها وبارئه؛ ورجَّعت معه الجبال والطير، إذ لم يعد بين وجوده ووجودها فاصل ولا حاجز، حين اتصلت كلها بالله صلة واحدة مباشرة؛ تنزاح معها الفوارق بين نوع من خلق الله ونوع، وبين كائن من خلق الله وكائن؛ وترتد كلها إلى حقيقتها اللدنية الواحدة، التي كانت تغشى عليها الفواصل والفوارق؛ فإذا هي تتجاوب في تسبيحها للخالق، وتتلاقى في نغمة واحدة، وهي درجة من الإشراق والصفاء والتجرد لا يبلغها أحد إلا بفضل من الله، يزيح عنه حجاب كيانه المادي، ويرده إلى كينونته

اللَّدنية التي يَلتقي فيها بهذا الوجود، وكل ما فيه وكل مَن فيه بلا حواجز ولا سدود.

وحين انطلق صوت داود ـ عليه السلام ـ يُرَتِّل مزاميره ويُمَجِّد خالقه، رجَّعت معه الجبال والطير، وتجاوب الكون بتلك التراتيم السارية في كيانه الواحد، المتجهة إلى بارئه الواحد.. وإنها للَحَظات عجيبة لا يتذوقها إلا مَن عنده بها خبر، ومَن جرَّب نوعها ولو في لحظة من حياته.

ذلك فضل الله ورحمته على داود ـ عليه السلام ـ **﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً. يا جبال أَوِّبي معه والطير. وأَلَنَّا له الحديد أن اعمل سابغات، وقَدِّر في السَّرد، واعملوا صالحاً. إني بما تعملون بصير﴾** [سبأ: ١٠، ١١]..

وكانت هذه هبة الله فوق المُلك والسلطان، مع النبوة والاستخلاص..

ويذكر السياق القرآني طرف آخر من فضل الله عليه: **﴿وأَلَنَّا له الحديد﴾**..

وفي ظل هذا السياق يبدو أن الأمر كان خارقة ليست من مألوف البشر(١). فلم يكن الأمر أمر تسخين الحديد حتى يلين ويصبح قابلاً للطرق، إنما كان ـ والله أعلم ـ معجزة يلين بها الحديد من غير وسيلة اللين المعهودة. وإن كان مجرد الهداية لإِلاَنة الحديد بالتسخين يُعد فضلاً من الله يُذكر.

ولكننا إنما نتأثر جَوّ السياق وظلاله وهو جَوّ مُعجزات، وهي ظلال خوارق خارجة على المألوف.

﴿أن اعمل سابغات وقَدِّر في السَّرد﴾.

والسابغات الدروع. روي أنها كانت تُعمل قبل داود ـ عليه السلام ـ

---

(١) روى ابن كثير عن الحسن البصري: كان الله قد أَلَان الحديد لداود حتى كان يفتله بيديه لا يحتاج إلى نار ومطرقة، فكان أول مَن عمل الدروع من زرد، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح.

صفائح. الدرع صفيحة واحدة، فكانت تُصَلّب الجسم وتُثقله. فألهم الله داود أن يصنعها رقائق متداخلة متموجة لينة يسهل تشكيلها وتحريكها بحركة الجسم؛ وأَمَر بتضييق تداخل هذه الرقائق لتكون مُحكمة لا تنفذ منها الرماح. وهو التقدير في السَّرد. وكان الأمر كله إلهاماً وتعليماً من الله.

وخوطب داود وأهله: ﴿**واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير**﴾..

لا في الدروع وحدها بل في كل ما تعملون، مراقبين الله الذي يبصر ما تعملون ويجازي عليه، فلا يفلت منه شيء، والله به بصير..

﴿**وعَلَّمناه صَنعة لَبُوس لكم لِتَحصنكم من بأسكم، فهل أنتم شاكرون؟**﴾ [الأنبياء: ٨٠].

تلك هي صنعة الدروع حلقاً متداخلة، بعد أن كانت تُصنع صفيحة واحدة جامدة. والزرد المتداخل أيسر استعمالاً وأكثر مرونة، ويبدو أن داود هو الذي ابتدع هذا النوع من الدروع بتعليم الله. والله يَمُنّ على الناس أن علّم داود هذه الصناعة لوقايتهم في الحرب: ﴿**لتحصنكم من بأسكم**﴾ وهو يسألهم سؤال توجيه وتحضيض: ﴿**فهل أنتم شاكرون؟**﴾..

والحضارة البشرية سارت في طريقها خطوة خطوة وراء الكشوف. ولم تجيء طفرة، لأن خلافة الأرض تركت لهذا الإنسان، ولمداركه التي زَوَّده الله بها ليخطو في كل يوم خطوة؛ ويعيد تنسيق حياته وفق هذه الخطوة. وإعادة تنسيق الحياة وفق نظام جديد ليست سهلة على النفس البشرية؛ فهي تهز أعماقها؛ وتغير عاداتها ومألوفها؛ وتقتضي فترة من الزمان لإعادة الاستقرار الذي تطمئن فيه إلى العمل والإنتاج. ومن ثم شاءت حكمة الله أن تكون هناك فترة استقرار تطول أو تقصر. بعد كل تنسيق جديد.

والقلق الذي يستولي على أعصاب العالم اليوم منشؤه الأول سرعة توالي الهزات العلمية والاجتماعية التي لا تدع للبشرية فترة استقرار، ولا تدع للنفس فرصة التكيف والتذوق للوضع الجديد.

ثم يبين الله عز وجل مدى فضله على داود ـ عليه السلام ـ:

﴿وشَدَدْنا مُلكه. وآتيناه الحكمة وفَصْلَ الخطاب﴾ [صٓ: ٢٠].

فكان مُلكه قوياً عزيزاً(١). وكان يسوسه بالحكمة والحزم جميعاً. وفَصْل الخطاب قَطْعه والجزم فيه برأي لا تردّد فيه. وذلك مع الحكمة ومع القوة غاية الكمال في الحكم والسلطان في عالم الإنسان(٢).

الفتنة والابتلاء:

ومع هذا كله فقد تعرض داود للفتنة والابتلاء؛ وكانت عَين الله عليه لترعاه وتقود خطاه، وكانت يد الله معه تكشف له ضعفه وخطأه، وتوقيه خطر الطريق وتعلمه كيف يتوقاه:

﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تَسَوّروا المحراب؟ إذ دخلوا على داود ففزع

---

(١) لقد أيَّد الله مُلكه بما منحه من فضل، وبما وهبه من خير، وآتاه الحكمة في أفعاله، وفصل الخطاب في أقواله. ولا غرو فهو مؤيَّد بما يوحى إليه من ربه، وكفى بذلك عوناً له على بلوغ آماله، والسير بأمته على المنهج الحكيم، والسبيل القويم.

ويذهب بعض المفسرين في معنى قوله: ﴿**وشددنا ملكه**﴾ أن الله قوّاه وجعله منصوراً على جميع أعدائه ومناوئيه. فكان لا يقوم له معارض إلا غلبه.

ويقول البيضاوي: ﴿**شددنا ملكه**﴾ قويناه بالهيبة، إذ كانت تؤيده عناية الله. فقد رُوي أن رجلاً ادّعى بقرة على آخر وعجز عن البيان، فأوحى الله إليه أن اقتل المدعيِ عليه. فأعلمه داود بأنه سيقتله. فقال: ما فعلتَ إلا الحق، وهذه عدالة السماء، لأني قتلتُ أباه وأخذت البقرة. فعظمت بذلك هيبته بين الناس.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كان داود لا يأكل إلا من عمل يده» أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٧٣) وابن حبان (انظر الإحسان ٦٢٢٧).

قال الحافظ في «الفتح» ٣٠٦/٤: الحكمة في تخصيص داود بالذكر أن اقتصاره في أكله على ما يعمله بيده لم يكن من الحاجة، لأنه كان خليفة في الأرض كما قال الله تعالى، وإنما ابتغى الأكل من طريق الأفضل، ولهذا أورد النبي ـ ﷺ ـ قصته في مقام الاحتجاج بها من أن خير الكسب عمل اليد، وهذا تقرير أن شرع مَن قبلنا شرع لنا، ولا سيما إذا ورد في شرعنا مدحه وتحسينه مع عموم قوله تعالى: ﴿**فَبِهُداهم اقتده**﴾. وفي الحديث: أن التكسُّب لا يقدح في التَوكُّل، وأن ذكر الشيء بدليله أوقع في نفس سامعه.

منهم. قالوا: لا تخف. خصمان بغى بعضنا على بعض. فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط. واهدنا إلى سواء الصراط. إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، فقال: أكفلنيها، وعَزّني في الخطاب. قال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، وإن كثيراً من الخُلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ وقليل ما هم ـ وظن داود أنما فتناه. فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب﴾[1] [صٓ: ٢١ ـ ٢٤]. .

وبيان هذه الفتنة أن داود النبي الملك، كان يخصص بعض وقته للتصرف في شؤون الملك، وللقضاء بين الناس. ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحاً للّه في المحراب. وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس.

وفي ذات يوم فوجىء بشخصين يَتَسوّران المحراب المُغلق عليه. فَفَزِعَ منهم فما يَتَسَوَّر المحراب هكذا مؤمن ولا أمين! فبادرا يُطَمْئِناه. ﴿قالوا: لا

---

(١) «لقد أخطأ الكثير من الكاتبين والمفسرين في بيان هذه الآيات، فقد نسجوا حولها قصصاً كاذبة مُنكَرة، وهذا نتيجة الثقة بالإسرائيليات ـ مع كل أسف ـ التي كثرت في تفسير قصص القرآن، ومع أنها ضَرر كلها إلا أن بعضها خروج صريح عن العقيدة، ومنافاة لعصمة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قالوا: إن داود ـ عليه السلام ـ رأى امرأة أحد جنوده فأرسله للمعركة ليُقتل ليتزوجها وكان له تسع وتسعون من النساء، فأرسل الله له هذين المَلَكَين ليبين له فظاعة ما فعله.

وهذا القول من حيثُ المروءة واللياقة والدين لا يليق بأي أحد من الناس فكيف يُنسب إلى نبي، وسامَح الله الذين ذهبوا إلى أن النعجة يقصد منها المرأة، والنعجة نعجة، وقد كرّم الله بني آدم، وكل ما كان من داود أنه حينما تسوّر أولئك المحراب فلم يدخلوا من الباب الذي ينبغي أن يدخلوا منه فَزِعَ منهم، ومع تطمينهما له بقولهما: لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض، إلا أن أثر ذلك الفزع كان لا يزال أثره في نفسه، والدليل على ما نقول: أنه حينما بدءا يتحدثان قال أحدهما، وهو صاحب النعجة، بأن أخاه له تسع وتسعون نعجة. . إلى آخر ما قال تكلم صاحب النعجة وكان حرياً بداود أن يتريث ليسمع ما يقوله الآخر وهو صاحب التسع والتسعين، ولكننا نجد أن داود يصدر الحكم دون أن يسمع من الآخر نصاً، من أجل ذلك عوتب واستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب، فغفر الله له ذلك، وأكرمه بالقربى وحسن المنقلب، ثم أرشده ليحكم بين الناس بالحق ونهاه أن يتبع الهوى في الحكم. فأين هذا من الإسرائيليات التي حشي بها كتب التفسير قديمها وحديثها!! (القصص النبوي: ٣٥٥).

تخف. **خصمان بغى بعضنا على بعض﴾**. وجئنا للتقاضي أمامك **﴿فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط﴾**..

وبدأ أحدهما فَعَرض خصومته: **﴿إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة. فقال: أكفلنيها﴾** (أي اجعلها لي وفي ملكتي وكفالتي) **﴿وعَزَّني في الخطاب﴾** (أي أَشْدَد علي في القول وأغلظ).

والقضية ـ كما عرضها أحد الخصمين ـ تحمل ظُلماً صارخاً مُثيراً لا يحتمل التأويل. ومن ثم اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة؛ ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يطلب إليه بياناً، ولم يسمع له حجة. ولكنه مضى يحكم: **﴿قال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه. وإن كثيراً من الخلطاء** ـ (أي الأقوياء المُخالطين بعضهم لبعض) ـ **ليبغي بعضهم على بعض. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾**..

ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان: فقد كانا مَلَكين جاءا للامتحان! امتحان النبي المَلِك الذي وَلّاه الله أمر الناس، ليقضي بينهم بالحق والعدل، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم. وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة.. ولكن القاضي عليه ألا يُستثار، وعليه ألا يتعجّل. وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد. قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته؛ فقد يتغير وَجْه المسألة كله، أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً!

عند هذا تنبّه داود إلى أنه الابتلاء: **﴿وظن داود أنما فتناه﴾**..

وهنا أدركته طبيعته.. إنه أوّاب.. **﴿فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب﴾**..

﴿فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ [صّ: ٢٥].

وخاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضاً كبيراً. تَتَنَزَّه عنه طبيعة النبوة. ولا يتفق إطلاقاً مع حقيقتها. حتى الروايات

التي حاولت تخفيف الأساطير سارت معها شوطاً. وهي لا تصلح للنظر من الأساس. ولا تتفق مع قول الله تعالى: **﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾**..

والتعقيب القرآني الذي جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة؛ ويُحدّد التوجيه المقصود بها من الله لعبده الذي ولاّه القضاء والحكم بين الناس: **﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض، فاحكم بين الناس بالحق. ولا تتّبع الهوى فيضلك عن سبيل الله. إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد. بما نسوا يوم الحساب﴾** [صّ: ٢٦]..

فهي الخلافة في الأرض، والحكم بين الناس بالحق[١]، وعدم اتباع الهوى. واتباع الهوى - فيما يختص بنبي - هو السير مع الانفعال الأول، وعدم التَريُّث والتثبت والتَبَيُّن.. مما ينتهي مع الاستطراد فيه إلى الضلال. أما عقب الآية المصوّر لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبيل الله. وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب.

ومن رعاية الله لعبده داود، أنه نبّهه عند أول لفتة. وردّه عند أول اندفاعة. وحذّره النهاية البعيدة. وهو لم يخط إليها خطوة! وذلك فضل الله على المختارين من عباده. فهم بِبَشَريتهم قد تعثر أقدامهم أقل عثرة، فيقيلها الله، ويأخذ بيدهم، ويُعلمهم، ويُوفقهم إلى الإنابة، ويَغفر لهم، ويُغدق عليهم، بعد الابتلاء..

وعند تقرير مبدأ الحق في خلافة الأرض، وفي الحكم بين الناس.. يرد

---

(١) والحاكم هو ظل الله في أرضه، وخليفته بين عباده. يقول رسول الله - ﷺ - في فضل الحاكم العادل: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن - وكلتا يديه يمين -: الذين يقسطون في أهليهم وحكمهم وما وُلّوا» رواه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن أحبّ الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً: إمام عادل. وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً: إمام جائر». رواه أحمد والترمذي.

السياق القرآني هذا الحق إلى أصله الكبير. أصله الذي تقوم عليه السماء والأرض وما بينهما. أصله العريق في كيان هذا الكون كله. وهو أشمل من خلافة الأرض، ومن الحكم بين الناس. وهو أكبر من هذه الأرض. كما أنه أبعد مدى من الحياة الدنيا. إذ يتناول صميم الكون كما يتناول الحياة الآخرة. ومنه وعليه جاءت الرسالة الأخيرة، وجاء الكتاب المفسر لذلك الحق الشامل الكبير: ﴿**وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً. ذلك ظن الذين كفروا. فويل للذين كفروا من النار. أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض؟ أم نجعل المتقين كالفجار؟ كتاب أنزلناه إليك مبارك، ليدّبروا آياته، وليتذَكّر أولو الألباب**﴾ [صٓ: ٢٧ ـ ٢٩]. .

وهكذا: في هذه الآيات الثلاث، تتقرر تلك الحقيقة الضخمة الهائلة الشاملة الدقيقة العميقة. بكل جوانبها وفروعها وحلقاتها. .

إن خلق السماء والأرض وما بينهما لم يكن باطلاً، ولم يقم على الباطل. إنما كان حقاً وقام على الحق. ومن هذا الحق الكبير تتفرع سائر الحقوق. الحق في خلافة الأرض. والحق في الحكم بين الخَلْق. والحق في تقويم مشاعر الناس وأعمالهم؛ فلا يكون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض؛ ولا يكون وَزْن المتقين كوزن الفجّار. والحق الذي جاء به الكتاب المبارك الذي أنزله الله ليتدبروا آياته وليتذكر أصحاب العقول ما ينبغي أن يتذكروه من هذه الحقائق الأصيلة، التي لا يتصورها الكافرون، لأن فطرتهم لا تتصل بالحق الأصيل في بناء هذا الكون، ومن ثم يسوء ظنهم بربهم ولا يدركون من أصالة الحق شيئاً. . ﴿**ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار**﴾. .

إن شريعة الله للناس طرف من ناموسه في خلق الكون. وإن كتابه المنزل بيان للحق الذي يقوم عليه الناموس. وإن العدل الذي يطالب به الخلفاء في الأرض والحكام بين الناس إنما هو طرف من الحق الكلي، لا يستقيم أمر الناس إلا حين يتناسق مع بقية الأطراف. وإن الانحراف عن شريعة الله والحق في الخلافة والعدل في الحكم إنما هو انحراف عن الناموس الكوني الذي

قامت عليه السماء والأرض؛ وهو أمر عظيم إذن، وشر كبير، واصطدام مع القوى الكونية الهائلة لا بد أن يتحطم في النهاية ويزهق. فما يمكن أن يصمد ظالم باغ منحرف عن سنّة الله وناموس الكون وطبيعة الوجود.. ما يمكن أن يصمد بقوته الهزيلة الضئيلة لتلك القوى الساحقة الهائلة، ولعجلة الكون الجبارة الطاحنة!

وهذا ما ينبغي أن يَتَدَبَّره المُتَدبّرون وأن يتذكَّره أُولو الألباب..

فَتْحٌ من الله وإلهام:

ويُفصّل القرآن بعض الشيء في حلقة من قصة داود ـ عليه السلام ـ فلقد كرَّمه الله ـ كذلك ـ حيث وَهَبه الولد الصالح والنبي الصالح سليمان ـ عليه السلام ـ ﴿**ووهبنا لداود سليمان. نِعْمَ العبد إنه أواب**﴾ [صٓ: ٣٠] وأراه من ذكائه وعقله وسداد رأيه ما مَلأً نفسه بالسكينة والطمأنينة، وزاده شُكراً للّه على نعمائه وآلائه.

ومن ذلك ما جاء في الكتاب العزيز عن تلك القضية التي حكم فيها داود ثم حكم فيها ولده سليمان؛ فكان حكم سليمان أعظم فائدة وأكثر صواباً وأرفق بالمتخاصمين..

﴿**وداود وسليمان إذ يحكمان في الحَرْث إذ نَفَشَت فيه غَنم القوم؛ وكنا لحكمهم شاهدين. فَفَهَّمْناها سليمان. وكلًا آتينا حكماً وعلماً**﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

وقصة الحرث التي حكم فيها داود وسليمان يقول الرواة في تفصيلها: إن رجلين دخلا على داود، أحدهما صاحب حَرْث أي حقل وقيل حديقة كَرم ـ والآخر صاحب غَنَم. فقال صاحب الحرث: إن غَنَم هذا قد نَفَشت في حرثي ـ أي انطلقت فيه ليلاً ـ فلم تُبق منه شيئاً. فَحَكم داود لصاحب الحرث أن يأخذ غنم خصمه في مقابل حرثه..

ومَرّ صاحب الغنم بسليمان؛ فأخبره بقضاء داود. فدخل سليمان على

أبيه فقال: يا نبي الله إن القضاء غير ما قضيت. فقال: كيف؟ قال: ادفع الغنم إلى صاحب الحرث لينتفع بها، وادفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان. ثم يعيد كل منهما إلى صاحبه ما تحت يده. فيأخذ صاحب الحرث حرثه، وصاحب الغنم غنمه.. فقال داود: القضاء ما قضيت. وأُمضي حكم سليمان.

وكان حكم داود وحكم سليمان في القضية اجتهاداً منهما. وكان الله حاضراً حكمهما، فألهم سليمان حُكماً أحكم. وفَهَّمه ذلك الوجه وهو أصوب.

لقد اتجه داود في حُكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث. وهذا عدل فحسب. ولكن حُكم سليمان تضمن مع العدل البناء والتعمير، وجعل العَدل دافعاً إلى البناء والتعمير. وهذا هو العدل الحي الإيجابي في صورته البانية الدافعة. وهو فَتح من الله وإلهام يَهبه مَن يشاء.

ولقد أوتي داود[1] وسليمان كلاهما الحكمة والعلم: ﴿**وكلًّا آتينا حُكماً وعلماً**﴾.. وليس في قضاء داود من خطأ، ولكن قضاء سليمان كان أصوب، لأنه مع نبع الإلهام.

يقول الإمام الطوفي: «إن داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ حَكَما في

---

(١) ذكر الإمام أحمد عن وهب قال: «مكتوب في حكمة آل داود: حقٌّ على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب بها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحلّ ويجمل، فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات، واستجماماً للقلوب، يعني ترويحاً لها. (إغاثة اللهفان ١/٩٥، جامع العلوم والحكم ٢/١٩٢).

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: «أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: يا داود، أما وعِزَّتي وعظمتي لا يعتصم بي عبد من عبيدي دونَ خلقي ـ أعرفُ ذلك من نِيَّته ـ فتكيدهُ السموات السبع ومَن فيهن، والأرضون السبع ومَن فيهن إلا جعلتُ له من بينهنَّ مخرجاً، أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني ـ أعرف ذلك من نيته ـ إلا قطعت أسباب السماء من يده، وأسختُ الأرض من تحت قدميه، ثم لا أُبالي بأيِّ وادٍ هلك». (إغاثة اللهفان: ١/٤٥).

الحرث، إذ نَفَشَتْ فيه غنمُ القوم باجتهادهما، أما داودُ، فلأنه لو لم يكن حَكَم باجتهاده، لما جاز لسليمان ـ عليه السلام ـ أن يُخالفه، ولا لداود أن يَرجع إليه، وأما سليمان، فلأنه لو لم يكن حَكَم باجتهاده، لما خُصَّ بالتفهيم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ففهمناها سليمان**﴾ على طريق المدح.

ولو أن داود حَكَم بالوحي، لما رَجَع إلى قول سليمان، ولرجع سليمان عن رأيه لما علم بالوحي، وسليمان لم يكن بَعْدُ قد أُوحيَ إليه، لأن القصة كانت وهو صبيٌّ بعد. . »[1].

وبعد فإن في هذه القصة عبرة وحكمة وتَبصرة «وتعليم لأولئك الذين يُقَلَّدون مهمة الحكم بين الناس، فلا يرى أحدهم بأساً أن يَرجع عن خطأ كان منه أو أن يرجع إلى ما هو خير مما حكم به، وقد رأينا الأب يرجع إلى حكم ابنه»[2].

وقد أنزل الله تعالى على داود كتاباً هو «الزبور»، فقد ذكر القرآن في معرض الوحي على الأنبياء في سورة النساء: ﴿**وأوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده**. . [إلى قوله]. . وآتينا داود زبوراً﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال في التنبيه على فضل وشرف داود في سورة الإسراء: ﴿**ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً**﴾ [الإسراء: ٥٥].

وقال في سورة الأنبياء: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾[3] [الأنبياء: ١٠٥].

---

(١) شرح مختصر الروضة: ٣/٥٩٨.

(٢) القصص النبوي: ٣٦٧.

(٣) في هذه الآية الكريمة بيان سنّة الله في وراثة الأرض، وصيرورتها للصالحين من عباده في هذه الحياة. .

والزبور إما أن يكون الكتاب الذي أوتيه داود ـ عليه السلام ـ ويكون الذكر إذن هو التوراة التي سبقت الزبور. وإما أن يكون وصفاً لكل كتاب بمعنى قطعة من الكتاب الأصيل =

قال الإمام القرطبي: «الزبور كتاب ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد»(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «خُفِّفَ على داود القراءة، فكان يأمر بدابته أن تُسرَج، فيفرغ من قراءة الزبور قبل أن تسرج دابته»(٢).

= الذي هو الذكر وهو اللوح المحفوظ، الذي يمثل المنهج الكلي، والمرجع الكامل، لكل نواميس الله في الوجود.

وعلى أية حال فالمقصود بقوله: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر...**﴾ هو بيان سنّة الله المقررة في وراثة الأرض: ﴿**أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾ (الظلال ٤/٢٣٩٩، ٢٤٠٠).

(١) لقد أنزل الله تعالى «التوراة» على موسى ـ عليه السلام ـ كتاباً لهداية بني إسرائيل، وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد. وتحمل شعائر تعبدية شتى. وتحمل كذلك شريعة:

﴿**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور. يحكم بها النبيون الذين أسلموا، للذين هادوا، والربانيون والأحبار، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء**﴾..

لقد كانت التوراة التي نزلت على موسى ـ عليه السلام ـ وفيها الشريعة المنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية، والمتضمنة قوانين التعامل ـ هي كتاب أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى، وكذلك هي كتاب عيسى ـ عليه السلام ـ مضافاً إليها الإنجيل الذي يتضمن تهذيب النفس والسمو بالروح، وتكملة وإحياء لروح التوراة، ولروح الدِّين التي طُمست في قلوب بني إسرائيل..

يقول الله سبحانه عن عيسى ـ عليه السلام ـ آخر أنبياء بني إسرائيل: ﴿**ويُعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. ورسولاً إلى بني إسرائيل.. [إلى قوله]. ومصدقاً لما بين يدي من التوراة، ولأحلَّ لكم بعض الذي حُرِّمَ عليكم، وجئتكم بآية من ربكم، فاتقوا الله وأطيعون. إن الله ربي وربكم فاعبدوه. هذا صراط مستقيم**﴾...

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٧) و(٤٧١٣)، وأحمد (٢/٣١٤)، وابن حِبان في صحيحه. انظر الإحسان (٦٢٢٥).

قصة سليمان عليه السلام



قصة سليمان ـ عليه السلام ـ

ترد الإشارة في القرآن الكريم إلى حلقات رائعة من قصة داود وسليمان، وهما من أنبياء بني إسرائيل **﴿إن هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾** [النمل: ٧٦]..

وقصص موسى وداود وسليمان من أهم الحلقات في تاريخ بني إسرائيل. ولقد سبق بيان شأن داود ـ عليه السلام ـ والعجائب التي أجراها الله على يديه، عِبرة لَمن يتدبرون، وذكرى لَمن يفقهون. فأما شأن سليمان ـ عليه السلام ـ فهو أعظم وأعجب!

ابتلاء وفتنة:

ويعرض القرآن الكريم نعمة الله على داود في عَقِبه وولده سليمان، وما وهَبَه الله من ألوان الإنعام والإفضال. كما يعرض فتنته وابتلاءه ورعاية الله له، وإغداقه عليه بعد الفتنة والابتلاء:

﴿ووهبنا لداود سليمان. نِعْمَ العبد. إنه أوّاب. إذ عُرض عليه بالعشي الصافنات الجياد. فقال: إني أحببتُ حُبَّ الخير عن ذِكْرِ ربي حتى توارت بالحجاب. ردُّوها عليّ. فَطَفِقَ مَسحاً بالسوق والأعناق. ولقد فَتَنَّا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب. قال: ربّ اغفر لي وهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، إنك أنت الوهّاب..﴾ [صٓ: ٣٠ ـ ٣٥].

والإشارتان الواردتان هنا عن الصافنات الجياد وهي الخيل الكريمة. وعن الجسد الذي أُلقي على كرسي سليمان.. كلتاهما إشارتان لم تسترح نفسي لأي تفسير أو رواية مما احتوته التفاسير والروايات عنهما. فهي إما إسرائيليات مُنكَرة[١]، وإما تأويلات لا سَنَد لها. ولم أستطع أن أتصور طبيعة الحادثين تصوراً يطمئن إليه قلبي، فأُصَوِّره هنا وأحكيه. ولم أجد أثراً صحيحاً أركن إليه في تفسيرهما سوى حديث صحيح. صحيح في ذاته ولكن علاقته بأحد هذين الحادثين ليست أكيدة.

---

١) يقول المفسرون: إن فتنة سليمان ـ عليه السلام ـ هي ابتلاء الله له بذهاب مُلكه حيناً من الزمن بسبب أنه قال للشيطان: كيف تفتنون الناس؟

فقال له الشيطان: أرني خاتمك أُخبرك. فلما أعطاه إياه نبذه في البحر فذهب مُلكه، وحينئذ قعد الشيطان على كرسيه.

ولا ريب أن مثل هذا التفسير وَهْم وضلال، ومُنكَر يخالف أصول العقيدة والمعرفة بالله، فالمُلك بيده سبحانه وتعالى وحده **﴿قل: اللهم مالك الملك تُؤتي الملك مَن تشاء وتنزع الملك مَن تشاء﴾**، فلا يأتي المُلك بوضع الخاتم في الإصبع، ولا يذهب بنبذ الخاتم في البحر، وإنما هو بيد الله يؤتيه لمن يشاء وينزعه ممن يشاء.

ولأن الشياطين لا يمكن أن تتمثل بصورة الأنبياء، حتى يقعد الشيطان على كرسي سليمان ويتمثل به. فهو أكرم على الله من أن يتمثل الشيطان به حتى لا يختلط الحق بالباطل، ويعم الفساد، ويستشري الضلال.

وهناك روايات أخرى يذكرها معظم المفسرين كالفخر الرازي والقرطبي وغيرهما. ومنها: أن فتنة سليمان أنه وُلد له ابن، فقالت الشياطين: إن عاش هذا الولد فسوف يتسلط علينا، فكان سليمان يُخبئه في السحاب خوفاً من الشياطين أن تقتله. فبينما كان يوماً مشغولاً بمهام مُلكه إذ رأى ولده مُلقى على كرسيه جسداً هامداً لا حراك فيه. فأدرك خطيئته وهي أنه لم يتوكل على الله، فاستغفر ربه وأناب..

إنه التيه والتخبط في الضلال وراء هذه الروايات.. وأين هذه الرواية من قول الله تعالى **﴿ومن الجن مَن يعمل بين يديه بإذن ربه﴾** وقوله **﴿فلما قضينا عليه الموت ما دلَّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته. فلما خرَّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾** وقد قال الله لسليمان إنك مطلق اليد فيما وهبناه لك من سلطة ومن نعمة: **﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾**.

والحد المأمون هو الوقوف في ظلال نصوص القرآن إذا لم يكن في التفسير سند صحيح وإلا فهي الإسرائيليات المنكَرة!

هذا الحديث هو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ـ ﷺ ـ وأخرجه البخاري في صحيحه مرفوعاً. ونصه: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة. كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله. ولم يقل إن شاء الله. فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشقّ رجل. والذي نفسي بيده، لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»..

وجائز أن تكون هذه هي الفتنة التي تشير إليها الآيات هنا، وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق. ولكن هذا مجرد احتمال..

أما قصة الخيل فقيل: إن سليمان ـ عليه السلام ـ استعرض خيلاً له بالعَشي. ففاتته صلاة كان يُصلّيها قبل الغروب. فقال ردّوها عليّ. فردوها عليه فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شَغَلَتْه عن ذكر ربه.

ورواية أخرى أنه إنما جعل يمسح سوقها وأعناقها إكراماً لها لأنها كانت خيلاً في سبيل الله.. وكلتا الروايتين لا دليل عليهما. ويصعب الجزم بشيء عنها.

ومن ثم لا يستطيع مُتَثَبّت أن يقول شيئاً عن تفصيل هذين الحادثين المشار إليهما في القرآن.

وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبي الله سليمان ـ عليه السلام ـ في شأن يتعلق بتصرفاته في المُلك والسلطان كما يبتلي الله أنبياءه لِيُوَجّههم ويرشدهم، ويبعد خطاهم عن الزلل. وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع، وطلب المغفرة؛ واتجه إلى الله بالدعاء والرجاء: ﴿**قال**: رب اغفر لي وهب لي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهّاب﴾(١)..

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «اعترض لي شيطانٌ في مُصلّاي، فأخذتُه، فخنقتُه حتى إني لأجدُ بَرْد لسانه على ظهر كفي، فلولا دعوة أخي سليمان، لأصبح مربوطاً تنظرون إليه» رواه ابن حبان في صحيحه (رقم ٦٤١٨)، وإسناده حسن، انظر تخريجه في الإحسان (رقم ٢٣٤٩). =

وأقرب تأويل لهذا المطلب من سليمان ـ عليه السلام ـ أنه لم يرد به أثرة. إنما أراد الاختصاص الذي يتجلى في صورة معجزة. فقد أراد به مُلكاً ذا خصوصية تُميّزه من كل مُلك آخر يأتي بعده. وذا طبيعة معينة ليست مكررة ولا معهودة في المُلك الذي يعرفه الناس. وقد استجاب له ربه(١)، فأعطاه فوق المُلك المعهود، مُلكاً خاصاً لا يتكرر.

وقصة سليمان ترد في ثلاثة مواضع، وهي مبسوطة بتوسع في سورة النمل أكثر منها في المواضع التي ذكرت فيها في سورتي (صٓ) وسبأ، وإن كانت سورة النمل تختص بحلقة واحدة من حلقات حياته. حلقة قصته مع الهدهد وملكة سبأ. يُمهد لها السياق القرآني بما يُعلنه سليمان على الناس من تعليم الله له مَنطق الطير، وإعطائه من كل شيء. وشكره لله على فضله المبين. ثم مشهد موكبه من الجن والإنس، والطير، وتحذير نَملة لقومها من هذا الموكب، وإدراك سليمان لمقالة النملة وشكره لربه على فضله، وإدراكه أن النعمة ابتلاء، وطلبه من ربه أن يَجمعه على الشكر والنجاح في هذا الابتلاء..

= وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن عفريتاً من الجن جعل يأتي البارحة [في موارد الحديث: «تفلَّت عليّ»، وفي رواية للبخاري: «عرض عليّ فشدَّ عليّ ليقطع..» وفي رواية مسلم: «جعل يفتك عليَّ البارحة» والفتك: الأخذ في غفلة وخديعة] ليقطع عليَّ صلاتي، فأمكنني الله منه، فأردتُ أن آخذه فأربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تُصبحوا، فتنظروا إليه كلكم» قال: «ثم ذكرت قولَ أخي سليمان: ﴿رب اغفر لي وهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾. قال: «فردّه الله خاشعاً». رواه البخاري ومسلم وابن حبان انظر الإحسان (رقم ٢٣٤٩).

(١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن سليمان بن داود سأَلَ الله ثلاثاً، أعطاه اثنتين، وأرجو أن يكون قد أعطاه الثالثة: سأله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله حُكماً يواطىء حكمه فأعطاه إياه، وسأله مَن أتى هذا البيت ـ يريد بيت المقدس ـ لا يريدُ إلا الصلاة فيه أن يَخرجَ من خطيئته كيوم ولدتْهُ أمه». قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «وأرجو أن يكون قد أعطاه الثالثة». رواه ابن حبان بإسناد صحيح (رقم ١٦٣٤ و ٦٤٢١) انظر الإحسان (رقم ١٦٣٤).

علم وتمكين وإفضال:

﴿ولقد آتينا داود وسليمان عِلْماً. وقالا: الحمد لله الذي فضَّلَنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ [النمل: ١٥].

هذه هي إشارة البدء في التمكين. وإعلان الافتتاح. خبر تقريري عن أبرز النعم التي أنعم الله بها على داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ نِعمة العِلم. فأما عن داود فقد تقدم ذكره.

وأما سليمان ففي سورة النمل تفصيل ما علّمه الله من منطق الطير وما إليه، بالإضافة إلى ما ذكر في سور أخرى من تعليمه القضاء، وتوجيه الرياح المسخرة له بأمر الله.

يبدأ التمكين بتلك الإشارة: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾ وقبل أن تنتهي الآية يجيء شكر داود وسليمان على هذه النعمة، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم، والحمد لله الذي فضلهما بها على كثير من عباده المؤمنين. فتبرز قيمة العلم، وعَظَمة المِنّة به من الله على العباد، وتفضيل مَن يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين.

ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار. وللإيحاء بأن العلم كله هِبة من الله، وبأن اللائق بكل ذي علم أن يعرف مصدره، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه، وأن يُنفقه فيما يُرضي الله الذي أنعم به وأعطاه. فلا يكون العلم مُبعِداً لصاحبه عن الله، ولا منسياً له إياه. وهو بعض مِننِه وعطاياه.

والعلم الذي يبعد القلب عن ربه علم فاسد، زائغ عن مصدره وعن هدفه. لا يثمر سعادة لصاحبه ولا للناس، إنما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار، لأنه انقطع عن مصدره، وانحرف عن وجهته، وضل طريقه إلى الله..

ولقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة جيدة من مراحل العلم، بتحطيم

الذرة واستخدامها. ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذي لا يذكر أصحابه الله، ولا يخشونه، ولا يحمدون له، ولا يتوجهون بعلمهم إليه؟ ماذا جنت غير الضحايا الوحشية في قنبلتي «هيروشيما» و «ناجازاكي» وغير الخوف والقلق الذي يُؤَرّق جفون الشرق والغرب ويتهددهما بالتحطيم والدمار والفناء(١)؟

وبعد تلك الإشارة إلى الإنعام بمنّة العلم على داود وسليمان، وحَمْدهما للّه ربهما على منّته وعرفانهما بقدرها وقيمتها يُفرد سليمان بالحديث: ﴿**وورث سليمان داود. وقال: يا أيها الناس عُلِّمنا مَنطق الطير، وأُوتينا من كل شيء. إن هذا لهو الفضل المبين**﴾ [النمل: ١٦]..

وداود أوتي المُلك مع النبوة والعلم. ولكن المُلك لا يذكر في صدد الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان. إنما يذكر العلم. لأن المُلك أصغر من أن يذكر في هذا المجال!

﴿**وورث سليمان داود**﴾ والمفهوم أنها وراثة العلم، لأنه هو القيمة العليا التي تستأهل الذكر. ويؤكد هذا إعلان سليمان في الناس: ﴿**قال: يا أيها الناس عُلِّمنا مَنطق الطير، وأُوتينا من كل شيء**﴾.. فيظهر ما عَلَّمه من منطق الطير ويجمل بقية النعم مع إسنادها إلى المصدر الذي عَلَّمه منطق الطير. وليس هو داود. فهو لم يرث هذا عن أبيه. وكذلك ما أُوتيه من كل شيء إنما جاءه من حيث جاءه ذلك التعليم.

(١) قال البرفسور «م. ي. أولي فنيت» الأستاذ بجامعة برمنجهام وعضو الهيئة الصناعية في إعداد القنبلة الذرية. بعد حادِثَي هيروشيما وناجازاكي: «وأنا على يقين أنه سيظهر في مدة قصيرة على مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن في قوة الانفجار. وستليها قنابل قوتها مليون طن، ولا ينفع في التوقي منها دفاع أو احتياط. وإن ست قنابل من هذا القبيل تكفي لتدمير انجلترا على بكرة أبيها».

وقد صحت نبوءته وأُنتجت القنابل الهيدروجينية التي تعد قنبلتا هيروشيما وناجازاكي بالقياس إليها لعبة أطفال!

وبهذه المناسبة نذكر أن قنبلة هيروشيما قد قتلت لفورها من اليابانيين مَن يتراوح عددهم بين عشرة ومائتي ألف وأربعين ومائتي ألف. وذلك غير المُشوهين والمحروقين الذين ماتوا بعد ذلك. وهم يُعدون بعشرات الألوف!!

﴿يا أيها الناس عُلمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء﴾ . . يـذيعها سليمان ـ عليه السلام ـ في الناس تحدثاً بنعمة الله، وإظهاراً لفضله، لا مباهاة ولا تنفجاً على الناس. ويُعقِّب عليها **﴿إن هذا لهو الفضل المبين﴾** فضل الله الكاشف عن مصدره، الدال على صاحبه. فما يملك تعليم منطق الطير لبشر إلا الله. وكذلك لا يُؤتي أحداً من كل شيء ـ بهذا التعميم ـ إلا الله.

وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم ـ هي لغاتها ومنطقها ـ فيما بينها. والله سبحانه خالق هذه العوالم يقول: **﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾** [الأنعام: ٣٨] ولا تكون أمماً حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها، ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها. وذلك ملحوظ في حياة أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات.

ويجتهد علماء هذه الأنواع في إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن لا عن الجزم واليقين.

فأما ما وَهَبه الله لسليمان ـ عليه السلام ـ فكان شأناً خاصاً به على طريق الخارقة التي تخالف مألوف البشر. لا على طريق المحاولة منه والاجتهاد لتفَهُّم وسائل الطير وغيره في التفاهم، على طريق الظن والحدس، كما هو حال العلماء اليوم . . .

أُحب أن يتأكد هذا المعنى ويتضح لأن بعض المفسرين المحدثين ممن تبهرهم انتصارات العلم الحديث يحاولون تفسير ما قَصّهُ القرآن عن سليمان ـ عليه السلام ـ في هذا الشأن بأنه نوع من إدراك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريقة المحاولات العلمية الحديثة. وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها، وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشري القليل!

وأهون شيء على الله، أن يُعلّم عبداً من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات، هِبة لدنية منه، بلا محاولة ولا اجتهاد. وإن هي إلا إزاحة لحواجز النوع التي أقامها الله بين الأنواع. وهو خالق هذه الأنواع!

على أن هذا كله لم يكن إلا شقاً واحداً للخارقة التي أتاحها الله لعبده سليمان. أما الشق الآخر فكان تسخير طائفة من الجن والطير لتكون تحت إمرته، وطَوع أَمْره، كجنوده من الإنس سواء بسواء. والطائفة التي سخرها له من الطير وَهَبها إدراكاً خاصاً أعلى من إدراك نظائرها في أمة الطير.

يبدو ذلك في قصة الهدهد الذي أدرك من أحوال ملكة سبأ وقومها ما يدركه أعقل الناس وأذكاهم وأتقاهم. وكان ذلك كذلك على طريق الخارقة والإعجاز..

حقيقة إن سنّة الله في الخلق جرت على أن يكون للطير إدراك خاص يتفاوت فيما بينه، ولكنه لا يصل إلى مستوى إدراك الإنسان؛ وإن خلقة الطير على هذا النحو حلقة في سلسلة التناسق الكوني العام. وإنها خاضعة ـ كحلقة مفردة ـ للناموس العام، الذي يقتضي وجودها على النحو الذي وُجدت به.

وحقيقة إن الهدهد الذي يولد اليوم، هو نسخة من الهدهد الذي وُجد منذ ألوف أو ملايين من السنين، منذ أن وُجدت الهداهد. وإن هناك عوامل وراثة خاصة تجعل منه نسخة تكاد تكون طبق الأصل من الهدهد الأول. ومهما بلغ التحوير فيه، فهو لا يخرج من نوعه، ليرتقي إلى نوع آخر.. وإن هذا ـ كما يبدو ـ طرف من سنّة الله في الخلق، ومن الناموس العام المنسق للكون.

ولكن هاتين الحقيقتين الثابتتين لا تمنعان أن تقع الخارقة عندما يريدها الله خالق السنن والنواميس. وقد تكون الخارقة ذاتها جزءاً من الناموس العام، الذي لا نعرف أطرافه. جزءاً يظهر في موعده الذي لا يعلمه إلا الله، يخرق المألوف المعهود للبشر، ويكمل ناموس الله في الخلق والتناسق العام. وهكذا وُجد هدهد سليمان، وربما كل الطائفة من الطير التي سُخرت له في ذلك الزمان.

ونعود من هذا الاستطراد إلى تفصيل قصة سليمان بعد وراثته لداود وإعلانه ما حَباه الله به من علم وتمكين وإفضال..

﴿وحُشِرَ لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون﴾ [النمل: ١٧].

فهذا هو موكب سليمان محشود محشور. يتألف من الجن والإنس والطير. والإنس معروفون، أما الجن فهم خَلْق لا نعرف عنهم إلا ما قَصّه الله علينا من أمرهم في القرآن. وهو أنه خَلَقَهم من مارج من نار. أي من لهيب مُتَمَوِّج من النار، وأنّهم يَرون البشر والبشر لا يرونهم ﴿إنه يراكم هو وقَبيله من حيث لا ترونهم﴾ [الأعراف: ٢٧] (الكلام عن إبليس أو الشيطان وإبليس من الجن)، وأنهم قادرون على الوسوسة في صدور الناس بالشر عادة والإيحاء لهم بالمعصية ـ ولا ندري كيف ـ، وأن منهم طائفة آمنت برسول الله ـ ﷺ ـ ولم يَرَهم هو أو يعرف منهم إيمانهم ولكن أخبره الله بذلك إخباراً: ﴿قل أُوحي إليَّ أنه اجتمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً، يهدي إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحداً. .﴾ [الجن: ١، ٢]، ونعرف أن الله سَخَّر طائفة منهم لسليمان يبنون له المحاريب والتماثيل والجفان الكبيرة للطعام، ويغوصون له في البحر، ويأتمرون بأمره بإذن الله. ومنهم هؤلاء الذين يظهرون هنا في موكبه مع إخوانهم من الإنس والطير.

ونقول: إن الله سخر لسليمان طائفة من الجن وطائفة من الطير كما سخر له طائفة من الإنس. وكما أنه لم يكن كل أهل الأرض من الإنس جُنداً لسليمان ـ إذ أن مُلكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسورية والعراق إلى ضفة الفرات ـ فكذلك لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مُسَخَّرين له، إنما كانت طائفة من كل أُمة على السواء.

ونستند في مسألة الجن إلى أن إبليس وذريته من الجن كما قال القرآن. . ﴿إن إبليس كان من الجن﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال في سورة «الناس»: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾ [الناس: ٥، ٦] وهؤلاء كانوا يزاولون الإغواء والشر والوسوسة للبشر في عهد سليمان. وما كانوا ليزاولوا هذا وهم مسخرون له مُقَيّدون بأمره. وهو نبي يدعو إلى الهدى.

فالمفهوم إذن أن طائفة من الجن هي التي كانت مُسَخّرة له.

ونستند في مسألة الطير إلى أن سليمان حين تفقّد الطير علم بغيبة الهدهد. ولو كانت جميع الطيور مسخرة له، محشورة في موكبه، ومنها جميع الهداهد، ما استطاع أن يتبين غيبة هدهد واحد من ملايين الهداهد فضلاً على بلايين الطير. ولما قال: ما لي لا أرى الهدهد؟ فهو إذن هدهد خاص بشخصه وذاته، وقد يكون هو الذي سُخِّر لسليمان من أمة الهداهد، أو يكون صاحب النوبة في ذلك الموكب من المجموعة المحدودة العدد من جنسه. ويعين على هذا ما ظهر من أن ذلك الهدهد موهوب إدراكاً خاصاً ليس من نوع إدراك الهداهد ولا الطير بصفة عامة.

ولا بد أن هذه الهبة كانت للطائفة الخاصة التي سُخّرت لسليمان. لا لجميع الهداهد وجميع الطيور. فإن نوع الإدراك الذي ظهر من ذلك الهدهد الخاص في مستوى يعادل مستوى العقلاء الأذكياء الأتقياء من الناس!

حُشِرَ لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير. وهو موكب عظيم، وحشد كبير، يجمع أوله على آخره ﴿**فهم يوزعون**﴾ [النمل: ١٧] حتى لا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى. فهو حشد عسكري مُنظَّم. يطلق عليه اصطلاح الجنود، إشارة إلى الحشد والتنظيم.

﴿**حتى إذا أتوا على وادي النمل. قالت نملة: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم، لا يَحْطِمَنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون**﴾ [النمل: ١٨].

لقد سار الموكب. موكب سليمان من الجن والإنس والطير. في ترتيب ونظام، ويجمع آخره على أوله، وتضم صفوفه، وتتلاءم خطاه. حتى إذا أتوا على واد كثير النمل، حتى لقد أضافه التعبير إلى النمل فسماه ﴿**وادي النمل**﴾ قالت نملة. لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السارح في الوادي ـ ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم، تتنوع فيها الوظائف، وتُؤدَّى كلها بنظام عجيب، يعجز البشر غالباً عن اتباع مثله، على ما أُوتوا من عقل راق وإدراك عال ـ قالت هذه النملة للنمل، بالوسيلة التي تتفاهم بها أمة النمل، وباللغة

المتعارفة بينها. قالت للنمل: ادخلوا مساكنكم ـ كي لا يُحَطّمَنكم سليمان وجنوده. وهم لا يشعرون بكم.

فأدرك سليمان ما قالت النملة وهشّ له وانشرح صدره بإدراك ما قالت، وبِمَضْمون ما قالت. هش لما قالت لما يهشّ الكبير للصغير الذي يحاول النجاة من أذاه وهو لا يضمر أَذاه. وانشرح صدره لإدراكه. فهي نعمة الله عليه تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس لاستغلاق التفاهم بينها وقيام الحواجز. وانشرح صدره لأنه عجيبة من العجائب أن يكون للنملة هذا الإدراك، وأن يفهم عنها النمل فيطيع!

أدرك سليمان هذا ﴿**فتبسّم ضاحكاً من قولها**﴾ [النمل: ١٩].. وسرعان ما هَزَّته هذه المشاهدة، وردت قلبه إلى ربه الذي أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة؛ وفتح بينه وبين تلك العوالم المحجوبة المعزولة من خلقه؛ واتجه إلى ربه في إنابة يتوسل إليه:

﴿**رَبِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدي**﴾ [النمل: ١٩]..

﴿**رَبِّ**﴾.. بهذا النداء القريب المباشر المتصل.. ﴿**أوزعني**﴾ اجمعني كلي. اجمع جوارحي ومشاعري ولساني وجناني وخواطري وخلجاتي، وكلماتي وعباراتي، وأعمالي وتوجهاتي. اجمعني كلي. اجمع طاقاتي كلها. أولها على آخرها وآخرها على أولها (وهو المدلول اللغوي لكلمة أوزعني) لتكون كلها في شكر نعمتك عليّ وعلى والديَّ..

وهذا التعبير يشي بنعمة الله التي مست قلب سليمان ـ عليه السلام ـ في تلك اللحظة ويظهر نوع تأثره، وقوة توجهه، وارتعاشة وجدانه، وهو يستشعر فضل الله الجزيل، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه، ويحس مَسّ النعمة والرحمة في ارتياع وابتهال.

﴿**ربِ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي**﴾..

﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾.. فالعمل الصالح هو كذلك فضل من الله يُوفَّق إليه مَن يشكر نعمته، وسليمان الشاكر الذي يستعين ربه ليجمعه ويقفه على شكر نعمته، يستعين ربه كذلك ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه. وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمة أخرى من الله.

﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ [النمل: ١٩]..

أدخلني برحمتك.. فهو يعلم أن الدخول في عباد الله الصالحين، رحمة من الله، تتدارك العبد فَتُوَفّقه إلى العمل الصالح، فيسلك في عداد الصالحين. يعلم هذا، فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين المُوفّقين السالكين في هذا الرعيل. يضرع إلى ربه وهو النبي الذي أنعم عليه وسخر له الجن والإنس والطير. غير آمن مكر الله ـ حتى بعد أن اصطفاه. خائفاً أن يُقصر به عمله، وأن يقصر به شكره.. وكذلك تكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وخشيته والتشوق إلى رضاه ورحمته في اللحظة التي تتجلى فيها نعمته كما تجلت والنملة تقول وسليمان يدرك عنها ما تقول بتعليم الله له وفضله عليه.

ونقف هنا أمام خارقتين لا خارقة واحدة. خارقة إدراك سليمان لتحذير النملة لقومها. وخارقة إدراك النملة أن هذا سليمان وجنوده.

فأما الأولى فهي مما علّمه الله لسليمان. وسليمان إنسان ونبي، فالأمر بالقياس إليه أقرب من الخارقة الأخرى البادية في مقالة النملة. فقد تدرك النملة أن هؤلاء خلق أكبر؛ وأنهم يُحطِّمون النمل إذا داسوه. وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة. أما أن تدرك النملة أن هذه الشخوص هي وسليمان وجنوده، فتلك هي الخارقة الخاصة التي تخرج على المألوف. وتُحسب في عداد الخوارق في مثل هذه الحال.

سليمان وملكة سبأ:

والآن نأتي إلى قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ وهي مُقَطَّعة إلى ستة مشاهد، بينها فجوات فنية، تُدْرَك من المشاهد المعروضة، وتُكمل جمال

العرض الفني في القصة، وتتخللها تعقيبات على بعض المشاهد تحمل التوجيه الوجداني؛ وتُحقق العبرة التي من أجلها يُساق القصص في القرآن الكريم. وتتناسق التعقيبات مع المشاهد والفجوات تنسيقاً بديعاً، من الناحيتين: الفنية الجمالية، والدينية الوجدانية.

ولما كان افتتاح الحديث عن سليمان قد تضمن الإشارة إلىٰ الجن والإنس والطير، كما تضمن الإشارة إلى نعمة العلم، فإن القصة تحتوي دَوراً لكل من الجن والإنس والطير.

ويبرز فيها دور العلم كذلك. وكأنما كانت تلك المقدمة إشارة إلى أصحاب الأدوار الرئيسية. . وهذه سمة فنية دقيقة في القصص القرآني.

كذلك تَتضح السمات الشخصية والمعالم المميزة لشخصيات القصة: شخصية سليمان، وشخصية الملكة، وشخصية الهدهد، وشخصية حاشية الملكة. كما تعرض الانفعالات النفسية لهذه الشخصيات في شتى مشاهد القصة ومواقفها.

يبدأ المشهد الأول في مشهد العَرْض العسكري العام لسليمان وجنوده، بعدما أَتوا على وادي النمل، وبعد مقالة النملة، وتَوجُّه سليمان إلى ربه بالشكر والدعاء والإنابة:

﴿وتَفَقَّد الطير فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟ أم كان من الغائبين؟ لأعذِّبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه، أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ [النمل: ٢٠، ٢١].

فها هو ذا الملك النبي. سليمان. في موكبه الفخم الضخم. ها هو ذا يتفقد الطير فلا يجد الهدهد. ونفهم من هذا أنه هدهد خاص، معين في نوبته في هذا العرض. وليس هدهداً ما من تلك الألوف أو الملايين التي تحويها الأرض من أُمة الهداهد.

كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته: سمة

اليقظة والدقة والحزم. فهو لم يغفل عن غيبة جندي من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير، الذي يجمع آخره على أوله كي لا يتفرق وينتكث.

وهو يسأل عنه في صيغة مُترفعة مرنة جامعة: ﴿**ما لي لا أرى الهدهد؟ أم كان من الغائبين؟**﴾.

ويتضح أنه غائب، ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن! وحينئذ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم، كي لا تكون فوضى. فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سراً. وإذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند. ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف: ﴿**لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه**﴾.. ولكن سليمان ليس ملكاً جباراً في الأرض، إنما هو نبي. وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاءً نهائياً قبلٍ أن يسمع منه، ويتبين عذره.. ومن ثم تبرز سمة النبي العادل: ﴿**أو لَيأتيني بسلطان مبين**﴾ [النمل: ٢١] أي حجة قوية توضح عنده، وتنفي المؤاخذة عنه.

ويسدل الستار على المشهد الأول في القصة (أو لعله كان ما يزال قائماً) ويحضر الهدهد. ومعه نبأ عظيم، بل مفاجأة ضخمة لسليمان، ولنا نحن الذين نشهد أحداث الرواية الآن!

﴿**فمكث غير بعيد فقال: أحطت بما لم تُحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إني وجدت امرأة تملكهم، وأُوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم، فصدهم عن السبيل، فهم لا يهتدون ألَّا يسجدوا لله الذي يُخرج الخبء في السموات والأرض..**﴾ [النمل: ٢٤ ـ ٢٦]..

إنه يعرف حَزم الملك وشدته. فهو يبدأ حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته، وتضمن إصغاء المَلِك له: ﴿**أحطت بما لم تُحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين**﴾.. فأي ملك لا يستمع وأحد رعاياه يقول له: ﴿**أَحطُّ بما لم تُحط به**﴾؟!

فإذا ضمن إصغاء الملك بعد هذه المفاجأة أخذ في تفصيل النبأ اليقين الذي جاء به من سبأ ـ ومملكة سبأ تقع في جنوب الجزيرة باليمن ـ فذكر أنه وَجَدهم تحكمهم امرأة، ﴿**أُوتيت من كل شيء**﴾ وهي كناية عن عَظمة مُلكها وتراثها وتوافر أسباب الحضارة والقوة والمتاع. ﴿**ولها عرش عظيم**﴾. أي سرير مُلك فخم ضخم، يدل على الغنى والترف وارتقاء الصناعة.

وذكر أنه وجد الملكة وقومها ﴿**يسجدون للشمس من دون الله**﴾ وهنا يعلل ضلال القوم بأن الشيطان زَيَّن لهم أعمالهم، فأضلّهم، فهم لا يهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير ﴿**الذي يُخرج الخبء في السماوات والأرض**﴾.

والخبء: المخبوء إجمالاً سواء أكان هو مطر السماء ونبات الأرض، أم كان هو أسرار السماوات والأرض. وهي كناية عن كل مخبوء وراء ستار الغيب في الكون العريض. ﴿**ويعلم ما تخفون وما تعلنون**﴾ وهي مقابلة للخبء في السماوات والأرض بالخبء في أطواء النفس. ما ظهر منه وما بطن.

والهدهد إلى هذه اللحظة يقف موقف المذنب، الذي لم يقضِ المَلك في أَمْرِه بعد؛ فهو يُلَمّح في ختام النبأ الذي يقصه، إلى الله الملك القهّار، ربّ الجميع، صاحب العرش العظيم، الذي لا تُقاس إليه عروش البشر. ذلك كي يُطامن الملك من عظمته الإنسانية أمام هذه العظمة الإلهية: ﴿**الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم**﴾ [النمل: ٢٦]..

فيلمس قلب سليمان ـ في سياق التعقيب على صنع الملكة وقومها ـ بهذه الإشارة الخفية!

ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب. صاحب إدراك وذكاء وإيمان، وبراعة في عرض النبأ، ويقظة إلى طبيعة موقفه، وتلميح وإيماء أريب.. فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية. ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله. ويدرك أن السجود لا يكون إلا للّه الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض، وأنه هو رب العرش العظيم.. وما هكذا تُدرك الهداهد. إنما هو هدهد خاص أُوتي هذا الإدراك الخاص، على سبيل الخارقة التي تخالف المألوف.

والذي أغاظ الهدهد وأساءه هو الانحراف عن الفطرة التي لا بد لها أن تتجه إلى خالقها وبارئها، تسجد له وحده فهو الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، خالق كل شيء، والعليم بكل شيء، العليم بالمخبوء المستور كعلمه بالمكشوف المفتوح. إنه التوحيد الناصع المبين.. فما أعظمه من درس! وما أجلَّها من عِبرة!

﴿الذي يُخرج الخبء في السموات والأرض﴾.. ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾.. ﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾..

إن هذه الكلمات الموحية ترسم صورة حيّة، تمسّ أوتار القلوب.. إنه تقرير علم الله الشامل لما في السموات وما في الأرض على إطلاقه، يدع القلب في سكـون وهيبة أمـام علم الله المحيط بكل شيء في هـذا المدى الـوسيـع المتطاول. من صغير وكبير، وخافٍ وظاهر، ومعلوم ومجهول..

إنها الحقيقة التي تُصورها الكلمات عن العلم الإلهي تهزّ القلوب وتمس الوجدان فترتعش وتخشع، فهي مأخوذة ومكشوفة للعليم الخبير.. كل هذا يقوله هُدهُد في ثنايا القصة، ليهتدي الآدميون بِهُداه فيما يقول..

لمسة تُرجف وتزلزل، والقلب يتملاها، وهو في علم الله واطلاعه. فهو سبحانه شاهد حاضر وهو بكل شيء عليم.. وبذلـك تستقر حقيقـة العلم الإلهي في القلوب..

لقد أنكر الهدهد مسلك القوم الذين يسجدون لغير الله، وتحدث عن الخبء بصفة خاصة وهو الموكل بفطرته بالبحث بمنقاره عن طعامه المخبوء في الأرض. فتكون لَفْتَتُهُ هذه أنسب شيء لطبيعته!

وإنه حتى الآن لفي موقف المذنب، فالملك لم يَردّ عليه بعد..

ولا يتسرع سليمان في تصديقه أو تكذيبـه؛ ولا يستخفه النبـأ العظيم الذي جاءه به. إنما يأخذ في تجربته، للتأكد من صحته. شأن النبي العادل والملك الحازم: **﴿قال: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي**

هذا فألقه إليهم، ثم تولّ عنهم، فانظر ماذا يرجعون﴾ [النمل: ٢٧، ٢٨].

ولا يُعلن في هذا الموقف فَحوى الكتاب، فيظل ما فيه مغلقاً كالكتاب نفسه، حين يفتح ويعلن هناك. وتُعرض المفاجأة الفنية في موعدها المناسب! ويسدل الستار على هذا المشهد ليرفع فإذا الملكة قد وصل إليها الكتاب، وهي تستشير الملأ من قومها في هذا الأمر الخطير:

﴿قالت: يا أيها الملأ إني أُلقي إلي كتاب كريم. إنه من سليمان، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألاّ تعلو علي وأتوني مسلمين﴾[النمل: ٢٩ - ٣١].

فهي تُخبرهم أنه أُلقي إليها كتاب. ومن هذا نرجح أنها لم تعلم مَن أَلقى إليها الكتاب، ولا كيف ألقاه. ولو كانت تعرف أن الهدهد هو الذي جاء به ـ كما تقول التفاسير ـ لأعلنت هذه العجيبة التي لا تقع كل يوم. ولكنها قالت بصيغة المجهول. مما يجعلنا نُرجح أنها لم تعلم كيف أُلقي إليها ولا مَن ألقاه.

وهي تَصف الكتاب بأنه **﴿كريم﴾** وهذا الوصف ربما خطر لها من خاتمه أو شكله. أو من محتوياته التي أعلنت عنها للملأ: **﴿إنه من سليمان، وإنه باسم الله الرحمٰن الرحيم، ألا تَعلوا علي وأتوني مسلمين﴾**..

وهي كانت لا تعبد الله. ولكن صِيت سليمان كان ذائعاً في هذه الرقعة، ولغة الكتاب التي يحكيها القرآن فيها استعلاء وحَزم وجَزم. مما قد يوحي إليها بهذا الوصف الذي أعلنته.

وفحوى الكتاب في غاية البساطة والقوة. فهو مبدوء باسم الله الرحمٰن الرحيم. ومطلوب فيه أمر واحد: ألا يستكبروا على مُرسله ويَستعصوا، وأن يأتوا إليه مُستسلمين للّه الذي يخاطبهم باسمه.

ألقت الملكة إلى الملأ من قومها بفحوى الكتاب؛ ثم استأنفت

الحديث تطلب مشورتهم، وتعلن إليهم أنها لن تقطع في الأمر إلا بعد هذه المشورة، برضاهم وموافقتهم:

﴿قالت: يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ [النمل: ٣٢]..

وفي هذا تبدو سمة الملكة الأريبة؛ فواضح منذ اللحظة الأولى أنها أخذت بهذا الكتاب الذي أُلقي إليها من حيث لا تعلم، والذي يبدو فيه الحزم والاستعلاء. وقد نقلت هذا الأثر إلى نفوس الملأ من قومها وهي تصف الكتاب بأنه **﴿كريم﴾** وواضح أنها لا تريد المقاومة والخصومة، ولكنها لا تقول هذا صراحة، إنما تُمَهّد له بذلك الوصف. ثم تطلب الرأي بعد ذلك والمشورة!

وعلى عادة رجال الحاشية أَبدوا استعدادهم للعمل. ولكنهم فَوّضوا للملكة الرأي: **﴿قالوا: نحن أُولو قوة وأُولو بأس شديد. والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين﴾** [النمل: ٣٣].

وهنا تظهر شخصية «المرأة» من وراء شخصية الملكة. المرأة التي تكره الحروب والتدمير، والتي تنضي سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضي سلاح القوة والمخاشنة: **﴿قالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أَعِزّة أهلها أَذِلّة وكذلك يَفعلون. وإني مُرسلة إليهم بهدية فناظرة بمَ يرجع المرسلون﴾**! [النمل: ٣٤، ٣٥]..

فهي تعرف أن من طبيعة الملوك أنهم إذا دخلوا قرية (والقرية تُطلق على المدينة الكبيرة) أشاعوا فيها الفساد، وأباحوا ذمارها، وانتهكوا حرماتها، وحطموا القوة المدافعة عنها، وعلى رأسها رؤساؤها؛ وجعلوهم أذلة لأنهم عنصر المقاومة. وأن هذا هو دأبهم الذي يفعلونه.

والهدية تُلَيّن القلب، وتعلن الودّ، وقد تُفلح في دفع القتال. وهي تجربة. فإن قَبِلَها سليمان فهو إذن أَمر الدنيا، ووسائل الدنيا إذن تجدي.

وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة، الذي لا يصرفه عنه مال، ولا عَرَض من أعراض هذه الأرض.

ويسدل الستار على المشهد، ليرفع، فإذا مشهد رُسل الملكة وهديتهم أمام سليمان. وإذا سليمان يُنكر عليهم اتجاههم إلى شرائه بالمال، أو تحويله عن دعوتهم إلى الإسلام. ويعلن في قوة وإصرار تهديده ووعيده الأخير.

﴿فلما جاء سليمان قال: أتمدونن بمال؟ فما آتاني الله خير مما آتاكم. بل أنتم بهديتكم تفرحون. ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قِبَل لهم بها، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ [النمل: ٣٦، ٣٧]..

وفي الرد استهزاء بالمال، واستنكار للاتجاه إليه في مجال غير مجاله. مجال العقيدة والدعوة: **﴿أَتمدونَنِ بمال؟﴾** أتقدمون لي هذا العرض التافه الرخيص؟ **﴿فما آتاني الله خيرٌ مما آتاكم﴾** لقد آتاني من المال خيراً مما لديكم. وقد آتاني ما هو خير من المال على الإطلاق: العلم. والنبوة. وتسخير الجن والطير، فما عاد شيء من عَرَض الأرض يُفرحني **﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾**. وتهشّون لهذا النوع من القيم الرخيصة التي تعني أهل الأرض، الذين لا يتصلون بالله، ولا يتلقون هُداه!

ثم يتبع هذا الاستنكار بالتهديد: **﴿ارجع إليهم﴾** بالهدية وانتظروا المصير المرهوب: **﴿فلنأتينهم بجنود لا قِبَل لهم بها﴾** جنود لم تُسَخّر للبشر في أي مكان، ولا طاقة للملكة وقومها بهم في نِضال: **﴿ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾** مدحورون مهزومون.

ويسدل الستار على هذا المشهد العنيف وينصرف الرسل، ويدَعَهم السياق لا يشير إليهم بكلمة كأنما قُضي الأمر، وانتهى الكلام في هذا الشأن.

ثم إذا سليمان ـ عليه السلام ـ يُدرك أن هذا الردّ سينهي الأمر مع

مَلِكَة لا تريد العداء ـ كما يبدو من طريقتها في مقابلة رسالته القوية بهدية ! ـ ويُرجّح أنها ستجيب دعوته. أو يُؤَكّد. وقد كان.

ولكن السياق لا يذكر كيف عاد رسلها إليها، ولا ماذا قالوا لها، ولا ماذا اعتزمت بعدها. إنما يترك فجوة نعلم مما بعدها أنها قادمة، وأن سُليمان يعرف هذا، وأنه يتذاكر مع جنوده في استحضار عرشها، الذي خَلَّفته في بلادها محروساً مصوناً:

﴿قال: يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين؟ قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك. وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده عِلْم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠]..

ترى ما الذي قَصد إليه سليمان ـ عليه السلام ـ من استحضار عرشها قبل مجيئها مُسلمة مع قومها؟ نرجح أن هذه كانت وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التي تُؤيده، لتؤثر في قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله، والإذعان لدعوته.

وقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه به قبل انقضاء جلسته هذه. وكان يجلس للحكم والقضاء من الصبح إلى الظهر فيما يُروَى. فاسْتَطْوَل سليمان هذه الفترة واستبطأها ـ فيما يبدو ـ فإذا **﴿الذي عنده علم من الكتاب﴾** يعرض أن يأتي به في غمضة عين قبل أن يرتدّ إليه طرفه، ولا يذكر اسمه، ولا الكتاب الذي عنده علم منه. إنما نفهم أنه رجل مؤمن على اتصال بالله، موهوب سراً من الله يستمد به من القوة الكبرى التي لا تقف لها الحواجز والأبعاد. وهو أمر يشاهد أحياناً على أيدي بعض المُتَصلين، ولم يكشف سرّه ولا تعليله، لأنه خارج عن مألوف البشر في حياتهم العادية. وهذا أقصى ما يقال في الدائرة المأمونة التي لا تخرج إلى عالم الأساطير والخرافات!

ولقد جرى بعض المفسرين وراء قوله: **﴿عنده علم من الكتاب﴾**

فقال بعضهم: إنه التوراة. وقال بعضهم: إنه كان يعرف اسم الله الأعظم. وقال بعضهم غير هذا وذاك. وليس فيما قيل تفسير ولا تعليل مُسْتَيقن. والأمر أيسر من هذا كله حين ننظر إليه بمنظار الواقع، فكم في هذا الكون من أسرار لا نعلمها، وكم فيه من قوى لا نستخدمها. وكم في النفس البشرية من أسرار كذلك وقوى لا نهتدي إليها. فحيثما أراد الله هدى مَن يريد إلى أحد هذه الأسرار وإلى واحدة من هذه القوى فجاءت الخارقة التي لا تقع في مألوف الحياة، وجرت بإذن الله وتدبيره وتسخيره، حيث لا يملك مَن لم يرد الله أن يجريها على يديه أن يجريها.

وهذا الذي عنده علم من الكتاب، كانت نفسه مهيأة بسبب ما عنده من العلم، أن تتصل ببعض الأسرار والقوى الكونية التي تتم بها تلك الخارقة التي تمت على يده، لأن ما عنده من علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يُهَيئه للتلقي، ولاستخدام ما وَهَبه الله من قوى وأسرار.

وقد ذكر بعض المفسرين أنه هو سليمان نفسه ـ عليه السلام ـ ونحن نُرجّح أنه غيره[1]. فلو كان هو لأظهره السياق باسمه. ولما أخفاه.

---

(١) في «القصص القرآني»: «والذي نرجحه ـ والله أعلم ـ أنه سليمان نفسه ويكون معنى الآية حينئذ أن سليمان قال للعفريت من الجن إذا كنت تأتي به وكان إتيانك به يحتاج إلى هذه المدة وهي نصف النهار فأنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك، ونستدل لهذا بما يلي:

١ ـ إن سليمان نبي، وهو الذي مَنَّ الله عليه فقال ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾ ولا يعقل أن يكون أحداً من الناس أكثر علماً من نبي.

٢ ـ كان ذلك من قبيل المعجزة لسليمان ـ عليه السلام ـ.

٣ ـ قوله ـ فيما بعد ـ كما قصَّ الكتاب الكريم ﴿فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومَن شكر فإنما يشكر لنفسه ومَن كَفَر فإن ربي غني كريم﴾ فيشكر الله على المنّة التي أكرمه الله بها»..

نعود القول ونُرجح أنه غير سليمان ـ عليه السلام ـ فالرأي أنه لا يعقل أن يكون أحداً من الناس أكثر علماً من نبي، فقصة موسى والرجل الصالح تظهر بوضوح أمراً عجباً ﴿فارتدا على آثارهما قصصاً فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنك علماً. قال له موسى: هل أتبعك على أن تُعلمن مما عُلمتَ رُشداً...﴾ انظر تفصيل القصة في هذا الكتاب.

حضورها ـ وهذه طريقة أخرى في الأداء القرآني في القصة غير الطريقة الأولى(١):

﴿قيل لها: ادخلي الصرح. فلما رأته حسبته لُجة وكشفت عن ساقيها! قال: إنه صَرح مُمرد من قوارير! قالت: ربّ إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان للّه رب العالمين﴾ [النمل: ٤٤]..

لقد كانت المفاجأة قَصراً من البلُّور، أقيمت أرضيته فوق الماء، وظهر كأنه لُجّة. فلما قيل لها: ادخلي الصَّرح، حسبت أنها ستخوض تلك اللُّجة. فَكَشَفت عن ساقيها؟ فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرّها: **﴿قال: إنه صَرح مُمَرّد من قوارير﴾**!

ووقفت الملكة مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائب التي تُعجز البشر، وتدل على أن سليمان مُسخَّر له قوى أكبر من طاقة البشر. فرجعت إلى الله، وناجته مُعترفة بظلمها لنفسها فيما سَلف من عبادة غيره. مُعلنة إسلامها «مع سليمان» لا لسليمان. ولكن «للّه رب العالمين».

لقد اهتدى قلبها واستنار. فعرفت أن الإسلام للّه ليس استسلاماً

---

(١) فالقصة تبقي الصَّرح سرّاً ـ حتى عَنَّا نحن النظَّارة ـ لتفاجئنا به مع بلقيس في المشهد الأخير، حيث تتم المفاجأة الثانية للملكة ولنا معها **﴿قيل لها ادخلي الصَّرح. فلما رأته حسبته لجَّة وكشفت عن ساقيها قال: إنه صرح مُمرَّد من قوارير! قالت: رب إني ظلمت نفسي. وأسلمتُ مع سليمان للّه رب العالمين﴾**..

وهكذا كانت الملكة «امرأة كاملة»: تتقي الحرب والتدمير، وتستخدم الحيلة والملاطفة، بدل المجاهرة والمخاشنة، ثم لا تُسلم لأول وهلة. فالمفاجأة الأولى تمرّ فلا تُسلم، فإذا بهرتها المفاجأة الثانية، ألقت السلاح، واستسلمت في اطمئنان بعد الحَذر الأصيل في طبيعة المرأة، والتردد الخالد في نفس حواء!

وهنا يسدل الستار. فما في القصة من الوجهة الدينية، ولا من الوجهة الفنية زيادة المستزيد، إلا أن يحاول عُقداً أخرى فنية بحتة، لا تتصل بالغَرض الديني ولا تساوقه. وإنه لحسب قصة دينية وجهتها الدين وحده أن تبرز هذه الانفعالات النفسية، وأن ترسم هذه «النماذج الإنسانية»، وأن تعرضها هذا العرض، وتنسقها ذلك التنسيق.

لأحد من خلقه، ولو كان هو سليمان النبي الملك صاحب هذه المعجزات. إنما الإسلام إسلام للّه رب العالمين. ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنّة المساواة.. **﴿وأسلمت مع سليمان للّه رب العالمين﴾**.

وسَجَّل السياق القرآني هذه اللفتة، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله، والإسلام له. فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين. بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين. لا غالب منهما ولا مغلوب وهما أخوان في الله.. رب العالمين.. على قَدَم المساواة.

ولقد كان كبراء قريش يستعصون على دعوة الرسول ـ ﷺ ـ إياهم إلى الإسلام. وفي نفوسهم الكِبَر أن ينقادوا إلى محمد بن عبد الله، فتكون له الرياسة عليهم والاستعلاء. فها هي ذي امرأة في التاريخ تُعلّمهم أن الإسلام للّه يسوي بين الداعي والمدعوين. بين القائد والتابعين. فإنما يُسْلِمون مع رسول الله رب العالمين!

من فضل الله ونعمته:

ويمضي القرآن في ذكر فَضْل الله ونعمته على سليمان فقد آتاه الله أفضالاً كثيرة، فقد سخَّر له الريح غُدوّها شهر ورَواحها شهر، وأَسال له معدن النحاس، كما سخّر له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه..

﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها؛ وكُنا بكل شيء عالمين. ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك. وكنا لهم حافظين﴾ [الأنبياء: ٨١، ٨٢]..

وتدور حول سليمان روايات وتصورات وأقاويل معظمها مُستمد من الإسرائيليات والتخيلات والأوهام.

وتسخير الريح تتكاثر حوله الروايات، وتبدو ظلال الإسرائيليات واضحة في تلك الروايات ـ وإن تكن كتب اليهود الأصلية لم تذكر شيئاً عنها ـ

والقصة عنه، ولا داعي لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر. وبعضهم قال: إن اسمه آصف ابن برخيا ولا دليل عليه.

﴿فلما رآه مستقراً عنده قال: هذا من فضل ربي، ليبلوني أأشكر أم أكفر؟ ومَن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومَن كفر فإن ربي غني كريم﴾ [النمل: ٤٠].

لقد لمست هذه المفاجأة الضخمة قلب سليمان ـ عليه السلام ـ وراعه أن يُحقق الله له مطالبه على هذا النحو المُعجز؛ واستشعر أن النعمة ـ على هذا النحو ـ ابتلاء ضخم مخيف، يحتاج إلى يقظة منه ليجتازه، ويحتاج إلى عون من الله ليتقوى عليه؛ ويحتاج إلى معرفة النعمة والشعور بفضل المنعم، ليعرف الله منه هذا الشعور فيتولاه. والله غني عن شكر الشاكرين، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، فينال من الله زيادة النعمة، وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء. ومَن كفر فإن الله ﴿غني﴾ عن الشكر ﴿كريم﴾ يعطي عن كرم لا عن ارتقاب للشكر على العطاء.

وبعد هذه الانتفاضة أمام النعمة والشعور بما وراءها من الابتلاء يمضي سليمان ـ عليه السلام ـ في تهيئة المفاجآت للمَلكة القادمة عما قليل:

﴿قال: نَكِّروا لها عرشها. نَنظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون﴾ [النمل: ٤١].

غَيّروا مَعالمه المُميزة له، لنعرف إن كانت فراستها وفطنتها تهتدي إليه بعد هذا التنكير. أم يلبس عليها الأمر فلا تنفذ إلى معرفته من وراء هذا التغيير.

ولعل هذا كان اختباراً من سليمان لذكائها وتصرفها، في أثناء مفاجأتها بعرشها. ثم إذا مشهد الملكة ساعة الحضور:

﴿فلما جاءت قيل: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو﴾ [النمل: ٤٢]. .

إنها مفاجأة ضخمة لا تخطر للملكة على بال. فأين عرشها في مملكتها، وعليها أقفالها وحُرّاسها. . أين هو من بيت المقدس مقر مُلك سليمان؟ وكيف جِيء به؟ ومَن ذا الذي جاء به؟

ولكن العرش عرشها من وراء هذا التغيير والتنكير!

ترى تنفي أنه هو بناء على تلك الملابسات؟ أم تراها تقول: إنه هو بناء على ما تراه فيه من أَمارات؟ وقد انتهت إلى جواب ذكي أريب: ﴿قالت: كأنه هو﴾ لا تَنفي ولا تُثبت، وتدل على فراسة وبديهة في مواجهة المفاجأة العجيبة.

وهنا فجوة في السياق. فكأنما أُخبرت بسرّ المفاجأة. فقالت: إنها استعدت للتسليم والإسلام من قَبل. أي منذ اعتزمت القدوم على سليمان بعد رد الهدية.

﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ [النمل: ٤٢]. .

ثم يتدخل السياق القرآني لبيان ما كان قد مَنَعها قبل ذلك من الإيمان بالله وصدها عن الإسلام عندما جاءها كتاب سليمان؛ فقد نشأت في قوم كافرين، فصدها عن عبادة الله عبادتها من دونه من خلقه، وهي الشمس كما جاء في أول القصة:

﴿وصدها ما كانت تعبد من دون الله. إنها كانت من قوم كافرين﴾ [النمل: ٤٣]. .

وكان سليمان ـ عليه السلام ـ قد أعدّ للملكة مفاجأة أخرى، لم يكشف السياق عنها بعد، كما كشف عن المفاجأة الأولى قبل ذكر ولكن لا نضلّ في هذا التيه، والتحرج من الخوض في تلك الروايات أَوْلى. والاكتفاء بالنص القرآني أسلم. فإننا نقف عند حدود النصوص القرآنية،

فليس وراءها أثر مستيقن في قصة سليمان بالذات.

ونقف عند ظاهر الألفاظ القرآنية لا نتعداه. والنص القرآني هنا يقرر تسخير الريح ـ وهي عاصفة ـ لسليمان، تجري بأمْره إلى الأرض التي باركنا فيها وهي في الغالب الشام لسبق الإشارة إليها بهذه الصفة في قصة إبراهيم.. فكيف كان هذا التسخير؟

هنالك قصة بساط الريح الذي قيل: إن سليمان كان يجلس عليه هو وحاشيته فيطير إلى الشام في فترة وجيزة. وهي مسافة كانت تُقطع في شهر على الجمال. ثم يعود كذلك.. وتستند هذه الرواية إلى ما ورد في سورة «سبأ» من قوله: **﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر﴾** [سبأ: ١٢]..

ولكن القرآن لم يذكر شيئاً عن بساط الريح ذاك؛ ولم يرد ذكره كذلك في أَيِ أَثَر مُستيقن. فليس لنا ما نستند عليه لنقرر مسألة البساط.

والأسلم إذن أن نفسر تسخير الريح بتوجيهها ـ بأمر الله إلى الأرض المباركة في دورة تستغرق شهراً طرداً وعكساً.. فقد سخر الله الريح لسليمان، وجعل غُدوها أي توجهها غادية إلى بقعة معينة يستغرق شهراً، ورواحها أي انعكاس اتجاهها في الرواح يستغرق شهراً كذلك. وفق مصلحة تحصل من غُدوها ورَواحها، يدركها سليمان ـ عليه السلام ـ ويُحققها بأمر الله.. ولا نملك أن نزيد هذا إيضاحاً حتى لا ندخل في أساطير لا ضابط لها ولا تحقيق.

وتسخير الريح لسليمان في دورة **﴿غُدوّها شهر ورواحها شهر﴾**.. كيف؟ لقد قلنا: إن القُدرة الإلهية الطليقة لا تُسأل كيف؟ فَخَلْق النواميس وتوجيهها هو من اختصاص تلك القدرة الطليقة. والمعلوم للبشر من نواميس الوجود قليل. ولا يمتنع أن تكون هناك نواميس أخرى خَفية على البشر تعمل، وتظهر آثارها عندما يُؤْذَن لها بالظهور: **﴿وكُنّا بكل شيء عالمين﴾**.. العلم المطلق لا كعلم البشر المحدود.

وتسخير الريح لِعَبد من عباد الله بإذن الله لا يخرج في طبيعته عن تسخير الريح لإرادة الله، وهي مُسخّرة لإرادته تعالى ولا شك، تجري بأمره وفق

نواميسه. . ﴿**فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب. والشياطين كل بنَّاء وغوّاص. وآخرين مقرنين في الأصفاد**﴾ [ص: ٣٦ ـ ٣٨]. . فإذا يسَّر الله لعبد من عباده في فترة من الفترات أن يُعبِّر عن إرادة الله سبحانه وأن يوافق أمره أمر الله فيها؛ وأن تجري الريح رُخاء حيث أراد؛ فذلك أمر ليس على الله بِمُسْتَبعد. ومثله يقع في صُور شتى. والله سبحانه يقول في القرآن للرسول ـ ﷺ ـ ﴿**لئن لم ينتهِ المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنُغرينّك بهم، ثم لا يُجاورونك فيها إلا قليلاً**﴾ [الأحزاب: ٦٠].

فما معنى هذا؟ معناه إذا لم ينتهوا فَستَتجه إرادتنا إلى تسليطك عليهم وإخراجهم من المدينة. وسيتم هذا بتوجيه إرادتك أنت ورغبتك إلى قتالهم وإخراجهم؛ فَتَتِمّ إرادتنا بهم عن طريقك. فهذا لون من توافق أمر الله سبحانه وأمر النبي ـ ﷺ ـ وإرادة الله وأمره هما الأصيلان. وهما يتجليان في إرادة الرسول وأمره وفق ما أراده الله. وهذا ما يُقرّب إلينا معنى تسخير الريح لأمر سليمان ـ عليه السلام ـ تسخيرها لأمره المطابق لأمر الله في توجيه هذه الرياح، المُمثل لأمر الله المعبر عنه على كل حال.

وعند هذا الحد المأمون نقف في ظلال النصوص. فلا نَسبح في الإسرائيليات.

﴿**وأَسَلْنا له عَين القطر**﴾.

والقطر النحاس، وسياق الآيات يشير إلى أن هذا كان معجزة خارقة كإلانة الحديد لداود. وقد يكون ذلك بأن فجَّر له عيناً بُركانية من النحاس المذاب من الأرض. أو بأن أَلْهَمه الله إذابة النحاس حتى يسيل ويصبح قابلاً للصبّ والطرق. وهو فضل من الله كبير. .

وكذلك تسخير الجن لسليمان ـ عليه السلام ـ لتبني له ما يشاء؛ وتغوص له في البحر والأرض في طلب ما يشاء، يغوصوا في أعماق البحر أو أعماق اليابسة. ويستخرجوا كنوزها المخبوءة لسليمان؛ أو ليعملوا له أعمالاً غير هذا وذاك. فالجنّ كل ما خَفي، وكل مستور لا يراه البشر، وقد قررت النصوص

القرآنية أن هناك خَلقاً يُسمّون الجن خافين علينا، فمن هؤلاء سخّر الله لسليمان مَن يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك. وحفظهم فلا يهربون ولا يفسدون ولا يخرجون على طاعة عبده. وهو القاهر فوق عباده يُسخّرهم حين يشاء كيف يشاء. وأعطاه الله السلطة لعقاب المخالفين والمُفسدين ممن سَخّرهم له وتَكْبِيلهم بالأصفاد مقرونة أيديهم إلى أرجلهم. أو مُقَرّنين اثنين اثنين أو أكثر في القيود عند الاقتضاء **﴿والشياطين كل بنّاء وغوّاص. وآخرين مُقرَّنِين في الأصفاد﴾** [صٓ: ٣٧، ٣٨]..

وهكذا فقد سخر الله لسليمان طائفة من الجن، يعملون بأمره بإذن ربه **﴿ومن الجن مَن يعمل بين يديه بإذن ربه ومَن يزغ منهم عن أمرنا نُذقه من عذاب السعير﴾** [سبأ: ١٢]. فمَن عصى منهم ناله عذاب الله..

ولعل هذا التعقيب ـ قبل الانتهاء من قضية التَسخير ـ يُذكر على هذا النحو لبيان خضوع الجن للّه. وكان بعض المشركين يَعبدهم من دون الله. وهم مِثْلهم مُعرّضون للعقاب عندما يَزيغون عن أَمْر الله.

لقد سخَّرهم الله لإرادة سليمان ـ عليه السلام ـ **﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾** [سبأ: ١٣].

والمحاريب من أماكن العبادة، والتماثيل الصور من نحاس وخشب وغيره. والجوابي جمع جابية وهي الحوض الذي نجبي فيه الماء.

وقد كانت الجن تصنع لسليمان جفاناً كبيرة للطعام تشبه الجوابي، وتصنع له قدوراً ضخمة للطبخ راسية لضخامتها..

وهذه كلها نماذج مما سخَّر الله الجنّ لسليمان لتقوم له به حيث شاء بإذن الله. وكلها أمور خارقة لا سبيل إلى تصورها أو تَعليلها إلا بأنها خارقة من صُنع الله. وهذا هو تفسيرها الوحيد.

ثم قيل له: إنك مُطْلَق اليد فيما وَهَب الله لك من سُلطة ونعمة. تُعطي مَن تشاء كيف تشاء. وتُمسك عمن تشاء قدر ما تشاء **﴿هذا عطاؤنا فامنن أو**

أمسك بغير حساب﴾ [ص: ٣٩]. .

وذلك زيادة في الإكرام والمنّة. ثم زاد على هذا كله أن له عند ربّه قُربى في الدنيا وحسن مآب في الآخرة: ﴿وإن له عندنا زُلفى وحسن مآب﴾ [ص: ٤٠]. . وتلك درجة عظيمة من الرعاية والرضى والإنعام والتكريم.

ثم يُوجه الله سبحانه الخطاب إلى آل داود: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ [سبأ: ١٣]. .

سخرنا لكم هذا وذلك في شخص داود وشخص سليمان ـ عليهما السلام ـ فاعملوا يا آل داود شكراً للّه. لا للتباهي والتعالي بما سَخّره الله. والعمل الصالح شكر للّه كبير!

﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ [سبأ: ١٣]. .

تعقيب تقريري وتوجيهي من تعقيبات القرآن على القَصص. يكشف من جانب عن عظمة فضل الله ونعمته حتى ليقلّ القادرون على شكرها. ويكشف من جانب آخر عن تقصير البشر في شكر نعمة الله وفضله. وهم مهما بالغوا في الشكر قاصرون عن الوفاء. فكيف إذا قَصَّروا وغَفِلُوا عن الشكر من الأساس؟!

وماذا يملك المخلوق الإنساني المحدود الطاقة من الشكر على آلاء الله وهي غير محدودة؟. . وإن تَعدُّوا نِعمة الله لا تُحصوها. .

وهذه النعم تغمر الإنسان من فوقه ومن تَحت قدميه، وعن أيمانه وعن شمائله، وتكمن فيه هو ذاته وتفيض منه. وهو ذاته إحدى هذه الآلاء الضخام!

كنا نجلس جماعة نتحدث وتتجاوب أفكارنا وتتجاذب، وتنطلق ألسنتنا بكل ما يخطر لنا على بال. ذلك حينما جاء قطنا الصغير «سوسو» يدور هنا وهناك من حولنا، يبحث عن شيء، وكأنما يريد أن يطلب إلينا شيئاً، ولكنه لا يملك أن يقول؛ ولا نملك نحن أن نُدرك. حتى أَلهمنا الله أنه يطلب الماء.

وكان هذا. وكان في شدّة العطش. وهو لا يملك أن يقول ولا أن يشير.. وأدركنا في هذه اللحظة شيئاً من نعمة الله علينا بالنطق، واللسان، والإدراك والتدبير. وفاضت نفوسنا بالشكر لحظة.. وأين الشكر من ذلك الفيض الجزيل.

وكنا فترة طويلة محرومين من رؤية الشمس[1]. وكان شعاع منها لا يتجاوز حجمه حجم القرش ينفذ إلينا أحياناً. وإن أحدنا ليقف أمام هذا الشعاع يُمَرِّره على وَجهه ويديه وصَدره وظَهره وبطنه وقدميه ما استطاع. ثم يُخلي مكانه لأخيه ينال من هذه النعمة ما نال! ولست أنسىٰ أول يوم بعد ذلك وَجْدنا فيه الشمس. لست أنسى الفرحة الغامرة والنشوة الظاهرة على وجه أحدنا، وفي جوارحه كلها، وهو يقول في نغمة عميقة مديدة.. الله! هذه هي الشمس. شمس ربنا وما تزال تطلع.. الحمد لله!

فكم نبعثر في كل يوم من هذه الأشعة المُحيية، ونحن نستحم في الضوء والدفء. ونَسبح ونَغرق في نعمة الله؟ وكم نشكر هذا الفيض الغامر المتاح المباح من غير ثمن ولا كد ولا معاناة؟!

وحين نمضي نستعرض آلاء الله على هذا النحو فإننا نُنفق العمر كله، ونبذل الجهد كله، ولا نبلغ من هذا شيئاً. فنكتفي إذن بهذه الإشارة الموحية، على طريقة القرآن في الإشارة والإيماء، ليتدبَّرها كل قلب، ويمضي على إثرها، قدر ما يوفقه الله لنعمة الشكر، وهي إحدى آلاء الله، يوفق إليها مَن يستحقها بالتوجُّه والتجرد والإخلاص..

لقد ابتلى الله داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ بالسراء. وفَتَنَهما في هذه النعمة. فَتَن داود في القضاء. وفَتَن سليمان بالخَيل الصافنات.. لقد صَبر داود، وصَبر سليمان للابتلاء بالنعمة ـ بعد الاستغفار من الفتنة ـ واجتازا الامتحان في النهاية بسلام؛ فكانا شاكرين لنعمة الله.

(١) انظر في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٩٩.

﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً. وقالا: الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ [النمل: ١٥]..

وقد تقدّم تفصيل ما آتاه الله لداود من العلم.. منها تعليمه التَرتيل بمقاطع الزبور، ترتيلاً يتجاوب به الكون من حوله، فتؤوب الجبال معه والطير، لحلاوة صوته، وحَرارة نبراته، واستغراقه في مناجاة ربه، وتجرده من العوائق والحواجز التي تفصل بينه وبين ذرات هذا الوجود. ومنها تعليمه القضاء بين الناس، مما شاركه فيه سليمان، الذي آتاه الله أفضالاً كثيرة، تقدم ذكرها..

وهكذا تبرز صفة العلم في جوّ القصة تُظَلِّلها بشتى الظلال في سياقها كله من المطلع إلى الختام..

ثم نمضي مع نصوص القصة القرآنية في المشهد الأخير منها. مشهد وفاة سليمان والجن ماضية تعمل بأمره فيما كلفها عمله؛ وهي لا تعلم نبأ موته، حتى يَدلّهم على ذلك أَكْلُ الأَرَضَة لِعَصاه، التي كان مُرتكزاً عليها، وسقوطه:

﴿فلما قضينا عليه الموت ما دَلَّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل مِنْسأته، فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العقاب المهين﴾ [سبأ: ١٤]..

وقد روي أنه كان مُتكئاً على عصاه حين وافاه الأجل؛ والجن تروح وتجيء مُسَخّرةٍ فيما كَلَّفها إياه من عمل شاقّ شديد؛ فلم تُدرك أنه مات، حتى جاءت دابة الأرض. قيل إنها الأَرَضة، التي تتغذى بالأخشاب، وهي تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشَراهة فظيعة، في الأماكن التي تعيش فيها. وفي صعيد مصر قُرى تُقيم منازلها دون أن تضع فيها قطعة خشب واحدة خوفاً من هذه الحشرة التي لا تُبقي على المادة الخشبية ولا تذر. فلما نخرت عصا سليمان لم تَحْمِله فخرّ على الأرض. وحينئذ فقط علمت الجن موته. وعندئذ ﴿تبينت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾..

فهؤلاء هم الجن الذين يعبدهم بعض الناس. هؤلاء هم سَخَرة لعبد

من عباد الله. وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب؛ وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد!

ونقف أمام ختام هذه القصة الرائعة.. كان من آثار خضوع القصة القرآنية للغرض الديني أن تعرض منها الحلقات التي تقتضيها هذه الأغراض. ذلك أن آخر حلقة تعرض ـ بحسب ترتيب السور ـ تتفق مع أظهر غرض ديني صيغت القصة من أجله، وفي الوقت ذاته يتفق هذا الختام مع الأصول الفنية.

وقصة سليمان ترد في ثلاثة مواضع كما تقدم، وآخر سورة ترد فيها سورة الأنبياء (السورة ٧٣ حسب ترتيب النزول) وتذكر منها الحلقة التالية: **﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم، وكنا لحكمهم شاهدين، فَفَهَّمناها سليمانَ، وكُلًّا آتينا حُكماً وعلماً؛ وسخرنا مع داود الجبال يُسبحن والطير وكنا فاعلين؛ وعلَّمناه صَنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون؟ ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها، وكنا بكل شيء عالمين؛ ومن الشياطين مَن يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك، وكنا لهم حافظين﴾** [الأنبياء: ٧٨ ـ ٨٢]..

وهنا غرض ديني من أغراض قصة سليمان الكثيرة.. ولكن قد يبدو أن الختام الفني هنا لم يتفق مع الغرض الديني، وأن مشهد سليمان مُتَّكِئاً على عصا بعد موته قد يكون هو الختام الفني المطلوب.

وهذا المشهد يصلح ولا شك؛ ولكن مشهد الحكم والحكمة هنا له قيمته الفنية أيضاً في حياة سليمان. فهو «سليمان الحكيم» كما يُلقب، وهو «سليمان الملك». وفي هذا الحُكم المُبكر شاهد بالحكمة الموهوبة، وإرهاص للمُلك العريض. ثم هي طريقة من طرق العرض، أن تنتهي قصة البطل بمشهد من مشاهد طفولته أو صباه ذي علاقة وثيقة بمحور قصته من البدء للختام.

يقول الدكتور فضل عباس: «ونقف متأملين عند قصة داود وسليمان، النبيين المَلِكَين، الأب والإبن، وقد نقل صاحب المنار ـ رحمه الله ـ عن أن النصارى ينفون نُبوة سليمان ويزعمونه فيلسوفاً حكيماً فحسب؛ لأنهم

يتحكمون في إثبات النبوة ونفيها عمن يشاءون من بني إسرائيل، وعلل ذلك بما نقله عن بعضهم[1]. وأما المسلمون فموقفهم من الأنبياء يستمدونه من كتابهم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن السنّة الصحيحة التي نُقلت عن النبي عليه وآله الصلاة والسلام.

لقد امتن الله على داود وسليمان في أكثر من آية بالعلم، وهو فضل الله على مَن يشاء من عباده، ولقد كان هذا العلم لجوانب كثيرة من الكون، ولكننا نلحظ أن الله تبارك وتعالى وقد مَنَّ الله عليهما بالعلم شرَّفهما بوصف آخر أكثر من مرة وهو العبودية **﴿واذكر عبدنا داود﴾** [صٓ: ١٧] **﴿ووهبنا لداود سليمانَ نِعْمَ العبد﴾** [صٓ: ٣٠]، فمع هذه النبوة والمُلك والعلم تأتي العبودية الصادقة لِتُتَوِّج هذا كله، وقد ذكر في خبرهما ما استغله بعض القُصَّاص، واحتل مساحات بعد ذلك من كتب التفسير، والحق الذي لا مرية فيه أن ما ذكره القرآن عن هذين النبيين ـ وعن غيرهما بالطبع ـ ينسجم مع ما يستحقه الأنبياء من الإجلال والتقدير، ومع ما أُكرموا به من العصمة، ومع المنهج التربوي الكامل الذي اختص الأنبياء به ـ عليهم السلام ـ لقد استغل نبأ الخصمين اللذين تسوَّرا المحراب فقالوا فيهما ما يُنافي عصمة الأنبياء، كما استُغِلّت بقية الأخبار (التي تحدثت عن سليمان).

إن أخبار الأنبياء في القرآن لا تشوبها شائبة شك، ولا تحوم حولها شبهة، فهم المُصطَفون الأخيار، ويمثل الشيخ رشيد ـ رحمه الله ـ أخبار الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في القرآن الكريم، وفي غيره فيقول: «إن مثل الأنبياء في غير القرآن الكريم كبستان فيه الشجر المثمر وغير المثمر، وفيه الشوك والعوسج، وغير ذلك مما لا فائدة فيه؛ بل فيه الضرر المؤكد.

أما أخبارهم ـ عليهم السلام ـ في كتاب الله فَكَبُسْتان ليس فيه إلا الزهرة النضرة الندية، والثمرة الشهية».

---

(١) تفسير المنار ج ٦، ص ٣٢٣.

وهكذا نجد أن داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ قد أسهما بنصيب وافر في البناء الإنساني المحكم، فغاية النعمة تستلزم غاية العبودية... وهكذا كلما عَظمت نِعَم الله تبارك وتعالى خلصت عبوديته للّه تعالى.

ولقد ردّ القرآن الكريم عن هذين النبيين المَلَكَين العَبدين كل ما أُثير حولهما مما لا يليق بعباد الله وأنبيائه، فالسحر الذي نُسب لسليمان يردُّه القرآن رداً عنيفاً ويحكم على الذين أثاروا هذه الشبهات بالكفر فلم يكن ساحراً ولم ينزل عليه ولا على أبيه سحر».



فِطْنَة وحِكْمَة

من الفضل العظيم الذي آتاه الله - سبحانه - نبيه **سليمان - عليه السلام -** ما فَهَّمه جَلَّ وعلا في القضاء بين الناس، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قال: «بينما امرأتانِ معهما ابناهُما جاء الذئبُ فذهب بابن إحداهُما، فقالت هذه لصاحبتها: إنما ذَهَبَ بابنكِ أنتِ، وقالت الأخرى: إنما ذَهَبَ بابنكِ، فَتَحاكَمَتا إلى داودَ فقضى به للكُبرى، فَخَرجتا على سليمان بن داود - عليهما السلام - فأخبَرتاهُ، فقال: ائتوني بالسِّكين أَشُقُّه بينكما. فقالت الصُّغرى: لا! يَرْحمُكَ الله. هو ابنُها، فقَضَى به للصغرى»[1].

تبدأ القصة بالحدث، الذي تنمو عنه المراحل التالية، فالبداية ذات حيوية بارزة مشوقة ومثيرة.. فحين عدا الذئب على ولد إحداهما تنشأ المشكلة، فنرى «أول خيط في المشكلة حين يذهب الذئب بابن إحدى المرأتين، ويبدأ الحدث الذي تترتب عليه أحداث القصة، فقد كان للذئب دور مساعد فهو سبب الحدث الذي أنشأ خيوط المشكلة.

وتتأزم المشكلة حين تدّعي كل واحدة منهن أن الصبي الباقي هو ابنها، ويتفاقم الأمر إلى حد الوصول إلى الحاكم، ويحكم داود - عليه السلام -

---

(١) أخرجه مسلم - (شرح النووي ١٢/١٨)، ورواه البخاري ٤/١٩٨ وأخرجه النسائي «سنن النسائي ٨/٢٠٦ - ٢٠٧».

للكبرى، ويبدو أن هذا الحكم لم يحسم الأمر، فخرجتا إلى سليمان ـ عليه السلام ـ، وشرحتا قصتهما، وهنا يصل الحدث إلى ذروته، حين طلب سليمان ـ عليه السلام ـ سكيناً؛ إنه يريد أن يشق الصبي بينهما.

تشكل منطقة الوسط في القصة نقطة مهمة جداً، فهي تشكل مرخلة نامية ومتطورة أصلاً عن البداية، فهي منطقة الثقل، الحافلة بتشابك عناصر التأزيم، وتثير نوعاً من الصراع الداخلي لعاطفة الأمومة الصادقة في أعماق الصغيرة بعد أن قرر سليمان شق الغلام الباقي. قالت الصغرى في رُعب وَوجَل «لا. يرحمك الله» وفي رواية: «أتشقه؟! قال: نعم» فسارعت تتوسل إليه «فقالت: لا تفعل، حظي منه لها». وفي رواية مسلم: «هو ابنها».

لقد انطلقت الأمومة الصادقة في أعماق الصغيرة مبديةً تنازلها عن حظها من الصبي، وتُقرّ أنه ابن المرأة الأخرى ولا يقتل الصبي.

وحين تصل الأحداث إلى ذروتها في هذه المرحلة، نلاحظ انحدارها نحو الانفراج متدرجة في طريق النهاية»[١].

والقصة يبدو فيها التدرج والانفراج في الانتقال بالأحداث من مستوى إلى مستوى، وفق مراحل معينة، بحيث يتدرج السياق فيها نحو التأزيم، ثم يأتي الانفراج في آخر لحظة بعد أن تصل الأزمة إلى ذروتها...

«فالقصة تبدأ بذهاب الذئب بابن إحدى المرأتين، وهي مشكلة، ثم تأخذ في التأزم حين تدّعي كل واحدة بأن الغلام الباقي هو ابنها، ويتفاقم الأمر بينهما إلى حد الترافع إلى الحاكم، فالمشكلة هنا تتعقد وتتطور، وهي حول قضية بالغة الأهمية: «ادعاء بنوة»، ويحكم داود بالولد للكبرى ـ كما تقدّم ـ، ولكن هذا الحكم لا يحسم الأمر ويحلّ المشكلة، فخرجتا على سليمان وعرضتا عليه القصة، ويبدو أن كل واحدة منهما تلح في ادعائها بحيث أن الأمر وصل إلى درجة كبيرة من اللبس في هذا الولد. «ابن مَن منهما في الحقيقة؟»».

---

(١) القصص في الحديث النبوي ص ١٣٦، ١٣٧.

وتصل مشكلة الصغرى منهن إلى ذروتها حين طلب سليمان سكيناً، ولكن لماذا؟ إنه يريد أن يشق الولد بينهما، فترضى الكبيرة بهذا الحل، ولكن الصغرى تبادر بالتنازل عن حقها حفاظاً على الولد من هذا المصير المحتوم، والموت المحقق بدافع من حنان الأمومة، وهنا تتكشف الحقيقة للقاضي الذي يقضي بالولد للصغرى، وهنا لحظة الانفراج. . »[1].

وقد حظيت القصة بشخصية نبيين هما داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ، وذكر الشخصية محددة باسمها يعطيها نوعاً من الواقعية في اعتبار السامع أو القارىء، مما يجعله أكثر قرباً منها وارتباطاً بها. . وتعطي القصة بذلك أهمية للموقف الذي صدر عنها في عبرة ودرس وتوجيه، حتى يستفيد المسلمون منها في واقع حياتهم في السياسة والحكم، فالرسول ـ ﷺ ـ يعرض حكومة سليمان ـ عليه السلام ـ **الحكيمة الفطنة** بين «المرأتين المتخاصمتين في الطفل، حيث استعمل ذكاءه في قضية غاب دليلها، والتبس الحق فيها بالباطل، وبتصرفه السديد النابع من رأي ثاقب استطاع أن يتبين وجه الحق في هذه الخصومة»[2].

يقول الإمام النووي: «في قضاء داود وسليمان ـ صلى الله عليهما وسلم ـ في الولدين اللذين أخذ الذئب أحدهما فتنازَعَتْه أُماهما، فقضى به داود للكبرى، فلما مرّتا بسليمان قال: أقطعه بينكما نصفين، فاعترفت به الصغرى للكبرى، بعد أن قالت الكبرى اقطعه، فاستدل سليمان بشفقة الصغرى على أنها أمه، وأما الكبرى فما كرهت ذلك، بل أرادته لتشاركها صاحبتها في المصيبة بفقد ولدها.

قال العلماء: يُحتمل أن داود ـ ﷺ ـ قضى به للكبرى، لشَبَه رآه فيها، أو أنه كان في شريعته الترجيح للكبير، أو لكونه في يدها، وكان ذلك مرجحاً في شرعه. وأما سليمان فتوصّل بطريق من الحيلة والملاطفة إلى معرفة باطن القضية

---

(١) المصدر السابق ٢٠٢.

(٢) المصدر السابق ٢٥٥.

فأوهمهما أنه يريد قطعه ليعرف مَن يَشقّ عليها قطعه فتكون هي أُمُّه، فلما أرادت الكبرى قطعه عرف أنها ليست أمه، فلما قالت الصغرى ما قالت عرف أنها أمه، ولم يكن مراده أن يقطعه حقيقة، وإنما أراد اختبار شفقتهما لتتميز له الأم، فلما تميزت بما ذكرت عرفها، ولعله استقرأ الكبرى فأقرت بعد ذلك للصغرى، فحكم للصغرى بالإقرار، لا بمجرد الشفقة المذكورة.

قال العلماء: ومثل هذا يفعله الحكام ليتوصلوا به إلى حقيقة الصواب بحيث إذا انفرد ذلك لم يتعلق به حكم.

فإن قيل: كيف حكم سليمان بعد حكم داود في القصة الواحدة ونقض حكمه. والمجتهد لا ينقض حكم المجتهد، فالجواب من أوجه مذكورة أحدها: أن داود لم يكن جزم بالحكم، والثاني: أن يكون ذلك فتوى من داود لا حكماً، والثالث: لعله كان في شرعهم فسخ الحكم إذا رفعه الخصم إلى حاكم آخر يرى خلافه، والرابع: أن سليمان فعل ذلك حيلة إلى إظهار الحق وظهور الصدق، فلما أقرت به الكبرى عمل بإقرارها، وإن كان بعد الحكم، كما إذا اعترف المحكوم له بعد الحكم أن الحق هنا لخصمه»[1].

وبعد، لقد كانت التربية جانباً بارزاً في القصة، وكان التعليم عن طريق النموذج والقدوة الذي تعرضه، فترشد إلى «ما ينبغي أن يكون عليه الحاكم بين الناس من الفطنة والحصافة في استبانة وجه الحق كما فعل سليمان في حكومته بين المرأتين المتخاصمتين في طفل، وهنا يأتي التعليم عن طريق النموذج الذي ترسمه القصة للقدوة والاحتذاء..»[2].

وهنا موقف سلبي لا أخلاقي، ترفضه القصة في مغزاها من خلال الشخصية التي تمثلها، فموقف «المرأة التي ادَّعت أن الولد الذي لم يأكله الذئب إنما هو ابنها، مع أنها تعرف أنه ليس ابنها..»[3].

---

(١) شرح مسلم ١٢/١٨.
(٢) القصص في الحديث النبوي ص ٤٤٧.
(٣) المصدر السابق ٣٩٨.

وتمثل المرأة الصغرى شخصية الأمومة الصادقة، فالولد الذي لم يأكله الذئب هو ابنها، ولكن حين ترى إرادة سليمان ـ عليه السلام ـ في شَقّه نصفين.. وإعطاء كل امرأة نصفاً.. واجهت الموقف بصدق، فهي لا تريد أن يموت ابنها بسبب هذا الخصام، فتنازلت عن نصيبها وحقها في ابنها.. ها هي ذي تقول: «هو ابنها».. فليحيا الولد ولو لم تأخذه هي!

إنها الواقعية الكاملة في تصرف الأم، تصورها القصة في مشهد متحرك بالعواطف والانفعالات..

كذلك تحفل القصة بعروض حية من المشاهد، بحيث تبدو واقعاً متحركاً يغشي في صوره المؤثرة، وشخوصه المعبّرة، تتملاه العين طويلاً، ويسكن الحسُّ والخيال إليه في صمت هادىء.. نحن في مشهد مثير.. أمام سليمان ـ عليه السلام ـ في مجلس الحكم: تتخاصم الامرأتان على الصبي، تدَّعي كل واحدة أنه لها، ويثور الانفعال في المشهد.. «فقال سليمان: ائتوني بالسكين أشقّ الغلام بينهما..».

مفاجأة مدهشة، لا نعلم لها سراً، وموقفنا منها كموقف الامرأتين.. موقف مثير للعواطف والأحاسيس..

ويبرز في هذا المشهد المتوج بالانفعالات، صورة تبدو بلون حزين، عليها خيوط الأنين الصامت في أعماق الأمومة الصادق، وهي تتصور ولدها يشق بالسكين نصفين.. وفي لحظة تتفجر العاطفة الصادقة فينطلق الانفعال العميق، ينطلق لسان الصغرى في هزّة ونبرة تلونها قوة المشاعر الحبيسة: «أتشقه؟» «قال: نعم؟» يمكن أن نلحظ فيه سليمان الحكيم وهو ينظر إلى الوجدان الصادق في الكلمة المعبرة: «أتشقه؟».

وتخيم على الكلمة فطنة وحصافة سليمان ـ عليه السلام ـ فيرى الخوف والروع في هذه المسكينة يتحرك في أعماقها.. فيقول: «نعم؟».

ونحسب الصغرى وقد أُسقط في يدها، فتهزّها المفاجأة العظمى في

تصميم الحاكم على قطع الغلام حين قال: نعم.. فيهتز قلبها ألماً، وترتعش نفسها حزناً.. وما هي إلا لحظة حين سمعت كلمة التصميم: نعم.. فهبّ لسانها صارخاً متوسلاً، يهزّه الفزع: «لا. يرحمك الله..» وفي رواية: «فقالت: لا تفعل، حظي منه لها»..

إنها الأم وهي تواجه الحكم بذبح ولدها.. تصوير العواطف والانفعالات، وقد برزت صارخة في الألفاظ: «لا. يرحمك الله، هو ابنها»..

إننا لنكاد نرى ملامحها، ونحس اضطراب خواطرها، ونلمس مواقع الحزن في أعماق نفسها، ويتراءى الألم الباكي يسري في عروقها..

إنها تثير فينا الشفقة والعطف من التأثر لحالها، وفي هذه اللحظة نسمع الحكم في لهجة التقرير، وفي أنسب لحظة للإقناع والاقتناع.. «فقضى به للصغرى».. إنه المنطق السليم في الرد الحكيم..

لقد كان التشويق ذو أهمية كبيرة في إضفاء الحيوية على القصة، وإثارة المتلقي لمتابعة الأحداث، وعلى أي كيفية ستنجلي..

كما أن الحوار أخذ دوره البارز في بناء القصة، فقد ساعد على رسم الشخصية، وجعلها أكثر حضوراً من خلال كلامها، فهو يحمل ترجمة لمشاعر الشخصية وعواطفها وأحاسيسها.. فحين نادى سليمان ائتوني بالسكين أشقُّ الغلام بينهما..

«قالت الصغرى: أتشقه؟
قال: نعم.
فقالت: لا تفعل حظي منه لها».

كذلك ساهم الحوار في تطوير الحدث ودفعه في خط سير النهاية المقصودة للقصة، مع تصوير الموقف بحيوية تكشف الأحاسيس الداخلية للشخصية، التي أدت إلى كشف مغزى القصة، والإبانة عن غرضها الذي ترمي إليه في ما ينبغي أن يكون عليه الحاكم من الفطنة في استبانة الحق.

قصة سبأ

الإعراض عن الله والكفر بالنعمة:

في قصة آل داود تعرض صفحة الإيمان بالله والشكر على أفضاله وحسن التصرف في نعمائه. والصفحةِ المقابلة هي صفحة سبأ. وقد مضى ما كان بين سليمان وبين مَلكتهم من قَصَص. وهنا يجيء نبؤهم بعد قصة سليمان. مما يوحي بأن الأحداث التي تتضمنها وقعت بعد ما كان بينها وبين سُليمان من خبر.

يرجح هذا الفرض أن القصة هنا تتحدث عن بَطَر سَبأ بالنعمة وزوالها عنهم وتفرقهم بعد ذلك وتمزّقهم كل مُمَزّق. وهم كانوا على عهد المَلكة التي جاء نبؤها في سورة النمل مع سليمان في مُلك عظيم، وفي خير عَميم. ذلك إذ يقصّ الهدهد على سليمان: **﴿إني وجدت امرأة تملكهم، وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾** [النمل: ٢٣، ٢٤]. وقد أعقب ذلك إسلام الملكة مع سليمان للّه رب العالمين. فالقصة في سورة سبأ تقع أحداثها بعد إسلام الملكة للّه؛ وتحكي ما حَلّ بهم بعد إعراضهم عن شكره على ما كانوا فيه من نعيم.

وتبدأ القصة بوصف ما كانوا فيه من رزق ورغد ونعيم، وما طُلِبَ إليهم من شُكر المُنْعِم بقدر ما يطيقون:

﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال. كُلوا من رزق

ربكم واشكروا له. بلدة طيبة ورب غفور﴾ [سبأ: ١٥]..

وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبي اليمن؛ وكانوا في أرض مُخصبة ما تزال منها بقية إلى اليوم. وقد ارتقوا في سلم الحضارة حتى تَحَكَّموا في مياه الأمطار الغزيرة التي تأتيهم من البحر في الجنوب والشرق، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جَبَلين، وجعلوا على فم الوادي بينهما سداً به عيون تُفتح وتُغلق، وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد، وتحكَّموا فيها وفق حاجتهم. فكان لهم من هذا مورد مائي عظيم. وقد عرفت باسم: «سَد مَأْرب».

وهذه الجنان عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل، ومن ثم كانت آية تُذَكّر بالْمُنعم الوهّاب. وقد أُمروا أن يستمتعوا برزق الله شاكرين: **﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له﴾**..

وذكروا بالنعمة. نعمة البلد الطيب وفوقها نعمة الغفران على القصور من الشكر والتجاوز عن السيئات.

﴿بلدة طيبة وربّ غفور﴾..

سماحة في الأرض بالنعمة والرخاء. وسماحة في السماء بالعفو والغفران. فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران؟ ولكنهم لم يشكروا ولم يَذكروا:

﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيل العرم، وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكل: خَمط وأَثل وشيء من سدر قليل﴾ [سبأ: ١٦].

أعرضوا عن شكر الله، وعن العمل الصالح، والتصرف الحميد فيما أنعم الله عليهم، فَسَلَبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذي يعيشون فيه، وأرسل السَّيْلَ الجارف الذي يحمل العَرِم في طريقه وهي الحجارة لشدّة تدفّقه، فَحطَّم السدّ وانساحت المياه فطفت وأغرقت؛ ثم لم يعد الماء يُخَزّن بعد ذلك فَجَفَّت واحترقت. وتبدلت تلك الجنان الفيح صحراء تتناثر فيها الأشجار البريّة الخَشِنة:

﴿**وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكل: خَمط وأَثل وشيء من سِدر قليل**﴾..

والخمط شجر الأراك أو كل شجر ذي شوك. والأَثل شجر يشبه الطرفاء. والسدر النبق. وهو أجود ما صار لهم ولم يعد لهم منه إلا قليل!

﴿**ذلك جزيناهم بما كفروا**﴾.. والأرجح أنه كفران النعمة.. ﴿**وهل نجازي إلا الكفور**﴾ [سبأ: ١٧]..

وكانوا إلى هذا الوقت ما يزالون في قراهم وبيوتهم. ضيّق الله عليهم في الرزق، وبدّلهم من الرفاهية والنعماء خشونة وشدة؛ ولكنه لم يُمزّقهم ولم يُفرّقهم. وكان العمران ما يزال متصلاً بينهم وبين القرى المباركة: مكة في الجزيرة، وبيت المقدس في الشام. فقد كانت اليمن ما تزال عامرة في شمال بلاد سبأ ومُتصلة بالقرى المباركة. والطريق بينهما عامر مطروق مسلوك مأمون:

﴿**وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة، وقدّرنا فيها السير. سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين**﴾ [سبأ: ١٨]..

وقيل كان المسافر يخرج من قرية فيدخل الأخرى قبل دخول الظلام. فكان السفر فيها محدود المسافات، مأموناً على المسافرين. كما كانت الراحة موفورة لتقارب المنازل وتقارب المحطات في الطريق.

وغلبت الشقوة على سبأ، فلم يَنفعهم النذير الأول؛ ولم يُوجههم إلى التَضَرّع إلى الله، لعله يرد عليهم ما ذهب من الرخاء. بل دعوا دَعوة الحمق والجهل:

﴿**فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا**﴾ [سبأ: ١٩]..

تطلبوا الأسفار البعيدة المدى؛ التي لا تقع إلا مرات متباعدة على مدار العام. لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل، التي لا تشبع لذة الرحلات! وكان هذا من بَطَر القلب وظُلم النفس: ﴿**وظلموا أنفسهم**﴾.

واستجيبت دعوتهم، ولكن كما ينبغي أن تُستجاب دعوة البَطَر: ﴿فجعلناهم أحاديث ومَزَّقناهم كل مُمَزّق﴾ [سبأ: ١٩]..

شُرّدوا ومُزِّقوا، وتَفَرّقوا في أنحاء الجزيرة مُبدِّدي الشمل، وعادوا أحاديث يرويها الرواة، وقصة على الألسنة والأفواه. بعد أن كانوا أمة ذات وجود في الحياة.

﴿إن في ذلك لآيات لكل صَبَّار شكور﴾ [سبأ: ١٩]..

يذكر الصبر إلى جوار الشكر.. الصبر في البأساء. والشكر في النعماء. وفي قصة سبأ آيات لهؤلاء وهؤلاء.

هذا فهم في الآية. وهناك فهم آخر. فقد يكون المقصود بقوله: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة﴾.. أي قرى غالبة ذات سلطان. بينما تحول سبأ إلى قوم فقراء، حياتهم صحراوية جافة. وكثرت أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعي ومواضع الماء. فلم يصبروا على الابتلاء. وقالوا: ﴿ربنا باعد بين أسفارنا﴾.. أي قلل من أسفارنا فقد تعبنا. ولم يصحبوا هذا الدعاء باستجابة وإنابة للّه تستحق استجابته لدعائهم. وكانوا قد بطروا النعمة، ولم يصبروا للمحنة. ففعل الله بهم ما فعل، ومَزَّقهم كل مُمزق، فأصبحوا أَثراً بعد عين، وحديثاً يروى وقصة تحكى.. ويكون التعقيب: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾.. مناسباً لقلة شكرهم على النعمة، وقلة صبرهم على المحنة.. وهو وَجْه رأيناه في الآية والله أعلم بمراده.

وفي ختام القصة يخرج النص من إطار القصة المحدود، إلى إطار التدبير الإلهي العام، والتقدير المحكم الشامل، والسنّة الإلهية العامة؛ ويكشف عن الحكمة المستخلصة من القصة كلها، وما يكمن فيها وخلفها من تقدير وتدبير:

﴿ولقد صدّق عليهم إبليس ظَنَّه فاتبعوه. إلا فريقاً من المؤمنين. وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم مَن يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك. وربك على كل شيء حفيظ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١]..

لقد سلك القوم هذا المسلك، الذي انتهى إلى تلك النهاية، لأن إبليس صَدَّق عليهم ظَنّه في قدرته على غوايتهم، فأغواهم، ﴿**فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين**﴾.. كما يقع عادة في الجماعات فلا تخلو من قلة مؤمنة تَستعصي على الغواية؛ وتثبت أن هنالك حقاً ثابتاً يعرفه مَن يطلبه؛ ويمكن لكل مَن أراد أن يجده وأن يستمسك به، حتى في أحلك الظروف. وما كان لإبليس من سلطان قاهر عليهم لا يملكون رَفْعه. فليس هنالك قهر لهم منه ولا سيطرة عليهم له. إنما هو تسليطه عليهم ليثبت على الحق مَن يَثبت، وليزيغ منهم مَن لا يبتغي الحق ويتحراه. وليظهر في عالم الواقع ﴿**مَن يؤمن بالآخرة**﴾ فيعصمه إيمانه من الانحراف، ﴿**ممن هو منها في شك**﴾.. فهو يتأرجح أو يستجيب للغواية. بلا عاصم من رقابة للّه ولا تَطَلُّع لليوم الآخر.

والله يعلم ما يقع قبل ظهوره للناس. ولكنه سبحانه يُرتب الجزاء على ظهوره ووقوعه فعلاً في دنيا الناس.

وفي هذا المجال الواسع المفتوح. مجال تقدير الله وتدبيره للأمور والأحداث. ومجال غواية إبليس للناس، بلا سلطان قاهر عليهم، إلا تسليطه ليظهر المكنون في علم الله من المصائر والنتائج.. في هذا المجال الواسع تتصل قصة سبأ بقصة كل قوم، في كل مكان وفي كل زمان. ويتسع مجال النص القرآني ومجال هذا التعقيب، فلا يعود قاصراً على قصة سبأ، إنما يصلح تقريراً لحال البشر أجمعين. فهي قصة الغواية والهداية وملابساتها وأسبابها وغاياتها ونتائجها في كل حال.

﴿**وربك على كل شيء حفيظ**﴾.. فلا يندّ شيء ولا يغيب، ولا يهمل شيء ولا يضيع..

القسم الثاني

قصص الإيمان واليقين، والصبر الجميل

قصة أيوب عليه السلام

المحتوى	ص

قصة أيوب ـ عليه السلام ـ

ثم نمضي مع قصة الابتلاء والصبر، والإنعام بعد ذلك والإفضال. نمضي مع قصة أيوب. وهي نمط آخر من القصص، ومظهر آخر من مظاهر نِعَم الله على عباده المؤمنين، الصابرين الشاكرين، والأنبياء المقربين. وقد ذكرت في سورتين اثنتين: سورة (صٓ)، وسورة (الأنبياء).

وقصة أيوب وصبره ذائعة مشهورة، وهي تُضرب مثلاً للابتلاء والصبر. ولكنها مشوبة بإسرائيليات تطغى عليها.

والحد المأمون في هذه القصة هو أن أيوب ـ عليه السلام ـ كان كما جاء في القرآن عبداً صالحاً أوّاباً؛ وقد ابتلاه الله فَصَبر صبراً جميلاً، ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعاً ولكنه ظلَّ على صلته بربه، وثقته به، ورضاه بما قَسَم له.

وقصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء. فقد كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد مرضية[1]، فابتُلي في ذلك كله، وذهب عن

---

(١) ويتحدث الإمام ابن كثير عما كان يملكه أيوب من المزارع والحدائق.. كما يذكر أنه كانت له أموال من المواشي والأنعام، يضيق بها الحصر والتعداد. كما منحه الله نعمة القوة والصحة، ووهبه زوجة صالحة حسنة الخَلق والخُلق. وكل هذه النعم لم تبطره بل صبر عليها، وأدّى لها كل ما يلزمها من شكر للمنعم، وتقدير وعرفان لفضله..

وقد ذكر الرواة أن الله قد أنعم على أيوب بالمال الكثير، والثروة الطائلة.. =

آخره، ثم ابتُلي في جسده، فلم يبقَ منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عز وجل. .

الصبر الجميل:

لقد شاء الله أن تتبدَّل الأوضاع، وتتغير الأحوال. فقد جفّ الضرع، ونقصت الأموال، وماتت الأولاد. وزال الثراء العريض الذي مَنَّ الله به على نبيه أيوب، وهاجمه الفقر الشديد، والمرض القاسي العنيد. فما وَهَن لما أصيب به من هذا البلاء، وما ضَعُف ولا استكان، بل قابل ذلك كله بالصبر الجميل، والإيمان الكامل.

كان صابراً شاكراً يلهج لسانه بالذكر والشكر، لا يشكو، ولا يتعتَّب، ولا يتذمّر، ولا يغضب، فلم يُزحزحه البلاء من إيمانه، أو يُفسد من يقينه بربه

= عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بينما أيوب يغتسلُ عُرياناً، أُمطِرَ عليه جرادٌ من ذهب، فجعل أيوب يُحثي في ثوبه، فناداه ربُّه يا أيوب، أَلَم أُغْنِك عما ترى؟ قال: بلى، ولكن لا غنى لي عن رحمتك».

(أخرجه البخاري «٢٧٩» و«٣٣٩١» و«٧٤٩٣»، وأحمد ٢/٣١٤، وابن حبان في صحيحه. انظر تخريجه في الإحسان رقم ٦٢٢٩).

وفي رواية قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أُمطر على أيوب فراشٌ من ذهب، فجعل يأخُذه، فأوحى الله إليه، أَلَمْ أوسّع عليك؟ فقال: بلى يا ربّ، ولكن لا غنى لي عن فضلك» (أخرجه أحمد ٢/٥١١، وابن حبان، إسناده صحيح على شرط الشيخين، انظر تخريجه في الإحسان رقم ٦٢٣٠).

قال الحافظ في «الفتح» ٦/٤٢١: في الحديث جواز الحرص على الاستكثار من الحلال في حقّ من وثق نفسه بالشكر عليه، وفيه تسمية المال الذي يكون من هذه الجهة بركة، وفيه فضل الغني الشاكر.

وفي «تهذيب الكمال» ١١/١٦٨: قال سفيان: لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحبَّ إليَّ من أن أحتاج إلى الناس. وقال: كان المال فيما مضى يُكره، فأما اليوم فهو ترس المؤمن. وقال: لولا الدنانير لتمندَل بنا هؤلاء الملوك.

وقال: مَن كان في يده من هذه الدنانير شيء فليصلحه، فإنه زمان إن احتاج كان أول ما يبذله دينه.

الرحيم، ولكن كان أقوى إيماناً، وأشد صلة بالله، وأعمر بالتقوى قلباً. ولسان إيمانه يقول عن كل شيء فَقَده: عاريةٌ استردّها الله، ووديعة كانت عندنا فأخذها، نَعِمْنا بها دهراً، فالحمد لله على ما أنعم، وسلبنا إياها اليوم، فله الحمد على كل حال، فهو مالك الملك لا يتصرف بعبده المؤمن إلا بخير. فللّه ما أَخَذَ وللّه ما أعطى وكل شيء عنده بمقدار. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وألحَّ عليه الداء وامتدّ به البلاء سنين طوالاً. وبقي في لسانه وعقله وجنانه سرّ إيمانه ومظهر دينه وعرفانه..

ولا شك أن القرآن الكريم يشير بروعة، في التعبير إلى ما وقع لأيوب من ابتلاء أليم، ويشير إلى ما ينبغي أن يفعله العبد إذا أصابته المصائب، ونزلت به الكوارث وهو اللجوء إلى الله دون أحد سواه. ويشير إلى أن رحمة الله قريب؛ وأنه هو السميع المجيب.

فقاعدة الإيمان في القلب هي الالتجاء إلى الله، فكل الأسناد تهتز، وتتوارى الأوهام وهي شتى، ويخلو القلب إلى الله وحده. لا يجد سنداً إلا سنده. وفي هذه اللحظة تنجلي الغشاوات، وتتفتح البصيرة، ويَنجلي الأفق على مدّ البصر.. لا شيء إلا الله.. لا قوة إلا قوته.. لا حول إلا حوله.. لا إرادة إلا إرادته.. لا ملجأ إلا إليه.. وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح.. **﴿وبشّر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا للّه وإنا إليه راجعون﴾** [البقرة: ١٥٦].

إنا للّه.. كلنا.. كل ما فينا.. كل كياننا وذاتيتنا.. للّه.. وإليه المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير. التسليم.. التسليم المطلق.. تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجهاً لوجه بالحقيقة الوحيدة والتصور الصحيح.

هؤلاء هم الصابرون.. الذين يعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاء

الصبر الجميل: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون﴾ [البقرة: ١٥٧].

صلوات من ربهم.. يرفعهم بها إلى المشاركة في نصيب نبيه الذي يُصلي عليه هو وملائكته سبحانه.. وهو مقام كريم.. ورحمة.. وشهادة من الله بأنهم هم المهتدون..

وكل أمر من هذا هائل عظيم..

لقد أراد الله أن يجعل من أيوب عبداً مؤمناً، صابراً شاكراً، تكون قصته عبرة للمصابين، وعزاء لأهل البلاء والمكروبين، وسَلوى للمرضى والمجروحين، وليكون أيوب على مرّ الأيام والسنين المثل العالي في اليقين والإيمان، والمعلِّم الصادق للصبر على مَرْ الأزمان.

فهي قصة الإيمان الكامل والصبر الجميل.. الصبر على الشدائد الذي يُصفّي النفوس، ويرفع الدرجات، ويُعلي قَدر الإنسان بين الناس فيصبح قدوة وإماماً للمؤمنين.. ثم يكون من الله خير العَوَض في الدنيا. وله عند الله الجزاء الأوفى في الآخرة ﴿إنما يُوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠].

وكان الشيطان يوسوس لخلصاء أيوب القلائل الذين بقوا على وفائهم له ـ ومنهم زوجته ـ بأن الله لو كان يُحبّ أيوب ما ابتلاه. وكانوا يُحدثونه بهذا فيؤذيه في نفسه أشدَّ ما يؤذيه الضرّ والبلاء. فلما حدّثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله ليضربنّها عدداً عيَّنه ـ قيل مئة.

وعندئذ توجَّه إلى ربّه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان، ومداخله إلى نفوس خلصائه، وَوَقْع هذا الإيذاء في نفسه.. فقد اشتدت آلامه، وتضاعفت أسقامه. فَزِعَ إلى الله؛ لا مُتَسخطاً ولا متبرماً، داعياً مُتَحَنِّناً، ونادى ربه أنه قد مسَّه الشيطان بمرض وضرر ومعاناة:

﴿واذكُر عَبْدنا أيوب إذ نادَى رَبَّهُ أني مَسَّني الشيطانُ بِنُصْبٍ وعذاب﴾ [ص: ٤١].

وهذا من أَدَبِ العابدين الصابرين فلم يَنسب ذلك له.

والنصوص القرآنية تشير إلى مجمل البلاء دون تفصيل، وهي في سورة الأنبياء تعرض دعاء أيوب واستجابة الله للدعاء:

﴿وأَيُّوبَ إذ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الضُرُّ وأنتَ أرحمُ الراحمين. فاسْتَجَبْنا له فكشفنا ما بهِ من ضُرّ..﴾ [الأنبياء: ٨٢، ٨٣].

والآية تتحدث عن الابتلاء بالضراء.. وأيوب في دعائه لا يزيد على وصف حاله **﴿أني مسَّني الضُرّ﴾**.. ووصف ربه بصفته **﴿وأنت أرحم الراحمين﴾**. والضُرّ: بالضم هو المرض، والضَرْ بالفتح أعمّ منه حيث يكون بالنفس والأهل والمال وغير ذلك.

ثم لا يدعو بتغيير حاله، صبراً على بلائه، ولا يقترح شيئاً على ربه، تأدباً معه وتوقيراً.

فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء، ولا يتململ من الضُرّ الذي تُضرب به الأمثال في جميع الأعصار[1]. بل إنه ليتحرّج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه، اطمئناناً إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال.

ولما تمّ ما أراده الله من ابتلاء، وما أراد الله به من رفع درجات،

---

(١) تكثر الأقوال وتبالغ الروايات في الضرّ الذي مسَّ أيوب. حتى تقول: إنه مرض مرضاً مُنَفِّراً تحاشاه الناس بسببه وطرحوه خارج المدينة.. وليس وراء هذا القول من سند. والرسالة تتنافى مع المرض المنفر. والظاهر من نصوص القرآن أنه أصيب بالضرّ في أهله ونفسه.. وفي هذا كفاية الابتلاء.

وقد أثار رواة الإسرائيليات أخباراً في سبب ما أصاب أيوب، وهي أخبار كاذبة شاذة مما لا ينبغي أن يعول عليه، بل ينبغي أن لا يركن إليه.. ولعل هذا جعل عند بعض الكاتبين ردة فعل قويّة عنيفة فأوّل هذه الآيات على غير ما تحمل عليه فراراً مما نُسج حول هذه الآيات الكريمة، وهذه التأويلات بعيدة كل البُعد عن مدلول اللفظ القرآني، ولقد ردّ العلاّمة الشيخ محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ شيخ الأزهر الأسبق هذه التأويلات وأطال الكلام في ذلك (انظر «القصص القرآني» للعلاّمة الفاضل الدكتور فضل حسن عباس ص ٣٧٣، ٣٧٤).

والرضاء بالقضاء. . وعرف ربه منه صدقه وصبره، ونفوره من محاولات الشيطان، وتأذيه بها، أدركه برحمته. .

ففي اللحظة التي توجّه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة، وكانت الرحمة، وكانت نهاية الابتلاء، فردّ عليه عافيته. إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتتفجَّر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفى ويبرأ:

﴿أركُض بِرِجْلِك. هذا مُغْتَسَلٌ باردٌ وشَراب﴾ [صٓ: ٤٢].

لقد أشرقت على أيوب رحمة الله، وجرى القضاء بِبَرئه مما أصابه من أدواء وما وقع عليه من محنة وبلاء. . وأكرمه الله بمعجزة خصّه بها إذ أمره أن يضرب برجله في الأرض لينبع الماء من تحت قدمه، فيغتسل فيه فيذهب داؤه، ويتم شفاؤه. . وتلك المعجزة ليرشد الله بها الناس إلى منزلة أيوب عند الله وكرامته لديه، وليزيد المؤمنين إيماناً وتثبيتاً[1].

رفع عنه الضرَّ في بدنه فإذا هو معافى صحيح. ورفع عنه الضرّ في أهله فَعوّضه عمن فَقَد منهم، ورزقه مثلهم. وقيل: هم أبناؤه فوهب الله مثليهم. أو وهب له أبناء وأحفاداً ويقول القرآن الكريم: **﴿ووهبنا لهُ أَهلهُ ومثلَهم معهم رحمةً مِنَّا وذكرى لأُولي الألباب﴾** [ص: ٤٣].

وتقول بعض الروايات إن الله أحيا له أبناءه ووهب له مثلهم، وليس في النص ما يحتم أنه أحيا له مَن مات. وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد استردّ أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين. وأنه رزقه بغيرهم زيادة في الإنعام والرحمة والرعاية. مما يصلح ذكرى لذوي العقول والإدراك الذين يصبرون ويستقبلون ما مَنَّ الله بالرضا والطمأنينة.

إنها رحمة من عند الله الرحمٰن الرحيم: **﴿فكشفنا ما به من ضُرّ وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾** [الأنبياء: ٨٣].

---

(١) تاريخ الأنبياء ص ٢٥٤.

والمهم في معرض القصص هنا هو تصوير رحمة الله وفضله على عباده الذين يبتليهم فيصبرون على بلائه وترضى نفوسهم بقضائه..

﴿رحمة من عندنا﴾ فكل نعمة هي رحمة من عند الله ومنّة..

﴿وذكرى للعابدين﴾ تذكرهم بالله وبلائه، ورحمته في البلاء وبعد البلاء. وإن في بلاء أيوب لَمَثلاً للبشرية كلها؛ وإن في صبر أيوب لعبرة للبشرية كلها. وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار.

والإشارة للعابدين بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها. فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء. وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيمان. والأمر جدّ لا لعب. والعقيدة أمانة لا تُسلَّم إلا للأمناء القادرين عليها المستعدين لتكاليفها وليست كلمة تقولها الشفاه، ولا دَعْوىٰ يدّعيها مَن يشاء. ولا بد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء..

وأما قَسَمه ليضربنَّ زوجه. فرحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته وصبرت على بلائه وبلائها به، أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد الذي حدّده. فيضربها به ضربة واحدة. تجزىء عن يمينه، فلا يحنث فيها:

﴿وخُذ بيدك ضِغْثاً فاضرِب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نِعْمَ العبدُ إنه أوّاب﴾ [ص: ٤٤].

هذا التيسير، وذلك الإنعام، كانا جزاء على ما عَلِمَه الله من عبده أيوب من الصبر على البلاء وحسن الطاعة والالتجاء ﴿إنا وجدناه صابراً نِعْمَ العبد إنه أواب﴾.

قال سعيد عن قتادة: كانت امرأته قد عرضت له بأمر، وأرادها إبليس على شيء، فقال لها: لو تكلمتِ بكذا وكذا؟ وإنما حملها الجوع. فحلف نبي الله لئن شفاه الله تعالى ليجلدنها مئة جلدة، قال: فأمر بأصل فيه تسعة

وتسعون قضيباً، والأصل تكملة المئة، فيضربها به ضربة واحدة. فأبرَّ الله تعالى نبيّه. وخفَّف عن أَمَتِه.

وقد أفتاه الله بما أخبر به. أن يأخذ ضغثاً، وهو الحزمة من الشيء، مثل الشماريخ الرطبة والعيدان ونحوهما، مما هو قائم على ساق، فيضربها ضربة واحدة[1].

تأمُّل وعبرة:

نقف طويلاً عند دراستنا لقصة أيوب ـ عليه السلام ـ ففيها نواح تحتاج منا إلى عناية وتأمُّل.

ففي القصة لا نرى صراعاً واضحاً بينه وبين قومه على الدعوة، ولا نرى البلاء الذي حاق به مرتبطاً أي ارتباط بوضعه الاجتماعي كنبي جاء يحمل فكرة، وهو لا يدري سبباً لهذا البلاء المتلاحق الذي يحيق به ويتتابع، وإنما جاء البلاء على غير انتظام، وتَتَابع على غير انتظار، ثم استمر أيوب لا يعلم هدفه ولا متى ينتهي. فما العبرة إذاً في القصة؟

لقد كان أيوب في مال جزيل وأولاد وسعة في الدنيا فابتلاه الله بالضرّ في ماله وجسده وولده «حتى لم يبقَ من جسده مغرز إبرة سليماً سوى قلبه» ولم يبقَ له شيء يستعين به على مرضه، غير أن زوجته حفظت ودّه لإيمانها بالله تعالى ورسوله. وعاشت مع النبي الكريم بعد أن هَجَره قومه وساءت حاله.

وجاء في الحديث الشريف أنه بقي في البلاء ثماني عشرة سنة، وأن الناس هجروه إلا صديقين:

عن أنس بن مالك أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ أيوب نبي الله ـ ﷺ ـ لبثَ في بلائه ثمان عشرة سنةً، فرفضه القريبُ والبعيد إلا رَجُلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه، كانا يَغْدوان إليه ويَروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلمُ، والله لقد أذنبَ أيوبُ ذنباً ما أذنبهُ أحد من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمانَ عشرةَ سنةً لم يَرحمهُ الله، فَيكْشِفَ ما

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٣٩٥.

به، فلما راح إليه لم يصبر الرجلُ حتى ذَكَرَ ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقولُ غير أنّ الله يعلمُ أني كنتُ أَمُرُّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجعُ إلى بيتي فأُكفِّرُ عنهما كراهية أن يُذكر الله إلا في حق.

قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجتَهُ أمسكتْ امرأته بيده، فلما كان ذات يوم، أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه ﴿اركض برجلِكَ هذا مُغْتَسلٌ باردٌ وشراب﴾ [ص: ٤٢]، فاستبطأته فبلغتهُ(١)، فأقبلَ عليها قد أذهبَ اللّهُ ما بِهِ من البلاء فهو أحسن ما كان، فلما رأتْه، قالت: أي باركَ الله فيك: هل رأيت نبيّ الله هذا المبتَلى، والله ما رأيتُ أحداً كان أشبهَ به منك إذ كان صحيحاً، قال: فإني أنا هو، وكان له أندران(٢): أَنْدَرُ القمح، وأندر الشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح، أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الوَرِق(٣) حتى فاض»(٤).

وأخيراً تضرّع أيوب إلى ربه ودعاه فأجرى الله تحت قدمه عين ماء غَسل بها الأذى عن نفسه وعيناً شرب منها وتكاملت له العافية ظاهره وباطنه، ووهب الله له أهله ومثلهم معهم:

﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ [الأنبياء: ٨٢، ٨٣].

﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب. أُركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة

---

(١) في الدر المنثور ٥/٦٥٩: فأتَته، وفي الطبري والمستدرك وغيرهما: فتلقته.

(٢) الأندر: البيدر، وهو الموضع الذي يُداس فيه الطعام.

(٣) الفضة.

(٤) أخرجه ابن حبان وأبو يعلى، والبزار (٢٣٥٧)، والحاكم ٥/١٨١ - ١٨٢. وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٧٤، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٨/٢٠٨ وقال: رواه أبو يعلى والبزار ورجال البزار ورجال الصحيح، انظر الإحسان (٢٨٩٨).

منا وذكرى لأولي الألباب. وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نِعْمَ العبد إنه أواب﴾ [ص: ٤١ ـ ٤٣].

ومن القصة نرى أيوب ابتُلِيَ ابتلاءً كاملاً، ولقد حدّد القرآن أنواع البلاء فقال تعالى: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مَثلُ الذين من قبلكم؟ مَسَّتهم البأساء والضرّاء وزُلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب﴾** [البقرة: ٢١٤].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية: أن البأساء في الأموال، والضرّاء في الأبدان، والزلزلة في العقيدة والإيمان.

وواضح في هذه القصة نواحي البلاء الجسمي والمالي. أما البلاء في العقيدة فكان على درجة كبيرة من الشدة.. فقد ابتلاه الله كإنسان من طبيعته أن يجالس الناس ويصاحبهم، فَبَعُدَ الناسُ عنه ولم يرضوا أن يجلسوا إلى مريض قد ساءت حاله وامتدت أيام محنته.. وابتلاه كنبي جاء رحمة للناس ومن طبيعته أن يأمر بمعروف وينهى عن منكر ويفعل الخير.. ففارقَه الناس وبقي يحمل النور بين جنبيه، وليس من حوله إلا الزوج الوفية تفيض عليه من إيمانها وودّ قلبها.

وطول المدة لا شكّ في أثره العميق في نفس أيوب، وسوء ظن الناس به له أثره كذلك.

وابتلاه الله كوالد فَقَد أولاده وهو أشد ما يكون حاجة إليهم، وابتلاه كغني كان يعيش في الخير والدور العامرة فَفَقد كل شيء، وليس من حوله إلا الضيق والفاقة والحرمان.

وابتلاه كرجل كان يكسب المال ويجمع الثراء العريض فأصبح عاجزاً لا يقدر على الكسب فتقوم زوجته بالخدمة والعمل لتقدم له الطعام وتقوم على أمره. وعزيز على نفس الرجل أن يرى نفسه عالة على زوجه.

إن محنة أيوب شاملة مسَّت فيه الآلام كل ناحية من نواحي الحياة

الإنسانية: مادية ومعنوية.. ففيها تذكير بالنبي الصابر سجلها القرآن الكريم ﴿**إنا وجدناه صابراً نِعْمَ العبد إنه أوّاب**﴾ [ص: ٤٤]، فكل فرد في هذه الحياة مُعرض للخير والشر. والعاملون في سبيل الله أشد الناس تعرضاً للأذى ولا بد أن يضع الخالق الرحيم نماذج إنسانية رائعة تبين لنا التحمل في سبيل الحق، وتعطينا زاداً يعيننا على السير في الطريق إلى الله.

والفرد قد يُدرك السبب الذي من أجله حدث البلاء، وهو بهذا يستطيع أن يربط الأسباب بالنتائج، وقد يكون البلاء من الدقة والعمق بحيث تغيب حكمته من الذهن. وهنا يُدركنا القرآن فيعطينا نماذج من الثقة القوية بالله والصبر على البلاء أعواماً طوالاً دون أن يتطرق الشك أو الريب إلى النفس المجاهدة الصابرة.

وناحية هامة لها مكانها الكبير في هذه القصة هي أن أيوب - عليه السلام - ظلَّ يبذل جهده وامرأته ظلت تعمل وتقوم عليه وتعوله.. ومع هذا **احتفظت هذه الأسرة النبوية بموقف متزن من البلاء النازل والعمل لدفع السوء**. فليس في موقف أيوب استكانة وضعف، وليس فيه ثورة باطلة، **وإنما فيه الصبر على القضاء والعمل على دفعه**.

فالعبرة الأساسية في هذه القصة أنها نموذج بشري صنعه الله ليكون رمزاً للإيمان واليقين. إيماناً لا تُزحزحه المِحَن، يجمع بين الصبر على القضاء والعمل على دفعه، وتعطينا مثلاً سامياً في تحمل المؤمن بلاء الله دون أن يُدرك علاقة واضحة في حياته وابتلاء الله إياه.

عبودية:

لقد كانت أمواج الفتن تحاول دفع أيوب عن طريق الله، ولكنه كان يُولّي وجهه شطر ربّه، ويعود إليه دائماً، وأبقى قلبه محراباً لا يعبد فيه إلا الله ولا يُعظم أحداً سواه. ولهذا وصفه الله بالعبودية فقال: ﴿**واذكر عبدنا أيوب... إنا وجدناه صابراً نِعْمَ العبد إنه أواب**﴾ واعتبره مثلاً للعابدين فقال: ﴿**وآتيناه**

أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾.

والقرآن يذكر لفظ العبد في أكرم مواقف الرسل مما يدل على أن أيوب بعد أن نجح في هذه الامتحانات المتوالية استحق التقدير الإلهي والوسام السماوي نقرأ في صحيفته قول الله **﴿نِعْمَ العبد إنه أوّاب﴾**.

ونبيُّنا - ﷺ - وصفه ربّه بالعبودية في أكرم مواقف الدعوة **﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾** [البقرة: ٢٣].

وقال عنه في ليلة الإسراء **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾** [الإسراء: ١].

وقال في ليلة المعراج **﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾** [النجم: ١٠].

وهذه كلها مواقف يتجلى فيها تجرد الفرد لربه فلا يبقى إلا عَبد وربّ. ولهذا نجد لفظ «الربّ» بالذات مستخدماً في هذه القصة في سورتي «ص» والأنبياء. وهو لفظ دال على الرعاية والتربية.

وفي خواتيم قصة أيوب نجد قول الله **﴿رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾**، وقوله **﴿رحمة مِنّا وذكرى لأولي الألباب﴾**.

فروح القصة تدل على أن الهدف كان دراسة وتجلية لهذا النموذج الرائع. وتسجيل النتيجة نجده في قوله تعالى: **﴿إنا وجدناه صابراً نِعْمَ العبد إنه أوّاب﴾**.

فكَشْف السوء كان رحمة من الله تعالى.. والقصة أعدّها لتكون ذكرى للعابدين ولأولي الألباب. فهناك علاقة قوية بين القصة وكل عابد وصاحب عقل، والقرآن ذكرها لتكون لنا عبرة في الطريق إلى الله، وتطلعنا على الآفاق العليا التي صعد إليها المؤمنون على معارج من التحمُّل الكريمة والثقة الكاملة بالله. فلا تضطرب لنا نفس، ولا يفتر لنا عزم، ولا يقعدنا التفكير المنطقي الجامد عن أن تشيع في نفوسنا الاطمئنان إلى عدل الله وإن تأخر سنين طوالاً،

أو قال الناس عن المؤمنين الصادقين إن رحمة الله تخلت عنهم . .

إن أيوب كان في محنته قريباً من رحمة ربه، وكانت عين الله ترعاه في كل وقت وحين ومكان. والمؤمن في حياته وهو يسير إلى الله وإن غابت عنه حكمة البلاء فليذكر أيوب ـ عليه السلام ـ ذلك المَثَل الصادق في عبوديته للّه تعالى الذي قال عنه ربّه بعد البلاء الطويل: **﴿إنا وجدناه صابراً نِعْمَ العبد إنه أوّاب﴾**.

إنها محنة أساسها الإيمان والصبر، وتسجيل ما يستطيع الفرد أن يتحمله من القضاء الذي لا يدري له سبباً دون أن يفقد ثقته بالله عز وجل[1].

سنّة الله في الابتلاء:

إن البلاء والفتنة سُنّة جارية لامتحان القلوب. . فالإنسان يعلن كلمة الإيمان في الصحة والرخاء. يحسبها خفيفة الحمل هينة المؤونة، لا تكلف نطقها باللسان، فإذا أوذي في أهله أو في نفسه أو في ماله، استقبل البلاء في جزع، واختلت في نفسه القيم، ورجفت في ضميره العقيدة، وتهاوت ثقته بالله . .

﴿أحسب الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت: ٢٢١].

إنه الحديث عن الإيمان والفتنة، وعن تكاليف الإيمان الحقة التي تكشف عن معدنه في النفوس. فليس الإيمان كلمة تقال باللسان، إنما هو الصبر على المكاره واستقبال قضاء الله في رضا واطمئنان.

والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله؛ مُغيب عن علم البشر؛ فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم.

---

(١) عبد العزيز كامل: «البناء والهدم» ص ٥٠.

ومن البلاء والفتنة أن يتعرض المؤمن في نفسه وأهله وأحباءه وماله، وهو شاق وعسير. فإذا طال الأمد.. كان البلاء أشد وأقسىٰ. ولم يثبت على إيمانه إلا مَن عصم الله على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء.

ـ عن معاوية، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما بقي من الدنيا إلا بلاءٌ وفتنة»[١].

فيجب على المؤمن أن يُوَطِّن نفسه على تحمل المحن والبلايا.. والصبر على بلاء الله تعالى لا يقدر عليه إلا الأنبياء والصديقين فإنه شديد على النفس ولذلك قال ـ ﷺ ـ: «أسألك من اليقين ما تهوّن عليّ به مصائب الدنيا»[٢]، فهذا صبر مستنده حسن اليقين.

ـ عن مصعب بن سعد عن أبيه، قال: يا رسول الله، مَنْ أَشدُّ الناس بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأَمْثَلَ فالأمثل، يُبتَلَى العبدُ على حسب دينه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبد حتى يَدَعهُ يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[٣].

وفي رواية قال: قلتُ: يا رسول الله، أي الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجلُ على حسب دينه، فإن كان دينُه صلباً اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رِقّة ابتُلِي على حسب دينه، فما يبرحُ البلاء بالعبد حتى يتركَه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[٤].

ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن يُرد اللّهُ به خيراً يُصِبْ منه»[٥].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، وابن ماجه في الفتن، وإسناده قوي. انظر تخريج الحديث في الإحسان رقم (٦٩٠) و (٢٩٨٩).

(٢) أخرجه الترمذي، والنسائي، والحاكم وصححه من حديث ابن عمر، وحسنه الترمذي.

(٣) أخرجه ابن حبان، والحاكم ١/٤١، إسناده حسن، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩٠٠).

(٤) أخرجه ابن حبان بإسناد حسن، والترمذي (٢٣٨٩) في الزهد وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد وابن ماجة، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩٠١).

(٥) أخرجه البخاري (٥٦٤٥)، وابن حبان، وهو في الموطأ ٢/٩٤١، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩٠٧).

ـ وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الرجل لَتكون له المنزلةُ، فما يبلغها بعمل، فلا يزال الله يَبْتَليه بما يَكره حتى يُبَلِّغَه إياها»(١).

ـ عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا يُصيب المرءَ المؤمنَ مِن نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حُزنٍ ولا غَمٍّ ولا أذىً حتى الشوكةُ يُشاكها إلا كفَّر الله عنه بها خطاياه»(٢).

والصبر هو زاد المؤمن في الطريق إلى الله، في رحلة الحياة ﴿**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه**﴾ [الانشقاق: ٦].

وحقيقة الكدح هي المستقرة في حياة الإنسان. **إنه لن يجد الراحة في الأرض أبداً**. إنما الراحة هناك لِمَن يقدم لها بالطاعة والاستسلام.. فالنهاية في آخر المطاف إلى الله.. فمَن صبر واستسلم للّه فهو إلى نعيم يمسح على آلام الأرض كأنه لم يكن كدح ولا كدّ ولا بلاء..

ـ عن صهيب أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «عجباً لأمر المؤمن. إن أَمْرَهُ كُله خير، إن أصابتْه سرّاء شَكَر، وإن أصابتْه ضرَّاء صَبَر، وكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»(٣).

وهذا خير للمسلم الصابر عند الضرّاء، والشاكر عند السرّاء.

ـ عن أبي هريرة عن رسول الله قال: «مَثَلُ المؤمنِ كالزّرعِ لا تزالُ الريحُ تُفيئه، ولا يزال المؤمن يُصيبُه البلاء، ومثل المنافق كالشجرة الأَرْز لا تهتز حتى تُسْتَحصَد»(٤).

---

(١) أخرجه ابن حبان بإسناد حسن، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢/٢٩٢ وقال: رواه أبو يعلى ورجاله ثقات، وأخرجه الحاكم ١/٣٤٤. انظر الإحسان رقم (٢٩٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤١) و(٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣)، وابن حبان في صحيحه. انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩٠٥).

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢٩٩٩)، وابن حبان، وأحمد، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٨٩٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٠٩)، وأحمد ٢/٢٨٣، وابن حبان بإسناد صحيح. انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩١٥).

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا اشتكى المؤمنُ، أَخْلَصَهُ ذلك كما يُخْلِصُ الكيرُ خَبثَ الحديد»[1] .

قال الحكيم الترمذي: «المريض قد توسّخ وتدنّس وتكدّر طيبه، فأبى الله أن يضيعه، فسلّط عليه السَّقم، حتى إذا تمت مدة التمحيص خرج منها كالبردة في الصفاء، وفي وجهه طلاوة وحلاوة.

وقد أمر الله العباد أن يحفظوا جوارحهم عن الدنس لجوار القدس، فتركوا الرعاية، وضيّعوا الحفظ، فدلَّهم على أن يتطهروا بالتوبة، فلم يفعلوا، وأصروا على جهد من نفوسهم الشهوانية، ثم دعاهم إلى الفرائض ليتطهروا بها فخلطوها وغشوها، وأدّوها على النقصان والوسوسة والمكاسب الرديئة، فلم تكن مطهرة لهم، إذ لا تُطَهِّرُ النجاسة بالنجاسة، ولا يُنَقَّى الدنس بالوسخ، فلما رأى حالتهم هذه رحمهم، فداواهم بالأسقام ليطهرهم، فإذا قابل المريض ذلك بالصبر أخرجه صافياً طاهراً».

ـ عن عبد الله بن المغَفَّل أن رجلًا لقي امرأةً كانت بَغيّاً في الجاهلية، فجعلَ يُلاعبها حتى بسطَ يَده إليها، فقالت: مَهْ فإنَّ الله قد أذهبَ بالشركِ وجاء بالإسلام، فتركها وولَّى، فجعلَ يلتفت خلفَهُ وينظر إليها حتى أصابَ وَجْهَهُ حائطاً، ثم أتى النبي ـ ﷺ ـ والدمُ يسيلُ على وجهه فأخبرهُ بالأمر، فقال ـ ﷺ ـ: «أنت عبدٌ أرادَ الله بكَ خيراً» ثم قال: «إنَّ الله جلّ وعلا إذا أراد بعبد خيراً، عَجَّل عقوبة ذنبِه، وإذا أراد بعبد شراً أمسكَ عليه ذنبَهُ حتى يوافي يوم القيامة كأنه عير».

وقوله: «عير» وهو جبل بالمدينة، شبَّه عِظَم ذنوبه به[2].

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يزالُ البلاءُ بالمؤمن

(١) أخرجه ابن حبان بإسناد صحيح، انظر تخريجه في الإحسان (٢٩٣٦).
(٢) أخرجه ابن حبان بإسناد صحيح، والحاكم ١/٣٩٤ و ٤/٣٧٦، وصححه ووافقه الذهبي، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩١١).

والمؤمنة في جسده وماله ونفسِه حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة»[١].

قال أبو حاتم: «إن الله جَلّ وعلا جَعل العِلَلَ في هذه الدنيا، والغموم والأحزان سببِ تكفير الخطايا عن المسلمين، فكل إنسان مُرتَهنٌ بما كسبت يداه، والعِللُ تُكفِّر بعضها عنه في هذه الدنيا».

إن ألفاظ الوعد بالمغفرة لَمن به المحن والبلايا لمن حَمِدَ الله فيها دون مَن سَخِطَ حُكْمَهُ. وكان ابن عباس يُكْثِرُ أن يُحَدّث بهذا الحديث: أن ابنةً لرسول الله - ﷺ - حَضرتْها الوفاة، فأخذها، فجعلها بين يديه، ثم احتضنها وهي تُنْزَع حتى خرج نفسُها وهو يبكي، فَوضَعها، فصاحت أمُ أيمن، فقال رسول الله - ﷺ -: «لا تبكي» فقالت: ألا أرى رسول الله - ﷺ - يبكي؟ قال رسول الله - ﷺ -: «إن أبكِ فإنما هي رحمةٌ، المؤمن بكلِّ خير تخرج نفسُه من بَين جَنْبَيه وهو يحمد الله»[٢].

يقول الإمام الغزالي: «ولا يُخرج المؤمن عن حدّ الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع، إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء، ولأن البكاء توجع القلب على الميت فإن ذلك مُقتضى البشرية... بل ذلك أيضاً لا يُخرج عن مقام الرضا»[٣].

وتدل الآثار النبوية على أن الصالحين قد شُدّد عليهم الأوجاع تكفيراً لخطاياهم.. قالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيتُ الوجَعَ على أَحدٍ أشدّ منه على رسول الله - ﷺ -»[٤].

---

(١) أخرجه ابن حبان بإسناد حسن، وأحمد ٢/ ٤٥٠، والحاكم ١/ ٣٤٦ وصححه ووافقه الذهبي، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩١٣)، وانظر الإحسان (٢٩٢٤).

(٢) أخرجه ابن حبان، رجاله ثقات، رجال الصحيح، وهو صحيح، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩١٤). وأم أيمن هي حاضنة رسول الله - ﷺ -.

(٣) الأحياء (دار المعرفة) ٤/ ٧٣.

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٤٦) ومسلم (٢٥٧٠) وابن حبان بإسناد صحيح، انظر الإحسان (٢٩١٨).

وعن عائشة رضي الله عنه أن النبي - ﷺ - جعل يشتكي ويَتَقَلَّبُ على فراشه، فقالت له عائشة: لو صَنعَ هذا بعضُنا لوجدتَ عليه. فقال النبي - ﷺ -: «إن الصالحين قد يُشدَّد عليهم وإنه لا يُصيب مؤمناً نَكْبَة من شوكة فما فوقها إلا حُطَّتْ عنه بها خطيئة، ورُفِعَ له بها درجة»[1].

والصبر ألوان، لا لهدف غير ابتغاء وجه الله **﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾** [الرعد: ٢٢].

الصبر على نعمته وبلواه. صبر التسليم لقضائه والاستسلام لمشيئته والرضا والاقتناع. وهو يعد الصابرين أجراً حسناً: **﴿ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾** [النحل: ٩٦]، **﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾** [المؤمنون: ١١١].

وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف جليلة، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له. فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر **﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾** [الزمر: ١٠].

---

(١) أخرجه أحمد ٦/١٥٩، وصححه الحاكم ٤/٣١٩ ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد ٦/٢١٥، والحاكم ١/٣٤٥ من طريقين. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وابن حبان في صحيحه، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩١٩) وانظر الإحسان رقم (٢٩٠٦) و (٢٩٢٥).

قصة أصحاب القرية

يعـرض القرآن الكـريم قضيـة الـوحي والـرسـالـة، وقضيـة البعث والحساب، يعرضهما في صورة قَصصية، بعد عرضهما في الصورة التقريـرية المعهودة في أغلب سور القرآن.

يعرضهما في سورة يّس في صورة قصصية. تلمس القلب بما كان من مواقف التكذيب والإيمان وعواقبهما معروضة كالعيان:

﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المـرسلون. إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث، فقالـوا: إنا إليكم مـرسلون﴾ [يّس: ١٣، ١٤].

ولم يذكر القرآن مَن هم أصحاب القرية. وقد اختلفت فيها الروايات. ولا طائل وراء الجري مع هذه الروايات.

وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئاً في دلالة القصة وإيحائها. ومن ثم أغفل التحـديد، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها. فهي قرية أرسل الله إليها رسولين. كما أرسـل موسى وأخـاه هارون ـ عليهما السلام ـ إلى فرعون وملئه. فَكَذَّبهما أهل تلك القرية، فَعَزَّزهما الله برسول ثالث يؤكد أنه وأنهما رُسل من عند الله. وتقدموا ثلاثتهم بدعواهم ودعوتهم من جديد **﴿فقالوا: إنا إليكم مرسلون﴾**..

هنا اعترض أهل القرية عليهم بالاعتراضات المكرورة في تاريخ الرسل والرسالات . .

﴿قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ . . ﴿وما أنزل الرحمٰن من شيء﴾ . . ﴿إن أنتم إلا تكذبون﴾ [يٓس : ١٥] .

وهذا الاعتراض المُتكرر على بَشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول . فقد كانوا يتوقعون دائماً أن يكون هناك سرّ غامض في شخصية الرسول وحياته تكمن وراءه الأوهام والأساطير . أليس رسول السماء إلى الأرض فكيف لا تحيط به الأوهام والأساطير؟ كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها؟! شخصية بشرية عادية من الشخصيات التي تمتلىء بها الأسواق والبيوت؟!

وهذه هي سذاجة التصور والتفكير . فالأسرار والألغاز ليست صفة ملازمة للنبوة والرسالة . وليست في هذه الصورة الساذجة الطفولية . وإن هنالك لسراً هائلاً ضخماً، ولكنه يتمثل في الحقيقة البسيطة الواقعة . حقيقة إيداع إنسان من هؤلاء البشر الاستعداد اللّدني الذي يتلقى به وحي السماء، حين يختاره الله لتلقي هذا الوحي العجيب . وهو أعجب من أن يكون الرسول مَلَكاً كما كانوا يقترحون!

والرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية . وحياة الرسول هي النموذج الواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإلهي . النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به . وهم بشر . فلا بد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجاً من الحياة يملكون هم أن يُقلدوه .

ومن ثم كانت حياة الرسول ـ ﷺ ـ معروضة لأنظار أمته . وسجّل القرآن ـ كتاب الله الثابت ـ المعالم الرئيسية في هذه الحياة بأصغر تفصيلاتها وأحداثها، بوصفها تلك الصفحة المعروضة لأنظار أُمته على مدار السنين والقرون . ومن هذه التفصيلات حياته المنزلية والشخصية . حتى خطرات قلبه

سجلها القرآن في بعض الأحيان، لتطلع عليها الأجيال وترى فيها قلب ذلك النبي الإنسان.

ولكن هذه الحقيقة الواضحة القريبة هي التي ظلت موضع الاعتراض من بني الإنسان!

ولقد قال أهل تلك القرية لرسلهم الثلاثة: **﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾**.. وقصدوا أنكم لستم برسل.. **﴿وما أنزل الرحمٰن من شيء﴾**.. مما تدّعون أنه نزله عليكم من الوحي والأمر بأن تدعونا إليه. **﴿إن أنتم إلا تكذبون﴾**.. وتدّعون أنكم مرسلون!

وفي ثقة المطمئن إلى صِدقه، العارف بحدود وظيفته أجابهم الرسل: **﴿قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون. وما علينا إلا البلاغ المبين﴾** [يٓس: ١٦ ـ ١٧]..

إن الله يعلم. وهذا يكفي. وإن وظيفة الرسل البلاغ. وقد أدّوه. والناس بعد ذلك أحرار فيما يتخذون لأنفسهم من تصرف. وفيما يحملون في تصرفهم من أوزار. والأمر بين الرسل وبين الناس هو أمر ذلك التبليغ عن الله؛ فمتى تحقق ذلك فالأمر كله بعد ذلك إلى الله.

ولكن المكذبين الضالين لا يأخذون الأمور هذا المأخذ الواضح السهل اليسير؛ ولا يطيقون وجود الدعاة إلى الهدى؛ فتأخذهم العزة بالإثم؛ ويعمدون إلى الأسلوب الغليظ العنيف في مقاومة الحجة لأن الباطل ضيق الصدر عربيد:

﴿قالوا: إنا تطيرنا بكم! لئن لم تنتهوا لنرجمنكم، وليمسنكم منا عذاب أليم﴾ [يٓس: ١٨].

قالوا: إننا نتشاءم منكم؛ ونتوقع الشر في دعوتكم؛ فإن لم تنتهوا عنها فإننا لن نسكت عليكم، ولن ندعكم في دعوتكم: **﴿لنرجمنكم، وليمسنكم منا عذاب أليم﴾**..

وهكذا أسفر الباطل عن غشمه؛ وأطلق على الهداة تهديده؛ وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة، وعربد في التعبير والتفكير!

ولكن الواجب المُلقى على عاتق الرسل يقضي عليهم بالمضي في الطريق: ﴿قالوا: طائركم معكم﴾ [يس: ١٩].

فالقول بالتشاؤم من دعوة أو من وَجْه هو خرافة من خرافات الجاهلية. والرسل يُبَيّنون لقومهم أنها خرافة؛ وأن حظّهم ونصيبهم من خير ومن شرّ لا يأتيهم من خارج نفوسهم. إنما هو معهم. مرتبط بنواياهم وأعمالهم، متوقف على كسبهم وعملهم. وفي وسعهم أن يجعلوا حظّهم ونصيبهم خيراً أو أن يجعلوه شراً. فإن إرادة الله بالعبد تُنفذ من خلال نفسه، ومن خلال اتجاهه، ومن خلال عمله. وهو يحمل طائره معه، هذه هي الحقيقة الثابتة القائمة على أساس صحيح. أما التشاؤم بالوجوه، أو التشاؤم بالأمكنة، أو التشاؤم بالكلمات.. فهو خرافة لا تستقيم على أصل مفهوم.

وقالوا لهم: ﴿أإن ذُكرتم؟﴾.. يعني أترجُموننا وتُعذّبوننا لأننا نُذكركم! أفهذا جزاء التذكير؟

﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ [يس: ١٩]..

تتجاوزون الحدود في التفكير والتقدير؛ وتُجازون على الموعظة بالتهديد والوعيد؛ وتَردُّون على الدعوة بالرجم والتعذيب.

تلك كانت الاستجابة من القلوب المُغلقة على دعوة الرسل. وهي مَثَل للقلوب التي واجهت الرسل على مدار الزمان؛ وصورة واقعية لذلك النموذج البشري المرسوم هناك.

فأما النموذج الآخر الذي اتبع الذكر وخشي الرحمٰن بالغيب، فكان له مسلك آخر وكانت له استجابة غير هذه الاستجابة:

﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى؛ قال: يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا مَن لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ [يس: ٢٠ ـ ٢١].

إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة. فيها الصدق. والبساطة. والحرارة. واستقامة الإدراك. وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين.

فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه. وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يُطق عليها سكوتاً؛ ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور؛ ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره. سعى به إلى قومه وهم يُكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون. وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كَفِّهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبّوه على المرسلين.

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان. ولم يكن في عزوة من قومه أو منعة من عشيرته. ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها.. ﴿**قال: يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا مَن لا يسألكم أجراً وهم مهتدون**﴾..

إن الذي يدعو مثل هذه الدعوة، وهو لا يطلب أجراً، ولا يبتغي مغنماً.. إنه لصادق. وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء إن لم يلبي تكليفاً من الله؟ ما الذي يدفعه إلى حمل هذه الدعوة؟ ومجابهة الناس بغير ما أَلِفوا من العقيدة؟ والتعرض لأذاهم وشرّهم واستهزائهم وتنكيلهم، وهو لا يجني من ذلك كسباً، ولا يطلب منهم أجراً؟

﴿**اتبعوا مَن لا يسألكم أجراً**﴾.. ﴿**وهم مهتدون**﴾..

وهُداهم واضح في طبيعة دعوتهم. فهم يَدعون إلى إله واحد. ويدعون إلى نهج واضح. ويدعون إلى عقيدة لا خرافة فيها ولا غموض. فهم مهتدون إلى نهج سليم، وإلى طريق مستقيم.

ثم عاد يتحدث إليهم عن نفسه هو وعن أسباب إيمانه، ويناشد فيهم الفطرة التي استيقظت فيه فاقتنعت بالبرهان الفطري السليم:

﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه تُرجعون؟ أأتخذ من دونه آلهة إن يردني الرحمٰن بضرّ لا تغنِ عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون؟ إني إذاً لفي ضلال مبين﴾ [يٓس: ٢٢ - ٢٤]. .

والقصة تتعرض لقضية الألوهية والوحدانية، فيجيء استنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة ليحاجّ قومه في شأن المرسلين. .

إنه تساؤل الفطرة الشاعرة بالخالق، المشدودة إلى مصدر وجودها الوحيد. . **﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني؟﴾** وما الذي يحيد بي عن هذا النهج الطبيعي الذي يخطر على النفس أول ما يخطر؟ إن الفِطر مجذوبة إلى الذي فَطَرها، تتجه إليه أول ما تتجه، فلا تنحرف عنه إلا بدافع آخر خارج على فطرتها. ولا تلتوي إلا بمؤثر آخر ليس من طبيعتها. والتوجه إلى الخالق هو الأَوْلى، وهو الأول، وهو المُتَجَه الذي لا يحتاج إلى عنصر خارج عن طبيعة النفس وانجذابها الفطري، والرجل المؤمن يحسّ هذا في قرارة نفسه، فيعبر عنه هذا التعبير الواضح البسيط، بلا تكلف ولا لفّ ولا تعقيد!

وهو يحس بفطرته الصادقة الصافية كذلك أن المخلوق يرجع إلى الخالق في النهاية. كما يرجع كل شيء إلى مصدره الأصيل. فيقول: **﴿وإليه ترجعون﴾**. .

ويتساءل لِمَ لا أعبد الذي فطرني، والذي إليه المرجع والمصير؟ ويتحدث عن رجعتهم هم إليه. فهو خالقهم كذلك. ومن حقه أن يعبدوه.

ثم يستعرض المنهج الآخر المخالف للمنهج الفطري المستقيم. فيراه ضلالاً بيناً: **﴿أأتخذ من دونه آلهة إن يُردنِ الرحمٰن بضرّ لا تغنِ عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون؟﴾**. .

وهل أضل ممن يدع منطق الفطرة الذي يدعو المخلوق إلى عبادة خالقه، وينحرف إلى عبادة غير الخالق بدون ضرورة ولا دافع؟

وهـل أضل ممّن ينحـرف عن الخالق إلى آلهـة ضعاف لا يحمـونه ولا يدفعون عنه الضر حين يريد به خالقه الضر بسبب انحرافه وضلاله؟

﴿إني إذاً لفي ضلال مبين﴾ . .

والآن وقد تحدّث الرجل بلسان الفطرة الصادقة العارفة الواضحة يقرر قراره الأخير في وجه قومه المكذبين المُهَدّدين المُتوعدين. لأن صوت الفطرة في قلبه أقوى من كل تهديد ومن كل تكذيب:

﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ [يٓس: ٢٥] . .

وهكذا ألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنـة. وأشهدهم عليهـا. وهو يوحي إليهم أن يقولوها كما قالها. أو أنه لا يبالي بهم ماذا يقولون!

ويوحي سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يُمهلوه أن قتلوه. وإن كان لا يُذكر شيئاً من هذا صراحة. إنما يستدل الستار على الدنيا وما فيها، وعلى القوم وما هم فيه؛ ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذي جهر بكلمـة الحق، مُتبعاً صـوت الفطرة، وقذِف بها في وجوه مَن يملكـون التهديـد والتنكيل. نـراه في العالم الآخر. ونطلع على ما ادخر الله له من كـرامة. تليق بمقـام المؤمن الشجاع المُخلص الشهيد:

﴿قيل: ادخل الجنة. قال: يا ليت قومي يعلمـون. بما غفـر لي ربي وجعلني من المُكْرَمين﴾ [يٓس: ٢٧].

وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة. ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء. وخطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة. ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق. ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم. ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين.

ونرى الرجل المؤمن. وقد اطلع على ما آتاه الله في الجنة من المغفـرة والكرامة، يذكر قومه طَيّب القلب رضي النفس، يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة، ليعرفوا الحق، معرفة اليقين.

هذا كان جزاء الإيمان. فأما الطُغيان فكان أهون على الله من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره. فهو ضعيف ضعيف:

﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء. وما كنا مُنزلين. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾ [يٓس: ٢٨، ٢٩].

ولا يطيل هنا في وصف مصرع القوم، تهويناً لشأنهم، وتصغيراً لقدرهم. فما كانت إلا صيحة واحدة أَخمدت أنفاسهم..

ويسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل!

وبعد المَثَل الذي ضَرَبه الله في قصة أصحاب القرية المكذبين؛ وما انتهى إليه أمرهم **﴿فإذا هم خامدون﴾**.. يعقب القرآن الكريم بالتعميم في موقف المكذبين بكل مِلّة ودين؛ ويعرض صورة البشرية الضالة على مدار القرون، وينادي على العباد نداء الحسرة وهم لا يتعظون بمصارع الهالكين، الذين يذهبون أمامهم ولا يرجعون إلا يوم الدين: **﴿وإن كل لما جميع لدينا محضرون﴾** [يٓس: ٣٢].

﴿يا حسرة على العباد! ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون. ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون﴾ [يٓس: ٣٠ - ٣١]..

قصة ذي القرنين

المحتوى	ص

قصة ذي القرنين

العمل الصالح:

وذو القرنين لا يُذكر في قصص القرآن لأنه مَلك، ولكن يُذكر لأعماله الصالحة. وحين يعرض عليه القوم الذين وَجدهم بين السَدَّين أن يبني لهم سداً يحميهم من يأجوج ومأجوج في مقابل أن يعطوه مالاً، فإنه يردّ عليهم ما عرضوه من المال، لأن تمكين الله له خير من أموالهم: ﴿**قال: ما مكني فيه ربي خير**﴾ [الكهف: ٩٥] وحين يُتم السد يرد الأمر للّه لا لقوته البشرية: ﴿**قال هذا من رحمة ربي..**﴾ [الكهف: ٩٨]..

يتحدث القرآن الكريم عن ذي القرنين، ورحلاته الثلاث إلى الشرق وإلى الغرب، وإلى الوسط، وبناؤه للسد في وجه يأجوج ومأجوج.

وتبدأ قصة ذي القرنين على النحو التالي: ﴿**ويسألونك عن ذي القرنين. قل سأتلو عليكم منه ذكراً**﴾ [الكهف: ٨٣]..

وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول سورة الكهف فقال: «حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سَلُوهم عن محمد، وَصِفُوا لهم صِفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء.. فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ـ ﷺ ـ ووصفوا لهم

أمره وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالوا لهم: سَلُوه عن ثلاث نأمركم بهن. فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل مُتَقَوِّل تروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول. ما كان من أمرهم؟ فإنهم كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طَوَّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها. ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتَّبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل مُتَقَوِّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم..

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد. فقد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور.. فأَخْبروهم بها. فجاءوا رسول الله - ﷺ - فقالوا: يا محمد أخبرنا.. فسألوه عما أَمَرهم به. فقال لهم رسول الله - ﷺ -: «أُخبركم غداً عما سألتم عنه» - ولم يستثن[1] - فانصرفوا عنه.

ومكث رسول الله - ﷺ - خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل - عليه السلام - حتى أرجف أهل مكة؛ وقالوا: وَعَدَنَا محمد غداً، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يُخبرنا بشيء عما سألناه عنه. وحتى أحزن رسول الله - ﷺ - مكث الوحي عنه؛ وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبرائيل - عليه السلام - من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿**ويسألونك عن الروح**..﴾ الآية.

هذه رواية.. وقد وردت عن ابن عباس رضي الله عنه رواية أخرى في سبب نزول آية الروح خاصة، ذكرها العوفي. وذلك أن اليهود قالوا للنبي - ﷺ -: أخبرنا عن الروح. وكيف تُعذّب الروح التي في الجسد وإنما الروح من الله؟ ولم يكن نزل عليه شيء. فلم يحر إليهم شيئاً. فأتاه جبريل

---

(١) يعني لم يقل: إلا أن يشاء الله.

فقال له: ﴿قل: الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]. إلى آخر الرواية.

ولتعدد الروايات في أسباب النزول، نؤثر أن نقف في ظل النص القرآني المستيقن. ومن هذا النص نعلم أنه كان هناك سؤال عن ذي القرنين. لا ندري ـ على وجه التحقيق ـ مَن الذي سأله. والمعرفة به لا تزيد شيئاً في دلالة القصة. فلنواجه النص بلا زيادة.

إن النص لا يذكر شيئاً من شخصية ذي القرنين ولا عن زمانه أو مكانه. وهذه هي السمة المطردة في قصص القرآن. فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود. إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة. والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان. والتاريخ المدون يعرف ملكاً اسمه الإسكندر ذو القرنين. ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكور في القرآن. فالإسكندر الإغريقي كان وثنياً[1]. وهذا الذي يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله موحد معتقد بالبعث والآخرة.

ويقول أبو الريحان البيروني المنجم في كتاب: «الآثار الباقية عن القرون الخالية» إن ذا القرنين المذكور في القرآن كان من حِمْيَر مستدلاً باسمه. فملوك حمير كانوا يُلقبون بذي. كذي نواس وذي يزن. وكان اسمه أبو بكر بن أفريقش. وأنه رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط، فمرّ بتونس ومراكش وغيرهما، وبنى مدينة إفريقية فسُميت القارة كلها باسمه. وسُمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس. وهذا قول قد يكون صحيحاً، ولعلماء الهند

---

(١) اختلف المفسرون في شخصية ذي القرنين. والقول الشائع المشهور إنه الإسكندر المقدوني، وهو القول الذي انتصر له الإمام الرازي وذهب إليه عامة علماء الإسلام، ولكنه قول لا وَجْه له لأن الإسكندر المقدوني لا تتحقق فيه الصفات التي ذكرها القرآن في وصف ذي القرنين، من اتصافه بالإيمان بالله وخشيته، والعدل والرأفة بالمفتوحين، وبناء السدّ العظيم، وأرجِّح أن هذا القول نشأ من عدم الاطلاع على تاريخ الإسكندر وسيرته في الحروب. (الأستاذ أبو الحسن الندوي ـ تأملات في سورة الكهف، مجلة المسلمون، المجلد السادس ص ٣٢٣).

اجتهاد تاريخي في ذكر ذي القرنين يقول الإمام أبو الحسن الندوي وكيل ندوة العلماء في الهند: «والشخصية التاريخية التي يصدق عليها وصف القرآن وينطبق أكثر من أي شخصية أخرى هي «سائرس» الذي يُسميه اليونان Syrus وتسميه اليهود «خورس» ويذكره المؤرخون العرب بـ «كيخسروا»، وخير ما قرأت في هذا الموضوع البحث المستفيض الذي كتبه مولانا أبو الكلام آزاد وزير المعارف السابق في الجمهورية الهندية في كتابه «ترجمان القرآن»، الجزء الثاني، وهنا خلاصته للقارىء العربي باختصار كبير:

ظهر سائرس في سنة ٥٥٩ قبل المسيح، وقد جمع بين مَمْلكتين فارسيتين عظيمتين كانتا قد انفصلتا منذ زمان وهما «ميديا» الجزء الشمالي الذي يعبر عنه المؤرخون العرب بـ «ماهات» وفارس الجزء الجنوبي، فكوَّن منهما امبرطورية فارسية عظمى. ثم امتدت فتوحه ومغامراته التي اتسمت بالعدل والكرم والانتصار للضعيف المظلوم فلم ينقضِ اثنا عشر عاماً حتى خضعت له البلاد والدول ما بين البحر الأسود إلى باختر Bactria.

وقد ثبت تاريخياً أنه غزا الغرب مرة فأوغل فيه إلى غرب آسيا الصغرى وفتح دولة ليديا التي كانت عاصمة ساردس Sardis حتى وصل إلى البحر في أقصى الغرب فوجده يموج وتراءت له الشمس تغرب فيه فتوقف هناك لعدم وجود البوارج الحربية، ولا يُستغرب إذا كان قد وصل إلى ساحل من سواحل بحر ايجه Agean Sea الواقع في جوار «سمرنا»، والبحر يتراءى هناك بحيرة، وقد تمثلت له الشمس في الأصل تغيب في الوحل الذي نشأ على ساحلها، وهو الذي يصوِّره القرآن بقوله: ﴿**وجدها تغرب في عين حمئة**﴾ [الكهف: ٨٦].

وغزا ثانية الشرق فوصل في هذه الغزوة إلى مكران وبلخ، وأخضع القبائل الهمجية التي ليست لها وقاية من الشمس لبعدها من المدينة ﴿**وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً**﴾ [الكهف: ٩٠]، ثم زحف على بابل العاصمة المنيعة فأنقذ اليهود «بني إسرائيل» من الذلّ والأسر والاضطهاد الذي سلّطه عليهم ملك بابل «بخت نصَّر» فأصبح بذلك مُنقذ اليهود، ولَهجوا

بذكره والثناء عليه والتساؤل عنه، وبذلك حقق نبؤات بني إسرائيل الواردة في التوراة.

وكانت له غزوة ثالثة في الشمال، وقد ترك بحر خزر Caspian Sea عن يمينه حتى وصل إلى جبال القفقاس، فوجد فجوة واقعة في هذه الجبال كان يدخل منها يأجوج ومأجوج ويعيثون في البلاد، وهنا أقام السد.

وقد مات سائرس سنة ٥٢٩ ق. م وَوُجِدَ في سنة ١٨٣٨ م تمثال من رخام في أنقاض اصطخر Pasargadae ظهر في رأسه قرنان مثل قرني الكبش يمثلان مملكتي ميديا وفارس اللتين جَمَع بينهما سائرس، وبذلك سُمي ذا القرنين.

وقد شهد المؤرخون العصريون بِكَرم سائرس وشخصيته العادلة الفاضلة[١]، ويُرجِّح مولانا أبو الكلام أن المراد بالسدّين الفجوة الواقعة في جبال القفقاس التي عن يمينها بحر خزر الذي وقف سداً في طريق الشمال والشرق وعن شمالها البحر الأسود الذي أصبح الحاجز الطبيعي في الشمال الغربي، ووقعت بين ذلك الجبال الشامخة المنيعة فلم يبقَ منفذ للقبائل الشمالية وغاراتها إلا الفجوة الواسعة أو الوادي العريض الذي كان يتسرب منه القبائل الهمجية التي يسميها القرآن بيأجوج ومأجوج، ولصدّ غاراتهم بنى الصينيون الجدار الشهير. وكان من هذه الأمم المغول والتتار في العهد الأخير. وقد تحصنت بسدّها الرقعة الواقعة بين بحر خزر والبحر الأسود، وأصبحت آسيا الغربية محروسة مُحصَّنة. ويرجح الأستاذ أن السدّ هو المكان الذي يُسمّى Da-rial Pass ومحله في الخرائط الجديدة بين Valdi Kaukas وتَفْليس ويوجد هناك من قديم الزمان جدار يُذكَر بالروايات الأرمنية بالباب الحديدي[٢] ولا يزال

---

(١) مَن أراد التوسع في ذلك فليقرأ مقالة البرفسور B. Grundi. راجع المجلد الثاني من: Universal History of the World لمؤلفه J. A. Hammerton.

(٢) كشف سد بمقربة من مدينة «ترمذ» عُرف بباب الحديد. وقد مرَّ به في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي العالم الألماني (سيلد برجر) وسجله في كتابه. وكذلك ذكره المؤرخ =

يسمى في جارجيا بذلك لأنه يوجد فيه الألواح الحديدية. انتهى مختصراً»[1].

وهذا الاجتهاد قد يكون صحيحاً حول شخصية ذي القرنين. ولكننا لا نملك وسائل في تمحيص هذا الاجتهاد وذلك القول. ذلك أنه لا يمكن البحث في التاريخ المدون عن ذي القرنين الذي يقص القرآن طرفاً من سيرته، شأنه شأن كثير من القصص الوارد في القرآن كقصص قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم.

فالتاريخ مولود حديث العهد جداً بالقياس إلى عمر البشرية. وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة لا يُعرف عنها شيئاً. فليس هو الذي يُسْتَفْتَى فيها!

ولو قد سلمت التوراة من التحريف والزيادات لكانت مرجعاً يُعتمد عليه في شيء من تلك الأحداث. ولكن التوراة أحيطت بالأساطير التي لا شك في كونها أساطير. وشُحنت كذلك بالروايات التي لا شك في أنها مزيدة على الأصل المُوحَى به من الله. فلم تعد التوراة مصدراً مستيقناً لما ورد فيه من القصص التاريخي.

وإذن فلم يبقَ إلا القرآن. الذي حُفظ من التحريف والتبديل. هو المصدر الوحيد لما وَرَد فيه من القصص التاريخي.

ومن البديهي أنه لا تجوز محاكمة القرآن الكريم إلى التاريخ لسببين واضحين:

أولاً: أن التاريخ مولود حديث العهد، فاتَتْه أحداث لا تُحصى في تاريخ البشرية. لم يعلم عنها شيئاً. والقرآن يروي بعض هذه الأحداث التي ليس لها لدى التاريخ علم عنها!

= الاسباني (كلافيجو) في رحلته سنة ١٤٠٣ وقال: إن سد مدينة باب الحديد على الطريق بين سمرقند والهند.. وقد يكون هو السد الذي بناه ذو القرنين.

(١) مجلة المسلمون، المجلد السادس ص ٣٢٥.

وثانيهما: أن التاريخ ـ وإن وَعَى بعض هذه الأحداث ـ هو عمل من أعمال البشر القاصرة يُصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف. ونحن نشهد في زماننا هذا ـ الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص ـ أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يُروى على أوجه شتى، ويُنظر إليه من زوايا مختلفة، ويُفسر تفسيرات متناقضة. ومن مثل هذا الركام يُصنع التاريخ، مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق!

فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القَصَص، كلام تُنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر، قبل أن تُنكره العقيدة التي تُقرر أن القرآن هو القول الفصل. وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء. إنما هو مراء!!!

«وسواء كان سائرس هو الشخصية التي يذكرها القرآن بذي القرنين ويطلق عليه الصفات الكريمة والسيرة الصالحة التي جاءت في وصفها أو كان شخصية أخرى لم نهتدِ إلى اسمها وتفاصيلها التاريخية، فلا يضر ذلك قارىء القرآن ولا ينقصه، فهو رجل آتاه الله القوة والأسباب وعُلُوّ الهمّة والطموح المحمود ﴿وآتيناه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً﴾[1]» [الكهف: ٨٤]..

* * *

لقد سأل سائلون عن ذي القرنين. سألوا الرسول ـ ﷺ ـ فأوحى إليه الله بما هو وارد هنا من سيرته. وليس أمامنا مصدر آخر غير هذا القرآن في هذه السيرة. فنحن لا نملك التوسُّع فيها بغير علم. وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة، ولكنها لا تعتمد على يقين. وينبغي أن تُؤخذ بِحَذَر، لما فيها من إسرائيليات وأساطير.

«لقد اتسعت فتوحاته وامتدت إلى أقصى الشرق «مطلع الشمس» وإلى

---

(١) أبو الحسن الندوي: تأملات في سورة الكهف، مجلة المسلمون، المجلد السادس: ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

أقصى الغرب «مغرب الشمس» فكان في كل فتوحاته ومغامراته صالحاً ومُصلحاً، منتصراً للحق، ناصراً للضعفاء، قاهراً للطغاة الأقوياء، وكان من مبدئه وخطته:

﴿قال: أما مَن ظَلَم فسوف نعذبه ثم يُرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نُكراً. وأما مَن آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يُسراً﴾ [الكهف: ٨٧ ـ ٨٨].

وما أفضله من مبدأ وما أعدله من خطة وما أقومه من خُلق وسيرة»[١].

وقد سجل السياق القرآني لذي القرنين ثلاث رحلات: واحدة إلى المغرب، وواحدة إلى المشرق، وواحدة إلى مكان بين السدّين.. فلنتابع السياق في هذه الرحلات الثلاث:

﴿ويسألونك عن ذي القرنين. قل: سأتلو عليكم منه ذكراً. إنَّا مكَّنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً﴾ [الكهف: ٨٣ ـ ٨٤].

يبدأ الحديث عن ذي القرنين بشيء عنه: **﴿إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً﴾**..

لقد مكَّن الله له في الأرض، فأعطاه سُلطاناً وَطيد الدعائم، ويسَّر له أسباب الحكم والفتح، وأسباب البناء والعمران، وأسباب السلطان والمتاع.. وسائر ما هو من شأن البشر أن يُمَكَّنوا فيه في هذه الحياة.

﴿فأتبع سبباً﴾ [الكهف: ٨٥]، وقضى في وَجْه مِمَّا هو مُيَسَّر له، وسلك طريقه إلى الغرب **﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حَمِئة، ووجد عندها قوماً. قلنا: يا ذا القرنين إما أن تُعذِّب وإما أن تَتخذ فيهم حسناً﴾** [الكهف: ٨٦].

ومغرب الشمس هو المكان الذي يرى الرائي أن الشمس تغرب عنده

---

(١) انظر الهامش السابق.

وراء الأفق. وهو يختلف بالنسبة للمواضع. فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف جبل. وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الماء كما في المحيطات الواسعة والبحار. وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الرمال إذا كان في صحراء مكشوفة على مدّ البصر. .

والظاهر من النص أن ذا القرنين غرَّب حتى وصل إلى نقطة على شاطىء المحيط الأطلسي ـ وكان يسمى بحر الظلمات ويُظن أن اليابسة تنتهي عنده ـ فرأى الشمس تغرب فيه.

والأرجح أنه كان عند مصبّ أحد الأنهار. حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ. وتوجد البرك وكأنها عيون الماء. فرأى الشمس تغرب هناك، و **﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾**. . ولكن يتعذَّر علينا تحديد المكان، لأن النص لا يُحدده. وليس لنا مصدر آخر موثوق به نعتمد عليه في تحديده. وكل قول غير هذا ليس مأموناً لأنه لا يستند إلى مصدر صحيح.

عند هذه الحمئة وجد ذو القرنين قوماً: **﴿قُلنا: يا ذا القرنين إما أن تُعذِّبَ وإما أن تتخذ فيهم حسناً﴾** [الكهف: ٨٦].

كيف قال الله هذا القول لذي القرنين؟ أكان ذلك وَحْياً إليه أم أنه حكاية حال. إذ سَلَّطه الله على القوم، وترك له التصرف في أمرهم فكأنما قيل له: دونك وإياهم. فإما أن تُعذِّب وإما أن تتخذ فيهم حُسناً؟ كِلاَ القولين مُمكن، ولا مانع من فَهم النص على هذا الوجه أو ذاك. والمهم أن ذا القرنين أعلن دستوره في البلاد المفتوحة، التي دانَ له أهلها وسَلَّطه الله عليها.

﴿قال: أما مَن ظلم فسوف نُعذِّبه، ثم يُرد إلى ربه فيعذِّبه عذاباً نُكراً. وأما مَن آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى، وسنقول له من أمرنا يُسراً﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨]. .

أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوي وعقابه، وأنهم بعد ذلك يُردّون إلى ربهم فيعذّبهم عذاباً فظيعاً **﴿نكراً﴾** لا نظير له فيما يعرفه البشر. أما

المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن، والمعاملة الطيبة، والتكريم والمعونة والتيسير.

وهذا هو دستور الحُكم الصالح. فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم. والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء.. وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاءً حسناً، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً؛ ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة.. عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج.

أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مُقَرَّبون إلى الحاكم مقدّمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو مُحاربون. فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سَوط عذاب أو أداة إفساد. ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد.

* * *

ثم عاد ذو القرنين من رحلة المغرب إلى رحلة المشرق، مُمَكَّناً له في الأرض، مُيَسَّرة له الأسباب:

﴿ثم أتبع سبباً. حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً. كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً﴾ [الكهف: ٨٩ - ٩٠].

وما قيل عن مغرب الشمس يقال عن مطلعها. فالمقصود هو مطلعها من الأفق الشرقي في عين الرائي. والقرآن لم يحدد المكان، ولكنه وَصَف طبيعته وحال القوم الذي وجدهم ذو القرنين هناك:

﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾.. أي إنها أرض مكشوفة، لا تحجبها عن الشمس مرتفعات ولا أشجار. فالشمس تطلع على القوم فيها حين تطلع بلا ساتر.. وهذا الوصف ينطبق على الصحارى والسهوب الواسعة. فهو لا يُحدد مكاناً بعينه. وكل ما

نرجحه أن هذا المكان كان في أقصى الشرق حيث يجد الرائي أن الشمس تطلع على هذه الأرض المستوية المكشوفة، وقد يكون ذلك على شاطىء إفريقية الشرقي. وهناك احتمال لأن يكون المقصود بقوله: ﴿**لم نجعل لهم من دونها ستراً**﴾ أنهم قوم عراة الأجسام لم يجعل لهم ستراً من الشمس..

ولقد أعلن ذو القرنين من قبل دستوره في الحكم، فلم يتكرر بيانه هنا، ولا تَصرّفه في رحلة المشرق لأنه معروف من قبل، وقد علم الله كل ما لديه من أفكار واتجاهات.

ونقف هنا وقفة قصيرة أمام ظاهرة التناسق الفني في العرض.. فإن المشهد الذي يعرضه السياق هو مشهد مكشوف في الطبيعة: الشمس ساطعة لا يسترها عن القوم ساتر. وكذلك ضمير ذي القرنين ونواياه كلها مكشوفة لعلم الله.. وكذلك يتناسق المشهد في الطبيعة وفي ضمير ذي القرنين على طريقة التنسيق القرآنية الدقيقة.

بناء السد:

«وواصل ذو القرنين فتوحه ومغامراته حتى وصل إلى أُمة تعيش في فَجوة من جَبَلين، تعيش في خطر داهم من أمة همجية وحشية وراء الجبال يذكرها القرآن وتذكرها الصحف السماوية بيأجوج ومأجوج، تعيش في حياة مضطربة دائماً، متصارعة دائماً، ورأوا أن الفرصة سانحة وأن الله قد قيّض لهم وساق إليهم مَلِكاً صالحاً قوياً فطلبوا منه أن يحفظهم من هؤلاء الوحوش المفسدين»[1].

﴿**ثم أتبع سبباً. حتى إذا بلغ بين السَّدين وَجَد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً. قالوا: يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض. فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً؟ قال: ما مَكّني**

---

(١) أبو الحسن الندوي: مجلة المسلمون، المجلد السادس: ٣٢٦.

فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾ [الكهف: ٩٢ - ٩٥]..

ونحن لا نستطيع أن نجزم بشيء عن المكان الذي بلغ إليه ذو القرنين «بين السدين» ولا ما هما هذان السدان. كل ما يؤخذ من النص أنه وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين، أو بين سَدَّين صناعيين. تفصلهما فجوة أو مَمَرّ. فوجد هنالك قوماً مُتخلفين: **﴿لا يكادون يفقهون قولاً﴾**..

وعندما وجدوه فاتحاً قوياً، وتوسّموا فيه القدرة والصلاح. عرضوا عليه أن يقيم لهم سداً في وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجِزَين، ويُغيرون عليهم من ذلك الممر، فيعيثون في أرضهم فساداً؛ ولا يقدرون هم على دفعهم وصدّهم.. وذلك في مقابل خراج من المال يجمعونه لهم من بينهم.

وتبعاً للمنهج الصالح الذي أعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد في الأرض فقد ردّ عليهم عَرْضهم الذي عرضوه من المال؛ «وقبل طلبهم وَوَعَدهم ببناء السد واستغنى بما آتاه الله من الخير الكثير عن أموالهم بخلاف الملوك الطامعين، وطلب منهم أن يساعدوه بالسواعد وما يوجد في بلادهم من الحديد والفولاذ»(١).

وهكذا تطوع ذو القرنين بإقامة السد، ورأى أن أيسر طريقة لإقامته هي ردم الممر بين الحاجزين الطبيعيين؛ وطلب إلى أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية: **﴿فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً. آتوني زبر الحديد﴾** [الكهف: ٩٥].

فجمعوا له قطع الحديد، وكوّمها في الفتحة بين الحاجزين، فأصبحا كأنهما صدفتان تُغَلِّفان ذلك الكوم بينهما **﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾** وأصبح الركام بمساواة القمتين **﴿قال: انفخوا﴾** على النار لتسخين الحديد **﴿حتى إذا جعله ناراً﴾** كله لشدة توهّجه واحمراره **﴿قال: آتوني أُفرغ عليه**

---

(١) انظر الهامش السابق.

قطراً﴾ أي نحاساً مذاباً يتخلل الحديد، ويختلط به فيزيده صلابة. وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد، فَوُجِدَ أن إضافة نسبة من النحاس إليه تُضاعف مقاومته وصلابته. وكان هذا الذي هدى الله إليه ذا القرنين، وسَجَّله في كتابه الخالد سبقاً لِلْعِلْم البشري الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله.

وبعد.. فقد تعاون الجميع في بناء هذا السدّ المبارك، الملك الصالح بحكمته وصُنَّاعه وأهل البلاد بأيديهم وحَديدهم. وتهيأ السد وتمَّ المشروع، وأَمِنَ القوم الأعداء وراء الجبلين الشامخين والسد المنيع، فقد التحم الحاجزان، وأُغلق الطريق على يأجوج ومأجوج **﴿فما اسطاعوا أن يظهروه﴾** ويتسوّروه **﴿وما استطاعوا له نقباً﴾** فينفذوا منه. وتَعذّر عليهم أن يُهاجموا أولئك القوم الضعاف المُتَخلفين. فأَمِنُوا واطمأنوا.

ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به، فلم يأخذه البَطَر والغرور، ولم تُسكره نشوة القوة والعلم. ولكنه ذَكَر الله فشكره. ورد إليه العمل الصالح الذي وَفّقه إليه. وتبرأ من قوته إلى قوة الله، وفوّض إليه الأمر، وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستُدَكّ قبل يوم القيامة، فتعود الأرض سطحاً أجرد مستوياً.

﴿قال: هذا رحمة من ربي، فإذا جاء وعد ربي جعله دَكَّاء. وكان وعد ربي حقاً﴾ [الكهف: ٩٨].

وبذلك تنتهي هذه الحلقة من سيرة ذي القرنين. النموذج الطيب للحاكم الصالح، يمكّنه الله في الأرض، ويُيسر له الأسباب؛ فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً؛ ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه.. إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح، ودفع

العدوان وإحقاق الحق. ثم يُرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله.

المُلك والقوة والسلطان بين الكفر والإيمان:

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «وهنا تجلى الإيمان في الملك القوي الغني، القاهر للأمم، الفاتح للعالم، فحازها، وما سَها، وما تكبَّر، ولم يقل ﴿إنما أُوتيته على علم عندي﴾ [القصص: ٧٨]. . بل ردّ الفضل في كل ذلك إلى الله تعالى، ولم يعتقد أن عمله دائم خالد، وأن السدَّ لا سبيل إليه، بل قال في فِقه المؤمن العليم، المؤمن بالآخرة، والعليم بضعف الإنسان وتَقَلّبات الزمان ﴿قال: هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكّاء، وكان وعد ربي حقاً﴾ [الكهف: ٩٨].

هذه سيرة الإنسان القوي العليم الذي يُسخِّر القوى الكونية والمادية ويملك أعظم مقدار من الأسباب والوسائل، ويوسِّع فتوحه ومغامراته، وهو في كل ذلك وفي أوج قوته وسلطته وسيادته، وتسخيره للقوى والأسباب، مُؤمن بربّه خاضع له، مؤمن بالآخرة ساعٍ لها، مقرّ بضعفه رحيم بالإنسانية وبالأمم الضعيفة، حام للحق، يستخدم كلَّ قوته وجهده ومواهبه وجميع وسائله وذخائره لخدمة الإنسانية وتكوين المجتمع الصالح وإعلاء كلمة الله وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الناس والمادة إلى عبادة الله، سيرة مَثَّلها سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ في عصره ومثّلها ذو القرنين في عصره، ومثّلها الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون في عصورهم.

وبالعكس من هذه النفسية والسيرة تظهر سيرة الشخصية التي تصفها السنّة الصحيحة بالدجال، الشخصية التي تتزعم الحضارة المادية في العصر الأخير والتي تبلغ النهاية والأوج في تسخير القوى والأسباب وتَملّكها، وتبلغ الغاية في الرقي المادي والتقدم الصناعي والانتفاع بالنواميس الطبيعية والتسلط

على الفضاء والخلاء، وتبلغ الغاية في القوة والسرعة، فقد جاء في الأحاديث والأخبار الصحيحة من أوصافها ما يدل على أنها زعيم هذه الحضارة المادية الميكانيكية التي بدأت تشتغل منذ قرون وأنها تبلغ الغاية في القوة والسرعة وتسخير القوى والأسباب، فقد جاء في وصف هذه الشخصية «كالغيث استَدْبَرَتْه الريح»[1] وأنها تطوف حول العالم وتأتي على جميع الأماكن «فلا تدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة»[2] ويمكنها أن تبلِّغ رسالتها وصَوتها إلى كل بقعة «ينادي بصوت له يسمع ما بين الخافقين»[3] وتبلغ المنتهى في تسخير القوى وإخضاع آلات تسخر له أنهار الأرض وآثارها ويبلغ في ذلك إلى حدّ «يأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت»[4] وتطيعه الأرض «حتى يمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها»[5].

إن ذلك كله تصوير للحضارة المادية والصناعة الميكانيكية والعلوم الطبيعية التي تبلغ غايتها ونهايتها ويتزعمها الدجَّال، ولكن ذلك لا يكفي ليجعله الدجَّال ويلهج لسان النبوة بذمِّه وتشنيعه والتحذير من فتنته، فقد مَلَك هذه الأسباب والقوى وذو القرنين في عصره، وتحدّث القرآن عن قوتهما وسرعتهما وكثرة الأسباب والقوى التي كانا يملكانها، فما هي النقطة الفارقة بينهما وبين الدجَّال، وما هو الخط الفاصل بين الملك الصالح والرجل القوي العليم الذي يمدحه الله تعالى ويقول: ﴿نِعْمَ العبدُ إنه أوَّاب﴾ [صٓ: ٣٠] وبين الشخصية الفتّانة التي حذَّر منها الرسول، وخافها على أمته، واهتم بها هذا الاهتمام الكبير؟.

إن النقطة الفارقة والخط الفاصل أن سليمان وذا القرنين ومَن يشبههما من الأفراد والجماعات، قد جمعوا إلى القوة الفائقة والملك الواسع والحكمة المدهشة

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) كنز العمال.
(٤ و ٥) كنز العمال.

وتسخير القوى الطبيعية والأسباب المادية الإيمان الراسخ والعمل الصالح والسيرة الفاضلة، والمقاصد الخيّرة والدعوة إلى الله وإلى الحق، واستخدام كل ما أوتوه من علم وحكمة وسبب وقوة في إسعاد البشرية وخدمة الإنسانية والرحمة والعدل.

أما الدجال فَسِمَته وطابعه الذي عرّف الرسول به أمته فهو «الكفر» بمعانيه الواسعة الكثيرة، فقد جاء في حديث صحيح: «أنه مكتوب بين عينيه ك ف ر يقرأه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب»(١).

وللدجال تأثير في الحياة والمجتمع. ويظهر من الأحاديث أنه داع مُتحمس نشيط مؤثّر إلى الكفر والثورة على الأديان والأخلاق، فقد جاء في حديث آخر: «فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به الشُبهات»(٢)، ويستفحل أمره ودعوته حتى يستشري الفساد في النساء والبنات ويتغلغل في الأُسَر والبيوتات إلى «أن الرجل ليرجع إلى أُمّه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطاً»(٣).

ويستمر فساد المجتمع والتحلل الخلقي «فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً وهم في ذلك دارٌّ أرزاقهم حسنٌ عيشهم»(٤).

إن الجمع بين القوة الهائلة وتسخير القوى والأسباب والاستيلاء على الكون، وبين الكفر والمادية، طابعُ الحضارة الغربية وسمتها وشعارها، فلم نعرف حضارة بلغت من القوة والتقدم وإخضاع القوى والأسباب ومن محاربة

---

(١) رواه البخاري وانظر بحث الدجال في فصل علامات الساعة في كتاب «اليوم الآخر في ظلال القرآن».
(٢) رواه أبو داود.
(٣) يقول الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في هذا الحديث: قد فتشت عنه في كتب السنّة التي تحت يدي فلم أعثر عليه، وغالب الظن أنه لا يثبت.
(٤) رواه مسلم.

الأديان والأخلاق والثورة على فاطر الكون وشرائعه والدعوة إلى عبادة المادة والنفس والشهوات وادعاء الربوبية ما بلغت هذه الحضارة. وقد كان من المصادفات الأليمة المُحْزنة والمآسي الفاجعة للبشرية أن هذه الحضارة قد ولدت وترعرعت في عصر قد ثار على الدين وأسسه من الإيمان بالغيب وغير ذلك، وفي أمة قد ثارت على الذين تزعَّموا الدين واستغلوه لشهواتهم وأنانياتهم، واشتد غضبها عليهم لسوء سيرتهم وهمجيتهم ووقوفهم في سبيل التقدم وحرية العقل والعلم[1]، فترافق نشوء الحضارة والصناعة والاتجاه المادي العنيف ـ الاتجاه إلى تنظيم الحياة على أسس مادية خالصة وقطع صلة المجتمع والبشرية عن فاطرها ومصرِّف هذا الكون، وكل ذلك اقتضته سلسلة الأسباب وطبائع الأشياء وَوَضْع أوربا الخاص، فشبَّت هذه الحضارة واختمرت وهي المسيطرة على القوى والأسباب، قد بلغت الغاية في التقدم والصناعة وعلوم الطبيعة حتى استطاعت أخيراً أن تعدم المسلحات والأبعاد وتجاوز الكرة الهوائية واستطاع القمر الروسي أن يطوف حول العالم في نحو مئة دقيقة [ووصلت إلى القمر]، إلى غير ذلك من الفتوح في دائرة العلوم الطبيعية والفلكية.

لقد شبَّت هذه الحضارة مسيطرة على الكون كافرة بالله مؤمنة بالمادة، ونشأ رجالها لا يؤمنون إلا بقوتهم وصناعتهم، ولا ينظرون إلا إلى فائدتهم ومصلحتهم، وأصبحت مراكزها الكبرى حرباً ـ بإعلان وبغير إعلان ـ على الأديان والأخلاق والنظم السماوية، وقرب الزمان الذي تبلغ فيه هذه الحضارة غايتها المادية والصناعية ويظهر زعيمها الأكبر الذي ينعته لسان النبوة ويُلَقِّبه بـ «الدجال» وهو في ذروة التقدم المادي والصناعي وأوج الكفر بالله والدعوة إلى المادية والإلحاد وعبادة الطبيعة والأسباب ومَن يسخرها ويسيطر عليها، تلك فتنة العصر الأخير وداهية العالم ومنتهى الحضارة المادية التي ظهرت قبل قرون.

إن هذه الحضارة هي التي تكفر بكل ما وراء هذا العالم المادي والحياة

---

(١) إقرأ تفصيل ذلك في كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للأستاذ أبي الحسن الندوي. الفصل الأول من الباب الرابع.

الدنيا، وتركّز الجهود والمواهب وتكرّسها على ترقية هذه الحياة وترفيهها وتحسينها إلى حدّ لا غاية بعده، وتقنع، بأدبها وفلسفتها، بأن الذي يجري وراء هذه الغاية ويبذل كل مواهبه وقواه في ترقية هذه الحياة وترفيهها هو الرجل الحاذق الحكيم الذي قد بلغ الغاية من الإحسان والإتقان وأقصى كمالات الإنسان، لذلك يقول الله في الآيات الأخيرة [في التعقيب على القصة] في صراحة ووضوح كأنه يخاطب رجال هذه الحضارة المادية بالتعيين ويُصوِّرهم تصويراً دقيقاً تتجسَّم فيه ملامحهم وقَسَمات وجوههم، وما أبلغ خاتمة [التعقيب على القصة] التي تكفلت الرد على المادية الملحدة وزعمائها الدجَّالين الذين إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون:

﴿قل هل نُنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذينَ ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحَبِطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وَزْناً﴾[1]» [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥]..

خبر يأجوج ومأجوج:

﴿قالوا: يا ذا القرنين: إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض..﴾ [الكهف: ٩٤]..

وبَعْد فَمَنْ يأجوج ومأجوج؟ وأين هم الآن؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون!

كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد في القرآن، وفي بعض الأثر الصحيح.

والقرآن يذكر في هذا الموضع ما حكاه من قول ذي القرنين: **﴿فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء، وكان وعد ربي حقاً﴾**.

---

(١) تأملات في سورة الكهف، مجلة المسلمون، المجلد السادس، ص: ٣٢٧ - ٣٣١.

وهذا النص لا يحدد زماناً. ووعد الله بمعنى وعده بدك السد ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار، وانساحوا في الأرض، ودمروا الممالك تدميراً.

ويقول الله ـ سبحانه ـ في سورة الأنبياء: ﴿**حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون. واقترب الوعد الحق...**﴾ [الأنبياء: ٩٦]..

وهذا النص كذلك لا يحدد زماناً معيناً لخروج يأجوج ومأجوج فاقتراب الوعد الحق بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول ـ ﷺ ـ فجاء في القرآن: ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ [القمر: ١] والزمن في الحساب الإلهي غيره في حساب البشر. فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون، يراها البشر طويلة مديدة، وهي عند الله وَمْضة قصيرة.

وإذن فمن الجائز أن يكون السد قد فُتح في الفترة ما بين: ﴿**اقتربت الساعة**﴾ ويومنا هذا. وتكون غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرق في انسياح يأجوج ومأجوج.

وهناك حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن سفيان الثوري عن عروة، عن زينب بنت أبي سلمة، عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن أمها حبيبة، عن زينب بنت جحش ـ زوج النبي ـ ﷺ ـ قالت: استيقظ الرسول ـ ﷺ ـ من نومه وهو مُحمر الوجه وهو يقول: «ويل للعرب من شرّ قد اقترب. فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وحلق (بأصبعيه السبابة والإبهام). قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث».

وقد كانت هذه الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ونصف. وقد وقعت غارات التتار بعدها، ودمرت مُلك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد هولاكو في خلافة المستعصم آخر ملوك العباسيين. وقد يكون هذا تعبير رؤيا الرسول ـ ﷺ ـ وعِلْم ذلك عند الله. وكل ما نقوله ترجيح لا يقين.

قصة يونس عليه السلام

قصة يونس ـ عليه السلام ـ

ونمضي مع صفحة من صحائف الدعوة إلى الله في قصة البشرية، صفحة مُتَميّزة ودرس كبير، صفحة خالدة تصور تكاليف الدور العظيم، والتضحيات التي يتطلبها هذا الدور، والصبر على فساد الناس وعنادهم واستكبارهم. الصبر على الكيد بشتى صنوفه. الصبر على التواء النفوس وثقلة العناد ومضاضة الإعراض.

وترسم القصة مسارب الطريق وعبء الكفاح المثقل بأثقال الأرض، المكبل بأوهاق الحياة وأغلالها. . كما تظلل هذه التجربة النبوية مساحات كبيرة في أعماق الضمير الإنساني، وتحمل نسمات رخية موحية في إثبات قدرة الله تعالى ولطفه بعباده وإغاثته لهم حين ينقطع الرجاء ويغشى اليأس القاتل والظلام الحالك. . هنالك تبرز يد القدرة الإلهية الطليقة، القوية القاهرة، الرحيمة الحكيمة التي تُخرج هذا الإنسان الضعيف من الضيق إلى السَّعة والرحمة، فهو سبحانه الذي يُقَدّر. فما قَدَّر وَقع، وما شاء كان. الفعال لما يريد. البالغ ما يشاء. . فكل شيء مُقدر بقَدَره، وبزمانه، وبمكانه، وبملابساته، وبنتائجه وأسبابه. .

وجرياً على سُنّة القرآن الكريم نجد أول إشارة تحدثت عن يونس ـ عليه السلام ـ وقد ذكرت مُبكرة سورة القَلَم، وهي السورة التي جاءت تسلية للنبي ـ ﷺ ـ. جاءت ترد التهم والافتراءات التي قَذَف المشركون بها رسول الله، ثم ترد عليهم وتبكتهم وتضرب له الأمثال، ويؤمر النبي ـ ﷺ ـ

بأن يصبر لحكم ربه، دون أن يستعجل ما ينبغي أن يحلّ بالمشركين، كما كان من صاحب الحوت: ﴿**فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم. .**﴾ [القلم: ٤٨].

ثم تأتي السورة التي خصَّ الله بها صاحب القصة وهي سورة يونس: ﴿**فلولا كانت قرية آمنت فَنَفَعَها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**﴾ [يونس: ٩٨] ثم تأتي سورة الصافات ثم الأنبياء[١].

وقد أشار القرآن الكريم للنبي يونس ـ عليه السلام ـ بـ (ذي النون) و (صاحب الحوت). والنون يطلق على الحوت كذلك.

ولقد سُمِّي ذا النون ـ أي صاحب الحوت ـ لأن الحوت التقمه ثم نَبَذه. وقصة تلك التجربة أن يونس بن متّى ـ سلام الله عليه ـ أرسله الله إلى أهل قرية. قيل اسمها نينوى[٢] بالموصل فدعا أهلها إلى الله. فاستبطأ إيمانهم، فاستعصوا عليه بعد أن جاءهم بالنُّذر، وأنذرهم وخوّفهم من عذاب الخزي والهلاك في الدنيا، والعذاب الأليم في نار جهنم يوم القيامة.

ولكن القوم لم يستجيبوا لدعوة يونس، ولم يخافوا من وَعيده بالعذاب، وأصروا على الباطل، واستكبروا، حتى يئس منهم بعد أن استبطأ إيمانهم، وشقّ عليه تلكؤهم، وضاق بهم صدراً، وغادرهم مغاضباً، ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم. فقد دعاهم فلم يُؤمنوا، وبصَّرهم فلم يَتدبروا، وجادلهم فلم يَستمعوا، وحسب أن الدعوة مقصورة على ما فَعل، وظن أنه يكفي لإبلاغها ما كان.

---

(١) سورة القلم: ٤٤ ـ ٥٠، يونس: ٩٨، الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨، الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨، الأنعام: ٨٦ ـ ٨٧.
انظر القصص القرآني ص ٣٤٤ ـ ٣٥١.

(٢) لا يذكر القرآن أين كان قوم يونس. ولكن المفهوم أنهم كانوا في بقعة قريبة من البحر.

المَثَل الوحيد :

لقد ترك يونس قومه مُغاضباً قائلاً في نفسه: إن الله لن يُضيّق عليَّ بالبقاء بين هؤلاء المُتعنتين المُعاندين، وهو قادر على أن يُرسلني إلى قوم آخرين. فقد ظنَّ أن الله لن يُضيق عليه الأرض، فهي فسيحة، والقرى كثيرة، والأقوام متعددون. وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة، فسيوجهه الله إلى قرية أخرى وقوم آخرين. ذلك معنى ﴿**فظنَّ أن لن نقدر عليه**﴾ [الأنبياء: ٨٧] أي لن نُضيق عليه ولن نُؤاخذه وقد ترك قومه دون إذن سآمة وضَجَراً.

ولعله لو قد أطال مدته، واستمر في الدعوة، وصبر على عناد القوم لوَجَد فيهم مَن يؤمن ويستجيب، ولوَجَد فيهم مَن يَستغفر ويُنيب، ولكنه رحَلَ مغاضباً ليلقى من الله قضاءً ويتلقى(١) جزاءً.

ولم يكد يَبْعُد يونس قليلاً عن قريته، حتى وافت أهلها نُذر العذاب، واقتربت منهم طلائع الهَلاك، وأيقنوا أن دعوة يونس حقّ، وإنذاره صدق، فخافوا أن يُصيبهم ما كانوا قد سمعوه عن عاد وثمود وقوم نوح.

وقد وقع في نفوسهم الإيمان فالتجأوا إلى الله ـ سبحانه ـ الذي دَعاهم يونس لعبادته وحده لا شريك له، وتابوا واستغفروا، وتضرّعوا باكين مُتوسِّلين. ومضت سنّة الله في قبول توبة التائبين، وسبقت رحمته سبحانه للأوابين، وفَرِحَ ربُّ العالمين بعودة الشاردين إلى الحق المبين.

لقد كانوا مخلصين في توبتهم، صادقين في إيمانهم فردَّ عنهم ربُّهم العقاب وحبسَ العذاب: ﴿**فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا**

---

(١) النبوة اصطفاء واختيار من الله تعالى، وشرف عظيم للنبي أن يصطفيه ربُّ العالمين، وإذا أراد نبيٌّ ترك هذا الشرف لا يسمح به بذلك. وكذلك الإيمان شرف. لو أراد المؤمن أن يرتد يُقتل، وهكذا مراتب التقوى مَن بلغ درجة منها ثم أراد التدني في المعاصي يبتليه ربه حتى يعود. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بُعثت بـه من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار» رواه البخاري.

كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ [يونس: ٩٨].

وكان رجوعهم إلى الله خيراً ورحمة، واختصَّهم الله بالثناء دون غيرهم من أهل القرى «والذي تدل عليه الآية الكريمة أنه ليس هناك من القرى المُهلَكة قرية آمنت فنفعها إيمانها، لأنهم كانوا يؤمنون حينما ينزل العذاب بهم ـ كما رأينا من فرعون ـ وبعضهم كان ينزل به العذاب قبل أن يؤمن فلا يتمكن من الإيمان وهذا وذاك لا ينفعهما الإيمان، ولكن قوم يونس حينما بدت لهم أسباب العذاب وظنوا أنه واقع بهم، وقبل أن ينزل بهم رجعوا إلى ربهم طائعين تائبين، وتقبَّل الله توبتهم بعد أن عَلِمَ صِدق إيمانهم، وكَشَف عنهم عذاب الخزي، ومتعهم إلى حين، وهو الأجل الذي مُنَّ لهم في علم الله تبارك وتعالى»(١).

وقصة يونس هي المَثَل الوحيد البارز للقوم الذين يتداركون أنفسهم قبل مُباغتة العذاب لهم؛ فيثوبون إلى ربهم وفي الوقت سَعة؛ وهم وحدهم في تاريخ الدعوات الذين آمنوا جُملة بعد تكذيب، فكَشَفَ عنهم العذاب الذي أوعدهم به رسولهم قبل وقوعه بهم، كما هي سُنّة الله في المكذبين المُصِرِّين.

أما ما كان من النبي يونس ـ عليه السلام ـ فقد ذكرت الروايات أنه قد ضاق صدراً بتكذيب قومه. فأنذرهم بعذاب قريب. وغادرهم مُغضباً آبقاً. فقاده الغَضَب الجامح، والضيق الحانق إلى شاطيء البحر، فوجد سفينة مشحونة فركب فيها. حتى إذا كانت في اللُّجة ثَقُلَت وقد ناوَأَتْها الرياح والأمواج. وكان هذا إيذاناً عند القوم بأن من بين الركاب راكباً مغضوباً عليه لأنه ارتكب خطيئة. وأنه لا بد أن يُلْقَى في الماء لتنجو السفينة من الغرق. وقال ربانها: إنه لا بد من إلقاء أحد ركابها في البحر لينجو سائر مَن فيها من الهلاك. فاقترعوا على مَن يَلقونه من السفينة. فخرج سهم يونس ـ وكان معروفاً عندهم بالصلاح، ثم ساهموا فجاء السَّهم على يونس. وهكذا خرج سهمه بشكل أكيد فألقوه في البحر. أو ألقى هو بنفسه. فالتقمه الحوت مُضيقاً

(١) القصص القرآني: ٣٤٤.

عليه أشد الضيق! التقمه الحوت وهو ﴿مليم﴾ أي مستحق للوم، لأنه تخلَّى عن المهمة التي أرسله الله بها، وترك قومه مغاضباً قبل أن يأذن الله له.

وبعد.. فكانت القرعة على يونس. فألقوه في اليم. فابتلعه الحوت. وقد علم يونس أن من وراء ذلك سرًّا، وأن للّه في ذلك تدبيراً. وأدرك خطيئته..

وها هو ذا يونس ـ عليه السلام ـ في البحر يُعارك الأمواج العاتية، وهو في شدة رهيبة وضيق مُرعب، اقترب منه حوت عظيم أرسله الله ـ سبحانه ـ يشقّ البحر شقاً، فالتقم يونس، وأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً[1].

وهكذا قبع يونس في بطن الحوت وَديعة، فما هو إلا نبيٌّ كريم، تأوّل فلم يُصب؛ وعجِلَ ثم نَدِم، وديعة يُؤَدِّيها الحوت حينما يأذن الله له.

فلما كان في الظلمات: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، ظلمات بعضها فوق بعض.. فما أشد الظلام! وما أبعد النجاة!

وقد مكث ما شاء الله أن يمكث ثم ألهمه الله الكلمات التي تُبَدِّد الظلمات وتَكشف الكربات وتستنزل الرحمة من فوق سبع سماوات ونادى ربه السميع العليم في الظلمات العميقة.. ﴿**وذا النون إذ ذهب مغاضباً. فظنَّ أن لن نقدر عليه. فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين..**﴾ [الأنبياء: ٨٧].

نادى يونس ـ وهو كظيم ـ في هذا الكرب الشديد في بطن الحوت، وفي وسط اللجة، نادى ربه: ﴿**لا إله إلا أنت سبحانك! إني كنت من الظالمين**﴾..

وهكذا عندما أحسّ بالضيق في الظلمات سبَّح الله واستغفره وذكر أنه من الظالمين. فسمع الله دعاءه واستجاب له، ونجّاه من الغمِّ الذي هو فيه ولفظه

(١) العبارة لابن كثير في تفسيره.

الحوت على الساحل . . ﴿وإن يونس لمن المرسلين. إذ أَبِقَ إلى الفُلك المشحون. فساهم فكان من المُدحضين. فالتقمه الحوت وهو مُليم. فلولا أنه كان من المُسَّبحين. لَلَبِثَ في بطنه إلى يوم يُبعثون. فنبذناه بالعراء وهو سقيم. وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون. فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨] . .

تأمُّل وتدبُّر:

إن في هذه الحلقة من قصة يونس ـ عليه السلام ـ لفتات ولمسات نقف أمامها لحظات.

إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة، فضاق صدراً بالقوم، وألقى عبء الدعوة، وذهب مغاضباً، ضيّق الصدر، حَرج النفس؛ فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مُضايقات المكذبين. ولولا أن ثاب إلى ربه! واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه. لما فرج الله عنه هذا الضيق. ولكنها القدرة حفظته ونجّته من الغم الذي يعانيه.

وأصحاب الدعوات لا بد أن يحتملوا تكاليفها، وأن يصبروا على التكذيب بها، والإيذاء من أجلها. وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقاً. ولكنه بعض تكاليف الرسالة. فلا بد لَمن يُكَلَّفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا، ولا بد أن يُثابروا ويَثبتوا. ولا بد أن يُكرروا الدعوة ويُبدئوا فيها ويُعيدوا.

إنهم لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب، ومن عُتوّ وجحود. فإذا كانت المرة المئة لم تصل إلى القلوب، فقد تصل المرة الواحدة بعد المئة . . وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف . . ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ولم يقنطوا لتفتحت لهم أرصاد القلوب!

إن طريق الدعوات ليس هيناً ليناً. واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة. فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات، والنظم

والأوضاع، يجثم على القلوب. ولا بد من إزالة هذا الركام. ولا بد من استحياء القلوب بكل وسيلة. ولا بد من لمس جميع المراكز الحساسة. ومن محاولة العثور على العَصَب الموصل.. وإحدى اللمسات ستصادف مع المثابرة والصبر والرجاء. ولمسة واحدة قد تُحوّل الكائن البشري تحويلاً تاماً في لحظة متى أصابت اللمسة موضعها.

وإن الإنسان ليدهش أحياناً وهو يحاول ألف محاولة، ثم إذا لمسة عابرة تُصيب موضعها في الجهاز البشري فينتفض كله بأيسر مجهود، وقد أعيا من قبل كل الجهود!

وأقرب ما يحضرني للتمثيل لهذه الحالة جهاز الاستقبال عند البحث عن محطة إرسال.. إنك لتحرك المُشير مرات كثيرة ذهاباً وإياباً. فتخطىء المحطة وأنت تُدقّق وتصوب. ثم إذا حركة عابرة من يدك. فتتصل الموجة وتنطلق الأصداء والأنغام!

إن القلب البشري هو أقرب ما يكون إلى جهاز الاستقبال. وأصحاب الدعوات لا بد أن يحاولوا تحريك المشير ليتلقى القلب من وراء الأفق. ولمسة واحدة بعد ألف لمسة قد تصله بمصدر الإرسال!

إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لأن الناس لا يستجيبون لدعوته، فيهجر الناس.. إنه عمل مريح، قد يفثأ الغضب، ويُهدىء الأعصاب.. ولكن أين هي الدعوة؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين؟!

إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية! فليضق صدره. ولكن ليكظم ويمضِ. وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون!

إن الداعية أداة في يد القدرة. والله أرعى لدعوته وأحفظ. فليؤدِ هو واجبه في كل ظرف، وفي كل جو، والبقية على الله. والهدى هدى الله.

وإن في قصة ذي النون لدرساً لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأملوه.

وإن في رجعة ذي النون إلى ربه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتدبروها.

وإن في رحمة الله لذي النون واستجابة دعائه المنيب في الظلمات لبشرى للمؤمنين: ﴿**وكذلك نُنجي المؤمنين**﴾..

لقد تداركته نعمة من ربه، فنبذه الحوت على الشاطىء.. لحماً بلا جلد.. ذاب جلده في بطن الحوت. وحفظ الله حياته بقدرته التي لا يُقيدها قيد من مألوف البشر المحدود!

وهنا يقول: إنه لولا هذه النعمة لنبذه الحوت وهو مذموم: ﴿**لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم**﴾.. أي مذموم من ربه.. على فعلته. وقلّة صبره. وتصرفه في شأن نفسه قبل أن يأذن الله له. ولكن نعمة الله وَقَتْه هذا، وقَبِلَ الله تسبيحه واعترافه وندمه. وعلم منه ما يستحق عليه النعمة والاجتباء. ﴿**فاجتباه ربه فجعله من الصالحين**﴾..

وهكذا سمع الله دعاء يونس واستجاب له. فَلَفَظَه الحوت.. وقد خرج من بطن الحوت سقيماً عارياً على الشاطىء ﴿**وأنبتنا عليه شجرة من يقطين**﴾. وهو القرع. يُظلله بورقه العريض ويمنع عنه الذباب الذي يُقال إنه لا يقرب هذه الشجرة. وكان هذا من تدبير الله ولطفه. فلما استكمل عافيته ردّه الله إلى قومه الذين تركهم مغاضباً. وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب بعد خروجه، فآمنوا، واستغفروا، وطلبوا العفو من الله فسمع لهم ولم ينزل بهم عذاب المكذبين: ﴿**فآمنوا فمتعناهم إلى حين**﴾ وكانوا مئة ألف يزيدون ولا ينقصون. وقد آمنوا أجمعين.

إنَّ هذه القصة تُبين عاقبة الذين آمنوا، بجانب ما تبينه القصص السابقة من عاقبة الذين لا يؤمنون. فيختار قوم محمد ـ ﷺ ـ إحدى العاقبتين كما يشاءون!!

ويوجه الله ـ سبحانه ـ نبيه ـ ﷺ ـ إلى الصبر. الصبر على تكاليف الرسالة. والصبر على التواءات النفوس. والصبر على الأذى والتكذيب. الصبر

حتى يحكم الله في الوقت المقدر كما يريد. ويُذكره بتجربة أخ له من قبل ضاق صدره بهذه التكاليف، فلولا أن تداركته نعمة الله لَنُبِذَ وهو مذموم: **﴿فاصبر لحكم ربك، ولا تكن كصاحب الحوت. إذ نادى وهو مكظوم. لولا أن تداركه نعمة من ربه لَنُبِذَ بالعراء وهو مذموم. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين﴾** [القلم: ٤٨ - ٥٠]..

وتجربة يونس - عليه السلام - يُذكِّر الله بها محمداً - ﷺ - لتكون له زاداً ورصيداً، وهو خاتم النبيين، الذي سبقته تجارب النبيين أجمعين في حقل الرسالة، ليكون هو صاحب الحصاد الأخير، وصاحب الرصيد الأخير، وصاحب الزاد الأخير. فَيُعِينه هذا على عبئه الثقيل الكبير. عبء هداية البشرية جميعها لا قبيلة ولا قرية ولا أمة. وعبء هداية الأجيال جميعها لا جيل واحد ولا قرن واحد كما كانت مهمة الرسل قبله. وعبء إمداد البشرية بعده بكل أجيالها وكل أقوامها بمنهج دائم ثابت صالح لتلبية ما يجدّ في حياتها من أحوال وأوضاع وتجارب. وكل يوم يأتي بجديد..

هذه هي التجربة التي مرّ بها صاحب الحوت. يُذَكِّر الله بها رسوله محمداً - ﷺ - في موقف العَنت والتكذيب. بعدما أَخلاهُ من المعركة كما هي الحقيقة، وأمره بتركها له يَتَولَّاها كما يريد. وقتما يريد. وكلَّفه الصبر لحكم الله وقضائه في تحديد الموعد، وفي مشقات الطريق حين يحين الموعد المضروب!

إن مشقة الدعوة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله، حتى يأتي موعده، في الوقت الذي يريده بحكمته. وفي الطريق مشقات كثيرة. مشقات التكذيب والتعذيب. ومشقات الالتواء والعناد. ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه. ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون. ثم مشقات إمساك النفس على هذا كله راضية مستقرة مطمئنة إلى وَعْد الله الحق، لا ترتاب ولا تتردد في قطع الطريق، مهما تكن مشقات الطريق.. وهو جهد ضخم مُرهِق يحتاج إلى عَزم وصَبر ومَدَد من الله وتوفيق.. أما المعركة ذاتها فقد قضى الله فيها، وقَدَّرَ أنه هو الذي يتولاها، كما قَدَّرَ أنه يُملي ويستدرج لحكمة يراها. كذلك وعد نبيه الكريم، فصدقه الوعد بعد حين.

سنّة الله:

وبعد، فإذا كان ما جاء إلى الرسول هو الحق الذي لا مِرية فيه، فما تعليل إصرار قوم على التكذيب ولجاجهم فيه؟

تعليله أن كلمة الله وسنّته قد اقتضت أن مَن لا يأخذ بأسباب الهدى لا يَهتدي، ومَن لا يفتح بصيرته على النور لا يراه، ومَن يُعطّل مداركه لا ينتفع بوظيفتها، فتكون نهايته إلى الضلال، مهما تكن الآيات والبينات، لأنه لا يفيد شيئاً من الآيات والبينات. وعندئذ تكون كلمة الله وسنّته قد حقّت عليهم وتحققت فيهم:

﴿إن الذين حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]..

فلا ينفعهم الإيمان حينئذ لأنه لم يجيء عن اختيار. ولم تعد هناك فرصة لتحقيق مدلوله في الحياة.. وفي القرآن مشهد يُصدّق هذا. مشهد فرعون حين أدركه الغرق يقول: **﴿آمنت أنه لا إله إلا الذين آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾**.. فيقال له: **﴿الآن وقد عصيتَ قبل وكنت من المفسدين؟﴾** [يونس: ٩٠، ٩١]..

وعند هذا الموقف الذي تظهر فيه حتمية سُنن الله العامة، وانتهاؤها إلى نهايتها المرسومة، متى تعرض الإنسان لها باختياره، تُفتح نافذة مضيئة بآخر شعاع من أشعة الأمل في النجاة. ذلك أن يعود المكذبون عن تكذيبهم قبل وقوع العذاب:

﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها! إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ومتعناهم إلى حين﴾ [يونس: ٩٨]..

وهو تحضيض ينسحب على الماضي، فيفيد أن مدلوله لم يقع.. **﴿فلولا كانت قرية آمنت﴾** [يونس: ٩٨] من هذه القرى التي ذكرها. ولكن القرى لم تؤمن. إنما آمنت منها قِلّة، فكانت الصفة الغالبة هي صفة عدم الإيمان..

ذلك فيما عدا قرية واحدة ـ والقرية: القوم، والتسمية هكذا إيذان بأن الرسالات كانت في قرى الحضر ولم تكن في محلّات البدو ـ وحسبنا أن نُدرك أن قوم يونس كان عذاب مُخزٍ يتَهدّدهم، فلما آمنوا في اللحظة الأخيرة قبل وقوعه كشف عنهم العذاب، وتُرِكوا يتمتعون بالحياة إلى أَجَل. ولو لم يؤمنوا لحلّ العذاب بهم وِفاقاً لسنّة الله المُترتبة على تصرفات خلقه.. حسبنا هنا لندرك أمرين هامين:

أولهما: الإهابة بالمكذبين أن يتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة، فلعلهم ناجون كما نجا قوم يونس من عذاب الخزي في الحياة الدنيا. وهو الغَـرَض المباشر من سياق القصة هذا المساق..

وثانيهما: أن سنّة الله لم تتعطل ولم تقف بكشف هذا العذاب، وترك قوم يونس يتمتعون فترة أخرى. بل مضت ونُفِّذَت. لأن مقتضى سنّة الله كان أن يحل العذاب بهم لو أَصرُّوا على تكذيبهم حتى يجيء. فلما عَدَلوا قبل مجيئه جرت السنّة بإنجائهم نتيجة لهذا العدول. فلا جَبْرية إذن في تصرفات الناس، ولكن الجبرية في ترتيب آثارها عليها.

ولا بد من الإشارة إلى القاعدة الكلية في الكفر والإيمان:

﴿ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠]..

ولو شاء ربك لخلق هذا الجنس البشري خلقة أخرى، فجعله لا يعرف إلا طريقاً واحداً هو طريق الإيمان كالملائكة مثلاً. أو لجعل له استعداداً واحداً يقود جميع أفراده الإيمان.

ولو شاء كذلك لأجبر الناس جميعاً وقهرهم عليه، حتى لا تكون لهم إرادة في اختياره.

ولكنها حِكمة الخالق التي قد نُدرك بعض مراميها وقد لا ندرك، دون أن ينفي عدم إدراكنا لها وجودها.

هذه الحكمة اقتضت خلقة هذا الكائن البشري باستعداد للخير وللشر وللهدى والضلال. ومنحته القدرة على اختيار هذا الطريق أو ذاك. وقَدَّرت أنه إذا أحسن استخدام مواهبه اللدنية من حواس ومشاعر ومدارك، وَوَجَّهها إلى إدراك دلائل الهدى في الكون والنفس وما يجيء به الرسل من آيات وبينات، فإنه يؤمن ويهتدي بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص. وعلى العكس حين يُعطل مواهبه ويُغلق مداركه ويسترها عن دلائل الإيمان يقسو قلبه، ويستغلق عقله، وينتهي بذلك إلى التكذيب أو الجحود، فإلى ما قدَّره الله للمكذبين الجاحدين من جزاء..

فالإيمان إذن متروك للاختيار. لا يُكرِه الرسول عليه أحداً. لأنه لا مجال للإكراه في مشاعر القلب وتوجُّهات الضمير:

﴿أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟﴾..

وهو سؤال للإنكار، فإن هذا الإكراه لا يكون:

﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾: وفق سنّته الماضية التي بينّاها. فلا تصل إلى الإيمان وقد سارت في الطريق الآخر الذي لا يؤدي إليه. لا أنها تريد الإيمان وتسلك طريقه ثم تُمنع عنه، فهذا ليس المقصود بالنص. بل المقصود أنها لا تصل إلى الإيمان إلا إذا سارت وفق إذن الله وسنّته في الوصول إليه من طريقه المرسوم بالسنّة العامة. وعندئذ يهديها الله ويقع لها الإيمان بإذنه. فلا شيء يتم وقوعه إلا بقَدَر خاص به. إنما الناس يسيرون في الطريق. فيقدِّر الله لهم عاقبة الطريق، ويوقعها بالفعل جزاء ما جاهدوا في الله ليهتدوا..

ويدل على هذا عقب الآية: **﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾..**

فالذين عَطَّلوا عقولهم عن التدبر، يجعل الرجس عليهم. والرجس أبشع الدَنَس الروحي، فهؤلاء ينالهم ذلك الرجس بسبب تعطيلهم لمداركهم عن التعقُّل والتدبر، وانتهاؤهم بها إلى التكذيب والكفران.

قصة فريدة ودرس بليغ:

وبعد.. يعلمنا الله سبحانه في هذه القصة المُتميزة، كيف يلجأ الإنسان إلى ربه إذا أظلم أُفق الحياة، وتراكمت غيوم الفساد والضلال والعناد، فهو وحده الذي يفلق الفَرَج من الضيق الحالك المتراكم، ويسوق الخير من حيث يشاء حين يشاء. يقول العلاّمة الشيخ الدكتور فضل عباس في حديثه عن الآية الكريمة: ﴿**فاستجبنا له ونجيناه من الغم**﴾ [الأنبياء: ٨٨].

كيف مَنَّ عز وجل على يونس، «ولكن ينبغي أن لا ننسى هذا التعقيب في الآية. التعقيب الذي تقصد إليه الآية الكريمة فهو مُراد ذكره في هذه القصة وهو قوله تعالى في آخر الآية: ﴿**وكذلك نُنجي المؤمنين**﴾ [الأنبياء: ٨٨]..

«ما أجمل هذا التعقيب على قصة يونس! وما أحوج المؤمنين إليه في كرباتهم وهمومهم! وقد ورد في الحديث الذي أخرجه الترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب في السبعين «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين» فإنه لم يدعُ بها رجل مسلم في شيء إلا استجاب الله له»...

وإذا كان لا بد من وقفة مع قصة يونس في كتاب الله أولاً؛ فلا بد أن نذكر هذه الصلة المُحكمة، وهذه الرابطة الموثقة بين الأنبياء ـ عليهم السلام ـ.

أولاً: كلنا يذكر هذا الحدث المهم من أحداث السيرة النبوية يوم أن ضرب النبي عليه وعلى لله الصلاة والسلام أروع الأمثلة في التحمل والتضحية، وقد أعرض عنه أهل مكة، فذهب إلى الطائف مشياً على قدميه لِيُبَلِّغ أهلها دعوة ربّه، ولكنهم كانوا أكثر إعراضاً وأشد قسوة، وأبعد عن الهداية، ويَلقى النبي الكريم منهم من الإيذاء الكثير الكثير، ويُناجي ربه بهذه الدعوات: «اللهم إليكَ أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين..» وفي هذه الأثناء يأتيه عبدٌ لأحد كبراء الطائف، ويسأله عن

النبي عن اسمه وبلده، فلما عرف أنه من نينوى قال: «أنت من بلد الرجل الصالح يونس بن متى»[1].

وهذه الحادثة تحمل في طياتها معاني كثيرة فهي تدلنا ـ كما قلت ـ على هذه الرابطة الموثقة بين الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كما تدلنا على أن النبي ـ ﷺ ـ يعلم مما علّمه الله كثيراً من أخبار الأُوَل بعامة، والأنبياء ـ عليهم السلام ـ بخاصة، ومن هذا القبيل معرفته لنسب يونس ويشهد لما قلناه قوله ـ عليه السلام ـ «أُوتيت القرآن ومثله معه»[2] وإنما ذكرنا هذا حتى لا يتوهم أن ما أُعطيه النبي عليه وآله الصلاة والسلام مع القرآن كان ذا صلة بالأحكام التشريعية فحسب.

ثانياً: تدلنا قصة يونس كذلك على أن هذا الإنسان يبقى ضعيف التَحَمُّل لولا عَون الله ومدده فسرعان ما يعيل صبره ويضعف تحمله حينما يَدْلهمّ به الليل، ذلك ما كان من يونس ـ عليه السلام ـ فقد ذهب مغاضباً ظاناً أن الله لن يُضيّق عليه ولن يؤاخذه.. وإذا كان مثل هذا الظن يمكن أن يقبل من غير أصحاب النفوس الكبيرة الذين لم يعدّوا في هذه الحياة ليكونوا مصابيح هادية، فإنه لا يقبل ممن أعدّهم الله تبارك وتعالى ليحملوا رسالته، لذلك كانت حسنات الأبرار سيئات المقربين، والله تبارك وتعالى الحَكم العدل يأخذ كل واحد ويُحاسبه على قَدْر ما أَنعم عليه وبمقدار ما مَكَّنه في هذه الحياة[3].

يونس ـ عليه السلام ـ إذن كان من أولئك الذين أعدّهم الله ليقودوا

---

(١) أخرج القصة ابن إسحاق (١/ ٢٦٠، ٢٦٢) بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً لكن قوله: «اللهم إليك أشكو..» ذكره بدون سند وكذلك رواه ابن جرير (٢/ ٨٠، ٨١) عن طريق ابن إسحاق، وروى هذه القصة الطبراني في «الكبير» من حديث عبد الله بن جعفر مختصراً وفيه الدعاء، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٥) وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات.

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» باب لزوم السنة/ مختصر سنن أبي داود ص ١٨، وأخرجه الترمذي وقال حسن غريب.

(٣) انظر القصص القرآني ص ٣٥٠.

هذه القافلة البشرية في زمان من أزمنتها ومكان من أمكنتها، فكان لا بد من أن يكون أكثر تَحمّلاً وأكثر تَقبّلاً، وأقدر على التصرف وأجدر بتبديد الضعف لكنه لما لم يكن جعل الله منه دَرساً، فقال لنبيه عليه وآله الصلاة والسلام: **﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم﴾** [القلم: ٤٨]. .

ثالثاً: لكن هذا منسجم مع بشرية الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وإذا كان الله قد أكرمهم بالعصمة فإن هذه العصمة إنما هي وقاية أولئك الأنبياء مما لا يليق بهم، وقد بيَّن العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ هذا فأوله الشرك قبل النبوة وبعدها، ولهذا نجد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قد حفظهم الله من هذا الشرك، منذ نشأتهم، ومن قبل أن يرسلهم إلى قومهم، وبعد الشرك الكبائر فالأنبياء معصومون من فعلها قبل النبوة وبعدها كذلك كالسرقة والزنا والقتل، وقد قلنا إن ما حدث من موسى ـ عليه السلام ـ حين قتل القبطي لم يكن قاصداً له ولم يكن منه سَبق إصرار، ولم يكن بما يقتل في العادة كالأدوات التي يستعملها الذين يُصرّون على القتل، ومما يعصم عنه الأنبياء كذلك الصَّغائر التي تخلّ بالمروءة وتتنافى مع الهيبة، ذكرنا ذلك كله لِنُبَيِّنَ أن ما حدث منه ـ عليه السلام ـ لم يُنافِ العصمة، لأنه ليس من الأنواع الثلاثة التي تقدّمت وهي الشرك والكبائر والصغائر التي تتنافى مع المروءة. . .

وإذا كان من لبنة خصّ بها يونس في بناء الإنسانية، فإنما هو هذا الإعداد الذي ينبغي أن يكون لذوي النفوس الكبيرة حتى تقدر على التحمل وتصبر على الأذى، وهو نوع من الجهاد عظيم»(١).

إنها قصة فريدة ودرس بليغ، وسَلْوى لكل بائس ملهوف، ويائس مُضطرب قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وضاقت عليه نفسه، ورأى أن لا ملجأ من الله إلا إليه.

---

(١) القصص القرآني ٣٤٨ ـ ٣٥١.

قصة زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ

زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ

ويجيء دور زكريا ـ عليه السلام ـ وكان من أنبياء بني إسرائيل، كان كثير الخشوع والتبتل إلى الله، وقد كَبُرَتْ سنّه وَوَهن عَظْمه دون أن يُرزق بولد، وزوجه عاقر قد اشتعل الرأس منها شيباً.

وتقدّمت به الأيام وكان رئيس الهيكل اليهودي. من ذرية هارون الذي صارت إليه سدانة الهيكل، ثم ها هو يطوي به الزمن وقد اقترب أجله؛ فمَن الذي يقوم على وراثة حكمته، والاضطلاع بأمانته؟ وهؤلاء مواليه وبنو عمومته أشرار، لا بد لهم من وازع، ويعوزهم الراعي الرادع، وقد بلغت أحوال بني إسرائيل درجة متدنية، فهم ينشرون الفساد، ويُغيّرون معالم الشريعة والدين..

ظلت هذه الهموم والخواطر تملأ نفسه، وتضطرب في قلبه، وهو صابر مُتَحَمِّل متجمل مستسلم لقَدَر الله وحكمته..

وقصة زكريا تجلَّت فيها إرادة الله القاهرة، وقُدرة الله المطلقة، وحكمة الله الدقيقة، فَأَمْره كله خارق للعادة. يفعل ما يشاء وقت ما يشاء، يَهب لَمن يشاء عندما يشاء لحكمة عَليّة..

لقد كان من آثار خضوع القصة في القرآن للغَرض الديني أن تُعرض بالقدر الذي يكفي لأداء هذا الغَرَض، ومن الحلقة التي تتفق معه.

وكان من أغراض القصة القرآنية بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه،

وقد وردت حلقة من قصة زكريا تبرز فيها النعمة العظيمة. وإبراز هذه النعمة هو الغرض الأول من القصة.

وقصة زكريا تُذكَر في القرآن الكريم عند مولد يحيى، وعند كفالة زكريا مريم، وهي قصة متناهية في القصر، لكنها تحمل الرحمة والعِبر.. فالقصة الرحمة قوامها. والرحمة تظللها. ومن ثم يتقدمها ذكر الرحمة: ﴿**ذِكْرُ رحمة ربك عبده زكريا**﴾ [مريم: ٢]..

وكان زكريا قائماً على هيكل العبادة في بني إسرائيل قبل مولد عيسى ـ عليه السلام ـ وقد أوحى الله تعالى له بكفالة مريم بنت عمران: ﴿**وكَفَّلها زكريا**﴾ [آل عمران: ٣٧].. أي جعل كفالتها له، وجعله أميناً عليها..

﴿**كلما دخل عليها زكريا المحراب وَجَد عندها رزقاً. قال: يا مريم أَنَّى لَكِ هذا؟ قالت: هو من عند الله. إن الله يرزق مَن يشاء بغير حساب**﴾ [آل عمران: ٣٧]..

إن هذه الظاهرة غير المألوفة أثارت عَجَب نبي الله زكريا. فكانت هي التمهيد التي تَلَت ميلاد يحيى ـ عليه السلام ـ عندئذ تحركت في نفس زكريا، الشيخ الذي لم يوهب ذرية، تحركت تلك الرغبة الفطرية القوية في النفس البشرية. الرغبة في الذرية. في الامتداد. في الخَلَف.. الرغبة التي لا تموت في نفوس العُبَّاد الزُّهاد، الذين وهبوا أنفسهم للعبادة ونذروها للهيكل.

إنها الفطرة التي فَطَر الناس عليها، لحكمة عليا في امتداد الحياة وارتقائها: ﴿**هنالك دعا زكريا ربّه. قال: ربِّ هَبْ لي من لدنك ذرية طيبة. إنك سميع الدعاء**﴾ [آل عمران: ٣٨]..

وهكذا تبدأ القصة.. ها نحن في مشهد الدعاء. دعاء زكريا لربه في ضراعة وفي خفية: ﴿**إذ نادى ربّه نداءً خفياً. قال: ربِّ إني وَهَنَ العظم مني واشتعلَ الرأس شيباً، ولم أكن بدعائك ربِّ شقياً..**﴾ [مريم: ٣، ٤]..

ها هو ذا زكريا ـ عليه السلام ـ النبي الشيخ يناجي ربّه العلي الأعلى

الوهّاب: ﴿وزكريا إذ نادى ربه. ربِّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين..﴾ [الأنبياء: ٨٩]..

فهو دعاء العبد المؤمن العابد ﴿ربِّ لا تذرني فرداً﴾ بلا عقب يقوم على الهيكل. ولا ينسى زكريا أن الله هو وارث العقيدة ووارث المال: ﴿وأنت خير الوارثين﴾ إنما هو يريد من ذريته مَن يُحسن الخلافة بعده في أهله ودينه وماله. لأن الخَلق ستار القدرة في الأرض.

لقد وقف زكريا يناجي ربه بعيداً عن عيون الناس، بعيداً عن أسماعهم ﴿إذ نادى ربّه نداءً خفياً﴾. في عزلة يخلص فيها لربه ـ عزَّ وجل ـ ويكشف له عما يثقل كاهله ويكرب صدره ويناديه في قرب واتصال: ﴿رَبِّ..﴾ بلا واسطة حتى ولا حرف النداء. وإن رَبّه ليسمع وَيَرى من غَير دعاء ولا نداء ولكن المكروب يستريح إلى البثّ، ويحتاج إلى الشكوى. والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر، فيستحب لهم أن يدعوه وأن يبثوه ما تضيق به صدورهم. ﴿وقال ربكم: ادعوني أستجب لكم﴾ [غافر: ٦٠] ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم قد عهدوا بأعبائهم إلى مَن هو أقوى وأقدر؛ وليستشعروا صلتهم بالجناب الذي لا يُضام مَن يلجأ إليه، ولا يخيب مَن يتوكل عليه.

وزكريا يشكو إلى ربه وَهْن العظم. وحين يَهِن العظم يكون الجسم كله قد وَهن. فالعظم هو أصلب ما فيه، وهو قوامه الذي يقوم به ويتجمع عليه. ويشكو إليه اشتعال الرأس شيباً. ﴿قال: ربِّ إني وَهَنَ العظم مني واشتعلَ الرأسُ شيباً﴾ [مريم: ٤]..

والتعبير المصور يجعل الشيب كأنه نار تشتعل ويجعل الرأس كله كأنما تشمله هذه النار المشتعلة، فلا يبقى في الرأس المشتعل سواد.

وَوَهْن العظم واشتعال الرأس شيباً كلاهما كناية عن الشيخوخة وضعفها الذي يُعانيه زكريا ويشكوه إلى ربه وهو يعرض عليه حاله ورجاءه..

ثم يُعقّب عليه بقوله: ﴿ولم أكن بدعائك ربِ شقياً﴾ [مريم: ٤]..

معترفاً بأن الله قد عَوَّده أن يستجيب إليه إذا دعاه، فلم يَشْقَ مع دعائه لربه، وهو في فتوته وقوته. فما أحوجه الآن في هَرَمه وكبرته أن يستجيب الله له ويُتمّ نعمته عليه.

فإذا صَوَّر حاله، وقدم رجاءه، ذَكَر ما يخشاه، وعرض ما يطلبه.. إنه يخشى من بعده. يخشاهم ألا يقوموا على تُراثه بما يرضاه. وتراثه هو دعوته التي يقوم عليها ـ وهو أحد أنبياء بني إسرائيل البارزين ـ وأهله الذين يـرعاهم ـ ومنهم مريم التي كان قَيِّماً عليها وهي تخدم المحراب الذي يتولاه ـ وماله الذي يُحسن تدبيره وإنفاقه في وجهه[1]. وهو يخشى الموالي من ورائه على هذا التراث كله، ويخشى ألا يسيروا فيه سيرته.. قيل لأنه يَعهدهم غير صالحين للقيام على ذلك التراث..

﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾ [مريم: ٥].. لم تُعقب فلم يكن له من ذريته مَن يملك تربيته وإعداده لوراثته وخلافته.

ذلك ما يخشاه. فأما ما يطلبه فهو الولي الصالح، الذي يُحسن الوراثة، ويُحسن القيام على تراثه وتراث النبوة من آبائه وأجداده: **﴿فَهَبْ لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب﴾** [مريم: ٥، ٦].

ولا ينسى زكريا، النبي الصالح، أن يُصوّر أَمَلَه في ذلك الوريث الذي يرجوه في كبرته: **﴿واجعله ربِ رضيا﴾** [مريم: ٦].. لا جباراً ولا غليظاً، ولا مُتَبطراً ولا طَموعاً. ولفظة **﴿رضي﴾** تلقي هذه الظلال. فالرضي الذي يَرضىٰ ويُرضي. وينشر ظلال الرضى فيما حوله ومَن حوله.

ذلك دعاء زكريا لربه في ضراعة وخفية. والألفاظ والمعاني والظلال والإيقاع الرخي. كلها تشارك في تصوير مشهد الدعاء.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «كان زكريا نجاراً» أخرجه مسلم.
يقول الإمام النووي في شرح الحديث: وفيه فضيلة لزكريا ـ ﷺ ـ فإنه كان صانعاً يأكل من كسبه، وقد ثبت قوله ـ ﷺ ـ «أفضل ما أَكَلَ الرجل من كسبه وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده».

وقصة زكريا ويحيى تُبرز لون آخر من آلاء الله على عباده وآيات قدرته التي أحاطت بكل شيء، تجلَّى في دعاء زكريا لولد صالح، رضيّ، برّ، تقي، يرثه ويرث من آل يعقوب، ويقوم بالدعوة إلى الله، وذلك حين تقدَّمت به السنّ، وَوَهَن منه العظم، وَوَلج به الشيب، وانقطع الرجاء من أن تَلِدَ زوجه . .

وهكذا . . نجدنا أمام حادث غير عادي . يحمل مظهراً من مظاهر طلاقة المشيئة الإلهية، وعدم تقيدها بالمألوف للبشر، الذي يحسبه البشر قانوناً لا سبيل إلى إخلافه؛ ومن ثم يشكّون في كل حادث لا يجيء في حدود هذا القانون! فإذا لم يستطيعوا تكذيبه، لأنه واقع، صاغوا حوله الخرافات والأساطير!

فها هو ذا «زكريا» الشيخ الكبير وزوجه العاقر التيَ لم تلد في صباها . . ها هو ذا تجيش في قلبه الرغبة الفطرية العميقة في الخَلَف ـ وهو يرى بين يديه مريم البُنَيّة الصالحة المرزوقة ـ فيتوجه إلى ربه يُناجيه، ويطلب منه أن يهب له من لدنه ذرية طيبة . . فما الذي كان من هذا الدعاء الخاشع الحار المنيب ؟

كانت الاستجابة التي لا تتقيد بِسنّ، ولا تتقيد بمألوف الناس؛ لأنها تنطلق من المشيئة المطلقة التي تفعل ما تريد:

﴿فنادته الملائكة ـ وهو قائم يصلي في المحراب ـ أن الله يُبشرك بيحيى، مُصدقاً بكلمة من الله. وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين﴾ [آل عمران: ٣٩].

لقد استجيبت الدعوة المُنطلقة من القلب الطاهر، الذي عَلَّق رجاءه بمَن يسمع الدعاء؛ ويملك الإجابة حين يشاء. وبشّرت الملائكة زكريا بمولود ذكر، اسمه معروف قبل مولده؛ «يحيى»؛ وصفته معروفة كذلك: سيداً كريماً، وحصوراً يحصر نفسه عن الشهوات، ويملك زمام نزعاته من الانفلات. ومؤمناً مصدقاً بكلمة تأتيه من الله(١). ونبياً صالحاً في موكب الصالحين.

(١) تذكر بعض التفاسير أن المقصود بتصديقه بكلمة من الله تصديقه بعيسى ـ عليه السلام ـ وليس هناك ما يُحتم هذا الفهم.

لقد استجيبت الدعوة، ولم يَحُلْ دونها مألوف البشر الذي يحسبونه قانوناً. ثم يحسبون أن مشيئة الله ـ سبحانه ـ مقيدة بهذا القانون! وكل ما يراه الإنسان ويحسبه قانوناً لا يخرج عن أن يكون أمراً نسبياً ـ لا مطلقاً ولا نهائياً ـ فما يملك الإنسان وهو محدود العمر والمعرفة، وما يملك العقل وهو محكوم بطبيعة الإنسان هذه، أن يصل إلى قانون نهائي ولا أن يدرك حقيقة مطلقة.. فما أجدر الإنسان أن يتأدب في جناب الله وما أجدره أن يلتزم حدود طبيعته وحدود مجاله، فلا يخبط في التيه بلا دليل، وهو يتحدث عن الممكن والمستحيل، وهو يضع لمشيئة الله المطلقة إطاراً من تجاربه هو ومن مقرراته هو ومن علمه القليل!

وكانت الاستجابة سريعة ومباشرة: **﴿فاستجبنا له، ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه﴾** [الأنبياء: ٩٠]، وكانت عقيماً لا تصلح للنسل..

﴿إنهم كانوا يُسارعون في الخيرات﴾.. فسارع الله في استجابة الدعاء.

﴿ويدعوننا رَغَباً ورهباً﴾ رغبة في الرضوان ورهبة للغضب. فقلوبهم وثيقة الصلة دائمة التطلع **﴿وكانوا لنا خاشعين﴾** [الأنبياء: ٩٠].. لا متكبرين ولا متجبرين..

بهذه الصفات في زكريا وزوجه استحقَّا أن يُنعم عليهما بالإبن الصالح. فكانت أسرة مباركة تستحق رحمة الله ورضاه.

وترتسم لحظة الاستجابة في رعاية وعطف ورضى.. فالربّ ينادي عبده من الملأ الأعلى **﴿يا زكريا إنا نُبشرك بغلام..﴾** فهو سبحانه يُعجِّل له البشرى، ويغمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذي بشّره به: **﴿اسمه يحيى﴾** وهو اسم فَذّ غير مسبوق: **﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾** [مريم: ٧]..

إنه فيض الكرم الإلهي يُغدقه على عبده الذي دعاه في ضراعة، وناجاه في خفية، وكشف له عما يخشى، وتوجّه إليه فيما يرجو. والذي دفعه إلى دعاء ربه خوفه الموالي من بعده على تراث العقيدة وعلى تدبير المال والقيام على الأهل بما يرضي الله. وعَلِمَ الله ذلك من نيته فأغدق عليه وأرضاه.

وكأنما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء. فإذا هو يواجه الواقع.. إنه رجل شيخ بَلَغَ من الكِبَر عِتياً، وَهَنَ عظمه واشتعل شيبه، وامرأته عاقر لم تلد له في فتوّته وصباه: فكيف يا ترى سيكون له غلام؟ إنه ليريد أن يطمئن، ويعرف الوسيلة التي يرزقه الله بها هذا الغلام:

﴿**قال: ربّ أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً؟**﴾ [مريم: ٨]..

إنه يواجه الواقع، ويواجه معه وَعْد الله. وإنه لَيثق بالوعد، ولكنه يريد أن يعرف كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذي يواجهه ليطمئن قلبه. وهي حالة نفسية طبيعية. في مثل موقف زكريا النبي الصالح. الإنسان! الذي لا يملك أن يغفل الواقع، فيشتاق أن يعرف كيف يُغيّره الله!

لقد كانت الاستجابة مفاجأة لزكريا نفسه ـ وهل زكريا إلا إنسان على كل حال ـ واشتاق أن يعرف من ربه كيف تقع هذه الخارقة بالقياس إلى مألوف البشر؟

﴿**قال: ربّ أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر؟**﴾ [آل عمران: ٤٠]..

وجاءه الجواب.. جاءه في بساطة ويسر. يردّ الأمر إلى نصابه. ويردّه إلى حقيقته التي لا عُسر في فهمها، ولا غرابة في كونها:

﴿**قال: كذلك الله يفعل ما يشاء**﴾ [آل عمران: ٤٠].

كذلك! فالأمر مألوف مكرور مُعاد حين يردّ إلى مشيئة الله وفعله الذي يتم دائماً على هذا النحو؛ ولكن الناس لا يتفكرون في الطريقة، ولا يتدبرون الصنعة، ولا يستحضرون الحقيقة.

كذلك. بهذا اليسر. وبهذه الطلاقة. يفعل الله ما يشاء.. فماذا في أن يهب لزكريا غلاماً وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر؟

إنما هذه مألوفات البشر التي يقررون قواعدهم عليها، ويتخذون منها قانوناً! فأما بالقياس إلى الله، فلا مألوف ولا غريب.. كل شيء مَردّه إلى توجه المشيئة، والمشيئة مطلقة من كل القيود!

وهكذا يأتيه الجواب عن سؤاله: أن هذا هَينّ على الله سَهل. ويُذكّره بمَثل قريب في نفسه: في خلقته هو وإيجاده بعد أن لم يكن. وهو مَثَل لكل حي، ولكل شيء في هذا الوجود: ﴿**قال: كذلك قال ربك: هو عليَّ هين. وقد خَلَقْتُك من قَبل ولم تكُ شيئاً**﴾ [مريم: ٩]..

وليس في الخلق هَينّ وصعب على الله. ووسيلة الخلق للصغير والكبير، للحقير والجليل واحدة: كن فيكون.

والله هو الذي جعل العاقر لا تلد. وجعل الشيخ الفاني لا ينسل، وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سببْ العقم، وتجديد قوة الإخصاب في الرجِل. وهو أهون في اعتبار الناس من إنشاء الحياة ابتداء. وإن كان كل شيء هينَ على القدرة: إعادة أو إنشاء.

ومع ذلك فإن شدة لهفة زكريا على الطمأنينة تدفع به أن يطلب آية وعلامة على تَحَقُّق البشرى فعلاً، فلدهشة المفاجأة في نفسه راح يطلب إلى ربه علامة يسكن إليها: ﴿**قال: ربِّ اجعل لي آية...**﴾ [آل عمران: ٤١، مريم: ١٠]..، فأعطاه الله آية تناسب الجو النفسي الذي كان فيه الدعاء وكانت فيه الاستجابة.. ويؤدي بها حق الشكر للّه الذي وهبه على الكِبَر غلاماً.. وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس ويحيا مع الله ثلاث ليال ينطلق لسانه إذا سَبَّح ربه، ويحتبس إذا كلّم النّاس، وهو سويّ مُعافى في جوارحه لم يُصب لسانه عوج ولا آفة. ﴿**قال: آيتك ألا تُكلم الناس ثلاث ليال سوياً**﴾ [مريم: ١٠]..

لقد وَجَّهه الله سبحانه إلى طريق الاطمئنان الحقيقي؛ فيخرجه من مألوفه في ذات نفسه.. فآيته أن يحتبس لسانه ثلاثة أيام إذا هو اتَّجه إلى الناس؛ وأن ينطلق إذا توجَّه إلى ربه وحده يذكره ويُسبّحه: ﴿**قال: آيتك ألا**

تُكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً. واذكر ربك كثيراً وسَبِّح بالعشي والإبكار﴾ [آل عمران: ٤١]..

وكان ذلك: ﴿فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سَبِّحوا بُكْرَة وعَشياً﴾ [مريم: ١١].. ذلك ليعيشوا في مثل الجو الذي يعيش فيه، وليشكروا الله معه على ما أنعم عليه وعليهم من بعده.

لقد كانت آية البشرى قد وقعت فعلاً. فإذا زكريا يجد في نفسه غير المألوف في حياته وحياة غيره.. لسانه هذا هو لسانه.. ولكنه يحتبس عن كلام الناس وينطلق لمناجاة ربه.. أي قانون يحكم هذه الظاهرة؟ إنه قانون الطلاقة الكاملة للمشيئة العلوية.. فبدونه لا يمكن تفسير هذه الغريبة.. كذلك رزقه يحيى وقد بَلَغَه الكبر وامرأته عاقر!!!

ويترك سياق القصة القرآني زكريا في صمته وتَسبيحه ويسدل عليه الستار في مشهد الذكر والعبادة..

وهكذا ظهرت آياتُ الله وقدرته في زكريا ـ عليه السلام ـ ثم في امرأته وأُسرته، وَوُلِدَ يحيى، فقرّت به عينُ أبيه، واشتدّ به أزره، وعاشت به دعوته، فكان خليفة لوالده يضطلع بأعباء الدين، وتظهر فيه آثار النجابة منذ الصغر، فيقبل على العلم بشغف وهو غلام، ويتحلّى بالصلاح والتقوى وهو شاب، ويمتاز عن أقرانه في الحب والحنان، والبر بالأبوين يُشار في ذلك إليه بالبنان..

ويطوي القرآن صفحة زكريا المجيدة ليفتح الصفحة الجديدة على يحيى ـ عليه السلام ـ يُناديه ربه من الملأ الأعلى: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ [مريم: ١٢]..

لقد وُلد يحيى وترعرع وصار صبياً، في الفجوة التي تركها سياق القصة بين المشهدين. على طريقة القرآن في عرضه الفني للقصص، ليبرز أهم الحلقات والمشاهد، وأشدها حيوية وحركة.

وهو يبدأ بهذا النداء العلوي ليحيى قبل أن يَتَحدَّث عنه بكلمة. لأن

مشهد النداء مشهد رائع عظيم، يدل علي مكانة يحيى، وعلى استجابة الله لزكريا، في أن يجعل له من ذريته وَليّاً، يُحسن الخلافة بعده في العقيدة وفي العشيرة. فها هو ذا أول موقف ليحيى هو موقف انتدابه ليحمل الأمانة الكبرى: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾..

والكتاب هو التوراة كتاب بني إسرائيل من بعد موسى، وعليه كان يقوم أنبياؤهم يَعملون به ويحكمون. وقد ورث يحيى أباه زكريا، ونودي ليحمل العبء وينهض بالأمانة في قوة وعزم، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة.

وبعد النداء يكشف السياق عما زوّد به يحيى لينهض بالتبعة الكبرى: ﴿وآتيناه الحُكم صبياً، وحناناً من لدنا وزكاة، وكان تقياً﴾ [مريم: ١٢، ١٣].

فهذه هي المؤهلات التي زَوَّده الله بها وأَعدّه وأعانه على احتمال ما كَلَّفه إياه عندما ناداه..

آتاه الحكمة صبياً. فكان فَذَّاً في زاده، كما كان فذاً في اسمه وفي ميلاده. فالحكمة تأتي مُتأخرة. ولكن يحيى قد زوّد بها صبياً.

وآتاه الحنان هِبة لَدنية لا يَتكلَّفه ولا يَتعلّمه؛ إنما هو مطبوع عليه ومطبوع به. والحنان صفة ضرورية للنبي المُكَلّف رعاية القلوب والنفوس، وتَأَلُّفها واجتذابها إلى الخير في رفق.

وآتاه الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع؛ يواجه بها أدران القلوب ودَنَسَ النفوس، فَيُطهرها ويُزكيها.

﴿وكان تقياً﴾ موصولاً بالله، مُتحرّجاً معه، مُراقباً له، يخشاه ويستشعر رقابته عليه في سِرّه ونجواه.

ذلك هو الزاد الذي آتاه الله يحيى في صباه، ليخلف أباه كما توجَّه إلى رَبّه وناداه نداءً خفياً. فاستجاب له ربه وَوَهب له غلاماً زكياً.

وهنا يسدل الستار على يحيى كما أُسدل من قبل على زكريا. وقد رسم الخط الرئيسي في حياته، وفي منهجه، وفي اتجاهه. وبرزت العبرة من القصة في دعاء زكريا واستجابة ربه له، وفي نداء يحيى وما زَوّده الله به.

ولم يعد في تفصيلات القصة القرآنية بعد ذلك ما يزيد شيئاً في عِبرتها ومغزاها..

ثم نمضي مع الرسول - ﷺ - في قصة من هدي الله وحكمته التي أوحى بها إلى يحيى - عليه السلام - ليُعَلِّم بني إسرائيل قواعد الدين الصحيح والعقيدة الناصعة:

قال رسول الله - ﷺ -: «إنَّ الله جلَّ وعلا أَمَر يحيى بن زكريا بخمس كلمات يَعْمَلُ بهن ويأمر بني إسرائيلِ [أن] يعملوا بهنّ، وإن عيسى قال له: إن الله قد أمركَ بخمس كلماتٍ تعملُ بهن وتأمُرُ بني إسرائيل [أن] يعملوا بهن، فإما أن تأمرَهُم، وإما أن آمُرَهم، قال: فجمع الناس في بيت المقدس حتى امتلأت، وجلسوا على الشُرفات، فوعظهم، وقال: إن الله جلَّ وعلا أمرني بخمس كلماتٍ أعملُ بهنَّ، وآمركُم أن تعملوا بهن:

أَوَّلُهُنَّ: أن تعبدوا الله، ولا تُشركوا به شيئاً، ومَثَلُ ذلك مَثَلُ رجلٍ اشترى عبداً بخالص مالهِ بذهبٍ أو وَرِقٍ، وقال له: هذه داري، وهذا عملي، فجعلَ العبدُ يعملُ ويُؤدِّي إلى غير سيِّده، فأيكم يَسرُّه أن يكون عبدُه هكذا، وإن الله خلقكم ورزقكم، فاعبدوه ولا تُشركوه به شيئاً. وآمرُكُم بالصلاة فإذا صلَّيتُم، فلا تَلْتَفِتوا، فإن العبدَ إذا لم يلتفت، استقبله جلَّ وعلا بوجهه.

وآمركم بالصيام، وإنما مثل ذلك، كمثل رجلٍ معه صُرَّة فيها مِسْكٌ وعنده عصابَةٌ يَسُرُّه أن يجدوا ريحها، فإن الصيامَ عندَ الله أطيب مِنْ ريح المسك.

وآمركم بالصدقة، وإنَّ مَثَل ذلك كَمَثَلِ رجلٍ أسرَهُ العدو، فأوثقوا يَدَه إلى عُنقِه، وأرادوا أن يضربوا عُنُقَه، فقال: هل لكم أن أفدي نفسي، فجعل يعطيهم القليلَ والكثيرَ ليَفُكَّ نفسه منهم.

وآمرُكُم بذكر الله، فإن مثَلَ ذلك كَمَثَلِ رجلٍ طلبَهُ العدو سراعاً في أَثره، فأتى على حصين، فأحرز نفسه فيه، فكذلك العبدُ لا يُحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله».

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «وأنا آمُرُكُم بخمس أمرني الله بها: بالجماعة، والسَّمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فمَن فارق الجماعة قِيدَ شِبر، فقد خَلَع ربقة الإسلام(١) من عُنقِه إلا أن يُراجع، ومَنْ دعا بدعوى الجاهلية، فهو من جُثَا جهنم»(٢)، قال رجل: وإن صام وصلى؟ قال: «وإن صام وصلى، فادعوا بِدَعْوى الله الذي سمّاكم المسلمين المؤمنين عباد الله»(٣).

قال أبو حاتم: الأمر بالجماعة بلفظ العموم، والمراد منه الخاصُّ، لأن الجماعة هي إجماعُ أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فمَن لزم ما كانوا عليه، وشَذَّ عن مَنْ بَعدَهم، لم يكن بشاقٍّ للجماعة، ولا مفارقٍ لها، ومَن شذَّ عنهم، وتبعَ مَنْ بَعْدهم، كان شاقاً للجماعة، والجماعة بعد الصحابة هم أقوامٌ اجتمع فيهم الدين والعقل والعلم، ولزموا تَرْكَ الهوى فيما هم فيه، وإن قلَّت أعدادُهم، لا أوباش الناسِ ورعاعِهم وإن كَثروا».

وقال الطيبي: المراد بالجماعة الصحابة ومَن بَعْدهم من التابعين، وتابعي التابعين من السلف الصالح، أي آمركم بالتمسك بهديهم وسيرتهم والانخراط في زمرتهم.

---

(١) في صحيح ابن حبان: «رِبَقَ الإسلام» قال ابن الأثير: الربقة في الأصل: عروة في حبل تُجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها، فاستعارها للإسلام، يعني ما يشد به المسلم نفسه من عرى الإسلام، أي حدوده وأحكامه، وأوامره ونواهيه، وتجمع الربقة على ربق، مثل كِسْرَة وكِسَر.

(٢) أي من جماعاتها، والجثا مقصوراً: جمع جُثوة بالضم وهو الشيء المجموع، وروي من «جُثِيِّ جهنم» بضم الجيم وتشديد الياء جمع جاثٍ من جثا على ركبتيه يجثو، ويجثي جُثياً وجثياً، بضم الجيم وكسرها، والأصل ضمها، وجاء كسرها إتباعاً لكسرة الثاء.

والله سبحانه وتعالى يقول: **﴿وإن منكم إلا واردُها كان على ربِّك حتماً مقضياً، ثم نُنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثيًّا﴾** [سورة مريم: ٧٠ ـ ٧١].

(٣) أخرجه أبو يعلى (١٥٧١)، والحاكم ١/١١٨، وأحمد ٤/١٣٠ و٢٠٢، والترمذي (٢٨٦٣) و(٢٨٦٤) وابن حبان في صحيحه، وإسناده صحيح رجاله ثقات (أنظر الإحسان ٦٢٣٣).

نلمح في القصة النبوية العلاقة بين النبي - ﷺ - الذي يـروي القصة وبين المُتلقي.. فنجد التعليقات والتعقبات المفيدة التي أمر بها أمته في بيان واضح، فنرى التوجيه في نهاية القصة حيث يعقب الرسول - ﷺ - بقـوله: «وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن».

وقد حرص النبي - ﷺ - تعليم أمته من خلال عرض القصة، وقد بدا التعليم ظـاهرة بـارزة، فهو التعليم بـالتوجيـه التقريـري عـلى لسـان يحيى - عليه السلام - حين جمع بني إسرائيل في بيت المقدس، ثم جعل يقول لهم: «إن الله أمرني بخمس كلمات، أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن»، ثم أخذ يُعَدِّد تلك الخمس ويوضحها بالأمثلة الدالة.

تتناول القصة جوانب مختلفة من أمور العقيدة، ونشير هنا إلى أهمّ قضية تُؤكد عليها هي قضية وحدانية الله تبارك وتعالى، وإفراده وحده بالألـوهية، وإفـراده بـالعبـادة.. نجـد أن أول تلك الخـمس التي أمـر الله يحيى - عليه السلام - أن يعمل بها، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وقد أعلنها يحيى - عليه السلام - هي أن يعبدوا الله ولا يُشركوا به شيئاً، وقد أراد يحيى - عليه السلام - أن يُعمّق إفـراد الله بالعبـادة في نفوس بني إسرائيـل، فراح يضرب لهم مثلاً لَمن أشرك بالله تعالى: كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله. فقال: هذه داري، وهذا عملي، فاعمل وأدِّ إليَّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيّده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك[1]؟!

إن الألوهية يقررها الله - سبحانه - ويؤكـدها بشتى أسـاليب التوكيـد بِتَوحُّد المعبود الذي يتجه إليه الخلق بالعبودية والطاعـة، وتَوحُّـد الجهة التي يتلقى منها الخَلق قواعد الأخلاق والسلوك، وتَوحُّد المصدر الذي يتلقى منه الخلق أصول الشرائع والقوانين، وتَوحُّد المنهج الذي يُصرّف حياة الخَلْق في كـل طـريق ﴿وإلهكم إلـٰـه واحـد لا إلـه إلا هـو الـرحمٰن الـرحيم﴾ [البقرة: ١٦٣]..

---

(١) القصص في الحديث النبوي.

لقد جاءت جميع رسل الله ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ بالتوحيد المطلق الخالص الذي لا ظِلّ فيه للشرك في صورة من صوره.

وفي «صحيح مُسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يقول الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك. مَن عمل عملاً أشركَ فيه معي غيري، تركته وشريكه»، وخرّجه ابن ماجه، ولفظه: «فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك».

وخرّج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد بن أبي فضالة ـ وكان من الصحابة ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: مَنْ أشركَ في عَمَلٍ للّه عز وجل، فليطلب ثوابه من عند غير الله عز وجل، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك».

وخرّج البزار في «مسنده» من حديث الضحاك بن قيس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الله عز وجل يقول: أنا خيرُ شريك، فمَن أشرك معي شريكاً، فهو لشريكي. يا أيها الناس أَخلصوا أعمالكم للّه عز وجل، فإن الله لا يقبل الأعمال إلا ما أُخلص له، ولا تقولوا هذا للّه وللرَّحم، فإنها للرَّحم، وليس للّه منها شيء، ولا تقولوا: هذا للّه ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم، وليس للّه فيها شيء».

وخرّج النسائي بإسناد جيد عن أبي أمامة الباهلي أن رجلاً جاء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا شيء له» فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا شيء له» ثم قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، وآبتغي به وَجهه».

وخرّج الحاكم من حديث ابن عباس: قال رجل: يا رسول الله، إني أقف الموقف أُريد وَجْهَ الله، وأريد أن يُرى موطني، فلم يردّ عليه رسول الله ـ ﷺ ـ شيئاً حتى نزلت: **﴿فمَن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً**

صالحاً ولا يُشرِك بعبادة ربه أحداً﴾ [الكهف: ١١٠]. .

وفي الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها: «أنَّ أم سلمة رضي الله عنها ذكرتْ لرسول الله - ﷺ - كنيسة رأتها بأرض الحبشة، يُقال لها مارية. فذكرتْ له ما رأت فيها من الصور. فقال رسول الله - ﷺ -: «أولئك قوم إذا مات فيهم العبدُ الصالح، أو الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجداً، وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى».

قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله - ﷺ - في مرضه الذي لم يَقُم منه: «لَعَن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(١).

ونمضي في الفصل التالي مع قصة عيسى بن مريم عليه السلام التي ارتبطت مع قصة زكريا ويحيى عليهما السلام ارتباطاً وثيقاً.

---

(١) متفق عليه.

القسم الثالث

القصة الواضحة في المسيحية الناصعة

المحتوى	ص

قصة المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام

المحتوى	ص

عيسى ـ عليه السلام ـ

قصة المولد العجيب:

إن القضية الأصيلة التي يُركّز عليها القرآن الكريم هي: قضية التوحيد. توحيد الألوهية وتوحيد القوامة.. وقصة عيسى تؤكد هذه الحقيقة، وتنفي فكرة الوَلَد والشريك، وتستبعدهما استبعاداً كاملاً؛ وتُظهر زيف هذه الشبهة وسُخف تصورها؛ وتبسط مولد مريم وتاريخها، ومولد عيسى وتاريخ بعثته وأحداثها بطريقة لا تدع مجالاً لإثارة أية شُبهة في بشريته الكاملة، وأنه واحد من سلالة الرسل، شأنه شأنهم، وطبيعته طبيعتهم.. والله سبحانه يقول ـ وقوله الحق في المسيح: ﴿**إنما المسيح عيسى بن مريم، رسول الله، وكَلِمَته ألقاها إلى مريم، وروح منه**﴾ [النساء: ١٧١] فهو على وجه القصد والتحديد: «رسول الله».. شأنه في هذا شأن بقية الرسل. شأن نوح وإبراهيم وموسى ومحمد، وبقية الرهط الكريم من عباد الله المختارين للرسالة على مدار الزمان..

وقصة عيسى ـ عليه السلام ـ تُفسر الخوارق التي صاحبت مولده وسيرته تفسيراً لا تعقيد فيه ولا غموض، من شأنه أنه يُريح القلب والعقل، ويدع الأمر فيهما طبيعياً عادياً لا غرابة فيه..

وإذا كان مولد عيسى ـ عليه السلام ـ من غير أب عجيباً في عُرف البشر، خارقاً لما أَلِفُوه، فهذا العجب إنما تُنشئه مخالفة المألوف. والمألوف للبشر

ليس هو كل الموجود. . والقوانين الكونية التي يعرفونها ليست هي كل سُنة الله. والله يخلق السُنة ويجريها، ويصرفها حسب مشيئته. ولا حدّ لمشيئته.

والله سبحانه خلق عيسى بالأمر الكوني المباشر، الذي يقول عنه في مواضع شتى من القرآن: إنه: **﴿كُن فيكون﴾**. .

فقد ألقى هذه الكلمة إلى مريم **﴿وكَلِمَتُه ألقاها إلى مريم﴾** فَخَلق عيسى في بطنها من غير نُطفة أب ـ كما هو المألوف في حياة البشر غير آدم ـ والكلمة التي تخلق كل شيء من العدم، لا عجب في أن تخلق عيسى ـ عليه السلام ـ في بطن مريم من النفخة التي يعبر عنها بقوله: **﴿ورُوح منه﴾**. .

وقد نَفَخ الله في طينة آدم من قبل من روحه فكان «إنساناً» كما يقول الله تعالى: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين. فإذا سويته ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾** [صّ: ٧٠ ـ ٧١]. وكذلك في قصة عيسى: **﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا﴾** [الأنبياء: ٩١]. . فالأمر له سابقة. .

والروح هنا هو الروح هناك. . ولم يقل أحد من أهل الكتاب ـ وهم يؤمنون بقصة آدم والنفخة فيه من روح الله ـ إن آدم إله، ولا أقنوم من أقانيم الإله. كما قالوا عن عيسى، مع تشابه الحال ـ من حيث قضية الروح والنفخة ومن حيث الخلقة كذلك. بل إن آدم خُلق من غير أب وأم. وعيسى خُلق مع وجود أم. . وكذلك قال الله: **﴿إن مَثَلَ عيسى عند الله كمثل آدم خَلَقه من تراب، ثم قال له كن فيكون﴾** [آل عمران: ٥٩]. .

ويعجب الإنسان ـ وهو يرى وضوح القضية وبساطتها ـ من فعل الهوى ورواسب الوثنية التي عقَّدت قضية عيسى ـ عليه السلام ـ هذا التعقيد كله، في أذهان أجيال وأجيال وهي ـ كما يُصورها القرآن ـ بسيطة بسيطة، وواضحة مكشوفة.

إن الذي وَهَبَ لآدم. . من غير أبوين. . حياة إنسانية مُتميزة عن حياة

سائر الخلائق بنفخة من روحه، لهو الذي وَهَبَ عيسى.. من غير أب.. هذه الحياة الإنسانية كذلك.. وهذا الكلام البسيط الواضح أَوْلى من تلك الأساطير التي لا تنتهي عن أُلوهية المسيح، لمجرد أنه جاء من غير أب. وعن أُلوهية الأقانيم الثلاثة كذلك!.. تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً..

وبعد هذا التعقيب القرآني على القصة ﴿**إن مَثَل عيسى عند الله كمَثَل آدم...**﴾.. يجد القلب بَرد اليقين والراحة؛ ويَعجب كيف ثارت تلك الشّبهات حول هذه الحقيقة البسيطة؟

والله ـ سبحانه ـ تعالى عن الشركة؛ وتعالى عن المشابهة. ومقتضى كونه خالقاً يَستتبع.. بذاته.. أن يكون غير الخَلق. وما يملك إدراك أن يتصور إلا هذا التغاير بين الخالق والخَلْق. والمالك والمُلك.. وإلى هذا يشير النص القرآني: ﴿**إنما الله إله واحد سبحانه! أن يكون له ولد؟ له ما في السموات وما في الأرض..**﴾ [النساء: ١٧١]..

ونمضي مع القرآن الكريم في مولد مريم ـ عليها السلام ـ وتاريخها.. ﴿**إذ قالت امرأة عمران: ربِّ إني نذرتُ ما في بطني مُحرّراً فتقبَّل مني إنك أنت السميع العليم**﴾ [آل عمران: ٣٥]..

كان عمران هذا من العلماء البارزين في بني إسرائيل، وتذكر بعض الروايات أنه من آل إبراهيم وذريته(١).

---

(١) وقد ذكره الله ـ سبحانه ـ في بيان مَن اصطفاهم من عباده في موكب الإيمان: ﴿**إن الله اصطفى آدم ونوحاً، وآل إبراهيم وآل عمران، على العالمين. ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم**﴾ [آل عمران: ٣٣]..

ولقد ذكر السياق القرآني آدم ونوحاً فردين؛ وذكر آل إبراهيم وآل عمران أسرتين. إشارة إلى أنّ آدم بشخصه ونوحاً بشخصه هما اللذان وقع عليهما الاصطفاء. فأما إبراهيم وعمران فقد كان الاصطفاء لهما ولذريتهما كذلك ـ على القاعدة التي قررها القرآن عن آل إبراهيم: قاعدة أن وراثة النبوة والبركة في بيته ليست وراثة الدم، إنما وراثة العقيدة: ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال: إني جاعلُك للناس إماماً. قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين**﴾ [البقرة: ١٢٤]..

وقصة النذر تكشف لنا عن قلب «امرأة عمران» ـ أُم مريم ـ وما يَعمره من إيمان، ومن تَوَجُّه إلى ربّها بأعز ما تملك. وهو الجنين الذي تحمله في بطنها. خالصاً لربها، مُحرّراً من كل قيد ومن كل شرك ومن كل حق لأحد غير الله سبحانه.

والتعبير عن الخلوص المُطلق بأنه تحرر تعبير موح. فما يتحرر حقاً إلا مَن يخلص للّه كله، ويفر إلى الله بجملته، وينجو من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل قيمة، فلا تكون عبودية إلا للّه وحده.. فهذا هو التحرر إذن.. وما عداه عبودية وإن تراءت في صورة الحرية!

ومن هنا يبدو التوحيد هو الصورة المُثلى للتحرر. فما يتحرر إنسان وهو يدين لأحد غير الله بشيء ما في ذات نفسه، أو في مجريات حياته، أو في الأوضاع والقيم والقوانين والشرائع التي تُصرّف هذه الحياة.. لا تحرر وفي قلب الإنسان تَعلُّق أو تَطَلُّع أو عبودية لغير الله. وفي حياته شريعة أو قيم أو موازين مستمدة من غير الله. وحين جاء الإسلام بالتوحيد جاء بالصورة الوحيدة للتحرر في عالم الإنسان..

وهذا الدعاء الخاشع من امرأة فرعون، بأن يتقبل بها منها نذرها ـ وهو فلذة كبدها ـ ينم عن ذلك الإسلام الخالص للّه، والتوجه إليه كلية، والتحرر من كل قيد، والتجرد إلا من ابتغاء قبوله ورضاه:

﴿رَبِّ إني نذرت لك ما في بطني مُحرَّراً فتقبّل مني. إنك أنت السميع العليم﴾ [آل عمران: ٣٥].

ولكنها وَضَعَتْها أُنثى؛ ولم تضعها ذكراً!

﴿فلما وضعتها قالت: ربِ إني وضعتها أنثى ـ والله أعلم بما وضعت ـ وليس الذكر كالأنثى..﴾ [آل عمران: ٣٦]..

لقد كانت تنتظر ولداً ذكراً؛ فالنذر للمعابد لم يكن معروفاً إلا للصبيان، ليخدموا الهيكل، وينقطعوا للعبادة والتبتل. ولكن ها هي ذي تجدها أنثى.

فتتوجه إلى ربها في نغمة أسيفة: ﴿ربِ إني وضعتها أنثى..﴾.

ولكنها هي تتجه إلى ربها بما وجدت، وكأنها تعتذر أن لم يكن لها ولد ذكر ينهض بالمهمة. ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾..

ولا تنهض الأنثى بما ينهض به الذكر في هذا المجال: ﴿وإني سميتها مريم﴾ [آل عمران: ٣٦]..

وهذا الحديث على هذا النحو فيه شكل المناجاة القريبة. مناجاة مَن يشعر أنه منفرد بربه. يحدثه بما في نفسه، وبما بين يديه، ويقدم له ما يملك تقديماً مباشراً لطيفاً. وهي الحال التي يكون فيها هؤلاء العباد المختارون مع ربهم. حال الودّ والقرب والمباشرة، والمناجاة البسيطة العبارة؛ التي لا تكلّف فيها ولا تعقيد. مناجاة مَن يحسّ أنه يُحَدّث قريباً ودوداً سميعاً مجيباً.

﴿وإني أُعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ [آل عمران: ٣٦]..

- وهي الكلمة الأخيرة حيث تودع الأم هديتها بين يدي ربها، وتدعها لحمايته ورعايته، وتعيذها به هي وذريتها من الشيطان الرجيم(١)..

وهذه كذلك كلمة القلب الخالص، ورغبة القلب الخالص. فما تودّ لوليدتها أمراً خيراً من أن تكون في حياطة الله من الشيطان الرجيم!

---

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ما من مَولود يُولَد إلا نَخَسه الشيطان فيستهل صارخاً من نَخْسَة الشيطان إلا ابن مريم وأُمِّه» ثم قال أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿وإني أُعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ [آل عمران: ٣٦].

أخرجه مسلم. وقال النووي في «شرح مسلم» هذه فضيلة ظاهرة، وظاهر الحديث اختصاصها بعيسى وأمه، واختار القاضي عياض أن جميع الأنبياء يتشاركون فيها. قوله: «نخسه الشيطان» أي حين يسقط المولود من بطن أمه، ومعنى نزغه نخسة وطعنة. ومنه قولهم نزغه بكلمة سوء أي رماه بها..

وعن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «كل بني آدم يَمَسُّه الشيطان يوم ولدتْهُ أُمُّه إلا مريم وابنها عيسى ـ عليهما السلام ـ».

أخرجه مسلم وابن حبان، انظر تخريج الحديث في الإحسان (٦٢٣٤، ٦٢٣٥).

﴿فتقبّلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً﴾ [آل عمران: ٣٧]. .

جزاء هذا الإخلاص الذي يعمر قلب الأم، وهذا التجرد الكامل في النذر. . وإعداداً لها أن تستقبل نفخة الروح، وكلمة الله، وأن تلد عيسى ـ عليه السلام ـ على غير مثال من ولادة البشر.

﴿وكَفَّلَها زكريا﴾ [آل عمران: ٣٧]. .

أي جعل كفالتها له، وجعله أميناً عليها. . وكان زكريا رئيس الهيكل اليهودي. من ذرية هارون الذين صارت إليهم سدانة الهيكل.

ونشأت مباركة مجدودة. يُهيىء لها الله من رزقه فيضاً من فيوضاته:

﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وَجَد عندها رزقاً. قال: يا مريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله. إن الله يرزق مَن يشاء بغير حساب﴾ [آل عمران: ٣٧].

ولا نخوض نحن في صفة هذا الرزق كما خاضت الروايات الكثيرة. فيكفي أن نعرف أنها كانت مباركة يفيض من حولها الخير ويفيض الرزق من كل ما يُسمى رزقاً. حتى ليعجب كافلها ـ وهو نبي ـ من فيض الرزق. فيسألها: كيف ومن أين هذا كله؟ فلا تزيد على أن تقول في خشوع المؤمن وتواضعه واعترافه بنعمة الله وفضله، وتفويض الأمر إليه كله:

﴿هو من عند الله. إن الله يرزق مَن يشاء بغير حساب﴾. .

وهي كلمة تُصوّر حال المؤمن مع ربه، واحتفاظه بالسرّ الذي بينه وبينه. والتواضع في الحديث عن هذا السر. لا التَغَنُّج به والمباهاة! كما أن ذكر هذه الظاهرة غير المألوفة التي تُثير عجب نبي الله زكريا. هي التمهيد للعجائب التي تليها في ميلاد يحيى وميلاد عيسى ـ عليهما السلام ـ. .

إن حادث عيسى ـ عليه السلام ـ الذي انبثقت منه كل الأساطير والشبهات. . إن هو إلا حَلَقة من سلسلة في ظواهر المشيئة الطليقة. . ويتحدث القرآن الكريم في قصة المسيح ـ عليه السلام ـ عن إعداد مريم

لتلقي النفخة العلوية بالطهارة والقنوت والعبادة . .

﴿وإذ قالت الملائكة: يا مريم إن الله اصطفاك وطَهّرك واصطفاك على نساء العالمين. يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ [آل عمران: ٤٣ ـ ٤٤].

وأي اصطفاء؟! وهو يختارها لتلقي النفخة المباشرة، كما تلقاها أول هذه الخليقة: «آدم»؟ وعَرض هذه الخارقة على البشرية من خلالها وعن طريقها؟ إنه الاصطفاء للأمر المفرد في تاريخ البشرية. . وهو بلا جدال أمر عظيم . .

ولكنها ـ حتى ذلك الحين ـ لم تكن تعلم ذلك الأمر العظيم!

والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى. وذلك لِما لابَس مولد عيسى ـ عليه السلام ـ من شبهات لم يتورع اليهود أن يُلْصقوها بمريم الطاهرة، مُعتمدين على أن هذا المولد لا مثال له في عالم الناس فيزعموا أن وراءه سراً لا يُشرّف. . قَبَّحهم الله!!

وهنا تظهر عظمة هذا الدين؛ ويتبين مصدره عن يقين. فها هو ذا محمد ـ ﷺ ـ رسول الإسلام[1] الذي يَلْقى من أهل الكتاب ـ ومنهم النصارى ـ ما يَلْقى من التكذيب والعنت والجدل والشبهات. . ها هو ذا يحدث عن ربه بحقيقة مريم العظيمة وتفضيلها على «نساء العالمين» بهذا

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنا أَوْلى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة». قالوا: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «الأنبياء إخوة من علاّت، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وليس بيننا نبي».

أخرجه مسلم (٢٣٦٥، ١٤٥)، وأحمد ٢/٣١٩، والبغوي (٣٦١٩)، وابن حبان (انظر الإحسان ٦١٩٤، ٦١٩٥).

قال النووي في «شرح مسلم»: أولاد العلات بفتح العين المهملة وتشديد اللام هم الأخوة لأب من أمهات شتى.

وقال الإمام البغوي: يقال لإخوة بني أب وأم: بنو الأعيان، فإن كانوا لأمهات شتى، فهم بنو العلات، فإن كانوا لآباء شتى، فهم أضياف، يريد أن أصل دين الأنبياء واحد، وإن كانت شرائعهم مختلفة، كما أن أولاد العلات أبوهم واحد، وإن كانت أمهاتهم شتى.

الإطلاق الذي يرفعها إلى أعلى الآفاق. وهو في معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم، ويتخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم بمحمد وبالدين الجديد!

أي صدق؟ وأي عظمة؟ وأية دلالة على مصدر هذا الدين، وصدق صاحبه الأمين!

إنه يتلقى «الحق» من ربه؛ عن مريم وعن عيسى ـ عليه السلام ـ فيعلن هذا الحق، في هذا المجال.. ولو لم يكن رسولاً من الله الحق ما أظهر هذا القول في هذا المجال بحال!

﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾..

طاعة وعبادة، وخشوع وركوع، وحياة موصولة بالله تمهيداً للأمر العظيم الخطير..

﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك. وما كنتَ لديهم إذ يُلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم؟ وما كنتَ لديهم إذ يختصمون﴾ [آل عمران: ٤٤].

وهي إشارة إلى ما كان من تسابق سدنة الهيكل إلى كفالة مريم، حين جاءت بها أمها وليدة إلى الهيكل، وفاءً لنذرها وعَهْدها مع ربها.

والنص يشير إلى حادث لم يذكره «العهد القديم» ولا «العهد الجديد» المتداولان؛ ولكن لا بد أنه كان معروفاً عند الأحبار والرهبان حادث إلقاء الأقلام.. أقلام سَدنة الهيكل.. لمعرفة مَن تكون مريم من نصيبه.

والنص القرآني لا يُفصّل الحادث ـ ربما اعتماداً على أنه كان معروفاً لسامعيه، أو لأنه لا يزيد شيئاً في أصل الحقيقة التي يريد عرضها على الأجيال القادمة ـ فلنا أن نفهم أنهم اتفقوا على طريقة خاصة ـ بواسطة إلقاء الأقلام ـ لمعرفة مَن هي من نصيبه، على نحو ما نصنع في «القرعة» مثلاً.

وقد ذكرت بعض الروايات أنهم ألقوا بأقلامهم في نهر الأردن. فجرت

مع التيار إلا قلم زكريا فثبت. وكانت هذه هي العلامة بينهم. فَسَلَّموا بمريم له.

وكل ذلك من الغيب لم يكن الرسول - ﷺ - حاضره، ولم يبلغ إلى علمه. فربما كان من أسرار الهيكل التي لا تُفشى ولا تُباح للإذاعة بها، فاتخذها القرآن - في مواجهة كبار أهل الكتاب وقتها - دليلاً على وحي من الله لرسوله الصادق. ولم يَرِد أنهم ردّوا هذه الحجة. ولو كانت موضع جدال لجادلوه؛ وهم قد جاءوا للجدال!

والآن نجيء إلى مولد عيسى: العجيبة الكبرى في عُرف الناس، والشأن العادي للمشيئة الطليقة.

لقد تأهلت مريم بالتطهر والقنوت والعبادة لِتَلقّي هذا الفضل، واستقبال هذا الحدث، وها هي ذي تَتَلقَّى - لأول مرة - التبليغ عن طريق الملائكة بالأمر الخطير:

﴿إذ قالت الملائكة: يا مريم إن الله يُبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم. وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المُقرّبين. ويُكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

إنها بشارة كاملة وإفصاح عن الأمر كله. بشارة بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم.. فالمسيح بدل من الكلمة في العبارة. وهو الكلمة في الحقيقة. فماذا وراء هذا التعبير؟

إن هذه وأمثالها، من أمور الغيب التي لا مجال لمعرفة كنهها على وجه التحديد.. ربما كانت من الذي عناه الله بقوله: **﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات مُحكمات هُنَّ أُم الكتاب وأُخر متشابهات. فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تَشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله..﴾** [آل عمران: ٧].. الخ.

ولكن الأمر أيسر من هذا إذا أردنا أن نفهم طبيعة هذه الحقيقة الفَهْم الذي يصل القلب بالله، وصُنعته وقدرته، ومشيئته الطليقة: لقد شاء الله أن

يبدأ الحياة البشرية بخلق آدم من تراب ـ وسواء كان قد جَبَله مباشرة من التراب أو جَبَل السلالة الأولى التي انتهت إليه من تراب، فإن هذا لا يُقدّم ولا يؤخر في طبيعة السر الذي لا يعلمه إلا الله. سر الحياة التي لابست أول مخلوق حي، أو لابست آدم إن كان خلقه مباشرة من التراب الميت! وهذه كتلك في صنع الله. وليست واحدة منهما بأَوْلى من الأخرى في الوجود والكينونة[١]. .

من أين جاءت هذه الحياة؟ وكيف جاءت؟ إنها قطعاً شيء آخر غير التراب وغير سائر المواد الميتة في هذه الأرض. . شيء زائد. وشيء مغاير. وشيء ينشىء آثاراً وظواهر لا توجد أبداً في التراب ولا في مادة مَيتة على الإطلاق. .

هذا السر من أين جاء؟ إنه لا يكفي أننا لا نعلم لكي نُنكر أو نهذر! كما يفعل الماديون في لجاجة صغيرة لا يحترمها عاقل فضلاً عن عالم!

نحن لا نعلم. وقد ذهبت سدى جميع المحاولات التي بذلناها ـ نحن البشر ـ بوسائلنا المادية لمعرفة مصدرها. أو لإنشائها بأيدينا من الموت!

نحن لا نعلم. . ولكن الله الذي وَهَبَ الحياة يعلم. . وهو يقول لنا: إنها نفخة من روحه. وإن الأمر قد تم بكلمة منه. «كن. فيكون». .

ما هي هذه النفخة؟ وكيف تُنفخ في الموات فينشأ فيه هذا السر اللطيف الخافي على الأفهام؟

ما هي؟ وكيف؟ هذا هو الذي لم يُخلق العقل البشري لإدراكه، لأنه ليس من شأنه. إنه لم يوهب القدرة على إدراكه.

إن معرفة ماهية الحياة وطريق النفخة لا يُجديه شيئاً في وظيفته التي خَلَقه الله لها ـ وظيفة الخلافة في الأرض ـ إنه لن يَخلق حياة من موات. . فما قيمة أن

---

(١) نحن نتكلم هنا جدلاً ولا نناقش نظرية النشوء والارتقاء، فقد كادت تفقد ركائزها العلمية. وهي مجرد نظرية!

يعرف طبيعة الحياة، وماهية النفخة من روح الله، وكيفية اتصالها بآدم أو بأول سلّم الحياة الذي سارت فيه السلالة الحية؟

والله ـ سبحانه ـ يقول: إن النفخة من روحه في آدم هي التي جعلت له هذا الامتياز والكرامة ـ حتى على الملائكة ـ فلا بد إذن أن تكون شيئاً آخر غير مجرد الحياة الموهوبة للدود والميكروب! وهذا يقودنا إلى اعتبار الإنسان جنساً نشأ نشأة ذاتية، وأن له اعتباراً خاصاً في نظام الكون، ليس لسائر الأحياء!

وعلى أية حال فهذا ليس موضوعنا هنا، إنما هي لمحة في سياق العرض للتحرز من شُبهة قد تقوم في نفس القارىء لما عرضناه جدلاً حول نشأة الإنسان!

المهم هنا أن الله يُخبرنا عن نشأة سر الحياة؛ وإن لم ندرك طبيعة هذا السر وكيفية نفخه في الموات..

وقد شاء ـ بعد نشأة آدم نشأة ذاتية مباشرة ـ أن يجعل لإعادة النشأة الإنسانية طريقاً معيناً. طريق التقاء ذكر وأنثى. واجتماع بويضة وخلية تذكير. فيتم الإخصاب، ويتم الإنسال. والبويضة حية غير ميتة والخلية حية كذلك متحركة.

ومضى مألوف الناس على هذه القاعدة.. حتى شاء الله أن يخرق هذه القاعدة المختارة في فرد من بني الإنسان. فَيُنْشِئه نشأة قريبة وشبيهة بالنشأة الأولى. وإن لم تكن مثلها تماماً. أُنثى فقط. تتلقى النفخة التي تُنشىء الحياة ابتداء. فتنشأ فيها الحياة!

أهذه النفخة هي الكلمة؟ الكلمة هي تَوجُّه الإرادة؟ الكلمة: «كن» التي قد تكون حقيقة وقد تكون كناية عن توجه الإرادة؟

والكلمة هي عيسى، أو هي التي منها كينونته؟

كل هذه بحوث لا طائل وراءها إلا الشبهات.. وخلاصتها هي تلك: أن الله شاء أن يُنشىء حياة على غير مثال. فأنشأها وفق إرادته الطليقة التي

تنشيء الحياة بنفخة من روح الله. نُدرك آثارها، ونجهل ماهيتها. ويجب أن نجهلها. لأنها لا تزيد مقدرتنا على الاضطلاع بوظيفة الخلافة في الأرض، ما دام إنشاء الحياة ليس داخلاً في تكليف الاستخلاف!

والأمر هكذا سهل الإدراك. ووقوعه لا يُثير الشُبهات!

- إنها قصة ميلاد عيسى.. ووجه العجب فيها هو ولادة العذراء من غير بعل!

وإذا نحن تجاوزنا حادث خلق الإنسان أصلاً وإنشائه على هذه الصورة، فإن حادث ولادة عيسى ابن مريم يكون أعجب ما شهدته البشرية في تاريخها كله، ويكون حادثاً فذاً لا نظير له من قبله ولا من بعده.

والبشرية لم تشهد خلق نفسها وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخها! لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب وأم، وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث؛ فشاءت الحكمة الإلهية أن تُبرز العجيبة الثانية في مولد عيسى من غير أب، على غير السنّة التي جرت منذ وُجد الإنسان على هذه الأرض، ليشهدها البشر؛ ثم تظل في سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة تتلفت إليها الأجيال، إن عزّ عليها أن تتلفت إلى العجيبة الأولى التي لم يشهدها إنسان!

لقد جرت بسنّة الله التي وضعها لامتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى في جميع الفصائل والأنواع بلا استثناء، حتى المخلوقات التي لا يوجد فيها ذكر وأنثى متميزان تتجمع في الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث.. جرت هذه السنّة أحقاباً طويلة حتى استقر في تصور البشر أن هذه الطريقة الوحيدة، ونسوا الحادث الأول. حادث وجود الإنسان لأنه خارج عن القياس. فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى ابن مريم - عليه السلام - لِيُذَكّرهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة، وأنها لا تحتبس داخل النواميس التي تختارها.

ولم يتكرر حادث عيسى لأن الأصل هو أن تجري السنّة التي وضعها الله، وأن يُنفذ الناموس الذي اختاره. وهذه الحادثة الواحدة تكفي لتبقى أمام أنظار البشرية مَعْلَماً بارزاً على حرية المشيئة، وعدم احتباسها داخل حدود النواميس

﴿ولنجعله آية للناس﴾ [مريم: ٢١]..

﴿والتي أحصنت فَرْجها، فنفخنا فيها من روحنا، وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ [الأنبياء: ٩١]..

ولا يذكر هنا اسم مريم.. وقد ذكرها بالعفة والطهارة ﴿والتي أحصنت فرجها﴾ أحصنته فَصَانَتْه من كل مباشرة.

والإحصان يطلق عادة على الزواج بالتبعية، لأن الزواج يحصن من الوقوع في الفاحشة. أما هنا فيذكر في معناه الأصيل، وهو الحفظ والصون أصلاً من كل مباشرة شرعية أو غير شرعية. وذلك تنزيهاً لمريم عن كل ما رماها به اليهود مع يوسف النجار الذي كان معها في خدمة الهيكل. والذي تقول عنه الأناجيل المتداولة، إنه كان قد تزوجها ولكنه لم يدخل بها ولم يقربها.

لقد أحصنت فرجها ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ والنفخ هنا شائع لا يحدد موضعه كما في سورة التحريم ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا، وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ [التحريم: ١٢]..

﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ [الأنبياء: ٩١]..

وهي آية غير مسبوقة ولا ملحوقة. آية فذة واحدة في تاريخ البشرية جميعاً. ذلك أن المثل الواحد من هذا النوع يكفي لِتَتَأَمّله البشرية في أجيالها جميعاً؛ وتُدرك يد القدرة الطليقة التي تخلق النواميس، ولكنها لا تحتبس داخل النواميس.

مشاهد مثيرة وحوادث غريبة:

ونظراً لغرابة الحادث وضخامته فقد عَزَّ على فِرَق من الناس أن تَتَصوَّره على طبيعته وأن تُدرك الحكمة في إبرازه، فجعلت تُضفي على عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ صفات أُلوهية، وتصوغ حول مولده

الخرافات والأساطير، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب ـ وهي إثبات القدرة الإلهية التي لا تتقيد ـ تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد.

والقرآن يقص كيف وقعت هذه العجيبة، ويبرز دلالتها الحقيقية، وينفي تلك الخرافات والأساطير.

والسياق القرآني يُخرج القصة في مشاهد مثيرة، حافلة بالعواطف والانفعالات، التي تهزّ مَن يقرؤها هزّاً كأنما هو يشهدها:

﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فاتخذت من دونهم حجاباً، فأرسلنا إليها روحنا، فتمثّل لها بشراً سوياً. قالت: إني أعوذ بالرحمٰن منك إن كنت تقياً. قال: إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً...﴾ [مريم: ١٦ ـ ١٩]..

والمشهد الأول فتاة عذراء. قِدِّيسة، وَهَبَتْها أُمها وهي في بطنها لخدمة المعبد. لا يُعرف عنها أحد إلا الطُّهر والعِفّة حتى لتنسب إلى هارون أبي سدنة المعبد الإسرائيلي المُتطهرين ـ ولا يُعرف عن أسرتها إلا الطِيبة والصلاح من قديم.

ها هي ذي تخلو إلى نفسها لشأن من شؤونها التي تقتضي التواري من أهلها والاحتجاب عن أنظارهم.. ولا يحدد السياق هذا الشأن، ربما لأنه شأن خاص جداً من خصوصيات الفتاة..

وها هي ذي في خلوتها، مطمئنة إلى انفرادها. ولكن ها هي ذي تُفاجأ مفاجأة عنيفة.. إنه رجل مكتمل سوي: **﴿فأرسل إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوياً﴾**.. وها هي ذي تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل في خلوتها، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى في نفس الرجل، والخوف من الله والتحرّج من رقابته في هذا المكان الخالي: **﴿قالت: إني أعوذ بالرحمٰن منك إن كنت تقياً﴾** فالتقيّ ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمٰن، ويرجع عن دفعة الشهوة ونزغ الشيطان..

وهنا يتمثل الخيال تلك العذراء الطيبة البريئة ذات التربية الصالحة، التي نشأت في وسط صالح، وكفلها زكريا، بعد أن نُذرت للّه جنيناً.. وهذه هي الهزة الأولى.

﴿قال: إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾.. وليتمثل الخيال مقدار الفَزَع والخجل. وهذا الرجل السوي ـ الذي لم تثق بعد بأنه رسول ربها ـ فقد تكون حيلة فاتك يستغل طيبتها ـ يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول، وهو يريد أن يَهب لها غلاماً، وهما في خلوة ـ وهذه هي الهزة الثانية.

ثم تُدركها شجاعة الأنثى المُهدّدة في عرضها! فتسأل في صراحة: كيف؟

﴿قالت: أنّى يكون لي غلام، ولم يمسسني بشر، ولم أكُ بغياً؟﴾ [مريم: ٢٠].. هكذا في صراحة. وبالألفاظ المكشوفة. فهي والرجل في خلوة. والغرض من مباغتته لها قد صار مكشوفاً. فما تعرف هي بعد كيف يَهب لها غلاماً؟ وما يُخفف من روع الموقف أن يقول لها: ﴿إنما أنا رسول ربك﴾ ولا أنه مرسل ليهب لها غلاماً طاهراً غير مُدنّس المولد، ولا مُدَنّس السيرة، ليطمئن بالها. لا. فالحياء هنا لا يُجدي، والصراحة أَوْلَى.. كيف؟ وهي عذراء لم يَمَسَّها بَشَر، وما هي بغي فتقبل الفعلة التي تجيء منها بغلام!

ويبدو من سؤالها أنها لم تكن تتصور حتى اللحظة وسيلة أخرى لأن يهبها غلاماً إلا الوسيلة المعهودة بين الذكر والأنثى. وهذا هو الطبيعي بحكم التصور البشري.

﴿قال: كذلك قال ربك: هو عليَّ هَين. ولنجعله آية للناس، ورحمة منا﴾ [مريم: ٢١]..

فهذا الأمر الخارق الذي لا تتصور مريم وقوعه، هينّ على الله. فأمام القدرة التي تقول للشيء كن فيكون، كل شيء هين، سواء جرت به السنّة المعهودة أو جرت بغيره. والروح يُخبرها بأن ربها يخبّرها بأن هذا هين عليه. وأنه أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس، وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته. ورحمة لبني إسرائيل أولاً وللبشرية جميعاً، بإبراز هذا الحادث

الذي يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه.

بذلك انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء.. ولا يذكر السياق ماذا كان بعد الحوار، فهنا فجوة من فجوات العرض الفني للقصة. ولكنه يذكر أن ما أخبرها به من أن يكون لها غلام وهي عذراء لم يمسها بشر، وأن يكون هذا الغلام آية للناس ورحمة من الله. إن هذا قد انتهى أمره، وتحقق وقوعه: ﴿**وكان أمراً مقضياً**﴾ كيف؟ لا يذكر هنا عن ذلك شيئاً[1].

وهكذا بشّرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم.. فتضمنت البشارة نوعه، وتضمنت اسمه ونسبه. وظهر من هذا النسب أن مرجعه إلى أمه.. ثم تضمنت البشارة كذلك صفته ومكانه من ربه: ﴿**وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين**﴾ [آل عمران: ٤٥].. كما تضمنت ظاهرة معجزة تصاحب مَوْلده ﴿**ويكلم الناس في المهد**﴾.. ولمحة من مستقبله: ﴿**وكهلاً**﴾.. وسمته والموكب الذي ينتسب إليه: ﴿**ومن الصالحين**﴾ [آل عمران: ٤٦]..

فأما مريم الفتاة الطاهرة العذراء المُقيدة بمألوف البشر في الحياة، فقد تلقت البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة. واتجهت إلى ربها تناجيه وتتطلع إلى كشف هذا اللغز الذي يُحير عقل الإنسان:

---

(١) جاء في سورة التحريم: ﴿**ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا**﴾ فهل كلمة «روحنا» التي في سورة مريم هي نفسها التي في سورة التحريم؟ وهل مدلولها واحد؟.. نحن نميل إلى أنها ذات مدلولين: فهي في سورة مريم تعني جبريل الروح الأمين وهو رسول الله إلى مريم. أما في التحريم فتعني الروح الذي نفخ الله منه في آدم فإذا هو إنسان ونفخ منه في فرج مريم فإذا البويضة حية مستعدة للنمو: فهي النفخة الإلهية التي تمنح الحياة وتمنح معها الخصائص المرافقة لنوع هذه الحياة. وهي في الإنسان الاستعدادات التي تصله بالملأ الأعلى وتهبه الحس الإنساني والتفكير والمشاعر والإلهامات. ونفسر حالة مريم بأن جبريل وهو الروح الأمين كان حاملاً وموصلاً لنفخة الروح العلوية من الله..

ثم نعود فنقول: إننا لا ندرك شيئاً لا عن ماهية الروح بمعنى جبريل، ولا عن ماهية الروح بالمعنى الآخر. فَكُلّه غيب. إنما نحن نستلهم السياق في السورتين فنجد أن مدلول الروح هنا غيره هناك.

﴿قالت: ربِ أنّى يكون لي ولد ولم يَمسسني بَشَر؟﴾ [آل عمران: ٤٧]. .

وجاءها الجواب، يردها إلى الحقيقة البسيطة التي يغفل عنها البشر لطول ألفتهم للأسباب والمسببات الظاهرة لعلمهم القليل، ومألوفهم المحدود: ﴿قال: كذلك يفعل الله ما يشاء. إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون﴾ [آل عمران: ٤٧]. .

وحين يردّ الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب، وتزول الحيرة، ويطمئن القلب؛ ويعود الإنسان على نفسه يسألها في عجب: كيف عجبت من هذا الأمر الفطري الواضح القريب!!

وهكذا كان القرآن يُنشيء التصور الإسلامي لهذه الحقائق الكبيرة بمثل هذا اليسر الفطري القريب. وهكذا كان يجلو الشبهات التي تُعقّدها الفلسفات المُعقّدة، ويقرّ الأمر في القلوب وفي العقول سواء. .

ثم تمضي القصة في مشهد جديد من مشاهدها؛ فتعرض هذه العذراء الحائرة في موقف آخر أشد هَوْلاً:

﴿فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً. فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة؛ قالت: يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ [مريم: ٢٢ ـ ٢٣] وهذه هي الهزة الثالثة. .

إن السياق لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته. هل كان حملاً عادياً كما تحمل النساء وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة فإذا هي علقة فمضغة فعظام ثم تُكسى باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة؟

إن هذا جائز. فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية. . كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية، فتختصر المراحل اختصاراً؛ ويعقبها تكون الجنين ونموه واكتماله في فترة وجيزة. .

ليس في النص ما يدل على إحدى الحالتين. فلا نجري طويلاً وراء تحقيق القضية التي لا سَنَد لنا فيها..

فلنشهد مريم تَنتبذ مكاناً قصيًّا عن أهلها، في موقف أشد هولاً من موقفها الذي أسلفنا. فلئن كانت في الموقف الأول تُواجه الحصانة والتربية والأخلاق، بينها وبين نفسها، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة. ثم هي تواجه الآلام الجسدية بجانب الآلام النفسية. تواجه المخاض الذي ﴿أجاءها﴾ إجاءة إلى جذع النخلة، واضطرها اضطراراً إلى الاستناد عليها.

وهي وحيدة فريدة، تُعاني حيرة العذراء في أول مخاض، ولا علم لها بشيء، ولا معين لها في شيء.. فإذا هي قالت: **﴿يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾** فإننا لنكاد نرى ملامحها، ونحس اضطراب خواطرها، ونلمس مواقع الألم فيها. وهي تتمنى لو كانت «نسياً»: تلك الخرقة التي تتخذ لدم الحيض، ثم تلقى بعد ذلك وتنسى!

وفي حدة الألم وغمرة الهول تقع المفاجأة الكبرى:

﴿فناداها من تحتها ألَّا تَحزني قد جعل ربك تحتك سرياً. وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رُطَباً جنياً. فكلي واشربي وقري عيناً، فإما ترين من البشر أحداً فقولي: إني نذرت للرحمٰن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ [مريم: ٢٤ ـ ٢٦]..

يا لله! طفل وُلِدَ اللحظة يناديها من تحتها. يُطَمْئِن قلبها ويصلها بربها، ويرشدها إلى طعامها وشرابها. ويدلها على حجتها وبرهانها!

لا تحزني.. **﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾** فلم ينسك ولم يتركك، بل أجرى لك تحت قدميك جَدولاً سارياً ـ الأرجح أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء في الجبل ـ وهذه النخلة التي تستندين إليها هِزّيها فتساقط عليك رطباً. فهذا طعام وذاك شراب. والطعام الحلو مناسب للنفساء. والرطب والتمر من أجود طعام النفساء.

﴿فكلي واشربي﴾ هنيئاً. ﴿وقري عيناً﴾ واطمئني قلباً. فأما إذا واجهت أحداً فأعلنيه بطريقة غير الكلام، أنك نذرت للرحمن صوماً عن حديث الناس وانقطعت إليه للعبادة. ولا تُجيبي أحداً عن سؤال..

ونحسبها قد دُهشت طويلاً، وبُهتت طويلاً، قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزّه ليساقط عليها رطباً جنياً.. ثم أفاقت فاطمأنت إلى أن الله لا يتركها. وإلى أن حُجّتها معها.. هذا الطفل الذي ينطق في المهد.. فيكشف عن الخارقة التي جاءت به إليها.. ﴿فأتت به قومها تحمله..!﴾ [مريم: ٢٧].. فلنشهد هذا المشهد المثير:

إننا لنتصور الدهشة التي تعلو وجوه القوم - ويبدو أنهم أهل بيتها الأقربون في نطاق ضيق محدود - وهم يرون ابنتهم الطاهرة العذراء الموهوبة للهيكل العابدة المنقطعة للعبادة.. يرونها تحمل طفلاً!

﴿قالوا: يا مريم لقد جئت شيئاً فَرِياً. يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء، وما كانت أمك بغياً!﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨].

إن ألسنتهم لتنطلق بالتقريع والتأنيب: لقد جئت شيئاً فظيعاً مُستنكراً. ثم يتحول السخط إلى تهكم مرير: ﴿يا أخت هارون﴾[1] النبي الذي تولّى

---

(١) عن المغيرة بن شعبة، قال: بعثني رسول الله - ﷺ - إلى نجران، فقال لي أهل نجران: ألستُم تقرأون هذه الآية: ﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سَوْء، وما كانت أُمُّك بغياً﴾، وقد عرفتم ما بين موسى وعيسى؟ فلم أدرِ ما أردُّ عليهم، حتى قدمتُ المدينة على رسول الله - ﷺ - فذكرتُ ذلك له فقال لي: «أفلا أخبرتَهُم أنهم كانوا يُسمُّون بالأنبياء والصالحين قبلهم؟». أخرجه مسلم (٢١٣٥) في الآداب، وأحمد ٤/١٣٠ و٢٠٢، والترمذي (٢٨٦٣) و(٢٨٦٤) وابن حبان (انظر الإحسان ٦٢٣٣).

ويشير هذا الحديث والآية المذكورة أن «هارون» هو أخو مريم كان مشهوراً بالدين والصلاح والخير، وكان هذا الإسم يكثر في بني إسرائيل تبركاً باسم النبي هارون أخي موسى. ويذكر ابن السدي وغيره أنه قيل ﴿يا أخت هارون﴾ أخي موسى لأنها كانت من نسله، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمصري: يا أخا مصر، ومنها: يا أخا العرب، ويا أخا الجود، ومنه قوله - ﷺ -: «إن أخا صُداء قد أذّن ومَن أذّن فهو يقيم»، وأخو صداء: هو زياد بن الحارث الصدائي.

الهيكل هو وذريته من بعده والذي تنتسبين إليه بعبادتك وانقطاعك لخدمة الهيكل. فيا للمفارقة بين تلك النسبة التي تنتسبينها وذلك الفعل الذي تقارفينه! ﴿**ما كان أبوك امرأ سوء، وما كانت أمك بغياً**﴾ حتى تأتي بهذه الفعلة التي لا يأتيها إلا بنات آباء السوء والأمهات البغايا.

وتُنفّذ مريم وصية الطفل العجيب التي لقنها إياها:

﴿**فأشارت إليه**﴾.. فماذا نقول في العجب والغيظ الذي ساورهم وهم يرون عذراء تواجههم بطفل؛ ثم تتبجّح فتسخر ممن يستنكرون فعلتها فتصمت وتشير لهم إلى الطفل ليسألوه عن سرها!

﴿**قالوا: كيف نُكَلّم مَن كان في المهد صبياً؟**﴾ [مريم: ٢٩] ولكن ها هي ذي الخارقة العجيبة تقع مرة أخرى:

﴿**قال: إني عبد الله، آتاني الكتاب، وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبرًّا بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً، والسلام عليّ يوم وُلدت ويوم أموت ويوم أُبعث حياً**﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣]..

وهكذا يُعلن عيسى ـ عليه السلام ـ عبوديته للّه. فليس هو ابنه كما تدّعي فرقة. وليس هو إلهاً كما تدّعي فرقة. وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة كما تدّعي فرقة.. ويعلن أن الله جعله نبياً، لا وَلَداً ولا شريكاً. وبارك فيه، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدى حياته. والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته. فله إذن حياة محدودة ذات أمد. وهو يموت ويُبعث. وقد قدّر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم وُلِدَ ويوم يموت ويوم يُبعث حياً.

والنص صريح هنا في موت عيسى وبَعثه. وهو لا يحتمل تأويلاً في هذه الحقيقة ولا جدالاً.

﴿**ذلك عيسى ابن مريم. قول الحق الذي فيه يمترون. ما كان للّه أن يتخذ من ولد. سبحانه. إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون. وإن الله**

ربي وربكم فاعبدوه. هذا صراط مستقيم﴾ [مريم: ٣٤ ـ ٣٦]..

ذلك عيسى ابن مريم، لا ما يقوله المُؤلّهون له أو المُتَهِمون لأمه في مولده.. ذلك هو في حقيقته وذلك واقع نشأته. ذلك هو يقول قول الحق الذي فيه يمترون ويشكون. يقولها لسانه ويقولها الحال في قصته: **﴿ما كان للّه أن يتخذ من ولد﴾** تعالى وتنزّه فليس من شأنه أن يتخذ ولداً. والولد إنما يتخذه الفانون للامتداد، ويتخذه الضعاف للنصرة. والله باق لا يخشى فناء، قادر لا يحتاج معيناً. والكائنات كلها توجد بكلمة كن. وإذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون..

فما يريد تحقيقه يُحققه بتوجه الإرادة لا بالولد والمُعين..

وينتهي ما يقوله عيسى ـ عليه السلام ـ ويقوله حاله بإعلان ربوبية الله له وللناس، ودعوته إلى عبادة الله الواحد بلا شريك: **﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾**.. فلا يبقى بعد شهادة عيسى وشهادة قصته مجال للأوهام والأساطير.. وهذا هو المقصود بذلك التعقيب في لغة التقرير وإيقاع التقرير.

وعندما يصل البيان القرآني إلى هذا الحد من قصة عيسى التي تدور حولها المناظرة ويدور حولها الجَدَل، يبدأ التعقيب الذي يقرر الحقائق الأساسية المستفادة من هذا القصص، وينتهي إلى تلقين الرسول ـ ﷺ ـ ما يواجه به أهل الكتاب مواجهة فاصلة تُنهي الحوار والجدل؛ وتستقر على حقيقة ما جاء به، وما يدعو إليه، في وضوح كامل وفي يقين:

﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم. إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب. ثم قال له: كن. فيكون..﴾ [آل عمران: ٥٨، ٥٩]..

ذلك القصص. وذلك التوجيه القرآني كله. فهو وحي من الله. يتلوه الله على نبيه ـ ﷺ ـ وفي التعبير معنى التكريم والقرب والود.. فماذا بعد أن يتولى الله تعالى التلاوة على محمد نبيه؟ تلاوة الآيات والذكر الحكيم.. وإنه

لحكيم يتولى تقرير الحقائق الكبرى في النفس والحياة بمنهج وأسلوب وطريقة تخاطب الفطرة وتتلطف في الدخول عليها واللصوق بها بشكل غير معهود فيما يصدر عن غير هذا المصدر الفريد.

ثم يحسم التعقيب في حقيقة عيسى ـ عليه السلام ـ وفي طبيعة الخَلق والإرادة التي تُنشيء كل شيء كما أنشأت عيسى ـ عليه السلام ـ:

﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم. خَلَقه من تراب. ثم قال له: كن فيكون﴾..

إن ولادة عيسى عجيبة حقاً بالقياس إلى مألوف البشر. ولكن أية غرابة فيها حين تُقاس إلى خَلْق آدم أبي البشر؟

وأهل الكتاب الذين كانوا يناظرون ويجادلون حول عيسى ـ بسبب مولده ـ ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب.. أهل الكتاب هؤلاء كانوا يُقرّون بنشأة آدم من التراب. وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا الكائن الإنساني.. دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى. ودون أن يقولوا عن آدم: إن له طبيعة لاهوتية.

على حين أن العنصر الذي به صار آدم إنساناً هو ذاته العنصر الذي به وُلد عيسى من غير أب: عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك! وإن هي إلا الكلمة: «كن» تنشيء ما تراد له النشأة «فيكون»!

لقد نزل القرآن وهناك حشد من الأساطير الشائعة حول عيسى ـ عليه السلام ـ وبُنوّته للّه ـ سبحانه وتعالى ـ أو عن ازدواج طبيعته من اللاهوت والناسوت. أو عن تفرده بطبيعة إلهية ذابت فيها الطبيعة الناسوتية كالقطرة في الكأس! إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي غرقت الكنائس والمجامع في الجدل حولها، وجرت حولها الدماء أنهاراً في الدولة الرومانية! ومن ثم كان هذا التوكيد على بشرية عيسى ـ عليه السلام ـ وذكره في معظم المواضع

منسوباً إلى أمه مريم.. ﴿**وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس**﴾ [البقرة: ٢٥٣]..

ويلمس القرآن الكريم المشاعر الإنسانية لمسة رفيقة عميقة.. ﴿**إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. هو الذي يُصوركم في الأرحام كيف يشاء. لا إله إلا هو العزيز الحكيم**﴾ [آل عمران: ٥، ٦]..

وفي ظلال العلم اللطيف الشامل الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يلمس الحقيقة في الكيان البشري لمسة دقيقة، تتعلق بالنشأة الإنسانية. النشأة المجهولة في ظلام الغيب وظلام الأرحام، حيث لا علم للإنسان ولا قدرة ولا إدراك..

هكذا «يصوركم».. يمنحكم الصورة التي يشاء؛ ويمنحكم الخصائص المميزة لهذه الصورة. وهو وحده الذي يتولى التصوير، بمحض إرادته، ومطلق مشيئته: «**كيف يشاء**».. «**لا إله إلا هو**».. «**العزيز**».. ذو القدرة والقوة على الصنع والتصوير «**الحكيم**» الذي يدبر الأمر بحكمته فيما يصور ويخلق بلا معقب ولا شريك.

وفي هذه اللمسة تجلية لشبهات النصارى في عيسى ـ عليه السلام ـ ونشأته ومولده. فالله هو الذي صَوَّر عيسى «كيف يشاء».. لا أن عيسى هو الرب. أو هو الله. أو هو الإبن. أو هو الأقنوم اللاهوتي الناسوتي. إلى آخر ما انتهت إليه التصورات المنحرفة الغامضة المجانبة لفكرة التوحيد الناصعة الواضحة اليسيرة التصور القريبة الإدراك!

وهكذا تتجلى بساطة هذه الحقيقة.. حقيقة عيسى، وحقيقة آدم، وحقيقة الخَلْق كله. وتدخل إلى النفس في يسر وفي وضوح، حتى ليعجب الإنسان: كيف ثار الجدل حول هذا الحادث، وهو جار وفق السنّة الكبرى. سنّة الخلق والنشأة جميعاً!

وهذه هي طريقة «الذكر الحكيم» في مخاطبة الفطرة بالمنطق الفطري

الواقعي البسيط، في أعقد القضايا، التي تبدو بعد هذا الخطاب وهي اليسر الميسور!

وعندما يصل السياق بالقضية إلى هذا التقرير الواضح يتجه إلى الرسول ـ ﷺ ـ يُثَبِّتُه على الحق الذي معه، والذي يُتلى عليه، ويؤكده في حسه؛ كما يؤكده في حس مَن حوله من المسلمين، الذين ربما تُؤَثِّر في بعضهم شُبهات أهل الكتاب، وتلبيسهم وتضليلهم الخبيث:

﴿**الحق من ربك فلا تكن من الممترين**﴾ [آل عمران: ٦٠]. .

وما كان الرسول ـ ﷺ ـ ممترياً ولا شاكاً فيما يتلوه عليه ربه، في لحظة من لحظات حياته. . وإنما هو التثبيت على الحق، ندرك منه مدى ما كان يبلغه كيد أعداء الجماعة المسلمة من بعض أفرادها في ذلك الحين. كما ندرك منه مدى ما تتعرض له الأمة المسلمة في كل جيل من هذا الكيد؛ وضرورة تثبيتها على الحق الذي معها في وجه الكائدين والخادعين؛ ولهم في كل جيل أسلوب من أساليب الكيد جديد.

وهنا ـ وقد وضحت القضية وظهر الحق جلياً ـ يُوجه الله تعالى رسوله الكريم إلى أن يُنهي الجَدَل والمناظرة حول هذه القضية الواضحة وحول هذا الحق البَيِّن وأن يدعوهم إلى المباهلة كما هي مبينة في الآية التالية:

﴿**فمَن حاجَّك فيه ـ من بعد ما جاءك من العلم ـ فقل: تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم. ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾ [آل عمران: ٦١]. .

وقد دعا الرسول ـ ﷺ ـ مَن كانوا يناظرونه في هذه القضية(١) إلى هذا

---

(١) تذكر الروايات أن المناظرة والحوار كان مع وفد نصارى نجران، والرسول ـ ﷺ ـ يواجه شبهات النصارى وبخاصة ما يتعلق منها بعيسى ـ عليه السلام ـ ويؤكد القرآن حقيقة عقيدة التوحيد الخالص كما جاء به الإسلام، ويُصحح ما أصاب عقائد أهل الكتاب من انحراف وخَلْط وتشويه، ويدعوهم إلى الحق الواحد الذي تضمنته كتبهم الصحيحة التي جاء القرآن =

الاجتماع الحاشد، ليبتهل الجميع إلى الله أن ينزل لعنته على الكاذب من الفريقين. فخافوا العاقبة وأَبوا المباهلة. وتبين الحق واضحاً: ولكنهم فيما ورد من الروايات لم يُسلموا احتفاظاً بمكانتهم من قومهم، وبما كان يتمتع به رجال الكنيسة من سلطان وجاه ومصالح ونعيم!!! وما كانت البَينة هي التي يحتاج إليها مَن يصدون عن هذا الدين؛ إنما هي المصالح والمطامع والهوى يصد الناس عن الحق الواضح الذي لا خفاء فيه.

ثم يمضي التعقيب بعد الدعوة إلى المباهلة ـ وربما كانت الآيات التالية قد نزلت بعد الامتناع عنها ـ يقرر حقيقة الوحي، وحقيقة القصص، وحقيقة الوحدانية التي يدور حولها الحديث؛ ويُهدِّد مَن يتولى عن الحق ويفسد في الأرض بهذا التولي:

﴿إن هذا لهو القصص الحق. وما من إله إلا الله. وإن الله لهو العزيز الحكيم. فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين﴾ [آل عمران: ٦٢، ٦٣].

إن الفساد الذي يتولاه المعرضون عن حقيقة التوحيد لفساد عظيم. وما ينشأ في الأرض الفساد ـ في الواقع ـ إلا من الحيدة عن الاعتراف بهذه الحقيقة. لا اعتراف اللسان. فاعتراف اللسان لا قيمة له. ولا اعتراف القلب السلبي. فهذا الاعتراف لا ينشيء آثاره الواقعية في حياة الناس.. إنما هي الحيدة عن الاعتراف بهذه الحقيقة بكل آثارها التي تلازمها في واقع الحياة البشرية..

وأول ما يلازم حقيقة التوحيد أن تتوحد الربوبية، فتتوحد العبودية.. لا عبودية إلا للّه. ولا طاعة إلا للّه. ولا تلقي إلا عن الله. فليس إلا للّه تكون العبودية. وليس إلا للّه تكون الطاعة. وليس إلا عن الله يكون التلقي.. التلقي في التشريع، والتلقي في القيم والموازين، والتلقي في الآداب والأخلاق. والتلقي في كل ما يتعلق بنظام الحياة البشرية.. وإلا فهو الشرك أو

= بصدقها.. وحول المناظرة مع وفد نجران ونكوثهم عن المباهلة: يراجع تفسير ابن كثير ١/٣٦٨ ـ ٣٧١، كما يراجع قصة وفد نجران وهي مطولة جداً في دلائل النبوة للبيهقي.

الكفر. مهما اعترفت الألسنة، ومهما اعترفت القلوب الاعتراف السلبي الذي لا ينشيء آثاره في حياة الناس العامة في استسلام وطاعة واستجابة وقبول.

وبعد هذا التقرير يعرض القرآن الكريم اختلاف الفِرَق والأحزاب في أمر عيسى، فيبدو هذا الخلاف مُستَنكراً نابياً في ظل هذه الحقيقة الناصعة: ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم..﴾ [مريم: ٣٧]..

ولقد اختلف النصارى في المسيح ـ عليه السلام ـ وفي أُمه مريم.

قالت جماعة: إن المسيح إنسان محض، وقالت جماعة: إن الأب والإبن وروح القدس إن هي إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس. فالله بزعمهم مركب من أقانيم ثلاثة، الأب والإبن وروح القدس (والإبن هو عيسى) فانحدر الله الذي هو الأب في صورة روح القدس وتجسد في مريم إنساناً وَوُلِدَ منها في صورة يسوع!

وجماعة قالت: إن الإبن ليس أزلياً كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم، ولذلك هو دون الأب وخاضع له!

وجماعة أنكروا كون روح القدس أقنوماً!

وقد جمع الأمبرطور الروماني قَسطنطين مجمعاً من الأساقفة ـ وهو أحد المجامع الثلاثة الشهيرة ـ بلغ عدد أعضائه ألفين ومئة وسبعين أسقفاً فاختلفوا في عيسى اختلافاً شديداً، وقالت كل فرقة فيه قولاً.. قال بعضهم: هو الله هبط إلى الأرض فأحيا مَن أحيا وأمات مَن أمات ثم صعد إلى السماء.

وقال بعضهم: هو ابن الله، وقال بعضهم: هو أحد الأقانيم الثلاثة: الأب والإبن وروح القدس.

وقال بعضهم: هو ثالث ثلاثة: الله إله وهو إله وأمه إله. وقال بعضهم: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته. وقالت فرق أخرى أقوالاً أخرى.

ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاث مئة وثمانية اتفقوا على قول. فمال إليه الأمبرطور ونصر أصحابه وطرد الآخرين، وشرّد المعارضين وبخاصة المُوحّدين.

وقرر مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ بأن الإبن وروح القدس مساويان للأب في وحدة اللاهوت، وأن الإبن قد وُلِدَ منذ الأزل من الأب وأن الروح القدس منبثق من الأب، وقرر مجمع طليطلة سنة ٥٨٩ بأن روح القدس منبثق من الإبن أيضاً.

فاختلفت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة وظَلَّتا مختلفتين.. فجاء القرآن الكريم يقول كلمة الفصل بين هؤلاء جميعاً. وقال عن المسيح: إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وإنه بشر.. **﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾** [الزخرف: ٥٩] وكان هذا فصل الخطاب فيما كانوا فيه يختلفون.

ولما كانت العقائد المنحرفة قد قررتها مجامع شهدتها جموع الأساقفة فإن القرآن يُنذر الكافرين الذين ينحرفون عن الإيمان بوحدانية الله، يُنذرهم بمشهد يوم عظيم تشهده جموع أكبر، وترى ما يحل بالكافرين المنحرفين: **﴿فاختلف الأحزاب من بينهم. فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم. أَسْمِع بهم وأَبْصِر يوم يأتوننا، لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين. وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾** [مريم: ٣٧ - ٣٩]..

ويل لهم من ذلك المشهد في يوم عظيم. بهذا التنكير للتفخيم والتهويل. المشهد الذي يشهده الثقلان: الإنس والجن، وتشهده الملائكة، في حضرة الجبار الذي أشرك به الكفار.

ثم يأخذ السياق في التهكم بهم وبإعراضهم عن دلائل الهدى في الدنيا. وهم في ذلك المشهد أسمع الناس وأبصر الناس:

﴿أَسْمِع بهم وأَبْصِرِ يوم يأتوننا، لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾ . .

فما أعجب حالهم! . . لا يسمعون ولا يُبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة. وهم أسمع شيء وأبصر شيء يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزي ولإسماعهم ما يكرهون وتبصيرهم ما يتقون في مشهد يوم عظيم!

﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ . . يوم تشتد الحسرات حتى لكأن اليوم مُمَحّض للحسرة لا شيء فيه سواها، فهي الغالبة على جَوّه، البارزة فيه.

أنذرهم هذا اليوم الذي لا تنفع فيه الحسرات: **﴿إذ قُضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾** وكأنما ذلك اليوم موصول بعدم إيمانهم، موصول بالغفلة التي هم فيها سادرون.

أنذرهم ذلك اليوم الذي لا شك فيه؛ فكل ما على الأرض ومَن على الأرض عائد إلى الله، عودة الميراث كله إلى الوارث الوحيد!:

﴿إنا نحن نرث الأرض ومَن عليها وإلينا يُرجعون﴾ [مريم: ٤٠] . .

كلمة الفصل وتقرير وحدانية الله:

انتهت قصة ميلاد عيسى ـ عليه السلام ـ بكشف ما في أسطورة الوَلَد من نكارة وكذب وضلال؛ وهي التي يستند إليها بعض أهل الكتاب في عقائدهم الفاسدة، كذلك فقد أنصف القرآن عيسى بن مريم وأُمّه الطاهرة من افتراءات اليهود، وأنصف العقيدة الصحيحة في حكاية بُنوّة المسيح، وأنصف الحق نفسه من يهود، وأفاعيل يهود، وعنت يهود!

ويتجه القرآن إلى إنصاف الحق والعقيدة، وإنصاف عيسى بن مريم كذلك من غُلُوّ النصارى في شأن المسيح ـ عليه السلام ـ ومن الأساطير الوثنية التي تسربت إلى النصرانية السَّمحة من شتى الأقوام، وشتى الملل، التي

احتكت بها النصرانية؛ سواء في ذلك أساطير الإغريق والرومان، وأساطير قدماء المصريين، وأساطير الهنود!

ولقد تولى القرآن الكريم تصحيح عقائد أهل الكتاب التي جاء فوجدها مليئة بالتحريفات مشحونة بالأساطير؛ كما تولى تصحيح عقائد المشركين، المتخلفة من بقايا الحنيفية دين إبراهيم - عليه السلام - في الجزيرة العربية ومن ركام فوقها من أساطير البشر وترّهَات الجاهلية!

لا بل جاء الإسلام ليتولى تصحيح العقيدة في الله للبشر أجمعين؛ ويُنقذها من كل انحراف وكل اختلال، وكل غلو، وكل تفريط، في تفكير البشر أجمعين.. فصحح - فيما صحح - اختلالات تصور التوحيد في آراء أرسطو في أثينا قبل الميلاد، وأفلوطين في الإسكندرية بعد الميلاد؛ وما بينهما وما تلاهما من شتى التصورات في شتى الفلسفات التي كانت تخبط في التيه، معتمدة على ذبالة العقل البشري، الذي لا بد أن تُعينه الرسالة، ليهتدي في هذا التيه[1]!

ويعرض القرآن قضية «التثليث» وما تتضمنه من أسطورة «بنوة المسيح» لتقرير وحدانية الله سبحانه على الوجه المستقيم الصحيح.

ولقد جاء الإسلام والعقيدة التي يعتنقها النصارى - على اختلاف المذاهب - هي عقيدة أن الإله واحد في أقانيم ثلاثة: الأب، والإبن، والروح القدس. والمسيح هو «الإبن».. ثم تختلف المذاهب بعد ذلك في المسيح. هل هو ذو طبيعة لاهوتية وطبيعة ناسوتية؟ أم هل هو ذو طبيعة واحدة لاهوتية فقط. وهل هو ذو مشيئة واحدة مع اختلاف الطبيعتين؟ وهل هو قديم كالأب أو مخلوق.. إلى آخر ما تفرقت به المذاهب، وقامت عليه الاضطهادات بين الفرق المختلفة..

والثابت من التتبع التاريخي لأطوار العقيدة النصرانية، أن عقيدة

(١) يراجع فصل: «تيه وركام» وفصل «الربانية» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».

التثليث، وكذلك عقيدة بنوة المسيح للّه ـ سبحانه ـ (ومثلها عقيدة ألوهية أمه مريم، ودخولها في التثليثات المتعددة الأشكال) كلها لم تصاحب النصرانية الأولى. إنما دخلت إليها على فترات متفاوتة التاريخ، مع الوثنيين الذين دخلوا في النصرانية، وهم لم يبرأوا بعد من التصورات الوثنية والآلهة المتعددة.. والتثليث بالذات يغلب أن يكون مقتبساً من الديانات المصرية القديمة، من تثليث «أوزوريس، وإيزيس، وحوريس» والتثليثات المتعددة في هذه الديانة..

وقد ظل النصارى الموحدون يقاومون الاضطهادات التي أنزلها بهم الأباطرة الرومان، والمجامع المقدسة الموالية للدولة (الملوكانيون) إلى ما بعد القرن السادس الميلادي على الرغم من كل ما لاقوه من اضطهاد وتغرب وتشرد بعيداً عن أيدي السلطات الرومانية!

وما تزال فكرة «التثليث» تصدم عقول المثقفين من النصارى، فيحاول رجال الكنيسة أن يجعلوها مقبولة لهم بشتى الطرق، ومن بينها الإحالة إلى مجهولات لا ينكشف سرها للبشر إلا يوم ينكشف الحجاب عن كل ما في السموات وما في الأرض!

يقول القس بوطر صاحب رسالة: «الأصول والفروع» أحد شرّاح العقيدة النصرانية، في هذه القضية:

«قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا. ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاء في المستقبل، حين ينكشف الحجاب عن كل ما في السموات والأرض»[1]، ولا نريد هنا أن ندخل في سرد تاريخي للأطوار وللطريقة التي تَسلَّلت بها هذه الفكرة إلى النصرانية. وهي إحدى ديانات التوحيد الأساسية. فنكتفي باستعراض الآيات القرآنية التالية، لتصحيح هذه الفكرة الدخيلة على ديانة التوحيد!

---

(١) نقلاً عن كتاب «محاضرات في النصرانية» للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة.

﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق. إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه. فآمنوا بالله ورسله. . ﴾ [النساء: ١٧١]. .

فهو الغلو إذن وتجاوز الحد والحق، هو ما يدعو أهل الكتاب هؤلاء إلى أن يقولوا على الله غير الحق؛ فيزعموا له ولداً ـ سبحانه ـ كما يزعمون أن الله الواحد ثلاثة. .

وقد تطورت عندهم فكرة البنوة، وفكرة التثليث، حسب رقي التفكير وانحطاطه. ولكنهم قد اضطروا أمام الاشمئزاز الفطري من نسبة الولد للّه، والذي تزيده الثقافة العقلية، أن يفسروا البنوة بأنها ليست عن ولادة كولادة البشر. ولكن عن «المحبة» بين الأب والإبن. وأن يفسروا الإله الواحد في ثلاثة. . بأنها «صفات» الله سبحانه في «حالات» مختلفة. . وإن كانوا ما يزالون غير قادرين على إدخال هذه التصورات المتناقضة إلى الإدراك البشري. فهم يحيلونها إلى مَعميات غَيبية لا تنكشف إلا بانكشاف حجاب السموات والأرض.

ويمضي القرآن في بيانه لأهل الكتاب: ﴿فآمنوا بالله ورُسله. ولا تقولوا: ثلاثة. انتهوا خيراً لكم. إنما الله إله واحد. سبحانه أن يكون له ولد. له ما في السموات وما في الأرض. وكفى بالله وكيلاً﴾ [النساء: ١٧١]. .

وهذه الدعوة للإيمان بالله ورسله ـ ومن بينهم عيسى بوصفه رسولاً، ومحمد بوصفه خاتم النبيين ـ والانتهاء عن تلك الدعاوى والأساطير، تجيء في وقتها المناسب بعد هذا البيان الكاشف والتقرير المريح. .

﴿إنما الله إله واحد﴾. . تشهد بهذا وحدة الناموس. . ووحدة الخَلق. ووحدة الطريقة: كن. . فيكون. . ويشهد بذلك العقل البشري ذاته. فالقضية في حدود إدراكه. فالعقل لا يتصور خالقاً يشبه مخلوقاته، ولا ثلاثة في واحد. ولا واحداً في ثلاثة: ﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾. .

والولادة امتداد للفاني ومحاولة للبقاء في صورة النسل.. والله الباقي غني عن الامتداد في صورة الفانين؛ وكل ما في السموات وما في الأرض مُلك له سبحانه على استواء: **﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾**..

ويكفي البشر أن يرتبطوا كلهم بالله ارتباط العبودية للمعبود؛ وهو يرعاهم أجمعين، ولا حاجة لافتراض قرابة بينهم وبينه عن طريق ابن له منهم! فالصلة قائمة بالرعاية والكلاءة:

﴿وكفى بالله وكيلاً﴾..

وهكذا لا يكتفي القرآن ببيان الحقيقة وتقريرها في شأن العقيدة. إنما يضيف إليها إراحة شعور الناس من ناحية رعاية الله لهم؛ وقيامه ـ سبحانه ـ عليهم وعلى حوائجهم ومصالحهم؛ ليكلوا إليه أمرهم كله في طمأنينة..

ويمضي القرآن في البيان؛ لتقرير أكبر قضايا التصور الاعتقادي الصحيح، وهي الحقيقة الاعتقادية التي تنشأ في النفس من تقرير حقيقة الوحدانية.. حقيقة أن ألوهية الخالق تتبعها عبودية الخلائق.. وأن هناك فقط: ألوهية وعبودية.. ألوهية واحدة، وعبودية تشمل كل شيء، وكل أحد، في هذا الوجود.

ويصحح القرآن عقيدة النصارى كما يصحح كل عقيدة تجعل للملائكة بنوة كبنوة عيسى، أو شركاً في الألوهية كشركته في الألوهية:

﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً للّه ـ ولا الملائكة المقربون ـ ومَن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله؛ وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ [النساء: ١٧٢ ـ ١٧٣]..

لقد عني الإسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية الله سبحانه؛ وحدانية لا تتلبس بشبهة شرك أو مشابهة في صورة من الصور؛ وعني بتقرير أن

الله ـ سبحانه ـ ليس كمثله شيء. فلا يشترك معه شيء في ماهية ولا صفة ولا خاصية. كما عني بتقرير حقيقة الصلة بين الله ـ سبحانه ـ وكل شيء (بما في ذلك كل حي) وهي أنها صلة ألوهية وعبودية. ألوهية الله، وعبودية كل شيء للّه.. والمتتبع للقرآن كله يجد العناية فيه بالغة بتقرير هذه الحقائق ـ أو هذه الحقيقة الواحدة بجوانبها هذه ـ بحيث لا تدع في النفس ظلاً من شك أو شبهة أو غموض.

ولقد عني الإسلام كذلك بأن يُقرر أن هذه الحقيقة التي جاء بها الرسل أجمعون. فقررها في سيرة كل رسول، وفي دعوة كل رسول، وجعلها محور الرسالة من عهد نوح ـ عليه السلام ـ إلى عهد محمد خاتم النبيين ـ عليه الصلاة والسلام ـ تتكرر الدعوة بها على لسان كل رسول:

﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾..

وكان من العجيب أن أتباع الديانات السماوية ـ وهي حاسمة وصارمة في تقرير هذه الحقيقة ـ يكون منهم من يُحرّف هذه الحقيقة؛ ويَنْسب لِلّه ـ سبحانه ـ البنين والبنات؛ أو ينسب للّه ـ سبحانه ـ الامتزاج مع أحد من خلقه في صورة الأقانيم؛ اقتباساً من الوثنيات التي عاشت في الجاهليات!

أُلوهية وعُبودية.. ولا شيء غير هذه الحقيقة. ولا قاعدة إلا هذه القاعدة. ولا صلة إلا صلة الألوهية بالعبودية، وصلة العبودية بالألوهية..

ولا تستقيم تصورات الناس ـ كما لا تستقيم حياتهم ـ إلا بتمحيض هذه الحقيقة من كل غَبش، ومن كل شُبهة، ومن كل ظل!

أجل لا تستقيم تصورات الناس، ولا تستقر مشاعرهم، إلا حين يستيقنون حقيقة الصلة بينهم وبين ربهم.. هو إله وهُم عبيده.. هو خالق لهم وهم مخاليق.. هو مالك لهم وهم مماليك.. وهم كلهم سواء في هذه الصلة، لا بنوة لأحد. ولا امتزاج بأحد.. ومن ثم لا قربى لأحد إلا بشيء يملكه كل أحد ويوجه إرادته إليه فيبلغه: التقوى والعمل الصالح.. وهذا في مستطاع

كل أحد أن يحاوله. فأما البنوة، وأما الامتزاج فأنَّى بهما لكل أحد؟!

ولا تستقيم حياتهم وارتباطاتهم ووظائفهم في الحياة، إلا حين تستقر في أخلادهم تلك الحقيقة: أنهم كلهم عبيد لرب واحد. . ومن ثم فموقفهم كلهم تجاه صاحب السلطان واحد. . فأما القربى إليه ففي متناول الجميع. . عندئذ تكون المساواة بين بني الإنسان، لأنهم متساوون في موقفهم من صاحب السلطان. . وعندئذ تسقط كل دعوى زائفة في الوساطة بين الله والناس، وتسقط معها جميع الحقوق المدعاة لفرد أو لمجموعة أو لسلسلة من النسب لطائفة من الناس. . وبغير هذا لا تكون هناك مساواة أصيلة الجذور في حياة بني الإنسان ومجتمعهم ونظامهم ووضعهم في هذا النظام!

فالمسألة ـ على هذا ـ ليست مسألة عقيدة وجدانية يستقر فيها القلب على هذا الأساس الركين، فحسب، إنما هي كذلك مسألة نظام حياة، وارتباطات مجتمع، وعلاقات أمم وأجيال من بني الإنسان.

إنه ميلاد جديد للإنسان على يد الإسلام. . ميلاد للإنسان المتحرر من العبودية للعباد، بالعبودية لرب العباد. . ومن ثم لم تقم في تاريخ الإسلام «كنيسة» تستذل رقاب الناس، بوصفها الممثلة لابن الله، أو للأقنوم للأقانيم الإلهية؛ المستمدة لسلطانها من سلطان الإبن أو سلطان الأقنوم. ولم تقم كذلك في تاريخ الإسلام سلطة مقدسة تحكم «بالحق الإلهي» زاعمة أن حقها في الحكم والتشريع مستمد من قرابتها أو تفويضها من الله!

وقد ظلَّ «الحق المقدس» للكنيسة والبابوات في جانب، وللأباطرة الذين زعموا لأنفسهم حقاً مقدساً كحق الكنيسة في جانب. . ظل هذا الحق أو ذاك قائماً في أوربا باسم (الإبن) أو مركب الأقانيم. حتى جاء «الصليبيون» إلى أرض الإسلام مُغِيرين. فلما ارتدوا أخذوا معهم من أرض الإسلام بذرة الثورة على «الحق المقدس» وكانت فيما بعد ثورات «مارتن لوثر» و «كالفن» و «زنجلي» المسماة بحركة الإصلاح. . على أساس من تأثير الإسلام، ووضوح التصور الإسلامي، ونفي القداسة عن بني الإنسان؛ ونفي التفويض في السلطان. .

لأنه ليست هناك إلا ألوهية وعبودية في عقيدة الإسلام[1]. .

وهنا يقول القرآن كلمة الفصل في ألوهية المسيح وبنوته؛ وألوهية روح القدس (أحد الأقانيم) وفي كل أسطورة عن بنوة أحد للّه، أو ألوهية أحد مع الله. في أي شكل من الأشكال. . يقول القرآن كلمة الفصل بتقريره أن عيسى بن مريم عبد الله؛ وأنه لن يستنكف أن يكون عبداً للّه. وأن الملائكة المقربين عبيد للّه؛ وأنهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً للّه. وأن جميع خلائقه سَتُحشر إليه. وأن الذين يستنكفون عن صفة العبودية ينتظرهم العذاب الأليم. وأن الذين يقرون بهذه العبودية لهم الثواب العظيم.

إن المسيح عيسى بن مريم لن يتعالى أن يكون عبداً للّه. لأنه - عليه السلام - وهو نبي الله ورسوله - خير مَن يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية؛ وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان. وهو خير مَن يعرف أنه من خَلْق الله؛ فلا يكون خَلْق الله كالله؛ أو بعضاً من الله!

وهو خير مَن يعرف أن العبودية للّه - فضلاً على أنها الحقيقة المؤكدة الوحيدة - لا تنقص من قدره. فالعبودية للّه مرتبة لا يأباها إلا كافر بنعمة الخلق والإنشاء. وهي المرتبة التي يصف الله بها رسله، وهم في أرقى حالاتهم وأكرمها عنده. . وكذلك الملائكة المقربون - وفيهم روح القدس جبريل - شأنهم شأن عيسى - عليه السلام - وسائر الأنبياء - فما بال جماعة من أتباع المسيح يأبون له ما يرضاه لنفسه ويعرفه حق المعرفة؟!

﴿ومَن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ [النساء: ١٧٢].

فاستنكافهم واستكبارهم لا يمنعهم من حشر الله لهم بسلطانه. . سلطان الألوهية على العباد. . شأنهم في هذا شأن المقرين بالعبودية المستسلمين للّه. .

---

(١) يراجع فصل «التوحيد» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».

فأما الذين عرفوا الحق، فأقروا بعبوديتهم للّه، وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات هو الثمرة الطبيعية لهذه المعرفة وهذا الإقرار؛ فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله.

﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ [النساء: ١٧٣].

وما يريد الله ـ سبحانه ـ من عباده أن يُقِروا له بالعبودية، وأن يعبدوه وحده، لأنه بحاجة إلى عبوديتهم وعبادتهم، ولا لأنها تزيد في ملكه تعالى أو تنقص من شيء. ولكنه يريد لهم أن يعرفوا حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، لتصح تصوراتهم ومشاعرهم، كما تصح حياتهم وأوضاعهم. فما يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر، ولا أن تستقر الحياة والأوضاع، على أساس سليم قويم، إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار، وما يتبع الإقرار من آثار..

يريد الله ـ سبحانه ـ أن تستقر هذه الحقيقة بجوانبها التي بَيَّناها في نفوس الناس وفي حياتهم. ليخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. ليعرفوا مَنْ صاحب السلطان في هذا الكون وفي هذه الأرض؛ فلا يخضعوا إلا له، وإلا لمنهجه وشريعته للحياة، وإلا لَمن يحكم حياتهم بمنهجه وشرعه دون سواه.

يريد أن يعرفوا أن العبيد كلهم عبيد؛ ليرفعوا جباههم أمام كل مَن عداه؛ حين تعنو له وحده الوجوه والجباه. يريد أن يستشعروا العزة أمام المتجبرين والطغاة، حين يخرون له راكعين ساجدين يذكرون الله ولا يذكرون أحداً إلا الله.

يريد أن يعرفوا أن القربى إليه لا تجيء عن صهر ولا نسب. ولكن تجيء عن تقوى وعمل صالح؛ فيعمرون الأرض ويعملون الصالحات قربى إلى الله.

يريد أن تكون لهم معرفة بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، فتكون لهم غيرة على سلطان الله في الأرض أن يَدَّعيه المُدَّعون باسم الله أو باسم غير الله فيردّون الأمر كله للّه.. ومن ثم تصلح حياتهم وترقى وتُكرَّم على هذا الأساس..

إن تقدير هذه الحقيقة الكبيرة؛ وتعليق أنظار البشر للّه وحده؛ وتعليق قلوبهم برضاه؛ وأعمالهم بتقواه؛ ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه.. إن هذا كله رصيد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة يضاف إلى حساب البشرية في حياتها الأرضية؛ وزاد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة تستمتع به في الأرض.. في هذه الحياة.. فأما ما يجزي الله به المؤمنين المُقِرين بالعبودية العاملين للصالحات، في الآخرة، فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر. وفيض من عطاء الله.

وفي هذا الضوء يجب أن ننظر إلى قضية الإيمان بالله في الصورة الناصعة التي جاء بها الإسلام؛ وقرر أنها قاعدة الرسل كلها ودعوة الرسل جميعاً؛ قبل أن يُحرِّفها الأتباع، وتُشوهها الأجيال.. يجب أن ننظر إليها بوصفها ميلاداً جديداً للإنسان؛ تتوافر له معه الكرامة والحرية، والعدل والصلاح، والخروج من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده في الشعائر وفي نظام الحياة سواء.

والذين يستنكفون من العبودية للّه، يذلون لعبوديات في هذه الأرض لا تنتهي.. يذلون لعبودية الهوى والشهوة. أو عبودية الوَهْم والخرافة. ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم، ويحنون لهم الجباه. ويحكمون في حياتهم وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيداً مثلهم من البشر هم وهم سواء أمام الله.. ولكنهم يتخذون آلهة لهم من دون الله.. هذا في الدنيا.. أما في الآخرة ﴿**فيعذبهم عذاباً أليماً، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً**﴾..

إنها القضية الكبرى في العقيدة السماوية يعرضها القرآن الكريم في مواجهة انحراف أهل الكتاب من النصارى في ذلك الزمان. وفي مواجهة الانحرافات كلها إلى آخر الزمان..

ميثاق النصارى:

كذلك يقص الله ـ سبحانه ـ على نبيه ـ ﷺ ـ وعلى الجماعة المسلمة، أنه أخذ ميثاق الذين قالوا: إنا نصارى، من أهل الكتاب. ولكنهم نقضوا ميثاقهم كذلك. فنالهم جزاء هذا النقض للميثاق:

﴿ومن الذين قالوا: إنا نصارى أخذنا ميثاقهم؛ فنسوا حظاً مما ذُكروا به؛ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ [المائدة: ١٣]..

ونجد هنا تعبيراً خاصاً ذا دلالة خاصة: **﴿ومن الذين قالوا: إنا نصارى﴾**..

ودلالة هذا التعبير: أنهم قالوها دَعوى، ولم يُحققوها واقعاً.. ولقد كان أساس هذا الميثاق هو توحيد الله. وهنا كانت نقطة الانحراف الأصيلة في خط النصرانية التاريخي. وهذا هو الحظ الذي نسوه مما ذُكِّروا به، ونسيانه هو الذي قاد بعد ذلك إلى كل انحراف. كما أن نسيانه هو الذي نشأ من عنده الخلاف بين الطوائف والمذاهب والفرق، التي لا تكاد تُعَدّ. في القديم وفي الحديث.

وبينها ما بينها من العداوة والبغضاء ما يخبرنا الله ـ سبحانه ـ أنه باق فيهم إلى يوم القيامة.. جزاءً وفاقاً على نقض ميثاقهم معه، ونسيانهم حظاً مما ذُكروا به.. ويبقى جزاء الآخرة عندما ينبئهم الله بما كانوا يصنعون؛ وعندما يجزيهم وفق ما ينبئهم به مما كانوا يصنعون!

ولقد وقع بين الذين قالوا: إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء في التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصّه الله ـ سبحانه ـ في كتابه الصادق الكريم؛ وسال من دمائهم على أيدي بعضهم البعض ما لم يسل من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كله. سواء كان ذلك بسبب الخلافات الدينية حول العقيدة؛ أو بسبب الخلافات على الرياسة الدينية؛ أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات والخلافات ولم تخمد هذه الحروب والجراحات.. وهي ماضية إلى يوم القيامة كما قال أصدق القائلين، جزاء على نقضهم ميثاقهم، ونسيانهم حظاً مما ذُكروا به من عهد الله، وأول نَبْذ فيه هو نَبْذ التوحيد، الذي انحرفوا عنه بعد فترة من وفاة المسيح

ـ عليه السلام ـ لأسباب لا مجال هنا لعرضها بالتفصيل[1].

﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم. قل: فمَن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يُهلك المسيح ابن مريم وأمه ومَن في الأرض جميعاً؟ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما، يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير﴾ [المائدة: ١٧].

إن الذي جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ من عند ربه هو التوحيد الذي جاء به كل رسول.

والإقرار بالعبودية الخالصة للّه شأن كل رسول.. ولكن هذه العقيدة الناصعة أُدخلت عليها التحريفات؛ بسبب دخول الوثنيين في النصرانية؛ وحرصهم على رواسب الوثنية التي جاءوا بها ومزجها بعقيدة التوحيد، حتى لم يعد هناك إمكان لفصلها وفرزها وتنقية جوهر العقيدة منها.

ولم تجيء هذه الانحرافات كلها دفعة واحدة؛ ولكنها دخلت على فترات؛ وأضافتها المجامع واحدة بعد الأخرى؛ حتى انتهت إلى هذا الخليط العجيب من التصورات والأساطير، الذي تحار فيه العقول. حتى عقول الشارحين للعقيدة المُحَرَّفة من أهلها المؤمنين بها!

وقد عاشت عقيدة التوحيد بعد المسيح ـ عليه السلام ـ في تلامذته وفي أتباعهم. وأحد الأناجيل الكثيرة التي كُتبت ـ وهو إنجيل برنابا ـ يتحدث عن عيسى ـ عليه السلام ـ بوصفه رسولاً من عند الله. ثم وقعت بينهم الاختلافات. فمن قائل: إن المسيح رسول من عند الله كسائر الرسل. ومن قائل: إنه رسول نعم ولكن له بالله صلة خاصة. ومن قائل: إنه ابن الله لأنه خُلق من غير أب، ولكنه على هذا مخلوق للّه. ومن قائل: إنه ابن الله وليس مخلوقاً بل له صفة القِدَم كالأب..

ولتصفية هذه الخلافات اجتمع في عام ٣٢٥ ميلادية «مجمع نيقية» الذي

---

(١) يراجع كتاب «محاضرات في النصرانية» للشيخ محمد أبو زهرة.

اجتمع فيه ألوف من البطارقة والأساقفة. قال عنهم ابن البطريق أحد مؤرخي النصرانية:

«وكانوا مختلفين في الآراء والأديان. فمنهم مَن كان يقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله وهم «البربرانية».. ويسمون: «الريمتيين». ومنهم مَن كان يقول: إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها. وهي مقالة «سابليوس» وشيعته. ومنهم مَن كان يقول: لم تحبل به مريم تسعة أشهر، وإنما مرّ في بطنها كما يمر الماء في الميزاب، لأن الكلمة دخلت في أذنها، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها. وهي مقالة «إليان» وأشياعه. ومنهم مَن كان يقول: إن المسيح إنسان خُلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وإن ابتداء الإبن من مريم، وإنه اصطفي ليكون مُخَلّصاً للجوهر الإنسي، صحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمي «ابن الله» ويقولون: إن الله جوهر قديم واحد، وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة، ولا بروح القدس. وهي مقالة «بولس الشمشاطي» بطريرك أنطاكية وأشياعه وهم «البوليقانيون». ومنهم مَن كان يقول: إنهم ثلاثة آلهة لم تزل: صالح، وطالح، وعدل بينهما. وهي مقالة «مرقيون» اللعين وأصحابه! وزعموا أن «مرقيون» هو رئيس الحواريين وأنكروا «بطرس». ومنهم مَن كان يقول بألوهية المسيح. وهي مقالة «بولس الرسول» ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً(١)..

وقد اختار الإمبرطور الروماني «قسطنطين» الذي كان قد دخل في النصرانية من الوثنية ولم يكن يدري شيئاً من النصرانية! هذا الرأي الأخير وسلط أصحابه على مخالفيهم، وشرد أصحاب سائر المذاهب؛ وبخاصة القائلين بألوهية الأب وحده، وناسوتية المسيح. وقد ذكر صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية عن هذا القرار ما نصه:

---

(١) نقلاً عن كتاب محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة.. وسائر ما نلخصه عن هذه المجامع فهو عن هذا المصدر والمصادر التي رجع إليها.

«إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تُحرم كل قائل بـوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه. وأنه لم يوجد قبل أن يولد. وأنه وُجد من لا شيء. أو مَن يقول: إن الإبن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الآب. وكل مَن يؤمن أنه خلق، أو مَن يقول: إنه قابل للتغيير، ويعتريه ظل دوران».

ولكن هذا المجمع بقراراته لم يقضِ على نحلة الموحدين أتباع «آريوس» وقد غلبت على القسطنطينية، وأنطاكية، وبابل، والإسكندرية، ومصر.

ثم ثار خلاف جديد حول «روح القدس» فقال بعضهم: هو إله، وقال آخرون: ليس بإله! فاجتمع «مجمع القسطنطينيـة الأول» سنة ٣٨١ ليحسم الخلاف في هذا الأمر.

وقد نقل ابن البطريق ما تقرر في هذا المجمع، بناء على مقالة أسقف الإسكندرية:

«قال ثيموثاوس بطريك الإسكندرية: ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله. وليس روح الله شيئاً غير حياتـه. فإذا قلنـا إن روح القدس مخلوق، فقد قلنا: إن روح الله مخلوق. وإذا قلنا: إن روح الله مخلوق، فقد قلنا: إن حياته مخلوقة. وإذا قلنا: إن حياته مخلوقة، فقد زعمنا أنه غير حي. وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به. ومَن كفر به وجب عليه اللعن»!!!

وكذلك تقررت ألوهية روح القدس في هذا المجمع، كما تقررت ألوهية المسيح في مجمع نيقية. وتم «الثالوث» من الآب. والإبن. وروح القدس..

ثم ثـار خلاف آخـر حـول اجتـماع طبيعـة المسيـح الإلهيـة وطبيعتـه الإنسانية.. أو اللاهوت والناسوت كما يقولون.. فقد رأى «نسطور» بطريرك القسطنطينية أن هناك أقنوماً وطبيعة. فأقنوم الألوهية من الآب وتنسب إليه؛ وطبيعة الإنسان وقد وُلِدَت من مريم، فمريم أم الإنسان ـ في المسيح ـ وليست أم الإله!

ويقول في المسيح الذي ظهر بين الناس وخاطبهم ـ كما نقله عنه ابن البطريق:

«إن هذا الإنسان الذي يقول: إنه المسيح.. بالمحبة متحد مع الإبن.. ويقال: إنه الله وابن الله، ليس بالحقيقة ولكن بالموهبة»..

ثم يقول: «إن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلهاً في حد ذاته بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة، أو هو مُلهم من الله، فلم يرتكب خطيئة، وما أتى أمراً إدًّا».

وخالفه في هذاالرأي أسقف رومه، وبطريرك الإسكندرية، وأساقفة أنطاكية، فاتفقوا على عقد مجمع رابع. وانعقد «مجلس أفسس» سنة ٤٣١ ميلادية. وقرر هذا المجمع ـ كما يقول ابن البطريق ـ:

«أن مريم العذراء والدة الله. وأن المسيح إله حق وإنسان، معروف بطبيعتين، متوحد في الأقنوم».. ولعنوا نسطور!

ثم خرجت كنيسة الإسكندرية برأي جديد، انعقد له «مجلس أفسس الثاني» وقرر:

«أن المسيح طبيعة واحدة، اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت».

ولكن هذا الرأي لم يسلم؛ واستمرت الخلافات الحادة؛ فاجتمع «مجمع خلقيدونية» سنة ٤٥١ وقرر:

«أن المسيح له طبيعتان لا طبيعة واحدة. وأن اللاهوت طبيعة وحدها، والناسوت طبيعة وحدها، التقتا في المسيح».. ولعنوا مجلس أفسس الثاني!

ولم يعترف المصريون بقرار هذا المجمع. ووقعت بين المذهب المصري «المنوفيمية» والمذهب «الملوكاني» الذي تبنته الدولة الأمبرطورية ما وقع من الخلافات الدموية.

وقد جاء في كتاب «الدعوة إلى الإسلام» تأليف أرنولد:

«ولقد أفلح جستنيان قبل الفتح الإسلامي بمئة عام في أن يكسب الأمبرطورية الرومانية مظهراً من مظاهر الوحدة. ولكن سرعان ما تصدعت

بعد موته، وأصبحت في حاجة ماسة إلى شعور قومي مشترك، يربط بين الولايات وحاضرة الدولة.

أما هرقل فقد بذل جهوداً لم تصادف نجاحاً كاملاً في إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية. ولكن ما اتخذه من وسائل عامة في سبيل التوفيق قد أدى لسوء الحظ إلى زيادة الانقسام بدلاً من القضاء عليه. ولم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية. فحاول بتفسيره العقيدة تفسيراً يستعين به على تهدئة النفوس أن يقف ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات؛ وأن يوحد بين الخارجين على الدين وبين الكنيسة الأرثوذكسية، وبينهم وبين الحكومة المركزية.. وكان مجمع خلقيدونية قد أعلن في سنة ٤٥١ ميلادية أن المسيح ينبغي أن يعترف بأنه يتمثل في طبيعتين لا اختلاط بينهما، ولا تغير، ولا تجزؤ، ولا انفصال. ولا يمكن أن ينتفي خلافهما بسبب اتحادهما. بل الأحرى أن تحتفظ كل طبيعة منهما بخصائصها؛ وتجتمع في أقنوم واحد، وجسد واحد. لا كما لو كانت متجزئة أو منفصلة في أقنومين. بل متجمعة في أقنوم واحد هو ذلك الإبن والله والكلمة..

وقد رفض اليعاقبة هذا المجمع، وكانوا لا يعترفون في المسيح إلا بطبيعة واحدة. وقالوا: إنه مركب الأقانيم. له كل الصفات الإلهية والبشرية. ولكن المادة التي تحمل هذه الصفات لم تعد ثنائية. بل أصبحت وحدة مركبة الأقانيم..

وكان الجدل قد احتدم قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الأرثوذكس وبين اليعاقبة الذين ازدهروا بوجه خاص في مصر والشام والبلاد الخارجة عن نطاق الأمبرطورية البيزنطية، في الوقت الذي سعى فيه هرقل في إصلاح ذات البين عن طريق المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة. ففي الوقت الذي نجد فيه هذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين، إذا به يتمسك بوحدة الأقنوم في حياة المسيح البشرية. وذلك بإنكاره وجود نوعين من الحياة في أقنوم واحد. فالمسيح الواحد، الذي هو ابن الله، يحقق الجانب الإنساني والجانب

الإلهي بقوة إلّهية إنسانية واحدة. ومعنى هذا أنه لا يوجد سوى إرادة واحدة في الكلمة المتجسدة.. لكن هرقل قد لقي المصير الذي انتهى إليه كثيرون جداً ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام. ذلك بأن الجدل لم يحتدم مرة أخرى كأعنف ما يكون فحسب، بل إن هرقل نفسه قد وُصِم بالإلحاد، وجَرَّ على نفسه سخط الطائفتين على السواء»(١).

كذلك يقول باحث مسيحي آخر هو «كانون تايلور» عن الحالة بين نصارى الشرق عند البعثة المحمدية:

«وكان الناس في الواقع مُشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة»(٢).

ونكتفي بهذا القدر في تصوير مجمل التصورات المنحرفة حول ألوهية المسيح؛ والخلافات الدامية والعداوة والبغضاء التي ثارت بسببها بين الطوائف، وما تزال إلى اليوم ثائرة..

وتجيء الرسالة الأخيرة لتقرر وَجْه الحق في هذه القضية؛ ولتقول كلمة الفصل؛ ويجيء الرسول الأخير ليبين لأهل الكتاب حقيقة العقيدة الصحيحة:

﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢].. **﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة﴾** [المائدة: ٧٣]..

ويثير فيهم منطق العقل والفطرة والواقع:

﴿قل: فمَن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يُهلِكَ المسيح بن مريم، وأُمه، ومَن في الأرض جميعاً؟﴾ [المائدة: ١٧]..

فيفرق تفرقة مطلقة بين ذات الله سبحانه وطبيعته ومشيئته وسلطانه، وبين ذات عيسى ـ عليه السلام ـ وذات أمه، وكل ذات أخرى، في نصاعة

---

(١) ترجمة حسن إبراهيم وزميله ص ٥٢ ـ ٥٣.
(٢) المصدر نفسه ص ٦٧.

قاطعة حاسمة. فذات الله ـ سبحانه ـ واحدة. ومشيئته طليقة، وسلطانه متفرد، ولا يملك أحد شيئاً في رد مشيئته أو دفع سلطانه إن أراد أن يُهلك المسيح ابن مريم وأمه ومَن في الأرض جميعاً. .

وهو ـ سبحانه ـ مالك كل شيء، وخالق كل شيء، والخالق غير المخلوق. وكل شيء مخلوق:

﴿ولِلّه ملك السموات والأرض وما بينهما، يخلق ما يشاء، والله على كل شيء قدير﴾ [المائدة: ١٧]. .

وكذلك تتجلى نصاعة العقيدة الإسلامية، ووضوحها وبساطتها. . وتزيد جلاء أمام ذلك الركام من الانحرافات والتصورات والأساطير والوثنيات المتلبسة بعقائد فريق من أهل الكتاب وتبرز الخاصية الأولى للعقيدة الإسلامية. في تقرير حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، والفصل التام الحاسم بين الحقيقتين. بلا غبش ولا شبهة ولا غموض. .

واليهود والنصارى يقولون: إنهم أبناء الله وأحباؤه: **﴿وقالت اليهود والنصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه﴾**. .

فزعموا لِلّه ـ سبحانه ـ أبوة، على تصور من التصورات، إلا أن تكون أبوة الجسد فهي أبوة الروح. وهي أياً كانت تلقي ظلاً على عقيدة التوحيد؛ وعلى الفصل الحاسم بين الألوهية والعبودية.

هذا الفصل الذي لا يستقيم التصور، ولا تستقيم الحياة، إلا بتقريره. كي تتوحد الجهة التي يتوجه إليها العباد كلهم بالعبودية؛ وتتوحد الجهة التي تشرع للناس؛ وتضع لهم القيم والموازين والشرائع والقوانين، والنظم والأوضاع، دون أن تتداخل الاختصاصات، بتداخل الصفات والخصائص، وتداخل الألوهية والعبودية. . فالمسألة ليست مسألة انحراف عقيدي فحسب، إنما هي كذلك فساد الحياة كلها بناء على هذا الانحراف!

واليهود والنصارى بادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، كانوا يقولون ـ تبعاً

لهذا ـ إن الله لن يُعذبهم بذنوبهم! وإنهم لن يدخلوا النار ـ إذا دخلوا ـ إلا أياماً معدودات. ومعنى هذا أن عدل الله لا يجري مجراه! وأنه ـ سبحانه ـ يحابي فريقاً من عباده، فيدعهم يفسدون في الأرض ثم لا يعذبهم عذاب المفسدين الآخرين!

فأي فساد في الحياة يمكن أن ينشأ عن مثل هذا التصور؟ وأي اضطراب في الحياة يمكن أن ينشئه مثل هذا الانحراف؟

وهنا يضرب الإسلام ضربته الحاسمة على هذا الفساد في التصور، وكل ما يمكن أن ينشئه من الفساد في الحياة، ويقرر عدل الله الذي لا يحابي، كما يقرر بطلان ذلك الادعاء:

﴿قل: فلمَ يعذبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشر ممن خلق، يغفر لمَن يشاء ويعذب مَن يشاء﴾ [المائدة: ١٨]..

بذلك يقرر الحقيقة الحاسمة في عقيدة الإيمان. يقرر بطلان ادعاء البنوة؛ فهم بشر ممن خلق. ويقرر عدل الله وقيام المغفرة والعذاب عنده على أصلها الواحد. على مشيئته التي تقرر الغفران بأسبابه وتقرر العذاب بأسبابه. لا بسبب بنوة أو صلة شخصية!

طبيعة المسيحية:

لقد بَشَّرت الملائكةُ مريمَ بالمسيح ـ عليه السلام ـ:

﴿إذ قالت الملائكة: يا مريمُ إن الله يُبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم. وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويُكلِّم الناس في المهد وكهلاً، ومن الصالحين. قالت: ربِّ أنَّى يكون لي ولد ولم يَمْسَسْني بشر؟ قال: كذلك الله يخلق ما يشاء. إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون..﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٧].

ثم يتابع الملك البشارة لمريم عن هذا الخَلْق الذي اختارها الله لإنجابه على غير مثال؛ وكيف ستمضي سيرته في بني إسرائيل.. وهنا تمتزج البشارة

لمريم بمقبل تاريخ المسيح، ويلتقيان في سياق واحد، كأنما يقعان اللحظة، على طريقة القرآن:

﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ [آل عمران: ٤٨]..

والكتاب قد يكون المراد به الكتابة؛ وقد يكون هو التوراة والإنجيل، ويكون عطفهما على الكتاب هو عطف بيان.

والحكمة حالة في النفس يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها، وإدراك الصواب واتباعه. وهي خير كثير.

والتوراة كانت كتاب عيسى كالإنجيل. فهي أساس الدين الذي جاء به.

والإنجيل تكملة وإحياء لروح التوراة، ولروح الدين التي طمست في قلوب بني إسرائيل. وهذا ما يخطىء الكثيرون من المتحدثين عن المسيحية فيه فيغفلون التوراة، وهي قاعدة دين المسيح ـ عليه السلام ـ وفيها الشريعة التي يقوم عليها نظام المجتمع؛ ولم يُعَدّل فيها الإنجيل إلا القليل. أما الإنجيل فهو نفخة إحياء وتجديد لروح الدين، وتهذيب لضمير الإنسان بوصله مباشرة بالله من وراء النصوص. هذا الإحياء وهذا التهذيب اللذان جاء المسيح وجاهد لهما حتى مكروا به كما سيجيء..

﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله. وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم. إن في ذلك لآية لكم. إن كنتم مؤمنين﴾ [المائدة: ٤٩].

ويفيد هذا النص أن رسالة عيسى ـ عليه السلام ـ كانت لبني إسرائيل، فهو أحد أنبيائهم. ومن ثم كانت التوراة التي نزلت على موسى ـ عليه السلام ـ وفيها الشريعة المنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية، والمتضمنة لقوانين التعامل والتنظيم، هي كتاب عيسى كذلك، مضافاً إليها الإنجيل الذي يتضمن إحياء الروح وتهذيب القلب وإيقاظ الضمير.

والآية التي بشّر الله أمه مريم أنها ستكون معه، والتي واجه بها بالفعل بني إسرائيل هي معجزة النفخ في الموات فيدخله سر الحياة، وإحياء الموتى من الناس، وإبراء المولود أعمى، وشفاء الأبرص، والإخبار بالغيب ـ بالنسبة له ـ وهو المدخر من الطعام وغيره في بيوت بني إسرائيل، وهو بعيد عن رؤيته بعينه . .

وحرص النص على أن يذكر على لسان المسيح ـ عليه السلام ـ كما هو مقدر في غيب الله عند البشارة لمريم، وكما تحقق بعد ذلك على لسان عيسى ـ أن كل خارقة من هذه الخوارق التي جاءهم بها، إنما جاءهم بها من عند الله . وذكر إذن الله بعد كل واحدة منها تفصيلاً وتحديداً؛ ولم يدع القول يتم ليذكر في نهايته إذن الله زيادة في الاحتياط!

وهذه المعجزات في عمومها تتعلق بإنشاء الحياة أو رَدّها، أو ردّ العافية وهي فرع عن الحياة. ورؤية غيب بعيد عن مدى الرؤية . .

وهي في صميمها تتسق مع مولد عيسى؛ ومَنْحه الوجود والحياة على غير مثال إلا مثال آدم ـ عليه السلام ـ وإذا كان الله قادراً أن يجري هذه المعجزات على يد واحد من خلقه، فهو قادر على خَلْق ذلك الواحد من غير مثال. . ولا حاجة إذن لكل الشبهات والأساطير التي نشأت عن هذا المولد الخاص متى رُد الأمر إلى مشيئة الله الطليقة ولم يقيد الإنسانُ الله ـ سبحانه ـ بمألوف الإنسان!

﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة، ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم. وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون. إن الله ربي وربكم فاعبدوه. هذا صراط مستقيم﴾ [المائدة: ٥٠، ٥١]. .

وهذا البيان في دعوة عيسى ـ عليه السلام ـ لبني إسرائيل يتكشف عن حقائق أصيلة في طبيعة دين الله، وفي مفهوم هذا الدين في دعوة الرسل جميعاً ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهي حقائق ذات قيمة خاصة حين ترد على لسان عيسى ـ عليه السلام ـ بالذات، وهو الذي ثار حول مولده وحقيقته ما ثار من الشبهات، التي نشأت كلها من الانحراف عن حقيقة دين الله التي لا تتبدل بين رسول ورسول.

فهو إذ يقول: ﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حُرم عليكم﴾..

يكشف عن طبيعة المسيحية الحقة[1]. فالتوراة التي تنزّلت على موسى

---

(١) قال الإمام الطوخي في «شرح مختصر الروضة» ٣/١٨١ ـ ١٨٣:
«إن دعوة عيسى ـ عليه السلام ـ عَمَّت، ونَسختْ ما قبلها من الشرائع.. أما عموم دعوته فلوجوه:

أحدها: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وجعلنا ابنَ مريمَ وأمّهُ آيةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]، ﴿وجعلناها وابنها آيةً للعالمين﴾ [الأنبياء: ٩١]، ﴿ولنجعله آية للناس﴾ [مريم: ٢١]، والآية: العلامة، أي: آية على سعادة السُّعداء باتباعه، وعلى شقاوةِ الأشقياء بمخالفته، وذلك يقتضي عمومَ الدعوة.

الوجه الثاني: قوله: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنتُ﴾ [مريم: ٣١] أي مَن اتبعني كنتُ مباركاً عليه، وذلك يُفيد عموم الدعوة.

الوجه الثالث: أن الله سبحانه وتعالى سمّاه ناصراً له، وكل مَن كان ناصراً للّه عز وجل، كان عام الدعوة؛ إلا أن يقوم على اختصاصها دليل.

أما أنه كان ناصراً للّه عز وجل، فلقوله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين...﴾ [الصف: ١٤]. والتقدير كونوا أنصار الله كما كان عيسى والحواريون أنصارَ الله.

وأما أن مَنْ كان ناصراً للّه عز وجل، كان عامَّ الدعوة إلا أن يقومَ دليل مُخَصِّص، فلأنَّ نصرة الله تعالى هي الدعاء إلى توحيده ودينه الحق، والمصير إلى ذلك واجبٌ على كل أحد، فإن قام دليلٌ مخصص للدعوة ببعض البلاد كاختصاص دعوة لوطٍ ـ عليه السلام ـ بقرى سدوم، أو ببعض القبائل، كاختصاص دعوة شعيب بِمَدْين وأصحاب الأيكة ونحو ذلك، اختصت الدعوة بموجب الدليل.

الوجه الرابع: قوله سبحانه وتعالى: ﴿يا عيسى بن مريمَ أأنتَ قلتَ للناس اتّخذوني وأمِّي إلهين من دون الله﴾ [المائدة: ١١٦] الآية، ولفظ الناس عام، وهو يدل على أنَّه أرسل إلى الناس عموماً، فَغَلا بعضهم فاتخذوه إلهاً.

الوجه الخامس: قوله تعالى: ﴿فاصبر كما صَبرَ أُولوا العزمِ من الرُّسُل﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وعيسى منهم، وكانت دعوة أولي العزم عامة، فكذلك عيسى[1].

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿ونُعلِّمه الكتابَ والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾ [آل عمران: ٤٨، ٤٩]، فلا يَقْدحُ فيما ذكرناه من أدلة عموم دعوته، لأن المرسل إلى الناس مرسلٌ إلى كل جزء وطائفة منهم. وبنو إسرائيل طائفةٌ من الناس الذين أُرسل إليهم. =

ـ عليه السلام ـ وهي تتضمن التشريع المنظم لحياة الجماعة وفق حاجة ذلك الزمان، وملابسات حياة بني إسرائيل (بما أنها ديانة خاصة لمجموعة من البشر في فترة من الزمان) ـ هذه التوراة معتمدة في رسالة المسيح ـ عليه السلام ـ وجاءت رسالته مصدقة لها، مع تعديلات تتعلق بإحلال بعض ما حرم الله عليهم، وكان تحريمه في صورة عقوبات حلت بهم على معاص وانحرافات، أدّبهم الله عليها بتحريم بعضٍ ما كان حلالاً لهم. ثم شاءت إرادته أن يرحمهم بالمسيح ـ عليه السلام ـ فَيُحِلّ لهم بعض الذي حرم عليهم.

ومن هذا يتبين أن طبيعة الدين ـ أي دين ـ أن يتضمن تنظيماً لحياة الناس بالتشريع؛ وألا يقتصر على الجانب التهذيبي الأخلاقي وحده، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها، ولا على العبادات والشعائر وحدها كذلك. فهذا لا يكون ديناً. فما الدين إلا منهج الحياة الذي أراده للبشر؛ ونظام الحياة الذي يربط حياة الناس بمنهج الله.

ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية، عن الشعائر التعبدية، عن القيم الخلقية، عن الشرائع التنظيمية، في أي دين يريد أن يصرّف حياة الناس وفق المنهج الإلهي. وأي انفصال لهذه المقومات يبطل عمل الدين في النفوس وفي الحياة؛ ويخالف مفهوم الدين وطبيعته كما أراده الله.

= وأما أن شريعتَه نَسختْ ما قبلها من الشرائع، فلأن شريعة موسى نَسختْ ما قبلها، وشريعة عيسى نَسَخت شريعة موسى بدليل قوله تعالى حكاية عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل ﴿ولأحِلَّ لكُم بعضَ الذي حُرِّمَ عليكم﴾ [آل عمران: ٥٠]، يعني في شرع التوراة، وذلك هو حقيقة النسخ، ولا يُشترط في نَسْخ الشريعة نَسْخُ جميعها، بل يكفي في تسميتها منسوخةً نسخُ بعض أحكامها، بدليل أن شريعة محمد عليه الصلاة والسلام نَسَخَتْ كلَّ شريعة قبلَها، مع أنها قررت بعض الأحكام، فلم تنسخ».

وأولو العزم من الرسل هم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم جميعاً. أنظر قوله تعالى في سورة الأحزاب «الآية: ٧» ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ راجع تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٩.

وهذا ما حدث للمسيحية. فإنها لعدة ملابسات تاريخية من ناحية؛ ولكنها جاءت موقوتة لزمن ـ حتى يجيء الدين الأخير ـ ثم عاشت بعد زمنها من ناحية.. قد انفصل فيها الجانب التشريعي التنظيمي عن الجانب الروحاني التعبدي الأخلاقي.. فقد حدث أن قامت العداوة المُستحكمة بين اليهود والمسيح ـ عليه السلام ـ وأنصاره ومَن اتبع دينه فيما بعد؛ فأنشأ هذا انفصالاً بين التوراة المتضمنة للشريعة والإنجيل المتضمن للإحياء الروحي والتهذيب الأخلاقي(١).. كما أن تلك الشريعة كانت شريعة موقوتة لزمن خاص ولجماعة من الناس خاصة. وكان في تقدير الله أن الشريعة الدائمة الشاملة للبشرية كلها ستجيء في موعدها المقدور.

وعلى أية حال فقد انتهت المسيحية إلى أن تكون نِحلة بغير شريعة. وهنا عجزت عن أن تقود الحياة الاجتماعية للأمم التي عاشت عليها. فقيادة الحياة الاجتماعية تقتضي تصوراً اعتقادياً يفسر الوجود كله، ويفسر حياة الإنسان ومكانه في الوجود؛ وتقتضي نظاماً تعبدياً وقيماً أخلاقية. ثم تقتضي ـ حتماً ـ تشريعات منظمة لحياة الجماعة، مستمدة من ذلك التصور الاعتقادي، ومن هذا النظام التعبدي، ومن هذه القيم الأخلاقية. وهذا القوام التركيبي للدين هو الذي يضمن قيام نظام اجتماعي، له بواعثه المفهومة، وله ضماناته المكينة.. فلما وقع ذلك الانفصال في الدين المسيحي عجزت المسيحية عن أن تكون نظاماً شاملاً للحياة البشرية، واضطر أهلها إلى الفصل بين القيم الروحية والقيم العملية في حياتهم كلها، ومن بينها النظام الاجتماعي الذي تقوم عليه هذه الحياة. وقامت الأنظمة الاجتماعية هناك على غير قاعدتها

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «رأى عيسى بن مريم رجلاً يَسرق فقال له عيسى سرقتَ، قال: كلا والذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنتُ بالله وكذَّبتُ نفسي». أخرجه مسلم.

قال النووي في «شرح مسلم» قال القاضي: ظاهر الكلام صدقت من حلف بالله تعالى وكذبت ما ظهر لي من ظاهر سرقته فلعله أخذ ما له فيه حق أو بإذن صاحبه أو لم يقصد الغصب والاستيلاء أو ظهر له من مدِّ يده أنه أخذ شيئاً فلما حلف له أسقط ظنه ورجع عنه».

الطبيعية الوحيدة. فقامت مُعلقة في الهواء. أو قامت عرجاء!

ولم يكن هذا أمراً عادياً في الحياة البشرية، ولا حادثاً صغيراً في التاريخ البشري.. إنما كان كارثة: كارثة ضخمة، تنبع منها الشقوة والحيرة والانحلال والشذوذ والبلاء الذي تتخبط فيه الحضارة المادية اليوم. سواء في البلاد التي لا تزال تعتنق المسيحية ـ وهي خالية من النظام الاجتماعي لخلوها من التشريع ـ أو التي نفضت عنها المسيحية وهي في الحقيقة لم تبعد كثيراً عن الذين يَدَّعون أنهم مسيحيون.. فالمسيحية كما جاء بها السيد المسيح، وكما هي طبيعة كل دين يستحق كلمة دين، هي الشريعة المنظمة للحياة، المنبثقة من التصور الاعتقادي في الله، ومن القيم الأخلاقية المستندة إلى هذا التصور. وبدون هذا القوام الشامل المتكامل لا تكون مسيحية. ولا يكون دين على الإطلاق! وبدون هذا القوام الشامل المتكامل لا يقوم نظام اجتماعي للحياة البشرية يُلَبي حاجات النفس البشرية، ويلبي واقع الحياة البشرية، ويرفع النفس البشرية والحياة البشرية كلها إلى الله.

وهذه الحقيقة هي أحد المفاهيم التي يتضمنها قول المسيح ـ عليه السلام ـ:

﴿ومُصدّقاً لما بين يدي من التوراة ولأحلّ لكم بعض الذي حرم عليكم﴾.. الخ..

وهو يستند في تبليغ هذه الحقيقة على الحقيقة الكبرى الأولى: حقيقة التوحيد الذي لا شبهة فيه:

﴿وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون. إن الله ربي وربكم فاعبدوه. هذا صراط مستقيم﴾ [المائدة: ٥١]..

فهو يعلن حقيقة التصور الاعتقادي التي قام عليها دين الله كله: المعجزات التي جاءهم بها لم يجيء بها من عند نفسه. فما له قدرة عليها وهو بشر. إنما جاءهم بها من عند الله. ودعوته تقوم ابتداء على تقوى الله وطاعة رسوله.. ثم يؤكد ربوبية الله له ولهم على السواء ـ فما هو برب وإنما هو عبد ـ

وأن يتوجهوا بالعبادة إلى الرب، فلا عبودية إلا للّه.. ويختم قوله بالحقيقة الشاملة.. فتوحيد الرب وعبادته، وطاعة الرسول والنظام الذي جاء به: ﴿هذا صراط مستقيم﴾.. وما عداه عوج وانحراف. وما هو قطعاً بالدين..

ويمضي القرآن في بيانه للتوكيد والتأكيد على بشرية عيسى ـ عليه السلام ـ فالله سبحانه هو الذي أجرى على يدي عيسى المعجزات بَيِّنة على صدق رسالته، وأيّده بروح القدس.

﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾ [البقرة: ٨٧].. والقرآن يعني بروح القدس: جبريل ـ عليه السلام ـ فهو حامل الوحي إلى الرسل. وهذا أعظم تأييد وأكبره. وهو الذي ينقل الإشارة الإلهية إلى الرسل بانتدابهم لهذا الدور الفذ العظيم، وهو الذي يُثبتهم على المضي في الطريق الشاق الطويل؛ وهو الذي يتنزل عليهم بالسكينة والتثبيت والنصر في مواقع الهول والشدة في ثنايا الطريق..

وهذا كله التأييد، أما البينات التي آتاها الله عيسى ـ عليه السلام ـ فتشمل الإنجيل الذي نزل عليه، كما تشمل الخوارق التي أجراها على يديه، والتي ورد ذكرها مفصلة في مواضعها المناسبة من القصة. تصديقاً لرسالته في مواجهة بني إسرائيل المعاندين!

ويؤكد القرآن بيان حقيقة عيسى ـ عليه السلام ـ وحقيقة ما جاء به، وكيف اختلف قومه من قبله ثم اختلفوا كذلك من بعده:

﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال: قد جئتكم بالحكمة، ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه، فاتقوا الله وأطيعون. إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم. فاختلف الأحزاب من بينهم، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ [الزخرف: ٦٣ ـ ٦٥]..

فعيسى جاء قومه بالبينات الواضحات سواء من الخوارق التي أجراها الله على يديه، أو من الكلمات والتوجيهات إلى الطريق القويم. وقال لقومه: **﴿قد**

جئتكم بالحكمة﴾. ومَن يُؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وأَمِنَ الزلل والشطط أَمِنَه للتفريط والتقصير؛ واطمأن إلى خطواته في الطريق على اتزان وعلى نور.

وجاء ليبين لهم بعض الذي يختلفون فيه. وقد اختلفوا في كثير من شريعة موسى ـ عليه السلام ـ وانقسموا فرقاً وشيعاً. ودعاهم إلى تقوى الله وإلى طاعته فيما جاءهم به من عند الله. وجهر بكلمة التوحيد خالصة لا مواربة فيها ولا لبس ولا غموض:

﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه﴾.. ولم يقل: إنه إله، ولم يقل: إنه ابن الله. ولم يشر من قريب أو بعيد إلى صلة له بربه غير صلة العبودية من جانبه والربوبية من جانب الله رب الجميع. وقال لهم: إن هذا صراط مستقيم لا التواء فيه ولا اعوجاج، ولا زلل فيه ولا ضلال. ولكن الذين جاءوا من بعده اختلفوا أحزاباً كما كان الذين من قبله مختلفين أحزاباً. اختلفوا ظالمين لا حجة لهم ولا شبهة:

﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾..

لقد كانت رسالة عيسى ـ عليه السلام ـ إلى بني إسرائيل؛ وكانوا ينتظرونه ليخلصهم مما كانوا فيه من الذلّ تحت حكم الرومان؛ وقد طال انتظارهم له، فلما جاءهم نكروه وشاقوه، وهمّوا أن يصلبوه!

ولقد جاء المسيح فوجدهم شيعاً ونحلاً كثيرة، أهمها أربع فرق أو طوائف.

ـ طائفة الصدوقيين نسبة إلى «صدوق» وإليه وإلى أسرته ولاية الكهانة من عهد داود وسليمان. وحسب الشريعة لا بد أن يرجع نسبه إلى هارون أخي موسى. فقد كانت ذريته هي القائمة على الهيكل. وكانوا بحكم وظيفتهم واحترافهم متشددين في شكليات العبادة وطقوسها، ينكرون «البدع» في الوقت الذي يترخصون في حياتهم الشخصية ويستمتعون بملاذ الحياة، ولا يعترفون بأن هناك قيامة!

ـ وطائفة الفريسيين، وكانوا على شقاق مع الصدوقيين. يُنكرون عليهم تشددهم في الطقوس والشكليات، وجحدهم للبعث والحساب. والسمة الغالبة على الفريسيين هي الزهد والتصوف وإن كان في بعضهم اعتزاز وتعال بالعلم والمعرفة. وكان المسيح ـ عليه السلام ـ ينكر عليهم هذه الخيلاء وشقشقة اللسان!

ـ وطائفة السامريين، وكانوا خليطاً من اليهود والآشوريين، وتدين بالكتب الخمسة في العهد القديم المعروفة بالكتب الموسوية، وتنفي ما عداها مما أُضيف إلى هذه الكتب في العهود المتأخرة، مما يعتقد غيرهم بقداسته.

ـ وطائفة الآسين أو الأسينيين. وكانوا متأثرين ببعض المذاهب الفلسفية، وكانوا يعيشون في عزلة عن بقية طوائف اليهود، ويأخذون أنفسهم بالشدة والتقشف، كما يأخذون جماعتهم بالشدة في التنظيم.

وهناك غير هذه الطوائف نحل شتى فردية، وبلبلة في الاعتقاد والتقاليد بين بني إسرائيل، الراضخين لضغط الأمبرطورية الرومانية المستذلين المكبوتين، الذين ينتظرون الخلاص على يد المُخَلِّص المُنتظر من الجميع.

فلما أن جاء المسيح ـ عليه السلام ـ بالتوحيد الذي أعلنه: ﴿**إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه**﴾. وجاء معه بشريعة التسامح والتهذيب الروحي والعناية بالقلب البشري قبل الشكليات والطقوس، حاربه المحترفون الذين يقومون على مجرد الأشكال والطقوس.

ومما يُؤثر عنه ـ عليه السلام ـ في هذا قوله عن هؤلاء: «إنهم يحزمون الأوقار، ويسومون أن يحملوها على عواتقهم، ولا يمدون إليها إصبعاً يُزحزحونها، وإنما يعملون عملهم كله لينظر الناس إليهم! يعرضون عصائبهم، ويطيلون أهداب ثيابهم، ويستأثرون بالمتكأ الأول في الولائم، والمجالس الأولى في المجامع، ويبتغون التحيات في الأسواق. وأن يقال لهم: سيدي. سيدي. حيث يذهبون!»..

أو يخاطب هؤلاء فيقول: «أيها القادة العميان الذين يُحاسِبُون على

البعوضة ويبتلعون الجمل.. إنكم تنقون ظاهر الكأس والصحفة، وهما في الباطن مترعان بالرجس والدعارة.. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون. إنكم كالقبور المُبَيَّضة. خارجها طلاء جميل وداخلها عظام نخرة»[1]..

وإن الإنسان ـ وهو يقرأ هذه الكلمات المأثورة عن المسيح ـ عليه السلام ـ وغيرها في بابها ـ ليكاد يتصور رجال الدين المحترفين في زماننا هذا. فهو طابع واحد مكرر. لهؤلاء الرسميين المحترفين من رجال الدين الذين يراهم الناس في كل حين.

ثم ذهب المسيح ـ عليه السلام ـ إلى ربه، فاختلف أتباعه من بعده. اختلفوا شيعاً وأحزاباً. بعضها يُؤَلّهه. وبعضها ينسب للّه سبحانه بُنوّته. وبعضها يجعل الله ثالث ثلاثة أحدهما المسيح ابن مريم. وضاعت كلمة التوحيد الخالصة التي جاء بها عيسى ـ عليه السلام ـ وضاعت دعوته الناس ليلجأوا إلى ربهم ويعبدون مخلصين له الدين.

﴿فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾..

﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذُرِّيتهما النُّبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل..﴾ [الحديد: ٢٦، ٢٧]..

فكانت الرسالة ممتدة واحدة على إثر واحدة حتى جاء عيسى ابن مريم..

﴿وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم، مصدقاً لما بين يديه من التوراة. وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة، وهدى وموعظة للمتقين..﴾ [المائدة: ٤٦]..

---

(١) النصوص منقولة عن كتاب عبقرية المسيح للأستاذ العقاد. والكلام عن طوائف اليهود مستعان به فيه.

فقد أتى الله عيسى بن مريم الإنجيل، ليكون منهج حياة، وشريعة حكم.. ولم يتضمن الإنجيل في ذاته تشريعاً إلا تعديلات طفيفة في شريعة التوراة. وقد جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة، فاعتمد شريعتها - فيما عدا هذه التعديلات الطفيفة.. وجعل الله فيه هدى ونوراً، وهدى وموعظة.. ولكن لَمن؟.. ﴿للمتقين﴾.

فالمتقون هم الذين يجدون في كتب الله الهدى والنور والموعظة، هم الذين تتفتح قلوبهم لما في هذه الكتب من الهدى والنور؛ وهم الذين تتفتح لهم هذه الكتب عما فيها من الهدى والنور..

أما القلوب الجاسية الغليظة الصلدة، فلا تبلغ إليها الموعظة، ولا تجد في الكلمات معانيها؛ ولا تجد في التوجيهات روحها؛ ولا تجد في العقيدة مذاقها؛ ولا تنتفع من هذا الهدى ومن هذا النور بهداية ولا معرفة ولا تستجيب..

إن النور موجود، ولكن لا تدركه إلا البصيرة المفتوحة، وإن الهدى موجود، ولكن لا تدركه إلا الروح المستشرفة، وإن الموعظة موجودة، ولكن لا يلتقطها إلا القلب الواعي.

وقد جعل الله في الإنجيل هدى ونوراً وموعظة للمتقين، وجعله منهج حياة وشريعة حكم لأهل الإنجيل.. أي إنه خاص بهم، فليس رسالة عامة للبشر - شأنه في هذا شأن التوراة وشأن كل كتاب وكل رسالة وكل رسول، قبل هذا الدين الأخير - ولكن ما طابق من شريعته - التي هي شريعة التوراة - حكم القرآن فهو من شريعة القرآن.

وأهل الإنجيل كانوا إذن مطالبين أن يتحاكموا إلى الشريعة التي أقرها وصَدَّقها الإنجيل من شريعة التوراة:

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ [المائدة: ٤٧]..

فالقاعدة هي الحكم بما أنزل الله دون سواه. وهم واليهود كذلك لن يكونوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل - قبل الإسلام - وما أُنزل إليهم

من ربهم - بعد الإسلام - فكله شريعة واحدة، هم ملزمون بها، وشريعة الله الأخيرة هي الشريعة المعتمدة:

﴿ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ [المائدة: ٤٧]..

والنص هنا على عمومه وإطلاقه.. وصفة الفسق تضاف إلى صفتي الكفر والظلم التي وردت من قبل في سورة المائدة[١]..

وليست تعني قوماً جدداً ولا حالة جديدة منفصلة عن الحالة الأولى. إنما هي صفة زائدة على الصفتين قبلها، لاصقة بمَن لم يحكم بما أنزل الله من أي جيل، ومن أي قبيل.

جَدَل وخصام:

يحكي القرآن الكريم حادثاً من حوادث الجدل الذي كان المشركون يزاولونه في مكة، وهم يدافعون عن عقائدهم الواهية أمام دعوة الإسلام، لا بقصد الوصول إلى الحق، ولكن مراءً ومحالاً!

فلما قيل لهم: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَب جهنم..﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وكان القصد هو أصنامهم التي جعلوها تماثيل للملائكة ثم عبدوها بذاتها. وقيل لهم: إن كل عابد وما يعبد من دون الله في النار. لما قيل لهم هذا ضَرَب بعض المَثَل بعيسى ابن مريم - وقد عبده المنحرفون من قومه - أهو في النار؟ وكان هذا مجرد جَدَل ومجرد مراء. ثم قالوا: إذا كان أهل الكتاب يعبدون عيسى وهو بشر فنحن أهدى إذ نعبد الملائكة وهم بنات الله! وكان هذا باطلاً يقوم على باطل.

وفي قصة عيسى يكشف القرآن الكريم عن حقيقته وحقيقة دعوته:

﴿ولما ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومك يصدّون. وقالوا: أآلهتنا خيرٌ أم

---

(١) انظر فصل «فساد في الخلق والسلوك والعقيدة» في قصة موسى وبني إسرائيل في هذا الكتاب.

هو؟ ما ضربوه لك إلا جَدَلاً. بل هم قوم خصمون. إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٥٩]..

ذكر ابن إسحاق في السيرة قال: جلس رسول الله ـ ﷺ ـ فيما بلغني مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ـ ﷺ ـ حتى أفحمه. ثم تلا عليه وعليهم **﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾** الآيات.. ثم قام رسول الله ـ ﷺ ـ وأقبل عبد الله بن الزبعري التميمي حتى جلس. فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد! وقد زعم محمد أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال عبد الله بن الزبعري: أما والله لو وجدته لخصمته. سلوا محمداً أَكُلّ ما يُعبد من دون الله في جهنم مع عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عُزيراً، والنصارى تعبد المسيح ابن مريم. فعجب الوليد ومَن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعري ورأوا أنه قد احتجّ وخاصم. فذكر ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «كل مَن أحب أن يعبد من دون الله فهو مع مَن عبده. فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومَن أمرهم بعبادته» فأنزل الله عز وجل: **﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾** [الأنبياء: ١٠٠].. أي عيسى وعزير ومَن عبد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل، فاتخذهم مَن بعدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنه يُعبد من دون الله، وعجب الوليد ومَن حضر من حجته وخصومته: **﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾**.. أي يصدون عن أمرك بذلك...

وذكر صاحب الكشاف في تفسيره: «لما قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ على قريش: **﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾** امتعضوا من ذلك امتعاضاً شديداً. فقال عبد الله بن الزبعري: يا محمد. أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال ـ عليه السلام ـ: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» فقال: خصمتك ورب الكعبة! ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي، وتُثني عليه خيراً

وعلى أُمّه؟ وقد علمت أن النصارى يعبدونها؟ وعزير يُعبد؟ والملائكة يُعبدون؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم! ففرحوا وضحكوا.

وسكت النبي - ﷺ - فأنزل الله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ ونزلت هذه الآية.

والمعنى: ولما ضرب عبد الله بن الزبعري عيسى ابن مريم مثلاً، وجادل رسول الله - ﷺ - بعبادة النصارى إياه ﴿إذا قومك﴾ - قريش - من هذا المثل ﴿يصُدون﴾ ترتفع لهم جَلَبة وضجيج، فرحاً وجذلاً وضحكاً بما سمعوا من إسكات رسول الله - ﷺ - بِجَدَله، كما يرتفع لغط القوم ولَجَبهم إذا تعبوا بحجة ثم فتحت عليهم.

وأما مَن قرأ ﴿يصدون﴾ بالضم فمن الصدود. أي من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه. وقيل: من الصديد وهو الجبة. وأنهما لغتان نحو يعكُف ويعكِف ونظائر لهما.

﴿وقالوا أآلهتنا خير أم هو؟﴾ يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى، وإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هيناً!».

ولم يذكر صاحب الكشاف من أين استقى روايته هذه. وهي تتفق في عمومها مع رواية ابن إسحاق.

ومن كليهما يتضح الالتواء في الجدل، والمراء في المناقشة. ويتضح ما يقرره القرآن عن طبيعة القوم وهو يقول: ﴿بل هم قوم خصمون﴾.. ذو لدد في الخصومة ومهارة. فهم يدركون من أول الأمر ما يقصد إليه القرآن الكريم وما يقصد إليه الرسول الله - ﷺ - فيلوونه عن استقامته، ويتلمسون شُبهة في عموم اللفظ فيدخلون منها بهذه المماحكات الجدلية، التي يغرم بمثلها كل من عَدِمَ الإخلاص، وفَقَد الاستقامة؛ يكابر في الحق، ويعمد إلى شبهة في لفظ أو عبارة أو منفذ خلفي للحقيقة! ومن ثم كان نَهي رسول الله - ﷺ - وتشديده عن المراء، الذي لا يقصد به وجه الحق، إنما يراد به الغلبة من أي طريق.

قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، عن عبادة بن عبادة، عن جعفر، عن القاسم، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن رسول الله - ﷺ - خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن. فغضب غضباً شديداً، حتى كأنما صُبَّ على وجهه الخل. ثم قال - ﷺ -: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض. فإنه ما ضلّ قوم قط إلا أُوتوا الجدل». ثم تلا - ﷺ - **﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾**..

وهناك احتمال في تفسير قوله تعالى **﴿وقالوا: أآلهتنا خير أم هو؟﴾** يرشح له سياق الآيات في صدد أسطورتهم عن الملائكة. وهو أنهم عنوا أن عبادتهم للملائكة خير من عبادة النصارى لعيسى ابن مريم. بما أن الملائكة أقرب في طبيعتهم وأقرب نسباً - حسب أسطورتهم - من الله سبحانه وتعالى عما يصفون.

ويكون التعقيب بقوله تعالى: **﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾** يعني الرد على ابن الزبعري كما سبق. كما يعني أن ضربهم المثل بعبادة النصارى للمسيح باطل. فعمل النصارى ليس حجة لأنه انحراف عن التوحيد. كانحرافهم هم. فلا مجال للمفاضلة بين انحراف وانحراف. فكله ضلال. وقد أشار إلى هذا الوجه بعض المفسرين أيضاً. وهو قريب.

ومن ثم جاء التعقيب بعد هذا: **﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾**..

فليس إلهاً يُعبد كما انحرف فريق من النصارى فعبدوه. إنما هو عبد أَنْعَم الله عليه. ولا جريرة له في عبادتهم إياه. فإنما أنعم الله عليه ليكون مثلاً لبني إسرائيل ينظرون إليه ويتأسون به. فنسوا المُثل، وضلوا السبيل!

رسالة عيسى والبشرى بمحمد نبي الهدى:

والقرآن يذكر رسالة عيسى ليقرر أنه جاء امتداداً لرسالة موسى، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة، وممهداً للرسالة الأخيرة ومبشراً برسولها؛

وَوَصْلة بين الدين الكتابي الأول والدين الكتابي الأخير:

﴿وإذ قال عيسى بن مريم: يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [الصف: ٥].

لقد جاء عيسى بن مريم يقول لبني إسرائيل: **﴿إني رسول الله إليكم﴾**..

فلم يقل لهم: إنه الله، ولا إنه ابن الله، ولا إنه أقنوم من أقانيم الله.

والآيات القرآنية تصور حلقات الرسالة المترابطة، يسلم بعضها إلى بعض، وهي متماسكة في حقيقتها، واحدة في اتجاهها، ممتدة من السماء إلى الأرض، حلقة بعد حلقة في السلسلة الطويلة المتصلة..

وهي الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه. فهو منهج واحد في أصله، متعدد في صوره، وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها، ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلي والشعوري، فتجيء الحلقة الأخيرة في الصورة الأخيرة كاملة شاملة، تخاطب العقل الراشد، في ضوء تلك التجارب، وتطلق هذا العقل يعمل في حدوده، داخل نطاق المنهج المرسوم للإنسان في جملته، المتفق مع طاقاته واستعداداته.

وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص، سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها. فثابت أن الطريقة التي كُتبت بها هذه الأناجيل والظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن.

وقد قرىء القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه: **﴿النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾** [الأعراف: ١٥٧]..

وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة، التي كانوا يتواصون بتكتمها!

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبي قد أظلهم زمانه، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى في الجزيرة العربية. ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم. فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم، كرهوا هذا وحاربوه!

وعلى أية حال فالنص القرآني بذاته هو الفيصل في مثل هذه الأخبار. وهو القول الأخير..

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله، كما قال عيسى بن مريم للحواريين: مَن أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله. فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة. فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ [الصف: ١٤]..

والحواريون هم تلاميذ المسيح ـ عليه السلام ـ قيل: الإثنا عشر الذين كانوا يلوذون به، وينقطعون للتلقي عنه. وهم الذين قاموا بعد رفعه بنشر تعاليمه وحفظ وصاياه.

والآية هنا تهدف إلى تصوير موقف لا إلى تفصيل قصة، فنسير نحن معها في ظلالها المقصودة إلى الغاية من سردها.

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله﴾.. في هذا الموضع الكريم الذي يرفعكم إليه الله. وهل أرفع من مكان يكون فيه العبد نصيراً للرب؟! إن هذه الصفة تحمل من التكريم ما هو أكبر من الجنة والنعيم.. كونوا أنصار الله **﴿كما قال عيسى بن مريم للحواريين: مَن أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله﴾**.. فانتدبوا لهذا الأمر ونالوا هذا التكريم.

وعيسى جاء ليبشر بالنبي الجديد والدين الأخير.. فما أجدر أتباع محمد أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم، كما انتدب الحواريون للأمر الموقوت!

وهذه اللمسة الواضحة في عرض هذا الحوار في سورة الصف.

وماذا كانت العاقبة؟

﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ . .

وتأويل هذا النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين: إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى - عليه السلام - هم المسيحيون إطلاقاً مَن استقام ومَن دخلت في عقيدته الانحرافات، وقد أيدهم الله على اليهود الذين لم يؤمنوا أصلاً كما حدث في التاريخ.

وإما أن الذين آمنوا هم الذين أصروا على التوحيد في وجه المُؤَلّهين لعيسى والمُثَلّثين وسائر النِحَل التي انحرفت عن التوحيد. ومعنى أنهم أصبحوا ظاهرين أي بالحجة والبرهان. أو أن التوحيد الذي هم عليه هو الذي أظهره الله بهذا الدين الأخير؛ وجعل له الجملة الأخيرة في الأرض كما وقع في التاريخ. وهذا المعنى الأخير هو الأقرب والأرجح في هذا السياق.

والعبرة المستفادة من هذه الإشارة ومن هذا النداء هي العبرة التي أشرنا إليها، وهي استنهاض هِمّة المؤمنين بالدين الأخير، الأمناء على منهج الله في الأرض، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية، المختارين لهذه المهمة الكبرى. استنهاض همتهم لنصرة الله ونصرة دينه. . والنصر في النهاية لأنصار الله المؤمنين.

مكر يهود ومحاولتهم صلب وقتل عيسى بن مريم:

كان أحبار اليهود وكهنتهم يُحرفون ما جاء في شريعة الله من أحكام في التوراة: **﴿من الذين هادوا يُحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه﴾** [النساء: ٤٦]، ثم كانوا يكتبون للعامة شرائع من الخرافات والبدع ويدّعون أنها من عند الله خدمة لمصالحهم الذاتية باسم الدين: **﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً. فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾** [البقرة: ٧٩] . .

لقد ادّعى أحبار يهود أنهم الصلة بين الله وبين الناس فهم وسطاء بينه

وبينهم، وأنـه بدون هؤلاء الأحبـار لا تتم صلة العبد بـربـه. ولا المخلوق بخالقه. فَبيدهم وحدهم مفتاح باب الرحمة والمغفرة ودخول الجنة. وبيدهم وحدهم إذلال العبد وإيذائه وجلب الضرر له وإدخاله النار..

كانوا يُحرضون الناس إلى بذل أموالهم تقرباً إلى الله وابتغاء مرضاته عن طريق تقديم الأموال والنذور للهيكل.. فيقدمـونها ولو كـان منهم فقراء في مسيس الحاجة إلى هذه الأموال. وبذلك خضع الناس لسلطانهم. ووقعـوا أسرى دَجَلهم.. وأذلاء طَلَبَاتهم.. فلقد كان الأحبار والكهنـة أربابـاً تُتَّبع وتُطاع، وهم فيما يُشرعون يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴿**يا أيها الذين آمنوا. إن كثيراً من الأحبار والرُّهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله**﴾[1] [التوبة: ٣٤]..

ومن مراجعة آيات القرآن الكريم فيما تقدم عن تاريخ بني إسرائيل يتبين أن اليهود قد فسدت عقيدتهم بعد أن قست قلوبهم، ثم زاغوا وظلموا وفسقوا وكفروا، فغضب الله عليهم ولعنهم.. وصار هَمُّ وشغف يهود المال. وأولعوا بجمعه من كل طريق.. وصرفهم حبُّ المال والتكالب عليه عن أوامر ربِّهم فتجاوزوا حدود الله وشرعه، وانحرفوا عن دينهم الحنيف فحرموا ما أَحلَّ الله، وأحلوا ما حرّم الله، كل ذلك افتراءً على الله وبغياً وعدواناً.

وفسدت أرواحهم وانتكست فطرتهم، فأصبح كل شيء عندهم لا يقوم إلا بالمادة.. ولا شيء غير المادة، فماتت إنسانيتهم وأظلمت قلوبهم، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم.. ودبَّ الفساد في كل جـوانب حياتهم حتى صـاروا فِرَق وشِيَع تتناحر وتتخاصم في سبيلِ عَرَض من الدنيا قليل، وانحطت أخلاقهم، وتـاهت عقولهم، وكـانوا فِـرَقاً تتنـازع فذهبت ريحهم، وانغمسـوا في مـلاذ

---

(١) لا بد أن نلحظ الدقة القرآنية والعدل الإلهي في قوله تعالى في ذلك ﴿**إن كثيراً من الأحبار والرهبان..**﴾. للاحتراز من الحكم على القليل منها الذي لا يزاول هذه الخطيئة. ولا بد من أفراد في أية جماعة من الناس فيهم بقيّة خير. ولا يظلم ربك أحداً..

وشهوات طويلة، وكانوا على شفا جُرف هارٍ من الانحلال والضياع، سادرين، وفي غيِّهم وضلالهم يعمهون . .

هذه كانت حال بني إسرائيل عندما بزغ نجم عيسى ـ عليه السلام ـ وبعثه الله ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فلم يترك سبيلاً لهدايتهم إلا سلكه، ولا باباً إلا طرقه، يحاول أن ينتشلهم من هذه الوهدة الهابطة، ويُخلصهم من تلك الحمأة المرتكسة، فقام يدعوهم إلى روح الدين ولُبابه، وأَصْلِه وحقيقته، والحبُّ للّه حُبًّا يغلب على كل حب، والرحمة على الإنسانية واحترامها، والمواساة للفقراء، ويدعوهم إلى التوحيد الخالص، ورَفْض كل ما دخل على دين الأنبياء من عادات جاهلية، وعقائد باطلة[1].

لقد استقبل بني إسرائيل نَبيَّهم عيسى ـ عليه السلام ـ شرّ ما يُستقبل به نبياً. يعرفون صدقه بالآيات الباهرات والبينات الواضحات. فقد شعر رجال الدين بالخطر يَدْهمهم ويُطيح بمصالحهم، فها هو ذا عيسى يُنكر عليهم انغماسهم في الشهوات، وتهالكهم على اللذات، وتسابقهم إلى جمع المال، ثم هو يفضح أسرارهم، وينشر بين الناس مخازيهم؛ فأجمعوا أَمْرهم على مناوأته أينما حَلّ، وتكذيبه حيثما ذهب.

ولكنه لم يُبَال جمعهم، ولم تُثنيه مناوأتهم؛ بل صمد في سبيل الحق، وثبت لدعوة الصدق، وسار متنقلاً بين القرى داعياً إلى صراط الله المستقيم، وأيّده ربُّه بالمعجزة الباهرة وآزره بالآية البَيّنة، فصار يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ويُبرىء الأَكْمه والأبرص، ويُحيي الموتى بإذن الله[2] . . .

ولكن الذين ارتكست قلوبهم من بني إسرائيل تمادوا في طغيانهم مع قيام حجة عيسى، ووضوح آيته، وثبتوا على ضلالهم، وقالوا: إن هذا إلا سحر مبين.

---

(١) قصص النبيين للندوي: ٣٥١.
(٢) قصص القرآن: ٢٢٨.

لقد شقَّ علي اليهود وجود عيسى ـ عليه السلام ـ فنصبوا له الحـرب، ورموه عن قوس واحدة، ورشقوه بالتهم والقذائف، وتناولوه بالسبّ القِبيح والقـول البذيء، وتنـاولوا أُمّـه مريم البتـول بالقـذف والطعن، وعـاكسوه وطاردوه، وأهاجوا له الأوباش، وسَدُّوا في وجهه الطرق[1].

ثم قادهم كفرهم إلى التخلص منه، فأرادوا به سوءاً، ومكروا به ليقتلوه ﴿ومكروا ومَكَر الله والله خير الماكرين﴾ [آل عمران: ٥٤]..

ويذكر القرآن الكريم إحساس عيسى ـ عليه السلام ـ بالكفـر من بني إسرائيل، وإلى طلبه الأنصار لإبلاغ دين الله:

﴿فلما أحسّ عيسى منهم الكفـر قـال: مَن أنصـاري إلى الله؟ قـال الحواريون: نحن أنصار الله، آمنا بالله، واشهد بأنا مسلمون. ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ [آل عمران: ٥٢، ٥٣]..

والآن لقد أحس عيسى الكفر من بني إسرائيل ـ بعدما أراهم كل تلك المعجـزات التي لا تتهيأ لبشر؛ والتي تشهـد بأن الله وراءهـا، وأن قـوة الله تؤيدها، وتؤيد مَن جاءت على يده. ثم على الرغم من أن المسيح جاء ليخفف عن بني إسرائيل بعض القيود والتكاليف..

عندئذ دعا دعوته:

﴿قال: مَن أنصاري إلى الله؟﴾..

مَن أنصاري إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه؟ مَن أنصاري إلى الله لأُبلّغ إليه، وأُؤدي عنه؟

ولا بد لكل صاحب عقيدة ودعوة من أنصار ينهضون معه، ويحملون دعوته، ويُحامون دونها، ويبلغونها إلى مَن يَليهم، ويقومون بعده عليها..

﴿قال الحواريون: نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾..

(١) قصص النبيين للندوي: ٣٥٢.

فذكروا الإسلام بمعناه الذي هو حقيقة الدين، وأَشْهَدوا عيسى - عليه السلام - على إسلامهم هذا وانتدابهم لنصرة الله. . أي نصرة رسوله ودينه ومنهجه في الحياة.

ثم اتجهوا إلى ربهم يتصلون مباشرة به في هذا الأمر الذي يقومون عليه:

﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول، فاكتبنا مع الشاهدين﴾.

وفي هذا التوجُّه لعقد البيعة مع الله مباشرة لَفْتَة ذات قيمة. . إن عهد المؤمن هو ابتداء مع ربه، ومتى قام الرسول بإبلاغه فقد انتهت مهمة الرسول من ناحية الاعتقاد؛ وانعقدت البيعة مع الله، فهي باقية في عُنق المؤمن بعد الرسول. .

وفيه كذلك تَعَهُّد للّه باتباع الرسول. فليس الأمر مجرد عقيدة في الضمير؛ ولكنه اتباع لمنهج، والاقتداء فيه بالرسول. .

ثم عبارة أخرى تلفت النظر في قول الحواريين: ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾. .

فأي شهادة وأي شاهدين؟

إن المسلم المؤمن بدين الله مطلوب منه أن يؤدي شهادة لهذا الدين. شهادة تؤيد حق هذا الدين في البقاء؛ وتؤيد الخير الذي يحمله هذا الدين للبشر. . وهو لا يؤدي هذه الشهادة حتى يجعل من نفسه ومن خُلقه ومن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين. صورة يراها الناس فيرون فيها مَثَلاً رفيعاً، يشهد لهذا الدين بالأحقية في الوجود، وبالخيرية والأفضلية على سائر ما في الأرض من أنظمة وأوضاع وتشكيلات.

وهو لا يؤدي هذه الشهادة كذلك حتى يجعل من هذا الدين قاعدة حياته، ونظام مجتمعه، وشريعة نفسه وقومه. فيقوم مجتمع من حوله، تدبر أموره وفق هذا المنهج الإلهي القويم. . وجهاده لقيام هذا المجتمع، وتحقيق هذا المنهج؛ وإيثاره الموت في سبيله على الحياة في ظل مجتمع آخر لا يحقق منهج

الله في حياة الجماعة البشرية. . هو شهادته بأن هذا الدين خير من الحياة ذاتها وهي أعزّ ما يحرص عليه الأحياء! ومن ثم يُدعى «شهيداً». .

فهؤلاء الحواريون يَدعون الله أن يكتبهم مع الشاهدين لدينه. . أي أن يُوفقهم ويُعينهم في أن يجعلوا من أنفسهم صورة حية لهذا الدين؛ وأن يبعثهم للجهاد في سبيل تحقيق منهجه في الحياة، وإقامة مجتمع يتمثل فيه هذا المنهج. ولو أدوا ثمن ذلك حياتهم ليكونوا من «الشهداء» على حق هذا الدين.

وهو دعاء جدير بأن يتأمله كل مَن يدّعي لنفسه الإسلام. . فهذا هو الإسلام، كما فَهمه الحواريون. وكما هو في ضمير المسلمين الحقيقيين! ومَن لم يُؤَدّ هذه الشهادة لدينه فكتمها فهو آثم قلبه. فأما إذا ادّعى الإسلام ثم سار في نفسه غير سيرة الإسلام؛ أو حاولها في نفسه، ولكنه لم يؤدها في المجال العام، ولم يجاهد لإقامة منهج الله في الحياة إيثاراً للعافية، وإيثاراً لحياته على حياة الدين، فقد قَصَّرَ في شهادته أو أَدى شهادة ضد هذا الدين. شهادة تصدّ الآخرين عنه. وهم يرون أهله يشهدون عليه لا له! وويل لَمن يصد الناس عن دين الله عن طريق ادعائه أنه مؤمن بهذا الدين، وما هو من المؤمنين!

ويمضي السياق إلى خاتمة القصة بين عيسى ـ عليه السلام ـ وبني إسرائيل:

﴿ومكروا وَمكَر الله، والله خير الماكرين. . ﴾ [آل عمران: ٥٤]. .

والمكر الذي مكره اليهود الذين لم يؤمنوا برسولهم عيسى ـ عليه السلام ـ مكر طويل عريض. فقد قذفوه ـ عليه السلام ـ وقذفوا الطاهرة أمه مع يوسف النجار خطيبها الذي لم يدخل بها كما تذكر الأناجيل. . وقد اتهموه بالكذب والشعوذة؛ وَوَشُوا به إلى الحاكم الروماني «بيلاطس» وادَّعوا أنه «مُهَيِّج» يدعو الجماهير للانتقاض على الحكومة! وأنه مُشعوذ يجدف ويفسد عقيدة الجماهير! حتى سلم لهم بيلاطس بأن يتولوا عقابه بأيديهم، لأنه لم يجرؤ ـ وهو وثني ـ على احتمال تبعة هذا الإثم مع رجل لم يجد عليه ريبة. . وهذا قليل من كثير. .

﴿ومكروا ومَكَر الله. والله خير الماكرين﴾. .

والمشاكلة هنا في اللفظ هي وحدها التي تجمع بين تدبيرهم وتدبير الله. . والمكر التدبير. . ليسخر من مكرهم وكيدهم إذا كان الذي يواجهه هو تدبير الله. فأين هم من الله؟ وأين مكرهم من تدبير الله؟

لقد أرادوا صلب عيسى ـ عليه السلام ـ وقَتْله. وأراد الله أن يَتَوفّاه، وأن يرفعه إليه، وأن يُطهره من مخالطة الذين كفروا والبقاء بينهم وهم رجس ودنس، وأن يُكرمه الله فيجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة. . وكان ما أراده الله. وأبطل الله مكر الماكرين:

﴿**إذ قال الله: يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة**﴾ [آل عمران: ٥٥]. .

فأما كيف كانت وفاته، وكيف كان رفعه. . فهي أُمور غيبية تدخل في المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله. ولا طائل وراء البحث فيها. لا في عقيدة ولا في شريعة. والذين يجرون وراءها، ويجعلونها مادة للجدل، ينتهي بهم الحال إلى المراء، وإلى التخليط، وإلى التعقيد. دون ما جزم بحقيقة، ودون ما راحة بال في أمر موكول إلى علم الله.

ويكرر القرآن الكريم صفة الكفر لليهود كلما ذَكَر إحدى منكراتهم: ﴿**وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً. وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله. .**﴾ [النساء: ١٥٦، ١٥٧]. .

وذكر الله هذه الصفة هنا بمناسبة قولهم على مريم بهتاناً عظيماً. وقد قالوا على مريم الطاهرة ذلك المنكر الذي لا يقوله إلا اليهود! فرموها بالزنا ـ لعنة الله عليهم! ثم تبجحوا بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه، وهم يتهكمون بدعواه الرسالة فيقولون: قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله!

وحين يصل السياق إلى هذه الدعوة منهم يقف كذلك للرد عليها، وتقرير الحق فيها:

﴿وما قَتَلوه وما صلبوه، ولكن شُبِّه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه؛ ما لهم به من علم إلا اتباع الظن. وما قتلوه يقيناً. بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]..

إن قضية قتل عيسى ـ عليه السلام ـ وصَلْبه، قضية يخبط فيها اليهود ـ كما يخبط فيها النصارى بالظنون ـ فاليهود يقولون: إنهم قتلوه ويسخرون من قوله: إنه رسول الله، فيقررون له هذه الصفة على سبيل السخرية!

والنصارى يقولون: إنه صُلِبَ ودُفِنَ، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام. والتاريخ يسكت عن مولد المسيح ونهايته كأن لم تكن له في حساب!

وما من أحد من هؤلاء أو هؤلاء يقول ما يقول عن يقين.. فلقد تتابعت الأحداث سراعاً؛ وتضاربت الروايات وتداخلت في تلك الفترة بحيث يصعب الاهتداء فيها إلى يقين.. إلا ما يقصّه ربّ العالمين..

والأناجيل الأربعة التي تروي قصة القبض على المسيح وصَلْبه وموته ودفنه وقيامته.. كلها كُتبت بعد فترة من عهد المسيح، كانت كلها اضطهاداً لديانته ولتلاميذه يتعذر معه تحقيق الأحداث في جوّ السرية والخوف والتشريد.. وقد كتبت معها أناجيل كثيرة. ولكن هذه الأناجيل الأربعة اختيرت قرب نهاية القرن الثاني للميلاد؛ واعتبرت رسمية، واعتُرِف بها؛ لأسباب ليست كلها فوق مستوى الشبهات!

ومن بين الأناجيل الكثيرة: إنجيل برنابا. وهو يخالف الأناجيل الأربعة المعتمدة، في قصة القتل والصلب، فيقول:

«ولما دنت الجنود مع يهوذا، من المَحلّ الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دُنُوّ جَمّ غفير. فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً. وكان الأحد عشر نياماً. فلما رأى الخطر على عبده، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل، سفراءه.. أن يأخذوا المسيح من العالم. فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه، ووضعوه في السماء الثالثة، في صحبة الملائكة التي تُسبّح إلى الأبد..

ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أُصعد منها يسوع. وكان التلاميذ كلهم نياماً. فأتى الله العجيب بأمر عجيب فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه فصار شبيهاً بيسوع. حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع. أما هو فبعد أن أيقَظَنَا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم. لذلك تعجبنا فأجبنا: أنت يا سيدي مُعَلّمنا. أنسيتنا الآن.. الخ»[1].

وهكذا لا يستطيع الباحث أن يجد خبراً يقيناً عن تلك الواقعة ـ التي حدثت في ظلام الليل قبل الفجر ـ ولا يجد المختلفون فيها سنداً يرجح رواية على رواية.

﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه. ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ [النساء: ١٥٧]..

أما القرآن فيقرر قراره الفصل:

﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم﴾.

﴿وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]..

ولا يدلي القرآن بتفصيل في هذا الرفع أكان بالجسد والروح في حالة الحياة؟ أم كان بالروح بعد الوفاة؟ ومتى كانت هذه الوفاة وأين. وهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما وقع القتل والصلب على مَن شُبه لهم سواه.

لا يدلي القرآن بتفصيل آخر وراء تلك الحقيقة؛ إلا ما ورد من قوله تعالى **﴿يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ﴾** [آل عمران: ٥٥].

وهذه كتلك لا تعطي تفصيلاً عن الوفاة ولا عن طبيعة هذا التوفّي وموعده..

ونحن في كتابنا هذا لا نريد أن نخرج عن تلك الظلال؛ ولا أن نضرب

---

(١) نقلاً عن كتاب «محاضرات في النصرانية» للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة.

في أقاويل وأساطير؛ ليس لدينا من دليل عليها، وليس لنا إليها سبيل. .

لقد اختلفوا في مسألة صَلْبه مثل اختلافهم في مسألة مولده. منهم مَن قال: إنه صُلب حتى مات ودُفن ثم قام من قبره بعد ثلاثة أيام وارتفع إلى السماء.

ومنهم مَن قال: إن يهوذا أحد حوارييه الذي خانه ودَلّ عليه أُلقي عليه شَبَه المسيح وصُلب.

ومنهم مَن قال: أُلقي شبهه على الحواري سيمون وأُخذ به. . وقَص القرآن الكريم الخبر اليقين فقال: ﴿**وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبه لهم**﴾ [النساء: ١٥٧] وقال: ﴿**يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك. .**﴾ [آل عمران: ٥٥] وكانت كلمة الفصل في ذلك الخلاف.

لقد حدّثهم القرآن حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم، مُجرداً من الأساطير الكثيرة التي اختلفت فيها رواياتهم، مُطهراً من الأقذار التي أَلْصَقَتها هذه الروايات بالأنبياء، والتي لم يكد نبي من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها نظيفاً! . .

إبراهيم ـ بزعمهم ـ قدم امرأته لأبيمالك ملك الفلسطينيين، وإلى فرعون ملك مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة في أعينهما! .

ويعقوب الذي هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده إسحاق بطريق السرقة والحيلة والكذب؛ وكانت بزعمهم هذه البركة لأخيه الأكبر عيصو!

ولوط ـ بزعمهم ـ أسكرته بنتاه كل منهما ليلة ليضطجع معها لتنجب منه كي لا يذهب مال أبيها إذ لم يكن له وارث ذكر. وكان ما أرادتا! .

وداود رأى من سطوح قصره امرأة جميلة عرف أنها زوجة أحد جنده، فأرسل هذا الجندي إلى المهالك ليفوز ـ بزعمهم ـ بامرأته! .

وسليمان مال إلى عبادة (بغل) بزعمهم. مجاراة لإحدى نسائه التي كان يعشقها ولا يملك معارضتها!

وقد جاء القرآن فَطَهَّر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لَوَّثْتهم به الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة المُنزلة، كما صَحَّح تلك الأساطير عن عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ.

ويمضي القرآن في بيانه الصريح: **﴿وإنْ من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾** [النساء: ١٥٩]. .

وقد اختلف السلف في مدلول هذه الآية، باختلافهم في عائد الضمير في «موته» فقال جماعة: وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى ـ عليه السلام ـ قبل موته ـ أي عيسى ـ وذلك على القول بنزوله قبيل الساعة. .

وقال جماعة وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى قبل موته. . أي موت الكتابي ـ وذلك على القول بأن الميت ـ وهو في سكرات الموت ـ يتَبينً له الحق، حيث لا ينفعه أن يعلم!

ونحن أميل إلى هذا القول الثاني؛ الذي تُرشح له قراءة أُبيّ: **﴿إلا ليؤمننّ به قبل موتهم﴾**. . فهذه القراءة تشير إلى عائد الضمير؛ وأنه أهل الكتاب. . وعلى هذا الوجه يكون المعنى: أن اليهود الذين كفروا بعيسى ـ عليه السلام ـ وما زالوا على كفرهم به، وقالوا: إنهم قتلوه وصلبوه، ما من أحد منهم يدركه الموت، حتى تُكشف له الحقيقة عند حشرجة الروح، فيرى أن عيسى حق، ورسالته حق، فيؤمن به، ولكن حين لا ينفعه إيمان. . ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً.

بذلك يحسم القرآن الكريم قصة الصلب. . لقد أنصف العقيدة الصحيحة في حكاية صلب المسيح ـ عليه السلام ـ كما أنصف العقيدة في رواية مولده سواء بسواء. . **﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾** [الأحزاب: ٤]. .

ونعود إلى ما تقدم في قوله تعالى:

﴿إذ قال الله: يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ [آل عمران: ٥٥]..

وأما أن الله جعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة.. فلا يصعب القول فيه. فالذين اتبعوه هم الذين يؤمنون بدين الله الصحيح.. الإسلام.. الذي عرف حقيقته كل نبي، وجاء به كل رسول، وآمن به كل مَن آمن حقاً بدين الله.. وهؤلاء فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة في ميزان الله.. كما أنهم كذلك في واقع الحياة كلما واجهوا معسكر الكفر بحقيقة الإيمان، وحقيقة الاتباع.. ودين الله واحد. وقد جاء به عيسى بن مريقم كما جاء به من قبله ومن بعده كل رسول. والذين يتبعون محمداً ـ ﷺ ـ هم في الوقت ذاته اتبعوا موكب الرسل كلهم. من لدن آدم ـ عليه السلام ـ إلى آخر الزمان.

وهذا المفهوم الشامل هو الذي يتفق مع حقيقة الدين.

فأما نهاية المطاف للمؤمنين والكافرين، فيقررها السياق في صدد إخبار الله لعيسى ـ عليه السلام ـ:

﴿ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون. فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين. وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم. والله لا يحب الظالمين﴾ [آل عمران: ٥٥ ـ ٥٧]..

وفي هذا النص تقرير لِجدّية الجزاء، وللقسط الذي لا يميل شعرة، ولا تتعلق به الأماني ولا الافتراء.. رجعة إلى الله لا محيد عنها. وحُكم من الله فيما اختلفوا فيه لا مرد له. وعذاب شديد في الدنيا والآخرة للكافرين لا ناصر لهم منه. وتوفية للأجر للذين آمنوا وعملوا الصالحات لا محاباة فيه ولا بخس.. **﴿والله لا يحب الظالمين﴾**.. فحاشا أن يظلم وهو لا يحب الظالمين..

وكل ما يقوله أهل الكتاب إذن من أنهم لن يدخلوا النار إلا أياماً معدودات. وكل ما رتبوه على هذا التميع في تصور عَدْل الله في جزائه من أماني خادعة. . باطل باطل لا يقوم على أساس.

أمارات الساعة ونزول المسيح عيسى ابن مريم:

لقد اقتربت الساعة، وهي موعد الحكم العدل والقول الفصل، وهي غيب اختصَّ الله سبحانه بعلمها وحده ﴿**قل: إنما علمها عند الله**﴾ [الأعراف: ١٨٧، الأحزاب: ٦٣]. .

وهذه هي الساعة قد دَنَتْ وها هي ذي أشراطها قد أوضحها رسول الله - ﷺ - كما أوضحها القرآن الكريم، حتى يستشعر بها القلب. يستشعر برهبة ذلك اليوم الثقيل بالأحداث الجسام. وعلامات الساعة على قسمين: علامات صغرى، وهي التي تتقدم الساعة بأزمان بعيدة متطاولة، وتكون في أصلها معتادة الوقوع، وعلامات كبرى، وهي التي تُقارب قيام الساعة مُقارَبة وشيكة سريعة. وتكون في ذاتها غير معتادة الوقوع[(١)].

ويقرر القرآن شيئاً عن عيسى - عليه السلام - يُذكرهم بأَمْر الساعة التي يُكذبون بها أو يشكُّون فيها:

﴿**وإنه لعلم للساعة. فلا تمترن بها واتبعون. هذا صراط مستقيم. ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين**﴾ [الزخرف: ٦١ - ٦٢]. .

وقد وردت أحاديث شتى عن نزول عيسى - عليه السلام - إلى الأرض قبيل الساعة وهو ما تشير إليه الآية: ﴿**وإنه لعلم للساعة**﴾ بمعنى أنه يُعلَم بقرب مجيئها، والقراءة الثانية ﴿**وإنه لَعَلَم للساعة**﴾ بمعنى أمارة وعلامة. وكلاهما قريب من قريب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «والذي

---

(١) انظر باب أشراط الساعة وعلاماتها في كتاب «اليوم الآخر في ظلال القرآن» ص ٩٧ - ١٤٦.

نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً(١)، فيكسر الصليب(٢)، ويقتل الخنزير(٣)، ويضع الجزية(٤)، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد»(٥) زاد في رواية «وحتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها»(٦). ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته**﴾»(٧)[النساء: ١٥٩]..

وفي رواية قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، ولتتركن

---

(١) أي حاكماً عادلاً. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري، ٣٥٦/٦: «والمعنى أنه ـ عليه السلام ـ ينزل حاكماً بهذه الشريعة، فإن هذه الشريعة باقية لا تنسخ، بل يكون عيسى ـ عليه السلام ـ حاكماً من حكّام هذه الأمة».

(٢) قال الحافظ ابن حجر: أي يبطل دين النصرانية، بأن يكسر الصليب حقيقة، ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه.

(٣) قال الحافظ ابن حجر: أي يأمر بإعدام الخنزير، مبالغة في تحريم أكله، وفيه توبيخ عظيم للنصارى الذين يدّعون أنهم على طريقة عيسى ـ عليه السلام ـ ثم يستحلون أكل الخنزير، ويبالغون في محبته.

(٤) أي عن أهلِ الكتاب، ويحملهم على الإسلام، ولا يقبل منهم غير الإسلام أو القتل، فيصير الدين واحداً، فلا يبقى أحد من أهل الذمة ليؤدي الجزية. قال الحافظ ابن حجر: «ويؤيده أن عند الإمام أحمد من وجه آخر عند أبي هريرة: (وتكون الدعوى ـ أي الملة ـ واحدة)».

(٥) أي يكثر المال جداً. وسبب كثرته نزول البركات، وتوالي الخيرات بسبب العدل وعدم الظلم، وحينئذ تُخرج الأرض كنوزها، وتقل الرغبات في اقتناء المال لعلم الناس بقرب الساعة.

(٦) وذلك أنهم لا يتقربون إلى الله إلا بالعبادة، لا بالتصدق بالمال لعدم الانتفاع به إذ لا أحد يقبله. قال العلاّمة فضل الله التوربشتي رحمه الله تعالى: لم تزل السجدة الواحدة في الحقيقة كذلك، أي خيراً من الدنيا وما فيها، وإنما أراد بذلك أن الناس يرغبون في أمر الله، ويزهدون في الدنيا، حتى تكون السجدة الواحدة أحبَّ إليهم من الدنيا وما فيها.

(٧) قال الحافظ ابن حجر: «قال ابن الجوزي: إنما تلا أبو هريرة هذه الآية للإشارة إلى مناسبتها لقوله ـ ﷺ ـ: «حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها»، فإنه يشير بذلك إلى صلاح الناس، وشدة إيمانهم وإقبالهم على الخير، فهم لذلك يؤثرون الركعة الواحدة على جميع الدنيا. والسجدة تطلق ويراد بها الركعة».

القِلاص[1] فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء[2] والتباغض والحسد، وليُدعون إلى المال فلا يقبله أحد»[3].

وفي رواية أبي داود أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ليس بيني وبينه ـ يعني عيسى ـ نبي، وأنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع، إلى الحمرة والبياض، ينزل بين مُمَصَّرَتين[4] كأَنَّ رأسه يقطر وإن لم يُصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدقّ الصليب، ويقتلِ الخنزير، ويضع الجزية، ويُهلك الله في زمانه المِلَل كلها إلا الإسلام، ويُهلكَ المسيح الدجال، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يُتَوفَّى، ويُصلي عليه المسلمون».

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى، فيقول أميرهم: تعال صَلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة»[5].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «كيف أنتم إذا نَزَل ابنُ مريم فيكم وإمامكم منكم»[6]..

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والذي

---

(١) القلاص: جمع قلوص: وهي الناقة.
(٢) الشحناء: العداوة. إنما تزول هذه الأمراض من القلوب والنفوس لزوال حبِّ الدنيا الذي هو سبب العداوات.
(٣) البخاري ومسلم.
(٤) مُمَصَّرَتين: ثوب مُمَصَّر إذا كان فيه صفرة خفيفة يسيرة. وفي رواية أحمد «.. فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجلاً مربوعاً، إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان مُمَصَّران..».
(٥) أخرجه مسلم.
(٦) أخرجه البخاري ومسلم، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٣٥٨/٦: وعند أحمد من حديث جابر في قصة الدجال ونزول عيسى: «وإذا هم بعيسى، فيقال: تقدم يا روح الله، فيقول: ليتقدم إمامكم فلْيَصلّ بكم».

نفسي بيده: لَيُهِلَّنَّ[1] ابن مريم بفجِّ الروحاء[2] حاجاً أو معتمراً، أو ليثنينهما»[3] .

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله - ﷺ - الدجَّال ذات غداة.. فقال - ﷺ -: «... إنه خارج خُلّة[4] بين الشام والعراق، فعاث يميناً، وعاث شمالاً[5] ... فبينما هو كذلك، إذ بعث الله المسيح بن مريم - عليه السلام - فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مَهْرُودتين[6] ، واضعاً كفيه على أجنحة مَلَكَين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدَّر منه جمان كاللؤلؤ[7] ، فلا يحل لكافر يجد ريحَ نَفَسِه إلا مات[8] ، ونَفَسه

---

(١) أي ليرفعن صوته بالتلبية قائلاً: لبَّيك اللهم لبيك، محرماً بحج أو بعمرة.
(٢) مكان بين المدينة وبدر. قيل يبعد عن المدينة ستة أميال.
(٣) والمعنى أو ليجمعن بين الحج والعمرة. والحديث أخرجه مسلم.
(٤) أي أنه يخرج قصداً وطريقاً بين الجهتين، والتخلل: الدخول في الشيء.
(٥) العيث: أشد الفساد، أي أفسد عن يمينه وأفسد عن شماله مسرعاً في إفساده أيما إسراع.
(٦) رويت هذه اللفظة بالدال والذال، يقال: إن الثوب صنع بالورس ثم بالزعفران جاء لونه مثل زهر الحوذانة، فذلك الثوب مهرود، ومعناه: ينزل - عليه السلام - في حلتين لابسهما، وفيهما صفرة خفيفة.
(٧) أي إذا خفض رأسه قطر منه الماء، وإذا رفعه تحدَّر منه تحدراً أي نزل ببطء، وصفة ذلك كالجمان وهو حبات من الفضة كبار، تشبه اللؤلؤ في صفائها وحسنها. وهذا كله كناية عن حسن سيدنا عيسى وجمال خلقته الشريفة عليه الصلاة والسلام إلى جمال ثيابه الذي تقدم ذكره، هذا ما ذكره العلماء في توجيه معنى جملة «إذا طأطأ رأسه قَطَر». وقد وصف رسول الله - ﷺ - عيسى - عليه السلام - في حديث آخر، رواه البخاري في صحيحه ٦/٣٤٩، ١٣/٨٥ بشرح الحافظ ابن حجر فقال في نعته «رجل آدم كأحسن ما أنت راء من أدم الرجال، سبط الشعر، له لمّة كأحسن ما أنت راء من اللمم تضرب لمته بين منكبيه، يقطر رأسه ماء، ربعة، أحمر كأنما خرج من ديماس، وتفسير هذه النعوت الكريمة: أسمر جميل السمرة جداً، له شعر ليس بجعد، طويل يضرب على منكبيه في غاية النظافة والنضارة والجمال، حتى كأنه يقطر من الماء الذي سرحه به، مربوع القامة، تعلو وجهه حمرة، كأنه خرج من الحمام تتحدر من وجهه حبات الماء كاللؤلؤ الوضّاء.
(٨) أي لا يمكن ولا يقع لكافر يجد ريح نَفَس عيسى - عليه السلام - إلا مات. قال العلاّمة القرطبي: يعني أن الله سبحانه قوّى نَفَس عيسى - عليه السلام - حتى يصل إلى إدراك =

ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه [أي يطلب المسيح الدجال] حتى يدركه بباب لُدّ (١) ، فيقتله، ثم يأتي عيسى بن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم(٢) ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم، أني قد أخرجتُ عباداً لي، لا يدانِ لأحد بقتالهم (٣) ، فحرِّز عبادي إلى الطور(٤) ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون(٥) ، فيمرُّ أوائلهم على بحيرة طبرية(٦) فيشربون ما فيها، ويمرُّ آخرهم، فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويُحصر نبي الله عيسى ـ عليه السلام ـ وأصحابه(٧) ، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مئة دينار، فيرغب نبي الله عيسى ـ عليه السلام ـ وأصحابه، فيرسل الله عليهم النَّغَف(٨) في رقابهم فيصبحون فَرْسىٰ(٩) ، كموت نفس واحدة، ثم يهبط

= نصره، ومعناه أن الكفار لا يقربونه، وإنما يُهلَكون عند رؤيته ووصول نَفَسه إليهم، حفظ من الله سبحانه له، وإظهار لكرامته (انظر شرح مسلم ٧/٢٧٢).

وقال العلاّمة علي القاري: ومن الغريب أن نَفَس عيسى عليه الصلاة والسلام تعلق به الإحياء لبعض، والإماتة لبعض.

(١) بلدة معروفة الآن في فلسطين، قريبة من بيت المقدس.

(٢) قال العلاّمة علي القاري رحمه الله تعالى: أي يزيل عن وجوههم ما أصابها من غبار سَفَر الغزو مبالغة في إكرامهم، أو المعنى: يكشف ما نزل بهم من آثار الكآبة والحزن على وجوههم بما يسرّهم من خبره لهم بقتل الدجال.

(٣) أي لا قدرة ولا طاقة لأحد بمقاتلتهم.

(٤) أي ضمهم إلى الطور واجعله لهم حرزاً. والطور: هو الجبل الذي ناجى عليه سيدنا موسى ربه.

(٥) الحدب: المرتفع من الأرض، وينسلون: يسرعون. يعني أنهم يتفرقون في الأرض فلا ترى مرتفعاً من الأرض إلا وقوم منهم يهبطون منه مسرعين في المشي إلى الفساد.

(٦) بحيرة معروفة ومشهورة في فلسطين.

(٧) أي يُحاصَرون ويُحبَسون في جبل الطور.

(٨) دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

(٩) فرسىٰ: جمع فريس، وهو القتيل. وفرسىٰ: أي موتى!

قال العلاّمة التوربشتي رحمه الله تعالى: يعني أن القهر الإلهي الغالب على كل شيء يفرسهم دفعة واحدة، فيصبحون قتلى! وقد نبَّه ـ ﷺ ـ بالكلمتين أعني: «النغف» و «فرسىٰ» =

نبي الله عيسى ـ عليه السلام ـ وأصحابه إلى الأرض[1] ، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمُهم[2] ونتْنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت[3] ، فتحملهم فتطرحهم حيثما شاء اللهَ، ثم يرسل الله مطراً لا يكنُّ منه بيت مدَرٍ ولا وَبَرٍ[4] ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلقة[5] ، ثم يُقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردّي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة[6] الرمانة، ويستظلون بقحفها[7] ، ويبارك في الرِّسْلِ[8] ، حتى إن اللقحة[9] من الإبل لتكفي الفئام من الناس[10]، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ[11] من الناس، فبينما هم كذلك، إذ بعثَ الله ريحاً طيبة، فيأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحُمر[12]، فعليهم تقوم الساعة»[13].

= على أن الله سبحانه يُهلكهم في أدنى ساعة بأهون شيء وهو النغف، فيفرسهم فرس السبع فريسته بعد أن طارت نعرة البغي في رؤوسهم ـ خيلاؤه وكبره ـ فزعموا أنهم قاتلوا مَن في السماء!

(١) أي ينزلون من جبل الطور.
(٢) أي رائحتهم الكريهة.
(٣) البخت: نوع من الجمال طوال الأعناق. أي يرسل الله طيراً كبيرة طويلة قوية.
(٤) أي لا يحفظ ولا يصون منه بيت تراب أو حجر أو صوف أو شعر.
(٥) أي كالمرآة في صفائها ونظافتها.
(٦) أي الجماعة.
(٧) أي بقشرها لشدة كبرها.
(٨) أي اللبن الحليب.
(٩) الناقة التي يكون لها لبن.
(١٠) الفئام: الجماعة الكثيرة.
(١١) أي الجماعة أقل من القبيلة.
(١٢) التهارج: الاختلاف والاختلاط، وأصله القتل. والمعنى أنهم يتسافدون في الأرض تسافد الحمير، أي يجامع الرجال علانية النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير، ولا يكترثون لذلك. والهرج: الجماع. وهذا نموذج لشيوع الفساد والفواحش حينذاك. إذ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه ١٨ : ٨٨: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس».
(١٣) أخرجه مسلم.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يخرج الدجال في خِفّة من الدين[1]، وإدبار من العلم، وله أربعون يوماً يسيحها في الأرض... ومعه فتنة عظيمة... ثم ينزل عيسى ابن مريم من السَحَر، فيقول: يا أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذّاب الخبيث؟ فيقولون: هذا رجل جِنّي[2]، فينطلقون فإذا هم بعيسى ابن مريم، فتُقام الصلاة، فَيُقال له: تقدم يا روح الله، فيقول: ليتقدم إمامكم فليصل بكم، فإذا صلّى صلاة الصبح خرجوا إليه. فحين يراه الكذاب ينماث كما ينماث الملح في الماء[3]، فيمشي إليه فيقتله، حتى إن الشجر والحجر ينادي: يا روح الله هذا اليهودي، فلا يترك ممن كان يتبعه أحداً إلا قتله»[4].

إن نزول عيسى - عليه السلام - إلى الأرض أمارة وعلامة للساعة، وهو غيب من الغيب الذي حدّثنا عنه الصادق الأمين وأشار إليه القرآن الكريم، ولا قول فيه لبشر إلا ما جاء من هذين المصدرين الثابتين إلى يوم الدين..

حسم وتوكيد ومواجهة:

ويبين القرآن الكريم شأن النصارى في حسم وتوكيد:

﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال المسيح: يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم. إنه مَن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، ومأواه النار، وما للظالمين من أنصار.. لقد كفر الذين قالوا: إن الله

---

(١) أي في حال ضعف من الدين وقلة أهله. ولفظ: «في خفة» رواية الحاكم، ورواية أحمد: «في خفقة من الدين» والمعنى واحد، مأخوذ من خفق الليل إذا ذهب، أو خفق الأمر إذا اضطرب.

(٢) هذا كناية عن شدة أذاه.

(٣) أي يختفي ويتوارى كما يذوب الماء في الملح.

(٤) رواه أحمد في «مسنده» وصححه الحاكم في «المستدرك» ورجاله ثقات. وقال الذهبي في تلخيص المستدرك: ٥٣٠: «وهو على شرط مسلم»، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ٧/٣٤٤ وقال: رواه أحمد بإسنادين، رجال أحدهما رجال الصحيح.

ثالث ثلاثة. وما من إله إلا إله واحد. وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّن الذين كفروا منهم عذاب أليم. أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه؟ والله غفور رحيم. ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأُمه صدِّيقة كانا يأكلان الطعام. انظر كيف نبين لهم الآيات، ثم انظر أنى يؤفكون. قل: أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً؟ والله هو السميع العليم؟﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٦].

ولقد سبق أن بَيَّنا كيف ومتى تسربت هذه المقولات المنحرفة من المجامع إلى العقيدة النصرانية التي جاء بها عيسى ـ عليه السلام ـ رسولاً من عند الله، كإخوانه الرسل؛ الذين جاءوا بكلمة التوحيد خالصة؛ لا يشوبها ظل من الشرك؛ لأن الرسالات كلها، جاءت لتقرير كلمة التوحيد في الأرض وإبطال كلمة الشرك.

ونذكر باختصار ما انتهت إليه تلك المجامع من الاتفاق على التثليث وألوهية المسيح والخلاف فيما بينها بعد ذلك..

«جاء في كتاب «سوسنة سليمان» لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصراني: أن عقيدة النصارى التي لا تختلف بالنسبة لها الكنائس، وهي أصل الدستور الذي بيَّنه المجمع النيقاوي هي الإيمان بإله واحد: آب واحد، ضابط الكل، خالق السموات والأرض، كل ما يُرى وما لا يُرى. وبرب واحد يسوع، الإبن الوحيد المولود من الآب قبل الدهور من نور الله. إله حق من إله حق. مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، والذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خطايانا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء تأنس، وصُلِبَ عنا على عهد بيلاطس، وتألم وقبر، وقام من الأموات في اليوم الثالث على ما في الكتب، وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب، وسيأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات، ولا فناء لُملكه.

والإيمان بالروح القدس، الرب المحيي المنبثق من الآب، الذي هو مع الإبن يسجد له، ويمجده، الناطق بالأنبياء».

«وقال الدكتور «بوست» في تاريخ الكتاب المقدس: طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الآب، والله الإبن، والله الروح القدس. فإلى الآب ينتمي الخلق بواسطة الإبن. وإلى الإبن الفداء. وإلى الروح القدس التطهير»[1].

ونظراً لصعوبة تصور الأقانيم الثلاثة في واحد، وصعوبة الجمع بين التوحيد والتثليث، فإن الكتّاب النصارى عن اللاهوت حاولوا تأجيل النظر العقلي في هذه القضية، التي يرفضها العقل ابتداء. ومن ذلك ما كتبه القس «بوطر» في رسالة «الأصول والفروع» وقد تقدم نقل بعض أقواله، ونعيدها هنا وزيادة..

«قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا. ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاء في المستقبل حين يكشف لنا الحجاب عن كل ما في السموات وما في الأرض. وأما في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه كفاية»[2].

والله ـ سبحانه ـ يقول: إن هذه المقولات كلها كفر. وهي تتضمن ـ كما رأينا ـ القول بألوهية المسيح ـ عليه السلام ـ والقول بأن الله ثالث ثلاثة.. وليس بعد قول الله ـ سبحانه ـ قول. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل:

﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال المسيح: يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم..﴾.

وهكذا حذرهم المسيح ـ عليه السلام ـ فلم يحذروا، ووقعوا بعد وفاته عنهم فيما حذَّرهم من الوقوع فيه، وما أنذرهم عليه الحرمان من الجنة والانتهاء إلى النار.. ونسوا قول المسيح ـ عليه السلام ـ: **﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وبكم﴾**..

---

(١)، (٢) نقلاً عن كتاب «محاضرات في النصرانية» للأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة.

حيث أعلن لهم أنه هو وهم في العبودية سواء، لربوبية الله الواحد الذي ليس له من شركاء.

ويستوفي القرآن الحكم على سائر مقولاتهم الكافرة: **﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة﴾**..

ويقرر القرآن الحقيقة التي تقوم عليها كل عقيدة جاء بها رسول من عند الله: **﴿وما من إله إلا إله واحد﴾**..

ويهددهم عاقبة الكفر الذي ينطقون به ويعتقدونه: **﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾**..

والكافرون هم الذين لا ينتهون عن هذه المقولات التي حكم عليها بالكفر الصراح.

ثم أردف التهديد والوعيد بالتحضيض والترغيب: **﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾**..

ليبقي لهم باب التوبة مفتوحاً؛ وليطمعهم في مغفرة الله ورحمته، قبل فوات الأوان....

ثم واجههم بالمنطق الواقعي القويم، لعله يَردّ فطرتهم إلى الإدراك السليم. مع التعجيب من أمرهم في الانصراف عن هذا المنطق بعد البيان والإيضاح:

﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأُمه صدِّيقة، كانا يأكلان الطعام. أُنظر كيف نبين لهم الآيات. ثم انظر أنى يؤفكون..﴾.

وأكل الطعام مسألة واقعية في حياة المسيح - عليه السلام - وأُمه الصديقة. وهي خصيصة من خصائص الأحياء الحادثين، ودليل على بشرية المسيح وأمه - أو على ناسوته بتعبيرهم اللاهوتي - فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لا مراء فيها. ولا يكون إلهاً مَن يحتاج إلى الطعام ليعيش. فالله حي

بذاته، قائم بذاته، باق بذاته، لا يحتاج، ولا يدخل إلى ذاته ـ سبحانه ـ أو يخرج منها شيء حادث كالطعام . .

ونظراً لوضوح هذا المنطق الواقعي ونصاعته التي لا يجادل فيها إنسان يعقل، فإنه يعقب عليه باستنكار موقفهم والتعجيب من انصرافهم عن ذلك المنطق البين: ﴿**انظر كيف نبين لهم الآيات، ثم انظر أنّى يؤفكون**﴾ . .

ولقد كانت هذه الحياة البشرية الواقعية للمسيح ـ عليه السلام ـ مصدر تعب لَمن أرادوا تأليهه ـ على الرغم من تعاليمه ـ فقد احتاجوا إلى كثير من الجدل والخلاف حول لاهوتية المسيح ـ عليه السلام ـ وناسوتيته كما ذكرنا.

واستطراداً في ذلك المنطق القرآني المبين من زاوية أخرى يجيء هذا الاستنكار:

﴿**قل: أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً؛ والله هو السميع العليم**﴾؟ . .

ويختار التعبير بكلمة «بما» بدل كلمة «من» في هذا الموضع قصداً. ليدرج «المخلوقات» التي تعبد كلها ـ بما فيها من العقلاء ـ في سلك واحد. لأنه يشير إلى ماهيتها المخلوقة الحادثة البعيدة عن حقيقة الألوهية. فيدخل عيسى، ويدخل روح القدس، وتدخل مريم، كلهم في «ما» لأنهم بماهيتهم من خلق الله. ويلقي هذا التعبير ظله كذلك في هذا المقام؛ فيبعد أن يكون أحد من خلق الله مستحقاً للعبادة؛ وهو لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً: ﴿**والله هو السميع العليم**﴾ . .

الذي يسمع ويعلم، ومن ثم يضر وينفع. كما أنه هو الذي يسمع دعاء عبيده وعبادتهم إياه، ويعلم ما تُكنّه صدورهم وما يكمن وراء الدعاء والعبادة. . فأما ما سواه فلا يسمع ولا يعلم ولا يستجيب الدعاء.

ويُعقّب على هذا كله بدعوة جامعة، يكلف رسول الله ـ ﷺ ـ أن يوجهها إلى أهل الكتاب:

﴿قل: يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم ضلوا من قبل، وأضلوا كثيراً. وضلوا عن سواء السبيل﴾ [المائدة: ٧٧].

فمن الغلو[١] في تعظيم عيسى ـ عليه السلام ـ جاءت كل الانحرافات. ومن أهواء الحكام الرومان الذين دخلوا النصرانية بوثنيتهم، ومن أهواء المجامع المتناحرة كذلك دخلت كل تلك المقولات على دين الله الذي أُرسل به المسيح، فَبلَّغه بأمانة الرسول، وهو يقول لهم: **﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم. إنه مَن يُشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة، ومأواه النار، وما للظالمين من أنصار﴾** [المائدة: ٧٢]. .

وهذا النداء الجديد هو دعوة الإنقاذ الأخيرة لأهل الكتاب، ليخرجوا بها من خضم الانحرافات والاختلافات والأهواء والشهوات الذي خاض فيه أولئك الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل. .

ونقف أمام هذا البيان القرآني أمام ثلاث حقائق كبيرة، يحسن الإلمام بها في إجمال:

الحقيقة الأولى: هي حقيقة هذا الجهد الكبير، الذي يبذله المنهج الإسلامي، لتصحيح التصور الاعتقادي، وإقامته على قاعدة التوحيد المطلقة؛ و تنقيته من شوائب الوثنية والشرك التي أفسدت عقائد أهل الكتاب، وتعريف الناس بحقيقة الألوهية؛ وإفراد الله ـ سبحانه ـ بخصائصها، وتجريد البشر وسائر الخلائق من هذه الخصائص. .

وهذا الاهتمام البالغ بتصحيح التصور الاعتقادي، وإقامته على قاعدة التوحيد الكامل الحاسم، يدل على أهمية هذا التصحيح وأهمية التصور

---

(١) عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تطروني كما أَطْرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» إسناده صحيح على شرط الشيخين، رواه ابن حبان (٦٢٣٩) ورواه في الحديث المطول برقم (٤١٣) و(٤١٤) انظر الإحسان رقم (٤١٣، ٤١٤).

الاعتقادي في بناء الحياة الإنسانية وفي صلاحها، كما يدل على اعتبار الإسلام للعقيدة بوصفها القاعدة والمحور لكل نشاط إنساني، ولكل ارتباط إنساني كذلك.

والحقيقة الثانية: هي تصريح القرآن الكريم بِكُفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم؛ أو قالوا: إن الله ثالث ثلاثة: فلم يعد لمسلم ـ بعد قَول الله سبحانه ـ قَول. ولم يعد يحق لمسلم أن يعتبر أن هؤلاء على دين الله. والله ـ سبحانه ـ يقول: إنهم كفروا بسبب هذه المقولات.

وإذا كان الإسلام لا يُكره أحداً على ترك ما هو عليه مما يعتقده لاعتناق الإسلام، فهو في الوقت ذاته لا يُسمي ما عليه غير المسلمين ديناً يرضاه الله. بل يُصرح هنا بأنه كفر ولن يكون الكفر ديناً يرضاه الله.

والحقيقة الثالثة: المترتبة على هاتين الحقيقتين، أنه لا يمكن قيام وَلَاء وتَنَاصر بين أحد من أهل الكتاب هؤلاء وبين المسلم الذي يدين بوحدانية الله كما جاء بها الإسلام، ويعتقد بأن الإسلام في صورته التي جاء بها محمد ـ ﷺ ـ هو وحده «الدين» عند الله..

ومن ثم يصبح الكلام عن التناصر بين أهل «الأديان» أمام الإلحاد كلاماً لا مفهوم له في اعتبار الإسلام! فمتى اختلفت المعتقدات على هذا النحو الفاصل، لم يعد هناك مجال للالتقاء على ما سواها. فكل شيء في الحياة يقوم أولاً على أساس العقيدة.. في اعتبار الإسلام..

المشهد العظيم:

إن القرآن الكريم يلقي ببيانه لتصحيح العقيدة، وتقويم ما دَخَل عليها عند النصارى من انحرافات أخرجتها عن أصلها السماوي عند قاعدتها الأساسية. إذ أخرجتها من التوحيد المطلق الذي جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ كما جاء به كل رسول قبله، إلى ألوان من الشرك، لا علاقة لها أصلاً بدين الله.

ومن ثم فإن هذا البيان كذلك يستهدف تقرير حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ـ كما هي في التصور الإسلامي ـ تقرير هذه الحقيقة من خلال هذا المشهد العظيم الذي يعرضه؛ والذي يقرر فيه عيسى ـ عليه السلام ـ على مَلأ من الرسل، ومن البشر جميعاً، أنه لم يقل لقومه شيئاً مما زعموه من أُلوهيته ومن تأْليه أُمه؛ وأنه ما كان له أن يقول من هذا الشرك كله شيئاً!

والسياق القرآني يعرض هذه الحقيقة في مشهد تصويري من «مشاهد القيامة» التي يعرضها القرآن الكريم عرضاً حياً ناطقاً، موحياً مؤثراً، عميق التأثير، يهتز له الكيان البشري وهو يتلقاه كأنما يشهده لِلحظة في الواقع المنظور. الواقع الذي تراه العين، وتسمعه الأذن. وتتجلى فيه الانفعالات والسمات النابضة بالحياة.

فها نحن أولاء أمام المشهد العظيم:

﴿يوم يجمع الله الرسل، فيقول ماذا أُجبْتم؟ قالوا: لا علم لنا إنك أنت علّام الغيوب﴾ [المائدة: ١٠٩]. .

يوم يجمع الله الرسل الذين فرّقهم في الزمان فتتابعوا على مداره؛ وفرّقهم في المكان فذهب كل إلى قريته؛ وفرّقهم في الأجناس فمضى كل إلى قومه. . يدعون كلهم بدعوة واحدة على اختلاف الزمان والمكان والأقوام؛ حتى جاء خاتمتهم ـ ﷺ ـ بالدعوة الواحدة لكل زمان ومكان وللناس كافة من جميع الأجناس والألوان. .

هؤلاء الرسل إلى شتى الأقوام، في شتى الأمكنة والأزمان. . ها هو ذا مُرسلهم فرادى، يجمعهم جميعاً؛ ويجمع فيهم شتى الاستجابات، وشتى الاتجاهات. وها هم أولاء. . نقباء البشرية في حياتها الدنيا؛ ومعهم رسالات الله إلى البشرية في شتى أرجائها، ووراءهم استجابات البشرية في شتى أعصارها. هؤلاء هم أمام الله. . ربّ البشرية ـ سبحانه ـ في مشهد يوم عظيم.

وها هو ذا المشهد ينبض بالحياة: ﴿**يوم يجمع الله الرسل. فيقول: ماذا أُجبتم؟**﴾.

﴿**ماذا أُجبتم؟**﴾.. فاليوم الحصيلة، ويضم الشتات، ويقدم الرسل حساب الرسالات، وتعلن النتائج على رؤوس الأشهاد.

﴿**ماذا أُجبتم؟**﴾.. والرسل بشر من البشر، لهم علم ما حَضَر، وليس لديهم علم ما استتر.

لقد دعوا أقوامهم إلى الهدى؛ فاستجاب منهم مَن استجاب، وتولى منهم مَن تولى.. وما يعلم الرسول حقيقة مَن استجاب إن كان يعرف حقيقة مَن تولى. فإنما له ظاهر الأمر وعِلْم ما بَطَن للّه وحده.. وهم في حضرة الله الذي يعرفونه خير مَن يعرف؛ والذي يهابونه أشد مَن يهاب؛ والذين يستحيون أن يدلوا بحضرته بشيء من العلم وهم يعلمون أنه العليم الخبير..

إنه الاستجواب المرهوب في يوم الحشر العظيم، على مشهد من الملأ الأعلى، وعلى مشهد من الناس أجمعين. الاستجواب الذي يُراد به المواجهة.. مواجهة البشرية بِرُسلها؛ ومواجهة المكذبين من هذه البشرية خاصة برسلهم الذين كانوا يُكذبونهم. ليعلن في موقف الإعلان، أن هؤلاء الرسل الكرام إنما جاءوهم من عند الله بدين الله؛ وها هم أولاء مسؤولون بين يديه ـ سبحانه ـ عن رسالاتهم وعن أقوامهم الذين كانوا من قبل يكذبون.

أما الرسل فهم يعلنون أن العلم الحق للّه وحده؛ وأن ما لديهم من علم لا ينبغي أن يدلوا به في حضرة صاحب العلم، تأدباً وحياء، ومعرفة بقدرهم في حضرة الله: ﴿**قالوا: لا عِلْم لنا. إنك أنت علّام الغيوب**﴾.

فأما سائر الرسل ـ غير عيسى عليه السلام ـ فقد صَدَّق بهم مَن صَدّق، وقد كفر بهم مَن كفر؛ ولقد انتهى أمرهم بهذا الجواب الكامل الشامل، الذي يدع العلم كله للّه، ويدع الأمر كله بين يديه سبحانه.. فما يزيد السياق شيئاً في هذا المشهد عنهم.. إنما يلتفت بالخطاب إلى عيسى بن مريم وحده، لأن

عيسى بن مريم هو الذي فُتن قومه فيه، وهو الذي غَام الجوّ حوله بالشُبهات، وهو الذي خاض ناس في الأوهام والأساطير حول ذاته، وحول صفاته، وحول نشأته ومنتهاه.

يلتفت الخطاب إلى عيسى بن ـ مريم ـ على الملأ ممن أَلَّهوه وعَبَدوه وصاغوا حوله وحول أُمه ـ مريم ـ التهاويل.. يلتفت إليه يُذكره نعمة الله عليه وعلى والدته؛ ويستعرض المعجزات التي آتاها الله إياه ليصدق الناس برسالته، فكذَّبه مَن كَذَّبه منهم أشد التكذيب وأقبحه؛ وفُتِنَ به وبالآيات التي جاءت معه مَن فُتن؛ وأَلَّهوه مع الله من أجل هذه الآيات، وهي كلها من صُنع الله الذي خَلَقه وأرسله وأيده بالمعجزات:

﴿**وإذ قال الله: يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك. إذ أيدتك بروح القدس، تُكَلّم الناس في المهد وكهلاً. وإذ عَلّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني. وتُبرىء الأَكْمه والأبرص بإذني. وإذ تُخرج الموتى بإذني. وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم: إن هذا إلا سحر مبين. وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي، قالوا: آمنا واشهد بأننا مسلمون**﴾ [المائدة: ١١٠ ـ ١١١].

إنها المواجهة بما كان من نِعَم الله على عيسى بن مريم وأُمه.. من تأييده بروح القدس في مَهده، وهو يكلم الناس في غير موعد الكلام؛ يُبرّىء أُمه من الشُبهة التي أثارتها ولادته على غير مثال؛ ثم وهو يكلمهم في الكهولة يدعوهم إلى الله.. وروح القدس جبريل ـ عليه السلام ـ يُؤيده هنا وهناك.. ومن تعليمه الكتاب والحكمة؛ وقد جاء إلى هذه الأرضِ لا يعلم شيئاً، فعلّمه الكتابة وعلّمه كيف يحسن تصريف الأمور، كما علّمه التوراة التي جاء فوجدها في بني إسرائيل، والإنجيل الذي آتاه إياه مُصدقاً لما بين يديه من التوراة. ثم من إيتائه خارق المعجزات التي لا يَقدر عليها بشر إلا بإذن الله.

فإذا هو يُصوّر من الطين كهيئة الطير بإذن الله؛ فينفخ فيها فتكون طيراً

بإذن الله ـ لا ندري كيف لأننا لا ندري إلى اليوم كيف خَلَق الله الحياة، وكيف يبث الحياة في الأحياء ـ وإذا هو يبرىء المولود أعمى ـ بإذن الله ـ حيث لا يعرف الطب كيف يرد إليه البصر ـ ولكن الله الذي يهب البصر أصلاً قادر على أن يفتح عينيه للنور ـ ويُبرىء الأبرص بإذن الله، لا بدواء ـ والدواء وسيلة لتحقيق إذْن الله في الشفاء، وصاحب الإذن قادر على تغيير الوسيلة، وعلى تحقيق الغاية بلا وسيلة ـ وإذا هو يحيي الموتى بإذن الله ـ وواهب الحياة أول مرة قادر على رجعها حين يشاء ـ ثم يُذكره بنعمة الله عليه في حمايته من بني إسرائيل إذ جاءهم بهذه البينات كلها فكذبوه وزعموا أن معجزاته هذه الخارقة سحر مبين! ذلك أنهم لم يستطيعوا إنكار وقوعها ـ وقد شهدتها الألوف ـ ولم يريدوا التسليم بدلالتها عناداً وكبراً . . حمايته منهم فلم يقتلوه ـ كما أرادوا ولم يصلبوه. بل تَوفّاه الله ورفعه إليه . . كذلك يُذَكّره بنعمة الله عليه في إلهام الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله؛ فإذا هم مُلَبُّون مستسلمون، يُشهدونه على إيمانهم وإسلامهم أنفسهم كاملة لله:

﴿وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي. قالوا: آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ . .

إنها النعم التي آتاها الله عيسى بن مريم، لتكون له شهادة وبَيّنة. فإذا كثرة من أتباعه تتخذ منها مادة للزيغ؛ وتصوغ منها وحولها الأضاليل ـ فها هو ذا عيسى يُواجَه بها على مشهد من الملأ الأعلى، ومن الناس جميعاً، ومنهم قومه الغالون فيه . . ها هو ذا يواجَه بها ليسمع قومه ويَروا؛ وليكون الخزي أوجع وأفضح على مشهد من العالمين!

قصة المائدة :

والقرآن الكريم يُذكر بنعمة من نِعَم الله على قوم عيسى ـ عليه السلام ـ ومن مُعجزاته التي أيَّده الله بها وشهدها وشهد بها الحواريون:

﴿إذ قال الحواريون: يا عيسى بن مريم، هل يستطيع ربك أن ينزل

علينا مائدة من السماء؟ قال: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ [المائدة: ١١٢].

ويكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى.. المُسْتَخْلَصين منهم وهم الحواريون.. فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا - ﷺ - فرق بعيد..

إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى. فآمنوا. وأَشْهَدُوا عيسى على إسلامهم.. ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا، يطلبون خارقة جديدة. تطمئن بها نفوسهم. ويعلمون منها أنه صَدَقهم. ويشهدون بها له لِمَن وراءهم.

فأما أصحاب محمد - ﷺ - فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم.. لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان. ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان. ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن..

هذا هو الفارق الكبير بين حواريي عيسى - عليه السلام - وحواريي محمد - ﷺ - ذلك مستوى، وهذا مستوى.. وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون.. وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون.. ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله..

وقصة المائدة - كما أوردها القرآن الكريم - لم ترد في كتب النصارى. ولم تُذكر في هذه الأناجيل التي كُتبت متأخرة بعد عيسى - عليه السلام - بفترة طويلة، لا يُؤْمَن معها على الحقيقة التي تنزّلت من عند الله.

وهذه الأناجيل ليست إلا رواية بعض القديسين عن قصة عيسى - عليه السلام - وليست هي ما أنزله الله عليه وسماه الإنجيل الذي آتاه..

ولكن ورد في هذه الأناجيل خبر عن المائدة في صورة أخرى: فَوَرَد في إنجيل متّى في نهاية الإصحاح الخامس عشر: «وأما يسوع فدعا تلاميذه، وقال: إني أشفق على الجميع، لأن لهم الآن ثلاثة أيام يمشون معي، وليس لهم ما يأكلون. ولست أريد أن أصرفهم صائمين لئلا يخوروا في الطريق. فقال له

تلاميذه: من أين لنا في البرية خبز بهذا المقدار حتى يشبع جمعاً هذا عدده؟ فقال لهم يسوع: كم عندكم من الخبز؟ فقالوا: سبعة وقليل من صغار السمك. فأمر الجميع أن يتكئوا على الأرض؛ وأخذ السبع خبزات والسمك، وشكر وكسر، وأعطى تلاميذه، والتلاميذ أعطوا الجمع، فأكل الجمع وشبعوا، ثم رفعوا ما فضل من الكسر سبعة سلال مملوءة، والآكلون كانوا أربعة آلاف، ما عدا النساء والأولاد»... وورد مثل هذه الرواية في سائر الأناجيل..

وبعض التابعين ـ رضوان الله عليهم ـ كمجاهد والحسن ـ يريان أن المائدة لم تنزل. لأن الحواريين حينما سمعوا قول الله سبحانه:

﴿إني منزلها عليكم فمَن يكفر بعد منكم فإني أُعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ [المائدة: ١١٥].. خافوا وكَفّوا عن طلب نزولها..

قال ابن كثير في التفسير: «روى الليث بن أبي سليم عن مجاهد قال: «هو مثل ضَرَبه الله ولم ينزل شيء» (رواه ابن أبي حاتم وابن جرير). ثم قال ابن جرير: حدثنا الحارث، حدثنا القاسم ـ هو ابن سلام ـ حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال: مائدة عليها طعام أَبَوْهَا حين عرض عليهم العذاب إن كفروا، فأبوا أن تنزل عليهم..

وقال أيضاً؛ حدثنا أبو المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور بن زاذان، عن الحسن، أنه قال في المائدة: إنها لم تنزل..

وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: كان الحسن يقول: لما قيل لهم: **﴿فمَن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾** قالوا: لا حاجة لنا فيها، فلم تنزل».

ولكن أكثر آراء السلف على أنها نزلت. لأن الله تعالى قال: **﴿إني منزلها عليكم﴾**. وَوَعْد الله حق. وما أورده القرآن الكريم عن المائدة هو الذي نعتمده في أمرها دون سواه..

لقد كان الحواريون ـ وهم تلامذة المسيح وأقرب أصحابه إليه وأعرفهم

به ـ يعرفون أنه بشر. . ابن مريم. . وينادونه بما يعرفونه عنه حق المعرفة. وكانوا يعرفون أنه ليس رباً وإنما هو عبد مربوب للّه. وأنه ليس ابن الله، إنما هو ابن مريم ومن عبيد الله؛ وكانوا يعرفون كذلك أن ربه هو الذي يصنع تلك المعجزات الخوارق على يديه، وليس هو الذي يصنعها من عند نفسه بقدرته الخاصة. . لذلك حين طلبوا إليه، أن تُنَزّل عليهم مائدة من السماء، لم يطلبوها منه، فهم يعرفون أنه بذاته لا يقدر على هذه الخارقة. وإنما سألوه:

﴿يا عيسى بن مريم، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟﴾ [المائدة: ١١٢].

واختلفت التأويلات في قولهم: «هل يستطيع ربك». . كيف سألوا بهذه الصيغة بعد إيمانهم بالله وإشهاد عيسى ـ عليه السلام ـ على إسلامهم له. وقيل: إن معنى يستطيع ليس (يقدر) ولكن المقصود هو لازم الاستطاعة وهو أن يُنزلها عليهم. وقيل: إن معناها: هل يستجيب لك إذا طلبت. وقُرئت: «هل تسطيع ربك». بمعنى هل تملك أنت أن تدعو ربك لينزل علينا مائدة من السماء. .

وعلى أية حال فقد رد عليهم عيسى ـ عليه السلام ـ مُحذراً إياهم من طلب هذه الخارقة. . لأن المؤمنين لا يطلبون الخوارق، ولا يقترحون على الله: **﴿قال: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾** [المائدة: ١١٢].

ولكن الحواريين كرروا الطلب، مُعلنين عن علته وأسبابه وما يرجون من ورائه:

﴿قالوا: نريد أن نأكل منها، وتطمئن قلوبنا، ونعلم أن قد صَدَقْتنا، ونكون عليها من الشاهدين﴾ [المائدة: ١١٣]. .

فهم يريدون أن يأكلوا من هذا الطعام الفريد الذي لا نظير له عند أهل الأرض. وتطمئن قلوبهم برؤية هذه الخارقة وهي تتحقق أمام أعينهم؛ ويستيقنوا أن عيسى ـ عليه السلام ـ قد صَدَقهم، ثم يكونوا مشهوداً لدى بقية

قومهم على وقوع هذه المعجزة. وكلها أسباب كما قلنا تُصوّر مُستوىً معيناً دون مستوى أصحاب محمد ـ ﷺ ـ فهؤلاء طراز آخر بالموازنة مع هذا الطراز!

عندئذ اتجه عيسى ـ عليه السلام ـ إلى ربه يدعوه:

﴿قال عيسى ابن مريم: اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا، وآية منك، وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ [المائدة: ١١٤]..

وفي دعاء عيسى ـ بن مريم ـ كما يكرر السياق القرآني هذه النسبة ـ أدب العبد المُجتبى مع إلهه ومعرفته بربه. فهو يناديه: يا الله. يا ربنا. إنني أدعوك أن تُنزل علينا مائدة من السماء، تعمنا بالخير والفرحة كالعيد، فتكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا؛ وأن هذا من رزقك فارزقنا وأنت خير الرازقين.. فهو إذن يعرف أنه عبد، وأن الله ربه. وهذا الاعتراف يُعرض على مشهد من العالمين، في مواجهة قومه، يوم المشهد العظيم!

واستجاب الله دعاء عبده الصالح عيسى بن مريم؛ ولكن بالجد اللائق بجلاله سبحانه.. لقد طلبوا خارقة. واستجاب الله. على أن يُعذّب مَن يكفر منهم بعد هذه الخارقة عذاباً شديداً بالغاً في شدته لا يعذبه أحداً من العالمين:

﴿قال الله: إني مُنزلها عليكم، فمَن يكفر بعد منكم، فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ [المائدة: ١١٥]..

فهذا هو الجد اللائق بجلال الله؛ حتى لا يصبح طلب الخوارق تسلية ولهواً. وحتى لا يمضي الذين يكفرون بعد البرهان المفحم دون جزاء رادع!

وقد مضت سنّة الله من قبل بهلاك مَن يكذبون بالرسل بعد المعجزة.. فأما هنا فإن النص يحتمل أن يكون هذا العذاب في الدنيا، أو أن يكون في الآخرة.

الاستجواب الهائل:

يؤكد القرآن دوماً على القضية الأساسية.. قضية الألوهية والربوبية..

ونحن ما نزال في رهبة المشهد العظيم المعروض على أنظار العالمين.. وفي موقف مهيب: نسمع استجواباً مباشراً في هذه المرة في مسألة الألوهية المُدَّعاة لعيسى بن مريم وأُمه. استجواباً يُوجّه إلى عيسىٰ ـ عليه السلام ـ في مواجهة الذين عَبَدوه. ليسمعوه وهو يتبرأ إلى ربّه في دهش وفزع من هذه الكبيرة التي افتروها عليه وهو منها بريء:

﴿**وإذ قال الله: يا عيسى ابن مريم، أأنت قلت للناس: اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال: سبحانك: ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق. إن كنت قُلته فقد علمتَه، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علّام الغيوب**﴾ [المائدة: ١١٦]..

وإن الله ـ سبحانه ـ ليعلم ماذا قال عيسى للناس. ولكنه الاستجواب الهائل الرهيب في اليوم العظيم المرهوب: الاستجواب الذي يقصد به إلى غير المسؤول؛ ولكن في صورته هذه وفي الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المُؤَلِّهين لهذا العبد الصالح الكريم[1]..

إنها الكبيرة التي لا يطيق بشر عادي أن يقذف بها.. أن يدّعي الألوهية وهو يعلم أنه عبد.. فكيف برسول من أُولي العزم؟ كيف بعيسى بن مريم؛ وقد أسلف الله له هذه النعم كلها بعدما اصطفاه بالرسالة وقبل ما اصطفاه؟ كيف به يواجه استجواباً عن ادعاء الألوهية، وهو العبد الصالح المستقيم؟

من أجل ذلك كان الجواب الواجف الراجف الخاشع المنيب.. يبدأ بالتسبيح والتنزيه: ﴿**قال: سبحانك!**﴾.

(١) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، وأن الجنة والنار حق، أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة الثمانية شاء».
أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، وأحمد ٥/٣١٤، وابن حبان بإسناد صحيح. انظر الإحسان (رقم ٢٠٧).

ويسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلاً: ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾.

ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته؛ مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته وخصائص ألوهية ربه:

﴿إن كنت قلتُه فقد علمتَه، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك. إنك أنت علّام الغيوب﴾..

وعندئذ فقط، وبعد هذه التسبيحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير فيما قاله وفيما لم يقله، فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يُعلن عبوديته وعبوديتهم للّه ويدعوهم إلى عبادته:

﴿ما قلت لهم إلا ما أَمَرْتَني به: أن اعبدوا الله ربي ربكم﴾ [المائدة: ١١٧]..

ثم يُخلّي يده منهم بعد وفاته.. وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله - سبحانه - قد تَوفّى عيسى بن مريم ثم رفعه إليه[1]. وبعض الآثار تفيد أنه

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله - ﷺ - قال: «رأيتُني الليلة عند الكعبة، فرأيتُ رجلاً آدم كأحسن ما أنتَ راء من أُدْمِ الرجال، له لِمَّة كأحسن ما أنتَ راء من اللِّمَم، قد رَجَّلَها، فهي تقطر ماءً، مُتكئاً على رَجُلين أو على عواتق رَجُلين، يطوف بالبيت، فسألتُ: مَن هذا؟ فقالوا: عيسى ابن مريم». أخرجه البخاري (٥٩٠٢) و(٦٩٩٩)، ومسلم (١٦٩)، وابن حبان (انظر الإحسان ٦٢٣١).

واللمة: بكسر اللام وتشديد الميم، وجمعها لمم كقربة وقُرب. قال الجوهري: ويجمع على لِمام يعني بالكسر وهو الشعر المتدلي الذي جاوز شحمة الأذنين، فإذا بلغ المنكبين فهمه جمة.

وأما رجَّلها فهو بتشديد الجيم ومعناه سرّحها بمشط مع ماء أو غيره. وأما قوله - ﷺ - «يقطر ماء» فقد قال القاضي عياض: يحتمل أن يكون على ظاهره أي يقطر بالماء الذي رجَّلها به لقرب ترجيله وإلى هذا نحا القاضي الباجي.

قال القاضي عياض ومعناه عندي أن يكون ذلك عبارة عن نضارته وحسنه واستعارة لجماله.

وأما العواتق فجمع عاتق. قال أهل اللغة: هو ما بين المنكب والعنق. =

حي عند الله[1]. وليس هناك ـ فيما أرى ـ أي تعارض يثير أي استشكال بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكون حياً عنده. فالشهداء كذلك يموتون في الأرض وهم أحياء عند الله. أما صورة حياتهم عنده فنحن لا ندري لها كيفاً. وكذلك صورة حياة عيسى ـ عليه السلام ـ وهو هنا يقول لربه: إنني لا أدري ماذا كان منهم بعد وفاتي:

﴿وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم، فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ [المائدة: ١١٧]..

وينتهي إلى التفويض المطلق في أمرهم؛ مع تقرير عبوديتهم لله وحده. وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم؛ وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء سواء كان هو المغفرة أو العذاب:

﴿إن تُعذِّبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ [المائدة: ١١٨]..

= وأما طواف عيسى ـ عليه السلام ـ فقال القاضي عياض رحمه الله: إن كانت هذه رؤيا عين فعيسى حيٌّ لم يمت يعني فلا امتناع في طوافه حقيقة. وإن كان مناماً فهو كما نبَّه عليه ابن عمر رضي الله عنهما في روايته. (النووي في «شرح مسلم» ٤/٢٣٣ ـ ٢٣٤).

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ليلة أسري بي... لقيت عيسى، فإذا رجل أحمر، كأنه خرج من ديماس...» يعني من حمام. قال الحافظ: المراد من ذلك وصفه بصفاء اللون، ونضارة الجسم، وكثرة ماء الوجه.

أخرجه ابن حبان بإسناد صحيح. انظر الإحسان (رقم ٥١)، وانظر الفتح (٦/٤٨٤).

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «عُرِضَ عليَّ الأنبياء،... ورأيت عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ فإذا أقربُ الناس وأشدُّه شبهاً عروة بن مسعود» أخرجه مسلم (١٦٧)، وأحمد، والترمذي، وابن حبان، انظر الإحسان (رقم ٦٢٣١).

وفي رواية لمسلم في حديث الإسراء: «ورأيتُ عيسى ابنَ مريمَ مربوع الخَلْق إلى الحُمرَةِ والبياض سَبطَ الرأس».

وفي قوله ـ ﷺ ـ «مربوع» فقال أهل اللغة هذا الرجل بين الرجلين في القامة ليس بالطويل البائن ولا بالقصير الحقير. والسبط: بفتح الباء وكسرها لغتان مشهورتان ويجوز إسكان الباء مع كسر السين وفتحها على التخفيف كما في كتف وبابه. قال أهل اللغة: الشعر السبط: هو المسترسل ليس فيه تكسر «شرح مسلم ٢/٢٢٧».

فيا لله للعبد الصالح في موقفه الرهيب!

وأين أولئك الذين أطلقوا هذه الفرية الكبيرة؛ التي يتبرأ منها العبد الطاهر البريء ذلك التبرؤ الواجف، ويبتهل من أجلها إلى ربه هذا الابتهال المنيب؟

أين هم في هذا الموقف، في هذا المشهد؟.. إن السياق لا يُلقي إليهم التفاتة واحدة. فلعلهم يتذاوبون خِزياً ونَدَماً. فلندعهم حيث تركهم السياق! لنشهد ختام المشهد العجيب:

﴿قال الله: هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم. لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك الفوز العظيم﴾ [المائدة: ١١٩].

هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم.. إنه التعقيب المناسب على كذب الكاذبين؛ الذين أطلقوا تلك الفرية الضخمة على ذلك النبي الكريم.. في أعظم القضايا كافة.. قضية الألوهية والعبودية، التي يقوم على أساس الحق فيها هذا الوجود كله وما فيه ومَن فيه..

هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم.. إنها كلمة رب العالمين، في ختام الاستجواب الهائل على مشهد من العالمين..

وهي الكلمة الحاسمة في القضية. ومعها ذلك الجزاء الذي يليق بالصدق والصادقين.. درجات بعد درجات.. الجنات والخلود ورضا الله ورضاهم بما لقوا من ربهم من التكريم.

ولقد شهدنا المشهد ـ من خلال العرض القرآني له بطريقة القرآن الفريدة ـ وسمعنا الكلمة الأخيرة.. شهدنا وسمعنا لأن طريقة التصوير القرآنية لم تَدَعه وَعْداً يوعد، ولا مُستقبلاً يُنتظر؛ ولم تدعه عبارات تسمعها الآذان أو تقرؤها العيون. إنما حركت به المشاعر، وجَسَّمته واقعاً لِلَّحظة تسمعه الآذان وتراه العيون..

على أنه إن كان بالقياس إلينا ـ نحن البشر المحجوبين ـ مُستقبلاً ننتظره يوم الدين، فهو بالقياس إلى علم الله المُطلق، واقع حاضر، فالزمن وحجابه إنما هما من تصوراتنا نحن البشر الفانين. .

وفي نهاية هذا البيان، وفي مواجهة الفرية الكبرى التي لم يَفْتَرِ أضخم منها قط أتباع رسول! في مواجهة الفرية الكبرى التي أطلقها أتباع المسيح عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ فرية ألوهيته؛ الفرية التي تبرأ منها هذا التبرؤ، وفَوّض ربه في أمر قومه بشأنها هذا التفويض. .

في مواجهة هذه الفرية، وفي نهاية هذا البيان القرآني الذي عرض ذلك الاستجواب الرهيب عنها، في ذلك المشهد العظيم. . يجيء الإيقاع الأخير في هذا البيان؛ يعلن تفرد الله ـ سبحانه ـ بملك السموات والأرض وما فيهن، وقدرته ـ سبحانه ـ على كل شيء بلا حدود:

﴿**لِلّه ملك السموات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير**﴾ [المائدة: ١٢٠]. .

ختام يتناسق مع تلك القضية الكبرى التي أطلقت حولها تلك الفرية الضخمة، ومع ذلك المشهد العظيم الذي يتفرد الله فيه بالعلم، ويتفرد بالألوهية، ويتفرد بالقدرة، وينيب إليه الرسل؛ ويُفَوّضون إليه الأمر كله؛ ويفوض فيه عيسى بن مريم أمره وأمر قومه إلى العزيز الحكيم. الذي له ملك السموات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير. .

هذه قصة عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ وهي ترد وروداً أساسياً في ثمانية مواضع في القرآن الكريم، وآخر حلقة منها تعرض في سورة المائدة (السورة ١١٢ حسب ترتيب النزول) على النحو التالي: ﴿**وإذ قال الله يا عيسى بن مريم: أأنت قلتَ للناس اتخذوني وأُمي إلهين من دون الله**. . .﴾ إلى ختام الآيات كما تقدّم بيانه. .

فهذا الختام هو ختام ديني وختام فني في آن واحد، لقصة كقصة عيسى. مولده عجيب، وعن هذا المولد نشأت شبهات تأليهه. وحول هذه النقطة

المعقدة ثارت المشكلات. فها هو ذا في اللحظة الأخيرة أمام خالقه يعترف بعبوديته، ويشهد بما قاله لقومه. ويُفوض الأمر فيهم إلى الله العزيز الحكيم.

الفن يقتضي هذا الختام حين تساق القصة مساقها في القرآن[1].

وبعد، فقد «امتُحنت المسيحية في عهدها الباكر - أي في منتصف القرن الأول المسيحي - بتحريف لا يوجد له نظير في تاريخ الديانات في عهدها الأول، فقد انتقلت من ديانة بسيطة توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من الأفكار اليونانية والبوذية وذلك على يد داعيها الكبير وبطلها العظيم بولس Pauls (١٠ - ٦٥ م) وكان هذا الانتقال أشبه بقفزة من روح إلى روح، ومن وضع إلى وضع، ومن نظام إلى نظام، لا يشارك الثاني إلا في الإسم وبعض الطقوس، ويتحدث عنه عالم مسيحي (Ernest de Bunsen) فيقول:

(إن العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الإنجيل ليس الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله. إن مردّ النزاع القائم بين المسيحيين اليوم وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء بولس، ذلك المارق اليهودي والمسيحي، وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم والتمثيل، وملئه هذه الصحف بالنبوات والأمثلة.

إن بولس في تقليده لأسطفانوس واضع ذلك المزيج من الأحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوي عليها الإنجيل اليوم، والتي تعرض المسيح في صورة لا تتفق مع التاريخ أصلاً، ليس المسيح بل بولس، والذي جاءوا بعده من الأحبار والرهبان هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الديني الذي تلقاه العالم المسيحي كأساس للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً)[2].

وبقيت المسيحية قروناً طوالاً - ولا تزال - تحمل روح بولس وتحافظ على

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ١٤٤.

(٢) Islam of True christianity, p. 128

تراثه، ولم يظهر في العالم المسيحي في هذه المدة الطويلة مَن يثـور على هـذا الوضع الطارىء الدخيل على المسيحية ويحاول نقلها إلى وضعها الأول الذي ترك عليه سيدنا المسيح خلفاءه والمخلصين من أتباعه، وانسلخت قرون بعد قرون، ومضت أجيال إثر أجيال ولم يظهر الرجل المنتـظر لتجديـد المسيحية وتجريدها من الأجزاء الأجنبية، حتى كان القرن الخامس عشر المسيحي فظهر مارتن لوثر (Martin Luther) في ألمانيا وقام بإصلاح محدود قاصر ينحصر في مسائل جزئية، وعارض بضع عقائد ألحت عليها الكنيسة النصرانية، ولم يكن إصلاحاً جوهرياً شاملاً، ولا ثورة ضد اتجاه المسيحية المنحرف الطويل، ثم لم يخلفه رجل في العالم المسيحي يرفع صوته ضد انحرافات الكنيسة واعتلاءاتها ويقوم بمثل الدور الذي قام به لوثر على ضعفه.

وظلت المسيحية تمشي على الدرب الذي فُرض عليها، وضعف تـأثير الكنيسة وانحلّ سلطانها في العهـد الأخير، وقـامت دولة المـادية في أوربـا، وأصبحت الديانة الحقيقية التي خلفت المسيحية، وخلفت كل ديانة في هذا العالم الغربي، فلم يظهر في الأوساط المسيحية مَن يحارب هذه المادية، ويعيد المسيحية إلى مركزها في الحياة، أو يوجد الثقة في المسيحيين بديانتهم، وينشىء فيهم القوة الروحيـة والخلقية التي يقـاومون بهـا إغراءات المـادية القـاهرة، ويتظاهرون بحياة فاضلة تقوم على العلم والأخلاق، ويواجهـون معضلات العصر وأزماته، ويحاولون حَلَّها في ضوء الدين، وبالعكس من ذلك نرى أن المفكرين والمؤلفين المسيحيين في أوربا يائسون من مُستقبل المسيحية، ومصابون بمركب نقص أمام المادية اللادينية»[1].

صورة وضيئة:

ويمضي القرآن في جولة أخرى تَعرض صورة من استقامة الطبع وخلوص النية. تتجلى هذه الصورة في فريق من الذين أوتوا الكتاب: ﴿**والذين آتيناهم**

(١) أبو الحسن الندوي: الحاجة إلى الإصلاح والتجديد، مجلة المسلمون المجلد الخامس، العدد الأول ص ١٤.

الكتاب يفرحون بما أُنزل إليك﴾ [الرعد: ٣٦]. .

إن الفريق الصادق من أهل الكتاب في الاستمساك بدينه، يجد في هذا القرآن مصداق القواعد الأساسية في عقيدة التوحيد؛ كما يجد الاعتراف بالديانات التي سبقته وكُتبها، ودَرَسَها مع الإكبار والتقدير، وتصور الآصرة الواحدة التي تربط المؤمنين بالله جميعاً. فمن ثم يفرحون ويؤمنون. والتعبير بالفرح هنا حقيقة نفسية في القلوب الصافية وهو فرح الالتقاء على الحق، وزيادة اليقين بصحة ما لديهم ومؤازرة الكتاب الجديد له. .

ويقرر القرآن في معرض حديثه عن أهل الكتاب أن فريقاً منهم يؤمن إيمان المسلمين، وقد انضم إلى موكب الإسلام معهم. وسار سيرتهم. وله كذلك جزاؤهم:

﴿وإن من أهل الكتاب لَمَن يؤمن بالله وما أُنزل إليكم وما أُنزل إليهم. خاشعين للّه، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً. أولئك لهم أجرهم عند ربهم. إن الله سريع الحساب﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وهكذا وفي معرض الإيمان يذكر القرآن أن من أهل الكتاب مَن سلكوا الطريق، وانتهوا إلى النهاية. فآمنوا بالكتاب كله، ولم يُفرقوا بين الله ورسله، ولم يُفرقوا بين أحد من رسله. آمنوا بما أُنزل إليهم من قَبل، وآمنوا بما أُنزل للمسلمين ـ وهذه سمة هذه العقيدة التي تنظر إلى موكب الإيمان نظرة القُرب والود؛ وتنظر إلى خط العقيدة موصولاً بالله، وتنظر إلى منهج الله في وحدته وكليته الشاملة، ويبرز من سمات المؤمنين من أهل الكتاب: سمة الخشوع للّه وسمة عدم شرائهم بآياته ثمناً قليلاً. . لِيفَرّقهم بهذا من صفوف أهل الكتاب، وسمتهم الأصيلة هي التبجُّح وقلة الحياء من الله. ثم التزوير والكتمان لآيات الله، لقاء أعراض الحياة الرخيصة.

ويرسم القرآن الكريم مشهداً موحياً يلمس الوجدان عن هذا الفريق الصادق من أهل الكتاب:

﴿قُل آمنوا به أو لا تُؤمنوا، إن الذين أُوتوا العلم من قبله إذا يُتلى

عليهم يخرون للأذقان سُجّداً، ويقولون: سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً؛ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]. .

وهو مشهد موح يلمس الوجدان. مشهد الذين أوتوا العلم من قَبله، وهم يسمعون القرآن، فيخشعون **﴿ويخرون للأذقان سُجداً﴾** إنهم لا يتمالكون أنفسهم، فهم لا يسجدون ولكن **﴿يخرّون للأذقان سجداً﴾** ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وَعْده: **﴿سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾**. ويغلبهم التأثر فلا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم منه، فإذا الدموع تنطلق مُعبّرة عن ذلك التَأَثُّر الغامر الذي لا تصوره الألفاظ: **﴿ويخرون للأذقان يبكون﴾**. . **﴿ويزيدهم خشوعاً﴾** فوق ما استقبلوه به من خشوع.

إنه مشهد مُصوّر لحالة شعورية غامرة، يرسم تأثير هذا القرآن في القلوب المُتَفَتّحة لاستقبال فيضه؛ العارفة بطبيعته وقيمته بسبب ما أوتيت من العلم قبله. والعلم المقصود هو ما أنزله الله من الكتاب قبل القرآن، فالعلم الحق هو ما جاء من عند الله. .

لقد احتوى القرآن آيات عديدة مكية ومدنية نَوَّهت بالذين أُوتوا العلم والكتاب وبتصديقهم النبي والقرآن واعتناق الإسلام وإعلان انطباق ما جاء فيه على ما عندهم، وهذا يسوغ القول أن النصارى الذين احتَكُّوا بالنبي - ﷺ - في مكة والمدينة زُوَّاراً ووفوداً قد وجدوا في ما قرره القرآن عن شخصية عيسى تفسيراً معقولاً صحيحاً، فكان ذلك سبباً في استجابتهم للدعوة باندفاع وفرح وخشوع وتأييدهم لها. بل إن ما قيَّدَه التاريخ من مسارعة كثير من النصارى في بلاد الشام والعراق ومصر في أدوار الفتح الإسلامي الأول إلى اعتناق الإسلام عن طيبة خاطر ما يمكن أن يكون قرينة على هذا أيضاً[١].

---

(١) انظر «من سورة مريم» لعزة دروزة، مجلة المسلمون ٧/٨٥٥.

ويذكر كتاب الله صفة بارزة من صفات الذين اتبعوا عيسى بن مريم: ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾.. وهو الثمرة الطبيعية لدعوة المسيح ـ عليه السلام ـ وروحها السمحة وتطهرها الروحي، وشفافيتها الوضيئة والرأفة والرحمة ظاهرة واضحة في المؤمنين حقيقة برسالة عيسى ـ عليه السلام ـ ممن أحسنوا اتباعه. وقد أشارت إليها الآيات القرآنية التي تقدمت والتي ستأتي في هذا الفصل، كما حفظ منها التاريخ صوراً يرويها الرواة عن النجاشي وعن وفد نجران وعن أفراد ممن وفدوا على دار الإسلام راغبين في الإسلام، بحكم ما استقر في قلوبهم من الحق، مذ كانوا أتباع عيسى بن مريم بحق.

يقول الإمام الذهبي في ترجمة النجاشي في سير أعلام النبلاء[1]: «عن أم سلمة زوجِ النبي ـ ﷺ ـ قالت: لما نزلنا أرضِ الحبشة جاورنا بها خيرَ جار النجاشي، أَمِنّا على ديننا، وعَبَدنا الله تعالى لا نُؤْذَى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يُهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بِطريقاً إلا أهدوا إليه هديةً، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص السهمي، وأَمَروهما أَمْرهم، وقالوا لهم: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تُكلموا النجاشي فيهم، ثم قَدِّموا له هداياه، ثم سَلوه أن يُسلمهم إليكم قبل أن يُكلمهم. قالت: فخرجا، فقدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار. فلم يبقَ من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديتَه، وقالا له: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقُوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدْع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يُسلمهم إلينا ولا يُكلمهم، فإن قومَهم أعلى بهم عيناً وأعلمُ بما عابوا عليهم،

(١) سير أعلام النبلاء ١/٤٢٨، وتهذيب السير ١/٤٢ ـ ٤٤، رقم ٩١.

فقالوا لهم: نعم، ثم إنهما قرّبا هدايا النجاشيّ، فقبلها منهم، ثم كلَّماه، فقالا له: أيها الملك؛ إنه ضوى إلى بلدك منّا غِلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مُبتدَع لا نعرفه نحنُ ولا أنت، وقد بَعَثَنا إليكَ أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلمُ بما عابوا عليهم فيه. قالت: ولم يكن شيء أبغضَ إلى عبد الله، وعمرو مِن أن يسمع النجاشيّ كلامهم. فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك، فَأَسْلِمهم إليهما، فغضب النجاشي، ثم قال: لا ها الله إذاً لا أُسلمهم إليهما، ولا أُكاد قوماً جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على مَن سواي حتى أدعوهم فأسألهم. ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله فدعاهم، فلما جاءهم رسوله، اجتمعوا، ثم قال بعضُهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما عَلِمْنا، وما أَمَرنا به نبيُّنا - ﷺ - كائناً في ذلك ما كان. فلما جاءوه، وقد دعا النجاشي أساقِفَته، فنشروا مصاحفهم حولَه، سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ قالت: وكان الذي يُكلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، إنا كنا قوماً أهل جاهلية: نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطعُ الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نَسَبه وصِدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لِنُوَحّده ونعبُده، ونخلع ما كنا نعبدُ وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأَمَرنا أن نعبدَ الله لا نُشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - قالت: فعدَّد له أمور الإسلام - فصدَّقناه وآمنا به واتبعناه، فعدا علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحلّ ما كنا نستحلُّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشَقُّوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على مَن سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قال: نعم. قال: فاقرأه عليَّ، فقرأ عليه صدراً من ﴿كهيعص﴾. فبكى والله النجاشيُّ حتى أخضلَ لحيتَه، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تُـلي عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرُج من مشكاة واحدة. انطلقا، فوالله لا أُسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد.

عن أبي بُردة عن أبيه قال: أمرنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن ننطلق مع جعفر إلى أرض النجاشيّ، فبلغ ذلك قريشاً، فبعثوا عمرواً وعمارة بن الوليد، وجمعوا للنجاشي هدية، فقدما عليه، وأتياه بالهدية، فقبلها وسجدا له، ثم قال عمرو: إنا ناساً من أرضنا رغبوا عن ديْننا وهم في أرضك. قال: في أرضي؟ قال: نعم.

فبعث إلينا، فقال لنا جعفر: لا يتكلَّم منكم أحد أنا خطيبكم اليوم: فانتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلس عظيم، وعمرو عن يمينه، وعُمارة عن يساره، والقسِّيسون والرُّهبان جلوس سِماطين، وقد قال له عمرو: إنهم لا يسجدون لك، فلما انتهينا، بدرنا مَنْ عنده أن اسجُدوا، قلنا: لا نسجد إلا للّه عز وجل، فلما انتهينا إلى النجاشي، قال: ما منعك أن تسجُدَ؟ قال: لا نسجُدُ إلا للّه. قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعثَ فينا رسولاً وهو الذي بشَّر به عيسى، فقال: يأتي من بعدي اسمُه أحمد، فأَمَرنا أن نعبد الله ولا نشركَ به شيئاً، ونقيمَ الصلاة، ونُؤتي الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهانا عن المنكر. فأعجب النجاشيّ قوله، فلما رأى ذلك عمرو، قال: أصلح الله الملك، إنهم يخالفونك في ابن مريم. فقال النجاشي لجعفر: ما يقول صاحبكم في ابن مريم؟ قال: يقول فيه قولَ الله: هو روح الله وكلمته. أخرجه من البتول العذراء التي لم يَقربها بشر، ولم يَفْرضها ولد.

فتناول عُوداً، فرفعه فقال: يا معشر القسيسين والرُّهبان! ما يزيد على ما تقولون في ابن مريم ما تَزِنُ هذه، مرحباً بكم وبمَن جئتم من عنده، فأنا أشهد

أنَّه رسول الله، وأنَّه الذي بَشَّر به عيسى، ولولا ما أنا فيه من المُلك[1] لأتيتُه حتى أُقَبِّل نعله، امكثوا في أرضي ما شئتم، وأَمَر لنا بطعام وكُسوة، وقال: ردُّوا على هذين هديتهما.

وهكذا تتجلى الصورة الوضيئة الصَادقة.. تتجلى هذه الصورة في فريق من الذين أوتوا الكتاب، وطريقة استقبالهم للقرآن المصدق لما بين أيديهم:

﴿**الذين آتيناهم الكتاب من قَبله هم به يؤمنون، وإذا يُتلى عليهم قالوا: آمنا به، إنه الحق من ربنا، إنا كنا من قبله مسلمين...**﴾ [القصص: ٥٢، ٥٣]..

قال سعيد بن جبير رضي الله عنه نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي - ﷺ - قرأ عليهم: ﴿**يٓس والقرآن الحكيم**﴾ حتى ختمها، فجعلوا يبكون وأسلموا؛ ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون...**﴾..

وروى محمد بن إسحاق في السيرة: «ثم قدم على رسول الله - ﷺ - وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره من

(١) النجاشي ملك الحبشة اسمه أصحمة، معدود في الصحابة رضي الله عنهم، وكان ممن حَسُنَ إسلامه ولم يهاجر، ولا له رؤية، فهو تابعي من وجه، صاحبٌ من وجه، وقد توفي في حياة النبي - ﷺ - فصلَّى عليه بالناس صلاة الغائب، ولم يثبت أنه - ﷺ - على غائب سواه، وسببُ ذلك أنه مات بينَ قوم نصارى، ولم يكن عنده مَن يُصلي عليه، لأن الصحابة الذين كانوا مهاجرين عنده خرجوا من عنده مهاجرين إلى المدينة عامَ خيبر.
ومن محاسن النجاشي أن أمَّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب الأموية أم المؤمنين أسلمت مع زوجها عُبيد الله بن جحش الأسدي قديماً، فهاجر بها زوجُها، فانملس بها إلى أرض الحبشة، فولدت له حبيبة ربيبة النبي - ﷺ - ثم إنه أدركه الشقاء فأعجبه دين النصرانية فتنصرَّ، فلم يَنْشَب أن مات بالحبشة، فلما وفت العدة، بعث رسول الله - ﷺ - يخطبها، فأجابت، فنهض في ذلك النجاشي، وشهد زواجها بالنبي - ﷺ - وأعطاها الصداق عن النبي - ﷺ - مِن عنده أربع مئة دينار، فحصل لها شيء لم يحصُل لغيرها من أمهات المؤمنين، ثم جهزها النجاشي. توفي في شهر رجب سنة تسع من الهجرة.

الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه، وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة؛ فلما فرغوا من مساءلة النبي - ﷺ - عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى، وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا للّه وآمنوا به وصدّقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره. فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام، في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من رَكْب! بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال؟ ما نعلم رَكباً أحمق منكم! فقالوا لهم: سلام عليكم لا نُجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً».

قال: ويقال: إن النفر النصارى من أهل نجران. فالله أعلم أي ذلك كان. قال: ويقال والله أعلم: إن فيهم نزلت هذه الآيات:

﴿**الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون... الخ**﴾.

قال: وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت؟ قال: ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه رضي الله عنه والآيات اللاتي في سورة المائدة: ﴿**ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً... إلى قوله - فاكتبنا مع الشاهدين**﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]..

وأياً مَن كان الذين نزلت في أمرهم هذه الآيات، فالقرآن يرد المشركين إلى حادث وقع، يعلمونه ولا ينكرونه. كي يقفهم وجهاً لوجه أمام نموذج من النفوس الخالصة كيف تتلقى هذا القرآن، وتطمئن إليه، وترى فيه الحق، وتعلم مطابقته لما بين أيديها من الكتاب. ولا يصدها عنه صادّ من هوى ولا من كبرياء؛ وتحتمل في سبيل الحق الذي آمنت به ما يصيبها من أذى وتطاول من الجهلاء، وتصبر على الحق في وجه الأهواء ووجه الإيذاء..

﴿**وإذا يتلى عليهم قالوا: آمنا به. إنه الحق من ربنا. إنا كنا من قبله مسلمين**﴾ [القصص: ٥٣]..

فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أكثر من تلاوته فيعرف الذين عرفوا

الحق من قبل أنه من ذلك المعين، وأنه صادر من ذلك المصدر الواحد الذي لا يكذب ﴿إنه الحق من ربنا﴾.. ﴿إنا كنا من قبله مسلمين﴾ والإسلام للّه هو دين المؤمنين بكل دين.

هؤلاء الذين أسلموا للّه من قبل، ثم صدقوا بالقرآن بمجرد سماعه: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ [القصص: ٥٤].

الصبر على الإسلام الخالص. إسلام القلب والوجه. ومغالبة الهوى والشهوة. والاستقامة على الدين في الأولى والآخرة. أولئك يؤتون أجرهم مرتين، جزاء على ذلك الصبر، وهو عسير على النفوس، وأعسر الصبر ما كان على الهوى والشهوة والالتواء والانحراف. وهؤلاء صبروا عليها جميعاً، وصبروا على السخرية والإيذاء كما سبقت الرواية، وكما يقع دائماً للمستقيمين على دينهم في المجتمعات المنحرفة الضالة الجاهلة في كل زمان ومكان: ﴿ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون﴾ [القصص: ٥٤]..

وهذا هو الصبر كذلك. وهو أشد مؤنة من مجرد الصبر على الإيذاء والسخرية. إنه الاستعلاء على كبرياء النفس، ورغبتها في دفع السخرية، ورد الأذى، والشفاء من الغيظ، والبرد بالانتقام! ثم درجة أخرى بعد ذلك كله. درجة السماحة الراضية. التي ترد القبيح بالجميل وتقابل الجاهل الساخر بالطمأنينة والهدوء وبالرحمة والإحسان؛ وهو أفق من العظمة لا يبلغه إلا المؤمنون الذين يعاملون الله فيرضاهم ويرضونه، فيلقون ما يلقون من الناس راضين مطمئنين.

وكأنما أراد أن يذكر سماحة نفوسهم بالمال، عقب ذكره لسماحة نفوسهم بالإحسان. فهما من منبع واحد: منبع الاستعلاء على شهوة النفس، والاعتزاز بما هو أكبر من قيم الأرض. الأولى في النفس، والثانية في المال. وكثيراً ما يَرِدَان متلازمين في القرآن.

وهكذا يمضي القرآن في جولته مع المؤمنين الصادقين: ﴿أفمن يعلم أنما

أُنزل إليك من ربك الحق كمَن هو أعمى؟ إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ [الرعد: ١٩]..

إنما يتذكر أولو الألباب الذين لهم عقول وقلوب مدركة تُذَكَّر بالحق فتتذكر، وتُنَبه إلى دلائله فتتفكر.

وهذه صفات أولي الألباب هؤلاء: **﴿الذين يوفون بعهد الله، ولا ينقضون الميثاق﴾** [الرعد: ٢٠]..

وعهد الله مطلق يشمل كل عهد، وميثاق الله مطلق يشمل كل ميثاق. والعهد الأكبر الذي تقوم عليه كل العهود هو عهد الإيمان؛ والميثاق الأكبر الذي تتجمع عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان..

﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم، ويخافون سوء الحساب﴾ [الرعد: ٢١]..

هكذا في إجمال. فكل ما أمر الله به أن يُوصل يصلونه. أي أنها الطاعة الكاملة والاستقامة الواصلة، والسير على السنّة ووفق الناموس بلا انحراف ولا التواء.. والآية الكريمة تصور الاستقامة المطلقة التي لا تلتوي، والطاعة المطلقة التي لا تتفلت، والصلة المطلقة التي لا تنقطع.. ثم تصور الكلمات القرآنية الشعور المصاحب في نفوسهم لهذه الطاعة الكاملة:

﴿ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب. والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرأون بالسيئة الحسنة..﴾ [الرعد: ٢١، ٢٢]..

فهم في خشية الله ومخافة العقاب الذي يسوء في يوم لقائه الرهيب. وهو أولو الألباب الذين يتدبرون الحساب قبل يوم الحساب..

إنها الصورة الوضيئة للذين أوتوا العلم.. يشهدون بأن ما جاء به محمد ـ ﷺ ـ من ربه هو الحق وأنه يهدي إلى طريق العزيز الحميد: **﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أُنزل إليك من ربك هو الحق، ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾** [سبأ: ٦]..

وقد ورد أن المقصود بالذين أوتوا العلم هم أهل الكتاب، الذين يعلمون من كتابهم أن هذا القرآن هو الحق، وأنه يقود إلى صراط العزيز الحميد.

ومجال الآية أكبر وأشمل. فالذين أوتوا العلم في أي زمان وفي أي مكان، من أي جيل ومن أي قبيل، يرون هذا متى صحّ علمهم واستقام؛ واستحق أن يوصف بأنه «العلم»! والقرآن كتاب مفتوح للأجيال وفيه من الحق ما يكشف عن نفسه لكل ذي علم صحيح. وهو يكشف عن الحق المستكن في كيان هذا الوجود كله. وهو أصدق ترجمة وَصْفِيّة لهذا الوجود وما فيه من حق أصيل.

ونتابع الجولة مع القرآن الكريم في تصوير هذا الفريق المؤمن من أهل الكتاب:

﴿**ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى. ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً، وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون: ربنا آمنا، فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق، ونطمع أن يُدخلنا ربنا مع القوم الصالحين. فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء المحسنين..**﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٥]..

إن هذه الآيات تُصوّر حالة، وتُقرر حكماً في هذه الحالة.. تصور حالة فريق من أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿**الذين قالوا: إنا نصارى**﴾.. وتقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا..

ومع أن متابعة مجموع الآيات لا تَدَع مجالاً للشك في أنها تصور حالة معينة، هي التي ينطبق عليها هذا التقرير المعين، فإن الكثيرين يخطئون فَهْم مدلولها، ويجعلون منها مادة للتميع المؤذي في تقدير المسلمين لموقفهم من المعسكرات المختلفة، وموقف هذه المعسكرات منهم.. لذلك نجد من الضروري ـ في هذا الكتاب ـ أن نتابع بالدقة تصوير هذه الآيات لهذه الحالة

الخاصة التي ينطبق عليها ذلك الحكم الخاص:

إن الحالة التي تُصورها هذه الآيات هي حالة فئة من الناس، قالوا: إنا نصارى. هم أقرب مودة للذين آمنوا: **﴿ذلك بأن منهم قِسِّيسين ورُهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾**.. فمنهم مَن يعرفون حقيقة دين النصارى فلا يستكبرون على الحق حين يتبين لهم..

ولكن السياق القرآني لا يقف عند هذا الحد، ولا يدع الأمر مجهلاً ومُعَمَّماً على كل مَن قالوا: إنا نصارى.. إنما هو يمضي فيصوّر موقف هذه الفئة التي يُعينها:

﴿وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون: ربنا آمنا، فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾..

فهذا مشهد حي يرتسم من التصوير القرآني لهذه الفئة من الناس، الذين هم أقرب مودّة للذين آمنوا.. إنهم إذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثر العميق العنيف بالحق الذي سمعوه. والذين لا يجدون له في أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير ـ وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفي بها القول، فيفيض الدمع، ليؤدي ما لا يؤديه القول؛ وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف.

ثم ها هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع؛ ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذي تأثروا به هذا التأثر عند سماع القرآن؛ والشعور بالحق الذي يحمله والإحساس بما له من سلطان.. إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق! إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفاً إيجابياً صريحاً.. موقف القبول لهذا الحق، والإيمان به، والإذعان لسلطانه، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قوية عميقة صريحة:

﴿يقولون: ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق، ونطمع أن يُدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾؟ . .

إنهم أولاً يُعلنون لربهم إيمانهم بهذا الحق الذي عرفوه. ثم يدعونه - سبحانه - أن يضمّهم إلى قائمة الشاهدين لهذا الحق؛ وأن يسلكهم في سلك الأمة القائمة عليه في الأرض. . الأمة المسلمة، التي تشهد لهذا الدين بأنه الحق، وتؤدي هذه الشهادة بلسانها وبعملها وبحركتها لإقرار هذا الحق في حياة البشر. . فهؤلاء الشاهدون الجدد ينضمون إلى هذه الأمة المسلمة؛ ويُشهدون ربهم على إيمانهم بالحق الذي تتبعه هذه الأمة؛ ويدعونه - سبحانه - أن يكتبهم في سجلها. .

ثم هم بعد ذلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوقهم معوق عن الإيمان بالله؛ أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لا يؤمنوا به، ولا يأملوا - بهذا الإيمان - أن يقبلهم ربهم، ويرفع مقامهم عنده، فيدخلهم مع القوم الصالحين:

﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين؟﴾ . .

فهو موقف صريح قاطع تجاه ما أنزل الله إلى رسوله من الحق. . موقف الاستماع والمعرفة، ثم التأثر الغامر والإيمان الجاهر، ثم الإسلام والانضمام إلى الأمة المسلمة، مع دعاء الله - سبحانه - أن يجعلهم من الشاهدين لهذا الحق؛ الذين يؤدون شهادتهم سلوكاً وعملاً وجهاداً لإقراره في الأرض، والتمكين له في حياة الناس. ثم وضوح الطريق في تقديرهم وتوحّده، بحيث لا يعودون يرون أنه يجوز لهم أن يمضوا إلا في طريق واحد: هو طريق الإيمان بالله، وبالحق الذي أنزله على رسوله، والأمل - بعد ذلك - في القبول عنده والرضوان.

ولا يقف السياق القرآني هنا عند بيان مَن هم الذين يعنيهم بأنهم أقرب مودة للذين آمنوا من الذين قالوا: إنا نصارى، وعند بيان سلوكهم في مواجهة ما أنزل الله إلى الرسول - ﷺ - من الحق؛ وفي اتخاذ موقف إيجابي صريح،

بـالإيمان المعلن، والانضـمام إلى الصف المسلم؛ والاستعداد لأداء الشهـادة بالنفس والجهد والمال، والدعاء إلى الله أن يقبلهم في الصف الشاهد لهذا الحق على هذا النحو؛ مع الطمع في أن يختم لهم بالانضمام إلى موكب الصالحين . .

لا يقف السياق القرآني عند هذا الحد في بيان أمر هؤلاء الذين يقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنـوا. بل يتـابع خـطاه لتكملة الصورة، ويعـدهم أجر المؤمنين عند الله، الذي لا يُمطل المتعاملين معه ـ حـاشاه ـ ﴿**إن الله سريـع الحساب**﴾ يُؤْتَون أجرهم . .

ويرسم المصير الذي انتهوا إليه فعلاً: ﴿**فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. وذلك جزاء المحسنين**﴾ . .

لقد علم الله صدق قلوبهم وألسنتهم؛ وصدق عزيمتهمْ على المضي في الطريق؛ وصدق تصميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذي دخلوا فيه؛ ولهذا الصف المسلم الذي اختاروه، واعتبارهم أن أداء هذه الشهـادة ـ بكل تكاليفها في النفس والمال ـ مِنّة يمنّ الله بها على مَن يشاء من عبـاده؛ واعتبارهم كذلك أنه لم يعد لهم طريق يسلكونه إلا هذا الطريق الذي أعلنوا المضي فيه؛ ورجاءهم في ربهم أن يدخلهم مع القوم الصالحين . .

لقد علم الله منهم هذا كله؛ فَقَبِلَ منهم قولهم، وكتب لهم الجنة جزاء لهم؛ وشهد لهم ـ سبحانه ـ بأنهم محسنون، وأنه يجزيهم جزاء المحسنين.

﴿**فأثابهم الله ـ بما قالوا ـ جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . . وذلك جزاء المحسنين**﴾ . .

والإحسان أعلى درجات الإيمان والإسلام . . والله ـ جلَّ جلاله ـ شَهِدَ لهذا الفريق من الناس أنه من المحسنين.

هو فريق خاص محدد الملامح هذا الذي يقول عنه القرآن: ﴿**ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى**﴾ [المائدة: ٨٢].

هـو فريق لا يستكـبر عن الحق حين يسمعـه، بل يستجيب لـه تلك

الاستجابة العميقة الجاهرة الصريحة. وهو فريق لا يتردد في إعلان استجابته للإسلام، والانضمام للصف المسلم؛ والانضمام إليه بصفة خاصة في تكاليف هذه العقيدة، وهي أداء الشهادة لها بالاستقامة عليها والجهاد لإقرارها وتمكينها. وهو فريق علم الله منه صدق قوله فقبله في صفوف المحسنين. .

لقد قبله قبولاً حسناً، وجزاه جزاءً كريماً **﴿أولئك لهم عقبى الدار. جنات عدن يدخلونها ومَن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم؛ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار﴾** [الرعد: ٢٢ ـ ٢٤]. .

﴿أولئك﴾ في مقامهم العالي لهم عقبى الدار: جنات عدن للإقامة والقرار.

في هذه الجنات يأتلف شملهم مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم. ولكنهم يُكرمون بتجمع شتاتهم، وتلاقي أحبابهم، وهي لذة أخرى تضاعف لذة الشعور بالجنان.

وفي جو التجمع والتلاقي يشترك الملائكة في التأهيل والتكريم، في حركة رائحة غادية:

﴿يدخلون عليهم من كل باب﴾ . .

ويدعنا السياق القرآني نرى المشهد حاضراً وكأنما نشهده ونسمعُ الملائكة أطوافاً أطوافاً: **﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾** . .

فهو مهرجان حافل باللقاء والسلام والحركة الدائبة والإكرام. .

ويذكر القرآن الكريم ظاهرة أخرى عُرفت في تاريخ أتباع المسيح ـ عليه السلام ـ: **﴿ورهبانية ابتدعوها ـ ما كتبناها عليهم ـ إلا ابتغاء رضوان الله﴾** [الحديد: ٢٧]. .

والراجح أن هذه الرهبانية التي عرفها تاريخ المسيحية كانت اختياراً من

بعض أتباع عيسى - عليه السلام - ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله، وابتعاداً عن أوضار الحياة ولم يكتبها الله عليهم ابتداءً. ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم صاروا مرتبطين أمام الله بأن يرعوا حقوقها، ويحافظوا على مقتضياتها من تطهر وترفع، وقناعة وعفة، وذكر وعبادة.. مما يحقق في أنفسهم حقيقة التجرد لله، التي قصدوا إليها بهذه الرهبانية التي ابتدعوها.

ولكنها انتهت إلى أن تصبح في الغالب طقوساً وشعائر خالية من الروح، وأن يتخذها الكثيرون مظهراً عارياً من الحقيقة(١). فلا يصبر على تكاليفها إلا

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني سلمان الفارسي قال: كنتُ رجلاً فارسياً من أهل أصبهان، من أهل قرية منها يقال لها جيّ، وكان أبي دِهْقانها، وكنتُ أحبَّ خلق الله إليه، فلم يزل بي حبُّه إياي حتى حبسني في بيته كما تُحبس الجارية، فاجتهدتُ في المجوسية حتى كنت قاطِنَ النار التي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة. وكانت لأبي ضَيعة عظيمة، فشُغِلَ في بنيان له يوماً، فقال لي: يا بني! إني قد شُغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطلعها، وأمر لي ببعض ما يريد، فخرجتُ، ثم قال: لا تحتبس عليّ، فإنك إن احتبست عليَّ كنتَ أهمَّ إليَّ من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري، فخرجتُ أريد ضيعته، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعتُ أصواتهم فيها وهم يُصلون، وكنتُ لا أدري ما أمرُ الناسِ بحبس أبي إياي في بيته، فلما مررتُ بهم، وسمعتُ أصواتهم، دخلتُ إليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتُهم أعجبني صلواتُهم، ورغبتُ في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه؛ فوالله ما تركتُهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي ولم آتها. فقلتُ لهم: أينَ أَصْلُ هذا الدين؟ قالوا: بالشام. قال: ثم رجعتُ إلى أبي وقد بعثَ في طلبي وشغلتُه عن عمله كله، فلما جئتُه قال: أي بني! أين كنت؟ أَلَمْ أكن عهدتُ إليك ما عهدت؟ قلت: يا أبتِ! مررتُ بناس يُصلون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيتُ من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس. قال: أي بني! ليس في ذلك الدين خير، دينُك ودين آبائك خيرٌ منه. قلتُ: كلا والله! إنه لخير من ديننا. قال: فخافني، فجعل في رجلي قيداً، ثم حبسني في بيته. قال: وبعثتُ إلى النصارى فقلتُ: إذا قَدِمَ عليكم ركب من الشام تجار من النصارى، فأخبروني بهم، فقدم عليهم ركب من الشام. قال: فأخبروني بهم، فقلت: إذا قضوا حوائجهم، وأرادوا الرجعة، فأخبروني. قال: ففعلوا. فألقيتُ الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمتُ الشام. فلما قدمتها، قلت: مَن أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببتُ أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك، وأُصلي معك. قال: فادخل، فدخلتُ معه، فكان رجل سوء يأمرهم =

= بالصدقة ويُرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها شيئاً، اكتنزَه لنفسه، ولم يُعطه المساكين حتى جمع سبعَ قِلال من ذهب وَوَرِقٍ، فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع.

ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلتُ لهم: إن هذا رجل سوء، يأمركم بالصدقة، ويُرغبكم فيها، فإذا جئتم بها، كنزها لنفسه، ولم يُعطِ المساكين، وأريتهم موضع كنزه سبع قلال مملوءة، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفِنُه أبداً.

فصلبوه ثم رموه بالحجارة. ثم جاءوا برجل جعلوه مكانه، فما رأيت رجلاً ـ يعني لا يُصلي الخمس ـ أرى أنه أفضلَ منه، أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهاراً، ما أعلمني أحببتُ شيئاً قطُّ قبله حُبَّه، فلم أزل معه حتى حضرته الوفاة، فقلت: يا فلان! قد حضرك ما ترى من أمر الله، وإني والله ما أحببت شيئاً قط حُبَّك، فماذا تأمرني وإلى مَن توصيني؟ قال لي: يا بني والله ما أعلمه إلا رجلاً بالمَوْصِل، فائته، فإنك ستجده على مثل حالي. فلما مات وغُيِّبَ، لحقتُ بالموصل، فأتيتُ صاحبها، فوجدتُه على مثل حاله من الاجتهاد والزهد. فقلت له: إن فلاني أوصاني إليك أن آتيك وأكون معك. قال: فأقم أيْ بني.

فأقمتُ عنده على مثل أمر صاحبه حتى حضرته الوفاة. فقلتُ له: إن فلاناً أوصى بي إليك وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى مَن تُوصي بي؟ وما تأمرني به؟ قال: والله ما أعلم، أي بني، إلا رجلاً بنصيبين.

فلما دفناه، لحقتُ بالآخر، فأقمتُ عنده على مثل حالهم حتى حضره الموت، فأوصى بي إلى رجل من أهل عمورية بالروم، فأتيته فوجدته على مثل حالهم، واكتسبتُ حتى كان لي غنيمة وبُقيرات.

ثم احتضر فكلمته إلى مَن يوصي بي؟ قال: أي بني! والله ما أعلمُه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكن قد أظلك زمان نبي يُبعث من الحرم، مهاجرهُ بين حرَّتين إلى أرض سبخة ذات نخل، وإن فيه علامات لا تخفى، بين كتفيه خاتمُ النبوة، ويأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلُص إلى تلكَ البلاد فافعل، فإنه قال أظلكَ زمانُه.

فلما واريناه، أقمتُ حتى مرَّ بي رجال من تجار العرب من كلب، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب، وأُعطيكم غنيمتي وبقراتي هذه؟ قالوا: نعم. فأعطيتهم إياها وحملوني، حتى إذا جاءوا بي وادي القرى، ظلموني، فباعوني عبداً من رجل يهودي بوادي القرى. فوالله لقد رأيتُ النخل، وطَمِعْتُ أن يكون البلد الذي نعتَ لي صاحبي.

وما حقَّت عندي حتى قدِمَ رجل من بني قريظة وادي القرى، فابتاعني من صاحبي، فخرج بي حتى قَدِمنا المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها، فعرفت نعتها.

فأقمتُ في رِقِّي، وبعث الله نبيه ـ ﷺ ـ بمكة لا يُذكر لي شيء من أمره مع ما أنا فيه من الرِّق، حتى قدِمَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ قُباء، وأنا أعمل لصاحبي في نخلة له، فوالله إني لفيها إذ جاءه ابن عم له، فقال: يا فلان! قاتلَ الله بني قَيْلة، والله إنهم الآن لفي قُباء مجتمعون على =

عدد منهم قليل: ﴿فما رعوها حق رعايتها. فآتينا الذين آمنوا أجرهم، وكثير منهم فاسقون﴾ [الحديد: ٢٧].

والله لا يأخذ الناس بالمظاهر والأشكال، ولا بالطقوس والمسوح، إنما يأخذهم بالعمل والنية، ويحاسبهم على حقيقة الشعور والسلوك. وهو الذي يعلم خبايا القلوب وذوات الصدور.

= رجل جاء من مكة يزعمون أنه نبي. فوالله ما هو إلا أن سمعتُها فأخذتني العُرواء ـ يقول الرِّعدة ـ حتى ظننتُ لأسقطن على صاحبي. ونزلتُ أقول: ما هذا الخبر؟

فرفع مولاي يده فلكمني لكمة شديدة، وقال: ما لك ولهذا، أَقْبل على عملك. فقلتُ: لا شيء، إنما سمعتُ خبراً، فأحببتُ أن أعلمه. فلما أمسيتُ، وكان عندي شيء من طعام، فحملته وذهبتُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو بقُباء، فقلتُ له: بلغني أنك رجل صالح، وأن معك أصحاباً لك غرباء، وقد كان عندي شيء من الصدقة فرأيتُكم أحقَّ مَنْ بهذه البلاد، فهاك هذا، فَكُل منه. قال: فأمسك، وقال لأصحابه: كلوا. فقلتُ في نفسي: هذه خَلَّة مما وصف لي صاحبي. ثم رجعتُ، وتحوَّل رسول الله إلى المدينة، فجمعتُ شيئاً كان عندي ثم جئته به فقلتُ: إني قد رأيتُك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية. فأكل رسول الله ـ ﷺ ـ وأكل أصحابه، فقلتُ هذه خلتان. ثم جِئْتُ رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يتبع جنازة وعليَّ شملتان لي وهو في أصحابه، فاستدرتُ أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف. فلما رآني استدبرتُه عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرتُ إلى الخاتم فعرفته، فانكببتُ عليه أُقَبِّله وأبكي. فقال لي: تحول، فتحولت، فقصصتُ عليه حديثي كما حدّثتك يا ابن عباس، فأعجب رسول الله ـ ﷺ ـ أن يسمعَ ذلك أصحابه.

قال الذهبي: ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ـ ﷺ ـ بدر وأُحد. ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كاتب يا سلمان» فكاتبتُ صاحبي على ثلاث مئة نخلة أُحييها له بالفقير وبأربعين أوقية. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه: «أعينوا أخاكم» فأعانوني بالنخل الرجل بثلاثين وَدِيَّة، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، حتى اجتمعت ثلاث مئة ودِيَّة. فقال: «اذهب يا سلمان فَفَقِّر لها، فإذا فرغتَ فائتني أكون أنا أضعُها بيدي». ففقرتُ لها وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها، جئتُه وأخبرته، فخرج معي إليها نقرب له الودي، ويضعه بيده. فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة. فأديتُ النخل، وبقي عليَّ المال، فأُتي رسول الله ـ ﷺ ـ بمثل بيضة دجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: «ما فَعل الفارسي المكاتَب؟»، فدعيتُ له، فقال: «خُذها فَأَدِّ بهَا ما عليك» قلتُ: وأين تقع هذه يا رسول الله مما عليَّ؟ قال: «خذها فإن الله سيؤدي بها عنك». فأخذتها فوزنتُ لهم منها أربعين أوقية، وأوفيتُهم حقهم وعتقت، فشهدتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ الخندق حُراً، ثم لم يفتني معه مشهد..» سير أعلام النبلاء ١/٥٠٥، وتهذيب السير ١/٤٦ ـ ٤٨ (رقم ٩٧).

قصة أصحاب الأُخدود

المحتوى	ص

قصة أصحاب الأُخدود

ميزان الإيمان في القرآن:

ونمضي مع القرآن الكريم في قصة خالدة، يعرض الله ـ سبحانه ـ في مشاهدها حقائق العقيدة، وقواعد التصور الإيماني. . يعرض أموراً عظيمة، تشعّ حولها أضواء قوية بعيدة المدى، يتحدث القرآن عن أصحاب الأخدود. . والموضوع هو أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام ـ قيل إنهم من النصارى المُوحّدين ـ ابتُلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين، أرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم. فشقّ الطغاة لهم شقاً في الأرض، وأوقدوا فيه النار، وكبّوا فيه جماعة المؤمنين فماتوا حرقاً، على مرأى من الجموع التي حشدها المُتَسلطون لتشهد مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة، ولكي يتلهى الطغاة بمشهد الحريق. حريق الآدميين المؤمنين. .

تبدأ القصة بِقَسَم من الله: **﴿والسماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود، قُتل أصحاب الأُخدود. .﴾** [البروج: ١ ـ ٤]. .

فتربط بين السماء وما فيها من بروج هائلة، واليوم الموعود وأحداثه الضخام، والحشود التي تشهده والأحداث المشهودة فيه. . تربط بين هذا كله وبين الحادث ونقمة السماء على أصحابه البغاة.

ثم تعرض المشهد المفجع في لمحات خاطفة، تودع المشاعر بشاعة الحادث بدون تفصيل ولا تطويل. . مع التلميح إلى عظمة العقيدة التي تعالت

على فتنة الناس مع شدتها، وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها، وارتفعت إلى الأوج الذي يُشرِّف الإنسان في أجياله جميعاً. والتلميح إلى بشاعة الفعلة، وما يكمن فيها من بغي وشرّ وتسفّل، إلى جانب ذلك الارتفاع والبراءة والتطهر من جانب المؤمنين..

﴿والسماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود﴾.. وتلتقي السماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود.. تلتقي جميعاً في إلقاء ظلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة على الجو الذي يعرض فيه بعد ذلك حادث الأخدود.. كما توحي بالمجال الواسع الشامل الذي يوضع فيه هذا الحادث. وتوزن فيه حقيقته ويُصَفَّى فيه حسابه وهو أكبر من مجال الأرض، وأبعد من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود..

وبعد رسم هذا الجو، وفتح هذا المجال، تجيء الإشارة إلى الحادث في لمسات قلائل:

﴿قُتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. الذي له ملك السموات والأرض، والله على كل شيء شهيد﴾ [البروج: ٤ ـ ٩]..

وتبدأ الإشارة إلى القصة بإعلان النقمة على أصحاب الأخدود: **﴿قُتل أصحاب الأخدود﴾**.. وهي كلمة تدل على الغضب. غضب الله على الفعلة وفاعليها. كما تدل على شناعة الذنب الذي يثير غضب الحليم، ونقمته، ووعيده بالقتل لفاعليه.

ثم يجيء تفسير الأخدود: **﴿النار ذات الوقود﴾** والأخدود: الشق في الأرض. وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملأوه ناراً، فصارت النار بدلاً في التعبير من الأخدود للإيحاء بتلهب النار فيه كله وتوقدها.

قُتل أصحاب الأخدود، واستحقوا هذه النقمة وهذا الغضب، في الحالة التي كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الإثم، ويزاولون تلك الجريمة: **﴿إذ هم**

عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾. . وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم، وهم يوقدون النار، ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها وهم قعود على النار، قريبون من عملية التعذيب البشعة، يشاهدون أطوار التعذيب، وفِعْل النار في الأجسام في لذة وسعار، كأنما يُثَبتون في حِسّهم هذا المشهد البشع الشنيع!

وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا ثأر: **﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. الذي له مُلك السموات والأرض. والله على كل شيء شهيد﴾**. . فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله، العزيز: القادر على ما يريد، الحميد: المستحق للحمد في كل حال، والمحمود بذاته ولو لم يحمده الجهّال! وهو الحقيق بالإيمان وبالعبودية له. وهو وحده الذي له مُلك السماوات والأرض وهو يشهد كل شيء وتتعلق به إرادته تعلق الحضور. ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود. . وهذه لمسة تُطمئن قلوب المؤمنين وتهدد العتاة المتجبرين. فالله كان شهيداً. وكفى بالله شهيداً.

وهذه الجماعة المؤمنة التي قَصَّ الله ـ سبحانه ـ خبرَها تصدّى لها أعداء الله بتهمة أَوْهَىٰ من بيت العنكبوت، وحاكوا من حولها الدسائس الكاذبة، واجتاحت المؤمنين موجة من التعذيب والتنكيل والتحريق، **﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾**. .

لقد أرّخ المؤمنون بدمائهم وشهدائهم وضحاياهم دورة رائعة من دورات الكفاح بين الحق والباطل.

إن المؤمن وهو في المحنة ينظر إلى الله عز وجل يُوقن أن عَين الله لن تتخلى عنه **﴿والله على كل شيء شهيد﴾**. . وارتفعت زفرات المؤمنين كأسراب الطير المذعور تخترق الفضاء وتمرّ عبر السماء ذات البروج إلى حيث تجد المأمن في جوار ربٍّ لا تضيع عنده الودائع. فلن يضيع شيء من السعي والعمل والكسب والجهاد؛ ولن يغيب شيء عن علم الله وميزانه الدقيق. وسينال كل امرىء جزاء سعيه وافياً كاملاً لا نقص فيه ولا ظُلم.

ثم فلا طريق إلا الطريق الذي ينتهي إلى الله. ولا ملجأ من دونه. ولا مأوى إلا داره: في نعيم أو جحيم.. ولهذه الحقيقة قيمتها وأثرها في تكييف مشاعر الإنسان وتصوره فحين يحسّ أن المنتهى إلى الله منتهى كل شيء وكل أمر. وكل أحد. فإنه يستشعر من أول الطريق نهايته التي لا مَفرّ منها ولا مَحيص. ويصوغ نفسه وعمله وفق هذه الحقيقة؛ أو يحاول في هذا ما يستطيع. ويظل قلبه ونظره مُعَلّقين بتلك النهاية منذ أول الطريق!

ثم نسير في قلوب واجفة خاشعة مع تفصيل القصة في الخَبَر النبوي الصادق الذي لا ينطق عن الهوى. إن هو إلا وَحي يُوحى..

نعيش لحظات في ذلك الأفق الوضيء الطليق المُرفرف مع محمد - ﷺ - ونستمع إلى قصة العقيدة الخالدة في إيقاع رخي منساب.

نعيش لحظات مع قلب رسول الله - ﷺ - الذي يتلقَّى من رَبِّه الأعلى. نعيش مع النبي المصطفى، نتلقى زاداً ثَرًّا طيباً من ذلك الفؤاد المُصفًّى..

ويرسم النبي أحداث القصة بكلمات مُصورة في إيقاعاتها وظلالها. يقرر الحقيقة الأساسية للعقيدة. يُعرِّف البشر بخالقهم، بتعليمهم بمشيئته الفاعلة المبدعة المؤثرة في حياتهم، يعرض كل ذلك بصورة تلمس الوجدان البشري وتهزّه هزًّا عميقاً. فَلْنَعِش مع الإيقاع النبوي في قصة، تتلقاها القلوب بمشاعر حيّة حتى تتأثر وتستجيب إلى نداء الحق المبين.

عن صهيب، أن رسول الله - ﷺ - قال: «كان مَلِكٌ فيمَن كانَ قبلكُم وكان له ساحر، فلما كَبِرَ قال للملك: إني قد كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إليَّ غُلاماً أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فبعثَ إليه غلاماً يُعلِّمُهُ، فكان في طريقه، إذا سَلَكَ، راهبٌ، فقَعَد إليه، وسمع كلامَهُ فأعجبَهُ، فكان إذا أتى الساحر، مرَّ بالراهب وقَعَد إليه، فإذا أتى الساحر، ضَرَبَهُ [وإذا رجَعَ من عند الساحر، قَعَد إلى الراهب، وسمع كلامَهُ. فإذا أتى أهْلَهُ ضربوه]، فشكى ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحرَ فقُل: حبسني أهلي، وإذا خشيتَ أهلَكَ، فقل: حَبسني الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابةٍ عظيمةٍ قد حَبَست الناس، فقال: اليومَ أعلمُ:

الساحرُ أفضلُ أم الراهب أفضل؟ فأخـذَ حجراً فقـال: اللهمَّ إن كان أمـرُ الراهبِ أحبَّ إليكَ من أمرِ الساحر، فاقتُل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضي الناسُ، فأتى الراهبَ، فأخبرَهُ، فقال له الراهبُ: أي بُنَيَّ أنتَ اليومُ أفضلُ مني، قد بلغَ من أَمْرِك ما أرى، وإنَّك سَتُبْتَـلَى، فإن ابْتُليتَ، فلا تَدُلَّ عليَّ، وكان الغلامُ يُبْرِىء الأَكْمَه[1] والأبْرَص، ويـداوي الناسَ من سائر الأدواء، فسمع جليسٌ للملك ـ كان قد عَمِيَ ـ فأتاهُ بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهُنا لك أَجمع، إن أنتَ شَفَيْتَني، فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن أنتَ آمنتَ بالله، دعوتُ اللّهَ، فشفاك، فآمنَ بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلسَ إليه كما كان يجلس، فقـال الملك: [فلان!] مَنْ ردَّ عليكَ بَصَركَ؟ قال: ربِّي، قال: ولَكَ ربٌّ غيري؟ قـال: ربي وربُّك الله، فأخذه، فلم يزل يُعَذِّبْه حتى دَلَّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بُنيّ قد بَلغَ من سِحْرِكَ ما تُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأبرصَ وتفعلُ وتفعلُ. قال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي اللّهُ، فأخذهُ، فلم يَزل يُعَذِّبُه حتى دَلَّ على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: إرجع عن دينكَ، فأبى، فدعا بالمِنشار، فوضَـع المِنْشار في مَفْرِقِ رأسِه، فَشقَّهُ حتى وقع شِقَّاهُ.

ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجِع عن دينك، فأبى، فوضـعَ المِنشار في مَفْرِقِ رأسِه فَشَقَّهُ به حتى وَقَع شِقَّاهُ، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نَفَرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجَبَل، فإذاً بلغتُم ذُرْوَتَهُ، فإن رجَعَ عن دِينه، وإلا فاطرحُوه، فذهبوا به، فصعدوا به الجَبلَ، فقال: اللهم اكفنيهم بما شِئْتَ، فرجَفَ بهم الجبلُ، فسقطُوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعلَ أصحابُكَ؟ قال: كفانيهم الله، فَدَفَعَهُ إلى نَفَر من أصحابه، فقال: اذهبوا به، فَاحْمِلوه في قُرقور[2]، فَتوسَّطوا به البَحْرَ [فَلَجِّجُوا به]، فإن رَجَع عن دينه،

---

(١) الأكمه : الذي خُلق أعمى.

(٢) بضم القافين: السفينة الصغيرة، وقيل الكبيرة.

وإلا فاقْذِفُوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شِئْتَ، فانكفأتْ بهم السفينة، فَغَرِقُوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعلَ أصحابُك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لستَ بقاتِلي حتى تَفْعَلَ ما آمُركَ به. قال: وما هو؟ قال: تجمعُ الناسَ في صعيد واحد، وتَصْلُبُني على جِذْع، ثم خُذ سهماً من كنانَتي، ثم ضَعْ السَّهمَ في كَبِدِ[1] القوسِ، ثم قُلْ: بسمِ الله ربِّ الغلام، ثم ارْمِني، فإنـك إذا فعلتَ ذلك، قتلتني، فجمـعَ الناسَ في صعيد واحد، وصَلَبهُ على جِذْعٍ، ثم أخذَ سهماً من كِنانته، ثم وضَعَ السَّهم في كَبِدِ القوسِ، ثم قال: بسمِ الله ربِّ الغلام، ثم رماه، فوقعَ السهمُ في صُدغِهِ، فوضعَ يَدَهُ في صُدغِهِ في موضعِ السَّهمِ فمات، فقال الناس: آمنّا بربِّ الغلام، آمنَّا بربِّ الغلام ـ [ثلاثاً] ـ فَأُتِيَ الملكُ، فقيلَ له: أرأيتَ ما كنتَ تحذرُ، قد والله نَزَل بكَ حَذَرُكَ[2]، قد آمن الناسُ، فأمرَ بالأُخْدود[3] في أفواه السِّكَكِ[4]، فَخُدَّت، وأضْرِمَ النيران، وقال: مَن لم يرجع عن دينه، فأحموه فيها[5]، فَفَعَلُوا، حتى جاءت امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها، فتقاعَسَتْ[6] أن تَقَعَ فيها، فقال لها الغُلام: يا أُمَّه اصْبِري، فإنك على الحقّ»[7].

الموقف الواضح:

تبدأ القصة بهذا التمهيد الموجز: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر..».. هذا التمهيد المتضمن عدة معان تُسهم في صنع صورة معينة

---

(١) كبد القوس: مقبضها عند الرمي.
(٢) أي ما كنت تحذر وتخاف.
(٣) الشق العظيم في الأرض.
(٤) والسكك: الطرق، وأفواهها: أبوابها.
(٥) ارموه فيها من قولهم حميت الحديدة وغيرها إذا أدخلتها النار لتحمى.
(٦) أي توقفت ولزمت موضعها وكرهت الدخول في النار (شرح النووي على صحيح مسلم ١٨/١٣٢).
(٧) رواه مسلم في صحيحه وبين الحاصرتين من رواية ابن حبان في صحيحه. انظر تخريج الحديث في الإحسان رقم (٨٧٣).

لطبيعة الموقف الذي تنشأ في ظله أحداث القصة، فهي تشير إلى شخصية مهمة من شخصيات القصة «مَلك» وأنه كان فيمن كان قبلكم، وفي هذا تحديد تاريخي مجمل حيث يفيد أنه حصل في الماضي، دون ذكر للزمان أو المكان بالتحديد لتتجرد المعاني وتبقى مطلقة يمكن الاستفادة منها بتطبيقها في أي وقت، ولتظل تجربة قائمة إلى نهاية الزمان[1]، ولا تكتفي المقدمة بذكر الملك، مع ما يدل عليه من معنى السلطة والقهر التي يسيطر من خلالها على واقع الناس، ولكنها تشير إلى أنه «كان له ساحر» فهذا الملك يعتمد في مُلكه وسطوته وسيطرته على الناس على السحر والدَجَل والشعوذة التي يروّجها له ويشيعها ساحره، وقد كبر هذا الساحر، وأحسّ بقرب نهايته، ولكنه حريص على أن يظل المنهج السحري بالوَهْم والهوى مسيطراً على واقع الناس وعقولهم، وهو يدرك أن الملك صاحب مصلحة أيضاً في استمرار هذا المنهج الذي يساعد في إخضاع الناس حين يحكمهم بالوَهْم والكذب والخرافة، ومن هنا فالساحر يطلب من الملك أن يُحضر له غلاماً حتى يُعلِّمه السحر، ويحرص على أن يكون المُتلقي غلاماً، حتى يضمن مدة أطول يسيطر بها السحر والساحر من جيل إلى جيل[2].

وهكذا تضعنا المقدمة أمام موقف مُعين بكل أبعاد هذا الموقف وملابساته، وتعطينا صورة الجو الذي تنشأ فيه الأحداث عامة، وفي الوقت نفسه تثير في النفوس كل عناصر التشوق لمعرفة ما انبثق عن هذا الموقف من أحداث القصة، وما جرى عليه مستقبل هذا الملك وساحره. .[3].

والقصة تبدأ بالتركيز على عرض الظروف والملابسات، التي تشارك في صنع الأحداث:

«كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر» وبعد المقدمة تأتي

---

(١) انظر أصحاب الأخدود لرفاعي سرور ٩ ـ ١٠.
(٢) د. عز الدين السيد، انظر الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، ص ٤٤٧.
(٣) القصص في الحديث النبوي: ١٠٦.

البـداية: «فلما كـبر قال للملك: إني قـد كبرت، فـابعث إليَّ غلامـاً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه . . » .

فالبداية تعرفنا بالملابسة التي دفعت الساحر إلى أن يـطلب من الملك غلاماً يعلمه السحر، وهي أنه كبر، ومع كبره أحسّ بقرب النهاية، ومن هنا فلا بد من خليفة له، وأن يكون هذا الخليفة غلاماً؛ ليمتد به العمر زمـاناً طويلاً .

وتعطينا البداية ملابسة أخرى، تتيح لهذا الغلام أن يتكون تكويناً آخر يختلف عما يريده له الساحر، فقد شاء الله أن يكون في طريق هذا الغلام إلى الساحر «راهب» فإذا هو يلتقي به وعلى غير ميعاد سـابق، وإذا هو يسمـع كلامه، فيعجبه، وهكذا صار يتردد عليه كلما ذهب إلى الساحر . . [1].

وتسير القصة في الكيفية التي تُبنى فيها الحـوادث، وتُركب المـواقف، وكيف يتطور الحدث، وما يقف وراء الحدث من دوافع ومؤثرات تجعله يسير وفق نظام خاص، وطريقة مرسومة في التتابع من أجل تحقيق الهدف المنشود في عرض الموضوع ببناء متقن، تُشوّق المُتلَقى، وتؤثر عليه .

وتجري الحوادث في القصة وفق ترتيب خاص بحيث يكون كل حدث في مكانه، كما أنه يوجد في الوقت المناسب، وينمو ويكتمل ويتوقف حسب ميزان دقيق. فـالقصة تجـري وفق خطة منـظمة، ومنـطق معين يتحكم في وجـود الحدث، بحيث يخدم الهدف في نسيج بنية القصة. . نجد أن الغلام حين صار يختلف إلى الساحر يمر على راهب في طريقه وأصبح يجلس إليه، فمرور الغلام على الراهب جاء في الوقت المناسب، قبل أن تتمكن تعاليم الساحر من نفسه وتسيطر عليها، وهذا اللقاء تمّ في اللحظة المناسبة التي لها ما بعدها في مستقبل الأحداث .

---

(١) المصدر السابق: ١٢٦ .

وبعد ذلك أيضاً نجد مظهراً آخر للتوقيت الملائم في وجود الحدث: «توقيت خروج الدابة» التي سدّت على الناس طريقهم، ومرّ الغلام فوجدها كذلك، ويجب أن نلاحظ أنه أمضى فترة ما في تردده على الساحر والراهب، وقد اكتسب خلال ذلك التردد من كل منهما، فيأتي خروج الدابة في هذا الوقت بالذات ليضيف إلى مجرى القصة موقفاً جديداً يفرضه منطق القصة، وهو موقف مهم بالنسبة لنا بوصفنا متلقين لنحدد نظرتنا بالدقة إلى هذا الغلام، كما أنه مهم للغلام نفسه ليحدد موقفه من كل من الساحر والراهب، ومن هنا يتضح لنا إلى أي مدى كان التوقيت مناسباً في خروج الدابة في هذه المرحلة. . [1].

«. . فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيتَ الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيتَ أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك، إذ أتى على دابَّة عظيمة قد حبست الناس. فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل، أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة؛ حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس. .».

ومن خلال هذا الحدث أصبح **للغلام موقفه الواضح من الساحر وأنه يقع في جانب الشر والباطل**، كما أصبح لنا أيضاً موقفنا المحدد من هذا الغلام المتطلع إلى الحق والخير[2]. .

إن الأحداث في القصة لا تنبعث هكذا جزافاً دونما سبب أو مبرر، ففيها يجري تتابع الأحداث على أساس من قانون الأسباب والنتائج، فالحدث حين يوجد له ما يبرره، وتحرص القصة على أن تفصح مباشرة عن الدافع. نجد أن طلب الساحر من الملك أن يبعث له غلاماً يعلمه السحر يبرز في القصة بأن

(١) انظر المصدر السابق: ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨.
(٢) القصص في الحديث النبوي: ١٨٨.

الساحر قد كبر، وهذا إيذان بقرب نهايته، ومن هنا فلا بد من خَلَف له يقوم على خدمة **الملك في هذا الجانب الأساسي** بالنسبة للملك، ونستطيع أن نقول بأن الطلب أيضاً هو الدافع لأن يبعث الملك إليه الغلام، والغلام حين أخذ حجراً ليضرب به الدابة ما الذي يدفعه إلى ذلك مع أنها دابة عظيمة قد وقف الناس على كثرتهم عاجزين عن إزاحتها عن طريقهم؟

فليست له قوة خارقة تُؤهله لأن يقدم على هذا العمل. **وسنظل نسأل هذا السؤال لماذا أراد الغلام ضرب الدابة وأقدم عليه**[1]؟ ولكن القصة تدع للخيال فجوة مضيئة يتملى من ورائها خطوط العقيدة الراسخة التي رسمها الراهب في نفس الغلام، والأوهام الباطلة التي صنعها الساحر التي كانت تتراءى في نفسه وتتهاوج.. ومن ثم فالقصة تعرض للإجابة، وتكشف عن المبرر الذي دفع الغلام إلى هذا التصرف، وهو ما كان يحسّ به من قلق يُحيره ويُؤرقه بصدد الساحر والراهب وأيهما أفضل عند الله وها هي الفرصة قد أتت.. «فبينما هو كذلك، إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس..».

يعتبر الحدث في القصة روحها الذي يمنحها الحياة والحيوية، وهو البارز، وهو محط الاعتبار، فالشخصيات هي أدوات للأحداث التي تعرض تحركها، وتدفع بها في طريق النمو[2].

ونجد في القصة الحرص على ترابط الحدث من الداخل، بحيث يؤدي هذا الترابط إلى وحدة في الأثر لدى المتلقي بصورة قوية ومركّزة من خلال تطور الحدث من نقطة تكون هي السبب في وجوده من حيث الأصل، إلى نقطة

(١) المصدر السابق: ١٩١.
(٢) المصدر السابق: ٣٠٢.

ينتقل إليها بشكل منطقي، فكل جزء في الحدث يؤدي إلى الجزء الذي يليه بصورة مقنعة مبررة، ولا شك في أن تدرج تطور الأحداث يمثل مظهراً جيداً لترابط بنائية الحدث من الداخل[1]. ففي موقف «الغلام» حين أتى الدابة التي سدت على الناس طريقهم فحبستهم، وعند هذا الموقف تصور لنا القصة ما يدور في نفس الغلام من قلق نفسي، وهَمّ يثقل كاهله، وهو موزع بين تلقي الدين من الراهب، وبين تلقي السحر من الساحر، وهو وإن كان قد استجاب بفطرته إلى صدق ما عند الراهب، إلا أنه يحسّ أنه في حاجة إلى طمأنينة أكثر تنبع من الواقع فوق يقينه الفطري[2].. «اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟!...».

إن وضع الشخصية في مواقف جديدة تدفع مسار القصة إلى النمو، مما يجعل الشخصية تتخذ سلوكاً معيناً يمليه عليه الموقف أحياناً، وأحياناً أخرى يكون هذا الاتجاه نابعاً من ذاتيتها هي وما تلتزم في نفسها أساساً من قيم..

والقصة تضع في طريق الغلام إلى الساحر «راهباً»، ووجود هذا الراهب في طريق الغلام، لم يكن مصادفة، ولا شيئاً عابراً، وإنما كان مقصوداً تطلبته الحبكة القصصية، وكان له آثاره البعيدة في حركة القصة، وتوجيهها بشكل معين..

ونجد الغلام يتخذ تصرفاً معيناً، فها هو يجلس إلى الراهب، وسمع كلامه، ونجد القصة تضيف بُعداً جديداً إلى هذا التصرف، وهو أن الغلام أُعجب بكلام الراهب «فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه».

ولو مضينا مع القصة لوجدنا في تطور الأحداث وضع الشخصيات في مواقف جديدة، كمواقف الغلام مع الدابة التي اعترضت طريق الناس،

(١) المصدر السابق: ٣٠٨.

(٢) القصص النبوي: ١٧٣.

وموقفه من الملك، وكذلك المواقف التي وضعت فيها جليس الملك أمام الملك نفسه حين أخذ يعذبه حتى دلَّ على الغلام، وموقف الراهب أمام الملك[1]. . الخ.

الإيمان الصادق والابتلاء:

ونمضي مع مسار القصة، مع الغلام المؤمن بعد أن رمىٰ الدابة فقتلها. . «فأتى الراهب، فأخبره، فقال له الراهب: أي بُني أنتَ اليوم أفضلُ مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنَّك سَتُبْتَلى، فإن ابتليتَ، فلا تدلَّ عليَّ، وكان الغلامُ يُبْرِىء الأَكْمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمعَ جليس للملك كان قد عَميَ ـ فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ها هنا لك أجمع، إن أنتَ شَفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن أنت آمنتَ بالله، دعوتُ الله، فشفاك، فآمن فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال الملك: فلان! مَن ردَّ عليكَ بصرك؟ قال: ربِّي، قال: ولكَ ربٌّ غيري؟ قال: ربي وربُّك الله، فأخذه، فلم يزل يُعذِّبه حتى دَلَّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بُني قد بلغَ من سِحْرِك ما تُبرىءُ الأَكمه والأبرص وتفعل وتفعل! قال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فأخذه، فلم يزل يُعذِّبه حتى دَلَّ على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضَع المِنْشار في مَفْرق رأسه، فشقَّه حتى وقع شِقَّاه.

ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فَوضَع المنشار في مَفْرق رأسه فشقَّه به حتى وقع شِقَّاه. ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نَفَر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتُم ذُروته، فإن رَجَع عن دينه، وإلا فاطرحوه. . ».

إنه الإيمان تُصوره القصة ليستقر في القلوب. . صُورٌ شاهدة تهزُّ

---

(١) المصدر السابق: ١٩٣.

النفوس، ترسم الحقيقة في التصور الإسلامي، فالإيمان الصادق وراءه ابتلاء.. «فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضلُ مني، قد بلغَ من أمرك ما أرى، وإنك ستُبتلى..».

إن هذه الكلمة «ستُبْتَلى» تثير اليقظة، فليست المسألة مصادفة بلا تدبير. وليست حقيقة الإيمان كلمة تُطلق جزافاً. إنما هو الابتلاء الذي يتلو الإيمان. يقول الله تعالى: ﴿**أحسبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا: آمنا وهم لا يُفتنون؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين**﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]..

الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك وعقيدة المؤمنين، والفتنة التي يتعرض لها المؤمنون لتحقيق هذا الإيمان؛ وكشف الصادقين والكاذبين بالفتنة والابتلاء.

إن الإيمان ليس كلمة تُقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف؛ وأمانة ذات أعباء؛ وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال. فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا. وهم لا يُتركون لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم. كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به ـ وهذا هو أصل الكلمة اللغوي وله دلالته وظله وإيحاؤه ـ وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب.

هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت، وسُنة جارية، في ميزان الله: ﴿**ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين**﴾..

ويقدم القرآن نماذج متعددة من الابتلاء بالإضافة إلى الحريق في قصة أصحاب الأخدود، وفي هذا مصدر الإلهام للدعوات. فالدعوات الإلهية يمتد تاريخها إلى الله في أول الأمر وآخره. ويضم ميراثاً ضخماً من النماذج في تعدده وتنوعه ويكوّن مجموعة كاملة يجد فيها المؤمن والمجاهد ما يحتاج إليها في علاج نفسه حين يُضنيها الجهاد.

وفي هذه القصة أمثلة حية توضح المنهج الذي يسير عليه المؤمنون،

فكانت صورة واقعية طَبَعها الإسلام في قلوب المؤمنين في كل زمان وفي كل مكان.

لقد خاض المسلمون الأُول في العهد المكي معركة الصبر وتعرضوا للمحنة لا يمتلكون إلا سلاح الإيمان. فكان العذاب الشديد يقع على مَن يؤمن برسول الله ـ ﷺ ـ والذي يصفه ابن عباس فيقول: «كانوا يضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الذي نزل به».

ولم يكن الصحابة على علم بمدة هذه المحنة والنبي لا يعدهم بسرعة كشفها، وإنما يمرّ على آل ياسر وهم يُعذَّبون فيقول: «صبراً آل ياسر. لا أملك لكم من الله شيئاً. إن موعدكم الجنة». فليس بينهم لقاء قريب في مَنصب من مناصب الحكم أو عَرَض من عروض الدنيا الزائلة، وإنما المحنة تصهر النفوس وتنقيها من الخَبَث وتميز بين المعدن النفيس والمعدن الخسيس..

لا شيء كان بين الرسول ـ ﷺ ـ وبين المؤمنين المبتَلين إلا العقيدة واللقاء في الجنة.

كان المسلمون في مكة يعانون من محنة قاسية، فقد شكوا إلى الرسول ـ ﷺ ـ شدة ما يلاقونه من عَنَت قريش وإيذائهم لهم، وقالوا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ فكان جوابه قصة الدعوة، فقد حكى لهم حكاية الرجل المؤمن بربه، الذي كان يلاقي من العذاب ما تعجز عن حمله الجبال الراسيات، وكانت هذه القصة تسرية للمؤمنين من ناحية، وتعليماً لهم أن هذا هو طريق الجنة والخلود.. وقد زرعت في قلوب الصحابة أوتاد الثبات، ورسخت في نفوسهم القدرة الصلبة على تحمل ما يلقونه من الشدائد المزلزلة..

يقول الصحابي خباب بن الأرت رضي الله عنه:

«شكونا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو متوسّد بردة في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا».

وإزاء هذه الشكوى كان لا بد أن يتخذ الرسول ـ ﷺ ـ موقفاً ما، ولما

كان الوقت لم يحن بعد للمواجهة، ولم يحن وقت القتال والمصادمة، رأى أن يُثَبّت أصحابه، وأن يقوي عزائمهم، وفي سبيل ذلك اتخذ من القصة وسيلة يُسري عن طريقها عن قلوب أتباعه، ويخفف عنهم ما يلقونه من عنت وأذى، ولذلك جاء رده على الذين شكوا إليه أن قصّ عليهم قصة «الحديد والإيمان» التي تصور شدة ما يلقاه أسلافهم من المؤمنين، وتَعرض بعض ما كانوا يلقونه من أبشع ألوان التعذيب والتنكيل، حتى لقد كان الرجل منهم يُحفر له في الأرض، فَيُجعَل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق به نصفين، ويُمشَّط بأمشاط الحديد، ولكنه مع ذلك ثابت صابر، لا يحيد ولا يلين ولا يصده ولا يصد أمثاله عن دينهم.

يقول الرسول ـ ﷺ ـ: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فَيُجاء بالمنشار فيوضَع على رأسه، فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه. .»[1].

إنه الرجل المؤمن الذي يُنشر بالمنشار فلا يصدّه ذلك عن دينه. والرسول ـ ﷺ ـ يُصور لوحة المعاناة التي كان يلقاها السابقون، فيؤدي هذا إلى تخفيف ما يعانيه المسلمون، ويوجد لديهم شعوراً بأنهم ليسوا وحدهم الذين يُعانون، وأن هناك مَن عانى أشد وأقسىٰ مما يعانون!!

ومن الأغراض التي قصدت إليها القصة غرض التسرية عن المؤمنين، وتخفيف ما يعانونه من ضغط عاطفي، ينشأ من مواجهتهم للمجتمع الجاهلي المتسلط في بداية الدعوة الإسلامية. فقد كان المسلمون يلاقون من قريش أشد أنواع التعذيب والتنكيل، فوق ما يُرمون به من التسفيه والسخرية والازدراء، كل ذلك من أجل صَدّهم عن دينهم الجديد الذي يدعوهم إليه محمد ـ ﷺ ـ

(١) البخاري ٤/٢٤٤ وفي نهاية الحديث يبشر الرسول ـ ﷺ ـ المسلمين بالنصر والتمكين فيقول لهم: «والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

وقد بلغ الأمر بالمسلمين إلى أن شكوا إلى الرسول ـ ﷺ ـ من شدة ما يلقون من أذى قريش كما تقدم.

لقد صبر هؤلاء المؤمنون في العذاب والألم. وسلاحهم الإيمان والصبر الطويل الذي لا يعرف حدوداً، وجزاؤهم هناك عند رب العالمين ﴿**فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**﴾ [السجدة: ١٧]..

والقصة تعرض مواقف تشبه مواقف المسلمين، في كل زمان وفي كل مكان، وتصور ظروفاً وملابسات تعكس ما يعيشونه من ظروف وما يعانونه من إيذاء، وهذا يخفف عنهم بعض ما يجدون من ناحية، ويُثبتهم من ناحية أخرى، فهم يحسون بهذه المواقف بأنهم ليسوا وحدهم في هذا الميدان، وأن هناك مَن سبقوهم في هذا الطريق، وعانوا أشد مما عانوا، وأن عليهم أن يصبروا ويُصابروا حتى يأتي وَعْد الله ونصره. كما تُصوّر القصة ما يلقاه أصحاب العقيدة والمبدأ من عسف وطغيان، وتصور الثبات والتضحية الرائعة في سبيل الله: «فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضعَ المِنْشار في مَفْرق رأسه، فشقّه حتى وقع شِقّاه. ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مَفْرِق رأسه فشَقَّه به حتى وقع شِقَّاه. ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى...».

إن الشهيد في سبيل العقيدة نَعِمَ برضى الله عنه، وأرضاه بالشهادة بعد أن أدَّى الرسالة، وأرسى الأساس لبناء الإيمان، وترك ذلك كله وديعة مباركة في يد الله الذي أكرمه بالهدى والشهادة في سبيل الحق، فمضى إلى ربه شهيداً عزيزاً، يشهد له دمه الحر الزكي المُراق في سبيل الله.

ونمضي مع القصة في حلقات رتيبة مُؤثّرة في سلسلة التربية للجماعة المسلمة. حيث يقف المسلمون على أرض صلبة، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد. مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركة للّه، ليس لأنفسهم منها نصيب، ولا لذواتهم منها حظ.. إنما هي للّه وحده. وأنهم يواجهون قوماً أهل

باطل، وهم يوقنون أن الله وليّهم. وأنهم يواجهون قوماً، الشيطان وليّهم فهم إذن ضعاف.. إن كيد الشيطان كان ضعيفاً..

وهكذا يتقرر المصير في حسّ المؤمنين، وتتحدَّد نهايته، وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن في الفتنة والابتلاء ـ فهو واثق من النتيجة ـ أم بقي حتى غلب، ورأى بعينيه النصر؛ فهو واثق من الأجر العظيم..

من هذا التصور للأمر في كلتا حالتيه، انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التي حَفِظَها تاريخ الدعوات؛ والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيال كثيرة. وما بِنَا أن نضرب لها هنا الأمثال؛ فهي كثيرة مشهورة.. ومن هذا التصور كان ذلك المدّ الإسلامي العجيب، في أقصر فترة عُرفت في التاريخ؛ فقد كان هذا التصور جانباً من جوانب التفوّق الذي حققه المنهج الرباني للجماعة المسلمة، على المعسكرات المعادية.. وبناء هذا التصور ذاته كان طَرَفاً من المعركة الكلية الشاملة التي خاضها القرآن في نفوس المؤمنين، وهو يخوض بهم المعركة مع أعدائهم المتفوقين في العدد والعدّة والمال؛ ولكنهم في هذا الجانب كانوا مُتَخلّفين؛ فأمسوا مهزومين.

وها نحن أولاء نرى الجهد الذي بذله المنهج في إنشاء هذا التصور وتَثبيته. فلم يكن الأمر هيناً. ولم يكن مجرد كلمة تقال. ولكنه كان جهداً موصولاً، لمعالجة شحّ النفس، وحرصها على الحياة ـ بأي ثمن ـ وسوء التصور لحقيقة الربح والخسارة.. وفي القصة بقية من هذا العلاج، وذلك الجهد الموصول..

«ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نَفَر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل؛ فإذا بلغتم ذُرْوَتَه، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به، فصعدوا به الجبلَ، فقال: اللهم اكفنيهم بما شِئتَ، فَرَجَفَ بهم الجبل، فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فَعل أصحابك؟ قال: كفانيهم اللّهُ، فدفعهُ إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به، فاحملوه في قُرقور، فتوسَّطُوا به البحر،

فلجّجوا به، فإن رجع عن دينه، وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شِئْتَ، فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمُرك به. قال: وما هو؟ قال: تَجمع الناس في صعيد واحد، وتَصْلُبني على جِذْع، ثم خُذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قُل: بسم الله ربّ الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلتَ ذلك، قتلتَني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصَلَبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله ربِّ الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صُدغه، فوضَع يده في صُدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا بربِّ الغلام - ثلاثاً - فأُتي الملكُ، فقيلَ له: أرأيتَ ما كنتَ تحذر، قد والله نَزَلَ بك حَذرُك، قد آمنَ الناس، فأَمَرَ بالأخدود في أفواه السِّكَك، فَخُدَّت، وأضرمَ النيران، وقال مَن لم يرجع عن دينه، فأحموه فيها، ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبيٌّ، فتقاعست أن تقعَ فيها، فقال لها الغلام: يا أُمَّه اصبري، فإنك على الحق».

إن الإيمان أمانة الله في الأرض لا يحملها إلا مَنْ هم لها أهل، فهي أمانة كريمة وهي أمانة ثقيلة، وهي من أَمْر الله يضطلع بها الناس ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء، والفتنة سُنّة جارية لامتحان القلوب وتمحيص الصفوف..

«لقد أَرَّخ المؤمنون أصحاب الأخدود بدمائهم وأشلائهم وضحاياهم دورة رائعة من دورات الكفاح بين الحق والباطل.

إن المؤمن وهو في المحنة ينظر إلى الله عز وجل يوقن أن عين الله لن تتخلى عنه.. لقد ارتفعت زفرات المؤمنين أصحاب الأخدود كأسراب الطير المذعور تخترق الفضاء إلى حيث تجد المأمن في جوار ربٍّ عظيم لا تضيع عنده الودائع».

والمؤمنون الصادقون بحكم إيمانهم واستعدادهم النفسي تجدهم

يواجهون المحنة ـ مهما طالت ـ بقلوب ثابتة وهي مُنصهرة بنار الفتنة، ساخنة بحرارة الابتلاء.. تجدهم على كثير من الاطمئنان. وكأن البلاء عندهم شيء مُتَوقَّع ذو وَعْد صادق ولهذا كان قول المؤمنين حين رأوا الأحزاب: **﴿هذا ما وَعَدَنا الله ورسوله وصَدَق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾** [الأحزاب: ٢٢]..

إن قصة أصحاب البروج تستحق أن نقف أمامها طويلاً نُدركها ونَتَدَبَّرها، ونتلقى أحداث الحياة وامتحاناتها على ضوء ذلك الإدراك وهذا التدبير.

إن القصة تُصور القيم الثابتة والسنن الباقية. ومن ثم تبقى قاعدة ومَثَلاً لكل جيل ولكل قَبيل، وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة، وهنا تتحول القصة من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات، وتنتفض الأحداث والوقائع المُصَوَّرة فيها. تنتفض خلائق حيّة مُوحية دافعة دافقة تعمل في واقع الحياة وتدفع بها إلى حركة حقيقية في عالم الواقع وعالم الضمير.

قَدَر الله وقُدرته:

إن هذه القصة تعطينا تصوراً إسلامياً عن «الله» ـ سبحانه ـ وتُعرفنا بقدرته، فهو المهيمن القادر على خَلْقه، يتصرف فيه كما يشاء، ويفعل به ما يريد، وتوجيه قوى الكون وطاقاته حسب أوامر الله.

وفي القصة يُسخِّر البحر لإهلاك أهل الشرّ والكفر، نجد ذلك حين أمر الملك أصحابه أن يذهبوا بالغلام ويتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا قذفُوه فيه، ولكن الغلام يدعو الله أن يكفيه إياهم بما شاء ـ سبحانه ـ: «... **فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا**...».

ومثل البحر في هذه القصة الجبال، فهي خاضعة لأمر الله وإرادته، فقد دفع الملك الغلام إلى نفر من أصحابه، وطلب منهم أن يصعدوا جبلاً شاهقاً، فإن رجع عن دينه وإلا رموه من قمته، وهناك دعا الغلام ربه قائلاً: «**اللهم**

اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك. . ».

وهكذا نجد أن القصة تصور العلاقة بين الله والكون، علاقة بين خالق مالك متصرف، وكَون مخلوق خاضع لأمر الله وإرادته، كذلك نجد أن القصة تُثبت في القلوب أن الله ـ سبحانه ـ قريب من خلقه في الدنيا بلطفه وعنايته وتأييده ونصره فهو سميع قريب مجيب الدعاء يسخّر لهم ما في برّه وبَحرِه. . فقد استجاب الله لدعاء الغلام فأنقذه مما أراد به أتباع الملك من إغراقه مرة في البحر، ومن رَمْيِه مرة من قمة الجبل الشاهق.

وكان قَدَر الله أن يلطف بالغلام حينما حاول أعوان الملك قتله، وها هو حين يعود إلى الملك يقول له: «كفانيهم الله». .

كذلك نجد في القصة خوارق ومُعجزات، يُجريها الله تبارك وتعالى، بحيث تتم في صورة مخالفة لسنن الحياة الطبيعية، ومنها المعجزة التي تدفع المؤمنين المخلصين إلى أن يستمسكوا بالحق الذي هُم عليه، وأن يثبتوا مهما كلفهم ذلك من ألم وعناء، فها هو الصبي في المهد ينطق بإذن الله. . وقد صوَّر النبي ـ ﷺ ـ لوحة ناطقة بالإيمان الرفيع، والصبر العميق، في المشهد الرائع الحي الذي خُتمت به القصة: «فأَمر بالأُخدود في أفواه السِّكك فَخُدَّت، وأَضرم النيران وقال: مَن لم يرجع عن دينه فأَحْمُوهُ فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبيٌّ لها، فتقاعست[1] أن تقع فيها، فقال لها الغلامُ يا أُمَّهِ! اصبري، فإنك على الحق».

والطغيان والجبروت والكفر بالله ناحية تبرزها القصة النبوية، تعكس بها جانب الشر الذي تنطوي عليه نفوس الملوك بشكل خاص وذوي السلطان.

فالملك يقوم بمحاولة يائسة لإقناع الجليس والراهب بالعودة عن دينهما الجديد، فلما أحسّ منهما الإصرار على الكفر به والإيمان بالله، أمر بهما فنُشِرا شقين بمنشار الحديد.

---

(١) أي توقفت ولزمت موضعها وكرهت الدخول في النار، شرح النووي على «صحيح مسلم» ١٨/١٣٣.

وترسم القصة صوراً مضيئة للإيمان بالعقيدة، والثبات عليها، والتضحية في سبيلها، ومواجهة الأهوال من أجل نصرتها، حتى لو كان ذلك الهول هو الموت في أقسىٰ وأبشع صورة على أيدي الطغاة والمتجبرين، كل ذلك واقع إنساني حَقَّقته شخصيات بشرية في أكثر من شخصية، ومن مستويات مُتعددة، ولعل هذا التعدد في المستويات يعكس قضية، تحب القصة أن تلفت النظر إليها، وهي أن مثل هذا الإيمان يشكل ظاهرة عامة في جميع فئات الإنسانية، فنجدها في شخصية «الراهب» و «جليس الملك» اللذين أُعدما شَقّاً بالمنشار، وفي شخصية «الغلام» الذي قَدَّم نفسه قرباناً للعقيدة حين فتح صدره لسهام الملك الكافر، وفي شخصية «المرأة» التي ألقت بنفسها مع رضيعها في الأخدود المضطرم بالنيران، وفي «الجماهير» المندفعة في أفواه السكك تواجه الحريق، ولا تتنازل عن الإيمان بالعقيدة الجديدة.

ذلك كان هو التصور الإسلامي للعقيدة، ومنه نَبعت الواقعية الإسلامية، فقد كانت الشخصية الإنسانية في القصة، تنقل لنا بأمانة ودقة واقع الإنسانية الكبير في إطاره الصحيح، الذي يجمع أطراف ذلك الواقع وجوانبه المختلفة بخيره وشرّه، بقوته وضعفه، بإيمانه وكفره، بما فيه من جوانب روحية وجوانب مادية، وواقعه وهو يرتفع إلى مستوى نفخة الروح، وهو يصارع الطاغوت المُتَجَبّر بسلطانه وقوته[1].

والقصة تحكي طريق **الدعوة إلى الله**، وهي تحمل نماذج بشرية رائعة لثبات أهل العقيدة وصمودهم، وهي مواقف تتمثل في أكثر من شخصية، كما نجد في موقف الراهب، وموقف الجليس، وموقف الغلام، وموقف المرأة، وموقف الجماهير الذي يحمل أكثر من جانب يصور الواقع الإنساني الذي تبعثه العقيدة في الحياة، وأكثر من درس للتضحية والثبات في الطريق إلى الله.

وفي القصة نجد قَدَر الله تعالى يقف إلى جانب الغلام حين دفعه الملك

(١) القصص في الحديث النبوي ٤٦٨، وانظر ص: ٢٣٧، ٢٤١، ٤٧٠.

إلى نفر من أصحابه، وطلب منهم أن يذهبوا به إلى جبل شاهق، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، وهناك رجف الجبل فسقطوا، وجاء الغلام سليماً إلى الملك، ومرة أخرى يدفعه الملك إلى نفر آخرين ويطلب منهم أن يتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه في البحر، فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا جميعاً، ما عدا الغلام الذي جاء مرة أخرى يمشي إلى الملك، فهذه أحداث غير عادية يُجريها الله ـ سبحانه ـ بقدره الذي لا مردّ له من أجل نصرة أهل الحق، وإهلاك الضالين، كما نحسّ أنها تضمن للقصة نوعاً من الاستمرار والنمو في الأحداث، فنجاة الغلام كانت سبباً في نشوء أحداث أخرى وتطورات جديدة في مسار القصة. .

ومما يثير الانتباه، ويُصَعّد شَوق المستمعين والقارئين للقصة، تنويع الصورة التي تبرز فيها الأحداث على مسرح القصة، وعدم استمرارها على وتيرة واحدة، حيث نجد أن هذا التنويع يعطي تجديداً في الإيقاع العام، وتفاوتاً في درجاته بين مرحلة ومرحلة، في بناء القصة، مما يجدد نشاط المتلقي، ويجعل رغبته في المتابعة حَيّة دائماً، ونجد تحويل مجرى الأحداث في القصة يتسارع في المرحلة التي اكتشف فيها الملك إيمان الغلام بعقيدة الراهب، فبعد أن أعدم الجليس، والراهب، دفع «الغلام» إلى نفر من أصحابه ليذهبوا به إلى جبل شاهق فيطرحونه من أعلاه فقال الغلام «اللهم اكفنيهم بما شئت» فرجّ بهم الجبل فهلكوا جميعاً، وعاد هو يمشي إلى الملك. . ثم دفعه إلى نفر آخر وأمرهم أن يذهبوا به إلى البحر فإذا توسطوا فيه ألقوا به في الماء، وحين توسطوا البحر قال الغلام: «اللهم اكفنيهم بما شئت» فغرقوا، وعاد الغلام يمشي إلى الملك.

وهنا نجد تحويلاً لمجرى الأحداث من هذا الاتجاه فقد كان يمكن أن يدفع الملك بالغلام إلى أحد أصحابه ويأمره بأن يقضي عليه في صورة أخرى من الصور، ولكن الأحداث هنا تأخذ مساراً جديداً حافلاً بالحيوية والتشويق، فالغلام في هذه المرة هو الذي يتكلم، وهو الذي يقترح على الملك الطريقة التي يمكن بها قتله. . .

وهذا الاقتراح العجيب يحمل في تضاعيفه معاني كثيرة، وأسراراً خاصة، تُثير تَطَلّعنا ولهفتنا لمعرفة مستقبل الأحداث، وماذا ستسفر عنه من نتائج.

إن عقدة القصة أو مشكلتها الأساسية تبرز على ساحة القصة في مرحلة الوسط، وهي المرحلة المليئة بعناصر التعقيد والتشابك، وتأزيم المواقف بشكل ملحوظ، تتجلى بعد مرحلة متقدمة، وبعد عدة مواقف مضت في عرض القصة، بل إن المشكلة هنا تأتي ولادة طبيعية لما سبقها من مواقف وأحداث في القصة، هذه المشكلة هي: اكتشاف الملك للعقيدة الجديدة ومحاربته لها، ولا نغفل أنه هناك مشكلة صغيرة سبقت هذه المشكلة، وذلك حين صار الغلام يُعاني من مشكلة تعوق استمراره في التردد على الراهب[1]، وهي ضَرب الساحر له بسبب تأخره عند الراهب، ولكن هذه مشكلة فرعية جداً، وتأتي في موقف صغير، وتنتهي بانتهاء هذا الموقف، فهي ليست مشكلة عامة تؤثر في مجرى القصة وتوجيه أحداثها، مثل ما هو متوافر في **موقف الملك من الدعوة وأصحابها**، فاكتشاف الملك للعقيدة الجديدة والدعوة إليها في المجتمع الذي أخذ في التأثُّر بها، **هي العقبة التي تواجه الدعوة وأتباعها**، فالملك يرى فيها خطراً يُهدّد وجوده القائم على الجهل بالحق، وعلى الخرافات والأوهام المعتمدة على السحر والدجل، وهذه الدعوة ستكشف هذا الباطل وأوهامه[2].

ونلاحظ أن المشكلة التي كانت كامنة في ثنايا القصة تبرز بوضوح بسبب الحوار الذي تم بين الملك وجليسه بشأن شفائه من دائه..

«فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس. فقال له الملك: مَن ردَّ عليكَ بَصرَكَ؟

قال: ربي.

قال: قال: ولَكَ ربٌّ غيري.

---

(١) انظر الحديث من الوجهة البلاغية، عز الدين السيد ص ٤٤٧، وأصحاب الأخدود لرفاعي سرور ص ٢٤.

(٢) انظر القصص النبوي ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٥، ٣٩٠.

قال: ربي وربُّك الله».

وهكذا تنشأ «المشكلة» أمام الجميع؛ أمام الملك في هذا الفكر الجديد الذي يتهدده، وأمام الدعوة في اكتشاف الخصم الألد «الملك» لوجودها ورجالها، وتبدأ المشكلة في تحريك الموقف ودفع الأحداث في اتجاهات مختلفة، وتصعيدها بصورة متلاحقة سريعة، فالملك اتخذ موقفاً طاغياً، حين أخذ الجليس فلم يزل يُعذبه حتى دَلَّ على الغلام، وأحضر الغلام، فلم يزل يعذبه حتى دَلَّ على الراهب.

وبدأ الطاغية يحارب الدعوة بالعنف تجاه الأتباع تارة، وبالإغراء للداعي تارة، حتى إذا عجز في صدّ المُقبلين، وأصحاب الدين الجديد أَخَذهم بالقوة والقتل والتعذيب، فها هو يشقّ الراهب والجليس نصفين بالمنشار أمام الغلام وأمام الناس للترهيب والتخويف، وهو يحاول مع الغلام بالإغراء فيعجز، ونستشف من هذا الإغراء حِرْص الملك على أن يكسب الغلام بما لديه من قدرات خاصة عجيبة إلى صَفّه، وهو لذلك يحاول معه بأساليب مختلفة لعلها تُرهبه بعد أن عجز في ترغيبه، فهو لا يحاول قتله مباشرة، بل يبعث به مرة إلى الجبل الشاهق مع أعوانه عَلّه يتراجع في مسافة الطريق، ثم إن الملك قد أوحى إلى أعوانه أنهم قبل أن يلقوه من أعلى الجبل، أن يحاولوا معه أن يرتد عن دينه، وحين عاد الغلام سالماً من الجبل، وقد هلك أعوان الملك، بعث به إلى البحر مع جند آخرين، وطلب منهم أن يعرضوا عليه ترك دينه، وإلا فليلقوه في البحر، ولكن الغلام يعود ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ويقرر الغلام بتوجيه الله أن ينهي الأمر مع هذا الملك الطاغية، فيكشفه أمام الجماهير، ويكشف عن الناس غُمَّة الشرك والضلال، وهذا الموقف الذي يُقرر الغلام أن يتخذه إنما هو في الواقع نتيجة غير مباشرة «للمشكلة» التي دفعت بالأحداث في هذا الطريق، بحيث ترتب على سيرها بهذه الصورة أن يقف الغلام الداعية هذا الموقف حين أشار على الملك برأي قال فيه:

«إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع

الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله، رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فَعَلْتَ ذلك قتلتني».

وفعل الملك ذلك، وإذ الناس يهتفون من كل اتجاه: «آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام».

وتبرز المشكلة في صورة أكبر وأشد خطراً أمام الملك، ويتسع الخَرق على الراقع، لقد كان يواجه في البداية مشكلة «ثلاثة فقط» وها هو الآن أمام الجماهير الهاتفة بالدين الجديد، الذي لا يُرهبها الموت والعذاب الشديد، فتثور ثائرته ويتفجَّر الغيظ في قلبه، وينفث فكره المحموم المجرم، فكرة خبيثة، تصوَّر بها أنه يهزم هذا الإيمان المدوي في جنبات هذه الساحة التي شهدت مصرع الغلام، فإذا به يأمر بالأخاديد تُشق في أفواه السكك، وتُضرم فيها النيران، ويلقي فيها المؤمنين.

وهنا نشهد ذروة هذه المشكلة في هذه المواجهة العنيفة للمؤمنين الصامدين المنتصرين في الملأ الأعلى...

والتضحية هي ذلك الموقف الذي تبرزه القصة بشكل كبير، حين قرر الغلام الداعية أن يقدم نفسه قرباناً للّه في سبيل أن ينكشف هذا الملك الطاغية، وتتهاوى دعاواه بشأن الربوبية، أمام الجماهير، فيقترح على الملك الطريقة التي يمكن بها أن يقتله، وينفذ الملك ما أمره الغلام به، ويحدث ما توقع الغلام من إيمان الناس، بعد أن اتضح لهم الحق، واستبان الطريق.

وهكذا ترسم القصة صورة مؤثرة لمنارة الإيمان وشعلة الحق تضيئها القلوب الزاهرة العامرة بنور الله..

والصراع في القصة بين الدعاة إلى الحق، وبين الباطل وأهله، مواجهة فعلية بين قوتين، قوة الملك، وقوة أهل «الدعوة الجديدة» وما حدث في ذلك من تنكيل وإرهاب، وقتل لأهل الدعوة.. ومثل ذلك ما يحصل للدعاة

والمؤمنين في كل زمان ومكان. . إذ يواجه المؤمنون من الطغاة تنكيلاً وإرهاباً وتعذيباً، ولكن ذلك لا يصدهم عن دينهم، لأنهم يعرفون أن هذا هو الطريق، فهم يَصدقون الله على عهد الإيمان، وما بدّلوا تبديلاً.

ونجد في خاتمة القصة مشهداً مروّعاً. . نرى صوراً مثيرة للمؤمنين، وهم يَلْقَون الموت حرقاً في الأخاديد، يُلقون بأنفسهم في النار إيثاراً للعقيدة، على الاستكانة لهذا الطاغية الجبار. . لقد انتصرت العقيدة التي حملوها، وماتوا في سبيلها.

كم كانت العقيدة تخسر، ولكم كانت الإنسانية نفسها تخسر لو رضوا بالنجاة من هذه النار الدنيوية، وخضعوا وذلُّوا لهذا الملك الإنسان، الذي يريد أن يكون لهم ربًّا من دون الله، لقد كانوا يخسرون ـ لو فعلوا ذلك ـ كرامتهم وحريتهم، إنهم انتصروا في حساب الله، وهذا وَحده يكفي، إنهم انتصروا على ضعفهم، وعلى آلامهم، لقد سَجَّلوا للإنسانية موقفاً يُحتَذى تفخر به، وهم ينتصرون بأرواحهم على أجسادهم التي تلتهمها هذه النيران[1].

وفي القصة نجد أبشع صور الظلم والطغيان يمارسها الملك وأعوانه، ومَن أظلم ممن ادعى الربوبية من دون الله ـ سبحانه ـ فالملك يقول للجليس بعد أن شفاه الله بفضل إيمانه ودعاء الغلام له:

«مَن ردّ عليك بصرك؟

قال: ربي. قال: أولكَ ربّ غيري؟! قال: ربي وربك الله!».

وهنا أخذ الملك في تعذيب هذا المؤمن حتى دل على الغلام، وأحضر الملكُ الظالمُ الغلامَ ولم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب، وأحضر الراهب، ولما عجز الطاغية عن أن يرده عن دينه، أمر بالمنشار فأُحضر، فوضعه في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه. . وكذلك فعل بالجليس، «وهكذا يتعامل الظَلَمة مع دعاة الحق فلا فرصة للمناقشة، ولا سبيل إلى الإقناع، ولئن كان الملك

(١) انظر القصص النبوي ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٢، ٢٢٥.

ظالماً، وسبيل بقائه في الحكم هو السحر، إذن فلا قضية عنده ولا مبدأ، ولهذا لم يجد وسيلة في مواجهة الموقف إلا التعذيب والتقيل»(١).

ثم المشهد البشع للطاغية الظالم الذي أمر بالأخاديد فتُحفر، والنيران فتُضرم فيها، حيث يُلْقَىٰ فيها كل مَن لم يرجع عن دينه. .

إنها اللوحة المُعَبِّرة التي تنطق بكل معاني الجبروت والتسلط والشر، والذي تنطوي عليه النفس الخبيثة المستقرة في أعماق هذا الملك الطاغية. وفي المقابل نرى صوراً رائعة لشخصيات تَضرب أروع الأمثلة في الثبات للمحن والشدائد الذي يواجه المؤمن وهو يستمسك بدينه وعقيدته لا يبغي بها بدلاً مهما كلفه ذلك من تضحيات جسام.

نجد أمثال هذه الشخصيات في «الراهب» و«جليس الملك» و«الغلام» و«المرأة» و«الجماهير المؤمنة». . كلها نماذج حية تُعرض وهي تواجه المحنة وتصبر عليها. .

إن هذه القصة التاريخية لون واقعي، المقصود منه الحالة التي تُمثلها القصة، لا الشخصية في ذاتها، فالحدث هو محط الاهتمام، والمقصود هو نوع الحدث، ونوع الموقف، لذلك نجد شخصيات القصة لا تُذكر مُعَيَّنة بأسمائها، والرسول ـ ﷺ ـ يقول: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر. .» أما اسم الملك واسم الساحر، ومكان الحادثة بالتحديد فلا تعرض له القصة، ولا تهتم به، فالشخصيات تُذكر بصفاتها التي تخدم طبيعة أدوارها في القصة، وتُحدد ملامح مواقفها، فتذكر القصة فيما بعد «الراهب» و«الغلام» و«جليس الملك» وهكذا.

وهذا بلا شك يُعطي للقصة الحيوية والحركة في التأثير المستمر في كل زمان، وفي كل مكان، لأنها قد تحررت من قيد التحديد بواقعة مخصوصة معينة، وانطلقت في رحاب أوسع في مجال التأثير والتوجيه، بحيث تحكي

---

(١) رفاعي سرور، أصحاب الأخدود ص ٥٤.

وتُصوّر كل تجربة تماثل التجربة الأساسية، وتصبح نموذجاً عاماً لحالات ومواقف حدثت، أو يمكن أن تحدث مما يواجه الدعاة من ضغوط وطغيان، وما يُقدّمه المؤمنون من تضحيات وفداء في سبيل مبادئهم وقيمهم.

إنها الحياة! تُعبِّر عنها القصة بالصورة المُحسّة، والمشهد المنظور، فهي ترسم النموذج الإنساني، وتصور الطبيعة البشرية وهي تتفاعل في نفوس آدمية حيّة.. ذلك طريق الدعوة مُوحَّد بارز يعرض في مشاهد شاخصة، ونماذج إنسانية واضحة في كل مرحلة من مراحل القصة.

ومن هنا تظل القصة نبراساً يُضيء طريق الدعاة، وأهل الحق في كل جيل، ويظل عطاء القصة ثرًّا يتجدد باستمرار.

ونجد القصة خاضعة خضوعاً تاماً للغرض الديني، فالرسول ـ ﷺ ـ تَلَقَّى مادته من الوحي، وكان يعرضها في مشاهد **تُصوّر حركة العقيدة في نفوس المؤمنين**، ويرسم طريق الدعوة، وفوق ذلك تؤدي نوعاً من التخفيف النفسي مما يُعانيه المسلمون، فهي نور يضيء قلوب المؤمنين حيث ينشر الطاغية ظُلمه وظلامه على الناس، وهي دعوة للثبات والاستمساك بإيمانهم في وجه الابتلاء الشديد.

ولذلك نجد في عرض القصة الاكتفاء بما يحقق الغرض الديني المراد، بحيث يقتصر العرض لأحداث القصة ومواقفها على ما يؤدي إلى الأثر المنشود.

يتحرك العرض في القصة من نقطة مُبَكِّرة، تنشأ عنها أحداث متلاحقة، إذ يبدأ عرض الأحداث منذ إحساس ساحر الملك بتقدّمه في السن، مما جعله يطلب من الملك أن يبعث إليه غلاماً يعلمه السحر، إن هذه هي **الحلقة الأولى** في وجود الغلام على مسرح الأحداث، وهي **النقطة التي تطورت منها أحداث** القصة التالية، التي أسلم بعضها إلى بعض في تسلسل منطقي إلى النهاية، والقصة لتحقيق الأثر المطلوب احتاجت إلى نوع من التفصيل والإطناب في عَرْضها عبر مواقف متعددة، وجزئيات مختلفة(1).

---

(1) انظر القصص النبوي ٢٦٨، ٢٧٥، ٣٥٩، ٤٢٧، ٤٣١.

التضحية والفداء:

والشخصيات في القصة هي ذات وظيفة، تبرز على ساحة الأحداث مُحقّقة هدفاً معيناً، ودور الشخصية في القصة دَور مزدوج، ذلك أنها تُحقق في وقت واحد وظيفة فنية، ووظيفة موضوعية، ويمكن أن تصنف هذه الشخصيات من حيث الوظيفة الفنية التي تؤديها في بناء القصة إلى قسمين، شخصيات رئيسة، وشخصيات ثانوية.

«الملك» و«الغلام» هاتان الشخصيتان ظاهرتان في القصة، ومُستمرتان في العرض حتى النهاية، ولهما دور بارز في أغلب الحوادث وتطورها، فهما المحوران المحركان لمجرى القصة، والدافعان لها في طريق النمو.

فالملك كان وراء وجود الساحر، فالساحر «كان له»، وهو الذي بعث الغلام إلى الساحر، وهو الذي عذّب جليسه حتى دَلَّ على الغلام، ولم يزل يعذب الغلام حتى دلَّ على الراهب. وقام بإعدام الجليس والراهب في صورة رهيبة لتخويفه، وهو الذي دفع بأصحابه أكثر من مرة ليقضوا على الغلام، ولكنهم يفشلون في كل مرة، ثم قام بصلب الغلام أمام الجماهير عملاً بمشورة الغلام عليه، ثم أمر بالأخاديد تُحفر وتُضرم فيها النيران ويُلقى فيها بالمؤمنين.

وهكذا نلاحظ أن **الملك له دور مهم ورئيسي في إثراء البناء القصصي**، وإنماء التراكم في الأحداث إلى النهاية، وإن كانت نهايته هو تبهمها القصة، فلا تُحدثنا عنها بأي شيء.. ولا ندري إلامَ صار أمره.

والغلام يشترك مع الملك في أن له دوراً رئيساً أيضاً في توجيه مسار القصة، فهو يقعد إلى الراهب من تلقاء نفسه، ويعجب بكلامه، ويظل يتلقى عليه، مما نمّى شخصيته وأعطاها بُعداً جديداً كانت له آثاره في مستقبل الأحداث، فهو يرمي الدابة التي اعترضت طريق الناس ويقضي عليها، مما يلفت إليه نظر الناس، وإلى قدراته الخاصة طبيباً موفقاً بإذن الله، وقد أثّر عن طريق عمله هذا في توجيه نظر جليس الملك إلى الإله الحق والعقيدة الصحيحة، وهو الذي دلّ على الراهب فيما بعد..

وكان إصراره على دينه دافعاً للملك إلى محاولة قَتْله أكثر من مرة، ثم هو الذي أشار على الملك بصلبه بالطريقة التي اختارها، مما كان فيها بعد وراء إيمان الناس، مما أدى إلى أن يثـور الغضب في رأس الملك الطاغيـة.. فيحرقهم بالنار..

والغلام نموذجاً للشخصية التي يتكشف لنا منها أكثر من جانب من خلال عرضها النامي، حيث بدأ على مسرح الأحداث وهو غلام صغير آختير ليتلقَّى فنّ السحر على يد الساحر، وقد أخذت هذه الشخصية تتطور، وتنمو شيئاً فشيئاً من خلال صراع مستمر مع الأحداث والمواقف التي تعرضت لها، وفي هذه الأثناء وعبر هذا النمو تتجلى لنا عدة جوانب، تتمثل في فطرته السليمة التي جعلته يميل إلى الراهب، حين أُعجب بكلامه، بعد أن قعد إليه وسمعه، بينما نجده يتأخر عن الساحر برغم أنه صاحب المنزلة الكبيرة عند الملك وعند الناس، وبرغم ما كان يناله بسبب هذا التأخر من ضرب!

وجانب آخر يظهر في هذه الشخصية بعد أن تمضي القصة بنا شوطاً، ذلك هو جانب القَلَق والصراع، الناشيء من تلقيه في وقت واحد من الساحر والراهب معاً، ومن هنا نراه يطلب اليقين من الواقع، بعد شعوره باليقين من الفطرة التي جعلته يميل إلى الراهب ويتأثر به، مما أنشأ عنده حَرَجاً وقلقاً أراد أن يَحسمه، ومن خلال تجربة واقعية(١)، سنحت بها الفرصة، حين اعترض طريق الناس دابة عظيمة سدّته عليهم «فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل! فأخذ حجراً فقال: اللهم: إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس..».

وهنا تأكد عنده باليقين الواقعي ما كان قد اختاره بالفطرة.

ومن الجوانب الأخرى التي تدلي بها هذه الشخصية: **وضوح التصور**

---

(١) رفاعي سرور ص ٢٨ ـ ٢٩ وانظر الشخصيات في القصص النبوي.

تجاه الله، والدعوة إلى هذا التصور السليم، وهو موقف يتضح من خلال حواره مع جليس الملك الذي جاء إليه يطلب منه الشفاء، فأخبره الغلام أنه لا يشفي، **إنما الذي يشفي هو الله**، وهو يدعوه إلى هذا التصور الإيماني فيقول: «**فإن أنتَ آمنتَ بالله، دعوتُ الله، فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله**».

ومن جوانبها أيضاً التي كشفتها الأحداث، الصبر عند البلاء في سبيل الثبات على المبدأ، وعدم الحيدة عنه مهما كلفه ذلك من عناء التعذيب، وحتى لو قُتل أمامه من قُتل إرهاباً وتخويفاً كما فعل الملك بالراهب والجليس حين شَقَّهما بالمنشار أمام الغلام، ولكنه لم يرجع عن دينه..

ومن الجوانب الفذة في هذه الشخصية، جانب التضحية والفداء الذي يتجلى في أروع صورة، حين قدّم الغلام نفسه إلى الإعدام بطريقة اقترحها على الملك ليتمكن بها من قتله، بعد أن فشلت جميع محاولات الملك في القضاء على الغلام، فقد أشار على الملك أن يجمع الناس في مكان واحد وأن يرميه بسهم قائلاً: «بسم الله رب الغلام»، ولما فعل الملك ذلك، وعرف الناس أن الملك لم يقدر على قتل الغلام إلا بعد أن قال: «بسم الله رب الغلام». وهنا اتضح الطريق المستقيم وأدركوا أن الله رب الغلام، هو ربهم جميعاً؛ ربّ العالمين؛ فانطلقوا في كل صوب يهتفون: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، وهذه هي النتيجة التي كانت في تقدير الغلام وهو يُقدّم نفسه تضحية لها..

إن الغلام أراد أن يُعلِّم الناس درساً بليغاً مُعبِّراً أن الموت بيد الله وحده. وأنه لا علاقة له بإرهاب الطغاة وتَسلُّطهم، وليس إلا الله يملك الموت والحياة.. فالذي يهب الحياة هو الذي يعرف سرها ويملك أن يَهَبها ويستردّها. والبشر قد يكونون سبباً وأداة لإزهاق الحياة، ولكنهم هم ليسوا الذين يُجردُّون الحي من حياته على وجه الحقيقة. إنما الله هو الذي يُحيي ويميت وحده دون سواه.

إن القصة تهدف فيما تهدف في بناء العقيدة تصحيح التصور عن الموت والحياة، وأسبابهما الظاهرة، وحقيقتهما المضمرة، وردّ الأمر فيهما إلى القُدرة

المدبرة. والاطمئنان إلى قدرة الله فيهما. والمضي في حمل التكاليف والواجبات دون هَلَع ولا جَزَع. فالمُقَدّر كائن، والموت والحياة بيد الله في نهاية المطاف. .

إن الحذر من الموت لا يُجدي، وإن الفَزَع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمدّان أجلاً، ولا يردّان قضاء، وإن الله هو واهب الحياة، وهو آخذ الحياة، وأنه مُتفَضّل في الحالتين حين يَهب وحين يستردّ، والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خلف الهِبَة وخلف الاسترداد. وإن مصلحة الناس مُتحققة في هذا وذاك، وإن فضل الله عليهم مُتحقق في الأخذ والمنح سواء. . إن الفزع والجزع والحذر لن تُغير مصير الناس ولن تدفع عنهم الموت، ولن ترد عنهم قضاء الله. والثبات والصبر أَوْلَى. فالهلع لا يردّ قضاء، وإن الفزع لا يحفظ حياة، وإن الحياة بِيَد الله هبة منه بلا جهد من الأحياء. . إذن فلا نامت أعين الجبناء!

إن الحياة والموت، وحقيقة الحياة والموت تؤلف جانباً من جوانب التصور الإسلامي. . هذا التصور الذي لا بد منه للإقبال على الحياة بعد ذلك إقبالاً بصيراً، منبثقاً من الرؤية الصحيحة الواضحة، وقائماً على اليقين الثابت المطمئن. . ومن ثم هذا التركيز القوي على إيضاح قواعد التصور الاعتقادي في حقيقة الحياة والموت.

إن هذه القصة تُعرّف المسلمين على مَشيئة الله الطليقة، وأن الإنسان لن يُصيبه إلا ما كتب الله له، وأن ما أصابه لم يكن لِيُخْطِئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. وبذلك التصور الصحيح تستريح القلوب، وتستقر الضمائر على حقيقة السنن الجارية في الكون، وعلى حقيقة قَدَر الله في الأمور، وعلى حقيقة حكمة الله من وراء التقدير القدير. ثم على حقيقة الأجل المكتوب، والموت المقدور الذي لا يؤجله قعود، ولا يقدمه خروج، ولا يمنعه حرص ولا حذر ولا تدبير. .

وأما بقية أشخاص القصة فكانت أدوارهم ثانوية، بحيث تنتهي شخصياتهم بنهاية الدور الذي يقومون به، فهم عناصر مساعدة في تحقيق النمو القصصي، وتعضيد الشخصيات الرئيسة في القصة.

فالساحر له دور تمهيدي، ولكنه مع ذلك له أهمية كبرى في القصة، إذ أنه كان المُبَرِّر المنطقي المعقول لوجود شخصية الغلام، وبروزها على مسرح الأحداث، ولذلك نجده ينتهي من عرض القصة، بعد أن حقق وظيفته في إيجاد الغلام على الساحة، ثم بعد ذلك لا تهتم به القصة، ولا تُخبرنا عن أي شيء عنه.

والراهب هو الآخر، كان له دور من لون آخر بالنسبة للغلام، وهو صياغة شخصية الغلام وطَبعها بطابع جديد من القيم والمبادىء، مما أعطاها كياناً قوياً ذا أبعاد خاصة، وبعد أن يُحقق هذه الوظيفة ينتهي..

والجليس كان دوره الفني يتركز أكثر ما يتركز في أن يقوم بالدلالة على الغلام وكَشْف أمره للملك، ولأمر رفيع ركزت القصة على موقف الغلام منه حين دعاه إلى الدين الجديد، وبيّن له أن الله هو ربّه، هو الشافي، مع أن الجليس ليس الشخص الوحيد الذي عالجه الغلام.. ودعاه إلى التوحيد، ولكن لما كان للجليس دور فني في القصة سيؤديه بعد ذلك، نظراً لصلته بالملك فهو جليسه، لمّا كان الأمر كذلك كان لا بد أن تَعرض القصة لموقف الغلام معه بالتفصيل، فلماذا دَلَّ على الغلام انتهى أيضاً من عَرض القصة فقد قَتَلَه الملك، وانتهى أَمْره من العرض بعد أن سجَّل صورة خالدة للمؤمن الصابر الشهيد..

وأعوان الملك كانت أدوارهم ثانوية تتضح في خدمة الملك، وتنفيذ أوامره التي لا يفتأ يُصدرها في كل حين، وليست لهم أية وظيفة في القصة غير ذلك..

وأما الجماهير المؤمنة، والمرأة وطفلها الرضيع فكانت أدوارهم هي المُشارَكَة الواقعية في رسم المشهد الختامي الرائع الذي انتهت به القصة، فقد كانوا أبطال الفصل المثير في نهاية المطاف..

ففي القصة نجد شخصيات جماعية «الناس» حيث جَمع الناس في صعيد واحد، ولكن هذه الجماهير ذات وجود حركي، فَلَئِنْ **كانت في البداية تُجمع**

وتُساق إلى الميدان بطلب من الملك لمشاهدة صلب الغلام، فإنها بعد الصَّلب تَـتَحول إلى جماعة مُتحركة من ذاتها حين انطلقت تهتف «آمنا برب الغلام» مما دفع بالقصة إلى حركة أخرى زادت في نموها وسيرها إلى الأمام في دفع التيار الروائي، فقد فجّر هذا الموقف طغيان الملك، ودفعه إلى أن يأمر بالأخاديد فتُحفر.. وبالمؤمنين أن يُحرقوا فيها..

والدابّة وهي شخصية حيوانية كان لها دور تكميلي للحَدَث، فقد حققت للغلام يقيناً واقعياً شجّعه على الاستمرار في طريق الدعوة، بإصرار عجيب، كما أنها في الوقت نفسه كشفت للناس أهمية هذا الغلام، وفتحت قلوبهم له، وجعلتهم ينظرون إليه باعتبار كبير، وهذا له أثره في تسهيل مهمة الغلام في الدعوة والتأثير.

مشاهد وصور وحوار:

والحوار في القصة عنصر مهم وبارز، وهو جانب حيوي من بناء القصة الفني، فهو ينتشر فيها انتشاراً واسعاً، وبصورة إيجابية، ذات أثر واضح في تدعيم بنية القصة، وإعطائها نوعاً من الحيوية والإثارة، ويثير في النفس مختلف العواطف والانفعالات، كما أن الحوار يزيد القصة تشويقاً ومتعة، بالإضافة إلى ما يترتب على الحوار من مواقف، وما يبعث من أحداث.

والمقاطع الحوارية في القصة تتناسب مع الأحداث، وتستخدم في نسيجها بصورة رئيسة بنّاءة.. فبعد أن فشلت جميع محاولات الملك في القضاء على الغلام «وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟

قال: كفانِيهم الله. فقال للملكِ: إنك لست بقاتلي حتى تفعلَ ما أمُركَ به.

قال: وما هو؟

قال: تجمع الناسَ في صعيد واحد، وتصلُبني على جِذع، ثم خُذ سهماً

من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوسِ، ثم قل: باسم الله رب الغُلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلتَ ذلكَ قتلتني».

ونجد في القصة الحوار مع النفس فقط، حيث نجد صورة من حوار داخلي، يتمثل في حديث الشخصية مع نفسها، حين اعترض طريق الناس دابة عظيمة سَدّته عليهم قال الغلام لنفسه: «اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟».

ويصور حديث الغلام مع نفسه، مشاعره العميقة، فهو يُمثل حَيرة نفسية يُعانيها، ويطلب ما يزيلها بالدليل الواقعي الحي.

ومن العناصر الفنية البارزة في القصة، عنصر المناجاة، إذ يبدو مُفعماً بالعواطف الروحية الصادقة، مع المعاني الدينية الهادفة..

ونجد الغلام وهو في حيرته الناشئة من تلقينه في وقت واحد من الساحر والراهب معاً، يُشرف على الدابة وقد أخذ حجراً.. يضرع إلى الله في ابتهال ودعاء، يطلب عونه في أن يُريه الحقّ حقاً والباطل باطلاً..

«اللهم إن كان أمرُ الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس..».

كذلك نجد الغلام وحيداً بين يدي أصحاب الملك الذين ذهبوا به إلى ذرى الجبل ليرموه.. نراه يضرع إلى الله يطلب عونه:

«اللهم اكفنيهم بمَ شئت» ثم ناجى الله بنفس الدعاء حين ذهبوا به في البحر ليغرقوه.

إن المشهد المشخص في القصة، عنصر بارز فيها، فنحن نلحظه في بداية القصة، ونلحظه في وسطها، كما نجده في النهاية، ولكنه في النهاية أكثر بروزاً، ذلك أن النهاية تحمل صوراً ومشاهد مثيرة ومُعبّرة، مما يعطي للنهاية قيمة كبرى في تحقيقها للغرض الذي تهدف إليه، إذ أن طبيعة المشهد بما تحفل به من شتى الصور، وحيوية الحركة، تجعل المُتَلَقّي أكثر قدرة على المتابعة للحدث، وأكثر

استيعاباً لمضمون القصة؛ نظراً لما يثيره المشهد من التجاوب العاطفي بالتأثر والانفعال، وما يثيره في عقله من الاستيحاء والتصور، بخلاف ما لو عرضت بطريقة سردية تقريرية، تبعدنا عن حركة الأحداث والشخصيات.

والأحداث تحكي قصة الغلام الذي أحضره الملك إلى ساحره ليعلمه السحر، ولكن الغلام تعلّم الإيمان من الراهب الذي كان في طريقه، والغلام علَّم هذا الإيمان إلى جليس الملك، وإلى غيره من الناس، ثم اكتشف الملك هذه الدعوة الجديدة، فقتل الراهب والجليس، وفشل في قتل الغلام برغم محاولاته الكثيرة، ثم أشار على الملك أن يجمع الناس في مكان واحد، وأن يرميه بسهم قائلاً: «باسم الله رب الغلام»، وفعل الملك ذلك، وقَتَل الغلام، ثم كانت النهاية إيمان الناس برب الغلام، وغَضَب الملك، وإحراق المؤمنين بالنار.

والنهاية هنا مشهد من مشاهد حية تموج بشتى الصور المتحركة، وتحمل مختلف المعاني، وتصور كثيراً من الانفعالات النفسية، وتسجل قمة الانتصار لهذا الغلام الذي قَدّم نفسه ضحية من أجل انتصار دعوته، كما تُصوّر الغضب المجنون، والثورة المُعربدة التي فجّرها الملك الطاغي على المؤمنين حين أمر بالأخاديد تضرم فيها النيران، ويُلْقَى فيها كل مَن تمسّك بدينه.

وهنا يسجل المشهد الانتصار الحقيقي للمؤمنين الصابرين. إن الثبات على العقيدة والمبدأ هو الانتصار برغم أقسى مظاهر العنف والإرهاب والقتل بالنار، وهذه حقيقة كونية انطلقت من بين شفتي طفل صغير، لم يصل مبلغ القدرة على الكلام، ولكن قدرة الله المهيمنة على هذا الكون وقوانينه تُنطقه ليعلن الانتصار الحقيقي لأصحاب الأخدود وهم يلقون بأنفسهم في النار: «اصبري فإنك على الحق» وماذا بعد الحق؟

والقصة تعرض صور رائعة للإيمان الراسخ في هذا المشهد الشاخص المتحرك، ترسم لنا كيف يواجه الإيمان إحساس التعلق بالحياة فقد «جاءت الأم بولدها متمسكة به إلى النهاية لم تفصلها أهوال الأحداث عنه حتى إذا

جاءت إلى حافة الأخدود، واشتعلت مشاعر الأمومة وكراهية الموت فيها، فترددت أن تقع بابنها، ولكن الطفل يُطفىء في إحساس أُمه لهيب النار ذات الوقود لتلقي بنفسها وتنجو من الضعف، والتقاعس، وكان حديث هذا الصبي هو آخر **كلمات القصة** عند حافة الأخدود، قمة الانتصار للحق، وتبقى مشاهد العذاب وأخاديد النيران بشررها المتطاير ولهيبها ترتفع ألسنته بأجساد المؤمنين الطاهرة، ويبقى أثر تلك النار في قلب كل مؤمن استضعافاً في الأرض، وجاهلية في الحياة، ترتفع ألسنتها كلما استُشْهِدَ في سبيل تلك الدعوة، ومن أجل التمكين لها في تلك الأرض وهذه الحياة»[1].

وبعد.. ننظر إلى هذه الصور الخالدة فنرى مؤمنين ضاق بهم الكافرون فحفروا لهم أخدوداً وجمعوا فيه حطباً، وأوقدوا فيه ناراً. وعَين الله ترى كل هذا والمؤمنون يَرون فلا يُساوِمُون على دِين ولا يكفرون بخالق ولا يتراجعون عن حق، وتتقبلهم النيران فتكون موت للقاتل وحياة للمقتول.

ونتأمل طويلاً في قوله تعالى: ﴿**قُتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود**..﴾ [البروج: ٤ ـ ٧]..

فمَن الذي فاز؟ ومَن الذي خسر؟ وما ذنب المؤمنين؟

وما هو الخطأ الذي قاموا به في حياتهم حتى ضاق بهم المجتمع الظالم كما يضيق بالمؤمنين في كل مكان وزمان فألقاهم في الأخاديد والنيران.

إنه خطأ واحد وذنب واحد يمكن أن نراه واضحاً في قوله تعالى: ﴿**وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد**﴾ [البروج: ٨]..

هذا ذنبهم في حياتهم وهو ذنب المؤمنين في كل زمان ومكان.

إن رواية الحادث تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفِعْلة وفاعليها، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله وما استحقه

(١) رفاعي سرور ص ٦٤ وانظر القصص النبوي: ١٥٠.

من نقمته وغضبه. فهو أمر لم ينتهِ بعد عند هذا الحد، ووراءه في حساب الله ما وراءه.

كذلك تنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة. روعة الإيمان المُستعلي على الفتنة، والعقيدة المُنتصرة على الحياة، والانطلاق المُتَجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض. فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم.

ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد! إنه معنى كريم جداً ومعنى كبير جداً هذا الذي ربحوه وهُم بعد في الأرض. ربحوه وهم يجدون مسّ النار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تُزكيه النار؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب، ولأعدائهم الطغاة حساب.. يعقب به السياق: ﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات**﴾.. ومضوا في ضلالتهم سادرين، لم يندموا على ما فعلوا ﴿**ثم لم يتوبوا**﴾.. ﴿**فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق**﴾ [البروج: ١٠]..

وينص على «الحريق».. وهو مفهوم من عذاب جهنم. ولكنه ينطق به وينص عليه ليكون مقابلاً للحريق في الأخدود. وبنفس اللفظ الذي يدل على الحَدَث. ولكن أين حريق من حريق؟ في شدته أو في مدته! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخَلْق. وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق! وحريق الدنيا لحظات وتنتهي، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين وانتصار لذلك المعنى الإنساني الكريم. ومع حريق الآخرة غَضَب الله، والارتكاس الهابط الذميم!

ويتمثل رضى الله وإنعامه على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾..

وهذه هي النجاة الحقيقية: ﴿**ذلك الفوز الكبير**﴾ [البروج: ١١]. والفوز: النجاة والنجاح. والنجاة من عذاب الآخرة فوز. فكيف بالجنات تجري من تحتها الأنهار؟

بهذه الخاتمة يستقر الأمر في نصابه. وهي الخاتمة الحقيقية للموقف. فلم يكن ما وقع منه في الأرض إلا طرفاً من أطرافه، لا يتم به تمامه..

وهذه هي الحقيقة التي يهدف إليها هذا التعقيب الأول على الحادث لتستقر في قلوب القلة المؤمنة في مكة، وفي قلوب كل فئة مؤمنة تتعرض للفتنة على مدار القرون.

إن عرض القرآن لهذا المشهد المفجع في لمحات خاطفة، تُودِع المشاعر بشاعة الحادث بدون تفصيل ولا تطويل.. مع التلميح إلى عظمة العقيدة التي تعالت على فتنة الناس مع شدتها، وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها، وارتفعت إلى الأوج الذي يُشرّف الإنسان في أجياله جميعاً.

والتلميح إلى بشاعة الفعلة، وما يكمن فيها من بغي وشر وتَسَفُّل، إلى جانب ذلك الارتفاع والبراءة والتطهر من جانب المؤمنين: ﴿**النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود**﴾ [البروج: ٥ ـ ٧].

بعد ذلك تجيء التعقيبات المتوالية القصيرة متضمنة تلك الأمور العظيمة في شأن الدعوة والعقيدة والتصور الإيماني الأصيل:

إشارة إلى ملك الله في السماوات والأرض وشهادته وحضوره تعالى لكل ما يقع في السماوات والأرض: الله ﴿**الذي له ملك السماوات والأرض. والله على كل شيء شهيد**﴾..

وإشارة إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق الذي ينتظر الطغاة الفَجَرة السَفَلة، وإلى نعيم الجنة... ذلك الفوز الكبير. الذي ينتظر المؤمنين الذين اختاروا عقيدتهم على الحياة، وارتفعوا على فتنة النار والحريق: ﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ـ ثم لم يتوبوا ـ فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب**

الحريق. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ذلك الفوز الكبير﴾ [البروج: ١٠ ـ ١١]..

وتلويح ببطش الله الشديد، الذي يُبدىء ويعيد: ﴿إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدىء ويعيد﴾ [البروج: ١٢، ١٣].. وهي حقيقة تتصل اتصالاً مباشراً بالحياة التي أُزهقت في الحادث، وتلقي وراء الحادث إشعاعات بعيدة..

وإظهار حقيقة البطش وشدته في هذا الموضع يناسب ما مرَّ في القصة من مظهر البطش الهزيل الصغير الذي يَحسبه أصحابه ويَحسبه الناس في الأرض كبيراً شديداً. فالبطش الشديد هو بطش الجبار. الذي له ملك السموات والأرض. لا بطشِ الضعاف المهازيل الذين يَتَسلَّطون على رقعةِ من الأرض محدودة، في رقعة من الزمان محدودة..

ويُظهر التعبير العلاقة بين المخاطَب ـ وهو الرسول ـ ﷺ ـ والقائل وهو الله عز وجل. وهو يقول: ﴿إن بطش ربك﴾.. ربك الذي تنتسب إلى ربوبيته، وسنَدك الذي تركن إلى معونته.. ولهذه النسبة قيمتها في هذا المجال الذي يبطش فيه الفجار بالمؤمنين!

﴿إنه هو يُبدىء ويُعيد﴾.. والبدء والإعادة وإن اتجه معناهما الكلي إلى النشأة الأولى والنشأة الآخرة.. إلا أنهما حدثان دائبان في كل لحظة من ليل أو نهار. ففي كل لحظة بدء وإنشاء، وفي كل لحظة إعادة لما بُلي ومات. والكون كله في تجدُّد مستمر.. وفي بَلى مستمر.. وفي ظل هذه الحركة الدائبة الشاملة من البدء والإعادة يبدو حادث الأخدود ونتائجه الظاهرة عابرة في واقع الأمر وحقيقة التقدير. فهو بدء لإعادة. أو إعادة لبدء. في هذه الحركة الدائبة الدائرة..

وبعد ذلك صفات الله تعالى. وكل صفة منها تعني أمراً.. ﴿وهو الغفور الودود﴾ [البروج: ١٤]..

الغفور للتائبين من الإثم مهما عظم وبشع.. والمغفرة تتصل بقوله تعالى

من قبل: ﴿ثم لم يتوبوا﴾.. فهي من الرحمة والفضل الفائض بلا حدود ولا قيود. وهي الباب المفتوح الذي لا يُغلق في وجه عائد تائب. ولو عظم الذنب وكبرت المعصية..

والودّ هنا هو البلسم المريح لمثل تلك القروح! والودّ يتصل بموقف المؤمنين، الذين اختاروا ربهم على كل شيء. وهو الإيناس اللطيف الحلو الكريم. حين يرفع الله عباده الذين يُؤثرونه ويُحبونه إلى مرتبة، يتحرج القلم من وصفها لولا أن فضل الله يجود بها.. مرتبة الصداقة بين الرب والعبد.. ودرجة الودّ من الله لأودّائه وأحبائه المقربين.. فماذا تكون الحياة التي ضحوا بها وهي ذاهبة؟ وماذا يكون العذاب الذي احتملوه وهو موقوت؟ ماذا يكون هذا إلى جانب قطرة من هذا الودّ الحلو؟ وإلى جانب لمحة من هذا الإيناس الحبيب؟

إن عبيداً من رقيق هذه الأرض. عبيد الواحد من البشر، ليلقون بأنفسهم إلى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه، أو لمحة رضاء تبدو في وجهه.. وهو عبد وهم عبيد.. فكيف بعباد الله. الذين يُؤنسهم الله بودّه الكريم الجليل، الله ﴿ذو العرش المجيد﴾.. العالي المهيمن الماجد الكريم؟ ألا هانت الحياة. وهان الألم. وهان العذاب. وهان كل غال عزيز، في سبيل لمحة رضى يجود بها المولى الودود ذو العرش المجيد.. ﴿فعّال لما يريد﴾.. هذه صفته الكثيرة التحقق، الدائبة العمل.. فعّال لما يريد.. فهو مطلق الإرادة، يختار ما يشاء، ويفعل ما يريده ويختاره، دائماً أبداً، فتلك صفته ـ سبحانه ـ ﴿ذو العرش المجيد فعّال لما يريد﴾.. وهي صفات تُصوّر الهيمنة المطلقة، والقدرة المطلقة، والإرادة المطلقة.. وكلها ذات اتصال بالحادث.. كما أنها تُطلق وراءه إشعاعات بعيدة الآماد يُريد مرة أن ينتصر المؤمنون به في هذه الأرض لحكمة يريدها. ويريد مرة أن ينتصر الإيمان على الفتنة وتذهب الأجسام الفانية لحكمة يريدها. ويريد مرة أن يأخذ الجبارين في الأرض. ويريد مرة أن يُمهلهم لليوم الموعود.. لحكمة تتحقق هنا وتتحقق هناك في قَدَره المرسوم.

فهذا طرف من فِعْله لما يريد. يناسب الحادث ويناسب ما سيأتي من حديث فرعون وثمود. وتبقى حقيقة الإرادة الطليقة والقدرة المطلقة وراء الأحداث ووراء الحياة والكون تفعل فعلها في الوجود.

فعّال لما يريد.. وهاك نموذجاً من فعله لما يريد. وهي إشارة سريعة إلى سوابِق من أَخْذه للطغاة، وهم مُدجّجون بالسلاح.. ﴿**هل أتاك حديث الجنود: فرعون وثمود؟**﴾ [البروج: ١٧].. وهما مصرعان متنوعان في طبيعتهما وآثارهما. ووراءهما ـ مع حادث الأخدود ـ إشعاعات كثيرة.

وهي إشارة إلى قصتين طويلتين، ارتكاناً إلى المعلوم من أمرهما للمخاطبين، بعدما ورد ذكرهما كثيراً في القرآن الكريم. ويسميهم الجنود. إشارة إلى قوتهم واستعدادهم.. هل أتاك حديثهم؟ وكيف فَعل ربك بهم ما يريد؟.

وهما حديثان مختلفان في طبيعتهما وفي نتائجهما.. فأما حديث فرعون، فقد أهلكه الله وجنده ونجّى بني إسرائيل، ومكَّن لهم في الأرض فترة، ليحقق بهم قدراً من قدره، وإرادة من إرادته. وأما حديث ثمود فقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم وأنجى صالحاً والقلة معه حيث لم يكن لهم بعد ذلك مُلك ولا تمكين. إنما هي مجرد النجاة من القوم الفاسقين.

وهما نموذجان لفعل الإرادة، وتوجُّه المشيئة. وصورتان من صور الدعوة إلى الله واحتمالاتها المتوقعة، إلى جانب الاحتمال الثالث الذي وقع في قصة أصحاب الأخدود.. وكلها يعرضها القرآن للقلة المؤمنة في مكة، ولكل جيل من أجيال المؤمنين.

ثم يأتي التعقيب الختامي في تقرير قوي جازم فاصل وحكم أخير: ﴿**بل الذين كفروا في تكذيب، والله من ورائهم محيط**﴾ [البروج: ١٩، ٢٠]..

فشأن الكفار وحقيقة حالهم أنهم في تكذيب يُمْسون به ويُصبحون. والله من ورائهم محيط.. وهم غافلون عما يحيط بهم من قهر الله وعلمه. فهم أضعف من الفيران المحصورة في الطوفان العميم!

وقـول الله هـو الحق ﴿بـل هـو قـرآن مجيـد في لـوح محفـوظ﴾ [البروج: ٢٢]. .

والمجيد الرفيع الكريم العريق. . وهل أمجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم؟ وهو في لوح عظيم. لا نُدرِك نحن طبيعته، لأنه من أمر الغيب الذي تفرّد الله بعلمه. إنما ننتفع بالظل الذي يُلقيه التعبير، والإيحاء الذي يتركه في القلوب. وهو أن القرآن مصون ثابت، قوله هو المرجع الأخير، في كـل ما يتناول من الأمور. يذهب كل قول، وقوله هو المرعي المحفوظ. .

ولقد قال القرآن قَولَه في قصة أصحـاب الأخدود، وفي الحقيقـة التي وراءه. . وهو القول الأخير. .

قصة أصحاب الكهف

المحتوى	ص

قصة أصحاب الكهف

حكمة بالغة وإرادة قاهرة:

إن القرآن الكريم ـ وهو المصدر الأساسي للعقيدة الإسلامية التي تنشىء التصور والعقلية الإسلامية ـ يقرر أن هناك عالَماً للغيب وعالَماً للشهادة. .

وحقيقة الغيب من مقومات «التصور الإسلامي» الأساسية، لأنها من مقومات العقيدة الإسلامية الأساسية؛ ومن قواعد «الإيمان» الرئيسية. والله ـ سبحانه ـ يصف المؤمنين في مواضع كثيرة من القرآن بأنهم الذين يؤمنون بالغيب، فيجعل هذه الصفة قاعدة من قواعد الإيمان الأساسية، والغيب في هذا الوجود يحيط بالإنسان من كل جانب فهو يسبح في بحر من المجهول. .

إنه الغيب. . إنه المجهول. . والعقل البشري ـ تلك الذبالة القريبة المدى ـ إنما يسبح في بحر المجهول. فلا يقف إلا على جزر طافية هنا وهناك يتخذ منها معالم في الخضم. ولولا عون الله له، وتسخير هذا الكون، وتعليمه هو بعض نواميسه، ما استطاع شيئاً. . ولكنه لا يشكر. . ﴿**وقليل من عبادي الشكور**﴾ [سبأ: ١٣]. . بل إنه في هذه الأيام ليتبجَّح بما كشف له من السنن، وبما آتاه من العلم القليل. . يتبجح فيزعم أحياناً أن «الإنسان يقوم وحده» ولم يعد في حاجة إلى إله يُعينه!

والإسلام يقول كلمة الحق في هذا الموضوع، فالقرآن يقرر ـ كما قُلنا ـ أن هنالك عالَماً للغيب وعالَماً للشهادة. فليس كل ما يحيط بالإنسان غيباً،

وليس كل ما يتعامل معه من قوى الكون مجهولاً . .

إن هناك سُنناً ثابتة لهذا الكون؛ يملك «الإنسان» أن يعرف منها القدر اللازم له، حسب طاقته وحسب حاجته، للقيام بالخلافة في هذه الأرض. وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية؛ وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة، وتعمير الأرض، وترقية الحياة، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها . .

وإلى جانب هذه السنن الثابتة ـ في عمومها ـ مشيئة الله الطليقة؛ لا تُقيدها هذه السنن وإن كانت من عَمَلها. وهناك قَدَر الله الذي ينفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها. فهي ليست آلية بحتة، فالقَدَر هو المسيطر على كل حركة فيها، وإن جرت وفق السنّة التي أودعها الله إياها. وهذا القدر الذي يُنفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها «غيب» لا يعلمه أحد علم يقين؛ وأقصى ما يصل إليه الناس هو الظنون و«الاحتمالات» . . وهذا ما يعترف به العلم البشري أيضاً . .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «إن هذا الكون خاضع ـ في غالب الأحوال ـ لأسباب طبيعية تتحكم في العالم وتتصرف فيه وهي القوى الكونية التي تسيطر على هذا النظام، وهي الأسباب وخواصُّ الأشياء التي قلما تفارق هذه الأشياء وقلما تخطىء. وفي الناس مَن اقتصر نظره على هذه الظواهر والأسباب الطبيعية واقتصر نظره على هذه الحياة وعلى هذا العالَم المادي المحسوس، ورأى أن المُسبَّبات والنتائج تابعة دائمة لأسبابها وعِلَلها مرافقة لها لازمة، ليس في هذا الوجود مَن يحول بين هذه الأسباب وهذه المُسَببات، ويتصرف فيها بإرادته المطلقة، ويستطيع أن يوجد المسببات من غير أسباب ويبدعها إبداعاً . وتَعَلَّق بهذه الأسباب وعَبَدها كالأرباب، وكفر بكل قوة وراء هذه الأسباب والخواص، وبكل قوة تسيطر على هذا العالم وتحكمه حكماً مطلقاً كلياً، وكَفر بالحياة بعدها وبالبعث والنشور، وبذل جهده ومواهبه في تسخير هذه القوى الكونية والأسباب والخواص وتسخير المادة وهام في سبيلها،

وبالغ في تمجيدها وتقديسها حتى جعلها ربًّا وإلهاً، وأصبح يكفر بكل شيء سوى المادة والقوة، حتى إذا نال منها غايته وسخّر بعضها أو أخضع بعضها لإرادته وحاجته اعتقد ألوهيته أو أعلن ربوبيته ـ بلسان المقال أو بلسان الحال ـ واستعبد بني جنسه وعاث في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، واستباحها لأغراضه وشهواته أو طموحه أو مَجد أمته ووطنه أو أسرته وحزبه.

وهناك نظرة أخرى في هذا الكون تعارض النظرة الأولى في الأساس والمنهج وهي أن وراء هذه الأسباب الطبيعية والقوى الكونية والخواص المودعة في الأشياء قوة غيبية تملك زمام هذه الأسباب والخواص، وكما أن هذه الأسباب سببٍ لهذه المسببات فالإرادة الإلهية القاهرة سبب لهذه الأسباب نفسها تخلقها وتُسيِّرها وتفكها عن مسبباتها إذا شاءت، فهي سبب الأسباب وهي عِلّة العلل، وإليها المنتهى في سلسلة الأسباب والعلل، وإن خالق هذا الكون وخالق هذه الأسباب لم يفلت من يده زمام هذا الكون في حين من الأحيان، ولم تتحرر هذه الأسباب من رقِّه وحُكمه، وهي لا تتمرد عليه ولا تستعصي، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الذي ربط الأشياء بالخواص والمُسببات بالأسباب، والمقدمات بالنتائج لحكمة بالغة وإرادة قاهرة، وهو الذي يربط ويفك ويثبت ويمحو، ويوجد الأشياء من العَدَم، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

وأن هنالك أسباباً مؤثِّرة أخرى تعمل في هذا العالم، وفي مصير الأفراد والأمم، كالأسباب الطبيعية أو أشد، وتتبعها نتائج قد تكون أعظم وأضخم من النتائج الطبيعية المادية التي تتبع أسبابها، وهي الإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة، وطاعة الله، والعدل والعبادة، والرحمة والمحبة، إلى غير ذلك من المعنويات، وأسباب تعمل عكسها، كالكفر والبغي، والفساد في الأرض، والظلم والشهوات، والآثام، إلى غير ذلك من المعنويات أيضاً.

وإن مَن تمسّك بالأسباب المعنوية الصالحة ـ من غير تعطيل للأسباب الطبيعية ـ صالحه هذا الكون، وطابت له الحياة، ويسَّره الله لليسرى، وخرق له ـ في بعض الأحيان والمناسبات ـ بعض عاداته، وأخضع له الأسباب

الطبيعية. ومَن تمسك بعكسها من المعنويات والأخلاق والسلوك في الحياة واعتمد على الأسباب الطبيعية فقط وأسّس عليها حياته، حار به هذا الكون وخانته القوى التي أخضعها وهو أحوج ما يكون إليها، وثارت عليه الطبيعة»(١).

إن قصة أصحاب الكهف قصة الصراع بين النَظْرتين أو العقيدتين أو النَفْسِيَتين، صراع بين الإيمان بالمادة وما يتبعها، وبين الإيمان بالغيب والإيمان بالله، وشرح لما تتبع كل نظرة من العقيدة والعمل والأخلاق، والنتائج والآثار، وتحذير من اتخاذ النظرة الأولى التي تؤمن بالمادة والظاهر وتكفر بالله والغيب.

تعرض القصة نموذجاً للإيمان في النفوس المؤمنة. كيف تطمئن به، وتُؤْثره على زينة الأرض ومتاعها، وتلجأ به إلى الكهف حين يعزّ عليها أن تعيش به مع الناس. وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة، ويَقيها الفتنة، ويشملها بالرحمة.

---

(١) مجلة «المسلمون» المجلد السادس، تأملات في سورة الكهف، ص ١٣ ـ ١٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥ ـ ١٧.

(٣) يقول الندوي: «إذا شئت سميتها أفسس أو أفسوس، ذهب أكثر المفسرين إلى ذلك كالبيضاوي والنيسابوري والألوسي وابن كثير وإليه ذهب أكثر المؤرخين والجغرافيين المسيحيين واختاره جبون Gibbon في كتابه الشهير «انحطاط روما وسقوطها، اقرأ قصة: «النائمين السبعة» Seven Sleepers في هذا الكتاب.

أما تحديدها الجغرافي فقد جاء في دائرة المعارف للبستاني أنها إحدى المدن الأيونية الإثنتي عشرة من الأناضول، موقعها على الجانب الجنوبي من نهر قيسطرة وهي على مسافة ٦٠ كيلومتراً من أزمير، جعلها الرومانيون قاعدة ولاية آسيا الغربية البروقنصلية ومحطاً لتجارة متسعة الدائرة، وما كان لأراضيها من الخصب وتوسط موقعها ونشاط سكانها اليونان جعلها زاهية زاهرة جداً، ولكن أعظم فخر لها هو هيكل ديانا ـ المعبودة اليونانية ـ العظيم الذي يعد من عجائب الدنيا السبع وكان أكبر الهياكل اليونانية.

وذكر (بليكي Blackie) في كتابه Amanual of Bilbe History أن مدينة أفسس Ephesus اشتهرت في التاريخ القديم بفلسفتها وخلاعة أهلها واستهتارهم، وأصبحت مضرب المثل في الفجور والخلاعة، وكانت وثنيتها مزيجاً من الوثنية الغربية والشرقية.

مَن كان أصحاب الكهف والرّقيم؟ ما هي قصتهم؟ وما قيمة هذه القصة ومكانتها في تاريخ الإنسانية، ولماذا خصَّها الله بالذكر حتى جعلها قصة باقية خالدة تُتلى على اختلاف الزمان والمكان؟!

وفي القصة روايات شتى، وأقاويل كثيرة. فقد وردت في بعض الكتب القَديمة وفي الأساطير بصور شتى. ونحن نقف فيها عند حد ما جاء في القرآن، فهو المصدر الوحيد المُستَيقن. ونطرح سائر الروايات والأساطير التي اندست في التفاسير بلا سند صحيح. وبخاصة أن القرآن الكريم قد نَهى عن استفتاء غير القرآن فيها، وعن المِراء فيها والجدل رجماً بالغيب.

وقد ورد في سبب نزولها ونزول قصة ذي القرنين أن اليهود أغروا أهل مكة بسؤال الرسول - ﷺ - عنهما وعن الروح. أو أن أهل مكة طلبوا إلى اليهود أن يصوغوا لهم أسئلة يختبرون بها الرسول - ﷺ - وقد يكون هذا كله أو بعضه صحيحاً. فقد جاء في أول قصة ذي القرنين: ﴿**ويسألونك عن ذي القرنين. قل: سأتلو عليكم منه ذكراً**﴾ ولكن لم تجيء عن قصة أصحاب الكهف مثل هذه الإشارة. فنحن نمضي في القصة لذاتها في تصحيح القِيَم بميزان العقيدة. وهي نموذج لإيثار الإيمان على باطل الحياة وزخرفها، والالتجاء إلى رحمة الله في الكهف، هرباً بالعقيدة أن تُمَسّ.

إن الطريقة التي اتُبعت في عرض هذه القصة من الناحية الفنية هي طريقة التلخيص الإجمالي أولاً. ثم العرض التفصيلي أخيراً. وهي تُعرض في مشاهد وتترك بين المشاهد فجوات يُعرف ما فيها من السياق[1]. وهي تبدأ هكذا:

﴿**أم حسبتَ أن أصحاب الكهف والرّقيم كانوا من آياتنا عجباً. إذ أوى الفتية إلى الكهف، فقالوا: ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهَيىء لنا من أمرنا رشداً. فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً، ثم بعثناهم لنعلم أي**

---

(١) يراجع فصل «القصة في القرآن» في كتاب «التصوير الفني في القرآن».

الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً﴾ [الكهف: ٩ ـ ١٢]..

وهو تلخيص يُجمل القصة، ويرسم خطوطها الرئيسية العريضة. فنعرف أن أصحاب الكهف فتية ـ لا نعلم عددهم ـ آووا إلى الكهف وهم مؤمنون. وأنه ضَرب على آذانهم في الكهف ـ أي ناموا ـ سنين معدودة ـ لا نعلم عددها ـ وأنهم بُعثوا من رقدتهم الطويلة. وأنه كان هناك فريقان يتجادلان في شأنهم ثم لبثوا في الكهف فَبُعِثوا ليتبين أي الفريقين أدق إحصاء. وأن قصتهم على غرابتها ليست بأعجب آيات الله. وفي صفات هذا الكون من العجائب وفي ثناياه من الغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف والرقيم(١).

وبعد هذا التلخيص المُشَوّق للقصة يأخذ السياق في التفصيل. ويبدأ هذا التفصيل بأن ما سيقصه الله منها هو فصل الخطاب في الروايات المتضاربة، وهو الحق اليقين: **﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق. إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى..﴾** [الكهف: ١٣]..

هذا هو المشهد الأول من مشاهد القصة. **﴿إنهم فتية آمنوا بربهم﴾**.. **﴿وزدناهم هدى﴾** بإلهامهم كيف يُدَبّرون أمرهم. **﴿وربطنا على قلوبهم﴾** فإذا هي ثابتة راسخة، مطمئنة إلى الحق الذي عرفت. معتزة بالإيمان الذي اختارت **﴿إذ قاموا﴾**.. والقيام حركة تدل على العزم والثبات. **﴿فقالوا: ربنا ربّ السموات والأرض﴾**.. فهو رب هذا الكون كله **﴿لن ندعو من دونه إلهاً﴾**.. فهو واحد بلا شريك. **﴿لقد قلنا إذن شططاً﴾** [الكهف: ١٤] وتجاوزنا الحق وَحِدْنا عن الصواب.

ثم يلتفتون إلى ما عليه قومهم فيستنكرونه، ويستنكرون المنهج الذي يسلكونه في تكوين العقيدة:

﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه الهة. لولا يأتون عليهم بسلطان بين؟﴾ [الكهف: ١٥]..

---

(١) الكهف: الفجوة في الصخر، والرّقيم ـ في الغالب ـ هو الكتاب الذي يحمل أسماءهم وربما كان هو الذي وُضِعَ على باب الكهف الذي عثر عليهم فيه.

فهذا هو طريق الاعتقاد: أن يكون للإنسان دليل قوي يستند إليه، وبرهان له سلطان على النفوس والعقول. وإلا فهو الكذب الشنيع، لأنه الكذب على الله: ﴿فمَن أظلم ممن افترى على الله كذباً؟﴾ [الكهف: ١٥]..

طريق الإيمان:

إن القصة «ثورة أشعلها حبّ الله في قلوب فتية أبرار، فمستقرها في كل منهم حَبة القلب، ومسراها مسرى الدم، وآفاقها مسالك الفكر ومسالك الروح جميعاً.

هي ثورة التوحيد على كل شرك، والطهر على كل دَنَس، والكرامة على كل دَنية، والروح المشرق الحي على كل غفلة عن الله.

هي ثورة الحق، حتى يستعيد سلطانه فتقام حدود الله، وتُحرّم محارمه، ولا يتطاول على أمر الله أمر، سواء كان أمر فرد مُتَألِّه فَتَنَ الناس بقوة أُوتيها، أو أمر فئة ظالمة سَوَّلت لها سكرة البغي أنها وقد مَلَكت رقاب الناس أصبحت تملك رؤوسهم ونفوسهم من دون الله.

هي ثورة يجدها الفتية في ذواتهم حين يفرون بدينهم إلى الكهف، فالكهف ينشرها ولا يطويها ﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف، فقالوا: ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهَيِّىء لنا من أمرنا رشداً﴾، ويعرف الفتية المؤمنون طريق العقيدة أن سَلَفَهم حملوها تحت مطارق العذاب من كل لون، حتى إذا بلغ الأمر مداه، فلم تعد عين الله تقع منهم إلا على صِدْق وهِمّة، أشرق النور من خلال العتمة القاسية»[1].. ﴿ينشر لكم ربكم من رحمته ويُهيىء لكم من أمركم مرفقاً﴾ [الكهف: ١٦]..

وتصور القصة محنة الصبر على العقيدة، والفرار بدين الله.. ﴿إنهم إن يَظْهَروا عليكم يرجموكم أو يُعيدوكم في مِلّتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً﴾ [الكهف: ٢٠]..

---

(١) مجلة المسلمون: «سورة الكهف»، المجلد الخامس، العدد الثاني.

إنه الابتلاء.. إنها سنّة العقائد والدعوات، محنة الصبر على الدين والعقيدة، والفرار إلى الله، «وأشدّ من فتنة العبث بالأجساد، فتنة العبث بالرؤوس والنفوس، فإن الأولى مهما آلَت تنتهي، صَبَر المبتَلُون بها أم لم يصبروا، أما الثانية فهي المدمِّرة التي تعمد إلى استئصال الجذور، وجذور الإيمان في أفكار أصحابها ومشاعرهم وقلوبهم..

والفتنة الأولى دائماً أهون من الثانية، ويكفي من هوانها أن الله قد أَبَاح للمُبتَلَى بها إذا أُكره أن يقول كلمة الكفر ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان[1]، أما الفتنة الثانية فيكفي من هَولها أنها توشك إن هي قَضَتْ وَطرَها أن تقذف بفريستها في هاوية جهنم ﴿**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا. ومَن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ [البقرة: ٢١٧]..»[2].

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في بحثه القيم «تأملات في سورة الكهف» ـ قصة أصحاب الكهف[2]: «في مدينة من المدن الرومية[3] في فجر

---

(١) يقول الله ـ سبحانه ـ: ﴿**مَن كفر بالله من بعد إيمانه إلا مَن أُكره وقلبه مُطمئن بالإيمان، ولكن مَن شرَح بالكُفر صدراً فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذاب عظيم. ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين. أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون. لا جَرَم أنهم في الآخرة هم الخاسرون**﴾ [النحل: ١٠٦ ـ ١٠٩]..

والقرآن الكريم يغلظ جريمة مَن كَفَر بالله من بعد إيمانه. لأنه عرف الإيمان وذاقه، ثم ارتد عنه إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة.. ذلك أن العقيدة أمر عظيم جَلَل، لا هَوادة فيها ولا تَرَخُّص، وثمن الاحتفاظ بها فادح، ولكنها ترجحه في نفس المؤمن، وعند الله. وهي أمانة لا يُؤتمن عليها إلا مَن يفديها بحياته، وهانَت الحياة الدنيا، وهان كل ما فيها من نعيم..

أما الذي يرتد عن عقيدته وإيمانه إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة، فقد رماه القرآن بغضب من الله، وبالعذاب العظيم، والحرمان من الهداية، ووَصَمه بالغفلة، وانطماس القلب والسمع والبصر، وحَكَم عليه بأنه في الآخرة من الخاسرين..

(٢) مجلة المسلمون، المجلد الخامس، العدد الثاني، «سورة الكهف».

التاريخ المسيحي، بلغت المادية وما يتبعها من الوثنية السافرة والأبيقورية الوقحة، أوجهَا وزهوَها، واستهترت الحكومة ورجالها في عبادة الأصنام وعبادة الشهوات وعبادة المادة والقوة، وانطلقت موجة عنيفة من الوثنية والشهوانية جرفت كل القيم الروحية والخلقية، وأصبح المجتمع ـ في هذه العاصمة ـ مجتمعاً مادياً محضاً، لا يدين إلا بالمظاهر والمحسوسات، ولا يؤمن إلا باللذات العاجلة والمنافع الحاضرة، واستولت الحكومة ـ بطبيعة الحال ـ على جميع وسائل المعيشة والرفاهة في حدود المملكة وأصبحت مصدر الرخاء والثراء والمجد والشرف، وأصبح اتِّباع عقيدتها واتجاهها، وتقليد رجالها القنطرة الوحيدة للوصول إلى الحكم والغنى والمجد والشرف، والتفَّ حولها «النفعيون» وأصحاب الطموح من كل جانب، وأصبح الناس طرازاً واحداً أو قطعة واحدة من عُبَّاد الشهوات، وعشّاق المناصب والوظائف، وهواة الإقطاعات والولايات.

وألحت الحكومة وأسرفت في تطبيق عقيدتها وفَرْض اتجاهها على أهل البلاد وتتبعت كل مَن يخالفها في دين الوثنية واتجاه الإباحية، والتمتع بالحياة، فحرمته نعمة الحياة، وسلبته حقوقه المدنية، فأصبحت الحياة في هذه البلاد أسلوباً واحداً، وصبغة واحدة من الخرافة والخلاعة، لا يحتمل اختلافاً في اللون، أو تنوعاً في العقيدة والأخلاق. وأصبح الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم وأعمارهم ومدارك عقولهم نسخة واحدة من كتاب مطبوع في مطبعة متقنة.

ثُوَّار مؤمنون:

في هذه الدولة الوثنية الجائرة، وفي هذا المجتمع المتهتّك الخليع، وفي هذا المحيط الضيّق المطبق، وفي هذا الجو القاتم الخانق وُجِدَ رهط من الناس تسرَّبت إليهم دعوة المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ فصادفت منهم عقولاً واعية وقلوباً خاشعة وضمائر حيَّة ففتحتها ومَلكتها وشغلت من نفوسهم كل مكان، ومن قلوبهم وتفكيرهم كل جانب، وأصبحت لهم إيماناً وعقيدة، ولذة

وقوة، وبداهة ويقيناً، فأصبحوا لا يعيشون بغيرها ولا يبيعونها بأكبر ثمن في العالم، ولو كان هذا الثمن نفوسهم وحياتهم.

ومن هنا بدأ الصراع. بدأ ذلك في نفوسهم أولاً ثم في الخارج ثانياً، وكذلك الصراع يبدأ دائماً في النفوس. لقد اتجهوا اتجاهاً معارضاً للحكومة والمجتمع، فالحكومة وثنية لا تقبل إلا الوثنية، والمجتمع خليع لا يرضى إلا بالخلاعة، ولا حياة ـ فضلاً عن الحكم والغنى ـ إلا بالحكومة والمجتمع. إن فلسفة الأسباب والمسببات، وإن دراسة المدنية والمجتمع وإن واقع الحياة: كل ذلك يفرض عليهم أن يخضعوا للحكومة والمجتمع، فلا شبع من غير طعام، ولا طعام من غير مال، ولا مال إلا عند الحكومة، ولا شرف ولا سمعة إلا بالجاه، ولا جاه إلا بالوظيفة، ولا وظيفة إلا عند الحكومة، ولا هدوء ولا سلامة إلا بمسايرة الناس وموافقة المجتمع، ولا موافقة إلا باتباع العقيدة السائدة والاتجاه العام! هذا هو المنطق المادي الذي يقوم على المشاهدة والتجربة وهذه طبيعة الأشياء.

ولكنهم يعارضون هذا المنطق «السليم» كما يسميه أنصاره، ويستوحون إيمانهم وعقيدتهم، فتجاوز نظرتُهم النافذة المشهودَ الموجودَ، ويتمثل أمامهم ما وراء هذا الشهود، فيرون أن وراء هذه الأسباب التي استولت عليها الحكومات واستحوذ عليها المجتمع سبباً آخر وهو الإرادة الإلهية التي خلقت هذه الأسباب، وهي التي تُسيرها من وراء الستار، فمن أيّدته هذه الإرادة القاهرة لم تُؤثر فيه هذه الأسباب وأربابها، ولم يحتج إلى أصحابها، وسخَّر الله له الأحوال والأوضاع، وجعلها مطابقة لحاله وحاجته وهيأ له من أمره رشداً ومرفقاً، وآتاه من لدنه رحمة ونعمة، فلا حاجة إلى الخضوع إلى الأسباب الظاهرة والاستكانة إلى أصحابها الضعفاء الفقراء، ولا بد من الثبات على العقيدة.

وهنا ينتصر الإيمان على التفكير المادي، ويغلب المنطق الإيماني على المنطق البرهاني، وذلك موضع الاعتبار في القصة ومفتاحها **﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا: ربُّنا ربُّ السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قُلنا إذاً شططا، هؤلاء قومُنا**

اتّخذوا من دونه آلهةً لولا يأتون عليهم بسلطان بَيِّن فمَن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٥]. .

ولكن ما هو السبيل إلى البقاء على العقيدة، وقد ضاقت الأرض على أهل الإيمان بما رحبت، وجعلت الحكومة البلاد عليهم كِفَّة حابل، وسدت في وجوههم أبواب الرزق والحياة فإما حياة من غير عقيدة وخُلق، وإما عقيدة من غير حياة وحرية؟!

وهناك يُسعفهم الإيمان وينير لهم الطريق، ويقنعهم بأن في أرض الله سعةً، وفي نصرة الله ثقة، وأنهم ليسوا مُضطرين ـ بعدما تخلوا عن اللذات والمطامع ـ إلى البقاء في هذه القرية الظالم أهلها، وجرى على لسانهم **﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويُهيىء لكم من أمركم مِرفقاً﴾** [الكهف: ١٦]. .

لقد كان لهم أن يهيموا في أرض الله على وجوههم، ويمضي كل أحد منهم لسبيله، أو يأوي كل فرد منهم إلى مغارة أرض، أو قُلّة جبل كما فعل المسيحيون في عصر رَهبنتهم وانحطاطهم، ولكن الله ألهمهم أن يخرجوا مجتمعين، فارِّين بدينهم وعقيدتهم لاجئين إلى الله منتظرين منه الفَرَج القريب والنصر المبين، وهذا هو منهج الصواب والطريق الأقوم كلما ضاقت على أهل الإيمان الأرض، وانسدّت في وجوههم الأبواب، وأشرف إيمانهم ودينهم على خَطَر وضياع.

ثم ماذا كان؟ لقد حققوا فيهم صفة الإيمان والفتوة، وهما الصفتان الأساسيتان في دستور النصرة الإلهية والتأييد الرباني **﴿إنهم فتية آمنوا بربهم﴾** فحقق الله لهم جميع مواعيدهم: وَعْد الزيادة في الهداية وَوَعْد التثبيت **﴿وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم﴾** وما أحوج المؤمن المهاجر، الثائر على مجتمعه وبيئته، الثائر على القوة القاهرة والحكم المطلق، إلى الهداية والتثبيت، وإلى أن يُربط على قلبه الخفّاق ونفسه المضطربة، وقد أنجز الله وَعْده في هؤلاء الفتية الكرام، فزادهم هدى، وربط على قلوبهم، وأخرج منها الجبن والخوف،

والحيرة والاضطراب وملأها شجاعة وسكينة، وقوة ويقيناً، وفرحاً وسروراً، ورضا بالله وأفعاله، وذلك زادُ المهاجر في سبيل الله، وسلاح المجاهد في سبيل الله، الثائر على عصره المتمرد على بيئته.

ثم ماذا كان؟ لقد خرجوا من العاصمة تاركين المدنية وزخارفها وراءهم، نابذين أسباب الحياة، قد غادروا وطنهم العزيز ومساكنهم الكريمة - فالظاهر أنهم كانوا من بيوت رفيعة ومحتد كريم[1] - فكان جزاء ذلك أن هداهم الله إلى كهف واسع صحي[2]، ولا تستطيع المنظمات الكبيرة أن تبني مثل هذه الكهوف والملاجىء الواسعة النظيفة الصحية، فكان شأنهم أن يستفيد من منافع الشمس - وهو النور والدفء - ويسلم من مضارِّها، وهي الحرارة الزائدة، ويدخله الهواء النقي فيضفي على أهله الحياة والنشاط.

وهكذا انقطعت صلتهم عن المدنية الدَنِسة المُتعفنة، وعن أصحابها الغاشمين الفاسقين، واتصلت بأسباب الحياة، والعالم النقي الخارجي، فكانَوا يعيشون في عزلة عن العالم مُتَمَتّعين بخيراته ومنافعه وليس ذلك إلا جزاء الإيمان الراسخ والجهاد الصادق، ومن تيسير الله وحده وهدايته ﴿**ذلك من آيات الله مَن يهد الله فهو المهتدِ**﴾ [الكهف: ١٧]. .

وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحاً صريحاً حاسماً، لا تَردُّد فيه ولا تلعثم. . إنهم فتية، أشداء في أجسامهم، أشداء في إيمانهم. أشداء في استنكار ما عليه قومهم. .

ولقد تبين الطريقان، واختلف المنهجان، فلا سبيل إلى الالتقاء، ولا للمشاركة في الحياة. ولا بد من الفرار بالعقيدة. إنهم ليسوا رُسلاً إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل. إنما

---

(١) قال الألوسي في تفسيره: «إنهم كانوا شباناً من أبناء أشراف الروم وعظمائهم» روح المعاني ج ٥ ص ١١.

(٢) في لسان العرب «الكهف كالمغارة في الجبل إلا أنه أوسع منها فإذا صغر فهو غار، وفي الصحاح الكهف كالبيت المنقور في الجبل».

هم فتية تَـبَيَّنَ لهم الهدى في وسط ظالم كافر، ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها، وهم لا يُطيقون كذلك أن يُداروا القـوم ويـداوروهم، ويعبـدوا مـا يعبـدون من الآلهـة عـلى سبيـل التقيـة ويخفـوا عبادتهم للّه.

والأرجح أن أمرهم قد كُشف. فلا سبيل لهم إلا أن يَفرُّوا بدينهم إلى الله، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة. وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم:

﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون ـ إلا الله ـ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته، ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً﴾ [الكهف: ١٦]..

رحمة الله:

وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنـة، فهؤلاء الفتية الـذين يعتزلون قومهم، ويهجرون ديارهم، ويُفارقون أهلهم. ويتجردون من زينـة الأرض ومتاع الحياة. هؤلاء الذين يَأوون إلى الكهف الضَيّق الخشن المظلم. هؤلاء يَسْتَرْوِحون رحمة الله. ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة مُمتدة. **﴿ينشر لكم ربكم من رحمتـه﴾** ولفـظة **﴿ينشر﴾** تلقي ظـلال السعـة والبحبـوحـة والانفساح. فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء.. إن الحدود الضيقة لتنزاح، وإن الجدران الصَلدة لترقّ، وإن الوحشة الموغلة لتشفّ، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق.

وما يفتح الله للناس من رحمة فلا مُمسك لها.. وحين تستقر هذه الصورة في قلب بشري يتم فيه تحول كامل في تصوراته ومشاعره واتجاهاته وموازينه وقِيَمه في هذه الحياة جميعاً.

إنها تقطعه عن شُبهة كل قوة في السموات والأرض وتصله بقوة الله. وتُيئسه من مظنة كل رحمة في السموات والأرض وتصله برحمة الله. وتوصد

أمامه كل باب في السموات والأرض وتفتح أمامه باب الله. وتغلق في وجهه كل طريق في السماوات والأرض وتشرع له طريقه إلى الله.

ورحمة الله تتمثل في مظاهر لا يُحصيها العدّ، ويعجز الإنسان عن مُجرد ملاحقتها وتسجيلها في ذات نفسه وتكوينه، وتكريمه بما كرمه، وفيما سخّر له من حوله ومن فوقه ومن تحته؛ وفيما أنعم به عليه مما يعلمه ومما لا يعلمه وهو كثير.

ورحمة الله تتمثل في الممنوع تَمَثُّلها في الممنوح. ويجدها مَن يفتحها الله له في كل شيء، وفي كلِ موضع، وفي كل حال، وفي كلِ مكان. ولو فَقَدَ كل شيء مما يعدّ الناس فَقْده هو الحرمان.. ويفتقدها مَن يمسكها الله عنه في كل شيء، وفي كل وَضع، وفي كل حالة، وفي كل مكان. ولو وَجَد كل شيء مما يعدّه الناس علامة الوجدان والرضوان!

وما من نعمة ـ يمسك الله معها رحمته ـ حتى تنقلب هي بذاتها نقمة. وما من محنة ـ تَحفّها رحمة الله ـ حتى تكون هي بذاتها نعمة.. ينام الإنسان على الشوك ـ مع رحمة الله ـ فإذا هو مِهاد. وينام على الحرير ـ وقد أمسكت عنه ـ فإذا هو شَوك القتاد. ويعالِج أعسر الأمور ـ برحمة الله ـ فإذا هي هوادة ويسر. ويعالج أيسر الأمور ـ وقد تَخَلَّت رحمة الله ـ فإذا هي مشقة وعُسر. ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام. ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مَهلكة وبوار!

ولا ضيق مع رحمة الله. إنما الضيق في إمساكها دون سواه. لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن، أو في جحيم العذاب أو في شعاب الهلاك. ولا وَسعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم، وفي مراتع الرخاء. فمن داخل النفس برحمة الله تتفجّر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة. ومن داخل النفس مع إمساكها تدبّ عقارب القَلَق والتعب والنصب والكدّ والمعاناة!

هذا الباب وحده يُفتح وتُغلق جميع الأبواب، وتُوصَد جميع النوافذ،

وتُسدّ جميع المسالك.. فلا عليك. فهو الفَرَج والفسحة واليسر والرخاء.. وهذا الباب وحده يُغلق وتُفتح جميع الأبواب والنوافذ والمسالك فما هو بنافع. وهو الضيق والكرب والشدة والقلق والعناء!

ومن رحمة الله أن تحسّ برحمة الله! فرحمة الله تضمّك وتَغمرك وتَفيض عليك. ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة. ورجاؤك فيها وتَطَلُّعك إليها هو الرحمة. وثِقَتك بها وتوقّعها في كل أمر هو الرحمة. والعذاب هو العذاب في احتجابك عنها أو يَأْسك منها أو شَكّك فيها. وهو عذاب لا يَصبّه الله على مؤمن أبداً. ﴿**إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾ [يوسف: ٨٧]..

ورحمة الله لا تعزّ على طالب في أي مكان ولا أي حال. وَجَدها إبراهيم ـ عليه السلام ـ في النار. ووجدها يوسف ـ عليه السلام ـ في الجبّ كما وجدها في السجن. ووجدها يونس ـ عليه السلام ـ في بطن الحوت في ظلمات ثلاث. ووجدها موسى ـ عليه السلام ـ في اليمّ وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدوّ له مُتربّص به ويبحث عنه. ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور. فقال بعضهم لبعض: ﴿**فأووا إلى الكهف يَنشر لكم ربكم من رحمته**﴾.. ووجدها محمد رسول الله ـ ﷺ ـ وصاحبه في الغار والقوم يَتَعقّبونهما ويقصّون الآثار.. ووجدها كل مَن أَوَى إليها يأساً من كل ما سواها. مُنقطعاً عن كل شُبهة في قوة، وعن كل مظنة في رحمة الله، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب.

ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا مُمسك لها. ومتى أمسكها فلا مُرسل لها. ومن ثم فلا مخافة من أحد. ولا رجاء في أحد. ولا مخافة من شيء، ولا رجاء في شيء. ولا خوف من فوت وسيلة، ولا رجاء مع الوسيلة. إنما هي مشيئة الله.. وما بين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبوها مباشرة منه؛ بلا وساطة وبلا وسيلة إلا التوجُّه إليه في طاعة وفي رجاء وفي ثقة وفي استسلام.

أي طمأنينة؟ وأي قرار؟ وأي وضوح في التصورات والمشاعر والقيم

والموازين تُقرره هذه الصورة في الضمير؟!

ورحمة الله ترسم الحياة صورة جديدة، وتُنشيء في الشعور قِيَماً لهذه الحياة ثابتة؛ وموازين لا تَهتز ولا تتأرجح ولا تتأثّر بالمؤثرات كلها. ذهبت أم جاءت. كبرت أم صغرت. جَلّت أم هانت. كان مصدرها الناس أو الأحداث أو الأشياء!

صورة واحدة لو استقرت في قلب إنسان لصمد كالطّود للأحداث والأشياء والأشخاص والقوى والقيم والاعتبارات. ولو تضافر عليها الإنس والجن. وهم لا يفتحون رحمة الله حين يُمسكها، ولا يُمسكونها حين يفتحها..

إنه الإيمان..

وما قيمة الظواهر؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية؟

إن هنالك عالَماً آخر في جَنَبات القلب المغمور بالإيمان، المأنوس بالرحمٰن. عالَماً تُظَلِّله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان.

ويسدل الستار على المشهد. ليرفع على مشهد آخر، والفتية قد نَفَّذوا ما استقرّ عليه رأيهم، فها هم أولاء في الكهف وقد ضرب عليهم النعاس[1]. ها هم أُولاء نراهم رأي العين. فما يدع التعبير هنا شكاً في أننا نراهم يقيناً:

﴿وترى الشمس إذا طَلعت تَزاوَر عن كهفهم ذات اليمين، وإذا

---

(١) يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: ويظهر أنهم لم يقضوا حياتهم في هذا الكهف الإيماني في بطالة وتعطُّل، ولم يكونوا هناك في ظلام وعمىً، ومن غير دستور وهداية، والظاهر أنهم أخذوا معهم بعض الصُّحف والأوراق المكتوبة ولعلها صحائف من التوراة والإنجيل وأثارة من علوم الأنبياء وتعاليمهم احتفظوا بها عند خروجهم من المدينة، وليكن ذلك دستور جميع الثائرين على بيئتهم ومجتمعهم المهاجرين اللاجئين، المضطرين إلى الفرار والعُزلة، إذا كان لا بد من الفرار والعُزلة. ولما نفذ زادهم الذي حملوه سلَّط الله عليهم نوماً هنيئاً عميقاً طويلاً لم يحتاجوا معه إلى طعام وشراب ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً﴾ [الكهف: ١١]..

غربت تَقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه . .﴾ [الكهف: ١٧].

وهو مشهد تصويري عجيب، ينقل بالكلمات هيئة الفتية في الكهف[١]، كما يلتقطها شريط مُتحرك. والشمس تطلع على الكهف فتميل عنه كأنها مُتعمّدة. ولفظ ﴿تَزاور﴾ تُصوّر مدلولها وتُلقي ظل الإرادة في عملها. والشمس تغرب فَتُجاوزهم إلى الشمال وهم في فجوة منه . .

وقبل أن يكمل نقل المشهد العجيب يُعلّق على وَضْعهم هكذا في الكهف والشمس لا تنالهم بأشعتها وتقرب منهم بضوئها. وهم في مكانهم لا يموتون ولا يتحركون. ﴿من يهدِ الله فهو المهتدِ. ومَن يُضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ [الكهف: ١٧]. .

وللهدى والضلال ناموس فمَن اهتدى بآيات الله فقد هداه الله وفق ناموسه وهو المُهتدي حقاً. ومَن لم يأخذ بأسباب الهدى ضل، وجاء ضلاله وفق الناموس الإلهي فقد أضلّه الله إذن، ولن تجد له من بعد هادياً[٢]. .

---

(١) القرآن يسميهم بأصحاب الكهف والرقيم، وقد ذهب المفسرون في تفسير الرقيم مذاهب، فمن قائل أنه لوح من حجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف وأَمْرهم أو أسماءهم ثم وُضِعَ على باب الكهف، ومن قائل أنه اسم قرية أو بلد، وقد اختار العلّامة الكيلاني في مقالته عن أصحاب الكهف أنه الكتاب المرقوم الذي كان رفيقهم في الكهف، ويؤيده ما نقله صاحب روح المعاني عن ابن عباس قال: إنه كتاب كان عندهم فيه الشرع الذي تمسّكوا به من دين عيسى ـ عليه السلام ـ (ج ٥ ص ١١) وهو مختارنا (الندوي ـ المسلمون، المجلد السادس ص ٢٠).

(٢) ويقول الأستاذ الندوي: لقد حاول الثائرون على نواميس الله وشرائعه، وعلى الطبيعة، وبذلوا جهدهم ومواهبهم وعلومهم وذكاءهم في الحصول على حياة رخية صافية هنيئة، وسخّروا لأنفسهم القوى الكونية، وأخضعوا لهم أسباب الراحة والرخاء وهناء البال فحُرموا النتيجة، وثارت عليهم الحياة والطبيعة، وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وأصبحوا فريسة اكتشافاتهم ووسائلهم، وفريسة الأمراض الطريفة والمشاكل الغريبة، والحروب المُدَمِّرة ﴿ومَن يُضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ [الكهف: ١٧]. .

المشهد العجيب والمفاجأة الضخمة:

ثم يمضي السياق يُكمل المشهد العجيب: **﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رُقود، ونُقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد. لو اطّلعتَ عليهم لَوَلّيتَ منهم فراراً، ولَمُلِئتَ منهم رُعباً﴾** [الكهف: ١٨]..

إنّا لننظرهم وهم في فجوة منه.. إن الألفاظ لتقوم بالمعجزة مرة أخرى، فتنقل هيئتهم وحركتهم كأنما تَشخص وتتحرك على التوالي.. وهم يَقلبون من جنب إلى جنب في نومتهم الطويلة. فيحسبهم الرائي أيقاظاً وهم رقود. وكلبهم ـ على عادة الكلاب ـ باسط ذراعيه بالفناء قريباً من باب الكهف كأنه يحرسهم. وهم في هَيئتهم هذه يثيرون الرعب في قلب مَن يَطّلع عليهم. إذ يراهم نياماً كالأيقاظ، يَتَقلّبون ولا يستيقظون. وذلك من تدبير الله كي لا يعبث بهم عابث حتى يحين الوقت المعلوم.

وهكذا تضطلع الألفاظ بالتصوير وبالحركة في كل هذه السهولة.

وفجأة تدبّ فيهم الحياة. فلننظر ولنسمع:

﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم. قال قائل منهم: كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم. قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم..﴾ [الكهف: ١٩]..

إن السياق يحتفظ بالمفاجأة في عرض القصة، فيعرض هذا المشهد، والفتية يستيقظون وهم لا يعرفون كم لبثوا منذ أن أدركهم النعاس.. إنهم يَفركون أعينهم، ويلتفت أحدهم إلى الآخرين فيسأل: كم لبثتم؟ كما يسأل مَن يستيقظ من نوم طويل. ولا بد أنه كان يحسّ بآثار نوم طويل. **﴿قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾**!

ثم رأوا أن يتركوا هذه المسألة التي لا طائل وراء البحث فيها، ويَدَعوا أمرها الله ـ شأن المؤمن في كل ما يعرض له مما يجهله ـ وأن يأخذوا في شأن عملي. فهم جائعون. ولديهم نقود فضية خرجوا بها من المدينة:

﴿قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم، فابعثوا أحدكم بِوَرِقكم هذه إلى المدينة

فلينظر أيها أزكى طعاماً، فليأتكم برزق منه﴾ [الكهف: ١٩]. . أي فليختر أطيب طعام في المدينة فليأتكم بشيء منه. وهم يحذرون أن ينكشف أمرهم ويُعرف مخبؤهم، فيأخذهم أصحاب السلطان في المدينة فيقتلوهم رجماً ـ بوصفهم خارجين على الدين لأنهم يعبدون إلهاً واحداً في المدينة المُشرِكة! أو يَفتنوهم عن عقيدتهم بالتعذيب. وهذه هي التي يَتَّقونها. لذلك يُوصون الرسول أن يكون حَذِراً لَبِقاً.

﴿وليتلطَّف ولا يُشعرن بكم أحداً. إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذن أبداً﴾ [الكهف: ١٩، ٢٠]. فما يُفلح مَن يرتد عن الإيمان إلى الشرك، وإنها للخسارة الكبرى.

وهكذا نشهد الفتية يتناجون فيما بينهم، حَذِرين خائفين، لا يدرون أن الأعوام قد كَرَّت، وأن عجلة الزمن قد دارت، وأن أجيالاً قد تعاقبت، وأن مدينتهم التي يعرفونها قد تغيرت معالمها، وأن المُتسلطين الذين يخشونهم على عقيدتهم قد دالت دولتهم، وأن قصة الفتية الذين فَرُّوا بدينهم في عهد الملك الظالم قد تناقلها الخَلَف عن السَلَف؛ وأن الأقاويل حولهم متعارضة؛ حول عقيدتهم، وحول الفترة التي مضت منذ اختفائهم.

وهنا يُسدل الستار على مشهدهم في الكَهف ليُرفع على مشهد آخر. وبين المَشهدين فجوة متروكة في السياق القرآني.

ونفهم أن أهل المدينة اليوم مؤمنون، فهم شديدو الحفاوة بالفتية المؤمنين بعد أن انكشف أمرهم بذهاب أحدهم لشراء الطعام، وعرف الناس أنه أَحد الفتية الذين فَرُّوا بدينهم منذ عهد بعيد.

ولنا أن نتصور ضخامة المفاجأة التي اعترت الفتية ـ بعد أن أيقن زميلهم أن المدينة قد مضى عليها العهد الطويل منذ أن فارقوها؛ وأن الدنيا قد تَبدَّلت من حولهم فلم يعد لشيء مما يُنكرونه ولا لشيء مما يعرفونه وجود! وأنهم من جيل قديم مضت عليه القرون. وأنهم أُعجوبة في نَظَر الناس وحِسّهم، فلن يمكن أن يُعاملوهم كَبشَرٍ عاديين. وأن كل ما يربطهم بجيلهم من قرابات

ومعاملات ومشاعر وعادات وتقاليد.. كله قد تقطَّع، فهم أشبه بالذكرى الحية منهم بالأشخاص الواقعية.. فيرحمهم الله من هذا كله فيَتوفَّاهم.

لنا أن نتصور هذا كله. أما السياق القرآني فيعرض المشهد الأخير، مشهد وفاتهم، والناس خارج الكهف يتنازعون في شأنهم: على أي دين كانوا، وكيف يُخلّدونهم ويحفظون ذِكراهم للأجيال. ويعهد مباشرة إلى العبرة المُستقاة من هذا الحادث العجيب:

﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وَعْد الله حق، وأن الساعة لا رَيب فيها. إذ يتنازعون بينهم أمرهم، فقالوا: ابنوا عليهم بُنياناً ربهم أعلم بهم. قال الذين غَلبوا على أمرهم: لنتخذن عليهم مسجداً﴾ [الكهف: ٢١]..

إن العبرة في خاتمة هؤلاء الفتية هي دلالتها على البعث بِمَثَل واقعي قريب محسوس. يُقرب إلى الناس قضية البعث. فيعلموا أن وَعْد الله بالبعث حق، وأن الساعة لا ريب فيها.. وعلى هذا النحو بعث الله الفتية من نومتهم وأعثر قومهم عليهم.

وقال بعض الناس: **﴿ابنوا عليهم بُنياناً﴾** لا يُحدّد عقيدتهم **﴿ربهم أعلم بهم﴾** وبما كانوا عليه من عقيدة.

وقال أصحاب السلطان في ذلك الأوان: **﴿لنتخذن عليهم مسجداً﴾** والمقصود مَعبد، على طريقة اليهود والنصارى في اتخاذ المعابد على مقابر الأنبياء والقديسين. وكما يصنع اليوم مَن يُقلّدونهم من المسلمين مخالفين لهدى الرسول ـ ﷺ ـ الذي قال: «لَعَن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد»(١).

ويسدل الستار على هذا المشهد. ثم يُرفع لنسمع الجَدَل حول أصحاب الكهف ـ على عادة الناس يتناقلون الروايات والأخبار، ويزيدون فيها ويُنقصون، ويضيفون إليها من خيالهم جيلاً بعد جيل، حتى تتضخم

---

(١) أورده ابن كثير في التفسير.

وتتحول، وتكثر الأقاويل حول الخبر الواحد أو الحادث الواحد كلما مرت القرون:

﴿سيقولون: ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون: خمسة سادسهم كلبهم - رجماً بالغيب، ويقولون: سبعة وثامنهم كلبهم. قل: ربي أعلم بِعدّتهم. ما يعلمهم إلا قليل. فلا تُمار فيهم إلا مراءً ظاهراً، ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً﴾..

لقد طواهم المجهول بعد أن تمَّت الحكمة الدينية من بَعثهم، فَلْيُوكِل سرّهم إلى المجهول أيضاً **﴿قل: ربي أعلم بعدّتهم...﴾** [الكهف: ٢٢]..

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «وهنا تظهر المعجزة الكبرى من معجزات قصة أصحاب الكهف، ففي مدة نومهم واعتزالهم في الكهف تغيَّرت الأوضاع في البلد، في مملكة روما وتوابعها، فانقرضت دولة الوثنية والخلاعة وطُويَ رجالها وأصحابها في تقلّبات الزمان، وقامت على أنقاض هذه الدولة الوثنية الخليعة دولة تؤمن بالله وبالمسيح وتنتصر للدين الجديد الذي حاربته الحكومة الماضية طويلاً وطاردت أتباعه ورجاله، وتُجِلّ كل مَن انتمى إلى هذا الدين وتُرحب بكل مَن يدين بهذه العقيدة.

وهنالك يُبعث أصحاب الكهف من رَقدتهم الطويلة التي استغرقت ثلاثة قرون وزيادة **﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً﴾** [الكهف: ٢٥] ويتساءلون بينهم عن مدة هذا النوم، فيختلفون في التقدير والتحديد ثم يَكِلون أمره إلى الله لأنه ليس من مُهمات الدين والدنيا **﴿قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم﴾** [الكهف: ١٩]..

وحينئذ يشعرون بالجوع فينتدبون أحدهم ليأتي لهم بطعام زكيٍّ ويرسلونه مع النقود الفضية التي حَملوها من مدينتهم، ويوصونه بالاحتراس من فُشوِّ السرّ وبالتلطف، لأنهم لا يزالون يعتقدون أن رجال الحكومة بالمرصاد.

ولقد تسامع أهل البلد بقصة اضطهاد فتية مؤمنين في دولة الوثنيين الفجّار، وسمعوا ما جرى لهم، وكيف غادروا وَطنهم واختفوا عن الأنظار،

وانقطع أثرهم، وقد قامت الدولة المسيحية الفتاة، تُحيي آثار النصرانية المُضطهدة وتُجدد معالمها، وتُحيي ذكرى أبطالها وشهدائها وتُفكّر في تخليد ذكرهم وبناء تذكارهم وفي مقدمة هؤلاء الأبطال «أصحاب الكهف والرقيم».

وكانت قصة «أصحاب الكهف» حديث البلد، إذ خرج رائدهم مُتَسَتِّراً متلطفاً خائفاً يترقب، يبحث عن طعام لذيذ ويرجع به سريعاً إلى أصحابه ويقنع من الغنيمة بالإياب فإذا هو بغية البلد، وإذا هو وأصحابه من الأبطال الذين تتغنى البلاد ـ حكومة وشعباً ـ بمجدهم وجهادهم وبطولتهم.

يُعثر عليه ـ عن طريق العُملة القديمة التي كان يحملها أو اللهجة التي كان يتكلم بها أو الزي الذي كان يلبسه، فالقرآن لا يعني بهذه التفاصيل التي هي موضوع الرواية لا الهداية ـ ويشيع الخبر في البلد، وأنحاء المملكة ويصبح الشغل الشاغل للناس، ويقبل الناس، زرافات ووحداناً، إلى هذا الكهف الذي آواهم ويسعدون بزيارتهم، ويُمسك القرآن ـ على عادته ـ عن ذكر تفاصيل احتفاء الناس بهم وإجلالهم وتقديرهم لهم، ولكنه يقول في قوة وتأكيد: ﴿**وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وَعْدَ الله حق وأن الساعة لا ريب فيه**﴾ [الكهف: ٢١] فقد كان هذا الانقلاب الذي حدث في الحكومة والشعب، وعثور الناس عليهم بعد هذه الغيبة الطويلة إنجازاً لِوَعْده في رفع منارهم وتخليد آثارهم وقَهْر عدوهم، ودليلاً على أن الله يُقلِّب الليل والنهار، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث مَن في القبور، وهل كان يُرجى أن تزول هذه الدولة القاهرة وتنهض المسيحية المقهورة، ويخرج أصحاب الكهف بعد هذه المدة الطويلة من كهف يشبه المقبرة الواسعة فتحيط بهم هالة التقديس والإكبار، وتفتح لهم الدولة ذراعيها ويبسط لهم البلد أحضانه، ويوطِّىء لهم أكنافه؟ أليس في ذلك عبرة لسادة قريش وعظماء مكة، وتسلية للمسلمين المُستضعفين؟

ومكثوا ما شاء أن يمكثوا ثم وافاهم الأجل المحتوم، فأصبحوا في مُحبيهم والمعجبين بهم موضوع خلاف ونزاع، وذهب الناس فيهم مذاهب، وذلك في أسلوب تخليد ذكرهم وبناء تذكارهم، ولم يقتصر الأمر على الاحتفاء بشأنهم في

عصرهم والحرص على تخليد ذكرهم بل أصبح هؤلاء من رجال التاريخ والديانة الذين ظل الناس يختلفون فيهم ويتباحثون وتتكون مذاهب وطوائف، لكل أنصار **﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم، رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمارِ فيهم إلا مراءً ظاهراً ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً﴾** [الكهف: ٢٢]. . ».

فهذا الجدل حول عدد الفتية لا طائل وراءه. وإنه ليستوي أن يكونوا ثلاثة أو خمسة أو سبعة، أو أكثر. وأمرهم موكول إلى الله، وعلمهم عند الله. وعند القليلين الذين تَثَبَّتُوا من الحادث عند وقوعه أو من روايته الصحيحة. فلا ضرورة إذن للجدل الطويل حول عددهم.

والعبرة في أمرهم حاصلة بالقليل وبالكثير. لذلك يوجه القرآن الرسول - ﷺ - إلى ترك الجدل في هذه القضية، وإلى عدم استفتاء أحد من المتجادلين في شأنهم. تمشياً مع منهج الإسلام في صيانة الطاقة العقلية أن تُبَدَّد في غير ما يفيد. وفي ألاَّ يَقْفُو المسلم ما ليس له به علم وثيق. وهذا الحادث الذي طواه الزمن هو من الغيب الموكول إلى علم الله، فليترك إلى علم الله.

تدبير الله وإرادته:

وبمناسبة النهي عن الجدل في غيب الماضي، يرد النهي عن الحكم على غيب المستقبل وما يقع فيه؛ فالإنسان لا يدري ما يكون في المستقبل حتى يقطع برأي فيه:

﴿ولا تقولن لشيء: إني فاعل ذلك غداً - إلا أن يشاء الله - واذكر ربك إذا نسيت، وقل: عسىٰ أن يهدينِ ربي لأقرب من هذا رشداً﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

إن كل حركة وكل نأمة، بل كل نفس من أنفاس الحي، مرهون بإرادة الله. وسجل الغيب مسبل يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة؛ وعين الإنسان لا

تمتد إلى ما وراء الستر المسدل؛ وعقله مهما علم قاصر كليل. فلا يقل إنسان: إني فاعل ذلك غداً. وغداً في غيب الله وأستار غيب الله دون العواقب.

وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان، لا يُفكر في أمر المستقبل ولا يُدبّر له؛ وأن يعيش يوماً بيوم، لحظة بلحظة. وألا يصل ماضي حياته بحاضره وقابله.. كلا. ولكن معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التي تُدبره؛ وأن يعزم ما يعزم ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم، ويستشعر أن يَدَ الله فوق يده، فلا يستبعد أن يكون للّه تدبير غير تدبيره. فإن وَفّقه الله إلى ما اعتزم فَبِها. وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبّر لم يَحزن ولم ييأس، لأن الأمر للّه أولاً وأخيراً.

فليفكر الإنسان وليدبر؛ ولكن ليشعر أنه إنما يفكر بتيسير الله، ويدبر بتوفيق الله، وأنه لا يملك إلا ما يمدّه الله به من تفكير وتدبير.

ولن يدعو هذا إلى كَسَل أو تراخ، أو ضعف أو فتور؛ بل على العكس يمده بالثقة والقوة والاطمئنان والعزيمة. فإذا انكشف ستر الغيب عن تدبير للّه غير تدبيره، فليتقبل قضاء الله بالرضى والطمأنينة والاستسلام. لأنه الأصل الذي كان مجهولاً له فكشف عنه الستار.

هذا هو المنهج الذي يأخذ به الإسلام قلب المسلم. فلا يشعر بالوحدة والوحشة وهو يُفكر ويُدبّر. ولا يحس بالغرور والتبطر وهو يفلح وينجح. ولا يستشعر القنوط واليأس وهو يَفشل ويخفق. بل يبقى في كل أحواله متصلاً بالله، قوياً بالاعتماد عليه، شاكراً لتوفيقه إياه، مُسلماً بقضائه وقَدَره غير مُتَبطر ولا قنوط.

﴿**واذكر ربك إذا نسيت**﴾.. إذا نسيت هذا التوجيه والاتجاه فاذكر ربك وارجع إليه.

﴿**وقل عسىٰ أن يهدينِ ربي لأقرب من هذا رشداً**﴾.. من هذا النهج الذي يَصِل القلب دائماً بالله، في كل ما يهمّ به وكل ما يتوجه إليه.

وتجيء كلمة ﴿**عسىٰ**﴾ وكلمة ﴿**لأقرب**﴾ للدلالة على ارتفاع هذا

المرتقى، وضرورة المحاولة الدائمة للاستواء عليه في جميع الأحوال.

وإلى هنا لم نكن نعلم: كم لبث الفتية في الكهف. فلنعرفه الآن لنعرفه على وجه اليقين:

﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنين، وازدادوا تسعاً. قل: الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض. أبصر به وأسمع﴾ [الكهف: ٢٥، ٢٦]..

فهذا هو فصل الخطاب في أمرهم، يُقرره عالم غيب السموات والأرض. ما أَبْصَره، وما أَسْمَعه! سبحانه. فلا جدال بعد هذا ولا مراء.

ويُعقب على القصة بإعلان الوحدانية الظاهرة الأَثَر في سير القصة وأحداثها:

﴿ما لهم من دونه من ولي. ولا يُشرك في حكمه أحداً﴾ [الكهف: ٢٦].

وبتوجيه الرسول ـ ﷺ ـ إلى تلاوة ما أوحاه ربه إليه، وفيه فصل الخطاب ـ وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل ـ والاتجاه إلى الله وحده، فليس من حِمى إلا حِماه. وقد فرّ إليه أصحاب الكهف فشملهم برحمته وهداه:

﴿واتل ما أُوحي إليك من كتاب ربك لا مُبَدّل لكلماته، ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ [الكهف: ٢٧]..

وهكذا تنتهي قصة أصحاب الكهف، تسبقها وتتخللها وتعقبها تلك التوجيهات التي من أَجلها يُساق القصص في القرآن. مع التناسق المطلق بين التوجيه الديني والعرض الفني في السياق..

«وهكذا تنتهي هذه القصة الخالدة..، قصة الصراع بين الإيمان والمادية، أو قصة الصراع بين الاعتماد على الأسباب وبين الاعتماد على خالق الأسباب، تنتهي بانتصار الإيمان على المادية، وصدق الاعتماد على خالق الأسباب.

لقد آثر الفتية المؤمنون الإيمان على المادة، وآثروا الآجل على العاجل،

وآثروا أن يعيشوا غرباء وهم مؤمنون على أن يعيشـوا أغنياء أو أمـراء وهم كافرون، وآثروا أن يعيشوا بعيداً عن الوطن والأقارب والأحباب لا حظَّ لهم في متعة الحياة ولذة العيش وعِزّ الحكومة، على أن يُشركوا بالله ويُرضوا شهواتهم ويتعاونوا على الإثم والعدوان، لقد فَرُّوا من مُقتضى النفِس إلى مقتضى الروح، ومن مقتضى العقل إلى مقتضى الإيمان فتحقق أنهم كانوا أعمق عقـلاً وأبْعد نظراً، وأن العاقبة للمتقين، لقد فَرُّوا من الأسباب إلى خالق الأسباب فلم ينتقلوا من هذا العالم حتى خضعت لهم الأسباب وخضعت لهم حكومة فَرُّوا من عقابها بالأمس.

وبعد انتهاء القصة يوصي اللّهُ ـ سبحانه ـ النَبيَّ ـ ﷺ ـ بالتمسك بحبل الله، والتمسك بالسبب الأكبر الأقوى، أو العروة الوثقى، وهو سبيل الإيمان وسبيل القرآن، ويوصيه بلزوم أولئك المؤمنين الذين سعدوا بالإيمان والمعرفة واليقين والذكر والدعاء، وإن كان حَظّهم قليلاً من الأسباب، ومن متع الدنيا وزخارفها، ويُوصيه بمجـانبة أولئـك الجُهّال الغـافلين الذين حُـرِموا الإيمـان والمعرفة واليقين وما يتبع ذلك من الذكر والدعاء، ومَلَكوا مقداراً كبيراً من الأسباب والقوى والخـيرات، وإنما هي وصيـة عامـة لِقُرّاء القـرآن وأتباعـه والمؤمنين به بل هم أحوج إلى تنفيذها والعمل بها:

﴿واصـبر نفسك مـع الذين يـدعون ربهم بـالغداة والعشي يُـريدون وجهه، ولا تَعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تُطع مَن أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمرهُ فُرطاً﴾ [الكهف: ٢٨]. .

لقد كانت هذه خطة أصحاب الكهف وأصحاب الإيمان والمعرفة في كل عصر، وهي إيثار الإيمان والعمل الصالح والصلة الروحية بالله على المظاهر والظواهر والأسباب والقوى، والتمرُّد على المادة وأصحابها والاستهانة بزخارف الدنيا ومُتَعِها، وهي دعوة قصة أصحاب الكهف ودعوة القرآن **﴿ولا تمـدنَّ عَينيك إلى ما مَتَّعنا به أزواجاً منهم زَهرة الحياة الدنيا لِنَفْتِنَهم فيه ورِزقُ ربك خير وأبقى﴾** . . »[1] [طه: ١٣١]. .

(١) أبو الحسن الندوي، تأملات في سورة الكهف، مجلة المسلمون، المجلد السادس، ص ١١٨.

قصة أصحاب الغَار

المحتوى	ص
	٤١٨

أصحاب الغار

إن طبيعة هذا الدين سهلة وواضحة، فهو يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة. . كل تنظيماته، وكل تشريعاته، وكل آدابه، وكل توجيهاته تنبثق من هـذا الأصل الكبير، وروح هذه القاعدة هـو الإخلاص في جميع الأعمال والأقوال البارزة والخفية.

وقد سلكت القصة النبوية سلوك القرآن الكريم في ترسيخ هذه القاعدة في القلوب والعقول، واتخذت في ذلك أسلوباً مشوقاً لتطهير النفوس والأخلاق، حتى تزكو الأفئدة والأرواح، وتقوم الرقابة في الضمائر، وينبعث الحياء والخوف من غضب الله وحده وعقابه.

إن قصة أصحاب الغار تحكي جانب عريض من سرّ هذا الدين وطبيعته، فهي تحدد في مسارها القصصي البناء السلوكي في إطار العقيدة، وهي تجعلِ الآداب والسلوك والمعاملة تنطلق كلها من روح هذه العقيدة، كما تؤكد أيضاً على شمول هذه العقيدة واستغراقها لشعاب النفس كلها في إطار الحياة الشخصية والاجتماعية والإنسانية. .

كان رسول الله ـ ﷺ ـ يتعهد أصحابه بقصة أصحاب الغار[1] يَعِظُهم

---

(١) يقول الإمام ابن حجر في «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» ٦/٣٩٤: «عقب المصنف قصة أصحاب الكهف بحديث الغار إشارة إلى ما ورد أنه قد قيل أن الرقيم المذكور في قوله تعالى ﴿أم حسبتَ أن أصحاب الكهف والرقيم﴾ والرقيم هو الغار الذي أصاب فيه الثلاثة ما =

بها ويُذكرهم، وقد كررها أكثر من مرة، وفي أكثر من مجلس(١)، حيث كان

= أصابهم وذلك فيما أخرجه البزار والطبراني بإسناد حسن عن النعمان بن بشير أنه سمع النبي ـ ﷺ ـ يذكر الرقيم قال: «انطلق ثلاثة فكانوا في كهف فوقع الجبل على باب الكهف فأوصد عليهم» فذكر الحديث. .

(١) لقد وردت هذه القصة بأكثر من رواية وعن طريق أكثر من راو، وفي أكثر من عرض، مما نحس معه ببعض الاختلاف الشكلي، الذي ربما تصرّف فيه الرسول ـ ﷺ ـ مرة عن مرة، دون اختلاف في الجوهر أو المدلول الذي تهدف إليه القصة. [انظر القصة في الحديث النبوي ص ٦٨، ٦٩]. وقد أخرج حديث أصحاب الغار: البخاري (٢٢١٥) في البيوع، عن يعقوب بن إبراهيم، ومسلم (٢٧٤٣) في الذكر: باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، عن إسحاق بن منصور وعبد بن حميد، وابن حبان في صحيحه (الإحسان ٨٩٧)، ثلاثتهم عن أبي عاصم، بنفس الإسناد.

وأخرجه البخاري (٢٣٣٣) في الحرث والمزارعة، عن إبراهيم بن المنذر، ومسلم (٢٧٤٣) في الذكر والدعاء، عن محمد بن إسحاق المسيبي، كلاهما عن أبي ضمرة أنس بن عياض، عن موسى بن عقبة، به.

وأخرجه البخاري (٣٤٦٥) في أحاديث الأنبياء: باب حديث الغار، و(٥٩٧٤) في الأدب: باب إجابة دعاء مَن بَرَّ والديه، والبغوي في «شرح السنّة» (٣٤٢٠) من طريقين عن نافع به.

وأخرجه أحمد في «المسند»، والبخاري (٢٢٧٢) في الإجارة، ومسلم (٢٧٤٣)، من طريقين عن سالم، عن ابن عمر به.

وعن النعمان بن بشير عند أحمد في «المسند»، والبزار (٣١٧٨) و(٣١٧٩) و(٣١٨٠)، أورده الهيثمي في «المجمع» ٨/١٤٢، وقال: رواه أحمد والطبراني في «الأوسط» و«الكبير» والبزار بنحوه من طرق، ورجال أحمد ثقات. ثم أورد الهيثمي رواية أخرى عن النعمان بن بشير من ثلاثة أوجه حسان، أحدها عند البزار وأحمد، وكلها عند الطبراني.

وعن أنس عند أحمد في «المسند»، والبزار (١٨٦٨)، والطبراني في الدعاء، قال الهيثمي: رواه أحمد مرفوعاً، ورواه أبو يعلى، وكلاهما رجاله رجال الصحيح. «المجمع» ٨/١٤٠. ولم يعزه إلى البزار.

وعن علي عند البزار (١٨٦٧)، أورده الهيثمي، وقال: رجاله ثقات.

قال الحافظ: وعن عقبة بن عامر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وابن أبي أوفى، بأسانيد ضعيفة، وقد استوعب طرقه أبو عوانة في «صحيحه» والطبراني في الدعاء. انظر «الفتح» ٦/٥١٠ ـ ٥١١.

وعن أبي هريرة عند ابن حبان في صحيحه (الإحسان ٩٧١) بإسناد حسن، والبزار (١٨٦٩)، وأورده الهيثمي في «المجمع» ٨/١٤٢، ١٤٣ وقال: رواه البزار والطبراني في =

يحرص ـ ﷺ ـ على تقرير ما تهدف إليه القصة من غايات وما تتحدث عنه من موضوعات. .

يقول الرسول ـ ﷺ ـ: «مَن استطاع منكم أن يكون مثل صاحب فرق الأرز فليكن مثله! قالوا: يا رسول الله، وما صاحب فرق الأرز؟ قال: خرج ثلاثة فغيمت عليهم السماء. .»[(١)].

وفي رواية «بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم ـ من بني إسرائيل[(٢)] ـ يمشون إذ أصابهم مطر فأَوَوا إلى غار فانطبق عليهم» وفي رواية: «حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم» وفي رواية: «إنه والله يا هؤلاء، لا ينجيكم إلا الصدق فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صَدَق فيه».

قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنتُ لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً. فنأى بي طلب الشَّجر يوماً فلم أُرِح[(٣)] عليهما حتى ناما فحلبتُ لهما غَبُوقَهما، فوجدتُهما نائمين، فكرهتُ أن أوقظهما، وأن أغْبِقَ قبلهما أهلاً أو مالاً[(٤)]، فلبثتُ ـ والقدحُ على يدي ـ أنتظر استيقاظهما حتى بَرَق الفجر، والصبية يتضاغون عند قدمي ـ فاستيقظا فشربا غَبُوقَهما. اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فَفَرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه.

= «الأوسط» بأسانيد، ورجال البزار وأحد أسانيد الطبراني رجالها رجال الصحيح [الإحسان هامش حديث رقم ٨٩٧ و ٩٧١].

(١) المسند (شاكر) ٨/١٧٨ ـ ١٨٠.

(٢) في حديث عقبة بن عامر عند الطبراني في الدعاء. وقد ذكر الإمام البخاري حديث أصحاب الغار في أحاديث الأنبياء في باب ما ذُكر عن بني إسرائيل. انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/٣٨٥ ـ ٣٩٤.

(٣) أي: أرجع.

(٤) «ولا مالاً» أي من رقيق وخادم.

قال الآخر: «اللهم إنه كانت لي ابنةُ عَمٍّ كانت أحبَّ الناس إليَّ» وفي رواية «كنتُ أُحبُّها كأشدِّ ما يحبُّ الرجال النساء، فأَردتُها على نفسها فامتنعت مِني حتى أَلَمَّت بها سَنَة من السنين[1]، فجاءتني، فأعطيتُها عشرين ومئة دينار على أن تُخَلّي بيني وبين نفسها فَفَعلت، حتى إذا قدرتُ عليها» وفي رواية «فلما قعدتُ بين رِجْلَيْها، قالت: اتقِ الله ولا تفُضَّ الخاتم إلا بحقه. فانصرفتُ عنها، وهي أحبُّ الناس إليّ، وتركتُ الذهب الذي أعطيتُها، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافْرُج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أَنَّهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم استأجرتُ أُجراء وأعطيتُهم أجرهم غيرَ رجل واحد ترك الذي له وذهب، فَثَمَّرتُ أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أَدِّ إليَّ أجري، فقلتُ: كلُّ ما ترى من أجرك: من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبد الله لا تستهزىء بي! فقلتُ: لا أستهزىء بك، فأخذه كُلَّهُ فاستاقه فلم يترك منه شيئاً، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»[2].

وفي رواية «فقال واحد منهم: اللهم إن كنتَ تعلم أنه كان لي أجير عَمِلَ لي على فَرَق[3] من أُرز[4] فذهب

---

(١) السَّنَة: الجَدْب، يقال: أخذتهم السَّنَةُ إذا أجدبوا وأقحطوا.

(٢) متفق عليه، انظر البخاري (٢٧٣٣)، (٣٤٦٥) و(٥٩٧٤) و(٢٢٧٢)، (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٣) قوله: «على فَرَق»: بفتح الفاء والراء، بعدها قاف، وقد تسكن الراء، والفتح أجود وأشهر، وهو مكيال يسع ثلاثة آصع.

(٤) قوله: «من أُرز» قال ابن حجر: «فيه ست لغات: فتح الألف وضمها مع ضم الراء، وبضم الألف مع سكون الراء وتشديد الزاي وتخفيفها».

وقد ذكر البخاري هذا الحديث في المزارعة أنه فَرَق ذرة.. وقدّم ابن حجر بياناً للجمع بين الروايتين فذكر أنه يجمع بينهما بأن الفرق كان من الصنفين وأنه لما كانا حبين متقاربين أطلق أحدهما على الآخر. ثم قال: «ويحتمل أنه استأجر أكثر من واحد وكان بعضهم بفرق ذرة وبعضهم بفرق أرز، يؤيد ذلك أنه وقع في رواية سالم «استأجرت أجراء =

وتركه[١]، وأني عمدتُ إلى ذلك الفَرَق فزرعته، فصار من أمـره أني اشتريتُ منه بقراً، وأنه أتاني يطلب أجره، فقلتُ: اعمد إلى تلك البقر فَسُقْها، فقال لي: إنمـا لي عندك فَـرَق من أرز، فقلتُ له: اعمـد إلى تلك البقـر فـإنها من ذلـك الفَرَق، فسـاقَها، فـإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك من خشيتـك فَفَـرِّج عنا، فانساحت عنهم الصخرة».

صُوَر من أعماق الفطرة الإنسانية:

يسبق القصة مطلع يحفل بعنصر تشويقي يحفـز المستمع إلى الاهتـمام بمتابعة القصة والحرص على معرفتها. يقول الرسول ـ ﷺ ـ: «مَن استـطاع منكم أن يكون مثل صاحب فرق الأرز فليكن مثله! قالوا: يا رسول الله، وما صاحب فرق الأرز؟ قال: «خرج ثلاثة فَغيَّمت عليهم السماء. . ».

= فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب»، وفي حديث النعمان بن بشير نحوه، ووقع في حديث عبد الله بن أبي أوفى عند الطبراني في الدعاء «استأجرتُ قوماً كل واحد منهم بنصف درهم، فلما فرغوا أعطيتهم أجورهم، فقال أحدهم: والله لقد عملت عمل اثنين والله لا آخذ إلا درهماً، فذهب وتركـه، فبذرت من ذلـك النصف درهم. . » إلى آخره. ويجمع بينهما بأن الفرق المذكور كان قيمته نصف درهم إذ ذاك فتح الباري ٦/٣٩٥.

(١) قوله: «فذهب وتركه» في رواية موسى بن عقبة «فأعطيته فأبى ذاك أن يأخذ»، وفي رواية للبخاري في المزارعة: «فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضتُ عليه حقّه فرغب عنه»، وفي حديث أبي هريرة: «فعمل لي نصف النهار فأعطيته أجراً فسخطه ولم يأخذه».

ووقع في حديث النعمان بن بشير بيان السبب في ترك الرجل أجرته ولفظه: «كان لي أجراء يعملون فجاءني عمّال فاستأجرت كل رجل منهم بأجر معلوم فجاء رجل ذات يـوم نصف النهار فاستأجرته بشرط أصحابه، فعمل في نصف نهاره كما عمل رجل منهم في نهاره كله، فرأيتُ علي في الذمام أن لا أنقصه مما استأجرت به أصحابه لما جهد في عمله، فقال رجل منهم تعطي هذا مثل ما أعطيتني، فقلت: يا عبد الله لم أبخسك شيئاً من شرطك، وإنما هو مالي أحكم فيه بما شئت، قال: فغضب، وذهب وترك أجره».

وأما ما وقع في حديث أنس: «فأتاني يطلب أجره، وأنا غضبان، فزبرته، فانـطلق وترك أجره» فلا ينافي ذلك، وطريق الجمع: أن الأجير لما حَسَد الذي عُمِلَ نصف النهار، وعاتب المستأجر، غضب منه، وقال له: «لم أبخسك شيئاً. إلى آخره، وزبره، فغضب الأجير وذهب». ووقع في حديث علي: «وترك واحد منهم أجره، وزعم أن أجره أكثر من أجور أصحابه». فتح الباري ٦/٣٩٥.

قبل أن يشرع الرسول ـ ﷺ ـ في سرد القصة على أصحابه، يقدم تمهيداً مُشوقاً، يجعل السامعين أكثر انتباهاً وتطلعاً لسماع القصة، كما أنه يفتح القلوب للتدبُّر والتعمق لما ترمي وتهدف إليه القصة، فيكون هذا التمهيد رمزاً ومَثَلاً، فهو يَحُثُّهم على أن يكونوا مثل صاحب فَرَق الأُرْز! ولكن صاحب فَرَق الأرز هذا مجهول لهم، وهم لا يعرفون عنه شيئاً، «قالوا: يا رسول الله، وما صاحب فَرَق الأُرْزِ؟».

إنه ليموج في نفوسهم وعقولهم شدة الاهتمام لمعرفة الخَبَر؛ فحبّ الاستطلاع والمعرفة يدفعهم للتعرف إلى هذا الصاحب، ومن ناحية أخرى، فلا بد أنه ذو شأن عجيب وأمر غريب، وإلا لما نصحهم الرسول ـ ﷺ ـ بأن يكونوا مثله، ثم إنهم قبل ذلك كله وبعده حريصون على معرفته، لأنهم حريصون على الاستجابة لنداء الرسول ـ ﷺ ـ وتوجيهه؛ ولذلك بادروا بالسؤال الذي يُعَبِّر عن اهتمامهم وتشوّقهم لسماع قصة صاحب فَرَق الأُرز، حين قالوا: «يا رسول الله، وما صاحب فَرَق الأُرْز؟»[1].

إن تلك المقدمة التمهيدية للقصة، لا تُعتبر في الواقع بداية حقيقية للقصة، وإنما هي مَعبر، بما تقوم به من إشاعة الجو المناسب، وتهيئة النفوس، والشوق الشديد لمعرفة أحداث القصة، فتنشأ علاقة طيبة، لكنها مثيرة الأحاسيس، بين المتلقي والقصة، بسبب ما تثيره تلك المقدمة في نفس السامع، أو القارىء من أحاسيس وتطلعات وأشواق، ولكن البداية الحقيقية للقصة نجدها في بداية الأحداث التي تتفرع عنها تفاصيل القصة، وتنمو منها أجزاؤها، وتمثل المرحلة الأولى في هيكل القصة العام[2].

وفي هذا الجو الذي أشاعته المقدمة التمهيدية، حيث تَنَبَّهت الحواس كلها، وتَفَتَّحت البصيرة والعقل، راح الرسول ـ ﷺ ـ يسرد عليهم القصة . .

---

(١) القَصص في الحديث النبوي: ١١٨ .

(٢) المصدر السابق: ١٢٤ .

تبدأ القصة بالتركيز على عرض الظروف والملابسات، التي تشارك في صنع الأحداث، أو في توجيهها وجهة معينة، فتجعل السامع أو القارىء يحسّ أنه أمام لوحة شاخصة ومعبّرة تأخذ بالقلب والحواس كلها لتسير به في شوق مُمتع مع حوادث القصة. فهو ـ ﷺ ـ يقول: «خرج ثلاثة فيمن كان قبلكم يرتادون لأهلهم، فأصابتهم السماء، فلجؤوا إلى جبل، فوقعت عليهم صخرة..»(١). وفي رواية: «بينما ثلاثة نَفَر يتمَشّون أخذهم المطر فَأووا إلى غار في جبل، فانحطت على فَمِ غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم..»(٢). وفي رواية: «.. خرج ثلاثة، فغيمت عليهم السماء، فدخلوا غاراً، فجاءت صخرة من أعلى الجبل حتى طبقت الباب عليهم..»(٣).

هؤلاء الثلاثة الذين خرجوا يبحثون لأهلهم عن مواطن للماء والعشب، نجدهم يلجأون إلى غار بسبب ما واجههم من انتشار الغيوم الثقيلة في السماء، وما أخذهم من المطر الغزير، فهذا الظرف غير المناسب هو الذي دفعهم إلى الغار الذي انطبقت عليهم فيه صخرة لتسدّ الباب، وليواجهوا بالتالي مصيراً مجهولاً(٤).

ونحن أمام البيان النبوي الرائع بحيث نحسّ أن الأحداث تتتابع على أساس من قانون الأسباب والنتائج، فالقصة تصرح بالمبرر الذي جعل الثلاثة يدخلون الغار الذي انسدّ عليهم فيما بعد، وهو أنهم خرجوا فانتشرت في السماء غيوم داكنة، وبدأ المطر بالنزول، فكان لا بد لهم من أن يلجأوا إلى غار يحتمون به من الماء..

وقد يسأل سائل، فما الذي أغلق عليهم الغار؟ ما سببه؟.

الواقع أن القصة لا تصرح بالسبب الذي أدّى إلى أن ينغلق عليهم الغار

---

(١) ابن حبان في صحيحه. انظر إلى الإحسان رقم (٩٧١).
(٢) صحيح مسلم.
(٣) المسند (شاكر) ١٧٨/٨ (٥٩٧٣).
(٤) القصص في الحديث النبوي: ١٢٥.

بالصخرة، ولكنها في الوقت نفسه، تدلنا بطريق غير مباشرة على السبب الذي أدّى إلى ذلك، وهو أنه كان بسبب المطر الذي انهمر بشدة، كما نفهم ذلك، من لجوئهم إلى الغار أساساً احتماءً به من المطر، فتغييم السماء ونزول المطر هو الذي ألجأهم إلى الغار، ومن الأشياء المعهودة أن مياه الأمطار الغزيرة المنجرفة من أعالي الجبال تدفع أمامها الصخور الكبيرة التي يمكن أن تسدّ المسالك الصغيرة وأفواه بعض الكهوف، وهذا ما يشاهد كثيراً في المناطق الجبلية والأودية القريبة منها.

لقد تركت القصة للخيال أن يأخذ تصوره، فيرسم حركة رَعِيدة، وانجراف رهيب، وسيول جارفة تحمل صخرة عظيمة فتسدّ الباب(١).

وتنشأ المشكلة منذ بداية القصة، فما يكاد الثلاثة يدخلون الغار حتى تَنْهَدّ عليهم صخرة عظيمة تسد الباب: «إن ثلاثة كانوا في كهف فوقع الجبل على باب الكهف فأوصد عليهم، قال قائل منهم: تذاكروا أيكم عمل حسنة لعل الله عز وجل برحمته يرحمنا»(٢)..

ولا شك أنهم حاولوا إزاحة الصخرة خوفاً من المستقبل الرهيب الذي يتهددهم في هذا الغار المصمت، وقد أطبق عليهم الظلام، وعبثاً حاولوا، وإنهم ليقضون حيارى يَلفّهم غموض النهاية، ويُخيم عليهم هَمٌّ قاتل، وفي ذَروة شُعورهم بالمأساة يتذكرون القوة الإلٰهية الواحدة التي يمكن أن تُنقذهم مما هم فيه فيتوجهون إلى الله بالدعاء. «خرج ثلاثة فيمن كان قبلكم.. فلجؤوا إلى جبل، فوقعت عليهم صخرة، فقال بعضهم، عَفَا الأثر، وَوَقع الحجر، ولا يعلم مكانكم إلا الله، ادعوا الله بأوثق أعمالكم»(٣).. وفي رواية: «فقال

---

(١) القصص في الحديث النبوي ١٩٠ ـ ١٩١.
(٢) المسند (شاكر) ٨/١٧٨ ـ ١٨٠.
(٣) الإحسان في صحيح ابن حبان رقم ٩٧١.

بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عَمِلْتُموها صالحةً للّه فادعوا الله تعالى بها، لعَلَّ الله يَفرجُها عنكم»[١]. .

وتصور القصة أعماق الوجدان الإنساني في لحظات الكرِبة والضيق، ترسم الهول الملفوف يزلزل القلب الملهوف للنجاة.. ولكن أنَّى ذلك؟! وقد «عَفَا الأثر، ووقع الحجر، ولا يعلم مكانكم إلا الله، ادعوا الله بأوثق أعمالكم». .

إنها صورة في خوالج النفس البشرية، تصور وقفة هؤلاء الثلاثة وقد أطبق عليهم الحجر العظيم، تصور توقُّف التيار الدافع لمعنى الحياة كما توقف الصخرة أَمَلَ النجاة. تصور ضيق الشدة في النفوس، وموت كل رجاء في القلوب إلا من الله وحده.

إن فطرة الإنسان تبرز عارية حين يمسّه الضر؛ ويسقط عنها الركام؛ وتزول عنها الحجب، فتتجه إلى ربها، وتنيب إليه وحده؛ وهي تدرك أنه لا يكشف الضرّ غيره ﴿**أَمَّن يُجيب المضطرَّ إذا دعاه ويكشف السوء**﴾ [النمل: ٦٢]. .

إن الضرّ يسقط عن الفطرة كل ركام فلا ترى إلا الله، وتتجه إليه وحده، فالمضطر في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء ذلك حين تضيق الحلقة، وتشتد الخنقة، وتغيب القوى، فلا ينفع شيء؛ وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجرداً من أسباب النجاة والخلاص.. ها هم أولاء في الغار، وقد أحكمت الصخرة عليهم الخناق، وقد عفا على آثارهم المطر الغزير، فلا يعلم بمكانهم وحالهم إلا الله وحده. .

في هذه اللحظة لم تجد الفطرة الإنسانية إلا القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، واتجه الثلاثة إلى الله، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، هو

---

(١) صحيح مسلم.

وحده دون سواه، يجيبه ويكشف عنه السوء، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق. . «فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا يُنْجيكم إلا الصدق فَلْيَدْعُ كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صَدَق فيه. . . »[(١)].

إن البيان النبوي يتجلى في روعته حين يكشف عن طبيعة النفس الإنسانية حين تواجه الخطر، فهذه مشكلة حيوية بما تحويه من عنصر «درامي» يتجلى في هذا الموقف، التي تثير في نفس أصحاب الغار في القصة صراعاً يؤدي إلى تفكير معين، فالموقف الذي أوجد المشكلة التي نلحظها هنا، ذلك الخطر الداهم الذي واجَه الثلاثة حين انسدّ عليهم الغار بالصخْرة من الجبل، فإذا بهم يتحاورون في هذه المشكلة الداهمة التي أغلقت كل المنافذ، وقطعت كل السُبل، وينتهي بهم الأمر ـ كما تقدم ـ إلى أنه لا مَخرج لهم إلا أن يتجهوا إلى الله بالدعاء بصالح أعمالهم[(٢)].

والدعاء مخ العبادة، وهو الصلة بين العبد وخالقه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله عز وجل يقول: أنا عند ظن عبدي[(٣)] بي، وأنا معه إذا دعاني»[(٤)].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾»[(٥)].

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) وقد تعرّض الإمام النووي لهذا فقال في كتاب «الأذكار» باب دعاء الإنسان وتوسله بصالح عمله إلى الله تعالى، وذكر هذا الحديث.

(٣) قال القاضي: قيل معناه بالغفران له إذا استغفر، والقبول إذا تاب، والإجابة إذا دعا، والكفاية إذا طلب الكفاية؛ وقيل المراد به الرجاء. . ، وهذا أصح اهـ (شرح النووي ص ٢ ج ١٧).

(٤) رواه البخاري ومسلم واللفظ له والترمذي، والنسائي وابن ماجه.

(٥) رواه أبو داود والترمذي واللفظ له، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال صحيح الإسناد.

والإسلام يحث على الرجاء إلى الله عز وجل والتضرّع إليه سبحانه، والدعاء بين يديه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تَعْجِزُوا في الدعاء، فإنه لن يَهْلِكَ مع الدعاء أحد»(١).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يردّ القَدَر إلا الدعاء(٢)، ولا يزيد في العمر إلا البرّ، وإن الرجل لَيُحْرَمُ الرزق بالذَّنب يُذْنِبه»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يُغني حَذَرٌ من قَدَر(٤)، والدعاء يَنفعُ مما نَزَل ومما لم يَنْزِل، وإن البلاء لَيَنْزِلُ فيَلْقَاهُ الدعاء فَيَعْتَلِجَان إلى يوم القيامة»(٥).

يعتلجان: أي يتصارعان ويتدافعان.

وعن سلمان الفارسيّ رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا يَرُدُّ القَضَاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البِرُّ»(٦).

وبعد، نعود إلى الثلاثة في الغار وقد سدّت الصخرةُ بابَه، وطواهم الظلامُ في طياته، وقد أطبق عليهم الهول بسكونه، وتسلَّل الرعب إلى قلوبهم بجنونه. .

وفي هذا المشهد المعتم المظلم ترسم القصة الخطر يغشاهم، وقد تعرَّت

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٢) معناه التضرع إلى الله يدعو إلى رحمته سبحانه فيخفف في قضائه، ويكشف البلاء، ويرفع الشدة، ويزيح العسر والضيق.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم، واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد.

(٤) لا ينفع الاحتياط واليقظة في منع ما أراده الله: أي الإنسان عرضة لكل شيء قدره سبحانه، والتضرع إلى الله جل وعلا يخفف وطأة المصاب، ويزيل من شدة وقعه المز فيلطف الله في قدره.

(٥) رواه البزار والطبراني والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٦) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

نفوسهم، فَهبَّت الفطرة إلى خالقها، واتجهت القلوب إلى بارئها، وإذا بنور وضيء يأخذ مكانه في أرواحهم، فيتحرك الأمل الخاشع تقوده خشية الله وتقواه «فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عَمِلْتُموها صالحة للّه، فادعوا الله تعالى بها، لَعلَّ الله يَفْرُجها عنكم». .

ووقف الثلاثة واحداً إثر واحد، وقفوا بين يدي الله رب العالمين، وقفوا في ابتهال داعين متوسلين، وأفئدتهم راجفة، طامعة راجية، وقفوا في إخلاص وَوَجل، بقلب حاضر وعمل خالص، وقفوا يدعون الله بِحسّ متوفز، وقلب مستيقظ، وضمير مستنير.

وإن المشهد لترسمه القصة في روعة باهرة ساكنة، ترسم هيئتهم الجسدية ومشاعرهم القلبية في لمحة واحدة: وجوههم باسرة، وأبصارهم خاشعة، ونفوسهم خاوية، وقلوبهم من فضل الله راجية خائفة. .

ها هم أولاء يقفون في الغار الصامت، وقد توجهوا إلى الله في خشية وطمع ورجاء، الرجاء في رحمته أن يستجيب دعاءهم ويُنجيهم من الضرّ والغم، ويُفرج عنهم مما هم فيه. .

ولنمضِ مع واحد واحد نصغي بقلوب مفتوحة وأرواح شفيفة وضيئة:

١ ـ ظلال الحب الرقيقة:

أقام الإسلام نظام الأسرة على أساس ثابت متين ودقيق مستمد من الواقع. وهو في الوقت ذاته يقيم بناء المجتمع لتسود فيه الحسنى والمعروف الجميل، وتنبع في ربوعه المشاعر الودودة الطيبة.

تعرض القصة النبوية صفحة للأسرة الربانية، الأسرة المتحابة الطيبة التي تفيض بالحنان والبر والإحسان، ولنستمع إلى هذه القصة لعل الرحمة تفيض على القلوب فترفع الحياة الإنسانية إلى ما أراده الله لها، وتعيش القلوب على قبس من نور، وتتصل الأرواح بروح الله في حكاية واحد من الثلاثة أصحاب الغار:

«فقال رجل منهم: اللهمَّ كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنتُ لا أَغْبُقُ قَبلهما أهلاً ولا مالاً[(١)]، فنأى[(٢)] بِي طَلَبُ شجَرٍ يوماً فلم أَرُح[(٣)] عليهما حتى ناما، فحلبتُ لهما غَبُوقهما، فوجدتُهما نائمين، فكرهتُ أن أَغْبُقَ قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدحُ على يَدي، أنتظرُ استيقاظهما حتى بَرِق[(٤)] الفجرُ، زاد بعض الرواة (والصبية يتضاغون عند قدمي) فاستيقظا فشربا غَبُوقهما، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلكَ ابتغاء وجهكَ، فَفَرِّج عَنَّا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت[(٥)] شيئاً لا يستطيعون الخروج منها..»[(٦)].

وفي رواية: «اللهمَّ إنه كان لي والدان شيخان كبيران وامرأتي ولِي صِبْيَةٌ صغار أرعى عليهم، فإذا أرحتُ عليهم حَلَبْتُ[(٧)] فبدأتُ بوالديّ فَسَقَيْتُهما قبل بَنيّ، وأنه نأى بِي ذات يوم الشجر[(٨)] فلم آتِ حتى أمسيتُ، فوجدتُهما قد ناما، فحلبتُ كما كنتُ أحلبُ، فجئت بالحِلاب[(٩)] فقمتُ عند رؤوسهما أكرهُ أن أوقِظهما من نَومهما، وأكرهُ أن أسقي الصِّبْيَة قبلَهما، والصِّبيةُ يتضاغَون[(١٠)] عند

---

(١) الغبوق: بفتح الغين المعجمة: هو الذي يشرب بالعشي؛ ومعناه كنتُ لا أُقدِّم عليهما في شرب اللبن أهلاً ولا غيرهم.

(٢) بَعُد.

(٣) أذهب إليهما، أو أرح بضم الهمزة وكسر الراء، وهو مأخوذ من أرحت الإبل أي رددتها إلى مأواها بالليل، وليس مأخوذاً من راح إذا ذهب.

(٤) تلألأ وأضاء.

(٥) انفرجت.

(٦) البخاري ومسلم.

(٧) معناه إذا رددت الماشية من المرعى إليهم وإلى موضع مبيتها وهو مراحها بضم الميم (شرح النووي ١٧/٥٥).

(٨) وفي بعض النسخ ناء بي. فالأول يجعل الهمزة قبل الألف وبه قرأ أكثر القراء السبعة والثاني عكسه، وهما لغتان وقراءتان، ومعناه بُعد، والثاني: البعد.

(٩) بكسر الحاء وهو الإناء الذي يحلب فيه يسع حلبة ناقة. قال القاضي: وقد يريد بالحلاب هنا اللبن المحلوب.

(١٠) أي يصيحون ويستغيثون باكين من الجوع.

قدميّ، فلم يزل ذلك دأبي[1] ودأبهم حتى طَلَع الفجر. فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وَجْهك فافرج لنا منها فُرْجَة نرى منها السماء، فَفَرج الله منها فُرجة فرأوا منها السماء».

حرص الإسلام على أن يضمِّن القصة كثيراً من القيم الإسلامية في السلوك مع الجماعة وفي معاملة الوالدين، وتعرض القصة الإبن البار، حيث ظلّ ساهراً واقفاً بإناء اللَّبن، لا يسمح لنفسه ولا لأولاده الذين يتضاغون حوله بالشرب من اللبن قبل أن يشرب والداه اللذان لا يريد أن يوقظهما، وظلّ كذلك حتى أيقظهما الصبح.

وفي هذه القصة فضل بر الوالدين، وفضل خدمتهما، وإيثارهما عمن سواهما من الأولاد والزوجة وغيرهم..

لقد شدّد الإسلام على أهمية بر الوالدين في تحقيق مرضاة الله تعالى وسعادة الدارين، وربط التقرب إلى الله ببرهما، واعتبر ذلك أساس كل فضيلة وباب كل خير وسعادة..

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى عبادة الله وحده مقرونة بالإحسان إلى الوالدين:

﴿وقضى ربُّك ألَّا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغنَّ عندكَ الكِبَر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تَنْهَرهُما وقل لهما قولاً كريماً. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما رَبَّياني صغيراً﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]..

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملتهُ أُمُّه وَهْناً على وَهْن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير﴾ [لقمان: ١٤].

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾ [النساء: ٣٦].

---

(١) أي حالي اللازمة.

﴿لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً﴾ [البقرة: ٨٣].

﴿قل: تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم ألّا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾ [الأنعام: ١٥١].

إن التشريعات والتوجيهات ـ في منهج الله ـ إنما تنبثق كلها من أصل واحد، وترتكز على ركيزة واحدة. إنها تنبثق من العقيدة في الله، وترتكز على التوحيد المطلق سمة هذه العقيدة.. ومن ثم يتصل بعضها ببعض، ويتناسق بعضها مع بعض، ويصعب فصل جزئية منها عن جزئية، وتصبح دراسة أي منها ناقصة بدون الرجوع إلى أصلها الكبير الذي تلتقي عنده؛ ويصبح العمل ببعضها دون البعض الآخر غير واف بتحقيق صفة الإسلام؛ كما أنه غير واف بتحقيق ثمار المنهج الإسلامي في الحياة.

من العقيدة في الله تنبع كل التصورات الأساسية للعلاقات الإنسانية. تلك التصورات التي تكيف ضمير الفرد وواقع المجتمع؛ والتي تجعل المعاملات عبادات ـ بما فيها من اتباع لمنهج الله ومراقبة الله ـ والعبادات قاعدة للمعاملات ـ بما فيها من تطهير للضمير والسلوك ـ والتي تحيل الحياة في النهاية وحدة متماسكة؛ تنبثق من المنهج الرباني، وتتلقى منه وحده دون سواه، وتجعل مردها في الدنيا والآخرة إلى الله.

هذه السمة الأساسية في العقيدة الإسلامية، وفي المنهج الإسلامي، وفي دين الله تبرز آيات الإحسان إلى الوالدين بعبادة الله وتوحيده، وينطلق التشريع الإسلامي بالإحسان إلى الوالدين. ومعظم الأوامر تتجه إلى توصية الذرية بالوالدين ـ وإن كانت لم تغفل توجيه الوالدين إلى الذرية، فقد كان الله أرحم بالذراري من آبائهم وأمهاتهم في كل حال. والذرية بصفة خاصة أحوج إلى توجيهها للبر بالوالدين. بالجيل المدبر المولي. إذ الأولاد ـ في الغالب ـ يتوجهون بكينونتهم كلها، وبعواطفهم ومشاعرهم واهتماماتهم إلى الجيل الذي يخلفهم، لا الجيل الذي خلفهم! وبينما هم مدفوعون في تيار الحياة إلى الأمام، غافلون عن التلفت إلى الوراء، تجيئهم هذه التوجيهات من الرحمن الرحيم، الذي لا

يترك والداً ولا مولوداً، والذي لا ينسى ذرية ولا والِدَيْن، والذي يُعلِّم عباده الرحمة بعضهم ببعض..

ومن هدي القرآن كان التوجيه النبوي إلى الإحسان بالوالدين والبر لهما، واعتبار ذلك من أعظم الأعمال وأحبها إلى الله سبحانه.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله - ﷺ - أيُّ العَمل أحبُّ إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها. قلتُ: ثم أي؟ قال: بِرُّ الوالدين. قلتُ: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله»[1] .

وهكذا تتناول القصة جانب هام من الأمور الاجتماعية يتصل بأمور العقيدة التي يحرص الإسلام على تأكيدها في فكر الناس، وعلى تعميقها في الوجدان الإنساني.

إن برّ الوالدين والإحسان لهما، هي أهم قضية من أمور العقيدة والمعاملة والسلوك الإنساني بعد التوحيد، وتحرص القصة على إبراز أهمية هذه القضية، وتربي ذلك في عقل المسلم، وفي ضميره أن برّ الوالدين هو أعظم الأعمال في الأرض بعد توحيد الله سبحانه، وقد حرصتْ على التأكيد على هذا السلوك الأخلاقي في موقف الإبن البار في قوله: «فجئتُ بالحِلاب فقمتُ عند رؤوسهما أَكره أن أُوقظهما من نَومهما...»..

والتشريع الإسلامي بعد أن يضع القاعدة ويقيم الأساس بتوحيد المعبود يأتي التكليف.. فالرابطة الأولى بعد رابطة العقيدة، هي رابطة الأسرة ومن ثم يربط القرآن برّ الوالدين[2] بعبادة الله، إعلاناً لقيمة هذا البر عند الله.

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد، إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات. وكما تمتص النبتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات،

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) طاعتهما.

ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر؛ كذلك يمتص الأولاد رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هم شيخوخة فانية(١) ـ إن أمهلهما الأجل ـ وهما مع ذلك سعيدان!

فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله، ويندفعون بدورهم إلى الأمام. إلى الزوجات والذرية.. وهكذا تندفع الحياة. ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء. إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف!

وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً**﴾.

ومن ثم يأتي التوجيه النبوي الذي هو وَحيٌ من الله: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: جاء رجلٌ إلى نبيّ الله ـ ﷺ ـ فاستأذَنَهُ في الجهاد فقال: «أحيٌّ والداك؟ قال: نعم. قال: فيهما فجاهد»(٢).

وفي رواية لمسلم قال: أقبلَ رجلٌ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «أُبايِعُكَ على الهجرة والجهاد أبتغي الأجرَ من الله. قال: فهل من وَالِدَيْك أحدٌ حيّ؟ قال: نعم. بل كلاهُما حيّ. قال: فتبتغي(٣) الأجرَ من الله؟ قال: نعم. قال: فارجع إلى والديك، فأحسن صُحْبَتَهُما».

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رجلاً من أهل اليمن هاجرَ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: هل لك أَحَدٌ باليمن؟ قال: أبواي. قال: أَذِنَا لك؟

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يجزي وَلَدٌ والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه» رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، ومعنى مملوكاً: أي عبداً ملكه الغير.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي. ومعنى «فيهما فجاهد»: أي أكرمهما محبة، وبرهما، وانقاد لأوامرهما، ابتغاء ثواب الله تعالى في الجهاد.

(٣) أي تطلب.

قـال: لا. قال: فـارجع إليهـما، فاستَـأْذِنْهُما، فإن أَذِنَـا لك فجـاهد، وإلا فَبِرَّهُما»(١).

بهذه العبارات الندية، والصور المضيئة الموحية يرسم الإسلام وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء. ذلك أن الحياة وهي مندفعة في طريقها بالأحياء، تُوجِّه اهتماماتهم القوية إلى الأمام. إلى الذرية. إلى الناشئة الجديدة. إلى الجيل المقبل. وقلما تُوجه اهتماماتهم إلى الوراء. إلى الأبوة. إلى الحياة المـولية. إلى الجيـل الذاهب! ومن ثم تحتـاج البنوة إلى استجـاشة وجـدانها لتنعطف إلى الخلف، وتتلفت إلى الآباء والأمهات.

والقصة ترسم البرّ في صورة مضيئة، فهو يُنجي من المخاوف والمهالك، وبه يُستجاب الدعاء.. فهاهو ذا البار المؤمن يدعو ربه ـ وقد أطبق عليه وعلى صاحبيه صخرة عظيمة سدَّت عليهم الغار ـ، ها هو ذا يتوسَّل إلى الله بهذا العمل الصالح: الفرج والخلاص والنجاة: «اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبـيران، وكنتُ لا أغبقُ قبلهما أهـلاً ولا مـالاً»... وذكـر صـورة من بـرِّه لوالديه.. ثم قال «فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء، ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء»..

وتتردد الوصية بالوالدين في التشريع الإسلامي والمنهج الرباني وخاصة في حالة الكبر والشيخوخة: **﴿إما يبلغن عندكَ الكِبَر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما. وقل لهما قولاً كريماً. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة. وقل ربِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيراً﴾**..

---

(١) أي أحسن إليهما بطاعتك. رواه أبو داود.

وعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: جئت أُبايعك على الهجرة، وتركتُ أبويَّ يبكيـان. فقال: «ارجـع إليهما، فـأضحكهما كـما أبكيتهما» أي أدخل السرور عليهما وأجلب لهما الفرح. رواه أبو داود.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ـ ﷺ ـ يستأذنه في الجهـاد، فقال: «أحيٌّ والداك؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد». رواه مسلم وأبو داود وغيره.

يأخذ الإسلام في تظليل الفكر الإنساني بظلال رقيقة.. تُذَكِّر الإنسان بطفولته الضعيفة، وتستجيش الوجدان ومشاعر العطف والحب والحنان تجاه الوالدين في شيخوختهما.. فالكِبَر له جلاله، وضعف الكبر له إيحاؤه فالولد قد امتص كل رحيق في روح وجسد والديه، فإذا هما في شيخوخة ضعيفة.. وكانت سُنَّة الحَق في الخَلق أن يَبرّ الولد بوالديه في كبرهما فهو الملجأ وعنده الحماية في حالة الضعف.. وله في ذلك الجزاء الكبير الأوفى، عن أنس رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله - ﷺ -، فقال: «إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه. قال: هل بقي من والديك أحد. قال: أمي. قال: قَابِل الله في برِّها، فإذا فعلتَ ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد»[١].

وعن معاوية بن جاهِمَة أن جاهمة جاء إلى النبي - ﷺ -، فقال: يا رسولَ الله أردتُ أن أغزو، وجئت أستشيرك؟ فقال: هل لَك من أُم؟ قال: نعم. قال: فالزمها، فإن الجنة عند رِجْلِها»[٢].

ورواه الطبراني بإسناد جيد، ولفظه قال: «أتيتُ النبي - ﷺ - أستشيره في الجهاد، فقال النبي - ﷺ -: «ألك والدان؟ قلتُ: نعم. قال: الزَمْهُما، فإن الجنة تحت أَرْجُلِهما».

وقد شرّع الإسلام آداب ومراتب من الرعاية والسلوك مع الوالدين، وأول هذه المراتب ألا ينِدّ من الولد ما يدلّ على الضجر والضيق، وما يشي بالإهانة وسوء الأدب ﴿**فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما**﴾، كما أمر الله سبحانه أن يكون كلام الولد مع والديه ما يشي بالإكرام والاحترام ﴿**وقُل لهما قولاً كريماً**﴾.. وهي مرتبة إيجابية عليا في السلوك الإسلامي.. ثم يشف التعبير القرآني ويلطف، ويبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان ﴿**واخفض لهما جناح**

---

(١) رواه أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط، وإسنادهما جيد، ميمون بن نجيح وثقه ابن حبان، وبقية رواته ثقات مشهورون.

(٢) كناية عن شدة إكرامها ورضاها، والتذلل لها قال تعالى: ﴿**واخفض لهما جناح الذل من الرحمة**﴾ رواه ابن ماجه والنسائي، واللفظ له والحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

الذل من الرحمة﴾. . فهي الرحمة ترقّ وتلطف حتى لكأنها الذل الذي لا يرفع عيناً، ولا يرفض أمراً. وكأنما للذل جناح يخفضه إيذاناً بالسلام والاستسلام.

ثم يتملى الإنسان الذكرى الحانية. ذكرى الطفولة الضعيفة يرعاها الوالدان، وهما اليوم، في مثلها من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان. . وبعد أن يتأدب الإبن بالسلوك الرباني مع والديه يتوجه إلى الله **﴿وقلْ ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾**. . التوجه إلى الله أن يرحمهما فرحمة الله أوسع، ورعاية الله أشمل، وجناب الله أرحب، وهو أقدر على جزائهما بما بذلا من دمهما وقلبهما مما لا يقدر على جزائه الأبناء. .

روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده ـ بإسناده ـ عن بريدة عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أُمَّه يطوف بها، فَسأَلَ النبي ـ ﷺ ـ هل أَدَّيت حقها؟ قال: «لا. ولا بزفرة واحدة». .

هكذا. . ولا بزفرة. . في حمل أو في وضع، وهي تحمله وَهْناً على وهن. .

لقد جاءت القصة النبوية والأحاديث الشريفة لتقتفي أثر القرآن الكريم، ولتشارك في التأكيد على العلاقة الإنسانية بين الوالد ووالديه، والإحسان لهما وطاعتهما، وذلك تعميقاً في إحساس المسلم، وتجسيداً له في موقف مهيب مروّع حين أطبق الخوف المميت على أفئدة أصحاب الغار حين أطبقت الصخرة عليهم. وكان البر بالوالدين من المواقف العظيمة التي تقبَّل الله من أصحابها هذا العمل الصالح فَنَفَّسَ الله عنهم كربتهم وفَرَّج عنهم مصيبتهم واستجاب دعاءهم. .

إن وشيجة الأبوة والبنوة هي أول وشيجة بعد وشيجة الإيمان في المكان والقوة والأهمية، لذلك كانت الوصية الدائمة للإحسان إلى الوالدين **﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً﴾**. .

فهي وصية لجنس الإنسان كله، قائمة على أساس إنسانيته، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى وراء كونه إنساناً. وهي وصية بالإحسان مطلقة من

كل شرط ومن كل قيد. فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى كذلك. وهي وصية صادرة من خالق الإنسان وربما كانت خاصة بهذا الجنس أيضاً. فما يعرف في عالم الطير أو الحيوان أو الحشرات وما إليها أن صغارها مكلفة برعاية كبارها. والمشاهد الملحوظ فقط تكليف فطرة هذه الخلائق أن ترعى كبارها صغارها في بعض الأجناس. فهي وصية ربما كانت خاصة بجنس الإنسان.

وهكذا نجد في التشريع الإسلامي تكرار توصية الولد بالوالدين.. فالوالدان قد بذلا لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال، في غير تأفف ولا شكوى، بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلان! بل في نشاط وفرح وسرور كأنهما هما اللذان يأخذان!

فالفطرة وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاة! فأما الوليد فهو في حاجة إلى الوصية المكررة ليلتفت إلى الجيل المضحي المدبر المولِّي الذاهب في أدبار الحياة، بعدما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة! وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوّض الوالدين بعض ما بذلاه، ولو وقف عمره عليهما..

والقصة النبوية تصور ذلك البر الصادق تجاه الوالدين اللذين قد بذلا تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدم بها الأبوة والأمومة، والتي لا يجزيها أبداً إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله ورسوله في الوالدين.. والقصة ترسم صورة حيَّة من صور الإحسان والبر تراها القلوب لتقتفي أثرها إحساناً وإرشاداً..

وفي ظلال تلك الصورة الحانية يؤكد الإسلام أن برّ الوالدين هو جماع الخير[1]، وبه تفرّج الكروب وتغفر الذنوب: عن ابن عمر رضي الله عنهما

(١) كذلك فإن عقوق الوالدين هو من أكبر الكبائر: عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فما زال =

= يُكرِّرها حتى قلنا: ليته سَكت» رواه البخاري ومسلم والترمذي.

لقد جمع الرسول في حديثه هذا أعظم الذنوب عند الله عز وجل لا تعدلها معصية ولا تساويها فاحشة، ولا ينفع معها عمل صالح، ولا فرض مُؤَدَّى، ولا نافلة مقربة. في الكبيرة سخط الله وغضبه! فما بالك بأكبر الكبائر؟ وتجتمع هذه الكبائر الثلاث حول محور الشيطان وهو نكران الحق. وغمطه: المشرك بالله ينكر وحدانية الله في وظائفه سبحانه وهي حق، والعاق ينكر فضل وإحسان والديه وهو حق، وشاهد الزور، يعين الظالم ليأكل أموال الناس وهي حق.

سُئل كعب الأحبار عن عقوق الوالدين ما هو؟ قال: إذا أقسم عليه أبوه أو أمه لم يبرّ قسمه، وإذا أمره بأمر لم يطعه، وإذا ائتمنه خانه. [الزواجر لابن حجر ج ٢: ص ٥٨]..

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ـ ﷺ ـ صعد المنبر فقال: «آمين. آمين. آمين» قيل: يا رسول الله، إنك حين صَعِدْتَ المنبر، قلت: آمين. آمين. آمين، قال: إن جبريل أتاني فقال: مَن أدرك شهرَ رمضان، ولم يُغفر له فدخل النار فأبعده الله قل آمين، فقلتُ: آمين، ومَن أدرك أبويه أو أحدهما، فلم يَبَرَّهما، فمات فدخل النار فأبعده الله. قل: آمين. فقلت: آمين. ومَن ذُكِرْتَ عنده، فلم يُصلِّ عليك فمات فدخل النار فأبعده الله. قل: آمين، فقلت: آمين» أخرجه ابن حبان بإسناد حسن، انظر تخريجه في الإحسان رقم ٩٠٧ و ٩٠٨. ورواه الطبراني عن جابر بن سَمُرة بأسانيد أحدها حسن انظر الترغيب والترهيب ٣١٨/٣.

وما برّ الولد أباه أو أمه مَن سدد إليهما الطرف بالغضب أو نظر إلى أحدهما نظرة شزر عند الغضب [انظر الأغاني ج ٣ ص ١٩١]..

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، والرَّجلة» رواه النسائي والبزار بإسناد جيد، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

والدِّيوث: بتشديد الياء هو الذي يقرّ أهله على الفاحشة، والرّجلة: بفتح الراء وكسر الجيم هي المترجلة المتشبهة بالرجال.

وعن عمرو بن مُرّة الجُهَني رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله شهدتُ أن لا إلّه إلا الله، وأنك رسول الله، وصلَّيتُ الخمس، وأدّيتُ زكاة مالي، وصمتُ رمضان، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «مَن مات على هذا كان مع النبيين والصِّديقين والشهداء يوم القيامة هكذا، ونَصَب أُصْبُعَيْه ما لم يَعُقّ والديه» رواه أحمد والطبراني بإسنادين أحدهما صحيح، ورواه ابن حبان، وابن خزيمة في صحيحهما باختصار.

ومعنى الحديث عظيم وجليل: فمَن حافظ على توحيد الله وإخلاص العمل له سبحانه مع العمل بسنّة رسول الله ـ ﷺ ـ مع أداء الصلاة في أوقاتها والزكاة والصيام، أدخله الله الجنة بجوار الأنبياء والأبرار المتقين والشهداء والصالحين، على شريطة أن يكون باراً بوالديه مطيعاً =

قال: أتى النبي - ﷺ - رجلٌ فقال: «إني أذنبتُ ذنباً عظيماً فهل لي من توبة؟ فقال: هل لك من أُم؟ قال: لا، قال: هل لك من خالة؟ قال: نعم. قال فَبِرّها»[1].

وجاء عن مكحول أنه قال: بر الوالدين كفارة للكبائر.

٢ - حقيقة الخوف في الوجدان الإنساني:

إن الإسلام يستهدف في تشريعاته وتوجيهاته تحقيق منهجه المتكامل، لحساب «الإنسان» ولحساب «المجتمع المسلم» ولحساب الخُلق والصلاح والخير في إطلاقه وعمومه.

والإسلام نظام واقعي، يصور الفطرة البشرية في أعماقها بصدق، ويراعي هذه الفطرة ولا يصادمها أو يحيد عن طبيعتها. وهو يدعو الناس لتهذيب طبائعهم والارتفاع بها، ويصل في ذلك إلى نماذج تقرب من الخيالات والأحلام، ولكن في تهذيبه لا يدعو إلى تغيير الطبائع، وإنما يؤمن بأن أفضل ما يستطيع الإنسان أن يصل إليه هو ما يجيء تمشياً مع الفطرة بعد تهذيبها والارتفاع بها عن مجرد الشهوة وجوعة الجسد..

والشهوة أقوى آلة الشيطان على الإنسان، ولا يدفعها المرء إلا بالإيمان واليقين، واتباع المنهج الرباني في الزواج، الذي هو أعمق وأقوى وأدوم رابطة تصل بين اثنين، وذلك على شريعة الله سبحانه في هذا اللقاء، فالإسلام يحدد الطريقة التي يجتمع عليها الرجل والمرأة وذلك في مؤسسة الأسرة النظيفة..

وتعرض القصة النبوية ظروف وملابسات واقعية تحدث في حياة رجل دفعه الشيطان في طريق الحرام والفاحشة، ولنقرأ هذه القصة النبوية في قلوب

= لها.. وفي هذا بيان واضح جلي أن عقوق الوالدين يُحبط الثواب ويضيع الحسنات، فلا يجد الإنسان العاق ما يقيه يوم القيامة من العذاب.

(١) رواه الترمذي، واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، إلا أنهما قالا: «هل لَكَ والدان بالتثنية»، وقال الحاكم: صحيح على شرطهما.

مفتوحة تتلقى التوجيه الحكيم في حكاية واحد من الثلاثة أصحاب الغـار: «وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنةُ عَمٍّ أحببتُها كـأشدِّ مـا يحبُّ الرجـال النساءَ. وطلبتُ إليها نفسها، فأبَتْ حتى آتيها بمئة دينار، فتعبتُ حتى جمعتُ مئة دينار، فجئتها بها، فلما وقعتُ بين رِجْليها قالت: يا عبد الله اتقِّ الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه[1]، فقمتُ عنها، فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فُرجة، فَفَرَجَ لهم..»[2].

وفي رواية: «.. قد عملت حسنة مرة، كان لي فضل فأصابت الناس شدة، فجاءتني امرأة تطلب مني معروفاً، قال: فقلتُ: والله ما هو دون نفسك فأبت عليَّ، فذهبت ثم رجعت، فذكرتني بالله، فأبيتُ عليها، وقلتُ: والله ما هو دون نفسك فأبت عليَّ، وذهبت، فذكرت لزوجها فقال لها: أعطيه نفسك وأغني عيالك، فرجعت إليَّ فناشدتني بالله فأبيت عليها، وقلتُ: والله ما هو دون نفسك، فلما رأت ذلك أسلمت إليَّ نفسها، فلما تكشفتها وهممتُ بها، ارتعدت من تحتي، فقلتُ لها: ما شأنك؟ قالت: أخاف الله ربّ العالمـين، قلتُ لها: خفتيه في الشدة ولم أخفه في الرخاء، فتركتها وأعطيتُها ما يحقّ عليَّ بما تكشفتها...»[3].

ترسم هذه القصة صورة اجتماعية حزينة حين يهجم الفقر بثقله عـلى الناس.. صورة للجدب والفاقة والحرمان. إنها الصورة الشـاكية البـاكية. الصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الـذهني والحالـة النفسية في شعـور المرأة وزوجها..

إن البيان النبوي يصور حادثة الحرمـان والشدة والضيق في النمـوذج الإنساني وبالطبيعة البشرية، ويعبر عنه بالحادث المحسوس، والمشهد المنظور، والانفعالات الوجدانية..

---

(١) أي بنكاح وزواج لا بزنا.
(٢) صحيح مسلم.
(٣) المسند (صادر) ٤/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

إن أبعاد الموقف هنا تتمثل في هذه الشدة التي أصابت الناس، مما جعل امرأة ممن يعاني تلك الشدة، تلجأ إلى رجل وسَّع الله عليه وأعطاه غِنى وفضل مال.

والبُعد الثاني يبرز في موقف الرجل من المرأة حيث طلبَ نَفْسها مقابلاً لما يعطيها من معروف، ولكن المرأة تتأبى وتتردد، وتلاقي من ذلك حرجاً شديداً. حاولتْ معه مرات. حاولت أن توقظ في ضميره أي معنى يجعله يتراجع عن موقفه، فهي تناشده بالله، وتلحّ عليه، ولكنه يأبى، وهي لا تجد إزاء حرجها الشديد إلا أن تحمل مصيبتها إلى زوجها تراجعه وتشاوره، ولكن الفاقة ثقيلة، والجوع مؤلم، فلم يُبصر الزوج إلا عياله الجياع، ولا سبيل إلى سد جوعهم إلا بأن تسلم نفسها إلى هذا الطامع في جسدها، وهذا بُعد ثالث تلم به الصورة[1].

إنَّ هذا العرض المصوَّر في القصة يكشف لنا عن أزمة نفسية حادة تنطوي عليها هذه المرأة الحريصة أشدّ ما يكون الحرص على عفافها وطهرها، وبخاصة وهي تملك ضميراً حيًّا يتردد في تضاعيفه خوف الله وخشيته، مما يصعد مأساتهم أكثر، ولذلك فنحن نراها تتردد أكثر من مرة ومرة، وهي في كل مرة تأتي إلى الرجل فيها تطلب المعروف لتنقذ نفسها وأولادها الجياع تأبى أن تُسلِّم نفسها إليه، وتُحاول أن تُذكِّرهُ بالله، وتخوفه منه، ولكنه يأبى، وما لها من حيلة ـ كما ترى ـ إلا أن تُسلِّم نفسها، وإذا شعورها بمصيبتها ينعكس على جسدها الذي لا يعرف الحرام.. جسدها الذي عبَّر هو الآخر عن إبائه لهذا الفعل «ارتعدت من تحتي»[2]..

إنها حركة لا إرادية أبلغ من كل قول في التعبير عن إحساس هذه المرأة وانفعالاتها المُرَّة إزاء ما هي مقدمة عليه من هاوية سحيقة مؤلمة!!

---

(١) القصص في الحديث النبوي ١٢٤.
(٢) المصدر السابق ١٧٤.

تعرض القصة مشاهد حيَّة شاخصة. . وتبرز الصور وتبدو بألوانها الحزينة، وكأن المشهد يُمثَّل أمامنا، واقعاً ملموساً، تتملاّه العين مع الحسّ والخيال. . هذا طرف من حياة إنسانية واقعية، تغمرها الانفعالات الوجدانية، وترسم القصة هذا المشهد بكل أحاسيسه، عواطف آدمية، وخلجات إنسانية في أعماق النفس والوجدان، هبَّت مذعورة، اهتزَّ الجسد الخائف من الله، الخائف من مسَّ سقر، اهتز الجسد في توفّز وحساسية وإرهاف. فهي تصور العواطف والانفعالات، وتبرزها من خلال سلوك المرأة وتصرفها، فهي تصور عما يدور بداخلها من مشاعر وانفعالات.

إننا نحسّ سريان هذا الروع الخائف والارتعاد المزلزل. والخيال شاخص إلى هذه الصورة المعبرة التي تستحيل الكلمات فيها كائناً بأحاسيس خائفة وحزن عميق. . بلمسة واحدة في لفظة «ارتعدت من تحتي». .

إن هذا الرجل لا يريد من هذه المرأة إلا ما يريد الذئب، لا يريد من النعجة إلا لحمها. . لقد شعرت المرأة بحرج شديد مؤلم وهي تتردد أكثر من مرة أن الموت جوعاً وحرماناً أعزّ عليها، ولكن مصيبتها في أولادها الجياع. .

وبعد، فإنها قصة امرأة متزوجة، حين تواجه مشكلة الجوع والحرمان الذي يهددها ويهدد أولادها الجياع، وحين تذهب إلى رجل غني تطلب منه معروفاً يرفض إلا إذا قدمت له نفسها، إنها أمام مشكلة حرجة للغاية، إنها أمام مشكلة مؤلمة للغاية، إنها بين أن تفقد شرفها وتقع في المعصية، وبين أن تموت هي وأولادها جوعاً. . هذه هي الصورة التي كانت في أعماقها. .

ويثور في نفسها صراع عنيف غاية العنف، تصور القصة جانباً منه في هذا التردد الكثير على هذا الرجل، وفي كل مرة تُذَكِّره بالله، فإذا رفض عادت من حيث أَتَتْ، وهكذا إلى أن يصل الأمر بها إلى أن تعرض الأمر على زوجها، ويبدو أن الصراع قد بلغ منها مبلغاً كبيراً، أرادت معه أن تتخفف بعض الشيء بإشراك زوجها في مسؤولية هذا الموقف، والتخفف بنقل بعض انفعالاتها إلى زوجها. .

وحين تسلم نفسها في نهاية الأمر تتفجَّر ذروة الصراع عند هذه المرأة العفيفة المنطوية على خوف الله وخشيته، وإذا بالجسد الذي يتأبىً على الحرام، يعبر بطريقته الخاصة حين ارتعد، إحساساً منه بهول الكارثة المقبلة، وهي حالة ملفتة جعلت الرجل يتساءل: «فقلتُ لها: ما شأنك؟ قالت: أخاف الله رب العالمين!» . .

وهنا يفجر الموقف حالة من الصراع من الجانب الآخر عند الرجل نفسه، فإذا ضميره يصحو، وإذا هو يحسّ بالله، وخوف الله يملأ قلبه فزعاً فيقول: «خفتيه في الشدة ولم أخفه في الرخاء فتركها. . .»[1].

لقد عاشت تلك المرأة على تقوى الله في خوف وَوَجل في كلماتها وحركة جسدها، واستشعرت قُرب الله منها واطلاعه عليها فارتعدت من نَظَره إليها فيما حرّم، لقد عاشت بهذا الخوف كأنه ينقل إليها صوت النار وهي تسري وتحرق. . فلقد أجابت الرجل حين سألها ما شأنك؟ «قالت: أخاف الله رب العالمين» . .

«أخاف الله رب العالمين» . . تعبير جليل . . بمجرد سماعه بقلب مفتوح . . فقد فتح أمام الرجل صفحة أعماله بل صفحة حياته، وقد أيقظه من وهدة الخطيئة . . فقال: «خفتيه في الشدة» . . خفتيه وأنتِ في محنة واضطرار . . خفتيه وأنت في فاقة وحاجة . . إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبداً، ولا يكف عن النظر والتقليب فقال: «خفتيه في الشدة ولم أخفه في الرخاء، فَتَركْتُها وأعطيتُها ما يحقّ عليَّ . .» .

لقد تركها خوفاً من الله . . تركها وقد قَدَر على الحرام في الخلوة، فعلم أن الله يراه، تركها من خشيته وحده . . لقد عمل الخوف من الله في سلوكه فِعلاً، فكانت الخشية منه سبحانه في حسّه واقعاً . .

---

(١) المصدر السابق ٢٢٤ .

يقول الإمام الغزالي: «اعلم أن الخوف عبارة عن تألُّم القلب واحتراقه بسبب توقّع مكروه في المستقبل». .

وآثار الخوف على الجوارح بِكَفِّها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرَّط واستعداداً للمستقبل، ولذلك قيل: ليس الخائف مَن يبكي ويمسح عينيه بل مَن يترك ما يخاف أن يُعاقب عليه. وقال أبو القاسم الحكيم: مَن خاف شيئاً هرب منه، ومَن خاف الله هرب إليه.. **﴿ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين﴾** [الذاريات: ٥٠]. .

فبذلك تحترق الشهوات بالخوف وتتأدَّب الجوارح، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة، ويفارقه الكِبر. .، بل يصير مُستوعب الهمّ بخوفه والنظر في خطر عاقبته.. هذا حال مَن غلبه الخوف واستولى عليه. .

إذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدَّد له بسبب الكفّ اسم العفّة، وهو كف عن مقتضى الشهوة. .»[1] وقد أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال: **﴿ولقد وَصَّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾** [النساء: ١٣١]، وقال: **﴿وخافونِ إن كنتم مؤمنين﴾** [آل عمران: ١٧٥]. .

فَأَمَر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان؛ فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعُف، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه. .

قال أبو سليمان الداراني: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب.. وكان وهيب بن الورد يقول: خَفِ الله على قَدَرِ قدرته عليك، واستحيي منه على قدر قُربه منك. .

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ١٩٥.

راوَدَ بعضهم أعرابيةً، وقال لها: ما يرانا إلا الكواكب، فقالت: فأين مُكَوكِبُها؟.

قال الحارث المحاسبي: المراقبة علم القلب بقرب الربّ.

وكان الإمام أحمد يُنْشِد:

إذا ما خَلَوْتَ الدَّهرَ يوماً فلا تَقُلْ   خَلَوتُ ولكِنْ قُل عَلَيَّ رَقيبُ
ولا تحسبنَّ الله يَغْفُلُ سَاعةً   ولا أَنَّ ما يَخْفَى عَلَيه يَغِيبُ

وكان ابن السماك ينشد:

يا مُدمن الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحي   والله في الخَلْوةِ ثَانيكا
غَرَّكَ من رَبِّك إمْهَالُه   وسَتْرُهُ طُول مَساوِيكَا

والقصة النبوية ترسم حقيقة الخوف في الوجدان الإنساني.. ترسم الخوف من الله في قلب المرأة وجوارحها وجسدها.. ترسم آثار الخوف في إيقاعات عنيفة عميقة.. الإيقاعات التي اهتزّ لها الجسد ورجف وارتعد.

لقد كان الخوف صورة وحقيقة رآها الرجل، وقال للمرأة: «خفتيه في الشدة».. كان الخوف صورة تقرع بعنف على قلب الرجل، وكان الصوت العالي الذي أيقظ الإيمان في أعماقه، لقد كان الصيحة القوية، هزت المخمور بشهوته، السادر في غيّه.. وهبت نسائم اليقين في قلب الرجل ترسم خطاً أساسياً في ملامح النفس فقام وترك المرأة خوفاً من الله في حساسية مرهفة، وشعور بالتقصير في جناب الله..

إن الإنسان إنسان بهذا السمو والارتفاع والإيمان، وليس إنساناً بترك نفسه لهواها، وإطاعة جواذبه إلى دركها حيث تهدر إنسانيته ويرتد شيئاً توقد به النار التي وقودها الناس والحجارة..

والقصة تدعو إلى الإيمان الصادق، والانتصار على هوى النفس، والانطلاق من أَسْر الشهوة، والتصرف بها في توازن يليق بتكريم الله ﴿وأما مَن

خــاف مقــام ربــه ونهى النفس عن الهــوى فــإن الجنــة هي المــأوى﴾ [النازعات: ٤١]. .

وفي هذه القصة نجد عرضاً لأحرج موقف يمكن أن تمر به امرأة أُم، حين تجد أطفالها يقتلهم الجوع أو يكاد، والطعام قريب، ولكن لا بد للوصول إليه من تقديم أعز ما تملكه المرأة العفيفة ثمناً له، والقصة تعرض الموقف في صورة فنية معبرة تبعث في النفس مشاعر الأسى المرّ، والرثاء الحزين وهي تتردد بين صاحب المال تطلب معروفه، وهو يأبى إلا أن تُقدم نفسها، فترجع مقهورة إلى أطفالها الجياع، ثم تعود مرة ومرة تُذكره بالله، ولكنه يأبى، وإنها لبَين نارين محرقتين، وإذا بها تفرّ إلى زوجها تذكر له ما هي فيه، فيقـول لها: «أعـطيه نفسك وأغني عيالك. .».

يا للهول! إنها كمن تفرّ من الرمضاء للنار، أين المفر، أين السبيل، وترى أن الطُرق تُسَدُّ أمامها، ولا سبيل إلا أن تُسلِّم نفسها. .

إنها صورة حزينة ومؤلمة، تصور حالة نفسية في أشد حالات الكـرب تموج بالتضـايق والضجر والحـرج والحيرة. . إنـه عرض مُؤثِّـر يجعلنا نتـابع الأحداث والتطورات بقلوب تهتز، ومشاعر ترتجف، تعاطفاً مـع هذه المـرأة المسكينة التي توصف في القصة بأنها «امرأة تطلب معروفاً» وهو وصف يحدد مكانتها الاجتماعية، فهي فقيرة معدومة الحال.

ويبرز في القصة ضعف أمام عاطفة الأمومة الحانية، الذي دفع بالأم إلى أن تُضحي بأعز ما تملك، كما تعرضه صـورة إنسانيـة متحركـة بأحـاسيسها وعواطفها، وقد صوَّرتها في شدة وحاجة، ذهبت تسعى في الأرض بحثاً عما يقيم أودها وأود أطفالها الجياع، وجاءت إلى رجل تطلب منه معروفاً، فأبى إلا أن تقدم نفسها له ثمناً لذلك، فـأبت إباء الشريفـة الحريصـة على عـرضها وعفافها. . وعادت إلى أطفالها بلا شيء. . ولكنها لم تصبر، فعادت إلى الرجل تُذكره بالله وتحاوله، ولكنه أبى مرة أخرى، فعادت إلى أطفالها، ولكنها أمام منظر الأولاد، وهم يتضورون جوعاً لم تلبث أن عادت إلى الرجل مرة ثالثة،

وناشدته الله فأبى، فلما رأت ذلك أسلمت نفسها إليه..

إنه الضعف الإنساني أمام العاطفة الأصيلة، الذي أدركها في هذا الموقف العصيب، فماذا تفعل؟! وهي تشاهد أطفالها يموتون موتاً بطيئاً، وهي تملك أن تنقذهم من الموت.. ولكنه إنقاذ بثمن باهظ.. باهظ جداً.. ويتمثل خيال تلك المرأة المسكينة، وهي في هذا الهول النفسي المُدَمِّر حريصة على الحصانة والعفاف، وتَجِدّ بإصرار على المحافظة على شرفها وعرضها ما أمكنها، حتى حين تُسَلِّم نفسَها تحت مطارق الظروف القاهرة، والآلام النفسية الشديدة، إنما تفعله بعد صراع مرير في النفس الحزينة، فقد هَدَّتها ظروف المحنة، وروّعتها آلام الشدة والجوع (١).

والقصة تصوّرها، وهي تقسر قسراً عنيفاً، بعد تردد واضطراب، فهي ترفض هذا الموقف وهي مجبرة مقهورة..

إن الإسلام يُربي المجتمع على الفضيلة ويُهيىء بتوجيهاته النفوس للعفة والاستعلاء والشفافية والإشراق، فالزنا نكسة حيوانية تذهب بكل معاني الإنسانية، وترد الكائن الإنساني مسخاً مشوَّهاً. مَسخاً كل همّه إرواء جوعة اللحم والدم في لحظة عابرة، ليس وراءها عاطفة حقيقية راقية، لأن العاطفة تحمل طابع الاستمرار. وهذا ما يفرقها من الانفعال المنفرد المتقطع، الذي يحسبه الكثيرون عاطفة يتغنون بها، وإنما هي انفعال حيواني يتزيّا بزي العاطفة الإنسانية في بعض الأحيان!

وتؤكد القصة على تطهير النفوس والأخلاق، وتزكية القلوب والأرواح؛ وبعث وتنمية الرقابة والتقوى في الضمائر، والطمع في رضى الله وثوابه، والحياء والخوف من غضبه وعقابه.

فالأخلاق لا تقوم إلا على أساس من عقيدة تنشىء التقوى في القلب،

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ١٩٦، ٢٦٥، ٢٧٠، ٢٩٨.

التقوى التي تحرس الضمير أن يغفل، أو أن يضعف، وتحرسه أن يحيد عن الطريق الحق والصراط المستقيم. .

٣ ـ قلب عامر بالإيمان والتقوى:

تحرص القصة على إبراز دور الإخلاص والنية في العمل، فَحَظُّ العامل من عمله نيته، فإن كانت صالحة فعمله صالح، وله أجره، وإن كانت فاسدة، فعمله فاسد، وعليه وِزْره، فصلاحُ الأعمال وفسادها بحسب صلاح النيات وفسادها «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»[1].

فالعمل الصالح هو الذي يقصد به الإنسان وَجْه الله، وابتغاء مرضاته، وعلى ذلك يكون خيراً له، ويُثاب عليه، وإن لم يقصد ذلك لم يكن خيراً له، ولا ثواب له عليه، فإنما يقصد بذلك عَرَضَ الدنيا **﴿مَن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحَبِطَ ما صنعوا فيها، وباطلٌ ما كانوا يعملون﴾** [هود: ١٥، ١٦]. .

إن للجهد في هذه الأرض ثمرته. سواء تطلع صاحبه إلى أُفق أعلى أو توجَّه به إلى منافعه القريبة وذاته المحدودة. فمَن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعَمِلَ لها وحدها، فإنه يلقى نتيجة عمله في هذه الدنيا؛ ويتمتع بها كما يريد ـ في أجل محدود ـ ولكن ليس له في الآخرة إلا النار، لأنه لم يقدم للآخرة شيئاً، ولم يحسب لها حساباً، فكل عمل الدنيا يلقاه في الدنيا. ولكنه باطل في الآخرة لا يُقام له فيها وزن، وحابط يؤدي إلى الهلاك!

وترسم القصة أُفقاً عالياً سامياً للبشرية، تُطلعنا على الذُرى السامقة السَمحة الوضيئة، يدعو الرسول ـ ﷺ ـ قلوب المسلمين لِتلْمس فؤاداً امتلأ

---

(١) رواه البخاري ومسلم، وانظر تخريجه وتفسيره في جامع العلوم والحكم ١/٥٩ «الحديث الأول».

يقيناً وبرًّا وودًّا، يدعو الرسول المؤمنين في ألطف لفظ وأحياه: «مَن استطاع منكم أن يكون مثل صاحب فَرَقِ الأرْزِ فليكن مثله، قالوا: يا رسول الله، وما صاحبُ فَرَقِ الأرْزِ، قال: خرجَ ثلاثة، فغيِّمت عليهم السماء، فدخلوا غاراً، فجاءت صخرة من أعلى الجبل حتى طبقت الباب عليهم، فعالجوها، فلم يستطيعوها، فقال بعضهم لبعض: لقد وقعتم في أمر عظيم، فَلْيَدْعُ كل رجل بأحسن ما عَمِلَ، لعلَّ الله تعالى أن يُنجينا من هذا. . وقال الثالث: اللهم إنك تعلم أني كنتُ استأجرتُ أجيراً بِفَرَقٍ من أُرْز، فلما أمسىٰ عرضتُ عليه حقه، فأبى أن يأخذه، وذهبَ وتركني، **فَتَحرَّجتُ منه**، وثَمَّرتُه له، وأصلحته، حتى اشتريتُ منه بقراً وراعيها، فلقيني بعد حين، فقال: **اتقِ الله**، وأعطني أجري، ولا تظلمني، فقلتُ: انطلق إلى ذلك البقر وراعيها فَخُذها، فقال: **اتق الله**، ولا تسخر بي، فقلتُ: إني لستُ أسخر بك، فانطلقَ فاستاقَ ذلك، فإن كنتَ تعلم أني إنما فعلتُه ابتغاء مرضاتك **خشية منك**، فافرج عنا، فتدحرجت الصخرة، فخرجوا يمشون».

وفي رواية «كان لي أجراء يعملون، فجاءني عُمال لي فاستأجرتُ كل رجل منهم بأجر معلوم، فجاءني رجلٍ ذات يوم وسط النهار، فاستأجرته بشطر أصحابه، فعمل في بقية نهاره كما عَمِلَ كل رجل منهم في نهاره كله، فرأيت في الذمام(١) أن لا أنقصه مما استأجرت به أصحابه، لما جهد في عمله، فقال رجل منهم: أتعطي هذا مثل ما أعطيتني ولم يعمل إلا نصف نهار، فقلتُ: يا عبد الله لم أبخسك شيئاً من شرطك، وإنما هو مالي أحكمُ فيه ما شئت، قال: فغضب، وذَهَبَ وترك أجره. . . »(٢).

ومن مظاهر الشر في النفس الإنسانية داء الغيرة والحسد، وهو موقف لا أخلاقي، تُصوره القصة، قيمة مذمومة تظهر في قول الأجير وتصرّفه

---

(١) في الكتاب المطبوع: «في الزمام».
(٢) المسند (صادر) ٤/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

«أتعطي هذا مثل ما أعطيتني ولم يعمل إلا نصف نهار. . فغضب وذهب وترك أجره. . ».

والملاحظ في تشييد بناء القصة أن هذا الموقف الذي اتخذه الأجير دفع مسار القصة إلى النمو، بوضعها أمام موقف جديد، مما جعل صاحب العمل يتخذ سلوكاً معيناً، ويتجه اتجاهاً خاصاً يُمليه عليه الموقف، ومن ثم تتلون الأحداث التالية بألوان رائعة من التحرّج والتقوى «فغضب، وذهبَ، وترك أجره». . «فتحرّجتُ منه، وثَمَّرته، وأصلحته، حتى اشتريتُ منه بقراً وراعيها، فلقيني بعد حين، فقال: اتَّقِ الله، وأعطني أجري، ولا تظلمني، فقلتُ: انطلق إلى ذلك البقر وراعيها فخذها. . . ».

إن القصة تعرض صورة شفّة كريمة نبيلة، لمؤمن تقي، سخيٍّ كريم رحيم. . صورة تستجيش المشاعر، وتُحرك القلوب، وتُناجي الوجدان، وتُخاطب الأرواح، وتَصل إلى النفس فتبعث فيها الخير والصلاح. .

وتُبرز القصة صورة صادقة للتحرج والتقوى: «فلما أمسىٰ عرضتُ عليه حَقّه، فأبى أن يأخذه، وذَهَب وتركني، فتحرّجتُ منه، وثَمَّرته له. . ».

وترسم الكلمات حَساسية في الضمير، وشَفافية في الشعور، وخَشية مستمرة، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يبلغُ العبدُ أن يكون من المتقين حتى يَدَعَ ما لا بأسَ به، حَذَراً مما به بأس»(١).

وقال أبو الدرداء: تَمام التقوى أن يتقي اللّهَ العبدُ، حتى يَتقيه من مثقال ذرَّة وحتى يتركَ بعض ما يَرى أنه حلال، خَشية أن يكون حراماً، حجاباً بينه وبين الحرام.

وقال الحسن البصري: ما زالتِ التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥١) وقال: حسن غريب، ورواه ابن ماجه (٤٢١٥).

وقال سفيان بن عُيَيْنة: إنما سُموا المتقين لأنهم اتَّقَوْا ما لا يُتَّقَى[1].

وروي عن ابن عُمر رضي الله عنهما قال: إنِّي لأحبُّ أن أَدَعَ بيني وبين الحرام سترةً من الحلال لا أخرقها.

وقال ميمون بن مهران: لا يسلم للرجل الحلال حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال[2].

وقال سفيان بن عُيَيْنَة: لا يصيبُ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال، وحتى يدعَ الإثمَ وما تشابَه منه[3].

وقال موسى بن أعين: المتقون تنزَّهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام، فسماهم الله متقين.

وقال عمر بن عبد العزيز: ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرَّمَ الله، وأداء ما افترض الله، فمَن رُزِقَ بعد ذلك خيراً، فهو خير إلى خير.

التقوى هي النور الذي يضيء الضمير، ويحرسه أن يغفل، ويحرسه أن يضعف أمام زينة الشهوات وجواذبها..

إن تقوى الله تجعل في القلب فُرقاناً يكشف له منعرجات طريق الحياة، فيرى الحق حقاً فيتبعه، ويرى الباطل باطلاً فيجتنبه.

إن الأمور تظل متشابكة في الحس والعقل، وتظل متشابكة في النَظَر والفكر، وينطقُ الحقُّ في أعماق الوجدان ولكن لا يَستجيب له القلب والعقل، وما يزال الشيطان يُغري ويُلبس على الإنسان حتى يُزحزحه عن الحق.. ذلك ما لم تكن هناك التقوى.. فإذا كانت استنار العقل وَوَضح الحق واطمأن

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ٧/٢٤٨.
(٢) المصدر السابق ٤/٨٤.
(٣) المصدر السابق ٧/٢٨٨.

القلب واستراح الضمير، وفرحت الروح، وسلكت النفس سبيل الرشد والسلام..

وترسم القصة هذه الحقيقة بألوان مضيئة متلألئة في الواقع الإنساني «.. فأبى أن يأخذ أجره، وذَهَبَ وتركني، فتحرّجتُ منه، وثمّرته له، وأصلحته، حتى اشتريتُ منه بقراً وراعيها، فلقيني بعد حين، فقال: اتقِ الله، وأعطني أجري، ولا تظلمني، فقلتُ: انطلق إلى ذلك البقر وراعيها فَخُذْها، فقال: اتقِ الله، ولا تسخر بي، فقلتُ: إني لست أسخَرُ بك، فانطلقَ فاستاق ذلك...».

إنها التقوى التي تبرزها القصة في صورة متحركة شاخصة، تراها القلوب، وتتلمسها الأرواح، فهي نظافة ونقاء في السلوك، وأداءٌ للحقوق، ورحمة بالعباد، وصبر على تنفُّش النفس وأطماعها وضُعفها..

لقد كانت الفتوى في الأجير الذي أَبى أن يأخذ أَجره وذهب، كانت الفتوى: «ولو شئتُ لم أُعطه إلا الفَرَق»(١)، وفي رواية: «ولو شئتُ لم أعطِهِ إلا أجره»(٢).

لقد اتفق الرجل مع الأجير على فَرَقٍ من أُرز أُجرةً على عمل يُقدمه للرجل... ها هو ذا الأجير يعود إلى الرجل «فقال: اتق الله، وأعطني أجري، ولا تظلمني..»..

هذه هي الفتوى، ولكن التقوى لها أهلها وكلمتها.. ها هو ذا الرجل يقول للأجير «انطلق إلى ذلك البقر وراعيها فَخُذها، فقال: اتقِّ الله... ولا تسخر بي..».

ونقف أمام قول الأجير: «اتق الله ولا تسخر بي».. إنها كلمات تصور

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه. انظر الإحسان رقم ٨٩٧.
(٢) انظر الإحسان رقم ٩٧١.

المعنى الذهني والحالة النفسية، تصور الإنسان في حيرته.. إنها معاني ترسم آثار كلمة الرجل على نفس الأجير...

إننا نكاد نلمح إحساس الأجير في أعماقه حين سمع قول الرجل «انطلق إلى ذلك البقر وراعيها فَخُذْها».. يقف مشدوهاً لا يكاد يُصَدِّقُ ما سمعت أذناه.. لم يتحرك ولم يتحول.. وقال بِنَغَمٍ حَزين، يموج منه أَلَمٌ دَفين قديم: «اتق الله.. ولا تَسْخر بي..».

إنها صورة ترسمها القصة للحيرة التي انتابت الأجير حين سمع كلام الرجل، لقد تَوزَّع قلبه، وتَفَرَّق إحساسه، لا يدري.. أهي الحقيقة؟! وانطلق الضَعف الشاكي من أعماقه يُذكره بخشية الله والحياء منه «اتق الله.. ولا تَسخر بي»..

ثم ها هو ذا الرجل في حوار قصير قد مُلىء صدقاً يقول للأجير «إني لست أسخر بك»..

وانشرحت أسارير الأجير فرحاً حين رأى صورة الخير، صورة الإخلاص، صورة إفاضة البر والسعادة على الناس، رأى صورة التقوى حقاً في رجل... ها هو ذا ينظر بطرف إلى البقر وراعيها.. ثم تتراجع نظراته ثانية إلى الرجل.. «فانطلق فاستاق ذلك»..

هذه هي الصورة الأخيرة في هذا المشهد، تمثل «الروعة الباهرة».. الروعة التي تُبده، وتُشده الحسّ، وتبعث الفرح في الروح، فينبعث السرور متلألئاً يشيع السعادة في المتلقي..

وفي غمرة السكون الضاحك الذي يملأ النفس، تنقلنا القصة إلى الغار، لنسمع كلام الرجل في موقف الابتهال الخاشع المنيب؛ ها هو ذا الرجل يناجي ربه السميع العليم: «فإن كنتَ تعلم أني إنما فعلته ابتغاء مرضاتك، خشية منك، فافرج عنا، فتدحرجت الصخرة، فخرجوا يمشون»..

إن العمل الصالح لا بد له من القاعدة الأصيلة يرتكز عليها. قاعدة الإخلاص للّه، وابتغاء مرضاته، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً، وابتُغي به وجهه»(١)، وبغير هذه القاعدة لا يكون العمل مُتقبلاً من الله، إنما هو هباء كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، والإخلاص والتقوى هما المحور الذي تدور عليهما القلوب في السلوك الإنساني.

إن العمل في سبيل الله وابتغاء مرضاته هو شأن المؤمن لا سواه، فصاحب فُرَقِ الأرْزِ لم يَقدم على عمله هذا الذي رسمته القصة النبوية إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى «فإن كنتَ تعلم أني فعلتُه ابتغاء مرضاتك، خشية منك».. يا رب إنك تعلم السر وأخفى.. إنك تعلم ما في نفسي، وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري. إنك أنت عَلّام الغيوب، إنما فعلتُ ذلك ابتغاء مرضاتك وخشية منك.. لم أفعل ذلك عن هوى ولا عن غرض. لم أفعل ذلك رياءً، أتلفَّتُ للناس أرى ماذا يقولون! لم أفعل ذلك لأتعالى وأشمخ! لم أفعل ذلك إلا ابتغاء وجهك. خالصاً متجرداً لمرضاتك..

إنه قلب عامر بالإيمان. نديّ بالإخلاص. أعطى ما أعطى بسخاء عظيم ابتغاء مرضاة الله، أعطى عن ثقة ثابتة في الخير، نابعة من الإيمان، عميقة الجذور في الضمير، ومن ثم يطمئن لقبول الله عمله، ويطمئن لبركة الله في ماله، ويطمئن لثواب الله ورحمته، ويطمئن إلى الخير والإحسان من الله جزاء الخير والإحسان لعباد الله، وها هو ذا يسأل الله تعالى بهذا العمل الصالح: «فإن كنتَ تعلم أني فعلتُه ابتغاء مرضاتك، خشية منك... **فافرج عنا**..» وثَبَتَ الإخلاص في العمل فكانت الإجابة «فتدحرجت الصخرة، فخرجوا يمشون»..

---

(١) رواه النسائي عن أبي أمامة ٦/٢٥، والطبراني (٧٦٢٨) وحسّنه الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» ٤/٣٨٤، وجوّد إسناده ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ١/٨١، والسيوطي في «الدر المنثور» ٥/٤٧٢.

إنها صورة عميقة الإيحاء تلك التي ترسمها القصة لذلك الرجل الكريم، وهي صورة مضيئة ارتسمت آثارها في حياة المؤمنين على مر العصور، وما يكاد الإنسان يُتم قراءتها حتى يبدو له هذا النموذج الإنساني الكريم كأنما يراه، نابضاً حياً بمشاعره الصادقة الطيّبة، نرى صورة متلألئة تتفتح لها البصيرة المستنيرة، وتُدركها الفطرة المستقيمة. نرى صورة الفرح الروحي يملأ كيان الرجل وهو يُقدِّم للأجير البقر وراعيها.. ذلك الفرح الشفيف الذي لامسته أرواحنا، الفرح والرضى والثقة وقد ملأت حياة هذا الرجل..

إن العمل الخالص، والعطاء ابتغاء مرضاة الله، لذة سماوية عجيبة ليست في شيء من هذه الأرض. إنها تجاوب العنصر السماوي الخالص في الطبيعة البشرية، إنها لا تطلب لها جزاءً خارجياً لأن جزاءها كامن فيها. وعلى هذا نفهم سعادة الرجل وهو يقدم للأجير البقر وراعيها..

إن البذل والعطاء الخالص المخلص للّه، لهو الفرح النقي الذي ينبع من النفس ويرتد إليها بدون حاجة إلى عناصر خارجة عن الذات الإنسانية، إنه يحمل جزاءه كاملاً. إنه يحمل جزاءه فيه..

وإلى هذه الحقيقة ترمي القصة النبوية وهي تدعو إلى الخير والإحسان لعباد الله حتى ترتفع وتزكو بما تعمل وهي بعد في هذه الأرض.. وجزاء الله بعد ذلك كله فضل عظيم..

وهكذا عالجت القصة قِيَماً دينية عظيمة، عالجت الأمانة والعفة والتقوى في مال الآخرين، عالجت ذلك في موقف إنساني، صَوَّرته في مشهد مثير لكوامن الخير في النفس الإنسانية، فقد ترك العامل أجره وذهب مغاضباً، فتحرّج الرجل، فحفظ له حقه وثمَّره ونمَّاه، وأصبح مالاً كثيراً وثروة عظيمة، وحين عاد الأجير بعد زمن أعطاه ذلك كله ابتغاء مرضاة الله وفي سبيله..

لقد أكدت القصة في عرضها التربوي على أداء الأمانة، والسماحة في

المعاملة[1]، والتحرج والتقوى[2]، وهذا العمل لم يُعدّ صالحاً إلا بصلاح النية، وصلاح النية بصلاح القلب.

لقد حرصت القصة إلى إبراز عنصر الخير في النفس الإنسانية في صورة واقعية حيث تُربِّي في المُتَلَقِّي شعورَ التقوى، وشعور التحرُّج، وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله التي تَفضَّل الله بها على عباده..

وبعد، فقد أكدت القصة على قيمة الإخلاص. إخلاص القلب كله للّه، وتجرده من كل شائبة، ومن كل غَرَض وصفائه، وخُلُوِّه من التعلق بغير الله. فهذه سلامة القلب التي تجعل للعمل قيمة ووزناً عند رب العالمين.

تربية وسلوك:

وهكذا اخْتتِمت القصة «فَفَرّج الله..».. «فتدحرجت الصخرة، فخرجوا يمشون»..

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلاً أتى النبي - ﷺ - يتقاضاه فأغلظَ له، فَهَمَّ به أصحابُه، فقال رسول الله - ﷺ -: «دَعُوه فإنَّ لصاحبِ الحقِّ مقالاً» ثم قال: «أعطوه سِنًّا مثل سِنّه» قالوا: يا رسول الله لا نجدُ إلا أَمْثَلَ من سِنه، قال: «أعطوه، فإن خيركم أحسنكم قضاءً» رواه البخاري ٤/٣٩٤، ومسلم (١٦٠١).

ومعنى قوله «يتقاضاه»: يطلب منه ماله عنده. وقوله: «فَهَمَّ به أصحابه» أي أن يفعلوا به جزاء إغلاظه. والأمثل: الأعلى.

وعن أبي مسعود البدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله - ﷺ -: «حُوسِبَ رجلٌ ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يُخالِطُ الناسَ، وكان مُوسِراً، وكان يأمرُ غلمانَه أن يتجاوزوا عن المُعْسِر. قال الله عزَّ وجل: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه». رواه مسلم (١٥٦١).

(٢) روي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه اشترى من رجل أرضاً، فأبطأ عليه، فلقيه، فقال له: ما منَعك من قَبْضِ مَالِك؟ قال: إنك غَبَنْتَنِي، فما ألقى من الناس أحداً إلا هو يلومني. قال: أوَ ذلك يمنعك؟ قال: نعم. قال: فَاخْتَر بين أرضك ومالِك، ثم قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أدخل الله عز وجل الجنةَ رجلاً كان سهلاً مشترياً، وبائعاً، وقاضياً، ومقتضياً». حديث حسن لغيره. أخرجه الإمام أحمد في المسند (رقم ٤١٠) و(٥٠٨) انظر تمام تخريجه في طبعة مؤسسة الرسالة للمسند المجلد الأول ص ٤٧٠.

وكانت الخاتمة على هذا المشهد.. مشهد رحمة الله تتدارك هؤلاء العباد.. يا للرضى.. ويا للسعادة.. ويا للفرحة.. ويا للطمأنينة التي تغمر قلوبنا ونحن نرى الفرحة وقد علت على وجوه أصحاب الغار، وقد خرجوا من ضيق الصخرة، خرجوا يمشون مستبشرين مسرورين..

لقد تميزت القصة بِغنى موضوعاتها، إذ تناولت جوانب مهمة من قيم الإسلام وتعاليمه، فهي تشارك في بناء العقيدة والسلوك في الشخصية الإسلامية، كما تُربي في وجدان المسلم بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فهو سبحانه فارج الهمّ وكاشف الغمّ، ومجيب دعوة المضطر إذا دعاه، كما تُنشىء في ضمير المسلم أن الله سميع قريب مجيب الدعاء، وهو الفعَّال لما يريد.. فمن العناصر الفنية البارزة في القصة، عنصر المناجاة، وهو يأتي على النحو الذي يأتي عليه في قصص القرآن الكريم(١)، فقد اعتمدت هذه القصة على هذا العنصر الروحي في بنائها الفني، وهي تسعى إلى أهداف خلقية وتعليمية، حيث نجد أصحاب الغار الثلاثة وهم في مأزق مخيف، وقد خيَّم الظلام على خيالهم في النجاة، بعد أن أظلمت الدروب عليهم، لم يجدوا أمامهم إلا أن يلجأوا إلى الله يدعونه ويتوسلون إليه بصالح أعمالهم، وقد قام كل واحد منهم يناجي ربه بصالح عمله، وفي كل مرة ينتهي واحد منهم من دعائه تنفرج الصخرة قليلاً، حتى إذا دعا الثالث وفرغ من مناجاته انزاحت الصخرة كلها وخرجوا سالمين(٢).

إن هذه القصة تعرض وتصور أحداث إنسانية عادية مألوفة، ففي قصصها الثلاث الداخلية، التي كان الرجال الثلاثة يعرضونها في مناجاتهم لربهم، وقد وقعت عليهم الصخرة فَسَدَّت باب الغار، حيث كان كل واحد

---

(١) انظر رسالة الدكتوراه للدكتور محمد أحمد البيومي «سيدنا محمد في إبداعه الأدبي» عام ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م، وهي مخطوطة في مكتبة كلية اللغة العربية بالأزهر برقم ٤٨٢ ص ١١٨ - ١٢١.

(٢) القصص في الحديث النبوي ص ٢٢٧.

منهم يعرض قصة حدثت له، وما كان له فيها من عمل صالح يرجو بعرضه هنا أن يتوسل به إلى الله ليكشف عنهم هذا البلاء الشديد، فكانت أحداث قصصهم من قبيل أحداث الحياة التي يوجد أمثالها في الواقع، وهذا لا ينفي عنها صفة الإثارة التي تنطوي عليها أحداث هذا القصص في الواقع[1].

والقصة النبوية قصة ملتزمة، فالرسول ـ ﷺ ـ وهو يسرد هذه القصة التي تلقَّى مادتها من الوحي ـ كسائر قصص الماضي والمستقبل ـ كان يستخدمها من ضمن الوسائل الكثيرة التي يتبعها في سبيل تحقيق الغرض الديني، وهو الهدف الأصيل الأساسي الذي من أجله بُعث ـ ﷺ ـ والذي من أجله يصطنع الأساليب الكثيرة في الدعوة والتبليغ.

ومن هنا نجد القصة النبوية خاضعة خضوعاً تاماً لذلك الغرض الديني، وملتزمة به، شأنها في ذلك شأن القصة في القرآن الكريم تماماً[2]، فما كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعرض القصص بمختلف أنواعها لذاتها كأنماط قصصية ذات طريقة فنية جميلة، أي أنه لم يعرضها لذات الفن القصصي وإن كان هذا يتحقق تبعاً، وإنما يعرضها وهو يستهدف فقط، ما تتحدث عنه من موضوعات دينية، وما تعرضه من مبادىء وأفكار، وما تتناوله من قضايا جاء بها القرآن الكريم[3].

ونجد هنا الاكتفاء في عرض القصة بما يحقق الغرض الديني المراد، بحيث اقتصر العرض لأحداث القصة ومواقفها على ما يؤدي إلى الأثر المنشود، فقد اختارت المواقف الكفيلة بإيجاد التأثير المعين، وعند ذلك توقف العرض القصصي، وقد تحقق المراد، وقد احتاجت القصة لتحقيق الأثر المطلوب إلى

---

(١) المصدر السابق ٣١٢.
(٢) انظر فصل القصة في القرآن في كتاب «التصوير الفني» ص ١١١.
(٣) القصص في الحديث النبوي ص ٤٢٧.

نوع من التفصيل فهي قصة متوسطة المساحة أدت إلى الغرض الديني الذي خضعت له[1]. .

إن هذه القصة تحقق أكثر من غرض من الأغراض، فهي تهدف فيما تهدف إلى التربية الفكرية والسلوكية، كما أنها تحمل في مسارها ألواناً من العظة والاعتبار، فكانت توجيهاً رائعاً إلى العمل الصالح ودعوة غير مباشرة، تفهم من خلال سياق القصة، وطريقة عرض أحداثها، وما تضمنته في تضاعيفها من قصص داخلية مؤثرة، صوّرت قيمة العمل الصالح وثمرته بطريقة تُرغّب فيه وتحث على فعله، وتدفع الإنسان دفعاً شعورياً للالتزام.

لقد امتازت القصة بقدرتها على تصوير نواحي الحياة، وعرض الشخصيات بما تحمله من أخلاق وأفكار واتجاهات نفسية ويقظة وجدانية، فقد استطاعت أن تحرك وجدان الإنسان، وتثير فيه الانتباه والتقوى حتى يكون حَيًّا يقظاً ما دام على قيد الحياة، فيعيش مع تعاليم الإسلام وأخلاقه وقيمه السامية[2].

ثم تبقى في النفس بقية من قول الرسول ـ ﷺ ـ: «مَن استطاع أن يكون مثل صاحب فرق الأرز فليكن مثله. .». . «فليكن مثله». .

لقد كان المحور الذي تدور عليه القصة النبوية هو محور التربية، فكانت ترسم صوراً متحركة تلمس، الوجدان الإنساني برفق وحكمة، لمسات تصل القلب بنور الله، فهي تربي الضمائر، وتستجيش المشاعر، وترفع المقاييس الأخلاقية للحياة.

وفي القصة سلوك وآداب للنفس، سلوك وآداب في البيت والأسرة، سلوك وآداب في المجتمع، كل هذه التربية، وذاك السلوك ينبع من معين واحد

---

(١) المصدر السابق ٤٣١، ٤٣٢.

(٢) انظر القصص في الحديث النبوي: ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٧.

هـو العقيدة في الله، العمـل المتصل في روحـه بشفافيـة الصدق، وإشراقـة الإخلاص[1]، وطهارة النية والإرادة.

(١) يقول الإمام السبكي الكبير في تعليقه على حديث أصحاب الغار: «ظهر لي أن الضرورة قد تلجىء إلى تعجيل جزاء بعض الأعمال في الدنيا، وأن هذا منـه، ثم ظهر لي أنـه ليس في الحديث رؤية عمل بالكلية لقول كل منهم «إن كنتَ تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك»، فلم يعتقد أحد منهم في عمله الإخلاص، بل أحال أمره إلى الله، فإذاً لم يجزموا بالإخلاص فيه، مع كونه أحسن أعمالهم، فغيره أَوْلى، فيستفاد منه أن الذي يصلح مثل هذا أن يعتقد الشخص تقصيره في نفسه، ويُسيء الظن بها، ويبحث على كل واحد من عمله يظن أنه أخلص فيه، فيفوض أمره إلى الله، ويُعلق الدعاء علِى علم الله به، فحينئذ يكون إذا دعاه راجياً للإجابة، خائفاً من الردّ، فإن لم يغلب على ظنه إخلاصه، ولو في عمل واحد، فليقف عند حـدّه، ويستحي أن يسأل بعمل ليس بخالص. قال «وإنما قالوا ادعوا الله بصالح أعمالكم» في أول الأمر، ثم عند الدعاء لم يطلقوا ذلك، ولا قال واحد منهم أدعوك بعملي، وإنما قال: إن كنتَ تعلم، ثم ذكر عمله. . » انتهى ملخصاً.

يقول الإمام ابن حجر في شرح الحديث: وفيه فضل الإخلاص في العمل، وفضل بر الوالدين وخدمتهما وإيثارهما على الولد والأهل، وتحمل المشقة لأجلهما. . وفيه فضل العفة والانكفاف عن الحرام مع القدرة، وأن ترك المعصية يمحو مقدمات طلبها، وأن التوبة تجبّ ما قبلها. . وفيه فضل أداء الأمانة، وإثبات الكرامة للصالحين. فتح الباري ٣٩٨/٦.

قصة المُتكلِّمون في المهد

المحتوى | ص

المتكلمون في المهد

سلكت القصة النبوية سبيل القرآن الكريم، وزخرت بعجائب صنع الله، وبالمعجزات والخوارق التي لا يصدقها ولا يسيغها ولا يحتملها إلا الإيمان بالغيب، الإيمان بقدرة الله المطلقة، ومشيئته القاهرة كولادة عيسى - عليه السلام - الخارقة للعادة، ونطقه المبكر جداً، وغيرها الكثير مما تقدم في قصص الرحمٰن في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي - ﷺ - قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة[1]:

(١) «قال القرطبي في هذا الحصر نَظَر إلا أنه - ﷺ - قال ذلك قبل أن يعلم الزيادة على ذلك. . ، ويحتمل أن يكون كلام الثلاثة المذكورين مقيداً بالمهد، وكلام غيرهم من الأطفال بغير مهد لكنه يعكر عليه أن في رواية ابن قتيبة أن الصبي الذي طرحته أمه في الأخدود كان ابن سبعة أشهر وصرح بالمهد في حديث أبي هريرة، وفيه تعقيب على النووي في قوله أن صاحب الأخدود لم يكن في المهد والسبب في قوله ما وقع في حديث ابن عباس عند أحمد والبزار وابن حبان والحاكم «لم يتكلم في المهد إلا أربعة» فلم يذكر الثالث الذي هنا، وذكر شاهد يوسف والصبي الرضيع الذي قال لأمه وهي ماشطة بنت فرعون لما أراد فرعون إلقاء أمه في النار اصبري يا أمه فأنا على الحق.

وأخرج الحاكم نحوه من حديث أبي هريرة فيجتمع من هذا خمسة، ووقع ذكر شاهد يوسف أيضاً في حديث عمران بن حصين لكنه موقوف، وروى ابن أبي شيبة من مرسل هلال ابن يساف مثل حديث ابن عباس إلا أنه لم يذكر ابن الماشطة وفي صحيح مسلم من حديث صهيب في قصة أصحاب الأخدود أن امرأة جيء بها لتلقى في النار أو لتكفر، ومعها صبي يرضع، فتقاعست فقال لها: «يا أمه اصبري فإنك على الحق» وزعم الضحاك في تفسيره أن يحيى تكلم في المهد، أخرجه الثعلبي، فإن ثبت صاروا سبعة» فتح الباري ٦/ ٣٧١.

عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وكان جريج رجلاً عـابداً فـاتخذ صومعة فكان فيها، فأتَتْه أُمه وهو يُصلي فقالت: يا جُريج، فقال: يا ربِّ أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته فانصرفت. فلما كان من الغد أَتَتْه وهو يُصلي، فقالت: يا جريج، فقال: أي ربِّ أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: أي ربِّ أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تُمِتْه حتى ينظر إلى وجوه المومسات. فتذكّر بنو إسرائيل جريجاً وعبادَتَهُ، وكانت امرأة بغيّ يُتَمَثَّل بحسنها، فقـالت: إن شئتم لأَفْتِنَنَّهُ، فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فـأتت راعياً كـان يأوي إلى صومعته، فأَمْكَنَتْهُ من نفسها فوقَعَ عليها، فحملَتْ، فلما ولدت قالت: هو من جُريج، فأتوه فاستنزلـوه وهدّمـوا صومعتـه، وجعلوا يضربونـه، فقال: مـا شأنكم؟ قالوا: زنيتَ بهذه البغيِّ فولدت منك، قال: أين الصبي؟ فجاءوا به فقال: دعوني حتى أُصَلِّي، فَصَلَّى، فلما انصرف أتى الصبيَّ فـطعَنَ في بطنـه وقال: يا غلامُ مَنْ أبوكَ؟ قال: فلانُ الراعي، فأقبلوا عـلى جُريـج يُقبلونه ويتمسَّحون به وقالوا: نبني لك صومَعَتَك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا. وبَيْنَا صَبيٌّ يرضَعُ مِن أُمه، فمرَّ رجل راكب على دابة فارهة[1] وشارةٍ حَسَنةٍ[2]، فقالت أُمه: اللهم اجعل إبني مثل هـذا، فَتركَ الثدي وأقبل إليه فنَظَر إليه فقال: «اللهم لا تجعلني مثله، ثم أَقْبَل على ثَديه فجعل يَرْتَضِعُ» فكأني أنظر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يحكي ارتضاعَهُ بأُصْبُعِه السَّبـابة في فيـه، فجعل يمصُّهـا، قال: «ومـروا بجـاريـة وهم يضربـونها، ويقولون: زَنَيْتِ سَرَقْتِ، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت أُمُه: اللهم لا تجعل ابني مِثْلَها، فتركَ الرَّضـاع ونَظَر إليهـا فقال: اللهم اجعلني مِثلها، فهنالِك تراجعا الحديث[3] فقالت: مَرَّ رجلٌ حَسَنَ الهيئة فقلتُ: اللهم اجعل ابني مِثْلَه فقلتُ: اللهم لا تجعلني مثله، ومَرُّوا بهذه الأَمَة وهم يضربونها

(١) أي حاذقة نفيسة.
(٢) وهي الجمال الظاهر.
(٣) أي حَدَّثتِ الصبي وحَدّثها.

ويقولون: زَنَيْتِ سَرَقْتِ، فقلتُ: اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلت: اللهم اجعلني مثلها؟! قال: إن ذلك الرجل كان جَبَّاراً فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها زَنَيْتِ، ولم تَزْنِ وسرقتِ، ولم تسرق، فقلتُ: اللهم اجعلني مِثْلَها»[1].

يسبق القصة تمهيد سريع بمقدمة تربط السامع لأول وهلة بما يأتي بعد هذه المقدمة «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة»، فهذه المقدمة على قصرها، قد اشتملت على أمر مهم جداً، وغير عادي، لما فيه من جانب الغرابة، وهي «الكلام في المهد» وهذا في حد ذاته يثير اهتمام المستمع، وإثارة التساؤل في نفسه كيف كان ذلك؟!!

إنها مقدمة مشوقة، أدّت مهمة كبيرة في إيجاد «الارتباط الشديد» بين المستمع وأحداث القصة، فأصبح من أوكل كلمات القصة حريصاً على سماعها بتلهف كبير حتى آخر كلمة فيها.

وبهذا تؤدي القصة هدفها في التأثير على نفسية المتلقي، الذي قد تهيَّأَ للعيش بكل حواسه في أحداثها، وهو يحرص على الاندماج في أحداثها بدوافع كثيرة من إشباع رغبة الاستطلاع في نفسه من ناحية، وإشباع حاجته الملحة التي أثارها هذا التساؤل: كيف كان ذلك الأمر الخارق للعادة ولِمَ كان؟..

والمقدمة هنا تمهيد لأكثر من قصة تُذكر في الحديث النبوي، إذ يشير الحديث إلى ثلاث قصص؛ قصة عيسى عليه السلام، وقصة جريج، وقصة الطفل الرضيع مع أمه.

وقد جاء التمهيد للقصص الثلاث التي أشار إليها الحديث ضمناً أو صراحة لأنها كلها تدور حول محور واحد، ويجمعها الموضوع والفكرة، بل إننا حين نتعمقها كلها بالنظر الدقيق الفاحص نجد هناك صلات عميقة وهادفة بين القصص الثلاث في كل من أسباب القصة وغايتها في النهاية، وهناك أوجه

---

(١) أخرجه البخاري ٦/٣٤٤، ٣٤٨، ومسلم (٢٥٥٠) (٨)، وأخرجه أحمد ٢/٤٣٦.

شبه واضحة تشير إلى الصلات الهادفة للقصص الثلاث:

١ ـ الكلام في المهد.

٢ ـ كل متكلم في المهد من الثلاثة، نطق لإحقاق حق، وإزالة تهمة وريبة.

٣ ـ بروز عنصر «الأم» في كل القصص الثلاث.

٤ ـ وجود الاتهام «بالفاحشة السيئة» في جميع القصص الثلاث[١].

ونمضي مع القصة المثيرة في شوق كبير وعميق، لنرى ونسمع ظروف وملابسات، تبعث في الحس جذوة التطلع المشتاق لما فيها من حوادث تحرك الروح والنفس، وتُنَبِّه الوجدان بما تستحضره في الأذهان.

أ ـ عيسى ابن مريم:

لم تُفَصِّل القصة النبوية في الحديث عن عيسى ـ عليه السلام ـ اعتماداً على ما لدى السامع من معرفة بتفصيلاتها مما ورد في القرآن الكريم.

«وقد ذكر القرآن من صفات الله تعالى وأفعاله ما لا يُقْبَل ولا يُصدَّق إلا بالإيمان بالغيب، ومن الوقائع والحوادث وآلاء الله وأيامه، وأخبار الرسل وما أجرى على أيديهم من المعجزات، وما أظهر لهم من الآيات، ما لا يُطيقه ولا يُسيغه إلا الإيمان بالغيب، وما لا يقبل التعليل العقلي، ولا التطبيق بنواميس الطبيعة إلا بتكلف شديد مضحك، وخروج عن قوانين اللغة العربية، وجراءة على الله، وتَجَنٍّ على اللغة وأبنائها، ووقاحة شديدة[٢]، كانفلاق البحر لموسى وقومه، وانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر بضرب موسى، وارتفاع الجبل كالظُلَّة على طائفة من بني إسرائيل، وحياتها بعد موتها، ومَسْخ فريق منهم قردة خاسئين، وحياة المقتول الذي جُهِلَ قاتله، بضرب جزء من البقرة المذبوحة، وتحول النار برداً وسلاماً على إبراهيم، ومنطق الطير الذي عَلَّمه سليمان،

---

(١) القصص في الحديث النبوي ص ٩٩، ١٠٠.

(٢) اقرأ أمثلته الواضحة في تفسير سيد أحمد خان ومحمد علي اللاهوري.

وفَهمه لحديث النمل، ومُطاوعة الرياح له، وسيرها به غُدوّها شهر ورواحها شَهر، وانتقال عَرش ملكة سَبَأ في طرفة عين، وقصة ذي النون، وخروجه من بطن الحوت، وولادة عيسى الخارقة للعادة، وغيرها مما جاء في القرآن صراحة في سور كثيرة»(١)، وقد تقدَّم هذا في مواضع عديدة في هذا الكتاب، ولا يقبله إلا الإيمان بالغيب، الإيمان الذي آمن بالله الذي وسعت قدرته كل شيء.

إن حادثة ولادة عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ أعجب ما شهدته البشرية في تاريخها كله، وقد شاءت إرادة الله سبحانه ومشيئته الحكيمة أن تُبرز هذه العجيبة، ليشهدها البشر، ثم تظل في سجل الوجود مَعْلَماً تتلفَّت إليه الأجيال، لِتَعْلَمَ وتَتَذكر دوماً حرية القدرة الربانية وطلاقة الإرادة الإلٰهية **﴿إنما أمرنا إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾** [يٓس: ٨٢].

ولنمضِ مع القرآن في إيمان وتسليم، فليس على الله ـ سبحانه ـ هَيِّنٌ وصعب فهو جَلَّ وعَلَا على كل شيء قدير، ولنتحسس بقلوبنا لمسات القدرة العظيمة، وحركتها اللطيفة في الكلمات والعبارات والظلال الرحيمة:

﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً. فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثَّل لها بشراً سوياً. قالت: إني أعوذ بالرحمٰن منك إن كنتَ تقياً. قال: إنما أنا رسول رَبِّك لأَهَبَ لَكِ غلاماً زكياً. قالت: أَنَّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشرٌ ولم أَكُ بغياً. قال: كذلكِ قال رَبُّك هو عليَّ هَيِّنٌ ولنجعله آيةً للناس ورحمةً مِنّا وكان أَمْراً مقضياً. فحملتْهُ فانتبذت به مكاناً قصياً. فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت: يا ليتني مِتُّ قَبْلَ هذا وكنتُ نسياً منسياً. فناداها من تحتها ألا تحزني قد جَعَلَ ربُّك تحتك سرياً...﴾ [مريم: ١٦ ـ ٢٤]..

وفي غمرة المحنة وشدتها، وحِدّة الألم وقسوته، وغمرة الهول وثقله تقع المفاجأة الكبرى.. الطفل يتكلم!! يا للّه! طفلٌ وُلِدَ اللحظة يُناديها من

---

(١) أبو الحسن الندوي: النبوة والأنبياء: ص ٥٥.

تَحتها، يُطمئن قلبها، ويَصلها بربها، ويرشدها إلى طعامها وشرابها.. طفلها الوليدُ يناديها: لا تحزني، فربُّكِ لم يَنسكِ ولم يتركْكِ.. فكُلي واشربي. فهذا طعام وذاك شراب.. واطمئني قلباً، ثم يَدلّها على حُجّتها وبرهانها! فأما إذا واجهتِ أَحَداً فأعلنيه بطريقة غير الكلام، أنك نذرت للّه صوماً عن حديث الناس، وانقطعت إليه للعبادة. ولا تُجيبي أحداً عن سؤال.. **﴿فإما تَرَيِنَّ من البشر أحداً فقولي إني نذرتُ للرحمٰن صوماً فلن أُكَلِّم اليوم إنسيًّا﴾**..

وبعد دهشة طويلة وعَجَبٌ عَريض من كلام الطفل اطمأنت مريم إلى أن هذه إرادة الرحمٰن، وأنه سبحانه معها، هذا الطفل الذي ينطق في المهد هو حُجتها، وهو آيةً للناس، **﴿فأَتَتْ به قومها تحمله..! قالوا: يا مريم لقد جئتِ شيئاً فرياً. يا أُخت هارون ما كان أبوكِ امرأ سوءٍ، وما كانت أمكِ بغياً!!!﴾**..

وقد عَلَتْ الدهشة وجوه أهلها، وهم يَرون ابنتهم الطاهرة العابدة تَحمِلُ طفلًا! ثم انطلقوا في تقريع شديد وتأنيب أليم، ثم رَمَوها بأَلْسَع الألفاظ في سخط لئيم وتهكم مرير.. فِعْلُك هذا لا تفعله إلا البغايا الدنيات...

وتنظر مريم إلى القوم بصَمْتٍ خَجول، وهُدوء يطول، ثم تُنفِّذُ الأُمُّ الطاهرة البَتول وصيَّة الطفل العجيب التي لَقَّنها إياها: **﴿فأشارت إليه﴾** هكذا فَعَلَتْ.. أَشَارت إليه في طمأنينة هادئة وسكينة راضية، ونلمح العجبَ في عيون القوم وهي تشير لهم إلى الطفْل ليسألوه عن سرّها!

﴿قالوا: كيف نُكلّم مَن كان في المهد صبياً﴾؟!..

ولكن ها هي ذي الخارقة المعجزة العجيبة تتدخل ثانية في هذا الموقف العصيب الرهيب الذي تواجهه هذه العابدة الصامتة: **﴿قال: إني عبد الله، آتاني الكتاب، وجعلني نبياً، وجعلني مُباركاً أينما كنتُ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حَيًّا وبَرًّا بوالدتي، ولم يجعلني جباراً شقياً، والسلام عَليَّ يومَ ولدتُ ويوم أموتُ ويوم أُبعث حيّاً﴾** [مريم: ٣٠ ـ ٣٣]..

ونكاد نلمح القوم كيف استقبلوا هذه الخارقة، فَبُهِتُوا في صمت

مُضطرب، ها هي ذي عيـون الناس تمتـد برهبـة إلى جلال الأُم الـطاهرة، وتنحني القلوب لهذا الطفل العجيب.

ويدعنا السياق القرآني في مشهد حاضر، يتملّاه الخيال بحسّ مُرهف، والقوم يتلقون مريم وابنها بالأفئدة الهادئة المشدوهة في تقديس وتكريم، وتأهيل وتعظيم. .

وبَعْدُ، لقد كـان حدثـاً عجباً ميـلاد عيسى ـ عليه الســلام ـ نرى أن الإيقاعات في شطر القصة الأول، تحضِّر المشاعر والقلوب، وتُهيىء العقول والنفوس لتلقي هذه الحقيقة التي ألقاها هذا الطفل العـظيم. . ها هي ذي النفوس قد استعدت، وتفتّحت القلوب وامتدت: **﴿قال: إني عبد الله، آتاني الكتاب، وجعلني نبياً. . .﴾** ثم يـأتي التعقيب بالغـرض المقصود في تقـرير حاسم واضح **﴿ذلك عيسى ابن مريم. قول الحق الذي فيه يمترون. ما كان للّه أن يتخذ من وَلدٍ سبحانه. إذا قضى أمـراً فإنمـا يقول لـه كن فيكون﴾** [مريم: ٣٤، ٣٥]. .

ولن نسترسل هنا في الحديث عن الغايات العديدة السامية وراء هذه المعجزة الباهرة، فقد فصّلنا القول في بيان ذلك في قصة عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ فيما تقدَّم في الفصل السابق.

٢ ـ جُرَيج العابد:

تهـدف القصة الإِسـلامية إلى تعميق الـوعي الغيبي، وربط إحساس المؤمن بالله إيماناً وتسليماً، فهذه البشرية هي من صُنع الله، وكل شيء في خَلْق الله عجيب عجيب، فالله هو الخالق، وهو سبحانه صاحب القدرة، العليم الخبير، يفعل ما يشاء وقت ما يشاء.

وحركة القدرة في هذا الـوجود تبلغ حَـدّ الروعـة المدهشـة التي تُبهر الإنسان إذا لاحَقَها بقلب مُتفتح وبَصيرة مُستنيرة. .

والقصة النبوية تُواجه القلب البشري بما يُوقظه ويُحركه، تَقوده إلى التأمُّل

والتدبُّر، وإلى التطلُّع والرجاء. . ثم تدعه في النهاية تحت مؤثرات يد القدرة الإلٓهية الطليقة، تَدَعُه بعد أن تخاطب فطرته خطاباً مباشراً: أنه ليس شيء في هذا الكون إلا بتقدير الحكيم القدير، المطلع على ما يغيب وما يحضر، القوي القادر ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾ [يٓس: ٨٢]، فَتَوَجُّه الإرادة لأمر كاف وحده لوجوده كائناً ما يكون. .

وقصة جريج رحلة في تاريخ بني إسرائيل البعيد، رحلة في الغيب العجيب، رحلة شاسعة الآماد، عميقة الأغوار، عميقة الأبعاد، رحلة في خفايا الحياة، رحلة مع روح القدرة التي تُوجِّه كل شيء في هذا الكون والوجود. .

إنها تُوحي في ثَمَرة هَدْيها وتَوجيهها أنه لا مكان في الحياة الإنسانية للمصادفة العمياء، ولا لِلَفْتَة العارضة ﴿**ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير**﴾ [الحديد: ٢٢]. . وكل أمر لحكمة. ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة. . والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها. ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تُنشيء الآثار والنتائج، وإنما هي الإرادة الطليقة التي تُنشيء الآثار والنتائج كما تنشيء الأسباب والمقدمات سواء ﴿**لا تدري لَعلَّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً**﴾ [الطلاق: ١]. . والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها، والله هو الذي يُقَدِّر آثارها ونتائجها. . والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله وإلى حكمته وعلمه هو وحده الملاذ الأمين. .

ولنمضِ مع كلمات الرسول ـ ﷺ ـ في قصة جريج، نتلقَّى ظلالها بأرواح مُرفرفة، وقلوب خافقة، نتلقى إيحاءاتها ونستقبلها بالإحساس المفتوح والبصائر المستنيرة. .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كان في بني إسرائيل رَجلٌ يقال له: جُريج،

فأنشأ صومعة، يَعْبُد الله فيها، فأَتَتْهُ أُمه ذات يوم ، فنادته، فلم يَلْتَفِتْ إليها، ثم أَتَتْه يوماً ثانياً، فنادته، فلم يلتفت إليها، ثم أَتَتْه يوماً ثالثاً، فقال: صلاتي وأُمي، فقالت: اللهم لا تُمِتْهُ أو يَنْظُر في وجوه المومسات. . . »[١].

وفي رواية مسلم: «وكان جُريج رجلاً عابداً، فاتخذ صومعة، فكان فيها فأَتَتْهُ أُمه وهو يُصَلِّي، فقالت: يا جُريج، فقال: يا ربِّ أمي وصلاتي، فأقبلَ على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أَتَتْه وهو يُصلي، فقالت: يا جُريج، فقال: يا رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أَتَتْه وهو يصلي، فقالت: يا جُريج، فقال: أي ربِّ أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تُمِتْهُ حتى ينظر إلى وجوه المومسات، فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادَتَه، وكانت امرأة بغيّ يُتَمثَّلُ بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتِنَنَّهُ لكم» وفي رواية ابن حبان: «فقالت بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل: إن شئتم أن أفتنه فَتَنْتُه، قالوا: قد شئنا».

قال: «فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأَتَتْ راعياً كان يأوي إلى صومعته، فَأَمْكَنَتْهُ من نفسها، فَوقعَ عليها، فحملت، فلما وَلَدَتْ، قالت: هو من جُريج، فأتوه فاستنزلوه، وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زَنَيْتَ بهذه البغي، فولدت منك، فقال: أين الصبي؟ فجاءوا به، فقال: دعوني حتى أُصلي، فصلَّى، فلما انصرف أتى الصبيَّ، فَطعَنَ في بطنه، وقال: يا غلام، مَن أبوك؟ قال: فلانٌ الراعي، قال: فأقبلوا على جريج، يُقَبِّلونه، ويتمسَّحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا»[٢].

---

(١) رواه ابن حبان بإسناد صحيح على شرط الشيخين (انظر الإحسان ٦٤٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٠) (٨) في البر والصلة: باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها، وأخرجه أحمد ٢/٣٠٧ و٣٠٨، والبخاري (٢٤٨٢) في المظالم: باب إذا هدم حائطاً فليبنِ مثله، و(٣٤٣٦) في الأنبياء: باب قول الله ﴿**واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً**﴾ من طريقين عن جرير بن حازم، وأخرجه أحمد ٢/٤٣٣ ـ ٤٣٤، ومسلم من طريقين عن سليمان بن المغيرة، وأخرجه أحمد ٢/٤٣٤ عن أبي سعيد مولى بني هاشم، =

وفي رواية للإمام أحمد[1] أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «كان رجل في بني إسرائيل تاجراً، وكان ينقص مرة ويزيد أخرى، فقال ما في هذه التجارة خير لألتمسنَّ تجارة هي خير من هذه فبنى صومعة، وترهَّبَ فيها وكان يقال له جريج . . .» فذكر الحديث.

حين نلقي نظرة على مقدمة القصة نجد تمهيد تقريري، ومقدمة تنطلق في جوها أحداث القصة، فهذه المقدمة التقريرية تعطينا تفصيلات عن جريج، وهو الشخص الذي تدور حوله أحداث القصة فهو:

١ ـ رجل من بني إسرائيل.

٢ ـ كان تاجراً، وكانت تجارته غير مستقرة على حال، فهو مرة في خسارة، ومرة في ربح، وهو بين ذلك في عناء وهمّ دائم، مما جعله يلتمس سبيلاً أفضل، إذ تحول إلى الرهبنة والتفرغ للعبادة.

٣ ـ كان عابداً . . «كان في بني إسرائيل رجل عابد يقال له جُريج، فابتنى صومعة[2] وتعبَّد فيها، قال: فذكر بنو إسرائيل يوماً عبادة جريج، فقالت بغي منهم: لئن شئتم لأحبيننّه؟! فقالوا: قد شئنا . .».

إن هذه البداية تقوم بإشاعة الجو المناسب بين المتلقي والقصة، بسبب ما تثيره من أحاسيس وتطلعات وأشواق . .

وفي رواية «وكان في بني إسرائيل رجلٌ يقال له جريج كان يصلي جاءته

= وعلقه البخاري (١٢٠٦) في العمل في الصلاة: باب إذا دعت الأم ولدها في الصلاة، ووصله أبو نعيم، وأبو بكر الإسماعيلي كما في «تعليق التعليق» ٢/٤٤٤ من طريقين عن الليث.

(١) ٢/٤٣٤ عن أبي سعيد مولى بني هاشم، قال: حدثنا أبو عوانة؛ عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة «أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال . .» [الإحسان ٦٤٨٩].

(٢) يقول ابن حجر «ودلّ ذلك على أنه كان بعد عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ وأنه كان من أتباعه لأنهم الذين ابتدعوا الترهُّب وحبس النفس في الصوامع. والصومعة بفتح المهملة وسكون الواو هي البناء المرتفع المحدد أعلاه، وزنها فوعلة من صمعت إذا دققت لأنها دقيقة الرأس».

أُمُّه[1] فَدَعَتْهُ فقال: أُجيبها أو أُصلي[2] فقالت: اللهم لا تُمته حتى تُريه وجوه المومسات. .»[3].

وتمضي القصة في بيانها النبوي: «قال: فذكر بنو إسرائيلٍ عبادة جُريج، فقالت بغِيٍ منهم إن شئتم لأحبينّه» وفي رواية: «إن شئتم لأفتننّه؟! قالوا: قد شِئنا»، فأَتَتْه، فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأمكنت نفسها من راع كان يُؤوي غنمه إلى أصل صومعة جريج، فوَقَع عليها، فَحَمَلَتْ. .».

وفي حديث عمران بن حصين أنها كانت بنت ملك القرية، «ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأنها خرجت من دار أبيها بغير علم أهلها متنكرة وكانت تعمل الفساد إلى أن ادعت أنها تستطيع أن تفتن جريجاً، فاحتالت بأن خرجت في صورة راعية ليمكنها أن تأوي إلى ظل صومعته لتتوصل إلى فتنته»[4]. .

وانطلقت البغي في كيدها المتين، وقد سخرت لفتنة جريج كل ما أُوتيت من جمال «وكانت امرأة بغي يُتَمثَّل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننَّهُ لكم»،

---

(١) في حديث عمران بن حصين وكانت أمه تأتيه فتناديه فيشرف عليها، فيكلمها، فأَتَتْه يوماً وهو في صلاته. وفي رواية أبي رافع عند أحمد «فأتته أمه ذات يوم فنادته قالت: أي جريج أَشْرِف عليَّ أُكلمك أنا أمك. .».

(٢) زاد البخاري في المظالم: «فأَبى أن يجيبها»، ومعنى قوله «أمي وصلاتي» أي اجتمع عليَّ إجابة أمي وإتمام صلاتي فوفقني لأفضلهما. وفي رواية أبي رافع «فصادفته يُصلي فوضعت يدها على حاجبها فقالت: يا جريج فقال: يا رب أمي وصلاتي، فاختار صلاته، فرجعت، ثم أَتَتْه فصادفته يُصلي فقالت: يا جريج أنا أمك، فَكلِمْني، فقال مثله، وفي حديث عمران بن حصين أنها جاءته ثلاث مرات فنادته في كل مرة ثلاث مرات، وفي رواية الأعرج عند الإسماعيلي فقال: أمي وصلاتي لربي أُوثر صلاتي على أمي ذكره ثلاثاً. وكل ذلك محمول على أنه قال في نفسه لا أنه نطق، ويحتمل أن يكون نطق به على ظاهره لأن الكلام كان مباحاً عندهم وكذلك كان في صدر الإسلام. وفي حديث يزيد عن حوشب عن أبيه رفعه «لو كان جريج عالماً لَعَلِمَ أن إجابةَ أُمِّه أَوْلى من صلاته».

(٣) جمع «مومسة» بضم الميم وسكون الواو وكسر الميم بعدها مهملة، وهي الزانية.

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٣٧٢/٦ ـ ٣٧٣.

وسخرت كل ما أُوتيت من دهاء ملون خفي، انطلقت بتصميم خسيس يدفعها للشر إبليس، انطلقت في إصرار عنيد، فأقدمت إقداماً جريئاً وَقِحاً قبيحاً لفتنة هذا الرجل العابد..

استخدمت كل أساليب الغواية الدنية، وأمدها الشيطان بتجاربه وخبراته، ولكن جُريجاً لم يلتفت إليها، ولم تَلِنْ قناة إيمانه لريح الفتنة العاصفة، فما فتنة أضرّ على الرجال من النساء[1]..

إنها محنة شديدة عميقة تعرض لها جريج حين راودته هذه البغي عن نفسها، لتفتنه عن دينه، فهي متهالكة لإيقاعه في كيدها ومكرها، وكان بإيمانه وخوفه من الله يتأبى على الحرام، ويستعيذ بالله، فأكرمه ربّه فَنجّاه من هذه الوقيعة الأثيمة، وصرف عنه هذا الكيد اللئيم العظيم.

وكانت من الغيظ واليأس من صلابة جريج وإيمانه، وعدم قدرتها على إغوائه وفتنته، أن عدلت البغي عن مواجهته بالفتنة، فاستعانت بالشيطان، فعدلت إلى طريق أخبث وإلى حبائل أمكر، مما أتاح لها إحكام الطوق على ثمرة من ثمرات الحق «فأمكنت نفسها من راع كان يُؤوي غنمه إلى أصل صومعة جُريج، فوقَع عليها، فحملت، فلما ولدت، قالت: هو من جُريج..».

وبعد انقضاء أيام حَمْلها، وَلَدت غلاماً، فأتت به قوم بني إسرائيل تَحمِلُه، أَتَتْ قومها، والكيدُ والشر يغلي في عروقها، وأشرفت عليهم، تكاد تميز من الغيظ من جريج الذي لم «يلتفت إليها»، وَقَفَت البغي بين قومها وعيونهم

(١) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما تركتُ بعدي فِتْنَةً أَضَرَّ على الرجال من النساء» رواه البخاري (٩/١١٨)، ومسلم (٢٧٤٠).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الدنيا حُلْوةُ خَضِرَةً، وإن الله مُستخلفكُم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» رواه مسلم (٢٧٤٢). والمعنى أن الله جاعلكم خلفاء من القرون الذين قبلكم، فينظر هل تعملون بشرعه وطاعته، أم بمعصيته وأهواءكم وشهواتكم. واحذروا الافتتان بالدنيا والنساء.. انظر فصل «مسخ وانتكاس» في كتاب «دستور الأسرة في ظلال القرآن».

تتلفت إلى خَبَر فِتْنَتها بهذا الرجل العابد. . وساد صمت هادىء وهم ينظرون إليها تحمل طفلها، وامتدت الآذان لسماع الخبر. . إنهم يطلبون من نفسها خبيئاً قد أَخْفَتْه، وَمَضَتْ لحظات تنتقل عيون القوم بين الغلام وبين أُمه التي تحمله، وقطع السكون صوت لَهوف «فَسُئِلَتْ مِمَّن هذا؟!». . «فقالت: من جُريج»، وفي رواية «فقيل لها مِمَّن هذا؟ فقالت: هو من صاحب الصومعة». . «نَزَل إليَّ من صومعته فأصابني»(١).

لقد حَدَّثت القوم عن فريتها في خَطَلٍ وتَبجُّح، زعمت أنها قد نجحت بعد أن بذلت كل فِتْنَتَها الحسَنة، وكيدها الفتّان حتى قامت بهذا الأمر، وقفت مزهوة بانتصار كيدها، وتعالت بمكرها الشيطاني، ولم تجد غضاضَةً في فِعلها، فأهدت إليهم خبراً يَنتظرون، وامتطَّت في كبرياء وَضِيعَة خسيسة، لقد أجهزت على جريج الذي يُمثل العبادة والطهر والعفاف، أجهزت على معاني الشَرف والفضيلة، أجهزت على كل ثناء على العبادة والتمسك بأخلاق الدين، لقد كان القوم «يتذاكرون جريجاً وعبادته». . أما الآن فلم يبقَ لطالب في جُريج مطلب. .

تصور القصة النبوية الإنسان بما فُطر عليه من طِباع، وتعكس جانب الشرّ حين يُسيطر عليه، فهي ترسم شخصيته في صورة نزوة شريرة استعرت في داخل البغي من بني إسرائيل، فدفعتها إلى ارتكاب أكثر من جريمة كما تصور ذلك القصة.

لقد أثار ثناء الناس على جريج في نفس هذه البغي شعوراً حاداً بالنقمة عليه، فهذا الرجل بصلاحه، ترى فيه هذه المرأة صورة معاكسة لما هي عليه من انحراف، إنه بصلاحه يُذكرها بالطريق القويم الذي لا تسير هي عليه، ومن هنا، من صلاحه وفسادها نشأت النقمة، وكم تود ـ شأن المنحرفين دائماً ـ لو ينحرف عن هذا الطريق، حتى لا يبقى شاهداً على فسادها، ومن هنا

---

(١) رواية أبي رافع والأعرج. (انظر فتح الباري ٦/٣٧٣).

انطلقت في تبجُّح في محاولة لإغوائه، وحين فشلت في هذا، أسعفها تفكيرها الشرير بطريقة أخرى تستطيع أن تلوث سمعته، فأمكنت الراعي منها، وحملت منه، ولما وَضَعَتْ، اتهمت بالوليد الرجل الصالح كما تقدم. .

إنها صورة لقلب قاسٍ مُتحجر، صورة لفساد الفطرة وسوء الطوية، إنه الاضطراب والتخبُّط الذي يُصاب به المنحرفون حين يسمعون عن الخير وأهله، فهم يريدون، ويكافحون بتصميم أسود على إزهاق الحق في صُوَرِهْ. . صورة زرية تدعو إلى الاحتقار والسخرية، زرية بما فيها من ضعف والتواء.

إن أهل الباطل والشر والفساد لا يطيقون وجود الحق والخير والصلاح، إنهم يشعرون بالحرج والضيق، لذلك يُسفر أهل الباطل عن حقيقة وجدانهم تجاه الخير وأهله، وهذه حتمية لا بد منها، فإن أهل الباطل ينتفضون منذ البدء مذعورين لدعوة الصلاح والخير والرشاد، ومن هنا ندرك لماذا كانت مواجهة أهل الباطل لدعوة الرسل الكرام، ومواقفهم الملتوية الهابطة من أهل الفضيلة والأخلاق على مدار الزمان وفي كل مكان. .

وهكذا رسمت القصة هذه الصورة الكالحة، رسمت خطوط الوجدان الأسود المنحرف، في الإصرار على لَوْيِ الحق، وتلويثه بنتن وعفن الباطل. . ها هي ذي بغيٌ من بغايا بني إسرائيل حين سمعت قومها يتذاكرون جريجاً وعبادته تقول: «إن شئتم أن أفتنه فَتَنْتُه».

لقد أَحسَّت هذه المرأة البغي بهزيمتها أمام وجود العفة والطهارة، أمام الخير والصلاح متمثلاً في جريج، متمثلاً في وجود إنساني. .

إن الباطل لا يرضى أن يكون للحق وجود في شخصية إنسانية، فالتركيب الذي أقام عليه أهل الفساد حياتهم يجعلهم في حساسية شديدة تجاه وجود الخير، ولن يترك الباطل صورة الحق في واقع ما، فهو يخشى أن يظل الحق حَيًّا على الأرض، ومن ثم يعاديه بشتى الوسائل، ولا يدعه يسلم أو يستريح. .

إنها العقدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان وفي كل مكان. . «فأَتَتْه، فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأمكنتْ نفسها من راع. . .

فحملت، فولدت غلاماً، فقالوا: مِمَّن؟ قالت: من جُريـج. .»، وفي رواية «فذهبوا إلى الملك فأخبروه قال: أدركوه فأتوني به»[١] . . «فأتوه فاستنزلوه، فشتموه وضربوه، وهَدّموا صومعته. .».

وترسم القصة صورة في حركة. . حركة حيّة تنبض بها الصورة في لون قاتم، صورة تنبض بالغضب الصارخ الجامح، ويتراءى في هذا المشهد الصاخب جريج، هذا الرجل العابد الصالح، تسود فكره وتُغطيه حيرة داكنة، حيرة تدفعه إلى قَلَق صامت ومفاجأة مدهشة. . فلماذا هذا الصخب الغليظ، والاعتداء المشين، والضجيج السميك، لقد شتموه، وضربوه، وهدّموا صومعته «فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زَنَيْتَ بهذه البغي، فولدت منك!!!».

وفي رواية أبي رافع «فأقبلوا بفؤوسهم ومساحيهم إلى الدير، فنادوه فلم يكلمهم، فأقبلوا يهدمون ديره»، وفي حديث عمران «فما شعر حتى سمع بالفؤوس في أصل صومعته، فجعل يسألهم: ويلكم ما لَكُم؟! فلم يجيبوه، فلما رأى ذلك أخذ الحبل فتدلى. .»، وفي رواية «. . فأخذوا في هدم صومعته، فلما رأى ذلك نزل فجعلوا في عُنقه وعنقها حبلاً، وجعلوا يطوفون بهما في الناس».

وفي رواية أبي سلمة «فقال له الملك: ويحك يا جريج، كنا نراك خير الناس، فَأَحْبَلْتَ هذه اذهبوا فاصلبوه»، وفي حديث عمران: «فجعلوا يضربونه، ويقولون: مُراء تخادع الناس بعملك»، وفي رواية الأعرج: «فلما مروا به نحو بيت الزواني خرجن ينظرن، فتبسّم، فقالوا: لِمَ يضحك حين مَرَّ بالزواني»[٢] .

هنا تظهر منطقة الثقل في القصة حيث تبرز المشكلة المثيرة التي تواجه صاحب الموقف «التهمة بالزنا»، وما صاحب ذلك الاتهام من سبٍّ وضرب،

---

(١) من رواية أبي سلمة رضي الله عنه عند الإمام أحمد.
(٢) وقد ذَكَرَ دعاء أمه: «اللهم لا تُمِتْهُ حتى ينظر إلى وجوه المومسات».

وتوبيخ، وأذى أليم، وبلاء جسيم، مع أنه بريء من كل ما أُلصق به زوراً، وحتى جمهور المستمعين يشاركون (صاحب الموقف) في هذه الأزمة؛ لأنهم يعرفون أنه بريءٌ، فقد كشفت لهم القصة عن الموقف الذي تمَّ بين البغي وبين الراعي، فالحقيقة ظاهرة لهم، ولكنها خافية عن جماهير القصة، هذه الجماهير المندفعة في غير روية، تصبّ جام غضبها على المتهم، الذي هو في حسبانهم في تلك اللحظات مُنافق مخادع، يَتَزيَّا بلباس العابدين الصالحين «زنيتَ بهذه البغي» وهذا هو الدليل: «فَولَدتْ منك»!

يا للمصيبة.. إنها طامة كبرى تقع على رأس (جريج)، مشكلة في أقصى درجات الحدة، أَنْسَتْهُ مأساته في ضربه وهدم صومعته!

إن القصة تثير فينا الانفعال إزاء ما يجري للعابد الصالح البريء، الشفقة والعطف أمام موقف الناس منه، وقد اتهمته تلك البغي بأنه زنى بها، وليس ذلك فقط، بل ولدت منه..

إنه مشهد شاخص في صُور مُتلاحقة، يتقاطر الحزن من متابعتها حين هجموا عليه من كل اتجاه، فأنزلوه من صومعته، وشتموه، وضربوه، ثم هَوَتْ الصومعة تحت ضربات الغوغاء، فأصبحت كومة من حجارة متصدعة.. ونحن نعلم براءته وعفته وصلاحه، فيثير هذا المشهد في نفوسنا مشاعر الإشفاق والأسى لما أصاب هذا العابد الطاهر.

إنها صور شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، تموج في أعماقنا، تدفع سمات الاندفاع، المنبعثة من الموقف، فتتلاقى مشاعرنا بحوادث القصة، وتتفاعل مع رهبة الموقف الذي يواجه العابد جريج..

وتدع القصة للخيال جناحه، فينطلق، بعد أن رسمت لوحة يائسة لموقف جريج، والناس تُواجهه بالجريمة الوقحة، والبَيِّنَة الواضحة، فهو في ضرب وشتم وتحقير وتأنيب مستمر، ونحسبه قد دُهش طويلاً، وبُهِتَ طويلاً، وهو في موقف المشدوه في هذا الهول المرعب المحيِّر..

ويدع المشهد للحسّ أن يتأثر عن طريق الخيال، ليستقر في النهاية معنى

الاستحالة في مواجهة الناس، بالكلمة والبرهان، فهم في غَضَب ثائر لا يُطفىء لهيبه، وقد وَاجهوه بجريمته وآثارها المخزية. .

والصورة التي مُلئت حزناً وأَسىً في هذا المشهد الكئيب هي التي رسمت الصراع الذاتي في أعماق النفس الإنسانية، أعماق جُريج، نجده يواجه صَلْد الجماهير، وقد طُمست أعينهم، فهم لا يُميزون بين الحق والباطل، بين البريء العفيف، والمجرم الحقير. .

إن الصورة تبرز الحيرة الحزينة التي تنتاب العابد وهو يُواجه هذا كله، يتوزَّع قلبه في خطوط المشكلة المتعددة المتباعدة، ويتفرق إحساسه هنا وهناك، إنها ترسم حالة نفسية معنوية هي ذروة الضيق والحرج والحزن العميق. .

إنها لحظة ثقيلة ترسمها القصة في أعماق الشعور الإنساني، صورة شاخصة، فيها الحركة المتحيرة. . لا كلام يَنفع، ولا حُجة تَدفع، ولا حيلة تَنجح، فقد أُغلقت النوافذ، وأُوصدت الأبواب. .

وهكذا تعرض القصة النبوية مشكلة حيوية واقعية، حين يتعرض البريء الشريف العفيف، لتهمة تُدنِّس نصاعة حياته، وتُلوث طهارة سمعته. إن مثل هذا الموقف يثير في نفس صاحبه صراعاً يؤدي إلى توجُّه خاص، وتفكير معين. .

نجد «جريج» في مواجهة الخطر، وهو يواجه غضبة الجماهير المُضلَّلَة، المُتَدفِّقة عليه في صومعته، يضربونه ويشتمونه، وهم يتهمونه بالزنا، والقصة لا تُخفي ضعف موقف (جريج)، وقُصوره عن دفع الحجة التي صاغها بُهتان كبير، وكَيْد لَئيم.

إنه موقف صعب عسير، فهو يُواجه نهاية أَليمة حزينة لحياة طاهرة عفيفة، فقد أُحكمت قيود المحنة، وهو مستسلم لأمر الله، مُوقناً بعون ورحمته، ولكن كيف. . ؟!

وبعدُ، إن هذا الموقف الذي يضجّ ألماً، ويَطمُّ حُزناً وهَمًّا وغَمًّا، هذا

الموقف المفزع الذي تتسارع فيه اللحظات متتالية، يُثير عند (جريج) بلا شك شتى الانفعالات المتصارعة، والمترددة بين مُواجهة لفضيحة كبيرة، وبين شعوره الحقيقي بأنها تهمة أُلصقت به، وأنه بريءٌ منها تماماً، مما جعله بدافع الثقة بنفسه وبراءته يتصرف بشكل ما «فقال: أين الصبي؟ فجاءوا به..»، ثم طلب منهم أن يدعوه يُصلي قبل أن يرجموه «فقال: دعوني حتى أُصليِّ..».

وهكذا.. وفي وَمْضة، يقف الموج الطاغي في النفس.. وفي تلك اللحظات الباكية الحزينة طوى الرجل نفسه على عزيمة حذّاء ماضية أن يتوجه إلى الله وحده، فهو السميع العليم، فقام «فتوضأ وصَلّى»[1]، واتجه قلبه في رجاء ضارع طويل، فهو سبحانه يُجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء..

ها هو ذا (جريج) في مشهد صامت بين الحشود الكثيفة يُصليِّ، لقد فَزِعَ إلى الصلاة، فهي الصلة بينه وبين الله، فهو العابد الذي صَدَقَ ما عاهد الله عليه في حياته، يسأل الله المجيب الرحيم أن ينقذه مما هو فيه.. وفي روحانية وتكريم منه سبحانه غَمَر ذلك المشهد سكون مضيء، وانطلقت روح العابد تَتَحسَّس حَبْل الله المتين، وأخذت نفسه تَتَذوَّق ثمرات الأمل الودود الرحيم، واستقبل القلب المكسور الحزين لمسات السكينة والرضي، وامتزجت النفس بنور هادىء، فسكنت إلى كلمة الله، مطمئنة رخية..

لقد طوى الحزن رَحْلَهُ، وحَمَلَ معه الشدة والضيق والفزع التي دَسَّها في كيان (جريج)، وألقى الله في روع العابد أنه ناج بقدرته، وألهمهُ سبحانه ما يفعل[2]، فانشرحت أساريره، وانقلب الهمَّ الثقيل أملاً ضاحكاً، وإذا بجريج العابد يقوم من صلاته، قام، والرعاع تحيط به كالسيل الجارف، يَمُوجون حُقداً فائراً، قام جريج مُتكئاً على طمأنينة لَيِّنة، وعلى مرأى ومسمع

---

(١) رواية أبي هريرة رضي الله عنه عند الإمام البخاري.

(٢) في مرسل الحسن عند ابن المبارك في «البر والصلة»: «أنه سألهم أن يَنظروه فأنظروه، فرأى في المنام من أمره أن يطعن في بطن المرأة فيقول: أيتها السخلة من أبوك ففعل. فقال: راعي الغنم».

من الجماهير، وفي سكون مهيب اقترب من الغلام الذي اتُّهم بأنه أبـوه من الفاحشة، اقترب منه، وطَعنَ هذا الرضيع بإصبعه وهو يقول: «بالله يا غلام، مَنْ أبوك؟ قال: أنا ابن الراعي . . ».

وفي رواية أبي سلمة «فأتى المرأة والصبي، وفمـه في ثديها، فقال لـه جريج: يا غلام مَنْ أبوك؟ فنَزَع الغلام فاهه من الثدي، وقال: أبي راعي الضأن . . ».

لقد بُهتَ القومُ، وعَلَتْ قلوبهم سَحابة كثيفـة ثَقُلَتْ دَهشةً، ومـلأت نفوسهم عجباً، فكلمات الرضيع هزّت المستمعين هَزاً عنيفاً، وانـتزعت من قلوبهم بذور الحقد والشر التي ألقتها تلك البغي الفاجرة بكيدها المتين.

والحوار هنا كان له الروعة الفائقة في تجلية الحقيقة، فهو الحوار المعجز العجيب الذي ارتسم في الكلمات المحسوسة في المشهد المنـظور بين العـابد والغلام بعد الصلاة. قال العابد: «بالله يا غلام، مَنْ أبوك؟». . «قال: أنا ابن الراعي». .

إنها لوحة ناطقة! حوار مُصوَّر. . لوحة شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، وقد استوت لها كـل عناصر التخييـل، يَنسىٰ المتلقي أن هذا الكلام يُتلى، ويتخيل أنها صورة تُعرض، وحادث يقع، وتقع العين على هذا المشهد، فترى سـمات الانفعال الملون بشتى الـوجدانـات، المنبعثة من هـذا الحوار، فتنتفض قلوب الجماهير حُرَّة، خاشعة للّه في رَهبة وسكون، وخوف عميق، ثم تتحرك الكلمات في حياء وخجل، تتحرك في هدوء بهيج لتقـدم الاعتذار الرقيق في تعبير رفيق «فأقبلوا على جُريج، يُقَبِّلونه، ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا». .

وتضع القصة المتلقي أمام صورة مُعبِّرة، تُلِحّ على الحسّ والوجدان، فلا يستطيع أن يتحـوّل عنها إلا بجهـد ومشقة، وهي من أعجب الصـور التي ترسمها الكلمات. . إنه مشهد حيّ شـاخص. . إنه يـبرز حقيقة تهفـو إليها

القلوب فهو سبحانه الذي **﴿له دعوة الحق﴾** وهو جَلّ وعلا يقول **﴿أَمَّن يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾** . .

وفي القصة توكيد على وحدانية الله سبحانه التي تعني قيامه ـ سبحانه ـ على كل موجود، وهو صاحب الأمر كله. لقد سمع سبحانه قول البغي عن عبده الصالح «إن شئتم لأفتننّه لكم»، وقد عَلِمَ خبيئة الشرّ التي أضمرتها، فهو السميع العليم الذي **﴿يعلم الجهر وما يخفى﴾** . . **﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾** . .

كذلك لا يقع شيء في هذا الوجود إلا بإذن الله **﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾**. فبإذن الله تفعل الأسباب فعلها، وتنشىء آثارها وتحقق نتائجها. . وهذه قاعدة كلية في التصور الإسلامي توضحها القصة النبوية في ضمير المؤمن، وإن أمر الغيب كله للّه، وجلب نفع أو دفع ضر كله بيد الله، وله القدرة المطلقة في عالم الأسباب، وله القهر كذلك على العباد، وعنده الحكمة والخبرة في كل شيء. . وهو سبحانه وتعالى يُجري خوارق ومعجزات، تحدث بإرادته لنصرة عباده وأوليائه الصالحين، فقد أنطق الله الغلام الرضيع، حيث كشف بنطقه المعجز، الغمّة التي أحاطت بجريج، والناس من حوله يشتمونه ويتهمونه بالزنا مع البغي الفاجرة.

ما أحوج مَنْ يواجه الطُغيان وجبروته وهو يواجه الفساد بالتواء أهله وكيده وانحلاله. . ما أحوج مَن يواجه أهل الضلال بمكرهم اللئيم. . ما أحوج مَن يواجه هذا الشر كله، أن يستصحب في قلبه اليقين بأن الضار الناضح هو الله، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأن الله هو القاهر فوق عباده، فلا مُعَقِّب لحكمه، ولا رادّ لما قضاه، ولا دافع لإرادته. .

لقد رسمت القصة النموذج الإنساني، الذي حقَّق في واقعه الجانب الأخلاقي الفاضل. إنه موقف الخير والشرف والعفة، في شخصية (جريج)، الرجل العابد، الزاهد الصالح، الذي استعصى على إغراء البغي، ومحاولتها في إغرائه وإغوائه.

إن هذا الموقف العفيف هيأ المناسبة لتعميق الحقيقة الخالدة، وإبراز سنّة الله الثابتة في نصرة أوليائه، والدفاع عنهم.. رسمت القصة هذه الحقيقة الروحية في مشهد حاضر.. يُسمع ويُرى، لقد صُوّرت هذه المعجزة في لوحة ناطقة، انبسطت فيها ألوان من الرحمة الإلٰهية، واستقبلها القلب في سكون وسكينة، وقد نسجتها خطوط القدرة الفاعلة، تُحركها لمسات من النور تماوجه العواطف، وتعانقه الأرواح، ويشهده الحسّ والخيال، وتفيض العيون بالدمع من التأثُّر، والفرح برحمة الله التي تدرك العبد الصالح، فقد تكشفت الحقيقة، وانجلت الأزمة على لسان هذا الطفل فقد أنطقه الله ليكشف سبحانه حقيقة المجرم، وغموض الجريمة!!! والموقف هنا حافل بالمفاجأة والحيوية، نظراً للحدث غير العادي الذي احتواه، مما أَدَّى أيضاً إلى بروز موقف جديد في المرحلة الأخيرة من القصة.. «فأقبلوا على جُريج، يُقَبِّلُونه، ويتمسَّحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا»..

قال الحافظ في (الفتح) عن قصة جريج: «في الحديث عِظَمُ بِرِّ الوالدين، وإجابة دعائهما ولو كانَ الولد معذوراً، لكن يختلف الحال في ذلك بحسب المقاصد، وفيه أن صاحب الصدق مع الله لا تضرّه الفتن، وفيه قوة يقين جريج المذكور وصحة رجائه، لأنه استنطق المولود مع كون العادة أنه لا يَنطق، ولولا صحة رجائه بنطقه ما استنطقه، وفيه أن الأمرين إذا تعارضا يُبدىء بأهمِّهما، وأن الله يجعل لأوليائه عند ابتلائهم مخارج، وإنما يتأخر ذلك عن بعضهم في بعض الأوقات تهذيباً لهم، وزيادة لهم في الثواب، وفي إثبات كرامات الأولياء، ووقوع الكرامة لهم باختيارهم وطلبهم، وفيه أن المفزع في الأمور المهمة إلى الله يكون بالتوجه إليه في الصلاة».

صُوَر إنسانيّة:

وأخيراً لا بد من كلمة عن وظيفة الشخصية في تحقيق غايات القصة في نفوس مُتلقيها، فقد حملت الشخصيات المعاني والأفكار التي يُراد من المتلقي أن

يُـدركها بصـورة غير مبـاشرة عبر هـذه الشخصيات التي تحـركت أمامـه في القصة . .

في هذه القصة خمس شخصيات، منها ثلاث شخصيات رئيسة، واثنتان ثانويتان هما (الراعي) و (الغلام)، فكل من (جريـج) و (البغي) و (الناس) الذين هم بنو إسرائيل، أشخاص رئيسة، لهم أدوار أصيلة وثابتة في القصة.

أما جريج فهو الشخصية (الأصل) والأساس في القصة، وبسبب وجود هذه الشخصية تنشأ في القصة الشخصيـات الأخرى بمـا فيها الشخصيـات الرئيسة الأخرى.

والقصة تبدأ بالحديث عنه وعن عبادته وصلاحه، حتى أنه بنى صومعة يَتعبَّد فيها، وهو بهذا الصلاح، وبهذه العبادة الفريدة لَفَتَ الأنظار إليه، حتى صار حديثاً في مجالس بني إسرائيل، مما دفعهم إلى الائتمار به.

وحين تتعرض له (البغي) لا يلتفت إليها، فهو مَثَل للعفّة والتصون، وتُوَجَّه إليه تهمة الزنا، ويواجهه الناس بالغلام المنسوب إليه، بعد أن شتموه وضربوه، ومن هذا الموقف يتحرك في تصرف معين يمليه عليه الواقع الذي هو فيه، فيطلب منهم أن يدعوه يصلي، فهو واثق من نفسه ومن براءته، فيقوم ويُصلي ويتوسل إلى علاّم الغيوب، ويدعو الذي لا تخفى عليه خافية لينقذه مما هو فيه من ورطة، ويستغيث ربّه حتى أنطق اللّهُ الغلامَ بالحقيقة، فنلاحظ هنا استمرارية (جـريج) عـلى طول العـرض القصصي بوصفـه شخصية رئيسـة في القصة.

وهكذا تحرص القصة النبوية على الاستفادة من الشخصية وتوظيفها، بحيث تدفعها إلى الحركة الدائمة بـوضعها أمـام مواقف جـديدة، تصنعهـا المشكلة أساساً لهذا الغرض، مما يجعل الشخصية تتخذ سلوكاً معيناً، نجـد (جريج) العابد يوضع في أصعب المواقف، وأكثرها حَرَجاً وحساسية، فما كان منه إلا أن يلجأ إلى الصلاة والدعاء، وهو تصرف نابع من إيمان نَديّ عميق، واطمئنانه إلى أن الله سيكون معه . .

تلك شخصية مُوحَّدة بارزة، ونمـوذج إنساني واضـح في كل مـراحل القصة، فهو نموذج الهدوء والحلم، والثقة بالله، واليقين بقدرته، ولم يُخرجه إحكام الفتنة، وإطباق المحنة عن تلك الثقة وذلك اليقين، بل اتَّجه إلى الرحمٰن الرحيم بأَمَلٍ مُضيء، فاستجاب له ربه السميع المجيب.

وبعد ظهور الحق وإزهاق الباطل، والتفاف الجماهير تُقَبِّله، وتَتَمَسَّـح ببركته، ثم عَزْمَهم على بناء صومعته من ذهب يغلبه الطبع الرضي، وتَغلبه التقوى، ويُدركه إيمانه فيقول: «لا، أعيدوها من طين كما كانت».

وكذلك البغي شخصية أساسية في كيان القصة، فهي تبرز منذ الفصل الأول للقصة، وهي تشارك القوم في حديثهم عن (جريج)، بل إنها تتقدم في تأكيد على قدرتها للقيام بغوايته، حيث عـرضت على القـوم الإيقاع بـه إن شاءوا، ووافقوا على ذلك، وانطلقت إلى جريج، تتعرض له، لتغويه وتفتنه، ولما لم تفلح معه، لجأت إلى كيد النساء العظيم حين أمكنت نفسها من راع، وَقَع عليها، فحملت، وولدت منه غلاماً، ثم نسبته إلى جريج، مما دفع الناس إلى ثورة عارمة على (جريج)، وهكذا نلاحظ وظيفتها في القيام بدور (الشر) بنجاح كبير.

وتبدو هذه المرأة منطوية على روح الإجـرام بشكل مؤكـد، إذ أنها لا تكتفي بجريمة الزنا، حتى تضيف لها اتهام (جريج) العـابد بـأنه هـو الذي زنا بها.

إن ريح الشرّ تتوثب داخل كيان هذه المرأة التي صاغ نَفْسَها الشيطان، فقد ارتكبت إثماً كبيراً بهذا الإفك والبهتان العـظيم للنيل من سمعـة وحياة العابد العفيف، فهذه المرأة تُمثل دور الإثم والخطيئة بصورة قوية، ومع أنها بغي، وهذا كاف في بيان إغراقها في الشر، فإنها تتوغّل في هذا السبيل الهابط، وتنتدب نفسها للتمرغ في الوحل المقيت أمام القوم من بني إسرائيل الذين أغاظهم صلاحُ العابد (جريج)، فقد نهضت بمهمة الشيطان لإغرائه، وإفساد دينه، وحين تفشل في ذلك معه، تتعرض للراعي فتحمل منه، ثم تتهم بهذا

الحمل الحرام ذلك العبد الصالح، ويشاركها في هذا الموقف الدنيء (الجماهير) التي شجعتها في بداية القصة على أن تُصبي وتفتن جريجاً، وتصرفه عن عبادته.

والعنصر الرئيس الثالث في شخصيات القصة هو (هذه الجماعة من بني إسرائيل) التي تذاكرت عبادة جريجٍ في مجالسها، وانطلقت في هذه المجالس تفكر في الإيقاع بهذا العابد حسداً من عند أنفسهم، وكان لهم دورهم في تشجيع وتأزيز الشر في البغي على محاولة إغواء (جريج)، وهم يبرزون مرة أخرى على مسرح الأحداث حين يحين الحين، وتلد هذه البغي، وتتهم به (جريجاً) فيندفع هؤلاء يحركون الناس ضد العابد، وينطلقون في غوغائية مجنونة محمومة على العابد وصومعته، وهو سلوك جماعي لا أخلاقي ترفضه القصة في مغزاها من خلال رفضها لفعلتهم حين اتفقوا مع البغي للإيقاع بجريج وإغوائه..

ولكنهم حين تتكشف لهم الحقيقة عندما نطق الغلام بقدرة الله تبارك وتعالى، يؤوبون إلى الحق، ويندمون على فعلهم الأثيم النكير، ويَثبون على جريج يُقَبِّلونه، ويتودَّدون إليه، ويعرضون عليه أن يبنوا صومعته من ذهب، ولكنه يفضل أن تُبنى من طين كما كانت، وذلك في مشهد ختامي رائع.

إن الحياة البشرية ما تني تطلع علينا بمثل هذه المحنة وإن تلونت بأصباغ أُخرى، الفتنة القاسية المُرّة في تلبيس الحق على الجماهير الإنسانية، والتشهير بأهل الحق في كل زمان ومكان..

إن الناس ـ لو خُلِّيَ بينهم وبين الحق والصلاح، والطهر والعفاف ـ لا يتبعون إلا هذا الخير الكريم، ولكنها أبواق الشر المُضَلِّلة في إلصاق التهم الخسيسة بهذا الخير البَيِّن الواضح، فهذه البغي نموذج إنساني متكرر لكيد الباطل الكالح الأسود الحسود المنكود..

وحين نرجع إلى الشخصيتين الأخرتين: (الراعي) و (الغلام) نجد أنهما شخصيتان ثانويتان، كل منهما ذات دور محدد في القصة، بحيث ينتهي بانتهاء

هذا الدور، فـ (الراعي) يظهر حين دعت إليه الحاجة، وذلك حين فشلت (البغي) مع (جريج)، وكانت تطمع في إغوائه لتحمل منه، ولما أعرض عنها، كان لا بد أن تتجه بؤرة الشر في أعماقها إلى شخص آخر يؤدي معها هذا الدور، وكان هذا الشخص هو (الراعي) فواقَعَها، وبعد ذلك اختفى، وانتهى دوره.

والغلام من حيث هو شخصية ثانوية ينتهي بعد أن يؤدي دوره العجيب المزدوج، حقاً كان دور هذا الغلام من أعجب العجب.. فقد كان هو الدليل على اتهام جريج بالزنا من هذه (البغي) فقد قالوا: «إنك زنيتَ بهذه البغي فولدت غلاماً، قال: وأين هو؟ قالوا: هو هذا».

فقد كان هذا الغلام شاهد الإثبات في اعتبار هؤلاء الذين يتهمون جريجاً..

ومثار العجب أن هذا الغلام كان أيضاً شاهد النفي عن جريج، حين قام هذا العابد البريء، فصلّى ودعا، ثم أقبل على الغلام «وقال: بالله يا غلام مَن أبوك؟ قال: أنا ابن الراعي!».

واعجباً.. كان دوره أن يكون شاهد الإثبات.. وشاهد النفي في الوقت نفسه.

وهكذا تدور شخصيات القصة في وظيفتها الفنية، بين أدوار رئيسة، وأدوار ثانوية، وهي ذات وظيفة، إنها تبرز على ساحة القصة محققة هدفاً معيناً، فدور الشخصية دور مزدوج، ذلك أنها تحقق في وقت واحد وظيفة فنية، ووظيفة موضوعية، فكانت هذه الشخصيات تعبر عن قيم ومعان وأفكار تهدف القصة لترسيخها وتأكيدها، فشخصية جريج توظف بصورة إيجابية، فهي من الشخصيات التاريخية من بني إسرائيل التي تحمل المعاني والأفكار والقيم الإسلامية التي يدعو إليها الدين، وتعمقها القصة في النفوس، وتؤكد عليها في سلوك الناس، فقد وُصِفَ جريج بأنه «رجل عابد» مما حَدَّد له وضعاً اجتماعياً معيناً، وتذكر المرأة بأنها «بغي منهم»، ولم تقل القصة «امرأة منهم»،

وذلك لأن في وصفها بالبغاء ما يعطي شخصية هذه المرأة بُعْداً أخلاقياً في سلوكها في المجتمع الذي تعيش فيه، حتى يتسنى لنا من خلال معرفة وضعها الاجتماعي هذا، أن نضع تصرفها إزاء جريج، واستعدادها لإغوائه، أن نضعه في إطاره الصحيح، وليكون موقفها متطابقاً تماماً مع شخصيتها.

كما تختار القصة لفظة (الراعي)، لما فيها من إيحاء خاص له دلالته على شخصية الرجل الذي أمكنت البغي نفسها منه.

وكان للحوار الدور البارز في بناء القصة، فقد ساعد على رسم الشخصيات وجعلها أكثر حضوراً، كاملة الوضوح فيما تحمل من مشاعر الشخصية وعواطفها وأحاسيسها المختلفة، كما نجد أن هذا الحوار يطور الأحداث ويدفعها إلى الأمام، فقد كان انطلاق البغي إلى العابد.. ثم إلى الراعي، وما استتبع ذلك من أحداث، إنما كان الدافع إليه ذلك الحوار في مجلس القوم حين تذاكروا عبادة جريج وصلاحه..

لقد كانت القصة مسرحاً حافلاً بالنشاط في مشاهد حيوية، تعتمد على تتابع الأحداث تتابعاً سريعاً، فتوجد للقارىء أو السامع جواً مليئاً بالحركة، يتابعه بشوق وتلهف، بالحس والخيال، فهي تحرص على ترابط الحدث من الداخل، بحيث يؤدي هذا الترابط إلى وحدة في الأثر لدى المتلقي بصورة قوية ومركزة من خلال تطور الحدث، ويجعل ورودها إلى النفس أيسر، وَوَقْعها في الوجدان أعمق[1]..

إن البيان النبوي يصور الواقع الإنساني في شخصيات القصة، فهي نماذج تناثرت في ثنايا المجتمع البشري في كل زمان وفي كل مكان، وقد رُسِمَت شاخصة، لا تخطئها العين في المجتمعات الإنسانية على مر الأيام، ففي الإنسانية خيراً، فهي لم تعدم النماذج الطيبة، العفيفة، الصادقة، الصابرة..

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ١٠٠، ١٣٤، ١٩٤، ١٩٦، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٦٦، ٢٩٢، ٢٩٨، ٣٠٨، ٣١٠، ٣٢٠، ٣٩٧، ٣٩٩، ٤٠٤، ٤٦٩، ٤٧٣.

فهذه النماذج توقظ الإحساس، وتحرك الوجدان، لترتقي بالبشرية إلى أفق العقيدة العالي هناك، وتهتدي بهدي البصيرة، ويفتح الإنسان حسّه وقلبه لِتَلَقِّي الأصداء المضيئة، والأنوار العلوية . .

لقد انجلت الكربة، وانساحت الغمة عن جريج، وأعاد القوم بناء الصومعة التي أُتخذت رمزاً للشرف والفضيلة، ومنارة للصدق والإخلاص . . «فَرَدُّوها فرجع في صومعته، فقالوا له: بالله مِمَّ ضحكت؟ فقال: ما ضحكت إلا من دعوة دَعَتْها عليَّ أمي»(١) . .

وهكذا يتوافق المطلع والختام في القصة، وقد حققت الهدف الديني كاملاً . . فيها عبرة لَمن يعقل، وذكرى لَمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٣ ـ الرضيع والأم:

لقد سلك الرسول ـ ﷺ ـ نهج القرآن الكريم في نشر الوعي واليقظة في القلوب، وتعميق مبادىء الإسلام في النفوس، حيث نجده ـ ﷺ ـ يتخذ من القصة أسلوباً مهماً في التعريف بقيم الإسلام ومعانيه، ويُربي عليها الصحابة الكرام. يَتعهَّدهم ويَعظهم، ويُوجههم من خلالها إلى الإيمان بهذا الدين عقيدةً في الفكر، وتصوراً وطريقة في السلوك، ومنهجاً قويماً في واقع الحياة.

---

(١) من رواية أبي سلمة رضي الله عنه. قال ابن حَجر: «وفي الحديث إيثار إجابة الأم على صلاة التطوع، لأن الاستمرار فيها نافلة، وإجابة الأم وبرّها واجب. . وقد تقدم من حديث يزيد بن حوشب عن أبيه أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لو كان جريج فقيهاً لَعَلِمَ أَنَّ إجابة أُمِّه أَوْلَى من عبادة ربه».

والظاهر أن أُم جريج كانت تشتاق إليه فتزوره في صومعته، وتقنع برؤيته وتكليمه، وكأنه إنما لم يخفف صلاته ليجيبها لأنه خشي أن ينقطع خشوعه. .

وفيه الرفق بالتابع إذا جرى منه ما يقتضي التأديب لأن أم جريج مع غضبها منه لم تدع عليه إلا بما دعت به خاصة، ولولا طلبها الرفق به لدعت عليه بوقوع الفاحشة أو القتل.

وفيه أن صاحب الصدق مع الله لا تضره الفتن. . ».

وفي قصة (الرضيع والأم) يقول الرسول - ﷺ -: «. . . وكانت امرأة ترضع ابناً لها من بني إسرائيل فَمرَّ بها رجل راكب». . وفي رواية «. . وبينما امرأة في حجرها ابن لها ترضعه إذ مَرَّ بها راكب ذو شارة. . ».

التمهيد هنا يعطينا صورة عن حالة أهم شخصياتها (الأم - والطفل) أم فقيرة بائسة تقف على قارعة الطريق أمام الغادين والرائحين، تطعم وليدها من ثديها، وبينما هي على تلك الحال، إذ تجد نفسها أمام راكب ذي شارة، إنها أمام رجل غير عادي، عليه مظاهر العز والمنعة والغنى فهو ذو شارة يتميز بها عن غيره.

من هذا الموقف تبدأ أحداث القصة. .

«وبينما امرأة في حجرها ابن لها ترضعه، إذ مَرَّ بها راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثل هذا، قال: فترك ثديها، وأقبل على الراكب فقال: اللهم لا تجعلني مثله، قال: ثم عاد إلى ثديها يمصّه، [قال أبو هريرة: فكأني أنظر إلى رسول الله - ﷺ - يحكي على صنيع الصبي ووضعه أصبعه في فمه فجعل يمصّها] ثم مَرَّ بأَمَة تُضرب، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، قال: فَترك ثديها، وأقبل على أُمِّه فقال: اللهم اجعلني مثلها، قال: فذلك حين تراجعا الحديث، فقالتْ: حَلْقىٰ[1]!. . مَرَّ الراكب ذو الشارة فقلتُ: اللهم اجعل ابني مثله، فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله، ومُرّ بهذه الأَمَة، فقلْتُ: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلتَ، اللهم اجعلني مثلها[2]؟!»[3].

---

(١) أي مصيبة حالقة، وهي هنا على التعجب. انظر ابن الأثير «النهاية في غريب الحديث» ١/٢٥١، وانظر الزمخشري: «الفائق» ١/٣١٣، تحقيق: البجاوي وآخر، عيسى الحلبي، ط الثانية.

(٢) ومعنى قوله: «اللهم اجعلني مثلها» أي «اللهم اجعلني سالماً من المعاصي كما هي سالمة، وليس المراد مثلها في النسبة إلى باطل تكون منه بريئاً». النووي على شرح صحيح مسلم ١٦/١٠٧.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم، وأبو يعلى، وابن حبان في صحيحه، وأخرجه أحمد، انظر المسند (شاكر) ١٥/٢٠٩ وانظر تتمة تخريج الحديث في الإحسان (رقم ٦٤٨٨، ٦٤٨٩).

«فقال: يا أمتاه، إن الراكب ذو الشارة جَبَّار من الجبابرة، وإن هـذه الأَمَـة يقـولـون: زَنَتْ، ولم تـزن، وسرقت، ولم تسرق، وهي تقـول: حسبي الله». .

إن الأم الحيرى من أمر ابنها تراجعه الحديث، وقد اطمأنت إلى نطقه غير المألوف، عَلَّها تجد عنده ما يريحها من هـذه الحيرة المستبدّة التي نشأت من التناقض بين دعائها له، ودعائه لنفسه.

وإذا به يتجه إليها، ويكشف لها ولنا معنى السرّ في تلك المفارقة، ويُفسّر ذلك الموقف الغامض العجيب ببيان حقيقة الراكب الذي يبدو في مظهر الخير، وتلك الجارية التي تبدو في مظهر الشرّ. .

والواقع أن كل منهما على نقيض ما يظهر للناس من أمره، وهو كشف غيبي يجريه الله القدير الفعّال لما يريد، على لسان هذا الرضيع. .

وهذه القصة مصدرها الوحي، وهي من قبيل الغيب الذي كشف الله عنه لنبيه ـ ﷺ ـ من أحداث الماضي البعيد لبني إسرائيل، فهي من أحداث التاريخ الإنساني، تخيَّرها الرسول ـ ﷺ ـ، فصلاً مهـماً في التربيـة والتوجيـه والتعليم.

وهي من النوع الذي يثير في المتلقي الانفعالات المتزاحمة، وتحرك المشاعر المتشوقة، فهي تستهوي السامـع، وتشدّه في اسـترسال حتى تُـبرز الحقيقة، وتطبعها حَيَّة في أعماقه، لتعيش في دائرة تفكيره ووجدانه.

إن عنصر التشويق ذو أهمية كبيرة في إضفاء الحيوية على القصة، وضمان استمرار المتلقي في متابعة الأحداث، وإثارة تَرقُّبه، فهو يطور الحدث، ويبدع مواقف جديدة. .

ونجد هنا المفارقات المتناقضة وذلك في المخالفة العجيبة بين دعاء الأم ودعاء طفلها الرضيع، حين كانت تدعو له بأن يكـون مثل الـرجل المهيب صاحب الشارة بما يدلّ على أنه عظيم من العظماء، فيدعو بأن لا يجعله الله

مثله، ويمرون بأَمة تُضرب فتقول الأم: «اللهم لا تجعل ابني مثلها، فيقول هو: اللهم اجعلني مثلها». .

فنحن هنا أمام حالة عجيبة بين دعاء الطرفين في القصة، مما يشوقنا إلى معرفة السبب الكامن وراء هذا الواقع الذي أثار الأم نفسها حيث راجعت الكلام مع ابنها تسأله عن مخالفتها، وبخاصة أنها تدعو له بالخير كما هو ظاهر الحال.

وكثير من الناس تخدعهم مظاهر الأمور، فَيُفْتَنون بها عن الحقيقة، تبهرهم الفتنة، فتكبر في خيالهم، وترتفع في ذهنهم إلى آفاق، فتتشهى هذه النفوس هذا المظهر الخادع اللامع. .

لقد عمدت القصة إلى إيقاظ الحس الإنساني أمام ظواهر الأمور، فهي ترسم صورة من صور الحقيقة في تقرير جوهر القيم، فترخص من قيمة الزينة الظاهرة وهي تعرض تعلق القلوب بأستار خادعة، مُطمسة للحقيقة. .

إن التأثر والغرور بالمظهر الخادع يُفسد الرؤية، ويَسدّ المنافذ، ويُعمي القلوب. وشخصية المرأة التي تعرضها القصة نموذج إنساني مكرر تستهويه زينة الدنيا، ومظهرها البرّاق، فتطير لها القلوب الخاوية، وتتهاوى لها النفوس الضعيفة، وتمتد لها العيون القاصرة. .

وترسم القصة أبعاد الشخصية بوضوح في مظهرها وشكلها الخارجي، نجد وصف الرجل الراكب بأنه «راكب ذو شارة» وفي رواية(١) «فارس متكبر ذو شارة حسنة».

والشارة هي جمال المظهر في الملبس والمركب، فالرجل صاحب هيئة ومنظر وملبس حسن يُتَعَجَّب منه ويُشار إليه، فهذا المظهر الحسن هو الذي دفع الأم إلى الإعجاب بهذا الراكب والدعاء لولدها بأن يكون مثله.

---

(١) في رواية خلاس عن أبي هريرة عند الإمام أحمد.

ومن أجل التأثير بالحادثة وهو ما صيغت القصة من أجله، فهي تعرض (الحَدَث) في صورة أكثر إثارة وأعمق تشويق. . نجد خارقة معجزة يجريها الله تبارك وتعالى في نطق الغلام الرضيع، مُبيناً مخالفته لدعاء أُمه، وكاشفاً الحقيقة التي حجبتها المظاهر الخادعة، حين أنطقه الله في بيان حقيقة الراكب صاحب الهيئة الحسنة، والشارة الحسنة: «إن الراكب ذو الشارة جَبَّارٍ من الجبابرة» وفي رواية «أما الراكب فإنه كافر»(١). . وكذلك بيان حقيقة الأَمَة الضعيفة التي تُضرب وتُهان بغير حق وعدوان، في ظلم وجور وبهتـان، فقد مُـرَّ بها وهي «تُلعن»(٢)، وفي رواية وهي «تُرجم»(٣)، وقد أنطق الله الغلام الرضيع قائلاً: «وإن هذه الأَمَة يقولون: سرقتْ، ولم تسرق، ويقولون: زَنَتْ، ولم تَزْنِ، وهي تقول حسبي الله»(٤). .

وهكذا نجد أن القصة تضع أمامنا معالم الشخصية التي تتحرك فيها، أو تشارك في صنع أحداثها، فترسم لنا نوعية الشخصية من خلال العرض، كما أنها تضع الشخصية في موقف جديد، بحيث تدفعه إلى اتجاه سلوك آخـر، يكون نابعاً من ذاتيتها هي.

وتبدو (المشكلة) التي تعالجها القصة في تعقيد الأحداث، بحيث نحسّ أن عنصر المشكلة موجود، وبشكل واضح، له آثاره البعيدة في كيان القصة، وتصبح المشكلة محوراً يُوجِّه حركتها، ويدفع بها إلى التطور في إبراز مواقف جديدة.

وتبرز المشكلة على ساحة القصة بعد دعاء المرأة أن يكـون ابنها مثـل الراكب ذي الشارة، نجد الغلام الرضيع وقـد ترك ثـدي أُمه، وأقبـل على الراكب، «فقال: اللهم لا تجعلني مثله».

---

(١) في رواية الأعرج عن أبي هريرة في صحيح البخاري «أخبار بني إسرائيل»، وهو كذلك في صحيح ابن حبان (الإحسان ٦٤٨٨).

(٢) ابن حبان (الإحسان رقم ٦٤٨٨).

(٣) ابن حبان (الإحسان رقم ٦٤٨٩).

(٤) انظر القصص في الحديث النبوي ٢٩٩.

فالمشكلة تنهض في تصعيد مُشوّق بمفاجأة خارقة، بظهور الغلام الرضيع يردّ على أُمه، وهذه المفاجأة الخارقة تثير المتلقي لمتابعة القصة بشوق واهتمام كبير، بحيث يتفاعل مع تطورها ونموها حتى النهاية، وذلك في التفسير للأحداث الغامضة على لسان الغلام، وهذا التفسير يعطي للقصة روعتها، ويدعم مضمونها، ويجعله أكثر حيوية.

ويأخذ الحوار دوره الهام في بناء القصة، في كشف مغزاها، والإبانة عن غرضها الذي ترمي إليه، بحيث يكون ثمرة مفيدة عالقة بقوة وحيوية في النفس الإنسانية..

«فقالت: حَلْقَى! مَرَّ الراكب ذو الشارة فقلتُ: اللهم اجعل ابني مثله، فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله، ومُرَّ بهذه الأَمَة، فقلتُ: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلتَ: اللهم اجعلني مثلها!!».

فقال: «يا أمتاه، إن الراكب ذو الشارة جبَّار من الجبابرة، وإن هذه الأَمَة، يقولون: زَنَتْ، ولم تزن، وسرقت، ولم تسرق، وهي تقول: حسبي الله».

إن هذه القصة لمسة موحية للقلب البشري، فهي تفتح أمام الإنسان عَالَماً آخر غير العالم المشهود الذي تبصره العيون، وهي تبرز جوهر الحقيقة التي غَشَّاها المظهر الخادع، كما أنها تُلقي بظلال الغيب على أحداث الحياة.. إنه مَن يَدري فلعل وراء هذا الأمر المُحَبَّب ضَلالاً وشراً وفساداً، ووراء الأمر الظاهر سوءه خيراً وطُهراً وصدقاً.

إن العليم بالحقيقة هو علاَّم الغيوب، المطلع على خفايا الأمور المستورة.. وقد أنطق الله هذا الغلام الرضيع ليقول الحقيقة الخفية..

والقصة من العمق والغنى في تبصيرنا ببعض الحقائق المستترة، في تلك المنحنيات الخافية في باطن حياتنا، فهي تكشف الحقيقة التي تكمن وراء المظهر الخارجي للإنسان، حيث تحاول أن تصور لنا الوجه الآخر لكل من الراكب ذي الشارة، والأَمة المسكينة، وما ينطوي وراء الأول من حقيقة خافية هي

الشر والكفر والجبروت، وما وراء هذه الجارية المظلومة من خير وصلاح، كما تعكس ما ينخدع به الإنسان من مظاهر برّاقة، تحول بينه وبين أن يرى الحقيقة الناصعة.

كما أن القصة تنظر للإنسان نظرة واقعية، وتعرضه على حقيقته من غيرما تزييف أو تشويه، فهي تعرضه في صورته السوية بما تنطوي عليه من خير ومن شر، وضعف وقوة. وهي ترسم مشهداً واقعياً للضعف الإنساني يُلقي بظلاله القاتمة على العيون والقلوب، فالإنسان يغتر بالمظاهر، وينخدع ببريقها دون أن يفطن إلى ما تخفيه في طياتها من شر كما تصور القصة إعجاب الأم بالرجل الراكب ذي الشارة، فصارت تدعو لوليدها بأن يكون مثله، مع أنه طاغية كافر جبار كما كشف عن ذلك الصبي فيما بعد.. وحين أخذت تدعو لوليدها مرة أخرى بأن لا يكون مثلٍ تلك الجارية التي تُضرب، مع أنها جارية صالحة عفيفة، تُضرب ظلماً، وتُتَّهم زوراً، وهي تقول: حسبي الله!

وترسم القصة صورة للمرأة وتأثرها بالمظاهر، فمن طبيعة المرأة الملحوظة فيها في الواقع، تأثرها السريع بالمظهر، مهما كان هذا المظهر كاذباً خدّاعاً، طالما أنها تراه برّاقاً يُغري بلمعانه الزاهي، وهي لا تكلف نفسها عناء البحث في ما وراء هذا المظهر أو ذاك، وما ينطوي عليه من زيف وفساد، وهي لا تكاد تجد نفسها أمام مثل هذا المظهر حتى تنساق بسهولة عجيبة وراءه.

وفي مقابل ذلك تتخذ المرأة موقف الرفض السريع لكل شيء يفقد المظهرية الزاهية، مهما كان منطوياً على الخير والصلاح.

وهكذا رسمت القصة صورة عميقة الدلالة في نفسية المرأة، صورة في مشهد تتماوج فيه ألوان العاطفة بسرعة وفي غير انتظام.. فهذه الأم يعجبها مظهر الفارس ذو شارة. ففي رواية مسلم «فمرّ رجل راكب على دابّة فارهة وشارة حسنة».. وعلى موجة ما ترى ينبعث خيالها طولاً وعرضاً بلا عمق ولا بيان، فيسري على قلبها أمنية طائرة في ما ترى في دعاء عريض «فقالت: اللهم اجعل ابني مثل هذا»..

وفي هذا المقطع من القصة يظهر في المشهد المعروض، ألوانية الحركة تموج داخل أعماق المرأة، وهو واضح لا يخفى، ينطلق من مظهر آخر قد سرى، وانتقل بلمساته إلى الأعماق، فهي تقول في دعاء رضي متموج حين «مُرَّ بأَمَة تُضرب»: «اللهم لا تجعل ابني مثلها»..

فهذه الأم يُعجبها مظهر الفارس في هيئته الحسنة، ولباسه الجميل، ومركبه الفاره، فتبادر بالدعوة لولدها أن يكون مثله دون أن تتأمل حقيقته وأن تعرفها..

وحين مرت بالأَمَة، وهي تُضرب، تقف ضدها، وتدعو لولدها أن لا يكون مثلها دون تعرُّف لحقيقة الموقف، ولا حقيقة هذه الجارية ذات المظهر الباهت البسيط، غير المغري.

إنها غريزة حب المظهر في المرأة، وهي التي تدفعها إلى الانجراف وراء المظهر الغرور، وقد كان الطفل الرضيع، بقدرة الله المتصرف في كونه، ينطق بعد دعاء أمه له بما يخالف ذلك الدعاء، مما جعلها تراجعه وتسأله حيث قالت: «حلقى؟! مَرَّ الراكب ذو الشارة فقلتُ: اللهم اجعل ابني مثله، فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله، ومَرَّ بهذه الأَمَة، فقلتُ: اللهم لا تجعل ابني مثلها...».

ونلاحظ هنا في مراجعتها، أنها حين تذكر (الراكب) لا تذكره بلفظ (الراكب) فقط، ولكنها تنص على صفته «الراكب ذو الشارة»، وحين تذكر الأَمَة تقول: «هذه الأَمَة» تستعمل اسم الإشارة القريب، الموحي بأنها دانية وضيعة(١)، مما يؤكد تركيز المرأة على الناحية المظهرية في الحالتين، ولذلك فقد جاء ردّ (الرضيع) كاشفاً للحقيقة، مُبيناً للأسباب التي من أجلها خالفَ دعاء أمه، وكأنه الخضر ـ عليه السلام(٢) ـ صاحب موسى ـ ﷺ ـ..

---

(١) وقع في رواية خلاس عن أبي هريرة عند أحمد أنها كانت حبشية أو زنجية وأنها ماتت فَجرُّوها حتى ألقوها، وهذا معنى قوله في رواية الأعرج تجرر.

(٢) انظر الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ص ٤٥٢.

«يا أمتاه؟ إن الراكب ذو الشارة جَبَّار من الجبابـرة، وإن هذه الأَمَـة يقولون: زنت، ولم تزن، وسرقت، ولم تسرق، وهي تقول: حسبي الله!».

يُعد الغموض العنصر الحيوي الهام في بناء القصة، الذي يثير التطلعات لمعرفة السر وإزالة الغموض.. فالجو كله غامض مجهول، ثم يأخذ السرّ في التجلي[1].

وهذا له دلالته، فالمظهر الإنساني، والصورة الخـارجية لـه، هي هذا الغطاء السميك، المتلون في أبعاده، هو غامض مجهول، فإذا كشف الغطاء أخذت الحقيقة تبرز بوضوح.

يقول الإمام ابن حجر[2]: «وفي الحديث أن نفوس أهل الدنيا تقف مع الخيال الظاهر فتخاف سوء الحال بخلاف أهل التحقيق فوقوفهم مع الحقيقة الباطنة فلا يبالون بذلك مع حسن السريرة كما قال تعالى حكاية عن أصحاب قارون حيث خرج عليهم ﴿**يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون**﴾.. ﴿**وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير**﴾، وفيه أن البشر طُبعوا على إيثار الأولاد على الأنفس بالخير لطلب المرأة الخير لابنها، ودفع الشر عنه، ولم تذكر نفسها»..

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي ص: ١٠٧، ١٤٢، ١٩٧، ٢١١، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٩٦، ٣٥٤، ٤٠٣.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/ ٣٧٥.

القسم الرابع

صفحات من السجل الأسود لبني إسرائيل

المحتوى

صفحات من السجل الأسود لبني إسرائيل

مواقف بني إسرائيل من النبوة والأنبياء:

يأخذ القرآن في استعراض بعض مواقف اليهود، مُندِّداً بموقفهم من النبي ﷺ ورسالته، وتعنتهم في طلب الآيات والأمارات منه، ويقرن بين موقفهم هذا وما كان لهم من مواقف مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ ثم مع رسول الله من بعده عيسى ـ عليه السلام ـ وأمه مريم، فإذا هم جبلّة واحدة في أجيالهم المتتابعة. .

والقرآن يُوَحِّد بين الجيل الذي يواجه الرسول ـ ﷺ ـ والجيل الذي واجه عيسى ـ عليه السلام ـ. . والجيل الذي واجه موسى كذلك من قبل، ليؤكد هذا المعنى، ويكشف عن هذه الجِبلّة:

﴿يسألك أهل الكتاب أن تُنزل عليهم كتاباً من السماء. . فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا: أرنا الله جهرة! فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات؛ فعفونا عن ذلك. . ﴾ [النساء: ١٥٣]. .

لقد وقف اليهود في الجزيرة من الإسلام ونبي الإسلام ذلك الموقف العدائي المتعنت المكشوف، وكادوا له ذلك الكيد المُبَيَّت المستمر العنيد، الذي وصفه القرآن تفصيلاً، واستعرضه ألواناً.

إنهم يتعنتون فيطلبون إلى رسول الله - ﷺ - أن يأتيهم بكتاب من السماء.. كتاب مخطوط يُنَزِّله عليهم من السماء مُجَسَّماً يلمسونه بأيديهم..

ويتولى الله - سبحانه - الإجابة عن نبيه. ويقص عليه وعلى الجماعة المسلمة - في مواجهة اليهود - صفحة من تاريخهم مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم موسى - عليه السلام - الذين يزعمون أنهم يؤمنون به؛ ويرفضون التصديق بعيسى - عليه السلام من بعده وبمحمد ﷺ!.

إن هذه الجِبلَّة ليست جديدة عليهم؛ وليست طابع هذا الجيل وحده منهم، إنما هي جِبِلّتهم من قديم.

إنهم هم هم من عهد موسى - نبيهم وقائدهم ومنقذهم - إنهم هم هم غلظ حسّ فلا يدركون إلا المحسوسات.. وهم هم تعنتاً وإعناتاً فلا يُسلمون إلا تحت القهر والضغط.. وهم هم كفراً وغدراً فسرعان ما ينقلبون فينقضون عهداً - لا مع الناس وحدهم ولكن مع ربهم كذلك - وهم هم قِحّة وافتراء؛ فلا يعنيهم أن يثبتوا من قول؛ ولا يتورعون كذلك عن الجهر بالنكر.. وهم هم طمعاً في عرض الدنيا؛ وأكلاً لأموال الناس بالباطل؛ وإعراضاً عن أمر الله وعما عنده من ثواب..

إنها حملة تفضحهم وتكشفهم؛ وتدل قوتها وتنوع اتجاهاتها، على ما كان يقتضيه الموقف لمواجهة خبث الكيد اليهودي للإسلام ونبي الإسلام في ذلك الأوان.. وهو هو خبث الكيد الذي ما يزالون يزاولونه ضد هذا الدين وأهله حتى الآن.

﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾..

فلا عليك من هذا التَعَنُّت، ولا غرابة فيه ولا عجب منه: ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا: أرنا الله جَهرة﴾.

ولم تبلغ الآيات البينات التي أظهرها الله لهم على يد موسى نبيهم أن

تلمس حسهم؛ وتوقظ وجدانهم وتقود قلوبهم إلى الطمأنينة والاستسلام؛ فإذا هم يطلبون رؤية الله ـ سبحانه ـ عياناً! وهو مطلب طابَعه التَبَجُّح الذي لا يصدر عن طبع خالطته بشاشة الإيمان؛ أو فيه استعداد للإيمان.

﴿فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾..

ولكن الله ـ سبحانه ـ عفا عنهم؛ وتقبل فيهم دعاء موسى ـ عليه السلام ـ وضراعته إلى ربه؛ كما تقدم بيانه: **﴿فلما أخذتهم الرجفة، قال: ربّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي. أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء. أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين..﴾** [الأعراف: ١٥٥]..

﴿ثم اتخذوا العجل ـ من بعد ما جاءتهم البينات ـ﴾ [النساء: ١٥٣]..

عجل الذهب، الذي صاغه لهم السامري، مما كانوا قد أخذوه ـ حيلة ـ من نساء المصريين وهم خارجون من مصر ـ فإذا هم يعكفون عليه؛ ويتخذونه إلهاً في غيبة موسى عنهم في مناجاة ربه، في الموعد الذي حدده له، لينزل عليه الألواح فيها هدى ونور.

ويواجه القرآن الكريم بني إسرائيل بهذا الكفر الهابط الوضيع **﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾** [البقرة: ٩٢]..

فهل اتخاذكم العجل من بعد ما جاءكم موسى بالبينات، وفي حياة موسى نفسه، كان من وحي الإيمان؟ وهل يتفق هذا مع دعواكم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم؟.

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة. بل كان هناك الميثاق تحت الصخرة، وكان هناك التمرد والمعصية:

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور. خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا. قالوا: سمعنا وعصينا، وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾ [البقرة: ٩٣]. .

والسياق هنا يلتفت من الخطاب إلى الحكاية. . يخاطب بني إسرائيل بما كان منهم، ويلتفت إلى المؤمنين ـ وإلى الناس جميعاً ـ فيطلعهم على ما كان منهم. . ثم يُلقن الرسول ـ ﷺ ـ أن يجبههم بالترذيل والتبشيع لهذا اللون من الإيمان العجيب الذي يَدّعونه إنما كان يأمرهم بكل هذا الكفر الصريح: **﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين!﴾** [البقرة: ٩٣]. .

ونقف هنا لحظة أمام التعبيرين المُصَوِّرَين العجيبين: **﴿قالوا: سمعنا وعصينا﴾**. . **﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾**. .

إنهم قالوا: سمعنا. ولم يقولوا عصينا. ففيم إذن حكاية هذا القول عنهم هنا؟.

إنه التصوير الحي للواقع الصامت كأنه واقع ناطق. لقد قالوا بأفواههم: سمعنا. وقالوا بأعمالهم: عصينا. والواقع العملي هو الذي يمنح القول الشفوي دلالته. وهذه الدلالة أقوى من القول المنطوق. .

وهذا التصوير الحي للواقع يومىء إلى مبدأ كلي من مبادىء الإسلام: إنه لا قيمة لقول بلا عمل. إن العمل هو المعتبر. أو هي الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة الواقعة، وهي مناط الحكم والتقدير.

فأما الصورة الغليظة التي ترسمها: **﴿وأُشربوا في قلوبهم العجل﴾** فهي صورة فريدة. لقد أُشربوا. أُشربوا بفعل فاعل سواهم. أُشربوا ماذا؟ أُشربوا العجل! وأين أُشربوه؟ أُشربوه في قلوبهم!.

ويظل الخيال يتمثل تلك المحاولة العنيفة الغليظة، وتلك الصورة

الساحرة الهازئة: صورة العجل يُدخل في القلوب إدخالاً، ويُحشر فيها حشراً، حتى ليكاد ينسى المعنى الذهني الذي جاءت هذه الصورة المجسمة لتؤديه، وهو حُبّهم الشديد لعبادة العجل، حتى لكأنهم أُشربوه إشراباً في القلوب! هنا تبدو قيمة التعبير القرآني المصور بالقياس إلى التعبير الذهني المفسر.. إنه التصوير.. السمة البارزة في التعبير القرآني الجميل.

ويواجه القرآن بني إسرائيل بهذه الحوادث في تاريخهم في عهد موسى ـ عليه السلام ـ ذلك أنه يعتبر تاريخهم كله وُحدة، قَديمهُ كحديثه، وَوَسَطه كطرفيه.. كله مُخالفة وتمرد وعصيان وانحراف!.

ثم تداركهم الله بالعفو: **﴿ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك﴾** [النساء: ١٥٣].. فلم يرعووا وأدركتهم جِبلَّتهم الغليظة المنتكسة في مواجهة الحق والخَلْق.. واليهود هم اليهود في ظلمة أرواحهم وقسوة قلوبهم على تطاول العصور وكرّ الدهور. لقد واجهوا موكب الإيمان الكريم الذي يقود خطاه ذلك الرهط العظيم من رسل الله.. واجهوه بالضلال والعَمَىٰ والطغيان والهوى، والاضطهاد والبغي، والتهديد والتقتيل والتنكيل.. موقف واحد وجبّلة واحدة..

ثم يمضي القرآن يواجه بني إسرائيل **بمواقفهم تجاه النبوات وتجاه الأنبياء**.. أنبيائهم هم، وما كان من سوء صنيعهم معهم كلما جاءهم بالحق، الذي لا يخضع للأهواء..

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب، وقفينا من بعده بالرسل؛ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القُدس. أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذبتم، وفريقاً تقتلون؟﴾ [البقرة: ٨٧]..

ولقد كانت حجة بني إسرائيل في إعراضهم عن الإسلام، وإبائهم الدخول فيه، أن عندهم الكفاية من تعاليم أنبيائهم، وأنهم ماضون على

شريعتهم ووصاياهم. . فهنا يفضحهم القرآن ويكشف عن حقيقة موقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ووصاياهم. ويُثْبِتْ أنهم هم هم كلما واجهوا الحق، الذي لا يخضع لأهوائهم.

وفيما تقدم واجههم بالكثير من مواقفهم مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ وقد آتاه الله الكتاب. ويزيد هنا أن رُسلهم توالت تَتْرى، يقفو بعضهم بعضاً؛ وكان آخرهم عيسى بن مريم. وقد آتاه الله المعجزات البينات، وأيده بروح القدس جبريل ـ عليه السلام ـ فكيف كان استقبالهم لذلك الحشد من الرسل ولآخرهم عيسى ـ عليه السلام ـ؟.

كان هذا الذي يستنكره عليهم؛ والذي لا يملكون هم إنكاره، وكتبهم ذاته تقرره وتشهد به:

﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم: ففريقاً كذَّبتم وفريقاً تقتلون!﴾!.

ومحاولة إخضاع الهُداة والشرائع للهوى الطارىء والنزوة المتَقَلبة. ظاهرة تبدو كلما فَسدت الفطرة، وانطمست فيها عدالة المنطق الإنساني ذاته. المنطق الذي يقتضي أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت ـ غير المصدر الإنساني المُتَقلّب ـ مصدر لا يميل مع الهوى، ولا تغلبه النزوة. وأن يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت الذي لا يتأرجح مع الرضى والغضب، والصحة والمرض، والنزوة والهوى، لا أن يخضعوا الميزان ذاته للنزوة والهوى!.

وهكذا يَعرض القرآن طَرَف من تاريخ بني إسرائيل ـ اليهود ـ يتجلّى فيه كيف أنهم ليسوا على شيء؛ ويتبين معه ضرورة تبليغهم الدعوة، ومخاطبتهم بالإسلام، ليأووا منه إلى دين الله. ثم لتتبين حقيقتهم التي لم تتغير؛ وتنكشف للمسلمين هذه الحقيقة، فتسقط في أعينهم قيمة يهود،

وتنفر قلوبهم من الولاء لهم والتناصر معهم، وهم على مثل هذه الحال في أمر الحق والدين:

﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل، وأرسلنا إليهم رسلاً. كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم: فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون..﴾ [المائدة: ٧٠]..

إنه تاريخ قديم! فليس موقفهم من رسول الإسلام - ﷺ - بالأول ولا بالأخير! إنهم مَرَدُوا على العصيان والإعراض؛ ومردوا على النكول عن ميثاق الله، ومردوا على اتخاذ هواهم إلههم لا دين الله، ولا هدى الرسل، ومردوا على الإثم والعدوان على دعاة الحق وحملة دعوة الله..

﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، فبشرهم بعذاب أليم. أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة. وما لهم من ناصرين﴾ [آل عمران: ٢١، ٢٢].

فهذا هو المصير المحتوم: عذاب أليم. لا يُحدّده بالدنيا أو بالآخرة. فهو متوقع هنا وهناك. وبطلان لأعمالهم في الدنيا والآخرة في تعبير مُصوّر. فالحبوط هو انتفاخ الدابة التي ترعى نبتاً مسموماً، توطئة لهلاكها.. وهكذا أعمال هؤلاء قد تنتفخ وتتضخم في الأعين. ولكنه الانتفاخ المؤدي إلى البطلان والهلاك! حيث لا ينصرهم ناصر ولا يدفع عنهم حام!.

وذكر الكفر بآيات الله مصحوباً بِقَتْل النبيين بغير حق - وما يمكن أن يُقتل نبي ثم يكون هناك حق - وقَتْل الذين يأمرون بالقسط من الناس - أي الذين يأمرون باتباع منهج الله القائم بالقسط المُحقّق وَحْده للقسط..

ذكر هذه الصفات يوحي بأن التهديد كان موجهاً لليهود، فهذه سمتهم في تاريخهم يُعْرَفون بها متى ذُكرت!.

ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام موجهاً للنصارى كذلك. فقد كانوا حتى ذلك التاريخ قتلوا الألوف من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهب الدولة الرومانية المسيحية ـ بما فيهم من جاهَروا بتوحيد الله تعالى وبشرية المسيح ـ عليه السلام ـ وهؤلاء ممن يأمرون بالقسط. . كما أنه تهديد دائم لكل من يقع منه مثل هذا الصنيع البشع. . وكثير ما هم في كل زمان. .

ولم يشهد تاريخ أمة ما شهده تاريخ إسرائيل من قسوة وجحود واعتداء وتنكر للهداة. فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم ـ وهي أشنع فعلة تصدر من أمة مع دعاة الحق المخلصين ـ وقد كفروا أشنع الكفر، واعتدوا أشنع الاعتداء، وعصوا أبشع المعصية. وكان لهم في كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل!.

وقد حقَّ عليهم وَعْد الله ووعيده ﴿**وضُربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾ [البقرة: ٦١]. .

لقد كفروا بآيات الله، ونقضوا ميثاقه، وقتلوا أنبياءه بغير حق. وتَبَجَّحوا فقالوا: إن قلوبنا لا تقبل موعظة، ولا يصل إليها قول، لأنها مُغَلَّفة دون كل قول!.

وفعلوا كل الأفاعيل الأخرى التي يقصها الله ـ سبحانه ـ على رسوله وعلى المسلمين ـ في مواجهة اليهود ـ في سياق القصص القرآني. .

﴿**فبما نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم قلوبنا غلف**﴾ [المائدة: ١٥٥]. .

وعند قولهم: ﴿**قلوبنا غلف**﴾. . وهي القولة التي كانوا يجيبون بها على دعوة الرسول ـ ﷺ ـ إما تيئيساً له من إيمانهم واستجابتهم، وإما استهزاءً بتوجيه الدعوة إليهم، وتبجحاً بالتكذيب وعدم الإصغاء، وإما هذا

وذلك معاً. . عند قولهم هذا ينقطع السياق للرد عليهم: ﴿بل طبع الله عليها ـ بكفرهم ـ فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ [النساء: ١٥٥]. .

فهي ليست مُغَلّفة بطبعها. إنما هم كفرهم جرَّ عليهم أن يطبع الله على قلوبهم، فإذا هي صلدة جامدة مغطاة، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته، فلا يقع منهم الإيمان، إلا قليلاً، ممن لم يستحق بفعله، أن يطبع الله على قلبه. أي أولئك الذين فتحوا قلوبهم للحق واستشرفوه، فهداهم الله إليه ورزقهم إياه. وهم قلة قليلة من اليهود(١). كعبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسد بن سعية، وأسد بن عبيد الله.

لقد طبع الله على قلوبهم بكفرهم، وأبعدهم عن الهدى. . لقد كفروا كفراً قبيحاً، فخسروا أنفسهم في الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز، ولقد خسروا أنفسهم في الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين.

وبماذا خرجوا في النهاية؟ خرجوا بالكفر، هو وحده الذي كسبوه وأخذوه!.

وكان الذي حملهم على هذا كله هو حَسَدهم لرسول الله ـ ﷺ ـ أن يختاره للرسالة التي انتظروها فيهم، وحقدهم لأن يُنزل الله من فضله على من يشاء من عباده. وكان هذا بغياً منهم وظلماً فعادوا من هذا الظلم بغضب على غضب، وهناك ينتظرهم عذاب مهين، جزاء الاستكبار والحسد والبغي الذميم.

لقد قص الله على المسلمين من أنباء بني إسرائيل في هذا ما يُحذّرهم

---

(١) والنص القرآني عام ينطبق على كل من يهتدي منهم لهذا الدين، يقوده العلم الراسخ أو الإيمان البصير. ونستطيع أن نذكر منهم، ولا نزكي على الله أحداً ـ في الزمن الحديث «محمد أسد» النمساوي، وكان اسمه ليوبولد فايس. وقد اهتدى وأسلم، وسمى نفسه محمد أسد. وهو صاحب كتاب «الإسلام على مفترق الطرق».

من الوقوع في مثله، حتى لا تسلب منهم الخلافة في الأرض والأمانة التي ناطها بهم الله، فلما وقعوا في مثل ما وقع به بنو إسرائيل، وطرحوا منهج الله وشريعته، وحكَّموا أهواءهم وشهواتهم، وقتلوا فريقاً من الهداة وكذبوا فريقاً. ضربهم الله بما ضرب به بني إسرائيل من قبل، من الفرقة والضعف، والذلة والهوان، والشقاء والتعاسة..

إلا أن يستجيبوا لله ولرسوله، وإلا أن يُخضعوا أهواءهم لشريعته وكتابه، وإلا أن يَفُوا بعهد الله معهم ومع أسلافهم، وإلا أن يأخذوه بقوة، ويذكروا ما فيه لعلهم يهتدون.

ذلك كان موقفهم مع أنبيائهم، يُبينه ويقرره، ثم يُجابههم بموقفهم من الرسالة الجديدة والنبي الجديد، فإذا هم هم، كأنهم أولئك الذين جابهوا الأنبياء من قبل:

﴿وقالوا: قلوبنا غلف. بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون..﴾ [البقرة: ٨٨]..

إن الأسلوب هنا يعنف ويشتد، ويتحول ـ في بعض المواضع ـ إلى صواعق وحمم كما سيأتي بيانه.. إنه يجبههم جبهاً شديداً بما قالوا وما فعلوا، ويجردهم من كل حججهم ومعاذيرهم، التي يسترون بها استكبارهم عن الحق، وأثرتهم البغيضة، وعزلتهم النافرة، وكراهتهم لأن ينال غيرهم الخير، وحسدهم أن يؤتي الله أحداً من فضله.. جزاء موقفهم الجحودي المنكر من الإسلام ورسوله الكريم..

قالوا: إن قلوبنا مُغلّفة لا تنفذ إليها دعوة جديدة، ولا تستمع إلى داعية جديد! قالوها تيئيساً لمحمد ـ ﷺ ـ وللمسلمين، من دعوتهم إلى هذا الدين، أو تعليلاً لعدم استجابتهم لدعوة الرسول..

ويقول الله رداً على قولتهم: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾.. أي أنه

طردهم وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم. فهم قد كفروا ابتداءً فجازاهم الله على الكفر بالطرد وبالحيلولة بينهم وبين الانتفاع بالهدى.. **﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾**..

أي قليلاً ما يقع منهم الإيمان بسبب هذا الطرد الذي حق عليهم جزاء كفرهم السابق، وضلالهم القديم.

أو أن هذه حالهم: أنهم كفروا فقلما يقع منهم الإيمان، حالة لاصقة بهم يذكرها تقريراً لحقيقتهم.. وكلا المعنيين يتفق مع المناسبة والموضوع.

وقد كان كفرهم قبيحاً، لأنهم كفروا بالنبي الذي ارتقبوه، واستفتحوا به على الكافرين، أي ارتقبوا أن ينتصروا به على من سواهم. وقد جاءهم بكتاب مصدق لما معهم:

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مُصَدّق لما معهم ـ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ـ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ [البقرة: ٨٩]..

وهو تصرف يستحق الطرد والغضب لقبحه وشناعته.. ومن ثم يصبّ عليهم اللعنة ويصمهم بالكفر: **﴿فلعنة الله على الكافرين﴾** [البقرة: ٨٩].

ويفضح السبب الخفي لهذا الموقف الشائن الذي وقفوه؛ بعد أن يقرر خسارة الصفقة التي اختاروها:

﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله، بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده. فباءوا بغضب على غضب، وللكافرين عذاب مهين﴾ [البقرة: ٩٠].

بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا.. لكأن هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما، يكثر أو يقل. أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ولكن هذا هو الواقع. وإن بدا

تمثيلاً وتصويراً. لقد خسروا أنفسهم.. ذلك هو الخسران المبين..

وهذه الطبيعة التي تبدو هنا في يهود هي الطبيعة الكنود، طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيا في نطاق من التعصّب شديد؛ وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها؛ ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى، التي تربط البشرية جميعاً..

وهكذا عاش اليهود في عزلة، يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة؛ ويتربصون بالبشرية الدوائر؛ ويكنون للناس البغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن، ويُذيقون البشرية رَجْع هذه الأحقاد فِتَناً يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض، وحروباً يثيرونها لِيَجرُّوا من ورائها المغانم، ويروون بها أحقادهم التي لا تنطفىء، وهلاكاً يسلطونه على الناس، ويسلطه عليهم الناس..

وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة: **﴿بغياً.. أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾**..

﴿وإذا قيل لهم: آمنوا بما أُنزل الله قالوا: نؤمن بما أنزل علينا، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾ [البقرة: ٩٣]..

وكان هذا هو الذي يقولونه إذا دُعوا إلى الإيمان بالقرآن وبالإسلام. كانوا يقولون: **﴿نؤمن بما أُنزل علينا﴾**..

ففيه الكفاية، وهو وحده الحق، ثم يكفرون بما وراءه. سواء ما جاءهم به عيسى ـ عليه السلام ـ، وما جاءهم به محمد خاتم النبيين ﷺ.

والقرآن يعجب من موقفهم هذا، ومن كفرهم بما وراء الذي معهم **﴿وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾**..

وما لهم وللحق؟ وما لهم أن يكون مصدقاً لما معهم! ما داموا لم يستأثروا هم به؟ إنهم يعبدون أنفسهم، ويتعبدون لعصبيتهم. لا بل إنهم

ليعبدون هَواهم، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياؤهم به.. ويلقن الله نبيه - ﷺ - أن يجبههم بهذه الحقيقة وفضحاً لدعواهم: **﴿قل فَلِمَ تَقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين؟﴾** [البقرة: ٩١]..

لِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل، إن كنتم حقاً تؤمنون بما أُنزل إليكم؟ وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاءوكم بما تَدَّعون أنكم تؤمنون به؟.

لا بل إنكم كفرتم بما جاءكم به موسى - نبيكم الأول ومنقذكم الأكبر -: **﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾** [البقرة: ٩٢]..

لقد نقضوا ميثاقهم مع الله.. قتلوا أنبياءهم بغير حق، وبَيَّتوا القتل والصلب لعيسى - عليه السلام - وهو آخر أنبيائهم.

﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً. وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسىٰ ابن مريم رسول الله﴾ [النساء: ١٥٦، ١٥٧]..

ويكرر القرآن صفة الكفر كلما ذكر إحدى منكراتهم. فقد ذكرها عند قتلهم الأنبياء بغير حق - وما يُقتل نبي بحق أبداً فهي حال لتقرير الواقع - وذكرها هنا بمناسبة قولهم على مريم بهتاناً عظيماً. وقد قالوا على مريم الطاهرة ذلك المنكر الذي لا يقوله إلا اليهود! فرموها بالزنا مع يوسف النجار - لعنة الله عليهم -! ثم تبجحوا بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه، وهم يتهكمون بدعواه الرسالة فيقولون: قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله!.

وحين يصل السياق إلى هذه الدعوى منهم يقف كذلك للرد عليهم، وتقرير الحق فيها: **﴿وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شُبِّهَ لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم إلا اتِّباعَ الظن. وما قتلوه يقيناً. بل رفعه الله إليه..﴾** [النساء: ١٥٧، ١٥٨]..

بذلك يحسم القرآن الكريم قصة الصلب.. ونعود مع القرآن في

كشف مناكر اليهود، وما نالهم عليها من الجزاء الأليم في الدنيا والآخرة. .

لقد حَرَّفوا كتابهم ـ التوراة ـ ونسوا شرائعها فلم يُنفذوها، ووقفوا من خاتم النبيين ـ عليه الصلاة والسلام ـ موقفاً لئيماً ماكراً عنيداً وخانوه وخانوا مواثيقهم معه. فباءوا بالطرد من هدى الله، وقست قلوبهم فلم تعد صالحة لاستقبال هذا الهدى. .

﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية، يُحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذُكِّروا به. .﴾ [المائدة: ١٣]. .

وصدق الله. فهذه سمات يهود التي لا تفارقهم. . لعنة تبدو على سيماهم، إذ تنضح بها جبلتهم الملعونة المطرودة من الهداية. وقسوة تبدو في ملامحهم الناضبة من بشاشة الرحمة، وفي تصرفاتهم الخالية من المشاعر الإنسانية، ومهما حاولوا ـ مكراً ـ إبداء اللين في القول عند الخوف وعند المصلحة، والنعومة في الملمس عند الكيد والوقيعة، فإن جفاف الملامح والسمات ينضح ويشي بجفاف القلوب والأفئدة. . وطابعهم الأصيل هو تحريف الكَلِمَ عن مواضعه.

تحريف كتابهم أولاً عن صورته التي أنزلها الله على موسى ـ عليه السلام ـ إما بإضافة الكثير إليه مما يتضمن أهدافهم الملتوية ويبررها بنصوص من الكتاب مُزَوَّرة على الله! وإما بتفسير النصوص الأصلية الباقية وفق الهوى والمصلحة والهدف الخبيث!.

ونسيان وإهمال لأوامر دينهم وشريعتهم، وعدم تنفيذها في حياتهم ومجتمعهم، لأن تنفيذها يُكلفهم الاستقامة على نهج الله الطاهر النظيف القويم.

وسِجلّ بني إسرائيل مع أنبيائهم حافل بالتكذيب والإعراض، حافل بالقتل والاعتداء! حافل بتحكيم الشهوات والأهواء.

ولعله من أجل ذلك قَصَّ الله تاريخ بني إسرائيل على الأمة المسلمة في تفصيل وتطويل.. لعلها تتقي أن تكون كبني إسرائيل؛ ولعلها تحذر مزالق الطريق، أو لعل الواعين منها الموصولين بالله يدركون هذه المزالق؛ أو يتأسُّون بأنبياء بني إسرائيل حين يصادفون ما صادفوا وأجيال من ذراري المسلمين تنتهي إلى ما انتهى إليه بنو إسرائيل، حين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم؛ فَتُحَكِّم الهوى؛ وترفض الهدى، وتُكَذِّب فريقاً من الدعاة إلى الحق، وتقتل فريقاً؛ كما صنع بغاة بني إسرائيل، في تاريخهم الطويل!.

لقد صنع بنو إسرائيل تلك الآثام كلها، وهم يحسبون أن الله لن يفتنهم بالبلاء، ولن يأخذهم بالعقاب. حسبوا هذا الحسبان غفلة منهم عن سنة الله؛ وغروراً منهم بأنهم «شعب الله المختار»!.

﴿وحسبوا ألا تكون فتنة. فَعموا وصَمُّوا، ثم تاب الله عليهم، ثم عَموا وصَمُّوا ـ كثير منهم ـ والله بصير بما يعملون﴾ [المائدة: ٧١]..

طَمَس الله على أبصارهم فلا يفقهون مما يرون شيئاً؛ وطمس على مسامعهم فلا يفيدون مما يسمعون شيئاً..

﴿ثم تاب الله عليهم﴾.. وأدركهم برحمته.. فلم يرعووا ولم ينتفعوا: **﴿ثم عموا وصموا. كثير منهم..﴾**.

﴿والله بصير بما يعملون﴾.. وهو مجازيهم بما يراه ويَعلمه من أمرهم.. وما هم بمُغلِتين..

ويكفي أن يعرف الذين آمنوا هذا التاريخ القديم عن يهود، وهذا الواقع الجديد؛ لتنفر قلوبهم المؤمنة من وَلائهم، كما نَفَر قلب عبادة بن الصامت؛ فلا يتولاهم إلا المنافقون من أمثال عبد الله بن أبي بن سلول!.

وسجل بني إسرائيل مع أنبيائهم سجل أسود، مظلم معتم، وقد ملأوا

صفحاته بالظلم والجحود، فأصبحت السمة الرئيسة لطبيعة إسرائيل التحلل من العهد، ونقضها للمواثيق مع ربها ومع نبيها.. حتى لتبلغ أن تقتل أنبياءها بغير الحق، وتكفر بآيات ربها، وتعبد العجل وتجدف في حق الله فترفض الإيمان لنبيها حتى ترى الله جهرة؛ وتخالف عما أوصاها به الله وهي تدخل القرية فتفعل وتقول غير ما أُمرت به؛ وتعتدي في السبت، وتنسى ميثاق الطور، وتماحل وتجادل في ذبح البقرة التي أمر الله بذبحها لحكمة خاصة، وتنكص عن الأرض المقدسة، وهي مع نبيها موسى على أبوابها وتتوقح وتقول قولتها الوقحة..

وهذا كله مع الادعاء العريض بأنها هي وحدها المهتدية؛ وأن الله لا يَرضَىٰ إلا عنها، وأن جميع الأديان باطلة وجميع الأُمم ضالّة عداها!.

إنها دعاوى عريضة عجيبة. فقد كانوا دائماً يدّعون أنهم هم وحدهم المهتدون، وهم وحدهم شعب الله المختار، وهم وحدهم الذين ينالهم ثواب الله؛ وأن فضل الله لهم وحدهم دون شريك.. وهنا يُكذّب القرآن هذه الدعوى العريضة، ويقرر قاعدة من قواعده الكلية، التي تتخلل القصص القرآني، أو تسبقه أو تتلوه. يقرر قاعدة وحدة الإيمان.. ووحدة العقيدة، متى انتهت إلى إسلام النفس لله، والإيمان به إيماناً ينبثق منه العمل الصالح. وأن فضل الله ليس حِجْراً محجوراً على عصبية خاصة، إنما هو للمؤمنين أجمعين، في كل زمان وفي كل مكان، كُلٌّ بحسب دينه الذي كان عليه، حتى تجيء الرسالة التالية بالدين الذي يجب أن يصير المؤمنون إليه، فالقرآن يقرر أن كل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من جميع المِلَل، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون..

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا، والنصارى، والصابئين ـ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ـ فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: ٦٢]..

والـذين آمنوا يعني بهم المسلمين. والـذين هادوا هم اليهـود ـ إما بمعنى عادوا إلى الله، وإما بمعنى أنهم أولاد يهوذا ـ والنصارى هم أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ والصابئون: الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبـادة الأصنام، فبحثوا لأنفسهم عن عقيـدة يرتضـونها، فـاهتدوا إلى التـوحيد، وقالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى، مِلّة إبراهيم، واعتزلـوا عبادة قومهم دون أن تكون لهم دعوة فيهم. فقال عنهم المشركون: إنهم صَبَأوا ـ أي مالوا عن دين آبائهم ـ كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك. ومن ثم سُمُّوا الصابئة. وهذا القول أرجح من القول بأنهم عبدة النجوم كما جاء في بعض التفاسير.

والآية تقرر أن من آمن بـالله واليوم الآخـر من هؤلاء جميعاً وعمـل صالحاً، فإن لهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

فالعبرة بحقيقة العقيدة، لا بعصبية جنس أو قوم.. وذلك طبعاً قبل البعثة المحمدية.. أما بعدها فقد تحدد شكل الإيمان الأخير..

﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنونْ يؤمنون بما أُنزل إليك، وما أُنزل من قبلك. والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة، والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ [النساء: ١٦٢]..

وهي صفات المسلمين التي تُميزهم: إقامة الصـلاة وإيتاء الـزكاة، والإيمان بالله واليوم الآخر. وجزاء الجميع مـا يقرره الله لهم **﴿أولئـك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾**..

ويستطرد القرآن في مـواجهة أهـل الكتاب ـ واليهـود منهم في هذا المـوضع خـاصة ـ ومـوقفهم من رسالـة محمد ـ ﷺ ـ وزعمهم أن الله لم يُرسله، وتفريقهم بين الرسل، وتَعَنّتهم وهـم يطلبون أمارة على رسالته، وآية على نبوته.. فيقرر أن الوحي للرسول ليس بِدعاً، وليس غريباً، فهو سنة الله

في إرسال الرسل جميعاً، من عهد نوح إلى عهد محمد. وكلهم رُسل أُرسلوا للتبشير والإنذار، اقتضت هذا رحمة الله بعباده، وأَخْذَه الحجة عليهم، وإنذاره لهم قبل يوم الحساب.. وكلهم جاءوا بوحي واحد، لهدف واحد؛ فالتفرقة بينهم تعنّت لا يستند إلى دليل. ﴿**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده..**﴾ [النساء: ١٦٣]..

وإذا أنكروا هم وتعنتوا فإن الله يشهد ـ وكفى به شاهداً ـ والملائكة يشهدون: ﴿**لكن الله يشهد بما أُنزل إليك. أنزله بعلمه. والملائكة يشهدون. وكفى بالله شهيداً**﴾ [النساء: ١٦٦].

وفي هذه الشهادة من الله.. ثم من ملائكته ومنهم من حملها إلى رسوله.. إسقاط لكل ما يقوله أهل الكتاب. فمن هم والله يشهد؟ والملائكة تشهد؟ وشهادة الله وحدها فيها الكفاية؟!.

وفي هذه الشهادة تسرية عن الرسول ـ ﷺ ـ وما يلقاه من كيد اليهود وعنتهم.

وفيها كذلك تصديق وتثبيت وتطمين للمسلمين أمام حملة يهود التي يدل على ضخامتها هذه الحملة القرآنية المنوعة الأساليب والإيحاءات في ردّها والقضاء عليها.

وعندئذ يجيء التهديد الرعيب للمنكرين في موضعه، بعد شهادة الله ـ سبحانه ـ وشهادة الملائكة بِكَذِبهم وتَعَنُّتهم والتوائهم.

﴿**إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً. إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً. وكان ذلك على الله يسيراً**﴾ [النساء: ١٦٧ ـ ١٦٩]..

إن هذه الأوصاف وهذه التقريرات ـ مع كونها عامة ـ تنطبق أول

ما تنطبق، على حال اليهود، وتصور موقفهم من هذا الدين وأهله؛ بل من الدين كله؛ سواء منهم من عاصروا فجر الدعوة في المدينة، أو من سبقوهم منذ أيام موسى ـ عليه السلام ـ أو من جاءوا بعدهم إلى يومنا هذا ـ إلا القلة النادرة المستثناة من الذين فتحوا قلوبهم للهدى فهداهم الله.

وهؤلاء ـ وكل من ينطبق عليهم وصف الكفر والصدّ ـ قد ضلوا ضلالاً بعيداً. ضلوا عن هدى الله، وضلوا طريقهم القويم في الحياة. ضلوا فِكْراً وتصوراً واعتقاداً، وضلوا سلوكاً ومجتمعاً وأوضاعاً. ضلوا في الدنيا وضلوا في الآخرة. ضلوا ضلالاً لا يُرتجى معه هدى.. **﴿ضلوا ضلالاً بعيداً﴾**..

ويعيد السياق وصفهم بالكفر، ليضم إليه الظلم: **﴿إن الذين كفروا وظلموا﴾**..

والكفر فيّ ذاته ظلم: ظلم للحق، وظلم للنفس، وظلم للناس.. والقرآن يعبر عن الكفر أحياناً بأنه الظلم.. وقوله: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾** بعدما قرر أنهم الكافرون في الآية السابقة عليها في سورة المائدة...

وهؤلاء لم يرتكبوا ظلم الشرك وحده، ولكن ارتكبوا معه ظلم الصدّ عن سبيل الله أيضاً، فأمعنوا في الكفر. أو أمعنوا في الظلم.. ومن ثم يقرر الله بعدله جزاءهم الأخير:

﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً ـ إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً﴾..

فليس من شأن الله ـ سبحانه ـ أن يغفر لأمثال هؤلاء، بعدما ضلوا ضلالاً بعيداً، وقطعوا على أنفسهم كل طريق للمغفرة.. وليس من شأن الله ـ سبحانه ـ أن يهديهم طريقاً إلا طريق جهنم. وقد قطعوا على أنفسهم كذلك كل طريق للهدى، وأوصدوا في وجوه أنفسهم كل طريق إلا طريق

جهنم، فأبعدوا فيه وأوغلوا، واستحقوا الخلود المؤبد فيها بإبعادهم في الضلال والكفر والصدّ والظلم، بحيث لا يُرجى لهم من هذا الإبعاد مآب!.

﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾..

فهو القاهر فوق عباده، وليس بينه وبين أحد من العباد صِهْر ولا نَسَب، يجعل أَخْذَهم بهذا الجزاء العادل المستحق عليهم عسيراً. وليس لأحد من عباده قوة ولا حيلة تجعل أَخْذَه عسيراً على الله أيضاً..

ولقد كان ـ اليهود ـ كما كان النصارى يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه. وكانوا يقولون: **﴿لن تمسنا النار إلا أياماً مَعْدودات﴾** [آل عمران: ٢٤].. وكانوا يقولون: نحن شعب الله المختار.. فجاء القرآن لينفي هذا كله. ويَضَعهم في موضعهم.. عباداً من العباد.. إن أحسنوا أُثيبوا، وإن أساءوا ـ ولم يستغفروا ويتوبوا ـ عُذِّبوا.. وكان ذلك على الله يسيراً..

وهكذا فإن القرآن الكريم يعالج بناء التصور الإسلامي الصحيح في ضمير الجماعة وهي تواجه العقائد المنحرفة، وتواجه أصحاب هذه العقائد، سواء منهم المشركون أو أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ وتصحح هذه العقائد وتقرر وجه الحق في الانحرافات التي تفسدها.

ويخوض القرآن بالجماعة المسلمة معركة حامية مع أهل الكتاب بصفة عامة، واليهود من أهل الكتاب بصفة خاصة. فهم الذين وقفوا للدعوة الجديدة منذ أن وصل رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة، ومنذ أن تبين اليهود خطر هذه الدعوة الجديدة على كيانهم ووضعهم الممتاز في يثرب، ودعاويهم في التفرد بالقرب من الله، وأنهم شعب الله المختار، ومن ثم حَرْبهم للدعوة الجديدة بكل سلاح!.

والقرآن يكشف طبيعتهم ووسائلهم، وتاريخهم مع أنبيائهم أنفسهم، مما يصور موقفهم من دعوة الحق أياً كان مُمَثّلها، ولو كان هو نبيهم وقائدهم ومنقذهم!.

وقد تبين مما سبق طبيعة التصور الإسلامي، الذي يجعل دين الله واحداً، ويجعل رسل الله موكباً يحمل هذا الدين؛ ويجعل التفرقة بين الرسل، والتفرقة بين ما جاءوا به كفراً صراحاً. . هذا البيان الذي أوضحه القرآن الكريم كان بصدد التنديد باليهود ـ من أهل الكتاب ـ الذين يُنكرون النبوة والأنبياء ـ بعد أنبيائهم ـ تعصباً وحقداً. .

ومما سبق بيانه أيضاً فقد كشف القرآن عن طبيعة بني إسرائيل. . كشف عن تعنتهم مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم: موسى ـ عليه السلام ـ مما يكشف عن طبيعة السوء فيهم، وموقفهم تجاه الحق ودعوته أياً كان الداعي إلى هذا الحق؛ ولو كان هو نبيهم الأكبر موسى، وكذلك موقفهم من عيسى ـ عليه السلام ـ وأُمه وإطلاق قالة السوء فيها ـ مما يكرهه الله ولا يحبه ـ فيبدو عندئذ موقفهم من الرسول ـ ﷺ ـ ومن دعوة الحق الأخيرة مفهوماً ومكشوفاً!.

كذلك ذكر القرآن دعاوى اليهود على المسيح ـ عليه السلام ـ، وتبجّحهم بقتله! ثم يقرر حقيقة الأمر، وطبيعة هذا الزعم. ويذكر كيف عاقب الله اليهود على ظلمهم وصدهم عن سبيل الله، وأَخْذِهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل. . بحرمانهم من بعض الطيبات التي أُحلّت لهم في الدنيا، وبالعذاب الأليم الذي ينتظرهم في الآخرة. مستثنياً الراسخين في العلم والمؤمنين الذين عرفوا الحق وآمنوا به واتبعوه. .

ويرد على تكذيب اليهود برسالة النبي ـ ﷺ ـ بتقرير أنها أمر طبيعي مألوف لا يثير عجباً ولا غرابة ولا استنكاراً. .

إذ هو جاء على سنة الله في إرسال الرسل للبشر؛ من لدن نوح ـ عليه السلام ـ؛ ثم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وداود. . وغيرهم ممن يُقرّ اليهود برسالة بعضهم ويُنكرون رسالة بعضهم تَعنُّتاً وحقداً. . وهو الأمر الطبيعي أن يرسل الله

لعباده رسلاً مبشرين ومنذرين. . **﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾** [النساء: ١٦٥]. .

فهو أمر ضروري، فوق أنه طبيعي. .

إنها جولة القرآن مع اليهود. وقد كشفت عن طبيعتهم ووسائلهم وعادة السوء فيهم من قديم، وردت كيدهم بهذا الكشف، وقررت كلمة الحق في رسالة محمد ـ ﷺ ـ وأقامت الحجة على الناس بشهادة الله ـ سبحانه ـ. .

لقد كان اليهود يدّعون الإيمان بأنبيائهم، وينكرون رسالة عيسى ورسالة محمد؛ كما كان النصارى يقفون بإيمانهم عند عيسى ـ فضلاً عن تأليهه ـ وينكرون رسالة محمد كذلك.

وكان القرآن ينكر على هؤلاء وهؤلاء؛ ويقرر التصور الإسلامي الشامل الكامل عن الإيمان بالله ورسوله؛ بدون تفريق بين الله ورسله؛ وبدون تفريق كذلك بين رسله جميعاً. وبهذا الشمول كان الإسلام هو «الدين» الذي لا يقبل الله من الناس غيره، لأنه هو الذي يتفق مع وحدانية الله؛ ومقتضيات هذه الوحدانية. .

﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله؛ ويقولون: نؤمن بِبَعْض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً. والذين آمنوا بالله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم؛ وكان الله غفوراً رحيماً﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥٢]. .

دعوى وكذب وافتراء:

وقصة بني إسرائيل هي أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم، والعناية بعرض مواقفها وعبرتها عناية ظاهرة، توحي بحكمة الله في علاج أمر هذه الأمة المسلمة، وتربيتها للخلافة الكبرى. . ففي القرآن تذكير

بني إسرائيل بأنعم الله عليهم وجحودهم لهذا الإنعام المتواصل.. وقد انتهت قلوبهم إلى قساوة وجفاف وجدب، أشد من قسوة الحجارة وجفافها وجدبها.

لقد كان اليهود ينتظرون مبعث الرسول الأخير منهم، فيجمعهم بعد فرقة، وينصرهم بعد هزيمة، ويعزهم بعد ذل. وكانوا يستفتحون بهذا على العرب، أي يطلبون الفتح بذلك النبي الأخير.

ولكن حكمة الله اقتضت أن يكون هذا النبي من العرب، من الأميين غير اليهود؛ فقد علم الله أن يهود قد فرغ عنصرها من مؤهلات القيادة الجديدة الكاملة للبشرية، وأنها زاغت وضلت. وأنها لا تصلح لحمل الأمانة بعدما كان منها في تاريخها الطويل!.

وكانت هناك دعوة إبراهيم خليل الرحمن ـ عليه الصلاة والسلام ـ تلك الدعوة التي أطلقها في ظل البيت هو وإسماعيل ـ عليه السلام ـ:

﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك، ويُعلمهم الكتاب والحكمة ويُزكِّيهم. إنك أنت العزيز الحكيم﴾ [البقرة: ١٢٩]..

كانت هناك هذه الدعوة من وراء الغيب، ومن وراء القرون، محفوظة عند الله لا تضيع، حتى يجيء موعدها المقدور في علم الله، وفق حكمته، وحتى تتحقق في وقتها المناسب في قَدَر الله وتنسيقه، وحتى تؤدي دورها في الكون حسب التدبير الإلهي الذي لا يستقدم معه شيء، ولا يستأخر عن موعده المرسوم.

وتحققت هذه الدعوة ـ وفق قَدَر الله وتدبيره ـ بنصها الذي تعيده سورة الجمعة لِتُذَكِّر بحكاية ألفاظ إبراهيم.. **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾** [الجمعة: ٢].. كما قال إبراهيم! حتى صفة الله في دعاء إبراهيم: **﴿إنك**

أنت العزيز الحكيم﴾ هي ذاتها التي تعقب على التذكير بمنة الله وفضله في سورة الجمعة: **﴿وهو العزيز الحكيم﴾** [الجمعة: ٣]..

وإن اختيار الله لأمة أو جماعة أو فرد لِيُحَمِّلَهم الأمانة الكبرى، وليكون مستودع نور الله وموضع تَلَقِّي فَيضه، والمركز الذي تتصل فيه السماء بالأرض.. إن اختيار الله هذا لفضلٌ لا يعدله فضل.. **﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم﴾** [الجمعة: ٤]..

فضل عظيم.. يربى على كل ما يبذله المؤمن من نفسه وماله وحياته؛ ويربى على متاعب الطريق وآلام الكفاح وشدائد الجهاد..

إن هذا الفضل العظيم تصغر إلى جانبه جميع القيم، وجميع النعم، كما تصغر إلى جانبه جميع التضحيات والآلام..

ويُفيد القرآن الكريم أن اليهود قد انتهى دورهم في حمل أمانة الله؛ فلم تعد لهم قلوب تحمل هذه الأمانة التي لا تحملها إلا القلوب الحية الفاقهة المدركة الواعية المتجردة العاملة بما تحمل:

﴿مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً. بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله! والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [الجمعة: ٥]..

فبنو إسرائيل حملوا التوراة، وكُلِّفُوا أمانة العقيدة والشريعة.. **﴿ثم لم يحملوها﴾**.. فَحَمْلَها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه، وينتهي بالعمل لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وعالم الواقع. ولكن سيرة بني إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم ـ وكما هي في حقيقتها ـ لا تدل على أنهم قَدَّروا هذه الأمانة، ولا أنهم فَقِهُوا حقيقتها، ولا أنهم عملوا بها. ومن ثم كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام، وليس له منها إلا ثقلها. فهو ليس صاحبها. وليس شريكاً في الغاية منها!.

وهي صورة زرية بائسة، ومثل سيِّىء شائن، ولكنها صورة معبرة عن حقيقة صادقة **﴿بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾** . .

ومثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها. . كل الذين حملوا أمانة العقيدة ثم لم يحملوها. والمسلمون الذين غبرت بهم أجيال كثيرة، والذين يعيشون في هذا الزمان، وهم يحملون أسماء المسلمين ولا يعملون عمل المسلمين. وبخاصة أولئك الذين يقرأون القرآن والكتب، وهم لا ينهضون بما فيها. .

أولئك كلهم، كالحمار يحمل أسفاراً. وهم كثيرون كثيرون! فليست المسألة مسألة كتب تُحْمَل وتُدرَس. إنما هي مسألة فقه وعمل بما في الكتب. .

وكان اليهود يزعمون ـ كما يزعمون حتى اليوم ـ أنهم شعب الله المختار، وأنهم هم أولياؤه من دون الناس وأن غيرهم هم «الجوييم»[1] أو الأمميون أو الأميون. وأنهم من ثم غير مطالبين بمراعاة أحكام دينهم مع غيرهم من الأميين: **﴿قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾** [آل عمران: ٧٥]. . إلى آخر هذه الدعاوى التي تفتري الكذب على الله بلا دليل!.

ويمضي القرآن ـ وهو يخوض المعركة بالجماعة المسلمة مع اليهود في المدينة ـ يعجب من أمر هؤلاء الخلق؛ الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار؛ ويثنون على أنفسهم؛ ويزكونها؛ بينما هم يُحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه، ويتطاولون على الله ورسوله ـ كما سبق ـ وبينما هم يؤمنون بالجبت

---

(١) «جوييم» باللغة العبرية أي أُمِميون ـ نسبة إلى الأمم ـ بوصفهم شعب الله المختار وغيرهم هم الأمم!.

والطاغوت - كما سيجيء - كاذبين على الله في تزكيتهم لأنفسهم، وفي زعمهم أنهم مقربون إليه مهما عملوا من السوء!:

﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم؟ بل الله يُزَكّي من يشاء، ولا يظلمون فتيلاً. انظر كيف يفترون على الله الكذب! وكفى به إثماً مبيناً﴾ [النساء: ٤٩، ٥٠]..

ودعوى اليهود أنهم شعب الله المختار هي دعواهم من قديم. وقد اختارهم الله فعلاً لحمل الأمانة وأداء الرسالة، وفَضَّلَهم على العالمين في ذلك الأوان؛ وأهلك لهم فرعون وملأه، وأورثهم الأرض المقدسة.. ولكنهم هم انحرفوا بعد ذلك عن منهج الله؛ وعتوا في الأرض عتواً كبيراً، واجترحوا السيئات التي تضج منها الأرض، وأحل لهم أحبارهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحله لهم، واتبعوهم؛ ولم ينكروا عليهم حق الألوهية هذا الذي ادعوه عملياً - بهذا التحريم والتحليل - وقد بدل هؤلاء الأحبار في شريعة الله، ليرضوا ذوي السلطان والشرفاء؛ وليملقوا كذلك رغبات الجماهير وأهواءهم. **وبذلك اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله**. وأكلوا الربا..

ووهنت علاقتهم بدين الله وكتابه الذي أنزله عليهم.. وعلى الرغم من ذلك كله - وغيره كثير - فقد ظلوا **يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه. وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة. وأنه لا يهتدي ولا يقبل عند الله إلا من كان هوداً!**.

كأَنَّ المسألة مسألة قرابة ونَسَب ومحاباة بينهم وبين الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً - فالله لا تصل بينه وبين أحد من خلقه قرابة ولا نسب؛ إنما تربط عباده به العقيدة المستقيمة والعمل الصالح، والاستقامة على منهج الله.. فمن أخلّ بهذا فقد غضب الله عليه.. ويشتد غضبه إذا كان قد آتى الضالين الهدى فانحرفوا عنه!.

وما شأن هؤلاء اليهود إلا شأن من يزعمون الإسلام اليوم، ويحسبون أنهم من أمة محمد ـ ﷺ ـ وأن الله لا بد ناصرهم، ومخرج لهم اليهود من أرضهم.. بينما هم ينسلخون انسلاخاً كاملاً من دين الله الذي هو منهجه للحياة؛ فينبذونه من حياتهم؛ ولا يتحاكمون إلى كتاب الله لا في أقضيتهم ولا في اقتصادهم، ولا في اجتماعهم، ولا في آدابهم، ولا في تقاليدهم. وكل ما لهم من الإسلام أسماء المسلمين! وأنهم وُلِدُوا في أرض كان المسلمون يسكنونها ذات يوم! ويقيمون فيها دين الله، ويحكمون منهجه في الحياة!.

والله يعجب رسوله ـ ﷺ ـ من أمر أولئك اليهود الذين يزكون أنفسهم، وأمر «المسلمين» المعاصرين أعجب، وأشد إثارة للتعجيب والتعجب!!.

إنه ليس الناس هم الذين يُزكّون أنفسهم؛ ويشهدون لها بالصلاح والقرب من الله واختيار الله. إنما الله هو الذي يزكي من يشاء.

فهو أعلم بالقلوب والأعمال. ولن يظلم الناس شيئاً، إذا هم تركوا هذا التقدير لله ـ سبحانه ـ واتجهوا إلى العمل. لا إلى الادعاء.

فلئن عملوا ـ وهم ساكتون متواضعون في حياء من الله، وبدون تزكية ولا ادعاء ـ فلن يُغْبَنوا عند الله، ولن ينسى لهم عمل؛ ولن يبخس لهم حق.

والله ـ سبحانه ـ يشهد على اليهود أنهم ـ إذ يزكُّون أنفسهم ويدّعون أن الله راض عنهم ـ يفترون عليه الكذب. ويشنع بفعلتهم هذه، ويوجه الأنظار إلى بشاعتها: ﴿انظر. كيف يفترون على الله الكذب. وكفى به إثماً مبيناً!﴾..

وما أرى أننا ـ الذي ندعي الإسلام لأننا نحمل أسماء المسلمين، ونعيش في أرض كان يسكنها المسلمون! بينما نحن لا نجعل الإسلام في شيء من منهجنا في الحياة.. وما أحسبنا ونحن ندعي الإسلام، فَنُشَوّه

الإسلام بصورتنا وواقعنا، ونؤدي ضده شهادة مُنَفِّرة منه! ثم ونحن ندعي أن الله مختار لنا لأننا أمة محمد ـ ﷺ ـ بينما دين محمد ومنهجه مطرود من واقع حياتنا طرداً . .

ما أحسبنا إلا في مثل هذا الموضع، الذي يعجب الله ـ سبحانه ـ منه رسوله ـ ﷺ ـ ويدمغ أصحابه بافتراء الكذب على الله، وارتكاب هذا الإثم المبين! والعياذ بالله! .

إن دين الله منهج حياة. وطاعة الله هي تحكيم هذا المنهج في الحياة. والقرب من الله لا يكون إلا بطاعته. . فلننظر أين نحن من الله ودينه ومنهجه. ثم لننظر أين نحن من حال هؤلاء اليهود، الذين يعجب الله من حالهم، ويدمغهم بإثم الافتراء عليه في تزكيتهم لأنفسهم! فالقاعدة هي القاعدة. والحال هي الحال. وليس لأحد عند الله نَسب ولا صِهر ولا محاباة! .

ويمضي السياق في التعجيب من أمر أولئك الذين يُزَكُّون أنفسهم. . بينما هم يؤمنون بالباطل وبالأحكام التي لا تستند إلى شرع الله، وليس لها ضابط منه يعصمها من الطغيان «الجبت والطاغوت» وبينما هم يشهدون للشرك والمشركين بأنهم أهدى من المؤمنين بكتاب الله ومنهجه وشريعته، ويحمل عليهم ـ بعد التعجيب من أمرهم، وذكر هذه المخازي عنهم ـ حملة عنيفة؛ ويُرذّلهم ترذيلاً شديداً؛ ويظهر كامن طباعهم من الحسد والبخل؛ والأسباب الحقيقية التي تجعلهم يقفون هذا الموقف إلى جانب انحرافهم عن دين إبراهيم ـ الذي يفخرون بالانتساب إليه ـ ويُنهي هذه الحملة بتهديدهم بجهنم: ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾ . .

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً! أولئك الذين لعنهم الله. ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً. أم لهم نصيب من

الملك؟ فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً. أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة؛ وآتيناهم ملكاً عظيماً. فمنهم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه؛ وكفى بجهنم سعيراً﴾ [النساء: ٥١ - ٥٥]. .

لقد كان الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، أَوْلَى الناس أن يتبعوا الكتاب؛ وأن يكفروا بالشرك الذي يعتنقه من لم يأتهم من الله هدى؛ وأن يُحَكِّموا كتاب الله في حياتهم، فلا يتبعوا الطاغوت - وهو كل شرع لم يأذن به الله، وكل حكم ليس له من شريعة الله سند - ولكن اليهود - الذين كانوا يُزكّون أنفسهم، ويتباهون بأنهم أحباء الله - كانوا في الوقت ذاته يتبعون الباطل والشرك بإتباعهم للكهانة وتركهم الكهان والأحبار يُشرّعون لهم ما لم يأذن به الله. وكانوا يؤمنون بالطاغوت؛ وهو هذا الحكم الذي يقوم على غير شريعة الله. . وهو طاغوت لما فيه من طغيان - بادعاء الإنسان إحدى خصائص الألوهية - وهي الحاكمية - وبعدم انضباطه بحدود من شرع الله، تلزمه العدل والحق. فهو طغيان، وهو طاغوت؛ والمؤمنون به والمتبعون له، مشركون أو كافرون. يَعجب الله من أمرهم، وقد أُوتوا نصيباً من الكتاب، فلم يلتزموا بما أوتوه من الكتاب! .

ولقد كانوا يضيفون إلى الإيمان بالجبت والطاغوت، موقفهم في صف المشركين الكفار، ضد المؤمنين الذين آتاهم الله الكتاب أيضاً:

﴿ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ . .

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة - أو عن سعيد بن جبير - عن ابن عباس. قال: «كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة، حُيَيّ بن أخطب، وسلام بن الحقيق، وأبو رافع، والربيع بن الحقيق، وأبو عامر، ووحوح بن عامر، وهودة بن قيس. فأما وحوح وأبو عامر وهودة، فمن بني وائل، وكان سائرهم من بني النضير. فلما

قدموا على قريش قالوا: هؤلاء أحبار يهود، وأهل العلم بـالكتاب الأول. فاسألوهم: أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم. فقالوا: دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه. فأنزل الله ـ عز وجل ـ: **﴿ألم تـر إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب﴾**.. إلى قوله ـ عز وجل: **﴿وآتينـاهم ملكاً عظيماً﴾**..

وهذا لَعْن لهم، وإخبار بأنه لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة. لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين. وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم. وقد أجابوهم، وجاءوا معهم يوم الأحزاب؛ حتى حفر النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه حول المدينة الخندق، وكفى الله شرّهم..

وكان عجيباً أن يقول اليهود: إن دين المشركين خير من دين محمد ومن معه، وأن المشركين أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بكتاب الله ورسوله ـ ﷺ ـ ولكن هذا ليس بالعجيب من اليهود.. إنه موقفهم دائماً من الحق والباطل، ومن أهل الحق وأهل الباطل.. إنهم ذوو أطماع لا تنتهي، وذوو أهواء لا تعتدل، وذوو أحقاد لا تزول! وهم لا يجدون عند الحق وأهله عوناً لهم في شيء من أطماعهم وأهوائهم وأحقادهم. إنما يجدون العون والنصرة ـ دائماً ـ عند الباطل وأهله. ومن ثم يشهدون للباطل ضد الحق؛ ولأهـل الباطل ضد أهل الحق!.

هذه حال دائمة، سببها كذلك قائم.. وكان طبيعياً منهم ومَنْطِقياً أن يقولوا عن الذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً! وهم يقولونها اليوم وغداً. إنهم يُشوّهون بوسائل الدعاية والإعـلام التي في أيديهم كـل حركة إسلامية ناجحة على ظهر الأرض؛ ويُعينون عليها أهل الباطل لتشويهها وتحطيمها ـ بالضبط كما كانوا يُعينون مشركي قريش ويستنصرون بهم في الوقت ذاته ـ لتشويه الحركة الإسلامية الأولى وتحطيمها.

ولكنهم أحياناً ـ لخبثهم ولتمرّسهم بالحِيَل الماكرة ولملابسات العصر

الحديث ـ قد لا يثنون ثناءً مكشوفاً على الباطل وأهله.. بل يكتفون بتشويه الحق وأهله. ليعينوا الباطل على هَدْمه وسَحْقه. ذلك أَنَّ ثناءهم المكشوف ـ في هذا الزمان ـ أصبح مُتَّهماً، وقد يُثير الشبهات حول حلفائهم المستورين، الذين يعملون لحسابهم، في سحق الحركات الإسلامية في كل مكان..

بل لقد يبلغ بهم المكر والحذق أحياناً، أن يتظاهروا بعداوة وحرب حلفائهم، الذين يسحقون لهم الحق وأهله. ويتظاهروا كذلك بمعركة كاذبة جوفاء من الكلام. لِيُبْعِدوا الشبهة تماماً عن أخلص حلفائهم، الذين يحققون لهم أهدافهم البعيدة!.

ولكنهم لا يَكُفّون أبداً عن تشويه الإسلام وأهله.. لأن حقدهم على الإسلام، وعلى كل شَبح من بعيد لأي بعث إسلامي، أضخم من أن يداروه.. ولو للخداع والتمويه!.

إنها جِبِلّة واحدة، وخطة واحدة، وغاية واحدة.. هي التي من أجلها يجبههم الله باللّعنة والطرد، وفقدان النصير. والذي يفقد نصرة الله فما له من ناصر وما له من مُعين ولو كان أهل الأرض كلهم له ناصر وكلهم له معين:

﴿أولئك الذين لعنهم الله. ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾..

ولقد يهولنا اليوم أن نجد دول الغرب كلها نصيراً لليهود. فنسأل: وأين وَعْد الله بأنَّه لَعَنَهم، وأن من يلعن الله فلن تجد له نصيراً؟.

ولكن الناصر الحقيقي ليس هو الناس. ليس هو الدول. ولو كانت تملك القنابل الأيدروجينية والصواريخ. إنما الناصر الحق هو الله. القاهر فوق عباده: ومَنْ هؤلاء العباد من يملكون القنابل الأيدروجينية والصواريخ!.

والله ناصر من يَنصره: **﴿ولينصرن الله من ينصره﴾** [الحج: ٤٠] والله معين من يؤمن به حق الإيمان، ويتبع منهجه حق الإتباع؛ ويتحاكم إلى منهجه في رضى وفي تسليم..

ولقد كان الله ـ سبحانه ـ يخاطب بهذا الكلام أمة مؤمنة به، مُتّبعة لمنهجه، مُحْتَكِمَةً إلى شريعته. وكان يهوّن من شأن عدوها ـ اليهود ـ وناصريهم. وكان يعد المسلمين النصر عليهم لأنهم ـ اليهود ـ لا نصير لهم. وقد حقّق الله لهم وَعْده. وَعْده الذي لا يناله إلا المؤمنون حقاً. والذي لا يتحقق إلا على أيدي العصبة المؤمنة حين تقوم.

فلا يهولنا ما نلقاه من نصرة الملحدين والمشركين والصليبيين لليهود. فهم في كل زمان ينصرونهم على الإسلام والمسلمين.. فليست هذه هي النصرة.. ولكن كذلك لا يخدعنا هذا.. فإنما يتحقق هذا الأمر للمسلمين! يوم يكونون مسلمين!.

وليحاول المسلمون أن يُجَرّبوا ـ مرة واحدة ـ أن يكونوا مسلمين. ثم يروا بأعينهم إن كان يبقى لليهود نصير. أو أن ينفعهم هذا النصير!.

وبعد التعجيب من أمر اليهود وموقفهم وقولهم؛ وإعلان اللعنة عليهم والخذلان.. يأخذ في استنكار موقفهم من الرسول ـ ﷺ ـ والمسلمين؛ وغيظهم من أن يمنّ الله عليهم هذه المِنّة.. مِنّة الدين والنصر والتمكين. وحَسَدَهم لهم على ما أعطاهم الله من فضله، وهم لم يُعطوهم من عندهم شيئاً!.

ويكشف في الوقت ذاته عن كزازة طبيعتهم؛ واستكثار أي عطاء يناله غيرهم؛ مع أن الله قد أفاض عليهم وعلى آبائهم، فلم يُعَلّمهم هذا الفيض السماحة؛ ولم يمنعهم من الحَسَد والكنود: **﴿أم لهم نصيب من المُلك؟ فإذاً لا يُؤتون الناس نقيراً! أم يَحسُدون الناس على ما آتاهم الله من فضله؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة، وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾** [النساء: ٥٣، ٥٤].

يا عجباً! إنهم لا يُطيقون أن ينعم الله على عبد من عباده بشيء من عنده.. فهل هم شركاؤه ـ سبحانه ـ هل لهم نصيب في مُلكه، الذي يمنح

منه ويفيض؟ لو كان لهم نصيب لضَنُّوا ـ بكزازتهم وشُحّهم ـ أن يعطوا الناس نقيراً. .

والنقير النقرة تكون في ظهر النواة ـ وهذه لا تسمح كزازة يهود وأثرتها البغيضة أن تعطيها للناس، لو كان لها في المُلك نصيب!.

والحمد لله أن ليس لها في الملك نصيب. . وإلا لهلك الناس جميعاً وهم لا يعطون حتى النقير!!.

أم لعله الحسد. . حَسد رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمين، على ما آتاهم الله من فضله. . من هذا الدين الذي أنشأهم نشأة أخرى ووهب لهم ميلاداً جديداً، وجعل لهم وجوداً إنسانياً متميزاً؛ ووهبهم النور والثقة والطمأنينة واليقين؛ كما وهبهم النظافة والطهر، مع العز والتمكين؟.

وإنه فعلاً للحسد من يهود. مع تفويت أطماعها في السيادة الأدبية والاقتصادية على العرب الجاهلين المتفرقين المتخاصمين. . يوم أن لم يكن لهم دين. . ولكن لماذا يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من النبوة والتمكين في الأرض؟ وهم غارقون في فضل الله من عهد إبراهيم. . الذي آتاه الله وآله الكتاب والحكمة ـ وهي النبوة ـ وآتاهم الملك كذلك والسيادة. وهم لم يَرْعوا الفضل ولم يحتفظوا بالنعمة، ولم يصونوا العهد القديم، بل كان منهم فريق من غير المؤمنين. ومن يؤت هذا الفضل كله لا يليق أن يكون منهم جاحدون كافرون!.

﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً. فمنهم من آمن به، ومنهم من صدّ عنه﴾ [النساء: ٥٤، ٥٥]. .

إنه لمن أَلأَم الحسد: أن يحسد ذو النعمة الموهوب! لقد يحسد المحروم ويكون الحسد منه رذيلة! أَمَّا أن يحسد الواجد المغمور بالنعمة، فهذا هو الشرّ الأصيل العميق! شر يهود! المتميز الفريد!.

ومن ثم يكون التهديد بالسعير، هو الجزاء المقابل لهذا الشرّ النكير: ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾ [النساء: ٥٥]..

ظلم مبين وكيد متين في مواجهة الرسول الأمين:

لقد قُرِىء القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه: **﴿النبي الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾** [الأعراف: ١٥٧].. وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة، التي كانوا يتواصون بتَكَتُّمها!.

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبي قد أظلهم زمانه، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى في الجزيرة العربية. ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم. فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم، كرهوا هذا وحاربوه!.

وعلى أية حال فالنص القرآني بذاته هو الفيصل في مثل هذه الأخبار. وهو القول الأخير.. **﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين. ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يُدعى إلى الإسلام؟ والله لا يهدي الظالمين، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾** [الصف: ٦ ـ ٩]..

ويبدو أن هذه الآيات جاءت على الأكثر بصدد استقبال بني إسرائيل ـ اليهود والنصارى ـ للنبي الذي بَشَّرت به كُتبهم. والتنديد بهذا الاستقبال، وكيدهم للدين الجديد الذي قَدَّر الله أن يُظهره على الدين كله، وأن يكون هو الدين الأخير!.

ويمضي القرآن الكريم في مناقشة قضية الوحي من زاوية واقعية مشهودة. فماذا يُنكرون من أمر الوحي والرسالة؟ وليس في الأمر غريب

ولا عجيب: ﴿قل: ما كنت بِدْعاً من الرسل. وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يُوحي إليّ.. وما أنا إلا نذير مبين﴾ [الأحقاف: ٩]..

إنه - ﷺ - ليس أول رسول. فقد سبقته الرسل. وأمره كأمرهم. وما كان بدعاً من الرسل. بشر يعلم الله أنه أهل للرسالة فيوحي إليه، فيصدع بما يؤمر. هذا هو جوهر الرسالة وطبيعتها.. والرسول حين يتصل قلبه لا يسأل ربه دليلاً، ولا يطلب لنفسه اختصاصاً. إنما يمضي في سبيله، يبلغ رسالة ربه، حسبما أوحي بها إليه: ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم. إن أتبع إلا ما يُوحَىٰ إليّ﴾.. فهو لا يمضي في رسالته لأنه يعلم الغيب؛ أو لأنه يطلع على ما يكون من شأنه وشأن قومه وشأن الرسالة التي يُبَشّر بها. إنما هو يمضي وفق الإشارة وحسب التوجيه. واثقاً بربه، مستسلماً لإرادته، مطيعاً لتوجيهه، يضع خطاه حيث قادها الله. والغيب أمامه مجهول، سِرّه عند ربه. وهو لا يتطلع إلى السر من وراء الستر لأن قلبه مطمئن، ولأن أدبه مع ربه ينهاه عن التطلع لغير ما فتح له. فهو واقف أبداً عند حدوده وحدود وظيفته: ﴿وما أنا إلا نذير مبين﴾..

وإنه لأدب الواصلين، وإنها لطمأنينة العارفين، يتأسون فيها برسول الله - ﷺ - فيمضون في دعوتهم لله. لا لأنهم يعرفون مآلها، أو يعلمون مستقبلها. أو يملكون فيها قليلاً أو كثيراً. ولكن لأن هذا واجبهم وكفى. وما يطلبون من ربهم برهاناً فبرهانهم في قلوبهم. وما يطلبون لأنفسهم خصوصية فخصوصيتهم أنه اختارهم. وما يتجاوزون الخط الدقيق الذي خطه لهم، ورسم لهم فيه مواقع أقدامهم على طول الطريق. ثم يواجههم بشاهد قريب، لشهادته قيمتها، لأنه من أهل الكتاب الذين يعرفون طبيعة التنزيل:

﴿قل: أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مِثْله، فآمن واستكبرتم؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [الأحقاف: ١٠].

وقد تكون هذه واقعة حال، ويكون واحد أو أكثر من بني إسرائيل، عرف أن طبيعة هذا القرآن هي طبيعة الكتب المنزلة من عند الله، بحكم معرفته لطبيعة التوراة. فآمن. وقد وردت روايات أنها نزلت في عبد الله بن سلام. لولا أن هذه الآية مكية (سورة الأحقاف) وعبد الله بن سلام إنما أسلم في المدينة. وقد ورد كذلك أن هذه الآية مدنية توكيداً لنزولها في شأن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ كما ورد أنها مكية وأنها لم تنزل فيه.

وقد تكون إشارة إلى واقعة أخرى في مكة نفسها. فقد آمن بعض أهل الكتاب على قلة في العهد المكي. وكان لإيمانهم، وهم أهل كتاب، قيمته وحجيته في وسط المشركين الأميين. ومن ثم نوه به القرآن في مواضع متعددة، وواجه به المشركين الذين كانوا يكذبون بغير علم ولا هدي ولا كتاب منير..

لقد تكرر في القرآن الكريم ذكر معرفة أهل الكتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ لهذا القرآن؛ أو لصحة رسالة محمد ـ ﷺ ـ وتنزيل هذا القرآن عليه من عند الله.. تكرر ذكر هذه الحقيقة سواء في مواجهة أهل الكتاب أنفسهم، عندما كانوا يقفون من النبي ـ ﷺ ـ ومن هذا الدين وقفة المعارضة والإنكار والحرب والعداء (وكان هذا غالباً في المدينة) أو في مواجهة المشركين من العرب؛ لتعريفهم أن أهل الكتاب، الذين يعرفون طبيعة الوحي والكتب السماوية، يعرفون هذا القرآن، ويعرفون صدق رسول الله ـ ﷺ ـ في أنه وَحْي أوحى به ربه إليه كما أوحى إلى الرسل من قبله.. **﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾** [الأنعام: ٢٠]..

وهذه الآية ـ كما نرجح ـ مكية[١]. وذكر أهل الكتاب فيها على هذا النحو ـ إذن ـ يفيد أنها كانت مواجهة للمشركين بأن هذا القرآن الذي

(١) انظر في ظلال القرآن سورة الأنعام ص ١٠٦٠.

ينكرونه، يعرفه أهل الكتاب كما يعرفون أبناءهم؛ وإذا كانت كثرتهم لم تؤمن به فذلك لأنهم خسروا أنفسهم، فهم لا يؤمنون. شأنهم في هذا شأن المشركين، الذين خسروا أنفسهم، فلم يدخلوا في هذا الدين.

وقد جرى المفسرون على تفسير مثل هذا التقرير: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾.. على أنهم يعرفون أنه منزل من عند الله حقاً؛ وعلى أن النبي ـ ﷺ ـ رسول من عند الله حقاً، يوحي إليه بهذا القرآن..

وهذا جانب من مدلول النص فعلاً، ولكنا نلمح ـ باستصحاب الواقع التاريخي وموقف أهل الكتاب من هذا الدين فيه ـ أن هناك جانباً آخر من مدلول النص؛ لعل الله ـ سبحانه ـ أراد أن يُعَلِّمه للجماعة المسلمة، ليستقر في وَعْيها على مدار التاريخ، وهي تواجه أهل الكتاب بهذا الدين..

إن أهل الكتاب يعرفون أن هذا الكتاب حق من عند الله؛ ويعرفون ـ من ثم ـ ما فيه من سلطان وقوة؛ ومن خير وصلاح؛ ومن طاقة دافعة للأمة التي تدين بالعقيدة التي جاء بها، وبالأخلاق التي تنبثق منها؛ وبالنظام الذي يقوم عليها. ويحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله؛ ويعلمون جيداً أن الأرض لا تسعهم وتسع أهل الدين!.. إنهم يعرفون ما فيه من حق، ويعرفون ما هم فيه من باطل.. ويعرفون أن الجاهلية التي صاروا إليها، وصارت إليها أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم، لا يمكن أن يُهادنها هذا الدين، أو يُبقي عليها.. وأنها ـ من ثم ـ معركة لا تهدأ حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض، ويستعلي هذا الدين، ويكون الدين كله لله.. أي أن يكون السلطان في الأرض كله لله؛ وأن يُطَارَد المُعتدون على سلطان الله في الأرض كلها. وبذلك وحده يكون الدين كله لله..

إن أهل الكتاب يعلمون جيداً هذه الحقيقة في هذا الدين.. ويعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم.. وهم جيلاً بعد جيل يدرسون هذا الدين دراسة

دقيقة عميقة؛ وينقبون عن أسرار قوته؛ وعن مداخله إلى النفوس ومساربه فيها؛ ويبحثون بجد: كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة في هذا الدين؟ كيف يلقون بالريب والشكوك في قلوب أهله؟ كيف يُحرّفون الكلم فيه عن مواضعه؟ كيف يصدون أهله عن العلم الحقيقي به؟ كيف يُحولونه من حركة دافعة تحطم الباطل والجاهلية وتسترد سلطان الله في الأرض وتطارد المعتدين على هذا السلطان، وتجعل الدين كله لله.. إلى حركة ثقافية باردة، وإلى بحوث نظرية ميتة، وإلى جدل لاهوتي أو فقهي أو طائفي فارغ؟ كيف يفرغون مفهوماته في أوضاع وأنظمة وتصورات غريبة عنه مدمرة له، مع إيهام أهله أن عقيدتهم محترمة مصونة؟! كيف في النهاية يملأون فراغ العقيدة بتصورات أخرى ومفهومات أخرى واهتمامات أخرى، ليجهزوا على الجذور العاطفية الباقية من العقيدة الباهتة؟!.

إن أهل الكتاب يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة فاحصة؛ لا لأنهم يبحثون عن الحقيقة ـ كما يتوهم السُذَّج من أهل هذا الدين! ـ ولا لينصفوا هذا الدين وأَهْله ـ كما يتصور بعض المخدوعين حينما يرون اعترافاً من باحث أو مستشرق بجانب طيب في هذا الدين! ـ كلا إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة، لأنهم يبحثون عن مقتل لهذا الدين! لأنهم يبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدوها أو يُمَيّعوها! لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها! لأنهم يريدون أن يعرفوا كيف يبني نفسه في النفوس لِيَبْنُوا على غراره التصورات المضادة التي يريدون ملء فراغ الناس بها!.

وهم من أجل هذه الأهداف والملابسات كلها يعرفونه كما يعرفون أبناءهم! ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون**﴾ [البقرة: ١٤٦]..

ومن واجبنا نحن أن نعرف ذلك.. وأن نعرف معه أننا نحن الأَوْلى بأن نعرف ديننا كما نعرف أبناءنا!.

إن الواقع التاريخي من خلال أربعة عشر قرناً ينطق بحقيقة واحدة. . هذه هذه الحقيقة التي يقررها القرآن الكريم في هذه الآية: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾. . ولكن هذه الحقيقة تتضح في هذه الفترة وتتجلى بصورة خاصة. .

إن البحوث التي تُكتب عن الإسلام في هذه الفترة تصدر بمعدل كتاب كل أسبوع؛ بلغة من اللغات الأجنبية. . وتنطق هذه البحوث بمدى معرفة أهل الكتاب بكل صغيرة وكبيرة عن طبيعة هذا الدين وتاريخه، ومصادر قوته، ووسائل مقاومته، وطرق إفساد توجيهه! ومعظمهم ـ بطبيعة الحال ـ لا يفصح عن نيته هذه؛ فهم يعلمون أن الهجوم الصريح على هذا الدين كان يثير حماسة الدفاع والمقاومة؛ وأن الحركات التي قامت لطرد الهجوم المسلح على هذا الدين ـ المُمَثَّل في الاستعمار ـ إنما كانت ترتكز على قاعدة من الوعي الديني أو على الأقل العاطفة الدينية؛ وأن استمرار الهجوم على الإسلام ـ ولو في الصورة الفكرية ـ سيظل يثير حماسة الدفاع والمقاومة! لذلك يلجأ معظمهم إلى طريقة أخبث. . يلجأ إلى إزجاء الثناء لهذا الدين، حتى يُنَوِّم المشاعر المُتَوفزة، ويُخدر الحماسة المُتَحَفِّزة، وينال ثقة القارىء واطمئنانه. . ثم يَضع السمّ في الكأس ويُقدّمها مُترعة. . هذا الدين نعم عظيم. . ولكنه ينبغي أن يتطور بمفهوماته ويتطور كذلك بتنظيماته ليجاري الحضارة «الإنسانية» الحديثة، وينبغي ألا يقف موقف المعارضة للتطورات التي وقعت في أوضاع المجتمع، وفي أشكال الحكم، وفي قيم الأخلاق!، وينبغي ـ في النهاية ـ أن يتمثل في صورة عقيدة في القلوب، ويَدَع الحياة الواقعية تنظمها نظريات وتجارب وأساليب الحضارة «الإنسانية» الحديثة!، ويقف فقط ليبارك ما تقرره الأرباب الأرضية من هذه التجارب والأساليب. . وبذلك يظل ديناً عظيماً. . !.

وفي أثناء عرض مواضع القوة والعمق في هذا الدين ـ وهي ظاهرياً تبدو في صورة الإنصاف الخادع والثناء المُخَدّر ـ يقصد المؤلف قومه من

أهل الكتاب؛ لينبههم إلى خطورة هذا الدين، وإلى أسرار قوته؛ ويسير أمام الأجهزة المدمرة بهذا الضوء الكشّاف، ليُسَـدّدوا ضربـاتهم على الهدف. وليعرفوا هذا الدين كما يعرفون أبناءهم!.

إن أسرار هذا القرآن ستظل تتكشف لأصحابه، جديدة دائماً؛ كلما عاشوا في ظلاله؛ وهم يخوضون معركة العقيدة؛ ويتدبرون بوعي أحداث التاريخ؛ ويطالعون بوعي أحداث الحاضر. ويرون بنور الله. الذي يكشف الحق، وينير الطريق..

إن هذا الدين هـو الرسـالة الأخيـرة، فهي الرسـالة الشـاملة، التي لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل.. ولقد كانت الرسالات قبلها رسالات محلية قومية محدودة بفتـرة من الزمـان ـ ما بين عهـدي رسولين ـ وكـانت البشرية تخطو على هدى هذه الرسالات خطوات محدودة، تأهيلاً لها للرسالة الأخيرة. وكانت كل رسالة تتضمن تعديلاً وتحويراً في الشريعة يناسب تدرج البشرية. حتى إذا جاءت الرسالة الأخيرة جاءت كاملة في أصولهـا، قابلة للتطبيق المتجدد في فروعها، وجـاءت للبشر جميعـاً، لأنه ليست هنـالك رسالات بعدها للأقوام والأجيال في كل مكان. وجاءت وفق الفطرة الإنسانية التي يلتقي عندها الناس جميعاً. ومن ثم حملها النبي الأمي الذي لم يدخل على فطرته الصافية ـ كما خرجت من يد الله ـ إلا تعليم الله. فلم تشب هذه الفطرة شائبة من تعليم الأرض ومن أفكار الناس! ليحمل رسالة الفطرة إلى فطرة الناس جميعاً: **﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، الذي له ملك السموات والأرض، لا إله إلا هو يحيـي ويميت. فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الـذي يؤمن بـالله وكلمـاتـه، واتبعـوه لعلكم تهتـدون﴾** [الأعراف: ١٥٨]..

وهذه الآية التي يُؤمر فيها رسول الله ـ ﷺ ـ أن يواجه برسالته الناس جميعاً، هي آية مكيـة في سورة مكيـة.. وهي تجبه المـزوّرين من أهل

الكتاب، الذين يزعمون أن محمداً - ﷺ - لم يكن يدور في خلده وهو في مكة أن يمد بصره برسالته إلى غير أهلها، وأنه إنما بدأ يفكر في أن يتجاوز بها قريشاً، ثم يجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب، ثم يجاوز بها الجزيرة العربية إلى ما وراءها. . كل أولئك بعد أن أغراه النجاح الذي ساقته إليه الظروف! وإن هي إلا فِرْية من ذيول الحرب التي شَنّوها قديماً على هذا الدين وأهله. وما يزالون ماضين فيها! وليست البلية في أن يرصد أهل الكتاب كيدهم كله لهذا الدين وأهله. وأن يكون «المستشرقون» الذين يكتبون مثل هذا الكذب هم طليعة الهجوم على هذا الدين وأهله. . إنما البلية الكبرى أن كثيراً من السُذَّج الأغرار ممن يُسَمُّون أنفسهم بالمسلمين يتخذون من هؤلاء المزوّرين على نبيهم ودينهم، المحاربين لهم ولعقيدتهم، أساتذة لهم، يتلقون عنهم في هذا الدين نفسه، ويستشهدون بما يكتبونه عن تاريخ هذا الدين وحقائقه، ثم يزعم هؤلاء السُّذَج الأغرار لأنفسهم أنهم «مثقفون»!.

وهذا النداء الأخير في هذه الآية يتضمن لفتات دقيقة ينبغي أن نقف أمامها لحظات:

ـ إنه يتضمن ابتداء ذلك الأمر بالإيمان بالله ورسوله. . وهو ما تتضمنه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، في صورة أخرى من صور هذا المضمون الذي لا يقوم بدونه إيمان ولا إسلام. . ذلك أن هذا الأمر بالإيمان بالله سبقه في الآية التعريف بصفات الله تعالى: ﴿**الذي له ملك السموات والأرض، لا إله إلا هو يحيي ويميت**﴾. . فالأمر بالإيمان بالله الذي هذه هي صفاته الحقة. كما سبقه التعريف برسالة النبي - ﷺ - إلى الناس جميعاً.

ـ ثم يتضمن ثانية أن النبي الأمي - صلوات الله وسلامه عليه - يُؤمن بالله وكلماته. . ومع أن هذه بديهية، إلا أن هذه اللفتة لها مكانها ولها

قيمتها. فالدعوة لا بُدّ أن يسبقها إيمان الداعي بحقيقة ما يدعو إليه، ووضوحه في نفسه، ويقينه منه. لذلك يجيء وصف النبي المرسل إلى الناس جميعاً بأنه ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾.. وهو نفس ما يدعو الناس إليه ونَصّه..

ـ ثم يتضمن أخيراً لفتة إلى مقتضى هذا الإيمان الذي يدعوهم إليه. وهو اتِّباعه فيما يأمر به ويُشَرِّعه، واتباعه كذلك في سُنّته وعَمَله. وهو ما يقرره قول الله سبحانه: ﴿فاتبعوه لعلكم تهتدون﴾.. فليس هناك رجاء في أن يهتدي الناس بما يدعوهم إليه رسول الله ـ ﷺ ـ إلا باتباعه فيه. ولا يكفي أن يؤمنوا به في قلوبهم ما لم يتبع الإيمان الإتباع العملي.. وهو الإسلام..

إن هذا الدين يعلن عن طبيعته وعن حقيقته في كل مناسبة.. إنه ليس مجرد عقيدة تستكن في الضمير.. كما أنه كذلك ليس مجرد شعائر تُؤَدَّى وطقوس.. إنما هو الاتباع الكامل لرسول الله ـ ﷺ ـ فيما يُبَلّغه عن ربه، وفيما يُشرعه ويسنه.. والرسول لم يأمر الناس بالإيمان بالله ورسوله فحسب. ولم يأمرهم كذلك بالشعائر التعبدية فحسب. ولكنه أبلغهم شريعة الله في قوله وفعله. ولا رجاء في أن يهتدي الناس إلا إذا اتبعوه في هذا كله.. فهذا هو دين الله. وليس لهذا الدين من صورة أخرى إلا هذه الصورة التي تشير إليها هذه اللفتة: ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ بعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله.. ولو كان الأمر في هذا الدين أمر اعتقاد وكفى، لكان في قوله: ﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾ الكفاية!.

إن التوجهات القرآنية ترفع معالم الطريق أمام الأمة المسلمة تهتدي بها في طريقها الطويل الشاق، بين العداوات المتعددة المظاهر المتوحدة الطبيعة..

ويُبين القرآن بوضوح موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها ـ ﷺ ـ وللجماعة المسلمة

الناشئة على أساسها.. وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى..

لقد كان اليهود هم أول من اصطدم بالدعوة في المدينة؛ وكان لهذا الاصطدام أسبابه الكثيرة..

كان لليهود في يثرب مركز ممتاز بسبب أنهم أهل كتاب بين الأُميين من العرب ـ الأوس والخزرج ـ ومع أن مشركي العرب لم يظهروا ميلاً لاعتناق ديانة أهل الكتاب هؤلاء، إلا أنهم كانوا يَعدُّونهم أعلم منهم وأحكم بسبب ما لديهم من كتاب. ثم كان هنالك ظرف موات لليهود فيما بين الأوس والخزرج من فرقة وخصام ـ وهي البيئة التي يجد اليهود دائماً لهم فيها عملاً! ـ فلما أن جاء الإسلام سلبهم هذه المزايا جميعاً.. فلقد جاء بكتاب مُصدّق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه. ثم إنه أزال الفرقة التي كانوا يَنْفُذون من خلالها للدسّ والكَيد وجَرّ المغانم، ووحد الصف الإسلامي الذي ضم الأوس والخزرج، وقد أصبحوا منذ اليوم يُعْرَفون بالأنصار، إلى المهاجرين، وألّف منهم جميعاً ذلك المجتمع المسلم المتضامّ المتراصّ الذي لم تعهد له البشرية من قبل ولا من بعد نظيراً على الإطلاق.

ولقد كان اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأن فيهم الرسالة والكتاب. فكانوا يتطلعون أن يكون الرسول الأخير فيهم كما توقعوا دائماً. فلما أن جاء من العرب ظلوا يتوقعون أن يعتبرهم خارج نطاق دعوته، وأن يقصر الدعوة على الأميين من العرب! فلما وجدوه يدعوهم ـ أول من يدعو ـ إلى كتاب الله، بحكم أنهم أعرف به من المشركين، وأجدر بالاستجابة له من المشركين.. أخذتهم العزّة بالإثم، وعَدُّوا توجيه الدعوة إليهم إهانة واستطالة!.

ثم إنهم حسدوا النبي ـ ﷺ ـ حسداً شديدا. حسدوه مرتين: مرة لأن

الله اختاره وأنزل عليه الكتاب ـ وهم لم يكونوا يشكّون في صحته ـ وحسدوه لما لقيه من نجاح سريع شامل في محيط المدينة . .

على أنه كان هناك سبب آخر لحنقهم ولموقفهم من الإسلام موقف العداء والهجوم منذ الأيام الأولى: ذلك هو شعورهم بالخطر من عزلهم عن المجتمع المدني الذي كانوا يزاولون فيه القيادة العقلية والتجارة الرابحة والربا المُضَعّف! هذا أو يستجيبوا للدعوة الجديدة. ويذوبوا في المجتمع الإسلامي. وهما أمران ـ في تقديرهم ـ أحلاهما مرّ! .

لهذا كله وقف اليهود من الدعوة الإسلامية هذا الموقف الذي تصفه آيات القرآن الكريم، في تفصيل دقيق، نقتطف هنا بعض الآيات التي تشير إليه:

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون. وآمنوا بما أنزلتُ مُصَدّقاً لِمَا معكم. ولا تكونوا أول كافر به، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، وإياي فاتقون. ولا تَلبسوا الحق بالباطل وتَكتموا الحق وأنتم تعلمون. وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين. أتأمرون الناس بالبِرّ وتنسون أنفسكم؟ وأنتم تتلون الكتاب؟ أفلا تعقلون؟﴾ [البقرة: ٤٠ ـ ٤٤] . .

وبعد تذكيرهم طويلاً بمواقفهم مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ وجحودهم لنِعَم الله، وفُسوقهم عن كتابهم وشريعتهم. . ونَكثهم لعهد الله معهم. . جاء في سياق الخطاب لتحذير المسلمين منهم:

﴿أفتطمعون أن يُؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يُحرفونه من بعد ما عَقَلوه وهم يعلمون؟ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أَتُحدّثُونهم بما فتح الله عليكم ليُحاجُّوكم به عند ربكم؟ أفلا تعقلون؟﴾ [البقرة: ٧٥، ٧٦] . .

﴿وقالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة. قل: أَتَّخذتم عند الله عهداً فلن يُخلف الله عهده؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون؟﴾ [البقرة: ٨٠]..

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين﴾ [البقرة: ٨٩]..

﴿وإذا قيل لهم: آمنوا بما أَنزل الله. قالوا: نُؤمن بما أُنزل علينا، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مُصَدِّقاً لما معهم﴾ [البقرة: ٩١]..

﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مُصدّق لما معهم نَبذَ فريق من الذين أُوتوا الكتاب كتابَ الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ [البقرة: ١٠١].. ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ [البقرة: ١٠٥]..

﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ [البقرة: ١٠٩]..

﴿وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى. تلك أمانيهم﴾..

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تَتَّبع مِلّتهم﴾ [البقرة: ١٢٠].. الخ.. الخ.

وكانت معجزة القرآن الخالدة أن صفتهم التي دَمَغَهم بها هي الصفة الملازمة لهم في كل أجيالهم من قبل الإسلام ومن بعده إلى يومنا هذا. مما جعل القرآن يُخاطبهم في عهد النبي ـ ﷺ ـ كما لو كانوا هم أنفسهم الذين كانوا على عهد موسى ـ عليه السلام ـ وعلى عهود خلفائه من أنبيائهم باعتبارهم جبلة واحدة. سماتهم هي هي، ودَورهم هو هو، وموقفهم من الحق والخَلْق موقفهم على مدار الزمان!.

ومن ثم يكثر الالتفات في القرآن من خطاب قوم موسى، إلى خطاب اليهود في المدينة، إلى خطاب أجيال بين هذين الجيلين. ومن ثم تبقى كلمات القرآن حية كأنما تواجه موقف الأمة المسلمة اليوم وموقف اليهود منها. وتتحدث عن استقبال يهود لهذه العقيدة ولهذه الدعوة اليوم وغداً كما استقبلتها بالأمس تماماً! وكأن هذه الكلمات الخالدة هي التنبيه الحاضر والتحذير الدائم للأمة المسلمة، تجاه أعدائها الذين واجهوا أسلافها بما يواجهونها اليوم به من دسّ وكَيد، وحرب مُنَوّعة المظاهر، مُتَحِدَة الحقيقة!.

لقد واجه القرآن الكريم بني إسرائيل، أولئك الذين واجهوا الدعوة في المدينة مواجهة نكرة؛ وقاوموها مقاومة خفية وظاهرة؛ وكادوا لها كيداً موصولاً، لم يفتر لحظة منذ أن ظهر الإسلام بالمدينة؛ وتبين لهم أنه في طريقه إلى الهيمنة على مقاليدها، وعزلهم من القيادة الأدبية والاقتصادية التي كانت لهم، مذ وَحَّد الأوس والخزرج، وسَدّ الثغرات التي كانت تنفذ منها يهود، وشرع لهم منهجاً مستقلاً، يقوم على أساس الكتاب الجديد..

هذه المعركة التي شنها اليهود على الإسلام والمسلمين منذ ذلك التاريخ البعيد ثم لم يخب أوارها حتى اللحظة الحاضرة، بنفس الوسائل، ونفس الأساليب، لا يتغير إلا شكلها؛ أما حقيقتها فباقية، وأما طبيعتها فواحدة، وذلك على الرغم من أن العالم كله كان يطاردهم من جهة إلى جهة، ومن قرن إلى قرن، فلا يجدون لهم صدراً حنوناً إلا في العالم الإسلامي المفتوح، الذي ينكر الاضطهادات الدينية والعنصرية، ويفتح أبوابه لكل مسالم لا يؤذي الإسلام ولا يكيد للمسلمين!.

الهتاف الأخير:

لقد كان من المنتظر أن يكون اليهود في المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة ويؤمن للرسول الجديد؛ مذ كان القرآن يُصدّق ما جاء في التوراة في عمومه؛ ومذ كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول، وعندهم

أوصافه في البشارات التي يتضمنها كتابهم؛ وهم كانوا يَستفتحون به على العرب المشركين.

إنها الجولة الواسعة مع بني إسرائيل في القرآن الكريم؛ بل الحملة الشاملة لكشف موقفهم وفضح كيدهم؛ بعد استنفاد كل وسائل الدعوة معهم لترغيبهم في الإسلام، والانضمام إلى موكب الإيمان بالدين الجديد.

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأوفوا بعهدي أُوفِ بعهدكم وإياي فارهبون. وآمنوا بما أنزلت مُصدّقاً لما معكم، ولا تكونوا أول كافر به، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، وإياي فاتقون..﴾ [البقرة: ٤٠ ـ ٤١]..

يبدأ هذا الدرس بنداء علوي جليل إلى بني إسرائيل، يُذَكِّرهم بنعمته ـ تعالى ـ عليهم ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفي بعهده معهم، وإلى تقواه وخشيته؛ يُمهّد بها لدعوتهم إلى الإيمان بما أنزله مصدقاً لما معهم. ويُنَدّد بموقفهم منه، وكفرهم به أول من يكفر!.

إن المستعرض لتاريخ بني إسرائيل ليأخذه العجب من فيض الآلاء التي أفاضها الله عليهم، ومن الجحود المنكر المتكرر الذي قابلوا به هذا الفيض المدرار. وهنا يُذكّرهم الله بنعمته التي أنعمها عليهم إجمالاً قبل البدء في تفصيل بعضها مما سيأتي. يُذكرهم بها ليدعوهم بعدها إلى الوفاء بعهدهم معه ـ سبحانه ـ كي يتم عليهم النعمة ويمدّ لهم في الآلاء:

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأوفوا بعهدي أُوفِ بعهدكم﴾..

فأي عهد هذا الذي يُشار إليه في هذا المقام؟ أهو العهد الأول، عهد الله لآدم: **﴿فإما يأتينكم مني هُدى، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** [البقرة: ٣٨، ٣٩]..

أم هو العهد الكوني السابق على عهد الله هذا مع آدم. العهد المعقود بين فطرة الإنسان وبارئه: أن يعرفه ويعبده وحده لا شريك له. وهو العهد الذي لا يحتاج إلى بيان، ولا يحتاج إلى برهان، لأن فطرة الإنسان بذاتها تتجه إليه بأشواقها اللدنية، ولا يصدها عنه إلا الغواية والانحراف؟.

أم هو العهد الخاص الذي قطعه الله لإبراهيم جَدّ إسرائيل: **﴿وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن، قال: إني جاعلك للناس إماماً، قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين﴾** [البقرة: ١٢٤]..

أم هو العهد الخاص الذي قطعه الله على بني إسرائيل وقد رفع فوقهم الطُّور، وأَمَرهم أن يأخذوا ما فيه بقوة، والذي تقدم ذكره فيما سبق؟.

إن هذه العهود جميعاً إن هي إلا عهد واحد في صميمها. إنه العهد بين البارىء وعباده أن يُصْغوا قلوبهم إليه، وأن يُسلِّموا أنفسهم كلها له. وهذا الدين الواحد. وهذا هو الإسلام الذي جاء به الرسل جميعاً، وسار موكب الإيمان يحمله شعاراً له على مدار القرون.

ووفاء بهذا العهد يدعو الله بني إسرائيل أن يخافوه وَحْده وأن يُفردوه بالخشية: **﴿وإياي فارهبون﴾**..

ووفاء بهذا العهد كذلك يدعو الله بني إسرائيل أن يؤمنوا بما أنزله على رسوله، مُصدّقاً لما معهم، وألَّا يُسارعوا إلى الكفر به، فيصبحوا أول الكافرين؛ وكان ينبغي أن يكونوا أول المؤمنين:

﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به﴾ [البقرة: ٤١]..

فما الإسلام الذي جاء به محمد ـ ﷺ ـ إلا الدين الواحد الخالد. جاء به في صورته الأخيرة؛ وهو امتداد لرسالة الله، ولعهد الله منذ البشرية الأولى، يضم جناحيه على ما مضى، ويأخذ بيد البشرية فيما سيأتي؛ ويوحد

بين «العهد القديم»[1] و «العهد الجديد»[2].

ويضيف ما أراده الله من الخير والصلاح للبشرية في مستقبلها الطويل؛ ويجمع بذلك بين البشر كلهم إخوة متعارفين؛ يلتقون على عهد الله، ودين الله؛ لا يتفرقون شيعاً وأحزاباً، وأقواماً وأجناساً؛ ولكن يلتقون عباداً لله، مستمسكين جميعاً بعهده الذي لا يتبدل منذ فجر الحياة.

وينهىٰ الله بني إسرائيل أن يكون كفرهم بما أنزله مصدقاً لما معهم، شراء للدنيا بالآخرة، وإيثاراً لما بين أيديهم من مصالح خاصة لهم ـ وبخاصة أحبارهم الذين يخشون أن يُؤمنوا بالإسلام فيخسروا رياستهم، وما تدرّه عليهم من منافع وإتاوات ـ ويدعوهم إلى خشيته وحده وتقواه.. ﴿**ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، وإياي فاتقون**﴾ [البقرة: ٤١]..

والثمن والمال والكسب الدنيوي المادي.. كله شَنْشَنة يهود من قديم!! وقد يكون المقصود بالنهي هنا هو ما يكسبه رؤساؤهم من ثمن الخدمات الدينية والفتاوى المكذوبة، وتحريف الأحكام حتى لا تقع العقوبة على الأغنياء منهم والكبراء، كما ورد في مواضع أخرى، واستبقاء هذا كله في أيديهم بصدّ شعبهم كله عن الدخول في الإسلام، حيث تفلت منهم القيادة والرياسة..

على أن الدنيا كلها ـ كما قال الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم في تفسير هذه الآية ـ ثمن قليل، حين تقاس إلى الإيمان بآيات الله، وإلى عاقبة الإيمان في الآخرة عند الله.

ويمضي السياق يُحذّرهم ما كانوا يُزاولونه من تلبيس الحق بالباطل، وكتمان الحق وهم يعلمونه، بقصد بلبلة الأفكار في المجتمع المسلم، وإشاعة الشك والاضطراب:

---

(١) التوراة. (٢) الإنجيل.

﴿ولا تَلبسوا الحق بالباطل. وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ [البقرة: ٤٢]. .

فهو يُنَدِّد بتلبيسهم الحق بالباطل وكتمان الحق لِيُمَوِّهوا على الناس ـ وعلى المسلمين خاصة ـ ويُشيعوا الفتنة والبلبلة في الصفّ الإسلامي، والشك والارتياب في نفوس الداخلين في الإسلام الجديد. .

لقد زاول اليهود هذا التلبيس والتخليط وكتمان الحق في كل مناسبة عرضت لهم، كما فَصَّل القرآن في مواضع منه كثيرة؛ وكانوا دائماً عامل فتنة وبلبلة في المجتمع الإسلامي، وعامل اضطراب وخلخلة في الصف المسلم. وسيأتي من أمثلة هذا التلبيس الشيء الكثير!.

ثم يدعوهم إلى الاندماج في موكب الإيمان، والدخول في الصف، وأداء عباداته المفروضة، وترك هذه العزلة والتعصب الذميم، وهو ما عرفت به يهود من قديم: **﴿وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، واركعوا مع الراكعين﴾** [البقرة: ٤٣]. .

ثم ينكر عليهم ـ وبخاصة أحبارهم ـ أن يكونوا من الدعاة إلى الإيمان بحكم أنهم أهل كتاب بين مشركين، وهم في الوقت ذاته يصدون قومهم عن الإيمان بدين الله، المُصَدِّق لدينهم القديم:

﴿أتأمرون الناس بالبِرّ وتَنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب؟ أفلا تعقلون؟﴾ [البقرة: ٤٤]. .

ومع أن هذا النص القرآني كان يواجه ابتداء حالة واقعة من بني إسرائيل، فإن في إيحائه للنفس البشرية، ولرجال الدين بصفة خاصة، دائم لا يخصّ قوماً دون قوم ولا يعني جيلاً دون جيل.

إن آفة رجال الدين ـ حين يصبح الدين حرفة وصناعة لا عقيدة حارة دافعة ـ أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم؛ يأمرون بالخير ولا

يفعلونه؛ ويَدْعون إلى البر ويهملونه، ويحرفون الكَلِمَ عن مواضعه، ويُؤَوّلون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص، ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين، لتبرير أغراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان! كما يفعل أحبار يهود[1]!.

ومن ثم يوجه القرآن اليهود الذي كان يواجههم أولاً، ويوجه الناس كلهم ضمناً، إلى الاستعانة بالصبر والاستعانة بالصلاة..

وفي حالة اليهود كان مطلوباً منهم أن يُؤثروا الحق الذي يعلمونه على المركز الخاص الذي يتمتعون به في المدينة، وعلى الثمن القليل ـ سواء كان ثمن الخدمات الدينية أو هو الدنيا كلها ـ وأن يدخلوا في موكب الإيمان وهم يَدْعون الناس إلى الإيمان! وكان هذا كله يقتضي قوة وشجاعة وتجرداً. واستعانة بالصبر والصلاة:

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة. وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين، الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم، وأنهم إليه راجعون﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦]..

والغالب أن الضمير في إنّها ضمير الشأن، أي أن هذه الدعوة إلى الاعتراف بالحق في وَجْه هذه العوامل كبيرة وصعبة وشاقة، إلا على الخاشعين الخاضعين لله، الشاعرين بخشيته وتقواه، الواثقين بلقائه والرجعة إليه عن يقين.

والاستعانة بالصبر تتكرر كثيراً؛ فهو الزاد الذي لا بد منه لمواجهة كل مشقة، وأَوّل المشقات مشقة النزول عن القيادة والرياسة والنفع والكسب احتراماً للحق وإيثاراً له، واعترافاً بالحقيقة وخضوعاً لها.

فما الاستعانة بالصلاة؟.

---

(١) يراجع فصل «آفة الدين» في كتاب طريق الدعوة ـ الجزء الأول.

إن الصلاة صلة ولقاء بين العبد والرب. صلة يستمد منها القلب قوة، وتحس فيها الروح صلة؛ وتجد فيها النفس زاداً أنفس من أعراض الحياة الدنيا. . ولقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا حَزَبَه أمر فَزِعَ إلى الصلاة، وهو الوثيق الصلة بربه الموصول الروح بالوحي والإلهام. . وما يزال هذا الينبوع الدافق في متناول كل مؤمن يريد زاداً للطريق، وريّاً في الهجير، ومدداً حين ينقطع المدد، ورصيداً حين ينفد الرصيد. .

واليقين بلقاء الله ـ واستعمال ظَنَّ ومشتقاتها في معنى اليقين كثير في القرآن وفي لغة العرب عامة ـ واليقين بالرجعة إليه وحده في كل الأمور. . هو مناط الصبر والاحتمال؛ وهو مناط التقوى والحساسية. كما أنه مناط الوزن الصحيح للقيم: قيم الدنيا وقيم الآخرة.

ومتى استقام الميزان في هذه القيم بدت الدنيا كلها ثمناً قليلاً، وعَرَضاً هزيلاً؛ وبَدَت الآخرة على حقيقتها، التي لا يتردد عاقل في اختيارها وإيثارها.

وكذلك يجد المُتَدبّر للقرآن في التوجيه الذي قصد به بنو إسرائيل أول مرة، توجيهاً دائماً مستمر الإيحاء للجميع. .

ثم يعود القرآن في تذكير بني إسرائيل بِنِعَم الله التي أسبغها عليهم في تاريخهم الطويل. مخاطباً الحاضرين منهم كما لو كانوا هم الذين تلقوا هذه النِعَم على عهد موسى ـ عليه السلام ـ وذلك باعتبار أنهم أمة واحدة متضامنة الأجيال، مُتّحدة الجِبِلّة. كما هم في حقيقة الأمر وفق ما بدا من صفاتهم ومواقفهم في جميع العصور!.

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأنّي فَضَّلتكم على العالمين. واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل منها شفاعة، ولا يُؤخذ منها عدل، ولا هم يُنصرون﴾ [البقرة: ٤٧، ٤٨]. .

وتَفْضِيل بني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم، فأما بعدما عتوا عن أَمْر ربهم، وعصوا أنبياءهم، وجَحدوا نعمة الله عليهم، وتخلّوا عن التزاماتهم وعهدهم، فقد أعلن الله حُكْمَه عليهم باللعنة والغضب والذلّة والمسكنة، وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد.

وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين، هو تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله وعهده؛ وإطماع لهم لينتهزوا الفرصة المتاحة على يدي الدعوة الإسلامية، فيعودوا إلى موكب الإيمان، وإلى عهد الله، شكراً على تفضيله لآبائهم، ورغبة في العودة إلى مقام التكريم الذي يناله المؤمنون. .

ومع الإطماع في الفضل والنعمة يعاود تخويفهم باليوم الذي يُخاف، يوم لا يجدون من ينصرهم ويعصمهم من العذاب:

﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا يُقبل منها شفاعة، ولا يُؤخذ معها عَدْل، ولا هم يُنصرون﴾ . .

بعدئذ يمضي القرآن يُعدِّد آلاء الله على بني إسرائيل، وكيف استقبلوا هذه الآلاء، وكيف ظلموا وفَسقوا وانحرفوا عن الطريق. وفي مقدمة هذه النعم كانت نجاتهم من آل فرعون ومن العذاب الأليم. . يستحضر أمام خيالهم مشهد نجاتهم كأنه حاضر. .

﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يُذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم. وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠] . .

وقد وردت تفصيلات هذه النجاة فيما تقدم في موضعها في هذا الكتاب. أما هنا فهو مجرد التذكير لقوم يعرفون القصة من كتبهم وأقاصيصهم المحفوظة. إنما يُذكّرهم القرآن بها في صورة مشهد، ليستعيدوا تصورها،

ويتأثروا بهذا التَصَوُّر، وكأنهم هم الذين كانوا ينظرون إلى فَرَق البحر، ونجاة بني إسرائيل بقيادة موسى ـ عليه السلام ـ على مشهد منهم ومرأى! وخاصية الاستحياء هذه من خصائص التعبير القرآني العجيب.

وبعد التقرير الحاسم الجازم لاستقبال القوم لآلاء الله ونعمه ورسله بالجحود والكفر والعصيان ينتقل القرآن الكريم بالخطاب إلى بني إسرائيل. كأنما ليهتف بهم الهتاف الأخير، بعد مجابهتهم بتاريخهم المليء بالمعصية والانحراف والالتواء وجَدَلهم الطويل مع الحقّ المبين، واستعراض سلوكهم مع ربهم ومع أنبيائهم.. يجيء الالتفات إليهم، وهم على أبواب الإهمال والإغفال والتجريد النهائي من شرف الأمانة.. أمانة العقيدة التي نيطت بهم من قديم.. والقرآن يكرر لهم الدعوة ذاتها التي وجهها إليهم فيما سبق.. يا بني إسرائيل..

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي عليكم، وأني فضلتكم على العالمين. واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا يُقبل منها عدل، ولا تَنفعها شفاعة، ولا هم يُنصرون﴾ [البقرة: ١٢٢، ١٢٣]..

ومن رحمته تعالى ببني إسرائيل دعوتهم للالتحاق بموكب الهداية والإيمان بالرسالة الأخيرة.. لقد أكرمهم الله بهذا الهتاف المُتَكَرّر. فهو يدعوهم إلى هذا الخير العظيم، ويُرغبهم في هذه الفرصة السانحة والأخيرة ليؤمنوا بخاتم الرسل، والله يريد بهم هذا الخير ليخلِّصوا قلوبهم من ذلك الشرّ الأسود الذي سطَّر حياتهم وتاريخهم الطويل..

إنها دعوة للرشد، وهتاف إلى الإيمان.. نعمة الإيمان التي ستكون خيراً لهم، فهو سبحانه يُحرّك قلوبهم ومشاعرهم للاستجابة لهذا الهتاف الأخير...

﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم. منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ [آل عمران: ١١٠]..

وهو ترغيب لأهل الكتاب في الإيمان. فهو خير لهم. خير لهم في هذه الدنيا، يستعصمون به من الفرقة والهَلْهَلة التي كانوا عليها في تصوراتهم الاعتقادية، والتي ما تزال تحرمهم تجمع الشخصية. إذ تعجز هذه التصورات عن أن تكون قاعدة للنظام الاجتماعي لحياتهم، فتقوم أنظمتهم الاجتماعية ـ من ثم ـ على غير أساس، عرجاء أو معلقة في الهواء ككل نظام اجتماعي لا يقوم على أساس اعتقادي شامل، وعلى تفسير كامل للوجود، ولغاية الوجود الإنساني، ومقام الإنسان في هذا الكون.. وخير لهم في الآخرة يَقِيهم ما ينتظر غير المؤمنين من مصير.

ثم هو بيان كذلك لحالهم، لا يبخس الصالحين منهم حقهم: ﴿**منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون**﴾..

وقد آمن من أهل الكتاب جماعة وحَسُنَ إسلامهم. منهم عبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد، وثعلبة بن شعبة، وكعب بن مالك.. وإلى هؤلاء تشير الآية هنا بالإجمال ـ وفي آية أخرى بالتفصيل[1] ـ أما الأكثرون فقد فسقوا عن دين الله، حين لم يَفُوا بميثاق الله مع النبيين: أن يؤمن كل منهم بأخيه الذي يجيء بعده، وأن ينصره. وفسقوا عن دين الله وهم يأبون الاستسلام لإرادته في إرسال آخر الرسل من غير بني إسرائيل، واتباع هذا الرسول وطاعته والاحتكام إلى آخر شريعة من عند الله، أرادها للناس أجمعين.

ولما كان بعض المسلمين ما يزالون على صلات مُنَوّعة باليهود في المدينة، ولما كانت لليهود حتى ذلك الحين قوة ظاهرة: عسكرية واقتصادية يَحسب حسابها بعض المسلمين، فقد تَكَفّل القرآن بتهوين شأن هؤلاء الفاسقين في نفوس المسلمين، وإبراز حقيقتهم الضعيفة بسبب كفرهم

---

(١) يراجع فصل «رحلة بني إسرائيل مع خطوات التاريخ» في هذا الكتاب.

وجرائمهم وعصيانهم، وتفرقهم شيعاً وفرقاً، وما كتب الله عليهم من الذِلّة والمسكنة:

﴿لن يضـــروكم إلا أَذى. وإن يُقـــاتلوكم يُـــولُّـــوكم الأدبـــار، ثم لا يُنصرون، ضُربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ـ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ـ وباءوا بغضب من الله، وضُربت عليهم المسكنة. ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيـات الله، ويقتلون الأنبياء بغيـر حق، ذلك بمـا عصوا وكـانوا يعتدون﴾ [آل عمران: ١١١ ـ ١١٢]. .

بهذا يضمن الله للمؤمنين النصر وسلامة العاقبة، ضمانة صريحة حيثما التقوا بأعدائهم هؤلاء، وهم معتصمون بدينهم وربهم في يقين:

﴿لن يضـــروكم إلا أذى. وإن يقـــاتلوكم يـــولـــوكـم الأدبـــار ثم لا ينصرون﴾ . .

فلن يكون ضرراً عميقاً ولا أصيلاً يتناول أصل الدعوة، ولن يؤثر في كينونة الجماعة المسلمة، ولن يجليها من الأرض. . إنما هو الأذى العارض في الصدام، والألم الذاهب مع الأيام. . فأما حين يشتبكون مع المسلمين في قتال، فالهزيمة مكتـوبة عليهم ـ في النهـاية ـ والنصـر ليس لهم على المؤمنين، ولا ناصر لهم كـذلك ولا عـاصم من المؤمنين. . ذلك أنـه قد **﴿ضربت عليهم الذلة﴾** وكتبت لهم مصيراً. فهم في كـل أرض يذلّـون، لا تَعصمهم إلا ذمة الله وذمة المسلمين ـ حين يدخلون في ذمتهم فتعصم دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وتنيلهم الأمن والطمأنينة ـ ولم تعرف يهود منذ ذلـك الحين الأمن إلا في ذمة المسلمين. ولكن يهـود لم تعاد أحـداً في الأرض عداءها للمسلمين! . . **﴿وباءوا بغضب من الله﴾** . . كأنما رجعوا من رحلتهم يحملون هذا الغضب: **﴿وضربت عليهم المسكنة﴾** . . تعيش في ضمائرهم وتكمن في مشاعرهم.

ولقد وقع ذلـك كله بعد نـزول هذه الآيـة. فما كـانت معركـة بين

المسلمين وأهل الكتاب إلا كتب الله فيها للمسلمين النصر ـ ما حافظوا على دينهم واستمسكوا بعقيدتهم، وأقاموا منهج الله في حياتهم ـ وكَتَب لأعدائهم المذلة والهوان إلا أن يعتصموا بذمة المسلمين أو أن يتخلى المسلمون عن دينهم.

إن القرآن الكريم يُبين ويشير إلى الحرب المشبوبة على الجماعة المسلمة، وعلى العقيدة الإسلامية، وعلى القيادة الإسلامية كذلك، من أهل الكتاب ـ وبخاصة اليهود ـ وحُلَفائِهم من المنافقين في المدينة، والمشركين في مكة، وما حولهما..

ونَلتقي كذلك بالمنهج الرباني.. وهو يأخذ بيد الجماعة المسلمة السائرة بين الأشواك الخبيثة، والأحابيل الماكرة، يقودها، ويوجهها، ويحذرها، ويكشف لها طبيعة أعدائها، وطبيعة المعركة التي تخوضها، وطبيعة الأرض التي تدور فيها المعركة، وزواياها وجوانبها الخبيثة. ومن علامات الإعجاز في هذا القرآن، أن النصوص القرآنية التي نزلت لتواجه معركة معينة، ما تزال هي بذاتها تُصوّر طبيعة المعركة الدائمة المتجددة بين الجماعة المسلمة في كل مكان.. وعلى توالي الأجيال، وبين أعدائها التقليديين؛ الذين ما يزالون هُم هُم، وما تزال حوافزهم هي هي في أصلها، وإن اختلفت أشكالها وظواهرها وأسبابها القريبة، وما تزال أهدافهم هي هي في طبيعتها وإن اختلفت أدواتها ووسائلها، وما تزال زلزلة العقيدة، وزعزعة الصف، والتشكيك في القيادة الربانية، هي الأهداف التي تصوب إليها طلقاتهم الماكرة، للوصول من ورائها إلى الاستيلاء على مقاليد الجماعة المسلمة، والتصرف في مقاديرها، واستغلال أرضها وجهدها وغلاتها وقواها وطاقاتها، كما كانت يهود تستغل الأوس والخزرج في المدينة، قبل أن يعزّهم الله ويجمعهم بالإسلام، وبالقيادة المسلمة وبالمنهج الرباني.

وقد حفلت بعض سور القرآن ـ وخاصة سورتا البقرة وآل عمران ـ

بالحديث عن تلك المؤامرات التي لا تنقطع من اليهود ضد الجماعة المسلمة، بالاتفاق مع المنافقين ومع المشركين. ونكتفي هنا بإثبات طرف من هذه الحملة العنيفة:

﴿ألم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة، ويريدون أن تضلوا السبيل، والله أعلم بأعدائكم، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً..﴾ [النساء: ٤٤، ٤٥]..

﴿ألم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. أولئك الذين لعنهم الله، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً..﴾ [النساء: ٥١ ـ ٥٢]..

﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله، ويريدون أن يُفرّقوا بين الله ورُسله، ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١]..

ومن هذه المقتطفات وأمثالها في القرآن تتبين بعض أفاعيل اليهود، التي يتصدى لها القرآن بالكشف والتنديد، وبالتكذيب والتفنيد.. وهذه الحملة، وتسمية اليهود فيها بالكافرين، ووصفهم بأنهم «أعداء»، تَشِي بشدّة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من هذه الأفاعيل، وبضرورة التعرض لها بالتفنيد والتكذيب، وكشف ما وراءها من أهداف خبيثة، وبواعث خبيثة، من هذه الجبلة الخبيثة؛ التي لم تستسلم أبداً للهُدى في تاريخها الطويل؛ ولم تستقم على الهدى إلا ريثما تنحرف وتقتل أنبياءها بغير الحق. والتي كان يدفعها الحقد والحسد للنبي ـ ﷺ ـ أَنْ آتاه الله الرسالة ـ وهو من غيرهم ـ وللمسلمين أن جمعهم الله على الهدى؛ فتكيد لهم هذا الكيد الذي لم ينقطع منذ أن اقتحم الإسلام المدينة عليهم، إلى يومنا هذا. والذي ما يزال

هو هو اليوم وغداً يَـتَلَقَّى كل تَجَمُّع إسلامي، وكل حركة إسلامية، وكل بعث إسلامي، على مدار القرون!.

ولقد كان التشكيك في نبوة محمد - ﷺ - ورسالته، هو الهدف الأول لحملات اليهود؛ الذي يسهل بعد بلوغه تحويل المسلمين عن قيادتهم الأمينة - بعد تحويلهم عن عقيدتهم القويمة. ومن ثم يسهل تفتيت الصف المسلم، وإيهان تماسكه. فهذا التماسك حول العقيدة القويمة والقيادة الأمينة، هو الذي يتعب اليهود وأعداء الجماعة المسلمة - في كل زمان - وهو الذي يكلفهم الجهد والمشقة. ومن ثم تَتَّجِه جهودهم أولاً لتحطيمه. وتسليم مقادة المسلمين إلى الهوى والجاهلية من جديد!.

ومن ثم نجد في القرآن بياناً للحقيقة البسيطة في رسالة النبي - ﷺ - فهي ليست بِدعاً من الرسالات؛ ولا غريبة من الغرائب، التي لا عهد للأرض بها؛ أو لا عهد بها لبني إسرائيل أنفسهم. إنما هي حلقة من سلسلة الحجة التي يأخذها الله على العِبَاد قبل الحساب. فقد أوحى إليه كما أوحى إلى الرسل من قبله. وقد آتاه الله النبوة والحكم، كما آتى أنبياء بني إسرائيل! فلا غرابة في رسالته، ولا غرابة في قيادته، ولا غرابة في حاكميته. وكلها مألوف في عالم الرسالات. وكل تعلات بني إسرائيل في هذا الأمر كاذبة، وكل شبهاتهم كذلك باطلة. ولهم سوابق مثلها مع نبيهم الأكبر موسى - عليه السلام -، ومع أنبيائهم من بعده، وبخاصة مع عيسى - عليه السلام -، ومن ثم لا يجوز أن يلقي بَالَهُ إليها أَحَدٌ من المسلمين.

كشف العداء وتحديد الخطوط:

يتحدث القرآن عن بداية المعركة مع المعسكرات المعادية المتربصة بالجماعة الإسلامية الناشئة في المدينة:

﴿ألم تـر إلى الذين أوتـوا نصيباً من الكتـاب، يشترون الضـلالة، ويريدون أن تضلوا السبيل؟ والله أعلم بأعدائكم..﴾ [النساء: ٤٤]..

في هذا الدرس تعجيب من حال اليهود وتصرفاتهم في مواجهة الدين الجديد والجماعة التي تمثله.

إنه التعجيب الأول ـ من سلسلة التعجيبات الكثيرة ـ من موقف أهل الكتاب ـ من اليهود ـ يُوجّه الخطاب فيه إلى الرسول ـ ﷺ ـ أو إلى كل من يرى هذا الموقف العجيب المستنكر..

لقد كان من شأن الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب.. الهداية.. فقد آتاهم الله التوراة، على يدي موسى ـ عليه السلام ـ، لتكون هداية لهم من ضلالتهم الأولى.. ولكنهم يَدَعون هذا النصيب. يَدَعون الهداية. ويشترون الضلالة! والتعبير بالشراء يعني القصد والنية في المبادلة! ففي أيديهم الهدى ولكنهم يتركونه ويأخذون الضلالة. فكأنما هي صفقة عن علم وعن قصد وعمد. لا عن جهل أو خطأ أو سهو! وهو أمر عجيب مستنكر، يستحق التعجيب منه والاستنكار.

ولكنهم لا يقفون عند هذا الأمر العجيب المُسْتَنكَر. بل هم يريدون أن يُضلُّوا المهتدين.. يريدون أن يُضلُّوا المسلمين.. بشتى الوسائل وشتى الطرق.. فهم لا يكتفون بضلال أنفسهم الذي يشترونه؛ بل يحاولون طمس معالم الهدى من حولهم؛ حتى لا يكون هناك هدى ولا مهتدون!.

وفي هذه اللمسة الأولى، والثانية، تنبيه للمسلمين وتحذير؛ من ألاعيب اليهود وتدبيرهم.. ويا له من تدبير! وإثارة كذلك لنفوس المسلمين ضد الذين يريدون لهم الضلالة بعد الهدى.

وقد كان المسلمون يَعْتَزُّون بهذا الهدى؛ ويعادون من يحاول رَدّهم عنه إلى جاهليتهم(١) التي عرفوها وعرفوا الإسلام. فكرهوها وأحبوا الإسلام! وكرهوا كل من يحاول ردهم إليها في قليل أو كثير.. وكان القرآن يخاطبهم هكذا، عن علم من الله، بما في صدورهم من هذا الأمر الكبير.

ومن ثم يُعقّب على إبراز هذه المحاولة من اليهود، بالتصريح بأن هؤلاء أعداء للمسلمين. وبتطمين الجماعة المسلمة إلى ولاية الله ونصره، إزاء تلك المحاولة:

﴿والله أعلم بأعدائكم. وكفى بالله ولياً. وكفى بالله نصيراً﴾ [النساء: ٤٥]..

وهكذا يصرح العداء ويستعلن، بين الجماعة المسلمة واليهود في المدينة وتتحدد الخطوط..

وقد كان التعجيب من أهل الكتاب عامة ـ وكان المفهوم أن المعنيين هم يهود المدينة ـ ولكن السياق لا يكتفي بهذا المفهوم. بل يمضي فَيُعَيّن اليهود. ثم يصف حالهم وتصرفاتهم وسوء أدبهم مع الرسول ـ ﷺ ـ في هذه الفترة التي يبدو أنها كانت في أوائل سنوات الهجرة، قبل أن تَخضر شوكتهم في المدينة:

﴿من الذين هادوا، يُحرفون الكلم عن مواضعه؛ ويقولون: سمعنا وعصينا. واسمع ـ غير مسمع ـ وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين﴾ [النساء: ٤٦]..

لقد بلغ من التوائهم، وسوء أدبهم مع الله عز وجل: أن يحرفوا الكلام عن المقصود به. والأرجح أن ذلك يعني تأويلهم لعبارات التوراة بغير المقصود منها. وذلك كي ينفوا ما فيها من دلائل على الرسالة الأخيرة؛ ومن أحكام كذلك وتشريعات يصدقها الكتاب الأخير؛ وتدل وحدتها في الكتابين على المصدر الواحد؛ وتبعاً لهذا على صحة رسالة النبي ـ ﷺ ـ، وتحريف الكَلِم عن المقصود به، ليوافق الأهواء، ظاهرة ملحوظة في كل رجال دين ينحرفون عن دينهم، ويتخذونه حرفة وصناعة، يوافقون به أهواء ذوي السلطان في كل زمان؛ وأهواء الجماهير التي تريد التفلُّت من الدين.. واليهود أبرع من يصنع ذلك. وإن كان في زماننا هذا من محترفي دين

المسلمين من يُنافسون ـ في هذه الخصلة ـ اليهود!.

ثم بلغ من التوائهم وسوء أدبهم مع رسول الله ـ ﷺ ـ أن يقولوا له: سمعنا يا محمد ما تقول. ولكننا عصينا! فلا نؤمن ولا نتبع ولا نطيع! ـ مما يدل على أن هذه الآيات نزلت في وقت مبكر، حيث كانت لليهود هذه الجرأة على مواجهة النبي ـ ﷺ ـ ثم يضيفون إلى التَبَجُّح سوء الأدب والخلق والالتواء أيضاً. إذ يقولون للرسول ـ ﷺ ـ: ﴿**واسمع ـ غير مسمع ـ وراعنا**﴾..

ففي ظاهر اللفظ أنهم يقولون: اسمع ـ غير مأمور بالسمع (وهي صيغة تأدب) ـ وراعنا: أي انظر إلينا نظرة رعاية لحالنا أو نظرة اهتمام لوضعنا. بما أنهم أهل كتاب، فلا ينبغي أن يُدْعَوا إلى الإسلام كالمشركين!.

أما في اللَيِّ الذي يلوونه، فهم يقصدون: اسمع ـ لا سمعت، ولا كنت سامعاً! ـ (أخزاهم الله). وراعنا يميلونها إلى وصف «الرعونة»! وهكذا.. تبجح وسوء أدب، والتواء ومداهنة، وتحريف للكلم عن مواضعه وعن معانيه..

إنها يهود!!!...

وبعد أن يحكي القرآن هذا عنهم، يقرر المنهج اللائق بأهل الكتاب؛ والأدب الجدير بمن أوتوا نصيباً منه. ويُطمعهم ـ بعد ذلك كله ـ في الهداية والجزاء الحسن والفضل والخير من الله. لو ثابوا إلى الطريق القويم. وذلك مع بيان حقيقة طبيعتهم. وأنها هكذا كانت وهكذا تكون:

﴿**ولو أنهم قالوا: سمعنا وأطعنا، واسمع وانظرنا، لكان خيراً لهم وأقوم، ولكن لعنهم الله بكفرهم، فلا يؤمنون إلا قليلاً**﴾ [النساء: ٤٦].

فهم لا يواجهون الحق بهذه الصراحة وهذه النصاعة وهذه الاستقامة. ولو أنهم واجهوه هكذا بالألفاظ الصريحة التي لا التواء فيها:

﴿سمعنا وأطعنا، واسمع وانظرنا﴾ . .

لكان هذا خيراً لهم، وأقوم لطبيعتهم وأنفسهم وحالهم. ولكن واقع الأمر أنهم ـ بسبب كفرهم ـ مطرودون من هداية الله. فلا يؤمن منهم إلا القليل.

وصدق قول الله . . فلم يدخل في الإسلام ـ في تاريخه الطويل ـ إلا القليل من اليهود. ممن قسم الله لهم الخير، وأراد لهم الهدى؛ باجتهادهم للخير وسعيهم للهدى. أما كتلة اليهود، فقد ظلت طوال أربعة عشر قرناً، حرباً على الإسلام والمسلمين. منذ أن جاورهم الإسلام في المدينة إلى اللحظة الحاضرة. وكيدهم للإسلام كان هو الكيد الواجب الذي لا ينقطع، العنيد الذي لا يكف، المُنَوّع الأشكال والألوان والفنون، منذ ذلك الحين! وما من كيد كاده أحد للإسلام في تاريخه كله وبما في ذلك كيد الصليبية العالمية والاستعمار بشتى أشكاله ـ إلا كان من ورائه اليهود. أو كان لليهود فيه نصيب!.

بعد ذلك يتجه الخطاب إلى الذين أوتوا الكتاب ـ اليهود ـ دعوة إلى الكتاب المصدق لما بين أيديهم؛ وتهديداً لهم بالمسخ واللعن المتوقعين من وراء عنادهم وأفاعيلهم. ودمغاً لهم بالشرك والانحراف عن التوحيد الخالص، الذي عليه دينهم، والله لا يغفر أن يشرك به. . وفي الوقت ذاته بيان عام لحدود المغفرة الواسعة؛ وبشاعة الشرك حتى إنّه ليخرج من هذه الحدود:

﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا، مصدقاً لما معكم. .﴾ [النساء: ٤٧]. .

إنه نداء لهم بالصفة التي كان من شأنها أن يكونوا أول المستجيبين؛ وبالسبب الذي كان من شأنه أن يكونوا أول المسلمين. . فهم أوتوا الكتاب، فليس غريباً عليهم هذا الهدى. والله الذي آتاهم الكتاب هو الذي يدعوهم

إلى الإيمان بما أُنزل مُصدقاً لما معهم. فليس غريباً عليهم كذلك، وهو مُصدّق لما معهم..

ولو كان الإيمان بالبينة. أو بالأسباب الظاهرة. لآمنت يهود أول من آمن. ولكن يهود كانت لها مصالح ومطامح. وكانت لها أحقاد وعناد. وكانت هي بِطَبْعِها منحرفة صلبة الرقبة.. كما تعبر عنهم التوراة بأنهم: «شعب صلب الرقبة!».. ومن ثم لم تؤمن. ومن ثم يجيئها التهديد العنيف القاسي: ﴿**من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها. أو نلعنهم كما لَعَنَّا أصحاب السبت. وكان أَمْر الله مفعولاً**﴾ [النساء: ٤٧]..

وطمس الوجوه إزالة معالمها المميزة لآدميتها؛ وردها على أدبارها، دفعها لأن تمشي القهقرى.. وقد يكون المقصود هو التهديد بمعناه المادي؛ الذي يفقدهم آدميتهم ويردهم يمشون على أدبارهم؛ ويكون كذلك اللعن الذي أصاب أصحاب السبت (وهم الذين احتالوا على صيد السمك يوم السبت، وهو محرم عليهم في شريعتهم) هو مسخهم بالفعل قردة وخنازير. كما قد يكون المقصود طمس معالم الهدى والبصيرة في نفوسهم، وردهم إلى كفرهم وجاهليتهم، قبل أن يؤتيهم الله الكتاب. والكفر بعد الإيمان، والهدى بعد الضلال، طمس للوجوه والبصائر، وارتداد على الأدبار دونه كل ارتداد.

وسواء كان هذا هو المقصود أو ذاك.. فهو التهديد الرعيب العنيف، الذي يليق بطبيعة يهود الجاسية الغليظة؛ كما يليق بفعالهم اللئيمة الخبيثة!.

وقد كان ممن ارتدع بهذا التهديد: كعب الأحبار فأسلم:

أَخْرج ابن أبي حاتم: حدثنا أبي. حدثنا ابن نفيل. حدثنا عمرو بن واقد، عن يونس بن جليس، عن أبي إدريس عائذ الله الخولاني، قال: كان أبو مسلم الخليلي مُعَلّم كعب. وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فبعثه إليه ينظر: أهو هو؟ قال كعب: فركبت حتى أتيت المدينة. فإذا

تال يقرأ القرآن يقول: ﴿**يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم، من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها**..﴾ فبادرت الماء فاغتسلت، وإني لأَمَسّ وجهي مخافة أن أُطمس! ثم أسلمت(١).

والتعقيب على هذا التهديد: ﴿**وكان أمر الله مفعولاً**﴾.. فيه توكيد للتهديد، يناسب كذلك طبيعة اليهود!.

ثم يجيء تعقيب يتضمن تهديداً آخر في الآخرة. تهديداً بعدم المغفرة لجريمة الشرك، مع فتح أبواب الرحمة الإلهية كلها لما دون ذلك من الذنوب:

﴿**إن الله لا يغفر أن يُشرك به؛ ويغفر ما دون ذلك ـ لمن يشاء ـ ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً**﴾ [النساء: ٤٨]..

وسياق الآية هكذا يتضمن اتهام اليهود بالشرك؛ ودعوتهم إلى الإيمان الخالص والتوحيد. ولا يذكر هنا القول أو الفعل الذي يعده عليهم شركاً..

وقد ورد في مواضع أخرى تفصيل لهذا: فقد روى القرآن عنهم قولهم: ﴿**عُزيز ابن الله**﴾ [التوبة: ٣٠].. لقول النصارى: ﴿**المسيح ابن الله**﴾ [التوبة: ٣٠].. وهو شرك لا شك فيه! كذلك روى عن هؤلاء وهؤلاء أنهم ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾ [التوبة: ٣١].. وهم لم يكونوا يعبدون الأحبار والرهبان. إنما كانوا ـ فقط ـ يُقرُّون لهم بحق التشريع. حق التحليل والتحريم. الحق الخاص بالله، والذي هو من خصائص الألوهية. ومن ثم اعتبرهم القرآن مشركين.. ولهذا الاعتبار قيمة خاصة في التصور الإسلامي الصحيح لحد الإسلام وشرط الإيمان.

وعلى أية حال فاليهود على عهد الرسالة المحمدية كانت عقائدهم في

---

(١) المشهور أن كعباً أسلم في أيام عمر بن الخطاب. وهناك رواية أخرى أخرجها ابن جرير عن إسلامه في أيام عمر لعلها الأوثق.. وهي تبني إسلامه كذلك على سماعه لهذه الآية.

الجزيرة حافلة بالوثنيات، منحرفة عن التوحيد. والتهديد هنا مُوَجّه إليهم بأن الله يغفر ما دون الشرك ـ لمن يشاء ـ ولكنه لا يتسامح في إثم الشرك العظيم. ولا مغفرة عنده لمن لقيه مشركاً به؛ لم يرجع في الدنيا عن شركه.

ويمضي القرآن الكريم في فضح أفاعيل اليهود، وكشف المكر السيء، والكيد الخبيث، الذي كانوا يزاولونه لتقطيع حبل الله بين قلوب المؤمنين في المدينة. ومن ثم يناشد العصبة المسلمة للاعتصام بحبل الله المتين.. ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداءً، فألَّفَ بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً. وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها. كذلك يُبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون**﴾ [آل عمران: ١٠٣]..

إن الأخوة تنبثق في العقيدة من التقوى والإسلام.. أساسها الاعتصام بحبل الله ـ أي عهده ونهجه ودينه ـ وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر، وعلى أي هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة!.

﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا**﴾..

هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى. وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائماً. وهو يذكرهم هذه النعمة. يذكرهم كيف كانوا في الجاهلية «أعداء».. وما كان أعدى من الأوس والخزرج في المدينة أحد. وهما الحيان العربيان في يثرب. يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة وينفخون في نارها حتى تأكل روابط الحَيَّيْن جميعاً. ومن ثم تجد يهود مجالها الصالح الذي لا تعمل إلا فيه، ولا تعيش إلا معه. فألَّفَ الله بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام.. وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب

المتنافرة.. وما كان إلا حبل الله الذي يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمة الله إخواناً.

وما يمكن أن يجمع القلوب إلا أخوة في الله، تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية، والثارات القبلية، والأطماع الشخصية والرايات العنصرية. ويتجمع الصف تحت لواء الله الكبير المتعال..

﴿واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداء، فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾..

ويذكرهم كذلك نعمته عليهم في إنقاذهم من النار التي كانوا على وشك أن يقعوا فيها، إنقاذهم من النار بهدايتهم إلى الاعتصام بحبل الله ـ الركيزة الأولى ـ وبالتأليف بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً ـ الركيزة الثانية ـ:

﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾..

والنص القرآني يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط: «القلب». فلا يقول: فَأَلَّفَ بينكم. إنما ينفذ إلى المكمن العميق: **﴿فألف بين قلوبكم﴾** فيصور القلوب حزمة مؤلفة متآلفة بيد الله وعلى عهده وميثاقه. كذلك يرسم النص صورة لما كانوا فيه. بل مشهداً حياً متحركاً تتحرك معه القلوب: **﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾**.. وبينما حركة السقوط في حفرة النار متوقعة، إذا بالقلوب ترى يد الله، وهي تدرك وتنقذ! وحبل الله وهو يمتد ويعصم. وصورة النجاة والخلاص بعد الخطر والترقب! وهو مشهد متحرك حَيٌّ تَتْبَعه القلوب واجفة خافقة، وتكاد العيون تتملاه من وراء الأجيال!.

وقد ذكر محمد بن إسحاق في السيرة وغيره أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج. وذلك أن رجلاً من اليهود مَرّ بملأ من الأوس والخزرج، فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلاً معه، وأمره أن

يجلس بينهم، ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم «بُعاث»! وتلك الحروب. ففعل. فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم، وغضب بعضهم على بعض، وتشاوروا، ونادوا بشعارهم. وطلبوا أسلحتهم. وَتَوَعَّدوا إلى «الحَرّة». . . فبلغ ذلك النبي - ﷺ - فأتاهم، فجعل يُسَكِّنهم، ويقول: «أَبِدَعْوى الجاهلية وأنا بين أظهركم» وتلا عليهم هذه الآية، فندموا على ما كان منهم، واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح - رضي الله عنهم -.

وكذلك بَيَّن الله لهم فاهتدوا، وحق فيهم قول الله - سبحانه - في التعقيب في الآية: ﴿**كذلك يُبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون**﴾. .

فهذه صورة من جهد يهود لتقطيع حبل الله بين المتحابين فيه، القائمين على منهجه، لقيادة البشرية في طريقه. . هذه صورة من ذلك الكيد الذي تكيده يهود دائماً للجماعة المسلمة، كلما تجمعت على منهج الله واعتصمت بحبله. وهذه ثمرة من ثمار طاعة أهل الكتاب. كادت ترد المسلمين الأولين كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض. وتقطع بينهم حبل الله المتين، الذين يتآخون فيه مجتمعين. على أن مدلول الآية أوسع مدى من هذه الحادثة. فهي تشي - مع ما تقدم وما سيأتي من بيان - بأنه كانت هناك حركة دائبة من اليهود لتمزيق شمل الصف المسلم في المدينة، وإثارة الفتنة والفرقة بكل الوسائل. والتحذيرات القرآنية المتوالية من إطاعة أهل الكتاب، ومن الاستماع إلى كيدهم ودسهم، ومن التفرق كما تفرقوا. . هذه التحذيرات تَشي بشدة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من كيد اليهود في المدينة، ومن بذرهم لبذور الشقاق والشك والبلبلة باستمرار. . وهو دأب يهود في كل زمان، وهو عملها اليوم وغداً في الصف المسلم، في كل مكان!.

تاريخ عريق في الكفر والمعصية:

لقد أنزل الله على موسى - عليه السلام - التوراة، فهي - كما أنزلها -

كتاب الله الذي جاء لهداية بني إسرائيل: **﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور. يحكم بها النبيون الذين أسلموا، للذين هادوا، والربانيون والأحبار، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾** [المائدة: ٤٤]..

والشهادة لكتاب الله أن يؤديها الناس في صياغة حياتهم كلها وفق توجيهاته، كما يؤدوا له الشهادة في قومهم بإقامة شريعته بينهم، وأن يصونوا الحياة من الشر والفساد..

ولكن بني إسرائيل نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واشتروا الضلالة بالهدى، وحرفوا كلام الله عن مواضعه، وقست قلوبهم، وسارعوا في الكفر والمعصية والاعتداء، واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وعطّلوا شريعة الله في إقامة أحكامها في الحياة، وسكتوا عن المنكر لموافاة أهل الأهواء على حساب كتاب الله وآياته..

ويمضي القرآن الكريم في التأكيد على هذا المبدأ العظيم الذي جاءت به شرائع الله في النهي عن المنكر وذلك لصيانة المجتمع من أن يعبث به كل ذي هوى وكل ذي شهوة وكل ذي مصلحة.

ولا تفلح أمة لا تشتد في إنكار المنكر والنهي عنه، وتسترخي في أمر العقيدة.. وإلا ساد المنكر، وصارت الرذيلة والباطل والظلم والشر، تنمو كلها بسرعة لتغطي صفحة الحياة وصورة المجتمع، فيصبح المنكر معروفاً، والمعروف منكراً..

وفي ضوء هذا المبدأ العظيم لَعَن الله كفار بني إسرائيل الذين نكثوا عما استُحفظوا من كتاب الله، ونكلوا عن الشهادة لدينه.. **﴿لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يَتَناهون عن مُنكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾** [المائدة: ٧٨، ٧٩]..

وفي القرآن البيان والتقرير الشامل عن موقف أنبياء بني إسرائيل من كفار بني إسرائيل، على مدى التاريخ؛ مُمَثلاً في موقف داود وموقف عيسى ـ عليهما السلام ـ وكلاهما لعن كفار بني إسرائيل، واستجاب الله لهما بسبب عصيانهم وعدوانهم، وبسبب انحلالهم الاجتماعي، وسكوتهم على المنكر يفشو فيهم فلا يتناهون عنه، وبسبب تَولِّيهم الكافرين؛ فباءوا بالسخط واللعنة، وكتب عليهم الخلود في العذاب.

﴿لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم. ذلك بما عصوا وكان يعتدون﴾..

وهكذا يبدو أن تاريخ بني إسرائيل في الكفر والمعصية واللعنة عريق. وأن أنبياءهم الذين أُرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم، هم في النهاية الذين تَوَلّوا لعنتهم وطردهم من هداية الله؛ فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعنة على بني إسرائيل.

والذين كفروا من بني إسرائيل هم الذين حَرّفوا كتبهم المنزلة، وهم الذين لم يتحاكموا إلى شريعة الله ـ كما مرّ في المواضيع القرآنية المتعددة ـ وهم الذين نقضوا عهد الله معهم لينصرنّ كل رسول ويُعزرونه ويتبعونه:

﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾..

فهي المعصية والاعتداء؛ يتمثلان في كل صورهما الاعتقادية والسلوكية على السواء. وقد حفل تاريخ بني إسرائيل بالمعصية والاعتداء.. كما فصل الله في كتابه الكريم.

ولم تكن المعصية والاعتداء أعمالاً فردية في مجتمع بني إسرائيل. ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها؛ وأن يسكت عنها المجتمع. ولا يقابلها بالتناهي والنكير: **﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون!﴾**.

إن العصيان والعدوان قد يقعان في كل مجتمع من الشريرين المفسدين. فالأرض لا تخلو من الشر؛ والمجتمع لا يخلو من الشذوذ، ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبح عُرفاً مصطلحاً عليه؛ وأن يصبحا سهلاً يجترىء عليه كل من يهم به..

وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير في مجتمع من المجتمعات؛ ويصبح الجزاء على الشر رادعاً وجماعياً تقف الجماعة كلها دونه؛ وتوقع العقوبة الرادعة عليه.. عندئذ ينزوي الشر، وتنحسر دوافعه. وعندئذ يتماسك المجتمع فلا تنحل عُراه. وعندئذ ينحصر الفساد في أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع، ولا يسمح لها بالسيطرة؛ وعندئذ لا تشيع الفاحشة. ولا تصبح هي الطابع العام!.

والمنهج الإسلامي - بعرضه لهذه الظاهرة في المجتمع الإسرائيلي - في صورة الكراهية والتنديد، يريد للجماعة المسلمة أن يكون لها كيان حي متجمع صلب؛ يدفع كل بادرة من بوادر العدوان والمعصية، قبل أن تصبح ظاهرة عامة؛ ويريد للمجتمع الإسلامي أن يكون صلباً في الحق، وحَسّاساً تجاه الاعتداء عليه، ويريد للقائمين على الدين أن يؤدوا أمانتهم التي استحفظوا عليها، فيقفوا في وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء.. ولا يخافوا لومة لائم. سواء جاء هذا الشر من الحكام المُتَسلّطين بالحكم؛ أو الأغنياء المتسلطين بالمال؛ أو الأشرار المتسلطين بالأذى؛ أو الجماهير المتسلطة بالهوى. فمنهج الله هو منهج الله، والخارجون عليه عَلَو أم سفلوا سواء.

والإسلام يُشدد في الوفاء بهذه الأمانة؛ فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من شر إذا هي سكتت عليه؛ ويجعل الأمانة في عنق كل فرد، بعد أن يضعها في عنق الجماعة عامة.

روى الإمام أحمد - بإسناده - عن عبد الله بن مسعود، قال: قال

رسول الله ـ ﷺ ـ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم. فضرب الله بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم: ﴿**ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾..

وكان الرسول ـ ﷺ ـ متكئاً فجلس، فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً».

وروى أبو داود ـ بإسناده ـ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يَلْقَىٰ الرجل، فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»، ثم قال: ﴿**لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم**﴾ إلى قوله: ﴿**فاسقون**﴾. ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً ـ أو تقصرنه على الحق قصراً ـ».

فليس هو مجرد الأمر والنهي، ثم تنتهي المسألة، إنما هو الإصرار، والمقاطعة، والكف بالقوة عن الشر والفساد والمعصية والاعتداء.

وروى مسلم ـ بإسناده ـ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه. . وذلك أضعف الإيمان».

وروى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن عدي بن عميرة قال: ـ سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله لا يُعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ـ وهم قادرون على أن ينكروه ـ فلا ينكرونه. فإذا فعلوا عذب الله العامة والخاصة».

وتتوارد النصوص القرآنية والنبوية تترى في هذا المعنى؛ لأن هذا التماسك في كيان الجماعة بحيث لا يقول أحد فيها ـ وهو يرى المنكر يقع من غيره ـ: وأنا ما لي؟ وهذه الحمية ضد الفساد في المجتمع، بحيث لا يقول أحد ـ وهو يرى الفساد يسري ويشيع ـ وماذا أصنع والتعرض للفساد يلحق بي الأذى؟! وهذه الغيرة على حرمات الله، والشعور بالتكليف المباشر بصيانتها والدفع عنها للنجاة من الله.. هذا كله هو قوام الجماعة المسلمة الذي لا قيام لها إلا به..

ويمضي القرآن في الحديث عن بني إسرائيل، فيصف حالهم على عهد الرسول ـ ﷺ ـ وهي حالهم في كل زمان وفي كل مكان، فهم يَتَولّون الذين كفروا، ويتناصرون معهم ضد الجماعة المسلمة. وعلة ذلك ـ مع أنهم أهل كتاب ـ أنهم لم يؤمنوا بالله والنبي وأنهم لم يدخلوا في دين الله الأخير. فهم غير مؤمنين. ولو كانوا مؤمنين ما تَوَلّوا الكافرين: **﴿ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم: أن سَخِط الله عليهم. وفي العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أُنزل إليه ما اتخذوهم أولياء. ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾** [المائدة: ٨٠، ٨١]..

وهذا التقرير كما ينطبق على حال اليهود ـ على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ ينطبق على حالهم اليوم وغداً، وفي كل حين. كذلك ينطبق على الفريق الآخر من أهل الكتاب في معظم أرجاء الأرض اليوم.. مما يدعو إلى التدبر العميق في أسرار هذا القرآن، وفي عجائبه المدخرة للجماعة المسلمة في كل آن..

لقد كان اليهود هم الذين يتولون المشركين؛ ويؤلبونهم على المسلمين، **﴿ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾**.. كما حكى عنهم القرآن الكريم. وقد تجلى هذا كله على أَتَمّه

في غزوة الأحزاب، ومن قبلها ومن بعدها كذلك؛ إلى اللحظة الحاضرة. .

وما قامت إسرائيل في أرض فلسطين أخيراً إلا بالولاء والتعاون مع الكافرين الجدد من الماديين الملحدين!.

فأما الفريق الآخر من أهل الكتاب، فهو يتعاون مع المادية الإلحادية كلما كان الأمر أمر المسلمين! وهم يتعاونون مع الوثنية المشركة كذلك، كلما كانت المعركة مع المسلمين! حتى و«المسلمون» لا يمثلون الإسلام في شيء، إلا في أنهم من ذراري قوم كانوا مسلمين! ولكنها الإحنة التي لا تهدأ على هذا الدين، ومَن ينتمون إليه، ولو كانوا في انتمائهم مُدّعين!.

وصدق الله العظيم: **﴿ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا﴾**. .

﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم: أن سخط الله عليهم، وفي العذاب هم خالدون﴾. .

فهذه هي الحصيلة التي قدمتها لهم أنفسهم. . إنها سخط الله عليهم، وخلودهم في العذاب. فما أبأسها من حصيلة! وما أبأسها من تقدمة تقدمها لهم أنفسهم؛ ويا لها من ثمرة مُرّة. ثمرة توليهم الكافرين!.

فمن منا يسمع قول الله ـ سبحانه ـ عن القوم؟ فلا يتخذ من عند نفسه مقررات لم يأذن بها الله: في الولاء والتناصر بين أهل الدين؛ وأعدائه الذين يتولون الكافرين! وما الدافع؟ وما دافع القوم لتولي الذين كفروا؟ إنه عدم الإيمان بالله والنبي:

﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أُنزل إليهم ما اتخذوهم أولياء. ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾. .

هذه هي العلة. . إنهم لم يؤمنوا بالله والنبي. . إن كثرتهم فاسقة. . إنهم يتجانسون ـ إذن ـ مع الذين كفروا في الشعور والوجهة؛ فلا جَرَم يتولون الذين كفروا ولا يتولون المؤمنين. .

وتبرز لنا من هذا التعقيب القرآني ثلاث حقائق بارزة:

الحقيقة الأولى: أن أهل الكتاب جميعاً ـ إلا القلة التي آمنت بمحمد ﷺ ـ غير مؤمنين بالله. لأنهم لم يؤمنوا برسوله الأخير. ولم ينفِ القرآن الكريم عنهم الإيمان بالنبي وحده. بل نفى عنهم الإيمان بالله كذلك..

وهو تقرير من الله ـ سبحانه ـ لا يقبل التأويل. مهما تكن دعواهم في الإيمان بالله.. وبخاصة إذا اعتبرنا ما هم عليه من انحراف التصور للحقيقة الإلهية كما سلف في آيات القرآن الكريم.

والحقيقة الثانية: أن أهل الكتاب جميعاً مدعوون إلى الدخول في دين الله، على لسان محمد ـ ﷺ ـ فإن استجابوا فقد آمنوا، وأصبحوا على دين الله. وإن تَوَلّوا فهم كما وصفهم الله.

والحقيقة الثالثة: أنه لا ولاء ولا تناصر بينهم وبين المسلمين، في شأن من الشؤون. لأن كل شأن من شؤون الحياة عند المسلم خاضع لأمر الدين. ويبقى أن الإسلام يأمر أهله بالإحسان إلى أهل الكتاب في العشرة والسلوك؛ وبحماية أرواحهم وأموالهم وأعراضهم في دار الإسلام؛ وبتركهم إلى ما هم فيه من عقائدهم كائنة ما تكون؛ وإلى دعوتهم بالحسنى إلى الإسلام ومجادلتهم بالحسنى كذلك. والوفاء لهم ـ ما وفوا ـ بعهدهم ومسالمتهم للمسلمين.. وهم في أية حال ـ لا يُكْرَهون على شيء في أمر الدين..

هذا هو الإسلام.. في وضوحه ونصاعته. وفي بره وسماحته.. والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل..

فساد في الخلق والسلوك والعقيدة:

لقد حفلت آيات القرآن الكريم بأفاعيل اليهود الماكرة الخبيثة التي

كانوا يواجهون بها الرسول - ﷺ - والجماعة المسلمة، ويكشف الله - سبحانه - حقيقة القوم وقد التوت قلوبهم وانحرفت أرواحهم فانطلقوا مسرعين في الكفر والفسوق والعصيان:

﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر، من الذين قالوا: آمنا، بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ومن الذين هادوا.. سماعون للكذب، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك. يحرفون الكلم من بعض مواضعه يقولون: إن أوتيتم هذا فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا..﴾ [المائدة: ٤١].

هذه الآيات تشي بأنها مما نزل في السنوات الأولى للهجرة؛ حيث كان اليهود ما يزالون بالمدينة - أي قبل غزوة الأحزاب على الأقل وقبل التنكيل ببني قريظة إن لم يكن قبل ذلك، أيام أن كان هناك بنو النضير وبنو قينقاع، وأولاهما أُجليت بعد أحد والثانية أُجليت قبلها - ففي هذه الفترة كان اليهود يقومون بمناوراتهم هذه؛ وكان المنافقون يأرزون إليهم كما تأرز الحَيَّة إلى الحُجر! وكان هؤلاء وهؤلاء يسارعون في الكفر؛ ولو قال المنافقون بأفواههم: آمنا.. وكان فعلهم هذا يُحزن الرسول - ﷺ - ويُؤذيه..

والله - سبحانه - يُعزي رسوله - ﷺ - ويُواسيه؛ ويُهون عليه فعال القوم، ويكشف للجماعة المسلمة حقيقة المسارعين في الكفر من هؤلاء وهؤلاء؛ ويُوجّه الرسول - ﷺ - إلى المنهج الذي يسلكه معهم حين يأتون إليه متحاكمين؛ بعدما يكشف له عما تآمروا عليه قبل أن يأتوا إليه وما بيتوه..

رُوي أن هذه الآيات نزلت في قوم من اليهود ارتكبوا جرائم - تختلف الروايات في تحديدها - منها الزنا ومنها السرقة.. وهي من جرائم الحدود في التوراة؛ ولكن القوم كانوا قد اصطلحوا على غيرها؛ لأنهم لم يريدوا أن

يطبقوها على الشرفاء فيهم في مبدأ الأمر. ثم تهاونوا فيها بالقياس إلى الجميع، وأحلوا محلها عقوبات أخرى من عقوبات التعازير (كما صنع الذين يزعمون أنهم مسلمون في هذا الزمان!)..

فلما وقعت منهم هذه الجرائم في عهد رسول الله - ﷺ - تآمروا على أن يستفتوه فيها.. فإذا أفتى لهم بالعقوبات التعزيرية المخففة عملوا بها، وكانت هذه حجة لهم عند الله.. فقد أفتاهم بها رسول الله!.. وإن حكم فيها بمثل ما عندهم في التوراة لم يأخذوا بحكمه.. فَدَسُّوا بعضهم يستفتيه.. ومن هنا حكاية قولهم: ﴿**إن أوتيتم هذا فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا**﴾..

وهكذا بلغ منهم العبث، وبلغ منهم الاستهتار، وبلغ منهم الالتواء أيضاً في التعامل مع الله والتعامل مع رسول الله - ﷺ - هذا المبلغ..

وهي صورة تمثل أهل كل كتاب حين يطول عليهم الأمد، فتقسو قلوبهم، وتبرد فيها حرارة العقيدة، وتنطفىء شعلتها؛ ويصبح التفصي من هذه العقيدة وشرائعها وتكاليفها هو الهدف الذي يبحث له عن الوسائل؛ ويبحث له عن «الفتاوى» لعلها تجد مخرجاً وحيلة؛ أليس الشأن كذلك اليوم بين الذين يقولون: إنهم مسلمون: ﴿**من الذين قالوا: آمنا، بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم!**﴾ أليسوا يتلمسون الفتوى للاحتيال على الدين لا لتنفيذ الدين؟ أليسوا يتمسحون بالدين أحياناً لكي يقر لهم أهواءهم ويوقع بالموافقة عليها!.

فأما إن قال الدين كلمة الحق وحكم بالحق فلا حاجة بهم إليه.. ﴿**يقولون: إن أوتيتم هذا فخذوه؛ وإن لم تؤتوه فاحذروا**﴾!.

إنه الحال نفسه. ولعله لهذا كان الله - سبحانه - يقص قصة بني إسرائيل بهذا الإسهاب وهذا التفصيل، لتحذر منها أجيال «المسلمين» وينتبه الواعون منها لمزالق الطريق.

والله ـ سبحانه ـ يقول لرسوله في شأن هؤلاء المسارعين بالكفر، وفي شأن هؤلاء المتآمرين المبيتين لهذه الألاعيب: لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر. فهم يسلكون سبيل الفتنة، وهم واقعون فيها، وليس لك من الأمر شيء، وما أنت بمستطيع أن تدفع عنهم الفتنة وقد سلكوا طريقها ولجوا فيها:

﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾ [المائدة: ٤١].. وهؤلاء دنست قلوبهم، فلم يرد الله أن يطهرها، وأصحابها يلجون في الدنس:

﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾.. وسيجزيهم بالخزي في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة: **﴿لهم في الدنيا خزي، ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾** [المائدة: ٤١].. فلا عليك منهم، ولا يحزنك كفرهم، ولا تحفل بأمرهم. فهو أمر مقضي فيه.

ثم يمضي القرآن في بيان حال القوم، وما انتهوا إليه من فساد في الخلق والسلوك والعقيدة قبل أن يُبين لرسول الله ـ ﷺ ـ كيف يتعامل معهم إذا جاءوا إليه متحاكمين:

﴿سمَّاعون للكذب، أكَّالون للسُحت. فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم. وإن تعرض عنهم فلم يضروك شيئاً. وإن حكمت فاحكم بالقسط، إن الله يحب المقسطين﴾ [المائدة: ٤٢]..

كرر أنهم سماعون للكذب، مما يشي بأن هذه أصبحت خصلة لهم.. تهش نفوسهم لسماع الكذب والباطل، وتنقبض لسماع الحق والصدق..

وهذه طبيعة القلوب حين تفسد، وعادة الأرواح حين تنطمس.. ما أَحَبّ كلمة الباطل والزور في المجتمعات المنحرفة، وما أثقل كلمة الحق

والصدق في هذه المجتمعات. . وما أروج الباطل في هذه الآونة وما أشد بوار الحق في هذه الفترات الملعونة!.

وهؤلاء: سماعون للكذب. أكالـون للسحت. . والسحت كل مـال حرام. . والربا والرشوة وثمن الكلمة والفتوى! في مقدمة ما كانوا يأكلون، وفي مقدمة ما تأكله المجتمعات التي تنحرف عن منهج الله في كل زمان!.

وسمي الحرام سحتاً لأنه يقطع البـركة ويمحقهـا. وما أشـد انقطاع البركة وزوالها من المجتمعات المنحرفة. كمـا نرى ذلـك بأعيننـا في كل مجتمع شارد عن منهج الله وشريعة الله.

ويجعل الله الأمر للرسول بالخيار في أمرهم إذا جاءوه يطلبون حكمه ـ فإن شاء أعرض عنهم ـ ولن يضروه شيئاً ـ وإن شاء حكم بينهم. فإذا اختار أن يحكم حكم بينهم بالقسط، غير متأثر بـأهوائهم، وغيـر متأثـر كذلـك بمسارعتهم في الكفر ومؤامراتهم ومناوراتهم. .

والرسول ـ ﷺ ـ والحاكم المسلم، والقاضي المسلم، إنما يتعامـل مع الله في هذا الشأن؛ وإنما يقوم بالقسط لله **﴿إن الله يحب المقسطين﴾**. .

فإذا ظلم الناس وإذا خانوا، وإذا انحرفوا، فالعدل فوق التأثـر بكل ما يصدر منهم. لأنه ليس عدلاً لهم؛ وإنما هو لله. . وهذا هو الضمان الأكيد في شرع الإسلام وقضاء الإسلام، في كل مكان وفي كل زمان. .

وهذا التخيير في أمر هؤلاء اليهود يدل على نزول هذا الحكم في وقت مبكر. إذ أنه بعد ذلك أصبح الحكم والتقاضي لشريعة الإسلام حتمياً. فدار الإسلام لا تطبق فيها إلا شريعة الله. وأهلها جميعاً ملزمون بـالتحاكم إلى هذه الشريعة. مع اعتبار المبدأ الإسلامي الخاص بأهل الكتاب في المجتمع المسلم في دار الإسلام؛ وهو ألا يُجبروا إلا على ما هو وارد في شريعتهم من الأحكام؛ وعلى ما يختص بالنظام العـام. فيباح لهم ما هو مباح في

شرائعهم، كامتلاك الخنزير، وأَكْله، وتملك الخمر وشربه دون بيعه للمسلم.

ويحرم عليهم التعامل الربوي لأنه محرم عندهم. وتوقع عليهم حدود الزنا والسرقة لأنها واردة في كتابهم وهكذا. كما توقع عليهم عقوبات الخروج على النظام العام والإفساد في الأرض كالمسلمين سواء، لأن هذا ضروري لِأَمْن دار الإسلام وأهلها جميعاً: مسلمين وغير مسلمين. فلا يتسامح فيها مع أحد من أهل دار الإسلام..

وفي تلك الفترة التي كان الحكم فيها على التخيير، كانوا يأتون ببعض قضاياهم إلى رسول الله - ﷺ -، مثال ذلك ما رواه مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: «إن اليهود جاءوا إلى رسول الله - ﷺ - فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زَنَيا. فقال لهم رسول الله - ﷺ -: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتم. إن فيها الرَّجْم. فَأَتَوا بالتوراة فنشروها. فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها. فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا آية الرجم. فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم! فأمر بهما رسول الله - ﷺ - فَرُجِمَا. فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة». (أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري).

ومثال ذلك ما رواه الإمام أحمد - بإسناده - عن ابن عباس قال:

«أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية، حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مئة وسق.

فكانوا على ذلك حتى قَدِمَ النبي - ﷺ - فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمئة وَسق فقالت الذليلة:

وهل كان في حَيَّين دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد، دية بعضهم نصف دية بعض؟ إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا، وفرقاً منكم. فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم! فكادت الحرب تهيج بينهما.

ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله - ﷺ - حَكَماً بينهم. ثم ذكرت العزيزة، فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضَيْماً منا وقهراً لهم! فدسوا إلى محمد من يُخبر لكم رأيه.. إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تُحكِّموه! فدسوا إلى رسول الله - ﷺ - ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله - ﷺ - فلما جاءوا رسول الله - ﷺ - أخبر الله رسوله - ﷺ - بأمرهم كله وما أرادوا. فأنزل الله تعالى: ﴿**يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر**﴾ إلى قوله: ﴿**الفاسقون**﴾.. ففيهم والله أُنزل، وإياهم عَنَى الله عز وجل..».

(أخرجه أبو داود من حديث أبي الزناد عن أبيه).. وفي رواية لابن جرير عَيَّن فيها «العزيزة» وهي بنو النضير و«الذليلة» وهي بني قريظة.. مما يدل - كما قلنا - على أن هذه الآيات نزلت مبكرة قبل إجلائهم والتنكيل بهم..

وقد عقب السياق بسؤال استنكاري على موقف يهود - سواء كان في هذه القضية أو تلك فهو موقف عام منهم وتَصَرُّف مُطّرد - فقال:

﴿**وكيف يُحكِّمونك - وعندهم التوراة فيها حكم الله - ثم يتولون من بعد ذلك؟**﴾ [المائدة: ٤٣]..

فهي كبيرة مُستنكَرة أن يحكموا رسول الله - ﷺ - فيحكم بشريعة الله وحكم الله، وعندهم - إلى جانب هذا - التوراة فيها شريعة الله وحكمه؛ فيتطابق حكم رسول الله - ﷺ - وما عندهم في التوراة؛ مما جاء القرآن مصدقاً له ومهيمناً عليه.. ثم من بعد ذلك يتولون ويعرضون. سواء كان

التولي بعدم التزام الحكم، أو بعدم الرضى به..

ولا يكفي السياق بالاستنكار. ولكنه يقرر الحكم الإسلامي في مثل هذا الموقف: ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ [المائدة: ٤٣]..

فما يمكن أن يجتمع الإيمان، وعدم تحكيم شريعة الله، أو عدم الرضى بحكم هذه الشريعة. والذين يزعمون لأنفسهم ولغيرهم أنهم «مؤمنون» ثم هم لا يُحكّمون شريعة الله في حياتهم، أو لا يرضون حكمها إذا طُبّق عليهم.. إنما يَدَّعون دعوى كاذبة؛ وإنما يصطدمون بهذا النص القاطع:

﴿وما أولئك بمؤمنين﴾.. فليس الأمر في هذا هو أمر عدم تحكيم شريعة الله من الحكام فحسب؛ بل إنه كذلك عدم الرضى بحكم الله من المحكومين، يخرجهم من دائرة الإيمان، مهما ادعوه باللسان.

ذلك كان حكم الله على المحكومين الذين لا يقبلون حكم شريعة الله في حياتهم.. فالآن يجيء حكمه - تعالى - على الحاكمين، الذين لا يحكمون بما أنزل الله الحكم الذي تتوافى جميع الديانات التي جاءت من عند الله عليه: ويبدأ بالتوراة:

﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور. يحكم بها النبيون الذين أسلموا، للذين هادوا، والربانيون والأحبار، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء؛ فلا تخشوا الناس واخشون، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون. وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسن بالسن، والجروح قصاص. فمن تصدق به فهو كفارة له. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ [المائدة: ٤٤، ٤٥]..

ويكشف القرآن الكريم عن حقيقة بواعث اليهود في مواجهة الرسول - ﷺ - والمؤمنين به:

﴿قل: يا أهل الكتاب، هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله، وما أُنزل إلينا، وما أنزل من قبل، وأن أكثركم فاسقون؟ قل: هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله؟ من لَعَنه الله، وغَضِبَ عليه، وجعل منهم القردة والخنازير، وعَبَدَ الطاغوت.. أولئك شرٌّ مكاناً، وأضلّ عن سواء السبيل﴾ [المائدة: ٥٩، ٦٠]..

إن هذا السؤال الذي وَجَّه الله رسوله إلى توجيهه لأهل الكتاب، هو من ناحية سؤال تقريري لإثبات ما هو واقع بالفعل منهم؛ وكشف حقيقة البواعث التي تدفع بهم إلى موقفهم من الجماعة المسلمة ودينها وصَلاتها.

وهو من ناحية سؤال استنكاري، لاستنكار هذا الواقع منهم، واستنكار البواعث الدافعة عليه.. وهو في الوقت ذاته توعية للمسلمين، وتنفير لهم من مولاة القوم.

إن أهل الكتاب لم يكونوا ينقمون على المسلمين في عهد الرسول - ﷺ - وهم لا ينقمون اليوم على طلائع البعث الإسلامي - إلا أن هؤلاء المسلمين يؤمنون بالله؛ وما أنزل الله إليهم من قرآن؛ وما صدق عليه قرآنهم مما أنزله الله من قبل من كتب أهل الكتاب..

إنهم يُعادون المسلمون لأنهم مسلمون! لأنهم ليسوا يهوداً ولا نصارى.. ولأن أهل الكتاب فاسقون منحرفون عما أنزله الله إليهم؛ وآية فسقهم وانحرافهم أنهم لا يؤمنون بالرسالة الأخيرة وهي مصدقة لما بين أيديهم - لا ما ابتدعوه وحرفوه - ولا يؤمنون بالرسول الأخير، وهو مصدق لما بين يديه؛ معظم لرسل الله أجمعين.

إنهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء، التي لم تضع أوزارها قط، ولم يخب أوارها طوال ألف وأربع مئة عام؛ منذ أن قام للمسلمين كيان في المدينة؛ وتميزت لهم شخصية؛ وأصبح لهم وجود مستقل؛ ناشىء عن

دينهم المستقل، وتصورهم المستقل، ونظامهم المستقل، في ظل منهج الله الفريد.

ونقف وقفة قصيرة في هذا الموضع عند قوله تعالى ـ بعد تقرير أن سبب النقمة هو الإيمان بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ـ أن بقية السبب:

﴿وأن أكثرهم فاسقون﴾..

فهذا الفسق هو شطر الباعث! فالفسق يحمل صاحبه على النقمة من المستقيم.. وهي قاعدة نفسية واقعية؛ تثبتها هذه اللفتة القرآنية العجيبة.. إن الذي يفسق عن الطريق وينحرف لا يطيق أن يرى المستقيم على النهج الملتزم.. إن وجوده يشعره دائماً بفسقه وانحرافه. إنه يتمثل له شاهداً قائماً على فسقه هو وانحرافه.. ومن ثم يكرهه وينقم عليه. يَكْرَه استقامته وينقم منه التزامه؛ ويسعى جاهداً لِجَرّه إلى طريقه؛ أو للقضاء عليه إذا استعصى قياده!.

إنها قاعدة مُطَّردة، تتجاوز موقف أهل الكتاب من الجماعة المسلمة في المدينة، إلى موقف أهل الكتاب عامة من المسلمين عامة.. إلى موقف كل فاسق مُنحرف من كل عصبة ملتزمة مستقيمة.. والحرب المشبوبة دائماً على الخَيِّرين في مجتمع الأشرار، وعلى المستقيمين في مجتمع الفاسقين، وعلى الملتزمين في مجتمع المنحرفين.. هذه الحرب أمر طبيعي يستند إلى هذه القاعدة التي يُصورها النص القرآني العجيب..

ولقد علم الله ـ سبحانه ـ أن الخير لا بد أن يَلْقَىٰ النقمة من الشر، وأن الحق لا بد أن يواجه العداء من الباطل، وأن الاستقامة لا بد أن تثير غيظ الفُسّاق، وأن الالتزام لا بد أن يجر حقد المنحرفين.

وعلم الله ـ سبحانه ـ أن لا بد للخير والحق والاستقامة والالتزام أن تدفع عن نفسها وأن تخوض المعركة الحتمية مع الشر والباطل والفسق والانحراف.

وإنهـا معركـة لا خيار فيهـا، ولا يملك الحق ألا يخوضهـا في وجه الباطل. لأن الباطل سيهاجمه، ولا يملك الخير أن يتجنبها لأن الشر لا بد سيحاول سَحقه. .

وغفلة ـ أي غفلة ـ أن يظن أصحاب الحق والخير والاستقامة والالتزام أنهم متروكون من الباطل والشر والفسق والانحراف؛ وأنهم يملكون تجنب المعركة؛ وأنه يمكن أن تقوم هناك مصالحة أو مهادنة!.

وخير لهم أن يستعدوا للمعركة المحتـومة بـالوعي والعـدّة؛ من أن يستسلموا للوَهْم والخديعة. . وهم يومئذ مأكولون مأكون!.

ثم نمضي مع السياق القرآني في توجيه الله ـ سبحانه ـ لرسوله ـ ﷺ ـ لمواجهة أهل الكتاب، بعد تقرير بواعثهم واستنكار هذه البواعث في النقمة على المسلمين. . فإذا هو يجبههم بتاريخ لهم قديم، وشأن لهم مع ربّهم، وعقاب أليم:

﴿قل: هل أُنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله؟ من لَعَنه الله وغَضِبَ عليه، وجعل منهم القردة والخنازير، وعَبَد الطاغوت. أولئك شر مكاناً، وأضل عن سواء السبيل!﴾.

وهنا تطالعنا سحنة يهود، وتاريخ يهود!.

إنهم هم الـــذين لَعنهم الله وغَضِبَ عليهم، وجعـــل منهم القـــردة والخنازير. إنهم هم الذين عبدوا الطاغوت. .

وقصة لعنة الله لهم وغضبه عليهم واردة في مواضعها في هذا الكتاب؛ وكذلك قصة جعله منهم القردة والخنازير. .

فأما قضية عبادتهم للطاغوت، فتحتاج إلى بيان هنا، لأنها لفتة ذات دلالة خاصة.

إن الطاغوت هـو كل سلطان لا يستمـد من سلطان الله، وكل حكم لا يقوم على شريعة الله، وكل عدوان يتجاوز الحق. .

والعدوان على سلطان الله وألوهيته وحاكميته هو أشنع العدوان وأشده طغياناً، وأدخله في معنى الطاغوت لفظاً ومعنى. .

وأهل الكتاب لم يعبدوا الأحبار والرهبان؛ ولكن اتبعوا شرعهم وتركوا شريعة الله. فَسمَّاهم الله عباداً لهم؛ وسماهم مشركين. .

وهـذه اللفتة هنـا ملحوظ فيهـا ذلـك المعنى الـدقيق. فهم عبـدوا الطاغوت. . أي السلطات الطاغية المتجـاوزة لحقها. . وهم لم يعبـدوها بمعنى السجود لها والركوع، ولكنهم عبدوها بمعنى الإتباع والطاعة. وهي عبادة تخرج صاحبها من عبادة الله ومن دين الله[1].

والله ـ سبحانه ـ يُـوجّه رسـوله ـ ﷺ ـ لمجـابهة أهـل الكتاب بهـذا التاريخ؛ وبذلك الجزاء الذي استحقوه من الله على هذا التاريخ. . كأنما هم جيل واحد بما أنهم جِبلّة واحدة. . يوجهه ليقـول لهم: إن هذا شـر عاقبة:

﴿قل: هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله﴾. .

أي شر من نقمة أهل الكتاب على المسلمين، وما يكيدون لهم وما يؤذونهم بسبب إيمانهم. وأين نقمة البشر الضعاف من نقمة الله وعذابه؟، وحُكْمه على أهل الكتاب بالشر والضلال عن سواء السبيل: **﴿أولئك شر مكاناً، وأضل عن سواء السبيل﴾**. .

ويمضي السياق في التنفير من مـوالاتهم بعرض صفـاتهم وسماتهم

---

(١) يراجع كتاب: «المصطلحات الأربعة» للسيد أبي الأعلى المودودي. فصل «العبادة» ويراجع كتاب «هذا الدين» فصل: «منهـج متفرد» ويـراجع كتـاب «خصائص التصـور الإسلامي ومقوماته» فصل: التوحيد. ويراجع كتاب «طريق الدعوة» الجزء الثاني.

ـ بعد عرض تـاريخهم وجزائهم ـ ويجيء التحـذير والتـوعية منهم بكشف ما يُبَيِّتون. . ويبرز اليهود كذلك في الصورة، لأن الحديث عن وقائع جارية، ومعظم الشرّ كان يجيء من قِبَل يهود:

﴿وإذا جاءوكم قالوا: آمنا. وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به. والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ [المائدة: ٦١]. .

إنها عبارات تُنشيء صوراً متحركة ومشاهد حية ـ على طريقة التعبير القرآنية الفريدة ـ ومن وراء القـرون يملك قارىء القـرآن أن يشهد ـ بعين التَصَوُّر ـ هؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم القرآن من يهود ـ على الأرجح ـ فالسياق يتحدث عنهم، وإن كان من الجائز أنه يعني كذلك بعض المنافقين في المدينة. . يشهدهم يجيئون للمسلمين فيقـولون: آمنـا. . ويشهد في جعبتهم «الكفر» وهم يدخلون به ويخرجون؛ بينما ألسنتهم تقول غير ما في الجعبة من كفر داخلين خارجين!.

ولعلهم من يهـود أولئك الـذين يُبيتون البلبلة وهم يقـولـون بعضهم لبعض: آمنوا بهذا القرآن وَجْه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون. . أي لعل المسلمين يرجعـون عن دينهم بسبب هذه البلبلة والتشكيـك الخبيث اللئيم. . **﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾**.

يقولها الله ـ سبحانه ـ لأنها الحقيقة؛ ثم لكي يـطمئن المؤمنون إلى كلاءة ربهم لهم، وحفظهم من كيد عدوهم؛ وإحـاطته علمـاً بهذا الكيـد المكتوم، ثم ليهدد أصحاب هذا الكيد لعلهم ينتهون!.

ويمضي السياق يرسم حركاتهم كأنها منظورة تشهد وتلحظ من خلال التعبير:

﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان، وأكلهم السحت. لبئس ما كانوا يعملون﴾ [المائدة: ٦٢]. .

التصور الفاسد وسوء الأدب البذيء:

إن التصور الإسلامي عن الله ـ سبحانه ـ هو القاعدة الكبرى للإيمان، فهو الذي ينشىء الطمأنينة في الوجدان الإنساني؛ ويفيض بالسكينة على القلب البشري، فالربّ الإله في الإسلام هو الرحمن الرحيم بعباده، فهو لا يُدَبِّر لهم المكائد الانتقامية، كما تزعم الأساطير المزوّرة في «العهد القديم» كالذي جاء في أسطورة برج بابل في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين[1]..

والقرآن يستعرض لبعض أفاعيل يهود وأقاويلها. يبدو في سوء الأدب مع الله ـ سبحانه ـ بعد سوء الفعل مع المسلمين. وهم يبخلون بالوفاء بتعهداتهم المالية للرسول ـ ﷺ ـ ثم يزيدون فيقولون: ﴿**إن الله فقير ونحن أغنياء!**﴾ [آل عمران: ١٨١]..

ويبدو فيه التعلل الواهي، الذي يدفعون به دعوة الإسلام الموجهة إليهم؛ وكذب هذا التعلل، ومخالفته لواقعهم التاريخي المعروف.

هذا الواقع الذي ينضح بمخالفتهم لعهد الله معهم، وبكتمانهم لما أمرهم الله ببيانه من الحق، ونَبْذه وراء ظهورهم، وشرائهم به ثمناً قليلاً.

---

(١) «وكانت الأرض كلها لغة واحدة وكلاماً واحداً. وكان أنهم لما رحلوا من المشرق وجدوا بقعة في أرض شنعار فأقاموا هناك. وقال بعضهم لبعض: تعالوا نضع لبناً وننضجه طبخاً فكان لهم اللبن بدل الحجارة والحمر كان لهم بدل الطين. وقالوا: تعالوا نبني لنا مدينة وبرجاً رأسه إلى السماء ونُقم لنا اسماً كي لا نتبدد على وجه الأرض كلها. فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب: هوذا هم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة وهذا ما أخذوا يفعلونه. والآن لا يكفون عما هُمو به حتى يصنعوه. هلم نهبط ونُبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض كلها وكفوا عن بناء المدينة. ولذلك سميت بابل لأن الرب هناك بلبل لغة الأرض كلها. ومن هناك شَتَّتهم الربّ على كل وجهها».

وبقتلهم أنبياءهم بغير حق، وقد جاءوهم بالخوارق التي طلبوها، وجاءوهم بالبينات فرفضوها.

وهذا الكشف المخجل لأفاعيل اليهود مع أنبيائهم، وأقاويلهم على ربهم، كان هو الأمر الذي يقتضيه سوء موقفهم من الجماعة المسلمة، وتأثير كيدهم ودسهم وإيذائهم ـ هم والمشركون ـ للمسلمين. كما كانت تقتضيه تربية الله للجماعة المسلمة تربية واعية؛ تُبَصِّرهم بما حولهم، وبمن حولهم؛ وتُعَرِّفهم طبيعة الأرض التي يعملون فيها، وطبيعة العقبات والفِخاخ المنصوبة لهم، وطبيعة الآلام والتضحيات المرصودة لهم في الطريق..

وقد كان الكيد اليهودي للجماعة المسلمة في المدينة أقسى وأخطر من عداوة المشركين لهم في مكة. ولعله ما يزال أخطر ما يرصد للجماعات المسلمة في كل مكان، على مدار التاريخ..

وهذا التوجيه الإلهي للجماعة المسلمة في المدينة ما يزال هو هو، قائماً اليوم وغداً، يُبصّر كل جماعة مسلمة تعتزم سلوك الطريق، لإعادة نشأة الإسلام ولاستئناف حياة إسلامية في ظل الله.. يُبصّرها بطبيعة أعدائها ـ وهم هم مشركين وملحدين وأهل كتاب ـ الصهيونية العالمية والصليبية العالمية والشيوعية! ـ ويُبصّرها بطبيعة العقبات والفخاخ المرصودة في طريقها، وبطبيعة الآلام والتضحيات والأذى والابتلاء. ويُعلّق قلوبها وأبصارها بما هنالك.. بما عند الله..

﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شر لهم، سَيُطَوّقون ما بخلوا به يوم القيامة. ولله ميراث السموات والأرض، والله بما تعملون خبير. لقد سمع الله قول الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء. سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق، ونقول ذوقوا عذاب الحريق..﴾ [آل عمران: ١٨٠، ١٨١]..

والظاهر أن الآيات في عمومها نزلت بمناسبة دعوة اليهود إلى الوفاء

بالتزاماتهم المالية الناشئة عن معاهدتهم مع الرسول ـ ﷺ ـ ودعوتهم كذلك إلى الإيمان بالرسول ـ ﷺ ـ والإنفاق في سبيل الله.

وقد نزل هذا التحذير التهديدي، مع فَضح تعلات اليهود في عدم الإيمان بمحمد ـ ﷺ ـ رداً على ما بدا من سوء أدبهم مع ربهم، ومن كذب تعلاتهم، ونزلت معه المواساة للرسول ـ ﷺ ـ عن تكذيبهم، بما وقع للرسل قبله مع أقوامهم. ومنهم أنبياء بني إسرائيل، الذين قتلوهم بعدما جاءوهم بالبينات والخوارق كما هو معروف في تاريخ بني إسرائيل:

﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شر لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة. .﴾.

إن مدلول الآية عام. فهو يشمل اليهود الذين بخلوا بالوفاء بتعهداتهم، كما يشمل غيرهم ممن يبخلون بما آتاهم الله من فضله؛ ويحسبون أن هذا البخل خير لهم، يحفظ لهم أموالهم، فلا تذهب بالإنفاق.

والنص القرآني ينهاهم عن هذا الحسبان الكاذب؛ ويقرر أن ما كنزوه سيطوقونه يوم القيامة ناراً. . وهو تهديد مفزع. .

والتعبير يزيد هذا البخل شناعة حين يذكر أنهم **﴿يبخلون بما آتاهم الله من فضله﴾**. . فهم لا يبخلون بمال أصيل لهم. فقد جاءوا إلى هذه الحياة لا يملكون شيئاً. . ولا جلودهم . . ! فآتاهم الله من فضله فأغناهم. حتى إذا طلب إليهم أن ينفقوا «من فضله» شيئاً لم يذكروا فضل الله عليهم. وبخلوا بالقليل، وحسبوا أن في كنزه خيراً لهم. وهو شر فظيع.

وهم ـ بعد هذا كله ـ ذاهبون وتاركوه وراءهم. فالله هو الوارث: **﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾**. . فهذا الكنز إلى أمد قصير. ثم يعود كله إلى الله. ولا يبقى لهم منه إلا القدر الذي أنفقوه ابتغاء مرضاته، فيبقى مدخراً لهم عنده، بدلاً من أن يطوقهم إياه يوم القيامة!.

ثم يندد باليهود الذين وجدوا في أيديهم المال ـ الذي آتاهم الله من فضله ـ فحسبوا أنفسهم أغنياء عن الله، لا حاجة بهم إلى جزائه، ولا إلى الأضعاف المضاعفة التي يَعِدُها لمن يبذل في سبيله ـ وهو ما يسميه تفضلاً منه ومِنّة إقراضاً له سبحانه ـ وقالوا في وقاحة: ما بال الله يطلب إلينا أن نُقرضه من مالنا. ويعطينا عليه الأضعاف المضاعفة، ويَنْهىٰ عن الربا والأضعاف المضاعفة؟! وهو تلاعب بالألفاظ ينم عن القحة وسوء الأدب في حق الله:

﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء..﴾.

وسوء تصور اليهود للحقيقة الإلهية شائع في كتبهم المحرفة. ولكن هذه تبلغ مبلغاً عظيماً من سوء التصور ومن سوء الأدب معاً.. ومن ثم يستحقون هذا التهديد المتلاحق: ﴿سنكتب ما قالوا﴾..

لنحاسبهم عليه، فما هو بمتروك ولا منسي ولا مهمل.. وإلى جانبه تسجيل آثامهم السابقة ـ وهي آثام جنسهم وأجيالهم متضامنة فيه ـ فكلهم جبلة واحدة في المعصية والإثم: ﴿وقَتْلَهم الأنبياء بغير حق﴾..

وقد حفظ تاريخ بني إسرائيل سلسلة أثيمة في قتل الأنبياء، آخرها محاولتهم قتل المسيح ـ عليه السلام ـ.. وهم يزعمون أنهم قتلوه، متباهين بهذا الجرم العظيم..!.

﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾...

والنص على «الحريق» هنا مقصود لتبشيع ذلك العذاب وتفظيعه. ولتجسيم مشهد العذاب بِهَوْلِه وتأججه وضرامه.. جزاء على الفعلة الشنيعة: قتل الأنبياء بغير حق. وجزاء على القولة الشنيعة: إن الله فقير ونحن أغنياء..

﴿ذلك بما قدَّمت أيديكم﴾ [آل عمران: ١٨٢]. جزاء وفاقاً،

لا ظلم فيه، ولا قسوة: ﴿**وأن الله ليس بظلّام للعبيد**﴾..

والتعبير بالعبيد هنا، إبراز لحقيقة وَضْعهم ـ وهم عبيد من العبيد ـ بالقياس إلى الله تعالى. وهو يزيد في شناعة الجرم. وفظاعة سوء الأدب. الذي يتجلى في قول العبيد: ﴿**إن الله فقير ونحن أغنياء**﴾ والذي يتجلى كذلك في قتل الأنبياء.. ونقف أمام هذا التصور الفاسد للعقيدة الذي يظهر بوضوح في هذه القولة الآثمة الكافرة الفاجرة...

إن الله ـ سبحانه ـ يهتف بالناس أن ينظروا في علاقتهم به تبارك وتعالى، وفي حقيقة أنفسهم: ﴿**يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد؛ إن يشأ يُذْهبكم ويأت بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز**﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٧]..

إن الناس في حاجة إلى تذكيرهم بهذه الحقيقة ليخرجوا مما هم فيه من ظلمات التخبط والالتواء والزيغ والضلال إلى نور الله وهداه. في حاجة إلى تذكيرهم بأنهم هم الفقراء المحاويج إلى الله. وأن الله غني عنهم كل الغنى. وأنهم حين يُدَعون إلى الإيمان بالله وعبادته وحمده على آلائه فإن الله غني عن عبادتهم وحَمْدهم، وهو المحمود بذاته. وأنهم لا يُعجزون الله ولا يعزّون عليه فهو إن شاء أن يذهب بهم ويأتي بخلق جديد من جنسهم أو من جنس آخر يخلفهم في الأرض، فإن ذلك عليه يسير..

الناس في حاجة إلى أن يُذكَّروا بهذه الحقيقة، لئلا يركبهم الغرور وهم يرون أن الله ـ جلَّ وعلا ـ يعني بهم، ويرسل إليهم الرسل؛ ويجاهد الرُسل أن يردوهم عن الضلالة إلى الهدى، ويخرجوهم من الظلمات إلى النور. ويَركبهم الغرور فيظنون أنهم شيء عظيم على الله! وأن هُداهم وعبادتهم تزيد شيئاً في ملكه تعالى[١]! والله هو الغني الحميد.

---

(١) في الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ فيما يروي عن ربِّه =

إنَّ الله ـ سبحانه ـ يمنح العباد من رعايته، ويفيض عليهم من رحمته، ويغمرهم بسابغ فضله ـ بإرسال رسله إليهم، واحتمال هؤلاء الرسل ما يحتملون من إعراضهم وإيذائهم، وثباتهم على الدعوة إلى الله بعد الإعراض والإيذاء.. إن الله ـ سبحانه ـ إنما يعامل عباده هكذا رحمة منه وفضلاً وكرماً ومَنّاً. لأن هذه صفاته المتعلقة بذاته. لا لأن هؤلاء العباد يزيدون في مُلكه شيئاً بهداهم، أو ينقصون من مُلكه شيئاً بعماهم. ولا لأن هؤلاء العباد مخلوقات نادرة عزيزة صعبة الإعادة أو الاستبدال، فيغتفر لهم ما يقع منهم لأنهم صنف لا يُعاد ولا يُستبدل.

وإن الإنسان ليدهش ويحار في فضل الله ومَنّه وكرمه، حين يرى هذا الإنسان الصغير الضئيل الجاهل القاصر، الضعيف العاجز، ينال من عناية الله ورعايته كل هذا القدر الهائل!.

والإنسان ساكن صغير من سكان هذه الأرض. والأرض تابع صغير من توابع الشمس. والشمس نجم مما لا عدّ له، ولا حصر من النجوم. والنجوم إن هي إلا نقط صغيرة ـ على ضخامتها الهائلة ـ متناثرة في فضاء الكون الذي لا يعلم الناس حدوده، وهذا الفضاء الذي تتناثر فيه تلك النجوم كالنقط التائهة إن هو إلا بعض خلق الله!.

= عزّ وجلّ أنه قال: «... يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضَرِّي فَتَضُروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنَّكم كانوا على أتقى قلب رَجُل واحد منكم، ما زادَ ذلك في مُلكي شيئاً، يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نَقَص ذلك من مُلكي شيئاً.. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم، ثم أُوَفِّيكم إياها، فَمن وَجَدَ خيراً، فليحمد الله، ومن وَجَد غير ذلك، فلا يلومَنَّ إلا نفسه».

رواه مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه. انظر شرحه في «جامع العلوم والحكم» لابن رجب، الحديث الرابع والعشرون، تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، ٣٢/٢.

ثم ينال الإنسان من الله كل هذه الرعاية.. يُنشئه، ويستخلفه في الأرض، ويهبه كل أدوات الخلافة ـ سواء في تكوينه وتركيبه أو تسخير القوى والطاقات الكونية اللازمة له في خلافته ـ ويضلّ هذا المخلوق ويتبجح حتى ليشرك بربه أو يُنكره. فيرسل الله إليه الرسل، رسولاً بعد رسول، وينزل على الرسل الكتب والخوارق. ويَطّرد فضل الله ويفيض حتى لينزل في كتابه الأخير للبشر قصصاً يُحدث بها الناس، ويقص عليهم ما وقع لأسلافهم، ويحدثهم عن ذوات أنفسهم، ويكشف لهم عما فيها من قوى وطاقات، ومن عجز وضعف، بل إنه ـ سبحانه ـ ليحدث عن فلان وفلان بالذات، فيقول لهذا: أنت فعلتَ وأنت تركت، ويقول لذاك: هاك حلاً لمشكلتك، وهاك خلاصاً من ضيقتك!.

كل ذلك، وهذا الإنسان هو الساكن الصغير من سكان هذه الأرض، التابعة الصغيرة من توابع الشمس، التائهة في هذا الوجود الكبير حتى ما تكاد تُحَسّ! والله ـ سبحانه ـ هو فاطر السموات والأرض، وخالق هذا الوجود بما فيه ومَن فيه بكلمة. بمجرد تَوَجُّه الإرادة. وهو قادر على أن يخلق مثله بكلمة وبمجرد تَوَجُّه الإرادة..

والناس خلقاء أن يُدركوا هذه الحقيقة ليدركوا مدى فضل الله ورعايته ورحمته. وليستحيوا أن يستجيبوا للفضل الخالص والرعاية المجردة والرحمة الفائضة بالإعراض والجحود والنكران.

فهي من هذه الناحية لمسة وجدانية موحية، إلى جانب أنها حقيقة صادقة واقعة. والقرآن يلمس بالحقائق قلوب البشر، لأن الحقيقة حين تجلى أفعل في النفس، ولأنه هو الحق وبالحق نزل. فلا يتحدث إلا بالحق، ولا يقنع إلا بالحق، ولا يعرض إلا الحق، ولا يشير بغير الحق..

لقد مضى القرآن الكريم يعدد آلاء الله ونعمه على بني إسرائيل، فقد حَباهم وأفاض عليهم، وآثرهم وفضّلهم على العالمين.. فاستقبلوا هذه

الآلاء وذلك الفضل العميم بالغرور والطغيان، فقد جحدوا وكفروا.. وقالوا كلمتهم الشنيعة: ﴿**إن الله فقير ونحن أغنياء**﴾..

قالوها في تَبَجُّح وتَوَقُّح.. قالوها وقد انطفأت شعلة الإيمان في أفئدتهم، فجفت قلوبهم وقست وعميت.. فهم في عمى عن رؤية دلائل الحق، وعمى عن رؤية الحقيقة. لقد كفروا وظلموا، فهم في ظلمات الضلال يعمهون.. في ظلمات من شتى الأنواع والأشكال. ظلمات تعزّ فيها الرؤية الصحيحة عن عظمة الله الحق المبين..

ويعرض القرآن الكريم نموذجاً آخر من قولهم الإثم في أبشع صوره.. يحكي قول اليهود الغبي اللئيم:

﴿**وقالت اليهود يَدُ الله مغلولة ـ غُلّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان يُنفق كيف يشاء**﴾ [المائدة: ٦٤]..

وذلك من سوء تصور يهود لله ـ سبحانه ـ. فقد حكى القرآن الكريم الكثير من سوء تصورهم ذاك. وقد تقدم قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء عندما سُئلوا النفقة! وقالوا: يد الله مغلولة، يُعللون بذلك بُخلهم؛ فالله ـ بزعمهم ـ لا يعطي الناس ولا يعطيهم إلا القليل.. فكيف يُنفقون؟!.

وقد بلغ من غلظ حسهم، وجلافة قلوبهم، ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه وهو البخل بلفظه المباشر؛ فاختاروا لفظاً أشد وقاحة وتهجماً وكفراً فقالوا: يد الله مغلولة!.

ويجيء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم، ولعنهم وطردهم من رحمة الله جزاء على قولهم: ﴿**غُلَّت أيديهم ولعنوا بما قالوا**﴾.

وكذلك كانوا، فهم أبخل خَلْق بمال!.

ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم؛ ويصف الله ـ سبحانه ـ بوصفه الكريم، وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب:

﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ . .

وعطاياه التي لا تكف ولا تنفد لكل مخلوق ظاهرة للعيان . . شاهدة باليد المبسوطة، والفضل الغامر، والعطاء الجزيل، ناطقة بكل لسان. ولكن يهود لا تراها؛ لأنها مشغولة عنها باللَّم والضَّمْ، وبالكنود وبالجحود، وبالبذاءة حتى في حق الله!.

ويحدث الله رسوله - ﷺ - عما سيبدو من القوم، وعما سيحل بهم، بسبب حقدهم وغيظهم من اصطفاء الله له بالرسالة، وبسبب ما تكشفه هذه الرسالة من أمرهم في القديم والحديث: **﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أُنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾** [المائدة: ٦٤] . .

فبسبب من الحقد والحسد، وبسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله سيزيد الكثيرون منهم طغياناً وكفراً. لأنهم قد أَبوا الإيمان، لا بد أن يَشْتَطُّوا في الجانب المقابل؛ ولا بد أن يزيدوا تبجحاً ونكراً، وطغياناً وكفراً. فيكون الرسول - ﷺ - رحمة للمؤمنين، ووبالاً على المنكرين.

هؤلاء الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، والذين قتلوا الأنبياء. . هم الذين يزعمون أنهم لا يؤمنون بمحمد - ﷺ - لأن الله عَهِدَ إليهم بزعمهم - ألا يؤمنوا لرسول، حتى يأتيهم بقربان يقدمونه، فتقع المعجزة، وتهبط نار تأكله، على نحو ما كانت معجزة بعض أنبياء بني إسرائيل، وما دام محمد لم يقدم لهم هذه المعجزة فهم على عهد مع الله!!.

هنا يجبههم القرآن بواقعهم التاريخي. . لقد قتلوا هؤلاء الأنبياء الذين جاءوهم بالخوارق التي طلبوها وجاءوهم بآيات الله بينات:

﴿الذين قالوا: إن الله عَهِدَ إلينا ألا نؤمن لرسول، حتى يأتينا بقربان تأكله النار. قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قُلتم، فَلِمَ قَتَلْتموهم إن كنتم صادقين؟﴾ [آل عمران: ١٨٣] . .

وهي مجابهة قوية، تكشف عن كـذبهم والتوائهم وإصـرارهم على الكفر، وتبجحهم بعد ذلك وافترائهم على الله!.

وهنا يلتفت إلى الرسول ـ ﷺ ـ مُسَلّياً مواسياً، مهوناً عليـه ما يلقـاه منهم، وهو ما لقيه إخوانه الكرام من الرسل على توالي العصور:

﴿فإن كذبوك فقد كُـذِّب رسل من قبلك، جـاءوا بالبينـات والزبـر والكتاب المنير﴾ [آل عمران: ١٨٤]..

فما هو أول رسول يتلقى بالتكذيب. والأجيال المتعاقبة ـ وبخاصة من بني إسرائيل ـ تلقوا بالتكذيب رسلاً جاءوهم بالبينات والخوارق، وجاءوهم بالصحائف المتضمنة للتوجيهات الإلهية ـ وهي الزبر ـ وجاءوهم بالكتـاب المنير كالتوراة والإنجيل.. فهذا هو طريق الرسل والرسالات.. وما فيه من عناء ومشقة. وهو وحده الطريق.

وأمـام هذا الـزيغ الإسـرائيلي يتوجَّـه القرآن الكـريم إلى الجماعـة المسلمة، يحدثهـا عن القِيَم التي ينبغي أن تحرص عليهـا، وتضحي من أجلها، ويهيب بها إلى الصبر والتقوى والعزم والاحتمال:

﴿كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أُجوركم يوم القيـامة، فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. لتبلون في أموالكم وأنفسكم، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الـذين أشركـوا أَذىً كثيراً، وإن تصبـروا وتتقوا فـإن ذلك من عـزم الأمور﴾ [آل عمران: ١٨٥، ١٨٦]..

إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس: حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة، محدودة بِأَجَل، ثم تأتي نهايتها حتماً.. الكلُّ يموت.. كل نفس تفارق هـذه الحياة.. لا فـارق بين نفس ونفس في تَذوُّق هـذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع. إنما الفارق في شيء آخر. الفارق في قيمة أخرى. الفارق في المصير الأخير: **﴿وإنما تُوَفَّون أجوركم**

يوم القيامة. فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾..

وهكذا نجد التوجيهات الربانية تتوالى على المسلمين في ثنايا الاستعراض المثير لمواقف بني إسرائيل المُضَلِّلة الكاذبة الخادعة.. نجد توجيه المسلمين إلى حقيقة القيم الباقية والقيم الزائلة. فالحياة في هذه الأرض محدودة بأجل. وكل نفس ذائقة الموت على كل حال. إنما الجزاء هناك، والكسب والخسارة هناك.. وهم مُبتلون في أموالهم وأنفسهم، والأذى سينالهم من أعدائهم المشركين وأهل الكتاب، فلا عاصم لهم إلا الصبر والتقوى، والمضي على النهج، الذي يزحزحهم من النار.. ثم الفوز بالجنة!.

تحريــف وتزويــر:

يُحدث القرآن الكريم الجماعة المسلمة عن بني إسرائيل، ويُبصرها بأساليبهم ووسائلهم في الكيد والفتنة، ويُحذرها كيدهم ومكرهم على ضوء تاريخهم وجبلّتهم، فلا تنخدع بأقوالهم ودعاويهم ووسائلهم الماكرة في الفتنة والتضليل. ويدل طول الحديث في القرآن، وتنوع أساليبه على ضخامة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من الكيد المنصوب لها والمرصود لدينها من أولئك اليهود!.

وبَين آن وآخرٍ يلتفت القرآن إلى بني إسرائيل ليواجههم ـ على مشهد من المسلمين ـ بما أُخذ عليهم من المواثيق، وبما نَقضوا من هذه المواثيق؛ وبما وَقع منهم من انحرافات ونكول عن العهد وتكذيب بأنبيائهم، وقَتلهم لهؤلاء الأنبياء الذين لا يُطاوعونهم على هواهم، ومن مخالفة لشريعتهم، ومن التوائهم وجدالهم بالباطل، وتحريفهم لما بين أيديهم من النصوص.

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله

ليحكم بينهم، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون؟﴾ [آل عمران: ٢٣]. .

إنه سؤال التعجيب والتشهير من هـذا الموقف المتنـاقض الغريب. موقف الذين أوتوا نصيباً من الكتاب. وهو التـوراة لليهود ومعهـا الإنجيل للنصارى. وكل منهما «نصيب» من الكتاب باعتبار أن كتـاب الله هو كـل ما أنزل على رسله، وقرر فيه وحدة ألوهيته ووحدة قوامته. فهو كتاب واحد في حقيقته، أوتي اليهود نصيبـاً منه، وأوتى النصـارى نصيباً منـه، وأوتي المسلمون الكتاب كله باعتبار القرآن جامعاً لأصول الدين كله، ومُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتاب. .

سؤال التعجيب من هؤلاء **﴿الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾**. . ثم هم يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم في خلافاتهم، وليحكم بينهم في شؤون حياتهم ومعاشهم، فلا يستجيبون جميعاً لهذه الدعوة، إنمـا يتخلف فريق منهم ويعـرض عن تحكيم كتاب الله وشـريعته. الأمـر الذي يتنـاقض مع الإيمان بأي نصيب من كتاب الله، والذي لا يستقيم مع دعوى أنهم أهـل كتاب. .

هكذا يعجب الله من أهل الكتاب حين يعرض بعضهم ـ لا كلهم ـ عن الاحتكام إلى كتاب الله في أمور الاعتقاد وأمور الحياة. فكيف بمن يقولون: إنهم مسلمون، ثم يُخرجون شريعة الله من حياتهم كلها. ثم يظلون يزعمون أنهم مسلمون!.

إنه مَثَل يضربه الله للمسلمين أيضاً كي يعلموا حقيقة الدين وطبيعة الإسلام؛ ويحذروا أن يكونوا موضعاً لتعجيب الله وتشهيره بهم. فإذا كان هذا هو استنكار موقف أهل الكتاب الذين لم يدَّعوا الإسلام، حين يعرض فريق منهم عن التحاكم إلى كتـاب الله، فكيف يكون الاستنكـار إذا كان «المسلمـون» هم الذين يعـرضون هـذا الإعـراض. . إنـه العجب الـذي

لا ينقضي، والبلاء الذي لا يُقَدّر، والغضب الذي ينتهي إلى الشقوة والطرد من رحمة الله! والعياذ بالله!.

ثم يكشف عن علة هذا الموقف المُسْتَنكَر المتناقض:

﴿ذلك بأنهم قالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، وغَرّهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ [آل عمران: ٢٤]..

هذا هو السبب في الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله؛ والتناقض مع دعوى الإيمان ودعوى أنهم أهل كتاب.. إنه عدم الاعتقاد بجدّية الحساب يوم القيامة، وجدّية القسط الإلهي الذي لا يُحابي ولا يميل. يتجلى هذا في قولهم: **﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾**...

وإلا فلماذا لا تمسهم النار إلا أياماً معدودات؟ ولماذا وَهُم ينحرفون أصلاً عن حقيقة الدين وهي الاحتكام في كل شيء إلى كتاب الله؟ لماذا إذا كانوا يعتقدون حقاً بعَدْل الله؟ بل إذا كانوا يحسّون أصلاً بجدية لقاء الله؟ إنهم لا يقولون إلا افتراء، ثم يَغُرّهم هذا الافتراء: **﴿وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾**..

وحقاً! إنه لا يجتمع في قلب واحد جدّية الاعتقاد بلقاء الله، والشعور بحقيقة هذا اللقاء، مع هذا التميّع في تصور جزائه وعَدْله...

وحقاً! إنه لا يجتمع في قلب واحد الخوف من الآخرة والحياء من الله، مع الإعراض عن الإحْتِكام إلى كتاب الله، وتحكيمه في كل شأن من شؤون الحياة..

ومثل أهل الكتاب هؤلاء مثل من يزعمون اليوم أنهم مسلمون،. ثم يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولّون ويُعرضون. وفيهم من يتبجّحون ويتوقحون، ويزعمون أن حياة الناس دنيا لا دين! وأن لا ضرورة لإقحام الدين في حياة الناس العملية وارتباطاتهم الاقتصادية والاجتماعية، بل

العائلية، ثم يظلون بعد ذلك يزعمون أنهم مسلمون! ثم يعتقد بعضهم في غرارة بلهاء أن الله لن يعذبهم إلا تَطهيراً من المعاصي، ثم يُساقون إلى الجنة! أليسوا مسلمين؟ إنه نَفس الظن الذي كان يظنه أهل الكتاب هؤلاء، ونَفس الغرور بما افتروه ولا أصل له في الدين.. وهؤلاء وأولئك سواء في تنصُّلهم من أصل الدين، وتَمَلُّصهم من حقيقته التي يرضاها الله: الإسلام.. الاستسلام.. والطاعة والاتباع. والتلقي من الله وحده في كل شأن من شؤون الحياة.

ويقص القرآن على المسلمين من أحوال بني إسرائيل: إنهم فريقان. فريق أُمي جاهل، لا يدري شيئاً من كتابهم الذي نزل عليهم، ولا يعرف منه إلا أوهاماً وظنوناً، وإلا أماني في النجاة من العذاب، بما أنهم شعب الله المختار، المغفور له كل ما يعمل وما يرتكب من آثام!.

وفريق يستغل هذا الجهل وهذه الأميّة فيزوّر على كتاب الله، ويُحرف الكلم عن مواضعه بالتأويلات المُغْرضة، ويكتم منه ما يشاء، ويبدي منه ما يشاء ويكتب كلاماً من عند نفسه يذيعه في الناس باسم أنه من كتاب الله.. كل هذا ليربح ويكسب، ويحتفظ بالرياسة والقيادة:

﴿ومنهم أُميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله، لِيَشْتروا به ثمناً قليلاً. فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون﴾ [البقرة: ٧٨، ٧٩].

فكيف ينتظر من أمثال هؤلاء وهؤلاء أن يستجيبوا للحق، وأن يستقيموا على الهدى، وأن يتحرجوا من تحريف ما يقف في طريقهم من نصوص كتابهم نفسه؟ إن هؤلاء لا مطمع في أن يؤمنوا للمسلمين. وإنما هو الويل والهلاك ينتظرهم. الويل والهلاك لهم مما كتبت أيديهم من تزوير على الله؛ والويل والهلاك لهم مما يكسبون بهذا التزوير والاختلاق!.

من تلك الأماني التي لا تستقيم مع عدل الله، ولا تتفق مع سنته، ولا تتمشى مع التصور الصحيح للعمل والجزاء.. أن يحسبوا أنهم ناجون من العذاب مهما فعلوا، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات يخرجون بعدها إلى النعيم..

عَلام يعتمدون في هذه الأُمنية؟ علام يحددون الوقت كأنهم مستوثقون؟ وكأنها معاهدة محدودة الأجل معلومة الميقات؟.

لا شيء إلا أماني الأُميين الجُهّال، وأكاذيب المُحتالين العلماء! الأماني التي يلجأ إليها المنحرفون عن العقيدة الصحيحة، حين يطول بهم الأمد، وينقطع ما بينهم وبين حقيقة دينهم، فلا يبقى لهم منه إلا اسمه وشكله، دون موضوعه وحقيقته ويظنون أن هذا يكفيهم للنجاة من العذاب بحكم ما يُعلنونه بألسنتهم من أنهم على دين الله.

ويُوجِّه القرآن الكريم الخطاب إلى بني إسرائيل، وهو يعرض عليهم متناقضات موقفهم من ميثاقهم مع الله...

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم: لا تسفكون دماءكم، ولا تُخرجون أنفسكم من دياركم. ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾ [البقرة: ٨٤]..

فماذا كان بعد الإقرار وهم شاهدون حاضرون؟.

﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان. وإن يأتوكم أسارى تفادوهم، وهو محرم عليكم إخراجهم. أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟﴾ [البقرة: ٨٥]..

ولقد كان هذا الذي يواجههم به واقعاً قريب العهد قبيل غَلَبة الإسلام على الأوس والخزرج. كان الأوس والخزرج مشركين، وكان الحيّان أشد ما يكون حيّان من العرب عداء.

وكان اليهود في المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذا الحي وذاك من المشركين. . كان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه؛ فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي اليهودي من الفريق الآخر ـ وهذا حرام عليهم بنصّ ميثاق الله معهم ـ وكانوا يُخرجونهم من ديارهم إذا غلب فريقهم وينهبون أموالهم ويأخذون سباياهم ـ وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم ـ ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فادوا الأسارى، وفكوا أسر المأسورين من اليهود هنا أو هناك، عندهم أو عند حلفائهم أو أعداء حلفائهم على السواء ـ وذلك عملاً بحكم التوراة وقد جاء فيها: إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا أخذته فأعتقته. .

هذا التناقض هو الذي يُواجههم به القرآن؛ وهو يسألهم في استنكار: ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟**﴾. .

وهذا هو نقض الميثاق الذي يتهددهم بالخزي في الحياة الدنيا، والعذاب الأشد في الآخرة. مع التهديد الخفي بأن الله ليس غافلاً عنهم ولا متجاوزاً:

﴿**فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يُردُّون إلى أشد العذاب. وما الله بغافل عما تعملون**﴾ [البقرة: ٨٥]. .

ثم يلتفت إلى المسلمين وإلى البشرية جميعاً، وهو يعلن حقيقتهم وحقيقة عملهم:

﴿**أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة. فلا يُخَفَّف عنهم العذاب ولا هم ينصرون**﴾ [البقرة: ٨٦]. .

وكَذبُوا إذن في دعواهم أن لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة. فهؤلاء هم هناك: ﴿**فلا يُخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون**﴾. .

وقصة شرائهم الحياة الدنيا بالآخرة هنا في هذه المناسبة: هي أن الدافع لهم على مخالفة ميثاقهم مع الله، هو استمساكهم بميثاقهم مع المشركين في حلف يقتضي مخالفة دينهم وكتابهم. فإن انقسامهم فريقين، وانضمامهم إلى حلفين، هي هي خطة إسرائيل التقليدية، في إمساك العصا من الوسط؛ والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة كلها من باب الاحتياط، لتحقيق بعض المغانم على أية حال؛ وضمان صوالح اليهود في النهاية سواء انتصر هذا المعكسر أم ذاك!.

وهي خطة من لا يثق بالله، ولا يستمسك بميثاقه، ويجعل اعتماده كله على الدهاء، ومواثيق الأرض، والاستنصار بالعباد لا برب العباد. والإيمان يُحرّم على أهله الدخول في حلف يناقض ميثاقهم مع ربهم، ويناقض تكاليف شريعتهم، باسم المصلحة أو الوقاية، فلا مصلحة إلا في اتباع دينهم، ولا وقاية إلا بحفظ عهدهم مع ربهم.

ويستعرض القرآن جدالهم مع الجماعة المسلمة وحججهم ودعاويهم الباطلة، ويُلقن الرسول ـ ﷺ ـ أن يفضح دعاويهم، ويُفنِّد حججهم، وكشف زيف ادعاءاتهم، ويرد على كيدهم بالحق والواضح الصريح..

فلقد زعموا أن لن تمسّهم النار إلا أياماً معدودة بحكم ما لهم من المكانة الخاصة عند الله!.

﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة. قل: أتخذتم عند الله عهداً فلن يُخلف الله عهده؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون؟﴾ [البقرة: ٨٠]..

ولقن الله نبيه ـ ﷺ ـ أن يرد عليهم قولهم هذا.. **﴿أتخذتم عند الله عهداً فلن يُخلف الله عهده؟﴾**..

هذا هو التلقين الإلهي للحجة الدامغة.. فأين العهد؟ **﴿أم تقولون على الله ما لا تعلمون؟﴾**..

وهذا هو الواقع. فالاستفهام هناللتقرير. ولكنه في صورة الاستفهام يحمل كذلك معنى الإنكار والتوبيخ!.

ثم لقد كانوا يطلقونها دعوى عريضة.. إنهم شعب الله المختار.. إنهم وحدهم المهتدون. إنهم وحدهم الفائزون في الآخرة. إنه ليس لغيرهم من الأمم في الآخرة عند الله نصيب.

وهذه الدعوة تتضمن أن المؤمنين بمحمد - ﷺ - لا نصيب لهم في الآخرة. والهدف الأول هو زعزعة ثقتهم بدينهم وبوعود رسولهم ووعود القرآن لهم. فهم يدَّعون أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس. فلقَّن الله رسوله - ﷺ - أن يتحداهم، وأَمَرَه أن يدعو اليهود إلى مباهلة، بدعوتهم إلى تمني الموت، وذلك رداً على دعواهم أنهم أولياء الله من دون الناس، وأنهم شعب الله المختار، وأن بعثة الرسول في غيرهم لا تكون! كما يدّعون!.

﴿قل: يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولا يتمنونه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين..﴾ [الجمعة: ٦، ٧]..

وهكذا يمضي القرآن بكشف أباطيلهم: **﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾** [البقرة: ٩٤]..

لقد أمر الله نبيه - ﷺ - بدعوة اليهود إلى المباهلة. والمباهلة معناها أن يجتمع الفريقان المتنازعان وجهاً لوجه، ودعاؤهما معاً إلى الله أن يُنكل بالمبطل منهما..

لقد كانت دعوة أن يجتمع اليهود والمسلمون، ثم يدعون الله أن يميت ويهلك الكاذب منهما: **﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من**

دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ . .

ويعقب على هذا التحدي بتقرير أنهم لن يتمنوه ولن يقبلوا المباهلة، ولن يطلبوا الموت لعلمهم أنهم كاذبون فيما يدعون! .

فهم يخشون أن يستجيب الله فيأخذهم. وهم يعلمون أن ما قدموه من عمل لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة. وعندئذ يكونون قد خسروا الدنيا بالموت الذي طلبوه، وخسروا الآخرة بالعمل السيء الذي قدّموه. . ومن ثم فإنهم لن يقبلوا التحدي. فهم أحرص الناس على حياة. وهم والمشركون في هذا سواء:

﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم. والله عليم بالظالمين. ولتجدنَّهم أحرص الناس على حياة. ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يُعمّر ألف سنة. وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعمّر، والله بصير بما يعملون﴾ [البقرة: ٩٥، ٩٦].

لن يتمنوه، لأن ما قدمته أيديهم للآخرة لا يُطمعهم في ثواب، ولا يؤمنهم من عقاب. إنه مدخر لهم هناك والله عليم بالظالمين، وما كانوا يعملون.

وليس هذا فحسب. ولكنها خصلة أخرى في يهود، خصلة يصورها القرآن صورة تفيض بالزراية وتنضح بالتحقير والمهانة:

﴿ولتجدنَّهم أحرص الناس على حياة﴾ . . أية حياة، لا يهمهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق! حياة فقط! حياة بهذا التنكير والتحقير! حياة ديدان أو حشرات! حياة والسلام! .

إنها يهود، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء. وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة. فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس، وعَنت الجباه جبناً وحرصاً على الحياة. . أي حياة! .

يود أحدهم لو يعمر ألف سنة. ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله، ولا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة. وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقها حين تحسّ النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها، ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة..

إن الإيمان بالحياة الآخرة نِعمة. نعة يفيضها الإيمان على القلب. نعمة يهبها الله للفرد الفاني العاني. المحدود الأجل الواسع الأمل. وما يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود، إلا وحقيقة الحياة في روحه ناقصة ،و مطموسة.

فالإيمان بالآخرة ـ فوق أنه إيمان بِعَدْل الله المطلق، وجزائه الأوفى ـ هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الأرض، إنّما يتجاوزها إلى البقاء الطليق، الذي لا يعلم إلا الله مداه، وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعداً إلى جوار الله.

وهكذا يمضي القرآن في هذه المواجهة، وهذا الكشف، وهذا التوجيه.. ومن شأن هذه الخطة أن تُضعف ـ أو تُبطل ـ كيد اليهود في وسط الصف المسلم، وأن تكشف دسائسهم وأحابيلهم؛ وأن تدرك الجماعة المسلمة طريقة اليهود في العمل والكيد والادعاء، على ضوء ما وقع منهم فيّ تاريخهم القديم.

وقد خاف كل مَنْ دَعاهم رسول الله ـ ﷺ ـ إلى هذه المباهلة ونكلوا عنها، ولم يقبلوا التحدي فيها. مما يدلّ على أنهم في قرارة نفوسهم كانوا يعرفون صدق رسول الله ـ ﷺ ـ وحقيقة هذا الدين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يزيد الزرقي، حدثنا أبو يزيد، حدثنا فرات، عن عبد الكريم بن مالك الجزري، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال أبو جهل ـ لعنه الله ـ إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لو فعل لأخذته

الملائكة عياناً. ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يباهلون رسول الله - ﷺ - لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالاً»(١).

وفي القرآن الكريم جَزْم بأنهم لن يقبلوا هذه المباهلة التي دُعوا إليها، وقد نكلوا عنها لشعورهم ببطلان دعواهم. ويعقب السياق القرآني على هذا بتقرير حقيقة الموت الذي يفرون منه، وأنه ملاقيهم مهما فَرُّوا، وأنهم مردودون إلى عالم الغيب والشهادة فَمُنبئهم بما كانوا يعملون. .

وهو تقرير لا يخص اليهود وحدهم، إنما يلقيه القرآن ويدعه يفعل فعله في نفوس المؤمنين كذلك. فهذه الحقيقة لا بد أن تستقر في نفوس حملة أمانة الله في الأرض، لينهضوا بتكاليفها وهم يعرفون الطريق!.

وقد لا يكون هذه مباهلة ولكن مجرد تَحَدّ لهم، بما أنهم يزعمون أنهم أولياء لله من دون الناس. فماذا يُخيفهم إذن الموت، ويجعلهم أجبن خلق الله؟ وهم حين يموتون ينالون ما عند الله مما يلقاه الأولياء والمقربون؟!.

ثم عقب على هذا التحدي بما يفيد أنهم غير صادقين فيما يَدَّعون، وأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا بين أيديهم ما يطمئنون إليه، وما يرجون الثواب والقربى عليه، إنما قَدَّموا المعصية التي تخيفهم من الموت وما وراءه. والذي لم يُقَدّم الزاد يجفل من ارتياد الطريق:

﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين. قيل: إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم، ثم تُردون إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ [الجمعة: ٧، ٨]. .

وتقرير حقيقة الموت وما بعده، يكشف عن قلة الجدوى في فرارهم

---

(١) ورواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم.

من الموت، فهو حتم لا مهرب منه، وما بعده من رجعة إلى الله، وحساب على العمل حتم كذلك لا ريب فيه. .

وهي لفتة من اللفتات القرآنية الموحية للمخاطبين بها وغير المخاطبين. تقر في الأخلاد حقيقة ينساها الناس، وهي تلاحقهم أينما كانوا. .

فهذه الحياة إلى انتهاء. والبعد عن الله فيها ينتهي للرجعة إليه، فلا ملجأ منه إلا إليه. والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لا محالة. فلا مهرب ولا فكاك.

روى الطبري في معجمه من حديث معاذ بن محمد الهذلي، عن يونس، عن الحسن، عن سُمرة مرفوعاً: «مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب، تطلبه الأرض بِدَيْن، فجاء يسعى، حتى إذا أعيا وأنهر دخل جُحْره، فقالت له الأرض: يا ثعلب! ديْني. فخرج له حصاص. فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات».

وهي صورة متحركة موحية عميقة الإيحاء. .

وفي ظلال حقيقة الموت الجاثمة أمام الأحياء، تخفت الأنفاس، وتسكن الجوارح. ويتحدد ظل الموت ليطال كل حي، ويطوي كل حركة. . فكل شيء زائل. وكل شيء ذاهب، المال والجاه. والسلطان والقوة. والحياة والمتاع. وهذه الأرض ومَن عليها. وهذا الكون كله:

﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾. . يا للهول المرعب المزلزل. . إنه قادم لا ريب فيه. . يوم شديد. تَصوُّره فوق كل تصور. . وعذابه فوق كل احتمال. . هذا القادم القريب الذي ستلاقونه!!.

﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه، ووفيت كل نفس ما كسبت، وهم لا يظلمون؟﴾ [آل عمران: ٢٥]. .

كيف؟ إنه التهديد الرعيب الذي يشفق القلب المؤمن أن يتعرض له وهو يستشعر جدّية هذا اليوم وجدية لقاء الله، وجدية عدل الله؛ ولا يتميع تصوره وشعوره مع الأماني الباطلة والمفتريات الخادعة.. وهو بعد تهديد قائم للجميع.. مشركين وملحدين، وأهل كتاب ومُدّعي إسلام، فهم سواء في أنهم لا يُحققون في حياتهم الإسلام!.

فكيف إذا جرى العدل الإلهي مجراه؟ **﴿ووفيت كل نفس ما كسبت﴾**.. بلا ظلم ولا محاباة؟ **﴿وهم لا يظلمون﴾**.. كما أنهم لا يُحابون في حساب الله؟.

سؤال يُلْقَى ويُترك بلا جواب.. وقد اهتزّ القلب وارتجف وهو يستحضر الجواب!.

قاعدة واحدة:

ومرة أخرى يُذكّرهم الله يوم القيامة ويُحذرهم من الخسران. يناديهم ليثوبوا ويتقوا ويسلموا.. فهو يعاود تخويفهم اليوم الذي يُخاف، يوم لا يجدون من ينصرهم ويعصمهم من العذاب: **﴿واتقوا يوماً لا تَجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا يُقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل، ولا هم يُنصرون﴾** [البقرة: ٤٨]..

فالتبعة فردية، والحساب شخصي، وكل نفس مسؤولة عن نفسها، ولا تغني نفس عن نفس شيئاً.. وهذا هو المبدأ الإسلامي العظيم. مبدأ التبعة الفردية القائمة على الإرادة والتمييز من الإنسان، وعلى العدل المطلق من الله. وهو أقوم المبادىء التي تشعر الإنسان بكرامته، والتي تستجيش اليقظة الدائمة في ضميره. وكلاهما عامل من عوامل التربية، فوق أنه قيمة إنسانية تضاف إلى رصيده من القيم التي يُكرّمه بها الإسلام.

﴿ولا يُقبل منها شفاعة. ولا يُؤخذ منها عَدل ولا هم ينصرون﴾..

فلا شفاعة تنفع يومئذ مَن لم يُقدّم إيماناً وعملاً صالحاً؛ ولا فدية تؤخذ منه للتجاوز عن كفره ومعصيته؛ ولا ناصر يعصمهم من الله ويُنجيهم من عذابه.. وقد عبر هنا بالجمع باعتبار مجموع النفوس التي لا تجزي نفس منها عن نفس، ولا يُقبل منها شفاعة، ولا يُؤخذ منها عدل، وانصرف عن الخطاب في أول الآية إلى صيغة الغيبة في آخرها للتعميم. فهذا مبدأ كلي ينال المخاطبين وغير المخاطبين من الناس أجمعين..

ثم يأتي القرآن بالجواب القاطع والقول الفصل في هذه الدعوى - دعوى بني إسرائيل - في صورة كلية من كليات التصور الإسلامي، تنبع من فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان: إن الجزاء من جنس العمل، ووفق هذا العمل..

﴿بلى! من كَسَب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ [البقرة: ٨١، ٨٢]..

هنا نجد القرآن الكريم يقرر قاعدته الخلقية الواحدة، وميزانه الخلقي الواحد. ويربط نظرته هذه بالله وتقواه..

ولا بد أن نقف قليلاً أمام ذلك التصوير الفني المعجز لحالة معنوية خاصة، وأمام هذا الحكم الإلهي الجازم نكشف عن شيء من أسبابه وأسراره: الخطيئة كسب؟ إن المعنى الذهني المقصود هو اجتراح الخطيئة. ولكن التعبير يُومىء إلى حالة نفسية معروفة..

إن الذي يجترح الخطيئة إنما يجترحها عادة وهو يلتذها ويستسيغها؛ ويحسبها كسباً له - على معنى من المعاني - ولو أنها كانت كريهة في حِسّه ما اجترحها، ولو كان يحس أنها خسارة ما أقدم عليها متحمساً، وما تركها تملأ عليه نفسه، وتحيط بعالمه، لأنه خليق لو كرهها وأحس ما فيها من

خسارة أن يهرب من ظلها ـ حتى لو اندفع إلى ارتكابها ـ وأن يستغفر منها، ويلوذ إلى كنف غير كنفها. وفي هذه الحالـة لا تحيط به، ولا تمـلأ عليه عالمه، ولا تغلق عليه منافذ التوبة والتكفير. .

وفي التعبير: ﴿**وأحاطت به خطيئته**﴾. . تجسيم لهذا المعنى. وهذه خاصية من خواص التعبير القرآني، وسمة واضحة من سماته؛ تجعل له وَقْعاً في الحس يختلف عن وَقْع المعاني الذهنية المجردة، والتعبيرات الذهنية التي لا ظل لها ولا حركة. وأي تعبير ذهني عن اللجاجة في الخطيئة ما كان ليشع مثل هذا الظل الذي يصور المجترح الآثم حبيس خطيئته: يعيش في إطارها، ويتنفس في جوها، ويحيا معها ولها.

ثم يتبع هذا الشطر بالشطر المقابـل من الحكم. . ﴿**والذين آمنـوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون**﴾. .

فمن مقتضيــات الإيمــان أن ينبثق من القلب في صــورة العمــل الصالح. . وهذا ما يجب أن يدركه من يَدَّعون الإيمان. .

وما أحوجنا ـ نحن الذين نقول إنا مسلمون ـ أن نستيقن هذه الحقيقة: أن الإيمان لا يكون حتى ينبثق منه العمل الصالح. فأما الذين يقولون: إنهم مسلمون ثم يُفسدون في الأرض، ويحاربون الصلاح في حقيقته الأولى وهي إقرار منهج الله في الأرض، وشريعته في الحياة، وأخلاقـه في المجتمع، فهؤلاء ليس لهم من الإيمان شيء، وليس لهم من ثواب الله شيء، وليس لهم من عذابه واق ولو تعلقوا بأمانيّ كأمانيّ اليهود التي بَيّن الله لهم وللناس في هذا البيان.

إن الإيمـان ليس دعوى بـاللسان، ولا هيـاماً في الـوجدان، إلا أن يصاحبه طاعة الله، والسير على هداه، والـوفاء بعهـده، ومن ثم التقوى، والسعي لتحقيق منهجـه في الحياة. . فليس الأمـر مشاعـر تجيش. ولكنه طاعة لله وعمل بمنهجه. .

وهكذا تتبين القضية فليس عند الله محاباة لجنس أو قوم أو عشيرة أو أسرة أو شعب أو أمة. . وبذلك تسقط جميع الدعاوى الباطلة، وتسقط جميع الحجج الواهية. . ويرتفع ميزان الله عالياً، فالعاقبة للمتقين الذين يخشون الله، ويَرعون عهده، ويتحرجون من غضبه، ويبتغون رضاه:

﴿بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يُحب المتقين. إن الذين يَشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يُكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يُزكيهم. ولهم عذاب أليم﴾ [آل عمران: ٧٦، ٧٧]. .

فهي قاعدة واحدة من راعاها وفاء بعهد الله وشعوراً بتقواه أحبه الله وأكرمه. ومن اشترى بعهد الله وبأيمانه ثمناً قليلاً ـ من عَرض هذه الحياة الدنيا أو بالدنيا كلها وهي متاع قليل ـ فلا نصيب له في الآخرة. ولا رعاية له عند الله ولا قبول، ولا زكاة له ولا طهارة. وإنما هو العذاب الأليم.

ونلمح هنا أن الوفاء بالعهد مرتبط بالتقوى. ومن ثم لا يتغير في التعامل مع عدو أو صديق. فليس هو مسألة مصلحة. إنما هو مسألة تعامل مع الله أبداً. دونما نظر إلى من يتعامل معهم.

وهذه هي نظرية الإسلام الأخلاقية بصفة عامة. في الوفاء بالعهد وفي سواه من الأخلاق: التعامل هو أولاً تعامل مع الله، يلحظ فيه جناب الله، ويتجنب به سخطه ويطلب به رضاه. فالباعث الأخلاقي ليس هو المصلحة؛ وليس هو عرف الجماعة، ولا مقتضيات ظروفها القائمة. فإن الجماعة قد تضل وتنحرف، وتروج فيها المقاييس الباطلة. فلا بد من مقياس ثابت ترجع إليه الجماعة كما يرجع إليه الفرد على السواء. ولا بد أن يكون لهذا المقياس فوق ثباته قوة يستمدها من جهة أعلى. . أعلى من اصطلاح الناس ومن مقتضيات حياتهم المتغيرة. . ومن ثم ينبغي أن تستمد القيم والمقاييس من الله؛ بمعرفة ما يرضيه من الأخلاق والتطلع إلى رضاه والشعور بتقواه. .

بهـذا يضمن الإسلام تـطلع البشريـة الـدائم إلى أفق أعلى من الأرض؛ واستمدادها القيم والموازين من ذلك الأفق الثابت السامق الوضيء.

ثم يمضي القرآن في تفنيد دعاوى أهل الكتاب: اليهود والنصارى.. فهو يُفند دعواهم الكاذبة في أن الجنة من حقهم وحدهم.. وقولهم: إنهم هم المهتدون وحدهم! وإن الجنة وَقْف عليهم لا يدخلها سواهم!.

ويقص الله التهم المتبادلة بين فريقي أهل الكتاب إذ يقول اليهود: ليست النصـارى على شيء، وتقول النصـارى ليست اليهـود على شيء؛ وكذلك يقول المشركون عن الجميع! فكل فريق يجبه الفريق الآخر بأنهم ليسوا على شيء! ويقرر في ثنايا عرض هذه الدعاوى العريضة حقيقة الأمر، ويقول كلمة الفصل في العمل والجزاء:

﴿وقـالوا: لن يـدخل الجنـة إلا من كـان هـوداً أو نصـارى. تلك أمانيهم﴾ [البقرة: ١١١]..

والذين كانوا يواجهون المسلمين في المدينة كانوا هم اليهود؛ إذ لم تكن هناك كتلة من النصارى تقف مواقف اليهود. ولكن النص هنا عام يواجه مقولات هؤلاء وهؤلاء. ثم يجبه هؤلاء بهؤلاء! ويحكي رأي المشركين في الطائفتين جميعاً!.

فالقرآن يقص حكاية قوليهم مزدوجة. وإلا فقد كانت اليهود تقول: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ـ أي من يهود ـ وكانت النصارى تقول: لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى..

وهذه القولة كتلك، لا تستند إلى دليل، سوى الادعاء العريض! ومن ثم يلقن الله رسوله ـ ﷺ ـ أن يجبههم بالتحدي وأن يطالبهم بالدليل: **﴿قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾** [البقرة: ١١١].

وهنا يقرر قاعدة من قواعد التصوير الإسلامي في ترتيب الجزاء على

العمل بلا محاباة لأمة ولا لطائفة ولا لفرد. إنما هو الإسلام والإحسان، لا الاسم والعنوان: **﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن، فله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** [البقرة: ١١٢]. .

ومن قبل قرر هذه القاعدة في العقاب رداً على قولهم: **﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾**. . فقال: **﴿بلى! من كسب سيئة وأحاطت به خطيئة فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**. .

إنها قاعدة واحدة بطرفيها في العقوبة والمثوبة. طرفيها المتقابلين: **﴿من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته﴾**. . فهو حبيس هذه الخطيئة المحيطة، في معزل عن كل شيء وعن كل شعور وعن كل وجهة إلا وجهة الخطيئة. . و **﴿من أسلم وجهه لله وهو محسن﴾**. . فأخلص ذاته كلها لله، وَوَجّه مشاعره كلها إليه، وخلص لله في مقابل خلوص الآخر للخطيئة. .

وسمة الإسلام الأولى: إسلام الوجه ـ والوجه رمز على الكل ـ ولفظ أسلم ـ يعني الاستسلام والتسليم ـ. الاستسلام المعنوي والتسليم العملي. ومع هذا فلا بد من الدليل الظاهر على هذا الاستسلام **﴿وهو محسن﴾**. . فسمة الإسلام هي الوحدة بين الشعور والسلوك، بين العقيدة والعمل، بين الإيمان القلبي والإحسان العملي. . بذلك تستحيل العقيدة منهجاً للحياة كلها؛ وبذلك تتوحد الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها؛ وبذلك يستحق المؤمن هذا العطاء كله:

﴿فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. .

الأجر المضمون لا يضيع «عند ربهم». . والأمن الموفور لا يساوره خوف، والسرور الفائض لا يمسه حزن. . وتلك هي قاعدة واحدة هي القاعدة العامة التي يستوي عندها الناس جميعاً. فلا محسوبية عند الله سبحانه ولا محاباة!.

ولقد كانوا ـ يهوداً أو نصارى ـ يطلقون تلك الدعوى العريضة، بينما يقول كل منهما عن الفريق الآخر إنه ليس على شيء: وبينما كان المشركون يجبهون الفريقين بالقولة ذاتها: ﴿**وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ـ وهم يتلون الكتاب ـ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم**﴾ [البقرة: ١١٣]..

والذين لا يعلمون هم الأميون العرب الذي لم يكن لهم كتاب؛ وكانوا يرون ما عليه اليهود والنصارى من الفرقة ومن التقاذف بالاتهام، ومن التمسك بخرافات وأساطير لا ترتفع كثيراً على خرافات العرب وأساطيرهم في الشرك ونسبة الأبناء ـ أو البنات ـ لله ـ سبحانه ـ؛ فكانوا يزهدون في دين اليهود ودين النصارى ويقولون: إنهم ليسوا على شيء!.

والقرآن يسجل على الجميع ما يقوله بعضهم في بعض؛ عقب تفنيد دعوى النصارى واليهود في ملكية الجنة! ثم يدع أمر الخلاف بينهم إلى الله:

﴿**فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ [البقرة: ١١٣]..

فهو الحكم العدل، وإليه تصير الأمور. وهذه الإحالة إلى حكم الله هي وحدها المجدية في مواجهة قوم لا يستمدون من منطق، ولا يعتمدون على دليل، بعد دحض دعواهم العريضة في أنهم وحدهم أهل الجنة، وأنهم وحدهم المهديون!.

تحذيـر وتنويـر:

لقد مضى القرآن الكريم وهو يُحدّث الجماعة المسلمة عن حال اليهود ومواقفهم، التي يتجلى فيها الكفر والفسوق، والعصيان والالتواء، والانحراف، والنكول عن العهد والميثاق. ويواجه اليهود بهذه المواقف على مشهد من المسلمين.. فقد تجرأوا بسوء تصورهم على الله، وقالوا ما قالوه

من أقبح وأشنع كلمات.. ثم امتد فسوقهم وكفرهم فاعتدوا على أنبيائهم بالقتل والتعذيب.. واحتالوا على ربهم، وبدّلوا كتاب الله الذي أنزله إليهم، وحَرّفوا نصوصه، ولوّوا كلماته وألفاظه بما يخدم أهواءهم الهابطة المنتكسة..

لقد زاغوا شوطاً بعيداً في غياهب الظلم والعدوان، فأزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وانطمست معالم الحق في وجدانهم وفطرتهم، وضلوا عن سبيل الرشاد.. لقد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم فهي كالحجارة الصلدة التي لا تنبض فيها حياة.. وهذه الطبيعة الجاسية المنحرفة هي سمة القوم.. وفي ظل هذا التصوير، وظل هذا الإيحاء، يلتفت القرآن إلى المؤمنين، الذين يطمعون في هداية بني إسرائيل، ويحاولون أن يبثوا في قلوبهم الإيمان، وأن يفيضوا عليها النور.. يلتفت إلى أولئك المؤمنين بسؤال يوحي باليأس من المحاولة، وبالقنوط من الطمع:

﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم؟ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون؟**﴾ [البقرة: ٧٥]..

ألا إنه لا مطمع ولا رجاء في أن يؤمن أمثال هؤلاء. فللإيمان طبيعة أخرى، واستعداد آخر..

إن الطبيعة المؤمنة سمحة هينة لينة، مفتحة المنافذ للأضواء، مستعدة للاتصال بالنبع الأزلي الخالد بما فيه من نداوة ولين وصفاء.. وبما فيها من حساسية وتحرج وتقوى. هذه التقوى التي تمنعها أن تسمع كلام الله ثم تُحرّفه من بعد تعقله. تحرفه عن علم وإصرار. فالطبيعة المؤمنة طبيعة مستقيمة، تتحرج من هذا التحريف والالتواء.

والفريق المشار إليه هنا هو أعلم اليهود وأعرفهم بالحقيقة المنزلة عليهم في كتابهم هم الأحبار والربانيون، الذين يسمعون كلام الله المنزل على نبيهم موسى في التوراة ثم يُحرفونه عن مواضعه، ويؤولونه التأويلات

البعيدة التي تخرج به عن دائرته. لا عن جهل بحقيقة مواضعه، ولكن عن عمد للتحريف، وعلم بهذا التحريف. يدفعهم الهوى، وتقودهم المصلحة، ويحدوهم الغرض المريض! فمن باب أولى ينحرفون عن الحق الذي جاء به محمد - ﷺ - وقد انحرفوا عن الحق الذي جاء به نبيهم موسى - عليه السلام - ومن باب أولى - وهذا خراب ذممهم، وهذا إصرارهم على الباطل وهم يعلمون بطلانه - أن يعارضوا دعوة الإسلام، ويروغوا منها ويختلقوا عليها الأكاذيب!.

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم؟ أفلا تعقلون؟﴾ [البقرة: ٧٦]..

أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، وهم يُضيفون إلى خراب الذمة، وكتمان الحق، وتحريف الكَلِمَ عن مواضعه.. الرياء والنفاق والخداع والمراوغة؟ وقد كان بعضهم إذا لقوا المؤمنين قالوا: آمنا.. أي آمنا بأن محمداً مرسل؛ بحكم ما عندهم في التوراة من البشارة به، وبحكم أنهم كانوا ينتظرون بعثته، ويطلبون أن ينصرهم الله به على من عداهم. وهو معنى قوله: **﴿وكان من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾**.. ولكن: **﴿إذا خلا بعضهم إلى بعض﴾**.. عاتبوهم على ما أفضوا للمسلمين من صحة رسالة محمد - ﷺ - ومن معرفتهم بحقيقة بعثته من كتابهم، فقال بعضهم لبعض: **﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم﴾**.. فتكون لهم الحجة عليكم؟..

وهنا تدركهم طبيعتهم المحجبة عن معرفة صفة الله وحقيقة علمه؛ فيتصورون أن الله لا يأخذ عليهم الحجة إلا أن يقولوها بأفواههم فيا للسخرية من العقل والتعقل الذي يتحدثون عنه مثل هذا الحديث!!.

ومن ثم يعجب القرآن من تصورهم هذا قبل أن يمضي في استعراض

ما يُبيتون وما يُخفون: ﴿**أَوَ لا يعلمون أن الله يعلم ما يُسرُّون وما يعلنون؟**﴾ [البقرة: ٧٧].

وهكذا يكشف القرآن عن سلوك أهل الكتاب من انحراف، ويبين لما في جدالهم من مغالطة، ويفضح لما يريدونه بالمسلمين من سوء. ومن ثم يجيء التحذير للجماعة المسلمة من أن تتخذ من أعدائها الطبيعيين بطانة، وأن تجعل منهم أمناء على أسرارها ومصالحها، وهم للذين آمنوا عدو..

يجيء هذا التحذير في صورة شاملة خالدة، ما نزال نرى مصداقها في كل وقت، وفي كل أرض. صورة رسمها هذا القرآن الحي، فغفل عنها أهل هذا القرآن. فأصابهم من غفلتهم وما يزال يصيبهم الشر والأذى والمهانة:

﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خَبالاً. ودُّوا ما عَنِتُّم. قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر. قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم، وتؤمنون بالكتاب كله، وإذا لقوكم قالوا: آمنا، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ. قل: موتوا بغيظكم، إن الله عليم بذات الصدور..**﴾ [آل عمران: ١١٨ ـ ١١٩]..

إنها صورة كاملة السمات، ناطقة بدخائل النفوس، وشواهد الملامح، تسجل المشاعر الباطنة، والانفعالات الظاهرة، والحركة الذاهبة الآيبة. وتسجل بذلك كله نموذجاً بشرياً مكروراً في كل زمان وفي كل مكان. ونستعرضها اليوم وغداً فيمن حول الجماعة المسلمة من أعداء. يتظاهرون للمسلمين ـ في ساعة قوة المسلمين وغلبتهم ـ بالمودة. فتكذبهم كل خالجة وكل جارحة..

وينخدع المسلمون بهم فيمنحونهم الودّ والثقة، وهم لا يريدون للمسلمين إلا الاضطراب والخبال، ولا يقصرون في إعنات المسلمين ونثر الشوك في طريقهم، والكيد لهم والدس، ما واتَتْهم الفرصة في ليل أو نهار.

وما من شك أن هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم هذا الرسم العجيب، كانت تنطبق ابتداء على أهل الكتاب ـ اليهود ـ المجاورين للمسلمين في المدينة؛ وترسم صورة قوية للغيظ الكظيم الذي كانوا يضمرونه للإسلام والمسلمين، وللشر المُبَيّت، وللنوايا السيئة التي تجيش في صدورهم؛ في الوقت الذي كان بعض المسلمين ما يزال مخدوعاً في أعداء الله هؤلاء، وما يزال يفضي إليهم بالمودة، وما يزال يأمنهم على أسرار الجماعة المسلمة؛ ويتخذ منهم بطانة وأصحاباً وأصدقاء، لا يَخشىٰ مغبة الإفضاء إليهم بدخائل الأسرار.. فجاء هذا التنوير، وهذا التحذير، يُبصّر الجماعة المسلمة بحقيقة الأمر، ويُوعّيها لكيد أعدائها الطبيعيين، الذين لا يخلصون لها أبداً، ولا تغسل أحقادهم مودة من المسلمين وصحبتهم.

ولم يجيء هذا التنوير وهذا التحذير ليكون مقصوراً على فترة تاريخية معينة، فهو حقيقة دائمة، تواجه واقعاً دائماً. كما نرى مصداق هذا فيما بين أيدينا من حاضر مكشوف مشهود...

والمسلمون في غفلة عن أمر ربهم: أَلَّا يتخذوا بِطانة من دونهم. بِطانة من ناس هم دونهم في الحقيقة والمنهج والوسيلة. وألا يجعلوهم موضع الثقة والسرّ والاستشارة.. المسلمون في غفلة عن أمر ربهم هذا يتخذون من أمثال هؤلاء مرجعاً في كل أمر، وكل شأن، وكل وضع، وكل نظام، وكل تَصَوُّر، وكل منهج، وكل طريق!.

والمسلمون في غفلة من تحذير الله لهم، يوادُّون من حاد الله ورسوله؛ ويفتحون لهم صدورهم وقلوبهم. والله سبحانه يقول للجماعة المسلمة الأولى كما يقول للجماعة المسلمة في أي جيل: **﴿ودُّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾** [آل عمران: ١١٨].

والله سبحانه يقول: **﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم**، وتؤمنون

بالكتاب كله، وإذا لقوكم قالوا: آمنا، وإذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ [آل عمران: ١١٩]..

والله سبحانه يقول: **﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾** [آل عمران: ١٢٠]..

ومرة بعد مرة تصفعنا التجارب المُرّة، ولكننا لا نفيق.. ومرة بعد مرة نكشف عن المكيدة والمؤامرة تلبس أزياء مختلفة ولكننا لا نعتبر. ومرة بعد مرة تنفلت ألسنتهم فَتَنمّ عن أحقادهم التي لا يذهب بها ودّ يبذله المسلمون، ولا تغسلها سماحة يعلمها لهم الدين.. ومع ذلك نعود، فنفتح لهم قلوبنا ونتخذ منهم رفقاء في الحياة والطريق!...

وتبلغ بنا المجاملة، أو تبلغ بنا الهزيمة الروحية أن نجاملهم في عقيدتنا فنتحاشى ذكرها، وفي منهج حياتنا فلا نقيمه على أساس الإسلام، وفي تزوير تاريخنا وطمس معالمه كي نتقي أي صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربصين! ومن ثم يحل علينا جزاء المخالفين عن أمر الله: ومن هنا نذل ونضعف ونستخذي. ومن هنا نَلْقىٰ العنت الذي يودّه أعداؤنا لنا، ونَلْقىٰ الخبال الذي يدسونه في صفوفنا..

وها هو ذا كتاب الله يُعلّمنا ـ كما عَلّم الجماعة المسلمة الأولى ـ كيف نتقي كيدهم، وندفع أذاهم، وننجو من الشر الذي تكنّه صدورهم، ويفلت على ألسنتهم منه شواظ: **﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً. إن الله بما يعملون محيط﴾** [آل عمران: ١٢٠]..

فهو الصبر والعزم والصمود أمام قوتهم إن كانوا أقوياء؛ وأمام مكرهم وكيدهم إن سلكوا طريق الوقيعة والخداع..

الصبر والتماسك لا الانهيار والتخاذل؛ ولا التنازل عن العقيدة كلها أو بعضها اتقاء لشرهم المتوقع أو كسباً لودهم المدخول..

ثم هو التقوى: الخوف من الله وحده. ومراقبته وحده.. هو تقوى الله التي تربط القلوب بالله، فلا تلتقي مع أحد إلا في منهجه، ولا تعتصم بحبل إلا حبله.. وحين يتصل القلب بالله فإنه سيحقر كل قوة غير قوته؛ وستشد هذه الرابطة من عزيمته، فلا يستسلم من قريب، ولا يوادّ من حادّ الله ورسوله، طلباً للنجاة أو كسباً للعزة!.

هذا هو الطرِيق: الصبر والتقوى.. التماسك والاعتصام بحبل الله. وما استمسك المسلمون في تاريخهم كله بعروة الله وحدها، وحققوا منهج الله في حياتهم كلها.. إلا عَـزُّوا وانتصروا، ووقاهم الله كيد أعدائهم، وكانت كلمتهم هي العليا.

وما استمسك المسلمون في تاريخهم كله بعروة أعدائهم الطبيعيين، الذين يحاربون عقيدتهم ومنهجهم سراً وجهراً، واستمعوا إلى مشورتهم، واتخذوا منهم بطانة وأصدقاء وأعواناً وخبراء ومستشارين.. إلا كتب الله عليهم الهزيمة، ومَكَّن لأعدائهم فيهم، وأَذَلّ رقابهم، وأذاقهم وبال أمرهم..

والتاريخ كله شاهد على أن كلمة الله خالدة؛ وأن سنة الله نافذة. فمن عمي عن سنة الله المشهودة في الأرض، فلن ترى عيناه إلا آيات الذلّة والانكسار والهوان.

ويحسن قبل أن ننهي هذا البيان أن نقرر حقيقة أخرى، عن سماحة الإسلام في وجه كل هذا العداء. فهو يأمر المسلمين ألا يتخذوابطانة من هؤلاء. ولكنه لا يحرضهم على مقابلة الغل والحقد والكراهية والدسّ والمكر بمثلها. إنما هي مجرد الوقاية للجماعة المسلمة وللصف المسلم، وللكينونة المسلمة.. مجرد الوقاية ومجرد التنبيه إلى الخطر الذي يحيطها به الآخرون.. أما المسلم فَبِسَماحة الإسلام يتعامل مع الناس جميعاً، وبنظافة الإسلام يعامل الناس جميعاً؛ وبمحبة الخير الشامل يَلْقَىٰ الناس جميعاً؛

يتقي الكيد ولكنه لا يكيد، ويحذر الحقد ولكنه لا يحقد. إلا أن يُحارَب في دينه، وأن يفتن في عقيدته، وأن يصدّ عن سبيل الله ومنهجه. فحينئذ هو مطالب أن يحارب، وأن يمنع الفتنة، وأن يُزيل العقبات التي تصدّ الناس عن سبيل الله، وعن تحقيق منهجه في الحياة. يُحارب جهاداً في سبيل الله لا انتقاماً لذاته. وحباً لخير البشر لا حقداً على الذين آذوه. وتحطيماً للحواجز الحائلة دون إيصال هذا الخير للناس. لا حباً للغلب والاستعلاء والاستغلال.. وإقامة للنظام القويم الذي يستمتع الجميع في ظلّه بالعدل والسلام. لا لتركيز راية قومية ولا لبناء إمبراطورية!.

ويمضي القرآن الكريم في كشف خباياهم وحركتهم الخائنة الجافية:

﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم﴾..

وهو خطاب للرسول - ﷺ - يصور حال يهود في المجتمع المسلم في المدينة. فهم لا يكفون عن محاولة خيانة رسول الله - ﷺ - وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة. بل كانت هذه هي حالهم طوال إقامتهم معه في المدينة - ثم في الجزيرة كلها - وما تزال هذه حالهم في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ. على الرغم من أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد الذي آواهم، ورفع عنهم الاضطهاد، وعاملهم بالحسنى، ومَكّن لهم من الحياة الرغيدة فيه. ولكنهم كانوا دائماً - كما كانوا على عهد الرسول - عقارب وحيات وثعالب وذئاباً تضمر المكر والخيانة، ولا تني تمكر وتغدر. إن أعوزتهم القدرة على التنكيل الظاهر بالمسلمين نصبوا لهم الشباك وأقاموا لهم المصائد، وتآمروا مع كل عدو لهم، حتى تحين الفرصة، فينقضوا عليهم، قساة جفاة لا يرحمونهم، ولا يرعون فيهم إلاًّ ولا ذِمّة. أكثرهم كذلك.. كما وصفهم الله - سبحانه - في كتابه، وكما أنبأنا عن جبلتهم التي أورثها إياهم نقضهم لميثاق الله من قديم.

والتعبير القرآني الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول الله - ﷺ - في المدينة، تعبير طريف:

﴿ولا تـزال تطلع على خـائنـة منهم إلا قليـلاً منهم. فـاعف عنهم واصفح، إن الله يُحب المحسنين﴾ [المائدة: ١٣]..

الفعلة الخائنة، والنية الخائنة، والكلمة الخائنة، والنظرة الخائنة.. يجملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة.. «خائنة».. لتبقى الخيانة وحدها مجردة، تملأ الجو، وتلقي ظلالها وحدها على القوم.. فهـذا هو جوهر جبلتهم، وهذا هو جوهر موقفهم، مع الرسول - ﷺ - ومع الجماعـة المسلمة..

إن هذا القرآن هو مُعَلِّم هذه الأمة ومرشدها ورائدها وحادي طريقها على طول الطريق. وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها، وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله. ولو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها، وتسمع توجيهاته، وتقيم قواعده وتشريعاته في حياتها، ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها في يوم من الأيام.. ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها؛ وحين اتخذت القرآن مهجوراً - وإن كانت ما تزال تتخذ منه ترانيم مطربة، وتعاويذ ورقى وأدعية! - أصابها ما أصابها.

ولقد كان الله - سبحانه - يقص عليها ما وقع لبني إسرائيل من اللعن والطرد وقسوة القلب وتحـريف الكلم عن مواضعـه، حين نقضوا ميثـاقهم مع الله، لتحذر أن تنقض هي ميثاقها مع الله، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد، ناقض للعقد.. فلما غفلت عن هذا التحذير، وسارت في طريق غير الطريق، نزع الله منها قيادة البشرية؛ وتركها هكذا ذيلاً في القافلة! حتى تثوب إلى ربها؛ وحتى تستمسك بعهدها، وحتى تُوَفِّي بعقدها. فيفي الله بوعده من التميكن في الأرض ومن القيادة للبشر والشهادة على الناس.. وإلا بقيت هكذا ذيلاً للقافلة.. وَعْد الله لا يخلف الله وَعْدَه...

وما تزال الأمة المسلمة تعاني من دسائس اليهـود ومكرهم مـا عانـاه أسلافها من هذا المكر ومن تلك الدسائس؛ غير أن الأمة المسلمة لا تَنْتَفِع

ـ مع الأسف ـ بتلك التوجيهات القرآنية، وبهذا الهدى الإلهي، الذي انتفع به أسلافها، فغلبوا كيد اليهود ومكرهم في المدينة، والدين ناشىء، والجماعة المسلمة وليدة. .

وما يزال اليهود ـ بلؤمهم ومكرهم ـ يُضَلِّلون هذه الأمة عن دينها، ويصرفونها عن قرآنها، كي لا تأخذ منه أسلحتها الماضية، وعدّتها الواقية. وهم آمنون ما انصرفت هذه الأمة عن موارد قوتها الحقيقية، وينابيع معرفتها الصافية. .

وكل من يُصْرِف هذه الأمة عن دينها وعن قرآنها فإنما هو من عملاء يهود؛ سواء عرف أم لم يعرف، أراد أم لم يرد، فسيظل اليهود في مأمن من هذه الأمة ما دامت مصروفة عن الحقيقة الواحدة المفردة التي تستمد منها وجودها وقوتها وغلبتها ـ حقيقة العقيدة الإيمانية والمنهج الإيماني والشريعة الإيمانية ـ فهذا هو الطريق. وهذه هي معالم الطريق:

﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله، ثم يُحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون؟ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم؟ أفلا تعقلون؟ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون؟**﴾ [البقرة: ٧٥ ـ ٧٧]. .

كانت صورة الجفاف والقسوة والجدب هي التي صَوَّر الله بها قلوب بني إسرائيل كما سبق بيانه. صورة الحجارة الصلدة التي لا تنض منها قطرة، ولا يلين لها مَمَسّ، ولا تنبض فيها حياة. . وهي صورة توحي باليأس من هذه الطبيعة الجاسية الجامدة الخاوية. .

﴿**ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم**﴾. .

ولقد كان توجيه الله لنبيه ﷺ في ذلك الحين الذي نزلت فيه هذه الآية: ﴿**فاعفُ عنهم واصفح، إن الله يحب المحسنين**﴾ [المائدة: ١٣]،

والعفو عن قبائحهم إحسان، والصفح عن خيانتهم إحسان.

ولكن جاء الوقت الذي لم يعد فيه للعفو والصفح مكان. فأمر الله نبيه - ﷺ - أن يُجليهم عن المدينة. ثم أن يأمر بإجلائهم عن الجزيرة كلها. وقد كان..

اعتراضات زائفة وحجة باطلة:

ويُتابع القرآن دروسه، ويواجه كيد اليهود ودسَّهم للجماعة المسلمة في المدينة، وطبيعة بني إسرائيل..

لقد كان اليهود يَتصيَّدون كل حُجّة، وكل شُبهة، وكل حيلة، لينفذوا منها إلى الطعن في صحة الرسالة المحمدية، وإلى بَلْبَلة الأفكار وإشاعة الاضطراب في العقول والقلوب.. فلما قال القرآن: إنه مُصدِّق لما في التوراة بَرزوا يقولون: فما بالُ القرآن يُحلِّل من الأطعمة ما حرَّم على بني إسرائيل؟ وتذكر الروايات أنهم ذكروا بالذات لحوم الإبل وألبانها.. وهي محرمة على بني إسرائيل. وهناك مُحرمات أخرى كذلك أحلَّها الله للمسلمين.

والقرآن يُقرر رداً على اعتراض بني إسرائيل على إباحته لبعض المحرمات اليهودية من الطعام:

﴿كُلُّ الطعام كان حِلاً لبني إسرائيل - إلا ما حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنزَّل التوراة - قل: فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ [آل عمران: ٩٣ - ٩٤]..

وهنا يَردّهم القرآن إلى الحقيقة التاريخية التي يتجاهلونها للتشكيك في صحة ما جاء في القرآن من أنه مُصدّق للتوراة، وأنه مع هذا أحل للمسلمين بعض ما كان محرماً على بني إسرائيل.. هذه الحقيقة هي أن كل

الطعام كان حِلاً لبني إسرائيل ـ إلا ما حَرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنزَّل التوراة ـ وإسرائيل هو يعقوب ـ عليه السلام ـ وتقول الروايات: إنه مرض مَرَضاً شديداً، فَنذر الله لئن عافاه ليمتنعن ـ تطوعاً ـ عن لحوم الإبل وألبانها وكانت أحب شيء إلى نفسه. فقَبِلَ الله منه نَذره.

وجرت سُنة بني إسرائيل على اِتّباع أَبيهم في تحريم ما حَرَّم..

ولقد حاول اليهود جدالاً كثيراً حول ما أُحلَّه القرآن وما حرّمه.. فقد كانت هُناك محرمات على اليهود خاصة، وأُحلَّها الله للمسلمين. حرمها على بني إسرائيل عُقوبة لهم على معصيات ارتكبوها.. عقوبة خاصة لليهود على ظلمهم وبُعدهم عن شرع الله!.

فقد حرَّم الله على اليهود كل ذي ظُفر من الحيوان ـ أي كل حيوان قدمه غير مشقوقة، وذلك كالإبل والنعام والأوز والبط. وحَرم كذلك شحم البقر والغنم ـ إلا شحم الظهر، أو الدهن الملتف بالأمعاء، أو ما اختلط منه بالعظم.. وكان ذلك عُقوبة لهم على بغيهم بتجاوز أوامر الله وشرائعه: **﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظُفر. ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما ـ إلا ما حملت ظهورهما أو الحَوايا أو ما اختلط بعظم ـ ذلك جزيناهم ببغيهم، وإنا لصادقون﴾** [الأنعام: ١٤٦]..

وكانت هذه المطاعم قبل هذا التحريم حلالاً لبني إسرائيل..

يردهم الله ـ سبحانه ـ إلى هذه الحقيقة، ليبين أن الأصل في هذه المطاعم هو الحل، وأنها حُرمت عليهم لملابسات خاصة بهم. فإذا أحلّها للمسلمين فهذا هو الأصل الذي لا يُثير الاعتراض، ولا الشك في صحة هذا القرآن، وهذه هي الشريعة الأخيرة.

والنصّ يُبين سبب هذا التحريم، وهو سبب خاص باليهود، ويُؤكد أن هذا هو الصدق، لا مايقولونه هم من أن إسرائيل ـ عليه السلام ـ جَدّهم، هو

الذي حرّم هذا على نفسه فهم يتبعونه فيما حرّم على نفسه.

لقد كان هذا مباحاً حلالاً لنبي الله إسرائيل. ولكنه حُرّم عليهم بعدما بَغوا، فجازاهم الله بهذا الحرمان من الطيبات..

﴿فإن كذَّبوك فقل: ربكم ذو رحمة واسعة، ولا يُردُّ بأسه عن القوم المجرمين﴾ [الأنعام: ١٤٧]..

فقل: ربكم ذو رحمة واسعة بنا، وبمن كان مؤمناً من عباده، وبغيرهم من خلقه. فرحمته ـ سبحانه ـ تَسَع المُحسن والمُسيء، وهو لا يُعَجِّل على من استحق العقاب؛ حلماً منه ورحمة. فإن بعضهم قد يثوب إلى الله.. ولكن بأسه شديد لا يردّه عن المجرمين إلا حلمه، وما قَدَّره من إمهالهم إلى أجل مرسوم.

وهذا القول فيه من الإطماع في الرحمة بقدر ما فيه من الإرهاب بالبأس. والله الذي خَلَق قلوب البشر، يُخاطبها بهذا وذاك، لعلها تهتز وتتلقى وتستجيب.

ويتحدى القرآن بني إسرائيل أن يرجعوا إلى التوراة، وأن يأتوا بها ليقرأوها، وسيجدون فيها أن أسباب التحريم خاصة بهم، وليست عامة: **﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾** [آل عمران: ٩٣]..

ثم يُهدد من يفتري الكذب منهم على الله بأنه ظالم، لا ينصف الحقيقة، ولا ينصف نفسه، ولا ينصف الناس..

﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ [آل عمران: ٩٤]..

وعقاب الظالم معروف، فيكفي أن يوصموا بهذه الوصمة، ليتقرر نوع العذاب الذي ينتظرهم. وهم يفترون الكذب على الله. وهم إليه راجعون..

﴿فبظلم من الذين هادوا حَرَّمنا عليهم طَيِّباتٍ أُحلَّت لهم. وبِصَدّهم عن سبيل الله كثيراً. وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه. وأَكْلِهم أموال الناس بالباطل. وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾ [النساء: ١٦٠ ـ ١٦١]..

وهكذا يضيف القرآن الكريم إلى ما سبق من مناكرهم هذه المنكرات الكبيرة: الظلم، والصد الكثير عن سبيل الله. فهم مُمعِنون فيه ودائبون عليه. وأخذهم الربا ـ لا عن جهل ولا عن قلة تنبيه ـ فقد نُهوا عنه فأصرُّوا عليه! وأَكْلِهم أموال الناس بالباطل بالربا وبغيره من الوسائل.

بسبب من هذه المنكرات، ومما أسلفه القرآن منها.. حُرِّمت عليهم طيبات كانت حلالاً لهم، وأعدَّ الله للكافرين منهم عذاباً أليماً..

لقد جادلوا طويلاً في مطاعم حرَّمها الله عليهم عقوبة لهم، بينما كانت مُباحة للمسلمين. وكذلك رُوي أنهم جادلوا في المحرمات التي حرّمها الله على المسلمين[1] مع أنها محرمة عليهم في التوراة.. وكان الهدف دائماً هو التشكيك في صحة الأوامر القرآنية وصدق الوحي بها من الله.

وهكذا تتكشف هذه الحملة عن كشف طبيعة اليهود وتاريخهم؛ وفضح تعلاتهم وعدم الاستجابة للرسول وتعنتهم؛ ودمغهم بالتعنت مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم؛ ويُسر ارتكابهم للمنكر وجهرهم بالسوء في حق الأنبياء والصالحين. بل قتلهم والتبجح بقتلهم!.

---

(١) لقد بين الله ـ سبحانه ـ المحرمات من المآكل نصاً وتحديداً باستعمال أداة القصر «إنما»:
﴿إنما حَرَّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلَّ به لغير الله. فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه. إن الله غفور رحيم﴾ [البقرة: ١٧٣].
وقد حرم الله على المسلمين من الخبائث، بينما حرم على اليهود من الطيبات بسبب ظلمهم. جعل هذا التحريم عقوبة لهم على عصيانهم ولم يكن محرماً على آبائهم في عهد إبراهيم الذي كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فكانت حلالاً له الطيبات ولبنيه من بعده، حتى حرّم الله بعضها على اليهود في صورة عقوبة لهم خاصة، ومن تاب بعد جهالته فالله غفور رحيم..

وتسقط بذلك وتتهاوى دسائس اليهود في الصف المسلم وكيدهم ومكرهم وحبائلهم. وتعرف الجماعة المسلمة ـ ما ينبغي أن تعرفه الأمة المسلمة في كل حين ـ عن طبيعة اليهود وجبلتهم، ووسائلهم وطرائقهم؛ ومدى وقوفهم للحق في ذاته سواء جاء من غيرهم أو نبع فيهم. فهم أعداء للحق وأهله، وللهدى وحملته. في كل أجيالهم وفي كل أزمانهم. مع أصدقائهم ومع أعدائهم.. لأن جبلتهم عدوة للحق في ذاته؛ جاسية قلوبهم، غليظة أكبادهم لا يحنون رؤوسهم إلا للمطرقة! ولا يسلمون للحق إلا وسيف القوة مُصَلّت على رقابهم..

وما كان هذا التعريف بهذا الصنف من الخلق، لِيَقْصر على الجماعة المسلمة الأولى في المدينة. فالقرآن هو كتاب هذه الأمة ما عاشت، فإذا استَفْتَتْه عن أعدائها أفتاها، وإذا استنصحته في أمرهم نصح لها؛ وإذا استرشدت به أرشدها. وقد أفتاها ونصح لها وأرشدها في شأن يهود، فدانت لها رقابهم.. ثم لما اتخذته مهجوراً دانت هي لليهود، كما رأيناها تتجمع فتغلبها منهم الشرذمة الصغيرة، وهي غافلة عن كتابها.. القرآن.. شاردة عن هَديه، مُلقية به وراءها ظهرياً! متبعة قول فلان وفلان!! وستبقى كذلك غارقة في كيد يهود وقهر يهود، حتى تثوب إلى القرآن..

قصة واهية وحجة فارغة:

ويتابع القرآن مواجهة بني إسرائيل، أولئك الذين قاوموا الدعوة الإسلامية بمكر وخبث عميق، وحماقة مكشوفة، وغيظ لئيم، وحقد دفين.. يمضي القرآن الكريم بتلقين جديد من الله لرسوله ـ ﷺ ـ يتحداهم به، ويعلن الحقيقة التي يضمنها على رؤوس الأشهاد في مواجهة قصة فارغة من أي منطق عاقل:

﴿قل: من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله، مصدقاً لما

بين يديه، وهُدى وبُشرى للمؤمنين. مَن كان عدواً لله وملائكته ورُسله وجبريل وميكال، فإن الله عدو للكافرين﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٨]..

وفي قصة هذا التحدي نطلع على سمة أخرى من سمات يهود. سمة عجيبة حقاً.. لقد بلغ هؤلاء القوم من الحنق والغيظ من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده مبلغاً يتجاوز كل حد، وقادهم هذا إلى تناقض لا يستقيم في عقل..

لقد سمعوا أن جبريل ينزل بالوحي من عند الله على محمد - ﷺ - ولما كان عداؤهم لمحمد قد بلغ مرتبة الحقد والحنق فقد لجَّ بهم الضغن أن يخترعوا قصة واهية وحجة فارغة، فيزعموا أن جبريل عدوهم، لأنه ينزل بالهلاك والدمار والعذاب؛ وأن هذا هو الذي يمنعهم من الإيمان بمحمد من جراء صاحبه جبريل! ولو كان الذي ينزل إليه بالوحي هو ميكائيل لآمنوا، فميكائيل يتنزّل بالرخاء والمطر والخصب!.

إنها الحماقة المضحكة، ولكن الغيظ والحقد يسوقان إلى كل حماقة. وإلا فما بالهم يعادون جبريل؟ وجبريل لم يكن بَشراً يعمل معهم أو ضدهم، ولم يكن يعمل بتصميم من عنده وتدبير؟ إنما هو عبد الله يفعل ما يأمره ولا يعصي الله ما أمره!.

فما كان له من هوى شخصي، ولا إرادة ذاتية، في أن يُنزله على قلبك، إنما هو مُنفِّذ لإرادة الله وإذنه في تنزيل هذا القرآن على قلبك..

والقلب هو موضع التلقي، وهو الذي يفقه بعد التلقي، ويستقر هذا الكتاب فيه ويحفظ.. والقلب يعبر به في القرآن عن قوة الإدراك جُملة وليس هو العضلة المعروفة بطبيعة الحال.

نَـزَّلـه على قلبـك.. **﴿مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين﴾**..

والقرآن يصدق في عمومه ما سبقه من الكتب السماوية، فأساس دين الله واحد في جميع الكتب السماوية وجميع الديانات الالهية.. وهو هدى وبشرى للقلوب المؤمنة، التي تتفتح له وتستجيب.. وهذه حقيقة ينبغي إبرازها...

إن نصوص القرآن لتسكب في قلب المؤمن من الإيناس، وتفتح له من أبواب المعرفة، وتفيض فيه من الإيحاءات والمشاعر ما لا يكون بغير الإيمان. ومن ثم يجد فيه الهدى، كما يستروح فيه البشرى. وكذلك نجد القرآن يكرر هذه الحقيقة في مناسبات شتى.. ﴿**هدى للمتقين**﴾.. ﴿**هدى لقوم يؤمنون**﴾.. ﴿**هدى لقوم يوقنون**﴾.. ﴿**شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾.. فالهدى ثمرة الإيمان والتقوى واليقين..

وبنو إسرائيل لم يكونوا يؤمنون أو يتقون أو يوقنون!.

وكانوا - كعادتهم في تفريق الدين وتفريق الرسل - قد فرقوا بين ملائكة الله الذين يسمعون أسماءهم وأعمالهم، فقالوا: إنهم على صداقة مع ميكائيل أما مع جبريل فلا! لذلك جمعت الآية التالية جبريل وميكائل وملائكة الله ورسله، لبيان وحدة الجميع، ولإعلان أن من عادى أحداً منهم فقد عاداهم جميعاً، وعادى الله - سبحانه - فعاداه الله. فهو من الكافرين..

﴿**من كان عدواً لله وملائكته ورسله، وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين**﴾..

ثم يتجه بالخطاب إلى الرسول - ﷺ - يُثبته على ما أنزل عليه من الحق، وما آتاه الله من الآيات البينات، مقرراً أنه لا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون المنحرفون.. ويندد ببني إسرائيل الذين لا يستقيمون على عهد. سواء عهودهم مع ربهم وأنبيائهم من قبل، أو عهودهم مع رسول الله - ﷺ - كما يندد بنبذهم لكتاب الله الذي جاء مصدقاً لما معهم:

﴿**ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون، أو كلما**

عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم؟ بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ [البقرة: ٩٩، ١٠٠]..

لقد كشف القرآن عن علة كفر بني إسرائيل.. إنه الفسوق وانحراف الفطرة، فالطبيعة المستقيمة لا يسعها إلا الإيمان بتلك الآيات. وهي تفرض نفسها فرضاً على القلب المستقيم. فإذا كفر بها اليهود ـ أو غيرهم ـ فليس هذا لأنه لا مُقنع فيها ولا حجة، ولكن لأنهم هم فاسدو الفطرة فاسقون.

ثم يلتفت إلى المسلمين ـ وإلى الناس عامة ـ منددا بهؤلاء اليهود، كاشفاً عن سمة من سماتهم الوبيئة.. إنهم جماعة مفككة الأهواء ـ رغم تعصبها الذميم ـ فهم لا يجتمعون على رأي، ولا يثبتون على عهد، ولا يستمسكون بعروة. ومع أنهم متعصبون لأنفسهم وجنسهم، يكرهون أن يمنح الله شيئاً من فضله لسواهم، إلا أنهم ـ مع هذا ـ لا يستمسكون بوحدة، ولا يحفظ بعضهم عهد بعض، وما من عهد يقطعونه على أنفسهم حتى تندّ منهم فرقة فتنقض ما أبرموا، وتخرج على ما أجمعوا:

﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم؟ بل أكثرهم لا يؤمنون﴾..

وقد أخلفوا ميثاقهم مع الله تحت الجبل، ونبذوا عهودهم مع أنبيائهم من بعد، وأخيراً نبذ فريق منهم عهدهم الذي أبرموه مع النبي ـ ﷺ ـ أول مقدمه إلى المدينة؛ وهو العهد الذي وادعهم فيه بشروط معينة، بينما كانوا هم أول من أعان عليه أعداءه؛ وأول من عاب دينه، وحاول بث الفرقة والفتنة في الصف المسلم، مخالفين ما عاهدوا المسلمين عليه..

وبئس هي من خلة في اليهود! تقابلها في المسلمين خلة أخرى على النقيض، يعلنها رسول الله ـ ﷺ ـ في قوله: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم»(١).. يسعى بذمتهم أدناهم،

---

(١) رواه الإمام أحمد.

فلا يخيس أحد بعهده إذا عاهد، ولا ينقض أحد عقده إذا أبرم، ولقد كتب أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ وهو قائد لجيش عمر ـ رضي الله عنه ـ وهو الخليفة يقول: إن عبداً من أهل بلد العراق. وسَأَلَه رَأْيه. فكتب إليه عمر: إن الله عظيم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا.. فوفوا لهم وانصرفوا عنهم..

وهذه سمة الجماعة الكريمة المتماسكة المستقيمة. وذلك فرق ما بين أخلاق اليهود الفاسقين وأخلاق المسلمين الصادقين.

﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ [البقرة: ١٠١]..

وكان هذا مظهراً من مظاهر نقض فريق لكل عهدٍ يعاهدونه. فلقد كان ضمن الميثاق الذي أخذه الله عليهم، أن يؤمنوا بكل رسول يبعثه، وأن ينصروه ويحترموه. فلما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، خاسوا بذلك العهد، ونبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم، يستوي في هذا النبذ كتاب الله الذي معهم، والذي يتضمن البشرى بهذا النبي وقد نبذوه، والكتاب الجديد مع النبي الجديد وقد نبذوه أيضاً!.

وفي الآية ما فيها من سخرية خفية، يحملها ذلك النص على أن الذين أوتوا الكتاب هم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. فلو كانوا هم المشركين الأميين لكان نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم مفهوماً! ولكنهم هم الذين أوتوا الكتاب. هم الذين عرفوا الرسالات والرسل. هم الذين اتصلوا بالهدى ورأوا النور.. وماذا صنعوا؟.

إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم! والمقصود طبعاً أنهم جحدوه وتركوا العمل به، وأنهم أبعدوه عن مجال تفكيرهم وحياتهم. ولكن التعبير المُصور ينقل المعنى من دائرة الذهن إلى دائرة الحسّ؛ ويُمثل عملهم

بحركة مادية مُتَخَيلة، تُصَوِّر هذا التصرف تَصويراً بَشِعاً، زرياً، ينضح بالكنود والجحود، ويتسم بالغلظة والحماقة، ويفيض بسوء الأدب والقحّة؛ ويَدَع الخيال يَتَملَّى هذه الحركة العنيفة. حركة الأيدي تنبذ كتاب الله وراء الظهور..

بين السحر والكفر:

ثم ماذا؟ ماذا بعد أن نبذوا كتاب الله المصدق لما معهم؟؟ ألعلهم قد لاذوا بما هو خير منه؟ ألعلهم قد لجأوا إلى حقّ لا شُبهة فيه؟ أَلَعلّهم قد استمسكوا بكتابهم الذي جاء القرآن يصدقه؟ كلا.. لا شيء من هذا كله.. إنهم نَبَذوا كتاب الله وراء ظهورهم ليجروا خلف أساطير غامضة لا تستند إلى حقيقة ثابتة.

﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سليمان، وما كَفَر سليمان، ولكن الشياطين كفروا. يُعلِّمون الناس السحر..﴾ [البقرة: ١٠٢]..

لقد تركوا ما أنزل الله مصدقاً لما معهم؛ وراحوا يَتَتَبَّعُون ما يَقصّه الشياطين عن عهد سليمان، وما يُضلِّلون به الناس من دعاوى مكذوبة عن سليمان، إذ يقولون: إنَّه كان ساحراً، وإنه سَخَّر ما سَخّر عن طريق السحر الذي كان يعلمه ويستخدمه.

والقرآن ينفي عن سليمان ـ عليه السلام ـ أنه كان ساحراً، فيقول: **﴿وما كفر سليمان﴾**.

فكأنه يَعدّ السحر واستخدامه كفراً ينفيه عن سليمان ـ عليه السلام ـ ويُثبته للشياطين: **﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾**..

ثم ينفي أن السحر مُنزّل من عند الله على الملكين: هاروت وماروت. اللذين كان مقرهما بابل: **﴿وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾**..

ويبدو أنه كانت هناك قصة معروفة عنهما، وكان اليهود أو الشياطين يَدّعون أنهما كانا يعرفان السحر ويُعلمانه للناس، ويزعمان أن هذا السحر أُنزل عليهما! فنفى القرآن هذه الفرية أيضاً. فرية تنزيل السحر على الملكين.

ثم يبين الحقيقة، وهي أن هذين الملكين كانا هناك فتنة وابتلاء للناس لحكمة مُغَيَّبة. وأنهما كانا يقولان لكل من يجيء إليهما، طالباً منهما أن يُعلِّماه السحر: **﴿وما يُعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾** [البقرة: ١٠٢]..

ومرة أخرى نجد القرآن يعتبر السحر وتَعلّمه واستخدامه كفراً؛ ويذكر هذا على لسان المَلَكين: هاروت وماروت.

وقد كان بعض الناس يُصرّ على تعلم السحر منهما، على الرغم من تحذيره وتبصيره. وعندئذ تحقّ الفتنة على بعض المفتونين:

﴿فيتعلَّمون منهما ما يُفرقون به بين المرء وزوجه﴾.. وهو الأذى والشر الذي حذَّرهم منه الملكان..

وهنا يبادر القرآن فيقرر كلية التصور الأساسية، وهي أنه لا يقع شيء في هذا الوجود إلا بإذن الله:

﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ [البقرة: ١٠٢].

فبإذن الله تفعل الأسباب فعلها وتنشىء آثارها وتحقق نتائجها.. وهذه قاعدة كلية في التصور لا بد من وضوحها في ضمير المؤمن تماماً.

وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل هذا المقام، أنك إذا عرضت يدك للنار فإنها تحترق. ولكن هذا الاحتراق لا يكون إلا بإذن الله. فالله هو الذي أودع النار خاصية الحَرق وأودع يدك خاصية الاحتراق بها. وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها؛ كما وقع لإبراهيم

ـ عليه السلام ـ وكذلك هذا السحر الذي يُفرقون به بين المرء وزوجه، يُنشىء هذا الأثر بإذن الله. وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية فيه حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها.. وهكذا بقية ما نتعارف عليه بأنه مؤثرات وآثار. كل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله، فهو يعمل بهذا الإذن، ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين يشاء.

ثم يقرر القرآن حقيقة ما يتعلمون، وما يفرقون به بين المرء وزوجه.. إنه شرٌّ عليهم هم أنفسهم لا خير: ﴿**ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم**﴾.. ويكفي أن يكون هذا الشر هو الكفر ليكون ضَرّاً خالصاً لا نفع فيه!.

﴿**ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خَلاق**﴾ [البقرة: ١٠٢]..

ولقد علموا أن الذي يشتريه لا نصيب له في الآخرة، فهو حين يختاره ويشتريه يفقد كل رصيد له في الآخرة وكل نصيب..

فما أسوأ ما باعوا به أنفسهم لو كانوا يعلمون حقيقة الصفقة: ﴿**ولبئس ما شَرَوا به أنفسهم لو كانوا يعلمون**﴾ [البقرة: ١٠٢].. ﴿**ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون**﴾ [البقرة: ١٠٣].

وينطبق هذا القول على الذين كانوا يتعلمون السحر من الملكين ببابل، وعلى الذين يتبعون ما تقصه الشياطين عن عهد سليمان ومُلْكه، وهم اليهود الذين ينبذون كتاب الله وراءهم ظهرياً، ويتبعون هذا الباطل وهذا الشر الذميم.

وبعد فلا بد من كلمة هنا عن السحر، وعما يفرق بين المرء وزوجه، مما كان أولئك اليهود يَجْرُون خلفه، ويتركون كتاب الله وراء ظهورهم من أجله..

إنه ما يزال مشاهداً في كل وقت أن بعض الناس يملكون خصائص لم

يكشف العلم عن كُنهها بعد. لقد سُمِّي بعضها بأسماء ولكنه لم يُحدَّد كُنهها ولا طرائقها!.. هذا «التليباني» ـ التخاطر عن بعد ـ ما هو؟ وكيف يتم؟ كيف يملك إنسان أن يدعو إنساناً على أبعاد وفواصل لا يصل إليها صوت الإنسان في العادة ولا بصره، فيتلقى عنه، دون أن تقف بينهما الفواصل والأبعاد؟.

وهذا التنويم المغناطيسي ما هو وكيف يتم؟ كيف يقع أن تسيطر إرادة على إرادة، وأن يتصل فكر بفكر، فإذا أحدهما يوحي إلى الآخر، وإذا أحدهما يتلقى عن الآخر، كأنما يقرأ من كتاب مفتوح؟.

إن كل ما استطاع العلم أن يقوله إلى اليوم في هذه القوى التي اعترف بها، هو أن أعطاها أسماء! ولكنه لم يقل: ما هي؟ ولم يقل قط كيف تتم؟.

وثمة أمور كثيرة أخرى يُماري فيها العلم. إما لأنه لم يجمع منها مشاهدات كافية للاعتراف بها، وإما لأنه لم يهتد إلى وسيلة تُدخلها في نطاق تجاربه.. هذه الأحلام التنبئية ـ وفرويد الذي يحاول إنكار كل قوة روحية لم يستطع إنكار وجودها ـ كيف أرى رؤيا عن مستقبل مجهول، ثم إذا هذه النبوءة تصدق في الواقع بعد حين؟ وهذه الأحاسيس الخفية التي ليس لها اسم بعد. كيف أحس أن أمراً ما سيحدث بعد قليل أو أن شخصاً ما قادم بعد قليل، ثم يحدث ما توقعت على نحو من الأنحاء!.

إنه من المكابرة في الواقع أن يقف إنسان لينفي ببساطة مثل هذه القوى المجهولة في الكائن البشري، لمجرد أن العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة يُجَرّب بها هذه القوى.

وليس معنى هذا هو التسليم بكل خرافة، والجري وراء كل أسطورة.. إنما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنساني أمام هذه المجاهيل موقفاً مرناً.. لا يَنفي على الإطلاق ولا يُثبت على الإطلاق، حتى يتمكن بوسائله المتاحة له بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن

عن إدراكه؛ أو يُسَلِّم بأن في الأمر شيئاً فوق طاقته، ويعرف حدوده، ويحسب للمجهول في هذا الكون حسابه. .

السحر من قبيل هذه الأمور. وتعليم الشياطين للناس من قبيل هذه الأمور. وقد تكون صورة من صوره: القُدرة على الإيحاء والتأثير، إما في الحواس والأفكار، وإما في الأشياء والأجسام. . وإن كان السحر الذي ذكر القرآن وقوعه من سَحَرة فرعون كان مُجرّد تَخَيّل لا حقيقة له: ﴿**يُخيل إليه من سحرهم أنها تسعى**﴾ [طه: ٦٦]. . ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه، وبين الصديق وصديقه. فالانفعالات تنشأ من التأثرات. وإن كانت الوسائل والآثار، والأسباب والمسببات، لا تقع كلها إلا بإذن الله، على النحو الذي أسلفنا.

أما مَن هما الملكان: هاروت وماروت؟ ومتى كانا ببابل؟ فإن قصتهما كانت متعارفة بين اليهود. بدليل أنهم لم يُكَذّبوا هذه الإشارة ولم يعترضوا عليها. وقد وردت في القرآن الكريم إشارات مجملة لبعض الأحداث التي كانت معروفة عند المخاطبين بها؛ وكان في ذلك الإجمال كفاية لأداء الغَرَض، ولم يكن هناك ما يدعو إلى تفصيل أكثر. لأن هذا التفصيل ليس هو المقصود.

ولا نحب أن نجري نحن ـ في هذا الكتاب ـ خلف الأساطير الكثيرة التي وردت حول قصة المَلَكين. فليست هناك رواية واحدة مُحَقَّقة يوثق بها.

ولقد مضى في تاريخ البشرية من الآيات والابتلاءات ما يناسب حالتها وإدراكها في كل طور من أطوارها. فإذا جاء الاختيار في صورة مَلَكين ـ أو في صورة رَجلين طيبين كالملائكة ـ فليس هذا غريباً ولا شاذاً بالقياس إلى شتى الصور وشتى الابتلاءات الخارقة، التي مرت بها البشرية، وهي تحبو، وهي تخطو، وهي تقفو أشعة الشعلة الإلهية المنيرة في غياهب الليل البهيم!.

والمفهومات الواضحة المحكمة في هذه الآيات تُغني عن السعي وراء المُتَشَابه فيها بالقياس إلينا بعد ذلك الزمن المديد. وحسبنا أن نعلم منها ضلال بني إسرائيل في جَريهم وراء الأساطير. ونَبْذهم كتاب الله المُستيَقن، وأن نعرف أن السحر من عمل الشيطان؛ وأنه من ثم كُفر يُدَان به الإنسان[1]، ويفقد به في الآخرة كل نصيب وكل رصيد.

---

(١) قال الإمام الذهبي: «الساحر لا بد وأن يكفر. قال الله تعالى: **﴿ولكن الشياطين كفروا يُعلمون الناس السحر﴾** وما للشيطان الملعون غرض في تعليمه الإنسان السحر إلا ليشرك به... فترى خلقاً كثيراً من الضلال يدخلون في السحر ويظنونه حراماً فقط. وما يشعرون أنه الكفر..

وحَدّ الساحر: القتل، لأنه كفر بالله أو مضارع الكفر. قال النبي ـ ﷺ ـ: «اجتنبوا السبع الموبقات» فذكر منها السحر. والموبقات المهلكات، فليتق العبد ربه ولا يدخل فيما يخسر به الدنيا والآخرة، وجاء عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «حدّ الساحر ضربه بالسيف» (رواه الترمذي). والصحيح أنه من قول جندب.

وعن بجالة بن عبدة أنه قال: أتانا كتاب عمر ـ رضي الله عنه ـ قبل موته بسنة أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. (رواه البخاري).

وعن وهب بن منبه قال: قرأت في بعض الكتب: يقول الله عز وجل: لا إله إلا أنا ليس مني من سَحَر ولا من سُحر له، ولا من تكهن ولا من تكهن له، ولا من تطيّر ولا من تطيِّر له.

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن خمر، وقاطع رحم، ومصدق بالسحر». (رواه الإمام أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه، وأبو يعلى، والحاكم وصححه).

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً قال: «الرقى والتمائم والتولة شرك» (رواه أحمد وأبو داود، وابن حبان والحاكم وصححاه) انظر الترغيب والترهيب.

التمائم: جمع تميمة، وهي خرزات وحروز يعلقها الجهال على أنفسهم وأولادهم ودوابهم يزعمون أنها ترد العين، وهذا من فعل الجاهلية، ومن اعتقد ذلك فقد أشرك.

والتولة: بكسر التاء وفتح الواو: نوع السحر. وهو تحبيب المرأة إلى زوجها، وجعل ذلك من الشرك لاعتقاد الجهال أن ذلك يؤثر بخلاف ما قدَّر الله تعالى. قال الخطابي رحمه الله: وأما الرقية بالقرآن. أو بأسماء الله تعالى فهي مباحة، لأن النبي ـ ﷺ ـ كان يُرقي الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ فيقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان =

الدسـائـس اليهوديـة:

أ ـ حَمْلة التشكيك والتضليل الماكرة:

ويمضي القـرآن في كشف دسائس اليهـود وكيـدهم لـلإسـلام والمسلمين، وتحذير الجمـاعة المسلمـة من ألاعيبهم وحيلهم، وما تُكِنُّـه نفوسهم من الحقد والشر، وما يُبيتون لهم من الكيد والضر، ونهى الجماعة المسلمة عن التَشَبُّه بهؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب في قول أو فعل؛ ويكشف للمسلمين عن الأسباب الحقيقية الـدفينة التي تكمن وراء أقـوال اليهود وأفعالهم، وكيدهم ودسّهم، وألاعيبهم وفتنهم، التي يطلقـونها في الصف الإسلامي.

ويتجه الخطاب في القرآن الكريم إلى «الذين آمنوا» يناديهم بالصفة التي تُميزهم، والتي تربطهم بربهم ونبيهم، والتي تستجيش في نفـوسهم الاستجابة والتلبية.. ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا: راعِنا وقولوا انظرنا. واسمعوا. وللكافرين عذاب أليم**﴾ [البقرة: ١٠٤]..

وبصفة الإيمان ينهاهم أن يقولوا للنبي ـ ﷺ ـ: ﴿**راعنا**﴾ ـ من الرعاية والنظر ـ وأن يقولـوا بدلاً منهـا مرادفهـا في اللغة العـربية: ﴿**انـظرنا**﴾.. ويأمرهم بالسمع بمعنى الطاعة، ويُحذِّرهم من مَصير الكافرين وهو العذاب الأليم..

وتذكر الروايات أن السبب في ذلك النهي عن كلمة: ﴿**راعِنا**﴾.. أن سُفهاء اليهود كانوا يميلون ألسنتهم في نطق هذا اللفظ، وهم يُوجهونه للنبي ـ ﷺ ـ حتى يُؤَدي معنى آخر مُشتقاً من الرعـونة. فقـد كانـوا يخشون أن يشتموا النبي ـ ﷺ ـ مواجهـة، فيحتالـون على سَبّه ـ صلوات الله وسـلامه

= بهامة ومن كل عين لامّة». وبـالله المستعان وعليه التكلان». [كتـاب الكبائـر ـ الكبيرة الثالثة].

عليه ـ عن هذا الطريق الملتوي، الذي لا يسلكه إلا صغار السفهاء!.

ومن ثم جاء النهي للمؤمنين عن اللفظ الذي يتخذه اليهود ذريعة، وأُمروا أن يستبدلوا به مرادفه في المعنى، الذي لا يملك السفهاء تحريفه وإمالته، كي يُفوِّتوا على اليهود غَرَضَهم الصغير السفيه!.

واستخدام مثل هذه الوسيلة من اليهود يشي بمدى غيظهم وحقدهم، كما يشي بسوء الأدب، وخسّة الوسيلة، وانحطاط السلوك. والنهي الوارد بهذه المناسبة يوحي برعاية الله لنبيه وللجماعة المسلمة، ودفاعه ـ سبحانه ـ عن أوليائه، بإزاء كل كيد وكل قصد شرير من أعدائهم الماكرين.

ثم يكشف للمسلمين عما تُكِنّه لهم صدور اليهود حولهم من الشر والعداء، وعما تَنْغل به قلوبهم من الحقد والحسد، بسبب ما اختصهم به الله من الفضل. لِيَحْذَروا أعداءهم، ويستمسكوا بما يحسدهم هؤلاء الأعداء عليه من الإيمان، ويشكروا فضل الله عليهم ويحفظوه:

﴿ما يَوَدّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنَزَّل عليكم من خير من ربكم. والله يختص برحمته من يشاء. والله ذو الفضل العظيم﴾ [البقرة: ١٠٥]..

ويجمع القرآن بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر.. وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة فهما على قَدَم سواء من هذه الناحية؛ وكلاهما يضمر للمؤمنين الحقد والضغائن، ولا يودّ لهم الخير. وأعظم ما يكرهونه للمؤمنين هو هذا الدين. هو أن يختارهم الله لهذا الخير وينزل عليهم هذا القرآن، ويحبوهم بهذه النعمة، ويعهد إليهم بأمانة العقيدة في الأرض، وهي الأمانة الكبرى في الوجود.

ولقد سبق الحديث عن حقدهم وغيظهم من أن يُنزل الله من فضله على من يشاء من عباده، حتى لقد بلغ بهم الغيظ أن يعلنوا عداءهم لجبريل

ـ عليه السلام ـ إذ كان يَنزل بالوَحْي على الرسول ـ ﷺ ـ: **﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾** . .

فالله أعلم حيث يجعل رسالته، فإذا اختص بها محمداً ـ ﷺ ـ والمؤمنين به، فقد علم ـ سبحانه ـ أنه وأنهم أهل لهذا الاختصاص.

وليس أعظم من نِعمة النبوة والرسالة، وليس أعظم من نعمة الإيمان والدعوة إليه: **﴿والله ذو الفضل العظيم﴾** . .

وفي هذا التلميح ما يستجيش في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل، وفي التقرير الذي سبقه عما يضمره الذين كفروا للذين آمنوا ما يستجيش الشعور بالحذَر والحرص الشديد. . وهذا الشعور وذاك ضروريان للوقوف في وجه حَملة البَلْبَلة والتشكيك التي قادها ـ ويقودها ـ اليهود، لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين، وهي الخير الضخم الذي ينفسونه على المسلمين!.

واشتدت حملة اليهود عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة بعد ستة عشر شهراً من الهجرة. وكان النبي ـ ﷺ ـ قد اتجه بالصلاة ـ عقب الهجرة ـ إلى بيت المقدس ـ قِبْلة اليهود ومُصَلّاهم ـ فاتخذ اليهود من هذا التَوَجُّه حجة على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة، مما جعل الرسول ـ ﷺ ـ يرغب ولا يُصرّح في التَحوُّل عن بيت المقدس، إلى الكعبة، بيت الله المُحرّم.

وظلت هذه الرغبة تعتمل في نفسه حتى استجاب له ربه فَوَجَّهه إلى القبلة التي يرضاها ـ كما سيأتي ـ ونظراً لما يحمله هذا التحول من دحض لحجة بني إسرائيل فقد عزّ عليهم أن يفقدوا مثل هذه الحجة، فشنوها حملة دعاية ماكرة في وسط المسلمين، بالتشكيك في مصدر الأوامر التي يُكلّفهم بها رسول الله ـ ﷺ ـ وفي صحة تَلَقّيه عن الوحي . .

أي إنهم ما وَجَّهُوا المِعْول إلى أساس العقيدة في نفوس المسلمين! ثم قالوا لهم: إن كان التوجه إلى بيت المقدس باطلاً فقد ضاعت صلاتكم وعبادتكم طوال هذه الفترة. وإن كان صحيحاً ففيم التحول عنه؟.

أي إنهم وَجَّهُوا المِعْول إلى أساس الثقة في نفوس المسلمين برصيدهم من ثواب الله، وقبل كل شيء في حكمة القيادة النبوية!.

ويبدو أن هذه الحملة الخبيثة الماكرة آتت ثمرتها الكريهة في بعض نفوس المسلمين. فأخذوا يسألون الرسول - ﷺ - في قَلَق وزعزعة؛ ويطلبون البراهين والأدلة، الأمر الذي لا يتفق مع الطمأنينة المطلقة إلى القيادة، والثقة المطلقة بمصدر العقيدة. فَنَزل القرآن يُبين لهم أن نَسْخ بعض الأوامر والآيات يتبع حكمة الله الذي يختار الأحسن لعباده؛ ويعلم ما يصلح لهم في كل موقف. ويُنَبّههم في الوقت ذاته إلى أن هدف اليهود هو رَدّهم كُفاراً بعد إيمانهم؛ حَسداً من عند أنفسهم على اختيار الله لهم، واختصاصهم برحمته وفضله، بتنزيل الكتاب الأخير عليهم، وانتدابهم لهذا الأمر العظيم. ويكشف لهم ما وراء أضاليل اليهود من غَرَض دفين!.

لقد كانت الحملة - كما أسلفنا - تتعلق بنسخ بعض الأوامر والتكاليف. وبخاصة عند تحويل القبلة إلى الكعبة. الأمر الذي أبطل حجتهم على المسلمين: ﴿ما نَنْسخ من آية أو نُنْسِها نَأْتِ بخير منها أو مثلها﴾ [البقرة: ١٠٦]..

وسواء كانت المناسبة هي مناسبة تحويل القبلة - كما يدل سياق هذه الآيات وما بعدها في سورة البقرة - أم كانت مناسبة أخرى من تعديل بعض الأوامر والتشريعات والتكاليف، التي كانت تُتابع نمو الجماعة المسلمة، وأحوالها المتطورة. أم كانت خاصة بتعديل بعض الأحكام التي وردت في التوراة مع تصديق القرآن في عمومه للتوراة..

سواء كانت هذه أم هذه، أم هي جميعاً المناسبة التي اتخذها

اليهود ذريعة للتشكيك في صلب العقيدة.. فإن القرآن يُبين هنا بياناً حاسماً في شأن النسخ والتعديل؛ وفي القضاء على تلك الشُّبهات التي أثارتها يهود، على عادتها وخطتها في محاربة هذه العقيدة بشتى الأساليب.

فالتعديل الجزئي وفق مقتضيات الأحوال ـ في فترة الرسالة ـ هو لصالح البشرية، ولتحقيق خير أكبر تقتضيه أطوار حياتها. والله خالق الناس، ومرسل الرسل، ومنزل الآيات، هو الذي يقدر هذا. فإذا نسخ آية ألقاها في عالم النسيان ـ سواء كانت آية مقروءة تشتمل حُكماً من الأحكام، أو آية بمعنى علامة وخارقة تجيء لمناسبة حاضرة وتُطوى كالمعجزات المادية التي جاء بها الرسل ـ فإنه يأتي بخير منها أو مثلها! ولا يعجزه شيء، وهو مالك كل شيء، وصاحب الأمر كله في السموات وفي الأرض.. ومن ثم تجيء هذه التعقيبات: **﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير؟ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض؟ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾** [البقرة: ١٠٦ ـ ١٠٧].

والخطاب هنا للمؤمنين يحمل رائحة التحذير، ورائحة التذكير بأن الله هو وليهم وناصرهم وليس لهم من دونه ولي ولا نصير..

ولعل هذا كان بسبب انخداع بعضهم بحملة اليهود التضليلية؛ وبَلْبلة أفكارهم بحججهم الخادعة؛ وإقدامهم على توجيه أسئلة للرسول ـ ﷺ ـ لا تتفق مع الثقة واليقين. يدل على هذا ما جاء في الآية التالية من صريح التحذير والاستنكار:

﴿أم تُريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئِلَ موسى من قَبل؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾ [البقرة: ١٠٨]..

فهو استنكار لِتَشَبُّه بعض المؤمنين بقوم موسى في تعنتهم، وطلبهم للبراهين والخوارق، وإعناتهم لرسولهم كلما أَمَرهم بِأَمْر أو أبلغهم بتكليف، على نحو ما حكى القرآن الكريم عنهم في مواضع كثيرة..

وهو تحذير لهم من نهاية هذا الطريق، وهي الضلال، واستبدال الكفر بالإيمان، وهي النهاية التي صار إليها بنو إسرائيل. كما أنها هي النهاية التي يتمنى اليهود لو قادوا إليها المسلمين!.

﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ [البقرة: ١٠٩]..

وذلك ما يفعله الحقد اللئيم بالنفوس.. الرغبة في سلب الخير الذي يهتدي إليه الآخرون.. لماذا؟.

لا، لأن هذه النفوس الشريرة لا تعلم. ولكنها لأنها تعلم! **﴿حَسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾**..

والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الإسلام والمسلمين، وما زالت تفيض، وهو الذي انبعثت منه دسائسهم وتدبيراتهم كلها وما تزال. وهو الذي يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه، ويعرفوا أنه السبب الكامن وراء كل جهود اليهود لزعزعة العقيدة في نفوسهم؛ وردّهم بعد ذلك إلى الكفر الذي كانوا فيه، والذي أنقذهم الله منه بالإيمان، وخصهم بهذا بأعظم الفضل وأجلّ النعمة التي تحسدهم عليها يهود!.

وهنا ـ في اللحظة التي تتجلى فيها هذه الحقيقة، وتنكشف فيها النية السيئة والحسد اللئيم ـ هنا يدعو القرآن المؤمنين إلى الارتفاع عن مقابلة الحقد بالحقد، والشرّ بالشر، ويدعوهم إلى الصفح والعفو حتى يأتي الله بأمره، وقتما يريد:

﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره. إن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة: ١٠٩]..

وامضوا في طريقكم التي اختارها الله لكم، واعبدوا ربكم وادّخروا عنده حسناتكم..

وهكذا.. يوقظ القرآن وَعْيَ الجماعة المسلمة ويركزه على مصدر الخطر، ومكمن الدسيسة؛ ويُعبىء مشاعر المسلمين تجاه النوايا السيئة والكيد اللئيم والحسد الذميم.. ثم يأخذهم بهذه الطاقة المعبأة المشحونة كلها إلى جناب الله، ينتظرون أمره، ويُعلّقون تصرفهم بإذنه.. وإلى أن يحين هذا الأمر يدعوهم إلى العفو والسماحة، لينقذ قلوبهم من نَتَن الحقد والضغينة. ويَدَعَها طَيّبة في انتظار الأمر من صاحب الأمر والمشيئة..

ثم يعود القرآن إلى ترذيل محاولات اليهود تشكيك المسلمين في صحة الأوامر والتبليغات النبوية ـ وبخاصة ما يتعلق منها بتحويل القبلة ـ ويعدها سعياً في منع ذكر الله في مساجده، وعملاً على خرابها:

﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى في خرابها؟ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين. لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم. ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فَثَمّ وجه الله، إن الله واسع عليم﴾ [البقرة: ١١٤، ١١٥]..

وأقرب ما يتوارد إلى الخاطر أن هاتين الآيتين تتعلقان بمسألة تحويل القبلة؛ وسعي اليهود لصد المسلمين عن التوجه إلى الكعبة.. أَوّلَ بيت وُضِعَ للناس وأول قبلة.. وهناك روايات متعددة عن أسباب نزولهما غير هذا الوجه..

وعلى أية حال فإن إطلاق النص يوحي بأنه حكم عام في منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه، والسعي في خرابها. كذلك الحكم الذي يرتبه على هذه الفعلة، ويقرر أنه هو وحده الذي يليق أن يكون جزاء لفاعليها. وهو قوله: **﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾**.. أي أنهم يستحقون الدفع والمطاردة والحرمان من الأمن، إلا أن يلجأوا إلى بيوت الله مُستجيرين محتمين بحرمتها مستأمنين (وذلك كالذي حدث في عام الفتح بعد ذلك إذ نادى منادي رسول الله ـ ﷺ ـ يوم الفتح: من دخل

المسجد الحرام فهو آمن.. فلجأ إليها المستأمنون من جبابرة قريش، بعد أن كانوا هم الذين يصدون رسول الله ـ ﷺ ـ ومن معه ويمنعونهم زيارة المسجد الحرام).

ويزيد على هذا الحكم ما يتوعدهم به من خزي في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة: **﴿لهم في الدنيا خزي، ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾**..

وهناك تفسير آخر لقوله: **﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾**.. أي أنه ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا في خوف من الله وخشوع لجلالته في بيوته. فهذا هو الأدب اللائق ببيوت الله، المناسب لمهابته وجلالته العظيم.. وهو وجه من التأويل جائز في هذا المقام. والذي يجعلنا نرجح أن الآيتين نزلتا في مناسبة تحويل القبلة، هو الآية الثانية منهما:

﴿ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله، إن الله واسع عليم﴾..

فهي توحي بأنها جاءت رداً على تضليل اليهود في ادعائهم أن صلاة المسلمين إذن إلى بيت المقدس كانت باطلة، وضائعة ولا حساب لها عند الله! والآية تَردّ عليهم هذا الزعم، وهي تُقرر أن كل اتجاه قبلة، فثمّ وجه الله حيثما تَوَجَّه إليه عابد، وإنما تخصيص قِبلة معينة هو توجيه من عند الله فيه طاعة، لا أن وَجْه الله ـ سبحانه ـ في جهة دون جهة. والله لا يُضيّق على عباده. ولا ينقصهم ثوابهم. وهو عليم بقلوبهم ونياتهم ودوافع اتجاهاتهم. وفي الأمر سعة. والنية لله **﴿إن الله واسع عليم﴾**..

إن القرآن الكريم يَفضح مقولات اليهود، ويُفند أباطيلهم، ويَكشف الدوافع الكامنة وراء أضاليلهم، ويكشف لرسول الله ـ ﷺ ـ عن حقيقة المعركة بينه وبين اليهود والنصارى، وطبيعة الخلاف الذي لا حلّ له إلا

بثمن لا يملكه ولا يستطيعه! ولو أداه لتعرض لغضب الله مولاه؛ وحاشاه!.

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تَتَبِـع مِلَّتهم. قل: إن هدى الله هو الهدى..﴾ [البقرة: ١٢٠]..

وسيظل اليهود والنصارى يُحاربونك، ويكيدون لك، ولا يُسالمونك ولا يَرضون عنك، إلا أن تحيد عن هذا الأمر، وإلا أن تترك هذا الحق، وإلا أن تتخلى عن هذا اليقين، تتخلى عنه إلى ما هم فيه من ضلال وشرك وسوء تصور كالذي سبق بيانه:

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾..

فتلك هي العلة الأصيلة. ليس الـذي ينقصهم هو البـرهان؛ وليس الذي ينقصهم هو الاقتنـاع بأنـك على الحق، وأن الذي جـاءك من ربك الحق. ولـو قَدَّمت إليهم مـا قدمت، ولـو توددت إليهم مـا تـوددت.. لن يرضيهم من هذا كله شيء، إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق.

إنها العقيدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان ومكان.. إنها هي العقيدة. هذه حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة.. إنها معركة العقيدة هي المشبوبة بين المعسكر الإسلامي وهذين المعسكرين اللذين يتخاصمان فيما بينهما؛ وقد تتخاصم شيع المِلّة الواحدة فيما بينها، ولكنها تلتقي دائماً في المعركة ضد الإسلام والمسلمين!.

إنها معركـة العقيدة في صميمهـا وحقيقتها. ولكن المعسكـرين في العداوة للإسلام والمسلمين يُلَوّنانها بألـوان شتى، ويرفعـان عليها أعـلاماً شتى، في خبث ومكر وتورية. إنهم قد جربوا حماسة المسلمين لـدينهم وعقيـدتهم حين واجهوهم تحت رايـة العقيـدة. ومن ثم استـدار الأعـداء العريقون فَغَيَّروا أعلام المعركة.. لم يعلنوها حـرباً بـاسم العقيدة ـ على

حقيقتها ـ خوفاً من حماسة العقيدة وجيشانها. إنما أعلنوها باسم الأرض، والاقتصاد، والسياسة، والمراكـز العسكريـة.. وما إليهـا. وألقوا في رَوع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها! ولا يجوز رفع راياتها، وخوض المعركة باسمها، فهذه سمة المتخلفين المتعصبين! ذلك كي يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها.. بينما هم في قرارة نفوسهم: الصهيونية العالمية والصليبية العالمية يخوضون المعركة أولاً وقبل كـل شيء لتحطيم هـذه الصخرة العـاتية التي نـطحوهـا طويـلاً، فَأَدْمَتْهم جميعاً!!.

إنها معركة العقيدة. إنها ليست معركة الأرض. ولا الغلّة. ولا المراكز العسكرية. ولا هذه الرايات المزيفة كلها. إنهم يُزيفونها علينا لغرض في نفوسهم دفين. ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها، فإذا نحن خُدعنـا بخديعتهم فلا نلومن إلا أنفسنا. ونحن نبتعد عن تـوجيه الله لنبيـه ـ ﷺ ـ ولأمته وهو ـ سبحـانه ـ أصـدق القائلين: ﴿**ولن تـرضى عنك اليهـود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾..

فذلك هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه. وما سواه فمرفوض ومردود!.

ولكن الأمـر الحازم، والتـوجيه الصـادق: ﴿**قـل إن هـدى الله هـو الهدى**﴾..

على سبيل القصر والحصـر. هدى الله هـو الهدى. ومـا عداه ليس بهدى. فلا براح منه، ولا فكاك عنه، ولا محـاولة فيـه، ولا ترتضيـه على حسابه، ولا مساومة في شيء منه قليل أو كثير، ومن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر. وحذار أن تميل بك الرغبة في هدايتهم وإيمانهم، أو صـداقتهم ومودتهم عن هذا الصراط الدقيق:

﴿**ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير**﴾ [البقرة: ١٢٠].

بهذا التهديد المفزع، وبهذا القطع الجازم، وبهذا الوعيد الرعيب.. ولمن؟ لنبي الله ورسوله وحبيبه الكريم!.

إنها الأهواء.. إن مِلْتَ عن الهدى.. هدى الله الذي لا هُدى سواه.. وهي الأهواء التي تقفهم منك هذا الموقف؛ وليس نقص الحجة ولا ضعف الدليل.

والذين يتجردون منهم من الهوى يتلون كتابهم حق تلاوته، ومن ثم يؤمنون بالحق الذي معك؛ فأما الذين يكفرون به فهم الخاسرون، لا أنت ولا المؤمنون! ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته. أولئك يؤمنون به. ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون**﴾ [البقرة: ١٢١]..

وأي خسارة بعد خسارة الإيمان، أعظم آلاء الله على الناس في هذا الوجود؟.

ب ـ ملابسات تحويل القبلة والكيد الشرير:

ويبين القرآن الكريم الملابسات التي أحاطت على حادث تحويل القبلة، والدسائس التي حاولها اليهود في الصف المسلم بمناسبته، والأقاويل التي أطلقوها من حوله، ومعالجة هذه الأقاويل في نفوس بعض المسلمين، وفي الصف المسلم على العموم..

إن تحويل القبلة من بين المقدس إلى الكعبة كان في المدينة بعد ستة عشر أو سبعة عشر شهراً من الهجرة.

ومجموع الروايات المتعلقة بهذا الحادث يمكن أن يستنبط منها ـ بالإجمال ـ أن المسلمين في مكة كانوا يتوجهون إلى الكعبة منذ أن فُرضت الصلاة ـ وليس في هذا نص قرآني ـ وأنهم بعد الهجرة وُجِّهوا إلى بيت المقدس بأمر إلهي للرسول ـ ﷺ ـ يرجح أنه أمر غير قرآني. ثم جاء الأمر

القرآني الأخير: **﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾** [البقرة: ١٤٤]. . فنسخه.

وعلى أية حال فقد كان التَوَجُّه إلى بيت المقدس ـ وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ـ سبباً في اتخاذ اليهود ذريعة للاستكبار عن الدخول في الإسلام؛ إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول، بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة؛ وأنهم هم الأصل، فَأَوْلَى بمحمد ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يَدْعوهم إلى الدخول في الإسلام!.

وفي الوقت ذاته كان الأمر شاقاً على المسلمين من العرب، الذين أَلِفوا في الجاهلية أن يُعظموا حرمة البيت الحرام، وأن يجعلوه كعبتهم وقبلتهم. وزاد الأمر مشقة ما كانوا يسمعونه من اليهود من التبجح بهذا الأمر، واتخاذه حجة عليهم!.

وكان الرسول ـ ﷺ ـ يُقَلِّب وجهه في السماء متجهاً إلى ربه، دون أن ينطق لسانه بشيء تأدباً مع الله، وانتظاراً لتوجيهه بما يرضاه. . ثم نزل القرآن يستجيب لما يعتمل في صدر الرسول ـ ﷺ ـ: **﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها، فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾** [البقرة: ١٤٤]. .

وتقول الروايات: إن المسلمين حينما سمعوا بتحويل القبلة، كان بعضهم في منتصف صلاة، فحولوا وجوههم شطر المسجد الحرام في أثناء صلاتهم، وأكملوا الصلاة تجاه القبلة الجديدة.

عندئذ انطلقت أبواب يهود ـ وقد عزّ عليهم أن يتحول محمد ـ ﷺ ـ والجماعة المسلمة عن قبلتهم، وأن يفقدوا حجتهم التي يرتكنون إليها في تعاظمهم وفي تشكيك المسلمين في قيمة دينهم ـ انطلقت تُلقي في صفوف المسلمين وقلوبهم بذور الشك والقلق في قيادتهم وفي أساس عَقيدتهم. .

قالوا لهم: إن كان التوجه ـ فيما مضى ـ إلى بيت المقدس باطلاً فقد ضاعت صلاتكم طوال هذه الفترة، وإن كان حقاً فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل، وضائعة صلاتكم إليه كلها. .

وعلى أية حال فإن هذا النسخ والتغيير للأوامر ـ أو للآيات ـ لا يصدر من الله، فهو دليل على أن محمداً لا يتلقى الوحي من الله!.

﴿سيقول السفهاء من الناس: ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قل: لله المشرق والمغرب. يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. .﴾ [البقرة: ١٤٢]. .

من السياق القرآني ومن سياق الأحداث في المدينة يتضح أن المقصود بالسفهاء هم اليهود. فهم الذين أثاروا الضجة التي أُثيرت بمناسبة تحويل القبلة كما أسلفنا. وهم الذين أثاروا هذا التساؤل: **﴿ما وَلاَّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟﴾** وهي المسجد الأقصى.

وسنلاحظ أن علاج القرآن لهذا التساؤل ولتلك الفتنة يشي بضخامة آثار تلك الحملة في نفوس بعض المسلمين وفي الصف المسلم في ذلك الحين. . والذي يظهر من صيغة التعبير هنا: **﴿سيقول السفهاء من الناس: ما وَلاَّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟﴾**.

إن هذا كان تمهيداً لإعلان تحويل القبلة، وأَخْذاً للطريق على الأقاويل والتساؤلات التي عَلِمَ الله أن السفهاء سيطلقونها. . أو كان رداً عليها بعد إطلاقها ـ كما جاء في حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه[1] ـ اتخذ

---

(١) عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: أول ما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة نزل على أجداده ـ أو قال أخواله ـ من الأنصار؛ وأنه صلى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهراً؛ أو سبعة عشر شهراً؛ وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر؛ وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه، فمر على أهل مسجد وهم راكعون. فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ـ ﷺ ـ قِبَلَ الكعبة، فداروا كما هم قِبَلَ البيت. =

هذه الصيغة للإيحاء بأن ما قالوه كان مُقَدَّراً أَمْره، ومعروفة خطّتـه، ومُعدّة إجابته. وهي طريقة من طرق الرد أعمق تأثيراً.

وهو يبدأ في علاج هذا التساؤل، والرد عليه بتلقين الرسول - ﷺ - ما يواجههم به، ويُقرُّ به الحقيقة في نصابها؛ وفي الوقت نفسه يصحح التصور العام للأمور: ﴿**قل: لله المشرق والمغرب، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾..

إن المشرق لله والمغرب لله. فكل مُتَّجه فهو إليه في أي اتجاه. فالجهات والأماكن لا فضل لها في ذاتها. إنما يفضلها ويخصصها اختيار الله وتوجيهه.. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فإذا اختار لعباده وجهة، واختار لهم قبلة، فهي إذن المختارة. وعن طريقها يسيرون إلى صراط مستقيم..

وبذلك يقرر حقيقة التصور للأماكن والجهات، وحقيقة المصدر الذي يتلقى منه البشر التوجهات، وحقيقة الاتجاه الصحيح وهو الاتجاه إلى الله في كل حال..

ثم.. ما شأن أهل الكتاب وهذه القبلة الجديدة؟:

﴿**وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم**﴾ [البقرة: ١٤٤]..

إنهم ليعلمون أن المسجد الحرام هو بيت الله الأول الذي رفع قواعده إبراهيم. جدّ هذه الأمة الوارثة وجدّ المسلمين أجمعين. وإنهم ليعلمون أن الأمر بالتوجه إليه حق من عند الله لا مِرْية فيه..

= وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قِبَلَ بيت المقدس، فلما ولى وجهه قِبَلَ البيت أنكروا ذلك، فنزلت: ﴿**قد نرى تقلب وجهك في السماء..**﴾ فقال السفهاء - وهم اليهود -: ﴿**ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها**﴾. أخرجه مالك والشيخان والترمذي.

ولَكِنَّهم مع هذا سيفعلون غير ما يوحيه هذا العلم الذي يعلمونه. فلا على المسلمين منهم؛ فالله هو الوكيل الكفيل برد مكرهم وكيدهم:

﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ [البقرة: ١٤٤]..

إنهم لن يقتنعوا بدليل، لأن الذي ينقصهم ليس هو الدليل؛ إنما هو الإخلاص والتجرد من الهوى، والاستعداد للتسليم بالحق حين يعلمونه:

﴿ولئن آتيت الذين أُوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ [البقرة: ١٤٥]..

فهم في عناد يقوده الهوى، وتؤرثه المصلحة، ويحدوه الغرض.. وإن كثيراً من طيبي القلوب ليظنون أن الذي يصد اليهود والنصارى عن الإسلام أنهم لا يعرفونه، أو لأنه لم يقدم إليهم في صورة مقنعة.. وهذا وهم..

إنهم لا يريدون الإسلام لأنهم يعرفونه! يعرفونه فهم يخشونه على مصالحهم وعلى سلطانهم، ومن ثم يكيدون له ذلك الكيد الغاصب الذي لا يفتر، بشتى الطرق وشتى الوسائل. عن طريق مباشر وعن طرق أخرى غير مباشرة. يحاربونه وجهاً لوجه، ويحاربونه من وراء ستار. ويحاربونه بأنفسهم ويستهوون من أهله من يحاربه لهم تحت أي ستار..

وهم دائماً عند قول الله تعالى لنبيه الكريم: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾..

وفي مواجهة هذا الإصرار من أهل الكتاب على الإعراض عن قبلة الإسلام ومنهجه الذي ترمز هذه القبلة له، يقرر حقيقة شأن النبي - ﷺ - وموقفه الطبيعي: ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ [البقرة: ١٤٥]..

ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلاً. واستخدام الجملة الإسمية المنفية هنا أبلغ في بيان الشأن الثابت الدائم للرسول - ﷺ - تجاه هذا الأمر. وفيه إيحاء قوي للجماعة المسلمة من ورائه. فلن تختار قبلة غير قبلة رسولها

التي اختارها له ربه ورضيها له ليرضيه؛ ولن ترفع راية غير رايتها التي تنسبها إلى ربها؛ ولن تتبع منهجاً إلا المنهج الإلهي الذي ترمز له هذه القبلة المختارة.. هذا شأنها ما دامت مسلمة، فإذا لم تفعل فليست من الإسلام في شيء.. إنما هي دعوى..

ويستطرد فيكشف عن حقيقة الموقف بين أهل الكتاب بعضهم وبعض؛ فهم ليسوا على وفاق، لأن الأهواء تُفرّقهم:

﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ [البقرة: ١٤٥]..

والعداء بين اليهود والنصارى، والعداء بين الفرق اليهودية المختلفة، والعداء بين الفرق النصرانية المختلفة أشد عداء..

وما كان للنبي - ﷺ - وهذا شأنه وهذا شأن أهل الكتاب، وقد علم الحق في الأمر، أن يتبع أهواءهم بعدما جاءه من العلم:

﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً من الظالمين﴾ [البقرة: ١٤٥]..

ونقف لحظة أمام هذا الجد الصارم، في هذا الخطاب الإلهي من الله - سبحانه - إلى نبيه الكريم الذي حَدَّثه منذ لحظة ذلك الحديث الرفيق الودود..

إن الأمر هنا يتعلق بالاستقامة على هدي الله وتوجيهه؛ ويتعلق بقاعدة التَمَيُّز والتجرد إلا من طاعة الله ونهجه، ومن ثم يجيء الخطاب فيه بهذا الحزم والجزم، وبهذه المواجهة والتحذير: **﴿إنك إذاً لمن الظالمين﴾**..

إن الطريق واضح، والصراط مستقيم.. فإما العلم الذي جاء من عند الله. وإما الهوى في كل ما عداه. وليس للمسلم أن يتلقى إلا من الله. وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب. وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد.

وإلى جانب هذا الإيحاء الدائم نلمح كذلك أنه كانت هناك حالة واقعة من بعض المسلمين، في غمرة الدسائس اليهودية وحملة التضليل الماكرة، تستدعي هذه الشدة في التحذير، وهذا الجزم في التعبير.

إن القرآن يقرر معرفة أهل الكتاب الجازمة بأن الحق في هذا الشأن وفي غيره هو ما جاء به القرآن، وما أَمَر به الرسول. ولكنهم يكتمون الحق الذي يعلمونه، للهوى الذي يضمرونه:

﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ [البقرة: ١٤٦]..

ومعرفة الناس بأبنائهم هي قمة المعرفة، وهي مَثَل يُضرب في لغة العرب على اليقين الذي لا شبهة فيه.. فإذا كان أهل الكتاب على يقين من الحق الذي جاء به النبي - ﷺ - ومنه هذا الذي جاء به في شأن القبلة، وكان فريق منهم يكتمون الحق الذي يعلمونه علم اليقين.. فليس سبيل المؤمنين إذن أن يتأثروا بما يلقيه أهل الكتاب هؤلاء من أباطيل وأكاذيب.

وليس سبيل المؤمنين أن يأخذوا من هؤلاء الذين يستيقنون الحق ثم يكتمونه شيئاً في أمر دينهم، الذي يأتيهم به رسولهم الصادق الأمين.

وهنا يوجه الخطاب إلى النبي - ﷺ - بعد هذا البيان بشأن أهل الكتاب: **﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾** [البقرة: ١٤٧].

ورسول الله - ﷺ - ما امْتَرَىٰ يوماً ولا شك. وحينما قال له ربه في آية أخرى: **﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك﴾** [يونس: ٩٤].. قال: «لا أشك ولا أسأل».

ولكن توجيه الخطاب هكذا إلى شخصه - ﷺ - يحمل إيحاء قوياً إلى مَن وراءه من المسلمين. سواء منهم مَن كان في ذلك الحين يتأثر بأباطيل

اليهود وأحابيلهم، ومَن يأتي بعدهم ممن تؤثر فيهم أباطيل اليهود وغير اليهود في أمر دينهم.

وما أجدرنا نحن اليوم أن نستمع إلى هذا التحذير؛ ونحن في بلاهة منقطعة النظير ـ نروح نستفتي المستشرقين ـ من اليهود والنصارى ـ في أمر ديننا، ونتلقى عنهم تاريخنا، ونأمنهم على القول في تراثنا، ونسمع لما يدسّونه من شكوك في دراساتهم لقرآننا وحديث نبينا، وسيرة أوائلنا؛ ونرسل إليهم بعثات من طلابنا يتلقون عنهم علوم الإسلام، ويتخرجون في جامعاتهم، ثم يعودون إلينا مدخولي العقل والضمير.

إن هذا القرآن قرآننا. قرآن الأمة المسلمة. وهو كتابها الخالد الذي يخاطبها فيه ربها بما تَعمله وتَحذره. وأهل الكتاب هم أهل الكتاب. والكفار هم الكفار. والدين هو الدين!.

ثم يمضي القرآن في عرض نماذج من أهل الكتاب؛ فيعرض نموذج المُضَلِّلين، الذين يَتخذون من كتاب الله مادة للتضليل، يلوون ألسنتهم به عن مواضعه، ويؤولون نصوصه لتوافق أهواء معينة، ويشترون بهذا كله ثمناً قليلاً.. عرضاً من عرض هذه الحياة الدنيا: ومن بين ما يلوون ألسنتهم به ويحرفونه ويُؤَوّلونه ما يختص بمعتقداتهم التي ابتدعوها عن المسيح عيسى بن مريم، مما اقتضته أهواء الكنيسة وأهواء الحكام سواء:

﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب، ويقولون: هو من عند الله وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ [آل عمران: ٧٨]..

هذا النموذج من بني إسرائيل ـ فيما يبدو من هذه الآيات ـ كانوا يتلمسون في كتاب الله الجُمَل ذات التعبير المجازي؛ فيلوون ألسنتهم بها ـ أي في تأويلها واستخراج مدلولات منها هي لا تدل عليها بغير ليّها وتحريفها ـ ليوهموا الدهماء أن هذه المدلولات المبتدعة هي من كتاب الله؛

ويقولون بالفعل: هذاما قاله الله، وهو ما لم يقله ـ سبحانه ـ وكانوا يهدفون من هذا إلى إثبات ألوهية عيسى ـ عليه السلام ـ ومعه «روح القدس» ـ تعالى الله عما يصفون ـ ويَروون عن عيسى ـ عليه السلام ـ كلمات تؤيد هذا الذي يدّعونه، فردّ الله عليهم هذا التحريف وهذا التأويل، بأنه ليس من شأن نبي يخصه الله بالنبوة ويصطفيه لهذا الأمر العظيم أن يَأْمر الناس أن يتخذوه إلهاً هو والملائكة. فهذا مستحيل:

﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة، ثم يقول للناس: كونوا عباداً لي من دون الله. ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون؟﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠]..

إن النبي يوقن أنه عبد، وأن الله وحده هو الرب، الذي يتجه إليه العباد بعبوديتهم وبعبادتهم. فما يمكن أن يدعي لنفسه صفة الألوهية التي تقتضي من الناس العبودية. فلن يقول نبي للناس: **﴿كونوا عباداً لي من دون الله﴾** ولكن قولوا لهم: **﴿كونوا ربانيين﴾**.. منتسبين إلى الرب، عباداً له وعبيداً، توجهوا إليه وحده بالعبادة، وخُذوا عنه وحده منهج حياتكم، حتى تخلصوا له وحده فتكونوا «ربانيين».. بحكم عِلْمكم للكتاب وتدارسكم له. فهذا مقتضى العلم بالكتاب ودراسته.

والنبي لا يأمر الناس أبداً أن يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً، فالنبي لا يأمر الناس بالكفر بعد أن يُسلِموا لله ويستسلموا لألوهيته، وقد جاء ليهديهم إلى الله لا ليضلهم، وليقودهم إلى الإسلام لا ليكفرهم!.

ومن ثم يتجلى الكذب على الله.. وتسقط في الوقت ذاته قيمة كل ما يقوله هذا الفريق وما يعيده لإلقاء الريب والشكوك في الصف المسلم. وقد عرّاهم القرآن هذه التعرية على مرأى ومسمع من الجماعة المسلمة!.

وهكذا نرى أن اليهود كانوا أشد الناس عداوة للجماعة المسلمة، فلم

يكونوا يحاربونها في الميدان بالسيف والرمح فحسب، ولم يكونوا يُؤلّبون عليها الأعداء ليحاربوها بالسيف والرمح فحسب. . إنما كانوا يحاربونها أولاً في عقيدتها. كانوا يحاربونها بالدس والتشكيك، ونشر الشبهات وتدبير المناورات! لقد كان اليهود يُبدئون ويُعيدون في مسألة تحويل القِبلة إلى الكعبة، وقد تبين أن اتخاذ الكعبة قِبلة للمسلمين هو الأصل وهو الأَوْلى، وأن اتخاذ بيت المقدس فترة بعد الهجرة كان لحكمة معينة بَيَّنها الله. . مع هذا فقد ظل اليهود يُبدئون في هذا الموضوع ويُعيدون، ابتغاء البلبلة والتشكيك واللبس للحق الواضح الصريح ـ على مثال ما يصنع اليوم أعداء هذا الدين بكل موضوع من موضوعات هذا الدين! وهنا يرد الله كيدهم ببيان جديد:

﴿قل: صدق الله، فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين. إن أوّلَ بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين. فيه آيات بينات: مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً. .﴾ [آل عمران: ٩٥ ـ ٩٧]. .

ولعل الإشارة هنا في قوله: **﴿صَدَق الله﴾** تعني ما سبق تقريره في هذا الأمر، من أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون مثابة للناس وأَمْناً، وليكون للمؤمنين بدينه قِبْلَة ومُصَلّى. ومن ثم يجيء الأمر باتباع إبراهيم في ملته. وهي التوحيد الخالص المُبَرّأ من الشرك في كل صورة.

واليهود كانوا يزعمون أنهم هم ورثة إبراهيم. فها هو ذا القرآن يدلهم على حقيقة دين إبراهيم؛ وأنه الميل عن كل شرك. ويؤكد هذه الحقيقة مرتين: مرة بأنه كان حنيفاً. ومرة بأنه ما كان من المشركين. فما بالهم هم مشركين!!.

ثم يُقرر أن الاتجاه للكعبة هو الأصل. فهي أول بيت وُضع في الأرض للعبادة وخصص لها، مذ أمر الله إبراهيم أن يرفع قواعده، وأن يخصصه للطائفين والعاكفين والركع السجود. وجعله مباركاً وجعله هدى للعالمين.

فهذا هو البيت الذي اختاره الله للمسلمين قبلة. . هو بيت الله الذي جعل له هذه الكرامة. وهو أول بيت أُقيم في الأرض للعبادة. وهو بيت أبيهم إبراهيم. والإسلام هو ملة إبراهيم. فبيته هو أَوْلَى بيت بأن يتجه إليه المسلمون. وهو مثابة الأمان في الأرض. وفيه هدى للناس، بما أنه مثابة هذا الدين.

لقد وقف اليهود من الجماعة المسلمة هذا الموقف الذي أبانه القرآن الكريم للتشكيك في صدق النبوة والرسالة والدين. . فعمدوا أولاً إلى عقيدة الجماعة الإيمانية التي منها انبثق كيانها، ومنها قام وجودها، فيعملون فيها معاول الهدم والتوهين. ذلك أنهم كانوا يُدركون كما يدركون اليوم تماماً ـ أن هذه الأمة لا تُؤتى إلا من هذا المدخل؛ ولا تَهِن إلا إذا وهنت عقيدتها، ولا تُهزم إلا إذا هُزمت روحها؛ ولا يبلغ أعداؤها منها شيئاً وهي ممسكة بعروة الإيمان، مرتكنة إلى ركنه، سائرة على نهجه، حاملة لرايته، مُمثلة لحزبه، منتسبة إليه، معتزة بهذا النسب وحده. .

ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة هو الذي يُلهيها عن عقيدتها الإيمانية، ويحيد بها عن منهج الله وطريقه، ويخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة.

إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة. وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوها على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات، فإنهم يحاولون أولاً أن يغلبوها على العقيدة، لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئاً. والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها، ملتزمة بمنهجها، مدركة لكيد أعدائها. . ومن ثم يبذل هؤلاء الأعداء وعملاؤهم جهد الجبارين في خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة. ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار واستغلال، وهم آمنون من عزمة العقيدة في الصدور!

وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة، والتشكيك فيها، والتوهين من عراها، استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة. ولكن لنفس الغاية القديمة: ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم!!!﴾ [آل عمران: ٦٩].. فهذه هي الغاية الثابتة الدفينة!.

لهذا كان القرآن يدفع هذا السلاح المسموم أولاً.. كان يأخذ الجماعة المسلمة بالتثبيت على الحق الذي هي عليه؛ وينفي الشبهات والشكوك التي يلقيها أهل الكتاب؛ ويجلو الحقيقة الكبيرة التي يتضمنها هذا الدين؛ ويقنع الجماعة المسلمة بحقيقتها وقيمتها في هذه الأرض، ودورها ودور العقيدة التي تحملها في تاريخ البشرية.

وكان يأخذها بالتحذير من كيد الكائدين، ويكشف لها نواياهم المستترة ووسائلهم القذرة، وأهدافهم الخطرة، وأحقادهم على الإسلام والمسلمين، لاختصاصهم بهذا الفضل العظيم.. **﴿ذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾** [الجمعة: ٤]..

وكان يأخذها بتقرير حقيقة القوى وموازينها في هذا الوجود. فيبين لها هزال أعدائها، وهوانهم على الله، وضلالهم وكفرهم بما أنزل الله إليهم من قبل وقتلهم الأنبياء. كما يبين أن الله معها، وهو مالك الملك المعز المذل وحده بلا شريك. وأنه سيأخذ هؤلاء الأعداء بالعذاب والنكال.. **﴿إن الذين يحادُّون الله ورسوله أولئك في الأذلين. كتبَ الله لأغلبن أنا ورُسلي. إن الله قوي عزيز﴾** [المجادلة: ٢٠، ٢١].

ولا يخالج المؤمن شك في أن وَعْد الله هو الحقيقة الكائنة التي لا بد أن تظهر في الوجود. وأن الذين يحادُّون الله ويكيدون لدينه وحملة رسالته هم الأذلُّون، وأن الله ورسله هم الغالبون. وأن هذا هو الكائن والذي لا بد أن يكون. ولتكن الظواهر غير هذا ما تكون!.

كلمة الحق والقول الفصل:

إن الحديث عن اليهود، ومواقفهم من الرسول - ﷺ - ومن الأمة المسلمة؛ هي طرف من الحديث الطويل الذي تضمنه القرآن الكريم.. فقد تناول الحديث عن فساد عقيدة اليهود والنصارى معاً، وسوء طَوية اليهود وسوء فعلهم، سواء مع أنبيائهم من قبل أو مع الرسول - ﷺ - ونصرة المشركين عليه..

كما تناول الحديث الحكم على عقيدة اليهود والنصارى التي انتهوا إليها، بأنها «الكفر» لتركهم ما جاء في كتبهم وتكذيبهم بما جاءهم به رسول الله - ﷺ - والتوكيد بأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربهم.

لقد كانت هذه الأمة تتلقى هذا القرآن لتقرر - وفق توجيهاته وتقريراته - خطتها وحركتها، ولتتخذ - وفق هذه التوجيهات والتقريرات - مواقفها من الناس جميعاً. فهذا الكتاب كان هو مُوجهها ومحركها ورائدها ومرشدها.. ومن ثم كانت تَغلب ولا تُغلب، لأنها تخوض معركتها مع أعدائها تحت القيادة الربانية المباشرة؛ مذ كان نبيها يقودها وفق الإرشادات الربانية العلوية..

وهذه الإرشادات الربانية ما تزال، والتقريرات التي تضمنها ذلك الكتاب الكريم ما تزال. والذين يحملون دعوة الإسلام اليوم وغداً خليقون أن يتلقوا هذه التقريرات وتلك الإرشادات كأنهم يُخاطَبون بها اللحظة؛ ليقرروا على ضوئها مواقفهم من شتى طوائف الناس؛ ومن شتى المذاهب والمعتقدات والآراء، من شتى الأوضاع والأنظمة وشتى القيم والموازين.. اليوم وغداً وإلى آخر الزمان...

﴿لَتَجِدَنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا..﴾ [المائدة: ٨٢]..

إن صيغة العبارة تحتمل أن تكون خطاباً للرسول ـ ﷺ ـ وأن تكون كذلك خطاباً عاماً خرج مخرج العموم، لأنه يتضمن أمراً ظاهـراً مكشوفـاً يجده كل إنسان. وهي صيغة لها نظائرها في الأسلوب العربي الذي نزل به القرآن الكريم.. وهي في كلتا الحالتين تفيد معناها الظاهر الذي تؤديه..

فإذا تقرر هذا فإن الأمر الذي يلفت النظر في صياغة العبارة هو تقديم اليهود على الذين أشركوا في صدد أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا؛ وأن شدّة عداوتهم ظاهرة مكشوفة وأَمْر مُقرر يراه كل من يَرى، ويجده كل من يتأمل!.

نعم إن العطف بالواو في التعبير العربي يفيد الجمع بين الأمرين ولا يفيد تعقيباً ولا ترتيباً.. ولكن تقديم اليهود هنا، حيث يقوم الظن بأنهم أقل عداوة للذين آمنوا من المشركين ـ بما أنهم أصلاً أهل كتاب ـ يجعل لهذا التقديم شأناً خاصاً غير المألوف من العطف بالواو في التعبير العربي! إنه ـ على الأقل ـ يُوجّه النظر إلى أنهم أهل كتاب لم يغير من الحقيقة الواقعة، وهي أنهم كالذين أشركوا أشد عداوة للذين آمنوا! ونقول: إن هذا «على الأقل». ولا ينفي هذا احتمال أن يكون المقصود هو تقديمهم في شدة العداء على الذين أشركوا.

وحين يستأنس الإنسان في تفسير هذا التقرير الرباني بالواقع التاريخي المشهود منذ مولد الإسلام حتى اللحظة الحاضرة، فإنه لا يتردد في تقرير أن عِدَاء اليهود للذين آمنوا كان دائماً أشد وأقسى وأعمق إصراراً وأطول أمداً من عداء الذين أشركوا!.

لقد واجه اليهود الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى التي قامت فيها دولة الإسلام بالمدينة. وكادوا للأمة المسلمة منذ اليوم الأول الذي أصبحت فيه أمة. وتضمن القرآن الكريم من التقريرات والإشارات عن هذا العداء وهذا الكيد ما يكفي وحده لتصوير تلك الحرب المريرة التي شنها اليهـود

على الإسلام وعلى رسول الإسلام - ﷺ - وعلى الأمة المسلمة في تاريخها الطويل؛ والتي لم تَخْبُ لحظة واحدة قرابة أربعة عشر قرناً، وما تزال حتى اللحظة يتسعر أوارها في أرجاء الأرض جميعاً.

لقد عقد الرسول - ﷺ - أول مقدمه إلى المدينة، معاهدة تعايش مع اليهود؛ ودعاهم إلى الإسلام الذي يُصدّق ما بين أيديهم من التوراة.. ولكنهم لم يفوا بهذا العهد - شأنهم في هذا كشأنهم مع كل عهد قطعوه مع ربهم أو مع أنبيائهم من قبل، حتى قال الله فيهم: **﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون. أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم؟ بل أكثرهم لا يؤمنون. ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نَبَذَ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾** [البقرة: ٩٩ - ١٠١]..

ولقد أضمروا العداء للإسلام والمسلمين منذ اليوم الأول الذي جمع الله فيه الأوس والخزرج على الإسلام، فلم يعد لليهود في صفوفهم مدخل ولا مخرج، ومنذ اليوم الأول الذي تحددت فيه قيادة الأمة المسلمة وأمسك بزمامها محمد رسول الله - ﷺ - فلم تعد لليهود فرصة للتسلط!.

ولقد استخدموا كل الأسلحة والوسائل التي تفتقت عنها عبقرية المكر اليهودية، وأفادتها من قرون السبي في بابل، والعبودية في مصر، والذل في الدولة الرومانية. ومع أن الإسلام قد وَسِعَهم بعدما ضاقت بهم المِلل والنِحَل على مدار التاريخ، فإنهم ردوا للإسلام جميله عليهم أقبح الكيد وألأم المكر منذ اليوم الأول.

ولقد ألبوا على الإسلام والمسلمين كل قوى الجزيرة العربية المشركة؛ وراحوا يجمعون القبائل المتفرقة لحرب الجماعة المسلمة: **﴿ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾** [النساء: ٥١]..

ولما غلبهم الإسلام بقوة الحق ـ يوم أن كان الناس مسلمين ـ استداروا يكيدون له بدس المفتريات في كتبه ـ لم يسلم من هذا الدس إلا كتاب الله الذي تكفل بحفظه ـ سبحانه ـ ويكيدون له بالدس بين صفوف المسلمين، وإثارة الفتن عن طريق استخدام حديثي العهد بالإسلام ومن ليس لهم فيه فقه من مسلمة الأقطار. ويكيدون له بتأليب خصومه عليه في أنحاء الأرض.. حتى انتهى بهم المطاف أن يكونوا في العصر الأخير هم الذين يقودون المعركة مع الإسلام في كل شبر على وجه الأرض؛ وهم الذين يستخدمون الصليبية والوثنية في هذه الحرب الشاملة، وهم الذين يقيمون الأوضاع ويصنعون الأبطال الذين يتسمون بأسماء المسلمين، ويشنونها حرباً صليبية صهيونية على كل جَذر من جذور هذا الدين!.

وصدق الله العظيم: **﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾** [المائدة: ٨٢]..

إن الذي أَلَّب الأحزاب على الدولة المسلمة الناشئة في المدينة؛ وجمع بين اليهود من بني قريظة وغيرهم؛ وبين قريش في مكة، وبين القبائل الأخرى في الجزيرة.. يهودي..

والذي أَلَّب العوام، وجمع الشراذم، وأطلق الشائعات، في فتنة مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ وما تلاها من النكبات.. يهودي..

والذي قاد حملة الوَضْع والكذب في أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ وفي الروايات والسير.. يهودي..

ثم إن الذي كان وراء إثارة النعرات القومية في دولة الخلافة الأخيرة؛ ووراء الانقلابات التي ابتدأت بعزل الشريعة عن الحكم واستبدال «الدستور» بها في عهد السلطان عبد الحميد، ثم انتهت بإلغاء الخلافة جملة على يدي «البطل» أتاتورك.. يهودي..

وسائر ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على طلائع البعث الإسلامي في كل مكان على وجه الأرض وراءه يهود!.

ثم لقد كان وراء النزعة المادية الإلحادية.. يهودي.. وراء النزعة الحيوانية الجنسية.. يهودي.. ووراء معظم النظريات الهدامة لكل المقدسات والضوابط.. يهود[1].

ولقد كانت الحرب التي شنها اليهود على الإسلام أطول أمداً، وأعرض مجالاً، من تلك التي شنها المشركون والوثنيون - على ضراوتها - قديماً وحديثاً..

إن المعركة مع مشركي العرب لم تمتد إلى أكثر من عشرين عاماً في جملتها. وكذلك كانت المعركة مع فارس في العهد الأول.

أما في العصر الحديث فإن ضراوة المعركة بين الوثنية الهندية والإسلام ضراوة ظاهرة؛ ولكنها لا تبلغ ضراوة الصهيونية العالمية.. (التي تعد الماركسية مجرد فرع لها) وليس هناك ما يماثل معركة اليهود مع الإسلام في طول الأمد وعرض المجال إلا معركة الصليبية..

فإذا سمعنا الله - سبحانه - يقول: **﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾**..

ويقدم اليهود في النص على الذين أشركوا.. ثم راجعنا هذا الواقع التاريخي، فإننا ندرك طَرَفاً من حكمة الله في تقديم اليهود على الذين أشركوا!.

إنهم هذه الجبلة النكدة الشريرة، التي ينغل الحقد في صدورها

---

(١) يراجع فصل: اليهود الثلاثة: ماركس وفرويد ودركايم في كتاب «التطور والثبات» لمحمد قطب.

على الإسلام وعلى نبي الإسلام، فَيُحَذِّر الله نبيه وأهل دينه منها.. ولم يغلب هذه الجبلة النكدة الشريرة إلا الإسلام وأهله يوم أن كانوا أهله!.. ولن يخلص العالم من هذه الجبلة النكدة إلا الإسلام يوم يفيء أهله إليه..

لقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد وقفة العداء والكيد والتضليل، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حرباً شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم. حاربوه بالاتهام: ﴿**فلما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين**﴾ [الصف: ٦].. كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بالدين الجديد. وحاربوه بالدس والوقيعة داخل المعسكر الإسلامي، للإيقاع بين المهاجرين والأنصار في المدينة، وبين الأوس والخزرج من الأنصار.

وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تارة. وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين كما وقع في غزوة الأحزاب.

وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى في حديث الإفك على يدي عبد الله بن أبي سلول، ثم ما جرى في فتنة عثمان على يد عدو الله عبد الله بن سبأ.

وحاربوه بالأكاذيب والإسرائيليات التي دسوها في الحديث وفي السيرة وفي التفسير - حين عجزوا عن الوضع والكذب في القرآن الكريم. ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة. فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام، وظلتا تغيران عليه أو تؤلبان عليه في غير وناة ولا هدنة في جيل من الأجيال.

حاربوه في الحروب الصليبية في المشرق، وحاربوه في الأندلس في المغرب، وحاربوه في الوسط في دولة الخلافة الأخيرة حرباً شعواء حتى مَزَّقوها وقَسَّموا تركة ما كانوا يسمونه «الرجل المريض».. واحتاجوا أن يخلقوا أبطالاً مُزَيَّفين في أرض الإسلام يعملون لهم في تنفيذ أحقادهم

ومكايدهم ضد الإسلام. فلما أرادوا تحطيم «الخلافة» والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإسلامي صنعوا في تركيا «بطلاً»!.. ونفخوا فيه. وتراجعت جيوش الحلفاء التي كانت تحتل الأستانة أمامه لتحقق منه بطلاً في أعين مواطنيه. بطلاً يستطيع إلغاء الخلافة، وإلغاء اللغة العربية، وفصل تركيا عن المسلمين، وإعلانها دولة مدنية لا علاقة لها بالدين! وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية في بلد من بلاد المسلمين، ليقيموا مكانه عصبية غير عصبية الدين! وراية غير راية الدين.

لقد صدّق الواقع التاريخي ما حذر الله الأمة المسلمة إياه؛ من اليهود ومن النصارى سواء. وإذا كان الواقع التاريخي قد حفظ لليهود وقفتهم النكدة للإسلام منذ اليوم الأول الذي دخل فيه الإسلام عليهم المدينة؛ في صورة كيد لم ينته ولم يَكُفّ حتى اللحظة الحاضرة؛ وإذا كان اليهود لا يزالون يقودون الحملة ضد الإسلام في كل أرجاء الأرض اليوم في حقد خبيث وكيد لئيم.. فإن هذا الواقع قد حفظ كذلك للنصارى الصليبيين أنهم اتخذوا من الإسلام موقف العداء منذ واقعة اليرموك بين جيش المسلمين وجيوش الروم ـ فيما عدا الحالات التي وقع فيها أن قلوب البعض استجابت للإسلام ودخلت فيه. وفيما عدا حالات أخرى آثرت فيها طوائف من النصارى أن تحتمي بعدل الإسلام من ظلم طوائف أخرى من النصارى كذلك؛ يلاقون من ظلمها الوبال ـ أما التيار العام الذي يمثل موقف النصارى جملة فهو تلك الحروب الصليبية التي لم يَخْبُ أوارها قط ـ إلا في الظاهر ـ منذ التقى الإسلام والرومان على ضفاف اليرموك!.

لقد تجلت أحقاد الصليبية على الإسلام وأهله في الحروب الصليبية المشهورة طوال قرنين من الزمان، كما تجلت في حروب الإبادة التي شنتها الصليبية على الإسلام والمسلمين في الأندلس، ثم في حملات الاستعمار

والتبشيـر على الممالـك الإسلاميـة في إفريقيـة أولاً، ثم في العـالم كله أخيراً. .

ولقد ظلت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية حليفتين في حرب الإسلام ـ على كل ما بينهما من أحقاد ـ ولكنهم كانوا في حربهم للإسلام كما قال عنهم العليم الخبير: ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ [المـائدة: ٥١]. . حتى مزقوا دولة الخلافة الأخيرة. ثم مضوا في طريقهم ينقضون هذا الدين عروة عروة. وبعد أن أجهزوا على عـروة «الحكم» ها هم أولاء يحـاولون الإجهاز على عروة «الصلاة»!.

ثم ها هم أولاء يعيدون موقف اليهود القديم مع المسلمين والوثنيين. فيؤيدون الوثنية حيثما وُجِدت ضد الإسلام. عن طريق المساعدات المباشرة تارة، وعن طريق المؤسسات الدولية التي يشرفون عليها تارة أخرى! وليس الصراع بين الهند وباكستان على كشمير وموقف الصليبية منها ببعيد.

ذلك فوق إقامة واحتضان وكفالة الأوضاع التي تتولى سحق حركات الإحياء والبعث الإسلامية في كل مكان على وجه الأرض. وإلباس القائمين بهذه الأوضاع أثواب البطولة الزائفة ودق الطبـول من حولهم، ليستـطيعوا الإجهاز على الإسلام، في زحمـة الضجيج العـالمي حول الأقـزام الذين يلبسون أردية الأبطال!.

هذا موجز سريع لما سجله الواقع التاريخي طوال أربعة عشر قرناً؛ من مواقف اليهودية والصليبية تجاه الإسلام؛ لا فرق بين هذه وتلك؛ ولا افتراق بين هذا المعسكر وذاك في الكيد للإسلام، والحقد عليه، والحرب الدائبة التي لا تفتر على امتداد الزمان. .

وهذا ما ينبغي أن يعيه الواعون اليوم وغداً؛ فلا ينساقوا وراء حركات التمييع الخادعة أو المخدوعة، التي لا تنظر إلى متـابعة تقـريرات القـرآن عامة؛ ودون متابعة للواقع التاريخي الذي يصدق هذا كله ـ ثم تتخذ من ذلك

وسيلة لتخدير مشاعر المسلمين تجاه المعسكرات التي تضمر لهم الحقد وتُبَيِّت لهم الكيد، الأمر الذي تبذل فيه هذه المعسكرات جهدها، وهي بصدد الضربة الأخيرة الموجهة إلى جذور العقيدة.

إن هذه المعسكرات لا تخشى شيئاً أكثر مما تخشى الوعي في قلوب العصبة المؤمنة ـ مهما قَلَّ عددها وعدتها ـ فالذي يُنِيمُون هذا الوعي هم أعدى أعداء هذه العقيدة. ويكون بعضهم من الفرائس المخدوعة؛ ولكن ضررهم لا يقل ـ حينئذ ـ عن ضرر أعدى الأعداء، بل إنه ليكون أشدّ أذى وضراً.

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم.. فلنقرأه إذن على بصيرة:

﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين. ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً وهو يُدعى إلى الإسلام؟ والله لا يهدي القوم الظالمين، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ [الصف: ٦ ـ ٩]..

﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم. والله متمّ نوره ولو كره الكافرون﴾..

وهذا النص القرآني يعبر عن حقيقة، ويرسم في الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء! فهي حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم: **﴿هذا سحر مبين﴾**.. ويدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد. وهي صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل!.

﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾.. وصدق وَعْد الله. أَتَمّ نوره في حياة الرسول ـ ﷺ ـ فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج

الإلهي المختار. صورة ذات معالم واضحة وحدود مرسومة، تترسمها الأجيال لا نظرية في بطون الكتب، ولكن حقيقة في عالم الواقع، وأَتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً يحبونه، ويجاهدون في سبيله، ويرضى أحدهم أن يُلْقَى في النار ولا يعود إلى الكفر. فتمت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء. وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين. وتنبض وتنتفض قائمة ـ على الرغم من كل ما جُرّد على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد. لأن نور الله لا يمكن أن تُطفئه الأفواه، ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد، في أيدي العبيد! وإن خُيل للطغاة الجبارين، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بلغوا هذا الهدف البعيد!.

لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين، فكان من الحتم أن يكون: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون﴾**..

وشهادة الله لهذا الدين بأنه «الهدى ودين الحق» هي الشهادة. وهي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة. ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله. ظهر في ذاته كَدِين، فما يثبت له دين آخر في حقيقته وفي طبيعته. فأما الديانات الوثنية فليست في شيء في هذا المجال. وأما الديانات الكتابية فهذا الدين خاتمتها، وهو الصورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها، فهو هي، في الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان.

ولقد حُرفت تلك الديانات وشُوِّهَتْ ومُزقت وزِيدَ عليها ما ليس منها، ونقصت من أطرافها، وانتهت لحال لا تصلح معه لشيء من قيادة الحياة. وحتى لو بقيت من غير تحريف ولا تشويه فهي نسخة سابقة لم تشمل كل مطالب الحياة المتجددة أبداً، لأنها جاءت في تقدير الله لأمد محدود.

فهذا تحقيق وَعْد الله من ناحية طبيعة الدين وحقيقته. فأما من ناحية

واقع الحياة، فقد صدق وعد الله مرة، فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله فدانت له معظم الرقعة المعمورة في الأرض في مدى قرن من الزمان. ثم زحف زحفاً سلمياً بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقية، حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا في إبان الحركات الجهادية الأولى. . وما يزال يمتد بنفسه دون دولة واحدة ـ منذ أن قضت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الخلافة الأخيرة في تركيا على يدي «البطل» الذي صنعوه! ـ وعلى الرغم من كل ما يُرصد له في أنحاء الأرض من حرب وكيد، ومن تحطيم للحركات الإسلامية الناهضة في كل بلد من بلاد الإسلام على أيدي «أبطال» آخرين من صنع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على السواء.

وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يُؤدّيها، ظاهراً بإذن الله على الدين كله تحقيقاً لوعد الله، الذي لا تقف له جهود العبيد المهازيل، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل!.

ولقد كانت تلك الآيات حافزاً للمؤمنين المخاطَبين بها على حمل الأمانة التي اختارهم الله لها بعد أن لم يَرعها اليهود والنصارى. . وكانت تطميناً لقلوبهم وهم يُنفذون قَدَر الله في إظهار دينه الذي أراده ليظهر، وإن هم إلا أداة. . وما تزال حافزاً ومطمئناً لقلوب المؤمنين الواثقين بوعد ربهم، وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وَعْد الله مرة أخرى في واقع الحياة. بإذن الله.

لوثة يهودية:

لقد مكر اليهود مكراً شديداً، وبذروا في كل وقت وحين الشرَّ والفساد في كل نواحي الحياة، حتى إنهم استغلوا لوثة الإلحاد التي ظهرت في الجاهلية الحديثة التافهة في إنكار الله أبشع استغلال!.

والحقيقة أن هناك شَكّاً كثيراً فيما إذا كان هؤلاء المُلحدون يُصدّقون أنفسهم! فأغلب الظن أنها بدأت مناورة في وجه الكنيسة؛ ثم استغلها اليهود لرغبتهم في تدمير قاعدة الحياة البشرية الأساسية، كي لا يبقى على وجه الأرض من يقوم على هذه القاعدة غيرهم ـ كما يقولون في بروتوكولات حكماء صهيون ـ ومن ثم تَنهار البشرية وتَقع تحت سيطرتهم؛ بما أنهم هم وحدهم الذين سيحافظون على مصدر القوة الحقيقية الذي توفره العقيدة!.

واليهود ـ مهما بلغ من كَيدهم ومكرهم ـ لا يملكون أن يغلبوا الفطرة البشرية، التي تجد في قراراتها الإيمان بوجود إله ـ وإن كانت تضلّ فقط في معرفة الإله الحق بصفاته الحقة؛ كما أنها تنحرف بعدم توحيد سلطانه في حياتها، فتوصم بالشرك والكفر على هذا الأساس ـ ولكن بعض النفوس تفسد فطرتها، وتتعطل فيها أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية. وهذه النفوس وحدها هي التي يمكن أن يفلح معها كيد اليهود الذي يستهدف نفي وجود الله فيها. ولكن هذه النفوس المعطلة الفطرة ستظل قليلة وشاذة في مجموع البشر في كل زمان.. والملحدون الحقيقيون على ظهر الأرض لا يتجاوزون بضع ملايين في الاتحاد السوفيتي[1] والصين من بين مئات الملايين الذين يحكمهم المُلحدون بالحديد والنار؛ على الرغم من الجهد الناصب خلال سبعين عاماً في نزع الإيمان بكل وسائل التعليم والإعلام!.

إنما يفلح اليهود في حقل آخر. وهو تحويل الدين إلى مجرد مشاعر وشعائر. وطرده من واقع الحياة. وإيهام المعتقدين به أنهم يمكن أن يظلوا مؤمنين بالله؛ مع أن هناك أرباباً أخرى هي التي تُشرع لحياتهم من دون الله!

---

(١) لقد كان الاتحاد السوفيتي هو القوة العظمى التي كان يرهبها الغرب الرأسمالي ويحسب حسابها، وكان هذا العملاق الشديد قد تشكل بقوة الحديد والنار على الإلحاد وإنكار الله، ومحاولة خنق الفطرة الإنسانية.. ولكن الله ـ سبحانه ـ محيط بهم وبمكرهم، وإن كان مكرهم من القوة والتأثير أبعد شيء عن تصور الضعف والزوال.. ثم سقط ومال؛ وتبدد وزال، وتبعثر وتمزق، وكأنه وهمٌ قد مضى وخيال قد زال..

ويصلون بذلك إلى تدمير البشرية فعلاً، حتى مع وَهْمها أنها لا تزال تؤمن بالله.

وهم يستهدفون الإسلام ـ قبل كل دين آخر ـ لأنهم يعرفون من تاريخهم كله، أنهم لم يغلبهم إلا هذا الدين يوم كان يحكم الحياة. وأنهم غالبو أهله طالما أهله لا يحكمونه في حياتهم؛ مع تَوَهّمهم أنهم ما يزالون مسلمين مؤمنين بالله! فهذا التخدير بوجود الدين ـ وهو غير موجود في حياة الناس ـ ضروري لتنجح المؤامرة.. أو يأذن الله فيصحو الناس!.

وأحسب ـ والله أعلم ـ أن اليهود الصهيونيين، والنصارى الصليبيين، كليهما، قد يئسوا من هذا الدين في هذه المنطقة الإسلامية الواسعة في إفريقية وآسيا وأوروبا كذلك.. يئسوا من أن يُحولوا الناس فيها إلى الإلحاد ـ عن طريق المذاهب المادية ـ كما يئسوا كذلك من تحويلهم إلى ديانات أخرى عن طريق التبشير أو الاستعمار. ذلك أن الفطرة البشرية بذاتها تنفر من الإلحاد وترفضه حتى بين الوثنيين ـ فضلاً على المسلمين ـ وأن الديانات الأخرى لا تجرؤ على اقتحام قلب عَرَف الإسلام، أو حتى وَرِثَ الإسلام!.

وأحسب ـ والله أعلم ـ أنه كان من ثمرة اليأس من هذا الدين أن عَدَل اليهود والصهيونيون والنصارى الصليبيون عن مواجهة الإسلام جَهرة عن طريق الشيوعية أو عن طريق التبشير؛ فعدلوا إلى طرائق أخبث، وإلى حبائل أمكر.. لجأوا إلى إقامة أنظمة وأوضاع في المنطقة كلها تَتَزَيّا بزي الإسلام؛ وتتمسح في العقيدة؛ ولا تنكر الدين جملة.. ثم هي تحت هذا الستار الخادع، تنفذ جميع المشروعات التي أشارت بها مؤتمرات التبشير وبروتوكلات صهيون، ثم عجزت عن تنفيذها كلها في المدى الطويل!.

إن هذه الأنظمة والأوضاع ترفع راية الإسلام ـ أو على الأقل تعلن احترامها للدين ـ بينما هي تحكم بغير ما أنزل الله؛ وتقصي شريعة الله عن الحياة؛ وتحل ما حرم الله؛ وتنشر تصورات وقيماً مادية عن الحياة والأخلاق

تدمر التصورات والقيم الإسلامية؛ وتسلط جميع أجهزة التوجيه والإعلام لتدمير القيم الأخلاقية الإسلامية، وسحق التصورات والاتجاهات الدينية؛ وتنفذ ما نصت عليه مؤتمرات المبشرين وبروتوكولات الصهيونيين، من ضرورة إخراج المرأة المسلمة إلى الشارع، وجعلها فتنة للمجتمع، باسم التطور والتحضر ومصلحة العمل والإنتاج، بينما ملايين الأيدي العاملة في هذه البلاد متعطلة لا تجد الكفاف! وتيسر وسائل الانحلال وتدفع الجنسين إليها دفعاً بالعمل والتوجيه.. كل ذلك وهي تزعم أنها مسلمة وأنها تحترم العقيدة! والناس يتوهمون أنهم يعيشون في مجتمع مسلم، وأنهم هم كذلك مسلمون! أليس الطيبون منهم يُصلون ويصومون؟ أما أن تكون الحاكمية لله وحده أو أن تكون للأرباب المتفرقة، فهذا ما قد خدعتهم عنه الصهيونية والصليبية والتبشير والاستعمار والاستشراق وأجهزة الإعلام الموجهة؛ وأفهمتهم أنه لا علاقة له بالدين. وأن المسلمين يمكن أن يكونوا مسلمين، وفي دين الله؛ بينما حياتهم كلها تقوم على تصورات وقيم وشرائع وقوانين ليست من هذا الدين!.

وإمعاناً في الخداع والتضليل، وإمعاناً من الصهيونية العالمية والصليبية العالمية في التخفي، فإنها تُثير حروباً مصطنعة ـ باردة أو ساخنة ـ وعداوات مصطنعة في شتى الصور، بينها وبين هذه الأنظمة والأوضاع التي أقامتها والتي تكفلها بالمساعدات المادية والأدبية، وتحرسها بالقوى الظاهرة والخفية، وتجعل أقلام مخابراتها في خدمتها وحراستها المباشرة!.

تثير هذه الحروب المصطنعة والعداوات المصطنعة، لتزيد من عمق الخدعة؛ ولتبعد الشبهة عن العملاء، الذين يقومون لها بما عجزت هي عن إتمامه في خلال ثلاثة قرون أو تزيد؛ من تدمير القيم والأخلاق؛ وسحق العقائد والتصورات؛ وتجريد المسلمين في هذه الرقعة العريضة من مصدر قوتهم الأول.. وهو قيام حياتهم على أساس دينهم وشريعتهم.. وتنفيذ

المخططات الرهيبة التي تضمنتها بروتوكولات الصهيونيين ومؤتمرات المبشرين؛ في غفلة من الرقباء والعيون!.

فإذا بقيت بقية في هذه الرقعة لم تجز عليها الخدعة؛ ولم تستسلم للتخدير باسم الدين المزيف؛ وباسم الأجهزة الدينية المسخرة لتحريف الكَلِمَ عن مواضعه؛ ولوصف الكفر بأنه الإسلام؛ والفسق والفجور والانحلال، بأنه تطور وتقدم وتجدد.. إذا بقيت بقية كهذه سُلّطت عليها الحرب الساحقة الماحقة؛ وصُبَّت عليها التهم الكاذبة الفاجرة وسُحقت سحقاً، بينما وكالات الأنباء العالمية وأجهزة الإعلام العالمية خرساء صماء عمياء!!!.

ذلك بينما الطيبون السذّج من المسلمين يحسبون أنها معركة شخصية، أو طائفية، لا علاقة لها بالمعركة المشبوبة مع هذا الدين؛ ويروحون يشتغلون في سذاجة بلهاء - من تأخذه الحمية للدين منهم وللأخلاق - بالتنبيه إلى مخالفات صغيرة، وإلى منكرات صغيرة، ويحسبون أنهم أَدُّوا واجبهم كاملاً بهذه الصيحات الخافتة.. بينما الدين كله يُسحق سحقاً، ويُدمَّر من أساسه؛ وبينما سلطان الله يغتصبه المغتصبون، وبينما الطاغوت - الذي أُمروا أن يكفروا به - هو الذي يحكم حياة الناس جملة وتفصيلاً!.

إن اليهود الصهيونيين والنصارى الصليبيين يفركون أيديهم فرحاً بنجاح الخطة وجواز الخدعة؛ بعدما يئسوا من هذا الدين أن يقضوا عليه مواجهة باسم الإلحاد، أو يُحَوّلُوا الناس عنه باسم التبشير، فترة طويلة من الزمان..

إلا أن الأمل في الله أكبر؛ والثقة في هذا الدين أعمق، وهم يمكرون والله خير الماكرين. وهو الذي يقول: **﴿وقد مكروا مكرهم، وعند الله مكرهم، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال، فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله، إن الله عزيز ذو انتقام﴾** [إبراهيم: ٤٦، ٤٧]..

أما مواجهة دليل الخلق ودليل الحياة للوثنة الإلحاد، فهي مواجهة قوية، لا يجد الملحدون إزاءها إلا المماحلة والمغالطة والالتواء:

إن وجود هذا الكون ابتداء، بهذا النظام الخاص، يستلزم ـ بمنطق الفطرة البديهي وبمنطق العقل الواعي على السواء ـ أن يكون وراءه خالق مُدبّر. فالمسافة بين الوجود والعدم مسافة لا يملك الإدراك البشري أن يعبرها، إلا بتصور إله ينشيء ويخلق ويوجد هذا الوجود.

والذين يُلحدون يعمدون إلى هذه الفجوة فيريدون ملأها بالمكابرة. ويقولون: إنه لا داعي لأن نفترض أنه كان هناك عَدَم قبل الوجود!.. ومن هؤلاء فيلسوف عرف بأنه فيلسوف «الروحية» المدافع عنها في وجه «المادية». وعلى هذا الأساس ربما أشاد به بعض المخدوعين من «المسلمين» واستأنسوا بأقواله لدينهم كأنما ليؤازروا دين الله بقول عبد من العبيد.. هذا الفيلسوف هو «برجسون» اليهودي!!.

إنه يقول: إن هذا الوجود الكوني لم يسبقه عدم! وإن فرض الوجود بعدم العدم ناشيء من طبيعة العقل البشري الذي لا يستطيع أن يتصور إلا على هذا النحو. فإلى أي منطق يا ترى يستند برجسون إذن في إثبات أن الوجود الكوني لم يسبقه عدم؟.

إلى العقل؟ لا. فإن العقل ـ كما يُقرر ـ لا يمكن أن يتصور إلا وجوداً بعد عدم! إلى وحي من الله؟ إنه لا يدعي هذا. وإن كان يقول: إن حدس المتصوفة كان دائماً يجد إلهاً ولا بد أن نصدق هذا الحدس المطرد (الإله الذي يتحدث عنه برجسون ليس هو الله إنما هو الحياة!).. فأين المصدر الثالث الذي يعتمد عليه (برجسون) إذن في إثبات أن الوجود الكوني غير مسبوق بعدم؟ لا ندري!.

إنه لا بد من الالتجاء إلى تصور خالق خَلَق هذا الكون.. لا بد من الالتجاء إلى هذا التصور لتعليل مجرد وجود الكون.. فكيف إذا كان الحال

أنه لم يوجد مجرد وجود. ولكنه وجد محكوماً بنواميس لا تتخلف، محسوباً فيها كل شيء بمقاييس، قصارى العقول البشرية أن تدرك أطرافاً منها، بعد التدبر الطويل[1]! كذلك نشأة هذه الحياة. والمسافة بينها وبين المادة ـ أياً كان مدلول المادة ولو كان هو الإشعاع ـ لا يمكن تعليلها إلا بتصور وجود إله خالق مدبر. يخلق الكون بحالة تسمح بنشأة الحياة فيه؛ وتسمح بكفالة الحياة أيضاً بعد وجودها.

والحياة الإنسانية بخصائصها الباهرة درجة فوق مجرد الحياة. . وأصل الإنسان من طين. . أي من مادة هذه الأرض وجنسها؛ ولا بد من إرادة مُدبّرة تمنحه الحياة، وتمنحه خصائص الإنسان عن قصد واختيار.

وكل المحاولات التي بذلها الملحدون لتعليل نشأة الحياة باءت بالفشل ـ عند العقل البشري ذاته ـ منها محاولة (ديورانت) المتفلسف الأمريكي للتقريب بين نوع الحركة الذي في الذرة ـ وهو يسميه درجة من الحياة ـ ونوع الحياة المعروف في الأحياء. وذلك في جهد مستميت لملء الفجوة بين المادة الهامدة والحياة النابضة. بقصد الاستغناء عن الإله الذي ينشىء الحياة في الموات!.

ولكن هذه المحاولة المستميتة لا تنفعه ولا تنفع الماديين في شيء. . ذلك أنه إن كانت الحياة صفة كامنة في المادة، ولم يكن وراء هذه المادة قوة أخرى ذات إرادة، فما الذي يجعل الحياة التي في المادة الكونية تتبدى في

---

(١) الهاربون من الكنيسة التي كانت تستطيل على رقاب العباد باسم «الله» كان كل هَمّهم في القرن الثامن عشر والتاسع عشر إنكار «الله». ولكن «المثاليين» منهم اختاروا «العقل» ليعطوه كل خصائص الله وصفاته! و«الماديين» منهم اختاروا «الطبيعة» ليعطوها هذه الخصائص والصفات، لأنه لم يكن لهؤلاء ولا لهؤلاء مفرّ من افتراض شيء فوق الطاقة البشرية يَكلُون إليه تفسير هذا الوجود وما يجري فيه. . وفقط كانوا يريدون إنكار الله. ليخلصوا من قبضة الكنيسة!!. .

درجات بعضها أرقى وأعقد من بعض؟ فتتبدى في الذرة مجرد حركة آلية غير واعية. ثم تتبدى في النبات في صورة عضوية. ثم تتبدى في الأحياء المعروفة في صورة عضوية أكثر تركيباً وتعقيداً.. ما الذي جعل المادة ـ المتضمنة للحياة كما يقال ـ يأخذ بعضها من عنصر الحياة أكثر مما يأخذ البعض الآخر، بلا إرادة مُدبّرة؟ ما الذي جعل الحياة الكامنة في المادة، تختلف في مدارجها المترقية؟!.

إننا نفهم هذا التفاوت يوم نُقدّر أن هناك إرادة مدبرة هي التي تصنع ذلك مختارة مريدة. فأما حين تكون المادة (الحية ولنفرض ذلك!) هي وحدها، فإنه يستحيل على العقل البشري ذاته أن يفهم هذا التفاوت أو يُعلّله!.

إن التعليل الإسلامي لانبثاق الحياة في درجاتها المتفاوتة هو الحل الوحيد لهذه الظاهرة التي لا تعللها المحاولات البائسة!.

وإذ كنا ـ في هذا الكتاب ـ لا نخرج عن المنهج القرآني، فإننا لا نمضي أكثر من هذا في مواجهة لوثة الإلحاد ببراهين الخَلْق والتدبير والحياة.. فالقرآن الكريم لم يجعل قضية وجود الله قضيته. لعلم الله أن الفطرة ترفض هذه اللوثة. إنما القضية هي قضية توحيد الله، وتقرير سلطانه في حياة العبد؛ وهي القضية التي تتوخاها آيات القرآن..

القسم الخامس

مِن قَصَص الرحمان

المحتوى | ص

قصة أصحاب الجنة

المحتوى	ص

قصة أصحاب الجنــة

يضرب القرآن الكريم مثلاً على عاقبة البطر، وهم أصحاب الجنة ـ جنة الدنيا ـ تهديداً للمتعالين في الأرض. تهديداً لكبراء قريش المُعتَزّين بأموالهم وأولادهم ممن لهم مال وبنون؛ الكائدون للدعـوة بسبب ما لَهم من سلطان محدود.

﴿إنا بلوناهم كما بَلَونا أصحابَ الجنة إذ أقسموا ليُصْرِمُنَّها مُصبحين، ولا يستثنـون، فطاف عليهم طـائف من ربك وهم نـائمـون، فـأصبحت كـالصّريم، فَتَنادَوا مُصبحـين أن اغدوا عـلى حرثكم إن كنتم صـارمـين، فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخُلَهـا عليكم مسكين، وغَـدَوْا على حَـرْد قادرين، فلما رأَوْها قالوا إنا لضالون﴾ [القلم: ١٧ ـ ٢٦].

هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى للمعاندين المفسدين الذين أعطاهم الله المال والبنين ليبتليهم فيما أتاهم. فلم ينهضوا بحق العطاء، ولم يوفوا بحق المال، وكان البطر الذي يبطره المكذبون.

يضرب القرآن لكفار قريش مثلاً بقصة يبدو أنها كانت معروفة عندهم، شائعة بينهم، ويُذكّرهم فيها بعاقبة البطر بالنعمة، ومنع الخير والاعتداء على حقوق الآخرين؛ ويشعرهم أن ما بين أيديهم من نِعَم المال والبنين، إنما هو ابتلاء لهم كما ابتُلي أصحاب هذه القصة، وأن له ما بعده، وأنهم غير متروكين لما هم فيه. فهو الابتلاء، وهي الفتنة.. فهؤلاء فيما أنعم الله عليهم من متاع

الدنيا لاهين، وفي هذه الغمرة غافلين مشغولين بما هم فيه، ولا يشعرون بما وراء المال والبنين من مصير ومآل وشر مستطير.

لقد غفل هؤلاء الغافلون لأن قلوبهم في غمرة عن الحق، لم يمسسها نوره المحيي، لانشغالها عنه، واندفاعها في تيه الدنيا، حتى تفيق على الهول، لتلقى العذاب الأليم، وتلقى معه اللوم والتوبيخ..

﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين، ولا يستثنون. فطاف عليهم طائف من ربك وهم نائمون، فأصبحت كالصّريم..﴾ [القلم: ١٧ - ٢٠]..

وهذه القصة قد تكون متداولة ومعروفة، ولكن السياق القرآني يكشف عما وراء حوادثها من فعل الله وقدرته، ومن ابتلاء وجزاء لبعض عباده. ويكون هذا هو الجديد في سياقها القرآني.

ومن خلال نصوصها وحركاتها نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه في تفكيرها وتصورها وحركتها بأهل الريف البسطاء السُّذَّج. ولعلّ هذا المستوى من النماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة، الذين كانوا يعاندون ويجحدون، ولكن نفوسهم ليست شديدة التعقيد، إنما هي أقرب إلى السذاجة والبساطة!

والقصة من ناحية الأداء تمثل إحدى طرق الأداء الفني للقصة في القرآن؛ وفيه مفاجآت مشوّقة، كما أن فيه سخرية بالكيد البشري العاجز أمام تدبير الله وكيده. وفيه حيوية في العرض حتى لكأن السامع - أو القارىء - يشهد القصة حية تقع أحداثها أمامه وتتوالى[١]. فلنحاول أن نراها كما هي في سياقها القرآني:

ها نحن أولاء أمام أصحاب الجنة - جنة الدنيا لا جنة الآخرة - وها هم أولاء يُبيتون في شأنها أمراً. لقد كان للمساكين حظّ من ثمر هذه الجنة - كما

---

(١) يراجع فصل: القصة في القرآن في كتاب «التصوير الفني في القرآن».

تقول الروايات[١] ـ على أيام صاحبها الطيّب الصالح. ولكن الورثة يريدون أن يستأثروا بثمرها الآن، وأن يحرموا المساكين حظَّهم.. فلننظر كيف يصنعون.. ولننظر كيف تجري الأحداث إذن!

﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة. إذ أقسموا ليَصْرِمُنَّها مصبحين ولا يستثنون﴾[٢]..

لقد وصف القرآن الكريم الحديقة حين كانت تُستغَلّ في الخير وفي إعطاء المساكين حقهم بـ ﴿الجنة﴾.

جنّةٌ دانية القطوف، فوّاحة الزهر، أشجارها موقرة الثمار، صاحبها

---

(١) ذكر بعض السلف أن هؤلاء ـ أصحاب الجنة ـ كانوا عرباً من أهل اليمن، قال سعيد بن جبير: كانوا من قرية يقال لها: ضروان على ستة أميال من صنعاء، وقيل: كانوا من أهل الحبشة وكان أبوهم قد خلَّف لهم هذه الجنة وكانوا من أهل الكتاب من بني إسرائيل..
وسواء كان أصحاب الجنة عرباً من اليمن أم من غير العرب من بني إسرائيل، فذلك أمر لا تتعلق به عبرة، والقرآن الكريم يطوي مثل هذه الجزئيات ـ كما عرفنا من قبل..
قال ابن كثير في التفسير:
«وقد كان أبوهم يسير في الجنة سيرة حسنة فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ويدخّر لعياله قوت سنتهم ويتصدّق بالفاضل. فلما مات وورثه بنوه قالوا: لقد كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ولو أنَّا منعنَاهم لنوفر ذلك علينا فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية رأس المال والربح والصدقات. فلم يبقَ لهم شيء..».

(٢) «أي ليقطعن ثمارها مبكرين قبل أن يراهم أحد من ذوي الحاجات، ولا يستثنون، وأكثر المفسرين يفسرون هذه الآية الكريمة ﴿ولا يستثنون﴾ أي أنهم لا يستثنون في يمينهم فلم يقولوا إن شاء الله، ولكن الذين يبدو لنا في تفسير الآية ـ والله أعلم ـ أنهم عزموا على أن لا يتركوا شيئاً من ثمار جنتهم للفقراء والمساكين فقد أقسموا أن يقطعوا جنتهم ويجذوها مصبحين دون أن يستثنوا من ثمرها شيئاً، إن الاستثناء في اليمين أي قول ـ إن شاء الله ـ اصطلاح متأخر عن العهد المكي: وهو أمر لا يُحمد عليه هؤلاء، فما داموا قد عزموا على أن يمنعوا ذوي الحقوق حقوقهم، وأقسموا على ذلك، حتى لو مضوا أن يقولوا إن شاء الله فإن ذلك ليس مكرمة لهم وليس لهم فيه مثوبة» [الشيخ الدكتور فضل عباس: القصص القرآني: ٤١٩ ـ ٤٢٠].

شاكر لأنعم الله، يعرف حقّ الله فيما أعطاه، يَفِدُ إليه جماعات الفقراء على ما عوّدهم من كل عام، فيعطيهم نصيبهم وافراً . .

ولكن أصحاب الجنة الذين ورثوا هذه النعمة بعد موت أبيهم، هيمنت عليهم الأنانية وسيطر عليهم الشحّ . . لقد قرَّر رأيهم على أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر، دون أن يستثنوا منه شيئاً للمساكين. وأقسموا على هذا، وعقدوا النية عليه وباتوا بهذا الشرّ فيما اعتزموه . . ولندع أولئك بعد أن أقسموا ليصرمنها مصبحين تداعبهم أحلامهم الشريرة وخيالاتهم المريضة الفاسدة . . فلندعهم في غفلتهم أو في كيدهم الذي بيَّتوه . . فماذا عن الجنة؟ ولننظر ماذا يجري من ورائهم في بهمة الليل وهم لا يشعرون. فإن الله ساهر لا ينام كما ينامون، وهو يدبِّر لهم غير ما يدبرون، جزاء على ما بيّتوا من بطر بالنعمة ومنع للخير، وبُخل بنصيب المساكين المعلوم . . إن هناك مفاجأة تتم في خفية. وحركة لطيفة كحركة الأشباح في الظلام. والناس نيام:

﴿**فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصّريم**﴾[1] . . وهم لا يشعرون . .

لقد علم الله سوء نيتهم، ودخيلة نفوسهم، وسمع قولهم، وما انعقد عليه رأيهم من حرمان المسكين وأكل نصيب السائل والمحروم . . فأرسل الله إلى جنتهم طائفاً أقلع نبتها وأسقط ثمرها وأحرق أعوادها وأوراقها . . ﴿**فطاف عليها طائف من ربك**﴾ . . «بهذه العبارة المصورة الموحية، لقد أحاط بها هذا الطائف، هذه الجائحة السماوية فلم تترك منهم سرباً واحداً، بل لم تترك شجرة بل فرعاً بل ثمرة واحدة، كل هذا وهم نائمون! فأصبحت سوداء أحرقها الإعصار»[2] . .

فلندع الجنة وما أَلَمَّ بها مؤقتاً لننظر كيف يصنع المبيتون الماكرون.

---

(١) كأنها مقطوعة الثمار. فقد ذهب الطائف الذي طاف عليها بكل ثمرها!

(٢) القصص القرآني ٤٢٠.

ها هم أولاء يَصحون مبكرين كما دبروا! وهم لا يدرون ما أصاب جنتهم في ظلام الليل المبهم.. ها هم أولاء ينادي بعضهم بعضاً لينفذوا ما اعتزموا: **﴿فتنادوا مصبحين: أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين﴾** [القلم: ٢١، ٢٢]..

يذكر بعضهم بعضاً ويوصي بعضهم بعضاً، ويحمس بعضهم بعضاً!

وهكذا فلما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى قطع الثمار.. «كُلٌّ ينادي الآخر يستعجله قبل أن يفوت الأوان كأن كلاً منهم ينادي صاحبه ينادي بعضهم بعضاً أن اغدوا على حرثكم، واخرجوا مبكرين إن كنتم صارمين..»(١).

ثم يمضي السياق في السخرية منهم، فيصورهم منطلقين، يتحدثون في خفوت، زيادة في إحكام التدبير، ليجتنوا الثمر كله لهم، ويحرموا منه المساكين!

﴿فانطلقوا وهم يتخافتون: أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾!!! [القلم: ٢٣، ٢٤]..

وكأنما نحن الذين نسمع القرآن أو نقرؤه نعلم ما لا يعلمه أصحاب الجنة من أمرها.. أجل فقد شهدنا تلك اليد الخفية اللطيفة تمتد إليها في الظلام، فتذهب بثمرها كله. ورأيناها كأنما هي مقطوعة الثمار بعد ذلك الطائف الخفي الرهيب!

فلنمسك أنفاسنا إذن، لنرى كيف يصنع الماكرون المبيتون.

إن السياق ما يزال يسخر من الماكرين المبيتين: **﴿وغدوا على حرد قادرين﴾**!

أجل إنهم لقادرون على المنع والحرمان.. حرمان أنفسهم على أقل تقدير!!

---

(١) المصدر السابق.

يقول الشيخ الدكتور فضل عباس[1]: «وينطلق القوم يمشون على عجل وهم يشعرون أنهم متخلفون كأنما يريدون أن يستدركوا ما فاتهم، هذا ما تعطيه هذه الكلمة الكريمة: ﴿**انطلقوا**﴾ أما قوله تعالى: ﴿**وهم يتخافتون**﴾ فما أكثر ما تعطيه هذه الجملة وما تلقيه من ظلال فعلى الرغم من أنهم وحدهم سائرون في الصباح لا يسمعهم أحد ومع ذلك فهم يتسارّون فيما بينهم، ولا داعي لهذا الإسرار ولا حاجة له، ولكن القرآن يصور لنا هذا الجشع، وتلك الأنانية، وصدق الله ﴿**قل: لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً**﴾ [الإسراء: ١٠٠] كانوا يتخافتون فيما بينهم أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين، وغدوا على حرد قادرين، صاروا في غدوتهم متوهمين أنهم قادرون على حرد: أي قادرون على منع الفقراء والمساكين من أن يدخلوا جنتهم»..

ها هم أولاء يفاجأون. فلننطلق مع السياق ساخرين. ونحن نشهدهم مفجوئين: ﴿**فلما رأوها: إنا لضالون**﴾ [القلم: ٢٦][2].. ها هم أولاء على أسوار الحديقة يتساءلون: أهذه جنتنا وقد تركناها بالأمس مُورقة الشجر، دانية القطوف! ما هذه جنتنا الموقرة بالثمار! ما نظن أن هذه حديقتنا وإننا لضالون.. لقد ضللنا إليها الطريق! هذه الحديقة خاوية على عروشها، خَلَتْ من ثمارها اليانعة؛ ولكن أليست هذه المعالم الكثيرة تدل على أن المكان هو المكان.. ها هم أولاء يعودون فيتأكدون:

﴿**بل نحن محرومون**﴾ [القلم: ٢٧].. وهذا هو الخبر اليقين!

---

(١) القصص القرآني ٤٢٠.

(٢) قال ابن كثير: أي فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها وهي على الحالة التي قال الله عز وجل قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة لا ينتفع بشيء منها فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق ولهذا قالوا: ﴿**إنا لضالون**﴾ أي قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها، قاله ابن عباس وغيره، ثم رجعوا عما كانوا فيه وتيقنوا أنها هي فقالوا: ﴿**بل نحن محرومون**﴾ أي بل هي هذه ولكن لا حظّ لنا ولا نصيب.

إنهم ليسوا تائهين إذن. . فهم مُعاقَبُون محرومون. .

عاقبة المكر والكيد:

والآن وقد حاقت بهم عاقبة المكر والتبييت، وعاقبة البطر والمنع، يتقدَّم أوسطهم وأعقلهم وأصلحهم ـ ويبدو أنه كان له رأي غير رأيهم. ولكنه تابعهم عندما خالفوه وهو فريد في رأيه، ولم يُصرّ على الحق الذي رآه فناله الحرمان كما نالهم(1). ولكنه يذكرهم ما كان من نصحه وتوجيهه:

﴿**قال أوسطهم: ألم أقل لكم: لولا تُسبِّحُون**﴾(2)؟! [القلم: ٢٨]. .

والآن فقط يسمعون للناصح بعد فوات الأوان. ويدرك القوم عِظَم وفداحة ما حَلَّ بهم من العقوبة الإلهية. . ها هم أولاء يعترفون بظلمهم، وأي ظلم أعظم من أن يمنع صاحب الحق حقه، وأي ظلم أعظم من الجحود والكفر بالنعمة التي وَهَبها الله. .

﴿**قالوا: سبحان ربنا، إنا كُنَّا ظالمين**﴾ [القلم: ٢٩]. .

---

(١) يقول الدكتور فضل عباس في هذا الموضوع: «. . وهنا يتدخل أعقلهم كأنما يريد أن يذكرهم بما كان منه ويقررهم بما حدث، ألَم أقل لكم لولا تسبحون، ألَم أنهكم عما عزمتم عليه من منع ذوي الحقوق حقوقهم، ألَم أحثكم على أن تذكروا الله، ولكن أي أثر لذلك القول، إنه لم يترك أثراً حتى في نفس صاحبه، كان لزاماً على صاحب هذا القول أن يستمر على قوله، أن يستمر على نصيحته وأن يدوم على معارضته، ولكنه ضعف أمامهم، وصاحب الحق حري به أن لا يضعف، ومَن يدري لو أن صاحبهم هذا كان ذا إصرار وحزم وعزيمة لاستطاع أن يقيهم شرَّ ما حلَّ بهم، والقرآن الكريم يبين لنا تلك الحقائق لتكون لنا فيها العبرة فلا نضعف عن حق نوقن به، كما ضعف ذلكم الرجل الذي تحرك في نفسه وازع الخير ولكنه لم يستطع أن يقاوم الهواجس والوساوس في داخله كما ضعف عن مقاومة إصرار أخوته على باطلهم وجشعهم. .» [القصص القرآني: ٤٢١].

(٢) قيل معناه: ألم أقل لكم لولا تسبحون؟ أي فهلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم.

لقد مضى قَدَر الله في الظالمين، ومضت سنّته تعالى في المسرفين، وبقي الأسف والأسى يعصر القلوب، ويحرق العروق، ويحزن النفوس.. ها هم أولاء أصحاب الجنة في شرود وذهول وهلع..

ويصور القرآن الكريم هذا الذهول الذي أصابهم بعد أن حَلَّ بهم البلاء ﴿**فأقبلَ بعضهم على بعض يتلاومون**﴾! [القلم: ٣٠]..

وكما يتنصَّل كل شريك من التبعة عندما تسوء العاقبة، ويتوجه باللوم إلى الآخرين.. ها هم أولاء يصنعون: ﴿**فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون**﴾!.

ولكن التلاوم لا يجدي شيئاً.. ثم ها هم أولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعاً بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة. عسى أن يغفر الله لهم، ويعوضهم من الجنة الضائعة على مذبح البطر والمنع والكيد والتدبير: ﴿**قالوا: يا ويلنا! إنا كنا طاغين. عسىٰ ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون**﴾ [القلم: ٣١، ٣٢]..

وقبل أن يسدل السياق الستار على المشهد الأخير نسمع التعقيب: ﴿**كذلك العذاب. ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون**﴾ [القلم: ٣٣]..

يقول الإمام ابن قيم الجوزية: «إن الله سبحانه أخبر عن أهل الجنة الذين بلاهم مما بلاهم به.. فقد كان للمساكين حقٌّ في أموالهم، إذا جدّوا نهاراً، بأن يلتقط المساكين ما يتساقط من الثمر، فأرادوا أن يجدوا[1] ليلاً ليسقط ذلك الحق، ولئلا يأتيهم مسكين، وأنه عاقبهم بأنه أرسل على جنتهم طائفاً وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. وذلك لما تحيّلوا على إسقاط نصيب المساكين بأن يصرموها مصبحين قبل مجيء المساكين، فكان في ذلك عبرة لكل محتال على إسقاط حق من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده[2].

---

(١) الجداد: بفتح الجيم وكسرها صرام النخل وهو قطعها.
(٢) إغاثة اللهفان ١/٣٥٨.

ولهذا عاقب الله سبحانه وتعالى مَن احتال على إسقاط نصيب المساكين وقت الجداد بحرمانهم الثمرة كلها[1]. مع أن جداد النخل عمل مباح أي وقت شاء صاحبه لكن لما قصد به أصحابه في الليل الفقراء عاقبهم الله تعالى بإهلاكه. ثم قال: ﴿**ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون**﴾ [القلم: ٣٣]..

ثم جاءت السُّنة بكراهة الجداد بالليل، لكونه ذريعة إلى هذه المفسدة. ونصَّ عليه غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل وغيره»[2].

روى ابن كثير في التفسير: «عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إياكم والمعاصي إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هُيىء له» ثم تلا رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿**فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم**﴾.. قد حرموا خير جنتهم وعوقبوا بنقيض قصدهم فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية رأس المال والربح والصدقة فلم يبقَ لهم شيء. قال الله تعالى: ﴿**كذلك العذاب**﴾ أي هكذا عذاب مَن خالف أمر الله وبخل بما أتاه الله وأنعم به عليه ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات وبدّل نعمة الله كفراً ﴿**ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون**﴾ أي هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق».

وقد ورد في حديث رواه الحافظ البيهقي من طريق جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جدّه أن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن الجذاذ بالليل والحصاد بالليل»[3].

وكذلك الابتلاء بالنعمة. فليعلم المشركون أهل مكة ومَن وراءهم إلى يوم القيامة ﴿**إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة**﴾ ولينظروا ماذا وراء

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٣٧٢.
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٩٣.
(٣) تفسير ابن كثير ٤/٤٠٦ ـ ٤٠٧.

الابتلاء. . ثم ليحذروا ما هو أكبر من ابتلاء الدنيا وعذاب الدنيا: ﴿**ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون**﴾!

إنه تهديد رعيب مخيف لَمن يبخلون بما آتاهم الله من فضله، ويحسبون أن هذا البخل خير لهم، يحفظ لهم أموالهم ومزارعهم وتجارتهم، فلا تذهب بالإنفاق. . والقرآن الكريم يقرر بأن ما منعوه من حق المساكين سيطوقونه يوم القيامة ناراً: ﴿**ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شرٌّ لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة. ولله ميراث السموات والأرض. والله بما تعملون خبير**﴾ [آل عمران: ١٨٠]. .

تهديد مفزع. . والتعبير يزيد هذا المنع والبخل شناعة حين يذكر أنهم ﴿**يبخلون بما آتاهم الله من فضله**﴾. . فهم لا يبخلون بمال أصيل لهم. فقد جاءوا إلى هذه الحياة لا يملكون شيئاً. . ولا جلودهم. . ! فآتاهم الله من فضله فأغناهم. حتى إذا طلب إليهم أن ينفقوا ﴿**من فضله**﴾ شيئاً لم يذكروا فضل الله عليهم. وبخلوا بالقليل، وحسبوا أن في منعه خيراً لهم. وهو شر فظيع. . وهم ـ بعد هذا كله ـ ذاهبون وتاركوه وراءهم. . فهذا المال إلى أمد قصير. ولا يبقى لهم منه إلا القدر الذي أنفقوه ابتغاء مرضاته، فيبقى مدخراً لهم عنده، بدلاً من أن يطوقهم إياه يوم القيامة! يطوقهم ناراً تلظى. . ويا لسوئها من أطواق! أطواق تحيط بالظالمين. أطواق تحرق وتشوي. . أطواق من نار حامية تنفذ بحميمها إلى الجسد كله. وهو يوافق ما أسلفوا وما قدموا. يوافق ما بخلوا به من فضل الله. .

إن صورة عذابهم في الآخرة بما منعوا من حق الفقراء والمساكين لمرعبة ومخيفة. . مشهد من المشاهد التصويرية المروعة يوم القيامة.

إن مجرد تصور مشهد عملية العذاب ليطيل الحزن والخوف في الخيال والحس. . هذه الأموال وهذه الكنوز تنتهي يوم القيامة إلى نار يحمى عليها في جهنم يطوقون بها. ثم ها هي ذي معدّة لتزيد في عذاب صاحبها الذي كان يلتذ بكنزِها ومنعها أن تذهب في سبيل الله! ها هي ذي

الجباه والجنوب والظهور والصدور تكوى بنار تلظّى لا يصلاها إلا الأشقى الذي مَنَع حق ربّه الأعلى **﴿ومَن يبخل فإنما يبخل عن نفسه. والله الغني وأنتم الفقراء﴾** [محمد: ٣٨]..

فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور، يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد، يوم يُحشرون مجردين من كل ما يملكون. فلا يجدون إلا ذلك الرصيد المذخور. فإذا بخلوا بالبذل، فإنما يبخلون على أنفسهم، ويحرمونها بأيديهم!

وهكذا يسوق القرآن الكريم إلى قريش هذه التجربة، تجربة أصحاب الجنة من واقع البيئة، ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط ـ سبحانه ـ بين سنّته في الغابرين وسنّته في الحاضرين؛ ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم. وفي الوقت ذاته يشعر المؤمنين بأن ما يرونه على المشركين ـ من كبراء قريش ـ من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله، له عواقبه، وله نتائجه. وسُنته أن يبتلي بالنعمة كما يبتلي بالبأساء سواء. فأما المتبطرون المانعون للخير المخدوعون بما هم فيه من نعيم، فذلك كان مثلاً لعاقبتهم: **﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾**..

إنه لموقف التهديد ببطش الله. ولو ترى إذ وُقِفوا على النار، ورأوا عاقبة البخل والمنع والاستكبار.. هناك ينطلق الندم المخزي المؤلم، فتنتَابهم الحسرة في الموقف المهين الذليل في تفريطهم بحق الله في الحياة الدنيا **﴿قالوا: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾** [الأنعام: ٣١]..

إن القرآن الكريم يعرض الموقف المؤلم، والمشهد الحزين في رنة الحسرة المهينة، وكأنما يأخذ بالسامع ليقفه أمام المشهد يتملاه، وأمام الموقف يتدبره.. يقفه بحركة تكاد الألفاظ تجسمها!

هناك في الدنيا وَقَف أصحاب الجنة ـ جنة الدنيا ـ حين منعوا حق المساكين، وقفوا بعد أن أصبحت كالصريم فقالوا في ضيق خانق **﴿إنا**

لمحرومون﴾. . ثم **﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾**. .

إنها صور في مشاهد فيها ناس يتحركون. . يتألمون ويتحسرون، يراهم السامع. . يشاهدهم ويتملاهم في حزنهم وضيقهم. . إنها صور تمثل الواقع الصادق في مواجهة الحق، وواقع النفس البشرية. .

وأما المتقون الحذرون فلهم عند ربهم جنات النعيم: **﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾** [القلم: ٣٤]. .

والذي يعطي ويتقي فهو الأسعد في مقابل ذلك المنوع الأشقى الذي ضلَّ عن هدي ربه الأعلى. . **﴿فأنذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى﴾** [الليل: ١٤، ١٨]. .

لقد بيَّن الله في كتابه العزيز مَن هو الأتقى: **﴿الذي يؤتي ماله يتزكى﴾**. . الذي ينفق ماله ليتطهر بإنفاقه، لا ليرائي به ويستعلي، ينفقه تطوعاً لا رداً لجميل أحد، ولا طلباً لشكران أحد، وإنما ابتغاء وجه ربه خالصاً. . ربه الأعلى. .

هؤلاء المتقون. الشديدي الحساسية برقابة الله لهم، ورقابتهم هم لأنفسهم، وقد وصف الله حالهم مع الناس، وحالهم مع المال، فهو مما يليق بالمحسنين **﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾** [الذاريات: ١٩]. .

فهم يجعلون نصيب السائل الذي يسأل فَيُعطَى، ونصيب المحروم الذي يسكت ويستحيي فيحرم. يجعلون نصيب هذا وهذا حقاً مفروضاً في أموالهم. وهم متطوعون بفرض هذا الحق غير المحدود.

إنها سمة المتقين وصورة المحسنين. . إنها الصفحة المقابلة يرسمها القرآن الكريم، فريق آخر، فريق مستيقن لا يخرص، تقي لا يتبجح؛ مستيقظ يعبد ويعطي، ولا يقضي العمر في غمرة وغفلة وذهول.

ثم ماذا ينتظر هذا الأتقى، الذي يُؤتي ماله ابتغاء وجه ربه الأعلى؟ إن الجزاء الذي يطالع القرآن به الأرواح المؤمنة هنا عجيب.. ﴿ولسوف يرضى﴾ [الليل: ٢١]..

إنه الرضى ينسكب في قلب هذا الأتقى. إنه الرضى يغمر روحه. إنه الرضى يفيض على جوارحه. إنه الرضى يشيع في كيانه. إنه الرضى يندي حياته..

ويا له من جزاء! ويا لها من نعمة كبرى!

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والصدقة برهان..»(١)، والبرهان: هو الشُّعاع الذي يلي وجه الشمس، ومنه سُمِّيت الحجة القاطعة برهاناً، لوضوح دلالتها على ما دلت عليه، فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان، وطيب النفس بها علامة على وجود حلاوة الإيمان وطعمه، كما في حديث عبد الله بن معاوية الغاضِري، عن النبي ـ ﷺ ـ: «ثلاث مَن فعلهن فقد طعم طعمَ الإيمان: مَن عَبَد الله وحده، وأنه لا إلّه إلا الله، وأدّى زكاة ماله طيِّبةً بها نفسُه رافدةً عليه في كل عام»(٢).

وقريباً منه حديث أبي الدرداء فيمن أدى زكاة ماله طيبة بها نفسُه، قال: وكان يقول: «لا يفعل ذلك إلا مؤمن». وسبب هذا أن المال تُحبُّه النفوس، وتبخل به، فإذا سمحت بإخراجه للّه عز وجل دَلَّ على صحة إيمانها بالله ووعده ووعيده.

وهكذا تحسم قصة أصحاب الجنة قضية الإنفاق في سبيل الله،

---

(١) من حديث أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الطُّهور شطر الإيمان...» رواه مسلم. انظر «جامع العلوم والحكم» الحديث الثالث والعشرون.

(٢) خرّجه أبو داود في «السنن» (١٥٨٢) رجاله ثقات لكن في سنده انقطاع بين يحيى بن جابر وبين جبير بن نفير، ورواه موصولاً بسند صحيح الطبراني في «الصغير» (٥٥٥)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» ١/ ٢٦٩، ومن طريقه البيهقي ٤/ ٩٥ـ ٩٦.

وسنّته سبحانه وتعالى، وعذابه الشديد لمَن يمنع حق الفقراء والمساكين! ألم تَرَ كيف فعَل ربُّ العالمين بهؤلاء الذين منعوا حقّ عباد الله المساكين. إن بطشه لشديد مروّع مفزع. إنها سنّة الله لا تدع ريبة لمستريب. ثم ينتظرهم عذاب جهنم وعذاب الحريق **﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾** [القلم: ٣٣]..

والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله تهلكة للنفس بالشح، وتهلكة للجماعة بالعجز والضعف **﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** [البقرة: ١٩٥]..

وقال تعالى: **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون. وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾** [آل عمران: ٩٢]..

وقد فَقِهَ المسلمون معنى هذا التوجيه الإلهي، وحرصوا على أن ينالوا البر ـ وهو جماع الخير ـ بالنزول عما يحبون، وببذل الطيب من المال، سخية به نفوسهم في انتظار ما هو أكبر وأفضل.

عن أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طَلْحة رضي الله عنه أكثرَ الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أَحبُّ أموالِهِ إليه بَيْرحَاء، وكان مُسْتَقْبِلَةَ المسجد[1]، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يَدخُلُها وَيَشربُ من ماء فيها طيِّب[2]. قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: **﴿لن تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا مما تُحبُّون﴾** قام أبو طلحة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله إن الله تعالى أنزل عليك: **﴿لن تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا مما تُحبُّون﴾** وإن أَحَبَّ مالي إليَّ بَيْرحَاء، وإنَّها صدقةٌ للَّه تعالى أرجو بِرَّها[3] وذُخْرَهَا عند الله تعالى، فَضَعْها يا رسول الله حيثُ أراكَ الله، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ:

---

(١) أي: المسجد النبوي.

(٢) أي: عذب.

(٣) برها: أي: خيرها، و «ذُخْرها» أي: أجرها عند الله تعالى.

«بخٍ[5]! ذلك مالٌ رابح، ذلك مال رابح[2]، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقسَّمَها أبو طلحة في أقارِبه، وبني عَمِّه»[3].

وفي الصحيحين أن عمر رضي الله عنه قال: «يا رسول الله لم أصب مالاً قط، هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر. فما تأمرني به؟ قال: «احبس الأصل، وسبل الثمرة»..

وعلى هذا الدرب سار الكثيرون منهم يلبون توجيه ربهم الذي هداهم إلى البر كله، يوم هداهم إلى الإسلام. ويتحررون بهذه التلبية من استرقاق المال، ومن شح النفس، ومن حب الذات؛ ويصعدون في هذا المرتقى السامق الوضيء أحراراً خفافاً طلقاء..

هؤلاء الذين قال الله عنهم في التعليق على قصة أصحاب الجنة: **﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾** [القلم: ٣٤]..

إنها جنات النعيم التي أعدها الله لعباده المؤمنين في ظلال دانية.. في ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون.. في راحة وخلو بال من الهموم والمشاغل، وفي طمأنينة على ما هم فيه من نعيم.

إنها الجنة في نعيمها: لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً سلاماً، ولهم رزقهم فيها بُكرةً وعشياً.. الجو سكون وهدوء يغمره السلام والاطمئنان والودّ والرضى والنجاء والسمر بين الأحباء.. جنة عالية. عالية في ذاتها رفيعة مجيدة. ثم هي عالية الدرجات. وعالية المقامات. إنه جو السعادة

---

(١) «بَخٍ» بفتح الموحدة وسكون المعجمة وقد تنون مع التثقيل والتخفيف، بالكسر والرفع: كلمة تقال لتفخيم الأمر والإعجاب به.

(٢) قوله ـ ﷺ ـ: «مال رابح» رُوي في الصحيحين «رابح» و «رايح» بالباء الموحدة والياء المثناة، أي: رايحٌ عليك نَفْعه، و «بيرحاء» حديقة نخل، وروي بكسر الباء وفتحها.

(٣) البخاري ٣/٢٥٧، ومسلم (٩٩٨).

والنعيم. حياتهم كلها سلام. يرف عليها السلام. ويشيع فيها السلام في ذلك الجو الناعم الآمن.

هذا هو مقام المتقين: الذين آمنوا وعملوا الصالحات. جزاء ما أطاعوا أمر الله العظيم الرحيم. هؤلاء هم الذين أحسنوا. أحسنوا الاعتقاد، وأحسنوا العمل، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم، فهم ﴿**مما رزقناهم ينفقون**﴾ [البقرة: ٣].. فهم يوقنون بأن المال الذي في أيديهم هو من رزق الله لهم، ومن هذا اليقين بنعمة الرزق ينبثق البر بضعاف الخلق. فهم ينفقون مما أتاهم الله من فضله على عيال الخالق من الفقراء والمساكين. وهذه الصفة ذات قيمة في الحياة الإنسانية، كما أنها ذات قيمة كبيرة جداً في ميزان الله في الدنيا والآخرة. فهؤلاء الذين اهتدوا وكذلك أفلحوا.. أولئك هم المتقون الأبرار المقربون..

كرامة في سحابة

إن المؤمن يعترف ابتداءً بأن المال الذي في يده هو من رزق الله له، لا من خَلق نفسه ﴿**إن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين**﴾ [الذاريات: ٥٨]..

ومن هذا الاعتراف بنعمة الرزق ينبثق البرّ بالإنفاق، البرّ بضعاف الخَلق، والتضامن بين عيال الخالق، والشعور بالآصرة الإنسانية، وبالأخوة البشرية، والإنفاق في سبيل الله هو جماع الخير ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون. وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم**﴾ [آل عمران: ٩٢]..

وقيمة هذا كله تتجلى في تطهير النفس من الشح البغيض ﴿**ومَن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ [الحشر: ٩، التغابن: ١٦]..

إن الله سبحانه يخاطب القلوب التي خلقها، فهو يعلم أحوالها، ويعرف مداخلها، ويطّلع على خوافيها، فهو يناديهم ﴿**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**﴾ [الحديد: ٧]، ومع الدعوة لمسة موحية. فهم لا ينفقون من عند أنفسهم. إنما ينفقون مما استخلفهم الله فيه من ملكه. وهو الذي ﴿**له ملك السموات والأرض**﴾ فهو الذي استخلف بني آدم جُملة في شيء من ملكه.. استخلف جيلاً منهم بعد جيل..

وتقوم دعوة الإنفاق هذه في استثارة الخجل والحياء من الله، وهو المالك الذي استخلفهم وأعطاهم، فماذا هم قائلون حين يدعوهم إلى إنفاق شيء مما استخلفهم فيه ومما أعطاهم؟! وفي نهنهة النفوس عن الشح والله هو المعطي،

ولا نفاد لما عنده، فماذا يمسكهم عن البذل والعطاء، وما في أيديهم رهن بعطاء الله؟!

ولكنه لا يكلهم إلى هذا التذكير وما يثيره من خجل وحياء، ومن سماحة ورجاء. إنما يخاطبهم بمؤثر جديد.

يخجلهم من كرم الله ويطمعهم في فضله: ﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾ [الحديد: ٧]..

فكيف يتخلف متخلف عن الإيمان والبذل في مواجهة هذا الكرم والفضل؟

وعلى هذا الدرب سارت القصة النبوية توجّه المسلمين إلى البر وتلبية نداء الله للتحرر من استرقاق المال، ومن شح النفس، ومن حبّ الذات، توجّه المؤمنين إلى الصعود في هذا المرتقى السامق الوضيء أحراراً خفافاً طلقاء..

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بينما رجلٌ في فلاة من الأرض فسمعَ صوتاً في سحابة: اِسْقِ حديقة[١] فلان، فَتَنَحَّى ذلك السَّحاب فأفرغَ ماءه في حَرَّةٍ[٢]، فإذا شَرْجَةٌ[٣] من تلك الشِّراج قد استوعَبَتْ ذلك الماء كُلَّهُ فَتَتَبَّع الماء، فإذا رجل قائمٌ في حديقة يُحَوِّلُ الماء بمِسْحاتِهِ[٤]، فقال له: يا عبد الله ما اسْمُك؟ قال: فلان للإسم الذي سَمِعَ في السحابة، فقال له: يا عبد الله لِمَ سألتني عن اسمي. قال: «سمعتُ في السَّحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسْقِ حديقة فلان لاسْمِكَ فما تصنعُ فيها؟ قال: أَمَا إذ قُلْتَ

---

(١) الحديقة: البستان إذا كان عليه حائط.

(٢) الحَرَّة: بفتح الهاء المهملة، وتشديد الراء: الأرض التي بها حجارة سود.

(٣) الشرجة: بفتح الشين المعجمة، وإسكان الراء بعدها جيم، وتاء تأنيث، مسيل الماء إلى الأرض السهلة.

(٤) المِسْحاة، بالسين والحاء المهملتين: هي المجرفة من الحديد.

هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدَّقُ بِثُلُثِه وآكُلُ أنا وعيالي ثُلُثَهُ، وأردُّ ثُلُثَه»(١).

نقف أمام هذه القصة النبوية وقفة المتهيب أن نمسّها بأسلوب بشري قاصر؛ المتحرج أن نشوبها بتعبير بشري فان.. إن القلب المفتوح الموصول بالله لتصيبه رهبة ورعشة وهو يتملى قَدَرَ الله سبحانه وعلمه.. يتصور علم الله مُطلاً على هذا العبد الذي لا يعلم سِرَّه إلا خالقه: «بينما رجل بفلاة، فَسَمِعَ صوتاً في سحابة..».

تبدأ القصة النبوية بهذا العرض المُشَوِّق:

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بينما رجل في فلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة..».

مقدمة سريعة ولكنها مثيرة ومشوقة، تعطينا فكرة عن واحد من رجال القصة «رجل في فلاة» وفي فلاة من الأرض إشارة إلى ملابسات المكان، فالرجل وحيد في الخلاء الواسع المنبسط، الخالي من الناس والحركة، يلفّه سكون هادىء، وصمت مديد.

وهكذا ترسم المقدمة صورة لحالة الموقف الذي تنطلق منه البداية، ولذلك فالتمهيد يبدأ بـ«بينما» الظرفية حيث تفيد بيان الحالة التي كان عليها الرجل قبل أن يسمع الصوت، وهي بداية تمهيدية فنية، إذ أنها حددت الموقف الذي بنى الحدث فوق أرضيته، وكان يمكن أن تأتي البداية هكذا: «سمع رجل صوتاً في سحابة وهو بفلاة من الأرض». ولو أتت هكذا لفقدت الحيوية الفنية المشوقة والمعبرة، ولخسر بناء القصة فرصة كبيرة تجعله أكثر عطاءً وتأثيراً(٢).

إن البداية بالحدث مباشرة، تعطي القصة حيوية معينة، بما تقدمه للقارىء أو المستمع من مشوقات تجعله يُقبل عليها بأحاسيسه كلها، فإذا هي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٢٨٨، والمسند (صادر) ٢/٢٩٦.
(٢) القصص في الحديث النبوي: ١٠٩.

تدع للحسّ أن يتأثر عن طريق الخيال ما شاء له التأثر. «فسمع صوتاً في سحابة». .

إن الألفاظ النبوية المعدودة ترسم الصورة المطوّلة للحدث، وتزيد الصورة حركة وحياة، بالصوت المسموع في الكون الصامت في هدوء وسكون، فنحس سريان الصوت في هذا الكون العريض يجري في عروقنا برحمة، فتأنس به الروح على هينة واتئاد.

ويدعك المشهد أن تتخيل سحابة تتماوج في حركة منتظمة، تمشي في الفضاء، تحمل الخير والبشرى، قد أرسلها رب السماء مجري السحاب، يسوقها صوت رخي رحيم. .

وبعد ذلك يبدأ الحدث المثير من هذا المشهد المعجز البديع، الذي يخاطب الحس والوجدان. .

«فسمع صوتاً في سحابة: اِسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرّة، فانتهى إلى الحرة فإذا هو في أذناب شراج[1]، وإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت الماء كله، فتبع الماء، فإذا رجل في حديقته يحول الماء بمِسْحاته، فقال له: يا عبد الله؟ ما اسمك؟ قال: فلان، بالإسم الذي سمعَ في السحابة فقال له: يا عبد الله لِمَ تسألني عن اسمي؟ قال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اِسقِ حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟؟».

ثم تنسحب النهاية لتأخذ مكانها في الأعماق، فتلامس برحمة الكوامن الخفية للخير في النفس الإنسانية. .

«قال: أما إذا قلتَ هذا، فإني أنظر إلى ما خرج منها فأتصدّق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأرد فيها ثلثه».

---

(١) الشرج: مسيل الماء من الحرة إلى السهل.

إنه التفسير لهذه الظاهرة الكونية، وهو التعبير عن هذه السنّة الإلهية الثابتة. إنه يعطي للقصة معنىً جديداً يدعم مضمونها ويجعله أكثر ثراء، كما أنه يلقي تأثيراً أكثر عمقاً وصدقاً عن مفهوم المال في النفس الإنسانية.

ففي هذه النهاية يتركز موطن العبرة، والمغزى الحقيقي وراء القصة، وتأتي تفسيراً يكشف حقيقة الأحداث التي سبقت، ويبين الدافع الذي كان وراءها، فهذا الرجل صاحب الحديقة، كان رجلاً صالحاً، مجاهداً على نفسه وعلى عياله، متصدقاً على الفقراء والمساكين، فهو ينظر إلى ما يخرج منها فيتصدق بثلثه، ويأكل هو وعياله ثلثاً، ويرد فيها الثلث الباقي..

إن هذه القصة تعد بأحداثها وتفاصيلها ذات مصدر واحد، هو مصدر الوحي، فهي من قبيل الغيب الذي كشف الله عنه لنبيه - ﷺ - ومادتها من أحداث التاريخ الإنساني الواقعة فيما مضى من سالف الدهر، وقد اختارها الرسول - ﷺ - مادة في التربية والتوجيه الإسلامي.

لقد رسمت القصّة الواقعية الإنسانية في نموذج بشري حقق واقعه الخيّر الفاضل، فهي توضح مسيرته والتزامه، وتعمقها في النفوس.

ونجد لوناً من تصوير الشخصية.. فصاحب الحديقة تعرضه القصة العبد الرحيم، الشاكر، المعترف للّه بفضله ونعمته عليه[1].. ﴿**ومَن شكر فإنما يشكر لنفسه**﴾ [النمل: ٤٠]، فينال من الله زيادة النعمة، وحسن المعونة ﴿**وإذ تأذَّن ربكم: لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾ [إبراهيم: ٧]..

إنها سنّة الله ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.. والقصة تصور هذه الحقيقة الكبيرة: حقيقة زيادة النعمة بالشكر.

.. إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية. فالخير يُشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة.

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ١٤٢، ١٧٧، ٣٥٤.

وذلك الشكر لا تعود على الله عائدته. فالله غني بذاته محمود بذاته، لا بحمد الناس وشكرهم على عطاياه، والشكر تعود عوائده على العبد الشاكر ﴿ومَن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومَن كفر فإن الله غني حميد﴾ [لقمان: ١٤]. .

والله يعجبه الشكر من عباده، ويحبه لهم، ويجزيهم عليه خيراً. . ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ [الزمر: ٧]. .

لقد خضعت القصة خضوعاً تاماً للغَرض الديني في الموضوع، وطريقة العرض وإدارة الحوادث، ومع ذلك فهذا الخضوع الديني لم يمنع مطلقاً من أن تبرز الخصائص الفنية في عرض القصة التي بدت بوضوح تخاطب حاسة الوجدان الدينية في أعماق النفس الإنسانية.

وأسلوب القصة تبرز فيه البساطة والوضوح، وهي البساطة التي تموج بالحياة والحركة، والاندفاع التي تجعله أكثر تأثيراً وجاذبية.

ومما ينبغي أن يلتفت النظر إليه في استعمال الألفاظ والعبارات، فالمضمون حاضر دائماً في ضمير اللفظة أو العبارة، والكلمات ترسم صوراً متحركة، تتملاها العين والأذن، ويعيش فيها الحس والخيال، فيهيج الوجدان صادقاً بحركة مخلصة إلى عمل الخير والبر والإحسان.

ويعتبر الغموض ذا أهمية بالغة في تشييد بناء القصة، ودفعه إلى النمو، فهو يسري في جسم القصة، مثيراً في الأحداث شكلاً من التنويع والتفاوت الذي يجعل المتلقي يتنقل بين مستويات مختلفة تستهويه من ناحية، وتثير تطلعاته واستكشافه من ناحية أخرى. . «بينما رجل في فلاة، فسمع صوتاً في سحابة: اِسقِ حديقة فلان».

ولا شك أن الرجل فوجىء بهذا الصوت الذي يسمعه في هذا السحاب ينادي: «اسقِ حديقة فلان»، وكذلك كان هذا الحدث مفاجئاً لنا أيضاً بوصفنا متابعين للقصة. ومفاجأته تأتي من غرابته وندرته، فهو حدث غير مألوف ذلك الصوت الذي يتردد في وسط السحابة، كما أن المفاجأة هنا تحمل في تضاعيفها شيئاً من الغموض يكمن في السر الذي ينطوي عليه هذا الحدث العجيب،

فلا بد أن هناك أسباباً ودوافع وراء هذا الصوت الذي يدعو باسم فلان من الناس، مما دفع بهذا الرجل إلى تتبع هذا الماء في منسوباته لكي يصل إلى كشف السر، وإزالة الغموض.

ومن أجل التأثير الشديد تعرض القصة الحدث المثير في ذاته حين فوجىء الرجل بالصوت «اسقِ حديقة فلان»، فالصوت مثير في ذاته، باعث على العجب، وتزداد إثارته، حين يستجيب ذلك السحاب للنداء فيتنحى ويفرغ ماءه.. وإذا الماء يتجه إلى حديقة الرجل صاحب الإسم..

إن القصة تثير الانتباه الشديد لأمر عظيم تتجلّى أصداءه في هذا الكون الفسيح، وذلك في عرض مشوق، بتحويل مجرى الأحداث في تصعيد المشكلة، وظهور المفاجآت والخوارق التي تُثيرُ كوامن الخير للانطلاق في الواقع الإنساني.

فالمشكلة تبدو بشكل واضح محوراً يوجه حركة القصة، ويدفع بها إلى التطور والاستمرار في إبداع مواقف جديدة.

نجد الرجل الذي كان بالفلاة أمام مشكلة، حدث غير عادي، فهو يسمع باسم واحد من الناس في سحابة يقال لها: اتجهي إلى حديقة فلان فاسقيها، وهذه المشكلة تدفعه إلى تصرف خاص، وإلى حركة في اتجاه معين، وهو تطور في أحداث القصة تبدعه المشكلة، حيث تثير عند هذا الرجل التطلع المثير إلى معرفة وراء هذا الأمر غير العادي، فيحرص على أن يضع يده على السبب فإذا به يتتبع الماء، حتى دخل حديقة رجل وجده قائماً في حديقته يصرف الماء بمِسْحَاته.

ويجب أن نلاحظ هنا أنه لولا تلك المشكلة التي دفعت بالرجل إلى متابعة الماء لمعرفة السر لما كان للقصة أن تعرض لهذا المشهد الجديد «مشهد الحديقة وصاحبها يصرف الماء فيها»، ثم ما كان من حوار بين الرجل وصاحب الحديقة، اكتشف به، واكتشفنا معه السرّ وراء هذا الحدث، فكل هذه التفاصيل والامتدادات في جسم القصة إنما جاء بسبب «المشكلة» وبدافع منها..

والحوار كان له دور بارز في القصة، يأتي في صورة طبيعية من خلال الموقف وبدافع منه، فهو يؤدي وظيفته في كشف مغزى القصة، والإبانة عن غرضها الذي ترمي إليه كما نجد في الحوار بين الرجل الذي سمع الصوت في السحابة، وصاحب الحديقة. .

«فقال له: يا عبد الله؟ ما اسمك؟

قال: فلان، للإسم الذي سمع في السحابة.

فقال له: يا عبد الله! لِمَ تسألني عن اسمي ؟

فقال: إني سمعتُ صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسقِ حديقة فلان لاسمك. . فماذا تصنع فيها؟

قال: أما إذا قلتَ هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأردّ فيها ثلثه».

نلاحظ أن الحوار ينتهي بالكشف عن غرض القصة، وهو تعميق أهمية الصدقة في ميزان الحياة الإنسانية، وبيان فضلها، وعظمها عند الله، كما تعبر عن ذلك هذه القصة النبوية العجيبة.

لقد كانت التربية هي الجانب البارز في القصة، التربية بالقدوة، والتعليم عن طريق النموذج الذي تعرضه، لقد رسم النبي ـ ﷺ ـ النموذج في شخصية واقعية إنسانية وبرز ذلك في الحوار السابق الذي يدل المسلمين على فضل الصدقة، ودور صاحب المال في بنيان المجتمع الإسلامي[1].

لقد حرص النبي ـ ﷺ ـ على أن يضمن القصة قيمة جليلة من قيم الإسلام، ويلقي الضوء على مفهوم المال وأهميته في حياة الناس، وقوته في حركة الحياة. وتصوّره القصة في طابع سلوكي أخلاقي في التعامل بين صاحب المال وأفراد المجتمع.

«. . . فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأردّ فيها ثلثه».

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ١٩٧، ٢١١، ٢١٣، ٣٠٦، ٣١١، ٤٤٨.

وتُعمّق القصة في الوجدان الإنساني أهمية الصدقة وفضلها الهائل الواسع في ميزان الكون العظيم، الصدقة بمفهومها العام، الذي ينطلق من التصور الإسلامي للمال.

إنها المشاركة الطوعية لصاحب المال في حياة المجتمع، وحياة الناس.. إنها دعوة واضحة البيان لإقامة مجتمع نظيف متوازن ﴿**كي لا يكون دُوَلَة بين الأغنياء منكم**﴾ [الحشر: ٦] والذين: ﴿**يطعمون الطعامَ ـ على حُبّه ـ مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً**﴾ [الدهر: ٧].

والإنسان مخلوق بفطرة حب الخير لذاته ﴿**وإنه لِحُبِّ الخير لشديد**﴾ [العاديات: ٧] مفطور على حبّ الحيازة والضنّ بما يملك: ﴿**قُل: لو أنتم تملكون خزائن رَحمةَ ربي، إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق**﴾ [الإسراء: ١٠٠].. ﴿**وأحضرت الأنفس الشحَّ**﴾ [النساء: ١٢٨]..

إن الإسلام يتعامل مع النفس البشرية بواقعها كله. فهو يحاول أن يرفع هذه النفس إلى أعلى مستوى تهيئها له طبيعتها.. ولكنه في الوقت ذاته لا يتجاهل حدود هذه الطبيعة والفطرة؛ ولا يحاول أن يقسرها على ما ليس في طاقتها.. فالإنسان شديد الحب لنفسه.. هذه فطرته. وهذا طبعه. ما لم يخالط الإيمان قلبه. فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه، وتفيض الرحمة من قلبه الرقيق الرفيق، يتجه إلى الله يطلب رضاه.

والقصة ترسم صورة الإنسان المؤمن، الذي لا يجحد نعمة ربه، ولا ينكر جزيل فضله، فيعترف بفضل الله شكراً واقعياً صادقاً، فهو يبدل أثرته وشحّه إيثاراً ورحمة.

إن الإنسان ـ بغير إيمان ـ حقير صغير. حقير المطامع، صغير الاهتمامات. ومهما كبرت أطماعه. واشتد طموحه، وتعالت أهدافه، فإنه يظل مرتكساً في حمأة الأرض، مقيداً بحدود العمر، سجيناً في سجن الذات.. لا يطلقه ولا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض، وأبعد من الحياة الدنيا،

وأعظم من الذات، عالم يصدر عن الله الأزلي، ويعود إلى الله الأبدي، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء.

والقصة تعبر بعمق عن مفهوم المال في الإسلام، والنبي - ﷺ - يذكر عن صاحب الحديقة ما يفعله في خراج أرضه طواعية..

«فإني أنظر ما خرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأرد فيها ثلثه».

إنه سلوك ونظام على الأرض، يقابله عطاء الله الذي لا تنفذ خزائنه.. سلوك الفرد أشبه شيء بالوكيل في هذا المال؛ وأن حيازته له إنما هي وظيفة أكثر منها امتلاكاً، ﴿**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**﴾[(١)].

إن القصة النبوية ترسم المشهد الإنساني للمؤمن، الذي يضع قدميه على الأرض، وينطلق بروحه إلى السماء. في لحظة واحدة لا تفارق فيها روحه جسده؛ ولا ينفصل إلى جسد على الأرض وروح في السماء!

وهي تصور البر والعطف والخير في مشهد وضيء، تنظر إليه القلوب الظامئة في أيام الجاهلية الجائرة حين تبسط على الناس مفاهيم الظلم والظلام، ومقاييس الشيطان والأوهام، وقيم الترف الظاهرة الجوفاء..

إن الجاهلية وهي تركز أعلامها في النفوس، ترسخ أوتاد الشح في الأعماق، فإذا النفس البشرية - وهي تملك ما تملك - تخشى نفادها ونقصها، فهي شحيحة تمنع الرحمة، وتبخل بالمال على المحاويج الضعاف؛ وإن كانت تبذل في مجالات المفاخرة الشيء الكثير الكثير. فهي العبودية للدرهم والدينار. يقول الرسول - ﷺ -: «بئس عبد الدرهم والدينار».

إنها دعوة للبذل والإنفاق. فأما عباد الله: فَهُمْ الذين يبذلون بأريحية نفس، ورحمة قلب، وخلوص نية، واتجاه إلى الله بالعمل فكانوا الواحة الظليلة في هذه الهاجرة الشحيحة.

---

(١) انظر العدالة الاجتماعية في الإسلام، (فصل سياسة المال).

إن الإنسان ـ حين يخلو قلبه من الإيمان ـ لا يدرك حكمة البذل والإنفاق. ولا حقيقة القيم في ميزان الله. . فإذا عمر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ما هنالك. . وخفّت في ميزانه الأعراض الزهيدة. وتيقظ للحقيقة الكونية في بيان الرسول ـ ﷺ ـ في الصوت الذي يقول للسحابة: «اسقِ حديقة فلان» وعلاقته بفعل صاحب الحديقة «فأنظر ما خرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأرد فيها ثلثه».

إنه الإيمان والاطمئنان إلى قدر الله **﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾** [النساء: ١٢٧]؛ فهو غير مجهول، وهو غير ضائع، وهو مسجل عند الله. ولن يضيع خير سُجّل عند الله[1]، فهو سبحانه الذي **﴿ينشيء السحاب الثقال﴾** [الرعد: ١٢]. .

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن تصدّق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يُربِّي أحدكم فُلُوَّه حتى تكون مثل الجبل».

رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه. والفُلُوّ: هو: المهر سمي بذلك لأنه فلّ عن أمه: أي فصل وعزل.

ـ وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما منكم من أحد إلا سَيُكَلِّمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أَيمَنَ منه فلا يرى إلا ما قدّم، فينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم، فينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة».

وفي رواية: «مَن استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل» رواه البخاري ومسلم.

ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا عائشة استتري من النار، ولو بشقٍّ تمرة فإنها تَسُدُّ من الجائع مَسدَّها من الشبعان» رواه أحمد بإسناد حسن.

ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «كل امرىءٍ في ظل صدقتِه حتى يُقْضَى بين الناس». قال يزيد: فكان أبو الخير مَرْثَد لا يُخطئه يوم إلا تصدَّقَ فيه بشيء، ولو بِكَعْكَة أو بَصَلة» رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «سَبقَ درهم مئة ألف درهم، فقال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: رجل له مال كثير أَخذ من عُرضِهِ مئة ألف =

وهذه القصة تطوف بالقلب البشري في مجالات وآفاق وآماد وأعماق، فهي ليست ألفاظاً وعبارات، إنما هي صور تلمس الوجدان الإنساني..
فصاحب الحديقة الذي ينفق في سبيل الله بنظام رتيب، يقابله في السماء سحاب ثقال يحمل الخير العميم إليه، وباسمه، على مرأى ومسمع أهل السماء والأرض.

إن هذا التقابل فيه كل المعاني العميقة التي تشير إليه القصة، فهي ليست سرد بارد في ألفاظ. وإنما هي ترسم الحقيقة الكبيرة.. ترسم الصورة الناطقة لمعنى الإنفاق.. الصورة التي يتجاوب فيها هذا الكون بكل ما فيه من عجائب. فالأمر بيد الله، ورزقه ما له من نفاد.. والله بكل شيء عليم..

إنها القدرة الإلهية التي تلاحق القلب أينما توجَّه: تلاحقه بالعلم الكاشف الشامل، يلم بالشارد والوارد، والمستخفي والسارب، ويتعقب كل حيّ، ويجزيه خير الجزاء.

إنه جو المشاهد المتقابلة: إنفاق في سبيل الله «فأتصدّق بثلثه، وآكل أنا

= درهم تصدّق بها، ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدَّق به» رواه النسائي، وابن خزيمة، وابن حبان في صحيحه، واللفظ له، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. قوله: من عِرضه، بضم العين المهملة، وبالضاد المعجمة: أي من جانبه.

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «سبعة يُظلّهم الله في ظِلّه يوم لا ظلّ إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلقٌ في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دَعَتْه امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلمُ شمالُه ما تنفقُ يمينه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» رواه البخاري ومسلم.

- وعن معاوية بن حَيْدَة رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قال: «إن الصَّدقة تطفىء غضبَ الربّ تباركَ وتعالى» رواه الطبراني في الكبير، وفيه صدقة بن عبد الله السمين، ولا بأس به في الشواهد. (الترغيب ٢ / ٣٠).

- وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «صنائعُ المعروف: تقي مصارعَ السوء، وصدقة السرّ: تطفىء غَضَبَ الربِّ، وصلة الرحم: تزيد في العُمر». رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن.

وعيالي بثلثه، وأردّ ثلثه»، وسحاب مدرار وفير ميسور «اسقِ حديقـة فلان، فتنحّى ذلك السحاب فأفرغَ ماءه. . ».

إن بين فطرة هذا الكائن الإنساني وعمله وبين هذا الكون لغة سرية مفهومة!. . إنها سنّة الله وقَدَره. . الصلة الصادقة التي لا تنقطع **﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾** [المزمل: ٢٠]. .

قصة الكِفْل

المحتوى	ص

قصة الكفل

كانت التربية جانباً مهماً وبارزاً في القصة النبوية، وكان الرسول - ﷺ - متأثراً في ذلك بمنهج القرآن الكريم الذي استخدم القصة لجميع أنواع التربية التي احتواها منهجه التربوي[1]، ذلك أن في القصة سحراً عجيباً للنفس وتأثيراً شديداً عليها، قد يكون ناشئاً مما يحصل لِمَن يتابع مشاهد القصة ومواقفها من انبعاث الخيال لديه، يتعقب تلك المواقف والمشاهد، ويجري وراءها متنقلاً معها من موقف إلى آخر، ومن حركة إلى شعور، أو مما يحسّ به من مشاركة وجدانية لشخصيات القصة أو بعضها، بما تثيره تلك المشاركة من مشاعر وعواطف، أو من انفعال المتابع بالموقف وهو يتغلغل في المتابعة، وكأنما هو في داخل حركة القصة يشارك في أحداثها، كل تلك الأشياء جعلت للقصة ذلك الأثر القوي في النفس الإنسانية، وتلك الجاذبية الساحرة.

وقد أخضع الرسول - ﷺ - إمكانات القصة تلك، ووظّفها توظيفاً جيداً في سبيل تحقيق غرض الإسلام التربوي، وكان يسعى إلى ذلك بسلوك طرق مختلفة، لها أثرها الحيوي في تربية الإنسان وتوجيهه والأخذ بيده نحو الأفضل، وهو أثر نابع من الاستجابة الطبيعية التي يحسّ بها الإنسان وهو يتعامل مع تلك الوسائل، لأنها وسائل تتجاوب مع إمكاناته النفسية، وما جُبل عليه من طبائع واستعدادات وقوى، وتوقع على أوتارها ما تنشده من غايات تربوية[2].

---

(١) انظر محمد قطب: «منهج التربية الإسلامية» ص ٢٣٩.

(٢) القصص في الحديث النبوي ص ٤٤٢.

ومن الطرق التربوية في الهدي النبوي طريق العبرة المستقاة من قصص الأقدمين، حيث يتخير الرسول - ﷺ - من الماضي أحداثاً تفيض بالعظة المؤثرة، ولا شك أن تأثير الموعظة يكون أشد، وأنفذ إلى القلب، حين تبدو عبرتها من خلال عرض قصصي شيق، يربط السامع بأحداث القصة وشخصياتها، من خلال مشاركته الوجدانية لهم، وانفعاله بمواقفهم تعاطفاً معهم أو ضدهم.

والقرآن الكريم في حديثه عن الماضين من أهل الكتاب وغيرهم سلك طريق القصة، لأنها أكثر قدرة على حمل العبرة ونقلها إلى السامعين والقراء، وقد كانت العبرة والعظة في تلك القصص في القرآن غرضاً رئيسياً نصَّ عليه القرآن صراحة: **﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾** [يوسف: ١١١]..

والموعظة دائماً من أعظم الدوافع في تربية النفوس وأقواها في تحريك رواسبها، وإثارة صحوة القلب فيها، وتوجيهها إلى السير في الطريق الصحيح تأثراً بما تعرضه القصة من تجارب ماضية، تهزّ أعماق الوجدان وتؤثر فيه، ثم إن الموعظة من ناحية أخرى تُلبي حاجة النفس الفطرية الدائمة إلى التوجيه والتهذيب[١]، ومن هنا كان تعهد القرآن، وتعهد الحديث الدائم للمسلمين، بالتربية عن طريق الموعظة الحسنة، والعبرة البالغة.

وقد وجدت القصة النبوية في أخبار بني إسرائيل وغيرهم من الأمم السابقة أحداثاً وتجارب ذات دلالات مؤثرة، وذات مقاصد تربوية هادفة، فجعلت من ذلك كله مادة طيبة صاغت على أساسها قصصها ذات المغزى الوعظي، وجعلت منها دروساً يتذكر بها المؤمنون، ويستخلصون منها العبرة التي تعينهم في ترسم الطريق المستقيم، ولتكون أيضاً رصيداً يُضاف إلى تجاربهم يواجهون به ما يصادفهم من مشكلات أو مواقف مماثلة[٢]..

---

(١) «منهج التربية الإسلامية» ص ٢٣٠.
(٢) القصص في الحديث النبوي ص ٤٥٣.

ومن هذه القصص التربوية الوعظية قصة الكفل الذي أعاد النبي - ﷺ - التذكير بها أكثر من عشرين مرة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعتُ النبي - ﷺ - أكثر من عشرين مرة[1] يقول: «كان ذو الكفل من بني إسرائيل لا يتورَّع من شيء، فَهَوِيَ امرأةً، فراودها على نفسها، وأعطاها ستين ديناراً، فلما جلس منها، بكت وأُرْعِدَتْ، فقال لها: ما لَكِ؟ فقالت: إني والله لم أعمل هذا العَمَل قطُّ، وما عملتُه إلا من حاجة، قال: فندِمَ ذو الكفل، وقام من غير أن يكونَ منه شيء، فأدركَهُ الموتُ من ليلته، فلما أصبح، وجدوا على بابه مكتوباً: إن الله قد غَفر لك»[2].

وفي رواية: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورَّع عن ذنب عمله، فأَتَتْه امرأة، فأعطاها ستين درهماً على أن يطأها، فلما قَعَد منها مقعد الرجل من امرأته، أُرعدت وبكت! فقال: ما يبكيك أأكرهتك؟ قالت: لا، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنتِ هذا وما فعلته؟!! اذهبي فهي لك، وقال: لا، والله لا أعصي الله بعدها أبداً، فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: «إن الله قد غفر للكفل».

تمهد القصة بتعريف سريع عن صاحبْ القصة، ويسمى الكفل، وفي رواية: ذي الكفل، وهو غير ذي الكفل، النبي الذي ورد ذكره في القرآن كما هو بَيِّن، وكما رجَّح ابن كثير ظنّاً، وإن لم يقطع . . ، وتذكر القصة أنه من بني

---

(١) وفي رواية عن ابن عمر قال: سمعتُ النبي - ﷺ - يحدث حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عدّ سبع مرات، ولكني سمعته أكثر من ذلك . .

(٢) أخرجه ابن حبان. ورجاله ثقات رجال الصحيح غير عبد الله بن عبد الله - وهو الرازي مولى بني هاشم - فإنه من رجال أصحاب السنن، وهو صدوق.

وأخرجه أحمد ٢/٢٣، انظر المسند بتحقيق شاكر ٦/٣٣٤ - ٣٣٦، وقال شاكر: «إسناده صحيح»، وأخرجه الترمذي (٢٤٩٦) في صفة القيامة، عن عبيد بن أسباط بن محمد القرشي . . وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم ٤/٢٥٤ - ٢٥٥ ووافقه الذهبي. انظر الإحسان (٣٨٨).

إسرائيل، ثم تحدد المقدمة أبعاد شخصيته المعنوية حين تصفه: «لا يتورع من شيء» وفي رواية: «لا يتورع عن ذنب عمله»، فنحن أمام رجل مسرف على نفسه أيما إسراف، فهو لا يتورع أن يقدم على فعل ما يمتع شهوته وهواه كلما أتيحت له الفرصة، وبعد أن تحدد المقدمة صورة الكفل، تشرع أحداث القصة في البدء.. «فَهَوى امرأة، فراودها على نفسها».

فالقصة تبدأ بتقديم صورة لموقف معين، هو نقطة الانطلاق في مسار القصة، وهذا الموقف يطالعنا من خلال الصورة التي تقدمها البداية، بشكل يكاد يكون كاملاً وفي أبعاد مختلفة: «لا يتورع من شيء».. «لا يتورع عن ذنب عمله».. وبعد هذا التمهيد: «فَهَوِيَ امرأة، فراودها على نفسها..» «فأتته امرأة فأعطاها ستين درهماً على أن يطأها، فلما قَعَد منها مقعد الرجل من امرأته..».

ونحن أمام صورة لموقف، فهذه المرأة تأتي بدافع من حاجتها، إلى رجل ميسور، لتأخذ منه مبلغاً من المال تستعين به على قضاء حوائجها، وهو يستغل حاجتها في أن يطلب منها ثمناً مقابل ما يعطيها من مال، فهو لا يتورع عن ذنب عمله، وهي لا مناص من أن تستسلم وتُمَكِّنه من نفسها[1].

ونقف أمام الكلمات النبوية فنجد فيها التنسيق في تأليف العبارات، بتخيير الألفاظ، وتوظيفها بالشكل المناسب لتحقيق المعنى المطلوب، وهناك ألفاظ يستخدمها البيان النبوي في القصة كـ«روابط» تشارك في التلاحم بين أجزاء القصة ومراحلها.

وهنا «لما» تسهم في تحقيق هذا الجانب الإيجابي في سياق القصة «فلما قَعَد منها» «فلما» تقوم بعملية ربط محكم بين البداية والوسط في القصة.

ويلاحظ أن المضمون في الألفاظ والعبارات حاضر دائماً في ضمير اللفظة أو العبارة، حيث أننا نحس أنها توضع في السياق بعناية بحيث تؤدي دوراً

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ١٠٩، ١٢٣.

مزدوجاً؛ إذ أنها في الوقت الذي تقيم فيه المظهر الخارجي الشكلي لمجرى الكلام، تجعلنا أيضاً أكثر شعوراً بالمضمون الذي تهدف القصة إلى تجليته، وبالمعنى الذي يُراد لنا أن نخرج به من القصة في نهاية الأمر[1].

وعبارات القصة تتجلى في نظم متماسك، استخدمت ببراعة في تكوين الصورة الحسية والمعنوية:

«.. فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته، أُرعدت وبكت فقال: **ما يبكيك** أأكرهتك؟ قالت: لا، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنتِ هذا وما فعلته؟!!

اذهبي فهي لك، وقال: لا، والله لا أعصي الله بعدها أبداً، فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: إن الله قد غَفَر للكفل».

إن هذا البيان النبوي صورة واضحة الملامح والنوايا، بحيث تبدو وكأنها تمثل أمامنا تتملاه العين مع الحس والخيال، فهو مشهد إنساني بحركاته ومشاعره، وميوله وعواطفه.

إنها لوحة تصور صراعاً نفسياً رهيباً يهز كيان امرأة عفيفة تجد نفسها تقدم على فعل «الفاحشة» مع إحساسها الصادق بالكراهية والنفور الشديد من هذا الفعل، ولكن لا سبيل لها إلا أن تقدم عليه.

إن القصة النبوية تعرض مشكلة حيوية واقعية في حياة الإنسانية بما تحويه من عنصر درامي يتجلى في بعض المواقف، التي تثير في نفس صاحب الموقف أو صاحبته صراعاً نفسياً مؤلماً يؤدي بالتالي إلى تصرف خاص.

إنه موقف المرأة التي وقعت في الحرمان الطاغي والشدة الرهيبة، إن هذا الموقف بعث في المرأة نوعاً من الصراع الذاتي النفسي، الذي يبعثه الموقف في نفس صاحبته، ثم تقدم على ما تكره، يحملها ذلك ثقل الحاجة الشديد[2].

---

(١) المصدر السابق ١٦٦.
(٢) المصدر السابق: ١٧٤، ٢٢١.

إنه مشهد من خفايا دروب النفس الإنسانية، متعدد الخطوات، وهو يعرض في بطء وتفصيل، ويترك كل خطوة للقلب والخيال أن يتأمل، وللنفس مدة كافية للتأثر، كيف يصنع لهيب الحرمان، ولظى الشدة في امرأة عفيفة..؟.. إنه يحرق، وناره مستعرة مؤلمة، لا تدع عيناً تنام من الهم والحُزْن، ولا تدع بصيرة ترى، ولا عقلاً يفكر.

ثم استسلم الجسد على كُره.. وها هي مع الرجل الطامع في عفافها وطهارتها، في خلوتهما، يسيطر على وجدانها الخوف من الله، وانتقلت تصوراتها نقلة المؤمن إلى الحقيقة والحصانة والأخلاق التي عاشتها في حياتها كلها.

وتحت ثقل هذا الخوف من الله انتفض قلبها مذعوراً، فأجهشت بالبكاء، بصوت حزين يستثير التقوى في نفس هذا الطامع في الحرام الذي يستغل حاجة المرأة، فيحملها على ما تكره.

هذه هي هزّة الإيمان المبصرة..

إنها امرأة طيبة بريئة، قد تربَّت على الفضيلة، وما فكَّرت في يوم أن تُقدم على مثل هذا العمل.. «ولكنه عمل ما عملتُه قط»..

وهنا يتمثل الخيال مقدار الفزع والخجل الذي سيطر على المرأة.. فتدركها الدموع الضعيفة تدافع عن عرضها.. إنها الدموع الحارّة التي تصرخ برعد يسمعه مَن فتحَ الله بصيرته.. دموع حزينة تسأل الله سبحانه أن ينقذها مما هي فيه، مما أكرهت عليه تحت وطأة الشدة والحرمان.

لقد استجاب السميع القريب إلى ندائها الخفي بدموع ضارعة تستنجد الله سبحانه رب العالمين، فكشَفَ عن حسرتها التي كانت فيها، وحسرتها التي كانت ستحملها في نفسها إلى الأبد.

إن بكاء المرأة في هذا الموقف لهو تعبير صادق عن الهزة النفسية في كيانها، وكانت رحمة الله الواسعة، فتنقل هذه الهزة النفسية إلى الرجل الطامع في الحرام الذي استغل حاجتها.

إن هذه الهزة الوجدانية العميقة كانت صوتاً رحيماً دخل إلى قلب الرجل، فنزعَ خوفُ الله من قلبه ما تمنّاه وسعى إليه من الفعل الحرام، فإذا به يقول: «اذهبي فهي لك، لا والله لا أعصي الله بعدها أبداً». . .

الواقعية الأمينة:

إن القصة تعرض مشهداً واقعياً يعرفه الناس في كل زمان وفي كل مكان، ويتكررُ حين يصيب الناس بؤس الشدة، وآلام الحرمان. .

إنه مشهد متكرر، يمر به الناس غافلين، وفي تأمُّله، وتتبُّع حركته الوئيدة التي تكاد تتم في الخيال، ما يلمس النفس، ويؤثر في الوجدان، ويتيح الفرصة لألوان شتى من التأملات في ما يصيب الناس حين يهجم الحرمان، وتستولي الشدة، حتى تأسر الفضيلة، وتنيم الشرف والأخلاق.

إن الحرمان يُغري النفوس المريضة التي نَسِيت ربها ودينها، ويُملي للخواطر التي تملك المال أن هذه فرصة تعيش في ربوعها، وقد ذلّت الفضيلة في نفوس أهلها، فيطير الميسور بأجنحة ماله وسلطانه ليقبض روح الحصانة والمروءة.

إنه مشهد من مشاهد الحياة الإنسانية، يلفت النبي - ﷺ - إليه البصر، لينقل القارىء أو السامع إلى دروب النفس، ليقع في النفس ما يقع من عظة وعبرة.

لقد برز الغَرض الديني هنا، وبرزت مشاهد القصة، وبرزت معها شدة الانفعالات وموجات العواطف العنيفة الصارخة أحياناً، والساكنة أحياناً أخرى.

والله سبحانه وتعالى قريب من خلقه، فهو يستجيب دعاءهم، والرحمة والغفران من أبرز صفاته، فمعظم الآيات القرآنية تنطق بذلك، ومنها قوله تعالى: ﴿**قل: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم. وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له**

من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تُنصرون﴾ [الزمر: ٥٢ ـ ٥٣].

والذي راود المرأة عن نفسها في هذه القصة، مُستغلاً حاجتها إلى المال، يستيقظ ضميره من موقف المرأة المضطرب وبكائها من خشية الله، فيتوب، ويَدع المرأة دون أن يمسّها، ويقسم أن لا يعصي الله أبداً، فيموت من ليلته، وفي الصباح يكتب على بابه: «إن الله قد غفر للكفل».

إن هذه القصة تصور الإنسان بصدق **وواقعية نظيفة** بما فُطر عليه من طباع، وما جُبل عليه من غرائز مختلفة، تتكشف في أحداث القصة، وتعكس ما تنطوي عليه النفس الإنسانية من خير وشر.

والقصة النبوية أمينة مع النفس الإنسانية، ففي الوقت الذي تعرض فيه شخصيات تعكس الجانب الأصيل في **الإنسان، وهو جانب الخير**، فإنها تعطينا صورة عن جوانب الإنسان الأخرى: جوانب الضعف والشرّ فيه، تلك الجوانب غير الأصيلة فيه.

ولعل جانب الخير في هذه النفس أكثر أصالة وعمقاً، والقصة تعرض علينا هذا الجانب للنفس الإنسانية من منطلقات متعددة. فهذه القصة نجد فيها تأكيداً على هذا المعنى من زاوية أخرى فهي تصور انطواء هذه النفس الإنسانية من الداخل، وفي أعماقها بذرة الخير، التي لا بد أن تخرج إلى حياة الإنسان، فتثمر الخير العميم الذي يُغيِّر سلوكه، ويُنيب إلى الله الذي يغفر له ويرحمه (١)، ويبدله سيئاته حسنات (٢).

والقصة النبوية تنظر للإنسان نظرة واقعية، تحاول أن تعرضه على حقيقته من غير ما تزييف أو تشويه، إنها تعرضه في صورته السوية التي هو عليها

---

(١) المصدر السابق: ٢٤٤؛ ٢٦١.

(٢) قال سبحانه: **﴿والذين لا يدعون مع الله إلٰهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، ولا يزنون. ومَن يفعل ذلك يلقَ أثاماً يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً. إلا مَن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يُبَدِّل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفوراً رحيماً﴾** [الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩]..

بالفعل بما تنطوي عليه تلك الصورة من صفات سلبية، ومن صفات إيجابية، ما فيها من خير، وما فيها من شر، وما فيها من ضعف، وما فيها من قوة.

وتكشف ما لدى الإنسان من قدرة على الارتفاع والسمو إلى مستوى **نفخة الروح**، وما لديه من استعداد للهبوط والارتكاس إلى أوهاق الأرض **وقبضة الطين**[1].

وقد رسمت القصة في خلال التعبير عن الغرض الديني في «النموذج الإنساني»: امرأة عفيفة عضَّتها نوائب الشدة، وكبَّلتها قيود الحرمان، وقادتها المحنة إلى طريق تأباه..

ورجل مندفع يسوقه الهوى، وتقوده الخطيئة، مغتر بالمال، مستجيب للحيوية والقوة وراء الإثم والفجور، فلا يوجد في سلوكه حاجز ـ على اختلاف أنواع الحواجر في المجتمعات الإنسانية ـ فينظر، ولكنه «لا يتورع عن ذنب عمله».

والبيان النبوي يرسم صورة الإنسان على حقيقته، فهو يُصور الأعماق الدقيقة في النفس الإنسانية، فكما أن في الإنسان شراً، ففيه أيضاً خير، وفيه قوة، ولديه قدرة كبيرة على أن ينتصر على جوانب الضعف فيه، وعلى أن يطمس في نفسه المسارب التي يمكن أن يدخل منها الشر، ثم يرتقي صُعداً إلى رحمة الله ومغفرته.

وإذا كان في الإنسان ضعف وشر، وفيه قوة وخير، فأيهما الذي يغلب عليه؟ وأيهما الأصيل فيه؟

والقصة تصور حقيقة الواقع الإنساني بكل جوانبه، ومع اعترافها بضعف الإنسان، وبما تنطوي عليه نفسه من شر، لا تعد الضعف والشر هو الجانب الأصيل في الإنسان، ولا الجانب الغالب عليه، إنما الخير والقوة هما الأصيلان فيه، والشر ليس إلا لحظات ضعف ـ وإن طالت ـ تلم به أحياناً،

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ٤٠٣.

ولكنه لا يلبث أن يستفيق منها، ويعود إلى طبيعته التي فطرهُ اللّهُ عليها.

فالرجل وقد أصرَّ على أن يطأ المرأة مقابل ما يعطيها من المال الذي هي مسيس الحاجة إليه، لتسد به جوعها، وجوع عيالها، أصبح مسيطراً عليها تماماً، فلم ترَ إلا هذا السبيل، وقد أسلمت نفسها له بعد أن يئست من إقناعه بأن يتقي الله فيها، ولما هَمَّ بها أرعدت، وبكت، فتراجع، وهنا استيقظت في نفسه عوامل الخشية للّه، وهنا استفاق من ضعفه ليعود إلى الخير الأصيل المستقر فيه، وليترك المرأة دون أن يمسها بسوء، يتركها بكامل اختياره وإرادته، وبدافع نابع من نفسه هو، وهكذا يغلب جانب الخير على جانب الشر في نفس الإنسان.

وهذا هو الموقف الذي تتخذه القصة النبوية من الإنسان في هذه القضية الخطيرة [1]، فالنبي - ﷺ - يصور هذا النموذج المتكرر من زوايا النفس وأعماقها، ومن ملابسات حياته المتعارضة. وكلها تلتقي في النهاية عند هذه الحقيقة الهامة.

والقصة صورة رائعة لقدرة الإنسان على الانتصار على ضعفه، وأن الهبوط إنما هو تردٍّ يحدث في غيبة الإيمان، ولذلك فحين يفيق الإنسان، ويستيقظ فيه عنصر الخير لا يلبث أن يعود إلى حالته السوية وكيانه المستقيم، فالرجل كان مُلحاً على المرأة في أن يمارس معها لذة الجنس المحرمة، مستغلاً في ذلك حاجتها وظروفها القاسية، ولكن المرأة لا تزال ترفض هذا الموقف من خلال تردد قوي، وصراع عنيف مزلزل كان يمور موراً في داخل كيانها، وظهرت آثاره على جسد المرأة التي كانت تُذكِّر الرجل بالله، وتلح عليه في التذكير ولكنها عجزت عن إيقاظه وإقناعه ورده إلى الإيمان، ولكن جسدها الطاهر أفلح حيث أخفقت كلماتها، فقد أُرعد هذا الجسد واضطرب في حركة لا إرادية تعبر عن رفض هذا الموقف وإبائه، وهنا استيقظ في الرجل «الإنسان» عامل الخير والفضيله، وخشية الله، وابتعد عن المرأة بكل طواعية واختيار لم

(١) المصدر السابق ٤٠٦.

يمسسها بسوء، وتنازل عن المال الذي بين يديها، وجعله صدقة عليها وعلى عيالها.

نعم لقد تحرك العنصر الأصيل بداخله، ولم يزل يتحرك من وراء السدود والغيوم والأوهاق حتى استطاع أن ينطلق ويبرز على الصفحة، وينتصر على عوامل الضعف والفتنة(١) !

وهذا هو الانتصار في التصور الإسلامي لحقيقة الإنسان..

لقد كانت القصة النبوية تصور الواقعية الإسلامية. تصور حقيقة الواقع الإنساني بأبعاده كلها.

والإنسان في نظر الإسلام مخلوق مكون من عنصرين رئيسين لهما أثر كبير في سلوكه وواقعه، فهو مخلوق من قبضة الطين التي تمثل فيه الجانب المادي، ومن نفخة الروح التي تمثل فيه الجانب الروحي.

فالمادة والروح عنصران أصيلان في تكوين الإنسان، ومن خلالهما معاً يتحقق كيان الإنسان السوي، بما فيه هذا الكيان من عناصر الضعف المرتبطة بالأرض، بما فيها من ضرورات ورغبات ونزوات وشر، وبما فيه من عناصر القوة المرتبطة بنفخة الروح المشرقة الصافية، بما تنطوي عليه من قوة واعية مدركة لمعان سامية خُلق الإنسان لها، غير معاني المادة والحس، معان تنبع من ذلك الجانب الروحي، الذي هو من روح الله الذي يرقى فوق القيود والحدود، وبما تنطوي عليه أيضاً تلك النفخة من قدرة الإنسان النفسية على أن يختار، وأن يريد.

والإنسان في التصور الإسلامي كائن فيه الخير والقوة، ولديه الاستعداد لسلوك هذا الطريق، كما أن فيه الشر والضعف، ولديه الاستعداد لأن يقع وأن يخضع لتأثيرهما **﴿ونفس وما سوّاها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح مَن زكّاها. وقد خاب مَن دسّاها﴾**.

والنقطة الأساسية في التصور الإسلامي، أنها وهي تعترف بضعف

---

(١) المصدر السابق ٤٧٥.

الإنسان، وتسجله عليه في صفحته ﴿وخُلق الإنسان ضعيفاً﴾ إنها وهي تفعل ذلك تعتبر الجانب العلوي فيه هو الجانب الأصل والأقوى، لأنه هو الذي يمنح الإنسان قوة إيجابية، وإرادة فاعلة في أن يختار، وأي الطريقين يختار، وهو بهذه الإيجابية الفاعلة النابعة من جانبه الروحي العلوي، يملك أن ينتصر على لحظة الضعف، ثم إن القرآن الكريم وهو يسجل لحظة الضعف تلك، يسميها ضعفاً، ويصفها بأنها لحظة هبوط فعلاً إلى واقع الأرض، ما كان ينبغي أن تكون، وأنها ليست هي الأصل، ومن هنا جعله الله مسؤولاً عن سلوكه وهو يهبط أو يضعف **﴿قد أفلح مَن زكّاها. وقد خاب مَن دسّاها﴾**.

والإسلام يرى أن «الإنسان بأمانة التكليف يمكنه أن يرقى إلى قمة الخليقة، وبدون الأمانة جدير بأن يرد إلى أسفل سافلين، فالأمانة التي هي العقل والإرادة الحرة المسؤولة، هي التي ترفعه فوق مقام الملائكة، وهي التي تهبط به إلى زمرة الشياطين»[(١)].

ومن هنا فالإنسان يصبح مكلفاً قابلاً لأن يضعف ويتعثر ويسفل، وقابلاً لأن يستقيم ويرتفع[(٢)] ولذلك جعله الله صاحب إرادة حرة، يترتب عليها مسؤوليته عما يمارسه من سلوك، وفي هذا منتهى العدل الإلٓهي، ومنتهى التكريم لهذا الإنسان[(٣)].

ذلك كان هو التصور الإسلامي، ومنه نبعت الواقعية الإسلامية في القصة النبوية، التي استلهمت ذلك التصور وعبّرت عنه، فقد كانت الشخصية الإنسانية في القصة، تنقل لنا بأمانة ودقة واقع الإنسانية الكبير في إطاره الصحيح، الذي يجمع أطراف ذلك الواقع وجوانبه المختلفة بخيره وشره، بقوته وضعفه، بإيمانه وكفره، بما فيه من جوانب روحية وجوانب مادية، واقع الإنسان وهو يهبط إلى الأرض وإلى رغبات

---

(١) د. النعمان القاضي، الإسلام عقيدة وحياة، ص ٣٣، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
(٢) المصدر السابق ص ٣٥.   (٣) المصدر السابق ص ٣٦ ـ ٣٨.

الأرض، وواقعه وهو يرتفع إلى مستوى نفخة الروح، وواقعه أيضاً وهو يصارع جوانب الشر ويدافعها، وينتصر عليها في النهاية مؤكداً بذلك أصالة الخير فيه، وقوته في كيانه.

وحين ننتقل إلى نص القصة نجد أن جانب الضعف الإنساني واضح، تسجلها القصة بصدق كامل، فهي تصور مظاهر الضعف في الرجل، خضوعه لضرورات الجسد، وانسياقه وراء رغباته الجنسية الجامحة، حين يسعى لإشباعها ولو بطرق غير مشروعة.

ولكن القصة لا تقول إن ذلك الضعف هو واقع الإنسان كله، إنه جزء من واقع الإنسان ـ لا شك في ذلك ـ ولذلك فهي تلم به هنا ـ بأمانة تامة ـ على أساس أنه جانب من الواقع، والجانب الأدنى الوضيع في الإنسان، والصفحة القائمة في حياته، ولكنها ليست الصفحة الوحيدة، فهناك صفحات أخرى من واقع الإنسان، تفيض بالإشراق والخير والإيمان والحب والفضيلة، ومحاولة الارتفاع والسمو، والحياة على أساس القيم الرفيعة النابعة من نفخة الروح العلية، التي ينطوي عليها كيان الإنسان السوي، ولذلك فالقصة تحرص على أن نقف عندها، وأن نبرزها تطميناً للإنسان، وإنصافاً له ولواقعه، واعتداداً بقيمة الإنسان، وبما فيه من مزايا استحق بسببها أن يكون خليفة الله في الأرض.

لقد رسمت القصة النموذج الإنساني الذي حقق في واقعه هذا الجانب القوي الخيّر الفاضل، ونستطيع أن نقول هنا أن الجوهر الأصيل في هذه القصة، هو ذلك الجانب الفذ في حياة الإنسان، هو الموقف الذي يحقق فيه الإنسان سموه ورفعته، وانتصار الخير والفضيلة فيه، بالمعنى الشامل غير المحدود للخير والفضيلة[1].

إنه موقف الرفض والإباء العنيف للوقوع فريسة لشهوة الجسد، ونزوة الجنس، وصيحات الشيطان ووسوسته!

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ٤٣١، ٤٦١.

طبيعة المرأة:

والقصة تصور بصدق وأمانة طبيعة المرأة في فطرتها الأصيلة، فهي حريصة على التصون والعفاف، حريصة على المحافظة على شرفها وعرضها ما أمكنها ذلك، والمرأة حتى وهي تُسلم نفسها في ظروف قاهرة، تفعل ذلك، إنما تفعله بعد صراع مرير مع نفسها، وظروفها القاهرة التي تلجئها إليه.

فالبيان النبوي يعرض نموذج من الشخصيات الإنسانية الخيّرة، والنسائية بالذات، «شخصية المرأة» المتصونة العفيفة، الحريصة كل الحرص على التمسك بالفضيلة والطهارة.

والقصة تصورها وهي تُقسر قسراً عنيفاً، وهي قبل ذلك تتردد وتضطرب، وتحاول أن تتجنب الوقوع في الإثم بكل وسيلة، ولكن لا سبيل!

ونجدها حين تسلم نفسها بعد لأي واضطرار، ترتعد ويضطرب جسمها وكيانها، في تعبير لا إرادي عن رفضها لهذا الموقف، وتبكي من أعماقها بصوت مرعد حزين، بكاء المجبرة المقهورة[1].

وهي تُسلم نفسها تحت إكراه الحرمان، تنظر إلى الله في خشية وخوف مما تفعل، تفعل ما تفعل وهي في حذر ووجل، وفي تطلع ورجاء إلى الرحمٰن الرحيم أن يرفع عنها هذا الغم الثقيل، والهمّ المحزن الأليم.

وفي لحظة الضعف هذه تحت وطأة الشدة، يبقى القلب واجفاً في ارتعاش وذهول، وهي تحت تأثير هذا الخوف الشديد من الفاحشة، وهي في هذا الرفض الداخلي العميق في كيانها، يرتجف جسدها بحركة لا إرادية مزلزلاً فتنتفض راعدة باكية.

وما ترتعش القلوب هكذا إلا حين تحركها إرادة الإيمان التي تأبى الاستجابة لما يوجب غضب الله وسخطه، فهي صورة اليقظة الدائمة، والحذر

---

(١) القصص في الحديث النبوي ٤٧٤.

الذي يسري مع الدم في العروق في القلوب المؤمنة في الظروف الصعبة.

وهنا يبدو أثر الإيمان في القلب، من الحساسية والإرهاف والتحرج، وحساب العواقب، فهي تشفق من الله خشية، ويحرك الوجل ضميرها ومشاعرها، ومن ثم ترعد وتبكي.

إن هذه الرعدة والدموع، هي ذلك التحدي الصريح المثير، لفعل أكرهتها عليه المحنة، وألجأتها لها الظروف.

لا بد من وقفة أمام هذه الرجفة، وتلك الدموع، وقد استسلمت مقهورة..

إنها تشي بأن خوفها عميق عميق في كيانها.. خوفها من الله تعالى الذي يراها، ويعلم سرها وحركتها، وهو معها يرى ما تفعل، كما أنه يرى ما تخفي في صدرها وأعماقها.

ومن ثم كانت هذه الرجفة والرعدة والدموع.. فهي أولاً رجفة الحياء من رب الأرض والسماء، رجفة الخزي والعار من الوقفة أمام الجبار القهار. فهي ارتجافة باعثها الأكبر ذلك الخوف من الله، فقد اشتدت حساسيتها في تلك اللحظة وتأججت لهيباً، فكانت أشد من لذع النار.. «أُرعدت وبكت».

إن هذه الرجفة تشي بشعور الفضيلة والصون والعفاف القوي في هذه المرأة، الذي بقي يندفع بشدة، ويسري في عروقها حتى سال على خدودها دموعاً حزينة، فهي تحت تأثير شدة المحنة، وثقل الحاجة، وقد استسلمت على كُره منها، جلست معقود لسانها، لا تنطق، ونتيجة ذلك الصراع النفسي الذي لا يُقاوَم، انفجرت صيحات الفضيلة صامتة مُعبرة، وإذا بجسدها يرعد، وعيونها تدمع وتبكي! ها هي ذي وقلبها يلتوي ويتألم، فينفجر صارخاً.. وإذا كل شيء في جسدها قد نطق.. يتحدث ويبين..

وهذه المرأة تمثل الفضيلة وقد تصلَّبت في كيانها، والعفة وقد استقامت في تفكيرها، والصبر الشاق على المحنة والشدة.. ثم ضعف الإنسان أمام هول

الجوع الذي اعترى حياتها. . فاستسلمت للمحنة، وكسرتها الشدة. . ولكن الفضيلة الصادقة، رغم كل المحن، لا زالت تسري في عروقها، والعفاف ينبع في كيانها. . وهنا ارتعدت وبكت. . فأحسنت التعبير. تعبير النفس التي تتألم حتى لتفيض العيون دموعاً سخية بكل معاني الشرف والعفاف، لأنها لا تجد ما تفعل، ولا تملك الحيلة في أن تدفع ما تكره.

وإنها لصورة مؤثرة معبرة للمرأة الفاضلة العفيفة، وإنها لصورة واقعية رائعة حفظتها القصة النبوية لتبقى في أذهان المصونات الحرائر رمزاً للعفاف، ومَعْلماً وضَّاءً للشرف الرصين.

لقد كانت الدموع مثيرة جداً، فقد أخرست في كيان الرجل صوت الشهوة الصارخ في أعماقه، وهي في أشد لحظات الهيجان في ذلك الموقف ليفعل فعلته في فريسته التي طاردها مرات، فإذا بالرجل يقول: «ما يُبكيك أأكرهتك؟».

ماذا قالت العفيفة الشريفة؟ «قالت: لا، ولكنه عمل، ما عملته قط. .».

«هذا عمل ما عملته قط. .» إنه لتعبير عجيب، ينبع عن حقيقة عميقة في موقف دقيق. . في لحظة صامتة تعرت فيها الأجساد والنفوس.

إنه البيان النبوي الذي يصور ببراعة انطلاقة هذا الشعاع الحزين، المضيء بالفضيلة، الذي تحمله هذه المرأة العفيفة. ولكن هذا الشعاع الحزين يحمل كل المعاني. . إنه يدب في القلب فعلاً، دبيب الشِّفاء في الجسم المعلول! يدب فيه بإيقاعه الصادق العفوي، ذي السلطان الخفي العجيب. . فإذا بالرجل يصحو، وقد تَلَقَّى ما تلقَّى. . فتهتز أركانه، وتنفتح بصيرته فتتلقى وتستجيب. . وإذا بالطمأنينة بالله تسكب نغماتها على أوتار قلبه، فتسري بسرور في عروقه، وتغلب على كيانه. . فيتفتح الخير وينمو بلمسة من الله ورحمته.

إن عبارة المرأة في ذلك الموقف الذي تصوره القصة، هي عبارة مؤثرة

حقاً، والخيال يتملاها في ذلك الموقف الرهيب الثقيل. وإنها لعبارة تثير حشداً وراء حشد من المعاني والدلائل، تصورها الكلمات النبوية بهذا التعبير العجيب.

أثر المرأة الفاضلة في الرجل:

إن هذه القصة تمثل نموذج مكرور في حياة البشرية، ذلك الذي ترسمه العبارات النبوية الخالدة.. فهناك كثيرات من النساء يحرسن الفضيلة في سلوكهن، وتنبض قلوبهن بالعفاف، ويتحركن بالحق والشرف والتعفف، رغم المحن الطويلة التي تؤذي.. وتفعل تلك المحن ما تفعل من الضغوط المزلزلة التي تدك الراسيات.

إن المرأة دوماً هي اللغة الساحرة في نفس الرجل التي تُغيّر كيانه في عفّتها وحيائها وسلوكها. فالمرأة الفاضلة تحني هامة الرجال، وتلوي أعناقهم عن التطلع عن السوء والفاحشة، وتدفعهم للصعود إلى مراقي الفضيلة والشرف.

إن المرأة هي تلك الروح العجيبة التي تدفع بالهمم الساقطة أن ترتفع، والعزائم الضعيفة أن تُقْوى.. إنها الدواء الناجع لتلك الأرواح الهزيلة، فَتَشْفَى وتَقْوى، وهي البلسم الشافي للقلوب المنخوبة فَتَسْلَم وتنبض بالحق والخير..

إن المرأة بفضيلتها وعفافها سِرٌّ إلهي، عجيبُ سِحْره، تؤثر في النفوس الصغيرة فتكبر، والبنية المهزولة فتصحو وتنمو وتكبر.. وإذا بالرجل الذي كانت نفسه تتهاوى أمام الشهوة. ننظر إليه كما تصوره القصة النبوية.. وإذا بالفضيلة تُدركه، تحملها المرأة إليه بتعبير لا يُقاوم تأثيره.. وقد دفعته إلى الأفق العالي دفعاً بعزم وتصميم.. وإذا بالرجل يقول: «تفعلين أنتِ هذا وما فعلته؟!!».

لقد فعلت المرأة الفاضلة بالرجل الذي كان يتهاوى في أودية الرذيلة والشهوة، عجباً.. فعلت به ذلك السحر العجيب، فإذا هو يصحو في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة..

لقد كان الرجل يتخلف في مسارب الذنب عن ركب الحق ورؤيته، ويميل به هواه دوماً إلى عَرَض تافه، أو مطلب رخيص.. وإذا به يطرق باب الرحمن في قلب مُنكسر، ورؤية واضحة للحياة، فيرى نفسه في حمى التوّاب، راكعاً قلبه، ساجداً فكره، قائلاً لسانه: «لا والله لا أعصي الله بعدها أبداً»..

إنه تعديل كامل لمفهوم الحياة، وللمشاعر المصاحبة له في أعماق الرجل. لقد اتضحت الرؤية أمامه، فرأى مجال الحياة السوي، وصورتها الحقيقية.. إنها تتجاوز اللذّة العابرة، والشهوة الزائلة.. وأصبح في ذهنه وتصوره أن حياته كلها موضع حسرة، ونَدَم، فانتقل بهذه النقلة من صُورة إلى صورة، ومن حياة إلى حياة!

هذه الصورة الرائعة كانت بروزاً واضحاً لحقيقة الخير الكبرى الكامنة في نفس الإنسان، وكان هذا بعض ما تشير إليه القصة النبوية الحكيمة.

وبهذا البيان الواقعي يسجل نبي البشرية - ﷺ - صورة وموقفاً، وهي صورة رفيعة، وهو موقف كريم.

وينظر القارىء ويتملّى، ويسرح الخيال بالسامع، في هذه الصورة، وفي هذا الموقف، فيحسّ بأن كيان الرجل كله قد تبدَّل ما بين لحظة ولحظة، فقد اطمأن إلى الحقيقة التي رآها بصدق في صورة المرأة التي بعثت الفضيلة بدموعها هتافاً لبذرة الخير في الرجل أن تنضج، وتتناسق، فانجلى الغبش عن بصيرته، وأخذ الأَمْر جَدًّا كله. فما كانت إلا لحظة هي التي تفرق بين موقف الرجل حين كان في عمره كله «لا يتورع عن ذنب عمله»، وموقفه بعد الدموع الساخنة التي تجلي كل بصيرة، وقول المرأة له: «ولكنه عمل ما عملته قط».. والفارق هائل شاسع، والمسافة بعيدة مديدة..

لقد فعلت هذه الحالة المريرة والصادقة التي جرت للمرأة فِعلها في نفس الرجل، فقد هزَّته هزاً عنيفاً. أَطَار الغبش، وأيقظ القلب، وثبتت الحقيقة في عينيه، ورسخت في قلبه، وملأت النفس بالعزم والتصميم.

لقد كان شعور الرجل قبل هذه اللحظة يسيطر عليه كبرياء يَتَعالى، فهو ذو حَوْل وطَوْل، ويملك السلطان بالمال فيحقق به أغراضه وشهواته، ويتمتع بما تهواه نفسه وتتمناه، فَيُخضع رقاب الفضيلة، ويُطوِّع هامات الصون والعفاف، فلا يرتفع في وجه شهوته صَوت، ولا يمنعه عن نزوته إلا الموت، فلا أحد يدفعه عن الشر والفساد.

لقد كان الرجل يسمع رجاء المرأة في حاجتها، بأُذنه، وقلبه مغلق، وينظر إليها في بؤسها بعينه، وبصيرته مطموسة، وتتردد إليه ضارعة، فلا يثوب من السمع والنظر بشيء. وبهذا العناد.. العناد الصفيق، بعد تكرار البيان كان يرد على المرأة، والشهوة تَعميه، والذنب والمعصية تطغيه، أنه سيعطيها مالاً «على أن يَطأَها».

إنه مشهد حي، وصورة معبرة ترسمها القصة النبوية.. نلمح في ظلالها خيوط الصراع العنيف في النفس الإنسانية بين حَرَكة، وشدّ، وجَذب! كلها تتم في لحظة وضيئة، تحركها دموع الفضيلة الساخنة، ورعدة العفاف الباهر.

لقد كانت نفس الرجل في جاذبية المعصية، تدور عليه مُسيطرة وثقيلة، تُعمي عن الحقيقة.. وما هو إلا أن أدركه فضل الله، فإذا هو يَرى! وصحت الفضيلة في كيانه، فأيقظته، فإذا هو في موقف جديد.

إن هذا الموقف يصور زحزحة النفس الإنسانية عن كبرياء الذنب، المزهو بسلطان المال القوي، ويرسم الخيال هيئة الخير، وقد قامت في نفس الرجل، يلقي بظله الصادق الأصيل.

إنها لحظة تمثل صفاء القلب، وشفافية الروح، وتَفتُّح الإدراك، واستعداده الصادق للتغيير، والاستجابة لهاتف الخير، الذي طبعه في لحظة، فتأثَّر به.

إنها لحظة الصدق الواقعي التي رسمتها الدموع الصامتة الحزينة بخيوط الفضيلة، التي انبعثت من أعماق وكيان المرأة، في رعدة مُؤثرة، من جسم

يرفض بصمت هذا الفعل الحرام[1] «ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة».

إنها لحظة.. لحظة اتصال، ولحظة استقبال. فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الحقيقة حين تمس القلوب، ومن ثم تكون الحصيلة المباشرة.. وهي زحزحة من جاذبية المعصية.. إلى رحمة الله **﴿فمَن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز﴾**..

هذه اللمسة الصادقة التي تمس القلوب، قد نسجتها خيوط العفاف والفضيلة في المرأة، فكانت اللمسة التي تطبع الحسّ بالحق. لقد كانت في تكوينها سلسلة من تأثيرات العفة والطهارة، بقيت حلقاتها تتداعى في حسها على هذا النحو السريع واللاإرادي في لحظة الاستسلام المقهور، ليتحرك القلب مذعوراً فيرعد الجسم، ومن ثم تسيل خيوط الدمع شاكية متألمة.

والقصة النبوية ترسم ذلك بصدق وواقعية.. ترسم حركة عجيبة في نفس المرأة الطاهرة، التي تشير إلى تداعي المشاعر الكامنة، التي خلَّفتها الفضيلة[2] في نفس المرأة.

---

(١) قال الله تعالى: **﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾** [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى: **﴿والذين لا يدعون مع الله إلَهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون. ومَن يفعل ذلك يلق آثاماً يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا مَن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً..﴾** [الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩]..

لقد اعتبر الإسلام الزنا جريمة وكبيرة من الكبائر بوصفها نكسة حيوانية، ترد الكائن الإنساني مسخاً حيوانياً، لا يفرق بين أنثى وأنثى، ولا بين ذكر وذكر. مسخاً كل همه إرواء جوعة اللحم والدم في لحظة عابرة. انظر «الكبائر» للذهبي. الكبيرة العاشرة. وانظر دستور الأسرة: ٢٠٢ ـ ٣٠٥.

(٢) ولغرس الفضيلة في البنت وتربيتها ثواب عظيم عند الله، لأن المرأة هي قلعة الفضيلة. عن أنس رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «مَن عَالَ جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين» وضم أصابعه. رواه مسلم (٢٦٣٠) وأخرجه الترمذي (١٩١٧). و«جاريتين» أي: بنتين، فمَن قام عليهما بحسن التربية والمؤونة ونحوهما بلغ ذلك المقام.

إن القصة النبوية تصور بحركة وجدانية مؤثرة، الخلجات والتموجات النفسية العميقة والخفية التي تتوالى في كيان المرأة، بين الاستسلام المقهور للجسد، وبين هذه الدموع الراعدة المنطلقة من نبع العفاف الذي ينبض في كل خلية من جسد المرأة.

نقف أمام لوحة الفضيلة هذه.. رجل في كبريائه يهمّ في فعلته المنكرة، تَعميه الشهوة.. والمرأة المصونة في لحظة الاستسلام المقهور.. تتقابل العيون ولكنها لا تتلاقى..

يرى الرجل ذلك الجسد الخاشع الواجف الراجف، يصيح بالنغم الحزين، والإيقاع المؤلم، الذي يتمثل بتلك الرعدة المؤثرة، ومن ثم تفجؤه تلك الحرارة البادية في الدموع، وفي مقاطع كلمات المرأة التي تنبعث من رنين الفضيلة الخافت حتى في تلك اللحظة الأخيرة: «ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة».

وهنا كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الرجل بالله سبحانه وتعالى، وإذا الرؤية واضحة.. فالشهوات وزينتها ضئيلة ضئيلة.. وإذا الحياة الأرضية وزخرفها زهيدة زهيدة.. وإذا النفس قويمة قد أدركتها رحمة من الله عظيمة.

لقد تَفَتَّح لهذا القلب آفاق مشرقة وضيئة، لا تُبالي أن تنظر بعدها إلى لذة ضائعة، أو شهوة حالمة.

إنها لمسة اليقين بالله، والخوف منه، أرعدت في نفسه، فهو قبل لحظة كان يعد الفاحشة كَسْباً، والتمتّع بالحرام مغنماً، تتسابق إليه نفسه. فلقد كانت الشهوة في ذاكرة حياته أملاً طاغياً، يسعى إليها، وينفق في سبيلها، فهي مبلغه من الحياة، يقدم إليها ساعياً متحمساً، حبيساً وأسيراً لهواه، يتنفس في جوه، ويحيا معه وله.

وإذا بالرجل بعد لحظة، وقد أشرق الإيمان في كيانه، فرخص كل شيء في نفسه، وانقطعت خيوط جاذبية الشهوة من آماله، وخنست نزغات الشيطان

ونفثاته عن قلبه وبصره.. وإذا به يقول: «لا».. لا للفساد، لا لهذه الحياة الأرضية التافهة.. وبدأت طلائع النور تشرق رويداً رويداً في عيونه..

لقد رأى حقاً ببصر وبصيرة.. كيف يكون الإيمان الصادق.. رآه في المرأة الخيِّرة.. فهي رغم مرارة ما تَرى، وثقل ما تحمل، وعبء ما تلقى.. رافضة للحرام.. تبكي بدموع راعدة، مُعبرة أصدق تعبير عن أحاسيسها الدفينة الحزينة الشاكية.

ونصادف في القصة جوانب متعددة للشخصية من جراء حركة الحدث ونموه «نجد شخصية (الرجل) تعرض علينا بصورة يتكشف لنا أكثر من جانب فيها، ففي المرحلة الأولى من القصة تصور لنا في الرجل جانب الإسراف في المعصية، واقتراف الذنب والإصرار عليه، فالقصة تحدد سلوك «الكفل» الاجتماعي: «لا يتورع عن ذنب عمله» فهو مسرف في اقتراف الخطايا لا يرعوي عنها، وهو جانب شرير في هذه الشخصية، ولكن هذه الشخصية لا تلبث أن تنمو مع الأحداث عبر صراع نفسي فجّره الموقف المثير للمرأة في تصونها، وخشيتها من مقارفة الفاحشة، وإذا بالرجل يثور على واقعه السيىء في لحظة إشراق تحوّل فيها إلى الخشية والخشوع، وهذا جانب آخر جديد كشفته لنا القصة عبر هذا الموقف الجديد للشخصية، وفي صورة مؤثرة فنية مقنعة»[1].

رحمة الله:

إنها رحمة الله التي أدركت الرجل، فسرت في عروقه أضواء الفرح العلوي، الذي يُطلق النفس من عقال المطامع الأرضية، والشهوات والأعراض الزائلة، وإذا به يتحرر من وطأة الذنب الذي كان يسعى إليه، ومن جاذبية الفاحشة التي كان يتمناها ويتملاها.

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ٢٨٦.

إن القصة النبوية ترسم نموذجاً واقعياً للإنسان. يتكرر في حياة البشرية، في كل زمان، وفي كل مكان. فهي تصور النفس المنحرفة تبطرها القوة فلا تذكر، وتعميها النعمة فلا تنظر.. وما نفع تلك النفس من المرأة العظة والتذكير بخوف الله، في أن يبذل الرجل ذلك المال بدون أن تدفع الفضيلة هذا الثمن الباهظ.

إنه نموذج للإنسان الذي يبتليه الله بالقوة والنعمة، فتغشى بصره وبصيرته غشاوة، فهو أعمى، لا يرى الحقيقة، ولا يتذوق معنى الشرف والعفاف.. فهو في نعمة ومال يتقلب، وبقوة وسلطان يتخايل ويتمايل.

إنها الغفلة والعمى والجهالة نراها تصاحب القوة والرخاء والنعمة، نراها في كل زمان وفي كل مكان، إلا من رحم الله من عباده المخلصين.

وتدرك الرجل رحمة الله. رحمة الله في اطمئنان القلب، وفي الاتصال به سبحانه وتعالى، وإذا بالنفس الضعيفة الشحيحة إلا على هواها وشهواتها، تعتصم بالله، فيغمره الرحمن الرحيم بالإيمان العميم، فبلغ كل ذرة في كيانه، وارتفعت تلك النفس الأمّارة بالسوء، برحمة الله، فوق جاذبية الشهوة ودَنَسها، وانطلقت من قيود الذنب، حُرَّة، تَأْمَل في خَلَف أعظم، في رضوان من الله أكبر..

وإذا بهذه النفس تتألم من قرح الذنوب ونارها، وتلوم وتتحسر، ويَصرخ الحق في أصداء نفسه، ملبياً نداء الرحمة، وهو يقول: «والله لا أعصي الله بعدها أبداً». وإذا بالعزم يأخذ مكانه في النفس في صدق وتصميم شديد.

إنه الفرار إلى الله برحمة الله.. لقد وجد الرجل نفسه، وفي لحظة وصول، وجد سعادته بالفرار إلى الله من خطيئته، ووجد طعم الطمأنينة، ولمسة اللذة بقرب الله.

إنها لحظة إشراق رائعة، وومضة يقين صادقة، تفرّ الروح فيها من واقعها الذي حُبست فيه..

لقد فرّ الرجل من أوهاق هذه الأرض وجواذبها المعوقة، ومغرياتها الملفتة. . لقد تحرر من الأوهاق والأثقال، وخلص القلب من جواذب الهوى، ورَانْ المعصية، ومغريات الشهوة والخطيئة.

إنه مشهد يصوره النبي - ﷺ - في أعماق النفس الإنسانية، وقد أصبح الرجل وقد فتحت عليه منافذ الرحمة، يرى هذه الفعلة الفاحشة كريهة في حسّه ونفسه. وقد عادت الحياة إلى القلب، ويتلفت الرجل بعد صحوته، ليجد بعد رقود طويل، أن حياته كلها، **حياة ديدان وهوام**، وفي هذه اللحظة بدأ يشعر بالهجير المحرق الذي كان يعيش فيه، بعيداً عن ظل الفضيلة الوارف الظليل. . لقد كان في مُستنقع كريه، يتمرَّغ في وحل الشهوة، بعيداً عن الخط القويم، والطريق المأنوس السوي المطروق.

لقد ارتدعت النفس عن غيّها وفسادها، وانكسرت شوكة الطغيان فيها، فقد شعر بحرقة وألم، نكارة الجريمة، وعظم الخطب والمصيبة. . وهنا تعمل رحمة الله في سنّته - سبحانه وتعالى - في المغفرة والتوبة.

والحكمة واضحة في المغفرة وقبول التوبة، ومن ثم إعلانها وإشهارها.

إنه تقدير العزيز العليم الرحيم. إنها سنّة الله في الإنسان. فقد كان الرجل يملك أن يستمر على الاعتداء على حدود الله، ولكنه فرَّ إلى الله من ذنبه، بعد نَدَم عميق، وتصميم على التوبة، وهذا دليل صلاح واهتداء. وهو بشير للنور وقد أشرق في القلب، وعَزْم صادق على السير على الصراط المستقيم.

وفي هذا أيضاً تشجيع على التوبة. والإسلام يتعامل مع الطبيعة البشرية، بكل مشاعرها ومساربها واحتمالاتها. والله سبحانه بارىء هذه الطبيعة، الخبير بمسالكها ودروبها، العليم بما يصلحها، وما يصلح لها.

ألا إنها لرحمة الله العظيمة قد أَطلَّت لتغمر كل شيء بالأمن والرضى والطمأنينة، فهي توحي بنداوة للعودة إلى الله، واستجاشة الوجدان واستحياء القلب، حتى تأنس الروح بخالقها فتعانق السعادة في شوق ودود. .

إن الهدف الأول للقصة النبوية هو تقويم النفس الإنسانية، ودفعها بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الصراط المستقيم.

فهي تعرض فصلاً مثيراً في أعماق النفس، وتجربة واقعية متكررة، ليكون فيها للمؤمنين عبرة وموعظة، يرسم حوادثها البيانُ النبوي في مشهد شاخص متحرك، يُعبر عنه الرسول - ﷺ - في حركات وانفعالات، تصور الصراع النفسي الذي انبعث بحركة مضيئة، تُصلح القلب، وتُحيي الضمير.

ولما كان المقام هنا مقام التربية بالمغفرة والرحمة فإن النبي - ﷺ - يقول: «إن الله قد غَفَر للكفل».

ولكن لا تنطوي الصفحة.. ويَكل ذلك الرسول - ﷺ - إلى خيال المؤمن ليتملى هذا الموقف، فيعتلي القلب قشعريرة، فتذرف الدموع أُنساً بالله الغفور الرحيم.

وهكذا ندرك لماذا يُساق القصص النبوي، وكيف يُساق في كل موقف، ويتحرك في كل موضع، فهي ليست مجرد قصة تُروى، ولكنها لمسات رحيمة، وإيحاءات مقدَّرة تقديراً، بوحي من الله ولطفه.

إنه بيان مثير يلفت الحس والقلب والعقل، يسري في العروق بالقصة التي كانت من وسائل المنهج النبوي لاستحياء القلب الإنساني، لعله ينبض ويتحرك، ويتلقى ويستجيب.

ها هي ذي القصة يوجزها النبي - ﷺ - بجملتين:

في البداية: «لا يتورع عن ذنب عمله».
وفي الختام: «قد غفر الله للكفل».

وفي ثناياها ومراحلها يعيش الخيال في عالم الواقع المنظور بيقظة مرهفة، وحركة دائمة. مع رحمة الله الخالدة.

إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية، كائنة ما كانت.. إنها دعوة

للعودة إلى الله. دعوة العصاة المسرفين، الشاردين المبعدين في تيه الضلال. دعوتهم إلى الأمل، والرجاء، والثقة بعفو الله. إن الله رحيم بعباده. وهو يعلم ضعفهم وعجزهم، ويعلم العوامل المسلَّطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجه. ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واه. وأنه مسكين سرعان ما يسقط إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه، والعروة التي تشده.

وأن ما ركب في كيانه من وظائف، ومن ميول، ومن شهوات، سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشطّ به هنا أو هناك؛ ويوقعه في المعصية، وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم.

يعلم الله سبحانه عن هذا المخلوق كل هذا فيمدّ له في العون، ويوسع له في الرحمة، ولا يأخذه بمعصية حتى يُهيىء له جميع الوسائل ليصلح خطاه، ويقيم خطاه على الصراط. وبعد أن يلج في المعصية، ويسرف في الذنب، ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره، ولم يعد يُقبل ولا يُستقبل. في هذه اللحظة. لحظة اليأس والقنوط، يسمع نداء الرحمة الندي اللطيف:

﴿قل: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعاً. إنه هو الغفور الرحيم﴾ [الزمر: ٥٣]..

وليس بينه ـ وقد أسرف في المعصية، ولج في الذنب، وابق عن الحمى، وشرد عن الطريق ـ ليس بينه وبين الرحمة الندية الرضية، وظلالها السمحة المحيية. ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة. التوبة وحدها. الأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بوّاب يمنع، والذي لا يحتاج مَن يلج فيه إلا استئذان.. **﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله علياً حكيماً﴾** [النساء: ١٧].. **﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾** [هود: ٩٠]. **﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربَّك من بعدها لغفور رحيم﴾** [الأعراف: ١٥٣].. **﴿فمَن تاب من بعد ظُلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه﴾** [المائدة: ٣٩]..

التربية والسلوك:

إن القصة النبوية صُوّرت من الواقع الإنساني، والرسول ـ ﷺ ـ يتخير في عرضه البليغ ما له أثر في التربية والتوجيه، وتعليم المؤمنين، في سياق أدبي متفرد يمنح القصة القدرة على التأثير والإيحاء.

وتعد هذه القصة بأحداثها وتفاصيلها ذات مصدر واحد، هو مصدر الوحي، فهي من قبيل الغيب الذي كشف الله عنه لِنَبيّه ـ ﷺ ـ وموضوعها الإنسان وسلوكه وطبائعه بما في ذلك من خير وشر، وهي تحمل فكرة وتنتهي إلى تقرير المضمون التي تسعى إلى توضيحه، وهي فوق ذلك تعرض بطريقة فنية تجعل الفكرة قادرة على أن توحي إلينا بأفكار أخرى، وتثير في أذهاننا معانٍ شتى حول الفكرة الأساسية التي تتحدث عنها القصة.

إن هذه القصة تعرض فصلاً من حياة الإنسان، وتجربة، ليكون فيها للناس عبرة وعظة، فهي تجربة تتكرر في حياة البشرية كلما نفث الحرمان سموم الفقر في كيان المجتمع، وهي لمسة نبوية توقظ في الناس الخوف الشديد من آثار الشدة والفاقة، فالحاجة ريح مُدمرة مؤلمة، وهي حين تعصف، تزلزل كيان الناس، وتفعل بهم فعل النار في الأجساد، أو أشد وأعمق، فهي تكوي وتشوي، وتدمر الفضيلة، وتقوض أعمدة الشرف.

والمجتمع مسؤول بأفراده وكيانه عن هذا الأمر، حتى لا تعم الفتنة، وتفسد الضمائر، وقد أنتنت البيئة من انتشار الفاحشة ما ظهر منها وما بطن.

كانت القصة وهي تلم بلحظات الضعف عند الإنسان وتصورها تستعمل وسيلة نظيفة تستطيع بها أن تنقل تلك اللحظة وتعبر عنها، ولكن دون أن ينزل التعبير نفسه، أو تنزل القصة ذاتها إلى مستوى تلك اللحظة الهابطة، ومن أجل ذلك اختارت القصة طريقة مناسبة في التعبير والعرض، تحقق لها الوسيلة النظيفة السامية التي ينشدها منهج الفن الإسلامي، ونستطيع أن نتبين مظاهر هذه النظافة في القصة النبوية في أكثر من أسلوب:

١ ـ استعمال القصة للألفاظ والعبارات العفيفة عند عرض موقف

الفاحشة، واستعمال الكنايات المناسبة، وقد نجحت القصة في هذا برغم ما في موضوعات الجنس من حرج شديد، واستطاعت أن تني بالغرض الموضوعي والفني من خلال وسيلة رفيعة.

٢ ـ والأسلوب الثاني هو طريقة عرض هذه المواقف، حيث إن القصة لا تتجه إلى وصف المشاعر الجنسية المشبوبة التي ربما سيطرت على الإنسان في مثل تلك اللحظات، كما أنها تهمل أيضاً وصف محاسن المرأة، وتصوير مفاتنها، وما هي عليه من إغراء، تثير كوامن خفية لمتابع القصة بمشاهد الجنس المنحرفة.

٣ ـ والأسلوب الثالث هو ما نلاحظه في منهج القصة في تناول مثل هذه الموضوعات من عدم الوقوف الطويل عند مواقف الضعف والهبوط، إنه يمر بها سريعاً ولا يركز عليها، أو يسلط عليها الأضواء، لأنها لا تستحق ذلك، ولا تستأهله، وهي ليست سوى عارض من عوارض الحياة لا يلبث الإنسان أن يفيق منه، ويستعلي عليه.

٤ ـ الأسلوب الرابع أن هذا المنهج يسرع من لحظة الضعف إلى لحظة الإفاقة والارتفاع والسمو، ويقف عندها طويلاً، لأنها هي الجديرة في نظره بالوقوف الطويل أمامها، والإعجاب بها، وتركيز الإضاءة عليها، لأنها اللحظة اللائقة بالإنسان، المعبرة عن حقيقة هذا الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض، وفضَّله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

وينبغي أن نلاحظ هنا أن لحظة الإفاقة هي اللحظات التي تعقب الصراع الذي يدور في النفس، بين جوانبها المختلفة، النفس **الأمّارة بالسوء، واللوّامة**، إلى أن ينتهي هذا الصراع إلى **تحقيق النفس** المطمئنة، وهذا الصراع هو الذي يبرز حركة القصة الفنية في صعودها إلى لحظة اليقين أو الإفاقة عند الشخصية[1].

والقصة تركز كثيراً على جوانب القوة و «العفة»، والإفاقة من الضعف،

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ٤٧٨ ـ ٤٨١.

وتلح عليها في عرضها، كما نجد في تصويرها لموقف المرأة المتشدد إزاء مطالب الرجل مع شديد حاجتها للمال المغري بين يديه.

وتعكس القصة صورة من الصور الواقعية في المجتمعات البشرية في كل زمان ومكان، وهي نموذج يتكرر في كل بيئة.. صورة اللئيم الصغير النفس، الذي يُؤتى المال فتسيطر نفسه به، حتى ما يطيق نفسه! ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة. القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار. أقدار المعاني. وأقدار الحقائق. وأنه وقد مَلَك المال فقد مَلَك كرامات الناس وأقدارهم وأعراضهم بلا حساب! فالمال عنده إلّه قادر على كل شيء؛ لا يعجز عن فعل شيء، يندفع به فـ «لا يتورع عن شيء»..

وهي صورة لئيمة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة، وتعرى من الإيمان.

ومن طرق التربية في القصة، التربية بالتوبة. والتوبة وسيلة مهمة جداً في سبيل صيانة الإنسان من شرور نفسه وأهوائه، وضعفه الفطري الذي جُبل عليه، وهي تحفظه من أن يرتمي في أحضان الشيطان إلى الأبد، الذي يقوده إلى جهنم.

والإنسان لضعفه يمكن أن ينحرف، ويمكن أن يخطىء، بل إن هذا أمر واقع في حياته. ولذلك فالقصة النبوية تعالجه في برنامجها التربوي بالتوبة التي تحقق وظيفتين أساسيتين في تربية المذنب:

الأولى: أنها تفتح الطريق أمام المذنب ليتطهر ويستقيم، ويستأنف المسير على الصراط المستقيم، وتشجعه على أن يعود عضواً صالحاً في الحياة.

وتضع هذه القصة أمامنا مثالاً بالغ الأثر والتأثير، لرجل أدركته فترة ضعف كان فيها «لا يتورع عن ذنب يفعله»، وفي إحدى نزواته مع المرأة المحتاجة، صادف من المرأة تمنعاً عنيفاً، كان وراءه موقف أخلاقي ثابت ينطلق من مبدأ الرفض للفاحشة، ولم تزل ترفض هذا من خلال موقفها المتحرج الراعد الباكي، حتى استيقظ ضميره، واستغفر ربه وتاب وأناب، فقبل الله

توبته، ومات من ليلته، وفي اليوم التالي وجد مكتوباً على بابه: «إن الله قد غفر للكفل».

الثانية: أن المذنب يجد في التوبة علاجاً مريحاً لألم الشعور بالذنب، ومَخلصاً نفسياً يرفع عن كاهله ذلك الشعور، الذي ربما أصابه بالاضطرابات العصبية، والقلق النفسي المدمر، الذي نجد أمثلة واضحة له لدى المذنبين الذين لا يرتبطون بالله بصلة دين أو عقيدة، فيدفعهم قلقهم، وآلام ذنوبهم إلى طرق مختلفة ينشدون بها الخلاص مما يعانونه، فمنهم مَن يلجأ إلى الخمر والمخدرات، ومنهم مَن يحاول أن يطرد تلك الآلام بالانهماك في الملذات الجنسية وغيرها، ولكنهم في النهاية يفشلون، لأنهم يعالجون الداء بالداء، فتزداد مشكلتهم تعقيداً، وتزداد أعصابهم توتراً واضطراباً[١].

أما التائب كما تصور ذلك القصة النبوية، فهو بتوبته، يبدأ بصفحة جديدة نقية لا سوء فيها، فيجد الإنسان المسلم وسيلة النجاة، والفرار من ذنوبه وآلامه في باب التوبة المفتوح على مصراعيه، هذا الباب الذي لا تلفت القصة النبوية الإنسانَ إليه فحسب، ولكنها تناديه، وتغريه بأن يدخل فيه برحمة الله.

والقصة تختم بموقف الإفاقة والانتصار والتوبة، حيث تنتهي فصولها والأنوار مضاءة هناك، ويظل معها القارىء والسامع يتملى المشهد الأخير في خياله، وتمتلىء نفسه من خلال ذلك بالمشاعر الإيمانية، والأهداف العليا للحياة الإنسانية في سبيل واقع أفضل وأجمل، وهو يتطلع إلى حياة أبقى وأكمل.

وفي القصة النبوية تأتي النهاية في قوة البداية، فقد أتيح لها من مقومات القوة وعناصرها ما يجعلها الصورة الحية التي تنطبع في الحس فتلازمه وتؤثر عليه، وترتسم في الخيال وتقوده إلى العزم والتصميم، والنهاية جزء مهم في

---

(١) انظر: أبو مدين الشافعي: «الاطمئنان النفسي» ص ٤٦، القاهرة، دار الفتوح للطباعة، والقصص في الحديث النبوي ٤٥٦.

كيان القصة، له قيمته الحاسمة في تثبيت دعائم الخير والفضيلة في بناء النفس الإنسانية، وعلى النهاية يتوقف الأثر النهائي في نفس القارىء أو السامع، فهي تحمل ثمرة خالدة سيبقى مذاقها عالقاً في الـذهن والسلوك يرسم الخـطى، ويصحح المسير.

لقد ظلت القصة في خاتمتها وفي نهايـة المطاف محتفـظة بعنصر الإثارة والاستقطاب، لتقود القلوب المشوقة، المتعبة المثقلة بأحمال الذنوب إلى رحمة الله التي وسعت كل شيء، تدخل في باب التوبة المفتوح بفرح وسرور.

لقد كانت النهاية ذات آثار عميقة تنعكس على نفسية المتلقي، حيث تسكب في عروقه اليقين والطمأنينة، وتزرع في أعماقه بذور التفاؤل والأمل، وتثير في النفوس البهجة والانشراح[1].

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ١٥١، ٤٨١.

قصة قاتل المئة

المحتوى	ص

قصة قاتل المئة

إن الله سبحانه يعلم ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به نزغات الشيطان أحياناً إلى درك المعصية وارتكاب الكبائر، وتدفعه شهواته وأطماعه ورغباته إلى مخالفة أمر الله في حمى الاندفاع في ظلام النسيان والغفلة . .

إن الله عزّ وجل يدرك ضعف هذا الإنسان فلا يقسو عليه، ولا يبادر إلى طرده من رحمته حين يظلم نفسه ويتجاوز حدود ربه، فيسرف ويطغى . .

إنه سبحانه لا يغلق في وجه هـذا المخلوق الضعيف الضال، الـذي يتخبطه الشيطان، بـاب التوبـة، ولا يَدعَـه لعدوه إبليس يقـوده إلى اليأس والقنوط من رحمة ربه، فهو سبحانه يريد أن يتوب على عبده الشارد الحائر في تيه الشيطان، يُطمعه سبحانه في المغفـرة، ويَدلُّـه على الـطريق، ليثوب إلى الكنف الأمين.

إنه ـ سبحانه ـ موجود للمغفرة والرحمة حيثما قصده مستغفر منيب، فهو يستقبل المستغفرين في كل حين، يغفر لهم ويرحمهم متى جاءوه تائبين **﴿ومن يَعمـل سُـوءاً أو يَـظلم نفسـه، ثُم يَستغفـر الله يَجِـد الله غَفـوراً رحيـماً﴾** [النساء: ١١٠] . .

هكذا بلا قيد ولا شرط، ولا حجاب ولا بوّاب! حيثما جاء العبد الظالم لنفسه، الضال، الشارد، المسرف . . جاء إلى ربه تائباً مستغفراً وَجَدَ الله غفوراً رحيماً . .

وعلى هذا السبيل المضيء برحمة الله سارت القصة النبوية. تُوجِّه القلوب إلى رحمة الله ومغفرته.. القصة النبوية التي تثير في أفئدة الشاردين التائهين الاستغفار ولا تثير الاستهتار. فالله سبحانه لا يغلق الأبواب في وجه الخاطئين والخاطئات الذين هزّهم الندم من الأعماق، فاستفاقوا وهم في فسحة من العمر، واستجدّت في أعماقهم رغبة حقيقية صادقة في التطهر من الآثام والمعاصي، ونية حقيقية في سلوك طريق جديد..

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «كان فيمن كان قبلكم رَجلٌ قتل تِسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فَدُلَّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قَتَل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمَّل به مئة، ثم سَأَل عن أعلم أهل الأرض، فَدُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قَتَل مئة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومَن يحولُ بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أُناساً يعبدون الله تعالى فاعْبُدِ الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرضُ سوء، فانطلقَ حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مُقْبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدميّ فجعلوه بينهم ـ أي حَكَماً ـ فقال: قيسوا ما بين الأَرْضَين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».

وفي رواية في الصحيح: «فكان إلى القرية الصالحة أقربَ بشبر فَغُفِرَ له» وفي رواية: «فَجُعِلَ من أهلها».. وفي رواية في الصحيح: «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقرَّبي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقربَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ له» وفي رواية: «فنأى بصدره نحوها»[1].

تتحدث القصة عن كبيرة من كبائر الإثم، وفاحشة من أكبر الفواحش،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٦٦) والبخاري ٤/٢١١ ـ ٢١٢، وابن ماجه ٢/٨٧٥، المسند (صادر) ٣/٢٠، وابن حبان في صحيحه. انظر الإحسان رقم (٦١١).

وهي جريمة تخلد صاحبها في عذاب أليم في نار جهنم في مقعد مقيم **﴿ومَن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدَّ له عذاباً عظيماً﴾** [النساء: ٩٣]. . **﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون. . ومَن يفعل ذلك يلقَ أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا مَن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً﴾** [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا يزال المؤمن في فُسحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً». وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إن من ورطات[1] الأمور التي لا مخرجَ لمن أوقعَ نفسه فيها سَفْكَ الدم الحرام بغير حِلّه[2].

والقتل من أكبر الذنوب والكبائر، وأعظم المظالم، ويكون أول القضاء يوم القيامة، القضاء المتعلق بالدماء لعظم أمر القتل.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء»[3].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق»[4].

وفي رواية زاد فيه: «ولو أنّ أهل سمواته، وأهل أرضه اشتركوا في دَمِ مؤمن لأدخلَهم الله النار».

وفي رواية للبيهقي قال رسول الله - ﷺ -: «لزوال الدنيا جميعاً أهون على الله من دَمٍ سُفِكَ بغير حق».

---

(١) الورطات جمع ورطة بسكون الراء وهي التهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه.
(٢) رواه البخاري والحاكم وقال صحيح على شرطهما.
(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة.
(٤) رواه ابن ماجة بإسناد حسن ورواه البيهقي والأصبهاني.

إن القصة تصور لمسة من رحمة الله بعباده، وترسم قاعدة معاملته لهم . . إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل كبيرة ومعصية كائنة ما كانت ولو كانت أمّ الكبائر وشرّ الآثام : القتل . .

إنها دعوة لكل العصاة المسرفين لـلأوبة والتـوبة . . الأوبـة إلى الباب المفتوح، والتوبة النصوح، وعدم اليأس والقنوط . .

وتنقل القصة النبوية صورة واقعية من أحداث التاريـخ الإنساني التي أَوْحى الله بها إلى نبيه ـ ﷺ ـ، ويسبق القصة تمهيد قصير ببيان أنها حدثت في الماضي : «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعة وتسعين نفساً» . .

وفي رواية في صحيح البخاري «كان في بني إسرائيل رجلٌ قتل تسعة وتسعين إنساناً . . »، ثم تحدد لنا موقف رجل القصة، وتعرفنا عليـه بصفته المثيرة : «قتل تسعة وتسعين إنساناً» . وإنه لوَصْفٌ يدعو إلى العجب من أمره، ويبعث إلى التطلع نحو تفاصيل قصته الغريبة بشوق شديد[1] .

ثم تأخذ مشاهد القصة تتحرك بكل أبعادها، وتنمو الأحداث متطورة أصلاً عن بداية القصة، فالبداية تحمل في تضاعيفها الأسباب التي حدثت عنها مضاعفات تالية، وبتلك الدوافع النابعة من البداية ينشأ موقف جديد . .

«كان فيمن كان قبلكم رجل قَتَل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فَدُلَّ على راهب. فأتاه، فقال : إنه قَتَل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ . . » .

إنه مشهد مشخص يحفل بشتى الصور في حيوية واندفاع، وهـو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، فهو نموذج إنساني شاخص لمجرم قاتل تائه شارد، ترسم القصة هذه الـطبيعة البشريـة مجسمة مرئية، تُصور في أعماق النفس خطوطاً متشابكة بألوان مضطربة لصراع عنيف، لا تهدأ عواصفه، ولا تسكن حركته، فهو ينمـو، ويزداد صراخـه في أعماق

---

(١) القصص في الحديث النبوي ص ١١٠ .

الوجدان، فيعدم الرجل الراحة والسكون، وتغيب الطمأنينة بالنوم عن الجفون.

وبدأت مسيرة التوبة فسأل عن أعلم أهل الأرض، فَدُلَّ على راهب، فعرض عليه أمره، وسأل: «فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مئة» . .

وتدع القصة للخيال جناحَه فيغيب في صورة ترسمها القصة. . صورة تتحرك. . ماذا حدث بعد أن قال الراهب للرجل: ليس لك من توبة؟! لقد أطار الغضب عقله، واستوى الشيطان فكره وقلبه، فانتشر في كيانه ألم اليأس. مشهد الرجل يموج ويضطرب، بعد أن أغلق الراهب عليه باب الإنابة والتوبة، فأطفأ نور الأمل في قلبه برحمة الله. . وعلى لون من ألوان «التخييل» الذي يتمثل في تلك الصورة المتحركة، نجد الرجل في ظلام وضباب وقد خَيَّما على قلبه وعقله، وإذا بالشيطان قد فجَّر في أعماقه الغضب الشديد، وترتفع الأنفاس في غيظ وحنق، فإذا هو يموج في اضطرابه، وما هي إلا عروق تغلي، فترتفع يَد الرجل اليائس البائس بِسَطْوة البَطش الأعمَى، وما هي إلا ضربة مُضطربة هوت بشدة على عنق الراهب، فأطاحت بحياته. فسال دمه يُضَمِّخُ ثوبه وجسده. . فكان الغضب مركب الشيطان الذي دفعه إلى هذه الجريمة «فقتله، فكمل به مئة».

ووقف الرجل في خشوع حزين، والدنيا من حوله صامتة باكية، وهو يتساءل في وجدانه لِمَ قتلته؟!!

إنها صورة يائسة مرعبة، ترسمها القصة للاستسلام للشيطان، يُجللها ظل كئيب، ساهم في بعثه قتل الراهب، مشهد حافل بالاضطراب. . هاهو ذا الرجل يَنظر ولا يَرى، يتحرك بلا إرادة ووعي وتصميم، يتحرك ليقتل، ولا يعي ما يفعل، لقد أتى صومعة الراهب، يتلألأ في قلبه أملُ التوبة والعودة إلى الله، لكنه يعود كئيباً. وهو يحمل وِزْراً ثقيلاً فوق أوزاره، يتبدى الحزن والضيق في أعماقه. .

وحَدّقت عينا القاتل في جريمته، فإذا هو في غمٍّ عميق يلفه خوف شديد، وما تكاد أقدامه تحمله من ثقل غمِّه وهَمِّه. . هاهو ذا يتمايل في مشيته، وانطلقت عيناه في رحلة طويلة من البكاء، وتَمَدَّدَ قَلْبُه على أوتار الندم تعضّه بشدة وألم، وتزيده حزناً على حزن. .

الأمل الصادق:

ومضت الأيام باكية تنادي بعضها بعضاً، وإذا بهتاف صارخ ينطلق في أعماق الوجدان يهزّ الرجل هزاً، ويدفعه دفعاً. . إلى أين؟! إلى الله. إلى التوّاب الغفّار الرحيم. .

وانطلق الرجل يقطع جنبات الأرض ويطويها بقلب واجف، ونَفَس راجف، وروح تتخطى الظلام، وعزيمة شديدة تبحث عن طريق الخلاص، طريق العودة والتوبة إلى كنف الرحمن الرحيم، وكان لا يرقأ له جفن، ولا تجف له دمعة وهو يسأل: هل له من توبة؟

انطلق الأمل الصادق مجدداً «ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فَدُلَّ على رجل عالم، فقال: إنه قَتَل مئة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومَن يحول بينه وبين التوبة. .»؟!

«وتثير القصة فينا نوعاً من الانفعالات المختلفة إزاء ما يجري من أحداث ومواقف، مما يجعلنا نتجاوب مع العرض النبوي بشيء من الخوف والفَزَع، أو بالشفقة والعطف، أو بلون من ألوان التوقع والترقب. . إنها حركة في خواطر النفس ووثبات الخيال. حين نرى الرجل وقد قَتل الراهب الذي سدَّ أمامه باب التوبة، وبعد ذلك سأل عن أعلم أهل الأرض مرة أخرى، يسأله هل له من توبة. . وهنا يثور في أنفسنا شعور بالخوف والفَزَع وتوقُّع الشر لهذا العالم، فَمَن يدري فلربما كان جوابه مثل جواب الراهب فيذهب ضحية جديدة لهذا القاتل، ولكن القصه بعد أن تثير فينا هذا الشعور لِلَحْظَة قصيرة تُمتعنا بجواب الرجل العالم بأنه ليس هناك مَن يحول بينه وبين التوبة»[1].

---

(١) القصة في الحديث النبوي ص ١٩٥.

لقد استقبل العالم سؤال الرجل في انشراح وطمأنينة، وقال له في نَبرات رحيمة تقطر حناناً وَوُدّاً: وما يمنع من التوبة؟ حتى إذا سمع الرجل قولَ العالم: «ومَن يحول بينه وبين التوبة؟».. عَلَتْ على وجه الرجل علامة استفهام مضيئة مُستبشرة، وتحركت في عينيه دموع مغتبطة بعد أن جَفّت دموع الحزن الكئيبة اليائسة، واستنار القلب بنور الأمل الذي أضاء السرور بالعودة إلى الله، والالتجاء إلى كنف رحمته الواسعة التي لا تغلق باب التوبة أمام كل قادم يفرّ من ظلمات المعصية إلى نور السلام، والاطمئنان والرحمة والرضوان..

حتى إذا سمع الرجل قول العالم: «ومَن يحول بينه وبين التوبة؟» تألّقت ابتسامة خجولة على شفتي الرجل، وقد نَكَّس رأسه حياءً من الله، وأمارات الندم قد رسمت خطوطها في أعماق وِجْدانه، فانتشرت ظلالها على وجهه ونَفَسه، ونبرات صوته، وأَسْلَمَ نفسه للّه يستمع إلى قول العالم: «انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعْبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء»..

ومضى الرجل إلى الأرض الصالحة كما أشار إليه العالم.. مضى تائباً إلى حظه الباسم، ومصيره العظيم عند التوّاب الرحيم..

مضى الرجل في رحمة الله التي قد كتبها جَلَّ جلاله على نفسه، وإذا بالقلب الذي تلبَّد وقسىٰ.. إذ به يتحرك ويضيء وينبض بحمد الله وشكره، وإذا بالروح التي انطفأت من مواقدها شموع الإيمان.. إذ بها تتلألأ نوراً وقد لامسَتْها الرحمة الإلٰهية.

لقد عرف الله سبحانه صدق نية الرجل فهو ﴿**أعلم بمَن اتقى**﴾ [النجم: ٣٢]، عَلِمَ الله صدق العزيمة والإرادة في التوبة، وما هي إلا وَمْضة في لحظة مشرقة، فَطَوى الرجل آماداً من الشقوة والضلال، وأزاح الله برحمته عن روح عبده الضباب الثقال..

لقد تاب الرجل توبة نصوحة، تاب بيقين مكين، هاهو ذا يسمع داعي الله «انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أُناساً يعبدون الله تعالى، فاعبد الله

معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء..».

وانطلق الرجل.. راحٍ يُسابق الزمن.. الزمن الذي لا يملك حركته إلا الله تعالى، راح إلى الله تائباً ليمحو بتوبته آثار ماضيه القاتم.. فَهَجَر قريته. قرية السوء وأهلها.. وانطلق إلى تلك القرية الصالحة حتى يعبد الله فينال رحمته ومغفرته.. وفي الطريق كانت نبضات الحياة قد آذنت بالصمت، وسكنت حركتها، ولكن روحه قد استنارت بنور ربها.. ها هي ذي عائدة إلى ربها، خاشعة، تائبة، مستغفرة، راجية رحمة الله، وأحنى الرجل رأسه على صدره وأسلم الروح إلى بارئها..

وهكذا أدركه الموت في الطريق ولما يصل بَعْدُ إلى القرية الصالحة «فانطلقَ حتى إذا نصَفَ الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدمي، فجعلوه بينهم - أي حكماً -، فقال: قيسوا ما بين الأَرْضَين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».

وفي رواية «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقرَّبي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقربُ بِشِبْر فَغُفِرَ له». وفي رواية: «فنأى بصدره نحوها».

وبعد، لقد أدركه الموت في الطريق، واختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، وهو موقف يبعث فينا درجة جديدة من الانفعالات تجاه مصير هذا الرجل، مَن يا ترى سيأخذه، ملائكة الرحمة، أم ملائكة العذاب؟!

ونظل نشفق على هذا الرجل، وهو في لحظاته الأخيرة، يترقب في رهبة قاتلة ما ينتهي إليه هؤلاء المتخاصمون في شأنه[1].

والنهاية في القصة مشهد حي يموج بشتى الصور المتحركة تثير في المتلقي

---

(١) القصص في الحديث النبوي ١٢٥.

التجاوب مع رحمة الله والفرار إليه، وتظل القصة في خاتمتها محتفظة بعنصر الإثارة والاستقطاب، وبمظهر الروعة في تشخيص المشهد في نقل الحدث الأخير وتصويره، فهذا الرجل التائب في طريقه إلى الأرض الطيبة، يواجه الموت، وفي الوقت الذي يستعد فيه لانتزاع روحه، ينشب أمامه مشهد مثير حيث يختصم الملائكة! وبشأن مَن؟ بشأنه هو! مَن يقبضه؟ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟

إنها مشكلة تثير الفَزَع والرعب في هذا الرجل الذي ينتظر الموت.. ومع الموت ينتظر مستقبلاً مجهولاً، وإنها لَلحظات قاتلة رهيبة مرعبة يعانيها، وهو لا يدري ما نهايته[1]!!

وإن الاختصام فيه ليطول، فملائكة الرحمة معها سجلٍ السماء «جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله»، وملائكة العذاب تفتح سجل الأرض يُجلِّله سواد معتم: «إنه لم يعمل خيراً قط».

وفي احتدام المخاصمة يبرز على الساحة عنصر جديد في شخصيات القصة، يتحاكم إليه الملائكة، يأتي مَلكٌ فجأة في صورة آدميّ، فَحكَّموه بينهم، ولكأنَّا بالرجل ـ وهو في غمرات الموت ـ تحتبس أنفاسه في لحظات حاسمة قاسية قبل أن ينطق هذا الحَكَمُ بحكمه.

ونجد بروز المَلَك على ساحة القصة يعطي إضافة جديدة في الامتداد القصصي، وبُعْداً جديداً لأزمة الرجل المثيرة، حين ترتَّب مصيره على مقدار المسافة التي قطعها.. «فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له».

وإلى هذا الحد لا تزال النهاية مجهولة، ويبقى الرجل ـ وهو في سكرات الموت الرهيبة ـ يكتم أنفاسه في فَزَع رهيب مرعب، وتبقى الإثارة في نفوس المستمعين إلى القصة على أشدها.

---

(١) المصدر السابق ١٥١.

وهكذا تعيش القلوب مع القصة بشوق مثير في التدرج والانفراج، في الانتقال بالأحداث من مستوى إلى مستوى، وفق مراحل، ومن خلال تسلسل معين. . فيتدرج سياق القصة نحو التأزيم في الارتقاء من درجة إلى درجة في طريق الوصول إلى ذروة الأحداث فيها، وهي النقطة التي تجمعت فيها الأزمة، حين أدرك الرجل الموت، وبقي مصيره مجهولاً إلى آخر لحظة، حيث تنطلق الملائكة فيقيسون، فيجدونه أدنى إلى الأرض التي أراد، فتقبضه ملائكة الرحمة وقد غُفر له، ويأتي الانفراج مع **آخر كلمة في القصة**. . «فوجدوه إلى هذه أقربَ بِشِبر فَغُفِرَ له» وفي رواية: «فقبضته ملائكة الرحمة». .

وهكذا تأتي النهاية مجهولة إلى آخر كلمات القصة، ثم تأتي بنهاية سارّة تنسجم مع هدف القصة في تأكيد فسحة الأمل في باب التوبة المفتوح، وفي رحمة الله التي وسعت كل شيء. .

والحوار في القصة هو العنصر الأهم البارز فيها، نجد فيه الحيوية والانفعال، ويثير في النفس مختلف العواطف، فهو يأتي في سياق القصة في صورة طبيعية، دالّ ومُعبرٍ عن الموقف ويحقق الغاية التي أُنشيء من أجلها، كذلك نجد الحوار يطوّر الحَدَث، ويدفعه لبعث مواقف جديدة في خط سيرها إلى أن تصل إلى النهاية المقصودة(١).

وهنا في القصة موضع جدير بالتأمُّل في الحوار بين ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، له مغزاه العميق وتأثيره الكبير في بيان القصة. .

الحوار بين جماعة من الملائكة، وجماعة أخرى منهم، وهم الذين ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون**﴾ [التحريم: ٦] فهؤلاء ملائكة الرحمة ينفذون سُنّة الله في ميزان الحق الإلّهي: «فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً بقلبه إلى الله». .

وهؤلاء ملائكة العذاب يعملون وفق هذه السنّة في ميزان الحق الإلّهي:

---

(١) المصدر السابق ١٥١، ١٩٥، ٢٠١، ٣١٧.

«وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط». .

«والأمر الذي تريد القصة من إبرازه في هذه الصورة المعبِّرة ليس اختصام ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ولا قياس مسافة الأرض ليعلموا إلى أي الناحيتين كان الميت أقرب!! إنما كان ذلك كله تجسيماً لفداحة الجرم وهول الذنب[1]! إنه القتل أكبر الكبائر، المشكلة التي تُوجِّه حركة القصة. .

والقصة تبرز المشكلة التي تريد معالجتها، ويبدو ذلك في تعقيد الأحداث، وتأزيم المواقف، إذ تصبح «المشكلة» محوراً يُوجِّه حركة القصة، ويدفع بها إلى التطور والاستمرار في مواقف جديدة.

وهكذا نجد مشكلة الرجل في الجريمة «إنه قاتل» وقاتل بالجملة، وإن جرائمه لتطارده فتؤرقه، وتدفعه لأن يلتمس مخرجاً من هذا الكابوس الثقيل المتمثل في شعوره الدائم بالإثم، وبدا له أنه ربما وَجَد هذا المخرج عند أهل العلم.

إن كل الأحداث والتطورات في القصة إنما جاءت أصلاً بسبب المشكلة، وبدافع منها، والمشكلة في القصة حيوية بما تحويه من عنصر درامي تثير في نفس الرجل صراعاً يؤدي به إلى الخوف الشديد. نجده بدافع خوفه الذي استبدَّ به من عدد الأرواح التي أزهقها يطوف في البلاد بحثاً عن مخرج، ويظل الخوف يساور الرجل إلى آخر لحظة في القصة، حيث تبقيه القصة في شتى المراحل التي مَرَّ بها، وتبقينا معه في حالة خوف وقلق وترقُّب، وبصورة مثيرة للغاية.

وأخيراً فإن القصة ترسم أبعاد الشخصيات. فهي تحدد أبعاد القاتل من ناحية وضعه الإجرامي في سفك الدماء، وارتكاب الكثير من جرائم القتل «بأنه قتل تسعة وتسعين»، كما يوصَف الرجل الذي أخبر القاتل بأن باب التوبة مفتوح على مصراعيه، يوصف بأنه «رجل عالم»[2].

---

(١) أنظر سيدنا محمد في إبداعه الأدبي ص ١٣٠.

(٢) القصص في الحديث النبوي ٢١٢، ٢٢٢، ٢٩٩.

اليقظة والحذَر:

وأخيراً فإن القصة تلمس القلب الإنساني بشدة وعمق.. هذا الموت الذي ينتهي إليه كل حي، ما هو؟ وكيف يقع! وهو غيب لا يدري إنسان متى يُدركه، وهو حتم في موعده المقدر، وهو نهاية كل إنسان في رحلته القصيرة على الأرض وإلى الله يرجع الجميع.

إن الموت حقيقة قاسية رهيبة تواجه كل حي، فلا يملك لها رداً، ولا يملك أحد لها دفعاً، فلا حيلة ولا وسيلة، ولا دفع ولا تأجيل، فَقَدَر الله هو المسيطر، والأنفس في قبضته، وهو يتوفاها حين يحين أجلها في علم الغيب.. فلا يعرف الإنسان متى يحين أجله فيجب عليه أن يستيقظ من غفلة الهوى، ومتاهة الأمل والغرور قبل أن يفجأه الموت فالسعادة والشقاوة بحسب خواتيم الأعمال.

عن سهل بن سعد، رضي الله عنه، عن النبي - ﷺ - قال: «إنما الأعمال بالخواتيم» (١).

وعن معاوية، رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنما الأعمال بخواتيمها، كالوعاء، فإذا طابَ أعلاه، طابَ أسفَلُه، وإذا خَبُثَ أعلاه، خَبُثَ أسفله»(٢).

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي - ﷺ - قال: «إن الرجل ليعمل الزمانَ الطويلَ بعمل أهل الجنة، ثم يُخْتَم له عملُه بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعملَ الزمانَ الطويل بعمل أهلِ النار، ثم يُختم له عمله بعمل أهل الجنة»(٣).

وعن أنس، رضي الله عنه، عن النبي - ﷺ - قال: «لا عليكم أَنْ لا تَعْجَبوا بأحد حتى تنظروا بِمَ يُختم له، فإن العاملَ يعمل زماناً من عمره، أو بُرهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه، دَخَل الجنة، ثم يتحوَّلُ، فيعملُ

---

(١) البخاري في صحيحه (٦٤٩٣، ٦٦٠٧).
(٢) رواه ابن حبان في صحيحه برقم ٣٣٩ و ٣٩٢ وانظر تمام تخريجه فيه.
(٣) صحيح مسلم رقم ٢٦٥١ ورواه أحمد ٢/ ٢٨٤، وصححه ابن حبان (٦١٧٦).

عملاً سيئاً، وإن العبدَ ليعملِ البُرهة من دهره بعمل سيىء، لو ماتَ عليه، دخَلَ النار، ثم يتحوَّل فيعملُ عملاً صالحاً»(١).

وعن سهل بن سعد، رضي الله عنه، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الرجلَ ليعمل عَمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمَل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة»(٢). زاد البخاري في رواية له: «إنما الأعمال بالخواتيم».

يقول الإمام ابن رجب: وقوله «فيما يبدو للناس» إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيىء ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت، وكذلك قد يعمل الرجلُ عملَ أهل النار وفي باطنه خصلةٌ خفية من خصال الخير، فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره، فتوجب له حسن الخاتمة..

وفي الجملة: «فالخواتيم ميراثُ السوابق، وكل ذلك سبق في الكتاب السابق، ومن هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم..»(٣).

وكان مالك بن دينار يقوم طـول الليل قابضاً علي لحيته، ويقول: يا ربِّ قد علمتَ ساكنَ الجنة من ساكن النار، ففي أي الدار منزل مالك؟(٤).

تلك الحساسية المضيئة التي يوجهها دين الله في صورة اليَقَظة والحَذَر الدائم. يقول الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿**إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون. والذين هم بآيات ربهم يؤمنون. والذين هم بربهم لا يشركون. والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون**﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١]..

---

(١) رواه أحمد ٣/ ١٢٠ وإسناده صحيح.
(٢) متفق عليه.
(٣) جامع العلوم والحكم ١/ ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٤) رواه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٨٤.

ومن هنا يبدو أثر الإيمان في القلب من الحساسية والإرهاف والتحرج، وحساب العواقب. مهما ينهض بالواجبات والتكاليف.

فهؤلاء المؤمنون يشفقون من ربهم خشية وتقوى؛ وهم يؤمنون بآياته، ولا يشركون به. وهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم. وهم يأتون من الطاعات ما استطاعوا.. ولكنهم بعد هذا كله ﴿**يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون**﴾ لإحساسهم بالتقصير في جانب الله، بعد أن بذلوا ما في طوقهم، وهو في نظرهم قليل.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: يا رسول الله ﴿**الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وَجِلَة**﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يا بنت الصديق! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل»[1].

إن قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه. ويحس آلاءه في كل نَفَس وكل نبضة.. ومن ثم يستصغر كل عباداته، ويستقل كل طاعاته، إلى جانب آلاء الله ونعمائه. كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته؛ ويرقب بكل مشاعره يد الله في كل شيء من حوله.. ومن ثم يشعر بالهيبة، ويشعر بالوجل، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصرٌ في حقه.

وهؤلاء هم الذين يسارعون في الخيرات، وهم الذين يسبقون لها فينالونها في الطليعة، بهذه اليقظة، وبهذا التطلع، وبهذا العمل، وبهذه الطاعة. لا أولئك الذين يعيشون في غمرة ويحسبون لغفلتهم أنهم مقصودون بالنعمة، مرادون بالخير، كالصيد الغافل يستدرج إلى مصرعه بالطعم المغري. ومثل هذا الطير في الناس كثير، يغمرهم الرخاء، وتشغلهم النعمة، ويطغيهم الغنى، ويلهيهم الغرور، حتى يلاقوا المصير!

تلك اليقظة التي يفرضها الإسلام على قلب المسلم، والتي يستجيشها

(١) أخرجه الترمذي.

الإيمان بمجرد استقراره في القلوب. . ليست أمراً فوق الطاقة، وليست تكليفاً فوق الاستطاعة، إنما هي الحساسية من الشعور بالله والاتصال به.

دروس وعِبَر:

حرص الرسول ـ ﷺ ـ أن يضمِّن القصة كثيراً من القيم الإسلامية، فالقتل جريمة لها عقوبتها في التشريع الإسلامي في الدنيا والآخرة، ويبرز أمام الذين أسرفوا على أنفسهم في هذه الجريمة، الرحمة الإلَهية التي تسعهم إن تابوا بقلوب خالصة، طواعية وخوفاً من الله، ومن ثم النية الصادقة في السير بطريق الهداية والعزم الأكيد على ذلك.

إن مبدأ التوبة هو مبدأ أساسي من مبادىء الإسلام. . فالله لا يطرد أحداً من رحمته، ولا تسد أمام التائب أبواب العودة إلى الصراط المستقيم، مهما كان ذنبه، ومهما كانت أخطاؤه.

إن القصة تغري كل مذنب خطّاء مهما كانت خطيئته، ومهما عظم جرمه أن يعود إلى الله، فالرجل رغم كثرة الأرواح التي أزهقها طوال حياته الإجرامية إلا أنه الآن وقد استيقظ ضميره، وأدركته لحظة القوة والارتفاع يجد الفرصة عريضة أمامه في باب التوبة المفتوح كما يعبر عن ذلك أحد شخصيات القصة وهو الرجل العالم، الذي جاء إليه القاتل يسأله: «هل له من توبة؟ فقال: نعم، ومَن يحول بينه وبين التوبة؟!».

ويتوب هذا القاتل، فيتوب الله عليه وتدركه الرحمة. . فتلقي القصة بظلال الرحمة في باب التوبة المفتوح لكل طارق مهما عظم ذنبه، وتعددت آثامه.

ثم إن التوبة علاج حاسم للآلام النفسية التي يولدها الشعور بالذنب الذي يسيطر على المسرف في الخطيئة والإثم، والتائب ينقذ نفسه مما يمكن أن يجده من ضغط نفسي ربما يتحول إلى قلق رهيب مدمر يظل يطارده حين لا يزال في دائرة الذنب، أما حين يخرج من تلك الدائرة بعزم وتصميم عبر باب

التوبة، فإنه سيجد راحة تامة، وتنفيساً طبيعياً وهو يشعر أنه يبدأ حياة جديدة آمنة مطمئنة.

والقصة تهدف في عرضها إلى التمسك بتعاليم الإسلام وأخلاقه وقيمه، فهي دعوة حيّة نابضة إلى الدخول في التوبة، في شكل يغري السامع في التصميم والعزم الشديد إليها، وبصورةٍ تخاطب عاطفة الإنسان ووجدانه.

والتائب تصوره القصة.. فهو بتوبته يبدأ صفحة جديدة نقية لا سوء فيها، وبالتالي فليس هناك ما يدعو إلى أن يقلق، ما دام قد تاب توبة نصوحة..

لقد انتهت حياة الرجل القاتل حين تاب بمغفرة الله ورحمته، قبضته ملائكة الرحمة إلى الرضوان المقيم.

ويجد المسلم وسيلة النجاة من ذنوبه وآلامه في باب التوبة المفتوح.. فالله سبحانه يقبل توبة العبد ولو كان مغرقاً في الإجرام، يقتل ويسفك الدماء، وفي لحظة يدرك أنه أخطأ فيتمرد على هذا الخطأ والشيطان الذي أغواه، ويسعى بعزم وتصميم في حركة قوية جادة للتغيير، والسير على الصراط المستقيم، فيقلع عن الإجرام، ويتوب منها أبداً، وتسجل بذلك هذه القصة انتصار الخير في النفس الإنسانية بقبول الله لتوبة ذلك الرجل في مشهد ملائكي حافل[1].

يقول الإمام ابن حجر في شرح هذا الحديث الشريف[2]:

«وفي الحديث مشروعية التوبة من جميع الكبائر حتى من قتل النفس، ويحتمل على أن الله تعالى إذا قَبِلَ توبة القاتل تكفّل برضا خصمه، وفيه أن المفتي قد يجيب بالخطأ، وغفل مَن زعَم أنه قتل الأخير على سبيل التأول لكونه أفتاه بغير علم، لأن السياق يقتضي أنه كان غير عالم بالحكم حتى استمر

---

(١) القصة في الحديث النبوي: ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٤٠، ٤٥٧.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/٤٠١.

يستفتي، وإن الذي أفتاه استبعد أن تصح توبته بعد قَتْله لَمن ذكر أنه قتله بغير حق، وإنه إنما قتله بناءً على العمل بفتواه، لأن ذلك اقتضى عنده أن لا نجاة له، فيئس من الرحمة، ثم تداركه الله فندم على ما صنع، فرجع يسأل. .

وفيه إشارة إلى قلة فطنة الراهب لأنه كان من حقه التحرز ممن اجترأ على القتل حتى صار له عادة بأن لا يواجهه بخلاف مراده، وأن يستعمل معه المعاريض مداراة عن نفسه، هذا لو كان الحكم عنده صريحاً في عدم قبول توبة القاتل فضلاً على أن الحكم لم يكن عنده إلا مظنوناً.

وفيه أن الملائكة الموكلين ببني آدم يختلف اجتهادهم في حقهم بالنسبة إلى مَن يكتبونه مطيعاً أو عاصياً وأنهم يختصمون في ذلك حتى يقضي الله بينهم.

وفيه فضل التحوُّل من الأرض التي يصيب الإنسان فيها المعصية لما يغلب عليه بحكم العادة على مثل ذلك، إما لتذكُّره لأفعاله الصادرة قبل ذلك والفتنة بها، وإما لوجود مَن كان يُعينه على ذلك ويحضُّه عليه. ولهذا قال له الأخير: «لا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء»، ففيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية، والتحول عنها كلها، والاشتغال بغيرها.

وفيه فضل العالم على العابد، لأن الذي أفتاه أولاً بأن لا توبة له، غلبت عليه العبادة، فاستعظم وقوع ما وقع من ذلك القاتل من استجرائه على قتل هذا العدد الكثير. وأما التالي فغلب عليه العلم، فأفتاه بالصواب ودلَّه على طريق النجاة.

قال عياض: «وفيه أن التوبة تنفع من القتل كما تنفع من سائر الذنوب وهو وإن كان شرعاً لَمن قبلنا. وفي الاحتجاج به خلاف، لكن ليس هذا موضع الخلاف، لأن موضع الخلاف إذا لم يرد في شرعنا تقريره وموافقته، أما إذا وَرَد فهو شرع لنا بلا خلاف، ومن الوارد في ذلك قوله تعالى ﴿**إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر لَمن يشاء**﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وحديث عبادة بن الصامت ففيه بعد قوله «ولا تقتلوا النفس» وغير ذلك من المنهيات، فمَن أصاب من

ذلك شيئاً فأَمْرُه إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذّبه (متفق عليه) قلت: ويؤخذ ذلك أيضاً من جهة تخفيف الآصار[1] عن هذه الأمة بالنسبة إلى مَن قبلهم من الأمم. فإذا شرع لهم قبول توبة القاتل فمشروعيتها لنا بطريق أَوْلَى».

وبعد، إنها قصة الهدى بعد الضلال، والسعادة بعد الشقوة، قصة رحمة الله الواسعة التي تفتح أبوابها لكل شارد ضال يفرّ إلى حمى الرحمٰن، يفرّ من زيغ الهوى ونزغات الشيطان..

هذه القصة تستغرق كل معاني الرحمة، وهي تُثبت في القلوب الصلة الدائمة بين الخالق ومخلوقيه.. إنها صلة الرحمة التي تريد القصة تعليق أنظار البشر وقلوبهم بربهم الرحمٰن الرحيم، وحسن الظن بالله التوّاب الغفور..

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تَقَرَّب مني ذراعاً، تقربتُ منه باعاً، وإن أتاني يمشي أَتَيْتُه هرولةً»[2].

قال الكرماني ٢٥/١١: «إن ظنَّ أني أعفو عنه وأغفر له، فله ذلك، وإن ظنَّ العقوبة والمؤاخذة فكذلك، وفيه إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء على الخوف. قال الحافظ: وكأنه أخذه من جهة التسوية، فإن العاقل إذا سمع ذلك لا يعدل إلى ظن إيقاع الوعيد ـ وهو جانب الخوف ـ، لأنه يختاره لنفسه، بل يعدل إلى ظن وقوع الوعد وهو جانب الرجاء، وهو كما قال أهل التحقيق مقيد بالمحتضِر، ويؤيد ذلك حديث «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»[3].

---

(١) مفرده: إصر، ومنه قوله تعالى: ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾، أي عبئاً ثقيلاً من التكاليف الشاقة والبلاء.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٥)، والبخاري (٧٤٠٥) انظر الإحسان (٨١١).
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر.

وقال القرطبي في «المفهم» قيل: معنى ظن عبدي بي: ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار. . قال: ولذلك ينبغي للمرء أن يجتهد في القيام بما عليه مُوقناً بأن الله يقبله، ويغفر له، لأنه وَعَد بذلك، وهو لا يخلف الميعاد، فإن اعتقد أو ظنَّ أن الله لا يقبلها وأنها لا تنفعه، فهذا هو اليأس من رحمة الله، وهو من الكبائر، ومَن مات على ذلك، وُكِلَ إلى ما ظن، كما في بعض طرق الحديث المذكور «فليظن بي عبدي ما شاء».

قال: «وأما مَن ظن المغفرة مع الإصرار، فذلك محض الجهل والغرور».

أي طمأنينة ينشئها هذا التصور؟ وأي سكينة يفيضها على القلب؟ وأي ثقة في رحمة الله ومغفرته، وأي قوة واستعلاء على دفعات الشيطان ونزغاته يسكبها في الضمير.

عيسى ـ عليه السلام ـ والسارق

يُعد القسم بالله والحلف بذاته العلية أمر عظيم جليل، فاليمين لا يجوز أن يُتخذ للغش والخديعة، وبث الطمأنينة الكاذبة للحصول على منافع قريبة من منافع هذه الدنيا الفانية. ولكنَ المُقْسَم له يجب أن يُصَدِّق تعظيماً للّه سبحانه وتعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «رأى عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ رجلاً يسرق فقال له: أسرقت؟ قال: لا، والذي لا إلّه إلا هو، قال عيسى ـ عليه السلام ـ: آمنتُ بالله وكذَّبت بَصَري»[1].

وفي رواية البخاري «. . . فقال له: أسرقتَ؟ قال: كلا والله الذي لا إلّه إلا الله، فقال عيسى: آمنتُ بالله، وكذَّبتُ عينيّ». وفي رواية مسلم «وكذبت نفسي». .

حظيت هذه القصة ـ التي هي من الغيب التي كشف الله عنه لنبيه ـ ﷺ ـ شخصية نبي من الأنبياء، وذكرته باسمه، مما يعطيها نوعاً من الواقعية في اعتبار السامع، وأدعى إلى الاقتداء بهديه وشخصيته وموقفه الذي يتبناه.

فالقصة تعرض النبي عيسى ـ عليه السلام ـ في موقف يحمل العبرة

---

(١) رواه النسائي ٨/٢٤٩ إسناده قوي ـ كتاب آداب القضاة، باب: كيف يستحلف الحاكم.

والدرس، موقفه من الرجل الذي رآه يسرق، وحين أَقْسَمَ له بأنه لم يَسرق، صَدَّقَه احتراماً للقسم.

والقسم بالله العظيم له شأن كبير في نظر الإسلام، و «مَن حُلِفَ له بالله فلْيرضَ»(١) مهما كانت حقيقة المقسم من حيث صدقه أو عدم صدقه، وعلى المقسم له أن يُصدِّق ويرضى، تعظيماً للمقسم به وهو المولى عز وجل، وهذه قيمة دينية تصورها القصة أوضح ما يكون التصوير، فالنبي عيسى ـ عليه السلام ـ يرى رجلاً يقدم على السرقة بالفعل، وحين قال له: «أسرقت؟ قال: لا والذي لا إلَه إلا هو، فقال عيسى: آمنتُ بالله وكذَّبت بصري».

«قال ابن التين: قال عيسى ذلك على المبالغة في تصديق الحالف، وأما قوله: «وكذبت عيني» فلم يرد حقيقة التكذيب، وإنما كذبت عيني في غير هذا. قاله ابن الجوزي وفيه بُعد.

وقيل: أنه أراد بالتصديق والتكذيب ظاهر الحكم لا باطن الأمر وإلا فالمشاهدة أعلى اليقين فكيف يكذب عينه ويصدق قول المدعي ويُحتمل أن يكون رآه مَدَّ يده إلى الشيء، فظنّ أنه تناوله، فلما حَلَف له رجع عن ظنه..

يقول الإمام ابن قيم الجوزية: «وقد تأوّله بعضهم على أنه لما حَلَف له جوّز أن يكون قد أخذ من ماله، فَظَنَّه المسيح سَرقة، وهذا تَكلُّف، وإنما كان الله سبحانه وتعالى في قلب المسيح ـ عليه السلام ـ أجلّ وأعظم من أن يحلف به أحد كاذباً، فلما حَلَف له السارق دار الأمر بين تهمته وتهمة بَصره، فردّ التهمة إلى بصره لما اجتهد في اليمين»(٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجه عن رسول الله ـ ﷺ ـ في كتاب الكفارات. عن بريدة قال: سمع النبي ـ ﷺ ـ رجلاً يحلف بأبيه فقال: «لا تحلفوا بآبائكم، مَن حَلَف بالله فَلْيَصْدُق، ومَن حُلِفَ له بالله فَلْيَرْضَ، ومَن لم يرضَ بالله فليس من الله». فمَن لم يرضَ فقد نفى الله سبحانه وتعالى الاعتماد عليه والتوكل: أي ليس وجلاً ولا شاعراً بعظمتي، ومنصرفاً لتعظيم غيري (الترغيب والترهيب، فصل لا تحلفوا بآبائكم ٣٢/٦٠٦).

(٢) إغاثة اللهفان ١/١٣٥.

لقد كانت القصة حلقة في التربية النبوية، فكان التعليم والتوجيه عن طريق النموذج والقدوة نبيّ الله عيسى ـ عليه السلام ـ فهي تُعلِّم السامعين والمتلقين كيف يُصدقون ويرضون إذا حُلِفَ لهم بالله، مهما كان الأمر، كما قال عيسى: «آمنتُ بالله وكذَّبت بصري».

وهذه القصة قصيرة جداً تصل إلى شكل الخبر القصصي.. ولكنها محققة للغرض(١) الذي سيقت من أجله!

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ٢٥٦، ٣٩٧، ٤٤٧.

قصة الوَرَع الصادق

تدعو التربية النبوية إلى الورع وترك الشبهات في أحاديث عدّة لتصفو القلوب من غَبَش يتزاحم، ومن ضباب يتراكم. وقد تخيَّر النبي - ﷺ - لهذا السبيل القاصد موقفاً عملياً من قصص الأقدمين. .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «اشترى رَجلٌ من رجل عقاراً له، فَوَجدَ الرجلُ الذي اشترى العقار، في عقاره جرَّة فيها ذهب، فقال له الذي اشترى العقار: خُذْ ذهَبَك مني، إنما اشتريتُ منك الأرض، ولم أبْتَع منك الذهب، وقال الذي له الأرض: إنما بِعْتُك الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل. فقال الذي تحاكما إليه: أَلَكما وَلَد؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسهما منه، وتصدّقا»[1].

تبدأ القصة بالحدث، الذي تنشأ عنه المراحل التالية. فحين اشترى رجل من آخر عقاراً وَجَدَ في عقاره جرّة فيها ذهب.

والمشكلة في القصة هي أن مشتري الأرض وَجَد فيها جرة ذهب، تُنشيء أزمة بين المشتري والبائع، وتحدث موقفاً صعباً بين الرجلين، فكل منهما يتبرأ

(١) رواه البخاري في صحيحه ٤/٢١٢، ومسلم ٣/١٣٤٥، شرح النووي على صحيح مسلم ١١/١٩ - ٢٠، وابن ماجه ٢/٨٣٩، والمسند (صادر) ٢/٣١٦، وابن حبان في صحيحه. انظر الإحسان (رقم ٧٢٠).

من الجرّة ويقول إنها من حق الآخر، وهي مواجهة حاسمة تصل بينهما إلى حد التحاكم..

نجد القصة تضع أمامنا معالم الشخصية التي تتحرك فيها، أو تشارك في صنع أحداثها، فترسم لنا نوعية الشخصية من خلال العرض.. والحوار بين الرجلين، يصور الشخصيات، ويبين أنهما من الصنف الورع الأمين، المتحوط لدينه، الخائف من الوقوع في الشبهة، برغم بريق الذهب الزاهي أمامهما!!

وهنا نجد أنفسنا أمام أمثلة سامية في الورع، ونماذج قد انطبعت نفوسها على الخير، وتطهرت من الطمع.. فلما وَجَد الرجل المشتري في الدار التي اشتراها جرة، وهي ليست جرة عادية، إنما هي جرة فيها ذهب!! ذَهَبَ باختياره بهذه الجرة إلى صاحب الدار التي باعها إليه وقال له: «خُذْ ذَهَبك مني، إنما اشتريتُ منك الأرض، ولم أبتع منك الذهب».. وفي المقابل كان البائع يشبه المشتري وَرَعاً وتعففاً عن مال فيه شبهة، فهو يرى أنه «إنما باعه الأرض وما فيها».. إلى أن تطور الأمر بينهما إلى حد التحاكم إلى رجل ليفصل في هذه القضية الناطقة بمعاني الزهد والورع والحذر من الوقوع في الحرام[1]!!

والحوار بين البائع والمشتري، يصور موقف الرجلين من هذه الجرة التي عُثِرَ عليها في العقار، بما يحمله هذا الموقف من أمانة ونزاهة يتحلى بها كلٌ منهما، كذلك فإن الحوار يُطوِّر الحدث، ويبعثه لموقف جديد في خط سير النهاية المقصودة[2].

إن قلب المؤمن الصادق يضطرب للحرام، ويسكن للحلال، وإن المسلم الورع يَدَع الصغيرة مخافةَ الكبيرة، ويتقي الشبهات براءة لدينه من النقص، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «ومَن وَقَع في الشُّبهات وَقَع في الحَرام كالرَّاعي يرعى حول الحِمى

(١) انظر الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: ٦٢ ـ ٦٣.
(٢) انظر القصص في الحديث النبوي: ١٧٦، ٢١٣، ٢٦٣، ٣١٧، ٣٢٢.

يُوشك أن يَرْتَع فيه، أَلا وإن لِكُلِّ مَلِكٍ حِمى، أَلا وإن حمى الله محارِمُه، ألا وإن في الجسد مُضْغَة إذا صَلَحت صَلَح الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فَسَدت فَسَد الجَسَد كُلُّه، أَلَا وهي القلب»[1].

وفي رواية للبخاري والنسائي: «الحلال بَيِّن والحرام بَيِّن، وبينهما أمور مشتبهة، فمَن ترك ما شُبِّه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومَن اجترأ على ما يُشكُّ فيه من الإثم أَوْشَكَ أن يواقع ما استبان، والمعاصي رحمىٰ الله، ومَن يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه».

ترسم القصة صورة مشرقة للإنسان، وهـو يُؤثر أن يتمسـك بمبادىء الخلق الكريم من الأمانة والتعفف عن المال المشبوه، مُفضلاً تلك الأخلاق على المال، حتى لو كان ذهباً أحمر، تمتلىء به الجرة، ويسيل له اللعاب.. فهي تقدم نماذج إنسانية خيّرة في النزاهة والأمانة، وتَحوُّطهم الشديد من أن يأكلا مالاً فيه أدنى شبهة، وانتصارهما في هذا الموقف على شهوة المال وسلطانه[2].

يؤكد الإسلام على أهمية الورع في السلوك الإنساني، فالوَرِعُ الذي يقف عند الشبهة، فَعَن الحسن بن علي سِبْط رسول الله ـ ﷺ ـ قال: حَفِظْتُ من رسول الله ـ ﷺ ـ: «دَعْ ما يَريبُك إلى ما لاَ يَريبُك»[3].

إنها دعْوة إلى الوقوف عند الشبهات واتقائها، فإن الحلال المحض لا يَحْصَلُ للمؤمن في قلبه منه ريب ـ والريب: بمعنى القلق والاضطراب ـ بل تسكن إليه النفس، ويطمئن به القلب، وأما المشتبهات فَيَحْصُل بها للقلوب القلق والاضطراب الموجب للشك، فإذا كان العبد وَرِعاً، ترك ما يَريبه إلى ما لا يَريبه.

وهذا هو ميزان التقوى الذي يؤكد الإسلام على وجوده في قلب المسلم،

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

(٢) القصص في الحديث النبوي ٤٠٦.

(٣) رواه النسائي والترمذي، وقال: حسن صحيح، ورواه أحمد ١/ ٢٠٠، وصححه ابن حبان. انظر تخريجه في الإحسان (٧٢٢).

فَعَنْ عطية بن عُروة السَّعْدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يَبْلُغُ العبدُ أن يكون من المتقين حتى يَدَعَ ما لا بأسَ[(١)] به حذراً لما به بأس»[(٢)].

فالذي يبلغ حقيقة التقوى تكون نفسه متيقنة، سالمة من الشكوك. عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: سأل رجل النبي ـ ﷺ ـ ما الإثمُ؟ قال: «إذا حاك[(٣)] في نفسك شيء فَدَعْه..»[(٤)].

يقول الإمام ابن رجب في هذا المقام: «وها هنا أمر ينبغي التفطنُ له وهو أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يَصْلُح لِمَن استقامت أحواله كلها، وتشابهت أعمالُه في التقوى والورع، فأما مَنْ يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة، ثم يريد أن يتورَّع عن شيء من دقائق الشُّبَه، فإنه لا يحتمل له ذلك، بل يُنكر عليه، كما قال ابن عُمر لِمَن سأله عن دم البعوض من أهل العراق: يسألوني عن دم البعوض وقد قتلُوا الحسين، وسمعتُ النبي ـ ﷺ ـ يقول: «هما رَيحَانتاي من الدنيا»[(٥)].

---

(١) حرمة أو كراهة غير ظاهر حكمها خشية أن تكون محظورة ممنوعة، وليس لها حكم ظاهر في الشرع يُقاس عليه.

(٢) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن، وابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٣) قال النووي: حاك: إذا وقع في قلبك شيء لا ينشرح له صدرك وخفت الذنب فيه.

وقال التيمي: حاك في الصدر ثبت، فالذي يبلغ حقيقة التقوى تكون نفسه متيقنة للإيمان سالمة من الشكوك، وقال الكرماني: حقيقة التقوى: الإيمان لأن المراد من التقوى وقاية النفس عن الشرك، وقال الجوهري: حاك السيف، وأحاك بمعنى يقال ضربه فما حاك فيه السيف إذا لم يعمل فيه، فالحيك أخذ القول في القلب اهـ ص ١١٦ ج ١ عيني.

(٤) رواه أحمد بإسناد صحيح.

(٥) رواه البخاري (٣٧٥٣)، وصححه ابن حبان (٦٩٦٩)، وانظر تمام تخريجه فيه.

وسأل رجلٌ بشرَ بن الحارث عن رجل له زوجة وأُمُّه تأمره بطلاقها، فقال: إن كان برَّ أمه في كل شيء، ولم يبقَ من برِّها إلا طلاق زوجته فليفعلْ، وإن كان يَبَرُّها بطلاق زوجته، ثم يقوم بعد ذلك إلى أمه، فيضربها. فلا يفعل.

وسُئل الإمام أحمد رحمه الله عن رجل يشتري بقلاً، ويشترط الخوصة: يعني التي تُربط =

والنهاية في القصة تُقدم حـلاً لهذه المشكلة بـين الرجلين الصـادقين، وتجعلها أكثر حيوية وإيجابية. . لقد أدركَ هذا الحَكَم الحصيف ماذا يعتمل في نفس كل من هذين الرجلين الورعين، والتمعت في ذهنه فكرة طيبة يحلّ بها هذه المشكلة، «فقال الذي تحاكما إليه: ألكما وَلَد؟». . ومن جميل التدبير من القدير الحكيم، أن يكون لأحدهما غلام، وللآخر جارية. فقـال: «أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسهما منه، وتصدّقا».

إنه حَلٌّ حكيم يُرضي كلا الطرفين، فَكُلٌّ سيأتيـه نصيبه بـطريق غير مباشر عن طريق ولديهما، ثم إنهما يتصدقان شكراً للّه على هذه النعمة، وهكذا تشتمل النهاية على حل موفق يحتفظ بعنصر الروعة والإثارة. .

وهكذا تهدف القصة النبوية إلى إيجاد عواطف متجاوبة مع قيم الإسلام وأخـلاقه العليـا في الأمانـة والنزاهـة، في توجيـه وتعليم عن طريق القـدوة الإنسانية، تُعَلِّمُهم النزاهة والتحوُّط فيما فيه شبهة، كما حاول الرجلان كلٌ منهما أن يتبرأ من الجرة، إلى أن وَصَل بهما الأمر إلى أن تحاكما عند رجل، حَلَّ لهما المشكلة، فاطمأنت القلوب إلى اليقين. .

إن هـذا الـدين كله خُلق، وطمـأنينـة نفس، وسكينــة قلب، فَعَن وابصة بن مَعْبَد قال: أتيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «جئتَ تسألُ عن الـبرّ

= بها جُرزة البقل، فقال أحمد: أيش هذه المسائل؟! قيل له: إنه إبراهيم بن أبي نعيم، فقال أحمد: إن كان إبراهيمُ بن أبي نعيم، فنعم هذا يُشبه ذاك.

وإنما أنكر هذه المسائل ممن لا يشبه حاله، وأما أهل التدقيق في الورع فيشبه حالهم هذا، وقد كان الإمام أحمد نفسه يستعمل في نفسه هذا الورع، فإنه أمر من يشتري له سمناً، فجاء به على ورقة، فأمر برد الورقة إلى البائع. وكان أحمد لا يستمدّ من محابر أصحابه، وإنما يُخرج معه مِحبرةً يستمدّ منها، واستأذنه رجل أن يكتب من محبرته، فقال له: اكتب فهذا ورع مظلم، واستأذنه آخر في ذلك فتبسَّم، وقال: لم يبلغ ورعي ولا ورعك هذا، وهذا قاله على وجه التواضع وإلا فهو كان في نفسه يستعمل هذا الورع، وكان يُنكره على مَن لم يصل إلى هذا المقام، بل يتسامح في المكروهات الظاهرة، ويقدم على الشبهات، من غير توقف. (جامع العلوم والحكم ٢٨٤).

والإثم؟» قلتُ: نعم، قال: «استفتِ قَلْبَك، البرُّ ما اطمأنَّت إليه النفسُ، واطمأنَّ إليه القلب، والإثم ما حاكَ في النفس، وتردَّد في الصَّدر، وإن أفتاكَ الناسُ وأفتوك». .

فالإثم ما أثَّر في الصدر حرجاً، وضيقاً، وقلقاً، واضطراباً، فلم ينشرح له الصدر، والبرّ والحق يطمئن إليه القلب، فيسكن، ويقبله ويستريح.

حكمة وتقدير وتدبير

إن رحمة الله سبحانه هي القاعدة التي يقوم عليها هذا الوجود فقد ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ [الأنعام: ١٢] وقال سبحانه أيضاً: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ [الأعراف: ١٥٦]. .

إنها حقيقة هائلة لا يثبت الكيان البشري لتمليها وتأمُّلها وتذوق وَقْعها، حين يقف لتدبرها في هذه الصورة العجيبة. .

ومتابعة رحمة الله يقصر الخلق كلهم عن إدراك سعتها. فلننظر كيف مَثَّل رسول الله - ﷺ - لهذه الرحمة بما يقربها للقلوب شيئاً ما:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال: «نَزَل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرة فَلَدَغَتْه نملةٌ، فأمر بجهازه فأُخرج من تحتها، ثم أَمَر ببيتها فَأُحرق بالنار، فأوحى الله إليه: فَهلَّا نملةً واحدةً»[1]؟

وفي رواية: «قرصت نملة نبياً من الأنبياء. فأمر بقرية النمل فحرقت، فأوحى الله تعالى إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمةً من الأمم تُسبِّح»؟.

القصة مظهر من مظاهر رحمة الله في خلقه أجمعين. . فقد عاتَبَ الله نبياً من الأنبياء في شأن نملة لدغته فَأَمَرَ بإحراق قريتها، «فأوحى الله إليه فهلّا نملةً

---

(١) البخاري (٣٣١٩) كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم، ومسلم (٢٢٤١) كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، وأبو داود في سننه ٢/٦٥٦.

واحدة!» وفي رواية «فأوحى الله تعالى إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمةً من الأمم تُسبِّح»؟

إنها نملة.. دابة من خَلْق الله صغيرة، ولكنها من صُنع الله في هذا الكون، وذات شأن وكيان.. فالناس ليسوا وحدهم في هذا الكون! إن حولهم أحياء أخرى، كلها ذات أمر منتظم، يوحي بالقصد والتدبير والحكمة، ويوحي كذلك بعظمة الخالق، ووحدة التدبير الذي يأخذ به خلقه..

إنه ما من دابة تدب على الأرض، وما من طائر يطير بجناحيه في الهواء.. ما من خلق حي في هذه الأرض كلها إلا وهو ينتظم في أمة، ذات خصائص واحدة، وذات طريقة في الحياة واحدة كذلك.. شأنها في هذا شأن أمة الناس.. ما ترك الله شيئاً من خلقه بدون تدبير يشمله، وعلم يحصيه ﴿**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا في الكتاب من شيء، ثم إلى ربهم يُحشرون**﴾ [الأنعام: ٣٨٠]..

وهذه المخلوقات كلها تتجه إلى الخالق بالوسيلة التي سوَّاها الله ﴿**تُسبح له السماوات السبع والأرض ومَن فيهن، وإن من شيء إلا يُسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان حليماً غفوراً**﴾ [الإسراء: ٤٤]..

فهذه النملة تُسبح الله وتتوجَّه إليه في علاه مع كل شيء في هذا الكون الكبير.. كُلٌّ يُسبِّح بحمد ربه، بطريقته ولغته، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، لأنكم محجوبون بصفاقة الطين.

فالنمل أُمة تُسبِّح، وحري بمثلها أن يكون له شأن في هذا الوجود، وأن يعاتب في شأنها نبي من أنبياء الله..

إن هذه القصة تصور لوناً من ألوان رحمة الله تبارك وتعالى التي لا يحصيها إلا الله سبحانه. وهذا اللون بهذه الصورة ذات أبعاد مهمة في تجلية حقيقة العلاقة بين الله تبارك وتعالى من جهة، والكون والحياة والإنسان من جهة أخرى، وهي حقيقة رائعة لطيفة عن الألوهية في التصور الإسلامي[1].

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ٢٤٧، ٢٥٤، ٢٨٢.

فهذه القصة ـ فوق تقريرها الحاسم في حقيقة الحياة والأحياء ـ لتهز القلب بما ترسم من آفاق الإشراف الشامل، والتدبير الواسع، والعلم المحيط، والقدرة القادرة، للّه ذي الجلال..

وهكذا توجه القصة القلوب والعقول إلى الحقيقة الهائلة لهذا الوجود من دلائل وأمارات، وتوقظ قوى الملاحظة والتدبُّر.

فليذكر الإنسان دوماً أنه ليس وحده في هذا الوجود، وأن حياته ليست سُدى فكل شيء منتظم بحكمة وتقدير وتدبير.

وقد ذكرت القصة النبي من غير تعيين بالإسم لأن الحكمة في الفكرة التي توحي بها، كما أن ذكر النملة كشخصية كانت سبباً للحدث الذي أتبعه موقف النبي بإحراق قرية النمل له مغزاه في عتاب الله له «فهلّا نملة».

قال الحافظ: «قد جاء من غير ما وجه أن هذا النبي هو عُزَير ـ عليه السلام ـ وقد جاء في خبر أنه بقرية أو بمدينة أهلكها الله تعالى فقال: يا رب كان فيها صبيان ودوابّ، ومَن لم يقترف ذنباً، ثم إنه نَزَل تحت شجرة فجرت به هذه القصة التي قدرها الله على يديه تنبيهاً له على اعتراضه على بديع قدرة الله وقضائه في خلقه فقال: إنما قرصتك نملة واحدة فهلا قتلت واحدة، وفي الحديث تنبيه على أن المنكَر إذا وَقَع في بلد لا يؤمن العقاب العام»[1].

---

(١) انظر الترغيب والترهيب ٣/٦٢٨.

قصة الأمانة والإيمان

تُعد القصة النبوية من ثمرات القصة القرآنية فهي من تلك الدوحة العظيمة، ومن روائع القصص النبوي في التربية الاجتماعية والسلوك الإنساني قصة «الأمانة والإيمان»، فهي من الغيب الذي أوحاه الله تعالى إلى نبيِّه - ﷺ - من غير القرآن الكريم. فهي قصة من الواقع الإنساني بكل تفصيلاتها وظروفها، ولنمضِ في خشوع مع هذه الرحلة في أعماق التاريخ البشري:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله - ﷺ -، أنه ذكرَ رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيلَ أن يُسلفَه ألفَ دينار فقال: ائتني بالشهداء أشهدُهم، فقال: كفى بالله شهيداً. قال: فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه على أجلٍ مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجتَه، ثم التمس مركباً يركبُها يقدَمُ عليه للأجل الذي أَجَّله فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها[1] فأدخل فيها ألف دينار وصحيفةً منه إلى صاحبه، ثم زَجَّج[2] مَوضِعَها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلّفت فلاناً ألفَ دينارٍ فسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضيَ بك.

(١) حفرها.

(٢) قال الخطابي: أي سوّى موضع النقر وأصلحه، وهو من تزجيج الحواجب، وهو حذف زوائد الشعر، ويحتمل أن يكون مأخوذا من الزج، وهو الفصل كأن يكون النقر في طرف الخشبة فشدّ عليه زجا ليمسكه، ويحفظ ما فيه، وقال عياض: معناه سمّرها بمسامير كالزج، أو حشى شقوق لصاقها بشيء، ورف بالزج، وقال ابن التين: معناه أصلح موضع النقر.

وسألني شهيدا، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بذلك، وإني جهدتُ أن أجد مركباً أبعثُ إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعُكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرجُ إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاءَ بماله، فإذا بالخشبةِ التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجَدَ المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار، فقال: والله ما زلتُ جاهداً في طلب مركبٍ لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثتَ إليّ بشيءٍ؟ قال: أخبرُكَ أني لم أجِدْ مركباً قبل الذي جِئتُ فيه. قال: فإن الله قد أدّى عنكَ الذي بعثتَ في الخشبة، فانصرف بالألفِ الدينار راشداً»(١).

تبدأ القصة مباشرة بالحدث الذي تنمو عنه المراحل التالية، فقد جاء فيها أن الرسول - ﷺ - ذكر رجلاً من بني إسرائيل، سأل بعض بني إسرائيل(٢)، أن يُسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء، أُشهدهم، فقال: كفى بالله شهيداً، فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت. فدفعها إليه إلى أجل مسمى..

البداية ذات حيوية بارزة، تكتسبها من طبيعة الحدث ذاته من ناحية، كما أنها في الوقت نفسه لا تخلو أيضاً من عناصر تشويقية، تجعل المتلقي أكثر إقبالاً على القصة ومتابعة لها، فهي تُكَوِّن مشهداً مكتملاً بكل أبعاده كفصل من القصة، يبرز فيه عنصر الحوار مما يعطي للمشهد حيوية خاصة(٣).

إنه مشهد عجيب فهذا رجل يريد أن يستلف ألف دينار، ولا كفيل له ولا شاهد إلا الله، والطرف الأخر يرضى بالله شاهداً وكفيلاً، ويدفع إليه

---

(١) التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القران ص ٤٣٩، وانظر أيضا القصص القراني للخطيب ص ١٦٥، دار الفكر العربي، القاهرة.

(٢) في رواية ابن حبان في صحيحه، عن أبي هريرة، عن رسول الله - ﷺ - قال: كان رجل يُسلف الناس في بني إسرائيل، فأتاه رجل، فقال: يا فلان، أسلفني ست مئة دينار، قال: نعم إن أتيتني بوكيل، قال: الله وكيلي... الخ» [انظر الإحسان ٦٤٨٧]..

(٣) القصص في الحديث النبوي ١٣٠.

الألف في ثقة واطمئنان، ويفترقان كل في سبيل، ويسدل الستار على هذا الفصل، ويظل السامع أو القارىء في حالة تطلع إلى مستقبل الأحداث، ليكتشف إلى أين ينتهي المطاف بهذين الرجلين العجيبين، وهكذا تأخذ البداية مساحتها في امتلاك نفس المتلقي وإثارة اهتمامه بمتابعة القصة بشوق وتطلع إلى الأحداث والمواقف حتى النهاية[1]..

فالبداية هنا مشهداً معيناً، وعن ذلك المشهد يترتب مشهد جديد يمثل وسط القصة وفصلاً تالياً متطوراً عن الفصل الأول. وتشكل منطقة الوسط مجمعاً حيوياً لنمو أحداث القصة وتطورها..

«فخرج في البحر فقضى حاجته. ثم التمس مركباً يركبُها، يَقْدَمُ عليه للأجل الذي أَجَّلَه فلم يجد مركباً، فأخذ خشبته فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفةً منه إلى صاحبه، ثم زَجَّج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار فسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بك، **وأني جهدتُ أن أجد مركباً أبعثُ** إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودِعُكَها، فرمى بها في البحر حتى وَلَجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرجُ إلى بلده، فخرج الرجلُ الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة»..

«هذا المشهد كما هو واضح مترتب على المشهد الأول، فالمقترض يريد الوفاء بعد أن قضى حاجته التي من أجلها استلف المال، وهو حريص **على أداء الدَّين في الوقت المحدد** الذي اتفق عليه مع صاحبه في المشهد الأول، وهو لذلك يلتمس مركباً، ولكنه لا يجد مركباً، ولنا أن نتصور مبلغ الأزمة التي هو فيها، والقلق الذي لا بد أن يستبد به، وهو الرجل الحريص على الوفاء، وعلى

(١) المصدر السابق ١٣١.

تحقيق التزاماته التي أشهد الله عليها، وكان له كفيلاً أيضاً، وفي مُدلهمِّ حيرته يفتح الله عليه بفكرة، رأى فيها المخرج الوحيد من هذه المشكلة، وهو تصرف يمليه الموقف الحرج الذي هو فيه، ونلفت النظر إلى ما هنا ـ في هذا المشهد ـ من الترتب على المشهد الأول حتى في الأبعاد غير الملحوظة لأول وهلة، فهذا الموقف الذي يتخذه الرجل هنا حين أخذ خشبة وجوّفها، ووضع فيها المال والصحيفة إلى صاحبه، إنما هو من آثار الموقف الأول الذي اتخذه في البداية. ألم يطالبه صاحبه بالشاهد والكفيل، ولكنه وقتها لم يجد شاهداً ولا كفيلاً إلا الله، وقد رضي به صاحبه، ولذلك فهو هنا يفعل ما يفعل وقد توجّه إلى الله الشاهد الكفيل، الذي من أجله يجد نفسه ملزماً بسداد الدين، وقد وقف على البحر ليرمي فيه بالخشبة، ومن الجانب الآخر نرى «الرجل المقرض»، يخرج في الميعاد الذي حدد منتظراً ماله، فإذا به يجد الخشبة، فيأخذها حطباً لأهله، ويلهمه الشاهد والكفيل أن ينشرها ليجد ماله، وقد أوصله إليه الشاهد والكفيل الذي آمن به ووثق واطمأن إليه[1]»..

نحس في أحداث القصة أنها لا تنشأ جزافاً دونما سبب أو مبرر، فحين يقوم المقترض بأخذ خشبة يضع فيها المبلغ الذي اقترضه، ويرميها في البحر، لما عجز عن الحصول على مركب يوصل فيه المال إلى صاحبه الذي أقرضه، ويستودعها الله وينصرف، ويخرج الرجل المقرض إلى البحر فيجد الخشبة، وهنا نلاحظ أن القصة لا تكتفي بعرض الحدث علينا، وهو أن الرجل خرج ووجد الخشبة فأخذها لأهله حطباً، ولما نشرها وجد المال[2].

القصة لا تعرض الحدث بهذه الصورة الساذجة، وإنما تعرضه في صورة تتسم بالترابط الوثيق، فهي تقول لنا لماذا خرج الرجل إلى البحر، فهو لم يخرج مصادفة، ولكنه خرج لغاية، وهو أنه يترقب ماله على أساس من الاتفاق بينه وبين مَن أقرضه، فقد دفع إليه المال «إلى أجل مسمى»، وقد حَلَّ الأجل، وهو

---

(١) المصدر السابق ١٣٣، ١٣٤.
(٢) المصدر السابق ١٩٢.

الآن خارج في انتظاره: «فخرج الرجل الذي كان أسلفه لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة..».

نجد في أحداث القصة وضع الشخصية في موقف جديد، بحيث يدفعه إلى الحركة الدائمة، فيتخذ سلوكاً معيناً نابعاً من ذاته، وما التزم به، فالرجل المقترض أمام موقف حرج حين التمس مركباً من أجل أن يرد المال على صاحبه، فلم يجد مما دفعه إلى أن يفعل ما يفعل من أَخْذ الخشبة ووضع المال فيها، ورميها في البحر(١).

إن هذا الفعل يثير فينا نوعاً من الانفعالات المختلفة إزاء هذا الموقف، مما يجعلنا نتجاوب مع المقترض بلون من ألوان الترقب الشديد لما يعكس عليه هذا العمل في الطرف الآخر.. ماذا سيقول المقرض إذا تأخر التسديد عن الأجل المسمى؟ ما هو مصير الخشبة التي مُلئت بالدنانير..؟..

إن الخشبة في التقدير الإنساني تجري في البحر بغموض، وهذا يثير في النفس شكلاً من التردد على مصيرها في غمرة البحر، وعدم الاستقرار على تأكد وصولها، فهي تتحرك بصورة غامضة.. وهذا عنصر بالغ الأهمية في حيوية بناء القصة وأثرها العميق.. إنه **القدر الإلهي** هو الذي دفع بالحدث في هذا الطريق، لتوجيه القلوب **على هذا المشهد الغيبي** الذي يقف وراء الفعل، وكل فعل في هذا الكون..

إن القدر في القصة له أهميته في تقدير الأحداث التي تخرج بهذه الصورة، بحيث تتساوى في تقدير متلقي القصة وهو ـ أساساً ـ مسلّم بأي حدث آخر يجري في نطاق الأسباب والمسببات المنظورة، فهو يدرك أن القدر لا يجري في الواقع بصورة عشوائية لا مبرر لها ولا غاية، و «شعور الإنسان بقوة غيبية تتدخل في توجيه الأحداث نحو وجهة معينة، وتؤثر على نتائجها التي

---

(١) المصدر السابق ١٩٤.

كثيراً ما تأتي على خلاف ما حسب الناس وقدروا، أو على غير ما عرفوا هو عنصر هام من عناصر التأثير في هذه القصص يملأ الإحساس رهبة ورغبة. . . ولهذا الإحساس صداه البعيد في النفس، وذلك أن القدر الخفي الذي يسير الأحداث الواردة فيه هو قوة عظيمة كامنة في أسرار الغيب، ولكنها واعية عادلة، لما تنجلي عنه في عالم الشهادة من عناية الله بالمخلصين الأخيار وإن كانوا ضعفاء، ونقمته ومكره بالمبطلين الأشرار، وإن كانوا أشداء أقوياء».

إن هذه الحادثة من قبيل القضاء والقدر، ننسبها إلى تدخل قَدَر الله في إجرائها، حيث يُسَيِّر القدر فيها الأحداث، وذلك بتسيير الخشبة في البحر إلى الجهة التي كان فيها صاحب المال، وكذلك خروج الرجل صاحب المال في الوقت الذي وصلت فيه الخشبة، فإذا هو بالخشبة فأخذها حطباً[١].

وفي الوقت الذي يُسير القدر فيه الأحداث والوقائع لا يتصادم إطلاقاً مع منطق القصة، أو خطتها العامة، بل على العكس من ذلك يشارك في صنع فرص أفضل تحقق للخطة النجاح والتوفيق. . إذ نجد القدر يشارك في تحقيق سير الأحداث، ودفع القصة إلى الأمام حتى تأخذ العظة والعبرة مركزها في النفس الإنسانية.

فالقدر رسم مشهدين في حركة غيبية عميقة مؤثرة:

- تسير الخشبة التي وضع فيها المقترض المال، وتوجيهها في البحر إلى الجهة التي كان فيها صاحب المال، دون أن يعترضها عارض، أو يصرفها صارف إلى مسار آخر.

- خروج الرجل صاحب المال يلتمس مركباً لعلَّ فيه ماله - في الوقت نفسه - الذي وصلت فيه الخشبة وبالدقة، حيث وجد الخشبة فأخذها حطباً لأهله[٢]. . .

---

(١) المصدر السابق ٣٠٨.
(٢) المصدر السابق ٢٠٥، ٢٠٦.

تبدو المشكلة في القصة في تعقيد الأحداث، وتأزيم المواقف، فهي محور يوجه حركة القصة ويدفع بها إلى التطور والاستمرار في نشوء مواقف جديدة.. فالمستلف بعد أن قضى حاجته وحضر الأجل الذي حدده مع صاحبه نجده يبحث عن مركب لكي يوصل المال إلى صاحبه فلا يجد، وهنا تبرز المشكلة، فهذا المقترض يريد الوفاء، وهو حريص على أداء الدين في أقرب وقت، حتى لا يفوت الموعد المحدد، ولكنه لا يجد مركباً، ولنا أن نتصور الأزمة التي هو فيها، والقلق الذي لا بد أن يستبد به، وهو الرجل الحريص على الوفاء، وعلى تحقيق الالتزام الذي أشهد الله عليه، وكان له كفيلاً أيضاً، وهنا نجد أن «المشكلة» تدفعه إلى التحرك والتصرف، حيث أخذ خشبة فجوفها ووضع فيها الدنانير وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم توجّه إلى الله «الشاهد والكفيل» الذي من أجله يجد نفسه ملزماً بسداد الدين، توجه إليه وقد وقف على البحر لكي يرمي فيه بالخشبة داعياً إياه «اللهم إنك تعلم أني قد تسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شاهداً فقلت: كفى بالله شهيداً فرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وأني أستودِعُكَها فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف».. فهذا التصرف كله إنما جاء في القصة بدافع من الموقف الحرج الذي أملى على الرجل أن يفعل ما فعل (١)..

كذلك تبرز المناجاة للّه تبارك وتعالى، في صورة دعاء وأمل أن ينجيه من هذا المأزق والموقف الحرج، فهو يلجأ إلى الله بالتضرع والابتهال يطلب عونه وهو **السميع القريب، المجيب دعوة الداع إذا دعاه**..

إن هذا الكون آية من آيات الله يسير بأمره وناموسه، وهو سبحانه الذي خلق كل شيء وسخّره لمنفعة هذا الإنسان، وهو سبحانه المهيمن القادر، يتصرف في كل شيء كما يشاء، ويفعل به ما يريد، ﴿**وهو الذي سخّر البحر**﴾ [النحل: ١٤]، يسخره الله تبارك وتعالى بقَدَره في تنفيذ مشيئته، فالرجل

(١) المصدر السابق ٢١١، ٢١٢.

المقترض يستودع الله المال ويضعه في الخشبة ويرمي به في البحر، وبأمر الله تصل الخشبة إلى صاحبها، وحين التقى الرجلان يقول صاحب المال للمقترض: «فإن الله قد أَدَّى عنك الذي بعثته في الخشبة، فانصرف بالألف دينار راشداً. .».

إنه قَدَر الله في آياته. . البحر الذي حمل الخشبة للرجل المؤمن المقترض فساقها حيث شاء الله. . هو البحر الذي حمل موسى الرضيع لِيُلْقِه على ساحل بيت فرعون. . وهو البحر الذي بأَمْر الله انفَلَق فكان كل فرق كالطَّود العظيم. . ومَرّ موسى وبنو إسرائيل على طريق يَبَس لا يخافون دركاً ولا غرقاً. . ثم أتبعهم فرعون، وشاءت إرادة الله ما شاءت فعادت اليَبَس ماءً فغرق فرعون وجنوده. .

ووقعت المعجزة، وتحقق الذي يقول الناس عنه مستحيل. لأنهم يقيسون سنّة الله على المألوف المكرور والله الذي خلق السنن قادر على أن يجريها وفق مشيئته عندما يريد. .

إن القصة النبوية تصور الشخصية بما تنطوي عليه من الخير الذي هو أكثر أصالة وعمقاً في النفس البشرية، والقصة تعرض هذا الجانب للنفس من منطلقات متعددة وفي ظروف مختلفة، فنجد رجلاً يُقرض آخر، وهذا مظهر من مظاهر الخير والمساعدة والتعاون في طريق الحياة، ثم إن هذا المقرض يقدم ماله في ظرف صعب حيث لا شاهد ولا كفيل من الناس، يكون دليلاً له على ماله، ولكنه مع ذلك يُقدم ماله راضياً بالله شاهداً وكفيلاً، ثقة في الله، واطمئناناً إليه.

إنه نموذج لشخصية إنسانية، ذات موقف خيِّر تسجله القصة في شخصية المقرض، فكانت تعبيراً عن تصور الإسلام لطبيعة الإنسان وحقيقته، والتي تؤكد على أصالة عنصر الخير فيه. .

لقد رسمت القصة النموذج الإنساني الذي حقَّق في واقعه هذا الجانب القوي الخيِّر الفاضل، فالمقرض استجاب لصاحبه فأعطاه ألف دينار، يقضي به

حاجته، تعاوناً منه وفضلاً، ويعمق هذا الموقف الخيِّر النبيل، اعتماده الكبير على الله وثقته المطلقة به، وهو يرضاه كفيلاً لهذا الرجل وشاهداً عليه.

وهذا الخير نجد له صدى يتردد في شخصية «المقترض» أيضاً حين حَلَّ الأجل المسمى للسداد، فنلمس فيه حرصه الأكيد على الوفاء، وإحساسه الشديد بأهمية تسديد الدين في موعده[1] ، وهو موقف ينبض بـ «القيم

---

(١) عن محمد بن عبد الله بن جحش رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ـ ﷺ ـ قاعدا حيث توضع الجنائز فرفع رأسه قبل السماء، ثم خفض بصره فوضع يده على جبهته، فقال: سُبحان الله. سُبحان الله، ما أنزل من التشديد. قال: فعرفنا وسكتْنا حتى إذا الغدُ، سألتُ رسول الله ـ ﷺ ـ فقلنا: ما التشديد الذي نزل؟ قال: في الدَّين، والذي نفسي بيده، لو قُتل رجل في سبيل الله، ثم عاش، ثم قُتل، ثم عاش، ثم قُتل وعليه ديْن ما دخل الجنة حتى يُقْضى ديْنه» رواه النسائي والطبراني، والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد.

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «نفسُ المؤمن مُعلَّقة بديْنه حتى يُقضى عنه» رواه أحمد والترمذي، وقال: حديث حسن، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، ولفظه: قال «نفس المؤمن مُعلَّقةٌ ما كان عليه ديْن» ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

ومعنى «معلقة»: أي مرهونة محبوسة بعيدة عن نعيم الله مهما عملت صالحا حتى يُؤَدّى ما عليها.

ـ وعن جابر رضي الله عنه، قال: تُوفي رجلٌ فغسَّلناه وكفَّناه وحنَّطناه، ثم أتينا به رسول الله ـ ﷺ ـ ليُصلي عليه، فقلنا: تُصلي عليه، فخطا خطْوة، ثم قال: أعليه ديْن؟ قلنا: ديناران، فانصرف، فتحمَّلهما أبو قتادة فأتيناه، فقال أبو قتادة: الديناران عليَّ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قد أوْفى الله حقّ الغريم، وبرىء منهما الميتُ؟ قال: نعم فصلّى عليه، ثم قال بعد ذلك بيومين: ما فعل الديناران؟ قلتُ: إنما مات أمْس. قال: فعاد إليه من الغد، فقال: قد قضيتُهما، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الآن بردت جلْدتُه» رواه أحمد بإسناد حسن، والحاكم والدارقطني، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ورواه أبو داود وابن حبان في صحيحه باختصار. والمعنى: أي بعد دفع الدينارين لصاحبهما زال عنه العذاب وتنعّم.

ـ وروي عن عليّ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أُتي بالجنازة، لم يسأل عن شيء من عمل الرجل، ويسأل عن ديْنه، فإن قيل عليه ديْن كفّ عن الصلاة عليه، وإن قيل: ليس عليه ديْن صلّى عليه، فأُتي بجنازة فلما قام ليُكبِّر سأل رسول الله ـ ﷺ ـ: «هل على صاحبكم ديْن؟ قالوا: ديناران، فعدل عنه رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: «صلّوا على صاحبكم» فقال علي رضي الله عنه: هما عليَّ يا رسول الله بريءٌ منهما، فتقدّم ـ ﷺ ـ فصلّى =

عليه، ثم قال لعلي بن أبي طالب: «جزاك الله خيرا، فكّ الله رهانك كما فككْت رهان أخيك. إنه ليس من ميت يموت وعليه ديْن إلا وهو مُرتهن بديْنه، ومن فكّ رهان ميّت فكّ الله رهانهُ يوم القيامة، فقال بعضهم: هذا لعليّ خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: بل للمسلمين عامة» رواه الدارقطني ورواه أيضا بنحوه عن طريق عبيد الله الوصافي عن عطية عن أبي سعيد (الترغيب والترهيب ٢/٦٠٦) قال الحافظ: قد صحَّ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه كان لا يُصلي على المدين، ثم نُسخ ذلك.

فروى مسلم وغيره من حديث أبي هريرة وغيره أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يُؤتى بالرجل الميت عليه الدَّين، فيسأل هل ترك لديْنه قضاء، فإن حُدِّث أنه ترك وفاءً صلّى عليه، وإلا قال: صلُّوا على صاحبكم، فلما فتح الله عليه الفتوح قال: «أنا أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن تُوفي وعليه ديْن فعليَّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته».

قال الشيخ الشرقاوي «قال لأصحابه: صلوا عليه، ولا يُصلي هو» تحذيراً عن الدَّين وزجرا عن المماطلة، ثم بعد ذلك صار يُصلي على كل جنازة حضرها ويلتزم بالدين. ثم الذي يضمن أداء دين الميت هذا الضمان صحيح عند الجمهور من غير رجوع في مال الميت.

وعن مالك للضامن أن يرجع إلى أن قال: ضمنت لأرجع فإن لم يكن للميت مال وعلم الضامن بذلك فلا رجوع له، وعند أبي حنيفة إن ترك الميت وفاء جاز الضمان بقدر ما ترك وإن لم يترك وفاء لم يصح، وصلاته عليه الصلاة والسلام عليه وإن كان الديْن باقياً في ذمة الميت لكون صاحب الحق عاد إلى الرجاء بعد اليأس واطمأن بأن ديْنه صار في مأمن فخفّ سخطه وقرب من الرضا» اهـ ج ٣ ص ٢٥٧.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «من أخذ أموال الناس يُريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله» رواه البخاري وابن ماجه وغيرهما.

وقوله: «من أخذ أموال الناس» أي تسلمها من وجوه التعامل كالقرض أو للحفظ وديعة للّه أو غير ذلك حال كونه ينوي ردها.

وقوله: «أدّى الله عنه»: أي أعانه الله على ردها وأدائها، ووفّقه وألهمه الرشد.

وقوله: «يريد إتلافها»: أي عدم ردّها. وقوله: «أتلفه الله»: أي أتلف أمواله في الدنيا بكثرة المصائب ومحق البركة. أو المراد إتلاف نفسه في الدنيا أو تعذيبه في الاخرة. اهـ «الجامع الصغير».

وفي الفتح: وظاهره يحيل المسألة المشهورة فيمن مات قبل الوفاء بغير تقصير منه كأن يعسر مثلا أو يفاجئه الموت وله مال مخبوء، وكانت نيته وفاء دينه ولم يوف عنه في الدنيا، والظاهر أنه لا تبعة عليه والحالة هذه في الاخرة بحيث يؤخذ من حسناته لصاحب الدين. بل يتكفل الله عنه لصاحب الدين.

الحيّة»، ويضاف عليه أيضاً موقفه الآخر حين ألقى بالألف دينار في وسط البحر بعد أن وضعها في جوف الخشبة، اعتماداً على الله، وثقة في سيطرته على البحر وهيمنته عليه، وقدرته على أن يوصل هذا المال إلى صاحبه، وهذه «قيمة إيمانية كبرى» تعبر عن مدى أصالة الجانب الروحي في كيان الإنسان، الموصل بالله تبارك وتعالى منذ أن كانت نفخة الروح. .

ويأتي الحوار في سياق القصة بصورة طبيعية، بين اثنين، بين المستلف وصاحب المال، وله الدور البارز في بناء القصة، فهو يساعد على رسم الشخصية، ويجعلها كاملة الوضوح، وأكثر حضوراً بما يحمله من ترجمة لمشاعر الشخصية وأحاسيسها المختلفة، كما أن الحوار قد ساعد على تطوير الحدث، ودفعه لبعث مواقف جديدة في خط سير القصة (١) .

كذلك فإن الحوار الذي ختمت به القصة بين الرجلين، يكشف عن المغزى الذي تهدف إليه القصة، وهو بيان قدرة الله، فهو الذي سخّر البحر، وسيّر الرياح حتى قذفت بالخشبة إلى الساحل الذي عليه صاحب المال، وأوصلتها سالمة إليه، وهذا يعني أن الله قريب من المؤمنين، الواثقين بالله، المطمئنين إلى عونه ورعايته، حين يخلصون ويتقون (٢) . .

= (قوله أتلفه الله) ظاهره أن الإتلاف يقع له في الدنيا وذلك في معاشه أو في نفسه، وهو علم من أعلام النبوة لما تراه بالمشاهدة ممن يتعاطى شيئاً من الأمرين، وقيل المراد بالإتلاف في عذاب الآخرة.

قال ابن بطال: فيه الحضّ على ترك استئكال أموال الناس، والترغيب في حسن التأدية إليهم عند المداينة، وأن الجزاء قد يكون من جنس العمل.

وقال الداودي: فيه أنَّ مَن عليه دَيْن لا يعتق ولا يتصدق، وإن فعل ردّ. اهـ. وفي أخذ هذا من هذا بعد كثير.

وفيه الترغيب في تحسين النية والترهيب من ضِدْ ذلك، وأن مدار الأعمال عليها، وفيه الترغيب في الدين لمن ينوي الوفاء. اهـ فتح، ج ٥، ص ٣٥.

(١) القصص في الحديث النبوي: انظر ص: ٢٦١، ٣٠٨، ٣١٧، ٣٢٤، ٣٥١، ٣٨٢، ٣٩٨، ٤٣٣، ٤٧١.

(٢) المصدر السابق ٣٢٤.

إن هـذه القصة ذات واقـع تاريخي حصـل في الماضي، وأخـبرنـا بـه الرسول ـ ﷺ ـ عن طريق الوحي الذي يتلقاه عن الله تبارك وتعالى، وليست تمثيلاً، لأن الرسول ـ ﷺ ـ ساقها مساق الواقع، ولو كانت تمثيلاً لذكر ذلك كما هو شأنه في القصص التمثيلية التي ذكرها للتـوضيح والبيـان.. ولكنه هنـا يصرح ـ ﷺ ـ بأنها حدثت وهو الصادق المصدوق، وفوق ذلك ينسبها إلى قوم معروفين هم بنو إسرائيل فهو يذكر في مطلعها: «أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار..».

فهذا المطلع يدل بشكل قاطع على أنها قصة وقعت أحداثها في الماضي، ولو كانت تمثيلاً لوجد مندوحة في ألفاظ أخرى لا تحمل هذه الدلالة التاريخية، ولساقها في معرض لا يفهم منها أنها وقعت لأناس مضوا، أما وهي تُساق بهذه الألفاظ الدالة على واقعيتها، وفوق ذلك تصريحاً بأنها حصلت لبني إسرائيل المعروفين، فإنها ليست تمثيلاً بكل تأكيد(١) ..

إنها قصة من الوحي والغيب ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**﴾.. كذلك هي تقع في ميزان القدر الإلهي.. فلم تقع كلها بجهـد بشري، حتى نحكم فيها عقولنا، وإنما جزء من أحداثها يتم بتدخل من القوة الإلهية، ووفق ما قدره الله من أمور كما يفهم من القصة، وما توحي به مواقفها من البداية إلى النهاية، هذه واحدة.. والثانية أن الرجل المستلف وهو يضع المال في الخشبة ويرمي بها في البحر كان في حالة نفسية وفكرية تدفعه إلى فعل ما فعل، فقد كان مؤمناً واثقاً بالله، فقد كان هو كفيله وشاهده في القرض، وقد رضي به المقرض شاهداً وكفيلاً ووثق به أيضاً، أفلا يثق به ويأتمنه الآن على توصيل هذا المال إلى صاحبه الذي كان قد قبل الله شاهداً وكفيلاً!!

إن القصة تصور بهذه الأحداث وتدل بها على أن الله قريب جداً من المؤمنين الواثقين به، المصدقين بهيمنته على هذا الكون بمَن فيه وما فيه، إنها

---

(١) المصدر السابق ٣٥٢.

تصور تسخير الله ما في كونه من بحر وسواه لأولئك المؤمنين المصدقين!! فهو القريب من عباده، المعين لهم وحده، والقادر على كل شيء. .

ناهيك عما يخلفه هذا الحادث من يقين في نفوس مَن يقص عليهم من المسلمين إلى يوم الدين[1] . . فمادة القصة مأخوذة من أحداث التاريخ الواقعة فيما مضى من حياة بني إسرائيل، يعرضها الرسول - ﷺ - لما لها من أثر في التربية والتوجيه وتعليم الجماعة المسلمة، فقد تخيَّر ما يحقق الهدف التوجيهي والتعليمي لغرس بذور الطمأنينة واليقين بالقدر الإلهي الذي يحرك الكون كله بأمره ومشيئته، إنه يصور القدرة القادرة، التي تقول للشيء **«كن فيكون»**.

كما تؤكد القصة على ضرورة أن يشعر المسلم بالثقة المطلقة من جانب الله والكفاية به، والاعتماد الدائم عليه تبارك وتعالى وحده، والاعتصام به في

---

(١) هذه القصة يرويها النبي - ﷺ - عن رَجُلَيْنْ صَالِحَيْنْ بَرَّيْن مُؤْمِنَيْنْ، معتمدين على الله جلَّ وعلا، أشرق نور الإيمان واليقين في قلوبهما، فهل فينا هذا الإيمان، وحُبّ الخير والتوكل على الله، وقضاء الحاجات ابتغاء ثواب الله، والوفاء والصدق وردّ الودائع.

وفي الترغيب في القرض، وما جاء في فضله قال البراء بن عازب رضي الله عنهما: «سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «مَن مَنَح مَنيحة لَبَن، أو وَرِق، أو هَدَى زقاقاً كان له مِثْلُ عِتْقِ رَقَبة». رواه أحمد والترمذي، واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ومعنى قوله: «منيحة لبن» أي أن يعطيه ناقة أو شاة ينتفع بلبنها ويعيدها، وكذلك إذا أعطاه لينتفع بوبرها وصوفها زماناً ثم يردها. ومعنى قوله: «مَنح منيحة وَرِق» إنما يعني به قرض الدرهم، وقوله: «أو هَدَى زُقاقاً» إنما يعني به هداية الطريق. وهو إرشاد السبيل.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي - ﷺ - قال: «كل قَرْضٍ صدقة» رواه الطبراني بإسناد حسن والبيهقي.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: عملتَ من الخير شيئاً؟ قال: لا. قالوا: تذكَّر؟ قال: كنتُ أُدايِنُ الناسَ فآمر فتياني أن يُنظروا المُعْسِر، ويتجوّزوا عن الموسر قال: قال الله: تجاوزوا عنه» رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

ومعنى «وينظروا المعسر»: يُؤجلوا سداد غير المستعد للأداء. ويتجوزوا عن الموسر: أي يمروا على الغني الموجود معه المال.

كل شيء ينوب الإنسان أو يُصبه. . وذلك بعد أن يبذل كل جهد مستطاع من اتخاذ الأسباب التي هي من أعظم رموز التوكل والالتجاء إلى الله. . ففي القصة نجد المستلف يقول في مناجاته للّه سبحانه: «وأني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودِعُكَها، فرمى بها في البحر، ثم انصرف. . .».

بيت المقدس ومسائل سليمان عليه السلام

إن الإيمان برسل الله هو المقتضى الطبيعي الذي ينبثق من الإيمان بالله في الصورة التي يرسمها الإسلام، ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرُسل في ضمير المسلم، فكلهم جاء من عند الله، وكلهم رسول الله.. وعلى ذلك تتلقى الأمة المسلمة تراث الرسالة السماوية كله، ومن قواعد هذا التراث العظيم بيت المقدس.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله ـ ﷺ ـ: أن سليمان بن داود ـ ﷺ ـ لما بَنى بيت المقدس سَأَل الله عز وجل خلالاً ثلاثة: «سأل الله عز وجل حُكماً يصادف حُكْمَهُ فَأُوتيه، وسَأَل الله عز وجَلَّ مُلكاً لا ينبغي لأحد من بَعْده فَأُوتيه، وسَأَل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أَحدٌ لا ينهزُهُ إلا الصلاةُ فيه أن يُخرجه من خَطِيئته كيوم وَلَدَتْهُ أُمُّه»[1].

تربط المسلمين ببيت المقدس ارتباط العقيدة والروح، ويظل الاعتزاز به في قلب وضمير كل مسلم، فهو منار النبوات، ومسرى النبي محمد ـ ﷺ ـ. فكان الإسراء من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، كما أن المعراج بالرسول محمد كان من بيت المقدس إلى السماوات العلى وسدرة المنتهى..

---

(١) النسائي ٢ / ٣٤ بإسناد صحيح، كتاب المساجد، فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه. ورواه أحمد وابن ماجة، وابن خزيمة وابن حبان، والحاكم، وقال صحيح على شرطهما، ولا علة له (الترغيب والترهيب ٢ / ٢١٦).

وكان بيت المقدس أولى القِبْلَتين، فقد اتجه المسلمون في صلاتهم فترة من الزمان إلى المسجد الأقصى، الذي يتجه إليه اليهود والنصارى.

ثم كانت إرادة الله سبحانه في الاختصاص والتميز للأمة المسلمة، الاختصاص والتميز في التصور والاعتقاد؛ والاختصاص والتميز في القبلة والعبادة. ولم يكن بد من تمييز المكان الذي يتجه إليه المسلم بالصلاة والعبادة وتخصيصه كي يتميز هو ويتميز بتصوره ومنهجه واتجاهه، فالجماعة المسلمة التي تتجه إلى قبلة مميزة يجب أن تدرك هذا الاتجاه. إن القبلة ليست مجرد مكان أو جهة تتجه إليها الجماعة في الصلاة. فالمكان أو الجهة ليست سوى رمز. رمز للتميز والاختصاص. تميز التصور، وتميز الشخصية، وتميز الهدف، وتميز الاهتمامات، وتميز الكيان.. ثم نزل القرآن بتحويل القبلة من بيت المقدس نحو المسجد الحرام..

ورغم الأمر بتحويل القبلة بقي المسجد الأقصى في قلب كل مسلم وضمير كل مؤمن، بقي يحمل في كل روح تلك القيم الدينية المقدسة، فكان الترغيب في الإحرام من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام:

عن أُمِّ حكيم بنت أبي أُميةَ بن الأخنس عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله - ﷺ - قال: «مَن أَهَلَّ(١) بعمرة من بيت المقدس غفر له»(٢).

وفي رواية له قالت: قال رسول الله - ﷺ -: «مَن أَهَلَّ بعُمرة من بيت المقدس كانت له كَفَّارةً لما قبلها من الذنوب، قالت: فخرجت أمي من بيت المقدس بِعُمرة».

ورواه ابن حبان في صحيحه، ولفظه قالت: سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: «مَنْ أَهَلَّ من المسجد الأقصى بعُمرة غُفر له ما تقدَّم من ذنبه». قال:

---

(١) أي نوى فعل عمرة وابتدأ إحرامها من بيت المقدس.
(٢) رواه ابن ماجة بإسناد صحيح.

فركبت أم حكيم إلى بيت المقدس حتى أهَلّت منه بعُمرة[1].

وقد رغَّب الرسول ـ ﷺ ـ شدَّ الرحال إلى المسجد الأقصى والصلاة فيه. عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «صلاة في المسجد الحرام أفضل مما سواه من المساجد بمئة ألف صلاة، وصلاة في مسجد المدينة أفضل من ألف صلاة فيما سواه، وصلاة في مسجد بيت المقدس أفضلُ مما سواه من المساجد بخمسمائة صلاة»[2]..

(١) ورواه أبو داود والبيهقي، ولفظهما: «مَنِ أهَلَّ بحجة، أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غُفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، أو وجبت له الجنة».

(٢) رواه الطبراني وابن خزعة والبزار وقال إسناده حسن، كذا قال.

سفينة الحياة

من أهم القضايا التي ركَّز عليها الإسلام، قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد جاءت هذه القضية، موضوعاً لقصة نبوية في مَثَل واقعي:

عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ، قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: مَثَلُ المُداهِن في حدود الله، والآمر بها، والناهي عنها، كمثل قوم استهموا سَفينة من سُفن البحر، فصار بعضهم في مُؤخَّر السفينة، وأبعدهم من المِرفَق[1]، وبعضهم في أعلى السفينة، فكانوا إذا أرادوا الماء وهم في آخر السفينة، آذَوْا رحالهم، فقال بعضهم: نحن أقربُ من المِرفَق وأبعد من الماء، نخرقُ دفَّة السفينة، ونستقي، فإذا استغنينا عنه سددناهُ، فقال السفهاء منهم: افعلوا. قال: فأخذ الفأسَ، فضربَ عرض السفينة، فقال رجل منهم رشيد: ما تصنع؟ قال: نحن أقرب من المِرفَق وأبعد من الماء، نكسر دفَّ السفينة، فنستقي، فإذا استغنينا عنه سددناه، فقال: لا تفعل، فإنك إذاً تَهلِكُ ونَهْلِكُ»[1].

---

(١) المرفق: بكسر الميم وفتح الفاء، وبفتح الميم وكسر الفاء: المغتسل. ومرافق الدار: مصاب الماء، ونحوهما مما يرتفق به، أي ينتفع به.

(٢) رواه ابن حبان، واسناده صحيح على شرط الشيخين، انظر تخريجه في الإحسان رقم: (٣٠١)، (٢٩٨).

وفي رواية: «مثل القائم على حدود الله، والمداهن في حدود الله، كمثل قوم كانوا في سفينة، فاقترعوا منازلهم، فصار مهراقُ الماء ومختلفُ القوم لرجل، فَضَجر، فأخذ القدوم ـ وربَّما قال الفأس ـ فقال أحدهم للآخر: إن هذا يُريد أن يُغرقنا ويخرق سفينتكم، وقال الآخر: دَعْه، فإنَّما يخرق مكانه».

وفي رواية: «مثل القائم في حدود الله، والواقع فيها كَمَثل قوم اسْتَهمُوا على سَفينة، فصار بَعْضَهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤْذِ مَن فَوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» رواه البخاري.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مفهومه الشامل ودلالته العميقة، ومغزاه البعيد، منهج تكافلي كامل، يقي المجتمع ويصونه عن الشرّ والفساد، فهذا المبدأ يجعل كل شخص حارساً أميناً على الحياة العامة في المجتمع حين يكون يقظاً، يستشعر واجبه في العمل على وقاية هذا المجتمع من خطر الضلال، وشر الفساد، وهو ينهى ضالاً أو مخطئاً أو مُتهتكاً أو فاسداً عما هو فيه من فساد وعصيان، لن يقتصر ضرره عليه وحده، ولكنه سينتقل بالتالي لينال من سائر أفراد المجتمع، ويدله على الطريق المستقيم حين يأمره بالمعروف، وحينئذ لا يكون هناك خطر على الحياة الإجتماعية من أن يتفشىٰ فيها الفساد، أمّا حين يُهمل هذا الواجب، وينسى كل إنسان نفسه، وينسى غيره فيتركه يُخطيء ويفسد ويضل، حينئذ يكثر الفاسدون المفسدون، ويكثر الضالون، فيعمّ البلاء والشرّ الجميع من غير استثناء كما يصور ذلك البيان النبوي..

وهذا البيان قصة يضربها الرسول ـ ﷺ ـ مثلاً لما يترتب على إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حين تنتهك حدود الله، فلا ينبري أحد ينهي أو يأمر. إنها مثل لما يترتب على ذلك من خطر جسيم..

تبدأ القصة بقول الرسول ﷺ: «مَثَل المداهن في حدود الله، والآمر بها، والناهي عنها، كمثل قوم استهموا سفينة من سفن البحر» وفي رواية «مثل القائم في حدود الله، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة». .

نجد أن الرسول ـ ﷺ ـ يُمهد للقصة بإثارة قضية مُعَيَّنة عن «المداهن في حدود الله، والآمر بها، والناهي عنها». . وهي قضية ذات حيوية بالغة بالنسبة للدعوة وللمسلمين، حيث تعالج ناحية الصلة التي يجب أن تكون بين المسلمين وتعاليم الإسلام في تطبيقها، والحرص الأكيد على تحقيقها في المجتمع، وهو تمهيد يحمل في طياته عناصر مثيرة تربط السامع والقارىء بالقصة ربطاً جيداً من ناحيتين:

ناحية المعنى، وهو التجريد في التمهيد، فالقضية تثار بصورة ذهنية، في شكل فكرة مجملة، مما يجعل المتلقي للقصة يحرص على مَثَل حيّ ينقله من مرحلة التجريد النظري إلى مَثَل واقعي، وهو ينشد ذلك في القصة نفسها، ومن هنا فالقصة بحوادثها وتفصيلاتها هي الفكرة مرة أخرى، تعرض في إطار قصصي يجسد الفكرة، وينقلها من عالم التجريد إلى التشخيص، وهذا الربط لا يقف عند ناحية المضمون فقط، بل هو بارز أيضاً في الشكل من ناحية ثانية، ذلك أن التمهيد يأتي في اللفظ «مبتدأ» ويأتي «خبره» في مطلع القصة، فكأنما التمهيد يشدّ مع القارىء شكلاً ومعنىً[1].

صورة عجيبة حقاً تلك التي تتمثل في النفس من قراءة هذا الحديث الشريف. . صورة حيَّة شاخصة موحيّة مُعَبِّرة. . وإن هناك لتوفيقاً عجيباً في هذا التشبيه بالسفينة، فالحياة كلها هذه السفينة الماخرة في العباب، لا تكاد تسكن لحظة حتى تضطرب من جديد، ولن يكتب لها الاستواء والسلامة فوق الموج المضطرب حتى يكون كل شخص فيها على حذر مما يفعل، ويقظة لما يريد.

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ١٢٠.

«والمجتمع كله هذه السفينة.. يركب على ظهرها البرّ والفاجر، والمتيقظ والغفلان، هي تحملهم لوجهتهم ولكنها ـ وهي محكومة بالموج المضطرب والرياح من جانب، وما يريده لها الربان من جانب ـ لتتأثر بكل حركة تقع فيها، فتهتز مرة ذات اليمين، وتهتز مرة ذات الشمال، وقد تستقيم على الأفق أحياناً، أو ترسب أحياناً إلى الأعماق..!

وإن كثيراً من الناس لينسى ـ في غمرته ـ هذه الحقيقة، ينسى سفينة المجتمع أو سفينة الحياة، ينسى فَيُخيل إليه أنَّه ثابت على البرّ، ليس دائماً في مكانه، ولا خالداً في سطوته، إنَّما هي رحلة قصيرة على سفينة الحياة.. لو تذكر ذلك ما استكبر ولا طغى، ولا اغترّ بقوته الزائلة عن الحقيقة الخالدة، ولعاد إلى مصدر القوة الحقيقية في هذا الكون، يستلهم منه الهدى ويطلب منه الرشاد، ويسير على النهج الذي أمَرَ بِه وارتضاه للناس، ولو تذكَّر من يفجر وينحرف أنَّه ليس راكزاً على البرّ، وإنَّما هو منطلق على العباب، وأن كل حركة يأتيها تتأثر بها السفينة فتهتز، لو تذكر لما ترك نفسه لشهواته ولا نحرافاته، ولَعَمِلَ حساباً لكل خطوة يخطوها، وكل حركة يتحركها حرصاً على نجاته هو ونجاة الآخرين، ولكنها الغفلة السادرة التي تخيم على البشرية، إلاَّ من آمن واتقى وعرف ربه واهتدى إليه، والرسول الكريم يُدرك هذه الغفلة التي ترين على قلوب الناس، فيحذرهم منها، ويصورها لهم في صور شتى، من أعجبها وأبلغها هذه الصورة التي يرسمها هذا الحديث، صورة السفينة الماخرة في العباب»[1].

إن الأمر المعروف والنهي عن المنكر لَهْوَ من أهم القضايا التي تعرضت لها الرسالات السماوية على لسان الرسل والأنبياء! عن عبيد الله بن جرير عن أبيه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من قوم يُعمل

---

(١) محمد قطب: قبسات من الرسول ﷺ ١٦٧ ـ ١٦٨. انظر تتمة الحديث في قبسات من الرسول.

فيهم بالمعاصي يقدرون أن يُغَيِّروا عليهم ولا يُغَيِّروا، إلاَّ أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا»[1].

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: **﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضَلَّ إذا اهتديتم﴾** [المائدة: ١٠٥]، وإنكم تضعونها على غير موضعها وإنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أَوْشَكَ أنْ يعمهم الله بعقاب من عنده»[2]. وفي رواية: «إن الناس إذا رأوا المنكر، ولا يغيرونه، يوشك الله عزّ وجل أن يعمهم بعقابه»[3]. وفي حديث عائِشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس إن الله يقول لكم مُروا بالمعروف وانهوا المنكر قبل أن تدعوا فلا أُجيب لكم، وتسألوني فلا أعطيكم، وتستنصروني فلا أنصركم».

إنّ الإِسلام لا يُسقط عن الفرد ولا عن الأمة التبعة في الأمر بالمعروف واالنهي عن المنكر، ولقد صحح الخليفة الأول ـ رضوان الله عليه ـ ما ترامى إلى وَهْم بعض الناس في زمانه حول هذا الموضوع كما بَيَّن في الآية الكريمة. ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح، لأنَّ القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صار أشق. فما أيسر ما يلجأ الضعاف إلى تأويل هذه الآية على نحو الذي يَعفيهم من تعب الجهاد ومشاقه، ويُريحهم من عَنَتْ الجهاد وبلائه!.

وإذا كان الأمر كذلك فماذا ينتظر الناس الذين لا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؟ إنهم لا ينظرون إلاَّ أن يحلّ بهم ما حَلَّ من قبلهم، وهو معروف لهم. إلاَّ أن تمضي سنة الله الثابتة في طريقها الذي لا

---

(١) أخرجه ابن حبان، وإسناده حسن، وأخرجه أبو داود (٤٣١٩) في الملاحم، وأخرجه أحمد ٤/ ٣٦١ و٣٦٣ و٣٦٤ و٣٦٦، انظر تخريجه في الإحسان (رقم٣٠٠).
(٢) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.
(٣) رواه أصحاب السنن.

يحيد﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ [فاطر:].

والأمور لا تمضي في الناس جزافاً؛ والحياة لا تجري في الأرض عَبثاً، فهناك نواميس ثابتة تتحقق، لا تتبدل ولا تتحول. والإسلام يقرر هذه الحقيقة، ويعلمها للناس، كي لا ينظروا الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة.

وأوّل المعروف: الإسلام لله وتحكيم شريعته، وأَوَّل المنكر: الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته. وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت، هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه، وأطغى الطغيان الاعتداء على ألوهية الله أو تعبيد الناس لشريعة غير شريعته، وهو المنكر الذي لا ينفع الفرد ولا ينفع الأمة أن تهتدي وهذا المنكر قائم.

كلا والله! هذا الدين لا يقوم إلاَّ بجهد وجهاد ولا يصلح إلاَّ بعمل وكفاح. ولا تستقيم الحياة إلاَّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولا بد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس إليه بالحسنى والحكمة والموعظة الحسنة.

ويُعبِّر القرآن الكريم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مواضع بالنصيحة. والنصيحة هي الذكرى. والذكرى تنفع دائماً، ولن تعدم من ينتفع بها كثيراً كان أو قليلاً. ولن يخلو جيل ولن تخلوا أرض ممن يستمع وينتفع، مهما فَسَدَ الناس وقت القلوب وران عليها الحجاب... ﴿وذكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[الذاريات: ٥٥]... لقد شهد ربُّ العالمين أنها تنفع المؤمنين. فهي أيضاً تُجدد الجاحدين. فهل من أُذُنٌ واعية لِيَسْلم المجتمع، وتَسلم سفينة الحياة: «مَثَلُ القائم في حدود الله، والواقع فيها كَمَثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤْذِ مَن فوقنا،

فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

«وهكذا تَبْتُر القصة النبوية الحدث عند نقطة مثيرة تطور إليها الموقف، ولا تكشف لنا النقاب عن خاتمة هذا الموقف المثير، وتظل نهاية المطاف مجهولة، هل خرقوا السفينة؟ لا ندري!! هل منعوهم من خرقها؟ لا ندري!! ونظل لا ندري ماذا حصل بعد هذه المشادة الكلامية، نعم لا ندري!

«وهو بتر رائع يُتيح للذهن فرصة أكبر يستطيع فيها أن يحلل الموقف على أكثر من وَجْه، وينهيه في خياله أكثر من مرة، ولا شك أن ذلك أكثر إثراءً للخيال، وأكثر تحريكاً للوجدان النفسي..

وفي خلال ذلك يتملّى المستمع أو القارىء صوراً شَتَّى ومواقف مختلفة، فهو سيتصَوَّر مرة أنَّهم تركوهم، أو عجزوا عن منعهم من نقب السفينة، وسيتصوَّر النهاية الأسيفة المحقَّقَة للمجتمع، ثم سيستيقظ خياله على أصل الفكرة والقضية، وسيرجع للواقع ولسنة الله التي لا تتبدَّل، ويتذكّر أنه أمام مثل للقائم على حدود الله والمدهن فيها، فيتصوَّر بالتالي ما يحيق بالمجتمع من جراء التفريط في حدود الله..

كما سيتصوَّر مرة أخرى أولئك القوم، وقد أجمعوا على منعهم من هذا القرار الأرعن، وأخذوا على أيديهم، وحالوا بينهم وبين هذا التصرف الذي سيعود وَبَاله عليهم جميعاً، ومرة أخرى سيربط المتلقي بين هذا الواقع وبين الواقع الذي تعيشه البشرية..

إنَّه ميزان الله الثابت، وقانونه الحتمي، وسُنّته التي لا تتغيَّر، فمن أَخَذ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد استمسك بالعروة الوثقى.. فهو المنهج الإلٰهي للنجاة بسفينة الحياة الإنسانية..[1]».

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ١٨٥.

وهكذا يأخذ الذهن في التَعَمُّق في فهم النهاية الممكنة من شَتَّى جوانبها: «فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعاً، وإن تركوهم غرقوا جميعاً».

والنبي ﷺ يختار تشبيهاً عجيباً رائعاً يرسم من خلاله صورة حَيَّه مُعبِّرة تجسد العلاقة بين الفرد والمجتمع، وتأثُّر المجتمع بسلوك بعض الأفراد، وأن حرية الفرد لها حدٌّ شرعي يجب ألا تتجاوزه، كما يتضح في هذا التعليق النبوي الواضح، الدال والمُعَبِّر عن قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سلوك الناس في المجتمعات الإنسانية.. إنّها دعوة للإلتزام بفروض الحق، تهدف إلى حمل الناس على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كواجب ديني واجتماعي، تفرضه مصلحة مشتركة للفرد والجماعة، لما لذلك الواجب من آثار كبيرة في صلاح المجتمع كله، واستقامة أمره..[1] وحين نَتأَمَّل هذه القصة في الواقع الإنساني عبر مسيرة البشرية في غابر الزمان وفي كل مكان، ندرك عظمة رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضخامة هذه الأمانة.. إنَّه لا نجاة للمجتمعات الإنسانية في أرض من أن يقع عليها العذاب أو يصيبها الهلاك والدمار إلاَّ أن ينهض رجال الحق بعبء الرسالة والتذكير والنصيحة. وهذا هو واجب الجماعة المسلمة الذي يندبها إليه ربها، ويدعوها من أجله، ويناديها دائماً..

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ١٨٠، ٢٥٠، ٣٤٦، ٤٤٠.

فهرس الموضوعات

القسم الأول:

(قصة طالوت وجالوت)

القسم الثاني:

(قصة أصحاب الأخدود)

(قصة أصحاب الكهف)

(قصة أصحاب الغار)

(قصة المُتكَّلمون في المهد)

القسم الرابع:

(صفحات من السجل الأسود لبني إسرائيل)

المراجع

١ - مصادر التفسير:

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٩٦٩.
- تفسيـر القرآن الحكيم الشهيـر بالمنـار ـ محمد رشيـد رضا ـ دار المعـرفة ـ بيروت طبعة ثانية.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - الطبعة الثالثة ١٩٦٧.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - محمود الألوسي - نشر المطبعة المنيرية بمصر.
- في ظلال القرآن لسيد قطب - دار الشروق - الطبعة الثانية ١٩٧٥ - بيروت- القاهرة.

٢ - مصادر الحديث النبوي الشريف:

- الإحسان - تقريب صحيح ابن حبان - علي بن بلبان الفارسي - تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩١.
- البخاري «صحيح البخاري» - مطابع دار الشعب - القاهرة - كتاب الشعب - ١٣٧٨ هـ.

فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.

- الترمذي «سنن الترمذي» - مطبعة مصطفى الحلبي - القاهرة ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٧ م.
ط ١ (١ - ٢) بتحقيق وشرح أحمد شاكر و (٣) بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
ط ٢ - ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م، و (٤ - ٥) بتحقيق إبراهيم عطوة عوض ط ١ - ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٢ م.
- الدارمي «سنن الدارمي» شركة الطباعة الفنية المتحدة - القاهرة.
- سنن أبي داود، طبع ونشر مصطفى الحلبي - القاهرة ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢م.
- سنن ابن ماجة - تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، طبع ونشر عيسى الجلبي وشركاه، القاهرة ١٩٧٢.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل: تحقيق أحمد محمد شاكر، من (١ - ١٦) دار المعارف - القاهرة ١٣٧٤ - ١٩٥٥).
مسند الإمام أحمد بن حنبل: طبع المكتب الإسلامي ودار صادر - (الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م)، وهي مصورة عن طبع المطبعة الميمنية بمصر في ١٣١٣ هـ.
- الموطأ للإمام مالك بن أنس، وعليه شرح الزرقاني، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، المكتبة التجارية الكبرى ١٣٧٩ هـ/ ١٩٥٩ م.
الموطأ للإمام مالك بن أنس - رواية أبي مُصعب، تحقيق وتعليق بشار عواد معروف ومحمود محمد خليل - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٢.
- مسلم، خدمة محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٥ م.
صحيح مسلم بشرح النووي.
- النسائي «سنن النسائي» مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٣٨٣/ ١٩٦٤ م.

٣ - مصادر أخرى:

- آدم - عليه السلام للبهي الخولي.
- أصحاب الأخدود - رفاعي سرور - دار التراث العربي للطباعة - القاهرة.
- تذكرة الدُّعاة للبهي الخولي - دار الفتح - القاهرة ١٣٦٣ هـ.
- تاريخ الأنبياء - محمد الطيب النجار - مكتبة المعارف - الرياض - ط ثانية ١٩٨٣.
- التصوير الفني في القرآن لسيد قطب - دار الشروق - بيروت - القاهرة.
- دراسات في النفس الإنسانية - محمد قطب ١٩٦٧.
- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا - محمود محمد شاكر - كتاب دار الهلال - القاهرة ١٩٩١.
- شرح مختصر الروضة - الإمام نجم الدين ابن **الطوفي** - تحقيق عبد الله تركي - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٠.
- طريق الدعوة في ظلال القرآن - أحمد فائز - الطبعة الثانية عشرة - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٧.
- الفن القصصي في القرآن الكريم - محمد أحمد خلف الله - مكتبة الأنجلو المصرية، ط الرابعة - القاهرة ١٩٧٢.
- القصص في الحديث النبوي - الدكتور محمد بن حسن الزير - الرياض - الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.
- البرهان في علوم القرآن - الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٩.
- قصص النبيين - أبو الحسن الندوي - الطبعة العشرون - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.
- القصص القرآني - الدكتور فضل حسن عباس - دار الفرقان - عمان - الأردن ١٩٨٧ م.

- قصص الأنبياء لابن كثير - الجزء الأول والثاني.
- قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس لأبي إسحاق النيسابوري الثعلبي.
- قصص القرآن - محمد أحمد جاد المولى - تحقيق عبد الدائم زيتوني.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - محمود بن عمر الزمخشري - نشر المكتبة التجارية الكبرى - مطبعة مصطفى محمد - مصر - الطبعة الأولى ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥ م.
- مجلة المسلمون/ من العدد الأول ١٩٥٢ حتى العدد الرابع ١٩٦١.
- النبوة والأنبياء في ضوء القرآن - أبو الحسن الندوي - الناشر: مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م.
- اليوم الآخر في ظلال القرآن - أحمد فائز - الطبعة السادسة عشرة - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٢.
- اليهود في القرآن - عفيف عبد الفتاح طبارة - بيروت ١٩٦٦.

الفهارس العامة

فهرس المجلد الأول

القسم الأول - الباب الثاني: السُّنَّة الراشدة في مفهوم النبوّة

(قصة هود - عليه السلام)

(قصة صالح - عليه السلام)

فهرس المجلد الثاني

(قصة إبراهيم – عليه السلام)

(قصة لوط – عليه السلام)

(قصة إسماعيل - عليه السلام)

(قصة يوسف - عليه السلام)

(قصة شعيب - عليه السلام)

فهرس المجلد الثالث

(موسى - عليه السلام وبني إسرائيل)

(قصة موسى - عليه السلام)

(قصة قارون)

(قصة صاحب الجنتين)

(قصة الابتلاء والجزاء)

(قصة لقمان - عليه السلام)

فهرس المجلد الرابع

(قصة طالوت وجالوت)

القسم الأول:

(قصة داود - عليه السلام)

(قصة سليمان - عليه السلام)

(قصة سبأ)

القسم الثاني:

(قصة أيوب - عليه السلام)

(قصة أصحاب الأخدود)

(قصة أصحاب الكهف)

(قصة أصحاب الغار)

(قصة المُتكّلمون في المهد)

القسم الرابع:

(صفحات من السجل الأسود لبني إسرائيل)